

المؤلفاتُ الكامِلة

المجلدُ الرابع

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

المؤلفات الكاملة

- تحت المظلة
- الجريمة
- حكاية بلا بداية ولا نهاية
- الكرنك
- شهر العسل
- حكايات حارتنا
- المرايا
- قلب الليل
- الحب تحت المطر
- حضرة المحترم
- ملحمة الحرافيش

مكتبة لبنان ناشرون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٣
رقم الكتاب 01 R 160109
طبع في لبنان

المحتويات

تحت المظلة

تحت المظلّة

انعقد السحاب وتكاثف كلّيل هابط ثمّ تساقط الرذاذ. اجتاح الطريق هواء بارد مفعمًا بشذا الرطوبة. حثّ المارّة خطاهم غير نفر تجمّعوا تحت مظلّة المحطّة. وأوشكت الرتابة أن تجمّد المنظر لولا أن اندفع رجل. اندفع راكضًا كالمجنون من شارع جانبيّ واختفى في شارع آخر على الجانب الآخر. تبعه على الأثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون «لصّ.. أمسكوا اللصّ». وما لبثت الضجّة أن خفّت رويدًا حتّى ماتت وتتابع الرذاذ. وخلا الطريق أو كاد أمّا المتجمّعون تحت المظلّة فبعضهم ينتظر الباص والبعض لاذ بها خوف البلل. وبُعثت ضجّة المطاردة مرّة أخرى وتدانت في اشتداد وتضخّم ثمّ ظهر المطارِدون وهم يقبضون على اللصّ ومن حولهم الغلمان تهلّل بأصوات رفيعة حادّة. وعند عرض الطريق في المنتصف حاول اللصّ الإفلات فأمسكوا به وانهالوا عليه صفعًا ولكمًا فمن شدّة الضرب قاوم وضرب كيفما اتّفق. وشُدّت أعين الواقفين تحت المظلّة إلى المعركة.

ـ يا لها من ضربات قاسية عنيفة!.

ـ ستقع جريمة أشدّ من السرقة!.

ـ انظروا... الشرطيّ واقف في مدخل عمارة يتفرّج..

ـ بل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى..

واشتدّ الرذاذ فتواصل أسلاكًا فضّيّة برهة ثمّ انهمر المطر. خلا الطريق إلّا من المتعاركين والواقفين تحت المظلّة. نال الإعياء من الرجال فكفّوا عن تبادل الضربات ولكنّهم أحاطوا باللصّ. وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون. ثمّ انغمسوا في مناقشة هامّة لم يميّزها أحد دون مبالاة بالمطر. التصقت الملابس بأجسادهم ولكنّهم واصلوا النقاش بإصرار وبلا أدنى اكتراث بالمطر. ووشت حركات اللصّ بحرارة دفاعه ولكن لم يصدّقه أحد. ولوّح بذراعيه فكأنّما يخطب ولكن ضاع صوته في البعد وانهلال المطر. إنّه بلا شكّ يخطب. وها هم يصغون إليه. تطلّعوا إليه خرسًا تحت المطر. وظلّت أعين الواقفين تحت المظلّة مشدودة إليهم.

ـ كيف أنّ الشرطيّ لا يتحرّك!

لذلك خطرت فكرة. أن يكون الحدث منظر تصوير سينمائيّ!

ـ لكنّ الضرب كان حقيقيًّا...

ـ والمناقشة والخطابة تحت المطر؟!

شيء طارئ جذب النظر. فمن ناحية الميدان انطلقت سيّارتان في سرعة جنونيّة. مطاردة حامية فيما بدا. المتقدّمة تطير طيرًا والأخرى توشك أن تدركها. وإذا بالمتقدّمة تفرمل بغتة حتّى زحفت فوق أديم الأرض فصدمتها الأخرى صدمة عنيفة مدوّية. انقلبتا معًا محدثتين انفجارًا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران. وارتفع صراخ وأنين تحت المطر المنهمر. ولكن لم يهرع أحد من المحدقين به إلى بقايا السيّارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد أمتار منهم. لم يبالوا بهما كما لا يبالون بالمطر. ولمح الواقفون تحت المظلّة آدميًّا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت سيّارة ملطّخًا بالدم. حاول النهوض على أربع ولكنّه سقط على وجهه سقطة نهائيّة.

ـ كارثة حقيقيّة بلا أدنى شكّ.

ـ الشرطيّ لا يريد أن يتحرّك!

ـ لا بدّ من وجود تليفون قريب.

ولٰكنّ أحدًا لم يبرح مكانه خشية المطر. وقد انهلّ انهلالًا مخيفًا وقعقع الرعد. وانتهى اللصّ من خطابه فوقف ينظر إلى مستمعيه بثقة واطمئنان. وفجأة راح يخلع ملابسه حتّى تجرّد عاريًا. رمى بملابسه فوق حطام السيّارتين اللتين أطفأ نيرانهما المطر. دار حول نفسه كأنّما يستعرض جسمه العاري. تقدّم خطوتين وتأخّر خطوتين وبدأ يرقص في رشاقة احترافيّة. وإذا بمطارديه يصفّقون له تصفيقات إيقاعيّة على حين تشابكت أذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم في دائرة متماسكة. وذهل الواقفون تحت المظلّة ولٰكنّهم رغم ذٰلك استردّوا أنفاسهم.

- إن لم يكن منظرًا تصويريًّا فهو الجنون!

- منظر سينمائيّ بلا ريب وما الشرطيّ إلّا أحدهم ينتظر دوره.

- وحادث السيّارتين؟

- براعة فنّيّة وسوف تكتشف المخرج في النهاية وراء إحدى النوافذ.

فُتحت نافذة في عمارة مواجهة للمحطّة محدثة صوتًا لافتًا للنظر. لفتت الأنظار رغم التصفيق وانهمار المطر. ظهر بها رجل كامل الزيّ فصفّر صفيرًا متقطّعًا. وفي الحال فتحت نافذة أخرى في نفس العمارة فظهرت بها امرأة متأهّبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره بإشارة من رأسها. اختفيا معًا عن أنظار الواقفين تحت المظلّة. بعد قليل غادرا العمارة معًا. سارا متشابكي الذراعين بلا مبالاة تحت المطر. وقفا عند السيّارتين المهشّمتين. تبادلا كلمة. أخذا يخلعان ملابسهما حتّى تعرّيا تمامًا تحت المطر. استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثّة القتيل المنكفئ على وجهه. ركع الرجل إلى جانبها. بدأ غزل رقيق بالأيدي والشفاه. ثمّ ستّاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحبّ. وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهمار المطر.

- فضيحة!

- إن لم يكن تصويرًا فهو فضيحة وإن يكن حقيقة فهو جنون.

- الشرطيّ يشعل سيجارة. . .

واستقبل الطريق شبه الخالي حياة جديدة. جاءت من الجنوب قافلة من الجمال. يتقدّمها حادٍ ويقودها رجال ونساء من البدو. عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللصّ الراقص. شُدّت الجمال إلى أسوار البيوت ونُصبت الخيام. وتفرّقوا فمنهم من تناول طعامه أو راح يحتسي الشاي أو يدخّن وبعضهم غرق في السمر. ومن الشمال جاءت مجموعة من سيّارات السياحة محمّلة بالخواجات. توقّفت فيما وراء حلقة اللصّ ثمّ غادرها راكبوها من الرجال والنساء فتفرّقوا جماعات تستطلع المكان في نهم دون مبالاة بالرقص أو الحبّ أو الموت أو المطر.

ثمّ أقبل عمّال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالأحجار والأسمنت وأدوات البناء. وبسرعة مذهلة شيّدوا قبرًا رائعًا، وعلى مقربة منه أقاموا من الأحجار سريرًا كبيرًا، فغطّوه بالملاءات وزيّنوا قوائمه بالورد، كلّ ذٰلك تحت المطر. ومضوا إلى حطام السيّارتين فاستخرجوا منه الجثث، مهشّمة الرءوس محترقة الأطراف، وضمّوا إليها جثّة المنكفئ على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكفّا عن ممارسة الحبّ، ثمّ رصّوا الجثث فوق السرير جنبًا إلى جنب، وتحوّلوا إلى العاشقين فحملوهما معًا وهما لا ينفصلان فأودعوهما القبر ثمّ سدّوا فوهته وأهالوا عليهما التراب حتّى سوّوها بالأرض. استقلّوا بعد ذٰلك اللوريات فانطلقت بهم في سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميّزه أحد.

- كأنّنا في حلم!

- حلم مخيف، ويحسن بنا أن نذهب. . .

- بل علينا أن ننتظر.

- ماذا ننتظر؟

- النهاية السعيدة؟!

- السعيدة؟!

- وإلّا فبشّر المنتج بكارثة!

في أثناء الحديث تربّع فوق القبر رجل يرتدي روب القضاء. لم ير أحد مِن أين أتى. من عند الخواجات أو من عند البدو أو من حلقة الرقص لم يعرف أحد. بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصًّا كأنّما ينطق بحكم. لم يميّز كلامه أحد إذ غطّى عليه التصفيق وضوضاء الأصوات بشتّى اللغات والمطر. ولٰكنّ كلماته

غير المسموعة لم تضع فانتشرت في الطريق حركات كالأمواج الصاخبة في عنف وتضارب. نشبت معارك في محيط البدو وأخرى في مواقع الخواجات. واشتعلت معارك بين بدو وخواجات. وجعل آخرون يرقصون ويغنّون. وأقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحبّ عرايا. وأخذت النشوة اللصّ فتفنّن في رقصه وأبدع. واشتدّ كلّ شيء وبلغ غايته. القتل والرقص والحبّ والموت والرعد والمطر.

واندسّ بين الواقفين رجل ضخم. عاري الرأس يرتدي بنطلونًا وبلوفر أسود وبيده منظار مكبّر. شقّ مكانه بينهم بعنف واستهتار. وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجوّلًا به بين الأركان. وتمتم:

- لا بأس.. لا بأس..

تعلّقت به أعين المتجمّعين تحت المظلّة باهتمام:

- هو؟

- نعم.. هو المخرج.

وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغمًا:

- استمرّوا بلا خطأ وإلّا اضطررنا لإعادة كلّ شيء من البدء...

عند ذاك سأله أحدهم:

- هل سيادتك..

ولكنّه قاطعه بإشارة عدائيّة وحاسمة فازدرد الرجل بقيّة سؤاله وسكت. ولكنّ آخر استمدّ من توتّر أعصابه شجاعة فسأله:

- حضرتك المخرج؟

لم يلتفت إليه وواصل مراقبته. وإذا برأس آدميّ يتدحرج نحو المحطّة فيستقرّ على بُعْد أذرع منها والدماء تتفجّر من مقطع العنق بغزارة. صرخ الرجال فزعًا أمّا الرجل فحدّق بالرأس مليًّا ثمّ غمغم:

- برافو.. برافو..

وصاح به رجل:

- ولكنّه رأس حقيقيّ ودم حقيقيّ..

فوجّه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحبّ ثمّ هتف نافد الصبر:

- غيّر الوضع.. حَذار من الملل...

ولكنّ الآخر صاح به:

- ولكنّه رأس حقيقيّ، فمن فضلك فهّمنا.

وآخر قال:

- كلمة واحدة منك تكفي لنعرف مَن أنت ومَن هٰؤلاء...

وثالث قال بتوسّل:

- لا شيء يمنعك من الكلام!

ورابع تضرّع قائلًا:

- يا أستاذ لا تضنّ علينا براحة البال.

ولكنّ الأستاذ تراجع في قفزة مباغتة. كأنّما كان يداري نفسه خلفهم. ذاب الصلف في نظرة مترقّبة. وتوارت نفخته. كأنّما طعن به السنّ أو تردّى في مرض. رأى المتجمّعون تحت المحطّة نفرًا من الرجال ذوي هيئة رسميّة يتجوّلون غير بعيد من المحطّة كأنّهم كلاب تشمّم. واندفع الرجل راكضًا مجنونًا تحت المطر. انتبه إليه رجل من المتجوّلين فاندفع أيضًا صوبه يتبعه الآخرون كعاصفة. وسرعان ما اختفوا جميعًا عن الأنظار. مخلّفين الطريق للقتل والحبّ والرقص والمطر.

- يا ألطاف الله! لم يكن المخرج كما توهّمنا..

- مَن يكون؟

- لعلّه لصّ..

- أو مجنون هارب!

- أو لعلّه ومطارديه ضمن المنظر السينمائيّ.

- هٰذه أحداث حقيقيّة لا علاقة لها بالتمثيل.

- ولكنّ التمثيل هو الفرض الوحيد الذي يجعلها معقولة على نحوٍ ما.

- لا داعي لاختلاق الفروض...

- فما تفسيرك لها؟

- هي حقيقة بصرف النظر...

- كيف أمكن أن تقع؟

- هي واقعة.

- يجب أن نذهب بأيّ ثمن.

- سندعى للشهادة عند التحقيق.

- ثمّة أمل باقٍ...

قال ذٰلك واتّجه ناحية الشرطيّ وصاح:

- يا شاويش...

كرّر النداء أربعًا حتّى انتبه إليه الرجل. فقطّب متنحنحًا فأشار إليه يستدعيه قائلًا:

ـ من فضلك يا شاويش. . .

نظر الشرطيّ إلى المطر متسخّطًا ثمّ حبك المعطف حول جسمه ومضى نحوهم مسرعًا حتّى وقف تحت المظلّة. تفحّصهم بقسوة متسائلًا:

ـ ما شأنكم؟

ـ ألم تر ما يحدث في الطريق؟

لم يحوّل عينيه عنهم وقال:

ـ كلّ من كان في المحطّة استقلّ سيّارته إلّا أنتم فما شأنكم؟

ـ انظر إلى هٰذا الرأس الآدميّ!

ـ أين بطاقاتكم؟

ومضى يتحقّق من شخصيّاتهم وهو يبتسم ابتسامة ساخرة قاسية ثمّ سألهم:

ـ ماذا وراء اجتماعكم هنا؟

تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم:

ـ لا يعرف أحدنا الآخر!

ـ كذبة لم تعد تجدي. . .

تراجع خطوتين. . سدّد نحوهم البندقيّة. أطلق النار بسرعة وإحكام. تساقطوا واحدًا في أثر الآخر جثّة هامدة. انطرحت أجسادهم تحت المظلّة أمّا الرءوس فتوسّدت الطوار تحت المطر.

النّوم

هذه النخلة الوحيدة في الفناء التّرب تذكّر بحوش قرافة. يجري ذٰلك في خاطره كلّما مرّ عبر الفناء إلى باب البيت الخارجيّ واعترضه صاحب البيت وهو يرشّ الأرض بالخرطوم، ناداه قائلًا:

ـ أستاذ.

اللعنة. أبغض يوم عنده يوم يصبّح على وجهه. عجوز ناعم، يفترّ فوه أحيانًا عن ابتسامة كشقّ في لحاء شجرة.

ـ أنت شابّ وحيد ولٰكنّك مهذّب طيّب السمعة، لا شكوى من ناحيتك. فبالله ما معنى الجلسات التي تعقد في شقّتك لتحضير الأرواح؟

ـ هل أستجوب عمّا يدور داخل شقّتي؟.

ـ نعم، إذا امتدّ أثره إلى مَن حولك، ثمّ إنّ لي حقًّا في مخاطبتك باسم صداقتي القديمة للمرحوم والدك. .

انطبع الامتعاض في صفحة وجهه فقال صاحب البيت:

ـ لم أرك مرّة واحدة في صلاة الجمعة!

ـ وما دخل ذٰلك في موضوعنا؟

ـ المؤمن لا يهتمّ بهٰذه الألاعيب، هٰذا ما أعنيه!

ضحك الشابّ ضحكة قصيرة وقال:

ـ ولٰكنّ الاهتمام بذٰلك يعني الإيمان بالأرواح.

ـ كلّا. يعني الشكّ أوّلًا وأخيرًا.

فغيّر الحديث قائلًا:

ـ أذكّرك بجدار دورة المياه.

ـ لا تتهرّب، الحقّ أنّ هٰذه الجلسات تُحدث بين السكّان اضطرابًا غير مستحَبّ. . .

ـ أنا لا أرتكب فعلًا مخالفًا للقانون، وأرجو أنّ الجدار. .

ـ من الأفضل أن نبقى على وفاق.

ثمّ قال وهو يدفع بماء الخرطوم إلى بعيد:

ـ أمّا عن أيّ إصلاح فعليك أن تقوم به بنفسك.

ما أبغض أن يصبح على وجهه يوم العطلة. والطريق شبه خالٍ كشأنه في بواكير العطلات. وثمّة سقيفة من السحاب الثابت تمتدّ فوق الضاحية. واشتدّ عليه ثقل رأسه عقب ليلة لم ينم فيها أكثر من ساعتين. فبعد انفضاض حلبة التحضير قال لزميله مدرّس التاريخ:

ـ يطيب الآن الحديث في المصير. . .

وتقضّى الليل دون أن يجنوا من النقاش ثمرة. وقال له صديق ضاحكًا وهو يغادر الشقّة قبيل الفجر:

ـ خير حلّ أن تتزوّج!

وآوى إلى فراشه قلقًا ووجه محبوب يتراءى لعينيه. لا ينبغي أن تبقى النخلة وحيدة إلى الأبد. ولمَ كانت أمّه تؤكّد له دائمًا قبيل وفاتها بأيّام بأنّ كلّ شيء يدعو للحمد؟. وجد الكازينو خاليًا في تلك الساعة المبكّرة.

واتّخذ مجلسه عند مدخل الحديقة الفاصلة بين الكازينو ومحطّة الديزل. حيّاه الجرسون وجاءه بالجرائد. أعدّ له مع القهوة سندويتش فول فبعد أن شبع ثقل رأسه أكثر وأكثر حتّى عجب أين كان النوم وهو يستجديه في فراشه. وتذكّر درس المفعول المطلق الذي سيلقيه غدًا صباحًا على تلاميذه فتذكّر بالتالي زميله مدرّس التاريخ، قرينه في المناقشات الجنونيّة.

ـ ولكن ما معنى ذلك؟

ـ أنت مدرّس عربيّ، حسن هل عرفت فعلًا بلا فاعل...؟

ـ اللغة بحر بلا حدود.

ـ مات محمّد، محمّد فاعل، ولكنّ أيّ فاعل هذا؟!، ولذلك فإنّي أبحث عمّا أريد خارج نطاق اللغة...

وجاء الجرسون لينظّف الرخامة فسأله:

ـ كيف تبرّر مطالبتك الزبائن بأثمان الطلبات؟

ابتسم الرجل ابتسامة المعتاد لهذه الأسئلة الغريبة، ثمّ تناول قروشه ومضى. وقال هو لنفسه «إنّه يبتسم ابتسامة العقلاء، ومع ذلك فما لم نعرف كلّ شيء فستظلّ معرفتنا الأشياء الصغيرة القريبة ناقصة وغير مبرّرة». ورنا إلى السحب حتّى ابيضّ كلّ شيء في عينيه. ولكنّ البياض لم يثبت على حال، لعبت به يد ساحرة، تميع وتموج، واستحال لونًا معتمًا بلا شخصيّة ولا شكل. واختفى قطار الديزل الواقف في المحطّة أو ذاب في السحاب. وبدافع من رغبته في الهدوء المطلق مثّل بين يديّ بوذا في الحديقة اليابانيّة. وسمع صديقه مدرّس التاريخ يقول وهو يشير إلى بوذا «الهدوء والحقيقة والانتصار» ثمّ أكّد قوله مكرّرًا «الهدوء والحقيقة والهزيمة». وجمع عزيمته على المناقشة ولكنّ أوراق الشجر اهتزّت بصرخة حادّة. صرخة طفل أو لعلّها صرخة امرأة. وخفق قلبه وانتعش بروح الغزل. وأراد أن يستشهد ببيت من عمر الخيّام ولكن هيهات. وناداه صوت. التفت نحو مصدره فرأى صديقه الآخر وقد بادره قائلًا «خير حلّ أن تتزوّج». وأطبق عليه وقع أقدام راكضة. وركض ليلحق بالديزل فزلّت قدمه وتهاوى من فوق الطوار. ربّاه كيف اكتظّ المكان بهؤلاء الناس!. عشرات وعشرات وعشرات يقفون خارج سور الحديقة الصغيرة. وقوّة من الشرطة تعسكر فوق طوار المحطّة. حدثُ تحت السحاب الراكد؟. وها هو الجرسون راجعًا من الزحام إلى الكازينو. وقد مال الرجل نحوه قائلًا:

ـ حضرتك رأيت كلّ شيء طبعًا؟

فقطّب متسائلًا ومنكرًا في آن فواصل الرجل:

ـ سوف تدعى فورًا إلى المحقّق!

ـ أيّ محقّق يا هذا؟

ـ ارتُكبت الجريمة في المحطّة على بعد أمتار من مجلسك.

تساءل ذاهلًا:

ـ جريمة؟!

ـ أين كنت يا سيّدي؟، جريمة القتل فظيعة، ألا تعرف الآنسة «المولّدة»؟

ـ المولّدة!

ـ قتلها شابّ مجنون الله ينتقم منه..

تقلّص وجهه في ألم وذهول، وغمغم:

ـ قُتلت.. لا أصدّق.. وأين هي؟

ـ حملوها إلى المستشفى لإسعافها ولكنّها ماتت في الطريق.

ـ ماتت!

ـ ألم ترها وهي تُقتل على بعد أمتار منك؟.

وبعد صمت عاد يقول:

ـ كيف لم ترها، أمّا أنا فكنت مشغولًا في الداخل ثمّ خرجنا على صوت الصراخ، كان الملعون يطاردها وهي تجري أمامه حتّى طعنها في المكان الذي يقف فيه المحقّق...

ـ والقاتل؟

ـ استطاع الهرب، حتّى الآن على الأقلّ، شابّ صغير، رآه ناظر المحطّة وهو يثب فوق السور ويستقلّ درّاجة بخاريّة، ولكن سيقبض عليه عاجلًا أو آجلًا.

اشتدّ تقلّص وجهه بالألم حتّى تقوّض في مجلسه. ومضى الجرسون عنه وهو يقول:

ـ كيف لم تر الحادثة التي وقعت بين يديك؟!

وأقبل شرطيّ فدعاه إلى لقاء المحقّق. قرّر أن يركّز

فكره المشتّت مهما كلّفه ذٰلك من عناء. نظر في ساعته فادرك أنّه نام ساعة على الأقلّ. ومضى مع الشرطيّ وهو يجرّ رجليه. بدأ السؤال كالعادة بالاسم والسنّ والعمل.

ـ متى جلست في الكازينو؟

ـ في السابعة صباحًا على وجه التقريب.

ـ ألم تغادر مجلسك طيلة الوقت؟

ـ كلّا.

ـ ماذا رأيت، حدّثنا بالتفصيل من فضلك؟

ـ لم أرَ شيئًا!

ـ كيف؟! لقد ارتكبت الجريمة في هٰذا الموضع، فكيف لم ترَ شيئًا؟

ـ كنت نائمًا!

ـ نائمًا!

أجاب باستحياء:

ـ نعم.

ـ لم توقظك المطاردة؟

ـ كلّا.

ـ ولا الصراخ؟

هزّ رأسه نفيًا وهو يعضّ على شفتيه.

ـ ولا استغاثتها وهي تناديك باسمك؟

تأوّه هاتفًا:

ـ اسمي!

ـ أجل لقد نادتك مرارًا ورجّح الشهود أنّها كانت تجري نحوك مستغيثة بك!

حملق في وجهه بذهول وتمتم في توسّل:

ـ كلّا!

ـ هو الواقع.

أغمض عينيه ولم يعد يلقي بالًا إلى المحقّق أو أسئلته حتّى قال له هٰذا في ضجر:

ـ أجب.. عليك أن تجيب...

ـ إنّي في غاية من التعاسة...

ـ أكانت ثمّة علاقة بينك وبينها؟

ـ كلّا...

ـ ولكنّها نادتك باسمك!

ـ نحن من ضاحية واحدة ونقيم في شارعين متجاورين..

ـ شهد شهود بأنّهم كثيرًا ما رأوكما تقفان متقاربين في انتظار الديزل؟

ـ توافق في المواعيد بحكم العمل ليس إلّا..

ـ أليس لاستغاثتها بك دلالة ما؟

ـ لعلّها كانت تشعر بإعجابي بها!

ـ إذن كانت هناك علاقة من نوع ما.

ـ ربّما..

ثمّ بانفعال قاهر..

ـ كنت أحبّها.. كنت أفكّر كثيرًا في طلب يدها.

ـ أو لم تفعل شيئًا في سبيل ذٰلك؟

ـ كلّا.. لم أكن اتّخذت قرارًا بعد.

ـ ووقعت الواقعة وأنت نائم؟

أطرق في خزي أليم:

ـ والآخر.. أعني القاتل.. أليس لديك فكرة عنه؟

ـ كلّا.

ـ ألم تسمع عن علاقة لها بآخر؟

ـ كلّا.

ـ ألم تر أحدًا يحوم حولها؟

ـ كلّا.

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

ـ كلّا.

ما زالت السماء محجوبة وراء سقيفة السحاب الجامد. وتساقط رذاذ دقيقة واحدة ثمّ انقطع. هام على وجهه طويلًا.

انقضى النهار وهو يهيم على وجهه. كأنّما يداوي أزمته الطاحنة بالحركة المرهقة. وصادفه مدرّس التاريخ أمام الحديقة اليابانيّة. هزّ يده مصافحًا وهو يقول:

ـ تعال نجلس سويًّا، بي رغبة في الحديث.

فقال بفتور:

ـ من غير مؤاخذة لا رغبة لي في الأحاديث الميتافيزيقيّة.

مطّ الرجل بوزه آسفًا وتساءل:

ـ أحقّ ما يقولون من أنّ المولّدة قتلت أمامك وأنت نائم؟

فسأله غاضبًا:

- من أدراك بذلك؟

أجاب بنبرة المعتذر:

- سمعت به عند الحلاق!

- أمن العجب أن ينعس إنسان متعب؟... وما ذنبه إذا قامت القيامة في أثناء ذلك؟

ضحك الزميل وقال ملاطفًا:

- لا تغضب ولكنّي لم أكن أعلم بالعلاقة بينك وبين المولّدة.

- أيّ علاقة!.. أنت مجنون..

- أعتذر... أعتذر... هذا ما سمعتهم يقولونه في دكّان الحلاق...

مضى في سبيله الذي لا هدف له. اللعنة، ستنتفخ الشائعات كالمناطيد. ولن تردّ قوّة الجميلة اليانعة إلى الحياة. حسرة لا دواء لها. واستغاثتها اليائسة ارتطمت بجدار النوم ولكنّها نفذت بطرق سحريّة إلى آذان الضاحية. أيّتها التعيسة إنّي أتعس منك. وقال له بائع السجاير وهو يعطيه العلبة:

- لا بأس عليك يا أستاذ، البقيّة في حياتك..

اللعنة. لا يبدو أنّ أحدًا يجهل الواقعة. وها هم يقدّمون له العزاء مسلّمين بداهة بعلاقته بها، ها هي الخطبة تعلن بعد الوفاة. وربّما تمادت الظنون وراء ذلك.

ورماه البدّال بنظرة ذات معنى. ما البدّال!.. يخيّل إليه أنّ الأعين كلّها تتعقّبه. إنّه في الواقع مطارد، متّهم، مجرم. إنّه مسئول عن الاستغاثة الضائعة لا مفرّ. وغدًا في المدرسة تنهال عليه الأسئلة. الجحيم الحقيقيّ ستندلع نيرانه في حوش المدرسة. تخبّط طويلًا. تلقّى أقوالًا كثيرة كلّها مثيرة مؤلمة. إنّه حديث الضاحية. لا حديث للضاحية إلّا الجريمة والنوم. «قُبض على القاتل وهو تلميذ بالثانويّ» إذن قتلها العبث وجنون العيال. «كان القاتل يحبّها ولكنّها لم تشجّعه» لذلك بدت له دائمًا رزينة وجادّة. «من المؤكّد أنّها كانت تحبّ مدرّس اللغة العربيّة» يا للحسرة.. شغل عن إسعادها بجلسات تحضير الأرواح ومنعه من إنقاذها النوم. «قال في التحقيق إنّه كان نائمًا، أليس عجيبًا ألّا يوقظه الصراخ والمطاردة والاستغاثة» إنّه لعجيب حقًّا ولكنّهم لا يعلمون أنّه قضى الليل في تحضير الأرواح وأحاديث المصير. اعتصر الألم قلبه فتجرّعه سمًّا بطيئًا. واضطرّ أخيرًا إلى الرجوع إلى البيت وهو كاره. كان المساء يغشي حجاب السحاب بغلالة معتمة. وجد صاحب البيت يقتعد أريكة تحت النخلة الوحيدة. استقبله بلطف وقال:

- تبدو متعبًا، أرجو ألّا يكون حديثي معك في الصباح قد ضايقك؟

هزّ رأسه نافيًا فخفض الرجل صوته وهو يسأله:

- أحقّ ما يقال...؟

فقاطعه بحدّة:

- أجل... قُتلت المولّدة على بعد أمتار من مجلسي في الكازينو وأنا نائم، هذه هي المعجزة الثامنة!

- لم أقصد يا بنيّ أن...

فقاطعه مرّة أخرى:

- ولم أسمع استغاثتها، وفي قول آخر أنّي سمعته ولكنّي تناومت...

أقبل عليه الرجل معتذرًا متأسّفًا، وأخذه من ذراعه فأجلسه إلى جانبه قائلًا:

- كان المرحوم والدك صديقي، لا تؤاخذني يا بنيّ...

ومضت فترة غير قصيرة في صمت وحذر ثمّ استأذن في الانصراف فأوصله الرجل حتّى الباب الداخليّ. وهناك همس في أذنه:

- أكرّر الرجاء فيما قلته لك في جلسات تحضير الأرواح.

استلقى على الفراش وهو من العناء في غاية، ثمّ غمغم مغمض العينين:

- ما أحوجني إلى نوم طويل، طويل بلا نهاية!

الظلام

كثيفٌ الظلام كأنّه جدار غليظ لا يمكن أن تخترقه عين. لا شيء يُرى البتّة. إنّهم يجتمعون في عدم، ولا صوت إلّا قرقرة الجوزة. والجوزة تدور حتّى تتمّ دورتها

في الظلام فترجع إلى المعلّم بطريقة ميكانيكيّة. وكثيرًا ما كان المعلّم يقول:

- إنّي أرى في الظلام، اعتدت ذٰلك لطول معاشرة السجون والخلاء..

إذن فهو يراهم على حين أنّهم لا يرونه ولا يرون شيئًا. وبسبب الظلام يعيش كلّ منهم في عالم خاصّ به مغلق الأبواب عليه. يجيئون من أماكن مختلفة، متباعدة ومتقاربة، لا يدري أحد عن الآخر شيئًا، يشدّهم إلى هٰذه الحجرة داء واحد. والمعلّم يدعوهم واعدًا إيّاهم بالأمان والستر، وكلّما دعا أحدهم قال له:

- في عزبة النخل داري. وفي حوشها الخلفيّ فيما يلي الحقول شيّدت حجرة مرتفعة، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضي إليها، ستصعد إليها على سلّم خشبيّ سرعان ما يطرح تحت أكوام التبن، فهي حصن لا يُكبس، ولها من الظلام حولها حصن آخر.

أجل، ها هم معلّقون في الهواء، غائصون في الظلام، كأنّما يعيشون في الزمن الذي لم تكن الأعين قد خلقت فيه بعد. وكلّ يد تلامس اليد المجاورة عند تناول الجوزة ولٰكن يد مَن هي؟، أيّ شخص وأيّ هويّة؟.

ويضحك المعلّم ويقول:

- نحن مدينون للظلمة بالسلام الذي ننعم به، صدّقوني فإنّني رجل مجرّب!

لم يتوقّع يومًا أن يناقشه أحد خشية أن يفضحه صوته لدى آخر ممّن يكفّنهم الظلام. وكان يقول لهم:

- لو تعارفتم على ضوء الشمعة لتبادلتم أحاديث لا نهاية لها، ولاحتدّ الخلاف بينكم، ولانقلب المجلس جحيمًا لا يُطاق، وطالب اللذّة لا يحبّ ذٰلك أمّا أنا فأمقته مقتًا.

وندّت من الظلام همس ضحكات مكتومة فقال:

- أعرف بينكم أناسًا مختلفي الأديان والآراء وها أنتم تمضون وقتًا طيّبًا في سلام بفضل الظلام والصمت!

ندّ الهمس من جديد. لعلّهم يسخرون كعادتهم ولو في سرّهم. يا لها من طريقة طريفة لمعالجة التفرقة الدينيّة والفكريّة! يسخرون وهم لا يعرفون لـ
التي يتردّدون عليها شكلًا إلّا مسّ الشّلت وا
المفروشة بينها! وهو يسعل كثيرًا ثمّ يقول
كالقرقرة:

- إنّ أحدكم قد يلقى جليسه في مكان فلا
قد يكون زميلًا في مصلحة أو عضوًا في أسرة، ق
له الخير أو يضمر الرغبة في قتله، كلّ ذٰلك
للغاية!

إنّهم جميعًا غارقون في الإثم. وحامل الإثم
ولذٰلك فهم يكتمون الضحكات فتضغط و
صوت فحيح زاحف في الظلمة. ويضحك
ويقول:

- إنّي أعرفكم جميعًا، الاسم والعمل والمكان
أنا فلا يهمّني شيء، لا يكبّل الإنسان مثل -
المضحك على حسن السمعة، وما سرّ الحرّيّة التي
بها إلّا السجن والخلاء وسوء السمعة!

يا له من صوت كالقرقرة. ونبرة لا تخلو أبـ
السخرية والثقة بالنفس. وسوء سمعته جدير بتـ
الناس من مجلسه لولا دبلوماسيّته في معاملة السلـ
وعنده يجد المصاب ما لا يجد عند غيره من الـ
والطمأنينة. ويقبع في الظلام محتكرًا الكلام والـ
ومرّة قال ضاحكًا:

- إنّكم جميعًا من السادة، لكم منزلة تخـ
عليها. أمّا الفقراء فلا يخافون على شيء ولذلـ
مكان لهم عندي، ولذٰلك فهم لا يؤمنون بالـ
والصمت..

هٰذا الرجل رغم حقارته ذو مكانة يؤمر
المصابون بالأدواء. يتلقّون أياديه بامتنان. ولا يتـ
من العدم إلّا عيناه المحطّمتان لجدار الظلمة.
أحدب مغضون الوجه قصير القامة، نيّف على الـ
ولٰكنّه ذو حيويّة شيطانيّة. ويسألهم ضاحكًا:

- لِمَ لا تجعلون من حياتكم كلّها امتدادًا جميلًا
الجلسة؟

ثمّ قال وكأنّه يجيب على سؤاله:

- ستقولون العمل.. الأسرة.. الواجب.

وضحك ساخرًا ثمّ واصل قائلًا:

- لكنّه لا شيء إلّا الظلام والصمت!

وتنقضي فترة طويلة في صمت ثمّ يعود قائلًا:

- إنّي أسخر منكم بالكلام بالفارغ وأنتم تسخرون منّي في قلوبكم بالصمت، وهٰذا يعني أنّكم لا تتعلّمون، أمّا أنا فقد حقّقت لنفسي المعجزة، رغم أنف الدنيا، فلا أسرة لي ولا عمل إذ إنّ الموزّع في الحقيقة لا عمل حقيقيًّا له، وفي غمرة الذهول وجريان الأيّام على وتيرة واحدة تبدو لي الحياة طويلة كثيفة مثقلة بالملل فلا أخاف الموت، مَن منكم لا يخاف الموت!

وبرغم حقارته، برغم ما يثيره في النفوس من سخرية خرساء، فقد مسّ وترًا حسّاسًا. ولٰكن مَن يصدّق أنّه لا يخاف الموت؟. ولِمَ إذن بنى هٰذه الحجرة المعزولة في الهواء والخلاء؟

وفي ذات ليلة قال لهم بثقة:

- في هٰذه الحجرة خلاصة مركّزة لحكمة الحياة.

وكفّ عن الكلام طويلًا. وإذا بالجوزة تتوقّف عن الدوران. ظنّوه ينشد شيئًا من الراحة بخلاف عادته. وانتظروا فطال بهم الانتظار في الصمت والظلام. انتظروا وانتظروا ولٰكن لم يجدّ جديد. استهلكوا قدرتهم على الانتظار. تنحنح بعضهم استحثاثًا له على العمل ولٰكن دون جدوى. هل نام الرجل؟. هل أغمي عليه؟. هل مات؟.

وأقربهم إلى موضعه مدّ يده متحسّسًا مكانه ثمّ همس بقلق:

- ليس الرجل في مكانه!

وألصقهم بالباب قام ليفتحه ولٰكنّه همس في اضطراب:

- الباب مغلق بإحكام.

واضطرّ أحدهم إلى رفع صوته قائلًا:

- لا بدّ من وجود نافذة فليفتّش عنها كلٌّ فيما يليه من الجدار.

ومضت فترة في التفتيش ثمّ تتابعت الأصوات:

- لا توجد نافذة... لا توجد نافذة...

واستهانوا بالستر فقرّروا إشعال أعواد الثقاب ليتبيّنوا موقفهم. ولٰكنّ أحدًا لم يجد علبة ثقابه. علبة السجاير بمكانها أمّا الثقاب فلا أثر له!. لا يمكن أن يقع ذٰلك مصادفة. سرق الثقاب!. ولٰكن مَن السارق ولِمَ سرقه؟. وماذا يراد بهم؟!. ونادوا المعلّم. نادوه بأصوات غاضبة. نادوه بأصوات رعديّة ولٰكن لا مجيب، لا مجيب على الإطلاق، ولا صوت.

- أين ومتى ذهب؟

- من أيّ منفذ تسلّل؟

- ما معنى اختفائه؟

- وكيف ولِمَ سرق الثقاب؟

- لعلّه ذهب لقضاء أمر فدهمه حادث.

- ولِمَ أغلق الباب؟

- ولِمَ سرق الثقاب؟

- أهزر وراء ذٰلك أم شرّ؟

- نحن مهدّدون في الظلام...

وعادوا ينادون الرجل فترتطم أصواتهم بالجدران الصمّاء. بُحّت حناجرهم، وكلّت قبضاتهم من دقّ الحيطان. وأطبق عليهم اليأس في الظلام. ما عسى أن نفعل؟ هل ننتظر إلى ما لا نهاية؟. نستسلم حتّى يتقرّر مصيرنا؟. وما مصيرنا؟. هل جنّ الرجل؟. استكانوا إلى مقاعدهم فوق الشلت وهم في نهاية من الإعياء. كأنّهم جروا شوطًا قطع منهم الأنفاس أو خاضوا معركة مزّقت الأوصال. حتّى الخوف باخ تحت وطأة التلبّد الذي أخلفه الوهن. وتثاءب شخص بصوت مسموع فجرى التثاؤب من فم إلى فم. وتساءل صوت:

- ترى هل سرقت علب الثقاب وحدها؟

وفتّشت الأيدي الجيوب حتّى صاح أحدهم:

- بطاقة الشخصيّة!... لا أثر للبطاقة..

وتتابعت الأصوات:

- وبطاقتي أيضًا...

- النقود موجودة أمّا البطاقة فلا أثر لها.

- ما معنى هٰذا اللغز؟!

وأكثر من شخص أراد معاودة النداء فخذله صوته. وعاد التثاؤب يتردّد في نغمة مطوطة مسترخية. ثمّ ساد في الظلام صمت ثقيل كأنّه النوم أو الموت.

وإذا بصوت يشقّ الظلام متسائلًا في هدوء:

- كيف حالكم؟

تردّد الصوت في الظلام وحده ولكن دون ردّ فعل فعاد يتساءل مرتفعًا درجات:

- هوه... كيف حالكم؟

وندّت حركة ضعيفة في الظلام أعقبها صوت يقول بنبرة فازعة للأمل:

- المعلّم!... من؟... المعلّم؟

واستبقت الأصوات مردّدة: المعلّم.. المعلّم..

فعاد الصوت يتساءل متهكّمًا:

- كيف حالكم؟

- تسأل عن حالنا!.. أنت!.. أيّ دعابة سمجة؟!

- كيف حالكم، هذا ما أسأل عنه.

- أين كنت يا رجل؟

- أنا لم أبرح مكاني...

- ألا زلت مصرًا على العبث بنا؟

- صدّقوني فأنا لم أبرح مكاني طيلة الوقت.

- كذّاب.. تحسّسنا موضعك فلم نجد لك أثرًا.

- لم يحرّك أحد منكم ساكنًا...

- أيّها المكابر... لقد ناديناك حتّى بحّت أصواتنا ودققنا الجدران حتّى كلّت أيدينا.

- لم يحرّك أحد منكم ساكنًا، صدّقوني، وكنت طيلة الوقت بينكم!

- ما زلت متوهّمًا أنّك قادر على العبث بنا!

- صدّقوني... لم أفعل شيئًا سوى أن أخذت بطاقاتكم وعلب الثقاب.

- ها أنت تعترف... كُفَّ عن العبث.. لم نكن نعرف أنّك نشّال ماكر.

- بل أخذتها وأنتم نيام...

- نيام!

- أجل وأنتم نيام..

- لم يغمض لأحد منّا جفن.

- بل نمتم ساعة كاملة على الأقلّ أنجزت فيها مهمّتي.

- أنت مطالَب بأن تفسّر لنا سلوكك الشاذّ.

- طيّب... خطر لي أن أقوم بتجربة فذّة... خدّرتكم بخلطة عجيبة من ابتكاري...

- إنّك تهذي...

- ستفقدون ذاكرتكم قبل طلوع الفجر.

- ردّ إلينا مسروقاتنا وافتح الباب.

- واستغرقتم في النوم ساعة كاملة تبعًا للخطّة، ثمّ استيقظتم، وتثاءبتم، وندّت عنكم همسات لا معنى لها، ثمّ تكلّمت أنا!

- لن يجدي خداعك..

- نمتم ساعة بدليل أنّني أخذت ما أردت أخذه منكم وأنتم لا تشعرون.

- لكنّني تحسّست مكانك بيدي فلم أجدك.

- لم يكن باستطاعتك أن تحرّك يدك.

- ودققنا الجدار وناديناك بأصوات كالرعد..

- عجزتم عن ذلك كما تعجزون عنه الآن، ولكنّكم توهّمتم أفعالًا لم تخرج في حقيقتها عن نطاق رءوسكم، كانت أفعالكم كالظلام الذي يلفّكم لا وجود حقيقيًا لها..

- ألا ترى أنّنا غير مستعدّين للهزل؟

- ستفقدون الذاكرة قبل الفجر، لن يعرف أحدكم نفسه فضلًا عن الآخرين!

- ألا ترى..

- لذلك استوليت على بطاقاتكم، لن يعرف أحدكم نفسه وهيهات أن يعرفه أحد.

- اغسل رأسك بماء بارد... أسرع...

- غدًا صباحًا لن يوجد منكم أحد، ستختفون كما اختفت بطاقاتكم...

- هل جننت يا رجل؟

- ليكن، ماذا جنيتم من عقلي؟، فلتجرّبوا جنوني، وسوف أخدّر نفسي بابتكاري العجيب، ومن حسن الحظّ أنّني لا أملك بطاقة من الأصل، فلنشكر للظلام والصمت والليل أياديها...

- يا مجنون يا مخرّف...

- ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة، سوف الحق بكم أحدكم بذلك، انطرحوا جثثًا فوق الشلّت فغدًا سيستقبلكم الخلاء أجسادًا فتيّة مبلّلة بندى الحقول.

وساد الصمت. لم ينبس أحدهم بكلمة، وترددت أنفاس نوم عميق. وجعل ينقّل بصره من واحد لآخر ثمّ تنهّد بارتياح متمتمًا:

ـ مبلّلة بندى الحقول.

الوجه الآخر

زارني عثمان بعد غياب طال بسبب خدمة طويلة في الأقاليم. تعانقنا بحرارة. تذاكرنا عهدًا ماضيًا امتدّ من الطفولة مارًّا بالشباب حتّى الكهولة. وقد عاد ليشغل وظيفة هامّة رئيسيّة في جهاز الأمن عقب انتصارات خطيرة أحرزها في مطاردة المجرمين. وبعد أن شرّق بنا الحديث وغرّب سألني:

ـ هل ترى رمضان؟

توقّعت هذا السؤال طيلة الحديث. حدّثني قلبي بأنّه آتٍ لا ريب فيه، وأجبت بأمانة:

ـ أجل، بين حين وآخر...

ـ ما زلتما صديقين؟

ـ أجل!

ـ أليس غريبًا أن تظلّا صديقين وأنت المربّي الفاضل؟!

ـ الأمر لا يخلو من غرابة ولكنّها عشرة عمر، ثمّ إنّه يلقاني إذا جاء كشخص أليف مستأنس كأنّما لا يمتّ بصلة إلى الشخص الآخر المثير للفزع...

ـ لا أتصوّر ذلك!

ـ ولكنّها حقيقة، وعلاقته بي هي العلاقة الإنسانيّة الوحيدة في حياته فلا عجب أن يحرص عليها...

ـ قد يدهمك بغدره على غير انتظار.

ـ لا سبب يدعو إلى ذلك البتّة...

تنهّد بحزن عميق. وشاركته مشاعره. إنّه شقيقه. وهو يمثّل نقطة سوداء دامية في حياته وحياة أسرته. نشآ في بيت واحد. نشأنا في حارة واحدة تحت ظلّ جيرة حميمة... ولكنّ رمضان كان دائمًا ريحًا هوجاء تعصف الوجوه بالطين والتراب. وسألني:

ـ هل تستطيع أن تهيّئ لي لقاء معه في بيته؟

تفكّرت مليًّا في قلق فعاد يقول بإلحاح:

ـ لا بدّ من ذلك، إنّي مسئول عن الأمن، وأنت أدرى بما في موقفي من حرج...

ـ ولكنّه... أعني...

ـ ولكنّه يمقتني ويسيء بي الظنّ، غير أنّه سيثق في كلمتك...

ـ أعدك بالسعي إلى تحقيق رغبتك ولكن عدني بالتزام الحلم إلى أقصى حدّ مهما لقيت من استفزاز.

ـ ليس في نيّتي طبعًا أن أعرّض بيتك المنعزل في الضاحية الهادئة للفضيحة... أنّي أعطيك كلمة شرف وأنت أدرى بقدرتي على ضبط النفس.

ـ وقد وعدتك...

ـ تبدو غير متحمّس؟

ـ فعلًا...

ـ وتراه لقاء عقيمًا؟

ـ أي نعم.

ـ ولكن لا بدّ منه...

ـ أي نعم.

وتبادلنا نظرة طويلة حزينة. وتلبّدت سماؤنا بغيوم الذكريات المتجهّمة. الصداقة الحميمة وقوى الهوس الصبيانيّ التي انقلبت مع الزمن شرًّا كاسرًا. وقال بنبرة كئيبة:

ـ لم أكن أتخيّل أنّه سيتردّى إلى هذه الدرجة من الحضيض!

ـ ولا أنا، ولو أنّ العمر والتجربة ومزاولة التربية لم تدع لي مجالًا واسعًا للدهشة.

ـ وكم أرّقتني أنباء تدهوره وأنا بعيد عن العاصمة.

ـ لم يكن في الوسع صنع شيء.

ـ لا أشكّ في أنّك حاولت الإصلاح ما وسعك ذلك!

ـ طبعًا، ولكنّ النصيحة تؤجّج ناره، فتجنّبت الحديث الشائك.

ـ واحتفظت بصداقته رغم ذلك؟

ـ كان الذي بيننا أعمق من أخوّة حميمة، ثمّ إنّ الإنسان الذي يجيء لمقابلتي إنسان آخر، طيّب المعشر عامر بأجمل الذكريات، يفيض بالودّ قلبه..

ـ وكيف تفسّر ذلك؟

ـ إنّ الحيّة الغادرة لا تخلو من عواطف أمومة!

ـ ولكنّك تعلم أنّه وحش قذر وعارٌ إنسانيّ!

ـ لن أدافع عن نفسي فإنّي صديقه كما أنّك شقيقه...

ـ لا زلت أعجب أنّك لم تقطعه!

داريت ابتسامة كئيبة وقلت:

ـ إنّه ليس كائنًا من جنس آخر غير جنسنا، الحكاية أنّه أسير الأهواء التي وُفّقنا إلى كبحها...

ـ هو الفرق بين المدنيّة والوحشيّة...

ـ إنّي لا أدافع عن انحرافه...

ولذنا بالصمت مليًّا ثمّ عاد يسأل:

ـ هل زرت مخباه في الجبل؟

تساءلت بدوري ضاحكًا:

ـ هل تبدأ التحقيق معي؟

فضحك ضحكة فاترة ولم ينبس فقلت:

ـ لا أدري شيئًا عن هذا المخبإ المزعوم.

فقال بامتعاض:

ـ اعتداء، برمجة، بلطجة، مخدّرات، عربدة، سرقة ونهب، هتك أعراض...

ـ أمّا المبالغات فقد خلقت منه أسطورة...

ـ إنّي أعرفه من المهد، وأنت كذلك...

ـ أي نعم!

ـ كنّا ثلاثة، وكنّا واحدًا...

ـ أجل...

ـ انظر كيف انشقّ وانحرف...

ـ يا للأسف...

ـ شرّير بطبعه!

ـ الأفضل أن نقول إنّ ثمّة معاملات صادفته داخل البيت وأخرى في الطريق.

ـ لا هذه ولا تلك يمكن أن تبرّر هذا المصير الأسود.

ـ أنا لا أدافع عنه، ولا جدوى من ذلك...

نهض وهو يقول إنّه آن له أن يذهب، ذكّرني بوعدي. ثمّ ودّعني وانصرف.

* * *

وقلت لرمضان ونحن نحتسي الشاي بعد العشاء:

ـ أحدهم يروم مقابلتك.

حدجني بنظرة ثاقبة. نظرة ينفذ بها إلى باطن محدّثه إذا تشمّم وراء كلماته أمرًا. وقال متهكّمًا:

ـ إن تكن امرأة فأهلًا وسهلًا بها...

وأدركت أنّه أدرك ببساطة.

ـ إنّه رجل، ومن رجال الأمن.

فقال مقطّبًا:

ـ توقّعت ذلك مذ علمت بعودته إلى العاصمة.

ـ هذا يقطع بحسن ظنّك به...

فتقلّص وجهه غضبًا ـ وما أسرع انفعالاته ـ وقال:

ـ اللعنة!.. إنّه مثال العقل كما يقولون، ولعلّه ازداد مع الأيّام ثقل ظلّ...

ـ لا شكّ أنّ وراء رغبته بواعث طيّبة...

ـ منذ المهد وهو يودّ القضاء عليّ!

ـ كان يودّ لك أن تسلك في الدنيا مسلكه...

ـ العقل... الاتّزان... الاعتدال... النظام... الاجتهاد... الأدب، إنّه رمز الموت في عينيّ!

يا للذكرى. شدّ ما تبادلا المقت. وبازدراء متقزّز كان عثمان يقول عنه «عاصفة مجنونة... نزوة بلا ضابط... ثور هائج معصوب العينين... مجموعة من الأكاذيب والخرافات». شدّ ما تبادلا المقت ولكن من الغريب أنّني أحببتهما معًا. عثمان كان الرفيق الذي شجّعني على الدرس والخلق والوطنيّة وأمّا رمضان فكنت أهرع إليه ليروي ظمأي المكبوت إلى الانطلاق والأسطورة والغابة. وقلت له:

ـ إنّه أخوك على أيّ حال.

ـ ماذا يريد منّي؟

ـ ليس من الصعب أن نتخيّل...

ـ لعلّها مكيدة!

فقال محتجًا:

ـ كلّا... ألف مرّة كلّا...

ـ العقل يعني الحكمة والأنانيّة والجبن!

ـ لك أن ترفض إذا شئت...

ـ يجب أن يعرف أنّني لا أخشاه.

ـ إذن فلنحدّد موعدًا؟

- ولكنّي لن أقع كذبابة...
- والرأي؟
- لعلّه يريد أن ينتقم؟
- لقد انقضى الماضي واختفى وهو اليوم زوج وأب سعيد.

تذكّرت عروس عثمان الأولى التي هربت مع رمضان موقعة بالأسرة زلزالًا. وكيف عاملها بعد معاشرة أسبوع بوحشيّة حتّى اضطرّت إلى الاختفاء مجلّلة بالعار واليأس. وعدت أقول:

- لقد مضى ذلك وانقضى!، ولك أن ترفض إذا شئت.

فتفكّر مليًّا ثمّ قال:

- ادْعُه... وسوف أحضر متأخّرًا بعد أن آخذ حذري...

* * *

وجاءنا رمضان ونحن ندخّن في حجرة المكتب. ووقف عثمان لاستقباله فالتقيا وجهًا لوجه بعد فراق ربع قرن من الزمان. نظرت إليهما باهتمام محموم وقلبي يخفق. تقابلا بوجهين جامدين لم يتحرّكا باختلاجة عاطفيّة واحدة. وتصافحا مصافحة رسميّة باردة، وقال عثمان:

- أشكرك على قبول دعوتي...

وجلس عثمان على مقعده على حين جلس رمضان إلى جانبي على الكنبة. واقترحت أن أنصرف ولكنّهما أصرّا ـ معًا ـ على استبقائي. وقال عثمان مخاطبًا أخاه:

- لا أظنّك تجهل السبب الذي دعوتك من أجله...؟

قال رمضان ببرود:

- صارحني بما لديك.
- طيّب، نحن نعمل الآن في مدينة واحدة، ويحسن بنا أن نتجنّب ـ ما وسعنا ذلك ـ وقوع المأساة.
- المأساة؟!

لم يُخدع بتجاهله إذ كان على يقين من إدراكه لما يعنيه ولذلك واصل حديثه قائلًا:

- عندي اقتراحان..

فتساءل رمضان وهو يرمقه بتحدٍّ:

- أوّلهما؟
- أن تسلّم نفسك معلنًا توبتك ولعلّ ذلك يخفّف من عقوبتك..
- وثانيهما؟
- أن تبتعد عن طريقي بالوسيلة التي تختارها.

ضحك رمضان ضحكة هازئة ولاذ بالصمت. انتظر عثمان مليًّا ثمّ تمتم:

- الحقّ أنّي لم أتوقّع خيرًا!
- إذن فلمَ دعوتني؟
- لكي أبرّئ ذمّتي.

قطّب رمضان غاضبًا وقال:

- طالما رغب كلانا في القضاء على الآخر!
- هذا حقّ فيما يتعلّق بك.
- وفيما يتعلّق بك أيضًا ولكن كان لك أسلوبك الخاصّ.
- لا جدوى من الجدل، والأفضل أن تفكّر فيما عرضته عليك.
- لن تظفروا بدليل ضدّي ولا شاهد..
- أنصحك بألّا تطمئنّ إلى ذلك.
- جرّب حظّك إذا شئت.
- سأجرّبه بلا أدنى تردّد.

بدهتني حقيقة طريفة. إنّهما كانا يقتتلان طيلة العمر ومذ كانا في المهد. لم يجدّ جديد سوى أنّهما سيتلاقيان وجهًا لوجه. سيكتشف كلاهما عمّا قريب أنّه كان يقاتل شقيقه أو جزءًا من نفسه.

نهض رمضان قائمًا. لوّح بيده محيّيًا. ومضى عابسًا عصبيّ الخطوات.

* * *

بدأت المعركة بين الشقيقين عقب ذلك الاجتماع بأيّام. دهمت قوّات الأمن جميع الأماكن المشبوهة في المدينة والجبل والخلاء. قُبض على جميع مَن ظنّ أنّ لهم بالرجل علاقة من الرجال والنساء. واستُجوبوا بعنف فتتابعت الاعترافات. وتضاعف عدد المقبوض عليهم بعد أن ثبت أنّ أعوانه مُنبثّون في أماكن لا حصر لها كالملاهي والأندية والمقاهي والمصالح الحكوميّة، حتّى أماكن العبادة لم تخلُ منهم. وتدفّقت

القوّات بكلّ ثقلها في مطاردة عنيفة جلّلت المدينة بطابعها الإرهابيّ فذكّرت الناسين بأيّام الطوارئ وليالي الغارات. فتّشت العيون السيّارات والتاكسيات والناقلات. ومسحت الكشّافات زوايا الجسور ومنعطفات الطرق والخرابات. وطوّقت القوارب الشراعيّة فوق سطح النيل واقتحمت الخلوات على العاشقين. ومكالمة تليفونيّة عابثة كانت خليقة بأن تحرّك فرقة كاملة من الشرطة وتزلزل عمارة آمنة. وندبة في أنف رجل بريء أو بروز غير عاديّ في جبهته قد تجرّ عليه من الويلات ما لم يكن يحلم به. ولم يكن من النادر أن تندّ عن ركن من الطريق صيحة، تعقبها أصوات أقدام راكضة، ثمّ تنطلق رصاصات. فيخلو الطريق في ثوانٍ. وتنقضّ على أديمه مطاردة عنيفة لا تنتهي إلى شيء. وأظلّت المدينة سحابة قاتمة تقطر رعبًا.

تابعتُ أخبار المعركة باهتمام لم أشعر بمثله من قبل. وكنت على يقين من الخسران الشخصيّ مهما تكن نتيجة المعركة. فلا مفرّ من أن أفقد أحد أحبّ رجلين إلى قلبي. وموقف الحياد بينهما لا يهضمه ضميري فلا بدّ من الانحياز إلى عثمان. غير أنّ عواطفي تمرّدت عليّ واقتتلت بمرارة ومزّقتني تمزيقًا. فكلّما أحرز رجال الأمن انتصارات حاسمة داخلتني كآبة وأشفقت من خلوّ عالمي من رمضان ومرحه وأساطيره ومغامراته في دنيا الجنس والتحدّي. وكلّما فاز الرجل في مطاردة ونشر الرعب من حوله وهدّد أخاه انقبض قلبي واستشعرت خوفًا من تسلّط قوى الهدم والعربدة وتمكّنها من تقويض دعائم الأمن والحضارة. وانبهمَ أمري على نفسي ولم أعد أدري أيّ رجل أكون، ولا ماذا أروم، ولا كيف أبلغ التوازن المنشود. هكذا تابعت أنباء المعركة باهتمام وانفعال وخجل وحيرة.

* * *

وانتهت المعركة إلى خاتمتها المحتومة. وطلعت علينا الصحف ذات صباح بصورة رمضان وقد خرّ صريعًا مضرّجًا بدمه. انقضت المطاردة الجهنّميّة وأيّام القلق ولياليه. رنوت إلى الصورة طويلًا حتّى شعرت بالدمع يدبّ في أعماق عينيّ. وجنقت، امتلأت بالحنق، ولكنّي لم أدرِ علامَ أحنق. وازدحمت مخيّلتي بالقوى الكونيّة المدمّرة كالزلازل والبراكين والأعاصير والشهب والفياضانات والجراثيم. ولم أدرِ هل أتذكّرها على سبيل التشفّي أو لأعرف موضعها بين الخير والشرّ.

وزارني عثمان بعد ذلك بأيّام. كان كلّ شيء في الدنيا قد انقلب رأسًا على عقب. في دنياي على الأقلّ. وبخلاف العهد وجدت نحوه نفورًا مرضيًّا بذلت قصاراي لأروّضه وأهذّبه. وشعرت في ذاتي بعديد من الشخوص تتصارع وتتجاذب بعنف جنونيّ. جلسنا على مقعدين متقاربين وهو يطالعني بنظرة ثقيلة تنمّ عن روح ميت. وفصل بيننا صمت غامض لا يريد أن ينقشع. وأخيرًا تململ في مجلسه قائلًا:

- إرادة الله ولا رادّ لإرادته..

فقلت أو قال لساني بلا وعي:

- إنّي أرمل وحيد وقد امتلأ البيت بالأشباح..

تفحّصني بقلق ثمّ قال:

- إنّك لا تبدو كما عهدتك. أأنت مريض؟

- لا أشكو إلّا من الأشباح...

- أنت لا تعني ما تقول؟!

فقلت وأنا أضحك ضحكة رجل نسي تمامًا كيف يسيطر على نفسه:

- عشت عمري متوهّمًا أنّ سلوكك كان المثل الذي قادني إلى طريق النجاح حتّى تبوّأت مكاني المرموق في عالم التربية!

- لعلّك تبالغ...

- فعلًا... إنّي نجحت بفضله هو، هذه هي الحقيقة!

- هو؟

- الرجل الذي عبّأت قوى الأمن لقتله...

- حديثك يقلقني...

- شبح من الأشباح أكّد لي ذلك!

- عزيزي!

- صه... وقال لي أيضًا إنّ رمضان انطلق من قاعدة لا يمكن الدفاع عنها ولكنّه اتّبع أسلوبًا رائعًا، أمّا نحن - أنا وأنت - فلنا قاعدة لا يمكن الهجوم عليها ولكنّنا نتبع أسلوبًا سمجًا ميتًا...

ـ لا أفقه لقولك معنى. . .

ـ من العسير فهم لغة الأشباح. . .

ـ صديقي. . إنّك في حاجة إلى نوم عميق. . .

ـ إنّي في حاجة إلى يقظة مجنونة. . . هٰكذا قالت الأشباح. . .

ـ جئتك بعد أن أضناني الغمّ. . .

ـ وسقوني جرعات ضخمة من شراب الأعاصير. .

وقالوا لي إنّ مَن يهدم مدينة خير ممّن يحافظ على جدار قديم. . .

ونهضت فجأة ورحت أتمشّى في الحجرة متوكّئًا على عصًا، فهتف بي:

ـ إنّك تعرج. . .

فأشرت إلى ركبتي وقلت:

ـ التهاب أصابني صباح اليوم المشئوم. . .

ـ زرت طبيبك؟

ـ كلّا سأجد دوائي عند الأشباح. . .

اربدّ وجهه باليأس فهتفت متشفّيًا:

ـ سأنبذ التربية والقواعد والطقوس، ابتعت لوحة وعلبة ألوان وأقلامًا وفرشاة، سأعمل مصوّرًا، مصوّرًا أعرج، وقد جئت بامرأة عارية كنموذج. . .

وأزحت الستار عن باب الحجرة المجاورة فتبدّت عارية وهي تنظر إلينا بهدوء وتحدٍّ. ردّد عينيه عثمان بينها وبيني في ذهول فصحت ضاحكًا:

ـ لعلّك تسألني عمّا أدراني بقواعد الرسم وأصوله؟. . . حسن، لن يعرقلني شيء، سأقبض على الأدوات وأدمّر كلّ شيء. . .

ورميت عينيه المحملقتين بنظرة متحدّية وقلت بهوس:

ـ لقد أضعت أيّامي في صحبة العقلاء، سألهو بالأشياء العميقة، سأنصب شراعي في مهبّ العاصفة. سأسحق مقتنياتي وأقذف بها للرياح، سأعرض عن العقلاء الشرفاء، وليجرفني الدوار، فليكونوا سعداء نافعين ولأكن مجنونًا مخرّبًا وليتقبّلني الشيطان، وتسألني عن القواعد والتقاليد فأقول لك إنّه لن يعرقلني شيء، سأقبض على الأدوات وأدمّر كلّ شيء!

ومضيت بعزم نحو الفتاة العارية وأسدلت الستار ورائي.

الحاوي خطف الطبق

قالت لي أمّي:

ـ آن لك أن تكون نافعًا.

ودسّت يدها في جيبها وهي تقول:

ـ خذ هٰذا القرش واذهب لتشتري الفول، لا تلعب في الطريق وابتعد عن العربات.

تناولت الطبق ولبست قبقابي وذهبت وأنا أترنّم بأغنية. وجدت زحامًا أمام بيّاع الفول فانتظرت حتّى عثرت على منفذ إلى الطاولة الرخاميّة وهتفت بصوتي الرفيع:

ـ بقرش فول يا عمّ.

سألني بعجلة:

ـ فول خالص، بزيت، بسمن؟

لم أجد جوابًا فقال لي بخشونة:

ـ وسّع لغيرك.

تراجعت مسحوبًا بخجلي وعدت إلى البيت خائبًا فصاحت بي أمّي:

ـ راجع بالطبق فارغًا، دلقت الفول أم ضيّعت القرش يا شقيّ؟

فتساءلت محتجًّا:

ـ فول خالص، بزيت، بسمن، لم تخبريني!

ـ يا خيبة، ماذا تأكل كلّ صباح؟

ـ لا أعرف. . .

ـ خيبة. . . خيبة، قل له فول بزيت. . .

مضيت إلى البيّاع وقلت له:

ـ بقرش فول بزيت يا عمّ.

سألني مقطّبًا نافد الصبر:

ـ زيت حارّ، زيت طيّب، زيت زيتون؟

بُهِتُّ فلم أحر جوابًا أيضًا فصاح بي:

ـ وسّع لغيرك. . .

رجعت مغيظًا إلى أمّي فهتفتْ داهشة:

ـ عدت كما ذهبت، لا فول ولا زيت.

فقلت بغضب:

- زيت حارّ... زيت طيّب... زيت زيتون...

لِمَ لَمْ تخبريني؟

- فول بزيت يعني فول بزيت حارّ.

- إيش عرّفني؟

- أنت خيبة وهو رجل متعب، قل له بزيت حارّ.

ذهبت مسرعًا وهتفت بالبيّاع وأنا على مبعدة أمتار من دكّانه:

- فول بزيت حارّ يا عمّ.

وقفت ورأسي بحذاء الطاولة الرخاميّة وأنا ألهث. وكرّرت بانتصار:

- فول بزيت حارّ يا عمّ.

دسّ المغرفة في القدر قائلًا:

- ضع القرش على الرخامة.

وضعت يدي في جيبي فلم أعثر على القرش. فتّشت عنه بقلق. قلّبت الجيب ظهرًا لبطن ولكنّي لم أجد له أثرًا. استردّ الرجل المغرفة فارغة وهو يقول بقرف:

- ضيّعت القرش، أنت ولد لا يعتمد عليك.

نظرت فيما تحت قدميّ وحواليّ وأنا أقول:

- لم أضيّعه.. كان في جيبي طول الوقت.

- وسّع لغيرك وقل يا فتّاح يا عليم.

عدت إلى أمّي فارغًا فصرخت في وجهي:

- يا خبر أسود، أنت يا ولد عبيط؟

- القرش.

- ماله؟

- ليس في جيبي.

- اشتريت به حلوى؟

- أبدًا والله.

- كيف ضاع؟

- لا أعرف.

- تقسم على المصحف أنّك لم تشتر به شيئًا؟

- أقسم...

- جيبك مثقوب؟

- أبدًا.

- ربّما تكون أعطيته للبيّاع في المرّة الأولى أو الثانية؟

- يمكن.

- ألست متأكّدًا من شيء؟

- أنا جائع!

ضربت كفًّا بكفّ وقالت:

- أمري لله، سأعطيك قرشًا آخر ولكنّي سآخذه من حصالتك، وإن عدت بالطبق فارغًا سأكسر رقبتك...

وذهبت جريًا وأنا أحلم بفطور لذيذ. وعند المنعطف المفضي إلى حارة البيّاع رأيت حلقة من الصبيان والأطفال وسمعت تهليل أفراح. ثقلت قدماي وشدّ قلبي إليهم. على الأقلّ ألقي نظرة عابرة. اندسست بينهم، فإذا بالحاوي يطالعني. غمرتني فرحة مذهلة. نسيت نفسي تمامًا. استمتعت بكلّ قوّة بألعاب البيض والأرانب والحبال والثعابين. ولمّا اقترب الرجل ليجمع النقود تراجعت هامسًا «لا نقود معي» انقضّ عليّ متوحّشًا. تخلّصت منه بصعوبة. جريت ولكمته تشقّ ظهري. ولكنّي سعدت للغاية. وذهبت إلى البيّاع وأنا أقول:

- بقرش فول بزيت يا عمّ.

جعل ينظر إليّ ولا يتحرّك فكرّرت الطلب فسألني بغيظ:

- هات الطبق...

- الطبق!. أين الطبق؟. سقط منّي وأنا أجري!. خطفه الحاوي؟.

- أنت يا ولد عقلك ليس في رأسك!

عدت أفتّش في الطريق على الطبق المفقود. وجدت موضع الحاوي خاليًا ولكنّ أصوات الأطفال دلّتني عليه في حارة قريبة. درت حول الحلقة لمحني الحاوي فصاح بي مهدّدًا:

- ادفع أو فاذهب أحسن لك.

فهتفت بيأس:

- الطبق!

- أيّ طبق يا بن الشياطين؟

- ردّ إليّ الطبق.

- اذهب وإلّا جعلتك طعامًا للثعابين.

إنّه سارق الطبق. ولكنّي ابتعدت عن مرمى عينيه اتّقاء لشرّه. ومن القهر بكيت. وكلّما سألني مارّ عمّا يبكيني قلت له «خطف الحاوي الطبق». وانتبهت من

كربي على صوت يقول «اتفرّج يا سلام». نظرت خلفي فرأيت صندوق الدنيا قائمًا، ورأيت عشرات من الأطفال تهرع إليه. وتتابع وقوف المشاهدين أمام عيني الصندوق وراح الرجل يشرح الصور بإغراء «عندك الفارس الهمّام، وستّ الكل زينة البنات». جفّت دموعي وتطلّعت إلى الصندوق بشغف. نسيت الحاوي تمامًا والطبق. لم أستطع مقاومة الإغراء. دفعت القرش ووقفت أمام العين إلى جانب بنت وقفت أمام العين الأخرى. تسلسلت أمام ناظريّ صور الحكايات الخلّابة. ولّما عدت إلى دنياي كنت فقدت القرش والطبق ولم يعد للحاوي من أثر، لم أفكّر فيما فقدت واستغرقتني صور الفروسيّة والحبّ والصراع. نسيت جوعي، حتّى المخاوف التي تتهدّدني في البيت، نسيتها. تراجعت خطوات لأستند إلى جدار أثريّ كان يومًا ما مبنى لبيت المال ومقرًّا للقاضي، واستسلمت بكلّيّتي للأحلام. حلمت طويلًا بالفروسيّة وزينة البنات والغول. وتكلّمت في حلمي بصوت يُسمع ولوّحت بيدي بأكثر من دلالة. وقلت وأنا أدفع بالحربة الخياليّة:

- خذ يا غول في قلبك.

وجاءني صوت رقيق قائلًا:

- ورفع زينة البنات خلفه فوق الحصان!

نظرت إلى يميني فرأيت الصبيّة التي زاملتني في الفرجة. تبدّت في فستان متّسخ وقبقاب ملوّن وهي تعبث بضفيرتها الطويلة. وفي يدها الأخرى حبّات بيضاء وحمراء من «براغيث الستّ» تستحلبها على مهل. تبادلنا النظر. مال قلبي إليها فقلت لها:

- نجلس لنستريح.

بدت مستسلمة لاقتراحي فأخذتها من ذراعها ودخلنا من بوّابة الجدار الأثريّ فجلسنا على درجة من سلّمه الذي لا يفضي إلى شيء. سلّم يرتفع درجات حتّى ينتهي إلى بسطة تلوح وراءها السماء الزرقاء والمآذن. جلسنا صامتين جنبًا إلى جنب. قبضت على يدها وجلسنا صامتين لا ندري ماذا نقول. وتناوبتني مشاعر غريبة وجديدة ومبهمة. قرّبت وجهي من وجهها فشممت رائحة شعرها الطبيعيّة تخالطها رائحة ترابيّة وعبير أنفاس ممزوج بشذا الحلوى. قبّلت شفتيها. ازدردت ريقي الذي اقتبس مذاقًا حلوًا من ذوب براغيث الستّ. أحطتها بذراعي دون أن تنبس بكلمة، وأقبّل خدّها وشفتيها، فتسكن شفتاها عند تلقّي القبلة ثمّ تعودان إلى استحلاب الحلوى. وقرّرت أخيرًا أن تقوم. قبضت على ذراعها بجزع وأنا أقول:

- اجلسي.

فقالت ببساطة:

- أنا ذاهبة.

فسألتها بضيق:

- إلى أين؟

- إلى أمّ عليّ الداية.

وأشارت إلى بيت يقيم أسفله كوّاء بلديّ.

- لماذا؟

- لأقول لها أن تأتي بسرعة.

- لماذا؟

- أمّي تصرخ في البيت، قالت لي اذهبي إلى أمّ عليّ الداية وقولي لها أن تأتي بسرعة...

- وستعودين بعد ذلك؟

فهزّت رأسها بالإيجاب وذهبت. تذكّرت بذكر أمّها أمّي. انقبض قلبي. غادرت السلّم الأثريّ عائدًا إلى البيت. بكيت بصوت مرتفع وهي طريقة مجرّبة أدافع بها عن نفسي. توقّعت أن تجيئني ولكنّها لم تأتِ. تنقّلت بين المطبخ وحجرة النوم فلم أعثر لها على أثر. أين ذهبت الأمّ؟. ومتى ترجع؟. وضقت بالبيت الخالي. وخطر لي خاطر طيّب. أخذت من المطبخ طبقًا ومن حصالتي قرشًا وذهبت من فوري إلى بيّاع الفول. وجدته نائمًا على أريكة أمام الدكّان مغطّيًا وجهه بذراعه. اختفت قدر الفول وأعيدت قوارير الزيت إلى الرفّ وغسلت الرخامة، اقتربت منه هامسًا:

- يا عمّ...

فلم أسمع إلّا شخيره. لمست كتفه فرفع ذراعه في انزعاج وطالعني بعينين حمراوين:

- يا عمّ...

انتبه إلى وجودي وعرفني فسألني بخشونة:

- ماذا تريد؟

ـ بقرش فول بزيت حارّ. . .

ـ هه؟

ـ معي القرش ومعي الطبق.

صرخ في وجهي:

ـ أنت مجنون يا ولد، اذهب وإلّا كسرت دماغك.

ولّما لم أتحرّك دفعني بيده دفعة قويّة ألقتني متقهقرًا على ظهري. نهضت متألّمًا وأنا أقاوم البكاء الذي يلوي شفتيّ، ويداي قابضتان إحداهما على الطبق والأخرى على القرش. رميته بنظرة غاضبة. فكّرت في عودة خائبة يائسة، ولكنّ أحلام الفروسيّة عدّلت من خطّتي. صمّمت واتّخذت قرارًا سريعًا. وبكلّ قوّة ساعدي رميته بالطبق. طار الطبق فأصاب رأسه. ركضت بسرعة لا ألوي على شيء. وملأني اليقين بأنّني قتلته كما قتل الفارس الغول. ولم أتوقّف عن الجري إلّا على مقربة من الجدار الأثريّ. نظرت خلفي وأنا ألهث فلم أرَ أثرًا لمطاردة. وقفت حتّى تمالكت أنفاسي ثمّ ساءلت نفسي ما العمل وقد ضاع الطبق الثاني. وشيء حذّرني من العودة المباشرة إلى البيت. وما لبثت أن استسلمت إلى موجة من الاستهانة تحملني إلى حيث تشاء. هي علقة لا أكثر ولا أقلّ وسأنالها لدى العودة، فلتتؤجّل العودة إلى حينها. وها هو القرش في يدي، ويمكن أن أحظى بمتعة لا بأس بها قبل العقاب. قرّرت أن أتناسى جريمتي ولكن أين الحاوي، وأين صندوق الدنيا. فتّشت عنهما هنا وهناك بلا ثمرة. أرهقني البحث العقيم فمضيت إلى السلّم الأثريّ وراء الميعاد. جلست أنتظر وأتخيّل اللقاء. تاقت نفسي إلى قبلة أخرى معبقة بشذا الحلوى. واعترفت فيما بيني وبين نفسي بأنّ الصبيّة وهبتني مشاعر لم أجرّب أطيب منها من قبل. وفيما أنتظر وأحلم ترامى إليّ همس من الجهة الخلفيّة. رقيت في الدرج بحذر وعند البسطة الأخيرة انبطحت على وجهي لأرى ما وراءها دون أن يلمحني أحد. رأيت خرابة مطوّقة بسور عالٍ، وهي آخر ما بقي من بيت المال ومقرّ قاضي القضاة. وتحت السلّم مباشرة جلس رجل وامرأة. هما مصدر الهمس، أمّا هو فأشبه بالمتشرّدين، وأمّا هي فغجريّة ممّن يرعين الأغنام. صوت باطنيّ مريب قال لي بأنّهما يجتمعان في «ميعاد» كالذي جاء بي. بذلك تنطق الشفاه والنظرات والأعين ولكنّها على خبرة مدهشة ويفعلان أمورًا لا يحيط بها الخيال. شدّ بصري إليهما مشدوهًا في استطلاع ودهشة ولذّة ولم يخلُ من انزعاج.

وجلسا أخيرًا جنبًا إلى جنب، لم يعد يهتمّ أحدهما بالآخر. وبعد فترة ليست بالقصيرة قال الرجل:

ـ النقود!

فقالت بضيق:

ـ أنت لا تشبع.

بصق على الأرض ثمّ قال:

ـ أنت مجنونة.

ـ أنت لصّ. . .

بظهر يده لطمها لطمة قويّة. قبضت حفنة تراب وقذفتها في وجهه. انقضّ عليها بوجه مغبّر فأنشب أصابعه في زمّارة رقبتها. بدأ صراع جهنّميّ مرير. ركّزت قواها عبثًا لتخليص رقبتها من يده، احتبس صوتها، جحظت عيناها، ضربت بقدميها الهواء. حملقت فزعًا أخرس حتّى رأيت خيطًا من الدم يتسلسل من أنفها. فرّت من فمي صرخة. زحفت إلى الوراء قبل أن يرفع الرجل رأسه. هبطت السلّم وثبًا وعدوت كالمجنون إلى حيث تحملني قدماي. لم أتوقّف عن العدو حتّى انقطعت منّي الأنفاس. جعلت ألهث دون أن أرى شيئًا ممّا حولي. ولّما انتبهت إلى نفسي وجدتني تحت قبو مرتفع يتوسّط مفترق طرق. لم تطأه قدماي من قبل ولا فكرة لي عن موقعه بالنسبة لحيّنا. وكان يقتعد جانبيه شحّاذون لا يبصرون. ويعبره في شتّى نواحيه أناس لا يلتفتون إلى أحد. أدركت بخوف أنّني ضللت الطريق، وأنّ متاعب لا حصر لها تتربّص بي حتّى أهتدي إلى سبيلي. هل ألجأ إلى أحد المارّة لأسترشد به؟. ولكن ما العمل لو ساقني الحظّ إلى رجل كبيّاع الفول أو متشرّد الخرابة؟! هل تقع معجزة فأرى أمّي مقبلة فأهرع إليها بكلّ قلبي؟. هل أجرّب السير وحدي فأتخبّط حتّى أعثر على أثر أستدلّ به على طريقي؟.

وقلت إنّ عليّ أن أحزم أمري، بسرعة ودون تردّد، فقد أخذ النهار يولّي، وعمّا قليل سيهبط الظلام من مجاهله.

ثلاثة أيّام في اليمن

-١-
الأديب

ها هي السيّارة تنطلق والقاهرة تبتعد. تطايرت الهموم وخفقت القلوب في طريق السويس. وقال في صوت حنون:

ـ لن نفترق زهاء أسبوعين، كم تمضي أيّام طويلة دون أن يرى أحدنا الآخر...

أحدقت بنا لا نهائيّة الصحراء من الجانبين فأهدت إلينا هواء منعشًا رغم حرارة يوليو. وصلنا إلى ميناء الأدبيّة مع المساء. تعلّقت أعيننا بالسفينة الراسية عند الشاطئ حينًا ثمّ أخذنا سبيلنا بين صفوف من الجند وأكوام من المؤن والذخيرة. مضى بنا المرشد إلى مركز التشهيلات. تمّ التعارف بيننا وبين الضابط ثمّ جلسنا ننتظر. إنّه ليس بضابط كلا، إنّه دوّامة مكهربة. يحرّك الجنود والموظّفين بأصابعه العشرة وبحاجبيه وأنفه وشفتيه ويتكلّم من خلال عشرة تليفونات. وكلّما مرّ بنا بصره تفحّصنا باسمًا وهزّ رأسه هزّة تدعو للتساؤل والفضول. آلو.. ليتقدّم حمَلة صناديق الذخيرة، يا عمّ حسنين، أنت مسئول عن توصيل البطاطس... هاتِ الساركي، اسمعني يا يسري، السطح الأماميّ من الدور الأوّل للسريّة الثالثة، عليوة راجعتَ شهادات التطعيم؟، مرحبًا بضيوفنا الأدباء مرحبًا... سمعت عبد الوهاب وهو يغنّي قصيدتك يا أستاذ، انتهيتم من التيفود؟... والكوليرا؟... آلو... انتهى التطعيم؟، أمّا مقالاتك أنت يا أستاذ فهي السحر الحلال، آلو.. أرسل شخصًا لتطعيم الأدباء...

ـ تمّ تطعيمنا ضدّ الكوليرا والجدريّ!

ـ والتيفود؟

ـ أكّدوا في البلديّة ألّا ضرورة لذلك.

ـ التيفود مهمّ جدًّا.. دعوني أتصرّف فأنا منذ الساعة مسئول عن الحركة الأدبيّة في مصر...

ـ ولكنّكم تعطون الحقن بطريقة عسكريّة... أعني...

ـ يا ربّ السماوات!.. أيخاف من الحقن أصحاب «البيداء تعرفني» و «علوّ في الحياة وفي المات»؟!

استسلمنا. اجتزنا فترة عصيبة لم تخل من التأوّهات. ولمّا انتهى التطعيم قال:

ـ انتهينا من الكوليرا والجدريّ والتيفود...

ثمّ وهو يتفحّص وجوهنا بنظرة غامضة:

ـ أمّا بقيّة الحمّيات هناك فلم يكشف الطبّ سرّها بعد...

تبادلنا نظرات ارتياب وتوجّس على حين انصرف عنّا في غير مبالاة. وجرى التهامس بيننا في إشفاق:

ـ أحقّ ما يقول؟

ـ يبدو الأمر جدًّا.

ـ إذن ما معنى هذه الرحلة؟

ـ لننفعل بالأحداث.

ـ أليس من الأسلم أن ننفعل في القاهرة؟

ـ وهؤلاء الجنود أليسوا بشرًا مثلنا؟

ـ ولكنّهم جنود!

ـ لعلّه يمازحنا . .

وإذا به يلتفت نحونا هاتفًا:

ـ ستنفعلون أوّلًا وقبل كلّ شيء بالحمّيات المجهولة!

وضحكنا طويلًا. ضحكنا وكأنّنا نتسوّل تكذيب الظنون. ضحكات في الأصوات المسموعة للقلق المتطاحن في أعماقنا. ولٰكنّه استقبل هدنة راحة في زحمة العمل فرمقنا بنظرة جادّة حقيقيّة لأوّل مرّة. جادّة وودودة. ثمّ قال بنبرة أخويّة:

ـ أهلًا بكم، فرصة طيّبة وسعيدة، وهنيئًا لكم زيارة بلد شقيق ثائر، ستجدون له مذاقًا خاصًّا وجمالًا ذا سحر غير منكور، فاذهبوا بسلام آمنين . .

شددنا على يده بامتنان وذهبنا وراء حقائبنا المحمولة إلى السفينة. ودعانا القبطان إلى العشاء. وطيلة الوقت ترامى إلينا غناء الجنود من سطح السفينة الأماميّ، ودار حديث عن ميعاد الإبحار والجوّ. وأعلمنا الرجل الكريم الظريف بأنّنا سنكون ضيوفه طوال الرحلة.

وفي أثناء ذٰلك اختفى من الصحاف الدجاج والشواء والملوخيّة والبطاطس والسلطة الخضراء والمشّ والبطّيخ. ودعانا إلى قضاء السهرة في جناحه المطلّ على البحر ثمّ مضى إلى عمله. أطفأنا المصباح واهبين الليل أنفسنا. أنعشنا شراب البرتقال ونسمة معبقة بجوّ الميناء. وما زالت أغنية تتردّد متهادية إلينا من معسكر الجنود فوق مقدّم السفينة.

ـ ترى فيمَ يفكّرون حول بنادقهم؟

ـ الحرب . . . إنّها الحرب . . .

ـ أقدم حرفة في الوجود.

ـ لكنّها تنشب هٰذه المرّة في سبيل التحرير والحرّيّة.

ـ إنّها الحرب، وهي ككلّ حدث خطير تدفعنا إلى مواجهة لغز الوجود، وجهًا لوجه . . .

وتذوّقنا حينًا النسمة الملاطفة. استسلمنا بكلّ قوانا للحظة طيّبة خالية من الكدر، ثمّ تفرّق الحديث واختلف كأنّما يدور بين أجيال. وأوشك أن يستقلّ كلّ اثنين بفكرة ما.

ـ ستكون الحرب القادمة خاتمة الحروب!

ـ ولٰكن هل تستمرّ الحضارة بلا حروب؟

ـ الحقّ أنّ العالم مقبل على عصر عليه أن يخلق فيه كلّ شيء من جديد.

ـ وربّما وجد أنّ عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى ولا آمال كبيرة!

* * *

ـ أظنّه بسكال الذي قال إنّنا مبحرون في هٰذا العالم، ليس لنا خيار في أمر السفر فلم يبق لنا سوى اختيار السفينة . . .

ـ ولٰكن كيف نختار سفينة مناسبة إذا لم يكن لدينا فكرة عن الرحلة؟

الأفكار مغلقة ولٰكنّ الأصوات راضية تندّ عنها غبطة المستمتع بعشاء لذيذ وشراب منعش. والغناء لا يتوقّف، يحمل إلينا أنغام حماس وحنين. وثمّة تساؤلات عمّا ينتظرنا هناك عند المآكل والمشرب والمنام. ومخاوف أوشكت أن تتضخّم لولا أن ارتفع صوت قائلًا:

ـ ما هي إلّا أيّام ثمّ تنقضي بسلام . . . دعونا نشارك الجنود حياتهم ولو بدون قتال . .

شعرت برغبة في الحركة. غادرت جناح القبطان إلى السطح ماضيًا حتّى الشرفة المطلّة على مقدّم السفينة. رأيت الجنود على ضوء الكلوبات ما بين مستلقين وواقفين وجالسين. جال بصري بينهم في جدّ وانفعال. اجتاحني طوفان من الذكريات الوطنيّة، حماسيّة وأليمة على السواء، لٰكنّه طوفان حمل في النهاية هٰذه السفينة، التي تحمل بدورها هؤلاء الجنود، ثملة بنشوة النصر والأمل، ملوّحة براية الأخوّة والكرامة، فأيقنت أنّ تاريخنا الطويل المثقل بأحلك الذكريات يتكشّف عن صفحة جديدة بيضاء. وخيّل إليّ أنّ اسمي يتردّد في نداء صاعد من بين أمواج الغناء. حقًّا! أجل إنّ صوتًا يناديني. تحرّك رأسي هنا وهناك حتّى رأيت جنديًّا يشقّ طريقه نحو أسفل الشرفة ملوّحًا بيده. أمعنت النظر فيهُ بدهشة. تذكّرته. انحنيت من فوق السور في غاية من الابتهاج. لوّح لي بيده تحيّة فلوّحت له بيدي.

الجنديّ

دعتني للجلوس فجلست. توقّفت عن الكتابة على الآلة الكاتبة وقالت لي مجاملة:

ـ شكلك ظريف في البدلة العسكريّة.

نفخني السرور، رحّب بي الزملاء القدماء في الإدارة. على مكتبي السابق المجاور لمكتب خطيبتي جلس شابٌ جديد هو الذي حلّ محلّي بعد تجنيدي، سألتني:

ـ هل اعتدت الآن على الهبوط بالبارشوت؟

همست في أذنها:

ـ عندما أقذف بنفسي أبسمل وأتذكّر وجهك فيتمّ الهبوط على أحسن حال.

وناقشنا بعض المشكلات التي تلابس زواجنا كالأثاث والمسكن فاتّفقنا على الإقامة «مدّة» في بيت والديها وبذلك نؤجّل مشكلة المسكن ونكتفي بتأثيث حجرة واحدة. وتركتها واعدًا بزيارتها في القريب في بيتها. مضيت من فوري إلى الثكنة بمنشيّة البكري. ولم أكد أمكث ساعة هناك حتّى صدرت أوامر بتجهيز سفريّات الميدان. تجمّعنا في الحال. سألت جاري عمّا هناك فقال لي علمي علمك. اصطفّت سريّتنا الثالثة. وُزّعت علينا البنادق. انتقلنا إلى السيّارات فانطلقت بنا إلى هايكستب. كان ثمّة قطار في انتظارنا، وثمّة حركة نشيطة لنقل الذخيرة. همست في أذن صاحبي:

ـ اليمن!

هزّ رأسه فخيّل إليّ أنّه يوافقني على رأيي. تحرّك القطار. اجتاحني شعور بالغربة والحيرة. لم أودّع خطيبتي ولم أودّع أمّي. منذ عام كنت موظّفًا، مجرّد موظّف على مكتب. وبفضل شبابي وصحّتي أحببت وخطبت ثمّ جُنّدت. ها هو القطار يحملنا إلى الميدان. سنهبط من الطيّارات إلى ميدان حرب حقيقيّة... لا تمرين ولا مناورة. يوم دُعيت إلى التجنيد قال لي رئيس السكرتارية «ها أنت ذاهب... وها هو تدريبنا لك يضيع في الهواء... ساء حظّ الرئيس الذي يوظّف شابًّا قبل تجنيده بعد اليوم». كنت موضع ثقته وكنت بذلك فخورًا. أنا طول عمري من المتوكّلين على الله، المعتمدين على دعاء الوالدين. والحبّ عجيب كالقدَر نفسه فذات يوم عُهد إليّ بتدريب موظّفة جديدة. لم تكن أوّل فتاة أدرّبها في السكرتارية ولكنّها كانت الأولى في حياتي.

ساءلت زميلي مرّة أخرى:

ـ اليمن... أليس كذلك؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ متى نعرف؟

ـ كلّ آت قريب.

إذن هي الحرب. كما نراها أحيانًا على شاشة السينما. وحتّى في السينما لم أشاهد معركة بارشوت إذ إنّني أفضّل عادة أفلامنا الغنائيّة. كانت الأولى في حياتي فلم أعرف الحبّ قبلها بصفة جدّيّة وقلت لها عليك بالانتباه فإنّ رئيس القلم يمزّق أيّ خطاب لأقلّ هفوة! ما أحلى ارتباكها إذا ارتبكت! ما أجمل نظرتها وهي ترنو إلى مدرّبها! وهي تستهديه المعونة والثقة فيهدي إليها قلبه ومستقبله.

وقال زميلي:

ـ القطار يهدّئ من سرعته. ستعرف كلّ شيء...

وقف القطار. أكثر من صوت ردّد اسم الأدبيّة. أجل... أجل. غادرنا القطار. انتظمنا الصفّ. سرنا إلى الميناء. جرى تطعيمنا ضدّ الكوليرا والجدريّ والتيفود. وكلّ حمل لوازمه ومضى نحو سفينة راسية بالميناء. تناولنا العشاء. أناس استغرقهم النوم وآخرون راحوا يغنّون. الحقّ أنّني لم أركب سفينة من قبل، لا في البحر ولا في النيل. بل إنّني لم أرَ البحر قطّ. ولم أستطع أن أرى منه شيئًا في الظلام.

ـ أين الأمواج التي يقال إنّها كالجبال؟

ـ نحن في الميناء يا رجل يا طيّب...

لفحني هواء لطيف فملأت صدري ثمّ سألته:

ـ وماذا تعرف عن دوار البحر؟

فسألني بدوره:

ـ لماذا لا نغنّي مع مَن يغنّون؟

تمشّيت مستطلعًا. لاحت منّي نظرة إلى أعلى. رأيت على ضوء كلوب وجهًا ينظر إليّ أو بدا بذلك. مَن؟!، أستاذي القديم. أستاذي بمدرسة مكارم الأخلاق الإعداديّة بشبرا. هو دون غيره. ترى ماذا جاء به إلى

سفينتنا... وجعلت أنادي والوّح بيدي وأنا أشقّ طريقي بين البنادق والنيام. وأخيرًا عرفني فلوّح لي بيده. التقينا عند منتصف السلّم تمامًا فتصافحنا بحرارة.

- أنت جنديّ؟!... ما تصوّرت ذلك.

- جنديّ منذ عام فتركت وظيفتي إلى حين.

- متزوّج؟

- كلّا ولكنّي خاطب.

- مبارك (ثمّ وهو يتفحّص ملابسي) لا أعرف لغة ملابسكم.

- من قوّة المظلّات يا فندم.

- فرصة طيّبة، أتمنّى لك حظًّا سعيدًا.

- وماذا جاء بك يا أستاذي؟

- رحلة.. زيارة.. في ضيافة الجيش.

- أهلًا أهلًا... إنّي أقرأ مقالاتك... هل تركت التعليم؟

- نعم.

وتصافحنا مرّة أخرى وهو يقول:

- أرجو أن أراك كثيرًا.

انفصلنا. عدت إلى مقدّم السفينة وصعد إلى السطح.

-٢-

الأديب

أخيرًا تراءت لنا ميناء الحديدة.

تهادت سفينتنا في الممرّ المائيّ الذي شقّه الروس في الصخر، عقب رحلة طويلة أذابتنا فيها الحرارة وأنهكتنا الأحاديث، فوق سطح بحر كظيم صامت، تحت سماء باهتة تترامى في الآفاق بلا تعبير، بين جماعات متواثبة من الدرافيل. لا تسلية لنا إلّا الكلام والسجائر والذكريات ولا عمل لنا إلّا الاستجمام وتجفيف العرق.

أخيرًا تراءت لنا ميناء الحديدة.

تطلّعنا بشغف نحو الأرض التي ظلّت دهرًا طويلًا متقوقعة، حتّى ثارت ثورتها فحطّمت القشرة الصلبة التي تحبسها فيها وراء التاريخ.

- تذكّروا أنّ وطننا تلقّى موجات في أثر موجات من مهاجري هذا البلد!

- لا يبعد أن نصادف أجدادًا وأصولًا ونحن لا ندري.

قلّبت وجهي في مجموعتنا فرأيت وجوهًا تشي بأكثر من أصل تتراوح جذورها ما بين البلقان والسودان مارًّا بالشام ومصر. قلت لنفسي إنّ أضمن وأعرق أصل للإنسان هو الأرض.

* * *

استقبلنا مندوبا القيادتين العربيّة واليمنيّة. انتقلنا إلى مركز قائد الميناء حيث قُدّمت لنا المرطّبات. قائد ضخم كتمثال، وطراز من الرجال يضيف أصلًا جديدًا إلى مجموعتنا المتعدّدة الأصول. دعانا لمشاهدة خريطة لليمن.

- أرض مجهولة لا يعرفها إلّا المرشدون...

انتقل المؤشّر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

- جميع هذه المدن ثائرة وموالية أمّا الجبال فلا تخلو من جيوب!

- اعتقدنا أنّ الحرب قد انتهت.

- هي كذلك بالمعنى العسكريّ ولكن علينا أن نطهّر الجبال من المتسلّلين!

دعانا إلى جولة في المدينة. زرنا المستشفى. تجوّلنا في أحياء ردّتنا بقدرة قادر إلى أزقّة القاهرة وحاراتها القديمة. شاهدنا دكاكين حافلة بسلع من جميع أنحاء المعمورة. طالعتنا وجوه صامتة مغلقة غامضة، لا ينظرون نحونا، وإذا نظروا لم يرونا.

- يا حضرة القائد.. أهم يكرهوننا؟

- كلّا يا أستاذ ولكنّنا في عزّ وقت التخزين!

أجل... إنّه القات!. الدنيا تنساب في حلم كبير يرفرف فوق المدينة ولم نعد إلّا أشباحًا لا حقيقة لها. وثمّة تاجر مستلق على أريكة أمام دكّان سأله القائد عن مكان ما ولكنّه لم يبدِ حراكًا ولم ينبس بكلمة... ما فعل إلّا أن رفع يده ببطء شديد مشيرًا نحو المكان كأنّما هي صورة متحرّكة مصوّرة بالتصوير البطيء، أمّا

ظاهر الرجل اليمنيّ فيتلخّص في لحية وخنجر وبندقيّة. والتجوّل بين الحوانيت مثير للغاية. وكان مدعاة للتساؤل عن بدل السفر ومتى يصل. وقال القائد:

ـ ستجدون في صنعاء سلعًا أطرف وأجمل. أمّا تعز فحدّث عنها..

ولفتت الأنظار الحقائب والأقمشة، ثمّ احتكرتها الهرمونات والمقوّيات. وتسلّل من القائد إلى النفوس إعجاب ودود. تضاعف عندما دعانا إلى العشاء في مقرّ القيادة اليمنيّة. اجتمعنا هناك بكهول وشبّان من اليمن، منهم من يرتدي البدلة ومنهم من يرتدي الزيّ الوطنيّ. تبادلنا الأحاديث عن الحرب والثورة والتاريخ والأدب. كشفت الروح اليمنيّة عن كنوزها فاستعدنا شعورنا بالأنس والألفة وتفتّحت قلوبنا بلا حدود. وملت نحو زميل هامسًا:

ـ أشعر كأنّما رأيت هٰذا المكان من قبل!

فردّ عليّ هازئًا:

ـ هٰذه نتيجة عقدة نفسيّة سأحدّثك عنها فيما بعد.

وُضعت الموائد حول بركة كانت مسبحًا للجواري ذات يوم. وعزفت لنا جوقة موسيقيّة وغنّى لنا مهرّج الإمام. وقال لنا القائد ونحن عائدون:

ـ ستبيتون الليلة في الباخرة وغدًا صباحًا تذهبون إلى صنعاء...

وتساءلنا عن وسيلة المواصلات فقال:

ـ ثمّة طريق جديدة شقّها الصينيّون في الجبل، تقطعها السيّارة في ثماني ساعات، وسوف ترافقكم قوّة مسلّحة...

ولدى سماع هٰذه العبارة الأخيرة ساورنا القلق، وسأله سائل:

ـ وما الداعي لمرافقة القوّة المسلّحة لنا؟

فأجاب مواريًا ابتسامة:

ـ تعرّضت الطريق لهجمة عدوانيّة فاشلة منذ أسابيع!

وأكثر من صوت قال في نفس واحد:

ـ حدّثنا يا قائد عن وسيلة مواصلات أخرى.

فضحك ضحكة عظيمة وقال:

ـ ستأخذون الطيّارة وستصل بكم في ساعة أو أقلّ.

عدنا إلى الباخرة. سهرنا في جناح القبطان في جوّ حارّ رطب خرق المألوف لنا. ولّما آويت آخر الليل إلى القمرة قلت لزميلي فيها:

ـ أشعر من الحرّ والرطوبة بأنّني سأموت عمّا قليل.

فأجابني بصوت ملؤه النعاس:

ـ لكلّ أجَل كتاب!

الجنديّ

السفينة تقترب من الشاطئ. جمهور ضخم ينتظرنا. ولٰكن أيّ جمهور؟!. نساء!. أجل نساء لا حصر لهنّ في أزياء مزخرفة بالحمرة والزرقة. ما الذي أخرجهنّ من البيوت؟. وفي لهفة حزمَ كلّ جنديّ متاعه وعدّته وحمل بندقيّته. ورأينا ضيوفنا من الأدباء وهم يهبطون وراء حقائبهم. وبحثت عيناي عن أستاذي السابق حتّى رأيته. وددت أن أودّعه ولٰكنّ الزحام والنظام حالا دون ذٰلك. وصدرت لنا الأوامر بالنزول فسرنا نحو السلّم في ترتيب عسكريّ. ها أنا أستقبل بلدًا غريبًا بعد أن ركبت السفينة لأوّل مرّة. وفوق الأرض تكشّفت لي حقيقة المتجمهرين. إنّهم رجال لا نساء كما توهّمت من بعيد. يرتدون لباسًا كالجونلة ويطلقون اللحى. تنغّص حماسي وفتر، فرحت أتمشّى فوق رصيف الميناء. وتذكّرت أمّي التي لم أودّعها. وتذكّرت خطيبتي التي زرتها ولم أودّعها أيضًا. وقلت لو أنّني ودّعت أمّي لتلقّيت من دعواتها ما ينفعني. ونودي علينا فهرعنا إلى الصفّ. ثمّ اتّجهنا إلى سيّارات معدّة لتوصيلنا إلى صنعاء. وخرجت السيّارات من حارات متربة حتّى اجتزنا بوّابة كبيرة. وإذا بنا ندخل في طرق ممهّدة، تأخذ في الارتفاع كلّما تقدّمنا. وسألت زميلي:

ـ أين مملكة سبأ؟

فسألني بدوره دون اهتمام بسؤالي:

ـ أنحن ذاهبون إلى الميدان؟

وجذبت الجبال المتشابكة عينيّ. ألقيت بنظرة إلى أسفل فأدركت مدى الارتفاع الذي نصعد إليه بلا توقّف. ومضت الحرارة تخفّ والجوّ يلطف والدنيا

تتغيّر. وتساءلنا حتّى متى نواصل الصعود فأجاب دليلنا اليمنيّ:

- سنصعد فوق الجبل.

لا فرق بين السيّارة والطيّارة في هٰذا البلد. ودار بنا طريق دائريّ فتطالعنا الشمس المائلة حينًا وتغيب عنّا حينًا آخر. ويبهرنا السحاب وهو يزحف نحونا حتّى روّعنا. ودخلنا فيه فغاب الوجود وبتنا من أهل السماء. حتّى أنفسنا غابت عنّا. وارتفعت الأصوات وتبادلنا الألقاب الضاحكة. ولّما خرجنا من السحاب استوى الجبل إلى يسارنا على هيئة مدرّجات تكسوها الخضرة المتألّقة فهتفنا في دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلّا المقطّم فيما وراء مسجد الحسين رضي الله عنه فتلوت فاتحة الكتاب. أمّا إلى اليمين فينحدر الجبل صانعًا مدرّجات واسعة من السهول تنبت في جنباتها القرى، وتتناثر الأكواخ، وتهيم القطعان والأطفال، من تحتها خضرة ومن فوقها قطع من السحب متفاوتة الشفافيّة تتلاقى في احتدام وتنتشر كقبّة هائلة ثمّ تلاطم سفح الجبل تحتنا فتفور كالأبخرة، وها نحن ننطلق فوق السحاب كأنّما تقلّنا إليوشن المظلّات. قال الزميل:

- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

فقلت بوجد:

- صدق الله العظيم.

قبيل الغروب اجتزنا بوّابة صنعاء. وعلمنا أنّنا ذاهبون إلى كلّيّة الطيران للمبيت فاستبشرنا خيرًا ومنّينا أنفسنا بليلة نوم ناعمة. غادرنا السيّارات ومضينا نحو الكلّيّة دون أن نتبيّن المبنى من الخارج لغلبة الظلام على الدنيا. ولكنّنا وجدنا أنفسنا في مكان هو أشبه ما يكون بالإصطبل. لا مقعد ولا فراش ولا حتّى حصيرة. وقفنا ذاهلين نتبادل النظرات. وأمرنا أن ننام كيفما كان الحال حتّى الصباح. نمنا ليلتنا على الأرض بكامل ملابسنا. وفي الصباح صدرت أوامر بأن ننشئ معسكرًا حول مطار صنعاء فانهمكنا في العمل. ولم يكن بين أيدينا من الطعام إلّا القليل ومن الماء إلّا النادر. وندرة الماء أزعجتنا بصفة خاصّة. ونمنا ليلتنا في المعسكر. وفي الصباح صدرت الأوامر بالتوجّه إلى مدينة عمران. خرجنا من بوّابة صنعاء الخلفيّة. وترامى أمامنا طريق صخريّ يتنقّل بين جبال عاتية. إنّي أغوص في المجاهل. أصبح الماضي بعيدًا جدًّا. ترى هل علمت أمّي بأمري وهل علمت به خطيبتي؟. إنّها أعزّ ما يشدّني إلى عالمي القديم. أمّا العالم الصخريّ المكفهرّ المترامي أمامي فلا أدري شيئًا عمّا يخبّئ لي من أقدار الغيب. ورأيت عن بُعد سيّارة مدرّعة تقود قافلتنا فتطلّعت نحوها بثقة ولٰكنّي قلت لنفسي إنّ الله وحده يحفظنا ويرعانا.

- كلّ شيء غريب هنا.

- وقافلتنا العسكريّة تسير كما كنّا نشاهد في السينما.

- ولكنّ الفرجة شيء وخوض المعارك شيء آخر.

- لا يوجد أنسيّ.

- ولا جان!

وأخيرًا تراءت لنا عن بُعد بوّابة حجريّة تقوم على مبعدة منها إلى اليسار قلعة ذات أسوار وأبراج للمراقبة. تبودلت كلمات لم نسمعها بين السيّارة المدرّعة ورجال الأبراج فُتح على أثرها باب البوّابة فتهادت منه قافلتنا.

- مدينة عمران؟

- أجل... لعلّنا نجد مقهًى أو ملهًى.

وجدنا قرية كقرانا في الريف. تقع وسط سهل ومَراعٍ تطوّقها سلسلة من الجبال الصخريّة من ثلاث جهات.

- مدينة عمران.

- مدينة عمران!

غادرنا السيّارات. تناولنا الطعام من العلب وشربنا بحيطة وحذر. أحاط بنا الغلمان والأطفال شبه عرايا. حملقوا في وجوهنا بأعين داهشة ثمّ تبادلنا الابتسام. ومرح الأطفال حول السيّارات وتحتها. رغم البؤس أطلّ علينا من الأعين البريئة جمال فطريّ ونظرات ذكيّة. ترى مَن مِن هٰؤلاء تربطني به صلة قربى ترجع في تاريخها إلى ألف عام؟.

ولم نمكث في عمران إلّا ساعات ثمّ صدرت الأوامر بالذهاب إلى حجّة. تحرّكت القافلة دون أن تترك وراءها ذكريات. دخلنا في السحاب مرّة أخرى حتّى

غاب عنّا كلّ شيء. وندّت أصوات متفرّقة في المسيرة الطويلة.

ـ أهي أرض عدوّة أم صديقة؟

ـ ربّما انهال علينا المطر أو الرصاص.

ـ قريب من هنا هبط سيّدنا آدم إلى الأرض.

تلوتُ الفاتحة والصمديّة. ولّما انجاب السحاب عنّا ترامى أمامنا الطريق الصخريّ مرّة أخرى. ثمّ انفسح فيما يشبه الدلتا عن أرض رمليّة تغطّي الحشائش بعض رقعات منها متباعدة. وتوقّفت القافلة فجأة فاشرأبّت القلوب. دارت السيّارة المدرّعة في حركة مناورة. وجرى التهامس من سيّارة إلى أخرى كمين... كمين. تناولنا البنادق في حركة استعداد. برز عَلَم أبيض من وراء أكياس الرمل المطوّقة للكمين. خرج جنديّ يمنيّ ملوّحًا ومرحّبًا. نزل إليه من السيّارة المدرّعة ضابط فتصافحا. زار الكمين ثمّ عاد إلى السيّارة. دخلنا حجّة، القرية الجديدة، يا للقرى! إنّ قلبي يحلم بشيء لا يتحقّق. التقينا بجنود مصريّين من المشاة. تفرّقنا في الخلاء والشمس على وشك المغيب. الجوّ مائل للبرودة كأيّام الخريف يا مصر.

ـ جنود مظلّات؟

ـ نعم...

ـ صرواح!

ـ صرواح؟

ـ هبط الجنود في واد ضيّق تكتنفه الجبال.

ـ في صرواح؟

ـ نعم.. ثمّ انهال عليهم الرصاص من الجبال!

ـ في أيّ وقت؟

ـ الفجر.

ـ وقت يسهل فيه الاختفاء، هل وقع ضحايا كثيرون؟

ـ غير قليلين ولكنّهم طهّروا المنطقة..

ـ ليرحم الله الشهداء.

بلد كأنّه شبكة من الجبال المتقاطعة. مَن كان يتصوّر ذلك؟!. كحارات خان الخليلي، كحجرة جحا، كالتعليمات الماليّة والإداريّة. السحاب يركض وعمّا قليل تختفي السماء. وقيل إنّ المطر سينهمر. وارتفع النداء داعيًا إلى إقامة المعسكر.

ـ٣ـ

الأديب

استيقظت بعد نوم ساعتين. غادرنا السفينة إلى مطار الحديدة. اتّخذنا مجالسنا في طيّارة إليوشن ناقلة للجنود. سنرى اليمن من فوق. صحراء وجبال ومراع. أمّا المنظر الجديد حقًّا فهو منظر الوديان الخضراء في سفح الجبل. وقال أحدنا للمرافق لنا:

ـ الجبال عالية جدًّا!

ـ وتنطلق الطيّارة بحذاء بعض القمم أحيانًا.

ـ لو أنّ عدوًّا ربض فوق جبل فلن يتعذّر عليه إصابة الطيّارة بالبندقيّة العاديّة؟

فضحك قائلًا:

ـ ولا يخلو بعض طيّاراتنا من آثار عديدة للرصاص...

ولـمّا رأى وجومنا استطرد:

ـ لا تزيد نسبة الإصابة القاتلة عن واحد في الألف...

أسلمت ناظريّ إلى الجبال تحتنا. القرى الخضراء والفجاج المتلوّية. حتّى لاحت صنعاء. من الجوّ بدت مدينة عمران ومجمع أحياء ومقرّ قباب ومآذن. وعندما حملتنا السيّارة من المطار إلى الفندق خاضت بنا زمنًا موغلًا في القدم. تراصّت على جوانب الطرقات المتربة بيوت غريبة مزركشة. زركشتها أيدي أطفال فنسجتها من خيوط الأحلام وألقت بها في قلب مدينة سحريّة. انشقّ سطح الأرض عن دنيا عابرة تطوف بها القلانس والوزرات والخناجر والبنادق واللحى. لفحتنا غربة، لاطفتنا نسمة، تجاذبتنا عواطف مبهمة، ثمّ لذنا أخيرًا بأطيب المشاعر البشريّة التي جئنا بها. وفي الفندق ارتددنا إلى ذكريات الطفولة، درجات السلّم العالية، رائحة الكلس العطنة، الأسقف العالية. فندق قديم كقلعة بالية يديره غلام ذكيّ. جلسنا على الأسرّة في عنبر جمعنا. وتبادلنا أحاديث لا نهاية لها. وإذا بالغلام يجلس على كرسيّ عند باب العنبر بلا استئذان. جعل

يقلّب عينيه اللمّاحتين فينا بهدوء عجيب. ولّما تركّزت الأبصار عليه قال:

ـ أنتم مصريّون؟

ـ نعم يا أهل اليمن...

ـ أتريدون فطورًا؟.. عندي بيض من اليمن وفول من مصر ومربّة من أوروبّا...

ـ ألنت صاحب الفندق؟

ـ ابن صاحبه ولكنّي مديره.

ـ كم عمرك؟

ـ اثنا عشر عامًا.

ـ إذا غالطناك في الحساب؟

ـ إنّي أغالط الجنّ.

ـ عفارم عليك، وما رأيك في الثورة؟

ـ كلّنا متجمهرون وثوّار واللعنة على الأعداء...

ودخل رجل غامق السمرة مترنّح المشية، يرتدي بدلة ويطالعنا بنظرة مسطولة من عينين جاحظتين. قدّمه الغلام باعتباره عمّه ثمّ ذهب تأدّبًا. وقال الرجل إنّه من عدن ولكنّه في الأصل يمنيّ، وإنّه شريك في ملكيّة الفندق. وجلس على الكرسيّ الذي أخلاه الغلام.

ـ حضرتك مقيت؟

ـ كلّا.

ـ مسطول؟

فضحك وأجاب بالنفي. سرعان ما أغرانا مظهره بممازحته فاثبت أنّه أوسع صدرًا ممّا تصوّرنا.

ـ إن كنت حقًّا من عدن فهل تعرف لغة أجنبيّة؟

ـ عشت في عدن ومصر وسوريا وإنجلترا وفرنسا...

ـ هل تستعمل القات؟

ـ كلّا فإنّه يضعف القوّة الجنسيّة.

ـ إذن فأنت حريص على قوّتك الجنسيّة؟

ـ إنّ قرّة عيني في التجارة والفسق!

ضحكنا طويلًا. وانطلق يتكلّم عن الفسق في شتّى أشكاله وألوانه ومتناقضاته، وعقّد مقارنات عنه في البلاد التي عاش بها ولكي يقيم الدليل لنا على صحّة مراجعه حدّثنا عن مصر حديث العارف الدائر، حتّى قال له شيخنا:

ـ إنّك معجم فسق البلدان!

غادرنا الفندق لزيارة القائد العامّ ورئيس الجمهوريّة. طفنا بمخازن الإمام وبيت الرهائن ثمّ شهدنا في المساء ندوة أدبيّة بالقصر الجمهوريّ. وقابلنا بعض الموظّفين المصريّين المنتدبين لعمل أوّل ميزانيّة للجمهوريّة اليمنيّة وإقامة نظام ماليّ كأساس لحياتها الاقتصاديّة. وقد دعوني لزيارة جناحهم في القصر فذهبت معهم وأنا أداعبهم قائلًا:

ـ إذن فأنتم أوّل مَن بَشَّرَ بالروتين في أرض اليمن.

وجلسنا نتحدّث وأصوات الشعراء في الندوة تترامى إلينا. وقال أحدهم:

ـ لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلَمْ يختفِ منها الشّعر ولكنّ المشكلة الحقيقيّة هي متى يغزوها العِلْم؟!

الجُنْديّ

على السريّة الأولى أن تستعدّ وتتجهّز بأدوات الميدان. شملتنا حركة نشاط متدفّقة وعصبيّة.

ـ لماذا؟

ـ للقفز في مدينة صعدا.

أُمرت أن أذهب مندوبًا عن ف ٢ للتعيين. ذهبت إلى مركز التعيين. تسلّمت مجموعة كافية من الفانلّات والكلسونات وطواقي صوف وجرابات وأحذية وعلب سردين وبلوبيف. إلى صعدا. وما صعدا؟. مدينة أم قرية؟. غزو أم إمداد؟. لن يكون القفز هٰذه المرّة في ميدان كالمرّات السابقة.

ـ لندعُ الله أن تكون صعدا خيرًا من صرواح.

هتفت مقطّبًا لأتمالك أعصابي:

ـ الأعمار بيد الله.

ـ معي أربعة وعشرون ريالًا وهي ثقيلة.

ـ لفّها حول وسطك كما فعلت.

ذهبنا إلى مبنى المطار لتسلّم المظلّات. أخذت مظلّة أساسيّة بدون احتياطيّ. ليكن طريقًا سهلًا آمنًا حتّى نهبط فوق الأرض. لبست ما يلزمني في الحرب من

بدلة مموّهة وبدلة اسموكس فوق بدلة كاكي قفز والخوذة والبندقيّة وحقيبة خزن ومحفظة قنابل وحقيبة الجراية وبها ذخيرة ومطواة. وانهمكت في إعداد أشرطة المظلّة. وإذا بيد تساعدني. رفعت رأسي فرأيت زميلي بمدرسة مكارم الأخلاق بشبرا. تعانقنا. عانقت فيه مصر وأهلها.

- سأكون معك في الطيّارة.

- جان مستر؟

- نعم وسأساعدك على القفز.

- أشكرك. هل تتذكّر شبرا؟

فضحك ويداه لا تكفّان عن مساعدتي. وقبل أن أسترسل في الذكريات دُعينا إلى طابور. استعرضنا القائد العامّ وقائد المظلّات. وكان القائد يقف أمام كلّ جنديّ ويسأله:

- ألك أيّ طلبات؟

رأيته لأوّل مرّة عن قرب. ذكّرني وجهه بوجه ستالين. وسرحت رغمًا عنّي فلمّا عدت إلى الحاضر سمعته وهو يعطي إرشادات عن المنطقة. واصطفّت الفصيلة أمام طائرة إليوشن رقم ١٤، الضابط أوّل الأستك يمين وأنا آخر الأستك شمال. وهذا يعني أنّني سأكون أوّل القافزين. ولكن ألا يستوي الأوّل والأخير أمام القدر؟. وصعدنا إلى الطيّارة واحدًا في أثر واحد. بدأت محرّكات الطائرة تدور. كان معنا اثنان من جان ماستر الذين يساعدون على القفز. وانطلقت الطيّارة فلم تتحوّل أفكاري عن مصر. ولّما استوينا فوق السحاب أشعلت سيجارة. ظلّت أفكاري منغرسة في مصر. النيل والخضرة والأمّ والفتاة. ولمحت طائرات تطير إلى جانبنا. وإذا بجرس النور الأحمر يدقّ معلنًا وصول الطائرة إلى صعدا. وظهر النور الأخضر داعيًا إلى القفز في الحال.

- ستهبطون في منطقة إسقاط بالمطار، توجد طائرة بيضاء في وسط المطار، على كلّ فرد أن يتّجه إليها...

تقدّمت من باب الطائرة. توثّبت للقفز بقلب خافق. دفعني الزميل القديم بشدّة ليبعدني عن جسم الطائرة. لم أنتبه لنفسي إلّا وحبال المظلّة تشدّني في الجوّ. نظرت إلى أعلى فرأيت المظلّة مفتوحة بيد أنّ حبالها التفّت حول بعضها البعض. درت حول نفسي بسرعة فائقة حتّى استقامت الحبال. مضيت أهبط في الظلام وحركة انسيابيّة هادئة تسري في أعصابي وأنا في غاية من اليقظة والترقّب. ولمحت شبح جبل غير بعيد، ما لبثت أن صرت في كنفه، وجعل يرتفع كلّما أمعنت في الهبوط. اخترقت أذنيّ أصوات طلقات ناريّة. اجتاحني القلق وشدّت يدي على الحبال. ضرعت إلى الظلام أن يخفيني عن أعين الصائدين وأنا أتوقّع رصاصة تصيبني في أيّ لحظة. انتهت الرحلة التي أعتبرها أطول رحلة في حياتي فاصطدمت بالأرض صدمة شديدة ورحت أتدحرج منقلبًا على نفسي مرّات حتّى استقرّ بي المكان. غرزت ركبتي على أرض معشوشبة مصمّمًا على النجاة. فتحت قفل المظلّة فأخليتها بسرعة ثمّ انبطحت على بطني. وبحذر شديد تخلّلت الظلام بعينيّ. وإذا بي أجد شبحًا على مقربة منّي فسددت نحوه بندقيّتي في ذات الوقت الذي صاح بي «يا أخي المصريّ... أنا من الحرس الوطنيّ» أنهضني وهو يعانقني. حدّثته عن الطلقات الناريّة فأكّد لي أنّ الجبل بعيد نسبيًّا. نظرت حولي فميّزت مجاميع من أشجار التين الشوكيّ. انطلقتْ في الجوّ إشارة خضراء فمضينا نحوها، وانضممت مرّة إخرى إلى السريّة. نادى الضابط علينا فتبيّن غياب اثنين من السريّة.

- أصيبا؟

- أو هبطا في أرض العدوّ.

لاحظت وجود جنود من غير سريّتنا. وعلمت أنّ ثمّة قوّة سبقتنا إلى هنا ولكنّها حوصرت فطلبت نجدة فأرسلنا إليها من السماء. ولم يكن بصعدا أحد سوى الجنود. ولم نسترح دقيقة فتوزّعنا في أماكن من السور المحيط بالبلد وسرعان ما اشتركنا في إطلاق النار. واستمرّ الضرب من ناحيتنا حتّى توقّف الضرب الآتي من الناحية الأخرى.

وصدر أمر بالاستعداد للهجوم على الجبل الأسود المطوّق لجانب كبير للمدينة. حصل تجمّع لا أعرف مداه. وترامى إلينا أزيز طيّاراتنا وهي تهاجم الجبل وترميه بقنابلها. تواصل الضرب ساعة ثمّ صدر الأمر بالتحرّك. تقدّم سريّتنا ضابط حاملًا مدفعًا رشّاشًا

فتبعناه في حركة انتشار. تقدّم الضابط لنا بثّ فينا روحًا عاليًا فأخذنا في الصعود ونحن نطلق النار وقد شعشع ضوء النهار الباكر. وتساقط رذاذ في أثناء تقدّمنا ثمّ لم يلبث أن انهمر المطر. وصوت صاح:

ـ يجب أن نصعد قبل أن تعيقنا السيول.

الحقّ أزعجنا المطر وتسلّل منّا إلى الأجساد على حين غاصت أقدامنا في الوحل. لم نكفّ عن الضرب حتّى كفّ العدوّ عنه ممّا يقطع بتقهقره. ومضينا في صعود عسير تكاد تجرفنا السيول حتّى بلغنا القمّة. أعلن الضابط احتلال الجبل. تسلّينا دقائق بمشاهدة آثار قنابل الطائرات.

تلقّينا أنباء عن فقد شهداء منهم ثلاثة من المجموعة التي استقلّت معي الطيّارة رقم ١٤. تذكّرت وجوههم وبخاصّة أحدهم الذي كان يحدّثنا في أوقات الفراغ بالفصحى متفكّهًا.

ـ ماذا يصنعون بالجثث؟

فسمعت إجابة مقتضبة لا تخلو من أسى:

ـ يدفنونها!

ولكنّ الميت يظلّ حيًّا في وجدان أهله بمصر حتّى يبلغهم خبره. وفكّرت في مصر. بكلّ وجداني الحزين. من فوق قمّة الجبل الأسود وتحت سيل من المطر المنهمر فكّرت فيك يا مصر. وسمعت نداءً باسمي. وقفنا ثلاثة أمام الضابط:

ـ كونوا نقطة إنذار على بعد كيلو ونصف.

حدّدنا الموضع بالقياس الدقيق. حفرنا حفرة سرعان ما امتلأت بمياه المطر. غصنا فيها حتّى الرقاب ومعنا جهاز لاسلكيّ صغير R/06

ـ راقبوا جيّدًا وعند أيّ اشتباه نبلغه ثمّ ننسحب في ثوانٍ قبل إطلاق النار.

ـ قد يلمحنا العدوّ ونحن ننسحب.

ـ أيّ تأخير معناه الموت بقنابل جنودنا!

اختصّ كلّ منّا بناحية والمطر يكاد يجرفنا.

ـ لكنّ الجبل طُهِّر، أليس كذلك؟

ـ الْزَم الصمتَ...

ركّزت عينيّ في المراقبة والمطر ينهلّ بغزارة وقوّة لم أتخيّلها من قبل.

ـ٤ـ

الأديب

غادرنا صنعاء بالطيّارة إلى مأرب. من مطار استقللنا سيّارة روسي في حجم لوري متوسّط، في مقدّمتها مدفع، لتحملنا إلى القلعة والآثار. قطعت بنا طريقًا وعرة متلاحقة العقبات. وكان في هندستها مرونة لتواجه بها المرتفعات والمنخفضات ولكن لم يكن بنا مثل مرونتها. تأرجحنا بقوّة وتصادمنا فخفّفنا البلوى بالفكاهة ما أمكن. اخترقنا أرضًا فضاء إلى ما لا نهاية، قاحلة جرداء، إلّا من نباتات شوكيّة موسومة بطابع الهلاك والفناء.

ـ مكان الجنّتين خالٍ!

ـ أجل. أين العمران والخضرة أين!

ـ وجه الأرض يتغيّر كوجه الإنسان.

ـ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنّتان.

ـ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم.

زرنا الآثار القليلة الباقية. عرش سبأ ومقاعد مجلس الحاشية. تكشّف عنها وجه الأرض ثمّ تُركت وحيدة وسط يباب يكتنفها من جميع الجهات. وقفنا ننعم النظر وثارت رومانسيّة الشعراء ولكن ماذا يعني أيّ أثر لقوم آتين من بلاد الآثار؟

وذهبنا إلى القلعة. وجدنا حامية مصريّة معزولة عن العالم بآلاف السنين. حفروا بئرًا ليشربوا، وأقاموا فرنًا ليخبزوا، وبدو كأسرة مستقلّة مكتفية بذاتها ضائعة في الفراغ. قابلونا بمرح وقدّموا لنا الشاي. ولم يكن يصلهم بالدنيا إلّا راديو وبعض أفلام قصيرة من مصر. وأشاروا إلى مدينة صامتة مقامة فوق هضبة، مدينة غارقة في الجمود والصمت.

ـ مدينة مهجورة، هجرها أهلوها في أثناء المعارك.

ميتة لا حركة فيها ولا صوت ولا خيال لحيّ. كانت مقامًا للأشراف، وخارج أسوارها عاش الرعاة.

ـ ثمّة مفاوضات معهم وسوف يعودون.

ـ يا له من منظر، منظر المدينة الخالية. حتّى المقابر توحي بطريقة ما بالراقدين داخلها.

ـ وكيف حال مصر؟

ـ عال، قلوبها تخفق معكم.

ـ وكيف حال الأدب؟

وضحكنا. وفي أثناء ذلك جاءونا بنسخ من كتبنا تهرّأت من كثرة التداول.

ـ أنتم لا تتصوّرون مدى الأثر الذي يحفره في نفوسنا قراءة بضعة أسطر عن وصف مكان أو عادة أو زمان في مصر.

حقًّا لا يمكن أن نتصوّر. وقال أحدنا:

ـ ولكنّ عددكم قليل ومراكز المراقبة معدودة؟

ـ لا يهمّ... أصبحت المنطقة موالية...

تخيّلت نفسي مقيمًا في هذا الخلاء. يومًا بعد يوم، بلا عمل ولا تسلية. وكلّما تخيّلت عجبت للمرح البسيط الصادق الذي يطالعنا في الوجوه. وغزاني شعور بالإكبار لا يقاوَم.

رجعنا إلى اللوري الروسيّ. كابدنا الطريق في الإياب كما كابدناه في الذهاب. عدنا إلى صنعاء. دُعينا إلى زيارة مندوب الحكومة المصريّة. جلسنا في بهو استقبال فخم وشربنا المرطّبات. وتكلّم أهل العلم عن مستقبل اليمن الواعد بكلّ خير. عن الشباب الثائر المؤمن بالتقدّم. عن التأخّر الأسيف المتراكم من أبعد العصور. إيمان المسئولين اليمنيّين بوجوب سير الإصلاح جنبًا إلى جنب مع الحرب ودون تأجيل. ولدى عودتنا إلى الفندق وجدنا في انتظارنا وفدًا من الأدباء الثائرين. جالسونا على الأسرّة فشرّق بنا الحديث وغرّب. وكان لكلّ منهم مغامرة مع الإمام فراح يروي مغامرته.

الجنديّ

غادرنا الجبل على أثر قدوم قوّة من المشاة لتحتلّه. نمت نومًا عميقًا في المعسكر. في الصباح مُنحنا عطلة قصيرة فقصدت قرية غراز. سرت في طرقاتها الضيّقة فاستقبلني أهلها ببسمات إنسانيّة كنت في نهم إليها. لاعبت الأطفال حيثما وجدتهم. وشربت القهوة في مقهى ريفيّ كالكوخ. أذهلني جمال النساء. جمال العيون بصفة خاصّة يبعث الدفء في القلوب التي أذابها المطر. صادفت في تجوالي بئرًا وقفتْ حولها أمّ وابنتاها يملأن الجرار. تلكّأت عندهنّ فنظرت إليّ الأمّ بحنان ذكّرني بأمّي التي لم أودّعها.

ـ مصريّ؟

ـ نعم يا خالة.

ـ يخلّيك لأمّك.

سررت وابتسمت الفتاتان. اجتاحني شعور عائليّ وتذكّرت قريتنا بأسطنها. قلت:

ـ نحن نحبّكم.

وإذا بصوت عالٍ يقول في غير جدّيّة:

ـ ما شاء الله!

أدّيت التحيّة للضابط فقال مقطّبًا:

ـ ماذا تفعل؟.. ألا تعرف التعليمات؟

وابتعدت من فوري والمرأة تقول له شبه غاضبة:

ـ أفزعته يا رجل!

عند الظهر صدرت الأوامر بالتحرّك إلى قرية البيضا على بُعد ثلاثة كيلومترات من صعدا. ولدى مشارف الموقع الجديد هاجمناه على شكل كمّاشة تتقدّمنا ثلاث عربات مدرّعة. وثار الضرب من الجانبين كأعنف ما يكون. اشتدّ الضرب علينا بغزارة وَشَتْ بضخامة القوّة التي تتصدّى لنا. انطلق الرصاص من مركز المراقبة، من أسوار القلعة، ومن أكثر من كمين، انفجرت قنابل وراءنا وبين صفوفنا. وصدر الأمر بالانسحاب ونحن نقاتل. انسحبنا مقاتلين بعنف. انغرزت إحدى سيّاراتنا المدرّعة في حفرة وتعذّر عليها المسير. انهمر عليها الرصاص كالمطر فلم يجرؤ أحد ممّن فيها على رفع رأسه وتوقّف الدفاع. أحاط بها العدوّ من كلّ جانب ونحن نقاتل مقهقرين لا نستطيع أن نمدّ لها يدًا، ثمّ أطبق عليها الأعداء بالبلط والخناجر.

ساعات مرّت دون أن تتوقّف العمليّة دقيقة واحدة. أنهكنا التعب. قلّ زادنا من الطعام والذخيرة والماء. وضاعف من إرهاقنا إحساسنا بالقذارة ونحن نتقلّب في الطين. الساعات تمرّ بثقلها فوق أجسادنا وأرواحنا. وساءلت نفسي حتّى متى أحتمل العناء الذي يفوق البشر.

وهتف صوت:

ـ صوت دبّابات!

ـ وطائرات!

هل جاءت نجدة حقًّا؟

ارتفعت روحي المتهافتة. اشتدّ إطلاق النار. دارت الدبّابات من حولنا وهي تقذف بقنابلها. ثمّ دوّت انفجارات قنابل الطائرات. تراخت القبضة الخانقة لرقابنا. تحوّلنا من الدفاع المتقهقر إلى الهجوم. اقتحمنا البيضا ونحن نتساقط من الإعياء. علمت باستشهاد أحد زميليّ بنقطة الإنذار فوق الجبل الأسود. تذكّرت أحاديثنا منذ ساعات عند مشارف قرية غراز. قال إنّه رأى وجوهًا تشبه بعض أفراد أسرته بدرجة مذهلة. اقتنع بأنّه ينحدر من أصل يمنيّ. وقال لي:

ـ لا تدهش إذا قرّرت ـ بعد الحرب ـ الإقامة في اليمن إلى الأبد!

ـ٥ـ

الأديب

طارت بنا الطيّارة إلى تعِزّ. ودون توقُّع أحد منّا وجدنا أنفسنا في جنّة. تهادت بنا السيّارة من المطار إلى القصر الجمهوريّ في جنّة.

ـ ماذا ترون أيّها الأخوة؟

ـ سويسرا... لبنان... حلم الخيال.

الحقول خضراء، المراعي خضراء، الطرقات مجلّلة بالأشجار، الحدائق أكثر من البيوت عدًّا، سلسلة من الجبال كالأنغام المتموّجة مكسوّة بالزمرّد مزركشة بالأزهار، الجوّ لطيف يريق السحر مُعبَّقًا بشذا الورود والثمار. وصاح صائح مشيرًا إلى القمّة:

ـ يا له من فندق سياحيّ!

إنّه يلوح كوكر نسر فوق قمّة جبل وسيط بين التموّجات الجبليّة غير أنّ الدليل قال مصحّحًا بهدوء:

ـ بيت الرهائن، وهو اليوم خالٍ.

وضحكنا ونحن نتأمّله في أسى. واخترت شاعرًا من بين الزملاء وهمست له:

ـ ألا تعذرني إن طلبت الإقامة في تعِزّ؟

فأجاب بشيء من الامتعاض:

ـ دلّني على ملهى واحد...

ولمّا آنس منّي الدهشة استردّ:

ـ دفء الجمال الحقيقيّ إنّما ينبعث من المرأة...

ثمّ بعد دقيقة صمت:

ـ والويسكي... لا يجوز أن ننسى الوقود.

استرحنا في القصر الجمهوريّ ساعة. دعا الداعي إلى التسويق. ذهبنا إلى السوق كلّ يحمل بدل سفره. وتساءل صوت في براءة:

ـ أليس من الأفضل أن نحتفظ بالعملة الصعبة لوطننا؟

انهالت عليه مختارات من السباب شعرًا ونثرًا. تجوّلنا في السوق. الوجوه ناضرة جميلة. الحوانيت يديرها غلمان هم آيات في النشاط والذكاء. اخترنا محلًّا متوسّطًا فانقضضنا عليه كمجموعة من الفئران. زاغت الأبصار بين لعب الأطفال والساعات الأتوماتيكيّة والأغطية والمفارش والبلوزات والإشاربات والشالات. من جميع بلاد المعمورة. وابتاع كلّ حقيبة متوسّطة ليودع بها هداياه. عدنا ولا عملة معنا صعبة ولا سهلة. ذهبنا ـ عقب الغداء ـ إلى ميدان الشهداء لشهود ندوة أدبيّة. استُقبلنا بهتاف واتّخذنا مجالسنا وراء مائدة مستطيلة. ازدحم الميدان بالجمهور. استبق الشعراء إلى الترحيب بنا والإشادة بثورتنا. وألقى شعراؤنا قصائد عن العروبة والجهاد والثورة والاشتراكيّة. وجدتني طيلة الوقت أقارن بين أحاديثنا الفرديّة وكلماتنا أمام الجمهور، بين تجوالنا في السوق وموقفنا وراء المنصّة. إنّ الصوت الذي يتحدّث أمام الجماهير هو صوت الجماهير. وخُيِّل إليّ أنّني أدركت شيئًا ممّا ينقصنا. لعلّه محور التناقض بين ما يقال وما يجب أن يقال. أن نتبنّى في خلوتنا صوت الجماهير. ها هي أشداق مستقبلينا متكوّرة بالقات إذ قامت الحفلة في وقت التخزين. هكذا اجتمع خازنو القات بخازني الهدايا في سباق الحماس لتقرير المبادئ المثاليّة للأمّة العربيّة. وعند إبداء ملاحظة من هذا النوع ستسمع مَن يردّ عليك قائلًا «يا أخي... نحن بشر... لم نرتكب شرًّا... ونحن مخلصون...» ولكن أين الروح التي تشعل القلوب؟، أين لحظات الانتصار على النفس التي تخلق المعجزات على مدى التاريخ؟ ماذا

ينقصنا؟. لماذا نبقى كأنّنا متفرّجون حسنو النيّة أمام فيلم يموج بجليل الأحداث؟. وخُيِّل إليّ أنّ شيئًا يتحرّك عند ساقيّ تحت المائدة. طويت طرف الغطاء ونظرت إلى أسفل فرأيت صبيّة في الثامنة أو دون ذلك، متلفّعة بشال أبيض، تتفرّج على الحفل من تحت المائدة. شعرتْ بعينيّ فأدارت نحوي عينيها فرأيت وجهًا صغيرًا نقيّ البشرة يحدّق فيّ بعينين سوداوين كأجمل ما رأيت في حياتي من عيون. وجب قلبي ممتنًّا لرؤيتها. وفاض به نبع من الحنان والحبّ. ورفعت عينيّ إلى قطع السحاب الأبيض المشعشع بنسائم مخضلّة برذاذ يجيء قليلًا وينقطع قليلًا فاطمأنّ القلب إلى وجود شيء صغير على هامش الجمع، عند ساقيّ، ولكنّه كامل الصدق والنقاء. وسهرنا في حديقة القصر حتّى الهزيع الأخير من الليل. الهواء بارد دسم ولكنّه مفعم بالأمان والسحب تبهر العين بضياء القمر. وقال محدّثنا:

ـ المدن معنا، أمّا الجبال فمارقة ولا سبيل للتفاهم بين الاثنين.

وقلّب عينيه في وجوهنا مستطلعًا ثمّ واصل:

ـ فإمّا أن نلتزم موقف دفاع إلى الأبد وإمّا أن نبيد العدوّ إبادة!

وقال قائل:

ـ الإبادة.

وقال آخر:

ـ الحضارة... نغزوهم بالحضارة!

وثالث قال:

ـ نعترف بالواقع!

وتواصل الحديث تحت ضوء القمر. وتجلّت لنا الحقيقة صخريّة صلبة مستقلّة بذاتها عن الأحلام.

الجنديّ

إلى وادي نشوز.

تحرّكنا بالعربات المدرّعة R+R شارفنا الوادي. تقدّمت دبّابتان للاستكشاف تتبعهما مدرّعتين للحراسة. دخلنا ممرًّا ضيّقًا تقوم على جانبيه هضبتان صخريّتان وكنّا في المدرّعة عشرة. بعد توغّل نصف كيلومتر انهمر علينا الرصاص. تصدّت دروع السيّارة للرصاص واستمرّت عمليّة الاستكشاف. انحشرت سيّارتنا في مطبّ أو التحمت بشيء مرتفع فتوقّفت. عجزتْ عن التحرّك وضاع كلّ جهد لتخليصها.

ـ على دبّابة أن تدفعنا من الخلف.

ـ ليذهب أحدنا إلى أحدى الدبّابتين.

وقعت القرعة على زميل فغادر السيّارة ليزحف على بطنه في الظلام. انتظرنا في غاية من القلق. وبعد دهر رجع إلينا وهو يقول:

ـ دبّابة المقدّم مشتبكة في قتال على بعد خمسة كيلومترات. أمّا الأخرى فقد تعطّلت!

صعقنا الخبر. وهمس صوت:

ـ نحن عشرة والعدوّ آلاف.

ـ والعمل؟

ـ مصير سيّارة البيضا!

من داخل السيّارة رأينا الأشباح تهبط في حذر من الجبل. فتحنا سقف السيّارة وأخذنا أهبتنا بالبنادق والقنابل اليدويّة. طلبنا النجدة باللاسلكيّ ولكنّ الاتّصال انقطع. أمرّنا أقدمُنا في الخدمة بمغادرة السيّارة. مرّت لحظات رهيبة ممزّقة بالخوف. قاومت موجة من الضحك تريد أن تجتاحني. وثب أحدنا. تبعناه بلا تردّد. نفرّ من الموت إلى الموت. انهال الضرب. انبطحت على وجهي. استعملت البندقيّة والقنابل اليدويّة. في هنيهة صمت رفعت رأسي فلم أجد أثرًا لأحد من زملائي. دعوت القمر أن يختفي. لم أدرِ أين أتّجه ولا كيف تفرّق الزملاء. خيّل إليّ أنّني محاصر. اتّجهت وجهة بلا خطّة ولا علم لي بما ينتظرني. دهمتني لحظة مباغتة فوجدتني حيال ثلاثة أشباح من العدوّ بلا تدبّر أو وعي فتحت الأمان وضغطت على الزناد فانطلقت مطرة من الرصاص خرّ على أثرها الثلاثة. انطلقت أعدو على غير هدى تحت ضوء القمر. سمعت صوتًا يناديني فاتّجهت نحوه بلهفة مَن يفلت من قبضة القمر. وجدتني مع مجموعة من الزملاء ماضية في حذر نحو شبح الدبّابة المعطّلة. ولمّا بلغناها صحنا معًا:

ـ افتحوا... نحن مصريّون!

لم نتلقّ من الداخل استجابة من أيّ نوع كان. كرّرنا النداء بلا أمل. يئسنا فدفعنا أنفسنا في الحشائش متفرّقين وأصوات الرصاص لا تنقطع. وأخذ الضرب يخفّ حتّى سكت. نهضت في حذر مقتربًا من الدبّابة وهتفت بتوسّل:

- افتحوا... إنّي مصريّ... ألا تسمعون؟

ظلّت الدبّابة غارقة في صمت متحدّ مرهق رهيب حتّى تطايرت اللعنات من فمي ثمّ رجعت مغيظًا يائسًا إلى قبر الحشائش. وإذا بالضرب يتركّز على الدبّابة كالسيل. مسّت رصاصة خوذتي فتشهّدت. ترقّبت الرصاصة التالية بيأس وقهر. هاتف قال لي إنّني سأعود إلى مصر. أقسم لي على ذلك.

اشتدّ الضرب لدرجة غير محتملة. ثمّ يهدأ ويخفّ لسبب لا أدريه. لم يبقَ منه ألّا طلقات متباعدة وأنا مغروز بكلّ قوّتي بين الحشائش. وخيّل إليّ أنّ الظلام يخفّ ويبهت رويدًا. أجل، الظلام يخفّ رغم اختفاء القمر وراء الجبل. سوف تلوح تباشير الضياء وينقشع الظلام الذي يخفيني عن عين العدوّ المتربّص. سيجدني صيدًا سهلًا وسينهال الرصاص الحانق الغاضب عليّ من جميع الجهات. الصباح يقترب ولا مكان للمعجزات. لعلّ أمّي تصلّي في هٰذه اللحظة ولكن لا أمل في المعجزات. واشتدّ الضرب فجأة. اشتدّ أكثر من أيّ وقت مضى. أصبح الضوء يسمح بالرؤية. أقدام العدوّ تتراجع نحو الجبل والضرب يجيء من الناحية الخلفيّة. ترامى إلى سمعي صوت دبّابة أو دبّابتين. جاءت النجدة. إنّ القذائف تطير فوقي لتنفجر خلف سفح الجبل. لم تدم فرحتي إلّا ثانية واحدة ثمّ تساءلت كيف أعلن عن حقيقتي المدفونة لبني وطني؟. كيف أتجنّب الموت برصاصهم أو شظايا قنابلهم؟. أطلقت النار نحو العدوّ المتقهقر. وتركّز الخوف من الموت فيما ورائي. أثقلني التعب وثقل عليّ بصفة خاصّة فوق كتفي اليسرى. وغاصت الأرض بلا سبب واضح. إلى أين تغوص الأرض ولماذا؟. إنّني أهبط في هوّة ثمّ يرفعني شيء مجهول إلى أعلى. وعاد ضوء الصباح يضعف بسرعة عجيبة حتّى غاب كلّ شيء في الظلام.

-٦-

الأديبُ وَالجُنديّ

غادرنا القصر الجمهوريّ في الصباح الباكر. والسيّارة تميل بنا نحو طريق المطار. اعترض سبيلنا قطيع غنم ترعاه فتاة... فتاة جميلة الخصر وجهها وقوامها جمال تعزّ بكافّة أشكاله وألوانه. اهتزّ الشاعر وجعل يهلوس بها بقيّة الرحلة. عدنا إلى الحديدة. إلى الحرارة الذائبة في الرطوبة الخانقة. قال:

- الارتفاع في المكان يحدث المعجزات، كذٰلك الروح لأنّها إذا شاءت أن ترتفع فإنّها تعانق المعجزات، ما رأيك في هٰذه الفكرة؟

قلت:

- لخيرك ولخير الشعر لا تكتب إلّا عن المرأة!

ودعانا القائد إلى العشاء فوق سطح مسكنه على شاطئ البحر الأحمر. لطف الجوّ على شاطئ البحر. طاب السمر حول المائدة الحافلة بما لذّ وطاب من طعام وشراب. تجاوبت في الفضاء ضحكاتنا. هل سمعتم نكتة الرجل الذي... هل تعرفون حكاية الزوجة التي... هل وهل وها وها وها. وتنوّع الحديث واختلط جدّه بهزله، وتعدّد المتحدّثون في وقت واحد، وانقسموا إلى وحدات مستقلّة.

- الجبليّون أشدّاء. عندما يُحكم على أحدكم بالموت يتقدّم إلى السيّاف مطلّق اليدين على مشهد من أهله، لو خاف أو صرخ ركبهم العار إلى الأبد، يحني رأسه بثبات، يهوي عليه السيف دون بادرة خوف من ناحيته، ينفصل رأسه عن جسده وكأنّه رأس رجل آخر.

- رجال أشدّاء حقًّا، من سلالة غزت العالم ذات يوم، وقوّة مدّخرة للخير مستقبلًا!

* * *

ترى أين تلميذي القديم، جنديّ المظلّات، ماذا يفعل الآن، وماذا يفعل غدًا؟

* * *

- وينفّذون أوامر شيخ القبيلة بلا تردّد، في المعقول وفيما يجاوز أيّ معقول، حتّى الموت نفسه يهجمون عليه

دون مبالاة، ويؤمنون بأنّهم من طينة غير طينة البشر، وأنّ الدنيا جميعًا تحت وأنّهم فوق، كالجبال التي تؤويهم!

* * *

ـ ستعود فرقة من الجنود معنا على ظهر الباخرة. . .

ـ ما أجمل أن تؤدّي واجبك في حرب ثمّ تعود إلى الوطن سالمًا!

ـ الإنسان يحارب منذ وُجد على ظهر الأرض، ومن خلال الحرب خلق الحياة والحضارة!

ـ متى انقلبتَ إلى مارد فلسفيّ؟

ـ لا فلسفة ولا دياولو، فكرة تذهب بي وأخرى تجيء بي. . .

ـ سبق أن قلت إنّك لم تحارب ولن تحارب.

ـ والحمد لله على ذلك!

ـ ومرّة تزوّج جنديّ دون إذن فقُدّم وحُكم عليه بالحبس سبعة أشهر، ثمّ أُرسل إلى مصر لتنفيذ الحكم ولكنّهم أرسلوا معه زوجته اليمنيّة. . .

* * *

ـ دماغي يدور ويجب أن نتبادل الرأي!

ـ سيتّسع المجال فوق ظهر السفينة.

ـ العالم غريب مليء بالمتناقضات ولا معنى لشيء إذا لم نعرف لماذا نعيش!

ـ شربت أكثر ممّا ينبغي. . .

ـ إنّي أشرب زجاجة كاملة وأستطيع بعد ذلك أن أحاضر إذا شئت. . .

ـ متى تجمع محاضراتك في كتاب؟

* * *

ترى أين ضابط الشئون العامّة لأسأله عن جنديّ المظلّات؟

* *

ـ وتلاقينا مع قوّة معادية ولكن حجز بيننا صخرة كبيرة في ممرّ جبليّ، تحصّنت كلّ جبهة في مكانها واستحال علينا القتال، دخلنا معركة كلاميّة، قلنا لهم يا عبدة الإمام يا أعداء الإصلاح فقالوا لنا يا كفرة يا فجرة يا عبدة الشيوعيّة، ثمّ تمادينا في السبّ والقذف!

* * *

ـ لا أعرف مكانه الآن، اكتب له خطابًا وأعدك بإيصاله إليه في أيّ مكان في الميدان. .

* * *

ـ هل جرّبت مواجهة الموت؟

ـ الحياة كلّها كفاح وليس الجنديّ وحده الذي يحارب. . .

ـ ولكن. . .

ـ سأقصّ عليك قصّة حبّ عانيتها زمنًا، بطلتها فتاة متمرّدة وحشيّة، وسوف تقتنع بأنّ ما كان بيني وبينها لا يختلف عن القتال في شيء.

* * *

هل ثمّة فرصة لأكتب كلمة سريعة؟

أخي العزيز. . .

كم وددت أن أودّعك قبل الرحيل. أذكرك بالحبّ والإكبار وأنا على وشك العودة إلى أرض الوطن. ستعود إليه ذات يوم منتصرًا راضيًا بإذن الله. اهنأ الآن بأنّك تحارب في سبيل قضيّة عادلة، قضيّة التقدّم للإنسان العربيّ. ومهما تكن العوائق ومهما تكن العواقب فإنّك بذرت في الأرض بذرة من طبيعتها النموّ والازدهار. أستودعك الله وإلى اللقاء.

«المخلص»

يميت ويحيي

المسرح منقسم إلى قسمين. قسم أماميّ وهو حوالي ثلثي المساحة وهو مضاء واضح المعالم. في وسطه نخلة مغروسة، وفي جانب منه ساقية صامتة، القسم الخلفيّ مرتفع الدرجات على هيئة مصطبة، تغشاه الظلمة، وتلوح به أشباح راقدة، نيام أو موتى. الطابع طابع تجريديّ.

يُرفع الستار. على المسرح فتاة جميلة تسير ذهابًا وجيئة بين النخلة والساقية. ثوبها يناسب الجوّ التجريديّ حيث يصعب تحديده على أساس جغرافيّ وكذلك ثياب جميع مَن سيظهرون على المسرح.

ومع ارتفاع الستار تترامى أصوات معركة بين اثنين آتية من ناحية اليسار. شتائم وتهديدات وأصوات ضرب.

الفتاة : يا ربّ السماوات... متى تختفي هذه الأصوات من الوجود... متى تشرق شمسك على أرض ناعمة البال، قريرة العين؟

(تصغي إلى الأصوات بقلق متزايد ثمّ تقول)

ترى هل أكفّر عن ذنب قديم؟، أو إنّه بلاء مركّب في دمي؟، أو إنّها أخطاء تقع فلا تلقى إرادة صادقة لإصلاحها؟.

(يتقهقر شخص مندفعًا بعنف، نتيجة لدفعة قويّة تلقّاها في الخارج، ثمّ يسقط تحت النخلة مغمًى عليه. الفتاة تنحني فوقه باهتمام وتربّت على خدّه بحنان. يفتح عينيه، ينظر إليها ثمّ يغمض عينيه مرّة أخرى مغمغمًا)

الفتى : أبي!

(تربّت على خدّه بحنان، يفتح عينيه لحظات ثمّ يغمضهما مغمغمًا)

: أمّي!

(تربّت على خدّه بحنان، يفتح عينيه لحظات ثمّ يغمضهما مغمغمًا)

: زوجتي!

الفتاة : شدّ حيلك.

(تدلك خدّيه. يفتح عينيه مفيقًا. ينظر إليها طويلًا ثمّ يتمتم)

الفتى : أنت!

الفتاة : حمدًا لله... قُمْ... اعتمد على ذراعي...

(تقيمه... تمسح بمنديل جبينه وتسوّي له شعره... وهو يأخذ في التماسك شيئًا فشيئًا)

: لعلّك أحسن...

(الفتى لا يردّ ولكنّه يعاود حالته الطبيعيّة)

: تنفّس بعمق فالجوّ اليوم طيّب.

الفتى : لا شيء طيّب على الإطلاق.

الفتاة : الجوّ طيّب على الأقلّ، هدّئ خاطرك.

الفتى : هيهات أن يطيب بعد اليوم جوّ أو خاطر.

(تشدّه برقّة إليها في دلال)

الفتاة : تعالَ إليّ، أنا لا أعرف اليأس.

(تحتدّ في عيني الفتى نظرة ولكنّه يتراجع في حياء أمام نظراتها الحنونة)

الفتى : لست على حال أهنأ معها بعطفك، معذرة. . .

الفتاة : ليتك تقنع بصدري ملاذًا لك من متاعب الدنيا.

الفتى : ليت ذلك في الإمكان.

الفتاة : إنّه ممكن إذا أردته.

الفتى : (متحسّسًا رأسه وعنقه في تألّم) إنّه مستحيل أردت أم لم أرد.

الفتاة : إنّها اللعنة القديمة التي تطارد التعساء.

الفتى : الحقّ أنّها تطارد الأحياء.

الفتاة : وعلى الأحياء أن يحذروها، إنّي أدعوك إلى السعادة الحقيقة في الوجود.

الفتى : حتّى السعادة تنقلب أحيانًا بين أيدينا ترابًا وخجلًا.

الفتاة : يا لك من جاحد.

الفتى : لا أنكر عهدك، ولكنّي أخشاه، أخشاه في لحظة اندحاري الراهنة، وأراه من موقفي الدامي ذا جاذبيّة مخيفة تعمي البصر.

الفتاة : أهٰذا شعورك نحو تفتّح القلب وتألّق الأزهار وجني الثمر؟!

الفتى : بل إنّي أذكر مع الأسى ثقل الجنون، وترهُّل العضلات واسترخاء الهمم.

الفتاة : دعني أكرّر أنْ ليتك تقنع بصدري ملاذًا لك من متاعب الدنيا.

الفتى : يا له من جمال دافئ قهّار. أقوى من الموت نفسه، ولكن تلاشت في أحضانه أحلامي.

الفتاة : إنّه أنفع من أحلامك.

الفتى : سيظلّ الجبن أكبر منغّص لصفو الرجال.

الفتاة : يا من عَجَب أن تحنّ إلى فظاظة الخلاء!

الفتى : أحنّ حقًّا إلى توهّج مصباح الحياة على حافّة هاوية الخطر الداهم.

الفتاة : والدم والتشرّد والغبار.

الفتى : بل قوّة الأعتداد المسخّرة للرياح.

الفتاة : ولدى زلّة قدم يهال التراب على رَجُل من الرجال.

الفتى : والصرخات المدوّية تتوارى في أعقابها الفئران في الجحور، ولذّة التساؤل المفعم بالقلق أمام احتمالات الحياة والموت.

الفتاة : ووجهك الملطّخ بالدماء المثير للرعب.

الفتى : ونبض القلب بزهو النصر المؤسّس على الحقّ والكرامة.

الفتاة : أنت أنانيّ، زهدتَ فيّ بَعْدَ شبع. وشاقتك رائحة الدماء.

الفتى : إنّي أحبّك ولكنّي أكره أن أتمرّغ في التراب.

الفتاة : هٰذا يعني أنّك لا تحبّني.

(الفتى يشير إلى المصطبة المسربلة في الظلام حاملة الرقود من الأشباح)

الفتى : ليكن لي قدوة في الغابرين.

الفتاة : لا أحبّ النظر نحو الموت.

الفتى : لكنّهم أحياء ما دمنا أحياء.

الفتاة : لفراغ وراءك وفراغ أمامك، ولا حقيقة في الوجود سواي!

الفتى : كم استنمت إلى هٰذا الكلام الآسر حتّى داستني الأقدام.

الفتاة : لقد أشعلت غضبه بمزاحك.

الفتى : المزاح من آداب حياتنا فكيف يكون جزائي ضربًا أليمًا موجعًا!

الفتاة : طالما حذّرتك من المغالاة فيه.

الفتى : ولمّا أردت الدفاع عن نفسي خذلتني يداي.

الفتاة : الرجل المهذّب خير عندي من الرجل القويّ.

الفتى : صدّقت حتّى وهنت منّي القبضة.

الفتاة : كان عليّ أن أنتشلك من حياة التشرّد في الخلاء.

الفتى : وهٰكذا هزمني وهو يسخر من ضعفي.

الفتاة : لا تمزّق عشرتنا بالكبرياء.

الفتى : إنّها تتمزّق بالمهانة كما تتمزّق بالموت.

الفتاة : لا شيء كالموت.

الفتى : إنّه ليس شرًّا ما في الحياة.

الفتاة : صدّقني فإنّه العدوّ الأوّل للحياة.

الفتى : أيسرّك أن أرضى بالهزيمة؟

الفتاة : ارْضَ بأيِّ شيء إلّا الموت.

الفتى : وأعود إلى اللعب السعيد وقلبي يحترق بنار الهزيمة؟

الفتاة : للزمن بلسم يشفي كلّ شيء إلّا الموت.

الفتى : (مشيرًا إلى المصطبة) تعاملَ أجدادنا مع الموت بعقيدة أخرى فوُهبوا الخلود.

الفتاة : لقد ماتوا وشبعوا موتًا.

الفتى : (مخاطبًا المصطبة وأهلها) قولوا إنّكم خالدون.

صوت من المصطبة كالصدى: إنّكم خالدون.

الفتاة : لا تخاطب الفراغ كالمجانين.

الفتى : ألا تسمعين؟

الفتاة : إنّك تصرخ في الأموات تبريرًا لسفك الدماء.

الفتى : يا له من صوت رهيب!.

الفتاة : متى كان للتراب صوت.

الفتى : (مخاطبًا المصطبة) هل تسمعون ما يقال؟

الصوت ـ الصدى: (بعد قليل) هل تسمعون ما يقال؟

الفتى : ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟

الصوت ـ الصدى: ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟

الفتى : (لا يزال متطلّعًا إلى المصطبة وكأنّما يخاطب نفسه)

إنّهم يردّدون قولي... أجل... ولهٰذا معنى عميق لا يخفى على لبيب... وها هم يتحرّكون. (يظلّون رقودًا طيلة الوقت ودون حركة)... إنّهم يبدون إليّ صورة عزيزة غابرة... ها هو القتال يحتدم... الشهداء يسقطون... الجنود يتسلّقون جدار الحصن كالنمل... ها قد سقط الحصن... وهٰذا هتاف النصر يدوّي مخترقًا جدار المئين من السنين (ثمّ ملتفتًا نحو الفتاة)... أرأيتِ... أسمعتِ؟

الفتاة : لا شيء يُرى ولا يُسمع!

الفتى : لقد زلزلني هتاف النصر فوق جثث الشهداء.

الفتاة : ما هي إلّا هواجس رغباتك الجامحة في القتل.

الفتى : سحقًا للخمول في خمائل الورد.

الفتاة : يا حسرتاه على حكمة الأيّام الناعمة.

الفتى : (مشيرًا إلى المصطبة) لقد لفحتني أنفاسهم المحترقة حزنًا عليّ.

الفتاة : ليس للأموات أنفاس تحترق.

الفتى : إذا مات الأموات أدرك الفناء كلّ شيء.

الفتاة : إذا أردت الحياة حقًّا فلا تنظر إلى الوراء.

الفتى : ولكنّ الوراء هو الأمام!

الفتاة : ولا تنظر إلى الأمام...

الفتى : (يقطّب محتجًّا حائرًا).

الفتاة : فلتغرق في عينيّ توهب خلودًا بين الظلمتين! (قهقهة ساخرة وحشيّة تترامى من ناحية اليسار).

الفتى : أتسمعين استفزازه الساخر؟!

الفتاة : ريح هوجاء يعربد خلالها الشقاء.

الفتى : إنّه يتحدّاني!

الفتاة : سأغنّي لك أغنية ترقص لها الحمائم فاستمع لي أنا!

الفتى : فلتطرب العصافير.

الفتاة : فلتهنأ بك شهوة الدماء.

الفتى : إنّ قهقهته الساخرة تحيل الهواء في صدري ترابًا.

الفتاة : خير ما تفعل أن تصمّ أذنيك.

الفتى : ولكنّي خُلقت بأذنين.

الفتاة : لتسمع بهما مناجاتي الدافئة.

الفتى : يا لها من مناجاة أجهضت همّتي... الوداع...

الفتاة : لن تستغني عنّي أبدًا.

الفتى : فلتكوني الأمل المؤجّل حتّى يطيب كلّ شيء.

الفتاة : لن يطيب شيء بعيدًا عن ذراعيّ.

(القهقهة الساخرة تترامى من بعيد)

الفتى : الوداع.
الفتاة : انعم بالنوم رغم الضوضاء.
الفتى : بل أقضي على الضوضاء قبل أن أنعم بالنوم.
الفتاة : كلمة أخرى... لا أريد أن يدركني اليأس.
(الفتى يضع أصبعيه في أذنيه. تنظر إليه مليًّا ثمّ تمضي إلى الجهة اليمنى).
(الفتى ينظر نحو المصطبة)
الفتى : لا يمكن أن يدلّني على حقيقة الحياة إلّا شخص أدركه الموت!
الصوت ـ الصدى: الموت.
الفتى : ذهبت... ولكنّها لن تذهب بعيدًا... محال أن أتحرّر منها كلّيّة... ولا رغبة لي في ذلك... ولا قدرة لي عليه... ولكنّي أريد الحقيقة.
الصوت ـ الصدى: الحقيقة.
الفتى : أفصحوا... لا تتكلّموا كما تتكلّم الصخور.
الصوت ـ الصدى: الصخور.
الفتى : حدّثوني عن الموت والحياة.
الصدى: الحياة.
الفتى : من هو البطل؟
الصدى: البطل.
الفتى : أهو المحارب؟
الصدى: المحارب.
الفتى : أهو المسالم؟
الصدى: المسالم.
الفتى : اللعنة... اللعنة... اللعنة...
(يتحوّل الفتى عن المصطبة)
: (صائحًا) عليّ أن أستعدّ... إليّ بالطبيب... أيّها الطبيب.
(يدخل الطبيب... بنفس الثياب التجريديّة... ولكنّه ذو لحية... وبيده حقيبة).
الطبيب : لا تصرخ اتّقاء للمضاعفات.
الفتى : وهل تأكّدت من مرضي حتّى تحذّرني من المضاعفات؟
الطبيب : إنّنا لا نُدعى للأفراح.
الفتى : بل يبدو لي أنّي مريض.
الطبيب : إنّني أعمل يومين في اليوم الواحد.
الفتى : ياه!
الطبيب : إنّه الوباء.
الفتى : هل يوجد وباء؟
الطبيب : كأنّك تعيش في قمقم.
الفتى : قمقم من الغمّ.
الطبيب : وهو ينتشر رغم المقاومة الفنّيّة المنتظمة.
الفتى : لعلّكم ازددتم به ثراء على ثراء.
الطبيب : نحن نثرى بفضل الأمراض لا الأوبئة.
الفتى : لكنّ الوباء ما هو إلّا مرض كبير.
الطبيب : الوباء ينتشر انتشارًا أعمى فيهدّد كبار رجال الدولة ولذلك فهم يسخّرون الأطبّاء لمقاومته فلا نفيد من ورائه خيرًا يُذكر.
الفتى : أمر يدعو للأسف، ولكنّنا ندفع ثمن إهمالنا للبيئات الفقيرة القذرة.
الطبيب : الوباء وفدَ من الخارج كالعادة دائمًا.
الفتى : ربّما ولكنّه يستفحل في البيئات الفقيرة.
الطبيب : استفحل هذه المرّة في البيئات الراقية!
الفتى : ظاهرة غريبة تستحقّ الدراسة.
الطبيب : لكنّك استدعيتني لأمر أهمّ من التزوّد من الثقافة الصحّيّة العامّة.
الفتى : عندك حقّ. إنّي أعتقد أنّي مريض.
الطبيب : إنّي مصغٍ إليك يا سيّدي.
الفتى : لا أعراض خاصّة تستحقّ الذكر.
الطبيب : لعلّك ترغب في إجراء كشف عامّ؟
الفتى : تقريبًا.
الطبيب : إمّا أنّك تريد أو لا تريد فما معنى قولك «تقريبًا»؟
الفتى : لا مؤاخذة فهذا ما قصدته بالدقّة.
الطبيب : ولِمَ لَمْ تذكر ما تقصد بالدقّة من أوّل الأمر؟
الفتى : لا تشتدّ في محاسبتي على أسلوبي في الكلام.
الطبيب : هل يجري كلامك على هذا النحو القلق

عادة؟

الفتى : تقريبًا.

الطبيب : عدنا إلى تقريبًا!

الفتى : فلنفترض أنّ الجواب بالإيجاب.

الطبيب : فلنفترض! . . . ألا تستطيع أن تعبّر عمّا تريد بدقّة؟

الفتى : طيّب، أنّي أرغب في إجراء كشف عامّ.

الطبيب : أسلوبك في الكلام لا يخلو من دلالة مريبة.

الفتى : عدنا إلى الأسلوب.

الطبيب : إنّه أوّل عرض.

الفتى : عرض!؟

الطبيب : إنّك تحاور وتداور، ولا تقصد إلى هدفك رأسًا.

الفتى : معذرة.

الطبيب : وهٰذا هو أوّل أعراض الوباء.

الفتى : الوباء!

الطبيب : أمّا بقيّة الأعراض فيمكن استنتاجها.

الفتى : لا أفهم شيئًا.

الطبيب : غير مهمّ.

الفتى : ولٰكنّه مرضي أنا.

الطبيب : إنّه وباء فهو ملكيّة عامّة.

الفتى : فليكن، علينا أن نفهمه على أيّ حال.

الطبيب : بل عليك أن تتداوى منه.

الفتى : حسن، فلتحدّثني عن بقيّة الأعراض.

الطبيب : بل عليك أن تحدّثني أنت.

الفتى : ولٰكنّك قلت إنّ بقيّة الأعراض يمكن استنتاجها.

الطبيب : أتريد أن ترسم لي خطّتي في العلاج؟

الفتى : أنا تحت أمرك.

الطبيب : هٰذا هو العرض الثاني!

الفتى : أين هو؟

الطبيب : بعد المحاورة والمداورة تصدر جملة واضحة محدّدة وهي «أنا تحت أمرك».

الفتى : ولٰكنّها مجرّد مجاملة!

الطبيب : هٰذا ما يخيّل إليك، أمّا الواقع فإنّه العرض الثاني!

الفتى : بهٰذه الطريقة يمكن أن نعتبر أيّ عبارة عرضًا من أعراض الوباء.

الطبيب : قولك هٰذا يقطع بعدم ثقتك في العلم.

الفتى : ولٰكنّي من المتحمّسين للعلم. . .

الطبيب : (يهزّ رأسه في شكّ وهو صامت)

الفتى : (وهو يشير نحو المصطبة المسربلة بالظلام) إنّي ابن أصل عريق كان أوّل من أحرز في ميدان العلم نصرًا.

الطبيب : الإشارة نحو الظلام مقرونة بالمباهاة عرض ثالث من أعراض الوباء.

الفتى : لست من هٰؤلاء. . . إنّي بصفة عامّة متعصّب للعصر الحديث. . .

الطبيب : متعصّب؟

الفتى : أقصد أنّني متحمّس للعصر الحديث، ولا ألتفت نحو الأسلاف إلّا تحت ضغط ضرورة ملحّة!

الطبيب : وهاك عرضًا من أعراض الوباء.

الفتى : إذن فأين يقع السلوك الصحيح؟

الطبيب : إنّك لا تدري عنه شيئًا فيما أرى!

الفتى : إنّي أجد دوارًا في رأسي!

الطبيب : الصراحة تحدث لك دوارًا؟. . عرض خامس!

الفتى : لعلّي بالغت في التعبير.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة. . عرض سادس!

الفتى : خير ما أفعل أن ألزم الصمت.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة إلى الصمت. . . عرض سابع!

الفتى : ها. . . ها. . . ها. . .

الطبيب : دوار، مبالغة، صمت، ضحك بلا سبب. . . عرض ثامن. . .

الفتى : ها. . . ها. . . ها. . . ها. . . ها. . .

الطبيب : إغراق في الضحك رغم التأكّد من أعراض الوباء. . . عرض تاسع!

الفتى : (يخفي وجهه بين كفّيه)

الطبيب : وتخفي وجهك ولٰكنّ أعراض الوباء لا تختفي.

الفتى : وماذا يمكن أن أفعل؟

الطبيب : وهٰذا هو التساؤل الذي يمثّل أخطر أعراض الوباء.

الفتى : الحقّ أنّك لا تشخّص مرضًا ولٰكنّك مصمّم على إثبات وجود الوباء.

الطبيب : ها أنت تبدأ بالتهجّم عليّ، ومعنى ذلك أنّك تهادن مَن يتحرّش بك وتتحرّش بمن يحسن معاملتك... وهٰذا هو العرض العاشر.

الفتى : إنّك تثير غضبي.

الطبيب : وتغضب حيث يجب الحلم... العرض الحادي عشر.

الفتى : (هازئًا) لو لي لا بم.

الطبيب : هذيان لفظيّ... العرض الثاني عشر.

الفتى : سيّدي الطبيب، ألم تعالج في حياتك رجلًا من أصحاب النفوذ؟

الطبيب : حصل.

الفتى : وهل صارحته بما تصارحني به الآن؟

الطبيب : كلّا.

الفتى : وكيف تصرّفت معه؟

الطبيب : تجنّبت ذكر أيّ عرض يسيء إليه.

الفتى : ولٰكنّك عرّضت حياته للخطر؟

الطبيب : هٰذا على أيّ حال خير من تعريض حياتي للخطر!

الفتى : أليس ذٰلك بعرض من أعراض الوباء؟

الطبيب : بلى!!

الفتى : إذن فأنت مصاب أيضًا.

الطبيب: طبعًا لم يسلم من الوباء أحد!

الفتى : ألا تتداوى من الداء؟

الطبيب : بنفس الدواء الذي سأصفه لك.

الفتى : وهو؟

الطبيب : إنّه دواء واحد لا بديل به، وهو أن تسير إذا سرت على يديك، أن تسمع بعينيك، أن ترى بأذنيك، أن تتذكّر بعقلك، وأن تعقل بذاكرتك.

الفتى : يا له من دواء غريب وشاقّ!

الطبيب : ولٰكنّه ناجح وفعّال ومجرّب!

الفتى : شكرًا لك.

الطبيب : عفوًا آن لي أن أذهب.

الفتى : مصحوبًا بالسلامة.

(الطبيب يتّجه نحو الناحية اليسرى. صوت القهقهة الساخرة يرتفع، الطبيب يتوقّف عن السير. يستدير ذاهبًا إلى الناحية التي جاء منها ويختفي)

الفتى : آنّ لهٰذا الصوت الكريه أن يخمد، ولا حلّ إلّا أن أؤدّبه...

صوت من الجهة اليمنى: بل يوجد حلّ آخر.

(يدخل رجل عملاق بادي الاعتداد بالنفس مبتسمًا بمودّة)

الفتى : مَن أنت؟

العملاق: صديق.

الفتى : ولٰكنّي لا أعرفك.

العملاق: نحن في عالم لا نعرف إلّا أعداءنا.

الفتى : ولٰكنّي لم أرك من قبل.

العملاق: ها أنت تراني، وفي هٰذا الكفاية.

الفتى : لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

العملاق: تذكّر هٰذه اللحظة جيّدًا فسوف تؤرّخ بها السعادة في عمرك.

الفتى : وماذا تريد؟

العملاق: أن أساعدك.

الفتى : في أيّ شيء؟

العملاق: في قهر عدوّك.

الفتى : ولٰكنّي لم أطلب مساعدة أحد.

العملاق: وهٰذا يجعل من تقدّمي إليك سلوكًا جديرًا حقًّا بالصداقة!

الفتى : ومَن الذي أرسلك؟

العملاق: قل إنّها العناية الإلٰهيّة.

الفتى : هٰذه إجابة عامّة ولا تشفي.

العملاق: إذن اعتبر أنّني جئتك بحكم وظيفتي.

الفتى : وما وظيفتك؟

العملاق: أن أقيم ميزان العدالة.

الفتى : ومن قلّدك هٰذه الوظيفة؟

العملاق: الفرد هو الذي يختار الوظيفة التي تناسبه.

الفتى : ولكنّني لم أسألك المعونة.

العملاق: ربّما لأنّك لم تكن تعلم بوجودي على كثب منك. وربّما...

الفتى : وربّما؟

العملاق: وربّما لأنّك تبالغ في تقدير قوّتك.

الفتى : هٰذا شأني على أيّ حال.

العملاق: كلّا.

الفتى : كلّا؟!

العملاق: إنّه يدخل ضمن اختصاص وظيفتي، عليّ أن أنقذك ولو من نفسك.

الفتى : ولكنّ مرجع الأمر في النهاية إليّ أنا.

العملاق: ويرجع إليّ بحكم وظيفتي.

الفتى : إنّي أشكرك، أرجو ألّا تغالي في اختصاص وظيفتك. ثمّة رجل وقح اعتدى عليّ، ولا مفرّ من أن أؤدّبه بنفسي...

العملاق: ولكنّه يفوقك قوّة، ولا دافع لشرّه سواي...

الفتى : لست في حاجة إلى مساعدتك.

العملاق: بل إنّك في مسيس الحاجة إليها.

الفتى : أكرّر الشكر ولكنّني لا أعرفك ولا تربطني بك صلة حقيقيّة.

العملاق: إنّي جزء لا يتجزّأ من المكان، لي فيه رزق وصهر، وتربط أسرتي بأجدادك أواصر مودّة قديمة.

الفتى : أجدادي؟!.. إنّي أشكّ في ذٰلك.

العملاق: من أين لك هٰذا الشكّ؟

الفتى : إنّي أعرف من كانوا على صلة بهم...

العملاق: لا بدّ أن تفوتك معرفة البعض، وأسرتي كانت ضمن ذلك البعض.

الفتى : حتّى لو صحّ ذٰلك فإنّني لا أعتبره مُلزِمًا لي بقبول مساعدتك.

العملاق: إنّي أذكر ذٰلك التاريخ باعتباره مسوّغًا لقبول لا ملزمًا له!

الفتى : إذن لا إلزام هناك...

العملاق: أمّا الإلزام فيجيء من طبيعة وظيفتي.

الفتى : إنّي أرفض مبدأ الإلزام...

العملاق: عجيب أن تقف هٰذا الموقف العنيد من مساعدة تهبط عليك من السماء...

الفتى : أنا الذي تلقّيت الضربة وأنا الذي عليّ ردّها.

العملاق: لن تستطيع ذلك وحدك.

الفتى : هذا لا يعنيك في شيء.

العملاق: بل هو كلّ شيء عندي، هو وظيفتي في الحياة.

الفتى : لا شأن لي بوظيفتك.

العملاق: لا تجعلني أشكّ في قواك العقليّة.

الفتى : انصرف من فضلك ودعني أتصرّف كما أشاء.

العملاق: فكّر.. فكّر طويلًا.. لا ترفض هبة العناية الإلهيّة.

الفتى : أنا الذي تلقّيت الضربة وأنا الذي عليّ ردّها.

(الفتاة ترجع وتتّخذ مكانها بين الرجلين)

(العملاق يحني لها رأسه فتردّ التحيّة)

العملاق: لي عظيم الشرف بلقاء ربّة الدار.

الفتاة : شكرًا يا سيّدي.

العملاق: كنت أذكّره بالصلة القديمة التي ربطت بين أسرتي وأجداده.

الفتاة : سمعت كلّ شيء.

العملاق: إنّه ينكر تلك الصلة.

الفتاة : لا يمكن إنكار أيّ صلة قديمة أو حديثة.

العملاق: مرحبًا بصوت الحكمة.

الفتاة : كن رفيقًا به فهو غاضب.

العملاق: ألا يحقّ لي أن أتمسّك بأداء وظيفتي؟

الفتاة : مباركة الوظيفة التي تصون الحياة.

العملاق: مرحبًا بصوت الحكمة.

الفتى : (مخاطبًا الفتاة) مؤامرة!

الفتاة : معاذ الله.

الفتى : مؤامرة.

الفتاة : افتح له صدرك.

العملاق: أشكرك يا صوت العقل.

الفتى : (للفتاة) إنّي أطالبك بالاحترام.
الفتاة : قلبي ملئه الاحترام والحبّ.
العملاق: لِمَ تعاند محبّيك؟
الفتى : الحبّ قد يدفع إلى الهلاك.
الفتاة : الحبّ لا يتعامل إلّا مع الحياة.
الفتى : إنّي أطالبك بالانسحاب.
العملاق: غريب أن تعامل الجمال والحكمة بهذه الفظاظة.
الفتى : (للعملاق) لا تتدخّل في شئوني الخاصّة.
العملاق: سمعًا وطاعة.
الفتاة : إنّي ذاهبة ما دمت ترغب في ذلك، ولكنّي أتوسّل إليك أن تفتح له صدرك.
(الفتاة تذهب)
(فترة صمت يتبادل فيها الرجلان النظرات، العملاق باسمًا والفتى غاضبًا)
العملاق: الجوّ أصبح أصلح للمناقشة.
الفتى : ألم تستنفد المناقشة.
العملاق: كلّا بعد، افتح لي صدرك، واتّخذ بعد ذٰلك قرارك.
الفتى : (يتنهّد صامتًا)
العملاق: أريد أن أساعدك.
الفتى : خبّرني صراحة عمّا تريد ثمنًا لذٰلك؟
العملاق: إنّي صديق ولست بتاجر.
الفتى : حدّثني عمّا تريد.
العملاق: لا شيء ألبتّة.
الفتى : ألبتّة؟
العملاق: إلّا ما تتطلّبه ظروف العمل طبعًا.
الفتى : ظروف العمل؟
العملاق: لكي أؤدّب عدوّك فلا بدّ من استدراجه إلى هنا.
الفتى : إلى مكاني هٰذا؟
العملاق: نعم.
الفتى : لا يجوز أن يدنّس مقامي بقدمه.
العملاق: لا تعط المكان أهمّيّة أكثر ممّا يستحقّ.
الفتى : (مشيرًا إلى المصطبة) إنّه مقامي مذ كان مقامًا لهٰؤلاء.
العملاق: ولا تعط للأموات أهمّيّة أكثر ممّا يستحقّون.
الفتى : إذن هٰذا هو رأيك عن الأجداد؟
العملاق: إنّ باطن الأرض مليء بالعظام وهيهات أن تعرف أين عظام أجدادك بينها.
الفتى : هٰذا رأي مَن لا أصل له.
العملاق: لا تغضب.. ما أردته هو أن أبيّن لك خطّتي في العمل.
الفتى : ولِمَ لا تذهب إليه حيث يقهقه؟
العملاق: إنّي أعرف ما أريد.
الفتى : سأجاريك في أفكارك فهل إذا وافقت على رأيك تشرع في العمل؟
العملاق: ولٰكن ليس هٰذا بكلّ شيء.
الفتى : ثمّة شروط أخرى؟
العملاق: لا تردّد كلمة «شروط» فما أبغضها في مقام الصداقة.
الفتى : طيّب.. ماذا تريد أيضًا؟
العملاق: في فترة التأهّب للمعركة أحتاج لرعاية خاصّة.
الفتى : مثال ذٰلك؟
العملاق: تقدّم لي الطعام والشراب والترفيه الضروريّ.
الفتى : جميل، ولٰكن يخيّل إليّ أنّ مطالبك لم تنته بعد؟
العملاق: ما أجمل أن تدعو الفتاة الجليلة لمجالستنا!
الفتى : فتاتي؟
العملاق: إنّها قلب كبير يتّسع للجميع...
الفتى : ولعلّه يتّسع أيضًا لعدوّنا المشترك؟
العملاق: أعني أنّني في حاجة إلى الحنان قبل المعركة.
الفتى : وماذا أيضًا؟
العملاق: بما أنّني سأكون يدك عند الحاجة فمن الإنصاف ألّا تتورّط في فعل قبل مشاورتي...
الفتى : منطق سديد!
العملاق: ولا أن تصادق شخصًا قبل موافقتي فقد يكون لي عدوًّا.
الفتى : واحد وواحد يساويان اثنين.

العملاق: ولا أن تعادي شخصًا قبل الرجوع إليّ فقد يكون لي صديقًا.

الفتى : مَن يجادل في ذلك؟

العملاق: هل نبدأ؟

الفتى : أودّ أن أسألك سؤالًا، هل يمكن أن يفعل بي عدوّي أكثر من ذلك؟

العملاق: (مستنكرًا) ولٰكنّ الفعل يتغيّر معناه بتغيّر فاعله.

الفتى : فاعله؟!

العملاق: قبلة من زوجك غير قبلة من بنت هوى، وصفعة من والدك غير صفعة من غريب!

الفتى : وأنت تعتبر نفسك الوالد والزوجة لي؟

العملاق: بدأنا نتفاهم فيما أعتقد.

الفتى : (غاضبًا) اغرب عن وجهي.

العملاق: ماذا جرى لك؟

الفتى : اذهب... اذهب بلا تردّد.

العملاق: أين أذهب؟

الفتى : ابعد عن مقامي.

العملاق: ولٰكنّه مقامي أنا أيضًا.

الفتى : ماذا قلت؟

العملاق: يا سيّدي، مضى وقت طويل ونحن نتبادل الحديث، وقت يعطيني الحقّ في الإقامة، وبالإضافة إلى ذٰلك نشأت علاقة إنسانيّة صميمة مع فتاتك الحكيمة، بل مع هٰؤلاء الأجداد أنفسهم...

الفتى : أنت بلطجيّ...

العملاق: فليسامحك الله.

الفتى : اذهب بعيدًا، لا أريد مساعدتك، وسألقى عدوّي وحدي...

العملاق: عليك في هٰذه الحال أن تقاتل اثنين!

الفتى : كيف؟

العملاق: إنّك تناصبني العداء وسأضطرّ إلى الدفاع عن نفسي...

الفتى : تهاجمني لأنّني أرفض مساعدتك؟

العملاق: لأنّك تريد أن تطردني من مقامي وتعطّل وظيفتي الأساسيّة في الحياة.

الفتى : لا تستهن بي، لست عملاقًا مثلك، ولٰكنّني مصمّم على منازلة الموت نفسه.

العملاق: ما دمت تريد الموت فلتمت.

الفتى : سأموت إذا متّ وأنا أقاتل.

العملاق: إذن فلنتقاتل ولتمت.

(تعود الفتاة مسرعة)

الفتاة : أردت أن تفتح صدرك للتفاهم لا للموت.

الفتى : إنّه شرّ من الآخر.

العملاق: إنّه أحمق.

الفتى : إنّه من النوع الآخر ولٰكنّه شرّ منه.

الفتاة : يا للأسف.

الفتى : لا منفذ إلى حياة طيّبة مع وجودهما.

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد؟

الفتى : عندما يختفيان هما وأمثالهما.

الفتاة : كلام قديم معاد.

الفتى : ولٰكنّه حقّ.

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد؟

العملاق: إنّي أردّد هٰذه الكلمة المنشودة ولا من سميع.

الفتاة : (للعملاق) ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة بلا شروط؟

العملاق: إنّي أبغض كلمة «شروط».

الفتاة : ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة دون أن تطالب بشيء؟

العملاق: لن يكون هٰذا من العدل في شيء...

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد...

(صوت القهقهة الهازئة يترامى من بعيد)

(العملاق ينصت إلى الصوت باهتمام ودهشة)

العملاق: ربّاه... إنّي أعرف هٰذا الصوت.

الفتاة : إنّه صوت عدوّه.

العملاق: عدوّه!

الفتاة : نعم.

العملاق: يا لعجائب المصادفات!

الفتاة : هٰذا هو الرجل الذي قصدت بتقديم مساعدتك القضاء عليه.

العملاق: ها... ها... ها...

الفتاة : ماذا يضحكك؟

العملاق: إنّه قريبي من ناحية الأمّ!

الفتاة : قريبك؟!

العملاق: نعم... يا لذكريات الطفولة السعيدة التي لا تُنسى.

الفتى : ظننتك تعرف العدوّ الذي جئت متطوّعًا لضربه.

العملاق: ها... ها... ها...

الفتى : ألا زلت عند رأيك في مساعدتك؟

العملاق: ولٰكنّك رفضت مساعدتي!

الفتى : هبني قبلتها فهل تقدّمها؟

العملاق: مع كافّة الشروط التي اشترطتها؟

الفتى : لٰكنّك تبغض كلمة «شروط»؟

العملاق: نعم أم لا؟

الفتى : نعم.

العملاق: في هٰذه الحال ألعب دور رسول السلام بينكما.

الفتى : رسول السلام؟

العملاق: إكرامًا لهٰذه الفتاة الحكيمة، ولك.

الفتى : وتعهّداتك السابقة؟

العملاق: للقربى حقوق، وإنّي لا أوفيها حقّها الكامل بموقفي هٰذا..

الفتى : ولٰكنّه هو المعتدي؟

العملاق: ولوا

الفتى : وهو في الأصل قاطع طُرق ليس إلّا؟

العملاق: ولوا

الفتى : إنّه وحش ذميم.

العملاق: إنّك لا تراه على حقيقته.

الفتى : ألم تسمع قهقهته الساخرة؟

العملاق: هٰذه هي طريقته في المزاح، يا له من شابّ خفيف الروح حقًّا!

الفتى : ولٰكنّي أعرفه حقّ المعرفة، من خلال المعاملة والجوار والصراع عرفته.

العملاق: صدّقني إنّه لا يكشف عن مكنون كنوزه إلّا لمن يحبّه ويفهمه.

الفتى : بل لا تلين عريكته إلّا لمن يشكمه بالتأديب والضرب.

العملاق: أحمد الله على أنّك لم تتمكّن من ضربه.

الفتى : ولِمَ؟

العملاق: كنت سأهرع إلى نجدته.

الفتى : ها أنت تهدّدني.

العملاق: للقرابة حقوق.

الفتى : تجمّلت الحقيقة، فما أنت إلّا بلطجيّ كقريبك.

العملاق: يا له من تفكير خليق بأن يقود إلى الهلاك.

الفتى : لا تضيّع وقتي هباء.

العملاق: تصرّف بوقتك كما تشاء.

الفتى : سأسوّي حسابي بنفسي.

العملاق: أنت تعلم أنّ هٰذا الكلام لا معنى له، وقد وضّحت لك أهداف وظيفتي...

الفتى : اللعنة!

العملاق: إنّي صديقك أردت أم لم ترد، وإنّي قريبه قبلت ذٰلك أم لم تقبله، وأنا أكبر منكما سنًّا وأعظم قوّة، فواجبي أن أجمع بين ثلاثتنا بعهد صداقة دائمة جديرة بهٰذا المكان الذي يؤاخي الأحياء والأموات أنفسهم.

الفتى : كلام طيّب ونيّة لئيمة وفعل غشوم...

العملاق: (مخاطبًا الفتاة)... تكلّمي أنت.

الفتاة : لم يعد عندي من جديد أقوله.

الفتى : اعترفي بأنّي على حقّ.

الفتاة : أعترف بأنّه لا يهمّني في هٰذا الوجود إلّا الحبّ.

العملاق: كم أنّك حكيمة!

الفتى : كم أنّك أنانيّة.

الفتاة : الحبّ عطاء بلا حدود ولا نهاية.

الفتى : الوحش يأخذ ولٰكنّه لا يعرف العطاء.

الفتاة : ليتك تؤمن بالحبّ.

الفتى : لا حياة للحبّ بين الوحوش.

الفتاة : الحبّ أقوى قوّة في الوجود بيد أنّه سلاح لا يسلس إلّا لمن يؤمن به.

الفتى : للوحوش لغة أخرى.

الفتاة : أخشى أن تنقلب وحشًا مثلهم.

الفتى : الكرامة أهمّ من الحياة نفسها.

الفتاة : الفضائل الحقيقيّة ثمار لا تنبت إلّا فوق شجرة الحبّ..

العملاق: (مخاطبًا الفتى).. من المؤسف أنك تحبّ الموت أكثر ممّا تحبّ فتاتك الجميلة الحكيمة.

الفتى : الموت أحبّ إليّ من الخضوع لإرادتك.

(القهقهة الساخرة تترامى من بعيد)

العملاق: يا له من فتًى ضحوك، يحبّ المزاح بقدر ما يحبّ الحياة الآمنة.

الفتى : إنّك لئيم بقدر ما أنت قويّ.

العملاق: أمامك عملاقان، ووراءك حياة طيّبة، فارجع إلى الوراء.

الفتى : إلى الأمام.

العملاق: (للفتاة) أقترح أن ندعه لنفسه ليفكّر بهدوء فإنّ الجدل يغريه بالعناد والمكابرة.

(العملاق والفتاة يخرجان من بابين متقاربين في الناحية اليمنى)...

(الفتى يتفكّر قليلًا... ينظر ناحية المصطبة المسربلة في الظلام)

الفتى : آن لكم أن تنطقوا.

الصدى : تنطقوا.

(الفتى يلوّح بيده غاضبًا... يذهب ويجيء متفكّرًا... يدخل رجل أعمى يتحسّس طريقه بعكّاز، يتنصّت مائلًا برأسه نحو الفتى)

الشحّاذ : هل يوجد أحد هنا؟

الفتى : نعم.

الشحّاذ : أنت الذي ناديتني؟

الفتى : كلّا.

الشحّاذ : لكنّه صوتك وأذني لا تخطئ.

الفتى : خبّرني عمّا تريد.

الشحّاذ : ماذا تريد أنت؟

الفتى : ألست شحّاذًا؟

الشحّاذ : بلى.

الفتى : لعلّك تريد إحسانًا؟

الشحّاذ : رُزقت اليوم بما فيه الكفاية فماذا تريد أنت؟

الفتى : لا أريد شيئًا.

الشحّاذ : كذب!

الفتى : شحّاذ ووقح.

الشحّاذ : لِمَ تشتمني؟

الفتى : كيف تجرؤ على رميي بالكذب؟

الشحّاذ : لأنك كذّاب!

(الفتى يرفع يده ليضربه ولكنّه يتراجع أمام عجزه)

الفتى : اذهب قبل أن أكسر رأسك.

الشحّاذ : لا أذهب حتّى أعرف لماذا ناديتني وماذا تريد منّي.

الفتى : اذهب أحسن لك.

الشحّاذ : ليس قبل أن أعرف ماذا تريد.

الفتى : (ساخرًا) وهل عندك ما تعطيه؟

الشحّاذ : اطلب ما تشاء.

الفتى : (ضاحكًا رغمًا عنه) إنّي مدين لك بأوّل ضحكة في يومي.

الشحّاذ : هذا قليل من كثير ممّا عندي.

الفتى : يخيّل إليّ أنك غنيّ.

الشحّاذ : جدًّا.

الفتى : ماذا تملك؟

الشحّاذ : عالَم الظلام الذي لا نهاية له.

الفتى : أنت خفيف الروح رغم سلاطة لسانك، وكان ينبغي أن تجد ملجأ يؤويك.

الشحّاذ : التحقت ذات يوم بملجأ.

الفتى : ولِمَ تركته؟

الشحّاذ : رُفِتُّ!

الفتى : (ضاحكًا) أسمع أوّل مرّة عن رفت الشحّاذين!

الشحّاذ : كان ناظر الملجأ فظًّا غليظًا ولصًّا لا حياء له.

الفتى : وتوقّع أن تسبّحوا بحمده على أيّ حال؟

الشحّاذ : ولكنّ بعضنا تمرّد وكنت على رأس المتمرّدين!

الفتى : وفضّلت أن تهيم على وجهك بلا مأوى؟

الشحّاذ : نعم.

الفتى : ولكن أليس الملجأ بكلّ عيوبه أفضل من التسوّل والتشرّد؟

الشحّاذ : الحرّيّة أفضل من الأمن نفسه!

الفتى : يخيّل إليّ أنّك شحّاذ مثقّف!!

الشحّاذ : أعرف أشياء كثيرة.

الفتى : مثل ماذا؟

الشحّاذ : أن أرى بأذنيّ.

الفتى : وماذا أيضًا؟

الشحّاذ : وأن أسير على يديّ!

الفتى : أنت ترى بأذنيك وتسير على يديك!

الشحّاذ : وصادفني في تجوالي بعض الرسميّين فقادوني مرّة أخرى إلى الملجأ.

الفتى : إلى الوحش؟

الشحّاذ : كلّا، كان قد خلّفه ناظر جديد عادل وأمين ورحيم...

الفتى : وكيف تركته بعد ذلك؟

الشحّاذ : هربت!

الفتى : غير معقول!

الشحّاذ : كان عادلًا وأمينًا ورحيمًا ولكنّه مغرم بالنظام لدرجة الهوس، ويطبّقه بدقّة فلكيّة، ولا يقبل مراجعة..

الفتى : ولكنّك نعمت بالغذاء والكساء والراحة والنظافة..

الشحّاذ : الأكل بميعاد والشرب بميعاد و«ولا مؤاخذة» بميعاد والنوم بميعاد، فكدت أن أجنّ...

الفتى : وتمرّدت مرّة أخرى؟

الشحّاذ : حتّى التمرّد حُرمت منه فلم يطاوعني ضميري على التمرّد على رجل عادل أمين رحيم.

الفتى : كان عليك أن ترضى..

الشحّاذ : حتّى التمرّد حُرمت منه!

الفتى : التمرّد ليس خيرًا في ذاته.

الشحّاذ : ولكنّه خير من أن تكون حجرًا.

الفتى : وهكذا هربت؟

الشحّاذ : هكذا هربت.

الفتى : إلى التراب والحشرات واللقمة العفنة!

الشحّاذ : إلى سعادتي الحقيقيّة...

الفتى : حديثك مثير وعجيب.

الشحّاذ : فُتّك بعافية.

(الشحّاذ يتحرّك)

الفتى : انتظر...

(الشحّاذ يستمرّ في سيره)

الفتى : ألا تريد أن تسمعني؟

(يمضي الشحّاذ حتّى يختفي)

(يعود العملاق... تعود الفتاة)

الفتاة : قلبي طيلة الوقت معك.

العملاق: لعلّك اقتنعت برأيي.

الفتى : أيّها السيّد الذي يحبّ الشرّ، ويحبّ الخير أحيانًا لحساب الشرّ.
أيّتها السيّدة التي تحبّ الخير، وتحبّ الشرّ أحيانًا لحساب الخير.
إليكما رأيي النهائيّ.
سأصون كرامتي حتّى الموت.

الفتاة : (تخفي وجهها بين يديها وستظلّ كذلك إلى ما قبيل النهاية)

العملاق: شعار الوباء الذي فتك بملايين الحمقى...

الفتى : ينابيع الحياة الحقّة مهدّدة بالجفاف، أشواق القلب الخالدة يساومها الضياع، سحقًا للوحشة التي تذبل فيها معاني الأشياء، إنّي ذاهب...

(القهقهة الساخرة ترتفع)

(الفتى يتحوّل نحوها في تصميم ويتقدّم. العملاق يثب نحوه. الفتى يدفعه. العملاق يقبض على كتفيه ويدفع به نحو المصطبة. الفتى يندفع حتّى يغيب في الظلمة، الفتى يرتدّ كأنّه كرة ارتطمت بجدار منقلبًا على وجهه ثمّ يقف مترنّحًا.

وكأنّ حركته أيقظت الرقود وشدّتهم من رقادهم. يتدحرج أوّلهم حتّى يصل إلى مقدّم المسرح وينهض في تثاقل كمن يقوم من نوم. يتبعه آخر مكرّرًا نفس الحركة. ويتتابع

كثيرون. رجالًا ونساء مكرّرين نفس الحركات حتّى يكتظّ بهم المسرح. العملاق يتزحزح رويدًا رويدًا حتّى يغيب في المدخل المفضي إلى القهقهة الساخرة. تتمّ يقظة الجميع. تنتصب قاماتهم. يرتسم العزم في وجوههم. يجري ذلك في تمثيل صامت. يسير الفتى نحو ناحية عدوّه وهو يضرب الأرض ضربات مسموعة منتظمة. يمضون خلفه في عزم صلب حتّى يختفوا جميعًا. ضربات أقدامهم ما زالت تترامى)

الفتاة : (ترفع يديها عن وجهها... تصغي بحزن... وترمي بنظرها إلى بعيد).

التركة

حجرة انتظار في بيت وليّ الله حجرة ذات طابع عتيق. في الصدر كونصول. باب إلى اليمين وآخر إلى اليسار، تصطفّ بجوانبها كنبات تفصل بينها كراسيّ. ثمّة حصُر مزركشة معلّقة على الجدران في مواضع محدّدة.

يدخل فتى وفتاة. يتفحّصان الحجرة باستطلاع مَن يراها لأوّل مرّة، ثمّ يقفان في الوسط.

* * *

الفتى : البيت صامت كأنّه قبر.

الفتاة : صفّق لتُشعرهم بوجودك.

الفتى : إنّه يكره ذٰلك، ما زلت أذكر طبعه.

(صمت قصير)

الفتاة : بيتكم قديم، والحواري المفضية إليه شُقّت فيما يبدو من عهد نوح.

الفتى : لا تنسَيْ أصلكِ وأنتِ تتكلّمين عن الحواري كسائحة.

الفتاة : تأدّب، المفروض أنّنا مهذّبون.

(صمت قصير)

الفتى : لِمَ دعاني يا ترى؟

الفتاة : هو أبوك مهما يكن من أمر.

الفتى : ظننت أنّ الماضي لن يعود.

الفتاة : الحاضر يمضي والماضي يعود، ولا ينبغي لرجل مذنب أن ييأس، فأيّ ذنب يُغفر ما دام المذنب رجلًا.

الفتى : ألم تحلمي يومًا بأن يدعوك أبوك ليغفر لك؟

الفتاة : لو رآني ساعة احتضاره لغالبَ الموت حتّى يفتك بي.

(الفتى يبتسم من خلال ثوانٍ من الصمت)

الفتى : ترى لماذا دعاني بعد ذُلك الفراق الطويل؟

الفتاة : إنّك وحيده وللقلب حنينه، ومَن يدري فلعلّك. . .

الفتى : لعلّي؟

الفتاة : لعلّك تذهب مكرّمًا بثروة لم تخطر لك على بال.

الفتى : طردني يافعًا ولا مليم في جيبي.

الفتاة : ماذ كنت تتوقّع جزاء لسلوكك المشين؟

الفتى : تشرّدت وجعت ولولا. . .

الفتاة : ولولا فجورك لمتّ جوعًا.

الفتى : اقطعي لسانك يا بنت الأبالسة.

الفتاة : ولأنّك رجل فكلّ ذنب مغفور لك.

الفتى : ولأنّك امرأة فكلّ ذنب مرجعه إليك.

الفتاة : أنت صعلوك ولٰكن تخافه الشياطين.

الفتى : فلنتأدّب ولو ساعة من الزمان.

الفتاة : حتّى تضحك على الرجل.

الفتى : العبي دور الزوجة بإتقان.

الفتاة : كان عليك أن تجيء وحدك وتتركني في سلام.

الفتى : لئن أتقدّم إليه مصحوبًا بزوجتي خير من الحضور وحدي كرجل أعزب محوط بشبهات العزّاب.

الفتاة : لعلّه يعرف عنك أكثر ممّا تتصوّر.

الفتى : لو صحّ ذٰلك لما دعاني بإعلان في الجرائد.

الفتاة : ولٰكنّه وليّ من أولياء الله فكيف لم يعرف أنّك صاحب خمّارة وأنّك مغامر؟!

الفتى : على أيّ حال فإنّه لم يدخل السجن فهو خير من أبيك المرحوم.

الفتاة : تدفعني إلى استعمال حذائي في هٰذه الحجرة العتيقة المباركة.

الفتى : استعمليه، وسأردّ بكسر رأسك، ونقدّم بذٰلك الدليل على صدق علاقتنا الزوجيّة.

(صمت)

الفتاة : آه لو يتحقّق حلم الثروة!

الفتى : وتتحوّل الخمّارة الصغيرة إلى ملهى ليليّ عالميّ.

الفتاة : والمغامر الهاوي إلى قوّاد دوليّ!

(يكوّر لها قبضة يده مهدّدًا فتتراجع خطوة وهي تضحك دون إحداث صوت)

الفتاة : الحقّ أنّ أباك ذو سمعة طيّبة كرائحة الورد.

الفتى : أجل.

الفتاة : ما سألنا أحدًا عن بيته إلّا ولهج بالثناء عليه.

الفتى : أناس هٰذه الأحياء طيّبون!

الفتاة : ولكنّهم يؤكّدون خوارقه.

الفتى : إنّهم يرون في الحاوي معجزة.

الفتاة : وينوّهون بالطمأنينة التي يزرعها في القلب.

الفتى : جميع هٰؤلاء يجيئون إلى هنا ويجودون بنقودهم عن طيب خاطر.

الفتاة : ربّما لأنّهم يأخذون ما هو أقيم ممّا يعطون.

الفتى : إنّ قلبك لا يخلو من موطن للخرافة رغم اكتنازه بالشرّ الباهر.

الفتاة : وأنت، ألا تذكر يوم تأزّمت بالمغص الكلويّ؟

الفتى : كفّي عن الثرثرة، الرجل مليونير ما في ذٰلك من شكّ.

الفتاة : لندعُ الله أن يكون ذٰلك صحيحًا.

الفتى : هنا.. هنا ثروة طائلة!

الفتاة : هنا؟

الفتى : أولياء الله لا يتعاملون مع البنوك.

الفتاة : وعند حلول الأجل يمكن استخلاص التركة بعيدًا عن قبضة الضرائب.

الفتى : ولٰكنّ ثمّة خطرًا أفظع من الضرائب.

الفتاة : ماذا تعني؟

الفتى : أعني مَن يقومون بخدمته.

الفتاة : مَن يخدم أولياء الله؟

الفتى : الشياطين!

الفتاة : هل تعني ما تقول؟

الفتى : أعني شياطين الأرض.

الفتاة : من حسن الحظّ أنّك شيطان وبوسعك أن تتعامل مع الشياطين، هل لك امرأة أب؟

الفتى : ماتت من زمن بعيد.

الفتاة : أهو طاعن في السنّ؟

الفتى : جدًّا.

الفتاة : هٰذا يبشّر بالخير!

الفتى : لا تحلمي، ماتت أجيال وهو حيّ يمارس عمله.

الفتاة : لم تعد أعصابي تتحمّل الصبر أكثر من ذٰلك، عليك أن تقابله.

الفتى : بل علينا أن ننتظر، إنّي أعرف طبعه.

(صمت. يمشيان ذهابًا وجيئة)

(يُفتح الباب إلى اليسار. يدخل غلام حاملًا مبخرة. غلام جميل يلبس جلبابًا وطاقيّة ومركوبًا. يدور في الحجرة حارقًا البخور دون أن يلتفت إلى الفتى والفتاة ودون أن ينبس بكلمة. يقف الفتى والفتاة جنبًا لجنب وهما يتابعانه بعينيهما).

الفتى : يا غلام.

(الغلام يكفّ عن الدوران ويقف قبالتهما).

: هل أنت مَن يقوم على خدمة الشيخ؟

الغلام : الناس جميعًا يقومون على خدمته.

الفتى : وماذا تفعل أنت؟

الغلام : إنّي خادم البيت.
الفتى : أنا ابن مولاك.
الغلام : أعرف ذلك يا سيّدي.
الفتى : وكيف عرفتني؟
(الغلام لا يجيب)
: لِمَ لا تجيب؟
الغلام : لقد أجبت يا سيّدي.
الفتى : (باسمًا) طيّب.. لقد جئت ملبّيًا دعوته.
الغلام : أعرف ذلك يا سيّدي.
الفتى : ألا تدري متى يدعوني إلى لقائه؟
الغلام : لقد كلّفني مولاي أن أخبرك..
الفتى : (مقاطعًا) إنّي أسألك متى يلقاني.
الغلام : لقد ذهب.
الفتى : أين... ومتى؟
الغلام : غادر البيت عقب صلاة الفجر.
الفتى : ومتى يعود؟
الغلام : لن يعود.
الفتى : أنت تهذي يا غلام.
الغلام : سامحك الله يا سيّدي.
الفتى : ولِمَ لن يعود؟
الغلام : (محنيًا رأسه من الحزن) لقد ذهب إلى لقاء ربّه.
الفتاة : (جزعة) ماذا تعني يا شاطر؟
الغلام : قال إنّه يشعر بدنوّ الأجَل ثمّ ذهب.
الفتى : ولِمَ لَمْ يبق في فراشه؟
الغلام : نذر من قديم أن يلقى ربّه في الخلاء.
الفتى : ولكنّك تعرف مكانه؟
الغلام : كلّا.
الفتى : ولماذا دعاني؟
الغلام : دعاك لتعود إلى بيتك القديم.
الفتى : وهل حمّلك رسالة إليّ؟
الغلام : قال: دنا الأجَل، آنَ لي أن أدعو ابني الضالّ لعلّه يصلح لأن يرث التركة.
الفتى : التركة؟!
الغلام : أمرني أن أسلّمك التركة لعلّك تثوب إلى رشدك.
الفتى : ليرحمه الله... أعني ليمدّ الله في عمره.
الفتاة : وأين التركة يا شاطر؟
الغلام : قال سيجيء غارقًا في الضلال صاحبًا معه قرينة سوء.
(صمت مع تبادل نظرات)
الفتاة : هٰذا يعني أنّها أيضًا في حاجة إلى نصيب من تركته.
الفتى : ومتى تسلّمنا التركة؟
(الغلام يشير إلى حصيرة معلّقة على الحائط إلى يمين الكونصول)
الغلام : التركة في خزانة وراء الحصيرة... هاك المفتاح يا سيّدي.
(يتناول الفتى المفتاح ويمضي إلى الحصيرة. يهمّ الغلام بمغادرة الحجرة. الفتاة تهرع إليه فتقبض على يده)
الفتاة : ابق حتّى نتسلّم التركة.
(الفتى يزيح الحصيرة. يفتح الخزانة. يأخذ في إخراج كتب صفراء. ويقرأ بعض العناوين وهو يخرجها ويرصّها فوق الكنبة)
الفتى : الحقّ... مدارج الروح... سلام للقلب.
(يستمرّ في إخراج الكتب التي تتراكم فوق الكنبة ويتهاوى بعضها إلى الأرض)
الفتى : أين التركة؟
الفتاة : (للغلام) أنت سرقتها!
الغلام : سامحك الله.
الفتى : (مواصلًا إخراج الكتب) أين التركة؟
الغلام : لا علم لي بما في الخزانة.
الفتى : كان المفتاح معك.
الغلام : أعطانيه قبل أن يغادر البيت.
(الفتى يواصل إخراج الكتب ثمّ يصيح بفرح جنونيّ)
الفتى : التركة!
(يخرج رزمًا من الأوراق الماليّة ويرصّها فوق خوان)
الفتاة : ثروة طائلة.
الفتى : ما أكرمك يا أبي وما أبرّك!

الغلام : إنّه يوصيك بألّا تنفق منها مليّمًا واحدًا قبل أن تستوعب ما في هٰذه الكتب.

الفتاة : الأوفق أن نبدأ باستيعاب هٰذه النقود.

الغلام : تلك كانت وصيّته.

الفتى : شكرًا يا غلام، يمكنك أن تنصرف إذا شئت.

الغلام : والتركة؟

الفتى : هل ثمّة تركة أخرى؟

الغلام : (مشيرًا إلى الكتب) إنّما أعني هٰذه التركة.

الفتى : ستنفّذ الوصيّة بأمانة.

(الفتاة في سيرها تدوس على بعض الكتب)

الغلام : ارفعي قدمك.

الفتاة : تفضّل بسلام وكفّ عن إلقاء الأوامر.

الغلام : فلأعيدها إلى الخزانة إذا لم تكن بكما من حاجة إليها.

الفتى : خير ما تفعل أيّها الغلام الأمين.

(الغلام يعيد الكتب إلى الخزانة. يحملها باحترام وهو يبكي صامتًا. ولّما ينتهي يقول بنبرة حزينة)

الغلام : إنّي ذاهب.

الفتى : مصحوبًا بالسلامة.

(ثمّ مستدركًا)

: انتظر، أنت غلام طيّب، تحبّ أن تشتغل عندي؟

الغلام : أيّ شغلة يا سيّدي؟

الفتى : أدرّبك لتعمل جرسونًا ماهرًا.

الغلام : في مقهى.

الفتى : خمّارة، وهي أربح للجرسون من عشر مقاهٍ.

الغلام : إنّي ذاهب يا سيّدي.

الفتاة : مع السلامة.

(الغلام يذهب)

الفتاة : ألا ترى أن نفتّشه قبل أن يرحل؟

الفتى : لو كان لصًّا لما أخبرنا عن التركة.

الفتاة : علينا أن نجد حقيبة لنضع فيها النقود.

الفتى : سنجد حقيبة أو بقجة في هٰذا البيت العتيق.

الفتاة : وعليك أن تفكّر في استغلاله.

الفتى : الأفضل بيعه، إنّه قديم حقًّا ولٰكنّه يدرّ ذهبًا لو بيع أرضًا.

الفتاة : واشترِ بالثمن عمارة، ولنبع الخمّارة أيضًا لنعيش أحرارًا كأبناء الذوات.

الفتى : أفكار طائشة، سوف أنشئ ملهًى ليليًّا يضاهي الأوبرج...

(يظهر رجل عند الباب الأيمن. يلبس جلبابًا ومعطفًا وهو ذو قامة ضخمة، وطابع رسميّ كالمخبرين. يتقدّم خطوات حتّى يصير على مبعدة قصيرة من الفتى والفتاة اللذين يطالعانه بدهشة. يجيل في المكان نظرة فاحصة، ويرى النقود المكدّسة ثمّ يعود لينظر إلى الفتى والفتاة)

الفتى : مَن حضرتك؟

الرجل : هل أنت ابن وليّ الله؟

الفتى : نعم ولٰكن مَن حضرتك؟

الرجل : مُخبِر من قوّات الشرطة.

الفتى : أكنت على موعد مع الشيخ؟

الرجل : الشيخ يرقد الآن إلى جوار ربّه.

الفتى : كيف عرفت ذٰلك؟

الرجل : أسلم الروح في الخلاء، فيما وراء مسكني، في الموضع الذي كان يتعبّد فيه.

الفتى : وأين جثمانه؟

الرجل : في المثوى الذي سنمضي إليه جميعًا، لم يعد في حاجة إلى عنايتك، ويبدو أنّك مشغول عنه بما هو أهمّ عندك.

الفتى : وماذا تريد حضرتك؟

الرجل : جئت لأذهب بك إلى القسم.

الفتى : لماذا؟

الرجل : أنت متّهم بقتل أبيك.

الفتى : دعابة ولٰكنّها ثقيلة.

الفتاة : إنّه لم يره منذ عمر مديد.

الرجل : أنت متّهم بقتل أبيك.

الفتى : كفّ عن ترديد هٰذا السخف.

الرجل : شهدته وهو يحتضر، وأنا أعرفه منذ قديم، صرّح لي قبل صعود روحه بأنّك قتلته!

الفتى : محض افتراء وهذيان.

الرجل : الميت لا يكذب، وهو وليّ من أولياء الله.

الفتى : لعلّك لم تسمعه بوضوح أو لم تفهم ما يريد قوله.

الرجل : قال «إنّي أموت مطعونًا بيد ابني الوحيد».

الفتاة : كان يعرب عن حزنه لفراق ابنه الطويل له.

الفتى : هل وجدت في جسده طعنة واحدة؟

الرجل : لنترك ذٰلك إلى التحقيق.

الفتى : أيّ تحقيق يا رجل؟ إنّي لم أره منذ عشرات السنين.

الرجل : وكيف سوّلت لك نفسك أن تنهب أمواله قبل أن تراه؟

الفتى : المال ميراثي الشرعيّ.

الرجل : هل علمت بوفاته؟

الفتى : كلّا.

الرجل : كيف تمدّ يدك إلى ماله وهو حيّ في ظنّك؟

الفتى : وَهَبَه لي قبل مغادرته البيت كما أخبرني غلامه.

الرجل : أين غلامه؟

الفتاة : ذهب.

الرجل : استدعِه ليدلي بأقواله.

الفتى : لا أدري أين ذهب.

الرجل : هلمّ معي إلى القسم.

الفتى : لا جريمة هناك ألبتّة.

الرجل : قتلت أباك وسرقت الدولة.

الفتى : الدولة؟

الرجل : ألا تعلم أنّه لا يجوز التصرّف في هٰذا المال حتّى تأخذ الدولة حصّتها منه؟

الفتى : لم يكن في نيّتي أن أتصرّف في ملّيم قبل أن تأخذ الدولة حصّتها كاملة والله على ما أقول شهيد!

الرجل : براعتك في التنكيت تفوق براعتك في القتل والنهب.

الفتى : أؤكّد لك أنّ التحقيق سيسفر عن براءتي.

الرجل : ولكن سيسبق ذٰلك القبض عليك والتحفّظ على المال.

الفتاة : أهٰكذا تعامل شخصًا يوم وفاة أبيه؟

الفتى : الشيخ الطيّب الذي طالما ثبّت القلوب بالطمأنينة!

الرجل : إنّك رجل شرّير.

الفتى : أنت متحامل وسيّئ الظنّ.

الرجل : كُلّفت بمهامّ كثيرة في مواطن الشبهات فعرفت الكثيرين من أمثالك.

الفتى : أنا تاجر شريف.

الرجل : هلمّ معي ولا تدفعني إلى الضحك في بيت ميت.

الفتاة : كن لطيفًا ودعه في حاله.

الرجل : إنّك تدافعين عنه كأنّك بعيدة عن التهمة!

الفتاة : أنا؟!

الرجل : أنت شريكته في الجريمتين.

الفتى : أنا بريء (يتناول رزمة من النقود ويضعها في يد الرجل) وهٰذا المال مالي.

الرجل : أترشوني يا رجل مرتكبًا بذٰلك جريمة ثالثة؟

الفتى : معاذ الله، ولكنّني أؤدّي حقّ الدولة عليّ.

الرجل : حقّ الدولة يمثّل ربع التركة.

(الفتى يعطيه رزمة أخرى)

الفتى : إليك رزمة أخرى دون تعرّض لمناقشة المقدار المستحقّ.

الرجل : والقضيّة وتكاليفها؟... والتحفّظ على المال وتعرّضه للضياع؟

الفتى : أعتقد أنّني أعطيت ما فيه الكفاية.

الرجل : أتعاب المحاماة؟... الرسوم؟... سجنك؟... تعرّض عملك الذي ترتزق منه للخسران؟

(الفتى يعطيه رزمة ثالثة)

الفتى : تذكّر أنّني أعطيتك ثروة.

الرجل : لعلّ هٰذا يكفي بالنسبة لك..

(صمت وتبادل نظرات حائرة)

الرجل : ولكنّ هٰذه السيّدة لم تدفع ملّيمًا بعد؟

الفتاة : إنّي زوجته.

الرجل : قلت إنّني عملت طويلًا في مواطن السواء فلا تحاولي الضحك على ذقني.

الفتى : لقد أعطيت فدية لكلينا.
الرجل : بل فدية لك وحدك!
الفتى : ماذا تريد؟
الرجل : الأتعاب الخاصّة بالسيّدة.
(يعطيه رزمة رابعة)
الفتى : هاك رزمة رابعة.
الرجل : كن كريمًا كسائر القتلة واللصوص.
الفتى : أتريد أن تستولي على نصف التركة؟
الرجل : الأمر يتوقّف على مدى تقديرك لحرّيّتك.
(يقطّب الفتى في قهر ثمّ يسلّمه رزمة جديدة)
الفتى : تفضّل مصحوبًا بالسلامة.
(الرجل يدير ظهره ليذهب. الفتى يسلّ من ملابسه مطواة فيفتح نصلها ويهجم على الرجل. الرجل حذر وكان يتوقّع حركة غادرة فيتفادى من الطعنة ويقبض على معصمه فيلويه ثمّ يلكمه فيسقط على الأرض.
يجيء بكرسيّ فيُجلسه عليه ويُخرج من ملابسه حبلًا ويكبّله بمهارة قبل أن يفيق من اللكمة، وهو يهدّد الفتاة بأنّها إذا ندّت عنها حركة أو صوت فسوف يساقان إلى القسم.
ثمّ يجيء بكرسيّ آخر ويأمر الفتاة بالجلوس مهدّدًا ويكبّلها بحبل آخر. يتّجه نحو النقود على الخوان فيستولي عليها ثمّ يلفّها في الحصيرة. يلقي عليهما نظرة ثمّ يذهب.
الفتى يفيق من أثر اللكمة. ينظر فيما حوله. يتذكّر ما وقع. يحاول تخليص نفسه ولكن عبثًا).
الفتى : ذهب؟
الفتاة : بعد أن استولى على النقود كلّها...
الفتى : (غاضبًا) لِمَ لم تصرّخي؟... كان يجب أن تصرّخي بأعلى صوتك.
الفتاة : خفت أن يرجع فيضربنا أو يقتلنا.
(يحاول تخليص نفسه مرّة ثانية دون فائدة)
الفتى : سأقتله ولو اختفى في بلاد الواق.
الفتاة : تهوّرك هو المسئول عمّا حلّ بنا، لِمَ حاولت الهجوم عليه؟
الفتى : ليس من مبادئي أن أسمح لإنسان باستغفالي.
الفتاة : ها هو قد ذهب بالثروة كلّها.
الفتى : سيكون التنكيل به هو هدفي الأوّل في الحياة.
الفتاة : وقد تحقّق هدفك ولكنّ الحلم السعيد تبدّد.
الفتى : سأقبض على عنقه عاجلًا أو آجلًا.
الفتاة : ولا شاهد أو دليل لدينا عمّا حصل.
الفتى : المهمّ الآن أن نتحرّر من قيدنا.
الفتاة : نحن مقيّدان في بيت مغلق النوافذ والأبواب.
الفتى : ويعزّ عليّ أن أتصوّر أنّ الثروة حقًّا ضاعت.
الفتاة : هي الحقيقة الأليمة، وربّما تقتله ولكنّك لن تستردّ مليّمًا من ثروتك.
الفتى : لم يعبث بي أحد من قبل.
الفتاة : ها قد عبث بك كأنّك لا شيء.
الفتى : أين المفرّ؟... إنّه يعمل في دائرة هذا القسم.
الفتاة : إذا كان حقًّا مخبرًا.
الفتى : ولِمَ لا يكون مخبرًا؟
الفتاة : كان يجب أن تطالبه بإبراز بطاقته الشخصيّة.
الفتى : أعترف بأنّني لم أحسن التفكير ولا التدبير.
الفتاة : أنت مغرور، تتوهّم أنّك إله ثمّ تقع كالرطل.
الفتى : كيف أصدّق ما حصل؟
الفتاة : قلبي يحدّثني بأنّه ليس مخبرًا.
الفتى : هو مجرم محترف على أيّ حال.
الفتاة : ويخيّل إليّ... ربّما لم يكن إنسانًا أيضًا!
الفتى : ماذا تعنين؟
الفتاة : أعني أنّنا في بيت وليّ: وهو وكر للأرواح والشياطين.
الفتى : أنت حمقاء، لا يسرق النقود إلّا إنسان

عاقل.

الفتاة : تذكّر كيف اقتحم علينا المكان وكيف ذهب.

الفتى : جاء كما يجيء المجرم وذهب بما يذهب به المجرمون.

الفتاة : أنت لا تحسن الرؤيا عند الانفعال.

الفتى : أنت حمقاء، هٰذه حقيقة مفروغ منها.

الفتاة : لنفكّر في حالنا، نحن مقيّدان بطريقة جهنّميّة، البيت محاط بفناء واسع يعزله عن الحارة فلن يسمع صوتنا أحد، الجوّ هنا لا أرتاح إليه، فثمّة روح ميت لعلّه لم يُدفن بعد، وثمّة أرواح كثيرة لا علم لنا بها ولا سيطرة لنا عليها.

الفتى : يا مجنونة، يا مخرّفة، ما هذا الهذيان؟

الفتاة : أنا خائفة.

الفتى : عهدتك دائمًا عربيدة ساخرة فكيف خانتك جرأتك الداعرة؟

الفتاة : إنّه بيت مهجور ألا تدرك ذٰلك؟، جثّة أبيك الآن في المشرحة وستدفن كجثّة رجل مجهول، ولن ينبس المخبر ـ إذا كان حقًّا مخبرًا ـ بكلمة، وسيظلّ البيت مغلقًا مهجورًا زمنًا غير قصير ولٰكنّه يكفي لقتلنا جوعًا وعطشًا، وهناك الأرواح.

الفتى : الأرواح!

الفتاة : أنا خائفة...

الفتى : كيف قيّدنا بهٰذا الإحكام؟... لقد جاء مبيّتًا النيّة على فِعْل ما فَعَل.

الفتاة : وقد يرجع للإجهاز علينا.

الفتى : فليرجع.

(صمت تتخلّله محاولة منه يائسة لفكّ قيده ولٰكن دون جدوى)

الفتاة : كأنّنا في حلم.

الفتى : ولٰكنّه أسخف من الحقيقة.

الفتاة : أحيانًا يكاد يغلبني الضحك.

الفتى : اضحكي إن استطعت.

الفتاة : حتّى حياتنا المألوفة بين المغامرين والمنافسين والأعداء أخفّ وطأة من هٰذا السجن في بيت أبيك.

الفتى : ليرحمه الله.

الفتاة : ادعه أن ينقذنا.

الفتى : (ساخرًا) أبانا الذي في المشرحة.. انقذ ابنك الوحيد.

الفتاة : ماذا كان رأيك في أبيك؟

الفتى : كان دجّالًا كوحيده.

الفتاة : حدّثونا في كلّ موضع عن كراماته.

الفتى : حارة مخبولة مسطولة.

الفتاة : لكنّ الطمأنينة التي بثّها في القلوب حقيقيّة.

الفتى : ردّي إليّ ثروتي وأنا أغرقك في بحر من الطمأنينة.

الفتاة : لم نكن فقراء، ولٰكنّنا لم نعرف الطمأنينة.

الفتى : وما سبيل الطمأنينة إلى خمّارة هي ملتقى للمغامرين، واقعة بين عشرات من الخمّارات المنافسة، في حيّ مكتظّ بالأعداء، ووراء ذٰلك كلّه إحساس ثابت بالمطاردة؟!... كنّا سنرتفع بالثروة فوق ذٰلك كلّه.

(دقيقة صمت)

الفتاة : سيجيء الظلام ونحن مكبّلون بالحبال في هٰذا البيت المسكون.

الفتى : لا فرق بين النور والظلام.

الفتاة : كيف نخرج من هٰذا المأزق؟

الفتى : اصرخي... صوتك أحدّ من الرصاصة.

الفتاة : لن يسمعنا أحد.

الفتى : علينا أن ننتظر حتّى يجيء إنقاذ من حيث لا ننتظر أو يجيء الموت.

(صمت تتخلّله محاولات فاشلة لفكّ القيود)

الفتاة : لِمَ دعاك أبوك؟

الفتى : مات سرّه معه.

الفتاة : ماذا ظننت؟

الفتى : قلت لعلّه حنين قلب عجوز.

الفتاة : لم تقل كلّ الحقّ.

الفتى : وحلمت بثروة!

الفتاة : وقد وهبك ثروة.

الفتى : وضاعت.

الفتاة : ولكنّه أراد أن ترث عمله.

الفتى : فكرة سخيفة.

الفتاة : كان يجب أن تجاريه ولو في الظاهر.

الفتى : لم يكن ليغيّر من الأمر شيئًا.

الفتاة : ربّما لم يكن حدث الذي حدث.

الفتى : أراهن على أنّك فقدت عقلك.

الفتاة : هل حاول أن يلقّنك سرّه وأنت صغير؟

الفتى : نعم.

الفتاة : ولكنّك عصيته؟

الفتى : لو أطعته ما صادفتِني في طريقك أبدًا.

الفتاة : (تضحك... ولا تنبس)

الفتى : حاول معي كثيرًا، لم أفهم كلمة من كلماته، واتّخذت من سلوكي المشين سبيلًا لتحدّيه حتّى طردني...

الفتاة : واحترفت المغامرة بدلًا من الطمأنينة.

الفتى : ورثت عنه الدجل لأستثمره في مجاله الطبيعيّ.

الفتاة : لم أسمع أحدًا يثني عليه مثلك؟

الفتى : إنّي أعاشر مغامرين وكان يعاشر مغفّلين.

الفتاة : رأسي يدور.

الفتى : الحياة الحقّة نقيض الراحة، والرجوع إلى الخرافة تفكير مضحك، لعلّه ينقصنا شيء ولكن لا بدّ من مواصلة حياتنا، ماذا تريدين؟

الفتاة : أن أخرج من هنا سالمة.

الفتى : سنخرج عاجلًا أو آجلًا.

الفتاة : عمّا قليل سيجيء الظلام.

الفتى : فليجئ الظلام.

الفتاة : أنت المسئول عمّا وقع.

الفتى : أنت جبانة.

الفتاة : وأنت وغد.

الفتى : فلنتسلّ بتبادل الشتائم حتّى تنكشف عنّا هذه الغمّة.

الفتاة : أو حتّى يحلّ بنا الموت.

الفتى : أو حتّى يحلّ بنا الموت.

(الفتاة تبكي من القهر. وهو يضحك ضحكة عصبيّة)

الفتاة : إنّه يؤدّبك.

الفتى : مَن؟

الفتاة : أبوك.

الفتى : لم يستطع أن يؤدّبني وهو حيّ، وهو أعجز عن ذلك وهو ميت.

الفتاة : بين حدث وحدث توجد أسباب خفيّة.

الفتى : بين حدث وحدث لا يوجد شيء.

الفتاة : وها قد وقعنا في الفخّ.

الفتى : فخّ لم ينصبه أحد ولكنّا وقعنا بسوء تصرّفنا.

(النور ينخفض منذرًا باقتراب المساء. لحظات من الصمت ومحاولات فاشلة لفكّ القيد)

الفتاة : بدأ الليل يهبط...

الفتى : ليس في وسع شيء أن يمنعه.

الفتاة : كان في وسعنا على الأقلّ...

الفتى : (مقاطعًا في تهكّم) كان يا ما كان..

الفتاة : أكره الظلام، أكره الأغلال، وسوف أجنّ.

الفتى : جرّبي الجنون فهو أكرم من الشعوذة على أيّ حال.

الفتاة : يا لك من وغد قاسٍ كأنّك لم تنعم عمرًا بحبّي.

الفتى : عودي إلى توازنك لنتفاهم كما تفاهمنا دائمًا.

الفتاة : حتّى حبّك ما هو إلّا حبّ مغامر، نوبة من نوبات الأعصاب بلا قاعدة ثابتة.

الفتى : لم يكن ثمّة فردوس في الماضي، ولن يكون ثمّة فردوس في المستقبل، علينا أن نتقبّل الحياة كما هي.

الفتاة : الظلام يتمادى في الاقتراب.

الفتى : فليأتِ الظلام.

الفتاة : إنّك تداري خوفك باللعب بالألفاظ.

الفتى : اللعنة.. في هذا الوقت من اليوم يبدأ النشاط في الخمّارة.

الفتاة : يا لها من نهاية رخيصة!

(يستمرّ انخفاض النور حتّى يحتوي الظلام الحجرة ويختفي الفتى والفتاة. الفتاة تصرخ

مستغيثة ثمّ يسود الصمت)

الفتاة : ألا تحفظ تلاوة تدفع بها الشياطين بعيدًا؟

الفتى : لا أحفظ شيئًا.

الفتاة : إنّي خائفة.

الفتى : لا يوجد هنا سبب حقيقيّ يبرّر الخوف.

الفتاة : ولكنّي خائفة.

الفتى : أنا قريب منك.

الفتاة : ولكنّي لا أراك.

الفتى : فلنغنّ أغنية بذيئة لنهزأ بالظلام.

(الفتاة تصرخ. صمت يتخلّله بكاء خافت. ضوء يتسرّب إلى الحجرة آتيًا من شراعة الباب إلى اليسار)

الفتاة : ألا ترى؟... نور في الداخل. يوجد شخص، البيت مسكون!

الفتى : (بصوت مرتفع) مَن بالداخل؟

الفتاة : مفاصلي سابت.

الفتى : مَن بالداخل؟

(يُفتح الباب. يظهر الغلام وبيده مصباح. يتقدّم ثمّ يتوقّف عندما يرى الفتى والفتاة)

: أنت!... أكنت بالداخل طيلة الوقت؟

الغلام : ظننت أنّكما ذهبتما.

الفتاة : ألا ترانا مكبّلين بالحبال؟

الغلام : ولِمَ فعلتما ذلك بنفسيكما؟

الفتاة : هل تسخر منّا يا غلام!

الفتى : أكنت موجودًا بالداخل؟... أعني ألم تغادر البيت؟

الغلام : رجعت مع المساء لأشعل المصابيح.

الفتى : لماذا؟

الغلام : إكرامًا لروح الشيخ يوم وفاته.

الفتى : ضعِ المصباح وتقدّم لحلّ عقدتنا.

(الغلام يمضي إلى الكونصول فيضع المصباح ويتّجه راجعًا نحو الباب).

: يا غلام.

(الغلام يتوقّف)

: تعالَ.

الغلام : ماذا تريد يا سيّدي؟

الفتى : كيف لا تدري ماذا نريد؟

الغلام : أمرني الشيخ قبل ذهابه بألّا أقدّم لك أيّة مساعدة إذا أهملت تركته.

الفتى : ولكنّه غير معقول أن تتركنا على هٰذه الحال.

الغلام : لا أستطيع أن أخالف لمولاي أمرًا.

الفتاة : لا يمكن أن تعني ما تقول، إنّك غلام طيّب ونبيل...

الفتى : وأنا ابن مولاك يا شاطر ولا يرضيك أن تتركنا في هٰذا المأزق.

الغلام : لن أعصي لمولاي أمرًا.

الفتى : مولاك لم يتصوّر أنّنا سنقع في هٰذه الورطة.

الغلام : سامحك الله.

الفتاة : لصّ أثيم نهب ثروة مولاك وكبّلنا بالحبال.

الغلام : عليّ أن أذهب.

الفتى : لا تُغضب مولاك في قبره.

الغلام : مولاي ارتفع إلى السماء.

الفتى : لا تُغضب مولاك في سمائه.

الغلام : ما دمتُ لا أعصيه فلن يغضب.

الفتى : أتعتقد أنّه يرضيه أن نُترك هٰكذا بدون مساعدة؟

الغلام : لا أدري.

الفتى : أؤكّد لك أنّ ذٰلك سيحزنه غاية الحزن.

الغلام : لا أدري.

الفتى : أقْدِمْ ولا تخف.

الغلام : لن أعصي لمولاي أمرًا.

الفتاة : من أجل خاطري، لا يمكن أن تمتنع عن مساعدة امرأة.

الغلام : إنّي ذاهب.

الفتى : انتظر،... ألا ترى، إنّي أريد تركة أبي الحقيقيّة.

الغلام : أنت تعلم بمكانها.

الفتى : ولكنّي لا أستطيع الانتقال إليها.

الغلام : سبق أن نبذتها.

الفتى : أنا نادم على ذٰلك!

الغلام : لن أعصي لمولاي أمرًا.

(الغلام يستأنف السير)

الفتاة : على الأقلّ بلّغ الأمر إلى الشرطة.

(الغلام يواصل السير دون مبالاة)

الفتى : هل ستبلّغ الشرطة؟

الغلام : كلّا.

(الغلام يختفي ثمّ يغلق الباب)

الفتى : ملعون ابن ملعون...

(الفتاة تعاود البكاء)

الفتى : كفى... كفى وإلّا...

الفتاة : قضي علينا بالهلاك.

الفتى : لقد رجع الغلام، وربّما رجع مرّة أخرى، ولعلّ غيره يجيء.

(صمت قصير ثمّ يواصل حديثه)

الفتى : يخيّل إليّ أنّ العجوز استدرجني إلى بيته لينكّل بي. الطيبة كانت حرفته لا طبيعته، وآي ذلك أنّني منحدر من صلبه، غير معقول أن تكون أمّي مسئولة وحدها عن دمي العربيد، ولبّيت نداءه وأنا في غفلة من مكره فتتابعت الأخطاء...

الفتاة : كفاك قذفًا فالبيت مسكون!

الفتى : مسكون بأرواح أسرتنا العريقة في الشرّ.

الفتاة : ليس الغلام غلامًا ولا المخبر مخبرًا... وسوف تقع كوارث ليست في الحسبان.

الفتى : فلتقع الكوارث بغير حساب.

(صمت... ثمّ تنزل الستار)

* * *

ترفع الستار. ضوء النهار يملأ الغرفة رغم أنّ المصباح ما زال مشتعلًا. الفتى والفتاة نائمان ورأساهما مطروحان على مسندي الكرسيّين.

يُسمع صوت الباب الخارجيّ وهو يُفتح ثمّ وهو يغلق.

يدخل رجل ضخم أنيق الملبس ولكنّنا نعرف فيه المخبر في ملبس جديد وهيئة جديدة يتبعه سكرتير وضابط من الشرطة.

الفتى والفتاة يستيقظان. يبدو عليهما الإرهاق. ينظران إلى القادمين بذهول فلا يعرفان حقيقة الشخص الفخم.

الضابط : مَن أنتما؟... مَن فعل بكما ذلك؟

الفتى : مَن حضرتك؟

الضابط : ضابط النقطة.

الفتاة : أنقذنا من فضلك.

(الضابط يحلّ وثاقهما. يقفان وهما يتأوّهان. يحرّكان أعضاءهما ليستعيدا توازنهما)

الضابط : مَن أنتما؟

الفتى : أنا ابن صاحب البيت أعني وليّ الله المتوفّى.

الفتاة : وأنا الزوجة.

الضابط : ماذا حدث لكما؟

الفتى : هاجمنا مجرم غدرًا ثمّ سرقنا وذهب.

الضابط : سأفتح لكما محضر تحقيق بعد قليل.

الفتى : هل أبلغك الغلام عنّا؟

الضابط : أيّ غلام؟

الفتى : غلام الشيخ المتوفّى.

الضابط : كلّا، لقد جئت في صحبة المهندس لمعاينة البيت الذي يرغب في شرائه ظنًّا منّا بأنّه بيت خالٍ ولا وريث له!

(الفتى والفتاة ينتبهان لأوّل مرة للمهندس فتلوح في وجهيهما الدهشة والانزعاج. يتبادلان النظرات ثمّ يحدّقان في المهندس بذهول)

الضابط : مالك؟

المهندس: لماذا تنظران إليّ هكذا؟

الفتى : أنت!

الفتاة : هو... جسمه وصوته ووجهه.

المهندس: ماذا تعنيان؟

الفتى : أنت دون غيرك، أيّها المجرم!

(ينقضّ عليه ولكنّ الضابط والسكرتير يحولان بينهما. المهندس يتراجع دهشًا مستنكرًا)

الضابط : أيّ مجرم تعني؟... المهندس أكبر مقاول في الجمهوريّة.

الفتى : هو المخبر... هو اللصّ... هو الذي سرقنا..

(المهندس والسكرتير والضابط يضحكون)

الضابط : اضبط لسانك.

السكرتير: يا لها من نكتة.

الفتاة : هو المخبر.

الفتى : هو المجرم.

الضابط : كفى هذيانًا!

المهندس: ترفّق بهما يا حضرة الضابط، تذكّر كيف قضيا ليلتهما في هٰذا البيت.

الفتى : لا تحاول خداعي.

الضابط : إنّك تهين رجلًا ولا كلّ الرجال، رجل أدّى لوطنه أجلّ الخدمات في ميدان الهندسة.

(الفتى والفتاة يتبادلان النظرات الحائرة)

الفتى : خبّرني يا حضرة الضابط هل عندك مخبر يشبهه؟

الضابط : كلّا على وجه اليقين.

المهندس: تمالك نفسك من فضلك، لقد عانيت ليلة غاية في السوء، وغير بعيد أنّ المجرم الذي اعتدى عليكما يماثلني في بعض الصفات والخصائص، وأنت نفسك تماثل المرحوم أباك في بعض ملامحه رغم تناقض منهجكما في الحياة فيما يبدو لي، وسوف يقبض الضابط على المجرم ويردّ إليك مالك، هل فقدت مالًا كثيرًا؟

الفتى : أنت أدرى بمقداره.

الضابط : رجع إلى الهلوسة مرّة أخرى!

الفتى : أؤكّد لك أنّ هٰذا الرجل هو المجرم الذي اعتدى علينا.

الضابط : كُفّ عن هذيانك، من صالحك أن تكفّ عنه.

السكرتير: ثمّة أحقاد غريبة تستقرّ في نفوس الشباب، فإذا تعرّض أحدهم لهزّة نفسيّة استمدّ من حقده الدفين آراء هدّامة وراح يرمي بها كبار ذوي النشاط الناجح من الرجال الممتازين في المجتمع.

الضابط : هل أنت من هٰؤلاء الشبّان؟

الفتى : إنّي ضحيّة وقد حللت بنفسك وثاقي.

الضابط : ولكنّك لم تستردّ عقلك بعد.

المهندس: يجب أن تستردّ عقلك سريعًا لأتمكّن من إنجاز مهمّتي.

(صمت قصير)

الفتاة : وما مهمّتك؟

المهندس: إنّي أرغب في شراء هٰذا البيت القديم لأقيم مكانه مصنعًا للأجهزة الإلكترونيّة.

الفتاة : ألم تحاول الاتّفاق مع صاحبه قبل وفاته؟

المهندس: حاولت وعرضت عليه بيتًا جديدًا في مطلع الحيّ، ولٰكن كان لكلّ منّا لغة يستعصي على الآخر فهمها!

الفتى : إذن فأنت تعرف البيت وكنت تعرف صاحبه؟

المهندس: وكان أبي رحمه الله من مريديه أيضًا!

الفتى : أنت إذن. . .

(الفتاة تجذبه من ذراعه مانعة إيّاه من تكملة كلامه، وتنتحي به جانبًا)

الفتاة : تمالك نفسك.

الفتى : لكنّه هو عينه.

الفتاة : لندع ذٰلك للتحقيق، المهمّ الآن بَيْع البيت.

الفتى : سيشتري بمالي.

الفتاة : لا يجوز أن تخرج من المولد بلا حمّص.

الفتى : الجنّ الأحمر نفسه لا يستطيع خداعي!

الفتاة : انْسَ شطارتك الآن وأجّل مشروعاتك.

(يعودان إلى الجماعة)

الفتاة : اغفر له تهوّره يا سيّدي المهندس إكرامًا لذكرى أبيه الطيّب!

المهندس: ليرحمه الله رحمة واسعة.

الفتى : أكنت تؤمن به؟

المهندس: كنت أحبّه.

الفتى : هل شهدت احتضاره؟

المهندس: لكنّني مشيت في جنازته، أين كنت أنت؟

الفتى : كنت موثقًا بحبال المجرم الأثيم.

المهندس: حضرة الضابط كفيل باسترداد ثروتك الضائعة، وما عليك الآن إلّا أن تتقبّل وضعك بالطمأنينة التي بشّر بها أبوك.

الفتى : ولكنّك لم تؤمن به؟

المهندس: (ضاحكًا) كان يقول لي «الطمأنينة هي هدف النفس البشريّة» فأقول له «بل التقدّم يا مولانا ولو بالجهد والقلق».

الفتى : ولو بالاعتداء والنهب!

الفتاة : لنعد إلى مشروع المصنع.

المهندس: ثبت الآن أنّ للبيت وريثًا، وعليه فلا بدّ من انتظار الإجراءات الخاصّة بإثبات الوراثة.

الفتاة : إنّه بيت كبير وذو موضع ممتاز على مشارف الصحراء، ولا تنسَ أثاثه القديم النادر!

المهندس: لا حاجة بي إلى الأثاث.

الفتاة : والكتب التي صنعت المعجزات؟

المهندس: لديّ ما أحتاج من كتب ومعجزات!

الفتاة : أظنّ آن لنا أن نتكلّم عن الثمن.

المهندس: لن أبخسكم حقّكم، وسنتكلّم عن ذلك في حينه، (المهندس يستأذن في الانصراف. وقبل أن يذهب يلتفت إلى الفتى ويسأله)

: وأنت... ما مهنتك؟

الفتى : صاحب خمّارة.

المهندس: (ضاحكًا) لست مقطوع الصلة بأبيك، فالناس يقصدون الخمّارة طلبًا للطمأنينة أيضًا.

(المهندس وسكرتيره يذهبان)

(يقترب الضابط من الفتى والفتاة قائلًا)

الضابط : آن لنا أن نبدأ التحقيق.

ستار

النّجاة

حجرة جلوس. في الوسط مدفأة حائط مشتعلة. إلى اليمين من المدفأة باب حجرة النوم وإلى اليسار منها باب حجرة المكتب. في نهاية الجانب الأيمن لحجرة الجلوس باب هو باب الشقّة. إلى اليسار يوجد بار وتلفزيون. رجل يجلس على مقعد كبير أمام المدفأة، يرتدي روبًا، ويطالع في كتاب.

جرس الباب الخارجيّ يرنّ بغتة رنينًا متواصلًا.

يقوم الرجل إلى الباب، يفتحه، تندفع إلى الداخل امرأة جميلة مرتدية معطفًا وبيدها حقيبة. تندفع وكأنّها تجري ثمّ تقف وهي تلهث... الرجل ينظر إليها بدهشة ودون أن يغلق الباب. واضح من نظراته أنّه لا يعرفها ولم يكن ينتظرها.

الرجل : (بتردّد وارتباك) ولا مؤاخذة... حضرتك؟

المرأة : (بلهفة) أغلق الباب، من فضلك أغلق الباب.

(الرجل يغلق الباب بذهول)

الرجل : وحدك؟

المرأة : نعم.

(يقفان وهما يتبادلان النظرات)

المرأة : إنّي مرهقة، تسمح لي بالجلوس؟

الرجل : تفضّلي.

(يجلسان على مقعدين متقاربين أمام المدفأة. تسند المرأة رأسها إلى يدها في إعياء. يعلو صدرها وينخفض بشكل محسوس. الرجل يتفحّصها بدهشة، ويبدو - رغم غرابة الموقف - أنّ محاسنها أثّرت فيه بعض الشيء)

الرجل : أنا وحدي، ذهبت الخادمة عقب إعداد العشاء. ولكنّي سأجيئك بكوب ماء.

(يقوم إلى البار فيملأ كوبًا من دورق ثمّ يقدّمه إليها. المرأة تشرب نصفه ثمّ تضعه على خوان بين المقعدين).

المرأة : آسفة جدًّا لإزعاجك.

الرجل : أنا في خدمتك...

المرأة : شكرًا.

الرجل : يلزمك شيء؟

المرأة : أكرّر الأسف، الواقع أنّي لا أدري ماذا أقول.

(صمت)

: سلوكي يتطلّب تفسيرًا ولكنّي لا أدري ماذا أقول.

الرجل : استردّي أنفاسك أوّلًا.

المرأة : ماذا أقول؟، مهما يكن فإنّي أتوسّل إليك أن تكرمني..

الرجل : وهل في ذلك شكّ؟

المرأة : أعني أن تعاملني معاملة تليق بامرأة في أشدّ حاجة إلى...

الرجل : إلى؟

المرأة : الحماية!

الرجل : ماذا يهدّدك؟...

(صمت)

: (مستدركًا) لكنّي لم أتشرّف بعد؟

المرأة : لا يهمّ هذا على الإطلاق.

الرجل : ولكنّه ضروريّ فيما أعتقد.

المرأة : كلّا، لن يقدّم ولن يؤخّر!

الرجل : لن أضايقك، ولكن ثمّة سؤال آخر، هل قصدتني بالذات؟... هل تعرفينني؟

المرأة : بابك أوّل باب فتح لي، هذا كلّ ما هنالك...

الرجل : هل طرقت أكثر من باب؟

المرأة : نعم.

الرجل : ماذا يهدّدك؟

المرأة : أكرمني بألّا تخبر أيّ طارق عنّي!

الرجل : (بقلق) هل يُتوقّع مجيء من يتعقّبك؟

المرأة : نعم.

الرجل : رجل أم امرأة؟

المرأة : رجل!

الرجل : (بعد تردّد) زوجك؟ .

المرأة : كلّا.

الرجل : صديق؟... قريب؟

المرأة : ألا تتكرّم بحمايتي دون تحقيق؟

الرجل : ولكن...

المرأة : (مقاطعة) لعلّك تعمل حساب أهل بيتك؟

الرجل : لا يوجد في البيت سواي.

المرأة : ولكن عمّا قليل سترجع زوجتك؟

الرجل : لست متزوّجًا.

المرأة : تنتظر ولا شكّ أحدًا ممّن يقيم معك؟

الرجل : إنّي أقيم هنا بمفردي.

المرأة : عظيم، ستكون المهمّة سهلة لو تكرّمت بالموافقة.

الرجل : ولكن يلزمني بصيص نور.

المرأة : لن يمسّك سوء!

الرجل : ولكنّي أودّ أن أعرف المسئوليّة التي سأتحمّلها!

المرأة : لن تمضي ساعات حتّى أغادر مسكنك إلى الأبد كأنّي شيء لم يكن.

الرجل : (مداريًا ارتباكه بابتسامة) ستظلّين شيئًا لا يمكن نسيانه.

المرأة : غزل أم تحقيق؟

الرجل : كنت أفضّل أن يكون غزلًا خالصًا.

(صمت)

: إذا شرّفتني وقتًا ثمّ ذهبت دون أن يعلم أحد فلا حرج، ولكن إذا جاء أحدهم يتعقّبك فيلزمني بصيص نور قبل أن أنكر وجودك.

المرأة : لن تقع عليك مسئوليّة ما.

الرجل : بل قد أُجرّ إلى متاعب لا تخطر ببال!

المرأة : لا تهوّل.

الرجل : لا تتركيني في ظلام.

(صمت)

: أرجوك، لا تضطرّيني إلى...

المرأة : إلى تسليمي لأوّل طارق!

الرجل : أرجوك أن تفهمي موقفي جيّدًا.

المرأة : إنّي أتعلّق بأمل وحيد، ببقيّة من الشهامة البطوليّة القديمة.

الرجل : من المؤسف أنّ عهد الفروسيّة والملاحم قد ولّى...

المرأة : في حالة اليأس يفزع القلب إلى زمن الأساطير!

الرجل : أنا يا سيّدتي رجل بلا أسطورة...

(صمت)

: فكّري من فضلك وأجيبي...

المرأة : لكنّي عاجزة تمامًا.

الرجل : قبل أن تفوت الفرصة؟

المرأة : كن كريمًا إلى النهاية.

الرجل : (غاضبًا) إنّي أشمّ رائحة مقلقة للأعصاب.

المرأة : أيّ رائحة؟

الرجل : جريمة ما!

المرأة : لا تدفعني إلى الانتحار!

الرجل : ماذا فعلت؟

(جرس الباب يرنّ. المرأة تقف فزعة. تهرع إلى باب حجرة النوم. تدخل ثمّ تغلق الباب من الداخل. الرجل يحاول فتح الباب فلا

يستطيع. الجرس يرنّ مرّة أخرى)

: افتحي.

المرأة : كن كريمًا.

الرجل : لا تجرّيني إلى مأزق.

المرأة : كن رحيمًا.

الرجل : سأتصرّف كما ينبغي لي.

المرأة : إذا اعترفت بوجودي هنا رميت بنفسي من النافذة.

الرجل : أنت مجنونة!

المرأة : أنا عاقلة جدًّا.

الرجل : إنّك تجازيني خير جزاء.

المرأة : إنّي آسفة ولكنّني مضطرّة!

الرجل : انتظري... لا تتعجّلي.

(يذهب إلى الباب لاعنًا متسخّطًا. يفتح الباب. يدخل رجل ضاحكًا ثمّ يردّ الباب)

الصديق: كنت نائمًا؟

الرجل : أنت؟ عليك اللعنة!

الصديق: يا له من استقبال.

(يتّجهان نحو المدفأة)

: ماذا حدث في العمارة؟

الرجل : لا شيء!

الصديق: وأنا قادم إلى زيارتك وجدت الشرطة تحاصر العمارة. لم أستطع المرور إلّا بعد س و ج.

الرجل : حقًّا!.. ماذا حدث؟

الصديق: لم أفهم شيئًا، لم يردّ على أسئلتي أحد، ولكن ثمّة حادث أو جريمة، والأمر المؤكّد أنّهم يبحثون عن امرأة هاربة.

الرجل : أين؟

الصديق: في مكان ما بالعمارة، العمارة محتلّة بالقوّات، ألم تشعر بشيء؟

الرجل : أبدًا.

(يجلسان. الصديق يجلس في مكان المرأة. يتشمّم الجوّ بدهشة)

الصديق: رائحة امرأة!

الرجل : ترى أيّ جريمة وأيّ امرأة؟

الصديق: لا تشغل بالك، ستعرف كلّ شيء صباح الغد، ولكنّي أقول إنّه توجد رائحة امرأة.

الرجل : رائحة امرأة؟

الصديق: رائحة زكيّة، هل عندك حبّوبة؟

الرجل : كلّا.

الصديق: وهٰذه الرائحة؟

الرجل : كان ثمّة صديقة تزورني...

الصديق: مبارك عليك، ولٰكن مالك؟

الرجل : على خير ما يرام.

الصديق: كلّا، لست كعادتك...

الرجل : لعلّه البرد.

الصديق: (مشيرًا إلى المدفأة) إنّك تنعم بفردوس في هٰذا الشتاء القاسي.

(صمت)

: أهي ممّن أعرفهنّ؟

الرجل : مَن تعني؟

الصديق: المرأة التي كانت هنا.

الرجل : كلّا.

الصديق: ولِمَ انصرفت مبكّرة؟

الرجل : يكفي تحقيق واحد في العمارة.

الصديق: ذكّرتني، ترى ماذا حدث؟

الرجل : أجل ماذا حدث؟

الصديق: إنّك تعرف عن فيتنام أكثر ممّا تعرف عن شقّة مجاورة في عمارة حديثة.

الرجل : أيّ جريمة؟... وأين اختفت المرأة؟

الصديق: لا تشغل بالك، الجرائم وجبات يوميّة.

الرجل : والمرأة؟

الصديق: قاتلة... شريكة في جريمة قتل... سرّ جريمة ما.

الرجل : وأين يمكن أن تختفي؟

الصديق: لعلّهم عثروا عليها، إلّا إذا كانت أصلًا من سكّان العمارة.

الرجل : فكرة.

الصديق: أو تكون لجأت إلى شقّة ما.

الرجل : لا أحد في اعتقادي إلّا إذا كان له ضلع في الحكاية.

(الرجل يقوم، يبتعد إلى جناح الحجرة

البعيدة عن حجرة النوم. يشير إلى صاحبه أن يتبعه فيلحق به)

الرجل : (هامسًا) أنا واقع في مشكلة.

الصديق: أيّ مشكلة؟

(جرس الباب يرنّ)

: هل تنتظر أحدًا؟

(الرجل يمضي إلى الباب بعد تردّد. يفتح)

صوت من الخارج : تسمح لي بالدخول؟

الرجل : تفضّل.

(يدخل ضابط. يقدّم نفسه)

الضابط : نحن نبحث عن امرأة هاربة في العمارة.

(الرجل يتظاهر بالدهشة ويتساءل)

الرجل : أيّة امرأة؟

الضابط : امرأة هاربة، ويهمّ الأمن العامّ القبض عليها.

الرجل : لم يلجأ إلى شقّتي أحد.

الضابط : حضرتك ربّ الأسرة؟

الرجل : إنّي أقيم بمفردي هنا، (ثمّ مشيرًا إلى صديقه) هٰذا صديق زائر.

الضابط : تسمح بالبطاقة الشخصيّة.

(الرجل يذهب إلى حجرة المكتب ثمّ يعود بالبطاقة. الضابط يقرأها بعناية. ثمّ يقدّم له ورقة مكتوبة ويقول)

: هٰذا إقرار بأنّ المرأة لم تلجأ إلى شقّتك هٰذا المساء، وقّعه بإمضائك، وأودّ أن أذكّرك بخطورة الأمر إذا ثبت ما يخالفه.

(الرجل يوقّع الإقرار. الضابط يتناوله. وينصرف. الرجل يغلق الباب. يعود إلى صديقه حيث كان يقف في وسط الحجرة)

الصديق: الظاهر أنّ الجريمة أخطر ممّا نتصوّر.

الرجل : ليست إلّا إجراءات روتينيّة.

الصديق: لا تشغل بالك، كنت تتحدّث عن مشكلة.

الرجل : مشكلة؟!

الصديق: الضابط شتّت عقلك.

الرجل : ربّما.

الصديق: لنعد إلى مشكلتك.

(صمت)

: ألا تريد أن تحدّثني عن مشكلتك؟

الرجل : جدّ ما هو أهمّ.

الصديق: لا تشغل بالك بهموم لا تخصّك.

الرجل : أليس من الجائز أن تستصدر الشرطة أمرًا بالتفتيش العامّ إذا لم تعثر على المرأة؟

الصديق: جائز.

الرجل : وقد يفتّشون شقّتي!

الصديق: إنّه احتمال ضعيف على أيّ حال.

الرجل : ولٰكنّه جائز.

الصديق: عندك فرصة للتخلّص من الأشياء المحرجة.

الرجل : كيف؟

الصديق: النافذة.

الرجل : العمارة محاصرة.

الصديق: النار.

الرجل : ليست جميع الأشياء قابلة للاحتراق.

الصديق: أنت مجنون، طالما حذّرتك، ولٰكنّ احتمال التفتيش احتمال ضعيف، إنّها امرأة وليست إبرة وسيعثرون عليها عاجلًا...

الرجل : تستطيع أن تقدّم لي خدمة.

الصديق: اسمع، أنت تعلم أنّه لا شأن لي بهٰذه الأمور الخطرة، دع صداقتنا في المنطقة البريئة.

الرجل : نحن في زمن الخوف من الشرطة، أمّا شهامة الأساطير فقد ولّى زمانها!

الصديق: الخوف من شيء حقيقيّ، أمّا الأساطير!

(صمت)

: أودّ أن أطمئنّ عليك.

الرجل : دون أن تقدّم خدمة ما.

الصديق: كلانا يعرف الحدود التي يتحرّك فيها الآخر.

الرجل : إنّي في حاجة إلى الانفراد بنفسي وكلّ ما أطلبه منك أن توافيني بأيّة معلومات جديدة بالتليفون.

الصديق: بمجرّد عودتي إلى مسكني...

(يتصافحان. يوصله حتّى الباب الخارجيّ. يغلق الباب ثمّ يعود مسرعًا إلى باب حجرة

النوم).

الرجل : سيّدتي... تعاليْ... لا أحد بالشقّة سواي.

(تفتح الباب. تخرج. يقفان وجهًا لوجه)

: إنّك تلقين بيأسك فوق رأسي.

المرأة : جئت باندفاع لا اختيار فيه ثمّ وقعت في فخّ.

الرجل : سيعودون للتفتيش.

المرأة : لا تهتمّ بي فإنّي أعرف كيف أتصرّف.

الرجل : إنّي لا أهتمّ بنفسي في الواقع.

المرأة : هٰذا حقّك وإنّي آسفة لحدّ الموت.

الرجل : إنّك تخلّفين لي مشاكل ومضاعفات.

المرأة : لم تعد بيدي حيلة.

الرجل : لِمَ تبحث الشرطة عنك؟

(صمت)

: لِمَ تبحث الشرطة عنك؟

المرأة : إنّهم يبحثون عن كثيرين...!

الرجل : شركائك؟!

المرأة : وغيرهم..

الرجل : (محتدًّا) ماذا تعنين؟

المرأة : (باسمة) سمعت ما دار بينك وبين صديقك.

(صمت وهو ينظر إليها غاضبًا)

الرجل : تهدّدينني؟

المرأة : ربّما كنّا في الهوى سوا.

الرجل : افتراء.

المرأة : آسفة.

الرجل : أنا رجل محترم.

المرأة : وأنا امرأة محترمة.

الرجل : هٰذا يتوقّف على مضمون الاحترام عند كلينا.

المرأة : بمعنى آخر فكلانا غير محترم.

الرجل : هل نمضي الوقت في جدل وسمر؟

المرأة : إنّي آسفة وحزينة.

الرجل : فاتني أن أعترف للضابط بالحقيقة.

المرأة : لِمَ لَمْ تفعل؟

الرجل : أعترف بأنّني لم أحسن التصرّف.

المرأة : بل أحسنت التصرّف وإلّا لأثرت الشبهة في وجود علاقة بينك وبين المرأة المنتحرة.

الرجل : كانت الحقيقة ستظهر على أيّ حال.

المرأة : ربّما، ولٰكن بعد تفتيش غير مرغوب فيه، ترى ماذا تحوي شقّتك الأنيقة من أسرار خطيرة؟

الرجل : سخريتك تقطع بأنّك معتادة للإجرام.

المرأة : أو غاية من اليأس.

الرجل : ماذا ارتكبت؟

المرأة : محض فعل مألوف في التاريخ ولٰكنّ الشرطة تصفه بأنّه جريمة، وأنت؟

الرجل : لا أسمح بالتحقيق معي، ولٰكن خبّريني أيّ جريمة ارتكبت؟

المرأة : ما أهمّيّة ذٰلك؟... أيّ تحسّن يمكن أن يضيفه إلى موقفنا؟

الرجل : هل عرفوا شخصك؟

المرأة : محتمل جدًّا.

الرجل : ليس مؤكّدًا؟

المرأة : لا يوجد في هٰذه الليلة شيء مؤكّد.

الرجل : جرّبي أن تغادري شقّتي بوصفك امرأة أخرى.

المرأة : لن يدعوني أمرّ دون تحقيق، وغالبًا يوجد مخبر في الطرقة الخارجيّة، وسيجرّونك للتحقيق، وسوف تنكشف الحقيقة.

الرجل : أيّة حقيقة؟

المرأة : حقيقتي وحقيقتك.

الرجل : (غاضبًا) لا تدفعيني للخروج عن حدود اللياقة.

المرأة : معذرة.

الرجل : أنت تؤجّلين الخطر ليس إلّا.

المرأة : لا حيلة لي.

الرجل : لو كنت مكانك...!

المرأة : لو كنت مكاني...؟

الرجل : لسلّمت نفسي إلى الشرطة...

المرأة : هٰذا حلّ طبيعيّ ومعقول لمشكلتك...

الرجل : ولمشكلتك أيضًا ما داموا سيجيئون في النهاية حتمًا.

المرأة : ليس حتمًا!

الرجل : (غاضبًا) ولكنّك تراهنين بحياتي!

المرأة : أمر مؤسف حقًا ولكنّني أفضّل الانتحار على التسليم...

الرجل : افعلي بنفسك ما تشائين ولكن بعيدًا عنّي...

المرأة : ليته ممكن!

الرجل : أيّ قدر قذفني بك.

المرأة : هو الذي رماني إليك.

(تضحك ضحكة عصبيّة)

الرجل : تمزحين كما لو كنت في حفل استقبال.

المرأة : إذا انقطع الأمل فعلينا أن نعاشر اليأس معاشرة حسنة.

الرجل : ولكنّ الأمل لم ينقطع بعد.

المرأة : حقًّا؟

الرجل : أستطيع أن أطردك.

المرأة : سأحاول الانتحار كآخر وسيلة دفاع في يدي...

الرجل : تهدّدينني؟

المرأة : موقف مؤسف مخجل ولكنّني لم أخلقه بإرادتي.

الرجل : أنت مجرمة بالسليقة.

المرأة : (باسمة) لعلّنا من سليقة واحدة.

الرجل : (ثائرًا) لتنشقّ الأرض وتبلعك.

المرأة : أوّل مرّة يعاملني رجل بهٰذه المعاملة.

(الرجل ينقضّ عليها فاقدًا أعصابه ليشدّها ناحية الباب. هي تقاوم بيأس. يقوم بينهما شدّ وجذب.

يختلّ توازنه فيقعان على ديوان ويستمرّ الصراع بينهما. وبالاستمرار لا تكاد تختلف حركاتهما عن مبادلات العشق. ويتغيّر مذاق الصراع وحدّته. ويخلق جوّ جديد لم يكن في الحسبان فتستغلّه الأعصاب المتوتّرة اليائسة. وإذا به يضمّها بين ذراعيه وينهال عليها تقبيلًا.

ينخفض الضوء رويدًا رويدًا حتّى يسود الظلام. ثمّ يعود رويدًا رويدًا حتّى يبلغ حاله الأولى.

الآن كلاهما يجلس على مقعد كما كانا أوّل الأمر.

هي تنظر إلى السقف وهو يرنو إلى نيران المدفأة)

الرجل : ترى ماذا يحدث في الخارج الآن؟

(صمت)

: ترى ماذا يحدث في الخارج؟

المرأة : كما يحدث في الداخل.

الرجل : ماذا تعنين؟

المرأة : جرائم ترتكب باهتمام وجنس يمارس بلا اهتمام.

الرجل : وبلا حبّ؟

المرأة : لحظات عناق تنتزع من بين الكلمات ولّيّ الأذرع.

(صمت)

الرجل : والعمل؟

المرأة : هل تحاول طردي مرّة أخرى.

(صمت)

الرجل : وما جريمتك؟

المرأة : وما جريمتك؟

الرجل : من حقّي أن أسألك وليس ذٰلك من حقّك.

المرأة : من واجبي ألّا أتكلّم.

الرجل : لست على أيّ حال من الشرطة.

المرأة : على سكوتي تتوقّف سلامة آخرين.

الرجل : تزييف نقود؟... مخدّرات؟... دعارة؟... سياسة؟

المرأة : جميعها ظاهرات إجتماعيّة.

(صمت)

الرجل : متزوّجة؟

المرأة : لا أجيب على هٰذا السؤال بعد ما كان.

الرجل : هل كانت أوّل مرّة تخونينه؟

المرأة : ألا ترى أنّني أفضّل الموت على الخيانة؟

الرجل : إذن سلّمت حبًّا وكرامة؟
المرأة : حالة هستيريّة ليس إلّا.
الرجل : نادمة؟
المرأة : لا وقت للندم.
الرجل : هبيني دعوتك مرّة أخرى؟
المرأة : مرّت فترة كافية لبلوغ سنّ الرشد.
الرجل : هل نفترق كغريبين؟
المرأة : كما التقينا!
الرجل : لا شيء يجمعنا؟
المرأة : الجريمة هي ما يجمعنا.
(صمت)
: هل أنت أعزب؟
الرجل : نعم.
المرأة : لِمَ لَمْ تتزوّج؟
الرجل : لم أطعن في السنّ بعد.
المرأة : ومتى تطعن في السنّ؟
الرجل : لعلّي أنتظر أن تجرفني امرأة إلى الزواج، ولكن ألا ترين أنّنا نسمر كأنّنا نستمتع بسهرة طيّبة؟
المرأة : هو خير من الصمت.
الرجل : الأغلال تقترب من أعناقنا.
المرأة : لا تذكّرني بذنبي حيالك.
الرجل : ثمّة فرصة لتجربة الحظّ.
المرأة : وهي؟
الرجل : أن تخاطري بالذهاب.
المرأة : لو كان الأمر يتعلّق بي وحدي لفعلت.
الرجل : تدوسينني في طريقك بلا رحمة.
المرأة : كما داسني آخرون.
الرجل : مالي أنا وذٰلك كلّه!
(يتملّكه غضب مباغت. ينهض قائمًا بعنف. يقبض على ساعدها ليشدّها ولكنّها تخلّص ساعدها بهدوء)
المرأة : كلّا... لا يتكرّر شيء واحد مرّتين بطريقة واحدة.
الرجل : أنت... أنت...
(جرس التليفون يرنّ. ينتقل إليه حيث يوجد على حامل قرب البار)
الرجل : آلو.
: ....
الرجل : تأخّرت.. أين كنت؟
: ....
الرجل : ماذا تقول؟
: ....
الرجل : غير معقول، ألم تعرف السبب؟
: ....
الرجل : شيء عجيب حقًّا.
: ....
الرجل : بخير كما تركتني.
: ....
الرجل : لست وحدي... أقصد أنّي منفرد بهمومي!
: ....
الرجل : أبدًا أبدًا... وحدي كما تركتني.
: ....
الرجل : أنت مجنون.. أيّ أفكار جنونيّة تساورك؟
: ....
الرجل : لا موجب لإساءة الظنّ، إلى اللقاء...
(يضع السّماعة ثمّ يعود إلى مقعده. يتبادل مع المرأة نظرات حائرة)
الرجل : إنّه الصديق الذي كان هنا.
المرأة : وماذا قال لك؟
الرجل : ماذا حصل للدنيا؟.. الشوارع المحيطة بنا غاصّة بالجنود!... مَن أنت؟
المرأة : لست إلّا امرأة سيّئة الحظّ كما ترى...
الرجل : بيدك حلّ هٰذا اللغز.
المرأة : يستوي لدينا أن يُضرب الحصار حول العمارة أو حول الحيّ كلّه.
الرجل : ولكن لا يجمعهم بهٰذه القوّة إلّا شيء خطير.
المرأة : لست هٰذا الشيء.
الرجل : لعلّك الخيط الذي يوصل إليه.
المرأة : جَنِّبْنا مناقشة عقيمة.
الرجل : لن أسمح لك بالقضاء عليّ.

المرأة : ضيّعتَ فرصة الاعتراف بالحقيقة وهي غلطتك.

الرجل : لن أضيع بسبب غلطة.

المرأة : لماذا تعود إلى الغضب ولم يجدّ جديد على الموقف؟

الرجل : الهلاك بات أقرب ممّا تتصوّر.

المرأة : نحن مقامرون، والمقامر العاقل يجب أن يوطّن نفسه على الهلاك.

الرجل : أنت امرأة مقامرة.

المرأة : وأنت أيضًا، لا سبيل إلى النكران.

الرجل : لم أتوقّع أبدًا أن أضيع بمثل هٰذه الطريقة السخيفة.

المرأة : جميع طرق الضياع سخيفة.

الرجل : أودّ أن أقتلك ولو اضطررت إلى قتل نفسي.

المرأة : هاك طريقة سخيفة أخرى.

الرجل : كلّ هٰذا وأنا لا أعرف مَن أنت ولا أدرك شيئًا ممّا يقع حولي.

المرأة : لا أهمّيّة للتفاصيل، حسبك أن تعرف أنّنا مطارَدون، وأنّ حولنا وفوقنا وتحتنا أعداء مصمّمون!

(صمت)

: (وهي تبتسم متودّدة) لا تضخّم سوء الحظّ بالغضب.

(صمت)

: عندي اقتراح.

(ينظر نحوها بامتعاض ودون أن ينبس)

: نحن في حاجة إلى ترفيه.

الرجل : ترفيه؟!

المرأة : لِمَ لا؟... إنّهم يسألون المحكوم عليه بالإعدام عن رغبته الأخيرة.

الرجل : أنت مجنونة.

المرأة : لنشرب كأسين.

الرجل : وما حولنا وفوقنا وتحتنا؟

المرأة : أنا أعتبر نفسي منتهية، وأعترف لك بكلّ أمانة أنّ جانبًا منّي راضٍ كلّ الرضا، ويخيّل إليّ أنّك تماثلني إلى حدّ كبير، وأمامنا وقت غير محدود، فإمّا أن نقضيه في تبادل السباب وإمّا أن نرفّه عن أنفسنا، ما رأيك؟

الرجل : كيف تتحمّل أعصابك الترفيه وهي تتوقّع الموت بين لحظة وأخرى؟

المرأة : هي حال الإنسان بصفة عامّة مع فارق بسيط هو أنّنا أعظم وعيًا بالنهاية.

(صمت)

: فلنجرّب...

(المرأة تقوم إلى البار فتجيء بزجاجة وكأسين. تملأ الكأسين. ترفع إحداهما إلى فم الرجل وتمسك بالأخرى)

: صحّة لقائنا دون تعارف سابق.

(تشرب وتدفع بالشراب إلى فيه فيتقبّله بفتور. ثمّ تملأ الكأسين مرّة ثانية)

: صحّة افتراقنا القريب بعد تعارف عميق!

(تشرب. تنظر إليه بتوسّل حتّى يشرب كأسه أيضًا. ثمّ تملأ الكأسين للمرّة الثالثة)

: صحّة أسباب الهلاك التي لا حصر لها.

(تشرب. يشرب. تملأ الكأسين للمرّة الرابعة)

: صحّة الأحلام التي تقود إلى الهلاك.

(تشرب. يشرب. تنبسط أساريرهما بتأثير الخمر. يملأ هو الكأسين للمرّة الخامسة)

: صحّة الجنس الذي يمارس وسط العنف والشجار.

(تشرب. يشرب. يتأكّد أثر الخمر. يملأ الكأسين للمرّة السادسة)

الرجل : صحّة الشرطة عدوّة الأحلام.

(تشرب. يشرب. يتأكّد أثر الخمر. يملأ الكأسين للمرّة السابعة)

المرأة : صحّة أوّل مَن اخترع حروف الهجاء.

(تشرب. يشرب. يتّضح أثر السكر في الحركة والصوت. يملأ الكأسين للمرّة الثامنة)

الرجل : صحّة أوّل رجل اخترع آلة للزينة.

(تشرب. يشرب. يملأ الكأسين للمرّة التاسعة)

المرأة : صحّة أوّل من كتب رسالة غراميّة.

(تشرب. يشرب. يملأ الكأسين للمرّة العاشرة)

الرجل : صحّة الحلقة المفقودة.

المرأة : صحّة المخبر الواقف بالطرقة خارج الشقّة.

الرجل : صحّتك.

المرأة : صحّتك.

(يغرقان في الضحك. يقفان وهما يترنّحان)

الرجل : لننسَ العمر الذي عشناه فينتهي كلّ شيء.

المرأة : انتهى كلّ شيء.

الرجل : ولكنّي لن أنسى أوّل أمنية داعبت فؤادي وأنا طفل.

المرأة : ما هي؟

الرجل : أن أكون بيّاع كسكسي!

(يغرقان في الضحك)

المرأة : لنستمتع بشيء من الفنّ...

الرجل : فكرة.

(يذهب إلى التلفزيون. يديره. يظهر موقف من فيلم رعاة بقر يشتدّ فيه تبادل إطلاق النار. المرأة تصرخ متراجعة محتجّة فيطفئ الرجل التلفزيون)

الرجل : هلمّي نرقص.

(يرقصان بلا موسيقى. يتعمّد ضمّها إلى صدره. يقبّلها من آن لآن. يتوقّف عن الرقص ويرفعها بين يديه ليمضي بها ولكنّ توازنه يختلّ فيسقطان وهما يضحكان. ينطرحان جنبًا لجنب وهما يضحكان. وهو يقبّلها كلّما سكت عن الضحك. لا مقاومة من ناحيتها ولكنّها تزحف قليلًا وتمدّ يدها فتتناول سمّاعة التليفون. تطلب رقمًا، وفي أثناء الحديث يتابعها الرجل بانتباه قليل لشدّة سكره ولا يكفّ عن تقبيلها)

المرأة : آلو.

: ....

المرأة : مساء الخير، أنت قلق طبعًا، آسفة...

: ....

المرأة : شربت كأسين تحت ظروف اضطراريّة.

: ....

المرأة : لا وقت للإجابة، ليس الظرف مناسبًا، ستعرف كلّ شيء من الصحف...

: ....

المرأة : لا تنتظرني... ولكن ثق من إخلاصي... حتّى آخر لحظة... أستودعك الله.

(تغلق السكّة)

الرجل : تخونيني جهارًا؟

المرأة : الماضي يستحقّ أن نودّعه.

الرجل : عفريتة...

المرأة : سأكون لك إلى الأبد!

الرجل : حتّى الموت.

المرأة : حتّى الموت.

الرجل : ولو امتدّ بنا العمر ساعة كاملة؟

المرأة : ولو امتدّ ساعة وربعًا!

(جرس الباب يرنّ. ينظران نحو الباب بانزعاج رغم سكرهما. ينهضان بصعوبة وتعثّر. تمضي نحو المقعد حيث تركت حقيبتها)

المرأة : سيجدونني جثّة هامدة منتصرة.

الرجل : لن أفتح الباب.

المرأة : سيكسرونه.

الرجل : فلنتّفق على الاعتراف بأنّنا زوجان.

المرأة : قلت للضابط خلاف ذلك.

الرجل : نعترف بأنّنا تزوّجنا عقب ذهابه!

المرأة : هذه فترة كافية لموتنا أمّا الزواج فيستغرق عامًا على الأقلّ.

(الجرس يرنّ متقطّعًا ولكن في إصرار. الرجل يلتفت نحو الباب موليًا المرأة ظهره. المرأة تتناول من الحقيبة أنبوبة. تستخرج منها حبّة. تزدردها ببقيّة كأسها. تترنّح ثمّ تسقط فوق الديوان منكفئة على وجهها، جثّة هامدة. الرجل لم ينتبه إلى ما حدث.

يتردّد بين الوقوف وبين الذهاب إلى الباب.
ينظر وراءه فيرى المرأة منكفئة على وجهها)

الرجل : غلبك السكر؟... نمت؟
(يتأمّلها دون مبالاة بجرس الباب)
: يا لك من شابّة جميلة حقًّا!...
(الجرس يرنّ)
: أضعنا في الخصام وقتًا لا يُعوّض...
(الجرس يرنّ)
: استريحي... تخاصمنا كغرباء على حين تجمعنا طبيعة واحدة.
(يقترب منها، يميل فوقها كأنّما ليقبّلها وإذا بصوت صديقه ينادي من وراء الباب صائحًا «افتح» يمضي مسرعًا نحو الباب فيفتحه ضاحكًا. الصديق يدخل ويغلق الباب وراءه).

الرجل : سَبّبت ركبنا، عليك اللعنة.
الصديق: من المرأة التي عندك؟
الرجل : الغيرة رجعت بك رغم الحصار... يا لك من أحمق ما فكّرت في خيانتك قطّ.
(الصديق ينظر إلى المرأة ويضحك عاليًا)
الصديق: بعض الظنّ إثم.
الرجل : أنت أحمق.
الصديق: متى جاءت هٰذه الحبّوبة؟
الرجل : كانت هنا من قبل زيارتك الأولى.
الصديق: ولِمَ أخفيتها عنّي؟
الرجل : إنّها المرأة التي تبحث عنها الشرطة.
الصديق: كم كأسًا شربت؟
الرجل : لم أفكّر في حصرها.
الصديق: وهل الحبّوبة نائمة؟
الرجل : من السكر والتعب... ولٰكن ما حال الحصار؟
الصديق: القيامة قائمة...
الرجل : وحبيبتي نائمة...
الصديق: إنّها جميلة... مَن هي؟
الرجل : المرأة التي قامت القيامة من أجلها.
الصديق: أنت سكران.

الرجل : السكران لا يكذب.
(صمت)
الصديق: لو صحّ هٰذا...
الرجل : تعاهدنا على الحبّ إلى الأبد.
الصديق: كنت تعرفها؟
الرجل : عرفتها منذ ساعة هجريّة!
الصديق: وما جريمتها؟
الرجل : جريمة قامت لها القيامة.
الصديق: قتل... مؤامرة...؟
الرجل : سألتها فاعترفت لي بحبّها...
الصديق: لعنة الله على البار الأمريكانيّ... خبّرني مَن هي؟
الرجل : امرأة.
الصديق: اسمها، أسرتها، مهنتها؟...
الرجل : لا اسم ولا أسرة ولا مهنة لها.
الصديق: ألا تعرف عنها أيّ شيء؟
الرجل : عرفنا أهمّ شيء وهو أنّنا سنموت بعد ساعة أو ساعتين!
الصديق: إنّك مضجر ولا خير فيك.
الصديق: نحن ننتظر الشرطة فلا تفسد علينا ساعة الانتظار.
الصديق: لا سبيل إلى التفاهم معك، سأذهب، أستودعك الله...
الرجل : مع ألف سلامة.
(يتحرّك الصديق للذهاب. جرس الباب يرنّ رنينًا متواصلًا)
: أخيرًا...
الصديق: (في اضطراب) ماذا أنت فاعل؟
الرجل : سأفتح الباب قبل أن يحطّموه...
(أصوات من الخارج تصيح «افتح... افتح».
الرجل يذهب إلى الباب. يفتحه. تندفع إلى الداخل قوّة من الشرطة المسلّحة على رأسها ضابط غير الضابط الأوّل)
الضابط : أين الحجرة المطلّة على الطريق العموميّ؟
(الرجل يشير إلى حجرة النوم. الضابط

والقوّة يهرعون إلى الحجرة ويختفون داخلها)

الصديق: ما معنى هٰذا؟

الرجل : عليّ اللعنة إن كنت أفهم حرفًا ممّا يقع حولي.

الصديق: يستحسن أن توقظ المرأة، أيّ نوم هٰذا؟

الرجل : ردّ فعل طبيعيّ للإنهاك والاضطراب والسكر، دعها تنعم بآخر هدوء يتاح لها في حياتها!

(فجأة تترامى من الحجرة أصوات طلقات ناريّة كثيرة، تستمرّ وتتزايد. الرجلان ينحطّان على ركبتيهما بحركة قاسية وهما في غاية من الذعر)

الصديق: إنّها معركة...

الرجل : إنّها معركة بكلّ معنى الكلمة...

الصديق: هل العدوّ في الطريق؟

الرجل : ولٰكنّك رأيت الطريق محاصرًا!

الصديق: لعلّه في العمارة القائمة على الجانب الآخر.

الرجل : لا أفهم شيئًا...

الصديق: يجب أن نغادر الشقّة فورًا قبل أن نُصرع بالرصاص.

(الصديق يزحف على أربع حتّى يغادر الشقّة. الضابط يظهر في باب الحجرة. يرى المرأة لأوّل مرّة)

الضابط: هل أصيبت السيّدة؟

الرجل : كلّا... إنّها... إنّها مريضة...

الضابط: الشقّة معرّضة للخطر. غادرها بلا تردّد.

(الضابط يرجع إلى الحجرة. الضرب في تصاعد مستمرّ. رصاصة تصيب المصباح الكهربائيّ فيسود الظلام. شبح الرجل يزحف نحو المرأة. يهزّها ليوقظها)

الرجل : استيقظي... يجب أن تستيقظي...

(يهزّها بشيء من الشدّة)

: سأحملك بين يديّ وأمري لله...

(يحملها بين يديه ويمضي بها نحو الباب بتعثّر ومشقّة وبطء)

: لم يجيئوا للقبض عليك ولا للتفتيش... لقد نجوت يا حبيبتي... ونجوت أنا أيضًا... نجونا معًا. سيمسي اليأس في خبر كان... نجوت ونجوت... وستكونين لي إلى الأبد.

(يغادر الشقّة بحمله. الضرب مستمرّ).

مَشروعُ للمُناقشَة

حجرة الإدارة بمسرح. في الجانب الأوسط من الحجرة يوجد مكتب. أمام المكتب مقعدان كبيران متقابلان. إلى اليسار مكتبة، وباب مغلق يؤدّي إلى الخارج. في الجانب الأيمن كنبة ومقعدان وخوان. على الكنبة يجلس الممثّل والممثّلة. على المقعدين يجلس المخرج والناقد. الجميع في أواسط العمر مع تفاوت.

المخرج : يجب أن نفتتح الموسم بعمل باهر.

الممثّلة : (متنهّدة) الحقّ أنّ الفنّ جمال وعذاب.

الممثّل : (ناظرًا في ساعة يده) متى يحضر الأستاذ؟

الناقد : إنّه في الطريق إلينا.

المخرج : كثرت المسارح واشتدّت المنافسة بينها لدرجة الوحشيّة.

الممثّل : وعلينا يقع عبء المحافظة على القمّة.

الممثّلة : هذا ما قصدته بالعذاب.

الناقد : ترى هل انتهى الأستاذ من كتابة المسرحيّة؟

المخرج : لا أظنّ، ولكنّه سيحدّثنا عن الفكرة العامّة.

الممثّلة : لن يبدأ الموسم قبل أشهر.

(يُفتح الباب إلى اليسار ويدخل السكرتير)

السكرتير: الأستاذ.

(يدخل المؤلّف. يخرج السكرتير ويغلق الباب. المؤلّف متقدّم في السنّ ولكنّه من النوع الذي يتعذّر تحديد سنّه. وهو أنيق المظهر وبادي الصحّة والعافية رغم تقدّمه في السنّ. ينهض المخرج والناقد والممثّل لمصافحته. يذهب لمصافحة الممثّلة في مجلسها. يمضي إلى المكتب فيقف مستندًا إلى مقدّمته. ينتقل المخرجُ والناقد إلى المقعدين المتقابلين أمام المكتب. يعود الممثّل إلى مجلسه إلى جانب الممثّلة)

الناقد : (للمؤلّف) صحّتك عال.

المؤلّف : شكرًا.

المخرج : الجوّ فظيع ولكنّ ضاحيتك مرتفعة الموقع ومعتدلة الجوّ.

المؤلّف : التفكير من شأنه أن يرفع الحرارة.

الناقد : إلى أيّ حدّ يمكن أن نقول إنّ عملك اكتمل؟

المؤلّف : سينتهي على أيّ حال في موعده.

الناقد : إذا أردنا أن نحدّد روايتك الجديدة فأيّ اسم يمكن أن نطلقه عليها؟

المؤلّف : إنّك ناقد لا تخلو من داء النقّاد في غرامهم بالأسماء، أنا لا تهمّني الأسماء، إنّما أبدأ من انفعال معيّن ثمّ أترك الاسترسال لوحي القلم.

الناقد : ولكنّ المسرحيّة بناء، ولا يسع البناء أن يضرب في الأساس ضربة واحدة ما لم تكن الصورة النهائيّة متبلورة بشكل ما!

الممثّل : (في شيء من العصبيّة) سنصل في نقاش غير محدود، أريد أن أطمئنّ إلى وجود بطولة حقيقيّة.

الممثّلة : وأضيف إلى قول زميلي أنّ خير دور تمثّله المرأة هو الحبّ. (ثمّ موجّهة الحديث إلى

المخرج) تكلّم فأنت المخرج...

المخرج : لكلّ رواية أسلوب خاصّ لإخراجها.

الممثّلة : ولكنّ الحبّ ضرورة لا غنى عنها.

المخرج : إنّه ضرورة حقًّا ولكن لا يمكن فرضه على المؤلّف.

المؤلّف : هٰذا كرم منك إذا تذكّرنا محاولاتك السابقة للوثوب فوق رأسي.

المخرج : (ضاحكًا) أنت تؤلّف وأنا أفسّر، فأنت حرّ في تأليفك وأنا حرّ في تفسيري.

المؤلّف : ولكنّي أعرف ما أريد قوله.

المخرج : بل إنّي أعتبر ذٰلك من اختصاصي.

الناقد : الأمر يتوقّف على نوع العمل، ثمّة عمل لا يختلف في تفسيره أحد، وآخر تتعدّد في تفسيره وجهات النظر.

الممثّل : ما يهمّني حقًّا هو دور البطولة، أريد أن أكون بطلًا لا مهرّجًا.

المخرج : ولكنّ المهرّج يمكن أن يكون بطلًا أيضًا.

الممثّل : إنّي أرفض ذٰلك كلّ الرفض.

المخرج : ثمّة زمن يخلق الأبطال وآخر يخلق المهرّجين.

الممثّل : مهرّجون لا أبطال.

المخرج : المسألة نسبيّة.

الممثّلة : سنضلّ في متاهة الآراء، حدّدوا أفكاركم.

الممثّل : حسن، أريد البطولة بالمعنى التقليديّ.

الممثّلة : وأريد أن ألعب دور حبّ لا يُنسى.

الناقد : ويلزمني الوضوح الذي يمكّنني من نقد العمل وتقديمه.

المخرج : أطالب بالحرّيّة الكاملة للتفسير.

المؤلّف : ماذا يبقى لي أنا؟

الممثّل : أن تحقّق لنا مطالبنا الفنّيّة العادلة في صيغة ناجحة تستحوذ على إعجاب الجمهور.

المؤلّف : إنّكم بحاجة إلى سكرتير لا إلى مؤلّف.

الممثّلة : بل نريد تفاهمًا وتعاونًا.

(المؤلّف يغادر موقفه متمشّيًا حتّى منتصف الحجرة وهو مقطّب ثمّ يعود إلى موقفه مستندًا إلى مقدّم المكتب)

المؤلّف : إنّي أحبّ الصراحة، والحقّ أقول لكم إنّه لا وجود لكم قبل أن توجد الفكرة التي تنجزونها.

الممثّل : (في حدّة) بل نحن موجودون قبل أيّ فكرة.

المؤلّف : إذا لم توجد القصّة فأنتم مجرّد أشخاص لا معنى فنّيّ لهم.

الناقد : ألا يؤثّر في خيالك وأنت تؤلّف أشخاص الممثّلين مثلًا؟

المؤلّف : كلّا، إنّي أستغرق في عمليّة الخلق فحسب، ثمّ يختار العمل بعد ذٰلك ممثّليه ومخرجه!

الناقد : هٰذا فرض مثاليّ، ولكنّ الواقع أنّ المؤلّف إنّما يتعامل مع زمان ومكان وجمهور وممثّلين وممثّلات ومخرجين ونقّاد أيضًا!

المؤلّف : (ضاحكًا في سخرية) يا لها من أفكار غريبة عن عمليّة الخلق!

الناقد : لا يمكن أن تترك لخيالك العنان ما دمت مرتبطًا بمسرح ما وجمهور ما وإمكانيّات فنّيّة محدودة.

المؤلّف : أو في كلمة واحدة هي فبركة بلا زيادة.

الناقد : إنّها محاولة صادقة للتوفيق بين خيالك الخلّاق والضرورات بفبركة لا محيص عنها لتقول في النهاية ما تريد قوله وما يتطلّبه الزمان والمكان وما يودّ الناس أن نقوله!

المؤلّف : (بلهجة مزدرية) أصدق وَصْف للفنّ التجاريّ.

الناقد : الفنّ معاملة، والمعاملة نوع من التجارة، والنجاح وجه من وجوه المعاملة.

المؤلّف : هٰذا يعني أنّكم المؤلّف لا أنا.

الناقد : التأليف جماعيّ وإن بدا فرديًّا.

الممثّل : لذٰلك أطالب ببطولة تقليديّة وهو طلب عادل.

الممثّلة : وأطالب بالحبّ وهو مطلب طبيعيّ.

المخرج : وأطالب بالحرّيّة ليتمّ لعملك الكمال المنشود.

المؤلّف : (غاضبًا) تمرّد سخيف مضحك، ولولاي لما كنتم شيئًا مذكورًا.

الناقد : (بلطف) ولولانا ما كنت مؤلفًا على الإطلاق.

المؤلّف : أستطيع أن أكتب مسرحيّة لنفسي!

الناقد : محض كلام، كيف يثبت أنّها مسرحيّة إذا لم يقيّض لها مخرج وممثّلون وجمهور ونقّاد؟!

المؤلّف : (غاضبًا) إنّ مهنتي الخلق لا الجدل، الجدل مهنة العاجزين عن الخلق.

الممثّلة : إنّي أكره الجدل وأخاف عواقبه، وسوف ينتهي بنا إلى خصام مرير بدلًا من عرض مسرحيّ رائع.

الممثّل : ولكن لا خير في مصالحة تجيء على حسابنا.

المؤلّف : من الضروريّ أن أكتب مسرحيّتي بلا قيد أو شرط.

الناقد : لا يجوز أن تهمل الاعتبارات التي عدّدتها.

المؤلّف : إنّي ملزم باحترام الخلق الفنّيّ وحده.

الممثّل : والبطولة؟

الممثّلة : والحبّ.

المخرج : بعض الهدوء، إنّه لم يحدّثنا بعد عن قصّته!

(صمت)

: أستاذنا العزيز، حدّثنا عن قصّتك.

المؤلّف : إنّها مجرّد مشروع وخطوط عامّة.

المخرج : ليكن.

المؤلّف : إنّها قصّة رجل وامرأة.

الممثّل : ثمّة مجال لبطولة.

الممثّلة : ومكان أرجح للحبّ.

المؤلّف : يلتقيان في غابة.

الناقد : غابة؟

المؤلّف : يلتقيان في غابة.

الناقد : ولِمَ غابة؟

المؤلّف : (محتدًا) أنا حرّ.

المخرج : أنا الحرّ.

الناقد : أخشى أن ترجع بنا إلى عهد الرومانسيّة البائد؟

الممثّلة : هو مكان ظريف على أيّ حال، والعري فيه لا يمكن أن يُتّهم بالافتعال.

الناقد : اللقاء اليوم في الشارع، في البصّ، في ملهًى ليليّ.

المخرج : ربّما أراد من الغابة أن تهيّئ له جوًّا موحشًا حافلًا بأخطار الإنسان والحيوان.

الناقد : المدينة أحفل بكلّ ذلك من أيّ غابة.

المؤلّف : (ضاربًا الأرض بقدمه) يلتقيان في غابة.

الممثّلة : بعض الحلم حتّى يُتمّ صورته.

المؤلّف : في الغابة أخطار لا حصر لها فهما يبحثان عن مأوى يحميهما.

الممثّل : ليس في ذلك شيء من البطولة.

الممثّلة : ولكنّه مجال طيّب للحبّ.

الممثّل : لا حبّ بلا بطولة.

الممثّلة : الحبّ في ذاته بطولة.

الممثّل : ليست هي ما أبحث عنه.

المخرج : إنّه يريد أن يقاتل، يقاتل الوحوش، يقاتل المجهول.

الممثّل : أحسنت.

المخرج : ومن ثمّ يوجد الصراع وهو أساس الدراما.

الممثّل : أمّا مجرّد البحث عن مأوى!

الممثّلة : لعلّه يكتب قصّة حبّ؟

الممثّل : الحبّ لا يكفي وحده موضوعًا لمسرحيّة.

المخرج : وأيّ مجال يُترك لحرّيّتي في مسرحيّة بحث عن مأوى؟

المؤلّف : أنا لا أعترف بحرّيّتك المزعومة.

المخرج : أنا المفسّر فأنا حرّ.

المؤلّف : هل تستطيع بحرّيّتك أن تغيّر النهاية؟

المخرج : صدّقني فإنّ حرّيّة المخرج هي زينة العرض المسرحيّ.

المؤلّف : هل تستطيع أن تغيّر النهاية؟

المخرج : لم تحدّثنا عن النهاية.

المؤلّف : يجدان مأوى على درجة من الأمان.

الممثّلة : أراهن على أنّ الحبّ سيبدأ دوره الخالد.

المؤلّف : يحصّنانه ضدّ أهوال لا حصر لها ولا عدّ.

الممثّلة : أكمل... إنّي منتظرة...

المؤلّف : يمضيان أوقات الراحة في عناق حارّ.

الممثّلة : (تقف من الانفعال وتنتقل إلى جنب المؤلّف) ألم أقل لكم؟...

المؤلّف : وفي لحظة من لحظات العناق الحارّ يسقطان جثّتين هامدتين!

(صمت)

(يتبادلان النظرات. تمضي الممثّلة إلى المكتبة على اليسار وتستند إليها مغمضة العينين)

الناقد : جثّتين هامدتين؟

المؤلّف : نعم.

الناقد : وهي النهاية؟

المؤلّف : وماذا تتوقّع بعد ذلك؟

الناقد : ولكن ما أسباب الموت؟

المؤلّف : أيّ سبب تفترضه، لنقل إنّه العناق نفسه!

الممثّلة : (متقدّمة خطوات) الحقّ أنّي لم أفهم شيئًا.

المخرج : وماذا عن الأخطار المحدقة بهما؟

المؤلّف : لم أتمّ دراستي لها بعد، ولكن يمكن القول بأنّهما قد ينجحان في تحصين مأواهما.

الناقد : ستكون نهاية متشائمة.

الممثّل : وبلا بطولة تخفّف من وقعها.

الممثّلة : دور الحبّ غنيّ، ولكنّ النهاية...؟

المخرج : من حسن الحظّ أنّه لم ينته من دراسته، وأنّه لا بدّ أن تسبق النهاية سلسلة من صراعات شائقة...

المؤلّف : (متهكّمًا) ربّما تكون حرًّا في كيفيّة الوصول إلى النهاية التي أختارها ولكن لا حرّيّة لك في تغييرها.

المخرج : (في شبه ثورة) يمكن أن أسدل الستار عند لحظة من لحظات النصر.

المؤلّف : في تلك الحال لن يزعم أحد بأنّ الرواية روايتي.

الممثّل : (وهو يهبّ واقفًا) أنا البطل، أنا الجمهور، وإنّي أرفض الأدوار الهابطة!

المؤلّف : قدّر للسانك قبل النطق موضعه من اللباقة.

الممثّل : إنّي ممثّل قديم، لعبت أدوارًا خالدة، صارعت القدر، صارعت الأبطال، صارعت المجتمع، اليوم يراد منّي أن ألعب دور الهارب، وأن أموت مستهلكًا في عناق حارّ، خبّرني بالله أيّ نوع من الدراما تكون، تراجيديا؟ ملهاة؟

الناقد : أجل... النوع المسرحيّ غير واضح.

المؤلّف : أنا أقدّم مسرحيّات لا أسماء.

الناقد : ولكنّها تنكّبت سبيل الجلال الحقّ.

المؤلّف : الجلال الحقّ، ما زلتم تحنّون إلى القدر والأبطال الخرافيّين وأسطورة المجتمع، ولكنّ القدر لم يعد إلّا موضة بالية، والبطولة الخرافيّة مراهقة، وهل يتمخّض المجتمع إلّا عن لعبة يعبث بها أطفال شرّيرون لم تحسن تربيتهم؟!، إنّي أعرف عملي تمامًا.

الممثّل : إنّي أرفض مسرحيّتك.

الممثّلة : لكنّها ما زالت قصّة حبّ.

الممثّل : إنّك مخطئة يا عزيزتي، تصوّري أن نلتقي في غابة وأن نلوذ بمأوى!، لا مجال للمناجاة أو الحبّ الحقيقيّ، ستكون أعصابنا متوتّرة طوال الوقت، الحبّ لا ينمو في هٰذا الجوّ، مجرّد عناق عصبيّ، يروّح عن نفسه بالشهوة، ثمّ نقع جثّتين، ستكونين طيلة الوقت محدّقة في فزع، مرتعشة الأطراف، مضطربة الأمعاء، دميمة الوجه، مجرّد لبؤة ثائرة ثمّ جثّة هامدة.

الممثّلة : كلّا... كلّا...

الممثّل : ولن يبقى لنا من الحوار إلّا كلمات متشنّجة، واستغاثات معربدة، وهذيان طويل عن الأخطار المحدقة بنا، ثمّ نقع جثّتين هامدتين!

المؤلّف : (محتدًّا) لست إلّا ممثّلًا فلا تجاوز حدّك.

الممثّل : (في غضب وعجرفة) أنا المسرح.. أنا الجمهور..

المؤلّف : لست إلّا ممثّلًا.

الممثّل : (وغضبه في تصاعد) وما أنت؟!... كم من الجمهور رآوك؟... وكم ممّن يرونك يعرفون من أنت؟!

المؤلّف : يا لها من وقاحة!

(الممثّل يرمي المؤلّف بنظرة متوعّدة. الممثّلة تقترب منه بسرعة فتضع يدها على ذراعه

ملاطفة)

الممثّلة : لا يليق بكما الخصام.

الناقد : ترى هل تحلّ بمسرحنا اللعنة؟!

المؤلّف : ليلتزم كلّ بحدوده.

المخرج : الحلم والهدوء، لا تدفعوني إلى اليأس.

الممثّلة : عليك بالتماسك وإلّا فشلنا وأعرض عنّا الجمهور.

الممثّل : إنّ من يسلبني مجدي إنّما يسلبني كرامتي وحياتي.

المؤلّف : لكلّ زمان مجده الخاصّ به.

الممثّل : العبث ببطولتي التي عشقها الجمهور محاولة لقتلي.

المؤلّف : مجدك الحقّ أن تلعب دورك بمهارة أيًّا كان دورك.

الممثّل : ولو كان الهرب والموت بين أحضان امرأة؟

المؤلّف : ولو كان.

الممثّل : سينصرف عنكم الجمهور ولن ينفع الندم.

المؤلّف : الجمهور يودّ أن يرى نفسه.

الممثّل : لا كما هي ولٰكن كما يجب أن تكون.

المؤلّف : على أساس من واقعها الحقيقيّ.

الممثّل : أهٰذه هي الكلمة الأخيرة في البطولة؟

المؤلّف : لا يمكن التنبّؤ بالمسرحيّة التالية.

الممثّل : إذا تجهّمني زماني فعليّ أن أعتزل.

المؤلّف : (متهكّمًا) ها أنت تفكّر في الهروب في حياتك رغم ثورتك عليها فوق خشبة المسرح.

الممثّل : إنّي أرفض مسرحيّتك.

الناقد : (للمؤلّف) فكرتها طيّبة ولٰكن أعد النظر في النهاية.

المؤلّف : (بكبرياء) كلام لا يليق أن يوجّه إلى مؤلّف.

الناقد : هل نسيت تاريخك القديم؟.. هل نسيت روائعك؟

المؤلّف : آخر مسرحيّة خير ما ألّفت حتّى اليوم.

الممثّل : حتّى هٰذه المسرحيّة الشاذّة؟

المؤلّف : ستكون خير ما ألّفت حتّى اليوم.

الممثّل : (صائحًا في غضب وموجّهًا كلامه للجميع) إنّه يضمحلّ وهو لا يدري.

المؤلّف : (في غضب) لست أهلًا لمناقشتي.

(الممثّل يرميه بنظرة غاضبة متوعّدة مرّة أخرى ولٰكنّ الممثّلة تأخذه من ذراعه إلى مجلسها السابق فوق الكنبة)

(صمت)

: (محادثًا نفسه) تعب وعذاب وها هي النهاية، مَن يدري بمتاعب الخلق إلّا من يعانيه؟، ثمّ لا يكفيه ذٰلك فتتمرّد عليه مخلوقاته، وأيّ تمرّدا، تعيب خلقه، تعيبه بكلّ جهل وقحة، تذكّره بعمله القديم كأنّه عاجز عن تكرار نفسه، تتّهمه بالكسل وهي الخامة العاجزة عن تفهّم الجديد، وتبيّن مزاياه، هل يكمل الخلق إذا جاء على هوى المخلوق؟، وقد تدرّجتُ معهم من البسيط إلى المعقّد وها هم ينعتون البسيط بالجلال والمعقّد بالتفاهة، عقول قاصرة فكيف يمكن أن يتمّوا الرحلة الطويلة معي؟!

الممثّل : (مخاطبًا نفسه أيضًا تجنّبًا للخصام) الخلق شيء عظيم أمّا الغرور فلا عظمة له، لسنا مخلوقات ولٰكنّنا شركاء، هو يعرف ذٰلك وإن أنكره حين الغضب، المسرحيّة لا تحيا وحدها، يلزمها مخرج وممثّلون ونقّاد وجمهور، ما قيمة النصر بغير هٰؤلاء؟، هل تبقى الرواية هي هي إذا تغيّر الممثّلون؟، هل تبقى هي هي إذا تغيّر المخرج؟ الحقّ أنّنا خالقون أيضًا، وهو مخلوق لنا بمعنى من المعاني، وجميعنا معذّبون بالخلق، والجزاء ليس عادلًا، إنّنا نعيش فترة ثمّ نختفي كالفقّاعات، أمّا كلماته فتبقى على مدى الأيّام...

(صمت)

الناقد : نريد أن نصفّي الجوّ، وبالاحترام المتبادل نصفّيه لا بالتفاخر.

الممثّل : (آتيًا بحركة تدلّ على الحسرة) إنّي أبكي الأيّام السعيدة الماضية، أخاف ألّا تعود مرّة أخرى، كنت أخطر على خشبة المسرح رمزًا

للإنسان في ذروة نبله ونضاله، وعلى المسرح كانت تتواجه قوى الخير والشرّ وبينهما تقوم الإرادة الحرّة المتوثّبة، والخير لم يكن ينهزم وإن حاقت به هزيمة والشرّ لا ينتصر وإن أحرز نصرًا، ذٰلك أنّ خشبة المسرح لم تكن تخلو من إلٰه عادل.

الممثّلة : (تتأثّر فتقوم لتمشي وهي تتكلّم) أجل، المرأة كانت وحيًا، الحبّ كان دينًا، النور يهزم جيوش الظلام بنصله اللامع، الأمومة مقدّسة، الوفاء مقدّس، الرذيلة شيطان، لا شيء لهو ولعب.

الممثّل : أين الآلهة؟، أين البطولة؟. أين الحبّ؟، أين الأمل؟، لم تبق إلّا غابة مليئة بالوحوش، وآدميّان هاربان لائذان بكهف، لم يبق إلّا الخوف والتوجّس والهستيريا والموت، أيّ دور هٰذا؟!

(الممثّل يقف منفعلًا ثمّ يهتف بصوت مرتفع)

: إنّي أرفض مسرحيّتك.

المؤلّف : لا تتخطّ حدودك.

الممثّل : لم أتخطّ حدودي.

المؤلّف : لا تحلم كالمراهقين.

الممثّل : لا تتخطّ حدود اللياقة.

(صمت)

المؤلّف : هٰذا هو مشروع روايتي الجديدة، وإنّي مقتنع به.

الممثّل : إنّي أرفضها.

الممثّلة : (بصوت منخفض) على العين والرأس ولكن...

المخرج : عملي يبدأ بعد انتهاء عملك.

الناقد : لا أدري هل يبكي المشاهد أو يضحك؟

المؤلّف : لم يكن أحد يجادلني فيما مضى.

الممثّل : كان العمل رائعًا.

المؤلّف : المؤلّف الحقّ يطالب بالطاعة والإعجاب.

الممثّل : (متهكّمًا) الطاعة والإعجاب؟!

المؤلّف : (منفعلًا بالغضب) وإلّا هدمت المسرح على مَن فيه.

الممثّل : إنّي أشهدكم على ما يقول.

المؤلّف : من حقّي أن أقول ما أعتقده.

الممثّل : تحت شرط ألّا تمسّ كرامة الآخرين.

المؤلّف : لقد خلقت منكم نجومًا وكواكب ولن يعجزني أن أخلق غيركم.

الممثّل : الحقّ أنّنا نحن الذين خلقناك.

المؤلّف : لو تخلّيتُ عنك لتسوّلتَ حتّى الموت.

الممثّل : لولاي لما نجحت لك رواية واحدة ولبثت مؤلّفًا ناشئًا!

(الممثّل يتقدّم إلى الممثّلة فيأخذ بيدها متّجهًا في تحدٍّ إلى المؤلّف)

: هل نسيت فضل هٰذه الفنّانة؟. أو حسبت أنّ الجمهور يتدفّق علينا من أجلك؟

المخرج : (للمؤلّف ممتعضًا) وأنا يا أستاذ؟. هل نسيت عروضي الرائعة؟

الناقد : (للمؤلّف أيضًا) سامحك الله، وقلمي الذي كرّسته للإشادة بعبقريّتك؟، إنّ الناس لا تثني عليك إلّا بكلماتي...

الممثّل : (غاضبًا) نحن الذين خلقناك.

المؤلّف : سأعهد بعملي إلى آخرين، اغربوا عن وجهي.

الناقد : لكلّ مسرح رجاله، ونحن رجال هٰذا المسرح.

المؤلّف : إذن لن تقدّم به مسرحيّات بعد اليوم.

المخرج : سيغلقه الظلام ويدركه العدم.

المؤلّف : لن أتضوّر جوعًا، إنّي رجل لم تغره الحياة الدنيا مثلكم، ولٰكنّكم ستتسوّلون في مجرى عامّ.

الممثّل : ولٰكن لن تخلق، وهو ألعن من التسوّل.

المؤلّف : حسن، فليمضِ كلّ إلى سبيله.

(صمت)

الناقد : لقد حلّت اللعنة بمسرحنا.

الممثّلة : قلبي يتمزّق.

المؤلّف : أنتم المسئولون عن ذٰلك.

الممثّل : أنت وحدك المسئول.

المخرج : مسرح عريق في القدم والنجاح.

الممثّلة : يئس من اللحاق به الأعداء.

المؤلّف : وبطرت نعمته أصحابه.

الناقد : لا أصدّق، لن يهون أمره على أحد منّا (ثمّ موجّهًا الخطاب للمؤلّف) وأنت على وجه الخصوص، ليست أوّل مرّة يعصف بك الغضب...

المؤلّف : (مشيرًا إلى الممثّل) جاوز حدود اللياقة باستهانة لا تُغتفر.

الناقد : ما تزال قابلة للغفران.

المخرج : لن يدرك مسرحنا العدم ولو اضطررنا إلى إعادة تقديم الروايات القديمة.

المؤلّف : هٰذا هو الإفلاس، ولن يخفى على أحد.

(صمت)

الناقد : لنكن إيجابيّين في حوارنا، أصغوا إليّ، يمكن استخلاص عنصر صراع بطوليّ من مجرى الرواية.

الممثّلة : (بلهفة) كيف؟

الناقد : الرواية ما زالت مشروعًا، وقد قال الأستاذ إنّ الرجل والمرأة سيلوذان بكهف، أليس كذٰلك؟

الممثّلة : بلى.

الناقد : إنّه كهف كبير، لاذ به كثيرون..

(ينظرون إلى المؤلّف مستطلعين فلا يعترض)

: لدينا كهف وسط غابة مليئة بالوحوش والأخطار المجهولة، وهو في الوقت نفسه مكتظّ بالناس، ثمّة فرصة لقيام صراع ما بين بطلنا وبين أحد أو أكثر من الآخرين...

الممثّل : صراع سخيف!؟ غير بطوليّ، إذا كانت الأخطار تحدق بالكهف من كلّ جانب، فكيف يجوز أن يقوم صراع بينهم؟

الممثّلة : وكيف يطيب الحبّ في مثل ذٰلك الجوّ؟!

الناقد : قد يكون صراعًا غير منطقيّ ولكنّه ممكن إذا قيس بمقاييس الطبيعة البشريّة، وبخاصّة إذا توفّرت أسبابه...

الممثّلة : أسبابه؟

الناقد : المرأة، عدم وفرة الماء والغذاء..

الممثّل : الصراع الحقّ هو ما قام بين البطل والوحوش، أو بينه وبين المجهول.

(ينظرون جميعًا إلى المؤلّف مستطلعين)

المؤلّف : (بفتور) ثمّة مجال لصراع في الداخل وآخر في الخارج.

الناقد : يسعدني أن نعود إلى المناقشة.

المؤلّف : لم أفرغ من عملي بعد.

الناقد : المناقشة تفتح الأبواب.

المؤلّف : ولكنّها تفسح المجال للرغبات الشخصّية التي لا تمتّ إلى الفنّ بصلة.

الممثّل : رغباتي فنّيّة وليست شخصيّة.

الممثّلة : (في رقّة متناهية) النهاية مهمّة جدًّا.

المؤلّف : المؤلّف يكتب مسرحيّات متتابعة، لكلّ مسرحيّة شخصيّتها المستقلّة، ولكنّها في مجموعها مسرحيّة كبرى ذات نهايات متكاملة.

الممثّل : ما يهمّنا الآن هي مسرحيّة الافتتاح.

المؤلّف : لم أفرغ من عملي بعد.

الممثّلة : ليكن صراع من أيّ نوع كان ولكن يجب أن ينتهي بانتصار الحبّ.

المخرج : كيف يمكن استخلاص إيقاع غراميّ من ضجيج الغابة الموحشة؟!

الممثّلة : (بحدّة) إذن الأفضل ألّا يكون للمرأة دورا

الممثّل : ما أجمل أن ينتهي الصراع في الداخل إلى القضاء على أسبابه، ومن ثمّ يتّجهون جميعًا نحو الخارج...

الناقد : وماذا يقع في الخارج؟

الممثّل : صراع جديد فنصر جديد.

الممثّلة : وحبّ طيلة الوقت!

الناقد : حلم جميل ولكنّ الجمهور لم يعد يستسلم للأحلام طويلًا...

المخرج : ثمّة مشروع مضادّ وهو أن يقضي الصراع على اللائذين بالكهف ثمّ تقتحمه الوحوش فتلتهم الأحياء والجثث.

الناقد : كئيب أكثر مما تحتمله الأعصاب...

المخرج : لم يبق إلّا أن يستمرّ الصراع بالداخل والتهديد في الخارج!

الناقد : نهاية مفتوحة تدعو للبلبلة...

الممثّلة : (محتجّة) تتكلّمون عن الصراع ولا تذكرون الحبّ بكلمة.

المخرج : أيًّا كان الحال فسوف تتخلّله لحظات حبّ وغناء ورقص...

الناقد : ولكن هل يتّفق ذلك مع مرارة الصراع؟

المخرج : هكذا تمضي الحياة، وبذلك نُرضي جميع الأذواق.

(ينظرون إلى المؤلّف مستطلعين)

المؤلّف : لم أفرغ من عملي بعد.

الناقد : ما رأيك في الاقتراحات التي عُرضت؟

المؤلّف : لا رأي لي الآن.

الناقد : ولكنّنا استعرضنا كافّة الاقتراحات المحتملة.

المؤلّف : لا حصر للاحتمالات الممكنة.

الممثّل : عدنا على الأقلّ بصراع بطوليّ من أيّ نوع كان!

الممثّلة : وبحبّ يستحقّ هذا الاسم!

المؤلّف : لا أعِدُ بشيء.

الممثّل : ولكنّك حرّ وبوسعك أن تَعِد وأن تفي بما تعد.

المؤلّف : لا تتحدّث عنّي بخير أو شرّ.

الناقد : حذار أن يعاودنا الخصام.

المخرج : نحن في حاجة إلى استراحة قصيرة، بنا إلى البوفيه لنتناول بعض المرطّبات.

(ويذهب الناقد والمخرج والممثّل. الممثّلة تقف ولكنّها لا تبرح مكانها. المؤلّف يغادر موقفه عند المكتب ليتمشّى ذهابًا وجيئة. ثمّ يعود إلى موقفه مستندًا إلى مكتبه، والممثّلة تتابعه بعينيها طوال الوقت)

المؤلّف : (كأنّما يسأل نفسه) هل حقًّا حلّت اللعنة بمسرحنا؟

الممثّلة : لن تحلّ بنا إلّا إذا قرّرت أنت ذلك.

المؤلّف : ولكنّه بمعنى ما مسرحي، إنّه جزء من نفسي لا يتجزّأ.

الممثّلة : ونحن عناصره التي لا تقوم إلّا بها.

المؤلّف : عمل واحد وهدف واحد.

الممثّلة : بالحقّ نطقت.

المؤلّف : فيمَ الخلاف إذن؟

الممثّلة : لا خلاف حقيقيّ ولكنّه الخوف، لقد أفسدت المنافسة المريرة أعصابنا.

المؤلّف : بالتالي ضقت بهم ذرعًا.

الممثّلة : ليتّسع لهم صدرك.

(صمت)

: هل يضايقك وجودي؟

المؤلّف : بل يسعدني.

الممثّلة : (في شيء من التردّد) أودّ أن أخلو إليك بعض الوقت.

المؤلّف : بكلّ سرور، فرصة طيّبة.

الممثّلة : لا قيمة لأكليشهات المجاملة لمن يتطلّع للعاطفة الحقيقيّة!

(ينظر إليها في تساؤل ودهشة)

: لِمَ الآن؟، لِمَ أختار هذه اللحظة لأفضي إليك بأسرار قديمة؟، ربّما لأنّني شعرت لأوّل مرّة بأنّك تهدّدنا حقًّا بالفراق الأبديّ...

المؤلّف : أعترف بأنّني ضقت بالعناء والمكابرة.

الممثّلة : عدني بألّا تقرّر الفراق مهما يكن من عنادهم ومكابرتهم.

المؤلّف : كيف يمكن أن أعد بذلك؟

الممثّلة : عدني بلا قيد أو شرط؟

المؤلّف : بلا قيد أو شرط؟

الممثّلة : بلا قيد أو شرط.

المؤلّف : إنّي أشكر لك عواطفك ولكنّه طلب غير عادل.

الممثّلة : لأنّه مسرحك، لأنّه مسرحنا، لأنّنا أسرتك، ولأنّني..

المؤلّف : ولأنّك؟

الممثّلة : ولأنّني.. ولأنّني.. ولأنّني لولاك ما عرفت طريقي إلى المسرح.

المؤلّف : حقًّا؟

الممثّلة : نعم.
المؤلّف : لمَ تحدّثيني عن ذٰلك من قبل.
الممثّلة : لم أحدّثك عن نفسي قطّ.
(صمت يتبادلان نظرات صامتة)
: ألا تذكر أيّام زمان؟
المؤلّف : بلى، حينما كنت طفلة..
الممثّلة : حينما كنت فتاة صغيرة لا طفلة..
المؤلّف : كنت ألمحك في الطريق أحيانًا.
الممثّلة : أكنت تراني حقًّا؟
المؤلّف : من حيّ واحد كنّا، إنّي أذكر تلك الأيّام.
الممثّلة : اعتقدت أنّك لم ترني قطّ.
المؤلّف : في الشرفة رأيتك وأمام باب البيت.
الممثّلة : وقلت لنفسي إمّا أنّه إلٰه أو أنّه صخر.
المؤلّف : صخر؟؟
الممثّلة : ذٰلك أنّك لم تعرف سهر الليالي ولا الوسائد المبلّلة بالدموع.
(يتبادلان نظرة طويلة، هي تلقيها إليه بثبات، وهو بدهشة)
: وصمّمت على أن أكبّر نفسي لعلّي ألفت نظرك. انتعلت حذاء بكعب عالٍ، غيّرت التسريحة، ضيّقت أعلى الفستان لأبرز صدري، ولكنّك لم ترني...
المؤلّف : (باسمًا) آسف جدًّا، كنتِ صغيرة وكنتُ كبيرًا.
الممثّلة : المسألة أنّك لم تحبّني...
(صمت)
: ولحبّك أحببت المسرح، أحببت مسرحك، غيّرت مجرى حياتي رغم معارضة أهلي الشديدة...
المؤلّف : إنّي أغبط نفسي على الخدمة التي قدّمتها للمسرح دون تخطيط.
الممثّلة : ومضى حبّي ينمو بلا حدود، ولمّا تخرّجت في المعهد اتّصلت بك تليفونيًّا، طالبة ناشئة تعرض نفسها على المؤلّف الكبير...
المؤلّف : متى كان ذٰلك؟، إنّي لا أذكره...
الممثّلة : طبعًا فهو حديث يتكرّر يوميًّا عشرات المرّات.
المؤلّف : أكرّر الأسف.
الممثّلة : وسدّ سكرتيرك الطريق في وجهي، ومن ناحية أخرى لم تكن تبرح ضاحيتك أغلب الوقت، ولا تزور المسرح إلّا في أوقات نادرة وفي ظروف مجهولة لي، وهٰكذا وجدت بابك مغلقًا بعد طريق طويل شققته بالجهاد والعناء والصبر.
المؤلّف : حكاية مؤسفة حقًّا.
الممثّلة : ما مضى قد مضى.
المؤلّف : ولٰكنّكِ عرفتِ بالإصرار طريقك إلى مسرحنا.
الممثّلة : سلّمت بتوجيه السكرتير فذهبت إلى المخرج.
المؤلّف : وسيلة ناجعة فيما يبدو.
الممثّلة : قابلته واقترحت عليه أن يختبرني في مكتبه ولٰكنّه...
المؤلّف : ولٰكنّه؟
الممثّلة : اعتذر بضيق الوقت وكثرة الأعمال ثمّ دعاني إلى مسكنه الخلويّ!
(المؤلّف يبتسم. الممثّلة تقطّب)
: غادرته متحدّية، وغالبت تردّدي حيالك حتّى غلبته، فكتبت لك رسالة مطويّة اعترفت لك فيها بحبّي الذي أسرني منذ صباي.
(صمت)
: لا تتذكّر شيئًا؟
المؤلّف : الحقّ...
الممثّلة : (مقاطعة) الحقّ أنّك تتلقّى مئات الرسائل مثلها!
المؤلّف : لم تكن لي ثقة كبيرة في الرسائل.
الممثّلة : ذهبت إلى المسكن الخلويّ.
(صمت)
: كثيرًا ما يدفع الحبّ الخائب إلى المساكن الخلويّة.
المؤلّف : الحياة سلسلة من التجارب المتناقضة.
الممثّلة : هٰكذا انضممت إلى مسرحك.

المؤلّف : مهما يكن من أمر فقد كسب بك نجمة لامعة.

الممثّلة : وعندما قُدّمت لك لأوّل مرّة وضح لي أنّك لا تتذكّرني.

المؤلّف : ولكن سرعان ما تذكّرتك.

الممثّلة : وثبت لديّ أنّ حبّك سراب مستحيل فلذت بصمت الكبرياء.

(صمت)

: ودفعني حبّك المستحيل من بيت خلويّ إلى بيت خلويّ.

المؤلّف : الحقّ أنّك اشتهرت في الوسط بكثرة العشق!

الممثّلة : على حين أنّي لم أعرف من الحبّ إلّا حبّك!

المؤلّف : فنّانة كبيرة وقلب كبير.

الممثّلة : تصوّرني الرسوم الكاريكاتوريّة امرأة شهوانيّة بينا أنّني أعاف في أعماقي الشهوة والفساد.

المؤلّف : إنّي أصدّقك.

الممثّلة : ولكنّني أعبّر من خلال علاقاتي العابرة بالآخرين عن تشوّقي الخالد إليك.

المؤلّف : إنّي أحترم عاطفتك وأفهم سلوكك.

الممثّلة : ولكنّك لا تحبّني؟

المؤلّف : أحبّك بقدر ما يستطيع شخص في سنّي أن يحبّ امرأة في سنّك.

الممثّلة : إنّك من الذين يتعذّر تقدير أعمارهم حتّى قيل عنك إنّك في سياحاتك الموسميّة حول العالم تجدّد شبابك وتنفق في ذلك عن سعة؟ (المؤلّف يغرق في الضحك وهي لا تحوّل عنه عينيها)

المؤلّف : هل تؤمنين بالأساطير؟

الممثّلة : نعم.

المؤلّف : أعترف أنّ حبّك سيجدّد شبابي.

الممثّلة : إنّك تتكلّم من بعيد، ولا ألومك فلا حقّ لي عليك، ولكن لِمَ لَمْ تتزوّج؟

المؤلّف : لم يكن الزواج من أهدافي أبدًا.

الممثّلة : عدوّ للمرأة؟!

المؤلّف : لعلّي لم أتزوّج لشدّة حبّي للمرأة.

الممثّلة : لا خبرة لي بالمغالطات اللفظيّة.

المؤلّف : أعترف بأنّني شيء غير مهضوم من وجهة نظر الطبيعة البشريّة.

الممثّلة : على كلّ حال ما مضى قد مضى، وما يهمّني الآن هو ألّا تفكّر في هجر مسرحنا.

(صمت)

: طالما أنت على رأسه فإنّي أشعر بأنّي أعمل في بيتي وبأنّ حياتي رغم تمزّقها وضياعها لم تفقد كلّ معنى لها، وبأنّي إذا كنت أخفقت في أن أكون خليلتك أو زوجك فإنّي على الأقلّ نجمة مسرحيّاتك.

المؤلّف : النجمة التي ساقت إليّ الملايين.

الممثّلة : ولا تنس أنّ الحبّ هو الدور الذي خلّدني.

المؤلّف : وشارك في تخليد أعمالي.

الممثّلة : وإنّني أشعر وأنا أقوم به بأنّني أمارس حبّك الكبير الذي استحال عليّ خارج المسرح.

المؤلّف : إنّي مدين لك بالكثير.

الممثّلة : عدني إذن ألّا تهجرنا مهما يكن من أمر.

(صمت)

: ألا تريد أن تعدني؟

المؤلّف : بدا التفاهم اليوم مستحيلًا.

الممثّلة : إنّهم يحبّونك أيضًا. صدّقني إنّهم يحبّونك أيضًا، المسألة أنّهم خائفون، المنافسة مرّة ومزلزلة للأعصاب، وهم من طول ما مارسوا البغضاء في نزاعهم مع المسارح المحيطة بنا انطبعت البغضاء في أساريرهم وسلوكهم ونوازعهم، كأنّما قد فقدوا القدرة على الحبّ، ألفوا التحدّي والوقاحة والتهوّر، تصوّروا في غضبهم أنّه يمكن أن يوجد هٰذا المسرح بدونك، محض خيال مريض، تخيّلوه بأخيلة هزيلة مريضة، ولو ضننت عليهم بوجودك لتقوّضت الجدران فوق رءوسهم، وتلاشت فرص الندم.

المؤلّف : لا أوافق على أن أكرّر نفسي بحال.

الممثّلة : سيّدي.. هل حقًّا لم يبق للفنّ إلّا غابة وكهف ورجل وامرأة يموتان في حومة هذيان؟

المؤلّف : إنّني أعرف ما أصنع.

الممثّلة : ولكنّنا لم نعرفه بعد.

المؤلّف : علينا أن نواجه الحقائق، هٰذه مواجهة وليست هروبًا.

الممثّلة : هبني قَدْرًا من الحبّ ليستقيم دوري، ووفّر له نصيبًا من البطولة!

المؤلّف : ممثّل متعجرف!.. أهو آخر عشّاقك؟

الممثّلة : نعم.

المؤلّف : أيعاملك ببطولة؟

الممثّلة : (ضاحكة في امتعاض) معاملته لي تتمّ وراء جدران لا أمام الجمهور.

المؤلّف : إنّه برجميّ نساء كما هو معروف.

الممثّلة : ربّما.

المؤلّف : لماذا ارتضيته عاشقًا؟

الممثّلة : ليس أسوأ من غيره.

المؤلّف : إنّه لا يمارس البطولة إلّا فوق خشبة المسرح.

الممثّلة : والحبّ الحقيقيّ أين يمارَس إلّا فوق خشبة مسرحك؟

المؤلّف : إنّهم يكرهون مشروعي الجديد لأنّه يعكس بصدق خبايا نفوسهم.

الممثّلة : كنت رفيقًا بهم في الزمان الأوّل.

المؤلّف : كانت دنيا أخرى، وكانوا ناشئين مبتدئين.

الممثّلة : أَوْلِهِمْ بعضَ الاحترام الذي نعموا به قديمًا.

المؤلّف : أعترف لك بأنّني أعاملهم دائمًا باحترام.

الممثّلة : حقًّا؟

المؤلّف : وروايتي الجديدة أكبر دليل على ذٰلك!

الممثّلة : لا أفهمك يا حبيبي.

المؤلّف : عليك أن تفهميني يا حبيبتي.

الممثّلة : ما أحلى هٰذا الحديث، نتحدّث كما لو كنّا حبيبين حقًّا.

المؤلّف : نحن كذٰلك.

الممثّلة : حقًّا؟

المؤلّف : كلّ بطريقته.

الممثّلة : ليس للحبّ إلّا طريقة واحدة.

المؤلّف : بل له طرق كثيرة.

الممثّلة : وما طريقتك في الحبّ؟

المؤلّف : العمل.

(تقترب منه خطوة، تمعن فيه النظر)

الممثّلة : ألم تحبّ بطريقتي البسيطة؟

المؤلّف : ربّما، ولكن بعيدًا عن الوسط الفنّيّ.

الممثّلة : (متنهّدة) تصوّر أنّني لم أدخل الوسط الفنّيّ إلّا سعيًا وراء حبّك.

(صمت)

: والآن هل تعدني؟

المؤلّف : أرجو أن تسير الأمور سيرًا حسنًا.

الممثّلة : شكرًا.

المؤلّف : عفوًا.

الممثّلة : (بعد تردّد) أودّ أن أقبّلك ولو قبلة واحدة.

(الممثّلة تقترب منه. يتعانقان متبادلين قبلة طويلة. في ذات اللحظة يدخل الممثّل وفي أعقابه المخرج والناقد. المؤلّف والممثّلة يفترقان في كثير من الارتباك. الممثّل يذهل لحظة. ثمّ يحاول الهجوم على المؤلّف ولكنّ المخرج والناقد يحولان دون ذٰلك).

الممثّل : (صائحًا) داعرة محترفة وعجوز منحلّ... سأحطّم رأسك...

الممثّلة : اخرس... لا تتكلّم بغير فهم.

الناقد : ما رأيناه لا يجوز أن نسيء فهمه، ما هو إلّا عناق أبويّ!

الممثّل : أبويّ!!... أنت لا تعرف شيئًا عن تدهور الشيوخ!

المؤلّف : تأدّب...

الممثّل : سأحطّم رأسك، لن تفلت من قبضتي...

الممثّلة : اخرس، قلت لك ألّا تتكلّم بغير فهم.

الممثّل : إنّي خير من يفهمك يا خنزيرة!

الممثّلة : ما أنت إلّا حيوان غبيّ.

الممثّل : لا زلت بغيًّا تتنقلين من فراش إلى فراش.

الممثّلة : تأدّب وإلّا أسكتّك بالحذاء.

الممثّل : ولكنّك تتنقلين هٰذه المرّة إلى نعش...

الممثّلة : (للآخرين) أسكتوا هٰذا الحيوان الأعمى.

الناقد : (ضاربًا جبينه بيده) لقد حلّت بمسرحنا

اللعنة.

المثّلة : (بصوت مرتفع) لن تحلّ بمسرحنا اللعنة.

المخرج : سوء فهم واضح، واضح البراءة.

الناقد : (مخاطبًا المؤلّف) بوسعك أن تحسم سوء الظنّ بكلمة.

(المؤلّف يلزم الصمت في كبرياء)

المخرج : (للممثّلة) لديك بلا شكّ ما تدافعين به عن نفسك.

المثّلة : إنّي أرفض أن أقف موقف الاتّهام.

الممثّل : لقد رأيناهما متلبّسين!

المخرج : يجب أن تخجل من نفسك.

الناقد : حتّى إنّ سوء الظنّ أمر مخجل.

المخرج : (للمؤلّف) تكلّم يا أستاذ (ثمّ للممثّلة تكلّمي أنت، علينا أن ننتهي من سوء التفاهم ونصفّيه بسرعة لنستأنف مناقشة المشروع الجديد.

الممثّل : (للمخرج) يا للغرابة، إنّك تتكلّم عن أعمق العلاقات البشريّة كما لو كانت عبث أطفال...

المخرج : (للممثّل) لقد وجدتني ذات يوم في مثل موقفك، وكنت حيال خيانة حقيقيّة لا مجرّد سوء تفاهم بريء، وكان غريمي وقتذاك صديقنا الناقد، كيف تصرّفت؟، كظمت غضبي وواصلت تدريباتي للمسرحيّة الجديدة.

الممثّل : أنت جبان.

المخرج : أنت حيوان.

(الممثّل يوجّه لكمة لرأس المخرج. المخرج يترنّح واضعًا يده على موضع الضربة. يمضي إلى الكنبة ويرتمي عليها. يسند رأسه إلى مسندها ويمدّ ساقيه في إعياء.

الممثّلة تثور وتلطم الممثّل على خدّه فيعميه الغضب ويوجّه لطمة إلى رأسها فتقع إلى جانب المخرج. الناقد يسرع إلى إجلاسها، ويهجم على الممثّل. يتبادلان الضرب حتّى يسقطا متتابعين. يقومان مترنّحين ويلوذ كلّ منهما بمقعد حول الكنبة.

الأربعة جالسون متقاربين وفي حالة إعياء شديد تقارب الإغماء. وطيلة الوقت لزم المؤلّف موقفه وهو يراقب ما يحدث ببرود)

(صمت)

(يُفتح الباب فيدخل السكرتير، يتّجه نحو المؤلّف دون أن ينتبه إلى الآخرين)

السكرتير: مندوب مجلّة إيزيس.

(يدخل مندوب المجلّة. السكرتير يغادر الحجرة.

المندوب يمضي إلى المؤلّف فيصافحه. يتحوّل إلى الجالسين ولكنّه يتوقّف في ذهول. يردّد بصره بينهم وبين المؤلّف. يتراجع إلى قريب من المؤلّف)

المندوب : آسف على مجيئي دون موعد سابق.

المؤلّف : إنّها مفاجأة ولكنّها سارّة.

المندوب : (مشيرًا إلى الجالسين) ماذا حصل لهم؟

المؤلّف : فرغوا لتوّهم من تدريبات الرواية الجديدة.

المندوب : حقًّا!.. مجرّد تدريبات؟!

المؤلّف : مجرّد تدريبات.

المندوب : إنّها رواية عنيفة فيما أرى؟

المؤلّف : لا تخلو من عنف.

المندوب : إنّي أرى آثار كدمات: وألمس إعياء واضحًا على وجوههم، كأنّما هي رواية من روايات رعاة البقر!

المؤلّف : لا تخلو من حيوانات.

المندوب : حتّى فنّانتنا الكبيرة تطرح رأسها في شبه إغماء، إنّه لأمر غير معقول.

المؤلّف : لا تخلو من جنون.

المندوب : إنّ عرض مسرحيّة بذاك العنف شهورًا متواصلة يجب أن يعدّ معجزات!

المؤلّف : وهي لا تخلو من معجزة!

المندوب : (مشيرًا إلى الممثّلة) هل أصيبت وهي تدافع عن شرفها؟

المؤلّف : أصيبت وهي تدافع عن شرف البطل.

المندوب : ولكنّ المعتاد أنّ البطل يلود عن شرف

الآخرين بالإضافة إلى شرفه هو؟

المؤلّف : هي لا تخلو من طرافة وجدّة!

المندوب : لعلّ المسرحيّة تميل إلى التشاؤم؟

المؤلّف : لا تخلو من تشاؤم.

المندوب : ولٰكنّ موقف البطلة يدعو للتفاؤل فيما أعتقد؟

المؤلّف : لا يخلو من تفاؤل.

المندوب : كيف تجمع مسرحيّة بين التشاؤم والتفاؤل وهما نقيضان؟

المؤلّف : لا تخلو من تناقض.

المندوب : معذرة يا عميد المؤلّفين ألا يعتبر ذٰلك ضعفًا؟

المؤلّف : لا تخلو من ضعف.

المندوب : ولِمَ لم تبلغ بها الكمال المعهود منك؟

المؤلّف : الكمال للموت وحده.

(المندوب يضحك عاليًا. ثمّ يعقب ذٰلك صمت)

المندوب : جميع المسارح تتساءل عن عرضكم القادم، وقد بلغت المنافسة بينها ذروة المرارة، المؤامرات تدبّر في الظلام، المرتزقة يُستأجرون لإحداث الشغب، ألا يمكن أن يسود السلام بين المسارح؟

(صمت)

: كثيرون من العقلاء يعقدون عليك الآمال بوصفك عميد المؤلّفين لتقوم بخطوة حاسمة في هٰذا السبيل؟

المؤلّف : لا وقت عندي إلّا للعمل.

المندوب : هلّا كرّست لذٰلك يوم راحتك الأسبوعيّ؟

المؤلّف : يوم الراحة للراحة.

المندوب : إنّهم يحلمون بأن تجمع المسارح في وحدة متعاونة يسودها السلام الذي يسود مسرحك!!

المؤلّف : لن أجد في سنّي هٰذه مَن يمكنه التفاهم معي...

(المندوب يبتسم وهو يشدّ على ذراع المؤلّف إعجابًا وتقديرًا)

المندوب : أعلم أنّك لا تحبّ الحديث عن رواية جديدة قبل عرضها ولٰكن لديّ بعض أسئلة تقليديّة يتابعها الجمهور عادة بشغف.

(المؤلّف يهزّ رأسه بالموافقة صامتًا)

: كم من الوقت استغرقت في كتابتها؟

المؤلّف : (حاسرًا كمّ الجاكتة عن معصمه اليسرى) أنا لا أستعمل الساعات.

المندوب : ممّ استلهمت فكرتها العامّة؟

المؤلّف : شرعت في كتابتها عقب تفكير طويل في المغص.

المندوب : (ضاحكًا) هل يمكن إرجاعها إلى تجربة شخصيّة مرّت بك في حياتك العامرة؟

المؤلّف : ربّما أمكن إرجاعها إلى علاقة قديمة قد قامت بيني وبين مطرب أخرس.

المندوب : مطرب أخرس؟

المؤلّف : نعم.

المندوب : وكيف أمكنك معرفة تطريبه؟

المؤلّف : هٰذا ما ستجيب عنه المسرحيّة.

(المندوب يضحك عاليًا. يصافح المؤلّف. يذهب. المؤلّف يلقي نظرة على الجالسين. يسوّي ربطة عنقه ومنديل جيب الصدر تأهّبًا للذهاب.

الممثّلة تنظر نحوه. تقاوم ضعفها فتعتدل في جلستها)

الممثّلة : انتظر.

(تدلّك رأسها. تقوم بصعوبة. تمضي إلى أقرب المقعدين المتقابلين أمام المكتب لتعتمد عليه)

: متى نجتمع لنقرأ النصّ الجديد؟

(صمت)

: لا تهجرنا.

(صمت)

: لقد وعدت بألّا تهجرنا.

(صمت)

: (مشيرة إلى الجالسين) ما وقع بيننا ليس الأوّل من نوعه ولن يكون الأخير.

المهمّة

بقعة صحراويّة خالية. تقوم في وسطها هضبة صخريّة. أمام الهضبة يتمشّى شابّ جيئة وذهابًا وهو ينظر في ساعته من آن لآن. الوقت أصيل. الشابّ أنيق بدرجة ملحوظة، والجوّ يوحي بأنّه ينتظر موعدًا غراميًّا.

يترامى من الخارج وقع أقدام ثقيلة. الشابّ يرهف السمع في قلق، وباقتراب الأقدام يتجهّم وجهه ويتوقّف عن المشي فيلزم مكانه أمام الهضبة.

يدخل رجل في الخمسين، مهمل الهندام، ولكنّه قويّ البنية يلقي على الشابّ نظرة عابرة ثمّ يمضي إلى يسار الهضبة فيقف متطلّعًا إلى الخلاء.

الشابّ ينظر صوب الرجل مقطّبًا ولكنّ الآخر يبدو وكأنّه لا يشعر له بوجود. يقترب منه خطوة.

الشابّ : (مخاطبًا الرجل بصوت مرتفع لا يخلو من تحدّ وغضب)
ماذا تريد؟
(يظلّ الرجل رانيًا إلى الخلاء كأنّما يسمع صوتًا)

: (بصوت أشدّ ارتفاعًا) إنّي أسألك عمّا تريد.
(الرجل يبدو مستغرقًا في الأفق، ويترنّم مغنّيًا)
والله زمان زمان والله . . .

: (بحدّة خانقة) لماذا تتبعني؟
(الرجل يواصل ترنّمه في هيمان)

: إنّني أخاطبك وأنت تعلم ذٰلك، لا أحد سوانا في هٰذا الخلاء.

الرجل : (ملتفتًا في دهشة) حضرتك تخاطبني؟

الشابّ : دون سواك.

الرجل : معذرة، ماذا قلت؟

الشابّ : إنّي أسألك عمّا تريد منّي.

الرجل : (متظاهرًا بالدهشة) أنا؟!

الشابّ : أنت، أنت دون سواك.

الرجل : عجيب سؤالك يا سيّدي، أنا لا أريد منك أيّ شيء.

الشابّ : لِمَ إذن تتبعني بإصرار؟

الرجل : أتبعك، إنّي أراك لأوّل مرّة في حياتي!

الشابّ : (بعناد) إنّك تتبعني منذ الصباح الباكر، ولم تكفّ عن تتبّعي حتّى هٰذه اللحظة من الأصيل.

الرجل : أنت مخطئ في ظنّك فأنا لم أرك وبالتالي لم أتبعك.

الشابّ : لم أذهب إلى مكان إلّا رأيتك قادمًا في أثري.

الرجل : لا يحقّ لي أن أكذّبك ولكنّي لم أرك ولم أتبعك.

الشابّ : (بنبرة لا تخلو من تهكّم) أهي مجرّد مصادفة؟

الرجل : سمّها كيفما شئت.
(صمت. يعود الرجل إلى النظر صوب الأفق أمّا الشابّ فلا يبرح مكانه ولا يكفّ عن النظر إليه).

الشابّ : هل تتفضّل بإخباري عن الجهة التي تنوي الذهاب إليها بعد هٰذه الوقفة؟

الرجل : (ملتفتًا نحوه في دهشة) بأيّ حقّ تسألني هٰذا السؤال الغريب!

الشابّ : معذرة، أودّ التخلّص من فكرة اتّباعك لي.

الرجل : أنا لا أعرفك، لم أتبعك، وفي هٰذا الكفاية.

الشابّ : ألم توجد في ميدان القلعة صباحًا؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم تتناول فطورك في مطعم... فلافل... بشارع محمّد عليّ؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم تذهب بعد ذٰلك إلى مقهى الشمس؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم تقم بزيارة لدار الآثار؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم تشهد مزادًا بصالة المعروضات بالدقّي؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم تذهب بعد ذٰلك إلى عيادة الدكتور عرنوسي طبيب الأسنان؟

الرجل : بلى.

الشابّ : ألم...

الرجل : (مقاطعًا) أكنت تتبعني يا سيّدي؟

الشابّ : (ضاحكًا ضحكة جافّة) أنا؟

الرجل : أليس من الغريب أن تعرف تحرّكاتي طيلة اليوم بهٰذه الدقّة؟!

الشابّ : ولٰكنّك كنت، لا مؤاخذة، كأنّك كنت تتبعني!

الرجل : لقد شغلت نفسك بي أكثر ممّا يتصوّر.

الشابّ : في كلّ مكان رأيتك قادمًا في أثري، حتّى في هٰذه المنطقة النائية الخالية!

الرجل : عجيب أنّني لم أرك ولا مرّة واحدة.

الشابّ : الحقّ أنّ عينينا التقتا أكثر من مرّة.

الرجل : لا يرى الإنسان جميع ما تقع عليه عيناه من أشياء.

الشابّ : إذن فأنت لا تتبعني؟

الرجل : ولِمَ أتبعك؟

الشابّ : لعلّك تعذرني.

الرجل : لك العذر.

الشابّ : مصادفة عجيبة.

الرجل : هي بالقياس إليّ لا شيء.

(الشابّ يضحك ضحكة عصبيّة ثمّ يسود الصمت. وعندما يهمّ الشابّ بالابتعاد يتكلّم الرجل)

: آسف جدًّا لأنّي أزعجتك بغير قصد.

الشابّ : أن تصدّق أنّ شخصًا ما يتبعك أمر مزعج حقًّا.

الرجل : ليس في جميع الأحوال.

الشابّ : أعني إذا كنت تجهله وتجهل مقصده بالتالي.

الرجل : ولٰكنّك شابّ مهذّب بريء الساحة.

الشابّ : لا يكفي هٰذا لإسكات وساوسك ما دمت تجهله وتجهل مقصده.

الرجل : (باسمًا) أيّهما أبعث على الخوف... المجهول أم المعروف؟

الشابّ : الأمر يتوقّف على السبب وعلاقته بنا.

الرجل : الحقّ أنّنا نخاف أكثر ممّا ينبغي.

(الشابّ يصمت متجهّمًا)

: أكرّر الأسف.

الشابّ : (بعصبيّة) الحقّ أنّك أفسدت عليّ يومي كلّه.

الرجل : عجيب أن نرتكب جريمة ونحن لا ندري.

الشابّ : وجئت إلى هٰذه البقعة الخالية النائية لأكتشفك وأحرجك!

الرجل : لعلّ مجيئي يقطع ببراءتي.

الشابّ : ترى ما الذي دعاك إلى المجيء إلى هنا؟

الرجل : إنّها أحد الأماكن المختارة التي أشهد فيها الغروب.

الشابّ : أتحبّ الغروب؟

الرجل : إنّه أحبّ ساعات اليوم إلى نفسي.

الشابّ : ألم يزعجك أن تجدني هنا؟

الرجل : أنا أحبّ الناس.

الشابّ : (بعد تردّد واضح) هلّا أخبرتني عن خطواتك التالية؟

الرجل : أما زلت على ريب منّي؟

الشابّ : كلّا، ولٰكنّي أودّ أن أمتحن دهاء المصادفة.

الرجل : الواقع أنّي سرت طيلة اليوم على غير هدي وبلا خطّة موضوعة، إنّه يوم عطلتي.

الشابّ : لا بدّ من فكرة تقودك في يوم عطلتك.

الرجل : من طول خضوعي للتخطيط على مدى الأسبوع فإنّي أتحرّر يوم العطلة من أيّ قيد.

الشابّ : أمّا أنا فسأبقى هنا بعض الوقت ثمّ أذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض».

الرجل : (بحماس مفاجئ) حانة النبيذ الفاخر والسلطة الخضراء!... ما أجملها!

الشابّ : هل تقرّر الذهاب إليها؟

الرجل : أعترف بأنّك ذكّرتني بمكان أحبّ الجلوس فيه!

الشابّ : وبعد ذلك سامضي إلى بيتي!

الرجل : من يدري، ربّما توثّقت العلاقة بيننا في «الأحمر والأبيض» فنمضي إلى البيت معًا.

(يضحكان معًا، ثمّ يسود الصمت. يلتفت الشابّ إلى الناحية الأخرى فيعود الرجل إلى التطلّع صوب الأفق. الشابّ يتمشّى غير خالٍ من القلق. يختلس إلى ظهر الرجل النظرات، ينظر إلى ساعته، يتضاعف قلقه. تدخل فتاة جميلة متأنّقة. ما إن ترى الشابّ حتّى تهرع نحوه متهلّلة ولكنّها تنتبه إلى وجود رجل غريب فتتمالك مشاعرها وتلوح في وجهها خيبة. الشابّ يمضي بها إلى يمين الهضبة. يتبادلان قبلة)

الشابّ : لسنا وحدنا.

الفتاة : ماذا يفعل؟

الشابّ : ينتظر الغروب!

الفتاة : الغروب؟!

الشابّ : (متهكّمًا) أحبّ ساعات اليوم إليه.

الفتاة : هل تعرفه؟

الشابّ : كلّا.

الفتاة : هل حادثته؟

الشابّ : نعم.

الفتاة : لِمَ؟

الشابّ : الواقع أنّه لم يفارقني منذ الصباح الباكر.

الفتاة : (بدهشة) كيف؟

الشابّ : ظننته يتبعني.

الفتاة : ما دام لم يفارقك طوال اليوم.

الشابّ : ولكنّه أكّد لي أنّه لم يرني.

الفتاة : وهل صدّقته؟

الشابّ : لم أكذّبه.

الفتاة : ألا ترى أنّه يحسن بنا أن نذهب؟

الشابّ : إنّي ضنين باللقاء.

الفتاة : ولكنّ قلبي غير مطمئنّ.

الشابّ : لعلّه ينتظر صديقة.

الفتاة : ليتها تجيء لتحلّ المشكلة من أساسها.

(يتبادلان قبلة طويلة)

: (مشيرة إلى الناحية الأخرى من الهضبة) لم يفارقك طوال اليوم؟

الشابّ : بلى.

الفتاة : لنذهب.

الشابّ : لماذا يتبعني؟

الفتاة : (بقلق واضح) ترى هل يتعلّق الأمر بي؟

الشابّ : هل سبق لك أن رأيته؟

الفتاة : لا لم ألمح إلّا ظهره، وبسرعة عابرة، لم يذكّرني بأحد أعرفه.

الشابّ : لا داعي لكثرة الظنون.

الفتاة : أرى أنّه يحسن بنا أن نذهب.

الشابّ : لننتظر فإنّي ضنين باللقاء.

الفتاة : أعترف بأنّني بتّ أكرهه بقدر ما أخافه.

الشابّ : كيف تخافينه وأنتِ لم تريْ إلّا ظهره!

الفتاة : إنّه ذو قصّة مريبة تدعو للانزعاج.

الشابّ : بوسعنا أن ننساه تمامًا ونعبث بنواياه.

الفتاة : نواياه؟!

الشابّ : أعني إن كان ثمّة نوايا يضمرها حقًّ.

الفتاة : ولكن كيف؟

الشابّ : (وهو يجذبها نحو صدره) هكذا!

(يتعانقان وهما يتبادلان قبلة طويلة. يواصلان العناق والقبل كأنّما قد نسيا الآخر تمامًا. في أثناء ذلك يجلس الآخر على الأرض كأنّما أتعبته الوقفة، يمدّ ساقيه ويسند

رأسه إلى حافة الهضبة. صوت غراب ينعق. الشابّ والفتاة يفيقان من سكرة الحبّ. يتبادلان النظر في دهشة)

الفتاة : كم مضى من الوقت؟

الشابّ : لا أدري، ولن أنظر في الساعة فما أحبّ أن أكدّر صفونا بالزمن.

الفتاة : (مشيرة إلى الناحية الأخرى) ترى هل ذهب؟

الشابّ : سيّان عندي أن يذهب أو أن يبقى.

الشابّ : لا يندّ عنه صوت.

الشابّ : لعلّه مات.

(صمت يتخلّله تبادل قُبل)

: من الحماقة أن أخافه.

الفتاة : ولكنّك تجهله.

الشابّ : هو على أيّ حال كهل وبوسعي أن أصرعه بلكمة واحدة.

الفتاة : ولكنّي وجدتك قلقًا لدى حضوري.

الشابّ : لم أكن أفقت من فكرة مطاردته لي.

الفتاة : لعلّه...

(وقبل أن تتمّ كلامها يترامى إليهما شخير منتظم من ناحية الرجل. يتبادلان نظرة ذاهلة)

: نام؟

الشابّ : لعلّه شخير رجل آخر.

(الشابّ يمضي في حذر شديد نحو الرجل. تتبعه الفتاة. يلقيان عليه نظرة داهشة. الرجل يستيقظ لدى وقوع نظرتهما عليه كأنّما رُمي بطوبة. ينهض بسرعة ويحدّق فيهما بانزعاج وتحدّ معًا)

الرجل : (متجهّمًا) مَن أنتما؟... ماذا تبغيان؟

الشابّ : لا مؤاخذة لم نقصد إزعاجك.

الرجل : (مستعيدًا تذكّره وهدوءه) آه... أنت...

(صمت وارتباك والرجل يردّد بصره بينهما)

: (باسمًا) وقعت أحداث جديدة في أثناء غفوتي!

الشابّ : أيّ أحداث؟

الرجل : (ناظرًا إلى الفتاة) كنت وحدك فيما أذكر!

الشابّ : ثمّ لحقت بي خطيبتي!

الرجل : (مبديًا دهشة سمجة) خطيبتك!

الشابّ : (بحدّة) نعم خطيبتي!

الرجل : (بقحة) وكيف تجيء بخطيبتك إلى هذه البقعة النائية المهجورة؟

الشابّ : (غاضبًا) بأيّ حقّ تحاسبني على ما أفعل؟

الرجل : (متراجعًا) معذرة. لم أستردّ تفكيري السليم بعد...

(يهمّ الفتى والفتاة بالذهاب ولكنّ الرجل يسارع باعتراض سبيلهما)

الرجل : متى نذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض»؟

الشابّ : نذهب؟

الرجل : ألم نتّفق على ذلك؟

الشابّ : كلّا... قلت لك إنّي ذاهب لا إنّنا ذاهبان، وقد عدلت عن قراري.

الرجل : يا للخسارة!

الشابّ : اذهب أنت إذا شئت...

الرجل : لعلّك ضحكت عليّ حين كنت تنتظر خطيبتك؟

الشابّ : لا داعي للأخذ والردّ.

الرجل : إذن فلم تقصد هذا المكان لتحرجني كما قلت؟

الشابّ : لننهِ حديثًا لا جدوى منه.

الرجل : ولكنّنا وصلنا في الحديث إلى حافّة الصداقة.

الشابّ : لندع ذلك إلى فرصة أخرى.

الرجل : (راجعًا إلى مكانه الأوّل) أتمنّى لكما وقتًا طيّبًا.

(الرجل يعود إلى موقفه الأوّل ليرنو من جديد إلى الأفق. يعود الشابّ بالفتاة إلى موقفهما إلى يمين الهضبة).

الشابّ : ها قد عدنا إلى الجنّة.

الفتاة : ليتنا لم نغادرها.

الشابّ : لعنة الله على الفضول.

الفتاة : دعني أذهب...

(يضمّها إلى صدره ويقبّلها فتستسلم دون

استجابة)

الشابّ : ابتسمي.

الفتاة : يا له من رجل كريه.

الشابّ : لنلقِ به في النسيان.

(يتعانقان حتّى يغيبا عن الوجود. في أثناء ذلك يتسلّل الرجل من موقفه حتّى يقف قبالتهما ويبدو سعيدًا بمشاهدتهما. ينتبهان إليه. ينفصلان في ارتباك وانزعاج. الشابّ يرميه بنظرة غاضبة)

الرجل : ما أجمل هٰذا!

الشابّ : وقاحة.

الرجل : استمرّا في لعبكما الظريف.

الشابّ : (محتدًّا) ماذا جاء بك؟

الرجل : بالله لا تغضب.

الشابّ : وقح.

الرجل : إنّك لا تقدّر وقع كلمة قاسية على رجل يحبّ الناس.

الشابّ : ماذا جاء بك؟

الرجل : أحبّ أن أرى الأشياء الظريفة.

الشابّ : احذر أن تدفع ثمن قحتك.

الرجل : لقد تسلّلتما لتلقيا عليّ نظرة وأنا نائم وها أنا أردّ التحيّة.

الفتاة : (وهي تهمّ بالذهاب فيمسك الشابّ بها) إنّي ذاهبة.

الرجل : (للفتاة) لا تذهبي، لم أقصد إزعاجك.

الشابّ : هٰذا سلوك غير لائق.

الرجل : بل هو طبيعيّ وجميل.

الشابّ : اذهب.

الرجل : ألا ترى أنّي أعرض مودّتي بغير حساب؟

الشابّ : اذهب وإلّا...

الرجل : يجدر بك ألّا تهدّدني.

الشابّ : سأفعل أكثر من التهديد.

الرجل : كلّا، لا تدفعنا إلى عواقب غير محمودة.

الشابّ : لك.

الرجل : ولك أيضًا.

الشابّ : لا تحملني على تأديبك وأنت في سنّ أب.

الرجل : لا تغترّ بفوارق السنّ.

الفتاة : دعني أذهب.

الرجل : (للفتاة) محال أن تكدّري صفوك بسببي.

الفتاة : إذن فابتعد عنّا.

الرجل : إنّها فرصة نادرة لمشاهدة الحبّ.

الشابّ : أأنت مجنون؟

الرجل : أنا رجل يحبّ مشاهدة الطرائف، جرّب ذٰلك بنفسك إذا شئت.

الشابّ : ماذا تعني؟

الرجل : (حانيًا رأسه بأدب) دعني أحلّ محلّك وتفضّل بمشاهدتنا أنت لتحكم بنفسك.

(الفتاة تلطمه. الرجل يتلقّى اللطمة باسمًا)

(صمت)

الفتاة : (هامسة للشابّ) دعني أذهب.

الشابّ : (بعناد وكبرياء) كلّا.

الفتاة : بل يجب أن أذهب في الحال.

الشابّ : (بإصرار) لن تذهبي...

(الرجل يبتعد خطوات، يتحسّس خدّه مكان اللطمة وهو ما يزال يبتسم)

الرجل : (مخاطبًا الخلاء) بنوايا طيّبة أسير، ولٰكنّي أتلقّى اللطمات، وكلمات أقسى من اللطمات، لماذا؟، لماذا يصرّ الناس على الوهم والحماقة؟، لم لا يقفون على أرض الواقع؟، كيف لا يفرّقون بين العدوّ والصديق؟

الفتاة : (للشابّ) لا تكن عنيدًا.

الشابّ : لن تذهبي...

الفتاة : لا فائدة...

الشابّ : ولٰكنّك لن تذهبي.

الرجل : (مستمرًّا في مخاطبة الخلاء) المتعلّم والأمّيّ في الجهالة سواء، لم يسيئون الظنّ بي؟، ماذا عليهم لو استمرّوا في لهوهم أمام وجودي البريء؟، أحبّ مشاهدة الأفراح، ولا عدوّ لي إلّا الحماقة والأنانيّة...

الفتاة : (للشابّ) إنّه مجنون.

الشابّ : ليكن.

الفتاة : إنّي خائفة.

الشابّ : لست عاجزًا عن حمايتك.

الرجل : (مخاطبًا الخلاء أيضًا) يخلقون المتاعب من لا شيء ثمّ يلقـون بها في وجهي، أهيم عـلى وجهي باحثًا عن أشياء ثمينة فلا ألقى إلّا الصدّ، الخلاء يشهـد بأنّني ذو شـأن ولكن اللعنة على الحماقة...

الفتاة : إنّه مجنون، لن أبقى دقيقة أخرى.

(الفتاة تمضي نحو الخارج. الشابّ يلحق بها فيمسك بيدها)

: لا بدّ من ذهابي.

الشابّ : ولكن...

الفتاة : لا تُكرهني على البقاء.

الشابّ : إذن فلأوصلك...

الفتاة : (مانعة إيّاه بيدها) ابق هنا حتّى لا يتبعنا.

(يتصافحان. تغادر المكان. الشـابّ يتبعها عينيه. الرجل يقترب منه ولكنّه يتجاهله)

الرجل : أقدّم لك اعتذاري بقلب ملؤه الأسف.

(الشابّ يصرّ على تجاهله)

: أيّ نحس يفسد عليّ مطالبي البريئة؟!

(الشابّ يتمشّى والرجل يتبعه كظلّه)

: أكرّر الأسف من كلّ قلبي.

الشابّ : (متوقّفًا عن المشي في مواجهته) ألا تخجل من نفسك؟

الرجل : انظر إلى جزاء من يسعى إلى حبّ الناس!

الشابّ : أتسخر منّي؟

الرجل : صـدّقني فيما أقـول، بيـد أنّي رجـل سيّئ الحظّ.

الشابّ : لقد ضيّعت عليّ ثمرة يومي المرهق الطويل بلا حياء.

الرجل : أنا؟

الشابّ : دون غيرك.

الرجل : كلّما سعيت إلى إنسان بقلب مفتوح رُميت بهذه التهمة.

الشابّ : يخيّل إليّ أنّك ذو تاريخ قديم في النحس.

الرجل : لا ذنب لي على الإطلاق.

(الشابّ يغادره إلى يسار الهضبة فيتبعه على الأثر)

: أودّ أن تؤمن ببراءتي.

الشابّ : أمن الضروريّ أن تـلاحقني لتحـدّثني عن نحسك؟

الرجل : فرصة طيّبة للحديث والتعارف.

(الشابّ يقطّب ثمّ يسود صمت)

: افتح لي صدرك.

الشابّ : أكنت تتبعني منذ الصباح كما ظننت؟

الرجل : (باسمًا) بصراحة نعم.

الشابّ : إذًا كذبت عليّ؟

الرجل : بسبب نحسي المزمن أصبح الكذب وسيلتي المفضّلة للدفاع عن النفس.

الشابّ : أكنت تعرفني؟

الرجل : كلّا.

الشابّ : لِمَ تبعتني؟

الرجل : إنّي أهيم على وجهي من مطلع الصبح فأتبع أوّل من يصادفني.

الشابّ : أيًّا كان؟

الرجل : أيًّا كان.

الشابّ : كلّ يوم؟

الرجل : كلّ يوم.

الشابّ : أليس لك عمل في الحياة؟

الرجل : ليس لي عمل.

الشابّ : ثريّ؟

الرجل : موفور الإيراد.

الشابّ : ما قصدك من مطاردتي؟

الرجل : أتصيّد لحظة للتعارف.

الشابّ : أليس لك أصدقاء؟

(صمت)

الرجل : وآمل من وراء التعارف أن أحطّم أسطورة النحس!

الشابّ : (ضاحكًا ضحكة مكفهرّة) الآن وقفت على سرّ الحظّ العاثر الذي لازمني طيلة يومي.

الرجل : لا تكن كالآخرين.

الشابّ : في ميدان القلعة زلّت قـدمي فوقعت عـلى

ركبتي.

الرجل : (باسمًا) كنت تنظر إلى امرأة في نافذة!

الشابّ : وفي المطعم شرقت حتّى قذفت بما في معدتي.

الرجل : كنت تأكل بسرعة كأنّك في سباق!

الشابّ : وفي مقهى الشمس خسرت نقودي.

الرجل : كنت تبلف باستمرار حتّى كشف ورقك.

الشابّ : وفي دار الآثار وقعت على ركبتي المصابة للمرّة الثانية.

الرجل : كنت شاردَ اللبّ وتحادث نفسك.

الشابّ : وأخيرًا أفسدت عليّ أجمل ثمرة في يومي.

الرجل : ألم توقظني من النوم بنفسك؟

(الشابّ يعاود ضحكته المكفهرّة ثمّ يسود الصمت)

الشابّ : أليس لك أصدقاء؟

الرجل : (متنهّدًا) كلّا.

الشابّ : ألست ربّ أسرة؟

الرجل : جرّبت حظّي مرّات ولكنّي لم أوفّق!

الشابّ : (يضحك رغمًا عنه) لا مؤاخذة.

الرجل : العفو.

الشابّ : أظنّ آن لي أن أذهب.

الرجل : (يتوسّل) كلّا.

الشابّ : ليس ثمّة ما يدعوني إلى البقاء.

الرجل : فلنشهد الغروب معًا.

الشابّ : لا أحبّ الغروب.

الرجل : ثمّ نذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض».

الشابّ : لن أذهب.

الرجل : إذا كنت مفلسًا فلا يهمّك.

الشابّ : لن أذهب.

الرجل : تكره مرافقتي؟

الشابّ : نعم.

الرجل : لا تجعل للخرافة سيطرة عليك.

الشابّ : (محتدًا) إنّك وراء ما فقدت من صحّة ومال وحبّ!

الرجل : أقلع عن الخرافات.

الشابّ : أقلع أنت عن نحسك.

الرجل : أتوسّل إليك أن تبقى ولو حتّى ساعة الغروب فحسب.

الشابّ : وداعًا.

(الشابّ يمضي صوب الخارج بعزم وصرامة. الآخر ينظر إليه بأسف. عند منتصف المسافة يتوقّف الشابّ فجأة ويعلو صوته بالتأوّه ثمّ ينحني قابضًا بيديه على ركبته. الرجل يلحق به متسائلًا)

الرجل : مالك؟

الشابّ : ركبتي!

الرجل : مدّ ساقك، دلّكها.

الشابّ : نار... نار موقدة...

(يثب راجعًا على قدمه الأخرى حتّى يجلس في أسفل الهضبة. يمدّ ساقه السليمة ويثني الأخرى ثمّ يتأوّه من الأعماق).

الرجل : ماذا حدث؟... كنت في غاية الصحّة...

الشابّ : الحقّ أنّها لم تعد إلى حالتها الطبيعيّة أبدًا...

الرجل : لكنّك لم تشكُ طيلة الوقت.

الشابّ : كان يعاودني ألم خفيف فظننته عابرًا.

الرجل : حالة طارئة لا تلبث أن تزول.

الشابّ : لعلّ وعسى.

الرجل : من المفيد أن تدلّكها.

الشابّ : لا أستطيع لمسها...

الرجل : حال بسيطة فيما أعتقد.

الشابّ : (متأوّهًا) قلبي يحدّثني بأنّ الأمر أخطر ممّا تتصوّر.

الرجل : لا تعتمد كثيرًا على حديث قلبك.

الشابّ : صدّقني فإنّ الحال خطيرة حقًّا.

الرجل : أرجو أن تكون واهمًا...

الشابّ : أريد إسعافًا عاجلًا...

الرجل : سأذهب لاستدعاء الإسعاف.

الشابّ : وتعود بسرعة من فضلك!

الرجل : لا أظنّ فإنّ أقرب تليفون يقع على مسيرة غير قصيرة.

الشابّ : (بقلق) لا تتركني وحدي طويلًا.

الرجل : ماذا تخاف؟

الشابّ : المساء قريب، وهٰذه بقعة غير مألوفة لإنسان عاجز.

الرجل : وما الحلّ؟

الشابّ : هل يمكن أن أسير معتمدًا عليك؟

الرجل : سأضطرّ إلى حملك وهو ما أعجز عنه، جرّب أن تسير على مهل.

الشابّ : الحال أخطر ممّا تتصوّر.

الرجل : لا بدّ من حلّ ويخاصّة أنّني لن أبقى بعد الغروب!

الشابّ : ولٰكنّك لن تتركني وحدي!

الرجل : أخشى أن أضطرّ إلى ذٰلك إذا لم تسعفني بحلّ.

(صمت وتأوّه)

الشابّ : ولٰكنّك لن تفعل ذٰلك.

الرجل : لا يمكن أن أبقى هنا إلى ما شاء الله ولٰكنّي سأتلفن للإسعاف في طريق العودة.

(الشابّ يرمقه بنظرة صامتة متألّمة)

: سأفعل من أجلك ما لا تنتظره من رجل لا تعرفه ولا يعرفك.

الشابّ : (بحياء) حدّثتني عن رغبتك في الصداقة وأمامك فرصة لربطنا برباط المودّة إلى الأبد.

الرجل : (بشيء من الجفاء) ولٰكنّك رفضت يدي!

الشابّ : اغفر لي غضبي الأحمق!

الرجل : الحقّ أنّك كرهتني طوال الوقت.

الشابّ : الإنسان عدوّ ما يجهله ولٰكنّي سأعرفك من خلال سلوكك النبيل.

الرجل : (بنبرة لم يعد بها أثر من الرقّة القديمة) لا أقبل اصطياد صداقة تحت وطأة ظروف قاهرة.

الشابّ : (بضراعة) ولٰكنّك إنسان كبير القلب.

الرجل : أوّل كلمة طيّبة أسمعها منك.

(صمت)

الشابّ : ماذا تنوي أن تفعل؟

الرجل : سأشاهد المغيب ثمّ أذهب.

الشابّ : وتتركني عاجزًا للخلاء والليل؟

الرجل : لا حيلة لي في ذٰلك.

الشابّ : سيكون سلوكك غير إنسانيّ.

الرجل : لم ألقَ من السير وراء الناس إلّا الصدّ والاتّهام واللعنة!

(الشابّ يتأوّه)

: ألأنا الذي خلقت النحس حقًّا؟

(الشابّ يتأوّه)

: كيف تعاملون الترابيّ؟... إنّه يواري جثثكم في التراب، يصون كرامتكم، يعرّض نفسه لألوان شتّى من المخاطر، ويستحقّ في أحاديثكم التقليديّة الجنّة بغير حساب، ولٰكنّه لا يسعد في حياته بصديق واحد، ويمضي وحيدًا كالوباء...

الشابّ : الوقت يمرّ والحال تزداد سوءًا.

الرجل : كم صددتني، كم أهنتني، ولم تصدّق أنّني إنسان إلّا بعد إصابتك وقبيل الغروب.

الشابّ : يا لسوء حظّي!

الرجل : ها أنت تعود إلى اتّهامي.

الشابّ : لم أقصد هٰذا ألبتّة.

الرجل : ألست النحس الذي سلبك المال والحبّ والصحّة؟

الشابّ : سيّدي!

الرجل : أين فتاتك؟

الشابّ : لا سبيل إليها الآن.

الرجل : أليست هي أَوْلى بتمريضك منّي؟

الشابّ : إنّها لا تعلم بما حلّ بي.

الرجل : زهدت لوجودي في وصالك نفسه.

الشابّ : (متأوّهًا) أريد إسعافًا.

الرجل : سأتلفن للإسعاف في طريق العودة.

الشابّ : لا تتركني.

الرجل : (متأفّفًا) إنّك مزعج في مرضك كما كنت مزعجًا في صحّتك.

الشابّ : ألا ترى كم أنهكني المرض؟

الرجل : ألا ترى كم أنهكني السير؟

(صمت)

الشابّ : أليس لك خبرة بالإسعافات الأوّليّة؟

الرجل : لا خبرة لي بشيء.

الشابّ : ولكنّك في سنّ الحكمة والخبرة.

الرجل : أعرف كيف أسير على غير هدى، وأعرف كيف أسير في أعقاب إنسان أحمق، وأعرف كيف آمل دوامًا في علاقة لا تتحقّق أبدًا.

الشابّ : (بضراعة متأوّهة) لا تذهب.

الرجل : سأذهب عندما يجب الذهاب.

الشابّ : لا تذهب.

الرجل : اعتدت أن يقال لي اذهب عندما أرغب في البقاء وأن يقال لي لا تذهب عندما يجب الذهاب.

(الشابّ يتأوّه. جوّ المغيب يهبط فيغطّي الخلاء. الرجل يمضي إلى يسار الهضبة ليتطلّع إلى الشمس الغاربة)

الشابّ : لا تبتعد عن إنسان يتألّم لتشاهد شمسًا تغرب.

الرجل : صه، لا تكدّر صفو الساعة، الساعة الفريدة، الوحيدة التي تلمس فيها حركة الشمس، الوحيدة التي تنظر فيها إلى الشمس دون أن تُصاب بالعمى، الوحيدة التي يُرى فيها الظلام وهو يزحف، الوحيدة التي أسمع فيها التوسّلات بدلًا من اللعنات، ها هي الشمس تختفي تمامًا...

(الرجل يتحوّل عن موقفه متّجهًا نحو الشابّ ويرنو إليه دقيقة).

الرجل : الوداع.

(ثمّ يسير على مهل نحو الخارج)

الشابّ : لا تذهب.

(يواصل السير غير ملتفت إليه)

: أستحلفك بالله.

(يواصل سيره)

: انتظر... انتظر...

(الرجل يختفي)

: عليك اللعنة.

(الشابّ ينظر فيما حوله بخوف. الظلام يهبط رويدًا رويدًا حتّى يختفي كلّ شيء... تمرّ فترة قصيرة على تلك الحال ثمّ تترامى أضواء من وراء الهضبة. ويسمع وقع أقدام قادمة. من يمين الهضبة ومن يسارها يجيء رجلان حاملين مشعلين، يرتدي كلّ منهما سروالًا وصدارًا أحمرين. يقفان على مبعدة من الشابّ إلى اليمين وإلى اليسار ويلازمان الصمت طوال الوقت. يبدو الشابّ على ضوء المشعلين مستغرقًا في النوم. ثمّ يتبعهما رجلان في أردية سوداء يحمل كلّ منهما سوطًا وحبلًا معقودًا. يقفان عن يمين الشابّ ويساره وهما يحملقان في وجهه. يوثقان يديه وقدميه بإحكام ثمّ يعودان إلى وقفتهما ممعنين فيه النظر. الشابّ يفتح عينيه. ينظر إلى الأمام في ذهول. يهمّ بالحركة فيدرك أنّه مكبّل بالحبال. ثمّ ينتبه إلى وجود الرجال الأربعة. يردّد عينيه بينهم في دهشة ووجل)

الشابّ : من أنتم؟... وماذا تريدون؟

الرجل١ : (للرجل رقم ٢ في تهكّم) إنّه لا يعرفنا!

الرجل٢ : (في تهكّم أيضًا) طبعًا... إنّه يرانا لأوّل مرّة.

الرجل١ : (للشابّ) أليس كذلك أيّها المخادع المارق!

الرجل٢ : أنت لا تعرفنا، هه؟

الشابّ : آسف، لم أكن أفقت من النوم بعد.

(يركلانه بقدميهما فيصرخ)

: الرحمة...

الرجل١ : (ضاحكًا) ابن الأبالسة يطلب الرحمة!

الشابّ : لا تحكموا عليّ بالظواهر، أنا بريء...

الرجل٢ : نفس الكلمات، لا جديد، نفس الأكاذيب العفنة!

الشابّ : كنت دائمًا حسن النيّة ولكنّ الزمن عنيد.

الرجل١ : الزمن، الزمن، ذلك المتّهم الوهميّ.

الشابّ : الرحمة.

الرجل٢ : الرحمة؟!

الشابّ : العدل.

الرجل١ : لا يدري ماذا يطلب.

الشابّ : الرحمة والعدل.

الرجل٢: قلت الرحمة ثمّ العدل فهاذا تطلب الرحمة أم العدل؟

الشابّ : الرحمة والعدل.

الرجل١: لا تكن طمّاعًا.

الرجل٢: نحن لا نعطي عادة إلّا الموت.

الرجل١: والرحمة والعدل لا يجتمعان.

الشابّ : ولِمَ لا يجتمعان؟

(يركلانه مرّة ثانية فيصرخ)

الرجل١: هذا التأديب عدل لأنّك تستحقّه فكيف يمكن أن تعامل بالرحمة في الوقت نفسه؟!

الرجل٢: حدّد أفكارك عمّا تريد، العدل أم الرحمة؟

الرجل١: (بحدّة) العدل أم الرحمة؟

الشابّ : الرحمة، لعلّ الرحمة هي ما أريد...

الرجل١: ألست على يقين ممّا تريد؟

الشابّ : لست على يقين من شيء، لقد أنهكني التعب.

الرجل٢: ألم تبدّد الوقت بغير حساب؟

الشابّ : يلزمني شيء من الراحة لأحسن الإجابة، فكّوا قيودي لأحظى ببعض الحرّيّة.

الرجل١: (ضاحكًا) ها هو ينادي بالحرّيّة كمطلب جديد!

الرجل٢: الحرّيّة بعد العدل والرحمة!

الشابّ : أليست جميعها أخوات لا يفترقن؟

الرجل١: ابن الأبالسة عقد بينها أواصر القربى ليطالب بالدنيا والآخرة!

الرجل٢: استمرّ في الطلب إلى غير نهاية، وبلا حياء، ماذا تريد أيضًا؟، ثروة؟، صحّة؟ جاه؟ ما رأيك في الحبّ؟، الذرّيّة؟، طاقيّة الاختفاء؟، جناحين للطيران؟، هرمونات لتجديد الشباب؟، مهضّمات ومليّنات ومسهّلات؟، فاتحات شهيّة؟. جواز سفر إلى جميع البلدان؟. ماذا تريد أيضًا؟

الشابّ : بعض الرفق، نحن إخوة!

الرجل١: إخوة!، من ناحية الأب أم من ناحية الأمّ؟

الشابّ : أعني أنّنا جميعًا بشر.

الرجل١: تريد أن تستغلّنا باسم البشريّة، هه؟، ولأنّك تتكوّن من نفس العناصر التي يتكوّن منها الكون فسوف تحاول استغفال الكون كلّه، ماذا تريد أيضًا؟

الشابّ : إنّي متألّم فكّوا قيودي.

الرجل٢: تريد الحرّيّة؟

الرجل١: إن كنت تريد الحرّيّة فاختر بنفسك الوسيلة التي نقتلك بها.

الشابّ : لا تسخروا منّي، لا تَعارُض يا سادة بين الحرّيّة والعدل والرحمة!

الرجل١: كذبت، كلّ واحدة منها تُستورَد من بلد غير البلد التي تُستورد منه الأخرى.

الرجل٢: ويؤدّى ثمنها الباهظ بالعملة الصعبة.

الشابّ : إنّي متألّم لحدّ العجز.

الرجل١: الحرّيّة أم العدل أم الرحمة؟

الرجل٢: نريد جوابًا صريحًا غير متردّد.

الرجل١: جواب صريح لا رجعة فيه.

الرجل٢: إن أردت الرحمة قتلناك بلا تحقيق، وإن أردت العدل قتلناك بعد تحقيق، وإن أردت الحرّيّة فاقتل نفسك بالوسيلة التي تفضّلها!

الرجل١: ماذا تريد؟، تكلّم بوضوح وصراحة، العدل أم هرمونات تجديد الشباب؟، الرحمة أم جواز سفر إلى جميع البلدان؟، الحرّيّة أم أملاح الفواكه الفوّارة؟، ما طريقة القتل المفضّلة لديك؟، ألك وصيّة بما يتعلّق بجثّتك؟... أترغب في دفنها؟، في حرقها؟، في تركها في الخلاء؟، في شحنها إلى بلد معيّن؟

الرجل٢: ماذا تريدنا على أن نفعل بالذرّات التي يتكوّن منها جسدك؟. أن نتركها للديدان؟، أن نهبها للجمعيّة الطبّيّة؟ أن نصنع منها قنابل مدمّرة؟

الشابّ : لا سبيل إلى التفاهم فيما بيننا.

(يركلانه فيصرخ)

الرجل١: لقد بدّدت وقتنا سدى، ألهذا أرسلناك؟

الشابّ : أرسلتموني؟!، متى كان ذلك؟، لم يرسلني

أحد!

الرجل٢: يا لك من كذّاب مخادع!

(يركلانه فيصرخ)

الرجل١: أحقًّا لم يرسلك أحد؟

الشابّ : معذرة، ضعفت ذاكرتي من المرض والإنهاك، معذرة.

الرجل٢: أم تريد أن تتنصّل من المهمّة التي كُلِّفت بها؟

الشابّ : المهمّة؟!

الرجل٢: المهمّة التي كُلِّفت بها!

الشابّ : أيّ مهمّة؟

الرجل٢: يا لك من كذّاب مخادع!

(يضربه بالسوط. الشابّ يصرخ)

الرجل١: وإلّا فلماذا أرسلناك؟

الشابّ : أنتم صادقون وأنا معذور، الزحام هناك شديد، والأصوات مزعجة، وعملي اليوميّ استغرق جلّ وقتي.

الرجل١: وما عملك اليوميّ؟

الشابّ : مدرّس تاريخ.

الرجل٢: حدّثنا عن دروسك، ماذا فعل الإنسان القديم؟

الشابّ : اكتشف الزراعة، صنع التقويم، بنى الأهرام، هزم وانهزم...

الرجل١: ألم يذكّرك شيء من ذلك بمهمّتك؟

الشابّ : كنت مستغرقًا طوال الوقت.

الرجل١: ألم تخطر بذاكرتك ولو كالهمس؟

(الشابّ يصمت. الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ متوجّعًا)

الرجل٢: اعترفْ...

الشابّ : اللعنة على ذاكرة لا تسعف صاحبها بما يجبّ أن تتذكّره.

الرجل١: كذّاب.

الرجل٢: اعترف بأنك تجنّبت ذكر ما يجرّ عليك المتاعب.

الرجل١: مخادع جبان!

الشابّ : جرّبوني مرّة أخرى!

الرجل١: لتعبث بنا مرّة أخرى.

الشابّ : أعطوني رسالة مكتوبة كيلا أنسى.

الرجل٢: وكيف نحيط بالظروف المتقلّبة التي تواجهك؟

الشابّ : الزحام هناك شديد وهو خليق بأن يشتّت الذاكرة.

(الرجل ٢ يضربه بالسوط. الشابّ يصرخ)

الرجل١: ماذا فعلت بيومك الطويل؟، لِمَ قصدت ميدان القلعة؟

الشابّ : كنت أسير على غير هدى.

الرجل١: تسير على غير هدى وأنت لم ترسل إلى هناك إلّا لمهمّة؟

الشابّ : كان اليوم عطلة.

الرجل٢: ألم تقل لك القلعة شيئًا يذكّرك بمهمّتك؟

الشابّ : زلّت قدمي فوقعت على ركبتي.

(الرجل ٢ يضربه بالسوط فيصرخ الشابّ)

الرجل٢: ألم يوحِ المطعم لك بشيء؟، ولا المقهى؟، ولا دار الآثار؟، ولا صالة المزاد؟، ولا عيادة الطبيب؟.

(الشابّ يصمت في يأس)

: وماذا جاء بك إلى الخلاء؟

الشابّ : فتاة.

الرجل٢: ولِمَ اخترت للّقاء مكانًا هو أصلح لدفن الموتى؟

(صمت)

: لم يذكّرك اللقاء بشيء عن مهمّتك؟

الشابّ : ثمّة رجل، رجل كريه كان يتبعني طول الوقت فشتّت فكري.

الرجل١: حتّى ذلك الرجل لم يذكّرك بشيء!

الشابّ : هو النحس نفسه، وقد أفسد كلّ شيء.

(الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ الشابّ)

الرجل١: ضيّعت وقتك ووقتنا يا جبان.

الرجل٢: وكانت الفرص تناديك من كلّ جانب يا أعمى.

الرجل١: ولم نبخل عليك بالتحذير تلو التحذير.

الشابّ : ما تلقّيت تحذيرًا قطّ.

الرجل١ : كذّاب غبيّ أعمى.

الشابّ : الرحمة!

الرجل٢ : الرحمة أم العدل أم الحرّيّة؟

الرجل١ : أم فاتحات الشهيّة أم هرمونات الشباب؟

(يضربانه معًا بالسوط وهو يصرخ متوجّعًا. الرجل ١ يشير إشارة خاصّة إلى الرجلين حاملَي المشعلين. الرجل ١ والرجل ٢ يذهبان إلى مكانيهما الأوّل وراء الهضبة)

حامل المشعل : (مخاطبًا الشابّ) لِمَ تحنّ أسراب الطيور المهاجرة إلى أعشاشها التي تركتها في الجبل؟

(يحمل الشابّ بين يديه ثمّ يقول له)

: تذكّر أنّ الطفل يبكي حين تنحّيه أمّه عن ثديها الأيمن ولكنّه يجد في اللحظة التالية سلوه في ثديها الأيسر.

(يمضي حامل المشعلين في مشية متمهّلة والآخر يتبعه حاملًا الشابّ بين يديه)

(ستار)

انتهت

حكاية بلا بداية ولا نهاية

حكاية بلا بداية ولا نهاية

«١»

هتف المنشد في نغمة بدائيّة:

« يا سيّدي الأكرم على بابك»

فردّد المريدون:

«الله... الله... الله...»

تابعت عيناه المشهد من خصاص نافذة ببهو الاستقبال. تابعتا موكب أهل الطريقة وهم ينشدون ويصفّقون على أنغام الناي ودقّ الدفوف وتحت البيارق ينشدون. تزاحموا حول الضريح وأمام البيت الكبير حتّى امتلأت بهم الحارة. وتسلّلت إليه في موقفه وراء النافذة نسائم دافئة من الحديقة مترعة بأخلاط من روائح الفلّ والياسمين والحنّاء والقرنفل. لبث بمكانه في بذلته السوداء الأنيقة مغطّى الرأس بعمامة مقلوزة، ينظر ويصغي باهتمام.

«يا سيّدي الأكرم على بابك»

الله... الله... الله...»

وارتفع صوت مكتسح النبرة يطالب الجميع بالسكوت فساد الصمت. وراح يخطب قائلًا:

«هنيئًا لأهل مصر. هنيئًا لمصر. اختارك الأكرم مأوى ومستقرًّا لشخصه ولذرّيّته. هنيئًا لكِ يوم قصدك قادمًا من المشارق. على قدميه جاء. يستأنس وحوش البراري، يخترق الجبال، يسير فوق الماء، يفجّر العيون في الصخر. وهلّ على القاهرة السعيدة كالبدر، وتجوّل في أطراف متباعدة حتّى استقرّ به المقام في هٰذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجده وضريحه. هنيئًا يا مصر، وهنيئًا يا حارتنا، حارة الأكرم وموطن ذرّيّته ومريديه. منذ قرون خلت انبثق في هٰذا المكان نور ما زال يجذب إليه فراشات من طالبي الهداية والغفران، وترك لكم المسجد والبيت الكبير. البيت الكبير مركز الروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الأكرميّة ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهند وفارس وتونس والجزائر ومرّاكش وطرابلس. بيت هو القلب الخفّاق لعالم روحيّ شامل. يا سيّدي الأكرم تحيّة وسلامًا. يا من جبت الأقطار كلّها واخترت لمقامك هٰذا القطر، هٰذه العاصمة، هٰذه الحارة، هٰذا البيت. يا صانع الكرامات تحيّة وسلامًا. ولآخر خلفائك وذرّيّتك مولانا محمود الأكرم تحيّة وسلامًا».

تعالت الهتافات من الأركان، ثمّ أنشد المنشد وردّد المريدون:

«الله... الله... الله...»

«يا سيّدي الأكرم على بابك»

تحوّل عن النافذة بوجه أسمر مستطيل ولحية سوداء قصيرة مدبّبة. تطلّع إلى شيخ في الستّين يقف وسط البهو الكبير تحت نجفة برنزيّة على هيئة مئذنة. أنعم فيه النظر فتلقّى نظرته بخشوع وقال:

ـ تحيّة وسلامًا يا مولانا محمود الأكرم.

فتمتم الرجل باسمًا:

ـ طاب يومك يا شيخ عمّار.

مضى ـ والآخر يتبعه ـ إلى كنبة تركيّة مفروشة بالسجّاد الشيرازيّ على مقربة من باب السلاملك. جلس ودعا الشيخ إلى الجلوس. تتابعت نسائم الصيف العطرة متهادية في تضاعيف أصيل غابت شمسه وراء أشجار التوت المعشّشة بالعصافير. قال الشيخ محمود:

ـ من يرى موكبنا لا يتطرّق إليه شكّ في استقرارنا.

فقال الشيخ عمّار بحماس:

- ما زالت الدنيا بخير.

هزّ الرجل رأسه في أسى متسائلًا:

- ماذا جرى لحارتنا؟

- لا شيء، سحابة صيف، عبث أطفال...

- إنّك لا تؤمن بما تقول يا شيخ عمّار، هل سبق أن نال لسان من الطريقة؟

- إنّه جيل جديد عجيب يمتطي مركبة الشيطان.

قطّب محمود الأكرم قائلًا:

- يسخرون من الطريقة، ومن المريدين، ومنّي شخصيًّا، ويرسلون النكات في مقاهي الحارة بكلّ وقاحة.

- وباء هٰذا الزمن، ماذا جرى لهٰذا الجيل؟ كيف هانت عليه مقدّساته، ولكنّه عبث أطفال ليس إلّا.

- ألم يسمعهم المريدون؟

- بلى يا مولاي؟

- ماذا فعلوا؟

- نصحوهم بالتي هي أحسن، وركبهم الغضب مرّات، ولكنّ أحدًا منهم لم ينس أنّ الحارة أسرة واحدة.

وقال محمود الأكرم بحدّة:

- لولا الأكرميّة ما كان للحارة شأن...

- هو الحقّ يا مولاي، وقد هيّجني الغضب مرّة كدت...

ولٰكنّه قاطعه قائلًا:

- لا يليق العنف بأهل الطريق!

- ولٰكن للصبر حدود.

- أسأل الله ألّا تدفعنا الأحداث إلى تجاوز القصد.

رفع بصره إلى الساعة الكبيرة في الجدار الأوسط ثمّ تساءل:

- متى يجيئون؟

- لعلّهم في الطريق إلينا.

- ألا يوجد بينهم زعيم أو محرّض أو ما شاكل ذٰلك؟

- ليس هناك تنظيم أو زعامة ولٰكن ثمّة شابّ يتّسم بوقاحة مركّزة يدعى عليّ عويس.

ضيّق الشيخ عينيه متفكّرًا وقال:

- عليّ عويس!... إنّي أعرف هٰذا الاسم أو على الأقلّ بعضه.

- إنّه ابن المرحوم عويس سوّاق الكارو.

استقام ظهر الرجل بغتة وتساءل:

- شقيق المدرّسة؟!

- شقيق زينب عويس المدرّسة.

نظر الشيخ محمود إلى حذائه الأسود صامتًا فقال الشيخ عمّار:

- لعلّه ليس من الحكمة أن تفتح المدارس لكلّ من هبّ ودبّ!

فتمتم الشيخ محمود وكأنّما يحدّث نفسه:

- إذن فهو شقيق زينب عويس.

- يغادر كلّ صباح بيتًا قديمًا أعدّ مدخله قديمًا موقفًا للكارو ليذهب إلى الجامعة!

- يقال إنّ شقيقته شقّت طريقها بإرادة من حديد.

- إنّها عانس، مدرّسة أطفال، ذات دخل ضئيل، وفي هٰذه الجحور يترسّب الحقد يا مولاي، ويتستّر على نفسه السوداء بالسخرية والنكات الجارحة.

- ليتك دعوت شابًّا آخر.

- إنّه أسلطهم لسانًا!

- كان أبوه مريدًا لأبي، وكان محمود السيرة رغم ضعته وفقره.

- قلت لهم اختاروا من بينكم نخبة لمقابلة مولانا فكان أجرأهم على القبول، رفض البعض، وتردّد البعض الآخر، ولٰكنّي أعتقد أن سيجيء منهم نفر لعلّهم أصلبهم.

- طليعة الخاطئين..

تنهّد الشيخ عمّار قائلًا:

- لم تعرف حارتنا أمثالهم من قبل...

- هو زمن الغرور والوقاحة.

- يخيّل إليّ أنّ جامعاتنا معاقل أجنبيّة!

حدجه الشيخ محمود بنظرة عابسة فتراجع الرجل في استحياء قائلًا:

- إلّا مَن هداه الله وحفظه..

- رحم الله أبي.

ـ لقد جئتك بالمعلّمين ولكنّك ترغب في دخول مدارس الدنيا.

ـ لا بأس من ذلك يا أبي.

ـ كلّ علم فهو من عند الله.

ـ الحمد لله.

ـ ولكنّ العبرة بالجهاد وعليه يتوقّف الطريق.

ـ سمعًا وطاعة يا أبي.

ـ لكي تكون خليفة كما ينبغي لك.

ـ أجل يا أبي.

ـ إنّ علوم الدنيا لها نهاية أمّا جهاد الطريق فلا نهاية له.

***

ولّما خرج من أعماق صمته قال الشيخ عمّار:

ـ ليرحم الله أباك.

وطيلة الوقت لم ينقطع إنشاد المنشدين وترديد المريدين ولكنّه انخفض درجات كأنّما يجيء من بعيد. تابعه الشيخ محمود بشيء من الحزن ثمّ قال:

ـ يا للذكريات، عرفنا ذات يوم أسماء جذّابة كأرشميدس ونيوتن، وحقائق غريبة كالجزّيء والحركة، ولم أتصوّر وقتذاك أنّها ستطاردنا بعنف كالزمن.

دخل خادم يستأذن للقادمين... أشار الشيخ محمود للشيخ عمّار فقام ليغادر المكان في أثر الخادم ولكنّه أضاء النجفة قبل أن يغيّبه الباب. دخلت مجموعة من الشبّان، عشرة بالتمام، دون العشرين سنًّا، يرتدون البنطلونات والأقمصة نصف كمّ ولا تخفى على عين قِدَم ملابسهم. وقف الشيخ لاستقبالهم فتمّت المصافحة بطريقة حديثة لم يتوقّعها ولم يألفها. مدّ يده منتظرًا تقبيلها ولكن شدّت عليها الأيدي باحترام دون تقبيل. بدأ التعارف فقدّم كلٌّ نفسه. الجميع طلبة بالجامعة، بالآداب خاصّة، ما عدا واحدًا بالهندسة، وآخر بالعلوم هو عليّ عويس. تفحّصه بنظرة عميقة بقدر ما سمح الموقف الخاطف. لمح قسمات غير غريبة كنغمة قديمة عُزفت بعد نسيان، ونظرة حرّكت باطنه بقوّة مذهلة، فسّرها بالحنق فاستعاذ بالله من الشيطان في سرّه ولكنّها كانت ألصق بالقلق والحيرة.

قال باسمًا:

ـ حللتم أهلًا وسهلًا..

فأجاب أكثر من صوت:

ـ شكرًا يا صاحب الفضيلة.

قلّب عينيه في الوجوه الغالب عليها الشحوب وقال:

ـ لا تعجبوا لدعوتي إيّاكم، فهذا البيت مفتوح لجميع أبناء الحارة، وبمعنى آخر هو بيت الجميع...

فقال أحدهم:

ـ فرصة طيّبة وهبة سعيدة.

لاحظ أنّ الآخرين جالوا بأبصارهم في المكان وصاحبهم يتكلّم فشعر بحدّة التناقض بين رثاثتهم وفخامة الجدران المحلّاة بالأبسطة المزركشة والحصر الملوّنة وزينة الأرابيسك، والسقف الأبيض العالي تتدلّى من وسطه النجفة البرنزيّة ومن أركانه الفوانيس الأندلسيّة. بدوا كحشرات حادّة تغوص في شباك البساط الكبير الدسم.

قال الشيخ:

ـ نحن قوم مهمّتنا في الحياة التواضع لله وحبّ الناس.

ـ ما أجمل أن نسمع ذلك!

ـ وإذا كان الحوار مفيدًا بين الناس في كلّ حين فما أوجبه إذا نشب بينهم ما يدعو إلى سوء التفاهم.

صدّقوا على قوله بإحناءات من رءوسهم العارية فقال:

ـ وطريقتي أن أدخل الموضوع رأسًا، بلا لفّ ولا دوران ثمّ أتركه يتفرّع كيف شاء بعد ذلك.

استقرّت في أعينهم نظرات استطلاع وتوقّع فقال:

ـ بلغني يا سادة أنّكم تخوضون في كرامتنا وتهزءون بنا؟

فأجاب أحدهم:

ـ لا يخلو الخبر من مغالاة...

ـ أتنكرون ذلك؟

فأجاب آخر:

ـ لعلّ مزاحنا علا أكثر ممّا ينبغي.

قال الشيخ محمود ممتعضًا:

- لو جاء ذلك من خارج حارتنا ما اكترثنا له، بل حتّى وهو من صميم حارتنا كان يمكن أن ألقاه بالصبر والحلم لولا أنّ بعض المريدين همّوا مرّة بالدفاع عن مقدّساتهم فآلمني ذلك جدًّا، إذ أنّنا قوم مهمّتنا الأولى في الحيـاة هي حبّ النـاس لا الاعتـداء عليهم، وبخاصّة إذا كانوا من أبنائنا، لذلك قرّرت أن أدعوكم لتتّضح لأعيننا المواقف والسبل، ولنتعاون على تحكيم الحكمة والرشاد فيما بيننا...

قال صوت:

- سلوك حميد خليق بفضيلتكم.

قلّب عينيه في وجوههم مرّة أخرى ثمّ تساءل:

- ألا تعرفون ماذا يعني الأكرم وطريقته لحارتنا؟

ساد الصمت قليلًا حتّى خرج منه عليّ عويس قائلًا:

- الحقّ أنّ نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليًا، ولكي تعرفنا على حقيقتنا فاعلم يا سيّدي أنّنا طلّاب علم، نحبّ الحقيقة أكثر من أيّ شيء في الوجود، يؤسفنا أنّنا أزعجناك.

عاوده القلق لدى سماع صوته ولكنّه كبح انفعالاته وقال:

- نحن لا يزعجنا شيء. حتّى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلّاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فقال عليّ عويس:

- لعلّه اختلاف في وجهة النظر.

- لم يطالبكم أحد بالدخول في طريقتنا.

- الآراء المتناقضة يا سيّدي لا يمكن أن تعيش جنبًا إلى جنب في سلام.

فتساءل الشيخ بحرارة:

- ألا تعلمون أنّه لولا الأكرم، لولا الأكرميّة، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.

فقال عويس بثبات:

- الدنيا تتغيّر بلا توقّف ولا رحمة يا مولانا.

- ولكنّ الحقائق باقية خالدة.

- التغيّر هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا!

- التغيّر؟!

- التغيّر في كلّ يوم، في كلّ ساعة، في كلّ لحظة...

- أراك تتعلّق بظاهر كاذب خدّاع.

- معذرة يا سيّدي فالظاهر الكاذب هو الجمود...

ابتسم الشيخ مداراة لضيقه وقال:

- لا وقت الآن لمناقشة الظاهر والباطن وإلّا طال النقاش بنا دهرًا. بيد أنّه واضح أنّكم لا تؤمنون بطريقتنا؟

لم ينبس أحد منهم بكلمة فقال الشيخ:

- الصمت جواب، فهل تؤمنون بطريقة أخرى؟

فأجاب أحدهم:

- لنا في الحياة سبيل آخر غير الطرق!

- إجابة مفجعة، ترى ماذا تأخذون على طريقتنا؟

فسأله عليّ عويس:

- هل يتّسع يا سيّدي صدرك لصراحتنا؟

- إنّه أوسع ممّا تتصوّر.

فقال أحدهم.

- الحياة في حارتنا معاناة أليمة...

وقال آخر:

- إنّها صحراء مخيفة مليئة بالأكاذيب.

وقال عليّ عويس:

- صغار المريدين، وهم الكثرة الغالبة، حفاة خانعون..

فقال الشيخ بعجلة:

- إنّهم راضون، والرضا مطلب روحيّ مضنون به على غير أهله...

- لا يملكون حيال قوّتكم إلّا الرضا وإلّا ماتوا جوعًا، ولكن لا شكّ أنّهم يمرّون حيارى بهذا البيت الكبير الغارق في الرفاهية...

قال الشيخ بحدّة لأوّل مرّة:

- بيت آبائي وأجدادي مذ أقامه القطب الأوّل.

فقال الشابّ بجرأة جنونيّة:

- أقيمَ بأموال المريدين كسائر العمارات الشاهقة في وسط المدينة...

قام الشيخ محافظًا على هدوئه ما أمكن. تقدّم

خطوات مستقبلًا باب البهو المفضي إلى الحديقة كأنّما ليرطّب انفعالاته. تمتم دون أن يلتفت إليهم:

ـ قاتل الله الحقد والحسد.

فقال الشابّ ثملًا باستهتاره:

ـ إنّهما وقود الحقّ إذا اختلّ الميزان.

فقال الشيخ بازدراء:

ـ وقودنا الحبّ وحده.

ـ ذٰلك يا سيّدي أنّك لم تذق عضّ الجوع ولا ضراوة الكدح ولا رهبة القوّة الغشوم...

وتحوّل الشيخ إليهم بنظره وهو يقول:

ـ إذن فهٰذه المسألة!

ـ المسألة؟!

ـ إنّكم تريدون نقودًا؟!

ـ بمعنى ما ولٰكنّنا لا نريد رشوة...

ـ ماذا تريدون؟... صارحوني كما وعدتم.

أجاب أحدهم:

ـ ليس في عقولنا مطالب أوضح ممّا نطقتْ به شكاوانا...

وقال آخر:

ـ يريحنا أحيانًا أن نطالب بنقيض ما هو قائم!

فعبس الشيخ قائلًا:

ـ لا يخلو كلامكم من خدر هو التمويه نفسه، حسن، إنّي أشمّ رائحة فوضويّة!

فقال عليّ عويس:

ـ لا تهمّنا الأسماء، وفي الوقت نفسه فهي لن تخيفنا...

ـ لعلّكم تحلمون بالقتل؟

ـ القتل؟!

ـ بدأتم بالسخرية وستنتهون بالدم...

ـ أحلامنا تحوم حول هدف واحد هو التقدّم...

ـ يا فتى، إنّي جامعيّ مثلكم!

ـ نعرف ذٰلك يا سيّدي.

فعاد إلى مجلسه وهو يقول:

ـ فلنتحدّث كزملاء.

ـ هٰذا شرف كبير لنا يا سيّدي.

فابتسم مستردًا بذلك هدوءه وقال:

ـ إنّكم شباب في مقتبل العمر، أمامكم فرص لا تحصى للتعلّم من الكتب والحياة والزمن، فأيّ خطإ تعثرون به قابل للإصلاح، لذٰلك لا يزعجني كثيرًا أنّكم لا تؤمنون بشيء...

ـ لا نؤمن بشيء؟!

ـ أتؤمنون بشيء؟

ـ إنّ من يعمل فلا بدّ أن يؤمن...

ـ كثيرون يعملون كالآلات.

ـ ولٰكنّنا نعمل بحماس صادق.

ـ فلعلّه الطموح؟

هزّ عليّ عويس رأسه هزّة غير القانع ثمّ تساءل:

ـ ألا يستحقّ العلم أن نؤمن به يا مولاي؟

ـ إنّه معرفة باهرة، وهو من أحبّ القراءات إلى نفسي.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ إنّه باب من أبواب العبادة.

ـ وقوّته على السيطرة والتغيير؟

ـ خير كثير وشرّ كثير.

ـ هو خير خالص أمّا الشرّ فيجيء من أوضاع إنسانيّة معوجّة...

ـ فما الذي يوجّه الإنسان نحو الخير؟

ـ وعي حكيم في مجتمع سليم.

قال الشيخ بنبرة راسخة قويّة:

ـ لا إيمان حقيقيّ إلّا بالله ولا خير حقيقيّ إلّا بالله وفي سبيل الله.

وساد صمت فترامى من الحديقة نقيق، وخشخشة أوراق، على حين ارتفعت من الحارة ضجّة عابثة ضاحكة. جعل الشيخ ينقّل عينيه بينهم. لم يستطع تجنّب النظر إلى عويس. وقال:

ـ لعلّكم تؤمنون بالإنسان، هٰكذا يقال كثيرًا في هٰذه الأيّام، ولكن ما قيمة الإيمان بالإنسان بغير الإيمان بالبطولة؟

أجاب أحدهم:

ـ لا قيمة لشيء بغير البطولة.

ـ أيّ ضمان للبطولة ـ وهي تضحية بالنفس والمال ـ بغير إيمان كامل بالله!

ـ من المؤمنين من لا بطولة لهم والعكس صحيح!

ـ على أيّ أساس تقوم بطولاتهم؟

ـ إيمانهم بأنفسهم وبعالمهم!

ـ غير كافٍ وحده.

ـ التربية الرشيدة.

ـ ولا هٰذه.

فقال آخر:

ـ قد نستعين في ذٰلك بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!

ابتسم الشيخ على رغمه ولٰكنّه قال بامتعاض:

ـ حبوب للتضحية... حبوب للشجاعة... حبوب للأمانة... ما شاء الله!

فقال عليّ عويس منفعلًا:

ـ لا تسخر منّا يا سيّدي، إنّ جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد، لقد ضقنا بكلّ شيء ونريد لكلّ شيء أن يتغيّر، وقد ورثنا هٰذا العالم عن آباء وأجداد ظُنّت بهم الحكمة يومًا ما فحقّ لنا أن نتنكّر لهم ولتراثهم...

فتمتم الشيخ ممتعضًا:

ـ أسفي على الآباء والأجداد.

ـ نحن أجدر بالرثاء منهم.

تفكّر الرجل قليلًا ثمّ قال:

ـ الآن عرفت لِمَ تسخرون من الطريقة وأهلها...

فقال أحدهم:

ـ إنّك يا مولانا رجل مثقّف، وليس جمْعك بين البدلة والعمامة عبثًا، وإنّ خيرًا كثيرًا يرجى منك لحارتنا...

ـ ترى ماذا يرجى منّي؟

ـ لا شيء يخفى على فطنتك...

ـ أعطني مثالًا يا بنيّ...

فقال عليّ عويس:

ـ أن تمزّق ستار الأكاذيب الذي يغشى حارتنا.

ـ الأكاذيب؟!

ـ كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعليّة للتسلّط واقتناء العمارات الشاهقة!

وقال آخر:

ـ والكفّ عن التغنّي بالخرافات.

ـ الخرافات؟!

فقال عليّ عويس:

ـ معذرة عن صراحتنا ولٰكنّنا بتنا نكره الكذب حتّى الموت.

ـ زيدوني صراحة!

ـ نحن مقتنعون بأنّ شيئًا لا يخفى عن فطنتكم...

أعقب ذٰلك صمت ثقيل.. طال الصمت فلم يجرؤ أحدهم على خرقه. وبذل الشيخ جهدًا جبّارًا ليخفي انفعالاته. ونهض باسمًا. قال:

ـ ها قد تمّ التعارف بيننا، وذاك من فضل الحوار كما قلت في بدء الاجتماع...

فقال أحدهم:

ـ نرجو أن تغفر لنا صراحتنا.

فقال الرجل بهدوء:

ـ ليغفر لنا الله جميعًا.

صافحهم واحدًا واحدًا. غادروا البهو. ولّما خلا المكان اكفهرّ وجهه. وروّح عن انفعاله بالحركة ذهابًا وجيئة. لم ينتبه إلى عودة الشيخ عمّار حتّى مثل الرجل بين يديه. وضع يده على كتفه وهو يقول:

ـ كما أخبرتني وأكثر.

تمتم الرجل:

ـ أبالسة يا مولاي.

ـ يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قيّمنا...

ـ وهم يتكاثرون وتتسلّل زندقتهم إلى النفوس الضعيفة.

ـ وابن سوّاق الكارو صاروخ مدمّر.

ـ قلت إنّه أسلطهم لسانًا.

ـ بل هو شرّ من ذٰلك...

ـ والعمل يا مولاي؟

ابتسم الشيخ محمود قائلًا:

ـ نحن قوم الحبّ غايتهم الأولى والأخيرة.

فابتسم الشيخ عمّار بدوره قائلًا:

ـ الآن عرفت سبيلي يا مولاي...

ـ ليكن الله في عونك.

ـ سأفعل ما يمليه الحبّ عليّ، حبّنا لمقدّساتنا، وحبّنا للمريدين الأبرياء!

وتبادلا نظرة طويلة.

«٢»

جلس على الديوان تحت النجفة يرنو إلى الحديقة بعينين نصف مغمضتين. إلى جانبه استكنّت العمامة فبدا شعره الأسود غزيرًا مفروقًا بعناية لم يتطرّق إليه أثر الشيب. ومن الحارة ترامت نداءات باعة الصباح مترنّمة. وفي الحديقة تألّقت أوراق التوت والحنّاء والأعناب تحت دفقات حارّة من أشعّة الشمس، استغرق في تأمّلات حتّى انتبه على حفيف ثوب. نظر نحو جارية سوداء طاعنة في السنّ جدّت في البحث عنه بعينين عمشاوين... ناداها برقّة:

ـ أمّ هاني...

اتّجه وجهها النحيل الضامر نحو الصوت ثمّ همست:

ـ امرأة تريد مقابلتك.

جاءت امرأة في أواسط العمر، صافية السمرة، تعكس عيناها السوداوان نظرة جادّة متجهّمة تستقرّ في أعماقها كآبة ثابتة. لبس العمامة ووقف في دهشة أوشكت أن تكون انزعاجًا لولا نجاحه في ضبط مشاعره. قال:

ـ زينب... أهلًا... تفضّلي.

مدّ لها يده فصافحته بعد تردّد ودون أن يندّ عن وجهها أيّ تعبير إنسانيّ.

ـ كيف حالك أهلًا أهلًا، تفضّلي بالجلوس.

ـ جلست على مقعد قريب من الديوان.

ظلّ واقفًا وهو ينعم فيها النظر ثمّ قال:

ـ لم أرك منذ عمر طويل، عمر طويل حقًّا، ولكنّي تابعت نجاحك بإعجاب...

قالت بلهجة قاطعة في التركيز على الهدف الذي جاءت من أجله:

ـ أرجع إليّ أخي!

حدّق فيها متسائلًا وقال:

ـ ماذا عن أخيك؟ لقد اجتمعت به مع بعض زملائه في هٰذا المكان منذ أيّام قلائل...

لازمت الصمت كأنّها لم تسمع شيئًا فواصل حديثه:

ـ دعوتهم بعد أن بلغني عنهم ما بلغني، لا شكّ أنّك سمعت بما يقال، وتناقشنا طويلًا، والتزمت في حديثي معهم بالرفق والسماحة وسعة الصدر، ولم أضنّ عليهم بالنصح الرشيد...

فقالت دون أدنى تأثّر بكلامه:

ـ أرجعه إليّ من فضلك!

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تعرف ما أعنيه تمامًا...

ـ صدّقيني...

فقاطعته بهدوئها الميت:

ـ لقد أُلقي القبض على الجميع فجر اليوم...

ـ علمت بذٰلك الساعة فقط ولكنّي لم أفهم معنى لقولك بعد...

فقالت دون مبالاة بأقواله:

ـ لذٰلك أكرهت نفسي على هٰذه الزيارة.

ـ الحقّ أنّني نسيت لدى رؤيتك كلّ شيء.

ـ إنّ الأخطاء يُنسي بعضها بعضًا...

فقال محتجًّا:

ـ يا للعجب، إنّك تسيئين بي الظنّ!

ـ نعم...

ـ مغالاة جاوزت كلّ حدّ.

ـ أرجع إليّ أخي.

ـ أيّ تهمة وُجّهت إليهم؟

ـ يقيني أنّهم أبرياء.

ـ إذا كان بريئًا فسوف يرجع إليك دون شفاعة.

ـ لست أطلب شفاعتك ولكنّي أطالبك بإصلاح خطئك.

قطّب قائلًا:

ـ اقتلعي هٰذا الوهم من رأسك.

ـ ليس وهمًا ما أعتقد، إنّك أكبر من أيّ وهم!

ـ سامحك الله.

ـ إنّه يسامح الولايا والضعفاء والمخدوعين والمغلوبين على أمرهم ولكنّه لا يسامح الأشرار

والمنافقين.

- صدّقيني...

فقاطعته:

- لا أستطيع أن أصدّقك.

- لا دخل لي فيما حصل لأخيك.

- أنت أبلغت عنه أو أحد رجالك بإيعاز منك.

هزّ رأسه هزّة المتسامح وقال:

- لم يكن بحاجة إلى مَن يشي به، ارتفعت أصواتهم في كلّ مكان، ودوّت ضحكاتهم بالآراء الهدّامة...

- ليس فيما قالوا جريمة ولكن انقلب الحال بعد مجيئهم لمقابلتك...

- ماذا تعنين؟

- أحلام شباب لا تؤذي أحدًا من الأبرياء، ولكن مادت الأرض عندما تطرّق الحديث إلى شخصك...

- كلّا. ولكنّهم لا يؤمنون بالله، لا يؤمنون بشيء.

- أتؤمن بالله أنت؟

- أيّتها الجارة.. اتّقي الله...

- ماذا لديك من درجات الإيمان التي تحفظها عن ظهر قلب؟!

- لا تحكمي على رجل لم تريه منذ عمر طويل.

- كثيرون - حتّى من مريديك - يعرفونك على حقيقتك...

- لا تعرّضي بقوم يدينون لي بالولاية.

- إنّهم يطيعون نداء المصالح.

- ليسعك حلمي إلى ما لا نهاية.

- لم يغضبك كفره المزعوم ولكن اغضبك رأيه في عماراتك الشاهقة في وسط المدينة...

- ليغفر الله لك سوء ظنّك...

فعادت تقول بهدوئها الميت:

- أرجع إليّ أخي...

- يتعذّر عليّ التدخّل في مثل تلك الأحوال.

- ما دام في قدرتك أن ترسله إلى السجن فلن يتعذّر عليك إخراجه.

جلس الشيخ على الديوان. ابتسم ابتسامة من يأسى على نفسه. قال معاتبًا:

- ليغفر الله لك.

ثمّ واصل حديثه:

- أعتقد أنّ الإجراءات الّتي اتُّخذت معهم لا تعدو أن تكون نوعًا من الزجر ليس إلّا، ومن أجل خاطرك سأبذل سعيًا حميدًا ولكنّي لست واثقًا من النتيجة، أرجو أن تعدلي عن سوء ظنّك بي، إنّ اتّهامك فوق احتمالي، ولا يليق بمركزي سواء في الطريقة أو في الحارة، ولقد حرّمت على أتباعي حقّ الدفاع عن مقدّساتهم إيثارًا للحبّ والسلام.

- إنّي عاجزة عن تصديقك، لديّ من الأسباب ما يحملني على إساءة الظنّ بك دائمًا وإلى الأبد، ولكنّي ما كنت أتصوّر أنّك ستلاحقني بالأذى جيلًا بعد جيل!

- إنّي بريء ممّا ترمينني به.

- إنّي أصدّق قلبي وهو خير دليل.

- صدّقيني.

- كلّا ولكن أرجع إليّ أخي.

- وعدت بالسعي.

- سيعرف أهل المقبوض عليهم الرجل المسئول عن ذلك آجلًا أو عاجلًا.

فقال بحدّة:

- جيل شرّير من الأبالسة، أوغروا الصدور بضلالهم، ولا أحد من العقلاء يضمر لهم أيّ عطف.

- إنّهم أفضل ممّا تظنّ.

- أهذا رأيك؟

- يودّون الخير من أعماق قلوبهم.

- هل حدّثك أخوك عن آرائهم؟

- أعرف أحلامهم.

- يا لخيبة الأمل، كدت أطالبك بالمعاونة على تهذيبه.

- لقد أحسنتُ تربيته.

- إذن كيف نشأ على الحقد والحسد والتعلّق بأتفه ما في الحياة؟!

- أتفه ما في الحياة؟!

- زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات.

تنهّدت زينب وقالت:

- يا لك من رجل تفوق جرأته الخيال!

فرّق بينهما صمت. أراح رأسه بالنظر إلى الحديقة. تلقّى دفقة من انفعالات طارئة. وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ يا للذكرى، ها هي نفحة من الماضي تهبّ كأنّما تهبّ من بستان. حاملة عرف عَرَق خاصّ، لعلّه عرق الإبطين، ناشرة صورًا مطويّة في قلب الزمن، تثير الحنين بقدر ما تثير الشجن.

ـ ماذا تعني؟

عاد يحدّق فيها ثمّ قال:

ـ ما زلت جميلة كما كنت...

فهتفت بحدّة:

ـ يا لك من رجل مريض!

ـ ليكن لسانك نفحة من ذكريات لا نصلًا للطعن والقتل.

ـ كأنّك إبليس بلحمه ودمه.

فقال باسمًا في غموض:

ـ هيهات أن تعرفي عذابات رجال الطريق.

ـ ولكنّي أعرف المنافقين...

فقال متوغّلًا في الانفعالات الطارئة:

ـ القلب نبع يفيض بمنصهر المعادن النفيسة والخبيثة، والسرور توأم الحزن.

ـ إنّك تهذي...

ولكنّه باخ. أفاق تمامًا. تراخت شفتاه امتعاضًا. قال بفتور:

ـ أرجو ألّا يخيب مسعاي في إرجاع الجميع إلى بيوتهم.

ـ أرجو ألّا أضطرّ إلى المجيء مرّة أخرى.

ـ بوسعك أن تفعلي شيئًا لتجنيب حارتنا ويلات نزاع يوشك أن ينقلب داميًا.

ـ بوسعك أنت أن تفعل هٰذا خيرًا منّي.

تساءل عابسًا:

ـ المجرين مجراهم؟! أتطمعين أنت أيضًا في مالي الحلال وولايتي المستمدّة من كرامات جدّي الأكرم؟!

ـ إنّي أصغر شأنًا من أن أنبّهك إلى ما ينبغي لك.

ـ بفضل طريقتنا يؤمن أحقر رجل في حارتنا بأنّه أصل الوجود وغايته!

فقامت وهي تقول:

ـ هل أغنانا ذٰلك عن تعاستنا شيئًا؟!

فقام أيضًا وهو يقول محتدًّا:

ـ إنّك على وشك الزيغ يا زينب.

ـ إنّي منتظرة وعدك.

ـ كان أبوك مريدًا صادقًا.

ـ رحمه الله.

ـ مات سعيدًا كما يجدر بمؤمن.

ـ ولكنّه عاش عيشة مريرة!

ـ أهمّ ما في الحياة هو الموت!

مضت نحو الباب وهي تقول:

ـ إنّي منتظرة وعدك...

***

ـ في هٰذا البيت المقدّس! وفي هٰذه الحجرة المباركة، عليك لعنة الله.

***

همّ بقول شيء قبل أن تختفي ولكنّه أطبق فاه، ثمّ ذهب إلى النافذة فأزاح الستارة وألقى نظره يتابع مسيرها...

«٣»

دخل بهو الاستقبال فرأى الشيخ عمّار في انتظاره. صافحه دون أن يخفي دهشته وهو يتساءل:

ـ خير.. ما جاء بك في هٰذه الساعة وقد أوشك الليل أن ينتصف؟

فأجابه الرجل وهو يغضّ البصر:

ـ لا غرابة أن نوجد في هٰذا البيت في أيّ ساعة من نهار أو ليل...

ـ جواب حسن.

جلسا والشيخ يمسح وجهه بمنديله ويقول:

ـ في الخارج عاصفة ترابيّة أخشى أن تدفن الحارة دفنًا، في هٰذا الجوّ يضيق الإنسان بالحياة وتضيق الحياة بالإنسان، وعجيب أن نكون من تراب ونجزع هٰذا الجزع للفحة منه، وفي كلّ خطوة يصادفك شابّ من أولئك الشبّان، لقد بذلنا لهم مسعى طيّبًا ولكنّهم لا يبدون شاكرين، كلّا، إنّهم أبعد ما يكون عن الشكر، وما أجدر اللئام بأن يظنّوا الاستجابة الطيّبة ضعفًا، وذاك الشابّ المتهوّر حدجني اليوم بنظرة

متحدّية، وقديمًا قيل اتّقِ شرّ من أحسنت إليه، اللعنة! لم تعد الحارة بالحارة التي أولتنا الإمامة ولا الزمان بالزمان الذي طاب لنا، أكنت تنتظرني يا شيخ عمّار؟

غمغم الرجل:

- نعم يا مولاي...

- ماذا أرى؟!... إنّ وراء نظرة عينيك أنباء لا تعد بخير؟...

- حفظك الله من كلّ سوء يا مولاي.

- ماذا حدث؟ هل وقع انقلاب خطير في نظام الكواكب؟!

- الدنيا بخير، ولن ينال من كمالها عبث الأبالسة...

تساءل الشيخ بضيق:

- ماذا وراءك يا رجل؟

- نحن قوم خلقنا الله لنواجه الشدائد بقلوب أشدّ منها.

فقال بجزع:

- هات ما عندك، كلّما استفحلت المصيبة كان الإيجاز أليق بها!

فقال الشيخ عمّار بعناد:

- ليس من الوفاء أن نخفي عنك أمرًا باتت تلوكه ألسنة الكثيرين.

قال بنبرة غاضبة:

- تكلّم.

- ثمّة نشرة مطبوعة كتبت بمداد حقد أسود.

- نشرة مطبوعة؟

- نعم.

- للتشهير بنا؟

- ما يشهّرون إلّا بأنفسهم.

وأخرج من جيب جلبابه نشرة على هيئة كتاب بغير غلاف مطبوعة بالرنيو، وسلّمها إليه مطرقًا. تلقّاها الشيخ متجهّمًا، تفحّص صفحتها الأولى، فرّها بسرعة، ثمّ عاد إلى صفحتها الأولى.

- يا له من عنوان غريب، «ماذا يعرف عن الأكرميّة»، ولكن منذا الذي لا يعرف كلّ شيء عن الأكرميّة؟!

نظر في عيني الرجل متظاهرًا بالاستهانة ثمّ سأله:

- أقرأتها؟

- نعم يا مولاي.

- مهاترات؟!

- نفثات شيطان رجيم.

- هل وُزّعت على نطاق واسع؟

- على جميع من يعرفون القراءة في حارتنا.

- متى حدث ذلك؟

- لم أدرِ بها إلّا اليوم.

- لقد تمّ الإفراج عن الأبالسة منذ عشرة أيّام!

أطرق الشيخ عمّار صامتًا فتساءل الشيخ محمود ساخرًا:

- هل يحرمنا ما جاء بها من الحياة أو يصدّ الحياة عنّا؟

- معاذ الله يا مولاي.

- نحن نعرف أعداءنا كما نعرف أصدقاءنا.

ومضى يقرأ بسرعة وهو صامت وتندّ عنه كلمات من آن لآن.

- توجد مقدّمة، ما شاء الله، كما يليق بالكتب العلميّة، ماذا تقول المقدّمة؟... «الحقيقة هي الحقيقة، لا تحتاج إلى أسباب تبرّر نشرها على الناس، علينا أن نتقبّلها دون تحريف وبشجاعة تليق بالبشر وإنّ تغيُّر أسلوب حياتنا ليتوافق معها، فنحن لا ننشرها بقصد الإساءة إلى أحد، ولكن إيثارًا للحقّ ونشدانًا للخير» ما شاء الله، أيّ حقيقة يا أوغاد؟ أبواب ثلاثة؟ أيّ أبواب أيّها اللئام؟ الباب الأوّل عن «البيت الكبير»، والثاني عن «الأكرم صاحب الطريقة الأوّل»، والثالث عن «السلوك في الأسرة الأكرميّة»، ما شاء الله... ما شاء الله...

وراح يقرأ مستغرقًا صامتًا والرجل يراقبه بإشفاق. وعلى حين بغتة هتف:

- اللعنة... الجحيم...

ورجع إلى الأسطر وقتًا آخر ثمّ صاح بحنق:

- الحمقى يتناسون أنّ الآلات الحادّة قادرة على تحطيم الجماجم الخاوية إلّا من ظلمات الكفر...

وواصل القراءة بوجه مكفهرّ وشفتين قلقتين حتّى

هتف:

- أشهد الله أنّي قوّة إذا شاءت اقتلعت أعداءها الجبناء من جذورهم المغروسة في الطين. . .

وانكبّ على النشرة بنظرات مفترسة وأسارير تنضح بالعنف حتّى قال بصوت متحشرج:

- إذن فلتتوقّف الأرض عن الدوران أو فلتدُرْ في عكس اتّجاهها. . .

رمى بالنشرة أرضًا. انتتر واقفًا. ورغم غضبه الأحمر بدا منهار القوى مهدّم البنيان. هرول إلى مدخل الحديقة. ضرب الأرض بقدمه. ثمّ رجع إلى موقفه مسدّدًا بصره إلى الشيخ عمّار الذي وقف بدوره تأدّبًا، وقال:

- أيّ وقاحة، أيّ جنون، أيّ تجديف، أيّ دعارة!

وكوّر قبضته ثمّ استرسل:

- الهذيان لغة دارجة، درجة الحرارة الطبيعيّة هي درجة الموت، التاريخ قتل غيلة، المسك سمّ زعاف، الأضرحة الطاهرة متاحف حشرات محنّطة، لا أنت أنت ولا أنا أنا، ولا تعجب للدوابّ إذا زحفت عليك لتعلّمنا كيف يكون السلوك في هٰذه الحياة اللعينة!

قال الشيخ عمّار بإشفاق:

- نحن في موقف يقتضينا أقصى ما نملك من حكمة.

- والجنون لماذا خُلق إذن؟

- مولاي، علينا بالحكمة التي نبشّر بها وإلّا أفلت منّا الزمام.

- أيّها العجوز، لقد كنتَ الذي يحرّضني وكنتُ الذي يحذّرك.

- هٰذا موقف جديد لم يسبق لنا مواجهته من قبل.

فلوّح بيده وهو يصيح:

- الويل له. . . الويل لهم. . .

- نحن لا نعرف المجرم إلّا. . .

- إلّا؟

- إلّا الظنّ. . .

- لا تغالط ضميرك.

- عيون رجالنا في كلّ مكان فلننتظر.

- سواد الكتاب برهان قاطع على مداد الحقد الذي استُمدّ منه!

- الحكمة. . . الحكمة. . .

- وندعه يقوم بيننا ساخرًا مجدّفًا؟!

- لنتلقّ الضربة بعقل ولندبّر بعقل آخر.

- لو تفشّت هٰذه الأكاذيب لقضت علينا.

- الأكاذيب لا تقضي على إنسان ولٰكن قد يقضي الإنسان على نفسه. . .

صاح بغضب:

- أكافح أنا أمواج الغرق العاتية على حين تجلس أنت على برّ السلامة تتغنّى بالأقوال الحكيمة!

- أضرع إليك باسم صاحب الضريح ألّا تقدم على خطوة إلّا بعد امتحان وتدبُّر وتفكُّر.

- لقد أذهلتك الضربة.

فقال عمّار بهدوء:

- سنضرب ضربتنا ولٰكن علينا أوّلًا أن ندرأ عنّا الشبهات.

- وكيف يتأتّى لي أن أمشي في الحارة مرفوع الرأس بعد اليوم؟

- المؤمنون بنا أضعاف الكافرين.

- ولٰكنّ الكافرين أقوى على الشرّ.

- لم يئن أوان المعركة بعد، علينا ألّا ننفرد برأي، وعلينا أن نردّ على النشرة بالعلم واليقين فلن يبدّد العراك ظلماتها.

فقال الشيخ متأوّهًا:

- إجراءات من طبيعتها أن تطول أكثر من ليلتي الحالكة!

فقال الرجل بدهاء:

- المعركة قبل جلاء الحقّ اعتداء، ومن شأن الاعتداء الغاشم أن يُكسبهم عطفًا لا يستحقّونه، وسوف يشجّعهم ذٰلك على مقابلة الاعتداء بمثله وهم عدد لا يستهان به، ورجالنا ورجالهم في النهاية ينتمون إلى هٰذه الحارة التي كُتب عليها العناء. . .

فتساءل في جزع:

- متى وكيف نبدأ؟

فأجاب الرجل بعد تردّد:

- هنالك رجل لا غنى عنه في هٰذا المأزق.

قطّب الشيخ متمتمًا:

- الشيخ تغلب الصناديقي؟

- نعم.

فقال ممتعضًا:

- لقد هجرنا منذ عهد بعيد، ورأيه فينا غير خافٍ على أحد!

- أعلم ذٰلك يا مولاي ولٰكنّه ما زال إمامًا من أئمّة الطريقة ولن يتردّد في الدفاع عنها بعلمه الغزير.

تنهّد ثمّ قال:

- عليك بإقناعه بالمجيء إليّ...

- سأذهب إليه مع الصباح الباكر.

- اذهب إليه في الحال...

- مولاي... لقد انتصف الليل.

- اذهب إليه في الحال، وإن بدا منه اعتراض فذكّره بأبي إمامه وصديقه.

أحنى الرجل رأسه ومضى والآخر يقول:

- قل له إنّ رياحًا مليئة بالأوبئة انقضّت على الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدّسة.

«٤»

لاح في مدخل البهو. تقدّم متوكّئًا على عصاه بعد أن أوصله الشيخ عمّار ثمّ ذهب، في جلباب أبيض بسيط ناصع البياض تطوّق وجهه الضامر الوضيء لحية بيضاء مسترسلة حتّى منتصف الصدر. ورغم طعونه في العمر تألّقت عيناه بحيويّة جذّابة ونشاط روحيّ أضفى على أساريره جمالًا يجمع بين النضارة والعتاقة اختصّت به الشيخوخة المستكنّة في أحضان البراءة والتقوى. هرع الشيخ محمود إليه فصافحه بحرارة وهو يداري حرجه بابتسامة ثمّ مضى به إلى الديوان فأجلسه وجلس إلى جانبه. ارتج عليه القول لحظات ثمّ قال:

- حللت أهلًا وسهلًا في بيتك بعد غيبة طويلة!

فقال الشيخ تغلب ببساطة:

- كُتبت علينا التلبية عند النداء.

لم يرتح الشيخ محمود للإجابة تمامًا ولٰكنّه قال:

- أعترف بأنّ غيبتك إنّما ترجع إلى تقصيرنا.

فقال الرجل بصراحة:

- هٰذا حقّ!

ابتسم الشيخ رغم غمّه وكمده وقال:

- كأنّك أصغر منّي سنًّا، إنّك رجل سعيد، إنّي أغبطك!

- خفّف الله عنك.

- دعني أشكر لك تفضّلك بالمجيء في هٰذه الساعة من الليل.

فقال الشيخ تغلب بنفس البساطة والصراحة:

- كنت من دعْوتك لي على انتظار!

صدمه قوله. آذى مشاعره. ولٰكنّه تساءل:

- حقًّا؟

- نعم.

- لعلّ النشرة بلغتك؟

- نعم.

فقال بكآبة جديدة:

- لا أجد لها أثرًا في وجهك الكريم!

- أيّ أثر توقّعت؟

- الأثر المنشود لدى إمام من أهل الطريقة.

فارتفع صوت تغلب الصناديقي وهو يقول:

- لم يعد للطريقة أهل!

فانقبض قلب الشيخ محمود وقال:

- الوقت غير مناسب لإثارة الخلافات القديمة.

فقال العجوز بحدّة:

- لم يبق من الطريقة إلّا الأغاني والأذكار والنذور والعمارات!

- بقي الإيمان وهو كفيل بتجديد الحياة في أيّ لحظة.

- ليست الولاية أن ترث العرش ولا أن تقرأ كتب الأقدمين والمحدثين ولٰكنّها طريق طويل شاقّ لا يقدر عليه إلّا أهل الإيمان الحقّ.

***

- تزوّجْ، وابدأ الطريق، وإلّا فاتك قطار الرحمة إلى الأبد...

***

- لم نتخلّ عن الإيمان ساعة، وهو يتبعنا كظلّ من العذاب، ولٰكنّنا وقعنا في أحابيل زمان عجيب.

- أيّ زمان يمنع الرجل الصالح من التطلّع إلى

الأفق الأبديّ؟!

تنهّد الشيخ محمود قائلًا:

- ليتنا ننسى خلافاتنا في هٰذه الليلة المكشّرة عن أنياب الشرّ.

- أنسيت أنّني لم أرك مذ كنت شابًّا وها أنت تناهز الأربعين؟

- قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب.

- ذٰلك أنّي أضنّ بوقتي على غير الاجتهاد.

- لا يجوز أن تنقطع الأسباب بيننا...

- رحم الله أباك أمّا أنت فلم تذكرني إلّا حين هبّت الأعاصير على مجدك!

فامتعض الشيخ محمود وقال مصحّحًا:

- بل على الطريقة يا شيخ تغلب...

- الطريقة؟!... لقد تقوّضت على يديك.

- لن أناقشك ولٰكنّي أطالبك بواجب الدفاع عنها.

ثمّ بتوكيد:

- إنّك رجل القلم، مؤلّف أشعار الأكرميّة وفلسفتها والعالِم بأسرارها وأوّل من يحقّ له الدفاع عنها.

- أقرأت النشرة؟

- قرأت نفثات الأبالسة المدسوسة فيها.

هزّ العجوز رأسه وقال:

- تريد أن أردّ عليها؟

- هٰذا ما أطالبك به...

- لا ردّ عندي عليها!

- ماذا؟

ندّت عن الشيخ محمود صيحة توجّع وقطّب غاضبًا ولٰكنّ الآخر قال بهدوء:

- ليس عندي ما أردّ به عليها.

- ماذا تعني يا شيخ تغلب؟

- أعني ما قلت حرفيًّا.

- أتعني أنّ ما جاء بها حقّ؟!

- أجل يا مولاي.

ضحك ضحكة جافّة باردة وحملق في وجه العجوز بذهول.

- إنّك لا تعني ما تقول...

- قلت إنّني أعنيه حرفيًّا.

ضرب يدًا بيد وصاح:

- إليّ بعقل جديد لأقترب من هٰذه الأحاجي!

- يلزمك عقل جديد حقًّا...

- عمّا قليل سيعتلي الجنون عرش الطبيعة!

- لم يجدّ جديد يدعو إلى ذٰلك...

- لقد اختلقوا الأكاذيب بغية القضاء علينا.

- لم يختلقوا أكاذيب ولٰكنّهم عرفوا السبيل إلى مخطوطات قديمة بدار الكتب...

- زيّفها ولا شكّ أعداء الأكرميّة؟

- بل وضعها مريدون من أصدق المريدين القدامى.

- مريدون صادقون؟... أنت تقول ذٰلك؟

- نعم...

- أكنت على عِلْم بها من قبل؟

- نعم ولٰكنّي تكتّمتها لاعتقادي بأنّه قد يُساء فهمها.

- لا أصدّق أنّهم كانوا مريدين صادقين.

فقال الرجل بنبرة تنمّ على الاحترام:

- كانوا ثلاثة، الشيخ أبو كبير أوّلهم وقد عكف على دراسة بيوت الأكرميّة، والشيخ الدرملّي ثانيهم، وكان حجّة في معرفة رجال الأكرميّة، والشيخ أبو العلاء ثالثهم وقد ولع بتأريخ أهواء القلوب.

فصاح الشيخ محمود:

- أوغاد كذّابون!

- بل مريدون صادقون، كان الأوّلان تلميذين للقطب الأكبر عبد الله الأكرم أمّا الثالث فكان مريدًا لوالدك رحم الله الجميع...

- لن أصدّق أنّ الشمس تشرق من المغرب ولو أجمع على ذٰلك المريدون...

- إلى الشيخ أبو كبير يرجع ما ورد في النشرة عن البيت الكبير...

فقال الشيخ محمود بحنق:

- هذيان ما يقول، من يصدّق أنّ بيتنا هٰذا ما هو إلّا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة لا أنّه الأصل الذي انبثق منه النور؟!

ـ لم يقصد الحطّ من بيتكم، كلّا، عنيَ بدراسة بيوت الطريقة الأكرميّة فسافر من أجل رسالته إلى الشام وشمال أفريقيا وإيران ثمّ قرّر الحقيقة التي لا ضير منها وهي أنّ هٰذا البيت الكبير ما هو إلّا مقام أنشأه الأكرم، بيت من مئات البيوت التي سبقته إلى الطريقة، بل هو آخر بيت وصل إليه النور والهدى. . .

ـ يا للفظاعة. . .

ـ قل يا للحقيقة!

ـ جدّي هو مؤسّس الطريقة وبيته هو الأصل والمركز.

ـ إنّك غاضب للكبرياء لا للطريقة، طريق الله مفتوح للجميع، وشرف العزّة فيه للواصلين مهما يكن موقعهم.

فهتف محمود وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ الهواء يختفي ليحلّ محلّه الحزن، ولن يوجد بعد اليوم مبرّر لكي يحافظ العاقل على عقله ولا ليبرء المجنون من جنونه.

ـ تأمّل ولا تحزن، كم صادف أبو كبير في تجواله من بيوت ظنّ أصحابها أنّهم الأصل والمركز.

ـ ودّ أن نضيع في زحمة لا نهائيّة!

ـ النور لا يضيع أبدًا ولا يفنى. . .

ـ إنّك تسلبني العزّة لتهبني بلاغة لفظيّة.

ـ إنّك تعاني لأنّك لم توجّه إلى الطريق قلبك. . . لم يشغله إلّا الجاه. جاء وريث البيت الكبير، أمّا الأكرم نفسه فقنع بأن يقبس من النور شعلة أصّلها في هٰذه الحارة التي أصبحت بفضله مباركة. . .

قطّب الشيخ محمود وقال:

ـ سوف يحتاج الناس لرؤيتنا إلى مجهر كبير!

ـ المهمّ أن يروا شيئًا يستحقّ الرؤية. . .

قام الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك ثمّ رجع وهو يتنفّس بعمق. وترامى من الحارة صوت يصيح كالمستجير «يا سيّدي الأكرم على بابك» فضحك الشيخ ضحكة قصيرة لم تنبسط لها أساريره إلّا لحظة ثمّ عادت إلى اكفهرارها. أمّا الشيخ تغلب فقال:

ـ وإلى الشيخ الدرملّي يرجع ما ورد في النشرة عن القطب الأوّل، جدّك الإمام الأكرم.

فقال الشيخ محمود بحدّة:

ـ ذاك الذي رام نَسْف الأكرم نسفًا.

ـ ليس في وسع إنسان أن ينسف مولانا الأكرم.

فقال الشيخ محمود برجاء:

ـ إذن فأنت تؤمن بكذب ما جاء عنه في النشرة؟!

ـ كلّا!

تلقّى الطعنة في صميم قلبه وهتف:

ـ يا للفظاعة يا شيخ تغلب، ألم تعد تؤمن بأنّ الأكرم جاء مصر بين يدي سلسلة من الكرامات؟!

فلاذ الرجل بصمت قاس مغلق المنافذ حيال أيّة رحمة.

ـ أتصدّق أنّ القطب الأعظم جاء مصر هاربًا عقب ارتكاب جريمة شنعاء؟!

لم يخرق العجوز عن صمته الرهيب القاتل.

ـ وأنّ اسمه الذي عُرف به ها هنا وهو الأكرم محوَّر عمّا شهر به في الخارج وهو المجرم؟!

أصرّ العجوز على صمته فقال الشيخ محمود يائسًا:

ـ وأنّه جاء الحارة أشعث أغبر عاري الجسد لا يختلف شيئًا عن الحيوان الأعجم؟!

وتبادلا نظرة طويلة وهو يلهث ثمّ سأله متحدّيًا:

ـ أتصدّق ذُلك عن مولاك الأكرم؟!

عند ذاك تمتم الشيخ تغلب الصناديقي:

ـ ما أجمل الهدى بعد الضلال، ما أجمل الاستقرار بعد التشرّد، ما أجمل الجلال بعد البهيميّة، إنّه مولاي الأكرم الذي بلغ بجدّه المراد وكفى!

صاح الشيخ محمود:

ـ كذب، افتراء، إلحاد، حسد، حقد، من أولٰئك الثلاثة خُلِّفت ذرّيّة الأبالسة التي تعيث في حارتنا فسادًا. . .

ـ مأساتك الحقيقة هي الكبرياء والغرور. . .

ـ أبالسة من ذرّيّة شياطين. . .

ـ لم تحسن معاملتهم كما ينبغي لرجل من رجال الطريق.

فهتف مكوّرًا قبضته في غضب:

ـ أنصاف مجانين يحلمون بإبادة الصالحين من البشر.

ـ ماذا صنعت من أجلهم!

ـ قدّمت الحلم حيث كان يجب أن أقدّم العصا!

ـ ثمّ دسست مَن وشى بهم إلى السلطة!

ـ لقد ترامت أصواتهم المزعجة إلى مراكز الأمن دون حاجة إلى وشاية!

ـ لقد زاروني، حدّثوني عن العِلْم الذي يؤمنون به فحدّثتهم عن العلم الذي أؤمن به، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت، قلت إنّ العالِم من رجال الله إلّا إذا أراد أن يكون من رجال الشيطان، قالوا ليس من أهل الطريق من يلهج بالفسق والجشع فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار!

وراح الشيخ محمود يحادث نفسه:

ـ كذب، افتراء، حقد أسود...

ـ قرّب التفاهم بيننا حتّى فرّقت بيننا الشرطة!

فصاح الشيخ محمود بغضب:

ـ الويل، لن يبدّد ظلمات الأكاذيب إلّا الضربات الحاسمة.

ـ العراك سلوك غير جدير بأهل الطريق!

ـ إن صدق ما قال أبو كبير والدرملّي فلا طريق هناك ولا طريقة...

ـ بفضل اكتشافاتهم وضح الطريق...

فقال الشيخ محمود ساخرًا:

ـ إنّي أرتدي البدلة وما عليّ إلّا أن أنزع العمامة...

ـ لقد وضعتك الحقائق في موضع الامتحان فاختر لنفسك ما يحلو لها!

ـ لا اختيار هناك، إنّه طريق ذو اتّجاه واحد.

ثمّ خاطب نفسه:

ـ ويل لي من العذاب الذي يتبعني كالظلّ!...

ويل لي... وطوبى للذين يعيشون بلا ضمائر...

فصل بينهما صمت كالجدار، وطال الصمت حتّى قال الشيخ تغلب:

ـ وإلى الشيخ أبو العلاء يرجع ما ورد في النشرة عن السلوك...

فصرخ الشيخ محمود:

ـ ذلك الداعر!

قال العجوز بإشفاق لأوّل مرّة:

ـ كان خادمًا في البيت الكبير قبل أن تولد...

ـ داعر ماجن سافل!

ـ الحقّ أنّه اجتهد فصار من المريدين.

ـ كلماته تقطع بأنّه قوّاد أو منحرف.

ـ لم يقصد الإساءة صدّقني!

ـ ذاك الوحش الذي يتلذّذ بتمزيق الأعراض!

ـ كان يؤمن بأنّ الطريقة حبّ خالص فتابع الحبّ في جميع أحواله!

ـ ذلك الداعر!

ـ كان الحبّ همّه الأوّل والأخير، وآمن بأنّ في قلب كلّ إنسان بذرة حبّ إلهيّة مهما يكن من مساراتها فهي تتّجه في النهاية إلى الحبيب الأوحد!

ـ يا شيخ تغلب إن هي إلّا أكاذيب افتُريت بقصد القضاء على أسرتنا المجيدة!

ـ لو وهبت الطريق قلبك ما أكربتك الوساوس ولا اهتزّت شعرة في رأسك لأقاويل الناس.

ـ يا ويلي من الذين ينثرون لي الحِكَم وأنا أحترق في الجحيم!

ـ لو عاصرك الرجل لوجد عندك مادّة لكتاب قائم بذاته.

فقال غاضبًا متحدّيًا:

ـ إنّي رجل محمّل بالخطايا ولكنّي أنتمي إلى أسرة طاهرة مقدّسة، وما أصحابك إلّا دجّالون مجرمون.

ـ لقد صارحتك بما عندي، هو الحقّ والصدق، ليس فيه ما يزري بقيمة حقيقيّة، ولا ما يسدّ الطريق في وجه مؤمن، وكما ترى لم يتزعزع لي إيمان بالطريقة ولا بصاحبها رضي الله عنه.

ـ سأقدّم لك الدليل على كذبهم.

ومضى نحو الباب المفضي إلى الداخل ونادى بأعلى صوته:

ـ يا أمّ هاني... يا أمّ هاني.

ثمّ التفت إلى العجوز قائلًا:

ـ إذا ثبت كذب أحدهم انهار البناء من أساسه.

ولكنّ الشيخ تغلب قام وهو يقول آسفًا:

ـ أستودعك الله، لا أحبّ أن أقوم بينك وبين مربّيتك، إن وجدت جديدًا فاستدعني، ودعني أقول لك مرّة أخرى «تأمّل ولا تحزن وابدأ طريقك».

قال العجوز ذلك ومضى نحو الباب الخارجيّ، على حين تحوّل الشيخ إلى الداخل وهو يصيح:

ـ يا أمّ هاني... يا أمّ هاني...

«٥»

انتظرها في الردهة المفضية إلى بهو الاستقبال ثمّ قادها من يدها إلى المكان الذي أخلاه الشيخ تغلب الصناديقي. انسابت آثار النوم في تجاعيد وجهها وعينيها الكليلتين وجعلت تتثاءب بصوت كالأنين وهي تتساءل:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ نحن في أواخر الليل يا أمّاه.

ـ وماذا يبقيك مستيقظًا حتّى الآن؟

ـ إنّها ليلة لم تُخلق للنوم فيما أرى...

ـ لِمَ والعياذ بالله؟

فتفكّر حائرًا من أين يبدأ ثمّ تمتم:

ـ دعوتك لأمور هامّة فأصغي إليّ جيّدًا وافتحي لي قلبك بلا تردّد...

ـ ليكن ما دعوتني من أجله.

ـ الخير يتوارى هٰذه الأيّام في بطون الزواحف السامّة.

ـ ماذا بك يا بنيّ؟

ـ لقد عاصرتِ أبي وأمّي وعمّتي، ربّيتنا جميعًا وأرضعتنا.

ـ ليمدّ الله في أعمار الباقين وليرحم من انتقلوا إلى جواره.

فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ أطالبك بالصدق والصراحة ولو زلزل ذٰلك السماوات السبع، سنعود معًا في رحلة طويلة إلى الماضي.

ـ الماضي؟!

ـ أجل، الماضي، الماضي الذي يتوارى بمكر أحيانًا كاللصّ ولكنّه لا يموت، ثمّ يُبعث بغير دعوة ولا رغبة.

ـ لا أفهم عمّ تتكلّم يا بنيّ؟

ـ لا شكّ أنّك تتذكّرين عمّتي؟

ـ طبعًا، يرحمها الله...

ـ حدّثيني عنها.

ـ أنت تعرف كلّ شيء عنها، ليرحمها الله.

ـ دعيني ممّا أعرف وحدّثيني عمّا لم أعرف.

ارتسم القلق في صفحة الوجه الضامر وقلقت شفتاها دون أن يندّ عنها صوت.

ـ إنّها لم تمت كما قيل يا أمّاه.

ـ ليرحمها الله.

ـ لم تمت، لا فائدة من الإنكار، عشرات وعشرات من أبناء حارتنا يعرفون اليوم الحقيقة فلا جدوى من إخفائها.

هتفت المرأة مستغربة:

ـ أبناء حارتنا؟!

ـ نعم، إنّهم يقرأون مغامراتها بشغف شيطانيّ ويتندّرون بها...

ـ لا أفهم شيئًا.

ـ ألم تسمعي عن الشيخ أبو العلاء؟

ـ رضي الله عنه.

ـ فلتمزّقه أيدي الأبالسة في الجحيم الأبديّ.

ـ يا ربّ السماوات!

ـ تكلّمي يا أمّ هاني.

ـ لِمَ تفسد الطيّبات التي أنعم الله بها عليك؟

ـ أستحلفك بالله... بأبي... بمولانا الأكرم.

ـ لا تحفر في الماضي الذي مضى.

ـ أحقّ ما يقال من أنّها عشقت في شبابها ضابطًا إنجليزيًّا؟

ـ يا ألطاف الله.

ـ وأنّها هربت إليه بليل ثمّ رحلا معًا إلى إنجلترا؟

تراجعت العجوز في فزع، تمتمت:

ـ مَن...... كيف... ارحم نفسك يا بنيّ.

ـ هل مرقت من دينها حفيدة القطب الأعظم؟

ـ اللّهمّ ارحمنا.

ـ كذّبيني إن استطعت.

أغمضت المرأة عينيها في حزن ويأس:

ـ أكان بعض كبار الإنجليز يُدعون إلى بيتنا هٰذا على عهد أبي؟

ـ كان له أصدقاء منهم ولا عيب في ذٰلك.

ـ ولٰكنّ أحد أولئك الأصدقاء الكرام انقضّ على أخته فطار بها.

ـ قلبي يتقطّع يا بنيّ.

ـ تمنّيت أن تكذّبيني ولٰكنّ الحقيقة كالموت لا مهرب منها ولا نجاة.

وهزّ رأسه في يأس ثمّ عاد يقول:

ـ وقيل وقتذاك في الحارة إنّها سافرت للعلاج ثمّ أذيع بعد ذٰلك أنّها غرقت في البحار فأقيم مأتم أمّه المريدون وغيرهم من أبناء حارتنا الطيّبة الساذجة، كان أيّ شيء يجوز على حارتنا التي لم يعد يجوز عليها شيء.

أطرقت المرأة حتّى خُيّل إليه أنّها نامت أو ماتت. لم يجد في قلبه قدرة على العطف ولٰكنّه قال:

ـ لا تؤاخذيني على إزعاجك، أنت أمّ الأسرة وسرّها، وحولك تتفجّر أحداث مفجعة فلا مفرّ من أن يصيبك رشاش منها!

وكان يغوص في ظلمات اليأس بلا توقّف بيد أنّه لم يجد بدًّا من السير في طريق الأحزان حتّى نهايته. قال لها:

ـ حدّثيني الآن عن أختي رشيدة!

رفعت المرأة رأسها في فزع.

ـ لا تجزعي فلا يخفى اليوم سرّ.

ـ لتبعد عنّا الشياطين!

ـ لكنّها تزحف علينا من جميع الجحور.

ـ كُفّ عن هٰذا العذاب.

ـ لقد خُلقتُ هٰذه الليلة للعذاب.

ـ كأنّي لا أعرفك يا بنيّ.

ـ ولا أكاد أعرف نفسي ولا طريقتي ولا حارتي، ولٰكن قيل إنّي مجرم من سلالة مجرمين.

ـ بنيّ!

ـ حدّثيني عن أختي رشيدة، لا تخافي عليها، إنّها تعيش اليوم في كنف زوج كبير المقام في أقاصي الصعيد، ولٰكنّ سيرتها الخفيّة يقرأها المطّلعون من أبناء حارتنا.

ـ كيف تفتح أبواب الجحيم بيديك؟

ـ لقد فتحتها الزبانية.

انتحبت أمّ هاني بحرارة فقال:

ـ لا تبكي، لا فائدة، ولٰكن تكلّمي.

فهتفت:

ـ ليُقطع لساني إن نطق بسوء.

ـ لقد لعبت البنت لعبة غير لائقة مع خادم، كذّبيني إن استطعت.

ـ اللّهمّ احفظنا...

ـ لعبة ليست غريبة في هٰذا البيت، فقد لعبتها أنا مع أخريات، هٰكذا يتلقّانا الشيطان جيلًا بعد جيل.

ـ يا ربّ عفوك ورضاك!

ـ لا شكّ أنّ أبي حزن حزنًا بليغًا، أخته فابنته ثمّ ابنه، لعلّه تساءل طويلًا عن سرّ عذابه، ترى ماذا كان يقول في خلوته؟

ـ كما يجدر بالمؤمن الصادق.

ـ ولا شكّ أنّه عانى كثيرًا قبل أن يعثر لها على زوج مناسب!

تنهّدت المرأة قائلة:

ـ لقد قصّرتَ عمري يا بنيّ.

ـ كلانا يتلقّى الضربات يا أمّاه.

وغشيهما صمت غير قصير، ثمّ قادها إلى الداخل كما جاء بها وهو يقول:

ـ سامحيني، لقد حمّلتك من العذاب ما لا طاقة لك به.

ولمّا رجع إلى البهو وجد الشيخ عمّار في انتظاره. وقفا متقابلين يتبادلان النظر، ثمّ قال الشيخ عمّار:

ـ آنّ لك أن تنام يا مولاي.

ضحك الشيخ ضحكة لا حياة فيها فقال الشيخ عمّار:

ـ فلنفكّر مليًّا ثمّ نشرع في العمل بلا تردّد.

فلوّح الشيخ محمود بيده في غضب وصاح:

ـ يا شيخ عمّار... لا تحدّثني بلغة الحكماء، فلستُ حكيمًا، إنّي مجرم تجري الجريمة في عروقه منذ القدم، شدّ على قبضتك... أشحذ سلاحك. سدّد ضرباتك، نحن نخوض معركة حياة أو موت تحتاج

إلى الدهاء والقسوة والعنف لا المأثورات الجميلة. إنّك ثعلب ماكر وإنّي لفي حاجة إلى كلّ نقطة مكر في صدرك، لا تعنَ بالمحافظة على المظاهر الرقيقة فقد فاحت روائح الباطن الكريهة، إليّ بجميع الشياطين التي تقيم في هٰذا البيت واستعر من تستطيع من شياطين الحيّ كلّه، كفاك خداعًا بالفضائل الكاذبة... واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائعة المخلوقة أصلًا للكفاح والنصر، لنتصرّف بسرعة... وبقوّة... وبلا رحمة، ليكن سلوكنا كما ينبغي لأناس سادوا بعد هرب موفّق من مسرح جريمة بشعة... ثمّ هاموا على وجوههم كالوحوش يأكل بعضهم بعضًا. ولّما شيّدوا من أسلاب الضعفاء قصرًا جعلوه ميدانًا لألعاب الخسّة والفسوق، يا شيخ عمّار هلمّ إلى ساحة الغدر والجريمة والعنف.

«٦»

ـ الحال خطيرة، وستزداد مع الأيّام خطورة!

قال الشيخ عمّار بذٰلك للشيخ محمود وهما يقفان مستقبلين الحديقة في ساعة الأصيل. تجاهل الشيخ محمود قوله رانيًا إلى الحديقة ثمّ قال:

ـ ما أهدأ ساعة الأصيل!... كأنّها الوقفة الصامتة بين الشهيق والزفير!

ـ لن تعرف حارتنا الهدوء بعد اليوم.

فقال الشيخ محمود بحدّة:

ـ لم يبدأ الشرّ من جانبنا.

ـ هٰذا حقّ ولٰكن وقع اعتداء على بعض رجالنا الطيّبين.

ـ شرّ لا مفرّ منه أمّا الأبالسة فقد اجتاحتهم العاصفة.

ابتسم الشيخ عمّار قائلًا:

ـ عليهم اللعنة، ولٰكن هل تأذن له يا مولاي؟ لقد تركناه ينتظر طويلًا!

ـ إنّي أمقته ولٰكن فليحضر!

غادر الشيخ عمّار بهو الاستقبال وما لبث أن دخل عليّ عويس. جاء بوجه متجهّم فلاقاه الشيخ بنظرة جافّة باردة. حيّاه الشابّ بالسلام فردّ الشيخ بغمغمة ولم يمدّ يده. قال الشابّ:

ـ لقد جئت...

ولٰكن غلبه الانفعال فسكت. تركّزت عليه النظرة الجافّة الباردة دقيقة كاملة ثمّ سأله:

ـ ماذا تريد؟

ـ أنت أدرى بما دفعني إلى المجيء؟

ـ لا تضيّع وقتي بالألغاز.

ـ رجالكم يتحرّشون بنا في كلّ موضع.

ـ أكنت تتوقّع عاقبة أخرى؟

ـ كنّا نتوقّع مناقشة تهيّئ للجميع توازنًا ونقاء!

ـ أصبح في كلّ بيت شقاق، وأنتم أصل البلاء والفتنة.

ـ ما أردنا إلّا...

فقاطعه بحدّة وازدراء:

ـ لقد عرفتم منّي جانبًا ليّنًا ولٰكنّي أملك جانبًا آخر وعرًا...

ـ سيّدي...

فقاطعه للمرّة الثانية وبعنف أشدّ:

ـ إنّ من يتحدّى المقدّسات مثلك لا يليق به أن يكون جبانًا!

ـ لست جبانًا وليس فينا من جبان!

ـ إنّ من يدسّ إلى الناس نشرة ملأى بالافتراءات جبان.

ـ ليس فينا من جبان، وإذا تمادى رجالكم في التحرّش بنا فقد تعصف بحارتنا مأساة مؤسفة!

ـ أتهدّدني؟ افعل ما بدا لك، وستنال التأديب الذي تستحقّه...

ـ ليس نشر الحقائق جريمة، ونحن لم نقصد بنشرها إلّا الخير!

ـ اخسأ أيّها الوغد الكذّاب!

ـ لقد اكتشفها رجال من طريقكم يُعَدّون من الأئمّة.

ـ لم يكونوا إلّا أوغادًا مثلكم ومنذ قديم وأسرتنا هدف القلوب السوداء الحاسدة.

ـ لا تنظر إلى الخلاف من هٰذه الزاوية.

فقال بكبرياء وحنق:

ـ اعرف نفسك واعرف مَن تخاطب.

ـ أتعيّرني بأبي؟
ـ افهمْ ما تشاء.
ـ كان رجلًا شريفًا.
ـ كان رجلًا حقيرًا.
هتف الشابّ بغضب:
ـ لم يرتكب جريمة...
ـ لعلّه كان أحقر من ذٰلك.
ـ ولم يلوّث الدنس بيته.
جنّ جنون الشيخ. همّ بضربه. كبح جماح غضبه متراجعًا في اللحظة الأخيرة. قال:
ـ في بيته الحقير ترعرعت جريمة الكفر.
ـ أشياء تسمّى بغير أسمائها.
ـ وفي بيته أيضًا دنس خفيّ لم يجد من يعنى بنشره لحقارته...
صاح الشابّ:
ـ لا تتهجّم على الشرفاء.
أعماه الغضب تمامًا فصاح بدوره:
ـ ما أبعدك عن الشرف!... سَلْ أختك عن معنى الشرف.
فصرخ عليّ عويس:
ـ أختي أشرف من أسرتك!
وقبل أن يتمّ جملته هوت على صدغه لطمة. قبض على يد الشيخ. تلاحما بعنف غير متوقّع. صاح الشيخ:
ـ أتعتدي عليّ في داري؟!
وإذا بالشيخ عمّار يندفع داخلًا متبوعًا بعدد من الخدم فانقضّوا على الشابّ، قبضوا عليه، أسكتوا مقاومته، ساقوه إلى الخارج وهم ينهالون عليه ضربًا.
وأخذ الشيخ يسوّي هندامه وهو من الغضب في نهاية. وجعل يذهب ويجيء ويحدّث نفسه لاعنًا متسخّطًا. وحانت منه التفاتة نحو مدخل البهو فرأى زينب! تسلّلت الدهشة إلى بركان غضبه. رماها بنظرة قاسية. اقتربت متمهّلة في إشفاق حتّى وقفت في وسط البهو. لم يردّ لها تحيّة ولم يَدْعها إلى الجلوس.
ـ معذرة... لقد اندفعت إلى الداخل بغير استئذان...

سألها بجفاء من خلال غضبه المشتعل:
ـ ماذا تريدين؟
ـ علمت بمجيء أخي فقرّرت أن ألحق به...
ـ أرأيته وهم يخرجونه؟
أجابت بقلق:
ـ كلّا... ماذا حدث؟
ـ أكنت تتوقّعين لقاء أفضل بيني وبينه؟
ـ كلّا. ولكن لا بدّ من كلمة تقال.
ـ تتكلّمين هٰذه المرّة بأدب يقطع بشعورك بالإثم.
ـ لا بدّ من كلمة تقال.
ـ أيّ كلمة؟
ـ أعني بسبب الأحداث المحتدمة في حارتنا...
ـ بسبب سفاهتهم شبّت النار في كلّ بيت.
ـ ولذٰلك لا يجوز السكوت...
ـ ماذا تريدين؟
ـ ينعقد الرجاء الآن على الحكمة.
ـ فات أوان ذٰلك ولم يبق إلّا التأديب والردع.
قالت زينب بإشفاق:
ـ إنّه يعني الهلاك للجميع!
ـ بل الهلاك للمجرمين وحدهم.
تردّدت ثمّ قالت:
ـ ولكنّك...
وتوقّفت لحظات كأنّما تعاني ضيقًا ثمّ قالت غاضّة البصر والصوت:
ـ ولكنّك الأب الروحيّ للجميع!
تجلّت في عينيه قسوة بالغة وقال:
ـ تنطقين عن كذب وضيع، إنّي أحتقر جبنك!
خرس لسانها تحت وطأة الضربة المهينة فقال بسخرية:
ـ كأنّما تعترفين بجريمة مخزية!
جمعت أطراف شجاعتها لتقول:
ـ ولكنّ مركزك التقليديّ في الحارة حقيقة لا يمكن إنكارها!
ـ لا تتماديْ في الكذب دفاعًا عن أخيك...
ـ لعلّ الأمر أصبح أكبر من ذٰلك...
ـ لا تصرّي على الكذب، لا يهمّك إلّا أمره

وحده، ألم تطّلعي على نشرته المسوّدة بمداد الحقد؟...

لم تنبس بكلمة فقال بحنق:

- إنّك وراء ذٰلك كلّه كالدمّل الكامن وراء أورام خبيثة...

- ليكن ظنّك ما يكون ولكنّ نصف الحارة يتحرّش بنصفها الآخر، ثمّة عواقب وخيمة تتجمّع في الأفق.

- إنّي مؤمن بأنّك وراء كلّ مقت في هٰذا الخصام الوبيل.

- لقد ذهب سوء الظنّ بك بعيدًا...

- لا أشكّ في أنّه ورث حقده الأعمى عليّ من حقدك الأبديّ...

- فليسامحك الله...

ضرب الأرض بقدمه وهتف:

- ليس من حقّك أن تلعبي دور الضحيّة البريئة، لم تكوني ضحيّة قطّ!

ثمّ رماها بنظرة تحدٍّ وهو يقول:

- لقد كان ما كان وأنت في كامل اختيارك!

فتساءلت بفزع:

- ماذا يُرجعك إلى ماضٍ مضى وانقضى؟!

- إنّكم تهاجمون الأعراض وتنسون أنفسكم، فدعيني أذكّرك بما كان، وبأنّك لم تكوني ضحيّة لأحد، ولكنّك تصرّفت كما يجدر بامرأة مستهترة!

فهتفت:

- يا لك من رجل لا يفرّق بين أنبل المشاعر وأحطّها!

فتمتم بحقد وغضب:

- مستهترة، أجل، مستهترة!

فغلبها الغضب على حلمها وصاحت:

- يا لك من رجل حقير!...

- مزّقي ستار الأدب الزائف، واكشفي عن الحقد المخزون في أعماقك، يا بئس الصغيرات اللاتي يتلقّين العلم على يديك!

- مجرم عريق في الإجرام!

- ارجعي إلى بيتك، وانزوي في ركن مظلم متلفّعة بعارك...

- أيّها الوغد.

- اعترفي لأخيك بعارك ليكفّ عن الخوض في سيرة الأعراض!

- لقد جُننتَ أو أنّك على وشك الجنون، هي النهاية ولا رادّ لها.

- لقد حزّ في نفسك يومًا أن أرفض الوقوع في فخّ الزواج الذي نصبته لي، حزّ في نفسك أن تنفردي بعارك كامرأة عانس، ولعلّك توهّمت أنّك تثأرين لنفسك بنشر الأكاذيب عن أعراض الشرفاء.

- ليت مريديك يرونك وأنت على هٰذه الحال.

- ليتهم رأوك وأنت ترسمين الخطّة الحمراء لتكوني زوجة لخليفة الأكرم.

- ماذا أقول لرجل لم يشعر قلبه بقيمة نبيلة قطّ؟ ماذا أقول لرجل يستمدّ معارفه عن النساء من دنيا الساقطات المحترفات؟! ماذا أقول لرجل خسيس يخطر في لباس شيخ طريقة؟!

لبث يرميها بنظرة قاسية متشفّية، ونوازع الشرّ المتضاربة تقلقل عينيه. وأخيرًا قال كمن يودّ التخلّص منها:

- اغربي عن وجهي، حتّى أخوك كان دونك وقاحة...

فغرقت في صمت ثقيل لا تنبس بحرف.

- اغربي عن وجهي!

تنهّدت وقد تملّكت مشاعرها، وقالت:

- ماضينا لا يهمّ سوانا، أمّا الهلاك فإنّه يهدّد الجميع!

- عودي إلى بيتك.

- لنرجع إلى الحديث الأهمّ.

- عودي إلى بيتك.

فقالت بهدوء نسبيّ:

- لم أجئ أصلًا للشجار ولكنّك أنت الذي دفعتني إلى الجنون.

- هو خير على أيّ حال من الكلمات الخانعة ذات الطلاء الكاذب...

- أسأت فهم مقصدي...

- لن تُهدر حياتي بلا ثمن، ألم يقل أخوك إنّني بلا

أصل ولا شرف؟ حسن، سأعامله كما يليق برجل لا أصل له مثله ولا شرف له مثل أخته!

أحنت رأسها في حزن شديد. غلبها الإعياء فاضطرّت إلى الجلوس الذي لم تُدْعَ إليه. هزّ منكبيه باستهانة وهمّ بالذهاب إلى الداخل وهو يقول:

- خذي راحتك ثمّ اذهبي.

غالبت ضعفها الطارئ فقامت قائلة:

- انتظرْ...

فتحرّك وهو يقول:

- لا وقت عندي لمهاترات النساء.

- آجلًا أو عاجلًا ستوعز بقتله.

- قلت لا وقت عندي.

- أعلم أنّه في مقدرتك أن تقتله وأنت آمن.

ولمّا لم يتوقّف اعترضت سبيله قائلة:

- انتظر.

- ابعدي عن طريقي.

- أصغِ إليّ.

- كفاك ثرثرة...

ونحّاها جانبًا وسار نحو الباب الداخليّ فهتفت:

- إيّاك أن تمسّه بسوء، أتسمعني، إنّه...

وغصّت بعبرة ولكنّها صاحت بصوت خشن متهدّج مختنق:

- إنّه ابنك! من لحمك ودمك...

«٧»

تسمّر الرجل في مكانه. استدار بعنف، عنف غاضب دارى به فزعًا لم يستطع إخفاءه. تراجعت المرأة إلى الديوان فارتمت فوقه ثمّ استسلمت لموجة عاتية من النحيب. تبعها مهرولًا. وقف أمامها يحملق فيها يودّ أن ينفذ إلى أعماقها.

- ماذا تقولين؟

ولكنّ البكاء المتدفّق لم يمكّنها من النطق.

- ماذا قلت؟ أجيبي من فضلك؟

رغم مغالبتها للبكاء لم تغلبه بعد فعاد يتساءل بنفاد صبر:

- ابني!... ماذا قلت؟

حرّكت رأسها بالإيجاب دون أن تنبس.

- أيّ قول!... أيّة لعبة!

مضت تجفّف دموعها. اعتدلت في جلستها. لم ترفع عينيها عن الأرض.

- ابني!؟

همست:

- نعم.

- كلّا...

***

- إنّني...

- لِمَ تشيرين إلى بطنك؟. آه... كلّا.

- بلى.

- ألم تأخذي حذرك؟

- رغم ذلك حصل.

- تصرّفي... إنّك أدرى بهذه الأمور.

- إنّي خائفة يا محمود.

- تصرّفي وإلّا ساءت العاقبة.

- لا تكن قاسيًا.

- لست قاسيًا ولكن عليك أن تتصرّفي.

***

- لكنّها الحقيقة.

- قول يخرق المعقول، إنّه أخوك، فكيف أصدّق أنّه ابنك؟!

- ولِمَ ادّعي ذلك اليومَ بعد سكوت عشرين عامًا؟

قال بارتياب:

- لعلّك تتصوّرين أنّ...

فقاطعته قائلة:

- إنّه ابنك وكفى، لن يغيّر جدل من هذه الحقيقة!

- هل علم بذلك؟

- كيف تتخيّل ذلك!

- ولا أحد غيره؟

- كلّا، وقعت في المأزق عقب وفاة أبي بأيّام، أعلنت المرحومة أمّي أنّها حبلى، أقمنا زمنًا عند جدّتي بالمرج حتّى وضعت، ثمّ عدنا إلى حارتنا وهي حاملة ابني باعتباره ابنها هي...

تنفّس بعمق وهو لا يحوّل عنها عينيه وتمتم مذهولًا:

- ابنك وابنها!

ـ لم أتصوّر أنّني سأبوح بسرّه إلى أحد ولٰكنّك دفعتني إلى ذٰلك دفعًا.

ـ أأنت في كامل قواك العقليّة؟

ـ ليتك كذٰلك؟

ـ أتريدينني على أن أصدّق أنّه ابني وأنّني أبوه؟!

ـ هي الحقيقة التي لا مفرّ منها.

رفع الرجل رأسه هاتفًا:

ـ ما أعجب هٰذه الحارة! تنام أعوامًا نوم الأموات ثمّ تتفجّر بها شواذّ العجائب كالشهب المجنونة في ليلة واحدة بغير حساب!

ـ لا مفرّ من الحقائق، ستطاردنا اليوم أو غدًا. . .

ـ لا شيء هو هو، السماء فوقنا وتحتنا في آنٍ، ماذا يجدر بنا أن نفعل؟

قالت متأوّهة:

ـ لم يجرِ لي في خاطر أنّه سيقف أمامك متحدّيًا ولا أنّك ستجيبه مهدّدًا بالموت!

ـ لقد ترامت إليّ قذائفه قبل أن أسمع باسمه.

ـ شدّ ما أرعبني ذٰلك.

قال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ كم حيّرتني عيناه! كم عانيت من تناقض العواطف في أوّل لقاء، ولٰكن. . . ربّاه حذار من الخداع يا زينب!

ـ أف. . . تخلَّ عن شكوك سخيفة لا مبرّر لها.

فهزّ رأسه مغمغمًا:

ـ إذن هو ابني!

ثمّ واصل هزّ رأسه قائلًا:

ـ وأنا أبوه. . .

وتنهّد من الأعماق وقال:

ـ فلأسلّم بهٰذه الحقيقة، سيلزمني دهر لهضمها، ولٰكن عليّ أن أسلّم بها. . .

والتفت نحو المرأة متسائلًا:

ـ كيف ولدت الكراهية في قلبه نحوي؟

ـ لا أدري. . .

ـ لعلّه لم ينشأ نشأة دينيّة صادقة؟

ـ نشأ متديّنًا ولٰكنّه. . .

ـ ولٰكنّه؟

ـ عانى وما زال يعاني حياة فقيرة مريرة.

ـ هو حال الأكثريّة الساحقة في حارتنا.

ـ ولٰكن يحدث أن يتنبّه إلى الفوارق في المدرسة، ثمّ تصادفه كلمات هنا وهناك فيقرأها باهتمام يفوق الحدّ، ويكثر من التساؤل والنقاش، ثمّ يلقي نظرات غريبة على البيت الكبير، ثمّ تزلزل الأرض ويخلق شخص جديد!

فتفكّر مليًّا ثمّ تساءل:

ـ ترى هل ينقلب إذا وجد نفسه فجأة في البيت الكبير؟

فسألته فزعة:

ـ فيم تفكّر؟

ـ إنّه محض سؤال!

ـ حسن، عهدته يفكّر في الآخرين أكثر ممّا يفكّر في نفسه، أو قلْ لا يفكّر في نفسه إلّا من خلال الآخرين. . .

فقال بكآبة:

ـ براءة مؤقّتة تنطوي مع الشباب الأوّل!

ـ لا أظنّ ذٰلك.

ـ يا لله، إنّه يهزأ بجميع القيم التي يلتحم بها بنيان حارتنا.

ـ لا أدري الكثير عن ذٰلك!

ضرب كفًّا بكفّ قائلًا:

ـ وقد دمّر نفسه تدميرًا وهو لا يدري. . .

فحدجته بنظرة حزينة متسائلة فاستطرد:

ـ شدّ ما اجتهد اجتهادًا عبقريًّا ليثبت للملأ إجرام جدّه وهَوانَ بيته ودعارة أهله!

ـ زعم أنّه ينشر حقائق يجب احترامها!

ـ أساذجة أنت أم ماكرة؟! ليست المسألة محض عبادة للحقيقة، ولٰكنّها ذات عواقب محتومة، فلا ضمان للنذور بعد الأخذ بها، وسرعان ما ترتفع الأصوات مطالبة إيّانا بالأموال المكدّسة وريع العمارات!

فقالت بعد تردّد وفي إشفاق:

ـ لا شكّ في طيبة نواياهم!

ـ بل لمست في حديثهم الحقد والحسد والرغبة في الاعتداء.

ـ إنّ ما دفعني إلى المجيء إلى هنا هو أن أضرع إليك لتغلّب الحكمة...

ـ أخشى أن تكون الفرصة قد أفلتت.

ـ حتّى بعد أن علمت بما علمت؟

ـ الصراع الناشب اليوم أقوى من أيّ علاقة شخصيّة.

وذرع المكان ذهابًا وإيابًا في اضطراب واضح ثمّ عاد إلى موقفه أمامها وهو يقول:

ـ الصراع اليوم أقوى من أيّ علاقة شخصيّة، وفضلًا عن ذٰلك فسوف يظلّ جاهلًا بحقيقة نسبه، ولن يكفّ ـ وأصحابه ـ عن عنادهم المقيت، ومن الناحية الأخرى فإنّ كبار رجالنا قد أخرجهم الغضب عن جادة الاعتدال.

ـ ولٰكنّ الحكمة تستطيع أن تقدّم خيرًا...

ـ أين يمكن أن توجد الحكمة في حارتنا التي زُلزلت أركانها؟!

ـ أستحلفك بالله ألّا تيأس...

ـ صدّقيني لقد اختلّ ميزان كلّ شيء، خرجت النجوم عن أفلاكها، والكلمات عن منطقها، وتمخّضت قباب الأضرحة عن أوثان!

ـ ثمّة طريق للنجاة؟

ـ من أدراك؟... لقد سدّته الزبانية!

ـ ولٰكنّك رجل محنّك ذو نفوذ شامل.

فضحك ضحكة هازئة وقال:

ـ كنت مستندًا إلى عراقة أصل وامتياز بيت وكرامة أسرة، أين أولٰئك أين؟

ـ الذين يؤمنون بك لا حصر لهم.

ـ مع الزمن سيرى الناس فيّ رجلًا غارقًا في الخطايا ملوّثًا ضائعًا، شيّد من أموالهم بفساد ذمّته بناء ضخمًا.

ـ أكثر الناس ليسوا أفضل من ذٰلك.

ـ ولٰكنّهم لا يدّعون ولاية ولا يطالبون أحدًا بطاعة...

فرفعت إليه عينين دامعتين وقالت:

ـ ترى هل أفشيتُ سرّه بلا ثمن؟... بلا فائدة؟

فقال بامتعاض:

ـ للأسف لن يرث عنّي إلّا الخطايا وربّما ضعنا في الصراع معًا!

ـ حسن أن تفكّر فيه بعطف لأوّل مرّة...

ـ ألم تفكّري في البوح له بالسرّ؟

ـ لو فعلت لحطّمته تحطيمًا...

عاد يذهب ويجيء وهو يقول:

ـ اللّٰهمّ ألهمني الصواب، اللّٰهمّ بدّد جيوش الظلمات...

ورجع إلى موقفه وقد تضاعف تجهّمه ثمّ قال:

ـ كدت أنسى! لقد دفعني الغضب إلى طريق وعر...

ـ أجل فقد اعتدى عليه بعضهم.

ـ هنالك ما هو أفظع من ذٰلك!

حدجها بارتباك ثمّ عاد يقول:

ـ لقد عرّضت بشرفه!

ـ شرفه!... ماذا تعني؟

ـ أشعل غضبي لحدّ الجنون، عيّرني متحدّيًا فصحت به أنّ بيته ليس أشرف من البيوت التي يعرّض بها!

ـ خبر أسود!

ـ ذكرتك بطريقة ما.

هبّت قائمة في فزع هاتفة:

ـ كلّا.

فأجاب بأسى:

ـ بلى!

ـ أنت؟!

ـ دفعني إلى حافة الجنون...

ـ ربّاه... هل لمحت إلى ذٰلك التاريخ القديم؟

ـ كلّا ولٰكنّه غادر بيتي فاقد العقل ولا شكّ أنّه يجدّ الآن في البحث عنك.

ـ إنّه يظنّ الآن أنّك تسعى إلى فضحه انتقامًا منه، يا للكارثة.!

ـ أكّدي له أنّها محض أكاذيب لم أردّدها إلّا رغبة في الانتقام منه...

ـ ترى أيصدّقني؟

ـ سيصدّقك، إنّنا نصدّق ما نحبّ أن نصدّقه.

ـ وإن طاردني بشكوكه؟

ـ أصرّي على رأيك، ما عسى أن أقول أكثر من ذٰلك؟ إنّي غارق في محيط من المشاكل التي تبدو لا حلّ لها...

شملهما صمت. تبادلا نظرة طويلة. بدا شاحب اللون غائر النظرة كما بدت دميمة من أثر البكاء والغمّ. وتساءلت بلهفة:

ـ أأرجع إلى بيتي بلا بارقة أمل؟

فقال متنهّدًا:

ـ لا أعد بشيء لا سيطرة لي عليه، يلزمني وقت أخلو فيه إلى نفسي...

ـ وكيف أذهب ولا شيء في يدي غير الخواء؟

ـ لقد عرّيتِ مزيدًا من الحقائق، حسبك هٰذا...

ـ ولٰكنّه لم يغيّر من القضاء فيما يبدو؟

ـ لقد أتخمت بالحقائق المفزعة ويلزمني وقت أخلو فيه إلى نفسي.

ـ دعني أكرّر عليك أنّ الحكمة تستطيع أن تقدّم خيرًا.

ـ لا طاقة عندي لسماع جديد.

ـ أذهب؟

ـ بسلامة الله...

همّت بالذهاب ولٰكنّها عدلت. تردّدت متفكّرة. ثمّ قالت:

ـ لقد رميتني بشتّى التهم، تصوّرت أنّ أيّ حقد تحدّاك إنّما يُستمدّ من حقدي الأبديّ، دعني أقول لك قبل الذهاب، دعني أقول لك... إنّك... مخطئ!

نظر إليها بعينين متعبتين وتساءل:

ـ ماذا تعنين؟

فقالت وهي تمضي إلى الخارج:

ـ أستودعك الله.

أتبعها عينيه حتّى اختفت. تساءل ماذا تعني. سرعان ما شدّته الهموم إلى دوّامتها. جلس على الديوان وأغمض عينيه. دخل خادم فأضاء النجفة والمصابيح ثمّ ذهب. استشفّ جفناه الضوء فانقبض قلبه لمقدم الليل. ترامى إلى أذنيه وقع عصا على أرض الحجرة. فتح عينيه ملتفتًا نحو الباب فرأى الشيخ تغلب الصناديقي.

«٨»

قام الشيخ محمود إلى القادم وهو يقول:

ـ أهلًا بك يا شيخ تغلب.

ومضى به إلى الديوان والعجوز يقول:

ـ هاتف دعاني إلى لقائك.

ـ أهلًا بك وشكرًا لك.

فسأله برقّة لأوّل مرّة:

ـ كيف حالك؟

ـ النار أرحم من رأسي وقلبي...

ـ وأرحم من الغضب الذي يجتاح حارتنا...

ـ يا له من موقف يا شيخ تغلب.

ـ وماذا يقول رجالك الكبار؟

ـ صدق عزمهم على مقابلة التحدّي بمثله.

ـ لا غرابة أن يدافعوا عن مصالحهم!

فتساءل الشيخ محمود غاضبًا:

ـ والآخرون ماذا يحرّكهم؟

ـ إنّهم بحكم سنّهم أقرب إلى البراءة.

ـ فات وقت الجدل.

ـ ولٰكن ثمّة مجال للعمل، بم طالبك أبوك قبل وفاته؟ ابدأ اجتهادك في الطريق وسوف يقودك من خير إلى خير.

نفخ الرجل قائلًا:

ـ رأسي مزلزل!

ـ أفقدت إيمانك بالله؟

ـ كلّا، صدّقني، ولٰكنّ رأسي مزلزل.

ـ ألا تؤمن بالطريق؟

صمت مليًّا ثمّ قال:

ـ إذا تهاوى بناء شامخ فما جدوى أن تسأل عن حجرة من حجراته؟!

ـ إذن تريد أن تواصل حياتك كشيخ طريقة بلا طريقة.

ـ أعترف لك بأنّ ذٰلك لم يعد ممكنًا...

ـ اعتراف سعيد ولٰكن خبّرني أكان في نيّتك أن تستمرّ في ذٰلك إلى الأبد؟

تفكّر الشيخ باسمًا في أسى:

ـ كنت دائمًا أؤجّل البدء، إنّه الكسل وعشق

الحياة، وأعترف لك بأنّ ثمّة نكدًا لا يكفّ عن مطاردتي. . .

- اعتراف سعيد ثانٍ!

- من السخرية أن تذكر السعادة في هٰذا الجحيم.

- ظننت أنّ عواقب الكسل ستضيرك وحدك ولٰكن ها هي تعصف بالحارة كلّها. . .

- مرتكبةً ما يخطر بالبال، وما لا يخطر!

قال العجوز باستبشار:

- في صوتك نغمة جديدة لعلّ سرّها هو الذي دعاني إليك. . .

- لا تبادر إلى التفاؤل بلا مبرّر!

- توكّل على الله واتّخذ قرارًا؟

- كيف لقلب مزلزّل أن يتّخذ قرارًا؟

- اتّخذ قرارًا.

- يخيّل إليّ أنّني لست كجدّي الأوّل إن صحّ ما يقال عن اجتهاده العجيب.

- تقول إن صحّ؟

فقال بحدّة:

- أجل، فمن يدريني أنّ اجتهاده لم يكن إلّا أسطورة كما كان أصله وبيته وكما كانت أسرته؟

فهتف الشيخ تغلب:

- حذار من الشكّ!

فقال الرجل بامتعاض:

- لقد زرعته في قلبي يا شيخ تغلب.

- ثمّة جوهر حقيقيّ باقٍ تحت ركام من أوهام لا قيمة لها.

- أنت نفسك لم تعد تؤمن بمعجزات الأكرم.

- أكرّر القول بأنّ معجزته الحقيقيّة هي أنّه رغم خطاياه قد بلغ المراد باجتهاده.

هزّ الرجل رأسه بمرارة فقال الشيخ تغلب:

- اعزم، العمل يقتل الشكّ، النجاح يقتلعه من جذوره، في وسع أيّ إنسان أن يكون نافعًا للناس، على ضعفي وعجزي كنت القوّة التي أقنعتْ كثيرين من أولياء الأمور بإرسال أبنائهم إلى المدارس!

ضحك الشيخ محمود بمرارة وقال:

- أرسلتهم في الطريق الذي قوّض أركان إيمانهم!

- الإيمان يتجدّد تحت مظاهر شتّى خلال الزمن. . .

- ما جدوى المناقشة ونحن على وشك القتال!؟ وقد يقتل الأب ابنه أو يقتل الابن أباه؟!

فقال العجوز برجاء:

- ما كان بوسع أحد أن ينالك بأذى لو أنّك. . .

فقاطعه بضيق:

- لكنّهم يزيحون ملكًا مغتصبًا عن عرش زائف!

- معذرة يا بنيّ فإنّي لا أنطق إلّا عن صدق، وأردت القول بأنّه لو أنّك مارست حياة الطريق الشاقّة الطاهرة لما تعرّض لك أحد بسوء أو لما باليت بما يتعرّضون لك به.

قام الرجل متوتّرًا. مضى نحو باب السلاملك وجعل يرنو إلى الحديقة التي ذابت تفاصيلها في أمواج الظلام فتبدّت أشجارها كالتلال حينًا وكالوحوش حينًا آخر. ومن موقفه جاء صوته قائلًا:

- يخيّل إليّ أنّه لم يعد لي مقام هنا!

هتف العجوز بجزع:

- مولاي!

- لعلّ ذٰلك يحلّ الأزمة المستعصية. . .

- لكنّ الأزمة لا تحلّ بالهرب. . .

استدار نحوه مقتربًا وهو يقول:

- ثمّة خواطر مغرية تدعوني إلى طرح المتاعب أرضًا واستقبال حياة بسيطة سعيدة!

- حياة بسيطة سعيدة؟!

- لي من المال ما ييسّر لي ذٰلك!

- معذرة مرّة أخرى عن قول الصدق، لا مال لكم إلّا ما جاءكم من المريدين!

- إنّه مالي أمام القانون وكفى.

نظر نحوه بارتياب وسأل:

- أتؤمن بما تقول؟

لم يجب على سؤاله ولٰكنّه قال:

- ثمّة حياة بسيطة سعيدة لا تعقيد بها ولا نزاع. . .

- والطريق الذي خلقت له؟

لم يجب على سؤاله أيضًا ولٰكنّه قال:

ـ فلنحبَّ الحياة كما يحبّها أكثر الناس...

فقال بثقة أو برجاء:

ـ إنّك لا تعني ما تقول، ولكنّك تردّد الأفكار التي تناقشها وأنت خالٍ إلى نفسك...

ـ لِمَ لا؟... فلأذهب إلى مكان قصيّ، إلى أوروبّا كما فعلت عمّتي، ولأترك لك الطريقة فأنت خير من يقودها...

ـ ردّد ما يناوشك به الشيطان في نفسك...

ـ لِمَ لا يا مولاي؟!

ـ لقد عشت حتّى اليوم عيشة الاستهتار واللذّة ولكنّ الأمل معقود بالعذاب الذي تبعك في مغامراتك الليليّة كالظلّ...

فقال بسخرية مريرة:

ـ عند ذاك يبدأ جيل الأبالسة المتمرّدين!

ـ نحن في حاجة إليهم كما أنّهم في حاجة إلينا...

ـ لديهم العلم والأفكار الشيطانيّة التي تصوّرنا في صورة نفايات سامّة يجب التخلّص منها بأسرع ما يمكن صَوْنًا للصحّة العامّة...

فقال العجوز بإصرار:

ـ على ضوء ذلك يتحدّد لنا هدف جديد...

ـ لعلّها مهمّة قدّيس!

ـ ها قد بدأنا نتقارب...

ـ ولكن عليه أن يقنع الناس بقداسته قبل البدء.

ـ بل عليه أن يقنع نفسه بقداسته قبل ذلك.

ـ ها نحن نحلم بالطيران ونحن غرقى في الأوحال...

ـ القدّيس لا يكترث للأوحال.

فتنهّد الشيخ محمود من الأعماق وقال:

ـ فلنحبَّ الحياة كما يحبّها أكثر الناس، ولا خوف من العذاب الذي أرهقني ظلمه فيما مضى بعد أن ثبت لي أنّني جدير بها كما أنّها جديرة بي...

قال الشيخ تغلب غاضبًا:

ـ شاهدت في حياتي حقراء لا حصر لهم ولا عدّ ومع ذلك فلم يمح من قلوبهم التقزّز من القبيح والتهليل للحقّ.

رفع رأسه إلى فوق وراح يتكلّم وكأنّما يناجي نفسه:

ـ عاصفة تجتاح رأسي، أحداث تطاردني فلا تدع لي فرصة لإنعام النظر، من أسفل يلحّ نداء ومن أعلى يلحّ نداء، وأنا ممزّق القلب، كأنّي مطالَب بتنظيم الوجود وأنا محاصَر في ركن ضيّق يهدّدني الموت!

فقال الشيخ تغلب باسمًا:

ـ وَصْف موجز للحياة لا بأس به.

ـ ما أجمل أن أرمي بنفسي بين أحضان اللهو...

ـ استمرّ في محاورة نفسك!

فهتف:

ـ ليتني بلا ضمير كهذا الجيل الساخر!

ـ صدّقني إنّه أمل لحارتنا...

ـ لا إيمان لهم بشيء.

ـ حُبّ العِلْم ما هو إلّا لغة إيمان جديدة.

وتردّد الشيخ محمود مليًّا ثمّ سأله:

ـ أعرفت المدعوّ عليّ عويس؟

أجاب الرجل بعد تذكّر قصير:

ـ نعم، شابّ ممتاز، قلت له مرّة إذا طعّمت علمك بالحكمة فأنت خير حفيد للأكرم!

هتف الشيخ محمود فزعًا:

ـ حفيد الأكرم؟!

ـ لا تنزعج فإنّ حفيد الأكرم الحقّ هو خير من يعيد سيرته، ويعكس صميم روحه...

ولزم الرجل الصمت وهو واقف على حين أطرق العجوز. سبحت الأفكار في الصمت محمومة متلاطمة. سقطت فراشة ثملة بالضوء على لحية الرجل السوداء المدبّبة فهشّها بعصبيّة فتهاوت عند قدميه وندّت تنهّدة بصوت مسموع ثمّ تساءل الرجل:

ـ ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني يا شيخ تغلب؟

فرفع الرجل رأسه كمن يصحو بعد غفوة وقال:

ـ لا تسل عن جواب أنت خير من يعرفه!

ـ أريد أن أسمعه!

ـ كلّا إنّ الحياة تتموّج أمام بصرك، الأركان تتهاوى، أوهام تتبخّر، حقائق تنقضّ كالقنابل، عناصر تتحلّل مطالبة بتركيب جديد، أصوات جديدة تحطّم جدران الخرس وترتفع، أناس يتلاحمون، قوى

تنطلق من مخابئها، والنفس تطالب صاحبها باتّخاذ موقف، اثبتْ... اهربْ... احيَ... متْ... تعقّدْ... تجدّدْ... ولكن لا حلّ إلّا أن تخوض أمواج الظلمات وأن تشقّ طريقك إلى برّ النور.

وقام الرجل العجوز معتمدًا على عصاه فقال الرجل:

- لنبق قليلًا يا شيخ تغلب...

- لقد قلت ما عندي وقلت ما عندك.

تصافحا. مضى معه إلى باب الخروج والعجوز يقول:

- الليل يمضي، وقلبي يحدّثني بأنّه سيتمخّض عن أمور هامّة...

وبينا كان يوصله تسلّل من باب السلاملك عليّ عويس. ألقى على المكان نظرة حذرة ثمّ مضى إلى الديوان فتوارى وراءه فيما يلي الجدار المطلّ على الحارة. رجع الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك متلقّيًا نسائم الليل. زحف الشابّ نحو الباب فأغلقه بهدوء. تنبّه الشيخ إلى حركة فالتفت وراءه فرأى الشابّ وهو يتّجه نحوه. فذهب الرجل وقد قرأ الشرّ في عينيه وسأله:

- من أين جئت؟

تقدّم دون أن ينبس فسأله:

- ماذا تريد؟

قال الشابّ وهو منه على بعد ذراعين:

- كدت أُقتل بيد رجل من رجالك...

- احذر أن ترتكب حماقة...

- وتريد أن تشهّر بشرفي؟!

- محض أوهام سخيفة...

ولكنّه وجّه إليه لكمة شديدة. قبض الرجل على ذراعه قبل أن تصكّه الضربة. تلاحما بعنف، الشابّ يريد أن يصرعه وهو يقاومه بكلّ ما أوتي من قوّة.

- كُفَّ وإلّا دعوت رجالي...

- سأنالك قبل أن يأتوا...

ودفعه دفعة قويّة فتراجع الرجل مترنّحًا ولكنّه أسند ظهره إلى الجدار...

- كُفَّ قبل فوات الفرصة.

- إنّك شرّ يجب أن يزول.

- دعنا نتكلّم!

- مكيدة جديدة؟

انقضّ عليه بوحشيّة وانهال عليه ضربًا. وجعل الآخر يدفعه بقوّة ولكنّه لم يستطع أن يتفادى من ضربات صادقة أصابته في صدره وكتفه. وأخذ الضعف يعتوره وتحاصره اللكمات حتّى استشعر دنوّ الانهيار.

- حسبك... أمسك...

ولكنّ الآخر ضاعف له الضرب فهتف:

- كفاية... ستقتلني...

- إلى الجحيم!

فهتف متوجّعًا:

- ستقتل أباك!

فصاح به:

- كُفَّ عن الهذيان يا مجرم.

فقال بصوت متحشرج وقد بدا دفاعه يضعف ويتلاشى:

- ستقتل أباك؟ ألا تسمع؟... ستقتل أباك... إنّي أبوك.

ولّما يئس من إدراكه وشعر بدنوّ النهاية صاح بأعلى صوته:

- إليّ... إليّ... شيخ عمّار...

في الحال اندفع خدم من باب السلاملك. فتح الباب ودخل الشيخ عمّار وبعض الرجال يهرولون. انقضّوا على الشابّ فقبضوا عليه وشلّوا حركته. ومضى الشيخ مترنّحًا نحو الديوان وتهالك عليه وهو يتمتم:

- اقبضوا عليه... لا تمسّوه بسوء...

أخرج منديلًا وراح يجفّف به دمًا سائلًا من أنفه وفيه طارحًا رأسه على المسند في إعياء شديد. وتمتم مرّة أخرى وهو يقرأ في الوجوه غضبًا أسود:

- لا تمسّوه بسوء...

سأله الشيخ عمّار بصوت متهدّج:

- ماذا نفعل به يا مولاي؟

- صبرًا!

- أندعو الشرطة؟

- كلّا...

مرّت فترة لم يُسمع فيها إلا تردّد الأنفاس. وفي أثناء ذلك جيء للشيخ بقارورة ورد فغسل وجهه، اعتدل في جلسته متأوّهًا. التفت إلى رجاله قائلًا:

- اتركوه!

فرفعوا أيديهم عنه في ذهول، فقال:

- تفضّلوا بالذهاب.

لم يتحرّك أحد منهم فقال بلهجة آمرة:

- اذهبوا!

غادر الرجال البهو ذاهلين. تردّد الشيخ عمّار ثمّ ذهب في أثرهم. وقف الشابّ خافض الرأس لا يفهم شيئًا. وقال الشيخ:

- تذكّر أنّك واقع تحت رحمتي ولم أمسّك بسوء. . .

وجعل يتحسّس بعض مواضع تؤلمه ثمّ قال:

- عار عليك أن تستغلّ قوّتك في الاعتداء على رجل في مثل سنّي، يجب أن تخجل من نفسك. . .

قال الشابّ دون أن يرفع رأسه:

- إذا كنت تدبّر أمرًا فنفّذه بلا إبطاء لا ضرورة له.

فسأله بعد وقفة قصيرة:

- ألم تسمع ما قلت لك؟

لم يجب ولم يفهم.

- قلت لك. . . ستقتل أباك. . .

فرفع إليه عينيه دون أن ينبس.

- لم تصغِ إليّ. كدت تقضي على أبيك، ألا تدرك معنى لقولي؟

حرّك رأسه في حيرة، فقال الرجل في هدوء واستسلام:

- ذلك أنّي أبوك وأنّك ابني!

انتصبت قامته فجأة واتّسعت عيناه وتساءل:

- ماذا تقصد؟

- ليس لقولي إلّا معنى واحد وهو أنّي أبوك وأنّك ابني، لقد رميتني بحقائق عسيرة الهضم وها أنا أردّ التحيّة إليك، ولو عاصرنا أبو العلاء لعثرت على نفسك في مخطوطة، أراك لا تصدّق؟ حسن، سنبعث في طلب الشخص الوحيد القادر على إقناعك. . . ثمّ علينا بعد ذلك أن نوطّن النفس على مواجهة الحقائق. . .

«٩»

كان الشيخ يجلس على الديوان وقد ضمّد جراحاته. وعلى كنبة قبالته جلست زينب وعليّ. وبدت نظراتهم ثقيلة بما حملت من حقائق وما تخايل لها من عواقب. وقال الشيخ:

- ها هي الحقيقة عارية!

ثمّ ردّد عينيه بينهما حتّى ثبّتهما على الشابّ وقال:

- عرفناها معًا في ليلة واحدة، ها هو الماضي يعانق الحاضر فيكوّنان معًا كلًّا لا يتجزّأ.

وابتسم في أسى ثمّ مضى يقول مخاطبًا الشابّ أيضًا:

- لقد وزّعت على الناس نشرة تكشف عن أعجب الحقائق عن جدّك وبيته الكبير وأسرته ولكن فاتك أطرف ما فيها وهو هذا الفصل الأخير. . .

نظر الشابّ نحو أمّه فوجدها تجفّف عينيها فتمتم:

- الفصل الأخير!. . . أيّ حقيقة؟!. . . لن أعجب بعد الليلة لو رأى الناس بآذانهم وسمعوا بأعينهم!

فقال الشيخ:

- هكذا دار رأسي أيضًا بلا توقّف، ولكن علينا أن نحسم أمرنا فلم يبق على الفجر إلّا ساعة. . .

قالت زينب:

- من حقّنا أن تُمهَل لمزيد من التفكير.

فقال الشيخ:

- لا وقت للانتظار، فالحارة مهدّدة بالانفجار بين ساعة وأخرى.

- والعمل؟

- علينا أن نختار سبيلًا من اثنين، فإمّا أن نهرب بأموالنا أو بمعنى آخر بأموال الناس، وإمّا أن نبقى لنواجه الحقيقة ونتحمّل عواقبها. . .

تنهّدت زينب بصوت مسموع وقالت:

- حدّثنا برأيك.

فنظر الرجل إلى ابنه وسأله:

- أودّ أن أسمع رأيك أوّلًا.

انتفض الشابّ كمن يستيقظ من نوم وقال:

- رأيي!. . . أمهلني حتّى أستعيد توازني.

ـ لا وقت لذلك، دعني أساعدك، ماذا أردت أنت وزملاؤك؟

تفكّر مليًا ثمّ قال:

ـ أردنا الاحتكام إلى الحقائق وإزهاق الأباطيل والخرافات، مؤمّلين من وراء ذلك أن تردّ أموال الناس إليهم وأن تنفق في سبيلهم وأن ترفع عن كواهلهم الوصاية والسيطرة...

ـ هذا حسن ولكنّه ليس بكلّ شيء، الحقيقة لا تتجزّأ، وإن يكن ثمّة خير في أن يعرف الناس الأكرم على حقيقته فمن الخير أيضًا أن يعرفونا على حقيقتنا، لا نستطيع أن نبدأ من جديد ونحن نتستّر على آثامنا الماضية، على الاعتراف أن يكون كاملًا وصريحًا ليكون التفكير كاملًا وصريحًا، ولنبدأ حياة نقيّة بالمعنى الحقيقيّ...

تساءلت زينب بإشفاق:

ـ ماذا تقصد؟

فأجاب بإصرار:

ـ يخيّل إليّ أنّني لن أتورّع عن شيء!

ـ وأيّ عواقب تتوقّع؟

ـ لا أدري، قد يعيدنا ذلك إلى مجد الأكرم وقد يردّنا إلى تشرّده!

ـ زدني تفصيلًا!

ـ إذا اعترفت بكلّ شيء، إذا بلغت الغاية في الأمانة، فلن يتردّد على محاربتي أخلص الناس لي اليوم وهم المنتفعون بأموالنا، أمّا المريدون فسيقعون حيارى بين إيمانهم القديم والحقائق الجديدة، ولا يبعد أن ينقسموا بين مرتدّ عنّي ومؤيّد لي حتّى النهاية...

ـ يا لها من صورة غامضة!

ـ رجم بالغيب أن أحدس المصير.

ـ هي احتمالات وخواطر ولكن ما الذي تضمره في قلبك؟

التفت نحو الشابّ وهو يقول:

ـ أودّ الآن أن أسمع رأيك؟

لم ينبس الشابّ مستغرقًا في تفكيره.

ـ إنّك تبدو شاحب اللون يا بنيّ؟

ـ ليس هذا ممّا يهمّ...

ـ لا بدّ من الإدلاء برأيك.

ـ أظنّني أفصحت عنه فيما يخصّني.

ـ ثمّة ما يخصّك ولا يقلّ أهمّيّة عن ذلك إذ إنّه يتعلّق بكرامتك وسمعتك؟

فتمتم بهدوء:

ـ يخيّل إليّ...

وانطبقت شفتاه فتساءل الشيخ:

ـ يخيّل إليّ؟

فقال بحدّة عصبيّة:

ـ أنّني لن أتورّع عن شيء.

ـ أتدرك ماذا يعني ذلك؟

ـ أجل.

ـ أنت شجاع، وسوف يتقرّر مصيرنا على ضوء ما يرى الناس فينا.

ـ ليكن ما يراه الناس.

ـ سأعيد إليك اسمك، أمّا الثروة فستعود إلى أصحابها، ستجيئنا بكتبك ولن تجد عندنا إلّا كتبًا!

ـ ليكن...

وتساءلت زينب بذهول:

ـ أيمكنك مواجهة الناس بذلك؟

ـ سأدعوهم إلى البيت الكبير صباح الغد.

ـ ألا يلزمك وقت للمزيد من التفكير؟

ـ لا تدرين كم فكّرت!

وابتسم وهو يرنو إليها بنظرة ثقيلة:

ـ لم أكفّ عن التفكير لحظة واحدة مذ انهالت على رأسي المطارق!

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ وكان عليّ أن أختار فإمّا الدعارة وإمّا القداسة.

وابتسم في هدوء ثمّ استطرد:

ـ وقد اخترت سبيلي، فاضت من قلبي قرارات عنيدة غير متوقّعة كضربات المطارق المنهالة على رأسي، اكتسحت نداءات الدعارة اللزجة الليّنة، فرفضت الهزيمة ومججت الهناء السهل، والظاهر أنّ إيماني بجوهر جدّي كان أكبر من إيماني بمعجزاته.

وردّد بصره بينهما وهو يقول:

ـ فلنستمتع بآخر هدوء يتاح لنا!

فقال عليّ:

ـ أمامنا حياة عسيرة.

ـ ولكنّك تودّ مواجهتها؟

فقال بتصميم:

ـ بلا تردّد.

ـ حسن، لقد تعلّمت منك أشياء وأودّ أن تتعلّم منّي أشياء!

فقالت زينب:

ـ ولكنّ النزاع لن ينتهي في حارتنا.

فقال الشيخ:

ـ بلى، ولكنّنا سنكون في الموقع الأفضل.

وتفكّر مليًا ثمّ قال:

ـ لا شكّ أنّ جدّنا اعترضته نفس المتاعب وهو يتحوّل من الجريمة إلى الولاية!

وقام في نشاط حيّ وقال:

ـ لقد أورثنا مثلًا لا يجوز أن يُنسى...

ودنا من مدخل الحديقة المستكنّة في سكينة الفجر وقال:

ـ تلك كانت المعجزة.

حَارَةُ العُشَّاق

«١»

تربّع على الكنبة في هدوء متوثّب. تابعها بعينيه وهي ذاهبة تحمل صينيّة القهوة. تابعها وهي عائدة بجسمها البضّ ووجهها الممتلئ البدريّ. جميلة فاتنة! وتزداد مع الأيّام نضجًا وفتنة. ها هي تلقي نظرة على الحارة من النافذة الوحيدة في حجرة الجلوس. وها هي تجلس إلى جانبه على الكنبة الوسطى. وها هي الغبطة تسيل من نظرتها وهي تقول:

- شكرًا للترقية!

وابتسمت بحبور ثمّ قالت:

- بفضلها أهنأ بمجالستك كلّ عصر.

تقلّصت بعض عضلاته تحت جلبابه الأبيض الفضفاض وغمغم بألفاظ غير واضحة. جعلت تلحظه بعينيها الصافيتين. ستكتشف عاجلًا أو آجلًا وجومه. لعلّها اكتشفته. هي شديدة الحساسيّة فَطِنة ولٰكنّها في نفس الوقت مرنة واسعة الحيلة. كم يحبّها! لم يتوقّف عن حبّها بعد الزواج. لا يتصوّر الحياة بدونها. قالت بنعومة:

- لمناسبة ما ذكّرتني صاحبة العمارة بأنّنا نقيم في هٰذه الشقّة منذ خمس سنوات...

فصدّق على قولها متمتمًا:

- أجل، خمس سنوات.

- خمس سنوات حقًّا؟ هل مرّت خمس سنوات حقًّا؟...

- خمس سنوات مرّت على زواجنا، العمر يجري جريًا يا هنيّة.

فربّتت على ظهر كتفه وقالت بحنان:

- يبدو أنّه يطير طيرانًا في أحضان الحبّ السعيد.

ترى هل اكتشفت وجومه؟ إنّه على دراية بتسلّلها الناعم، قال:

- أجل في أحضان الحبّ يطير طيرانًا.

فامتلأت عيناها بالحنان وقالت:

- وطيلة النهار جعلت أتذكّر وأغنّي لنفسي...

- ثمّة ذكريات لا تنسى.

- قبيل الخطوبة وأنت تخالسني النظر من مجلسك في القهوة.

فخفض صوته وهو يقول:

- الحبّ جنون!

- وكلّ ركن في هٰذه الشقّة يستطيع أن يقوم ألف دليل على حبّنا...

- ألف دليل ودليل.

- هٰكذا مرّت السنوات الخمس فلم نشعر بمرورها.

- أجل...

- بالرغم من أنّ متاعبك فيها لا يمكن أن تنسى.

فغلبته عواطف مكبوتة فقال:

- كانت متاعب سعيدة.

- بل كانت السعادة أقوى من المتاعب!

تنهّد. تجلّت في عينيه نظرة حالمة. قال:

- تلك الأيّام! كنت موظّف أرشيف خارج الهيئة، أعمل عملًا متواصلًا من طلعة الصبح حتّى أوّل الليل، حتّى الغداء كنت أتناوله تحت أرفف الأرشيف، فقير كادح وزوج عاشق، حتّى النسل أجّلته لحين تتحسّن الحال، لا وقت للتفكير، لا وقت للنظر، عمل عمل عمل، وأعود إليك مرهقًا ولٰكن بفؤاد حيّ مشتاق، أجد الحمّام مبخّرًا فأغتسل وأرتدي

جلبابًا مزهّرًا، نتبادل الحديث، نتناول العشاء، نسعد بالحبّ، ننام النوم العميق، لا أفكار ولا كدر، ثقة لا حدّ لها بكلّ شيء، بك وبنفسي وبالله، وإيمان لا حدّ له بك وبنفسي وبالله، كلّ شيء ثابت الأركان مدعم البنيان.

- أيّام شاقّة وسعيدة يا عبد الله.

- جَرْي بلا انقطاع وراء لقمة العيش، طمأنينة شاملة، حبّ يُتبادل بقوّة تضاهي قوّة دوران الأرض!

أزاحت خصلة سوداء تهدّلت فوق عينها وقالت وهي تضحك في دلال:

- ولكنّنا لم نكن نهنأ بجلسة سعيدة كهٰذه الجلسة في العصارى الطيّبة.

فقال بحزن لم يعد يستطع مداراته:

- فقد منّ الله عليّ بالترقية.

- أصبحتَ مُراجع وحدة ينتهي عمله في تمام الثانية بعد الظهر مثل كبار الموظّفين.

- وتهيّأ لي من الفراغ ما لم أكن أحلم به.

ربّتت على خدّه وقالت بارتياب:

- مالك؟

- لا شيء بي.

- خُيّل إليّ أنّك لست كعادتك.

ابتسم. ابتسم وهو يرنو إلى بشرتها الصافية. اعترف بأنّه لا شيء يمارس سيطرته على شيء كما تمارس سيطرتها عليه. عادت تسأله:

- لست سعيدًا بالترقية والفراغ؟

- الحقّ أنّ الفراغ خلقني من جديد.

- وأنا كذٰلك.

- فقد رأيتكِ في النهار طويلًا بعد أن لم أكن أراك فيه إلّا خطفًا!

ضحكت ضحكة ناعمة منغومة فواصل حديثه:

- ورأيت حارتنا في الضوء، عرفت المقهى، توثّقت علاقتي بالجيران خاصّة الإمام والمدرّس وشيخ الحارة.

هٰكذا الفراغ راحة ونعمة وتعارف.

- وعرفت نفسي بعد أن كانت حواسّي مشدودة دائمًا إلى الخارج.

- يا لها من مكاسب لا تقدّر بمال.

- رأيت أهل حارتنا، لم أكن أتصوّر أنّهم بهٰذه الكثرة.

- ما أعجب ذٰلك وأجمله!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- ومنهم أناس أثاروا قلقي!

- لِمَ كفى الله الشرّ؟!

- يتّخذون في ركن من المقهى مجلسهم، عصابة من الشبّان، يتبادلون المزاح بأصوات مزعجة، لا يرحمون كبيرًا ولا صغيرًا من مزاحهم، ويتهجّمون على الأعراض بلا حياء.

- هٰكذا الشبّان في كلّ زمان ومكان.

- ألا يزعجك ذٰلك يا هنيّة؟

- لا أحبّ لك أن تنزعج أنت!

- ولا يتركون فتاة دون غمز، حتّى السيّدات المصونات، حتّى خُيّل إليّ أنّي أقيم في عالم من الدعارة والانحلال.

- لا تستسلم للأوهام السخيفة!

قام كأنّما ضاق بمجلسه. وقف وراء النافذة دقيقة. رجع إلى وسط الحجرة ووقف مستندًا إلى الخوان. قال بحنق:

- خُيّل إليّ مرّة أنّ أحدهم رماني بنظرة لم أرتح لها!

نضب المرح من صفحة وجهها وتساءلت:

- أيّ نظرة؟

- نظرة ماكرة ذات معنى.

- أيّ معنى؟

- استفزّني غضب وهممت بالقتال!

- يا لطف الله.

- وتنغّص عليّ صفوي فلم أستردّه بعد ذٰلك.

قالت بقلق واضح:

- إنّك تبالغ يا عبد الله.

- الحقّ أنّي عانيت تجربة جديدة كلّ الجدّة وهي الشكّ!

هتفت باستياء:

- الشكّ!

- كمن صحا عقب نوم ثقيل على لسع عود ثقاب مشتعل.

قالت بامتعاض وغضب:

ـ أطلعني على أفكارك أكثر.

ـ قلت إنّه الشكّ وكفى.

فصاحت بغضب:

ـ لا أصدّق أنّني أتلقّى منك إهانة صريحة!

ـ إنّي أسألكِ المعونة.

ـ غيِّر ما بنفسك قبل أن يفسد كلّ شيء.

فقال دون اكتراث لتحذيرها:

ـ إنّك تخرجين كلّ يوم للتسويق.

ـ لست في حاجة إلى من يذكّرني بحياتي اليوميّة.

فقال بخشونة:

ـ وتذهبين إلى الفرن لابتياع الخبز!

ـ كما أذهب إلى البدّال والقصّاب والكوّاء.

فقال بحنق:

ـ ولٰكنّ الفرّان يستقبلك استقبالًا عجيبًا، يهتف دون مناسبة: أهلًا أهلًا ويقبل عليك كأنّه صديق حميم.

ـ عبد الله!

ـ إنّي أصف ما رأته عيناي.

ـ أكنت تتجسّس عليّ؟

ـ الشكّ له أسلوب لا مفرّ منه.

ـ ولو بلغ الوقاحة؟!

ـ ولو!

ـ كيف خفيتْ عن عينيّ حقيقتك طيلة ذٰلك العمر؟

ـ كما خفيت عن عينيّ حقيقة أفظع!

ـ اقطع لسانك واخرس.

ـ رأيته وهو يكاد يأخذك في حضنه.

صاحت به:

ـ لا أسمح لك.

ـ رأيت ذٰلك بعينيّ كما رأيته قبل ذٰلك في عيني الشابّ بالقهوة!

ـ لن أسمح لك بإهانتي!

ـ هل لديك دفاع؟

ـ لست متّهمة!

ـ هل لديك تفسير؟

ـ أنت مجنون.

ـ لا مفرّ من المواجهة.

ـ كم أنّك كريه أعمى.

ـ الشتائم غير مجدية.

ـ إنّي أشرف من أفكارك الوضيعة.

ـ هاتي دفاعك.

فصاحت بكبرياء وهي تثب قائمة في غضب جنونيّ:

ـ لا تردّد كلمة الدفاع، لا أسمح لك.

ـ يا للشيطان!.. هٰذا يعني أنّك تعترفين.

ـ إنّي ذاهبة، بقائي مع شخص مثلك مستحيل.

ضرب الخوان بقبضته وهو يرتجف غضبًا وصاح:

ـ تكلّمي!

ـ إنّي ذاهبة.

غادرت الحجرة فصاح في أعقابها:

ـ تكلّمي!

ثمّ ضرب الخوان بقبضته مرّة أخرى وصاح بجنون:

ـ أنت طالق!

«٢»

جلس في حجرة الجلوس وحيدًا. لم يحلق ذقنه ولم يمشط شعره. زائغ البصر.

ـ إنّي وحيد، وحرّ، واليأس إحدى الراحتين.

وصمت مليًّا ثمّ قال:

ـ يجب أن أعترف بأنّني غير سعيد وبأنّني لا أجد لحياتي معنى.

عاد إلى الصمت مرّة أخرى ثمّ راح يقول:

ـ ويجب أن أعترف أيضًا بأنّني أحبّها، وبأنّني أكرهها.

أطبق شفتيه دقيقة ثمّ قال:

ـ طلّقتها لأنّه من غير الجائز أن أبقي على زوجة خائنة، أمّا الحبّ فقلعة منيعة مستقلّة ـ بذاتها وأبراجها ـ عن الشكّ والسلوك.

وقام ليذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا. دقّ جرس الباب فجأة. فتح الباب فدخل شيخ بدين قصير ذو لحية سوداء. تصافحا، قاده إلى الكنبة وهو يقول:

ـ خطوة عزيزة يا شيخ مروان عبد النبيّ.

جلس الرجل وهو يقول:

ـ أوحشتنا يا رجل!

ـ أهلًا بك، وكيف الإخوان؟

ـ القهوة كلّها مشتاقة إليك.

ـ علم الله أنّي مشتاق إليكم كذلك.

فرماه الشيخ بنظرة ارتياب وهو يقول باسمًا:

ـ لو أنّك مشتاق حقًّا لزرتنا!

ـ الحزن يطوينا على أنفسنا.

ـ ولكنّه يتبخّر عادة بين الإخوان.

ـ لم تنفتح نفسي لشيء بعد.

ـ كيف؟ ولِمَ؟

ـ أنت أدرى!

ـ خطر لي أنّه من المفيد أن نتعاون على محاربة ذلك العدوّ المدعوّ الحزن.

ـ أنت إمام وصديق وإنسان.

ـ إنّه عدوّ خطير، له كلّ يوم فريسة، ولا يجوز أن نلقاه متفرّقين.

دعاه الشيخ إلى الجلوس إلى جانبه. ربّت على منكبه وقال مستطردًا:

ـ وما دام سببه معروفًا فالاهتداء إلى سبيل الشفاء ميسور!

أطرق عبد الله مليًّا ثمّ قال باستحياء:

ـ كانت تجربة قاسية عاصفة، وليس الشفاء منها بالأمر الميسور!

ـ إنّك صادق في تعبيرك، ولكن لا يجوز أن تنسى أمرين هامّين.

وسكت ليخلق جوًّا مناسبًا لسماع نصائحه، ثمّ قال:

ـ لا تنس الإيمان بالله هو الملاذ الأخير من جميع الأحزان.

وعاد إلى السكوت مرّة أخرى، ثمّ قال:

ـ ولا تنس أن تتثبّت من حقيقة التجربة التي عصفت بك!

ـ لقد رأيت بعينيّ رأسي!

ـ واقعة الفرّان؟

ـ أجل، وقبل ذلك نظرة الشابّ المستهتر إليّ!

ـ دعني أصارحك بأنّني لم أشاركك الاقتناع فيما اقتنعت به!

ـ لقد بهتتْ فلم تستطع الدفاع عن نفسها!

ـ ولا تلك بحجّة تشرّع ضدّها فللمرأة كبرياؤها!

ـ إنّي مطمئنّ إلى الإجراء الذي اتّخذته.

ـ ولكنّك قضيت على نفسك بالسجن كأنّما طلّقت الدنيا في نفس الوقت.

ـ سوف يدركني النسيان عاجلًا أو آجلًا.

فابتسم الإمام وقال بهدوء وثقة:

ـ إنّي رجل من رجال الله، خادم بيت من بيوته، أعرف حارتنا وأحوالها ما ظهر منها وما خفي، أتوكّل على الله في كلّ فكر أو عمل، ولا غرض لي في الدنيا إلّا الخير، وأبعد شيء عن خاطري أن أسعى إلى ردّ زوجة خائنة إلى عصمة رجل فاضل مثلك.

غضّ عبد الله بصره ليداري نظرة رجاء لاحت في عينيه وتمتم:

ـ لا شكّ عندي في ذلك كلّه يا شيخ مروان.

ـ يا صديقي عبد الله، لقد قرأت في وجهك رسالة، لا أجزم بصحّة ما قرأت فصارحني أيتعذّر عليك نسيانها؟

ـ الخيانة؟!

ـ الزوجة!

فقال عابسًا:

ـ كلّ شيء رهن بوقته.

ـ الحبّ ككلّ شيء يجري مجراه بأمر الله، فلعلّك تحبّها؟!

ـ لا أهمّيّة لذلك.

ـ صدّقني يا صديقي عبد الله إذا قلت لك إنّ زوجتك بريئة!

ـ بريئة!

ـ أجل بريئة ممّا رميتها به.

فسأله باهتمام بيّن:

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لا أدري من أين أبدأ أأقول لك إنّ لرجال الله خواطرهم القلبيّة التي تفوق في قدرتها براهين

العقول؟! ولكنّي أخاف ألّا يكون إيمانك بالقوّة التي تتخيّلها، كثيرون يعتقدون أنّهم مؤمنون ثمّ تراهم ينهارون لدى أوّل تجربة، المؤمن الحقيقيّ يا عبد الله يحرّك الجبل ويزلزل الحياة ويقهر الموت.

فتنهّد عبد الله قائلًا:

- لا ينقصني الإيمان يا شيخ مروان.

- ألم تعاشرها خمس سنوات كاملة بل يزيد؟

- لا يمنع ذٰلك من وقوع شرّ.

- حدّثني عن قلبك لا عن الوقائع الخارجيّة!

- لا أنكر أنّي اطمأننت إليها الاطمئنان كلّه.

- ألم يتسلّل إليك الشكّ أبدًا؟

- كلّا.

ثمّ مستدركًا بعجلة:

- لم يكن لديّ وقت للشكّ.

- لا أهمّيّة للوقت في ذٰلك.

- بل هو كلّ شيء يا شيخ مروان فأنا لم أنتبه إلى ما يجري حولي إلّا من خلال الفراغ الذي أتيح لي عقب الترقية.

- ألاحظت تغيّرًا في معاملتها لك؟

فتمهّل قليلًا ثمّ قال:

- لا أظنّ!

- يا صديقي، إنّي أعرف حارتنا، رجلًا رجلًا وامرأة امرأة، وصبيًّا صبيًّا، لا يغيب عنّي شيء من أسرارها، وأشهد الله أنّني لم أعرف امرأة تتمتّع ببعض الخصال الحميدة التي تحظى بها امرأتك!

فقال متجهّمًا:

- السلوك الحقيقيّ سرّ من الأسرار.

- صدقت ولكن ندر أن استطاع خاطئ التستّر على خطيئته إلى الأبد.

- لقد رأيت ولا يمكن الاستهانة بما رأيت.

- دعني أحدّثك عن الشابّ الذي هيّجتك نظرته. لقد حقّقت بنفسي مع الشبّان الذين يشاركوننا الجلوس في المقهى فثبت لي على وجه اليقين ألّا أحد فيهم يضمر لك سوء ظنّ أو تقدير، فلعلّك توهّمت رؤية ما لا وجود له.

- لا يمكن أن نشكّ في حواسّنا.

- حواسّنا؟! عليها اللعنة، تلك المرايا المشوّهة التي لم تُخلق إلّا لتشهد بكذبها بصدق حدس القلب.

- ولكنّنا نحيا بها يا شيخ مروان.

- نحن لا نحيا حقًّا حتّى يمتلئ قلبنا بالإيمان.

فقال بمرارة:

- كأنّي أيضًا لم أرَ الفرّان وهو يفتح لها ذراعيه!

فابتسم الشيخ مروان وقال:

- صدّقني فقد ظلمته ورميته بما لا يجري له في خيال.

- لست أعمى.

- إنّه رجل مسكين، وزوجه تشاركه في عمله ساعة بساعة، وهي تستقبل الزبائن معه!

- كلّا!

- هو الحقّ بالتمام والكمال!

أطرق عبد الله محاصرًا في ركن مسدود فاستطرد الشيخ:

- وإلى ذٰلك فهو عجوز دميم يكاد يقعده الكبر!

قام عبد الله في تأثّر واضطراب وهو يقول:

- لا تجرفني إلى هاوية يا شيخ مروان!

- معاذ الله، إنّي لا أقدم على عمل قبل أن أستخير الله ذا الجلال، وكم من مرّة زارت مطلّقتك الضريح ورجتني أن أدعو لك بالصحّة والفلاح!

- حسبك.

- لعنة الله على الغضب، لعنة الله على الحواسّ!

تراجع عبد الله إلى الكنبة في الجناح الأيسر للحجرة وتهالك عليها مغمض العينين فقال الشيخ:

- أصلح خطأك، كفّر عنه، استردّ السعادة التي سلبها الشيطان، تخلّص من وحدتك الغارقة في الحزن.

وتريّث قليلًا ثمّ قال:

- ولكن عليك أن تغيّر حياتك.

فقال عبد الله بتأثّر شديد:

- دعني آخذ أنفاسي!

- إنّك في صميم قلبك ترحّب بكافّة الحقائق التي كشفتها لك، لا تنكر ذٰلك، إنّك تحبّها، ولا غنى لك عنها، إنّك تنتظر اللحظة التي أدعوك فيها إلى ردّها إلى

عصمتك.

فتأوّه الآخر قائلًا:

- اللّهمّ عفوك ورحمتك...

- ولكن عليك أن تغيّر حياتك، فبادِرْ إلى الإنجاب بعد أن منَّ الله عليك باليسر، وتردّدْ على الزاوية في أوقات الصلاة المتاحة، ولا يفوتك درس من دروسي الدينيّة...

فقال عبد الله بحماس:

- بإذن الله لن يفوتني شيء من ذٰلك، والحقّ أنّي لم أكن مقصّرًا ولكنّ فترة الاستغراق في العمل أورثتني عادات سيّئة لا يتحرّر منها إلّا صادق العزم.

- فترة ذميمة!

فتردّد عبد الله قليلًا ثمّ قال:

- ولكنّني كنت قويًا وسعيدًا!

- تلك جنّة الحيوان، أمّا الإيمان الحقيقيّ فلا تكمل أسبابه إلّا بالتأمّل والصلاة والدرس...

- سمعًا وطاعة!

- آنَ لك أن تؤمن كما يؤمن الإنسان الكامل، وسوف تعرف الروح وبهجتها، ومعنى الحياة الزوجيّة ومسرّاتها الحقيقيّة، وستعرف إلى ذٰلك كلّه كيف تهزم الشيطان إذا تصدّى لك بلعبة من ألاعيبه!

انتقل عبد الله إلى جانب الشيخ. قبّل جبينه، ثمّ قال بامتنان:

- ربّنا يكرمك يا شيخ مروان، لقد انتشلتني من الظلمات وفتحت لي أبواب الهدى والسعادة...

«٣»

دخلت حجرة الجلوس وهي تمشط شعرها. تبدّى وجهها مورّدًا رائقًا بعد الحمّام. نظرت نحوه وهو واقف في جلبابه وراء النافذة وتساءلت:

- ألا تستعدّ لحضور الدرس في الزاوية؟

لم يلتفت نحوها. لعلّه لم يسمعها. جلست على الكنبة وما زالت تمشط شعرها:

- أزف ميعاد الدرس يا عبد الله.

أجاب باقتضاب:

- لن أذهب.

حدجت ظهره بنظرة متسائلة ثمّ قالت بدهشة:

- لم تتخلّف عن درس العصر مرّة واحدة طوال العام الماضي.

غادر موقفه إلى الكنبة في الجناح الأيمن وجلس وهو يقول في فتور:

- لن أذهب.

- مالك؟!

- لا شيء.

جمعت شعرها في ضفيرة واحدة طويلة مليئة كالغصن الريّان وهي تتساءل:

- هل ثمّة شيء ضايقك؟

فأجاب على غير توقّع منها:

- بل أشياء.

تيقّظت تمامًا في قلق واضح وسألته:

- ماذا هنالك؟

فقال بامتعاض ولكن بتهيّب:

- ذٰلك الشيخ!

وأكمل متجنّبًا نظرتها المستطلعة:

- أصبح مضجرًا!

- الشيخ مروان؟!

- نعم.

- إنّه يكاد يستأثر بأوقات فراغك!

- ثبت لي أنّه رجل مضجر!

- حدث بينكما شيء؟

- يعيد ما يقول ويقول ما يعيد، بطريقة رجل يحفظ كلمات معادة عن ظهر قلب، كالببغاء، كالآلة، ودائمًا بلا روح.

- شدّ ما تحمّست له يا عبد الله.

- لا أنكر أنّني كنت مبهورًا به، ولكنّه مضى يتكشّف لي عن حقيقته، قاومت الملل شهورًا، انتظرت عبثًا أن يقول شيئًا جديدًا، ولكن لا جديد، رجل يؤدّي وظيفته بلا روح، ينادي على بضاعته كبيّاع البطاطة.

- متى اكتشفت ذٰلك؟

فقال بنبرة لم تخل من حدّة:

- منذ زمن قصير، ولكن ليس من اليسير أن نجازف بإنكار ما تعوّدنا الإيمان به!

بهتت هنيّة. صرخ الذهول في عينيها. قالت وهي تضبط انفعالاتها:

ـ ليكن، لا تذهب إلى الدرس إن يكن ذلك يضايقك، وعلى أيّ حال فصداقتكما أكبر من الدرس وأبقى...

فقال بمرارة:

ـ هو ليس في المقهى بخير منه في الزاوية!

ـ ربّاه كيف أصدّق أذنيّ!

ـ حقًا؟!

ـ عبد الله لا تنس أفضاله علينا، من أجلها سمّينا وليدنا باسمه، ولن تنكر أنّك طالما تغنّيت بصداقته وسجاياه.

نفخ قائلًا بوجه عابس:

ـ لم يعد لي به ثقة البتّة...

ـ يا الطاف الله...

ـ على أيّ حال كان صديقي أنا لا صديقك أنت!

ـ ولكنّه صاحب فضل على كلينا، فهو الذي جمع شملنا من جديد...

ـ وتبيّن لي بعد ذلك أنّه غير جدير بالمركز الذي يشغله!

ـ بالله كيف؟

ـ كنت أضيق بعمّ مراد عبد القويّ شيخ الحارة إذا احتدّ عليه في مناقشة ما، وكان الشيخ مروان بدوره يتّهم شيخ الحارة بأنّه يعمل مرشدًا للمباحث، ولكنّي بتّ أومن بصدق فراسة عمّ مراد!

قالت هنيّة بحزن واضح:

ـ لن أناقشك ولكن فسّر ما غمض عليّ من أمره.

فصمت قليلًا ليرتّب أفكاره ثمّ قال:

ـ لم تتكشّف الحقيقة لي دفعة واحدة، ولكنّها جاءت كنقاط الماء التي تتجمّع رويدًا لتصنع في النهاية بركة آسنة!

ـ أودّ أن أعرف كلّ شيء.

ـ حسن. أوّل ما نفّرني منه تهالكه على تصيّد الدعوات إلى ولائم التجّار بالحارة!

ابتسمت هنيّة ابتسامة فاترة فقال بحنق:

ـ اتّضح لي أنّه شره، وأنّه في سبيل إشباع شراهته لا يتورّع عن التودّد المهين...

ـ خصال لو نظرت إليها بعين غير غاضبة لأمكن أن تمرّ بها مرور الكرام!

فقال بسخرية مريرة:

ـ ما أجمل أن يسعد الإنسان بمحامٍ مقاتل مثلك!

ـ عبد الله.. ما هذه النبرة؟!

ـ ألمتك؟

ـ إنّها تذكّرني...

وأطبقت شفتيها دون أن تكمل كلامها فتساءل:

ـ بمَ تذكّرك؟

ولكنّها تجاهلت سؤاله قائلة:

ـ لكلّ إنسان عيوبه!

ـ ليس الإمام كبقيّة الناس وقد قال شيخ الحارة مرّة إنّه عرف من الأئمّة أناسًا فوق مستوى البشر!

ـ يمكن أن تقبله كإنسان عاديّ!

فقال بحدّة:

ـ ومرّة ضبطته وهو يقرص الزهر في لعبة النرد، الغشّاش!

غمغمت بإشفاق:

ـ لا تحكم عليه من خلال لعبة تسلية!

ـ الخلق ينعكس على لهونا كما ينعكس على جدّنا!

تنهّدت ولم تدرِ ماذا تقول فتساءل بحدّة:

ـ ثمّ ألا تذكرين كيف عاقب خادمته؟!

ـ قيل إنّها سرقت.

ـ أيبرّر ذلك انهياله عليها بالضرب وطردها بوحشيّة؟ خيّل إليّ وقتذاك أنّني أرى وحشًا ينقضّ على فريسته!

صمتت تمامًا وراحت تعبث بضفيرتها بقلق بيّن.

وضحك هو ضحكة ساخرة وقال:

ـ وكنت لمحت أشياء اعتدتها في وقتها أوهامًا تافهة فلمّا تبيّن لي من أمره ما تبيّن عدت إليها بعين جديدة انحسرت عنها غشاوة التضليل...

تجلّت في عينيها نظرة متسائلة فقال:

ـ تذكّرت أنّني رأيت عينيه أكثر من مرّة وهما يتابعان نساء حارتنا باهتمام غريب!

هتفت بانزعاج:

- كلّا!
- ألا تصدّقين أم أنّك لا تريدين أن تصدّقي؟
- ماذا تعني؟
- لم أعد أشكّ في أنّه كان يطارد نساء حارتنا بعينين فاسقتين!
- يا ربّ عفوك ورحمتك!
- إنّه خدعة كبرى وزنديق خطير!
- رحماك اللّهمّ!
- رحماك يا هنيّة، لقد غرقت عامًا في بحر من العمى والضلال!
- حسبك، صادِقْ من تشاء واهجر من تشاء.
فهتف متجهّمًا بنبرة صارمة:
- ثمّة أشياء لا يمكن أن تمرّ دون حساب!
- ماذا تعني؟
- آنَ لي أن أصارحك بما في نفسي...
- هٰذا ما ناشدتك الله أن تفعله.
- لنعد إلى حادث شهده بئر السلّم بعمارتنا!!
- عمّ تتحدّث؟
فقال بصوت ممزّق:
- كان ذٰلك منذ أشهر مضت، رجعت ذات يوم من مشوار إلى عمارتنا وكنت أنا جالسًا في المقهى، أردت اللحاق بك لسبب لا أذكره الآن، صادف دخولك خروج الشيخ من شقّته، رأيتكما في بئر السلّم، خُيّل إليّ...
صرخت هنيّة:
- ماذا تقصد؟
- رأيته يمدّ يده...
قاطعته بغضب جنونيّ:
- ما من مرّة قابلني حتّى مدّ يده إلى رأس الطفل ليباركه وقد فعل ذٰلك أمام عينيك مرارًا...
- خُيّل إليّ أنّ يده كانت تبارك صدرك!
فصرخت ثائرة:
- يا لك من مجنون قذر!
هو يضحك بجنون:
لكن وقتها كذّبت عينيّ...
.. وقح... وقح...

- استردّت الصورة حياتها الحقيقيّة على ضوء ما تكشّف لي بعد ذٰلك.
- اقطع لسانك يا مجنون...
- أدركت أنّني كنت أعمى لا مجنونًا، وأدركت لِمَ سعى للإصلاح بيننا، وأدركت كم كنت لعبة بلهاء في يديه.
انتترت قائمة وهي تصرخ:
- أنت وحش، حيوان، مجنون، لن أبقى في بيتك لحظة أخرى...
وغادرت حجرة الجلوس وهي تنتفض غضبًا. ضرب هو الأرض بقدمه بعنف وصاح وراءها:
- في داهية... ألف داهية وأنت طالق!

«٤»

عاد الصمت إلى البيت. صمت جافّ نفّاث للقلق. وطيلة الوقت ذرع الحجرة من الكنبة إلى الكنبة. اختفت آهات الطفل بشتّى درجاتها المنغومة وأنواعها الصوتيّة الملوّنة بأطياف السخط والرضى. ولكن لم يبرح مخيّلته جسمه الضئيل البَضّ المطروح على ظهره وأطرافه الأربعة الصاعدة تتلاعب في الهواء عارضة أصابعه الصغيرة الدقيقة كالنقوش البارزة. وجعل يقول:
- تجنّب الوحشة فهي أنسب جوّ لتقطير الحزن والأسى!
وذرع الحجرة مرّتين ثمّ عاد يقول:
- تحرّكْ... انطلقْ... حتّى لا تبقى فريسة مطارَدة عاطفيّة محمومة...
وتجمّع التصميم في زاويتيْ فيه وهو يواصل حديثه:
- الأسرة فخّ... والرجل الحرّ...
ودقّ جرس الباب فقاطعه. فتح الباب فرأى الشيخ مروان أمامه. قطّب في وحشيّة ولكنّ الشيخ لم يباله. دخل وهو يتساءل:
- أحقّ ما سمعت يا عبد الله؟
فقال عبد الله بفظاعة:
- اغرب عن وجهي.
- أتطردني من دارك؟
- شرّ طردة!

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ـ إنّك أنت الشيطان الرجيم.

فقال الشيخ وقد غلبه الحزن:

ـ ربّما كان لك عذرك أوّل مرّة!

ـ اخرس، حذار من السفسطة، اذهب وإلّا حطّمت رأسك.

ـ يا لطف الله، لقد أفسد عقلك الرجل الماكر.

ـ لا أريد أن أسمع صوتك، اذهب...

ـ المرشد الخبيث مراد عبد القويّ، الذي يتّخذ من مشيخة الحارة ستارًا لمؤامراته الشيطانيّة، إنّه يشعر بأنّني عدوّه بالفطرة، فلا يتردّد عن التشنيع بي وافتراء الكذب عليّ، ولكن كيف هان عليك أن تصدّقه يا عبد الله!

ـ اذهب، إنّه آخر نذير أنذرك به.

ـ صدّقته، بعت صداقتنا بثمن بخس وخرّبت بيتك!

ـ أنت الذي خرّبته يا خنزير...

وانقضّ عليه يريد أن يقبض على عنقه. صدّه الشيخ بذراعيه. تلاحما بشدّة ما بين هجوم كاسر ودفاع حكيم. وفي تلك اللحظة جاء مهرولًا رجل نحيل متوسّط القامة فدخل بينهما حتّى فصل بينهما، ثمّ هتف لاهثًا:

ـ يا للعار... يا للخجل...!

والتفت نحو الشيخ وهو يقول برجاء:

ـ تفضّل الآن بالذهاب يا شيخ مروان.

وأغلق الباب وراءه ثمّ مضى بعبد الله إلى الكنبة متمتمًا:

ـ تمالك نفسك أيّها الأخ الكريم.

وضرب كفًّا بكفّ وهو يقول:

ـ أيّ شيطان عبث بكما معًا!

وهتف عبد الله وصدره يعلو وينخفض:

ـ ذلك الداعر الخائن...

جلس إلى جانبه، وطوّق منكبه بذراعه بحنان وقال:

ـ علينا أن نستردّ هدوءنا واتّزاننا قبل كلّ شيء.

فتأوّه قائلًا:

ـ إنّي حزين لدرجة اليأس يا أستاذ عنتر.

ـ أعلم ذلك يا أخي فأنت مصاب في حبّ كبير وصداقة وطيدة.

ـ لم تبدُ لي الحياة من قبل كريهة منفّرة كما تبدو اليوم.

ـ بلى، حياة ذات مائة وجه!

ثمّ بصوت منخفض:

ـ بيد أنّنا لا نعرفها على حقيقتها حتّى نرى وجوهها جميعًا!

ـ قلبي غاص بوحشة مخيفة يتعذّر معها الاستمرار في الحياة...

ـ قلبي معك يا صديقي ولكن لا تستسلم لليأس...

ـ إنّها محنة بكلّ معنى الكلمة.

ـ وعلينا أن نخرج منها سالمين!

ـ يخيّل إليّ...

فقاطعه قائلًا:

ـ بين آلاف الضاحكين في هذه اللحظة يوجد على الأقلّ شخص واحد كان يفكّر في الانتحار منذ عام.

ـ لعلّك لم تعرف كلّ شيء عن مأساتي؟

ـ بل أعرف كلّ شيء عنها، المهمّ أن نتجاوز الحاضر إلى المستقبل...

ـ ما أسهل الكلام يا أستاذ عنتر!

ـ وليس العمل بالمستحيل...

وسكت الرجل قليلًا ثمّ استطرد:

ـ فكّر جدّيًا في تجديد حياتك من جذورها.

استغرقته الأفكار فلم ينبس فسأله عنتر:

ـ هل خطر لك يومًا أن تسأل نفسك عن معنى حياتك؟

فرفع إليه عينين ثقيلتين فاترتين فقال الآخر:

ـ ما معنى الحياة، ما معنى الإنسان، وما معنى الحبّ، ما معنى الخيانة، أأدركت ما أعني؟

ـ كلّا...

ـ لقد جرّبت من الحياة جانبًا أقرب إلى البدائيّة ولكن تنقصك الثقافة...

ـ وما علاقة ذلك بمأساتي؟

- أوثق مما تتصوّر...
- لا أدري كيف...
- فلنؤجّل فهم ذلك إلى حين!
- ولكنّي رجل بسيط التعليم.
- غير أنّك تمتلك أقوى قوّة في الوجود وهو العقل...
- إنّ ما يهمّني الآن أكثر من سواه...

فقاطعه باهتمام:

- الثقافة أن تعرف نفسك، أن تعرف الناس، أن تعرف الأشياء والعلاقات، ونتيجة لذلك ستحسن التصرّف فيما يلمّ بك من أطوار الحياة!
- يا له من طريق طويل!
- لقد ضيّعت في الأرشيف عمرًا، وفي المقهى عمرًا، وفي الزاوية عمرًا، ومن حقّ الثقافة عليك أن تهبها بعض عمرك...
- يخيّل إليّ أنّني لا أحبّ ذلك...
- سوف تحبّه، وستجد مكتبتي تحت تصرّفك، مكتبة متواضعة فما أنا إلّا مدرّس، ولكن كن على يقين من أنّك ستحبّه، أكان من الممكن أن تحبّ زوجتك قبل أن تراها؟

فصاح بحنق:

- لا ترْجعني إلى تلك الذكرى.
- لا زلت تحبّها!
- أودّ أن أقتلها...
- هذا يعني أنّك لا زلت تحبّها.
- ألم تسمعني يا أستاذ عنتر؟
- الكراهية الحقيقيّة هي النسيان.
- يا له من حديث بغيض!
- لا تنس أنّني ها هنا لأنتشلك من المزيّة. فلا يجدي إلّا الصدق...
- الصدق؟!... أين الصدق؟
- إنّه جوهرة قد تختفي أحيانًا تحت ركام الأوهام.
- من سوء الحظّ أنّ مأساتي ليست وهمًا...
- منذا الذي يستطيع أن يقطع برأي في ذلك؟
- الضحيّة!
- بل البصيرة...

هزّ عبد الله منكبيه في فتور فقال عنتر:

- فلنناقش خيانة الشيخ مروان المزعومة.

هتف عبد الله بغضب:

- المزعومة!

لم يعلّق عنتر على صيحته فقال عبد الله:

- أجئت لتدافع عن ذلك الوغد؟

فقال بهدوء:

- من أجل الحقيقة وحدها جئت.
- لا يُلدغ مؤمن من جحر مرّتين.

فواصل حديثه وكأنّه لم يسمعه:

- لأنّي أحبّ الحقيقة ولأنّي أودّ معاونتك.
- لم يعد من السهل إقناعي!
- فلنجرّب.
- إنّي أمقت ذلك.
- صبرك...
- لقد رأيت بعينيّ وسمعت بأذنيّ!
- لا تباهِ بأدوات الخطأ.

ندّت عن عبد الله ضحكة جافّة وقال:

- سمعت مثل ذلك من قبل، الوغد قاله لي!
- حقًّا؟
- لعن الحواسّ وأشاد بالقلب.
- وإنّي أيضًا ألعنها ولكن لحساب العقل!
- لا دخل للعقل فيما رأيت...
- إنّي أعرف الشيخ مروان خير منك.
- لا أحد يعرفه مثلي.
- هلّا حدّثتني باكتشافاتك؟

صمت عبد الله زاهدًا في الحديث ونفورًا منه فقال عنتر برجاء:

- احترم رغبة صديق يحبّك ويتمنّى لك الخير.

فقال عبد الله بحنق:

- إنّه رجل مضجر، يعمل بلا روح، على خلاف ما يظنّ الناس.

فقال عنتر متودّدًا:

- أوافقك على رأيك في ذلك ولكن لا ذنب له فيما استشعرته.
- ذنب من إذن؟

ـ لا أهمّيّة لذلك الآن، غيره؟

ـ ذلّه المهين حيال التجّار من أهل الحارة؟

ـ لا أنكر ذلك ولكنّه من خلال علاقاته معهم أقنعهم بإنشاء المدرسة التي أنا مدرّس بها!

بهت عبد الله. ومضت عيناه حنقًا وهو يعثر بشرك، فقال الآخر برقّة:

ـ لا تغرّنّك المظاهر، إنّ التكالب على الولائم عيب ولكن ثمّة خير أكبر منه وأخطر.

فتساءل عبد الله بحذر:

ـ ومعاملته لخادمته؟... أنسيت ذلك؟

فضحك عنتر طويلًا ثمّ قال:

ـ يا للرجل الضحيّة!

واستمرّ في ضحكه حتّى قال:

ـ الحقّ يا صديقي أنّ البنت حاولت إغواءه!

ـ هه!

ـ أجل، تلك حقيقة لا يعلم بها أحد سواي، وأنا الذي اقترحت السرقة كعذر لطردها صونًا لسمعتها!

بهت عبد الله مرّة أخرى. عكست عيناه نظرة حذر وخوف.

تمتم:

ـ فلنغلق باب ذلك الحديث...

ـ أوجدت رغبة طارئة في الهرب؟

ـ الهرب!

ـ لعلّك تخشى اكتشاف ضحايا أبرياء لك؟

ـ أستاذ عنتر!

ـ لا توصد باب السعادة في وجهك.

ـ هيهات أن أنسى ما رأته عيناي.

ـ تعني حكاية بئر السلّم؟

فتنهّد ولم ينبس.

ـ لِمَ لَمْ تصدّقها في وقتها؟

ـ لكثافة الغشاوة فوق عينيّ.

ـ ثمّ استرجعتها بعين ذاكرة حانقة غاضبة كارهة!

ـ لن أقيم قصورًا على الرمال مرّة أخرى.

ـ راجع عقلك وحده.

ـ كلّا، الوغد الفاسق، طالما ضبطت عينيه وهما يفسقان بنساء حارتنا!

ضحك عنتر ضحكة عالية وقال:

ـ الضحيّة المسكين، ألا تعرف أنّه لا يستطيع أن يرى إلى أبعد من ذراعين؟

ـ كلّا، لم يشكُ ذلك قطّ.

ـ إنّه لا يحبّ الشكوى على الإطلاق.

فصاح عبد الله ملقيًا بآخر تحدّياته وأخطرها:

ـ لقد رأيت يده في صدر زوجتي.

ـ لم يحصل ذلك يا صديقي عبد الله.

ـ حصل.

تنهّد الرجل قائلًا:

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ.

وسكت مليًّا، مكفهرّ الوجه لأوّل مرّة، ثمّ قال:

ـ لا مفرّ من مصارحتك بحقيقة ما كان يجوز إعلانها.

تابعه الآخر صامتًا ولكن باهتمام متزايد فقال عنتر:

ـ الرجل مصاب بعجز جنسيّ منذ أكثر من عام!

انكتمت أنفاس الانفعالات المحتدمة تحت طنّ من التراب فساد الذهول. وارتفع صوت عنتر قائلًا:

ـ ذهبنا من طبيب إلى طبيب ولكن لم يعدنا أحدهم بشفاء عاجل!

لم يستطع عبد الله الخروج من صمته فقال عنتر:

ـ إن كنت في شكّ من قولي صحبتك إلى الطبيب بنفسي.

ثمّ وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

ـ ليغفر لي الله ذنبي!

خلا كلّ منهما إلى نفسه. أغمض عبد الله عينيه. على رغمه انسابت دموع من تحت جفنيه. حانت من عنتر التفاتة إليه فرأى دموعه. تهلّل وجهه وانبسط. تمتم بنبرة متأثّرة:

ـ صديقي عبد الله، ليحفظك الله من كلّ سوء، ليجعل لك من عقلك مرشدًا.

«٥»

ضمّت هنيّة وليدها إلى صدرها ترضعه. أمّا مروان الصغير فكان يحبو أسفل الكنبة. عبد الله.. انفرد بنفسه على كنبة أخرى يقرأ في كتاب. وسألته هنيّة:

ـ متى تستعدّ للذهاب إلى القهوة؟

فأجاب دون أن يرفع رأسه عن الكتاب:

ـ سأذهب إلى السينما مساء اليوم مع عنتر.

ومضى الوقت في هدوء شامل حتّى دقّ جرس الباب. فتح الرجل الباب فدخل رجل طويل نحيل في بدلة رماديّة.

رحّب به عبد الله قائلًا:

ـ أهلًا بشيخ حارتنا.

حيّا القادم الزوجة وجلس حيث أجلسه عبد الله إلى جانبه.

ـ زارنا النبيّ يا سيّد مراد عبد القويّ.

ـ انتظرتك في القهوة ولْكنّك لم تحضر كعادتك؟

ـ سأذهب إلى السينما مع الأستاذ عنتر.

ابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة فقال عبد الله:

ـ هلّا ذهبت معنا يا سيّد مراد؟

فقال بهدوء:

ـ جئتك لغرض آخر.

فنظر الرجل نحو زوجته نظرة خاصّة لتغادر الحجرة ولْكنّ شيخ الحارة بادره:

ـ لا تزعجها، ولعلّه من المفيد أن تسمع حديثنا.

فتطلّع إليه باهتمام حتّى قال بهدوئه المألوف:

ـ سيدور الحديث حول صديقينا الإمام والمدرّس!

دهش عبد الله. راقب وجه الرجل الجادّ باهتمام. ولمّا طال السكوت قال:

ـ الحقّ أنّه رغم صداقتكم فلا يخلو لقاء بينكم من مناوشات غير مريحة.

ـ لا ضرر من ذٰلك.

ـ ترى هل لانتصارك المتكرّر عليهما في الشطرنج دخل في ذٰلك؟!

ـ ليس ذاك بالتفسير المقنع.

ـ بلى.

ـ ولْكنّك تعرف لذٰلك أسبابًا أخرى!

فلاح الارتباك في وجه عبد الله فقال شيخ الحارة:

ـ أعرف أنّهما يشيّعان عنّي أنّني مرشد!

لم يخرج عبد الله عن صمته فقال الرجل:

ـ ما عيب أن أكون مرشدًا؟ ما المرشد إلّا عين من عيون المصلحة العامّة.

ـ هٰذا حقّ.

ـ ولا يخافه إلّا المنحرفون.

ـ هٰذا حقّ أيضًا.

فابتسم شيخ الحارة وقال:

ـ ما علينا يا سيّد عبد الله، ماذا تعرف عن الرجلين؟

ـ كلّ خير يا شيخ الحارة.

وقالت هنيّة:

ـ نحن مدينان لهما بسعادتنا.

وقال عبد الله:

ـ وياسميهما سمّينا وليدينا.

فقال الرجل بهدوء كاد يكون برودًا:

ـ إنّما أسأل عن الرجلين لا عنكما.

فقال عبد الله بحماس:

ـ هما ألصق الناس بي، ومنهما أستمدّ العلم والهداية والمودّة.

ـ باسم الصداقة صارحني: ألك رغبة حقيقة في خدمة المصلحة العامّة؟

ـ أعتقد ذٰلك.

ـ أتفضّلها عند المقارنة على العلاقة الشخصيّة؟

أجاب بعد تردّد:

ـ أعتقد ذٰلك.

ـ حسن، قلت إنّهما ألصق الناس بك، كثيرًا ما تجمعكم سهرات طويلة في بيت الإمام أو المدرّس أو في بيتك هٰذا، ماذا ترى؟ ماذا تسمع؟ ماذا تلاحظ؟

ـ سهراتنا تمضي عادة في مناقشات يتخلّلها شرب الشاي والقرفة، وأنا شخصيًّا قليلًا ما أشارك في الحديث إذ إنّه يعلو عليّ كثيرًا، ربّما أطرح سؤالًا من آن لآن، وهما رغم خلافاتهما الكثيرة ينتهيان عادة إلى نوع من الوفاق.

ـ هل تستطيع أن تمدّني بأمثلة ممّا يدور النقاش حوله؟

فأجاب عبد الله باهتمام منتشيًا بإحساس بالأهمّيّة:

ـ إنّها موضوعات خطيرة حقًّا، مثل الحرّيّة والخبز، الخير والشرّ، الخلود وهل يكون بالأرواح وحدها أو بالأرواح والأجساد معًا، العفاريت وهل توجد بالحقيقة

أو بالرمز.

فابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة وقال:

- يا لها من مسائل خطيرة حقًّا!

- جدًّا.

- وهل برهنا على وجود للعفاريت حقيقيّ؟

- هٰذا ما يؤمن به الشيخ مروان أمّا الأستاذ عنتر فيتكلّم عن ذٰلك بحذر شديد وإن قرّر أنّ احتمال وجود كائنات غيرنا في العالم مقبول عقلًا.

- وكيف برّرا وجود الشرّ في العالم؟

- ما زال عقلي طفلًا ولٰكنّ عنتر يؤكّد أنّ ما نعدّه شرًّا ليس بشرّ حقيقيّ إذا نُظر إليه في موضعه من الصورة الكلّيّة للكون.

فضحك شيخ الحارة ضحكة مقتضبة وقال:

- لا أظنّه كذٰلك في نظر أيٍّ من المرشدين.

فقالت هنيّة:

- ولا في نظرنا يا سي مراد.

رحّب شيخ الحارة برأيها بهزّة من رأسه ثمّ تحوّل إلى عبد الله متسائلًا:

- ألم يتطرّق الحديث إلى موضوعات أهمّ؟

- أهمّ من الخير والشرّ والخلود؟

فقال وهو يداري ابتسامة:

- كالنساء مثلًا أو المخدّرات!

فهتف عبد الله:

- أعوذ بالله.

وقالت هنيّة:

- إنّهما أفضل رجلين في حارتنا!

فسأله دون اكتراث لاعتراضاتها:

- ألم تلاحظ في سلوكهما ما يدعو إلى التفكير؟

- كلّا يا سيّدي.

فرمقه بنظرة ذات معنى وقال:

- اذكر أنّه كانت لك جولات مع الإمام مثيرة!

فقال عبد الله بيقين:

- لقد انقشعت غيومها بفضل القلب والعقل.

وقالت هنيّة باستياء:

- كيف هان عليك أن تذكّرنا بذٰلك الماضي؟

- لا مؤاخذة، فإنّ عملي الدقيق عوّدني على ألّا أتورّع عن شيء في سبيل إتقانه.

ثمّ مركّزًا خطابه على عبد الله:

- رُئِيَ الأستاذ عنتر عبد العظيم في ليلة ممطرة وهو راجع إلى مسكنه حافي القدمين، واضعًا في ذات الوقت حذاءه وجوربه تحت إبطه ملفوفين بجريدة، ألم يدعك ذٰلك إلى التفكير؟

فضحك عبد الله وقال ببراءة:

- أبدى عن ذٰلك منطقًا غريبًا ولٰكنّه لا يخلو من سداد، قال إنّ القدمين بغسلهما يعودان إلى أصلهما، أمّا الحذاء والجورب فلو تعرّضا للمطر والطين لأصابهما حتمًا تلف كبير أو صغير!

- أاقتنعت بمنطقه؟

- اعتبرت الأمر كلّه فكاهة لطيفة.

- ألم ترَ فيه تصرّفًا غير لائق برجل من رجال التربية؟

- الحقّ أنّ احترامي له منعني من التفكير على ذٰلك النحو.

- ألم يكن عرضة لأن يراه أحد من تلاميذه؟

- يا شيخ الحارة إنّ أكثريّتهم لا تستعمل الأحذية خارج أسوار المدرسة!

- ألا يعني سلوكه أنّه يؤمن بأنّ الإنسان يجب أن يكون في خدمة الحذاء لا العكس؟

- اعتبرت الأمر فكاهة كما قلت

فتفكّر مليًّا ثمّ سأله بلهجة ابتداء جديدة:

- صرّح الشيخ مروان مرّة أنّه يفضّل أن يعيش في ظلام دامس على أن ينوّر مجلسه بمصباح وارد من بلاد أعداء الله، ما رأيك؟

- بيته يا سيّد مراد مضاء بالكهرباء!

- فما معنى التناقض بين قوله وفعله؟

- ما هي إلّا طريقة للإعراب عن إيمانه وأصالته!

- هل استشهد مرّة بقول الشاعر:

هل الله عافٍ من ذنوب تسلّفت ... أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

- أجل يا سيّدي ولٰكن كان ذٰلك من خلال إبداء بعض الآراء في النحو.

- إذن ليس لديك أيّة ملاحظات عن الرجلين؟

ـ لا يا سيّد مراد.

فقال الرجل وهو يهمّ بالقيام:

ـ آنَ لي أن أذهب.

فقال عبد الله بحرارة:

ـ بودّي أن أدعوكم جميعًا إلى جلسة مودّة وتصفية في بيتي.

فقام شيخ الحارة وهو يقول:

ـ فات أوان ذلك!

ـ بل ثمّة فرصة طيّبة.

فقال شيخ الحارة بهدوئه البارد:

ـ لقد أُلقي القبض عليهما منذ ساعتين!

ندّت عن هنيّة آهة فزع على حين صاح عبد الله منكرًا:

ـ لا!

ـ هي الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

هتفت هنيّة متسائلة:

ـ كيف يُقبض على أشرف رجلين في حارتنا؟

ـ علمي علمك يا أمّ مروان.

ـ ولكنّها كارثة عظمى!

ـ بل أحداث عاديّة تقع كلّ يوم.

وأراد الرجل أن يمضي إلى الخارج ولكنّ عبد الله اعترض سبيله متسائلًا في هستيريا:

ـ لِمَ قبض عليهما؟

فأجاب بوضوح وقوّة:

ـ لا جواب عندي على ذلك.

وحيّاهما وانصرف. خلّف وراءه زوبعة اجتاحت العقل والقلب. جعل الزوجان يتبادلان النظر في صمت رهيب. قام بينهما حاجز مشحون بالنزر.

وتمتمت هنيّة:

ـ أمر لا يصدّقه العقل.

ـ أجل.

ـ كارثة حقيقيّة.

ـ أجل.

ـ انظر كيف تُهدّد كرامة الأبرياء!

ـ نعم... نعم.

ـ عقلي سيطير في الهواء.

ـ عقلي طار فعلًا.

ـ ما معنى ذلك يا عبد الله؟

ـ ما معنى ذلك!

ـ وشيخ الحارة لا يريد أن يتكلّم.

ـ مسئوليّة خطيرة!

ـ ولكنّه يعرف كلّ شيء.

ـ ربّما.

ـ ولعلّه المسئول عن كلّ شيء.

ـ جائز.

ـ أليس هو بصديقك؟

ـ ليس من السهل مناقشة عمله.

وحدجته بنظرة قلقة وقالت:

ـ الحادث قلقلك!

ـ طبيعيّ.

ـ لقد انفعلت به أكثر ممّا يجوز.

ـ بل دون ما يجب.

ـ قلبي... قلبي غير مرتاح.

ـ ولا قلبي.

وتبادلا نظرة ثقيلة معتمة كالحة.

«٦»

ترامت من الحارة أصوات متلاطمة آخذة في نقاش محتدم. ترامت من وراء النافذة المغلقة فقال عبد الله:

ـ أهل حارتنا يتبادلون الرأي في القهوة.

ومضى إلى النافذة ففتحها على مصراعيها فتدفّقت الأصوات في قوّة ووضوح. ذهبت هنيّة بالطفلين إلى حجرة داخليّة ثمّ عادت بمفردها فجلست قبالة زوجها على الكنبة وراحا يرهفان السمع باهتمام شديد.

***

ـ شيخ الحارة، إنّه شيخ الحارة!

ـ هو الذي دبّر الإيقاع بهما.

ـ ولكن لِمَ؟

ـ الأسباب مجهولة.

ـ لعلّها أسباب شخصيّة.

ـ ويتردّد ذكر أسباب غريبة.

ـ أيّ أسباب غريبة؟

ـ أسباب لها علاقة بالسلوك!

- السلوك! معاذ الله.
- الإشاعات تتطاير.
- اضرب لنا مثلًا.
- كلام قيل عن المخدّرات!
- المخدّرات!... منذا يتصوّر ذلك!
- بل حتّى الاتّجار بالمخدّرات جرى به الهمس.
- يا ألطاف الله!
- وكلام آخر عن النساء!
- ليقطع الله ألسنتهم.
- الرجلان بريئان، وما هي إلّا مكيدة قذرة!
- أجل مكيدة يقف وراءها شيخ الحارة.
- ولكنّ شيخ الحارة رجل مستقيم ما عرفنا عنه من سوء.
- كالخطّ المستقيم، كالماء النقيّ.
- ووسائل عمله وإن تكن مجهولة إلّا أنّها مؤكّدة لا تخطئ.
- هٰذه مغالاة لا مبرّر لها، لا يخلو الرجل من ضعف إنسانيّ، ولا شكّ عندي في أنّه أوقع بهما لأسباب شخصيّة!
- اتّهاماته لا دليل عليها!
- كلّ واحد يعرف أنّه لم يكن يستلطفهما.
- إنّه لا يستلطف آخرين فلِمَ لم يوقع بهم؟!
- لكلّ إنسان مزاياه ونقائصه، هٰذا قانون ينطبق على الإمام والمدرّس وشيخ الحارة، فشيخ الحارة ليس بالإنسان الكامل ولكنّ الأمر لم يكن يقتضي القبض على الرجلين المحترمين.
- أنا أصرّ على براءة الرجلين وكمالهما!
- وأنا أصرّ على امتياز شيخ الحارة.
- انتظروا، ستُعرف الحقيقة عاجلًا أو آجلًا.
- لن يغيّر شيء من رأينا في الرجلين.
- ولن يغيّر شيء من رأينا في الرجل.
- يا لها من بلبلة، لن نتّفق على رأي.
- ولكنّ الحقّ واضح.
- الحقّ واضح.
- الحقّ واضح.
- لا اتّفاق على رأي.
- والتعصّب رذيلة غير مجدية.
- ولكنّه مبرّر في حال الرجلين فهما مرجع كلّ كلمة طيّبة أو سلوك حميد في حارتنا.
- وهو مبرّر كذٰلك في حال الرجل الساهر على أمن حارتنا وسعادتها.
- ولكنّنا حيال موقف يحتّم علينا التفرقة بين الصواب والخطأ.
- لا يمكن أن يخطئ الرجلان.
- ولا يمكن أن يخطئ الرجل.
- يا لها من بلبلة! لن نتّفق على رأي...

***

ضاق صدر عبد الله بما ترامى إلى سمعه فقام إلى النافذة فأغلقها بعصبيّة. عادا يتبادلان النظرة المعتمة الثقيلة. وتمتمت المرأة:
- إنّها لبلبلة حقًّا لا تستخلص منها شيئًا...

فقال بقلق:
- ولكنّها تعصف بالقلب عصفًا.
- لكلٍّ رأيه ولكنّ أحدًا لا يستسلم للعاصفة!

فقال وكأنّما يناجي نفسه:
- لا يمكن أن يلقى القبض عليهما لغير ما سبب!
- سمعنا كلّ ما يمكن أن يقال.
- الأمر يختلف بما يتعلّق بي!

وساد صمت لم تجرؤ على خرقه حتّى عاد يقول:
- فأنا لم أستقرّ على الطمأنينة إلّا استنادًا إلى الثقة الكاملة بهما!
- لعلّه من المغالاة أن نطالب بالثقة الكاملة.
- لولا ثقتي الكاملة بالأستاذ عنتر لما عاودت الثقة بالشيخ مروان!
- ما أكثر الذين يؤمنون ببراءتهما!
- وما أكثر الذين لا يؤمنون!
- من الحكمة أن تبقى على ثقتك بهما ما دمت لا تجد الدليل القاطع على إدانتهما.
- ولكنّها حكمة قد تقضي عليّ.

فتساءلت بحزن وأسى:
- ماذا تعني؟

لم ينبس ولكنّه طالعها بوجه مكفهرّ. وإذا بها تهتف

بحدّة:

- أصبحت خبيرة برصد وساوسك!

- وساوسي!

- وساوس التردّد وضعف الثقة بالنفس!

فصاح بغضب:

- عليّ أن أكون مغفّلًا لتشهدي لي بالقوّة والثبات؟!

فقالت بوجه متقلّص بالعذاب:

- ها نحن نعود رويدًا إلى الجحيم!

- المهمّ أن يقوم صرح حياتي على حقيقة واضحة.

- لعلّ من الأهمّ من ذٰلك أن تنادي الحكمة في المحن وأن تتذكّر دائمًا أنّك أب!

فقال بسخرية مريرة:

- أجل، إنّي أبو مروان وعنتر...

- وهي حقيقة أهمّ ممّا عداها...

فقال بارتياب:

- بل توجد حقيقة أخرى أكبر، وليست هي بالثانويّة، وأنا أريدها كما هي في الواقع ولو دهمتني في هالة من النيران المتّقدة.

- أخشى أن يقتصر حظّنا من السعي في النهاية على الاحتراق بالنيران المتّقدة!

فرماها بنظرة متفحّصة وقال بحنق:

- أنت وحدك تعرفين الحقيقة الكاملة!

فقالت بإصرار:

- حسبي أن أعرف أنّني زوجة أمينة كما ينبغي للزوجة أن تكون.

فتمتم كأنّما يناجي نفسه:

- زوجة أمينة كما ينبغي للزوجة أن تكون...

فقالت بتحدٍّ:

- أجل، هٰذا ما عنيته...

- أترثين لي في صميم قلبك أم تسخرين منّي؟

فقالت بحدّة:

- علم الله أنّي أرثي لك...

- إذن فأنت زوجة وفيّة؟

- لشدّ ما يؤلمني تساؤلك...

- لا مفرّ من التساؤل حتّى الموت.

فهتفت بغضب:

- اطرح أفكارك المريضة أو فلتذهب إلى الجحيم...

- ها أنا أتقدّم من الجحيم بخطوات ثابتة...

- فكّرْ مرّتين، فكّر مرّات، فكّر من أجل الطفلين...

- ما أحوجني إلى ضوء شمعة في هٰذه الظلمات المتلاطمة...

- حذار من الخطإ...

- ما أحوجني إلى ضوء شمعة...

- حذار من رمي الأبرياء بالتهم الباطلة...

- ضوء شمعة لا أكثر...

- إذا غادرتُ بيتك للمرّة الثالثة فتكون الثالثة والأخيرة...

- أتلجئين إلى التهديد لتمنعيني من التفكير؟

- إنّي أحذّرك وأنبّهك...

- هل رميتك بتهمة تكرهينها؟

- دعني أسألك، ألا زلت تؤمن ببراءتي؟

فتنهّد قائلًا:

- في محنتي الراهنة لا أجد قدرة على الإيمان بشيء.

- أرأيت! إنّي ذاهبة وعليك أن تحسم أمرك للمرّة الأخيرة وإلى الأبد..

واندفعت خارجة من الحجرة وهي تردّد:

- للمرّة الأخيرة وإلى الأبد...

«٧»

جلسا جنبًا إلى جنب، عبد الله وشيخ الحارة. فرغا من احتساء الشاي وشيخ الحارة يقول:

- خمّنت من بادئ الأمر لِمَ دعوتني يا صديقي.

فقال عبد الله بحرارة:

- بالنسبة إليّ فهي مسألة حياة أو موت.

فقال شيخ الحارة بامتعاض:

- تجنّب من فضلك المبالغات العاطفيّة.

- يهمّني جدًّا أن أعرف الأسباب التي أدّت إلى القبض على الشيخ مروان عبد النبيّ والأستاذ عنتر عبد العظيم...

فلوّح شيخ الحارة بيده متضايقًا وقال:

ـ عيب أهل حارتنا أنّهم يخلطون بين العلاقات الشخصيّة والأمور العامّة!

ـ ليس الفضول على الإطلاق ما يدفعني إلى سؤالي!

ـ ليس الفضول وحده ولكن علاقتك الوطيدة بالرجلين.

ـ ولا ذاك أيضًا، ولكن لأنّ على الجواب تتوقّف حياتي، حياة أسرتي، سعادتي في هٰذه الحياة.

ـ لعلّك تعني المضاعفات التي أصابت حياتك الزوجيّة فيما مضى؟

ـ نعم.

ـ إنّه موقف يشاركك فيه كثيرون من أهل حارتنا!

فتساءل عبد الله بذهول:

ـ حقًّا؟

ـ هو الحقّ على وجه اليقين.

ـ أتعني... ؟!

ـ أعني أنّ الرجلين بحكم عملهما، اتّصلا بأسر كثيرة، ونزلا منها نفس المنزلة التي نزلاها من أسرتك.

فقال عبد الله باهتمام:

ـ حدّثني عمّا وقع لتلك الأسر؟

فقال بعدم اكتراث:

ـ منهم من خاب ظنّه فيهما فطلّق، ومنهم من أصرّ على الثقة بهما فمضت حياتهم كما كانت تمضي من قبل دون أدنى تأثّر.

وحدجه بنظرة نافذة ثمّ واصل حديثه:

ـ ومنهم من لم يستقرّ على رأي فتردّى في هاوية العذاب.

ـ يا له من مصير غير محتمل!

ـ أجل.

ـ ولكن بوسعك أنت وحدك أن تحسم الأمر.

ـ لا شأن لي بذلك.

ـ بل هو واجبك نحو أهل حارتك.

ـ يا صديقي إنّ مهمّتي تتعلّق بأمن الحارة وسلامتها ولا شأن لي بحياة الأفراد.

ـ ولكنّ الحارة ليست إلّا أهلها.

ـ الحارة شيء وأهلها شيء آخر.

ـ لا أفهم ذٰلك.

ـ ولكنّي أفهمه بكلّ وضوح وبساطة، وتحت شعاره أعمل.

ثمّ قال بصوت مرتفع الدرجة:

ـ الحارة كلّ لا يتجزّأ وليس من العسير أن أعرف ما ينفعها وما يضرّها، أمّا أهلها فأفراد لا حصر لهم، وتتعدّد مشكلاتهم بتعدّد أهوائهم...

ـ معذرة، يتعذّر عليّ أن أسلّم بذٰلك.

ـ دعني أضرب لك مثلًا، ثمّة زوج يكره زوجته، وآخر يحبّها حتّى العبادة، وثالث لا هو يحبّها ولا هو يكرهها، فهل تتصوّر لهم موقفًا واحدًا من حادثة القبض على الإمام والمدرّس؟!

ـ ولكنّ كلًّا منهم يودّ أن يتّخذ موقفًا على ضوء الحقيقة...

ـ لعلّك تفترض فيهم شجاعة قلّ أن تتوافر، وفي النهاية تتحكّم الأهواء وحدها...

ثمّ التفت نحوه باسمًا متسائلًا:

ـ أتحبّ زوجتك؟

فلاذ عبد الله بالصمت فقال شيخ الحارة:

ـ لطيف أن تحبّ زوجتك هٰذا الحبّ كلّه!

ـ أعترف بأنّه لعنة تطاردني...

ـ فماذا تهمّك الحقيقة؟

ـ هي كلّ شيء.

ـ خُيّل إليّ أنّها لا شيء في مثل حالاتك...

ـ أيّ قيمة لحبّ يقوم على كذبة؟!

وتنهّد عبد الله ثمّ استطرد:

ـ إنّي أتساءل دون توقّف، هل أطلّق؟ هل أغمض عينيّ؟ هل أسلّم للعبث والمجون؟، هل أنتحر؟...

ـ يا له من عذاب!

ـ أنت المسئول عنه.

فابتسم شيخ الحارة ساخرًا وقال:

ـ أنت وحدك المسئول!

ـ ما أسباب القبض عليهما؟... باسم الرحمة والصداقة أجبني...

فقال شيخ الحارة بهدوء:

ـ كثيرون يتصوّرون مسئوليّتي في ذٰلك على غير

حقيقتها.

ـ ولكنّك قبضت عليهما.

ـ لم أقبض في حياتي على أحد.

ـ الكلّ يُجمع...

فقاطعه بهدوء:

ـ دعنا ممّا يُجمعون عليه، إنّ مهمّتي تنحصر في جمع المعلومات.

ـ إذن حدّثني عن معلوماتك.

ـ المعلومات ـ كالوسائل التي أحصل بها عليها ـ سرّ من أسرار عملي.

ـ أليس من المحتمل أن تكون خادعة؟

ـ إنّي أعرف عملي جيّدًا.

ثمّ بشيء من الكبرياء:

ـ ولا أثر فيه للهوى أو للأغراض الشخصيّة.

فقال بنبرة اعتذار:

ـ لم أقصد شيئًا يسيء إليك ولكن حدّثني عن انطباعك فهل تؤمن بأنّهما مذنبان؟

ـ الحُكم بذلك يخرج عن حدود عملي.

ـ كيف ذلك؟

ـ إنّي أقدّم معلومات أمّا الحكم عليها فمن اختصاص غيري!

ـ ولكن لا شكّ أنّ لك انطباعك عن المعلومات التي تتجمّع لديك؟

ـ لا أستطيع الجزم بشيء، إنّي أعرف ـ على سبيل المثال ـ أنّ (ا) قابل (ب) في الساعة (د) في المكان (هـ)، الواقعة مؤكّدة ولكن ماذا تعني عند أهل الاختصاص؟... قد يعقب ذلك القبض على (ا)، أو على (ب)، أو على (ا)و (ب) معًا، وقد لا يقع شيء ألبتّة...

ـ فإذا تمّ القبض فهذا يعني الإدانة.

ـ كلّا...

ـ ولكن كيف؟

ـ قد يُفرج عن المقبوض عليه بعد وقت ما، وقد يتّضح أنّ القبض على (ا)و(ب) كان بغرض الإيقاع بثالث مجهول هو (و)...!

ـ أيّ حيرة!

ـ هو الطريق إلى الحقيقة!

ـ ربّما كان أفضل ما يتّبع هو الانتظار.

ـ رأي يبدو وجيهًا، ولكنّ الانتظار قد يمتدّ عامًا أو عشرة أعوام، فهل تطيق ان تترك زوجتك في بيت أبيها هذه المدّة دون حسم؟!

ـ إذن كيف يمكن معرفة الحقيقة؟

ـ لا أدري ماذا أقول، ولكن لا يكفي الاعتماد على الغير، لا بدّ من استغلال مواهبك الذاتيّة وخبرتك الماضية...

تنهّد عبد الله من الأعماق وقال:

ـ الحقّ أنّي كنت أجد عند الرجلين إجابات جاهزة وحاسمة ومريحة كلّما احتجت إليها.

ـ ولكن لا تنس أنّك طلّقت في رحابهما مرّتين!

ـ ربّما كنت متسرّعًا.

ـ وربّما كنت على حقّ.

صمت مليًّا مكفهرّ الوجه، ثمّ سأله:

ـ بمَ تنصحني فيما يتعلّق بزوجتي؟

ـ أرجوك، لا شأن لي بالشئون الخاصّة...

ـ ولكنّها كلّ شيء...

ـ بالنسبة لك لا للحارة التي أنا شيخها!

ـ إنّي أسألك كصديق.

ـ أعترف بأنّ صفتي العامّة قد غلبت على كلّ شيء، ولو أنّني نصحتك نصيحة ثمّ ثبت بعد ذلك فشلها لحاسبتني على ذلك بصفتي شيخ الحارة لا الصديق فحسب...

تنهّد عبد الله مرّة أخرى ثمّ قال:

ـ إذن قد تثبت براءة الرجلين وقد تثبت إدانتهما؟...

ـ أجل...

ـ ليس ثمّة يقين؟

ـ بلى...

ـ مجرّد احتمال!

ـ نطقت بالصواب.

ـ وما النسبة المئويّة لكلا الاحتمالين؟

ـ لنقل ٥٠٪!

ـ ٥٠٪...

ـ أيهمّك أمر الرجلين لهذا الحدّ؟

ـ يهمّني أمر زوجتي قبل كلّ شيء...

فابتسم شيخ الحارة وقال:

ـ كم تحبّ زوجتك! ولكن لا غرابة فأنا أحبّ زوجتي أيضًا...

فرمقه بنظرة غريبة وسأله:

ـ ألم تصادفك متاعب في حياتك الزوجيّة؟

فضحك شيخ الحارة لأوّل مرّة وقال:

ـ لا يخلو بيت من ذلك، وقد وقفت مرّة على عتبة الطلاق ولكنّ الله سلّم...

ـ أكان لذلك أسباب مختلفة؟

ـ ثمّة تشابه لدرجة ما...

فسأله بلهفة:

ـ وكيف استرددت ثقتك بها؟

تفكّر الرجل قليلًا ثمّ قال:

ـ الحقّ أنّ زوجتي تعاونني فنحن لا نكاد نفترق، ولا يجد الشكّ ثغرة بيننا يمكن أن يتسلّل منها...

نظر الرجل في ساعته. قام. قام عبد الله أيضًا. ومضى شيخ الحارة نحو الباب ولكنّه توقّف في وسط الحجرة، ثمّ سأله:

ـ بحكم الفضول هلّا أخبرتني بما أنت فاعل؟

فتفكّر عبد الله وقتًا ثمّ قال:

ـ لئن تكن زوجتي مذنبة بنسبة ٥٠٪ فهي بريئة في الوقت نفسه بنسبة ٥٠٪!

ـ وإذن؟

ـ ولأنّي أحبّها أكثر من الدنيا نفسها، ولأنّه لا بديل عنها إلّا الجنون أو الانتحار، فإنّني سأسلّم باحتمال البراءة...

فابتسم شيخ الحارة ومضى إلى الباب. وتصافحا. ثمّ سأله وهو يهمّ بالذهاب:

ـ وهل أنت سعيد؟

فابتسم عبد الله ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

ـ بنسبة لا تقلّ عن ٥٠٪!

روبابيكا

«١»

كالعادة كلّ صباح كان أوّل طارئ على الطريق. مع أوّل شعاع للشمس تنفرج عنه السحب. أورقت الأشجار فترامت خضرتها على المدى فوق كورنيش النيل. مشى على مهل مفعمًا بأنفاس الربيع وعيناه تنظران إلى بعيد. تنظران في لهفة. وكالعادة أيضًا، وقريبًا من منتصف الطريق لاحت لعينيه قادمة. تلاقيا تحت شجرة الأكاسيا فتصافحا باسمين. تساءل:

- نجلس فوق السور؟

- لا بأس.

وجلسا ظهراهما للنيل ووجههما للطريق الخالي.

- صباح سعيد أن أصبّح على وجهك.

- شكرًا.

- ورغم أنّنا لم نتعارف إلّا أمس فإنّني أشعر بأنّني أعرفك منذ زمن بعيد...

- طالما جمعنا الطريق كلّ صباح.

- كلّ صباح سعيد.

- مشوار ضروريّ لي لتجنّب الترهّل.

- ألِفْتُكِ، كالنسمة الرقيقة والسحابة البيضاء، ونفذت إلى أعماقي بقوّة مدعمة بالزمن.

- لعلّك تساءلت كثيرًا عن سرّ مسيرتي الصباحيّة؟

- كثيرًا جدًّا، خاصّة وأنّ مظهرك لا يوحي بأنّك موظّفة، قلت لعلّها تتمشّى في منطقتها السكنيّة لأسباب جماليّة...

- ولكن ماذا عن خواطرك الأخرى؟

- الأخرى؟

- أيّ نوع من النساء ظننتني؟

- سيّدة جميلة بقدر ما هي قويّة، نظرتها جريئة ورزينة ومليئة بالثقة، وتسلّل بصري...

- وتسلّل بصرك؟

- إلى أصابعك فلم أرَ خاتمًا!

- وليست في الوقت نفسه بنتًا من البنات، أليس كذلك؟ ماذا قلت؟

- مطلّقة.

- وفيم فكّرت؟

- لم يخطر ببالي عبث...

- توكّد لديّ ذلك عند تعارفنا أمس.

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- ولكن عليّ أن أصارحك بأنّي أحبّك.

- تعني أنّك معجب بي؟

- أكثر من ذلك، أنا أحبّك بكلّ معنى الكلمة...

- ولكنّك لم تعرفني بعد.

- ثمّة حبّ يجيء بعد المعرفة، وحبّ يسبق كلّ شيء.

- الآخر كثير الأعباء.

- الحقّ أنّي أحبّ المغامرة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

- أتحبّ الصراحة؟... تخيّلت حديثنا هذا من قبل!

فقال بفرحة:

- هذا يعني أنّي خطرت ببالك...

- ألا يشهد هذا الطريق على قديم زمالتنا؟

- وشهد أيضًا مصيري وهو يتقرّر حتّى من قبل أن أدري...

- ولكن ألم تنقضِ مدّة طويلة قبل أن ينطق الحبّ الذي تزعم أنّه سبق كلّ شيء؟

ـ كان اللقاء يمرّ في سرعة الضوء.

ـ جواب غير مقنع تمامًا.

ـ وأوّل الأمر كنت في غفلة، واعتقدت فترة أخرى أنّك سيّدة متزوّجة!

ـ وربّما كنت مرتبطًا بعلاقة ما؟

ـ ربّما...

ـ أيّ نوع من العلاقة من فضلك؟

ـ عابرة...

ـ عظيم!

ولاذا بصمت قصير حتّى خرقه الرجل قائلًا بنبرة جديدة بعض الشيء:

ـ يحسن بي أن أقدّم ما خفي من شخصي، مهنتي صائغ، في الثلاثين من عمري، مركزي الماليّ على ما يرام.

ـ وأنا مطلّقة، قدّر عمري كما تشاء، ويحسن بي أن أصارحك بأنّي جرّبت الزواج أكثر من مرّة!

ـ ما أجمل الصدق...

ـ ألم يخفك ذلك؟

ـ كلّا!

ـ من حقّك أن تقلق ولكن صدّقني أنّي كنت وما زلت بريئة!

ـ وأنا أحبّك...

ـ إذن فأنا سعيدة أكثر ممّا أستحقّ...

ـ أأفهم من ذلك أنّك...؟

ـ أنّي أشاركك عواطفك!

ـ ما أسعدني من عاشق...

وحدجته بنظرة ثاقبة وهي تسأله:

ـ ألم تتحرَّ عنّي؟

ـ كلّا...

ـ أمّا أنا ففعلت.

فضحك طويلًا ثمّ تساءل:

ـ وهل نجحت في الامتحان؟

ـ أعتقد ذلك...

ـ بأيّ مقياس تحكمين؟

ـ العجز هو ما أكرهه في الرجل.

ـ العجز؟!

ـ أحبّه قويًّا قادرًا، رذائل القوّة أحبّ عندي من فضائل الضعف...

ـ إنّك واضحة وقويّة...

ـ ماذا تكره أنت في المرأة؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ القبح والانحلال.

ـ الانحلال؟

ـ أظنّه لا يحتاج إلى تفسير.

ـ أأنت ممّن يهتمّون بالماضي؟

ـ كلّا.

ـ ماذا تقصد بالانحلال؟

ـ الاستهتار، مثل إنشاء أكثر من علاقة في وقت واحد، أو التسليم بلا حبّ!

ـ ولكنّ ذلك مرض؟

ـ ربّما.

ـ لا توجد امرأة خائنة أبدًا.

ـ هذا صحيح بصفة عامّة.

ـ يخيّل إليّ أنّنا متفاهمان؟

ـ وعلينا أن نعدّ أنفسنا للزواج بأسرع ما يمكن...

***

«٢»

مضت في الطريق ووقف يُتبعها ناظريه، بقلب كلّه هيام. ثمّ انتبه إلى حركة ما. التفت نحو السور. وهو يقترب منه ظهر رأس رجل. لعلّه كان جالسًا أو نائمًا. ها هو يقف الآن أمامه في الناحية الأخرى من السور التي تلي شاطئ النيل. ترى هل سمع حديثه مع المرأة؟ وطالعه الغريب بوجه شاحب، بارز العظام، غائر العينين، وذقن غير حليق. سوّى جلبابه المتّسخ فوق جسده الهزيل ثمّ عبر السور فصار على كثب منه. لصّ؟ متشرّد؟ ليكن ما يكون. همّ بالذهاب ولكن استوقفه صوته وهو يقول:

ـ الحبّ!... ما أجمل الحبّ...

رمقه باشمئزاز وهمّ بالسير مرّة أخرى ولكنّ الرجل خاطبه قائلًا:

ـ لدينا حديث مشترك فيما أعتقد.

فسأله بتقزّز:

ـ أتخاطبني؟

ـ لم يعد يوجد سوانا في الطريق.

ـ ولكنّي لا أعرفك؟

ـ ولا أنا أعرفك!

ـ إذن لا تخاطبني.

ـ ولكن لدينا حديث مشترك.

ـ من أنت؟

ـ تاجر روبابيكيا.

ـ وأيّ حديث تعني؟

فأشار بيد معروقة شبه سوداء من القذارة نحو الناحية التي سارت فيها المرأة وقال:

ـ بخصوص السيّدة...

ـ وما شأنك بها؟

ـ كنت آخر زوج لها؟

ـ هه؟!

ـ تكلّمت بوضوح فلا داعي للتكرار.

فتفحّصه بذهول وتمتم:

ـ أنت مجنون بلا شكّ...

فضحك قائلًا:

ـ لم ينعم الله عليّ بالجنون بعد.

ـ لعلّك تهذي!

ـ لعلّك تتساءل كيف آل أمري إلى ما ترى؟

فلم يجب الرجل. فقال تاجر الروبابيكيا:

ـ كنت تاجر غلال ناجح...

ثمّ بنبرة ساخرة:

ـ ثمّ أفلست!

وضحك قائلًا:

ـ ولكنّي ما زلت تاجرًا على أيّ حال، وهاك عربتي...

وأشار إلى عربة منزوية وراء جذع شجرة فوق الطوار. هزّ الرجل منكبيه استهانة، أو تظاهر بالاستهانة وهمّ للمرّة الثالثة بالسير ولكنّ التاجر سأله:

ـ والحديث المشترك؟

فسأله بحدّة:

ـ أيّ حديث مشترك؟

ـ حديثنا عنها، أيّ حديث عنها فهو هامّ بالنسبة إليّ، الحقّ أنّي ما زلت أحبّها.

ـ ما زلت تحبّها؟

ـ بكلّ جوارحي.

ـ ولِمَ طلّقتها؟

ـ نتيجة حتميّة للإفلاس.

ـ ولكنّ الزوجة المخلصة...

فقاطعه:

ـ لا يمكن أن تكون زوجة لتاجر روبابيكيا.

ـ ألم تكن... ألم تكن تحبّك؟

ـ أجل فيما أعتقد.

ـ كيف تغيّر قلبها فجأة؟

ـ لا لوم عليها في ذلك.

ـ لعلّ إفلاسك جاء نتيجة لأخطاء لا تغتفر؟

ـ أعتقد أنا أنّ إفلاسي وقع بسببها واعتقدت هي أنّه جاء نتيجة لعجزي...

ـ عجزك؟

ـ وهي تكره العجز كما قالت لك من دقائق!

ـ زدني إيضاحًا.

ـ لا أهمّيّة لذلك.

ـ ولكنّه مهمّ في رأيي...

ـ إنّك تحبّها ومن حقّك أن تجرّب حظّك...

ـ ولكنّك أثرت موضوعًا وتركته مفتوحًا...

ـ لا تقلق فهي امرأة ممتازة بكلّ معنى الكلمة...

ـ لا تحاول خداعي...

ـ لا سمح الله.

ـ إنّك تعني اتّهامها...

ـ أؤكّد لك أنّها على خلق عظيم...

ـ لعلّها لم تكن تحبّك؟

ـ ها أنت تتّهمها بأنّها تزوّجت من رجل من غير أن تحبّه.

ـ أعني أنّها لم تحبّك الحبّ الكافي.

ـ جعلتني أؤمن بخلاف ذلك.

ـ المرأة المحبّة الفاضلة لا تتخلّى عن زوجها.

ـ أنا الذي تخلّيت عنها!

- بسبب إفلاسك؟
- أليس ذٰلك كافيًا؟
- ألم تختبر استعدادها للوفاء؟
- كلّا، لدى تسليمي بعجزي عن إسعادها هربت بالطلاق.
- بذٰلك يصبح الأمر واضحًا.
- لا شيء واضح في هٰذه الدنيا المعقّدة.
- ولٰكنّ ما قلته واضح جدًّا.
- جرّب حظّك، جرّب أن تبلغ الوضوح بنفسك.
- يخيّل إليّ أنّك تداور وتحاور لتلقي بذور الشكّ في نفسي...
- أنت تقول ذٰلك.

فهتف بغضب:

- إذا كان لديك ما يستحقّ القول فقله وإلّا فاذهب بغير سلام...
- المتاجرة بالأشياء القديمة علّمتني السماح.
- الحديث المشترك؟
- لا شيء بعد.
- أتهزأ منّي يا صعلوك؟
- أبدًا، ولٰكنّي أحبّ الحبّ كما أحبّ المحبّين.
- كنت تتجسّس علينا؟
- أبدًا، ولٰكنّي أنام على شاطئ النيل في الربيع.
- كذّاب.
- الربيع الذي يجدّد الشجر ويعجز عن تجديد حياة البشر!
- لا ألوم إلّا نفسي على الاستماع إليك.
- لن تندم على ذٰلك أبدًا.
- عد إلى القبر الذي خرجت منه.
- سمعًا وطاعة، أمّا مجلسي المختار فهو قهوة سوق الكانتو، وشهرتي هناك «الملعون»...
- عليك اللعنة!
- إلى اللقاء.

***

«٣»

أمام المرآة وقفت ترنو بإعجاب إلى العقد المطوّق لجيدها. ترنو بصفة خاصّة إلى اللؤلؤة المدلّاة من واسطته. ونظرت من خلال المرآة أيضًا إلى صورة الرجل المتربّع فوق الديوان وراءها يتسلّى بمشاهدة النيل من النافذة. وقالت وهي تتّجه نحو الديوان:

- في أصابعك معجزة.

نزع بصره من النيل كمن يصحو من غفوة وتساءل:

- ماذا قلت يا عزيزتي؟
- من يبدع هٰذه اللؤلؤة فهو معجزة!
- المعجزة حقًّا من تُصنع اللؤلؤة من أجله.

فجلست إلى جانبه فوق الديوان وهي تقول:

- جميل أن أسمع منك غزلًا رقيقًا حتّى اليوم.
- حقًّا؟... ما وجه العجب في ذٰلك؟
- المألوف أنّ الغزل يوارى كلّما أوغل المرء في الزواج.
- ولٰكنّك نبع للحبّ لا ينضب أبدًا.

فمسحت على شعر رأسه بنعومة وقالت:

- حقًّا؟!
- أيداخلك شكّ في ذٰلك؟
- كلّا ولٰكنّك لم تعد كما كنت.

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

- لا علاقة لذٰلك بحبّنا.
- لا تخفِ عنّي شيئًا فإنّي أشعر بكلّ شيء.
- أردت دائمًا ألّا أجرّك إلى متاعبي.
- ستجدني دائمًا في صميم متاعبك، لا تخفِ عنّي شيئًا..

لتنهّد قائلًا:

- الحقّ أنّي محاصَر بالقلق...
- أرأيت؟!
- أقاومه بكلّ ما أوتيت من قوّة الانحدار إلى الهاوية!
- واختفيت عنّي كلّ شيء.
- لم أكفّ دقيقة واحدة عن الكفاح.
- والجميع يضربون المثل بسعادتنا.
- الحقّ أنّي أندفع نحو الخراب.
- الخراب؟!
- اختلّ ميزان العمل في يدي ولا سبيل إلى

ضبطه.

فقالت بحزن حقيقيّ:

- أيّ لعنة، أيّ لعنة، أيّ صحوة مباغتة من سعادة وهميّة!

- بل كانت وما زالت سعادة حقيقيّة.

- أيّ لعنة تطاردني! لم أضنّ بعطاء، هيّأت لك عشًّا ذهبيًّا، ما رأيك في عشّنا؟

- جنّة.

- وأصدقائنا؟

- جذّابون كالسحرة.

- ورحلاتنا ولياليها؟

- جمال في جمال...

- أينقصنا شيء؟

- أبدًا ولكنّي أنفق المال بجنون!

- إنّك صائغ عبقريّ ولا حدود لقدرتك.

- لو كان مال قارون لنفد...

- لا تقل ذلك يا حبيبي.

- ولكنّها الحقيقة.

- وأيّ طعم للحياة بغير مباهجها الحقيقيّة؟

- أنا مهدّد بالخراب العاجل.

- لا تخيّب أملي فيك.

- ولكنّها الحقيقة.

- لا تعلن عن عجزك.

فقال بجزع:

- كلّ شيء له حدّ لا يجوز أن يتجاوزه.

- إنّما تهمّني النتائج، أنا أحبّ الحياة الحلوة بقدر ما أحبّك.

- أنت جميلة، أنت فاتنة، أنت عطر الحبّ وروحه، ولكنّك تتعلّقين بمسرّات يمكن الاستغناء عنها.

- لا تقل ذلك أبدًا.

- الحبّ أغلى من أيّ شيء سواه.

- ولكنّ أزهاره لا تنوّر إلّا في خمائل المسرّات.

- ظننته غنيًّا بنفسه عمّا عداه.

- لعلّ حبّك فتر...

- يا له من حكم جائر!

- عندما يفتر الحبّ ينشط التفكير والتدبير.

- أبدًا، ليس الأمر كذلك.

- عندما يفتر الحبّ يبدأ التندم على السرور البريء.

- أنت تعلمين أنّ حبّي لك لا يفتر أبدًا.

- بل ولّيتني ظهرك أمس واستغرقت في النوم!

- بسبب انشغال البال لا فتور الحبّ.

فهزّت رأسها في ارتياب فقال:

- ما أنا إلّا إنسان ذو طاقة محدودة.

- لم تكن كذلك في أيّامنا الحلوة.

- أنت سيّدة ناضجة وتدركين من حقائق الأمور ما يقصّر عن إدراكه غيرك...

فقالت بحدّة:

- لم أحبّ هذا القول.

- ما قصدت سوءًا قطّ.

- ولكنّي كرهته...

- إنّي أعتذر، وإنّي أحبّك، وأقرّ بأنّني إنسان ذو طاقة محدودة!

- إنّك ترعبني.

- حتّى الحبّ تلزمه استراحات قصيرة...

- إنّك تحمّلني ذنوب الآخرين.

- لا يعنيني الماضي قطّ.

- إنّي امرأة بريئة، لا عيب فيها إلّا أنّها تحبّ الحياة حبًّا لا يعرف الحدود.

- ولكنّه حبّ لا يتأتّى لرجل إشباعه.

- الحقّ ما أنا إلّا ضحيّة لعجز الرجال.

- يا حبيبتي علينا أن نحرص على حياتنا المشتركة.

فقالت بكبرياء:

- لم أستطع ذلك في الماضي ولا أستطيعه الآن.

- أليس ذلك أيضًا نوعًا من العجز؟

- كلّا، لا تسمّ الأشياء بأضدادها.

- أنت اليوم في عزّ نضجك...

فهتفت غاضبة:

- لست عجوزًا بعد.

- معاذ الله أن يخطر لي ذلك المعنى.

- ولكنّه خطر، ورميتني بما هو فيك.

فتنهّد يائسًا وقال:

ـ لا فائدة، أفلست في كلّ شيء.

ـ ها هي اللعنة تطاردني من جديد.

ـ ليبعد الله عنّا اللعنات!

ـ ها هي تطاردني من جديد!

ونهضت غاضبة فغادرت الحجرة..

***

«٤»

تذكّر فجأة تاجر الروبابيكيا. حاجة ملحّة دفعته إلى البحث عنه لمناقشته. ولم يجد صعوبة تذكر في العثور على القهوة القابعة تحت البواكي بسوق الكانتو. وقف يجيل البصر في الجالسين ولكنّه لم يظفر بطلبته على حين تطلّعت إلى منظره الأبصار في دهشة. ورأى وراء النصبة رجلًا يقوم بكلّ شيء فقدّر أنّه صاحب القهوة فاقترب منه، حيّاه، وسأله:

ـ أين تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون؟

فحدجه الرجل بنظرة أشعلها انتباه طارئ وقال:

ـ لا أدري.

ـ ألا يجلس عادة في هٰذه القهوة؟

ـ ولكنّي لم أره من مدّة.

ـ وأين يمكن أن أجده من فضلك؟

ـ لا أدري.

ـ هل يوجد أمل في رؤيته إذا انتظرت بعض الوقت؟

ـ من يدريني؟!

وقف الرجل في وسط القهوة متردّدًا. وإذا برجل يدنو منه حتّى يقف أمامه ثمّ يسأله:

ـ أتريد مقابلة الملعون؟

ـ أتعرف مكانه؟

ـ اتبعني.

قال ذٰلك ومضى إلى الخارج. تبعه بأمل جديد في مقابلة الرجل. كان المغيب يضفي على الدنيا ظلاله، ولفحات هواء رطيب تتردّد بأنفاس الخريف. سار وراء الرجل في زقاق ضيّق.

ـ أنحن ذاهبان إلى بيته؟

فلم يجب الرجل وواصل السير. ولدى أوّل منعطف يصادفهما هوت ضربة على رأسه فشهق ثمّ سقط مغمى عليه. ولمّا أفاق وجد نفسه ملقى فوق مقعد خشبيّ كأنّه أريكة في ظلام دامس لا يُرى فيه شيء. جلس في حذر وهو يتساءل:

ـ أين أنا؟!

وأجال يده في الظلام وهمّ بالوقوف وإذا بصوت غليظ يقول بنبرة آمرة ومهدّدة معًا:

ـ لا تتحرّك.

فصدع بالأمر وهو يرتعد وسأل برجاء:

ـ ما معنى هٰذا من فضلك؟

ـ لا تسأل ولٰكن عليك أن تجيب...

ـ سل عمّا شئت ولكنّي لم أسئ إلى أحد.

ـ اخرس.

فخرس وقلبه يدقّ فعاد الصوت يسأل:

ـ ما مهنتك؟

ـ صائغ.

ـ وعمرك بالسنة الهجريّة؟

ـ لا أعرف.

ـ أنصحك بأن تتجنّب الكذب.

ـ ممكن معرفته إذا أُعطيت ورقة وقلمًا ونورًا!

ـ أيختلف عمرك الهجريّ عن عمرك الميلاديّ؟

ـ طبعًا.

ـ هل أفهم من ذٰلك أنّك مصاب بانقسام الشخصيّة؟

ـ أنا سليم والحمد لله.

ـ إذن لِمَ ذهبت إلى قهوة الكانتو؟

ـ لمقابلة تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون.

ـ ما علاقتك به؟

ـ لا علاقة لي به.

ـ تجنّب الكذب حرصًا على سلامتك.

ـ أنا لا أكذب وليس ثمّة ما يدعوني إلى الكذب.

ـ ما علاقتك به؟

ـ تقابلنا مرّة في الطريق...

ـ أكرّر تحذيرك من الكذب.

ـ بالحقّ نطقت.

ـ أيّ طريق؟

- طريق النيل.
- متى؟
- منذ عام وبضعة أشهر.
- لأيّ مناسبة؟
- صادفني في الطريق فتبادلنا حديثًا عابرًا.

انهالت عليه السياط في الظلام كالنيران. اجتاحه ألم حادّ فصرخ من الأعماق. توقّف الضرب ولٰكنّ صراخه لم يتوقّف. تُرِك يصرخ ويتوجّع بلا مصادرة لحرّيّته في ذٰلك حتّى همد وسكت. عاد الصوت يقول:

- حذّرتك من الكذب.

فقال بصوت ممزّق:

- أنا لا أكذب.
- ماذا كانت مناسبة المقابلة؟
- كنت أجالس خطيبتي على سور الكورنيش فلمّا ذهبتْ ظهر لي الرجل من وراء السور وقال لي إنّه كان آخر زوج لخطيبتي...
- السوط أخفّ أدوات التأديب.

فقال بجزع:

- ولٰكنّي أقول الصدق.
- ومن كان أوّل زوج لها؟
- لم أسأله عن ذٰلك.
- وماذا دار بينكما أيضًا؟
- حدّثني عن حياته حديثًا غامضًا وفي النهاية أخبرني عن مجلسه المختار بقهوة سوق الكانتو...
- لِمَ؟
- لا أدري.
- ولِمَ ذهبت تسأل عنه اليوم؟
- شعرت برغبة في محادثته.
- في أيّ موضوع.
- فشل زواجه.
- لِمَ؟
- ربّما لأنّ زواجي أنذر أيضًا بالفشل...
- ماذا توقّعت أن تجد عنده؟
- لا أدري ولٰكنّ اليأس جعلني أتخبّط...
- حذّرتك من الكذب...

فهتف في رعب:

- ما قلت إلّا الصدق.
- أمهلك دقيقة واحدة.
- أقسم على ذٰلك بكلّ غال.
- دقيقة واحدة.
- أيّ شيء يدعوني للكذب...؟!
- أيّ شيء يدعوك إلى الكذب؟
- لا شيء ألبتّة... صدّقوني...
- لم يبق إلّا ثوانٍ...
- الرحمة...
- انتهت الدقيقة...

وانهال عليه العذاب في الظلام. لم ينجُ منه رأس ولا قدم.

***

«٥»

تراءى الملعون في الجانب الأيسر من قهوة سوق الكانتو وهو يدخّن البوري. تلاقت عيناهما مرّة ولٰكنّ الملعون بدا مستغرقًا في البوري. تقدّم منه حاملًا كرسيًّا وضعه أمامه وجلس. ورمقه الملعون بنظرة غير مرحّبة وسأله:

- ماذا تريد؟
- ألا تذكرني؟
- من أنت؟
- ألا تذكر الصائغ؟

فانقلبت سحنة الملعون من السخط إلى الذهول وهتف:

- الصائغ!
- بلحمه ودمه!
- ولٰكن لا لحم هناك ولا دم.
- أجل!
- غير معقول.
- هي الحقيقة كما ترى.
- أعوام انقضت ولٰكنّها لا تكفي لتبرير هٰذا التغيّر الشامل!
- أجل...
- كأنّك خارج من قبر.
- كأنّي خارج من قبر.

ـ ماذا حدث لك؟
ـ ذاك تاريخ طويل.
ـ ولكنّ زواجك فشل؟
ـ أجل.
ـ ووقع الطلاق؟
ـ لا أدري.
ـ وكيف تلاشى شكلك الآدميّ؟
فتردّد قليلًا ثمّ سأله:
ـ ألك أعداء؟
ـ ليس لي أصدقاء.
ـ سأقصّ عليك قصّتي، فمنذ...
وتوقّف حائرًا ثمّ تمتم:
ـ الحقّ أنّه لم يعد لي علم بالزمن...
ـ اهمِلْه كما يهملنا...
ـ جئت يومًا أسأل عنك في هٰذه القهوة، خُطفت، جرى معي تحقيق غريب، عُذّبت، سُجنت في الظلام زمنًا لا أدريه، ثمّ وجدتني ملقى في الخلاء!
ضحك الملعون وقال:
ـ مررتُ بمحنة مماثلة في زمن ماضٍ...
ـ أنت أيضًا؟!
ـ أنا أيضًا...
ـ نفس الظروف والأسباب؟
ـ تقريبًا...
ـ ومَن أولٰئك الشياطين؟
ـ علمي علمك!
ـ كيف يمكن أن تقع تلك الأحداث؟!
ـ كما يقع غيرها...
ـ أمور تجنّن...
ـ لا تشغل بالك بما لا حلّ له.
ـ لا حلّ له؟
ـ أجل بما لا حلّ له وحدّثني عن زواجك.
ـ لم أجد أثرًا لدكّاني الذي ضاع في التنظيم.
ـ حدّثني عن زواجك.
ـ ذهبت إلى بيتي، بيت الزوجيّة، فوجدته مأهولًا بأغراب!
ـ ضاع كلّ شيء؟
ـ كلّ شيء.
فقال الملعون باسمًا:
ـ ولٰكنّ زوجتنا ما زالت ترفل في حلل السعادة.
ـ ألديك معلومات عنها؟
ـ هل في وسع عاشق أن ينزع عينيه من معشوقه؟!
ـ جاء دوري لأسألك.
ـ ما أكثر أخبارها وما أقلّها، حدثٌ واحد يتكرّر إلى ما لا نهاية، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج...
ـ ما أعجب ذٰلك!
ـ ما أعجب ذٰلك!
ـ يا لها من امرأة!
ـ يا لها من امرأة!
ـ لكنّها طعنت في السنّ؟
ـ جمالها في عينيّ غير قابل للزوال!
ـ سيجيء يوم فيجري عليها ما جرى علينا.
ـ أشكّ في ذٰلك.
ـ لكلّ شيء نهاية.
ـ ليس كلّ شيء له نهاية.
ـ أنت تمزح ولا شكّ.
ـ لِمَ قصدتني في ذٰلك اليوم المشئوم؟
ـ أردت أن أناقش معك أسباب الفشل.
ـ أكنت بدأت تعانيه؟
ـ أجل...
ـ هي أسباب واحدة.
ـ حقًّا؟
ـ ما العجب في ذٰلك.
ـ إذن فهي امرأة مريضة.
ـ الأصحّ أن تقول إنّنا نحن المرضى!
ـ لن يوفّق معها رجل.
ـ لعلّه لم يُخلق بعد.
ـ ولن يُخلق أبدًا.
ـ لا تحكم على المجهول.
ـ إنّه شيء يفوق الخيال.
ـ كما أمكن أن توجد هي فمن الممكن أن يوجد هو.

فتنهّد في قنوط وقال:

ـ دلّني على عنوانها.

ـ لمَ؟

ـ أرغب في مقابلتها.

ـ لكنّها لن تعرفك.

ـ اذكّرها بنفسي فتعرفني كما عرفْتني أنت.

ـ وما فائدة ذٰلك؟

ـ أجل وما فائدة ذٰلك!

ـ خير من ذٰلك أن تفكّر في عمل تحصل به على رزقك.

ـ كنت أبرع صائغ.

ـ دعنا من كان وكنّا...

ـ ماذا أعمل؟

ـ ممكن أجد لك عملًا في الروبابيكيا ولٰكنّي من زمن أفكّر في مغامرة تعود علينا بالرزق الوفير...

ـ ما هي؟

ـ مشروع لم أجد الشريك الثقة له...

ـ وهل أصلح له؟

ـ سأجد لك غرفة للإقامة فوق سطح عمارة في حيّ راقٍ.

ـ وبعد؟

ـ ومن خلال علاقاتي الكثيرة بالبيوت والناس سأشيع أنّك من رجال الأمن السرّيّين الدهاة...

ـ رجال الأمن؟

ـ وينتشر الرعب في المساكن التي لا يخلو واحد منها من نقطة ضعف يخاف عليها من القانون...

ـ وماذا نجني من وراء ذٰلك؟

ـ أمثّل دور السمسار الخاصّ وأتلقّى الهبات والهدايا!

ـ يا له من مشروع خياليّ!

ـ هو أكثر من واقعيّ، ستنهال علينا الأموال، لن نستردّ قوانا الضائعة ولٰكنّا سنعيش في رفاهية كالأحلام...

ـ أتمنّى أن تتحقّق الأحلام.

ـ وإذا تحقّقت أمكن بفضل الرفاهية أن نجد الوسائل الكفيلة بالعزاء والنسيان...

ـ نسيان المرأة وعشقها...؟

ـ أجل، ولدينا فرص لا حصر لها لتكرار التجربة في أحياء كثيرة...

ـ لو تحقّق ذٰلك فهو المعجزة!

ـ أجل... المعجزة!

***

«٦»

في بهو فاخر جلس الشريكان. بينهما مائدة حفلت بما لذّ وطاب من طعام وشراب. بهو كأنّه متحف. وكانت أعينهما تلتمع بالنشوة حين قال الصائغ وهو يرفع كأسه:

ـ صحّة الضعف البشريّ.

ـ وليدم إلى الأبد!

ـ أصبح الآن من الممكن أن ننسى.

ـ صدقت ولٰكنّنا لم ننس بعد تمامًا.

ـ كلّما رجعنا إلى الإفاقة رجعت الذكريات كالزنابير...

ـ يا ويلنا من الإفاقة.

ـ ولٰكن لدينا ما يشغلنا، لدينا الطعام والشراب والتحف النادرة وأدوات الترف والحدائق والملاهي الليليّة...

ـ لدينا حقًّا ما يشغلنا ولٰكنّها تخطر على القلب في الإفاقة.

ـ ما دامت وسائل النسيان متوفّرة فلا خوف علينا...

ـ فلنغرق فيها حتّى الأعماق.

ـ إنّها تطاردنا ولٰكنّها لن تقبض علينا.

ـ نجونا من الجنون.

ـ يا له من جنون!.

ـ عليها اللعنة.

ـ صحّتك.

ـ صحّتك.

ـ عليك أن تحصل لنا على عملة صعبة من السوق السوداء لنغزو السوق الحرّة...

ـ سيتمّ ذٰلك على خير وجه... وأظنّ آن لي أن أذهب...

ـ مصحوبًا بالسلامة...

ودّعه حتّى الباب. وجعل يذرع البهو وهو ينظر في الساعة. حتّى دخل الخادم وهو يقول:

ـ جاءت السيّدة.

فقال بلهفة:

ـ أدخلها.

دخلت المرأة تخطف الأبصار بجمالها وبريق اللؤلؤة فوق صدرها. دعاها للجلوس وهو ينحني لها تحيّة، ثمّ قال:

ـ شرّفت الدار.

ـ شكرًا.

ـ كنت في انتظارك لتسليمك القرض كما تمّ الاتّفاق عليه مع زوجك.

ـ ولولا المرض لجاء بنفسه.

ـ أعرف ذٰلك، شفاه الله، ولكن اسمحي لي أن أقدّم لك كأسًا...

ـ شكرًا...

وتنهّد الرجل وقال بأسى:

ـ إذن لم تعرفيني بعد؟

فحدجته بنظرة غريبة فقال:

ـ أكثر من مرّة تقابلنا بحضور زوجك ولكنّك لم تعرفيني للأسف.

لم تحوّل عنه عينيها فقال:

ـ لم تتغيّري، أمّا أنا...

هتفت:

ـ أنت!

ـ أجل!

ـ أيّ مفاجأة!...

ـ لا تعجبي فأنتِ العجب.

ولاذت بالصمت دقائق ثمّ سألته:

ـ أين كنت طيلة ذٰلك الدهر؟

ـ الحقّ أنّي لا أدري.

ـ غير معقول.

ـ هو غير معقول حقًّا ولكنّه واقع.

ـ كنت في مكان ما ولم تعنّ بالاتّصال بي.

ـ كنت في مكان ما واستحال عليّ الاتّصال بأحد.

ـ أين كنت؟

ـ في الظلام.

ـ لا أفهم.

ـ وليس عندي ما أقوله أكثر من ذٰلك، دعينا ممّا مضى وانقضى...

ـ إنّك لا تدري مدى تلهّفي على معرفة ذٰلك.

ـ وأنا عاجز عن إشباعه!

وتبادلا نظرة كئيبة حتّى قال:

ـ وطلبتِ أنتِ الطلاق.

ـ اضطررت إلى ذٰلك.

ـ وتزوّجت مرّة بعد مرّة...

فلاذت بالصمت، فقال:

ـ لكِ كمال مروّع لا يحتمل...

فقالت بتبرّم:

ـ دعنا من سيرته.

فتنهّد قائلًا:

ـ لذٰلك لا أجد فائدة في منح القرض!

ـ ولكنّك وعدته!

ـ لن يغيّر من المصير المقرّر.

فسكتت متجهّمة فقال:

ـ لا أشكّ لحظة واحدة في أنّك تؤمنين بقولي كلّ الإيمان.

فقالت بحزن:

ـ لن أنعم بالاستقرار فيما يبدو!

ـ لذٰلك أقترح عليك أن تعودي إليّ فعلى الأقلّ ستجدين عندي ثروة لا تنفد!

ـ غير ممكن، أنت تؤمن بذٰلك أيضًا.

ـ وقد تحدث معجزة!

ـ معجزة؟!

ـ إنّي أنتظر طبيبًا يُعَدّ في هٰذه الشئون معجزة!

فلاحت في وجهها خيبة واضحة فقال:

ـ لا توصدي باب الأمل وانتظري...

وطبع على يدها قبلة حارّة وهو يودّعها.

***

«٧»

وجاء الطبيب في ميعاده. جاء يحمل حقيبة وعصا

غليظة. رحّب به بحرارة ولكنّ شيئًا في منظره جذب انتباهه فجعل ينظر إليه بدهشة حتّى سأله:

ـ مالك تنظر إليّ هٰكذا؟

ـ الحقّ أنّي أعجب للشبه العجيب بيننا!

ـ حقًّا؟

تساءل الطبيب وهو ينظر في وجهه بإمعان فقال مستدركًا:

ـ أعني أيّام شبابي...

فابتسم الطبيب فقال الرجل:

ـ نفس الصورة والقوّة!

ـ كلّ شيء محتمل.

ـ أكاد أرى فيك نفسي الذاهبة.

ـ سييسّر ذٰلك من مهمّة العلاج.

ـ يسعدني ذٰلك.

وجال الطبيب بعينيه في أنحاء البهو الفخم الجميل ثمّ قال:

ـ حدّثني عن دائك.

ـ لحظة واحدة حتّى أفيق من الدهشة.

وتريّث قليلًا ثمّ قال:

ـ سمعت عن براعتك الكثير فهل حقًّا تستطيع أن تعيد الشباب؟

ـ ذاك أيسر عليّ من التنفّس.

ـ يا للسعادة!

ـ ولكن لِمَ ترغب في استرداد شبابك؟

ـ يا له من سؤال يا دكتور!

ـ يهمّني أن أعرف جوابك.

ـ ولكنّ الرغبة في الشباب لا تحتاج إلى تبرير.

ـ أليس لحكمة الكهولة عشّاقها؟

ـ لا أظنّ.

ـ خبّرني على الأقلّ ماذا فعلت بشبابك؟

ـ ولكن الا يعدّ ذٰلك خروجًا عن الموضوع؟

ـ بل هو في صميمه.

ـ حسن، استثمرته في كافّة وجوهه.

ـ أبدًا، بدّدت شطره الأكبر في الظلام.

ـ أعرفت ذٰلك؟

ـ أجل.

ـ كيف عرفته؟

ـ هو بعض عملي.

ـ طبيب أنت أم قارئ غيب؟

ـ هما شيء واحد.

ـ على أيّ حال لم أكن مخيّرًا.

ـ ومن قال إنّه غير مخيّر فقد أهدر شبابه.

ـ كانت قوّة مجهولة لم أعرف كنهها حتّى اليوم.

ـ أيّ جهد بذلت لتعرفها؟

ـ قلت إنّ البعد عنها غنيمة وسلام.

ـ وهٰكذا أهدرت شبابك للمرّة الثانية.

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قال الطبيب:

ـ أصابك ما أصابك نتيجة لعجز محقّق.

ـ عجز؟!

ـ أجل، في العمل والحبّ.

ـ أعرفت ذٰلك أيضًا؟! إنّك مذهل حقًّا.

ـ قلت إنّه بعض عملي.

ـ أشهد بأنّك عرفت حبّي وعملي وضياعي.

ـ وأكثر من ذٰلك.

ـ أكثر من ذٰلك؟

ـ أعرف أنّك دجّال لصّ!

تراجع الرجل منذعرًا فقال الطبيب ضاحكًا:

ـ تاجرت بالخطايا، وحوّلت ثروتك الهائلة إلى تحف نادرة كما أرى.

اصفرّ وجه الرجل وارتعشت أطرافه فقال الطبيب:

ـ لا تخف، أنا طبيب لا شرطيّ.

ـ سيّدي.

ـ أتندم؟

ـ ماذا تروم من وراء معرفتك اللانهائيّة؟

ـ أروم الشفاء لمرضاي.

ـ أما زلتَ تنوي علاجي؟

ـ بل بدأته منذ رأيتك.

ـ أتردّ إليّ شبابي؟

ـ بلا أدنى شكّ.

ـ وتصون الأسرار التي عرفتها؟

ـ إنّه واجب الطبيب الأوّل.

فقال بابتهاج:

ـ لستَ مرعبًا كما يتبادر إلى الذهن.
ـ سيعود إليك شبابك الحقّ.
ـ متى... متى يا دكتور؟
ـ قبل أن أغادر بيتك!
ـ إنّك لساحر.
ـ ولٰكنّك ساحر أيضًا؟
ـ أنا؟!
ـ استعضت عن الحبّ بالثروة ثمّ حوّلت الثروة إلى طعام وشراب وتحف.
ـ هي الرغبة في النسيان.
ـ ولٰكنّك كنت تخاف النسيان بقدر ما تتمنّاه.
ـ ربّما!
ـ حسن، سيعود إليك الشباب.
وقبض على عصاه بشدّة وهو يقول:
ـ آخر خطوات العلاج هي أصعبها.
وبسرعة جنونيّة راح يهوي بعصاه على كلّ ثمين في البهو. لم يُبقِ على شيء من التحف والصور والمصابيح والثريّات والحليّ. ولم تكفّ يده عن توجيه الضربات حتّى أصبحت الجواهر أكوامًا من الشظايا. وانـزوى الرجل في أثناء ذٰلك في أحد الأركان وهو يرتعد رعبًا ويصرخ بصوت مبحوح. وتنهّد الطبيب في ارتياح وقال بهدوء:
ـ عمليّة من أشقّ ما صادفني في حياتي الطبّيّة.
فصاح الرجل:
ـ أنت مجنون.
ـ أصدق التهاني.
فصاح الرجل:
ـ خربتني، الله يخرب بيتك.
ـ أكرّر التهنئة.
ـ أنت مجنون.
ـ يسعدني أن أسمع أسلوب الشباب يجري على لسانك.
وتناول حقيبته ومضى نحو الباب وهو يقول:
ـ عليك الآن أن تصون شبابك بعد أن رجع إليك بمعجـزة وأن تنفقه فيـما يليق بروعتـه، وإذا حـدثـت مضاعفات غير متوقّعة فتلفن إليّ من فورك.

«٨»

رقد ذاهلًا بين الخرائب. ضاعت الحبيبة وهلك ما يمكن أن يتسـلّى به عنهـا. لم يبقَ إلّا الفقـر والتشرّد والهيمان المحروم. كان يفكّر في ذٰلك عندما تناهى إليه صوت أجشّ وهو ينادي «روبابيكيا». نهض متثاقـلًا فناداه من النافذة. جاء الرجل فنظر في أنحاء البهـو بدهشة ثمّ نظر إلى صاحبها متسائلًا ولٰكنّ هٰذا قال له متجاهلًا تساؤله الصامت:
ـ افحص هٰذه البقايا واختر ما يصلح لك منها.
ـ أوقع زلزال في مسكنك؟
فقال واجمًا:
ـ اختر ما يصلح لك.
ـ الشظايا لن تنفعني بطبيعة الحال ولٰكنّي آخذ ما يمكن إصلاحه أو تهيئته بطريقة ما.
ـ ليكن.
وانكبّ التاجر عـلى بقايـا التحف المتناثـرة يأخـذ واحـدة من بين كـلّ عشرين وسرعان مـا كفّ وهـو يقول:
ـ لم يبق شيء ذو قيمة.
ـ منذ لحظات كان كلّ شيء محتفظًا بقيمته.
فنظر إليه التاجر في ارتياب وسأله:
ـ هل زارك الطبيب؟
فسأله بدوره داهشًا:
ـ من أدراك بذٰلك؟
ـ قصّته أصبحت مشهورة.
ـ وأنا الذي دعوته بنفسي!
ـ هو على أيّ حال لا يزور إلّا من يدعوه بنفسه.
ـ ولا فائدة من الندم!
ـ ولا فائدة من الندم.
ـ لعلّك دُعيت إلى بيوت أخرى خرّبها وذهب؟
ـ يكاد عملي هٰذه الأيّام يقتصر على شراء مخلّفاته.
ـ الحقّ أنّي في مسيس الحاجة إلى نقود.
ـ لن تحصل على شيء يذكر.
ـ افحص من جديد.
ـ لا فائدة، ولٰكن هناك فكرة لا بأس بها.
فتساءل الرجل بلهفة:

- ما هي؟
- توجد تحفة قديمة لم يصبها التدمير.
- أين هي؟
فأشار إليه قائلًا:
- هي أنت!
- أنا؟... أجننت؟
- هي التحفة القديمة الوحيدة التي لم تُمَسّ.
- أتريد أن تشتريني كالأشياء القديمة؟
- خير من الموت جوعًا.
- يا لك من مهذار!
- لا أعرف الهذر في العمل.
- اغرب عن وجهي.
- خير من أن تموت جوعًا.
- سأبدأ من جديد.
- لعلّك تأمل في مساعدة شريكك الغنيّ؟
- أتعرفه أيضًا؟
- حكايتكما ذائعة في سوق الكانتو!
- هلكنا!
- كلّا فإنّ أهل المهنة الواحدة لا يخونون بعضهم بعضًا.
- إذن فلأنتظره.
- ولكنّه قُبض عليه في السوق السوداء.
- يا للكارثة!
- لم يبق لك إلّا أن توافق على رأيي.
- إنّي أحتقر رأيك.
- سأنفّذه أردتَ أم لم تُرِدْ.
- أتركن إلى القوّة اطمئنانًا إلى ضعفي وشيخوختي؟
- إنّي أتعامل عادة مع الأشياء القديمة.
- سأقاومك والويل لك.
- افعل إن استطعت.

وتقدّم منه بثبات فرفعه إلى كتفه كطفل، ومضى به إلى الخارج غير مبالٍ بحركات ساقيه ولا بقبضاته الواهنة المنهالة فوق ظهره.



«٩»

دفع التاجر العربة والرجل راقد فيها بين الأشياء القديمة وكان يصيح بصوته الأجشّ بين آونة وأخرى «روبابيكيا». وبلغ طريق النيل لدى هبوط المغيب، وبدا الرجل مستسلمًا ولكنّ عينيه تحوّلتا تلقائيًّا نحو كورنيش النيل. وخطف بصره شيء يلمع. أحدّ بصره فرأى اللؤلؤة تتراقص فوق صدر المرأة الفاتنة. كانت تسير على مهل كأنّما تبحث عن رجل جديد. ودبّت فيه حيويّة من لا شيء فانتظر اقترابها على لهف. ولكنّها حاذته ومرّت به دون أن تلتفت نحو العربة. مضت في الاتّجاه المضادّ تضيء لؤلؤتها قتامة المغيب.

الرّجل الذي فقد ذاكرته مرّتين

«١»

لم يبق في الحديقة الصغيرة أحد سواه. ذهب الذين تناولوا عشاءهم سواء في الحديقة أم في البهو الصغير المتّصل بها من الداخل. أكثرهم صعدوا إلى حجراتهم في الفندق وقلّة مضت في الطريق الذي يشقّ الخلاء. انتظر النادل أن يذهب هو أيضًا ليخلي الحديقة من الكراسي والموائد ولكنّه لم يذهب. ولم يبد استعدادًا للذهاب. جلس وحده يستقبل الهواء الجافّ المنعش الهابط من سفح الجبل فيما وراء الخلاء. ولم يجد النادل بدًّا من نقل الموائد والكراسي إلى الداخل عدا مائدته وكرسيّه ثمّ حام حوله كأنّما ليذكّره بأنّه آن له أن ينصرف. وتجرّأ أكثر فوقف أمامه وهو يسأل:

- هل من خدمة؟

فسأله بدوره:

- أتوجد في الفندق حجرة خالية؟
- أعتقد ذلك، تفضّل بمقابلة صاحب الفندق.
- تلك الفتاة في نهاية البهو؟
- كلّا، إنّه في الداخل فيما يلي البهو.
- ومن تكون الفتاة إذن؟
- مديرة المطعم وابنة المدير.
- شكرًا.

ولمّا لم يزايل مكانه قال النادل:

- هلّا تفضّلت بالذهاب لأتمكّن من نقل المائدة؟
- معذرة، يلزمني بعض الوقت لأستعيد نشاطي من تعب طارئ.

ذهب النادل فلبث وحده كما كان. ونظر نحو الفتاة كما فعل مرارًا وهو يتناول عشاءه. وبادلته النظر أيضًا. وقال لنفسه:

- ليتها كانت هي صاحبة الفندق.

ثمّ بنبرة منتشية:

- ما أجمل أن يحوز الإنسان فتاة حسناء مثلها.

ومضى الوقت وهو لا يريد أن يتحرّك. وإذا بصاحب الفندق يمضي نحوه على حين وقفت كريمته في نهاية الممرّ الموصل بين البهو والحديقة رغبة في إشباع حبّ استطلاعها. وقال صاحب الفندق للفتى:

- نحن في خدمتك.

فقال الشابّ بارتباك:

- شكرًا.
- أخبرني النادل أنّك تريد حجرة خالية.
- أجل أريد حجرة للمبيت.
- تفضّل بالدخول للقيام بإجراءات الحجز.
- إن أردت الحقّ...
- أفندم؟
- لا أدري في الواقع ماذا أقول!
- ولكن لديك بلا شكّ ما تقوله.
- لا أدري كيف أقول.

اقتربت الفتاة أكثر حتّى وقفت جنب أبيها وقال الرجل:

- ولكن لا مفرّ من الكلام!
- أمهلني قليلًا...
- لعلّه ليس معك نقود؟
- معي من النقود ما يكفي وزيادة.
- إذن فما المشكلة؟
- مشكلتي أنّني مرهق جدًّا...
- ولكنّك تبدو في صحّة جيّدة...
- الحقّ أنّني لا أعرف من أنا!!

ـ ماذا قلت؟

ـ لا أعرف من أنا.

ـ أأنت مالك لقواك العقليّة؟

ـ أعتقد ذُلك.

وسألته الفتاة:

ـ كيف لا تعرف من أنت؟

ـ لا أعرف لي أصلًا ولا هويّة ولا اسمًا...

فسأله الأب:

ـ كيف تواجدت في حديقة فندقنا؟

ـ وجدت نفسي في الخلاء، الجبل ورائي، ومبنى وحيد أمامي هو الفندق، ولم أجرؤ على التوغّل في المدينة فتسلّلت إلى حديقة الفندق...

ـ أليس معك بطاقة شخصيّة؟

ـ كلّا، لعلّي سُرقت...

ـ ولٰكن معك نقود كما تقول؟

ـ وجدتها ملفوفة في حزام حول بطني...

ـ أليست نقودك؟

ـ هٰذا ما استنتجته...

تبادلوا النظرات في صمت حتّى قال الأب:

ـ ستتذكّر أشياء بلا ريب، لا بدّ أنّك تذكر من أين أتيت؟

ـ لا أدري.

ـ أين كنت ذاهبًا؟

ـ لا أدري.

ـ أسرتك؟

ـ لا أدري.

ـ عملك؟

ـ لا أدري.

وسألته الفتاة:

ـ ألك زوجة؟

ـ لا أدري!

فتفكّر الرجل مليًّا ثمّ سأله:

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ لا فكرة لي بعد.

فتفكّر الرجل مرّة أخرى ثمّ قال:

ـ لا شكّ أنّك ستجدّ في البحث عن أصلك وفصلك...

ـ هٰذا هو المعقول.

ـ كأن تنشر صورتك في الجرائد؟

ـ تفكير صائب.

ـ وهو ما سيفعله المهتمّون بأمرك...

ـ أعتقد ذُلك.

ـ هي مشكلة نادرة حقًّا ولٰكنّها سرعان ما تُحَلّ بنهاية سعيدة.

ـ أرجو ذُلك.

وسألته الفتاة برقّة:

ـ ترى بِمَ تشعر؟

ـ بأنّني لا شيء، ينحدر من لا شيء، ماضٍ إلى لا شيء.

وتبادلوا النظرات مرّة أخرى ثمّ قال الشابّ:

ـ سأذهب أوّل ما أذهب إلى الطبيب.

ـ عين الصواب.

ـ ولٰكن يلزمني مأوى مع إعفائي من الإجراءات المتّبعة.

فقال الأب:

ـ إنّها مغامرة قد تدفع بي إلى س و ج.

ـ وقد تمرّ بسلام.

ـ الله المستعان.

ـ سأذكر لك صنيعتك ما حييت.

وأرسله إلى حجرة مع الفرّاش ووقف مع ابنته يتابعانه في سيره في ذهول صامت. وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قال الأب:

ـ عجيبة تلك الحال لدرجة تعزّ على التصديق.

فتمتمت الفتاة:

ـ ولٰكنّه صادق في مرضه.

ـ وهٰذا هو العجب.

ـ أجل...

ـ ترى هل أخطأت في قراري؟

فقالت بهدوء:

ـ إنّك لا تخطئ أبدًا...

***

«٢»

كانت شرفة الفيلا ـ فوق الجبل ـ تسبح في ظلام دامس. وكان يوجد بها رجلان. بدا الرجلان شبحين جلس أحدهما فوق كرسيّ هزّاز ومثل الآخر بين يديه. وسأل الجالس:

ـ ماذا وراءك؟

فقال الآخر:

ـ ساقته قدماه إلى الفندق!

ـ لا أعجب لذلك.

ـ وهو على حال من العدم.

ـ لا جديد في ذلك.

ـ بل حال جديد تمامًا.

ـ حقًّا؟

ـ بالدقّة نطقت.

ـ كن يقظًا وسجّل كلّ شيء.

ـ سمعًا وطاعة.

***

«٣»

تفرّق النزلاء بعد العشاء فلم يبق في الإدارة سوى الأب والفتاة والشابّ. وكان القلق بارزًا في قسمات الشابّ فقال له الأب بنبرة رثاء:

ـ لم تستقرّ بعد.

فقال الشابّ:

ـ نشرت صورتي في الصحف ولم يسعَ ورائي أحد!

ـ ثمّة شيء طيّب هو أنّ الشرطة لم تسعَ وراءك كذلك!

ـ وأكاد أجزم بأنّني لن أصبر على أسلوب العلاج.

ـ طويل ومعقّد؟

ـ وكثير التكاليف.

وبعد صمت قصير عاد يقول:

ـ وبتّ أشعر بأنّني حمل ثقيل عليك.

ـ كلّا.

ـ حقًّا؟

ـ أصبحنا فيما أعتقد أصدقاء.

ـ الحقّ أنّكم كلّ شيء لي في هذه الدنيا.

ـ ولم أعد أخشى مسئوليّة من إيوائك.

وقالت الفتاة:

ـ وستعرف نفسك عاجلًا أو آجلًا.

فقال بشيء من الحياء:

ـ يخيّل إليّ أنّني لن أكتشف شيئًا ذا قيمة.

ـ إنّك رشيد ولا حاجة بك إلى أحد.

ـ ولكن هل أمضي وقتي كلّه في الانتظار؟

فقال الأب:

ـ يحسن بك أن تفكّر في الحاضر والمستقبل.

ـ قبل أن تنفد النقود؟

ـ أجل. . .

ـ فعليّ إذن أن أجد لنفسي عملًا.

ـ ماذا تحسن من الأعمال؟

ـ أجرّب.

فتفكّر الأب مليًّا وقال:

ـ عندي فكرة.

فنظر الشابّ إليه مستطلعًا فقال:

ـ الفندق يحتاج إلى تجديدات. . .

ـ ماذا تعني يا سيّدي؟

ـ أقترح أن تشترك فيه بمالك وأن تعاون في أعمال الحسابات.

ـ فكرة طيّبة.

ـ لنبدأ إذن.

ـ ولكن أخشى أن نكتشف أنّ المال هو مال للغير.

ـ مضى وقت منذ إعلانك عن نفسك وهو يكفي لإبراء ذمّتك.

فالتفت الشابّ نحو الفتاة وسألها:

ـ ما رأيك؟

ـ أوافق أبي على رأيه.

ـ عظيم.

فقال الأب:

ـ اتّفقنا. . .

ـ آن لي أن أصارحك برغبة تضطرم في نفسي.

ـ إنّي مصغٍ إليك.

فقال بعد صمت قليل:

ـ أودّ أن أطلب منك يد كريمتك.

- لا تتعجّل الأمور.
- انتظرت من الشهور ما فيه الكفاية.
- ربّما كنتَ متزوّجًا.
- لم يسعَ إليّ أحد.
- لقد تبادلنا الرأي على أوسع نطاق وأنا مضطرّ الآن إلى الذهاب إلى مشوار عاجل.

قال الرجل ذٰلك وذهب. وقف الشابّ والفتاة يتبادلان النظر. سألها:

- أأنت متردّدة مثل أبيك؟

فقالت بهدوء عذب:

- أنت تعرف رأيي تمامًا.
- أترغبين أن أنتظر حتّى يتكشّف لي الماضي؟
- لا يهمّني أن تهتدي إلى ماضيك أو أن يهتدي ماضيك إليك...
- أنا سعيد ولٰكنّ القلق يطاردني.
- وتحبّني أليس كذٰلك؟
- لا يربطني بهٰذا المكان إلّا حبّك.
- حسبنا ذٰلك.
- سأعمل وأتزوّج ولٰكنّ والدك متردّد...
- كلّا، إنّي أعرف والدي تمامًا.
- يخيّل إليّ أنّي نلت ثقته...
- أنت أهل للثقة.
- لندعُ الله أن يهبَ لنا السعادة.
- لندعه من صميم قلوبنا.

***

«٤»

وفي شرفة الفيلّا - فوق الجبل - جرى الحديث في ظلام دامس. سأله الشبح الجالس فوق الكرسيّ الهزّاز:

- ما وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه:

- آواه صاحب الفندق.
- رجل طيّب وداهية ماكر.
- وعمل كلّ ما يمكن عمله للاهتداء إلى هويّته.
- ولِمَ لَمْ ينظر الفتى في نفسه مباشرة؟
- إنّهم يفضّلون الوسائل غير المباشرة.
- وثار فضول الناس؟
- لم يعد يثير فضولهم شيء.
- حسن.
- وظلّ مجهولًا كاللغز.
- تعني في نظر نفسه؟
- طبعًا...
- وكيف مضت القصّة؟
- ظهر الحبّ.
- من جديد؟
- أجل، وفي الوقت نفسه تطلّع الأب إلى نقوده!
- يعزّ على اللصّ أن يُسرق!
- إنّه من رجال الأعمال يا سيّدي.
- وهل يوجد فرق هناك بين اللصّ ورجل الأعمال؟
- إنّهم هناك يفرّقون بينهما.
- وبعد؟
- اشترك الفتى بماله في الفندق وتزوّج من الفتاة...
- طريفة جدًّا هٰذه اللعبة.
- الحبّ والعمل يبتسمان.
- والحبّ عند المجهول من ذاته؟
- لا يكاد يخطر له على بال إلّا إذا انفرد بنفسه...
- وهل ينفرد بنفسه كثيرًا؟
- زوجته لا تحبّ ذٰلك.
- ماكرة مثل أبيها.
- الحقّ أنّها تحبّه وتحبّ الفندق.
- الأمور تتعقّد والأمل يتضاءل.
- ولٰكنّه موجود.
- كن يقظًا وسجّل كلّ شيء.
- سمعًا وطاعة.

***

«٥»

اجتمعت الأسرة حول مائدة في الحديقة الصغيرة، الأب والزوج والزوجة. تلقّت وجوههم ظلال المغيب وقد غيّرها على تفاوتٍ تقدّمُ الزمن. وكان الأب يقول:

ـ لن أشهد الصيف القادم، هٰذا ما أشعر به.

فقالت الزوجة:

ـ ربّنا يطوّل عمرك يا أبي.

وقال الزوج:

ـ ستتحسّن صحّتك.

فقال العجوز:

ـ السعيد مَن يذهب في هٰذا الزمن.

فقالت الزوجة:

ـ ليست الأحوال بذاك القدر من السوء.

فتساءل الزوج:

ـ أيمكن أن يوجد ما هو أسوأ؟

فقالت الزوجة محتجّة:

ـ يوجد دائمًا ما هو أسوأ.

فقال الزوج متهكّمًا:

ـ ما أجمل حكمتك!

وقال الأب:

ـ كانت الحياة على أيّامنا أبسط وأهنأ.

فقال الزوج:

ـ ثمّة شكوى دائمًا من الحاضر وحسرة على الماضي ولكنّ الماضي كان حاضرًا يومًا ما...

فقالت الزوجة:

ـ لا نكاد ننعم بلقاء، نحن نركض كأنّ سياطًا تلهب ظهورنا...

فقال الزوج:

ـ الويل لمن يستسلم لساعة من الراحة.

ـ إنّي أعمل معك بقوّة عشرة رجال.

ـ وأنا أعمل بقوّة عشرات من الخيل.

فقال الأب:

ـ كان العمل أمتع والثمرة أشهى!

فقال الزوج:

ـ نحن نحمل فوق أكتافنا سبعة من الأبناء...

ـ حملنا أكثر وسعدنا بهم...

ـ ألا تدري ماذا يعني ابن واحد في هٰذه الأيّام؟

فقالت الزوجة:

ـ هٰكذا حال الناس جميعًا...

ـ كلّنا في الهمّ شخص واحد.

فقال الأب:

ـ كم حسدَنا الناسُ من أجل هٰذا الفندق!

فقال الزوج:

ـ اليوم هم ينظرون لنا برثاء.

وقالت الزوجة وهي تتنهّد:

ـ امتلأ طريق الخلاء بالفنادق...

ـ وكلّها قامت على طراز حديث.

فسأله الأب:

ـ أليس لديك احتياطيّ كافٍ لتجديد الفندق؟

ـ لم يعد التجديد بالحلّ الناجع!

ـ فما الحلّ إذن؟

ـ أن يُهدم ويُبنى من جديد!

ـ ومن أين لك المال اللازم لذلك؟

ـ لا خيار لنا وإلّا تحوّل الفندق على أيدينا إلى وكالة.

ـ فيم تفكّر؟

ـ في الاقتراض إن أمكن.

فقالت الزوجة:

ـ لا تكن متشائمًا.

ـ لا وقت عندي للتشاؤم.

ـ إنّك تنسى أشياء هامّة.

ـ حقًّا؟

فقال الأب:

ـ ينقصكم شيء هامّ كان متوفّرًا لدينا.

ـ ما هو يا سيّدي؟

ـ الإيمان.

ـ حتّى هٰذا لا ينقصنا.

ـ لا وقت لديك للإيمان، أتدري ماذا فعل الإيمان لنا؟

ـ ماذا فعل؟

ـ عثر جدّي الفقير ذات يوم في صحن داره على كنز مدفون!

ـ كنز مدفون؟

ـ كان يدعو الله أن يرزقه فرزقه، وشيّد بمال الكنز أوّل فندق في هٰذه البقعة...

ـ كان عليه أن يبحث عن صاحبه فيسلّمه له!

ـ كان الكنز هديّة من الله إليه.

ـ القانون اليوم يعتبر قبول مثل هٰذه الهديّة نوعًا من النهب!

ـ اللعنة! إنّكم تمارسون النهب بألف وسيلة ووسيلة...

ـ معذرة يا سيّدي، أتريدني على أن أسأل الله الرزق حتّى أعثر على كنز مدفون؟

ـ ولن تعثر عليه مهما فعلت.

ـ حقًّا!

ـ لأنّ الإيمان لا يُفتعل.

فنظر الزوج إلى زوجته وسألها:

ـ هٰذا ما تعقدين به الأمل؟

فأجابت ببرود:

ـ ذاك مجد لم نعد له أهلًا.

ـ حسن.

ـ ولٰكنّا نملك ثروة أخرى.

ـ حقًّا؟

ـ أبناءنا!

ـ إنّهم الهمّ الذي قصم ظهري.

ـ ولٰكنّهم غدًا سيسعون إلى أصحاب الفنادق الجديدة بأسباب للنسب والعمل!

ـ يا له من خيال...

ـ سيستجدّ حقيقة صلبة!

ـ يا له من خيال طموح!

ـ بل علينا أن نيسّر لهم سبيل العلم في أعلى درجاته.

ـ أخشى أن نموت في أثناء ذٰلك جوعًا.

ـ إنّه سباق مرير ولٰكنّ الفوز فيه للصابرين.

فقال الأب:

ـ ينقصكما الإيمان.

فقال الزوج:

ـ لا مجال اليوم للحلم بالكنوز المدفونة.

ـ لن أشهد الصيف القادم، هٰذا ما أشعر به.

وقام بصعوبة، ثمّ مضى إلى الداخل وهو يقول:

ـ السعيد حقًّا مَن يرحل عن هٰذه الدنيا.

وما لبثت الزوجة أن ذهبت أيضًا ولٰكنّها رجعت بعد دقائق بزجاجة بيرة مثلّجة وقدحين. ملأتهما والظلام يتجسّد متمتمة:

ـ أنعشْ فؤادك.

ولٰكنّه قال:

ـ لن يكفيني الاحتياطيّ كلّه لبناء دور واحد جديد.

ـ أنعشْ فؤادك، ألا تسمعني؟

ـ وماذا يعني دور جديد واحد في فندق قديم؟

ـ أنعشْ فؤادك، ألا تسمعني؟

ـ والأساس القديم لن يحتمل مزيدًا من الأدوار.

ـ ألا تريد أن تنعش فؤادك؟

ـ أرى الفنادق الجديدة فتقتلني الحسرة.

ـ يلزمك قدر من الاسترخاء فأنعشْ فؤادك.

ـ كيف تقدّمهم الحظّ وتخلّف عنّا؟

ـ لا تريد أن تصغي إليّ!

ـ إمّا فندق جديد وإمّا الجوع.

ـ لدينا الإرادة ولدينا الأبناء.

ـ أنت تحلمين مثل أبيك.

ـ لدينا كنوز غير مدفونة...

وأرادت أن تداعب يده ولٰكنّه نهض قائمًا وهو يقول:

ـ آن لي أن أذهب لمقابلة الرجل.

وذهب.

«٦»

لبثت الزوجة وحيدة حتّى رأت رجلًا قادمًا من باب الحديقة. انحنى لها بأدب قائلًا:

ـ مساء الخير يا سيّدتي.

ـ مساء الخير.

ـ اسمحي لي أن أقدّم لك نفسي أنا صاحب الفندق الكبير.

ـ أهلًا وسهلًا، تفضّل بالجلوس...

جلس الرجل وهو يرمق بعينيه القدحين المترعين ثمّ تساءل:

ـ هل ينضمّ إلينا أحد؟

ـ كلّا، كان زوجي هنا ثمّ ذهب...

ـ ذهب لمقابلة صاحب فندق النور.

ـ كيف علمت بذلك؟

ـ نحن نعرف ما يهمّنا يا سيّدتي.

ـ همّة مشكورة!

ـ لعلّه نسي أن يشرب قدحه؟

ـ ما أهمّيّة ذلك؟

ـ رجال الأعمال ينسون كثيرًا من الشئون السارّة!

ـ أنت أدرى بذلك...

ـ ولكنّ الناجحين منهم لا يهملون شيئًا!

فقالت بشيء من الانفعال:

ـ نحن أيضًا من الناجحين...

ـ يسرّني أن أسمع ذلك.

ـ ولكن لِمَ شرّفتنا بزيارتك ما دمت تعلم أنّ زوجي غائب؟

ـ لأقابلك أنت يا سيّدتي.

ـ ولِمَ يا سيّدي؟

ـ الحقّ أنّي أؤمن بتفوّق حكمة النساء.

ـ إن كنت تقصد المقارنة بيني وبين زوجي فإنّي أرفض ثناءك...

ـ لم أحضر لأثير خلافًا...

ثمّ نظر إلى قدح البيرة وتساءل:

ـ أتسمحين لي بأن أحلّ محلّ زوجك.

ـ لا يروقني تعبيرك!

ـ معذرة، جميع رجال الحيّ يعجبون بك.

ـ أجئت يا سيّدي لتعرب لي عن إعجابك؟

ـ جئت يا سيّدتي لأشتري الفندق.

ـ فندقنا؟

ـ إنّه الفندق القديم الوحيد في المكان كلّه.

ـ يا له من اقتراح لم أتوقّعه أبدًا.

ـ زوجك يسعى إلى عقد قرض ولن يوفّق في مسعاه.

ـ لِمَ؟

ـ لأنّ أحدًا لا يريد أن يخلق منه منافسًا له خطره.

ـ لا أحبّ أن أناقش هذا الموضوع في غيابه.

ـ البيع أفضل، إنّي أخاطب حكمتك.

ـ لا أرى رأيك.

ـ إنّه فندق قديم غير قابل للسكنى، ولا فائدة ترجى من تجديده، أمّا ثمنه فيصلح للاستثمار.

ـ إنّه حياتنا ومستقبلنا.

ـ ممكن التفاهم على إيجاد عمل لك ولزوجك في الفندق الجديد.

ـ لا تتكلّم كما لو كان الاتّفاق قد تمّ.

ـ إنّي أخاطب رأس الحكمة.

ـ الفندق الجديد سيقام بأيدينا وأموالنا.

ـ لا مال لكم، وأبناؤكم ما زالوا يتلقّون العلم.

ـ دعنا وشأننا يا سيّدي.

ـ توجد مصالح مشتركة.

ـ لا أظنّ.

ـ كأنّني أخاطب زوجك العنيد.

ـ نحن شخص واحد يا سيّدي.

ـ يحسن بي أن أعترف لك بما في نفسي.

ـ ترى ماذا في نفسك؟

ـ لا أهمّيّة في الواقع للفندق.

ـ ولكنّه رغم قدمه ذو موقع ممتاز.

ـ يهمّني أكثر أن أنشئ علاقة مودّة إنسانيّة.

ـ حقًّا؟!

ـ صدّقيني، المال لا ينقصني...

ـ حقًّا؟!

ـ ما أنا في حاجة إليه حقًّا هو الحبّ!

ـ انتظر رجوع زوجي لتطارحه الغرام.

ـ ولكنّي أؤمن بالمرأة...

ـ لا أشاركك رأيك يا سيّدي.

ـ على أيّ حال قد فهم كلانا صاحبه، ولدينا من الوقت ما يكفي للتفكير واتّخاذ القرارات.

وقف الرجل باسمًا. شرب قدح البيرة حتّى الثمالة. وأحنى رأسه ثمّ ذهب.

***

«٧»

جرى الحديث في الظلام الذي يلفّ شرفة الفيلّا فوق الجبل. سأل الشبح الجالس فوق الكرسيّ الهزّاز:

ـ ماذا وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه:

ـ تعقّدت الأمور.

ـ ماذا يفعل صاحبنا؟

ـ يعمل بجنون، يحارب في ألف ميدان.

ـ وامرأته؟

ـ تشاركه في كلّ خطوة.

ـ والآخرون؟

ـ يعملون للاستيلاء على فندقه وامرأته.

ـ أتعلم هي بنواياهم؟

ـ بكلّ وضوح، وبكلّ قوّة ترفضها.

ـ وهل يعلم الزوج؟

ـ بذكائه عَلِمَ، وبصراحة زوجته.

ـ ولِمَ أخبرته؟

ـ لتؤكّد له طهرها ولتحيي حبّها في قلبه.

ـ ألم يعد يحبّها؟

ـ لا وقت عنده للحبّ.

ـ ألم يعد للتفكير في ماضيه المجهول؟

ـ لا وقت عنده لذٰلك، غير أنّه قال لزوجته مرّة إنّه ربّما لو عادت إليه ذاكرته لوجد نفسه ابنًا لمليونير! ولٰكنّها سخرت منه قائلة إنّه يحلم بالكنز مثل أبيها!

ـ متى ـ في تقديرك ـ يرجع للتفكير في أصله؟

ـ أيّ أصل تقصد يا سيّدي؟

ـ يا لك من أحمق!

ـ حسن يا سيّدي، إنّ ذٰلك يتوقّف على نجاحه في مهمّته.

ـ لا نهاية لشيء هناك.

فأمسك الرجل عن التفوّه بكلمة حتّى قال الجالس:

ـ كن يقظًا وسجّل كلّ شيء.

ـ سمعًا وطاعة يا سيّدي..

***

«٨»

في الحديقة الصغيرة جلس الزوجان وقد تقدّم بهما العمر على حين وقف أمامهما شابّ مفعمًا حياة وقلقًا. وكان الشابّ يقول:

ـ انزعجت جدًّا لدى قراءة رسالتك...

فقالت الزوجة:

ـ قدّرت ذٰلك يا بنيّ...

ـ أخذت أوّل طائرة...

فقال الزوج:

ـ كان عليّ أن أستطلع رأيك...

وقالت الزوجة:

ـ رغم علمنا بأنّك عاكف على تحضير رسالتك.

فسأل الشابّ:

ـ هل الأمر سيّئ لهٰذا الحدّ يا أبي؟

ـ هو ذٰلك يا بنيّ...

وقالت الزوجة بنبرة باكية:

ـ كان الجوع ضمن الأسباب التي أدّت بأختك إلى الوفاة...

ـ ولٰكنّ الفندق لا يخلو من زبائن.

فقال الزوج:

ـ اضطررنا إلى تخفيض إيجار الحجرة، لا يفي الربح بالضرورات، الأمور من سيّئ إلى أسوأ...

ـ والاحتياطيّ يا أبي؟

ـ استُهلك في سدّ نفقات المعيشة.

وتبادل الزوجان نظرة سريعة غير أنّ الزوج خاطب ابنه قائلًا:

ـ في غمار ذٰلك النزاع الأليم فقدنا أخويك العزيزين...

فهتف الشابّ:

ـ شدّ ما حزنت عليهما...

ـ الكلاب يضيّقون علينا الخناق مستعملين أخسّ الوسائل وأقساها...

وقالت الزوجة بنبرتها الباكية:

ـ وذات يوم عثرنا على جثّة أخيك عند سفح الجبل...

ـ وماذا كشف التحقيق يا أمّاه؟

ـ قُيّدت القضيّة ضدّ مجهول...

وقال الزوج:

ـ وقد مات جدّك حزنًا.

وقالت الزوجة:

ـ وقُتل أخوك الآخر وهو يحاول الانتقام لأخيه.

ـ الويل للقتلة!

فقال الزوج:

ـ هٰكذا نحن محاصرون بالجوع والموت.

وقالت الزوجة:

ـ لذلك فكّر أبوك في بيع الفندق والهجرة إلى مكان آخر.

فهتف الشابّ:

ـ لن يحدث ذٰلك أبدًا.

ـ والحلّ يا بنيّ؟

ـ لا أصدّق أنّكما قرّرتما ذٰلك، لعلّكما تطرحان الفكرة للمناقشة؟

ـ حتّى لو صحّ ذٰلك لما تغيّرت النتيجة.

ـ يلزمنا المزيد من الصبر.

ـ العمر يتقدّم بنا كما ترى.

وقال الزوج:

ـ وعليك أن تعرف كلّ شيء فقد ورّطنا النزاع في أعمال عنف لم تجر لنا على بال.

ـ أعمال عنف؟

ـ أجل يا بنيّ. لم نعد أبرياء في نظر القانون، لا أنا ولا أمّك!

وقالت الزوجة:

ـ قد ينكشف أمرنا في أيّ لحظة.

ـ يا للعنة...

ـ هٰذه هي حياتنا بكلّ مرارتها.

وقال الزوج:

ـ وسيدفعنا الإصرار على البقاء إلى مزيد من الجرائم.

وتساءلت الزوجة:

ـ فما رأيك الآن يا بنيّ؟

نفخ الشابّ، تريّث قليلًا، ثمّ قال:

ـ عليّ أن أكاشفكما بأخطر نبإ في حياتي.

ـ ما هو يا بنيّ؟

ـ إذا صبرنا بضع سنوات فسوف يمكنني إعادة بناء الفندق بلا تكاليف تذكر.

ـ أنت؟!

ـ أجل، وذٰلك هو موضوع رسالتي.

ـ لعلّه أمل، مجرّد أمل؟!

ـ بل أكثر من ذٰلك فقد كشفت عن حقائق مؤكّدة.

ـ وإذا أخطأ تقديرك؟

ـ علينا أن نقبل المغامرة بأيّ ثمن.

فنظرت الزوجة إلى زوجها وقالت:

ـ هٰذا عامل جديد لم يجرِ في تقديرنا.

فقال الزوج:

ـ ولكنّه كالحلم.

فقال الشابّ:

ـ بل إنّه أنجع في إعادة بناء الفندق من أعمال العنف نفسها.

ـ سنضطرّ إلى ارتكاب المزيد منها ونحن ننتظرك.

ـ إذن فعلينا بالصبر وارتكاب المزيد من العنف.

ـ إنّك تذكّرنا بحماس أخويك.

ـ ولكنّي آمل في نهاية أخرى.

فقالت الأمّ:

ـ هٰذا عامل جديد لم يجرِ في تقديرنا.

فقال الأب:

ـ أرى أنّك تميلين إلى رأيه.

ـ لا أنكر ذٰلك.

فقال الشابّ بحماس:

ـ يجب أن أعود غدًا بالطيّارة.

فقالت الأمّ:

ـ سافر بالسلامة...

ـ سأسافر غدًا.

ـ لتصحبك السلامة وليكتب لك التوفيق.

***

«٩»

بقي الزوجان جنبًا إلى جنب وساد الصمت. وجعلت المرأة تختلس النظر إلى الرجل حتّى خرقت الصمت قائلة:

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه.

فهزّ رأسه بالإيجاب دون أن ينبس فعادت المرأة تقول:

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه.

ـ أنت متحمّسة لرسالته التي لا تعرفين عنها شيئًا.

ـ ولكنّي أعرفه وأومن به.

- حسن.
- ولٰكنّك متردّدة فيما يبدو لي.
- خانتك الفراسة.
- لا أحد يعرفك كما أعرفك.
- هٰكذا كلّ زوجين أمينين.
- لا تسخر يا رجل.
- ولٰكنّي جادّ جدًّا.
- أنت متردّد.
- لا عيب في ذٰلك إذا أُخذ بمعنى التفكير.
- وتضمر غير ما تُظهر.
- ماذا تعنين يا امرأة؟
- قلت إنّ الاحتياطيّ استُهلك في سدّ نفقات المعيشة؟
- قلت ذٰلك حقًّا.
- ولٰكنّه لم ينفد بعد!
- لم يبق منه ما ينفع لشيء.
- قد ينفع من يفكّر في الفرار!
- ماذا تعنين؟
- أنت تدرك ما أعني.
- إنّي أفكّر في شيء واحد هو سلامة الأسرة.
- سلامة الأسرة جزء لا يتجزّأ من سلامة الفندق.
- تحت هٰذا الشعار ضحّيت بما ضحّيت.
- وعليك أن تستوصي بالمزيد من الصبر.
- المزيد من الصبر.
- ولٰكنّك تضمر أمرًا آخر!
- أيّ أمر يا امرأة؟
- لعلّه الهرب.
- الهرب؟!
- إنّي أستنتج مستقبلك من مقدّمات ماضيك.
فسأل وهو يضحك:
- هل سبق لي الهرب؟
- نعم.
- جميل أن نضحك في غمرة هٰذا الغبار الدامي.
- من أين لي بالضحك!
- إذن لخير ما نفعله أن نغيّر الموضوع.
فرمته بنظرة قاسية وقالت:
- يبدو أنّه آن لي أن اصارحك.
- بماذا؟
- دفاعًا عن أسرتك، دفاعًا عن نفسك، سأصارحك بما كتمته طيلة السنين.
- ألديك سرّ لم أعرفه؟
- بلى.
- وما هو يا ترى؟
فقالت بهدوء رهيب:
- ماضيك المجهول.
فاشتعل اهتمامًا مباغتًا وتساءل:
- ماضيَّ المجهول؟
- الذي نسيته، أو الذي تصرّ على أن تنساه.
- ماذا تعنين؟
- أنت تجهل ماضيك كما تجهل شخصك الحقيقيّ.
- ذاك تاريخ مشهور.
- ولٰكنّي أعرفه.
- أنتِ؟!
- كما كان أبي يعرفه!
- أأنتِ جادّة؟
- كلّ الجدّ.
- منذ متى؟
- منذ وجدناك في هٰذه الحديقة.
- يا له من عبث.
- بل هو الجدّ كلّ الجدّ.
- أتتوقّعين أن أصدّقك؟
- أقسم لك بروح ابنيّ.
فهتف فيما يشبه الفزع:
- ربّاه!
- أجل.
- انتشليني من هٰذه الغيبوبة.
- سأفعل حتّى لا تقع في الخطإ مرّة أخرى.
- من أنا؟
- أنت زوجي.
- إنّي أسألك من كنت؟
- كنت زوجي أيضًا قبل أن تفقد ذاكرتك.
نظر إليها بذهول فقالت:

ـ كنت قبل ذٰلك ربيب أبي، وجدك غلامًا ضالًّا.

ظلّ ينظر إليها بذهول فقالت:

ـ ولم تكن لك فكرة عن والديك فربّاك وشغّلك في الفندق ثمّ تزوّجنا.

ما لبث ينظر إليها ذاهلًا فقالت:

ـ وذات يوم سرقت الخزانة وهربت مع راقصة.

ـ ماذا تقولين؟

ـ تذكّر، تذكّر، سرقت الخزانة وهربت مع راقصة.

ـ رأسي يدور.

ـ وكنتَ كما تكون اليوم مزيجًا من التمرّد والتمرّد على التمرّد فعذّبتها ـ الراقصة ـ بالقدر الذي أردت أن تعذّب به نفسك.

ـ ربّاه... أيّ عالم هٰذا!

ـ فاضطرّت هي إلى الهرب وسرعان ما فقدت ذاكرتك.

ـ آه...

ـ وراقبك أبي من بعيد ولم يبلغ الشرطة عنك حتّى رأيناك يومًا قادمًا.

ـ آه.

ـ ساقتك قدماك أو ضميرك إلى ضحاياك.

ـ أيّ حلم مفزع!

ـ ماذا حدث بعد ذٰلك فأنت تذكره.

ـ أجل، ولعبتم معي تمثيليّة متقنة!

ـ آثرنا أن ننسى الماضي معك، حتّى ذكّرني تردّدك بحالك قديمًا قبيل الهرب.

أغمض عينيه إعياء فقالت بحزم:

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه.

* * *

«١٠»

في شرفة الڤيلّا ـ فوق الجبل ـ وفي ظلام دامس جلس الشبح فوق الكرسيّ الهزّاز ومثل الآخر بين يديه. وسأل الشبح الجالس:

ـ ماذا وراءك؟

ـ الأسرة تكافح في صبر وعناء وعناد لا يعرف الهوادة.

ـ وما الجديد من أنباء الصراع؟

ـ العنف يتراكم كالجبال.

ـ وكيف حال صاحبنا؟

ـ عرف ـ فيما يعتقد ـ ذاته وتعلّم من ذٰلك درسًا لا يُنسى.

ـ وذاته الأولى ألا يفكّر فيها؟

ـ لا وقت لديه لذٰلك.

ـ أليس ثمّة أمل في يقظة غير متوقّعة؟

ـ لا أستبعد حدوث معجزة إذا تحقّقت آماله في البناء.

فتفكّر الشبح الجالس مليًّا ثمّ قال:

ـ دعه وشأنه.

فقال الشبح الماثل بين يديه:

ـ سمعًا وطاعة يا سيّدي.

عَنْبَرلُولُو

قام الكشك في الوسط من طرف الحديقة الجنوبيّ. كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين. وقف في وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة ما زال يجري في صفحة وجهه بقيّة من حيويّة. جعل ينظر في ساعة يده ويمدّ بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلًا شعاعًا ذهبيًّا من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين. ولاحت الفتاة وهي تتّجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسيّ. أحنت هامتها قليلًا وهي تمرق من مدخل الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين. تصافحا. ثمّ قالت بصوت ناعم وبنبرة اعتذار:

- إنّي خجلة!

فقال الكهل برقّة:

- يسرّني أن ألقاك.

- لا يحقّ لي أن أنهب وقتك...

- لا يُعَدّ ضائعًا وقت نمنحه لعلاقة إنسانيّة.

- شكرًا لطيبة قلبك.

أشار إلى الأريكة داعيًا إيّاها للجلوس فجلست ثمّ جلس وقالت:

- لم تسعفني الجرأة على طلب مقابلتك إلّا لأنّي في مسيس الحاجة إلى رأي حكيم.

- كلّ إنسان عرضة لذلك، غير أنّ من يراك في الإدارة لا يتصوّر أنّك تحملين همًّا!

- دعك من المظاهر!

فهزّ رأسه موافقًا فواصلت:

- وتساءلت طويلًا إلى من يحسن بي أن ألجأ، حتّى هداني التفكير إليك.

- أستغفر الله.

وتريّثت لحظات ثمّ قالت:

- إنّك لا تعرفني إلّا كزميلة في إدارة السكرتاريّة.

- بلى.

- فعليّ أن أقدّم نفسي الحقيقيّة...

- أهلًا بها.

- هي نفس مقضيّ عليها بالسجن المؤبّد في شقاء دائم...

- أرجو أن تتكشّف بعد تبادل الرأي عن مغالاة عاطفيّة...

- بل هي حقيقة واقعيّة...

تجلّى الاهتمام في عينيه وهو يقول:

- إنّي مصغٍ إليك...

فقالت وهي تتنهّد:

- حسبي أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة...

فتجلّى الاهتمام بصورة أوضح.

- إنّي يتيمة الأبوين، لي إخوة ثلاثة صغار، نقيم في بيت زوج المرحومة أمّنا...

- وضع معقّد...

- وأبعد ما يكون عن الراحة...

- لا يمكن إنكار ذلك.

- وهو رجل عنيد متعجرف.

- زوج المرحومة؟

- دون غيره...

- أهو عجوز مثلي؟

- بل أكبر، وهو لا يحبّنا!

ـ هل أنجب لكم إخوة؟
ـ كلّا، إنّه عقيم!
ـ ذٰلك مدعاة لحبّ الأطفال.
ـ ولكنّه شاذّ، وقد أفهمني عقب وفاة والدتي بأنّني المسئولة وحدي عن إخوتي...

وساد الصمت مليًّا حتّى استطردت قائلة:

ـ لعلّه بقراره لم يجاوز العقل!
ـ بلى ولكنّه جاوز الرحمة...
ـ على أيّ حال أنا لا أطمع في رحمته!
ـ مفهوم.
ـ وهو يمنّ علينا بالمأوى وببعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديونًا مؤجّلة...

هزّ الكهل رأسه دون أن ينبس فقالت متنهّدة:

ـ لعلّك تخيّلت الصورة التي أعيش في إطارها، والحقّ أنّي لا أملك النقود اللازمة لملابس فتاة موظّفة...
ـ وشابّة في عزّ شبابها!
ـ هٰكذا تمضي الأيّام في قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أيّ أمل في غد أفضل!

فقال الكهل كالمحتجّ:

ـ لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهٰذه العين.
ـ ولو كانت بالحال التي ذكرت؟
ـ ولو كانت!

ثمّ تساءل وكأنّه يناجي نفسه:

ـ منذا يقطع بما يخبّئه الغد؟!

فرفعت منكبيها زهدًا في مناقشة فكرته وقالت وهي تتنهّد:

ـ وإذا بي أشعر بزحف الزمن، من خلال حياة التقشّف والمرارة أخذ الزمن يطاردني...
ـ ولكنّك ما زلت في مطلع الشباب.
ـ إنّي في الرابعة والعشرين من عمري...
ـ عزّ الشباب!
ـ ولكنّه في مثل حالتي يُعَدّ مرحلة من الشيخوخة...
ـ لا داعي للمبالغة، إنّ وضعك ليس الوحيد من نوعه في بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب.

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

ـ ولكنّي لم أحدّثك بعد عن المشكلة الحقيقيّة!
ـ الحقيقيّة؟!
ـ التي تتحدّاني في اليقظة والمنام!
ـ غير ما سبق ذكره؟
ـ ما حدّثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن...

فرفع الكهل حاجبيه متسائلًا فقالت:

ـ أصبحت أشعر بشبابي لا كفترة من العمر تتسرّب في ضياع، ولٰكن كقوّة دافعة، قوّة قاهرة، كهبة مقدّسة، وحقّ إلٰهيّ!...

نظر الكهل في بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ فقالت بنشوة وحماس:

ـ كم تنازعني نفسي إلى أشياء وأشياء، إلى كلّ شيء، إلى الوجود كلّه!

ثمّ وهي تخفض عينيها وبنبرة معتصرة بالحسرة والحزن:

ـ أودّ أن أرقص وأغنّي وأمرح!

اختبأ الكهل في صمته وهو يطبق شفتيه متفكّرًا. ولمّا طال انتظارها قالت:

ـ لعلّي دهمتك بصراحتي!

فأصرّ على الاختباء فقالت:

ـ لم تتوقّع ذٰلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يوميّة متكرّرة. ولٰكن ما جدوى هٰذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسي؟!

فتمتم الرجل بحذر:

ـ صراحتك مشكورة!
ـ وكان عليّ أن أعلن ما في نفسي أو أجنّ، ولٰكن كان عليّ أيضًا أن أختار الرجل المناسب، وكنت تخطر على بالي دائمًا، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيّبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحيّة فتعلّقت به قلوب الضحايا!
ـ أشكر لك إنسانيّتك ولطفك.
ـ لا أنكر أنّ لي صديقتين حميمتين في المصلحة

ولكنّي لم أفد من رأيها ما يذكر!

- هل كاشفتها بما كاشفتني به؟

- كلّا ولكنّي سألتهما الرأي في مناسبات حادّة وخطيرة!

- بمّ نصحاك؟

- بدت لي إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة!

- زيديني إيضاحًا.

- ليس الآن موضعه.

- والأخرى؟

- إنّها غاية في الغرابة، قالت لي إنّ مشكلتي عامّة وإن بدت خاصّة وإنّها لا تُحلّ بالحلول الفرديّة، وإنّ علينا أن نغيّر تفكيرنا من جذوره لنحقّق تغييرًا عامًّا وشاملًا...

فابتسم قائلًا:

- ليس رأيها بالجديد على مسمعي، ولكن كيف كانت استجابتك لها؟

- لم يستمرّ ما بيني وبينها طويلًا بعد ذلك فقد أُلقي القبض عليها فجأة...

- عرفت المعنيّة بحديثك، أليست هي زميلتنا السابقة بالحسابات؟

- بلى، وهكذا لم أجد أحدًا سواك...

فقال بلهجة أبويّة:

- إنّك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنّك قد ترزقين بابن الحلال غدًا أو بعد غد!

- أبناء الحلال متوفّرون...

- ألم يقع اختيارك على أحدهم؟

- كلّا، إنّهم موظّفون شبّان في مستوى ماديّ لا يختلف عن مستواي، وقبول يد أحدهم يعني التخلّي عن إخوتي، ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها!

فقال الكهل بإصرار:

- عسى أن يجيء عريس غنيّ يقوم بكافّة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتّبك لإخوتك!

- هذا حلم وليس عريسًا!

- الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

- أرفض أن أقيم ميزان حياتي على الأحلام، إنّي أعيش في جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسي تتحرّق إلى الحياة والسعادة، وفي كلمة أودّ من أعماقي أن أرقص وأغنّي وأمرح...

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

- هذه هي مشكلتي الحقيقيّة!

ولمّا وجدته مصرًّا على الصمت عادت تقول:

- يسعدني أنّي وجدت أخيرًا الشجاعة لمصارحتك بها!

فجعل يغمغم بكلمات مبهمة فقالت باسمة:

- وطبيعيّ أن أنتظر منك شيئًا غير الصمت...

فجمع عزمه وقال:

- إنّي بطبعي وتاريخي أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة!

- ولكنّ طريقي مسدودة!

- ما تزال...

- أرجو أن تعتبرها كذلك إكرامًا لي، أنا لم ألجأ إليك إلّا مطاردة بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق!

فقال بوضوح:

- لا رأي عندي دون مراعاة كاملة للكرامة!

- الكرامة؟

- أعني السلوك الخليق بفتاة محترمة.

فقالت بتحدٍّ:

- لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليديّة!

- طيّب، هل تتوقّعين لديّ رأيًا آخر؟

- نعم!

- أن أسوّغ لك السقوط؟

- نعم.

فتساءل الكهل بذهول:

- ألم تجيئيني مدفوعة بما ذكرت عن تاريخي وحُسْن سمعتي؟

- بلى!

- وتصوّرتِ بعد ذلك أن أبارك سقوطك؟

- نعم!

فضحك الكهل على رغمه وقال:

- الحقّ أنّي لا أفهمك...

ـ ولكنّني واضحة كضوء الشمس!

ـ الرقص والغناء والمرح؟

ـ نعم!

ـ خبّريني عمّا تتوقّعين منّي؟

ـ أن تصرّح لي بأنّ النهل من متعة الحياة ليس سقوطًا!

ـ ولكنّه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد!

ـ وإذن فما عليّ إلّا أن أصبر حتّى أذوي وأذبل وأموت؟

ـ بل حتّى تفرج...

ـ كلام لن يكلّفك شيئًا ولكنّه سيكلّفني حياتي...

فقال متحايلًا للهروب من حدّة الموقف:

ـ حدّثيني عن رأي صديقتك الأخرى، أعني التي لم تُعتقل؟

ـ كان الحديث لمناسبة تقدُّم شابّ لخطبتي فطالبتني بأن أقبله دون تردّد، وأمّا عن إخوتي فقد قالت إنّه ليس من حقّ أحد أن يضحّي بحياة آخر في هذه الدنيا قصيرة الأجل!

فهزّ الكهل رأسه في حيرة صامتة فقالت:

ـ ولكنّي أرفض التضحية بإخوتي!

ـ يا لك من فتاة نبيلة!

ـ ولكن من حقّي أن أحبّ الحياة، وأن أستمتع بهذا الحبّ...

ـ إذا فقدنا الكرامة فإنّه لا يطيب لنا شيء...

ـ من الذي خلق الكرامة؟

ـ خلقتها السماء كما خلقتها الأرض...

ـ ألم تسمع عمّا يقال عن الفتاة الأوروبيّة؟

ـ إنّها تنتمي إلى حياة أخرى في أوروبا ولست أملك المعرفة الكافية للحكم عليها...

ـ ولكنّها أثبتت لنا أنّه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانيّة باهرة!

ـ قلت إنّي لا أملك الحكم عليها...

ـ هل تهرب من مواجهة الحقيقة؟

ـ بل أتكلّم بما أعلم...

ـ أخشى أن تعدّني مسئوليّة ثقيلة اعترضت طريقك الهادئ؟

ـ بل أودّ مساعدتك بكلّ قلبي...

فقالت برجاء:

ـ إذن قدّم لي نصيحة مبتكرة...

ـ مبتكرة!!

ـ أجل، لم أعد أومن بالماضي، لقد ورثت تعاستي عن الماضي، لذلك أكره كلّ ما يمتّ إليه بصلة، هبني نصيحة مبتكرة ولو هزئت في النهاية بما سمّيته بالكرامة!

ـ ولكنّي صارحتك بما أومن به.

ـ إنّك رجل غير عاديّ، لا بدّ أن تنبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمدّ سدادها من قول سلف أو من عادة أثرت...

ـ من حقّي ومن واجبي أن أكون مخلصًا لطبعي أبدًا.

فقالت وهي تنظر في عينيه بجرأة:

ـ أحيانًا يخيّل إليّ أنّ شرًّا عصريًّا أفضل من خير بال!

ـ أيّ ثورة تنطوي عليها جوانحك الرقيقة الجميلة!

ـ الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعي تحت شعارات متهرّئة تردّدها ألسنة محتضرة...

ـ هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر...

ـ صدّقني فإنّ حياتنا وقف قديم متهدّم تتحكّم فيه وصايا الأموات...

ـ كلّ ذلك لأنّك تودّين أن ترقصي وتغنّي وتمرحي؟

ـ لأنّي أودّ أن أعيش حياتي.

ـ وربّما تودّين غدًا أن تقتلي الأنفس وتشعلي الحرائق وتهدمي الجدران؟

فضحكت قائلة في حبور:

ـ أودّ حقًّا أن أقتل زوج أمّي، وأن أحرق من يتطاول على رميي بالسقوط، وأن أهدم جدران الإدارة!

ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبويّ وقال:

ـ لعلّه الحبّ؟

ـ هه؟

ـ لعلّه حبّ يائس الذي أضرم فيك نار الثورة!

ـ لا يوجد حبّ معيّن الآن، أحببت مرّات وخاب

الحبّ مرّات، أمّا الآن فأنا أحبّ الحبّ وحده!

ـ لا شكّ أنّ للحبّ عندك قصّة!

هزّت منكبيها في استهانة وقالت:

ـ أنت تعرف حبّ المراهقة ومصيره المحتوم... ذاك واحد، وحلمت يومًا بحبّ ممثّل، وكان كلّما تقدّم لي خاطب أبدى قلبي استعدادًا طيّبًا للحبّ لا يلبث أن يذهب بذهابه...

ـ لا قصّة حبّ الآن؟

ـ أكبر قصّة حبّ، حبّ الحبّ نفسه!

وتبادلا نظرة طويلة. ثمّ سألته:

ـ بم تنصحني يا سيّدي النبيل؟

فقال باسمًا:

ـ أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم...

ـ أتسخر منّي يا سيّدي؟

ـ معاذ الله، بل إنّك تغرينني بالتعلّق بك!

ـ حقًّا؟

ـ ما أكثر أوجه الشبه بيننا!

ـ فيم؟

ـ في التعاسة على الأقلّ!

فقالت باستطلاع:

ـ لقد سمعت عنك الكثير...

فلاحت في عينيه نظرة حالمة وقال:

ـ كنت يومًا ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثمّ وهو يبتسم:

ـ وذات يوم قرّرت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثمّ تمتم:

ـ ولم أكتفِ بذلك فجازفت بالعمل في السراديب...

ثمّ واصل وهو يضحك ضحكة موجزة:

ـ ثمّ قضيت من حياتي خمسة وعشرين عامًا في السجن...

ـ أوّل ما لفتني إليك حديث بعض الزملاء في المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هٰذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى!

ـ وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف من البعض أُلحقت بالوظيفة، بمرتّب مبتدئ، وعمّا قليل سأترك الخدمة دون أن أستحقّ معاشًا، وقد فاتني الحبّ والزواج والأسرة، وإن امتدّ بي العمر فلا مفرّ من التشرّد والجوع...

ـ يا للبطولة!

ـ لذلك قلت إنّ بيننا أوجه شبه...

ـ لكنّك اليوم بطل!

ـ لا يذكرني اليوم أحد!

ترامت إليهما في الكشك ضحكات هامسة وهي تقترب. مرق إلى الداخل فتاة وشابّ سرعان ما تبادلا عناقًا حارًّا. أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشابّ وأغمضت عينيها. قلّبت رأسها، ولمّا فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين. ابتسمت بلا ارتياب يذكر ثمّ سحبت فتاها من يده وغادرا الكشك. ضحكت السمراء وابتسم الكهل. وسألته:

ـ لِمَ اخترت هٰذه الحديقة مكانًا للقائنا؟

ـ كنت أتردّد عليها في الزمان الأوّل...

ـ لا عِلْمَ لك بما يدور فيها اليوم؟

ـ كلّا، كنّا نتّخذها أحيانًا مخبأ ننقضّ منه على أعدائنا...

فقامت برشاقة آخذة إيّاه من ذراعه، فمضت به إلى جدار الكشك. مدّت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إيّاه إلى النظر. نظرا معًا وهما شبه متلاصقين حتّى فغر الكهل فاه. وهمست في أذنه:

ـ انظر إلى الحديقة!

ثمّ وهي تكتم ضحكة:

ـ كم أنّها مرصعة بالعشّاق!

ـ فوق ما يتصوّر العقل...

ـ العقل يستطيع أن يتصوّر كلّ شيء لو تخلّت عنه القبضة الخانقة...

فقال في انفعال ظاهر:

ـ انظري إلى هٰذه الفاجرة!

ـ يا لها مِن سَكْرى بالحبّ!...

ـ أهٰذه حديقة عامّة؟

ـ لا عيب فيها إلّا أنّها تشبه الجنّة...

ـ إنّها في عمر الورد!
ـ الحديقة؟
ـ الفاجرة!
ـ يخيّل إليّ أنّه لا زوج أمّ يرهبها ولا سجن يهدّدها!
رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث. تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك. وقفت كأنّما تستعرض جسمها الرشيق.
دارت حول نفسها مرّتين كأنّما تشرع في الرقص. سألها وهو لا يتمالك نفسه:
ـ لِمَ وقع اختيارك عليّ بالذات؟
ـ لأنّك الرجل الذي قضى زهرة عمره في السجن.
ـ كيف ظننت أنّك واجدة رأيًا جنونيًّا عند رجل مثلي؟!
ـ تخيّلت أنّه لن ينتشلني من الموت إلّا رجل كان الموت لعبته!
ـ يا له من مزاح!
ـ قلت لنفسي سأجد عنده رأيًا جديرًا ببطل!
فتردّد قليلًا ثمّ سألها:
ـ ألم تخشيْ أن أغازلك؟
ـ ليس ثمّة ما أخشاه في ذٰلك!
هزّ الكهل رأسه مغلوبًا على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهي تسأله:
ـ أليس في حياتك جانب لهو؟
فأجاب دون اكتراث:
ـ أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.
ـ تعيش وحدك؟
ـ نعم، لا أقارب لي في القاهرة.
ـ ولا أصدقاء لك؟
ـ منهم من قُتل في الثورة ومنهم من تبوّأ يومًا الوزارة لَبَعُدَ ما بيني وبينه...
ـ والنساء، أليس في حياتك نساء؟
ـ ولّى موسمهنّ في عمري...
ففكّرت قليلًا وقالت:
ـ أودّ أن أعترف لك بسرّ!
في تلك اللحظة ترامى إلى سمعيها صوت رصاص ينطلق بقوّة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت:
ـ ما هٰذا؟
ـ رصاص من بندقيّة سريعة الطلقات...
ـ كيف؟... لِمَ؟...
ـ لا أدري...
ـ غارة؟!
ـ ولٰكنّ صفّارة الإنذار لم تنطلق، لعلّه تمرين.
وسكت الضرب. لبثا يرهفان السمع ولم يزايلهما القلق. تساءلت:
ـ هل يعود؟
ـ لا علم لي...
ـ هل تُستأنف الحرب؟
ـ من يدري!
ـ الكلام عن ذٰلك لا ينقطع.
ـ وهو ينتهي حيث يبدأ.
ـ أتفكّر في ذٰلك كثيرًا؟
ـ إنّه ظلّنا ومصيرنا.
وفصل الصمت بينهما طويلًا حتّى قال:
ـ إنّ الرصاص يحرّك غرائز في أعماقي، لقد زلزل كياني في هٰذه اللحظة القصيرة.
ـ يؤسفني أنّني كدّرت صفوك.
ـ لنعد إلى ما كنّا فيه، أكنت تتحدّثين عن سرّ؟!
فابتسمت قائلة:
ـ أجل... هناك سرّ...
فرمقها بنظرة مستطلعة فقالت:
ـ ثمّة رجل في حياتي.
ـ حقًّا؟
ـ شابّ غنيّ من طنطا!
ـ ها هو الحلم يتحقّق...
ـ كلّا، إنّه متزوّج.
ـ ما مهنته؟
ـ تاجر.
ـ أتقبلين أن تكوني الزوجة الثانية؟
ـ لكنّه يمقت فكرة تعدّد الزوجات.
ـ هل سيطلّق زوجته؟

ـ ويمقت فكرة الطلاق.
ـ وماذا يريد إذن؟
ـ إنه يحبّني!
ـ كذّاب!
ـ أعتقد أنّه صادق.
ـ هل... هل...
ـ تقابلنا في مشرب شاي مرّتين...
ـ ماذا يريد؟
ـ يريد أن أقابله مرّة ثالثة...
ـ لا كرامة في ذٰلك.
ـ رجعنا إلى الكرامة!
ـ واضح أنّه يريد العبث بك.
ـ أو أن أعبث به!
ـ كوني بريئة بقدر ما أنت صغيرة...
ـ وحدّثني عرضًا عن شقّة يملكها في الهرم!
ـ الداعر!
ـ لم أقطع برأي بعد.
فهتف بحدّة:
ـ الرقص والغناء والمرح.
ـ لا أحبّ لك أن تغضب...
ومالت نحوه فلثمت جبينه. جعل ينظر إليها باهتمام وتوقّد. سألته برجاء:
ـ ألا تريد أن تمنّ عليّ برأي؟
ـ عليك أن تصبري حتّى يجيء الفرج كما أنّ عليّ أن أصبر حتّى يجيء الموت!
فقامت وهي تقول:
ـ شكرًا، وإذن فيجب أن أذهب...
هتف باستنكار:
ـ تذهبين...!
ـ لم أجئ لأقيم هنا.
ـ أنت ذاهبة إلى الشابّ الغنيّ من طنطا.
ـ كلّا، ليس موعده اليوم...
ـ لا يمكن أن تذهبي...
ـ آن لي أن أذهب...
قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثمّ قال بعصبيّة:
ـ الحبّ لا يتوقّف لحظة واحدة...
ـ متّع بصرك...
تحوّل إليها وهو يقول بانفعال:
ـ كأنّك ابنتي!
ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول:
ـ لا تذهبي إلى مشرب الشاي.
ـ ليس اليوم...
ـ إنّه يريد عشيقة!
ـ لم يصرّح بذٰلك.
ـ أنت ساذجة؟ أنت ماكرة؟... ما أنت؟
ـ أنا مصمّمة.
ـ أنت جميلة، أنت فاتنة، اصبري...
ـ يجب أن أذهب.
ـ إنّه يرفض أن يطلّق، ويرفض أنْ يتزوّج زوجة ثانية، لماذا؟ لعلّ زوجته غنيّة، لعلّها رأسماله الحقيقيّ، وغير بعيد أن تكون أكبر منه سنًّا، لذٰلك جهّز شقّة للعبث، يجيء إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة، هٰذه هي الحقيقة.
ـ أشكرك، ولٰكن آن لي أن أذهب.
قبض على يدها، ثمّ على ساعدها، وقال وهو يزداد انفعالًا:
ـ لن تذهبي...
ابتسمت قائلة:
ـ لقد تأثّرت لحالي أكثر ممّا يجوز...
ـ لا حدود لما يجوز في ذٰلك.
ـ شدّ ما أزعجتك.
ـ أكثر من سبب يشدّ أحدنا إلى الآخر.
ـ ولٰكنّ الوقت يسرقنا وزوج أمّي رجل شرس...
ـ فلنسحق رأسه ولٰكن لا تذهبي إلى الشابّ الغنيّ من طنطا.
ـ إنّي راجعة إلى البيت.
ففرقع بأصابعه وقال:
ـ جاءتني فكرة طيّبة.
ـ فكرة؟
ـ إنّك مشغولة بالحياة، ولا خوف عليك من كهل

مثلي، فلنذهب سويًّا إلى عنبر لولو.

ـ عنبر لولو؟

ـ حديقة في صحراء سقّارة، في المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطّاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب افعل ما تشاء.

فاتّسعت عيناها دهشة وقالت:

ـ أنت تدعوني إلى ذلك؟

ـ مع آمن رفيق!

ـ لا أصدّق!

ـ لا يعزّ شيء على التصديق.

ـ ولكن.. ولكن ليس الوقت مناسبًا.

ـ كلّ وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو!

ـ لم أسمع بها من قبل.

ـ إنّها جنّة الأحلام، كلّ حلم فهو واقع في عنبر لولو.

ـ إنّك تتكلّم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعانٍ جديدة.

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعيًا إيّاها إلى النظر وقال محمومًا:

ـ انظري، جميع هؤلاء حمقى لأنّهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو.

ـ تلك الحدائق النائية عرضة للخطر!

ـ إنّها ترقد في حضن الأمان وآي ذلك أنّه لا يوجد بها شرطيّ واحد!

ـ وماذا نفعل هناك؟

ـ كما تهوين، لا أحد يرى الآخر في عنبر لولو.

ـ انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة!

ـ إنّها فاجرة لأنّها تلهو بعيدًا عن عنبر لولو.

ـ إنّك تخيفني!

ـ لا ظلّ للخوف في عنبر لولو.

تراجعت عن الجدار فلحق بها في نشاط غير معهود وهو يشدّ على يدها. وتساءل:

ـ ألم تجيئي لتسمعي نصيحة من كهل؟

ـ أمقت النصائح!

ـ اذهبي معي إلى عنبر لولو.

ـ ربّاه... إنّي أتراجع، لعلّ حديثك الحكيم أثّر فيّ أكثر ممّا توقّعت!

ـ حديث عنبر لولو؟

ـ حديث الصبر والكرامة!

ـ إنّك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.

ـ ولكنّك تؤمن بها؟

ـ إنّ ربع قرن في السجن خليق بأن يخلّ الميزان.

ـ إنّك تخيفني.

ـ كلّا، ولكنّها حيلة نسائيّة بالية!

ـ اهدأ، فلنجلس، أودّ أن أعترف بسرّ جديد.

ـ اعتراف آخر؟!

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاها تدافعت أقدام مهرولة تندّ بين وقعها ضحكات شابّة متوثّبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شابّ. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنّهما لم يلقيا إلى ذلك بالًا. مضت تحاوره وهو يتحيّن غفلة للانقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التي يستقرّ عليها الكهل وصاحبته وتخطّت الرجل فاختفى لحظة بين ساقيها ثمّ قفزت إلى الباب، ومنه إلى الحديقة والشابّ في أثرها. سوّى الكهل هندامه وتمتم كأنّما يناجي نفسه:

ـ ما أجمل أن يذهبا إلى عنبر لولو!

ثمّ قال لفتاته بضيق:

ـ نحن نضيّع وقتًا ثمينًا لا يعوّض!

فقالت تذكّره:

ـ ولكن ثمّة اعتراف جديد!

ـ لا قيمة الآن لأيّ اعتراف!

ـ أودّ أن أعترف لك بأنّ حكاية الشابّ الغنيّ من طنطا مختلقة من جذورها ولا أساس لها في الواقع!

ـ حقًّا؟

ـ بالصدق أعترف لك.

ـ ذاك يعقّد الأمور ولا يبسّطها!

ـ وعليّ أن أذهب الآن.

ـ كلّا، لن تذهبي.

ـ لا شيء يدعونا للبقاء.

ـ بل علينا أن نفهم الأسباب التي دعتك إلى اختراع الحكاية.

- لا أهمّيّة لذلك ألبتّة.

- كلام غير علميّ، فالحلم له أسبابه كالواقع سواء بسواء

- أكرّر ألّا أهمّيّة لذلك.

فهزّ رأسه مفكّرًا وقال باهتمام:

- دعيني أفكّر.

ومسح على جبينه واستطرد:

- شابّ... تاجر... غنيّ... من طنطا... شقّة خاصّة في الهرم.

- كدت أنسى تلك التفاصيل.

- لا يمكن أن تُنسى.

- أنت ظريف ولكنّك عنيد.

- أصغي إليّ، شابّ، تخيّلته شابًّا، الشباب رمز الجنون بحبّ الحياة، وأنت تهيمين بحبّ الحياة لحدّ الجنون.

- لكنّي تغيّرت.

- كذب، لم يمرّ وقت يسمح بالتغيير.

- يخيّل إليّ أنّي عاشرتك في هذا الكشك عمرًا.

- أصغي إليّ يا عزيزتي،... تاجر... ما معنى تاجر؟ إنّه نقيض الموظّف، الموظّف رمز الروتين، التاجر رمز الحركة، الموظّف ظلّ الأخلاق التقليديّة، التاجر ظلّ الانطلاق واللاأخلاقيّة.

فتساءلت ضاحكة:

- أتراني حلمت بقرصان؟

- وأكثر يا عزيزتي، إنّك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمن إبليس بنفسه، إنّك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة والاستغفار، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع والكبرياء، إنّك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب.

- سامحك الله... أنت خفيف الروح.

- وما معنى غنيّ؟، الغنيّ هو الذي يملك المال والقوّة، ولكنّنا لم نعد في عصر الأغنياء، أيّ غنيّ اليوم إنّما هو كاللصّ الذي لم يُهتدَ إلى أثره بعد، ستطبق عليه يد العدالة في المساء أو عند منتصف الليل، فالحلم يريد شابًّا غنيًّا، لفترة محدّدة، إنّه يخشى المعاشرة الطويلة، يخشى أن يتكشّف مع الزمن عن شخص حقير شرس مثل زوج أمّك، فأنت ترغبين فيه وتكرهين في الوقت نفسه فكرة دوامه، سوء ظنّ مكتسَب من ماضٍ تعيس..

- أتقرأ الفنجال أيضًا؟

- من طنطا!... ماذا يقول الحلم؟ طنطا هي مثوى السيّد البدوي، صاحب الكرامات والمعجزات، الذي كان يجيء بالأسرى من الأعداء... فهمت يا عزيزتي؟!

- فهمت يا سيّدنا الشيخ.

- وشقّة الهرم؟... الشقّة مفهومة ولكن لماذا في الهرم؟ الهرم في ظاهره قبر ولكنّه في حقيقته يشكّل تحدّيًا للزمن... للموت.

- تفسير مسلٍّ وجميل، ولكن يجب أن تفكّر في الذهاب.

- ابصقي هذه النيّة من فيك وهلمّي إلى عنبر لولو.

- بل إلى البيت...

- ماذا في البيت ممّا يغريك بالعودة إليه؟

- هو بيتي على أيّ حال.

- سيتغيّر طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.

رمقته بنظرة ارتياب وسألته:

- ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو؟

- فيه خلوة للعجزة، كلّ شيء في عنبر لولو.

- ترى... ترى أأنت جدير بالسمعة الطيّبة التي تتمتّع بها؟

- أنسيت رأيك في الوقت القديم ووصايا الأموات؟

- لكنّي تعلّمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا!

- لا تسخري من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان.

- اغفر لي فإنّي لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعًا من عمري!

- ولكنّه في حالتك يُعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة!

وقامت متجهّمة فقام في أثرها بحال توحي بالاعتذار، وقال:

- لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه!

فقالت بنبرة ساخرة:

ـ شيّدت قصرًا ولكن على الرمال!

ـ حقًّا؟

ـ الشابّ الغنيّ من طنطا حقيقة من صميم الواقع!

ـ بل خيال في خيال!

ـ حقيقة من صميم الواقع.

فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار. وتوثّب ليقذفها بسيل من الكلمات التي انصهر بها شدقاه ولكنّ شخصًا غريبًا اقتحم الكشك على غير توقّع. اقتحمه وكأنّما ألقي به إليه. مشعّث الشعر، أغبر الوجه، يتصبّب عرقًا. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدّة ليزيل عن حذائه ما يطويه من طين. بادلها النظر صامتًا دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها في إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حلّ بالكشك صمت كالشلل. لكنّ الفتاة كانت أوّل من خرج منه. خلّصت يدها من قبضة الكهل وقالت:

ـ أستودعك الله، إنّي ذاهبة.

فقال الكهل برجاء:

ـ انتظري، يحسن بك ألّا تسيري وحدك في الطرقات الخالية في هذه الساعة من الأصيل!

وإذا بالشابّ الغريب يقول:

ـ ليست الطرقات بالخالية!

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشابّ:

ـ جميع الطرقات مطوّقة برجال الشرطة!

فتحوّل غيظ الكهل إلى دهشة وسأله:

ـ لِمَ؟

فسأله الشابّ بدوره:

ـ ألم تسمعوا طلقات الرصاص؟

ـ بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريبًا عسكريًّا.

ـ لم يكن تدريبًا عسكريًّا.

فسألته الفتاة:

ـ أكان غارة جوّيّة؟

ـ لم يكن غارة جوّيّة.

فسأله الكهل:

ـ هل بلغتك عنه أنباء صادقة؟

فهزّ الشابّ رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلًا:

ـ صعد شخص إلى قمّة البرج وأطلق الرصاص من بندقيّة سريعة الطلقات.

ـ ما هويّته؟

ـ لا يدري أحد.

ـ وما الهدف الذي أطلق عليه الرصاص؟

ـ أطلقه على كافّة الجهات، على جميع الناس!

ـ يا للخبر، وكم عدد الضحايا؟

ـ لم يصب أحدًا!

ـ غير معقول.

ـ يبدو أنّه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحدًا!

ـ حادث غامض.

ـ إنّه لكذلك.

ـ هيهات أن يثبت عدم الشروع في القتل.

ـ ذاك واضح، ولكن ربّما صفحته خالية من السوابق!

فقال الكهل باستياء:

ـ ليس خلوّ الصفحة من السوابق بالشهادة الطيّبة دائمًا، ولا العكس بالصحيح.

ـ قول لا يخلو من حكمة.

ـ أهنّئك على حسن إدراكك.

ـ شكرًا.

ـ لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعلّه مجنون؟

ـ كلّا...

ـ إنّك تتحدّث عنه بيقين!

ـ بل أردّد ما تناقله الناس في الطرق.

ـ ولكن لِمَ يطلق النار في جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد؟

ـ ذاك بعض السرّ الذي يسعى وراءه رجال الشرطة.

فقالت الفتاة:

ـ لعلّه مجنون بالشهرة.

ـ لا يبدو كذلك.

فعادت تقول:

ـ لعلّه كان في حاجة ملحّة إلى الترفيه!؟

فابتسم الشابّ قائلًا:

ـ لا أظنّ الأمر كذلك.

وسأله الكهل:

ـ ماذا يقول الناس عنه أيضًا؟

ـ يقال إنّه كان ضمن وفد دعي إلى زيارة الجبهة ومعسكرات اللاجئين.

ـ حقًّا!... لعلّ أعصابه اهتزّت فوق ما يحتمل.

ـ لكنّه لم يفقد توازنه قطّ وإلّا لقتل الناس بالعشرات!

ـ أطلق النار وهو في كامل وعيه؟

ـ وكامل عقله!

ـ يا له من حادث غامض!

وقالت الفتاة:

ـ كم أودّ أن أراه.

فقال الكهل:

ـ سترينه في جرائد الغد، كذلك تجري الأمور منذ قديم!

ثمّ التفت إلى الشابّ وهو يقول كأنّما يقدّم له نفسه:

ـ أنا أيضًا وُلعت يومًا بإطلاق النار!

ثمّ بنبرة اعتزاز:

ـ ولكنّ الرصاص انصبّ على الأعداء!

فقال الشابّ بامتعاض:

ـ يقال إنّ صاحب البندقيّة المجهولة هتف قبل أن يختفي «ليستقرّ الرصاص في قلب العدوّ الأكبر».

فقال الكهل في حيرة:

ـ حتّى القتل أصبح غامضًا رغم أنّه أوضح فعل في الوجود!

ـ ليس ثمّة غموض ألبتّة...

فتساءل الكهل بغيظ:

ـ أكان العدوّ الأكبر يسير فوق رءوس المارّة؟

ـ أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم!

فقالت الفتاة بانفعال:

ـ واضح أو غامض، لا يهمّ، كم أنّه جميل أن يطوف إنسان بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثمّ يصعد إلى برج القاهرة ليطلق النار في جميع الجهات!

فسألها الكهل:

ـ هل وضح لك ما غمض عليّ؟

ـ نعم.

ـ ولكن كيف؟

ـ إنّي أفهم بطريقتي الخاصّة!

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجّة في الخارج. ثمّ تبيّن على وجه اليقين أنّ ثمّة ضجّة تجتاح الحديقة.

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشّاق يتجمّعون في الممشى وقد تولّاهم الوجوم والارتباك. ثمّ رأيا رجال الشرطة وهم يحتلّون الأركان. قالت الفتاة بانفعال:

ـ أصبحنا في قلب الحدث...

فقال الكهل:

ـ وقد يقع صدام دامٍ.

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له:

ـ واضح أنّ رجال الشرطة يعتقدون أنّ صاحبك المجهول في الحديقة معنا!

فقال الشابّ بهدوء:

ـ وهو فرض محتمل!

فقال الكهل:

ـ ولم يعد ثمّة مجال للهرب...

فقال الشابّ:

ـ إنّ من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب إلى ما لا نهاية...

فقال الكهل وهو يحدجه بمودّة:

ـ وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه...

ـ أتظنّ ذلك؟

وابتسم. ثمّ قام بهدوء. حيّاهما بإحناءة من رأسه قائلًا:

ـ إلى اللقاء...

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يردّان وراءه...

ـ إلى اللقاء!

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث في الخارج. ولبثا وقتًا غير قصير ثمّ رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنّه يناجي نفسه:

ـ فاتني أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيرًا وحرجًا!

فقالت الفتاة:

ـ وفاتني أن أدعوه إلى شيء من اللهو!

فقال لها معاتبًا:

ـ ما زلت قادرة على المزاح!

ـ أنسيت هيامي بالرقص والغناء والمرح؟

فقال بامتعاض:

ـ آن لك أن تذهبي إلى شابّك الغنيّ من طنطا!

فضحكت قائلة:

ـ دعني أعترف لك بأنّه حلم لا أساس له في الواقع!

فهتف بغضب:

ـ لقد أرهقتني اعترافاتك المتضاربة...

فقالت بتسليم:

ـ هلمّ بنا إلى عنبر لولو!

ونهضت قائمة. لكنّه جذبها برقّة من يدها فأجلسها مرّة أخرى وهو يحني رأسه:

ـ دعيني أعترف لك بأنّ عنبر لولو لم توجد بعد.

فاتّسعت عيناها دهشة وتمتمت:

ـ ماذا قلت؟

ـ كانت مجرّد مشروع!

ـ مشروع؟!

ـ أجل.

ـ ماذا تملك لتنفيذه؟

ـ رسمنا له خطّة عظيمة في غيابات السجن!

ـ السجن؟!

ـ كان حياتنا الحقيقيّة، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو...

ـ وماذا عن تمويله؟

ـ فكّرنا في ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتّفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما وهما السرقة والقتل!

فضحكت متسائلة:

ـ وماذا أخّركم عن التنفيذ مذ تمّ الإفراج عنكم؟

ـ الخيانة!

ـ الخيانة؟

ـ إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدّون فريضة الحجّ في عام واحد! هكذا تعطّل مشروع عنبر لولو!

ـ يا للخسارة...

ـ العين بصيرة واليد قصيرة!

وفرّق بينهما صمت واجم ثقيل. حتّى قال الكهل:

ـ آن لنا أن نذهب ولكن لا يجوز أن نفترق!

ـ حقًّا؟

ـ ألا ترحّبين بذلك؟

ـ من المؤسف أنّك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح...

ـ ولكنّي صاحب مشروع قيّم!

ـ عنبر لولو؟!

ـ أجل...

ـ لكنّه لا يمكن تنفيذه بمجهود فرديّ؟

ـ إذا اتّفقنا أمكن أن نصنع شيئًا ذا بال...

ـ وماذا في وسعي أنا؟

ـ أصغي إليّ، نحن نملك مواهب لا تقدّر بثمن...

ـ ما أريد إلّا أن أرقص وأغنّي وأمرح.

ـ لن أطالبك بأكثر من ذلك...

ـ ماذا تعني؟

ـ عنبر لولو، جنّة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح؟؟

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت:

ـ وأنت؟

فقال بفخار:

ـ أنا مولع بالقتل من قديم الزمان...

قام فقامت. أعطاها ذراعه فتأبّطتها... مضيا نحو باب الكشك وهو يقول:

ـ سأطلق الرصاص في جميع الجهات وسنرقص ونغنّي ونمرح...

شهر العسل

شَهـرُالعسَـل

تهلّل وجهاهما بالرضى وهما يدخلان. وقفا تحت النجفة الصغيرة يلقيان نظرة شاملة على الحجرة. وقاسا بعين دقيقة المسافة بين الكنبة الرئيسيّة والصوان الجامع للراديو والتلفزيون. ونظرا إلى الفريجدير القائم في الركن بشيء من الفتور إذ كانا يتمنّيان لو اتّسعت له حجرة السفر. قال باسمًا وهو يختال في بذلته الجديدة:

ـ مباركة عليك الشقّة الجديدة يا حبيبتي.

ـ مباركة عليك يا حبيبي.

ـ يتجلّى ذوق والدتك في تنسيقها البديع.

ـ ولا تنس دور ذوقي في ذٰلك.

فلثم خدّها وهو يضحك ثمّ قال:

ـ شقّة لقطة!

ـ حقيقة...

ـ ترى أين أمّ عبد الله؟

ـ لعلّها في المطبخ أو الحمّام...

ـ ترينها يا عزيزتي أهلًا للثقة؟

ـ كلّ الثقة، لم تفارق ماما مذ كانت في العاشرة.

ـ ستقيم في شقّتنا أكثر منّا، وستدير جميع شئونها، أمّا نحن فلن نهنأ بها إلّا حين الراحة والنوم...

ـ نَـدُرَ بين أمثالنا من الأزواج العاملين مَن ظفر بمدبّرة بيت مثلها.

ـ أيّ بهجة لشقّة جميلة كهٰذه بدون مدبّرة؟

ـ هٰذه هي الحقيقة، هي في ذات الوقت مشكلة، ولٰكن...

وجعلت تتشمّم الهواء في قلق وتتساءل:

ـ ألا تشمّ رائحة غريبة؟

ـ رائحة غريبة؟

وراح يتشمّم بدوره ثمّ قال:

ـ أجل... ثمّة رائحة غريبة...

ـ رائحة طبيخ...

وقاما بجولة تفتيش في الأركان، تحت المقاعد، تحت الكنبة، وصاح الشابّ باستنكار:

ـ توجد حلّة تحت الكنبة...

ـ حلّة؟!

أخرجها الشابّ بوجه متقزّز وهو يتمتم:

ـ حلّة طبيخ في حجرة الجلوس!

ـ وهو طبيخ حامض، ما معنى ذٰلك؟!

ـ شيء لا يتصوّره العقل...

وصفّق بيديه بشدّة ونرفزة. وصاحت الفتاة:

ـ أمّ عبد الله!

ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة. دخل رجل قصير بدين مصبوب في كتلة قويّة كأنّه برميل. غليظ الرأس والوجه والعنق كأنّه مصارع محترف، ومن عينيه الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة. وقف في بنطلونه الترابيّ وقميصه الأسود وحذائه المطّاط، ينظر إليهما ببلادة وعدم اكتراث. صرخت في عينيها نظرة ذاهلة غير مصدّقة. تبادلا نظرة سريعة ثمّ عادا للحملقة في وجهه البليد. وسألته الفتاة:

ـ مَن أنت؟

لم يجب. كأنّه لم يسمع. سأله الشابّ بصوت رنّان:

ـ مَن أنت؟

فنظر إلى الشابّ مليًّا ثمّ تمتم بهدوء بارد:

ـ أنا ابن أمّ عبد الله...

ـ ومَن أذن لك بدخول الشقّة؟

ـ استدعتني لأحلّ محلّها في أثناء غيابها.

ـ أليست في الداخل؟

ـ سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيّد.

ـ متى سافرت؟

ـ صباح اليوم...

فقالت الفتاة باستياء:

ـ لٰكنّها لم تستأذن منّا، بل ولم تخطرنا...

فجعل ينظر ببلادة وعدم اكتراث حتّى سأله الشابّ:

ـ ومتى ترجع؟

ـ لا أدري.

ـ وماذا كنت تفعل؟

ـ لا شيء...

ـ ماذا تعرف من شئون المنزل؟

ـ لا شيء.

ـ ألك حرفة تتعيّش منها؟

ـ كلّا.

ـ وكيف تعيش؟

ـ آكل وأشرب وأنام.

فنفخ الشابّ في يأس، ثمّ سأله:

ـ ولِمَ استدعتك أمّك إذا كنت لا تحسن شيئًا؟

ـ لأحلّ محلّها في أثناء غيابها.

ـ ولٰكنّها تقوم هنا بكلّ شيء.

ـ قالت لي ابقَ هنا حتّى أرجع.

لوى الشابّ شفتيه امتعاضًا. أشار بحدّة إلى الحلّة، وسأله:

ـ ألم ترَ هٰذه الحلّة من قبل؟

فنظر الرجل إليها في بلاهة وقال:

ـ لا أتذكّر.

ـ ألم تأكل من الكرنب؟

ـ أكلت...

ـ في هٰذه الحجرة، أليس كذٰلك؟...

ـ لا أتذكّر!

ـ ثمّ دفعت بها تحت الكنبة؟

فقال في ابتهاج طارئ:

ـ بحثنا عنها طويلًا...

فنفخ الشابّ في غيظ وقال:

ـ لا جدوى من الكلام، على أيّ حال تفضّل غير مطرود!

فاستدار ليرجع من حيث أتى ولٰكنّ الشابّ استوقفه ثمّ أشار إلى ردهة مفضية إلى الباب الخارجيّ، فمضى الرجل نحوها بشكل آليّ، غاب قليلًا ثمّ رجع وهو يقول:

ـ ذاك الباب يؤدّي إلى الخارج!

ـ أعرف ذٰلك.

ـ أتطردني؟

ـ لا حاجة بنا إليك؟

ـ قالت لي ابقَ حتّى أرجع.

ـ ولٰكنّي صاحب الشقّة!

ـ أنا لا أعرف إلّا أمّي!

فصاحت الفتاة:

ـ أتريد أن تبقى بالقوّة؟

فقال بثقة:

ـ سأبقى حتّى ترجع.

ـ ولٰكنّنا لا نريدك.

ـ سأبقى حتّى ترجع.

فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها. شعر الفتى بأنّه مُطالَب بأداء واجب فوق احتماله. وبدا أمام الرجل كغصن طريّ حيال جذع شجرة بلح. واحتدم غضبًا فصاح بالرجل:

ـ اذهب في الحال.

ـ قالت لي ابقَ حتّى أرجع!

ـ اغرب عن وجهي بلا مناقشة.

ـ لن أذهب، اذهب أنت إذا شئت!

أعماه الغضب فانقضّ على الرجل ودفعه بكلّ قوّته. لم يتأثّر الرجل أقلّ تأثّر ودفعه بكتفه دفعة بسيطة فانقذف الشابّ إلى أقصى الحجرة متعثّرًا في طريقه بخوان فسقطا سويًّا. نهض بسرعة لاعنًا ولٰكنّه كفّ عن تجربة قوّته. واندفعت الفتاة نحو النافذة المطلّة على الطريق ففتحتها على مصراعيها وراحت تصوّت بأعلى صوتها مستغيثة. وإذا بأصوات ترتفع لاعنة في

غضب، وإذا بالطوب ينهال على النافذة ويمرق بعضه إلى داخل الحجرة حتّى تنحّت الفتاة والفتى في ركن آمن وهما مذهولان.

تساءلت وهي ترتجف:

ـ ماذا جرى للناس؟

ـ يقذفوننا بالطوب بدلًا من إغاثتنا!

والرجل الغليظ لم يسكت. تقدّم خطوات فتناول الخوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوّته، ثمّ أغلق النافذة!. صاح الشابّ:

ـ ماذا فعلت؟

فعاد إلى موقفه وهو يقول:

ـ طيلة الوقت تبادلنا الضرب.

ـ الضرب؟

ـ وانتصرت عليهم دائمًا!

فسألته الفتاة بحنق:

ـ كيف جعلت من شقّتي ميدان قتال؟

ـ الحقّ عليهم، كلّما ظهرت في نافذة بادروني بمعاكساتهم، اضطررت إلى قذفهم بالأطباق فقذفوني بالطوب...

ـ لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا!

ـ لا يهمّك.

ـ ألا ترى أنّك تتصرّف في الشقّة كما لو كانت ملكك الخاصّ؟

ـ الحقّ عليهم كما قلت لك.

ـ إنّك تبدّد الأشياء الثمينة وتعرّضنا للخراب.

ـ أهذا جزاء مَن يدافع عن شقّتك؟

ـ يا سيّدي تشكر، ما نريد منك إلّا أن تذهب بسلام!

هزّ منكبيه العريضين ثمّ ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجيّ. لكنّه لم يلبث أن عاد فرفع الحلّة في هدوء ومضى بها إلى الداخل. همست الفتاة:

ـ النجدة!

انتقل الشابّ إلى التليفون فرفع السمّاعة، جعل ينقر عليه، ثمّ أعادها غاضبًا وهو يقول:

ـ حرارته مفقودة!

ـ ربّاه!

ـ لعلّه عبث به، ومَن يدري فلعلّه عبث بالراديو والتلفزيون أيضًا....

ـ كارثة حلّت بشقّتنا الجديدة، ولٰكن لا بدّ من عمل شيء...

ـ فلنذهب سويًّا إلى نقطة الشرطة...

ـ قد ينتقم من الشقّة في غيابنا...

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ...

مضيا معًا نحو الباب الخارجيّ ولٰكنّهما رجعا وهو يقول:

ـ أغلقَ الباب بالمفتاح!

ومضى يفتّش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده... تمتم:

ـ ليس الوحش غبيًّا كما تصوّرت...

ـ لقد سجننا...

ـ حتّامَ نمضي في السجن تحت رحمته؟

ـ ذٰلك لا يمكن أن يقع ولا في الخيال!

وإذا بدفقة مروّعة من أصوات خشنة مختلفة المصادر تنقذف من ناحية المطبخ. وقع أقدام، ارتطام بجدران، سقوط أوعية، تحطيم آنية، صيحات وعيد. وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكًا مع آخر في مثل حجمه إلى الحجرة وهما يتصارعان. تصارعا بعنف ووحشيّة وكلّ منهما يحاول قهر الآخر. فمرّة يقع هٰذا تحت الآخر ومرّة العكس. حتّى تمكّن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة، ثمّ هتف بصوت جذلان:

ـ فيفا فلا!

ونهض فنهض الآخر. تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مباراة عادلة. وانتبها إلى الزوجين فجعلا ينظران إليهما ببلادة وبرود. وحلّ صمت ثقيل كالاختناق. ثمّ خرج الشابّ من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل ابن المدبّرة:

ـ من هٰذا؟

ـ صديق!

ـ أكان موجودًا معك من قبل؟

ـ نعم...

ـ هل علمت أمّك بوجوده؟

ـ كلّا.

ـ وكيف تدعوه إلى شقّة آخرين؟

ـ دعوته لأنّي لا أحبّ الوحدة، ولنواصل تدريبنا...

ـ أأنت رجل عاقل؟

ـ نحن نتصارع في الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمرّ...

ـ لعلّك توهّمت أنّك صاحب الشقّة!

ـ أنا لا أحبّ الإقامة في البيوت!

فقالت الفتاة:

ـ إذن غادر بيتنا مصحوبًا بالسلامة!

ـ قالت لي ابقَ حتّى أرجع...

فقال الشابّ:

ـ نحن على استعداد للذهاب فلمَ أغلقت الباب بالمفتاح؟

ـ حتّى ترجع أمّي من المولد...

ـ ولكنّنا نريد أن نذهب...

ـ إلى أين؟

ـ يا له من سؤال، ألسنا أحرارًا؟!

ـ مَن أدراني أنّكما صاحبا الشقّة الحقيقيّان؟

ـ أيداخلك شكّ في ذٰلك؟

ـ يجب أن تبقيا معنا حتّى ترجع أمّي من مولد السيّد.

فعضّ الشابّ على أسنانه من الغيظ وقال:

ـ على الأقلّ يجب أن تلتزم بالنظام!

فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلًا:

ـ أراد أن يجرّب قوّته معي وقد رأيت النتيجة بنفسك!

ـ حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب.

ـ لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذٰلك إلّا الطرب!

ـ أريد الهدوء الشامل الكامل...

ـ ألا تحبّ الغناء والرقص؟

ـ الغناء والرقص!

ـ معنا في المطبخ راقصة وبعض أفراد الجوقة!

فصاح الزوجان معًا:

ـ ماذا تقول؟!

ـ إنّهم من الزملاء الموثوق بهم...

ـ لقد جعلت من الشقّة ساحة مولد!

ـ لمَ تعقّدان الأمور بلا سبب؟

ـ كلّ ذٰلك وتقول بلا سبب؟!

ـ ما كنت أتصوّر وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهٰذه القوّة!

ورفع منكبيه العريضين استهانة، ثمّ تأبّط ذراع صاحبه، ومضى به إلى الداخل. وجعلا يتبادلان النظر في غضب ويأس حتّى ترامى إليهما دقّ دفّ وعزف مزمار وإيقاع رقص، وما لبثت الحناجر الخشنة أن غنّت بغرابة:

يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك ستّة وقدّاحه

هتفت الفتاة:

ـ سأجنّ إن لم أكن جننت بالفعل.

ومضى الشابّ نحو النافذة بتصميم فقالت له محذّرة:

ـ الطوب!

ـ لعلّهم ذهبوا...

ثمّ وهو يمسك بمقبض الضلفة:

ـ علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس!

ولٰكن ما كادت الضلفة تتحرّك حتّى انهال الطوب عليهما كالرصاص. أغلقها مرّة أخرى وهو يسبّ ويلعن. وتساءل فيما يشبه التنهّد:

ـ غُلبنا على أمرنا؟

فتمتمت:

ـ إنّه كابوس قاتل...

ـ ولٰكن لا بدّ أن يوجد مخرج.

ـ أجل، يجب أن يوجد مخرج.

ـ ولٰكن ما هو؟

وتفكّر قليلًا ثمّ تساءل:

ـ لنسأل أنفسنا ماذا نريد؟

ـ أظنّنا جئنا ونحن نحلم بقضاء شهر عسل سعيد!

ـ ولٰكن عاقنا عن ذٰلك وجود أولٰئك الشياطين.

ـ فعلينا أن نتخلّص منهم.

ـ طيّب، فلنفكّر كيف يمكن التخلّص منهم.

- الباب مغلق، التليفون معطّل، النافذة ينهال عليها الطوب.
- إذن فلا مفرّ من الاعتماد على أنفسنا!
- ولكنّنا دونهم في القوّة بما لا يقاس!
- ولكن هنالك الحيلة.
- أجل... الحيلة.
- هل يسعنا حبسهم في المطبخ؟
- يلزمنا معاينة المكان هنالك.
- سأذهب لصنع فنجال قهوة...

ودون تردّد غادر الحجرة. ثمّ رجع بالقهوة فسألته بلهفة:

- ماذا وجدت؟

فقال بضيق:

- باب المطبخ مفتوح والزمّار جالس على الأرض مسند الظهر إليه، ولكن لم يمت الأمل.
- حقًّا؟
- اختلستُ مفتاح المطبخ من فوق الرفّ.
- ألم تعثر على مفتاح الشقّة؟
- ليس الرجل بالغباء الذي نتصوّره ولكنّهم....
- ولكنّهم؟...
- يجرعون النبيذ بإفراط!
- ننتظر حتّى يفقدوا الوعي؟
- أجل...
- لكنّه سلاح ذو حدّين!
- أجل، قد يزدادون جنونًا، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون بالأموات.
- علينا أن ننتظر الليل.
- وليس الليل ببعيد!

تنهّدت في ضيق شديد متسائلة:

- متى ترجع أمّ عبد الله؟
- ذاك يتوقّف على انتهاء المولد.
- ألديك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة؟
- لا فكرة عندي عن المولد.

راحت الفتاة تذرع الحجرة محنيّة الرأس تحت همّ ثقيل. حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجدير فشدّ بصرها شيء ما. اقتربت منه ممعنة النظر، ثمّ قالت باستغراب:

- أرفف الفريجدير مخلوعة ومطروحة أرضًا وراءه!

وانتقلت إلى باب الفريجدير فجذبته. وإذا بكتلة بشريّة تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض.

صرخت الفتاة بجنون وهي تترنّح. وثب الشابّ إليها فتلقّاها بين ذراعيه. تفحّص الكتلة المطروحة بذهول، انحنى فوقها حتّى رأى الوجه، ثمّ هتف:

- أمّ عبد الله!

أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويجسّها ثمّ تمتم بذهول:

- جثّة هامدة!

واقتحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد:

- ألا تكفّان عن الضوضاء؟

وتابع عينيهما ببصره حتّى استقرّ على الجثّة المنكفئة فتساءل:

- ما هذا؟

ولّما لم يسمع جوابًا صاح بغضب مخاطبًا الشابّ:

- أجب!.

فقال الشابّ بغضب كظيم:

- إنّها جثّة...
- جثّة؟؟.
- نعم.
- أهي شقّة أم مقبرة؟.
- كانت شقّة فأصبحت مقبرة...
- أين وجدتها؟.
- في الفريجدير.

فقال المصارع الآخر ببلاهة:

- إنّهما يتغذّيان على لحوم البشر.

فقال الشابّ بحدّة:

- لقد قُتلت ثمّ دُفنت في الفريجدير.

فسأله الرجل الغليظ وعيناه تلتمعان بالسكر:

- وماذا حملك على قتلها؟.
- لقد قُتلت من قبل وصولنا إلى شقّتنا.
- فمن الذي قتلها في رأيك؟

ـ دعني أسائلك أنت فقد كنت قابعًا هنا من قبل أن نحضر.

فالتفت الرجل إلى أفراد جوقته وسألهم:

ـ ما رأيكم في مكابرة هٰذا الرجل؟

فقال الزمّار:

ـ يقتل القتيل ويسأل عن قاتله...

وقال الطبّال:

ـ إنّه مجنون، لا بدّ أن يكون مجنونًا مَن يرتكب جريمة كهٰذه.

وقالت الراقصة:

ـ ودفنها في الفريجدير على أمل أن تتحوّل إلى ديك روميّ!

فقال الشابّ مخاطبًا الرجل الغليظ:

ـ انظر إلى وجه الجثّة.

ـ لا تهمّني معرفته.

ـ إنّها جثّة أمّك!

فضجّت الجوقة بالضحك فصاح الشابّ:

ـ إنّها جثّة أمّ عبد الله.

فقال الرجل الغليظ بصوت ملتوٍ:

ـ أمّي ذهبت إلى مولد السيّد!

فأشار الشابّ إلى الجثّة وسأله في هياج:

ـ أليست هٰذه بأمّك؟

قالت الراقصة:

ـ كانت أمّه يا مجرم...

وقال الزمّار:

ـ أمّه ذهبت إلى مولد السيّد.

وقال الطبّال:

ـ إنّه يدّعي الجنون ليفلت من العقاب.

وصاح الرجل الغليظ:

ـ كيف تنبش القبر لتعبث بالجثث؟!

فهتف الشابّ:

ـ لن تفلتوا من يد العدالة.

فقال الزمّار:

ـ تقتل مدبّرة بيتك، يا لك من وغد خسيس.

وقالت الراقصة:

ـ قتلها كيلا يدفع لها أجرها.

وقال له الرجل الغليظ:

ـ الويل لك أيّها المجرم.

فصاح الشابّ متحدّيًا:

ـ أهٰذا ظنّكم حقًّا؟... إذن فاستدعوا الشرطة!

فضجّوا بالضحك، وقال الرجل الغليظ:

ـ نحن الشرطة ونحن القضاة...

فقالت الراقصة:

ـ فلنقدّمه إلى المحاكمة...

فقال الرجل الغليظ:

ـ بعد أن نفرغ ممّا كنّا فيه.

وتعالى هتافهم في حبور، ثمّ غادروا الحجرة وراء الرجل. أغمض الشابّ عينيه إعياء. تجنّب النظر نحو عروسه المنطرحة فوق المقعد. رفع الجثّة من الأرض فأرقدها فوق الكنبة وغطّى وجهها بخمار كان معقودًا حول رقبتها. انتقل إلى فتاته متمتمًا:

ـ كيف حالك؟

فقال بصوت ضعيف:

ـ سيقضون علينا قبل أن نقضي عليهم.

ـ من العسير أن يتخيّل إنسان ماذا تكون خطوتهم التالية فهم لا يخضعون لمنطق.

ـ علينا أن نجد حلًّا سريعًا.

ـ وأن نتوقّع ما يخطر بالبال وما لا يخطر.

ـ لن يتركونا أحياء.

فقال محتدمًا بالغضب:

ـ إذا لم يكن من الموت بدّ!

فهمست:

ـ هٰذا جميل، ولٰكنّنا نفضّل ألّا نموت.

ـ ولا أحد يريد أن يموت، من رأيي أن تستريحي قليلًا في حجرة النوم.

ـ وأنت؟

ـ لا أكفّ عن التفكير، وأردّد في نفسي بلا انقطاع: إذا لم يكن من الموت بدّ!

ـ هل يحاكمونك حقًّا؟

ـ لن يتورّعوا عن شيء.

ـ إنّه الكابوس.

ـ وربّما قتلوني كما قتلوا المرأة الطيّبة.

ـ ترى أهي أمّه حقًّا؟

ـ لن يغيّر من الأمر شيئًا.

فقالت بإصرار:

ـ يجب ألّا نموت كالأغنام.

ـ حتّى الموت، يجب أن ندافع عن أنفسنا حتّى الموت، وأن ندّخر لهم ضربة مذهلة إن أمكن.

ـ أريد أن أفعل شيئًا ذا بال أكثر من مجرّد انتظار نتيجة معركة.

ـ فكّري، فكّري لحسابك، نحن في موقف لا يجوز لأحدنا فيه أن يدّعي وصاية على آخر.

ـ أعترف لك بأنّني أتغلّب على الخوف بقوّة لم تكن متوقّعة.

ـ الموقف أكبر من الخوف.

ـ هٰذا حقّ.

ـ والحرص على الحياة خليق بأن يضيّع الحياة.

ـ قول جميل.

ـ يجب أن تكون لنا القوّة لتنفيذه، هٰذه هي مشكلة الأقوال الجميلة.

ـ ألديك خطّة جديدة؟

ـ لا أكفّ عن التفكير.

ـ وأنا أيضًا.

ـ المهمّ قوّة العزيمة إذا وُفّقنا إلى خطّة.

ـ مهما يكن من عواقبها...

وهي تتنهّد:

ـ كنت أحلم بشهر عسل بديع.

ـ انبذي الأحلام التي تُضعف الهمم.

ـ طيّب.

ـ استريحي قليلًا في حجرة النوم.

ـ أخشى أن يلاحظوا اختفائي إذا قدموا.

ـ إنّهم سكارى وهم يقصدونني أوّلًا.

قامت. قبّلته. مضت إلى حجرة النوم.

ومضت فترة قصيرة ثمّ دخل الرجل وجوقته. لمعت أعينهم بوهج الخمر وشعّت أساريرهم شرًّا.

وقفوا حيال الشابّ على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ. أشار الرجل إلى الجثّة وسأل:

ـ مَن قتل هٰذه المرأة؟

فأجابت الجوقة في نفس واحد:

ـ أنت يا معلّم!

ضحك وضحكوا. ثمّ سأل:

ـ بم تحكمون عليّ؟

فأجابوا:

ـ بالسلامة.

فضحك وضحكوا. ثمّ سأل:

ـ مَن الذي انتهك حرمة الجثّة؟

فأشاروا إلى الشابّ وقالوا:

ـ هٰذا المجرم.

ـ بمَ تحكمون عليه؟

ـ بالإعدام.

فرمى الشابّ بنظره وسأله:

ـ هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟

فلم يجب. نقّل بصره بين الجمع بسرعة وتحفّز وانتباه. وتوثّبت الجوقة للانقضاض لدى أوّل إشارة.

عند ذاك دوّت صرخة فظيعة في حجرة النوم، اندفعت الفتاة إلى الحجرة وهي تصيح:

ـ رجل في صوان الملابس!

وهتف كثيرون في دهشة:

ـ رجل!

وظهر الرجل في مدخل الحجرة. عملاق، عملاق ينطق وجهه البرنزيّ بالقوّة والتحدّي والاستهتار. تبادلوا نظرات ذاهلة، وغاضبة، وتأهّبوا للعواقب... لم يبدُ في وجه القادم الجديد أيّ ارتباك ولا خوف. بل تساءل بصوت أجشّ:

ـ مَن أنتم؟... وماذا جاء بكم إلى هنا؟

فسأله الشابّ بدوره:

ـ مَن أنت؟ وماذا جاء بك إلى هنا؟

أجاب العملاق ببساطة:

ـ إنّي في بيتي!

ـ بيتك!... لكنّه بيتي، وتحت يدي ما يثبت ذلك.

ـ لا أحبّ الهذر، إنّه بيتي وكفى.

فقال الرجل الغليظ بحقد:

ـ دجّال، أنت لصّ منازل حقير، سأتذكّر فورًا متى

رايتك أوّل مرّة. . .

ـ صه أيّها البلهوان وإلّا حطّمت أضلعك!

ـ أنت تقول ذٰلك يا لصّ المنازل؟

ـ مصارع موالد زائف، المصارعة الحقيقيّة شيء آخر، إنّي أعرفكم أيّها المهرّجون. . .

فقال له الشابّ:

ـ هٰذا بيتي، وأنت لصّ كالآخرين. . .

ـ أنت تهذي.

ـ سيحكم بيننا القانون. . .

ـ سأقذف بك من النافذة، هٰذا هو القانون الذي أعترف به. . .

فسألته الفتاة:

ـ إذا كنت صاحب البيت كما تزعم فلِمَ أخفيت نفسك في صوان الملابس؟

ـ أنا حرّ في بيتي، أرقد حيث يطيب لي.

ـ لا أحد يرقد في صوان الملابس.

ـ إنّه خلوتي المفضّلة ولست مسئولًا أمام أحد.

فقال الرجل الغليظ:

ـ أنت لصّ، لصّ منازل حقير، إنّي أعرفك.

ـ اخرس أيّها المهرّج الحقير.

فقال الشابّ:

ـ لندعُ الشرطة ولنترك لها الفصل في الأمر.

فقال العملاق بوضوح:

ـ لا أحبّ الشرطة.

فقال الشابّ غاضبًا:

ـ فأنت لصّ كما قال هٰذا القاتل.

ـ القاتل؟!. هل قتل أحدًا هٰذا المهرّج؟

ـ ها هي جثّة ضحيّته!

فمدّ العملاق بصره إلى الجثّة وقال بدهشة:

ـ أيّ تقدّم أحرزته يا مهرّج الموالد!.

ـ هي أمّه أيضًا!

ـ قاتل أمّه!. . . هٰذا شرف لا تستحقّه أيّها المهرج، من أين جاءك هٰذا الشرف؟.

فقال الرجل الغليظ بحنق:

ـ يا لصّ المنازل، احذر إثارة الزلازل!

فقال العملاق ساخرًا:

ـ أهلًا بالزلازل، هي دواء موصوف لصحّتي!

في أثناء ذٰلك مضت الفتاة تتسلّل ناحية المطبخ. . . خطوة فخطوة وعين الفتى تلحظها بقلق. وغطّى على تحرّكاتها بتوجيه الخطاب إلى الجميع قائلًا:

ـ ما أحوجنا إلى تحكيم نزيه، فهٰذا رجل يتوهّم أنّه قاضٍ وهو في الحقيقة قاتل، وذاك رجل آخر يزعم أنّه صاحب البيت وتؤكّدون أنّه لصّ منازل حقير، وأنا أقول إنّني صاحب البيت على حين يتّهمني هٰؤلاء بأنّني قاتل المرأة الطيّبة. فما المخرج من هٰذه الفوضى؟، لا مفرّ أن نستدعي الشرطة!

فقال العملاق باستهانة:

ـ سيقذف بنا اقتراحك إلى قعر بئر عميق.

ـ بل ليس أسهل من استدعاء الشرطة.

ـ ولكنّ المشاكل تبدأ بمجيئها، ستحرّر لنا محضرًا طويلًا عريضًا لا بداية له ولا نهاية، ثمّ تأمر بتحويلنا إلى النيابة، ويستمرّ التحقيق أيّامًا وأسابيع، مَن القاتل. . . مَن اللصّ. . . مَن صاحب الشقّة، ثمّ تأمر بتحويلنا إلى المحكمة، ويتقاذفنا الاتّهام والدفاع حتّى ننفق، ونؤجّل من جلسة إلى أخرى، ولن ينطق بالحكم حتّى يكون أوّل إنسان قد هبط فوق سطح القمر، وفي أثناء ذٰلك تُغلق الشقّة وتُختم بالشمع الأحمر فتصير نهبًا للحشرات والأشباح، لا تنس هٰذه السلسلة المعقّدة التي لا نهاية لها.

ـ ولكنّها حاسمة وعادلة!

ـ أيسر من ذٰلك أن تنقضّ على خصمك فتحطّم جدران بطنه بلكمة صادقة فيعترف لك بحقّك، ثمّ تتصافحان ويذهب كلاكما إلى حال سبيله.

وتقدّمت الراقصة خطوة وقالت:

ـ فيمَ تتناقشون والعُقَد محلولة بنفسها لا تحتاج إلى حلّال؟.

فقال العملاق ساخرًا:

ـ لنستمع إلى الغازيّة!

ولكنّها قالت بهدوء دون تأثّر أو غضب:

ـ لا حاجة بنا إلى البحث عن القاتل فقد حوكِمَ وقُضِيَ عليه بالإعدام!.

فقال الزمّار بحماس:

- وبإعدامه يبطل ادّعاؤه ملكيّة الشقّة.
وعادت الراقصة تواصل حديثها قائلة:
- وتصبح الشقّة ملكًا لنا جميعًا على قدم المساواة!
فابتسم العملاق لأوّل مرّة ولكنّه قال بعجرفة:
- لا أقبل المساواة!
فقال الرجل الغليظ بعجرفة مماثلة:
- وأنا أرفضها!
فقال العملاق:
- ليكن نصيب كلّ بحسب قوّته.
فقال الرجل الغليظ:
- ليكن...
فقالت الراقصة:
- الخير بين أيدينا أكثر من أن يحصى!

أحاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول إقناعه. وتنحّت الراقصة بالعملاق جانبًا لتلطّف من صلابته. أمّا الزوجة فقد رجعت خفية إلى موقف زوجها. وقفت لصقه وهي تدسّ شيئًا في جيبه. وراحا يراقبان الحشد الذي يتآمر على قتلهما ونهب بيتهما بغرابة. غير أنّ طارئًا سرى في الجوّ بخفّة كالهمس، رائحة ما، وشيء كالزفير أو الهسيس. وتفشّى في دفقات كالفحيح مفجّرًا رائحة مميّزة كالدخان. وانتشرت طقطقة مجنونة بسرعة غير متوقّعة فاقتحمت على المتآمرين خلوتهم. جذبت منهم بعنف أعينًا محملقة نحو ردهة المطبخ. وما لبثت أن غابت في سحابات من دخان تسبح فيها عناقيد من الشرر، وتلاطمت صرخاتهم في غضب:
- النار!
- حريقة في المطبخ!
- الشقّة في خطر.
- كلّ شيء في خطر.
- فلنطفئها بأيّ ثمن.

ودبّت حركة وحشيّة. ولكنّها لم تكن إلّا صدى خفيفًا لحركة رعديّة أطبقت على الطريق في الخارج. ارتفع الصياح. دقّ جرس الباب بلا انقطاع. انهال دقّ عنيف على الباب الخارجيّ. وهرع المتآمرون إلى ردهة المطبخ، غير أنّ العملاق مال نحو الشابّ فجأة وهو يصيح:
- لن أتركك حرًّا.

انقضّ على الشابّ. وإذا بالشابّ يفاجئه بضربة من سكّينة استلّها من جيبه فاستقرّت في القلب، وتهاوى على أثرها العملاق دون أن ينبس. لم تغب الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشابّ وهو يصيح:
- خيانة!

وفي الحال صرعه وبرك فوقه، ولكنّ الزوجة استلّت بدورها سكّينة مدسوسة في جيب معطفها وبكلّ قوّتها غرزتها في عنق الرجل.

وتتابعت الأحداث في سرعة البرق. تحطّم الباب الخارجيّ. اندفع منه رجال متهوّرون. ورنّ جرس المطافئ. وصفّارة النجدة. وارتطمت في الشقّة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت في معركة شاملة تحت ألسنة اللهب المندفع والماء المتدفّق وقطع الأثاث المتناثرة.



وفي المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحيّ جميعه. خلت الشقّة من الغرباء ولم يبق بها قائم، إن هي إلّا أشلاء مقاعد وحطام أجهزة ونفايات مفارش. جلس الزوجان على أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينجُ من مصابيحها إلّا شمعة واحدة شعّت ضوءًا شاحبًا. لم يخلُ وجهاهما ورأساهما من كدمات وتسلّخات وأورام خفيفة أمّا ملابسهما فقد تمزّقت في أكثر من موضع وتلوّثت بالسناج. جعلا ينظران فيما حولهما بوجوم ويتبادلان النظر. وفجأة أغرقا في ضحك هستيريّ ركبهما طويلًا حتّى رجعا إلى الصمت والوجوم. ورغم كلّ شيء فإنّ القلب لم يخل من ارتياح خفيّ، وامتنان. وتردّد صوته في إعياء:
- ضاع كلّ شيء.
فربّتت على كتفه بحنان وقالت:
- نجونا بأعجوبة!
فهزّ رأسه في تسليم وتمتم:
- أجل نجونا بأعجوبة.
ثمّ بنبرة وشت بنشوة طارئة:
- لم يضع شيء لا يمكن تعويضه.

العالم الآخر

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة في القهوة الوحيدة بالدرب. جميع المقاعد خالية في تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة احتلّت المعلّمة أحدهما وجلس على الآخر شابّ تابع لها. تبدّى بلاط الدرب الضيّق نظيفًا لم تطأه قدم بعد أمّا الشمس فتوارت وراء البيوت القديمة طارحة آخر دفقة من شعاعها على أسوار الأسطح المتآكلة. وعلى جانبي الدرب ـ أمام الأبواب المفتوحة ـ جلست نساء على كراسي خيزران في أزياء متهتّكة وزينة فاقعة، يدخّنّ، ويتبادلن الأحاديث. قالت المعلّمة لتابعها الشابّ:

ـ حياتنا خنوع واستسلام ودفع إتاوات، حتّى متى؟

فقال التابع، وهو متين البنيان في العشرين من عمره:

ـ حتّى تتهيّأ الفرصة للقضاء عليه!

ـ متى تتهيّأ الفرصة؟

ـ كلّ شيء بأوانه، وإلّا دمّرنا تدميرًا لا يُبقي ولا يذر.

ـ مهنة كالقطران، ادفع ادفع ادفع، للطبيب... للشرطيّ... للضابط... وكلّه كوم وشيخ البلطجيّة كوم وحده، هل قضي علينا أن نشقى بمهنة جزاؤها النار وبئس القرار لنبدّد مكاسبنا على كلّ مَن هبّ ودبّ!

ـ لكلّ عمل متاعبه.

ـ ما أكثر الذين يفوزون باللقمة الهنيّة بلا قرف...

ـ الصبر طيّب يا معلّمة...

فبصقت المعلّمة بازدراء وقالت:

ـ الليلة موسم، وعلينا أن نحقّق أكبر ربح بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجيّة!

ـ ستكون ليلة مباركة...

ـ همّتك، فتّح عينك، خذ بالك من النسوان...

ـ اطمئنّي يا معلّمة، ولكنّ الرجل المرعب سيمرّ آخر الليل ليأخذ الإتاوة...

ثمّ وهو يشير ناحية الفتاة التي ترقص داخل القهوة:

ـ وليجرّ وراءه أجمل بنت عندنا!

فتنهّدت المعلّمة قائلة:

ـ حسبي الله، ولكنّ أمامها ليل طويل قبل ذلك تستطيع أن تحوّل ساعاته إلى ذهب!

وقام التابع فدخل القهوة. أشار إلى الجوقة فكفّت عن العزف. أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها جانبًا بعيدًا عن الأنظار. وفي تلك اللحظة ظهر في مدخل الدرب شابّ يافع يدلّ مظهره على أنّه تلميذ أو طالب. ألقى على الدرب نظرة استغراب، ونقّل عينيه بين النسوة في دهشة واضحة. تردّد مليًّا، استعدّت كلّ امرأة لاستقباله بحركة ترحيب، لكنّه ألقى ببصره فيما أمامه بلا فهم أو مبالاة وتقدّم نحو القهوة. حيّا المعلّمة برفع يده إلى جبينه ثمّ سألها بأدب:

ـ أين صاحب القهوة؟

سألته بدورها وهي تتفحّصه بإمعان:

ـ ماذا تريد منه؟

ـ أريده لأمر هامّ.

فأشارت إلى نفسها وهي تقول:

ـ محسوبتك صاحبة القهوة.

تساءل بدهشة:

ـ حضرتك؟

ـ حضرتي!!

وضحكت ضحكة عالية ثمّ قالت:

ـ بشرى لنا، السماء تمطر أدبًا!

ـ لا مؤاخذة، أرجو ألّا أكون أخطأت.

ـ لا سمح الله ولكن خيّل إليّ بادئ الأمر أنّك زبون نهاريّ!

ـ زبون نهاريّ؟!

ـ ما علينا، ماذا تريد من صاحبة القهوة؟

فقال الشابّ بجدّيّة:

ـ يجب أن أقدّم نفسي أوّلًا، أنا مندوب لجنة الطلبة...

ـ لجنة الطلبة؟

ـ اللجنة العامّة للطلبة...

فتساءلت مازحة:

ـ ولِمَ لَمْ تجئ معك باللجنة لتقضي سهرة الموسم

عندنا؟

فقال بجدّيّة مضاعفة:

ـ نحن مندوبو اللجنة انتشرنا في أنحاء القطر للدعوة إلى قرار خطير!

ـ قرار خطير؟

ـ تعلمين حضرتك أنّ غدًا هو الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاء دستور الأمّة؟

فقالت وهي ما زالت تتفحّصه بذهول:

ـ حضرتي لم تعلم.

ـ دستور الأمّة!

ـ دستور يا أسيادي.

ـ الموضوع لا يحتمل المزاح.

ـ أليس المزاح أفضل من الجدّ؟

ـ الموقف خطير والضحايا يتساقطون كلّ يوم بالعشرات!

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ـ والوطن يطالبنا...

فقاطعته:

ـ ما الذي جاء بك إلى هٰذا الدرب؟

ـ وقع شارع كلوت بك في قرعتي، مررت على المحالّ والدكاكين والمقاهي فوجدت استجابة شاملة، سيغلقون الأبواب جميعًا بلا استثناء غدًا، وأنا عائد من مهمّتي تنبّهت إلى هٰذه العطفة التي لم ألحظها في مروري الأوّل...

ـ ألم تدخلها من قبل؟

ـ كلّا يا سيّدتي.

ـ لِمَ لَمْ توجّه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام الأبواب؟

ـ على فكرة، لِمَ يجلسنّ بهٰذه الصورة المنافية لتقاليدنا؟

ـ اجلس، اجلس واشرب شيئًا، أشهد الله أنّك أظرف شابّ قابلته في حياتي!

ـ لا وقت عندي، أشكرك واعتذر، عليّ أن أمرّ على بقيّة المحالّ في الدرب.

ـ لا يوجد فيها إلّا قهوتي.

ـ حقًّا؟. إذن فقد انتهت مهمّتي، ولكنّك لم تعديني بشيء!

ـ أيّ وعد؟

ـ بخصوص الإضراب العامّ المزمع تنفيذه غدًا؟

ـ ماذا تريد؟

ـ أن تغلقي القهوة غدًا.

ـ سبحان الله، لِمَ؟

ـ احتجاجًا على إلغاء الدستور.

فضحكت المعلّمة وقالت:

ـ عشنا وشفنا!

ـ لم يعترض أحد، حتّى الخواجات!

فغمزت له بعينها وسألته متهكّمة:

ـ أأنت وحيد مامتك؟

فقال وهو يداري استياءه:

ـ لا وقت للمزاح، ولا للخروج على الإجماع.

فهتفت المعلّمة بحدّة لأوّل مرّة:

ـ يا دافع البلاء يا ربّ، لا يكفينا رجال الحكومة والبلطجيّة حتّى ينضمّ إليهم مندوب الطلبة والدستور!

ـ الزعيم نفسه سيطوف بأنحاء القاهرة ليتفقّد حال الإضراب بنفسه!

ـ الزعيم سيشرّفنا هنا؟

ـ بشخصه!

ـ أهلًا به وسهلًا، سنفتح له الأبواب بالمجّان!

ـ موقفكِ غير مفهوم يا هانم!

ـ هانم!

وأغرقت في الضحك:

ـ موقفك غير مفهوم!

ـ أقسم برأس أمّي أنّ الإنجليز سيخرجون من مصر قبل أن تفهم أنت أيّ شيء.

فقال الشابّ بنبرة لم تخلُ من تهديد:

ـ أخشى أن يتعرّض الخارجون عن الإجماع لغضب الشعب!

ـ نحن نخدم الشعب من قبل أن تولد لجنة الطلبة.

ـ حتّى النساء سيشتركن في مظاهرات الغد.

أجالت المعلّمة عينيها بين النساء القابعات أمام البيوت وصاحت بهنّ:

ـ اهتفن معي... يحيا الإضراب...

وهتف أكثر من صوت:

ـ يحيا الإضراب.

ثمّ ضجّ الدرب بالضحك. وإذا بالتابع يرجع على صوت الهتاف. ولّما رأى الشابّ ارتسمت الدهشة في أساريره. وتنبّه الشابّ إليه فبادله دهشة بدهشة. هرول كلّ منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة. وقال الشابّ:

ـ لا أصدّق عينيّ...

فقال التابع:

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

وعند ذاك سألته المعلّمة:

ـ تعرفه؟

ـ جار العمر، وزميل من أيّام المدرسة...

فقالت ساخرة:

ـ بسلامته يطالبنا بالإضراب غدًا احتجاجًا على إلغاء الدستور!

فضحك التابع ضحكة عالية وقال:

ـ والله زمان!... فكّرتنا بالذي مضى!

وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسيّ جنبه. وهنا قامت المعلّمة وهي تقول للتابع:

ـ أنا ذاهبة، فتّح عينك...

مضت خارج الدرب وقد وقفت النساء لها على الجانبين. التفت التابع نحو الشابّ قائلًا:

ـ متى رأيتك لآخر مرّة؟

ـ منذ عامين، بل أكثر، أين اختفيت كأنّك هاجرت إلى الخارج؟

ـ وأنت... ألا زلت غارقًا في السياسة؟... ولكن كيف تريد لهذا الدرب أن يضرب؟!

ـ إنّه أعجب مكان رأيته في حياتي...

ـ أما زلت تذاكر وتنجح وتشترك في المظاهرات؟

ـ وأنت!... أين أنت؟... كم أوحشتني!

ـ يخيّل إليّ أنّك نسيتني!

ـ أبدًا، حتّى والدك نفسه وانتني الجرأة مرّة على أن أسأله عن مكانك...

فضحك التابع وتساءل:

ـ وكيف أجابك؟

ـ نهرني، وحذّرني من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه!

ـ وكيف حال أسرتي؟

ـ بخير، ولكن لِمَ انقطعت عن زيارتهم؟

ـ أليس لديك فكرة عن حيّنا هذا؟

ـ ولا عن أيّ شيء سوى الكتب والدستور! باختفائك فقدنا أبهج صديق!

ـ لعلّك الوحيد من العالم الآخر الذي كنت أحنّ إلى رؤيته...

فنظر الشابّ فيما حوله وقال:

ـ أوضح ما غمض عليّ أمره في هذا الدرب.

ـ لكلّ شيء وقته، لا تتعجّل!

ـ أتقيم هنا؟

ـ نعم.

ـ أتعمل هنا؟

ـ نعم.

ـ وهؤلاء النسوة؟

ـ لطيفات وطوع الأمر!

ـ مظهرهنّ فاقع مبتذل.

ـ بدأت تفهم.

ـ حقًّا!

ـ وتطالبهنّ بالإضراب؟!

وضحك عاليًا. وهمّ الشابّ بالكلام ولكنّ الموسيقى عزفت بالقهوة فعادت الفتاة إلى الرقص. وانجذبت عيناه إليها بقوّة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب. ثمّ شعر بعيني التابع تتجسّسان عليه فابتسم مرتبكًا بعض الشيء وتمتم:

ـ فتاة جميلة!

ـ حقًّا؟

ـ من الطراز الذي يستهويني!

ـ ترى ما نوع هذا الطراز؟

ـ يصعب تعريفه، ولكنّها ترقص في قهوة خالية!

ـ مجرّد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد.

وتوقّف العزف والرقص. وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع. وحمل إليها صبيّ

فنجال قهوة فراحت تحتسيه بتمهّل وتلذّذ لا مبرّر له. حانت منها التفاتة إلى الشابّ الجديد فضبطت عينيه الصافيتين وهما ترنوان إليها بإعجاب لا خفاء فيه. وفي الحال وهبته عينيها بسخاء أذلّه وأثمله فقال التابع وهو يتابع الحكاية باهتمام موجّهًا خطابه للراقصة:

ـ صديقي معجب بك!

فقالت ببسالة:

ـ أرجو إبلاغه إعجابي أيضًا!

فتساءل التابع ضاحكًا:

ـ من أوّل نظرة؟

ـ نظرة كفاية وفوق الكفاية!

فقال الشابّ في تلعثم:

ـ لا شكّ أنّي سعيد الحظّ...

فقالت الفتاة باسمة:

ـ ما أجمل أن أرى وجهًا يحمرّ خجلًا!

فقال التابع للشابّ بتحريض:

ـ أثبت رجولتك!

فغمغم الشابّ بأصوات مبهمة حتّى قالت الراقصة مازحة:

ـ تاتا... تاتا... خطّ العتبة!

فنهرها التابع قائلًا:

ـ شجّعيه ولا ترعبيه!

فأعطته الفنجال بعد أن فرغت منه وهي تقول:

ـ شف لي بختي...

فقلب الفنجال فوق الطبق ثمّ مضى يقرأ ما بداخله، قال:

ـ أمامك ليلة موسم طويلة غنيّة الموارد...

ـ وماذا أيضًا يا سيّدنا الشيخ؟

ـ في نهايتها يطرق بابك شيطان ليخطف روحك.

ـ ألا ترى في طريقه رجلًا جديرًا برجولته؟

فاكفهرّ وجه التابع وأعاد الفنجال إلى الطبق، ولكنّها ربّتت على ذراعه ملاطفة ثمّ سألته بنبرة جادّة:

ـ ماذا أعددتم له؟

ـ ذهبت المعلّمة لتجهّز له الإتاوة...

ـ متى يحضر؟

ـ قد يمرّ في أيّ ساعة لكنّنا لا ندري متى ينزل بقهوتنا!

فقالت بحنق:

ـ سيأخذني معه ولا يدري أحد متى أعود!

ـ لا تحدّثيني عن ذلك...

فسألت الراقصة الشابّ راجعة إلى الدعابة:

ـ وأنت... ألن تدافع عن حبيبتك؟

فتساءل الشابّ:

ـ عمّ تتحدّثين؟

ولكنّ التابع بادره قائلًا:

ـ إن كنت تحبّها حقًّا فهي لك!

ـ لي؟!

ـ النظرة والحبّ والتنفيذ تحدث في دربنا في ساعة واحدة!

ـ أفندم؟

وقبل أن يجيبه تراءت المعلّمة في أوّل الدرب. سارت بعجلة إلى داخل القهوة وهي تومئ إلى الراقصة فتبعتها في الحال. تبادل الصديقان نظرة طويلة ثمّ قال التابع:

ـ الظاهر أنّك وقعت!

ـ ليس الأمر كما تتصوّر! إنّها فتاة جذّابة وفي عينيها نظرة بريئة!

ـ بريئة!

ـ بكلّ معنى الكلمة.

ـ ألك ثقة في فراستك؟

ـ قلبي لا يخطئ.

ـ هنيئًا لك موهبتك ولكن ألا ترغب في شيء من الترفيه قبل أن تخوض جهاد الغد؟

ـ يبدو أنّك لم تعد تهتمّ بالسياسة!

ـ خلّنا فيما نحن فيه، ألا ترغب في شيء من الترفيه؟

ـ ألم يعد يهزّك حدث مثل إلغاء الدستور؟

ـ انظر إلى دربنا العجيب، تأمّله لتتذكّره فيما بعد، فيه تسعد النفس بجميع محرّمات العالم الآخر، مثل الحبّ، والحرّيّة والاحترام!

ومال فوق أذنه وراح يهمس له وكأنّما ينفث في أساريره الذهول. وهتف الشابّ:

- فوق العقل!... ولٰكن ماذا تفعل هنا؟
- أقيم هنا كما قلت لك.
- ولٰكن...
- ألا ترى في عينيّ نظرة بريئة؟
فضحك الشابّ وقال:
- إنّه مكان عبور لا مكان إقامة!
- لكلّ قاعدة استثناء كما قيل لنا في المدرسة!
- مَن يتصوّر أنّك ابن أبيك الرجل الطيّب!
فبصق بازدراء وقال:
- اللعنة على الجميع!
وحلّ صمت فاتّخذا منه هدنة للتفكير ثمّ قال التابع بنبرة خلت من المزاح أو السخرية لأوّل مرّة:
- إنّي أكره العالم الذي جئت منه، هجرته بلا أسف عليه، وإذا ذكرته فإنّما أذكر عنف أبي وغباءه، وسجن المدرسة الرهيب، وهراوات الشرطة، وما إن اهتديت إلى هٰذا المكان حتّى أدركت أنّني ولجت أبواب الجنّة!
- الجنّة!... أيّ جنّة؟!
- هنا يتقرّر مصيرك بقوّة رأسك، ويتحدّد مركزك الماليّ بجرأتك، وتقرّر سعادتك بطاقة حيويّتك، لا زيف على الإطلاق، اعتبرني الآن رئيس وزراء يعترض طريقه رجل خطير فإذا تغلّبت عليه يومًا ما تُوّجت ملكًا!
فضحك الشابّ قائلًا:
- عاش الملك!
- ما الأمل الذي تشقى من أجله؟، وظيفة حقيرة في حكومة حقيرة!، ثمّ إنّك عبد مضطهد، الاضطهاد يطبق عليك في بيتك، ويطاردك في الخارج، وكلّ عام أو عامين يتصدّى لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم لحمك ويهشّم عظامك...
- أترى أنّ الحلّ أن أحمل متاعي وأقدم إلى هنا؟
فقال التابع معاودًا سخريته:
- ذاك مطمح فوق قدرتك!
- ولٰكن...
- ولٰكن؟
- ولٰكن رُبّ زيارة من آن لآخر تنفع ولا تضرّ!
- في هٰذا ما يكفي في الوقت الحاضر!
وغادرت المعلّمة القهوة. هرع التابع إليها فقالت له:
- إنّي ذاهبة مرّة أخرى، سأوفّق بإذن الله، انتبه، وإذا مرّ قبل أن أرجع فتصرّف بحكمة، إيّاك والتهوّر وإلّا هدمت الدرب فوق رءوسنا!
ذهبت المعلّمة. عادت الراقصة إلى مجلسها. ومضت فترة قبل أن يسترجعوا جوّهم السابق. وتساءلت الفتاة:
- هل قرأت البخت لصديقك؟
- نعم، في طريقه بنت حلوة ورخيصة.
- هل تشبهني هٰذه البنت؟
- لا أدري، لم يبدُ في الفنجال إلّا جسمها العاري وحده!
ومالت الراقصة بغتة نحو الشابّ فقبّلت خدّه. ضحك التابع وقال:
- قم... لا تؤجّل عمل اليوم إلى غد، فإنّ يوم الدستور غدا!
ونهض التابع ومضى إلى داخل القهوة وهو يقول:
- سآمر لكما بكأس كونياك على حسابك!
جعل الشابّ يبادلها النظرات. رأى حلية في عنقها فمدّ يده إليها وقرّبها من وجهه. ابتسم متسائلًا:
- صورة مَن؟
قطّبت الفتاة مأخوذة ولٰكنّه قال دون أن يلاحظ شيئًا:
- طفل جميل، مَن هو؟
تبدّى التأثّر في وجه الفتاة حتّى اغرورقت عيناها على رغمها.
- ربّاه... مالك؟
أشاحت عنه بوجهها وهي توشك أن تنهار تحت موجة بكاء عاتية.
- آسف... آسف لا تؤاخذيني!
وعاد التابع بالكأسين فوضعهما على الخوان متمتمًا «عشرة قروش فقط ما أجمل عيونك» ثمّ تنبّه إلى الفتاة فتساءل:
- تبكين؟!

شرح الشابّ له ما غمض عليه بإشارة من يده إلى الحلية فاكفهرّ وجه التابع وهوى بكفّه على خدّها بوحشيّة غير متوقّعة غير مبالٍ بما تولّى الشابّ من ذعر وذهول. وهتف بها:

- تقيمين مأتمًا للزبائن في ليلة الموسم!... اشربي!

تناولت الفتاة الكأس لتجرّعته دفعة واحدة وقدّمت الأخرى إلى الشابّ ولكنّه تراجع قائلًا بعصبيّة وحدّة:

- كلّا!

فقال له التابع:

- خذه معك إلى الحجرة!

- الحجرة؟

- ستذهبان معًا إلى ذٰلك البيت القريب.

- كلّا!

- لا تتأثّر كالأطفال، انسَ ما رأيت بسرعة، اذهب، لن تندم أبدًا، البنت مدهشة، والبكاء ما هو إلّا حيلة نسائيّة مشهورة...

وهرولت الفتاة إلى البيت وهي تقول بإغراء:

- اتبعني، تاتا... تاتا... خطّ العتبة!

وقال له التابع:

- قم قبل أن يجيء الليل وتتقاطر أفواج الزبائن.

فقال بإصرار:

- كلّا.

- كفّ!... أنسيت الطراز الذي يستهويك؟.

- لا رغبة لي على الإطلاق...

- لا تعقّد الأمور.

- دعني من فضلك.

- لقد سجّل في حسابها أوّل زبون فلا تتسبّب لها في ضرر.

- سأدفع ما تطلبه ولكنّي لن أذهب.

- عشرة قروش، هٰذا حسن، ولكنّك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب كاللبن!

- ولكن... أنت... كيف هان عليك أن تلطمها بتلك القسوة؟... ألست وليّ أمرها؟

- إنّي وليّ أمرها... وأعمل لصالحها ولصالح الكلّ.

- أتعدّ بكاءها على وليدها جريمة؟

- لا وقت هنا للبكاء... إنّي الأمين على الصالح العامّ!

فضحك الشابّ على رغمه وقال:

- إنّك تذكّرني بفعل وكلمات الطاغية!، لشدّ ما تغيّرت!

- كفّ عن التفلسف والحق بها...

- لشدّ ما تغيّرت...

- لا تقسُ في الحكم عليّ، إنّ أيّ ضعف يعترينا هنا إنّما يعني هلاكنا!

- وماذا يضطرّك إلى الإقامة هنا؟

- مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر...

- ما هو إلّا مزاح!

- حقًّا!... أنسيت؟... أليس الطاغية يحكمكم؟، والشرطة تجلدكم؟، والجيش يحصدكم؟، والإنجليز يتربّعون فوق رءوسكم؟، لا أحد يحكمني هنا، وأنا لا أستعمل القوّة إلّا دفاعًا عن الصالح العامّ...

فقال الشابّ وهو يلوّح بيده في أسى:

- وجئت بغبائي لأطالبكم بالإضراب غدًا!

- دستورنا هنا لم يُلْغَ ولا يمكن أن يُلغى، إنّه دستور أبديّ، وهو يقضي بأن نعمل لا أن نضرب، أن نعمل لا أن نبكي موتانا، ووراء هٰذه الجدران المتداعية نقدّم لأمثالك السعادة التي يحلمون بها.

فقال الشابّ كالحالم:

- واأسفاه... لِمَ أعجز عن تحقيق ما أريد؟

- ماذا تريد؟

ولّما لم ينبس عاد يسأله:

- ماذا تريد؟

فأجاب بصوت حالم أيضًا:

- أشياء كثيرة، ما يهمّني منها الآن أن أرجع تلك الفتاة إلى العالم الآخر!

فضحك التابع وقال:

- لقد كانت هنالك ولم تجد مناصًا من هجره والمجيء إلى هنا...

- من الممكن أن تتوفّر لها حياة مستقرّة هنالك...

- صدّقني لقد لاذت بنا كما يلوذ الغريق بصخرة!

وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثمّ صاح: «إبليس». وفي الحال انفجرت في الدرب حركة شاملة. هرعت النساء إلى داخل البيوت وأغلقن الأبواب. قبض التابع على ذراع الشابّ واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها. في ثوانٍ خلا الدرب تمامًا وشمله الموت. ومرّت دقيقتان ثمّ ظهر الفتوّة وسط عصابة مدجّجة بالنبابيت. ألقوا على المكان الخالي نظرة استعلاء وساروا على مهل في خيلاء. ساروا يرجّون الأرض بوقع أقدامهم الثقيلة وارتطام نبابيتهم بالبلاط. مضى الزحف وئيدًا حتّى اختفوا وراء المنعطف ومرّت دقائق والدرب مستسلم للموت. حتّى ظهر القزم مرّة أخرى وصاح «أمان».

ورويدًا رويدًا أخذت الأبواب تفتح والحركة تدبّ واللغط يعلو. كما عاد التابع والشابّ إلى مجلسهما حول الخوان. وقال التابع بهدوء:

- مناورة، ما هي إلّا مناورة، وعندما سيعود سيجد الإتاوة جاهزة!

وانتابت الشابّ نوبة ضحك هستيريّة:

- ماذا يضحكك؟

- فكّرت أن لو حصل الإضراب غدًا بهٰذه الصورة فسيكون أكبر مظاهرة وطنيّة...

- إنّه يناور ونحن نناور!

- إنّه الخوف يا صديقي.

- لا تحكم بالظاهر.

- لستم أفضل حالًا منّا!

- قياس مع الفارق، ثق من أنّني سأضربه ذات يوم!

- وتصبح عند ذاك الطاغية!

- لقد نالها عن جدارة وسأنالها عن جدارة أمّا في العالم الآخر فالطاغية يطغى استنادًا إلى قوّة أسياده.

- أأنت راضٍ عن نفسك حقًّا؟

- ثمّة أمل دائمًا لا يغيب!

- يا للخسارة، لقد كنت تلميذًا ذكيًّا ولكنّك كنت عدوّ الاجتهاد!

- الحمد لله، فلو كنت مجتهدًا لمضيت في طريقك حتّى أدفن في إدارة من إدارات الحكومة!

وهنا عادت الراقصة إلى مجلسها وهي تقول مخاطبة الشابّ:

- خيّبت ظنّي!

فقال لها التابع بخشونة:

- الفضل لدموعك الحارّة.

فقال الشابّ برجاء:

- لا تعُدْ إلى ذٰلك.

فقال لها التابع:

- استعدّي للرقص...

فقالت بإشفاق:

- إنّي متعبة!

فضحك ضحكة عالية وقال:

- متعبة في ليلة الموسم!

- إليّ بكأس كونياك...

- اطلبيه من عاشقك!

وأدرك الشابّ المقصود فقال:

- هاتِ لها كأسًا!

ذهب التابع. نظر الشابّ إليها باهتمام ورثاء وقال:

- ثمّة شيء في عينيك، أنت متعبة حقًّا...

- أعراض عابرة سرعان ما تزول.

- يخيّل إليّ أنّ هٰذا الدرب ليس بالمكان المناسب لك!

فقالت بسخرية:

- ربّما، لعلّ المكان الأنسب هو السجن أو القبر.

- أعوذ بالله!

- أليس الأفضل أن تذهب إلى الداخل لنغيّر المكان والحديث؟

فتردّد الشابّ قليلًا ثمّ قال:

- في وقت آخر...، ولكن... أنت متعبة حقًّا.

- حقًّا!؟

ووقفت فجأة كأنّما تنتزع نفسها من كابوس. وخبت نظرة عينيها. وأخذت تتنفّس بعمق وبجهد كأنّما تحشر الهواء في قناة مسدودة. وقف منزعجًا واقترب منها خطوة ولكنّها أشارت إليه أن يبتعد. خاضت معركة

مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء. ثمّ انقشعت السحابة السوداء فاستردّت العين نظرتها المألوفة. تنهّدت. ابتسمت في استسلام. ثمّ انحطّت فوق مقعدها. غمغمت:

ـ لا شيء.

ـ ولٰكنّك...

ـ انتهى.

ـ أأنت بخير؟

ـ نعم، اجلس...

جلس وهو لا يحوّل عنها عينيه.

ـ أعتقد أنّه يلزمك راحة طويلة.

ـ تلزمني راحة أطول ممّا تتصوّر!

ـ وهل تستطيعين أن ترقصي؟

ـ أستطيع، لا أستطيع، سيّان!

وشحب لونها من جديد. وخبت نظرتها.

ـ أنت متعبة يا عزيزتي!

ـ حقًّا! وماذا بعد؟، الطريق طويل.

ـ دعي الأمر لي.

ـ طريق طويل، أطول ممّا تتصوّر.

ـ حالتك تزداد سوءًا.

ورجع التابع يحمل كأسين في يديه ويدندن، وقال وهو يلقي عليهما نظرة باسمة:

ـ كعروسين في شهر العسل.

فقال له الشابّ:

ـ إنّها ليست على ما يرام.

فقطّب متسائلًا وهو يحدجها بنظرة ارتياب:

ـ عادت للبكاء؟

ولٰكنّه قرأ في صفحة وجهها شيئًا جديدًا. قدّم لها كأسًا ولٰكنّها أطاحت به ضجرة فوقع على البلاط وتحطّم مختلطًا بسائله. وتأوّهت بعمق طارحة رأسها على مسند الكرسيّ. وصادف ذٰلك قدوم المعلّمة فنظرت إليها عابسة وتساءلت:

ـ مالها؟

فقال التابع وهو لا يحوّل عن الراقصة عينيه:

ـ أزمة كالعادة!

ـ هل تعاطت شيئًا؟

أغمضت الراقصة عينيها متدهورة تمامًا فهتفت المعلّمة بالتابع:

ـ أدركنا بكوب ماء بالملح... أسرع.

وقال الشابّ للمعلّمة:

ـ يجب استدعاء طبيب!

فصاحت المعلّمة بحنق:

ـ انتهينا من الدستور وسندخل في الطبّ.

ورجع التابع بالكوب. ولٰكنّ الراقصة تقلّصت بحركة عنيفة ثمّ تهاوت ساقطة على الأرض.

أسرع الشابّ إليها ولٰكنّ التابع كان أسرع منه. عكف عليها يربّت على وجهها ويدلّك خدّيها وصدرها. قرّب وجهه من فيها. جسّ نبضها. رفع وجهًا جامدًا ذاهلًا، منهزمًا لأوّل مرّة وتمتم:

ـ ماتت!

ـ ماتت!

فندّت عن المعلّمة صيحة خافتة يائسة وقالت:

ـ أنت أعمى.....

فأعاد الكرّة ثمّ قال ببرود:

ـ ماتت يا معلّمة!

ـ يا خبر أسود!

وهتف الشابّ:

ـ خطأ، يجب استدعاء الإسعاف.

فقال التابع بوحشيّة:

ـ اصمت، لقد ماتت.

فهتفت المعلّمة:

ـ في ليلة الموسم!... يا له من حظّ أسود من الليل.

وقال الشابّ بعناد:

ـ إنّها حيّة!

فصاحت المعلّمة في وجهه:

ـ ألا تفهم يا طلعة الشؤم!

ـ ولٰكن كيف؟

ـ إنّك تخاطبني كما لو كنت قابضة الأرواح.

ثمّ التفتت إلى التابع وسألته:

ـ هل تعاطت شيئًا؟

ـ كلّا...

ـ هو قلبها إذن؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ لو يكن بسبب تعاطي شيء فسنقع في س و ج.

ـ كلّا، ولكن ما العمل الآن؟

فقالت المعلّمة:

ـ فلنحملها إلى حجرتها أوّلًا.

وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت.

وتساءلت امرأة:

ـ مالها يا معلّمة؟

فأجابت المرأة بلا تردّد:

ـ مسطولة!

ودخل الموكب البيت بين ضحكات تتجاوب على الجانبين. وما لبث الأصيل أن ولّى تمامًا ومضى الظلام يهبط ماحيًا كلّ شيء. أشعلت الأنوار. بدأ الروّاد يحضرون فرادى وجماعات. عزفت الجوقة ودبّت في الأركان حياة صاخبة معربدة. ورجعت المعلّمة وتابعها والشابّ فجلسوا حول الخوان المعدنيّ في وجوم باديء الأمر، ولكنّ المعلّمة سرعان ما قالت:

ـ ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسمًا.

ثمّ بنبرة متشدّدة منذرة:

ـ لا يجوز بحال أن يفطن أحد إلى سرّ الحجرة المغلقة...، وإذا سأل سائل عنها فهي مشغولة بزبون!

وتنهّدت بحنق وواصلت حديثها:

ـ لو عرف أنّ الموت قابع بالبيت لما طرقه طارق حتّى القيامة!

فقال الشابّ غاضبًا:

ـ ولكنّه تصرّف أبعد ما يكون عن الإنسانيّة...

فقالت المعلّمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشابّ:

ـ تكفّل بصديقك، أنت مسئول عنه، ولا جدوى من تصرّف إنسانيّ يقضي علينا بالخراب العاجل، سيجيء دورنا يومًا ما ولن تبكينا عين، سنشيّع باللعنات حتّى من زبائننا، الليلة موسم، فلنتمص بالبهجة والحبور!

فقال التابع:

ـ لا تخشي من جانب صديقي.

فقال الشابّ:

ـ ولكنّه وضع لا يقبله عقل.

فقالت المعلّمة:

ـ لم يحدث شيء غير طبيعيّ، وليس في قدرتنا أن نردّ الأرواح إلى أجسادها.

ـ ولكن شتّان بين القسوة والرحمة!

فقال التابع:

ـ ليسَ إلّا أنّنا نؤجّل إعلان وفاة!

ـ ولكنّ للموت احترامه!

فهتفت المعلّمة بنفاد صبر:

ـ احترام الموت بعد الدستور والطبّ!

فقال التابع معتذرًا عن صديقه:

ـ لعلّه يلتقي بالموت لأوّل مرّة في حياته.

فقالت المعلّمة للشابّ:

ـ لا تطالبنا بالتفريط في الحياة باسم احترام الموت، ابقَ لصق صديقك حتّى تنتهي السهرة، واحتفل بالموت بعد ذلك ما شاءت لك إنسانيّتك!

فقال التابع:

ـ دعي الأمر لي يا معلّمة!

ـ ربّنا يستر.

ـ جهّزت الإتاوة؟

ـ نعم...

ـ وإذا طالب بالراقصة؟

ـ لن يطالب قبل نهاية السهرة، وله إن شاء أن يقاتل عزرائيل عند ذاك...

وقامت وهي تبسط وجهها فمضت إلى القهوة هاتفة:

ـ يا جمال الرقص يا جماله!

ورمق الشابّ التابع بمرارة ثمّ قال:

ـ لشدّ ما تغيّرت!

فقال التابع بوجوم:

ـ لا تبالغ يا عزيزي...

ـ جثّة ملقاة في الداخل والعربدة دائرة في الخارج!

ـ لا مفرّ، للعمل ساعة وللموت ساعة.

ـ إنّي حزين، بودّي أن أفعل شيئًا.

ـ حسن، أعد إليها الحياة.

ـ يا لكم من وحوش!

ـ أتذكر كيف كان يلقى بضحايا المظاهرات في القبور بملابسهم حتّى لا يشملهم الإحصاء الرسميّ؟!

ـ إلى الجحيم بكلّ شرّير وبكلّ شرّ!

ـ ما زالت دنيانا أفضل.

فقال الشابّ بضيق:

ـ عن إذنك، أريد أن أذهب.

ـ كلّا.

ـ كلّا؟

ـ المعلّمة لا تسمح بذٰلك.

ـ لتذهب المعلّمة إلى الشيطان!

ـ لقد وجدت نفسك في دربنا فلتتمّ التجربة!

ـ بي غثيان منه.

ـ خذ الأمر ببساطة ولو من أجل خاطري!

وساد الصمت بينهما ولٰكنّ صخب العربدة انهال عليهما من الأركان كالصواريخ، ورغم الزياط سمع صوت الشابّ وهو يتمتم:

ـ يا لها من شابّة تعيسة!

فقال التابع ملاطفًا:

ـ كانت مريضة بالقلب.

ـ لم تنعم بحياة هادئة تناسبها.

ـ ذٰلك أنّه لم يكن من الجائز أن تموت جوعًا.

فقال الشابّ منفعلًا:

ـ إنّي أحتقر برودك.

فقال ضاحكًا:

ـ إنّي أحتقر حرارتك!

ـ دعني أذهب.

ـ غير ممكن، إنّها تخشى أن تبلّغ عن الجثّة.

ـ أيعني ذٰلك أنّني سجين؟!

ـ أنت ضيف صديقك القديم.

ـ يجب أن أستيقظ مبكّرًا، أمامنا يوم جهاد عصيب!

ـ يسرّني أن أنقذك من الرصاص الذي يُعَدّ الآن لأمثالك.

ـ أنا لا أخشى الموت.

ـ ولٰكنّك تحترمه أكثر ممّا ينبغي.

رفع رأسه إلى نافذة الحجرة الرهيبة وقال:

ـ جثّة منسيّة، بلا أهل ولا أصدقاء ولا رحماء.

ـ لم تعد بحاجة إلى أحد.

وظهر القزم وهو يصيح «إبليس». خرجت المعلّمة فجلست بين الشابّ والتابع. سرعان ما سدّ موكب الفتوّة مدخل الدرب. ولّما وصل إلى القهوة قامت المعلّمة وتابعها لاستقباله. قالت بأدب لأوّل مرّة:

ـ تحيّة لسيّد الرجال.

ـ موسم طيّب بإذن الله.

وضعت صرّة في يده وهي تقول:

ـ بفضل الله وبفضلك...

ـ وأين البنت؟

ـ مع زبون!

ـ أرسلي في طلبها.

ـ ستكون بين يديك في نهاية الليلة.

ـ سأنتظر في القهوة ساعة واحدة...

ـ ولكن...

ـ ساعة بالتمام والكمال!

ـ أنت سيّد مَن يفهم ويقدّر.

ـ بالتمام والكمال وإلّا فليهنأ عزرائيل بوليمة فاخرة!

ودخل القهوة متبوعًا برجاله.

نظرت المعلّمة في حيرة إلى التابع وسألته:

ـ ما العمل؟

ـ ما من قوّة في الأرض تستطيع أن تأتي بها إليه كما يريد.

ـ ماذا تتوقّع؟

ـ أنُفْضي إليه بالحقيقة؟

ـ هٰذا يعني خرابنا.

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة رغم إرادتنا.

فقالت بغضب:

ـ أفضّل أن يدهمني القضاء على أن أسير إليه بقدميّ.

ثمّ قامت وهي تقول:

ـ سأجلس معه وليُعِنّي الله على إقناعه!

ومضت إلى داخل القهوة. مدّ الشابّ جذعه يتابعها حتّى استقرّت إلى جانب الفتوّة. ثمّ تراجع إلى جلسته وهو يسأل التابع:

ـ ما معنى ذٰلك؟

ـ ليس عندي ما أضيفه إلى ما سمعت.

ـ ماذا تتوقّع أن يحدث في ختام الساعة؟

ـ سيقتحم البيت محطّمًا من يعترضه.

ـ ولٰكنّه لن يجد سوى جثّة.

ـ وعند ذاك يتقرّر خراب البيت.

ـ وما دورك أنت في ذٰلك كلّه؟

ـ لا أستطيع أن أدعه يمرّ دون مقاومة!

ـ أتفكّر في اعتراض سبيله؟

ـ هٰذا هو عملي.

ـ عملك؟

ـ أنا حامي منطقة المعلّمة!

ـ ولٰكنّه... ولٰكنّه سيقضي عليك.

ـ ربّما!

ـ إنّه مؤكّد فلا تخاطر بحياتك.

ـ هو عملي كما قلت لك.

ـ تجاهله.

ـ أفقد عملي وكرامتي.

ـ يمكن أن تتسلّل بطريقة ما إلى الشرطة!

فقال ضاحكًا:

ـ أفقد كرامتي مرّتين!

ـ لا أفهمك.

ـ هي تقاليد عملي.

ـ إنّه الجنون عينه.

فابتسم التابع قائلًا:

ـ ممكن أن يقال مثل ذٰلك عن زعيمك.

ـ أخشى أن تذهب ضحيّة للغرور. دعني أتسلّل أنا...

ـ أرفض اقتراحك.

ـ أنت مهدّد بفقد حياتك.

ـ محتمل!

وساد الصمت. نظر الشابّ في ساعة يده فتزايد قلقه. هرب من مخاوفه إلى أمواج الروّاد التي لا تنقطع. يعربدون ولا فكرة لأحدهم عمّا يتأزّم في المقهى ولا عمّا يقبع في البيت. والتفت نحو صديقه قائلًا:

ـ الوقت يمرّ أسرع ممّا تتصوّر.

ـ ليس أسرع ممّا أتصوّر.

ـ قد تكون آخر ساعة في حياتك.

ـ قول يصدق على أيّ مخلوق!

ـ لن تكون معركة عادلة.

ـ لا توجد معركة عادلة!

ـ يا له من انتظار!

ـ يا له من انتظار!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ بودّي أن أصعد إلى حجرة الفتاة.

ـ لِمَ؟

ـ لأجسّ نبضها من جديد!

ـ إنّي أتوثّب لمواجهة القضاء وأنت تحلم بالخرافات.

ـ سمعنا عن جثث دبّت فيها الحياة بعد دفنها؟

ـ إذا قامت القيامة فابتعد عن ميدان المعركة...

ـ كنت أعتقد أنّ الغد هو يوم الخطر.

ـ حافظ على حياتك حتّى الغد!

ـ يا له من يوم عجيب!

ـ أرجو أن تكون قد تعلّمت أشياء مفيدة.

ـ كيف تنتظر الموت بهٰذا الهدوء كلّه؟

ابتسم التابع ابتسامة غامضة وقال:

ـ عندما ماتت الفتاة حلّ بي تشاؤم غريب...

ـ لم يبد عليك شيء قطّ.

ـ لا يجوز في عملي أن يبدو على الوجه شيء!

ـ يخيّل إليّ أنّك تتكلّم بحزن لأوّل مرّة؟

صمت التابع مليًّا ثمّ قال بنبرة اعتراف:

ـ كانت حبيبتي الوحيدة في هٰذه الدنيا!

ـ مَن؟

ـ الميتة!

فغر الشابّ فاه من ذهوله فاستطرد الآخر:

ـ عشرة ليست بالقصيرة، وبها أصّلت نجاحي في

هٰذا الدرب.

ظلّ الشابّ يرمقه بذهول، أمّا هو فقال:

ـ والحقّ قد ماتت بموتها أشياء لا تُعدّ ولا تُعوّض.

ونهض وهو يهمس:

ـ ما علينا...

وأشار إلى المعلّمة إشارة خفيّة فجاءته بوجه كالح. سألها:

ـ هل لانَ جانبه؟

فقالت بيأس:

ـ أصلب من الصخر.

ـ لم تبق إلّا دقائق معدودات...

والتفت نحو صديقه وقال:

ـ ابتعد دون تردّد.

ومضى نحو القهوة في هدوء وثبات. وجعل يقترب من الفتوّة باسمًا حتّى وقف بين يديه. وبغتة استلّ من صدره خنجرًا ودفنه في قلب الوحش. انتتر الفتوّة قائمًا جاحظ العينين. ترنّح جسمه الضخم ودار حول نفسه ثمّ تهاوى كجدار تهدّم. وفي الحال أفاق الوحوش من ذهولهم. زلزلت القهوة بحركة جائحة. انتصبت أجسام، استلّت خناجر، ارتفعت نبابيت، تطايرت شتائم، اهتزّت جدران، تحطّمت مصابيح، هرولت أقدام، اختفى كلّ شيء في ظلام حالك، صرخت صفّارة الشرطيّ. ومضى وقت غير قصير في الظلام... ولمّا أشعلت المصابيح من جديد تبدّى الدرب في منظر مختلف. عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوّة والتابع والراقصة! خلا الدرب من جميع الروّاد عدا نفر قليل دهمتهم المعركة فاندسّوا تحت الأرائك ثمّ أخذوا يخرجون من مخابئهم بوجوه شاحبة، على رأسهم الشابّ. وطوّق المكان قوّة من الشرطة والمخبرين بقيادة ضابط مباحث. وانتحت جانبًا المعلّمة والنسوة بأبصار زائغة. أمّا رجال العصابة فلم يظهر لهم أثر.

تحوّل الضابط إلى المعلّمة وسألها:

ـ ما معلوماتك عن الواقعة؟

فأشارت إلى جثّة الفتوّة وقالت:

ـ جاء على رأس عصابة فهاجم الدرب بلا رحمة...

ـ ماذا رأيت من المعركة؟

ـ إنّي امرأة ضعيفة، هربت فلم أرَ شيئًا!

أومأ الضابط إلى جثّة التابع وسألها:

ـ مَن هٰذا؟

ـ مدير المقهى، قُتل ولا شكّ وهو يدافع عن نفسه.

ـ وهٰذه الفتاة؟

ـ كانت ترقص في المقهى عندما نشبت المعركة!

ـ لا يظهر بها أثر لاعتداء؟

ـ كانت مريضة بالقلب فربّما قتلها الخوف...

عند ذاك خاطب الضابط الجميع قائلًا:

ـ لا يبرحنّ أحد مكانه حتّى يدلي بأقواله.

وإذا بمخبر يتّجه نحو الشابّ فيقبض على ذراعه ويشدّه إلى موقف الضابط ثمّ قال:

ـ إنّي أتذكّر هٰذا الشابّ يا حضرة الضابط...

فتساءل الضابط متهكّمًا:

ـ أهو من رجال العصابة؟

ـ هو الذي اعتدى على حضرة المأمور في مظاهرات العنابر ثمّ نجح يومها في الهرب.

رماه الضابط بنظرة قاسية ثمّ قال:

ـ ما شاء الله!... تشعلون الفتنة في البلد وتهرولون إلى المواخير!

فنجان شاي

دقّ جرس المنبّه. تقلّب الرجل في فراشه. تثاءب بصوت مرتفع كالتوجّع. أزاح الغطاء وجلس. تزحزح إلى الوراء حتّى استند إلى ظهر السرير. تثاءب مرّة أخرى. مدّ يده إلى زرّ جرس معلّق فوق الفراش فضغطه. جاءت امرأة حاملة صينيّة عليها إبريق شاي وجريدة الصباح فوضعتها على ترابيزة لصق السرير. ملأ القدح بنفسه وتناول الجريدة. لاحظ أنّ المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين متسائلة، فقالت:

ـ الأولاد...

ولكنّه قاطعها بحدّة:

- يا فتّاح يا عليم، صبرك حتّى أغادر الفراش...

وتردّدت المرأة فعاد يقول:

- هٰـذا وقت الشاي والجريدة فلا تفسدي عليّ أطيب أوقات اليوم.

تنهّدت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينيه حتّى أغلقت الباب وراءها. رشف من الفنجان رشفة ثمّ عكف على القراءة.

***

تحرّكت ستارة مسدلة فوق نافذة. خرج من ورائها رجل مرتديًا بدلة سوداء. تقدّم بخطوات متمهّلة حتّى وقف في وسط الحجرة. نظر فيما حوله ثمّ قال بلهجة خطابيّة:

- الحمد لله.

فتمتم رجل الفراش ورأسه لا يتحوّل عن الجريدة:

- الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

- لو قلت إنّ كلّ شيء حسن فربّما وقع القول من الآذان موقع الغرابة.

فتمتم رجل الفراش:

- ربّما.

- وقد يتوهّم البعض أنّنا لا نتحرّك.

- قد.

تضايق ذو البدلة السوداء من تمتمات الآخر فمضى إلى الفراش وراح ينقر على رأسه محذّرًا ثمّ رجع إلى موقفه. انكمش رجل الفراش ولكنّه لم يتحوّل عن الجريدة وواصل قراءته الصامتة في هدوء. وقال ذو البدلة السوداء:

- نظرة عادلة إلى الوراء كفيلة بإبراز المدى الذي قطعناه.

فهزّ رجل الفراش رأسه دون أن ينبس.

- في كلّ شيء بغير استثناء.

فهزّ رجل الفراش رأسه مرّة أخرى دون أن ينبس.

- ليعلم ذٰلك عدوّنا الخارجيّ، وليعلمه عدوّنا الداخليّ.

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش مستطلعًا فتمتم هٰذا دون أن يتحوّل عن جريدته:

- كلام طيّب.

عند ذاك أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فاتّخذ موقعًا جديدًا في ناحية الحجرة المقابلة للفراش ووقف صامتًا كتمثال.

***

تحرّكت الستارة مرّة ثانية فبرزت من ورائها فتاة جميلة في لباس البحر. تقدّمت مزهوّة بجمالها الفتّان حتّى وقفت في وسط الحجرة. وجعلت ترسم في الهواء حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتنها، ثمّ قالت بصوت عذب:

- سأظهر هٰكذا في دور جديد تمامًا في الفيلم الجديد «الأبواب الخلفيّة».

فقال رجل الفراش:

- يسعدني أن أراك هٰكذا في أيّ دور!

- ولكنّه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة.

فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة:

- المهمّ هو أنت!

- يقتلك بالضحك ويثقّفك بالهدف!

- لا قيمة لشيء سوى قامتك السحريّة.

- فهو فيلم ترفيهيّ وهادف معًا.

- ماذا؟، سمعي ثقيل، هلّا حدّثتني في أذني؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوّق وسطها بذراعه وجذبها نحوه حتّى التصقت به.

- قلت إنّه فيلم ترفيهيّ وهادف معًا.

- ماذا؟ قرّبي أكثر وأكثر.

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت راعد:

- فيلم ترفيهيّ وهادف معًا، أسمعت؟!

سحب ذراعه بسرعة. وواصل انكبابه على الجريدة. رجعت الممثّلة إلى وسط الحجرة. دارت حول نفسها في حركة استعراضيّة ثمّ مضت ناحية البدلة السوداء واتّخذت موقفًا وقال ذو البدلة السوداء:

- الفنّانة تريد أن توقظ ذوقك ولكنّك تأبى إلّا أن تراها بشهوتك.

- رأيت جسدًا جميلًا عاريًا.

- أتريد أن نقدّم لك الحكمة في برميل؟

- ما أكثر الأشياء التي تعذّب الإنسان.

ـ سنعرض عليك أجسادًا عارية.

ـ شكرًا!

ـ والويل لك إذا عابثتك شهوة من شهوات الجسد.

وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدّة:

ـ ماذا قلت؟

ـ الويل لي.

***

انزاحت الستارة بعنف. دوّت في الجوّ طلقات رصاص وانفجار قنابل وأزيز طيّارات. خرج من وراء الستارة جنديّ أمريكيّ وفيتناميّ وهما يتبادلان إطلاق النار. تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل في فراشه فاضطرب في مجلسه ولكنّه لم يرفع رأسه عن الجريدة. رشف رشفة في عصبيّة واستمرّ في القراءة. وصاح الجنديّ الأمريكيّ:

ـ أيّها الشيوعيّ المنحطّ.

فصاح به الفيتناميّ:

ـ أيّها الإمبرياليّ المتوحّش.

ـ ماذا جاء بك من الشمال؟

ـ ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط؟

ـ الأرض كلّها أمريكيّة... وغدًا سيكون القمر أمريكيًّا.

فقال الفيتناميّ وهو يطلق النار:

ـ وستكون المقابر أمريكيّة، سأقتلك ثمّ أقطف وردًا وأرقص.

وكثر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش فقال متذمّرًا:

ـ ابتعد.

فصاح الأمريكيّ بالفيتناميّ:

ـ أنظر كم أنّك مزعج للناس.

فصاح به الفيتناميّ:

ـ إنّه يوجّه الخطاب لك أنت.

ـ ما كان ليجرؤ أن يخاطبني بتلك اللهجة.

ـ إنّي أطلق النار عليك أمّا أنت فتطلق النار في جميع الجهات.

وعاد رجل الفراش يقول متأوّهًا:

ـ اللعنة على كلّ معتدٍ أثيم!

فصاح الأمريكيّ في وجه الفيتناميّ:

ـ أرأيت أنّه يقصدك أنت؟!

ـ يا لجنون العظمة!.

وظلّا يتبادلان إطلاق النار حتّى فرغت ذخيرتهما فمضيا غير بعيدين من الممثّلة ووقفا جامدين. وقال رجل الفراش وهو مكبّ على الجريدة.

ـ هٰذا الرجل جدير بكلّ إعجاب.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ بكلّ تأكيد.

وقالت الممثّلة:

ـ أرأيت كيف أنّه يقطف الورد ويرقص في حومة القتال!

فقال رجل الفراش بصوت منخفض:

ـ سمعي ثقيل، هلّا اقتربت لأسمعك؟

ولكنّ ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فساد الصمت.

***

تحرّكت الستارة للمرّة الرابعة فخرجت من ورائها امرأة متوسّطة العمر تحمل بين ذراعيها ستّة من المواليد فوقفت في وسط الحجرة وقالت:

ـ أنا امرأة من كوبا، ولدت ستّة توائم وجميعها في صحّة جيّدة!

فقالت الممثّلة:

ـ هيهات أن تصلحي بعد ذٰلك لحياة الأضواء.

ـ ولكنّي معجزة من معجزات الحياة!

فقال الجنديّ الأمريكيّ:

ـ نحن في عصر معجزات العلم والصناعة لا الحياة، ومثل هٰذه المعجزة المزعومة خليقة بأن تدفع العالم إلى أنياب مجاعة شاملة.

فقال الفيتناميّ:

ـ لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم تحصده.

ـ إنّها لا تبيد إلّا النفايات.

فقالت الأمّ:

ـ هل أجد طعامًا متوفّرًا؟

فقال لها الفيتناميّ:

- توجد ذخيرة بعدد حبّات الرمال.

فقالت الأمّ:

- لم أسمع تحيّة واحدة.

فقال رجل الفراش:

- طوبى لك في الدارين!

- شكرًا يا سيّدي.

- ولأبيهم أكبر تحيّات التقدير.

- أكرّر الشكر يا سيّدي.

- هل لديكم قانون تعليم مناسب؟

- عندنا أشياء كثيرة مناسبة.

- أهلًا بك وسهلًا.

وذهبت إلى الناحية الأخرى. جلست على الأرض وراحت تغنّي للمواليد. تغنّي وتغنّي حتّى ثقل رأس الفيتناميّ بالنعاس فتثاءب، وتبعه الأمريكيّ على الأثر، وجلسا تباعًا على الأرض عن يمين الأمّ ويسارها. وأوسعت لكلّ موضعًا في حجرها فتوسّده برأسه وغطّ في النوم.

***

وتحرّكت الستارة حركة عصبيّة فخرج من ورائها رجلان، أندفعا إلى وسط الحجرة وكلّ منهما ممسك برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل. صاح أوّلهما:

- المارْك فوق الجميع.

فصاح الآخر:

- الفرنك لا يُعلى عليه.

- المارك رمز التفوّق.

- الفرنك رمز الإنسانيّة!

ولَكَمَ الألمانيّ الفرنسيّ فتراجع مترنّحًا حتّى سقط فوق رَجُل الفراش. نهض الفرنسيّ من سقطته فهجم على الألمانيّ ولطمه على وجهه ثمّ قبض على رباط عنقه وجذبه منه جذبة قويّة فاندلق ناحية الفراش حتّى ارتطم برجل الفراش. واستعاد توازنه وانقضّ على خصمه. وجعل كلّ منهما يحاور الآخر حتّى لا يمكّنه من نفسه. ونال منهما الإعياء فوقفا متباعدين وهما يلهثان. وقالت الممثّلة:

- أقترح أن تودعا نقودكما عندي حتّى تسوّيا خلافاتكما!

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال:

- قول طيّب، أحسنت.

فخطت نحوهما خطوتين وقالت بإغراء:

- عندي موضوع يصلح للإنتاج المشترك.

فقال الألمانيّ:

- أوافق إن يكن عن حرب ١٨٧٠.

وقال الفرنسيّ:

- حرب ١٩١٤ أهمّ وأخطر.

فقالت الممثّلة:

- هو عن امرأة مريضة نفسيًّا، وأعراض مرضها أن تسير عارية وهي نائمة!

فقال رجل الفراش وهو مكبّ على جريدته:

- مرض ممتاز.

وقال الفرنسيّ:

- أعطينا مثالًا لتلك الحالة المرضيّة.

مدّت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنّما لتنزعه ولكنّ ذا البدلة السوداء قال:

- ليس في وسط الحجرة!

فقال رجل الفراش:

- يهمّني أيضًا أن أرى ما يجري في بيتي.

فقال الآخر بحدّة:

- الأجانب يستحقّون معاملة خاصّة!

- لقد عانيت من صراعهم فمن حقّي أن أشاركهم بعض المسرّة!.

فقالت له الممثّلة:

- لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفنّ.

فتساءل منكرًا:

- أفندم؟، سمعي ثقيل.

فقال ذو البدلة السوداء:

- ألاحظ أنّ أذنك تعمل بحسب هواك.

- إنّي أمارس حرّيّتي من خلال أذني.

- سأسمعك بنفسي ما يتعذّر عليك سماعه.

- شكرًا، لا داعي لتكليف خاطرك!

اندسّت الممثّلة بين الرجلين فتأبّطت ذراعيهما

ومضت بهما إلى موضعها السابق.

ومن وراء الستارة خرج رجلان، يحمل أوّلهما كتبًا ويحمل الآخر قوارير. وقفا جنبًا لجنب وسط الحجرة ثمّ قال حامل الكتب بصوت عريض رنّان:

ـ من ذخائر التراث، تفسير القرآن، طبعة أنيقة مع تعليقات بأقلام أكبر الأساتذة، الثمن جنيه واحد.

وقال حامل القوارير بصوت منغوم:

ـ أفخر أنواع الويسكي، وردت منها كمّيات محدودة، بأسعار محدّدة ومعقولة تتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات.

فسأل رجل الفراش حامل الكتب:

ـ ألا تميّزون أرباب الأسر بشيء من التخفيض؟

ـ يختصّ بالتخفيض الطلبة فقط.

ـ وأرباب الأسر؟

ـ الثمن معقول جدًّا...

ـ شكرًا.

وعاد حامل القوارير يقول:

ـ أفخر أنواع الويسكي، كمّيات محدّدة وأسعار زهيدة!

فسأل رجلُ الفراش حامل الكتب:

ـ أحرامٌ أن يتناول المسلم قليلًا من الويسكي كدواء؟

فأجاب حامل الكتب:

ـ إنّي أتناول كأسًا قبل النوم كدواء لضيق الشرايين.

ـ ولكنّي أشكو ثقلًا في السمع؟!

فقال حامل القوارير:

ـ ثقل السمع عرض مرضيّ لضيق الشرايين.

ـ ولكنّ ثمن الويسكي كفيل بسدّ الشرايين.

وتدخّل ذو البدلة السوداء في الحديث فخاطب حامل القوارير قائلًا:

ـ قف جنب السيّد الفرنسيّ فهو يحبّ المرح.

وتحوّل إلى حامل الكتب قائلًا:

ـ قف جنب السيّد الألمانيّ فلعلّه أن يكون مستشرقًا.

ثمّ التفت إلى الممثّلة وقال:

ـ همّتك، لديك قرآن وويسكي وموضوع مشترك!

***

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء، روسيّ وأمريكيّ، سارا بخفّة نحو وسط الحجرة، تصافحا، ثمّ قال الروسيّ لزميله الأمريكيّ:

ـ أصدق التهاني.

فقال الأمريكيّ:

ـ ومنّي إليك أصدق التهاني.

ـ لا يهمّ أنّي سبقتك إلى التجربة ما دمت تتقدّم بنجاح، تهانيّ...

ـ المهمّ هو النجاح، وسألحق بك، وسوف أسبقك، تهانيّ...

ـ لا أظنّ أنّك ستسبقني أبدًا، فات أوان ذلك، تهانيّ.

ـ أراك لا تعمل حسابًا للمفاجآت الأمريكيّة، تهانيّ.

فقال رجل الفراش:

ـ إنّكما حلم ورديّ في عالم قطران!

ـ شكرًا أيّها الرفيق.

ـ شكرًا أيّها الزبون.

فقال رجل الفراش:

ـ بفضل العِلْم تقع معجزات.

فقال الروسيّ:

ـ وبفضل النظام الشيوعيّ.

فقال الأمريكيّ:

ـ بل بفضل النظام الرأسماليّ.

فقال رجل الفراش:

ـ لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عزّ وجلّ.

فقال الروسيّ:

ـ رأيت الكواكب تسبح في أفلاك متأثّرة باختلاف أحجامها فمساراتها متحدّدة بصراع طبقيّ أزليّ سرمديّ.

فقال الأمريكيّ:

ـ وهناك الشمس تمدّ الكواكب بالحرارة والضوء كالمعونة الأمريكيّة.

- ألم تريا شيئًا وراء ذٰلك؟

فقال الروسيّ:

- لا شيء وراء ذٰلك.

ولكنّ الأمريكيّ صاح:

- رأيت الله.

- كيف!... أين؟...

- نور يخطف الأبصار، يشعّ في منطقة من السماء تقع فوق البيت الأبيض.

فقال له الروسيّ:

- يا لك من دجّال.

- اخرس أيّها السفّاك.

- سندفنكم أحياء.

- سندفنكم أمواتًا.

فهتف رجل الفراش متأوّهًا:

- الغوث!.

فصاح به ذو البدلة السوداء:

- ها أنت تسمع كلّ كلمة تقال.

- أسمع وشًا، لعلّه ضيق الشرايين، إليّ بقليل من الويسكي....

- معك عملة صعبة؟

- ولا سهلة!

- كفّ عن شرب الشاي فإنّه مثير للأعصاب.

- إنّه يهبني أطيب ساعات اليوم!

وهتفت الممثّلة بنرفزة:

- لا أستطيع أن أعمل في هٰذا الجوّ الصاخب.

فقال رجل الفراش بقلق:

- من الحمق أن نترك هٰذين العملاقين يتخاصمان.

فقال ذو البدلة السوداء:

- منذا يجزم أين تقع المصلحة؟

وتقدّمت الممثّلة من رجلي الفضاء وقالت وهي تشير إلى الأمّ:

- يوجد صغار نيام!

فكظم كلّ حنقه. وقال الروسيّ بوجه متجهّم مخاطبًا زميله:

- تهانيّ...

فقال الآخر بازدراء:

- تهانيّ...

وذهبا مع الممثّلة فاتّخذا لهما موقفًا.

***

ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة في العشرين من عمرها، في مني جيب، معلّقة حقيبتها بكتفها، ووقفت في وسط الحجرة وقالت:

- أنا فتاة مثقّفة، أتقن العربيّة والإنجليزيّة وأعمال السكرتاريّة، أريد وظيفة سكرتيرة.

هرش رجل الفراش ذقنه أمّا ذو البدلة السوداء فقد سألها:

- ألم تقيّدي نفسك في إدارة القوى العاملة؟

- بلى...

- عليك أن تنتظري دورك.

- طال الانتظار، أريد وظيفة حرّة.

فقالت لها الممثّلة:

- أعرف شخصًا هامًّا في حاجة إلى سكرتيرة!

- إنّي مستعدّة لمقابلته في الوقت الذي يحدّده.

فقال رجل الفراش:

- ولكنّك لا تعرفين عنه شيئًا؟

- أعرف عملي وكفى.

فقال الرجل بتأثّر:

- فكّري قليلًا، إنّي أحدّثك بلسان أب.

- كأنّك يا سيّدي تخاف عليّ؟

- الناس أشرار يا ابنتي وأنت صغيرة السنّ.

- لست صغيرة.

- ما زلت في طور البراءة!

- لست هشّة ولا خوف عليّ.

- إنّك تعرّضين نفسك لخطر فادح.

- إنّي أحتقر هٰذا الإشفاق!

- إنّي أب...

- بل جدّ، وأقدم من ذٰلك!

- سامحك الله.

- سأجد في العمل حرّيّتي وكرامتي.

- قد... قد...

- لا أسمح لأحد بالتدخّل في شئوني.

- ثمّة أخطار...

ـ أخطارا... ألم تسمع عن غزاة الفضاء؟!

ـ معذرة يا آنسة.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ ليتك تعرف نعمة السكوت.

فقالت لها الممثّلة:

ـ انضمّي إلينا مؤقّتًا، ثمّة شركة في دور التكوين.

***

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز أنيق الملبس، وقف في وسط الحجرة وقال بنبرة شبه باكية:

ـ يا بنيّ، عد إلى أبيك... طلباتك مجابة.

فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ متى اختفى؟

ـ منذ أسبوع...

ـ بحثت عنه في مكانه؟

ـ لم أترك مكانًا واحدًا.

ـ ما عمره؟

ـ ستّة عشر عامًا.

ـ ما مشكلته؟

ـ كلّ شيء ولا شيء بالذات...

ـ رأي، سلوك، ذوق، هه؟

ـ نعم وعلم الله ما راعيت إلّا مصلحته.

فقال له رجل الفراش:

ـ إنّي أرثي لك.

ـ شكرًا.

ـ ليس زماننا بزمان الآباء.

ـ زمان قذر.

فصاح به ذو البدلة السوداء:

ـ لا تسبّ الزمان فهو الدولة.

فعاد الرجل يردّد بهدوء حزين:

ـ يا بنيّ، عد إلى أبيك... طلباتك مجابة.

واختار لنفسه موقفًا جنب حامل الكتب.

***

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيديّة حاملة مقطفًا كبيرًا، تبعها على الأثر صعيديّ في الخمسين، وقفا في وسط الحجرة فسألته الفتاة:

ـ لِمَ جئتنا إلى هنا يا أبي؟

فهوى بكفّه على وجهها وصاح:

ـ لأنقذ شرفي من الفساد.

ندّت عن الفتاة صرخة مدوّية. رمت بالمقطف وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه. سرعان ما لحق بها الأب ولكي يخلّصها من ذراع الرجل انهال على صدره ضربًا حتّى سحب الرجل ذراعه متأوّهًا. جذبها إلى وسط الحجرة، طرحها أرضًا، استلّ خنجرًا وانهال عليها طعنًا حتّى أخمد أنفاسها. ثمّ دفنها في المقطف، وغطّاها بخمارها، وهو يتمتم بتشفّ:

ـ الآن رُدّت الحياة إليّ.

فقال له ذو البدلة السوداء:

ـ ستفقدها وراء القضبان أو فوق المشنقة.

فقال باستهانة:

ـ طظ!

ـ متى تحترم القانون؟

ـ طظ.

وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته.

تأوّه رجل الفراش وقال له:

ـ يا لك من وحش.

فقال له بازدراء وهو يرجع إلى وسط الحجرة:

ـ كيف يُعَدّ أمثالك من الرجال!

ـ كيف طاوعتك يدك على قتل ابنتك؟

ـ يوجد شيء اسمه الشرف.

ـ وتوجد أيضًا الحماقة.

فأشهر خنجره مرّة أخرى وهو يتساءل في ريبة:

ـ ماذا يحملك على الدفاع عنها؟

ولكن ذا البدلة السوداء بادر إليه فأخذه من ذراعه إلى الناحية الأخرى.

***

وتترامى عزف أوركسترا وتخت بلديّ في وقت واحد. وخرج من وراء الستارة رجلان، أوّلهما في لباس مغنّي أوبرا والآخر مُغَنٍّ بلديّ. وقفا في وسط الحجرة وراحا يغنّيان في وقت واحد، كلّ بطريقته. فأحدثا صخبًا متنافرًا مزعجًا مضحكًا. ولّما ختما غناءهما تصافحا ببرود، مغنّي الأوبرا في احتقار لم يفلح

في مداراته، والمغنّي البلديّ دارى ضحكة أوشكت أن تفلت منه. في أثناء ذٰلك تقلّص وجه رجل الفراش من الانزعاج، وتساءل:

- أبكما مسّ أم ألمٌ مُلِحّ؟

- نحن بخير.

- لماذا تصرخان؟

- غنّينا كأحسن ما يكون الغناء...

- أكان ذٰلك غناء؟

- أسمعناك الشرق والغرب معًا.

- ألم يكن الأفضل أن نسمع كلًّا على حدة؟

- أصلنا ننتمي إلى مؤسّسة واحدة...

وزاد الأوبراليّ على ذٰلك أن قال:

- أنا المستقبل، وزميلي الفاضل يمثّل الماضي...

فغضب المغنّي البلديّ وقال:

- أنا مغنّ، أمّا هٰذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سبب.

وتبادلا صفعتين، وتوثّبا لعراك أشدّ... فصاح رجل الفراش:

- اذهبا... اتركاني في سلام.

فقال ذو البدلة السوداء باستياء:

- تأدّبْ في مخاطبة المغنّيين الرسميّين!

وأشار إلى الرجلين فأمسكا عن الخصام وذهبا معًا إلى الناحية الأخرى.



وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها طالب ثمّ شرطيّ، وقفا في وسط الحجرة وهما يتبادلان نظرة متوجّسة، وسأله الشرطيّ:

- لِمَ تتسكّع في الطرقات؟

فتساءل الطالب بتحدٍّ:

- لِمَ تتبعني كظلّي؟

- أنا ظلّ الأشياء المعوجّة!

- ألا تشمّ في الجوّ رائحة غبار خانق؟

فتشمّم الشرطيّ الجوّ وقال:

- في الجوّ غبار خانق!

- إنّي أبحث عن هواء نقيّ...

- ولٰكنّك بتسكّعك تثير مزيدًا من الغبار الخانق...

فضحك الطالب ضحكة جافّة وقال:

- الليل ينشر جناحيه بينا الشمس ما زالت في كبد السماء فما تفسيرك لذٰلك؟

- لعلّ الليل أسرع أو أنّ الشمس تباطأت...

- فما علاقة ذٰلك بتحديد مرّات السقوط؟

- مثل علاقته بإهدار المال بلا حكمة...

- واضح أنّك تهذي.

- وأوضح منه أنّك قليل الأدب.

وقذف الطالب الشرطيّ بطوبة فلم تصبه ولٰكن أصابت رجل الفراش فتأوّه دون أن يرفع رأسه عن الجريدة. تراجع الشرطيّ خطوات، لوّح بهراوته استجماعًا لقوّته ولٰكنّها في حركاتها العشوائيّة أصابت رجل الفراش في قدمه ومنكبه فتأوّه مرّة أخرى. تبادلا الضرب حتّى نزفت دماؤهما فتباعدا وهما يترنّحان من الإعياء والإنهاك. وهتف رجل الفراش:

- وما ذنبي أنا؟

فقال ذو البدلة السوداء:

- لا تفتأ تتدخّل فيما لا يعنيك!

- ولٰكنّ القتال يدور في حجرة نومي...

- عال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رئي، ما سبب المعركة ومَن البادئ بالضرب؟

- للمعركة أسباب غير عاديّة.

- مثال ذٰلك؟

- الغبار والتسكّع والليل والشمس.

- يا لك من شاهد فاجر!

- أقسم لك...

فقاطعه بحدّة:

- ومرّات السقوط في الامتحان ألم تسمع بها؟

- إنّ سمعي ثقيل كما تعلم.

- ها أنت تعود لادّعاء الصمم، وواضح أنّك مغرض!

- علم الله...

- فمن الذي بدأ الضرب؟

- تلقّيت ضربتين متعاقبتين ولٰكن تعذّر عليّ تحديد المصدر البادئ!

- فاجر، ألم أقل إنّك شاهد فاجر؟!

ـ دعنا من التحقيق.

ـ دعنا من التحقيق؟

ـ واضح أنّ أعصابها تحتاج إلى عقاقير فعّالة.

ـ الصيدليّات ملأى بالعقاقير.

ـ الحاجة ماسّة إلى طبيب لا إلى شرطيّ.

ـ ألستَ طبيبًا؟... إنّي أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبًا!

ـ أنا طبيب حقًّا، ولكنّي في إجازة مَرَضيّة...

ـ أصبحت قادرًا على الحركة في بيتي فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء، ولكن تلزمني بضعة أيّام راحة قبل ان أمضي إلى الخارج لمزاولة نشاطي المعتاد.

ـ حسنًا، لا تبدّد قواك في الثرثرة حتّى تستردّ صحّتك.

ومضى الرجل إلى الطالب والشرطيّ فأخذهما إلى موقف في الناحية الأخرى.

***

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها زنجيّ وعربيّ مسلّح، وقفا في وسط الحجرة وقال الزنجيّ:

ـ المشوار طويل فيما يبدو.

ـ أجل... إنّه يبدو كذلك.

ـ أين أنت ذاهب؟

ـ إلى آسيا، وأنت؟

ـ أنا متردّد بين أمريكا وأفريقيا.

ـ وما مشكلتك؟

ـ في أمريكا يحاصرني الاضطهاد باعتباري الأقلّيّة، وفي أفريقيا يحاصرني باعتباري الأغلبيّة!

ـ يا له من اضطهاد كالقدَر، ما سببه؟

ـ لأنّي أسود، هكذا يقال.

ـ أن تُضطهد وأنت أقلّيّة فتلك رذيلة شائعة، ولكن كيف تُضطهد وأنت الأغلبيّة؟

ـ ثمّة رجل أبيض يحتكر الاضطهاد، ويمارسه حيثما وُجِد.

ـ ولكنّي أراك لا تحمل سلاحًا؟

ـ كان لنا زعيم يدعو إلى الحبّ والسلام.

ـ وهل استجابوا له؟

ـ قتلوه غيلة!

ـ ما كان أجدره أن يُقتل وهو يقاتل.

ـ آمن بأنّ الحبّ أقوى من جميع الأسلحة.

ـ لا مكان إلّا لنوعين من الإنسان، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشرّ، وآخر يقاتل بقلب ملؤه الخير.

ـ لعلّك من النوع الأخير؟

ـ لعلّي.

ـ وما مشكلتك أيّها المقاتل؟

ـ لقد سُرقت.

ـ سرقوا مالك؟

ـ سرقوا وطني!

ـ وطنك؟!

ـ بجباله وأنهاره وحقوله وتاريخه ثمّ قذفوا بي إلى العراء.

ـ أيّ قطّاع طرق!

ـ وراءهم يقف الذين يضطهدونك.

ـ لذلك تحمل السلاح؟

ـ ولذلك يجب أن تحمل السلاح.

ـ ولكن أين أجده؟

وهنا قال رجل الفضاء الروسيّ:

ـ تجده عندي إذا أردته.

ـ ولكنّي لا أملك ثمنه.

ـ يمكن الاتّفاق على ذلك دون إرهاق.

فصاح رجل الفضاء الأمريكيّ مخاطبًا الزنجيّ:

ـ تجنّب هذا الرجل فإنّه لم يرَ الله في السماء.

فقال رجل الفضاء الروسيّ:

ـ أحذّرك من أضاليل هذا الزميل فقد زعم أنّه رأى إلهًا أمريكيًّا.

ـ لم أقل إنّه يحمل الجنسيّة الأمريكيّة ولكن ثبت لي أنّه إله العالم الحرّ.

فسأله الزنجيّ:

ـ هل آنست عنده ازدراء للسود؟

ـ إنّه نور فطبيعيّ أن يفضّل مِن عباده مَن على صورته.

ـ هل أدركت في حضرته سرّ ذلك كلّه؟

ـ إنّ حكمته تجلّ عن أفهامنا، إنّه فوق التصوّر والخيال، آه لو رأيته في مقامه السنيّ فوق البيت

الأبيض!

فصاح رجل الفضاء الروسيّ:

ـ ألم أقل لك إنّه دجّال؟.

وقال العربيّ المسلّح:

ـ دعونا من السماء، على الأرض تُسرق أوطان ويُضطهد أبرياء، وعلى المسروق والمضطهد أن يحمل السلاح، وأن يتعاون مع مَن يعطيه السلاح، وأن تفسَّر حكمة الله على ضوء ذٰلك!

ـ أنت شيوعيّ!

ـ أنت إمبرياليّ!

ـ أنت ظالم!

ـ أنت أسود!

ـ أنت دجّال!

ـ أنت سفّاح!

وتأوّه الرجل في فراشه وعيناه لا تتحوّلان عن الجريدة، فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ مالك... ماذا تريد؟

ـ أريد سلاحًا!

ـ لٰكنّ إجازتك المرضيّة لم تنته بعد.

ـ أريد سلاحًا!

ـ اصبر...

ـ ألم تسمع ما قيل؟

ـ سمعت واقتنعت ولٰكنّ إجازتك لم تنته بعد.

ـ إنّي أقرأ في رأسك أفكارًا غريبة!

ـ إن أردت الصراحة فإنّ تعليقاتك المتكرّرة لا توحي بالثقة!

ـ لعلّك لا تعرفني على حقيقتي.

ـ إنّي أعرفك أكثر ممّا تتصوّر!

ـ أنا رجل مخلص ومستعدّ للقتال.

ـ ولٰكنّك غير مدرّب على استعمال السلاح.

ـ إذن أتدرّب.

ـ اصبر حتّى تنتهي إجازتك.

ـ طيّب... أعطني كأسًا من الويسكي...

ـ معك عملة صعبة؟

فتنهّد الرجل بصوت مسموع، وعند ذاك قال له رجل الفضاء الأمريكيّ:

ـ أتريد السلاح حقًّا؟

ـ أجل...

ـ والويسكي؟

ـ أجل...

ـ عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكي.

ـ حقًّا؟!

ـ كلمتي ميثاق!

ـ ولٰكنّي لا أملك نقودًا.

ـ لا يهمّ.

ـ أتعطيني ما أريد بلا مقابل؟

ـ بشروط لا تستحقّ الذكر، انتظر...

وتحرّك متّجهًا نحو الفراش، ولّما بلغه وجد ذا البدلة السوداء في انتظاره، فقال له:

ـ أريد أن أحادث هٰذا المريض على انفراد.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ ليس بيني وبينه سرّ!

ـ المرضى في وطننا الأمريكيّ يتمتّعون بحرّيّات هائلة!

فقال الزنجيّ:

ـ كذّاب!

تحوّل نحوه غاضبًا ولٰكنّ ذا البدلة السوداء حال بينهما، ثمّ أوسع لهما مكانًا بين الآخرين.

***

من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل، يلفّه الحياء حتّى بدا كطفل، وقف في وسط الحجرة وراح ينظر فيما حوله بارتباك. همّ بالكلام مرّة ومرّة ولٰكنّه لم ينبس. وإذا برجل جديد يخرج من وراء الستارة، ضخم مهيب ذو لحية مدبّبة، اتّخذ موقفه أمام الرجل الأوّل فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة:

ـ أنا رجل ألمانيّ من بون.

فسأله الألمانيّ الأوّل:

ـ ألديك معلومات جديدة عن المارك؟

فقال بالنبرة المتعجرفة:

ـ لا أقيم الآن في ألمانيا، لم أجد هناك المعاملة اللائقة، أنا مواطن عالميّ، ولديّ اختراع كيماويّ مذهل.

فسأله رجل الفراش:

ـ أله فائدة في تجديد الشباب؟

وسأله الزنجيّ:

ـ هل يجدي مفعوله في تهذيب الخلق الإنسانيّ؟

وسألته الأمّ:

ـ هل ينفع غذاء للأطفال؟

فقال:

ـ إنّه مسحوق غامض، يكفي الجرام منه لإبادة خمسين مليونًا من البشر.

هبّ الجميع في اهتمام ساحق. حتّى الأمريكيّ والفيتناميّ استيقظا ووثبا واقفين. قال الألمانيّ الأوّل:

ـ لعلّهم جهلوا مقاصدك أيّها الأخ العبقريّ فلم يحسنوا معاملتك، عد إلى وطنك.

ولكنّ رجل الفضاء الأمريكيّ قال:

ـ أيّها الأخ العبقريّ، أمريكا هي وطن العلماء، عندنا برج بابل يعيش فيه العلماء من مختلف الأجناس عيشة الأباطرة. اذهب إلى وطنك الحقيقيّ أمريكا!

وقال له رجل الفضاء الروسيّ:

ـ ليكن مسحوقك في خدمة الملايين الكادحة لا في خدمة حفنة من مصّاصي الدماء.

وقال له العربيّ:

ـ يلزمني ملليجرام من مسحوقك العبقريّ!

وسأله ذو البدلة السوداء:

ـ هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس الشتاء المشرقة؟

فقال الألمانيّ بعجرفة:

ـ تلزمني مهلة للتفكير.

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتّخذ مكانًا. وبذهابه ظهر مرّة أخرى الرجل القصير النحيل.

وقال له رجل الفراش:

ـ كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام.

فابتسم في حياء دون أن ينبس فسأله:

ـ بالله ماذا يمنعك من الكلام؟

فتغلّب على حيائه وقال:

ـ أعتقد أنّني بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة السرطان.

وساد صمت شامل حتّى واصل حديثه قائلًا:

ـ لقد جرّبتها على مرضى كثيرين فنجحت بنسبة ٤٠٪ ولكنّي في حاجة إلى مزيد من البحث والتجريب وتلزمني تكاليف باهظة!

وساد الصمت، صمت ثقيل، حتّى قال الفرنسيّ هامسًا:

ـ هذا الرجل يستحقّ التشجيع، ولولا أزمة الفرنك...

فقال الألمانيّ:

ـ إنّه جدير بالتشجيع ولكن مَن أدرانا أنّه ليس دجّالًا؟

فقالت الممثّلة:

ـ إن تكشّف عن دجّال فأنا أرشّحه لتمثيل دور في فيلمنا المشترك.

وقال رجل الفضاء الأمريكيّ:

ـ أبحاث السرطان متقدّمة عندنا...

فقال رجل الفضاء الروسيّ:

ـ يمكن أن نستضيفك عامًا في المعهد الطبّيّ الشيوعيّ.

فصاح رجل الفضاء الأمريكيّ:

ـ يمكن أن نستضيفك عامين ولكن إذا زرت روسيا تعذّر عليك دخول بلادنا.

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ ماذا تشكو؟

ـ أريد كأسًا من الويسكي.

ـ تمرّ بك الأحداث وأنت لاهٍ عنها بشهواتك!

ـ أعطني سلاحًا...

ـ تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى!

وأشار إلى الرجل القصير النحيل إشارة خاصّة فمضى ليتّخذ موقفًا بين الواقفين.

***

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوفًا في كفن لا يظهر منه إلّا رأسه، وقف في وسط الحجرة وقال:

ـ أنا المدير العامّ لمؤسّسة م.م.م.

فقال له رجل الفراش:

- تشرّفنا يا فندم.

- انتقلتُ إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبيّة أصابتني وأنا جالس إلى مكتبي.

- ليرحمك الله.

- الموت أكبر كارثة في الوجود، أكاد أجنّ كلّما تصوّرت أنّ العالم سيمضي في طريقه عقب اختفائي كأنّني لم أعايشه دقيقة واحدة.

- أكنت تتوقّع أن يتوقّف عن الحياة إكرامًا لك؟

- هٰذه هي مأساة الوجود الحقيقيّة التي تُفقده أيّ معنى من المعاني!

- صدّقني فإنّ العالم مثقل بهمومه بحيث يُغفر له ألّا يشعر بموتك.

- ذهبت الحياة بجمالها وسحرها وآمالها!

- ليرحمك الله.

- ما لقلبك جامدًا هٰكذا، حتّى الحيوان يحزن.

- حزني للحياة لم يترك في قلبي موضعًا للحزن على الموت!

- متّ وحيدًا وها أنا أحزن وحدي.

- لتكن الجنّة مثواك.

- وأنا والد س و ص بالجامعة، وشقيق أ بمؤسّسة م.م.م.، وعمّ د بمؤسّسة م.م.م.، وابن خالة ز بمؤسّسة م.م.م.، وستشيّع الجنازة من مسجد عمر مكرم في تمام الثانية عشرة ظهرًا ولا عزاء للسيّدات.

- سأعزّي بتلغراف.

- ولِمَ لا تشيّع جنازتي بنفسك؟

- إنّي مريض كما ترى.

- تستطيع أن تشيّع جنازتي لو بك رغبة في ذٰلك.

- أخشى أن أصاب بنكسة.

- أنانيّ لا تفكّر إلّا في نفسك.

- لا وقت عندي للتفكير في نفسي ولا فيمن يموت.

- ليت يومك كان قبل يومي.

- أنتم السابقون ونحن اللاحقون...

وبدأ الرجل يتحرّك ببطء ليتّخذ موقفه بين الجماعة. وفي أثناء سيره قال ذو البدلة السوداء:

- مات رجل من جيل الثورة المضادّة.

فقال رجل الفضاء الأمريكيّ:

- فقدنا صديقًا ذا استعداد طيّب للتفاهم.

وقالت الممثّلة:

- نقص روّاد السينما رجلًا ولا كلّ الرجال.

***

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجل وجيه بدين أنيق الملبس رغم ضخامته الفذّة، وقف في وسط الحجرة ثمّ بسط صحيفة وراح يقرأ منها بصوت جهوريّ:

- من واجبي، من حقّي، أن أقول رأيي كما يجدر بصحفيّ يحترم نفسه ويحترمه الجميع، وأن أصيغه بالوضوح الكامل لنخترق الظلمات إلى رؤية مضيئة لعلّنا نهتدي إلى مرفأ آمن في هٰذا البحر العاصف الذي تتلاطم أمواجه كجبال من الظلام، سأقول الحقّ بوضوح مهما كلّفني ذٰلك من جهد ومن تضحية. لذٰلك أقول لكم:

الوعي قضيّة، تسير مسارها الطبيعيّ إلى نقيضها وهو اللاوعي، وعلى أثر تقدّم مطّرد يتكوّن تركيب جديد من النقيضين هو المرض. بمعنى آخر الوعي + اللاوعي = المرض. إن يكن عُصابًا فهو مرض نفسيّ وإن يكن ذُهانًا فهو مرض عقليّ. ذٰلك أنّ كلّ شيء يخضع في النهاية للديالكتيك. ولا يلبث التركيب الجديد (المرض النفسيّ أو العقليّ) أن يتحوّل إلى قضيّة جديدة تبحث بدورها عن نقيضها كما تبحث المراهقة عن عريس، ونقيض المرض هو الصحّة النفسيّة، ثمّ يجمعها تركيب جديد آخر بحكم حتميّة الديالكتيك، وهٰذا التركيب الجديد يتكوّن من المرض والصحّة، مرض ديالكتيكيّ وصحّة ديالكتيكيّة، وهي حال لا هي صحّة ولا هي مرض، وإذا ترجمناها إلى لغة فلسفيّة أمكن أن نطلق عليها «حال وجوديّة»... ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود في ذاته، ولٰكن بتدخّل قوى قهريّة باغية تتحوّل إلى نوع آخر هو الوجود لذاته، ويخشى في تلك الحال أن تتحوّل إلى وضع أجوف أو ما يسمّى في الهندسة بالفراغ، فراغ مشحون بالقلق السرمديّ، ولا علاج لذٰلك إلّا بالمزيد من الديالكتيك. هٰذه هي حقيقة المسألة بلا حشو ولا

إسهاب ولا موجب له، شرحتها متوخّيًا البساطة والوضوح، بلغة شعبيّة جديرة بمخاطبة شعب عظيم يمرّ بلا شكّ بمحنة عصيبة، ويتوثّب لقهر ما يعترض سبيله من عقبات، مصمّمًا على الصمود والنجاح، ألا هل بلغت؟

أعقب كلمته صمت، استمرّ حتّى خرقه رجل الفراش قائلًا:

- شكرًا يا سيّدي ولكن ثمّة أسئلة حائرة أودّ أن أوجّهها إليك.

فقال بهدوء:

- صناعتي هي الكتابة لا الكلام.

- ولكنّها أسئلة ملحّة يا سيّدي.

- اكتبها في ورقة وسأجيب عليها كتابة.

وتكرّم بإعطائه ورقة وقلمًا فتناولهما الرجل وسجّل أسئلة ومدّ بها يده إليه. قرأها الصحفيّ بعناية ثمّ سجّل بدوره إجاباته عليها ثمّ راح يقرؤها:

- بالنسبة للسؤال الأوّل الجواب: محتمَل.

بالنسبة للسؤال الثاني الجواب: بين بين.

بالنسبة للسؤال الثالث الجواب: نعم ولا.

بالنسبة للسؤال الرابع الجواب: لعلّ وعسى.

بالنسبة للسؤال الخامس الجواب: إنّه سلاح ذو حدّين.

بالنسبة للسؤال السادس الجواب: خير الأمور الوسط.

فتمتم رجل الفراش:

- شكرًا يا سيّدي.

فردّ الصحفيّ الشكر بهزّة من رأسه وانتقل إلى الناحية الأخرى. طوى رجل الفراش الجريدة ثمّ احتسى آخر رشفة من الشاي. هبط إلى أرض الحجرة. راح يسوّي جلباب نومه ويتثاءب. وفي الحال أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء. جعلوا يدورون حوله مردّدين مقاطع من أقوالهم السابقة في وقت واحد. تخلّل دورانهم طلقات ناريّة، انفجار قنابل، أزيز طيّارات، صرخات آدميّة. وكلّما أتمّ أحدهم دورته زحف تحت الفراش واختفى حتّى خلت الحجرة ولم يعد يبقى بها سواه. وفتح الباب وظهرت عنده المرأة وهي تتساءل:

- شربت شايك؟

فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهي تختفي في الداخل:

- أظنّ آنَ لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة!

فمضى نحو الباب وهو يتمتم:

- استعنّا على الشقا بالله.

روح طبيب القلوب

تفحّصها الرجل باهتمام فتلقّت نظراته بعينين حذرتين مستطلعتين. كان يجلس مسند الظهر إلى باب الضريح الصغير على حين تربّعت هي بين يديه. لم يكن في ساحة الضريح الصحراويّة سواهما أحد في صحبة شعاع الصباح الباكر. وكان الضريح صغيرًا مثل زنزانة، ولا تناسُب بين جسم الرجل النحيل وبين عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء، وثمّة تناقُض أشدّ بين جلباب الفتاة الرثّ القذر وقدميها الحافيتين وبين جمال وجهها الأسر. أشار الرجل إلى الضريح وقال:

- تبارك ذكره، كان بطبّ الجراح إعجازه وسرّه.

فتمتمت الفتاة بسذاجة:

- تبارك ذكره.

- لعلّ الذي جاء بك إليه جرح عزّ على البشر شفاؤه؟

فتمتمت فيما يشبه البلاهة:

- نعم.

فسألها بارتياب:

- ما سنّك يا فتاة؟

- لا أدري.

- ولكنّ أمّك تدري؟

- لم أرَ لي أمًّا...

- توفّاها الله؟

- لا أدري.

- وأين أبوك؟

ـ لم أرَ لي أبًا.
ـ وأين تعيشين؟
ـ في الدنيا!
ـ ماذا تعملين؟
ـ أسرح بالفاكهة الفاسدة يجود بها الفاكهيّ أو يبيعها بثمن بخس.
ـ ولكنّها تجارة فاسدة!
ـ لها زبائن يتنافسون في الحصول عليها.
ـ وأين تقيمين؟
ـ في الخلاء صيفًا وتحت البواكي شتاء.
ـ أتتحمّلين تقلّب الجوّ؟
ـ وهل تقلّب الجوّ يؤذي؟!
وخفض الرجل صوته درجة وهو يسألها:
ـ وهل صنتِ شرفك يا فتاة؟
ـ شرفي؟!
ـ ألا تعرفين معنى الشرف؟
ـ الشرف؟!
فتردّد لحظة ثمّ تساءل:
ـ ألم يغرّر بك شابّ؟
ـ يغرّر بي؟!
ـ يخدعك لينال منك مأربه؟
ـ نحن نعمل معًا ونلعب معًا وننام معًا!
ـ يا للعنة!
ـ اللعنة؟!
ـ لعلّك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعذاب الضمير؟
ـ الضمير؟
ـ لا تعرفين الضمير أيضًا!
ـ أيضًا!
ـ أأنت راضية عن حياتك؟
فقالت بحماس:
ـ الحياة جميلة بالرغم من كثرة المشاجرات.
ـ الشجار إذن هو ما يقلقك؟
ـ كلّا، إنّه يهب الحياة مذاقًا طيّبًا!
فنفخ الرجل متسائلًا:
ـ ما دينك يا فتاة؟
ـ ديني!؟
ـ ألا تعرفين الدين؟
ـ الدين!
فسألها بحدّة:
ـ ماذا جاء بك إليّ؟
ـ أنت الذي أمرتني أن أجلس فجلست.
ـ ولكنّي رأيتك قادمة نحوي؟
ـ نحو الضريح!
ـ لماذا؟
ـ ظننت أنّه يصلح مأوى لي.
ـ أأنت بلهاء أم مجنونة؟
لاذت الفتاة بالصمت، فقال:
ـ إنّك تعيشين في الخلاء صيفًا وتحت البواكي شتاءً فماذا جعلك تبحثين عن مأوى؟
بدا أنّها تهمّ بالكلام ولكنّها أطبقت شفتيها راجعة إلى الصمت فغمغم الرجل في ضجر:
ـ إنّك شيطانة!
فسألته ببساطة:
ـ مَن أنت؟
فقال بغضب:
ـ لا يجهلني إلّا الشياطين!
ـ ماذا تعمل؟
ـ أنت لا تعرفين الشرف أو الدين فكيف تدركين معنى الولاية؟
ـ لماذا أنت غاضب؟
ـ ملعونة أنتِ في الدارينِ!
ـ الدارينِ؟
ـ في الدنيا والآخرة.
ـ أعرف الدنيا ولكن ما الآخرة؟
ـ اغربي عن وجهي!.
نهضت الفتاة قائمة. سقطت من داخل الجلباب بين قدميها قطعة حليّ. انحنت بسرعة فالتقطتها ولكنّ يد الوليّ قبضت على ساعدها بقوّة ثمّ وثب قائمًا وهو يقول:
ـ ما هٰذا!
هتفت به أن يطلق يدها ولكنّه قبض على منكبيها

وراح ينهرها بعنف فتساقطت قطع الحليّ حتّى استقرّت على الأرض كنزًا صغيرًا. وفي تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والوليّ ورأى الكنز، ردّد البصر بينهما ثمّ حملق في الكنز متسائلًا في ذهول:

ـ ماذا يحدث؟

فقال الوليّ:

ـ لصّة من صعلوكات الطريق.

ـ ماذا جاء بها إلى هنا؟

ـ توهّمت الشيطانة أنّه يمكن إخفاء سرقتها في الضريح.

ـ وماذا تنوي أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغي فعله.

وولولت الفتاة:

ـ دعني وشأني.

فصاح بها:

ـ اخرسي يا لصّة.

ـ يدك تهشّم عظامي.

ـ من أين لك هٰذه الحليّ؟

ـ إنّها ملكي!

ـ ورثتها عن أهلك؟

وعاد خادم الضريح يسأل:

ـ ماذا تنوي أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغي فعله.

ـ وما الذي ينبغي فعله؟

ـ علينا أن نسلّمها للشرطة.

ـ أليس من الجائز أن تكون بريئة؟

ـ ستتكفّل العدالة بإظهار الحقيقة.

ـ ولكنّ العدالة عمياء يا وليّ الله.

ـ من أين لها هٰذه الحليّ؟

ـ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب.

ـ أترى أن نطلقها؟

ـ لن تكون بمأمن من قطّاع الطرق.

ـ لم يبق إلّا أن أضعها تحت رعايتي!

ـ ولٰكنّك وليّ وهيهات أن تحسن رعاية الأمور الدنيويّة.

فقال الوليّ بارتياب:

ـ أرى أحلامًا غريبة تراودك!

ـ لعلّها نفس الأحلام التي تراودك!

وتوسّلت الفتاة قائلة:

ـ دعني أذهب...

فقال لها الوليّ وهو يخفّف من قبضته عليها:

ـ لا أمان لك في دنيا الشرور.

وقال لها خادم الضريح:

ـ سأفتح لك الضريح كما تشائين!

ولكنّ الفتاة قالت بإصرار:

ـ أريد أن أذهب.

وحاولت أن تخلّص ذراعيها، ولكنّ الوليّ شدّد قبضته، وأقبل خادم الضريح يساعده. تبادلا نظرة من فوق رأس الفتاة. قال خادم الضريح:

ـ يلزمنا وقت لتبادل الرأي.

وتبادلا غمزة حملا الفتاة على أثرها إلى داخل الضريح. غابا في الداخل دقائق ثمّ خرجا يتفصّدان عَرَقًا.

أغلق الخادم الباب ثمّ مضى إلى الوليّ وهو يقول:

ـ الخير في الاتّفاق.

ـ لا تنسَ أنّها جاءت إليّ بقدميها.

ـ بل كانت تقصد الضريح.

ـ اكشف أفكارك.

ـ نتقاسم الغنيمة!

ـ من العدل أن...

ولكنّ خادم الضريح قاطعه بحزم:

ـ نتقاسم الغنيمة!

فصمت الوليّ قليلًا ثمّ تساءل:

ـ وماذا نفعل بالفتاة؟

ـ نطردها، ونهدّدها بالويل إن عادت...

ـ قد...

ـ إنّها سارقة ولن تلجأ إلى الشرطة...

ـ قد تحرّض علينا عصابة من الأشرار لا قِبَل لنا بها.

ـ أترى من الأفضل أن نتخلّص منها؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أن نقتلها!

ـ نقتلها!؟

ـ ثمّ ندفنها في الضريح وهو خالٍ كما تعلم!

فقال الوليّ باضطراب:

ـ ولكن لا قلب لي على القتل!

فقال الخادم بارتياح:

ـ ولا قلب لي أيضًا...

ـ فما العمل إذن؟

وتفكّر في صمت مليًّا حتّى قال خادم الضريح بظفر:

ـ الرأي أن نستعين بصديقنا الشرطيّ!

ـ فكرة طيّبة...

ـ وهي المخرج الوحيد لنا.

ـ ولكنّ الغنيمة ستوزّع على ثلاثة بدلًا من اثنين!

ـ خير من ضياع كلّ شيء.

وغادر خادم الضريح المكان. غاب فترة غير قصيرة ثمّ رجع بصحبة الشرطيّ وهو يقول له:

ـ هٰذه هي المسألة بلا زيادة ولا نقصان.

هزّ الشرطيّ رأسه مفكّرًا على حين أقبل الوليّ نحوه قائلًا:

ـ عندك الرأي والتنفيذ.

فقال الشرطيّ:

ـ ولكنّها عقدة تحتاج إلى حلّال وتحفّ بها المهالك!

فقال الوليّ:

ـ سنقبض على الفتاة وتبدأ من فورك التحقيق معها، ثمّ تستولي باسم القانون على الحليّ، وعند ذاك نتشفّع نحن في إطلاق سراحها، وبمجرّد أن تفكّ قبضتك عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع إلى هٰذا المكان ما امتدّ بها العمر!

فقال الشرطيّ:

ـ ولكنّي لا أقبل الظلم...

فتساءل خادم الضريح بانزعاج:

ـ أيّ ظلم!، إنّها صعلوكة شرّيرة قطّاعة طريق!

فقال الشرطيّ:

ـ الظلم أن توزّع الغنيمة علينا بالتساوي!

فوجم الرجلان وقال الوليّ:

ـ لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمّة وحدنا.

ـ لولا الضرورة ما لجأتم إليّ!

ـ لا تكن سيّئ الظنّ أيّها الصديق.

ـ لي النصف ولكلّ منكما الربع.

ـ لا تغالِ أيّها الصديق.

ـ لا تبدّدوا الوقت هباء...

وصمت قليلًا ثمّ استدرك:

ـ ولٰكن يلزمنا مثمّن!

ـ مثمّن؟!

ـ للوزن والتقييم والفحص.

ـ ترى هل يفعل ذٰلك لوجه الله؟

ـ ماذا فعلت أنت لوجه الله؟

ـ ولكن سينقص ذٰلك من نصيب كلّ منّا؟

ـ من نصيب كلّ منكما!!

ـ يجب أن نتحمّل العبء الجديد بالتساوي.

ـ أنت تتناسى أنّك تخاطب القانون!

ـ الرحمة أيّها الصديق.

ـ القانون لا يغمض عينيه بلا ثمن.

فقال الوليّ:

ـ أنا صاحب اللقيّة.

وقال خادم الضريح:

ـ أنا صاحب الضريح.

فقال الشرطيّ بحدّة:

ـ أهناك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلًا من أن أسوقكم إلى السجن؟!

فهبط عليهما صمت واجم مثقل بالتسليم. وتسلّم الشرطيّ الكنز فاقترح أن يذهب إلى المثمّن ولكنّ الرجلين أصرّا على اصطحابه. وفيما هم يهمّون بالذهاب جاء عجوز ضرير قابضًا على يد شابّ ضرير، يتلمّس طريقه نحو الضريح، فعدل الرجال الثلاثة عن الذهاب حتّى تطمئنّ قلوبهم. بلغ العجوز باب الضريح فبسط راحته عليه وتساءل بصوت مرتفع:

ـ أين خادم الضريح؟

فأجابه الشرطيّ:

ـ الظاهر أنّه مريض، اذهب الآن وعُدْ غدًا.

ولٰكنّ العجوز قال:

ـ الباب المغلق لن يسدّ سبيل الرحمة. إنّ الرحمٰن أمر بها.

وأسند رأس الشابّ إلى الباب وهتف:

ـ يا طبيب القلوب الكسيرة، إليك ابني المسكين، فَقَدَ في حادث بصره، فتوقّف في سبيل الرزق سعيه، وأعيا الأطبّاء شفاؤه، اشمله بنفحة من بركتك...

همّ الرجال الثلاثة بالذهاب مرّة أخرى لولا صرخة ندّت عن الشابّ الضرير. وهتف الشابّ.

فسأله العجوز:

ـ مالك يا بنيّ؟

ـ أسمع صوتًا!

ـ أيّ صوت يا بنيّ؟

ـ صوت طبيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيره!

تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة. ألصق العجوز أذنه بالباب ثمّ تساءل:

ـ ماذا سمعت يا بنيّ؟

ـ نفذ صوته إلى أعماق قلبي...

وقال الشرطيّ بحدّة:

ـ اذهبا اليوم وعودا غدًا.

فصاح الشابّ:

ـ لن أذهب، إنّه يناديني!

فقال الشرطيّ:

ـ أنا الشرطيّ، وأقول لك إنّني لا أسمع شيئًا...

فصاح الشابّ بأعلى صوت:

ـ اسكت، دع صوت الرحمة ينفذ إلى قلبي...

ـ ولكنّ ذٰلك مخالف للقانون!

ـ اسكت، طبيب القلوب يهمس في أذني، تكلّم يا طبيب القلوب الكسيرة...

وجذب صوت الشابّ الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون على الساحة بجلابيبهم الزرق وأقدامهم الحافية. وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون الهمس. واستشعر الرجال الثلاثة دنوّ خطر مجهول فحثّ الوليّ وخادم الضريح الشرطيّ على إنقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر. ضرب الشرطيّ الأرض بقدمه وصاح بصوت آمر خشن:

ـ أيّها الشاب، كفّ عن الهذيان.

ولكنّ الشابّ صاح بقوّة:

ـ طبيب القلوب يناديني...

ـ كفّ عن الهذيان...

فقال العجوز بضراعة:

ـ ارحم شبابه وعجزه.

ـ إنّه يحدث فتنة.

فقال العجوز:

ـ دعه يسمع ما يطرق أذنيه، لا ضير من ذٰلك على أحد...

وأكثر من صوت من بين الناس قال:

ـ لا ضير من ذٰلك على أحد، لا ضير من ذٰلك على أحد.

أمّا الشابّ فراح يخاطب الضريح قائلًا:

ـ يا طبيب القلوب، إنّي أسمعك، صوتك يملأ قلبي، يحرّك جذور وجداني. إنّي أصعد في مدارج السماء يا طبيب القلوب...

وهتفت أصوات من الشعب:

ـ تبارك الله القادر على كلّ شيء.

فصاح الشرطيّ:

ـ تضليل وتحدّ لقوانين الأمن.

وقال الوليّ:

ـ اذهب إلى وليّ من أولياء الله أو طبيب من أطبّاء الدولة!

وقال خادم الضريح:

ـ لقد انتهى عصر المعجزات!

فعادت أصوات من الشعب تهتف:

ـ تبارك الله القادر على كلّ شيء.

ومضى الشابّ الضرير في مناجاته قائلًا:

ـ ما أجمل صوتك يا طبيب القلوب. رقيق كالرحمة، هامس كالسرّ، عزيز كالنور...

فصاح الشرطيّ:

ـ دَجّل يدعو للتجمهر دون إذن من الداخليّة!

ولكنّ الشابّ واصل حديثه:

ـ بكلّ جوارحي أصغي إليك. أصغي إليك يا بشير النور والأمل.

فتقدّم الشرطيّ من الناس خطوات وصاح:

ـ باسم القانون آمركم بالتفرّق.

فقال أكثر من صوت:

ـ دعنا نشهد معجزة...

ـ اذهبوا وإلّا حملتكم على الذهاب بالعصا!

ـ لن تمنعنا قوّة من شهود معجزة مباركة!

توثّب الشرطيّ للهجوم فتوثّب الجمهور للدفاع دون أن يتزحزح عن مواقعه. وإذا بالشابّ الضرير يهتف:

ـ ليُفتح الباب، ليُفتح الباب، بذا أمر طبيب القلوب.

فارتفعت ضجّة بين الجمهور وصاحت الأصوات:

ـ افتحوا الباب... افتحوا الباب...

وهتف الشابّ الضرير متشكّيًا:

ـ إنّه يدعوني إليه!

فهتفت أصوات في حماس جنونيّ:

ـ افتحوا الباب، الروح تريد أن تنطلق...

فقال خادم الضريح:

ـ لن أفتحه احترامًا للأمن والقانون...

عند ذاك بدأ الشابّ الضرير يدفع الباب بمنكبه فتعالى هتاف الجمهور. وأراد الشرطيّ أن يمنعه بالقوّة ولكنّ الشابّ دفعه بعنف فرمى به بعيدًا. وانفجر حماس الجمهور فاضطرّ الرجال الثلاثة إلى التنحّي جانبًا اتّقاء لغضبة لا قِبَل لهم بها.

وفتح الباب تحت وقع دفعات الشابّ القويّة فاجتاح الهتاف الساحة كالانفجار. ولم يتردّد الشابّ فدخل متلمّسًا طريقه بيديه حتّى اختفى عن الأنظار. وساد صمت. صمت عميق شامل. تركّزت الأرواح في الأعين المستطلعة. انعدم الزمان والمكان. وإذا بصيحة تندّ عن الداخل. ثمّ ظهر الشابّ في الباب وهو يترنّح. رفع يديه صوب السماء وهتف:

ـ أشهد الله أنّي أرى!... أشهد الله أنّ بصري ردّ إليّ!

وقلّب عينيه في وجوه الذاهلين الصامتين وصاح:

ـ أرى الضياء، أرى الناس، أرى السماء، وقد رأيت الروح!

ـ الروح!.

ـ تجسّدت لعينيّ في صورة فتاة ترسف في الأغلال...

ـ الله أكبر... الله أكبر.

ـ فككت أغلالها بمشيئة الله!

ـ الله أكبر... الله أكبر...

ـ وهي تقطر بهاء وجلالًا وجمالًا...

ـ الله أكبر... الله أكبر...

ـ وبإذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة!

ووثب الشابّ نحو الجمهور فوقف في مقدّمته مستقبلًا باب الضريح. وساد الصمت مرّة أخرى. وتطلّعت الأعين نحو الباب في لهفة عارمة. وفي خطوات وئيدة متردّدة ظهرت الفتاة. ظهرت وهي تنظر إلى الجمهور في ذهول. تعالى الهتاف من الأعماق وركع الجميع في خضوع.

ـ الله أكبر...

ـ الله قادر على كلّ شيء.

ـ يا له من جمال!.

ـ يا له من بهاء!.

ـ ما لا عين رأت...

وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطرّوا إلى الركوع اتّقاء للغضب.

وصاح الشابّ:

ـ إنّي خادمك منذ الساعة وإلى الأبد...

واستبقت أصوات الجمهور في خشوع:

ـ رعايتك للغائب.

ـ رحمتك بالمريض.

ـ كرمك للكادح الفقير.

ـ غضبك على الظالمين.

نظرت الفتاة فيما حولها بذهول وتساءلت:

ـ أين أنا؟

فقال الشابّ:

ـ من السماء هبطت إلى أرضنا التعسة...

ـ ماذا أرى؟

ـ أناس طيّبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرّقتهم الهموم.

ـ إنّي أشعر بدوار.

ـ إنّه دوار مَن يرثي لحالنا.

ـ كادوا يكتمون أنفاسي!

ـ الويل للأشرار حيث كانوا وحيث يكونون.

ـ اغتصبوا الحليّ بلا رحمة...

ـ جواهرك للطيّبين لا للمغتصبين.

ـ أريد الحليّ...

ـ ليجد كلّ مؤمن بك بمكنون جواهره.

انتهز الرجال الثلاثة فرصة انهماك الجمهور وأخذوا يتزحزحون عن مواقعهم بغية الهرب ولكنّ عينيْ الفتاة وقعتا على الوليّ وخادم الضريح فأشارت نحوهما هاتفة:

ـ المجرمان!

انقضّ رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتّى خرّا أمام الفتاة. سألت الفتاة:

ـ أين الحليّ؟

لاذ الرجلان بالصمت فقال صوت من الشعب:

ـ الروح ـ تباركت ـ تتحدّث عن جواهر حقيقيّة!

فقال الشرطيّ:

ـ للروح لغة لا يدركها أحد من البشر!

ـ إنّها تتحدّث عن جواهر حقيقيّة.

فعاد الشرطيّ يقول:

ـ حذارِ أن تفسّروا كلام الروح على هواكم.

ـ اضربوهما حتّى يقرّا!

ـ إنّي مسئول عن الأمن العامّ.

ـ اضربوهما حتّى يقرّا.

فقال الوليّ مرتعدًا:

ـ نحن رجال العهد.

وقال خادم الضريح:

ـ فتّشونا إن شئتم.

فصاح رجال من الشعب:

ـ اضربوهما حتّى يقرّا.

وانهالت عليهما اللكمات كالمطر حتّى صاح خادم الضريح:

ـ الحليّ في حوزة الشرطيّ.

تحوّل الجمهور الغاضب نحو الشرطيّ فقام الرجل وهو يقول بعجلة ولهوجة:

ـ لقد ضبطتها وهما يتقاسمانها فوضعت يدي عليها باسم القانون...

وبلا تردّد تخلّص الشرطيّ من الحليّ فوضعها في الساحة أمام الضريح، في موجة هادرة من التكبير والتهليل.

وصاح الشابّ:

ـ الآن وضح الحقّ!

فانخفضت الأصوات رويدًا حتّى استقرّ الصمت فاستدرك الشابّ قائلًا:

ـ أرادت الروح أن تجود ببعض الجواهر على الفقراء فسرقها اللصّان ولكن ها هي الجواهر تعود إلى أصحابها!

ـ الله أكبر... الله أكبر...

ـ وتلك هي رسالة طبيب القلوب إليكم...

ـ الله أكبر... الله أكبر...

ـ تباركتَ يا طبيب القلوب.

ـ فلتوزّع بالعدل.

ـ تباركتَ يا طبيب القلوب.

ـ ولتُنفق في الخير.

ـ تباركت يا طبيب القلوب.

وإذا برجل وجيه المظهر يجيء مهرولًا. ينظر فيما حوله بذهول حتّى تقع عيناه على الحليّ فيندفع نحوها كالمجنون هاتفًا:

ـ الحليّ المسروقة!

ولكنّ الشابّ يدفعه دفعة قويّة تُرجعه القهقرى. وصاح الوجيه:

ـ هٰذه حليّي، وهي مثبتة بالوصف والعيار في محضر الشرطة...

فتعالت أصوات الشعب:

ـ كذّاب!

ـ لصّ!

ـ شريك المجرمين!

فقال الوجيه:

ـ لنذهب إلى قسم الشرطة.

ـ اذهب إلى الجحيم.

وفيما يضرب الوجيه كفًّا بكفّ يقع بصره على

الفتاة. حدّق فيها ذاهلًا وهتف:

ـ أنت!

وهمّ بالانقضاض عليها ولكنّ الشابّ دفعه دفعة قويّة كادت تطرحه أرضًا. وصاح به الجمهور غاضبًا:

ـ تأدّب في الخطاب يا وقح...

ـ أنت غير جدير بالمثول بين يدي روح كريم.

وتساءل الوجيه في ذهول:

ـ ماذا جرى للدنيا؟!

ولمح الشرطيّ فلاذ به قائلًا:

ـ أنا صاحب الحليّ، اذهب بنا إلى القسم...

فهمس الشرطيّ في أذنه:

ـ اصبر، لا جدوى الآن من تحدّي الجمهور...

ـ ولكنّها لصّة صعلوكة!

فانهالت عليه الأكفّ.

ـ اقطع لسانك يا وغد.

ـ يا مجدّف.

ـ يا لئيم.

وسأل الشابّ الفتاة:

ـ ما قولك في هٰذا الوقح؟

فأجابت الفتاة بسرعة:

ـ إنّه حيوان يتمرّغ في تراب الفتيات ويضنّ عليهنّ بالملاليم!

فصاح الجمهور الغاضب:

ـ حيوان... حيوان...

فقالت الفتاة:

ـ أمواله حلال لكم!

تعالى التهليل والتكبير. هجم عليه رجال أشدّاء فطرحوه أرضًا واستخرجوا من جيوبه جميع نقوده...

وصاح الوجيه:

ـ أيّها الشرطيّ!

فهمس الشرطيّ:

ـ ماذا يفعل الشرطيّ بين مجانين!

ـ أموالي تنهب بمحضرك!

وصاح الشابّ:

ـ أمواله كالحليّ هبة طبيب القلوب للفقراء!

فصاح الجمهور:

ـ تبارك الروح الكريم!

فقال الشابّ:

ـ تقاسموا المال بالعدل...

وأحاط الجمهور بالشابّ وراحوا يتقاسمون النقود والحليّ. وجعل الوجيه يهذي قائلًا:

ـ ماذا جرى للدنيا؟

وقال الشابّ:

ـ الآن تحقّقت رسالة طبيب القلوب.

وأشارت الفتاة إلى الوجيه والشرطيّ وخادم الضريح والوليّ وقالت:

ـ قيّدوهم ثمّ احبسوهم في الضريح!

هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيّدهم ثمّ حملهم إلى داخل الضريح وأغلق الباب. وسلّمت الفتاة المفتاح إلى الشابّ قائلة:

ـ أنت خادم الضريح...

ثمّ نظرت إلى الجموع وقالت:

ـ اذهبوا بسلامة الله...

على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معهما إلّا الشابّ، خادم الضريح الجديد. تبادلا النظر، من ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق. سألته:

ـ لِمَ لَمْ تأخذ من المال نصيبًا؟

فقال الشابّ بوجد وافتتان:

ـ حسبي أن أكون خادم ضريحك...

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك؟

ـ نشأت في الطريق حتّى التقطني منه العجوز الطيّب فعلّمني صناعته وهي تحضير الأرواح العطريّة!

ـ كنت من فتيان الطريق؟

ـ أوّل عهدي بالحياة.

ـ وكيف فقدت بصرك؟

ـ صدمتني سيّارة عابرة!

ـ ولكنّه رُدّ إليك فمبارك عليك...

ـ بفضل الله وفضلك...

تفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

ـ الأصوب أن ترجع إلى عملك الأوّل مع العجوز الطيّب.

ـ بل أحبّ أن أبقى خادمًا لضريحك...

ـ أقول لك ارجع إلى عملك...

ـ أهو أمر؟

ـ نعم.

ـ سأرجع إلى عملي...

ـ سأرسل لك بفتاة من الطريق الذي نشأت فيه إذا رأيتها توهّمت أنّك تراني...

ـ ما أجمل أن أرى صورتك على الدوام!

ـ تزوّج منها فهي هبتي إليك...

ـ سمعًا وطاعة...

ـ وأحسِنْ معاملتها.

ـ سمعًا وطاعة...

ـ ولا تصدّق قول الحاسدين فيها.

ـ سمعًا وطاعة...

ـ ولا تفارقها حتّى تفارقك الحياة.

ـ سمعًا وطاعة...

ـ اذهب الآن بسلام...

ـ وددت أن أبقى كظلّك...

ـ اذهب بسلام...

أحنى الشابّ رأسه في خضوع ثمّ فارق المكان أسيفًا حزينًا.

وجدت نفسها وحيدة في الخلاء. تجلّت الحيرة في عينيها.

تساءلت:

ـ ماذا جرى للدنيا!

وقطّبت في غضب:

ـ إمّا أنّني مجنونة وإمّا أنّهم مجانين!

ثمّ في ذهول:

ـ الجميع يركعون، يهلّلون ويكبّرون، بإشارة من يدي يأتمرون... ماذا جرى؟!

وبغتة سمعت دفعًا يصكّ باب الضريح من الداخل صكًّا. تولّاها الذعر فأطلقت للريح ساقيها. انفتح الباب بقوّة الدفع وانطلق منه الوجيه والشرطيّ وخادم الضريح والوليّ. وجعل الوجيه يقول في صخب غاضب للشرطيّ:

ـ سأحمّلك مسئوليّة المهزلة كلّها.

ولكنّ الشرطيّ قال:

ـ صبرك، لم يكن في الإمكان فعل شيء، جنّ الناس وإذا جنّ الناس تطايرت هيبة الشرطيّ، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدي...

ـ واللصّة الصعلوكة أين ذهبت؟

ـ اعتبرها في قبضة يدك، إنّي أعني ما أقول.

ـ وكيف أستردّ مالي وحليّي؟

فقال خادم الضريح:

ـ لنلجأ إلى القسم...

ولكنّ الشرطيّ اعترض قائلًا:

ـ كلّا، للتحقيق سراديب أخشاها!

فسأله الوليّ:

ـ والعمل؟

فأجاب الشرطيّ:

ـ لي وسائلي الخاصّة.

ولكنّ الوجيه قال:

ـ بل لديّ فكرة لو قدّر لها النجاح ردّت إليّ أموالي الضائعة!

ـ ما هي فكرتك؟

ـ نلجأ إلى الروح!

ـ الروح؟!

ـ الروح التي سلبت مالي هي التي تردّه إليّ!

ـ ولكنّ ذاك حلم!

ـ سنعيد تمثيل الرواية!

ـ نفس الرواية؟

ـ ولكن بممثّلينَ من عندنا.

ـ والروح من أين نأتي بها؟

ـ نفس الروح، وإذا خرجت عن المرسوم لها مزّقناها إربًا!

***

وفي صباح اليوم التالي طلع أوّل شعاع على الضريح وهو مغلق والوليّ جالس أسفل بابه. وإذا بعجوز يسحب وراءه شابًّا ضريرًا نحو الضريح. وجاء رجال فاتّخذوا مواقفهم فيما يلي الضريح. وغمز الوليّ بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين بالدهشة.

ـ هل نشهد معجزة جديدة؟

ـ أجل... إنّها معجزة جديدة!

وترامت أصواتهم المرتفعة إلى أطراف المدينة فهرع إلى ساحة الضريح جموع الأمس ملهوفين وعلى رأسهم الشابّ، ولحق بهم الشرطيّ وخادم الضريح، وتطلّعت الأبصار إلى الشابّ الضرير. رأوه مسند الرأس إلى باب الضريح وهو يهتف:

- يا ربّ السماوات!

فسأله العجوز:

- مالك يا بنيّ؟

فقال الشابّ بانفعال شديد:

- أسمع صوتًا يا أبي.

فسرت في الجموع همهمة سرعان ما انقلبت تهليلًا وتكبيرًا. وتظاهر خادم الضريح بالقلق فنادى الشرطيّ بنبرة تحريض:

- أيّها الشرطيّ!

ولكنّ الشرطيّ أجاب بإذعان:

- كفاني ما لُقّنت أمس من درس، فلتكن مشيئة الله.

فهتفت الجموع هتاف النصر. وصاح الشابّ الضرير:

- إنّه يناديني!

فصاح الجمهور:

- الله أكبر... الله أكبر...

- إنّي مرهف السمع، إنّي رهن الإشارة يا طبيب القلوب الكسيرة.

- تبارك الله القادر على كلّ شيء.

- افتحوا الباب، إنّه يناديني، افتحوا الباب.

مضى شابّ الأمس ففتح الباب بين التهليل والتكبير. دخل الشابّ الضرير ملتمسًا طريقه إلى قلب الضريح حتّى اختفى عن الأنظار. وساد صمت. صمت عميق شامل. وتركّزت الأرواح في الأعين المتطلّعة. وإذا بصيحة تترامى من الداخل وإذا بالشابّ يظهر في الباب رافعًا يديه إلى السماء وهو يهتف:

- أشهد الله أنّ بصري قد رُدّ إليّ!

فهتف الناس بانجذاب:

- الله أكبر... الله أكبر...

- خُلقت الدنيا من جديد، بنورها وناسها، فلتتقبّلني خادمًا لضريحك يا طبيب القلوب.

- تبارك الله القادر على كلّ شيء.

- المنّة لله، ما أحلى النور عقب الظلام.

- تبارك الروح الكريم...

وسأله رجل ممّن يقفون في الصفّ الأوّل:

- ماذا وجدت في الداخل؟

- رأيت الروح يرسف في الأغلال!

فتساءل شابّ الأمس بذهول:

- ماذا قيّدها بعد أن أطلقتها بيديّ؟

- قد أخبرت بما رأيت...

وتتابعت الاستغاثات من الحناجر:

- أتمّ نعمتك يا طبيب القلوب.

- يا مفرّج الكروب.

- يا ناصر الضعفاء والفقراء.

وظهرت الفتاة في الباب كما ظهرت أمس، ودوّى المكان بالتهليل والتكبير...

- ها هي الروح المباركة.

- ترقّبوا مزيدًا من البركات...

- طوبى للفقراء.

وتساءلت الفتاة:

- أين أنا؟

فاستبقت أصوات تجيب:

- في الأرض التي اخضرّت بجودك.

- ماذا أرى؟

- شعبك الشكور.

فقالت بألم:

- كادت الأغلال تكتم أنفاسي!

فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل:

- مَن المجرم الأثيم؟...

- مَن الجاني الشرّير؟

- مَن عدوّ الأرواح؟

فقالت الفتاة وهي تلحظ المحدقين بها في يأس:

- رماني في الأغلال صديق لا عدوّ، وبحسن نيّة لا بسوء طويّة!

فانفغرت الأفواه ذهولًا فعادت الفتاة تقول:

ـ ما أساء إليّ إلّا سوء الفهم والتأويل!

واصلت الأعين حملقتها في ذهول وتساؤل.

ـ طرحت لغزًا فوقعتم في حبائله!

ـ ليغفر الله لنا.

ـ غاب عنكم أنّ الروح لا تتكلّم بلغة الدنيا.

ـ ليغفر الله لنا.

ـ وأنّها تهب الضياء الخالد لا المال الفاني.

فصاح رجال الصفّ الأوّل:

ـ ليغفر الله لنا.

أمّا الآخرون فوجموا وأطرقوا.

ـ وأنّها جاءت لتطهّر القلوب لا لتحضّ على النهب والسرقة!

اندحر الجمهور وغرق في صمت على حين صاح الآخرون:

ـ ليغفر الله لنا.

ـ هٰكذا وقعتم في الضلال ونهبتم المال الحلال!

ـ ليغفر الله لنا.

ـ ذٰلك ما أعادني إلى الأسر!

ـ ليغفر الله لنا.

ـ اطلقوا سراحي أيّها الأحبّاء المخلصون.

وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدقون بها يدسّون أيديهم في جيوبهم ويرمون بالنقود تحت أقدامها على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر والأمل، وأخذوا يتبادلون النظرات كمن يفيقون من حلم. واستبطأهم الآخرون فسألهم الشرطيّ محتجًّا:

ـ أتضنّون بالحرّيّة على الروح الكريم؟

ولكنّ واحدًا منهم لم ينبس أو يتحرّك. وجعل شابّ الأمس يحملق في الفتاة بذهول حتّى صاح متأوّهًا:

ـ ماذا أرى؟

فتطلّعت إليه الأبصار فصاح بغضب موجّهًا الخطاب إلى الفتاة:

ـ شدّ ما تغيّر كلّ شيء، كلّا، ماذا أرى؟!

التصقت به الأبصار وهو يمعن النظر بجنون حتّى صاح بتحدّ:

ـ ما أنت بالروح الكريم!

أشرقت أعين الجمهور بالأمل أمّا الشرطيّ فصرخ فيه:

ـ كفّ عن التجديف يا مارق!

ولكنّه صاح بإصرار:

ـ ما أنت بالروح الكريم!

انبعثت من صدور الجمهور موجة استجابة حارّة لقوله صدّقوه من أعماقهم المعذّبة. تغيّرت النظرة وتغيّر المنظور وتتابعت الصيحات في غضب وثورة:

ـ ما أنت بالروح الكريم.

ـ أين صوت الأمس الحنون؟

ـ أين ذهبت رحمة السماء؟

ـ أين اختفى البهاء والجلال؟

ـ انظروا إلى أسمالها البالية!

ـ انظروا إلى الطين يعلو قدميها!

ـ انظروا إلى التراب يغطّي وجهها!

وفجأة وثبت الفتاة مخترقة الحصار المحدق بها رامية بنفسها وسط الجمهور وهي تهتف:

ـ النجدة!

وصاح الشرطيّ:

ـ ما هٰذا!

فصاحت الفتاة:

ـ أنا بنت مسكينة لا روح ولا ملاك!.

فصاح الشرطيّ:

ـ أيّتها الدجّالة الويل لك...

فصرخت الفتاة:

ـ هدّدوني بالقتل إن لم أتكلّم على هواهم.

فارتفعت الأصوات بالغضب وتكوّرت القبضات في تشنّج. وانقضّ رجال من المتآمرين على الفتاة ولكنّ الجمهور تصدّى لهم فدارت بين الفريقين معركة حامية. معركة استُعملت فيها الأيدي والأرجل والعصيّ والطوب والأسنان. وقاتل كلّ فريق بعناد وغضب. ورأى شابّ الأمس الفتاة وهي تقاتل كرجل فخطر له أنّها فتاته الموعودة فازداد قوّة واستبسالًا.

***

استمرّت المعركة وهي تزداد عنفًا ووحشيّة...

موقف وداع

أفاقا في وقت واحد. دبّت فيهما حركة بطيئة كتقلّصات اعترت زوايا الفم والجفون والأطراف. فتحا عينيهما. ندّت عنهما آهة عميقة من التوجّع. تقلّبا على الجنبين. زحفا على أربع مقدار ذراع. جلسا على الرمال. أجالا في الخلاء المحيط بهما نظرة ثقيلة نصف عمياء. تلاقت عيناهما في نظرة عابرة لم تكد تكفي لكي يرى أحدهما الآخر.

- ما أثقل رأسي!
- ما أثقل رأسي!
- لا ريب أنّي أغادر مرضًا طويلًا.
- لا شكّ أنّي أبعث من موت.
- يا له من خلاء ميت.
- لعلّي في قبر، أكذلك يبدو القبر من الداخل؟!

وتلاقت عيناهما مرّة أخرى.

- مَن أنتَ؟
- مَن أنتَ؟
- إنّك عارٍ تمامًا كيوم ولدتك أمّك.
- وأنت أيضًا، ألا تدرك ذلك؟
- يا للعجب، أين ملابسي؟
- أين ملابسنا؟
- مَن أنتَ؟
- مَن أنتَ؟
- اسمي عبد الواحد.
- اسمي عبد القويّ.
- ترى أسمعت هذا الاسم من قبل؟
- محتمل أنّني سمعت اسمك كذلك.
- ماذا جاء بك إلى هنا؟
- ماذا جاء بك إلى هنا؟
- في الذاكرة تلفٌ وعناء.
- في الذاكرة تلف وعناء.
- واضح أنّنا تعرّضنا معًا لشرّ واحد.
- أجل.
- غير بعيد أنّني لا أراك لأوّل مرّة.
- ويخيّل إليّ أنّني عرفت في حياتي شخصًا يقاربك في الشبه...

نهضا معًا بصعوبة. وقفا يترنّحان. أخذا يتنفّسان بعمق.

- ما الذي جمع بيننا؟
- لا يمكن أن نوجد هكذا معًا مصادفة.
- ثمّة علاقة تربط بيننا، فما هي؟
- ما هي؟
- سنتخلّص من الإعياء والخور ونتذكّر كلّ شيء.
- من خبرتي السابقة أؤكّد لك أنّ رأسينا تعرّضا لضرب مركّز.
- ضُربنا لنُسرق وقد سُرقنا بالفعل كما ترى.
- ومن خبرتي أيضًا أؤكّد لك أنّنا تعاطينا مخدّرًا جهنّميًا.
- ولكنّني لا أتعاطى أيّ مخدّر.
- لعلّه دُسّ إلينا في غفلة منّا!
- لعلّه، ولكنّنا سنعود إلى وعينا...
- استيقظي يا ذاكرة، حقًّا إنّ الإنسان بلا ذاكرة هو لا شيء!
- ها أنت تتنبّه إلى أنّنا من فصيلة الإنسان.
- لا يتعرّى إلّا الإنسان أمّا الحيوان فيُخلق بملابس طبيعيّة.
- من حسن الحظّ أن تكون إنسانًا ولو سُرقت وتعرّيت وتألّمت.
- علينا أن نقاوم الذهول وإلّا ذبنا في الخلاء.
- وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف لو سُئل ألف سؤال.
- صدقت.
- الحقّ أنّ وجهك غير غريب، ولا صوتك.
- كذلك وجهك وصوتك.
- نحن نتقدّم بلا شكّ.
- الذكريات تُقبِل حتّى أكاد أمسك بها ولكنّها سرعان ما تُدْبِر...
- اشحذ جهاز استقبالك.
- صه... ها هي ذكرى، كأنّها عواء!، وثمّة ظلام كأنّما يتكدّس في كهف!
- حقًّا؟!... وإنّي أكاد أُمسك بأرقام محدّدة...

ترى ما هي؟

- وثمّة إيقاع شيطانيّ، لعلّه زارٌ، أتعرف الزار؟

- كلّا ولٰكن هناك خطّة... خطّة هامّة!

وفرّق بينهما صمت. مضى كلّ منهما يحرّك رأسه بشدّة. ويتنفّس بعمق. ثمّ تبادلا نظرة حيّة لأوّل مرّة.

ارتسمت في وجهيهما الدهشة.

- ربّاه!

- عبد القويّ!

- عبد الواحد!

- ماذا حدث لنا أيّها الأخ؟

- أجل ماذا حدث؟

وساد الصمت مرّة أخرى تحت شمس الخريف الدافئة حتّى تمتم عبد الواحد:

- كنّا ماضيين نحو الطريق الزراعيّ.

- أجل رأيناه بالعين على ضوء النجوم.

- ثمّ؟

- ثمّ انقضّ علينا قطّاع الطرق، لا شكّ عندي في ذٰلك.

- وسرعان ما غبنا عن الوجود.

- آه، تذكّرت، كنّا قادمين من مخيّم البدويّ.

- ذٰلك الرجل الكريم الذي استضافنا في الواحة.

- الواحة!... أجل الواحة... وقد قضينا وقتًا طيّبًا في الخيمة... وتعاطينا...

فقاطعه عبد الواحد بحدّة:

- إنّك أنت أصل المصائب!

- كلّما هفتْ نفسك إلى لذّة مسحت ضعفك فيّ أنا!

- أنت الذي شجّعته!

- لِمَ اشتركت أنت معنا؟

- ضقت بالعزلة...

- هي حجّتك إذا أردت أن تمسح ضعفك فيّ...

- وقد وصّلنا البدويّ حتّى مشارف الطريق...

- وعقب رجوعه بوقت غير قصير وقع لنا ما وقع.

- وحملنا المعتدون إلى هٰذا الخلاء ثمّ تركونا عرايا!

وجعل كلّ منهما يقطّب متذكّرًا حتّى قال عبد الواحد:

- سرقوا ملابسنا بما فيها...

- نقودنا وأوراقنا الخاصّة...

- تركونا بلا شيء في لا شيء.

- فنحن وما حولنا لا شيء.

- هراء ما تقول!

- ولٰكنّك أنت مَن قلته!

- إنّي لا أتكلّم ولٰكنّي أفكّر والتفكير طرح فروض واحتمالات...

- معذرة يا أخي، ولتفكّر في هدوء.

- ويجب أن تفكّر أنت أيضًا.

- إنّما اعتمادي - بعد الله - على إحساسي الباطنيّ وحده.

- ماذا يقول لك إحساسك الباطنيّ؟

- إنّها ستُفرّج من حيث لا ندري!

- ربّما هلكنا قبل ذٰلك.

فرفع عبد القويّ كتفيه العاريين في صمت واستسلام فقال عبد الواحد:

- لقد سلبونا جميع ما نملك إلّا العقل.

- وهو ما زال في شبه غيبوبة.

- أجل ولٰكن من اليسير أن ندرك أنّ علينا أن نذهب إلى أقرب نقطة شرطة.

- فكرة صائبة، هيّا بنا...

- لا تتعجّل، أنسيت أنّنا عرايا يستحيل عليهم مواجهة الناس؟!

- ولٰكنّك أنت الذي اقترحت ذٰلك.

قلت لك إنّي أفكّر وإنّ التفكير ما هو إلّا طرح فروض واحتمالات!

- معذرة...

- وإذن فعلينا قبل ذٰلك أن نحصل على ملابس.

- فكرة صائبة ولٰكن كيف؟

- أن نعود مثلًا إلى صاحبنا البدويّ.

- أسرع، لنسرع أيّها الأخ...

- ولٰكنّنا في خلاء مجهول لا ندري شيئًا عن موقعه ولا بوصلة معنا ولا مرشد.

- لم يبق إلّا أن ننتظر حتّى يعبر أحد فننبهه كما نُهبنا.

- وأيّ مجنون يعبر هٰذه المتاهة؟
- يا لها من ورطة مضحكة!
- مضحكة؟!
- المآزق تبعث في نفسي الضحك.
- ذاك أنّك أهوج ملهوج لا يُركن إليه في أزمة.
- أنسيت مواقفي في نجدتك عند الخطر؟
- لا يمكن أن يُنسى ذٰلك ولٰكن لا تضحك في المآزق!

أحنى عبد القويّ رأسه مستجيبًا أو متظاهرًا بالاستجابة فواصل عبد الواحد كلامه قائلًا:

- اتّفق الرأي على أنّنا نزلنا ضيفين في خيمة البدويّ ولٰكن ما الذي دفع بنا إلى الواحة؟
- ولٰكنّك لم تحلّ مشكلة وجودنا في الخلاء عرايا بعد؟
- يقتضي حلّها بالرجوع إلى الوراء قليلًا فنحن لم نستكمل الوعي بنفسنا وحالنا بعد.
- فليتمّ ذٰلك قبل أن نهلك في الخلاء.
- لا تبدّد الوقت، ماذا جاء بنا إلى الواحة؟... لا أظنّنا من أهل الواحات!
- الثابت أنّنا من أهل الأرض.
- أين كنّا قبل أن نذهب إلى الواحة؟... ولِمَ ذهبنا إلى الواحة؟

فضرب عبد القويّ جبهته بكفّه وصاح:

- شدّ ما كانت جيوبي ملأى بالنقود!
- ولٰكنّنا لا يمكن أن نُعَدّ من الأغنياء بحال!
- صه، ها هي ذكرى تقع في قبضتي، الاستراحة!... ألا تذكر الاستراحة؟!
- الاستراحة!... أجل... الاستراحة والحديقة وبركة البطّ.
- برافو... والركن القصيّ حيث قبعت مجموعة من الأفنديّة؟
- أجل... كانوا يلعبون الورق...
- وجعلت أنا أتابع اللعب من بعيد.
- وحذّرتك من ذٰلك.
- ولٰكنّي لا أملك أن أرى اللعب دون أن أتفرّج.
- قلت لك ابتعد.
- وإذا بأحدهم يسألني برقّة «أتريد أن تنضمّ إلينا؟».
- وهمست في أذنك أنّهم زملاء وقد يتضامنون عليك...
- والخطر لا يخيفني بقدر ما يستفزّني للتحدّي...
- سجيّة مفيدة في مجالها مضرّة فيما عدا ذٰلك.
- ولٰكنّك أنت نفسك لحقت بي في اللعب!
- عندما طالت بي الوحدة!
- كلّا... عندما ثبت لديك أنّ اللعب نظيف وأنّني أربح باستمرار!
- ليس إلّا أنّني أكره الوحدة!
- وسرعان ما انهمكت في اللعب...
- وقد ربحت أنت مالًا طائلًا...
- ثروة!... أخذتها من أصحابها لأهبها لقطّاع الطرق...
- وأعقب ذٰلك معركة!
- رماني أحدهم بتهمة باطلة فلكمته!
- ولٰكنّها اتّسعت واضطررت إلى المشاركة دفاعًا عنك ونلت نصيبي من الضرب الأليم...
- ولٰكنّنا انتصرنا في الضرب كما انتصرنا في اللعب.
- وبعد أن ورّطتنا فيما لا يليق!

استمتع عبد القويّ بلحظات من الارتياح على حين مضى عبد الواحد يفكّر حتّى رجع يتساءل:

- ولٰكن ماذا دفع بنا إلى الاستراحة؟

أفاق عبد الواحد من لحظاته السعيدة فحدجه بنظرة بلهاء. وتساءل عبد الواحد:

- أين كنّا قبل أن ننزل بالاستراحة؟
- الاستراحة... الواحة... مؤكّد كنّا نقوم برحلة.
- من أين وإلى أين؟... أعمل ذاكرتك الفذّة.
- ولٰكنّها ما زالت في قبضة المخدّر وعلقة قطّاع الطرق!
- تغلّب على ضعفك الطارئ فأنت رجل مخلوق للشدائد.

راح عبد القويّ يعصر ذاكرته مليًّا ثمّ قال:

ـ أذكر أنّي رفعتُ بين يديَّ رَجُلًا يرتدي جبّة وقفطانًا وطرحته أرضًا!

ـ ولٰكنّ خصومنا في الاستراحة كانوا أفنديّة!

ـ أكان أحد قطّاع الطرق؟

ـ ولٰكنّا لم ندخل معركة معهم فقد غدروا بنا بغتة فغبنا عن الوجود.

وإذا بعبد القويّ يصيح متهلّلًا:

ـ كان الرجل صاحب الراقصة!

ـ الراقصة؟!

ـ ملهى الزهرة... ملهى الزهرة بالمدينة... كنّا في المدينة قبل أن نمضي إلى الاستراحة!

ـ عفارم عليك... كنّا حقًّا في المدينة.

ـ قضينا ليلة عجيبة...

ـ الله يكسفك!

ـ حيّاك الله يا ملهى الزهرة!

ـ أنت الذي قدّمتني إليه...

ـ ينبغي أن أستحقّ شكرك.

ـ وشربت، وشربنا، ولٰكنّك جاوزت الحدّ.

ـ وكانت الراقصة تضيء كاللؤلؤة...

ـ ورغم تحذيري لك فإنّ النهم تجلّى في عينيك كوحش ضارٍ...

ـ كنت تحذّرني يا أخ وتسترق إليها النظر.

ـ الإعجاب بالجمال في ذاته من ضمن أشواق العقل!

ـ لذٰلك لم أنسك في مغامراتي الباهرة فساومتها على ليلة كاملة لرجلين معًا!

ـ أخزاك الله!

ـ ولم تمانع الفاتنة...

ـ مؤامرة حيوانيّة.

ـ ولٰكنّها ضمنت لكلينا ليلة ساحرة.

ـ ثمّ اعترضتنا متاعب غير متوقّعة ومخجلة...

ـ كان ثمّة عشّاق قدامى لها اعتبروا مغامرتنا اعتداء صارخًا على رجولتهم...

ـ وهٰكذا خضنا في طريقنا إلى بيتها معركة حامية...

ـ وانتصرنا انتصارًا حاسمًا.

ـ وكدنا نقع في قبضة الشرطة...

ـ ولٰكنّ الله سلّم وقضينا ليلة حمراء مترعة بجنون اللذّة...

ـ وها نحن عرايا في خلاء ميت!

ـ ولٰكنّ الليلة الحمراء لا يمكن أن تُنسى...

ـ لولا حماقتك ما وقعنا في هٰذا المأزق.

ـ حماقاتي قادتنا من لذّة إلى لذّة، ومن نصر إلى نصر...

ـ حتّى مجرّد الاعتراف بالخطأ تأباه، أيّها العنيد المكابر. أتذكّر كم من مرّة قلت لك إنّ العبث قد يحول بيننا وبين إنجاز مهمّتنا.

وسرعان ما تبادلا نظرة حادّة منزعجة! وهتف عبد القويّ:

ـ ماذا قلت؟... أعد ما قلت مرّة أخرى؟

فقال عبد الواحد بذهول:

ـ يحول بيننا وبين إنجاز مهمّتنا!

ـ إذن فهنالك مهمّة تتطلّب الإنجاز؟

ـ صبرك. دعني أتذكّر بهدوء...

ـ بهفوة لسان تذكّرت أخطر شيء في رحلتنا...

ـ مهمّة... أيّ مهمّة؟... دعني أتذكّر.

ـ لا شكّ أنّنا كنّا في العاصمة قبل أن ننتقل إلى المدينة.

ـ أجل... لا شكّ في ذٰلك.

ـ وها أنا أتذكّر آخر ليلة لنا فيها، كنّا في زيارة للكهف الذي أقام فيه الوجوديّون معرضهم التشكيليّ!

ـ صدقت أيّها الأخ عبد القويّ.

ـ وقابلنا هناك الزميل نوح فأمرنا همسًا بأن نذهب من فورنا إلى مستشفى الولادة لمقابلة الدكتور المولّد رئيس وحدتنا السرّيّة ومندوب الزعيم.

ـ وذهبنا إلى المستشفى فانتظرناه في حجرته حتّى يفرغ من توليد امرأة...

ـ وجاءنا فتحدّث معنا عن رحلتنا.

ـ أمرنا أن نسافر إلى الجنوب، ولٰكن لِمَ لَمْ نسافر إلى الجنوب رأسًا؟

ـ رسمَ للسفر خطّة معقّدة، فكان علينا أن نذهب أوّلًا إلى المدينة فالاستراحة ثمّ الواحة قبل أن نمضي إلى

الجنوب.

ـ أجل وحدّد لكلّ مكان وقتًا ومدّة إقامة، ولٰكن ماذا كانت المهمّة؟

ـ آن لنا أن نتذكّر أخطر ما في رحلتنا.

ـ أذكر أنّه انتحى بك جانبًا مقدار خمس دقائق فلم أسمع ما دار بينكما.

ـ ألم أحدّثك عن المهمّة عقب مغادرتنا المستشفى؟

ـ كلّا، مؤكّد أنّني لم أعرف شيئًا عن المهمّة، ولٰكنّك...

ـ ولٰكنّني؟

ـ ولٰكنّك قلت لي ونحن في الطريق نصف المظلم إنّنا سنعرف المهمّة عندما نصل...

ـ ذاك يؤكّد أنّني لم أكن أعرفها وقتذاك.

وهنا صاح عبد القويّ متهلّلًا:

ـ قلت إنّها في جيبك، إنّه سلّمك مظروفًا مغلقًا لا يجوز فضّه قبل الوصول.

ـ أحسنت التذكّر...

وضرب يده على موضع الجيب فأصابت لحم فخله الضامرة فصاح بحسرة:

ـ يا للداهية السوداء، لقد سُرق المظروف فيما سُرق من أموالنا!

ـ يا للكارثة!

ـ إنّك أنت المسئول عمّا حاق بنا.

ـ لا تمسح فيّ ضعفك.

ـ اعترف بجنونك.

ـ إنّي راضٍ عن نفسي فاعترف أنت بضعفك...

وتبادلا نظرة ناريّة، تلاقى فيها الغضب بالتحدّي، ولٰكنّ عبد الواحد انتزع عينيه يائسًا، رمى ببصره إلى الخلاء، ثمّ تنهّد قائلًا:

ـ نهاية خليقة بالحشرات!

فقال عبد القويّ:

ـ لا تنس مشكلتنا الراهنة، علينا أن نتخلّص من ورطتنا!

لم ينبس عبد الواحد فعاد عبد القويّ يقول:

ـ لنبحث عن العمران، وسنحصل بوسيلة ما عمّا يسترنا، ولنرجع بعد ذٰلك إلى الدكتور.

ـ هٰذا يعني القضاء علينا.

ـ حتّى إذا علم باعتداء قطّاع الطرق علينا؟

ـ له قدرة خارقة على أن يقرّرنا حتّى نقرّ بما يديننا!

ـ ولِمَ لَمْ يفضِ إليك بالمهمّة من بادئ الأمر؟

ـ إنّه أدرى بما ينبغي أن يتبع.

ـ ولٰكنّنا نحن الذين نقوم بالمغامرة ومن حقّنا أن نعرف.

ـ لقد دخلنا التنظيم باختيارنا وقبلنا لائحته دون شرط، فما وجه اعتراضك الآن؟

ـ كان علينا أن نرفض أن نكون مجرّد آلات.

ـ بالتنظيم كذٰلك أناس لا عمل لهم إلّا التفكير والتدبير.

ـ ولِمَ يختصّون هم بالتدبير ونختصّ نحن بالتنفيذ الأعمى؟

ـ لا يستقيم التنظيم إلّا بتوزيع دقيق للعمل.

ـ ومتى ثبت لهم أنّنا دونهم في التفكير والتدبير؟

ـ يبدأ العضو عادة بعمل تنفيذيّ ثمّ يتدرّج في مدارج الرقيّ.

ـ كلام جميل أمّا الواقع فهو أنّهم يستأثرون بالعلوّ والأمان ونتعرّض نحن كلّ ساعة للموت، وتمرّ الأيّام ونحن نمنّي النفس بترقية لا تريد أن تتحقّق أبدًا!

ـ الحقّ أنّه لا همّ لك في دنياك إلّا التمرّد وانتهاب اللذّات!

فرفع عبد القويّ كتفيه العاريتين امتعاضًا وأطبق فاه، فقال عبد الواحد:

ـ شدّ ما يغضبك قول الحقّ!

فتساءل عبد القويّ ساخرًا:

ـ خبّرني عن تفكيرك ماذا أفادنا؟

فتساءل عبد الواحد بالسخرية نفسها:

ـ حدّثني عن إحساسك الباطنيّ ماذا أفادنا؟

فنفخ عبد القويّ مغيظًا وقال متشكّيًا:

ـ آن لنا أن نبحث عن طريق للخلاص.

ـ حسن، لنسأل أنفسنا ماذا نريد، وعلينا أن نجيب على ذٰلك بوضوح.

ـ نريد العمران، الملابس، المظروف الضائع، مواصلة الرحلة...

ـ قد نهتدي إلى العمران، وقد نجد ما نغطّي به جسدينا، ولٰكن كيف يمكن العثور على المظروف؟!

ـ نلجأ إلى نقطة الشرطة!

ـ لقد أنهكك الضياع فنسيت أنّ رجال الشرطة هم أعداؤنا!

فتفكّر عبد القويّ مليًّا في حيرة بالغة ثمّ قال:

ـ أصبحنا مطاردينِ من الشرطة والتنظيم معًا فلم يبق أمامنا إلّا سبيل واحد!

ـ وهو؟

ـ الهرب!

ـ الهرب؟

ـ أجل... الهرب...

ـ وكيف نحيا؟

ـ لنا خبرتنا في الحياة، وما أكثر الذين يعيشون خارج نطاق التنظيم؟

ـ ولٰكن كيف؟

ـ لنبدأ من جديد، لنتسوّل أو نقامر أو نسرق، وهناك تجارة الرقيق الأبيض؟

ـ أتتصوّر أنّي أرضى بشيء من ذٰلك، بعد أن اخترتُ عضوًا في التنظيم، وبعد أن كُلّفت بمهمّة لا يكلّف بها إلّا الأكفّاء؟!

ـ عيبك الأساسيّ هو الغرور، اعترف بأنّنا خسرنا اللعبة، ومن حقّنا أن نتعلّق بأذيال الحياة بأيّ ثمن...

فقال عبد الواحد بإباء:

ـ أرفض أن أتعلّق بأذيال الحياة بأيّ ثمن.

ـ ولٰكنّ الحياة تستحقّ ذٰلك.

ـ لعلّ أفضل الانتحار.

ـ أيّ شيء أفضل من الانتحار.

ـ ليس أيّ شيء!

ـ لنكن عمليّين!

ـ لنكن عمليّين ولنفكّر في وسيلة لإصلاح الخطإ وإنجاز المهمّة.

ـ بضياع المظروف ضاع الأمل في ذٰلك.

ـ لا تتسرّع في الحكم.

ـ حدّثني عن سبيل لمعرفة المهمّة...

ـ فلنستعن بالعقل.

ـ سَلْ عقلك عن سرّ مدفون في مظروف مفقود!

ـ إنّك لا تحترم العقل، وذٰلك هو سرّ تعاستك.

ـ ولٰكنّي لست تعيسًا.

ـ ومن آي تعاستك أنّك لا تعرف أنّك تعيس.

ـ إنّي مسلّم بمقدرتك في الجدل، وبسخريتك منّي إذا حلا لك ذٰلك، ولٰكن من الخير أن توجّه قوّتك المزعومة إلى حلّ اللغز الذي تتوقّف عليه حياتنا...

ـ كأنّك عازم على الوقوف منّي موقف المشاهد أو الشامت؟

ـ اقترحت عليك ما أرى وهو الهرب.

ـ لنمارس حياة وضيعة في ظلّ المطاردة!؟

ـ سنكون مطاردينِ على الحالينِ!

ـ مطاردة الشرطة لنا شرف لم نستحقّه إلّا بالعرق أمّا مطاردة التنظيم فهي اللعنة الكبرى!

ـ لست راضيًا عن دوري الآليّ فيه.

ـ ولٰكنّك دخلته مختارًا؟

ـ بل لأنّك دخلته ولأنّي لم أعتد الحياة بعيدًا عنك!

ـ وإذن فعلينا أن نتقبّل مصيرنا بالصبر والشجاعة.

فقال عبد القويّ متنهّدًا:

ـ ليكن... حدّثني الآن كيف نعرف المهمّة؟

ـ كن معي بكلّ حواسّك، لقد أُمرنا بأن ننزل في المدينة فالاستراحة ثمّ الواحة في طريقنا إلى الجنوب حيث نفضّ غلاف المظروف.

ـ أجل، والحقّ أنّي لم أدرك وجه الحكمة فيه، وقد نفّذنا الشطر الأكبر منه بكلّ دقّة ودون جني أيّ ثمرة إلّا ما حاق بنا من خسران!

ـ لا تنس أنّنا ضيّعنا وقتنا في العربدة والعراك.

ـ هو خير عندي من المكوث بلا عمل أو تسلية.

ـ فاتتنا أشياء وأشياء لم نفطن لها في حينها!

ـ ما كان قد كان، انتهينا إلى ما نحن فيه، فما العمل؟

ـ لنسأل أنفسنا ما المهمّة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه في الجنوب؟

فضحك عبد القويّ وأجاب:

ـ قد يقتل أو يشهد حفل كوكتيل!

ـ إنّك لا تساعدني البتّة!

ـ معـذرة، الأفضل أن نتسلّل إلى رئيس وحـدتنا لنحاول الاتّفاق معه...

ـ الاتّفاق معه؟

ـ أن يعطينا مـظروفًا جـديدًا بثمن معقـول يمكن دفعه ولو بأقساط.

ـ إنّه رجل أمين، وفضلًا عن ذلك فالراجح أنّه لا يدري شيئًا عمّا في المظروف.

ـ لا يدري شيئًا عمّا في المظروف؟!

ـ كلّا.

ـ يا لها من مهزلة...

ـ إنّـه تنظيم ضخم ويُحسن تـوزيـع العمـل بـين أعضائه...

فقال عبد القويّ بنفاد صبر:

ـ لنرجع إلى السؤال المطروح، ما المهمّة الجديـرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه في الجنوب؟

ـ بالاستقراء والقياس تتّضح الأمور فنعرف ما يجب عمله.

ـ ما المهمّة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه، في الجنوب؟

ـ لا أملك إجـابـات جـاهـزة ولكنّنـا نملك خلق الفروض وتجربتها...

ـ كما يتراءى لنا؟

ـ كما يتراءى لعقولنا!

ـ نفكّـر ونتعب، نقترح الفـروض، نجـرّب كـلّ فرض، نرتطم بالخطأ، نعاود التفكير والتعب، نقترح فروضًا جديدة، وطيلة الوقت نتلفّت فيما حولنا بحذر، أن يقبض علينا رجال الشرطة أو يقتلنا رجال التنظيم، وعاجلًا أو آجلًا سنقع في المصيدة...

ـ إنّـك مثبط للهمم، ولكن حتّى لـو وقعنـا في المصيدة فسنكون قد أثبتنا حسن نيّتنا، وربّما نوفّق إلى نجاح فذّ. يغطّي على أخطائنا...

ـ عظيم... عظيم.

ـ ولكنّي أراك غير متحمّس في الواقع!

ـ معاذ الله...

ـ وشارد النظر، سرحت بفكرك بعيدًا، فيم كنت تفكّر؟

ـ أتريد الحقّ؟

ـ نعم.

ـ تذكّرت كيف هوّشت المقامـرين في الاستراحـة فربحت في دور عشرة جنيهات بجوز عشرة!

فقطّب عبد الواحد في استياء وقال:

ـ يا لك من مستهتر!

ـ وعندما جندلت اثنين في معركة الراقصة بلكمة واحدة مستعرضة!

ـ إنّك ثمل بذكريات عفنة...

فقال عبد القويّ بحماس:

ـ أصغِ إليّ، إنّها ذكريات جميلة، لا أدلّ على ذلك من أنّك شاركت فيهـا جميعًا معتـلًا بشتّى العلل، لا تنكر ذلك، أصـغ إليّ، هلمّ نهرب، دعنا من خلق فروض خياليّة في الجنوب، دعنـا من تعب غير مجـدٍ ألبتّة، نحن مطاردون، وسنظلّ مطاردين، وخير لنا أن نهب حياتنا للمغامرات الشائقة.

ـ لا تستسلم لتيّار خيالك الجامح، اسْبَحْ ضـدّه بقوّة، وهلمّ نبحث عن العمران...

فضرب عبد القويّ الأرض بقدمه في عناد وقال:

ـ كلّا.

ـ ثق أنّنا سنعرف المهمّة.

ـ كلّا!

ـ إنّي أطالبك بالسير معي...

ـ كلّا.

ـ معنى ذلك أنّنا سنفترق.

ـ لنفترق.

ـ ولكنّك قلت إنّنا اعتدنا الحياة معًا.

ـ منذ نشأتنا الأولى!

ـ لم تجرّب الحياة وحدك.

ـ ولا أنت.

ـ إذن يجب أن نحافظ على وحدتنا.

ـ تعال معي.

ـ بل عليك أنت أن تأتي معي.

ـ إنّي أرفض وصايتك كما رفضت وصاية التنظيم.

- لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم، ولئن زالت عنّا ولايته فقد وُهبنا الحرّيّة، ولكنّها ليست الحرّيّة التي كانت لنا قبل أن ننضمّ إليه، إنّها حرّيّة جديدة غير عابثة، وليست وصاية منّي عليك...

- إنّك تحسن الجدل ولكنّي مصرّ على الرفض!

- لا يجوز أن نفترق...

- لا يجوز أن نفترق...

- هلمّ معي...

- هلمّ معي أنت...

- ليتقدّم كلّ منّا خطوة من جانبه، عندي اقتراح للتوفيق.

- ما هو؟

- ليكن لكلّ منّا اختصاصه وليعمل في دائرته ولكن تحت شرط!

- وهو؟

- أن تسلّم بالمهمّة، لا تهرب منها ولا تنكرها، فبدونها تضحي الحياة لا شيء...

- ولكنّ المظروف سُرق؟

- لا يهمّ، إنّ فقده يعني الانفصال عن التنظيم، لا إهمال المهمّة أو الكفر بها، بل لعلّ الإيمان بالمهمّة هو الذي دفعنا إلى الانضمام إلى التنظيم وليس العكس...

- بوسعك دائمًا أن توقع عقلي أسيرًا لمنطقك ولكنّ كلماتك لا تنفذ إلى باطني...

- اقتراحي يبدو لأوّل وهلة خارقًا للمألوف، من أين لنا أن نعرف المهمّة؟ ولكن مَن الأصل في اقتراح المهمّة أليس هو الزعيم المجهول؟ حسن، وأليس هو يقترح المهمّة بعقله؟ حسن، فلِمَ نتصوّر أنّ عقله فوق جميع العقول؟، بل حتّى مع التسليم بتفوّقه فهل يعني هذا التسليم بعجز عقولنا؟، فإذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا إلّا أن نفكّر، ثمّ إنّ الصلة بيننا وبينه مقطوعة في الواقع من بادئ الأمر فنحن لا نعرف إلّا مندوبه الذي يرأس وحدتنا، ولا علم لنا عن مدى صلة المندوب به، ولا يبعد أنّه يترك للمندوبين مهمّة اقتراح المهمّة...

- ها أنت تتشكّك في القيادات العليا نفسها!

- أنا لا يهمّني إلّا المهمّة، فبها أكتسب وظيفتي في الحياة وبغيرها لا يبقى لي إلّا العدم، ولقد اعتدنا أن نسلّم بالمهمّة على ثقتنا بالزعيم، ولكن ليس ثمّة فارق كبير أن تقوم بالمهمّة لذاتها وبين أن تقوم بها لحساب زعيم مجهول...

- هل البدء بالمهمّة يعني الانتهاء إلى الزعيم؟

- كلّ شيء محتمل، قد يؤهّلنا النجاح لوظيفة المندوب فنتّصل بالزعيم، وقد يتّضح لنا أنّ المندوبين أنفسهم لا يتّصلون بالزعيم كما يدّعون، وقد يثبت لنا أنّ التنظيم يدار بطريقة جديدة لم تجرِ لأحدٍ على بال.

- وإذا تبيّن لنا أنّ إنجاز المهمّة قد يكلّفنا حياتنا؟

- ألم يكن من الجائز أن نفقدها في بيت الراقصة؟

- أن أموت بين يدي راقصة أفضل من أن أموت وراءك!

- علينا أن نختار على ضوء احترامنا لأنفسنا.

- بكلّ صراحة أنا لا يهمّني الاحترام!

- بل إنّك تشعل معركة لأقلّ إهانة توجّه لذاتك!

- لا علاقة لذلك بالاحترام الذي تطالبني به.

- لقد أصبحنا وحدنا فإمّا أن نختار العمل كأعضاء محترمين رغم زوال صفة العضويّة الرسميّة عنّا وإمّا أن نرضى بحياة الصعلكة...

- إنّي أعشق حياة الصعلكة!

- يا لك من مجنون!

- يا لك من رجل متعب!

- يا للحزن، إنّ الانفصال يهدّد وحدتنا الرائعة...

- إنّه لأمر محزن حقًّا.

- انفصلنا عنه، وننفصل عن بعضنا البعض، سلسلة من الانفصالات لا أدري أين تقف...

لاذا بالصمت وهما يتبادلان نظرة طويلة. وهمّ عبد الواحد بالكلام، فتح فاه ولكنّه سرعان ما أطبقه. ورفع رأسه نحو السماء في دهشة. ورفع عبد القويّ رأسه كذلك وهو يتمتم:

- صوت طائرة!

- أجل.

- ولكن أين هي؟

أشار عبد الواحد إلى الأفق قائلًا:

ـ هيلكبترا

جعلا ينظران إليها وهي تقترب وتتّضح في سمت السماء.

وقال عبد القويّ:

ـ هلمّ نلوّح بأيدينا لعلّهم يروننا...

ـ لوِّحْ... ولكنّهم لا ينظرون إلينا...

فصاح عبد القويّ:

ـ انظر... إنّها تهبط!

هبطت بتؤدة كأنّما تمضي إلى هدف محدّد حتّى استقرّت فوق الأرض غير بعيد منهما وهما يتطلّعان إليها بذهول. وتساءل عبد القويّ:

ـ هل هبطت من أجلنا؟

ـ لعلّها مناورة لا علاقة لها بنا...

ـ أو أنّها...

ولكنّه انقطع عن الكلام عندما انفتح بابها، وتدلّى السلّم نحو الأرض. ولاح في الباب رجل يحمل حقيبة متوسّطة الحجم سرعان ما أخذ في النزول. ضيّق عبد الواحد عينيه ليحدّ بصره ثمّ هتف:

ـ زميلنا نوح!

ـ أجل... هو الزميل نوح...

مضيا نحوه فتلاقوا في منتصف المسافة. تهلّل وجهاهما بالفرح ولكنّه قابلهما بوجه جامد لا يفصح عن أيّ تعبير إنسانيّ، فباخا وهما يصافحانه، وصافحهما بآليّة صمّاء. ودون أن ينبس بكلمة فتح الحقيبة وأخرج لكلّ طاقم ملابس متكاملة. ارتديا الملابس الداخليّة والخارجيّة في فتور وقلق. ولّما فرغا نظرا إليه في استطلاع فأشار صوب الطائرة وقال:

ـ الطائرة تحت تصرّفكما إذا رغبتما في العودة.

وساد الصمت قليلًا حتّى تساءل عبد الواحد:

ـ كيف عرفتم بمكاننا أيّها الزميل؟

ولكنّه لم يجب فعاد عبد الواحد يقول:

ـ لعلّهم أرسلوا وراءنا عيونًا؟

لم يبدُ عليه أنّه سمعه، فقال عبد الواحد بإصرار:

ـ أرجو أن يكون رجالنا قد استردّوا المظروف المسروق!

فثابر على صمته دون مبالاة فقال عبد القويّ باسمًا:

ـ بحسن نيّة أيّها الزميل ارتكبنا بعض الأخطاء، ودون تقدير للعواقب!

كأنّه أصمّ لم يستجب ولكنّ عبد القويّ لم ييأس فسأله:

ـ هل نجد محاكمة عادلة ورحيمة وتُمنح فرصة جديدة للعمل؟

قام الصمت كجدار سجن. ولّما لَمْ يحاولا الكلام مرّة أخرى قال نوح وهو يتناول الحقيبة الفارغة:

ـ سأنتظر في الطائرة ثلث ساعة ثمّ أرجع من حيث أتيت.

ورجع كما جاء فرقي في السلّم حتّى اختفى داخل الطائرة. تبادلا نظرة حائرة ثمّ تساءل عبد القويّ:

ـ ما له يعاملنا كأنّه غريب أو عدوّ؟

ـ إنّه ينفّذ ما أُمر به.

ـ ماذا تظنّهم فاعلين بنا؟

ـ سنقدّم إلى محاكمة عاجلة.

ـ وما العقوبة المتوقّعة؟

ـ العقوبات تتراوح بين الإعدام والخصم من المرتّب.

ـ لو كنّا نستحقّ الإعدام في نظرهم لأمروه بقتلنا في هٰذه المتاهة!

ـ لا تعتمد على المنطق في فَهْم نواياهم.

ـ ستوقع علينا عقوبة ما ثمّ تُمنح فرصة جديدة للعمل، هٰذا هو إحساسي!

ـ أترى أن نعود معه؟

ـ إنّه المخرج الوحيد من حيرتنا إلّا...

ـ إلّا؟

ـ إلّا إذا وافقتني على الهرب!

فنفخ عبد الواحد في ضيق وقال:

ـ لا تعد إلى ذٰلك.

ـ إذن فلا مفرّ من العودة.

ـ ألم تتمرّد منذ حين قليل على الوضع الذي يجعل منّا آلات صمّاء؟!

ـ ولكنّك تكره فكرة الهرب وتقترح ـ بدلًا من التنظيم ـ حياة غريبة لا يقين فيها ولا أمان.

ـ ولكنّك لعنت دورنا الآليّ في التنظيم!

ـ معذرة أيّها الزميل، لا رأي لي إذا اعتبرت الرأي عقيدة ثابتة، إنّما أنا ابن الساعة التي أنا فيها...

ـ وهٰكذا فأنت ترغب في العودة؟

ـ ليس ظلمًا أن ندفع ثمن الخطإ، وسأجد بعد ذٰلك عملًا أنال عليه أجرًا، ولن تنعدم الفرص المشروعة للتسلية والمغامرة!

ـ لا فائدة من مناقشتك!

ـ إنّي أعجب لشأنك، ألم تبدِ حرصك الدائم على المهمّة؟، ها هي المهمّة تعود بأيسر سبل، ومعها التنظيم كلّه، والعضويّة الرسميّة، والمندوب، والزعيم المجهول!

ـ ماذا أقول أيّها الزميل؟، لقد عايشت في هٰذا الخلاء جوًّا جديدًا، وسلّمت نفسي لمنطق جديد، وهيّأت إرادتي لحياة جديدة...

ـ لعلّك تبالغ في الخوف من المحاكمة؟

ـ كلّا، فهي لن تكون أقسى من المطاردة التي ستتعقّبنا!

ـ أتصرّ على الاعتماد على نفسك حتّى بعد أن هبطت عليك معجزة النجاة؟

ـ لن أطيق بعد اليوم أن أكون آلة صمّاء.

ـ ولكنّه تنظيم كامل، يوزّع العمل بكلّ دقّة تضمن النجاح!

ـ لم تعد أعصابي تحتمل المعاملة مع المظاريف المغلقة، ولا المندوب الغامض الذي نلقاه دقائق في أوقات راحته، ولا الزعيم المجهول الذي لا ندري عنه شيئًا، كلّا ثمّ كلّا، وأنت نفسك كنت البادئ بالرفض!

ـ لا تدع فرصة العمر تفلت من بين يديك.

ـ خُيّل إليّ أنّي أقنعتك قبل هبوط نوح؟

ـ كلّا، إنّي أختار واحدًا من طرفين، فإمّا الهرب وإمّا التنظيم، وها هي الطيّارة تنتظر فلا مجال للتردّد بعد!

ـ أمّا أنا فطريقي واضح، سأعيد الرحلة من جديد بدءًا من المدينة ولكن بعقل متفتّح لا يغادر كبيرة ولا صغيرة، وفي الجنوب ستنبثق المهمّة من صميم رأسي لا من مظروف مغلق!

ـ توقّع في كلّ خطوة مطاردة من الشرطة أو التنظيم!

ـ سيجد منّي يقظة كاملة لا يعتورها خور.

ـ سيكون فراقنا موجعًا ولٰكن لا بدّ من العودة...

ـ سنعاني حياة منفصلة لأوّل مرّة، فكّر في ذٰلك أيّها الزميل القديم!

ـ إنّه لأمر محزن ولٰكن لا بدّ من العودة.

ـ ستوقع عليك عقوبة، سيلاحقك سوء الظنّ كظلّك، سيضاعف ذٰلك من نصيبك من الآليّة.

ـ وأنت!، ستهلك في هٰذه المتاهة قبل أن تبدأ من جديد!

ـ كلّا، لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية، فهناك يقع الشمال، وبالتالي عرفت الجهات الأصليّة، كما عرفت الطريق إلى العمران، ابق معي!

ـ يا زميلي العزيز سوف تُقتل في العمران إن لم تهلك في الخلاء، تعال معي...

ـ ستمضي حياتك وأنت ظلّ لا حقيقة له، تنفّذ مهمّة لا فكرة لك عنها، ابق معي...

ـ أنت تخاف المحاكمة!

ـ إنّي أرفض المحاكمة، أرفض العقوبة، أرفض العفو، أرفض الأمر الغامض والتنفيذ الأعمى، أرفض المهمّة داخل مظروف مغلق، أرفض النجاة الرخيصة في الطائرة، ابق معي.

ـ إنّي أعجب لشأنك كيف انقلبت من النقيض إلى النقيض.

ـ قلت لك إنّي ابن الساعة التي أنا فيها، ولكنّك أنت أوّل مَن فكّر في الانضمام إلى التنظيم، أنت مَن دافع عنه بحسناته وسيّئاته، أنت مَن قَبِلَ بحماس الدور الذي رسمه لك دون مناقشة!

ـ لعلّ تمرّدك تسلّلَ إلى نفسي، خالط فكري بعِلْم وبغير علم منّي، فلمّا وقعنا في هٰذا المأزق تبدّت الحقيقة عارية، وانتهيت إلى رأي حاسم.

ـ يحزنني أن يكون تمرّدي من أسباب انقلابك.

ـ سأشكر لك ذٰلك ما حييت.

هنا دار محرّك الطائرة محدثًا دويًّا كالانفجار، فهتف

عبد القويّ:

- فكّر مرّة أخرى أيّها الزميل.

- فكّرت بما فيه الكفاية.

- أمامك فرصة أخيرة!

- وأمامك فرصة أخيرة!

- ما أمرّ الفراق...

- إنّه لكذلك أيّها الزميل القديم.

تنهّد عبد القويّ يائسًا. فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة. اشتدّ دويّ المحرّك. انتزع عبد القويّ نفسه من صاحبه. مضى نحو الطائرة في خطوات ثقيلة. أخذ يرقى في السلّم حتّى بلغ الباب. استدار فلوّح لصاحبه مودّعًا فردّ الآخر التحيّة بمثلها. بدأت الطائرة في الصعود. دوّمت في الفضاء. أتبعها عبد الواحد عينيه وهي تبتعد وترتفع وتصغر حتّى اختفت فيما وراء الأفق. وجد نفسه وحيدًا. وجد نفسه حزينًا. ولكنّه لم يبدّد دقيقة من وقته سدى. شحذ إرادته لينفض عن قلبه الحزن. قلّب وجهه في الجهات الأصليّة ليحدّد طريقه إلى العمران. سار متّجهًا نحو الشرق...

وليد العناء

جلس وحيدًا في الصالة. أرهقه ذرعها ذهابًا وإيابًا فجلس. ثبتت عيناه على الباب المغلق وأرهف السمع. أشعل سيجارة، دخّنها بطريقة آليّة خالية من الاستمتاع ولم تتحوّل عيناه عن الباب المغلق. بدت من وراء الباب أصوات مبهمة، حركة أقدام، تأوّهات خافتة، أشاعت في جوّه الخالي روحًا مبلّلًا بعرق العناء المرّ. ونظر في الساعة، مرّت عيناه بالنافضة المكتظّة بأعقاب السجائر، ونفخ وهو يمدّ ساقيه.

وفُتح الباب فمرقت منه امرأة عجوز مطوّقة الوجه بخمار أبيض. ردّت الباب وراءها وتقدّمت ولكنّه وثب معترضًا سبيلها. انتبهت إليه وقالت برقّة:

- كلّ شيء حسن، لا تقلق...

فقال بانقباض:

- ولكن طال الوقت.

- إنّها ساعة لا يعلم بأسرارها إلّا الله فتوكّل عليه.

- لولا السوابق الماضية ما باليت شيئًا...

- لا تذكّرنا بما مضى، الطبيبة مطمئنّة، قالت إنّها ستلد ولادة طبيعيّة...

- بدأ الطلْق في أوّل الليل وها نحن في الهزيع الأخير منه.

- ربّك كريم، وعندها طبيبة لا داية، فاصبر وانتظر.

شعر بامتعاض نبرتها فقال:

- لا تلوميني يا دادة، هذا زمن الأطبّاء لا الدايات...

- كم ولّدت الداية أمّها في يسر كالسحر.

- ذاك زمان مضى، وما من داية تستطيع أن تواجه هذه الحال...

- كم واجهت مثيلات لها في الماضي...

- كلّ شيء تغيّر، حتّى المرض نفسه...

مضت نحو الحمّام ثمّ رجعت بوعاء من الصاج فدخلت الحجرة وأغلقت الباب. وجد شيئًا من الطمأنينة. لم يألُ جهدًا في إقناع نفسه بها ما دامت الطبيبة قد قالت. ودقّ جرس الباب الخارجيّ فبادر إليه. استقبل القادم بدهشة وترحاب معًا، وهو نحيل طويل يكاد يماثله شكلًا ويقاربه في العمر. أجلسه على مقعد إلى جانب مقعده وهو يتمتم:

- خطوة عزيزة، أهلًا بك...

- علمت بالخبر وأنا عائد من سهرة طويلة فلم أتردّد في المجيء إليك...

- أشكرك يا عزيزي، إنّها ساعة متأخّرة جدًّا...

- لا شكر على واجب...

- ولكن كيف علمت بالخبر؟

- من أكثر من مصدر فيما يخيّل إليّ...

- لم أتصوّر أنّ أحدًا علم به سوى أمّها...

- أنت يا صديقي لا تعلم بما يدور حولك.

- حدّثني عن مصادرك!

- لا أدري، لا أذكر...

- لا تدري ولا تذكر؟!

- كنت وقتها ثملًا بالشراب!

- وكانوا سكارى؟

ـ المهمّ كيف حال الستّ؟
ـ قالت الطبيبة إنّها ستلد ولادة طبيعيّة...
ـ حمدًا لله.
ـ ولكنّ السوابق تقلقني...
ـ لا لوم عليك في ذلك.
ـ ولكن لا يجوز الخوف من السوابق أكثر ممّا ينبغي.
ـ عين الحكمة والصواب.
ـ أهذا هو رأيك أيضًا؟
ـ علينا أن نستفيد من السوابق لا أن نخافها.
ـ كانت سوابق إجهاض جبريّ ونزيف.
ـ لا أعادها من أيّام.
ـ ترى كيف يمكن الاستفادة منها؟
ـ بأن نتجنّب الأسباب التي أدّت إليها...
ـ ولكنّه الحبل نفسه.
ـ فلنتجنّبه.
ـ ولكنّ أمر الله نفذ وكلّ شيء بأمره.
ـ اظنّ لك دخل في الأمر أيضًا؟
ـ طبعًا...
ـ مأثور عنك حبّ الأبوّة بلا حدود...
ـ لا أنكر ذلك.
ـ صدّقني إنّه حبّ لا معنى له.
ـ إنّه أصل الوجود!
ـ لا معنى له في هذا العصر.
ـ إنّها مداعبة ولا شكّ؟
فقال الصديق وهو يشير إلى الباب المغلق:
ـ أهذا وقت تجوز فيه المداعبة؟
ـ ولكنّه أصل الوجود بلا ريب.
ـ في عصرنا هذا تقع له مضاعفات لم تكن معروفة قديمًا.
ـ الطبيبة قالت إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.
ـ فليباركها الله.
ـ ولكنّ الوقت طال وها نحن في الهزيع الأخير من الليل؟
ـ يا لها من معاناة تهتزّ لها الأفئدة.
ـ اسعفني برأيك؟
ـ لا رأي لي يعتدّ به في هذه الشئون ولكن ماذا قالت الطبيبة في السابقة الأولى؟
ـ كانت في الواقع داية ولذلك أرجعنا الإجهاض الجبريّ إلى جهلها...
ـ والسابقة الثانية؟
ـ قالت الطبيبة إنّ النزيف حدث نتيجة لعيب في الجهاز...
ـ وهل برأ الجهاز من عيبه؟
ـ هيّأتُ لها ما استطعت من دواء.
ـ إذن فلا داعي للقلق.
ـ ولكنّ الوقت طال والمعاناة تتراكم.
وانطلقت من وراء الباب المغلق تأوّهة عميقة، أعقبتها صرخة مدوّية، ثمّ موجة متقهقرة من الأنين. صمت الزوج محدّقًا في الباب. ولمّا مضى الانتظار بلا نتيجة قال الصديق:
ـ لعلّه البشير...
ـ هي حال تتكرّر من أوّل الليل.
ـ يا لها من ولادة عسيرة!
ـ ولكنّ الطبيبة قالت إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.
ـ إذن فهي ولادة طبيعيّة طويلة!
ـ من أين لي باليقين؟
ـ فلنرجع إلى أهل الخبرة.
ـ لديها طبيبة ممتازة.
ـ الآراء تختلف.
ـ هل لديك اقتراح عمليّ؟
ـ دعنا نفكّر.
ـ قلت إنّ الآراء تختلف.
ـ هذا قول صادق في ذاته.
ـ كيف نبلغ اليقين؟
ـ الحقيقة بنت البحث!
ـ إنّك مغرم بالأقوال المأثورة.
ـ سجيّة جميلة في ذاتها!
ـ ولكن لا وقت لدينا للبحث.
ـ هذا حقّ...
ـ فكري تبلبل.
ـ هذا حقّ.

ـ أراها حالًا مرضيّة...

ـ هي أحيانًا كذلك!

ـ لم يبق إلّا الصمت والانتظار.

ـ قد تفوت فرصة نادرة!

ـ فماذا أفعل؟

بعد تردّد:

ـ الصمت والانتظار!

ـ ولكنّك قلت إنّه قد تفوت فرصة نادرة؟.

ـ وقد لا يحدث شيء!

ـ فكيف أتصرّف؟

ـ فكّر!

ـ أإذا فكّرت تلد امرأتي بسلام؟

ـ يتوقّف ذلك على نوع العلاقة بين التفكير والولادة!

ـ ترى أيّ نوع من التفكير يمكن أن يؤدّي إلى الولادة السعيدة؟

ـ فكّر!

ـ يبدو أنّك لا تعرف أكثر ممّا أعرف.

ـ وربّما أقلّ!

فسألة بنرفزة:

ـ لمَ جئت؟

ـ جئت مدفوعًا بواجب اللياقة...

ـ شكرًا.

ـ عفوًا.

ـ في أمثال هذه الظروف يقدّم المجاملون ما في وسعهم من خدمات؟

ـ إنّي على أتمّ استعداد.

ـ ماذا في وسعك أن تفعل؟

ـ أأنت في حاجة إلى نقود يا صديقي؟

ـ إنّي في حاجة إلى مَن يسعفها هي.

ـ عندها طبيبة ممتازة.

ـ ترى هل أخطأت؟

ـ أنت؟

ـ نعم.

ـ ما كان يجوز أن تتركها تحبل.

ـ إنّها بنت غلطة.

ـ بل أنت مجنون بالأبوّة...

ـ هذا شأن الرجال جميعًا.

ـ احذر الأحكام الشاملة...

ـ إذن لماذا يتزوّج الرجال؟

ـ أفكّرت يوم عشقتها في الأبوّة أم في الاستمتاع بها؟

ـ الاستمتاع يخمد أمّا الأبوّة فخالدة!

ـ ما كان أجدرك أن تجد في السابقتين نذيرًا!

ـ الحياة إقدام لا نكوص.

ـ إذن فلتتحلّ بالشجاعة.

رماه بنظرة نافذة. همّ بالكلام ولكنّ الباب فُتح وخرجت امرأة في الخمسين منهوكة القوى. وقف الزوج لاستقبالها. قدّم لها صديقه وقدّمها له باعتبارها حماته. رفضت المرأة الجلوس وظلّت متجهّمة الوجه. سألها بإشفاق:

ـ كيف الحال؟

ـ الحمد لله...

ثمّ بحدّة موجّهة خطابها للزوج:

ـ إنّي أحتجّ على ما تذيعه في كلّ مناسبة من التشكيك في كفاءة ابنتي للحبل!

فقال الزوج محتجًّا بدوره:

ـ لم أشكّك في كفاءتها ولكنّ الحكمة تقتضي تذكّر الأزمات السابقة!

ـ لا عيب في ابنتي على الإطلاق.

ـ إنّي مؤمن بذلك.

ـ العيب فيك أنت!

ـ أنا؟!

ـ طالما نغّصت صفوها بنزواتك حتّى سمّمت بدنها فأصبحت جميع شئون حياتها عسيرة لا ولادتها فقط!

ـ علم الله أنّ زوجًا لا يحبّ زوجه كما أحبّها.

ـ وجريك وراء كلّ مَن هبّت ودبّت من النسوان؟

ـ أعوذ بالله، أتصدّقين شائعات يفتريها عليّ الحاسدون؟

ـ أنا لا أتكلّم بلا حساب دقيق.

ـ وأنا مظلوم ظلم الحسن والحسين.

وتدخّل الصديق قائلًا بلطف:

ـ أشهد أنّه يحبّها فوق كلّ شيء.

فالتفتت إليه متسائلة في حدّة:

ـ ماذا تعرف عن أسرار هٰذا البيت؟

ـ أعرف ما يجدر بالصديق أن يعرفه.

ـ إذن فأنت خبير ولا شكّ بغراميّاته؟

ـ لا غرام له إلّا الأبوّة.

ـ بل لعلّك تشاركه بعض مغامراته ولذٰلك تنبري للدفاع عنه؟

ـ سيّدتي!

ـ إنّي خير مَن يفهمكم.

ـ الزوج الوفيّ يظلّ وفيًّا حتّى لو تسلّل بصره إلى هٰذه أو تلك من النساء...

ـ ما شاء الله...

ـ صدّقيني يا سيّدتي، إنّه لا يثبّت أركان الحياة الزوجيّة ويجنّبها الملل مثل التنقّل العابر بين النساء!

ـ ها أنت تعترف!

فصاح الزوج:

ـ أنا لم أعترف، وأعلن استنكاري لهٰذه النظريّة!

فقال الصديق متراجعًا:

ـ إنّي أضرب مثلًا ليس إلّا.

فهتفت المرأة:

ـ يا لسوء حظّك يا ابنتي!

فقال الصديق:

ـ لا تخلو حياة من المرّ مهما تكن حلوة، وأشهد أنّي ما سمعت زوجة صديقي تشكو قطّ.

ـ ذٰلك أنّها من الصابرات الصدّيقات!

ـ لو كان هناك ما يدعو للشكوى لشكت...

ـ حتّى الجوع!... تصوّرت أيّامًا من الجوع!

فصاح الزوج:

ـ الجوع!!

وقال الصديق:

ـ لعلّها تشير إلى الأيّام التي ندرت فيها اللحوم؟

فقال الزوج:

ـ على أيّامك يا حماتي أكل الناس لحوم الخيل.

فهتفت المرأة في كبرياء:

ـ كانت أيّام بلاء واحتلال.

ـ على أيّ حال فنحن سعداء ولن نسمح لمخلوق بإفساد حياتنا السعيدة!

دوّت صرخة وراء الباب المغلق فألجمت الألسن. أسرعت المرأة إلى الحجرة فأغلقت الباب وراءها.

عاد الصديقان إلى مجلسهما وعاد التوتّر يركب الزوج جسدًا وروحًا. لم يجد مَن يفرغ فيه شحنة قلقه سوى صديقه فقال له:

ـ كلامك جاوز كلّ حدّ...

ـ كثيرًا ما أنسى نفسي في الحديث فيغلبني الصدق.

ـ قد يغلبك الصدق مرّة أخرى فتخرب بيتي.

وقبل أن يردّ عليه دقّ جرس الباب الخارجيّ. قام الزوج فاستقبل زائرًا جديدًا في تلك الساعة من الليل. عجوز طاعن في السنّ. لو قُدّر عمره بتجاعيد وجهه وغضونه لجاوز المائة ولٰكنّه تمتّع بحيويّة لا بأس بها. وهو نحيل لدرجة مخيفة كأنّه محض عظام. برزت وجنتاه وفكّاه وغارت عيناه فلم يبدُ في محجريهما إلّا ظلام. وتربّع رأسه فوق عنقه الدقيق ضخمًا أصلع منبعج الجبين. وعكس الوجه هيئة جامدة بل متحجّرة وندّت عن القدمين خطوات متقاربة غير مسموعة. قبّل الزوج يده المدبوغة، قدّم إليه صديقه، قدّمه هو باعتباره صديق المرحوم أبيه والمرحوم جدّه من قبل، وجاءه بفوتيل فأجلسه بينهما وهو يقول:

ـ لم أتوقّع أن تتجشّم مشقّة الحضور في هٰذه الساعة يا عمّاه...

فقال العجوز بصوت غائر مثل عينيه:

ـ طال انتظاري للبشرى فقرّرت زيارتك...

ـ ما كان ينبغي أن تكلّف نفسك هٰذا التعب.

ـ هل من خدمة يمكن أن أقدّمها لك؟

ـ لا مطلب لي إلّا زوجتي.

ـ يخيّل إليّ أنّها ولادة عسيرة حقًّا؟

ـ قالت الطبيبة إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.

ـ عظيم...

ـ ولٰكنّها طالت كما ترى.

ـ هٰذا واضح...

ـ وعندما أتذكّر المرّتين السابقتين؟...

ـ المؤمن لا يخاف ولا يقلق.

فقال الصديق:

ـ هٰذا ما ردّدته له مرارًا.

فقال العجوز باسمًا عن أنياب عتيقة:

ـ أتشكّ في ذٰلك يا بنيّ؟

ضحك الصديق متسائلًا:

ـ ألا يُتوقّع منّي مثل ذاك القول الحكيم؟

ـ هٰذا أقلّ ما يقال!

ـ شكرًا.

ـ عفوًا.

ـ يخيّل إليّ أنّي رأيت سيادتك قبل الآن؟

ـ يعرفني أهل الحيّ جميعًا.

ـ لستُ منْ أهل الحيّ فمعذرة ولتحلّ بركتك بالبيت.

ـ فلتحلّ به بركة الله الرحيم.

ـ صديقي قلق وفي حاجة إلى مَن يشجّعه.

ـ علينا أن نذعن لمشيئة الله قبل كلّ شيء.

والظاهر أنّ قوله لم يبشّر بالطمأنينة المفتقدة فساد الصمت قليلًا حتّى خرقه الزوج قائلًا:

ـ جئت لها بطبيبة ممتازة.

ـ لم تكن توجد طبيبات في الزمن الماضي.

ـ ذاك زمن مضى وانقضى.

ـ أعرف زوجة ماتت في مستشفى خاصّ تحت إشراف ثلاثة أطبّاء!

ـ أعوذ بالله!

ـ فلا عاصم لنا إلّا إرادة الله.

ـ ولٰكنّي لم أخطئ باستدعاء الطبيبة!

وقال الصديق متضايقًا:

ـ ما أجدر أن نتجنّب ذكر الموت في موقفنا هٰذا.

فقال العجوز:

ـ ولٰكنّه حديث كلّ يوم وكلّ ساعة.

فقال الزوج:

ـ هٰذا حقّ ولٰكنّه حديث غير محبوب...

ـ لِمَ يا بنيّ؟

ـ الموت لا يحبّه أحد!

ـ يا له من خادم أمين مظلوم!

ـ مظلوم؟!

ـ كيف تتصوّر الدنيا بغيره؟

ـ أفضل ممّا كانت معه عشرات المرّات.

ـ أنت مخطئ يا بنيّ، مخطئ في حقّ ثائر عظيم.

ـ ثائر عظيم؟!

ـ بل زعيم الثوّار في كلّ زمان ومكان.

ـ لغة أيّ عصر هٰذه؟

ـ لغة العصر، لغة الغد...

ـ فلنختر حديثًا آخر...

ـ ما جدوى الأحاديث المعادة؟

ـ أصارحك يا عمّاه بأنّني لا أفكّر إلّا في سلامة زوجتي.

ـ فلتحلّ بها بركة الله.

ـ آمين.

ـ ولٰكن خبّرني هل جدّدت مقبرة الأسرة؟

فهتف الصديق:

ـ يا ألطاف الله!

وتساءل الزوج بامتعاض:

ـ مَن أخبرك أنّني أفكّر في ذٰلك؟

ـ تلك كانت رغبة أبيك لولا أن عاجله الموت.

ـ أمّا أنا فلا يمكن أن أنفق مليّمًا على تجديد مقبرة!

ـ أحسنت.

وقال الصديق نافخًا:

ـ إنّي أنذر جنيهًا استرلينيًّا إذا تغيّر الحديث.

فقال العجوز دون مبالاة للمقاطعة:

ـ كلّما رأيت مقبرة متجدّدة حزنت!

فتساءل الصديق:

ـ الظاهر أنّ سيادتك تزور المقابر كثيرًا؟

ـ شيّعت المئات من الموتى بحكم سنّي الطاعن!

ـ وماذا يحزنك في مقبرة متجدّدة!

ـ أرى المقبرة العتيقة البالية من آيات الرحمٰن!

فقال الزوج برجاء:

ـ هلّا حدّثتنا بحديث آخر؟

ـ سنجد حديثًا أو آخر، سيشرّق بنا ويغرّب، ثمّ لا مفرّ من العودة إلى الحديث الأوّل.

ـ إنّه حديث كئيب خانق للقلب.

ـ أشكّ في ذٰلك!

ـ لا شكّ في ذٰلك من ناحيتي!

فقال العجوز بصوت هامس مخاطبًا نفسه:

ـ عليّ ألّا أيأس، مهما طال الزمن، حتّى لو طال بالقدر الذي أتصوّره كافيًا.

ثمّ نهض قائمًا. نظر نحو الباب المغلق وقال:

ـ آن لي أن ألقي نظرة.

فعلت الدهشة وجهي الصديقين وتساءل الزوج:

ـ على أيّ شيء يا عمّاه؟

ـ على زوجتك.

ـ زوجتي!... شكرًا... ولكن لا تكلّف نفسك مزيدًا من التعب.

ـ إنّه واجب يا بنيّ!

ـ ولكنّه غير جائز!

ـ كيف؟

ـ غير جائز بلا حاجة إلى تفسير!

ـ إنّي صديق أبيك وجدّك من قبل، صديق حميم...

ـ لو كان أبي نفسه مكانك ما خطر له ذٰلك!

ـ إنّك تمنعني من أداء واجبي!

ـ إنّي أطالبك بالجلوس مشكورًا...

ـ هبني طبيبًا.

ـ ولكنّك لست طبيبًا!

ـ وما الفرق يا بنيّ؟

ـ مزاح لطيف!

وقال الصديق:

ـ ويا له من مزاح!

فقال العجوز دون التفات لمقاطعة الصديق:

ـ إنّي ألصق بك من الطبيب.

ـ اجلس يا عمّاه مشكورًا مكرّمًا!

فُتح الباب، خرجت امرأة متوسّطة العمر تتهادى في معطف أبيض وتنظر من خلال نظّارة أنيقة ذات مشبك ذهبيّ. أقبل الزوج نحوها متسائلًا في لهفة:

ـ دكتورة؟

فقالت المرأة بهدوء:

ـ غير منتظر أن تلد سريعًا ولكنّها ستلد ولادة طبيعيّة.

انتبهت إلى وجود العجوز فصافحته مصافحة حميمة، وقال الرجل:

ـ أهلًا بك يا عزيزة، رحم الله أباك.

ـ أهلًا بك يا عمّاه.

ـ وكيف حال الأمّ الصغيرة؟

ـ طبيعيّة وإن تكن شديدة بعض الشيء.

ـ كلام يذكّرني بأقوال الأطبّاء!

ـ ماذا تعني يا عمّاه؟

ـ كلام يشي باحتمالات كثيرة!

ـ الحال طبيعيّة جدًّا ولكنّنا لا ندخل في علم الله...

ـ آه من الأطبّاء إذا ردّدوا ذكر الله!

ـ ولكنّي أتكلّم بصراحة.

وقال الزوج بحدّة:

ـ صارحوني بكلّ شيء.

فقالت الطبيبة:

ـ ضع ثقتك في الله.

فقال العجوز:

ـ كلام له مغزى خاصّ.

فقال صديق الزوج:

ـ عمّنا يتلهّف على سماع كلمة سوء!

فقال العجوز:

ـ وأنت تتلهّف على سماع كذبة.

وقالت الطبيبة:

ـ الحال طبيعيّة جدًّا يا عمّاه.

ـ لِمَ تركت الحجرة؟

ـ لأستريح دقيقة.

ـ أردت الدخول فمنعوني.

ـ لا يوجد رجل في الداخل.

ـ وما رأيك أنت في ذٰلك؟

ـ لا رأي لي في ذٰلك يا عمّاه.

ـ بل تستطيعين أن تدلي برأي حاسم في الموقف.

فقال الزوج بإصرار حازم:

ـ مكانك معنا يا عمّاه.

وتساءل الصديق:

ـ ألم تجئ للاطمئنان على ابن صديقك الراحل؟

ـ ولكنّه لا يعاني ولادة عسيرة!

ـ وأنت لا تعرف الزوجة إلّا بصفتها زوجة ابن صديقك الراحل.

ـ والدها أيضًا كان صديقًا لي...

ـ لعلّك شيّعته كالآخرين؟

ـ وهو ثواب كبير...

وهتف الزوج:

ـ مكانك بيننا يا عمّاه ولا لزوم للأخذ والردّ.

فرفع العجوز منكبيه آسفًا وقال مخاطبًا الطبيبة:

ـ إنّكم تعذّبون الناس بلا سبب معقول.

فقالت الطبيبة:

ـ نحن نؤدّي واجبنا الإنسانيّ...

ـ ولا تميّزون الصديق من العدوّ.

ـ ما أظرفك يا عمّاه!

ـ وأنتم المسئولون عمّا يحلّ بالإنسان من ضرر بالغ...

ـ سامحك الله يا عمّاه.

ـ فليسامحك أنت.

وسأله الصديق:

ـ ماذا تعني يا عمّنا؟

ـ لا غموض في كلامي.

ـ لعلّه يحتاج إلى شيء من التبسيط.

ـ يتعذّر التبسيط على مَن هو في مثل عمري.

ـ إنّ عطفك يا عمّاه يُركبك الصعب...

ـ إنّك فتًى مشاغب.

أحنت الطبيبة رأسها تحيّة ثمّ رجعت إلى الحجرة فأغلقت الباب. وهتف الزوج:

ـ يا لها من ليلة ليلاء!

فقال صديقه:

ـ عمّا قليل يطلع الفجر.

عاد العجوز إلى مقعده وهو يقول:

ـ ما باليد حيلة.

وأسند رأسه إلى ظهر الفوتيل وأغمض عينيه مستوهمًا الراحة أو النوم. وارتفع الصراخ من وراء الباب. مرّات متتابعات ثمّ سكت. تابعه الزوج باهتمام ولكنّ الباب المغلق تبدّى صلبًا عنيدًا أصمّ محدّقًا في لا شيء بنظرة باردة مترفّعة. واضح أنّه لم يجدّ جديد وأنّ الكفاح غير المنظور يضطرم بلا هوادة. وفُتح الباب عن زاوية ضيّقة وتسلّلت منه فتاة في العشرين ترفل في فستان أبيض. أشرقت بوجه بدا ـ رغم الإنهاك ـ كالقمر الساطع. حيّت الجالسين ولكنّ العجوز لم يبدِ حراكًا وظلّ مغمض العينين. وقالت للزوج:

ـ إنّها تريدك.

قام الرجل فمضى إلى الداخل وأغلق الباب. ذهبت الجميلة إلى كنبة في الجانب المقابل لمجلس الرجال ثمّ جلست. لم يحوّل الصديق عينيه عنها مذ طلعت عليه من الحجرة. التقت عيناهما مرّة ثمّ غضّت البصر في إعياء. قال:

ـ لعلّك في حاجة إلى شراب منعش...

فأجابت:

ـ إنّي في حاجة إلى شيء من الراحة.

ـ شقيت على نفسك بالبقاء في الداخل إلى جانب شقيقتك.

ـ إنّها معاناة مروّعة...

وقام، ربّما متشجّعًا بنوم العجوز، فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ قلبي معك طيلة الوقت!

ـ الله معها...

ـ من أجلك جئت في هٰذه الساعة من الليل...

ـ ظننتك جئت من أجل صديقك.

ـ كان من الممكن أن أزوره صباحًا، ولكن من أجلك أنت...

ـ ماذا تريد؟

ـ إنّك مرهقة الأعصاب؟

ـ ربّما.

ـ كلانا مرهق الأعصاب!

ـ أنت أيضًا؟

ـ شاركت صديقي آلامه، يضاف إلى ذٰلك تفكيري الدائم فيك!

ـ شكرًا...

مال نحوها كالمسحور فلثم فاها. لم تقاومه ولم

تشجّعه. قالت:

ـ معذرة فإنّي أكره الرجال في هٰذه اللحظة!

ـ ذاك من تأثير ما شاهدت في الحجرة ولٰكنّها لحظة سرعان ما تمضي.

ـ مَن يدري، ولٰكن كيف قبّلتني؟!

ـ إنّه سحرك الذي لا يقاوم، وغرامي القديم الذي لم ترفضيه على الأقلّ!

ـ إنّه تصرّف لا يُغتفر.

ـ هيّا معي إلى الليل في الخارج.

ـ أحلام جنونيّة.

ـ سنستقبل الفجر النديّ معًا.

ـ هيهات لقلب ميت أن يستجيب لجنونك.

ـ إنّه الدواء الشافي لما نعاني من اضطراب.

أراد أن يقبّلها مرّة أخرى ولٰكنّه رآها تنظر نحو العجوز المغمض العينين باهتمام طارئ فقال:

ـ لا تهتمّي له، إنّه مستغرق في النوم!

حاول أن يضمّها إلى صدره ولٰكنّها دفعته فأراد أن يعيد المحاولة وإذا بصوت العجوز يقول دون أن يفتح عينيه:

ـ عد إلى مجلسك يا بنيّ!

ارتدّ عنها منزعجًا. نظر نحو العجوز فرآه مغمض العينين مطروح الرأس إلى ظهر الفوتيل. قطّب حانقًا ولٰكنّه لم يتخلّ عن مجلسه. جاءه الصوت البارد يقول معنّفًا:

ـ لا ترتكب فضائح أمام الباب المغلق!

قام الصديق متعثّرًا. عاد إلى مجلسه حانقًا. فتح العجوز عينيه فتلقّى نظرة الفتاة الثابتة. تبادلا نظرة طويلة دسمة. ابتسما معًا. قام العجوز وهو يقول:

ـ أعصابك مرهقة يا ابنتي...

جلس إلى جانبها. تناول يدها برقّة فوضعها بين يديه المدبوغتين. قال:

ـ ما أحوجك إلى راحة طويلة!

جذبها بلطف فاستسلمت له حتّى أجلسها على فخذه وهو يهمس:

ـ كما كنت تجلسين وأنت صغيرة...

ثمّ وهو يربّت على خدّها:

ـ رحم الله أباك...

فقال الصديق بغضب:

ـ وضع غير لائق.

فقال العجوز:

ـ كلّ شيء في وضعه!

ـ ألا ترى أنّها لم تعد صغيرة بعد؟

ومدّ لها شفتيه الجافّتين المكرمشتين فوهبته شفتيها فراح يقبّلها. وقف الصديق هاتفًا:

ـ أيّ فعل فاضح!

ولٰكنّ الفتاة طوّقته بذراعيها وأنامت رأسها على كتفه منخرطة في هيمان ساحر. صاح الصديق:

ـ لا تتمادي في الإجرام.

فهمس العجوز في أُذن الجميلة:

ـ اهدئي يا جميلتي.

فتمغمت:

ـ أريد أن أنام.

ـ ستنامين كأسعد ما يكون.

وفُتح الباب وخرج الزوج. عاد إلى مجلسه فجلس واضعًا رأسه بين يديه. توقّع الصديق أن ينفصل العجوز عن الفتاة ولٰكنّه واصل مناغاته وكأنّه لم يشعر برجوعه. عند ذاك صاح الصديق:

ـ دعها أيّها العجوز القبيح!

رفع الزوج رأسه منزعجًا وقال لصديقه:

ـ ما هٰذا الصياح!... أجننت؟

فأشار إلى العجوز والفتاة قائلًا:

ـ انظر!

ـ لعلّها في حاجة إلى عطف، عد إلى مجلسك.

ـ ألأنت أعمى؟

ـ احترم حالي التعيسة!

وهمس العجوز في أذن الفتاة:

ـ هلمّي نذهب معًا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الليل...

ـ الصبح قريب.

ـ ما زال في الليل بقيّة تكفي غطاء للعاشقين!

ـ خذني إلى حيث تشاء.

ـ ما أجمل عينيك المخضلّتين بالأحلام!

ـ ما أعذب همساتك ولمساتك!

فهتف الصديق:

ـ ماذا يحدث في الدنيا؟

فقال الزوج محتدًّا:

ـ تصرّفْ كرجل مهذّب.

ـ ثمّة علاقة عاطفيّة تنشأ بين العصر الحجريّ والعصر الحديث!

ـ تأدّب، إنّه عمّها، عمّنا جميعًا، ألا تفهم؟

ـ أنتركها تذهب معه؟

ـ هٰذا شأنها...

ـ ولكنّه يحدث في بيتك ومع بعض أهلك؟!

ـ عندي من الشواغل ما يكفي...

وكان العجوز قد قام وقامت الجميلة معه مستسلمة كالمنوّمة فوثب الصديق معترضًا سبيلها وهو يقول:

ـ لن أسمح بذٰلك، سأدافع أنا الغريب عن شرفك!

فقال له العجوز بنبرة ساخرة:

ـ إنّها نفس الرحلة التي دعوتها إليها!

ـ ولكنّها معك تفقد كلّ الإنسانيّة!

وصاح الزوج:

ـ اذهبوا جميعًا واتركوني في سلام...

فقال العجوز:

ـ سمعًا وطاعة...

ولكنّ الصديق صرخ:

ـ دعها فهي لي أنا وحدي، أنا المرشّح للزواج منها.

فسأله العجوز ساخرًا:

ـ منذا الذي رشّحك؟

فأجاب الصديق بحنق:

ـ كانت الأمور تسير سيرًا حسنًا بيني وبينها حتّى تدخّل صوتك الكريه...

جلجلت وراء الباب المغلق صرخة مدوّية. أفظع من سابقاتها جميعًا. تحوّل الزوج نحو الباب مذعورًا. تسمّر الصديق في موضعه. رفعت الجميلة رأسها عن صدر العجوز كمن تفيق من غيبوبة، تخلّصت من ذراعيه وهي ترمقه في ارتياع، ثمّ هرعت إلى الحجرة فدخلت وأغلقت الباب وراءها. تمتم العجوز ممتعضًا:

ـ ما أضيعها من ليلة!

ومضى نحو مقعده فارتمى عليه وأغمض جفنيه. وجلجلت صرخة أخرى. تنهّد الزوج متسائلًا:

ـ أما لهٰذا العذاب من نهاية؟

ـ لا تتوقّع خيرًا طالما هٰذا النحس باقٍ!

ولكنّ الباب فُتح، ومنه مرقت الطبيبة متهلّلة الوجه. هتف الزوج واقفًا:

ـ ماذا وراءك؟

ـ مبارك عليك.

ـ حقًّا؟!

ـ مولود سعيد، حال الوالدة طيّبة وإن تكن جدّ متعبة...

ـ حمدًا لله...

وشدّ الصديق على ذراعه قائلًا:

ـ مبارك.

على حين قال العجوز دون أن يفتح عينيه:

ـ تهانيّ يا بنيّ.

وقالت الطبيبة:

ـ كانت ولادة عسيرة حقًّا، لم أصارحك بشيء طبعًا ولكنّي استعنت بأحدث وسائل التكنولوجيا...

فسألها الزوج:

ـ وهل من الممكن أن أراه الآن؟

ولكنّ جرس الباب الخارجيّ دقّ فجأة. هرول الزوج إلى الباب وما كاد يفتحه حتّى اندفع إلى الداخل أربعة رجال شاهري المسدّسات. أغلقوا الباب وراءهم وصاح أوّلهم:

ـ ليلزم كلّ مكانه، لا صوت ولا حركة...

تقهقر الزوج أمامهم حتّى جلس ـ مؤتمرًا ـ على مقعده، وإلى جانبهم أُجلست الطبيبة. تساءل الزوج:

ـ من أنتم؟ ماذا تريدون؟

ـ عليك أن تجيب لا أن تسأل.

قلّب الرجل عينيه فيهم مهدّدًا ولمّا رأى العجوز ـ وقد فتح عينيه ـ قال له بنبرة جديدة:

ـ معذرة يا عمّاه عن إزعاجك ولكنّها الضرورة...

فسأله العجوز:

ـ عمّ تبحثون يا بنيّ؟

ـ عن مولود دخل الدنيا في هٰذه الساعة.

ـ وهل كنتم تتوقّعون مولده؟

ـ أجل... منذ عام ونحن نرقب مقدمه!

فتساءل الزوج:

ـ ما معنى هٰذا الكلام الذي لا معنى له؟

فانقضّ عليه الرجل ولكمه لكمة أذهلته عمّا حوله وقال:

ـ تأدّب، نحن نتبع إشارات جهاز دقيق لا يكذب...

انقبضوا في الصمت حتّى قالت الطبيبة متسائلة:

ـ وماذا تبغون من مولود لم يكد يرى النور؟

ـ إنّه يهدّد الأمن والسلام، ونحن لن نعفيك من المسئوليّة يا دكتورة!

وقال الرجل الثاني:

ـ كما لن نعفي منها الأب والأمّ...

وقال الرجل الثالث:

ـ جميع مَن شهد الولادة مشتركون في الجريمة!

وقال الرابع:

ـ الجميع عدا عمّنا العجوز الذي يعفيه سنّه من مشكلات الدنيا.

همس الصديق ـ وهو لا يدري ـ في أذن الطبيبة:

ـ وقعنا تحت رحمة مجانين.

فانقضّ عليه الرجل الأوّل ولكمه لكمة شديدة وقال:

ـ ستحاسَب على قلّة أدبك كما ستحاسب على اشتراكك في الجريمة.

وقال العجوز موجّهًا خطابه للزوج:

ـ تمالكوا أعصابكم والزموا الهدوء فالموقف أخطر ممّا تظنّون...

فسأله الزوج:

ـ إنّك تعرفهم كما يعرفونك فخبّرنا عمّا يريدون؟

فقال الرجل الأوّل بصراحة:

ـ نريد المولود.

ـ ماذا ستفعلون به؟

ـ ننقذ الدنيا من شرّه.

فقال الزوج للعجوز:

ـ إنّهم يريدون اغتيال المولود البريء.

فقال العجوز:

ـ ما عليك إلّا الإذعان للقدر!

ـ نتركهم يغتالون وليدًا لم يكد يرى النور؟

ـ ما جدوى إهدار دماء جديدة بلا فائدة؟

وصاح الرجل الأوّل:

ـ حذارِ أن تبدر حركة عن أحدكم فيهلك في الحال.

وتقدّم الرجل نحو الباب المغلق ولٰكنّ العجوز قام وهو يقول:

ـ أتقتحمون الحجرة على النساء؟

فتوقّف الرجل قائلًا:

ـ نحن قوم متحضّرون فتصرّف أنت يا عمّنا...

مضى العجوز إلى الحجرة، نقر على الباب مستأذنًا، ثمّ دفع الباب ودخل، غاب قليلًا ثمّ رجع حاملًا الوليد بين ذراعيه تتبعه الحماة والفتاة الجميلة والدادة في اضطراب وتساؤل. وقال العجوز للزوج:

ـ الأمّ مستغرقة في النوم فاطمئنّ من هٰذه الناحية.

ورأت الدادة الرجال المسلّحين فهتفت:

ـ اللّٰهمّ الطف بنا.

وتساءلت الجميلة:

ـ أغراب ومسدّسات. ما معنى هٰذا؟

أمّا الحماة فقد سألت الزوج بحدّة:

ـ مَن هٰؤلاء؟

فأجاب بنبرات باكية:

ـ إنّهم يريدون الوليد...

ـ ماذا يريدون منه؟

فقال الرجل الأوّل:

ـ نريد أن ننقذ الدنيا من شرّه!

فصاحت الدادة:

ـ مجانين... مجانين... انظري إلى أعينهم!

فحرّك الرجل مسدّسه مهدّدًا وقال:

ـ سنطلق النار لدى أيّ حماقة تُرتكب!

فقالت الحماة مخاطبة الزوج:

- لعلّهم بعض مدمني المخدّرات من أصحابك!؟

فرفع الزوج يده إلى موضع اللكمة وتأوّه فقالت الحياة وهي تزداد قسوة:

- أو لعلّهم بعض أعدائك الذين تسيء إليهم في نزواتك لندفع نحن الثمن!

واقترب الرجل الأوّل من العجوز فألقى على الوليد نظرة وقال بحقد:

- وقعت، أخيرًا وقعت، سنريح العالم من شرّك!

ووثب الزوج كالمجنون ولكنّه عولج بلكمات كالمطر فتهاوى فوق مقعده. وبسرعة فائقة أجلس الرجال المسلّحون الآخرين على مقاعد متقاربة فأوثقوا أيديهم وكمّموا أفواههم، ثمّ وقفوا صفًّا واحدًا وقال أوّلهم للعجوز:

- ضع الشيطان الصغير فوق الخوان.

ثمّ قال لرجاله:

- لدى ابتعاد عمّنا أطلقوا النار على الشيطان...

تحرّك العجوز في صمت خانق، بين أعين محدقة. وفجأة انتفض الوليد في لفافته فأزاحها وتجرّد عاريًا. وبسرعة مذهلة طار كالفراشة، انقضّ على الرجال الأربعة فلكم كلًّا منهم لكمة بقبضته الصغيرة ثمّ رجع فاستقرّ فوق يدي العجوز. وقع ذلك بسرعة كسرعة الضوء، ذهل الرجال الأربعة وتجمّدوا. سقطت المسدّسات من أيديهم. تقوّضت قاماتهم فتهاووا على الأرض لا حراك بهم. وخيّم الصمت والجمود والرهبة. خيّم الصمت والجمود والرهبة حتّى تحرّك العجوز بالوليد فوضعه على الخوان. وراح يحلّ أوثقة الرجال والنساء، ثمّ مضى بالوليد إلى حضن أمّه، فلمّا رجع وجد الجميع واقفين في ذهول. يتبادلون النظرات ثمّ يركّزونها فوق الرجال الراقدين بلا حراك.

- ما هٰذا؟!

- أحقّ ما رأينا؟

- أهو سحر؟

- أنحن نيام؟

- الوليد!... أحقّ أنّه هو؟...

- لولا وجود الرجال الأربعة لمضى الحدث حلمًا من الأحلام...

- إنّه حقيقة، حقيقة مخيفة...

- لنسأل الله اللطف بعقولنا.

وقالت الحياة:

- إنّه معجزة من معجزات الله القهّار!

فسأل الصديق الطبيبة:

- ما رأيك يا دكتورة، ألديك تفسير لذلك؟

فقالت الدكتورة بحيرة شديدة:

- أحيانًا، أعني في أحوال نادرة، عقب آلام معاناة رهيبة...

- ماذا يحدث عقب الآلام والمعاناة؟

- ما يشبه المعجزة!

- أن ينقلب وليد إلى قوّة كونيّة خارقة؟!

- قريب من هٰذا ما سجّلته مذكّرات بعض الأطبّاء في العصر الفرعونيّ وفي العصور الوسطى.

وتحوّل الصديق نحو الرجل العجوز فسأله:

- ما رأيك أنت يا عمّاه؟

فقال العجوز بلا مبالاة بسؤاله:

- الأفضل أن نسأل عمّا يمكن عمله بهٰذه الجثث!

وهتف أكثر من صوت:

- الجثث!!

وانحنت الطبيبة فوق الرجال ففحصتهم ثمّ قامت وهي تقول:

- ربّاه... لقد فارقوا الحياة حقًّا...

فصرخ الزوج:

- فارقوا الحياة؟!

- بكلّ توكيد.

- يجب استدعاء الشرطة فورًا.

فسأله الصديق:

- وبم نجيب إذا سُئلنا عن القاتل؟ أو إذا سئلنا عن أسباب القتل؟!

فقالت الفتاة الجميلة:

- يا له من موقف لم يخطر لأحد على بال.

وقال الزوج:

- ستوجّه التهمة إلينا نحن!

وتساءل الصديق:

- أيمكن التخلّص من الجثث؟

ـ وكيف نتخلّص من جثث أربع عمالقة؟

فأجاب العجوز متطوّعًا:

ـ ولٰكنّه لا حلّ لديكم سواه. . .

وتحوّلت إليه الأعين مستطلعة ومستغيثة معًا فقال:

ـ طالما أبديت استعدادي لأداء أيّ خدمة تُطلب منّي، وها أنا أعتبر هٰذا العمل من اختصاصي. . .

وأعرض عنهم متّجهًا نحو الجثث حتّى أطلّ بقامته عليها. مدّ يده إلى الجثّة الأولى. رفعها ثمّ طرحها على كتفه اليسرى وكأنّه يرفع قشّة! رفع الجثّة الثانية فوضعها فوق الأولى بالسهولة نفسها. كذٰلك حمل الجثّتين الأخريين على كتفه اليمنى كأنّه كان يتسلّى بلعبة محبّبة دون عناء. وكأنّه استجدّ لنفسه شبابًا أسطوريًّا بمعجزة. وقال بهدوء:

ـ افتحوا الباب!

ومضى بحمله بأقدام ثابتة وفي غير جهد وفيما يشبه المرح والجميع يتابعونه بأعين ذاهلة. وظلّوا في وقفتهم كالمنوّمين حتّى أفاق الزوج فأقبل على الطبيبة وهو يقول:

ـ أنت وحدك تستطيعين أن تعيدي العقول المتطايرة إلى مستقرّها الآمن في الرءوس.

نافذة في الدور الخامس والثلاثين

مدّ ساقيه مستسلمًا لطراوة الفوتيل. شعر بشيء من الجهد في نهاية نهار حافل بالنشاط. أضاء الخادم العجوز مصابيح البهو وألقى نظرة أخيرة على البار والمائدة الشهيّة ثمّ همّ بالذهاب ولٰكنّه قال له:

ـ أطفئ النور حتّى يأتي المدعوّون.

فصدع العجوز بالأمر وذهب. أمّا هو فقد غاب هيكله النحيل في ظلمة المغيب. ومضى يرنو من خلال النافذة في الجدار المقابل إلى المقطّم وراء النيل والحقول وشرقيّ المدينة. وقال لنفسه:

ـ عيد ميلاد جديد، سبع شمعات رمزيّة، ما أكثر الأعوام وما أقلّ مَن بقي من الأصدقاء. . .

وأغمض عينيه وهو يتمتم:

ـ ترى ما عدد الأرغفة التي التهمتها؟ وعدد الخراف والعجول؟ والأفدنة من الخضروات والبقول؟ والأمواج من مياه النيل؟ والسعرات الحراريّة التي استهلكتُ في اللعب والعمل؟

وتثاءب طويلًا وهو يقول:

ـ سعيد مَن يبلغ هٰذا العمر وهو مرتاح الضمير!

وأسلم للصمت ليستردّ حيويّته. وأعجبه أن يسبح في صمت عميق لولا أن تناهى إلى سمعه حفيف ثوب أو تردّد أنفاس. فتح عينيه فرأى في وسط البهو تقريبًا عجوزًا مهلهل الثياب أعور حافي القدمين. تساءل:

ـ مَن؟

وأمعن النظر ثمّ قال بدهشة:

ـ جارنا القديم المسكين!

ولم ينبس العجوز بكلمة فقال الرجل:

ـ ذكريات الصبا التي لا تُنسى، كيف صعدت إلى شقّتي في الدور الخامس والثلاثين؟

لم يتكلّم العجوز ولم تندّ عنه رغبة في الكلام فقال:

ـ أدفعتك الحاجة إلى المجيء؟

وانتظر عبثًا أن يتكلّم، ثمّ تساءل:

ـ أتريد كالزمن الأوّل بعض النقود أو الملابس القديمة؟

تراجع العجوز خطوات فقال الرجل:

ـ خطرتَ على بالي مرّات فظننتك انتقلت إلى دار البقاء!

ولأوّل مرّة قال العجوز بصوت بارد:

ـ لم يخب ظنّك!

ـ حقًّا؟!

ـ حقًّا!

ـ كأنّما جئت تحيّة لعيد الميلاد.

فقال بصوت غليظ:

ـ عليك اللعنة!

ـ اللعنة؟

ـ وعلى جميع المجرمين!

وتراجع أكثر فاختفى تمامًا. اختفى قبل أن يطفئ وقدة تساؤلاته. قبل أن يجلو سرّ غضبه عليه وتنكّره لإحسانه. وتساءل:

- ماذا يقع في العالم الآخر من أمور يشقّ على عقولنا هضمها؟

فجاءه صوت ناعم يقول:

- ألا زلت تكلّم نفسك كالمجانين؟

وتراءت أمامه في فستانها البيتيّ الفضفاض تنضح صحّة وشبابًا. هتف بخوف:

- أنتِ؟!

- دون غيرها وبجميع ذكرياتها...

- ذكريات أليمة لم يبرأ قلبي بعد من عذاباتها...

- يا للعجب!

- وبسببها عافت نفسي الزواج فبقيت أعزب حتّى النهاية.

- ولكنّك لم تفعل إلّا أن عشقتني.

- رغم أنّك كنت بمنزلة الأمّ، امرأة أبي.

- في مذهب العشق يجوز كلّ شيء.

- ما زالت الجريمة تنغّص عليّ صفوي.

- أتسمّيها جريمة؟

- أنتِ التي أغريتني!

- كلانا أغرى صاحبه...

- إنّها ذكرى الجحيم في حياتي...

- وهي أسعد ذكرياتي.

- يا لك من...

- امرأة طيّبة كما إنّك إنسان طيّب...

- أهٰذا يمثّل الرأي هناك؟

- كيف لم يبلغك؟... عيد ميلاد سعيد...

وتوارت عن ناظريه. تبلبل فكره. رغم ذٰلك داخلَهُ إحساس دافئ بالارتياح. انجابت هموم ثقيلة. وقال لنفسه:

- من يدري فلعلّي بالغت أيضًا في محاسبة النفس عن غرق ذٰلك الشابّ المجهول...

سمع تنهّدة عميقة. رأى الشابّ يقف عاريًا يحملق في وجهه ويقول:

- تقول إنّك بالغت؟

فقال بأمل:

- بتّ أعتقد ذٰلك...

- يا لك من فاجر!

ترامقا طويلًا حتّى انقبض قلبه. وقال الشابّ:

- تركتني أغرق يا نذل...

- لا ذنب عليّ، أنت وحدك المسئول.

- غلبني الموج وخانتني قواي فاستغثت بك...

- لم أكن أحسن السباحة...

- بل كنت تحسنها بالقدر الكافي لإنقاذي... ولكنّك هربت يا قاتل...

- لا تقل ذٰلك، القانون نفسه في ذٰلك العهد...

- القانون! إنّ الغرقى في ذمّة المتفرّجين!

- حسبت أنّ ذٰلك الموقف قد تصوَّرَ لك في صورة جديدة...؟

- ولِمَ يتصوّر في صورة جديدة؟

- هٰكذا انقلبت الأحكام في عالمكم!

- لقد انقلبت في رأسك بحكم الخوف، وإنّي نادم على مخاطبتك...

وغادره على حال من القلق فقد معها توازنه. اضطرب صدره وجاش بالمتناقضات. وقال:

- أيّ الأفعال خير وأيّها شرّ؟ وكيف يهتدي ضميري في هٰذه الغابة المتلاطمة بالغرائب!! آه لو كان أبي حيًّا!

وإذا بالصوت الذي طال انقطاعه يقول:

- أشكر لك حسن ظنّك.

غضّ البصر تجنّبًا للمواجهة وعقل الخجل لسانه فلم ينطق. وقال الأب بنبرة لم تخل من تهكّم:

- أراك تستعدّ للاحتفال بعيد ميلادك!

ولّما لم ينبس سأله:

- ماذا يمنعك من الكلام؟

فأجاب بصوت متهدّج:

- الذنب وإنّه لكبير!

- أما زلت تذكر ذٰلك؟

- وكيف لي بالنسيان؟

- ولكنّي لم أحضر لإحياء ذكريات تافهة.

فتشجّع قائلًا:

- لقد اختلّ الميزان وانفرط العقد.

- وتروم الاهتداء إلى أساس مكين؟

- بكلّ ما أملك من قوّة.

- حسن، ركّز فكرك جيّدًا وأجب بأمانة على ما أسألك عنه.

- ستجدني طوع أمرك يا أبي.

فهتف بإنكار:

- لست أباك!

- لست أبي؟!

- وتصوُّرك هٰذا يقطع بأنّك ما زلت تعيش في عصر حجريّ!

- ولٰكنّها علاقة حقيقيّة لا ينكرها أحد.

- بل علاقة خاصّة تعيقك عن الرؤية الصحيحة.

شعر بأنّ عليه أن يجاريه لا أن يناقشه فقال:

- معذرة عن خطأ وقعت فيه بحسن نيّة.

- أجبني، ما أهمّ حدث وقع لك في طفولتك؟

- لا أذكر، لعلّ طفولتي مرّت دون أحداث تستحقّ الذكر.

- إجابة عمياء تنذر بعواقب سخيفة.

- الحقّ أنّي...

- أجبني، ما أكبر خطيئة ارتكبتها في شبابك؟

استعدّ ولم يجب، فقال الرجل:

- ما زلت تخجل ممّا لا يدعو للخجل وهو نذير بأنّك ستتباهى بما يجدر بك أن تخجل منه...

- آسف...

- أجبني، كم شخصًا قتلت؟

- لم أقتل أحدًا والحمد لله.

- ألم يشرع أحد في قتلك؟

- كلّا، ماذا جعلك تظنّ بي ذٰلك؟

تنهّد الأب بصوت مسموع فقال الرجل:

- عشت حياة طيّبة...

- طيّبة!

- لم يشبها سوى أخطاء بسيطة، مثل ذٰلك...

- لا يهمّني أن أسمع إلى أخطاء بسيطة...

- وقدّمت للمجتمع خدمات لا بأس بها.

- لا بأس بها'

- ما الذي يهمّك حقًّا يا أبي؟

- أبي مرّة أخرى!

- معذرة!

- ذهب العمر هباء...

- ماذا تريدني على أن أفعل؟

- يا لضيعة لقاء ينتهي بالسؤال الذي بدأ به!

- لٰكنّك لم تقل شيئًا...

- قلت كلّ شيء...

واختفى الأب. اختفى دون أن تقع عليه عين الرجل. لٰكنّه شعر بذهابه. وشعر بخيبة أمل مريرة. غير أنّها لم تطل. وجد نفسه يميل إلى تصديقه فيما قال من أنّه قال كلّ شيء. ما عليه إلّا أن يستعيد أقواله.

ومضى يتذكّر. وقال لنفسه:

- ليس هٰذا العيد كالأعياد السابقة، رأسي يدور، وينثر في دورانه ما استقرّ فيه من أفكار، كلّ شيء يتطاير...

ومضى يتذكّر. ولٰكنّه عوجل بحضور الممرّضة. تصافحا بمودّة. راقبها وهي تعدّ الحقنة معجبًا بشبابها الغضّ.

خلع الجاكتة فحسر كمّ القميص مسلّمًا ذراعه. حقنته وهي تقول:

- بالشفاء...

- شكرًا.

أعادت الحقنة إلى العلبة المعقّمة فقال:

- ابقي لتشتركي في حفل عيد ميلادي.

- ولٰكنّي لا أعرف المدعوّين.

- رجلان وزوجتاهما، لم يبق سواهم!

- ولٰكنّي لم أحضر هديّة...

- إنّك أنت الهديّة...

فأشارت إلى ثوب العمل المحتشم وقالت:

- لست مستعدّة.

- جميعنا في الحلقة السابعة والثامنة فلتكوني أنت صلتنا الحميمة بالحاضر...

وتردّدت بعض الشيء فأمسك بمعصمها قائلًا:

- لن أدعك تذهبين.

فجلست على المقعد التالي لمقعده وهي تبتسم. سألها:

- كلّ شيء على ما يرام؟

- نحمده.
- متى تتزوّجين؟
- في نهاية الشهر القادم...
- سأفتقدك كثيرًا...
- ألم تشبع بعد؟

وضحكت فابتسم ابتسامة لا تخلو من فتور. وجاء المدعوّون. الصديقان وزوجتاهما. صُفّت الهدايا فوق الخوان. تبودلت القبلات. جلجلت الضحكات. تمّ التعارف بين السادة والممرّضة. ملأ الرجل الكئوس بنفسه رغم مثول الخادم العجوز وراء البار. اختلطت التهاني بالنكات بالأحاديث. اشترك الرجل في الحديث بنصف عقل. بدا رغم التظاهر جادًّا أو متفكّرًا. ولم يجلس كما جلسوا. جعل يذرع المكان حينًا، وحينًا يقف. وقال له الصديق الأوّل:

- اجلس، وقوفك يرهقنا...

وسألته زوجة الصديق الآخر:

- لِمَ لا تجلس؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- شيء يحدّثني بأنّه عيد الميلاد الأخير.

وأكثر من صوت قال:

- فال الله ولا فالك.

فقال بإصرار:

- سوف يتبيّن لكم صدق قولي.

فسأله الصديق الأوّل:

- ماذا بك؟

وقالت زوجته:

- لست كالعهد بك.

والتفتت نحو الممرّضة متسائلة:

- أهو على ما يرام؟

فأجابت الفتاة:

- على خير حال.

فقال له الصديق الآخر:

- إذن فدع ما لله لله واجلس واهنأ بالعيد.

فقال الرجل:

- كلّا.
- كلّا؟
- قرّرت أن أؤدّي واجبي.
- أيّ واجب يا هٰذا؟
- قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد.
- إنّه الويسكي بلا شكّ!
- لا وقت للهذر.
- ولكنّها ليلة عيدك.

وقالت زوجة الصديق الآخر:

- صديقنا ممتع، هٰذا كلّ ما هنالك.

تحرّك الرجل إلى الطرف الآخر من البهو. ووضع قدمه على كرسيّ، اعتمد بثقله عليها، وجعل ينظر نحوهم باهتمام، منقّلًا بصره من وجه لوجه، وقال:

- الأيّام تمرّ، وأنتم تتقدّمون في العمر، لا بدّ من مواجهة صريحة بينكم وبين الأيّام.

فقال الصديق الأوّل ضاحكًا وهو يرفع كأسه:

- صحّتك!

وقالت زوجة الصديق الآخر:

- عندي كلمة من الشعر المنثور، متى يُسمح لي بإلقائها؟

فقال الرجل بوجه جادّ:

- لا محدّث غيري الليلة.
- ولكنّها ليلة عيدك!
- الأخير!
- دعنا من هٰذه السيرة المزعجة!
- اسمعوا، لقد شهدت مداولة قضائيّة ثمّ فُوّضت في التحقيق والحكم والتنفيذ!
- أراهن أنّ ذٰلك كلّه سيتمخّض عن فكاهة رائعة!
- أشكّ في ذٰلك كلّ الشكّ.

فقال الصديق الأوّل:

- أقترح أن نجاريه حتّى النهاية.

فقال الصديق الآخر:

- عظيم، اعتبرنا ماثلين في محكمتك!
- إنّكم لكذٰلك أردتم أم لم تريدوا.
- فماذا تروم منّا؟
- قلت إنّ الأيّام تمرّ وإنّ الأعمار تتقدّم، ولا بدّ من مواجهة صريحة.

ـ لتكن مواجهة صريحة.

فأشار إلى الرجلين وقال:

ـ أجيباني، كم شخصًا قتلتما؟

فضجّوا بالضحك. انتظر حتّى سكتوا ثمّ قال:

ـ أجيباني، لِمَ لَمْ تتعرّضا للقتل حتّى الآن؟

فضجّوا بالضحك مرّة أخرى، ولّما ساد السكوت قال:

ـ أجيبا، لِمَ لَمْ تُسجنا على الأقلّ؟

وقالت زوجة الصديق الآخر:

ـ ألم أقل لكم إنّه سيتمخّض عن فكاهة رائعة؟

فقال الرجل:

ـ إنّي مفوّض لقَتْل مَن لم يَقتل أو يُقتل أو يُسجن!

فهتف الصديق الآخر:

ـ يا عدوّ الأخيار!

وقال الصديق الأوّل:

ـ وأنت خبّرنا متى قَتلت أو قُتلت أو سُجنت؟

وقالت زوجة الصديق الأوّل متضاحكة:

ـ ونحن ألا نستحقّ القتل أيضًا؟

فقال الرجل بخشونة:

ـ نطقتِ بالحقّ يا سيّدتي!

ـ حقًّا؟!

ـ أنسيت الحبّ الذي ألّف بيننا في الصبا؟

ولأوّل مرّة تغيّر الجوّ. تجهّمت الوجوه في ذهول. وصاح الصديق الأوّل غاضبًا:

ـ أفقدت عقلك وذوقك؟!

فقال الرجل بتحدّ:

ـ لا مفرّ من الحقيقة مهما طال الزمن، كان حبّنا حقيقة ولكن تصادف أنّك كنت ابن خالتها فقيل إنّك أولى بها، وإذا بالحقيقة تنهار وتستسلم!

ـ مجنون، وضّحْ لنا ما غمض من أمرك.

ـ انهارت واستسلمت، لم تقاوم، ثمّ استسلمت مرّة أخرى فيما بعد، ها أنا أصارحك بأنّنا ـ أنا وهي ـ اشتركنا في خيانتك زهاء خمسة أعوام!

انتتر الصديق الأوّل واقفًا، هَمَّ بالانقضاض على الرجل. ولكنّ الرجل أخرج مسدّسه من جيبه، سدّده نحوه، ثمّ أطلق النار، فخرّ الصديق صريعًا وسط هدير من الصراخ. حتّى الخادم العجوز صرخ. وصاح الرجل ويده بالمسدّس ترعش:

ـ ليلزم كلّ مكانه!

انكبّت الزوجة فوق زوجها بجهشة في البكاء فتساءل ساخرًا:

ـ لِمَ تبكين؟ تزوّجته على رغمك وخنته بإرادتك، ما أقبح الدموع الجارية في أخاديد وجهك، أتودّين اللحاق به؟

فصاحت في غضب:

ـ مجرم... مجرم...

ولكنّ رصاصة استقرّت في رقبتها قبل أن تكمل كلامها فتهاوت إلى جانب جثّة زوجها مضرّجة في دمائها. حملقت فيه الأعين في فزع أخرس فقال:

ـ أشهد أنّ القتل أكبر تحدٍّ لقضبان الحياة...

فقال الصديق الآخر بصوت سائب لا ضابط له:

ـ ماذا دهاك أيّها الصديق الكريم؟... أنسيت أنّنا جئنا للاحتفال بعيد ميلادك؟!

فقال مستردًّا ذاكرته من صدى الحدث:

ـ أنت أيضًا لَم تَقتل ولَم تُقتل...

فقال الصديق برعب:

ـ كسائر الملايين، وإلّا ما بقي على وجهها أحد، ماذا دهاك أيّها الصديق الكريم؟

وقالت الزوجة وهي ترتعد:

ـ نحن أصدقاؤك، أنسيت العمر الطويل؟ أنسيت مودّة نصف قرن؟!

فحدجها بنظرة احتقار قائلًا:

ـ وأنت أيضًا، ما تزوّجت منه إلّا من أجل ثروته، أنت أيضًا استسلمت، لا أحد منكم يحترم المقاومة!

ـ أتحاسبني على عواطف طفوليّة اندلعت في قلبي منذ نصف قرن؟

ـ إنّي أعرف عشيقك أيضًا!

ـ فليسامحك الله...

وقال له الصديق متوسّلًا:

ـ دعنا نذهب!

فسأله بازدراء:

ـ لِمَ لَمْ تغضب لعِرْضك؟

ـ دعنا نذهب بحقّ صداقة العمر!
ـ لقد بلغنا نقطة لا يجوز التراجع عندها.
ـ أتقتل الأبرياء بالجملة؟
ـ لا يوجد بريء واحد.
أخفت الممرّضة وجهها بين يديها على حين هتف الخادم العجوز من وراء البار:
ـ سيّدي... اتّقِ الله العظيم!
فقال الرجل بارتياح:
ـ أحسنت أيّها العجوز.
وأطلق الرصاص مرّتين فسقط الصديق ثمّ سقطت زوجته. لم يعد يُسمع إلّا نحيب الممرّضة الحسناء، فنظر الرجل نحوها وتساءل:
ـ لِمَ قبلتِ الدعوة يا سيّئة الحظّ؟
فواصلت النحيب دون أن تجيب فقال:
ـ لعلّه ضميرك الذي أغراك بقبولها؟
فقالت وهي تنشج:
ـ قبلتها إكرامًا لك.
فقال متقزّزًا:
ـ ولكنّك تبغضينني كالموت!
ـ أنا!؟
ـ أجل.
ـ لا تظلمني.
ـ اختلست مرّة نظرة إلى المرآة ونحن في غمرة العناق. فرأيت الاشمئزاز مطبوعًا على وجهك كالقطران!.
ـ أبدًا... أبدًا...
ـ عرضت عليك ذات يوم أن تقبلي الزواج منّي ولكنّك اعتذرت...
ـ كنت مخطوبة كما تعلم...
ـ أجل، والحقّ أنّي أكبرتك.
ـ ليس إلّا أنّي كنت مخطوبة...
ـ ولكنّك قبلت أن تكوني خليلتي نظير مكافأة من المال تستعينين بها على إعداد نفسك للزواج...
ـ سيّدي...!
ـ لِمَ تقاومي! ماذا يُبغض لكم المقاومة؟
ـ لكنّك سعدت بقراري على أيّ حال!

ـ هٰذا حقّ، ولذٰلك فإنّي أحكم عليك بالإعدام.
وثبت الجميلة في استغاثة فزعة ولكنّ الرصاصة عاجلتها فهوت على وجهها. أنزل قدمه من فوق الكرسيّ وتقدّم ببطء وهو يتفحّص الجثث. ومدّ بصره إلى الخادم العجوز وراء البار فتراءى شاحب الوجه بلون الموت. قال له:
ـ أيّها العجوز الطيّب، ما رأيك فيما شهدت؟
لم يستطع الرجل أن ينبس بكلمة فقال:
ـ بدأتَ الخدمة في بيتي شابًّا وها أنت تقف كالغصن الذابل الجافّ في أرذل العمر...
هزّ العجوز رأسه دون أن ينطق فقال:
ـ كم أسأت إليك، حتّى العذاب ذقته أحيانًا على يدي...
ـ سيّدي...
ـ ولم يخطر لك مرّة واحدة أن تهجر بيتي...
ـ رغم كلّ شيء كنت طيّب القلب.
ـ لا تكذب، كم تورّطت معي فيما يليق وما لا يليق، كم شهدت هنا ألوانًا من الدعارة السافرة!
ـ أفضالك مع ذٰلك لا يمكن أن تُنسى...
ـ ولا مرّة واحدة فكّرت أن تعاملني بما أستحقّ؟
ـ إنّي خادمك المطيع يا سيّدي.
ـ لذٰلك أحكم عليك بالإعدام...
حاول العجوز أن يختفي وراء منصّة البار ولكنّ الرصاصة نفذت في رأسه. تنهّد الرجل بعمق. تنهّد بعمق حتّى ملأ صوت تنهّده البهو...

***

شعر بالضوء يشعّ وراء جفنيه المغلقين ففتح عينيه. رأى الخادم العجوز واقفًا والبهو متوهّجًا بالضوء فنزع نفسه من جلسته المريحة وهو يقول:
ـ جاء المدعوّون؟
فقال العجوز:
ـ جاءت الممرّضة...
ذهب الخادم، دخلت الممرّضة مشرقة الوجه. تبادلا ابتسامة عريضة. خلع جاكتته وحسر كمّ القميص وهي تُعِدّ الحقنة.
قالت:

ـ عام سعيد.

فقال وهو يسلّمها ذراعه:

ـ إنّي أدعوك للحفل الصغير.

فقالت وهي تمسح بقطنة مبلّلة بالكحول موضع الغزّ:

ـ أودّ ذلك ولكنّي على موعد مع خطيبي.

ـ إنّي أدعوه معك، أرجو أن تبلّغيه ذلك...

ـ سيسرّه أن يلبّي دعوتك فهو لا ينسى مساعدتك في نقله إلى القاهرة، ولكنّه ليس على ما يرام...

ـ مريض؟

ـ كلّا... ولكنّ حالته النفسيّة ليست على ما يرام.

ـ تلك أعراض تمرّ، متى تتزوّجان؟

ـ قريبًا على أيّ حال.

ـ سأفتقدك كثيرًا.

فضحكت قائلة:

ـ حذار، سأبدأ بالزواج حياة جديدة!

ـ يا لك من استغلاليّة فاتنة ولكنّي لن أنسى السعادة التي حظيت بها على يديك!

ـ أكرّر التهنئة.

وذهبت وهو يُتبعها عينيه. ثمّ أجال بصره في البهو، الأرض والمقاعد والبار ثمّ تنهّد بعمق. ونظر في الساعة ثمّ تمتم:

ـ رحلة طويلة حقًّا في أقلّ من خمس دقائق!

ومضى يذرع البهو ولكنّ الانتظار لم يطل فما لبث أن جاء المدعوّون. رجلان وامرأتان في الحلقتين الثامنة والسابعة. صُفّت الهدايا فوق الخوان. تبودلت القبلات. اتّخذوا مجالسهم ومضى الرجل يملأ الكئوس بنفسه.

ـ لم يبق إلّا نحن الخمسة.

ـ ليرحم الله الراحلين.

وقالت زوجة الصديق الأوّل:

ـ ثمّة تنبيه هامّ أسوقه حرصًا على سهرتنا الغالية.

ـ ألا وهو؟

ـ مَنْع الكلام في السياسة أو الحرب.

ـ عين الصواب.

ـ إنّه يمتصّ الحيويّة، يجعل من السمر حديثًا مرهقًا، يدفع إلى طريق مسدود، لنرحم أنفسنا هٰذه الليلة...

ـ أشكّ في إمكان تحقيق هٰذا المطلب البريء، سنتظاهر بالامتثال، وستتحدّث في هٰذا أو ذاك من الموضوعات ثمّ نجد أنفسنا ونحن لا ندري في الجبهة...

ـ وحتّى إذا وُفّقنا إلى اختيار موضوع ما فلن نلبث أن نجد الكلام لغوًا لا معنى له ولا طعم، وإنّنا في الواقع إنّما نهرب من الحديث الوحيد المقضيّ به علينا، ولن نجد بدًّا في النهاية من الرجوع إلى الجبهة، وتتشعّب الآراء والاحتمالات، وتتطاحن فروض الحرب والسلم، وتمضي الليلة ونحن غائصون في شرك حفرناه بأيدينا.

فقالت المرأة بإصرار:

ـ إذن فلأنصّب من نفسي ملاكًا حارسًا للسهرة، أطلق صفّارة إنذار كلّما آنست ميلًا نحو الحديث الأبديّ.

ـ تجربة لا بأس بها ولكنّي أتنبّأ بالفشل من قبل أن تبدأ...

ـ صحّتكم.

ـ صحّتك.

ـ ولكن ما بال صاحب العيد يبدو شاردًا؟

ـ أنا؟

ـ أجل... يوجد شيء في رأسك الكريم...

فضحك قائلًا:

ـ الحقّ أنّي حلمت حلمًا غريبًا.

ـ خير إن شاء الله.

ـ ولكن ماذا أقول؟

ـ قل ما رأيت ونحن على تأويل الرؤيا قادرون.

فقال وهو يرمقهم بنظرة غريبة:

ـ رأيت أنّني قتلتكم جميعًا رميًا بالرصاص.

ضجّوا جميعًا بالضحك.

ـ خير ما فعلت فإنّنا أصبحنا كالخيل القديمة تُرمى بالرصاص على سبيل الرأفة.

ـ وكنت أقتل وأنا في غاية من المرح...

- يمكن تفسير الأحلام بأضدادها فمعنى الحلم أنّك تتمنّى لنا طول العمر...

- عظيم.

- أمّا إذا اعتمدنا في تفسيرنا على العلم، على فرويد مثلًا فسنكشف عن رغبات جنسيّة مكبوتة لا يحسن الجهر بها...

- ما كان في الوسع أن أكبتها طيلة ذاك العمر.

- صحّتك...

- صحّتكم.

- وحتّى النساء؟

- حتّى النساء!

- يخونك العيش والملح.

- حتّى الخادم العجوز والممرّضة!

- لم يكن حلمًا ولكنّه كان استمرارًا لأحاديث الحرب.

- لعلّه.

- ولكن لم تفضّلت بقتلنا؟

- لم أعد أذكر فسرعان ما تُنسى تفاصيل الأحلام.

- تذكّر السبب فإنّنا نتوقّع أن يكون طريفًا...

- لا أظنّ...

- لا شكّ أنّنا تحدّيناك بطريقة ما؟

- ربّما.

- ماذا فعلت بعد أن أجهزت علينا؟

- لا أذكر.

- ألم تشعر بالندم؟

- لا أظنّ.

- اسمح لي أن أقول لك...

ولكنّ الخادم العجوز دخل ليعلن عن حضور الممرّضة وخطيبها. وذهب فجاءت الممرّضة يتبعها خطيبها. وتمّ التعارف على يد الرجل. واتّخذ القادمان مجلسيهما متجاورين والشابّ يبتسم ابتسامة ودودة ربّما ليخفي كآبة لم ينجح في إخفائها. وقدّم لهما الرجل كأسين وهو يقول:

- صحّتكما...

وقال لهما الصديق الأوّل:

- نشكركما على حضوركما فإنّ مجلسنا يحتاج إلى دم جديد...

فقال الرجل:

- إنّها شابّة ممتازة وهو شابّ ممتاز ولكنّه يبدو على غير ما يرام.

فقال الشابّ:

- إنّي على خير حال يا سيّدي.

- حقًّا؟!... ما رأيك يا آنسة؟

فقالت بشيء من الحزن:

- إنّه كما تقول يا سيّدي ولكن لا يجوز أن نكدّر صفو الحفل بهمومنا.

وسأل الصديق الثاني:

- أهو مريض؟

- كلّا يا سيّدي ولكن ينتابه من آن لآن شعور مجهول بالكآبة...

- كيف تنتاب الكآبة مَن أنتِ خطيبته؟

فقال الشابّ محتجًّا:

- إنّي بخير...

فقال الرجل:

- لست كما تقول...

- سيّدي... لا يجوز أن نكدّر صفوكم...

- صارحني يا بنيّ فإنّي بمنزلة الوالد...

وقالت زوجة الصديق الأوّل:

- لعلّنا نجد في حديثك ملاذًا من حديث آخر يطاردنا...

وتساءل الصديق الثاني:

- ما علّة كآبتك؟

فأجابت الممرّضة:

- بلا سبب...

وتساءل الصديق الأوّل:

- لعلّه خلاف في العمل؟

فأجاب الشابّ:

- لا شيء ألبتّة...

- أو بوادر قلق ممّا يخطر للمحبّين؟

- لا شيء ألبتّة يا سيّدي.

ولم تملك الممرّضة أن قالت:

- قال لي ونحن في الطريق إلى هنا أنّ الانتحار

فكرة طيّبة!

فهتف الشابّ:

- أتعيدين كلمة ردّدتها بلا قصد ولا معنى؟

- لقد خفت خوفًا حقيقيًّا...

- ما أغرب أطوارك...

- اعذرني...

- إنّنا نفسد الجوّ...

فقال الرجل:

- لا داعي للحرج يا بنيّ، فأنا نفسي حلمت منذ حين بأنّي قتلت جميع المدعوّين بما فيهم خطيبتك، وحتّى خادمي العجوز...

وضجّ المدعوّون بالضحك، حتّى الشابّ ابتسم، وقال الرجل:

- اشرب كأسك، اطرد عنك الحرج، وصدّقني فإنّي أرحّب بك ترحيبًا خاصًّا وأشعر بأنّك تشاركني في موقفي الغريب...

والتفت الرجل نحو أصحابه وقال:

- معذرة فإنّي أتوهّم أنّ لديّ كلمة طيّبة يحسن أن تقال لصديقنا الشابّ، فاستمتعوا بوقتكم دون تأجيل...

فقال الصديق الأوّل:

- إنّي أتوقّع حديثًا طريفًا جديرًا بالمتابعة وبخاصّة وأنّه لا يحرم الأكل أو يمنع الشرب!

فنظر الرجل نحو الممرّضة وقال:

- أنت مسئولة، كيف تركته يغرق في الكآبة؟

فقالت الممرّضة:

- أعتقد أنّنا سعداء، أو هٰذا ما اعتقدته...

فسأل الرجل الشابّ:

- لِمَ أنت كئيب؟

- إنّها تبالغ يا سيّدي.

فقالت الممرّضة:

- لم أبالغ قطّ...

فقال الرجل:

- نحن في الدور الخامس والثلاثين، وقد لقّنني ذٰلك حكمة...

فسأله الصديق الثاني ضاحكًا:

- ألذٰلك علاقة بجريمة قتلنا؟

وأخذ الرجل الشابّ من يده ومضى به إلى النافذة ثمّ قال:

- من هٰذا الموضع المرتفع ترى أكثر من نيل يجري في القاهرة...

فقال الشابّ:

- منظر عجيب حقًّا، ولا شكّ أنّه في أثناء النهار أعجب...

- من هنا ترى الحدائق كأنّها أشكال هندسيّة دقيقة مرسومة على سطح من الورق...

- ربّما... ولكن أرجو ألّا تصدّق أنّي فكّرت حقًّا في الانتحار...

- السيّارات لعب أطفال، الناس فئران، أمّا الجبل والمساكن فبناء هائل متّصل التكوين تنبثق منه هنا وهناك قباب ومآذن، الطرقات تختفي تمامًا، كما يختفي تفرّد الناس وتميّزها ولا أثر يظهر لهمومها ومشاكلها وأفراحها وأتراحها...

- ما أعجب ذٰلك كلّه!

- ما أجمل أن نتعامل مع الشمس والهواء والعلوّ!... أيضايقك حديثي؟

- أبدًا، أخشى أن يضايقك وجودي...

وقالت زوجة الصديق الأوّل:

- ارفع صوتك قليلًا يا عزيزي فنحن أيضًا في حاجة إلى كلمتك الطيّبة...

فقال الرجل للشابّ:

- إنّي سعيد بك، ولعلّي أستطيع أن اقنعك كما أقنعت نفسي بالحياة فوق كلّ شيء!

- فوق كلّ شيء؟

- أعني أن تنظر إلى همومك من فوق كما تنظر إلى المدينة تحتك فتراها أشكالًا مجرّدة لا فاعليّة لها...

فهتف الصديق الثاني:

- أحسنت أيّها الحكيم...

ولكنّ الشابّ قال:

- هٰذه خاطرة قد تخطر أحيانًا للمثقل بالهموم للراحة ولٰكن لا موضع لها بين الحقائق.

فقالت زوجة الصديق الثاني مخاطبة الشابّ:

ـ إنّها وصفة مجرَّبة فلا تستهن بها يا عزيزي.

وقال الرجل:

ـ أجل... لا تستهن بها، ما أجمل أن نحيا فوق كلّ شيء!

ـ ولكنّنا خُلقنا لنعيش تحت.

ـ ألا تستطيع أن ترتفع؟

ـ لا أظنّ، الملايين تعاني تحتنا.

ـ لا يغيّر ذٰلك من جوهر الحقيقة...

ـ أشكّ في ذٰلك يا سيّدي...

فأشار الرجل إلى المدينة المرصّعة بالأضواء وقال:

ـ هنا وهناك، تقع أحداث، تنشأ علاقات، تتفجّر خصومات، أمّا بالنسبة للراصد من هٰذه النافذة فلا يحدث شيء على الإطلاق!

ـ لعلّه ضعف رؤية يا سيّدي!

فضجّ البهو بالضحك، وضحك الرجل أيضًا وقال:

ـ الشباب مرحلة خطيرة، يأنف من المهادنة ويسخر من الحكمة فليس أمامه إلّا إحدى طريقين فإمّا الانتحار أو الثورة...

وتساءل الصديق الأوّل:

ـ والحبّ، أليس طريقًا أيضًا؟

ولكنّ الشابّ تساءل:

ـ الانتحار أو الثورة؟

ـ وكلاهما شيء واحد للراصد من النافذة.

ـ النافذة!

ـ نبرتك ساخرة! خبّرني بصدق عمّا جاء بك إلى هنا؟

ـ المشاركة في عيد ميلادك...

ـ وماذا أيضًا؟

ـ ربّما رغبت أيضًا في شيء من الراحة.

ـ علامة سيّئة.

ـ سيّئة؟

ـ تقطع بأنّك غارق في الهموم.

ـ لا تخلو حياة من ذٰلك.

ـ المهمّ هو موقفنا منها، أليس كذٰلك؟

ـ أن نواصل الصراع.

ـ أرجو ألّا تردّد أمامي شعارات محفوظة.

ـ لا أخجل من ترديد الشعارات إذا كانت مجدية.

ـ وأنا رجل مجرِّب، وقد حقّقت لنفسي نصرًا على الدنيا، ومن واجبي أن أفضي بالسرّ لمن هو في حاجة إليه.

ـ أشكرك...

ـ ألا تصدّقني؟

ـ إنّي متلهّف على معرفة السرّ.

وقال أكثر من صوت:

ـ ونحن متلهّفون أيضًا.

فقال الرجل:

ـ في الأصل كانت الهموم.

ـ في الأصل؟

ـ بدأت التجربة والهموم تقصم ظهري.

ـ أيّ هموم من فضلك؟

ـ لا أهمّيّة لذٰلك، الفراق... العقوق... الدنس... أشجان الوطن... زلزال في يوغسلافيا، لا تهتمّ بالأسماء، كانت الهموم قد قصمت ظهري.

ـ وبعد؟

ـ استولى عليّ الإعياء والإرهاق، وذات يوم وجدتني أطلّ على المدينة من هٰذه النافذة، عند ذاك ألهمت الحقيقة دفعة واحدة...

ـ الحقيقة؟

ـ وهي أنّ الهموم لا وجود لها.

ـ أين ذهبت؟

ـ لم أر إلّا مدينة مجرّدة.

ـ المدينة نفسها تختفي إذا ارتفعت درجة مناسبة.

ـ مدينة مجرّدة ولا أثر للهموم.

ـ محض خيال.

ـ أبدًا.

ـ الواقع أنّ الهموم تستقرّ في أعماق نفوسنا.

ـ ولكنّها تتلاشى إذا نظرت مِن عَلُ.

ـ مطلب مستحيل.

ـ ولكنّي حقّقته وانتصرت...

ـ أتعني أنه لم يعد يحزنك شيء؟

ـ بلى...

ـ هٰذا يعني أنّك لم تعد من البشر.
ـ أكرّر التحذير من ترديد الشعارات.
ـ ولٰكنّها الحقيقة.
ـ لا حقيقة إلّا تجربتي الظافرة.
ـ تخيّل ـ لا سمح الله ـ أنّك فقدت أعزّ ما تملك.
ـ جرّبت أفظع من ذٰلك، أتحدّاك أن تميّز من موقفك هٰذا بين القبر والبيت...
ـ ذاك عزاء عقليّ لا شأن له بالأعصاب.
ـ الأعصاب تذعن في النهاية للنافذة.
ـ لا أصدّق...
فقالت زوجة الصديق الثاني:
ـ يجب أن تصدّقه.
فقال الشابّ للرجل:
ـ إنّه يعني لو صحّ أنّك لم تعد حيًّا.
ـ أو أنّني أحيا فوق قمّة الحياة.
ـ لعلّك لم تعرف ضراوة الحياة الحقيقيّة.
ـ عُجنت بها وخُبزت.
ـ إذن فأنت أسعد رجل في العالم.
ـ نحن نتحدّث عن الحكمة لا السعادة.
ـ قد تكون حكيمًا ولٰكنّك ـ ومعذرة ـ لست حيًّا.
ـ ما زالت أنفاسي تتردّد.
ـ حكمتك خليقة بقتل بواعث الحياة الحقيقيّة.
ـ ها قد عدنا إلى الشعارات.
ـ بقتل التقدّم.
ـ لم أخلّ يومًا بواجب.
ـ ولِمَ تؤدّي أيّ واجب؟
ـ لأنّني حيّ ولأنّه واجب!
ـ إنّك تطرح علينا لغزًا؟
ـ بدأت تفهمني...

ـ ولٰكنّ حديثك يخاصم الواقع ويبدو معقّدًا غير مفهوم.
ـ قولك هٰذا يمكن أن يَصدق على أيّ شيء في الحياة.
ـ يؤسفني أنّني لا أستطيع الإفادة من حكمتك.
ـ أعترف لك بأنّني قلقت عندما وقع بصري عليك.
ـ لِمَ؟
ـ شيء حدّثني بأنّك مقدم على شيء خطير!
ـ أيّ شيء هٰذا؟
ـ أصارحك بأنّ خاطر الانتحار خطر لي.
ـ فكرة بعيدة عن الواقع بُعْد هٰذه النافذة عن الأرض.
ـ ولذٰلك أطلعتك على السرّ الذي يقتل فكرة الانتحار.
ـ شكرًا لا حاجة بي إليه، ثمّ إنّ لي وسائلي الخاصّة.
ـ عظيم... عُدْ إلى مجلسك واشرب.

وتأهّب الجميع لشتّى التعليقات. أمّا الرجل فلم يبرح مكانه أمام النافذة. ثمّ صعد فوق مقعد قريب. أشاعت حركته الدهشة فتساءل الصديق الأوّل:

ـ أتنوي إلقاء خطبة؟

من موقفه فوق المقعد انتقل بخفّة لا تناسب سنّه إلى حافة النافذة فوقف عليها مستندًا بيديه إلى ضلعيها. وقف الجميع في ذهول وصاح أكثر من صوت:

ـ ماذا تفعل!... احترس...

في اللحظة التالية رأوه وهو يرمي بنفسه في الفضاء فيختفي بسرعة خاطفة مخلّفًا وراءه صرخة محشرجة كالعواء...

المرايا

إبراهيم عقل

سمعت أوّل ما سمعت عن الدكتور إبراهيم عقل في مقالة للأستاذ سالم جبر. لا فكرة لي الآن عن موضوع المقالة ولكنّه ذكر في سياقها الدكتور إبراهيم عقل باعتباره عقلًا فذًّا بَشَّرَ في وقت ما بثورة فكريّة في حياتنا الثقافيّة لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه، ردّدها شخص لا أخلاق له زاعمًا بأنّه ـ الدكتور إبراهيم ـ طعن في الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التي قدّمها للسربون. وشُنّ على الدكتور هجوم ناريّ في عديد من الصحف والمجلّات، فاتّهموه بالإلحاد، وتبنّي آراء المستشرقين المبشّرين لنيل الدكتوراه على حساب دينه وقومه، ثمّ طالبوا بفصله من الجامعة. واهتزّ الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة، ولا قِبل له بتحدّي الرأي العامّ، فضلًا عن حرصه على وظيفته وشدّة حاجته إليها، فأنكر التهمة، ودافع عن عقيدته، وتوسّل بكثيرين ـ على رأسهم صديقه وزميله في هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم ـ لإخماد الفتنة واسترضاء مؤجّجيها. ولّما التحقتُ بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته أستاذًا مساعدًا بها. والظاهر أنّ المحنة التي مرّ بها علّمته كيف يُركّز نشاطه في دروسه الجامعيّة وينسحب من الحياة الفكريّة خارج جدران الكلّيّة. ولاحظنا أنّ همّته يطويها الفتور والملال، وأنّ دروسه أقرب إلى التوجيهات العامّة منها إلى المحاضرات الدسمة التي يلقيها علينا زملاؤه، رغم ما تمتّع به من صحّة وحيويّة، ونضج تربّع فوق الأربعين من العمر. وما لبث أن انقلب في مجالسنا نادرة ودعابة. ومرّة سألته في أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات:

ـ لِمَ لَمْ تؤلّف كتبًا يا دكتور؟

فرماني بنظرة متعالية وقال بصوته الجهوريّ:

ـ أتظنّ أنّ عالَم الكتب في حاجة إلى مزيد؟

وجعل يهزّ رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثمّ قال:

ـ لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطّته مرّتين!

ثمّ بامتعاض وازدراء:

ـ ومع ذلك فلو عدّدنا الكتب المتضمّنة جديدًا من الفكر لما غطّت سطح زقاق!

ولم يكن من النادر أن ألقاه في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بقصره الكبير في المنيرة. وما أكثر مَن عرفت من أهل الفكر في ذلك الصالون العتيد، وما زلت حتّى اليوم أتردّد عليه وإن تغيّر مكانه وزمانه. وثمّة ذكرى لاجتماع فيه ترد على الخاطر بوضوح ويسر كلّما استدعتها الظروف والأحوال. ولعلّ الدكتور إبراهيم عقل كان أقرب الحاضرين تجانسًا مع البهو الكلاسيكيّ الفخم بجسمه العملاق ومهابته الطبيعيّة ونظرته الزرقاء الذكيّة. وعلى غير المألوف خاض الحديث في شئون السياسة. وكنّا نتجنّبها إكرامًا لأستاذنا صاحب الصالون لعلمنا المسبق بنفوره من الأحاديث الانفعاليّة، ولكونه من المنتمين إلى الحزب الوطنيّ بحكم أسرته ونشأته على حين أنّ تلاميذه جميعًا كانوا من شباب الوفد. غير أنّ الانقلاب الذي قام به إسماعيل صدقي في ذلك التاريخ طوّق المشاعر وضغط على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله. وتكلّم كثير من الطلبة الحاضرين حتّى قال الدكتور إبراهيم عقل:

ـ إنّ حياتنا الدستوريّة مكسب ولكنّها في الوقت نفسه فخّ!

فتحفّز الشبّان للنضال ولكنّه قال:

ـ انحرف الجهاد الوطنيّ عن غايته الأولى، غرقنا في معاركنا الحزبيّة، ولدى كلّ انقلاب يحدث ردّ فعل فظيع في العلاقات والأخلاق، ويومًا بعد يوم يتفتّت البناء الشامخ الذي ورثناه عن ثورة ١٩١٩..

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابّة:

ـ بناء الشعب غير قابل للتفتّت.

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم، وتفكّر قليلًا، ثمّ قال بصوته الناعم الهامس:

ـ شعبنا مثل الوحش المذكور في بعض الأساطير الشعبيّة يستيقظ أيّامًا ثمّ ينام أجيالًا.

فعاد الدكتور إبراهيم عقل يقول:

ـ لن نضار ألبتّة إذا استمسكنا بالمُثُل العليا.

وجعل ينقّل عينيه الزرقاوين بين وجوهنا المتحفّزة ثمّ كرّر بنبرة منغومة:

ـ المُثُل العليا... المُثُل العليا.

وكان يردّدها كثيرًا في محاضراته عن الأخلاق حتّى أطلق عليه زميلنا عجلان ثابت «دكتور مُثُل عليا».

ولعلّ الدكتور تذكّر موجة الإلحاد التي كانت تجتاح الكلّيّة في ذلك الوقت فقال:

ـ أرجو ألّا تعتبروا المُثُل العليا نتيجة لعقيدة دينيّة، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذي تدفّقت منه العقيدة نفسها...

فقال شيخ أزهريّ لا يحضرني اسمه الآن:

ـ السياسة ترمي بنا كلّ يوم في محنة جديدة...

فقال الدكتور إبراهيم عقل بإصرار:

ـ المُثُل العليا، حَسْبنا أن تبقى لنا...

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين في فوتيل وثير:

ـ يا سيّدي الدكتور ما الأخلاق إلّا علاقات اجتماعيّة، وعلينا أن نغيّر المجتمع...

فسأله بهدوء:

ـ أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق والدين؟

فقال سالم جبر باستهانة:

ـ إنّي أقرأ برجسون كما أقرأ قصيدة حالمة!

فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم:

ـ إنّك يا أستاذ تحلم بثورة كالتي قامت في روسيا منذ أربعة عشر عامًا، وهي تتكشّف كلّ يوم عن مضاعفات خطيرة...

فقال سالم جبر بحدّة:

ـ نحن لا نعرف عن روسيا إلّا ما نقرأه في صحف الغرب وكتبه.

وحلّت هدنة ريثما نشرب أقداح القرفة وننعم بحشوها الطيّب من البندق واللوز والجوز. ثمّ خرق الهدنة شابّ قائلًا:

ـ لا حلّ إلّا القضاء على أحزاب الأقلّيّة الطامعة في الحكم.

فقال سالم جبر:

ـ هٰذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات.

ولكنّ الدكتور إبراهيم عقل قال:

ـ إنّ رئيس الوزراء يزعم أنّه يسعى للحصول على الاستقلال فلندَعْه يَسْعَ!

ـ وإن فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير؟

فقال الدكتور بشيء من العنف:

ـ الاستقلال الحقيقيّ في المثل العليا وبنك مصر!

طالما عذّبني التناقض بين تناول الأوساط الشعبيّة للسياسة وتناولها في الأوساط الثقافيّة الرفيعة، فهي هناك انفعال مضطرم سرعان ما يسيل دمًا، وهي هنا مناقشات متفلسفة لا تخلو من تثبيط للهمم وتخييب للآمال.

فكّرت في ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة، وتبادلنا الآراء في سرعة محمومة:

ـ لا بدّ من ثورة!

ـ أيكفي الإضراب لإشعال ثورة؟

ـ هٰكذا قامت ثورة ١٩١٩ فيما يقال.

ـ كيف قامت ثورة ١٩١٩؟

ـ ما أقربها وما أبعدها..

وفي صيف ذلك العام قابلت الدكتور ـ كان بصحبته أسرته المكوّنة من زوجة وغلامين ـ في كازينو الأنفوشي بالإسكندريّة. كنت أجلس هناك في الصباح ـ عقب الاستحمام ـ فأشرب القهوة وأقرأ الصحف،

وأشاهد في الوقت نفسه ما يجري على مسرح الكازينو من بروفات للعروض المسائيّة رغم نفوري الطبيعيّ من الغناء الإفرنجيّ.

وقدّمنا الدكتور إلى حرمه وأظنّها كانت مفتّشة بوزارة المعارف. ولاحظت بسرور غرامه الأبويّ بابنيه وملاطفاته لهما ممّا دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما. واستمالني لأوّل مرّة بعواطفه الأبويّة، فلم أكنْ أكنُّ له احترامًا يذكر لعزوفه عن التأليف، ولعدم إخلاصه في عمله. وما أعجبني فيه إلّا منظره وخفّة روحه وسخريته المموّهة بالتفلسف. وسألني:

ـ أتستحمّ عادة في الأنفوشي؟

فأجبت:

ـ إنّ أمواجه أهدأ بكثير من الشاطبي.

ـ عندما يتمّ بناء الكورنيش سيتغيّر وجه الإسكندريّة.

فوافقته على قوله فقال باسمًا:

ـ ولكنّكم تكرهون إسماعيل صدقي!

فقلت وأنا أداري العواطف المريرة التي استفزّها ذلك الاسم:

ـ ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان.

فضحك قائلًا:

ـ لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشريّ.

ثمّ أشار إلى زوجه وقال:

ـ والدتها ـ حماتي ـ عضوة في اللجنة الوفديّة للسيّدات.

فرمقت السيّدة بامتنان إكرامًا لوالدتها.

وفي مطلع العام الدراسيّ تولّى الدكتور إبراهيم عقل منصبًا جامعيًّا كبيرًا ولكنّه اغتال في سبيله جميع مثله العليا. كانت الهتافات العدائيّة للسراي تتردّد في جنبات الوادي، ونشرت جريدة التيمز أنّ مظاهرة في أسوان هتفت لمصطفى النحّاس رئيسًا للجمهوريّة، وانقسمت البلاد إلى أقلّيّة موالية للملك وأغلبيّة معادية تكاد تجهر بعدائها. وإذا بالدكتور إبراهيم عقل ينشر مقالة في الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وبنوّه بأيادي أسرته على نهضة البلاد وبخاصّة محمّد علي وإسماعيل. كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض وتقوّضت كرامات الكثيرين من الرجال. ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتّى صفوفهم لم تبرأ من فساد. عصر الزلازل والبراكين المتفجّرة. عصر إحباط الأحلام وانبعاث شياطين الانتهازيّة والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات. وظلّ الدكتور يخطر بيننا، متظاهرًا بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدّية تخفي في أعماقها إحساسًا بالهزيمة والذنب. وكنّا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية. الاستهانة والسخرية أجل، لا البغضاء ولا الرغبة في القتل، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة. لم تكن شخصيّته تثير شيئًا من ذلك، وكان لخفّة روحه ومناوراته البهلوانيّة خليقًا بأن يتبدّى لنا مهرّجًا أو دجّالًا لا شرّيرًا أو سفّاكًا للدماء أو عدوًّا حقيقيًّا للشعب.

وفي اليوم الأخير للدراسة، ونحن ذاهبون لعطلة قصيرة نتقدّم بعدها لامتحان الليسانس، دعانا إلى الاجتماع به في مكتبه. كنّا عشرة ذكور، هم طلّاب الليسانس للقسم الذي يرأسه إلى جانب منصبه العامّ.

أجلسنا أمام مكتبه وراح ينقّل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين مطيلًا الصمت والتأمّل، وابتسم وهو يهزّ رأسه في تعالٍ ساخر، وقال:

ـ نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة. . .

وعاد ينقّل بصره بيننا مواصلًا هزّ رأسه، ثمّ قال:

ـ طالما خمّنت ما دار بنفوسكم يومًا، ولكن ليس الأمر كما توهّمتم!

ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل. صمت طويل جدًّا. ولكن علينا أن نُلزم أنفسنا الأدب والحذر. علينا أن نذكر أنّنا سنُمتحن في كلّ مادّة تحريريًّا وشفويًّا معًا. وعلينا أن نذكر أنّ من حقّ مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان ـ بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب ـ لتتّفق مع مستواه العامّ كما يقرّره الأساتذة. كلّ ذلك يضعنا تحت رحمته بلا مُراجع ولا معقّب. وواصل حديثه قائلًا:

ـ المسألة أنّني وجدت أناسًا يخطبون وأناسًا يعملون

فاخترت الانضمام إلى العاملين. وكلّنا في النهاية مصريّون.

ولذنا بالصمت إلّا واحدًا فقال بجرأة:

ـ إنّ من يخطب مطالبًا بالاستقلال والدستور خير ممّن يبني الكورنيش ويسفك الدماء...

كان القائل يدعى اسحٰق بقطر، وكان الغنيّ الوحيد فينا، وكان سيمضي عقب الامتحان إلى مزرعته عند مشارف القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور. ولم يغضب الدكتور إبراهيم عقل. ابتسم وقال بشيء من الأسى:

ـ ليس كالسياسة مفسدة للعقل...

ثمّ بنبرة تشي بالرجاء:

ـ الحقيقة، اعبدوا الحقيقة عبادة، ليس ثمّة ما هو أثمن ولا أجلّ منها في الوجود، اعبدوها واكفروا بأيّ شيء يتهدّدها بالفساد.

ظللنا ملازمينَ الصمت، متذكّرين الامتحان الشفويّ وحقّ مجلس القسم، أمّا هو فعاد يقول:

ـ لن أناقش بقطر، لن أتفوّه بكلمة في السياسة، إنّما دعوتكم لنلقي نظرة معًا على المستقبل...

فانتشر الارتياح في نفوسنا كالضوء. نجونا من مزالق السياسة وها هو يفتح باب المستقبل الذي نرقبه بوجوم قاتم مذ صدرت القرارات الوزاريّة بوقف التعيينات والترقيات والعلاوات لأجل غير مسمّى. ماذا بقي لنا من أمل وماذا عند أساتذتنا من وعود؟. قال:

ـ هٰذه أيّام أزمة، أزمة تطحن العالم كلّه وليست خاصّة ببلادنا كما يصوّر البعض، ماذا أنتم فاعلون؟!

وسكت قليلًا ثمّ قال:

ـ لن تجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة، ولن تكوّنوا أسرة في أجل قريب، وربّما تفاوتت بينكم الحظوظ..

وتلقّى نظراتنا التي أطفأ نورها الفتور بابتسام وقال:

ـ حتّى الفرص الضعيفة التي يفوز بها الطبيب أو المهندس أو الحقوقيّ في الميدان الحرّ، حتّى هٰذه الفرص لا نصيب لكم فيها، ولٰكن يبقى لكم شيء هامّ، جوهرة لم يتعوّد أحد أن يتحلّى بها بعد!

فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرّة أخرى فواصل حديثه قائلًا:

ـ أمامكم طريق الحقيقة والقِيَم!

تذكّر كلّ منّا آله وحبيبته والآمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة، أمّا هو فقال:

ـ تخفّفوا من غلواء الطموح الدنيويّ وارضوا من الدنيا بما تجود به أمّا الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حدًّا!

تُرى أدعانا الرجل ليعذّبنا ويسخر منّا؟

ـ إنّ الجلوس تحت شجرة في يوم صافٍ خير من امتلاك عزبة.

أنت تقول ذٰلك يا مَنْ بعْتَ جميع القِيَم من أجل..

ـ إنّ حكمة الحياة هي أثمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيّام المعدودات..

وما غادرنا الكلّيّة حتّى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس. واستبقنا إلى نعته بكلّ قبيح:

ـ الوغد.

ـ المهرّج.

ـ الدجّال.

ومنذ تخرّجنا في الكلّيّة انقضى زمن طويل لم أره فيه مرّة واحدة. غاب عن عينيّ كما غاب عن وعيي إلّا في النادر من المناسبات. وكان يتجنّب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازيّ إلى الوظيفة الكبيرة أن يتعرّض لهجوم بعض المتطرّفين فاقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصّة. لذٰلك مرّت ثلاثة عشر عامًا دون أن أراه حتّى عرضتْ مناسبة غير سارّة، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف إذ فقد ابنيه الوحيدين في وباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد عام ١٩٤٧. عانيت صدمة وأنا أتلقّى الخبر ورجعت بي الذاكرة إلى كازينو الأنفوشي وهو يلاعب الغلامين. يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية! وذهبت إلى الجيزة للاشتراك في تشييع الجنازة. جنازة مؤثّرة مفعمة بالأشجان. وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنّها صورة ناطقة لليأس الأعمى. ولا أظنّه عرفني وأنا أقدّم له العزاء، لم يتلفّت إلى أحد، ولم يهتمّ بشيء ممّا يدور حوله، ولٰكن عندما تقدّم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنيه على دمع تفجّر رغم

إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر. وعند منتصف الليل دعاني الدكتور ماهر عبد الكريم إلى مرافقته في سيّارته إلى المدينة. وفي أثناء الطريق تمتم بعطف:

ـ الله معه، إنّها كارثة لا تُحتمل...

فوافقته على رأيه وكنت في الحقيقة متأثّرًا جدًّا فعاد يقول:

ـ ولكنّ حديثه أقلقني!

فسألته عمّا أقلقه فأجاب:

ـ جعل يقول بنبرة متهدّجة إنّ الوقت جميل، وإنّه مظلوم، وإنّه لولاه لما كانت للحياة قيمة...

فصمتّ متفكّرًا فعاد أستاذي يقول:

ـ الله معه...

غاب الدكتور إبراهيم عقل عن عينيّ مرّة أخرى وإن لم تغب عنّي مأساته طويلًا. وفي صالون قصر المنيرة علمت بما طرأ عليه من أحوال في الأعوام التالية للحادث. قيل إنّه أصبح يُرى كثيرًا في جامع الحسين. وإنّه يمضي الساعات متربّعًا أمام المقام. وفي كلمة أنّه يتدروش ويسلّم للإيمان تسليمًا بلا قيد ولا شرط. وأثار مسلكه الكثير من الجدل عن الإيمان بصفة عامّة، والإيمان بالنشأة، والإيمان بالاقتناع، والإيمان بسبب الكوارث، وإيمان الفلاسفة، وإيمان العجائز، وكان ماهر عبد الكريم يفنّد كلّ حجّة يأنس منها هجومًا ولو من بعيد على مسلك صديقه القديم. وفي عام ١٩٥٠ ترك الدكتور إبراهيم عقل الخدمة لبلوغه السنّ القانونيّة فتفرّغ تمامًا للدروشة. وفي يوم من عام ١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحيّ الحسين ـ ذاهبًا أو راجعًا من الجامع لا أدري ـ فجذبتني طلعته المهيبة المجلّلة بالمشيب. واقتربت منه مادًّا يدي للمصافحة فصافحني وهو يحدجني بنظرة لا يلوح فيها أنّه عرفني، فلمّا ذكّرته بنفسي هتف بصوته الجهوريّ:

ـ أنت!. كيف حالك؟. ماذا تفعل؟

فلمّا أجبته قال:

ـ لا تؤاخذني فأنا لا أقرأ.

وسايرته حتّى موقف سيّارته في ميدان الأزهر وهناك سألني:

ـ ماذا يدور في الدنيا؟

فذكرت من الأمور ما رأيته جديرًا بالذكر منوّهًا بصفة خاصّة بالثورة الجديدة فقال:

ـ هبوط صعود، مَوْت بَعْث، مدنيّ عسكريّ، فلتَسِرِ الدنيا في طريقها أمّا أنا فإنّي أستعدّ لرحلة أخرى.

وغاب عنّي من جديد حتّى قرأت نعيه عام ١٩٥٧ على ما أذكر. وأطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل من عثور ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية في الجمال لديوان «أزهار الشرّ» لبودلير لم يُعرف بالضبط تاريخ ترجمته. ولمّا كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له ـ توفّيت زوجته في العام السابق لوفاته ـ فقد أذن بنشره، وهكذا بقي اسمه في المكتبة العربيّة مقرونًا باسم بودلير على ديوان «أزهار الشرّ».

ولا خلاف في الرأي عن الدكتور إبراهيم عقل بين طلبته، فقد اعتبروه ـ بلا استثناء ـ مهرّجًا. ولكنّ ثمّة مفكّرًا له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه ضحيّة لمجتمع فاسد وإن لم يغفر له انهزاميّته. وذات يوم قال لي أستاذي ماهر عبد الكريم بصوته الهامس:

ـ إنّكم تظلمون إبراهيم عقل.

فلم أتكلّم احترامًا لعواطفه نحو صديقه، فقال:

ـ إنّه عقليّة فذّة، وكان يبهرنا بذكائه ونحن في السربون. فقلت:

ـ لم يفدْ أحد من ذكائه شيئًا...

فقال متجاهلًا تعليقي:

ـ وهو الوحيد في مصر الذي يتمتّع بعقل فلسفيّ. بالنظرة الشاملة للأشياء...

ونظر إليّ باسمًا ثمّ استطرد:

ـ لم يخلق كاتبًا، ولكنّه محدّث موهوب، نوع من سقراط، خصّ أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره، وطرح أيسر ما عنده على الناس.

فقلت له:

ـ لعلّه يحتاج إلى أفلاطون جديد ليردّ إليه اعتباره!

ولكنّه اندثر فلم يبقَ منه إلّا مأساة وترجمة نادرة لأزهار الشرّ.

أحمد قدري

يقترن أحمد قدري في ذاكرتي بالشهد والفطائر المشلتتة والسينما، كما يقترن بواقعة لا تنسى. وهو قريب لي من أسرة ريفيّة، كان يفد إلينا في بعض المواسم لقضاء أيّام في القاهرة. وكانت إقامته تنقضي في اللعب في شوارع العبّاسيّة الهادئة المحفوفة بالحقول والحدائق. كنت في التاسعة أو العاشرة وكان يكبرني بخمس سنوات، وكان وحيد أبويه، وكان عفريتًا بكلّ معنى الكلمة. واقترح ذات مرّة القيام برحلة، ولكي يؤكّد براءتها استأذن والدي في أن يصطحبني معه. وذهبت معه مرتديًا بدلتي القصيرة. وقال لي ونحن في طريقنا إلى محطّة الترام:

ـ سأشتري لك بسكوتًا بشرط.

فسألت عن الشرط فقال:

ـ أن تحفظ تمامًا ما سأقوله لك ثمّ تردّده عند عودتنا. . .

فسألت عمّا ينبغي لي حفظه فقال:

ـ إنّنا ذهبنا إلى سينما أوليمبيا وشاهدنا فيلمًا لشارلي شابلن.

فوعدته بذلك وأخذت البسكوت ثمّ ركبنا الترام، وغادرنا الترام في شارع لم أره من قبل، فمضى بي من حارة إلى حارة في عالم جديد وغريب ومثير. وجرّني من يدي إلى مدخل بيت آية في الغرابة كان يجلس في دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههنّ وملابسهنّ ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهنّ ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق. نهضت إليه إحداهنّ فأجلسني مكانها وهو يقول:

ـ لا تتحرّك من مكانك حتّى أرجع إليك. . .

ووصّى بي المرأتين ومضى بصاحبته إلى الداخل. وركّزت بصري في بلاط الدهليز المعصرانيّ متجنّبًا النظر إلى المرأتين، شاعرًا في الوقت نفسه بأنّ مخالفة خطيرة تُرتكب على كثب منّي، ومتابعًا من حين لآخر صوت إحدى المرأتين وهي تغنّي «يوم ما عضّتني العضّة». ثمّ مالت نحوي الأخرى فسألتني:

ـ هل معك نصف ريال؟

فأجبت بالنفي فسألت:

ـ معك كم؟ .

فأجبت بخوف وأدب:

ـ شلن.

ـ عال، تحبّ أفرّجك على شيء لطيف لم تره؟

ـ ولكنّه قال لي ألّا أتحرّك. . .

ـ دقيقة واحدة في هٰذه الحجرة أمامك. . .

ـ كلّا.

ـ لا تخف، ممّ تخاف!

وأخذتني من يدي إلى الحجرة وأغلقت الباب وهي تقول:

ـ هاتِ الشلن. . .

فأعطيتها إيّاه بلا تردّد فقالت وهي تمسحني بعينيها:

ـ اخلع بدلتك. . .

فقلت بفزع:

ـ كلّا. . .

وإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامي عارية. رأيت امرأة عارية لأوّل مرّة. ملأتني الحركة المقتحمة المستهترة فزعًا. وملأني المنظر الذي رأيته خطفًا فزعًا أشدّ. تراجعت نحو الباب وأنا أنتفض.

فتحت الباب وهرولت إلى الخارج وضحكتها المائعة المتموّجة تتعقّبني كثعبان. وتلقّتني المرأة الأخرى بقهقهة. وأشارت إلى الكرسيّ كي أجلس. ولكنّي وقفت في وسط الدهليز لا أريد أن ألمس شيئًا ولا أريد لشيء أن يلمسني. وجعل المتسكّعون خارج البيت ينظرون إليّ في دهشة ويطلقون في وجهي أبشع النكات. ولبثت أعاني محنة وأيّ محنة حتّى رجع أحمد فسألني بفتور:

ـ مالك واقف كالديدبان؟

فقبضت على ذراعه كالمستغيث فمضى بي إلى الخارج، ولم تكن العودة يسيرة كالذهاب إذ صادفتنا مظاهرة ضخمة فشقّ طريقه خلال أزقّة جانبيّة وأصوات الرصاص تدوّي في الجوّ. ولّما جلسنا في الترام سألني بنبرة الممتحن:

ـ أين كنّا يا بطل؟

فأجبت من فم جافّ:

ـ في سينما أوليمبيا.

ـ ماذا شاهدنا؟

ـ شارلي شابلن.

ـ عظيم، ولٰكن مالك مخطوف الوجه؟

ـ لا شيء.

ـ ضايقتك المرأتان؟

ـ كلّا...

وجعل يراقبني بقلق ثمّ عاد يسألني:

ـ مالك؟

ففاض بي الحزن حتّى كدت أبكي فسألني بقلق:

ـ مالك؟

فقلت بمرارة:

ـ لا شيء، إنّه شيء خاصّ جدًّا، دورا، ليست دورا جميلة كما توهّمت...

ـ دورا!... مَن هي دورا؟

ـ حبيبة دان...

ـ ومَن هو دان؟

ـ بطل المغامرات، ألم تقرأ مجلّة الأولاد؟!

ـ أولاد؟!.. بمَ تهذي؟... ابسط وجهك، لن نرجع إلى البيت حتّى ترجع إلى حالتك الطبيعيّة!

لم يعلم بمدى شغفي بدورا، ولم يدرِ بأنّي تخيّلت جسدها من الماس النقيّ!

ولٰكن بصفة عامّة كانت أيّامه بالقاهرة من أسعد أيّامي. علّمني كرة القدم والملاكمة ورفع الأثقال، وأمتعني بنوادره الفكاهيّة، وكان يقلّد شابلن في مشيته، ويغنّي المنولوجات المشهورة، ويحاكي عمدة القرية وشيخ الخفراء. وانتقل والداه إلى القاهرة فأقاما في عابدين فلم يعد يزورنا إلّا كلّ حين ومين. وتعثّر في دراسته الثانويّة فاختار الالتحاق بمدرسة البوليس. وعقب تخرّجه عُيّن في القاهرة لتقدّمه، وشُغل بحياته الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء. لم أره طيلة عمله الأوّل بالقاهرة إلّا خطفًا ومصادفة وهو يتسلّل خارجًا من سراي عصام بك عقب مغامرة غراميّة. وتوفّي والداه وكدت أنساه تمامًا، بل نسيته حتّى ذكّرتنيه الحوادث في أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد أن اختير عضوًا في البوليس السياسيّ. لم يعد أحمد قدري بأحمد قدري الذي عرفته، انقلب شخصيّة مخيفة تُنسج حولها أساطير الرعب، سُلّ سوط عذاب في أيدي الطغاة يلهبون به الوطن والوطنيّين. وكنت أسمع عنه وأتعجّب، كيف استحال الظريف الماجن شيطانًا من شياطين العذاب، كيف يمثّل بالشبّان من ذوي العقائد الحرّة فيجلدهم ويطفئ السجائر المشتعلة في جفونهم ويخلع بآلات العذاب أظافرهم!. وحدث أكثر من مرّة أن نوقش مسلكه على مسمع منّي في بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنيّة مثل رضا حمادة وسالم جبر وغيرهما، وقيل إنّه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقلّ من أن توجد جمعيّات سرّيّة لممارسة الاغتيال السياسيّ دفاعًا عن الشعب الأعزل. وقد حدثت بالفعل محاولة لاغتياله أمام نادي محمّد عليّ ولٰكنّه نجا بأعجوبة وأفلت ممّا سمّوهم وقتها بالجناة الهاربين.

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قُدّم إلى التحقيق فاكتُفي بإحالته إلى المعاش، ومضى بالنسبة إليّ يذوب في ماء النسيان، حتّى دُعيت في خريف ١٩٦٧ تليفونيًّا إلى المستشفى الأنجلو أمركيّ. هناك وجدته راقدًا مصابًا بأزمة قلبيّة. لم أعرفه لأوّل وهلة. جاوز الستّين وذكّرني بصورة أبيه في أيّامه الأخيرة. قال:

ـ معذرة عن إزعاجك...

فشجّعته بما حضرني من كلمات فقال:

ـ لا أحد لي غيرك في الواقع...

ثمّ بصوت هامس:

ـ لكي تدفنني إذا قُضيَ الأمر.

فعدت إلى تشجيعه. وخلوت إلى الطبيب مستعلمًا فأكّد لي أنّه اجتاز مرحلة الخطر وأنّ صحّته بعد ذٰلك تتوقّف على إرادته. ولمّا سمع بتلك المعلومات قال:

ـ عندي أكثر من داء!.

فخمّنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار، فقلت:

ـ تجنّب الانفعال لكي تتجنّب أزمة أخرى.

فقال باستهانة:

ـ إنّها آتية لا ريب فيها!

وجعلت أنقّب في وجهه المريض عن الوحش الضاري الذي نشر الفزع في الزمان القديم أو الشابّ

المهرّج الظريف ولكن عبثًا، ولم يكن في صدري حياله إلّا شعور بالواجب. وعلمت أنّه يقيم بشقّة صغيرة بالزمالك وأنّه لم يتزوّج طبعًا، وأنّه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيّين المدمنين لسباق الخيل. وهزّ رأسه ثمّ غمغم:

- يخيّل إليّ أنّني انتهيت كما انتهوا...

ففطنت على البداهة إلى مَن يعني. كان ٥ يونيه ما زال ممتزجًا بريقنا كالعلقم. وأدركت من فوري مدى الحقد الذي عاشره منذ إحالته على المعاش. وكرهت مناقشة شماتته المنغّصة بسوء حاله لتحدّيها الجارح لعواطفي الشخصيّة. وعلى أيّ حال لم تتحقّق نبوءته السوداء فيما يتعلّق بحياته أو حياة الثورة. غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع. وزارني في بيتي للشكر. تبدّى في حال صحّيّة مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق. وطيلة الوقت وجدت إغراء لا يقاوم في نبش ماضيه الغريب، حتّى واتتني الفرصة فقلت:

- أتدري أنّني لم أكن أصدّق ما يقال عنك؟

خيّل إليّ أنّه تجاهل قولي تمامًا. اقتنعت بأنّني أخطأت. ولكنّه قال وكأنّه يقرّر حقائق لا علاقة لها بحديثي:

- يحدث أحيانًا أن تصدم سيّارة أحد المارّة فترديه قتيلًا...

وأشعل سيجارة متحدّيًا أولى نصائح طبيبه ثمّ قال:

- من الخطأ أن نحمّل السيّارة تبعة ما حدث، التبعة تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحيّة نفسها أمّا السيّارة فلا ذنب لها...

وقال أيضًا:

- لِمَ لَمْ نعذّب أحدًا في عهود الوفد؟. المسألة أنّه يوجد نوعان من الحكومة، حكومة يجيء بها الشعب فهي تعطي الفرد حقّه من الاحترام الإنسانيّ ولو على حساب الدولة، وحكومة تجيء بها الدولة فهي تعطي الدولة حقّها من التقديس ولو على حساب الفرد...

وقال أيضًا:

- لم نعذّب أحدًا بالمعنى الذي تظنّه، كنّا نصبّ العذاب كما تملأ أنت الاستمارة ٥٠ ع. ح.، أو كما تكتب تقريرًا بناء على طلب الوزير، عمل ليس إلّا، له مقاييسه من الإتقان وتقديره في حساب الواجبات العامّة، وإذا وُجد بيننا من يُغالي في عمله أو ينفّذه بلذّة خفيّة أو ظاهرة فكما يوجد أحيانًا في أوساطكم مَن يفرّط في العمل ليداري نقصًا أو تعاسة ملحّة...

وفي أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على منضدة فنظر إليها مليًّا ثمّ تساءل:

- أليس هذا هو الدكتور إبراهيم عقل؟

فقلت بدهشة:

- بلى، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة، أكنت تعرف الدكتور عقل؟

- كلّا، ولكنّ ظروفًا معيّنة جعلتني أتابع ما كان يُنشر له من صور في الصحف...

- أيّ ظروف يا ترى؟!

تفكّر طويلًا ثمّ قال:

- لعلّك تذكر وفاة ابنيه؟

- أجل، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا.

فضحك قائلًا:

- يبدو - والله أعلم - أنّ الكوليرا لم تكن هي الجانية...

فهتفت بذهول:

- ماذا تقول؟!

- رئيسي رحمه الله همس لي يومًا في مجلس صداقة حميمة بأنّهما قُتلا!

- قُتلا؟!

- اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى...

- ولكن كيف قُتلا ومن الذي قتلهما؟!

- لا شيء مؤكّد، صدّقني لا شيء مؤكّد، حتّى رئيسي نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلّل إليه خبر عن غرام امرأة هامّة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل في بيت خلوى بالطريق الصحراويّ...

- أعطني مزيدًا من المعلومات...

- لا مزيد عندي، ولا شيء مؤكّد، صدّقني لا شيء مؤكّد...

وأصرّ على موقفه فلم أجد مبرّرًا لتكذيبه. وقد

أفضيت بما بلغني منه إلى أستاذي الدكتور ماهر عبد الكريم فأبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادئ من قبل. وقال لي:

ـ لا أصدّق أنّ المرحوم إبراهيم عقل كان يخفي عنّي سرًّا...

ـ لعلّ صلة الأمر بالسراي ألزمته بالصمت...

فهزّ رأسه وهو في شكّ وحيرة، وقرّرت تناسي الموضوع من أساسه. أمّا أحمد قدري فقد اختفى من حياتي مرّة أخرى. وكنت ألمحه أحيانًا في مقهى فنكس وسط نفر من كهول الخواجات، وفي أوائل عام ١٩٧٠ رأيته ـ من بعيد ـ سائرًا في ميدان طلعت حرب. وثبت لي بين تهدُّل شدقيه أنّه خلع أسنانه، ولكنّ صحّته بدت خيرًا ممّا توقّعت.

أماني محمّد

كان التليفون واسطة التعارف بين أماني محمّد وبيني. بدأت حديثها بالتحيّات والمجاملات المعروفة. واستأذنتني في طرح أسئلة عن بعض المناقشات التي تتابعها في التلفزيون. وآنست منها اهتمامًا بالفنّ ورغبة في التزوّد ببعض المراجع وحماسًا للقاء تتمّ به الفائدة. دعوتها إلى مكتبي ولكنّها عالتني بنفورها من جوّ المكاتب واقترحت لقاء في الخارج. وتمّ اللقاء في استراحة الهرم في أواخر ربيع عام ١٩٦٥. توقّعت أن تجيئني طالبة أو خرّيجة حديثة العهد بالتخرّج. ولكنّ التي أقبلت كانت امرأة ناضجة، في الأربعين، ريّانة البدن ملوّنة العينين، تخطر على الحدّ الفاصل بين حرّيّة المرأة العصريّة وبهرج الغانية. ولدى رؤيتها غازلني شعور مستفزّ بأنّ الفنّ لن يكون ـ وحده ـ ثالثنا. لم يهزّني قبول ولا صدّني رفض فسلّمت أمري للظروف. جلسنا في طرف الحديقة المطلّ على المدينة ونظراتنا المتبادلة تعكس الحياء والترقّب. قالت بلسان يحوّر الراء غينًا:

ـ معذرة عن جرأتي...

ثمّ كالمستدركة:

ـ كان لا بدّ أن أقابلك...

فأكّدت لها سروري باللقاء فقالت:

ـ إنّ فراغ حياتي لن يملأه إلّا الفنّ، ومن حسن الحظّ أنّني لا أخلو من استعداد.

ـ سيّدتي موظّفة؟

ـ كلّا، ولا حاصلة على شهادة عالية، الثانويّة العامّة فقط، ولكنّي قارئة ممتازة، وكتبت أكثر من تمثيليّة إذاعيّة...

ـ لم يسعدني الحظّ بسماعها...

ـ لا غرابة في ذلك.

وتفضّلتُ بإغداق الثناء فشكرتُ لها تقديرها فقالت:

ـ إنّي بحاجة إلى مراجع تاريخيّة لأواصل الكتابة.

ـ مطلب يسير فيما أعتقد.

ـ أودّ أن أكتب عن أشهر نساء الشرق وبخاصّة اللاتي لعبن أدوارًا خالدة في الحبّ...

ـ موضوعات شائقة...

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت:

ـ أطمع أن تشترك معي في العمل..؟

فاعتذرت بلا تردّد قائلًا:

ـ إنّي مشغول بأعمال أخرى.

ـ ممكن أن تمدّني بالمراجع والمادّة العلميّة وأن تشترك فيما يعجبك من الموضوعات...

ـ سأهديك إلى المراجع.

ولكنّها تجاهلت اعتراضي وقالت وهي ترمي بنظرتها إلى رءوس أشجار الحور تحتنا:

ـ سنعمل في الحدائق...

ثمّ بعد توقّف قصير:

ـ إلّا إذا تفضّلت بتشريف بيتي.

نجحت الغزوة الجديدة في اقتحام تردّدي فتساءلت:

ـ بيتك؟

ـ لم أعرّفك بحالتي الاجتماعيّة، إنّي مطلّقة، أقيم مع خالتي العجوز، ولي ابن وابنة يقيمان مع والدهما.

ـ لكن خالتك؟!

ـ لا عيب في العمل...

ثمّ وهي تنظر بعيدًا:

- يمكن تدبير الأمر لنهيّئ جوًّا صالحًا للعمل...

- ولٰكن...

- ولٰكن؟

- أصارحك بأنّه من المؤسف ألّا تنعم سيّدة مثلك بحياتها الزوجيّة...

فقالت بامتعاض:

- لم تكن حياة موفّقة، ولا يومًا واحدًا...

- عجيبة.

- علّمني كيف أمقته، ولم أحبّه من قبل.

- ولِمَ قبلتِ الزواج منه؟

- زُوِّجت إليه وأنا بنت ستّة عشر، أبعد ما تكون عن النضج وبلا وزن لرأيي.

- زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذٰلك.

- إنّه أنانيّ نذل متوحّش.

لم تشأ أن تنتقل من العموميّات إلى التفاصيل ففتر اهتمامي بالموضوع، وبخاصّة وأنّه أصبح من ذكريات ماضٍ بدا أنّه ذهب إلى غير رجعة. حتّى الفنّ نفسه تراجع إلى الهامش وذاب في الظلام. وبحركة غير متوقّعة تسلّلت يدها البضّة فاستقرّت فوق يدي على طرف المائدة:

- إنّي في حاجة إلى إنسان أطمئنّ إليه...

ورغم احتمال المبالغات بل والأكاذيب فإنّي شعرت نحوها بعطف ورثاء. ومع ذٰلك سألتها مداعبًا:

- يهمّك الفنّ هٰذا الحدّ؟

فقالت ضاحكة:

- الفنّ والحياة!

ولٰكنّنا نسينا الفنّ والتاريخ ونحن نتجوّل في صحراء الهرم. تركّزت همومنا في الواقع المعاصر، واقع البيت بالذات، وخالتها بصفة خاصّة، سنّها الطاعنة، ونومها الثقيل، وحواسّها الضعيفة...

- إلّا إذا أردت أن نلتقي في بيت آخر!

وباندماجي في المؤامرة تدفّق طوفان الرغبة في دمي فقلت:

- ليكن اليوم.

ولٰكنّها قالت بسرور وبلا مكر:

- امهلني حتّى أهيّئ الجوّ...

وعندما جمعتنا الحجرة هفّت على حواسّي أخلاط روائح مركّزة من العطر والبرفان والخمر تسبح في أمواج نور أحمر خافت فردّتني إلى ذكريات بعيدة ما كنت أتصوّر أنّها ستعود. وجدتُني مرّة أخرى موثقًا بالحرير مذعنًا لرغبة سكرى بيقظة مباغتة، وبلا حبّ بالمعنى الحقيقيّ. أمّا أماني فكانت متفانية في المودّة، اهتدت إلى مرفأ بعد تخبُّط في ليل بهيم، لهفة بلا حدود على الحبّ والحنان يزفرها قلب محروم من الحبّ والأمومة والثقة. وجعلت تصارحني بخباياها في لقاءاتنا المتتالية.

- حالتي الماليّة حسنة، ليس لديّ ما أشكوه من هٰذه الناحية...

أو تقول:

- ربّنا يسامح بابا ويرحمه، كان السبب...

أو تقول:

- لا أمان لشبّان هٰذه الأيّام، ربّنا يحفظ بنتي...

وتضخّم شعوري بالمسئوليّة، وكان يستفحل كلّما تذكّرت بأنّ حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس مشترك، وأنّه لا يمكن أن تمضي هٰكذا إلى الأبد، وأنّ العطف والجنس لا يكفيان لاستتباب الأمن في أسرتنا ذات الجناح الواحد. وذات يوم من أيّام العام نفسه - أواخر الصيف أو أوائل الخريف - زارني في مكتبي الأستاذ عبده البسيوني، تذكّرته من أوّل نظرة رغم التغيّر الهائل الذي طرأ عليه. ورحّبت به بحرارة كأنّنا لم نفترق حوالى ربع قرن على الأقلّ. ترى ماذا غيّره بهٰذه الدرجة رغم أنّه لا يكبرني بأكثر من بضعة أعوام؟. وسألته:

- ماذا تفعل الآن؟

ولٰكنّه تجاهل سؤالي وسأل بدوره:

- لعلّك تسأل عمّا دعاني إلى زيارتك بعد ذٰلك العمر من الانقطاع؟.

- لعلّه خير يا زميلي القديم.

فقال وهو يرمقني بهدوء:

- إنّي أزورك بصفتي زوج أماني محمّد!

مرّت ثانية وأنا لا أعي لقوله معنى وفي الثانية التالية انفجر معناه في وعيي كصاروخ. الحقّ أنّي غبت عن

الوجود بمعنى ما، تلاشى المكان والزمان، لم أعد أرى إلّا وجه عبده البسيوني الأسمر المستدير، كأنّه وجه شخص آخر، وجه تمثال يقوم أمام مكتبي منذ الأزل. لم أنبس بكلمة، وطبعًا لا فكرة لي عن الصورة التي انطبعت فوق صفحة وجهي، ولكنّه هزّ رأسه بهدوء وقال بنبرة مستأنسة:

ـ لا داعي للجزع.

وابتسم ابتسامة ما وقال:

ـ لا عِلْم لك بشيء...

ثمّ بتوكيد:

ـ لم أحضر للانتقام.

مضيت أرجع إلى مقعدي وحجرتي ولكنّ شعورًا حادًّا اجتاحني بأنّ دنياي على وشك التصدّع والتلاشي.

وسمعته يقول:

ـ من حسن الحظ أنّ الأيّام التي عشتها في باريس لم تضع عبثًا!

وقلت وأنا مستسلم تمامًا للمقادر:

ـ لعلّك تعني امرأة أخرى.

ـ أعني المرأة التي كنت عندها أمس!

ـ ولكنّها مطلّقة!

ـ بل هي على ذمّتي وأنا زوجها!

فغمغمت:

ـ يا لها من كارثة!

ـ لم أزرك بدافع غضب أو انتقام.

ـ ولكنّي أموت أسفًا وحزنًا.

ـ لا ذنب عليك.

ثمّ بامتعاض شديد:

ـ وما أنت إلّا آخِر صيد لها!

ـ ماذا؟

ـ مرّة ومرّة ومرّة، وفي كلّ مرّة أتدخّل لإنقاذها من التدهور، لإنقاذ مستقبل ابني وابنتي...

ـ يا لها من حياة!... ولكن...

وتريّثت مرهقًا ثمّ عدت أتساءل:

ـ ولِمَ تتحمّل ذٰلك كلّه؟

ـ لا مفرّ، إنّي أرفض تطليقها رغم مطالبتها به.

ـ لِمَ؟

ـ هي أمّ ابنتي وابني، وهما في طور المراهقة، والطلاق يعني لها التدهور حتّى الاحتراف!

ـ قد تتزوّج مرّة أخرى.

ـ لم تَعُدْ أهلًا لذٰلك!

ـ موقف عسير محزن.

ـ لذٰلك فإنّي مصمّم على استردادها، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ومن حسن الحظّ أنّ حياتي في باريس لم تضع هدرًا!

فقلت بحزن:

ـ ما أبغض الحياة إذا فسدت!

ـ أجل، لعلّها حدّثتك عنّي، وعندي أيضًا ما أقوله، ولكنّي مصمّم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه...

فقلت متأسّفًا:

ـ ما تصوّرت يومًا أن أقف منك موقفي هٰذا!

فلم يكترث لأسفي هٰذه المرّة. أشعل سيجارة وراح يدخّن متفكّرًا. بدا لي هرمًا متهدّمًا. ثمّ نظر إليّ قائلًا:

ـ أنت تذكر بلا شكّ حياتي الماضية!!

أجل أذكر. زمالته في الجامعة. سفره إلى باريس في بعثة خاصّة على حسابه. عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا نتيجة. انتخابه عضوًا بمجلس النوّاب. تمتّعه بجاه الأسرة والحزب والنيابة. قلت:

ـ طبعًا أذكرها...

فقال:

ـ لمّا قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضًا بينها وبين فكري الحرّ...

ـ معقول جدًّا...

ـ وعملت في نطاقها بإخلاص ولكنّي اتُّهمت ظلمًا في مؤامرة اتُّهم بها بعض أقطاب الحزب فقُبض عليّ حينًا ثمّ صودرت أملاكي...

وجمت لا أجد ما أقوله فقال:

ـ وجدت نفسي في الطريق متسوّلًا!

ـ ولكنّ حرمك ذات مال!

فضحك قائلًا:

ـ أفقر من الفقر نفسه، لها خالة غنيّة ولكنّ لها وريثًا، ولعلّها كذبت عليك في ذٰلك أيضًا.

وشملنا الصمت حينًا حتّى قلت:

- أذلك ما أفسد حياتكما؟.

- كلّا، لقد توثّبت للعمل الجدّيّ من أوّل يوم، كرّست وقتي وما أزال للترجمة والاقتباس، واستعنت على النشر ببعض الزملاء القدامى المنتشرين في الصحف والمجلّات، غير أنّ أخلاقي تغيّرت في سياق المحنة، ونشب نزاع متواصل بيني وبينها...

- ولكن تلك أمورًا طارئة يمكن معالجتها.

- كان قد فسد الأمر.

- خسارة فادحة وغير مقنعة...

- إنّها حمقاء، غير جديرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة ابني وابنتي...

وصمت لحظات ثمّ قال بنبرة اعتراف:

- ضربتها مرّة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها لي...

- يؤسفني ما صادفك من سوء حظّ...

فقال بنبرة متجدّدة:

- إنّي أطالبك بقطع علاقتك بها...

فقلت وأنا لا أصدّق بالنجاة:

- طبعًا...

- وأن تحاول إقناعها بالرجوع إلى بيتها...

- سأبذل جهدي وفوقه...

فقال وهو يلوّح بحركة قاطعة:

- حسبنا كلام في هٰذا الموضوع البغيض...

تنفّست من الأعماق. وجعل يتذكّر عهدنا القديم. وذكر فيمن ذكر الدكتور إبراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم. قال:

- لقد انقطعت عن صالونه منذ سفري إلى باريس ولكنّي زرته مرارًا زيارات خاصّة، وأفكّر في الرجوع إلى اجتماعات الصالون...

وهزّ رأسه قائلًا:

- لقد ضاعت أراضي أسرته في الإصلاح الزراعيّ، وباع قصر المنيرة وابتاع فيلّا في مصر الجديدة انتقل إليها صالونه العتيد.

- أعرف ذٰلك فأنا من المتردّدين عليه بانتظام منذ عام ١٩٣٠...

فراح ينوّه بنشاطي وتقدّمي ثمّ قال:

- إنّي أكدح بلا انقطاع للمحافظة على كرامتي...

- أنت مثال طيّب.

- ولديّ مشروعات ترجمة لا حصر لها.. كتب. مسرحيّات.. قصص سينمائيّة...

- عظيم.. عظيم...

- ولٰكن تلزمني عقود مع المؤسّسات الثقافيّة...

- اعرض ما لديك...

فسكت قليلًا ثمّ قال:

- قيل لي إنّه لا جدوى من العرض وحده؟

فتساءلت متباهلًا:

- ماذا تعني؟

- قيل إنّ الوصول قد يقتضي مالًا ولا مال لديّ!

- لا تصدّق جميع ما يقال!

- أو أن أكتب مقالات نقديّة تقديرًا للبارزين في المؤسّسات...

- قلت لا تصدّق...

- أنا على استعداد لتقرير أنّ أيّ بغل فيهم أعظم من أحمد شوقي ولٰكنّ المتنافسين في التقدير لم يدعوا مجالًا لشخص مثلي لم يعرف كناقد من قبل!.. وفضلًا عن ذٰلك فلست إذاعيًّا ولا تلفزيونيًّا لأدعوهم إلى برامج أو أعرض أعمالهم، فلم يبقَ أمامي إلّا الطريق الطبيعيّ وهو كما تعلم غير طبيعيّ...

وضحك لأوّل مرّة فشعرت بالنجاة أكثر، وحاولت تبديد ظنونه وتشجيعه. وقام وهو يذكّرني بمطلبه الأصليّ فقلت له:

- سأبذل ما فوق طاقة الإنسان...

وقد بررت بوعدي. وما إن طرقت الموضوع حتّى هتفت أمامي:

- الوحش وصل إليك!

واحترقت عيناها بنار الغضب فذكّرتها بواجبها نحو ابنها وابنتها فصاحت:

- أنت لا تعرفه!

فقلت:

- بل أعرفه من قديم، ليس سيّئًا كما تتوهّمين، وهو خير من كثيرين...

ـ كلّا.. أنت لا تعرفه...

فأصررت على نصحها فصاحت:

ـ كفى.. لا تضطهدني...

ـ بل لي عليك عتاب، كيف تخفين عنّي علاقتك الزوجيّة وأنت تعلمين أنّه يطاردك؟

فهتفت:

ـ لا غيرة عنده ألبتّة!

ـ إنّه يحبّ ابنه وابنته...

ـ بل يحبّ نفسه وحدها...

ـ المسألة...

فقاطعتني بحدّة:

ـ المسألة أنّك لا تحبّني...

ثمّ وهي تجفّف عينيها:

ـ مات الحبّ في هذه الدنيا منذ زمن بعيد...

ثمّ رمتني بنظرة عتاب وقالت:

ـ لم تقل لي إنّك تحبّني ولا مرّة واحدة، ولكنّي لا ألومك...

فقلت معتذرًا:

ـ أنت تستحقّين الحبّ أمّا أنا فلم أعد أهلًا له...

ـ كلام.. كلام.. كلام...

ـ ستجدين في بيتك ما هو أهمّ.

رجعت وفي أعماقي شعور بالتحرّر والنجاة والندم ثمّ اجتاحني حزن عميق. وظلّ إحساس حادّ بالرثاء يطاردني نحو زميلي القديم عبده البسيوني وزوجه أماني محمّد. وتوقّعت أن يتّصل بي ولكنّه لم يفعل. وأردت أن أتّصل بها لأطمئنّ عليها ولكنّي لم أجد فرصة ولا وسيلة. والتقيت بعد ذلك بأزمنة متفاوتة وفي أماكن مختلفة بعبده البسيوني فأشعرني سلوكه بأنّه يتقدّم في طريقه المرسوم بإرادته الكادحة. وفي ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ وكنت سائرًا بشارع رمسيس أمام مبنى التليفون وجدت أماني مقبلة نحوي على بعد خطوات!. وبحركة عفويّة مددت يدي فصافحتني بلهوجة وارتباك أشعراني بتسرّعي وخطئي. وهمست معتذرًا:

ـ إن شاء الله تكونين بخير..؟

فأجابت وهي تمضي:

ـ الحمد لله...

تبدّت مفرطة في البدانة والرزانة غير أنّ ارتباكها أقنعني بأنّها تعاني مسئوليّة السيّدة المتزمّتة إذا ورّطتها ظروف خارجة عن الإرادة في مصافحة رجل «غريب».

أنور الحلواني

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره. ميدان بيت القاضي المتربّع بين الجماليّة وخان جعفر والنحّاسين، وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير، وقسم الجماليّة العتيق، وحوض الماء القائم في الوسط تسقى منه البغال والحمير، وكشك حنفيّة المياه العموميّة، وهو ملعب طفولتي وصباي. وكنت أتطلّع باهتمام إلى أنور الحلواني في ذهابه من بيته الملاصق لبيتنا أو في إيابه إليه. لم يكن شابًّا عاديًّا، كان من روّاد المتعلّمين الأوائل في الحيّ، كان طالبًا بمدرسة الحقوق. وربّما كنت معجبًا بطربوشه المفرط في الطول، وشاربه الغزير المبروم، وبذلته الأنيقة. وكان يسير في رزانة لا تناسب سنّه فكان يحلو لي أن أقلّده ما تيسّر لي ذلك. وكنت أتذكّر جيّدًا الشربات الذي شربته احتفالًا بنجاحه في البكالوريا، قدّمته لي أمّه بيدها وهي امرأة من أصل ريفيّ كان يحلو لي أيضًا أن أقلّد لهجتها. والظاهر أنّ أحداثًا كانت تجري في خفاء من حولي وأنا ألعب تحت أشجار البلخ.

استيقظت ذات صباح على صوات يترامى من بيت جيراننا. وحدث اضطراب شامل في بيتنا فجعلت أتمسّح في المضطربين والمضطربات مستطلعًا. وعرفت في ذلك الصباح أنّ جارنا الشابّ أنور الحلواني قد قُتل برصاصة في مظاهرة، بيد جنديّ إنجليزيّ. عرفت لأوّل مرّة فعل «القتل» في تجربة حيّة لا في حكاية من الحكايات الشعبيّة، وسمعت لأوّل مرّة عن «الرصاصة» في أوّل اتّصال سمعيّ بإحدى منجزات الحضارة، وثمّة لفظة جديدة أيضًا «مظاهرة» استدعت الكثير من الشرح والتفسير، وربّما لأوّل مرّة سمعت عن ممثّل جنس بشريّ جديد في حياتي الصغيرة هو

«الإنجليزيّ». وتطايرت الأحاديث في البيت وفي الميدان مكرّرة لتلك الكلمات ومضيفة إليها غيرها مثل الثورة والشعب وسعد زغلول. انهمرت عليّ الكلمات حتّى أغرقتني وانطلقت منّي الأسئلة بلا حساب وبإلحاح شديد، قتل.. ما معنى قتل؟ وأين ذهب أنور؟ وماذا ينتظره في العالم الذي ذهب إليه؟ ومَن الإنجليزيّ ولِمَ قتله؟ وما معنى الثورة؟ وما معنى سعد زغلول؟ وما وما وما؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت إلى الميدان نفسه في جنون خياليّ.

قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محملقتين إلى جموع البشر المتدفّقة من ذوي البدل والجبب والقفاطين والجلاليب، حتّى النساء في الحناطير والكارو، يحملون الأعلام ويهتفون. وسمعت أزيز الرصاص، أجل لأوّل مرّة أسمعه، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل، ورأيت الإنجليز رؤية العين بقبّعاتهم العالية وشواربهم النافرة ووجوههم الغريبة، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة في جوانب الميدان، ورأيت الدم البشريّ يلطّخ الملابس وأديم الأرض، وسمعت الحناجر وهي تهتف من الأعماق «يحيا الوطن»، و«تموت ويحيا سعد».

بدر الزيادي

كان زميلًا بالمدرسة الثانويّة. وكان بدينًا خفيف الروح، يحبّ الطعام واللعب والبنات ويحبّ الوطن. وكان أبوه ضابط المدرسة، عاصرناه عامين، ثمّ اتُّهم في ظروف لا أذكرها بالعيب في الذات الملكيّة فقُدّم إلى المحاكمة التي أدانته وحكمت عليه بالحبس ستّة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنّه فُصل من وظيفته. وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنيّته فجاريناه في ذلك إذ كان العيب في الذات الملكيّة يُعَدّ درجة لا بأس بها من درجات الجهاد يضمن لصاحبه موضعًا في صفحة المجاهدين. وكان بدر تلميذًا عاديًا في الفصل، بل خاملًا، أمّا مجده الحقيقيّ فكان يتألّق في فناء المدرسة. في فناء المدرسة كان قطبًا ينجذب إليه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من الفصول الأخرى. وعندما يجد نفسه محورًا تتحرّك مواهبه ويجيش صدره بالعطاء، فيلقي بعض الأزجال الوطنيّة، ويحكي النوادر اللطيفة، أو يتصدّى لتحدّيات غريبة. سألنا مرّة عن أوفق الأماكن لممارسة الحبّ، فأجاب كلّ بما خطر له، ولكنّه جعل يهزّ رأسه ساخرًا حتّى نضب معين خواطرنا، ثمّ أجاب هو قائلًا:

- القرافة!

ودهشنا، وضحكنا ممّا ظننّاه مزاحًا فعاد يقول:

- في المواسم يبيت الناس في أحواش المقابر، نساء ورجالًا، والنساء يكنّ عادة أضعاف أضعاف الرجال، وفي ظلام الليل تسنح فرص لا تخطر على بال...

فقال بعضنا:

- ولكنّها مناسبة لا تفتح النفس للحبّ!

فقال بيقين:

- الحبّ لا يتخيّر مناسبة فهو صالح لكلّ مناسبة!

وقصّ علينا كيف انقضّ على خادمة في مكان خالٍ من البيت وجثّة عمّته مسجّاة تنتظر من يكفّنها والنائحات ينحنّ في ساحة البيت. وفي ذاك المجال كانت له حكايات غريبة لا تنفد. أمّا امتيازه الحقّ فقد ناله بكلّ جدارة في كرة القدم. كان قلب الهجوم في فريق المدرسة. ورغم بدانته اشتهر بالسرعة وخفّة الحركة غير أنّ اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير في الملعب عاصفة من الضحك. وعُرف بقدرته الخارقة في المحاورة والمداورة، والسيطرة على الكرة كأنّما يشدّها إلى مجال قدميه بقوّة مغناطيسيّة، والمكر الأريب الذي يُفقد أعداءه توازنهم ويطرحهم أرضًا، كما امتاز بقوّة ضرباته للكرة.

وكان يُعِدّ نفسه للّعب في النوادي ويحلم بالاشتراك في الأوليمبيات العالميّة. وكان مستر سمبسون المدرّب العامّ بوزارة المعارف يُعجب به فنصحه في ختام إحدى المباريات العامّة بين المدارس بتخفيف وزنه فكانت استجابته للنصيحة أن التَهمَ - في حفل الشاي الذي أعقب المباراة - طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات والفطائر!

وذات صباح وقف بدر الزيادي يهتف - مع الهاتفين - بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتوريّة.

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحّاس وعهدَ بالوزارة إلى محمّد محمود فأعلن هٰذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وأضربت المدارس جميعًا، ومنها مدرستنا. غير أنّ قوّات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكّن من الخروج. ولكي نتسلّح بما يلزمنا في المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ والأبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحلل والمغارف والشوك والسكاكين. وتصاعدت هتافاتنا العدائيّة مقتحمة كلّ مقام حتّى مقام الملك. وعند ذاك هجم الجنود فجأة ومن جميع الأبواب وانهالوا علينا بالعصيّ الطويلة على حين أطلق الكونستبلات الإنجليز الرصاص في الهواء على سبيل الإرهاب. ودارت معركة غير متكافئة، ولم ينجُ واحد منّا من ضربة أو أكثر، وسقط جرحى كثيرون، واستشهد فرّاش وتلميذ. كان بدر الزيادي هو التلميذ الشهيد إذ قضت عليه ضربة أصابت مؤخّر رأسه. وصمّمت المدرسة على تشييع جنازته في اليوم التالي ولٰكنّ الشرطة ضربت حصارًا حول قصر العيني الذي كان عامرًا بالشهداء من جميع المدارس. وحُملت الجثث رأسًا من المستشفى إلى المدافن تحت حراسة الشرطة، ولكنّنا ذهبنا فرادى إلى بيت ضابط مدرستنا القديم لنقدّم له واجب العزاء. وما زال الرجل حيًّا حتّى اليوم ولعلّه في الخامسة والسبعين من عمره. أراه نادرًا في بعض زياراتي للعبّاسيّة وهو جالس في مقهى صغير قريب من مسكنه. مهدّمًا بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو. لا يتصوّر مَن يراه أنّه كان من ذوي العقائد الحرّة أو أنّه جابه الحياة بشجاعة وأنّه فقد في سبيل ذٰلك وظيفته وابنه. ومن مكانه المنزوي يراقب السيّارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال المجتمع المعتزّين بإقبال الحياة الذين لم يكتووا بنار تضحياتها وقيمها السامية. ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هٰذا التيّار الغريب المتدفّق؟، أم إنّ الكبر والزمن قد أعفياه من كلّ شيء إلّا ما يعانيه في لحظته العابرة!!.

أمّا بدر فما زالت الصورة التذكاريّة لفريق كرة القدم تجمعنا، وهو يتوسّط الفريق، الكرة بين قدميه، يطالع الكاميرا بنبرة مرحة مترعة بالثقة بالنفس...

بلال عبده البسيوني

التقيت به مصادفة في فيلّا جاد أبو العلا في أوائل عام ١٩٧٠. ورغم أنّنا لم نتصادق، بل ولم نلتقِ مرّة أخرى إلّا أنّه ترك في نفسي أثرًا يستحقّ أن يذكر. ولّما ذهبت إلى الفيلّا ذٰلك المساء لم يكن ببهو الاستقبال إلّا الأستاذ جاد أبو العلا وزميلي القديم عبده البسيوني وشابٌ وسيم به شبه منه سرعان ما قدّمه لي قائلًا:

- ابني.. الدكتور بلال...

وفي الحال تذكّرت قصّة الابن والابنة اللذين كانا محور حديث ذي شجون بين عبده وبيني ثمّ بيني وبين أماني محمّد منذ سنوات خمس. واشتركت في حديث ممّا يجري بلا هدف وقد عاودني شعور بالذنب القديم. وإذا بعبده البسيوني يقول مشيرًا إلى ابنه:

- الدكتور يفكّر في الهجرة!

واسترعى قوله اهتمامي فنظرت إلى الشابّ من جديد بحبّ استطلاع آسِر. إنّ كلمة «الهجرة» من الكلمات الجديدة التي غزت قاموس حياتنا وأثارت في جيلنا القديم العجب. ها هو واحد من فرسانها فما أطيب الفرصة!

وعاد عبده يقول:

- إنّه مرشّح لبعثة دراسيّة قصيرة بالولايات المتّحدة، ولٰكنّه يضمر الهجرة...

فسأله جاد أبو العلا:

- وما رأيك أنت؟

فأجاب عبده ضاحكًا:

- وما قيمة رأيي أو رغبتي؟

- على سبيل العلم بالشيء؟

- لا أوافق...

- وأماني هانم؟

ضاعف من ارتباكي الخفيّ ذكر الاسم ولكنّي عرفت لأوّل مرّة أنّها رجعت إلى أسرتها، كما أدهشني أن يتحدّث جاد عنها بتلك الألفة. أمّا عبده فأجاب:

- إنّها ترحّب بالفكرة وتتخيّل أنّه سيكون بوسعها أن تسافر إلى الولايات المتّحدة كلّما شاءت...

فضحك مضيفنا وجاريته في ضحكه ثمّ قال مخاطبًا

الشابّ:

- ينتظرك هنا مستقبل باهر.

فقال الدكتور بلال:

- إنّي أتطلّع إلى بيئة علميّة صحّيّة...

فقال عبده البسيوني:

- إنّ هجرة صديق له يدعى الدكتور يسري أدارت عقله ولكنّه في اعتقادي شخص شاذّ لا يصلح مثلًا طيّبًا، كان طبيبًا ناجحًا سواء في المستشفى أم في العيادة ولكنّ غضبه على كلّ شيء لم يكن يهدأ لحظة واحدة، ولم يكن يكفّ عن النقد المرّ، كان يفور بكراهية غريبة نحو البلد ومَن فيه، فانتهز فرصة وجوده في إجازة دراسيّة ثمّ قرّر البقاء هناك...

فقال دكتور بلال:

- ونجح هناك نجاحًا فريدًا، في العمل والبحوث على السواء...

- وكان هنا ناجحًا أيضًا فما معنى الهجرة؟!

- البيئة العلميّة يا أبي!، وإليك قصّة وكيل قسم بالمستشفى الذي أعمل به، درس حتّى حصل على درجة الدكتوراه بامتياز رائع، انتظر أيّ تقدير فلم يظفر منه بشيء، بل حورِبَ حتّى لا يحتلّ المكان العلميّ اللائق به، فما كان منه إلّا أن هاجر، ولدى عَرْض بحثه في الولايات المتّحدة تلقّى أكثر من عرض للعمل في الجامعات والمستشفيات...

لاحظت أنّه كان يتكلّم بحدّة تقارب الغضب، فقلت:

- قد يوجد خلل ولكن ليس للحدّ الذي يدفع الناجحين إلى الهجرة...

فقال لي دون أن يخفّف من حدّته:

- بل الشأن في كلّ شيء يدعو للرثاء!

- حسن أن تشعر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذا الذي ينبري للإصلاح سواكم؟...

- لن أشغل نفسي بهذه الأفكار...

- ولكنّ وطنك قيمة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها؟

فقال بهدوء نسبيّ:

- وطني الأوّل هو العِلْم!

ثمّ بعد تردُّد كأنّما حاسَبَ فيه نفسه:

- الوطن... الاشتراكيّة... القوميّة العربيّة... ماذا أقول؟. لا تتصوّرني عابثًا... كلّا... ولكن ماذا بقي لنا بعد ٥ يونيه؟!

فقلت:

- مضت على النكسة أعوام خليقة بأن نجعل منها درسًا لا نكسة...

فقال لي عبده البسيوني:

- لا فائدة، إنّه جيل لا يقتنع إلّا بما في رأسه...

فقال جاد أبو العلا:

- لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه...

فقال الدكتور بلال:

- لا منقذ لنا سوى العِلْم، لا الوطنيّة ولا الاشتراكيّة، العِلم والعِلم وحده، وهو يواجه المشكلات الحقيقيّة التي تعترض مسير الإنسانيّة، أمّا الوطنيّة والاشتراكيّة والرأسماليّة فتخلق كلّ يوم مشكلات نابعة من أنانيّتها وضيق نظرها وتبتكر لها من الحلول ما يضاعف في النهاية من حصيلة المشكلات الحقيقيّة.

فسألته:

- وماذا يمنعك من أن تكون باحثًا وعالمًا في وطنك؟

- توجد موانع وموانع، استعداد بدائيّ للبحث وجوّ خانق للفكر والعدالة والتقدير، لذلك أفكّر في الهجرة، وسأكون في أمريكا أعظم فائدة لوطني ممّا لو بقيت فيه، فالعلم لجميع البشر، باستثناء علم الحرب والهلاك فالعلم لجميع البشر...

وسأل جاد أبو العلا عبده البسيوني:

- وماذا عن شقيقته؟

- ستحصل على بكالوريوس في الصيدلة في نهاية العام الدراسيّ وهي متحمّسة أكثر منه للهجرة...

فضحك الرجل عاليًا وقال:

- وفتى الأحلام؟.. ألم تفكّر في هذه المشكلة؟

- إنّ ما نعدّه مشكلة يعدّونه لعبًا...

فقال جاد أبو العلا:

- من المؤسف أنّ الفنّ لم يقدّم لنا بعد نموذجًا من هذا الجيل، كم أودّ أن أسبق إلى ذلك!

فقلت له:

- إنّه يتقدّم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا المسكينة!

فقال عبده البسيوني مخاطبًا ابنه:

- إنّكم تحلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة!

شعرت بأنّ عبده غير جادّ في معارضته وأنّه لا يحسن إخفاء إعجابه بابنه. وهزّ الدكتور بلال منكبيه استهانة فأيقنت أنّه يمثّل موقفًا جديدًا من «الوطنيّة» تلك الأمانة القديمة التي أرهق جيلنا حملها. وقال بلال ضاحكًا وقد ذكّرني ضحكته بأمّه:

- الحقّ أنّي أحلم بهيئة علميّة تحكم العالم لخير العالم.

فسألته:

- وماذا عن القيم؟.. العلم لا يتعامل معها، وحاجة الإنسان إليها لا تقلّ عن حاجته إلى الحقائق.

فنظر إليّ فيما يشبه العجز ثمّ قال:

- يجب ألّا يعني ذٰلك التمسّك البائس عديم الجدوى بقيم بالية، إنّكم لا تتمسّكون بها إلّا خوف المغامرة بالبحث عن غيرها، والعلم لا يعطي قيمًا ولكنّه يضرب مثالًا حسنًا في الشجاعة، فعندما تهاوت الحتميّة الكلاسيكيّة كيّف نفسه برشاقة فوق أرض الاحتمال وتقدّم لا ينظر إلى الوراء...

فقال جاد أبو العلا:

- من العبث أن تناقش قومًا ليس بينك وبينهم لغة مشتركة...

فقلت وقد أخذ رأسي يحمي بالحدّة:

- إنّكم تودّون الهجرة إلى الحضارة بدل أن تنمّوها في أرضكم...

فقال محتدًّا:

- الإنسان في الأصل كائن مهاجر وما الوطن إلّا المكان الذي يوفّر لك السعادة والازدهار، لذٰلك لا تُقبل على الهجرة إلّا الصفوة، أمّا المتخلّفون...

وتوقّف كالمتردّد فقلت:

- أمّا المتخلّفون فيحسن التخلّص منهم!

فباخت حدّته وقال ضاحكًا:

- لو سار الازدياد السكّانيّ على معدّله الحاليّ وعجزت الوسائل عن تغذيته فربّما تقضي المصلحة العامّة للحضارة بإفناء أجناس برمّتها!

فهتف به أبوه:

- حسبك!

وقال جاد أبو العلا:

- ما أسعد إسرائيل بكم!

فعاودت الشابّ حدّته وهو يقول:

- انحدّى إسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا!

وقد بتّ ليلتي متفكّرًا في حديث الدكتور بلال، مستعيدًا جمله وعباراته، متأمّلًا الموضوع من شتّى جوانبه، حتّى اقتنعت في النهاية بأنّه لا نجاة للجنس البشريّ إلّا بالقضاء على قوى الاستغلال التي تستخدم أسمى ما وصل إليه فكر الإنسان في استعباد الإنسان وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خير ما فيه من إمكانيّات رائعة، وذٰلك كخطوة أولى لجمع العالم في وحدة بشريّة، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة والعلم، فتعيد تربية الإنسان باعتباره مواطنًا في كون واحد، وتهيّئ لجسمه السلامة ولقواه الخلّاقة الانطلاق ليحقّق ذاته ويبدع قيمه ويمضي بكلّ شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة في ذٰلك الكون الباهر الغامض. إمّا ذٰلك وإمّا مستقبل جعلني أشعر بالامتنان لكوني من جيل يوشك أن يختم رحلته في هٰذه الحياة العجيبة التي تدور بخيرها وشرّها فوق فوهة بركان.

وقد التقيت بعبده البسيوني بعد مرور أشهر في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن ابنه فأخبرني بأنّه سافر، ثمّ قال:

- وستلحق به أخته في القريب!

ثمّ قال بنبرة اعترافيّة:

- أجد كثيرًا غمزًا أليمًا في قلبي ولٰكنّ زماني علّمني التسليم للمقادر...

وبعد قليل من الصمت عاد يقول:

- لا أخفي عنك أنّي مقتنع بقرارهما، لِمَ لَمْ تؤهّلنا دراستنا العقيمة للهجرة؟!

فقلت:

- العلم لغة عالميّة أمّا مهنتنا فالغاز محلّيّة.

وأفضيت إليه بالخواطر التي اجتاحتني عقب استماعي لحديث ابنه فضحك طويلًا ثمّ قال:

ـ نحن الكهول مَطالبنا يسيرة، سعادتي اليوميّة تتحقّق لدى شرب قدح من القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت...

ثريّا رأفت

رأيتها أوّل عهدي بالوظيفة عام ١٩٣٥. كانت تتردّد على الوزارة لزيارة عمّها فقدّمني إليها فتعارفنا. وكانت طالبة بالمعهد العالي للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرّسة. وكانت متوسّطة الجمال ولكن بارعة القدّ والقامة، تنمّ عيناها عن ذكاء وشخصيّة. ولاحظ الأستاذ عبّاس فوزي وكيل السكرتاريّة إعجابي بها فقال لي يومًا ـ عقب ذهابها مباشرة ـ وهو يوقّع لي على بعض الأوراق:

ـ آن لك أن تفتح بيتًا وتستقرّ.

فأدركت أنّني ضُبطت متلبّسًا وقلت:

ـ أترى ذلك؟

ـ إنّ صافي مرتّبك ثمانية جنيهات وهي تكفي للزواج من اثنتين!

فضحكت وقلت مردّدًا مشاعر جيلنا:

ـ ولكن هل تحبّذ الزواج من موظّفة؟

فقال بتهكّمه المعهود:

ـ كما قد توجد منحرفة بين ستّات البيوت فقد توجد مستقيمة بين الموظّفات!

فعلمت أنه يحذّرني بأسلوبه الملتوي، ولكنّ سيطرة الفتاة الجنسيّة عليّ كانت فوق أيّ تحذير فسعيت إلى توثيق علاقتي بها. وكانت ـ كطالبة ـ تتمتّع بقدر من الحرّيّة خليق بأن يثير فيّ سوء الظنّ، فضلًا عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئة، واستجابتها المثيرة للقلق. كان كلّ أولئك جديرًا بأن يصدّني عنها ولكنّه أغراني بها فانتظرتها في الخارج بدافع هو خليط من حسن النيّة والجري وراء مغامرة. صافحتها وسرت إلى جانبها وأنا أقول:

ـ أودّ أن نجلس معًا قليلًا من الوقت...

فسألتني متظاهرة بالدهشة:

ـ لِمَ؟

فقلت:

ـ رغبة في مزيد من التعارف.

ـ ليس اليوم...

وأرادت أن تودّعني فقلت:

ـ ولكنّك لم تحدّدي يومًا آخر؟

فأبطأتْ قليلًا كأنّما غُلبت على أمرها وقالت:

ـ ليكن يوم الاثنين، العاشرة صباحًا، بحديقة الحيوان...

ومع أنّ استجابتها لبّت صميم أمنية القلب إلّا أنّها في الوقت نفسه ثبّتت سوء ظنّي بحرّيّتها، وغلّبت في نفسي جانب المغامرة على حسن النيّة. والتقينا أمام باب الحديقة، ورحنا نتمشّى في أرجائها ونتكلّم. أعلنت عن إعجابي بها، ثمّ جرّنا الحديث إلى تفاصيل حياتَيْنا، ومستقبلنا. وكانت عواطفي المكبوتة تعذّبني، وكنت شديد الثقة في أنّها ستستجيب لها كما استجابت إلى الميعاد. وحاولت لدى أوّل فرصة لخلوّ المكان أن أقبّلها. وتجنّبتني، ونظرت إليّ، والظاهر أنّها قرأت في عينيّ معاني لم ترتح لها فتساءلت في استياء:

ـ ماذا بك؟

فأشرت إلى خميلة وقلت:

ـ لنجلس هناك....

فقالت بحزم تغيّرت به صورتها:

ـ يخيّل إليّ أنّك أسأت بي الظنّ...

فقلت وموجة باردة تجتاحني:

ـ كلّا...

ـ أو أنّني أحسنت بك الظنّ خطأً...

فقلت بحرارة مصدرها الندم:

ـ لا هذا ولا ذاك من فضلك!

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجادّ السعيد، ثمّ افترقنا على ميعاد جديد، وانجذبت إليها بقوّة فحتّى الزواج منها فكّرتُ فيه جادًّا وراغبًا. وفي اللقاء الثاني أهدتني قلم أبنوس فأثّرتْ فيّ الهديّة تأثيرًا نافذًا وساحرًا. وقالت لي:

ـ تردّدت طويلًا، فكّرت في الانقطاع عنك...

فسألتها بجزع:

ـ لِمَ؟

- أخاف من خيبة الأمل.

فضغطت على يدها بحنوّ وقلت:

- أنت تدركين تمامًا أنّني أحبّك...

وفي المقابلات التالية تبلور الاتّفاق بيننا وفكّرنا في الخطوات العمليّة التي تسبق عادة إعلان الخطوبة. وجاءت معها مرّة شقيقتها الكبرى المتزوّجة، وتركّز الحديث في الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرّغ للبيت. وقلت ببراءة:

- لا أتصوّر كيف يستقيم أمر البيت إذا تمسّكت بالوظيفة...

فتساءلت شقيقتها:

- وعلامَ كان الجهد والتعب؟

فقلت:

- إنّ مرتّبي يغنينا عن توظّفها ويوفّر جهدها للبيت...

فقالت الأخت ضاحكة:

- رغم ثقافتك فأنت دقّة قديمة...

وقالت ثريّا:

- لم يسألني أحد عن رأيي بعد؟

فقلت:

- ولْكنّك تشتركين معنا بصمتك...

- كلّا!

- إذن فما رأيك يا عزيزتي؟

- سأعمل فيها أهّلت نفسي له حتّى النهاية...

ثمّ كان آخر لقاء قبل الميعاد الذي حدّدناه لإشراك الأسرتين. وجدتها على غير عادتها قلقة، مشتّتة الفكر. فقلت:

- يوجد شيء يشغلك.

فقالت ببساطة:

- نعم!

- ما هو؟

- لا يجوز تأجيله أكثر من ذٰلك...

وبسرعة استطردت:

- واعترف أنّي أخطأت في تأجيله حتّى هٰذه اللحظة.

- شيء خطير؟

- يجب أن نتكاشف!

- ألم نتكاشف بما فيه الكفاية؟

- كلّا.. الحبّ يطالبنا بالصدق...

فقلت بقلق:

- طبعًا...

فقالت وهي تغمض عينيها:

- يجب أن أصارحك...

اعترفت بأنّ شخصًا ما «خدعها» وهي في سنّ البراءة! وفي أثناء الاعتراف القصير اغرورقت عيناها. لم أفهم شيئًا باديْ الأمر، ثمّ أدركت كلّ شيء ببلاهة كأنّه دعابة، ثمّ اجتاحني شعور قدريّ بأنّ كلّ شيء محتمل وأنّني لا شيء، ثمّ هبطت في هاوية من الخمود والفتور والاستسلام المشلول كأنّها حفرة في قلب الشتاء رُدمت بطبقات من الرماد. وجعلتْ ترنو إليّ من خلال رموشها المبتلّة ثمّ همست بيأس:

- ألم أقل لك؟

فتساءلت ببلاهة:

- هه؟

- أنت لا تحبّني.

- أنا!.. لا تقولي ذٰلك...

- لن تغفر لي...

فسألتها جاذبًا نفسي من تيّار أفكارها:

- مَن هو؟

- لا يهمّ...

فسألت مصرًّا:

- مَن هو؟

- وغد من الأوغاد!

- ولٰكن مَن هو؟

- لا تعذّبني...

وتناولتْ حقيبتها وهي تقول:

- أستودعك الله...

فقلت بآليّة:

- لا تذهبي.

فنهضت وهي تقول:

- أعطيتني الجواب بلا كلام.

- ولٰكنّي لم أتكلّم.

ـ إنّي أرفض ما دون الثقة الكاملة. . .

فقلت وأنا أجد ارتياحًا في الأعماق لنهوضها:

ـ تلزمني دقائق للتفكير.

فقالت وهي تمضي في كبرياء:

ـ أستودعك الله.

بدت لي المشكلة عقدة غير قابلة للحلّ. تكشّف حبّي عن ولع عنيف ليس إلّا وكأنّ حبّي القديم لصفاء قد استنفد طاقتي للحبّ الحقيقيّ. وكانت تلك الهفوة ممّا لا يُغتفر على أيّامنا. كنّا نحارب طبقات كثيفة من الماضي العتيق كلّما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلّب المعاناة والعناء لقهرها. كان علينا أن نقطع خمسة قرون وستّة في ربع قرن. حزنت وخاب أملي ولٰكنّي لم أشكّ لحظة في أنّ ثريّا قد خرجت من حياتي إلى الأبد. وامتنعتُ عن الحضور إلى الوزارة لزيارة عمّها فلم تقع عينيّ عليها حتّى كان المعرض الزراعيّ الصناعيّ الذي أقيم قبيل نشوب الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩. كنت أمضي وقتًا في لونابارك الملحقة بالمعرض ومعي صديق صباي عيد منصور فمرّت بنا ثريّا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها. لم ترني ولٰكنّي رأيتها، ولمّا رآها صديقي مال على أذني هامسًا:

ـ انظر إلى تلك الفتاة!

فسألته:

ـ ما لها؟

ـ من حيّ السكاكيني وجارة لخالتي. . .

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقحة أدركت منها أنّه الوغد المعتدي فقلت بامتعاض لم يدرك مداه:

ـ أنت وغد!

فضحك باستهتار كعادته وقال:

ـ ورغم ذٰلك سمعت أنّها مخطوبة وستتزوّج في هٰذا العام!

ومرّت أعوام كثيرة لم أرَ فيها ثريّا ولم أسمع عنها حتّى ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريّا ضمن آخرين مجتمعين به في مكتبه، كنت في تلك الأيّام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتمس المحترقُ مادّةً ـ غطاءً أو ترابًا أو ماءً ـ ليطفئ به النار المشتعلة في ملابسه. وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرًا من الزملاء مثل جاد أبو العلا ورضا حمادة وعزمي شاكر وكامل رمزي وسيّدة وقورًا فوق الخمسين عرفت فيها ثريّا رأفت. ألقيت تحيّة عامّة وجلست فلم تلمس يدي يدها ولٰكنّي شعرت بأنّها تذكّرتني كما تذكّرتها. وكان الحديث يدور حول النكسة، تحديد أبعادها، تحليل أسبابها، واستقراء الغيب عنها. ومضى الزملاء في الانصراف ثمّ قامت ثريّا فصافحت الأستاذ سالم وهي تقول:

ـ موعدنا يوم الاثنين.

فأكّد لها الموعد وهو يوصلها حتّى الباب، ثمّ رجع إلى مكتبه وهو يقول:

ـ جاءت تدعوني إلى مناقشة وطنيّة بنقابة المعلّمين.

فسألته متجاهلًا:

ـ من هي؟

ـ الدكتورة ثريّا رأفت، مفتّشة كبيرة بالتربية.

ثمّ استطرد بعد قليل:

ـ زوجها من رجال العلم النادرين المكرّسين حياتهم للبحث أمّا هي فمن وجوه نهضتنا النسائيّة، امرأة تستحقّ أن يفخر بها جنسها وأن يفخر بها الوطن. . .

ثمّ قال:

ـ يندر أن تجد امرأة في قوّة شخصيّتها وعلمها وخلقها.

تذكّرت عيد منصور. تذكّرت ضعفي وانهزامي، تذكّرت نفرًا من أصدقاء الصبا مثل خليل زكي وسيّد شعير، تذكّرت أحمد قدري قريبي الذي لم أره منذ دهور، تذكّرت عشرات وعشرات ممّن تلاطمت معهم في مجرى الحياة، برزت وجوههم وسط هالة من غبار متعفّن كما تبرز الحشرات في أعقاب انهيار بيت آيل للسقوط.

جَاد أبوالعُـلا

هو موجود وهو غير موجود.

ويرجع تاريخ معرفتي الشخصيّة به إلى عام ١٩٦٠. تلفن لي في مكتبي طالبًا مقابلتي فرحّبت به متأثرًا بما يتمتّع به اسمه من شهرة في دنيا الأدب. كان قد أصدر خمس روايات وربّما أكثر. وكانت الإعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التي تشغلها في الصفحات الأولى من الصحف. ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقديّة في الصحف والمجلّات الأدبيّة مغرقة في التقدير والثناء. وقد تُرجمت رواياته جميعًا إلى الإنجليزيّة والفرنسيّة، كما تُرجم ما كُتب عنها في الخارج إلى صحفنا، وهي تشيد بأعماله إشادة لا تتحقّق إلّا لكاتب ذي خطر وشأن. وتبعًا لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكنّني لم أستطع أن أتمّ واحدة، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام، وأدهشني أنّني لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلّيّ. وجميع أعماله تحوّلت إلى مسلسلات إذاعيّة وأفلام سينمائيّة فلم تحقّق أيّ نجاح ولكنّها كانت تشقّ طريقها بكبرياء كأنّها دُرَر.

ولّما جاء لزيارتي وجدته لطيفًا مهذّبًا، لبق الحديث، سرعان ما تشعر بأنّه صاحب قديم، وألّا مكان للكلفة بينك وبينه. صارحني بأنّه يودّ أن يتّخذني صديقًا ودعاني إلى صالونه الأدبيّ ببيته الجميل في الدقّي. ومن يومها وأنا أتردّد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردًا أو ضمن مجموعة من الزملاء، ولعلّ عبده البسيوني كان آخر من انضمّ إلينا بعد عامين أو أكثر من مقابلته التي لا تُنسى معي. ولم يتوانَ عن عرض تاريخه عليّ منذ أوّل لقاء. أشار إلى صورة كبيرة مموّه إطارها بالذهب وقال:

ـ كان أبي رحمه الله من تجّار التحف بخان الخليلي...

وضحك عاليًا وقال:

ـ لو سارت الأمور في مجراها الطبيعيّ لسجّلت تاجرًا فحسب ونجوت من انقسام الشخصيّة!

فسألته عمّا يعني بانقسام الشخصيّة فقال:

ـ شعرت منذ عهد مبكّر بالموهبة فألححت على أبي حتّى وافق على إرسالي في بعثة خصوصيّة ـ عقب حصولي على الثانويّة العامّة ـ إلى فرنسا...

وهزّ رأسه وهو يبتسم إليّ ثمّ قال:

ـ لم أكن أومن بالدراسة النظاميّة ولا كانت هدفي فالتحقت بمعهد لتعليم الفرنسيّة ثمّ اتّجهت بكلّ قواي نحو منابع الفنّ الحقيقيّة في المتاحف والمسارح وصالات الاستماع والكتب...

وأسهب في وصف تلك المنابع وتجربته التذوّقيّة معها...

ـ ولكنّي اضطررت إلى قطع دراستي بعد مرور ثلاثة أعوام لوفاة والدي فعدت لإدارة معرضه بصفتي أكبر إخوتي وأرشدهم...

وحكى لي كيف انقسم ـ وما زال ـ بين التجارة وبين الأدب، وكيف استطاع أن يشقّ طريقه العسير ويحقّق موهبته باستغلال كلّ دقيقة من وقت فراغه القليل. وترك حديثه ـ والأحاديث التالية على مرّ الأعوام ـ انطباعًا في نفسي لا يمكن أن يوصف بالثقة. كان كثير المرح عاديّ الذكاء أقرب إلى السطحيّة ذا طلاء ثقافيّ بلا أعماق. ومن هذا ومن قراءاتي السابقة لبعض رواياته ملت إلى تصديق ما يقال عنه في مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر وغيرهما. قالوا إنّه أنفق أعوامه الثلاثة في فرنسا في مجالّي اللهو والعبث باسم اكتساب التجارب الحيّة ومعرفة الإنسان. وشهدوا له بالمهارة في تجارته ممّا عاد عليه بثروة طائلة، تزداد مع الأيّام ضخامة. وهو في نظر الجميع محبّ للفنّ وربّما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يُعتدّ بها ممّا دفع به إلى طريق مليء بالمتاعب، فقد صمّم على أن يكون أديبًا وأن يكمّل ما ينقصه من موهبة بماله. وكان يكتب تجاربه. ثمّ يعرضها على المقرّبين من الأدباء والنقّاد، ويجري تعديلات جوهريّة مستوحاة من إرشاداتهم، بل يقبل أن يكتب له بعضهم فصولًا كاملة، ثمّ يدفع بالعمل إلى أهل الثقة منهم في اللغة لتهذيب الأسلوب وتصحيحه، غامرًا كلّ صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعًا للظروف والأحوال. ويطبع الرواية على حسابه

طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة ـ على حدّ قول بعضهم ـ كالعروس، ومن ثمّ يوجّه عنايته إلى بعض النقّاد فيملأ نقدها أنهار الصفحات الأدبيّة، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتّى فرض نفسه على الحياة الأدبيّة. وبنفس الأسلوب شقّ سبيله إلى الإذاعة والتلفزيون والسينما، دون اهتمام بربح مليّم واحد، بل ويضيف إلى ذلك من ماله إذا لزم الأمر. كان يحتقر بيئة التجّار وهي مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كوكب محترم، ويغرس نفسه غرسًا شيطانيًا في بيئة الفنّ وهي تأباه وهو فيها غريب محتقر. وقد سألت مرّة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا:

ـ أيّ لذّة حقيقيّة يجنيها من جهده الضائع وهو أوّل من يعلم بزيفه؟

فأجابني الرجل:

ـ أنت مخطئ، لعلّه انتهى بتصديق نفسه...

ـ أشكّ في ذلك...

ـ ولعلّه بات يعتقد أنّ التجربة التي يقترحها أساسًا لعمله هي كلّ شيء، أمّا الشكل.. أمّا الأسلوب.. أمّا الصناعة فأمور ثانويّة لا وزن لها يقوم بها عبيد مأجورون!

فقال الأستاذ رضا حمادة مصدّقًا:

ـ لا نهاية ولا حدّ للغرور البشريّ...

فعاد زهير كامل يقول:

ـ الزيف في الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السرّ الذي يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته في الوقت الذي تتجلّى فيه لأعين الجميع.

وضحك زهير كامل ثمّ قال بنبرة تسليم يائسة:

ـ بتّ أعتقد أنّ الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنّه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقيّة الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العامّ والسعادة البشريّة في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!

وظهر عبده البسيوني في صالون جاد أبو العلا متأخّرًا، عام ١٩٦٨ أو بعد ذلك. وقلت لنفسي ساعة رؤيته ـ ولم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبي ـ ها هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقًّا!. وتصافحنا بحرارة كالأيّام الخالية على عهد الدراسة وكأنّ الخطيئة لم تكن. وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعني إلى سؤاله عن زوجه وهل رجعت إليه، ومن ناحيته لم يشر بكلمة إلى ذلك. وقال لي:

ـ القافلة تسير والصعاب تذلّل، وابني بلال في السنة النهائيّة بكلّيّة طبّ القاهرة وهو شابّ نابغة وسيكون له شأن، وأخته لا تقلّ نباهة عنه وهي في كلّيّة الصيدلة، وعمّا قريب سأستقبل عهدًا من الاستقرار الماليّ والنفسيّ...

فهنّأته بذلك وتمنّيت له أصدق التمنّيات، وقلت له:

ـ الظاهر أنّك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثًا؟

فقال لي همسًا:

ـ منذ عامين ولكنّي لم أتردّد على هذا الصالون إلّا مرّات معدودات لم يتصادف وجودك بها...

ثمّ وهو يبتسم:

ـ إنّ أغلب مسلسلاته الإذاعيّة والتلفزيونيّة بقلمي!...

وضحكنا معًا ثمّ عاد يقول:

ـ وحتّى الآن لم أوفّق إلى بيع مسلسلة باسمي!

ولمّا فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعيّة زارني الأستاذ عجلان ثابت ومضى يضحك ساخرًا وهو يقول:

ـ ألا يتّقون الله؟!

وتحادثنا طويلًا حتّى جاء ذكر عبده البسيوني فقال عجلان:

ـ لعلّك لا تعرف أنّ زوجه كانت خليلة للأستاذ جاد أبو العلا؟

فجرى في باطني تيّار مضطرب لم يدرِ به عجلان ولا بأسبابه الحقيقيّة.. وقلت:

ـ اتّق الله بدورك.

ـ صدّقني فأنا أخصّائيّ في هذا النوع من الأخبار.

فسكتُّ فعاد يقول:

ـ وعبده البسيوني يعرف ذلك أيضًا وقد ضبطها في فيلّا بالهرم واكتفى بقطع العلاقة وتسلّم حرمه، ثمّ

أعقب ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق. . .

قلت باذلًا جهدًا غير قليل لتمالك أعصابي:

ـ متى كان ذلك؟

ـ منذ سنوات لعلّها ثلاث أو أربع أو خمس!

ـ ليكن. . .

ـ يا له من رجل زائف!. . .

ـ عبده البسيوني؟!

ـ هذا حمار بائس إنّي أعني صاحب الجائزة الكبيرة. . .

ـ نعم. . .

ـ ومن عجب أنّ أبطال رواياته مثل للصدق والكرامة والفضيلة!

ـ نعم. . .

فهتف ضاحكًا:

ـ علينا اللعنة جميعًا حتّى يوم الدين.

جعفر خليل

بذكره يذكر حيّنا «العبّاسيّة» في العشرينات من هذا القرن. حيّ الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغنّاء. شرقيّه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجلّلها صمت وقور، وغربيّه بيوت مستقلّة ذوات حدائق خلفيّة صغيرة تزدان بكرمة وشجرة جوافة وأرض مغروسة بالشيخ والورد والقرنفل، تحدق بها الحقول، في طرفها ساقية تدور بين خمائل من أشجار الحنّاء، وتزكو رقعتها بالجرجير والطماطم، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات، أمّا فيما يلي أسوار البيوت فتمتدّ غابة من أشجار التين الشوكيّ. في النهار لا يخرق صمتها إلّا جلجلة الترام وفي الليل لا يتردّد في جنباتها إلّا صيحة الخفير. وإذا هبط الليل لفّها بظلامه فلا يخفّف من غلظته إلّا إشعاعات الفوانيس المدلّاة من أعالي أبواب بيوتها. ويوم انتقلنا من الحيّ القديم إليها، ومضى الحمّالون بالأثاث إلى داخل البيت الجديد تجمّع في الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون. فعندما خرجت مستطلعًا كذلك وجدت أمامي جعفر خليل، سرور عبد الباقي، سيّد شعير، عيد منصور، رضا حمادة، خليل زكي، شعراوي الفحّام. وقفنا نتبادل النظرات حتّى سألني خليل زكي:

ـ تلعب معنا؟

تردّدت بلا جواب فسألني سرور عبد الباقي:

ـ من أيّ حيّ؟

فأجبت متشجّعًا بأدب أختصّ به:

ـ حيّ الحسين.

فسألني جعفر خليل:

ـ تلعب الكرة؟

ـ كلّا.

ـ تعلّمها، متى تدخل المدرسة الابتدائيّة؟

ـ عقب الإجازة. . .

ـ سندخلها جميعًا في وقت واحد.

وسأل رضا حمادة:

ـ هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قادمون؟

ـ جئنا عن طريق الحسينيّة، المحالّ والمقاهي مغلقة في إضراب شامل.

ـ هل صادفكم إنجليز؟

ـ دوريّة واحدة. هل ترونهم هنا؟

فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما:

ـ ثكناتهم هناك في قلب العبّاسيّة، ستراهم عند كلّ خطوة تخطوها. . .

وسأل سرور عبد الباقي:

ـ أتممت المدرسة الأوّليّة؟

ـ مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك في الكتّاب.

ـ لا توجد هنا كتاتيب!

فسكتّ وأنا أرمقهم في عدم ارتياح، غير أنّ صداقتنا كانت قد بدأت، وهي لم تنقطع بعد ذلك إلّا بالموت في حال شخصين منهم. وفضلًا عن ذلك كان جعفر خليل الوحيد الذي زاملني أيضًا في مراحل الدراسة الابتدائيّة والثانويّة والجامعيّة. وكان يمتاز بخفّة الروح وحلاوة النكتة والتفوّق في اللعب والجدّ معًا. وقد دعاني إلى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادي الأهليّ ولمّا سألته عن التكاليف أجاب بكلّ بساطة:

ـ ولا مليم.

ذهبنا بجلابيبنا وصنادلنا مشيًا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر، الفجالة، ميدان المحطّة، عبّاس، ميدان الخديو إسماعيل، جسر قصر النيل، حتّى بلغنا النادي. وإذا بالمجموعة تتسلّق شجرة كبيرة وتتّخذ أماكنها فوق الغصون فلم يسعني إلّا أن أفعل مثلهم. في ذٰلك اليوم شاهدت مباراة كرة قدم لأوّل مرّة في حياتي، وعرفت لاعبين لم يُمحَ أثرهم من نفسي حتّى اليوم مثل حسين حجازي ومرعي، ورأيت الإنجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد أنّهم يقتلون فقط، وهالني أن أرى عليّ الحسني وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضًا فلا يعقب ذٰلك معركة دامية. سررت وسعدت، وبدأت أعشق هواية جديدة، وآمنت بأنّه يمكن الانتصار على الإنجليز ولو في ملعب النادي الأهليّ، ولٰكنّنا تأخّرنا طبعًا في العودة إلى بيوتنا وتعرّضت هناك إلى حساب شديد. وانضممت إلى ناديهم «قلب الأسد» واشتركت في اللعب الذي كان يجري وسط غابة التين الشوكيّ، وقُدّر لي أن أنافس في المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذي توهّم في ذٰلك الوقت أنّه يعدّ نفسه لاحتراف اللعبة. وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان يغنّي لنا بعض أغاني سيّد درويش ومنيرة المهديّة وعبد اللطيف البنّا، وبتقدّم السنين راح يؤلّف الزجل، بل كان يحوّل بعض مناظر الأفلام إلى مواقف زجليّة ويخرجها ويشترك في تمثيلها في غابة التين الشوكيّ أيضًا. ولم أعرف له قصّة حبّ واحدة وإن ضبطته مرّة وهو يعلّم بنتًا يهوديّة من جاراته كيف تركب الدرّاجة. وبتوثّق علاقتي به عرفت أنّه فقير بحقّ، بل لعلّه كان أفقر المجموعة، إذ كان أبوه موظّفًا صغيرًا رغم تقدّمه في السنّ ورغم طول مدّة خدمته، ولٰكنّه كان برغم ذٰلك أكثر مرحًا وسيطرة. ورغم تعدّد ميوله في اللعب والفنّ لم يبدِ اهتمامًا بالسياسة أو الوطنيّة كما كانت تعرف في تلك الأيّام. وظلّ على سلبيّته تلك حتّى الجامعة وبعد التخرّج. وقلت له يومًا:

ـ عجيب ألّا تهتمّ بما يصهرنا حتّى الذوبان.

فقال ضاحكًا:

ـ للوطنيّة رجالها، لست منهم وإن تمنّيت لهم النجاح.

ـ ولٰكن كلّ مواطن فهو من رجالها. . .

ـ إنّي أجد سعادتي بين أهل الفنّ.

فحتّى وهو تلميذ بالثانويّة كان يتردّد على نقابة الموسيقيّين الأهليّة ويشهد حفلاتهم المجّانيّة، ويحضر مجالس الزجّالين بالقهوة الخديويّة، وكان يتمتّع في ذٰلك بجرأة انفرد بها وحده. وعن طريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق إلى الوسط السينمائيّ، فقام بدور ضمن الكومبارس في بعض الأفلام. وقدّم قصصًا سينمائيّة وهو طالب بالجامعة، حتّى وُفّق إلى المشاركة في كتابة سيناريو عقب تخرّجه عام ١٩٣٤. وعُيّن مدرّسًا للّغة الإنجليزيّة، وعُرف في المدرسة بنشاطه الرياضيّ وإشرافه على فريق التمثيل، وسَحَرَ بشخصيّته الخلّابة الألباب. وقال لي:

ـ الوظيفة خطوة ليس إلّا ولٰكنّي عرفت هدفي. . .

وكان من الشاقّ أن تعرف له هدفًا محدّدًا، أزجّال هو أم ممثّل أم مطرب أم سينارست؟، فسألته:

ـ وما هدفك يا صاحب الأهداف؟

ـ السينما!

ـ السينما؟

ـ أجل، هي مجمع الفنون، هي دنيا السحر والرفاهية والجمال، ولي فيها مجال وأيّ مجال في التمثيل والكتابة والغناء. . .

ثمّ وهو يضحك:

ـ وشكلي مقبول، لا تحكم عليّ بماضيّ، الفقر لم يوفّر لي الغذاء الكافي لٰكنّك سوف تحكم بعينيك عندما يستفيد جسمي من اللحوم التي طالما حُرمت منها ظلمًا وعدوانًا!

وفيما بين تخرّجه ونهاية الحرب العظمى الثانية تقدّم في نشاطه السينمائيّ بخطى ثابتة وملموسة، اقتبس أربع قصص، وكتب ستّة سيناريوهات، ومثّل أدوارًا ثانويّة في عشرة أفلام، وألّف عشرات الأغاني، وتحسّنت أحواله الماليّة بدرجة طيّبة جدًّا، وكان بارًّا بأسرته الفقيرة فنقلها إلى عمارة جديدة بالشارع العامّ الذي تغيّر مع الزمن شكله ومضمونه، وأقام معها وإن استأجر شقّة خاصّة في شارع شامبليون لعمله ـ أو قل

لعمله ومزاحه ـ وحافظ بالمثل على علاقاته القديمة بحيّه وأصدقائه. وإذا به يُختار عضوًا ببعثة إلى الولايات المتّحدة في العام الذي أعقب انتهاء الحرب. ولم تكن البعثة في حسبانه ولكنّه وجدها ممكنة بوساطة صديق من الوسط الفنيّ ذي صلة طيّبة بوزير المعارف. ولم تنقطع عنّي رسائله طوال مدّة بعثته، ومنها علمت أنّه يُعدّ رسالة للدكتوراه عن الفنّ في المجتمع العربيّ، ومنها علمت أيضًا أنّه ينوي دراسة السيناريو في لوس أنجلوس. وفي رسائل تالية علمت أنّه يراسل بعض المجلّات بأجر طيّب وأنّه سيجرّب حظّه في الكتابة للإذاعة، وأنّه سيعود بمقدار طيّب من الدولارات الأمريكيّة.

وعاد إلى مصر عام ١٩٥٠، وزرته في اليوم التالي مباشرة لعودته في مسكن الأسرة ولم يكن بقي فيه سوى أمّه. تعانقنا بحرارة. ووجدت في زيارته كثيرين من أهل الفنّ كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعًا عدا شعراوي الفحّام الذي قُتل في غارة في أثناء الحرب. وسُئل أيبقى في الوظيفة أم يستقيل للتفرّغ للفنّ فأجاب:

ـ سأبقى حتّى أستوفي المدّة الإلزاميّة بمقتضى البعثة وهي خمس سنوات!

وقال:

ـ الحياة الأمريكيّة حياة غريبة وعظيمة، والأمريكيّ ذو مزايا لا يستهان بها، ولكنّني لم أستطع التخلّص من إحساس عامّ بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هيروشيما...

وقال أيضًا:

ـ يخيّل إليّ أنّ الأمريكيّين يتّجهون الآن نحو الاهتمام بالشرق اهتمامًا غير عاديّ، وأنّ علينا أن نعمل لذلك ألف حساب!

وقال بحماس:

ـ لديّ أفكار قيّمة سيكون لها شأنها في تطوير فنّ السينما في مصر...

ثمّ غلب المرح على الجلسة وضجّت الحجرة بالقهقهات وبخاصّة عندما انضمّ إلينا المرحوم الشيخ زكريّا أحمد.

وغادرت البيت مساء بعد أن دعاني إلى الاجتماع به صباح الجمعة بمسكنه الخاصّ بشامبليون.

وفي صباح اليوم التالي قرأت في الأهرام نعيه.

نعيه؟!

أجل نعيه.

فقد غادر مسكنه في الثامنة مساء، فزلّت قدمه فوق قشرة موز ففقد توازنه وسقط فارتطم رأسه بحافة الطوار وسرعان ما فاضت روحه في ثوانٍ معدودات أمام باب العمارة.

حنان مصطفى

سمعت صوتًا يناديني فتوقّفت عن السير متلفّتًا إلى الوراء فرأيت سيّدة في الحلقة السادسة تنظر نحوي بعينين زرقاوين باسمتين. تطلّعت إليها لحظات متسائلًا ثمّ اقتحمني التذكّر والعرفان كنفحة من عبير الأزهار فهتفت:

ـ حنان!

فقالت فيما يشبه الامتنان:

ـ نعم.. حنان.. كيف حالك؟

وتصافحنا بحرارة ونحن نميل إلى جانب من الطوار، وراحت تقول:

ـ تذكّرتك بسهولة، لم تتغيّر تغيّرًا يذكر، وخفت ألّا تتذكّرني ولكنّ الظاهر أنّي لم أتغيّر بصورة تدعو لليأس، ماذا جاء بك إلى جليم في مايو أم إنّك مقيم هنا في الإسكندريّة؟

ـ بل جئت لاستئجار شقّة للصيف، وأنت؟

ـ نفس السبب، وحدك؟

ـ نعم.

ـ وأنا كذلك.

وتبادلنا السؤال عن الأهل فعلمنا بمن ذهب وبمن بقي، وأخبرتها عن حالي الاجتماعيّة، فقالت:

ـ لي أربع بنات متزوّجات، وأنا جدّة من زمن، أمّا زوجي فقد توفّي منذ عامين...

ومشينا على مهل على الكورنيش حتّى سألتني:

ـ متى رأيتني آخر مرّة؟

فتفكّرت مليًّا ثمّ قلت:

ـ منذ أربعة وأربعين عامًا؟

فهتفت ضاحكة:

ـ يا للفضيحة، وبرغم ذلك عرفتك من أوّل نظرة!

ـ كما عرفتك!

ـ بل تردّدت قليلًا.

ـ من المفاجأة...

فضحكت ثمّ تساءلت:

ـ أتذكر حبّ زمان؟

وجعلت تتكلّم بتدفّق وتضحك بين ذلك بصوت عالٍ حتّى ذكّرتني بما كان يقال عن جنون أمّها. ولبثنا معًا دقائق ثمّ ذهب كلّ إلى طريقه. ورجعت إلى عبّاسيّة الحقول والحدائق والهدوء الشامل. وعاود ذاكرتي بيت آل مصطفى، الأب والأمّ والابن وحنان. بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاصّ. فعند الأصيل يجلس الأب في السلاملك المطلّ على الطريق، يجلس على كرسيّ هزّاز وبين يديه منضدة عليها زجاجة ووعاء ثلج وكأس وطبق مزّة. رجل بدين متوسّط القامة أحمر الوجه أصلع يتحدّى بكلّ استهانة تقاليد الزمان والمكان. في أوّل الجلسة يبدو صامتًا رزينًا بل متعاليًا منطويًا. ثمّ ينشرح صدره بالانتشاء فيجود بنظرات إنسانيّة على الطريق والعابرين، وبعد ذلك لا يستنكف من مخاطبة بيّاعي الملانة والبطاطة والسحلب والدندرمة تبعًا للفصول، وربّما مازحهم واستعادهم الإنشاد المطرب الذي يعلنون به عن بضاعتهم على عادة ذلك الزمان. وكنّا نقف غير بعيدين لنسمع ونشاهد ونشارك في السرور. وتتابع تعليقاتنا مرّة مستنكرة في الغالب إلّا ما يصدر عن جعفر خليل الذي كان يحبّه ويعجب به ويعتبره فرجة لا تقلّ في بهجتها عن السينما والسيرك. وتظهر خلال تلك الجلسة اليوميّة ربّة البيت، طويلة نحيلة تتوكّأ على عصا لعرج خفيف بها، فتلقي على ما حولها نظرة مستكبرة متأفّفة. والويل لنا إذا رأتنا نتفرّج ونضحك فتنهال علينا قدحًا وتقريعًا، ولعنًا لآلنا الذين لم يحسنوا تربيتنا، ثمّ تختفي من السلاملك وهي تسبّ الناس والبلد. كانت تُعَدّ ـ مثل زوجها ـ غير طبيعيّة، وكثيرًا ما كانت تُرى وهي تتشاجر مع الباعة والخدم، وقيل إنّها كانت تكبر زوجها بعشرة أعوام، وإنّها غنيّة تملك أرضًا ونقودًا على حين لا يملك زوجها إلّا حصّة في وقف، وقد تزوّجت منه رغم أنّه بلا علم ولا عمل لعراقة أصله. وكان ضمن المتردّدين على الطريق غجريّة ترعى الأغنام، حافية في جلباب أسود مشدود عند الوسط بحزام، متلفّعة بخمار أسود ينسدل من تحته على وجهها برقع أسود أيضًا يخفي الوجه ما عدا العينين. وكان بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلّما أقبلت وراء الأغنام نصيح بصوت واحد:

يا غجريّة حلّي حزامك من قدّامك

فتقذفنا بما في مجال يديها من طوب. ومضى مصطفى بك يهتمّ بها ويزجرنا مدافعًا عنها. ويومًا قال لنا سيّد شعير وكان أسرعنا إلى التطلّعات الجنسيّة:

ـ ألا ترون ما بين الخروف والماعزة؟!

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمه تصدّعت لها جدران البيت وعصفت بالشارع الهادئ حتّى ازدحمت خصاص النوافذ بأشباح الحريم. وغادر الرجل البيت فلم يُرَ بعد ذلك، ولكن شاع في الحيّ أنّه تزوّج من الغجريّة وأقام معها في الدرب الأحمر. ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبتْ دوريْ الرجل والمرأة معًا.

كانت غريبة الأطوار حقًّا، ومن آي ذلك أنّها سمحت لحنان باللعب مع أترابها على حين منعت أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت إلّا بصحبتها!. كان صبيًّا جميلًا رشيقًا، كنّا نراه وهو يلعب في الحديقة منفردًا أو مع خادمة، وكان وديعًا مهذّبًا أرقّ من أخته نفسها، وكنّا نبادله النظرات فنَوَدّ لو يلعب معنا ويودّ لو نلعب معه، ولكنّنا ظللنا غرباء حتّى غادر مع أسرته الحيّ. وتعلّق قلبي بحنان قبل أن أناهز البلوغ. كانت بيضاء، زرقاء العينين ناعمة الصوت، وكانت ليالي رمضان فرصة هنيّة للصغار من الجنسين، يجتمعون في الشارع بلا اختلاط، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوّحون بها في أيديهم، وكنّا نترنّم بأناشيد رمضان ونتبادل مشاعر الحبّ وهو كامن في براعمه

المغلقة. وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات، وإظهار الرشاقة في الجري والغناء، أو المخاطبة بالابتسام في خفاء. ولّما بلغت الثانية عشرة من عمرها مُنعت عن الطريق والمدرسة معًا. لم يكن بيتها يؤمن بالتعلّم أو العمل ويعتبرهما من ضروريّات الفقراء فحتّى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائيّة. وباختفاء حبيبتي من الطريق اشتدّ ولعي بها وصارت شغلي الشاغل. وكانت تُريني نفسها خطفًا من النافذة، أو نتبادل المشاعر بإشعال أعواد الثقاب في الظلام فوق الأسطح. وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التي تردّدت بيننا خفية حاملة التحيّات والورود، وسعدت بذلك سعادة لا توصف، فطمعت في المزيد منها، ولكنّي لم أدرِ كيف، وتسلّل إلى روحي قلق نشيط غامض تتجاذبه قوّى خفيّة من البهجة والكآبة. وإذا بأمّها تزورنا ونادرًا ما كانت تزور أو تُزار. وبصراحة لا يمكن أن تصدر إلّا عن امرأة مثلها اقترحت أن نتزوّج!.

وأحدث اقتراحها ذهولًا، وقالوا لها:

ـ إنّه شرف كبير ولكنّهما لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما.

فضربت بعصاها الأرض وقالت باستهانة:

ـ الزواج يُعقد أحيانًا بين أطفال في الأقمطة...

فقالوا:

ـ ولكنّه لم يتمّ دراسته الابتدائيّة بعد وما زال أمامه مشوار طويل...

فقالت بعجرفة:

ـ بنتي غنيّة ولن يجد حاجة إلى شهادة أو وظيفة.

ـ ولكنّ التعليم ضروريّ والوظيفة ضروريّة.

ـ كلام فارغ...

ـ إنّه لا يملك ولن يملك شيئًا، ولن يقبل أن يكون مجرّد زوج لزوجة غنيّة...

فتساءلت بحدّة:

ـ والعمل؟

ـ لا سبيل إلّا الانتظار حتّى يُتمّ تعليمه ثمّ له أن يتزوّج بعد ذلك...

ـ وما مدى هذا الانتظار؟

ـ عشرة أعوام على الأقل...

فصرخت المرأة:

ـ إنّكم تركلون النعمة...

ووقفت غاضبة ثمّ ردّدت بنبرة أقوى:

ـ إنّكم تركلون النعمة!

وغادرت البيت عابسة متعجرفة. ودار تحقيق معي لمعرفة الأسباب المجهولة التي تقف وراء تلك الزيارة الغريبة. ولم أكن أتخيّل إمكان وقوع ذلك. ولم أشكّ في أنّ الأمّ المجنونة اطّلعت على سرّ ابنتها فتنازلت لاقتراح الحلّ السعيد كما تتصوّره وهي واثقة من قبوله، وتأثّرتُ لذلك غاية التأثّر، ورغبتُ رغبة صادقة في الاعتذار إلى حنان، ولكن هالني أنّها لم تعد تلوح في نافذتها، كما كفّت خادمتها عن المجيء إليّ، ورجعت عصر يوم من المدرسة لأعلم أنّ آل مصطفى قد غادروا البيت والحيّ إلى مكان مجهول. وعانيت لأوّل مرّة في حياتي عذاب الحرمان والهجر. ولكنّ حدّته لم تقتلني بل ولم تبطش بي، أطبقت عليّ حينًا، ثمّ مضت تخفّ وتبهت حتّى استحالت ذكرى مجرّدة من أيّ انفعال.

ولم تقع على حنان عيناي منذ غادرت حيّنا حتّى التقيت بها في جليم في مايو ١٩٦٩ وهي تقترب من الستّين من عمرها. أمّا شقيقها سليمان فقد ترامت إليّ بعض أنبائه عن طريق المرحوم جعفر خليل عقب انعطافه إلى الوسط السينمائيّ. إذ صادفه ليلة في إستديو مصر وهو يعمل راقصًا ضمن فرقة جيء بها للتصوير في بعض مناظر فيلم استعراضيّ، قال:

ـ سلّمت عليه وذكّرته بنفسي فتذكّرني وأخبرني بأنّه هوى الرقص وكرّس له حياته...

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقّعة فقال لي جعفر وهو يضحك ضحكته الكبيرة:

ـ يبدو لي أنّه يمارس هوايته وحياته في حرّيّة مطلقة!

وفي لقاء جليم أخبرتني حنان أنّ أباها توفّي في ختام عام انتقالها من العبّاسيّة إثر جراحة لاستئصال الزائدة الدوديّة، وأنّ أمّها توفّيت منذ عامين فقط، أمّا سليمان فقد انقطع عنها انقطاعًا كلّيًا فهي لا تعلم أخباره إلّا

من المجلّات الفنّيّة...

خليل زكي

كان اسمه يُطلق على الشرّ والعدوان بين أصدقاء العبّاسيّة. فرضته الجيرة فرضًا لا حيلة لنا فيه ولا اختيار. وأيّ اختلاف معه يعني معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه. حتّى اليوم في جبيني أثر من ضربة قبقابه. اختلف رأيانا في حسين حجازي ومحمود مختار أيّهما أمهر في اللعب فقلت إنّه حسين حجازي وقال إنّه محمود مختار ثمّ كانت ضربة القبقاب فسال الدم على وجهي وجلبابي. وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حول شارلي شابلن وماكس لندر. وتضارب مع عيد منصور لاقتراضه منه قرشًا ومماطلته في ردّه. ولم يكن له كفء في مجموعتنا سوى سيّد شعير، ولمّا نشب بينهما القتال شهدنا معركة عادلة لأوّل مرّة، فسال الدم من أنفيهما معًا وتمزّق جلبابهما، وتخيّلنا ما ينتظره في البيت بسبب تمزّق جلبابه فتضاعف سرورنا. ولم تُجْدِ معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى الخصام ويُقبل علينا هاتفًا «صافية يا لبن» فإمّا نقبله وإمّا يتجدّد القتال. على أنّه من الحقّ أن أعترف بأنّه لم يخلُ من فائدة لنا فقد كان قائدنا في المعارك التي تنشب بيننا وبين غلمان الأحياء القريبة خاصّة في أعقاب مباراة الكرة. وكان أبوه عطّارًا في بين الجناين، وكان يعامله بفظاظة ضُرب بها المثل، وكثيرًا ما كان ينهال عليه ضربًا في الطريق على مرأى من أصحابه، كان يضربه بقسوة وحشيّة وبلا رحمة، وكان خليل يمقته مقتًا ويحلم ليل نهار بموته. وكان الأب مدمن أفيون، وكان خليل مَن أفشى سرّه وشهّر به في كلّ مكان، وكان أسوأ مثال لربّ الأسرة، ولكنّه خصّ خليل بلبّ كراهيّته وشراسته. وكنّا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع، وفسّرها سرور عبد الباقي تفسيرًا دينيًّا فقال:

- إنّ الله سلّط عليه أباه كما سلّط الطوفان على آل نوح!

ولم يفلح خليل في دراسته الابتدائيّة، ولّما تكرّر سقوطه شغّله أبوه في دكّانه. وتنفّسنا الصعداء كما يقولون، وخيّل إلينا أنّنا تخلّصنا من شرّه، ولكنّه لم يغب عنّا أكثر من شهر واحد، وأقبل علينا ضاحكًا وهو يقول:

- عادت ريمة لعادتها القديمة...

فقلنا ونحن نداري خيبتنا:

- خير إن شاء الله.

- طردني ابن المجنونة!

- من الدكّان؟

- ومن البيت!

وجاءنا سيّد شعير بالأخبار - كان أبوه تاجرًا ومن أصدقاء والد خليل - فأخبرنا بأنّ خليل اعتدى على زبون بالضرب، وتكرّرت سرقاته لنقود الدكّان حتّى اضطرّ الرجل إلى طرده. وتحمّنا للأخبار وأدركنا أنّه سيتفرّغ لنا بثقله وعناده. وبالفعل تحمّلنا نفقاته في المقهى والرحلات، وعدا ذلك فلم ندرِ شيئًا عن أين يذهب بقيّة الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل. وفي تلك المرحلة من دراستنا الثانويّة اتّصل جعفر خليل بدنيا السينما فجرّه معه ليعمل ضمن الكومبارس فدرّت عليه قليلًا من النقود، وهناك التقى بسليمان مصطفى الراقص فحام حوله بغريزته النفعيّة. وما لبثت أن نشأت بينهما صداقة غريبة فسار في ركابه وانتفع إلى أقصى حدّ بماله. وكان جعفر خليل يحكي لنا مغامراته السينمائيّة تلك وهو يضحك من أعماق قلبه، حتّى قال لنا يومًا:

- صاحبنا تمادى كعادته حتّى ضاق به سليمان فطرده!

فهتفنا ونحن نتوقّع شرًّا:

- طرده؟!

- وانقلب عليه يهدّده ويتحرّش به...

- وقع المسكين في شرّ أعماله!

- ولكنّ سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدري صديقنا خليل إلّا وهو يُساق إلى نقطة الشرطة، وهناك جُلد حتّى بُحّ صوته من الصراخ، ثمّ أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهّد بألّا يتعرّض للشاب...

وعاد خليل يتسكّع هنا وهناك، ثمّ اختفى زمنًا فلم نعد نسمع عنه خبرًا، وكان عيد منصور أوّل من جاءنا

عنه بنبأ إذ تسلّل ذات ليلة إلى بيت دعارة سرّيّة بالسكاكيني. . .

ـ فلمحته هناك يجلس مع المعلّمة كأنّه شريك!

ولكنّ جعفر خليل هو الذي جاءنا بالخبر اليقين. كان أحبّ مجموعتنا إليه مذ فتح له بابًا للرزق فأفضى إليه بسرّه. كان يذهب إلى أيّ بيت دعارة كأنّه زبون، ولّما يقضي وطره ويطالب بالنقود يهدّد بإبلاغ الشرطة، فإذا استعانوا عليه بحامي البيت جندله، وما يلبث أن يفرض نفسه «حاميًا» للبيت، ولم تمرّ فترة طويلة حتّى شمل بحمايته جميع بيوت الدعارة في منطقة السكاكيني. بذلك تحسّنت أحواله واستقرّت ميزانيّته وعرف النعيم. وكانت حياة خطرة مهدّدة ولكنّها كانت تناسبه كما كان يناسبها. وتدرّج فيها في مدارج الرقيّ حتّى وثب به نشاطه إلى بيوت الدعارة الفاخرة في وسط المدينة. وابتسم له الحظّ فقدّم خدمة (غراميّة) لطبيب كبير، وابتسم له الحظّ مرّة أخرى عندما عُيّن الطبيب عميدًا لكلّيّة الطبّ فكافأه بإلحاقه بوظيفة إداريّة بمستشفى قصر العيني. هكذا وجد خليل زكي نفسه موظّفًا في مستشفى كبير، موظّفًا يخطر تحت رعاية العميد، مرتّبه بسيط حقًّا ولكنّ أرباحه خياليّة. ورجع يزورنا في المقهى وهو بادي النعمة فيطلب النارجيلة والشاي الأخضر وينظر إلينا من فوق كما يجدر بموظّف يجالس تلاميذ. وقد سألت جعفر خليل مرّة:

ـ وماذا عن المهنة الأخرى؟

فقال ضاحكًا:

ـ الظاهر أنّه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى!؟

ـ إذن قطع علاقته بالبيوت؟

ـ طبعًا. . . عدا المختار من البيوت الرفيعة. . . الممتازة جدًّا. . . ومن بعيد لبعيد. . . وليؤدّي خدمات نادرة للصفوة. . .

وكان على علاقة بقصّاب غنيّ من مدمني المخدّرات فخطب منه كريمته. وكانت الوحيدة التي بقيت من ذرّيّة الرجل بعد أن قُتل أخواها في المظاهرات التي اجتاحت البلاد في أوّل عهد إسماعيل صدقي. وتزوّج خليل من فتاة موعودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات في شارع فاروق غير النقود السائلة. وعقب الزواج بعام واحد ضُبط القصّاب الغنيّ متلبّسًا بتعاطي المخدّر فقُبض عليه وحُكم عليه بالحبس عامًا ولكنّ صحّته لم تحتمل ذلك فمات في مستشفى السجن، وانتقلت إدارة الأملاك إلى يد خليل زكي. وعندما ترامت إلينا تلك الأخبار لم يشكّ أحد منّا في أنّ خليل هو الذي أوقع بحميّه ليستولي على ثروته، وتسلّطت علينا تلك الفكرة لحدّ الإيمان. قال عيد منصور فيما يشبه الحسد:

ـ صفقة تاريخيّة. . .

وقال جعفر خليل ضاحكًا:

ـ عليه العوض في العمارات الأربع. . .

وقال رضا حمادة:

ـ مسكينة، ستراها متسوّلة في الطريق عمّا قريب!

وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه إلّا في النادر. ومنذ اجتمعنا في مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أره ولم يكن يخطر ببالي حتّى عام ١٩٧٠، كنت جالسًا بالتريانون في أوائل الخريف حين وقفت أمامي سيّارة بويك سوداء ورأيت وجهًا ينظر نحوي من نافذتها. وأقبل نحوي ضاحكًا فسلّمنا وجلس. رغم كبره بدا بجسمه القصير مدمج التكوين قويّ البنيان، كما بدا شرس السحنة همجيّ المنظر فلم ترفعه بذلته الشركسكين إلّا قليلًا. وظلّ محتفظًا بطربوشه ليُخفي صلعة مشوّهة بآثار خياطات جراح قديمة من مخلّفات معاركه. تذاكرنا أخبار الصحاب ثمّ قال:

ـ لعلّك لا تعلم بأنّني أصبحت من أهل الإسكندريّة؟

ـ حقًّا؟

ـ آخرة العنقود طالبة بالآداب لم تجد في القاهرة متّسعًا فقرّرت الإقامة في الإسكندريّة وابتعت فيلّا في لوران، ستراها بنفسك!

فشكرته وسألته:

ـ ووظيفتك؟

ـ أصبت منذ عامين بذبحة صدريّة فاعتزلت الخدمة. . .

ـ سلامتك. . .

ـ صحّتي عال ولكنّي لا أحترم كثيرًا الإرشادات

الطبّية. . .

وضحك حتّى كشف عن أسنانه الملوّنة ثمّ قال:

- لي غير البنت التي حدّثتك عنها ثلاثة مهندسين وطبيب!

فأبديت الإعجاب والاستحسان فقال وهو يغرق في الضحك:

- عرفت كيف أكون أبًا!

ثمّ بنبرة أسف:

- وددت لو جاءوا مثلي لا يهتمّون إلّا بأنفسهم ومستقبلهم ولٰكنّهم دوّخوني بمناقشاتهم السياسيّة.

وجعلت أختلس إليه النظرات متسائلًا، ترى هل يثب إلى العدوان إذا تهيّأت أسبابه؟، إلى أيّ مدى تغيّر حقًّا؟. وكيف ينظر اليوم إلى ماضيه؟، وبأيّ صورة يتصوّر أمام أبنائه؟، وهل يطيق أن يعيد أحد أبنائه سيرته؟، وألا يعتبر ثلاثة مهندسين وطبيب كفّارة عن أيّ ماضٍ أسود؟، وأيّ الحلّين كان أفضل، أينجو من القانون رغم جرائمه ليهدي للوطن أربعة من العلماء أم كان يُقبض عليه لتستقرّ العدالة فوق عرشها؟! وتذكّرت قول الأستاذ زهير كامل «بتّ أعتقد أنّ الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنّه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذٰلك الاعتراف، وعلى ذٰلك تصبح المشكلة الأخلاقيّة الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العامّ والسعادة البشريّة في مجتمع من الأوغاد».

درّيّة سالم

- اسمحي لي أن أحيّيك. . .

فارتسم ظلّ ابتسامة على شفتيها فقلت متشجّعًا:

- غير معقول ألّا نتبادل تحيّة بعد ما كان. . .

فخرجت عن صمتها قائلة:

- بعد ما كان؟

- بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا.

فضحكت ببراءة وقالت:

- نقبل التحيّة.

- هٰذه هي الخطوة الأولى.

- هل توجد خطوات أخرى؟

كانت تجيء بأبناء ثلاثة إلى المنتزه، فيستحمّ ثلاثتهم في البحر على حين تجلس هي منفردة في الكازينو تراقبهم من النافذة. لفت نظري إليها وجه بشوش وجسم فوّار بالنضج الأنثويّ. وعشقت في عينيها نظرة ودودًا كأنّما خُلقت للاستقبال والترحيب. وسرعان ما شعرت بأنّ ثمّة دعوة رقيقة تطالعني كالزهرة الناعمة وأنّ تجاهُلها فوق طاقة البشر. وتبادلنا كلمات عابرة فاتّفقنا على موعد في حديقة البجعة.

وآمنت وأنا في الطريق إليها بأنّها امرأة من نوع خاصّ، فلعلّها أرملة أو مطلّقة. ولٰكنّها قالت لي ببساطة:

- أنا متزوّجة!

فقلت مأخوذًا:

- ولٰكنّني أراك دائمًا منفردة.

- هو في بعثة قصيرة تنتهي هٰذا العام ١٩٦٠.

فوجمت فسألتني ضاحكة:

- أتخاف من النساء المتزوّجات؟

- إنّي أفكّر. . .

فقاطعتني قائلة:

- فكّر في إعداد مكان آمن نلتقي فيه في القاهرة!

فقلت بحماس ظاهريّ:

- اتّفقنا.

- ولا تسيء بي الظنّ!

- وكيف ولِمَ؟

- لعلّك تتساءل عمّا وراء امرأة لبّت لك أوّل إشارة؟

وكان ذٰلك ما يبدو ببالي ولٰكنّني قلت:

- لم أكن دونك استجابة وكنت البادئ!

فقالت برقّة:

- من حقّنا أن ننعم ببركة الصراحة.

تأمّلت كلّ شيء بوعيٍ شأنَ مَن لم يقع تحت سيطرة مجنونة. وقلت لنفسي إنّي أعجب بهٰذه المرأة وأرغب فيها ولٰكنّني لن أحبّها. وتهيّأ لنا المكان في طريق سقّارة. وتخيّلت خلوة حمراء مشتعلة. ولٰكن ما إن أغلقتُ الباب وراءنا حتّى وجدتني بحضرة امرأة

جديدة. جلست مسترخية على كنبة، حتّى التلفيعة الحريريّة لم تنزعها من حول عنقها. تبدّت هادئة مستسلمة تطالعني بعينين ملؤهما الحنان، ورحت أداعب أطرافها وألثم فاها فتبادلني عواطفي بابتسامة محبّة قانعة. ولّما قدّمت لها كأسًا اعتذرت فلمّا دعوتها إلى الفراش همست في أذني:

ـ ليتنا نمضي وقتنا في سعادة بريئة هادئة...

فقلت محتجًّا:

ـ لا أصدّق...

فنهضت وهي تقول:

ـ ولٰكن لا تعتبره غاية في ذاته...

وبالرغم من أنّ التلاقي كان جذّابًا إلّا أنّي آمنت بأنّه كان من الممكن لها حقًّا أن تمضي الوقت في سعادة بريئة هادئة. ثمّة تناقض كبير بين المرأة اليسيرة المستجيبة لدى أوّل إشارة وبين هٰذه المرأة الرقيقة الزاهدة. وقلت لها:

ـ أنت شخصيّة غريبة!

ـ حقًّا!.. لِمَ؟

ولّما تلكّأت في الإجابة سألتني:

ـ هل تجد صحبتي عزيزة محبّبة؟

ـ بكلّ جدارة.

ـ هٰذا ما يهمّني حقًّا.

وتتابعت اللقاءات أسبوعيًّا. بلا حبّ حقيقيّ من ناحيتي وبلا دافع يبرّر الخيانة من ناحيتها. ولّما رُفعت الكلفة بيننا قلت:

ـ أعترف لك بأنّني ـ في كازينو المنتزه ـ توهّمت أنّك امرأة لعوب!

فسألتني باهتمام:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني معنًى بريئًا!

ـ سامحك الله!

فتناولت يدها بين يدي وقلت:

ـ إنّي أتساءل عمّا يدفعك إلى حضن رجل آخر؟

ـ آخر؟!

ـ أعني غير زوجك؟...

فقالت وهي تسبل جفنيها في استياء:

ـ لذٰلك يضيق الناس بالمحقّقين!

ولٰكن باطّراد اللقاءات استأنستها العادة فاستسلمت بحرّيّة إلى تيّار الذكريات الحميمة. وفي مناسبة ما قالت بصدق:

ـ تزوّجت بعد قصّة حبّ، حبّ عميق...

وكانت تعمل ممرّضة وكان هو طبيب امتياز.

ـ تبادلنا حبًّا جميلًا كاملًا، وأصارحك بأنّني استسلمت في أوّل لقاء...

ـ وتزوّج منك؟

ـ كان شهمًا، كان محبًّا صادقًا.

ـ ما أجمل ذٰلك!

ـ وعشنا طويلًا كأسعد ما نكون فأنجبت له ثلاثة أولاد.

وسكتت فسألت:

ـ ثمّ ماذا؟

فأجابت كمن تفيق من حلم:

ـ لا شيء.

ـ كيف حالكما اليوم؟

ـ حال عاديّة!

ـ ماذا تعنين؟

فقالت ضاحكة:

ـ كلّ ذٰلك الوقت الضائع على حساب حبّنا!

ـ ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته؟

ـ لِمَ لا؟!

لم يعد يربطني بها إلّا المجاملة ثمّ العادة. وازدادت هي رقّة ومودّة وحنانًا حتّى قالت لي يومًا:

ـ لا أتصوّر حياتي بدونك.

فوجدت أنّ أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة ولكنّها تساءلت في عناد:

ـ وأنت؟

ـ مثلك وأكثر.

ـ لم تقل لي صراحة إنّك تحبّني.

فقلت:

ـ لكنّي أحبّك بالفعل وهو الأهمّ.

ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته القصيرة. تحدّثتْ عنه بموضوعيّة كأنّه ظاهرة لا تربطها

بها علاقة حميمة. ولكن باحترام لا مزيد عليه. وفي ذلك التاريخ كنت بدأت أتردّد على صالون الأستاذ جاد أبو العلا، وهناك التقيت بالدكتور صادق عبد الحميد! وقصّ علينا جاد أبو العلا كيف زار الدكتور في استشارة طبّيّة وكيف توثّقت العلاقة بينه وبين الدكتور. وبدأت بيننا صداقة روحيّة نادرة، فقدّمته بدوري إلى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وأدهشني أن أرى فيه رجلًا يماثل درّيّة في السنّ أو لعلّه يصغرها ببضع سنوات، وسيمًا ذكيًّا ذا طموح روحيّ لا حدّ له. هكذا بدأت صداقتنا بعد توطّد علاقتي بزوجته بأربعة أشهر! . وضايقني ذلك وأزعجني لحدّ العذاب. ولم تتوقّع درّيّة ذلك فذهلت له. ولاحظت دون جهد ارتباكي وقلقي، وجوّ الكآبة الذي خيّم بثقله فوق لقاءاتنا فخنقها. وبدا أنّ تيّار الحياة يمضي إلى زاوية مسدودة ليشهد موته. قالت لي بتوسّل:

ـ انسَ تمامًا أنّه زوجي، ألم يكن من المحتمل ألّا أشير بكلمة إلى هويّته أو اسمه؟

فقلت بارتباك:

ـ لا فائدة من افتراض احتمالات لا أصل لها...

ـ يجب أن نحافظ على علاقاتنا فهي أهمّ من كلّ شيء.

فقلت بحزن صادق:

ـ إنّي أتعذّب.

فقالت بانفعال غير معهود:

ـ لعلّه لو علم بعلاقتنا ما اكترث لها!

فنظرت إليها بذهول غير مصدّق فقالت:

ـ إنّه لا يحبّني، لم يعد يحبّني منذ ثلاثة أعوام أو أكثر، صدّقني...

ـ إنّي أصدّقك وأنا آسف...

ـ وهو يعاشر امرأة أخرى، ولولا تفانيه في حبّ أولاده لهجرنا ليتزوّج منها!

ـ إنّي آسف يا درّيّة...

ـ ماذا تعني بقولك آسف؟

ـ آسف لحالك، ولحالي التي لا أحسد عليها...

ـ لو كنت تحبّني لما شعرت بأسف على الإطلاق!

ـ الواقع أنّي لا أطيق ذلك الموقف بحال...

أشاحت بوجهها عنّي محمرّة العينين وتمتمت:

ـ أنت لم تكد تعرفه، هل تنشأ الصداقة من العدم؟

ثمّ بحزن شديد:

ـ والحبّ أقوى من الصداقة ولكنّ الحقيقة أنّك لا تحبّني!

لم أجد ما أقوله فصمتُّ. وبالصمت أسدل الستار على علاقتنا الحزينة المفتعلة. وعندما غادرنا عشّنا تأمّلت شخصها الناضج الذي يعاني أحرج فترة من العمر تحت وطأة الهجران والخيبة فتقلّص قلبي ألمًا وحزنًا. ولفحنا في الخارج هواء بارد كلسع السياط، في ظلمة الليل...

رضا حمادة

يرتبط في الخيال بالعبّاسيّة، عبّاسيّة الحقول والحدائق، مثل جعفر خليل وخليل زكي وحنان مصطفى. ولكنّه يرتبط أيضًا بقيم ومبادئ لا يستهان بها، وبعنف تيّار الحياة في صعوده وهبوطه، وبإرادة الإنسان حيث تتوثّب للصراع والتحدّي وتجاوز اليأس والأحزان. وهو عملاق كصديقنا سرور عبد الباقي، امتاز بالعملقة حتّى ونحن غلمان نلعب في غابة التين الشوكيّ، ولعلّه من القلّة التي واجهت عنف خليل زكي برباطة جأش. وعُرف منذ عهد المدرسة الابتدائيّة بالاهتمام الشديد بالوطنيّة. كان يتكلّم عن سعد زغلول أكثر ممّا يتكلّم عن حسين حجازي أو شارلي شابلن أو المصارع عبد الحليم المصري. ولعلّه ورث ذلك عن أسرته التي اشتهرت في شارعنا بالوطنيّة والعِلْم فكان أبوه مدير عامّ مستشفى الحمّيات بالعبّاسيّة، وكانت أمّه مدرّسة من السابقات إلى التعلّم ومن طلائع النهضة النسائيّة، ونبغت أخته في العلوم فأرسلت في بعثة إلى إنجلترا. كما تفوّق أخوه في مدرسة الحقوق. ولكنّ أسرته اشتهرت أيضًا بالكوارث التي حلّت بها، فماتت أمّه وهو طفل، وفُصل أبوه من الخدمة لفرط نشاطه في خدمة الوفد المصريّ في إبّان

تكوينه، وماتت أخته في إنجلترا، واستُشهد أخوه في ثورة ١٩١٩. وكان يفاخر بأخيه واستشهاده وبنوّه بذكائه واجتهاده حتّى ضاق خليل زكي بذلك فقال لي مرّة:

- لِمَ قتل هٰذا المجنون نفسه؟

فقلت ببراءة:

- في سبيل الاستقلال. . .

فتساءل ساخرًا:

- وهل كان الإنجليز يقيمون فوق صدره؟!

ولّما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع لهم في البيت. وكان يضيق بالبيت ويعتدّه سجنًا بلا قضبان، ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب. اعتكف الوالد في البيت عقب فصله من الخدمة، لا يغادره إلّا إذا استُدعي لاستشارة خاصّة في أحد البيوت، والظاهر أنّه كان يريد أن يخلق من رضا شخصًا يعوّضه عن جميع خسائره، فاشتدّ في معاملته، وحمّله ما يطيق وما لا يطيق، وطالبه بالعلم والأخلاق والوطنيّة والتفوّق، وراقبه مراقبة بلا هوادة ولا تسامح. لذلك نشأ رضا متطهّرًا متقشّفًا مجتهدًا مطّلعًا طموحًا ولكنّه افتقد دائمًا الحنان والعذوبة. وكثيرًا ما كان يقول:

- حدّثني عن أمّك، كيف تحبّها وكيف تحبّك!

ويتغنّى بالنشيد المعروف:

أيّها الطائر أهلا بمحيّاك وسهلا

ويتهدّج صوته وهو ينشد:

أمكن استودعتني شوقها إذ ودّعتني

وخطابًا حمّلتني لفظه يشفي العليل

ومرّة أهانه أبوه في الطريق لإهمال تورّط فيه فتأثّر تأثّرًا بالغًا. وسرنا وهو صامت حتّى وقفنا عند السبيل كعادتنا كلّ أصيل في العطلة. وغاب عنّا بعض الوقت ثمّ رجع فلم يكد يلحظ أحدنا شيئًا. وبغتة تكوّر وهو يقبض على بطنه بيدين متشنّجتين ويصرخ من الأعماق. وانطرح على الأرض تحت شجرة، وراح يتمرّغ في التراب، ومن شدّة الألم يعضّ أصول الشجرة الضاربة في الأرض، واجتمعنا حوله فزعين واجتمع الناس. وما لبث أن جاءت الشرطة والإسعاف فحُمل إلى قصر العيني حيث أسعف من حمض الفنيك الذي شربه بقصد الانتحار. شدّ ما هزّني الحدث والمنظر. وسألته فيما بعد:

- كيف هانت عليك نفسك؟

فابتسم في حزن وتمتم:

- ألم ترَ كيف أهانني أمامكم؟

وأعتقد أنّ تلك المحاولة المشئومة غيّرت من سياسة أبيه نحوه كما أنّ تفوّقه النادر وفّر له المزيد من التقدير والاحترام. ولم يمنعه تفوّقه الدراسيّ من الإسهام في النشاط السياسيّ الذي خفّت حدّته وتغيّر لونه بعد انحسار موجة الثورة العارمة. فقد بلغنا أولى درجات الوعي بعد أن انقلبت الثورة الدامية أسطورة مقدّسة من أساطير الغيب. وكان كلٌّ منّا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مثير ولا شيء أكثر من ذٰلك. وقد اشتركنا معًا في المظاهرة التي قادها نادر برهان تأييدًا لسعد زغلول - وهو رئيس وزارة - في اختلافه الدستوريّ مع الملك فؤاد. وتوطّدت علاقته في الثانويّة مع بدر الزيادي لتقارب مشاربهما. ولّما تولّى محمّد محمود الحكم قال بدر:

- لم يكن لنا من عدوّ في الماضي إلّا الإنجليز.

فقال رضا حمادة:

- والملك.

- هما شيء واحد.

- موافق

فقال بدر:

- وها هو عدوّ جديد ينضمّ إلى الميدان. . .

ولّما قُتل بدر الزيادي في فناء المدرسة حزن رضا حزنًا شديدًا، وقال لي:

- مات بدر على حين يحيا خليل زكي!

فقلت له بحزن:

- ومحمّد محمود يحيا أيضًا!

وتقدّم رضا في نشاطه السياسيّ فجالس مصطفى النحّاس في بيت الأمّة ضمن وفود الطلبة. وقُبض عليه في حكم محمّد محمود، وكاد يُقتل في عهد صدقي، وفي كلّيّة الحقوق صار من زعماء الطلبة فاستمعت

مرّات إلى خطبه الحماسيّة في الحرم الجامعيّ. كان مثالّا للوفديّ الصادق في إيمانه بالاستقلال والدستور والحياة الديموقراطيّة. وكان ينظر بامتعاض شديد إلى مجرى السياسة في مصر حتّى آمن بفكرة نبتت في يقينه. قال:

- لقد فقد الوفد أو قُل الشعب قوّته الضاربة يوم قُبض على زعماء جمعيّة الكفّ السوداء...

فقلت ببراءة:

- ولكنّ الوفد يدعو إلى الجهاد المشروع!

فضحك وقال:

- دعك ممّا يقولون...

ثمّ قال بحنق:

- لا نجاة لنا إلّا بإبادة السراي وأحزاب الأقلّيّة ثمّ نواجه الإنجليز كتلة واحدة!

وقد أحبّ ثريّا رأفت وأراد أن يخطبها وهو طالب بكلّيّة الحقوق. لم يصارحني بذلك في حينه كما لم أبح له بعلاقتي بها في حينها ولكنّي عرفت الحكاية عقب النكسة! كان رضا ضمن المجتمعين في مكتب سالم جبر الذي تراءت فيه ثريّا رأفت. وتقابلنا بعد ذلك في بيته بمصر الجديدة فسألني:

- أتذكر السيّدة التي كانت في مكتب سالم جبر؟

فقلت باهتمام:

- ثريّا رأفت...

فضحك قائلًا:

- كانت من أهل السكاكيني وقد أحببتها وأنا طالب في الحقوق حتّى عزمت على خطبتها لولا...

- لولا؟

- لولا أن رأيتها بصحبة صديقنا عيد منصور!

وعند ذاك قصصت عليه قصّتي معها!

وتخرّج رضا في الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة. ومات أبوه تاركًا له ثروة لا بأس بها. وبزغ نجمه ككاتب سياسيّ كما رسخت قدمه في المحاماة. وانتُخب نائبًا عن دائرتنا في انتخابات ١٩٤٢، وكانت موقعة ٤ فبراير قد هزّتني من الأعماق ورمت بوفديّتي في أزمة خانقة. وصارحته بذلك فقال لي:

- إنّي أعتقد أنّ مصطفى النحّاس قد أنقذ الوطن والعرش!

فقلت بأسى:

- تصوّر أنّ الدبّابات البريطانيّة تجيء بزعيم البلاد رئيسًا للوزارة!

فقال بإصرار:

- لقد كان الإنجليز أعداءنا ولكنّهم اليوم يقاتلون في الجانب الذي نرغب في أن ينتصر...

- ثمّة خطأ يفري روحي كالسمّ!

فسألني:

- أتودّ للفاشستيّة أن تنتصر كما يودّ الملتفّون حول الملك؟

- كلّا طبعًا...

- فانظر إلى ٤ فبراير إذن على ضوء ذلك الضوء.

وانتُخب مرّة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة. وكانت تعتريه نوبات حزن شديد كلّما شعر بأنّ الوفد لم يعد على المستوى الرفيع الذي طالما تربّع عليه بجدارة، أو أنّه تسلّل إليه خور في الإرادة والاستقامة وفتر حماس الشعب له. وكم اهتزّ طربًا يوم ألغى مصطفى النحّاس المعاهدة ثمّ أعلن الجهاد، يوم سرت في الوادي نفحة من روح ١٩١٩، ثمّ تتابعت الخيبات كالمطارق حتّى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. وتحمّس لها فقال لي:

- سيعود الوفد بلا منازع!

ولمّا سارت الثورة في طريقها المرسوم أمل أن تتّخذ من جماهير الوفد قاعدة لها. حتّى إذا صدر قرار حلّ الأحزاب تقوّضت آماله وقال لي:

- نحن مقبلون على حُكْم عسكريّ لن يعرف مداه إلّا الله.

فقلت له بإخلاص:

- اعتزل السياسة وركّز في مهنتك!

فقال ضاحكًا:

- لا خيار!

ولكنّ وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به في موضع الشبهات فاعتُقل أكثر من مرّة. وكان قد تزوّج عام ١٩٤٠ فأنجب ابنًا وحيدًا قبل أن تُصاب زوجه بما منعها من الإنجاب. وطالما أعجبتُ بابنه لذكائه وحيويّته. ولمّا اعتُقل رضا تعرّض لحملة تشهير كبقيّة

زملائه فعانى ابنه ـ وكان طالبًا في المدرسة الثانويّة ـ تجربة مريرة بين أقرانه. وكان شديد الحساسيّة فامتُحن بأزمة نفسيّة عنيفة أتلفت أعصابه. وسرعان ما كره المدرسة، واعتكف في بيته، ومضت حياته من سيّئ إلى أسوأ حتّى اضطرّ أبوه إلى إيداعه مستشفى الأمراض العقليّة. ولم تحتمل أمّه الصدمة فشلّت وماتت في نفس العام. هٰكذا وجد رضا نفسه كهلًا وحيدًا غارقًا في الأحزان، وهٰكذا أدركته لعنة أسرته.

قلت لنفسي:

ـ انتهى رضا حمادة.

ولٰكنّه لم ينته في الواقع. غادر حيّه القديم إلى مصر الجديدة، وكرّس حيويّته لمهنته ولمكتبه. ولعلّ العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سني حياته. إنّه اليوم من أبرز المحامين. وهو عاكف على تأليف ما سمّاه بدائرة معارف العلوم الجنائيّة. وقد ضمّن مقدّمتها من الآراء الفلسفيّة والنظرات النفسيّة ما يشهد له بالموسوعيّة في المعرفة والمقدرة الفائقة في التفكير، وليس هٰذا بالجديد عليّ فقد سمعته يناقش الأساتذة ماهر عبد الكريم وسالم جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنّه موسوعة في الفلسفة والسياسة والأدب، أمّا عن القانون فهو حجّة من حججه المعاصرة بلا جدال. غير أنّ إعجابي الأوّل به إنّما يرجع إلى شخصيّته الأخلاقيّة قبل كلّ شيء، وقليلون جدًّا مَن عرفتهم يماثلونه في ذٰلك مثل كامل رمزي وسرور عبد الباقي. ولا غرابة في أن تبهرني الأخلاق البنّاءة كرجل عاصر فترة انهيار في الأخلاق والقيم لا نظير لها حتّى خُيّل إليّ في أحيان كثيرة أنّني أعيش في بيت كبير للدعارة لا في مجتمع. ففي رضا حمادة عرفت رجلًا نقيّ النوايا والسلوك، نزيهًا مخلصًا، آمن طيلة حياته بمبادئ لا يحيد عنها كالحرّيّة والديمقراطيّة والثقافة إلى عقيدة دينيّة مستنيرة متطهّرة من شوائب التعصّب والخرافة.

أجل وقف موقف الرفض من أيّ رأي يساريّ، وعجز عن التطوّر مع الزمان، فعاصرته أوّل العهد بصداقته وهو مثال للشابّ الثوريّ ثمّ عاصرته في شيخوخته وهو محافظ عنيد وإن لم يعترف بذٰلك، فما برح يردّد أنّ الليبراليّة هي آخر كلمة مقدّسة في تاريخ الإنسان السياسيّ. ولعلّ شخصيّته الأخلاقيّة هي التي سندته حيال الكوارث التي عصفت بحياته، وأيّدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عَبَدَهم مثل الحرّيّة والديمقراطيّة ومصطفى النحّاس وزوجته وابنه، توارى كلّ جميل من دنياه فلم يتهدّم، ولٰكن ثابر على العمل بقوّة مضاعفة، وجابه الحياة بإرادة من فولاذ، وظلّ على علاقاته الطيّبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس. وكلّما أقبل عليّ بقامته المديدة ورأسه الأبيض، أو أمتعني بأحاديثه المتنوّعة، انبعث في أعماق روحي نشاط متألّق بالأفراح فأجدّد إعجابي به وبالحياة المباركة التي خلقته...

زهران حسّونة

ثمّة أصحاب من نوع خاصّ، أصحاب يرتبطون بمكان ما لا يتجاوزونه، حلا لي يومًا أن أدعوهم أصحاب المقاهي. في المقهى نتصافح بحرارة ونتجالس ونتسامر ثمّ يذهب كلّ إلى سبيله. ومنهم مَن يختصّ بصفة تستحقّ التأمّل فيترك أثرًا قبل أن يذوب في النسيان. من أولٰئك زهران حسّونة. عرفته في مقهى ركس في أيّام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردّد عليه من حين لآخر بصحبة جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوي الفحّام وعيد منصور. كان يزور المقهى مع آخرين من صحبه في يوم الأحد، وكان بدينًا متوسّط القامة كبير الرأس جدًّا كأنّ به عاهة. وعن طريق النرد تعرّفنا بهم ثمّ صاحبناهم. قال يعرّفنا بنفسه:

ـ كنت موظّفًا بوزارة التجارة والصناعة ثمّ سوّيت معاشي لأشتغل في الأعمال التجاريّة...

وكان إذا حضر وقت الصلاة قام هو وصحبه فانتحوا جانبًا فيما وراء البار وأدّوا الصلاة جماعة وهو يؤمّهم. وهو يؤمّهم لأنّه الوحيد بينهم الذي أدّى فريضة الحجّ. والحقّ أنّ الدين كان يشغل حيّزًا من أحاديثهم لا يستهان به، وهي تفصح عادة عن إيمان بسيط صادق تختلط فيه العقيدة بالخرافة بالأساطير الشعبيّة ولٰكن لا شكّ في صدقه. وكانت صحبتهم ممتعة، وكانوا كرماء، وفيهم شهامة أولاد البلد. غير

أنّ عيد منصور قال لنا يومًا:

- جئت لكم بمعلومات طريفة عن الحاجّ زهران حسّونة.

فسألناه عنها فقال:

- لم يستقل ولكنّه اضطرّ إلى الاستقالة لسوء سمعته...

- أيّ نوع من سوء السمعة؟

- الرشوة!

وعيد منصور يسرّه دائمًا أن يثبت أنّ جميع الناس لا خلاق لهم مثله! قال وهو يضحك:

- إنّي أشكّ في جميع الناس ولكنّي أشكّ بصفة خاصّة في المتديّنين!

فقال رضا حمادة:

- ولكن ليس كلّ متديّن منافقًا!

فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر:

- النفاق درجة لا يرتقي إليها عمّ زهران حسّونة!

فضحكنا فراح يفسّر قوله:

- النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الإيمان ولكنّه أغبى من أن يكون كافرًا، أنا لا أشكّ في إيمانه...

- إذن لعلّه تورّط في الرشوة تحت ظروف ضاغطة!

- لعلّه...

ولاحظنا أنّ زهران حسّونة يعمل بهمّة في السوق السوداء، في تجارة الثقاب والويسكي، ثمّ اشتغل في الموادّ التموينيّة، ولم يكن يخفي ذلك بل كان يبدي استعداده لتقديم الخدمات لنا، فلم أملك أن أسأله:

- ألا ترى يا حاجّ في العمل في السوق السوداء ما يناقض ورعك؟

فأجابني بثقة:

- للدنيا أسلوب في المعاملة وللآخرة أسلوب آخر!

- ولكنّ الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء.

فقال باطمئنان:

- إنّي أكفّر بالصلاة والصوم والزكاة فماذا تريد؟

فقلت لأصحابي بعد انصرافه:

- الرجل يرتكب الإثم عن علم لا عن جهل أو نفاق!

فقال عيد منصور:

- ويثرى ثمّ يلجأ إلى الدين ليكفّر فتتحوّل سرقاته بقدرة قادر إلى ربح حلال، الدين عند عمّ زهران هو المشجّع الحقيقيّ على ارتكاب كافّة الآثام!

ثمّ وهو يضحك عاليًا:

- ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضي ووجهه ينوّر بالإيمان والطمأنينة!

وكنت أتابعهم وهم يصلّون في المقهى بعين متأمّلة ساخرة، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعًا وامتثالًا، وأتذكّر كم أنّهم أوغاد لصوص لا يحقّ لهم أن يبقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض. ولم أجد جدوى في مناقشاته فدائمًا أراه مطمئنًّا واثقًا من نفسه، يؤمن بالشرّ كما يؤمن بالخير، ويطيع الشيطان كما يطيع الله، ويتردّد بينهما تردّد التاجر الماهر في السوق الحرّة الذي يحرص في النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه. وجعلني ذلك أتلمّس وجوه الأعذار لأوغاد مثل خليل زكي وسيّد شعير بل وعيد منصور ممّن لم يتعاملوا معاملة جادّة مع دين فانطلقوا في الحياة بوحي غرائزهم وعقولهم العمليّة الجافّة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسي. ولذلك أيضًا تردّيت كثيرًا فريسة لكآبة روحيّة معتمة كدت أرفض تحت وطأتها التجربة الإنسانيّة كلّها. وكانت تلك المشكلة مدار أحاديث لا تنتهي بيننا. قال رضا حمادة:

- الظاهر أنّه لا يوجد تاجر شريف!

فقال عيد منصور:

- لا يوجد إنسان شريف...

فتساءلت:

- ماذا عن دَور الدين؟

وتساءل عيد منصور:

- لِمَ نتمسّك بالأخلاق ما دامت تقود إلى الفشل؟

وعاشت تلك المشكلة معي أعوامًا وأعوامًا حتّى ناقشتها في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم، بدءًا من نقد الواقع المصريّ وانتهاء إلى دراسة الخير والشرّ في ذروتها الفلسفيّة. ويدعونا ذلك إلى تذكّر الدكتور إبراهيم عقل وفلسفته في المثل الأعلى وسلوكه المناقض لفلسفته! وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر:

- مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التي

قطعها الإنسان من الغابة إلى القمر!

أو قول رضا حمادة:

ـ توجد سجايا قيّمة جديرة باسترداد الثقة، مثل تفاني الرجل في خدمة أسرته، مثل الذكاء الوقّاد المولع بالحقيقة، مثل بعض مواقف البطولة النادرة.

وقوله أيضًا:

ـ لا تغالِ في المثاليّة وإلّا مُتَّ تقزُّزًا!

وأثرى زهران حسّونة في أثناء الحرب ثراء فاحشًا فارتفع إلى مرتبة أصحاب الملايين. وأسّس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولكنّي أغضيت عن التشهير به مذ قُتل ابنه الطالب بكلّيّة الهندسة في معركة القنال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦. سار الرجل وراء النعش معتمدًا على ذراعَي صديقين محمرّ العينين شارد اللبّ. واقتصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات في المناسبات، ولكنّ عيد منصور وكّد لي أنّه ما زال يجمع النقود ويؤدّي الصلاة، وكان أوثقنا صلةً به بحكم أعماله التجاريّة. واستمرّ ازدهاره الماليّ في صعود، وأقام في قصر المعادي، وتزوّج في الخمسين من فتاة في العشرين بحجّة زهد زوجته الأولى في المسرّات الزوجيّة عقب وفاة بكريْها، ولكن ظلّ الحجُّ نزهته الروحيّة كلّ عام، وازداد نشاطه بعد الثورة. لم يكن من الملّاك الزراعيّين. ولكنّ شركته أُممت فيما أُمّم من شركات عام ١٩٦١، وهكذا تقوّض ذلك البناء الشامخ الذي نُحتت أحجاره من الذكاء والغشّ والإرادة والانتهازيّة والإيمان والفجور. وكان رضا حمادة يعلّق على الأحداث بامتعاض شديد، مؤكّدًا موقفه الثابت من الثورة، فقلت له:

ـ ولكنّك عرفت الرجل تمامًا.

فقال:

ـ ولو، إنّها مسألة مبدأ...

فقلت:

ـ ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنّه نظام بارك ذلك كلّه...

فقال بمرارة:

ـ انتظر حتّى يتبيّن لك النظام الجديد، لقد كان زهران حسّونة في البدء موظّفًا كهؤلاء الموظّفين الذين انقضّوا على شركته ليديروها!

ولمّا أفاق الحاجّ زهران من الصدمة باع قصره ففتح مقهى في مصر الجديدة، وضمن لنفسه مستوى من المعيشة لا بأس به، وهو يتظاهر دائمًا أمامنا بالشجاعة ورباطة الجأش، ويعلّق على الأحوال بعبارات ذات مغزى دينيّ مثل الحمد لله، والأمر لله، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، له في ذلك حكمة، ويذهب به الحذر أحيانًا إلى الثناء على القرار الذي جرّده من ثروته فيقول:

ـ عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس.

ولكن تفضحه أحيانًا ومضات فرح للكوارث لا يُحسن مداراتها، مثل الأزمة الاقتصاديّة وورطة اليمن، وأخيرًا ٥ يونيه الذي دار رأسه فيه بنشوة النصر! لقد لاطمتني في ذلك اليوم المشئوم تيّارات متناقضة كاد يختلّ لها عقلي، ولعلّه ممّا زاد إكباري لرضا حمادة أنّ المأساة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا، وأنّه نسي في ذلك اليوم كلّ شيء إلّا حبّه العنيد لوطنه...

زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيدًا بقسم اللغة العربيّة تمهيدًا لإرساله في بعثة إلى فرنسا. وسمعنا عنه ثناء طيّبًا من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرّة:

ـ إنّه مثال للفلّاح إذا نبغ.

وحدّثني رضا حمادة عنه فقال:

ـ عرفته في بيت الأمّة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمنود ويعرف مصطفى النحّاس معرفة شخصيّة.

وسافر في البعثة عام ١٩٣٢ ثمّ رجع دكتورًا عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فعُيّن مدرّس (ب) بهيئة التدريس الجامعيّة. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠ تركّز نشاطه الفكريّ في الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريّات النقد العامّة. ونقّاد من الشرق والغرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير وإليوت والشعراء الأندلسيّين. وكان يتردّد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطّدت بيننا صداقة متينة. وتزوّج في أثناء الحرب من فتاة يونانيّة كانت تعمل في محلّ فينوس فأنجب منها ولدين وبنتًا. وكان أستاذًا

جامعيًّا بالمعنى الدقيق، يكرّس حياته للبحوث الأكاديميّة، ولا حديث له خارج مضامينها، فلم أعرف له اهتمامًا عامًّا آخر. وحاولت أحيانًا أن أستشفّ فيه الطالب الوفديّ القديم فلم أفلح، ولٰكنّه بخلاف الكثيرين كان يتمنّى النصر للحلفاء، ربّما حبًّا في الديمقراطيّة كما قال، أو ميلًا مع عواطف زوجته، أو تعصّبًا لفرنسا التي عشقها من أعماق قلبه. وفي عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقّع أبدًا. فرشّح نفسه على مبادئ الوفد في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبيّة ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكنّ الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفّظه الشديد:

ـ إنّه قرار يستحقّ الأسف.

وقال لي رضا حمادة:

ـ لعلّه يحلم بوزارة المعارف.

ولٰكن قد يطول الزمن حتّى يتحقّق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير ومكافأة النيابة التي لا تتجاوز الخمسين الجنيه؟. قال رضا حمادة:

ـ ستخبرنا الأيّام!

وأخبرتنا الأيّام بأسرع ممّا تصوّرنا، فظهرت مقالاته السياسيّة في الجرائد الوفديّة، بل برز ككاتب سياسيّ من الدرجة الأولى، إلى مقالات في النقد في المجلّات الأسبوعيّة. وحدث أن كان لزهران حسّونة أعمال في الحكومة تحتاج في إنجازها إلى واسطة فطلب منّا أن نقدّمه إلى صديقنا النائب ففعلنا، ومن يومها توطّدت بين الاثنين علاقة متينة. ثمّ مضت تترامى إلينا همسات عن تصرّفات الدكتور زهير كامل غريبة بل مريبة. وقد سألت رضا حمادة يومًا:

ـ ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟

فأجابني بامتعاض شديد:

ـ يقال إنّه أصبح سمسار وظائف...

ثمّ وهو يهزّ رأسه في أسف:

ـ ويقال إنّه يقدّم خدمات لزهران حسّونة وإنّه ينال عن خدماته مكافآت سخيّة...

ـ وهل صحيح ما يقال؟

ـ نعم للأسف الشديد، وإنّي أتساءل أحيانًا والحزن يمرّر ريقي أيّ فارق هناك بين الوفد وبين غيره من الأحزاب؟!

ـ ولٰكن هل تتصوّر أنّ زهير كامل نبذ الأستاذيّة في الجامعة ليمارس النهب والفساد؟

ـ إنّي أتصوّره وغدًا من البدء غير أنّه كان يتحيّن فرصة لاستغلال مواهبه حتّى وجدها في السياسة...

وجلسنا يومًا نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا العتيد. ولّما أُقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولٰكنّه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسيّ وناقد ولٰكنّه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصّة وأنّه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة. واجتمعنا يومًا عند الأستاذ سالم جبر، وكان منفعلًا ويقول:

ـ ما هٰذا الذي يحدث بالوطن؟.. الملك جنّ، وكلّ شيء ينهار...

فقال الدكتور زهير كامل:

ـ ما أشبه حالنا السياسيّ بالدكتور إبراهيم عقل الذي بدأ باحثًا نابهًا وانتهى بالدروشة!

وقال رضا حمادة:

ـ أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيّب يزحف عليه العجز والتدهور...

فقال سالم جبر:

ـ لا يمكن أن تدوم الحال على هٰذا المنوال فماذا عن الغد؟

فقال زهير كامل:

ـ ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطرّ الملك إلى استدعائه عاجلًا اتّقاء لانفجار ثورة شاملة!

فقال سالم جبر:

ـ الثورة أفضل من الوفد...

فقال رضا حمادة:

ـ وفي الانتظار الإخوان والشيوعيّون...

فقال زهير كامل بحدّة:

ـ لا أغلبيّة لهٰؤلاء أو أولٰئك.

فقال سالم جبر:

ـ الوطن غير مؤهّل للشيوعيّة ولا عقيدة هناك جديرة باستيعاب الشباب المتفتّت بين الثورة والانحلال!

وقامت ثورة يوليو متحدّية كلّ تخمين. وسرعان ما وجد زهير كامل نفسه في مأزق لم يعمل له حسابًا. أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحيّر ماذا يفعل وماذا يكتب. ولـمّا اتّجهت السياسة العامّة نحو تصفية الأحزاب وتركّز الهجوم عليها بصفة عامّة وعلى الوفد منها بصفة خاصّة باعتباره القاعدة الشعبيّة القديمة، إذ بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية في حياته، فانقضّ بمقالات من نار على الوفد مُرْجِعًا إلى فساده كلّ فساد نخر في عظام الوطن. وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم في صدور الوفديّين ولكنّ أحدًا لم يستطع أن يقلّل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعيّ الوقور فضلًا عن اشتراكه في برلمان الوفد الأخير. وتعيّن صحفيًّا في إحدى الجرائد الكبرى، وسرعان ما اعتُبر قلمه من أقلام الثورة، كما عُهد إليه بتحرير صفحتها الأدبيّة فقاد نقد الأدب المعاصر. وبسبب مسئوليّاته الجديدة، وربّما خجلًا من انقلابه المفاجئ تجنّب إلى حين التردّد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وتساءل الدكتور ماهر:

ـ ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة:

ـ أرأيت ماذا فعل الوغد بنفسه؟

فقلت:

ـ لعلّ عذره أنّه فعل ما فعل لحساب قوّة وطنيّة لا شكّ في وطنيّتها.

وعاد زهير كامل للظهور في مجالسه المفضّلة كصالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومكتب سالم جبر فعدنا للتلاقي المنتظم كما كنّا، وعاودت الاطّلاع على فؤاده. قال:

ـ لم تكن ثمّة جدوى من المقاومة، ولِمَ أقاوم؟

وقال أيضًا:

ـ كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئنّ الضمير!

فقلت:

ـ إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟

فقال وهو يتفحّصني بعينيه الذكيّتين:

ـ إنّها حركة مباركة منعت بقوّتها الذاتيّة اشتعال ثورة لاحت مخالبها في الأفق!

ـ يا لها من فكرة!...

ـ وأعترف لك بأنّني لست ثوريًّا، فكما لا أوافق على رجعيّة الإخوان فإنّي لا أوافق أيضًا على ثوريّة الشيوعيّين، وأومن بالإصلاح الرزين الذي نتأثّر خطاه، وهو طريق الوفد أيضًا لو قُيِّض لجناح شبابه أن ينتصر...

ولكنّي لاحظت بدقّة المراقبة أنّ عواطفه لم تنسجم تمامًا مع أفكاره، وأنّ تحمّسه الظاهر كان لتبرير انقلابه قبل كلّ شيء. وعلى مدى الأيّام اضطرّ إلى أن يعترف لي قليلًا:

ـ ألم يكن الأفضل أن يتمّ ما تمّ بيد انتفاضة شعبيّة بقيادة شباب الوفد!

فقلت:

ـ المهمّ أن يتمّ ما تمّ.

فقال بعد تأمّل:

ـ ولكنّ الإنسان لا يستطيع التخلّص من عقليّته الخاصّة ولذلك فقُلْ على الحرّيّة السلام!

وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلًا في ذلك الوقت فجاء ذكره فقال زهير:

ـ ربّنا معه.

فقلت بثقة:

ـ إنّي أعتقد ببراءته.

ـ لِمَ؟

ـ إنّي من أعلم الناس بنقاء أخلاقه...

ترى أضايقه قولي؟.. على أيّ حال قال:

ـ على ذلك الجيل من السياسيّين أن يتّخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلًا يُحتذى...

فدُهشت لقوله وقلت:

ـ الدكتور إبراهيم عقل يعاني حال دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسي في لقاء عابر معه بحيّ سيّدنا الحسين!

ـ هذا ما أعنيه تمامًا، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التي قضت على ابنيه...

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلّب عليها

فعليك بالدروشة، أيّ نوع من الدروشة، أمّا المقاومة غير المجدية فترمي بك إلى المعتقل!

وزهير كامل الناقد عانى انقلابًا من نوع آخر في نفس الوقت. فبكلّ استهانة مضى يتاجر بالنقد. مضى يتقبّل الهدايا والنقود ويقيّم الفنّ والفنّانين تبعًا لذلك. وبازدهار الحركة المسرحيّة والإنتاج السينمائيّ تضاعفت أرباحه فشيّد فيلّته الأنيقة بالدقّي واقتنى المارسيدس، وبخلاف اعتداله القديم أفرط في الطعام والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذّر معها التعرّف عليه من أوّل نظرة. لم يبقَ من مزاياه القديمة إلّا ثقافته الواسعة وذوقه المدرّب في شتّى ألوان الفنّ. ورغم الثوريّة التي اتّخذها مهنة كان إذا ذكر الوفد تجلّى الحنين في عينيه، بل علمت أنّه حمّل صديقًا رسالةً خاصّة إلى مصطفى النحّاس يعتذر له فيها عمّا بدر منه في حقّه، ويشرح له الظروف القاسية التي اكتنفت قراره. ولّما أعلنت ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكيّة توثّب بهمّته المعروفة لدراسة الاشتراكيّة ليؤيّدها عن علم ويحتفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتّابها الأول. وفي أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكيّة، ثمّ أصدر في النهاية مؤلّفه المعروف «اشتراكيّة هٰذا الوطن». وفي هٰذه الناحية بالذات يئس من إقناعي بإخلاصه لسابق علمي بديمقراطيّته الليبراليّة، وقد سألته مرّة ضاحكًا:

ـ كيف انقلبت اشتراكيًّا بهٰذه السرعة الجنونيّة؟

أجابني ضاحكًا أيضًا:

ـ الناس على دين أوطانهم!

ـ أتعتقد أنّهم يصدّقونك؟

ـ لم يعد أحد يصدّق أحدًا.

ثمّ قال والضحك يعاوده:

ـ المهمّ هو ما تقول وما تفعل!

واجتاحته موجة من الضحك ثمّ قال:

ـ يتساءلون كثيرًا عن سرّ ازدهار المسرح، أتدري ما هو سرّ ذٰلك؟، السرّ أنّنا صرنا جميعًا ممثّلين..!

فقلت:

ـ وبالرغم من ذٰلك فقد حقّق هٰذا العهد من الخير ما لم يحقّقه عهد سابق بلا استثناء!

فقال وهو يتنهّد:

ـ وأصبح لكلّ شيء قيمة إلّا الإنسان!

فتساءلت بمرارة شديدة:

ـ متى كان للإنسان قيمة في بلادنا؟! على الأقلّ فهو يحرَّر اليوم من عبوديّته الاقتصاديّة والطبقيّة والعنصريّة وستجيء الخطوة الذاتيّة عندما يستحقّها بجدارة!

وقد بلغ قمّة سقوطه الأدبيّ عندما ألّف رسالة صغيرة عن أدب «جاد أبو العلا»!. وكان جاد أبو العلا سعى إلى التعرّف به حوالي عام ١٩٦٠ نفس العام الذي تعرّف بي فيه. ورغم ذٰلك كانت الرسالة مفاجأة لي لم أتوقّعها بحال. ومهما يكن الثمن الذي قبضه ـ قيل إنّه طاقم تحف عربيّة وألف جنيه ـ فقد دلّ على أنّ صاحبي تمرّغ في السقوط حتّى فقد إحساس الحياء الذي يصاحبه، وصدق عبده البسيوني عندما قال لي يومًا في حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة:

ـ هٰذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلّا مومس!

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده في ظرفين لولا حسن حظّه، أوّلهما الاعتداء الثلاثيّ عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧، ففي كلّ مرّة خيّل إليه أنّ الثورة صفّيت وانتهت فتوثّب للعمل لمستقبله من جديد. ووضح لي في المرّتين مدى ما ينطوي عليه من انتهازيّة وزيف، بالرغم من أنّه يدين للثورة بجاهه وماله. وقارنت بينه وبين رضا حمادة، فكلاهما يتمتّع بثقافة إنسانيّة عميقة وشاملة، وكلاهما من الجيل السياسيّ السابق الذي أجهضته الثورة، وكلاهما ينتمي إلى عقيدة معادية للاشتراكيّة، ولٰكنّ أحدهما يحتوي على طويّة عفنة تتقزّز منها الحشرات، والآخر تستقرّ في أعماقه روح نبيل يستحقّ الفرد من أجله أن يُقدَّس ويُعبد. وفي العام التالي للنكسة دهمته أحداث في صميم أسرته لم تخطر له ببال، إذ صمّم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا! ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما، أمّا أمّهما فمالت إلى تشجيعهما، وما لبث الشابّان أن حقّقا رغبتهما بالفعل. وحزن زهير لذٰلك حزنًا شديدًا وراح يقول لي:

ـ أنا فلّاح، ومن طبيعة الفلّاح حبّه لالتصاق أبنائه به.

فسألته عمّا دعاهما للهجرة فقال:

ـ الأمل في مستقبل أفضل...

وهزّ منكبيه في أسف وقال:

ـ لم يعد للوطن قيمة، تركاه في محنة قاسية، عن عدم اكتراث أو يأس، وجريًا وراء الأمل الخلّاب...

واجتاحه غضب مفاجئ فقال:

ـ عقلي معهما، ولكنّ قلبي يتوجّع...

وأمّا كريمته فقد أحبّت شابًّا يونانيًّا وهي في رحلة إلى اليونان بصحبة أمّها. وبكلّ بساطة تزوّجت منه هازئة بكافّة التقاليد. وجعلت زوجته تتردّد بين القاهرة وأثينا حتّى استقرّت بصفة نهائيّة في موطنها الأصليّ قبيل انقضاء العام. ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيدًا في الستّين، مريضًا بالسكّر والضغط.. وهو في ذٰلك يشبه رضا حمادة غير أنّ هٰذا خلق نهايته بنفسه متجاوزًا كافّة أحزانه، أمّا زهير فعانى مرارة الوحدة والسأم والهجر. ويومًا سألني عبده البسيوني في صالون جاد أبو العلا:

ـ هل تعرف نعمات عارف؟

فأجبت بالنفي فقال:

ـ هي صحفيّة تحت التمرين...

ـ وماذا يعنيني من ذٰلك؟

فقال ضاحكًا:

ـ إنّها عشيقة الدكتور زهير كامل!

ـ زهير كامل!.. إنّه شيخ في الستّين أو أكثر...

ـ ستسمع عن زواجهما في القريب...

وسمعت. وعرفت العروس وهي جميلة في العشرين. وركن الأستاذ معها إلى اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم إلّا لكتابة يوميّاته الأسبوعيّة في الموضوعات اليوميّة العامّة مقلعًا عن مراجعة الكتب والمراجع. ولكنّ مرضه استفحل حتّى أقعده بصفة نهائيّة في الفراش، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة في حياته المعتمة، شعلة العقل. وما زلنا نزوره من حين لآخر، فتدور المناقشات في حجرة نومه، ويشارك هو فيها بسمعه أو ببضع عبارات موجزة فقدت إشاراتها الذكيّة وأفكارها الموحية، لتذكّرنا بأنّ لكلّ شيء نهاية...

سابا رمزي

زاملنا في المدرسة الثانويّة. زاملنا عامين ثمّ اختفى. وبالرغم من أنّ زمالته ترجع إلى عام ١٩٢٥ فما زلت أتذكّر بوضوح عينيه اللوزيّتين الحادّتين وقامته القصيرة لحدّ الرثاء. وكان رياضيًّا متفوّقًا في القسم المخصوص والكرة. كان الجناح الأيمن لبدر الزيادي وكان تبادل الكرة بينهما يشكّل خطرًا على أيّ فريق نلاعبه. لذٰلك اكتسب في المدرسة شهرة واحترامًا رغم قصر قامته. وكنّا في أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطي معًا ونستظهر ما نختاره من جمله الموسيقيّة. وحدّثته مرّة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهّم وجهه وسألني:

ـ أصدّقت ما جاء في رواياته عن البابوات؟

فقلت ببراءة:

ـ ولِمَ لا أصدّقها؟

فقال بنبرة تحذير:

ـ إنّه عدوّ للكاثوليكيّة ولذٰلك فهو يتعمّد تشويه سمعة البابا...

عرفت لأوّل مرّة أسماء جديدة كالكاثوليكيّة والبروتستنتيّة والأرثوذكسيّة. وتحيّرت بينها حتّى أخبرني زميلنا ناجي مرقس أنّ المذهب المسيحيّ المصريّ هو الأرثوذكسيّة ،وأنّ المبشّرين أفسدوا بعض الأقباط فجرّوهم إلى اعتناق الكاثوليكيّة أو البروتستنتيّة. وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزي قائلًا:

ـ الآن عرفنا أنّك قبطيّ فاسد!

وجعفر خليل هو الذي أفشى سرّه فقال لنا يومًا:

ـ فيكم مَن يحفظ السرّ؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول:

ـ الجناح الأيمن سابا رمزي يحبّ مدرّسة بمدرسة العبّاسيّة للبنات!

وراقبناه عقب انصراف المدرّسة فرأيناه وهو يتبعها في طرقها حتّى مشارف باب الشعريّة. وكنّا يومًا نقرأ بالتبادل في مجدولين فلاحظت تهدّج صوته حتّى كفّ عن القراءة من شدّة التأثّر. وشعر بعينيّ فوق جفنيه المسدلين فتمتم:

ـ رأيتكم وأنتم تتبعوني!

ثمّ بمزيد من التأثّر:

ـ أنا أحبّ مثل ستيفن وأكثر!

ووجد منّي مشاركة وجدانيّة إذ كنت عاشقًا مثله فقال:

ـ سأحبّها مهما يكن الثمن!

فقلت له بعطف:

ـ ولكنّها مدرّسة وما زلت تلميذًا صغيرًا.

فقال بإصرار:

ـ الحبّ أقوى من كلّ شيء.

وقال:

ـ إنّي أحاول محادثتها ولكنّها تتجاهلني، يقال إنّ ذلك أسلوب من الدلال، ما رأيك؟

ـ لا أدري . . .

ـ كيف أعرف إن كانت تحبّني أو لا تحبّني؟

ـ لا أدري . . .

ـ هل نسأل جعفر خليل وبدر الزيادي؟

فقلت محذّرًا:

ـ كلّا . . إنّهما يحبّان المزاح وسيجعلان منك نادرة!

واستمرّت مطاردته اليوميّة للمدرّسة بلا نتيجة، وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن. وشهدنا عصر يوم منظرًا ليس من السهل أن يمحى من الذاكرة. رأيناه يعترض سبيل المدرّسة بجرأة ويقول لها:

ـ من فضلك . . .

فمالت عنه ناحية وسارت في طريقها فتبعها وهو يقول:

ـ لا بدّ من كلمة . . .

فهتفت به غاضبة:

ـ لا يمكن أن أحتملك إلى الأبد . . .

فقال بتوسّل:

ـ اسمعي كلمة بكلّ أدب . . .

ـ دعني وإلّا ناديت الشرطيّ . . .

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة. وقف ينظر إليها بذهول. وبحركة سريعة غير متوقّعة دسّ يده في جيبه فاستخرج مسدّسًا فسدّده نحوها وأطلق النار!. صرخت الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها إلى السماء في حركة متشنّجة ثمّ تهاوت على ظهرها. وجعل سابا ينظر إليها، ذراعه مدلّاة، ويده ما تزال قابضة على المسدّس. وظلّ كذلك حتّى قُبض عليه. وفاضت روح الفتاة قبل مجيء الإسعاف. وعرفنا فيما بعد أنّ سابا سرق مسدّس أخيه الضابط في الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس. ولم ندرِ عنه شيئًا بعد ذلك، ولم نره مرّة أخرى. لقد طبع في خيالنا صورة لا تُنسى ثمّ ذهب.

سالم جبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦. كان بدر الزيادي أوّل مَن نوّه به أمامي فوصف كتابته بالبلاغة والفائدة. ووجدته داعيًا متحمّسًا للحضارة والاستقلال الاقتصاديّ وتحرير المرأة كما دعا إلى اتّخاذ القبّعة غطاء للرأس بدلًا من الطربوش. وكان حقوقيًّا ولكنّه لم يشتغل بالقانون، وكان يقوم بجولة ثقافيّة في إنجلترا وفرنسا كلّ عام تقريبًا. ولمّا قامت ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق، وأصيب برصاصة في كتفه يوم الهجوم على الأزهر، ثمّ عمل في الصحافة الوفديّة، وظلّ يعمل في الصحافة حتّى اليوم. وتغيّر موقفه السياسيّ بعض الشيء منذ تولّي سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤. وقد قال لي يومًا بعد أن جمعتنا صداقة متينة ملقيًا ضوءًا على تلك الفترة من حياته:

ـ كان من رأيي ألّا يتولّى سعد زغلول الوزارة، وأن يظلّ الوفد وراءه في الميدان الشعبيّ حتّى تتحقّق رسالة الوفد الوطنيّة . . .

فسألته:

ـ خرجت وقتذاك على الوفد؟

ـ كلّا ولكن تحوّل اهتمامي الحقيقيّ إلى ناحية أخرى . . .

أجل، تحوّل إلى اعتناق الشيوعيّة. وعُرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتّى اليوم. ولم ينسَ أنّه صحفيّ في جريدة الوفد، فتجنّب مناقشة الموضوعات الجديرة بإحراج الزعيم، واختطّ لنفسه منهجًا خاصًّا في الكتابة ينفّس به عن عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر، ولا

يتنافى في مظهره مع سياسة الوفد، فراح يدعو إلى حرّيّة المرأة والعلم والصناعة. وتقدّم خطوة أخرى فألّف رسالة في المذاهب الاقتصاديّة مؤرّخًا ضمنًا للاشتراكيّة! وحوالى عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن «كارل ماركس ورسالته» وسرعان ما صادرتها السلطة، وتعرّض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التي اتّهمته بالإلحاد والفوضويّة. تعرّفت به وأنا طالب بالجامعة في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكنّا نلتقي كثيرًا بالصالون أو في مكتبه بالجريدة.

وقدّمت إليه من زملائي رضا حمادة وجعفر خليل، وكنّا نتحادث في السياسة والاشتراكيّة، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات ودكتاتوريّة الطبقة العاملة، وقلت له:

ـ اشتراكيّة تجيء عن طريق البرلمان، هٰذا ما أحلم به!

فقال متحدّيًا أفكاري:

ـ أنا عدوّ للوفد!

ـ أنت تقول ذٰلك؟

ـ ونصير للملك وأحزاب الأقلّيّة...

فضحكت غير مصدّق فقال:

ـ الوفد أفيون الشعب!

ثمّ وهو يضرب مكتبه بقبضة يده:

ـ الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن تتحقّق أبدًا، وسيعجز دائمًا عن تقديم أيّ خدمة حقيقيّة للشعب، أمّا إذا سيطر الملك وأحزابه، واستشرى الفساد واستوطن، يئس الشعب وتوثّب لثورة حقيقيّة!

فسألته:

ـ وما جدوى ذٰلك والإنجليز يكتمون أنفاسنا؟

ـ توقّع المعجزات عند اليأس.

وآنس الدكتور إبراهيم عقل منّي ميلًا لترديد بعض آراء سالم جبر فقال لي:

ـ احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة!

فاخذت بموقفه وقلت له:

ـ الحقّ أنّي أوّل ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم!

فقال ساخرًا:

ـ لم يكن دفاعًا ولٰكن كان إحراجًا فهو لا يرضى عن مفكّر إلّا إذا أشهر إلحاده أو فوضويّته...

وكان ذٰلك بحضور الأستاذ عبّاس فوزي بصالون المنير.

فقال عبّاس منضمًّا للأقوى كعادته:

ـ إنّه رجل فاجر ومن آي ذٰلك أنّه لا يؤمن بالزواج!

فقلت بدهشة:

ـ ولٰكنّه متزوّج وقدّمني للمدام في حديقة الأورمان!

فقال عبّاس فوزي ضاحكًا:

ـ إنّها عشيقته، وهي أرملة فرنسيّة، فكيف تجهل ذٰلك؟

وتوكّد لي أنّها عشيقته بعد ذٰلك، وظلّ مخلصًا لها حتّى توفّيت عام ١٩٦٠. وروى لي حكاية غرامهما الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان المترجم فقال إنّ المرأة كانت زوجة لمهندس في شركة الكهرباء، وإنّها أحبّت سالم جبر في حياة زوجها، فلمّا توفّي اتّفقا على المعاشرة دون زواج. وكانت امرأة حرّة وشيوعيّة مثله، أملاكها في مصر ولٰكنّها تحبّ السفر كثيرًا إلى فرنسا، وتكره فكرة الإنجاب.

وألّف سالم جبر كتابًا عن الدين المقارن قبيل الحرب العظمى الثانية، عرض فيه الأديان بأسلوب علميّ موضوعيّ، فأثار الكتاب ضجّة، واتّهم صاحبه بالافتراء على الدين الإسلاميّ، ومن أجل ذٰلك قُدّم الأستاذ إلى المحاكمة، ولٰكنّ المحكمة برّأته وصادرت الكتاب. وفي أثناء الحرب شنّ حملات صادقة على النازيّة والفاشستيّة كان لها صدى حسن في دار السفير البريطانيّ.

ودُعي لإلقاء محاضرات أسبوعيّة في الإذاعة، وقلت له بمكتبه بجريدة المصريّ:

ـ يقولون إنّك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانيّة.

فقال ساخرًا:

ـ لا عداوة تدوم ولا صداقة، أعترف بأنّني في هٰذه الحرب حليف للإنجليز!

فقلت له:

ـ يبدو أنّ نجمهم آخذ في الأفول!

فقال بحدّة:

ـ لا خوف من انتصار النازيّة حتّى إذا انتصرت فإنّ للتاريخ قوانينه وهي أقوى من الحرب والنصر.

ولّما جاءت حكومة الوفد عمل معها بإخلاص كشأنه قبل أن يتولّى سعد زغلول وزارته، ولّما زحفت جيوش رومل نحو الحدود المصريّة هرب مع الهاربين إلى السودان. ثمّ رجع عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفيّ. وأذكر أنّه جلس بيني وبين رضا حمادة في مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ فحدّثنا عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولٰكنّه قال:

ـ لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيّته أن يواجه الموقف.

وتكلّم عن الولايات المتّحدة باعتبارها روح الشرّ في العالم، قال:

ـ لا نجاة للعالم إلّا بالشيوعيّة العالميّة.

ولّما انصرف قال لي رضا حمادة:

ـ لا يوجد إنسان كهٰذا الرجل يُجمع الكلّ على بغضه!

فقلت بصدق:

ـ ولٰكنّه رجل ذو عقيدة ومنزّه عن الأغراض.

ولّما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشّف ذٰلك البناء المنطقيّ المنسجم مع ذاته عن تناقضات كالخيال في غرابتها. وهو في الظاهر لعب الدور المنتظر منه. كان حقيقة فكريّة واضحة للصديق والعدوّ. عمل في جريدة الثورة واضعًا قلمه في خدمتها. ولٰكنّه تكشّف لخاصّته المقرّبين عن حزمة من المتناقضات جعلت منه في النهاية شخصًا مجهول الهويّة. تحمّس لإلغاء النظام الملكيّ تحمّسًا لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات، ولٰكنّه همس في فتور:

ـ ذهب الملك وحلّ محلّه عدد غير محدود من الملوك!

وفرح بالقضاء على الإقطاع وتحديد الملكيّة الزراعيّة ولٰكنّه قال:

ـ المسألة هي ملكيّة أو لا ملكيّة، أمّا توزيع الأرض على الفلّاحين فمن شأنه أن يقوّي غريزة الملكيّة المتوارثة من عصور الظلام!

ولّما حلّت الأحزاب التي طالما حمل عليها، حزن على الوفد حزنًا غير مفهوم وقال:

ـ وكيف تمضي البلاد بلا قاعدة شعبيّة؟!

وقال أيضًا:

ـ التضحية بالحرّيّة فعل مؤقّت معقول من أجل الشيوعيّة ولٰكنّنا نسير بلا حرّيّة ولا شيوعيّة!

ولّما حاربت الحكومة الشيوعيّين والإخوان المسلمين قال:

ـ ها هم يقضون على القوى الإيجابيّة في الأمّة فلا شيوعيّة ولا إخوانيّة ولا أحزاب فعلى مَن يعتمدون في تحقيق سياستهم؟، ولم يبق إلّا الموظّفون المأجورون وسيقيمون بنيانهم على قوائم من قشّ...

حتّى الشيوعيّون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من غيرهم، وما نالوا عطفه إلّا في فترات الاعتقال أو السجن، وسرعان ما يرميهم بالتفسّخ والانحلال والسقوط، واقتنعت أخيرًا بأنّه شخص غريب خُلق ليكون معارضًا، حبًّا في المعارضة قبل كلّ شيء، فإذا كانت الدولة إقطاعيّة فهو شيوعيّ، وإن تكن يساريّة فهو محافظ. أجل محافظ!. فعندما ساند الاتّحاد السوفييتيّ الثورة وعاونها في الحرب والسلام، سمعت منه ما لم يجرِ لي على بال. قال مرّة والحنق يلتهم قلبه:

ـ الشيوعيّة نظام عظيم حقًّا ولكن ما هو الإنسان الشيوعيّ؟.. هو شيء ميكانيكيّ لا إنسان حيّ!

وبغير حياء سألني مرّة:

ـ لِمَ يودّ الناس أن يهاجروا إلى الولايات المتّحدة؟

فأجبت بسخرية واضحة:

ـ لأنّهم يجدون هناك الخبز والحرّيّة!

فقال بامتعاض:

ـ لا قيمة للحياة بلا حرّيّة فلا تكن متعصّبًا.

فقلت وأنا أضحك:

ـ أنت الذي علّمتني ذٰلك!

فقال بمزيد من الامتعاض:

ـ مُتْنا.. مُتْنا.. فمتى نُبعث؟

وقلت له بشيء من الصراحة:

ـ أحيانًا يتعذّر فهمك.

فقال بحدّة:

ـ أنا واضح كالشمس ولكنّكم اعتدتم الشروح المطوّلة والهوامش وهوامش الهوامش!

وقد علمت بوفاة صديقته الفرنسيّة عَرَضًا في بار الأنجلو بعد مرور أيّام على وفاتها فبادرت إلى زيارة مسكنه بشارع قصر النيل ولكنّي وجدته مغلقًا لا يردّ، ولم أجده بمكتبه بالجريدة كذلك، ثمّ تبيّن أنّه سافر عقب دفنها إلى أسوان فخلا إلى نفسه شهرًا كاملًا. ولّما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته بنشاطه المعهود ولكنّ مسحة من الكآبة طبعت وجهه بطابعها فلم تفارقه دهرًا طويلًا. ولم يكن يحبّ الخوض في شئونه الخاصّة، فلم يحدّثني بكلمة واحدة عن حبّه أو أسرته أو طفولته، وكأنّه إنسان عامّ فحسب، عامّ في الظاهر والباطن، في الحضور والغياب. وسألته مرّة:

ـ ألم تأسف مرّة على أنّك لم تتزوّج ولم تنجب؟

فأجاب بسخرية:

ـ الندم عادة دينيّة سخيفة.

ولكنّي شعرت ـ إن صدقًا وإن وهمًا ـ بأنّه يعاني مرارة الوحدة في الشيخوخة. وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادّة التي بلغت في أحايين كثيرة حدّ المصارحة الجارحة في مخاطبة أصدقائه. قال مرّة لرضا حمادة:

ـ عليك أن تعترف بأنّك رجعيّ ترسب في مجرى الزمن.

وقال مرّة أخرى للدكتور زهير كامل:

ـ أنت لا تنقد ولكنّك تقتل القِيَم.

وسأله جاد أبو العلا عن رأيه في أدبه فأجابه على مسمع منّا:

ـ من الخير لك أن توفّر وقتك لتجارة التحف!.

وكان من بين الذين سُرّوا في أعماقهم بالكارثة التي حلّت بالوطن في ٥ يونيه ١٩٦٧!. وهو موقف غريب ولكن تبنّاه جميع أعداء الثورة، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذّ الذي خُلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائمًا وأبدًا. قال منفّسًا عن حقده:

ـ ما جدوى أن نتحرّر من طبقة لنقع في قبضة الدولة الفولاذيّة؟. السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة، أثقل من الشيطان نفسه!

ولكنّ الثورة لم تتلاش، بل مضت تضمّد جراحها وتجدّد حيويّتها وتتأهّب لمعركة جديدة. ومضى هو يحنق من جديد ويتمزّق بين المتناقضات، وإن حافظ في الظاهر على شخصيّته التي عُرف بها منذ عام ١٩٢٤ وإن ظلّ قلمًا أمينًا من أقلام الثورة. ورغم بلوغه السبعين من عمره، ورغم وحدته وخلوّه من روح الدعابة، فهو يتمتّع بصحّة جيّدة ونشاط موفور. ولعلّه المصريّ الوحيد من معارفي الذي لم أسمعه يمزح أو ينكّت أبدًا، ولا عرفت له هواية فنّيّة، حتّى الغناء لا يتذوّقه. والأدب النادر الذي يطّلع عليه يقرأه قراءة سياسيّة خاصّة كأنّه خلق شاذّ مقطوع الصلة بالإمتاع والجمال. وركّز في الأيّام الأخيرة على الإيمان بالعلم، إيمانًا نسخ إيمانه القديم بالأيديولوجيّة، ويتساءل مرارًا:

ـ متى يحكم العِلْم؟.. متى يحكم العلماء؟!...

هذه هي آخر هتافاته، وهي خليقة بإشباع معارضته الأزليّة لجميع أنواع الدول، حتّى قال رضا حمادة:

ـ إنّه رجل مجنون، هذه هي الحقيقة!

فقلت:

ـ وثمّة حقيقة أخرى وهي أنّ أقواله التي تنكّر لها خلقت في أجيال أثرًا لا يُمحى!

سرور عبد الباقي

من أصدقاء العبّاسيّة. وكان أبوه محاميًا ذا شهرة ومال. وكانت أمّه قويّة الشخصيّة تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبنتان. وكانت بخيلة فيّا بدا. تساوم الباعة المتجوّلين بلا رحمة، ومن أجل ملّيم واحد تلغي صفقة، وتزن مشترياتها في ميزان خاصّ ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كلّه في سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد.

وكانت علاقته بنا ذات نوع خاصّ، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنّب مشاركتنا في مزاحنا الطليق ونكاتنا اللاأخلاقيّة. وتذاكرنا يومًا مطربة جديدة هي أمّ كلثوم فقال سرور عبد الباقي:

- سمعتها في فرح وأعتقد أنّ صوتها أحلى من صوت منيرة المهديّة!

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل:

- صوت منيرة يعلو ولا يُعلى عليه.

وانتهره خليل زكي، رغم عدم اهتمامه بالغناء، قائلًا بوقاحته المعهودة:

- لا تردّد آراء أمّك بيننا!

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به:

- لا شأن لك بأمّي يا قليل الأدب.

وجاء الردّ في صورة لطمة، ثمّ اشتبكا في معركة حتّى فصلنا بينهما. وكان تلميذًا مجتهدًا، ولكنّ نجاحه كان دائمًا دون اجتهاده، والحقّ لم نكن نؤمن بذكائه!. وأوشك يومًا أن يقسمنا فريقين، إذ طالب بشدّة بالتزام الأدب في السلوك والكلام، قال:

- يا جماعة.. يجب ألّا تتردّد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام.

وفي الحال شخر خليل زكي وسيّد شعير في وقت واحد تقريبًا، فعاد سرور يقول:

- وإلّا سأضطرّ إلى مقاطعتكم!

فقلت بجزع لحبّي له:

- اقترحْ ما تشاء ولكن لا تفكّر في المقاطعة...

وقال رضا حمادة:

- كلامه يستحقّ التقدير!

فقال جعفر خليل:

- البذاءة في الكلام كالملح في الطعام.

وقال عيد منصور:

- يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمّه إلّا إذا قرنته بالسبّ المناسب.

وقال شعراوي الفحّام محذّرًا:

- يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلّة الأدب فقُلْ عليها السلام!

وتداولنا في الأمر باهتمام جدّيّ ثمّ تمّ الاتّفاق على مواصلة المعاملة الحرّة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقي فيعامَل معاملة مؤدّبة خاصّة.

وكان يتّخذ من السياسة موقفًا مماثلًا فلا يتعامل معها على الإطلاق ولا يهتمّ بها، حتّى المظاهرة السلميّة التي زحفت على ميدان عابدين تأييدًا لسعد زغلول رئيس الوزراء لم يشترك فيها، ويوم الإضراب الذي قُتل فيه بدر الزيادي تخلّف سرور في بيته. ورغم رشاقته ووسامة وجهه الأسمر تجنّب البنات ولم يلعب بعينيه هنا أو هناك وكان يشعر دائمًا بأنّ عيني أمّه تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب. والأوقات التي كنّا نخصّصها للقراءة كان يقضيها في حديقة بيته ممارسًا هوايته في رعاية الزهور أو رفع الأثقال. ومن فترة مبكّرة وضح ميله لدراسة الطبّ ولكنّ نجاحه في البكالوريا لم يحقّق له المجموع المطلوب، ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلّيّة الطبّ في لندن، وكان المتّبع أن تقبل الكلّيّة المصريّة الطالب إذا نجح عامين في إنجلترا. وسافر إلى إنجلترا فدرس الطبّ عامين بنجاح ثمّ رجع إلى مصر فالتحق بكلّيّة الطبّ، وناقشنا تلك الواقعة يومًا فقال رضا حمادة:

- ليس سرور غبيًّا كما توهّمنا وإلّا ما نجح في إنجلترا!

فقال عيد منصور:

- وليس نظام القبول بكلّيّة الطبّ المصريّة سليمًا كما يُظنّ.

فقال جعفر خليل:

- وليست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء!

وتخرّج سرور عبد الباقي في الكلّيّة عام ١٩٣٦، وتزوّج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدّم في عمله عامًا بعد عام حتّى عُدّ من كبار الجرّاحين في مصر، وربح من ذلك أموالًا طائلة فشيّد عمارة كبيرة في وسط المدينة وبنى لنفسه فيلّا غاية في الجمال بالمعادي. ولم يتخلّ يومًا عن مبادئه الأخلاقيّة حتّى عُرف بأخلاقه وإنسانيّته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثاليّ، مهارة في العمل، وغزارة في العلم، ورحمة بالمرضى، وبُعْدًا عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جدًّا من طلّابه. وكثيرًا ما خاض معارك حادّة

في مجلس الكلّيّة بسبب مثاليّته التي لا تعرف المهادنة، وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذّة ظلّ طفلاً ساذجًا بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأيّ نظرة شموليّة للمجتمع الذي يتألّق فيه كنجم من نجومه. ومرّت به الأحداث الكبرى وهو منها بمأمن لا تعنيه في شيء حتّى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعيّ فشدّته من مأمنه لأوّل مرّة، بدأ يهتمّ بهذه الثورة التي تتعرّض للأرزاق وتغيّر الأوضاع، وتسلّل إليه قلق لم يعرفه من قبل. وطُبّق نظام الإصلاح الزراعيّ على زوجته فطارت من ملكيّة أسرته خمسمائة فدّان بجرّة قلم. وذُهل الرجل الذي تعوّد على تقديس المال والملكيّة، ونبض قلب أسرته بالعداوة، وعُدّ هو ضمنًا من الأعداء. ولذلك لم يتعيّن عميدًا للكلّيّة رغم استحقاقه العلميّ لها فامتلأت نفسه بالمرارة والحزن. قال لي:

ـ فكّرت طويلًا في الاستقالة للتفرّغ لعيادتي الخاصّة.

ثمّ قال بإخلاص أنا أوّل من يقدّره:

ـ ولكنّي لا أحبّ أن أتخلّى عن واجبي العلميّ!

وبدءًا من ذلك التاريخ مضى يهتمّ بالحياة العامّة، والسياسة بصفة خاصّة ـ التي تجنّبها طوال حياته ـ بعد أن غزته في صميم داره. وكنّا نقابله في نادي المعادي على فترات متباعدة كلّما سمح وقته المشحون بالعمل. وكنت أنا ورضا حمادة الصديقين اللذين استمرّت علاقتهما به. وثمّة آخر هو خليل زكي اتّصل به دون صداقة حقيقيّة بحكم عمله في قصر العيني. ولكنّه كان يذكر الجميع بقدر من الحنان، وقد حزن لمصرع شعراوي الفحّام ووفاة جعفر خليل وضياع سيّد شعير، فإذا ذكر عيد منصور ضحك قائلًا:

ـ شيلوك!.. عليه اللعنة!

وفي تلك الأثناء ساء حظّ رضا حمادة فأصيب في وحيده وزوجته، فوثّق بينهما سوء مصير واحد على تفاوته بينهما. وبعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور سرور عبد الباقي وقال:

ـ هذه هي الخطوة الأولى نحو الشيوعيّة!

فلمّا كان الاعتداء الثلاثيّ وما أعقبه من انسحاب القوّات المعتدية، جعل يلتمس العزاء في طوايا الموقف، قال:

ـ لولا الولايات المتّحدة لقضي علينا...

فقلت:

ـ بل الإنذار الروسيّ...

ولكنّه رفض ذلك بشدّة وقال:

ـ يحسن بنا ألّا نفرّط في الصداقة الأمريكيّة بعد اليوم...

ولمّا أُعلنت القوانين الاشتراكيّة اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة ثابتة. قلت له:

ـ إنّك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر.

فقال:

ـ لم يعد لشيء قيمة...

ثمّ قال:

ـ زوجتي تنصحني بالهجرة...

فقال له رضا حمادة:

ـ لا داعي لذلك على الإطلاق.

فقال:

ـ الاشتراكيّة تعبير عن الحقد على المتفوّقين... وقد استولى حكّامنا على السلطة بقوّة السلاح لا العلم.

فسأله:

ـ وما رأيك في مشكلة الفقر في مصر؟

فأجاب بسذاجة:

ـ كلّ يتقرّر موضعه على قدر طاقته وتلك هي حكمة الله سبحانه!

فأدركت أنّه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعي الثقافيّ المتضمّن طبعًا الوعي السياسيّ. وأنّه مهما يكن من تفوّقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانيّة حتّى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهرًا فردًا مستقلًا ولكن باعتباره خليّة لا تتحقّق لها الحياة إلّا بوجودها التعاونيّ في جسد البشريّة الحيّ. لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القويّ ووجهه الوسيم ومهارته العلميّة الخارقة، بدا متدهورًا مترنّحًا لا لشيء إلّا لأنّ يدًا أخذت من فائض الذين يملكون كلّ شيء لتضميد جراح الملايين

الجائعة. وشدّ ما جزعتُ عندما آنستُ في نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنّه النجاة. وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزي فقال:

ـ لا تدهش ولا تجزع، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية، ثمّة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف في أحدهما الروس والاشتراكيّون العرب وطوائف الشعب التي وجدت في الاشتراكيّة جنّتها الموعودة ويقف في الآخر الأمريكان وإسرائيل والذين رأوا في الاشتراكيّة ردعًا لطموحهم وجشعهم...

فسألته:

ـ والوطن والوطنيّة؟

فأجاب:

ـ تغيّر مفهوم الوطن ومضمونه، لم يعد أرضًا ذات حدود معيّنة ولكنّه بيئة روحيّة تحدّدها الآراء والمعتقدات!

سُعَاد وَهْبي

تلك الزميلة الجامعيّة التي عاشت في كلّيّتنا عامًا واحدًا ولكنّها بهرت خيالنا عهدًا طويلًا. كانت الزميلات عام ١٩٣٠ قلّة لا يتجاوزن العشر عددًا. وكان يغلب عليهنّ طابع الحريم، يحتشمن في الثياب ويتجنّبن الزينة ويجلسن في الصفّ الأوّل من قاعة المحاضرات وحدهنّ كأنّهنّ بحجرة الحريم بالترام. لا نتبادل تحيّة ولا كلمة وإذا دعت ضرورة إلى طرح سؤال أو استعارة كرّاسة تمّ ذلك في حذر وحياء، ولا يمرّ بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل والقال ويشنّ حملة من التعليقات. في ذلك الجوّ المتزمّت المكبوت تألّقت سعاد وهبي كأنّها نجم هبط علينا من الفضاء. كانت أجمل الفتيات وأطولهنّ وأحظاهنّ بنضج الجسد الأنثويّ. ولم تقنع بذلك فلوّنت بخفّة الوجنتين والشفتين، وضيّقت الفستان حتّى نطق، وتبخترت في مشيتها إذا مشت، وكانت تتعمّد أن تدخل القاعة متأخّرة بعد أن نستقرّ في مجالسنا ويتهيّأ الأستاذ لإلقاء محاضرته، ثمّ تهرول كالمعتذرة فيرتجّ ثدياها النافران فتشتعل الفتنة في الصفوف وتندّ عنها همهمات كطنين النحل. وعُرف اسمها وجرى على كلّ لسان، ونحتت له الأوصاف والأسماء فهي «أبلة سعاد» و«كلّيّة سعاد» و«بانّت سعاد». وكانت بخلاف زميلاتها غاية في الجرأة، تواجهنا بثقة لا حدّ لها، ولا تخفي إعجابها بنفسها، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع، وبالجملة تحدّت الزمان والمكان، وقال محمود درويش:

ـ إنّها غانية لا طالبة...

وقال لي مرّة جعفر خليل:

ـ ترى كيف كانت وهي تلميذة مراهقة بالمدرسة الثانويّة؟ فاتنا نصف عمرنا...

فقلت:

ـ لم تلتحق بالكلّيّة إلّا لاصطياد عريس!

ـ أو عشيق!

وجرت عنها الأخبار لا أدري إن كان مصدرها الواقع أم الخيال.

ـ إنّها من حيّ اليهود بالظاهر، ولدت وترعرعت في جوّ من الحرّيّة الجنسيّة المطلقة!

ـ وأسرتها منحلّة، الأب والأمّ والأخوات...

ـ وهي امرأة لا عذراء مجرّبة للسهر والسكر والعربدة!

وتشجّع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشئ معها علاقة ولكنّه صُدّ ولم يفلح. وصُدّ غيره ولم يفلح. ومع ذلك فلم تضنّ بصداقتها على طالب إذا التزم بحدود الأدب. وطبّقت شهرتها الآفاق الجامعيّة فجاء طلبة من كلّيّة الحقوق للمشاهدة والمعاينة. وكانت في الأدب الإنجليزيّ تتلو أحيانًا ما تيسّر من مسرحيّة عطيل فتلقيه إلقاء مسرحيًّا ناعمًا يسحر الألباب، فحقّ الأستاذ الإنجليزيّ أعجب بها وعاملها معاملة ودّيّة خاصّة. وأخذ الطلبة الوقورون ـ الريفيّون خاصّة ـ يناقشون الظاهرة السعاديّة ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة. وسرت عدوى اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذي يفرض بقامته المديدة رعاية أبويّة على الطلبة والمثل العليا معًا. وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثديين النافرين وجعل يسلّط

سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتّى ثابوا إلى الرشد والسكينة، ثمّ قال:

- يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة!

فضجّت القاعة بالضحك في غير موضعه...

ثمّ وهو يهزّ رأسه بطربوشه الطويل:

- تذكّروا أنّنا جميعًا - نساءً ورجالًا - هدف لمجهر الناقدين وأنّ جمهرة منهم لم تسلّم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين في الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليمًا عاليًا...

وفي نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبي لمقابلته في حجرته، وخمّنّا موضوع الحديث وتنبّأنا بنتيجته المحتومة، وكثيرون شعروا مقدّمًا بالأسف لحرمانهم الوشيك من الإثارة اليوميّة الفاتنة. وغادرت سعاد وهبي حجرة الدكتور متجهّمة الوجه، ولمّا رأت جموع المنتظرين في الخارج قالت بحدّة وبصوت مسموع متحدّ:

- لن أسمح لأحد بمصادرة حرّيّتي الشخصيّة...

وأصرّت على التمتّع بحرّيّتها حتّى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلّيّة!. وفرح البعض وأسف البعض أسفًا عابرًا بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على مقاومة الحكم السياسيّ الرجعيّ الذي بطش بحرّيّة الوطن. وجاء والد الفتاة لمقابلة العميد، وما زال به حتّى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهّد له بتحقيق مطالبه. وأعجب ما سمعت عن رجوع سعاد حدّثني به جعفر خليل، إذ سألني باسمًا:

- أما سمعت بالسرّ وراء عودة سعاد؟

فسألته بدوري:

- أيّ سرّ؟

- يقال إنّ وزير المعارف أوصى العميد بها.

- ولكنّ وزير المعارف رجل رجعيّ كثير التشدّق باحترام التقاليد؟

- ويقال أيضًا إنّه على علاقة بالفتاة...

على أيّ حال عادت سعاد. وعندما هلّت علينا بعد انقطاع استقبلناها بالتصفيق. رأينا وجهها الطبيعيّ لأوّل مرّة وكان وسيمًا أيضًا، ورأينا فستانها يحتشم طولًا وعرضًا لأوّل مرّة أيضًا، أمّا ثدياها فلم يستطع تعهّد الوالد بتغيير موضعهما ولا فتنتهما فظلّا نافرين يتحدّيان العميد والتقاليد جميعًا.

ويومًا قال أحد الطلّاب:

- أمس رأيتها مع الرجل الإنجليزيّ بالحديقة اليابانيّة بحلوان...

وانتشر الخبر في الكلّيّة، وسألها صديق عنه فأجابت بأنّها قابلته هناك مصادفة فسارا معًا يتحادثان. توكّد الخبر. وبلغ جميع المسئولين في الكلّيّة. ولكن نجمت عن ذلك مشكلة تحدّت الجميع بقحة لا مثيل لها. لم يكن من المستطاع اتّخاذ إجراء مع المدرّس خشية إغضاب دار المندوب السامي، ولا كان من المستطاع معاقبة الطالبة خشية إغضاب المدرّس!. وأدركنا الموقف بكافّة أبعاده السياسيّة والنفسيّة. وقال جعفر خليل بروحه الساخرة:

- إنجلترا زادت من تحفّظات ٢٨ فبراير تحفّظًا جديدًا خاصًّا بسعاد وهبي.

وقال آخر:

- الأسطول البريطانيّ يهدّد باحتلال الجمارك إذا تعرّضت سعاد لأيّ ضغط.

وقيل في الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب من الطلبة، وتبودلت السخريات على مسمع من العميد نفسه. ولكن في بداية العام الدراسيّ الجديد وجدنا الموقف مختلفًا. فالمدرّس الإنجليزيّ لم يرغب في تجديد عقده، وسعاد لم ترجع إلى الكلّيّة. أين ذهبت سعاد؟ قيل إنّها سافرت مع المدرّس الإنجليزيّ، وقيل إنّها تزوّجت، وقيل إنّها أصبحت غانية في شارع الألفي. ومع كثرة تقلّبي في أنحاء القاهرة فلم تقع عليها عيناي منذ ذلك التاريخ البعيد.

سيّد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العبّاسيّة. أجل كان خليل زكي يماثله في القوّة أو يفوقه ولكنّ الزعامة لا تقوم على القوّة وحدها لا بدّ لها من أساس مكين من الحبّ. وكان سيّد شعير محبوبًا كما كان كريمًا، وفي

أوقات اللعب كان مهرّجًا، وفي ليالي رمضان كان نجمًا لامعًا. ولا مفرّ من عقد المقارنات بينه وبين خليل زكي دائمًا، فكلاهما قويّ سريع العدوان غير أنّ خليل ينطلق من شراسة إجراميّة على حين ينطلق سيّد من المجون والاستهتار، وكلاهما لم يوفّق في الدراسة الابتدائيّة، وكلاهما وظّفه أبوه في دكّانه، وكلاهما طُرد من رعاية أبيه غير أنّ خليل طُرد لشراسته على حين طُرد سيّد لسلوكه مع النساء من زبائن المحلّ. ويطرف عينه الماكرة اكتشف الهوى بيني وبين حنان، وراح يداعبني ساخرًا من تردّدي، حتّى قال لي يومًا:

ـ كلام فارغ، غرامك كلام فارغ...

ولم أحبّ أن يجعل من حبّي سخرية من سخرياته ولكنّه قال:

ـ اسمع نصيحتي وواعدها في غابة التين الشوكيّ.

وفي مساء الأربعاء من كلّ أسبوع ـ في العطلة السنويّة ـ كان يدعونا إلى بيته في آخر شارعنا من ناحية بين الجناين حيث يقام ذكر في الفناء فنجلس على أريكتين متقاربتين نتابع الأناشيد الدينيّة ونشاهد حركات الذاكرين ونحتسي الشاي والقرفة، وكلّما ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ من النوادر الماجنة عن أهل الذكر! بقدر ما كانت أسرته متديّنة بقدر ما كان مستهترًا وبقدر ما حيّرني في فهمه. ولّما يئس من مواصلة الدراسة في المدرسة الابتدائيّة عمل في دكّان أبيه في الغوريّة. وفي العطلة السنويّة كنّا نذهب إليه في المغارب، ولّما يغلق الدكّان يمضي بنا في أنحاء الحيّ الحسيني، من عطفة إلى عطفة، ومن مقهى إلى مقهى، فعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوي والمدقّ وخان الخليلي واستمعنا إلى أذان عليّ محمود ومواويل العربيّ، وعلّمنا ـ ونحن في السنة الأولى من المدرسة الثانويّة ـ تدخين الجوزة والبوري والنارجيلة ولعب النرد والدومينو. كانت تلك الأيّام من أسعد أيّام سيّد شعير، كان يعيش في بيت والده وينفق راتبه على مزاجه الخاصّ ويتشبّه بالرجال وهو في الرابعة عشرة من عمره، ونشأ الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحلّ. ومرّة غازل امرأة وكان زوجها في الخارج فنشبت بينهما معركة وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانهال على ابنه ضربًا أمام الناس، ففقد سيّد عقله وصبّ غضبه على البضائع من أواني زجاجيّة ومعدنيّة وقوارير العطر وغيرها. وطرده الرجل، طرده من دكّانه ومن بيته فانقطع ما بينهما إلى الأبد. اقترحنا أن نوسّط آباءنا في الإصلاح بينهما ولكنّ سيّد رفض ذلك بإباء وقال:

ـ سجن البيت لم يعد يناسبني ودنيا الله واسعة.

وكنّا نظنّها نزوة غضب ولكنّ الأيّام أثبتت لنا أنّه بحقّ رجل الدنيا الواسعة وأنّه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائليّة ونبذها من حياته كأنّها نفاية من النفايات. وقد حرت في تعليل ذلك في وقتها ولكنّي أدركت فيما بعد أنّه كان مراهقًا منبوذًا وسط ثلاثة إخوة ناجحين، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسّطة وواصل الآخران تعليمهما بتفوّق ساحق. وقال لي بكبرياء:

ـ إنّ أيّ تاجر في الحيّ يتمنّى أن يستخدمني!

فقلت له مخلصًا:

ـ ولكنّ حكاية النسوان حكاية خطيرة...

فقال ساخرًا:

ـ المرأة تتسكّع بين دكّان وآخر التماسًا لغمزة عين أو كلمة حلوة أمّا البيع والشراء فلا يحدثان إلّا في المواسم!

وعمل بالفعل في محالّ كثيرة حتّى خنقت الأزمة الاقتصاديّة التجارة فاستغني عنه فيمن استغني عنهم ووجد نفسه وحيدًا بلا مورد ولا أهل ولا أمل. ولم يكن بوسعنا أن نقدّم له ـ ونحن تلاميذ ـ أيّ مساعدة ناجعة، ولكنّه كان صديقًا لصاحب مقهى في مرجوش يعمل في الوقت نفسه تاجر مخدّرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزّعًا بالنسبة وسرعان ما قبل. وأخبرنا بذلك في مباهاة طفوليّة فذُعرنا وقال له سرور عبد الباقي:

ـ أنت مجنون...

وقال له رضا حمادة:

ـ لن يكون ذلك أبدًا...

ولكنّه سخر من ذعرنا ورجانا في الوقت نفسه أن نخفي الأمر تمامًا عن خليل زكي الذي كان يمقته.

واندفع في طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من الجوع والكرب. وفي الخطوة التالية عرف السبيل إلى أحياء البغايا، لا كهاوٍ، ولكن كمحترف، وعاشر امرأة وأقام معها في بيتها، ودعانا إلى الطواف بمملكته الجديدة. تخلّف عن الدعوة سرور عبد الباقي، وذهبنا إليه مدفوعينَ بحبّ الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة. وذكرت في الحال تجربتي القديمة مع قريبي أحمد قدري، وعثرت على البيت، ودهشت للوجوه الجديدة التي طالعتني. ومضى سيّد شعير بنا في تلك الدروب كما فعل من قبل في الحيّ الحسيني ولقّننا كافّة تقاليدها وأسرارها، وسهرنا في مقاهي الأنس ومجالس المعلّمات والفتوّات والبلطجيّة والبرمجيّة، حتّى باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصاتها العارية، باتت تعزف في رءوسنا كالسحر الأسود وتسكب في قلوبنا عصير الأفراح والمآسي. وانضمّ بقدرة قادر إلى زمرة رجال الأعمال فافتتح مقهى في وجه البركة امتاز بالأناقة والخمور الرخيصة وعازف أرغول يشنّف آذان السكارى ومدمني المخدّرات من الزبائن. وكان يديره بحزم الفتوّات وابتسامة التجّار المحترفين، مرتديًا بدلة كالأفنديّة إشارة إلى أصله العريق المختلف عن أصول أصحاب المقاهي من أهل البلد البرمجيّة. ولمّا قامت الحرب العظمى الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أنّ رفيقته هجرته فيمن هاجر من حيّ البغايا من المومسات الجميلات اللاتي آثرن العمل في المشارب الليليّة استغلالًا للجنود البريطانيّين، فلم يبقَ في الحيّ إلّا النسوة الميئوس منهنّ ممّن تقدّم بهنّ العمر أو ذبل جمالهنّ. وتدهور الحيّ القديم فلم يعد صالحًا لارتياد الأفنديّة، ولم نعد نرى سيّد شعير إلّا كلّ حين ومين. وقد جمعنا مأتم شعراوي الفحّام، ومرّة أخرى اجتمع في ركن من السرادق جعفر خليل وخليل زكي ورضا حمادة والدكتور سرور عبد الباقي وعيد منصور وسيّد شعير وأنا.

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدًا، وهم في ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر، وقد عرف كلّ سبيله، المدرّس والموظّف والمحامي والدكتور والتاجر والقوّاد والبرمجيّ وتاجر المخدّرات. وجعلنا نرثي صديقنا الراحل فنقول:

ـ ترك فراغًا لن يُسَدّ.

ـ ما أجمل ذكرياته!.

ـ عاش ضاحكًا ومات ضاحكًا.

ـ راهَنَ طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقّق.

وعاتبنا سيّد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا له بأنّ الحيّ القديم لم يعد بالمكان المناسب.

فقال بازدراء:

ـ اخْص على أصلكم...

ثمّ بأسف:

ـ رحم الله شعراوي، كان الوحيد المواظب على زيارتي...

وبعد انتهاء الحرب بأعوام تقرّر إلغاء البغاء الرسميّ فاضطرّ سيّد إلى الظهور فوق سطح الأرض مرّة أخرى، رجلًا في الأربعين، يملك بضعة آلاف من الجنيهات، وذخيرة كبيرة من التجارب الفاسدة. واجتمعنا في مقهى الفيشاوي، فقال له رضا حمادة:

ـ أمامك فرصة طيّبة فابدأ حياة صحّيّة جديدة!

فضحك سيّد قائلًا:

ـ ما أقبح الوعظ والإرشاد!

وقرّر أن يستجمّ فترة من الزمن. أقام في فندق بالموسكي يدار بطريقة مريبة. وأسرف في تعاطي المخدّرات والخمور، واصطياد بنات الهوى ممّن هنّ في حكم المومسات، أمّا نهاره فيمضيه في لعب الكومي وتدخين النارجيلة. وظلّ خارج الزمن تمامًا فيما يتعلّق بجميع الأحداث كحرب فلسطين وحريق القاهرة وثورة يوليو. وتزوّج وهو في الخمسين من تاجرة مخدّرات مات زوجها في السجن وكانت في الأربعين من عمرها. وبالرغم من شدّة العقوبات التي فرضتها الثورة على تجارة المخدّرات فقد تاجر فيها بكلّ استهانة وبغير تقدير للعواقب. وقد شيّد لنفسه بيتًا كبيرًا في طرف الدراسة على حافّة الخلاء المفضي إلى جبل المقطّم، وسط حديقة مساحتها فدّان زرعها بالنخيل والأعناب والجوافة والليمون والحنّاء والياسمين، وأثّثه بالأثاث الشرقيّ، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج

والأوزّ والأرانب.

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرّة أخرى في مأتم زوجة رضا حمادة، وغادرنا المأتم معًا - أنا وسيّد - حوالى منتصف الليل فسرنا معًا نتحادث. وسألته برجاء:

- ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدّرات؟

فأجاب باستهانة:

- إنّي أربح كثيرًا وأنفق أكثر...

- ولكنّك لا تقدّر العواقب.

فقال لي وهو يربّت على كتفي:

- طظ في العواقب!

ثمّ قال بحسرة:

- هل تذكر رفيقتي القديمة التي هجرتني أيّام الحرب؟.. سمعت أنّها أنجبت منّي ولدًا ولكنّي لم أعثر لهما على أثر!

فسألته:

- أتحبّ أن يكون لك ولد؟

فضحك متجاهلًا سؤالي، ثمّ قال:

- أنا سعيد بزوجتي ولا أفكّر في الزواج من أخرى!

ثمّ ضحك عاليًا وقال:

- والزواج من أخرى يعني بالنسبة لي الخراب أو التأبيدة!

وتنهّد وهو يقول:

- كلّ شيء يهون بالقياس إلى ما وقع لصديقنا الشهم رضا حمادة!

فقلت مستعيدًا حزني كلّه:

- إنّه أعظمنا شخصيّة وأسوأنا حظًّا.

فقال بحنق:

- قارن بين حظّه وحظّ ابن القديمة خليل زكي.

- أي نعم، يا لها من مقارنة ساخرة...

- ذلك هو الحقير الشرّير أمّا أنا!.. ما عيب تجارة المخدّرات؟!

- المسألة أنّي أخاف عليك العواقب.

- فلنذكر عاقبة رضا حمادة الذي لم يتاجر في المخدّرات قطّ!

وأصرّ على اصطحابي إلى بيته العامر بالدراسة.

ولكن ندر اللقاء بيننا. وربّما مرّت أعوام دون لقاء على الإطلاق. أو يقع لقاء مصادفة في مقهى الفيشاوي. ولا أنسى يوم أقبل عليّ في الأسبوع التالي للنكسة. كنت جالسًا وحدي أجترّ الهمّ الثقيل الذي لم أعرف له نظيرًا من قبل. سلّم وجلس ثمّ بادرني متسائلًا:

- هل يقضي احتلال سيناء على التهريب حقًّا؟!

أحنقني سؤاله. اعتبرته غاية ما بعدها غاية في الاستلقاء خارج الزمن. وأدرك بذكائه استيائي فسكت. ومضى يدخّن النارجيلة صامتًا... ثمّ تمتم:

- كعادتك دائمًا لا شيء يهمّك مثل السياسة ووجع الدماغ.

فسألته بضيق:

- الظاهر أنّك لم تسمع بما وقع؟

فقال وهو يشكم رغبته في السخرية:

- سمعنا وشفنا العجب!

ولقيته بعد ذلك بعامين في مكتب عيد منصور. رأيته في صورة جديدة، منتفخ الوجه والبطن، يشي منظره بحال مرضيّة لا شكّ فيها ولا فكرة لي عنها، فسألته:

- كيف حالك؟

فأجاب ببساطة مذهلة:

- بخير كما ترى!

- ولكنّك لست كعادتك!

- سبحان الذي لا يتغيّر!

فضحك عيد منصور قائلًا:

- أخيرًا عرف ربّنا.

فسألته:

- ألم تستشر طبيبًا؟

فتساءل بدوره:

- أتؤمن حقًّا بالأطبّاء؟!

- لم أذهب ولا مرّة واحدة إلى طبيب ولم يدخل معدتي دواء!

ولمّا غادر المكتب ضحك عيد منصور وقال:

- يبدو أنّ جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد!

شرارة النحّال

عرفت شرارة النحّال أوّل عهدي بالوظيفة الحكوميّة. كان عامل التليفون، في العشرين من عمره، ومن حملة الابتدائيّة حديثًا. وكان يلفت النظر بجمال وجهه ورشاقة قدّه ورقّة شمائله. رأيت عمّ صقر الساعي يمازحه مرّة فيقول له:

- اخلع بدلتك وارتد فستانًا وأنا أضمن لك عريسًا في ظرف أربع وعشرين ساعة!

وخلَتْ درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة كتبة الدرجة الثامنة تطلّعًا إليها. ولم يكن ثمّة قانون ينظّم الترقيات، كما كانت الشهادة العليا لعنة على حاملها لما تثيره من حنق في صدور الرؤساء من حملة شهادة الابتدائيّة القديمة، وفزع كلّ موظّف من الفئة الثامنة إلى مَن يعرف من الكبراء والشيوخ والنوّاب فانهالت بطاقات التوصية على وكيل الوزارة، ووجدت أنا شفيعًا - في ذلك السباق - في شخص زميلي القديم عبده البسيوني عضو مجلس النوّاب، وقابلني الأستاذ طنطاوي إسماعيل في الممشى خارج السكرتاريّة فاستوقفني متجهّمًا وسألني:

- أما علمت بالذي رُقّيَ إلى الدرجة السابعة؟

فقلت وقلبي يخفق:

- كلّا.

- أسرع بتهنئة شرارة النحّال!

فهتفت:

- شرارة النحّال؟!

- نعم.

- عامل التليفون؟!

- نعم.

- ولكنّه بالابتدائيّة ووظيفته خارج الهيئة!

فرفع الرجل رأسه إلى فوق وقال:

- اللّهمّ فاشهد، ما زال بمصر أناس يحتكمون إلى المنطق!

ثمّ مضى إلى حجرته. وذهبت إلى إدارة السكرتاريّة فوجدت أنّ الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع.

- هل سمعتم عن عامل تليفون في الدرجة السابعة؟

- مَن قال إنّه عامل تليفون؟... لقد انتُدب للعمل بمكتب وكيل الوزارة.

- وكيل الوزارة على سنّ ورمح؟

- وكيل الوزارة على سنّ ورمح!

وتساءلت:

- كيف... ولماذا؟

فقال لي الأستاذ عبّاس فوزي همسًا:

- يا أيّها الذين آمنوا لا تسألوا...

وقال لي عمّ صقر الساعي وهو يقدّم لي القهوة:

- لا تدهش يا بك، حضرتك موظّف جديد نسبيًّا هذا هو كلّ ما هنالك، والمسألة أنّه كان تقرّر ترقية موظّف آخر، ولكنّ شرارة طلب مقابلة سعادة وكيل الوزارة، ولّما طرد من سكرتاريّته انتظر في الممشى حتّى إذا خرج الوكيل في وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيليّة كأنّه فاطمة رشدي إنّه مسئول عن أسرة كبيرة وإنّه لا واسطة له بعد الله إلّا سعادته، ونظر إليه الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق وامتعاض، غير أنّ شيئًا في وجه شرارة جعله يعيد إليه النظر باهتمام، ولبث ينظر إليه كأنّما لا يريد أن يستردّ بصره.

وسكت الساعي وهو يبتسم بخبث فساورني الشكّ. غير أنّي سألته:

- أيّ شيء تقصد؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبي وهو يهمس باسمًا:

- في العشق ياما كنت أنوح!

ونُقل شرارة النحّال إلى مكتب الوكيل بصفة نهائيّة للعمل في أرشيفه. وتغيّر منظره الخارجيّ ليناسب وظيفته الجديدة فارتدى بدلة جديدة أنيقة بدلًا من القديمة الرثّة، ولبس حذاء أسود بدلًا من النعل المطّاط، وتزيّن عنقه بكرافتّة حريريّة عليها طابع الهبة وأطلّ من طرف جاكتته الأعلى منديل مزركش. وصرنا إذا تقابلنا تبادلنا التحيّة تبادُل الأنداد لا تبادلها القديم بين موظّف وآخر في حكم السعاة. ولعلّه كان على وعي بما يدور عنه ولكنّه لم يكترث له، إمّا لأنّه كان مكشوف الوجه، أو لأنّه آمن بأنّ مركز القوّة خليق

بمَحْق المعايب وإخراس الألسنة. وفي ظرف عامين عُيِّن شرارة سكرتيرًا خاصًّا للوكيل مع ترقية إلى الدرجة السادسة. وتهامس الموظّفون بشقّ التعليقات كالعادة، وقال لي الأستاذ عبّاس فوزي:

ـ ستراه عمّا قريب ضمن الهيئة الحاكمة!

وسرعان ما عُرف في الوزارة كأهمّ شخصيّة في مكتب الوكيل، أهمّ من مدير المكتب نفسه، فصار كعبة لطلّاب الحاجات من الموظّفين والأهالي، وانهالت عليه الهدايا أشكالًا وألوانًا. وأصبحت ابتسامته أو تحيّته هديّة يفاخر بها المتلقّي وهو يحمد الله المنّان. وحدث أن تولّى وزارتنا وزير من «أهل ذلك» فانفجرت أزمة لم تجر لأحد في خاطر، بالرغم من أنّ الوزير والوكيل كانا ينتميان إلى حزب واحد. ودبّر المؤامرة موظّف كبير من محاسيب الوزير كان يتحيّن الفرص للانتقام من الوكيل لإساءة سبقت منه إليه، فحدّث الوزير حديثًا مغريًا عن سكرتير الوكيل «الجميل». ورتّب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطّلاع عليها. وقيل إنّ الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى، وإنّ السكرتير رحّب بتقدير الوزير ترحيب شابّ ليس لطموحه حدّ. وأبلغ الوكيل برغبة الوزير في نقل سكرتيره إلى مكتبه فثار غضبه وصارح مبلّغه بأنّه لا يستغني عنه. وغضب الوزير بدوره فأصدر أمرًا بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلّا أن اعتكف في قصره. وقيل إنّ رئيس الحزب وبّخ الرجلين، وإنّه حذّرهما من تسرّب خلافهما إلى الصحف الوفديّة، فرجع الوكيل إلى عمله كاظمًا غيظه. وتتابع صعود شرارة النحّال فرُقّي إلى الخامسة ـ مع قيده على الرابعة ـ وترامى المستقبل أمامه فسيحًا باهرًا. غير أنّه لم يشقّ طريقه معتمدًا على جماله وحده، أو إنّ جماله لم يكن ميزته الوحيدة، فكان إلى ذلك ذكيًّا عالي الهمّة مزوّدًا بأكثر من سبب من أسباب النجاح. ففي أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذًا مجتهدًا، وحصل من «منازلهم» على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيرًا ليسانس الحقوق. وعلّق عبّاس فوزي على اجتهاده متهكّمًا وجادًّا في آنٍ فقال:

ـ ليس كغيره من أمثاله، فهم اعتمدوا على جمالهم وحده وهو خاصّيّة تفقد قيمتها سريعًا بالتقدّم في العمر، لذلك تجدهم الآن كهولًا منسيّين في الدرجة الرابعة أو الثالثة على الأكثر، أمّا صاحبنا فيُعِدّ نفسه للمناصب الرفيعة!

وكموظّف يُعتبر من أكفأ الموظّفين الذين عرفتهم في حياتي، همّة في العمل وجلدًا عليه وحسن تصرّف فيه، فهو مرجع من المراجع الهامّة في الإدارة، ومن ناحية أخرى اشتهر بالطموح والأنانيّة، والقسوة في معاملة مرءوسيه من زملائه القدامى، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلّة لسان، وكان قدرًا كبيرًا من سعادته لا يتحقّق إلّا بإذلالهم والتمثيل بهم. واستقالت الوزارة وهو في الدرجة الثالثة مديرًا لمكتب الوزير. وتولّى الوفد الحكم. وأحيل الوكيل إلى المعاش قبل أن يتمكّن من الانتقام من محبوبه القديم. وهرع الحاسدون إلى الوزير الجديد فاتّهموا مدير المكتب بالحزبيّة المضادّة والشذوذ الأخلاقيّ. ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال إنّه «موظّف» وموظّف فحسب، ولاؤه أوّلًا وأخيرًا للعمل، وإخلاصه لمن يعمل في خدمته. وتقرّر نقله مديرًا للمحفوظات، وهي وظيفة خلفيّة لا مجال فيها للطموح، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشيف وأعاد تنظيمه على أسس جديدة ممّا بثّ فيه حياة لم يحظ بها من قبل. ودعا الوزير لتفقّده فأُعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه. وإذا به ينشر مقالة في جريدة المقطّم بعنوان «وزير وفديّ يثني على خصم من خصوم الوفد»، نوّه فيها بعدالة الوزير وإخلاصه وإيثاره للمصلحة العامّة وكيف أنّه شجّعه بدل أن يبطش به، وختمها بقوله: إنّ الإنسان ليحتاج إلى قوّة خارقة لتمنعه من الارتماء في أحضان الوفد.

وحدّثني الأستاذ عبّاس فوزي بأنّه كان في حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النحّال لشكره وأنّه قال له:

ـ من أين لك بهذا الأسلوب البليغ؟

فما كان من شرارة إلّا أن قال على الفور:

ـ إنّه فضيلة يا صاحب المعالي اكتسبتها من حفظ خطب خالد الذكر سعد زغلول باشا!

ونُقل شرارة النحّال مديرًا للمستخدَمين ثمّ رُقّيَ إلى الدرجة الثانية قبيل إقالة حكومة الوفد. وفرح الحاسدون وقالوا «الدبّ وقع»، فها هو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضًا، فما عسى أن يصنع شرارة النحّال؟. وتوقّعنا أن نشهد خاتمة الرجل، ولكنّنا فوجئنا جميعًا بترقيته إلى الدرجة الأولى مديرًا عامًّا للإدارة!

ـ ما معنى هٰذا؟

ـ ماذا جرى في الدنيا؟!

ومضت الأخبار تتسرّب كنقط الماء، عرفنا ما خفي علينا. فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سرًّا، وكان ينفّذ له رغائبه دون أن يدري أحد. وأكثر من ذٰلك سعى سعيه حتّى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال إلى المعاش؟. فلمّا رجعا قال بكلّ ثقة:

ـ رجع عهدنا العتيد!

وقيل أيضًا إنّه راح يعطي دروسًا خصوصيّة لابن الوزير الوفديّ الطالب بكلّيّة الحقوق. غير أنّه بفطنته أدرك أنّ ميزان القوّة الحقيقيّ مضى يتركّز في السراي، وأنّ السراي خير وأبقى لمن أوتي بُعْد نظر حقيقيّ. وعليه ألّف كتابه الوحيد «صانعو مصر الحديثة» أرّخ فيه لمحمّد علي وإسماعيل وفؤاد، وأهداه إلى السدّة الملكيّة. وجاءه من الديوان الملكيّ جواب شكر نشر في جميع الصحف. وقال لزميله وغريمه عدلي المؤذّن:

ـ الآن أصبحت من رجال السراي ولن يفكّر حزب في التنكيل بي.

وفي أواخر أيّام الحرب تزوّج من أسرة محترمة، فأنجب بنتًا وولدًا، كانا ـ مثله ـ آيتين في الجمال، وقد تزوّجت الفتاة من سكرتيره، أمّا الشابّ فعمل ضابطًا في الجيش، وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل إجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعاني في مكتبه، وتعطّف فسمح لي بالجلوس أمام مكتبه وقال لي:

ـ انتخابات الشيوخ غاية في الأهمّيّة، ولو فاز الوفديّون لحقّ لهم تغيير العهد كلّه...

فنظرت إليه متسائلًا فواصل قائلًا:

ـ إنّي أفكّر في إرسال اسمك ضمن المرشّحين لرئاسة اللجان الانتخابيّة...

فابتسمت ولم أنبس فقال:

ـ ستجد في الدائرة رجلًا من رجال حزبنا...

فسألت بخبث:

ـ أيّ حزب؟

فضحك عاليًا حتّى احتقن وجهه الورديّ بالدم ثمّ قال:

ـ لا أهمّيّة للحزب، المهمّ الولاء لصاحب العرش!

فقلت بقلق:

ـ لا خبرة لي بذٰلك العمل...

ـ أغمض عينيك ودع المأمور يعمل، لن يطلب منك أكثر من ذٰلك.

فوجمت وهو ينظر لي ثمّ قال متأسّفًا:

ـ الحقّ أنّي رشّحتك لما أعهده فيك من خلق طيّب ولكنّي لن أثقّل عليك.

ونهض مادًّا يده فصافحته وغادرت الحجرة. وأسفرت نتيجة الانتخابات عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديّين في أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع صنوف الضغط والإرهاب والتزوير كالعادة، فحمدت الله على أنّني لم أشترك في تلك الجريمة التاريخيّة المدبّرة.

وقد اختلفت الأقوال في نزاهته فمن قائل إنّه كان نزيهًا بالرغم من عيوبه الكثيرة، ومن قائل بأنّه لصّ أريب شديد الحذر. ومعروف أنّه امتلك فيلًا جميلة في حلوان وعمارة في الدقّي، ولٰكنّه كان يردّد دائمًا بأنّهما اشتُريا بأموال زوجته. ولّما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قُدّم إلى لجنة التطهير بناء على ما قدّم فيه من عرائض ولٰكنّ الظاهر أنّه لم يثبت عليه ما يدينه، فاستمرّ في عمله. وقيل إنّه استمرّ بفضل شفاعة ابنه الضابط والله أعلم. ورُقّي بعد ذٰلك وكيلًا للوزارة، ثمّ عُيّن رئيسًا لمؤسّسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكيّة. وتسلّل إليه الحزن مرّتين، مرّة عندما أصيب ابنه برصاصة غير قاتلة في حرب اليمن، ومرّة عندما أصيب زوج كريمته إصابة عشواء ـ وهو جالس في مقهى ـ في مظاهرات الطلبة التي تفجّرت عقب هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧. ولم أره منذ غادر الوزارة، وانقطعت عنّي أخباره إلّا فيما تسوقه

المصادفة بين الحين والحين. وآخر ما سمعت عنه من صديق رآه في مكّة عام ١٩٧٠ وهو يؤدّي فريضة الحجّ.

شعراوي الفحّام

لعلّه كان أطيب أصدقاء العبّاسيّة. طيبة تخالطها لا مبالاة وبساطة بالغة في الذكاء والتفكير. وأتذكّره كلّما تذكّرته ضاحكًا لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمة أو ملاحظة عابرة ليغرق في الضحك، وكلّما اشتدّ نقاشنا في السياسة ضحك، وكلّما تجادلنا في الكرة أو السينما ضحك، وإذا شهدنا جنازة قريب لصديق تجنّبنا النظر نحوه خشية إثارة فضيحة بين المعزّين. حضرنا يومًا جنازة شابّ قريب لجعفر خليل. وخرجت أمّ الشابّ تودّع النعش أمام البيت في حال جنونيّة، حافية القدمين محلولة الشعر تلطم خدّيها بشبشب، ثمّ من شدّة الحزن راحت ترقص كالمجنونة، منظر أثار حزننا جميعًا وأجرى دموعنا، ولاحت منّي التفاتة نحو شعراوي الفحّام فرأيته يعضّ النواجذ على ضحكة تريد أن تفلت على حين راح جسمه النحيل يرتعش تحت ضغط الضحك المكتوم، ولم يكن قاسيًا ولا بليدًا ولا أبله ولكنّه كان غريبًا، كان نوعًا قائمًا بذاته. وكان يقيم مع أمّه في البيت المجاور لبيت سيّد شعير، بلا أب ولا أخوة، مات أبوه وهو في المهد، تاركًا له ولأمّه البيت ومعاشًا مقداره عشرة جنيهات. وكرّست أمّه حياتها لتربيته معتمدة على معاش زوجها وريع وقف يماثله في المقدار. لذلك اعتُبرت أسرة ميسورة الحال وستظلّ كذلك حتّى يدخل شعراوي طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغيّر الحال. ولم يوفّق شعراوي في دراسته الابتدائيّة، لا بسبب الإهمال والشقاوة مثل خليل زكي وسيّد شعير ولكن بسبب الإهمال والشقاوة والغباء. وفُصل من المدرسة لكثرة سقوطه، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق. ونفر بطبعه المهذّب من مصاحبة خليل زكي ولكنّه وجد ملاذه عند سيّد شعير، فلازمه في سهرات الحيّ الحسيني ثمّ في أحياء البغايا بعد ذلك. وعن طريقه تعلّم شرب الخمر ثمّ لم يفارقه إدمانها حتّى الموت.

ويومًا قال لي وكان ما زال تلميذًا بالابتدائيّة:

ـ أنا عارف!

فسألته عمّا يعنيه فقال:

ـ أنت تحبّ حنان مصطفى.

فسكتُّ ضيقًا وحياء فقال:

ـ وأنا أحبّ حنان مصطفى!

فدهشت وتوقّعت صراعًا من نوع ما غير أنّه ضحك وقال:

ـ يد الله مع الجماعة!

ـ ماذا تعني؟

ـ نستدرجها معًا إلى غابة التين الشوكيّ!

فصحت به:

ـ عليك اللعنة!

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيّام فسرعان ما تلاشى سوء التفاهم. على أنّي لم أعرف له بعد ذلك قصّة حبّ أو زواج واقتصر نشاطه في ذلك المجال على مصادقة المومسات. ولمّا يئست أمّه من تعليمه أرادت أن تجد له عملًا، وكانت تردّد دائمًا أنّ أيّ عمل خير من البطالة. وقصدتْ قريبًا لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظّفه في وزارة الأوقاف، ولكنّه لم يستطع المواظبة على العمل، وكان يمضي يومه في الفيشاوي منتظرًا سيّد شعير حتّى يفرغ من عمله في دكّان أبيه، وسرعان ما فُصل من الوزارة، ولم يتخلّف يومًا عن سهراتنا الأسبوعيّة سواء كنّا طلبة أم موظّفين، وتمكّن منه إدمان الخمر فكان يشرب كلّ ليلة، يشرب أرخص الخمر وأردأها التي تتناسب مع دخله. ويمكن تخيّل ما أحدثه ذلك في أمّه من قلق وأسى. وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر في مقهى سيّد شعير بوجه البركة:

ـ أمّي لا تريح ولا تستريح، تريد أن تخلق لي عملًا ولكن أيّ عمل؟، وتريد أن تزوّجني ولكن أيّ زوجة؟

فقال له عيد منصور:

ـ دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيّب لو قنعت بسكرة واحدة في الأسبوع وما عليك إلّا أن

تبحث عن زوجة ذات إيراد. . .

فضحك كالعادة وقال:

- إنّي أنتظر الفرج وهو آتٍ عمّا قريب!

وكان يقصد قريبه أحمد باشا ندا الذي تولّى رئاسة الديوان الملكيّ فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون الماليّة:

- ألك فكرة عن ثروته؟

فأجاب شعراوي وهو يملأ كأسه بالكونياك الجهنّميّ:

- عشرون ألفًا من الأفدنة أمّا أمواله السائلة فلا يعلمها إلّا الله.

- ولا ورثة له غيركم؟

- أمّي هي قريبته الوحيدة الباقية. . .

وكان رضا حمادة يؤكّد لنا تلك المعلومات نقلًا عن أبيه. ومن الطريف أنّنا لم نعلم بقرابة شعراوي لأحمد باشا ندا إلّا في وقت متأخّر نسبيًّا، إذ أنّه أخفاها على عهد المدرسة الابتدائيّة لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدوّ من أعداء سعد زغلول. واسترسل شعراوي يقول:

- أمّي هي الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها والباشا الآن في الخامسة والسبعين من عمره، وكلّ آتٍ قريب!

وسأله جعفر خليل:

- حدّثنا عمّا ستفعل بالتركة إذا آلت إليك؟

فضحك طويلًا وقال:

- آه لو تتحقّق الأحلام، سأبني قصرًا في القاهرة وآخر في الإسكندريّة كالباشا نفسه، وسأملأ الخزائن بجميع صنوف الخمر المعتّقة وأمّا النسوان. . .

فقاطعه سيّد شعير:

- وماذا ستقدّم لنا نحن الأصدقاء؟

فأجاب:

- ستكون سهرتكم في حديقة القصر وسيقدّم لكم أجود ألوان الطعام والخمور والنساء، عهد الله بيني وبينكم. . .

وهمس رضا حمادة في أذني:

- سوف يكون يومًا تاريخيًّا يوم يرث صديقنا تركته الخياليّة. . .

وظلّ يسكر ويحلم بالتركة، يسكر ويحلم، ومع الأيّام رقّ عوده وجفّ جلده وبرغم شبابه جرى المشيب في شعره. وإذا بالباشا العجوز يفاجئ البلد بمغامرة لا تخطر بالبال، فعاد من رحلة بالنمسا بصحبة غادة شقراء فتنة في العشرين من عمرها، قيل إنّه ينوي الزواج منها على سنّة الله ورسوله. وثار الرأي العامّ، واضطربت جماعتنا، أمّا صديقنا فكاد يجنّ. وما ندري إلّا وشعراوي يقيم على الباشا دعوى للحجر عليه باعتباره سفيهًا. وأدهشنا ذلك وبحثنا عمّا خفي علينا منه فوضح لنا أنّ خليل زكي هو الذي أشار عليه بذلك!. غير أنّ قوى مجهولة تدخّلت لتعيد إلى الأمر توازنه، فسافرت الفتاة النمساويّة فجأة وقيل إنّها لم توافق على السفر حتّى استولت على عشرين ألفًا من الجنيهات. ويتدخّل السراي كفّت الجرائد عن الخوض في الموضوع، وبتدخّلها أيضًا رُفضت دعوى الحجر. واعتكف الباشا في قصره لا يزور ولا يُزار ثمّ أعلن وقفيّته المشهورة التي أوقف أرضه بها للخيرات والمساجد. تذكّرنا صديقنا فأحزننا مآله وخيبة آماله، وأقبل علينا في مقهى الفيشاوي سكران كالعادة محمرّ العينين ذاهل الطرف، نظر في وجوهنا مليًّا، ثمّ أغرق في الضحك!. وخلع حذاءه فوثب إلى أريكة في صدر المقصورة فتربّع عليها وراح يغنّي:

البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

وأغرق في الضحك مرّة أخرى حتّى أعدانا فضحكنا كالمجانين. ولم يطرأ عليه من جديد بعد ذلك سوى الإفراط في الشراب. فكان يشرب في النهار كما يشرب في الليل، ولم يتيسّر له من أنواع الخمور إلّا الأنبذة الرخيصة الشيطانيّة، أنبذ السلسلة ودرب المبلات وخمّارات شارع محمّد عليّ، وخبت شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء، وبدا أنّه يعيش في منفى من صنعه، يتخاطب بلغته القائمة على الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق في كآبة حيال أشباحه، وأنّه يسير بقوّة نحو الذوبان. وحاول جعفر خليل أن يجرّه إلى دنيا السينما كما فعل مع خليل زكي ولكنّه رفض الفكرة وضحك طويلًا. وعرض عليه

سيّد شعير أن يعمل في المقهى بشرط أن يمتنع عن السكر فضحك أيضًا. لم تكن لديه همّة ولا رغبة ولا دافع. وقامت الحرب العظمى الثانية، وفي نفس العام توفّيت والدته، فأجّر البيت وأقام في حجرة مستقلّة بمرافقها فوق السطح. وفي عام ١٩٤١ أغارت الطيّارات الإيطاليّة على القاهرة في النصف الثاني من الليل، وكان جالسًا فوق السطح في غيبوبة تامّة من السكر. والظاهر أنّه لم يغادر كرسيّه إذ وُجد مطروحًا عليه قتيلًا بشظيّة مستقرّة في رأسه. وكان مصرعه أوّل تجربة من نوعها في حياتنا المشتركة فهو أوّل من فقدنا من أصدقاء العمر. وكان جعفر خليل أشدّنا حزنًا إذ عُرف دائمًا بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين كسيّد شعير وخليل زكي. وجمعنا المأتم حتّى الذين باعدت بيننا وبينهم الظروف الطارئة، وجعل سيّد شعير يقول بأسف حقيقيّ:

- رحم الله شعراوي، كان الوحيد المواظب على زيارتي.

صادق عبد الحميد

قال الأستاذ جاد أبو العلا يقدّمه لي في صالونه بالدقّي:

- الدكتور صادق عبد الحميد.

سرَت في روحي رعدة وأنا أصافحه. تذكّرت الاسم بقوّة مخيفة. تذكّرت درّيّة زوجته وهي تحدّثني عنه. ترى أيكون آخر له نفس الاسم؟. ولكنّ هٰذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلًا:

- كان في بعثة قصيرة أخيرًا في إنجلترا، ولكنّه حصل على الدكتوراه من إنجلترا على عهد طلب العلم، وهو باطنيّ ممتاز ولكنّه أديب وفنّان وفيلسوف وسياسيّ أيضًا...

إذن فهو زوج عشيقتي دون غيره!. ذٰلك الرجل الذي بلغ الأربعين بالكاد والذي يفيض حيويّة ويتألّق ذكاء. وأعجبني حديثه الذكيّ وجولاته المضيئة في الفنّ والفكر والسياسة. ووجدته يجذبني بطلاوة الحديث وعمقه وتنوّعه، ووجدت في روحه سرًّا ينفث صداقة راسخة، وازدادت مع الأيّام رسوخًا. وصفا جوّها بقطع العلاقة بيني وبين درّيّة زوجته وإن لم أخل من ضيق كلّما تذكّرتها. وبتحريض حارّ من ناحيته قدّمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر. كما قدّمته إلى الأستاذ زهير كامل. وخيّل إليّ كثيرًا أنّه يضمر تجربة نفسه في الكتابة ولكنّه قنع - ولو إلى حين - بالاستماع والمناقشة، وكان يحظى منهما بسعادة لا توصف. وكان من المتحمّسين لثورة يوليو عن إيمان وعقيدة. وكان يحلم بالاشتراكيّة منذ عهد طلب العلم، ولم تكن له جذور حزبيّة أو إقطاعيّة تمنعه من الارتماء في أحضان الثورة. سأله رضا حمادة يومًا:

- أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرّفاتها؟

فأجاب بحماس، وهو دائمًا يتكلّم بحماس:

- كلّا، الحقّ أنّي أيّدت موقفها من الأحزاب، من الإخوان، وحتّى من الشيوعيّين...

- وما لزوم «حتّى» هٰذه؟

- لست شيوعيًّا، ولكنّي أرحّب بالتعاون بين الثورة وبينهم، فالثورة والشيوعيّة تيّاران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان في النهاية إلى أغراض متقاربة...

وبعد صمت قصير استطرد:

- وأيّدت موقفها من الوحدة مع سوريا، ومن حملة اليمن!

فقال رضا حمادة:

- إذن فليس في الإمكان خير ممّا كان...

فقال ضاحكًا:

- لست غافلًا عن السلبيّات ولكنّها شرّ لا بدّ منه في فترات الانتقال والتطوّر، فأنت بضربة موفّقة واحدة تستطيع أن تغيّر نظام الحكم أمّا الطبائع فيلزمها وقت أطول بكثير!

وعمد إلى تفصيل رأيه فقال:

- قولوا في الجمعيّات التعاونيّة ما شئتم، وقولكم حقّ، ولكنّها كنظام فهو نظام مثاليّ، وسوف يختفي الفساد يومًا وتبقى الجمعيّة لتؤدّي رسالتها، ويمكن أن يقال ذٰلك بالحرف عن القطاع العامّ، ألا تذكرون بنك التسليف الزراعيّ؟.. لقد استغلّه إسماعيل صدقي للتنكيل بخصومه وتفتيت وحدة الأمّة ولكنّ إسماعيل

صدقي ذهب وبقي بنك التسليف!

ولمّا وقعت الواقعة يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ذهل واختلّ توازنه، ومضى يتخبّط بين الصالونات والمقاهي وكأنّ القيامة قامت، ودار بيني وبينه حديث طويل في التليفون ختمه متسائلًا:

ـ أكانت حياتنا وهمًا من الأوهام؟!

وقابلته بعد ذلك بأيّام في بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعضًا غاية الامتعاض، وجعل يردّد بتألّم شديد:

ـ ما أكثر الشامتين، ما أكثر الهازئين، ما أكثر المازحين، لم يجنّ أحد، لم ينتحر أحد، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد، يجب أن أجنّ أو أن أنتحر.

ولكنّه أخذ يستردّ الثقة يومًا بعد يوم، وينظر إلى الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيد «تشخيص» أنفسنا، وكلّما سمع عن رغبة الأعداء في تصفية الثورة ازداد إيمانًا بها وحماسًا لها، حتّى اعتقد مخلصًا أنّ استمرارها أهمّ من استرداد الأجزاء المحتلّة من الوطن العربيّ، إذ ما فائدة أن نستردّ أرضًا ونخسر أنفسنا؟، ثمّ إنّ استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض طال الزمان أو قصر، كما إنّه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربيّ.

ـ إنّنا مطاردون، يطاردنا التخلّف، وهو عدوّنا الحقيقيّ لا إسرائيل، وليست إسرائيل عدوًّا لنا إلّا لأنّها تهدّدنا بتجميد التخلّف...

وانصرفنا ذات ليلة معًا من صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فجلست إلى جانبه في سيّارته نصر التي مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المطليّ بالأزرق. ووجدتني أقول له:

ـ عبده البسيولي حدّثني بحديث عجيب...

فتساءل عن الحديث فقلت:

ـ قال إنّ الدكتور زهير كامل عشق أخيرًا صحفيّة تحت التمرين تدعى نعمات عارف...

ـ وما وجه العجب في ذلك؟

ـ هو في الستّين كما تعلم وهي في العشرين...

فضحك وقال:

ـ العشق هو العشق بصرف النظر!

فقلت:

ـ وقال أيضًا إنّه سيتزوّج منها...

ـ يا عزيزي إنّ حربًا تنشب فجأة فتقتل آلافًا أو ملايين، وإنّ زلزالًا يقع فيدمّر آلافًا، أمّا زواج زهير كامل فربّما مرّ بسلام وربّما تخلّف عنه ضحيّة أو ضحيّتان!

وسكتنا مليًّا، ثمّ قال لي:

ـ أعترف لك بأنّي عاشق!

فتذكّرت ما قالته لي درّيّة في آخر لقاء ولكنّي تساءلت متظاهرًا بالاهتمام:

ـ حقًّا؟

ـ راقصة إيطاليّة بالأوبرج...

ـ لعلّها نزوة!

ـ حبّ عاش أكثر من عشرة أعوام...

ـ يا له من حبّ عظيم!

ـ أشعر أحيانًا بأنّه عاش أكثر ممّا ينبغي!

فتردّدت، وصمتّ، بعد أن كدت أطرح سؤالًا عن الزوجة ولكنّه قال وكأنّه قرأ أفكاري:

ـ كما أحببت يومًا زوجتي...

وحدّثني بفتور عن حبّهما، حبّ طبيب الامتياز للممرّضة، كما سبق أن سمعته:

ـ كانت فقيرة، وبالرغم من أنّنا لم نكن أغنياء إلّا أنّ أحدًا من أهلي لم يوافق على فكرة زواجي بها، أبدًا أبدًا...

ـ ولكنّك تزوّجتها...

ـ وغرقنا في الحبّ كالمجانين...

وتمرّد اللسان على تحفّظي فقلت:

ـ ثمّ جفّت ينابيع الحبّ!

فارتفع صوته ـ كأنّما ليستمدّ من ارتفاع النبرة دفاعًا ـ وهو يقول:

ـ الحقّ أنّ نظرتها إلى الحبّ تغيّرت تمامًا بمجرّد أن صارت أمًّا...

ـ كيف تغيّرت نظرتها؟

ـ لا أدري!

ـ أنت تدري بلا شكّ.

ـ لعلّها أصبحت تكنّ حبًّا أعظم من الحبّ العاديّ

ولكنّي افتقدت الحبّ الأوّل.. وإذا بي...

- وإذا بك؟

- إذا بي أزهد فيها نهائيًّا وبلا رجعة...

- يا لها من سيّدة تستحقّ الرثاء!

- إنّي أوفّر لها جميع أسباب الرعاية والراحة!

ثمّ بصراحة:

- أحيانًا أتمنّى لو توفّق إلى حبّ رجل آخر فتذهب معه بسلام!

وخيّل إليّ أنّ قصّة درّيّة قد اكتملت ولكن ساورتني - وما تزال - شكوك كثيرة. وشاءت الظروف أن نتعرّف - أنا وصادق - إلى حرم الدكتور زهير كامل معًا، ودعاهما الدكتور صادق عبد الحميد إلى رحلة في أوبرج الفيّوم ولم يصطحب زوجته معه بحجّة انشغالها بالأولاد. وبعد مرور عام قال لي الأستاذ جاد أبو العلا في صالونه:

- إنّي رأيتهما معًا!

فسألته عمّن يعني فقال:

- نعمات عارف والدكتور صادق عبد الحميد في كنج مريوط...

فقلت وأنا أداري انزعاجي:

- لعلّها...

فقاطعني ساخرًا:

وقالوا تراها يا جميل تبدّلت

وغيّرها الواشي فقلت لعلّها

وقلت لنفسي إنّ الدكتور الممتاز يحتاج إلى مزيد من الدراسة عن جانبه العاطفيّ. وظلّ يتحدّث في السياسة والفنّ ولكنّه لم يشر بكلمة إلى حبّه الجديد، وواصل زياراته للدكتور زهير كامل، وقام بتمثيل دور الصديق والمعجب كما كان يفعل من قبل، وهو ما ساءني منه وأثار اشمئزازي. وضاعف من إثارتي أنّي رأيت في نفس العام درّيّة في سيّارة جاد أبو العلا وهو ينطلق بها في طريق الهرم، وللحال تذكّرت فيلّته بالهرم التي حدّثني عنها عجلان ثابت عندما أخبرني بعلاقته - جاد أبو العلا - بأماني زوجة عبده البسيوني. ها هي درّيّة تجرّب حظّها مرّة أخرى مع رجل عابث لا يوفّر الأمان لأحد. وضقت بهمومي الأخلاقيّة وتذكّرت الكثيرين ممّن يصفونها بازدراء بقولهم «برجوازيّة»، وقلت لنفسي إنّه لمن حسن الحظّ أنّه لم يبق لنا طويل عمر في هذه الحياة المتعبة الفاتنة.

صبري جاد

تعيّن بإدارة السكرتاريّة في أواخر عام النكسة. كان في الثانية والعشرين من عمره، ومن حملة ليسانس الفلسفة، ومن أوّل يوم جعلت أرمقه بحبّ استطلاع، وأنتظر على لهف اليوم الذي يكاشفني فيه بطويّته فيصلني بهذا العالم الجديد الغريب. وكان من أصل ريفيّ ولكنّه نشأ وتربّى وتعلّم في القاهرة، في أسرة متوسّطة، ابنًا وحيدًا بين ثلاث بنات توظّفن وتزوّجن، ويومًا سألني:

- حضرتك تعرف الأستاذ عبّاس فوزي؟

فأجبته بترحيب:

- طبعًا، كان رئيسنا حتّى أحيل إلى المعاش منذ أعوام...

- أين يقيم الآن؟

- في عابدين، أتريد أن تقابله؟

- نعم، أريد منه حديثًا لمجلّة العلم...

- أنت صحفيّ بها؟

- تحت التمرين...

- ما رأيك أن نزوره معًا؟.. فإنّي لم أره من مدّة غير قصيرة.

وذهبنا معًا إلى فيلّا عبّاس فوزي، وهي مقامة فوق سطح عمارة يملكها في عابدين. ورحّب بنا بلطفه المعهود، وأجرى صبري جاد معه حديثه الذي دار حول مؤلّفاته عن التراث. ولمّا انتهى استأذن في الانصراف ولكنّ الأستاذ عبّاس فوزي قال له:

- لن أسمح لك بالذهاب حتّى تجيب عن أسئلتي...

فتساءل الشابّ عمّا يريد فقال:

- ثمّة أسئلة تلحّ عليّ بخصوص جيلكم فهل أنت على استعداد للإجابة بصراحة!

فأجاب الشابّ باسمًا:

ـ طبعًا.

ـ بصراحة من فضلك، نحن غير رسميّين، ونحن في خلوة، فلا تضنّ عليّ بالحقيقة...

ـ تحت أمرك...

وقلت أنا:

ـ الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككلّ لا عن شخصك...

فقال عبّاس فوزي:

ـ هٰذا ما أقصده تمامًا.

فقال صبري جاد:

ـ تحت أمرك...

اعتدل الأستاذ عبّاس فوق الكنبة التركيّة ثمّ سأله:

ـ ما موقفكم من الدين؟

فأجاب صبري جاد ببساطة:

ـ لا أحد يهتمّ به!

ـ لا أحد؟!

ـ الأغلبيّة لا تهتمّ به!

ـ لِمَ؟

ـ لم يكن موضع بحث، ربّما لأنّه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما ندرسه من العلم...

ـ ولٰكنّي أعلم أنّ الدولة تهتمّ بتدريسه وتشترط النجاح فيه؟

ـ ونحن نحفظه وننجح فيه.

ـ أتعني أنّ تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة؟

ـ أجل.

ـ والبيت؟.. ألم تلقّنه في البيت؟.. هل والداك مؤمنان؟

ـ نعم ولٰكنّهما لا يصلّيان ولا يصومان ولا يتحدّثان في الدين!

ـ ألا يوجد بين الطلبة إخوان مسلمون؟

ـ كلّا.. أو عدد لا وزن له...

ـ ألا يوجد تلاميذ مؤمنون؟

ـ في رأيي أنّهم قلّة...

ثمّ مستدركًا:

ـ بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين، البعض يقولون إنّ هزيمتنا ترجع إلى إهمالنا لديننا...

ـ إذن يوجد ميل للإيمان؟.

ـ نعم يوجد...

فقال الأستاذ عبّاس باسمًا:

ـ إنّي أطمع في مزيد من الدقّة.

ـ أجبت بما أعرف، مستعيدًا ذكريات الثانويّة والجامعة.

ـ دعني أساعدك، لعلّك تقصد أن تقول إنّ الإيمان بصفة عامّة لا يلعب دورًا هامًّا بينكم ولٰكنّ الوضع قد يتغيّر بعد النكسة؟

ـ نعم...

ـ ما مدى هٰذا التغيّر المحتمل في نظرك؟

ـ لا أدري...

وتفكّر الأستاذ عبّاس مليًّا وأنا أتابعه ـ أتابعهما ـ بحواسّ مرهفة واهتمام لا مزيد عليه. وعاد الأستاذ يسأل:

ـ ما هي القِيَم التي تقدّسونها؟

فنظر إليه صبري جاد في حيرة وتمتم:

ـ القيم؟

وقلت من فوري مخاطبًا الأستاذ:

ـ أرجو أن تتجنّب التجريدات ما أمكن...

فعاد الأستاذ يسأل:

ـ لِمَ تتلقّون العلم في المدارس؟

ـ لعلّه خير من أن نتصعلك في الشوارع!

ـ فقط؟!

ـ ولكي نحصل على وظيفة توفّر لنا الحياة السعيدة.

ـ وما الحياة السعيدة؟

ـ هي المسكن الصحّيّ والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذٰلك من مسرّات الحياة...

فتدخّلت في الحديث بلا تدبير متسائلًا:

ـ ألا تحبّون العلم؟.. ألا تسعون للتفوّق فيه؟

ـ كلّنا نطمح إلى دراسة العلم إلّا مَن يقعده المجموع عن ذٰلك.

ـ لماذا؟

ـ الشهادات العلميّة هي التي توفّر الوظائف الممتازة...

ـ والتفوّق في العلم والحلم بخَلْق إضافات فيه؟

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّ المتفوّقين يحلمون بذلك...

فسأله الأستاذ عبّاس:

ـ ألا تقرءون الكتب في أوقات الفراغ؟

ـ نفضّل السينما والإذاعة والتلفزيون وقليلون يقرءون...

ـ وهل يقرءون التراث؟

ـ لا أظنّ!

ـ ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب؟

ـ لغته معقّدة ومحصوله ضحل وهو مقطوع الصلة بزماننا!

فتسلّلت نبرة حادّة بعض الشيء إلى صوت الأستاذ وهو يسأل:

ـ والوطن أما زلتم تحبّونه؟

ـ طبعًا.

ـ وإسرائيل هل تودّون محاربتها؟

ـ نحن الذين سنحرّر الوطن بدمائنا، الوطن الذي تسبّبتم في هزيمته...

ـ نحن؟

ـ نعم.

ـ ليس جيلنا الذي يحكم...

وأشرت إلى الأستاذ عبّاس إشارة خفيّة ليتجنّب الحدّة فثاب إلى الهدوء وجعل يبتسم في مودّة، ثمّ سأله:

ـ وماذا تفضّلون الاشتراكيّة أم الرأسماليّة؟

فرفع صبري منكبيه وأجاب:

ـ لا تهمّنا الأسماء!

ـ الأسماء؟!

ـ أجل، مللنا ذلك... يهمّنا أن تتحقّق لكلّ فرد حرّيّته ونجاحه وسعادته...

فقلت متدخّلًا في الحديث مرّة أخرى:

ـ هذا يعني أنّك تفضّل الاشتراكيّة!

ـ لا أدري!

ـ أتفضّل النظام الرأسمالي؟

ـ لا أعتقد.

ـ ألديك نظام جديد؟

ـ كلّا.. ولكنّنا مللنا ذلك...

ورجع الأستاذ عبّاس فوزي يسأل:

ـ وما موقفكم من الحبّ؟.. ألا زال للحبّ عندكم قيمة أم أصبح الجنس كلّ شيء؟

ـ الجنس مسيطر، وقليلون يحبّون بل ويرغبون أن يمتدّ بهم الحبّ حتّى الزواج!

ـ وماذا عن الأكثريّة؟

ـ يمارسون المغامرات الجنسيّة...

ـ مع من؟

ـ التلميذات.. الطالبات.. الفتيات!

ـ هل يقبلون الزواج من المغامرات؟

ـ كثيرون يقبلون... والبعض يتبع تقاليد الجيل الماضي...

ـ أعتقد أنّ الفتيات لا يتخلّين عن حلم الزواج.

ـ هذا هو عيبهنّ الأوّل.

ـ وغير مستحيل أن تتزوّج أنت نفسك يومًا ما.

ـ غير مستحيل وإن يكن مرتّبي مضحكًا ومستقبلي عدمًا.

ـ ولكنّ ثمّة ما يشدّك إلى الحياة ولا شكّ؟

ـ غريزة حبّ البقاء.

ـ ربّما لم تخلُ حياتك من سرور؟

ـ لقمة سائغة، فيلم جيّد، علاقة جنسيّة بريئة.

ـ بريئة؟!

ـ أي ليست استدراجًا لزواج.

ـ أتعتقد أنّك خير من أبيك؟

ـ كان أبي وفديًا يقدّس سعد زغلول ومصطفى النحّاس وأنا أعتبر ذلك مضحكًا.

ـ لمَ؟

ـ ثبت أنّهم أصنام لا أكثر ولا أقلّ.

ـ ألا أجد عندك عقيدة بديلة؟

ـ كان عندي، وتزلزل كلّ شيء عقب ٥ يونيه...

ـ ماذا تقترح لتحسين الأحوال؟

ـ العالم كلّه عدم وهباء.

ـ ماذا تقترح لتحسين أحواله؟

ـ القضاء على جميع المسئولين فيه!

ـ وماذا يحدث بعد ذٰلك؟

ـ لا يهمّ، ستتحسّن الأحوال وحدها. . .

ـ لقد جئتني يا عزيزي لإجراء حديث عن التراث على حين أنّك لا تؤمن به؟

ـ إنّي صحفيّ تحت التمرين!

ـ ولٰكنّ سلوكه لا يخلو من انتهازيّة؟

ـ وما العيب؟. أيّ وسيلة تنفع للوصول في هٰذا العالم المكتظّ فهي مشروعة!

ـ أشكرك جدًّا.

ـ العفو. . . .

وغادرنا عمارة الأستاذ وصدري يجيش بانفعال عاصف.

صَفَاء الكَاتِب

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت في العبّاسيّة القديمة. وكان يقع في الحيّ الشرقيّ بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطّتي ترام. وكثيرًا ما سرنا بحذاء سوره ونحن في طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أرَ منه إلّا رءوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة. وذات يوم وكنت ماضيًا نحو الصحراء رأيت حنطورًا ينحدر من الطريق الشرقيّ نحو الشارع العموميّ، في صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك، وإلى جانبها فتاة تتألّق بنور الشباب. وبمجرّد أن وقعت عيناي على وجه الفتاة عانقت سرًّا من أسرار الحياة المتفجّرة، تفتّحت بها أبواب السماء فأغدقت عليّ فيضًا من بركات الحبّ. وقال شعراوي الفحّام وكان أكثرنا خبرة بالحيّ الشرقيّ:

ـ هي صفاء ابنة صاحب القصر.

وقال خليل زكي وكان يسطو على حدائق الحيّ الشرقيّ كلّما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو:

ـ وهي في العشرين من عمرها.

وعند ذٰلك همس جعفر خليل في أذني وقد لحظ تغيّري:

ـ أمّا أنت ففي الخامسة عشرة!

ومن عجب أنّ صورتها ـ رغم العاطفة التي ابتعثتها ـ اختفت تمامًا وراء سحب الماضي. بل تعذّرت على الوضوح حتّى وأنا فريسة لسحرها. لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها. ذاب ذٰلك في سائل سحريّ. وكنت إذا تذكّرته ـ أو خيّل إليّ ذٰلك ـ فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفويّ كشذا الورد الذي يباغتك من وراء سور وأنت ماضٍ غارقًا في أفكارك. وكأنّ قلبي لم يكن يحرّكه شيء إلّا إذا انتهى إليها بسبب خفيّ. ولذٰلك هِمْتُ في أزمنة متأخّرة نسبيًّا بقسمات وملامح وسمات ولَفَتات لنجوم توهّمت أنّها تذكّرني بما غاب عنّي منها. بل ما أحببت صفة في وجه إنسانيّ إلّا وكانت هي وراءه حقيقة أم وهمًا. وبسبب ذٰلك الحبّ الخاطف عانت حياتي العاطفيّة من أزمات متواصلة معقّدة كأنّها السحر الأسود. والعجيب أنّه كان حبًّا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر. رأيتها في الحنطور ثوانٍ ليس إلّا ففقدت إرادتي وألقي بي في طور جديد من أطوار الخلق. وكنت قريب عهد بحبّ حنان مصطفى فأدركت خطئي وآمنت بأنّني أحبّ لأوّل مرّة. وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم، وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء. وجعلت أحوم حول سراي الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يُرى به أنسيّ سوى البوّاب والبستانيّ وبعض الخدم، وسمعت مرّة صوتًا ناعمًا ينادي البوّاب فاهتزّ قلبي وافترضت في الحال أنّه صوتها ثمّ آمنت بذٰلك. ورأيتها للمرّة الثانية في مناسبة حزينة جدًّا، في نافذة بيت أثريّ بشارع محمّد عليّ احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جناز سعد زغلول، ولم أنتبه إليها عقب مرور النعش فرأيتها من خلال دموعي وجهها المشرق وهي تجفّف عينيها مادّة عنقها وراء النعش المبارك. خفق قلبي خفقة مباغتة ولٰكنّني لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في قلب كسير محزون، واجتاحتني عواطف متناقضة كما اجتاحني تيّار الخلق المتلاطم الباكي. لم أرها بعد ذٰلك

إلّا ساعة هبطت أدراج السلاملك في ثوب العرس لتستقلّ سيّارة إلى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مدّة ذٰلك التاريخ الذي مرّ بلا أحداث عامًا إلّا قليلًا، ولٰكنّه كان أعجب عام في حياتي.

وانكشف أمري لأصدقائي جميعًا، أمّا المهرّجون فسخروا منّي وأطلقوا عليّ «مجنون صفاء»، وأمّا الآخرون فحذّروني من التمادي في عاطفة لا جدوى منها ألبتّة. وكنّا صغارًا وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربيّ، فقال لي سرور عبد الباقي:

ـ لا تستسلم وإلّا جُننت كمجنون ليلى...

وقال لي رضا حمادة:

ـ إنّ حبّك هٰذا يقطع بأنّك أحببتها في تاريخ سحيق مضى، ربّما في عصر الفراعنة كما يقول ريدرهجارد.

وتمثّل ذٰلك الحبّ في صورة قوّة طاغية متسلّطة لا تقنع بأقلّ من التهام الروح والجسد. قذف بي في جحيم الألم، وصهرني، وخلق منّي معدنًا جديدًا توّاقًا إلى الوجود، ينجذب إلى كلّ شيء جميل وحقيقيّ فيه. وبقي الحبّ ـ بعد اختفاء خالقه ـ ما لا يقلّ عن عشرة أعوام مشتعلًا كجنون لا علاج له، ثمّ استكنّ على مدى العمر في أعماقي كقوّة خامدة، ربّما حرّكتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدبّ فيها حياة هادئة مؤقّتة تقطع بأنّه لم يدركه الفناء بعد. وكلّما تذكّرت تلك الأيّام أذهلني العجب، وتساءلت بدهشة عن سرّ الحياة التي عشتها، وهل كان أصابني مسّ من الجنون، وأسفت غاية الأسف أنّه لم يقدر حبّي أن يخوض تجربته الواقعيّة، وأن تتلاقى في دوّامته العنيفة السماء والأرض، وأن أمتحن قدراتي الحقيقيّة في معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكلّ خشونته وقسوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لي يومًا وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة:

ـ صفاء ألقيت في حياتك كمثير... لم تكن إلّا «شفرة» تشير إلى شيء، تعيّن عليك أن تحلّ رموزها للوصول إليه.

فقلت له:

ـ لقد تحلّلت حياتنا إلى سخريات ولٰكنّي أكره أن أذكر تلك الأيّام باستخفاف...

ـ استخفاف؟! كيف يستخفّ إنسان بأروع سني العمر؟!

ومررت بقصر آل الكاتب في الستّينيّات فوجدته قد هُدم ورُفعت أنقاضه، مخلّفًا أرضًا فضاء تُحفر تمهيدًا لإقامة أربع عمارات سكنيّة. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء، وعبرني إحساس بالأسى، فتذكّرت صفاء التي لم أرها منذ هبوطها في ثوب العرس، التي لم أدرِ عنها شيئًا، حيّة كانت أم ميتة، سعيدة أم شقيّة، وكيف غيّرها الكبر بعد بلوغ الستّين؟. وأيًّا كان خبرها، ورأي الآخرين فيها، ألم يكن من حقّها أن تعرف أنّها عُبدت في محراب كإلٰه، وأنّها فجّرت في قلبٍ حياةً ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكراها؟

صَقر المنوفي

كان طبيعيًا أن يوصف عمّ صقر المنوفي بأنّه الساعي بإدارة السكرتاريّة ولٰكن جاء وقت كاد يُطلق على إدارتنا العتيدة بأنّها إدارة عمّ صقر. وكان أقرب إلى القِصر والبدانة ولٰكنّه كان جمّ النشاط، بل فاق نشاطه عادة المهامّ المطلوبة منه. وكان جاسوسًا بالسليقة، ولحساب نفسه، وفي أوقات تقديم قهوة الصباح كان يتطوّع بالهمس مفشيًا الأسرار، أسرار الوزارة والموظّفين. ولعلّه كان أوّل مَن بصّرني بالأسباب الحقيقيّة لترقية شرارة النحّال من عامل تليفون إلى سكرتير لسعادة وكيل الوزارة، ثمّ انهمرت أنباؤه تباعًا عن عبّاس فوزي وعدلي المؤذّن وعبد الرحمٰن شعبان والآنسة عبدة سليمان والرجل الطيّب التعيس طنطاوي إسماعيل وغيرهم. قال لي يومًا الأستاذ عبّاس فوزي ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس الموظّفين ذوي المرتّبات الثابتة في أيّام الحرب:

ـ لا أحد يأكل ما يشتهي إلّا عمّ صقرا

فأبديت الدهشة فقال:

ـ إنّه مغرم بالطعام الجيّد.

فقلت له:

- الغرام شيء والقدرة شيء آخر.

فقال بسخريته المعهودة:

- كأنّه فِلْم مباحث، فما من فرح يُقام أو مأتم إلّا وعنده عِلْم به، وسرعان ما تجده بين العاملين في الفرح أو المأتم. يتطوّع للخدمة ليشهد في النهاية وليمة العشاء، كذلك تجده في ليالي الموالد بالجوامع الكبرى، فما من ليلة تمرّ إلّا وهو في وليمة، فأيّ باشا يدانيه في هذا الحظّ الغذائيّ منعدم النظير؟!

من ذلك جاء تألّقه الدائم بالصحّة والعافية، وغزله الرقيق باللحوم والفطائر والحلوى، أمّا بقيّة مظاهر حياته فجرت في مستواها الطبيعيّ البائس كساعٍ مسكين، يقيم في حجرة أرضيّة بعطفة دعبس بالحسينيّة هو وزوجته وأبناؤه. ولكن متى رسم خطّة للإثراء؟. إذ من المحقّق أنّه رسم تلك الخطّة وعمل على تنفيذها بصبر ودأب، ربّما منذ عهد التحاقي بالخدمة في أواخر عام ١٩٢٤.

انطلق في ذلك السبيل بادئًا من بَيْع قطع الحليّ والنحاس ورثها عن أمّه فتجمّع لديه مبلغ من المال راح يستثمره في إقراض الموظّفين بربح فاحش. وهو نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد الفقراء ولكنّه أقدمَ عليه وتمادى فيه حتّى النهاية. وعُرف بذلك في أوساط الموظّفين الفقراء وما أكثرهم فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزًا لحركة مصرفيّة سرّيّة ونمت نقوده وتراكمت. وفي بحر ربع قرن من الزمان استطاع أن يشتري البيت الذي يسكن حجرته الأرضيّة بألف جنيه، ثمّ هدمه فأقام موضعه عمارة صغيرة مكوّنة من دورين ودكّانين. وكان له ابنان وبنت، أهملهم إهمال الفقراء فعمل البكريّ فرّاشًا في وحدة صحّيّة بالريف وانقطع كلّيّة عن أسرته، واشتغل الأوسط صبيّ قصّاب، أمّا البنت فقد اختفت وهي في سنّ المراهقة، قيل إنّها خُطفت أو تاهت أو هربت، وما لبث ابنه الأوسط أن قُتل في مشاجرة بالمذبح. وحزن عمّ صقر حزنًا عميقًا، واعتقد أنّ ما أصابه في بنته وابنه إنّما هو عقاب من الله على إثرائه بالربا فكفّ عن الإقراض، وأدّى فريضة الحجّ تائبًا.

والعجيب أنّ تحسُّن حاله الماليّة لم يغيّر مظهره ولا سلوكه العامّ في الحياة. بقي في وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظّفين يُعتبر سيّدًا لهم من الناحية الاقتصاديّة. ولبث يسعى إلى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجّانيّة؛ وظلّ يتشمّم الأخبار ليفشي الأسرار عند تقديم القهوة، فإذا خلا إلى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنه القتيل. وأذكر أنّني كنت في مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلي المؤذّن للتعزية، وجالسته بعض الوقت فقال لي:

- صقر المنوفي قُبض عليه!

فدهشت وسألت عن السبب فقال:

- الرجل جُنّ ولا شكّ...

ثمّ قال:

- كان في مسكنه وحده فجاءت بنت الكوّاء ببدلته فاعتدى عليها وهي قاصر!

وغاب عن ذاكرتي زمنًا طويلًا حتّى رأيته مقبلًا على مجلسي بمقهى الفيشاوي حوالى عام ١٩٦٠ بعد خروجه من السجن بأشهر. وكلّما سألته عن حاله أجاب باقتضاب:

- الحمد لله.

وعلمت أنّ زوجته توفّيت وهو في السجن وأنّه يعيش وحيدًا.

- سافرت لزيارة ابني ولكنّي لم أرتح فرجعت بعد أسبوع واحد!

وجعلت أواسيه وأشجّعه حتّى قال:

- إنّي راضٍ بما حدث فهو جزاء حقّ ولكن لِمَ لا يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصًا مثل شرارة النحّال أو عدلي المؤذّن؟!

صبريّة الحشمة

كانت تدير بدرب طيّاب - حوالي ١٩٣٠ - بيتًا وأربع فتيات حِسان. وتأصّلت بينها وبين سيّد شعير صداقة متينة منذ ذلك العهد البعيد. قدِمنا إليها فصرنا من المقرّبين إلى المعلّمة وتمتّعنا بامتيازات غالية، وكنّا نشهد السهرات الخاصّة - التي تبدأ بعد وقت

التشطيب في الدرب - داخل البيت فنسمع الغناء ونشاهد الرقص ونتمادى في السهر حتّى مطلع الفجر. وكانت في الأربعين: لحيمة مهيبة، جذّابة الملامح، ذات شخصيّة مسيطرة تليق بالمعلّمات. وكان مجرّد حضورها كأنّه قانون طبيعيّ، يخضع له كلّ في دائرته الخاصّة، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قوّاد أو زبون أو خادم. وأعجب بها جعفر خليل، وعشقها شعراوي الفحّام حتّى اضطرّ سيّد شعير إلى أن يقول له:

- المعلّمة تدير ولا تعمل...

فسأله:

- أتعني أنّ حياتها خالية من الرجال؟

- كلّا، المعلّمة تعشق ولكنّها لا تعمل بالأجرة، ولها رفيق روميّ بيّاع نبيذا

ولمّا قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل المعلّمات اللاتي استجبن للتطوّرات الطارئة فاستأجرت شقّة كبيرة في شارع شامبليون وخصّصتها للدعارة السرّيّة، ووسّعت دائرة نشاطها ففتحت مشربًا للخمور بشارع الملكة نازلي، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه عن جنود الإمبراطوريّة البريطانيّة. وكشفت تلك الفترة المتوتّرة عن مواهبها في الإدارة حتّى قال لي سيّد شعير:

- خفت عليها من التوسّع أن يفلت الزمام من يدها ولكنّها أمهر من الجنّ الأحمر!

وكان يواظب على زيارتها ويحكي لنا عن مغامراتها أوّل فأوّل، فعرفنا كيف تاجرت في السوق السوداء فربحت أموالًا طائلة من الخمور والخردة. قال سيّد شعير:

- إنّها أقدر من وزير بالرغم من أنّها أمّيّة، لا يفوتها ملّيم من حسابات البيت والمشرب والتجارة، وتعرف العملاء بالاسم، ويا ويل مَن يحاول خداعها، وهي كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزّعين والقوّادين والفتيات، وكلّ شخص يحبّها ويحترمها ويعمل لها ألف حساب.

فقلت لرضا حمادة:

- ليت حكومتنا تتبع مثالها في معاملة موظّفيها!

فضحك رضا حمادة وقال:

- هي عندي خير من صاحبنا المتديّن زهران حسّونة!

فقلت:

- بل هي عندي خير من كثيرين من الوزراء والزعماء الذين يقومون بنفس الدور مع الإنجليز ولكن على حساب الوطن!.

فقال جعفر خليل بأسى:

- رحم الله صديقنا خليل شعراوي الفحّام فلعلّها المرأة الوحيدة التي عشقها في حياته القصيرة...

وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة، وأثبتت أنّها أعقل من كثيرين، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، فصفّت أعمالها، وأودعت في البنك ألوفها المؤلّفة، وشيّدت لنفسها فيلّا في المعادي. ولكنّ صاحبها الروميّ قد توفّي ولم يكن لها وريث ولا أهل، فعاشت عيشة هنيّة هادئة، ثمّ قرّرت تغيير حياتها جذريًّا، فأدّت فريضة الحجّ، وأغدقت الخير على أصدقائها القدامى، وتبرّعت كثيرًا للجمعيّات الخيريّة. وسمعت - عام ١٩٥٠ وهي في الستّين - أنّها تزوّجت من شابّ في الثلاثين، موظّف بمصلحة المساحة فأدركت أنّ فترة الهدوء قد انطوت وأنّ فترة من القلاقل قد بدأت. ومنذ ذلك التاريخ وحتّى اليوم لم يبلغني عنها جديد، إذ إنّ زواجها أغلق بابها في وجه سيّد شعير وبالتالي انقطعت أخبارها عنّي...

طنطاوي إسماعيل

لعلّه الموظّف الوحيد الذي لم أجد فيه شيئًا من «مضمون» الموظّف المتعارف عليه. كان وقت دخولي الخدمة رئيسًا للسكرتاريّة العامّة، درجة خامسة، في الخمسين من عمره، وظلّ يشغلها حتّى أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٤. ولمّا اطّلع على ملفّ خدمتي الجديد سألني:

- أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

فأجبت باعتزاز:

- نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضًا.

فقال بصوت ذي رنّة نحاسيّة:

ـ ماهر عبد الكريم رجل عظيم أمّا إبراهيم عقل فوغد كافر من ذيول المبشّرين!

فقلت وأنا لا أجد حافزًا للدفاع عن الرجل:

ـ يخيّل إليّ أنّه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيّته إلّا شبح...

فقال بحدّة:

ـ لم يبق منه إلّا مرتزق من المرتزقة!

وحَضَرته ـ طنطاوي إسماعيل ـ مرّات في مكتب المدير العامّ فراعني منه أنّه لا يحني ظهرًا ولا يردّد مَلَقًا وأنّه يحافظ على كرامته تمامًا، ثمّ يغادر المكان مخلّفًا وراءه أسوأ الأثر! ولفت نظري أنّه كان يصحّح الخطابات التي تُعرض عليه للتوقيع من أخطائها اللغويّة والنحويّة لا المصلحيّة فقط. وكان يفتّش على حجرات الإدارة متفقّدًا النظام والعمل، فلا يتسامح مع متلكّئ أو مهمِل أو متّهم بسوء معاملة الجمهور. وبالرغم من ذلك كلّه لم أعثر على موظّف واحد يعترف له بفضائله. كانت تصرّفاته توصف عادة بالحماقة أو بجنون العظمة. وأذكر أنّه قال لي قبيل حلول عيد الهجرة:

ـ أنا أوّل مَن طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسميّة!

ووعدني بالاطّلاع على المقالة التي دعا بها إلى ذلك وقد فعل. وأذكر أيضًا أنّه رُقّي ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذًا لقرار مجلس الوزراء الخاصّ بالمنسيّين فهنّأته بذلك ولكنّه قال بصوته الجهوريّ:

ـ لو أنصفوا لولّوا المنسيّين مقاليد الحكم فهم في الواقع أشرف الموظّفين!

وكان عمّ صقر الساعي موجودًا، وكان موضع عطف الرجل فقال له:

ـ لعلّ ذلك يدعو سعادتك إلى تغيير رأيك في الوفد؟

فقال بصراحته:

ـ ليس هذا بالإنصاف المنشود ولكنّه مداراة لقلقه لشرّ مستحكم، نوع من أنصاف الحلول، وذلكم هو شعار الوفد الحقيقيّ الخفيّ، الحقّ حقّ والباطل باطل، والخير الحقيقيّ أن تولّي من يصلح وأن تطرح في السجون الفاسدين، رحم الله زعماء الحزب الوطنيّ، عرفوا الحياة تضحية وجهادًا لا سياسة ومهادنة!

واطّلع يومًا على أسماء كبار الموظّفين الذين نالوا رتبًا وأوسمة لمناسبة من المناسبات فقال:

ـ لولا إيماني بالله، لولا إيماني بأنّ حكمته فوق العقول، لجننت!

وهمس عبد الرحمٰن شعبان مترجم الوزارة في أذني:

ـ ما زال يتصوّر أنّه عاقل!

أجل. بالجنون كان يُرمى دائمًا، ولذلك غُضّ عن الكثير من تصرّفاته. وقد عرفت ماضيه من عبّاس فوزي وعمّ صقر وغيرهما. عُيّن في الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو في العشرين من عمره. وفي ظرف خمس سنوات عمل مفتّشًا بالحسابات. وكان ذا خلق نقيّ طاهر، يحمل الأمانة بإخلاص، ولا يحيد عن الحقّ، فأثار موجة من الرعب في قلوب الكتبة والمراجعين. كانوا يعملون من خلال نظام محكم تعاونيّ يقوم أساسه على الرشوة والهديّة فانفجر الرجل في أوساطهم كالقنبلة فاتكًا بمصادر رزقهم الحقيقيّة. ولو كانوا يملكون الشجاعة الكافية لاغتالوه، ولكنّهم فكّروا في وسيلة تخلّصهم منه. ولعبوا بإمضائه لعبة ماكرة فوجد نفسه وهو لا يدري موضع اتّهام وتعذّر عليه تبرئة نفسه منه. وقُدّم إلى مجلس تأديب فقضى بفصله من عمله.

ـ تصوّر شخصًا أمينًا لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولًا بتهمة خيانة الأمانة!

غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا أمين... أنا شريف... أنا مظلوم... حسبي الله ونعم الوكيل». وعانى الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتّى انهارت أعصابه تمامًا، وحتّى اضطرّ عمّه إلى نقله إلى مستشفى أمراض عصبيّة بحلوان، فقضى فيه عامًا ثمّ غادره بعد أن تماثل للشفاء، ولكنّه كان خسر شيئًا صميميًّا لا يعوّض. ومرض وكيل الحسابات فشعر بدنوّ الأجل، فاستدعى مدير إدارة التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التي حيكت للإيقاع بطنطاوي إسماعيل. وأعيد التحقيق بصفة سرّيّة ثمّ

تقرّر إعادة الرجل إلى الخدمة، مع إلحاقه بإدارة «غير ماليّة» تجنّبًا لأيّ أذى قد يلحق به أو بالآخرين! . وقد عملت معه عشر سنوات فعرفته عن كثب، عرفت إيمانه بالله الذي لا حدّ له، عرفت نقاء خلقه الناصع، كما لمست فيه وطنيّة تبلغ درجة التعصّب الأعمى. وكان كثير الاطّلاع على المراجع الدينيّة، ميّالًا للمحافظة لدرجة أن يعاف أيّ حديث من فكر أو سلوك فيعدّه انحرافًا وسقوطًا. جمعني وإيّاه ركن بجامع الحسين في الليلة السنويّة التي كان يحييها الشيخ عليّ محمود، وكان يسأل مَن حوله:

ـ ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضة قديمة؟

وراح يحمل على الجبن والتملّق وفساد الذمم والانحلال فيقول:

ـ نحن في حاجة إلى طوفان جديد لتمضي السفينة بقلّة الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد!

طالما تشوّقت إلى معرفة المزيد عنه، حياته الخاصّة، نشأته الأولى، علاقاته بزوجه وأبنائه، تصرّفه حيال سائر مغريات الحياة، ثمّ قنعت بما تيسّر لي معرفته، فهو إنسان يتجلّى بالنقاء لكنّه يعيش في مستنقع مكتظّ بالجراثيم. غير أنّ عنفه في الحقّ يدفعه أحيانًا إلى حافة اللاإنسانيّة وهو لا يدري، فصراحته كثيرًا ما تتّسم بالإيذاء في غير ما ضرورة، ممّا جرّ عليه شعورًا عامًّا بالنفور بل والكراهية، وكان عبد الرحمٰن شعبان مترجم الوزارة يشير إليه بقوله «ابن المجنونة»، كما كان الأستاذ عبّاس فوزي يقول عنه متهكّمًا:

ـ سيّدنا طنطاوي بن الخطّاب رضي الله عنه!

ورغم ذٰلك كلّه فلم يستطع أن يصدّ موجة «العصر» عن أن تغزو عرينه، فذات يوم ـ وأنا موظّف جديد ـ رأيت فتاة مليحة جذّابة تجلس إلى جانب مكتبه قدّمني إليها ثمّ قدّمها إليّ قائلًا:

ـ ثريّا رأفت كريمة شقيقي. . .

ثمّ قال باحتجاج باسم:

ـ طالبة بالمعهد العالي للتربية!

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

ـ العلم نور، ولٰكنّي لا أوافق على المرأة العاملة، ومن ذٰلك فلا سلطان لي على بنت أخي الأكبر إلّا النصيحة. . .

ولعلّ آخر موقف انطبع في نفسي من طنطاوي إسماعيل كان غداة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، قال لي قبل أن يجلس إلى مكتبه:

ـ ما رأيك؟. . ها هو زعيمك يرجع إلى الوزارة فوق الدبّابات البريطانيّة. . .

وكنت أتجنّب مناقشته وبخاصّة وهو ثائر، وجعل يتساءل وعيناه تبرقان:

ـ أسمعتم عن زعامة من هٰذا النوع من قبل؟!

ثمّ اجتاحته موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس:

ـ الطوفان. . الطوفان. . الطوفان. . .

طه عنان

ظهر في حياتنا ونحن في السنة الرابعة الثانويّة، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأسيوط ثمّ نقل إلى القاهرة مأمورًا لقسم الوايلي متّخذًا من العبّاسيّة مقامًا لأسرته. وتعرّف طه عنان بأصدقائي جعفر خليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقي من زملاء المدرسة الثانويّة، ولٰكنّ علاقته توثّقت بي وبرضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا في العقيدة الوفديّة والميول الثقافيّة. وقد اشترك في الإضراب الذي استشهد فيه زميلنا بدر الزيادي، وممّا يذكر أنّ أباه كان ضمن القوّة التي حاصرت المدرسة ثمّ اقتحمتها بعد ذٰلك بالقوّة والعنف. وناقشنا موقف والده، وكان خجلًا منه ومتألّمًا وجعل يدافع عنه فيقول:

ـ أبي وطنيّ، مثلنا تمامًا، ويؤمن بمصطفى النحّاس كما آمن بسعد زغلول، ولٰكنّه يؤدّي واجبه!

فقال رضا حمادة:

ـ سمعنا عن ضبّاط مثله انضمّوا إلى الثوّار في سنة ١٩١٩.

فقال طه عنان مدافعًا عن أبيه ما وسعه الدفاع:

ـ كانت أيّام ثورة ولا ثورة الآن. . .

وكان يغلب على طبعه الجدّ فنفر من مزاح جعفر

خليل. وكنّا نقرأ معًا بعض كتب التراث وكثيرًا من مؤلّفات كتّاب العصر من قادة الفكر الجديد، كما كنّا نناقش كلّ شيء بحرّيّة وحماس. ونتطلّع إلى مستقبل فكريّ واحد. وكان يؤمن بالكتب ويرجع إليها في كلّ ما يهمّه من شئون الحياة. ولّما اطّلع على قصّة حبّي لصفاء الكاتب دهش وقال:

ـ ولٰكنّ حالك غير طبيعيّة...

فقلت باستياء:

ـ ولٰكنّها واقع...

ـ أنا أحبّ أيضًا ابنة عمّي ونفكّر في إعلان خطوبتنا!

واتّباعًا لأسلوبه في الرجوع إلى الكتب مضى بي إلى دار الكتب ورحنا نقرأ معًا عن كلمة «حبّ» في دائرة المعارف البريطانيّة، ثمّ قال:

ـ هٰذا هو الحبّ من جميع نواحيه الفسيولوجيّة والنفسيّة والاجتماعيّة، ومنه ترى أنّ ما بك ليس حبًّا ولٰكنّه جنون...

فتمتمت بحنق:

ـ جنون...

فابتسم قائلًا:

ـ لا تغضب، ربّما احتجنا لقراءات أخرى!

ولٰكنّا لم نواصل القراءة عن الحبّ، وقرأنا كثيرًا ـ وخاصّة في العطلة الصيفيّة ـ عن حقائق جديدة ومتنوّعة، وكلّ شيء كان جديدًا. وتعرّضنا لأزمات نفسيّة وعقليّة وحسّيّة. وزُلزل قلبانا زلزالًا.

واقترح عليّ اقتراحًا عجيبًا ونحن جالسان في مقهى الفيشاوي قال:

ـ علينا أن نبدأ من العدم!

ـ من العدم؟

فقال بثقة لا تتّفق مع انهيارنا:

ـ لا سبيل إلى مواجهة هٰذا العذاب إلّا بأن نبدأ من الصفر...

ورمقته بنظرة متسائلة بالرغم من أنّني أدركت ما يعنيه فقال:

ـ من الصفر، ثمّ نستعيد قصّة الحضارة من جديد معتمدين على نور العقل وحده...

فسألته:

ـ وإن صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم؟

فقال بحماس:

ـ لنبدأ بالعقل باعتباره الإنسان ولننظر أين يذهب بنا.

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأوّلين من حياتنا الجامعيّة. واعترضتنا أحداث لم تخطر لنا على بال، فقد ألغى إسماعيل صدقي دستور ١٩٢٣ وهبّ الوفد لمحاربته بكلّ قواه الشعبيّة.

وكان ثمّة يوم رهيب بلغ التوتّر فيه مداه. احتُلّت مفارق الطرق بقوّات الشرطة والجيش. ولم يتمكّن الشعب من التجمّع الذي يصلح أساسًا لمظاهرة ضخمة، فعمد الناس من جميع الطبقات إلى التجمّد في الحواري والأزقّة والشوارع الجانبيّة، ومنها يندفعون بقوّة هاتفين ملقين بالطوب في جميع الجهات ثمّ يتفرّقون بسرعة ليعيدوا الكرّة والرصاص يطاردهم. اشتركنا في مظاهرات ذٰلك اليوم أنا وطه عنان ورضا حمادة. اشتركنا من أوّل اليوم في التجمّعات المتفرّقة والانقضاضات المباغتة والتفرّقات السريعة على أنغام الرصاص المتطاير. وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود وهم ينقضّون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير إنسانيّ ويلقون بهم في اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم الأرض بالرمل والأتربة. وقبيل المغرب خفّت حدّة القتال. وندر ظهور التجمّعات، ولٰكن لم يخلُ الجوّ من هتافات متقطّعة متباعدة ومن طلقات ناريّة قليلة ولٰكن مستمرّة. وقرّرنا العودة إلى بيوتنا فسرنا معًا مخترقين شارع حسن الأكبر. سرنا متشابكي الأذرع من شدّة الإعياء ونحن نتصبّب عرقًا، وقال طه عنان وهو يتوسّطنا:

ـ منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب ولا مبالاة...

فقال رضا حمادة:

ـ إنّه سفّاح متعطّش للدماء!

فقال طه:

ـ على أيّ حال فإيجابيّة الشعب خير من المناقشات

الباردة التي نسمعها في صالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم. . .

وثقل بين أيدينا حتّى سألته:

ـ هل غلبك التعب؟

ولكنّه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا فاه ينفث دمًا غزيرًا. صاح حمادة:

ـ أصيب برصاصة. . .

لم تكن الطلقات قد سكتت. ورأينا لافتة طبيب أسنان فحملناه إليها ونحن نرتعش من الاضطراب. وكانت العيادة خالية ولكنّ التمرجي أنامه على كنبة وهرع إلى التليفون لطلب الإسعاف.

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل رجال الإسعاف.

عبّاس فوزي

جمعت بيننا مودّة صميمة منذ أوّل يوم دخلت فيه الخدمة. وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بإدارة السكرتاريّة العامّة، أنا وعبّاس فوزي وكيل السكرتاريّة وعبد الرحمٰن شعبان مترجم الوزارة. ولّما قدّمه رئيسنا طنطاوي إسماعيل قائلًا:

ـ الأستاذ عبّاس فوزي وكيل السكرتاريّة.

نظرت إليه باهتمام وسألته:

ـ حضرتك الكاتب المعروف؟

فأجاب بالإيجاب فشددت على يده بحماس، والموظّفون يرمقوننا بفتور وقرف. وقلت له:

ـ طالما انتفعنا بكتبك عن التراث.

فقال:

ـ ولكنّ الجامعة لا تعترف إلّا بالشهادات. . .

ـ ولكنّ ثمّة درجة من العلم تتخطّى أيّ شهادة!

فقال بحنق:

ـ أستاذك إبراهيم عقل لا يؤمن بذلك. . .

على أيّ حال اعتبرته جوهرة في عالمي الجديد، زاملته في العمل، والتقيت به في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم وسالم جبر ثمّ في صالون جاد أبو العلا في زمان متأخّر. وعجبت كيف أنّه في الدرجة السادسة فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر، ثمّ تبيّن لي أنّ زملاءه يعتبرونه مغتصبًا للدرجة باسم الخزعبلات التي يؤلّفها. والموظّف القحّ لا يحترم عادة إلّا الموظّف «الحقيقيّ» الخبير بالإدارة واللوائح، أمّا تأليف الكتب فيُعَدّ عندهم نوعًا من العربدة التي لا تليق بالمحترمين من الرجال. ويحكون حكاية وثبته إلى الدرجة السادسة فيقولون إنّه كان كاتبًا بالأرشيف كما ينبغي له، فحتّى الابتدائيّة لم يحصل عليها، ولكنّه دأب ـ كلّما تولّى الوزارة وزير جديد ـ أن يحمل إليه مجموعة من مؤلّفاته مصحوبة بإهداء شعريّ، وكان الوزراء يتقبّلون الهديّة شاكرين ومن ثمّ يرجع إلى الأرشيف ويسدل الستار على الدراما المتكرّرة، حتّى تولّى الوزارة رجل يحبّ الأدب فأعجب به ورقّاه إلى الدرجة السابعة، ثمّ ـ بعد عامين ـ إلى السادسة مع نقله وكيلًا للسكرتاريّة، هٰكذا فُرض الرجل عليهم. وكان الأستاذ عبّاس فوزي على علم بما يقال، وكان يبادلهم احتقارًا باحتقار، وكثيرًا ما قامت بينه وبينهم معارك كلاميّة حتّى يفصل بينهم أهل الخير.

وكان يعتبر الموظّف حشرة من الحشرات السامّة، وكان يعرّف الإنسان فيقول «الإنسان موظّف ناطق!».

غير أنّ رجلًا فاضلًا مثل طنطاوي إسماعيل قال لي مرّة:

ـ احذر ذٰلك الرجل، إنّه ذو علم ولٰكنّه بلا خلق.

المسألة أنّه كان مثقلًا بالعيال والفقر وكان يكافح بكلّ سبيل لإسعاد نفسه وأسرته. ولم أعرف رجلًا مثله ينضح بالمرارة، وكان يترجم مرارته إلى سخريات لاذعة لا ترحم كبيرًا ولا صغيرًا، موظّفًا أو مفكّرًا أو أديبًا. سخر من أخلاق الموظّفين رغم تشيّعه بها حتّى قمّة رأسه، ويهوّن من شأن الناجحين والمفكّرين رغم قصوره عن بلوغ ما حقّقوه حتّى في ميدانه، ويحتفظ دائمًا بمدّخر لا ينفد من المعلومات التي تشكّك في مواهبهم أو تزري بسلوكهم الشخصيّ. أمّا قيمته الحقيقيّة فكانت مركّزة في تراث اللغة، ولا أغالي إذا قلت إنّه كان يحفظه كلّه شعرًا ونثرًا عن ظهر قلب. قال لي يومًا:

ـ شدّ ما يبهركم الأدب الغربيّ حتّى تظنّونه كلّ

شيء، أمّا أدبكم العربيّ فلا تعرفون منه شيئًا، إنّي أتحدّاك، اذكر لي ما شئت من مختار أشعارك الغربيّة وسأعطيك ما يقابلها من تراثنا.

وجعلت أردّد له ما حضرني من معاني الشعر والنثر فكان يعطيني المقابل العربيّ بما يقارب الإعجاز. وكان يلاحقنا - إذا تكلّمنا - بتصحيح نطق الكلمات، وكان يقول:

- لا يجوز أن تُطبع كلماتنا بدون تشكيل. . .

وأذكر أنّه مرض يومًا بالكُلى فذهبت مصطحبًا الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان المترجم لنعوده، فوجدناه راقدًا ملفوفًا ببطّانيّة لا يبدو منها إلّا رأسه. فجلسنا قرب فراشه وسألته:

- كيف حال «الكِلى» يا أستاذ.

ونطقتها مكسورة الكاف كالمألوف فما كان منه إلّا أن صحّح النطق قائلًا بصوت لا يكاد يُسمع من الضعف:

- الكُلى.

رافعًا الكاف. وعدنا والمترجم يقول لي:

- إذا مات هٰذا الرجل فسوف يصحّح النطق للملاك الذي سيحاسبه!

وتركّز اهتمامه في تراث العربيّة فلم نعرف له هواية أخرى، فهو لا يتذوّق أيّ فنّ آخر حتّى الغناء، ولا يكاد يعرف شيئًا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عامّ، ولا يهتمّ بالسياسة، ولا يفرّق بين حزب وآخر، ولا يحترم إلّا الوزير القائم بالوزارة، ولا يؤمن بقيمة من القِيَم ولا دين من الأديان، ولم يحبّ بإخلاص إلّا نفسه وأسرته واللغة العربيّة. وكان مكتبه بالوزارة ملتقى لكثيرين من الشعراء والكتّاب والصحفيّين والزجّالين من مختلف الأجيال، ولعلّ كثيرين منهم كانوا يستعينون به في مراجعة نصوصهم من الناحية اللغويّة والنحويّة نظير مبالغ بسيطة. وكان دائمًا يحسن الترحيب بهم فيغدق عليهم أعذب ألحان المديح حتّى إذا ذهبوا انهال عليهم بالحجارة!

- أرأيتم ذٰلك الرجل؟. . إنّه لا يتملّق وهو في المدينة!

- مسكين ذٰلك الزجّال. . طلّق زوجته لوقوعه في غرام ابن لها من زوج آخر!

- أمّا هٰذا فلعلّه الشاعر المعاصر الوحيد الذي فاق في لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان!

- هٰذا الكاتب ذو قلب كبير حقًّا. . لقد أحبّ جميع الأحزاب، ولا يحلو له حبّ حزب إلّا وهو في الحكم!

وزاره مرّة إنجليزيّ عجوز، لبث في مصر بعد إحالته على المعاش، وكان يتقن العربيّة إتقانه للإنجليزيّة، ولمّا ذهب الرجل قال:

- إنّي معجب بالأخلاق الإنجليزيّة، فثمّة فرق هائل بين لوطيّ إنجليزيّ ولوطيّ مصريّ: اللوطيّ الإنجليزيّ يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض فلا يمنعه ذٰلك من خدمة الإمبراطوريّة حتّى الموت، أمّا اللوطيّ المصريّ فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة!.

وكما لم يرحم أحدًا فلم يرحمه أحد. كان يزعم أنّ والده كان مهندسًا فقالوا إنّه كان ترابيًّا، وإنّ أمّه كانت غسّالة، ورموه كذٰلك بالشذوذ الجنسيّ.

لم يرحم أحدًا إلّا الوزير الذي عطف عليه أو الذي - على حدّ تعبيره - اكتشفه، فكان يقول عنه:

- كان رجلًا أديبًا وشهمًا ومنصفًا رغم أنّه كان وزيرًا!

ولٰكنّه كان يكبح جماح عدوانه إزاء أصحاب النفوذ، مّن هم في الوزارة ومَن هم خارجها، فلا يتدخّل في مناقشة حزبيّة، أو يتعرّض بكلمة لرجل من رجال السراي ولو كان طاهيًا، وفي أثناء الحرب تظاهر بأنّه من أنصار الحلفاء، فلمّا كانت موقعة دنكرك وظنّ كثيرون أنّ الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان سمعته يترنّم بقول بشّار:

بعثنا لهم موت الفجاءة إنّنا
بنو الموت خفّاق علينا سبائبه

فراحوا فريق في الإسار ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ولمّا دارت الدائرة على الألمان في موقعة العلمين استشهدتُ بدوري بشعر بشّار فأدرك مكري ومن فوره قال:

- لا رحم الله بشّارًا، كان نازيًّا لوطيًّا!

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظّفين فاتّهموا الوفد بالخيانة، أمّا الوفديّون فقد فرحوا وطربوا وراح عمّ صقر الساعي يرقص في الإدارة، فخاف عبّاس فوزي أن يفسّر صمته بأنّه موقف غير وديّ من الوفد، فانتهز فرصة غضب طنطاوي إسماعيل وهتافه «الطوفان... الطوفان... الطوفان...» وقال برزانة:

ـ قولوا فيما حدث ليلة أمس ما شئتم ولكن من الإنصاف أن نعترف لمصطفى النحّاس بأنّه أنقذ الوطن في هٰذه المرحلة الحرجة من حياة الوطن!

ومن حسن حظّه أن كان الوزير الوفديّ مغرمًا بالأدب فرقّاه إلى الدرجة الخامسة وعيّنه رئيسًا للسكرتاريّة عقب إحالة طنطاوي إسماعيل إلى المعاش. على أنّ كتبه لم تلقَ من الرواج ما كان يطمح إليه لمنافسة الأساتذة الجامعيّين له في ميدانه وتفوّقهم عليه بمنهجهم العلميّ الحديث. وزاد من شجاه أنّ أحد تلاميذه استغلّ معرفته بالتراث في تأليف كتب دينيّة عن النبيّ والقرآن فربح من ذٰلك أموالًا خياليّة فكاد الرجل أن يجنّ. وراح يقول:

ـ على أيّامنا كان الإلحاد هو الموضة فولّينا وجهة أخرى!

ثمّ هزّ رأسه في أسى وتساءل:

ـ كيف فاتني ذٰلك الباب الذهبيّ؟!

ثمّ سألني حانقًا:

ـ أتعلم ما هي الثروة الحقيقيّة في بلاد العرب؟

ثمّ أجاب:

ـ ليست البترول ولٰكنّها السيرة النبويّة والقرآن.

فقال له الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان المترجم:

ـ ما رأيك في أن نترجم معًا بعض الكتب الغربيّة التي أنصفت الرسول؟

فرحّب بالفكرة، ونفّذاها، بالرغم من إلحادهما الكامل، فدرّت عليهما ربحًا يُعتبر أوّل ربح ذي وزن ربحه في حياته. وانطلق بعد ذٰلك يكتب سِيَر الأنبياء، فتحسّنت أحواله وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذي أعقب الحرب، حتّى قال لي يومًا:

ـ ليت الله أرسل أضعاف أضعاف مَن أرسل من الأنبياء والرسل.

ومضى أبناؤه يتخرّجون في الجامعة ويتوظّفون، فقرّر في عام ١٩٥٠ القيام بأوّل إجازة صيفيّة في حياته. أجل، لم يكن يطلب إجازة أبدًا، ولبث يعمل عامًا بعد عام بصفة متواصلة حتّى سألته:

ـ لِمَ لا تقوم في إجازة لتنعم بقدر من الراحة؟

فضحك وقال:

ـ يا لك من طيّب القلب، أنت لا تدري شيئًا عمّن يطمعون في وظيفتي، إنّهم يَلقونني بالأحضان على حين يوارون خناجرهم وراء ظهورهم، فإذا غبت شهرًا سعوا سعيهم ودسّوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة، إنّنا نعيش في غابة من الوحوش ولٰكنّهم أحطّ من الوحوش وأقذر...

ولم أفهم منطقه وعجبت له. على أيّ حال وثق عام ١٩٥٠ بنفسه واطمأنّ إلى دخله من كُتبه فقرّر أن يبرّ نفسه بإجازة، بل سافر بحرمه وكريمته إلى الإسكندريّة. كان يرى الإسكندريّة لأوّل مرّة في حياته، ولٰكنّه وجد نفسه كالتائه الشريد إذ لم يتعوّد أبدًا معاملة الفراغ. كان يومه مستغرقًا دائمًا بالعمل في الوزارة، في البيت، في صالونات الأدب، ولٰكنّه لم يعرف مقهًى أو سينما أو مسرحًا فضلًا عن الإسكندريّة. لذلك ضاق بالمصيف، وفزعت حرمه من الزحام، فقرّرا العودة بعد أسبوع واحد، وبالرغم من توسّلات ابنتهما الحارّة. ولّما قامت ثورة يوليو لم تكد تؤثّر فيه شيئًا، فلا حَزن على العالم الموّلي ولا سُرّ للعالم الصاعد، وضاعف نشاطه في التأليف الدينيّ حتّى حاز ثروة كبيرة بكلّ معنى الكلمة. وأحيل إلى المعاش عام ١٩٥٩ فتفرّغ لعمله أكثر، وشيّد عمارة في عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيلّا، ولٰكنّه ما زال حتّى اليوم متمرّدًا ساخرًا، وكلّما زرته أتحفني بالجديد من سخرياته وشكاياته. قال:

ـ تصوّر أنّني لم أنتخب حتّى الآن في المجمع اللغويّ!.. كأنّ أعضاءه الخواجات أفقه في اللغة منّي!، والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عبّاس فوزي ضمن أعضائه!.. هل حُتّم ألّا يدخله إلّا العوامّ؟!

ولّما لاحظ همّي وغمّي في الأيّام التي أعقبت هزيمة

يونيه قال باسمًا:

ـ شابَ شعرك ولم تتعلّم الحكمة بعد!

ثمّ تساءل بسخرية:

ـ هل ثمّة فارق حقًا بين أن يحكمك الإنجليز أو اليهود أو المصريّون؟!

عدلي المؤذّن

عندما التحقت بالجامعة كان موظّفًا بها. وكنت ألتقي به كثيرًا في مكتبة الجامعة. كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوريه في الفلسفة تحصيلًا لبعض فوائد رآها ضروريّة في تحضير رسالة الماجستير. وكنّا ندعوه «الكاتب المصريّ» للشبه العجيب الذي بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب، غير أنّه كان طويلًا عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرّك فيه حركة متحدّية برّاقة عينا صقر يشعّان ذكاء ودهاء، التقينا مرّة في حديقة الأورمان ونحن سائران إلى الكلّيّة فتصافحنا وأخذنا في الحديث. قال:

ـ سأقدّم رسالة الماجستير في أكتوبر القادم ولكنّي أفكّر منذ الآن في الخطوة التالية...

فسألته:

ـ الدكتوراه؟

ـ كلّا، هل لك فكرة عمّا يمكن أن يروج من الكتب الفلسفيّة؟

ـ لا أعتقد أنّ الكتب الفلسفيّة توضع للرواج...

ـ ولكن إذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا الفكر الحرّ في الفلسفة والتصوّف ألا نُسهم بذلك في الدفاع عن الحرّيّة المغتالة في هذا العهد؟

فقلت بحماس:

ـ فكرة بديعة...

ـ وناجحة، أليس كذلك؟

ـ بكلّ توكيد...

ولكنّه حصل على الماجستير ولم ينفّذ فكرته، ولم ينشر من الكتب إلّا تحقيقًا لتهافت الفلاسفة وتحقيقًا آخر لتهافت التهافت. وكان زميلي في الكلّيّة عجلان ثابت هو الذي أطلعني على جانب من ماضيه المجهول، قال:

ـ إنّه يسكن معنا في حيّ السيّدة، وكان أبوه سائق ترام، وهو يعيش اليوم مع أمّه وشقيقته...

فقلت:

ـ إنّ مظهره المهيب الرزين يقطع بأنّه من سلالة حكّام!

فضحك عجلان ثابت وقال:

ـ توظّف بالابتدائيّة ثمّ درس وهو موظّف حتّى بلغ ما بلغه من العلم...

ثمّ همس:

ـ ويبدو أنّ شقيقته بنت لعوب عفريتة ولذلك فاتها سنّ الزواج ولم تتزوّج!

ولم يكن يخلو من جانب مزاح ففي أحد احتفالات آخر السنة بالكلّيّة تطوّع لتقليد بعض الأساتذة، ونجح في تقليد الدكتور إبراهيم عقل نجاحًا مثيرًا، فما كاد يتكلّم عن المثل العليا حتّى دوّت القاعة بالتصفيق الشديد. ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولّما ولي الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقرّبه من السراي اعتمد في إدارته على عدلي المؤذّن، وهو الذي قدّمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحًا لطموحه مجالًا جديدًا أحفل بالفرص من إدارة الجامعة. هكذا وفد إلى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير، وزرته مهنّئًا ومستبشرًا بقدومه خيرًا، ولكنّي وجدت فيه شخصًا جديدًا، شخصًا إداريًا خطيرًا مقطوع الصلة تقريبًا بالرجل الذي كان يتلمّس طريقه بمشقّة بين مسالك الفلسفة.. وتجلّت مواهبه الكامنة في خدمة الوزير والوزارة، وكان ـ والحقّ يقال ـ حادّ الذكاء ذا مقدرة إداريّة فذّة، وكان بارد الأعصاب لدرجة لا تصدّق ولم تُعهد عادة بين المصريّين، ومنذ أوّل يوم شعر شرارة النحّال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب. وخيّل إلى الأستاذ عبّاس فوزي أنّه طرأ على الوزارة موظّف خطير مثقّف لأوّل مرّة، وأنّه يحسن به أن يهدي إليه مؤلّفاته، وفعل، وقال له وهو يهديها إليه وبحضوري إذ كنت أنا الذي قمت بالتعارف بينهما:

ـ ليس من عادتي أن أهدي كتبي إلى أحد، ولكنّ

الكتب لا تؤلّف إلّا لتُهدى إلى أمثالك!

فقال عدلي المؤذّن ببروده النادر:

ـ أعترف لك بأنّي اطّلعت عليها...

فشاع الفرح في وجه عبّاس فواصل الآخر قائلًا:

ـ وأعترف لك بأنّي وجدتها سطحيّة لم تكد تضيف إلى الأصل إلّا قليلًا...

فاصفرّ وجه عبّاس فوزي غير أنّه قال متظاهرًا بالمرح:

ـ لا تحكم بعقلك يا أستاذ، نحن نكتب للبسطاء لنعلّمهم، أمّا الفلاسفة فلا سبيل لنا إليهم...

وعدنا إلى الإدارة والرجل يقول لي في المشي:

ـ لا تخبر بما سمعت أحدًا من الرعاع...

فقلت له برثاء خفيّ:

ـ طبعًا...

فقال مستردًّا طبعه الساخر:

ـ بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب!

وفي مدّة وجيزة أحاط عدلي المؤذّن بشئون الوزارة والموظّفين، وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب الاستشاريّ، فاتّصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة. وأثبت في العمل طاقة خارقة، واستحقّ بعمله الثقة كلّ الثقة دون انزلاق إلى سراديب الحزبيّة، مع الاحتفاظ لشخصيّته بالاحترام، ومع عدم الحيد إلى ما يمسّ الكرامة إلّا عند الضرورة القصوى فرفع الوصوليّة إلى أرفع مراتبها. وكان في أعماقه ميّالًا للوفد وقيمه الشعبيّة والديموقراطيّة والاستقلاليّة، ولكنّه كبتها في الأعماق، وتغلّب عليها بقوّة أعصابه الباردة. ولم يُعرف عنه أنّه صنع خيرًا في حياته، ولم يتورّع عن إيذاء شخص طالما وسعه ذلك، وكان بلا شكّ يجد سعادة خاصّة في الشرّ والتحدّي والإيقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء، ولم يكن يهمّه أن يكون محبوبًا، وخيّل إليّ كثيرًا أنّه يعمل بشغف على أن يكون موضع النقمة والبغض والحسد. وهو يختلف في ذلك عن شرارة النحّال الذي آثر بعض الأذناب بالعطف، والذي حرص دائمًا على معسول الكلام حتّى وإن دسّ فيه السمّ، والذي سعى إلى نيل الثقة ولو بالكذب والنفاق. لذلك كره الموظّفون عدلي كإبليس، وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته، ومنهم من فسّر عزوبيّته بشذوذ جنسيّ يخفيه بصرامته وعنجهيّته، ولذلك فإنّ الموظّف الوحيد الذي ساعده كان شابًّا جميلًا منحلًّا. وطالما ساءلت نفسي حائرًا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تتابع الوزراء والأحزاب عليه؟. وبالبحث والتحرّي، ولمعرفتي الوثيقة به، علمت أنّه كان يبسط حمايته ـ وقت إقبال الدنيا عليه ـ على عدد محدود من موظّفي الأحزاب المختلفة، حتّى إذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم ردّ الجميل إليه فزكّاه عند وزيره، بذلك احتفظ بمكانته في جميع العهود معلّلًا فوزه بكفاءته الشخصيّة وحدها، وظلّ يترقّى من درجة إلى درجة حتّى عُيّن مديرًا عامًّا قبل ثورة يوليو. ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلميّة لم يتورّع عن التضحية بي في أوّل فرصة سنحت. كان ذلك عندما رشّحتني لجنة شئون الموظّفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بيني وبين منافسي الذي كان كاتبًا بالسجلّات. ورفعت اللجنة قرارها فوقّعه الوزير وغادرت الوزارة مترقّبًا متلقّيًا التهاني. ولمّا رجعت إلى الوزارة صباحًا فوجئت بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلًا منّي. كدت أفقد عقلي، وبالبحث علمت أنّ موظّفًا كبيرًا بديوان جلالة الملك اتّصل مساء أمس بالأستاذ عدلي المؤذّن موصيًا بمنافسي فما كان منه إلّا أن سارع إلى مقابلة الوزير ـ والعهد كان ملكيًّا ـ وأخبره بالتوصية، وفي الحال تمزّق قرار ترقيتي وتحرّر قرار جديد بالترقية الجديدة. وذهبت إلى عدلي المؤذّن منفعلًا وناقشته فيما سمعت من أنباء ولكنّه ظلّ طيلة الوقت صامتًا باردًا حتّى تعبت وبخت، ثمّ قال لي بهدوء:

ـ أعدّوا بيان الميزانيّة الجديدة للنشر في الصحف!

وعرفت أمورًا أكثر من وكيل المستخدمين الذي كان له صديقًا كما كان لي عدوًّا، قال لي:

ـ ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون، فالقرار الوزاريّ لا يجوز تغييره إلّا بقرار وزاريّ مثله، وقد اطّلعت بنفسي على قرار ترقيتك فمتى صدر قرار آخر بإلغاء الترقية؟

فسألته:

ـ ألا تستطيع أن تثير المسألة رسميًّا؟

فقال ضاحكًا:

ـ هيهات أن يستطيع ذلك إلّا السفير البريطانيّ نفسه!

فسألته بدهشة:

ـ ولكن ما علاقة الموظّف الآخر وهو على قدّ حاله مثلي تمامًا برجل السراي الخطير؟

فقال ضاحكًا:

ـ صَلِّ وسلّم على سيّدنا لوط!

ومنذ ذلك الموقف فترت علاقتي به حتّى كادت تقتصر على العمل الرسميّ. قبل ذلك كنّا نلتقي صباحًا في ميدان سليمان باشا، نسير كزملاء رغم فارق الدرجة، فنتناول فطورنا في الأميركين، ثمّ نمضي في طريق الوزارة معلّقين على الأحداث والمارّة والأشياء، ويبدو في تلك الفترة لطيفًا ودودًا ضاحكًا محبًّا للمزاح حتّى ليقصّ عليّ آخر ما سمع من النكات السياسيّة عن الملك وحاشيته وأسرته، أو يدعوني إلى زيارته في مسكنه الجديد بالمعادي الذي انتقل إليه بعد صعوده السريع، ثمّ قد يستدعيني إلى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة فيطالعني بوجه جديد، وجه صارم بارد مجرّد، يأمر ويكلّف وينذر بلا رحمة ولا ذوق!. وأغادره وأنا أضرب كفًّا على كفّ، ومرّة فضفضت نفسي فبحت بما يكربني للأستاذ عبّاس فوزي فقال لي:

ـ عنده انقسام شخصيّة ابن القديمة، نحن موعودون في هذه الوزارة بكافّة أنواع الشذوذ.

ولّما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيّأت له فرصة للتخلّص من شرارة النحّال أكبر منافس له على وكالة الوزارة. وأشهد أنّه كان وراء بعض العرائض التي قُدّم بها شرارة إلى لجنة التطهير، ولكنّ الرجل نجا بأعجوبة ورُقّي وكيلًا للوزارة فتلقّى عدلي المؤذّن أكبر ضربة وُجّهت إليه في حياته. وسرعان ما وجد نفسه غريبًا بين موظّفين جدد لم يعرف لهم أصلًا ولا فصلًا. اختفى أغلب معاونيه في التطهير واستقبل حياة جديدة بكلّ معنى الكلمة. ورجع يخطب ودّي كما كان يفعل في حديقة الأورمان، ورجعنا نتلاقى في ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخرًا:

ـ لقد سقطت الوزارة في أيدي جماعة من الغلمان!

أو يقول:

ـ ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الإداريّة؟. ممكن أن تفعل الآن أيّ شيء كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة!

وشعرت لأوّل مرّة في حياتي بأنّ موجة من العدالة تجتاح العفونة المتّصلة بلا هوادة فتمنّيت أن تواصل سيرها بلا تردّد ولا اعوجاج وفي نقاء وطهر إلى الأبد. وحاول الرجل التسلّل إلى القيادات الجديدة ولكنّه لم يفلح. وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف في بيته فترة ثمّ وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥. ولا أنسى ساعة انتشار خبر وفاته في الوزارة، فقد خرج الموظّفون على تقاليدنا المرعيّة، وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامتة:

ـ الله يجحمه!

ـ في ألف داهية!

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها، شيّعها عشرة أنفار، قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة، وحضرها رجل ذو شأن هو الدكتور إبراهيم عقل في عهد دروشته التي أدركته بعد وفاة ابنيه وقبيل وفاته. وعقب وفاة عدلي المؤذّن بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس.

عبد الرحمن شعبان

شخصيّة لا تُنسى. عندما جلست إلى مكتبي لأوّل مرّة في إدارة السكرتاريّة لفت نظري بشدّة كهربيّة. عملاق في طول العقّاد وضخامة زيور باشا، أنيق الملبس فخم المنظر، تخاله وزيرًا رجعيًّا أو مدير بنك.

ـ حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة.

ليس هذا فحسب ولكنّي عرفت أيضًا مع الأيّام أنّ مرتّبه عشرون جنيهًا لا غيرا. بدا لي أوّل يوم منطويًا متجهّمًا كحصن فقدّرت المتاعب في زمالته التي فرضتها الأقدار عليّ، ولكنّه كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة، وسرعان ما تنفجر قهقهاته كالقنابل ويحتقن وجهه

المستدير الريّان بالدم ويتجلّى في براءة الأطفال. وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالمطر الغزير، فهو يحبّ الموضوعات التي تطرق مدّخراته من المعارف بقدر ما يضيق بالموضوعات التي يجهلها فتضطرّه إلى التزام السمع وهو أبغض الأشياء إلى نفسه. يحبّ الكلام لحدّ العبادة، ولديه معلومات لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها السيّارات والأثاث والزيوت والأمراض والساسة والأفلام والبلاد والنكت والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف والدعارة. طفل كبير في الخامسة والثلاثين، خفيف الروح، دعاباته أزهار منوّرة، ونوادره وَشْي منمنم، أمّا غضبه فآه لو انفجر غضبه، وما أسهل أن يثور غضبه! لشيء ولغير ما شيء ينفجر غضبه، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتنطلق الأعاصير، فإذا لم يقابَل بتحدّ هدأ وسكن وتراخى وتراجع فاعتذر وقدّم السيجارة أو أمر بالقهوة. تناقش مرّة مع أحد الموظّفين فعانده الرجل حتّى أثاره، وأراد أن يفحمه فاستشهد بنادرة من التاريخ الإسلاميّ - وعبد الرحمٰن يجهل التراث جهلًا تامًّا - فقال:

- دخل بذويّ على عبد الملك بن مروان فقال. . .

ولكنّ عبد الرحمٰن شعبان انتز قائمًا كعمود السواري وصاح وهو ينتفض غضبًا:

- عبد الملك بن مروان!، من هو عبد الملك بن مروان؟!. . تستشهد لي بحيوان يا حيوان، ملعون أبوك أنت وعبد الملك بن مروان. . .

وهجم عليه كالوحش ففرّ الرجل من الإدارة كالنحلة. ولكنّه لم يقدّم فيه شكوى، حتّى طنطاوي إسماعيل رئيس السكرتاريّة كان يتجاهل ذلك التمرّد الصارخ على أصول الوظيفة، وكان يقول:

- إنّه أحمق ولكنّه أنظف معدن في هٰذه الوزارة.

وأدركت أنّ معاندته غير مأمونة، وأنّ الخوض معه في موضوع تعرله ويجهله مغامرة جنونيّة. ولعلّ عبّاس فوزي كان أوّل مَن عرف كيف يداريه بمكره ولباقته، ومع أنّ عبد الرحمٰن كان يحتقره في باطنه إلّا أنّه عامله باحترام ومودّة. وكان أبوه وزيرًا للحربيّة، أرسله إلى فرنسا - بالبكالوريا - ليدرس الطبّ فمضى يتنقّل ما بين فرنسا وإنجلترا عشرة أعوام دون جدوى، مكث عامًا أو عامين في كلّيّة الطبّ، وعامين آخرين في كلّيّة العلوم، كذلك الحقوق والآداب. ولكنّه لم يثابر ولم يحصل على شهادة. ولّما توفّي والده رجع إلى مصر في الثلاثين، يحمل في رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقة بالإنجليزيّة والفرنسيّة والنساء والقمار والحانات والمسارح والسينما وبيوت الدعارة، كما رجع بزوجة لبنانيّة تقاربه في العمر أو تماثله. ولم يترك أبوه له مالًا، وكانت أخته الكبرى متزوّجة من سفير خارج القطر، فعمل مترجمًا في السفارة الفرنسيّة.

- لم أعمّر في الوظيفة أكثر من عام ثمّ اضطررت إلى تركها بسبب لكمة وجّهتها إلى الملحق الصحفيّ!

واشتغل بالإذاعة - قبل تمصيرها - ثمّ اضطرّ إلى الاستقالة بعد مشاجرة عنيفة، وعمل في جريدة المقطّم حتّى وجّه إلى صاحبها كلمة نابية كاد يقدّم من أجلها للمحاكمة فتركها، وأخيرًا التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه في امتحان أعلن عنه في الصحف. وكان اعتاد الحياة الدسمة المضيئة على الطريقة الأوروبيّة فلم يَفِ مرتّبه بتحقيق مآربه، فاستغلّ قدراته في اللغتين في الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب، مكرّسًا جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدها عبادة. وأقام في شقّة في شارع فؤاد الأوّل، وأحاط جوّه العائليّ بصداقات أوروبيّة لأسَر فرنسيّة وإيطاليّة وأحيانًا إنجليزيّة، ليكفل لنفسه البيئة التي يعشقها بكلّ مشتهياتها من أثاث جميل ومأكل طيّب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طليّة رفيعة. وكان يقول بوجد:

- أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أمّا مَن عداهم فهم حيوانات أو حشرات. . .

ومرّة قال لي:

- أصاب أحيانًا بذهول مرضيّ عندما أنظر حولي فأجد نفسي غريبًا وسط نفر من الموظّفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملّقين المنافقين، الله يرحمك يا أبي، لِمَ بدّدت مالك في القمار؟!

ولم يكن يوجد ما يدلّ على إسلامه إلّا شهادة الميلاد، ولا يعرف من دينه إلّا اسم «محمّد»، ولم ألمس

فيه اهتمامًا بقيمة من القيم وإن كان شجاعًا كريمًا محافظًا على كرامته، وكان مدخنًا مجنونًا وسكيرًا عربيدًا ومقامرًا متهوّرًا وأكولًا متوحّشًا وكنّا نسير معًا عادة عقب انصرافنا من الوزارة حتّى محطّة الترام الواقعة تحت مسكنه، فلا يكفّ عن الكلام دقيقة واحدة وأتابعه أنا بالسمع والبصر، وكان ينتقد كلّ ما تقع عليه عيناه ويقارنه بنظيره في فرنسا أو إنجلترا:

ـ أتعجبك هٰذه المحالّ والدكاكين؟. إنّها زنزانات سوقيّة.

ـ انظر إلى قذارة الشوارع في قلب المدينة!، سيأتي يوم يطالب فيه الذباب بحقوق المواطن!

ـ ما رأيك في هٰؤلاء الغلمان الحفاة في شارع سليمان باشا؟!

ـ انظر إلى هٰذا المنظر الفريد، الكارو والجمل والسيّارة في قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التامّ أو الموت الزؤام؟!

ـ أيعجبك حقًّا ذٰلك المقرئ المدعوّ عليّ محمود؟. رجل ضرير منفّر المنظر يزعق كالأبله، قارن ذٰلك بقدّاس كاثوليكيّ تسبح في جوّه الموسيقى الخالدة!

ـ صدّقني إنّ رجال السياسة الذين تعجب بهم لا يصلحون موظّفين مبتدئين في سفارة أجنبيّة...

ـ وملايين الفلّاحين القذرين بأيّ منطق يستحقّون الحياة؟.. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعيّة الحديثة؟!

ـ إنّ خير ما تمخّضت عنه الحضارة المصريّة هو الحشيش ومع ذٰلك فما أقبحه بالمقارنة بالويسكي!

ـ هل حقًّا تعجب بهٰؤلاء الكتّاب والأدباء؟.. صدّقني إنّهم أمّيّون على المستوى العالميّ...

ـ اسمح لي أبوّل على جميع من تحبّهم من زعماء وأدباء ومطربين...

ـ أتعرف ما هي أكبر نعمة أغدقت علينا؟.. هي الاستعمار الأوروبيّ، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبيّ...

ـ لا يغيظني شيء كما يغيظني ضربكم الأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكريّة خالد، عمر شحّاذ ومعاوية دجّال وخالد فتوّة درجة ثالثة لم يجد مَن يؤدّبه...

ـ المرأة المصريّة هي المخلوق الوحيد الذي يستحقّ التقدير، فهي لبؤة، ويمكنها إذا مُنحت مزيدًا من الحرّيّة إسعاد هٰذا الشعب الذي يستحقّ الإبادة.

ـ أليس الأفضل للإنسانيّة أن ينتشر الأوروبيّون في الأرض وأن يبيدوا مَن عداهم من بني آدم؟!

لم يكن يقرّر ذٰلك عن حقد ولا عن رأي بالمعنى الحقيقيّ لهٰذه الكلمة، ولٰكن عن انفعال، ووسط ضحكات بريئة، ولو صادف بعد ذٰلك شخصًا يتعصّب لأوروبا لانقلب بنفس الحماس مدافعًا عن الشرق، فهو معارض بطبعه، إن قلت حلوًا قال مرًّا وإن قلت مرًّا قال حلوًا، مغتنمًا الفرص على الحالين للكلام. ولم أجد عنده أصالة في عواطفه إلّا ما تعلّق بكريمته، فهو يعبدها عبادة، يروي أحداثها التافهة كأنّها ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنّه جوامع الحكم، وينقل إلينا آراءها ـ التي ينسبها إليها كذبًا وادّعاءً ـ فيما مرّ بالوطن من أحداث وحروب، منوّهًا بذكائها المبكّر الذي يكبر سنّها بعشرات السنين. وكنت دائمًا أخاف أن يصطدم يومًا بشخص قويّ ومؤذٍ مثل عدلي المؤذّن أو شرارة النحّال ولٰكنّ ضخامته أسبغت عليه مهابة فرضت على كبار الموظّفين احترامه، وهو من ناحية أخرى ـ بعد تجاربه المؤسفة في السفارة الفرنسيّة والإذاعة والمقطّم ـ تجنّب أصحاب النفوذ ما وسعه ذٰلك. وكان يقول لي:

ـ لعن الله الأيّام التي علّمتنا احترام الأوغاد، الله يسامحك يا بنتي!

وقد دعوته إلى الفيشاوي وعرّفته ببعض الأصدقاء مثل جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوي الفحّام فأعجبه المكان وأحبّ الأشخاص، وفي جنازتي شعراوي وجعفر بكى كطفل. وبالرغم من مودّتنا الحميمة فإنّني لم أسلم من غضبه، فيومًا كنت أقرأ الجريدة فاطّلعت على صفحة مخصّصة لذكرى سلامة حجازي، ونقلًا عن كاتبها قلت للأستاذ عبّاس فوزي بسرور:

ـ هل تصدّق أنّ فردي قال عن سلامة حجازي إنّه لو كان وُلد في إيطاليا لما كان له ـ فردي ـ شأن؟!

وإذا بالأستاذ عبد الرحمٰن يرمي بكتاب كان يقرأه وصاح بي كبركان:

- ما هٰذا الكلام الفارغ! أتصدّق أيّ كلام يتقوّله هٰؤلاء الأوباش في الصحف؟... مَن هو سلامة حجازي؟... إنّ أيّ منادي سيّارات فرنسيّ أعذب منه صوتًا، ولٰكن هٰكذا أنتم أيّها المصريّون، لن تزالوا غارقين في أوهام الكلمات حتّى تموتوا، كوكب الشرق... مطرب الملوك والأمراء... سلطانة الطرب... عاهل التمثيل في الشرق... لو لم أكن مصريًّا لتمنّيت أن أكون مصريًّا، ولِمَ لا تتمنّى أن تكون حمارًا، فيكون لك نفع على الأقلّ، نيلة تاخذكم أنتم وبلدكم!

وفي عام ١٩٥٠ زوّج معبودته «كريمته» من موظّف في البنك الأهليّ. واحتفل بزواجها في الأوبرج، وسعد كما لم يسعد من قبل فسعدنا به. وبعد ذٰلك بعامين، وعلى التحديد في صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال:

- البقيّة في حياتكم في الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان!

وفزعنا كأنّما نسمع عن الموت لأوّل مرّة. كان حتّى أمس يتّخذ مجلسه بيننا في الإدارة، وسرت معه حتّى مسكنه في شوارع مكتظّة بالمتظاهرين والمخرّبين وألسنة النيران تشتعل هنا وهناك في المحالّ العموميّة والملاهي والسينمات. وعلمنا في أثناء النهار ونحن نشيّع جنازته أنّه كان ساهرًا في الترف كلوب مع بعض أصدقائه من الإنجليز حين هاجم المتظاهرون النادي فقتلوا مَن فيه، وقُتل الرجل فيمن قُتل، وانتهت حياته العجيبة.

عبد الوهّاب إسماعيل

إنّه اليوم أسطورة، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير. وبالرغم من أنّني لم ألقَ منه إلّا معاملة كريمة أخويّة إلّا أنّني لم أرتح أبدًا لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادّتين، وقد عرفته في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم في أثناء الحرب العظمى الثانية، كان في الثلاثين من عمره، يعمل مدرّسًا للّغة العربيّة في إحدى المدارس الثانويّة، وينشر أحيانًا فصولًا في النقد في المجلّات الأدبيّة أو قصائد من الشعر التقليديّ. كان أزهريًّا، لا علم له بلغة أجنبيّة، ومع ذٰلك أثار اهتمامي واحترامي بقوّة منطقه وهو يناقش أشخاصًا من المعروفين بثقافتهم الواسعة واطّلاعهم العميق على اللغات الأجنبيّة مثل الدكتور إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل. وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتدّ مرّة أو انفعل ولا حاد عن الموضوعيّة، ولا بدا في مستوى دون مستوياتهم الرفيعة، فكأنّه ندٌّ لهم بكلّ معنى الكلمة، فاقتنعت بحدّة ذكائه ومقدرته الجدليّة واطّلاعه الواسع رغم اعتماده الكلّيّ على التراث والكتب المترجمة، ولم يداخلني شكّ في أنّه أذكى من إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعًا. وحتّى نقده للكتب العصريّة لم يتّسم بالهزال أو السطحيّة بالقياس إلى نقد المتخصّصين من حملة المؤهّلات الباريسيّة واللندنيّة، وإن كان ثمّة فارق دقيق فلم يكن لينكشف إلّا لعين العارف المدقّق.

قال لي عنه يومًا الدكتور ماهر عبد الكريم:

- إنّه شابّ موهوب ومن المؤسف أنّه لم يرسَل في بعثة.

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممّن يزنون أقوالهم بميزان دقيق. وبالرغم من أنّ عبد الوهّاب إسماعيل لم يكن يتكلّم في الدين، وبالرغم من تظاهره بالعصريّة في أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الإفرنجيّة في الطعام وارتياد دور السينما، إلّا أنّ تأثّره بالدين وإيمانه بل وتعصّبه لم تخف عليّ. أذكر أنّ كاتبًا قبطيًّا شابًّا أهداه كتابًا له يحوي مقالات في النقد والاجتماع فحدّثني عنه ذات يوم في مقهى الفيشاوي فقال:

- إنّه ذكيّ مطّلع حسّاس وذو أصالة في الأسلوب والتفكير.

فسألته ببراءة وكنت مغرمًا بالكاتب:

- متى تكتب عنه؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- انتظر وليطولنّ انتظارك!

- ماذا تعني؟

فقال بحزم:

- لن أشترك في بناء قلم سيعمل غدًا على تجريح

تراثنا الإسلاميّ بكافّة السبل الملتوية.

فتساءلت بامتعاض:

ـ أأفهم من ذٰلك أنّك متعصّب؟

فقال باستهانة:

ـ لا تهدّدني بالأكليشهات فإنّها لا تهزّني.

ـ يؤسفني موقفك.

ـ لا فائدة من مناقشة وفديّ في هٰذا الموضوع، وقد كنت وفديًّا ذات يوم، ولٰكنّي أصارحك بأنّه لا ثقة لي في أتباع الأديان الأخرى!.

وقد كان حقًّا وفديًّا، ثمّ انشقّ على الوفد وراء الدكتور أحمد ماهر وكان عظيم الإعجاب به، ورُقّي في عهد السعديّين إلى وظيفة مفتّش. وكم تخلّى عنه حلمه بسبب مصرع الدكتور أحمد ماهر، كأنّما أصيب بنفس الرصاصة التي أودت بحياة الرجل، وقال لي بحزن بالغ:

ـ ضاع أعظم رجل في الوطن.

وكان يشكو صحّته كلّما سنحت مناسبة، وبها يتعلّل في إفطار رمضان ولٰكنّه لم يصرّح بحقيقة مرضه لأحد، كما أنّه لم يهتمّ في حياته بالنساء ولم يتزوّج، وعُرف في تلك الناحية بالاستقامة الكاملة. وعلى جدّيّة أخلاقه، وحملاته الصادقة على المنحرفين، تكشّف لي جانب منه لم أكن لأصدّقه لو لم أخبره بنفسي. ذٰلك أنّه كان يوجد كاتب صاحب مجلّة ومطبعة تُصدر سلسلة شهريّة من الكتب، وكان عبد الوهّاب يحتقره ويقول عنه:

ـ لولا مجلّته لما وجد مجلّة تقبل أن تنشر له كلمة.

وكم أدهشني أن أطالع له مقالة في الرسالة عن صاحب المجلّة رفعه فيها إلى السماء!. حرت في تفسير ذٰلك، حتّى علمت بأنّه اتّفق معه على نشر كتاب له في سلسلته الشهريّة نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر!. وتذكّرت في الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطيّ فأزعجني جدًّا اكتشاف ذٰلك الجانب الانتهازيّ في شخصيّته، وساورني شكّ من ناحية صدقه وأمانته، واستقرّ في نفسي ـ رغم صداقتنا ـ نفور دائم منه. وظلّ يعمل مفتّشًا وكاتبًا حتّى ولي الوفد الحكم عام ١٩٥٠، فلم يرتح إلى معاملة الوزير الوفديّ له، فقدّم استقالته وتفرّغ للعمل في الصحافة، وعرف في تلك الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد، وفي نفس الوقت شرع يكتب كتبًا عصريّة عن الدين الإسلاميّ، لاقت نجاحًا منعدم النظير. وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس في محاربة الوفد والدفاع عن الدين الإسلاميّ. وكان مرّ عامان على الأقلّ لم نلتق فيهما أبدًا وانقطعت عنّي أخباره الخاصّة. ويومًا كنت في زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لي:

ـ الظاهر أنّ نجم عبد الوهّاب إسماعيل سيلمع قريبًا...

فسألته باهتمام:

ـ ماذا تعني؟

ـ أصبح من المقرّبين.

ـ ككاتب سياسيّ أم ككاتب دينيّ؟

ـ باعتباره من الإخوان المسلمين.

فهتفت بدهشة.

ـ الإخوان؟.. لٰكنّني عرفته سعديًّا متطرّفًا.

فقال متهكّمًا:

ـ سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر!

وقابلته بعد ذٰلك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فتصافحنا بحرارة، وسرنا معًا نتحادث حتّى جاء ذكر الثورة فقال بتحفّظ:

ـ ثورة مباركة ولٰكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون...

ولمست في حديثه مرارة لم أقف على سرّها ولم يبح به. كانت له قدرة على الاحتفاظ بأسراره ليست إلّا لقلّة نادرة من المصريّين. وقلت له:

ـ بلغني أنّك انضممت إلى الإخوان المسلمين؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ أيّ مسلم عرضة لذٰلك!

ـ من المؤسف حقًّا أنّك نبذت النقد الأدبيّ.

فضحك قائلًا:

ـ يا لها من تمنّيات جاهليّة!

وافترقنا وأنا أشعر بأنّنا لن نلتقي مستقبلًا إلّا مصادفة في الشوارع. وعند أوّل صدام بين الثورة والإخوان قُبض عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة، وقُدّم للمحاكمة فحُكم عليه بعشرة أعوام

سجن. وغادر السجن عام ١٩٥٦ فرأيت أن أزوره مهنئًا، فذهبت إلى مسكنه بشارع خيرت. والحق أنه لم يتغيّر كثيرًا، شاب شعر رأسه، كما يُتوقّع لرجل في السابع أو الثامن والخمسين من عمره، وزاد وزنه حتّى خيّل إليّ أنّ صحّته تحسّنت عمّا كانت عليه. وتبادلنا الأسئلة عن الظروف والأحوال، وكان يحافظ على رزانته المعهودة وبرودة أعصابه الفذّة، وخاض دون مقدّمات في المسائل العامّة فأدلى بآرائه بكلّ ثقة...

- يجب أن يحلّ القرآن مكان كافّة القوانين المستوردة.

وقال عن المرأة:

- على المرأة أن تعود إلى البيت، لا بأس من أن تتعلّم ولكن لحساب البيت لا الوظيفة، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشًا في حال الطلاق أو فقد العائل.

وقال بقوّة:

- الاشتراكيّة والوطنيّة والحضارة الأوروبيّة خبائث علينا أن نجتثّها من نفوسنا...

وحمل على العِلم حملة شعواء حتّى ذُهلتُ فسألته:

- حتّى العِلم؟!

- نعم، لن نتميّز به، نحن مسبوقون فيه وسنظلّ مسبوقين مهما بذلنا، لا رسالة علميّة لنا نقدّمها للعالم، ولكن لدينا رسالة الإسلام وعبادة الله وحده لا رأس المال ولا المادّيّة الجدليّة...

استمعت إليه طويلًا ضاغطًا على انفعالاتي حتّى لا أخلّ بواجب المجاملة ثمّ قمت للانصراف وأنا أسأله:

- ماذا عن المستقبل؟

- هل لديك اقتراح؟

- لديّ اقتراح ولكنّي أخشى أن يكون جاهليًّا هو أن تعود إلى النقد الأدبيّ!

فقال بهدوء:

- تلقّيت دعوة للعمل في الخارج.

- وعلامَ عوّلت؟

- إنّي أفكّر...

وودّعته وانصرفت. وبعد انقضاء عام على المقابلة طلعت علينا الصحف بأنباء مؤامرة جديدة للإخوان، ولم أعرف وقتها شيئًا عن مصير عبد الوهّاب إسماعيل الذي رجّحت أنّه غادر الوطن للعمل في الخارج. غير أنّ الصديق قدري رزق أكّد لي أنّه كان ضمن المؤامرة وأنّه قاوم القوّة التي ذهبت للقبض عليه حتّى أصيب بطلقة قاتلة فسقط جثّة هامدة.

عَبدة سليمَان

لعلّها كانت أوّل فتاة تعيَّن بوزارتنا، ولكن مؤكّد أنّها كانت أوّل موظّفة بإدارة السكرتاريّة. عُيِّنت في أيّام الحرب العظمى الثانية، في نفس الشهر الذي تولّى فيه عبّاس فوزي رياسة السكرتاريّة. كانت في الخامس والعشرين من عمرها، بضّة ممتلئة، سمراء، متوسّطة الجمال، خفيفة الروح. وكانت تحمل شهادة البكالوريا، ولم ترغب في الوظيفة حتّى توفّي والدها. وقال عبّاس فوزي محذّرًا:

- كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم!

وهمس لي عمّ صقر وهو يقدّم لي القهوة:

- صاحبتك من السيّدة زينب!

فسألته:

- وماله؟

- السيّدة مأهولة بالطلبة ولذلك فكثيرات من بناتها...

ورسم بيده حركة مثيرة للشكّ. وعمومًا اشتدّت العناية بالمظهر في السكرتاريّة، واسترقت الأعين النظر إلى ركن الحجرة حيث جلست عبدة إلى يمين الأستاذ عبد الرحمن شعبان. كان علينا أن ننتظر طويلًا حتّى تصير عبدة «عادة» يوميّة لا تثير الأهواء ولا تلفت النظر. وتواترت أخبار تصوّر سلوكها الخاصّ في حيّ السيّدة بالاستهتار. وقال لي عمّ صقر:

- لا تصدّق أنّ فتاة «شريفة» تقبل أن تعمل وسط الرجال.

فقلت له:

- ولكنّها مؤدّبة حقًّا وتصدّ عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعابة.

فقال بإصرار:

ـ سياسة حلوة.. حفظًا على كرامتها كموظّفة، ولتوقيع بالمغفّل ابن الحلال!

ولاحظنا أنّ زميلًا من الأرشيف أصبح يتردّد على صديق له في السكرتاريّة على غير عادة، وكان زميلًا مشهورًا رغم حقارة وظيفته وبدائيّة تعليمه الذي لم يجاوز الابتدائيّة، ولكنّه كان جميلًا، له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم، وكان من أسرة العادل ـ يدعى محمّد العادل ـ في الثلاثين من عمره. وكان ابن شقيق الباشا عميد الأسرة، وزوج كريمته الغنيّة، ورغم فقره وضآلة مرتّبه كان يرتدي أفخر البدل وينفق عن سعة من مال زوجته، وعُرف أنّه يطارد عبدة، وأنّه يزور السكرتاريّة جريًا وراء هدفه. ولم يتعرّض له عبّاس فوزي بأيّة ملاحظة لعلمه بصداقة عمّه الباشا لوكيل الوزارة فتجاهله على مضض، ولكنّ الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان المترجم لم يبال بذلك فمضى نحوه يومًا ثمّ قبض على أعلى جاكتته ودفعه أمامه حتّى باب الإدارة وهو يقول له:

ـ إذا رجعت مرّة أخرى فسأكسر رأسك...

ولكنّ عمّ صقر أخبرني أنّه يطارد عبدة حتّى مشارف السيّدة وأنّه يلحّ بجنون في التعرّف بها. ووضح أنّ الفتاة رفضت تلبية النداء وأصرّت على ذلك. رفضت بكلّ قوّة أن تكون عشيقة وعاملته بخشونة. وأخذنا نناقش الموضوع همسًا. فقال عبّاس فوزي:

ـ الولد فحل جميل ولا يقاوَم...

فقال عبد الرحمٰن شعبان:

ـ ولكنّه حقير جاهل.

فقال له عبّاس فوزي:

ـ المرأة هي المرأة والرجل هو الرجل.

فقلت:

ـ من الطبيعيّ أن تبحث عن زوج لها معنى أن ترضى بدور العشيقة...

ـ هٰذا هو المعقول ولكنّ الحبّ لا معقول...

ولكن مضت الأيّام وعبدة سليمان ترفض أن تستسلم. ذات يوم طلبت إجازة أسبوعًا. ولم يهتمّ أحد بالطلب حتّى جاءنا عمّ صقر وهو يقول:

ـ محمّد العادل أخذ إجازة أسبوعًا أيضًا!

وتضاربت التخمينات ولٰكنّها كانت مجرّد تخمينات، ومضى الأسبوع ورجعت عبدة ولٰكنّا رأينا فيها فتاة جديدة كأنّما فقدت في صميم روحها شيئًا ثمينًا لا يعوّض. انتظرنا أن تقول شيئًا ولٰكنّها عكفت على عملها في صمت تكتنفها هالة حزن كأنّما هي راجعة من قرافة. ومال عبد الرحمٰن شعبان نحوها وسألها برقّة:

ـ مالك يا مدموازيل؟

وبمجرّد استشعارها العطف انهمرت دموعها!. واتّجهت إليها الأبصار، ومضى عبّاس فوزي فوقف أمام مكتبها وهو يسأل:

ـ مالك؟... نحن زملاء. والإنسان للإنسان!

ـ لا شيء!

ـ لا نريد إكراهك على الكلام إذا كرهت ذٰلك...

فقالت بيأس:

ـ لن يخفى شيء!

ـ حسن فماذا يحزنك؟

تردّدت قليلًا ثمّ قالت:

ـ أخذت الإجازة لأتزوّج...

ـ لا عيب في ذٰلك ولا حزن.

ـ تزوّجنا أنا ومحمّد العادل.

ـ محمّد العادل!

ـ نعم.

ـ سرًّا!

ـ قال لي إنّه يقامر بمستقبله، وإنّه إذا عرفت زوجته أو عمّه الباشا فسيقضى عليه إلى الأبد...

فسألها عبّاس فوزي بنبرة لم تخلُ من عتاب:

ـ وكيف رضيت أن تتزوّجيه وأنت على علم بحاله؟

فقال عبد الرحمٰن شعبان بغضب:

ـ تذكّر أقوالك عن الحبّ...

فتراجع الرجل قائلًا:

ـ حسن، وماذا حدث بعد ذٰلك؟

ـ سافرنا إلى الإسكندريّة فمكثنا أسبوعًا!

ـ ثمّ ماذا؟

وهي تحاول تمالُك أعصابها الباكية:

ـ طلّقني أمس!

ـ طلّقك!؟

ـ نعم...

ـ لِمَ؟

ـ قال إنّه إذا استمرّت العلاقة فستُعرف وإذا عرفت خسر كلّ شيء!

وهمس عمّ صقر في أذني:

ـ طريقة جديدة للعشق!

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم. وتطوّع كثيرون لمساعدتها في إجراءات القضيّة الشرعيّة. ولما الخبر إلى الزوجة والباشا، واستدعى وكيل الوزارة ـ بإيعاز من الباشا ـ عبدة فوبّخها واتّهمها بإغواء الولد الأرعن وطالبها بالتنازل عن القضيّة في نظير أن يحفظ لها حقّها ولكنّها صارحته بأنّها حبلى، وبذلك تعقّدت الأمور أكثر. ووضعت طفلة وكانت النفقة تُقتطع لها من مرتّب الشابّ الصغير، والحقّ أن محمّد العادل لم يكن شبع تمامًا من عبدة، وكانت هي من ناحيتها تحبّه، وهي حقيقة لم تخفَ عن المجرّبين مثل عبّاس فوزي وعبد الرحمٰن شعبان. وعادت العلاقة بينهما، غير شرعيّة هٰذه المرّة، وفي تكتّم لم يدرِ به أحد منّا، حتّى فوجئنا ذات يوم بالوكيل يستدعي عبدة ومحمّد، ويهدّدهما بالنقل إلى الأقاليم إذا لم يقطعا علاقتهما «الآثمة» في الحال. وحدث ذٰلك بحضور الباشا نفسه، وترامت الأصوات إلى السعاة فالتقط عمّ صقر الخبر وأذاعه بطريقته الساديّة، حتّى اضطرّ الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان إلى تذكيره بابنته الضائعة فغادر الرجل الحجرة متقلّص الوجه. ونُقل محمّد العادل بعد ذٰلك إلى وزارة الزراعة. وتزوّجت عبدة من مقاول قَبِلَ أن تتربّى ابنتها في بيته تحت شرط أن تقدّم عبدة استقالتها وقد فعلت. كان ذٰلك على عهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨، ومرّ على ذٰلك عشرون عامًا حتّى لقيت عبدة مصادفة في ميدان التحرير.

تصافحنا بحرارة، وكانت في الخمسين وبدينة جدًّا، وسرنا معًا وهي تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من أمر عبّاس فوزي، ونهاية عبد الرحمٰن شعبان وقد تأسّفت عليه بصدق، وحتّى عمّ صقر أخبرتها بسوء مآله، أمّا هي فأخبرتني بأنّ زوجها توفّي من عامين، وأنّها أنجبت منه ثلاثة ذكور في كلّيّات الطبّ والزراعة والاقتصاد، وأنّ ابنتها تزوّجت من ضابط، ثمّ تساءلت:

ـ أتدري ماذا حصل لأبيها؟

ولٰكنّي كنت نسيته تمامًا فقالت:

ـ بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعيّ بعام واحد مات الباشا، ولم يبقَ لابنته إلّا ما تستطيع أن تربّي به أولادها فامتنعت عن إعطاء زوجها أيّ نقود فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذي اعتاده فاختلس وفصل من عمله.. وهو يعيش الآن كالمتشرّدين، واضطرّ إلى العمل في الإسكندريّة منادي سيّارات!

ثمّ سألتني ونحن نتوادع:

ـ خبّرني ماذا عن الموقف، حرب أم صلح؟

فبسطت راحتيّ في عجز عن الجواب وافترقنا...

عجلان ثابت

زاملنا في الجامعة عامًا ونصف عام، واتُّهم بسرقة طربوش فافتُضح أمره واضطُرّ إلى قطع دراسته. حدّثني عنه في ذٰلك الوقت الأستاذ عدلي المؤذّن فقال:

ـ إنّه يعيش مع أمّ عجوز على معاشٍ بسيط.

فقلت بأسف:

ـ لا أحد منّا يستطيع معاونته، وكان النجاح والتفوّق في ميسوره...

ـ ولٰكنّه كان قليل الأدب، ألا تذكر مناقشاته الحادّة مع الدكتور إبراهيم عقل؟

فقلت بامتعاض:

ـ إنّه أفضل في نظري من الدكتور إبراهيم عقل...

وفي أثناء تزامُلنا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه، وكان ذا استعداد طيّب لتعلّم اللغات الأجنبيّة، كما

كان قارئًا ممتازًا. وأذكر أنّه ترجم ـ في تلك الفترة المبكّرة من حياته ـ بعض قصائد شيللي ونشرها في مجلّة المعرفة. وكان يقول لي:

ـ لا تحترم طالبًا غير مهتمّ بالسياسة، ولا تحترم مهتمًا بالسياسة إن لم يكن وفديًا، ولا تحترم وفديًا إن لم يكن فقيرًا...

فقلت له:

ـ ولكنّ سعد زغلول لم يكن فقيرًا...

ـ أمّا مصطفى النحّاس فزعيم فقير!

ـ هل تعني أنّ مصطفى النحّاس خير من سعد زغلول؟

ـ كان سعد زغلول عبقريًا أمّا مصطفى النحّاس فإرادة نقيّة.

ولم يستطع ـ بعد انفصاله عن الجامعة ـ أن يجد وظيفة، فالوظيفة كانت مطلبًا عسيرًا لمن لا وساطة له، ولكنّ أحد أعضاء الوفد استطاع أن يُلحقه بدار صحفيّة محايدة مترجمًا بأجر زهيد. وافترقنا نحوًا من عشرة أعوام، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة في مقهى الفيشاوي. ورحّبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال:

ـ ما زلت مترجمًا صحفيًا وما زال الأجر زهيدًا!

وضحك وكانت روحه المعنويّة مرتفعة وقال:

ـ ولكنّي متزوّج...

ـ أنت مغامر!

ـ إنّه الحبّ، عليه اللعنة...

ودعاني إلى مسكنه بخان الخليلي فتعرّفت بزوجته، وكانت فتاة حسناء، على قدر متوسّط من التعليم، ولاحظت أنّها متفانية في الحبّ وذات إرادة صلبة في مواجهة حياتها المتقشّفة. ودار الحديث عن الحرب والسياسة، فقال:

ـ لم أعد وفديًا كما كنت...

فدهشت، ولكنّه صارحني بأنّه «شيوعيّ»، وراح يؤكّد لي أنّ الشيوعيّة حلّ لمشكلات العالم، ثمّ وهو يضحك:

ـ وحلّ لمشكلتي أيضًا...

فضحكت زوجته وقالت:

ـ وهذا هو الأهمّ!

ومضى يشرح الشيوعيّة باعتبارها نظريّة علميّة ولكنّني شعرت بأنّها حلّت في نفسه محلّ العقيدة الدينيّة. وفي أعقاب الحرب فُصل من الدار الصحفيّة بإيعاز من الداخليّة في ظلّ الحكم الرجعيّ الذي سيطر على البلاد بعد إقالة الحكومة الوفديّة. وتحرّج مركزه، حتّى سكنه المتواضع أصبح مهدّدًا بالطرد منه لعجزه عن دفع الإيجار. وكنت أزوره، وأقدّم له أحيانًا مساعدات لا تغني، ثمّ تبيّن لي أنّ مسكنه يتحوّل إلى شيء جديد غريب، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من أغنياء الحرب، حيث تدور الجوزة. وتجلس زوجته بينهم كربّة الاستقبال والبيت!. وآثرت ـ تفاديًا للإحراج ـ أن تقتصر مقابلاتنا على المقهى، وأخذ يبدو لي مكشوف الوجه مستهترًا، وماجنًا عابثًا، ورغم ذلك كلّه فإنّ عقيدته لم تتخلخل، ولم يتسلّل إليها الفساد، وبقيت جوهرة مدفونة في العفن ولكن محتفظة بقيمتها. وفي عام ١٩٥٠ رجع إلى عمله بالدار الصحفيّة ولكنّه لم يغيّر أسلوبه في الحياة، لزهادة المرتّب من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى. ولقيتُ زوجته بعد انقطاع طويل فهالني أن أرى غانية متبرّجة ذكّرتني بالمحترفات فتقطّع قلبي وحزنت حزنًا لا حدّ له. ولعلّه لاحظ انقباضي إذ قال:

ـ مهما يكن من أمرنا فثمّة جانب فينا يستطيع أن يصنع المعجزات، وهو الذي خلق الله!

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يهيّئوا له عملًا أرقى، فتحسّنت أحواله، بل وغيّر مسكنه فانتقل إلى شقّة في عمارة بميدان الجيزة. رمزًا لعزمه على تغيير أسلوبه في الحياة، وممارسة حياة محترمة. وبسبب نشاطه العقائديّ اعتُقل أعوامًا حتّى اضطرّت زوجته إلى اللجوء إلى حماية أحد زبائن بيتها القديم. ولمّا خرج من المعتقل خرج متعبًا متقززًا. استعاد عمله ودَخْله ولكنّه لم يستطع استنقاذ زوجته. قال:

ـ أدمنتِ الأفيون....

وهزّ رأسه في رثاء وقال:

ـ إنّي أحبّها، وسأحبّها إلى الأبد، ولكنّها لم تعد

قادرة على إعطاء الحبّ!

ثمّ بغضب:

ـ إنّي أحمل على الفساد بصدق أيمان أجده، ولا يخيفني أن يشهّر بي أحد. . .

وقدّس علاقته بها، متفانيًا في الإخلاص لها والتسامح معها، فهيّأ لها الحياة الطيّبة ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرّف، تواجدت أم غابت، استقامت أم استهترت. وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبقَ له من مسرّات الدنيا إلّا العمل والحديث والتسامح اللانهائيّ مع زوجته. وبالرغم من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ في تلك الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثماره، فتتابعت مقالاته السياسيّة والاجتماعيّة متّسمة بالطلاوة والعمق، وإنّي لأعدّ كتابه عن الفكر العربيّ التقدّميّ من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها إيحاءً وتفاؤلًا، كما أعدّ وجهه الشعبيّ، وتناقضات حياته الشخصيّة، ومتاعبه الجسمانيّة، ووحدة ذهنه وصفائه، مثالًا لعصر مضطرب جيّاش بعوامل هدم وبناء، وتفكّك وتجمّع، ويأس وأمل. ولشدّ ما تألّمت عندما لم أجد من أستاذي الدكتور ماهر عبد الكريم استعدادًا للترحيب به في صالونه فقال بهدوئه المعروف:

ـ يقال إنّه شخص. . .

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع!. وعلمت أنّ الذي وشى به عنده هو جاد أبو العلا، ذلك الشخص الذي لا وجود له في الواقع!.

عدلي بركات

له في الذهن صورة قديمة، كالعبّاسيّة القديمة بحقولها وسكونها الأبديّ، عندما كان يتهادى به الحنطور من العبّاسيّة الشرقيّة إلى المدرسة، فيغادره وهو يسير ـ رغم حداثة سنّه ـ في عظمة خياليّة تناسب ولاة العرش، ويمرّ بنا دون أن يلقي نظرة على أحد، وحيدًا بلا صاحب إلّا فيما ندر، ونتابعه بسخرية تخفي تحتها إعجابًا وحسدًا. وكان آل بركات ـ كآل الكاتب ـ من أرستقراطيّة العبّاسيّة الشرقيّة المقيمين في القلاع. وكانت أمّ عدلي تركيّة وكان الأب فلّاحًا مصريًّا غنيًّا، فأنجبا غلامين عدلي وأخًا أكبر. وماتت الأمّ وعدلي في الثانية عشرة، فتزوّج الأب بعد عام من وفاتها بسيّدة مصريّة. وقيل لي إنّ وفاة أمّه رسّبت الحزن في أعماق روحه. كما إنّ حلول أخرى محلّها قضى على توازنه مدى العمر. تلك أحزان يمكن تخيّلها فحسب أمّا تحليلها فلا سبيل إليه، وبخاصّة وأنّ عدلي لم يكن يذكر سيرة أمّه أمام أحد، ولا يسمح لأحد بالتسلّل إلى ذلك التاريخ القديم، وبالرغم من أنّني عرفته في تدهوره، وهو لا يعترف لشيء باحترام أو يعفيه من سخريته، فإنّه كان من المسلّم به بيننا أنّ أمّه سرّ مغلق مقدّس لا يجوز مسّه أو الحومان حوله أو مجرّد التفكير في الاقتراب منه. وكنّا في صبانا نراه كثيرًا، في المدرسة، وفي حديقة القصر، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أيّ معرفة أو حتّى ميل إلى ذلك. ومرّة وكنّا عائدين من ملعب الكرة في الصحراء وجدناه واقفًا أمام قصره فقرّر خليل زكي أن يتحرّش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة:

ـ هل تعرف أين تقع دكّان عمّ فلفوس بيّاع المدمّس؟

فتراجع إلى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعن خليل ولكن اجتاحنا سرور لا شكّ فيه. وطالما كان خليل يقول:

ـ يا ما نفسي أطبق في زمّارة رقبته!

ودخلنا الجامعة في عام واحد فزامل رضا حمادة في كلّيّة الحقوق، وعارف رضا بيني وبينه ونحن نشاهد مباراة كرة حامية بين النادي الأهليّ والمختلط. قلت له:

ـ نحن أبناء حيّ واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف إلّا اليوم.

فابتسم قائلًا في اقتضاب:

ـ نعم.

وتمعّنته عن قرب فإذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلّاح لحدّ التماثل، ولم يرث عن الأمّ التركيّة شيئًا ظاهرًا ينتفع به!. وأدركت من أوّل

وهلة أنّه متعب، وأنّه يحتاج إلى سياسة خاصّة في معاملته كي يمنح ثقته وصداقته، وأنّه يحتقر كلّ شيء في الوجود، وأنّ كلمة «مضحك» إكليشيه لاصق بلسانه يصف به أيّ شخص أو أيّ فعل مهما يكن رأي المتحدّث فيه، فأستاذ المدنيّ «دكتور مضحك»، ومصطفى النحّاس «زعيم مضحك»، وقرار الوفد بإعلان المقاطعة «إعلان مضحك»، وقواعد الإسلام «قواعد مضحكة» حتّى سألته مرّة:

ـ مَن يستحقّ احترامك من الناس؟

فأجاب وهو يضحك:

ـ الجميل الشرّير!

ثمّ وهو يواصل الضحك:

ـ يقال إنّ إسماعيل صدقي كان كذلك في شبابه...

فقلت:

ـ ولكنّك تحترم والدك بلا شكّ؟

فبصق على الأرض بتلقائيّة ووحشيّة وقال:

ـ اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات!

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقته لأبيه. وحدّثني موسيقار من جيرانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال إنّه ـ عدلي ـ لم يعد يخفي كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد، وإنّ الباشا يداريه مسلّمًا أمره لله. وسألت عن السبب فقال:

ـ لا يدري أحد شيئًا على سبيل اليقين، وعدلي نفسه لا يحبّ أن يفشي ذلك الجانب من أسراره، ولكنّ المظنون انّ مرجع هذه الكراهية إلى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمّه...

ولّما توثّقت العلاقة بيننا سألته عمّا يدعوه إلى مقت أبيه واحتقاره فحدجني بنظرة قاسية وقال:

ـ ألا يكفي لذلك أن يورثني سحنته؟!

فقلت:

ـ أنت فلّاح جميل!

فعبّس قائلًا:

ـ لو نافقتني مرّة ثانية فسأمقتك أكثر منه.

ولكي يبتعد عن مجال أبيه ويتجنّب رؤيته ما أمكن أقام في مبنى مستقلّ بحديقة القصر كان يُستعمل كمضيفة، وربّما مرّ الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر. وفي آخر عهده بكلّيّة الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عُرفت باستهتارها الأخلاقيّ، وجعل منها خاصّة أصدقائه، وبهم خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوي، وانقلب مقامه المستقلّ في الحديقة إلى حانة وغرزة!. ولا شكّ أنّ الباشا فطن إلى دبيب الحركة الجديدة المريبة ولكنّه لم يستطع أن يتعرّض لها إيثارًا للسلامة. وقال لي يومًا:

ـ عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك...

ولم أعرف ما يعنيه تمامًا إلّا فيما بعد نسبيًّا، عندما تبيّن لي أنّه بقدر ما يحبّ مصاحبة الحِسان فإنّه لا يستجيب لهنّ، وأنّه لا يستجيب إلّا للمومسات ذوات السحن الوحشيّة. وأتمّ دراسته عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرّات، وسعى الباشا إلى تعيينه في النيابة العموميّة بنفوذه، ولكن لم يكن يُقبل أحد في وظائف النيابة إلّا بعد تحرّيات، وقد كشفت التحرّيات عن الغرزة المستقرّة في مسكنه المستقلّ فرُفض الطلب وأُبلغ والده بالحقيقة!. وفاتحه أبوه بالأمر فقال باستهانة:

ـ النيابة العموميّة وظيفة مضحكة!

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينهما حتّى هدأت النفوس. واتّفق على أن يفتح الباشا له مكتب محاماة في مقامه المستقلّ على أن يجعل سهراته الخاصّة في الخارج. وأعدّ في إحدى الحجرتين اللتين يتكوّن منهما المبنى مكتب، ومكتبة قانونيّة، وأُلصقت على مدخل السراي لافتة باسم المحامي الجديد. ولم ينفّذ الاتّفاق إلّا أيّامًا معدودات ثمّ رجعت ريمة لعادتها القديمة، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة، وكان الحشيش قد أسره تمامًا. ولم يقنع الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهنّ عميلات للمحامي الجديد، فتطوّرت الغرزة إلى ماخور، وسكرت إحداهنّ ذات ليلة حتّى فقدت وعيها فتجرّدت من ثيابها وراحت ترقص في الحديقة تحت ضوء القمر...

ولأوّل مرّة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار، انهال على الابن سبًّا ولعنًا، فردّ له الابن السبّة سبّتين

واللعنة لعنتين، وصفعه الأب فهدّده الابن بالصفع والركل، وعندَ ذٰلك طرده من قصره وحذّره من أن يريه وجهه مرّة أخرى. وغادر عدلي القصر مطرودًا في أوائل أيّام الحرب العظمى الثانية، وليس معه إلّا ملابسه. وراح يبيت بالتناوب في بيوت أصدقائه ويفكّرون في المستقبل. اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أيّ وظيفة كتابيّة حتّى يجيء الفرج، ولكنّه قال بكبرياء:

- إنّي أفضّل الصعلكة...

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد في مكتبه ولكنّه قال له:

- نسيت القانون ولا همّة لي الآن على استرجاعه.

فقال الرجل ببراءة:

- قم بأيّ عمل في المكتب!

فأدرك أنّه يعرض عليه أن يعمل كاتبًا بمكتبه فصاح غاضبًا:

- إنّي أحتقرك وأحتقر مَن خلقك!

واختار الصعلكة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمان موت أبيه الذي جاوز السبعين من عمره وكان يتبلّغ بالسندوتش ويُسكت صراخ بطنه بالفول السودانيّ، وينتقل في الليل من غرزة إلى غرزة فيدخّن بالمجّان، ثمّ يقضي الليل في بيت صديق أو في مقصورة من مقاصير مقهى الفيشاوي. وساء مظهره، ووهنت صحّته، ورثّت ثيابه، وصار أشبه بالمتشرّدين، ولكنّ كبرياءه كان يتعقّد ويتضخّم حتّى انقلب وقاحة وسفاهة. وكنّا مجتمعين مرّة بالفيشاوي فإذا به يضحك عاليًا ويستغرق في الضحك، فسألته عمّا يضحكه، فقال:

- تصوّر أن أموت أنا قبل «الكلب»..؟

فقلت باسمًا:

- هٰذا محتمل ومتوقّع أيضًا!

فلعنني وقال:

- إنّي على استعداد لأن أعبد الله إذا أخذ روحه...

ثمّ مستدركًا:

- على أيّ حال ليس لديّ ما أشكوه ما دمت أجد الجوزة في آخر النهار!

وكان أيضًا قابعًا في الفيشاوي - ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ - عندما جاءه رسول من شقيقه ينعي إليه والده ويدعوه إلى القصر. كان مسطولًا فلم يفهم من المرّة الأولى، ولمّا أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنّحًا، فحملق في الجدار المطعّم بالأرابيسك، وسرح في غيابات لا يدريها أحد، ثمّ غادر المكان دون أن يلقي تحيّة وراءه. واستقبله أخوه - رئيس محكمة كان - وقال له:

- البقيّة في حياتك.

ومضى به إلى الداخل وهو يقول:

- ما كان كان، وهٰذه ساعة مقدّسة تُنسى فيها الأحقاد...

حتّى أوصله إلى مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول:

- ادخل فودّع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعًا.

وتسلّل عدلي إلى الحجرة - كما حكى لنا فيما بعد - ووقف وحده عند رأس الجثمان المسجّى، ثمّ أزاح الغطاء عنه قليلًا حتّى انكشف وجهه المطوّق، ونظر إليه مليًّا، ثمّ غمغم:

- إلى الجحيم يا قذر!

وأكثر من صوت قال:

- مستحيل... مستحيل...

فنظر إليهم باحتقار لضعفهم وتمتم:

- كم وددت أن أمثّل بجثّته!

بعضنا لم يصدّق كلمة ممّا حكى والبعض آمن بكلّ حرف وخمّن أنّه ربّما فعل أكثر ممّا قال. على أيّ حال ابتسمت له الدنيا بعد عبوس. وقد ترك الباشا أملاكًا منها أرض وعقار وأموال سائلة، وكان نصيب عدلي عمارتين يدرّان دخلًا صافيًا قدره ألف جنيه في الشهر، بالإضافة إلى أربعين ألفًا من الجنيهات. وقال كثيرون من أصدقائه:

- لقد كانت أعوام التشرّد درسًا أريدَ به أن يعرف قيمة القرش فيحسن معاملته!

والتفّ حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المأتم واستبقوا إلى تخطيط صورة للمستقبل السعيد:

- من حسن الحظّ أنّ مطالبك في الحياة معقولة وأنّه

بوسعك أن تعيش ملكًا حتّى آخر يوم في حياتك.

ـ وفّر لنفسك مسكنًا جميلًا، واعرض نفسك على طبيب كبير، واحمد ربّك أنّك لم تغوَ القمار، الطعامُ أمره هيّن، ومزاجك في النسوان متواضع، ولم نسمع عن أنّ الحشيش خرب بيت أحد، فمبارك عليك رزقك الحلال!

وصاح بهم:

ـ كفّوا عن النصائح عليكم اللعنة!

كان يمقت النصح ويعدّه تعاليًا مرذولًا ولكنّه بدا ثملًا بالفرح والسعادة، وبات ليلتها في فندق سميراميس، وأقام به حتّى يدبّر أموره، ونشط نشاطًا غير معهود فاستأجر شقّة على النيل بخمسين جنيهًا شهريًّا. ومضى يؤثّثها بأفخر الأثاث، وقد ذهلنا ـ نحن البسطاء ـ عندما علمنا بأنّ تأثيثها تكلّف عشرين ألفًا من الجنيهات، وأعجب ما أذهلنا فيها كان حجرة شرقيّة، أقام بها بارًا أمريكيًّا وغرزة مُوّهت أدواتها بالذهب والفضّة، كما ابتاع سيّارة كاديلاك، وكان مجموع ما أنفقه على ذلك ـ بالإضافة إلى الملابس ـ ثلاثين ألفًا. كان مبلغًا خياليًّا، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه من حرمان طويل، وقالوا أيضًا إنّ التأسيس عادة يتكلّف أضعاف أضعاف ما تتكلّفه الحياة اليوميّة. ولكنّ الحجرة الشرقيّة شهدت سهرات ليليّة جمعت الأصدقاء والطفيليّين وغانيات الملاهي الليليّة وبعض الفنّانين والفنّانات، وجرت الخمر وانتشر الدخان الأزرق وجيء بموائد الطعام من نادي السيّارات، وراح يخطر بين الضيوف رافلًا في الحرير محاطًا بالإجلال والإكبار. وما لبث أن تطايرت العشر الآلاف جنيه فلم يبقَ إلّا دخل العمارتين، وقال المتفائلون أنْ آن أوان الانضباط وستسير الحياة سيرتها المتّزنة المعقولة، ولكنّه كان اعتادَ عادة الإسراف وتقمّص روح ليالي ألف ليلة وليلة، وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملاهي كان يمارس العشق الحقيقيّ مع بنات الهوى المتواضعات، ومع بيّاعة فول سودانيّ فلّاحة من المتردّدات على مقهى الفيشاوي، ولذلك لم يوفّق إلى التوازن أبدًا، واضطرّ إلى بيع إحدى العمارتين رغم توسّلات الأصدقاء، ثمّ ألحق بها الأخرى، وتجلّى في أثناء ذلك سعيدًا مجنونًا فوق الحذر والماضي والمستقبل. وما جاء عام ١٩٥٠ حتّى كان قد باع شقّته ورجع للإقامة في فندق سميراميس، ثمّ باع السيّارة، وبدا المستقبل واضح المعالم. وأذكر أنّني تدارست حاله مع الصديق رضا حمادة فقلت له:

ـ أهو مجنون؟

فأجاب:

ـ لا يخلو من جنون.

ـ إنّه لا يشعر بالغد.

ـ أو إنّه مستغرق في لحظته الراهنة.

ـ أكاد ـ وسط همومنا التي تثقلنا ـ أحسده!

فضحك عاليًا، وقال:

ـ على الحياة أن تكون جدًّا أو فلتذهب إلى الشيطان!

وعندما نفد حسابه غادر سميراميس. واجه الحياة مرّة أخرى وهو لا يملك مليّمًا ولا أمل له من وراء وفاة أحد. ولم يكن بلا خطّة. شرب زجاجتي ويسكي وبلع ربع أوقية حشيش وهام على وجهه. وعُثر عليه صباح اليوم التالي جثّة هامدة على شاطئ النيل.

عزمي شاكر

تعرّفت به في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم عام ١٩٦٠، وقد قلت له من فوري:

ـ أذكر أنّي رأيتك في زيارة للأستاذ عبّاس فوزي في أثناء الحرب العظمى الثانية...

فقال:

ـ لم أقابله من مدّة طويلة، وبالمناسبة كيف تفسّر تحوّله إلى تأليف الكتب الدينيّة، أكان عن عقيدة حقًّا؟

فأجبت بحذر:

ـ أنت تعلم أنّه كان دائمًا من المهتمّين بالتراث!

وكان عزمي شاكر يوم تعرّفت به في الأربعين، وقد جذبني بذكائه وثقافته وصراحته، وأشعرني تمامًا بأنّه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجدّ، ويلتمسون السبل إلى الأمل. وكان دكتور في التاريخ من فرنسا، ومتزوّجًا من مدرّسة دكتورة في العلوم.

وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه، وقال لي عنه:

ـ إنّه كان تلميذًا وفديًّا ولكنّه اهتمّ من بادئ الأمر بالمشكلات الاجتماعيّة، ويعترف بأنّ قلمي كان له الأثر الأوّل في توجيهه. . .

ولمّا حادثت عزمي شاكر في ذٰلك قال لي:

ـ لم تكن وفديّتي قويّة كالحال في جيلكم، وتخلّصت منها تمامًا قبيل الثورة، ولكنّي بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفديّ اليساري، وعُددت منذ ذٰلك الوقت من الشيوعيّين وعُرفت بذٰلك في أوساطهم. . .

وقال لي أيضًا:

ـ ولمّا قامت ثورة يوليو استقبلتها بترحاب وحذر معًا، أعجبت بإلغائها للنظام الملكيّ وبتحقيقها للجلاء، ولم أعجب كثيرًا بإصلاحها الزراعيّ، وسرعان ما اعتبرتها انقلابًا قُصد به الإصلاح وتفادي الثورة الحقيقيّة. . .

وبسبب موقفه فُصل من هيئة التدريس الجامعيّة، ثمّ اعتُقل أعوامًا، ثمّ أُفرج عنه فعمل في الصحافة. وعكف على الكتابة في الموضوعات التي تتيح له التعبير بإخلاص عن آرائه فآثر الكتابة في الشئون الخارجيّة أو التاريخيّة أحيانًا. وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكيّة تغيّر موقفه تغيّرًا ذاتيًّا وجذريًّا وعن إخلاص حقيقيّ. كان قد انضمّ إلى أصدقائنا، وكان يجتمع بنا في مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم. وذات يوم قال لي:

ـ الثورة هي أنسب حركة تاريخيّة لوطننا في ظرفه الراهن.

فقلت له:

ـ إذن غيّرت رأيك؟

ـ أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن نؤيّدها بكلّ قوانا!

وآمنت بصدقه، ولم أجد ما يدعو إلى التشكيك فيه، ثمّ إنّني من المؤمنين بإخلاصه. ومن يومها وهو دائب على تأييد الثورة بقلبه وقلمه، في سرّه وعلانيته، ولم يُفهم موقفه على حقيقته في أوساط زملائه.

وأذكر أنّ عجلان ثابت قال لي عنه:

ـ إنّه وغد لا أكثر ولا أقلّ، ومهما خطر في لباس قدّيس!

فقلت له:

ـ إنّي أعتقد بإخلاصه، لا يداخلني شكّ في ذٰلك.

فقال ساخرًا:

ـ إنّ أقواله تبرّر تردّدك، هٰذا كلّ ما هنالك!

وسنحت فرصة لرجوعه إلى الجامعة ولٰكنّه آثر الجهاد في ميدان الصحافة. ومن المهمّ أن أسجّل أنّه لم يكن مؤيّدًا أعمًى أو متعاميًا، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التي تُرتكب. وكثيرًا ما كان يردّد:

ـ ممّا يؤسف له أنّ الثورة لم تعتمد على الثوريّين الحقيقيّين، فخلقت منهم أعداء حينًا، أو وضعتهم تحت المراقبة حينًا آخر.

وقال مرّة بحزن شديد:

ـ إنّ الفساد ينتشر كالوباء، لا نملك إلّا التحذير، وحتّى ذٰلك لا يتيسّر لنا إلّا فيما ندر.

وثبت لي أنّه من الشيوعيّين المتجدّدين، الذين يتطلّعون دائمًا إلى الحرّيّة، الذين يعتقدون أنّ الحرّيّة تعاني مأساة مريرة، ولكنّه لم يهوّن أبدًا من شأن النقلة التاريخيّة التي وثبها الوطن، وكان يتعلّق بالمستقبل المضيء كلّما ألحّت عليه عثرات الحاضر. ولمّا عرّفته بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعًا ما يقرّب بينهما من وجهات النظر فتوثّقت العلاقة بينهما. ولمّا قُبض على الشيوعيّين حزن حزنًا عميقًا، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير، ولكنّه قال:

ـ إنّه التعصّب، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع!

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما علم بأنّهم تبرّأوا من الحزب الشيوعيّ، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة، وقال:

ـ ها هم يرجعون إلى موقفي الذي اتُّهمت به عندهم!

فقال الدكتور صادق عبد الحميد:

ـ وفي ظروف مختلفة تمامًا!

وتولّوا مناصب رئيسيّة في الدولة والصحافة تاركين إيّاه ـ نسبيًّا ـ في القاع، فلم تخلُ نفسه من امتعاض، وأفلت منه ذٰلك القول مرّة:

ـ أخشى أن يكتشف الكتّاب يومًا أنّ اللامعقول

أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضًا!

ولم يعد يجد في الصحافة الراحة النفسيّة التي نعم بها طويلًا، فطلب العودة إلى التدريس بالجامعة، وسرعان ما حُقّقت له رغبته. ولمّا وقعت الواقعة - هزيمة يونيه ١٩٦٧ - تزلزل كيانه كالجميع، وشدّته إليها موجة النقد العاتية فغطس فيها وقبّ، ولكنّه لم يكتب كلمة في الموضوع بالرغم من أنّه كان يكتب نظرات أسبوعيّة في مجلّة سياسيّة. وأشهد بأنّه كان من أوائل مَن ثابوا إلى التوازن بل لعلّه كان أوّلهم، ففي أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذي حلّل به الهزيمة، فاعتبرها درسًا، وحذّر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكّد في النهاية حقيقة ما زال يؤمن بها وهي أنّ الثورة هي الأرض الحقيقيّة المتنازَع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنّها هي التي يجب أن تبقى وأن تستمرّ. وفي الأعوام التي تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع «من الهزيمة نبدأ»، وهو دستور لحياة جديدة تشقّ طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة، وقد شهدته وهو يعمل في وحدته بالاتّحاد الاشتراكيّ بهمّة مذهلة، كما استمعت إليه في التلفزيون مرارًا. وهو من القلّة التي لم تُصَب بانقسام الشخصيّة، فهو هو سواء تكلّم على الملأ أم في مجالسه الشخصيّة. وإشادتي به كانت بلا شكّ من أسباب إغضاب كثيرين ممّن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر. ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوّه مرّة بكتاب «من الهزيمة نبدأ» فقال ببرود:

- طالما احترمته ولكنّه لم يعد إلّا المعادل الموضوعيّ المدنيّ!

أمّا ثابت عجلان فسمّى الكتاب «من الانتهازيّة نبدأ»، وجعل يضحك ويقول:

- حسبنا أن يكون لنا من الكتّاب جاد أبو العلا وعزمي شاكر، يا بلد الاحتفال بالإسراء والمعراج في عصر الهبوط على سطح القمر!

ولكنّ الدكتور عزمي ما زال ثابتًا في إيمانه وصدقه ونشاطه.

عزيزة عبده

عندما قدّمني لها الدكتور زهير كامل في صالونه لم أكن أسمع باسمها لأوّل مرّة، لعلّي اطّلعت عليه في مجلّة أو جريدة. كانت بصحبة زوجها، سمراء أنيقة القسمات خفيفة الروح، قدّرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا إنّها في الأربعين، وكان ذلك في عام ١٩٦٠، وهي وزوجها - في الخمسين - فنّانان تشكيليّان، وقد دعياني إلى مسكنهما في مدينة الأوقاف فاطّلعت على معرضهما الدائم، ودهشت وأنا أتنقّل بين لوحات واقعيّة في زمن ندرت فيه الواقعيّة وطغى التجريد، بل كانت واقعيّة ذات أهداف واضحة، وقلت مداعبًا:

- أخيرًا أظفر بفنّ رجعيّ!

ولكنّها قالت باحتجاج عذب:

- أمامك فنّ تقدّميّ، بل الفنّ التقدّميّ الوحيد!

ونشأت بيني وبينها مودّة عميقة، وكما أقنعتني بفنّها أقنعتني بأمومتها الصادقة لابنين، ولكنّها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذي لا يحبّ الارتباط، والذي يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان. وكانت مثقّفة جدًّا، وتُعتبر هي وزوجها من ذوي الميول اليساريّة، ولكنّها كانت تُشعرني دائمًا بقوّتها بخلاف زوجها الرقيق، القشّة التي تتلاعب بها أخفّ الرياح. واصطحبت معي الأستاذ يوسف بدران محرّر إحدى الصحف الفنّيّة إلى بيتها بناء على اقتراح منها، فلاحظتُ أنّهما تفاهما تفاهمًا روحيًّا عجيبًا وسريعًا، وأنّهما تبادلا احترامًا ومودّة.

وذهبت يومًا لزيارة يوسف بدران في شقّته بشارع قصر العيني، وجلسنا نتحادث وأنفاسه تتردّد على وجهي معبقة برائحة الخمر، وما لبث أن فُتح باب حجرة النوم فخرجت منه عزيزة عبده مرتدية إحدى بيجاماته! . دهشت وارتبكت ولكنّي واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت بعدم المبالاة. وشجّعتني على موقفي بضحكاتها العذبة وحديثها الطبيعيّ، وكانت أنفاسها تنفث أيضًا شذا الخمر.

وتكلّمنا في شئون كثيرة أمّا وجودها في الشقّة بالحال

التي وجدت عليها فمضى دون ضوء أو تفسير كأنّه حقيقة مسلَّم بها. وقال لي يوسف بدران فيما بعد:

ـ هٰكذا وقع الحبّ علينا من السماء!

فقلت له:

ـ أنت تحبّ الغزل!

ـ ولكنّها كانت البادئة...

فرميته بنظرة شكّ فقال:

ـ صدّقني، وسيطرتها أقوى من جمالها...

ـ تحبّها؟

ـ هي تحبّني وفي ذٰلك ما يكفي.

ـ وأنت؟

ـ هي كنز لا يُستهان به ولكنّها لا تعكس الأسلوب الذي أعشقه!

ـ وزوجها؟

ـ لا أهمّيّة له في الموضوع!

والتقيت بها بعد ذٰلك في صالون جاد أبو العلاء، وكانت وحدها إذ كان زوجها في الإسكندريّة، فطلبتْ منّي أن أوصلها إلى بيتها، وسرنا معًا في الطريق فإذا بها تقول:

ـ أنا حريصة على صداقتك.

فقلت بصدق:

ـ وأنا حريص على صداقتك.

ـ ولا صداقة بلا احترام.

ـ وإنّي أحترمك.

ـ أكاد أقرأ في نفسك تساؤلات محيّرة...

ـ لست قليل الخبرة كما قد تظنّين.

ـ ولكن قد يبدو لك زوجان شاذّين لنظرتها المغايرة للدنيا والحرّيّة؟

ـ لا أظنّ...

ـ أنا لم ولن أمارس الخيانة!

ـ لا تسيئي الظنّ بفهمي يا عزيزتي...

وحدّثتني عن ماضيها فقالت إنّها التحقت بالمدرسة الثانويّة وهي مزوّدة بإرشادات أمّها الطيّبة المردّدة لصوت الجيل السابق، ولكنّها سلّمت نفسها لأوّل شابّ بادلها الحبّ وهي تظنّه سيفي بوعوده، ثمّ كرّرت ذٰلك مرارًا، بدافع الثورة حينًا وبدافع اللهو حينًا آخر وبدافع الحبّ في بعض الأحوال.

ـ وكنت أشعر بالخوف أحيانًا ولكنّي لم أشعر بالندم قطّ...

وتوقّفتْ عن السير متأثّرة ثمّ قالت:

ـ أصبحت سيّدة نفسي، وتحدّيت العالم كلّه، بكلّ قيمه التي لم أعد أومن بها...

وواصلنا السير وهي تقول:

ـ وآمنت دائمًا بأنّني نقيّة مثل الأوكسيجين.

ولّما حمّ الافتراق شدّت على يدي وهي تقول:

ـ نحن أمل المستقبل الحقيقيّ!

وبعد سنوات مِن تعارُفنا اعتُقل زوجها فيمن اعتُقل من الشيوعيّين، فحزنتُ حزنًا عميقًا شاملًا، ونهضتْ بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين جديد. وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد وسيلة للاطمئنان عليها إلّا التليفون. وسألت يوسف بدران عنها فقال لي:

ـ عِلْمي عِلمك...

فسألته بدهشة:

ـ ألا تتقابلان كالعادة؟

ـ قطعتِ العلاقة مذ اعتُقل الرجل.

ـ حقًّا؟

ـ إنّها غريبة الأطوار ولكنّي غير آسف.

انقطعت عنها فلم أعد أتذكّرها إلّا لمناسبة. وزرتها بعد ذٰلك بسنوات ـ بعد الإفراج عن زوجها ـ للتهنئة. كان ابناها طالبين في الجامعة وكانت ابنتها في السادسة. ودبّ النشاط في حياتها مرّة أخرى ولكنّها لم تصل ما انقطع من أسبابها بيوسف بدران الذي تزوّج في تلك الفترة من مهاجرة فلسطينيّة مثقّفة. ويومًا كنت ويوسف في زيارة للجبهة الشرقيّة ضمن مجموعة من المواطنين، وجاء ذكر عزيزة فسألني:

ـ أرأيت ابنتها الصغيرة؟

فقلت:

ـ نعم، وهي جميلة جدًّا!

فهمس في أذني بهدوء:

ـ إنّها ابنتي!

فقلت بذهول:

- كلّا!

- هي الحقيقة!

ثمّ قال:

- حاولت إقناع عزيزة بإجهاض نفسها ولٰكنّها رفضت...

- متى كان ذٰلك؟

- في الأيّام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل.

- ولِمَ رفضتْ؟

فصمت قليلًا ثمّ قال:

- قالت لي لقد أحببتك حبًّا لم أحبّه أحدًا من قبل وسأحتفظ بثمرته!

- رغم أنّها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله!

- وزوجها هل يعلم؟

- لا أدري...

وتفكّرت قليلًا ثمّ قلت:

- الحق أنّ البنت تشبهك!

- أجل، ولذٰلك أحرص على تجنّب رؤيتها!

وبحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أوّل نجاح حقيقيّ في حياتها الفنّيّة بنجاح معرضها، واعتُرِف بها كفنّانة مصريّة أصيلة...

عشماوي جلال

يقع بيته في شارعنا عند طرفه الشرقيّ المتّصل بشارع العبّاسيّة، وهو بيت رماديّ اللون، مكوّن من طابقين، وحديقة شبه مهملة لم يبقَ من زرعها إلّا ياسمينة ونخلتان وشجرة مانجو شامخة. وكلّما مررت به ألقيت عليه نظرة مشحونة بحبّ الاستطلاع والنفور كحال سكّان شارعنا جميعًا. وأنا جديد طارئ على الحيّ، وفي فترة التعارف والاستكشاف، أشار صديق - لعلّه رضا حمادة - إلى البيت وسأل:

- أتعرف بيت مَن هٰذا؟

فأجبت بالنفي طبعًا فقال:

- بيت عشماوي بك جلال!

وسرحت لحظة كالمذهول ثمّ هتفت:

- عشماوي بك جلال؟!

- بنفسه ودون غيره!

- قاتل الطلبة؟

- قاتل الطلبة!

- وهل ترونه؟

- لا يعلم أحد بمكانه، لا هو ولا أهله، يخافون جمعيّة الكفّ السوداء، ولٰكن هٰذا هو بيته...

- أكانوا يقيمون هنا؟

- نعم.

- ومتى هجروا البيت؟

- مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين...

اقترن اسم عشماوي جلال بالرعب في وجداني منذ طفولتي. كان ضابطًا كبيرًا بلواء الفرسان بالجيش المصريّ، واستحقّ بجدارة أن يوصف بأنّه العدوّ الأوّل لثورة ١٩١٩ في الجيش المصريّ. وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنّه يقتل بلا رحمة، ويعذّب ضحاياه فيربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيّته يسحل خلفه مرتطمًا بالحصى والأسفلت حتّى تفيض روحه. ولـمّا تولّى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أحاله إلى المعاش، فتسلّل عائدًا إلى بيته المهجور بشارعنا، وقبع فيه لا يبرحه كأنّه سجن. وددت كثيرًا أن أراه ولو مرّة، أجلت البصر في النوافذ والشرفات والحديقة، لمحت زوجته وابنتيه ولٰكنّي لم أره أبدًا. وكان اختفاؤه مثار الأحاديث، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر في نافذة ولا يتمشّى في الحديقة، وتعرض المناسبات في الشارع فلا يزور ولا يجامل، فكيف يمضي وقته، وكيف يطيق سجنه، قال جعفر خليل:

- إنّه ينفرد بنفسه لأنّه لا صديق له.

وقال رضا حمادة:

- إنّه يخاف انتقام الشعب...

وقال سرور عبد الباقي:

- يقال إنّه فقد البصر وعجز عن الحركة وإنّه يتكتّم ذٰلك حتّى لا يشمت الناس به.

وكان له ابن وابنتان، فأرسل ابنه إلى إنجلترا ليباشر دراسته الثانويّة خوفًا عليه من انتقام الطلبة في القاهرة، وسمعنا فيما بعد أنّه التحق بكلّيّة الطبّ في لندن ثمّ عمل هناك طبيبًا وتزوّج وتجنّس بالجنسيّة

الإنجليزيّة. وأمّا البنتان فكانتا تلعبان في حديقة البيت، وكانتا وسيمتين جذّابتين فعجبت كيف ينجب الوحش مثلهما، ولّما حُجبتا ـ عن الشباب ـ كان عزفهما على البيان يترامى إلينا في الشارع، فعجبت مرّة أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان، وحوالي عام ١٩٣٥ تزوّجتا من عريسين مجهولين، ولم يعد في البيت إلّا الرجل وزوجته، ثمّ شاع في الحيّ أنّه هجر بيته تاركًا زوجته وحدها، وقيل ـ وأكّدت زوجته ذٰلك ـ إنّه أقام في الأسرة في الحجرة المعدّة لاستقبال زوّار المقبرة في المواسم وإنّه أوصى بأن يُدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال، وكانت زوجته جميلة وطيّبة، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته إلى المدفن، فزارت الجيران، واكتسبت ودّهنّ بيسر، وأصبح لها مكانة مرموقة في الحيّ، وكلّ ما عُرف عن الرجل الوحش عدا ذٰلك فمرجعه إلى رجال الجيل السابق من قدامى سكّان الحيّ، قالوا عنه إنّه كان غلامًا منطويًا على نفسه، ولٰكنّه كان مهذّبًا، ورغم اجتهاده فشل في دراسته حتّى اضطرّ أبوه ـ وكان ناظر وقف صغير ـ إلى إلحاقه بالمدرسة الحربيّة وهو ساقط ابتدائيّة، متشفّعًا بصداقته لهربرت باشا ناظر المدرسة في ذٰلك الوقت. ولدى تخرّجه عمل في السودان. فأثبت في الخدمة كفاءة حازت تقدير الإنجليز وخدمت سياستهم الموضوعة بحذق في جباية الضرائب بقسوة لتنفير المواطن السودانيّ من الضابط المصريّ، ومن ثمّ نشأت بينه وبين الضبّاط الإنجليز صداقة حميمة. وكان عشماوي جلال يعجب بالإنجليز إعجابًا فاق الحدود، ويحبّهم حبًّا عظيمًا ويتيه بصداقتهم ويعتدّها عزّته الأولى في الحياة. وكان يمضي إجازته السنويّة في إنجلترا سائحًا ومستطلعًا حتّى آمن بأنّ الإنجليز هم سادة البشر وأنّهم المبعوثون من العناية الإلٰهيّة لتمدين البشر وخاصّة المتأخّرين منهم كالمصريّين. وأخبرني رضا حمادة أنّه بسبب آرائه تلك احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يومًا حتّى تبادلا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودّة والجيرة.

ولّما قامت ثورة ١٩١٩ دُعِيَ الجيش المصريّ لمساعدة جيش الاحتلال في قمع الثورة والقضاء على الثوّار، ولٰكنّه لم يحز الثقة أبدًا، وافتضح تعاطفه مع الثورة، وولاؤه لزعيمها، بل وتصدّيه جهارًا للدفاع عنه عندما تآمر أعداؤه على الغدر به، ولٰكن شذّ عن ذٰلك عشماوي جلال باندفاعه الجنونيّ في الهجوم على الثوّار والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حتّى فاق الإنجليز أنفسهم في عنفهم وقسوتهم، وحتّى احتلّ في قلوبهم منزلة لم يحتلّها مصريّ من قبل. وأبغضه مواطنوه حتّى الموت، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأنّ إخلاصه كان وقفًا على سادته الإنجليز لا عليه، وبُذلت محاولات لقتله لم تكلّل بالنجاح، وإن أصابته شظيّة قنبلة وطنيّة إصابة سطحيّة في ساقه. ولم يكترث الرجل لموقف الشعب منه، وتمادى في ضلاله كأنّما كان يؤدّي فريضة دينيّة. وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها إنّ والدها طالبه يومًا بالاعتدال وإنّه قال له:

ـ قم بواجبك بلا تورُّط في الأعمال المتطرّفة...

فقال له:

ـ إنّي لا أقوم بواجبي كضابط فحسب، ولٰكنّي أدافع عن مبدإ، فإنّي أعتقد أنّ استقلال مصر عن إنجلترا سيؤدّي بها إلى الانحلال والفساد، وأنّنا إذا خرجنا من الأمبراطوريّة خرجنا من الحضارة!.

وتوفّيت زوجته بالسكتة قبيل الحرب العظمى الثانية فدُفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد في حجرة استقبال المدفن. ولحق بها في العام الأوّل من الحرب بعد أن تمكّن منه تليّف الكبد، ومن العجيب أنّ اسمه لم يُمحَ من ذاكرة جيلنا حتّى اليوم، وأنّ الكثيرين ما زالوا يحفظون الأغنية الشعبيّة التي وُضعت بقصد التشهير به.

عصام الحملاوي

كان بيت آل الحملاوي يطلّ على شارعنا بضلع كما يطلّ على بين الجناين بضلع آخر. وهو أكبر بيوت الشارع، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات، ويتراءى من فوق أسواره العالية رءوس النخيل والمانجو بكثرة مذهلة. وكان ربّه عصام بك

من الأعيان والمضاربين في البورصة، وكانت أسرته تتكوّن من زوجة وثلاث بنات. وكان الحنطور يحمله في الذهاب والإياب معلنًا برنين جرسه عن تحرّكاته. ولم تكن الأسرة تنتسب إلى زماننا، ولا ألوانها البرّاقة تنتمي إلى جنسنا، وهي وحدة كانت مستقلّة بذاتها، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران، فلا تزور ولا تزار، ولا تتّبع تقليدًا، ولا تحترم موسمًا، وإذا خرجت الأمّ وبناتها ـ راكبات أو راجلات ـ خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراتهنّ العاجيّة وشعورهنّ الذهبيّة وعيونهنّ الملوّنة. وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا إلى بيته ممثّلة مشهورة، وعندما مضت تتردّد عليه في أيّام محدّدة. وسرعان ما عُرف أنّه اتّخذها عشيقة. بل نشرت مجلّة الفنّ أنّه أهدى إليها عقدًا ثمنه عشرة آلاف جنيه. وكنّا نتجمّع في الشارع لنشهد مقدمها واستقبالها ونسعد بذٰلك حتّى قال جعفر خليل:

ـ نحن نشاهدها بالمجّان أمّا بقيّة المسرحيّة فلا يمكن تخيّلها!

وتساءل خليل زكي:

ـ كيف يتصرّف البك القوّاد أمام زوجته وبناته؟

فقال سيّد شعير:

ـ يتصرّف أمامهنّ كما يتصرّفن أمامه!

وكان بيت سيّد شعير أقرب بيوتنا إلى بيت آل الحملاوي، وكان آل الحملاوي يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى، فجاءنا يومًا وهو يقول:

ـ انكشف الغطاء!

والتففنا حوله متلهّفين فقال:

ـ الهانم تعشق محمّد الكوّاء!

ـ محمّد الكوّاء!

كنّا نعرفه تمامًا فهو كوّاء الشارع، وإلى ذٰلك كان فتوّة كما كان أعور، ولم نتصوّر أنّ الهانم الجميلة التي كنّا نشبّهها بماي موراي يمكن أن تعشق ذٰلك الأعور ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح. وقال سيّد شعير:

ـ وهي تذهب إلى بيته متخفّية في الملاءة اللفّ، رأيتها بعينيّ!

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكوّاء يحمل الملابس بنفسه ويذهب بها إلى البيت فلا يغادره إلّا بعد ساعة أو ساعتين. وحدث أن اصطحب عصام بك الممثّلة إلى رحلة خارج القطر فكان الكوّاء يتردّد على البيت لمناسبة ولغير ما مناسبة، ومضى يبيت فيه جهارًا وبلا حذر. وفي أثناء ذٰلك كان البنات الثلاث يخرجن معًا إلى أطراف العبّاسيّة الشرقيّة فيقابلن المعجبين، أو يستقبلنهم مساء في حديقة البيت، ورأيت بين أولٰئك عيد منصور وشعراوي الفحّام وقريبي أحمد قدري وضابط قسم الوايلي وطبيب أسنان الحيّ ومدرّس فرنسيّ!. وتوهّمنا أنّ واجب الرجولة يطالبنا بالتحرّش بالبيت وبالمتردّدين عليه ولو بالقذف بالطوب من بعيد لصغر سنّنا ولضعفنا ولٰكنّ شرطيًّا انبرى لحماية البيت، ربّما بإيعاز من ضابط القسم العاشق. وكنت إذ ذاك غارقًا في حبّ صفاء فغضبت أضعافًا على سلوك بنات عصام، واعتبرته زراية وتلويثًا لأسمى عاطفة في الوجود. ولٰكن بدءًا من عام ١٩٣٠ حدث ما خيّب تقديرات أهل الحيّ جميعًا. فقد تزوّجت البنات الثلاث تباعًا، وفزن بزيجات ممتازة!. تزوّجت الكبرى من مهندس، والوسطى من سكرتير وزير، والصغرى من محامٍ ناجح. والأعجب من ذٰلك أنّهنّ قاطعن حياة بيتهنّ مقاطعة شاملة فكوّنّ أسرًا كانت مثالًا في التوفيق والاستقامة!. وفي الخمسينيّات وما بعدها صادفت بعضًا من أبنائهنّ من الشباب الموفّق الناجح، ومنهم مَن عُرف بالوعي السياسيّ التقدّميّ. وقد توفّي عصام بك في أيّام الحرب العظمى الثانية، في نفس الأسبوع الذي قُتل فيه شعراوي الفحّام. ووُزّعت التركة فورثت الهانم دخلًا كبيرًا، وكانت في الخمسين من عمرها ولٰكنّ حيويّتها فاقت سنّها، كما احتفظت من جمالها بقدر موفور. ومكثت في البيت وحدها، وأصبح من النادر أن تزورها إحدى بناتها، وذهبنا في تفسير ذٰلك مذاهب لا تخلو من سوء. والواقع أنّ علاقتها بالكوّاء كانت وما تزال مستمرّة، ولٰكن بدا أنّ الرجل أراد التخلّص منها، حتّى إنّه صفعها مرّة أمام دكّانه وعلى مرأى من بعض الخدم وهي تحاوره بما لم يسمعه أحد. ولم تمضِ أسابيع حتّى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصّاب، حتّى قال

جعفر خليل ضاحكًا:

ـ الوليّة أرستقراطيّة ولٰكنّها ذات ميول شعبيّة!

وفي أواخر أيّام الحرب باعت البيت وغادرت الحيّ. ولٰكنّها لم تغب عن ناظريّ طويلًا، إذ كانت تُرى جالسة في مقهى اللواء أو جروبي أو الأرجنتين، تشرب كأسًا، ثمّ تمضي وقد اصطادت شابًّا، حتّى اشتهرت بذٰلك في وسط المدينة. ورأيتها في أثنيوس بالإسكندريّة تلعب نفس اللعبة. وتغيب فترة ـ طويلة أو قصيرة ـ ثمّ تظهر مرّة أخرى في نفس الأمكنة لتلعب نفس الدور، هٰذا والكبر يزحف والذبول يستفحل والفخامة تقلّ ممّا قطع بأنّ نقودها تنفد مثل أيّامها. وكلّما رأيتها من جديد أدركت أنّها تتدهور وتقترب من النهاية المحتومة. لم تعد إلّا عجوزًا معدمة أو شبه ذٰلك، وسارع إليها الانحلال والتفسّخ. وامتنعت عن الذهاب إلى تلك الأماكن الفاخرة أو اضطرّت إلى ذٰلك، فقنعت بالتجوال في الشوارع في ملابس رثّة ممزّقة، ثمّ لم تعد تظهر إلّا في جلباب وشبشب، وانتهى بها الأمر إلى التسوّل أو ما هو قريب من ذٰلك. لم أرها تمدّ يدًا ولٰكنّ بعض أصحاب المطاعم الصغيرة ممّن وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدّقون عليها بالسندوتش أو ببعض النقود. وما زلت كلّما لمحتها أستشعر رجعًا من الأسى وأستقبل فيضًا من ذكريات الشارع القديم بالصورة التي كان عليها على عهد الفوانيس المدلّاة من أعالي الأبواب والحقول المترامية والهدوء الشامل، تلك المرأة التي راحت ضحيّة لنهم جنونيّ بالحياة. والتي يسعى من حولها أحفادها الناجحون وهم على جهل تامّ بأشجانها ووحدتها...

عيد منصور

من مجموعتنا العتيدة، صادقها وصادقته، واتّصلت بيننا الأسباب على مدى العمر، ولٰكنّه كان وما زال الصديق بلا صداقة. وكان وما زال بلا قلب، حتّى خليل زكي له قلب وحتّى سيّد شعير له قلب، أمّا عيد منصور فلا قلب له. وكان يعيش مع أبيه وخادم عجوز ولا رابع لهم، أمّا أمّه فماتت عقب إنجابه مباشرة. وكان أبوه تاجر عمارات، عمل مع اليهود طويلًا، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم. وكان عجوزًا فقد أنجبه وهو في الخمسين ولم يتزوّج مرّة أخرى بعد وفاة زوجته فكان عيد وحيده، وكان بخيلًا، دقيقًا، فظًّا، جامد المشاعر فربّى ابنه تربية شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة، مصمّمًا على إخراجه على نمطه، فلم يعرف صديقنا المعاملة العاطفيّة ولا جرّب الحنان أو الرحمة، كأنّما كان يتكوّن في معسكر لإعداد الإرهابيّين. لذٰلك تجلّت مواهبه منذ سنّ مبكّرة، فنشأ عمليًّا، صارمًا، ذا عقل نفعيّ، وبلا قلب، وما زال كذٰلك حتّى اليوم والغد. ومنذ الصغر اتّخذ من القرش معبودًا ومقياسًا للرجولة والتفوّق، ولم يتّسع قلبه إلّا لذٰلك المعبود الأوحد. وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة، صديق بحكم الجوار والزمالة واللعب وعشرة العمر ولٰكن بلا عاطفة ولا مودّة ولا حبّ حقيقيّ، يضحك للكارثة كما تضحك للنكتة، فلم يعانِ أيّ تأثّر لموت شعراوي الفحّام ولا لموت جعفر خليل، ويوم قُتل زميلنا بدر الزيادي في الإضراب لم يكن يخفي ارتياحه لخلوّ الميدان من منافسه في رئاسة فريق الكرة، ولـمّا شعر يومها بعينيّ تحرقانه عضّ على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية فقلت له:

ـ أنت شيطان!

فهمس في أذني:

ـ ربّما يسمع منك!

ثمّ بمزيد من السخرية:

ـ لا فرق بيني وبينكم إلّا أنّني صادق غير منافق!

واعتاد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة تقاليدنا وديننا وأشواقنا، بحكم تربيته ومزاجه وبلا دخل من تفكير أو فلسفة، وبلا دافع من الفساد والشقاوة كما كان الحال مع خليل زكي وسيّد شعير، فلم تحتشد قواه إلّا للعمل والربح، وحدهما، حتّى الجنس وهو الترفيه الوحيد الذي مارسه لم يشغل إلّا هامش وقت فراغه. وما إن حصل على البكالوريا عام ١٩٣٠ حتّى أشركه أبوه في العمل، وظلّ يدرّبه حتّى مات عام ١٩٣٥ مخلّفًا عليه ثروة طائلة. ورغم

مغامراته في حديقة بيت آل الحملاوي فلا أعتقد أنّه تعلّق بامرأة مثلما تعلّق بثريّا رأفت، رآها وهو يعمل مع والده فاندفع في إغرائها، وقد قال لي:

ـ مرّ بي وقت وقعت فيه تمامًا تحت سيطرتها ولو تمنّعت عليّ تمامًا حتّى النهاية لربّما. . .

وسكت فسألته:

ـ لربّما تزوّجتها؟

ـ على الأقلّ كنت فكّرت في ذلك. . .

فسألته:

ـ ألم تحزن أو تخجل من الغدر بها؟

فقال وهو يضحك:

ـ لا أظنّ. . .

لم يعرف الحبّ، ولا رغب في الزواج، ولا حنّ إلى الأبوّة، وحتّى اليوم وهو في الستّين أو جاوزها بقليل ما زال يعمل بنفس الهمّة ويجمع المال بنفس النهم ولم يعرف للحياة غاية أخرى. وكنت أضيق به إذا سخر من عواطفنا الوطنيّة كما ضقت به يوم سخر من بكائي لوفاة سعد زغلول، ولكنّه كان يستهين بكلّ ذلك ويقول:

ـ لولا الإنجليز، لولا اليهود، ما كان لهذا البلد حياة!

وظلّ يردّد ذلك حتّى آخر يوم للإنجليز في مصر. ومع أنّه كان بخيلًا كأبيه إلّا أنّه استنّ لنفسه سنّة جديدة في البخل، فقرّر ألّا ينفق مليّمًا لغير ما ضرورة بشرط أن يهيّئ لنفسه حياة رغدة.

ـ أنا أعزب وسأظلّ أعزب وبلا وريث فيجب أن أتمتّع بحياتي. . .

طالما احتقر الزواج واعتبره عجزًا وغباء، ويبدو أنّه لا يندم على قرار اتّخذه أبدًا، وكلّما تقدّم به العمر نعم برضاه عن نفسه وعن قراراته. ومنذ عام ١٩٣٦ غادر حيّنا بعد أن باع البيت، وأقام في فندق مينا هاوس إقامة دائمة مفضّلًا الفندق لما يوفّره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم المسكن المستقلّ المتنوّعة، وفي الوقت نفسه استأجر بيتًا ريفيًا في الهرم لمغامراته النسائيّة المتقطّعة، إذ لم يكن يحبّ العلاقات الطويلة ويفضّل غواني الملاهي الليليّة من الأجانب، ولم يضنّ على نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تامّ في الخمور ونفور طبيعيّ من المخدّرات. وكان يقضي لياليه في سمر تجاريّ مع العاملين معه في حقل تجارة العمارات ولكنّه لم ينقطع عنّا في ليالي سهراتنا الأسبوعيّة. وكان يهمّه أن يقارن بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا أمثال الدكتور سرور عبد الباقي والأستاذ رضا حمادة، ولم يخفِ إدلاله بالتفوّق عليهما في الثروة التي يعتبرها القيمة الأولى والأخيرة في الحياة. . وقد داعبته يومًا قائلًا:

ـ ها هو خليل زكي يناقشك في النجاح والثروة!

فقال باحتجاج:

ـ إنّه قذر حقير.

فسألته:

ـ أتعتبر نشاطك الماليّ نشاطًا شريفًا؟

فقال بصراحة معهودة فيه:

ـ الشرف تتغيّر معانيه من بيئة لأخرى، قد أقوم بصفقة تُعتبر في نظرك نهبًا ولكنّنا نعتبرها خبرة وذكاء ولكنّي أحتقر أساليب خليل زكي التي تُعَدّ من خبرة الفقراء!

وأحبّته غانية إفرنجيّة، ومضت تراسله، فكان يقرأ علينا رسائلها ساخرًا ويقول:

ـ هكذا تتوهّم المرأة أنّها تحبّ إذا رغبت في الاستحواذ على رجل وامتلاكه!

وتجلّت عواطفه العامّة في أبشع صورة يوم نشبت الحرب بيننا وبين اليهود عام ١٩٤٨، حتّى خُيّل إليّ أنّه يكره وطنه لأسباب لا أدريها، أو أنّ مصالحه التجاريّة أفسدت عليه الميول التي نعتبرها فطريّة، وتكرّر ذلك الموقف منه عام ١٩٥١ لدى إلغاء المعاهدة وكفاح القنال، ولذلك كان يكره الوفد بالرغم من لامبالاته السياسيّة بصفة عامّة، على أنّ حياته واصلت مسيرها في استقرار حتّى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. ومع أنّ الثورة لم تقتحمه بصفة عامّة إلّا أنّها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته. توالت عليه الهموم بإلغاء النظام الملكيّ وإعلان الإصلاح الزراعيّ والجلاء. توثّبت في أعماقه غريزة الدفاع عن النفس، وأدرك ـ وإن لم يكن هدفًا مباشرًا ـ أنّه ضمن الجبهة التي تهبّ عليها العواصف وأنّها قد تقتلعه عاجلًا أو آجلًا. وهيّأ له الاعتداء

الثلاثيّ عمليّة نقل دم ولٰكن سرعان ما انطفأت شعلة الأمل، واختفى من الميدان كثيرون من أصدقائه اليهود حتّى قال لي يومًا:

ـ كم أتمنّى أن أهرّب أموالي وأهاجر!

ولّما قرأ الوجوم في وجهي قال:

ـ لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكياء!

ثمّ ضحك ضحكته القاسية وقال:

ـ لو لم أكن مصريًّا لتمنّيت أن أكون مصريًّا.

وتابع نشاطه بنفس القوّة بالرغم من مخاوفه، واستردّ أنفاسه في يونيه ١٩٦٧، ومع أنّه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذهول إلّا أنّه لم يفقد الأمل هٰذه المرّة، وقال لي بشماتة:

ـ لا مفرّ!

وقال أيضًا:

ـ طبعًا سمعت عن صحوة الموت!

ومرّت أشهر، وعام وعامان وثلاثة أعوام، وتحسّنت الأحوال، وصلبت الإرادة، وتجدّدت آمال النضال، ولٰكنّ ذٰلك لم يهزمه وإن أقلقه أحيانًا، واعتصم بفكرته الثابتة، وغذّاها بمتابعة الإذاعات المعادية، والإشاعات المغرضة، ولّما وجد منّي ومن رضا حمادة اتّهامًا لوطنيّته قال:

ـ لا وطن بعد اليوم إلّا وطن المصالح، فإمّا أن تكون أمريكيًّا وإمّا أن تكون سوفييتيًّا، إمّا أن تقبل الحرّيّة والإرادة الخلّاقة والإنسانيّة وإمّا أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكيّة!

فقدَ الأمل في الإنجليز، وأصبح حلمه الذهبيّ أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدّد له مدارًا حضاريًّا في مجالها الحيويّ يلعب فيه العرب واليهود دورًا متكاملًا.

هٰكذا علّمته المصلحة أن يتكلّم في السياسة، وما زال يعمل، يشيّد العمارات ويبيعها، يقيم في مينا هاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة، ويمارس الجنس كلّ شهر مرّة، ويزورنا في أوقات محدّدة تحيّة لعِشرة نصف قرن، صداقة بلا حبّ حقيقيّ ولا احترام، نراه مخلوقًا شاذًّا قُدّ من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقيّة. . .

غانم حافظ

كان مدرّس الرياضيّات في المدرسة الثانويّة، وكان وقتها شابًّا، عُرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ في معاملته عن حدود الأدب، حتّى الذين عُرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزيادي وعيد منصور. طلبه عيد منصور مرّة لدرس خصوصيّ بعد أن أقنع أباه بأنّ أجرة الدرس الخصوصيّ أرحم من مصروفات سنة إعادة. وقابل غانم أفندي حافظ والد عيد فسأله الرجل عمّا يطلب فطلب ريالًا في الساعة ولٰكنّ الرجل فزع وقال إنّه لا يدفع أكثر من شلن، فابتسم غانم أفندي حياء واقترح أن يعطيه الدرس مجّانًا بشرط أن يحضره مع تلميذ آخر في نفس الحيّ، وقد كان. وتلقّى عيد منصور درسًا خصوصيًّا في الحساب مجّانًا طيلة شهرين! وقد رأيته وهو يبكي يوم مصرع بدر الزيادي، وكان جزاؤه منّا حبًّا واحترامًا. وبعد التحاقي بالجامعة عرفته عن كثب في مقهى الحيّ، فتحوّلت التلمذة إلى صداقة. وكان أهمّ ما يميّزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة الملبس، كان يجالسنا في يوم واحد في الأسبوع ـ وخاصّة في العطلة الصيفيّة ـ يدخّن النارجيلة، يصغي في أدب ومجاملة وقليلًا ما يتكلّم. وكان يعالج شتّى الموضوعات في إطار طبعه الهادئ، ومهما يكن من عنف الموضوع وشدّة حرارته فإنّه يتحوّل على لسانه همسًا عذبًا تحيطه هالة باسمة. لم يُرَ غاضبًا أو محتدًّا أو صارخًا، حتّى السياسة كان يترجمها حديثًا جذّابًا لطيفًا غاية في الوداعة ولو هوجم حزبه المحبوب الوفد. وإذا تصدّى للدفاع قال:

ـ إنّهم ناس طيّبون!

أو يقول:

ـ مصطفى النحّاس؟. . إنّه رجل طيّب مبارك!

وأقسى ما يذهب إليه في الدفاع أن يقول:

ـ سامحك الله!

واقتصر نشاطه السياسيّ على ذٰلك، وعلى التوجّه يوم الانتخاب ـ إذا تقرّر إجراء انتخابات حرّة ـ إلى اللجنة لإعطاء صوته لمرشّح الوفد. ولذٰلك لم يشترك

في ثورة ١٩١٩ إلّا بقلبه وحده. وكان جمّ التواضع، لا يخجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقته، فحدّثني مرّة عن أصله قائلًا:

ـ كان أبي شرطيًّا. . .

ثمّ قال:

ـ وكان همّه أن يجعل منّي شرطيًّا غير أنّ جارًا لنا ـ تاجرًا ـ نصحه بإدخالي المدرسة الابتدائيّة، ففعل، ونجحت نجاحًا استحققت عليه المجّانيّة حتّى نلت البكالوريا، ولم أجد مدرسة ميسّرة أمامي إلّا المعلّمين فدخلتها!.

وتزوّج من كريمة مدرّس اللغة العربيّة وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائيّة.

ـ وكانت أسرة زوجتي على تواضعها أرقى من أسرتي فصادفتني متاعب مؤسفة. . .

ثمّ قال بشيء من الحزن وفي صراحة مؤثّرة:

ـ كان الموقف يتطلّب شخصًا أصلب منّي!، ولكنّ زوجتي أنجبت لي ثلاثة ذكورا

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه في المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك إلّا لعمل، ومرّت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع في عشّه يراقب الأحداث من بعيد، يناقشها بهدوء ويعلّق عليها برقّة، مركّزًا على تربية أولاده الثلاثة حتّى تخرّج بكريّه ضابطًا في سلاح الفرسان، والأوسط مهندسًا ثمّ التحق بالجيش، والثالث بيطارًا. وقد نجا ابناه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره، وواصل عمله حتّى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠، وهو يتمتّع بصحّة جيّدة وحياة زوجيّة سعيدة. ولمّا احتشدت قوّاتنا في سينا في أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء، وراح يسأل كلّ من هبّ ودبّ:

ـ حرب أو لا؟

ووقعت الواقعة، وانحسر الظلام عن شيء من النور، فرجع الابن الأوسط مصابًا إصابة غير قاتلة، أمّا بكريّه فاعتُبر من المفقودين، وهزّته الصدمة من الأعماق، وتبدّد هدوؤه التقليديّ فانهار انهيارًا يدعو للرثاء، وكان يحبّ أبناءه كأمّ، ورفض أن يصدّق أنّ ابنه قُتل، وظلّ يحلم دائمًا بمعجزة تعيده إليه سالمًا. وما لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشفاء فعاد إلى الجبهة، وبقي الرجل ممزّقًا بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل، وهو يتابع أنباء الجبهة ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم، ترجفه أخبار الغارات في الأرض والسماء، ويخذله إيمانه رغم رسوخه، ويزلزله حبّه العميق لأولاده، وأراه أحيانًا شيخًا عجوزًا محنيّ الظهر قليلًا أبيض الشعر، يجلس شارد النظرة، يفكّر في المجهول، لا يبشّر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة، فأحتار طويلًا بين العتب عليه والرثاء له، ثمّ أنضمّ إليه مواسيًا، ثمّ نتبادل التخمينات عن الغيب.

فايزة نصّار

تعرّفت بها في بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالى عام ١٩٦٠ كما تعرّفت بزوجها في نفس الزيارة. كانت في الثلاثين. لوجهها طابع ريفيّ رائق بالرغم من أناقتها العصريّة. وهي وإن تكن متوسّطة الجمال إلّا أنّها ذات جاذبيّة جنسيّة قويّة، أمّا زوجها ـ عبده إبراهيم ـ فصاحب جراج في الخمسين، بدين مترهّل خامل المظهر، يشترك في الحديث بالنظرة أو الابتسامة البلهاء ولا يكاد يتكلّم.

قال لي عجلان:

ـ إنّها جارتنا في نفس العمارة وصديقة زوجتي.

فقلت:

ـ زوجها غير مقنع!

ـ ولكنّه ذو دخل محترم، أنجب منها طفلين، وهي أمّ لا بأس بها وإن تكن أمّيّة!

ـ تبدو ذكيّة. . .

ـ في الأصل كانت ابنة بيّاعة جبن وزبدة، ولكنّ استعدادها للتأقلم قويّ، وهي تتقدّم بفضل الإذاعة والتلفزيون والصديقات. . .

وفي زيارة تالية لبيت عجلان ثابت قابلت فايزة نصّار وكانت بصحبة رجل أربعينيّ حادّ البصر قويّ الجسم. علمت أنّه يدعى جلال مرسي وأنّه صاحب كازينو الهرم. وقال لي عجلان ثابت باستهتاره المعروف:

ـ في المرّة السابقة عرفت زوج فايزة وها أنت تعرف في هٰذه المرّة عشيقها!

وضجّت الحجرة بالضحك، زوجة عجلان وفايزة وجلال صاحب الكازينو، وقال جلال:

ـ لا تصدّق!

فسألته فايزة بنبرة وعيد:

ـ هل تنكرني؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لي:

ـ صدّق يا سيّدي...

قال عجلان ثابت:

ـ وهو صديق الزوج!

ودعتني فايزة لزيارة بيتها فتوطّدت العلاقة بيني من ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى. وذهبت في صحبتها مرّات إلى كازينو الوادي فكان ينضمّ إلى مائدتنا جلال مرسي، ولمست مدى عمق العلاقة بينه وبين الزوجين. ولم أقطع برأيي في مدى معرفة الزوج بالعلاقة بين زوجته وعشيقها، وحتّى عجلان ثابت لم يعلم أكثر ممّا أعلم، ولكنّه قال لي:

ـ تعوّد على هٰذه العلاقات حتّى تبرأ من عبوديّتك البرجوازيّة.

ومرّة وكنّا مجتمعين في بيت عجلان أنا وعجلان وزوجته وفايزة. فأشار إليّ دون تمهيد وبلا مناسبة وقال لفايزة:

ـ إنّه يعاني من عشقه لك!

وانتقلت إلى جانبي بخفّة وطوّقت عنقي بذراعها السمراء البضّة وقالت:

ـ أرني!

فقال عجلان ضاحكًا:

ـ بهوادة حتّى لا يفزع.

فقالت:

ـ ولكن تحت شرط.

وسألها عن الشرط فقالت:

ـ ليلة واحدة...

ثمّ وهي تنظر في عينيّ:

ـ المرأة الفاضلة يكفيها زوج وعشيق واحد!

هٰكذا كانت في مزاحها، ولكنّها ـ فيما علمت ـ كانت تحبّ جلال حبًّا حقيقيًّا. وكانت في الوقت نفسه تحرص على نقاء بيتها وتربية طفليها تربية حقيقيّة، وقال لي عجلان:

ـ إنّ ما يتعبها حقيقة هو طموحها، فبالرغم من أمّيّتها تحلم بأن تكون شيئًا عظيمًا!

فتساءلت:

ـ لعلّه المال!

ـ حياتها رغدة، ولكنّها تحبّ المال، وشيئًا أكثر من المال...

ـ أيّ شيء؟

ـ الفنّ إن صدق تخميني!

ثمّ قال لي:

ـ كُلّفت أن أدعوك لزيارتهم معي...

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال:

ـ يبدو أنّه أمر هامّ، وسنعرفه في الحال.

وجدنا فايزة وزوجها وعشيقها فسلّمنا وجلسنا ونحن نشعر بأنّ توتّرًا ما يكهرب الجوّ والوجوه، وسرعان ما قالت فايزة:

ـ المسألة وما فيها أنّ أحد المخرجين عرض عليّ دورًا هامًّا في فيلمه القادم!

ونظرت في وجوهنا وقالت:

ـ ما رأيكم؟

ولمّا رأيت عينيها تطاردانني قلت:

ـ المسألة تتعلّق بك وبالسيّد عبده أوّلًا وأخيرًا.

فقال عبده إبراهيم وهو يرفع وجهه ليجد الكلام ممرًّا خلال لغده:

ـ سيّدات العائلات يمثّلن في هٰذه الأيّام...

ولٰكنّ جلال مرسي تساءل:

ـ أودّ أن أعرف كيف ومتى رآك، ذٰلك المخرج؟

فأجاب الزوج:

ـ رآنا ونحن عندك ليلة في الكازينو...

ـ وهل تجلّت له موهبتها من النظرة الأولى؟

ـ هٰذا شأنه لا شأننا.

فقال جلال:

ـ كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذٰلك الميدان.

فسألته فايزة وهي تبدو سعيدة رغم التوتّر العامّ:

- لِـمَ؟

- لم تظهري فيما سبق أيّ اهتمام بالفنّ.

- لم توجد مناسبة.

- إنّه لا يولد فجاة ولا لمجرّد أنّ مخرجًا اقترحه...

- بل هٰكذا يولد.

فقال الزوج:

- أظنّ ذٰلك.

فقال جلال بحدّة:

- إنّهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله.

فقال عجلان ثابت:

- لوجه الفنّ.

فقال جلال:

- ولا لوجه الفنّ!

فقالت فايزة:

- لست قاصرًا!

وقال الزوج:

- إنّها أهل للثقة.

فقال جلال بإصرار:

- كصديق مخلص لكما لا أوافق.

فقال الزوج:

- هٰذه فرصة لا يجوز إهمالها...

ووافق عجلان على رأيه كما وافقتُ أنا وكأنّما كانت مؤامرة بلا تدبير سابق، وقام جلال مرسي فحيّانا ومضى وهو يقول:

- قلت رأيي وأنا مصرّ عليه.

وقال عجلان بخبث:

- عليك أن تقابل المخرج في أسرع وقت...

وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له:

- عبده إبراهيم بكلّ شيء يعلم!

فضحك عاليًا وقال:

- وانتهز الفرصة فوجّه إلى غريمه ضربة موفّقة.

- ولٰكنّها ماذا ستفعل فيما ترى؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- إن صحّ ظنّي فطموحها أقوى من عشقها!

وصدق ظنّه. قامت بتمثيل الدور. وكانت مفاجأة فنّيّة لا يُستهان بها، ودُعيت إلى تمثيل دورين جديدين.

وهجرها جلال فلم تسعَ لاسترداده. وما لبث زوجها أن طلّقها بحجّة حماية بيته وطفليه من الجوّ الفنّيّ الذي أخذ يغزو بيته، ودلّ بقراره ذٰلك على أنّ خموله لم يكن إلّا قشرة تخفي وراءها حقدًا طويلًا. وانتقلت فايزة إلى شقّة صغيرة وأنيقة بالزمالك. وقد زرتها يومًا بصحبة عجلان فالتقيت عندها بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقته الصحفيّة نعمات عارف زوجة الدكتور زهير كامل التي تخصّصت أخيرًا في النقد الفنّيّ، ووجدت فايزة مرحة كعادتها، وسعيدة بالنجاح، حتّى قال لي عجلان ونحن راجعان معًا:

- محتمل أن تحنّ أحيانًا إلى طفليها ولٰكنّها ليست بالتي تنهار بسبب ذٰلك، أعترف لك بأنّني أسعد بنجاح أيّ فلّاح أو فلّاحة، مهما يكن ثمن ذٰلك النجاح!

فتحي أنيس

لفت نظري مذ رأيته في أوّل يوم التحقت فيه بالوظيفة. حسبته موظّفًا كبيرًا أو سليل أسرة عتيقة، وكم دهشت عندما تبيّن لي أنّه كاتب القيد بالسكرتاريّة. كان في الثلاثين من عمره، شهادة ابتدائيّة، مرتّب ثمانية جنيهات، متزوّجًا وأبًا لخمسة أبناء، ولٰكنّه كان طويلًا رشيقًا عظيم القسمات، حتّى قال لي الأستاذ عبّاس فوزي:

- انظر إلى عبث الطبيعة، جادت عليه بمنظر يليق بموظّف استقبال بالخارجيّة ولٰكنّها ضنّت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس.

وكان يقول عنه أيضًا:

- إنّه حيّ لا يرزق!

وكان مسئولًا عن أمّ وأختين مطلّقتين، فاستقبل أيّام الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال. ولم يكن نادرًا أن يقترب من عبّاس فوزي أو عبد الرحمٰن شعبان ويقول ببساطة:

- من يعطيني قرشًا أشتري به سندوتش فول وله الجزاء الأوفى في يوم القيامة؟

وكان إذا لمح أحدًا من الأهالي في الممشى الخارجيّ بادر إليه فيسأله إن كان في حاجة إلى خدمة يؤدّيها له عن طيب خاطر. وفي الختام يسأله بلا حياء:

ـ هل أجد عندك سيجارة؟

وعطف الأستاذ عبد الرحمٰن شعبان عليه يومًا فقال للأستاذ عبّاس فوزي:

ـ حال فتحي تستحقّ النظر.

فصدّق الرجل على قوله وقال:

ـ العين بصيرة واليد قصيرة!

فقال عبد الرحمٰن:

ـ أسعفوه بوظيفة يمكن أن تدرّ عليه رشوة!

فقال عبّاس فوزي باسمًا:

ـ يوجد فرص في المستخدمين والحسابات والمخازن والمشتريات ولٰكنّه بدون مؤهّلات...

فقال عبد الرحمٰن في شبه غضب:

ـ يوجد مديرون بالابتدائيّة.

ـ أعني بالمؤهّل الوساطة ويبدو أنّ أعظم مَن يعرف في الحياة هو عمّ صقر الساعي!

واهتدى إلى وسيلة يستغلّ بها منظره في مقاومة الجوع، فكان يتقدّم إلى أسرةٍ ما كخاطب، ليقابَل بالترحيب من ناحية المبدإ حتّى تتمّ الاستعلامات عنه، وفي الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار يزور الأسرة فيستقبله ربّ البيت، ويتعمّد البقاء حتّى وقت الغداء أو العشاء، ولّما يُدعى للمائدة يلبّي وهو يقول:

ـ لا يأبى الكرامة إلّا لئيم.

ثمّ يأكل بوحشيّة وكأنّما يخزن الطعام ليجترّه بقيّة الأيّام. ويجيء نتيجة الاستعلامات في غير صالحه طبعًا فيعتذرون من عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع أكلات خياليّة. ويواصل غزواته في أحياء المدينة حتّى تسرّبت أنباؤها إلى الموظّفين فجعلوا منه نادرة تُروى. وما ندري يومًا إلّا وهو يدخل علينا مرتديًا جلبابًا! وكان الأستاذ طنطاوي إسماعيل ما زال رئيسًا للسكرتاريّة فاستدعاه وسأله:

ـ ما معنى ذٰلك يا فتحي أفندي؟

فقال ببساطة:

ـ البدلة استُهلكت تمامًا، قلّبتها منذ ثلاثة أعوام فلم يعد بها رمق، ولا أستطيع أن أشتري زرارًا!

فقال الرجل في حيرة:

ـ ولٰكنّ ذٰلك يخالف التعليمات!

فقال بثقة:

ـ لا نصّ في التعليمات على ذٰلك!

وتداولنا إن كان ذٰلك يجوز أو لا يجوز دون أن نهتدي إلى علاج. وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير الوفديّ الجديد بزيارة تفتيشيّة. ولّما رآه الوزير ظنّه ساعيًا فقال له:

ـ ألم يصرفوا لك بدلة السعاة؟

فأجاب بإيمان:

ـ أنا موظّف يا معالي الباشا، ولٰكنّي لا أملك ثمن بدلة جديدة!

فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتّبه وعدد أولاده الذين بلغوا التسعة عدًّا في ذُلك التاريخ، ثمّ سأله ضاحكًا:

ـ أليس لك هواية إلّا الإنجاب؟

فقال فتحي بجرأته المعهودة:

ـ أنا من شعب الوفد ولن أضام في عهدكم!

وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيّتين، ثمّ أدركته علاوة الغلاء التي تقرّرت لأوّل مرّة، فاشترى بدلة ولٰكنّ حاله لم تتحسّن إلّا قليلًا. وذات صباح همس لي عمّ صقر وهو يقدّم لي القهوة:

ـ أخيرًا وُفّق ابن الشحّاذة!

فسألته:

ـ فتحي أنيس؟

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ سيتزوّج من أرملة غنيّة جدًّا...

ـ حقًّا؟.. وجميلة؟

فضحك قائلًا:

ـ عمرها ستّون عامًا، وهي في الجملة كالمومياء!

وصحّ الخبر كجميع أخبار عمّ صقر. وتزوّج فتحي من أرملة عجوز تركيّة مستحقّة في وقف كبير، وقيل إنّه تزوّج بموافقة زوجته الأولى إيثارًا لسعادة الأولاد على نفسها. وتغيّر حاله بصورة ملموسة، وظهرت

عليه النعمة في ملبسه وصحّته ورونقه، ورغم كلّ شيء أثار حسد الكثيرين، وكان عبّاس فوزي يتهكّم به فيسأله:

- كيف طاوعتك نفسك على معاشرة مومياء؟

فيجيبه بصراحته وبساطته:

- عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كئوس من الويسكي فإنّه يستطيع أن يعاشر عزرائيل نفسه!

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفّيت زوجته الجديدة مخلّفة عليه ثروة طائلة، ولم يفلح في إخفاء أفراحه حتّى في الأيّام الأولى للحدث، واستقال من وظيفته، وفكّر في إنشاء عمل حرّ، حتّى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير في التوفيقيّة. وتحمّل خسائر عام أو عامين حتّى يتقن مهنته الجديدة، ثمّ نجح المشروع نجاحًا منعدم النظير، وانقطعت أخباره عنّي بطبيعة الحال حتّى بعثها من الظلمات عمّ صقر عقب خروجه من السجن فحدّثني عن ثرائه الفاحش، وما ملك من عمارات، وعن معيشته الحاليّة في قصره بالهرم، وعن نجاح أبنائه في المدارس والكلّيّات وقد بلغ عددهم اثني عشر ولدًا. أخبرني كذلك بأنّه أبقى على زوجه الأولى ولكنّه اتّخذ من راقصة إيطاليّة عشيقة له. قال عمّ صقر:

- إنّه اليوم في السادسة والستّين من عمره، ولكنّه قويّ مهيب كرجل في عزّ شبابه، ويرافق راقصة إيطاليّة فهل سمعت عن عاشق في مثل هذه السنّ؟ ولكنّه الحظّ، ألف ليلة وليلة، وكلّ ما عداه باطل...

قدري رزق

كان يتردّد على شقّة عدلي بركات الفاخرة في أوائل عام ١٩٤٨، وكان في الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل، وطالما جالسنا ببدلته الرسميّة كضابط في سلاح الفرسان، فيضفي على المجلس من روحه مرحًا وصفاء. وبدا قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامّة ولولا محاولة بُذلت لاغتيال مصطفى النحّاس ما فطنتُ إلى أنّه ينطوي على ميول وفديّة، ورثها غالبًا عن أبيه الذي كان عضوًا بالهيئة الوفديّة.

وكان ممشوق القوام أسمر واضح الملامح جذّابها ذا شارب غليظ لا يني يغازله في إعجاب وارتياح، وفي جلسات الأنس التي اشتهر بها مسكن عدلي بركات شهدت له غزوات موفّقة مع فنّانات كثيرات. وفي أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا في شقّة عدلي بركات وقد زايله المرح ووشت حاله عمومًا بامتعاض وقرف. وكنّا - أنا ورضا حمادة - في غاية من الحزن، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعلّه يروي غلّتنا أو يبدّد من أفكارنا بعض الظلمات، ولكنّه لم يمسّ التفاصيل وقال بإيجاز:

- لقد ضحّى بالجيش بطريقة دنيئة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله...

وهزّ رأسه بضيق وقال:

- لا يمكن أن يمرّ ذلك بلا ثمن!

فقلت ببراءة:

- لكنّنا لم نهزم، الفالوجة نصر مبين.

فقال بحدّة:

- بل هزمنا، وحوصرنا بين عدوّين، عدوّ في الخارج وعدوّ في الداخل.

واستجابت نفسي لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبًا معها، وقال رضا حمادة:

- كلّ ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلّيّة الذي مكّن لطغيان الملك.

فقال قدري رزق:

- ونتيجة أيضًا لضعف الوفد الذي عجز عن تحقيق الإرادة الشعبيّة...

فاستاء رضا حمادة وقال:

- الوفد اعتمد دائمًا على ثوريّة الشعب ولكنّ الشعب تخلّى عن ثوريّته!

فقال قدري رزق الذي لم أره من قبل على تلك الدرجة من السخط:

- الوفد هو المسئول عن تخلّي الشعب عن ثوريّته!

وتوثّقت علاقته بنا في تلك الأيّام، وتعدّدت لقاءاتنا بشقّة عدلي بركات. وشهدنا معًا تدهوره حتّى انتحاره، ولكنّه لم ينقطع عنّا فكان يجتمع بنا في بيت

رضا حمادة أو في مقهى الفيشاوي، ورجع إلى طبيعته الأصليّة فقلّ اهتمامه بالسياسة والشئون العامّة، وعاوده المرح والمجون والتفرّغ لغزو الحِسان. ولّما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنّه كان ضمن مجموعة الضبّاط الأحرار فعجبنا لقدرته الخارقة على الكتمان. وقد سهر معنا عشيّة الثورة في مقهى الفيشاوي، وجلس كعادته يضاحكنا ويسامرنا، وعدت معه قبيل منتصف الليل إلى العبّاسيّة مشيًا على الأقدام من طريق الجبل، ثمّ ملت أنا إلى العبّاسيّة الغربيّة وواصل هو سيره شمالًا إلى مسكنه بشارع أحمد ماهر كما ظننت، أمّا الحقيقة فإنّه لم يذهب ليلتها إلى بيته ولكنّه مضى صوب منشيّة البكري ليقود قوّة صغيرة إلى احتلال مفترق طرق!. وغيّبته الأحداث عنّا فترة غير قصيرة طُرد في أثنائها الملك، ثمّ رجع إلينا وقد رُقّي إلى رتبة جديدة. وتتابعت التطوّرات الهامّة مثل الإصلاح الزراعيّ والجلاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعيّ في بيت رضا حمادة قبل اعتقاله، واستمرّ التلاقي بعد ذلك في بيتي أو بيته أو في مقهى الفيشاوي، وطيلة تلك المدّة لم يخرج حديثنا عن السياسة التي لم يعد له من حديث غيرها. ولم يكن بيننا خلاف جدّيّ، استطاعت الثورة أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا في لحظة تاريخيّة أسطوريّة باهرة. وقال قدري رزق:

ـ اندثرت القوى الجهنّميّة التي كانت تعوق تقدّم الشعب مثل الملك والإنجليز والحكّام الفاسدون ورجع الأمر إلى أبناء الشعب الحقيقيّين، فهو حكم الشعب للشعب لخير الشعب، انتهى الفساد والانحلال وسينطلق تيّار الإصلاح والتقدّم إلى الأبد...

وقلنا إنّه آن للحلم أن يتحقّق، وأن ينعم بالحرّيّة والرقيّ والعدل ذلك الشعب الذي عانى الظلم والاستعباد والفقر والغربة آلاف السنين. أجل ساءنا بعض الشيء التوثّب للقضاء على الوفد، وسأله رضا حمادة ـ قبل اعتقاله ـ أكثر من مرّة:

ـ أليس الأفضل أن تتّخذوا من الوفد قاعدة شعبيّة لكم؟

كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا، وخشينا أن تحلّ محلّ إنجلترا بطريقة أو بأخرى، بعدما شعرنا بمدى تأييدها للنظام الجديد، ولكنّ قدري رزق قال:

ـ الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم بفضل وطنيّة زعمائنا الجدد.

وحُلّت الأحزاب وضُرب على أيدي الإخوان والشيوعيّين، وكان قدري يتحمّس لكلّ إجراء بلا قيد ولا شرط، حتّى سألته مرّة:

ـ ولكن من أنتم؟

فضحك، وتفكّر مليًّا، ثمّ قال:

ـ نحن أصدقاء الوطنيّة والعروبة والثورة وأعداء الفساد والتعصّب والإلحاد!

وقال أيضًا بحماسه الطيّب:

ـ هدفنا تحرير الشعب ممّا يستعبده سواء أكان شخصًا أم طبقة، فقرًا أم مرضًا، ثمّ دفعه إلى المكان اللائق به تحت الشمس...

ونغّص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة في شخصه وابنه وزوجته، وشدّ ما تأثّر لذلك قدري رزق وحزن، ولكن هوّن من وقع المأساة القوّة التي لاقاها بها صديقنا الجلد الصبور القويّ. وكان قدري يعجب به ويقول عنه إنّه رجل ولا كلّ الرجال، ويتعجّب كيف أنّ رجلًا مثله ورجلًا مثل الدكتور زهير كامل ينبتان من أرض واحدة. وتتابعت أحداث مجيدة مثل الاتّجاه نحو الكتلة الشرقيّة للتسليح، ومثل تأميم قنال السويس الذي بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل، فشمل بذلك قدري رزق وشملنا. وقال لنا:

ـ أرأيتم؟. نحن مصريّون أوّلًا وأخيرًا، لا أمريكيّون ولا روسيّون!

وتزوّج قدري في تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة إقطاعيّة ممّن طُبّق عليهم قانون الإصلاح الزراعيّ، وكانت مفارقة تستدعي الملاحظة وتحتاج إلى تفسير، غير أنّه يمكن اعتبارها ظاهرة عاديّة إذا نُظر إليها من الناحية العاطفيّة البريئة، ولم يغب عنّي أنّ صديقي كان فخورًا بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثوريّته وإخلاصه وطيبته، وأمّا رضا حمادة فقال لي:

ـ إنّها طبقة تتطلّع إلى أن تحلّ مكان طبقة!

ثمّ كان الاعتداء الثلاثيّ وانقلابه على المعتدين ولكنّ صديقنا قدري رزق أصيب في ساقه وفقد عينه

اليسرى فاضطرّ إلى ترك الجيش، وعُيّن في وظيفة ثقافيّة كبيرة بوزارة الإرشاد. وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأوّل مرّة في حياته، فكان يعمل نهارًا ويدرس ليلًا، وأثبت أنّه عالي الهمّة في التحصيل والإدارة. وكان في إجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستُدعيَ من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكريّ فأصابه ما أصابه. ولّما أعلنت القوانين الاشتراكيّة بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكيّة بنفس الهمّة التي درس بها الثقافة، وكان على استعداد دائمًا للإيمان بما تدعو الثورة للإيمان به إذ إنّ إيمانه الحقيقيّ كان بالثورة، بالثورة وحدها. والحقّ أنّه كان وما زال برجوازيًّا في أخلاقه وآماله وأحلامه وتقاليده، ولكنّه كان وما زال برجوازيًّا ذا لسان اشتراكيّ، ولم يجئ ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع إخلاص حقيقيّ للثورة وما تنادي به، وإنّي لأعدّه من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم، كما كان من أشدّهم سخطًا على المستغلّين والمفسدين ممّن خانوا أمانة الثورة. ولّما حاقت بنا هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتّى خيّل إليّ أنّه يموت وهو حيّ، وتساءل فيما يشبه الهذيان:

ـ أيذهب ذلك التاريخ كلّه هباء؟!

ونظر في وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرّة أخرى:

ـ أنركع مرّة أخرى تحت أقدام الرجعيّين والاستعماريّين؟!

وكان يجاهد بعنف ليستردّ أنفاسه اللاهثة، وليخلق في الضياع أملًا جديدًا، وليحوّل الهزيمة إلى درس وعبرة. وكلّما مرّ يوم دون استسلام استردّ بعضًا من عافيته، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعلّه يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل. وما أشبهه في ذلك بالدكتور عزمي شاكر أو الدكتور صادق عبد الحميد، وكان يقول:

ـ ما تاريخ العرب الحديث إلّا سلسلة من الهزائم أمام الرجعيّة والاستعمار، ولكن ما يكاد اليأس يخيّم حتّى ينبثق من ظلماته نور جديد، وهكذا ذهب التتار والصليبيّون والإنجليز وبقي العرب!

وهو يريد للثورة أن تبقى، وأن تنتصر، مهما كان الثمن، كيلا تتعثّر النهضة في زمن لم يعد يسمح بالتخلّف يومًا واحدًا، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنّه لم يعد في إمكانه الاشتراك فيه. ويحزنه أن نتلقّى ضربة دون أن نردّها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذي نستكمل فيه استعدادنا للقتال. إنّه يعيش يومًا فيومًا بل ساعة فساعة في متابعة وقلق وترقّب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها. وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخريات عجلان الحادّة وانتقادات رضا حمادة المرّة فإنّ قدري رزق يُعتبر رجلًا محترمًا ومخلصًا من رجال ثورة يوليو، وقد يتعذّر تعريفه على ضوء المبادئ العالميّة ولكن يمكن تعريفه بدقّة على ضوء الميثاق، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعيّة إيمانه بالملكيّة الخاصّة والحوافز، ويؤمن بالاشتراكيّة العلميّة إيمانه بالدين، ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة العربيّة، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم، ويؤمن بالقاعدة الشعبيّة إيمانه بالحكم المطلق. وعندما يُقبل عليّ وهو يعرج ويطالعني بعينه الباقية ينبض قلبي بالمودّة والإكبار.

كامل رمزي

تعارفنا عام ١٩٦٥ في بيت الدكتور عزمي شاكر. كان حديث عهد بالحرّيّة بعد أن قضى في الاعتقال خمسة أعوام. وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين برّاقهما في الخمسين من عمره. دكتور في الاقتصاد وكان أستاذًا بكلّيّة التجارة حتّى تاريخ القبض عليه. قلت له:

ـ قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصاديّة وأشهد بأنّه أمتعني بقدر ما أفادني...

فشكرني وقال:

ـ كانت الحياة الجامعيّة تناسبني جدًّا!

وقال الدكتور عزمي شاكر:

ـ اتّهم خطأً بالنشاط العمليّ أمّا الحقيقة فهي أنّه أستاذ مفكّر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفي نفس الأسبوع الذي تعارفنا فيه وُلّي منصبًا كبيرًا، وقال لي عزمي شاكر للمناسبة:

ـ إنّه مثال في العلم والحزم والنزاهة.

وكان صديقًا لسالم جبر وزهير كامل، وعرّفته بدوري لرضا حمادة وقدري رزق والدكتور صادق عبد الحميد فنال احترامهم جميعًا ولكن لم يُغالِ أحد في حبّه! وقد أشعرني حديثه بالصدق والصراحة والعلم، وهو ممّن أتمّوا تعليمهم بإنجلترا، وذو اطّلاع شامل في الاجتماع والسياسة، وله قدرة فائقة في المناقشة والجدل. ويتكلّم إذا تكلّم بثقة وصراحة وقوّة. ولا يؤمن في شيء بالحلول الوسطى، ولا بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحدّ التعصّب، ولا يطيق المعارضة فهي تثير أعصابه وتخرجه عن الاتّزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضبًا بالحجج والأدلّة وكأنّه يخوض معركة حامية. وهو يشبه عبد الوهّاب إسماعيل في تعصّبه على تناقضهما في الأسلوب، حتّى قلت مرّة للدكتور عزمي شاكر:

ـ إنّه عالم ولٰكنّه ذو عقليّة دينيّة.

فقال:

ـ إنّه متعصّب بلا شكّ، ومشتعل في مناقشته، ولٰكنّ أعصابه لم تفسد بهٰذه الصورة إلّا بعد تجربة الاعتقال.

ويمزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهي دكتورة في الاقتصاد أيضًا ومدرّسة بكلّيّة التجارة ومثال مشرّف للمرأة المصريّة. وعرفت له أسلوبًا في الحياة يُعتبر غريبًا في عصرنا، فهو يميل إلى التقشّف في ملبسه، وطعامه الذي يشبه الرجيم، وإلى ذٰلك فهو لا يدخّن ولا يذوق الخمر. وقد قال لي مرّة:

ـ لم أعرف المرأة قبل الزواج، وقاومت جميع المغريات وأنا طالب في البعثة!

وأدهشني أن يصوم في رمضان رغم إيمانه الكامل بالمادّيّة الجدليّة وسألته:

ـ ما معنى ذٰلك؟

فضحك قائلًا:

ـ كان أبي عاملًا بسيطًا، وكان متديّنًا، فربّانا تربية دينيّة شاملة فنشأت في أحضان الأخلاق الإسلاميّة، ولم أستطع بعد ذٰلك التخلّي عنها إلّا فيما يناقض عقيدتي الجديدة، وكان الصيام فيما استبقيت من العادات القديمة فهو رياضة تناسب سلوكي تمامًا...

وتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ العظمة الحقيقيّة للدين لا تتجلّى إلّا عندما تعتبره لا دينًا!

وذكّرني في الحال بالحاجّ زهران حسّونة فذهلت للفارق الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان. وقلت له:

ـ لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة...

ـ المهمّ أن نعمل للمستقبل...

ـ وطبعًا أنت تؤمن بالشيوعيّة؟

ـ ذٰلك حقّ.

فسألته باسمًا:

ـ أتعتبر نفسك مخلصًا للثورة التي تعمل في جهازها؟

فقال بوضوح وقوّة:

ـ خُلقت لأعبد العمل وأخلص له...

ـ إنّي أسأل عن إخلاصك للثورة؟

فأخذ شهيقًا عميقًا كأنّه الترجمة الجسمانيّة لتفكيره وقال:

ـ لم أكن في يوم من الأيّام ذا وجهين، وما دمت قد قبلت العمل في جهازها فأنا مخلص لها...

فقلت باسمًا:

ـ هٰذا هو الجواب الذي أسأل عنه، ولٰكن ينقصه شيء ما!

ـ عظيم، أنا مخلص لها ولٰكنّي غير مؤمن بها، أو غير مؤمن بها إيمانًا كاملًا، حسبي في الوقت الراهن أنّها تمهّد السبيل إلى الثورة الحقيقيّة!

فأشرت إلى صديقنا الدكتور عزمي شاكر وقلت:

ـ ما أشبه موقفك بالموقف الذي اتّخذه هٰذا الرجل من بادئ الأمر...

فضحك، ورغم ضحكه قال بحدّة:

ـ لقد سلّم قبل المعركة أمّا نحن فسلّمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها.

ـ لعلّه كان أبعد نظرًا!

ـ اسمح لي في هٰذه الحال أن ألعن بُعْد النظر!

وكان عزمي شاكر كبير الإعجاب به، وكذلك رضا حمادة على تناقضهما في المبدإ، وكانت شخصيّة كامل رمـزي تغرينـا بتحليلها وتقييمهـا. ويومًـا قال رضـا حمادة:

ـ لقد تشفّعت به في نقل موظّف فأعطاني درسًا قاسيًا في فساد الوساطة، ومع أنّني استأت في نفسي إلّا أنّني ازددت إعجابًا به. . .

فقال عزمي شاكر:

ـ بل أوصاه وزيره بموظّف فاعتذر من عدم التنفيذ حرصًا على مبادئ العدالة!

فقلت بدهشة:

ـ وزيره نفسه؟

ـ أجل، إنّه خلق صلب غير قابل للثني، ولذلك أشكّ كثيرًا في إمكانيّة بقائه في منصبه!

فسأله رضا حمادة:

ـ هل يستغنون عن موظّف لاستقامته؟

ـ إنّ الأسباب التي تدعـو للاستغنـاء عن موظّف لاستقامته أكثر من الأسباب التي تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!

واعترف لي كامل رمزي نفسه بأنّ أحدًا في إدارته لا يحبّه بدءًا من الفرّاش حتّى الوزير، قال:

ـ لا أستطيع أن أهتمّ بعواطف الناس والمصلحة العامّة معًا، إنّ منصبي يحتاج لأُلْعُبان لا لموظّف أمين!

ثمّ قال بازدراء:

ـ نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

وضحك عاليًا وقال:

ـ لقد عبدنا مصطفى النحّاس يومًـا لا لشيء إلّا لنزاهته وصلابته في الحقّ وهما صفتان جديرتان بكلّ مـواطن عاديّ ولكن لنـدرتها جعلنـا منها دعـامتـين اساسيّتين لزعامة شعبيّة!

فسألته:

ـ هل عبدت مصطفى النحّاس يومًا؟

فقال بصراحته المعهودة:

ـ كنت وفديًّا، وعطفي على الوفد عاش طويلًا في نفسي حتّى بعد نضوب إيماني به. . .

وحملق في وجهي بعينيه البرّاقتين وقال:

ـ قل في الوفـد ما شئت ولكن لا تنس أنّـه كان حزبًا شعبيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وأنّه كان يغيّر سياسته أحيانًا إذعانًا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانويّة!

ثمّ حدّثني عن أحداث عام ١٩٣٥، وكيف ناقش مصـطفى النحّـاس ضمن وفـد من الـطلبـة، وكيف احتدّت المناقشة بين الطرفين، وكيف عدل الوفد عن تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن الثورة على لسان مكرم عبيـد، وكيف سالت الـدماء عقب ذلـك بـأقـلّ من ساعة!

ولم يعمّر كامل رمزي ـ كما تنبّأ عزمي شاكر ـ في وظيفته طويلًا. باشرها عامًا واحدًا حتّى ضـجّ جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسّسة صحفيّة.

ومن عجب أن عمّت الشماتة به أكثريّة الناس. ولم أدهش لذلك كثيرًا، وذكرت في الحال مأساة الأستاذ طنطاوي إسماعيل رئيس السكرتاريّة القديم كما ذكرت الدكتور سرور عبـد الباقي، وقلت لنفسي إنّ أمثـال أولئك الرجال يغلقون الأبواب في وجوه الـوصوليّـين والانتهـازيّين ومـا أكثرهم. كـما إنّهم بقوّة أخـلاقهم يفضحـون الضعفـاء أمـام أنفسهم فيمتلئـون حقـدًا عليهم. لـذلك لم أسمـع رثاء لـه إلّا بـين خـاصّـة أصدقائه. وأمّا هو فقد غضب وفاضت نفسه مـرارة وخيّل إليه أنّ نـواميس الطبيعـة تقلقلت وشذّت عن مداراتها. ولكنّ ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمّة والنزاهة والقوّة الـسابقة، بـل إنّه وجـد فراغًا لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلميّ، وشرع في وضـع قامـوسه السيـاسيّ. وكان ومـا زال شعلة من النشاط المتواصل، ونورًا يطارد ظلمات اليأس.

كاميليا زهران

يـوم أقبلت علينا في السكـرتاريّـة بفستانها الأنيق وشعرها الأسود المقصوص المطوّق لرأسها تذكّرت عبدة سليمان، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥! اختفت الـوجـوه القـديمـة مثـل طنـطاوي إسماعيل وعبّـاس فوزي وعـدلي المؤذّن وعبد الـرحمٰن

شعبان وعمّ صقر. اجتاحت السكرتارية موجة من الشباب نصفها من الجنس اللطيف، وها هي كاميليا زهران تنضمّ إلينا، كأحدث قطفة من تلك الأزهار. وكنّا ألفنا وجودهنّ بيننا، كما ألفنا الشائعات التي تلاحقهنّ في الفترة الحرجة التي تسبق الزواج. وأكثرهنّ تزوّجن من شبّان خارج وزارتنا عدا واحدة تزوّجت من زميل في الإدارة القانونيّة، ولم تهجر واحدة منهنّ العمل بسبب الزواج...

وكاميليا زهران حقوقيّة في الثالثة والعشرين، وقد استقبلت عملها بامتعاض لإلحاقها بعمل كتابيّ بعد دراسة قانونيّة توشك أن تذهب هباء. وسرّني أن أطالع في عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحريم المستكينة الخاملة، ومع ذلك شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها في الحياة، وأنّها لا تكاد تختلف في أمر جوهريّ من هذه الناحية عن زميلها الجالس إلى جانبها. وسرعان ما رفع الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنّه لم يجاوز حدود الأدب التقليديّة، شأن من تنظر إلى المستقبل بحكمة وتعمل حسابًا للعقد الشرقيّة التي يحملها الزملاء من أسلافهم في البيوت.

وعقب الإجازات الصيفيّة حدّثني زميل قديم نسبيًّا في الإدارة فقال:

- لعلّك لا تدري أنّ كاميليا زهران راقصة بارعة؟

فسألته بدهشة:

- راقصة؟!

- رأيتها في هانوفيل تراقص شابًّا وكانت مندمجة في الرقص بنشوة كأنّها نغمة...

فقلت متوثّبًا للدفاع:

- لم يعد عيبًا ما كان يُعَدّ عيبًا على أيّامنا...

فهرش رأسه قليلًا ثمّ قال:

- أودّ أن أتخيّل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها؟

فقلت:

- إنّ نسبة الطلاق في هذه الأيّام أقلّ من نظيرتها على أيّامنا وكذلك نسبة تعدّد الزوجات!

فقال ضاحكًا:

- الظاهر أنّك رجل عصريّ رغم كهولتك؟

- أودّ لو كنت من أبناء هذا الجيل، لا استخفافًا بمتاعبه ولكن لتخفّفه من كثير من العقد التي نغّصت علينا صفو الحياة.

وقد قلت مثل ذلك لصديقي رضا حمادة وهو أقرب أصدقائي القدامى إلى المحافظة فسألني عمّا أعني فقلت:

- تبادُل الحبّ في جوّ من الصراحة الصحّيّة خير من الكبت والتقلّب بين أذرع البغايا...

فقال بارتياب:

- يخيّل إليّ أنّ الحبّ كالديموقراطيّة أصبح معدودًا من المهازل البائدة!

وكنت أرهف السمع كلّما دار الحديث بين الشباب في إدارتنا، ومن كلمات متناثرة أدركت أشياء لا بأس بها، خاصّة عن كاميليا التي استحوذت على اهتمامي أكثر من غيرها لحداثتها. فأسْرتها مثلًا متوسّطة وهي أوّل مَن توظّف من إخوة خمس، وليس من الصعب تخيّل المتاعب التي تعانيها أسرة من ذلك النوع والدرجة، ولا المتاعب التي تتحدّى الفتاة كإنسانة مستقلّة ومسئولة عن نفسها وربّما عن أسرتها جزئيًّا، وما تطالبها به الحياة العصريّة من نفقات وما يطالبها به المستقبل كفتاة تتطلّع إلى عريس محترم. ولذلك فإنّ اهتمامها بالشئون العامّة اهتمام سطحيّ، وهي تسلّم بأشياء تسليمًا واقعيًّا دون تفكير ولا إيجابيّة مثل الدين والثورة، ولكنّ حياتها الخاصّة هي شغلها الشاغل، وما حياتها إلّا الحبّ والزواج وثمرات الحضارة الحديثة.

وندر أن صادفتنا أنثى تهتمّ اهتمامًا حقيقيًّا بالدين أو الفلسفة أو السياسة، ولعلّ تفسير ذلك أنّنا لا نزامل منهنّ إلّا الأوساط أمّا النابغات فلهنّ طريق آخر في الجامعات أو الحياة العامّة. وللدكتور زهير كامل رأي في الموضوع. قال:

- عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنّها - العقائد والفلسفات - معطّلة للنشاط الحيويّ الحقيقيّ...

وقال أيضًا:

- المرأة لا تعنى إلّا بالخلق وما يتعلّق به، هي

خالق جميل، الخلق محور حياتها كلّها، أمّا ما عدا ذٰلك من نشاطات فهي من صنع الرجل وهي ضروريّة للسيطرة لا للخلق!

وقال أيضًا:

- الدنيا هي هدف المرأة ومعبودتها، وبمعنى آخر هي هدف الخلق، وهٰذا يدلّ على أنّنا خُلقنا لنهتمّ بالدنيا دون سواها، وأنّ كلّ ما عداها باطل، وأنّ الخلود يجب أن يتحقّق فيها، ولو أنّ الأديان تصوّرت الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هي السعادة الحقيقة!

وربّما تعذّر تفسير هٰذه الآراء على ضوء ما عرفنا من عقليّة زهير كامل، ولٰكن لن يتعذّر تفسيرها على ضوء حياته إذ كان يعاني الحنين إلى زوجته وابنته اللتين هاجرتا إلى الخارج كما كان يفتح قلبه لحبّ جديد، حبّ نعمات عارف. وكانت تظلّلنا سحابة من الغمّ والنكد في أعقاب هزيمة يونيه عندما قال لي الزميل القديم:

- توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة...

فسألته عمّا يعني فقال:

- كاميليا زهران تلعب مع المدير العامّ تلك اللعبة القديمة.

حقًّا أصبح المديرون في سنّ الشباب لا كالعهد القديم، ومديرنا العامّ في الأربعين ولٰكنّه متزوّج وأب وذو سمعة - من هٰذه الناحية على الأقلّ - طيّبة. قلت:

- ولعلّها إشاعة!

- ولعلّها حقيقة!

فسألته:

- وما تفسيرك للأمر؟

- لعلّه حبّ، وإن صحّ هٰذا الفرض فسيخرب بيت ويقام مكانه بيت جديد...

وصمت مليًّا ثمّ عاد يقول:

- ولعلّها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النحّال.

- هل تسلّلت انتهازيّة جيلنا إلى الجيل الطازج؟

- إن المغريات اليوم أقوى وأعنف...

فقلت بامتعاض:

- لعلّ الانتهازيّة يُعترف بها في النهاية باعتبارها أخلاقًا جديدة، ومهارات جديدة مثل التكنولوجيا!

وحدّثت صديقي الدكتور عزمي شاكر في الموضوع وقلت له:

- إنّك مفكّر بارع، فلِمَ لا تدرس الأخلاق الجديدة؟ أعني الأخلاق الصالحة للعصر الحديث، التي يجب أن تُستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم القديمة...

فسألني:

- ما الذي دعاك إلى هٰذا التفكير؟

فقلت وأنا من الاستياء في غاية:

- انظر إلى مآل صديقنا الدكتور كامل رمزي، وعندي نظائر له عرفتهم في مجرى الحياة ممّن نعدّهم أمثلة طيّبة للإنسان، ألا يجوز أنّ أخلاقهم لم تعد صالحة للعالم الحديث؟

فقال باسمًا:

- إنّك تنفّس عن مرارة نفسك...

- الحقّ أنّي حائر وحزين.

وتفشّت الشائعات عن كاميليا والمدير، وأصبح الشكّ يقينًا عندما نُقِلَت أخيرًا إلى الإدارة القانونيّة، ولٰكن لم يخرب بيت ولم يقم محلّه بيت جديد، ولمّا تعيّن عندنا صبري جاد نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حبّ صادقة. ومع أنّه بدا أوّل الأمر متمرّدًا ومستهترًا إلّا أنّه أحبّ كاميليا كما أحبّته، وبالرغم من أنّه كان يصغرها بعامين أو أكثر إلّا أنّهما أعلنا خطوبتهما رسميًّا. وسعدت أنا شخصيًّا بهٰذه النهاية السعيدة، التي شدّت الاثنين إلى حياة أصيلة ومسئوليّة جادّة من شأنها أن تعيد خلق الإنسان وتضمّه إلى الركب الجادّ في الطريق. ويومًا بعد يوم فإنّ إيماني يرسخ بأنّ نقاء الإنسان يجيء من الخارج بقدر ما يجيء من الداخل، وأنّ علينا أن نوفّر الضوء والهواء النقيّ إذا أردنا أزهارًا يانعة.

ماهر عبد الكريم

كان أستاذًا مساعدًا بالكلّيّة عندما التحقت بها عام ١٩٣٠. وكان في منتصف الحلقة الرابعة، يتمتّع بسمعة علميّة وأخلاقيّة وإنسانيّة كأنّها عبير المسك. ولم أعرف أستاذًا فتن طلبته بسجاياه الروحيّة وسماحة وجهه مثله. وهو سليل أسرة عريقة، عُرفت بثرائها كما عرفت في التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطنيّ، وعُدّ هو بالتبعيّة من الموالين للحزب، ولكنّ ذلك لم ينل من حبّنا له، والحقّ أنّه لم يعلن عن ميل سياسيّ قطّ، ولم يقع في رذيلة التعصّب أبدًا، ولم ينطق في حديث عن هوًى أو تحيّز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير. قال لنا مرّة الدكتور إبراهيم عقل:

ـ لو كان جميع الأغنياء مثل ماهر عبد الكريم لقرّرت أنّ المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنيًّا!

والحقّ أنّ كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصدّ محتاجًا قطّ، وكان يجود بالإحسان سرًّا كأنّما يتستّر على عيب، وكان مثالًا لسعة الصدر، هكذا كان في مناقشاته العلميّة والعامّة، بل والسياسة إذا جُرّ إليها جرًّا، وكانّ أسارير وجهه لم تُهيّأ أصلًا إلّا للتعبير عن التأمّل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدّة أو الغضب. وكان قصْره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متّسع دائمًا لطلبته فيقدّمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، وما أكثر الذين عرفْتهم في صالونه من رجال الفكر. وكان التيّار الجارف في أحاديث الصالون ثقافيًّا بالمعنى العامّ ولم تكن السياسة لتخالطه إلّا في ظروف نادرة، ومع ذلك لم يتردّد الأستاذ سالم جبر عن إثارة موضوع فوارق الطبقات يومًا من أيّام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة في فرنسا، قال:

ـ إنّهم في بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا!

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال:

ـ أعتقد أنّها حالة سيّئة.

فقال الدكتور إبراهيم عقل مخاطبًا سالم جبر:

ـ إنّك تزور في فرنسا أوساطًا متطرّفة لعلّها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضًا، على أنّ الإنسان لا تتقرّر حاله الحضاريّة بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصيًّا أعتبر الفقير الهنديّ أجلّ إنسانيّة من فورد أو روكفلر!

واحتدّ سالم جبر فاتّهمه بالمثاليّة الرجعيّة، كما اتّهمه بالصوفيّة التي يعدّها مسئولة عن تأخّر الشرق.

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكّر كما يفكّر سالم جبر ولكنّه اعتقد دائمًا بأنّ الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعيّة شاملة، كما اعتقد أنّ نشر التعليم يحقّق الغاية نفسها بطريقة أخرى. ويومًا دعاني أنا وجعفر خليل ـ عقب إحدى المحاضرات ـ لمقابلته في قصر المنيرة، ووجدناه وحده في بهو الاستقبال، فرحّب بنا وقال:

ـ ستزورني آنسة أمريكيّة بناء على طلبها وقد اخترتكما مترجمين بيني وبينها...

وكان يجهل الإنجليزيّة، ولعلّه فضّل أن يستعين بنا على أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتّى تتبيّن له أسباب الزيارة الغريبة. وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية في الجمال، في العشرين من عمرها، فسلّمت وجلست وهي تعتذر عن تطفّلها. وقدّم لنا الشاي والحلوى، وراحت الفتاة تقصّ قصّتها فقالت إنّها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب، وإنّ أمّها كلّفتها بالبحث عن شخص في مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبًا بالسوربون في أعقاب الحرب العظمى، وإنّ مدير الفندق دلّها عليه وطلب قصره لها بالتليفون، ووضح لنا من تبادل الحديث أنّ أمّها كانت زميلة لأستاذنا في باريس، وأنّها كانت صديقته أيضًا، وأنّها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحمّلها تحيّاتها إليه.

وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة الجميلة، وما آل إليه حال الصديقين القديمين في الوقت الحاضر. وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر خليل:

ـ الظاهر أنّ تأثير أستاذنا فيمن حوله سجيّة قديمة فيه منذ عهد الشباب...

فغمز جعفر بعينه وقال ضاحكًا:

ـ ولكنّ التأثير في النساء ذو مغزى آخر!

ثمّ قال بإيمان:

ـ الحقّ أنّ جمال الرجل يؤهّله لدور الفتى الأوّل في أفلامنا!

فردّدت قول الفرزدق الذي كان يذكّرني دائمًا بوجه أستاذنا:

يُغضي حياءً ويُغضى من مَهابتـه
فـما يُكلَّم إلّا حين يبتسـمُ

وقلت لجعفر:

ـ ما أتصوّره أبدًا متخلّيًا عن وقاره، فإذا كان الوقار لباسًا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

والحقّ أنّه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمسّ السمعة أو السلوك. وعند هٰذه النقطة أرى لزامًا عليّ أن أعرض لشائعة اقتحمته في فترة القلاقل التي اتّسمت بالاغتيالات السياسيّة في أعقاب الحرب العظمى الثانية. قيل إنّه رفع خطابًا سرّيًّا إلى الملك فاروق يحذّر من مغبّة التمرّد الذي يجتاح الشباب، مفصّلًا أسبابه وبواعثه ومقترحًا العلاج له. سمعنا ذٰلك فيما نسمع من شائعات في المقاهي، وحتّى اليوم لم أتأكّد من صدق الشائعة، وكلّ ما قيل عنها كان ضربًا من التخمين ونتيجة للأهواء السياسيّة المتنازعة، فقال وفديّون إنّه اقترح على الملك حلّ الأحزاب وإقامة ديكتاتوريّة صالحة تعجّل بالإصلاح وتربّي الشباب تربية دينيّة علميّة، وقال المتطرّفون من تلاميذ سالم جبر إنّها دعوة لثورة مضادّة يراد بها تفادي الثورة الحقيقيّة. أمّا أنا فساءتني الرسالة ـ مهما كان مضمونها ـ باعتبارها انتهاكًا لحرّيّة الدستور واستهتارًا بسلطة الشعب، ووجدتُني في حرج شديد بين إجلالي لأستاذي وبين موقفي السياسيّ الواضح، ووجدت حرجًا أكثر من مفاتحته بالموضوع، غير أنّ جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته! حدث ذٰلك عندما زرنا الأستاذ معًا ليودّعه جعفر خليل قبل سفره إلى الولايات المتّحدة، وعند ذاك أخبره صديقي المرحوم بما يشاع وبما يقال. وأنصت الدكتور في هدوء وابتسام، ثمّ سأله:

ـ صدّقت ما يشاع وما يقال؟

فتراجع جعفر خليل قائلًا:

ـ كلّا.

فاكتفى الأستاذ بقوله:

ـ عظيم!

ويدعوني ذٰلك إلى تذكُّر رأي رجلين فيه، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر، والآخر مريد من مريديه هو الأستاذ عبّاس فوزي. أمّا سالم جبر فكان يحبّه ويعجب به ولٰكنّه يرى أنّه من طبقة النبلاء، لم يعرف الفقر، ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصّة وهي رغم جاذبيّتها ونقائها غريبة عنّا كأنّا لغة كوكب آخر.

أمّا عبّاس فوزي ـ معجم السخريات اللاذعة ـ فكان يعرب عن رأيه فيه ولٰكن في حذر وعلى مهل ونقطة نقطة متجنّبًا سكب ما في نفسه دفعة واحدة. فيومًا قال عنه:

ـ إنّه وجيه نبيل، مملوك من نسل مماليك!

وتأمّلت قوله طويلًا على ضوء ما أعرفه من خبثه وساءلت نفسي عمّا يقصد الشيطان. ومرّة استمع إلى ثناء جميل منّي على الأستاذ ثمّ قال:

ـ هٰذه هي فضائل الأغنياء النبلاء وهي فضائل لم تتعرّض للتجارب المريرة!

ومرّة ثالثة قال لي:

ـ في مصر لا يجتمع النبل والثروة والعلم، ولٰكنّ النبيل الغنيّ متعالم، يستغلّ ذكاء الفقراء، يجمعون له موادّ البحث ويقترحون عليه الأفكار، أمّا هو فيصغي بوقار ويوقّع بإمضائه!

ومرّة رابعة قال لي:

ـ أستاذك ذوّاقة لكلّ طعام جيّد، يلتهم في اليوم ما يكفي لغذاء لواء من الجيش، خبّرني يا عزيزي متى يفرغ من الهضم ليتفرّغ للتفكير والبحث؟

ولٰكنّا كنّا نتّصل بعقل الأستاذ اتّصالًا مباشرًا وندرك مدى ما يتمتّع به من دقّة ووضوح وغزارة في العلم، ومرّت به الأحداث وهو ثابت في وقاره، ولٰكنّي استشففت قلقًا في ذاته في مواقف من حياتنا لا تنسى، مثل الاغتيالات السياسيّة، حريق القاهرة، ثورة يوليه، القوانين الاشتراكيّة، ولٰكنّه لم يجاوز القصد أبدًا، ولا أظنّ أنّ إقطاعيًّا تلقّى الضربة التاريخيّة في مثل هدوئه، تلك الضربة التي نزعت من يده عشرة

آلاف من الأفندنة، وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيلّا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتّى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأي، وواصل عمله الجامعيّ بنفس الهمّة حتّى أحيل إلى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السنّ القانونيّة، فعمل أستاذًا زائرًا، وعُيّن عضوًا في المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديريّة في العلوم الاجتماعيّة كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إذن قدّرت له الثورة مكانته العلميّة وسمعته العطرة واستقامته العامّة التي أبعدته عن الشبهات، وهو وإن لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعيّة أن يرمى بشيء ممّا يمسّ الكرامة، فإنّه لم يتردّد في إعلان ذلك الولاء في مجالسه الخاصّة، فقال يومًا:

ـ إنّي مقتنع بما يقع فهو أقلّ ما يمكن عمله كي يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولم أستشعر في حديثه أو سلوكه أيّ أثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب في الأفئدة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخيّة منطلقة أصلًا لاقتلاع طبقته، وأن يقنع نفسه بها فلسفيًا كحركة تاريخيّة حتميّة لا مفرّ منها طال الزمان أو قصر. وفي عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين، فازدحم الصالون بمن بقي على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزمي شاكر وكامل رمزي وقدري رزق وجاد أبو العلا وعبّاس فوزي وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل، وهفّت عليّ ذكريات إبراهيم عقل وجعفر خليل. ورأيت قلّة من الشباب بينهم صبري جاد وزوجته كاميليا زهران، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجرّدة والعصيّ، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديّته وأثره وترفّعه وتواضعه وحكمته ونزقه، كأنّما غفوت في الديزل إغفاءة طويلة استيقظت بعدها في محطّة سيدي جابر. ورغم كلّ شيء فقد بقي لماهر عبد الكريم عيناه الزرقاوان الواسعتان وابتسامته الغازية ووقاره العذب. قال أستاذنا:

ـ لا احتفال بالمعنى الحقيقيّ لهذه الكلمة، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل، ولكنّها فرصة طيّبة للاجتماع.

وشرّق الحديث وغرّب ولكنّه كان يرتدّ إلى بؤرة واحدة هي الصراع في الشرق الأوسط، ويعالج على مستويات سياسيّة واقتصاديّة وفلسفيّة ودينيّة، ويتفرّع إلى الموقف العالميّ والكشوف العلميّة والمشكلات العامّة الإنسانيّة والاضطرابات الخطيرة في الغرب والشرق وذبول القيم، والمستقبل، أجل المستقبل، وبأيّ وجه يطالعنا. وطغت موجة من التشاؤم، وتردّدت كالهَنْك المطرب بين الشيوخ، طوبة يرمون بها الدنيا المولية، واشترك أستاذنا في الجوقة ولكن بنغمة أخرى، وفجأة قال:

ـ رحم الله إبراهيم عقل...

ما الذي دعاه إلى تذكّره؟. كان أحبّ الأصدقاء إلى قلبه، ولم أشهد دمعه إلّا يوم جنازته عام ١٩٥٧، وتذكّرت بدوري كلمته لنا قبيل التخرّج. وعاد يقول:

ـ سلّم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس...

وابتسم طويلًا ثمّ قال:

ـ قولوا في الدنيا ما شئتم، لا جديد في التشاؤم، ولكنّ الحياة في صالح الإنسان وإلّا ما زاد عدده باطّراد، وما زادت سيطرته على دنياه.

محمود درويش

كان يستلفت الأنظار بين طلبة الكلّيّة بطول قامته ونحول قدّه، وسرعان ما تميّز بذكائه واجتهاده الخارق فاكتسب مكانة محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريّين والأجانب، وكان دقيق الملامح وسيمًا ولكنّه كان أيضًا جافًّا منطويًا على نفسه، يزامل ويصاحب ولكنّه لا يعرف الصداقة، كان صديقه الحقيقيّ الكتاب. وكان أبوه إمام مسجد بالجيزة، يشكو كثرة العيال وقلّة المال، فكان محمود درويش يعاني حياة متقشّفة، ومن أوّل يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان محمود وهو يقول إنّ أباه إمام مسجد فضحك، فسأله محمود درويش:

ـ ماذا يضحكك؟
فأجاب عجلان:
ـ ألا يضحكك أن تكون الإمامة وظيفة؟
فغضب محمود وقال له:
ـ أنت قليل الأدب.
وهتف به عجلان:
ـ اخرس!

وفصلنا بينهما، ولكنّها أصرّا على الخصام إلى النهاية وفي حادثة سرقة الطربوش التي اتُّهم فيها عجلان شهد محمود ضدّه، وكان ضمن الأسباب التي أدّت إلى فصله من الكلّيّة، وقد عاتبناه في ذٰلك ولكنّه قال:

ـ لا خير في أن نقدّم للمجتمع لصًّا متعلّمًا...

وكانت آثار الكبت والحرمان تتجلّى في عينيه كلّما وقع بصره على طالبة من الطالبات. وأمّا سعاد وهبي فكادت تتسبّب في جنونه، ولكنّه بدلًا من أن يغازلها أو يحاول ذٰلك على الأقلّ راح يحمل على «تهتكها» حملة كادت تبلغ العلانية، وكان أوّل مَن أبلغ العميد عن تبرّجها، وعن الفتنة التي تثيرها في قاعة المحاضرات. والظاهر أنّه تعرّض لأزمات عنيفة، وصراعات حادّة بين حيويّته وبين حرمانه الإجباريّ، فلم يجد أبوه حلًّا لذٰلك ـ بعقليّته الريفيّة الدينيّة ـ إلّا أن يزوّجه من ابنة عمّ يتيمة يكفلها فرجع إلى الكلّيّة في العام الدراسيّ التالي متزوّجًا من فتاة ريفيّة أمّيّة، ولكنّها أراحت باله، وأطلقت قواه في التحصيل دون عائق. ولم يعد له من اهتمام إلّا العلم والتفوّق، وكان إذا احتشد لكتابة بحث ما نكلّف بكتابته في أثناء السنة الدراسيّة كتبه بذكاء واقتدار وأحاط به إحاطة تقطع باطّلاعه الواسع وبدرايته في استخراج المراجع. ولذٰلك كان يتابعنا أحيانًا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنّه عاقل يستمع إلى مجانين. وتساءل مرّة:

ـ كيف تجدون متّسعًا بعد ذٰلك للدراسة؟

فأجابه طالب متعجّبًا:

ـ كأنّ الإنجليز يحتلّون وطنًا غير وطنك وكأنّ الملك يستبدّ بشعب غير شعبك!

ولم يكن يفرّق بين مصطفى النحّاس وإسماعيل صدقي، وأحيانًا كان ينسى اسم «الباشا» الذي يرأس الحكومة. ولمّا اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالها غاضبًا وعاجزًا، وكان يتسلّل إلى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتّى تغلق أبوابها. ويومًا وثب إلى منصّة الخطابة عقب خطبة ثوريّة ألقاها زعيم الطلبة. وثب إلى المنصّة، وبجرأة جنونيّة، دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الأسمى، وهاج الطلّاب وماجوا، وطالبوا بإنزاله، ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوّقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكّدًا. وصدر أمر بإغلاق الجامعة شهرًا، وفي أثناء ذٰلك قُبض على زعماء الطلبة جميعًا، ولـمّا عدنا إلى الكلّيّة وجدت همسًا تتناقله الألسنة قال لي جعفر خليل:

ـ سمعت؟.. يقولون إنّ محمود درويش متّصل بإدارة الأمن العامّ...

فاستفظعت ذٰلك ولم أصدّقه فقال:

ـ يقال إنّ الذي رشّحه لذٰلك أبوه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم!
ـ ولكنّه شابّ مستقيم!

فقال بحزن:

ـ ويقال إنّه هو الذي أرشد إلى زعماء الطلبة!

كانت إشاعة قويّة ولكن لم يكن من سبيل إلى التأكّد منها، وقد تحرّش به بعض الطلبة وعرّضوا بدوره في المؤامرة، ولكنّ الدكتور إبراهيم عقل استدعاهم إلى مكتبه وهدّدهم ـ إذا عادوا ـ بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصّة. وعاشت الإشاعة معي زمنًا طويلًا، وخلقت في نفسي نفورًا منه وبخاصّة وأنّي استثقلت ظلّه من أوّل يوم، وكدت أومن بصدقها عقب تخرّجنا عندما اختير محمود درويش عضوًا في بعثة إلى فرنسا في فترة من الزمن توقّفت البعثات فيها تمامًا. وانقطعت أخباره عنّي أعوامًا طوالًا حتّى صادفته في مكتب الأستاذ عدلي المؤذّن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث. بدا لي وقتها في صورة جديدة، مليئة بالحيويّة والصحّة والعافية، وطالعتني عيناه من خلال نظّارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة العلماء. قال:

ـ أنا مدرّس اليوم بالكلّيّة...

فقال عدلي المؤذّن:

- وهو شارع في إصدار سلسلة في فلسفة التصوّف. . .

وقال محمود درويش:

- أدركتني الحرب في فرنسا قبل إتمام الرسالة فسافرت إلى سويسرا وهناك حصلت على الدكتوراه.

ولّما غادرنا قال لي عدلي المؤذّن ضاحكًا:

- عاد خواجا كما ترى ليجد في انتظاره زوجة ريفيّة أمّيّة.

وسألته عمّا قيل عنه يومًا من اتّصاله بإدارة الأمن العامّ وخاصّة وأنّ عدلي المؤذّن كان موظّفًا في ذٰلك الوقت بإدارة الجامعة فقال عدلي باقتضاب:

- كلام فارغ.

ولّما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عبّاس فوزي ضحك طويلًا وقال:

- يا لك من رجل طيّب!. ألا تعلم أنّ عدلي المؤذّن نفسه كان متّصلًا وقتها بإدارة الأمن العامّ؟

والتقيت - بعد ذٰلك بأعوام - بالدكتور محمود في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكانت قدمه قد رسخت في عالم التأليف، وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عُدّت من المراجع الهامّة في دراسة التصوّف في العصر الحديث، وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سألته عن أحواله فقال:

- لي أربعة أبناء في كلّيّات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت متزوّجة من ضابط طيّار. . .

فسألته باهتمام:

- هل تمارس التصوّف؟

فأجاب ضاحكًا:

- كلّا، ولٰكن لا مراء في أنّ الإنسان لا يتخصّص إلّا في مادّة متغلغلة في نفسه. . .

وفكّرت في زوجته التي اختارتها الظروف ربّة لبيت من المثقّفين وهي بدائيّة بكلّ معنى الكلمة، فوددت لو أتسلّل إلى أعماق ذٰلك الجانب من حياته، ولٰكنّه كان يبدو متألّقًا بالسعادة والنجاح. وقال لي:

- طبعًا علمت بمأساة الدكتور إبراهيم عقل؟

- طبعًا، كارثة ولا شكّ، ولٰكنّي لم أرك في جنازة ابنيه؟

- كنت خارج القاهرة، هل حافظت على اتّصالك به مذ تركت الكلّيّة؟

- كلّا. . .

- إنّه أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين.

والتقيت به مرّة أخرى في صالون المنيرة، ثمّ دُعي للتدريس في إحدى الجامعات العربيّة فسافر خارج القطر وانقطعت عنّي أخباره.

مجيدة عبد الرازق

في زيارة لسالم جبر في مكتبه بجريدة المصريّ عام ١٩٥٠ قدّم لي فتاة حسناء قائلًا:

- مجيدة عبد الرازق محرّرة الصفحة النسائيّة.

كانت في الثلاثين من عمرها، رشيقة القوام، تطالعك من عينيها السوداوين نظرة ذكيّة جذّابة، ولها شخصيّة قويّة تفرض نفسها لدى أوّل اتّصال. والتقيت بها للمرّة الثانية في حفل انتخابيّ أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه فسألتها:

- إذن فأنت وفديّة؟

فقالت باسمة:

- أنا تلميذة للدكتور زهير كامل.

- آداب؟

- قسم الصحافة.

- ووفديّة؟

- أبعد من ذٰلك بكثير!

فتساءلتُ وأنا أنظر في عينيها الجميلتين:

- ماذا تعنين؟

فابتسمت ولم تجب. والتقيت بها للمرّة الثالثة في بيت زهير كامل فشعرت بأنّنا ننتقل من مرحلة التعارف الودّيّ إلى مرحلة الصداقة الحقيقيّة. وعقب ذهابها قال لي الدكتور زهير كامل:

- إنّها مثقّفة ثقافة تستحقّ التقدير وذات شخصيّة محترمة.

فقلت بحماس:

ـ أعتقد ذلك.

وهو يبتسم:

ـ وهي شيوعيّة أيضًا!

ـ شيوعيّة؟!

ـ امرأة مصريّة معذّبة من ضحايا فترة الانتقال.

وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل. وكنّا نجتمع في أوقات متفرّقة بجروبي مع نفر من الأصدقاء، فتُجالسنا مجالسة الأنداد، وتتجاهل إيماءات الغزل التي توجّه إليها أحيانًا، باعتبارها عبثًا صغيرًا، إذ لم تكن تتبع الحيل النسائيّة البالية، ولا تحترم القيم البرجوازيّة، ولكنّها كانت تنشد دائمًا العاطفة الصادقة الأصيلة. قالت لي يومًا:

ـ حذار أن تظنّ بي البرود!

فتساءلت:

ـ ما الذي جعلك تفكّرين في ذلك؟

فقالت بحرارة:

ـ إنّي أعبد الحبّ.

ثمّ كالمستدركة:

ـ أعبد الحبّ والأيديولوجيّة.

ولّما استتبّ اطمئنانها إليّ قصّت عليّ قصّة حياتها في مقهى الفيشاوي، قالت:

ـ نشأت في أسرة من البرجوازيّة الصغيرة، ربّها موظّف مغمور، وكنت البنت الوحيدة بين أربعة ذكور!

فقلت باسمًا:

ـ إذن كنت جوهرة مدلّلة...

ـ بالعكس، عانيت الاضطهاد من الجميع، وكان يزداد بتقدّم العمر، ولكنّي فرضت الاحترام عليهم بتفوّقي في المدرسة...

فأعلنت إعجابي بابتسامة فقالت:

ـ وتقدّم لي عريس بعد نجاحي في الثانويّة العامّة وبالرغم من ترحيب الجميع به إلّا أنّي اشترطت عليه أن يسمح لي بإتمام دراستي الجامعيّة، فسألني عن الحكمة وراء ذلك، فصارحته برغبتي في العمل، ولكنّه لم يوافق، وانضمّ إليه في الرأي أهلي ولكنّني صمّمت، فذهب...

ـ وحقّقت مشروعك بالكامل!

ـ أجل ولكنّي عرفت في الكلّيّة أستاذًا كان له أكبر الأثر في حياتي، طبعًا سمعت عن الأستاذ محمّد العارف؟

ـ أجل.

ـ علّمني العلم وما هو أخطر منه...

ـ الشيوعيّة؟

ـ نعم، ثمّ ألّف بيننا حبّ عميق، وسرعان ما تزوّجنا بعد تخرّجي مباشرة...

فقلت بدهشة:

ـ حسبتك غير متزوّجة.

ـ عشت أيّامًا سعيدة وأنجبت توأمين ذكرًا وأنثى.

ـ جميل حقًّا.

ـ وكانت أمّه هي ربّة بيتنا فلمّا توفّيت اعترضتنا متاعب فتمزّقتُ بين العمل في الجريدة وبين واجبات البيت، وكان زوجي يحبّ النظام كما يحبّ أن يكون موضع الرعاية فاقترح عليّ أن أتفرّغ للبيت...

ـ رأي لا يخلو من وجاهة.

فقالت بحدّة:

ـ كلّا، كانت لي آمالي الخاصّة أيضًا فرفضت، ولم أجد منه عطفًا ولا تقديرًا.

فلم أنبس بكلمة فقالت:

ـ وتكشّفت لي أنانيّته وقلّة أدبه ورغبته الدفينة في السيادة، واشتعل بيتنا بالعنف والخصام، ثمّ انتهى الأمر بالطلاق...

ـ متى وقع ذلك؟

ـ أيّام الكوليرا!

فسألت بإشفاق:

ـ وكيف حالك الآن؟

فقالت بمباهاة:

ـ أتقدّم في عملي كما ترى، وتعاونني في تربية الطفلين امرأة طيّبة، وهو يمدّني بالنفقة الشرعيّة.

ولّما قامت ثورة يوليو بذرت في ساحة صداقتنا الهادئة بذور خلاف عنيد لأوّل مرّة، فاتّهمتُها بأنّها ثورة رجعيّة، أو لون جديد من الفاشستيّة، أو انقلاب برجوازيّ صغير يشبع تطلّعات أمثالي من البرجوازيّين الصغار! وأصرّت على رأيها حتّى اتّجهت الثورة إلى

الكتلة الشرقيّة فأخذ عنادها يلين ورأيها يتغيّر. وساءتني وحدتها كثيرًا. وشعرت بأنّها تعاني منها مرارة حادّة، ولكنّها رفضت دائمًا رغبات الزملاء الجامحة العابثة انتظارًا للحبّ الحقيقيّ الذي تعبده كما قالت لي من قديم. وبصراحتها العذبة قالت لي مرّة:

ـ خُدعت مرّة واحدة!

ـ لا أصدّق.

ـ طبيب أطفالي عليه اللعنة!

ـ ولكن كيف..؟

ـ وكان أيضًا متزوّجًا!

ـ ولكنّ الرجل المتزوّج..؟!

ـ خطأ حقيقة ولكنّه الحبّ، وأفهمني أنّه غير سعيد وأنّه سيطلّق لأسباب لا تتعلّق بي!

ـ وصدّقته؟

ـ ما أفظع الخداع، إنّه أنكر من القتل، وسلّمت بدون قيد ولا شرط.

ـ شيء فظيع حقًّا.

ـ عليه اللعنة، وكانت أيّامه سوداء كخداعه فكنّا نلتقي في عيادته في جوّ غارات الاعتداء الثلاثيّ.

ومنذ تلك التجربة المريرة استقرّ سوء الظنّ في أعماقها فتضاعف شعورها بوحدتها وحنينها إلى الحبّ الحقيقيّ. ومضى يغزوها الزمن حتّى بلغت اليوم الخمسين من عمرها، وقد تزوّجت ابنتها، وسافر ابنها للعمل في إذاعة الكويت، فغرقت في الوحدة والكهولة حتّى قمّة الرأس. وما زالت حتّى اليوم محافظة على رشاقة قدّها، ومسحة من جمالها، وإذا دُعيت إلى التلفزيون فهي تستأثر بالأنظار والأسماع بقوّة شخصيّتها ومرونة منطقها وغزارة معلوماتها، وإذا خلوتُ إليها خُيّل إليّ أنّي أستمع إلى وحوحة تندّ من أعماقها.

وما زالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور زهير كامل، كما نشأت صداقة حميمة بينها وبين زوجته الجديدة الصغيرة نعمات عارف، ولا شكّ أنّها علمت بعلاقتها بالدكتور صادق عبد الحميد، ولكنّها تجاهلت ذلك تمامًا، وتمنّت ألّا تنكشف الحقيقة لأستاذها أبدًا. وعلمتُ أخيرًا ـ وسعدتُ بذلك جدًّا ـ أنّها ستقوم برحلة صحفيّة لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسّط فقلتُ لعلّها تجد فيها تسلية عن وحدتها وتجديدًا لحياتها ومادّة طريفة لقلمها.

ناجي مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدًا، لم يُمّحَ من ذاكرتي كأنّه اسم عَلَم من الأعلام، رغم أنّني لم أزامله إلّا ثلاثة أعوام من حياتي، ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ في المدرسة الثانويّة. أمضى فترة الدراسة الابتدائيّة في السودان حيث كان يعمل والده. ولمّا عاد الرجل إلى مصر أقام في العبّاسيّة وألحق ابنه بمدرستنا. وقال ناجي لي يومًا:

ـ كنّا إخوة أربعة، مات ثلاثة، وبقيت أنا.

وقال لي مرّة أخرى:

ـ أمّي حزينة لا تضحك أبدًا...

وكان رشيقًا طويلًا وسيم الوجه لطيفًا مهذّبًا ورزينًا لدرجة لا تناسب سنّه ولعلّه كان الوحيد في سنة أولى الذي يلبس بنطلونًا طويلًا. وربّما كان أنبغ تلميذ صادفته في حياتي. كان لكلّ تلميذ مجال في تفوّقه إن وُجد، فتلميذ يتفوّق في اللغات وآخر يتفوّق في الرياضيّات وهكذا. أمّا ناجي مرقص فكان مُتفوّقًا في جميع الموادّ، في العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا. وكان الأوّل دون نزاع وكان المدرّسون على اختلاف جنسيّاتهم من مصريّين وإنجليز وفرنسيّين يحترمونه ويعاملونه كأنّه رجل لا تلميذ. وكان بدر الزيادي يسمّيه عبد الحليم المصريّ تشبيهًا لتفوّقه بقوّة المصارع الشهير. وسألته يومًا:

ـ كيف تفوّقت في جميع الموادّ؟

فأجاب بأدبه الجمّ:

ـ أنتبه في الفصل وأذاكر من أوّل يوم في السنة الدراسيّة.

وسأله جعفر خليل:

ـ ألا تذهب إلى السينما كلّ خميس؟

ـ في الأعياد والمواسم فقط.

فسأله عيد منصور:

ـ ألا تلعب الكرة؟

ـ كلّا.

فسأله رضا حمادة:

ـ أليس لك هواية؟

فأجاب:

ـ أعزف على البيانو في أوقات الفراغ.

فقال له رضا:

ـ إنّك لا تشترك في الإضرابات أفلا تهتمّ بالوطنيّة؟

ـ أهتمّ بها طبعًا ولٰكن...

وتردّد لحظات ثمّ قال:

ـ ولٰكنّ أخي الأكبر قُتل في مظاهرة!

ونجح في امتحان الكفاءة بتفوّق فجاء ترتيبه بين العشرة الأوائل في القطر كلّه، وعندما عدنا إلى المدرسة في بدء العام الدراسيّ الجديد لم نعثر لناجي مرقص على أثر لا في القسم العلميّ ولا القسم الأدبيّ.

وتساءلنا عن سرّ اختفائه دون أن نظفر بجواب. وكان يسكن بعيدًا عن حيّنا في أطراف العبّاسيّة المشرفة على منشيّة البكريّ فذهبنا إلى مسكنه نستطلع فعلمنا هناك بأنّه أصيب في صدره وأنّه أرسل إلى جدّته بصعيد مصر ليعالج وأنّ علاجه سيستغرق عامًا كاملًا في أقلّ تقدير. أحزننا الخبر كما أحزن جميع أقرانه ومدرّسيه، وأرسلنا إليه رسالة جماعيّة حمّلناها تحيّاتنا وتمنّياتنا له بالشفاء العاجل. وحدث في ذٰلك الوقت أن قُدّم مصطفى النحّاس إلى المحاكمة في قضيّة سيف الدين فبرّأته المحكمة العليا، وذهبت وفود من الشعب إلى بيت الأمّة تهنّئه، وذهب فيمن ذهب والد صديقنا وهو موظّف في وزارة الحربيّة، وظهرت صورته لسوء الحظّ ضمن صور المهنّئين فقرّرت الوزارة فصله. وشقّ على الرجل الرّفت وكان فقيرًا كما كان مريضًا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه. وشفي ناجي من مرضه ولٰكنّه عجز عن مواصلة التعليم فانتهز أهل الخير فرصة عودة الوفد إلى الحكم وسعوا إلى تعيين الشابّ الصغير في وزارة الحربيّة فتعيّن في وظيفة صغيرة خارج الهيئة، كذٰلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ في جيلنا. وكثيرًا ما كنت أتذكّره وأتحسّر على نهايته، وكلّما صادفني شيء من التوفيق في حياتي الدراسيّة أو العمليّة تذكّرته فداخلني الأسى وتخيّلت الأمجاد التي وُئدت بضربة عمياء من ضربات العبث. ومضت أعوام فأعوام دون أن تقع عليه عيناي أو أسمع عنه ذكرًا حتّى التقيت به مصادفة في كازينو حديقة الأزبكيّة عام ١٩٦٠. مررت به أوّل الأمر دون أن أفطن إلى هويّته إذ جذبت عينيّ لحيته البيضاء فحسبته فنّانًا، ثمّ سمعت صوته يناديني فالتفتّ إلى وجهه وعرفته في الحال. وتصافحنا بحرارة ثمّ جلسنا حول مائدة متواجهين. لم يكد يتغيّر وجهه لولا لحيته وشيبة رأسه، وانبعثت من جملة منظره شفافيّة عذبة كالعبير الحلو أو الطمأنينة الشاملة. وتذاكرنا الماضي والزملاء، مَن رحلوا مثل بدر الزيادي وجعفر خليل، ومَن نبغوا في الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبد الباقي وغيرهما، ثمّ جاء دوره فقال:

ـ ما زلت موظّفًا بوزارة الدفاع ووصلت إلى الدرجة الثالثة، متزوّج وأب لفتاة في العشرين طالبة بكلّيّة العلوم...

وسكت قليلًا ثمّ استطرد:

ـ اتّجهت من قديم إلى دراسة الروحانيّات، عن طريق الكتب والمراسلة...

فقلت له:

ـ قرأت بعض الكتب عنها.

فابتسم قائلًا:

ـ إنّي أدرسها وأمارسها!

ـ حقًّا؟!

فقال بوجد وحماس:

ـ عالَمُ الروح عالَمٌ عجيب، أعجب من عالَم المادّة...

فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد:

ـ وهو أمل الإنسان في الخلاص الحقيقيّ.

فقلت مجاملًا وصادقًا في آن:

ـ الإنسان في حاجة إلى الخلاص.

فقال بحرارة متشجّعًا بإقبالي:

ـ حضارتنا مادّيّة، وهي تحقّق بالعِلْم ـ كلّ يوم ـ انتصارات مذهلة وتمهّد لسيطرة الإنسان على دنياه ولٰكن ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك؟

فقلت بحذر:

ـ على الإنسان أن يملك الاثنين!

فابتسم بعذوبة وقال:

ـ لعلّك لا تؤمن بقولي، أو لعلّك لا تؤمن به كلّ الإيمان، ولكن ثق من أنّ عالم الروح حافل بالمجاهل كعالم المادّة، وأنّ التنقيب فيه يَعِدُ الإنسان بانتصارات مذهلة لا تقلّ عن انتصاراته في غزو الفضاء، وأنّه لا ينقصنا إلّا أن نؤمن بمنهج روحيّ كما نؤمن بالمنهج العلميّ، وأن نؤمن أيضًا بأنّ الحقيقة الكاملة هي ملتقى طريقين لا غاية طريق واحد...

ـ حكمة معقولة...

فرنا إليّ بنظرة حنون من عينيه السوداوين ـ أدركت لونهما لأوّل مرّة ـ وقال برثاء وشفافيّة:

ـ ما أضعف صوت الحقّ وسط هدير الآلات، ولكن ما أحوج الإنسانيّة اليوم إلى منقذ...

فسألته بحبّ استطلاع:

ـ كيف تتصوّر المنقذ؟

ـ أتصوّره رجلًا أو فكرةً أو درسًا باهظ الثمن!

ـ كحرب ذرّيّة؟

ـ ربّما، على أيّ حال أشعر بأنّ ثمّة حجابًا يفصل بيني وبينك ولكنّه حجاب شفّاف ضعيف الجذور، وأنّ استعدادك لحبّ الحقيقة كبير؛ وإنّي أمارس تحضير الأرواح في بيتي فلعلّك تزورني يومًا...

وأعطاني بطاقته التي لم يطبع عليها إلّا الاسم والوظيفة والعنوان بشارع دير الملاك. ومع أنّني تلقّيت كلماته بحبّ لا باقتناع إلّا أنّه خطَرَ في جحيم حياتي كعبير زهر البلارنج. وفي مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر في مكتبه بالجريدة، وحدّثته عن ناجي مرقص ودَعْوته، وبإغراء وتحدٍّ معًا عرضت عليه أن نزوره معًا، ولكنّه استسخف الفكرة، وذكّرني بأنّه لم يعد يوجد فاصل بين عالمي المادّة والروح، وأنّ التوغّل في حقيقة المادّة هو توغّل في حقيقة الروح، وأنّ صديقك يدعوك إلى طقوس سحريّة في عصر الفضاء!. ولم أرَ ناجي مرقص بعد ذلك ولكنّه يهفو على قلبي أحيانًا كذكريات الصبا فأدرك أنّه يعيش في ركن من نفسي...

نَادِر بُرهَان

كان بطلًا من الأبطال في حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائيّة ما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٥. كان يكبرنا بأعوام، وكان قويًّا طويل القامة، ومنذ أوّل يوم لنا في المدرسة قيل لنا إنّه زعيم التلاميذ بالمدرسة. وكنّا نلتفّ حوله في فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام. وكان يقول:

ـ لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد، أي جنود الوطن...

وكان يقول أيضًا:

ـ علينا أن نوطّن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حتّى المشنقة، فلا قيمة للحياة بلا حرّيّة، ولا حرّيّة بلا تضحية، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيمًا وعلينا أن نكون جديرين بزعامته...

وكنت أجلّه وأعجب به وكان رضا حمادة يعبده ولم يجرؤ سيّد شعير أو خليل زكي على السخرية منه، أمّا إذا حدّث عن زياراته لبيت الأمّة ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهرنا لحدّ الجنون، ونفد منّي الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت:

ـ أريد رؤية سعد بالعين فهلّا أخذتنا إلى بيت الأمّة؟

فنظر إليّ بعطف وقال:

ـ ما زلت صغيرًا تسير في بنطلون قصير، وزيارة بيت الأمّة مغامرة خَطِرَة لا رحلة آمنة...

وكان إذا تقرّر إضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتّى تنتظمنا طوابير الصباح، ثمّ يتقدّم خطوات إلى الأمام ويأخذ في التصفيق بقوّة، وسرعان ما تدوّي الطوابير بالتصفيق. وعند ذاك يبادر ضبّاط المدرسة إلى طوابير التلاميذ الصغار فيمضون بهم إلى الفصول بسماح من التلاميذ المضربين فنمضي ونحن نهتف بحياة سعد، ويذهب الباقون في مظاهرة على رأسها نادر برهان إلى الطريق فيلتقون بتلاميذ المدارس الأخرى، وفي إحدى المظاهرات أصيب برصاصة في ساقه فقضى في المستشفى شهرين ثمّ لازمه عرج خفيف بقيّة عمره. وتحت زعامته اشتركتُ في أوّل مظاهرة في حياتي

عام ١٩٢٤. دعانا إلى الإضراب وخطب فينا قائلًا إنّ الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وإنّ سعد زغلول رئيس الوزراء ـ تلك المرّة ـ يقف في صلابة للدفاع عن حقوق الشعب، وإنّ علينا أن نذهب إلى ميدان عابدين لتأييد الزعيم. ولّما كانت الحكومة شعبيّة لأوّل مرّة، ولّما كان رئيسها هو وزير الداخليّة، فقد سمح لنا بالاشتراك في المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلميّة، وسرنا في حشود هائلة من التلاميذ والطلّاب وأهل البلد حتّى اكتظّ بنا ميدان عابدين، ورحنا ندقّ باب القصر بأيدينا ونهتف «سعد أو الثورة»...

وترامى من بعيد هدير هتاف شامل إيذانًا بمقدم الزعيم لمقابلة الملك. واشتدّ الضغط حول ممرّ ضيّق شقّه رجال الشرطة بصفّين منهم لتسير فيه سيّارة الزعيم، وقلت لرضا حمادة بسرور غامر:

ـ سترى أعيننا سعد زغلول.

فقال بحماس:

ـ نعم ولو لبضع ثوانٍ...

وتسلّلنا بخفّة وعناد حتّى بلغنا حافة الممرّ، ورأينا السيّارة قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلّقون بأركانها ويقفون فوق غطائها. وتطلّعنا بأعين ملهوفة نهمة ولكنّنا لم نرَ إلّا أجساد البشر ولم يتجلّ من الزعيم ملمح واحد، وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلًا.

ولّما انتقلت إلى المدرسة الثانويّة انقطعت عنّي أخبار نادر برهان. لم أره ولم أسمع عنه، افترقت عنه عام ١٩٢٥ وانقضت أربعون عامًا حتّى صادفته في مقهى أسترا شتاء عام ١٩٦٥. كنت عائدًا من لقاء نهاريّ مع أماني محمّد فملت إلى مقهى أسترا لأشرب فنجان قهوة فرأيته جالسًا وحده، بدينًا عملاقًا، ومعطفه مثنيّ على ظهر كرسيّ إلى جانبه. عرفته من أوّل نظرة، وخيّل إليّ أنّه لم يتغيّر كثيرًا رغم أنّه كان في الستّين، حتّى شعر رأسه ظلّ أسود عدا سوالفه. وأقبلت عليه باسمًا فنظر إليّ بإنكار ولكنّه صافحني، فلمّا ذكّرته بالمدرسة الابتدائيّة والزعامة تهلّل وجهه ودعاني للجلوس فجلست. قلت له:

ـ عيني عليك باردة، لم تتغيّر.

فقال ضاحكًا:

ـ أنا من أسرة معمّرين لا يموتون إلّا في الحوادث.

وذكّرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر فاتّضح أنّه لا يعرف إلّا رضا حمادة معرفة غير شخصيّة. ولّما سألته عن حاله رحّب بالحديث جدًّا كأنّما كان يبحث عن متنفّس له. قال:

ـ بعد الابتدائيّة التحقت بالمدرسة الثانويّة في أسيوط لانتقال أبي إليها، ولكنّي رُفِتُّ في عهد محمّد محمود، ورجعت في عهد النحّاس، ثمّ رُفِتُّ مرّة أخرى في حكم صدقي، ثمّ اتّهمت في قضيّة الشروع في اغتياله وسُجنت، حُكم عليّ بعشرة أعوام ولكنّي خرجت بعفو في حكومة النحّاس التي عقدت المعاهدة، ووجدت أنّه من العبث أن أحاول إتمام دراستي الثانويّة فعيّنني الوفد وكيلًا لجريدة الجهاد في الإسكندريّة...

وسكتَ قليلًا متجهّم الوجه للذكريات لا أدري بها ثمّ قال:

ـ لم أحزن في حياتي مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحّاس والنقراشي، كان النحّاس زعيمي، وكان النقراشي أبي الروحيّ، ولم أتصوّر الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين، وسارت الأحداث في المجرى الذي تذكره، فبلغ بي التقزّز مداه. ولّما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة ١٩١٩ وتحقّق لنا الاستقلال ولو بعد حين، فقد قرّرت اعتزال السياسة، وصادف ذلك وفاة أبي ووراثتي لقدر لا بأس به من المال ففتحت مطعم سمك في سيدي جابر وفتح الله عليّ...

ـ إذن اعتزلت السياسة؟

ـ منذ عام ١٩٣٧.

ثمّ وهو يعتدل في اهتمام:

ـ ولكنّي لم أنقطع عن متابعة الأحداث، لعلّي السمّاك الوحيد الذي يفلّي الجريدة قبل أن يقول يا فتّاح يا عليم...

ثمّ وهو يهزّ رأسه في أسى:

ـ وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن، وكلّما تسلّل إلى الوفد ضعفٌ أو انصرف عنه جيل من الشباب تقطّع قلبي، ولكن ما باليد حيلة...

فقلت:

ـ لكلّ شيء شباب وشيخوخة، تلك سنّة الحياة.

ـ ولكنّ الوفد في حياتنا يمثل عصر الفتوّة والبعث، دلّني على أيّ فترة تاريخيّة منذ عهد ما قبل الأسر حتّى اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ساد وتعملق أيّام الوفد!

ثمّ وهو يضحك:

ـ ولّما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذي اتّخذته بحلّ حزبّي قبل أن أُرغَم عليه أو على ما هو أسوأ منه...

ـ ولكنّك قدّرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شكّ؟

ـ الاعتراف بالحقّ فضيلة، ولكنّي لا أغتفر لها محاولة النيل من زعامة سعد زغلول.

فقلت:

ـ للسياسة مقتضياتها، وأظنّك لا تنسى موقف مصطفى كامل من أحمد عرابي.

فسألني باهتمام:

ـ هل شاهدت جنازة مصطفى النحّاس؟. كانت ردّ اعتبار شعبيّ لسعد وللوفد ولأكبر ثورة شعبيّة في حياتنا...

وأخبرني أنّه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين لانتقال كريمته إليها بحكم الزواج، ثمّ حدّثني عن أسرته فقال:

ـ ابني الأكبر سمّاك مثلي، الأوسط مهندس، الأصغر ضابط طيّار...

ومنذ ذٰلك التاريخ واظبت لدى كلّ تصييفة في الإسكندريّة على تناول العشاء ولو مرّة في مطعم زعيمي القديم. وفي صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينًا على غير عادته. وقال لي:

ـ في أواخر العام الماضي هاجر ابني المهندس إلى كندا!

ثمّ بنبرة متهدّجة:

ـ وفي شتاء هٰذا العام استشهد ابني الطيّار في سبيل الوطن!

هجار المنياوي

كان الشيخ هجار المنياوي مدرّس اللغة العربيّة في مدرستنا الابتدائيّة، ولحق بنا في المدرسة الثانويّة، وكان من أهل الصعيد، ينطق بلهجتهم، قويّ البنيان طويل القامة غامق السمرة، قليل العناية بمظهره، فعمّته أصغر ممّا ينبغي ولا ذوق له في اختيار ألوان الجبّة والقفطان، ولكنّه كان يفرض الاحترام بقوّة شخصيّته والتمكّن من مادّته وشجاعته الفائقة، ولم يكن متزمّتًا، كان يحبّ النكتة، ويروي لنا جميل الأشعار، ومرّة تبارى في فناء المدرسة مع مدرّسي الرياضة البدنيّة في التحطيب، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حادّ. ومرّة دخل جعفر خليل الفصل متأخّرًا بعد أن انتظمنا في مجالسنا، وكعادته في حبّ المزاح، قلّد أستاذنا فقال له:

ـ عم صباحًا.

وضحك الفصل وانبسط جعفر، وتركه الشيخ هجار حتّى جلس، ثمّ ناداه:

ـ جعفر خليل.

فوقف فقال له بهدوء:

ـ أعرب «عم صباحًا».

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يوميّة التلاميذ وأعطاه صفرًا، فاحتجّ جعفر قائلًا:

ـ إنّها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

ـ ولِمَ تستعمل ما لا تفهمه؟

أمّا جانبه الجادّ فكان فذًّا لا يتكرّر. كان في المدرسة الابتدائيّة ـ عصر الثورة ـ مدرّسًا للّغة العربيّة والوطنيّة. فلدى أيّ مناسبة يفتح باب الحديث الوطنيّ، يستعيد الذكريات المجيدة، ويشيد بالأبطال، ونحن نتابعه والدموع في أعيننا. وكان يحدّث عن سعد زغلول وكأنّه وليّ من أولياء الله أو صاحب معجزات، معتبرًا زعامته رسالة سماويّة ومعجزة تاريخيّة، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته في المحاماة، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة الحقّانيّة،

وزعامته، وتحدّيه لقوّة الإنجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

ـ ببلاغته عبّأ الشعور، وباسمه قامت الثورة. . .

وكان يعرّف التلميذ الكامل فيقول:

ـ هو مَن يحصّل العلم ويثور على الطغاة.

وكنّا نحبّه بقدر ما نجلّه، ونتلقّى عنه الوطنيّة والأصالة، وبفضله أحببنا اللغة العربيّة وعشقنا أشعارها.

وفي المدرسة الثانويّة تغيّر مذاق الجهاد، فتوارت عنّا وجوه الإنجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريّين الموالين لهم واحتلّت الحزبيّة المكان الأوّل في الصراع، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوّة والصلابة، وكان يقول:

ـ المعركة هي المعركة ولْكنّ الأعداء ازدادوا عددًا فوجب علينا مضاعفة الجهاد.

ويوم أضربنا على عهد محمّد محمود، اليوم الذي استشهد فيه بدر الزيادي، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثًّا إيّاهم على الانتظام في الدراسة، وكان في طبعه حدّة تثور على التحدّي وتنفجر غضبًا أعمى، فاعتلى المنصّة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب:

ـ العِلْم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلّا ضمائركم فارجعوا إليها. . .

وكتب الناظر تقريرًا عنه فرفعه إلى وزير المعارف وسرعان ما تقرّر فصله. ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتّى اضطرّ إلى الفرار من المدرسة، واضطرّت الوزارة إلى نقله حماية لحياته. وقد عاد الشيخ إلى المدرسة في عهد الوفد ولْكنّه فُصل مرّة أخرى في عهد صدقي، فعمل في مدرسة بين الجناين الأهليّة التي كان يملكها رجل وفديّ معروف. وفي حكومة المعاهدة تعيّن مفتّشًا بالوزارة وسُوّيت حالته تسوية عادلة. وفي انتخابات ١٩٤٢ رشّح نفسه على مبادئ الوفد فنجح، كما نجح مرّة أخرى عام ١٩٥٠. وقد التقيت به مرّات في بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه. ولّما صدر قرار حلّ الأحزاب ـ بعد ثورة يوليو ـ رجع إلى قريته في الصعيد فلم يبرحها، ولا أدري إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربّه. وممّا يذكر أنّه في سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت مارًّا أمام نادي الجيش القديم بالشاطبي، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين في فناء النادي يحيط بهم جند، وسمعت من بعض المارّة بأنّهم اعتُقلوا وسيرحُلون إلى القاهرة، ورأيت بين الضبّاط الذين يشرفون على الإجراءات الضابط محمّد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوي. تأمّلت الموقف، نظرت طويلًا إلى الابن، تذكّرت الأب، ثمّ خُيّل إليّ أنّي أسمع هدير الزمن وهو يتدفّق حاملًا متناقضاته المتلاطمة.

ودَاد رُشْدي

رأيت وداد رشدي لأوّل مرّة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بإدارة السكرتاريّة يومًا من أيّام ١٩٦٥، وكانت عملاقة، تمتدّ طولًا وعرضًا، ولْكنّها رشيقة بالنسبة لحجمها، وقسماتها كانت كبيرة في ذاتها، ولْكنّها مقبولة وجميلة في موضعها من الجسم المترامي، وبصفة عامّة يوحي منظرها بالقوّة والجمال والطلاقة كتمثال، وتوّثر نظرة عينيها العسليّتين بجرأتها غير العاديّة، هٰذا إلى جاذبيّة جنسيّة نفّاذة كالعطر الفوّاح. وكلّما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر إليّ حتّى ثارت تساؤلاتي. قدّرت عمرها بالثلاثين، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنّها متزوّجة، وجعلت أتساءل عمّا يدعوها إلى ملاحقتي بنظراتها، وكانت علاقتي بأماني محمّد ما زالت في عنفوانها. وخيّل إليّ أنّي عرفت السبب عندما أقبلت هي وكاميليا نحو مكتبي، جلستا على كرسيّين متقابلين أمام المكتب، وقالت كاميليا:

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ نريد استطلاع رأيك في مسألة؟

فسلّمت وأنا أقول:

ـ تحت أمركما. . .

فقالت كاميليا:

ـ صديقتي وداد رشدي، ستحدّثك بنفسها. . .

وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذي درجة عالية

تناسب حجمها:

ـ المسألة بكلّ بساطة أنّي حصلت على ليسانس الحقوق منذ خمسة أعوام، لكنّي تزوّجت ولم أتوظّف، وزوجي الآن مُعار في الكويت لمدّة عام، وأفكّر في التوظّف فهل يمكن إتمام ذٰلك عن طريق إدارة القوى العاملة؟

فقلت:

ـ كلّا، ولكن جرّبي حظّك بطلب خاصّ أو بالاشتراك في أيّ مسابقة يعلّن عنها...

ـ واضح أنّ الأمل في تلك الحالة ضعيف...

ـ لا أقول إنّه قويّ، ولكن عليك أن تجرّبي...

وقالت كاميليا زهران:

ـ إنّها أمّ لطفلتين ومع ذٰلك تريد أن تتوظّف...

فقالت وداد:

ـ جميع زميلاتي متزوّجات وموظّفات!.

فسألتها:

ـ وماذا عن الطفلتين؟

ـ لن ألقى المتاعب من هٰذه الناحية...

ـ وماذا عن زوجك؟

ـ موافق...

وقالت كاميليا:

ـ ساعِدْها بما تستطيعه...

وزكّت وداد نفسها قائلة:

ـ نحن جيران من الزمن القديم!

فتساءلتُ بدهشة:

ـ حقًّا؟

ـ لا تذكر لأنّي كنت صغيرة، ذٰلك تاريخ يرجع إلى عشرين عامًا وكنت في العاشرة، ثمّ غادرنا حيّكم منذ خمسة عشر عامًا وأنا في الخامسة عشرة...

ـ ذٰلك تاريخ قديم ولكن ليس جدًّا فكيف لا أذكرك؟

ـ أمّا أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد الباقي وجعفر خليل الله يرحمه، وسرور عبد الباقي اليوم هو دكتورنا المفضّل، وما زلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة...

فقلت بحنان:

ـ يا لها من ذكريات!...

وتساءلت كاميليا بمكر:

ـ أرأيت؟!

وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفنتْ إليّ بخصوص الوظيفة أيضًا ولكنّي شعرت أنّها لم تكن إلّا مماحكة للمحاورة. وعجبت ماذا تريد العملاقة الجميلة المتزوّجة؟، وجعلت أقارن بينها وبين أماني محمّد، بل بينها وبين درّيّة، واستثار الوجد فدعا من غيابات الماضي حنان مصطفى وصفاء الكاتب. وسألتها:

ـ ألن تزوري كاميليا مرّة أخرى؟

فسألتني بصراحة:

ـ أتريد أن تراني؟

فلم أجد مفرًّا من أن أقول:

ـ يسعدني ذٰلك...

فسألتني بتحدٍّ:

ـ ولماذا يسعدك؟

فانزلقت إلى القول:

ـ مرآك يسعد الأنفس.

فضحكت وقالت:

ـ الإدارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق.

فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت:

ـ إذن ليكن في مكان هادئ.

ـ أتحبّ الأماكن الهادئة؟

ـ جدًّا...

ـ بشرط!

ـ أتندم؟

ـ أن تجيء بنيّة طيّبة.

ـ طبعًا.

ـ تذكّر ذٰلك.

ـ وعد.

ـ فما أهدأ مكان في نظرك؟

ـ حديقة الأسماك...

ووجدتها تنتظر بلا ارتباك ولا حياء. بلا ارتباك ولا حياء كأنّما تنتظر زوجها أو أخاها. وسرنا معًا في شبه خلاء، حتّى اخترنا مجلسًا تحت سفح الهضبة، وقالت:

ـ لعلّك تسائل نفسك عن سرّ المرأة الجريئة التي رمت بنفسها في طريقك بلا سياسة ولا لباقة؟

فقلت بسرور والرغبات تراقصني:

ـ ما دمت سعيدًا فلا معنى للتساؤل.

فقالت ضاحكة:

ـ لا تنسَ شَرْطي!

ـ أنا متذكّره.

فقالت بجدّيّة:

ـ يجب أن تعرف أنّني امرأة محترمة وزوجة مخلصة.

فقلت وأنا أستشعر شيئًا من القلق:

ـ لا جدال في ذٰلك فعيني بصيرة، وسنّ الطيش ودّعتها من قبل أن تفارقي حيّنا!

ـ تكلّم عن ذٰلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك.

ـ له الاحترام والحبّ إلى الأبد...

فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت:

ـ لم أقابلك مصادفة...

ـ حقًّا؟

ـ كاميليا حدّثتني عن زملائها، وعندما سمعت اسمك.. ماذا أقول؟، قرّرت أن أقابلك...

ـ ولكنّك ترغبين في التوظّف.

ـ لا أهمّيّة لذٰلك...

ـ لا تتركيني فريسة للحَيْرة...

وهي تضحك في سعادة ناطقة:

ـ أنا أعرفك منذ عشرين سنة!

ـ أجل...

ـ كنت من سكّان العمارة الخضراء، تذكرها؟

ـ أمام السبيل بالشارع العموميّ!

فقالت بعتاب:

ـ ولكنّي كنت في العاشرة فلم تنتبه إليّ.

ـ كنّا نمرّ تحت العمارة ولا موقف لنا تحتها وسنّ العاشرة...

ـ وسنّ العاشرة لا يستلفت النظر، ولكنّي بلغت الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه...

ـ سوء الحظّ إذا استحكم...

ـ كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظّ من نصيبي أنا.

نظرت إليها في حرج فطالعتني بنظرة صريحة جريئة ضاحكة، وقالت:

ـ فعلت المستحيل لألفت نظرك ولكنّي لم أفلح...

ـ يا لها من ذكريات كالأساطير!

ـ ولكنّها حقيقيّة، وهي تعيش في أعماقي كخيبة لا دواء لها...

فقلت بارتباك:

ـ لعلّك تبالغين.

ـ أبدًا، كلّ كلام الدنيا لا شيء بالقياس إلى حقيقة ذٰلك الماضي.

وكنت أصغي بارتياح وافتتان وبلا عاطفة، وبصراحتها العملاقة سألتني:

ـ أحقّ ما يقال عن الحبّ الأوّل من أنّه لا يفنى أبدًا؟

وتذكّرت في الحال حنان، وصفاء، ورجعت إلى قلبي الخامد، ثمّ قلت:

ـ لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة!

فقالت بحرارة:

ـ إنّه عاطفة ساحرة لا تتكرّر ولذٰلك لا يمكن أن يُنسى...

ـ وما فائدة ذٰلك؟

ـ لا فائدة.

ـ ولكنّك زوجة سعيدة.

فقالت بأسى:

ـ أجل، لا أحبّ أن أكون جاحدة، ولكنّ العين تثبت على ما ينقصها...

ـ لذٰلك فالسعادة حكمة عسيرة.

ـ زوجي رجل كامل، إنّه مثال تتمنّاه أيّ امرأة، ولكنّه لا يشاركني ميولي الخياليّة، أشعر أحيانًا بالوحدة، وتعضّني أحيانًا خيبتي القديمة!

وضحكتْ ثمّ استدركتْ:

ـ عندي تخمة من السعادة ولكنّ روحي ظمأى!

فسألتها:

ـ ما عمر زوجك؟

ـ أربعون عامًا!

ـ أنت في جنّة ولا يجوز لك أن تحلمي!

فقطّبت قليلًا ثمّ قالت:

ـ أنت كبرت، وأراهن أنّك لم تعرف الحبّ!

ترى أين صفاء؟، أما زالت على قيد الحياة؟، وهل يمكن ـ لو صادفتها ـ أن يجري بيننا مثل هٰذا

الحديث؟!. وتراجعت قائلة:

- لا مؤاخذة، صراحتي تخرجني أحيانًا عن حدود اللياقة، ولكنّي توقّعت أن تحترم عواطفي...

فقلت بحرارة:

- إنّي أحترمها من أعماق قلبي...

فقالت بتأثّر وامتنان:

- أشكرك.

ثمّ واصلت:

- أرجو ألّا ينقطع الاتّصال بيننا، أيضايقك ذٰلك؟

- سأسعد به فوق ما تتصوّرين!

- اتّصال روحيّ لن يمسّ احترامنا لأنفسنا.

- اقتراح عذب أقبله على العين والرأس.

- وليكن التليفون وسيلتنا حتّى لا نتعرّض لظلم لا نستحقّه.

- كما تشائين.

- إلّا إذا غلبني شوق فسنتقابل خطفًا.

- ما أجمل أن نتقابل ولو خطفًا!

ومنذ ذٰلك اللقاء فتحت لي حياة جديدة أبوابها فدخلتها مدفوعًا بالحنان والتعلّق بالذكريات وحبّ الاستطلاع، وعايشت روابطها العائليّة ومشكلاتها اليوميّة وما تزخر به من أبوّة وأمومة وبنوّة، وارتباطات عاطفيّة بل وجنسيّة، وخلافات ومسرّات وأمراض وأحلام وأهواء من كلّ شكل ولون.

وداد بُعْد من أبعاد حياتي لا يدري به أحد ولٰكنّه جزء من كينونتي لا يتجزّأ.

يُسْرِيَّة بَشِير

يرجعني الاسم إلى مهد الطفولة، ميدان بيت القاضي وأشجار البلح المثقلة بأعشاش العصافير، ومن نافذة جانبيّة كنت أطلّ وأنا طفل على حارة قرمز، وهي حارة مبلّطة تنحدر في هبوط، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير. كنت في السابعة أو الثامنة، وكان يعجبني منظر الشيخ بشير وهو يجلس أمام مدخل بيته في العصارى يسبّح، يضيء المكان ببشرته البيضاء ولحيته الشيباء والألوان الزاهية التي تعرضها عمامته وجبّته وقفطانه. وعندما يمضي إلى ميدان بيت القاضي في طريقه إلى الكلوب المصريّ تظهر في النافذة يسريّة. لعلّها كانت في السادسة عشرة أو نحو ذٰلك، يتجلّى منها وجه كالقمر، أبيض بهيج مريح مضيء يتوّجه شعر فاحم، وتناديني بصوت ناعم وتمازحني وأنا أتطلّع إليها سعيدًا راضيًا وعاشقًا إن جاز لابن سبع أن يعشق. والحقّ لا يمكن تفسير تعلّقي بها إلّا بالعشق، فما كانت قريبة ولا من سنّي، ولا أهدتني يومًا لعبة أو قطعة من الحلوى، ولا تحدّثت بجمال وجهها. وكانت تغريني أحيانًا بالذهاب إليها فأتسلّل من البيت إلى الحارة ولٰكنّ الخادمة كانت تدركني في اللحظة المناسبة وتحملني إلى البيت وأنا أبكي وأرفس دون جدوى. ويومًا أمطرت السماء، ووقفت في النافذة أرقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجري نهرًا ليصبّ في القبو القديم، وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتّى غطّى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولًا راكدًا يستحيل عبوره إلّا بالحمّالين أو بالكارو. ومن خلال الأمطار المنهمرة رأيت يسريّة واقفة أيضًا في النافذة وهي تشير إليّ فخطرت لي فكرة قرّرت في الحال تنفيذها. فصعدت سرًّا إلى السطح وحملت طست غسيل نحاسيًّا ومقشّة ذات يد خشبيّة طويلة ومضيت بها إلى الطريق، ثمّ أرسيت الطست فوق سطح الماء ووثبت إليه وجعلت أدفعه بالمقشّة فيسبح نحو بيت بشير، وانتبهت الخادمة ولٰكن بعد فوات الأوان، لم تستطع تلك المرّة أن تخوض الماء إليّ فوقفت عند ناصية الحارة تنادي ولا تجيب. وغادرت الطست عند باب آل بشير المثبت فوقه تمساح محنّط، ومرقت إلى الداخل حافيًا متشبّع الجلباب بالماء، وقابلتني يسريّة عند رأس السلّم فقادتني إلى الحجرة، وأجلستني قبالتها على كنبة تركيّة، وراحت تداعب شعري برقّة وأنا غارس عينيّ في وجهها المضيء، ولا شكّ أنّني رغم الجهد والبلل شعرت بالظفر والسعادة بين يديها. وأرادت أن تسلّيني فتناولت راحتي وبسطتها وهي تقول:

- سأقرأ لك الطالع!

وراحت تتابع خطوط كفّي وتقرأ الغيب ولٰكنّني استغرقت بكلّ وعيي في وجهها الجميل.

الحب تحت المطر

الحبّ تحت المطر

ـ ١ ـ

تيّار من الخلق لا ينقطع، يتلاطم في جميع الاتّجاهات. تندّ عنه أصوات من شتّى الطبقات. ويشكّل في جملته خليطًا من ألوان الطيف. سارا جنبًا إلى جنب صامتين. هي في فستان بنّيّ قصير وشعرها الأسود يتهدّل حول الرأس وفوق الجبين. وهو بقميصه الأزرق وبنطلونه الرماديّ وشعره المرسَل إلى اليمين. في عينيها نظرة عسليّة مستطلعة. وفي عينيه جحوظ خفيف ولكنّه يوائم تمامًا أنفه الحادّ المستقيم. وبقدر ما استسلمت للمشي كان هو يتحيّن الفرص. قال:

ـ الزحام لا يطاق.

فتمتمت باسمة:

ـ ولكنّه مسلّ للغاية.

واعتبر ردّها مناورة لطيفة ليس إلّا. بل استجابة لرغبته القلبيّة. وأشار بذراعه المفتولة إلى كافتيريا هارون فمالت معه إليها بلا تردّد. ومضيا إلى الحديقة الخلفيّة فاختارا مجلسًا شبه خال تحت تكعيبة اللبلاب. وتفحّصا المكان، وتبادلا نظرات. استشعر دون شكاية حرارة الجوّ المشبعة بالرطوبة. وطلب قدحين من شراب الليمون. وكان يتوثّب للكلام فيما يهمّه ولكنّه قال لنفسه فليأت الكلام في وقته وبطريقة عفويّة فهذا أفضل. قال:

ـ مضى عهد الجامعة كحلم.

فقالت تكمل جملته:

ـ بمتاعبه ومسرّاته.

ـ وما هي إلّا أشهر حتّى يتسلّم كلّ منّا وظيفته.

فأحنت رأسها بالإيجاب ثمّ تساءلت:

ـ ولكن إلى أين تمضي الدنيا؟

هذا السؤال الذي يرتطم به في كلّ مكان وزمان. إلى أين؟ حرب أم سلام؟ وطوفان الشائعات؟

ـ لتمض إلى حيث تشاء.

وشربا الليمون حتّى دمعت عيناهما ثمّ سألها:

ـ وما أخبار أخيك إبراهيم؟

ـ بخير، رسائله قليلة، ولكنّه يجيء من الجبهة مرّة كلّ شهر...

وكأنّما أرادت أن تعتذر عنه فقالت:

ـ مرزوق... لو لم تكن وحيد أبويك لاستُدعيت مثله إلى الجنديّة...

فلم يعلّق بحرف. واستسلما معًا للصمت. وعاوده التوثّب للكلام في موضوعه فقال ضاحكًا:

ـ لا يجوز أن نضفي البراءة على اجتماعنا أكثر من ذلك...

فلعبت في عينيها نظرة مرحة وقالت:

ـ إذن فاجتماعنا بريء!

فقال بجدّيّة:

ـ أعني الموضوع الذي حدّثتك عنه أختي سنيّة...

فقالت بحذر:

ـ لا تنقصك الصديقات فيما أعلم؟

فقال بجدّيّة أكثر:

ـ نحن نتحرّك بدافع اللهو كثيرًا ثمّ يجيء وقت فلا يقنعنا إلّا الحبّ الحقيقيّ...

ـ الحقيقيّ؟

ـ هذا ما أعنيه تمامًا يا عليّات...

فتردّدت قليلًا ثمّ تساءلت:

ـ ألا يُعَدُّ الزواج في حالتك سابقًا لأوانه؟

فقال بازدراء:

ـ ذٰلك من كلام السلف ولٰكن لا أهمّيّة للوقت ما دمنا نسيطر على مصيرنا...

فسألته باهتمام:

ـ وهل أنت واثق من مشاعرك؟

فرمقها بحنان وهو يقول:

ـ من عيوبي الجوهريّة أنّي لا أحسن التعبير عن مشاعري، كم مرّة التقينا؟ ومع ذٰلك فلم أنوّه بجمالك أو ثقافتك مرّة واحدة!

ولّما لم تنبس سألها بحرارة:

ـ لِمَ لا تتكلّمين؟

فقالت وهي تتنهّد:

ـ لا أدري، كأنّني خائفة...

فقال برقّة:

ـ الحقّ أنّي أحبّك كأعزّ شيء في الدنيا.

فغمغمت باسمة:

ـ هٰذا أفضل...

فضحك بسرور وقال:

ـ عندي ما هو أجمل...

واعترفت قائلة:

ـ والحقّ أنّي لم أكن سلبيّة في المعركة وأنت تعلم ذٰلك...

فاستخفّه الطرب وقال:

ـ اعتبريني مجنونًا بك!

فخفضت بصرها وهمست:

ـ وأنا سعيدة كما يجدر بإنسان يبادلك مشاعرك...

فاجتاحه السرور والإلهام وقال:

ـ ما كان أحبّ إليّ أن أتلقّى هٰذه السعادة في مكان لا يشاركنا فيه أحد.

وضحكا معًا. وصمتا وهما يتبادلان النظرات. واقترح عليها الذهاب إلى حديقة ما. وقاما وهي تقول:

ـ لا تنس أنّه توجد في الطريق متاعب!

فهزّ منكبيه قائلًا:

ـ أعتقد أنّها متاعب لا تُذكر بالقياس إلى متاعب العالم!

ـ ٢ ـ

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنها. لم يبقَ من عمّالها إلّا عمّ عبده بدران النادل وعشماوي ماسح الأحذية. ومضى عشماوي بهيكله الضخم الخاوي إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شيء بعينيه العمشاوين. أمّا عمّ عبده فاقتعد كرسيًّا وسط المدخل وأشعل سيجارة. وبعد ربع ساعة مرقت سيّارة مارسيدس بيضاء أمام المقهى ثمّ وقفت على مبعدة يسيرة لصق الطوار فرفع عشماوي رأسه نحوها وهو يقول:

ـ الأستاذ حسني حجازي.

وقام عمّ عبده بدران ليستقبل القادم الذي أقبل بجسمه الطويل النحيل ورأسه الضخم رافلًا في بدلة بيضاء آية في الأناقة. حيّا الرجلين باسميهما واتّخذ مجلسه على حين مضى عمّ عبده ليجيئه بالنارجيلة وزحف عشماوي ناحيته ليمسح حذاءه. ولأنّ حسني حجازي هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد ـ كلّما سمح له الوقت ـ فقد نشأت بينه وبين الرجلين علاقة حميمة وحوار متبادل. والحقّ أنّه يأنس إلى وقار عمّ عبده ـ في الستّين من عمره ـ ويعجب ببذلة عمله العتيقة وصلعته المستديرة الضاربة للاحمرار ونظرة عينيه الثقيلة الطيّبة. وأيضًا فهو يعجب كثيرًا بعشماوي الذي لا يُعرف له سنّ وإن قدّره بما بين السبعين والثمانين، ويثيره منظر هيكله الضخم الخاوي كحفرة متبقّية من زمن الفتونة، ويحيّي بكلّ إجلال صموده في معترك الحياة رغم هوان الصحّة والسمع والنظر وزوال المجد. وكان عمّ عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية خاصّة، لا من أجل البقشيش فحسب، ولٰكن لعلمه بأنّها السرّ وراء زيارات الأستاذ للانشراح بالإضافة إلى حنينه إلى مسقط رأسه بشارع الشيخ قمر. والأستاذ حسني في الخمسين ولٰكنّه يفيض بحيويّة عجيبة ولم

تشب له شعرة واحدة، ويبدو أنّه يسعد حقيقة بوجوده في المقهى المتواضع بين صاحبيه وفي مناجاته الطويلة مع النارجيلة. وكالعادة بدأ الحديث بتبادل النيران في الجبهة، وتساؤلات عن الغد القريب والبعيد، وكلمات رقيقة بقصد الاطمئنان عن إبراهيم ابن عمّ عبده وغيره من المجنّدين من أهل درب الحلّة موطن عشماوي. وكان يعتبر عشماوي نموذجًا لجماهير غفيرة لا يتاح له الاتّصال بها هي المتحمّسة حقًّا للقتال بلا قيد ولا شرط، وبلا خوف، وبلا اكتراث للعواقب. وقال لنفسه علام يخافون وهم لا يملكون إلّا الكرامة والأسطورة. وقال لنفسه أيضًا إنّ المعذّبين حقًّا هم الوطنيّون الصادقون. ولّما فرغ عشماوي من مسح الحذاء اقترب عمّ عبده بدران من مجلس الأستاذ ومال نحوه قليلًا وهو يقول:

ـ عليّات ابنتي طلب يدها شابّ من زملائها.

فانبعث في صدر الأستاذ اهتمام حقيقيّ وقال:

ـ مبارك يا عمّ عبده.

فقال برضى وفي غير ما حماس:

ـ الستر مطلوب ولكنّ العريس ـ مثلها ـ لم يتوظّف بعد!

ـ هٰكذا تجري الأمور في هٰذه الأيّام.

ـ ولكنّي رجل مثقل بالأعباء والابن الوحيد الذي أتمّ دراسته مجنّد في الجبهة كما تعلم.

فقال حسني حجازي بثقة:

ـ ابنتك متعلّمة وهي تدرك ذٰلك كلّه، وماذا يقال عن العريس؟

فقال الرجل بامتعاض:

ـ على الحديدة. حال أبيه كحالي، وهو كاتب في محلّ تجاريّ...

ـ جُنّد؟

ـ معفى لأنّه وحيد أبويه.

ثمّ مستدركًا:

ـ بقيّة ذرّيّته بنات وإحداهنّ زميلة وصديقة حميمة لعليّات.

وهنئ الأستاذ مليًّا بتدخين النارجيلة ومضى يقول لنفسه إنّ النادل الطيّب يعيش أيضًا في أسطورة، وإنّ الحقيقة خليقة بأن تصعقه، وإنّ أخلاقنا غير حقيقيّة وهي تقوم على الريح.

وقال لعمّ عبده:

ـ توجد فتيات ذكيّات، يفضّلن الاقتران بالكهول الأغنياء طلبًا للاستقرار في الحياة...

فهزّ الرجل رأسه في حيرة وقال:

ـ لا أدري.

ـ على أيّ حال فإنّ كريمتك ليست واحدة منهنّ.

ـ ربّنا معها.

فقال الأستاذ حسني وهو يداري بسمة ساخرة:

ـ آمين.

فقال عمّ عبده بدران بحماس طارئ:

ـ عليّات فتاة عالية الهمّة، سعت إلى الرزق حتّى وهي طالبة، واكتسبت نقودًا لا بأس بها من الترجمة فاستطاعت أن تظهر في الجامعة بالمظهر اللائق الذي لم يكن في مقدوري توفيره لها...

ـ فتاة عالية الهمّة حقًّا...

ـ ولٰكن هل ادّخرت من النقود ما يكفي لتجهيز ولو حجرة واحدة؟

ـ هٰذه هي المسألة...

ـ أمّا هي فلا يهمّها ذٰلك على الإطلاق...

فضحك حسني حجازي وقال:

ـ جيل يستحقّ التحيّة والإكبار.

وسرحت خواطره إلى شقّته الأنيقة بشارع شريف فقال لنفسه بأنّ الصراع الحقيقيّ في هٰذه الحياة هو ما يقوم بين الحقائق والأساطير. وقال له عمّ عبده:

ـ سعادتك لم تفكّر في الزواج أبدًا...؟

ـ أبدًا.

ثمّ أشار إليه بسبّابته محذّرًا وقال:

ـ ولم أندم على ذٰلك قطّ.

وتذكّر كيف سأله صحفيّ في ريبورتاج عابر بالأستديو ـ ضمن مجموعة من العاملين في فيلم ـ سأله عن فلسفته في الحياة، وكيف بهت ولم يحر جوابًا.

ولٰكن أهو حقًّا بلا فلسفة؟!

ـ ٣ ـ

ثمينة جدًّا الساعات القلائل التي يقضيها إبراهيم عبده في القاهرة. تأبّطت شقيقته عليّات ذراعه وهو في بذلته العسكريّة ومضيا يشقّان الطريق وسط خضمّ هائل من البشر تحت فيض متدفّق من الأضواء. وكان يشبهها لدرجة محسوسة، بعينيه العسليّتين خاصّة، ورغم ما بأنفه من فطس خفيف وما في شفتيه من دسامة، وما في بنيانه من متانة. وكان يلتهم كلّ شيء بحواسّه، ويتلقّى سيلًا متواصلًا من المشاعر، ويدخل أحيانًا في وجود غريب عابر بين الواقع والحلم، أو يتردّد مع خواطره بين الواقع والحلم. وسألته أخته:

ـ كيف تجد الليلة صدمة الانتقال من باطن الأرض المزلزلة بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب؟

وكانت تستعيد كلماته القديمة بالحرف، ولكنّه أجاب بلا اكتراث:

ـ أصبحت عادة.

ـ وامتعاضك العتيد؟

فأجاب بنفس اللهجة:

ـ أصبح عادة أيضًا.

ثمّ وهو يبتسم:

ـ الموت نفسه أصبح عادة يوميّة.

فسألته برقّة وهي تتفادى من شابّ ينطلق كالصاروخ:

ـ كيف تريد لنا أن نعيش؟

ـ لا أريد تغيير نظام الكون، أريد فقط أن أشعر بأنّني أستقبل بين أصدقائي استقبال العائد من جبهة مشتعلة في سبيل الدفاع عن الوطن.

فلاذت بالصمت فمضى وهو يقول:

ـ لا أعني تكريمًا أو هتافًا، أطمع فقط في شيء من الاهتمام والجدّيّة.

ـ ولكن لا حديث للناس إلّا الحرب!

ـ ... دون المستوى المطلوب...

فقال بعد تردّد:

ـ لهم بعض العذر!

ـ اللعنة... مهما كان، مهما يكن، فالموت شيء حقيقيّ...

فضغطت على ذراعه وقالت:

ـ لا تسمح لشيء بأن يفسد عليك ساعة طيّبة...

ـ نتناول بعض الشطائر ثمّ نذهب إلى السينما.

فلم يعارض ولكنّه قال:

ـ غريب أنّني لم أعرف خطيبك مرزوق من قبل...

ـ ألا يعجبك؟

ـ شكله لطيف ولكنّ أخته ألطف!

فنظرت إليه باهتمام وهما يقفان في ظلّ عند مشرب قهوة على الناصية وتساءلت:

ـ سنيّة؟

ـ أجل، أظنّها صديقتك؟

ـ جدًّا، سبقتني بعام، وهي موظّفة بالإصلاح الزراعيّ، الظاهر أنّها أعجبتك؟

فقال بيقين:

ـ جدًّا...

فضحكت عليّات وتساءلت:

ـ حبّ من أوّل نظرة؟

فقال ضاحكًا:

ـ أعتقد أنّي نلت منها مائة نظرة...

ـ كلّ ذٰلك من وراء ظهورنا؟

ـ المهمّ...

ولمّا سكت تساءلت:

ـ المهمّ؟

ـ أهي لائقة كزوجة؟

ـ ما شروط اللياقة في نظرك؟

ـ نحن كما تعلمين أسرة محافظة؟

ـ أعترف بأنّك متشبّع جدًّا بأبي.

ـ تهمّني الأخلاق.

فلفتته إلى إعلان سينمائيّ فاضح يوشك أن يكون مضاجعة وقالت محذّرة:

ـ اخفض صوتك...

ـ أنت نفسك محافظة في الناحية الأخلاقيّة على الأقلّ...

ـ أشكر لك حسن ظنّك...

ـ والآن خبّريني؟

فقالت بضيق:

ـ ما أعرفه عنها يشهد بأنّها ممتازة.

ـ لا أحبّ أن أقلق.

فضحكت ولكنّها قالت بعطف:

ـ لا يجوز أن يقلق جنديّ لأسباب تجيشه من المدينة!

وانطفأت الأنوار بغتة كأنّما ماتت بسكتة فغرق الطريق في ظلام دامس. وهلّلت هتافات شابّة مهرّجة في عبث ومجون، وصرصرت آلات التنبيه بالسيّارات. توتّرت أعصاب إبراهيم، واجتاح رأسه أصداء أوامر خاطفة بالاستعداد والقبوع في المواقع، ولكن جاءه صوت عليّات ناعمًا وهي تقول:

ـ تنطفئ الأنوار كثيرًا لأسباب مجهولة.

فاستردّ راحته، وقبض على يدها فتراجع بها حتّى لامس ظهراهما جدار المشرب، وسألها:

ـ أيطول ذلك؟

ـ من دقيقة لساعة. وأنت وحظّك!

وسرعان ما ألفت عيناه الظلام فرجع يسألها:

ـ بم تنصحينني؟

ـ ننتظر حتّى يعود النور.

ـ أعني سنيّة!

فضحكت قائلة:

ـ سنيّة!... تزوّجها إن كنت تحبّها...

ـ الحبّ ليس المشكلة!

فسألته ساخرة:

ـ بمَ نحكم عليك لو أخذنا بماضيك؟

ـ ليس الرجل كالمرأة!

فضربت الأرض بقدمها غيظًا ولكنّها لم تنبس، فعاد يقول:

ـ لا تريدين أن تعطيني رأيًا قاطعًا...

فقالت بحدّة:

ـ قلت إنّها ممتازة فتزوّجها إن كنت تحبّها.

ـ سأقابلها صباح الغد...

فضحكت عليّات وتساءلت:

ـ لماذا يطفئون الأنوار إذا كانت أمهر المؤامرات تُدبَّر في رابعة النهار؟!

ـ ٤ ـ

لم يكن الجوّ شديد الحرارة ولكنّ أشعّة الشمس تدفّقت حامية لاسعة، وترامت تحت دفقاتها حديقة الأسماك عارية أو شبه عارية. وكانا أوّل قادمين. تمشّيا بلا هدف وإبراهيم يقول لنفسه: مثل آدم وحوّاء، مثل آدم وحوّاء قبل الخطيئة، وابتسم لخواطره وهو لا يدري فضبطت سنيّة ابتسامته وسألته بحياء:

ـ ترى ماذا يضحكك؟

فارتبك ثانيًا ولكنّه قال:

ـ لأنّي سعيد!

وبسط راحتيه لأشعّة الشمس وقال:

ـ يوجد مجلس تحت الجبلاية.

وذهبا صوب الجبلاية تفعم أنفيهما رائحة نباتيّة تزفرها الأعشاب المخضلّة برشاش الماء. وكانت متوسّطة القامة أو دون ذلك بقليل فلم تجاوز قمّة رأسها الكستنائيّ منكبه ولكنّها كانت متناسقة التكوين وذات عينين خضراوين صافيتين. وجلسا متجاورين فوق أريكة من جذع النخيل. قال:

ـ حضورك منّة عظيمة.

فقالت ببساطة:

ـ لسنا غرباء فنحن أسرة واحدة.

وأضفى القبو على الجوّ قتامة، وجرت في ثناياه نسمة رطبة كحال الأماكن التي لا تزورها الشمس. وكانت أعينها تكلّمت كثيرًا أمس فلم يشعرا في جلستها بغربة مطلقة. ولاحظ أنّها تنظر إلى بدلته العسكريّة بحبّ استطلاع فسألها:

ـ ليس لك أهل مجنّدون؟

فهزّت رأسها بالنفي فقال:

ـ إنّها لا تمنع من التفكير في المستقبل كأنّنا نعيش أبدًا!

فقالت بعذوبة وحرارة:

ـ الأعمار بيد الله وحده.

فابتسم في تسليم وارتياح. وقال لنفسه لا يمكن اقتحام الموضوع بلا تمهيد، ولا يجوز ـ في ذات الوقت ـ أن يطول التمهيد ما دامت فرصة اللقاء لن تتجدّد قبل شهر كامل إن وُجدت أصلًا! ولعلّها

حامت حول الأفكار نفسها ولٰكنّها وجدت مخرجًا فقالت:

- الحياة هناك شاقّة بلا شكّ؟

وامتنّ لسماع ملاحظتها التي لا يسمعها عادة بعيدًا عن نطاق أسرته فقال:

- فوق ما تتصوّرين!

- وكيف تتحمّلونها؟

فقال بصدق:

- أصبحت أومن بأنّ الإنسان يستطيع أن يعيش في الجحيم نفسها وأن يألفها في النهاية.

ثمّ نظر إليها باهتمام وقال:

- ولا يمنعه ذٰلك من التطلّع إلى النعيم والسعادة.

فابتسمت، وتورّد وجهها القمحيّ، وتبدّت سعيدة، فقال لنفسه إنّها ليست طفلة ولا ممثّلة ولٰكنّها قويّة الشخصيّة والأخلاق، وسألته:

- ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وكأنّه لم يسمع سؤالها:

- علمت أنّك غير مخطوبة!

- إذن فأنت تُجري عنّي تحرّيات!

- لنا صديق مشترك، عليّات...

- ولِمَ تشغل بالك بما لا يهمّك؟

- وهنّأتني على إعجابي بك.

- حقًّا؟

فقال بلهجة ذات مغزى:

- وتمنّت لي السعادة والتوفيق...

ومرّت فترة صمت مفعمة بالرضى. واعتقد أنّه اجتاز خطًّا هامًّا، وأنّه اجتازه بنجاح، وأنّه لم يُضِعْ دقيقة من وقته الغالي سدى. وقرّرت هي التهرّب من نظراته فسألته:

- لم تجبني على سؤالي هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وهو نشوان بعواطفه:

- تحدّثت عن أشياء يقينيّة مثل إعجابي بك.

- ولٰكنّك لا تعرف عنّي شيئًا...

- القلب يعرف أكثر ممّا يتصوّر العقل.

فغمغمت ولٰكنّه لم يسمع فسألها:

- ماذا تقولين؟ أنت لم تتكلّمي بعد!

فقالت ببساطة وصراحة وبنبرة غير ملعثمة:

- أنا سعيدة!

فتجلّت في عينيه نظرة ممتنّة، وتناول يدها بين يديه بحرارة وقال:

- في المرّة القادمة سنخطو خطوة حاسمة، وحتّى يجيء ذٰلك الوقت سأحيا حياة غنيّة وجديدة رغم كلّ شيء...

- حفظك الله من كلّ شيء...

فقال بسرور:

- كسبت قلبًا جديدًا سيشعر بنا على نحو ما.

وتفكّرت فيما يعنيه، وفطن هو إلى ما تفكّر فيه فقال:

- يخيّل إليّ أنّ أحدًا لا يشعر بنا سوى أهلنا!

فارتبكت، ثمّ قالت كالمعتذرة:

- إنّها تجربة جديدة علينا، هٰذا هو الواقع، ولكن ماذا عمّا يجب أن يكون؟... ومن رأي الأستاذ حسني أنّها سياسة مرسومة...

- مَن الأستاذ حسني؟

- موظّف كبير في قسمنا بالمصلحة...

- وماذا يعني؟

- يعني أنّهم لا يريدون تعبئة الشعب للحرب إلّا قبيل دخول المعركة.

- الحقّ أنّي لا أفهم!

- ولا أنا، ولا يدّعي أحد بأنّه يفهم، هل ستقوم الحرب من جديد؟!

- في الجبهة نؤمن بذٰلك.

- هنا لا نكاد نصدّق!

- كيف ترون الأمر؟

- ممكن أن تسمع كافّة المتناقضات...

فضحك إبراهيم وقال:

- إنّكم تودّون أن تجدوا النصر يومًا ضمن أخبار الصحف...

وضحكت، وبالضحك أفلتا من حصار القلق فعادا إلى موعدهما تحت الجبلاية، وتبادلا نظرة اعتذار طويلة وحنونة.

- ٥ -

قام حسني حجازي من مجلسه فوق الكنبة الأستديو. انطلقت قامته الطويلة وسط حجرة الجلوس كالمارد. في شقّته يجد راحة شاملة وإحساسًا بالسيطرة على كلّ شيء. الدواوين والمقاعد تصلح للاضطجاع كما تصلح للجلوس، وأجهزة التسلية قائمة بالأركان وسط تهاويل الديكور، والتحف مصفوفة فوق الأرفف عارضة ألوانًا من فنون اليابان وخان الخليلي. من أعماقه يشعر بأنّها توثّق علاقته بالدنيا وتدفع عنه غوائل الفناء. مضى إلى البار فملأ كأسين من الكوكتيل الذي يعدّه بيده بخبرة وأناة ثمّ رجع إلى وسط الحجرة فوضع كأسًا فوق ذراع فوتيل على بعد قيراط من يد سنيّة. ولبث واقفًا ثمّ حرّك كأسه قائلًا:

- في صحّتك...

وأفرغ كأسه ثمّ قال:

- لم يعد غريبًا على هٰذه الحجرة أن تشهد وداع الأحبّة...

فقالت سنيّة:

- أنت رجل كريم، في الحياة والحبّ...

فقال متظاهرًا بالاهتمام:

- من حسن الحظّ أنّي حصلت أخيرًا على فيلم ممتاز لا تقلّ مدّة عرضه عن ربع ساعة...

فابتسمت سنيّة ولٰكن بلا حماس. وتذكّرت كيف صرخت عند رؤية المشهد الأوّل من أوّل فيلم. كان ذٰلك منذ سنوات وكانت طالبة بالجامعة أو تلميذة بالثانويّة. وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب. وقال بأسف:

- عليّات انتهت، خسارة فادحة...

- إنّها مخطوبة وتستعدّ للحياة الزوجيّة، ماذا تتوقّع؟

فقال في دعابة:

- لا بأس من إباحة اللهو حتّى الزفاف...

فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى:

- فكرة الزواج تخلق المرأة من جديد...

- كم من متزوّجات!...

فقاطعته:

- هٰذا موضوع آخر.

ثمّ وهي تضحك:

- ألا تريد للحبّ أن يُحترم يومًا أو بعض يوم؟!

- حاولت إقناعها...

- أهي مهمّة حقًّا عندك؟

- العشرة عندي غالية دائمًا...

فضحكت ساخرة هٰذه المرّة وقالت:

- يخيّل إليّ كثيرًا أنّ جميع النساء اللاتي يمررن من شارع شريف أنّهنّ ذاهبات إلى شقّتك أو راجعات منها...

فقهقه حسني حجازي وقال:

- جاحدة مَن تحدّثها نفسها بالسخرية من هٰذه الشقّة.

- أنت ترى أنّني جئت بكلّ احترام لأودّعها.

فهتف باسمًا:

- حتّى أنت يا سنيّة!

فقالت بسرور:

- جاء دوري يا قيصر.

- حدّثيني عنه أبوه، إنّه جنديّ، أليس كذٰلك؟

- بلى.

- أقرأ في وجهك الرضى.

- شابّ لطيف وجذّاب.

- وهٰكذا قرّرت هجر العشّ كصديقتك عليّات!

- إنّي أحبّ مَن يرغب في الزواج منّي!

وقال لنفسه إنّ المرأة مثال الحكمة وإنّها المخلوق الوحيد الذي يستحقّ أن يُعبد، ولٰكنّه قال لها مداعبًا:

- إذن فهي المصلحة...

فقالت بعجلة واهتمام:

- لقد أحببته، صدّقني...

- أنت مصدّقة ولٰكنّي سآسف كثيرًا لغيابك.

- لن تذوق في هٰذه الشقّة الوحدة أبدًا...

- ولٰكنّها مكان عبور ليس إلّا...

- إنّه شعار يصلح لأيّ مكان...

فتراجع إلى الكنبة الأستديو ثمّ جلس. أغمض عينيه قليلًا ثمّ قال:

- زرت الجبهة أخيرًا ضمن وفد المصوّرين

السينمائيّين، والتقطت صورًا لبورسعيد شبه الخالية.

هل سبق لك أن شاهدت مدينة خالية؟

ـ كلّا.

ـ كالحلم المرعب!

ـ زرت بورسعيد يومًا واحدًا قبل الحرب.

ـ أمّا أنا فعشت فيها ثلاثة أسابيع ونحن نصوّر فيلم «فتاة فلسطين» منذ أعوام، وهي تعيش وتنام كالمدن، ولكنّها تصحو في أيّ ساعة من الليل لدى وصول أيّ سفينة، وسرعان ما تخلق فيها الحياة بقوّة وسرعة فتدبّ الحركة وتشعّ الأنوار وترتفع الحرارة، وفي الأماسيّ تترامى من جنبات الميناء أغانٍ شعبيّة غاية في الفتنة...

ـ ووجدتها شبه خالية؟

ـ ولم تمسّ بسوء بخلاف المدن الأخرى.

وصمتت قليلًا ثمّ ساءلت نفسها:

ـ ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فهزّ رأسه قائلًا:

ـ لن يتهيّأ لنا ذلك في القريب، ولن يشجّعنا أحد عليه، ولكنّ الصمود يوفّر لنا أطيب شروط عقب هزيمة يونيو...

ـ الجنود يريدون الحرب...

ـ هذا طبيعيّ، وكذلك الجماهير، أمّا نحن فلا ندري ماذا نريد...

وتأوّه قائلًا:

ـ آه يا وطني العزيز!

فقالت بمرارة:

ـ أمّا نحن فكفّرنا بكلّ شيء...

ـ أنتم أبناء الثورة وعليكم أن تحلّوا مشاكلكم معها...

ثمّ سألها مغيّرًا نبرته:

ـ كأس أخرى؟

فهزّت رأسها نفيًا فقال:

ـ قلت إنّي حصلت على فيلم ممتاز!

فتساءلت ضاحكة:

ـ أتذكر فيلم القسّيس وبائعة الخبز؟

ـ هذا عن المرأتين ورجل، ثمّ ينقضّ عليهم رجل غريب جديد!

فسألته:

ـ لِمَ لا تتزوّج قبل أن يفوتك القطار؟

ـ ولكنّه فاتني يا عزيزتي.

ـ توجد زوجة مناسبة دائمًا...

ـ تكلّمي بخير وإلّا فاسكتي...

فسألته بجرأة:

ـ هل تحترم حياتك؟

ـ لم أفكّر في تقييمها بعد!

فقالت بامتعاض:

ـ ما يؤلمني أحيانًا أنّني سلّمت ابتغاء شراء أشياء، وإن تكن ضروريّة...

فقال لها بعطف:

ـ المجتمع يقوم على الأخذ والعطاء فلا تتألّمي...

فضربت الأرض بقدمها الصغيرة وتساءلت:

ـ متى نرى الفيلم الجديد؟!

ـ ٦ ـ

وخيّم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يندّ عنه إلّا قرقرة النارجيلة المتقطّعة، وكان عشماوي يتناول عشاءه ـ رغيفًا وطعميّة ـ عند الباب، أمّا عبده بدران فجلس على مبعدة يسيرة من حسني حجازي متحفّزًا للحديث أو لتقديم أيّ خدمة. وتساءل حسني حجازي في نفسه كيف يواجه رجل مثل عبده بدران أعباء الحياة الفاحشة الغلاء بأسرته الكبيرة؟ كيف تتوازن ميزانيّته المحدودة ولو اقتصر الطعام على الخبز، والكساء على مخلّفات سوق الكانتو، والمسكن على بدروم؟ وأولاده مع ذلك تلاميذ في المدارس، واثنان منهم ـ إبراهيم وعليّات ـ أتمّا تعليمهما الجامعيّ، فأيّ معجزة تمارس في غفلة من المؤمنين! وقال إنّ ما ينفقه في ليلة يكفي لإعالة أسرة بضعة شهور، ومع ذلك فهو لا يخلو من تذمّر، وإذا مرّ شهران دون عمل في فيلم طويل أو قصير تولّاه القلق فماذا يكمن وراء نظرة عمّ بدران الثقيلة الهادئة؟! وأقنعته عليّات بأنّها تحافظ على المظهر اللائق بفتاة جامعيّة بفضل النقود التي تربحها من الترجمة فصدّق الرجل الطيّب، ولم يخطر

بباله أنّ نقوده هو ضمن النقود التي تسهم في تربية كريمته! ، آه. . . يوم عرف عليّات عرف أنّها كريمة عمّ عبده بدران، وداخله قلق، وشيء من مناقشة الضمير، ولكنّه قتل وساوسه بعقله البارد. وقال إنّه لا يؤمن بذلك كلّه. ولم يتزعزع احترامه لعليّات. وقال عليهم اللعنة فهم يقبلون الضيم والظلم والاستعباد وينقلبون أسودًا فاتكة في وجه الحبّ واللهو.

وهَمّ أن يسأل عمّ عبده كيف يواجه الحياة، ولكنّه سرعان ما أقلع عن فكرته خشية أن يفسد عليه هدوء جلسة نصف الليل أو أن يشجّعه سؤاله على استجداء مساعدة أو طلب سلفة. ولّما طال صمت الأستاذ قال عمّ عبده بدران:

- تمّت خطبة إبراهيم وسنيّة أخت مرزوق.

علم بذلك في حينه فأتحف العروس بهبة ماليّة كما أتحف عليّات من قبل. ولكنّه قال:

- ليحفظ الله العريس ويسعد العروس.

- ناس طيّبون وعلى قدّ حالهم مثلنا وهي موظّفة بالإصلاح الزراعيّ!

فجاء صوت عشماوي من عند الباب قائلًا:

- لا تعجبني المرأة الموظّفة!

فقال له عمّ عبده بدران:

- جميع بنات درب الحلّة تلميذات والكبار منهنّ موظّفات. . .

فقال العجوز بسخرية:

- ولو!

- لو كانت لك بنت لتغيّر رأيك. . .

فقال بفخار:

- أنجبت أربعة كلّهم ذكور. . .

وكان حسني حجازي يسمع لأوّل مرّة عن أبناء عشماوي فسأله:

- ماذا يعملون يا عشماوي؟

- اثنان بين الخمسين والستّين في المذبح. . .

ثمّ بفتور:

- الثالث قُتل تحت الترام، والرابع في السجن!

وصمتوا دقيقة إعرابًا عن التأثّر والتأمّل ثمّ سأل الأستاذ حسني عمّ عبده:

- وهل يتزوّج إبراهيم في أوّل فرصة أو يؤجّل ذلك لوقت السلم؟

- هذا شأنه، أنا أتمنّى أن يتزوّج اليوم قبل الغد، ولكن متى تنتهي الحرب؟

- مَن يدري يا عمّ عبده. . .

- حقًّا من يدري، إنّهم يعانون معاناة الأبطال. . .

- هذا حقّ.

- ومع ذلك فلا يهتمّ بهم أحد. . .

- كلّا، ليس هذا صحيحًا، المسألة أنّ الناس لم يتخلّصوا بعد من مرارة الهزيمة. . .

وجلب حديث الحرب عشماوي من الخارج إلى الداخل فجاء بهيكله الضخم وهو يقول:

- ولكنّ الله سينصرنا في النهاية. . .

فقال حسني حجازي:

- قُل إن شاء الله.

فقال عشماوي:

- كلّ شيء بمشيئته، لا بدّ أن نهزمهم وإلّا فقُل على الدنيا السلام.

فسأله حسني:

- وإذا انتهى الموقف بحلّ سلميّ؟

فهتف العجوز الأعمش:

- أعوذ بالله.

وأراد أن يدلّل على قدرة الله فقال:

- ربّك كبير، أتصدّق أنّي ضاجعت الوليّة ليلة أمس مرّتين؟

فذهل الأستاذ حسني وهتف:

- مرّتين؟!

- وحقّ كتاب الله!

- عوفيت. . . عوفيت يا عشماوي. . .

- فلا تيأسوا من رحمة الله. . .

وضحك حسني عاليًا، ونظر صوب عبده بدران فاحنى رأسه مصدّقًا! وعاد عشماوي يقول:

- لِمَ حصل ما حصل؟. . . لأنّنا خسرنا الدين والأخلاق!

وقال حسني لنفسه: ولكن ما الأخلاق؟. . . أزمتكم الحقيقيّة أنّكم في حاجة إلى أخلاق جديدة!

- ٧ -

اكتظّت ناصية الأمريكيّين فلا موضع لقدم. تلاصق الشبّان تحت الأضواء وانحصر المارّة بين الأجسام الحارّة الفتيّة. وقلّ الكلام أو انعدم وحملقت الأعين وتحرّكت بعض السيقان بالرقص الخفيف. وثار سالك بحريمه في عباب الزحام غضبًا لكرامته الشخصيّة فيما بدا وصاح:

- اخجلوا من أنفسكم، واذهبوا إلى الجبهة إن كنتم رجالًا...

ولم يخجل أحد فيما بدا أيضًا. وتساءل صوت:

- لِمَ يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان؟

وقال صوت آخر ساخرًا:

- لعلّه يظنّ أنّهم يرسلون النساء والكهول!

وشبعت شلّة من وقفتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى «جنيفا» فتجمّعوا حول بضع زجاجات من البيرة. وجعلوا يشربون ويتكلّمون كما يحلو لهم، وغالبًا بلا ضابط ولا نظام، غير أنّ مرزوق أنور تولّى مهمّة ملء الأقداح وتوزيعها.

- مشكلة الجنس في...

قاطعه:

- في الجبهة مشكلة أهمّ.

- إنّما أتكلّم عن المشكلات الداخليّة.

- دعه يتكلّم، المقاطعة ممنوعة.

- حدّثني أحد الكبار فقال إنّه كان يوجد على أيّامهم بغاء رسميّ.

- زماننا أفضل فالجنس فيه كالهواء والماء!

- الماء لا يصل إلى الأدوار العليا.

- ولكنّه يصل إلى الأدوار السفلى!

- ليس كالهواء والماء فالبنات تعلّمن الاستغلال.

- إنّها ضرورات العصر.

- البراءة تنهزم أمام السيّارة مثلًا.

- توجد دائمًا فرص طيّبة.

- كما توجد الباصات.

- وحفلات الساعة الثالثة في السينما.

- لا أهمّيّة لذلك، المهمّ هل الله موجود؟

- ولِمَ تريد أن تعرف؟

- كان شغلنا الشاغل الوحدة العربيّة والوحدة الأفريقيّة.

- وما دخل ذلك في وجود الله؟

- أصبح شغلنا الشاغل متى وكيف نزيل آثار العدوان.

- معي دقيقة واحدة، أهو موجود؟

- كانت أيّامًا مجيدة.

- كانت حلمًا.

- بل كانت وهمًا.

- ويضيقون بوقوفنا دقائق في الناصية!

- الكلاب!

- إذا قُدّر لليهود أن يخرجوا فمن سيُخرجهم غيرنا؟

- مَن يُقتل كلّ يوم غيرنا؟

- ومَن قتل عام ١٩٥٦؟ مَن قتل في اليمن؟ مَن قتل عام ١٩٦٧؟

- يظنّ العجوز أنّ المحافظة على بنت نصف عارية هي كلّ شيء...

- علينا أن نبدأ من الصفر...

- أن تزاح عن صدورنا الكوابيس.

- لا أحد يريد أن يجيبني، أهو موجود؟

- طيّب يا أخي، إذا حكمنا بالفوضى الضاربة في كلّ مكان فلا يجوز أن يوجد!

- أليس من الجائز أنّه يملك ولا يحكم؟

- يكفي أن يكون المصريّون من عباده لكي يملك ويحكم!

- أأنت شارع في الزواج حقًّا؟

- نعم، خذ قدحك...

- لماذا؟

- لأنّي أحبّ.

- وما العلاقة بين هذا وذاك؟

- يجب أن نفعل شيئًا على أيّ حال.

- بماذا نفسّر تفشّي الزواج المبكّر بين الشبّان؟

- بالفقر!

- بالموت!

- بنظام الحكم!

- سنضطرّ إلى الوقوف غدًا من شدّة الزحام.

ـ أليس من الأفضل أن نهاجر بدلًا من أن نتزوّج؟

ـ الزواج هجرة داخليّة.

ـ الحقّ أنّه يلزمنا شيء من انتهازيّة الأجيال السابقة.

ـ لا غنى عنها في الزحام.

ـ إذن فلماذا يخشى العالم الحرب؟

ـ ليست الحرب بأفظع ما يتهدّد العالم.

ـ أيوجد ما هو أفظع؟

ـ الفرد غير آمن تمامًا بين أهله، والأسرة تخشى الجيران، والوطن مهدّد من أوطان شتّى، والعالم يحيط به عالم خفيّ من الكائنات الضارّة، والأرض قد يخربها خلل بالمجموعة الشمسيّة، والمجموعة الشمسيّة قد تنفجر وتختفي في ثوانٍ.

ـ أنت مجنون!

ـ ولكن علينا أن نضحك وألّا نسمح لشيء بأن يفسد علينا حياتنا الغالية...

ـ آمين.

ـ آمين.

ـ آمين.

ـ ٨ ـ

ارتسمت في وجه عشماوي صورة غير عاديّة. انغرست في أساريره غضبة كالحة فولاذيّة انداحت فوق جفاف الشيخوخة وبروز الفكّين وتهدّل اللحيين. وعندما استقبل الأستاذ حسني حجازي لم ينجلِ شعاع واحد للبشاشة في وجهه حتّى توجّس الأستاذ خيفة مجهولة فقال ـ وهو يتّخذ مجلسه ـ لعمّ عبده بدران:

ـ خير إن شاء الله؟!

وسمعه عشماوي فأقبل نحوه حتّى وقف أمامه وتدفّق قائلًا:

ـ إنّي ألعن كلّ شيء، وألعن فوق كلّ شيء نفسي، إنّي ثائر على ضعفي وعجزي واندحاري في صندوق القمامة بلا حول، ومَن أنا؟!، أنا عشماوي الخشن، صاحب القبضة الحديديّة والنبوت المخضّب بالدماء، أنا من يرتجف عند ذكر اسمه الرجال وتتوارى النساء ويستعيذ بالله منه رجال الشرطة، أنا المجرم الجبّار الفتّاك الطاغية السفّاك النمرود الشيطان...

واختنق بأنفاسه فقال حسني حجازي بلين ودعابة:

ـ وكيف تشكو الضعف وأنت ذٰلك كلّه؟!

ـ إنّي أحكي عن الماضي، عن الماضي أحكي لا الحاضر، افهمني يا أستاذ، كنت رجل درب الحلّة وحاميها، وكان الويل نصيب من يتعرّض لأحد من أهلها بسوء، بفضلي نعموا بالسلام والأمان. بفضلي بغوا على الخلق وهم في أمن من العواقب، كان اسمي قانونًا وسيفًا ونعمة وغنى وفقرًا، ماذا جرى يوم اعتدى نذل من القبيسي على رجل من حارتنا؟ هجمت على الحيّ كالقضاء والقدر، لم أفرّق بين متّهم وبريء، تهاوت الضربات على رءوس المارّة، حطّمت الدكاكين، احترقت عربات اليد، انهمرت الأحجار على النوافذ والأبواب، واسأل عنّي أيّام سعد، ولا تسأل عن عدد ضحاياي، وقد عُرفت بشارب الدماء مذ ذبحت إنجليزيًّا وشربت دمه المسفوح، هٰذا هو عشماوي الخشن!

فقال حسني حجازي وهو يلعنه في سرّه:

ـ تاريخك معروف يا عشماوي ولكن لِمَ أنت غاضب؟!

ولكنّ العجوز لم يجب. ورجع إلى مجلسه عند الباب وغرق مرّة أخرى في الحزن والصمت. ونظر حسني حجازي إلى عمّ عبده بدران في فضول فقال عمّ عبده بدران بإشفاق بلغ حدّ الخوف:

ـ أصيب شابّان من أهل درب الحلّة.

فقال حسني باستنكار:

ـ ظننت أنّ أيّام الفتونة والمعارك قد انتهت إلى غير رجعة.

فقال عبده بدران بوجه شاحب:

ـ أصيبا في الجبهة!

فوجم حسني حجازي، ثمّ تفكّر في كلمة مناسبة يقولها، ولٰكنّ عشماوي سبقه صائحًا:

ـ قصدتني جدّة أحدهما مستغيثة بي كالأيّام الخالية، ظنّت الوليّة أنّ عشماوي ما زال كعهده القديم يُستغاث به فيغيث!

فقال حسني حجازي:

- إنّهما بطلان يا عشماوي...

فقال الرجل بحنق:

- أنت لم ترهما ولم ترَ العنبر...

- زرتهما في المستشفى؟

- زرتهما، رأيت وسمعت وشعرت بعجزي فلعنت كلّ شيء كما لعنت نفسي.

فقال حسني بروح عالية وهو يقصد أوّلًا عمّ عبده بدران:

- هما بطلان، وهٰكذا الحرب في كلّ زمان ومكان.

فصاح عشماوي:

- إنّي ألعن العجز...

- سليمة سليمة بإذن الله.

وقال عمّ عبده بدران ليبدّد مخاوفه الشخصيّة بدعابة:

- وأنت يا عشماوي ألا تطالب دائمًا بالحرب والنصر؟

فتحوّل غضبه إلى حزن وهو يردّد:

- الحرب والنصر ولكنّي عجوز لا خير فيه!

- حسبك أنّك شربت من دم الإنجليز في شبابك!

ثمّ نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسني وقال:

- في الثورة الأولى كنت دون السنّ اللازم للجهاد واليوم أنا فوق السنّ المناسب للحرب فلم أفعل شيئًا يذكر للوطن...

- ولكنّ ابنك في الجبهة، خبّرني هل يؤلمك تصوّرك أنّك لم تفعل شيئًا؟

- أحيانًا ولكنّ أعباء الحياة تغرقني حتّى القمّة!

وتذكّر حسني أنّه ذو موقف مماثل، وأنّه كان يحاسب نفسه في أزمات تلمّ به، وأنّه كان يطفئ سعارها ببرودة العقل الخالدة، وأنّه أوشك أن يقنع نفسه بأنّه يفتح شقّته للأفراح البريئة والخير! وسأله عبده بدران:

- على أيّ وجه سينتهي الموقف يا أستاذ؟

فضحك حسني عاليًا وقال:

- السؤال الخالد! ماذا يمكن أن يقال؟ فلننتظر...

- ولكنّ الموت لا ينتظر.

- إنّه سباق ونحن لا نموت وحدنا!

وعند ذٰلك تساءل عشماوي:

- وهل أولاد الأغنياء يُقتلون أيضًا؟

فلم يتمالك حسني نفسه من الضحك وقال:

- ولكنّ التجنيد لا يفرّق بين غنيّ وفقير يا عشماوي...

فهزّ رأسه في ارتياب وعاد يسأل:

- وهل يرسلونهم حقًّا إلى الجبهة؟... قلبي يحدّثني بغير ذٰلك!

- لا تصدّق قلبك يا عشماوي.

وعكف على النارجيلة. وقال لنفسه إنّ جلسة الليلة خسرت هدوءها العتيد، وإنّ الحزن فيها امتزج بالضحك، وإنّ الهزيمة مُرّة وعواقبها تنتقل من مركز الى مركز في المخّ ولكنّها لن تمحى، وإنّ جبلًا شامخًا انهار، وتبدّد حلم عجيب، وإنّ خير ما يريح به نفسه أن يترك الأمانة لحامليها. وساءل نفسه وهو ينفث الدخان من فيه وأنفه أين يجد مكانًا لا يتردّد فيه ذكر الحرب؟!

- ٩ -

جمعت الشرفة المطلّة على النيل الصديقات الثلاث: عليّات عبده وسنيّة أنور ومنى زهران. وكان الخريف يبثّ في الجوّ برودة لطيفة ويزيّن سماء الأصيل بسحب ناصعة البياض. وقد لبّت عليّات وسنيّة دعوة عاجلة الى مسكن منى بالمنيل فتوقّعتا أخبارًا جديدة وسعيدة. وهنّ صديقات حميمات منذ الدراسة الثانويّة، وتمتاز منى بجمال رائق يتمثّل في بشرتها الضاربة للبياض وعينيها السوداوين الجذّابتين وقامتها الرشيقة المائلة للطول، كما تمتاز بأسرتها المتوسّطة ذات الدخل الموفور- الأب مدير إدارة ثانويّة والأمّ ناظرة مدرسة متقاعدة باختيارها- فضلًا عن أنّها موظّفة بالسياحة منذ عام. وكان لها شقيقان أحدهما مهندس في بعثة بالاتّحاد السوفيتيّ والآخر طبيب بالمنوفيّة ويتوقّع اختياره في بعثة قريبة، ولذٰلك كانت طموحة تداعبها الأحلام ولا تستقرّ. وكان مسكن منى يذكّر عليّات وسنيّة بمسكن الأستاذ حسني حجازي رغم الفارق المحسوس بينهما ولكنّ الحسد لم يتسلّل إلى نفسيهما بفضل العلاقة الحميمة الحارّة. وقد توقّعتا أخبارًا جديدة وسعيدة

ولكنّ منى قالت باقتضاب مثير:

- فسخت خطوبتي قبل أن تعلن!

انزعجت الفتاتان حقًّا، وقالت عليّات:

- غير معقول!

وقالت سنيّة:

- أيّ خبر!

وكانت منى قد قدّمت لهما - منذ شهر - في دار الشاي الهنديّ شابًا يدعى سالم عليّ، قاضٍ بمجلس الدولة، باعتباره الصديق والخطيب المنتظر، ولذلك توقّعتا من وراء الدعوة العاجلة أخبارًا جديدة سعيدة لا هذا الخبر الأسيف. وقالت سنيّة وهي تهزّ رأسها هزّة ذات معنى:

- وطبعًا كنت أنت البادئة!؟

فقالت منى بتحدّ:

- ظنّك صادق دائمًا معي!

- ولكنّه شابّ جذّاب وذو مركز يا منى؟

وقالت عليّات:

- وكان واضحًا أنّه يحبّك وأنّك تبادلينه الحبّ؟

عند ذاك تململت منى من الضيق وربّما من عاطفة لم تستطع بعد أن تقتلعها من أعماقها، فثبت لهما أنّها إنّما دعتهما لحاجتها إلى الأنس والعزاء، ولكنّها قالت بنبرة لم تخلُ من حدّة:

- عرفت عن يقين أنّه يقوم بتحرّيات عنّي!

وساد الصمت حتّى قالت سنيّة:

- أهذا ما أخذته عليه؟

- وهو كافٍ وفوق الكفاية.

فقالت عليّات:

- أراهن على أنّه فعل ما فعل بحسن نيّة!

- أنا لا أتّهمه بسوء النيّة ولكن بسوء العقليّة أتّهمه...

ثمّ مستدركة بانفعال شديد:

- ولم أتردّد فواجهته بالتهمة، تلعثم وحاول أن يفسّر سلوكه بغير بواعثه الحقيقيّة ولكنّي رفضت تفسيره وطالبته باحترام نفسه فاعترف واعتذر بسخافات لا أذكرها ولا أحبّ أن أذكرها فلم أقبل عذره، وقلت له ولِمَ لا تسعى إلى الزواج عن طريق خاطبة، وسألته عمّا يريد معرفته عنّي أكثر ممّا يعرف أو ممّا يمكن أن يعرف بالاتّصال المباشر وبالحبّ المزعوم، قال إنّه بريء وإنّه يحبّني وإنّ سمعتي نقيّة مثل الورد فضحكت ساخرة وقلت له إنّي أحتقر تحرّياته وأحتقر النتائج التي وصل إليها وإنّه خُدع أو إنّه لم يُحسن التحرّي، وقلت له ماضيّ ملكي وحدي كما إنّ ماضيه ملكه وحده وإنّني أرفض كافّة أنواع العبوديّة في أيّ زيّ تزيّت وبأيّ اسم تحلّت، وإنّه لا يصلح لي كما لا أصلح له...

وسكتت وهي تلهث والغضب يرتعش في شفتيها ويدلهمّ في عينيها. وبدا أنّ صديقتيها لا تؤيّدانها في موقفها وإن شاركتاها في الإحساس والرؤية. تساءلت عليّات:

- ألم تبالغي يا منى؟

وقالت سنيّة:

- هي تقاليد بلادنا!

فهزّت منى رأسها بعناد وقالت:

- إنّي أرفض ذلك كلّه...

فقالت سنيّة:

- إنّهم معقّدون ويحتاجون إلى ترويض طويل.

وقالت عليّات وكأنّما تُتمّ الكلام:

- لا إلى التحدّي...

فقالت منى بعجرفة:

- أفضّل أن أبقى بلا زواج إذا كان الثمن كذبة سخيفة وجراحة دنيئة!

فقالت عليّات:

- ولكنّ ظروفنا حرجة كما تعلمين...

- لا يمكن أن أتهاون في مبادئي وأخلاقي.

أجل فهي معروفة بأخلاقيّاتها. وهي لم تمارس الجنس إلّا بدافع من الحبّ، ولم تضطرّ - مثلهما - إلى ممارسته في أحيان كثيرة لاقتناء ما يحتاجان إليه من ملابس وأدوات زينة وكتب. ولعلّها كانت تحتقر سلوكهما وإن عطفت عليه من أعماق قلبها المحبّ. وقد تابعت خطوات خطوبتها وما اقتضته من شهادات الزور والأكاذيب وغير ذلك، ولم ترتح لشيء منه وإن تعزّت بأنّ جميع تلك السخافات إنّما ارتُكبت باسم حبّ حقيقيّ. وكانت محاولة إثنائها عن موقفها ميئوس

منها لما تعرفان من عنادها وكبريائها ومثاليّاتها، فسلّمتا بالواقع في حزن وكآبة. وقالت لها عليّات:

- أنت يا منى جميلة وممتازة وجديرة حقًّا بزواج سعيد!

فسألتها منى:

- ترى هل تطمئنّان إلى مستقبلكما القائم على كذبة كبيرة؟

فقالت سنيّة:

- إنّه يقوم على الحبّ.

أمّا عليّات فقالت بقلق:

- إنّ رجلًا مثل حسني حجازي خليق بصون سرّنا.

فقالت منى:

- حسني حجازي لا نتوقّع منه الخيانة.

فعادت عليّات تقول:

- أحيانًا أتذكّر المصادفات المرعبة التي تقلب الأمور في السينما!

فقالت سنيّة بقوّة متحدّية:

- لم يكن في وسعنا أن نفعل خلاف ما فعلنا وعلينا أن نواجه مصيرنا.

وفجّرت الزيارة في نفس عليّات وسنيّة دوّامات من القلق ولكن استقرّ في أعماقهما في النهاية قول سنيّة «علينا أن نواجه مصيرنا».

- ١٠ -

لم تسعد منى بانتصار كبريائها. أو لم تسعد كما قدّرت. وفي أوقات انفرادها بنفسها غزتها الكآبة كالغبار. خافت أن ترتكب حماقات بلا نهاية. اعترفت لنفسها المتمرّدة بأنّها ما زالت تحبّ سالم على رغم حماقته وسخافاته. أدركت أنّها تقف حيال مشكلة وأنّ المشكلة تتطلّب على أيّ حال حلًّا. وجاء شقيقها الدكتور عليّ زهران إلى القاهرة في إجازة فسُرّت بحضوره وقصّت عليه تجربتها الفاشلة. وأسف الرجل ولكنّه كان مستغرقًا بهموم طارئة فقال لها:

- إنّي أفكّر في الهجرة!

فدهشت منى وتمتمت:

- الهجرة؟!

- الحقّ أنّي جاوزت مرحلة التفكير فاستقرّ رأيي على الهجرة.

- ولكنّك تنتظر فيما أعلم بعثة علميّة؟

- لم ألقَ إلّا المماطلة، ففكّرت في الهجرة ثمّ استقرّ رأيي عليها.

- وكيف يتمّ لك ذلك يا أخي؟

- إنّي على وشك الانتهاء من بحثي عن الطفليّات وسوف أرسله إلى زميل مهاجر بالولايات المتّحدة ليعرضه على الجامعات وبعض المراكز الطبّيّة ومن ثمّ أنتظر أن أدعى للعمل في إحداها، وهو ما حصل معه بالضبط...

فشهقت بقوّة من شدّة الانفعال وقالت:

- أهاجر معك!

ثمّ بثقة:

- إنّي متخصّصة في الإحصاء وأتقن الإنجليزيّة.

فابتسم الدكتور وقال:

- لئن نهاجر اثنين خير من أن أهاجر وحدي...

وعارض الوالدان الفكرة، ولم يدركا لها حكمة ما دام للشقيقين مستقبل مرموق في مصر، فقال الدكتور لوالديه:

- البلد بات مقرفًا.

وقالت منى:

- وهو لا يطاق.

وأراد الأب أن يستثير عاطفتهما الوطنيّة ولكنّ الدكتور عليّ قال بجرأة عدّها الأب قاسية:

- لم يعد الوطن أرضًا وحدودًا جغرافيّة ولكنّه وطن الفكر والروح!

وتألّم الأب الذي ينتسب إلى جيل ١٩١٩، جيل الوطنيّة المصريّة الخالصة، واستمع إلى ابنه بانزعاج فخيّل إليه أنّه يطالع ظاهرة غريبة تستعصي على الإدراك والتفسير. وكان يسلّم بأنه لا يستطيع أن يثنيهما عن عزم إن اعتزماه فتساءل في جزع كيف يمكن أن يحتمل الحياة بدون وجودهما معه في وطن واحد على الأقلّ! وكانت منى تحبّ أباها كثيرًا ولكنّها لا تكاد تتّفق معه في رأي، وعجبت كيف أنّ هزيمة ٥ يونيه

فجّرت وطنيّته من جديد فعادت سيرتها الأولى على حين أنّها منيت بخيبة شاملة تدفعها باستمرار إلى تغيير جلدها خليّة خليّة. وهو ما حصل لعليّات وسنيّة وغيرهما وما حصل لشقيقها. وقالت مخاطبة الدكتور:

ـ إنّنا نحيا بلا هدف!

فقال لها بامتعاض:

ـ وأنا أحيا بلا حياة...

ـ يجب أن نهاجر.

ـ سنهاجر عند أوّل فرصة.

واعتبرت منى نفسها سائحة عابرة فشعرت براحة نفسيّة لم تشعر بها مذ قطعت علاقتها بسالم عليّ. وسرعان ما ذاع الخبر بين صديقاتها وزميلاتها وفي الأوساط التي تنتقل فيها. وراحت تحلم بحياة جديدة نقيّة توفّر للفرد سبل التقدّم والازدهار والأمن. وكانت عائدة من مكتبها عصرًا عندما وجدت أمامها سالم عليّ في ميدان طلعت حرب. لم تكن مصادفة، ولم يحاول ادّعاء ذلك، ولكنّه مدّ لها يده وهو يقول:

ـ علمت أنّك ستهاجرين إلى الولايات المتّحدة فعزّ عليّ ألّا أودّعك...

فصافحته ببرود أخفت به انفعالها وقالت:

ـ أشكرك.

ومضت في سيرها فسار إلى جانبها فرمقته باحتجاج ولكنّه تجاهلها فعادت تقول:

ـ قلت أشكرك!

فقال بهدوء:

ـ ولكنّي لن أتركك.

فسألته بالبرود نفسه:

ـ لماذا؟

فقال وكأنّه يعترف:

ـ وضح لي أنّي أحبّك وأنّني لم أستطع الإقلاع عن الحبّ.

ووجدت أنّها سعيدة لدرجة فاضحة فغضّت بصرها وهي تقول:

ـ ولكنّني وُفّقت في ذلك...

ـ إذن فلنذهب إلى دار الشاي الهنديّ.

وسارا جنبًا لجنب وقد انقلبت أحلامها رأسًا على عقب فقال وهو يتنهّد في ارتياح:

ـ الحبّ أهمّ شيء في الدنيا!

ثمّ بارتياح أعمق وشى بما عاناه من عذاب:

ـ أي والله، الحبّ أهمّ شيء في الدنيا، وكلّ ما عداه باطل...

ونظر إليها متسائلًا:

ـ هل ستهاجرون حقًّا؟

فأجابت بفتور:

ـ نعم...

ـ ليتني أستطيع الهجرة أيضًا.

فسألته باسمة:

ـ وماذا يمنعك؟

ـ تخصّصي لا يؤهّلني لها.

ثمّ وهو يضحك:

ـ لا مفرّ من البقاء في مصحّة الأمراض العقليّة.

ـ ١١ ـ

في قرار واحد أصبح مرزوق أنور وخطيبته عليّات عبده موظّفين في الحكومة. تعيّنت هي في وزارة الشئون الاجتماعيّة أمّا هو فتعيّن في المنطقة التعليميّة ببني سويف. تكدّرت فرحة التعيين وأطلّ شبح الفراق على الحبيبين، وتساءلا كيف يجتمع شمل عروسين واحدة في القاهرة والآخر في بني سويف. وذهب مرزوق إلى محطّة مصر فصحبه أبوه وعليّات، وجلسوا حول مائدة في البوفيه حتّى يأزف ميعاد قيام قطار الصعيد. كان الأب في الستّين ولكنّه بدا أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقلّ، وكان ممّن يأخذون الأمور بتسليم وبساطة، كما كان يعتبر ابنه من «المفقودين» على أيّ حال سواء أبقي في القاهرة أم رحل إلى أسوان. لذلك شجّعه طيلة الوقت، وضرب له مثلًا بحياته هو في الثلاثينات ـ سنوات الأزمة الاقتصاديّة ـ عندما تقاذفته بلدان القطر والإفلاس يطارد التجّار ويصفّي المحالّ التجاريّة واحدًا بعد آخر. ومالت عليّات نحوه وسألته همسًا:

ـ أتعرف ذلك الرجل الذي يجلس أمامنا؟

فنظر نحو الأمام فرأى رجلًا جالسًا، يدخّن

غليونًا، ويتفحّصه بنظر ثاقب غير هيّاب فقال على الفور:

ـ كلّا.

لم يكن يعرفه ولكن خيّل إليه أنّه لا يراه لأوّل مرّة، فمتى رأى هٰذا الوجه شبه المربّع الريّان، وهاتين العينين البرّاقتين، وهٰذين الحاجبين الكثيفين، وهٰذا الرأس القويّ الأصلع؟

وهمست عليّات مرّة أخرى:

ـ إنّه لم يحوّل عنك عينيه طوال الوقت.

ولا بدّ أنّه يريد أن يحوّلها عنه بعد أن تنبّه إلى نظراته. ولم يقنع بذٰلك فقام بهدوء وتقدّم خطوات ثمّ وقف أمامهم، وأحنى رأسه تحيّة وقال يقدّم نفسه:

ـ محمّد رشوان... مخرج سينمائيّ.

فقام مرزوق أنور بدوره، أحنى رأسه وقال:

ـ مرزوق أنور... موظّف... تشرّفنا يا فندم.

فسأله وهو يواصل فحصه:

ـ أليس لك تجربة سابقة في فنّ التمثيل؟

فأجاب مرزوق بدهشة:

ـ كلّا.

ـ ألا تحبّ أن تجرّب نفسك؟

فضحك مرزوق رغم توتّر أعصابه وقال:

ـ لم يخطر لي ذٰلك ببال.

فقال وهو يهزّ رأسه هزّة خبير:

ـ عندي لك دور بطولة...

فهتف مرزوق في ذهول:

ـ بطولة!

ـ كنت مشغول البال بحثًا عمّن يلعبه فلمّا وقعت عليك عيناي وجدت ضالّتي ماثلة أمامي، فما رأيك؟

فقال مرزوق بصوت متهدّج:

ـ أمهلني قليلًا.

وقال الأب:

ـ إنّه في طريقه لتسلّم وظيفته الجديدة!

وسألته عليّات:

ـ هل يضمن بهٰذا الدور عملًا ثابتًا؟

فقال محمّد رشوان:

ـ عندي له أكثر من دور بطولة وأنا أتنبّأ له بالنجاح...

فقالت عليّات:

ـ ولكنّه لم يسبق له أن مارس التمثيل...

ـ هٰذا أفضل، سيخرج من تحت يدي كالجنيه الذهبيّ!

وكان رأس مرزوق قد دار وثمل فقال متّخذًا قراره:

ـ موافق...

فقال له أبوه:

ـ فكّر قليلًا يا بنيّ.

ولكنّه قال بإصرار:

ـ موافق وسأجرّب حظّي...

وأعطاه محمّد رشوان بطاقته وهو يقول:

ـ تقابلني غدًا في هٰذا العنوان في العاشرة صباحًا، عندك تليفون؟

فهزّ مرزوق رأسه نفيًا فقال:

ـ ودورك جديد في الواقع، دور شابّ جامعيّ مجنّد، يزور القاهرة في إجازة قصيرة فتقع له أحداث هامّة، وتحبّه سيّدة مجهولة الجنسيّة وتدعوه للهرب معها.

فتساءل مرزوق:

ـ وهل يهرب معها؟

ـ هٰذا ما سيجيب عنه الفيلم، والمهمّ أن تبقى الحال على ما هي عليه حتّى يعرض الفيلم...

ـ أيّ حال تقصد؟

ـ أقصد الموقف في الجبهة...

فسأله الأب:

ـ وهل تتوقّع أن يتغيّر الموقف قبل ذٰلك؟

ـ المنتج يؤكّد أنّ الموقف سيبقى على ما هو عليه أعوامًا... أمّا...

فتساءل مرزوق:

ـ أمّا؟

فضحك محمّد رشوان وقال:

ـ أمّا إذا انهزمنا مرّة أخرى أو حتّى إذا انتصرنا فستكون العواقب وخيمة على الفيلم وصاحبه!

- ١٢ -

التقى مرزوق بالسيّدة المجهولة الجنسيّة، كانت تطارده وهو لا يدري ولكنّها تظاهرت بالبرود وسألته سؤالًا عابرًا، وأجابها بأدب وبلا اهتمام أوّلًا، ثمّ جذبه بغتة جمالها المضيء فصعق تمامًا. وكان يرتدي بدلته العسكريّة وتتجلّى البراءة في عينيه.

ووقف وراء الكاميرا ضمن نفر من المراقبين عليّات عبده وسنيّة أنور ومنى زهران وإبراهيم عبده وسالم عليّ. حتّى التنفّس مارسوه بحذر فساد الصمت وشمل كلّ شيء، ولم تدبّ الحياة إلّا تحت الأضواء الباهرة داخل البلاتو. ولمّا أعلن محمّد رشوان انتهاء اللقطة خرج الممثّلان من دورهما وردّت الروح إلى الواقفين وراء الكاميرا فقالت منى زهران:

- إنّه ممثّل أصيل.

وقال إبراهيم عبده:

- شيء لا يصدّق!

وعبثًا حاولت عليّات إخفاء توتّر أعصابها والفرحة التي انطلقت في حنايا قلبها. وأقبل مرزوق نحوهم فصافحهم وعانق إبراهيم. ووقف أمام إبراهيم في زيّ عسكريّ واحد يتبادلان النظر والابتسام. وقالت عليّات مخاطبة أخاها إبراهيم:

- إنّه يلعب دورك في الفيلم!

وتفحّصه إبراهيم بعناية وقال:

- ولكنّك أنيق كضابط.

فقالت سنيّة ضاحكة:

- لأنّه يمارس الحبّ لا القتال.

فسأله إبراهيم:

- وهل يمتدّ دورك إلى الجبهة؟

فأجاب مرزوق:

- أجل، قرأته في السيناريو، وهو يصوّر بطولة خارقة...

فضحك إبراهيم ولم يعلّق بحرف. وجاء المخرج محمّد رشوان فصافح الجميع. وكان قد عرف عليّات وسنيّة من قبل فتعرّف بمنى زهران وخطيبها سالم عليّ. وكان يتفحّص الوجوه كما يتفحّص الصائغ الحليّ. واقترب من إبراهيم وقال له:

- سنحتاج إليك في بعض المعلومات الضروريّة...

فتساءل إبراهيم ضاحكًا:

- تقصد بعض الأسرار؟!

- كلّا... إنّما ما يُسمح بتصويره...

- ليس كلّ ما يُسمح بتصويره ممّا يحسن تصويره!

فقال محمّد رشوان:

- إنّما هدفنا أن نحيّي بطولتكم!

ثمّ التفت إلى منى زهران وسألها:

- ألا توافقين على ذٰلك؟

فهزّت رأسها بالإيجاب، ثمّ عاد إلى إبراهيم وقال:

- كلّنا جنود ولكن تختلف الميادين!

فضحك إبراهيم بفتور وقال:

- ولكنّنا نقاتل وأنتم تمثّلون!

وضحك الجميع، وأزف وقت تصوير لقطة جديدة فذهب مرزوق ومحمّد رشوان. وعند ذاك قالت منى زهران:

- هٰذا المخرج لا يوحي بالثقة!

فقالت عليّات:

- ولكنّه ذو فراسة مذهلة ومقدرة خارقة.

فلوت منى شفتيها وقالت:

- إنّي على خلاف الكثيرين أحترم الأفلام الهزليّة...

فسألها سالم عليّ:

- لماذا يا عزيزتي؟

- هي على الأقلّ صادقة!

فضحك إبراهيم في مرح صافٍ لأوّل مرّة وقال:

- صدقت.

ثمّ همس في أذن سنيّة خطيبته:

- كدت أفقد حياتي أمس مرّتين!

فقبضت على كفّه بحنان وهمست:

- لا سمح الله!

عكست عيناها الخضراوان نظرة ساهمة. وسألت عليّات منى بمرح عابث:

- متى تهاجرين؟

فأشارت منى إلى سالم وقالت:

ـ هٰذا الرجل هو المسئول عن فشل المشروع.

فقالت له عليّات:

ـ نحن مدينون لك بالشكر.

فقالت منى:

ـ الهجرة على أيّ حال سنّة!

فسألها إبراهيم:

ـ ولو كانت إلى الولايات المتّحدة؟

فأجابت بتحدّ:

ـ ولو كانت إلى الجحيم!

ـ ١٣ ـ

في زيارة طارئة تلاقت عليّات وسنيّة مع منى زهران في مسكنها بالمنيل. لم تكن زيارة عاديّة، أو هٰذا ما قرأته منى في عينيّ صديقتها. وقالت عليّات:

ـ لدينا رسالة هامّة...

فأثار ذٰلك حبّ استطلاعها إلى أقصى حدّ وتساءلت:

ـ أيّ رسالة؟... ممّن؟

ـ من مرزوق أنور!

ـ الفنّان الكبير!؟

فقالت سنيّة:

ـ محمّد رشوان المخرج يرغب في مقابلة خاصّة...

فذهلت منى واتّسعت عيناها ولم تدرِ ماذا تقول، فقالت عليّات:

ـ إنّه يفتح لك دنيا الكواكب والنجوم...

وقالت سنيّة:

ـ وإن أردت الحقّ فكأنّك خُلقت لذٰلك...

وتفكّرت منى وهي في غاية الانفعال، وتمتمت:

ـ لم يجرِ لي ذٰلك في خاطر.

فقالت عليّات:

ـ ولا كان جرى في خاطر مرزوق.

ـ أودّ أن أستأنس برأيكما...

فقالت عليّات:

ـ جرّبي حظّك بلا تردّد.

وقالت سنيّة بتوكيد:

ـ بلا تردّد.

ـ ولٰكنّني لم أجرّب هٰذا الفنّ من قبل.

فقالت سنيّة:

ـ الحبّ قد يسبق الفنّ وقد يلحق به، لا أهمّيّة لذٰلك...

وفي الساعات القلائل التي تلت المقابلة جعلت تفكّر في الأمر فاجتاحتها فكرته ووقعت أسيرة لسحره. وتلفنت لسالم عليّ أن يقابلها في دار الشاي الهنديّ ولّما أخبرته بما اعتزمته ذهل الشابّ وصعق وقال:

ـ لا شكّ أنّها دعابة!

فقالت بتوكيد:

ـ بل إنّني أعني ما أقول تمامًا.

فهتف بيأس:

ـ ممثّلة سينمائيّة!

فقطّبت متسائلة:

ـ ولِمَ لا؟!

فقال بغضب:

ـ لا!

ولم تعجبها لهجته وأشعل غضبه كبرياءها فقالت:

ـ لا أقبل هٰذه اللهجة...

ـ وأنا أرفض الفضيحة!

ـ فضيحة!!، أنت... أنت...

فقاطعها بحدّة:

ـ لقد قبلت من أجلك ما لا أستطيع تجاوزه بخطوة أخرى واحدة...

فصاحت:

ـ أنت تمنُّ عليّ بذٰلك!

ـ إنّي أعني تمامًا ما قلت...

فاصفرّ وجهها وقالت بانفعال شديد:

ـ كفى... كفى... أرجوك... لا ترني وجهك بعد الآن!

فقام وهو يقول:

ـ أنت معقّدة ومجنونة!

وفسخت الخطوبة للمرّة الثانية.

واستجابة لانفعالها الشديد، فضلًا عن رغبتها الأصليّة، سعت إلى مقابلة محمّد رشوان. زارته بصحبة مرزوق أنور، في مكتبه بشارع عرّابي. ورحّب

بها بحرارة وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

- إنّهم يسمّونني يا آنسة منى كولمبس لكثرة ما اكتشفت من نجوم وكواكب، ولم تخب نظرتي مرّة واحدة فأبشري مقدّمًا بالنجاح...

فأشار مرزوق إليه وقال لها:

- إنّي أومن بهٰذا الرجل!

وعاد محمّد رشوان يقول:

- إنّي أرشّحك لبطولة فيلم أعتزّ به جدًّا، هل تغنّين؟

فأجابت بحياء:

- كلّا.

- لا يهمّ، ممكن الاستغناء عن الغناء ولٰكنّني لن أفرغ للفيلم الجديد قبل ستّة أشهر...

فقال مرزوق:

- وهي فرصة لإجراء الاختبارات الضروريّة والدعاية اللازمة.

- برافو مرزوق، وإذن فقد تمّ الاتّفاق على كلّ شيء...

وعقب مرور يومين على المقابلة استدعاها المخرج تليفونيًّا إلى مكتبه، وفي ذٰلك الاجتماع الذي اقتصر عليهما التقط لها بعض الصور الفوتوغرافيّة، وأجرى لها بعض الاختبارات الصوتيّة كما دعاها إلى تمثيل موقف دراميّ من أحد أفلامه. وطيلة الوقت شجّعها بابتسامة لطيفة فأنست إليه وخفق قلبها بالامتنان. غير أنّها لم ترتح إلى نتائج الاختبارات رغم تشجيعه الودود. ومالت إلى الاعتقاد بأنّها لم تُخلق لهٰذا الفنّ وأنّ أيّ اجتهاد تبذله فيه مصيره الضياع. ولم تخفِ عنه مخاوفها فقالت:

- إنّي غير راضية عن نفسي...

- هٰذا بالحرف ما قالته فتنة ناضر عن نفسها في أوّل اختبار.

فعاودها شيء من الأمل في صورة ابتسامة حلوة فقال:

- وفتنة ناضر في الأصل جامعيّة مثلك وهي اليوم جوهرة غالية في دنيا الفنّ!

وتعدّدت اللقاءات وتكرّرت الاختبارات. ومضى أكثر الوقت في أحاديث عامّة عن الفنّ والحياة. ولاحظت منى أنّ الأمّيّة تغلب على تفكيره رغم شهرته ونجاحه وأنّه كان يمكن استساغته بشيء من التساهل لولا غروره الهرميّ الذي لا يُحتمل. ولاحظت أيضًا أنّه يعجب بها أكثر ممّا يعجب بفنّها. بل باتت تؤمن بأنّه لا يكترث لفنّها على الإطلاق وأنّ المسألة من أوّلها لآخرها مجرّد شرك. وعند ذاك تجمّعت في صدرها أبخرة الغيظ والغضب وخيبة الأمل. ولّما قال لها وهو يظنّ أنّه آن له أن يمدّ يده لجني الثمرة:

- جوّ المكتب غير مناسب لهٰذه الأحاديث الطليّة فأنا أدعوك للعشاء!

لّما قال لها ذٰلك أدركت ما يعنيه وهي تشعر بالغثيان. أمّا هو فاستمرّ يقول:

- يجب أن تري عشّي الخلوي بالعامريّة!

وأحسّت بأنفاسه المشبعة بالتبغ وهي تتردّد على خدّها فثار غضبها ولطمته على وجهه!

تراجع في وقفته حتّى استقام عوده، وتحجّرت نظرته وانتفخ خدّاه بالغضب، وبسرعة هوى على خدّها بكفّه الغليظة فترنّحت وتهاوت على الأرض، وصاح بها:

- تظنّين أنّك امرأة لا يجوز مسّها في عرف اللياقة العصريّة، يا خنزيرة يا بنت الخنزيرة!

قامت مشعّثة الشعر ورأسها يدور وهي لا تصدّق فصاح بها مرّة أخرى:

- اخرجي يا عاهرة وقصّي هٰذه القصّة على أمّك...

ما زال رأسها يدور وتناولت حقيبتها، وسوّت شعرها، ومضت نحو الباب، وصوته يتبعها قائلًا:

- دعوتي للعشاء ما زالت قائمة، وتحيّاتي لأمّك!

- ١٤ -

ثار سالم عليّ ثورة جامحة تخطّت جميع الحدود، صمّم على نبذ منى واحتقارها، واعتبرها فتاة مجنونة، وأنّ من حسن حظّه حقًّا أنّه عرفها على حقيقتها قبل أن يتورّط في الزواج منها. ولم يقتنع شقيقه الأصغر حامد بثورته فقال له:

- ما زلت تحبّها يا أخي.

فصاح بغضب:

ـ أبدًا، وسوف تعرف ذٰلك بنفسك.

وكان حامد يحبّ شقيقه ويؤمن بأنّه يفهمه فقال:

ـ أنت يا أخي برجوازيّ ويناسبك الزواج البرجوازيّ!

فتضاعف غضب سالم وقال:

ـ عيبكم الأساسيّ هو تعلّقكم بالمصطلحات، انتظر وسوف ترى...

فقال له بإشفاق:

ـ إنّ مركزك القضائيّ...

ولٰكنّه قاطعه:

ـ انتظر وسوف ترى...

وعاد إلى بؤرة قديمة كان هجرها منذ عرف منى زهران. ذهب إلى ملهى «مركب الشمس» بالهرم وهو نصف ثمل. وانزوى في الحديقة رغم برودة الجوّ وطلب من النادل أن يدعو سميرة لمشاربته. وسميرة كانت صديقته، وهي راقصة من الدرجة الرابعة ترقص ضمن مجموعة في خلفيّة المسرح عندما يغنّي مطرب بالملهى. وهي في الخامسة والثلاثين، وبها مسحة جمال، وجسمها أجمل من وجهها، ورخيصة الثمن نسبيًّا، وقد دهشت لعودته عقب غياب استمرّ أكثر من نصف عام، فتظاهرت بغضب لا أساس له، وقالت له:

ـ رجعت يا خائن...

وراحا يشربان. ولاحظت أنّه ـ بخلاف عادته ـ يشرب بإفراط. وكانت ترتاح إليه لأنّه مهذّب ولأنّه يملك سيّارة صغيرة وأخيرًا لأنّه كريم. وقالت له ضاحكة:

ـ أنت تشرب كالوحش.

فقال لها:

ـ سأنتظرك آخر الليل.

ومع أنّها رحّبت بذلك في أعماقها إلّا أنّها قالت متسائلة مع رغبة في تأديبه:

ـ كلّا...

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ قالت:

ـ مرتبطة الليلة...

فهتف بضجر:

ـ كلّا...

ـ كلّا!

ـ كيف حال بنتك الصغيرة؟

ـ مع أمّي كما تعلم.

فأفرغ كأسه وقال:

ـ عندي فكرة لا بأس بها...

ـ فكرة؟!

فتريّثت قليلًا لأنّه شعر رغم سكره بأنّه مقدم على أخطر خطوة يتّخذها في حياته. وغضب لتريّثه فقال:

ـ أرغب يا سميرة في أن نعيش معًا!

فتفكّرت قليلًا ثمّ تمتمت:

ـ فيها قولان!

ـ ولٰكنّك لم تدركي مقصدي!

ـ أعتقد أنّه واضح.

فقال وهو يركّز عينيه في كأسه:

ـ أريد أن أتزوّج منك!

فطالعته بإنكار ثمّ قالت بحدّة:

ـ أنت سكران!

ـ بل رجعت إليك لتحقيق ذٰلك.

فجعلت تنظر إليه في ريبة فقال:

ـ ما قولك؟

ـ أفِقْ!

ـ الليلة إن أمكن!

ثمّ وهو يتناول يدها:

ـ ستبقى الصغيرة عند والدتك ولٰكنّي سأرتّب لها مصروفًا معقولًا، لست غنيًّا ولست فقيرًا...

فتساءلت بدهشة:

ـ أأنت جادّ حقًّا؟

ـ هيّا بنا في الحال إن شئت...

فضحكت وسألته:

ـ ماذا جعلك تقرّر ذٰلك؟

ـ أريد أن أستقرّ، أستقرّ مع امرأة معقولة بلا خداع، فهل أنت على استعداد لنسيان الماضي وبدء حياة جديدة؟

فضحكت ضحكة عصبيّة وقالت:

ـ لا يوجد مأذون مستيقظًا في هٰذه الساعة...

فقام وهو يقول:

ـ لا أهمّيّة لذلك ما دام سيستيقظ في الصباح الباكر...

ـ ١٥ ـ

كان الدكتور عليّ زهران يرنو إلى شقيقته منى بحزن. كان باطنه يغلي ولكن لم يبدُ في وجهه إلّا الحزن. قال لها:

ـ أنت يا منى فتاة ممتازة وأنا لا أتصوّر ذٰلك.

فقالت بأسى:

ـ لننسَ ذٰلك.

ـ ولكنّي أشعر باللطمة فوق وجهي!

ـ خير من ذٰلك أن تحدّثني عن مشروع الهجرة...

ـ الهجرة!

ثمّ بفتور:

ـ الإجراءات طويلة ولكنّي أنتظر.

ـ لا أريد أن أبقى في هٰذا البلد يومًا آخر.

فقال وباطنه ما زال يغلي:

ـ عيبك أنّك شديدة الحساسية، ما كان يجب أن تقطعي رجلًا مثل سالم عليّ في لحظة غضب...

فقالت بنبرة تشي بالدمع النابع من جذورها:

ـ لا أريد أن أبقى في هٰذا البلد يومًا آخر...

ـ رجل ممتاز ويحبّك.

ـ دعنا من تلك السيرة...

ـ إنّي أتساءل أحيانًا لماذا نعتبر أنفسنا على حقّ دائمًا؟

فقالت باسمة:

ـ لأنّنا على حقّ...

ـ الهزيمة زلزلتنا...

ـ ونوّرتنا...

ـ أتسمحين لي بالاتّصال بسالم عليّ؟

فانتترت قائمة في فزع وقالت:

ـ كلّا.

ـ فكّري قليلًا.

ـ كلّا.

ـ ألا تريدين أن...

فقاطعته بحدّة:

ـ أريد أن أهاجر.

وهزّ منكبيه ثمّ ودّعها وغادر البيت. مضى إلى صيدليّة واتّصل تليفونيًّا بمكتب المخرج محمّد رشوان سائلًا عنه فكان الجواب أنّه يعمل في أستديو مصر. وحاول الاتّصال بالأستديو ولٰكنّ الرقم ظلّ مشغولًا فاستقلّ سيّارته وانطلق بها بسرعة إلى الأستديو. وهناك ـ وكانت الساعة العاشرة مساء ـ علم بأنّه غادر الأستديو وأخبره موظّف أنّه ذهب إلى «جاميكا» لتناول العشاء. ووجّه سيّارته إلى جاميكا بالطريق الصحراويّ. ومضى يجوب حديقتها ويتفقّد البهو ولٰكنّه لم يعثر له على أثر. وقال له المدير إنّ الأستاذ لم يحضر بعد فمضى يتمشّى أمام المطعم. وحوالى الحادية عشرة وقفت سيّارة في الموقف أمام المطعم وتركها رجلان فأشار البوّاب إلى أحدهما وقال للدكتور عليّ:

ـ ها هو الأستاذ محمّد رشوان...

كان يتقدّم مرزوق أنور بخطوات، ويسير على مهل وهدوء وفي خيلاء بجاكتته الجلديّة الطحينيّة وبنطلونه الكحليّ. اتّجه الدكتور عليّ زهران نحوه في هدوء أيضًا على ضوء المصباحين المغروسين في أعلى المدخل فالتفت الرجل إليه في غير اهتمام، ولعلّه توقّع أن يسمع كلمة إعجاب أو اقتراح من نوع ما يتّصل بعمله. ودون أن يتفوّه الدكتور بكلمة ركله في بطنه بكلّ قوّة عضلاته وأعصابه. انطلق من فم محمّد رشوان خوار. جحظت عيناه، ثمّ تهاوى ساقطًا على وجهه. حدث ذٰلك بسرعة خاطفة حتّى ذهل مرزوق أنور فتجمّد كتمثال. وخرج من ذهوله صائحًا:

ـ أنت مجنون؟

وأقبل البوّاب مهرولًا، وتجمّع بعض سائقي السيّارات.

أحاط بعضهم بالدكتور عليّ وانحنى الآخرون على الأستاذ الملقى.

وصاح الدكتور عليّ زهران يخاطب الرجل الملقى أمامه:

ـ أنا شقيق منى زهران يا وغد...

فانقضّ عليه مرزوق أنور حتّى قبض على عنقه وهو يهتف:

- أنت مجنون... لن تفلت من يدي...

فنزع يديه بغضب وهو يصيح:

- إنّه وغد يستحقّ التأديب...

وارتفع صوت من بين العاكفين على الرجل الملقى وهو يقول:

- مات الرجل... اقبضوا على القاتل!

- ١٦ -

ذهبت منى برفقة أبيها إلى مكتب الأستاذ حسن حمّودة المحامي بشارع صبري أبو علم. وقد تذكّره الأستاذ زهران في محنته لا لزمالة قديمة فحسب ولكن لاعتقاده بأنّه أحد ثلاثة يُعتبرون قممًا كمحاميّين جنائيّين. وكانت حجرة مكتبه واسعة وفخيمة. فاستقبلهما بقامته المديدة ووجهه الأسمر الغامق وعينيه المشعّتين، ثمّ رحّب بالأستاذ زهران، ووقفت عيناه - ثواني - شبه مبهورتين عند منى قبل أن يدعوهما للجلوس ثمّ جلس.

وشرع الأستاذ زهران في قصّ قصّته وسرعان ما قاطعه الأستاذ حسن:

- أهو ابنك؟... لم يخطر لي ذلك على بال؟

ومضى الرجل في قصّته التي أصبحت قضيّة حتّى فرغ منها وهو يتنهّد، فقال الأستاذ حسن:

- البقيّة منشورة في الصحف!

ثمّ وهو ينظر إلى منى مجاملًا:

- من المؤسف أنّ قتل مَن يستحقّ القتل عن غير جهة اختصاص يُعتبر جريمة!

فقالت بصوت ضعيف مقهور:

- لم أتصوّر أن ينتهي الأمر بمأساة طاحنة...

- ثمّة مأساة معقولة ومأساة لا معقولة.

- وأخي لم يُعرف عنه يومًا أيّ ميل للعدوان...

- لو كان خبيرًا في العدوان لما تورّط في جريمة غير مقصودة...

وطلب منها أن تقصّ القصّة التي بدأت بها المأساة فقصّتها عليه بتفاصيلها. سألها:

- هل يوجد شهود؟

- كنّا وحدنا في حجرة مكتبه.

وتساءل الأستاذ زهران:

- وهل من مبرّر لادّعاء الباطل عليه؟

فقال الأستاذ حسن حمّودة باسمًا:

- أنت أدرى بدقّة القانون...

فقالت منى:

- واضح أنّه لم يقصد قتله.

- يجب أن أطّلع على ملفّ القضيّة أوّلًا، غير أنّ المنشور في الصحف يدلّ على أنّ الدكتور كان يسعى للقاء القتيل، وأنّه بحث عنه في أستديو مصر كما بحث عنه في مطعم جاميكا، ثمّ انتظره، ثمّ كان ما كان...

- ولكن هل يكفي هذا لإثبات أنّه قتله عن تعمّد وإصرار؟

- كلّا، ولكن ترى هل أصابه في مقتل؟

- حتّى لو كان ذلك صحيحًا فلا شكّ أنّه وقع مصادفة...

- ولكنّنا مطالَبون بإثبات أيّ رأي نرتئيه، ولا تنسى أنّه دكتور، وأنّه - في نظر المحكمة - خبير بالمقاتل!

وغشي الظلام عينَي الفتاة فعاد يقول ملاطفًا:

- ولكن حول ذلك سيتركّز نضالنا، وعلينا أن نثبت أنّه ضَرْب أفضى إلى القتل...

فتساءلت وهي تنهار تمامًا:

- والأمل؟... ألا يوجد أمل؟

فقال الأستاذ بصوت رنّان:

- طبعًا... وهو أمل كبير... والله المستعان!

وعاشت منى الأيّام التالية في الجحيم. ولم تكد تفارقها عليّات وسنيّة. وكانت تقول:

- حتّى لو بُرِّئَ من القتل المتعمّد فقد قُضي على مستقبله...

ولم توجد كلمة صالحة للعزاء فمضت تصرخ:

- عليّ اللعنة!... أنا المسئولة عن كلّ شيء.

وسعت إلى لقاء شقيقها في السجن. وبكت بحرارة وجنون. ومن عجب أنّها وجدته هادئًا مستسلمًا. وقال لها:

- كفّي عن البكاء يا منى فلا جدوى منه.

فقالت وهي تنتحب:

- ولكنّي السبب اللعين...

فقال بهدوء:

- أنت معتدى عليك، وكان طبيعيًّا أن تفضي إليّ بحزنك، كما كان طبيعيًّا أن أغضب...

وغمغم بكلام لم تدركه ثمّ قال:

- ثمّة خطأ أعمى لا أدري عنه شيئًا، قتل الرجل وقضى عليّ...

- أنا الخطأ الأعمى يا أخي...

- هو أقوى منك ومنّي، كفّي عن البكاء...

- ليتك لم تغضب يا أخي!

فقال بضجر:

- ولكنّي غضبت، وعليّ أن أواجه المصير...

- ١٧ -

عُهد بالفيلم إلى المخرج أحمد رضوان فأتمّ المراحل الباقية منه محافظًا ما أمكن على أسلوب محمّد رشوان. وحظي مرزوق أنور بإعجاب المخرج الجديد لدرجة لم يتوقّعها فبعثت فيه روح الأمل من جديد. وكان أحمد رضوان مخرجًا ناجحًا غزير العقود، عُرف في ميدانه بسرعة الإنجاز مع الإتقان وحسن التوفيق لدى الجماهير فانفتحت أمام مرزوق أبواب العمل. وقال له أحمد رضوان:

- أنت فنّان موهوب، وسأجعل منك الخليفة الحقّ لأنور وجدي...

فاهتزّ مرزوق طربًا وحلم بالمجد فعاد يقول له:

- ولكن لا تجمّد نفسك في نمط، النمطيّة مفيدة ولكنّ المرونة خير وأبقى، المرونة التي أعنيها أن تمثّل الشيء ونقيضه، الطيّب والشرّير، ولك البطولة في الحالين...

وتنهّد في حزن وقال:

- لم يكن كذلك رأي المرحوم محمّد رشوان.

ثمّ وهو يهزّ رأسه في أسى:

- كان لطيفًا وراح هدرًا! أنت تقول إنّك تعرف منى شقيقة القاتل؟

- معرفة سطحيّة جدًّا ولكنّها صديقة شقيقتي وخطيبتي.

- أتصدّق ما ادّعته في التحقيق؟

فهزّ منكبيه وقال:

- سمعت همسًا يقول إنّه كانت توجد علاقة جنسيّة بين القاتل والقتيل!؟

فذهل مرزوق وقال:

- ولكنّ المرحوم... أعني أنّني لم أسمع عنه...

فقاطعه:

- ما علينا، سيكشف التحقيق عن الحقيقة، الله يرحمه، لا يجوز أن يُذكر بسوء وهو بين يدي الله!

وكانا يجلسان بمطعم الأستديو فانضمّت إلى مجلسهما فتاة بلا استئذان فقدّمه إليها ثمّ قدّمها قائلًا:

- فتنة ناضر، نجمة جديدة مثلك، ولكنّها لمعت في سماء الفنّ منذ عام...

وكان مرزوق يعرفها من صورها، كما علم بعلاقتها الخاصّة بأحمد رضوان عن طريق المرحوم محمّد رشوان. وكانت ذات جمال خاصّ لا يدرَك من أوّل وهلة ولكنّه نافذ الأثر. خيّل إليه أنّه يوجد قدر من عدم التناسب بين قسماتها ولكنّ جاذبيّتها طاغية. وجسمها يميل للصغر في جملته ولكنّه في حدوده مليء ورشيق وجنسيّ إلى أبعد الحدود. وكان أحمد رضوان في الخامسة والخمسين، والدًا لفتاة متزوّجة من موظّف في السلك الدبلوماسيّ وشابّ مهندس في بعثة في الاتّحاد السوفييتيّ. واتّسم غرامه بجنون الكهولة. وفتنة في الأصل جامعيّة، ومعروف في الوسط أنّها عشيقة لثريّ عربيّ يدعى الشيخ يزيد، فرش لها شقّة في الدور العشرين بعمارة النيل، ولم يكن يزور القاهرة إلّا في مواسم أو عابرًا، وقال له أحمد:

- لفتنة موهبة سخيّة وستعمل معها في الفيلم القادم...

وربّت على يدها بحنان وقال مخاطبًا مرزوق:

- ومن مزاياها أنّها شقيقة ضابط شهيد فُقد في حرب يونيه...

وعُرض فيلم مرزوق فحقّق نجاحًا ملحوظًا أمّا هو شخصيًّا فاعتُرف به كفنّان موهوب وتنبّأ له أكثر من

ناقد بمستقبل باهر.

وتعاقد معه أحمد رضوان على ثلاثة أفلام فاستقرّت الأرض تحت قدميه وعزم على الزواج من عليّات في أقرب فرصة. وعندما اشترك مع فتنة ناضر في تمثيل أوّل الأفلام المتعاقد عليها شعر بأنّها توليه عناية خاصّة، فتلقّى ذلك بحذر شديد حرصًا على علاقته الطيّبة بأحمد رضوان. وكانا ـ مرزوق وفتنة ـ يستريحان في حديقة الأستديو بين فترات التصوير حين سألته:

ـ أحقّ ما يقال عن زواجك؟

فأجابها بطيبة:

ـ في أقرب فرصة.

ـ مبارك مقدّمًا.

ثمّ مستدركة:

ـ ستكون أوّل وجه جديد متزوّج!

ـ أجل...

ـ ولكن ألا تحتاج إلى حرّيّة مطلقة وخاصّة في البداية؟!

ـ طالت مدّة الخطوبة وليس ثمّة ما يبرّر التأجيل.

فسكتت قليلًا مستسلمة لبرودة الليل ثمّ سألت:

ـ وهل خطيبتك من الوسط الفنّيّ؟

ـ كانت زميلة جامعيّة وهي الآن موظّفة بالشئون الاجتماعيّة.

ـ أعتقد أنّها مطالَبة بحكمة سقراط لكي تسعد معك.

ـ يا لها من مبالغة.

ومشت قليلًا حتّى غابت في الظلام تمامًا ثمّ عادت إلى منطقة النور وهي تقول:

ـ توجد فرصة لإنشاء شركة بيننا!

فدهش مرزوق وتساءل:

ـ شركة؟!

ـ ليس بالمعنى التجاريّ، أعني ثنائيّة ناجحة...

ـ سمعت ذلك من الأستاذ أحمد وسعدت به...

ـ فعلينا أن نتحمّس لثنائيّتنا!

ـ بكلّ سعادة من ناحيتي...

ـ لي الثقة كلّ الثقة في رأي أستاذي أحمد...

ورمته بزهرة بنفسج كانت تفرّها بين إصبعيها وذهبت. اضطرب مرزوق. اجتاحته عاطفة سعيدة وآثمة. تذكّر عليّات فيما يشبه الاعتذار والندم.

ـ ١٨ ـ

بدا حسني حجازي جادًّا أكثر من المألوف. وقف في حجرة الجلوس ينظر باهتمام وإشفاق إلى منى زهران. ولم تكن تبادله النظر، عيناها السوداوان شبه مغمضتين مستسلمة إلى مسند الفوتيل الكبير كالنائمة، تعلوها الكآبة. وقال لنفسه إنّها الصديقة الوحيدة التي لم تستسلم لنزواته. والتي لا تستسلم إلّا للحبّ، وهو يذكر كيف زارته أوّل مرّة وهي طالبة بصحبة عليّات وسنيّة مسوقة بحبّ الاستطلاع، وكيف شاهدت أفلامه الجنسيّة المثيرة ولكنّها لم تنزلق رغم الإثارة، فلم تهبه أكثر من الصداقة وكفّ هو منذ زمن بعيد عن مطالبتها بمزيد. قال:

ـ دعوتك لأنّي شعرت بأنّك في حاجة إلى صديق في محنتك...

فجرت على شفتيها ابتسامة خفيفة إعرابًا عن شكرها فعاد يقول:

ـ دعوتك من قبل ولكنّك لم تلبّي!

ـ كنت في غاية الحزن.

فمال نحوها قليلًا وقال بحنان:

ـ على أيّ حال احمدي ربّنا، حسن حمّودة محام قادر وقد أنقذ عنقه من المشنقة!

فقالت بأسى:

ـ ولكنّه سيقضي في السجن عشر سنوات، وخسر مستقبله إلى الأبد!

ـ قضاء أخفّ من قضاء.

فقالت بعصبيّة:

ـ وأنا المذنبة الحقيقيّة!

ـ ماذا كان بوسعك أن تفعلي؟ ما فعلت إلّا أن شكوت همّك لشقيقك...

ـ لن يهوّن قولك من شعوري بالإثم...

ورفع الرجل كأسًا بيده إلى فيه ثمّ نظر إلى كأس موضوعة على ذراع الفوتيل على كثب من يدها كأنّما يدعوها إلى الشراب، وتراجع خطوات حتّى استند إلى

حافة البار، ثمّ قال:

ـ فكّري في الهموم من حولنا تهن عليك همومك.

ـ لا أظنّ.

فابتسم متسائلًا:

ـ مصمّمة على الحزن؟

ـ لست حزينة، إنّي أعيش حياتي ولكن بلا طعم!

فهزّ رأسه الضخم وقال:

ـ قد يعرض لي عارض حزن، أتدرين كيف أعالجه؟ أتذكّر آلاف القتلى وما يخبّئه الغد من احتمالات، وسرعان ما يهون عليّ حزني...

فرفعت منكبيها في وجوم ولم تنبس فقال:

ـ وهزّتني ثورة الطلبة من الأعماق ثمّ تذكّرت أنّنا قد نُدفن تحت الأنقاض في أيّ لحظة...

فهتفت بحدّة مباغتة:

ـ هناك ما هو أدهى وأمرّ وهو أنّنا نعيش في الحقيقة على التسوّل...

فضحك حسني عاليًا وقال:

ـ يا له من تعبير صادق ومثير.

ـ لِمَ ضحكت عاليًا؟

ـ صدّقيني أنّني لم أضحك ضحكة واحدة من قلبي منذ ٥ يونيه!

ثمّ مستطردًا:

ـ هي مجرّد أصوات يا عزيزتي منى.

ـ كيف يهنأ بعض الناس بالنوم؟

ـ إنّهم يضعون على أعينهم نظّارات التاريخ السحريّة فتتجلّى لهم رؤية أخرى...

ـ ألا ترى تلك النظّارات عشرات الألوف من الضحايا؟

ـ كلّا، ولكنّها ترى ما هو أخطر!

ـ أأنت جادّ فيما تقول؟

ـ كلّ الجدّ.

ـ إذن فأنت راضٍ؟

ـ لست من صانعي التاريخ فنظرتي رهن بضعف بصري وهي مليئة بالشجن والعبث.

وولّاها ظهره ليملأ الكأس من جديد فتناولت كأسها وشربت حتّى النصف، ثمّ تحوّل نحوها قائلًا:

ـ اشربي، يلزمك ثلاث كئوس على الأقلّ.

فابتسمت لأوّل مرّة وقالت:

ـ بك حنين ملحوظ إلى الوطنيّة فهل قمت بواجبك؟

فصبّ الشراب في جوفه دفعة واحدة ثمّ قال:

ـ في مثل سنّي يكفي أن أحمل الكاميرا وأزور الجبهة لأقوم بواجبي!

ـ ثمّ ترجع إلى بيتك السحريّ!

ـ هنا أنتهب للّذات عابرة بدافع الذعر والحزن.

ـ سعداء هم الكهول!

ـ ما أتعس البلد الذي يُحسد فيه الكهول على كهولتهم!

وتبادلا نظرة طويلة لا تخلو من عذوبة، ثمّ قال:

ـ دعوتك لأسلّيك فانظري...

فقاطعته بهدوء:

ـ الأستاذ حسن حمّودة يرغب في الزواج منّي!

فذهل حسني حجازي. صمت مليًّا، ثمّ هتف:

ـ إنّه يماثلني في السنّ!

فهزّت رأسها نفيًا وقالت:

ـ إنّه في الأربعين!

ـ أراهن على أنّك ستوافقين!

ـ لِمَ تتوهّم ذلك؟

ـ ربّما احتجاجًا على الحبّ الذي أعطيته أعزّ ما تملكين ثمّ لم تجني منه إلّا التعب...

فقالت بنبرة ساخرة:

ـ سالم عليّ تزوّج من مومس!

ـ لم يعد لهذه الكلمة من معنى!

فتساءلت وهي تتنهّد:

ـ أليس من المضحك أن يفعل اثنان بنفسيهما ما فعلنا وهما يتبادلان الحبّ؟

ـ اشربي كأسك وتزوّجي من حسن حمّودة فلا خير في أن تبقي وحيدة لتجترّي أحزانك حتّى تقتلك...

وحدّثها حديثًا مطوّلًا عن حسن حمّودة وأسرته الصعيديّة العريقة وأرضه التي صُفّيت في الإصلاح الزراعيّ ونبوغه في المحاماة، ثمّ سألها:

ـ هل شاهدت آخر أفلامي؟

فضحكت على حين اتّجه هو نحو غرفة العرض.

- ١٩ -

كانت جلسة واجمة لا تبشّر بخير... ها هي قهوة الانشراح عقب منتصف الليل ولٰكنّها لا تعد بمسرّة واحدة. دخّن حسني حجازي نارجيلته في صمت شامل. اختلس من عبده بدران نظرة فرآه غارقًا في الأفكار. وفي الركن تحت النصبة قرفص عشماوي وهو يرسم على البلاط خطوطًا وهميّة بإصبعه. وقال لنفسه: ليلة ثقيلة وسيكون للّيالي المقبلة طعم العلقم. والتقط عبده بدران نظرة من نظراته فقال:

- وهٰكذا ألغيت الأفراح!

فقال حسني حجازي مواسيًا:

- تأجّلت لا أُلغيت!

- ربّنا يسمع منك!

- ربّنا كبير يا معلّم عبده.

فقال عبده بدران بأسى:

- لمّا لم يحضر في ميعاده دقّ قلبي بعنف، وقبل ذٰلك رأت أمّه حلمًا فظيعًا...

- جرح بسيط بإذن الله!

- مَن أدراني؟ لم يُسمح لي في زيارته بأكثر من دقيقة، لم أرَ منه شيئًا، اختفى الوجه والرأس والعنق تحت الشاش تمامًا!

- إجراء طبّيّ ليس إلّا!

فتنهّد الرجل وقال:

- وكنّا نستعدّ للاحتفال بزواجه هو وأخته عليّات.

- سيتمّ الاحتفال بعد أسبوع أو بعد شهر!

وساءل حسني نفسه ترى أهٰذا هو حال الآباء والأمّهات في جميع الأمم أم أنّه توجد شعوب أخرى مشبعة بروح القتال والجهاد؟ وهل زيّف التاريخ حكاية البطولات فلم تصلنا على حقيقتها؟ أهو عيب فينا أم هي الطبيعة البشريّة في كلّ زمان ومكان؟ وإذا كان ذٰلك كذٰلك فكيف أمكن سَوْق الجماعات البشريّة إلى حرب في إثر حرب؟! ما أعظم الفارق بين صورة التضحية في جريدة يوميّة أو كتاب تاريخ أو ديوان شعر وبينها في مقهى أو بيت أو حارة! ومع ذٰلك لم يُقبل البشر على امتهان مهنة وهي كره لهم مثل الحرب!

ورفع عشماوي رأسه من فوق ركبته وقال:

- نحن مساكين يا أستاذ.

فصدّق عبده بدران على قوله قائلًا:

- أجل، نحن مساكين.

فقال حسني:

- ماذا أقول، لو كنت شابًّا لوجب أن أتحمّس للحرب!

فقال عشماوي:

- بُتر ساقا ابن جارتنا!

- هي الحرب يا عشماوي، ووطنك محتلّ!

فقال العجوز بغضب:

- أودّ عندما أرى شخصًا ضاحكًا أن أبصق على وجهه!

- ماذا تظنّ؟ الحرب تشدّنا خطوة فخطوة، وإذا استعر لهيبها فلن ينجو من نارها مخلوق، في الجبهة كان أم في داره.

وساءل نفسه مرّة أخرى ماذا يقول الرجل لو علم بما يدور في مسكنه الخياليّ؟ اللعنة. ماذا تريدون؟ لم يبقَ على النهاية إلّا القليل. والحياة عزيزة وحبّها معقول. وأنت يا مصر عزيزة وحبّك لا معقول! لا شكّ أنّه توجد نقطة في العلوّ تذوب فيها الفوارق وتنمحي الانفعالات المهلكة. وتنغّص عليه صفوه تمامًا. وحكم على نفسه بالغباء والحماقة. وقال إنّه ما زال ينقصه قدر مخيف من الغباء والحماقة ليكون من عظماء التاريخ: شعلة الحياة والجنون والغموض الخلّاق.

وقال عشماوي:

- من العدل أن تتوزّع المصائب بالمساواة الحقّة.

- صدقت.

وقال عبده بدران:

- أنا لا أفهم!

فرمقه حسني بنظرة استفهام فقال:

- أيّام الكروب تتتابع كالمطر...

- نحن قلب العالم فماذا تتوقّع.

- الاحتلال، الا[illegible]ة لال، ١٩٥٦، اليمن، ١٩٦٧،

الاحتلال!

فقال وهو يداري ضجرًا بدأ يزحف:

ـ غدًا يخلق وطن جديد!

ـ قلبي غير مطمئنّ!

ـ لأنّك راجع من المستشفى بعد التأهّب للاحتفال بفرح!

ـ آه يا بلدي!

فقال عشماوي:

ـ بلد الأولياء والصالحين!

ثمّ بعنف استردّ به بعضًا من وحشيّته القديمة:

ـ يا عرب!

وقال حسني لنفسه للمرّة الثالثة ما أشقّ ما تطالبنا به الحياة، الضعف والقوّة، الحماقة والحكمة، النعومة والخشونة، الجهل والعلم، القبح والجمال، الظلم والعدل، العبوديّة والحرّيّة، وأين أنا من هٰذا كلّه؟! لا همّة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقيّة من عمر، ولٰكنّي أحبّك يا مصر فمعذرة إذا وجدتني مع حبّك أحبّ الحياة في ساعات وداعها الحمقاء!

ـ ٢٠ ـ

وقفت السيّارة أمام عشّ سقّارة. غادرها في وقت واحد الأستاذ حسن حمّودة ومنى زهران. مضيا إلى خميلة في الناحية الجنوبيّة من الحديقة فجلسا تحت مصباح خافت يرسل نورًا أزرق من خلال أوراق اللبلاب. جميلة كعادتها ولٰكن ثبتت في أعماق عينيها نظرة حزينة. وكان يعتبر أنّه تخطّى العقبات الأساسيّة فتبدّى مرحًا بقامته الطويلة وبشرته العميقة السمرة وثقته بنفسه التي تلازم حركاته وسكناته. ونظر إليها طويلًا. وجعل يبتسم وكأنّما يدعوها إلى الابتسام أيضًا. وقال وهو يتنفّس بعمق هواء الليل المعبق بروائح نباتيّة:

ـ المكان هادئ، بعيد عن الدنيا، ينتمي إلى عالم آخر.

فهمست:

ـ نعم.

وشعرت بأنّها جاوزت الحدّ في الاعتراف بالسعادة فاستدركت:

ـ ولٰكنّنا نحمل في قلوبنا هموم العالم الأوّل.

ـ لك نصيب موفور من الهموم ولٰكنّك لست أتعس مَن على سطح الأرض، هل تدركين معنى خسارة ألف فدّان في ثانية واحدة؟ ومصرع أب مهيب بأزمة قلبيّة، وتلويث سمعة أسرة كبيرة كريمة شاركت في حياتنا الوطنيّة منذ الثورة العرابيّة؟

وتردّدت وقتًا قبل أن تتساءل:

ـ ترى ألا تعلم بأنّني لا أعدّ صديقة للإقطاع؟

فابتسم بسماحة وقال:

ـ لا يدهشني ذٰلك بطبيعة الحال فأنت من جيل الثورة ولٰكن لعلّك لا تعدّين نفسك عدوّة لثورة الطلبة؟

ـ هٰذا أمر مختلف!

ـ ليكن، ولنعد إلى همومك الحقيقيّة، فأقول لك ألّا ذنب عليك مطلقًا!

ـ ولٰكنّنا كما ترى أمّا هو. . .

فقاطعها بقوّة:

ـ أكرّر ألّا ذنب عليك. . .

وأدنى وجهه حتّى انعكس الضوء الخافت على جناحي أنفه وقال:

ـ ستظلّ القبور مكتظّة وكذٰلك المستشفيات ولن يمنعنا ذٰلك من أن نأكل ونشرب ونتزوّج!

وتنهّدت بصوت مسموع وتمتمت:

ـ كنّا على وشك الهجرة!

فقال ضاحكًا:

ـ شدّ ما تمنّيتها ولٰكن بلا أمل، وعلى أيّ حال فخير لنا أن نختار موضوعًا آخر للحديث!

فواصلت حديثها بإصرار:

ـ وقيل لنا تفكّران في الهرب وسفينة الوطن تواجه الشدائد؟

ـ آه. . . أعترف لك بأنّني نشأت وطنيًا ولٰكنّني لم أعد أبالي شيئًا، ساعديني من فضلك على تغيير الموضوع.

ـ ألا يهمّك أن ينتصر الوطن؟

فضحك يائسًا وقال:

ـ يهمّني أن نعيش في سلام وسعادة، فإن تحقّق ذٰلك عن طريق النصر فأهلًا به وسهلًا، وإن تحقّق عن طريق الهزيمة فأهلًا بها وسهلًا!

فنظرت إليه بذهول وقالت:

ـ لا أفهم!

ـ لك العذر، ولكنّي جئت بك إلى هنا لأنّي أحبّك...

الواقع أنّه كان يريد أن يقول أكثر من ذٰلك، وفي الموضوع الذي يتهرّب منه. وقال لنفسه لا مهرب من السياسة فهي كالهواء. وقال:

ـ لو أنّهم انتصروا في حرب يونيه فماذا كان يفعل أمثالنا؟ فالهزيمة رغم شرّها لا تخلو من بركة للمغلوبين على أمرهم!

صمتت منى. خيّل إليه أنّها لا تستطيع هضم قوله، وأراد أن يؤكّد رأيه بنغمة جديدة، رقيقة نوعًا، فقال:

ـ الوطن هو الأرض التي يسعد فيها الإنسان ويُكرَّم.

ـ وهل نسعد ونُكرَّم إذا هزمتنا إسرائيل؟

فلم يستطع أن ينبس بكلمة. فنفخت في ضيق وقالت:

ـ على أيّ حال فلن أرميك بحجر ما دمت قد عزمت يومًا على الهجرة.

وجاء النادل متمهّلًا فأمر ـ بعد مشاورة ـ بزجاجة بيرة وحمام مشويّ، ثمّ قال بعد اختفاء الرجل في ظلام الحديقة:

ـ لقد رُميت بألف حجر!

ثمّ قال بنبرة وعظ وإرشاد:

ـ كلّما اشتدّ البلاء حقّ للإنسان أن يتفانى في البحث عن السعادة.

ـ رأي غريب!

ـ ولكنّه طبيعيّ وحقيقيّ، ولا شيء كالهمّ يمتصّ من السعادة رحيقها الشهيّ!

فقالت منى بأسف:

ـ لي صديقتان عزيزتان، توقّفت مشروعات سعادتها بسبب الحرب...

وساءل نفسه كيف نتملّص من هٰذه اللعنة؟ وروت له مأساة عليّات وسنيّة وهو يتظاهر بالانتباه والاهتمام. وقال لنفسه إنّها شديدة المراس ولكنّها ستكون زوجة ممتازة. ولكن ماذا أبغي من ورائها؟ لا حنين إلى الأبوّة ولا إلى الاستقرار ولا إلى الخلود ولكنّي أريد الحبّ!

ورفع قدحه وهو يقول:

ـ في صحّة زواجنا القريب!

ـ ٢١ ـ

في زيارة الفنّانين للجبهة لم تسمح فتنة ناضر لمرزوق أنور بمفارقتها دقيقة واحدة. بدأت الرحلة مع الصباح الباكر. وتقرّر السفر إلى بورسعيد لهدوئها النسبيّ بالقياس إلى بقيّة المناطق المتفجّرة المشتعلة. واختار منظّمو الرحلة طريق رأس البرّ ـ رغم طوله ـ لموقعه البعيد عن مرمى مدفعيّة العدوّ. واطمأنّ الجميع إلى أنّهم سيستمتعون بسفر آمن وصحبة هنيّة. وسخرت فتنة في نفسها من أستاذها أحمد رضوان الذي تخلّف عن الرحلة، معتذرًا بمرضه، متأثّرًا في الواقع بجبنه وإيثاره السلامة بأيّ ثمن. ووصلوا إلى بورسعيد في الظهيرة فدُعوا من فورهم للاجتماع بالمحافظ. وتبودلت كلمات الترحيب من جهة والحماس من الجهة الأخرى، ثمّ تقضّت ساعات في زيارة بعض الثكنات في المدينة وبعض المواقع في الجبهة. تلاقت الأيادي في مصافحات حارّة. وتبودلت النظرات في إعجاب ومحبّة. وأحاط الضبّاط والجنود بفنّاناتهم وفنّانيهم المفضّلين. وتذكّرت فتنة شقيقها الفقيد فدمعت عيناها، كما تذكّر مرزوق صاحبه إبراهيم عبده الذي يرقد في المستشفى بين الحياة والموت. ورجعوا إلى بورسعيد عند الأصيل فتجمّعوا في استراحة المحافظة. أمّا فتنة فاقترحت على مرزوق أن يتجوّلا قليلًا في النواحي القريبة من المدينة. سارا في شارع طويل عريض يبدأ من الميدان أمام مبنى المحافظة. وعقب دقائق معدودات انفصلا تمامًا عن الحياة التي يضجّ بها الميدان بما فوق سطحه من سيّارات وجنود وموظّفين. غاصا في خلاء شامل وغرقا في صمت مروّع. لا حركة ولا نأمة ولا ظلّ لإنسان أو حيوان. العمارات والبيوت تقوم على الجانبين مغلقة النوافذ والأبواب كأن

لم يطرقها حيّ، نائمة أو ميتة أو هي هياكل ومشروعات لم تُنفخ فيها الحياة بعد. وتاقت الأعين لرؤية أيّ شيء، وتلهّفت الآذان على سماع أيّ صوت، نافذة مفتوحة أو باب موارب أو غسيل يرفرف في شرفة أو طفل يصرخ أو قطّة تموء أو كلب ينبح، كلّا ولا ورقة يدفعها الهواء أو عقب سيجارة ملقى أو قمامة مكوّمة تحت الطوار، أيّ شيء، أيّ شيء، أيّ أثر لإنسان. وهمست فتنة:

ـ إنّه كابوس.

فردّد مرزوق:

ـ نهاية العالم.

ـ قلبي... لا أدري كيف أصف مشاعري.

ـ تجربة جديدة، ومشاعر جديدة.

ـ يخيّل إليّ أنّي تعيسة أو سعيدة جدًّا وأحلم بالرجوع إلى بطن أمّي.

ـ أشعر بأنّي حرّ، حرّيّة كاملة، من الحضارة والتاريخ.

ـ هل يمكن أن نجنّ فجأة؟

ـ ويمكن أن نحادث الأرواح!

ووجدا نفسيهما أمام مدخل كازينو. مفتّح الأبواب وبلا جليس، ووقف صاحبه ـ فيما يبدو ـ في مقدّم التراس مرتديًا بلوفر وبنطلونًا ومشمّر الساعدين. منظر مفاجئ مذهل ولا يصدّق.

ـ لعلّه مفتوح بأمر المحافظ.

ـ لعلّه.

ونظرت فتنة إلى الرجل فحيّاها بابتسامة عرفان فسألته:

ـ ممكن نشرب فنجان قهوة.

ـ أو أيّ شراب...

جلسا في أقصى عمق التراس بعيدًا عن مرأى الطريق الخالي. وجاءت القهوة فراحا يحتسيانها بارتياح، وقالت:

ـ بقدر ما سعدت بين الجنود بقدر ما جننت هنا...

ـ حديثهم مؤثّر ولهفتهم على القتال واضحة.

ـ أجل. لا أتصوّر كيف يواجه الناس الموت!

ـ إنّه جوّ وعادة وعقيدة، وهٰذه هي المشكلة.

ـ وراء ذٰلك هزيمة خاطفة لم تُهضم بعد.

ـ ولعلّهم أفاقوا ـ مثلنا ـ كالمجانين!

ـ ليجدوا كلّ شيء مثل هٰذا المقهى الخالي.

وكانت شاحبة الوجه. وذهبت إلى دورة المياه. ورجعت باسمة. وجدته يدخّن سيجارة بعمق فقال لها:

ـ قرأت اليوم أنّ أخذ النفس بعمق سبب رئيسيّ في إصابة الشخص بسرطان الرئة!

ـ أتصدّق ذٰلك؟

ـ لم تعد لي ثقة بما يُنشر في الصحف.

فسألته مداعبة:

ـ صف شعورك عندما تَعَطّل مشروع زواجك؟

فسألها متظاهرًا بالاستياء:

ـ أتسخرين من المصائب؟

فقالت بجرأة:

ـ أعترف بأنّي سعدت بذٰلك.

فتورّد وجهه وقال وهو يقوم:

ـ أنا ذاهب إلى دورة المياه..

وذهب مسرعًا، وعاد وقد غسل وجهه ومشط شعره فسألته ضاحكة:

ـ ماذا فعلت؟

ـ لعنت زماننا!

ـ ولٰكنّك نجم!

ـ الفنّ مَهْرَب كالهجرة التي أصبحت موضة هٰذه الأيّام.

ـ لا أحبّ الفلسفة.

فقال بمرارة:

ـ أنا معفى من التجنيد ولٰكن لِمَ لا أتطوّع مع الفدائيّين.

فقالت بسخرية:

ـ الفنّان جنديّ أيضًا.

فقال بنفس المرارة:

ـ الحقّ أنّي كفرت بكلّ شيء.

ـ ولٰكنّك ترغب في الزواج!

ـ ماذا تتوقّعين عندما يتمخّض الجبل عن فأر؟

فصفرت برشاقة ثمّ سألته:

ـ متى نرجع إلى القاهرة في تقديرك؟

ـ حوالى الفجر.

فقالت ضاحكة:

ـ إنّي أدعوك إلى السحور.

فتورّد وجهه وقال:

ـ لك رَجُلان، ألا يقنعك ذٰلك؟

ـ أحدهما يقوم بالرعاية والآخر بالأستاذيّة فمن لقلبي الخالي مثل هٰذه المدينة؟

وقاما ليغادرا المكان فقال:

ـ أنا رجل في حكم المتزوّج.

فقالت بتحدٍّ:

ـ لا تكابر، أنت ملكي أنا، ألم تدرك ذٰلك بعد؟

ـ ٢٢ ـ

كان مرزوق أنور واقفًا في حديقة الأستديو في فترة الاستراحة عندما وجد أمامه ـ على غير ميعاد أو توقّع ـ سنيّة شقيقته وعليّات خطيبته. ارتبك وشعر بأنّه وقع في مأزق. وكان عليه أن يتمالك نفسه فتمالكها ومدّ يده للمصافحة وهو يغمغم بكلمات ترحيب مخنوقة لم تُسمع. وأخرسهم الصمت وقتًا، وكادوا يستسلمون له إلى ما لا نهاية حتّى خرقته سنيّة فقالت وهي متوتّرة الأعصاب:

ـ ليس العثور عليك بالميسور في هٰذه الأيّام.

انقطع عن بيته تمامًا منذ عشرة أيّام فلم يدرِ ماذا يقول. ودسّت سنيّة يدها في حقيبة عليّات فتناولت خطابًا وسألته:

ـ أهٰذا خطابك؟

فأحنى رأسه، لم ينبس ولم يعترض، فقالت سنيّة:

ـ مخجل مؤسف بلا حدود.

فخرج من صمته متمتمًا:

ـ أشاركك عواطفك.

ـ أنت تقول ذٰلك!

ـ أجل، تعذّبت طويلًا، ولكن لا يمكن أن تقوم حياة كريمة على أكذوبة...

فتساءلت عليّات بصوت متهدّج:

ـ تعتبر الآن ما كان بيننا أكذوبة!

فقال برقّة وحزن:

ـ تقديري لك بلا نهاية، كذٰلك خجلي منك، ولٰكنّه قضاء لا حيلة فيه...

فسألته سنيّة بامتعاض:

ـ أيموت حبّ كبير في دقيقة ليحلّ محلّه حبّ جديد؟

وهتفت عليّات:

ـ شيء حقير جعلني أعتقد بأنّني كنت بلهاء.

فقال:

ـ إنّي آسف، لا حيلة لي، وأنت شابّة جميلة وسيبتسم لك كلّ شيء.

فقالت سنيّة:

ـ قُل إنّها نزوة أو مصلحة...

فهزّ رأسه بأسف وقال:

ـ هي ليست كذٰلك.

فقالت عليّات بعصبيّة شديدة:

ـ يجب أن أذهب.

فقال لها بتوسّل:

ـ اغفري لي ذنبي.

فصاحت رغم غربة المكان:

ـ يحقّ لي أن أشكر الحظّ الذي كشف لي عن حقيقتك...

وتهدّج صوتها منذرًا بالبكاء فابتعدت عن المكان حتّى اختفت في الظلام. عند ذاك قالت سنيّة بلهجة قاسية:

ـ يا للعار!

فرفع منكبيه مستسلمًا، ثمّ قال مغيّرًا وجهة الحديث:

ـ أبعدني العمل المتواصل عن البيت ولٰكنّي سأزوركم في أوّل فرصة.

فقالت ساخرة:

ـ تكاليف الفنّ باهظة فيما يبدو!

فتجاهل سخريتها قائلًا:

ـ زرت إبراهيم في المستشفى ولٰكن تعذّر عليّ محادثته...

فقالت وهي تحني رأسها وفي تأثّر بالغ:

- لعلّك لم تعلم بأنّه فقد بصره!

فصعق لحظات في انزعاج حقيقيّ على حين صدرت عن الفتاة زفرات بكاء.

- فقد بصره؟!

- أجل...

- نهائيًّا؟

- طبعًا.

- وهل عرف الحقيقة؟

- أجل...

وساد الصمت فوضح صوت النسيم في غصون الأشجار ثمّ تمتم:

- آسف على حظّك يا سنيّة...

- هو على أيّ حال خير من حظّ عليّات!

- وماذا قرّرت؟

- يا له من سؤال، سأتمسّك به إلى ما لا نهاية...

فتساءل بدهشة:

- أتعنين ما تقولين؟

- بكلّ توكيد.

- لن يهملوه من الناحية الماليّة ولٰكن...

فقاطعته:

- قدّرت كلّ شيء ثمّ اتّخذت قراري.

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

- أرجو أن يكون قرارك نتيجة لتفكير سليم لا لفورة عاطفيّة زائلة!

- إنّي أعرف نفسي أكثر ممّا تتصوّر!

- إذن فتقبّلي صادق تمنّياتي!

فتساءلت مغيّرة الحديث بدورها ومرجعة إيّاه إلى مجراه الأصليّ:

- ألا يمكن أن تعدل عن قرارك فيما يتعلّق بعليّات؟

فقال بهدوء وتصميم:

- كلّا للأسف!

- إنّك تفرّط في حبّ حقيقيّ.

- ستتزوّج في أقرب فرصة.

وفصل الصمت بينهما مرّة أخرى حتّى قال:

- إنّي معجب بك!

فقالت وهي تهمّ بالذهاب:

- ليتني أستطيع أن أقول ذٰلك لك!

- ٢٣ -

جلس حسني حجازي على الديوان الأوسط تحت النجفة في شبه استلقاء وهو يراقب المخرج أحمد رضوان في ذهابه وإيابه أو وقوفه القلق مستندًا بكوعه إلى حافة البار. وقال له:

- اجلس واشرب واهدأ...

فهتف المخرج بحنق:

- لن أجد مشاركة وجدانيّة عند أحد!

فابتسم حسني حجازي، وقال لنفسه إنّ الجنون هو الطابع المميّز لهٰذه الأعوام. وتذكّر أنّه أحبّ مرّة واحدة في حياته ثمّ نسي الحبّ تمامًا. هل يقضى عليه بأن يحبّ من جديد وأن يتولّه ويجنّ وهو يتعثّر في الحلقة السادسة؟

وقال أحمد رضوان بغضب:

- طالما لاحظت أشياء وتغاضيت عنها، ثمّ ظننتها عابرة!

فقال حسني حجازي برقّة:

- يا عزيزي أحمد دعني أفكّرك بذٰلك الرفيق الرهيب الذي نسمّيه الزمن!

- إنّي أقوى من بغل.

- اجلس واشرب كأسًا.

- إنّي أفكّر تفكيرًا جدّيًّا في قتلها...

- اسمعوا ماذا يقول الزوج القديم والأب الوقور!

فقال بتقزّز:

- الزواج والأبوّة لا يمنعان من الحبّ ولا من القتل...

- آه لو جلست وشربت!

فضرب الأرض بقدمه وقال:

- واتّفقنا على الزواج، الزواج مرّة واحدة، أتعرف ماذا يعني هٰذا؟ أن تخسرني أنا والشيخ يزيد في آن، الشيخ يزيد الذي نقلها من بيت قديم بشارع الصقلبي إلى عمارة النيل، وأنا الذي خلقتها!

فقال حسني حجازي ملاطفًا:

ـ ربّما أتيح لنا أن نخلق ولكن لن يتيسّر لنا التحكيم في مخلوقاتنا إلى الأبد...

ـ المجنونة بنت المجنونة، ألا تدري بأنّ نورها سينطفئ وأنّه لن يجد مَن يتعاقد معه على عمل؟

ـ قم برحلة في ربوع أوروبا...

ـ على الرحلة وعلى أوروبا اللعنة!

ـ إنّي حزين عليك أيّها الزميل القديم...

ـ أليس عندك دواء خير من ذلك؟

ـ عندي مأساة مماثلة، فأنا أعرف خطيبة مرزوق الأولى. وهي تتألّم مثلك تمامًا...

فقال بمرارة:

ـ ستشفى من دائها في ساعة أو ساعة ونصف.

فضحك حسني على رغمه وقال:

ـ إذن فأنت العاشق الوحيد في هذا الوطن!

فتنهّد أحمد وقال:

ـ الله يحرقها كما تحرقني، الحقّ أنّي لا أتصوّر الحياة بدونها.

ـ صبرك، إنّها متقلّبة الأهواء، وأراهن على أنّ هذا الزواج لن يعيش أكثر من شهر!

ـ وما عليّ إلّا الصبر والتألّم!

ـ اجلس واشرب...

ـ ليس لديك إلّا النصائح المحفوظة...

ـ ماذا بوسعي أن أفعل؟

ـ بوسعي أنا أن أقتل...

ـ كلّا، لست من فصيلة سفّاكي الدماء...

فقال بحنق مَن تطارده ذكريات مذلّة:

ـ حتّى الزواج اقترحته عليها...

ـ الله معك!

ـ وماذا كان جواب العاهرة؟ أنّها قرّرت الزواج أيضًا ولكن من الآخر!

وكوّر قبضته مهدّدًا واستطرد:

ـ إنّهم يقيمون الاستعدادات للوقاية من الغارات الجوّيّة، ويتوقّعون حربًا شاملة، عظيم، إنّي أتنبّأ بكارثة ستحيق بهذه الأرض اللعينة...

وتذكّر حسني اللون الأزرق الذي يطلون به النوافذ والمصابيح، وقوائم الطوب الأحمر أمام الأبواب، فانقبض صدره. وقال لنفسه إنّ عزاءه الوحيد في الحياة يتركّز في مسكنه الجميل الحافل، فكيف تمضي الحياة إذا تهدّم، كيف تمضي الحياة إذا وجد نفسه بين المهجّرين في معسكر من الخيام؟. وقال للرجل:

ـ أنصحك بالقيام برحلة إلى الخارج عقب الانتهاء من فيلمك...

فتأوّه أحمد وهو يستدير نحو البار ليملأ كأسًا وقال بمرارة:

ـ إنّي بحاجة إلى رحلة طويلة جدًّا.

ـ ٢٤ ـ

دقّ جرس التليفون على مكتب منى زهران فكان المتكلّم سالم عليّ. رجاها بكلّ جدّيّة واحترام أن تقابله «دقائق» في دار الشاي الهنديّ أو في أيّ مكان تفضّله. واعتذرت من ناحية المبدأ فألحّ عليها إلحاحًا شديدًا. سألت عن السبب فقال إنّه لا يستطيع أن يفصح بما لديه في التليفون ولكن لديه ما يقوله وهو هامّ وخطير. وذهبت إلى الموعد وهي في غاية من الضيق والقلق. وتقابلا وتصافحا وجلسا معًا. ولاحظت من النظرة الأولى أنّه ليس على ما يرام، وارتاحت لذلك ولكنّها لم ترتح لارتياحها. فَقَدَ من وزنه قدرًا ملموسًا، وخبا نور عينيه، وشحب لونه. وقرأت في عينيه انعكاس صورتها فخيّل إليها أنّه لاحظ أيضًا تغيّرًا استوقفه، فهل صبغتها الأحزان بلونها القاتم وهي لا تدري؟ وشكر لها «تفضّلها» بالحضور فصارحته بأنّها لا تريد أن تبقى أكثر ممّا يجب. أحرجته الإجابة قليلًا ولكنّه كان على أيّ حال يتوقّعها، فقال:

ـ منذ آخر لقاء تلقّى كلانا تجارب قاسية، وكم وددت أن ألازمك في محنتك!

فلم تعلّق بحرف فقال:

ـ واتّسمت تصرّفاتي طيلة تلك الفترة بحماقات لا وصف لها!

فلم تنبس أيضًا، فواصل حديثه:

ـ أقدمت على زواج كأنّه أسلوب من أساليب الانتحار.

فقالت ولو أنّها سرعان ما ندمت على قولها:

ـ فاتني أن أهنّئك في وقتها!

فازدردها متجاهلًا وقال:

ـ وعلمت أنّك ستتزوّجين قريبًا؟

ـ جدًّا!

وكان جيّاشًا بانفعالات يخشى ألّا يسيطر عليها فصمت قليلًا لينظّم تشتّته ثمّ قال:

ـ معذرة، أودّ أن أسألك هل تتزوّجين عن حبّ حقيقيّ؟

فتساءلت باحتجاج:

ـ بأيّ حقّ؟

ـ لا حقّ لي مطلقًا، ولكنّي تعلّمت عن تجربة أنّ أيّ تصرّف مستهتر يمسّ حياتنا فهو يتمخّض عادة عن كارثة.

ـ ثوب الواعظ لا يناسبك بتاتًا!

فتنهّد بعمق واعترف قائلًا:

ـ منى، أحبّك، ما زلت أحبّك كأوّل يوم، لا حياة لي بدونك...

فرمقته بنظرة ازدراء وغضب، فقال:

ـ ماذا فعلت بنفسي؟ تزوّجت من راقصة تعيسة، لماذا؟ بصراحة أعتبرك المسئولة!

ـ مسئولة؟!

ـ لم ترعي حبّنا بما يستحقّه من احترام، تجنّيتُ عليه أنا بعنادي السقيم وطعنته أنت بكبرياء جاوز الحدّ، هٰكذا يستهين بعض الناس أحيانًا بسعادتهم الحقيقيّة!

فقالت وهي تقطّب لتضفي على وجهها قسوة تداري بها انفعالاتها:

ـ ما الداعي إلى نبش أشياء قد ماتت وشبعت موتًا؟

ـ لا ينبغي لها أن تموت.

ـ ولٰكنّها ماتت بالفعل!

ـ لا أصدّق أنّ الموت يجوز عليها.

ـ هٰذا وهمك أنت وحدك!

ـ أمّا أنا فلم ألق إلّا العذاب حتّى حرّرت نفسي بالطلاق...

نظرت بعيدًا كأنّ شيئًا استرعى بصرها ولم تعلّق، فقال:

ـ انكشف زواجي عن لعبة سخيفة، أدركت أنّني لا يمكن أن أواصل الحياة مع المرأة المسكينة، فلا حبّ يجمعنا، ولا شيء مشترك ألبتّة، ماذا أقول؟ إنّها امرأة سيّئة الحظّ، أفسدتها حياة الليل وجفّفت ينابيع الإنسانيّة في قلبها، سلسلة متّصلة من العادات الجهنّميّة، وإدمان قاتل للأفيون!

ـ لا أدري لِمَ تحدّثني عن ذٰلك؟

ـ لأنّي أحبّك!

وانتظر دقيقة حتّى تستقرّ الكلمة في وعيها ثمّ استطرد:

ـ إن يكن للحبّ عندك قيمة فيجب أن تصغي إليّ، وأنا أعلم أنّك تقدّسين الحبّ، إن كنت تحبّين الرجل فمعذرة عن تبديد وقتك. وأمّا إذا أردتِ أن تملئي بالزواج فراغًا فلا شيء يملأ فراغ الحبّ إلّا الحبّ نفسه...

فسألته بحدّة:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن نرجع إلى حبّنا...

فضحكت ضحكة فاترة وقالت:

ـ يا له من مطلب مضحك!

ـ هو مطلبي الوحيد في الحياة...

فرفعت منكبيها استهانة ولم تنبس لتطمئنّ إلى سيطرتها على انفعالاتها، فقال:

ـ إنّ الأمل يضيء قلبي كالإلهام...

فقامت قائلة:

ـ آن لي أن أذهب.

فتبعها وهو يقول:

ـ لن أسلّم بخيبة مسعاي، مع السلامة، ومعك قلبي إلى الأبد...

ـ ٢٥ ـ

لم يبقَ في الحجرة إلّا إبراهيم، بمجلسه فوق الكنبة بين سنيّة خطيبته وعليّات شقيقته. ارتدى جلبابًا فضفاضًا، برز من طوقه رأسه الحليق ووجهه النحيل الشاحب والنظّارة السوداء التي أخفت عينيه. ذاك أوّل

يوم رجع فيه إلى بيته، حيث تلقّى سيلاً من كلمات العزاء والتشجيع، ثمّ أخليت الحجرة إلّا من ثلاثتهم، فاسند رأسه إلى الجدار البارد وأخذ يستحوذ على إرادته. بالنسبة إليه انتهى القتال وانطوى تاريخ واختفى النور إلى الأبد. عندما انقضّت عليه الحقيقة قال «ليتني متّ»، لم يعد يردّدها، وسرى إلى قلبه دفء عجيب في بيته، ولم يعد يشكّ أنّ الحيّ خير من الميت، ولم تكفّ سنيّة عن الكلام، قالت ضاحكة:

ـ لا يأس مع الحياة، كم من مرّة كتبتها أو ردّدتها، ونسيت للأسف قائلها، ولكنّي لم أدرك معناها إلّا اليوم. . .

ابتسم لصوتها المحبوب فعادت تقول:

ـ سأقرأ لك، وستتعلّم القراءة على طريقة بريل، وستشقّ لنفسك طريقًا جديدًا!

فتمتم:

ـ سنيّة، أنا ممتنّ جدًّا، أنت ملاك. . .

وتردّد قليلًا ثمّ استطرد:

ـ ولكنّي أعفيك من أيّ تعهّد سابق!

وضعت سبّابتها على شفتيه بحنان وقالت:

ـ لم أسمع شيئًا. . .

ـ بل فكّري طويلًا، إنّ أبعد قراراتنا عن الصواب هي ما نتّخذها ونحن منفعلون. . .

فقالت بقوّة وثقة:

ـ فكّرت. . . وتبيّن لي أنّني لم أكن بحاجة إلى تفكير ألبتّة. . .

ـ أمّا أنا فلا أحبّ ان أكون أنانيًّا. . .

ـ إنّه قراري أنا، وكيف تقرن الأنانيّة بشخصك بعد أن ضحّيت بالعزيز الغالي. . .

فأسند رأسه إلى يده وقال:

ـ ولكنّي خجلان.

ـ أمّا أنا فسعيدة جدًّا.

وقالت عليّات:

ـ صدّقها، إنّي مطّلعة على مكنون قلبها. . .

وكانت في الخارج تعصف رياح مزمجرة ثمّ هطلت الأمطار خمس دقائق صفا بعدها الجوّ وتفشّى الدفء والنقاء وشذا السماء. وآوى إبراهيم إلى فراشه وسرعان ما نام نومًا عميقًا. وبقيت عليّات وسنيّة في حجرة الجلوس وحدهما، وبين أيديهما إبريق شاي وطبق مملوء بالفول الأخضر. وتبدّت سنيّة سعيدة، وجيّاشة الصدر بعواطف لم تفصح عنها بعد. وانبعث في صدرها ينبوع إلهام فأشعرها بشجاعة متحدّية وفدائيّة. قالت:

ـ إنّي أفكّر. . .

فرمقتها عليّات مستطلعة فقالت:

ـ لا أريد أن أخدعه!

ففزعت عليّات قائلة:

ـ كلّا. . .

ـ لا أريد. . .

فقاطعتها بخوف:

ـ أخي رغم شبابه متشبّع بآراء أبي وأمّي في هٰذه المسألة بالذات فلن يفهمك أبدًا. .

ـ أعتقد العكس. . .

ـ كلّا، حسبك أنّك مخلصة له حقًّا.

فتساءلت سنيّة في ارتياب:

ـ أليس من حقّه أن يعلم؟

ـ كلّا، لا أعترف بحقّ لا يجلب إلّا الشقاء، وهو لن يفهمك!

ـ وإذا تراءى له أن يسأل؟

ـ حسبك أنّك مخلصة له، والإخلاص يحجب ما كان قبله. . .

وتفكّرتا معًا في صمت وقلق حتّى قالت عليّات:

ـ لمْ نشقَ باللهو فلا يجوز أن نشقى بالحبّ الحقيقيّ. . .

ولمست في نبرتها حسرة على تعاستها فقالت متأثّرة:

ـ ستجدين الحبّ مرّة أخرى، إنّه مع الحياة دائمًا!

ـ كوارث السلام لا تقلّ عن كوارث الحرب. . .

ـ أعتقد أنّ كارثة حلّت بأخي مرزوق وهو لا يدري. . .

فهزّت عليّات رأسها في أسى ثمّ قالت مستسلمة لذكرى هفت على قلبها فجأة:

ـ والدكتور عليّ زهران ضحيّة من ضحايا العبث. . .

وتذكّرت سنيّة منى زهران فجرت على شفتيها ابتسامة فسألتها عليّات عمّا جعلها تبتسم فقالت:

- قرارات منى زهران!

فضحكت عليّات وقالت:

- عليها أن تعلن نشرة يوميّة عن تذبذبات إرادتها. . .

- هل تظنّينها قطعت الأستاذ حسن حمّودة نهائيًّا؟

- أعتقد أنّها ستتزوّج من سالم عليّ في أقرب فرصة.

- رغم جنونها فهو قرار حكيم. . .

- كلاهما مجنون.

وساد السكوت قليلًا حتّى سألت عليّات:

- متى يتزوّجان؟

- منى وسالم؟

- مرزوق وفتنة!

فأجابت سنيّة في وجوم:

- لا أدري. . . يقال إنّهما سيتزوّجان عقب الانتهاء من تصوير الفيلم!

وشعرت سنيّة بأسى سرعان ما جفّف ينابيع إلهامها. . .

- ٢٦ -

دُعي الأستاذ حسن حمّودة لتناول العشاء بفيلّا الصحفيّ صفوت مرجان بشارع أحمد شوقي. انعقدت الجلسة في الفراندة المطلّة على الحديقة، فجلس حسن حمّودة بين صديقيه صفوت وحرمه نهاد الرحماني. تناول طعامه بشراهة وشرب كثيرًا وصمّم طيلة الوقت على التظاهر بالاستهانة وتجاوز الأزمة.

وقال له صفوت مرجان:

- خشيت أن أجدك تعيسًا.

فقال ببساطة توحي بالصراحة:

- لا وجه للتعاسة!

ثمّ مستدركًا:

- مسألة كرامة ليس إلّا!

الحقّ أنّه لم يتصوّر أن يجد نفسه في الموقف الذي خلقته له منى. كان بصدد تحديد يوم الزواج، وقرّر الاحتفال به في الأوبرج، وعلم بذلك الأهل والأصدقاء والزملاء. وعندما جابهته بجرأتها المعهودة معتذرة صُعق تمامًا. صُعق وذُهل. توسّل إليها أن تراجع نفسها، وكان أحبّها وامتلأ إعجابًا بها وحلم بحياة سعيدة معها. أيّ لعنة! أكُتب عليه أن يعاني في الحبّ ما عاناه في السياسة؟!

وسألته السيّدة نهاد الرحماني:

- وماذا تنوي بعد ذلك يا عزيزي؟

فأجاب برزانة:

- سألوذ بالجبل كمجرمي وطني الصعيد ثمّ أقطع الطريق على الرائح والغادي.

فضحك الأستاذ صفوت مرجان وقال يداعبه:

- مالك أنت وبنات اليوم! احمدْ ربّنا على تلك النهاية!

وقالت له نهاد:

- خير ما تفعله الآن أن تتزوّج زيجة معقولة قبل أن يفوتك القطار.

فتساءل بامتعاض:

- معقولة؟!

- أعني أن تناسبك في السنّ والأسرة.

فقال لها صفوت:

- يبدو أنّ عندك عروسًا!

- العروس الصالحة توجد دائمًا، ماذا تظنّ؟

فقال حسن حمّودة:

- أمهليني حتّى تمضي فترة الانتقال.

وقال لنفسه ساخرًا إنّ قانون الأشياء يقضي بأن يتزوّج صفوت الاشتراكيّ من امرأة مثل نهاد من أسرة أمّا هو فعليه أن يتزوّج من إحدى بنات الشعب! وإذا بصفوت يقول:

- حكاية منى معك تعيد حكاية قديمة حدثت منذ عشرين سنة. . .

فبُهت حسن حمّودة ثواني ثمّ ضحك أمّا نهاد فتساءلت:

- أيّ حكاية؟

فأجاب صفوت:

- حكاية قديمة كان حسن بطلها!

فقال حسن ساخرًا:

- كنت الوغد لا البطل...

فسأله صفوت:

- ماذا كان اسمها؟ لقد نسيته تمامًا...

فقال حسن:

- سمراء وجدي.

فقالت نهاد:

- لم أسمع باسمها ولا بقصّتها.

فقال صفوت مرجان:

- كنّا طلبة بالحقوق، وعشقها صاحبنا، وكانت من أسرة كبيرة وإن كان فرعها الخاصّ لا يملك شيئًا...

فتساءلت نهاد:

- وخطبها؟

- عشقها فقط، وكان عشيقًا جريئًا، يتسلّل إليها ليلًا في قصر عمّها على النيل والناس نيام...

- ألف ليلة وليلة... الله... الله...

وذات ليلة شعر به الخفير، طارده، أطلق النار، أصابت الرصاصة خدّ الفتاة ولاذ صاحبنا بالفرار، وعند التحقيق قالت إنّها شعرت بخطوات غريبة وإنّها خرجت لتنادي الخفير فأصابتها الرصاصة!

- رائع!

- ولٰكنّ وجهها تشوّه، أو خدّها على الأقلّ...

- مسكينة!

- وكما هرب الأستاذ من القصر هرب من حياتها...

- من حياتها؟!

- وإلى الأبد.

وهمّت بالتعليق ولٰكنّها أمسكت، ولحظ حسن ذٰلك فقال ضاحكًا:

- انطقي بالحكم، سمعت كلّ ما يمكن أن يقال.

فقالت:

- كان عليك أن تتمسّك بها!

- كان هوًا لا حبًّا وكنت مجنونًا بالشباب، وها أنا أعامَل بالمثل!

فسأله صفوت مرجان:

- ترى ماذا كان مصيرها؟

فقال حسن:

- إنّها تملك اليوم محلًّا لبيع لوازم السيّدات بشارع شريف.

- ألم تجمع بينكما مصادفة ما؟

- مرّة منذ سنوات في مشرب بيجال وتجاهلتني تمامًا...

فقالت نهاد:

- لست قاسيًا فيما أعلم.

- الحقّ أنّي لم أخلُ من ألم وتنغيص، حتّى تراكمت عليّ المصائب بقدوم الثورة المباركة فطهّرتني من الألم بما هو أشدّ وأفظع...

فقالت نهاد:

- أمامك فرصة نادرة فتزوّج منها.

فضحك عاليًا وقال:

- نهاية ممتازة لميلودراما، أمّا الواقع فإنّها اليوم قوّادة يشار لها بالبنان!

- قوّادة؟!

- قوّادة هاوية.

فسأله صفوت:

- ماذا تعني؟

- بيتها خليّة للبنات، لها عليهنّ سيطرة أسطوريّة، وتسهر معهنّ في بيوت الأصدقاء، بدافع اللهو والعبث لا المال!

- يا لها من نهاية!

- وسمعت بأنّها تقول ساخرة إنّ عصر البراءة قد زال مع الرجعيّة والإقطاع والاستعمار!

وسألته نهاد:

- ألا تعتبر نفسك مسئولًا عن تلك النهاية؟

- كلّا يا عزيزتي، كان يمكن أن تكون زوجة أو مجرّد صاحبة محلّ مستهترة، أو قدّيسة...

فيمَ يثيرون هٰذا الحساب العاطفيّ من أجل ماضٍ ميت وينسون ما أعانيه في قلبي وكرامتي! أليست سمراء وجدي بأسعد منّي ألف مرّة؟ ألم تفقد أسرتنا ابن أخت في غارات الأعماق؟ كما مات أبي وكما لوّثت سمعتنا ظلمًا وبهتانًا. غير أنّ أخطر شيء أن يستسلم المرء لعاطفة حبّ خائب وهو في الأربعين. والتفت

نحو صفوت فسأله:

ـ ماذا عن الأخبار؟

فأجاب الرجل الذي لرأيه وزنه دائمًا:

ـ لا جديد، ولكنّ الأمور تتحسّن فيما أعتقد.

فقال حسن حمّودة بضيق:

ـ الله يسامحك.

فضحك صفوت من أعماقه وقال:

ـ نسيت أنّني أخاطب رجلًا هواه مع جيش إسرائيل ضدّ جيش مصر.

فتساءل وهو لا يخلو من شعور بالاستياء:

ـ أهذا هو تصويرك لموقفي؟

ـ المسألة مسألة موقف وطنيّ قبل كلّ شيء.

ـ أيّ موقف وطنيّ! إمّا الديمقراطيّة أو الاشتراكيّة، أمريكا أو روسيا، وإذا كان من حقّكم أن تحبّوا روسيا فلِمَ لا يكون من حقّنا أن نحبّ أمريكا؟!

فقال صفوت بجدّيّة:

ـ المهمّ ما يريده الشعب.

ـ أيّ شعب؟

ـ الشعب، الشعب التحتانيّ الذي لا تعرفه.

وفاض قلبه بالتهكّم والمرارة، والكراهية والسخط، وفي تلك اللحظة كره كلّ شيء، حتّى الحديقة التي تضوع بشذا زهر البرتقال، والليل الرطيب، وصفوت مرجان، وحتّى نهاد الرحماني، وقال لنفسه صبرًا، ففي غمضة عين قد تقع كارثة لا تخطر على بال...

ـ ٢٧ ـ

شهدت عليّات حفلَي زواج في أسبوع واحد: حفل متواضع جمع بين أخيها الضرير وسنيّة، وحفل أُقيم في بهو عمر الخيّام جمع بين منى زهران وسالم عليّ. وقالت إنّه مهما يكن من شأن الصداقة التي تربطها بسنيّة ومنى فلن تبقى هي هي بعد الزواج، هكذا تعلّمت من تجارب سابقة، فشعرت بفراغ مروّع لم تشعر بمثله من قبل. وكرهت فكرة العودة إلى اللهو والعبث فالحقّ أنّها كانت تتوق إلى الحبّ. وزارت الأستاذ حسني حجازي مساء بناء على دعوة تلقّتها منه تليفونيًّا وهي في الوزارة. تلقّاها بحنان قبّل وجنتيها، وهو يقول:

ـ توقّعت أن تزوريني من زمن...

لمّا لم تجب سألها:

ـ ماذا تفعلين؟

فقالت بفتور:

ـ آكل وأشرب وأنام.

ـ يجب أن نتعلّم من مرارة الأيّام التي نتجرّعها ألّا نحزن أكثر ممّا ينبغي مهما يكن المصاب!

فقالت بالفتور نفسه:

ـ إنّي أتعلّم ولكنّ التعليم كما تعلم يحتاج إلى زمن.

ـ أنت شجاعة وأنا مطمئنّ إلى مستقبلك...

وضحكت على رغمها فنظر إليها مستطلعًا:

ـ ماذ أضحكك؟

ـ ما أجملك في ثوب الواعظ!

فتساءل وهو يمضي إلى البار ليملأ قدحين من كوكتيله المشهور:

ـ ترى هل سمعت هذا القول من قبل؟

ـ لِمَ دعوتني؟... هل وراءك فيلم جديد؟

فقدّم لها القدح قائلًا:

ـ إنّي أفكر في مستقبل بناتي ولا أنساهنّ كما ينسينني، لذلك حدّثت المخرج أحمد رضوان في شأنك!

فاشتعلت عيناها في اهتمام ودهشة وتمتمت:

ـ شأني؟

ـ قلت إنّك فتاة ممتازة وجميلة وتصلحين للشاشة!

فهتفت في ذهول:

ـ أنا!

ـ أنت طبعًا...

فضحكت بعصبيّة وقالت:

ـ لا أتصوّر، لا أستطيع...

ـ وهل كان مرزوق يتصوّر أو يستطيع؟

ـ لست ممثّلة... ثمّ أنسيت أبي؟

ـ سيثور طبعًا، ويرفض، وسأحدّثه طويلًا، وسوف يذعن في النهاية!

ـ إنه أصلب ممّا تتصوّر، ولكنّه ليس العائق الحقيقيّ، العائق هنا...

وأشارت إلى نفسها فقال:

ـ لندع الأمر للتجربة...

ـ إذن فأنت جادّ؟

ـ وهو على استعداد لاختبارك!

ـ وما الذي جعلك تفكّر في ذلك؟

وهو يضحك:

ـ حتّى لا تقتصر حياتك على الأكل والشرب والنوم!

ودارت قلقها بالضحك فقال:

ـ توقّعت أن تتحمّسي أكثر من ذلك فالحياة تطالبنا بالحماس حتّى في أسوإ الظروف.

وشربا معًا. وأغمضت عينيها لتفكّر وراح هو يتمشّى بين البار والتلفزيون. فتحت عينيها فالتقت بعينيه فسألها:

ـ ماذا قلت؟

ـ ليكن، ليس في الإمكان أسوأ ممّا كان.

فضحك وقال:

ـ الغمّ يخلق حِكَمًا جديدة.

فقالت:

ـ الشوارع في شبه ظلمة!

ـ لا يمكن أن تفهمي شيئًا أو تستنتجي شيئًا...

ـ المستقبل مليء بكافّة الاحتمالات.

ـ في مثل هذه الظروف يحسن العناية بكلّ دقيقة خالية من كارثة...

ـ الأقاويل كثيرة جدًّا.

ـ لو ضُربت القاهرة فستقوم القيامة.

ـ مسكين أخي، ربّنا يأخذ بيده...

فقال حسني حجازي بجدّيّة:

ـ استدُعي ابن أخي الأكبر أمس للتجنيد أمّا أختي وهي أرملة غنيّة فقد فعلت المستحيل لتجنّب بكريّها التجنيد وذلك بإرساله إلى كندا كمهاجر.

ـ كيف أمكنها ذلك؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ تخيّلي الأمر بنفسك! المهمّ أنّه قُتل في الأسبوع الماضي في حادث تصادم!

فندّت عنها آهة تعجّب فقال حسني:

ـ اضحكي إن شئت!

فتساءلت:

ـ هل تنقصنا روح القتال؟

ـ زوّار الجبهة يلمسون روحًا عالية ولكنّ الأهالي يعيشون في بلبلة!

ثمّ استدرك بنبرة يقين:

ـ ولا تنسي الفدائيّين فهم معجزة هذه المرحلة!

ودقّ جرس الباب الخارجيّ فمضى إليه باهتمام وهو يقول:

ـ أظنّه أحمد رضوان، كوني شجاعة من فضلك!

ـ ٢٨ ـ

شهدت فتنة ناصر اليوم الأخير للتصوير وحدها إذ لم يكن لمرزوق دور في ذلك المشهد. وانتهى العمل حوالى منتصف التاسعة مساء فتبودلت التهاني، وشربت أكواب الشربات، ووزّع أحمد رضوان نقودًا على العمّال. ودعا فتنة إلى فنجان شاي في البوفيه فغيّرت ملابسها ولحقت به، وجلسا معًا يحتسيان الشاي ويتناولان البسكوت. وساءلت نفسها أهي جلسة الوداع؟ وكانت ثمّة أنباء نمت إليها عن أنّه يعدّ مفاجأة في الوجوه الجديدة بقصد القضاء عليها فلم تكترث كثيرًا، مطمئنّة إلى ما أحرزته من نجاح بين الجماهير. وفي الوقت نفسه تمنّت لو تتفادى من تطاحُن سخيف لا معنى له، تمنّت أن يثوب إلى رشده إن يكن ذلك في الإمكان. وكان يلاحظها طيلة الوقت فسألها:

ـ ترى فيم تفكّرين؟

فأجابت بصراحة:

ـ كيف يمكن أن نظلّ أصدقاء.

فقال بامتعاض:

ـ الصداقة لا تصلح بديلًا عن الحبّ.

ـ يجب أن تحاكمني بعدالة.

ـ أهذا يعني أنّك ستتزوّجين حقًّا؟

ـ صارحتك بذلك في حينه.

فقال محتجًّا:

ـ ولكنّني لم أكن في حياتك شيئًا على الهامش!

فاعترفت قائلة:

ـ لا جدال في ذٰلك، نور نجاحي مستمدّ من روحك!

فقال برجاء:

ـ أشكرك، ولٰكن لِمَ الزواج يا فتنة؟ لا داعي للزواج يا فتنة!

ـ يخيّل إليّ أنّك لم تصدّقني بعد.

ـ يعزّ عليّ تصديقك.

ـ لا تصدّق أنّ الجنون ممكن؟

فقال باستسلام:

ـ بما أنّني مجنون فأنا أومن بالجنون ولٰكن...

وتوقّف فتساءلت:

ـ ولٰكن؟...

ـ ولٰكن هل يبلغ الجنون حدّ الاستهانة بالمستقبل؟

ها هو يعود للتهديد!... هو هو لا يتغيّر. وقالت:

ـ المستقبل بيد الله وحده...

فقال ساخرًا:

ـ يعجبني إيمانك!

فلم تضحك، فأدنى رأسه إليها وقال:

ـ إذن فلتبق علاقتنا كما كانت!

فقالت باستياء:

ـ ولٰكنّي جادّة يا أستاذ!

فقال بحنق:

ـ إذن لم تكوني جادّة فيما مضى؟

فتنهّدت ولم تنبس فتمتم مغيظًا محنقًا:

ـ اللعنة...

ثمّ منذرًا:

ـ أخشى أن تنطفئ الشعلة في صدرينا معًا!

ـ إن صدقت نيّتنا على النجاح فلن نلقى ما نخشاه.

ـ أعتقد أنّك لا تفهمين نفسك، أنت لا تحبّين إلّا الفنّ!

فتوسّلت إليه قائلة:

ـ دعني لمصيري.

فهتف بوجه متقلّص:

ـ أنت تدفعينني إلى هاوية...

ـ أملي في حكمتك لا حدود له...

ـ عار أن تعترفي بزيف عواطفك القديمة...

فقطّبت في ضيق وقالت:

ـ دعنا ممّا كان.

ووضعت يدها على يده وقالت:

ـ افتح قلبك لصداقة جديدة.

فقال بغضب:

ـ لا تتحدّثي عن الحبّ كأنّك تجهلينه...

فغمغمت في يأس مسدود:

ـ لا فائدة!

فقال بوحشيّة:

ـ لا فائدة!

وصمتا. وساءلت نفسها كيف تنتهي هٰذه الجلسة التي لا تُحتمل. واستُدعيت للتليفون فقامت وهي تتنهّد في ارتياح. وجعل يراقبها من بعيد وهي تتكلّم.

ورآها تعيد السمّاعة في عجلة ولهوجة. شيء وقع. شيء ذو خطورة. أخطر ممّا يتصوّر. بصرها زائغ ونظراتها جنونيّة. إنّها تبتعد ناسية تمامًا حقيبتها. وتناول الحقيبة وهرول نحوها وما كاد ينطق باسمها حتّى صرخت في وجهه:

ـ أنت... أنت... أنت المجرم!

وجرت نحو سيّارتها كالمجنونة.

ـ ٢٩ ـ

استسلمت فتنة للكرسيّ المعدنيّ محمرّة العينين. رقد مرزوق فوق سريره بالمستشفى غارق الرأس والوجه في الأربطة. وكانت قد أُجريت له جراحة معقّدة في الفكّ الأسفل والذقن والجبهة عقب الحادث مباشرة. وجلس في الاستراحة المتّصلة بالغرفة إبراهيم وسنيّة وعليّات. حتّى أحمد رضوان زاره، ولمّا وجد الجوّ معاديًا غادر المكان بسرعة.

ولمّا سُئل مرزوق بعد مضيّ وقت مناسب قال في التحقيق إنّه كان يسير في شارع ابن أيّوب في مطلع المساء، في ظلام شامل، وفي طريق خال، حين هاجمه شخص أو أكثر، وانهالت على وجهه اللكمات حتّى غاب عن وعيه تمامًا، ثمّ لم يستردّه إلّا في المستشفى. وتلقّى السؤال التقليديّ إن كان له أعداء أو كان يتّهم

أحدًا، فأجاب بالنفي، ولٰكنّ التحقيق جرّه إلى ذكر قصّة حبّه بملابساتها، ممّا استدعى سؤال أحمد رضوان بل وعليّات عبده. ولم يكن الشيخ يزيد بمصر، وأنكر أحمد رضوان أيّ علاقة بالحادث، وكذٰلك عليّات، واستمرّت المباحث في البحث خلال جوّ كثيف الغموض.

وتركّز القلق حول مسألة هامّة شغلت عقول أهله وأحبابه، فتساءلت سنيّة:

- ترى إلى أيّ حدّ سيتغيّر وجهه؟

فقال إبراهيم عبده:

- على ذٰلك يتوقّف مستقبله.

فعادت تقول:

- فتنة بكت بحرارة.

- إنّها تبكي عليه وعلى نفسها.

ومرّت فترة الانتظار ثقيلة على القلوب المحبّة. وغادر مرزوق المستشفى بوجه جديد! رغم ما قدّم الطبّ من معجزات فقد خرج بوجه جديد. لم يكن القبح طابعه ولٰكنّه فقد شخصيّته ومذاقه وروحه. كان ثمّة تجويف صغير في جانب الجبهة واعوجاج في الفكّ أضفى عليه قسوة من غير معدنه وانحدار في الذقن إلى الخلف. وعندما رأى صورته في المرآة نظر إليها طويلًا في ذهول حتّى امتلأت عيناه بالضباب، ثمّ تهاوى جذعه فتقوّس من اليأس وهتف:

- انتهيت!

وتحوّل إلى فتنة بوجه ملؤه الخذلان وكرّر:

- انتهيت يا فتنة!

فأحاطت عنقه بذراعيها وقالت بحرارة:

- كلّا!

- انتهيت وأنت تدركين ذٰلك!

- كلّا!

- كلّا؟!

- ربّما... ربّما...

فقاطعها متسائلًا:

- ربّما؟

فقالت وهي تخفض عينيها:

- يوجد أكثر من دور ناجح للممثّل القادر مثلك.

فهتف يائسًا:

- أنت توافقينني على رأيي بأسلوب آخر.

فضمّته إلى صدرها وهي تقول:

- لنؤجّل التفكير في ذٰلك!

- وهل يوجد ما هو أهمّ؟

فقرصته في خدّه معابثة وقالت:

- نحن نستعدّ للزفاف!

فرنا إليها بذهول، وعينه اليسرى ترتعش وتضيق، وتساءل:

- ماذا؟

- الزفاف يا عزيزي الجاحد!

- أهو مجرّد عناد؟

فصاحت بغضب:

- كلّا...

وساءل نفسه ترى هل تعني ما تقول؟ هل تتحقّق تلك المعجزات فوق الأرض؟ وكان صدرها يجيش بالحبّ والعطف والتحدّي. وكانت مصمّمة على تحطيم درع الدناءة الصلب والبصق على وجه الشماتة الكالح. وضمّته إلى صدرها بقوّة وهي تقول:

- فلنمضِ في استعدادنا للزفاف!

- ٣٠ -

تلقّاها حسني حجازي بين ذراعيه. أنامت رأسها فوق صدره في استسلام فشعر بشدّة توقها إلى الحنان. وقال وهو يربّت على ظهرها:

- قلق الدنيا والآخرة مطبوع فوق وجهك العذب يا عليّات.

فتملّصت من ذراعيه وانحطّت فوق الفوتيل وهي تسأله:

- أين كنت في الفترة الماضية؟

- سافرت إلى يوغسلافيا للاشتراك في مهرجان للأفلام القصيرة.

- ألم تسمع عمّا حدث لمرزوق أنور؟

- إنّه حديث الوسط الفنّيّ، وكثيرون يتّهمون أحمد رضوان، وهو مجرّد ظنّ لم يقم عليه دليل، ما رأيك؟

- لا أدري، أنا نفسي سُئلت في التحقيق!

ـ فداك نفسي يا عزيزة.

ـ وتمّ زواج فتنة ومرزوق.

ـ إنّه حديث الوسط أيضًا ولكن لا يستطيع أحد أن يتنبّأ بالنتيجة!

فقالت بفتور:

ـ سنيّة وإبراهيم سعيدان، وهي تجربة مماثلة!

ـ كلّا... ثمّة اختلاف جوهريّ، ولكنّك لم تحدّثيني عن تجربتك!

ـ أيّ تجربة تقصد؟

ـ مع المتّهم أحمد رضوان؟

فقالت باستهانة:

ـ فشلت تمامًا. لا ذرّة من استعداد عندي للتمثيل...

فنظر إليها بإشفاق وقال:

ـ أهذا ما يحزنك؟

ـ كلّا...

ـ ولكنّك افتقدتني في غيابي فلماذا؟

ـ كنت أقرع جرسك كلّ مساء!

فتساءل باسمًا في سخرية:

ـ هل اكتشفت أخيرًا أنّني معشوقك الحقيقيّ؟

فصمتت. أشارت إلى بطنها. ثمّ قالت:

ـ يوجد هنا شيء غير مرغوب فيه!

فهتف بدهشة:

ـ كلّا!

ـ هي الحقيقة!

ـ ولكنّك حريصة دائمًا...

فقالت بمرارة:

ـ تعبت من الحرص كما تعبت من الحياة.

فجعل ينظر إليها وهو يتذكّر منظر جزر الأدرياتيك كما تلوح لعيني المشاهد في دوبروفنيك في ليالي القمر، ثمّ سألها:

ـ من؟

ـ لن يخطر لك على بال!

ـ يوثانت؟

ـ سائح مجهول ذو لحية شقراء وشعر مضفور دعاني للعشاء فلبّيت!

فضحك حسني طويلًا ثمّ قال:

ـ احتفظي به فسيكون درّة!

ـ كدت أجنّ في غيابك...

فقال بعطف:

ـ غلبك الحزن أكثر ممّا يجوز.

فقالت بتأثّر شديد منذر بالدمع:

ـ كان التحقيق، ثمّ الزواج، وشعرت بأنّ الدنيا ماتت ولن تبعث.

وراح يملأ قدحين وهو حزين، وقدّم لها قدحها قائلًا:

ـ صحّتك!

وأفرغا القدحين معًا، وقال ـ لا عن صدق ـ ولكن عن عطف حقيقيّ:

ـ تذكّرتك وأنا جالس في حديقة تحت الأرض في دوبروفنيك فتاقت نفسي إليك بحنان عجيب!

ـ لعلّي كنت أفكّر فيك وأنا أقرع جرسك فلا يردّ.

ـ قلبي معك، لا تخافي يا عزيزتي...

فتنهّدت بصوت مسموع تردّد كالنغمة في جوّ الحجرة السحريّ. وكان يروّض رغبة طفرت إلى أعصابه، رغبة طارئة وناعمة في أن يلعب الحبّ معها. ولم يعلنها، وذهب إلى التليفون وأدار القرص:

ـ ألو... سمراء؟... كيف أنت! جميل أن تعرفي صوتي من أوّل كلمة... أريدك على عجل... الآن إن أمكن... إلى اللقاء...

ورجع إليها وهو يسأل:

ـ أتعرفين سمراء وجدي؟

فهزّت رأسها نفيًا فقال:

ـ آن لك أن تعرفيها...

ـ ٣٠ ـ

ظلّ حسن حمّودة أربعين عامًا لا يفكّر في الزواج ولا يهتمّ به حتّى عرف منى زهران. وبعد أن فشل مشروع زواجه منها لم يعد له من شاغل إلّا الزواج. وأثير الموضوع من جديد. أثارته نهاد هانم عقب عشاء دُعيت إليه هي وزوجها صفوت مرجان في قصر الأستاذ حسن حمّودة بشارع الفضل بالعجوزة. وهو

قصر ضخم ذو حديقة كبيرة ورثه عن أمّه، ويقيم فيه وحده مع الخدم. وهو يمتاز بحيازته لطاهٍ فاخر خليق بأن يعتزّ به مطعم عامّ من مطاعم الدرجة الأولى. وهو أكـول وذوّاقة للطعـام الجيّد، وتمـاثله نهاد في ذٰلك، بخلاف صفوت الـذي يقنع بكـأسين من الـويسكي ومختارات من الشواء والخضر والفاكهة. ودار الحديث عن الزواج وكان هو الذي فتحه برغم ما عُرف عنه من ولع خاصّ بحديث السياسة الذي لا ينتهي. قال لها:

ـ أودّ أن أسمع آخر أنباء عن عروسك!

فقال صفوت:

ـ أراهن على أنّك ستتزوّج قبل نهاية هٰذا العام.

وقالت نهاد هانم:

ـ هي أرملة وأمّ لبنت وحيدة في الجامعة ومن أسرة كبيرة مثل سعادتك...

فغلبه الفتور وقال:

ـ لن يقلّ سنّها عن الأربعين.

ـ هي في الأربعين!

فقال محتجًّا:

ـ ولٰكنّني في الأربعين وتلزمني عروس شابّة.

فقالت نهاد ضاحكة:

ـ لست خاطبة.

وقال صفوت:

ـ عليك أن تجدها بنفسك في سينما أو في مرقص أو في الطريق!

فقال يائسًا:

ـ لا وقت عنـدي للبحث، ولـولا جنـايـة دُعيت للدفاع فيها ما عرفت منى زهران...

فقالت نهاد:

ـ ما عليك إلّا أن تنتظر جناية أخرى.

وسأله صفوت:

ـ ولٰكن هل تناسبك فتاة من هٰذا الجيل؟

ـ لِمَ لا؟

ـ لهنّ رؤية جديدة في الحياة والحبّ.

فقال بلا تردّد:

ـ أنا في هٰذا المجال تقدّميّ أكثر ممّا تتصوّرا

فضحك صفوت مرجان وقال:

ـ لست أوّل شخص يجمع في ذاته بين الرجعيّة في السياسة والتقدّميّة في الحبّ!

اكفهرّ وجهه الأسمر الغامق، وازداد إشعاع عينيه حدّة. أثارته ـ كما تثيره عادة ـ تهمة الرجعيّة. إنّه يعتبر الديمقراطيّة غاية التقدّم، وما عداها نوعًا من النازيّة أو الفاشستيّة. وهو يفهم الديمقراطيّة على أنّها أسلوب من التعامل بين الصفوة في المجتمع. الصفوة من أصحاب المصـالح الحقيقـة وأهل الفكـر والثقافـة. أمّا عـامّـة الشعب فلا يعترف بهم ولا يعمل لهم حسابًا في قائمته الإنسانيّة. لذٰلك لم يحنِ هامته أمـام الموجـة الشعبيّة الهائلة التي أطلقتها الثـورة. وكان يسخـر من بعض أهل طبقته الـذين تأثّـروا بها فـراحوا يهـزّون شجرة الأسرة بعنف لعلّهم يعـثرون عـلى غصن فقـير... «شعبيّ» يلوذون بـه في الإعصـار العـاصف الـذي يقتلعهم من جذورهم. كان يعتزّ دائمًا بأصله الرفيع، والعـالقة من أعـمامه وأجـداده، وينـظر إلى الأشيـاء والنـاس نظرة أرستقـراطيّـة متعصّبـة. وقـد انتشلتـه ملاحظة صفوت مرجان العابـرة من حديث الـزواج فردّته إلى موضوعه الأبديّ وهو السياسة فقال:

ـ الـديمقراطيّـة الأمريكيّـة رجعيّة؟! أمـريكا أمّـة علميّـة، وقد تجـاوزت بالعلم خـزعبلات الشيـوعيّـة ونبوءاتها الكاذبة...

فقالت نهاد:

ـ نحن لا نكفّ عن الكلام، لا أحد يتكلّم مثلنا، والغارات تمتدّ إلى أعماق بلادنا...

فقال حسن حمّودة بحنق:

ـ المسألة أنّنا أمّة مهـزومة ولٰكنّهـا تأبى الاعـتراف بهزيمتها!

ثمّ نظر إلى صفوت وسأله:

ـ متى نعترف بالواقع في تقديرك؟

فأجاب صفوت وهو يشعل سيجارة:

ـ سيخطو الروس خطوة جديدة وهامّة في تقويـة دفاعنا.

الروس أيضًا! إنّه يكره الروس أكثر من الكوليرا. ولولاهم لكان ٥ يونيه يوم السعادة الحقيقيّة والفردوس

المفقود. وسأله:

ـ هل نصمد حتّى تصل المعونة الروسيّة الجديدة؟

فقال صفوت بثقة:

ـ لن يسمحوا بهزيمتنا مرّة أخرى!

ـ مبارك عليكم هٰذا الأمان!

فضحك صفوت وقال:

ـ الروس لا يستغلّون.

وقهقه حسن حمّودة عاليًا. اعتدّها نكتة فروّح بالضحك عن حقده المشتعل. روّح بالضحك عن أحلامه الدمويّة المكبوتة. وكانت نهاد تملّ حديث السياسة بسرعة فسألته بنبرة مرحة:

ـ لِمَ لا تعلن عن رغبتك في الزواج في إحدى المجلّات؟

فضحك حسن، وضحك صفوت ثمّ قال تأييدًا للفكرة:

ـ أقترح الإعلان الآتي:

ح.ح. محامٍ ناجح، غنيّ، من أصل أرستقراطيّ، في الأربعين من عمره، أمريكيّ الهوى إسرائيليّ الرؤية، يرغب في الزواج من فتاة في العشرين، مثقّفة عصريّة، جميلة.

فواصل حسن ضحكه وقال:

ـ سيجيئني الردّ من وزير الداخليّة!

ـ ٣٢ ـ

أمضى مرزوق وفتنة شهر العسل في أسوان، ولمّا رجعا إلى القاهرة أقاما في شقّة بشارع فنّيّ وتأهّبا لمواجهة الغيب. وكان مرزوق قد استردّ كثيرًا من الثقة المفقودة وتألّقت في خياله أحلام غير شاحبة. ودُعيت فتنة للقيام ببطولة فيلم فاقترحت أن يلعب مرزوق الدور الأوّل أمامها ولكنّ اقتراحها رُفض بأسلوب اعتدّته غير مقبول فرفضت الفيلم بصلف. وتكرّر ذٰلك مرّة أخرى في نفس الأسبوع! عند ذاك رأى مرزوق أنّ الأمر يستحقّ المناقشة. تزعزعت ثقته وتبخّرت أحلامه فأقبل على المناقشة بقلب جافّ وتصميم يائس. قال لها:

ـ لا يجوز أن ترفضي فيلمًا بعد الآن وإلّا...

فقاطعته:

ـ إنّي مؤمنة بأنّك ستكون عنصر نجاح.

ـ المهمّ أن يؤمن الآخرون، فاقترحي إذا شئت ولكن لا ترفضي...

وشعر بأنّ النجاح الذي أحرزه إنّما يخصّ شخصًا آخر لا علاقة له به. وبحسرة قال لها:

ـ يحسن بي أن أفكّر جدّيًّا في وظيفتي التي لم أشغلها...

فقالت بارتياع:

ـ تعمل ستّ ساعات بسبعة عشر جنيهًا!

ـ عليّ أن أتوافق مع الواقع مهما يكن مرًّا!

ورفض من بادئ الأمر أيّ مغامرة سخيفة أو تفكيرًا جنونيًّا. قال:

ـ واضح أنّني لم أعد صالحًا للبطولة.

فقالت برقّة:

ـ توجد أكثر من بطولة في الفيلم ولكن حذار من الأدوار الثانويّة فهي شرك لا فكاك منه...

أجل هي شرك. وهٰذا المسكن الأنيق شرك أيضًا. وحبّه الذي ضحّى في سبيله بإنسانيّته شرك ثالث. وتجهّمته الحياة لحدّ التقزّز.

ودقّ جرس التليفون. كان المتكلّم أحمد رضوان!! وكان يستأذن في زيارة. ونظرت نحو مرزوق مستطلعة فقال رغم انفعاله الشديد:

ـ إذا كان لعمل فليحضر...

وجاء في الميعاد. وانحنى باحترام تحيّة متجنّبًا ـ في الوقت نفسه ـ مغامرة المصافحة. وجلس في أدب لا متنفخًا ولا مزهوًّا. وقال:

ـ توجد غشاوة من سوء الظنّ.

ونقّل بصره بينهما ثمّ قال:

ـ علينا أن نبدّدها، لأنّه لا مبرّر لها، ولأنّه لا غنى لنا عن العمل المشترك!

لم يسمع تعليقًا. شعر بجمرات النظرات تلسع وجهه فقال:

ـ كان استدعائي للتحقيق سخفًا، آلمني جدًّا، كما يجدر بإنسان بريء بكلّ معنى الكلمة...

ولمّا لم يسمع كلمة التفت نحو مرزوق وقال:

- لست مجرمًا، أنا فنّان مثلك، وحبّي لزملائي مضرب الأمثال...

تنبّهت فتنة إلى أنّها لم ترحّب به ولم تقدّم له شيئًا فأشارت إلى البار وقالت:

- معذرة، اشرب شيئًا...

وقام إلى البار فتناول زجاجة الكورفوازييه شرابه المفضّل فملأ كأسًا ثمّ عاد فواصل حديثه الموجّه إلى مرزوق:

- يوجد أكثر من شخص يمكن أن تحوم حوله الشبهات، البراءة لم تسعدني، ما يهمّني حقًّا هو أن تقتنع أنت ببراءتي...

لم يسمع إلّا أنفاسًا تتردّد فانطبع الأسف في أساريره وقال:

- افتح لي قلبك وصارحني بما فيه.

وثبّت عليه عينيه حتّى قال مرزوق:

- لم أعد أفكّر في الأمر تاركًا غوامضه للشرطة!

- عظيم، لننتظر، أنا مطمئنّ تمامًا، ولنتكلّم الآن في العمل!

وشرب كأسه دفعة واحدة ونظر إلى فتنة وقال:

- كانت بيننا مشروعات مشتركة!

فهزّت رأسها بالإيجاب فقال:

- ماذا يمنعنا من التنفيذ؟

فقالت بهدوء:

- الجواب عندك.

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- كان أيضًا ضمن المشروعات.

فقال بثقة:

- سيكون له دور محترم!

- أحبّ أوّلًا أن أدرس دوره في السيناريو!

- عظيم، ولكن أوصيك بالمرونة والحكمة، إنتاج فيلم في هٰذه الظروف الكئيبة مغامرة يستحقّ القائمون بها كلّ تقدير، في أيّ لحظة، ونتيجة لهجوم أو غارة قد يتوقّف العمل في الفيلم، وربّما في عالم السينما كلّه، والعاقل من يدري ذٰلك.

فقالت بهدوء وتصميم:

- قلت رأيي يا أستاذ أحمد.

- تذكّري أنّ همومنا صغيرة إذا قيست بالويلات التي تنصبّ على الوطن!

فقالت ضاحكة على رغمها:

- لا أذكر أنّك اهتممت بالويلات من قبل!

فتساءل محتجًّا:

- أهٰذا كلام يوجّه لرجل أخوه يعمل في الجبهة؟

وقام فانحنى مرّة أخرى محيّيًا ثمّ غادر المكان.

- ٣٣ -

تعرّفت عليّات على حامد في بيت منى زهران بالزمالك. كانت دعوة للعشاء حضرتها سنيّة وعليّات، وشهدها حامد باعتباره شقيق سالم زوج منى. ومن بادئ الأمر اهتمّ حامد بعليّات اهتمام إعجاب. وأوصل الفتاتين إلى محطّة الباص، وفي أثناء الطريق أعلن عن رغبته في مقابلة عليّات لمزيد من التعارف. وهو ما شجّعت عليه سنيّة، فتمّ الاتّفاق على ذٰلك. وتقابلا عند الأصيل في ميدان طلعت حرب، وسألها أين تفضّل أن يجلسا، فاقترحت دار الشاي الهنديّ، ربّما لتفاؤلها بها بعد أن جمعت بين منى وسالم. وكانت معلوماته عنها لا بأس بها، مثل درجتها العلميّة ووظيفتها بالشئون الاجتماعيّة وغير ذٰلك من المعلومات التي اعتقدت أنّ منى بلّغتها إيّاه. ودهشت وهو يحدّثها عن وظيفته البسيطة بسكرتاريّة مؤسّسة التي لم تتناسب مع حديثه الذكيّ المثقّف. سألته:

- من أيّ كلّيّة؟

فقال بلا ارتياح:

- الثانويّة العامّة فقط!

فارتبكت قليلًا وقالت:

- الحقّ أنّك مثقّف جدًّا.

- ذاك شيء آخر.

وقرأ في عينيها تساؤلات تداريها بأدبها فقال:

- عقب حصولي على الثانويّة العامّة اعتُقلت!

فتساءلت باهتمام:

- لِمَ؟

فقال ضاحكًا:

- بتهمة الشيوعيّة!

فنظرت إليه بحبّ استطلاع وإشفاق فقال:

- لم أكن شيوعيًّا عندما اعتُقلت بتهمة الشيوعيّة.

- ذٰلك مؤسف بقدر ما هو غريب.

فقال باسمًا:

- بقدر ما أنت جميلة...

وساءلت نفسها كم مرّة سمعت هٰذه الجملة. ولٰكن كم مرّة قيلت لوجه الجمال وحده؟ قالت:

- لا تبالغ.

- من أوّل نظرة شعرت بأنّه سيكون لك معي شأن.

فقالت ببساطة:

- شكرًا...

ثمّ مستدركة في تساؤل:

- ولٰكن كيف سقطت عليك تهمة الشيوعيّة؟

- لا أدري.

- لم أكن أتصوّر أنّ الأخطاء تقع بتلك السهولة.

فقال متهكّمًا:

- كلّ شيء ممكن.

فتجلّت في عينيها العسليّتين نظرة تشعّ سخرية ومرارة معًا.

قال:

- كنت في الثامنة عندما قامت الثورة فأنا أحد أبنائها...

وتبادلا نظرة طويلة قال بعدها:

- منى زوجة أخي معجبة بك، وحدّثتني أيضًا عن أخيك البطل.

- إنّه يشقّ طريقه في الظلام بإرادة قويّة.

- وأثارت إعجابي أيضًا بزوجته...

- أحيانًا يرتفع الحبّ بالإنسان إلى ذروة عالية.

- أظنّه كذٰلك دائمًا...

- كلّا، ليس دائمًا...

فقال باسمًا:

- لا داعي للتشاؤم فإنّي أكرهه.

- حسن.

واحتسيا الشاي وتناولا أربع قطع من الجاتوه، وتبادلا في أثناء ذٰلك نظرات موحية.

ثمّ سألته:

- هل جُنّدت؟

فأجاب باقتضاب:

- كلّا.

ثمّ مستدركًا:

- عيني اليسرى لا تكاد تبصر...

فسألته بإشفاق:

- مرضت بها؟

- فقدتها أو كدت في المعتقل!

فارتسم الذعر في وجهها فقال باسمًا:

- أستطيع أن أُعجب بك بعين واحدة فضلًا عن عين وربع!

- ومع ذٰلك فأنت بريء من الشيوعيّة!

فضحك وقال:

- عندما أفرجوا عنّي كنت قد انقلبت شيوعيًّا في نظرهم.

وضحكت فضحك، وبدت لهما الأمور في غاية من الفكاهة. وعند ذٰلك سألها:

- ماذا تفضّلين، السينما أم الرقص؟

فقالت بعذوبة:

- ليس الليلة من فضلك...

- ٣٤ -

نظر حسني حجازي إلى القادمة بدهشة، ثمّ فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة، ثمّ تملّصت من ذراعيه فسبقته إلى حجرة الجلوس وهو يقول في أثرها:

- عزيزتي سمراء وجدي، أيّ سعادة...

وأسكتت الراديو وهي تسأله:

- كنت تسمع آخر أنباء الغارات؟ بي شوق تَهِم إلى كوكتيلك.

فاتّجه إلى البار وهو يقول:

- أوّل مرّة تحضرين فيها وحدك!

فقالت بنعومة وهي تتناول كأسها:

- إنّما أجيء هٰذه المرّة من أجل نفسي لا من أجلك.

متوسّطة القامة، رشيقة كلاعبة في سيرك، بيضاء

موزّدة، من الأمام ومن الناحية اليسرى تتبدّى جمالًا أنيقًا نبيلًا. أمّا عارضتها اليمنى فمشدودة في تقلّص، مدبوغة باحمرار ضارب للسواد، وبها بقع منفّرة ونتوءات كالدرن، جلست واضعة رِجلًا على رجل وهي ترنو إليه بغموض وتحفّز حتّى أثارت حبّ استطلاعه إلى أقصى حدّ. قال وهو واقف أمامها:

- ما أسعدني بك يا سمراء.

- لا تكذب، أنت تسعد بالعصافير التي أجيء بها...

- ولكنّك تعلمين كم أحبّك وأحترمك.

فقالت ساخرة:

- لا يهمّني الاحترام!

- لا شيء يرفع من شأن الإنسان كالمأساة.

- لا تذكّرني بأشياء لم أعد أتذكّرها.

فقال بلهجة صادقة:

- نحن في زمن خسيس معبوده المال، وبوسعك أن تربحي منه الآلاف، ولكنّك تجودين بكلّ جميل من أجل اللهو والحبّ لا المال، أنت من كوكب آخر...

فقالت ضاحكة في سرور:

- أنا صاحبة محلّ وغنيّة...

- لا تبخسي حقّك من الثناء، لو أردت لبلغت درجات أخرى من الغنى لا يقاس بها غناك!

فقامت بنفسها إلى البار لتملأ كأسها من جديد ثمّ عادت إلى مجلسها وهي تقول:

- اسمع يا عزيزي الكهل الفاسق، إنّما قصدتك لمسألة تهمّني شخصيًّا!

- في خدمتك، لعلّك تريدين مشاهدة آخر الأفلام.

فقالت بهدوء، وهي تنفذ إلى روحه بنظرة عينيها:

- أريد عليّات!

لاح لأوّل وهلة كأنّما يحاول تذكّر صاحبة الاسم فقالت بتحدّ:

- الفتاة التي دعوتني لإجهاضها!

- آه، ولكنّي لا أدري عنها شيئًا تقريبًا إلّا إذا جاءتني بنفسها، هل لي أن أتطفّل فأسأل عن السبب؟

فقالت ببساطة:

- الظاهر أنّي عشقتها.

فضحك حسني ثمّ تساءل:

- ترى هل تحبّ هي ذلك؟

- عندي أمل!

- أليس لديك من البنات ما...

فقاطعته بحدّة:

- ما هذا الكلام الفارغ الذي لا يُتوقّع من كهل فاسق مجرّب مثلك!

- معذرة، ولكنّها كانت بين يديك؟

- زارتني مرّة في المحلّ للشكر ثمّ اختفت...

- لعلّها اختفت متعمّدة...

- كيف أتّصل بها؟

- أعدك بأن أبلغها رغبتك في زيارتها إذا زارتني يومًا.

فقالت بغضب:

- لا جدوى منك، أنانيّ تأخذ ولا تريد أن تعطي، وتنسى أياديّ البيضاء عليك!

- سعيت يومًا إلى تزويجك من رجل ممتاز.

- أنت تعلم أنّني لا أحبّ الرجال فلا تمنّ عليّ!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- أعرف مثلًا أنّها موظّفة بالشئون الاجتماعيّة ولكنّني لا أدري في أيّ فرع هي ولا ما هو عنوانها، وتتناهى إليّ بعض أخبارها أحيانًا عن طريق والدها نادل مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر.

فقالت باهتمام:

- سأنتظر مكالمة تليفونيّة منك.

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قال لها باسمًا:

- اشربي كأسك يا عزيزتي!

- ٣٥ -

الحياة تظلّلها سحب دكناء من القلق والمخاوف الصامتة. بذلك شعر مرزوق أنور. وفتنة تشاركه مشاعره وإن تظاهرت بغير ذلك. والاستمتاع بمظاهر الحياة البرّاقة، المحفوف بالضحكات الرنّانة وقرع الأنخاب لا يغيّر من الحقيقة شيئًا. وكلّما زادت المجاملات الناعمة زاد الحذر والتوجّس، وتلوّت في

مكامنها كالديدان. وقال لها مرزوق يومًا:
- ها هو موسم التعاقدات انتهى ولم نظفر بعقد واحد!
فقالت باستهانة:
- ليكن عام إجازة.
وكان يقرأ قلبها ويسمع ما يقال في الوسط فقال:
- لا يمكن أن تسير الأمور هٰكذا.
فقالت بإصرار:
- فلتَسِرْ كما تشاء.
هٰذا عناد المعركة لا الحبّ. ومن يدريني إن كان للحبّ وجود إلّا كقشرة لنواة المعركة الصلبة. الشخص الذي أحبّته لم يعد له وجود. قال:
- لا يجوز أن ننتظر حتّى نفلس معًا.
- أنت كثير المخاوف، والدنيا أفضل بكثير ممّا تتصوّر.
- أرجو ألّا ترفضي عملًا بسببي مستقبلًا...
- حتّى لو كان مع أحمد رضوان؟
- ولو كان مع أحمد رضوان.
- ولٰكنّي مصمّمة!
فهتف بيأس:
- إنّي أرفض...
- أتقبل أيّ دور ثانويّ؟
- لن يكون أفضل من الالتحاق بوظيفة عاديّة.
فانزعجت وقالت:
- صارحني بما في قلبك.
- أودّ أن تعملي في حقلك وأن أعمل في حقلي الأوّل.
فأحاطت عنقه بذراعيها وقبّلت خدّه وقالت:
- أنت ضحيّة حبّي!
فقال وهو يداري استياءه:
- لا مكان للعطف هنا!
فقالت بعتاب:
- ولٰكنّي أحبّك أوّلًا وأخيرًا.
فقبّل خدّها أيضًا وقال:
- أصغي إليّ، لقد لفظت نفسي الفنّ.
فحوّلت وجهها عنه في تأثّر بالغ فقال:
- لم يعد يهمّني في شيء.
وصمتت قليلًا ثمّ قالت:
- ما يهمّ حقًّا هو حبّنا!
- من الجنون أن نزحف إذا كان بوسعنا أن نحلّق!
- ماذا تعني؟
فلم ينبس. أطبق فكّيه فتجلّت قسوته الكاذبة. قالت:
- ما أكثر وساوسك!
فابتسم وقال:
- حذار من العطف!
فهتفت بحدّة:
- لا تردّد هٰذه الكلمة!
- سمعًا وطاعة...
وهي تتنهّد:
- ما أتعس المواقف التي ليس لها حلّ.
- ولٰكنّ لكلّ موقف مهما تعقّد حلًّا.
- على حساب الكرامة أو السعادة أو الاثنين معًا.
- هو خير من الجمود الذي يشلّ الإرادة.
- لا أوافقك.
فقال بضجر:
- علينا أن نسلّم بأنّ السعادة التي حلمنا بها لم تتحقّق كما حلمنا بها!
فصاحت بنبرة منذرة بالبكاء:
- أنت تهينني!
- كلامي لا يتضمّن أيّ إهانة.
- هٰذا ظنّك!
فقال بأسف:
- أردنا أن نركّب في جسمنا المشترك جناحًا فانقلب عكّازًا!
فقالت بحدّة:
- ما أردت إلّا أن أتزوّج من الرجل الذي أحبّه.
فقبّلها بطريقة آليّة وقال:
- تقبّلي اعتذاري.
ثمّ قام وهو يقول:
- سأتمشّى في الخارج قليلًا.
- في هٰذه الساعة من الليل؟

فقال وهو يمضي:

- في هٰذه الساعة يُعتبر المشي دواء.

- ٣٦ -

كانوا يدخّنون في سكون الليل يظلّهم صمت مريح. حسني حجازي يناجي الدخان الذي ينفثه بتمهّل وانسجام، وعبده بدران يدخّن سيجارة، كذٰلك عشماوي وهو قابع على كثب من دفء النصبة، وفي الخارج ترامت أصوات المنشدين في مولد سيدي البيّومي. وجاء بيّاع الفلافل يحمل رغيفًا محشوًّا تتدلّى من أطرافه بعض عيدان البقدونس فأعطاه لعشماوي، ووقف ينتظر النقود والآخر يلتقطها من علبة صفيح ببصره الأعمش. وفي فترة الانتظار قال له بيّاع الفلافل:

- تسلّل رجالنا أمس إلى خطوطهم فدمّروها...

فهزّ عشماوي رأسه باعتزاز فعاد الرجل يقول:

- وسيعقب ذٰلك زحف الجيش!

فقال عشماوي وهو يعطيه القروش:

- ولا تنس هجمات طيّاراتنا، جاء دورنا...

ذهب الرجل راضيًا. ومضى عشماوي يتناول طعامه ويتمطّق بصوت مسموع تخلّلته قرقرة النارجيلة. والتفت عشماوي نحو حسني حجازي وقال:

- جاءوا له بعربة ذات ثلاث عجلات يقتعدها ويسيّرها بيديه ولٰكنّه لا يخرج بمفرده بعيدًا...

لم يدرك حسني حجازي عمّن يتحدّث بادئ الأمر، ثمّ تذكّر حكاية جاره البطل الذي بُترت ساقاه فقال:

- عظيم... عظيم...

وسأله عبده بدران:

- هل يمكن أن يتزوّج يا عشماوي؟

- يمكن، علمت ذٰلك من جدّته!

فقال حسني حجازي:

- زوجه تكسب ثوابًا، الإنسان يعتاد أيّ شيء ولٰكنّه لا يطيق الوحدة.

فقال عمّ عبده:

- إبراهيم يواجه الحياة بعزيمة ونجاح.

فقال عشماوي:

- إنّك متعلّم وذٰلك ميزة كبيرة.

وبصراحته الخشنة راح يقارن بين العمى وفقد الساقين ثمّ تأوّه قائلًا:

- في شبابي كنت إذا اخترقت طريقًا يختفي اليهود من جوانبه...

ولم يتمالك حسني نفسه فضحك حتّى سعل. وعادوا إلى الصمت فترامى إليهم مرّة أخرى صوت المنشدين. وهزّ عشماوي رأسه طربًا وقال:

- كنت يومًا من مريدي البيّومي...

فقال له عبده بدران:

- طول عمرك مجرم ولا شأن لك بالطريقة.

فقهقه العجوز ولم يعلّق. وأقبل عمّ عبده نحو حسني حجازي كمن ضاق بسرّه، وكان الأستاذ يحسن قراءة أفكاره فسأله عمّا وراءه فقال:

- عليّات جاءها ابن الحلال...

فأبدى الرجل سروره متمتمًا:

- حقًّا!

- شابّ موظّف، أخوه قاضٍ كبير.

- على بركة الله.

وسكت الرجل متفكّرًا ومتردّدًا ثمّ قال:

- قيل لي إنّه كان مسجونًا!

فتساءل عشماوي:

- هل يوظّفون المساجين في هٰذه الأيّام؟!

فاستدرك عمّ عبده قائلًا:

- لأسباب سياسيّة...

فقال حسني مخاطبًا عشماوي:

- إنّها لا تمسّ الشرف يا عشماوي...

وقال عمّ عبده:

- وإبراهيم موافق، ولو كانت تمسّ الشرف لما وافق أبدًا...

فقال عشماوي:

- وأنا كنت مسجونًا سياسيًّا مرّة.

فقال عبده:

- مرّة!... ثمّ عشرات المرّات لا علاقة لها بالسياسة!

- إن أردت الحقّ فالمخدّرات كالسياسة لا تمسّ

الشرف!

- فلنسلّم بذلك، والضرب والاعتداء؟

فقال بفخار:

- فتونة وجدعة!

فهتف ضاحكًا:

- عليك اللعنة!

فقال عشماوي وهو يضرب كفًّا على كفّ:

- ماذا جرى للدنيا!؟ نسوان عرايا في الشوارع، مساجين موظّفون، ويهود غزاة!

ورجعوا إلى الصمت وسماع الأناشيد...

- ٣٧ -

كانت عليّات تعمل بالوزارة عندما زارتها - بلا سابق معرفة - إحدى العاملات في محلّ سمراء وجدي. أخبرتها أنّها تعبت كثيرًا قبل أن تعثر على مكانها ودعتها إلى مقابلة سمراء في محلّها بشارع شريف. انقبض قلب عليّات. إنّها لا تنسى فضل سمراء. وسبق أن زارتها في المحلّ للشكر. ولاحظت أنّها راغبة في توثيق علاقتها بها بحرارة غير عاديّة وبأسلوب أثار في نفسها الريب. لذلك لم تفكّر في زيارتها مرّة أخرى. وانقبض قلبها إزاء دعوتها الجديدة. إنّها حزمة من المتناقضات، فهي نبيلة المظهر مترفّعة عن المال ولٰكنّها ذات خبرة فاجرة وعلاقة حميمة بذلك الدكتور التي تشبه عيادته مشرحة الجثث. ومضت ذاك المساء إلى حسني حجازي وقصّت عليه قصّة الدعوة وجملة وساوسها. وارتبك الرجل بادئ الأمر، ثمّ قال لها ببساطته المخيفة أحيانًا:

- سمراء مغرمة بك!

ليس من الممكن أن تحمل قوله على محمل آخر رغم قابليّته لأكثر من معنى فارتاعت حقًّا، ولٰكنّها تغابت وسألته:

- ماذا تعني؟

- أنت تفهمين تمامًا ما أعنيه.

فقطّبت وزمّت شفتيها فسألها برقّة:

- ألم تكن لك تجربة في ذٰلك؟

فقالت بتقزّز:

- كلّا.

- إذن ستنشأ متاعب!

فتمتمت بخوف:

- متاعب؟!

حدّثها بإيجاز عن تاريخ سمراء وجدي وحاضرها ثمّ قال:

- إنّها عالم من التعاسة والمغامرة والمتعة...

فقالت بقلق:

- لن أذهب.

ثمّ بتوسّل:

- أنت قادر على تجنيبي أيّ شرّ.

فقال لها بعطف:

- سأحاول ولٰكنّني لست واثقًا من النتيجة...

ولم يتخلّ عن مسئوليّته فدعا سمراء. قدّم لها الشراب ممزوجًا بمزاجه العذب وهي تراقبه طيلة الوقت بنظرة ثاقبة من خلال أهدابها الطويلة، ثمّ قالت له بذكاء:

- ادخل في الموضوع بلا لفّ!

فضحك عاليًا وقال:

- صاحبتك ليست من أهل ذٰلك.

- لم تلبّي دعوتي.

- جاءتني أنا.

- صارحتها؟

فقال برقّة متودّدة:

- ليست من أهل ذٰلك وهي شارعة في الزواج فاصرفي عنها النظر!

فاجتاحتها موجة عاتية من الهياج وهتفت:

- الخنزيرة!

- سمراء!!

- إنّي إذا غضبت...

- لا داعي للغضب.

- دع تقدير ذٰلك لي أنا.

فداعب ذقنها بأصابعه وهو يسأل:

- وهل بالقوّة يمارس الإنسان ما لا يحبّ؟

- الخنزيرة، هل نسيت؟

- سمراء، عليّات عانت تجربة مريرة مثلك، وهي

شارعة الآن في الزواج.

- لن تتزوّج!

فهاله القرار وقال:

- لست قاسية ولا شرّيرة.

- إذن فأنت لم تعرفني بعد.

- ولٰكن ماذا تنوين يا عزيزتي؟

- سأطلع خطيبها على حقيقتها.

فهتف:

- لا.

- بلى.

- لا أصدّق.

- سوف ترى.

فأسكتته الهزيمة مليًّا ثمّ قال:

- لقد تركت معذّبك الأوّل يمرح بلا عقاب!

- كنت غرّة.

وتحوّل حسني عنها في يأس ومضى نحو البار.

- ٣٨ -

اختفى مرزوق أنور فلم يعثر له أحد على أثر. فعل فعلته واختفى. قضى على نفسه بحبس شبه انفراديّ في بنسيون بحلوان. ومن محبسه تابع أخباره في المجلّات الفنّيّة. أخبار طريفة حقًّا. مرزوق يهرب من بيت الزوجيّة ويرسل إلى فتنة ناضر وثيقة الطلاق ورسالة مؤثّرة، فتنة تنهار عصبيًّا ويعودها الأطبّاء، فتنة تبحث عن مطلّقها في مظانّه فلا تقف له على أثر. وتمضي فترة تخفت بعدها الأصوات وتنداح الحادثة في خضمّ الحادثات. وتمضي فترة أخرى ثمّ يُنشر خبر عن قبول فتنة العمل في فيلم جديد من إخراج أحمد رضوان. وقال مرزوق لنفسه إنّه كالميت ولٰكن أُتيح له ما لم يتح لميت من قبل وهو أن يشهد ما خلّفه وراءه من وجود وعدم. وقال أيضًا بأنّه لم يكن أمامه إلّا إحدى اثنتين، فإمّا حياة كلب أمين أو قوّاد. ولمّا استقرّ كلّ شيء في موضعه رجع إلى أهله وقرّر السعي إلى الالتحاق بوظيفة.

وما تدري عليّات يومًا - وهي في مكتبها - إلّا وهو يفاجئها بزيارة. تطلّعت إلى وجهه نصف دقيقة كأنّما هي في شكّ من هويّته. جرحه ذٰلك حتّى أدماه. وقال لها:

- لم يكن مفرّ من حضوري.

ولم تفهم مراده، ووضح له أنّها برمة بزيارته، ولٰكنّه قال:

- أودّ أن أعتذر لأستطيع مواصلة الحياة.

فتمالكت مشاعرها وقالت:

- لا أهمّيّة لذٰلك.

جلس بدلًا من أن يذهب وقال:

- فلنتناول غداءنا معًا لأقول كلمتين.

فقالت ببرود:

- لا معنى لذٰلك ألبتّة.

- إنّي مُصِرّ.

ولمست فيه حالة مخلخلة تقتضي الملاينة فوافقت. ذهبا إلى الكورسال القديم فتناولا غداء بلا استطعام ثمّ طلب قهوة، وأشار إلى وجهه وهو يقول:

- هٰذا ما آلَ إليه حالي.

فمسحت بإرادتها أيّ ظلّ للتعبير وتمتمت:

- سوء حظّ حقًّا ولٰكن يمكن قهره والانتصار عليه.

- شكرًا.

- لا داعي لليأس مطلقًا، تذكّر مثال أخي إبراهيم.

فكرّر شكرها. وشعر بمناعة تطوّق روحها كالحصن فجعل يفكّر صامتًا ثمّ قال:

- لا شكّ أنّك غاضبة عليّ.

فقالت ببساطة صلبة:

- مضى ذٰلك وانقضى.

فقال باسمًا بسمة لا معنى لها:

- ذٰلك أدهى وأمرّ.

فلاذت بالصمت، فقال:

- نرتكب أحيانًا جرائم تحت سيطرة جنون لا معنى له.

فقالت معترضة:

- بل له معنى.

فقال بلهجة تعلّمها من التمثيل رغم صدقه:

- قلت لنفسي لعلّ ما نالني من عقاب يشفع لي في

الغفران.

ـ لا أدري عمّا تتكلّم.

فتردّد مليًّا ثم تساءل:

ـ هل أطمع في غفرانك؟

ـ لا أدري عمّا تسأل.

ـ لكنّه واضح.

ـ لم يعد لذلك أهمّيّة.

ـ ولكنّه بالنسبة إليّ هو كلّ شيء.

ـ أكرّر بأنّه لم يعد لذلك أهمّيّة.

فالتمعت عيناه ببريق أمل وقال:

ـ لعلّه يفتح لنا صفحة جديدة؟

فقالت بحزم:

ـ أيّ صفحة جديدة؟

ـ لكنّك تفهمين قصدي تمامًا.

فقالت بنبرة قاطعة:

ـ لا تضيّع وقتك سدًى.

ـ أصغي إليّ...

ـ أرفض مجرّد التفكير في ذلك.

ـ لننتظر حتّى يهدأ غضبك.

ـ لست غاضبة، صدّقني، ولكنّي أستعدّ لصفحة جديدة أخرى.

وأرته دبلة خطوبتها، فتمتم:

ـ حقًّا؟

ـ سأتزوّج في وقت قريب.

وساد الصمت حتّى تساءل:

ـ أهو رأي نهائيّ؟

ـ طبعًا.

وقامت وهي تقول:

ـ آنَ لي أن أذهب.

ومضت وحدها. وجدت في قلبها ارتياحًا شاملًا وشعورًا بالتحرّر والنصر. ومن أمارات التوفيق أنّها لم تضمر نحوه كراهية ولا حنقًا ولا شماتة فقالت لنفسها: مات تمامًا فما أعجب ذلك!

ـ ٣٩ ـ

كانت عليّات تجالس حامد في دار الشاي الهنديّ

وإذا بسمراء وجدي تظهر فجأة فتقف عند طرف المنضدة بينهما. بهتت عليّات واختفى الدم من وجهها. ودهش حامد وجعل يردّد عينيه بينهما وهو لا يفهم شيئًا. وهمّ بالكلام ولكنّها سبقته فقالت مخاطبة عليّات ورائحة خمر تتردّد مع أنفاسها:

ـ أنا عنيدة كما ترين...

فتساءل حامد:

ـ ما الخبر؟

فقالت له سمراء:

ـ ادعني أوّلًا للجلوس كما يقضي الذوق.

ورأى في موقف المرأة خطرًا خفيًّا يهدّد سلامتهما فقال:

ـ ولكنّي لم أتشرّف بمعرفتك.

فجلست وهي تقول متحدّية:

ـ ها أنا أجلس بلا استئذان.

وضحكت ضحكة تعتبر مزعجة في وقار السكون فقال حامد:

ـ تصرّف حضرتك غير لائق...

فقالت ساخرة:

ـ ولكنّ خطيبتك تعرفني وقد جئت لأشكوها إليك.

فقال متأثّرًا بتضعضع عليّات:

ـ ما زلت أعتبر تصرفّك غير لائق.

فتجاهلت احتجاجه وقالت:

ـ أشكو إليك فتاتك فقد قدّمتُ لها خدمة لا تقدَّر بمال فلم أنل منها إلّا الجحود...

همّت عليّات بصفعها ولكنّها خافت من تفجّر مضاعفات مجهولة، جبنت فعجزت حتّى عن الكلام وتساءل حامد بغضب:

ـ ماذا تريدين؟

فقالت سمراء بتحدٍّ فاجر:

ـ نتكلّم أوّلًا عن الخدمة وسأترك لك تقدير الثمن.

تمتمت عليّات:

ـ مجرمة، أنت مجرمة...

فضحكت سمراء بقسوة وقالت:

- الله يسامحك.

فقال حامد بحنق:

- من فضلك، أنا لا أسمح.

فقاطعته بقحة:

- تصوّر فتاة من أسرة شعبيّة، اضطربت أحشاؤها بجنين سهوًا وهي...

فقاطعها بغضب:

- اذهبي من فضلك.

فواصلت حديثها:

- كيف تتصوّر بؤسها؟! وكيف تقدّر صنيع مَن يخلّصها من الجنين ويردّ إليها شرفها.

وجعل حامد يشير إليها بأصبعه مهدّدًا وقد أعجزته انفعالاته عن النطق، ثمّ قال:

- من الأفضل لك أن تذهبي...

- تهدّدني؟

- نعم.

فسألت عليّات متهكّمة:

- ما رأيك يا عليّات؟

لم تنبس عليّات. وغلب الغضب والانفعال حامد فخرس. واربدّ وجهه بألوان قاتمة.

وضح أنّ عاصفة عاتية اجتاحته. وآمنت سمراء بأنّها أصابت الهدف وأنّها أنهت مهمّتها على خير وجه. وهمّت بالقيام تحت تأثير خوف طارئ. ولكنّ حامد اجتاز أزمته. كبح انفعالاته. مرق منها باردًا صلبًا عنيدًا. سأل المرأة:

- أأنت التي قمت بتلك الخدمة؟

فهزّت رأسها بالإيجاب فسألها متحدّيًا:

- لعليّات؟

فهزّت رأسها مرّة أخرى، فقال وقد سيطر على أعصابه تمامًا:

- أنا مدين لك بالشكر، أيّ ثمن تطلبين؟

فتفحّصته باهتمام لترى لأيّ درجة هو جادّ أو غاضب، فعاد يسألها بهدوء:

- ماذا تطلبين؟

فداخلها اضطراب وحيرة فقال:

- يبدو أنّك لا تريدين شيئًا، وعلى ذلك فأرجو أن تخلي لنا الجوّ لنواصل حديثنا!

وقامت متعثّرة بالحيرة ثمّ مضت في عصبيّة.

أسندت عليّات رأسها إلى يدها وأغمضت عينيها في إعياء موشكة على الانهيار الكامل.

ونظر إليها في صمت وحزن. وشعر بالعاصفة في قلبها فمال نحوها بعطف وقال:

- أقترح أن نسير في الهواء الطلق.

رفعت رأسها وقالت باستسلام يائس:

- حامد...

فقاطعها بلطف:

- لا داعي للكلام، نحن في حاجة إلى الهواء الطلق.

- ٤٠ -

كان حسني حجازي يعاني قلقًا في باطنه بخلاف عادته في مجلس الليل الهادئ بالانشراح. أطلق كامن قلقه في النارجيلة فمضى يأخذ أنفاسًا متتابعة حتّى اشتعلت الجمرات واحترق التبغ نافثًا رائحة فظّة. وتوقّع طيلة الوقت أن يروّح عمّ عبده بدران عن حزنه فيعلمه بفسخ خطوبة عليّات. وها هو يقف مستندًا إلى غطاء الجدار الخشبيّ، يدخّن سيجارة، ونظرته الثقيلة المعتمة ثابتة كأنّه موشك على النعاس. لعلّه يتحيّن الفرصة ليبوح بهمّه، وعند ذاك سيجد هو نفسه في صميم مأساة لأوّل مرّة. وكان عشماوي مقرفصًا قرب النصبة. لا يثرثر كعادته، لوعكة برد ألمّت به، فبدا كعجوز يحتضر. وتجنّب النظر ناحية عمّ عبده. وشمّ الرجل رائحة التبغ المحترق فاقترب قائلًا:

- هل أبدّل لك التبغ؟

فانتبه حسني لمعاملته العصبيّة للنارجيلة وقال له:

- غيّره...

ومضى الرجل بالنارجيلة فجدّد التبغ ثمّ رجع بها بتبغ جديد كسبيكة ذهبيّة. وقال:

- زارنا مرزوق أنور مع سنيّة وإبراهيم!

فأنس حسني خيرًا وقال بحماس مفاجئ:

- يا له من جريء!

- واعتذر، وهنّأني على خطوبة عليّات الجديدة...

ـ المسامح كريم.

ـ وجد وظيفة في مؤسّسة النقل وسيكمل تعليمه للحصول على شهادة بعد الليسانس.

فقال حسني وهو يوغل في الارتياح:

ـ جميل أن يجدّد الإنسان حياته. . .

ـ وأصبح أمله الأوّل والأخير أن تتاح له الهجرة يومًا ما.

ـ الهجرة موضة هٰذه الأيّام الغريبة.

وقال لنفسه إنّ عليّات بخير. وإنّ سهم سمراء قد طاش. وشعر بامتنان نحو العقليّات التي تتجدّد وتتجاوز الزمن. وتشجّع فسأله:

ـ وما أخبار عروستنا؟

فقال عمّ عبده:

ـ الخطيب يرغب في الزواج في أقرب فرصة.

ـ على خيرة الله!

فقال الرجل بأسف:

ـ لا أستطيع أن أقدّم لها شيئًا ذا بال.

ـ لا أهمّيّة لذٰلك.

وترامت إليه حركة عند الباب، التفت فرأى سمراء وجدي واقفة كتمثال. نظر إليها عمّ عبده أيضًا بدهشة. ورفع عشماوي رأسه وضيّق عينيه ثمّ فغر فاه. ارتجّ قلب حسني ووقف شعره. وتمتم وهو لا يدري:

ـ غير معقول!

ألقت عليه نظرة باردة مهدّدة ثمّ حوّلت عنه رأسها بتحدّ. نظرت إلى عمّ عبده بدران وتساءلت:

ـ عمّ عبده بدران؟

ذهل الرجل. أقبل نحوها ملبّيًا في أدب، ومتأثّرًا غاية التأثّر بمظهرها الأنيق الفاخر، ثمّ قال:

ـ أفندم؟

مضت إلى ركن المقهى الأقصى فتبعها على الفور. شدّت إليها الأبصار. خمّن حسني حجازي ما وراء مجيئها بفزع. وتذكّر وهو يختنق أنّها استدلّت على المكان بإرشاداته التي وردت ضمن حديثه بلا قصد. إنّه محور الرحى التي تطحن مجموعة من البشر لم يكنّ لها طيلة حياته إلّا المودّة. وثمّة شرّ يوشك أن يحيق بالجميع ولكن بأيّ حكمة يمكن دفعه؟ التدخّل من ناحيته يعني افتضاح أمره، وسيؤدّي في النهاية إلى هتك الستر عن البيت السحريّ. ولكن ينتفي الخطر إذا التزم بموقف المشاهد؟! وتملّص من الشلل أو هٰكذا خيّل إليه. فتح فاه وقال محذّرًا:

ـ إنّها امرأة مجنونة ومخمورة!

ولكنّ أحدًا لم يسمعه. لم يخرج الصوت من فيه. خذلته قواه فاحتواه العجز. لم تتحوّل عيناه عنهما. أرهف السمع ولكنّه لم يسمع حرفًا ممّا يقال. المرأة تهمس والرجل يصغي باهتمام شديد. وعشماوي ينظر ويصغي ولكن دون جدوى. وتأرجح المجلس بحسني حجازي وغاص في باطن الأرض. وطار عشّه السحريّ في الهواء على أجنحة الزبانية. ركّز بصره على وجه عمّ عبده بدران. ها هو يصغي وتتحرّك شفتاه أحيانًا. وها هي نظرته الثقيلة تزداد قتامة. ها هو يُقطّب ويجتاح وجهه موجة سوداء. تراجع رأسه إلى الوراء كأنّما تلقّى لكمة ثقيلة. سقطت السيجارة من يده. قدحت عيناه شررًا. ندّت عنه آهة ذبيحة محشرجة. ترنّح كالثمل. وفجأة انقضّ على المرأة يقبض على عنقها بكلتا يديه وشدّ عليها بكلّ قوّته. وفزع حسني فصاح:

ـ لا. . .

قام كالمجنون فارتطمت ركبته بالنارجيلة فألقت بها على الأرض وقام عشماوي وهو يتساءل:

ـ ماذا جرى!

هرعا نحو الرجل وحسني يتوسّل إليه:

ـ انتبه لنفسك يا عمّ عبده. . .

ولكنّ الرجل لم يفكّ قبضتيه الفولاذيّتين حتّى كانت المرأة جثّة هامدة. . .

ـ ٤١ ـ

ـ هل خنقت هٰذه المرأة؟

ـ نعم.

ـ لماذا خنقتها؟

ـ . . . .

ـ لماذا خنقتها؟

- . . . .
- ما علاقتك بها؟
- لا أعرفها.
- أتقول إنّك لا تعرفها؟
- لم أرها قبل هٰذه الساعة المشئومة.
- فلماذا خنقتها؟
- . . . .
- خنقتها بلا سبب؟
- . . . .
- ماذا قالت لك؟
- . . . .
- الصمت معناه أنّك تجود بعنقك لحبل المشنقة.
- . . . .

وأصرّ عمّ عبده بدران على الصمت.

ومن خلال شهادة عشماوي تجسّدت صورة لظهور سمراء المفاجئ. وتطلّعها إلى عمّ عبده بدران وهي تتساءل «عمّ عبده بدران؟» وقول الأستاذ حسني حجازي «غير معقول»، ثمّ ذهاب المرأة وعمّ عبده إلى الركن الأقصى، وحديثهما الذي لم يُسمع منه حرف، ثمّ الجريمة التي لم يستطع منعها أحد.

- أنادت عمّ عبده أم تساءلت عنه؟
- نظرت إليه وتساءلت «عمّ عبده بدران»؟
- إذن فلم تكن تعرفه؟
- هو ذٰلك والله أعلم.
- أليس لديك فكرة عن كيفيّة مجيئها إليه؟
- كلّا.
- ولا عمّا دار بينهما من حديث؟
- لم أسمع حرفًا.
- ما مدى علمك عن علاقات صاحبك بالنساء؟
- أستغفر الله، إنّه رجل طيّب محمود السيرة ومسكين. . .
- كيف تفسّر ارتكابه للجريمة؟
- لا أدري، إنّه لم يقتل دجاجة في حياته، والعِلْم عند الله.
- لِمَ قال الأستاذ حسني حجازي «غير معقول»؟
- لا أدري. ولٰكنّ مجيء امرأة جميلة إلى الانشراح بعد منتصف الليل أمر غير معقول.
- لعلّه كان يعرفها من قبل؟
- لم يتبادلا كلمة واحدة والعِلْم عند ربّك.

ولم تأتِ شهادة الأستاذ حسني حجازي بجديد عن مضمون الحادثة. وقد سأله المحقّق:

- لِمَ قلت «غير معقول»؟
- كان مجيئها إلى الانشراح في تلك الساعة غير معقول.
- ألم ترها من قبل؟
- بلى، أعرفها معرفة عامّة فهي صاحبة محلّ تجاريّ في الشارع الذي أسكن فيه.
- هل لك أن تحدّد لي نوع معرفتك بها؟
- معرفة عابرة ليس إلّا.
- ولكنّكما لم تتبادلا ولا تحيّة عابرة؟
- توقّعت ذٰلك ولكنّها تجاهلتني تمامًا.
- ما تفسير ذٰلك في نظرك؟
- لعلّها كانت مستغرقة بالمهمّة التي ساقتها إلى المقهى.
- وماذا تعرف عمّا كان بينها وبين عمّ عبده؟
- لا شيء ألبتّة.
- وماذا دار بينهما؟
- لم أسمع حرفًا.
- ما تفسيرك للجريمة؟
- إنّها مذهلة ولا تفسير لها عندي.
- ما هي معلوماتك عن القتيل؟
- لا علم لي بدخائلها.
- ما تفسيرك لصمت المتّهم؟
- إنّه لغز ولا تفسير له عندي.

- ٤٢ -

رجال الشرطة شياطين. وهم يملكون جحيم الأرض وينفثون النيران في الوجوه الشاحبة. يطرقون الأبواب بأيدٍ أليفة كالأحباب ثمّ يفتحون البيوت كالأعاصير. ويقف الكهل بين أيديهم مجرّدًا من الكرامة فيفترس الخوف قلبه ويوقن بأنّ الحياة وَهْمٌ وضياع. وينقبون الجدران والحشيّات والجيوب

والخزائن فتتلاشى المسرّات والأخيلة. عند ذاك يسير بينهم بلا أرجل، بلا أعين، بلا غد، تطنّ في أذنيه همهمة مغلّفة باللعنات، وإن يتبقّى له رمق فسيردّد بصوت محشرج: لقد انتهيت.

- اسمك؟
- حسني حجازي.
- عمرك؟
- لخمسون عامًا.
- مهنتك؟
- مصوّر سينمائيّ.
- أتعترف بأنّك مالك هٰذه الأشرطة السينمائيّة؟
- أجل.
- وأنّك عرضتها على عشرات من البنات القاصرات؟
- أجل.
- وأنّك مارست معهنّ الجنس.
- أجل.
- ألا زلت عند قولك عن علاقتك العابرة بسمراء وجدي؟
- كلّا، أعترف بأنّها كانت صديقة قديمة.
- أكانت تجيئك بالبنات لمشاهدة أفلامك الجنسيّة؟
- أجل.
- وما علاقتك بعليّات ابنة المتّهم عبده بدران؟
- كانت صديقة.
- ألم تكن يومًا عشيقتك أيضًا؟
- بلى.
- أتعترف بأنّك يسّرت لها الإجهاض؟
- بلى.
- كيف؟
- استعنت بسمراء وجدي.
- وهل اعترفت لك سمراء بأنّها عشقت عليّات؟
- نعم.
- هل استعانت بك لتحقيق رغبتها الآثمة؟
- نعم ولٰكنّي حاولت صرفها عنها.
- أأرشدتها إلى مكان عمّ عبده بدران؟
- سألتني عن مكان عملها فقلت لها إنّي أجهله بالتحديد وإن كنت أعرف أنّها موظّفة بالشئون، وقلت لها أيضًا إنّ علاقتها بي منقطعة تقريبًا وإنّني لا أعرف أخبارها إلّا عرضًا وفي مقهى الانشراح حيث يعمل والدها نادلًا به، ولم أكن أتصوّر أنّها ستقوم بزيارتها الغريبة التي انتهت بمصرعها.
- ولِمَ قامت بزيارتها الغريبة؟
- كانت مصمّمة على الانتقام من عليّات لعدم إذعانها لرغبتها الآثمة، فانقضّت عليها وهي جالسة مع خطيبها وأخبرته على مسمع منها بحكاية الإجهاض، ولمّا خاب المسعى ولم يصب الهدف، أعادت التجربة مع الأب فقتلها.
- أتعتقد أنّ ذٰلك هو الباعث الحقيقيّ وراء جريمة عمّ عبده؟
- ولا باعث غيره في رأيي.
- ألديك أقوال أخرى.
- كلّا.

كان حسني حجازي ينطلق بسيّارته في أطراف المدينة عند الفجر. توقّدت أعصابه فقضت على أيّ أمل في النوم. وطاردته أشباح التخيّلات طيلة الوقت. ستجري التحرّيات حول سمراء وجدي وستكشف عاجلًا عن عالم حافل بالجنون والغرائب. إنّه خبير بهٰذه الأمور. سرعان ما يُعرف كلّ شيء. وسيجرّ التحقيق العشرات من البنات والفتيات. وقريبًا تجتاح العاصفة العاتية عشّه السحريّ السعيد ويكبّله القيد الحديديّ. ماذا يوجد في بيت سمراء وجدي من صور وأرقام تليفونات وأسماء، ترى هل تدوّن مغامراتها في مذكّرات؟ هل يُدعى إلى التحقيق؟ هل يُزَجّ به في السجن؟ هل ينتحر؟ هل من مخرج؟

- ٤٣ -

اجتمعت عليّات وحامد في دار الشاي الهنديّ. كانت منهوكة الأعصاب دامية العينين. واستعان هو بقواه الكامنة ليواجه الموقف ولٰكنّه كان يعيش بوجدانه في جوّ مليء بالمخاوف المجهولة. وجعلت تردّد:

- أبي... أبي... يجب إنقاذه.
- هٰذا هو المأمول حقًّا ولٰكن كيف؟

قالت مصمّمة:

- بأيّ ثمن.

- سنبذل ما نستطيع وفوق ما نستطيع.

- نحن نعرف كلّ شيء.

- أجل... وهو مصرّ على الصمت صونًا لسمعتك.

فقالت وهي تكتم انتحابها:

- لن أتخلّى عنه.

- لن نتركه لينال عقوبة رهيبة لا يستحقّها...

فرنت إليه بنظرة دامعة وقالت:

- ذاك يعني أن نشهد بما نعلم.

- لا مفرّ من ذٰلك.

- ولٰكن هل يصدّقوننا؟

- من رأيي أن نعهد بالقضيّة إلى الأستاذ حسن حمّودة وأن نشاوره في الأمر قبل أن ندلي بشهادتنا.

- طيّب.

- فالطريق واضح.

فعضّت على شفتيها وتمتمت:

- سيُعلَن السرّ على الملأ.

- أجل.

- وستنشأ مصاعب ومتاعب.

فقال بإشفاق:

- ربّما.

- إنّي أضحّي لإنقاذ أبي ولكنّي ساجرّك معي...

فقال محتجًّا:

- لا أوافق على طريقتك في التفكير.

- الحقّ أنّي لا أريد أن احمّلك فوق ما تستطيع.

وكان قلبه ينقبض حيال العواقب المتوقّعة ولكنّه قال:

- هٰذا شأني أنا.

فقالت وهي تخفض رأسها:

- أنت في حلّ من...

فقاطعها بحزم:

- عليّات! ما هٰذا الهراء!

استجمع إرادته ليسحق تردّده. غاص قلبه في هاوية. سخر من مخاوفه واحتقرها. قذف بنفسه في تصميم صلب. قال:

- لن أتخلّى عنك.

- ٤٤ -

لأوّل مرّة تغرق الحجرة في كآبة شاملة. وكان حسني حجازي وعليّات يجلسان متقابلين ومتقاربين يتبادلان نظرات جافّة باردة كنظرات أصنام الآلهة والحيوانات فوق الأرفف. ولأوّل مرّة تتخلّى عن الرجل روح الدعابة والشمول فتطحنه أشياء مجهولة تطبق على الحجرة من عالم مجهول. قال لها:

- سألت عنك في كلّ مكان.

فقالت بنبرات ميتة:

- كنت قادمة بنفسي على أيّ حال.

نفذت إجابتها إلى أعماق روحه فقال بقلق:

- دائمًا في خدمتك.

- نصحت أن أوكّل الأستاذ حسن حمّودة المحامي.

فضغط حسني على جناحي أنفه بأصبعيه متأمّلًا ولكنّه قال:

- إنّه حجّة في الجنايات!

فانخفض صوتها قليلًا وهي تقول:

- يقال إنّ أتعابه باهظة!

فتنهّد بارتياح وقال:

- ستجدين تحت أمرك كلّ ما يلزمك.

- لا أدري كيف أشكرك.

فتناول يدها بين يديه وتساءل:

- عليّات، ألم أكن دائمًا نِعْمَ الصديق؟

فأحنت رأسها بالإيجاب. انحدرت من عينيها دمعة فاستقرّت فوق ركبتها. قال:

- لي عندك رجاء.

- ما هو؟

فسكت دقيقة كاملة ثمّ قال:

- ألّا تذكري اسمي سواء عند المحامي أم في التحقيق...

فقالت وهي تجفّف عينيها:

- لا أهمّيّة لذٰلك فيما أظنّ؟

فقال وبهجة من الأمل تشيع في نفسه:

ـ عين الصواب، فهو لن يقدّم فائدة ولكنّه سيضرّني كما تعلمين.

ـ لن أفعل ما يضرّك.

ـ شكرًا، ممكن أن تقولي إنّك عرفت سمراء في محلّها التجاريّ. وإنّها حاولت أن تنشئ معك علاقة شاذّة فرفضت، ومن ثمّ أرادت أن تنتقم منك الخ. . . الخ.

ـ هي الحقيقة في جوهرها.

فقبّل يدها وقال:

ـ توكّلي على الله ولا تحملي للنقود همًّا.

ولمدّة دقائق ـ عقب ذهابها ـ شعر بأنّ الهمّ قد انجاب عن قلبه وبأنّ تيّار الحياة يتدفّق منْ قلبهِ نشيطًا مهلّلًا. أنجوت حقًّا؟ إن أكن نجوت فلن يمسني الضرّ مدى الحياة. ولكن لم تدم تلك الحال طويلًا. وئدت بلا إنذار. عاد عقله يعمل ويفرز سمومه المنطقيّة. ما أهمّيّة وعد عليّات؟ وما قدرتها على الإفلات من حصار الاستجوابات؟ وهل تُجْدي شهادتها إن لم تُدعم بشاهد عيان مثله كان محور الأحداث ومحرّكها؟ وهناك أيضًا التحرّيات التي تنشط في كلّ مكان الآن مثل الذئاب الجائعة. . . لا. . . لا. . . لا أمان. عليه أن يهرب. في أوّل فرصة. ثمّة وعد سابق بتصوير فيلم لبنانيّ فليطلب السفر فورًا وقبيل أن يذكر اسمه في التحقيق. سيستقرّ في لبنان إلى الأبد. لا حياة له في هٰذا البلد.

الوداع يا مصر. . .

ـ ٤٥ ـ

يا لها من مفاجأة! أحقّ تقع هٰذه الأمور في الحياة؟ وأن يُدعى ـ هو ـ للدفاع عن قاتل سمراء وجدي؟ نقّل بصره بين عليّات وحامد مخفيًا انفعالاته وراء قناع بارد من التجرّد. وقال:

ـ قرأت ما نُشر عن الجريمة في الصحف ففكّرت طويلًا في سرّ صمت المتّهم.

فقال حامد:

ـ نحن نعرف الأسرار كلّها.

فقال الأستاذ بعجلة:

ـ معذرة، احتفظ بها، فإنّني لم أقبل القضيّة بعد.

فقالت عليّات:

ـ ولكنّك ستقبلها طبعًا؟

آه. سمراء وجدي. ترى لِمَ قتلها الرجل؟ لفضيحة ما ولا شكّ. وسوف يقتضي الدفاع عنه النبش في ماضي الفتاة والكشف عن فضائحها والتشهير بها فهل يقوم هو بذٰلك؟ وهل يستبعد في تلك الحال أن ينبري شخص مجهول لهتك سرّه المنطوي وتعرية الدور الفاضح الذي لعبه في حياة الفتاة؟ ولم يتردّد فأجاب:

ـ آسف يا آنسة، لا وقت عندي البتّة. . .

فهتفت عليّات:

ـ ولكنّك لن تتخلّى عنّا؟

ـ الأمانة تقتضي أن أتخلّى ولكنّي سأعهد بها إلى زميل معروف لا يختلف في تقديره اثنان!

ـ ولكنّنا قصدناك أنت؟

فقال بلهجة مؤدّبة ولكن نهائيّة:

ـ الأمانة وحدها التي تمنعني.

وهمّت عليّات بالكلام فمال حامد نحوها قائلًا:

ـ علينا أن نصدّقه ونشكره، إن هي إلّا عثرات في الطريق ولكنّه بات ممهّدًا لما نأمله. . .

ولدى انفراد حسن حمّودة بنفسه تمزّق قناع الهدوء الذي تخفّى خلفه. غاص في مقعده وراح ينظر إلى السقف الأبيض بعينين ذاهلتين. لاحت له مخاوف غريبة كأشباح راقصة. وركبه إحساس لا معقول بأنّه مطارَد. ووثب من مجلسه كأنّما هو المسئول عن ضعفه وراح يتمشّى في الغرفة ويقول بصوت مرتفع ليطرد الأشباح:

ـ محض أوهام، تاريخ ميت، الميت لا يُبعث!

وكره الوحدة فغادر المكتب. استقلّ سيّارته وجرى بها على غير هدى ساعةً ثمّ هفا قلبه إلى لقاء صفوت مرجان فوجّهها إلى شارع أحمد شوقي بلا ميعاد سابق. وجد الأستاذ منفردًا في الفراندا بشخص غريب لم يره من قبل. همّ بالانصراف ولكنّ صفوت دعاه إلى الجلوس فجلس وهو يسائل نفسه متى يستطيع أن يروّح عن صدره ويفضي بانفعالاته إلى صديقه. وقام صفوت بالتعارف بين الرجلين. وقدّم الغريب قائلًا:

ـ أبو النصر الكبير من رجال المقاومة الفلسطينيّة.

فانفجر في صدر حسن حمّودة بركان من اللعنات. لم يكن من الذوق أن ينصرف فبقي على رغمه وهو يتلظّى. وقال له صفوت:

ـ طبعًا سمعت بقبولنا المبادرة الأمريكيّة؟

فأجاب بفتور:

ـ أجل.

ـ كنّا نناقشها.

فقال بلا مبالاة:

ـ معذرة، سأشرب كأسًا لأنّي مرهق.

أمّا أبو النصر الكبير فقال يواصل حديثه الذي قطعه مقدم حسن حمّودة:

ـ ولٰكنّ للمسألة وجهًا آخر، فالقضيّة ممتدّة في الزمن وليست بقضيّة هٰذا الجيل وحده، ولا بأس أن يتقرّر في لحظة زمانيّة ولضرورة أقوى منّا مؤقّتًا التضحية بمجموعة باسلة من العرب في سبيل صالح العرب ككلّ، ولٰكنّ الكلمة النهائيّة ستظلّ سرًّا مقدّسًا في طوايا الغيب، كما سيظلّ ميلادها رهنًا بالإرادة، فإمّا نموت موتًا غير مأسوف علينا، وإمّا نحيا حياة كريمة كما ينبغي لنا...

تدفّق الكلام من فيه هادرًا كالموج.

وتابعه حسن حمّودة بأعصاب متوتّرة، عيناه مغمضتان، وكأسه في قبضته لم يبقَ بها إلّا ثمالة.

الجريمة

المطاردة

مسرحية من فصل واحد

- ١ -

(المسرح خالٍ تمامًا. يدخل شابّان في ميعة الصبا. يرتدي أوّلهما قميصًا أبيض وبنطلونًا رماديًّا قصيرًا وحذاء من المطّاط، ويرتدي الآخر قميصًا أحمر وبنطلونًا أزرق وحذاء من المطّاط. سنُطْلق على الأوّل «الأبيض» نسبة إلى قميصه والآخر «الأحمر» نسبة إلى قميصه أيضًا. ينظران فيما حولهما باستطلاع واهتمام).

الأبيض : مكان مناسب وبه كلّ ما نحتاج إليه.

الأحمر : إنّه مكان على أيّ حال ونحن في حاجة إلى مكان.

الأبيض : (كمن يتذكّر) يخيّل إليّ أنّنا لعبنا فيه من قبل.

الأحمر : (هازئًا) دائمًا تقول ذٰلك.

الأبيض : أو لعلّه قريب الشبه منه.

الأحمر : المهمّ أنّه مكان صالح للعب.

الأبيض : هٰذا هو المهمّ حقًّا.

الأحمر : وهو بعيد فلن يهتدي إليه.

الأبيض : أرجو ذٰلك.

الأحمر : لعلّه يجد ما يشغله عنّا.

الأبيض : لعلّه.

الأحمر : كأنّه لا همّ له إلّا التطفّل علينا.

الأبيض : لو نُوَفَّق إلى تجاهله!

الأحمر : كيف وهو لا يتركنا لحالنا؟

الأبيض : فلنلعب.

الأحمر : فلنلعب.

الأبيض : لنلعب لعبة الأحلام.

الأحمر : إنّها مضجرة وخير منها الملاكمة.

الأبيض : الملاكمة رياضة عنيفة فلنَجْرِ في الهواء الطلق.

الأحمر : (ساخرًا) أنت جبان.

الأبيض : (باسمًا) أنت حيوان.

(يتوثّبان لبعضهما في تحدٍّ — يتراجعان وهما يرهفان السمع في قلق)

: ماذا هناك؟

(الأحمر يشير إليه بالسكوت ويرهف السمع).

: سمعت شيئًا؟

الأحمر : وقع أقدام!

الأبيض : حقًّا؟!

الأحمر : اسْمَع ولا تتكلّم.

الأبيض : (مرهفًا السمع. وَقْعُ أقدام يتّضح) وقع أقدام حقًّا.

الأحمر : هو؟

الأبيض : أو أيّ ذي قدمين.

الأحمر : لا تتظاهر بعدم الاهتمام.

الأبيض : أنا لا أحسن التظاهر ولا أحبّه.

الأحمر : ألا يزعجك حقًّا؟

الأبيض : بلى، ولو لدرجة ما.

(تقترب الأقدام. يدخل رجُل متين البنيان، قويّ بصورة واضحة، يرتدي قميصًا أسود

وبنطلونًا أسود وبيده سوط. رغم قوّته وشباب ملامحه فإنّه لا توجد شعرة سوداء واحدة في رأسه الأبيض.

تنحّى الشابّان جانبًا وهما ينظران إليه في حذر. أمّا هو فوقف منتصب القامة ناظرًا فيما أمامه نظرة مجرّدة بعيدة المرمى وهو يحرّك قدميه (تحلّك سِرْ طيلة الوقت).

الأحمر : أرأيت؟

الأبيض : نعم.

الأحمر : نذهب إلى مكان آخر؟

الأبيض : فلنلعب إن تكن لك رغبة في اللعب حقًّا.

الأحمر : تحت عينيه؟

الأبيض : ولِمَ لا؟

الأحمر : (ملاحظًا الرجل) إنّه لا يكفّ عن الحركة رغم أنّه لا يبرح مكانه.

الأبيض : المهمّ ألّا يتدخّل في شئوننا.

الأحمر : ولكنّه يتبعنا أينما سرنا.

الأبيض : لا يُعَدّ ذلك تدخّلًا في شئوننا.

(الصمت)

: فلنلعب «وَطّي البصلة».

الأحمر : (يهزّ منكبيه استهانة) فليكن، «وطّي».

الأبيض : وطّي أنت أوّلًا.

الأحمر : بل أنت الأوّل.

الأبيض : لا تكن أنانيًّا.

الأحمر : لا همّ لك إلّا المعارضة.

الأبيض : وأنت تتصرّف كأن لا وجود لأحد معك.

الأحمر : لاعبني «برا دي فير» والمغلوب يوطّي.

(الأحمر ينطرح على بطنه ويركّز ذراعه على كوعه ناظرًا إلى الأبيض في تحدٍّ فيضطرّ هذا إلى أن يفعل مثله، يتصارعان، الأحمر يُميل ذراع الأبيض حتّى يلصقها بالأرض..).

الأحمر : (صائحًا بفرح) غلبت... لم يوجد بعد الذي يستطيع أن يغلبني (تلوح منه نظرة نحو الرجل القويّ المتحرّك فيبوخ حماسه نوعًا) لم يوجد بعد... (الأبيض ينهض مستسلمًا، يوطّي واضعًا يديه على ركبتيه. الأحمر يتراجع مسافة ثمّ يجري نحو الآخر ويثب من فوقه معتمدًا بيديه على ظهره المنحني، ثمّ يوطّي بدوره فيثب الأبيض من فوقه، هكذا تستمرّ اللعبة حتّى يتعثّر الأبيض وهو يثب فيرتطم بالآخر ويقعان معًا، ويغرقان في الضحك. يقفان وهما يضحكان. ويكفّ الأبيض عن الضحك ويواصله الأحمر. الأبيض يشير إلى صاحبه بالسكون وهو يرهف السمع، ثمّ يتراجع به بعيدًا عن الرجل).

الأبيض : يخيّل إليّ أنّه طالَبنا بالكفّ عن اللعب.

الأحمر : لم أسمع شيئًا.

الأبيض : ولكنّي سمعته.

الأحمر : سمعي أقوى من سمعك.

الأبيض : ولكنّك كنت تضحك.

الأحمر : (غاضبًا) أرى أن نوقفه عند حدّه...

الأبيض : يحسن بنا أن نتجاهله...

الأحمر : بأيّ حقّ يتدخّل في حرّيّتنا؟

(صمت)

: وكلّما سكتنا زاد في غيّه.

الأبيض : تذكّر أنّه كان صديقًا لوالدنا!

الأحمر : لا نستطيع أن نحكم، كنّا وقتها صغارًا.

الأبيض : ولكنّه لم يكفّ عن زيارته حتّى آخر يوم في حياته...

الأحمر : لعلّه كان يتدخّل في شئونه كما يريد أن يفعل معنا؟

الأبيض : لا يبدو أنّه شرّير...

الأحمر : ولكن غير بعيد أن يكون به لطف!

الأبيض : لعلّ متابعته لنا حيثما نذهب نوع من الرعاية بحكم صلته القديمة بوالدنا؟

الأحمر : أنت عبيط، ولعلّه كان ضمن الأشياء التي نغّصت صفو أبينا في أواخر أيّامه...

الأبيض : ولكنّ والدنا لم يذكره بسوء.

الأحمر : كنّا صغارًا لا نفقه لما يقال معنى...

الأبيض : لم يكن لوالدنا أعداء.

الأحمر : مَن أدرانا بحقائق ذلك الزمن؟

(صمت)

: لماذا يطاردنا؟

الأبيض : إن صحّ أنّه يطاردنا حقًّا فلماذا يطاردنا؟

الأحمر : انظر إلى حركته المستمرّة، إنّه مجنون...

الأبيض : لا تتسرّع في الحكم...

الأحمر : هل يقبل عاقل أن يقف كما يقف ويحرّك ساقيه كما يحرّكهما؟

الأبيض : بعض الناس لا يطيقون السكون...

الأحمر : ترى ما مهنته؟

الأبيض : إنّه قويّ، خالي البال، فلعلّه من الأعيان.

الأحمر : دعنا نناقشه جهارًا.

الأبيض : كلّا، مظهره لا يشجّع على المناقشة...

الأحمر : دعني أسأله بضعة أسئلة...

الأبيض : مثل ماذا؟

الأحمر : لماذا يطاردنا؟

الأبيض : لن يعترف بذلك، ولا دليل عليه...

الأحمر : ألم تسمعه وهو يطالبنا بالكفّ عن اللعب...

الأبيض : حتّى ذلك غير مؤكّد.

(صمت)

: خير ما نفعل أن نتجاهله...

الأحمر : لا أستطيع...

الأبيض : لولا عصبيّتك...

الأحمر : (مقاطعًا) دائمًا ترميني بعجزك...

الأبيض : لا حدّ لمكابرتك...

الأحمر : أحيانًا أودّ أن أدقّ عنقك.

الأبيض : سأضيق بك يومًا فأهجرك...

(يتواجهان في غضب. الرجل يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقعة شديدة... يدبّ الخوف في قلبيهما. ينسيان خلافهما الطارئ. يغادران المكان. الرجل يقف وقفته وهو يحرّك ساقيه (محلّك سر).. المكان يظلم...).

***

- ٢ -

(يُضاء المسرح. نفس المسرح الخالي. يقف الأحمر والأبيض متواجهين. لقد تغيّرا تغيّرًا ملحوظًا. ارتدى كلّ منهما جاكتة من لون القميص وحذاء جلديًّا وأصبح لكلٍّ شاربٌ صغير يتبادلان النظر في ارتياح).

الأحمر : هيهات أن يتعرّف علينا الآن.

الأبيض : تغيّرنا لدرجة لا بأس بها.

الأحمر : ولٰكنّها كافية لتضليله...

الأبيض : هٰذا هو المأمول.

الأحمر : لا تبدو واثقًا ولا مطمئنًّا.

الأبيض : يخيّل إليّ أحيانًا أنّ التغيّر سطحيّ.

الأحمر : أنت مولع دائمًا بالتهوين من مهارتي...

الأبيض : أبدًا، استعدادي طيّب للاعتراف بمواهبك...

الأحمر : إذن فلماذا تبدو مرتابًا؟

الأبيض : أخشى ألّا يخدعه مظهرنا الجديد.

الأحمر : لن يصل إلى حقيقتنا الكامنة وراء الشارب والجاكتة والحذاء.

الأبيض : عظيم، هٰذا هو المأمول...

الأحمر : نحن الآن موظّفان من قوّة الدولة!

الأبيض : هٰذا صحيح و...

(يصمت فجأة متنصّتًا. الآخر يتنصّت أيضًا).

الأبيض : وَقْع أقدام...

الأحمر : لا أظنّ.

الأبيض : إنّه قادم...

الأحمر : لعلّه عابر سبيل مجهول.

الأبيض : بتّ أعرف إيقاع قدميه...

الأحمر : لا تدّعِ امتلاك الحكمة كلّها.

(يصبح وقع الأقدام مسموعًا. يدخل الرجل بنفس الصورة التي ظهر بها أوّل مرّة، ولٰكنّه لا يقف وإنّما يمضي ذهابًا وجيئة في بطء ملحوظ بعرض المسرح وفي عمقه. الشابّان ينظران نحوه بذهول.
يتنحيان جانبًا بعيدًا عن مسمعه).

الأبيض : أرأيت؟

الأحمر : مهلًا.. أرجّح أنّه لم يتعرّف علينا.

الأبيض : أتؤمن بذلك حقًّا؟!

الأحمر : لعلّ الذي يجمعنا هو الطريق والمصادفة ولا شيء سواهما..

الأبيض : لا بأس من أن نسلّم بذلك...

الأحمر : فلنتجاهله ولنمارس عملنا في هدوء وسكينة...

(يرجعان إلى وسط المسرح، يتظاهران بالانهماك).

: (بنبرة عظمة) حرّرت استمارات الصرف؟

الأبيض : لم تبقَ إلّا واحدة.

الأحمر : أسرع من فضلك لتتمّ مراجعتها اليوم.

الأبيض : على أيّ حال فالخزانة لا تغلق قبل منتصف النهار.

الأحمر : لا يجوز تأجيل عمل اليوم إلى غد.

الأبيض : ألا ترى أنّه يجب مراجعة ميزانيّة المصروفات؟

الأحمر : أعلم أنّها تسمح بالصرف حتّى نهاية العام الماليّ...

الأبيض : إذن يحسن أن أكتب المذكّرة.

(صمت)

الأحمر : هل لك علاوة هٰذا العام؟

الأبيض : كلّا وأنت؟

الأحمر : أستحقّ علاوة هٰذا العام.

الأبيض : مبارك.

الأحمر : ستغرق في خضمّ أعباء المعيشة.

(الأبيض يتنصّت فجأة وهو يمدّ أذنه نحو الرجل المتحرّك. ثمّ يأخذ الآخر من يده بعيدًا عن مسمعه).

الأبيض : أسمعت؟

الأحمر : كلّا.

الأبيض : عاد يطالبنا بالكفّ عن اللعب...

الأحمر : متأكّد؟!

الأبيض : بلا أدنى شكّ.

الأحمر : اللعنة...

الأبيض : من السهل خداعه.

الأحمر : ماذا يريد منّا؟

الأبيض : الله أعلم.

الأحمر : واضح أنّنا لا نلعب.

الأبيض : واضح جدًّا.

الأحمر : أيظنّ أنه وليّ أمرنا؟

(الأحمر يغضب. يأخذ الأبيض من يده ويذهبان إلى وسط المسرح. الأحمر ينظر نحو الرجل المتحرّك متحدّيًا).

: هل تخاطبنا يا حضرة؟

(الرجل يواصل حركته صامتًا).

: يجب أن تتكلّم...

(الرجل يواصل حركته صامتًا).

: نحن موظّفان محترمان. ولا نقبل إلّا المعاملة اللائقة بكرامة الدولة...

(الرجل يواصل حركته صامتًا).

الأبيض : هل لك حاجة في المصلحة؟

الأحمر : عليه أوّلًا أن يجيب...

الأبيض : هل لك طلب؟... شكوى؟... أموال متأخّرة؟

(الرجل يواصل حركته صامتًا).

الأحمر : كيف دخلت الإدارة؟... أمعك بطاقة شخصيّة؟

الأبيض : نحن في خدمة الجمهور...

الأحمر : (ثائرًا) كُفَّ عن حركتك اللعينة فقد أدرت رءوسنا!

الأبيض : وتذكّر أنّ الخزانة تغلق في تمام الثانية عشرة.

الأحمر : لو رآك المدير وهو ذاهب إلى دورة المياه فلن تحمد العواقب...

الأبيض : ما زلت أقول إنّنا في خدمة الجمهور.

الأحمر : يا ويلك من رجال أمن الوزارة لو رأوك!

الأبيض : ماذا جاء بك يا سيّدي؟

الأحمر : طبعًا عندك فكرة عن العقوبة التي ينالها من يعتدي على موظّف في أثناء قيامه بأعمال وظيفته؟

الأبيض : هل تضايقك بعض الشكليّات السخيفة؟

الأحمر : أنت أدرى بما يضايقك، ومن حقّك أن تشكو، ولكن لكلّ إجراء نظمه المتّبعة الواجبة الاحترام.

الأبيض : وحتّى إذا احتاج الأمر إلى رعاية خاصّة أو وساطة لها وزنها فستجد عندنا ما يحقّق رغباتك المشروعة.

الأحمر : عليك أوّلًا أن تكفّ عن الحركة وأن تتفاهم كما يجدر بالناس الطيّبين.

(الرجل يواصل حركته وفجأة يضرب الهواء بسوطه فيحدث فرقعة شديدة... يتراجع الشابّان في خوف).

الأحمر : (بلهوجة) أذن موعد الانصراف.

الأبيض : هيّا بنا إلى معركة المواصلات.

(يغادران المكان بسرعة، وفي خوف لم يفلحا في إخفائه. يستمرّ الرجل في حركته. يظلم المسرح).

- ٣ -

(يُضاء المسرح. الأحمر والأبيض متواجهان بنفس الحال التي رأيناهما عليها؟ عدا الشارب الذي امتدّ ونما فاضفى عليهما مظهر رجولة لم تجاوز حدود الشباب).

الأحمر : أليست فكرة بارعة؟

الأبيض : وطبيعيّة، وتهيّئ لنا استقرارًا.

الأحمر : الزواج هناء، ومصاهرة تقوّي مركزنا وسواعدنا، وفي إطار الصورة الجديدة لن يتعرّف علينا.

الأبيض : هو خير من العزوبة على أيّ حال.

الأحمر : (في عصبيّة) لا أراك متحمّسًا.

الأبيض : بل إنّي مرحّب جدًّا بالفكرة.

الأحمر : لا أرى أثرًا للحماس في وجهك.

الأبيض : الزواج فكرة طيّبة ولكن هل يغيّرنا للدرجة التي تضلّله عنّا؟

الأحمر : أعتقد ذلك؟

الأبيض : فلنجرّب والله معنا.

الأحمر : أظنّ يكفينا زوجة واحدة؟

الأبيض : فكرة مبتكرة.

الأحمر : واقتصاديّة، ولكنّي أخشى قيام نزاع يهدّد كلّ شيء.

الأبيض : (باسمًا) طالما واجهنا الحياة كشخص واحد.

الأحمر : كثيرًا ما نختلف ونتخاصم.

الأبيض : ولكنّ شيئًا لم يستطع أن يقضي على الرابطة التي تجمعنا.

(صمت)

الأحمر : وقع اختياري على زوجة ممتازة ولكن هل تتّفق أذواقنا؟

الأبيض : بيننا تقارُب لا شكّ فيه ولا تنسّ تسامحي.

(صمت)

الأحمر : إنّي أحبّ اللون الخمريّ.

الأبيض : اللون الأبيض لا يُعلى عليه.

الأحمر : بدأ الخلاف.

الأبيض : (بسرعة) ومع ذلك فجميع الألوان واحدة.

الأحمر : وأحبّ العود الممتلئ.

الأبيض : نحن في عصر الرشاقة.

الأحمر : لا أتصوّر ذلك أبدًا.

الأبيض : ليكن... ليكن... بشرط ألّا يزيد وزنها بعد المعاشرة.

الأحمر : بل لا بأس من أن يزيد وأن تمتلئ المواقع التي يريد الله لها أن تمتلئ.

الأبيض : (متنهّدًا) لتكن إرادة الله.

الأحمر : ورأيت من الحكمة أن تكون ذات مال ولو في الحدود المعقولة.

الأبيض : يا له من تفكير تجاريّ!

الأحمر : أنت جاهل بالدور الذي يلعبه المال في الحضارة!

الأبيض : ليكن ما تريد، لا تغضب.

الأحمر : ولا أقبل بحال أن تكون كاملة التعليم، حسبها التعليم الابتدائيّ، فالعلم زينة غير مقبولة للمرأة وهو يغريها دائمًا بالعمل الذي يحوّلها في النهاية إلى رجُل.

الأبيض : رأيك هذا كان رأيًا عصريًّا في العصر الحجريّ.

الأحمر : أنا لا يخيفني التعبير بالعصور القديمة.

الأبيض : ما دمنا نرغب في أن نكون ثلاثة فأكثر، وما دام ذلك في صالحنا وضمانًا لأمننا المهدّد، فلا يعني إلّا القبول.

الأحمر : وطالبت بأن تكون لعوبًا في نطاق الشّرع!

الأبيض : المرأة اللعوب لا يسعها إلّا أن تكون لعوبًا سواء في نطاق الشرع أو خارجه.

الأحمر : بل في نطاق الشرع وحده وسوف ترى.

الأبيض : فلنجرّب على أيّ حال.

(صمت)

الأحمر : هل لك مواصفات أخرى؟

الأبيض : مواصفات هامشيّة ولكنّها لا تخلو من فائدة، مثل البراعة في الحديث.

الأحمر : لا أهمّيّة لذلك، أنا أعرف زوجًا سعيدًا، ترجع سعادته أوّلًا إلى كون زوجته خرساء.

الأبيض : ويا حبّذا لو كانت تجيد الغناء!

الأحمر : لا أهمّيّة لذلك أيضًا فلدينا الكفاية في الإذاعة والتلفزيون.

(صمت)

: هل من مواصفات أخرى؟

الأبيض : كلّا.

الأحمر : أعتبر اتّفاقنا كاملًا؟

الأبيض : كاملًا...

(الأحمر ينظر إلى الجانب الأيمن من المسرح ويزغرد. تُسمع موسيقى زفّة العروس. تدخل العروس وهي تسير بين شيخ وشرطيّ. يقفون أمام الشابّين ثمّ يستدير الرجلان ويذهبان. تُتبادل النظرات بين العروس وبين الشابّين).

الأحمر : أهلًا بك يا عروس.

العروس: (في حياء) أهلًا بك.

الأبيض : فلتحلّ بحلولك النعمة والهناء.

العروس: آمين.

(يقبّلانها في وقت واحد، كلّ في خدّ).

العروس: (بحيرة) توقّعت قبلة واحدة!

الأبيض : سيتكرّر ذلك كثيرًا.

الأحمر : وعلى كلّ موقع مختار!

(ذهول من العروس وضحك من الشابّين).

الزوجة : (في حيرة أكثر) إنّي أتزوّج لأوّل مرّة فمعذرة.

الأحمر والأبيض معًا : ونحن كذلك!

الزوجة : نحن؟!

الأبيض : نعم.

الأحمر : لسنا من أنصار تعدّد الزوجات.

العروس: ولكن.

الأحمر : أنت الزوجة ونحن الزوج.

العروس: معًا؟

الأحمر : نعم.

العروس: ولكنّكما اثنان.

الأبيض : اعتبرينا شخصًا واحدًا.

العروس: لا أفهم شيئًا.

الأحمر : ثمّة أمور لا تُفهم إلّا بعد ممارسة الحياة الزوجيّة بالفعل.

العروس: لم يكن ذلك ضمن المعلومات التي زوّدتني بها أمّي.

الأحمر : طيبة منها ولا شكّ.

العروس: وكيف تستقيم المعيشة معكما معًا؟

الأحمر : ستعلمين ذلك في حينه.

العروس: أليست حالًا غير طبيعيّة؟

الأحمر : هذا ما جرت به الطبيعة منذ الأزل.

العروس: قيل لي إنّ التوفيق مع زوج واحد أمر ليس بالهيّن فكيف يتيسّر مع اثنين؟

الأبيض : هو غير هيّن لذلك وليس لسبب آخر.

الأحمر : ستتعلّمين كلّ شيء في حينه... تعالي.

(ينهالان عليها قبلًا وأحضانًا وهي مرتبكة).

العروس: ستوجد مشاكل؟

الأحمر : مشاكل؟

العروس: (في حياء) من سيكون أبا الوليد؟

الأبيض : سيحمل اسم مَن يسجّله في المكتب المدنيّ.

العروس: ولكنّ ذلك شيء عَرَضيّ جدًّا.

الأبيض : الأسماء كلّها عرضيّة.

العروس: أعجب ما سمعت في حياتي.

الأحمر : هٰكذا سيبدو لك كلّ شيء.
العروس: لم أسمع بذلك من قبل.
الأحمر : ولذلك فإنّي من أنصار تعليم الجنس في المدارس!
(صمت)
(يترامى وقع أقدام. يخرجون بعنف من جوّ الموقف ويرهفون السمع).
الأحمر : غير معقول.
الأبيض : (متنهّدًا) لم أكن مغاليًا.
العروس: مَن القادم؟
الأحمر : (للأبيض): ولٰكن... هيهات أن يعرفنا!
الأبيض : فليحقّق الله ظنّك.
العروس: أتتوقّعان قدوم أحد؟
الأحمر : كلّا.
العروس: فمن القادم؟
(صمت مع إرهاف السمع)
(يدخل الرجل بصورته الثابتة، ويمضي ذهابًا وإيابًا في حركة أسرع قليلًا ممّا كانت عليه في المنظر السابق.
الأحمر والأبيض والعروس يتراجعون بعيدًا عن مسمعه).
الأحمر : قلبي يحدّثني بأنّه لم يعرفنا.
الأبيض : طالما منّينا أنفسنا بذلك.
العروس: (بضيق واضح) ماذا جاء به إلى هنا؟
الأحمر : (للعروس) أرأيته من قبل؟!
العروس: أكثر من مرّة!
الأحمر : أنت أيضًا؟!
العروس: وأنتما؟... أليس كذلك؟!
الأبيض : لعلّه من سكّان الحيّ!
الأحمر : أكاد أوقن بجنونه.
العروس: كان من المتردّدين على أبي.
الأحمر : أيضًا!
العروس: ظننته سينقطع عن الظهور عندما أصير في عصمة رجل ولٰكنّه مصرّ رغم أنّني صرت في عصمة رجلين!
الأحمر : لا داعي للتشاؤم فلعلّه لم يعرفنا.
الأبيض : لعلّه!
العروس: ربّاه... ما أشدّ قلقي... ماذا يجدر بنا أن نفعل؟
(صمت)
الأحمر : فلنتجاهله.. ولنغنّ احتفالًا بحياتنا الزوجيّة.
(يرجع الأحمر بهما إلى موقفهما السابق وسط المسرح ثمّ يغنّون):

بشرى لنا نلنا المنى
زال العنا وأتى الهنا

(الأبيض يرهف السمع باهتمام واضح).
الأبيض : (للأحمر) عاد يتكلّم.
الأحمر : (منفعلًا) ماذا قال؟
الأبيض : كالعادة.
الأحمر : (مخاطبًا الرجل) ماذا تريد؟
الأبيض : (للرجل) سيّدي.. لِمَ تضيّع وقتك هدرًا؟!
الأحمر : (للرجل وحدّته ترتفع) هل تغرّك قوّتك؟، هل تستند إلى أحد من ذوي الشأن؟، إذن فاعلم أنّنا أصهرنا إلى واحد منهم هو والد هٰذه الزوجة الكريمة، وقد أصبحنا ثلاثة تؤيّدهم حلقة متينة من العائلات الأصيلة.
الأبيض : (للرجل) أخي شابّ ذو حدّة، ولٰكنّنا في النهاية من صلب الرجل الطيّب الذي كان صديقًا لك.
الأحمر : (مستسلمًا للحدّة): لم أعد أطيق هٰذا التدخّل السخيف!
العروس: ولا أنا.
الأبيض : (للرجل) ماذا تريد يا سيّدي؟، كأنّه لا يروق لك شيء ممّا نفعله، فماذا تريدنا على أن نفعل؟
الأحمر : (للرجل) تكلّم... يجب أن تتكلّم...
العروس: (للرجل أيضًا) احترم الحياة الزوجيّة المقدّسة.
الأبيض : نحن ندعوك لحفل زفافنا، ما رأيك؟
(صمت)

الأحمر : (موجّهًا خطابه للزوجة والأبيض) لا فائدة!

العروس: يا للأسف!

الأبيض : (وهو يتنهّد بصوت مسموع) أصبح لنا أسرة على أيّ حال!

(الرجل وهو يواصل حركته ذهابًا وإيابًا يضرب بسوطه الهواء فتُسمع طرقعة شديدة... يتراجعون بعيدًا عنه في ذعر واضح).

العروس: لا أطيق ذٰلك.

الأحمر : ولا أنا!

الأبيض : لنبدأ رحلة شهر العسل!

الأحمر : لنبدأها فورًا.

العروس: هيّا... هيّا.

الأحمر : سيسقط يومًا من الإعياء جثّة هامدة.

العروس: آمين.

(يتأبّط كلّ منهما ذراعًا لها ويغادران المكان وهم يسترقون النظر إليه في حذر. يواصل الرجل حركته على حين يُظلم المسرح).

- ٤ -

(يُضاء المسرح. الأبيض والأحمر بنفس الملابس ومعهما الزوجة. واضح أنّ العمر قد تقدّم بهم فجرى المشيب في رءوسهم وذبلت نضارتهم، أصبحوا كهلين وسيّدة).

الزوجة : مهما يكن من متاعبكم فلا يجوز أن ننسى الأبناء!

(الرجلان يتبادلان نظرات عميقة وكأنّهما لم يسمعا صوت الزوجة).

الأحمر : إذا طارت درجة المدير العامّ هٰذه المرّة فقُلْ عليها السلام.

الأبيض : ما زالت اجتماعات اللجنة مستمرّة!

الأحمر : ككلّ مرّة، ثمّ يُرَقّى شخص مجهول لا يخطر ببال أحد.

الأبيض : هل تطيق الصحّة أعباء جديدة يا عزيزي؟

الأحمر : لا شيء يهمّك حتّى الأعماق، أبدًا، هل فكّرت في تحسين المعاش كما ينبغي لرجل مسئول؟!

الزوجة : المعاش في النهاية أهمّ من المرتّب نفسه!

الأحمر : كرّري ذٰلك على مسامعه!

الأبيض : إنّي أودّ الترقية أيضًا ولٰكنّي أكره حرق الدم.

الأحمر : سرعان ما تضيق بأيّ شيء.

الأبيض : فليهتمّ بالمعاش مَن لن يملكوا سواه، أمّا أنت فإنّ نشاطك الحرّ أضعاف نشاطك الرسميّ.

الأحمر : لولا ذٰلك ما توافرت لنا الحياة التي ننعم بها.

الأبيض : غرقنا في العمل طيلة عمر، للدولة ولأنفسنا، بتُّ أتطلّع لحياة أخرى، لشيء من الهدوء والراحة.

الأحمر : عمّا قريب ستشبع من الهدوء والراحة وتبكي الأيّام الخالية.

الأبيض : لا أظنّ.

الزوجة : كفّا عن النزاع، ولندعُ الله أن يهبنا القوّة والصحّة، ولٰكن فكّرا قليلًا في الأبناء.

الأحمر : (للأبيض) أنت مثبّط للهمم.

الأبيض : كلّا، لي طموح بعيد أيضًا.

الأحمر : لا أعترف به.

الأبيض : تلزمنا فترة تأمُّل عقب الجنون المحتدم.

الأحمر : من أين لنا بها؟، ثلاثة اجتماعات في اليوم، ورابع في المساء مع سمسار من السوق الحرّة، وعلينا بعد ذٰلك أن نقيم وليمة عشاء للعملاء...

الزوجة : ستكون وليمة يشهد لها العدوّ قبل الصديق...

الأبيض : (للأحمر) ولٰكن ألا ترى أنّ وظيفة المدير العامّ ستلتهم وقتنا الضيّق؟

الأحمر : كلّا، فهي من ناحية أخرى تذلّل كثيرًا من الصعاب...

الأبيض : لا تنسَ أمراضك المزمنة.

الأحمر : إنّي مسيطر عليها تمامًا...

الزوجة : نسأل الله السلامة...

الأحمر : (للزوجة) لن أنسى أفضالك فأنت ممرّضة ماهرة!

الأبيض : هي نفسها لا تخلو من أمراض مزمنة...
الأحمر : هٰذا يدعونا إلى مضاعفة النشاط.
الزوجة : والأبناء؟
الأحمر : (في ضيق) الأبناء... الأبناء... لا حكاية لـك إلّا الأبنـاء، وحكـايـاتهم لا تسرّ الخاطر...
الزوجة : ولٰكنّها جديرة بكلّ اهتمام وعناية...
الأحمر : اللعنـة... إنّهم أعقـد من درجـة المـدير العامّ.
الزوجة : (للأبيض) قُل شيئًا...
الأبيض : في ذٰلك المجال فإنّي أفعل أكثر ممّا أتكلّم...
الزوجة : (متأوّهة) حسّـادنا كثيرون على حين أنّنا تعساء...
الأحمر : (غاضبًا) كفّي عن الولولة!
الزوجة : (غاضبة أيضًا) أنت رجل أنانيّ...
(يخرصهم السكوت فجأة فيرهفون السمع في قلق واضح).
الأحمر : كلّا... لا شيء...
الزوجة : ماذا هناك؟
الأحمر : خُيّل إليّ..
الزوجة : يا رحمٰن يا رحيم...
الأبيض : ليست المرّة الأولى.
الأحمر : ماذا تعني؟
الأبيض : سمعنا الأقدام مرّات ولٰكنّ الرجل لم يظهر، منذ مدّة لم يظهر.
الأحمر : بل كدنا ننساه تمامًا.
الزوجة : ليس تمامًا.
الأبيض : ولٰكنّه كثيرًا ما يُسمعنا وقع أقدامه..
الأحمر : مجرّد ظنون.
الزوجة : لعلّه مات...
الأبيض : مات؟!
الزوجة : وإلّا ما اختفى طيلة تلك المدّة...
الأبيض : لٰكنّه لم يختفِ تمامًا...
الأحمر : أقسم أنّني كدت أنساه...
(وقع الأقدام يسمع بوضوح. ينصتون بقلق واضح...).
الأحمر : ليتنا ما ذكرناه...
الزوجة : ليتنـا...
الأبيض : ولٰكن لا حيلة لنا في ذٰلك...
الأحمر : لا تنقصنا الهموم...
الزوجة : وكلّ الهموم تهون بالقياس لهمّه...
الأبيض : ونحن نخلق من الهموم ما يكفي...
الأحمر : (للأبيض في غيظ وحنق) يخيّل إليّ أحيانًا أنّك حليفه علينا!
الأبيض : ليتك تزداد مع العمر حكمة...
الأحمر : الإعجاز أن نزداد مع العمر حماقة!
الأبيض : أشهد أنّ ذٰلك الإعجاز لا ينقصنا!
الأحمر : ما زلنا شبابًا.
الأبيض : ظننت أنّ الشباب قد ولّى...
الأحمر : (مشيرًا إلى قلبه) الشباب هنا وليس في مكان آخر.
الزوجة : ما زلنا شبابًا!
الأبيض : إذن فعليكم ألّا تهتمّوا بمطاردة الرجل لنا.
الأحمر : ولٰكنّني لا أرتاح إليه.
الزوجة : وأمّا أنا فإنّي أمقته...،ويخيّل إليّ أنّه سيقتلنا يومًا ما.
الأبيض : نحن نقتل أنفسنا أيضًا...
الأحمر : لقد حقّقنا أعمالًا مجيدة.
الزوجة : أعمال غير قابلة للموت...
الأبيض : لا يجوز أن نخشى الموت أكثر ممّا ينبغي.
الأحمر : كلام فارغ، أنت أوّل من يخاف الموت.
الزوجة : كيف لا نخشى الموت؟!
الأبيض : لا يبعد أن يكون آخر مغامرة في الحياة...
الأحمر : لا تتعلّق بالأوهام...
(وقع الأقدام يشتدّ. يدخل الرجل. منظره لم يتغيّر. يمضي في حركته ذهابًا وإيابًا بسرعة أكبر ممّا كانت عليه في المنظر السابق. يتابعونه بذهول. يتراجعون بعيدًا عن مسمعه).
الأحمر : قلبي يحدّثني بأنّه لم يعرفنا.
الأبيض : لا تتعلّق بالأوهام!
الزوجة : إنّه يزداد سرعة!

الأحمر : ذٰلك يعني أنّه يزداد جنونًا.
الأبيض : ترى ما معنى ذٰلك؟
الأحمر : لا تحمّل الأمور أكثر ممّا تعني...
الزوجة : (في عصبيّة) ما له يسرع هٰكذا!
الأحمر : علينا أن نفزعه...
الزوجة : كيف؟
الأحمر : (غامزًا بعينه) فلنمثّل دورنا بإتقان...
(يرجع بهما إلى المكان الأوّل وهو يتظاهر بالثقة والعظمة...).
الأحمر : (للأبيض) هل أضفت الأموال إلى حسابنا الجاري؟
الأبيض : نعم.
الأحمر : عظيم... لا يجوز أن نترك مليّمًا بلا استثمار.
الزوجة : عين الصواب.
الأحمر : سأقابل غدًا بعض كبار المسئولين...
الزوجة : لعلّهم ضمن المدعوّين إلى مأدبة العشاء؟
الأحمر : كلّا، ستكون الوليمة قاصرة على الوزراء!
الزوجة : ولا تنسَ السفراء يا عزيزي.
الأحمر : ذٰلك ما لا يمكن نسيانه.
الزوجة : سيتمّ كلّ شيء على خير وجه قبل أن تسافر إلى الخارج.
الأحمر : (وهو يضحك عاليًا) طبعًا... طبعًا...
(الأبيض يرهف السمع باهتمام وقلق، يتّجه نحو الأحمر).
الأبيض : تكلّم مرّة أخرى كالعادة!
الأحمر : أنت وحدك تسمع رغم أنّك أضعفنا سمعًا!
الأبيض : عليك أن تصدّقني...
الأحمر : (للرجل وهو يتّقد غضبًا) ماذا تريد؟
الزوجة : (للرجل) ماذا جاء بك إلى بيتنا؟
الأحمر : (») نحن نطالبك بالأدب واللياقة.
الأبيض : (») لم يعد يمكن أن يقال إنّنا نبدّد وقتنا في اللعب!
الأحمر : (للرجل) وماذا يهمّك من سلوكنا؟
الزوجة : (») ألا تخاف على أعصابك وأنت تجري بهٰذه السرعة؟
الأحمر : (للرجل) يوجد قانون وتقاليد.
الزوجة : (») صنْ صحّتك من أجل خاطر أولادك، أليس لك أبناء؟
الأبيض : (للرجل) ليتك تصارحنا بما تريد.
الأحمر : (») إنّي أحذّرك عواقب الاستهتار.
الأبيض : (») المصارحة مفيدة للطرفين.
الأحمر : (للأبيض) لا تلاينه فإنّه لا يزداد بالملاينة إلّا عتوًّا.
الزوجة : (للأحمر متوسّلة) دعه يجري!
(يتراجع الأحمر والزوجة تاركين الأبيض يجرّب حظّه...).
الأبيض : علاقتك القديمة بوالدنا لا يمكن أن تُنسى...
(الرجل يواصل حركته وكأنّه لا يسمع شيئًا).
الأبيض : إنّك لا تدري مدى الإزعاج الذي تسبّبه لنا بحسن نيّة.
(الرجل يواصل حركته وكأنّه... ألخ).
الأبيض : أأنت مكلّف بمهمّة؟، ما هي؟، مَن كلّفك بها؟... صارحنا وأعدك بالمساعدة!
(الرجل يواصل... ألخ).
الأبيض : لا تسئ بنا الظنّ، لنا أخطاء بلا شكّ، ولٰكنّ أعمالنا لا تخلو من قيمة...، وخيرنا أكثر من شرّنا...
(الرجل يواصل... ألخ).
الأبيض : صارحنا بما في نفسك وإلّا فمن العدل أن تتركنا وشأننا...
(صمت مع استمرار الرجل في حركته).
الزوجة : (لنفسها) الكلام الطيّب لا يؤثّر فيه.
: (للرجل بصوت مرتفع منفعل) هٰذه أرضنا، لنا فيها أبناء وأموال وأعمال، فليس من الإنصاف أن تزعجنا على هٰذا النحو...
الأحمر : (بنبرة تهديد) لا فائدة، ولا مفرّ من اللجوء إلى المسئولين...
(الرجل مستمرّ في حركته على حين ينضمّ الأحمر والزوجة إلى الأبيض).

الأحمر : (بنفس النبرة المهدّدة) قوى شرّ كثيرة تعترض مجرى الحياة، مستهترة بالقوانين والتقاليد، ولكن كيف تكون عاقبتها ولو على المدى البعيد؟ تُغلب على أمرها، ويحقّ عليها الجزاء والقهر، هٰذه هي سنّة الحياة وإلّا حُقّ عليها الفناء...

(الرجل وهو مستمرّ يضرب الهواء بسوطه ليحدث طرقعة رهيبة فينكمش الثلاثة، ثمّ يرون من الأوفق أن يغادروا المكان فيغادروه متعثّرين. الرجل مستمرّ والظلام يهبط...).

ـ ٥ ـ

(يُضاء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة وقد طعنوا في السنّ وركبتهم الشيخوخة. الأحمر يرتدي عباءة حمراء وطاقيّة حمراء، والأبيض عباءة بيضاء وطاقيّة بيضاء، أمّا الزوجة فترتدي روبًا يجمع بين اللونين. يتحرّكون حركات تنمّ عن الضعف والشيخوخة).

الأحمر : آه.

الأبيض : آه.

الزوجة : آه.

(صمت)

الزوجة : الحمد لله على أيّ حال.

الأبيض : له الحمد والشكر.

الأحمر : اللّٰهمّ احفظنا.

(صمت)

الأبيض : (مرهفًا السمع) هل تسمعان وقع أقدام؟

الأحمر : ثقل السمع!

الزوجة : إنّي أسمعها عن غير طريق الأذن!

(صمت)

: أتذكران عندما كنّا أطفالًا؟

الأحمر : ولٰكنّنا عرفناك بعد مرحلة الطفولة!

الأبيض : (في حنان) عندما كنّا أطفالًا!

الزوجة : (متنهّدة) عندما كنّا أطفالًا!

(صمت)

: كأنّه الأمس.

الأبيض : كأنّه الأمس.

الأحمر : كأنّه... كأنّه... كأنّه... عليكم اللعنة!

(صمت)

الزوجة : الأيّام الحلوة.

الأبيض : والأحلام الحلوة.

الأحمر : كنّا نبوّل على أنفسنا وها نحن نبوّل على أنفسنا مرّة أخرى!

(صمت)

الأبيض : (مرهفًا السمع) هل...

الأحمر : (مقاطعًا) تسمعان وقع أقدام؟

الزوجة : إنّها تدبّ بلا انقطاع.

الأبيض : أعتقد أنّنا ألفناها.

الأحمر : أعتقد أنّك مزعج مثله.

الزوجة : لا داعي للخلاف الآن.

(صمت)

الأحمر : فاتتنا فرص عظيمة ولٰكنّنا قمنا بأعمال تستحقّ الذكر.

الزوجة : نحمده على ما نلنا ونستعيضه عمّا فاتنا.

الأبيض : نحمده.

(صمت)

الأحمر : ترى هل أخطأنا في توظيف أموالنا؟

الزوجة : العمارات أثبت من السوق المتقلّبة!

الأبيض : سبحان مَن له الدوام.

الأحمر : ولكرة البيع الصوريّ للأبناء رائعة من ناحية الضرائب!

الأبيض : هي أروع فكرة قانونيّة للخروج عن القانون.

الأحمر : (غاضبًا) أنت عنيد وأحمق.

الأبيض : دائمًا لا تعجبك الحقيقة.

الزوجة : لا تضاعف من مخاوفنا.

الأحمر : (ساخرًا) الابن الوحيد الذي يحمل اسمك ضاع، إخوته رجال أعمال يفخر بهم الوطن أمّا هو فماذا يعمل؟... ملحّن، ملحّن...

ها... ها...

الأبيض : لا يقلّ عن إخوته شأنًا ولا يتطلّع مثلهم للهجرة إلى الولايات المتّحدة.

الأحمر : (وهو يضحك) ماذا يعمل بالله؟

الأبيض : إنّه يلحّن فيقول الناس آه.

الزوجة : (متأوّهة) آه.

الأحمر : (متأوّهًا) آه.

(صمت)

الزوجة : (معاتبة) كفّا عن النزاع فلم تعودا صغيرين.

الأحمر : (فخورًا) لولاي ما دامت لنا الحياة الزوجيّة.

الأبيض : (في امتعاض) الحقّ أنّه لولاي لانفصمت عروة الزوجيّة في أعقاب شهر العسل!

الأحمر : (ساخرًا) أيّ فضل لك في شهر العسل؟!

الزوجة : (مغطّية وجهها) يا للفضيحة!... أخفضا صوتكما!

(صمت)

الأحمر : (متذكّرًا أوجاع الكبر) آه.

الزوجة : آه.

الأبيض : آه.

(صمت)

الأحمر : آن لي أن أذهب إلى النادي.

الزوجة : يحسن بك ألّا تخرج في فصل الشتاء.

الأحمر : لا أريد أن يشمت بي أحد من الأعداء.

الأبيض : لا تبالغ في تصوُّر الأعداء.

الأحمر : الناس بطبعهم أعداء للرجل الناجح.

(وقع الأقدام يرتفع لدرجة لا تخفى على أحد. يرهفون السمع في رهبة صامتين. يدخل الرجل بمنظره المألوف. يمضي ذهابًا وإيابًا في سرعة أكبر من المنظر السابق وهم يتابعونه بذهول).

الزوجة : إنّه يكاد يجري.

الأحمر : يزداد جنونه استفحالاً.

الأبيض : لا يبدو عليه الكبر مثلنا.

الزوجة : ما فائدة أن نتساءل عمّا يجعله يتبعنا!؟

الأبيض : ولا تؤثّر فيه وسائل دفاعنا.

الأحمر : مهما يكن من أمر فلا يجوز أن نطلعه على ضعفنا.

الأبيض : أتؤمن بجدوى ذلك؟

الأحمر : بلا أدنى شكّ، فلولا علمه بعملنا ونجاحنا وعلاقاتنا بذوي الشأن لقضى علينا من قديم!

(صمت)

الزوجة : أتوجد فائدة من مناقشته؟

الأحمر : يقينًا لا.

الأبيض : واضح أنّه يتبعنا أينما نذهب ولكنّه لا يتعرّض لنا بسوء.

الأحمر : (في غيظ) ألم يجعلنا طول العمر نتوقّعه ونفكّر فيه ونضيق به ونتوجّس منه؟

الأبيض : نحن الذين نفعل ذلك لا هو.

الأحمر : يا لك من مُكابر.

الزوجة : كان وما زال همًّا ثقيلًا على القلب.

الأحمر : كيف فاتنا طيلة عمرنا أن نهاجمه ولو مرّة؟!

الزوجة : حذارِ أن تفكّر في ذلك.

الأبيض : لم نعد أهلًا للمعارك.

الأحمر : ولكنّنا كنّا أهلًا يومًا ما!

الأبيض : شغلتنا المعارك الأخرى.

الأحمر : لا يخلو صوتك من تأنيب أبدًا.

الأبيض : دائمًا ألام على قول الحقّ!

الأحمر : أنت عبء طالما حملته فوق عنقي.

الأبيض : علم الله أنّك كنت العبء لا أنا وأنّي تحمّلتك بصبر يفوق طاقة البشر.

الأحمر : يا لك من مُكابر جاحد.

الأبيض : يا لك من جاهل.

الأحمر : لولاك ما جرؤ هذا المجنون على مطاردتنا والاستهزاء بنا.

الأبيض : إنّه يستهزئ بك وحدك.

(الزوجة تفصل بينهما لتلطّف الجوّ. يسود الصمت. تتعلّق الأبصار بالرجل المتحرّك بسرعته المفزعة).

الأحمر : عندي فكرة.

الأبيض : كلّ ما فعلناه كان من وحي فكرك ولكنّه لم يجدِ.

الأحمر : أتستهين بما فعلنا؟

الأبيض : كلّا، إنّه عظيم، ورغم مخالفته للقانون أحيانًا فهو عظيم، ولكنّه لم يُرِحْنا من مطاردته.

الأحمر : لِمَ لَمْ نلجأ إلى المسئولين عن الأمن؟

الأبيض : لأنّنا كنّا وما زلنا نخشاهم!

(يتبادلان نظرة تحدٍّ ولكنّ الزوجة تفصل بينهما مرّة أخرى).

الزوجة : لجأ كثيرون إلى رجال الأمن ولكن ماذا كانت النتيجة؟... لا شيء، وهو لا يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون، ولعلّه يعتمد على صِلاته بأناس في أقوى مواقع السلطة، بل علمت أنّ كثيرين من رجال الأمن أنفسهم يعانون منه مثلنا.

الأحمر : لعلّه يطمع في شيء ممّا نملك؟

: ولكنّه يطاردنا مذ كنّا لا نملك شيئًا.

(الأحمر يضرب الأرض بقدمه مغيظًا محنقًا).

(صمت)

: (وكأنّه يحدّث نفسه) أهو يطاردنا حقًّا؟، وإن صحّ ذلك فلماذا يطاردنا؟، وهل يعمل لحسابه أو لحساب شخص آخر؟.

(صمت)

الأبيض : (مسترسلًا في تفكيره) أضعنا وقتًا طويلًا دون أن نُعْنى عناية حقيقيّة بذلك.

الأحمر : (هازئًا) لو عنينا بذلك عناية حقيقيّة لما تبقّى لنا وقت لتحقيق شيء ذي قيمة!

الأبيض : نحن الآن على المعاش وبلا عمل جدّيّ.

الأحمر : ولكنّنا طاعنون في السنّ، ومرضى، ولا قدرة لنا على البحث!

(صمت)

الزوجة : (بغيظ) ترى ما الذي يجعله يحافظ على قوّته رغم مرور الزمن؟

الأحمر : (في سخرية) ربّما لأنّه لم يتزوّج!

الزوجة : (غاضبة) يا لك من جاحد أنانيّ.

الأحمر : (للأبيض) لا داعي لطرح أسئلة والانشغال بها على حين أنّها واضحة الجواب، فهو يطاردنا بلا ريب، ويطاردنا ليقضي علينا، ولا يهمّ بعد ذلك أن يكون عمله لحسابه أو لحساب شخص آخر.

الأبيض : ولكن يخيّل إليّ أحيانًا أنّه بفضله حقّقنا ما حقّقنا من عمل.

الأحمر : ليس بفضله ولكن دفعًا لمطاردته الملحّة.

الأبيض : (بنبرة اعتراف) الحقّ أنّني قمت سرًّا بتحرّيات كثيرة عنه.

الأحمر والزوجة (معًا) : حقًّا؟

الأبيض : بلا نتيجة تذكر.

(صمت)

: حسبته مندوبًا لمصلحة الضرائب أو مرشدًا للمخابرات أو موظّف إحصاء، أو من شرطة الآداب!

الأحمر : جميع أولئك ثقلاء ولكن ليس لهذا الحدّ.

الأبيض : وحتّى في تلك المراكز الهامّة تبيّن لي أنّهم لا يعرفونه أكثر منّا ويعانون من مطاردته مثلنا.

الأحمر : ولِمَ سكتوا عنه وهم يقضون على الآلاف بلا حساب؟

الأبيض : بل إنّ محاولات قتله وفيرة ولكنّها تبوء عادة بالفشل.

الزوجة : (في عصبيّة) سرعته تدير رأسي!

(ينظرون إليه بحنق. يضرب الرجل الهواء بالسوط محدثًا الطرقعة المخيفة. يتجمّعون ويغادرون المكان ببطء حسبما تسمح به سنّهم المتقدّمة.

الرجل يستمرّ في حركته على حين يهبط الظلام).

- ٦ -

(يُضاء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة ولكنّهم تغيّروا تغيّرًا مذهلًا، عادوا إلى منظر الشباب وملابسه كما رأيناها سابقًا. واضح أنّهم صبغوا الشعور وشدّوا الجلود وفعلوا المستحيل لاستعادة شبابهم الضائع. يتبادلون النظرات وهم يبتسمون في ارتياح وسرور).

الأحمر : آخر حيلة ولكنّها تجوز على الجنّ الأحمر نفسه.

الزوجة : ما أحلى الرجوع إلى الشباب.

الأبيض : ما أحلاه.

الأحمر : لن يعرفنا ولو دار حول الأرض.

الزوجة : استجب يا رحمٰن.

الأحمر : من اليسير أن يتابع أناسًا وهم يكبرون ولكن كيف يخطر له أنّه يمكن أن يرجعوا يومًا إلى الشباب؟!

الزوجة : قلبي يحدّثني بأنّنا نجونا من مخالبه.

الأحمر : وليعوّضنا الله عمّا بذلنا من جهد ومال.

الزوجة : طبيب التجميل وما أخذ نظير تجديد جلد الوجه.

الأبيض : والصبغة العجيبة وارد الخارج.

الأحمر : والحقن، لا تنسوا الحقن.

الزوجة : والهرمونات والحمّامات الطبّيّة والتدليك الفنّيّ.

الأحمر : (في حبور) حلّ لغز ما وراء الموت أقرب إليه من التعرّف علينا.

الأبيض : هي على أيّ حال آخر ما في الجراب من حِيَل.

(صمت)

الأحمر : وثمّة مفاجأة جديدة تتمّ بها اللعبة وتُحقّق كمالها المنشود.

الأبيض : أكثر ممّا تحقّق بالفعل؟

الأحمر : نعم.

الأبيض : ترىٰ ما هي؟

الأحمر : عروس جديدة!

(الزوجة تصرخ غاضبة محتجّة مهدّدة).

: لا تسيئي فهمي.

(الزوجة مستمرّة في صراخها الغاضب).

: اعلمي أنّني أعمل من أجل سعادة الجميع!

الزوجة : غدر وإجرام!

الأحمر : من أجل عذابك حيال مطاردته لنا اللعينة.

الزوجة : لا داعي مطلقًا لهٰذه المفاجأة، ما حقّقناه كافٍ وأكثر.

الأحمر : انضمام العروس إلى الصورة الجديدة يغيّرها تغيّرًا مطلقًا.

الزوجة : أنت تستطيع خداعه ولكنّك لا تستطيع خداعي.

الأحمر : لا مجال للشهوات ولكنّنا ندافع عن حياتنا.

الزوجة : لا تحاول خداعي، أنا أعرفك أكثر ممّا تعرف نفسك.

الأحمر : مضى زمان الحبّ، وما شبابنا الراهن إلّا قناع، هل تجدين رغبة في الجنس؟

الزوجة : (بتحدٍّ) نعم.

الأحمر : يا لك من عجوز مستهترة.

الزوجة : وعندك أضعاف ذٰلك.

الأحمر : لا تضيّعي من أيدينا آخر فرصة لنا.

الزوجة : إن أردت عروسًا جديدة فهاك أنا!

الأحمر : اتّقي الله يا وليّة وجرّبي قرعتك في الحجّ هٰذا العام.

الزوجة : إنّي صالحة للحبّ كما إنّي صالحة للحجّ.

الأحمر : ألم تزجريني كثيرًا مذكّرة إيّاي بالأبناء والأحفاد؟

الزوجة : لا تذكّرني بتلك الأيّام اللعينة.

الأحمر : أؤكّد لك أنّك غير صالحة للحبّ.

الزوجة : جرّب... العبرة بالتجربة.

الأحمر : أنت مجنونة!

الزوجة : أنت غدّار خائن.

الأحمر : (للأبيض) هل خرست؟... أسعفنا برأيك.

الأبيض : أمهلنا وقتًا للتفكير.

الزوجة : (للأبيض) حتّى أنت تريد أن تفكّر!

الأحمر : فات الوقت، العروس الجديدة حقيقة مفروغ منها.

(الزوجة تعاود الصراخ).

الأبيض : كان يجب أن نتشاور!

الزوجة : لن يكون ذٰلك أبدًا.

الأحمر : لا أسمح بكلمة أخرى... وإلّا اضطُررت إلى الطلاق!

الزوجة : تطلّقني وأنا جدّة؟... حتّى الوحوش

تستنكف ذلك.

الأحمر : اذهبي إلى أولادك قبل أن يعصف الغضب برأسي.

(الأبيض يتدخّل لإنقاذ الموقف. يأخذ الزوجة من يدها إلى الخارج وهو يحادثها بصوت غير مسموع... ثمّ يعود الأبيض وحده).

الأبيض : يا لك من جريء حقًّا.

الأحمر : أظهِرْ سرورك الآن يا منافق!

الأبيض : لن تجد عروسًا مناسبة أبدًا...

الأحمر : عروس في السادسة عشرة مثل لهطة القشدة.

الأبيض : أصغر من حفيدتنا.

الأحمر : ليست حفيدتنا على أيّ حال.

الأبيض : لا تحرجنا.

الأحمر : ستعلم أنها أقوى أثرًا من كافّة العقاقير.

الأبيض : يا لها من مغامرة!

الأحمر : لن تكون أفظع من المطاردة اللعينة.

(الأحمر يصفّق بيديه. نسمع موسيقى الزفّة. تدخل العروس بين شابّين هما أمين من أمناء الشرطة حاملًا جهازه اللاسلكيّ ومأذون عصريّ متأبّطًا دفتره مرتديًا بنطلونًا وقميصًا أمريكيًّا متعدّد الألوان. يقدّمان العروس ويذهبان... الثلاثة يتبادلون النظرات...).

الأحمر : مبارك يا عروس.

(العروس تضحك ضحكة عذبة دون أدنى ارتباك)

: خذي راحتك على آخرها فأنت في بيتك.

العروس: شكرًا... ولكن.

الأحمر : افصحي عمّا تريدين بكلّ حرّيّة.

العروس: أشعر كأنّي في حاجة إلى تشجيع.

الأحمر : قلت لك إنّك في بيتك.

العروس: أعني أنّه من المفيد... أعني أنّ قليلًا من... الويسكي...!

الأحمر والأبيض : ويسكي!

العروس: قليل منه مناسب.

الأحمر : هل لك تجربة سابقة به؟

العروس: في نطاق ما يسمح به عمري.

(الأحمر والأبيض يتبادلان النظر في ذهول. يتنحيان جانبًا).

الأحمر : في نطاق ما يسمح به عمري!

الأبيض : سمعت كلّ كلمة... ما رأيك؟

الأحمر : ما كان كان.

الأبيض : عظيم.

الأحمر : ولكنّ الخمر مضرّة لنا ونحن لم نجدّد الكبد.

الأبيض : ولم نجدّد القلب ولا العروق.

الأحمر : الله معنا.

(يرجعان وهما يبتسمان).

: ما أجمل أن نستغني عن الخمر!

العروس: أتُسمعني وعظًا في ليلة الزفاف؟

الأحمر : كلّا، ولكنّها الصحّة.

العروس: أأنت مريض؟

الأحمر : كلّا... ما زلنا بعيدينِ عن سنّ الأمراض!

العروس: اتّفقنا!

الأحمر : (ضاحكًا) يبدو لي أنّك فتاة ذات ذكاء وتجربة.

العروس: هذا هو طابع القرن!

الأحمر : لا أستبعد أن تكوني على إلمام بالتربية الـ... العاطفيّة.

العروس: العاطفيّة؟

الأحمر : أعني الجنسيّة؟

العروس: أووه.

الأحمر : لكنّها لم تقرّر بعد في المدارس!

العروس: (ضاحكة) لكنّها مقرّرة في أماكن كثيرة!

الأحمر : يا لك من عروس مثيرة!

العروس: إذا كنت ممّن يخافون فلِمَ زججت بنفسك-في الحياة الزوجيّة؟

الأحمر : لا خوف هناك ولكنّ للأسر العريقة تقاليدها.

العروس: طظ!

(الأحمر يتظاهر بالضحك وكذٰلك الأبيض).

الأحمر : أسلوبك بديع ولٰكنّه جريء، أجرأ من أساليب العذارى!

العروس: لم يعرف التاريخ إلّا عذراء واحدة!

(الرجلان يتبادلان النظر في ذهول. العروس تفتح حقيبة يدها وتخرج منها زجاجة ويسكي... وتشرب... وتمدّ بها يدها إليهما).

العروس: يبدو أنّك بخيل، خذ واشرب وإلّا غضبت.

(الأحمر يُحرّج فيتناول الزجاجة ويشرب ثمّ يعطيها للأبيض فيشرب، وتنتقل الزجاجة بينهم).

العروس: ذٰلك مفيد جدًّا في التغلّب على الحياء!

الأحمر : (مندهشًا) الحياء؟

العروس: نعم الحياء، أنت لم ترَ شيئًا بعد.

الأحمر : نخب الحياء.

(الزجاجة تدور. في نشوة يقبّلان العروس في الخدّين في وقت واحد).

: (للعروس) لعلّك مندهشة لأنّ القُبَل تنهال عليك من رَجُلينِ لا من رجل واحد.

العروس: (وهي منتشية) القُبَل نِعَمٌ مشكورة لا يجوز أن نُفسدها بالتساؤل!

الأحمر : (ضاحكًا) الحقيقة أنّ لك زوجينِ لا زوجًا واحدًا!

العروس: (منقّلة البصر بينهما) أرجو أن أجد في ذٰلك الكفاية حتّى أنعم بالاستقرار المنشود.

(الرجلان يتبادلان النظر ثمّ يغرقان في الضحك. الزجاجة تدور مع القُبُلات).

الأحمر : لم نفلح في إثارة دهشتك ولو مرّة واحدة!

العروس: عسير جدًّا أن تُثار دهشة في هٰذه الأيّام.

(الأبيض يتنصّت في ترقّب مفاجئ).

الأبيض : (للأحمر) سمعت شيئًا؟

(الأحمر ينصت. يترامى وقع أقدام).

الأحمر : لعلّه عابر سبيل...

الأبيض : ولٰكنّها أقدامه هو

الأحمر : غير معقول، وحتّى لو كان هو فلن يتعرّف علينا...

العروس: هل تتوقّعان قدوم أحد؟

الأحمر : كلّا.

العروس: أظنّ أنّ اثنين فيهما الكفاية!

(الرجل يدخل. هو هو كما رأيناه. يذهب ويجيء في سرعة تفوق سرعاته السابقة كلّها).

الأحمر : اللعنة.

الأبيض : أعوذ بالله.

العروس: هٰذا الرجل أذكره.

الأحمر : أنت أيضًا تعرفينه؟ هٰذا ما توقّعته، إنّه مجنون.

العروس: مثل جميع الطاعنين في السنّ فيما يبدو.

الأبيض : ولٰكنّه ليس طاعنًا في السنّ فيما يبدو.

العروس: كان صديقًا لأبي...

الأحمر : (بإصرار) لنشرب.

(تدور الزجاجة بينهم)

الأحمر : لا مفرّ.

الأبيض : لا مفرّ.

العروس: ظننته يومًا يطاردني للحبّ...

الأحمر : إنّه مجنون بداء المطاردة.

العروس: لا يبعد أن يكون لطيفًا خفيف الروح.

الأحمر : عرفناه أكثر منك.

(صمت)

: (للرجل متحدّيًا وهو ثمل) اجْرِ... اجْرِ... افعل ما تشاء... ماذا يهمّ؟... ولٰكن لا تعدّ نفسك منتصرًا... لن نقتنع بأنّك تتعرّف علينا بحاسّة مجهولة... أبدًا... الحكاية أنّ البلد ملأى بالجواسيس... أنت على صلة بالشرطيّ أو المأذون أو طبيب التجميل أو الصيدليّ... لا سِرّ هناك ولا معجزة... افعل ما تشاء... اجرِ... اجرِ حتّى تقع مغشيًّا عليك... وسوف نضحك كثيرًا وطويلًا...

الأبيض : (للرجل) ليتك تشرب معنا، الشرب صنع لنا معجزات. . .

العروس: كيف أنساكما هٰذا الرجل عروسكما؟

(يدور الشراب والقبلات والأحضان).

الأحمر : (للرجل) سنفعل ما يحلو لنا تحت سمعك وبصرك، سينبت في رأسك قرنان وأنت تجري كالمجنون. . .

الأبيض : (للرجل) معذرة، للخمر سلطان وللحبّ سلطان، ولٰكنّنا في الواقع نحترمك، صدّقني فأنت تشغل من وقتنا أكثر ممّا تتصوّر، وأنا مقتنع بأنّك لا تتعرّض لنا بأذى، وأنّنا في الواقع مسئولون عن كلّ شيء، فنحن الذين نعمل ونحن الذين نتغيّر ونحن الذين نكبر، ولا حقّ لنا في أن نعلّق عليك الأخطاء والمتاعب، وبودّي أن تقبل دعوتي للشراب!

الأحمر : (للأبيض) يا لك من منافق.

الأبيض : لا تفسد شهر العسل بسوء الأدب.

العروس: هل تزوّجتماني لقتل الوقت بالشجار والجدل؟

(يرجعون للقبل والأحضان والضحك. العروس والأبيض يرقصان. الأحمر ينظر نحو الرجل وهو يترنّح من السكر).

الأحمر : اجرِ. . . لا يهمّ. . . سيدور رأسك وتقع جثّة هامدة. . .

(العروس تتخلّص من ذراع الأبيض ثمّ تقبل نحو الأحمر فيرقصان معًا. الأبيض وهو يترنّح ينظر نحو الرجل).

الأبيض : أودّ أن أقابلك على انفراد. . .

(الرقص مستمرّ وكذلك الرجل).

: سيجري بيننا حوار مفيد، وإن كان ثمّة جديد فلعلّه يكمن في صدرك الصامت . . .

(الرجل يضرب الهواء بسوطه محدثًا طرقعة رهيبة. . .).

(الأحمر والأبيض يتلاصقان. يحاولان مغادرة المكان ولٰكنّ قدميهما لا تسعفانهما. يسقطان. يزحفان على أربع إلى الخارج حتّى يختفيا تمامًا. العروس مستمرّة في الرقص وحدها. . . الرجل تأخذ حركته في التباطؤ رويدًا رويدًا حتّى يقف تمامًا وهو يحرّك قدميه (محلّك سِرْ). العروس ترقص وحدها أمام الرجل).

(ستار)

تحقيق

دقّ جرس الباب. انفصل جسداهما في حركة متشنّجة بالفزع. وثبا إلى ملابسهما وهو يهمس:

- قلت إنّك لا تتوقّعين قدوم أحد. . .

فقالت هامسة أيضًا:

- لعلّه الكوّاء. . .

وكان يرتدي ملابسه بيديه وقدميه ويقول:

- يجب أن أستعدّ للاختفاء ولٰكن أين؟

- لا أظنّ أنّك ستضطرّ إلى ذٰلك، وإذا وقع المستحيل فادخل تحت السرير. . .

وغادرت الحجرة وهي تحبك الروب حولها ثمّ ردّت الباب. نظر إلى أسفل السرير ولٰكنّه مضى بخفّة إلى ما وراء الباب يتنصّت. سمع صوت الباب وهو يُفتح، ثمّ وهو يُغلق، ووَقْع قدمين ثقيلتين. في لحظات خاطفة توارى تحت السرير. مَن القادم؟. ليس الزوج وإلّا لجاء إلى حجرة النوم ليخلع ملابسه. ليس الزوج على وجه اليقين فقد اتّصلت به تليفونيًّا في الإسكندريّة منذ ساعة واحدة. إنّه فيما يبدو من المتردّدين على البيت، بل هو من أهل البيت على نحو ما وإلّا ما اقتحمه في هٰذه الساعة من الليل. لبد في مكمنه يمزّقه القلق والإحساس بالنكد بعد أن ثمل بدفء اللذّة. وليصبر فسيذهب عاجلًا، لا يمكن أن تطول الزيارة إلى ما لا نهاية، وسينتهي بالتالي عذابه. انقضّت عليه فكرة كحشرة طائرة، ألا يُحتمل أن يدخل القادم حجرة النوم فيرى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة؟. هل يزحف إلى الخارج ليعود بالزجاجة والعلبة؟. لكنّه لم يتحرّك، لم يجد الجرأة الكافية، وأطبقت عليه التعاسة أكثر فأكثر. ومضى الوقت وطال

وثقل. تلهّى بالنظر إلى نقوش السجّادة وألوانها وقد اختلطت وغامت تحت نور الأباجورة الأحمر الخافت، وإلى أرجل المقاعد والشيفونيرة المغروزة في وبر السجّادة. وارتعد لسماع صوت طارئ، ثمّ رأى باب الحجرة وهو يُفتح في هدوء. دخل شخص بلا ريب، ها هو حذاؤه الأبيض ذو السطح البنّيّ وطرف بنطلونه. واتّجه يسارًا نحو الصوان ففتحه. وقف أمامه دقيقة أو دقيقتين ولكن أين لطفيّة؟. وأغلق الصوان ثمّ مضى نحو الباب في هدوء كما جاء. ترى ما معنى ذٰلك؟. ومتى يخرج من زنزانته؟. واشتدّ به التوتّر والإرهاق واليأس. خُيّل إليه أنّه وقع في شرك وأنّ يدًا حديديّة تمتدّ للقبض عليه وأنّ قدميه تندسّان في حذاء أبيض ذي سطح بنّيّ، وأنّ عليه أن يرسم خطّة كاملة للتملّص من مأزقه في زنزانته. وقال له صوت باطنيّ يضطرم بالرعب والإلهام إنّ نجاته رهن بقوّة خياله، وإنّها وحدها القادرة على تحويل الكابوس إلى حلم. وهو لن يبقى تحت السرير إلى الأبد في هٰذا الصمت العميق العجيب. إنّه يمدّ ذراعه لينظر في الساعة، ويُخرج رأسه في حذر كالسلحفاة ليتنفّس هواء نقيًّا بعض الشيء، ويرهف السمع فيجد هدوءًا مخيفًا ولكنّه يشجّع على مغادرة الزنزانة. كأنّ الموت يربض في الظلام مجمّدًا كلّ حركة مسكتًا كلّ صوت. وأرهقه التعب لحدّ التهوّر. وتجمّعت كلّ قواه المضمحلّة في وثبة جنونيّة للدفاع عن النفس في مغامرة مرتجلة يائسة...

* * *

طلع الصبح دون أن يغمض له جفن. سمع دقّات رفيقة على باب حجرته. وجاءه صوت محشرج هاتفًا:

ـ سي عمرو، اصْحَ...

ما أجدر أن يتغيّب اليوم بعذر ما ولكنّه نبذ الفكرة بلا تردّد قائلًا لنفسه «هو الجنون بعينه»، وصاح:

ـ صحيت يا أمّ سمعة!

ولمّا جلس إلى المائدة الصغيرة في الصالة رأى طبق المدمّس وقدح الشاي باللبن والرغيف المجمّر فمدّ يده إلى القدح وهو يقول:

ـ سأكتفي بالشاي...

فلم يفصح وجه العجوز عن تعبير. وجه ذو سحنة واحدة. ولكنّها قالت:

ـ كُلْ لقمة تسند قلبك...

المنظر المرعب لا يبرح مخيّلته. يعذّبه ويطارده. فرّ بقوّة تركبه وتدفعه بلا حذر. نسي زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة فلم يذكرهما إلّا في ظلام حجرته. ارتدى ملابسه وغادر الشقّة. حمل الأرض فوق رأسه. ابتاع جريدة الصباح وهو يخترق شارع القبّة بالجيزة ولكنّه قال لنفسه «لم يُكتشف شيء بعد». وأخيرًا وجد نفسه جالسًا إلى مكتبه بالإدارة. وجاء الرئيس في أعقابه وامتلأت المكاتب إلّا واحدًا. ونظر إلى المكتب الخالي بعين متلصّصة، وهو يقع فيما أمامه على الجانب الآخر للحجرة. وشرع في العمل وهو يختلس إليه النظر. إذا تمّت له النجاة فسيحزن عليها طويلًا أمّا الآن فلا وقت لديه للحزن. وتساءل الرئيس:

ـ ستّ لطفيّة لم تحضر، ألم تعتذر؟

ولمّا لم يسمع جوابًا عاد يقول:

ـ الموظّفات أعذارهنّ لا تنتهي...

وأثار قوله ضحكات على سبيل التشفّي أو الملق. لم يشترك في الضحك. تساءل فيما بينه وبين نفسه ترى ألم يلاحظ أحد شيئًا ممّا كان يُتبادل في صمت بينه وبين المكتب الخالي؟. ربّما أدلى شاهد بملاحظة عابرة تقلب دنياه رأسًا على عقب. أو يكون آخر رآهما في إحدى منعطفات شارع الهرم. ثمّ إنّه نسي هناك زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة. أيّ أسرار يمكن أن تبوح بها الزجاجة والعلبة؟. إنّ كلّ شيء ينطق أمام شياطين المحقّقين ويخلق الأساطير. وغير بعيد أن يكون قد نسي أشياء أخرى. وبصماته انطبعت بلا حساب ولا حذر. وربّما وقع المحقّقون في الشرك وأغمضوا العين عن القاتل الحقيقيّ.

وجاءه صوت الرئيس وهو يقول بصوت آمر رنّان:

ـ يا سيّد عمرو، سأحوّل إليك الأوراق العاجلة الداخلة في اختصاص ستّ لطفيّة...

لماذا اختاره هو بالذات؟. ربّما لأنّه أحدث الموظّفين عهدًا بالوظيفة. أم تراه يعني شيئًا وراء ذٰلك؟. إنّه

قصير ماكر ذو نظرات تحتانيّة فهل يعني شيئًا آخر حقًّا؟!. واسترق نظرة من الوجوه ليرى أثر الأمر الإداريّ ولكنّه لم يقرأ شيئًا. كلّ شيء هادئ وعاديّ. والقاتل مجهول فما معنى الخوف؟. وكان يصارع التشتّت والتمزّق عندما سمع صوتًا غريبًا يسأل بأدب:

ـ هل الستّ لطفيّة موظّفة في هٰذه الإدارة؟

فأجابه موظّف:

ـ أجل ولٰكنّها لم تحضر اليوم.

نظر إلى القادم باهتمام فرأى شابًا طويلًا نحيلًا غامق السمرة يرتدي قميصًا أزرق وبنطلونًا رماديًا، سرعان ما غادر الحجرة على أثر الإجابة التي تلقّاها. لم يسأله أحد عن هويّته ولم يعلن هو عنها، ونُسِيَ تمامًا بمجرّد اختفائه. فكّر فيه طويلًا وساورته مخاوف شتّى. وتجسّدت لمخيّلته الجثّة ربّما للمرّة الألف. وتذكّر كيف انهزم لدى رؤيتها ففرّ كالمجنون. غرق في أفكاره ثمّ صحا بعد وقت لا يمكن تحديده على حديث يدور حول حذاء أبيض. ارتعد قلبه. ماذا يقولون؟. أحدهم يقول إنّ الأحذية البيضاء باتت نادرة الاستعمال، فقال آخر إنّ الحذاء يعجبه، فعاد الأوّل يقول إنّه يتّسخ لأوهى الأسباب ويصعب تنظيفه وتلميعه بسبب سطحه البنّيّ. اشتدّت به الرعدة فتساءل:

ـ ما حكاية الحذاء؟

فأجابه الموظّف الأوّل:

ـ حذاء أبيض ذو سطح بنّيّ من النوع الكلاسيكيّ، رأيناه في قدمَي الشابّ الذي جاء يسأل عن لطفيّة.

ـ لا!

ندّت عنه بعصبيّة ملفتة للانتباه وهو يتهاوى في انهيار كامل. ولمّا شعر بالأعين المحدقة فيه قال:

ـ آسف، الظاهر أنّي أصبت بالأنفلوانزا!

وضحك ضحكة عالية لا تناسب المقام. ولم يستطع صبرًا فسأل الموظّف الآخر:

ـ أكان الشابّ ينتعل حذاء أبيض ذا سطح بنّيّ؟

ـ أجل، وهو يعجبني، هٰذه هي المسألة.

واستأذن في الذهاب إلى دورة المياه ولٰكنّه اندفع في الطرقة الموصلة إلى الباب الخارجيّ. ودار دورة عشوائيّة حول مبنى الوزارة ولٰكنّه لم يعثر للشابّ على أثر. ولبث مذهولًا وهو يقول لنفسه: هٰكذا تقع الأحداث التي نسمع عنها من بعيد دون مبالاة.

* * *

احتلّت الحادثة مكانها في صفحة الحوادث. قرأ بعناية وانتباه كامل. بدأت بملاحظة عابرة من البوّاب لباب شقّة المقاول حسنين جودة الذي لم يكن مغلقًا كعادته وانتهت باكتشاف جثّة زوجة المقاول الموظّفة. اتّصل بشرطة النجدة. تبيّن أنّ المرأة خُنقت بينا كان زوجها في رحلة تجاريّة بالإسكندريّة. لم تُكتشف سرقة. عُثر على زجاجة كونياك وعلبة شيكولاطة. وطبعًا التحقيق ماضٍ في طريقه إلى الكشف عن أسرار الجريمة والقبض على القاتل. ووجد الموظّفين واجمين والجوّ مشحونًا بأخبار الجريمة وتأويلاتها. ثمّة حسرة ورثاء وتساؤل عن بواعث الجريمة، وعن معنى وجود الكونياك والشيكولاطة في غياب الزوج. وقال أحدهم:

ـ كلّ شيء مفهوم ولٰكن لِمَ قتلها؟

أجل لِمَ قتلها؟. وقعت الواقعة في مجال تنفّسه وهو لا يفقه لها معنى. ليس الواقع كما يتصوّرون وسوف يندفعون جميعًا كالسكارى في طريق الضلال ليرتكبوا جريمة أخرى.

وقد جاءهم صاحب الحذاء بقدميه ولٰكنّهم يتساءلون عن صاحب الخمر والشيكولاطة. هو وحده يتشوّق لمعرفته وكشف سرّه المغلق فلعلّه يعثر عليه في الجنازة. بل يجب أن يعثر عليه في الجنازة كما يقضي به المنطق. وذهب ممتلئًا بالتصميم بقدر ما هو ممتلئ بالشجن. وتفحّص بعين ثاقبة أهل الفقيدة من المستقبلين. رأى الزوج الذي يوشك أن يصرعه المرض، ورأى آخرين، ولٰكنّه لم يعثر لضالّته الماكرة على أثر. وسار وراء النعش وهو يختلس إليه النظر بقلب منقبض. وكاد إلى حين ينسى مخاوفه تحت موجة الحزن التي غمرته. وتذكّر قصّة حبّه القصيرة العميقة التي مضت في عناء ولم تخلّف إلّا التعاسة والرعب.

* * *

من هو صاحب الحذاء الأبيض؟. هل رآه البوّاب ليلة الجريمة وهل يعرفه؟. أمّا هو فقد رآه البوّاب. ولّما سأله عن مقصده أخبره أنّه ذاهب إلى طبيب الأسنان بالدور الثالث، وإلى العيادة ذهب فعلًا للكشف والتنظيف تنفيذًا لتدبير حكيم اتّفق عليه مع الفقيدة، فمن تلك الناحية لا خوف عليه.

وقال موظّف بالإدارة بعد أن فرغ من قراءة الجريدة:

ـ الأمور تتّضح، فالزوج مريض جدًّا، وله مطلّقة أنجب منها شابًّا وشابّة جامعيّين، والعلاقة بينه وبين أسرته الأولى سيّئة جدًّا...

فقال ثانٍ:

ـ وإذن فيُتهمّ أسرته الأصليّة التخلّص من الزوجة الجديدة قبل أن تستولي على أموال أبيهم...

وتساءل ثالث:

ـ هل من علاقة بين ابن المقاول وبين الخمر والشيكولاطة؟

فقال الأوّل:

ـ لن يفوت المحقّق شيء من ذٰلك.

فقال رابع:

ـ سيصلون إليه عن طريق الزجاجة والعلبة...

فقال عمرو وهو يداري حنقه:

ـ توجد آلاف الزجاجات وآلاف العلب!

ـ ولٰكنّ العلبة تدلّ على الدكّان والدكّان تدلّ على الشاري، وقد يعثرون على لفافة الزجاجة فيعرف المخزن أو المحلّ...

ـ ثمّ يُعرض الشابّ أو المتّهم على عمّال المحلّ والمخزن.

جميع الأدلّة متوفّرة إذا تركّزت الشبهات في الزجاجة والعلبة. فكّر في ذٰلك طويلًا وقلبه يغوص في أعماق من الكآبة. وعاد الموظّف الأوّل يقول:

ـ الأمر واضح، ابن المقاول أنشأ علاقة مع المرحومة ثمّ قتلها...

لعلّ ذٰلك كذٰلك، أو لعلّ القاتل هو صاحب الحذاء الأبيض، أو لعلّ ابن المقاول هو صاحب الحذاء الأبيض. إن صحّ احتمال من تلك الاحتمالات فقد نجا هو من كلّ سوء كما ينبغي له، أمّا إذا أصرّ المحقّق على تتبّع أثر صاحب الخمر والشيكولاطة فلن يعجز عن الوصول إلى مصدريهما، وهو ـ عمرو ـ معروف بشخصه دون هويّته لدى صاحب محلّ «الزهرة» كما هو معروف عند فتاة حلواني «ألف ليلة»، وغير بعيد أنّ أوصافه تتردّد في هٰذه اللحظة على الشفاه بين جدران حجرة التحقيق.

* * *

ونُشرت صور لطفيّة وحسنين زوجها ومحمّد ابنه لأوّل مرّة في الجريدة. وتبيّن لعمرو أنّ ابن المقاول شخص آخر غير الشابّ صاحب الحذاء الأبيض. وتابع تعليقات الموظّفين بالإدارة باهتمام وتركيز:

ـ تقول الجريدة إنّ الشرطة عثرت على خيوط يمكن أن تؤدّي إلى القاتل..

ـ لعلّها تقصد الشابّ ابن المقاول؟

ـ أو الزجاجة والعلبة؟

ـ سِرّ الجريمة كامن في الزجاجة...

ورفع الرئيس رأسه عن رسالة كان يقرؤها بإمعان ثمّ قال:

ـ يا جماعة، نحن مطلوبون جميعًا لسماع أقوالنا...

* * *

شهد كلّ موظّف بما يعلمه ولم يكن ذا بال، مثل تاريخ التحاق لطفيّة بالعمل منذ عشرة أعوام، وزواجها منذ عامين. وشهد لها الرئيس بحسن السير والسلوك والمعاملة، وبأنّها كانت موظّفة ممتازة. ولٰكنّ الفرّاش ـ عمّ سليمان ـ أدلى بواقعة مهمّة فقال إنّه رآها مرّة بصحبة شابّ قبيل زواجها هو نفس الشابّ الذي جاء الإدارة صباح الجريمة سائلًا عنها. وأكّد الجميع واقعة الزيارة الصباحيّة وأعطوا أوصافًا تقريبيّة للشخص. واهتمّ المحقّق بالواقعة بطبيعة الحال. ولّما دُعي عمرو لأخذ أقواله عن الشخص المجهول وصفه بدقّة ملحوظة، طوله وحجمه ولونه وملابسه حتّى الحذاء، فقال له المحقّق:

ـ يبدو أنّك تفحّصته بعناية!

فتضايق عمرو من الملاحظة ولٰكنّه قال بثبات:

ـ كان يقف أمامي مباشرة. . .

وكان يشعر طيلة الوقت بضيق وتوتّر فزادته الملاحظة ضيقًا وتوتّرًا. وضاعف من همّه ما ذاع في حجرة المحقّق من أنّه ثبت أنّ ابن المقاول كان في رحلة جامعيّة ليلة الجريمة وأنّ الشبهات تبدّدت ـ بالتالي ـ من حوله. . .

* * *

تقمّص دماغ المحقّق فطارد نفسه بنفسه. مَن الشابّ الذي رآه عمّ سليمان مع الفقيدة ولِمَ زار مكتبها صباح ارتكاب الجريمة؟. محتمل أن يكون صاحب الخمر والشيكولاطة أو يكون شخصًا آخر لا علاقة له بالجريمة. السرّ قابع وراء الزجاجة والعلبة. فلنتخيّل القصّة من بدايتها عندما بدأت بغرام. انتهز العاشقان فرصة سفر الزوج فتواعدا في بيت الزوجيّة. وفي الموعد المضروب تسلّل الشابّ إلى العمارة. يسيرٌ التسلُّلُ إلى عمارة ضخمة بها أكثر من عيادة طبّيّة. وها هو يجالسها كما يفعل العشّاق. كيف ومتى سيطرت فكرة القتل؟. إنّها لا تخلق بغتة وبلا مقدّمات. ربّما جاء بها جاهزة معه وغير بعيد أن تنشأ عقب خلاف طارئ أو أثر ميل من المرأة نحو إنهاء العلاقة. لعلّه شابّ غرّ ومحبّ حتّى الجنون وقع في هوى امرأة طموح لا حدّ لطموحها فتزوّجت من المقاول وأبقت على علاقة الشابّ بها لتستحوذ على المال والجاه والحبّ فكرهها بقدر ما أحبّها ولّما قالت له بدلال وهي تلاطفه «اخنقني» طوّق عنقها بقبضتيه وشدّ بكلّ عنف فلم يتركها إلّا جثّة هامدة. ارتكب جريمته ثمّ هرب ولٰكنّه نسي وراءه الزجاجة والعلبة. سيظلّ مهدّدًا بأن تراه فتاة حلواني دمشق أو صاحب محلّ «الزهرة» أو يُساق إليهما في ظرف ما فيتعرّفان عليه. ويتّضح أنّه زميل للفقيدة في إدارة واحدة فتقوى الشبهة وتتوطّد. وإذا اعترف بأنّه صاحب الزجاجة والعلبة، وبأنّه كان عشيق المرأة، فأيّ قوّة يمكن أن تدفع عنه التهمة أو تنقذه من حبل المشنقة مهما أنكر وأصرّ على الإنكار؟!

* * *

من الحكمة أن يُكمل علاجه عند طبيب الأسنان.

ها هو الطريق مرّة أخرى وها هي العمارة. ترى أما زال حسنين جودة يشغل العمارة؟. وجد البوّاب فوق الأريكة وراء الباب مباشرة. إنّه صعيديّ فيما يبدو، ويلفّ سيجارة. ومضى إلى الداخل فقام الرجل وتبعه. دخل المصعد وراءه فقال باقتضاب:

ـ الدكتور نصر طبيب الأسنان.

وهو يغادر المصعد في الدور الثالث حانت منه نظرة إلى الأرض فرأى حذاء البوّاب فارتعدت مفاصله. حذاء أبيض ذو سطح بنّيّ! مضى إلى العيادة بذهن مشتّت. أيكون البوّاب هو القاتل؟. ولٰكنّه يذكر تمامًا أنّه رأى الحذاء تحت طرفي بنطلون لا جلباب. أم يكون البصر قد خدعه؟!. وغرق في ذهوله حتّى دُعي إلى حجرة الكشف. جلس وهو يتساءل:

ـ هل ينتهي التنظيف في هٰذه الجلسة؟

فقال الطبيب:

ـ أراك نافد الصبر.

فسأله:

ـ ما أخبار الجريمة؟

ـ آه. . . تلك المرأة! كنت أعرفها جيّدًا فقد حضرت مع زوجها عند تركيب ضرسين له!

ـ حقًّا؟!

وندم على ثرثرته أمّا الطبيب فقال:

ـ عمّ خليل التمرجي اعتقد أنّه رأى القاتل.

ـ حقًّا؟

ـ إنّه يسكن في حجرة فوق السطح وكان يمرّ أمام شقّة القتيلة عندما رأى رجلًا يغادرها.

ـ أرآه جيّدًا؟

ـ لا أدري.

ـ كان يجب أن يدلي بشهادته.

ـ وقد فعل.

مَن الذي رآه التمرجي؟. ولأيّ درجة تمكّن من رؤيته؟. هل ساوره شكّ من ناحيته؟!

* * *

وكان يغادر باب الوزارة عندما شعر بشخص

يلاحقه فالتفت وراءه فرأى عمّ سليمان الفرّاش. نظر إليه متسائلًا فقال الرجل:

ـ عمرو بك، الحقّ أنّي لم أشهد في التحقيق بكلّ ما أعرف!

فرمقه في دهشة فقال الرجل:

ـ كتمت شهادة لو سمعها المحقّق لأتعب الأبرياء بلا موجب.

ـ ماذا تعني؟

فقال الرجل وهو يبالغ في الأدب:

ـ رأيت حضرتك يومًا وأنت تقبّل المرحومة في المصعد! فهتف:

ـ ماذا تقول؟

ـ رأيتك وأنت تقبّلها.

خذلته أعضاؤه في الواقع ولْكنّه تماسك بقوّة فوق طاقة البشر وقال:

ـ أنت أعمى بلا شكّ.

ـ كتمتها خشية أن تدفع بك إلى مواطن الشبهات!

فهتف:

ـ أنت أعمى!

فتراجع الرجل قائلًا:

ـ لا مؤاخذة يا بك، ما قصدت سوءًا قطّ.

فتراجع بدوره قائلًا:

ـ إنّك على أيّ حال تستحقّ الشكر.

فقال الرجل وهو يمضي:

ـ الشكر لله.

إنّه يتمزّق إربًا. لا أمان ولا سلام ولا قدرة على تحمّل مزيد من العذاب.

* * *

قال عمرو:

ـ لا خبر عن الجريمة في الجرائد.

فقال موظّف:

ـ أكبر الأحداث يشغل الصحف أيّامًا ثمّ يختفي كأن لم يكن.

وقال آخر:

ـ في رأيي أنّ النيابة هي التي منعت النشر.

فسأل عمرو:

ـ لماذا؟

ـ هٰكذا يتصرّفون إذا اكتشفوا حقائق يجب إخفاؤها عن القاتل.

وشعر بنظرات تلسع وجهه فالتفت بالغريزة ناحيتها فالتقت عيناه بعيني عمّ سليمان وهو يحمل القهوة للرئيس. جُنّ بالقهر دقيقة ثمّ تساءل متى وكيف يشرع في ابتزاز أمواله؟!. ثلاثة تمنّى أن يتخلّص منهم، فتاة الحلواني وصاحب محلّ الزهرة وعمّ سليمان، تمنّى أن يتخلّص منهم ليتغلّب على الأرق الذي احتلّ لياليه المضنية. وتتابعت المعجزات فصدمت سيّارة نقل الفتاة الجميلة، وقُتل صاحب محلّ الزهرة في معركة غادرة مع أحد العمّال، أمّا عمّ سليمان فقد مات فجأة وهو يعمل في المقصف.

ولم يكد يتذوّق قطرة من الراحة حتّى دهمه صوت الرئيس وهو يقول:

ـ متى تبدأ العمل يا سيّد عمرو؟!

* * *

وهبطت عليه فكرة من السماء. أوحت إليه بأنّ البوّاب ليس بالمالك المناسب للحذاء الأبيض. الحذاء لا يناسبه لا من الناحية الذوقيّة ولا من الناحية الاقتصاديّة. الأرجح أن يكون قد تلقّاه هديّة. فمَن هو المهدي ومتى أهداه إليه؟. لعلّها فكرة لا تقوم على واقع ولْكنّها جديرة بالاختبار. ومضى لتوّه قاصدًا عيادة الأسنان. وفي المصعد قال للبوّاب:

ـ حذاؤك جميل!

نظر إليه الرجل نظرة جامدة ولم يعلّق فعاد يسأله:

ـ جاهز أم تفصيل؟

أجاب الرجل:

ـ ممكن تفصّل حذاء مثله عند أمين عليّ بممرّ الديلمي.

هي إجابة وتخلّص من الإجابة معًا. قوي سوء الظنّ به. وكان ممرّ الديلمي قريبًا، ودكّان الإسكافيّ في مطلعه على اليمين. حيّا الرجل وقال:

ـ أريد تفصيل حذاء أبيض ذي سطح بنّيّ.

فأجلسه الرجل على كرسيّ من القشّ المجدول وراح يسجّل مقاسات قدميه. وفي أثناء ذٰلك قال له:

ـ رأيت حذاء مثله في قدمَي بوّاب العمارة رقم ١١ بشارع ٢٦ يوليو فأعجبني، وهو الذي دلّني عليك.

فقال الرجل بهدوء:

ـ ليس بين زبائني بوّاب!

فخفق قلب عمرو سرورًا بسلامة تفكيره وقال:

ـ لعلّه أخذه هبة من أحد زبائنك.

ـ يمكن.

ـ هل الطلب كثير على هٰذا النوع؟

ـ من النادر أن يطلبه أحد، وطلبك هٰذا هو الثالث من نوعه في العامين الأخيرين.

فسأله باهتمام متصاعد؟

ـ والآخران من أيّ طبقة؟

ـ أحدهما قارئ والآخر. . .

وتردّد تردُّد من خانته الذاكرة فانحنى فوق دفتر متهرّئ وقرّ صفحاته بسرعة وعمرو ينظر من فوق كتفه. وقال الإسكافيّ:

ـ حسام فيظي. . . غالبًا موظّف. . . لا يوجد في الدفتر إلّا العنوان.

وغادر الدكّان وهو يحفظ العنوان عن ظهر قلب!

* * *

انبعث إلهام في صدره بأنّه سيرى القاتل وأنّه سيجد فيه نفس الشخص الذي اقتحم الإدارة صباح ليلة الجريمة. وما عليه بعد ذٰلك إلّا أن يقابل المحقّق ليعترف بين يديه بكلّ شيء، أو الأفضل أن يحرّر رسالة متضمّنة لكافّة التفاصيل. وكان البيت يقع في شارع المتولّي بمنشيّة البكري، وهو شارع سكنيّ نصف مساكنه عمارات حديثة والنصف الآخر بيوت قديمة من دور ودورين، وليس به من محالّ عامّة سوى فرن وكوّاء، فهو شارع يشعر الغريب الطارئ بغربته. مرّ أمام البيت عصرًا فرأى في شرفته فتاة فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين، أخذ منظرها بلبّه فحلم بسعادة الحياة الزوجيّة واستقرارها الهائل. قديمًا أسَرَتْهُ لطفيّة بحيويّتها وعذوبتها الجنسيّة وتعلّقها الجنونيّ به لدوافع قدريّة مجهولة، أمّا هٰذه الفتاة فمثال كامل للرزانة والحياء والصبر والخلق المتين. وهي زوجة القاتل ولعلّها أخته. ولاحظ أنّ في دكّان الكوّاء امرأة قميئة عوراء تتابعه باهتمام، واستنتج من سلوكها أنّها صاحبة الدكّان فأقبل نحوها ـ اكتسابًا للوقت ـ وسألها عن بيت حسام فيظي فأشارت إلى البيت وهي تتفحّصه بخبث بعينها اليسرى، وقالت:

ـ وتلك أخته التي تجلس في الشرفة.

لعلّها ظنّت أنّه يحوم حول الفتاة فشكرها وهَمَّ بالذهاب فقالت المرأة:

ـ أسرة طيّبة.

فوافق بإحناءة من رأسه فسألته:

ـ هل تعرفهم؟

فأجاب بالنفي، واقتنع في ذات الوقت بأنّ المرأة تقوم بدور الخاطبة. وحدّثته عن حسام ودَوْلت، وأبدت استعدادًا طيّبًا لتقديم أيّ خدمة شريفة. وقالت له بغتة وهي تغمز بعينها:

ـ ها هو حسام ذاهبًا إلى المقهى.

التفت عمرو وقلبه يدقّ بعنف.

ولكنّه رأى رجلًا لم تسبق له رؤيته. مضى بدينًا أنيقًا فاقع البياض غزير الشارب لا يمتّ بصلة للرجل الذي يبحث عنه. انهارت تقديراته وخاب مسعاه. وأدرك أنّ البوّاب ما دلّه على عمّ أمين إلّا باعتباره أقرب إسكافيّ، أمّا سرّ حذائه هو فما زال سرًّا، وما زال احتمال أن يكون هديّة قائمًا، وغير مستحيل في النهاية أن يكون صاحبه.

ورجع إلى النقطة التي منها بدأ.

* * *

لو تنكشف تلك الغمّة فيملأ رئتيه بالهواء النقيّ بعمق وتوبة، ويعزم جادًّا على إكمال نصف دينه بالاقتران من دَوْلت فيظي!، لقد تجنّب الاقتراب من شوارع برمّتها كما يتجنّب عينَي عمّ سليمان. وثمّة نسيان جاحد يسدل أهدابه على لطفيّة ومأساتها، وهو الوحيد الذي يحترق في خفاء بذكرياتها. وفكّر ثمّ فكّر، وكتب رسالة مطوّلة للمحقّق استهلّها بقوله: «أنا

صاحب الخمر والشيكولاطة، وإليك الشهادة الوحيدة التي تنفعك». كتبها بعناية ودقّة وحشدها بالتفاصيل ولٰكنّه لم يوقّع عليها بإمضائه. ولم يرسلها، أجّل ذٰلك حتّى يستوفي التفكير في كافّة وجوهها واحتمالاتها. وقال لنفسه إنّه لن يذوق للراحة طعمًا حتّى يلقى القبض على القاتل. وتساءل أيّ بواعث يا ترى دفعته إلى قتلها بعدما ثبت من التحقيق أنه لم تُكتشف سرقة وراء الجريمة؟. أما كان الأجدر أن يقتلها هو ـ عمرو ـ وقد توفّرت لديه لذلك أسباب وأسباب؟. كان يمقتها بقدر ما كان يحبّها، ولم يغفر لها نهمها الجنونيّ للمال والسلطان وتضحيتها به في سبيل ذٰلك. وكان يشدّ عليها بقوّة وهي بين ذراعيه رغبة وحنقًا. على أيّ حال فلا يجوز له أن يمنّي النفس بحياة زوجيّة سعيدة مع دَوْلت فيظي حتّى تنكشف الغمّة تمامًا وتهدأ أعاصير الوجود. وذهب من فوره إلى العمارة المشئومة ليكمل علاج أسنانه. وانتهز فرصة هبوط المصعد فصعد إلى الدور الرابع بقوّة لا تقاوَم. وجد المصباح فوق باب شقّة المقاول مضاء. فُتح الباب فظهر المقاول وهو يوسع لضيف فتوارى عمرو في نهاية الطرقة. وسمع حوارًا بينهما فقال المقاول:

ـ لا تنسَ عيد الأضحى.

فأجاب الرجل:

ـ كلّ عام وحضرتكم بخير.

فقال المقاول:

ـ سنذبح هٰذا العام بقرة.

فقال الرجل:

ـ ونصنع من جلدها حذاء كلاسيكيًّا.

فخفق قلب عمرو وشعر بأنّه قريب من النصر أكثر ممّا يتصوّر. وخرج الضيف فأفلتت من عمرو صيحة فوز. رأى أمامه غريمه دون سواه. القاتل المجهول المحوط بالأسرار. وانقضّ عليه كالوحش وقبض على ذراعيه وهو يصيح:

ـ أنت القاتل!

وذُعر الرجل واختفى المقاول مغلقًا الباب فضاعف ذٰلك من وحدة الرجل الغريب وهتف:

ـ أيّ قاتل!

فلطمه بقوّة هدّامة وصاح به:

ـ اعترف!

فتمتم الآخر بصوت كالأنين:

ـ رحماك!

ـ أنت الذي قتلت دولت فيظي!

وفطن إلى هفوة لسانه أمّا الآخر فلم يفطن، وانهار تمامًا فقال:

ـ أعترف. . . ولٰكن لا تضربني.

فدفعه أمامه وهو قابض على ذراعيه بوحشيّة.

* * *

وفكّر طويلًا في موضوع الرسالة دون حسم. وهداه تفكّره إلى وجوب كتابتها على آلة كاتبة ما دام مصرًّا على إخفاء إمضائه ـ وبالتالي شخصه ـ إذ ليس من حسن الفطن أن يرسل خطّه إلى المحقّق. واقتنع بذٰلك لحدّ أنّه عزم على شراء آلة كاتبة صونًا للسرّيّة اللازمة. وكان يتخبّط في فراغ مخيف بين صمت الصحف وعيني عمّ سليمان حتّى اعتقد أنّ بقاءه في المدينة حمق ما بعده حمق ولٰكن أين المفرّ؟!. وقال له عمّ سليمان مرّة وهو يقدّم له القهوة:

ـ لست على ما يرام يا أستاذ عمرو.

فغلى دمه لظنّه أنّه يطبق عليه الحصار ولٰكنّه قال ببرود وهو يكبح انفعالاته المتطايرة:

ـ بخير والحمد لله.

واشترى في ذات اليوم الآلة الكاتبة ـ وهو آسف ـ لارتفاع ثمنها. ما أجدره بالتوفير! لا بالتبذير ما دامت فكرة الزواج من دولت تغزو خياله بسحرها. ونظر إلى حذائه الأبيض ذي السطح البنّيّ وابتسم فهو لا ينسى أنّه كان المناسبة التي هيّأت له التعرّف بحسام فيظي وبالتالي بمنية القلب دولت. فما كاد الرجل يغادر دكّان عمّ أمين عليّ حتّى قال له عمرو:

ـ فصّل لي حذاء مثل حذائه.

فابتسم الرجل وقال:

ـ نـدر في أيّامنا الإقبال على هٰذا الصنف رغم فخامته.

فتردّد عمرو قليلًا ثمّ سأله:

ـ من الرجل؟

ـ حسام فيظي، موظّف، لا أدري في أيّ وزارة رغم أنّه زبون قديم مثل حضرتك!

ـ ومن الفتاة؟

ـ أخته، اسمها دولت.

ـ لعلّك تعرف عنوانه؟

فضحك وقال:

ـ ١٤ شارع المتولّي بمنشيّة البكري.

فحقّ له أن يأسف لشراء آلة كاتبة، ولكنّه اشتراها على أيّ حال. وكتب عليها رسالته المثيرة، ثمّ عَنْوَنَها، ثمّ أودعها صندوق البريد.

عند ذٰلك شعر بشيء من الراحة لأوّل مرّة.

* * *

وكان عاكفًا على عمله بالإدارة عندما طرق أذنيه صوت وهو يسأل قائلًا:

ـ أين الستّ لطفيّة؟

رفع رأسه بقوّة وفزع فرأى أمامه الشابّ المجهول الذي اقتحم الإدارة غداة ليلة الجريمة. وأحدث ظهوره المفاجئ دهشة عامّة أمّا سؤاله فأذهلهم. وتكهرب عمرو من الرأس إلى القدم. ها هو الشيطان الخفيّ، حتّى الحذاء لم يغيّره. أين كان، ولماذا جاء، وماذا يعني سؤاله؟. وفي لحظات أغلق عمّ سليمان باب الحجرة ووقف وراءه متحفّزًا أمّا الرئيس فسأل القادم:

ـ مَن أنت؟

فتجاهل سؤاله وعاد يسأل:

ـ أين الستّ لطفيّة؟

ـ ولِمَ تسأل عنها؟

ـ ذاك أمر يعنيها وحدها.

ـ ولكن مَن أنت؟

فأجاب بحياء:

ـ لا اهمّيّة لذٰلك.

ـ ألم تسمع بما وقع للستّ لطفيّة؟

ـ خير إن شاء الله!

ـ لِمَ لَمْ تزرها في بيتها؟

ـ لا عِلْم لي بمكانه!

ـ ألم تعرف بأنّها قُتلت منذ عشرة أيّام؟

فارتسم الذهول في وجهه وتمتم:

ـ قُتلت؟

ـ ألم تقرأ الصحف؟

ـ أنا لا أقرأ الصحف!

ـ على أيّ حال فالمحقّق يرغب في مقابلتك.

ـ أنا؟، لماذا؟.

ـ طبيعيّ أن يرغب في استجواب جميع مَن كانت لهم علاقة بالفقيدة.

صمت الرجل مليًّا حتّى أفاق بعض الشيء من وقع الخبر ثمّ قال بهدوء:

ـ إنّي على تمام الاستعداد للقائه.

* * *

ها هو هٰذا الشبح. ها هو الحلم. جاء يسعى على حذائه الأبيض. أيّ قاتل، أيّ مناورة يلعب بها!. وقد استُدعِي عمّ سليمان للمواجهة، وعن عمّ سليمان علمت الإدارة بأنباء الرجل. علمت بأنّه يُدعى محمود الغرّ وأنّه سوّاق تاكس. وقد تعاقدت الفقيدة معه ـ قبل زواجها بعام ـ لاستغلال تاكس تملكه. وحرصت من بادئ الأمر على سرّيّة الموضوع لكونها موظّفة من ناحية ولأنّها أخفت صفقة التاكس عن أهلها حتّى لا تُسأل عن مصدر المال الذي ابتاعته به، فكانت تلقى السائق في الجراج. وظلّ الرجل على جهله بمسكنها ولكنّها دلّته على مكان عملها ليهتدي إليها في الطوارئ. ولّما وقع الطارئ ذهب للقائها في الإدارة صباح ليلة الجريمة، فلمّا لم يجدها اضطرّ للتصرّف بمفرده فسافر بأسرة عربيّة إلى الإسكندريّة ولبث في خدمتها هناك حوالى الأسبوع أو أكثر. وانتظرها في ميعاد اللقاء المعتاد ولكنّها لم تحضر فذهب إلى الإدارة مرّة أخرى لمقابلتها. وتمّ التحقّق من أقواله واختُبرت بصماته ثمّ أُفرج عنه!

دار رأس عمرو. ها هي الأمور تتعقّد كما لم تَدُرْ له في حسبان. وها هو ينحدر في تيه. وشدّ ما ندم على كتابة رسالته المذهلة. ولكنّ واقعة التاكس حقيقة لا شكّ فيها. «إنّي أحتقر تصرّفاتك؟». وكيف

استجابت؟.. قالت برزانة مرعبة:

ـ ليكن رأيك ما يكون ولكنّك تحبّني!

فقال بحنق:

ـ تبيعين نفسك لوحش بسيّارة!

ـ ولكنّك تحبّني؟

فصمت صمتًا ذا مغزى لا يخفى فضحكت وقالت:

ـ لا تغتمّ بتصرّفاتي ولا بزواجي نفسه ما دام قلبي لك وحدك.

وقال لنفسه بأنّه قضى على قلبه بأن ينقسم إلى قسمين، تلك العذابات الجهنّميّة، التي لم تقتلع من وجدانه تمامًا حتّى وهما يذوبان في ضوء الأباجورة الأحمر. استقرّ حذاء أبيض ذو سطح بنّيّ على السجّادة بين الصوان والخوان الحامل للزجاجة والعلبة، وتموّجت تهاويل غشاء الجدران الورقيّ، وتفشّت في الجوّ هينمات منسالة من كون مجهول، وتخطّت الذروة عندما راحت تغازل يديه بنشوة جنونيّة وتقول له بدلال «اخنقني».

* * *

ودخلت أمّ سمعة الشرفة وهو وحيد يستجدي نسمة من ليل الصيف وقالت له:

ـ ضيوف على الباب.

فسألها:

ـ تعرفينهم؟

ـ كلّا، قالوا افتحي فجئت لأخبرك.

فتح شراعة الباب فرأى وجهًا لم يره من قبل فغاص قلبه. فتح الباب مستسلمًا فدخل الرجل وتبعه ثلاثة.

اندفع الثلاثة يفتّشون وقال له الرجل:

ـ معذرة، تفتيش لا بدّ منه، هاك أمر النيابة!

فسأله بصوت ضعيف:

ـ عمّ تفتّشون؟

ـ آلة كاتبة.

وجيء بالآلة فتفحّصها الضابط وقال:

ـ هي التي كتبت عليها الرسالة.

وبسط أمام عينيه الرسالة التي تطوّع بإرسالها وسأله:

ـ رسالتك؟

فقال يائسًا:

ـ لا عِلْمَ لي بشيء ممّا تتحدّث عنه.

ـ متى اشتريت هٰذه الآلة؟

ـ اشتريتها ولم أسرقها ولست مطالبًا بتفسير سلوكي!

ـ ستعرض أنت على عمّال المحلّين اللذين اشتريت منهما زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة، فهل أنت مصرّ على الإنكار؟، ولِمَ تصرّ على الإنكار ما دمت بريئًا؟

وفي سيّارة الشرطة سأل الضابط عمّا جعله يشكّ في أمره فيفتّش مسكنه ولٰكنّ الرجل ابتسم ولم يجب. وفطن عمرو إلى الخطإ الذي ارتكبه بإرسال الرسالة، فإنّ كتابتها على الآلة الكاتبة تشي بخوف كاتبها من الاهتداء إليه بمعرفة خطّه، ممّا يرجّح معه أنّ خطّه غير بعيد عن متناول التحقيق، وما يثير ـ بالتالي ـ الشبهات حول المتّصلين بالفقيدة ومن بينهم زملاؤها في الإدارة. هٰكذا استوجب خطؤه تفتيش مسكنه ـ ضمن مساكن الآخرين ـ وهٰكذا تمّ العثور على الآلة الكاتبة، وعُرف صاحب الرسالة والزجاجة والعلبة.

وقال:

ـ ولٰكنّي بريء وكلّ كلمة في الرسالة صادقة.

فقال الضابط ببرود:

ـ علمنا من بادئ الأمر بعلاقتك بالقتيلة!

فاعترضت مخيّلته الممزّقة صورة عمّ سليمان ولٰكنّه قال:

ـ اعترفت بذٰلك في الرسالة ولٰكنّي بريء.

فقال الضابط بغموض:

ـ وأعجبني خيالك!

فقال دون أن يتمعّن معنى قوله:

ـ وأطلقتم المجرم الحقيقيّ!

ـ جميع مَن اشتبهت بهم أبرياء.

فتساءل بإنكار:

ـ فمَن القاتل إذن؟

فأجاب الرجل بهدوء وثقة:

ـ لم يبقَ إلّا أنت!

الحُجرة رَقم ١٢

يتذكّر مدير الفندق بصورة لا تُنسى أنّه جاءته ذات يوم امرأة لاستئجار غرفة لمدّة أربع وعشرين ساعة، وكان الوقت وقتذاك العاشرة صباحًا. وحدجها الرجل بنظرة خاصّة لندرة مَن يقصده من الجنس الآخر منفردًا، وإنّه ليتذكّر بصورة لا تُنسى أيضًا أنّها تبدّت لعينيه امرأة شديدة التأثير بقوّة بنيانها ووضوح قسماتها وحدّة نظرتها وهي تقف أمام الطاولة منتصبة القامة في معطفها الأحمر وقلنسوتها البيضاء. ولم تكن تحمل بطاقة شخصيّة، غير عاملة ولا متزوّجة، ولكنّها على الأرجح مطلّقة أو أرملة، اسمها بهيجة الذهبي، قادمة من المنصورة. سَجّلَ الرجل ما يلزمه من معلومات ثمّ عهد بها إلى فرّاش تقدّمها حاملًا حقيبتها، حقيبة كبيرة الحجم فوق المألوف، فقادها إلى الحجرة رقم ١٢ بالفندق الصغير.

رجع الفرّاش بعد نصف ساعة بوجه متعجّب فسأله المدير عمّا وراءه فأجاب بأنّ المرأة غريبة الأطوار.

ـ ماذا تعني؟

أجاب بأنّها طالبته بأن يطبق حشيّة الفراش والغطاء والملاءة وأن يودعها ركن الغرفة حتّى يجيء الليل أمّا السرير نفسه فأمرت بإخراجه من الحجرة معتذرة بأنّها لا يغمض لها جفن طالما أنّه يوجد تحتها فراغ يتّسع لشخص قد يختبئ فيه. فقال لها إنّ مخاوفها لا تقوم على أساس وإنّ الفندق لم يقع به حادث واحد منذ نشأته ولكنّها أصرّت على طلبها فأذعن لمشيئتها...

ـ كان عليك أن ترجع إليّ أوّلًا.

فاعتذر بأنّه لم يجد في طلبها ـ رغم غرابته ـ خروجًا على التعليمات الواجب الالتزام بها في الفندق، ثمّ واصل حديثه فقال إنّها أمرته بأن يفتح صوان الملابس على مصراعيه وأن يبقيه كذلك فأدرك من توّه أنّها تخاف أن يغلق في غيبة منها على غريب يتربّص فصدع بأمرها في تسليم باسم.

ـ العجيب أنّها تبدو قويّة وجريئة...

وتفكّر الرجل مليًّا ثمّ سأله:

ـ هل وهبتك بقشيشًا؟

ـ نصف جنيه بالتمام والكمال...

ـ واضح أنّها غير طبيعيّة ولكن لا أهمّيّة لذلك...

فقال الفرّاش:

ـ وكنت مارًّا أمام حجرتها المغلقة في طريقي إلى المغسل فسمعت وراء الباب صوتًا يتكلّم بحدّة وحرارة...

ـ ولكنّها بمفردها...؟

ـ رغم ذلك كانت تتكلّم بحدّة ويرتفع صوتها تدريجيًّا...

ـ كثيرون يفعلون ذلك، ليس بالضرورة أن يكون مجنونًا مَن يخاطب نفسه...

فهزّ الرجل رأسه ولم ينبس فعاد المدير يسأله:

ـ هل وضح لسمعك شيء ممّا كانت تقوله؟

ـ كلّا، عدا عبارة واحدة وهي «لا يهمّ»...

وأشار المدير إشارة حاسمة إعرابًا عن رغبته في إنهاء الموضوع ثمّ قال للفرّاش وهو يمضي:

ـ مزيدًا من الانتباه فهٰذا واجب على أيّ حال.

وقصف الرعد فنظر المدير إلى السماء من نافذة زجاجيّة فرآها ملبّدة بالغيوم، وكان الجوّ شديد البرودة والمطر متوقّعًا بين آونة وأخرى. وعند تمام الواحدة بعد الظهر تلفنت له الحجرة ١٢:

ـ ممكن أطلب غداء؟

ـ لا يوجد مطعم بالفندق ولكن يوجد مطعم بالشارع، طلباتك يا فندم؟

ـ تورلي، أرزّ بالخلطة، مع كيلو كباب مشكّل، تشكيلة سلطات، رغيف بلديّ محمّر، عيش سراي، برتقالتان...

أمر المدير بإحضار المطلوب ولكنّه دهش لكمّيّة الطعام المطلوبة، خاصّة اللحوم، وهي تكفي وحدها لستّة أشخاص.

وقال لنفسه إنّها مصابة بجنون الخوف والنهم.

ـ محتمل أن تغادر الفندق عصرًا وسأجد فرصة لإلقاء نظرة داخل الحجرة.

وجاء الطعام، وبعد ساعة رجع خادم المطعم ليأخذ الصينيّة والأطباق. ولم يستطع المدير مقاومة رغبة ملحّة

في النظر إلى الأطباق، وجدها فارغة تمامًا إلّا من بقايا عظام وصلصة متجلّطة. وقرّر أن يتناسى الموضوع كلّه ولكنّه وجد المرأة - صورتها ونوادرها - تطارده وتلحّ عليه. لا يمكن القول بأنّها جميلة ولكنّها ذات سطوة كالجاذبيّة، وبها شيء يخيف وأشياء تثير حبّ الاستطلاع والإذعان، ومع أنّه رآها اليوم لأوّل مرّة إلّا أنّها تترك انطباعًا بالألفة التي لا تكون إلّا للوجوه المستقرّة في أعماق الذاكرة من قديم.

ورأى رجلًا وامرأة قادمين نحوه، وسأله الرجل:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

فأجاب بالإيجاب، واتّصل بالمرأة، فطلبت السماح للقادمين بالصعود إلى حجرتها، وكان واضحًا أنّ القادمين من الصفوة، من الناحية المادّيّة على الأقلّ. واندفع الهواء في الخارج بقوّة رقصت لها القناديل المعلّقة في مدخل البهو الصغير. وسرعان ما قَدِمَ ثمانية أشخاص - أربعة رجال وأربع نساء - فتكرّر السؤال:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

وتمّ الاتّصال وجاءت الموافقة فصعدوا بجلال - كانوا على مستوى السابقين - إلى الحجرة رقم ١٢. أصبح الزوّار عشرة. أقارب من أسرة واحدة، أو أصدقاء، أو أقارب وأصدقاء، ولكن لا شكّ أنّ بهيجة سيّدة غير عاديّة.

- ترى لِمَ اختارت فندقنا الصغير؟

ودبّ النشاط في كافتيريا الاستراحة وحُملت إلى فوق أقداح الشاي. وشغلته بعض الوجوه في المجموعة الأخيرة فظنّ أنّه سبق له رؤيتها، ولكنّه قال لنفسه إنّ خير ما يفعله أن يغسل مخّه من شئون بهيجة هانم، وإنّها غدًا ستكون ذكرى من مئات الذكريات الضائعة التي يجيش بها صدر الفندق.

ورأى أمامه سيّدة في الخمسين غاية في الرزانة والوقار، سألت:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي هنا؟

ولّما أجاب بالإيجاب قالت:

- بلّغها من فضلك أنّ الدكتورة موجودة.

واتّصل بالمرأة فسمحت لها بالصعود، وأذعن لرغبة ملحّة طارئة فسأل الدكتورة قبل أن تغادره:

- ما تخصّص حضرتك؟

فأجابت وهي تذهب:

- طبيبة مولّدة.

لاحظ أنّها قدّمت نفسها بصفتها المهنيّة وبلا ذِكْر الاسم، فهل هي تزور المرأة بهذه الصفة؟... هل المرأة تعاني من مرض نسائيّ؟... أهي حبلى؟... ولم يستطع الاسترسال في أفكاره إذ جاءه رجل بدين قصير متجهّم الوجه فقدّم نفسه بصفته المقاول يوسف قابيل وطرح السؤال الذي يتكرّر:

- هل بهيجة هانم الذهبي هنا؟

وعقب الاتّصال التلفونيّ المعتاد سمح للرجل بالصعود، والمدير يودّعه بابتسامة ساخرة حائرة. ورجع أحد فرّاشي الفندق من مشوار وهو يرتعد من البرد داخل جلبابه البلديّ السميك فقال إنّ الظلام يتراكم في أركان السماء وإنّ النهار سينقلب ليلًا عمّا قليل، فألقى المدير نظرة من النافذة الزجاجيّة ولكنّه كان يفكّر بامرأة الحجرة ١٢، المرأة الغامضة جلّابة الضيوف، وخُيّل إليه أنّ روحًا نفّاثة للإثارة والقلق تتسلّل في أنحاء الفندق مذ قدمت، وأنّه يشعر بها تتسلّل إلى زوايا نفسه موقظة بها أحلام المراهقة وأبّهة الآمال الدنيويّة الدسمة. وانتبه من استغراقه على صوت يسأل:

- بهيجة هانم الذهبي هنا؟

رأى رجلًا ضخمًا يرفل في جبّة وقفطان، طربوشه جانح إلى الوراء، وبيده مظلّة رماديّة، قدّم نفسه قائلًا:

- بلّغها أنّ سيّد الأعمى الحانوتيّ قد جاء.

انقبض صدر المدير، انكمشت أعضاؤه، لعن الرجل والمرأة معًا، ولكنّه قام بواجبه فاتّصل بها، ولأوّل مرّة يتلقّى جوابًا مخالفًا، فقال للرجل:

- انتظر حضرتك في الاستراحة.

ماذا جاء يفعل؟، ولِمَ لا ينتظر في الخارج؟، لقد عمل في الفندق زهاء نصف قرن فلم يشهد مثيلًا لما يحدث اليوم، وأخوف ما يخاف أن يهطل المطر فيضطرّ الفندق إلى إيوائهم وقتًا مجهول المدى، وبخاصّة رجل الموت ذاك؟!.

وجاء زوّار جدد، جاءوا متفرّقين ولكن تباعًا، صاحب معرض أثاث وبقّال وقصّاب وصاحب محلّ عطور وأدوات زينة وموظّف كبير بمصلحة الضرائب ورئيس مؤسّسة وصحفيّ معروف وتاجر جملة للأسماك وسمسار شقق مفروشة ووكيل شخصيّة عربيّة من أصحاب الملايين، وظنّ المدير أنّ المرأة ستنقل الاجتماع إلى الاستراحة ولكنّها أشارت بالسماح لهم بالصعود فصعدوا واحدًا في أثر واحد. وحُملت كراسيّ جديدة ومضى الفرّاشون بالشاي، وتساءل المدير ترى كيف يجلس الزائرون، هل يربطهم تعارف سابق: وماذا جمعهم على وجه التحديد؟. واستدعى شيخ الفرّاشين وسأله عن ذلك فأجاب الرجل:

ـ لا علم لي بالداخل، الأيدي تتسلّم الكراسي والشاي من زاوية الباب ثمّ تغلقه فورًا. . .

فهزّ الرجل منكبيه وقال لنفسه إنّهم ما داموا لا يتشكّون فلا مسئوليّة عليّ.

وإذا بسيّد الأعمى الحانوتيّ يقبل نحوه فيقول:

ـ أرجو أن تذكّر الهانم بأنّي في الانتظار!

فقال المدير بجفاء:

ـ وعدتْ بأن تستدعيك في الوقت المناسب.

ولم يتحرّك الرجل فتلفن للمرأة ليتخلّص منه ثمّ ناوله التليفون بناء على رغبتها فيما بدا، فقال سيّد الأعمى:

ـ يا ستّ هانم العصر فات ونهار الشتاء قصير. .

وأصغى إلى السّماعة مليًّا ثمّ أعادها ورجع إلى الاستراحة غير مرتاح، والمدير يلعنه من صميم قلبه، ويحمّل المرأة مسئوليّة استدعائه إلى الفندق، ويرمق باب الاستراحة بنفور وتقزّز. ونزل بعض النزلاء في طريقهم إلى الخارج، فأبدوا للمدير ملاحظات عن الحجرة ١٢ المقلقة للراحة فقال الرجل معتذرًا:

ـ يوجد بها زوّار وسيذهبون عاجلًا أو آجلًا، لن يبقى أحد منهم في الليل. . .

بات يخشى أن تدفعه مسئوليّته إلى الصدام معهم وهم من الصفوة القويّة، وضاعف من كآبته صفير الرياح في الخارج وروح الأسى التي تغشى الطريق. ورغم ذلك تراءى عند مدخل الفندق جماعة من الرجال والنساء، أقبلوا نحوه في معاطفهم فغاص قلبه في صدره، وبادرهم وهو لا يدري:

ـ بهيجة هانم الذهبي؟

فضحك أحدهم وقال:

ـ أبلغها من فضلك أنّ مندوبي جمعيّة إحياء التراث قد جاءوا.

واتّصل المدير بالمرأة فلمّا طلبت السماح لهم قال لها:

ـ عددهم عشرة يا هانم وتحت أمرك في الدور الأرضيّ استراحة تتّسع لأيّ عدد!

ـ ولكنّ في الحجرة متّسعًا!

وصعد المندوبون والمندوبات والرجل يهزّ رأسه في حيرة. سيقع الصدام عاجلًا أو آجلًا، سيتفجّر غضب السماء في الخارج، سيتمخّض ذلك التكتّل الشاذّ في الحجرة ١٢ عن شيء غير سارّ. وحانت منه التفاتة نحو الاستراحة فرأى سيّد الأعمى يزحف نحوه فنقر بأصابعه على سطح الطاولة بعصبيّة، أوصله بالمرأة قبل أن يفتح فاه، سمع شكواه ثمّ سمع إذعانه، وتركه يعيد السّماعة بنفسه، ولكنّ الرجل قال له وهو يهمّ بالذهاب:

ـ الانتظار بلا عمل مملّ جدًّا. . .

فغضب المدير، وكاد يوبّخه لولا أنّ المرأة اتّصلت به طالبة إيصالهم بالمطعم، واستمرّت المكالمة دقائق قبل أن تنقطع، وتساءل هل يبقون حتّى العشاء؟، وأين يتناولون عشاءهم، كم يودّ أن يعاين الحجرة بحالتها الراهنة، إنّه منظر يفوق الخيال، منظر جنونيّ بلا أدنى ريب.

ولم يقف الطوفان عند حدّ فجاء نفر من أساتذة الجامعة ورجال الدين، أمست المناقشة عقيمة، تركهم يصعدون، بدا الأمر مزاحًا كابوسيًّا، وجاء رجل غامض فصعد دون أن يمرّ به وقد ناداه فلم يلتفت إليه، وتبعه فرّاش ولكنّه توقّف عندما رآه يدخل الحجرة ١٢. وشعر المدير بأنّه وحيد وبأنّه يفقد سيطرته القانونيّة على المكان، وبأنّ شيطان الأحلام البهيميّة يطرق بابه بعنف. وفكّر بأن يشاور شيخ الفرّاشين ولكن ظهر له رجل ما إن رآه حتّى تشهّد في ارتياح، تصافحا وهو يقول للقادم:

ـ جئت في وقتك يا حضرة المخبر.

فقال المخبر بهدوء:

ـ أطلعني على السجلّ. . .

ـ تحدث أمور غريبة هنا.

راح الرجل يراجع بعناية الأسماء ويدوّن بعض الملاحظات فقال المدير:

ـ أراهن على أنّك جئت من أجل الحجرة ١٢.

ـ هه؟

ـ الأمور تجري في شذوذ جنونيّ.

ـ كلّ ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعيّ!

ثمّ غادره وهو يقول:

ـ إذا طلبني التليفون فإنّي في الحجرة ١٢!

ذهل المدير، ولكنّه اطمأنّ نوعًا ما في الوقت نفسه، فيما يحدث إنّما يحدث بعلم الحكومة وتحت سمعها وبصرها، وتذكّر أنّه فكّر بمشاورة شيخ الفرّاشين، وهَمَّ بالضغط على الجرس عندما رأى سيّد الأعمى زاحفًا نحوه ففقد أعصابه وصاح به:

ـ قالت لك أن تنتظر حتّى تستدعيك.

فابتسم الرجل بخنوع المعتاد للانتهار وقال:

ـ ولكنّ الانتظار قد طال. . .

ـ انتظر بلا مناقشة وتذكّر أنّك في فندق لا قرافة!

فرجع الرجل متصبّرًا، وتذكّر المدير شيخ الفرّاشين فاستدعاه وسأله:

ـ كيف تجري الأمور في الحجرة ١٢؟

ـ لا أدري يا سيّدي ولكنّها تضجّ بالأصوات. . .

ـ كيف يتواجدون معًا وهي لا تتّسع لهم ولو جلس بعضهم فوق بعض؟

ـ عِلْمي عِلْمك ولكن على أيّ حال فإنّ الضابط بالداخل أيضًا. . .

وذهب الرجل فنظر المدير من النافذة فرأى الليل جاثمًا في الفضاء، وقد أضاءت المصابيح فشعّت أنوارها وانية خلال الجوّ المشحون بالرطوبة العاصف بالرياح المزمجرة، وجاء طابور من خدم المطعم يحملون الصواني المكتظّة بالأطعمة، فازداد عجبه، وقال لنفسه إنّه لا يوجد بالحجرة إلّا خوان واحد، فأين تصفّ الأطباق، وكيف يتناولون الطعام؟. وأخبره أحد الفرّاشين أنّ باب الحجرة لم يعد يفتح، وأنّ الأطعمة أدخلت من شراعة الباب، وأنّ الضحكات الصاخبة تجتاح الدور كلّه، وأصبح المشهد كلّه يعزّ على التصديق.

ورجع الفرّاش بعد نصف ساعة ليؤكّد له أنّ القوم يسكرون، فقال له:

ـ لم أرَ زجاجة واحدة!

ـ لعلّها هُرّبت في الجيوب، إنّهم يغنّون ويصرخون ويصفّقون، تلك حال سكر وعربدة، وفسق أيضًا فالنساء هناك لا يقلّون عن الرجال عدًّا. . .

ـ والمخبر؟

ـ سمعت صوته يغنّي «الدنيا سيجارة وكاس». . .

وقصف الرعد في الخارج فقال المدير لنفسه «جائز جدًّا أنّي أحلم وجائز أنّي جننت». وإذا بجماعة من عامّة الشعب ـ تنطق وجوههم وملابسهم بشعبيّتهم ـ قدموا، وسأل سائلهم:

ـ هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

فابتسم المدير يائسًا، واتّصل بالمرأة، فرجته أن يجعلهم ينتظرون في الاستراحة وأن يقدّم لهم المشروبات، فأشار الرجل لهم نحو الاستراحة فأمر بتقديم الشاي لهم، فامتلأت الاستراحة وازداد سيّد الأعمى قلقًا. وجعل المدير يبتسم يائسًا ويغمغم:

ـ لم يعد الفندق فندقًا، ولم أعد مديرًا، لم يعد اليوم من الزمان، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور. . .

وبدأ تساقط المطر، وأرعدت السماء، ولمع الأسفلت عند مدخل الفندق بأضواء المصابيح ودغدغة المطر، وتتابع دبيب الأقدام، وارتفعت صيحات غلمان مهلّلة، ولجأ عابرون إلى عنق المدخل، وتوالت الضربات المرجفة فوق زجاج النافذة. غادر مكانه إلى مقدّم المدخل فقلّب وجهه في السماء المظلمة ثمّ نظر إلى الأرض فرأى السيل المنهمر ينصبّ عليها كالحصا ويجرف منحدراتها كالطوفان. لقد تلبّد واحتدم ثمّ انفجر.

ـ إنّه مطر لم يسقط نظيره منذ جيل على الأقلّ.

وتذكّر سيلًا شبيهًا بهذا حفر ذكراه في رأسه منذ

صباه. تذكّر كيف انقطعت المواصلات وسُدّت الحوارى وغرقت الحجرات تحت الأسقف المتهرّئة. ورجع إلى مكانه فالتزمه حرصًا على السجلّات والخزانة ولكنّه أصدر أوامره بتشديد المراقبة في الحجرات وفوق السطح. واستدعى شيخ الفرّاشين وسأله:

ـ ما أخبار الحجرة ١٢؟

فلوى الرجل شفتيه وقال:

ـ تواصل الغناء والضحك، إنّهم مجانين...

ولح على باب الاستراحة سيّد الأعمى فصاح به بأعلى صوته:

ـ ارجع إلى مكانك.

استأذنه الرجل بإشارة من يده فصاح به مرّة أخرى:

ـ ولا كلمة...

وجعجع الرعد كانفجار القنابل وانهلّ المطر في سرعة وغزارة جنونيّتين فقال لنفسه بقلق إنّ الفندق قديم لم يشيَّد بالخراسانة المسلّحة، وأنّ الليل ينذر بالمتاعب.

وجاء فرّاش فقال:

ـ تصاعدت الشكوى من الحجرة ١٢ من رشح السقف والبلل!

فقال بحنق:

ـ سكت الغناء والضحك؟... فليغادروا الحجرة!

ـ ولكنّهم لا يستطيعون!

فصرفه واستدعى رئيس الفرّاشين وسأله فيما قال الرجل فقال:

ـ الحجرات كلّها ترشح، سأجنّد الفرّاشين لسدّ الثغرات فوق السطح بالرمال...

ـ والحجرة ١٢؟

ـ لقد انحشروا، انزنقوا، امتلأت بطونهم فانتفخت، تعذّر فتح الباب، تعذّرت الحركة...

اجتاح الهياج الكونيّ الفضاء في الخارج، أمّا في الداخل فقد دبّت حركة نشاط شاملة وانطلق الفرّاشون بأكياس الرمل. وحدثت مفاجأة غير متوقّعة، إذ هبّ المتسطّرون في الاستراحة متطوّعين للاشتراك في العمل. راقب المدير ذلك بارتياح، وارتاح بصفة خاصّة لتخلّف سيّد الأعمى.

وبعد نصف ساعة رجع شيخ الفرّاشين ليطلعه على سير العمل، قال:

ـ إنّهم يعملون بهمّة عالية...

ثمّ بعد تردّد:

ـ أمّا أصحابنا في الحجرة ١٢ فحالهم سيّئة، وهي تزداد بتقدُّم الوقت سوءًا على سوء...

وغضب المدير. عصف به الغضب وكأنّما عصف به فجأة. عصف بل بعد توتّر عنيف حصره طيلة اليوم. تملّكه الغضب أعصابًا ولحمًا ودمًا. جُنّ واندفع ينشد المزيد من الجنون. صاح بشيخ الفرّاشين:

ـ اسمع، احفظ ما أقول...

فحملق الرجل في وجهه بخوف طارئ فصاح بتصميم:

ـ أهملوا الحجرة ١٢ بجميع مَن فيها!

ـ سيّدي، الرجال يصرخون والنساء يبكين...

فزمجر كالوحش:

ـ ركّزوا على السطح فوق حجرات النزلاء أمّا الحجرة ١٢ فأهملوها بجميع من فيها...

تردّد الرجل مقدار ثانية فصاح وهو يزداد توحّشًا:

ـ نفّذْ تعليماتي حرفيًّا، وبلا تردُّد...

والتفت نحو النافذة الزجاجيّة ينظر إلى الخارج فرأى الزوبعة تتلاطم في قلب الليل وتزداد عنفًا ولكنّه كان قد تخفّف من عبء ثقيل واستردّ الثقة وصفاء الذهن...

الطُّبُول

دقّ جرس المنبّه في رنين متّصل فدبّت في الأسِرّة حركة شاملة. ثمّة تثاؤب هنا وهناك يندّ وسط همهمات كطنين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأوّهات مرحة. وفُتحت النوافذ فتدفّق الفجر الغامض متسربلًا بنسيم ندى مفعم بشتّى الطيوب وأنفاس الطبيعة النقيّة. وارتفع صوت القائد دسمًا واضح النبرات يقطع بأنّه سبقنا إلى الاستيقاظ منذ أمد وتأهّب

لاستقبال اليوم الخطير، قال:

ـ السرعة والنظام والجدّ، لديكم ثلث ساعة حتّى تجتمعوا حول مائدة الإفطار.

وانتشرت الحركة في نشاط بهيج. أقيدت الأنوار في المغاسل، طرقعت الشباشب فوق البلاط، سالت المياه من الصنابير، وهدرت السيفونات، وأزّت الحلّاقات الكهربائيّة.

ـ الفجر يبشّر بجوّ طيّب.

ـ يجب أن نقطع شوطًا ملحوظًا قبل أن ترتفع الشمس.

ـ لكنّ الظهيرة آتية والصيف لا قلب له.

سرعان ما امتلأت الكراسي الخشبيّة حول المائدة المستطيلة ببهو الطعام. استقرّت الجاكتات الكاكيّة والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة. عقد كلّ حمّالة صفّارته حول عنقه وأرسى عصاه إلى طرف المائدة جنب زمزميّته وحقيبته. وصبّ الشاي في الأقداح وتخاطفت الأيدي الفطائر والجبن والعسل الأسود. وتتابع التمطّق في سرعة تنذر بتوقّعات متربّصة. والحقّ أنّ القائد لم يمهلنا طويلًا، كأنّما أراد أن يمتحن مرونتنا أو أن يذكّرنا بسلطاته منذ البدء، فنفخ في صفّارته مقدّرًا ربع دقيقة. نهضنا عجلين، ركّبنا الحقائب فوق الظهور، وعقدنا الزمزميّات بالأكتاف، وتناولنا العصيّ، وهرعنا إلى الفناء. انتظمنا طابورًا طويلًا في ظلام شامل عدا شفافية لا تكاد تُرى في الأفق الشرقيّ. ومثل شبحه أمامنا بقامته الطويلة ومضى يقول:

ـ لتكن كلّ رحلة جديدة خيرًا من سابقاتها.

فقلنا في نَفَس واحد:

ـ آمين.

فعاد يقول:

ـ لنكن مثالًا طيّبًا للآخرين.

فكرّرنا في صوت واحد:

ـ آمين.

ـ ولنستفد من كلّ خطوة وكلّ تجربة.

ـ آمين.

ـ سيروا على بركة الله.

ـ آمين.

ونفخ في الصفّارة والديكة تصيح فتكوّنّا في أربعات، واتّخذنا خطوات «محلّك سِرْ» حتّى احتلّ مكانه على رأس الطابور، ثمّ بدأ السير فسرنا وراءه على دقّات الطبول، وتبعتنا على الأثر عربة يجرّها جواد تحمل المطبخ والمستشفى. سلّمنا الفناء إلى ممرّ طويل ضيّق محصور بين جدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلّل نهايته سعف نخلات مغروسة في الجانبين. شابَ مشيتنا الرياضيّة حذر شديد لما توقّعناه من وجود روث دوابّ أو قاذورات آدميّة إذ أنّه رغم الحيطة والتفتيش يتسلّل إلى الممرّ في هدأة الليل أناس لممارسة حرّيّاتهم بلا حياء. سرنا في حذر حتّى خرجنا إلى الخلاء فلفحتنا نسمات نقيّة مطلولة. ولم نكد نقطع خطوات حتّى ترامى إلينا صوت السوّاق وهو يحثّ الجواد على السير ويفرقع بسوطه في الهواء. وتنبّه قائدنا إلى ذلك فصاح بصوته الدسم:

ـ قف...

فضربنا الأرض متوقّفين فقال بنبرة آمرة:

ـ ١ و٢ يذهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم.

انفصل الزميلان من الطابور فرجعا إلى موقف العربة. أدركنا من حوارهما أنّ حجرًا اعترض العجلة اليمنى وأنّهما يتعاونان على زحزحته. وتساءل قائدنا محنقًا:

ـ متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود؟!

وعاد الزميلان إلى الطابور فنفخ القائد في صفّارته واستأنف الطابور سيره. سرنا أشباحًا ذائبة في ظلام، وفي السماء نجم واحد. وكنّا نحبّ ظلمة الفجر، لأنّها سريعة الزوال، ولأنّنا نطمئنّ إلى الاختفاء في غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الخفيّة، سعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتعش فوق الشفاه بلا صوت. في ظلمة الفجر يتلقّى سيّئ الحظّ ضربة عصا في ساقه أو قرصة في ذراعه أو نواة نبقة في قفاه، ولمّا كان الفاعل مجهولًا فإنّه ينتقم من أيّ كان وبأيّ وسيلة تتّفق له. لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنّها كانت متعة محبوبة، ولا تتمّ

الرحلة إلّا بها، ولذلك كنّا حريصين على احترام سرّيّتها لنضمن استمرارها. وبهنا ـ رغم انزعاجنا ـ بها، فالجدّيّة المثاليّة الواجبة شعار نردّده ونلتزم به ولكن يبدو ألّا مفرّ من التمرّد عليه بين الحين والحين. وما يدري تكوينٌ من تكوينات الطابور الرباعيّة إلّا ورشاش سائل يبلّله في مواضع متفرّقة من أجسام أصحابه. وتبيّن لهم من رائحته أنّه بول! كاد النظام يختلّ. وضاعت الضحكات المكتومة في هدير غاضب لم يتوقّعه أحد. تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة:

ـ عليكم اللعنة. . .

فصاح القائد غاضبًا:

ـ قف.

توقّفنا عن السير. انقلبت الدعابة علينا هٰذه المرّة وأنذرت بالنكد. وتساءل القائد:

ـ مَن الوقح؟!

فصاح الآخر متحدّيًا:

ـ كلب بالَ علينا.

فصرخ القائد:

ـ الويل لكم.

ولكن سبقته الأحداث فندّت صرخات واختلطت أشباح ونشبت معركة عمياء. تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدّد وينذر في الهواء. اشترك كلّ واحد منّا في المعركة، هاجمًا أو مدافعًا، بلا حساب ولا حذر وكأنّنا نقاتل المجهول في الأركان الأربعة. اندثر لحظتئذ الودّ الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيدة، وحلّت محلّها وحشيّة كاسرة تنفث حقدًا وشهوة طاغية للأذى، كأنّها قوّة مدمّرة تفجّرت في قلب الظلام. تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنّما قد ترك لأيدينا وأرجلنا مهمّة إنزال العقاب الشامل بنا. وما ندري إلّا والظلمة تخفّ وتتهافت، ومعالم الدنيا تطلّ علينا من حولنا، ورقعة الأفق الشرقيّ تبتسم ببهجة الضياء. عند ذاك تراءى المتعاركون، رأى كلّ وجه زميل أو صديق فعقد الحياء أيدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة وقلوب منكسرة، وجعلنا نجفّف عرقنا ونضمّد جراحنا ونتبادل نظرات حسيرة، متجنّبين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء. وساد صمت ثقيل مشحون بالندم. وتلقّينا أوّل شعاع للشمس بوجوه كالحة.

وراح القائد ينقّل عينيه من شخص لآخر، ثمّ قال:

ـ بداية على أيّ حال جديرة بكم.

لم ينبس أحد بكلمة. ولا انبرى أحد للدفاع يستوي في ذٰلك الظالم والمظلوم. وعاد القائد يقول:

ـ إنّ زيّكم الرفيع ليخجل منكم.

وهزّ رأسه في أسًى ثمّ تساءل:

ـ هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف؟

ولمّا لم يسمع صوتًا قال:

ـ ليس من مبادئنا إلغاء رحلة بدأناها ولكن لن يمرّ ذنب بلا عقوبة تناسبه.

مضى إلى موقفه، نفخ في الصفّارة، هوت المطارق على الطبول، تحرّك الطابور في ضوء الصباح الباكر. انتقلنا من الصحراء إلى المدينة فقابلتنا طلائع العمّال والباعة. وتبعًا لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسين المعركة وآلامها. ولم يكن شيء يؤثّر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنّية أبدًا بالبطولة والمجد والأخوّة، فيسحْرها يخاطب منّا القلوب والسرائر. ومرّ بنا السابلة بلا اهتمام، وقليلون مَن تابعونا بنظرات محايدة، أمّا الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد. وزالت آثار المرارة تمامًا، وانتصر الشباب بقوّته الخارقة، وأنعشتنا الأناشيد، فعدنا أهلًا للرحلة الطويلة الشاقّة أمامنا. وسيطر علينا الإيمان بما نفعل وبما نقول، بالمُثل التي نستظلّ بها، والمجد الذي نمضي إليه، والقوّة التي سنحقّق بها المعجزات. وكنّا سعداء، رغم الجهد المتوقّع والنظام الصارم والعقوبة المتربّصة كنّا سعداء. وسرنا وسرنا، وأنشدنا وأنشدنا، على دقّات طبول لا تتوقّف، حتّى نفخ القائد في الصفّارة فتوقّفنا وسط الضحى. وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب:

ـ استراحة.

غسلنا وجوهنا في مقهى قريب،ثمّ قصدنا العربة

فتناولنا شراب الليمون وبعضًا من البسكوت. وكان الطريق غاصًّا بالمارّة والسيّارات والعربات، وحرارة الشمس تحرق الرءوس وتستدرّ العرق. وتبادلنا الأحاديث في صفاء كأن لم تكن بيننا معركة، وتذكّرنا ملابساتها بقلوب ضاحكة، ولكنّنا لم نخلُ من قلق من ناحية عواقبها.

ـ هل تمرّ بسلام؟

ـ بعيد ذٰلك كلّ البعد.

ـ حبس انفراديّ أو صيام نهار كامل.

وطوينا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهمّ في حاضرنا، فهدف الرحلة يظلّ مجهولًا لا ينبئ عنه قائدنا حتّى نستدلّ عليه من خطّ السير. وكنّا معسكِرينَ عند مشارف الميدان، ولٰكنّ الميدان مفترق طرق مليء بالاحتمالات.

ـ أنتّجه جنوبًا أم نمضي شمالًا؟

ـ الجنوب يعني الأهرام.

ـ أهرام الجيزة أم سقّارة أم دهشور؟

ـ ولا تنس الفيّوم.

ـ والشمال يعني هليوبوليس أو عين شمس.

ـ وهناك الصحراء في الجنوب والشمال معًا.

ـ وهي أسوأ الاحتمالات.

ونفخ القائد في الصفّارة فتوالت دقّات الطبول كالنداء الملحّ فهرعنا إلى الطابور. وما كدنا نتوسّط الميدان حتّى أدركنا أنّنا نتّجه نحو الجنوب، فعرفنا الهدف بلا تحديد، ولن يتحدّد حتّى نبلغ هضبة الأهرام. مضينا بأقدام نشيطة وحيويّة رائعة، تستغرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت. لذٰلك دُهشنا عندما دُعينا للتوقّف لتناول وجبة الغداء وتبيّن لنا أنّ الساعة تمّت الثانية بعد الظهر. عَسْكَرْنا على حافة حقل مزروع بالجرجير. نزعنا الأحذية وغسلنا أقدامنا في جدول ماء. فرشنا الحصر وجلسنا لتناول الغداء بعد أن جاء كلّ منّا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوي بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرزّ وموزة. أنسانا تناوُل الطعام همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأثملتنا لذّته الموشّاة بأطايب الأحاديث والنوادر. ولمّا فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمتع بالراحة في الفترة القصيرة المخصّصة للقيلولة. وداعَبَنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة، وكدنا نستسلم للنوم لولا أن همس هامس:

ـ انظروا. . .

تحوّلت الأنظار إلى الحقل الذي يغوص تحت مستوى الطريق بمتر فرأينا زميلًا يكاد يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنًا لم نره ولٰكنّا رأينا جانبًا من فستانه هفا به الهواء فتحرّك كالعَلَم.

ـ أيّ جرأة!

ـ سيجلب لنا متاعب جديدة.

وتطوّع زميل للذهاب إليه لتحذيره. وسَرَتْ شهامة التطوّع إلى آخرين فمضوا في أثره. وتطلّعت الرءوس إلى العربة المقلوبة باهتمام وإشفاق وتوتّر، وبحثت أعين عن القائد حتّى عثرت عليه نائمًا على سريره السَّفَريّ وراء عربة التموين. رأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولٰكنّنا لم نسمع كلمة ممّا يدور فقال أحدنا:

ـ إنّهم يقنعونه بالعودة.

فقال آخر ضاحكًا:

ـ أو بالاشتراك معه!

وجرت الفتاة إلى مبنى من البوص غير بعيد فاختفت داخله دقيقة ثمّ ظهرت مرّة أخرى في مدخله وهي تتوسّط عددًا من الفتيات!. وهرع الزملاء إلى مبنى البوص فدبّ نشاط محموم فينا جميعًا، وثبنا قائمين، وزحفنا نحو المبنى كجيش من المجانين. وكانت الشمس تصبّ على المبنى دفقات حامية من أشعّتها فيكاد أن يشتعل ولم يبال أحد بالحرّ ولا بالجوّ الخانق، وفاح المكان برائحة عرق آدميّ حرّيف، واضطربت أركانه بالصحّة والعافية وأنفاس الشباب الملتهبة. وشحنت بالعربدة المكتومة والزفرات الضاحكة والأطوار المستهترة. وفي حمأة الطرب المشبوب تردّد صوت ماجن بغناء، رقص مستهتر متهتّك، واشتبك اثنان في معركة مازحة. وعدنا واحدًا في أثر واحد، وارتمينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة. وما لبث أن دوّت الصفّارة وتتابعت دقّات الطبول. قمنا ننفض عن أنفسنا الكسل. انتظمنا في

الطابور. ولمحنا القائد متجهّم الوجه فلم ندرِ إن كان تجهّمه بسبب ذنبنا الأوّل أو أنّه فطن أيضًا لذنبنا الثاني ولكنّنا كنّا أبعد ما يكون عن الندم. وهمس صوت:

ـ نجونا بمعجزة.

فقال آخر:

ـ أو علينا أن نتوقّع عقوبة مضاعَفة.

وأخذنا في السير. بعزائم قويّة مضينا. أسعفتنا روح التحدّي والصبر. وقلنا لأنفسنا إنّه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس أخلد من البهجة والمسرّة والمرح. ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفًا أو ساعتين. ورغمًا عن إرادتنا سلّمنا بأنّ الشمس عنيفة، بل أعنف ممّا تصوّرنا، بل هي في الواقع لا تُحتمل. وتصبّب العرق حتّى بلّل ملابسنا، وضاعف من تذمّرنا إحساسنا بعدم طهارته. الحقّ أنّ التعب بدأ يزحف على عضلاتنا وأعصابنا مبكّرًا بالقياس إلى الرحلات السابقة. وكلّما تقدّمنا اشتدّت وطأته وعنفت ضرباته أمّا الحرّ فأصبح خانقًا قاتلًا. كلّا لم نذق هٰذا الجحيم من قبل، ولم تخر قوانا كما خارت اليوم. وتراخت أوتار أصواتنا وهي تنشد الأناشيد، ولأوّل مرّة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطّى فوق مناكبنا. تغيّر كلّ شيء، حال لونه وفسد طعمه، ففتر حماسنا ثمّ خمد. حتّى الأناشيد تبدّت لنا رتيبة مكرّرة فاقدة المعنى والروح فخجلنا من ترديدها. وخُيّل لنا أنّنا موضع سخرية المارّة والمنتظرين تحت مظلّات الباص. ولم تقف مشاعرنا المدمّرة عند حدّ فأوشكت أن تلتهم الرحلة نفسها التي بدت طويلة بلا نهاية. معذّبة بلا رحمة، خالية من أيّ معنى أو عزاء، غير جديرة بالطقوس التي تحكمها والنظام الذي يضبطها والآمال المعقودة عليها. وقائدنا نفسه لاح قائدًا بلا قيادة ولا جيش، مضحكًا في غضبه، هزيلًا في عنفه. ألحّت علينا تلك الأفكار، وكلّما اشتدّ إرهاقنا اشتدّت إلحاحًا وعنفًا، ونفد صبر البعض فتوقّف عن الإنشاد أو جعل يحرّك شفتيه بلا صوت، وجنّ البعض الآخر فجازف بالخروج من الطابور مع عِلْمه بما يعنيه ذٰلك من فصله من الفريق مجلّلًا بالعار منبوذًا من الروح الرياضيّة. وهي فضيحة لم تغب عنّا عواقبها، وآثارها البعيدة في نَفْس القائد والمشرفين هناك في المدرسة، ولكنّها في الوقت نفسه ميّزتنا بشيمة الصبر وأمّلتنا في تخفيف العقوبة، وإن لم تغيّر شيئًا من فتورنا وإرهاقنا وحال الخذلان التي ركبتنا، وتتابع السير والغناء، ولم يعد شيء يحتفظ بعنفوانه إلّا دقّات الطبول وصلابة قائدنا غير المبالية، وأقران يُعَدّون على أصابع اليد مضوا بهامات مرفوعة وعضلات مشدودة يردّدون الأناشيد بحماس وإيمان حتّى أثاروا الحنق والازدراء. وعندما لاحت لأعيننا الأهرام الشامخة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، فوهنت حدّتها، ودبّت في الجوّ نسمة جعلت تلاطفنا في استحياء. وأخذ الطريق في الارتفاع فتضاعف إرهاقنا واشتدّت آلامنا وتداعت أصواتنا. وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدثّر الكون بغلالة داكنة هادئة ردّدت أنفاسًا ضعيفة كأنّها أنفاس شيخوخة فانية. ودوّى صوت الصفّارة فتساقطنا من الإعياء ونحن نتأوّه بأصوات غير مبالية. خمّنّا أنّنا سنمكث تحت الهرم ساعة أو أكثر قبل أن نستأنف السير إلى معسكرنا الموغل في الصحراء ولكنّ قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع:

ـ لديكم ربع ساعة كاملة!

ذُهلنا!. تبادلنا النظر في صمت ونحن نعلم أنّ الأوامر لا تناقَش. ولم نضيّع الوقت في التحسّر العظيم. ولم يكن بدّ من التضحية بالراحة فقمنا لابتياع ما يلزمنا في مقامنا الأخير في حدود ما تسمح به اللوائح. ومدّة الإقامة مجهولة لا يعلم بها إلّا القائد ولكنّنا آثرنا الأخذ بالأحوط. اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازيّة. ضاع وقت الراحة في الشراء والمساومة وتنظيم السلع. وما فرغنا من ذٰلك حتّى عادت الصفّارة تدوّي ودقّات الطبول تدقّ بلا نهاية فانتظمنا في الطابور الرهيب، يحمل كلّ منّا سلّة موز على يد وبطّيخة على اليد الأخرى حاشيًا جيوبه بالعلب والقوارير فضلًا عن أدواته الأصليّة كالعصا والزمزميّة والحقيبة. وواصلنا الرحلة من غير أن ننال قسطًا من الراحة، بعضلات منهكة وأعصاب متوتّرة وأنفس غاضبة. وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا في جوف الظلام الهابط. استحالت أصواتنا عواء

محشرجًا، وتقلّصت عضلاتنا من حدّة الآلام، فنسينا نسيانًا تامًّا مسرّات الرحلة كأنّها لم تكن وتمنّينا الموت. وداعبنا أمل أن يعدل القائد عن خطّته وأن يقنع بما أنزل بنا من عقاب صارم، فتستردّ الرحلة بهجتها المأمولة وأحلامها الضائعة ولكنّه واصل سيره بلا مبالاة، ولم يكتفِ بذلك فصاح بصوت كالرعد:

ـ حركة سريعة، ابتدئ!

لم نصدّق بادئ الأمر آذاننا، ثمّ بُهتنا من شدّة المباغتة. الحركة السريعة نُدعى إليها عادة في مطلع الرحلة وفي ضوء النهار، أمّا أن تُفرض علينا قبيل النهاية فشيء خارق وغير إنسانيّ يُراد به القضاء علينا. وإلى ذلك فهي نوع من الوثبات المتلاحقة في صورة جَرْي متقارب الخطو يقتضي استخراج البطّاريّات من جيوبنا الخلفيّة لتنير لنا الطريق خشية أن نتعثّر في نقرة أو نرتطم بحجر، فكيف يُتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل، وتعبنا الأليم؟!. ولا فرصة للتمرّد فليس أمام الهارب من الطابور في ذلك المكان إلّا الضياع في الصحراء والظلام، فلا مفرّ من الانصياع والإذعان. ومضى القائد يثب، فاندفعت دقّات الطبول في تلاحُق سريع. وشرعنا في الحركة السريعة. جرّبنا أن نمارسها مع الاحتفاظ بأحمالنا ومع استغنائنا عن البطّاريّات ولكن بدا ذلك ضربًا من المحال. لا مفرّ من التخلّص من أحمالنا العزيزة، لا مفرّ. حتّى لو تعرّضنا للكآبة والقرف والحرمان، لا مفرّ. وتخلّصنا من البطّيخ والسلال، تركناها لُقًى في الصحراء للحشرات والهوامّ. وأخذنا نَثِبُ بسيقان متهافتة وعزائم خائرة وقلوب باكية. مضينا يلفّنا الظلام على ضوء البطّاريّات المتحرّكة في أيدينا كأنّنا نجوم متداعية تبعث بإشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائيّ. وتذكّرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الأناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء، تذكّرنا ذلك كلّه بذهول، ونحن نتقدّم شبه عرايا منهوكي القوى إلى معسكرنا الرابض في أعماق الخلاء. وتقدّمنا كما قُدّر علينا، وحتّى الأسف لم يعد يجدي، ولم نهتمّ كذلك بما إذا كان ينتظرنا عقاب جديد أم سيكتفي بما حلّ بنا. وتاقت أنفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الآلام. وأخذت دقّات الطبول تبطئ رويدًا رويدًا إيذانًا بتغيير الحركة وتقارُب المعسكر. وعدنا تدريجيًّا إلى سيرنا العاديّ، ومن شدّة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فغاص كلّ في وحدته. وما ندري إلّا ونحن ندخل في الممرّ الطويل الضيّق فتفعم أنوفنا روائح الكلس وعطن البول... وفي الفناء امتدّت تكويناتنا الرباعيّة لتصنع طابورًا واحدًا، فوقفنا متصبّرين لتلقّي التقوّض والانهيار. وصمت قائدنا مليًّا، ربّما ليتمّ تعذيبه لنا، ثمّ قال بصوت هادئ مليء بالنذر:

ـ انتهت رحلتنا، وغدًا يجمعنا الحساب، أمّا الآن فتناولوا عشاءكم ثمّ أخلدوا للنوم...

ولم يهمّنا إلّا النوم...

أجل، ليكن الآن نوم، وليكن في الغد حساب.

العريس

عند تلك النقطة من الحديث مال نحوي حتّى شعرت بأنفاسه تنداح فوق صدغي وقال:

ـ اعزم وتزوّج.

استجبت لاقتراحه، كنت في الواقع أتلهّف عليه، بتّ مؤمنًا بأنّ الزواج هو المغامرة الوحيدة القيّمة الباقية لي في الحياة.

قلت:

ـ فكرة طيّبة.

ـ وماذا تنتظر؟

ـ أنتظر العروس بنت الحلال.

ـ هل بحثت عنها بجدّ؟

ـ لا وقت عندي للبحث.

فقال واهتمامه بالموضوع يزداد بقوّة:

ـ يوجد حلّ لكلّ موقف معقّد، ما هي شروطك؟

ـ عروس مناسبة، هذا ما أريد.

ـ ستّ بيت أم عاملة؟

ـ ستّ البيت مفيدة والعاملة لها مزاياها غير المنكورة.

ـ العاملة تملك إيرادًا؟

ـ الفقيرة مقبولة عندي وذات الإيراد مقبولة أيضًا.

ـ لك مواصفات خاصّة في الجمال؟

ـ حسبي أن تكونَ مقبولة.

ـ شروطك يسيرة، أنت تريد امرأة حسنة المعاشرة.

ـ بلا زيادة.

فقال بثقة:

ـ طلبك موجود، هل تعرف أسرة ميري؟، عابد ميري؟ كريمته هي مَن أرشّحها لك.

وقادني ذات يوم إلى أسرة عابد ميري فقدّمني لهم، الأب والأمّ والفتاة. والحقّ أنّي غادرت بيتهم عاشقًا أو قريبًا من ذٰلك، تبدّت لي الفتاة مثالًا للرزانة والأنوثة والكمال البيتيّ، أحببت وقار الأب وأبّهة الأمّ. وفي ذٰلك اللقاء تمّ الاتّفاق الأوّليّ وهو ما يقابل الترشيح للوظيفة في اصطلاحاتنا الحكوميّة، وبقي الأهمّ وهو مسوّغات التعيين وتقرير مكتب الأمن. ومن ناحيتي تحرّيت عنهم فجاءتني تقارير متناقضة كالمتوقّع، قيل لي:

ـ نِعْم التوفيق، أسرة ولا كلّ الأُسَر، ضمنتَ الطمأنينة والسلام في الحياة والموت.

وحذّرني آخر قائلًا:

ـ لا تغرّنّك المظاهر، ستخنقك أغلال العبوديّة.

وسمعت حكايات عن جنون بعض أفراد الأسرة وانتحار آخرين ولٰكن لم يوهن ذٰلك من عزمي، تحصّنت بخبرتي الطويلة بالحياة والبشر، وأسكرتني نشوة متحفّزة للمغامرة ودقّ أبواب المجهول، وقلت لنفسي إنّ الحياة نفسها شبيهة بهٰذا الذي يقال، تلقّيناها وهي مثال للأمان حتّى بعد الموت ثمّ تكشّفت لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمة وما زلنا نعشقها ونتعلّق بأذيالها حتّى الموت.

وفي الوقت نفسه تعقّبتني التحرّيات تغوص في أعماق ذاتي وتاريخي، فساورني قلق غير قليل، ورجوت أن يسود التسامح وينتصر في النهاية. وجاءني صديقي الوسيط وقال لي:

ـ لم أعرف أسرار صحّتك إلّا هٰذه الأيّام.

فدهشت وتساءلت:

ـ حتّى عن الصحّة يتحرّون؟

ـ طبعًا، كثيرون لا تزكّيهم في الختام إلّا صحّتهم القويّة!

ـ إنّي بحمد الله أتمتّع بصحّة جيّدة.

ـ ولٰكن توجد رصاصة مستقرّة من قديم في صدرك تحت الترقوة!

فضحكت منتشيًا بالذكريات وقلت:

ـ ذٰلك تاريخ قديم.

ـ ولٰكن كيف نفذت إلى صدرك؟

فقلت بعد تردّد:

ـ في مظاهرة وطنيّة.

ـ تلك حجّة كلّ مصاب برصاصة قديمة.

ـ أيمكن أن يشكّوا في ذٰلك؟

ـ العجوز أصبح يشكّ في الثورة نفسها مع أنّه كان من معاصريها، هو اليوم يقول إنّه لم تندلع ثورة ولم يُطلق رصاص ولم يستشهد أحد.

ـ هٰذا جنون رسميّ!

فابتسم الصديق قائلًا:

ـ على أيّ حال فمن حسن الحظّ أنّه قيل له ـ عابد ميري ـ إنّك أُصبت بها في ملهى للغناء والرقص!

ـ أتعدّ ذٰلك من حسن الحظّ؟

ـ نسبيًّا، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أمّا التورّط في شئون السياسة فيعرّض الإنسان لأخطار مجهولة وبالتالي تتعرّض لها أسرته، على أنّني دافعت عنك في هٰذا الشأن.

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت إنّك لم تنتمِ لحزب، ولا تنتمي لرأي. وإنّك مخلص للدولة، لم تكن من الليبراليّين ولا الشيوعيّين ولا الإخوان وذٰلك بلا شكّ يزكّيك كزوج مأمون المستقبل!

فقلت بانقباض:

ـ ولٰكن من الظلم أن يقال إنّني تعرّضت للقتل في ملهى للرقص!

ـ ما علينا، وما حكاية خوفك من الصراصير؟

فضحكت عاليًا وقلت:

ـ حتّى هٰذا!

ـ قيل إنّك تهدر وقتًا ثمينًا في رشّ المطبخ والحمّام

والحجرات، وإنّ منظر صرصور خليق بأن يفزعك لدرجة الصراخ، حتّى ولو كان من النوع الألمانيّ الصغير الرشيق!

ـ أهٰكذا تصفه؟

ـ الأمر تافه، يبدو تافهًا، ولٰكن ماذا يعنيه؟، هٰذه هي المسألة، ويقال أكثر من ذٰلك إنّك تتوهّم أنّ البلد ستتحسّن أحواله كثيرًا إذا نجحت في إبادة الصراصير.

غضبت ولا شكّ وأنا أتابعه ثمّ سألته بازدراء:

ـ أيهتمّون حقًّا في بيت عابد ميري بتلك السخافات؟

ـ يا عزيزي إنّهم يحترمون بعض الذكريات المتعلّقة بالصراصير.

ـ كلّا!

ـ هو الحقّ، كانت لهم جدّة تؤمن بأنّ الصراصير تحمل بعض أسرار الوجود.

فقلت ساخرًا:

ـ إذن نحاول احترام الصراصير حبًّا في آل ميري.

ورحت أفكّر ـ عقب انفرادي بنفسي ـ في طريق الزواج المعقّد وهوس التحرّيات التي تسبقه، كأنّ الناس يطمحون إلى الظفر بالتوافق المنشود بين الزوجين كاملًا غير منقوص، جاهزًا بلا عناء التجربة، قبل خوض الحياة الزوجيّة، متناسين قدرة الإنسان الخارقة على التكيّف مع تحدّيات الواقع، فالإنسان الذي عاشر عصور الصيد والرعي والزراعة والقحط والجليد فتغلّب على عناء المواجهة وحلّ التناقضات القاسية وحقّق ذاته على الوجه المقبول الذي قرّ له البقاء في الحياة، ذٰلك الإنسان قادر بلا شكّ على التكيّف مع عروسه الجديدة مهما يكن من تنافر ماضيه وماضيها. وفكّرتُ أيضًا فيما كان يؤخذ عليّ في الماضي من عدم الانتماء لحزب من الأحزاب، وما رُميت به بسبب ذٰلك من تُهم البلادة وقلّة التربية الوطنيّة وغلبة العبث والتفاهة والأنانيّة وكيف انقلب ذٰلك إلى نقطة قوّة تزكّيني في غمار التحرّيات التي تنهال عليّ منقّبة عن المستور من خطاياي!

* * *

وجاءني صديقي الوسيط بعد ذٰلك بأسبوعين فتفحّصته بقلق وقلت:

ـ طبعًا ما زالت التحرّيات جارية؟

فضحك باقتضاب وقال:

ـ الحديث كان عن السلوك الشخصيّ.

ـ هو على أيّ حال من ذيول الماضي الذي قرّرت تغييره من جذوره.

ـ أنا نفسي قلت ذٰلك، ولٰكنّ الماضي يتمثّل لبعض الناس وكأنّه الحقيقة الوحيدة الراسخة.

ـ يا له من موقف سخيف حقًّا!

فقال برقّة ليخفّف من وقع حمولته:

ـ كلام قيل عن القمار.

فهتفت من فوري:

ـ كلّا، لست بطبعي مقامرًا، لعبت مرّات معدودات ثمّ لم أعد إليه.

ـ والخمر؟

ـ اسمع، صدّقني، دائمًا كنت وما زلت معتدلًا، لم أفقد الوعي إلّا مرّة واحدة.

ـ آل ميري لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه.

ـ لم تكن ثمّة عواقب وخيمة.

ـ عابد ميري نفسه يشرب، وهو يغنّي إذا شرب، ولٰكن قيل له إنّك طوّلت لسانك مرّة على الاستبداد وأنت فاقد الوعي!

ـ قلت لك إنّني لم أفقد الوعي إلّا مرّة واحدة.

ـ ربّما وقع ذٰلك في تلك المرّة، وعابد ميري يخاف أن يتكرّر ذٰلك بعد أن تكون قد صرت زوجًا وأبًا؟

فقلت بحدّة:

ـ لا أساس لخوفه صدّقني، ثمّ لماذا تذكر تلك الزلّة وتنسى مجاملاتي الطويلة للاستبداد وأنا في تمام الوعي؟!

ـ الموضوع قابل للمناقشة فلنتركه إلى حين، ولٰكن ما الرأي في ولعك بنسوان شارع محمّد عليّ؟

فقلت وكلّ شيء يتجهّمني:

ـ ماضي أيّ رجل لا يخلو من عبث مثل ذٰلك.

ـ عابد ميري يسلّم بالمبدإ ولٰكنّه يحتجّ على الذوق، وقال إن يكن ذا ولع خاصّ بأولٰئك النسوة فكيف

أتصوّر أنّه يمكن أن ينسجم مع فتاة كريمة مثل ابنتي!

ـ وهل يوجد فارق حقيقيّ بين كريمته وبين نساء محمّد عليّ؟

فضحك صديقي وقال:

ـ آه لو سمعك تقول ذٰلك.

وساد صمت يغلّفه الأسى، وارتسم الإشفاق على وجه صديقي، ولكنّي أشرت إليه أن يواصل، فقال:

ـ يتحدّثون عن شقّة مفروشة تملكها بناء وأثاثًا!

ـ وفي نيّتي أن أقيم فيها بعد الزواج، ماذا في ذٰلك؟

ـ الشقّة لا تهمّ ولٰكن مَن دأبتَ على استقبالهم فيها!

ـ ماذا يقصد الأوغاد؟

ـ ها أنت تغضب فيحسن بي أن أسكت.

ـ هاتِ ما عندك، وإن أردت جوابًا فإنّي كنت أستضيف بها نخبة من الأصدقاء.

ـ أصدقاء من نوع خاصّ، من إخواننا العرب الأثرياء.

ـ استضفتهم بصفتهم أصدقاء لا أثرياء وقد توطّدت علاقتي بهم مذ أيّام إعارتي للعمل في بلادهم.

ـ أمّا أنا فأصدّقك ولٰكنّك تعلم كيف تترجّم تلك العلاقات البريئة على ألسنة السوء!

فاستشطت غضبًا وهتفت:

ـ للصبر حدود.

ـ لا تغضب فذاك امتحان يتعرّض له كلّ طالب زواج.

وعجبت ـ وحقّ لي أن أعجب ـ من تشدُّد الناس في تحرّياتهم. وعجبت أكثر بالنظر إلى أنّنا نعايش فترة من الانحلال والفساد بات يُضرب بها المثل. فلِمَ يتشدّد الناس في تحرّياتهم كلّ ذٰلك التشدّد، وهل يعتقد الآباء أنّه يمكن أن ينتقوا أزواجًا لبناتهم من منطقة مجهولة تقع خارج الزمن والتاريخ؟. وهل عشّ الزوجيّة أهمّ في حياتنا العامّة من الوظيفة؟. وألا يضجّ الناس بالشكوى ليل نهار من الخدمات المبتورة ـ وضمنًا ـ من المسئولين عنها؟، فكيف تزوّج أولٰئك القادة وكيف تفادوا من مطاردة التحرّيات؟!.

ومضى حماسي للزواج يفتر، وندمت على تعريض نفسي لألسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء.

* * *

وبعد مضيّ ثلاثة أسابيع رجع إليّ صديقي فبادرته من فوري:

ـ لن أستمرّ.

فقال بحدّة:

ـ إنّي أحتقر الضعف، اصمد حتّى النهاية، ولا تهزّ ثقتك الكاملة بنفسك.

ـ سأخفق في الزواج وأبوء بسوء السمعة.

ـ اعتبرني لم أسمع شيئًا، واسمع أنت ما قيل عن عملك!

وأثار حبّ استطلاعي بقوّة فلم يسعني تجاهله، قال:

ـ شهد لك كثيرون بالتفاني في العمل.

فلم أعلّق وانتظرت متوقّعًا ما لا يسرّ.

ـ ولٰكن قيل إنّك تحبّ السلطة وتركيز كلّ نشاطك في يديك ثمّ تنطلق شاكيًا من عدم تعاون الموظّفين معك!

ـ لن أناقش، ولٰكن ما علاقة ذٰلك بلياقتي للحياة الزوجيّة؟

ـ كلّ سلوك مهما بدا عرضيًّا فله دلالته.

ـ استمرّ.

ـ وقيل كلام عن تحقيق أُجري معك بخصوص بناء مجمّع!

ـ وماذا كانت نتيجته؟، التحقيق مجرّد إجراء فلا هو خير ولا هو شرّ، وها هم يرونني مستمرًّا في عملي، بل ترقّيت مرّتين بعد التحقيق، فما حكمة التنديد بي بسببه؟

ـ لك حقّ.

ـ إذن فلنعتبر تلك النقطة منتهية.

ـ ولٰكن قيل أيضًا إنّك هدّدت بجرّ آخرين أكبر منك معك فحفظ التحقيق!

ـ عليهم اللعنة!

ـ إنّهم يستحقّونها.

ـ أتحدّاهم أن يثبتوا ذٰلك!

ـ عليهم اللعنة، ولم يقفوا عند ذٰلك، بل جعلوا يتساءلون، كيف يعيش حياته المرفّهة؟، كيف ملك الشقّة المفروشة؟، والسيّارة؟، من أين له ذٰلك؟

فكوّرت قبضتي غضبًا وقلت:

ـ يتجاهلون ما ورثته عن والدي، كما يتجاهلون حقيقة أخرى وهي أنّ بعض مؤلّفاتي المدرسيّة مقرّرة في مدارس البلاد العربيّة. . ، فكلّ مصدر لإيراد عندي واضح وشريف.

توقّعت أن يتكلّم عن الذين قرّروا كتبي وعن علاقتهم بالأصدقاء الذين أستقبلهم في الشقّة المفروشة ولٰكنّه لم يفعل، كأنّما نكص حيال درجة الحرارة التي ارتفع إليها حنقي، بَيْدَ أنّه حدجني بنظرة قصيرة قرأت فيها ما تورّع عن ترديده. وجعل يضحك ويقول:

ـ الرجل المخرّف عابد ميري يميل إلى تصديق الأكاذيب، وفي آخر لقاء قال لي إنّ سوء الظنّ من الفطنة وإنّي بتّ أعتقد أنّ ذٰلك العريس هو المسئول عن ٥ يونيه!

فصحت في ذهول:

ـ إذن فإنّي المسئول عن ٥ يونيه!

وغادرت المكان مسرعًا لا أكاد أرى طريقي من الغضب. ماذا يعرف المخرّف عن ٥ يونيه؟. إنّي مع التسليم بكافّة جرائمي الخلقيّة أعَدّ أو يجب أن أُعَدّ من أشرف الرجال. وهل أغراني بالخطايا إلّا الاقتداء بالآخرين؟!. وكنت في الوقت نفسه ضحيّة، أجل ضحيّة لرؤسائي الذين ضربوا لي أسوأ مثل، وها أنا أُحرَم من جنّة الاستقرار العائلي كأنّني المجرم الوحيد!.

وقرّرت العدول عن فكرة الزواج نهائيًّا.

وقلت لنفسي إنّه ليس بالمرأة وحدها يحيا الإنسان.

العُري وَالغَضَب

وندمت أشدّ الندم على تعريض نفسي للزوبعة التي عصفت بها.

***

وكنت جالسًا بمكاني المختار عندما لمحت صديقي قادمًا من بعيد. ردّدت في نفسي الكلام الفظّ الحاسم الذي سأجابهه به. وقرّرت أن أعلن تمرّدي على الزواج الى الأبد.

وبادرني الصديق قبل التحيّة، قائلًا: عابد ميري يحيّيك، ويرجو أن تحدّد موعدًا لإعلان الخطوبة في أقرب وقت ممكن!

ناعمة مستكينة، مهذّبة غارقة في الطمأنينة، ملهمة لأحلام البيت السعيد، تنتشر كالشذى في أعماقه فتشكّل بضعفها المنساب طاقة مسيطرة بعون الإغراء والرغبات الدفينة. وكانت بمجلسها أمامه في الترام صورة مجسّدة لأمنية عذبة غامضة، منعشة للروح، مبدعة للألفة الحميمة، فقال لنفسه إنّ هٰذا هو ما أبحث عنه. والتقت عيناها في حركة عفويّة بعينيه المركّزتين فانتبهت من أحلامها واعتدلت في جلستها ونحّت وجهها مدارية ابتسامة خفيفة جدًّا لإدراكها بأنّها كانت موضع نهم والتهام. ودفعته الابتسامة إلى اتّخاذ قرار جريء بتأجيل زيارته للمحامي ـ رغم دقّة المرحلة التي تمرّ بها القضيّة ـ إذا دعت إلى ذٰلك فرصة طيّبة. ولم يغادر مجلسه في محطّة «المحامي»، لبث ينتظر حظّه المجهول، ولٰكنّه تذكّر على رغمه المحن التي عاناها ـ هو وأسرته من قبله ـ ما يقارب ربع القرن والتي احتوتها في النهاية القضيّة، فلم يمضِ قراره بلا قلق، ولٰكن هل تقوم القيامة إذا تأجّلت الزيارة أسبوعًا؟. وانقبض قلبه وهو يتخيّل محاميه في غضبه لتخلّفه عن الميعاد دون اعتذار، فإنّه محامٍ صارم، يحتقر المزاج ولا يحنو على الضعف البشريّ.

ولّما رجع بوعيه إلى الجالسة قبالته ضبطها تنظر إليه في دهشة فأدرك من توّه أنّ انفعالاته قد تُرجمت إلى تشنّجات في قسمات الوجه وعضلاته وربّما تعدّت ذٰلك إلى اليدين، أجل فإنّ ذٰلك ممّا يلاحَظ عليه أحيانًا، ولٰكنّه ابتسم إليها بجرأة لا تعوزه في أمثال هٰذه المواقف فأحنت رأسها باسمة، عند ذٰلك حلّ الرضى بصدره واطمأنّ إلى أنّ تضحيته لن تضيع في الهواء. وقامت فقام وراءها بتلقائيّة وبلا أدنى ارتباك وبعد ثوانٍ كانا يترامقان مواجهة على الطوار على حين امتدّ وراءهما

ميدان الضاحية شبه خال وقد احمرّ قرص الشمس إيذانًا بالمغيب. تمتم:

ـ فرصة سعيدة.

فمضت إلى الطريق الوسطى دون أن تجيبه ولكنّها دعته بأسلوبها المشجّع الصامت للّحاق بها. ومشى إلى جانبها فتقبّلت ذلك دون اعتراض فعاد يقول:

ـ فرصة سعيدة...

كان الطريق سكنيًا بلا دكاكين، به قلّة من المارّة، وكثرة من السكّان تتواجد في الحدائق، ولّما لم يتبيّن لها هدفًا قريبًا فقد قال:

ـ يوجد قريبًا من هنا فرع للفردوس.

ولكنّها واصلت السير فسار إلى جانبها وهو ينظر فيما أمامه متسائلًا. ووجدها تتّجه نحو بيت صغير من دور واحد فاقتحمته دهشة وتلقّى ردّ فعل حادّ وأليم. صدّق ما يرى بصعوبة واحتجاج وتبرّم وقال لنفسه: «حقًّا إنّه لزمان زالت فيه الفوارق بين الأنواع». وبتبدّد الحلم لم تبقَ إلّا الحقيقة القاسية المبتذلة، فشعر بتأنيب لتفويته ميعاده الهامّ بشأن القضيّة، وتبعها إلى الداخل بلا حماس يُذكر. ووجد البيت صغيرًا حقًّا، يتكوّن من صالة طويلة وحجرة وحيدة في النهاية. حجرة نوم آية في البساطة أو في الفقر، بها فراش ومشجب ومقعد وحيد، وحتّى الفراش اقتصر تجهيزه على حشيّة ووسادة بلا غطاء ولا ملاءة، وانبسطت أرض الحجرة الخشبيّة بلا سجّادة ولا كليم ولا حصيرة. ابتسم بفتور وهو يتذكّر أحلامه المنتشية وقال إنّه لم يبقَ ما يستحقّ الاهتمام إلّا المرأة نفسها، الجميلة ذات المظهر الخدّاع. ورجع المحامي يلحّ على وجدانه فسألها وهو يعلم بالجواب مسبقًا:

ـ يوجد تليفون؟

فهزّت رأسًا بالنفي وهي شارعة في خلع ثيابها فقال مداعبًا يأسه:

ـ صحّتك...

فنظرت نحوه باهتمام فرفع كأسًا متخيّلة في الهواء ثمّ رشف منها رشفة فابتسمت وواصلت خلع ثيابها في رسوخ المحترفات حتّى تبدّى جسدها عاريًا جميلًا محايدًا، ونظرت نحوه كأنّما تحثّه على الاقتداء بها، فأذعن لدعائها الصامت وهو ينادي بإصرار حماسه الهارب.

* * *

وغادرت الحجرة فأشعل سيجارة. تابع الدخان بفتور وأسى. عاد يفكّر بالقضيّة، وبالنقاط التي عنّ له أن يناقشها مع المحامي. لو وجد تليفونًا لانتحل عذرًا للرجل واتّفق معه على موعد آخر. ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنّه سيجده منشغلًا بموعد آخر. أو يجده قد غادر المكتب. وقد عاش زهرة عمره ولا أمل له إلّا كسب القضيّة ولكنّ الله وحده يعلم بما عانت أعصابه طيلة تلك الفترة الغالية من العمر.

ـ لا تلجأ إلى المحاكم. المحاكم حبالها طويلة. وهيهات أن تظفر في ساحتها بحاجتك.

ـ وما عسى أن أفعل؟

ـ كما كان يفعل أجدادك، بل كما يفعل خصومك...

ـ ولكنّ الزمن تغيّر.

ـ الزمن لا يتغيّر، أنت الذي تغيّرت...

ـ إنّي رجل متعلّم.

ـ عليه العوض!

اليوم لا يدري إن كان أصاب أم أخطأ، ولكنّه وقع في أسر القضيّة، فوكّل المحامي، وتبارى المحامون، وتكلّم الشهود، ولم يعد في الإمكان تغيير الخطّة. وها هو عارٍ ملقى على فراش عارٍ على حين ينتظر المحامي ويتعجّب!. ولكن ألم تغب الفتاة في الحمّام أكثر ممّا يجب؟. أيّ مظهر خدّاع. وأيّ آمال قد تبدّدت. يبدو أنّ الدنيا تتغيّر بأسرع ممّا يدرك. وقد ينزلق في هاوية مخيفة بسبب رغبته الملحّة في الزواج والاستقرار. وفضلًا عن ذلك فعليه أن يؤجّل مشروع الزواج حتّى يتمّ الفصل في القضية، وإلّا فما جدوى أن يتزوّج اليوم ثمّ يشهر إفلاسه غدًا؟!.

ـ هل تلجأ للقضاء لأنّك متعلّم حقًّا أو لأنّك ضعيف؟

ـ إنّك تتكلّم يا عمّي بلغة هيروغليفيّة...

ـ ابصق على ذقني إن نجحت في ذلك السبيل مقاصدك.

ـ نحن نتفاهم بلغة حيّة جديدة.

لا بدّ للحقّ أن ينتصر ولو طال الزمن، ولٰكن ما بال المرأة قد تأخّرت؟، ماذا تفعل في الحمّام؟. وبرم بالانتظار فغادر الفراش، فتح الباب نصف فتحة، أخرج رأسه فرأى الصالة غارقة في الظلام إلّا شعاعًا يترامى من منعطف جانبيّ خمّن أنّه الحمّام. تنحنح فلم يردّ أحد. صفّق فلم يردّ أحد. سار على أطراف أصابعه نحو الضوء حتّى وجد نفسه في الحمّام ولٰكنّه وجده خاليًا. أدرك أنّها اغتسلت ثمّ ذهبت إلى مكان ما ـ لعلّه المطبخ ـ فقرّر أن يأخذ دشًّا. وتحت سيال الماء المتدفّق انتعشت روحه وخفّ شعوره بالذنب حيال المحامي. أجل سيرميه بالإهمال فهٰذا دأبه كلّما قعد به عن الاتّصال به عذر، ومع ذٰلك فعندما واظب على ملاحقته في الشهر الماضي ضاق به وقال له:

ـ يلزمك أعصاب من حديد لكي تواجه حياة العصر...

وقال له أيضًا مازحًا:

ـ إنّي أتوقّع أن تجيئني المرّة القادمة حافي القدمين مرسل شعر اللحية والرأس مسطولًا كما يفعل شباب العالم الحرّ!

والمسألة في حقيقتها أنّ القضيّة هي حياته أمّا بالنسبة للمحامي فهي النشاط رقم كذا في جدول أعماله الحافل بأمور لا نهائيّة ـ وهو ـ المحامي ـ رغم رسوخه في العلم وقدرته الفائقة على الإنجاز، ورغم عطفه الشديد عليه، فإنّه لا يكنّ له احترامًا كافيًا. وفي ساعة صفاء وهما يتناولان الغداء معًا قال له:

ـ لولا اندفاعك الجنونيّ لما كان للقضيّة وجود أصلًا...

فقال له بإصرار:

ـ إنّها مسألة كرامة...

ـ ولٰكن حتّى الاندفاع الجنونيّ يجب أن يقوم على أساس من العقل!

ـ الحقيقة أنّك لا تفهمني...

ـ حقًّا! أأنت لغز؟

ـ إنّي أحترم أمورًا تعتبرها أنت بكلّ بساطة خرافات وأباطيل...

ـ لقد تأخّرت يومًا عن موعد هامّ لتشهد صلاة العيد فما معنى ذٰلك؟

ـ قصصت عليك عشرات القصص ولٰكنّك لا تصدّق.

ـ حقًّا؟... فماذا يعني جريك وراء النسوان وتقلّبك في الحانات؟

عند ذاك قال بانفعال:

ـ أأنت محامٍ أم مربٍّ؟!

وغادر الحمّام عائدًا إلى الحجرة وهو يضمر لها ـ المرأة ـ عتابًا على طول اختفائها ولٰكنّها لم تكن قد رجعت بعد. وذرع الحجرة ذهابًا وجيئة ثمّ قرّر أن يرتدي ملابسه. اتّجه نحو المشجب ولٰكنّه لم يجد لملابسه أثرًا. ذهل، أجال بصره في أنحاء الغرفة ولٰكنّه لم يعثر على شيء. أيّة مداعبة سخيفة.

ـ ربّاه!

ندّت عنه في ذهول أشدّ عندما تبيّن له أيضًا أنّ ملابس المرأة غير موجودة. تفحّص أنحاء الحجرة بغضب، نظر أسفل السرير، مضى نحو الباب وصفّق بشدّة. ولم يكن عرف لها اسمًا فصاح:

ـ يا ستّ!

وبنبرة أشدّ:

ـ يا هوه.

واندفع يفتّش الشقّة الصغيرة، الحمّام مرّة أخرى والمطبخ ولٰكنّه لم يجد أثرًا لإنسان. ومضى نحو باب الشقّة فوجده مغلقًا بإحكام فرجع إلى الحجرة وهو يتميّز غيظًا وحنقًا. واضح أنّ المرأة قد ذهبت. من السهل تصوّر أنّها كانت مختفية في ظلام الصالة عندما دخل الحمّام، ثمّ ارتدت ملابسها بسرعة وأخذت ملابسه وذهبت. ما معنى ذٰلك؟. هل أرادت سرقته مع منعه من اللحاق بها؟. افتراض غير مُطَمْئِن، وثمّة سؤال آخر، بيت مَن هٰذا؟... وأيّ علاقة للمرأة به، وكيف تتركه عاريًا في هٰذه الشقّة الجرداء؟!.

وشعر بالعجز والقهر والضياع اللانهائيّ. لن يرجع إلى ما كان عليه، ذٰلك الرجل المحترم. إنّه يودّع حياة يعرفها ليستقبل حياة مجهولة مدمّرة. ولٰكنّه لا يريد أن يصدّق، لعلّه مزاح ثقيل سخيف ليس إلّا...

ولٰكنّ الوقت يمرّ بلا مبالاة. وفجأة ضرب بيده على جبينه وهتف:

ـ مكيدة، إنّها لمكيدة مجرمة!

لا تقع هٰذه الأمور مصادفة. إنّ أيدي خصومه تتراءى له وهي تدبّر بخبث وإحكام رامية في النهاية إلى إفشال القضيّة. يتذكّر الآن أنّه لمح المرأة في مشرب الشاي قبل أن يغادره ليستقلّ الترام. وأنّها جاءت في أعقابه لتجلس أمامه. وسألته عن الساعة لتضبط ساعتها وفي الحقيقة لتلفت نظره إليها. وأنّها لم تكن ملاكًا كما تصوّر ـ كيف تصوّر ذٰلك ـ فقد فرّجت بين ساقيها العاريتين لحظة ثمّ ضمّتهما بسرعة وحياء مصطنع فظنّها حركة بريئة طاهرة، ثمّ استسلمت لأحلام مجهولة في استرخاء ناعم، فكان بوسعه أن يدرك حقيقتها، ولٰكنّه ثمل بخياله الجامح ورغباته الدفينة فرأى ما لا وجود له وبنى عليه العلالي واندلق كغرّ أبله، لقد أحاط خصومه بتحرّكاته وأهوائه فرسموا خطّة محكمة وأوقعوه بسهولة مخجلة ثمّ تركوه عاريًا في مسكن مجهول ليتوقّع قدرًا مجهولًا. ويقتضي ذٰلك المنطق السليم القاسي فعليه أن ينتظر ضربة قاضية في المصيدة.

ـ ما العمل؟

كيف يفرّ قبل أن يدهمه الخطر؟. وجال في المسكن مرّة ومرّة بلا جدوى على الإطلاق. ليس إغلاق الباب بمشكلة فبوسعه أن يقفز من النافذة ولٰكن كيف يواجه الطريق عاريًا، هٰذه هي المشكلة. وأدرك أنّ خلوّ السرير من الغطاء والملاءة لم يكن عن فقر أو مصادفة ولٰكنّه ضمن الخطّة التي رُسمت لحرمانه من أيّ شيء يستر به جسده. وقف وراء النافذة ينظر من خصاصها إلى الطريق المضيء الذي لا يخلو لحظة من عابر، كيف يمكنه أن يمضي فيه عاريًا؟، وماذا يفعل عندما يبلغ الشوارع المزدحمة بفرض أن أمكن عبور هٰذا الشارع دون حادث؟!. وسواء أبقي أم انطلق متخطّيًا حدود العقل فسوف يقع تحت طائلة إحدى تهمتين خطيرتين، السطو أو الجنون، وكلتاهما خليقتان بزلزلة أركان القضيّة، فما العمل؟. ولم يشعر في وقت مضى بما يشعر به الآن بالحاجة الماسّة إلى مشاورة محاميه لعلّه يهديه إلى منفذ في عالم القوانين المتشعّب الذي يجهله كلّ الجهل. قال له ذات مرّة:

ـ احرص على الجدّيّة والاستقامة فإنّ هفوة ماسّة بسمعتك ستبدّد مجهودي هباء.

فسأله ضاحكًا:

ـ أتطالبني بالتقشّف حتّى يصدر الحكم؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ ومتى تراه يصدر في تقديرك؟

ـ آسف على أنّك لا تحترم التقشّف وبخاصّة في ظروفك الراهنة التعيسة!

واشتعل غضبًا فهمّ بتعنيف الرجل. أكثر من مرّة همّ بتعنيفه ولٰكنّه كان يتذكّر أنّه لم يدفع له مليّمًا واحدًا سوى رسوم التوكيل، وأنّ الأتعاب مؤجّلة ومنوطة بكسب القضيّة، فيرجع إلى عقله ويكظم غيظه ويسكت. والحقّ أنّه لا يحبّ التقشّف، بل إنّه يضيق بمحاميه لتقشّفه المعروف عنه، وأيّ قيمة للحياة بلا طعام لذيذ وشراب هنيء وعناق حارّ ومقام وثير؟!. ذٰلك جميل حقًّا ولٰكن تحت شرط ألّا يجد نفسه عاريًا في بيت غريب متوقّعًا بين لحظة وأخرى أن تدهمه ضربة قاضية.

وتساءل عمّا يُراد به. هل يتركونه حتّى يضطرّه الجوع إلى الخروج؟. هل يجيئون ليخيّروه بين التنازل عن القضيّة وبين استدعاء الشرطة لضبطه بالحال التي هو عليها؟

هٰذا أو ذاك أو غيرهما من الاحتمالات، كلّها طريق واحدة تفضي إلى الضياع.

وغلى دمه.

كلّ شيء محتمل إلّا تخيّل ابتسامة الشماتة فوق شواربهم الغليظة.

وسمع صوتًا فهرع إلى النافذة فرأى سيّارة تقف أمام البيت.

ـ كما توقّعت قد جاءوا...

واندفع دمه في الغليان. ومن شدّة القهر جنّ غضبه. واكتسح الغضب الخوف فلم تبقَ في صدره إلّا ألسنته المشتعلة. كان لعبة بأيديهم طيلة الوقت ولٰكنّه رفض أن يستمرّ لعبة وأضاء المصباح فتبدّى عاريًا،

متجرّدًا من الخجل والخوف. ها هي الحركة تدبّ خارج الحجرة. ستطالعه نظرات باردة وبسمات ساخرة فليبتسم وليسخر مثلهم. سيقول مقدّمهم وهو يصطنع دهشة مقيتة:

ـ ماذا نرى؟

فيقول بهدوء تامّ:

ـ طال انتظاري لكم!

ـ هٰكذا عاريًا!

ـ كما ترون!

وليكن ما يكون ولٰكنّ اللعبة لن تستمرّ.

واقتربت الأقدام ثقيلة وتطايرت الضحكات.

وانتظر ينظر في هدوء وتصميم وعناد.

غير مبالٍ بالعواقب.

الجريمة

تلاشى الهدوء في رحاب التاريخ، تغيّرت أشياء كثيرة، برزت معالم جديدة، ولٰكن بقي الحيّ الشرقيّ يزخر بالأزقّة والحواري والبيوت البالية، يقابله الحيّ الغربيّ بفيلّاته الكلاسيكيّة وعمائره الأنيقة الحديثة، هٰكذا وَجَدْت الضاحية التي وُلِدت فيها بعد غيبة دامت ربع قرن. بهرني ميدان المحطّة باتّساعه ومبانيه الحديثة وتمثال الفلّاحة الناهضة، والشارع العريض الطويل الغائص في أعماق الضاحية حتّى المسلّة القائمة في الحديقة الكبرى، كما بهرتني المصانع الجديدة بضخامتها ومداخنها النفّاثة وضجيج آلاتها.

ورغبة منّي في الاختلاط بالناس وتوثيق علاقتي بهم قرّرت الإقامة في الضاحية فذهبت إلى مكتب سمسار للشقق وجلست في الانتظار بين جمع من الرجال والنساء. جلست بوجه بسّام مشحوذ الهمّة للاستجابة لأيّ بادرة ودودة ولٰكنّهم كانوا منهمكين في الحديث:

ـ ألم يُستدَلّ على شخصيّة صاحبة الجثّة؟

ـ كلّا، وُجدت مدفونة من سنين ومحترقة تمامًا...

ـ كم سنة؟

ـ أربع أو خمس سنوات، هٰذا ما كُتب في الخبر.

ـ والقاتل؟

ـ لم يُعرف بعد، والأرجح أنّهم عصابة. فالقتل والإحراق والدفن تحتاج إلى أكثر من مجرم واحد...

وتداخلت في الحديث سائلًا:

ـ ألم يُعلَن في الضاحية وقت ارتكاب الجريمة عن اختفاء امرأة؟

فساد صمت انقطع به الحديث مليًّا ثمّ قال شخص:

ـ لا يمكن تذكُّر ذٰلك.

فقلت:

ـ ولٰكنّه لا يمكن أن يغيب عن تفكير المحقّق...

لم تحزْ ملحوظتي قبولًا فيما بدا لي، فأكّدتْ غربتي بدلًا من أن تفتح لي مدخلًا إلى علاقة حميمة. وخفت أن أكثر من الأسئلة فيُساء بي الظنّ وخاصّة لشدّة حساسيتي من ناحية المهمّة التي أحمل أمانتها، وليقيني المستنِد إلى خبرة مهنتي بأنّ الأعين يجب أن تكون متنبهة تمامًا نحو أيّ دخيل قد يهدّد أمن الضاحية وسرّها العجيب. وجاء دوري للمثول أمام السمسار فوجدت في حجرته نفرًا من المتعاملين، ووجدت أنّ حديث الجريمة يطوف بهم رغم انهماكهم في إنجاز أعمالهم، وحتّى السمسار نفسه يشارك فيه:

ـ لا حديث للضاحية إلّا الجريمة، يتردّد في السوق والمكاتب والمصانع والأكواخ والفيلّات...

ـ ذٰلك طبيعيّ جدًّا.

ـ وما الفائدة؟

فقال السمسار:

ـ ثرثرة، معالجة عقيمة للخوف والعجز، ثرثرة لا جدوى منها...

ـ ثرثرة وأمانٍ فارغة.

ـ ولِمَ الخوف بالله كأنّما كلّ فرد من الضاحية يخشى نفس المصير...

غادرت المكتب بعد أن أجّرت حجرة مفروشة في مبنى بالحيّ الشرقيّ، وسط الجمهور الذي أعتمد عليه في استخلاص الحقيقة المنشودة. وتذكّرت مقابلتي لرئيسي التي كُلّفت في ختامها بالمهمّة. قال:

ـ ستذهب إلى الضاحية لجمع التحرّيات والمعلومات.

وقال أيضًا:

ـ من حسن الحظ أنّ أحدًا من رجال الأمن هناك لا يعرفك...

فسألت باهتمام وأدب:

ـ ولكن لِمَ سوء الظنّ يا سيّدي؟

ـ حسن، طُمست معالم جرائم قبل ذلك وقُيّدت ضدّ مجهول، لم تكن بفظاعة جريمة اليوم، ولكن ليس ما يمنع من أن يكون مصيرها كمصير سابقاتها...

ـ ورجال الأمن هناك ماذا يفعلون؟

ـ أتريد رأيي؟... إنّهم متواطئون، لعلّهم يقومون بالدور الرئيسيّ في طمس معالم الجريمة...

ـ ولكن لماذا؟

ـ ذلك ما أودّ أن توافيني بأسبابه...

ـ وأهل الضاحية ما موقفهم؟

ـ هٰذه هي المسألة...

ـ أليست القتيلة منهم وكذلك القاتل؟

ـ إنّي أومن بذلك كلّ الإيمان...

ـ إذن لِمَ لا تُكتشف الحقائق ويُقبض على المجرمين كما يحدث في كلّ مكان؟

ـ هٰذه هي المسألة.

كذلك دار الحديث قبيل تكليفي بالمهمّة. لم تكن مهمّتي إجراء أيّ تحقيق بصفة سرّيّة لمعرفة شخصيّة القتيلة أو القبض على القاتل، وما كان ذلك بوسعي، لأنّه لا يقع في اختصاصي من ناحية، ولأنّه أمسى متعذّرًا ما دام قد مضى على تاريخ الجريمة حوالى الخمس السنوات. مهمّتي كشف السرّ عن الأسباب الخفيّة لطمس معالم الجرائم في الضاحية، عن المصلحة المشتركة التي تشدّ الناس إلى ذلك، الفقراء والأغنياء ورجال الأمن.

غادرت حجرتي لأمارس العمل الذي اخترته عندما قابلني رسول جاء يستدعيني إلى مكتب الأمن. ذهبت من فوري قلقًا متشائمًا. ما معنى الاستدعاء؟... هل رابهم شيء في سلوكي؟... هل أواجه التحدّي وأنا لم أكد أشرع في العمل؟.

ومثلت أمام الضابط الذي سألني عن اسمي وعملي، ذكرت الاسم وقلت:

ـ سوّاق تاكسي.

وقدّمت بطاقة الشخصيّة والرخصة فراح يتفحّصهما بعناية وأنا مطمئنّ إلى أنّه لن يجد ما يريبه فيهما، ثمّ تفحّصني بنظرة ثاقبة وسألني:

ـ لِمَ اخترت هٰذه الضاحية للعمل؟

فقلت بعد تفكّر:

ـ إنّه حقّ مشروع لكلّ مواطن ولا يستدعي في اعتقادي استجوابًا.

فأعاد سؤاله ببرود:

ـ لِمَ اخترت هٰذه الضاحية للعمل؟

فآثرت السلام حرصًا على نجاح مهمّتي وقلت:

ـ عملها المحدود مناسب لرزقي وصحّتي واتّجه اختياري إلى هنا لأنّي أصلًا من مواليد الضاحية.

ـ ألك بها أهل أو أقارب؟

ـ كلّا... هجروها منذ حوالى ربع قرن...

ـ الجريمة خلقت نفورًا عامًّا من الغرباء.

كدت أسأله هل عرفوا هويّة المجرمين ولكنّي أمسكت عن حكمة وتساءلت:

ـ هل تقرّر إبعادي من أجل ذلك؟

فردّ إليّ البطاقة والرخصة وقال ببرود:

ـ اذهب...

ذهبت وأنا أفكّر بمدى ارتياب الرجل بي ولكنّي لم أجد في سلوكي ما يسوّغ ذلك على الإطلاق فنحّيته عن شعوري لأمضي في طريقي بلا ظنون وهميّة قد تربكني وتكشف سرّي. وكنت أوصل رجلين في التاكسي إلى المحطّة عندما سمعتهما يتحاوران عن الجريمة:

ـ فظيعة فظيعة، أيّ قسوة!

ـ كانت بارعة الجمال!

ـ ولكنّ النار لم تُبْقِ منها على شيء؟

ـ أعني لو لم تكن جميلة لما تعرّضت للقتل، أنت تفهمني طبعًا...

ـ طبعًا، وانقضاء خمس سنوات على دفنها يجعل العثور على دليل أمرًا مستحيلًا...

فتدخّلت في الحديث قائلًا:

ـ قرأت في الجرائد أنّه يمكن بفحص الموميات علميًّا

معرفة أسباب الوفاة، فإذا كان السبب جريمة أمكن بمناقشة الملابسات التاريخيّة تحديد القاتل في شخص أو طائفة...

فضحك الرجلان وقال أحدهما:

ـ على عهد الفراعنة كان الناس يموتون أو يُقتلون لأسباب مقنعة...

وضحك الرجلان مرّة أخرى.

قلت لنفسي إنّ أحاديث الناس لا تدلّ على أنّهم متواطئون، وتقطع بأنّهم غير راضين حتّى ولو كانوا متواطئين، فلماذا يشتركون في إخفاء معالم الجريمة والتستّر على القاتل أو القتلة رغم إرادتهم أو رغم نفورهم؟!.

ومرّة كنت أوصل أسرة إلى عيون المياه فدار الحديث أيضًا حول الجريمة.

ـ ممّا يقال بخلاف ذٰلك فهو مجرّد إشاعة.

ـ أنت تعلم كما نعلم نحن أنّها الحقيقة...

وتوثّبت لإرهاف السمع ولكنّي لمحت في المرآة امرأة تحذّر المتكلّمين مشيرة بذقنها نحوي!. وجعلت أتقلّب في شتّى الأماكن كما أتابع الأحاديث في التاكسي، أسجّل الكلمات في ذاكرتي، أناقشها، أفكّر بأبعادها، أستنتج متعاملًا مع الاستقراء والقياس، مستفيدًا من كلّ ملاحظة.

وقد سألت رئيسي وكنت أزوره كلّما أوصلت راكبًا إلى العاصمة:

ـ ألا يوجد احتمال أن يكون مرتكِب تلك الجريمة من خارج الضاحية؟

ـ ليس ذٰلك بالمستحيل، وفي تلك الحال تكون الجريمة عاديّة وتأخذ العدالة مجراها...

ـ ما الذي يحمل فقراء الحيّ الشرقيّ على الاشتراك مع سادة الحيّ الغربيّ في إخفاء جريمة رغم حدّة التناقضات بين الجانبين؟

ـ تساؤل يقطع بأنّك بدأت تضع قدمك في الطريق الصحيحة...

ـ أرجّح أن يكون القاتل من السادة!

ـ تفكير سليم جدًّا!

ـ هل يعني ذٰلك أنّ القتيلة من الجانب الآخر؟

ـ قد وقد...

ـ السرّ إذن يكمن في المصلحة المشتركة بين الجميع حتّى رجال الأمن أنفسهم؟

ـ هٰذه هي المسألة...

وعلمت ممّا يقال في الضاحية أنّ الجثّة اكتُشفت وهم يحفرون الأساس لبناء مصحّة الأمراض العقليّة، وعرفت أوّل مَن عثر عليها من البنّائين، وهو صعيديّ من هواة الجلوس في مقهى الشمس بالحيّ الشرقيّ. وعملت على التعرّف به ومجالسته فشربنا الشاي معًا. وسألته:

ـ كيف كان شعورك عندما عثرت على الجثّة المطمورة؟

فقال بفخار:

ـ ناديت أصحابي ثمّ جاءت الشرطة...

تبادلنا حديثًا سطحيًّا مؤجّلًا الأسئلة الهامّة للقاء آخر، ولٰكنّي لم أعثر عليه بعد ذٰلك، وقيل إنّ ظروفًا اضطرّته للسفر فورًا إلى الصعيد... ترى هل وقع ذٰلك بمحض الصدفة؟ ساورني القلق فخفت أن أكون مراقَبًا على غير ما أتصوّر، وشحذت انتباهي ما وسعني ذٰلك، ولٰكنّي لم أكفّ دقيقة عن نشاطي المرسوم. فتحت صدري لكلّ علاقة، استكثرت من الأصدقاء، قدّمت الخدمات بلا حساب، وظلّ حديث الجريمة يجري على كلّ لسان، في البيت والمقهى والسوق والتاكسي، يتردّد بغيظ وحنق، وأحيانًا بسخرية، ولٰكنّه لا يشقّ حجاب الغموض أبدًا، ثمّة شيء في الأعماق يعوزه التعبير، يكبته أنّه في اللاوعي، أو الخوف أو الخجل أو الرغبة المحمومة في الهرب. ولاحظت ذات يوم ـ وأنا في السوق ـ أنّ امرأة فقيرة دمعت عيناها وهي تصغي إلى حديث الجريمة الذي لا ينقطع. جذب وجهها عينيّ بفقره وجماله الذابل المتواري وراء غلاف من الإهمال والتعاسة. ترى هل تبكي بدافع عاطفة إنسانيّة عامّة أو لأسباب أشدّ خصوصيّة؟. وقرّرت في الحال تعقّبها من بعيد لعلّ وعسى. ولّما وصلت إلى آخر منطقة في السوق اعترضني صوت قائلًا:

ـ ها أنت تهيم على وجهك مهملًا عملك!

التفتّ فرأيت الضابط واقفًا يرمقني بنظرته الباردة، فقلت:

ـ جئت أتسوّق.

ـ وأين التاكسي؟

ـ في الميدان الجديد.

ومضى إلى سبيله تاركًا إيّاي في حيرة. فتّشت بعينيّ عن المرأة ولكنّها كانت قد ذابت في الزحام. ورجح لديّ أنّني أواجه تدبيرًا مُحْكمًا لا صدفة عمياء، وأنّ عليّ أن أضاعف من الحذر.

وتفرّغت لعملي، كسوّاق تاكسي أيّامًا متتابعة، وكلّفت خاطبة أن تبحث لي عن عروس مناسبة، ثمّ تسلّلت ذات ليلة، عند منتصف الليل، إلى الحانة الموجودة عند مشارف السوق. وجدتها مكتظّة بالشاربين، تضجّ بالنكات والأغاني، حارّة بالأنفاس والدخان والهواء الفاسد. شربت قليلًا ولكنّي تظاهرت بالنشوة والمرح، وأرهفت حواسّي لتصيُّد الفلتات والشوارد. وكالعادة تطعّم كلّ حديث، كلّ حوار، كلّ مزاح، بحديث الجريمة. قلت لنفسي متعجّبًا:

ـ كأنّهم جميعًا مجرمون أو ضحايا أو الاثنان معًا.

وسمعت ضمن الأحاديث حوارًا ذا دلالة فيما أعتقد. قال الرجل محتجًا:

ـ نحن ضعفاء.

فأجابه بحدّة:

ـ بل جبناء.

ـ ماذا تفعل إذا اعترض سبيلك سياج من النيران؟

ـ أرمي بنفسي فيها!

ـ ارمِ بنفسك وأرِنا شجاعتك.

وعربدوا ضاحكين. وانثال عليّ نثار من الكلمات صالح لدى ربطه وإعادة تكوينه لإعطاء اعترافات خطيرة أو ما يشبه ذلك. تابعت ذلك وأنا ألهث من شدّة الانفعال. وشيء جذب رأسي نحو مدخل الحانة كما يقع لدى توارد الخواطر فرأيت الضابط يتسلّل خارجًا! أفقت من نشوتي وانفعالي، وتنبّهت في غريزة المهنة فأدركت فداحة الخطر الذي يحدق بي. امتلاك سرّ خطير من هذا النوع يعني الهلاك، وأنا خبير بأساليب مهنتي، ولذلك فعليّ أن أفكّر بصفاء ذهن.

يجب مغادرة الحانة قبل أن تُفتعل معركة من أجل القضاء عليّ قضاء وقدرًا، يجب تجنّب السير في الشوارع الخالية، لا تستقلّ التاكسي حذرًا من انفجاره لأسباب مجهولة، لا ترجع إلى حجرتك حتّى لا يغتالك كائن جاثم في ركن منها. إلى المحطّة رأسًا عن طريق شارع المسلّة، وهناك تتعدّد الوسائل للوصول إلى العاصمة.

وفي صحن المحطّة شعرت بيد توضع على كتفي فالتفتّ متوثّبًا فرأيت الضابط. وقفنا نترامق مليًّا حتّى ابتسم قائلًا:

ـ جئت لأودّعك بما تقضي به أصول الزمالة.

عدلت عن المكابرة وتمتمت ساخرًا:

ـ شكرًا.

وهو يضحك:

ـ ولِمَ تترك التاكسي وراءك بلا سائق؟

فقلت ساخرًا أيضًا:

ـ أتركه في أيدٍ أمينة!

وهو يعاود الضحك:

ـ ترى ما الملاحظات التي تمضي بها؟

ففكّرت غير قليل ثمّ قلت:

ـ أنّكم لا تؤدّون واجبكم!

ـ الناس لا يتكلّمون.

ـ أعلم أنّ أرزاق البعض بيد البعض الآخر ولكنّ الغضب يتجمّع في الأعماق وللصبر حدود.

فهزّ رأسه باستهانة وتساءل:

ـ ما واجبنا في رأيك؟

ـ أن تحقّقوا العدالة.

ـ كلّا.

ـ كلّا؟!

ـ واجبنا هو المحافظة على الأمن.

ـ وهل يُحفظ الأمن بإهدار العدالة؟

ـ وربّما بإهدار جميع القيم!

ـ تفكيرك هو اللعنة.

ـ هل تخيّلت ما يمكن أن يقع لو حقّقنا العدالة؟

ـ سيقع عاجلًا أو آجلًا.

ـ فكّر طويلًا، بلا مثاليّة كاذبة، قبل أن تكتب

تقريرك، ماذا ستكتب؟

فقلت بامتعاض:

ـ سـأكتب أنّ جميـع القِيَم مهـدرة ولٰكنّ الأمن مستتبّ!

المقابلة السامية

قمت بجولة في العمارة الجديدة الخالية. هي جديدة بكلّ معنى الكلمة، فوّاحة برائحة الطلاء ما زالت، تحتلّ مربّعًا صقعًا، وعمّا قليل تعلّق في أعلى مدخلها لافتة كبيرة تحمل اسم مصلحتنا العتيدة. وكنت وراء الملابسات السعيدة التي أدّت إلى اختيارهـا وتأجيرها للمصلحة. كنت كاتبًا منسيًّا بالأرشيف ولكنّي اختُرْت كـاتبًا للجنة التي شُكّلت للبحث عن مقام جـديـد للمصلحـة يضمّ أشتاتهـا المتناثـرة في أحياء متبـاعدة بالمدينة الكبيرة. وكنت أعبر الطريق كلّ صباح أمـام موقعها في مسيرتي اليوميّة إلى المصلحة القديمة فدعوت اللجنـة لمشاهـدتها، وسرعـان ما اتُّخذت الإجراءات الإداريّة ثمّ توقّع العقد مع مالكها.

قمت بجولة في العمارة الجديـدة الخاليـة. لم تكن إجراءات النقل قد بدأت بعد، وكنت مارًّا كالعادة في الصباح فأغراني الزهو، وشعور وهميّ بالملكيّة، بالقيام بجولة بيروقراطيّة وكان البوّاب قد عرفني في الزيارات الرسميّة السابقة فـاستقبلني باحـترام جاهـلًا ـ لطيبـة قلبه ـ مدى البؤس الذي أعانيه كموظّف منسيّ حقير، ذٰلك البؤس الذي أكّـده كوني ربّ أسرة مكتـظّة لا تذوق اللحوم إلّا في المواسم.

وفي فناء العمارة صـادفت رجلًا لا أدري من أين جاء. غاظني منه بصفة خاصّة أنّه كان يسير بأقـدام ثابتة شديدة الرسوخ والثقة. ظننته جـاء يبحث عن شقّة يستأجرها فتوقّعت منه تحيّة متودّدة ولٰكنّه تجاهلني بادئ الأمر تمامًا، ومضى يلقي على ما حوله نـظرات متعالية خليقة بأن تثير حنق موظّف ـ مهـما قيل عن تعاسته ـ فهـو مكتشف العمارة، فضـلًا عن أنّه يمثّـل السلطة التي ستحتلّهـا بعـد أيّـام قـلائـل. وتحفّـزت للتحرّش به ولٰكن في حدود المعقول إذ كان ربعة متين البنيان مهيب الطلعـة، وإذا به يبـادرني ـ بلا تحيّـة ـ قائلًا:

ـ أنت من طرف أصحاب العمارة؟

فقلت باعتزاز:

ـ أنا عضو لجنة المصلحة التي استأجرت العمارة.

فقال بهدوء:

ـ عظيم، أريد أن ألقي نظرة عامّة على الداخل.

ـ ولٰكن مَن حضرتك؟

فقال بتلقائيّة وبساطة:

ـ أنا مدير المصلحة!

صعقني قوله فتشنّجت أطرافي، وسرعان ما انحنيت بطريقة آليّة كردّ فعل سريع للشحنة الكهربـائيّة التي بعثها شخصه في كياني المتهالك، وقلت بخشوع:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة.

فقال بعدم اكتراث:

ـ تقدّمني. . .

اعتبرت أنّ السماء فتحت أبوابها في وجهي وأغدقت عليّ بركة ورحمة باختياري مرشدًا لسعادته. وتقدّمته في رشاقة، من مكان لمكان، واصفًا الموقع، معدّدًا المزايا، مستجديًـا نـظراتـه الكريمـة إلى الحجـرات والأبهـاء والردهات، مشيرًا بمنتهى الذوق واللباقة إلى المرافق. وتطوّعت قائلًا:

ـ أعتقد يا صاحب السعادة أنّ الدور الثالث هـو أليق الأدوار بمقامكم، فهو مرتفع لدرجة لا بأس بها تعتبر مانعًا حاسمًا لضوضاء الطريق وفي الوقت نفسه لا تُعَدّ مشكلة في الصعود أو النـزول في حـال تعـطّل المصعد. . .

وفي فرصة تالية قلت:

ـ الركن البحريّ ذو مزايا جغرافيّة لا يستهـان بها فالطريق يحدّه من جهتين أمّا الجهة الثـالثة فتقـع بها محطّة بنزين منخفضـة، فهو ممرّ دائم للهواء وضـوء الشمس.

وفي فرصة ثالثة قلت مشيرًا إلى أضخم حجرة:

ـ هٰذه حجرتكم، ويمكن وصلها بالحجـرة التاليـة بهدم الجدار لتتّسع للاجتماعات، وشقّ باب في الجدار

القبليّ ليُفتح على السكرتاريّة الخصوصيّة.

وقرأت أثر ذٰلك كلّه في وجهه السمح رضى وارتياحًا، ورجعنا إلى الفناء بعد جولة سعيدة موفّقة وأنا ثمل بإلهام سماويّ من عنف الفرح. وتفضّل سعادته فسألني:

ـ وأنت في أيّ إدارة؟

فقلت متلقّيًا طاقة النجاة ببراعة:

ـ كاتب بالأرشيف يا صاحب السعادة، كاتب منسيّ، ولي شكوى قديمة...

ولٰكنّه قاطعني قائلًا:

ـ فيما بعد... فيما بعد.

فاعتذرت عن تسرّعي قائلًا:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة، سأرفع مظلمتي فيما بعد!.

ومضى إلى الخارج وأنا أهرول في أثره فصادفه بيّاع جرائد فأخذ مجلّة وكتابًا بلغ ثمنهما خمسة وعشرين قرشًا، وتبيّن لي أنّ المدير لا يجد نقودًا صغيرة تفي بالثمن وأنّ البيّاع لا يملك فكّة لورقة كبيرة، حتّى همّ المدير بإرجاع المجلّة والكتاب، ولٰكنّني بادرت ـ مدفوعًا بأريحيّة ملهمة ـ بدفع المبلغ المطلوب. وتردّد المدير قليلًا ثمّ سلّم بالواقع قائلًا:

ـ تعال من فورك إلى مكتبي لأخذ نقودك.

وذهب يتمتم:

ـ شكرًا...

تركني في دوّامة من انفعالات السعادة والأشواق إلى المجهول بحيث كان من أيسر الأمور أن تصدمني سيّارة وأنا غارق في بحر الوجد والأمل. وثبت في يقيني أنّ صفحة جديدة من الإشراق تُفتح في تاريخي المليء بالمتاعب والمحن، لقد تعرّفت بالمدير العامّ، وعملت له مرشدًا، وأطلعته على سوء حالي، ووعد بالنظر في مظلمتي، وفي لحظة مباركة محفوفة بأنفاس الملائكة أصبحت له دائنا بخمسة وعشرين قرشًا. ومعاذ الله أن أطالبه بالدين أو أن أذكّر أحدًا به، فهو القربان الذي يهبني عطفه ويفتح لي عند الضرورة بابه. أجل إنّه مبلغ جسيم يقتضي اتّخاذ إجراءات تقشّف جديدة حتّى يتحقّق نوع من التوازن يكفل لي أدنى مراتب الحياة حتّى ينقضي الشهر ولٰكنّ كلّ شيء يهون إلّا أن أقطع بيديّ أسباب القربى التي تشدّني إلى رحمته.

وتمّ النقل إلى العمارة الجديدة، وكالعادة استقرّ بنا المقام ـ نحن موظّفي الأرشيف ـ في البدروم. ولم أكفّ عن التفكير في العلاقة الخفيّة السعيدة التي تربطني بصاحب السعادة. ولم أذهب إلى مكتبه للمطالبة بالمبلغ كما أمر ولم يرسله إليّ مع أحد موظّفي مكتبه والحمد لله. ومرّت الأيّام تباعًا حتّى ساورني خوف أن يكون قد نسيني في غمار شواغله الكثيرة اللامحدودة. وأن تفلت من يديّ فرصة العمر. واستخرت الله، وتحوّطت عليه، ثمّ قرّرت أن أطلب مقابلة المدير العامّ. وقصدت حجرة السكرتير الخاصّ ولٰكنّ الساعي اعترض سبيلي، وأفهمني أنّ السكرتير مشغول جدًّا، وأبدى استعدادًا لإبلاغه عن حاجتي، فقلت له:

ـ أرجو تحديد موعد للتشرّف بمقابلة المدير العامّ.

فخطف الساعي نظرة جانبيّة من بدلتي المهلهلة ولٰكنّه غاب عنّي دقيقة وراء الباب المغلق ثمّ رجع وهو يقول:

ـ اكتب حاجتك على عرضحال تمغة وأرسلها بالطريق الإداريّ المتّبع.

ولم تجدِ معه أيّة محاورة فقد وجدته مغلقًا صامدًا مثل الباب الذي يجلس أمامه. ورجعت إلى مكتبي فريسة لقهر معذّب ولٰكن بإرادة مصمّمة على الوصول مهما كلّف الأمر. ومن توّي لجأت إلى رئيسنا في الأرشيف وهو كهل يشاطرنا البؤس والهوان ولا يتقدّمنا إلّا في العمر فطمعت أن أجد عنده تجاوبًا ورحمة. كاشفته برغبتي في مقابلة المدير العامّ وسألته الرأي والنصيحة فسألني:

ـ ولِمَ تسعى إلى هٰذه المقابلة العسيرة؟

ـ أريد أن أعرض عليه شكواي.

ـ ألسنا كلّنا في البلوى سواء؟

ـ ولٰكنّه شجّعني على ذٰلك!

ـ حقًّا؟!... متى وكيف؟

فقصصت عليه الجانب الذي يهمّه من لقاء العمارة فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ تلك كلمة طائرة عابرة لا يعوّل عليها.

ـ لن أضيّع على نفسي وأولادي فرصة قلّ أن تجود بمثلها السماء...

ـ نصيحتي أن تقلع عن تصميمك.

فهتفت بحماس:

ـ إنّه أمل حياتي الوحيد.

فجعل يهزّ رأسه مفكرًا فلم أرَ مفرًّا من إطلاق الرصاصة الأخيرة فهمست في أذنه:

ـ سأودع لديك سرًّا في ضميرك النقيّ، لقد اقترض سعادته منّي خمسة وعشرين قرشًا!

نظر الكهل في وجهي بذهول متجسّم فقلت بحرارة:

ـ صدّقني فأنا أحادثك وأنا في كامل قواي العقليّة.

وقصصت عليه قصّة النقود التي أدينه بها فسألني بارتياب:

ـ هل سبق لك أن رأيت مديرنا العامّ؟

ـ كلّا.

ـ مَن أدراك أنّ ذٰلك الرجل هو المدير؟

ـ لا شكّ في ذٰلك البتّة.

ـ ولِمَ لا يكون رجلًا عابثًا استغلّ طيبة قلبك؟

ـ مستحيل... دعني أصفه لك...

ولكنّه قاطعني قائلًا:

ـ لا جدوى من ذٰلك فأنا لم أره إلّا لمحًا منذ سنوات ومن بعيد...

ـ على أيّ حال أنا واثق من أنّه المدير العامّ.

ـ حكايتك حكاية...

فقلت متجاوزًا الجدل:

ـ خذني على قدّ عقلي، ودلّني على كيفيّة رفع شكوى للمدير العامّ.

ـ عظيم، تكتب الشكوى على عرضحال تمغة وتقدّمها إليّ بصفتي رئيسك المباشر فأعتمدها ثمّ تُرفع إلى مدير الإدارة ليعتمدها بدوره ثمّ تُرفع إلى المراقب العامّ ليعتمدها بدوره ثمّ تُرسل إلى مكتب المدير العامّ، وثمّة نصيحة لوجه الله وهي ألّا تذكر أمام أحد حكاية الخمسة والعشرين قرشًا!

وكتبت الشكوى بعناية، قدّمتها لرئيسي المباشر، وقّع عليها برجاء العطف، مضيت بها إلى سكرتير مدير الإدارة، دسّها تحت تلّ من الشكاوى ثمّ انصرف إلى عمله، سألته:

ـ متى تتفضّل بعرضها على مدير الإدارة؟

فأجاب دون أن يرفع بصره عن أوراقه:

ـ لا شأن لك بذٰلك.

ـ ولكنّها شكوى من نوع خاصّ، أعني أنّني ما كتبتها إلّا بإيعاز من سعادة المدير العامّ نفسه!

فرمقني بنظرة غريبة وتساءل ساخرًا:

ـ سعادتك قريبه؟

ـ تلك هي الحقيقة بلا سخرية.

ـ ستُعرض في حينها أو خذها واذهب.

ـ لا تزعل، متى أرجع لآخذها؟

ـ بعد أن يتمّ عرضها.

ـ ومتى يتمّ عرضها إن شاء الله؟

ـ ستُعرض في حينها.

وانصرف عنّي بحركة حاسمة طاردة فرجعت إلى مكتبي وأنا أسبّ الكادر وشاغليه ما عدا سعادة المدير العامّ طبعًا. ورجوت رئيسي أن يتشفّع لي عند سكرتير مدير الإدارة ولكنّه رفض بغرور الشابّ وقلّة أدبه. ومرّت الأيّام وأنا أنتظر وأتصبّر.

وذات صباح وزميل لي يراجع معي ميزان الوارد مال نحوي وسألني هامسًا:

ـ هل حقًّا أقرضت المدير العامّ خمسة وعشرين قرشًا؟

فانزعجت جدًّا وتولّاني الذعر وسألته عمّن أخبره بذٰلك فقال إنّه سمع همسًا يدور حول الموضوع في الأرشيف. يا دافع البلاء ارحمنا. واتّهمت رئيسي ولكنّه أقسم لي بأولاده أنّه لم ينبس بكلمة واحدة، فاتّهمت زوجتي ـ ولها صديقات بين زوجات الموظّفين ـ ولكنّها أنكرت إمّا عن صدق أو عن خوف. انسكب سمّ القلق في نفسي، وتوهّمت أنّ الأنظار تلاحقني بدهشة وسخرية، وأنّ أصحابها عمّا قليل سيرمونني بالعته أو الجنون، ولذٰلك كان عليّ أن أسرع في مسيرتي قبل أن يقع ما ليس في الحسبان. وذهبت إلى سكرتير مدير الإدارة، فلم يردّ تحيّتي ولكنّه أشار بامتعاض إلى

شكواي فتناولتها شاكرًا وهرعت من فوري إلى سكرتير المراقب العامّ. قدّمت الشكوى، أردت أن أشرح له أهمّيّة الموضوع ولٰكنّه بادرني قائلًا:

ـ اتركها واذهب.

ولكي أرضيه تحرّكت نحو الباب غير أنّني سألته:

ـ متى أرجع لتسلّمها؟

ـ لا ترجع.

فمن اليأس تجرّأت على أن أسأل:

ـ والشكوى.

فرفع عينيه إلى السقف كأنّما يُشهد الله على قحتي، وعند ذاك تطوّع أكثر من شخص من المحتشدين في الحجرة ينصحونني بالامتثال وتنفيذ الأمر، حتّى بهتّ واجتاحني الخوف، وتطوّع الساعي لأخذي من ذراعي بلطف يوحي بالعطف، وأفهمني في الردهة بأنّ مكتب المراقب العامّ يرسل بريده مباشرة إلى مكتب المدير العامّ.

ـ وكيف أعرف أنّها أرسلت؟

ـ تعال بعد أسبوع أو عشرة أيّام وقابل كاتب الصادر بمكتب المراقب العامّ فيعطيك الرقم والتاريخ وبهما تستدلّ على مصير شكواك في مكتب المدير العامّ...

فقلت مداريًا عجزي:

ـ تصوّر أنّني سألقى من الاحترام في مكتب سعادة المدير العامّ ما لم ألقَ واحدًا على مائة منه في مكتبكم!

فدعا لي الساعي قائلًا:

ـ ربّنا يرفع قدرك أكثر وأكثر...

رجعت إلى مكتبي، قلت لنفسي اشتدّي أزمة تنفرجي، وقلت أيضًا إنّ عذاب تلك الأيّام سيكفل لي دخول الجنّة بغير حساب، وقلت أيضًا إنّه ليس بعد الظلام إلّا النور، وإنّه إن عاجلًا أو آجلًا فسوف تدركني رحمة مفرج الكروب. أمّا الأعين الساخرة فلم تعتقني، لم ترحمني، ولم تقنع باستراق النظر، فهٰذا زميل يتساءل:

ـ كيف... متى... في أيّ ظروف غريبة أقرضت المدير العامّ خمسة وعشرين قرشًا؟!

وهٰذا آخر يسأل:

ـ ألم يردّ المدير العامّ دَينه؟

ومرّة لاحقني صوت يقول:

ـ هٰذا هو الشحّاذ الذي أقرض المدير العامّ...

فدعوت الله أن يمدّني بصبر نبيّه أيّوب، وظلّ أملي في رحمته قويًّا لا يتزعزع، وتذكّرت سخريّة آل نوح منه وكيف كانت العاقبة للمتّقين. ولم أذهب إلى كاتب الصادر بمكتب المراقب العامّ إلّا بعد مرور أسبوعين كاملين فأعطاني رقم وتاريخ الكتاب الذي أُرسلت معه الشكوى إلى مكتب المدير العامّ، وسألته بأدب:

ـ متى يمكن أن أعرف النتيجة في مكتب المدير العامّ؟

فأجابني بامتعاض وحنق لا مبرّر لهما على الإطلاق:

ـ عِلْم ذٰلك عند علّام الغيوب!

على أيّ حال قد وصلت الشكوى إلى مكتب المدير العامّ، وسوف يتذكّرني من فوره، ولعلّه يستدعيني إلى مقابلته، أو يجبر في الأقلّ خاطري، وانهارت عليّ الأحلام السعيدة، ومنّيت نفسي بترقية أو علاوة تدعم رزق الأولاد. وكنت راجعًا إلى الأرشيف حاملًا البريد وأنا أتلو آية الكرسيّ عندما اعترضني موظّف ومضى يسألني:

ـ هل حقًّا...

وكنت قد ضقت بتحرّش الساخرين فقاطعته قبل أن يُتمّ كلامه:

ـ اخرس يا قليل الأدب.

فتراجع الرجل ذاهلًا وهو يقول:

ـ أنت مجنون بلا شكّ.

فصحت به:

ـ اذهب وإلّا خلعت الحذاء ومزّقته على رأسك.

وسرعان ما حال بيننا أهل الخير والشرّ. وبعد يوم استُدعيت إلى إدارة التحقيقات. قال لي المحقّق:

ـ أنت متّهم بالاعتداء بالقول على مُراجع الحسابات وبالشروع في ضربه.

فقلت بذلّ:

ـ أنا رجل مسكين، لقد أراد أن يسخر منّي فزجرته، هٰذا كلّ ما حصل.

وقال مراجع الحسابات إنّه أراد أن يسألني عن ورود

مكاتبته من الخزانة، وشهد على صدق قوله زملاء له وزميلان من الأرشيف. وضح صدقه حتّى لي أنا، وأدركت أنّي أسأت الفهم والتصرّف، ودافعت عن نفسي قائلًا:

ـ كثيرون يسخرون منّي وقد حسبته واحدًا منهم.

وسألني المحقّق:

ـ لِمَ يسخرون منك؟

فلذت بالصمت ولكنّ كثرة من الشهود فضحت حكاية القرض حتّى هتفت:

ـ ذاك محض افتراء، واقعة لا أساس لها، ألصقت بي ظلمًا...

وكادت المناقشة بيني وبين الشهود تجاوز حدود الأدب إلى العنف. وغادرت إدارة التحقيقات مغلوبًا على أمري تمامًا. وبعد أيّام استدعاني رئيسي الكهل وقال لي بحزن:

ـ تقرّر خصم خمسة أيّام من مرتّبك.

فصرخت:

ـ ذلك ظلم بَيِّن، أنا لا أكاد أجد قوت الأولاد.

ـ ليتك تمالكت أعصابك.

ـ أخطأت، ولكن لي عذري، ترى هل تبلغ حكاية القرض مسامع سعادة المدير العامّ؟

فقال الكهل بثقة:

ـ لا يجرؤ أحد في المصلحة على إبلاغها له.

رغم أحزاني جميعًا فإنّ ثقتي بالله لم تتزعزع، وقلت لنفسي إنّه ـ جلّ جلاله ـ سيخرجني من أحزاني كما أخرج يوسف من سجنه. وبقدر ما حلّ بي من سوء تماديت في تخيُّل السعادة الموعودة وآمنت بإقبالها القريب. وانتظرت طويلًا ثمّ ذهبت إلى كاتب الوارد بمكتب صاحب السعادة لأسأله عمّا تمّ في شكواي فقال لي بجفاء مجهول الأسباب:

ـ إنّي أخصّص يوم الخميس للاستفسارات.

وكان اليوم الأحد ولكنّي كنت قد لُقّنت الحكمة في إدارة التحقيقات فرجعت بلا تعقيب. وشكوت حالي إلى رئيسي فمضى بي إلى وكيل المخازن، وهو صديق رئيسي وقريب لكاتب الوارد، فقبل الرجل أن يتلفن إلى قريبه مستفسرًا عن شكواي، ولبث يصغي إلى كلامه غير المسموع لنا، ثمّ أعاد السمّاعة وقال:

ـ آسف، لقد حفظ الطلب!

اغتالني الخبر فسقطت آمالي جثّة هامدة، وقلت وأنا مطمور تحت الأنقاض:

ـ هل عرض الطلب على سعادة المدير العامّ؟

ـ طبعًا، هو الذي أمر بالحفظ.

ـ مستحيل!

فابتسم الرجل بلا تعليق فقلت:

ـ كنت أتوقّع أن يدعوني لمقابلته!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة دون أن ينبس. وعدت مع رئيسي وأنا أقول:

ـ لا أصدّق.

فقال الكهل بنبرة مواسية:

ـ ولكنّه المصير المحتوم لجميع الشكاوى.

ـ ولكنّه أوعز إليّ بكتابتها.

ـ ما زلت أعتقد أنّك كنت ضحيّة رجل مهذار.

ـ كلّا... كلّا.

ـ إذن فلعلّه نسي، وشواغل المدير تُنسي.

ـ والعمل؟

ـ سلّم لله أمرك...

ولكنّ الإصرار كان قد ملك عليّ أمري. وبكلّ همّة رحت أتحرّى مواعيد المدير وحركاته وسكناته. وقرّرت ألّا أذعن للقوّة الباغية ولا للأوامر المكتبيّة العمياء.

* * *

وتحرّكت سيّارة المدير لتنتظره أمام العمارة. وقف البوّاب والسعاة صفّين بالإضافة إلى شرطيّ الحراسة. وكنت متواريًا وراء لافتة كبيرة في المدخل سُجّل عليها دعوة لمزايدة. وترامت من ناحية الفناء ضجّة وتراءى موكب المدير قادمًا. وعندما حاذاني في سيره بسملت ثمّ وثبت نحوه لأجثو بين يديه مستعطفًا.

وصاح رجل:

ـ المجنون... حذارِ يا صاحب السعادة...

ووقع اضطراب شامل وضوضاء عالية.

لم أدرك بوضوح ما حدث. مادت بي الأرض. حوصرت تحت ضغط عشرات من الأيدي القويّة.

ماذا أقول بعد ذلك؟. لقد جرى معي تحقيق خطير باعتباري مجرمًا سياسيًا، ولما تبيّن لهم خطأ الرأي وجّهوا لي تهمة الشروع في الاعتداء على المدير انتقامًا لحفظ شكواي.

وقد تعلّمت في السجن حرفة النجارة، وفي ميدانها أكدح اليوم لتربية الأولاد.

أهلاً

دقّة أيقظته من شروده، دقّة ماسح الأحذية التقليديّة، رفع عينيه عن النارجيلة فرآه واقفًا أمامه يرمقه بعين صيّاد. مضت لحظة وهما يترامقان ثمّ تهلّل وجه الرجل. هو أيضًا ابتسم.

- حمدًا لله على السلامة يا بيك.

- أهلاً... كيف حالك؟

وأشار إليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه. لم يره منذ عشرين عامًا، منذ انقطع عن المقهى القديم. كان فتى يافعًا متين البنيان متدفّق الحيويّة، يطوف بأرجاء الحيّ في رشاقة النحلة، يمسح الأحذية، ويروي النوادر والمِلَح... ها هو قد جفّ عوده وتغضّن وجهه وأدركته شيخوخة مبكّرة.

- لم أرك منذ عمر طويل يا بيك؟

- الدنيا!

- سافرت؟

- كلّا.

- وكيف هان عليك مكانك المفضّل؟

- ها أنا أرجع إليه عند أوّل فرصة فراغ.

- هل مرّت الأعوام في عمل متواصل؟

- نعم.

- ربّنا معك.

منذ عشرين عامًا كانا يكافحان عدوًّا مشتركًا هو الفقر على اختلاف موقعهما منه.

- لم تتغيّر يا بيك والحمد لله.

- أنت أيضًا لم تتغيّر!

- أنا؟!

وضحك في سخرية ورثاء.

- ربّنا يقوّيك!

- كنت فقيرًا حقًّا ولكنّ الدنيا كانت رحيمة ويسيرة.

هكذا كانت، ترى هل يخطر بباله أنّه يملك عمارة وفيلّا وسيّارة؟، هل يتصوّر أنّه يخاطب لصًّا أريبًا في ثوب موظّف كبير؟!

- الحياة أصبحت شاقّة.

- جدًّا جدًّا جدًّا يا بيك.

- ولكنّك مؤمن والإيمان كنز لا يقدّر بمال.

- الحمد لله.

- قديمًا كان العيش يتيسّر لك ببضعة قروش حقًّا ولكن كان يتسلّط على البلد إقطاعيّون يبذّرون الملايين على ملاذّهم...

- انتهى أمرهم يا بيك ولكنّ حالي ازداد سوءًا...

- بسبب عملك فقط أمّا ملايين الفلّاحين والعمّال فقد تحسّنت أحوالهم...

- إنّي لا ألقى إلّا شاكيًا مثلي...

- أنت محصور في بيئة معيّنة، هذه هي المسألة...

- ومتى نتحسّن بدورنا؟

- كلّ آتٍ قريب.

- ولكن مرّت عشرون سنة؟

- ما هي إلّا لحظات في عمر الزمان.

- علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى؟

- لا أدري، قد يضحّى بجيل في سبيل الأجيال القادمة.

- ولكنّي أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين السعداء؟

- مظاهر خادعة، لكلٍّ شكواه ومتاعبه.

- أراهم في السيّارات الفاخرة كأيّام زمان.

- هل تصوّرت أعباءهم القاتلة؟، هل تصوّرت ما يؤدّون للدولة من خدمات؟، ثمّ أمَنْ يعمل كمَنْ يرث؟

ابتسم مستسلمًا وهو مُكِبّ على عمله في تكاسُل ليُطيل فرصة الحوار، وجعل ينظر إليه بمودّة صافية، وفي نظرته تتجلّى أشواق للذكريات المشتركة الماضية.

ـ هل أضايقك يا بيك؟
ـ أبدًا. . . هات كلّ ما في قلبك.
ـ الله يكرمك، كنّا نضحك ملء قلوبنا من الماضي.
ـ ويمكن نضحك الآن أيضًا.
ـ ولكن. . .
ـ ولكنّ داءنا أنّنا ننظر دائمًا إلى الوراء، دائمًا نتوهّم أنّ وراءنا فردوسًا مفقودًا. . .
ـ ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا؟
ـ تذكّر، لقد رقصت يوم قامت الثورة.
ـ طبعًا، سكرت بالآمال، سكرنا جميعًا بالآمال. . .
ـ ولقد تحقّقت الآمال، ولولا سوء الحظّ، لولا الأعداء. . .، ماذا كنت تتوقّع؟
ـ زوال الظلم والفقر، لقمة متوفّرة، مستقبل للأولاد. . .
ـ حصل ذٰلك كلّه.
ـ دائمًا نسمع ولكنّ الأولاد ضاعوا جميعًا. . .
ـ واضح أنّك تشكو كثرة العيال؟
ـ إنّي أحمد الله. . .
ـ المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع.
ـ دخلوها وخرجوا كما دخلوا، ولم ينجح أحد.
ـ وما ذنب الثورة؟
ـ لا ذنب لها، ولكنّنا نسكن جميعًا في حجرة واحدة! وفي المدرسة لا يفهمون شيئًا. . .
ـ إنّكم تنشدون معجزة لا ثورة.
ـ إنّه حال أبناء الفقراء جميعًا.
ـ كلّا.
ـ الاستثناء لا يعوّل عليه.
ـ كان اليأس القديم أنسب لكم!
ـ ما زال المال يملك الحظّ كلّه.
ـ المسألة أنّ الأمور معقّدة، أمور الدنيا كلّها معقّدة.
ـ خللنا في أنفسنا.
ـ ولكنّنا جزء من الدنيا.
ـ هل أنتظر حتّى تُحلّ مشاكل الدنيا؟
ـ ليس كذٰلك بالضبط ولكنّه تساؤل لا يخلو من حقيقة.

وضحك ليخفّف من وَقْع قوله ثمّ استطرد:
ـ ولا تنسَ أنّنا في حال حرب.
أرجَعَ فردة الحذاء وتناول الأخرى ثمّ قال:
ـ وسبق ذٰلك الهزيمة.
ـ لا داعي لتذكيري بما لا يمكن أن يُنسى.
ـ بعد أن نفختنا الآمال حتّى طرنا في الجوّ.
ـ قيل كلّ ما يمكن أن يقال. . .
ـ متى نحارب يا بيك؟
ـ هل تنتظر من وراء الحرب حلًّا لمشاكلك؟
ـ الحركة بركة.
ـ ربّما اللقمة نفسها لن تجدها.
فهزّ منكبيه استهانة.
ـ سنحارب عندما نضمن النصر.
لم ينبس ولكن وضح أنّه لم يقتنع.
ـ هل تعرف معنى الحرب؟. . . هل تتصوّر حالنا إذا خربت المصانع والسدود والمواصلات؟
ـ نفعل بهم مثلما يفعلون بنا.
ـ ستتوقّف الحياة هنا.
ـ ليكن، المهمّ أن نحرّر أرضنا.
ـ هل تهمّك الأرض حقًّا أو أنّك تريد الخراب؟
ـ أريد أن أحيا في ظلّ العدل.
ـ يبدو أنّك تريد أن تهدمها على رءوس مَن فيها.
ـ لا والله يا بيك.
خُيّل إليه أنّه يقصده بشيء ما.
ـ المهمّ النصر لا الانتقام.
ـ أنا لا أفهم.
ـ الأمور واضحة.
ـ يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة، خبّرني كيف ومتى يتمّ ذٰلك؟
ـ لا أدري متى ولكنّه يتمّ بالصبر والعمل والإخلاص. . .

كأنّه أصمّ، يرفض التصديق والاقتناع، وقد أنجز عمله، أعطاه خمسة قروش بدلًا من قرشين، تهلّل وجهه ودعا له بالستر، واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه في حاجة ماسّة لذاك الدعاء، وبأنّه يشاركه حيرته فضلًا عن المخاوف التي ينفرد بها وحده، ورآه يهمّ

بالذهاب فسأله:

ـ ما رأيك فيما قلت؟

ابتسم مداريًا شكوكه وتمتم:

ـ كلام جميل.

ـ وحقيقيّ أليس كذلك؟

ـ مثل كلام الراديو.

شعر بأنّه يذكّره بكلام الراديو طيلة عشرين عامًا، شعر بأنّه يوبّخه فأوشك على الانفعال.

ـ ولكن بروح جديدة تمامًا.

ـ نرجو ذلك.

ـ ألا تريد أن تصدّق؟

فرفع درجة صوته ليقنعه بإيمانه قائلًا:

ـ ما دمت تصدّق فأنا أصدّق.

ضحك ضحكة فاترة مقتضبة، وسأله الرجل:

ـ هل ترجع إلى المقهى كالأيّام الخالية؟

ـ إن شاء الله كلّما سنحت فرصة...

ـ عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب.

ثمّ حيّاه وانصرف.

وصفّق يطلب وقودًا للنارجيلة الخابية.

الكرنك

الكَرْنَك

«قرنفلة»

اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة. ذهبت يومًا إلى شارع المهديّ لإصلاح ساعتي. تطلّب الإصلاح بضع ساعات كان عليّ أن أنتظرها. قرّرت مهادنة الوقت في مشاهدة الساعات والحليّ والتحف التي تعرضها الدكاكين على الصفّين. عثرت على المقهى في تنقّلي فقصدته. ومنذ تلك الساعة صار مجلسي المفضّل. رغم صغره وانزوائه في شارع جانبيّ صار مجلسي المفضّل. الحقّ أنّي تردّدت قليلًا بادئ الأمر أمام مدخله، حتّى لمحت فوق كرسيّ الإدارة امرأة. امرأة دانية الشيخوخة ولٰكنّها محافظة على أثر جمال مندثر. حرّكت قسماتها الدقيقة الواضحة جذور ذاكرتي فتفجّرت ينابيع الذكريات. سمعت عزفًا وطبلًا، شممت بخورًا، رأيت جسدًا يتموّج: راقصة، نجمة عماد الدين، الراقصة قرنفلة، حلم الأربعينات الورديّ، قرنفلة. هٰكذا مرقت إلى الكرنك بقوّة سحر مبهمة وفؤاد طروب، من أجل شخص لم أمرّ بباله يومًا. لم تقم بيننا علاقة من أيّ نوع كان، لعاطفة أو مصلحة أو حتّى مجاملة، كانت نجمة وكنت أحد المعاصرين. لم تترك نظراتي المعجبة على جسدها العبقريّ أثرًا، أيّ أثر، ولا كان لي حقّ التحيّة العابرة. من مجلسي أجلت البصر فأحاط بالمكان. كأنّه حجرة كبيرة ليس إلّا ولٰكنّه أنيق رشيق، مورق الجدران، جديد الكراسيّ والموائد، متعدّد المرايا، ملوّن المصابيح، نظيف الأواني، يا له من مجلس ذي جاذبيّة لا تقاوَم. ونظرت إلى قرنفلة طويلًا، كلّما وجدت فرصة. انطفأ سحر الأنوثة وجفّ رونق الشباب ولٰكن حلّت محلّها روعة غامضة وأسًى مؤثّر، ما زالت نحيلة رشيقة يوحي عودها بالنشاط والحيويّة. وثمّة قوّة مهذّبة مكتسَبة من التجربة والعمل. أمّا خفّة الروح فآسرة نفّاذة. تحرّك نظرتها الشاملة الساقي والجرسون وعامل النظافة وترعى الروّاد المعدودين ـ كأنّهم لصِغَر المكان أسرة واحدة ـ بمودّة وألفة. يوجد ثلاثة شيوخ لعلّهم من أصحاب المعاشات، وكهل، ومجموعة من الشبّان بينهم فتاة حسناء، لذلك شعرت بالغربة وبأنّني دخيل، رغم نشوتي. وقلت اللّٰهم إنّي أحبّ هٰذا المكان، القهوة فاخرة والماء نقيّ عذب والفنجان والكوب آيتان في النظافة. عذوبة قرنفلة، وقار الشيوخ، حيويّة الشباب، جمال الفتاة. وموقع المقهى في وسط المدينة الكبيرة يصلح استراحة لجوّال مثلي، وثمّة عناق حارّ بين الماضي والحاضر، الماضي العذب والحاضر المجيد، ثمّ سحر المصادفة المجهولة. فما إن تعطّلت ساعتي حتّى وقعت في غرام متعدّد الأبعاد، وإذن فليكن الكرنك مستقرّي كلّما سمح الزمان.

وحدث ما اعتبرته مفاجأة سارّة. بدا أنّ قرنفلة أرادت مجاملتي بصفتي زبونًا جديدًا فقامت من مجلسها وجاءتني تخطر في بنطلون كحليّ وبلوزة بيضاء، وقفت أمامي وقالت:

ـ شرّفت.

تصافحنا وأنا أشكر لها مجاملتها فسألتني:

ـ هل أعجبتك القهوة؟

فقلت بصدق:

ـ جدًّا، بنّ ممتاز حقًّا...

فابتسمت بسرور، ورنت إليّ مليًّا ثمّ قالت:

ـ يخيّل إليّ أنّك تذكّرتني؟

ـ فعلًا، مَن ينسى قرنفلة؟

ـ ولٰكن هل تذكّرت دوري الحقيقيّ في الفنّ؟

- أجل، كنت أوّل مَن جدّد في الرقص الشرقيّ.
- هل سمعت أو قرأت أحدًا ينوّه بذلك؟
فقلت بارتياب:
- تُصاب الأمم أحيانًا بفقدان الذاكرة ولكنّ ذلك لا يدوم إلى الأبد.
- كلام جميل ولا شيء وراء ذلك...
- ولكنّني قرّرت حقيقة لا شكّ فيها...
ثمّ تهرّبت من الحرج قائلًا:
- أتمنّى لك حياة سعيدة وهو الأهمّ...
فقالت ضاحكة:
- حتّى الآن فالنهاية تبدو سعيدة...
ثمّ وهي تودّعني راجعة إلى كرسيّ الإدارة:
- والعِلْم عند علّام الغيوب!
هكذا وفي يُسْرٍ تمّ التعارف بيننا، وتمخّضت عنه صداقة جديدة سعدت وما زلت أسعد بها. هي جديدة بمعنى من المعاني ولكنّ جذورها الخفيّة توغل في الماضي على مدى ثلاثين عامًا أو أكثر. وتتابعت اللقاءات وتراكمت الأحاديث وتوثّقت المودّة. وتذكّرت يومًا كم كانت محترمة بقدر ما كانت فاتنة بارعة فقلت لها:
- كنت فنّانة بارعة ومحترمة معًا، ألم يكن يُعَدّ ذلك معجزة؟!
فأجابت بزهو:
- كان الرقص الشرقيّ هزًّا للبطن والصدر والعجز فجعلته تصويريًّا...
- وكيف تيسّر لك ذلك؟
- لم تكن تفوتني حفلات الرقص الإفرنجيّ في البرجولا.
ثمّ هزّت رأسها في دلال وقالت:
- أمّا الاحترام فقد قام سلوكي العامّ على ألّا أقبل علاقة إلّا عن حبّ ولا أمارسها إلّا عن زواج.
فتساءلت بتهيّب:
- دائمًا وأبدًا؟
فضحكت هاتفة:
- ألا يكفي أن يكون الطابع العامّ هو الاحترام؟
فأحنيت رأسي بالإيجاب، وغمغمت هي بما لم أتبيّنه، ثمّ قالت:
- الحبّ الصادق يضفي على العلاقة شرعيّة غير منكورة.
- لذلك لم تتعرّض لك مجلّة بسوء.
- حتّى المطرقة!
فقلت باسمًا:
- ولكنّ كثيرين انحرفوا بسببك!
فتنهّدت قائلة:
- حياة الليل مترعة بالمآسي.
- ما زلت أذكر موظّف الماليّة.
فقاطعتني هامسة:
- اسكت، أتقصد عارف سليمان؟. إنّه على بعد أمتار منك، هو الساقي الواقف وراء البار.
استرقت إليه النظر في وقفته التقليديّة. مترهّل، أبيض الرأس، تعكس عيناه نظرة ثقيلة وديعة. ولا شكّ أنّها قرأت الدهشة في عينيّ فقالت:
- لم يكن ضحيّة لي كما قد تظنّ، كان ضحيّة ضعفه...
وقصّت عليّ قصّة عاديّة. فقد جنّ بها ولكنّها لم تشجّعه قطّ. ولم تكن موارده تسمح له بالتردّد الدائم على الملهى فامتدّت يده إلى اختلاس أموال الدولة. وظهر بين الروّاد كالوارثين ولكنّها لم تنل منه مليّمًا واحدًا ولم تنشأ بينهما إلّا العلاقة الرسميّة التي تنشأ بحكم تقاليد الملاهي الليليّة، ولم يتقدّم خطوة حتّى ضُبط متلبّسًا فقُدّم للمحاكمة ودخل السجن.
- إنّها مأساة ولكن لا ذنب لي فيها، ولمّا غادر السجن بعد سنوات جاءني في الملهى نفسه وقال لي لقد ضعت إلى الأبد، رثيت له وتوجّست منه خيفة فتشفّعت له عند صاحب الملهى فألحقه بوظيفة جرسون، ولمّا اعتزلت العمل وفتحت هذا المقهى اخترته لعمل الساقي وهو يقوم به على ما يرام.
فمسحت على شاربي متسائلًا:
- ألم يحنّ إلى غرامه القديم؟
- بلى، وهو جرسون في الملهى، وضايقني حتّى تعرّض لعلقة أليمة وكنت يومذاك زوجة للفيل بطل رفع الأثقال، ثمّ تزوّج بعد عام من راقصة في

الكومبارس، ما زالت زوجته، وأمّا لسبع بنـات من صلبه، وأعتقد أنّه اليوم موفّق وسعيد...

ثمّ وهي تغرق في الضحك:

ـ يحلو لنا أحيانًا اليوم أن نتبادل الحبّ شفويًّا.

ـ هٰكذا الماضي يُنسى؟

ـ ولٰكن كان له زميل وثب على غير توقّع إلى وظيفة وكيل الماليّة، كان ينقم على الحياة من أجله حتّى أحالته الثورة إلى المعاش فهدأ ثائره وعشق الثورة.

انضممت إلى أسرة الكرنك بصفة نهائيّة ونفـذت الأسرة في صميم حيـاتي. منحتني قـرنفلة صـداقتهـا ومنحتها، لعبت النرد مع الشيوخ محمّد بهجت ورشاد مجدي وطٰه الغريب، عرفت الشباب وعرفوني خاصّة زينب ديـاب وإسماعيل الشيخ وحلمي حمـادة، كـما عرفت زين العابدين عبد الله مدير العلاقات العـامّة بإحدى المؤسّسات، حتّى إمام الفوّال الجرسون وجمعة مسّاح الأحذيـة وعامـل النظافـة صارا لي صـديقين. وعرفت سرّ الكرنك الاقتصاديّ فهو لا يعتمد أساسًا على زبائنه المحدودين ولٰكن على أصحاب الحـوانيت بشـارع المهـديّ وزبـائنهم، وهـو السرّ وراء جـودة مشروباته وامتيازها. ومن أسراره أيضًا أنّه كان ـ وما زال ـ مجمع أصوات عظيمة الدلالة، تفصـح نبراتهـا العالية والخافتة عن حقائق التاريخ الحيّ. لا يمكن أن تُنسى أحـاديث القوم عـلى عهد انضـمامي إليهم. لا يمكن أن يُنسى امتنـان قـرنفلة وهي تقـول عنـد أيّ مناسبة:

ـ لنحمد الله الذي أنعم علينا بالثورة.

وكان عارف سليمان الساقي وزين العابدين مـدير العلاقات العامّة يقدّسان الثورة أيضًا، كلّ بطريقتـه ونواياه، ولم يكن الشيوخ أقلّ حماسًا وإن ردّدوا أحيانًا وبحذر شديد:

ـ لم يكن الماضي شرًّا خالصًا.

ومن ركن الشباب انبعث الحماس فوّارًا كالهـدير. عند أكثريّتهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلّفًا وراءه جاهليّة مرذولة غامضة. إنّهم أبناؤها الحقيقيّون ولولاها لتشرّد أكثرهم في الأزقّة والحواري والضياع. قـد تندّ عنهم أيضًـا أصوات معـارِضة تـوحي بيساريّـة متطرّفـة أو إخوانيّة حذرة هامسـة ولٰكنّها لا تلبث أن تضيـع في الهدير الشامل. ولفت نظري بصفة خاصّة إمام الفوّال الجرسـون وجمعـة مسّـاح الأحـذيـة، يتغنّيـان بعنـتر وفتوحاته، يعاتبان مرارة العيش ولٰكنّهما يتغنّيان بعنتر وفتوحاته، كأنّ الفقر قد هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل. على أنّ تلك النشوة لم يزهـد فيها أحـد حتّى الحاسـدون والحاقـدون. لم يخل أحـد من رواسب الذلّ والهزيمة والخذلان فـألهبهم الظمـأ نحو الكأس المترعة بتحدّيات العدوّ القديم، نهلوا منها حتّى الثمالة وراحوا يرقصون من وجد الطرب، وأيّ جدوى تُرجى من النقد عند السكارى؟ أتقول الرشوة... الاختـلاس... الفساد... القمـع والإرهـاب؟... طظ، أو فليكن، أو إنّه شرّ لا بدّ منه، أو ما أتفـه ذٰلك، خذ رشفة من الكأس السحريّة وارقص معنا.

***

عندما ترجع قرنفلة من عند الحلّاق تستردّ إلى حين قدرًا من الجمال وتشتعل الحيويّة في عينيهـا العسليّتين. وأغراني ذٰلك مرّة لأن أسألها:

ـ لا زوج الآن ولا ذرّيّة؟.

ولٰكنّهـا لم تجب وندمت عـلى ما فـرط منّي. ولـمّا لامست ضيقي قـالت لتخفّف عنّي وهي تشـير إلى الزبائن:

ـ أحبّ هٰؤلاء ويحبّونني.

وتمتمت لغير ما سبب واضح:

ـ الحبّ... الحبّ.

فقالت بأسى:

ـ طالما تمتّعنـا بحبّ مَن نحبّ ولٰكن لا يخلد من الحبّ إلّا الخيبة...

ـ الخيبة؟.

ـ هي الحبّ الذي ينجو من مخالب الواقع ويبقى أملًا خلّابًا.

فبحذر سألت:

ـ هل خاب لكِ حبّ؟

ـ ليس ذٰلك تمامًا ولٰكنّ الحبّ يتدلّل أحيانًا.

ـ أحدث ذٰلك أيّام المجد؟

ـ قد يحدث في أيّ يوم.

تشوّقت إلى سماع المزيد ولكنّها تجاهلت رغبتي ولحظت بطرف عينيها زين العابدين عبد الله وقالت:

ـ انظر إليه، إنّه يحبّني، ماذا يريد؟. يقترح مشاركتي في المقهى وتحويله إلى مطعم ولكنّه يطمع أوّلًا في فراشي!.

ـ إنّه مكتنز بالدهن.

ـ أحلام لن تتحقّق.

ـ لعلّه غنيّ؟.

ـ البركة في أموال الدولة!.

فاتّجه رأسي بحركة تلقائيّة نحو عارف سليمان الساقي ولكنّها قالت:

ـ ذاك اختلس من أجل الحبّ، أمّا زين العابدين فينهب من أجل الطمع والطموح، إنّهم أنواع يا عزيزي، منهم مَن يأخذ لضرورة العيش لتقصير الحكومة في حقّهم، ومنهم الطامعون، ومنهم مَن يأخذ اقتداءً بالآخرين!، وبين هٰؤلاء وأولٰئك يجنّ الشبّان المساكين.

فقلت بإصرار:

ـ نعود إلى موضوعنا الأصليّ.

فقالت بتحدٍّ:

ـ أنت تعلم أنّني أحبّ!.

وكنت قد لاحظت أمورًا فضبطتني متلبّسًا بمراقبتها فقالت:

ـ لا تسألني عنه فلستَ غبيًّا.

فقلت باسمًا:

ـ حلمي حمادة؟!.

فمضت دون استئذان إلى كرسيّ الإدارة ومن هناك رمتني بابتسامة عذبة. خُيّل إليّ في وقت من الأوقات أنّه إسماعيل الشيخ وسرعان ما اكتشفت علاقته الحميمة بزينب دياب. ثمّ وضح الأمر. وحلمي حمادة فتى رشيق ووسيم أيضًا وذو مناقشات عصبيّة. وقد اعترفت لي قرنفلة بأنّها هي التي بادأته بالغزل، وأمام رفاقه أيضًا. وتابعتْ مرّة رأيًا سياسيًّا يدلي به ثمّ هتفت له وهي جالسة على مقربة منه:

ـ ليحيى كلّ مَن تريد له الحياة وليمت مَن تريد له الموت!.

ولمّا لبّى دعوتها لزيارة شقّتها في الدور الرابع من العمارة التي تقع الكرنك في أسفلها استقبلته استقبالًا فاخرًا، زيّنت حجرة الجلوس بالورود ومدّت مائدة حافلة وتصاعدت أنغام راقصة من جهاز تسجيل. وقد قالت لي بثقة:

ـ وهو يحبّني أيضًا، ثق من ذٰلك.

ثمّ قالت بجدّيّة:

ـ ولكنّه لا يدرك مدى حبّي العظيم...

ثمّ بامتعاض:

ـ ولا يبعد أن يمضي يومًا بلا رجعة...

وهزّت منكبيها وتمتمت:

ـ حكاية قديمة لا جديد فيها.

ـ تعرفين كلّ شيء ثمّ تصرّين على المضيّ في طريقك.

ـ قول سخيف يصلح شعارًا للحياة.

فقلت باسمًا:

ـ أشكرك نيابة عن الأحياء...

ـ ولكنّه جادّ وكريم، وهو أوّل مَن تحمّس لمشروعي.

ـ أيّ مشروع من فضلك؟.

ـ كتابة مذكّراتي، إنّي متحمّسة لدرجة الهوس، ولم يعفني إلّا عجزي عن الكتابة!.

وبحماس أيضًا:

ـ أيهتمّ حقًّا بالفنّ وتاريخه؟.

ـ هٰذا جانب من الجوانب، أمّا الجوانب الأخرى فتدور حول رجال مصر ونسائها في حياتهم الخفيّة!.

ـ أناس العهد الماضي؟.

ـ والحاضر!.

ـ فضائح وما أشبه ذٰلك؟.

ـ لا تخلو أحيانًا من فضائح ولكنّ أهدافها أخطر من ذٰلك.

فقلت محذّرًا:

ـ إنّه مشروع له خطورته.

فقالت باهتمام وفخار:

ـ وستقوم له القيامة عند نشره!.

فقلت ضاحكًا:

ـ هٰذا إذا قُدِّر له النشر!.

فتجهّم وجهها وقالت:

ـ يمكن نشر الجزء الأوّل دون متاعب.

ـ عظيم، ودعي الجزء الثاني للزمن.

فتمتمت برجاء:

ـ لقد عاشت أمّي تسعين عامًا.

فقلت برجاء أيضًا:

ـ ربّنا يطوّل عمرك يا قرنفلة.

***

وجئت يومًا في ميعادي فوجدت مقاعد الشباب خالية. تبدّى المقهى في منظر غريب وخيّم عليه هدوء ثقيل. وانشغل الشيوخ بألعابهم وأحاديثهم أمّا قرنفلة فجعلت تنظر نحو مدخل المقهى بترقّب وقلق. وجاءت وجلست إلى جانبي وهي تقول:

ـ لم يجئ أحد منهم، ماذا جرى؟.

ـ لعلّ موعدًا شغلهم؟.

ـ كلّهم! ألم يكن بوسعه أن يخبرني ولو بالتليفون؟...

ـ أظنّ أنّه لا داعي للقلق.

فقالت بحدّة:

ـ ولكن توجد دواعٍ للغضب.

ومضت الليلة دون ظهور أحد منهم، وحتّى مساء اليوم التالي لم يظهر لأحد منهم أثر. وتغيّر طبع قرنفلة ومضت تنتقل بين الداخل والخارج في عصبيّة.

وسألتني:

ـ ما تفسير ذٰلك في نظرك؟.

فحرّكت رأسي في حيرة، وقال زين العابدين عبد الله:

ـ إنّهم شبّان لا يثبتون على حال ولعلّهم انتقلوا إلى مكان أنسب لهم...

فقالت له بغضب:

ـ يا لك من غبيّ!، ولِمَ لَمْ تنتقل أنت إلى مكان أنسب لك؟.

فضحك ببلادة منيعة وقال:

ـ إنّي في أنسب مكان لي...

وقلت على سبيل المواساة:

ـ سنراهم فجأة مقبلين...

فقالت لي همسًا:

ـ الحزن يقتلني قتلًا.

فسألتها برقّة:

ـ ألا تعرفين أين مسكنه؟.

ـ كلّا، في مكان ما بالحسينيّة، وهو طالب بكلّيّة الطبّ ولكنّ الجامعة مغلقة لعطلة الصيف، لا أدري شيئًا كما ترى.

وكرّت الأيّام والأسابيع حتّى أوشكت قرنفلة على الجنون، وحزنت لها حزنًا بالغًا حتّى قلت لها:

ـ أنت تهلكين نفسك بلا رحمة.

ـ لست في حاجة إلى الرحمة ولكنّي بحاجة إليه.

وتجنّب زين العابدين العاصفة بالصمت والانزواء وكان يداري ارتياحه العميق بالتجهّم والاستغراق في النارجيلة. ويومًا قال طٰه الغريب:

ـ سمعت عن أنباء اعتقالات واسعة.

فوجمنا جميعًا. وقلت:

ـ ولكنّ أغلبيّتهم تنتمي للثورة...

فقال رشاد مجدي:

ـ ولكن وجد أقلّيّة مخالفة لا يستهان بها.

فقال محمّد بهجت:

ـ وضح الحقّ، قد أرادوا اعتقال المتّهمين فساقوا أصدقاءهم معهم حتّى يتمّ التحقيق.

وكانت قرنفلة تتابع الحديث بذهول كالبلاهة وترفض أن تفهم شيئًا أو تقتنع بشيء.

وجرى الحديث بيننا تعليقًا على الحدث:

ـ الاعتقال فعل مخيف حقًّا.

ـ وما يقال عمّا يقع للمعتقلين أفظع.

ـ شائعات يقشعرّ منها البدن.

ـ لا تحقيق ولا دفاع.

ـ لا يوجد قانون أصلًا.

ـ يقولون إنّنا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات.

ـ وإنّه لا بدّ من التضحية بالحرّيّة والقانون ولو إلى حين.

ـ ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عامًا أو يزيد

فآن لها أن تستقرّ على نظام ثابت.

أمّا قرنفلة فقد أهملت عملها. كانت تغيب بعض النهار كلّه وأحيانًا اليوم بأكمله، تاركة المقهى لعارف سليمان وإمام الفوّال. وقالت لي:

ـ لم أدعْ أحدًا من كبراء الماضي أو الحاضر إلّا زرته وسألته، ولا جواب عند أحد ولكنّك تسمع كلامًا غير متوقّع مثل: «مَنْ أدرانا؟» أو «حذارِ من السؤال وإلّا ساءت العواقب» أو «لا ترحّبي بالشباب في مقهاك»، ماذا حصل للدنيا؟!

وإذا بفكري يتقمّص انطلاقة جديدة دافِعُها الأوّل الحزن العميق. قلت لنفسي حقًّا إنّ حياتنا تزخر بالآلام والسلبيّات ولكنّها في جملتها ليست إلّا النفايات الضروريّة التي يلفظها البناء الضخم في شموخه وإنّها يجب ألّا تعمينا عن العظمة في تولّدها وامتدادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقّق انتصاره الحاسم على الصليبيّين؟، هل تخيّلنا آلام أهل القرى عندما كان محمّد عليّ يكوّن إمبراطوريّة مصريّة؟، هل تصوّرنا عصر النبوّة في حياته اليوميّة والدعوة الجديدة تفرّق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته، تمزّق العلاقات الحميمة وتحلّ العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبالمثل ألا يستحقّ إنشاء دولتنا العلميّة الاشتراكيّة الصناعيّة التي تملك أكبر قوّة في الشرق الأوسط، ألا تستحقّ أن نتحمّل في سبيلها تلك الآلام؟! وكنت أشعر طيلة الوقت بأنّه يمكن أن أقنع نفسي بضرورة الموت وفائدته بمثل هٰذا المنطق.

***

وما ندري ذات أصيل إلّا والوجوه الغائبة المفتقدة تهلّ علينا بفرحة مباغتة. زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمي حمادة وبضعة نفر آخرين، أمّا البقيّة فلم نرَ لها أثرًا بعد ذٰلك. هلّلنا مرحّبين، حتّى زين العابدين عبد الله اشترك معنا، أمّا قرنفلة فتراخت في جلستها كأنّما غفت أو أغمي عليها، لم تنطق بحرف ولم تتحرّك، حتّى مثل أمامها حلمي حمادة فقالت له بصوت متهدّج:

ـ سأنتقم منك!

ثمّ أجهشت في البكاء. وسأل سائل:

ـ أين كنتم يا جماعة؟

فأكثر من صوت أجاب:

ـ في نزهة..

وضجّوا بالضحك. وعاد المرح ولكنّ الوجوه تغيّرت، فالرءوس الحليقة أضفت على السحن غرابة فضلًا عن ذبول واضح في النظرة والحيويّة. وتساءل صوت ـ لعلّه زين العابدين ـ قائلًا:

ـ ولكن كيف حدث ما حدث؟

فصاح إسماعيل الشيخ:

ـ دعونا من هٰذه السيرة...

وهتفت زينب في غبطة:

ـ سلمى يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة.

وسمعت اسمًا يتردّد، لا أدري كيف تردّد ولا مَن كان أوّل ناطق به، خالد صفوان... خالد صفوان... ولكن مَن هو خالد صفوان؟... محقّق؟!... مدير سجن؟!... أكثر من صوت يردّد: خالد صفوان... وكنت أختلس من الوجوه النظرات وأكاد ألمس المعاناة والذهول وراء الأقنعة. ويمكن أن أقول إنّ الحياة في الكرنك استعادت روتينها اليوميّ ولكنّها في الواقع فقدت قدرًا لا يستهان به من صميم روحها. أُسدل ستار كثيف على فترة الغياب المجهولة فمضت كسرّ مثير تحوم حوله الأسئلة وترتدّ خائبة. ورغم المرح والأحاديث انتشر الحذر في الجوّ مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر. وتحمّلت كلّ نكتة بأكثر من معنى وكلّ إشارة بأكثر من مغزى وكلّ نظرة التبست فيها البراءة بالتوجّس. وقالت لي قرنفلة:

ـ الأولاد عانوا كثيرًا.

فسألتها بلهفة:

ـ هل قال لك شيئًا؟

ـ إنّه لا يتكلّم وفي ذٰلك ما يكفي.

أجل، في ذٰلك ما يكفي. نحن في زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار. وجعلت أتخيّل وأتذكّر. تذكّرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الأباطرة. تذكّرت سِيَر المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك

الغابات. وقلت لنفسي مستعيذًا من ذكرياتي إنّ الدناصير استأثرت بالأرض ملايين السنين ثمّ هلكت في ساعة من الزمان في صراع الوجود والعدم فلم يبقَ منها اليوم إلّا هيكل أو هيكلان. وعندما يلفّنا الظلام أو تُسْكِرنا القوّة أو تطربنا نشوة تقليد الآلهة فإنّه يستيقظ في أعماقنا تراث وحشيّ ويبعث فينا العصور البائدة. وظلّت معلوماتي ترتكز على الخيال حتّى أتيح لي بعد ذٰلك بسنوات أن تُفتح لي القلوب المغلقة في ظروف جدّ مختلفة وتمدّني بالحقائق المرعبة وتفسّر لي ما غمض عليّ فهمه من الأحداث في إبّان وقوعها.

ولم يكفّ زين العابدين عبد الله يومًا عن التحلّي بالصبر وترقّب الفرصة المواتية، ولا شكّ أنّ رجوع حلمي حمادة قد أفسد خطّته وحرّك مخاوف اليأس في أعماقه فدفعه ذٰلك إلى تجاوز حرصه المعهود فقال مرّة باستهتار على مسمع من قرنفلة:

ـ إنّ وجودهم بالمقهى خليق بالإساءة إلى سمعته.

فسألته قرنفلة:

ـ متى تنوي الرحيل؟

فتجاهل قسوتها ببرود وقال بنبرة الوعّاظ:

ـ لي مشروع جمّ الفوائد يستحقّ العناية والجدّيّة...

وسألني مستوهبًا تأييدي:

ـ ما رأيك في المشروع؟

فسألت بدوري قرنفلة:

ـ ألا ترغبين في الإسهام بقوّة أكبر في الرأسماليّة الوطنيّة؟

فقالت بسخرية:

ـ ولٰكنّه يطمع في المال وصاحبة المال.

فبادرها قائلًا:

ـ اقتراحي يتعلّق بالعمل وحده أمّا القلوب فشئونها بيد الله ذي الجلال!

فلم تعنَ بمناقشته أكثر، وبدا أنّ العشق يستأثر بلبّها كلّه. وطالما شعرت بأنّها تمثّل دور العاشقة العمياء فامتلأ قلبي نحوها بالعطف والإشفاق. ولم أشكّ في أنّ الفتى يحبّها حبّ مراهقة، هي تتقن كيف تفتنه وتسرّه وهو ينهل من منابع حنانها، ولٰكن حتّى متى يدوم ذٰلك؟. وكانت إلى ذٰلك تساورني بعض الشكوك من ناحية أطماعه ولٰكنّها قالت لي بثقة لا حدّ لها:

ـ إنّه نظيف بقدر ما هو ذكيّ، ليس من النوع الذي يبيع نفسه...

أفلحت لو صدقت. ولا أملك ما يدعوني للشكّ في صدقها، ثمّ إنّ منظر الشابّ وحديثه يدعوان للثقة وإن شابه الغموض أحيانًا والعنف في كثير من الأحايين، ولٰكن ما جدوى كلّ ذٰلك حيال الحقيقة المجسّدة وهي أنّ قرنفلة قد جاوزت خريف العمر وأنّه لم يبقَ لها من تراث الإغراء إلّا المال والإخلاص؟!.

وقد قال لي زين العابدين مرّة:

ـ لا يغرّنّك منظره...

فعلمت أنّه يتحدّث عن حلمي حمادة وسألته:

ـ ماذا تعرف عنه؟

ـ إنّه برجميّ عصريّ أو قناع خدّاع.

وصمت لحظة ثمّ واصل:

ـ وفي اعتقادي أنّه يحبّ زينب دياب وسوف يخطفها يومًا من إسماعيل الشيخ...

وأثارت كلمته قلقي لا لأنّني اعتبرتها افتراء ولٰكن لأنّها أيّدت مشاهداتي عن المجاملات المتبادلة بين حلمي وزينب، وطالما ساءلت نفسي أهي مودّة حميمة أم أكثر من ذٰلك؟.

ولمّا كانت صداقتي لقرنفلة قد أصبحت راسخة فقد واتتني الشجاعة لأقول لها:

ـ إنّك خبيرة بالحياة والحبّ.

فقالت بزهو:

ـ لا يجوز لأحد أنْ يشكّ في ذٰلك.

فتمتمتُ:

ـ ومع ذٰلك..؟

ـ ومع ذٰلك؟!

ـ هل تؤمنين بنهاية سعيدة لحبّك؟

فقالت بإيمان:

ـ عندما تحبّ حقًّا فإنّما تستغني بالحبّ عن الحكمة والبصيرة والكرامة.

واقتنعت بأنّه من العبث أن تناقش عاشقًا في

عشقه. . .

***

وللمرّة الثانية اختفى الشبّان.

وقع المقدّر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث في المرّة الأولى.

ولم يقع أحد منّا في حيرة التساؤل وعذاب الشكّ ولكن اجتاحنا الانزعاج والذهول.

وترنّحت قرنفلة تحت عنف الضربة وتأوّهت قائلة:

ـ ما كنت أتصوّر أنّني سأتعرّض لمرارة التجربة مرّة أخرى.

ومن شدّة الأسى صعدت إلى شقّتها.

وهيّأ لنا غيابها حرّيّة للمناقشة فقال طٰه الغريب:

ـ حتّى أنا ورغم البراءة والسنّ بتّ أخشى على نفسي.

فقال رشاد مجدي متهكّمًا بالرغم من شحوب وجهه:

ـ ممكن أن يشكّ في أمرك رجال الثورة العرّابيّة لا هٰذه الثورة!

وتساءل محمّد بهجت:

ـ ترى ما وراء ذٰلك؟

فقال زين العابدين عبد الله:

ـ إنّهم شبّان ذوو خطورة فما وجه العجب فيما يقع لهم؟

ـ ولٰكنّهم من أبناء هٰذه الثورة!

فضحك زين العابدين وقال:

ـ الانتماء إلى الثورة حجّة شائعة بين أعدائها، كنت في شبابي إذا ضبطني أحد في الطريق إلى درب طياب تعلّلت بأنّي ذاهب للصلاة في الجامع الأحمر!

فقال طٰه الغريب:

ـ إنّهم يبدعون في نشر الرعب سامحهم الله.

وبعد مرور أيّام جالستني قرنفلة، طالعتني بوجه كئيب ثمّ سألتني باهتمام:

ـ خبّرني عن معنى ذٰلك؟

قرأت خواطرها الخفيّة ولكنّني تجاهلتها، فقالت:

ـ توجد حولنا أسرار!

فتمتمت:

ـ ربّما.

ـ بل هو مؤكّد، جميع الناس يتكلّمون ولٰكن مَن الذي يُبلغ الكلام؟

فقلت بعد تردّد:

ـ أنت أدرى بالمكان. . .

ـ لا شكّ لديّ في رجالي، عارف سليمان مدين لي بحياته، إمام الفوّال فهو من رجال الله، وكذٰلك جمعة. . .

فقلت:

ـ وشيوخ المعاش في عزلة على شاطئ الحياة. . .

وتبادلنا نظرة طويلة ولٰكنّها قالت:

ـ زين العابدين وغد ولٰكن لا صلة له بالسلطة فضلًا عن أنّه يخشاها لانحرافه.

فقلت:

ـ يعبر بالمقهى كثيرون ونحن لا نلقي إليهم بالًا.

فتنهّدت وقالت بامتعاض شديد:

ـ لم يعد في الدنيا أمان. . .

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفلة على كرسيّ الإدارة كتمثال فاقد الحياة. أجل كانت أمثال تلك الحوادث تقع كلّ يوم ولٰكنّ تأثيرها يختلف إذا وقعت فيمن يعدّهم الإنسان أسرته. وشككنا في كلّ شيء حتّى الجدران والموائد. وعجبت لحال وطني، إنّه رغم انحرافه يتضخّم ويتعظّم ويتعملق، يملك القوّة والنفوذ، يصنع الأشياء من الإبرة حتّى الصاروخ، يبشّر باتّجاه إنسانيّ عظيم، ولٰكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتّى صار في تفاهة بعوضة، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء. وفَقَدَ زين العابدين أعصابه فجأة وبلا سبب محدّد وراح يقول:

ـ أنا حزين، أنا سيّئ الحظّ، أنا تعيس، اللعنة على يوم وُلدت ويوم عرفت هٰذا المقهى . . .

تجاهلته قرنفلة فمضى يقول متحدّيًا:

ـ ما ذنبي؟، إنّي أحبّك فما ذنبي؟، لماذا تسيئين إليّ كلّ يوم؟، ألا تعلمين أنّه يقتلني قتلًا أن أراك وأنت تموتين حزنًا؟، لماذا؟، لا تحتقري حبّي، الحبّ لا يُحتقر، إنّه أسمى من ذٰلك وأعظم، أسفي عليك،

تبعثرين الأيّام الباقية من عمرك العزيز بلا رحمة، وترفضين أن تعترفي بأنّ قلبي هو القلب الوحيد الذي يعبدك. . .

وخرجت قرنفلة من صمتها وقالت تخاطبنا نحن:

ـ هٰذا الرجل لا يريد أن يحترم حزني!

فقال زين العابدين بمرارة:

ـ أنا!، إنّي أحترم أوباشًا ومنافقين ومجرمين وقوّادين ومرتشين فكيف لا أحترم حزن مّن علّمني تقديس الحزن من حزني عليه؟!، معذرة، احزني، استسلمي لقضائك، تمرّغي في وحل الأيّام، ربّنا معك. . .

فقالت بهدوء:

ـ لعلّه من الأفضل لك أن تذهب.

ـ لا مكان لي إلّا هنا، وأين أذهب؟، على الأقلّ يوجد هنا وَهْم جنونيّ أخاله أحيانًا أملًا. . .

وسرعان ما عاد إلى رشده وهدوئه وهو خجلان. ولكي يسدل ستارًا على تهوّره نهض بقوّة ورشاقة جنديّ، فنظر نحو قرنفلة وقال:

ـ أعتذر.

وحنى رأسه تحيّة ثمّ جلس وراح يدخّن نارجيلته.

وجاء الشتاء ببرده القارس ولياليه الطويلة فتذكّرت أنّ الشبّان كانوا يتلاقون في المقهى حتّى في الشتاء ـ وقت الدراسة ـ ولو ساعة واحدة، وقلت لنفسي إنّ المقهى بدونهم لا يُحتمل. لم يبقَ إلّا الشيوخ وقد نسوا المعتقلين وتناسوا الرعب والسياسة فعكفوا على همومهم الشخصيّة، وكأنّه لم يعد لهم من عمل إلّا انتظار الأجل. وراحوا يبكون الأيّام الماضية ويتبادلون وصفات بقصد خفيّ واحد هو تأجيل الموت.

ـ كُلْ واشرب ولا تهتمّ فهٰذا خير شعار في الحياة.

ـ غيّر ريقك على كوب ماء ويا حبّذا لو عصرت عليه نصف ليمونة.

ـ قال حكيم قديم إنّي أعجب لآل مصر كيف يمرضون وعندهم الليمون.

ـ الطبّ الحديث يقرّر أنّ صعود السلّم مفيد للقلب.

ـ ومفيد له أيضًا المشي.

ـ ويقولون إنّ الجماع مفيد أيضًا للقلب.

ـ السياسة وأنباء الاعتقالات ومعاصَرة العظماء.

ـ الزبادي مدهش والفاكهة أمّا العسل الممزوج بإفراز الملكة فحدّث عنه ولا حرج.

ـ والضحك، لا تنسوا الضحك.

ـ وكأس واحدة بالثلج قبيل النوم.

ـ والهرمونات لا يجوز الاستهانة بها.

ـ ومنوّم احتياطيّ للأخبار المزعجة. . .

ـ وبعد كلّ شيء وقبل كلّ شيء قراءة القرآن.

أجل. المقهى بلا شباب لا يُحتمل، وحتّى قرنفلة لا تدري بأحزاني، ولا تدري أنّ الصداقة قويّة وظمأى مثل الحبّ نفسه، وها أنا أتجرّع الملل وأعاني الوحشة وأرمق الكراسيّ الجامدة الصامتة بقلب مشوّق حزين يتلهّف على مناجاة أصحابها لتنقدح فيه نشوة الحماس والإبداع والآلام المقدّسة.

***

ولدى إقبالي على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقًا على غير عادته. دهشت حقًّا واجتاحني فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل، وسرعان ما وجدتني حيال الأصدقاء المحبوبين، زينب وإسماعيل وحلمي واثنين أو ثلاثة آخرين. وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفلة تباركنا، وتبادلنا الأشواق متجنّبين أين وكيف ولماذا، ولكن تردّد في همس اسم خالد صفوان الذي صار رمزًا من رموز حياتنا لا تكمّل إلّا به وقالت لي قرنفلة:

ـ تصوّر أنّه قد وقع سوء تفاهم في مطلع الشتاء وأنّ البراءة ثبتت في مطلع الصيف ولا تسأل عن مزيد، حسبك أن تتصوّر إن استطعت. . .

ليكن. لا حيلة لنا في ذٰلك. وقلت لها:

ـ ولنتصوّر أيضًا أنّ المقهى أذن كبيرة!

وتجنّبنا حديث السياسة ما وسعنا ذٰلك، وقلت لها:

ـ إذا دعت ضرورة إلى الخوض في موضوع وطنيّ فلنتكلّم متخيّلين أنّ السيّد خالد صفوان يجالسنا.

ولكنّ الخسارة تبدّت ملموسة أكثر من المرّة الماضية. هزلوا كأنّهم خارجون من مجاعة، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة، ورسب في زوايا

أفواههم امتعاض راسخ. إنّ حرارة الحديث تذيب الرواسب فإذا فرغوا منه وخلوا إلى أفكارهم اختفت الأقنعة وتجلّى الفتور والعزلة. حتّى العلاقة الحميمة بين زينب وإسماعيل تعاني داء خفيًّا لا يكاد يُرى عند النظرة العابرة الأمر الذي أثار عواطفي وتساؤلاتي. يا الطاف الله، إنّ الآلة الجهنّميّة تطحن أوّل ما تطحن أصحاب الرأي والإرادة، فماذا يعني هٰذا؟.

وجالستني قرنفلة مرّة فلاحظت أنّها راضية ولٰكنّها غير سعيدة. وكنت أعلم أنّها لا تجالسني إلّا للبوح بشيء فقلت أفتتح الحديث:

- لندعُ الله ألّا يتكرّر المكروه...

فقالت بأسى:

- ادعُ الله كثيرًا جدًّا، قل له إنّنا في حاجة شديدة إلى دليل حيّ على رحمته وعدله...

فسألتها بإشفاق:

- ماذا وراءك؟

- الذي رجع إلى حضني خيال فأين إذن حلمي حمادة؟

- لعلّك تقصدين الصحّة، ولٰكنّهم كلّهم في البلوى سواء، وسوف يستردّون العافية خلال أيّام...

- لعلّك لا تدري أنّه شابّ شجاع ذو كبرياء. وأنّ مثله يكون عرضة للشرّ أكثر من غيره...

ثمّ قالت وهي تحدجني في عينيّ:

- لقد فقد القدرة على السعادة!

فلم أفهم تمامًا ما تعنيه فعادت تقول:

- لقد فقد القدرة على السعادة!

- لعلّك تبالغين في التشاؤم...

- كلّا، وأنا لا أحزن لغير ما ضرورة.

وتنهّدت بعمق ثمّ استطردت:

- منذ ملكت هٰذا المقهى وأنا دائبة على العناية به، الأرض والجدران والأثاث تنال حظّها كاملًا من اهتمامي الكلّيّ أمّا هم فينكّلون بفلذات الأكباد، عليهم اللعنة...

ثمّ قبضت على ذراعي وقالت:

- لنبصق على الحضارة...

وتردّدت طويلًا بين انبهاري بالعظمة ومقتي للفزع والإرهاب ولم أدرِ كيف يمكن أن يتطهّر من الحشرات ذاك البناء الشامخ.

وكان زين العابدين عبد الله أوّل من قال لنا:

- في الجوّ غيم!

إنّه يستمع إلى الإذاعات الأجنبيّة ويعرف أخبارًا نادرة، فحدّثنا عن نشاط للمتسلّلين من أبناء فلسطين وما يتوعّد به العدوّ مِن رَدْع. قال:

- ليس بعيدًا أن تنشب حرب هٰذا العام أو العام المقبل.

ولٰكنّنا كنّا واثقين من قوّتنا، فقال طٰه الغريب:

- لا خوف علينا إلّا من تدخّل أمريكا...

وفي ذٰلك النطاق دار الحديث. ولم يفسد الصفو في تلك الفترة إلّا هبّة عارضة من حلمي حمادة كادت تقوّض أركان حبّه الراسخ. فقد توهّم أنّ قرنفلة تعامله بعطف لا يليق بكرامته فرفض ذٰلك بإباء وقرّر هجر المقهى لولا أن أمسك به أصحابه. وذهلت المرأة وراحت تعتذر إليه وهي لا تدري بالدقّة ما ذنبها. وراح يقول بعصبيّة:

- إنّه لمقرف أن يضطرّ الإنسان إلى سماع نغمة واحدة...

واستطرد بحدّة:

- وأنا أكره الأصوات الباكية...

وبحدّة أعنف:

- ثمّ إنّني ضقت بكلّ شيء...

واعتبرنا المسألة عَرَضًا للحال العامّة وتجنّبنا إحداث أيّ مضاعفات حتّى تمرّ بسلام، ولم يُغْنِ فَرَح زين العابدين الخفيّ عنه شيئًا فإنّ حلمي حمادة لم يتمادَ في غضبه، ولعلّه ندم على ما فرط منه، ونال التأثّر من قرنفلة غايته ولٰكنّها لم تنبس بكلمة واحدة. وقد همست لي:

- آخر ما كنت أتوقّع.

فسألتها بقلق:

- أتراه فطن إلى حديثك معي عنه؟.

فنفت ذٰلك بهزّة من رأسها.

- أله سابقة في ذٰلك؟

- هي الأولى، والأخيرة كما أرجو...

ـ يحسن بك أن تقلّلي من الشكوى والرثاء.

فتنهّدت قائلة:

ـ إنّك لا تدري كم إنّه تعيس!

***

وفي أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث!

لم يُثِرْ تلك المرّة أيّ تساؤلات ولا عنفًا في ردود الأفعال. تبادلنا النظرات. هززنا رءوسنا، نطقنا بكلمات لا معنى لها:

ـ كالعادة.

ـ نفس النتائج.

ـ لا جدوى من التفكير.

أمّا قرنفلة فقد صمتت طويلًا فوق كرسيّ الإدارة ثمّ استرسلت في الضحك طويلًا حتّى دمعت عيناها وجعلتنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين.

ـ اضحكوا... اضحكوا...

وجفّفت عينيها بمنديلها الصغير وواصلت:

ـ اضحكوا، جفّت الدموع ولكن لنا الضحك، الضحك أقوى من البكاء وأسلم عاقبةً، اضحكوا من صميم القلوب، اضحكوا حتّى يسمعنا أصحاب الحوانيت بشارعنا السعيد...

وسكتت دقيقة ثمّ استأنفت:

ـ هل نحزن لأمور تقع بانتظام مثل الشروق والغروب؟... سوف يعودون، وسيجلسون بيننا كالأشباح، وعهد الله أن أسمّي المقهى وقتذاك «مقهى الأشباح».

ثمّ نظرت إلى عارف سليمان وقالت آمرة:

ـ قدّم كأسًا لكلّ زبون من زبائننا الكرام لنشرب نخب الغائبين!

وانطوت السهرة في كآبة شاملة...

على أنّنا سرعان ما نسينا همومنا القريبة التي تُعَدّ شخصيّة بالقياس إلى الأحداث الكبيرة التي اجتاحت الوطن. فقد تطايرت الشائعات وما ندري إلّا والجيش المصريّ ينطلق بكلّ ثقله إلى سيناء، فاشتعلت المنطقة كلّها بنذر الحرب. ولم يداخلنا شكّ في قوّتنا ولكن..

ـ أمريكا، هي العدوّ الحقيقيّ.

ـ إذا هجم الجيش انهالت علينا الإنذارات.

ـ سيتحرّك الأسطول السادس.

ـ ستنطلق الصواريخ نحو الدلتا.

ـ ألا يصبح استقلالنا نفسه في خطر؟

الحقّ أنّنا لم نشكّ في قوّتنا. تداعت كثير من القيم أمام أعيننا وتلوّثت أيدي لا حصر لها ولكنّنا لم نشكّ في قوّتنا. وإنّه لتفكير لا يخلو من سذاجة ولكن عذرنا أنّنا كنّا مسحورين، ومصرّين على الأمل، وبدا أنّه فوق طاقتنا أن نكفر بأوّل تجربة وطنيّة خالصة جاءت في ختام سلسلة من عصور الذلّ والاستعباد. ولبثنا متلهّفين حتّى استيقظنا على أعنف مطرقة صكّت رءوسنا الثملة بنشوات العظمة. ولن أنسى ما زفره طه الغريب، وهو أطعننا سنًّا، فقد تجلّى الأسى في عينيه وقال:

ـ ها أنا ذا على حافة القبر، وسيجيء الأجل بعد أسبوع أو شهر، فيا ربّي لِمَ لَمْ تعجّل به قبل أن يدركني هذا اليوم الأسود!

وأحرق الحزن قلوب الشعب البريء، ولم يعد له من أمل في الحياة إلّا أن يردّ الضربة ويستردّ الأرض، ولكنّي أنصتُّ هنا وهناك إلى قلوب تخفق بالشماتة والفرح، وبدأت أدرك أنّ الصراع ليس صراعًا وطنيًّا خالصًا، وأنّ الوطن ينزوي حتّى في أشدّ أحوال المحن في خضمّ صراع آخر يحتدم حول المصالح والعقائد، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيّام وأعوام حتّى وضحت جوانبها وتعرّت جذورها، فإذا بيوم ٥ يونيه يستوي في التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضًا، وأنّه جاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية، وليعلن حربًا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب.

***

وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الغائبون أو بالأحرى عاد إسماعيل الشيخ وزينب دياب وآخران. وجدنا في عودتهم فرحة عابرة وسط الأحزان وتعانقنا طويلًا.

وهتف إسماعيل الشيخ بصوت مضطرب:

ـ ها نحن أولاء نعود.

ثمّ بنبرة أعلى:

ـ وقد قُبض على خالد صفوان!

فقال محمّد بهجت:

ـ كثيرون انتقلوا من مقاعد الحكم إلى أعماق السجون؟

ووقفت قرنفلة وراء الخوان وتساءلت:

ـ أين حلمي؟

ولكنّ أحدًا منهم لم يجب فعادت تسأل بإلحاح وضيق:

ـ أين هو؟ ولِمَ لَمْ يحضر معكم؟

لم ينبس أحد بكلمة بل وتجنّبوا النظر نحوها فهتفت:

ـ ألا تريدون أن تتكلّموا؟

ولّما لم تسمع صوتًا صرخت:

ـ لا!... لا!

ثمّ مخاطبة إسماعيل:

ـ تكلّم، قل أيّ شيء يا إسماعيل.

ثمّ تقوّس ظهرها فوق الخوان كأنّما تعاني تمزّقًا في بطنها. لبثت كذلك مدّة في صمت شامل، ثمّ رفعت رأسها وهي تتمتم:

ـ الرحمة... الرحمة يا أرحم الراحمين!

وأوشكت أن تنهار لولا أن تلقّاها بين يديه عارف سليمان، ثمّ مضى بها إلى الخارج. عند ذاك قال إسماعيل الشيخ:

ـ قيل إنّه مات في أثناء التحقيق.

وقالت زينب:

ـ هٰذا يعني أنّه قُتل.

كان الحزن ـ كالفرح ـ يُنسى بسرعة في تلك الأيّام. وقد قدّمت العزاء لقرنفلة ولكنّها لم تفقه لكلامي معنى.

وانداحت تلك الموجة الطارئة فعدنا نتابع الأحداث ونمضغ الأحاديث ونعاني الأيّام فنحملها فوق كواهلنا ثمّ نمضي بخطوات ثقيلة متعثّرة. نستعيد من وحدتنا بالتلاقي وكأنّنا نتّقي ضربات المجهول بالتلاصق، ومخاوف الاحتمالات بتبادل الآراء، وهجمات اليأس العاتية بالنكات الساخرة الأليمة، والخطايا الكبرى بزفرات الاعتراف الحارّة، وفظاعة المسئوليّة بتعذيب النفس، وتجهُّم الجوّ الخانق بالأحلام المفتعلة. لم نكفّ لحظة عمّا كنّا فيه والساعات تمضي في أثر الساعات ونحن نحترق ونتهالك ونخوض ظلمات فوقها ظلمات تحتها ظلمات.

وكان أشدّنا مناعة حيال الوباء إمام الفوّال الجرسون وجمعة مسّاح الأحذية، فهما يرفضان الهزيمة ويصدّقان الراديو ويحلمان بيوم النصر. ولكنّهما بمرور الأيّام مضى شعورهما بالكارثة يفتر، واهتمامهما بالحياة اليوميّة يتصاعد، ثمّ انحدرا في طريق اللامبالاة إلّا ما استقرّ في أعماق النفس من حزن دائم خفيّ. وأمّا جماعة الشيوخ فقد ارتدّت مع الأيّام إلى الماضي.

ـ لم نصل إلى مثل هٰذه الحال في أيّ عهد من العهود.

ـ حسبنا ما كنّا نستظلّ به من حماية القانون.

ـ وحتّى أعنف أيّام الاستبداد لم تخلُ من صوت معارضة حرّ...

ـ وأيّام الجهاد والنفي والفداء المجيدة كيف يمكن أن تُنسى؟!

وما لبثوا أن رجعوا إلى الوراء أكثر وأكثر حتّى استقرّوا في عهد ابن الخطّاب والرسول فتنافسوا في نبش الماضي يستخرجون أمجاده يتسلّون بها عن حاضرهم.

وكان زين العابدين عبد الله يتابعهم بين الاهتمام والاستهانة ثمّ أفصح عن رأيه قائلًا:

ـ الحلّ تملكه واحدة هي أمريكا!.

وصادف رأيه هوًى في نفس عارف سليمان الساقي فقال:

ـ صدقت.

ثمّ أشار إشارة شاملة وقال:

ـ سيتغيّر كلّ شيء من جذوره، وما هٰذه الصحوة إلّا الانتفاضة الأخيرة قبل تسليم الروح.

وبقي الشبّان وحدهم لا يسلّمون أنفسهم للماضي ولا يأملون خيرًا في أمريكا، ورويدًا رويدًا، وفي أعقاب إفاقتهم من الصدمة، راحوا يتكلّمون عن معركة بعيدة المدى، وصراع على مستوى العالم بين قوى التقدّم والإمبرياليّة، وعن تغييرات أساسيّة

جوهريّة في الداخل. وهكذا... وهكذا... وهكذا.

وبخلاف المسألة العامّة لم يحرّكني شيء سوى ما طرأ من تغيير ملموس على العلاقة بين زينب دياب وإسماعيل الشيخ. تسلّل مرض مجهول إلى روحيهما فباتا غريبين أو كالغريبين حتّى بتّ أعتقد أنّهما واريا حبّهما القديم التراب وأنّ كليهما قد استقلّ بحياته وأحزانه. وعند ذاك رجعت إلى ظنّي الأوّل عن حبّها لحلمي حمادة فملت إلى الأخذ به أكثر وأكثر.

وسرّني أن أرى قرنفلة وهي تستعيد نشاطها المألوف. واجمة متحفّظة أغلب الوقت، تصغي إلينا بلا مشاركة ولا اندماج، وتبدّت أكثر جدّيّة وأوغل في الكبر.

وبمرور الأيّام غابت وجوه، وتردّدت وجوه بين الغياب والحضور، واستمرّ الحال لا يكاد يتغيّر. وفي تاريخ متأخّر نسبيًّا تهيّأت لي ظروف وثّقت ما بيني وبين بعض أصدقاء الكرنك، وعند ذاك علمت منهم ما لم يكن لي به علم، فاطّلعت على خبايا الأحداث والقلوب وشربت الكأس حتّى الثمالة.

إسماعيل الشيخ

حقًّا علمت ما لم يكن لي به علم.

وقد أثار إسماعيل الشيخ اهتمامي من أوّل لقاء ببنيانه القويّ وقسماته الكبيرة الواضحة. لم أرَ عليه سوى بدلة واحدة، يرتديها صيفًا وشتاء، يخلع جاكتتها صيفًا ويعيدها شتاء بالإضافة إلى بلوفر. ورغم فقره الظاهر حظي بالاحترام، وقد نال أخيرًا الليسانس رغم اعتقالاته المتقطّعة.

- إنّي ابن بيئة فقيرة جدًّا. هل سمعت عن حارة دعبس بالحسينيّة؟، أبي عامل في مطعم كبدة، أمّي بيّاعة سريحة وهي تبيع أيضًا الخوص والريحان في مواسم القرافة، إخوتي الكبار صبيّ جزّار وسوّاق كارو وإسكافيّ، مسكننا مكوّن من حجرة وحيدة في فناء ربع، الربع كأنّه أسرة كبيرة يجاوز أفرادها الخمسين عدًّا، وليس به حمّام ولا ماء، وبه مرحاض واحد في الفناء تُحمل إليه المياه بالصفائح، وفي الفناء يجتمع النساء، والنساء والرجال أحيانًا، يتبادلون الأحاديث والنكات وربّما الشتائم واللكمات ويأكلون ويصلّون.

وينظر إليّ بتجهّم ويقول:

- لم يتغيّر شيء جوهريّ في حارة دعبس حتّى اليوم.

ولكنّه يستدرك:

- غير أنّ المدارس فتحت أبوابها، تلك نعمة لا يمكن إنكارها، دخلت مع الداخلين، ولعلّ أبي كان يتمنّى لي الفشل حتّى يتخلّص منّي بإلحاقي بحرفة مثل إخوتي ولكنّي خيّبت ظنّه وواصلت النجاح حتّى نلت الثانويّة العامّة، وأمكنني الالتحاق بكلّيّة الحقوق، وعند ذاك غيّر الرجل رأيه وداخله زهو وعجب، أيمكن حقًّا أن يصير ابنه وكيل نيابة؟. وثمّة وظيفتان معروفتان جيّدًا في حارتنا: الشرطيّ ووكيل النيابة، وأهل حارتنا يتعاملون معهم كثيرًا كما تعلم، وصمّمت أمّي على أن أستمرّ «ولو بعت عيني».. والله وحده يعلم كم كلّفها أن تبتاع لي بذلة تليق بطالب في الجامعة ولكنّها اعتبرتها كعقار يجب المحافظة عليه، ويجوز إصلاحه أو ترميمه أو حتّى تجديده ولكن لا يجوز الاستغناء عنه.

ثمّ بحدّة:

- الحارة اليوم مكتظّة بالتلاميذ والتلميذات ولكنّ مستقبلهم مشكلة متداولة بين الأمم!.

وقد قامت الثورة وهو ابن ثلاثة أعوام، فهو ابن من أبناء الثورة بكلّ معنى الكلمة... ولذلك لم أخفِ عنه دهشتي لما حلّ به من آلام وقلت له:

- لقد ظنّك البعض شيوعيًّا أو من الإخوان.

فقال بيقين:

- لا هذا ولا ذاك، وانتمائي الوحيد كان إلى ثورة يوليو، أمّا الآن... وجعل يهزّ رأسه صامتًا كأنّما لا يدري ما يقول، ثمّ قال:

- وقد عشت دهرًا وأنا أظنّ أنّ تاريخ مصر يبدأ بالثالث والعشرين من يوليو، ولم أتّجه للبحث عمّا وراء ذلك إلّا بعد النكسة.

واعترف لي بأنّه آمن بالاشتراكيّة المصريّة وأنّ إيمانه بالدين لذلك لم يتزعزع فسألته:

ـ خبّرني عن إيمانك بها الآن؟.

فقطّب قائلًا:

ـ كثيرون يصبّون غضبهم عليها باعتبارها سببًا من أسباب الهزيمة، ولكنّ الحقيقة التي يجب أن تُعرف هي أنّه لم تكن توجد في حياتنا اشتراكيّة حقيقيّة، لذٰلك فإنّني لم أتخلّ عنها وإن تمنّيت أن أقطع الأيدي التي تطبّقها، وذٰلك ما فطن إليه من بادئ الأمر حلمي حمادة الله يرحمه.

ـ لماذا؟.

ـ كان شيوعيًّا!.

ـ إذن كان يوجد بينكم غرباء؟

ـ أجل، ولٰكن ما ذنبنا نحن؟.

وحدّثني عن زينب طويلًا:

ـ عرفت زينب في الحارة منذ الطفولة، هي تقيم في نفس الربع أيضًا، وكانت لنا ألعاب مشتركة تعرّضنا بسببها للضرب بالعصا، ولّما استوت صبيّة تجلّت ملامحها، كانت تسير فتجذب الأنظار وتحرّك الأشواق فأتصدّى أنا للدفاع عنها مستمدًّا الشجاعة من ذكريات الفتونة في حارتنا، وفي المرحلة الثانويّة حال بيننا الرقباء والتقاليد ولٰكنّ حبّنا كان قويًّا، يلهب المشاعر ويفرض ذاته على الجميع، وأخيرًا وجدنا حرّيّتنا في الجامعة وأعلنّا خطوبتنا وانتظرنا الزواج باعتباره ملاذنا الأخير، وها هي الأحلام تتبدّد ويموت كلّ شيء.

وجدنا في الجامعة حرّيّة لم يحلما بها من قبل، فوقت الطلبة لا يمكن أن يخضع لسيطرة حارة دعبس وتزمّتها، وكلّ غيبة ستجد لها عذرًا أو مبرّرًا، لذٰلك أمضيا ساعات طويلة معًا، وتعرّفت بأصحابه، وأصبحت من أهل الكرنك، واعتُقلت معه، ونضجت شخصيّتها فوق ما كان يتصوّر.

وضحك عاليًا وقال:

ـ طحنتنا أزمة الجنس، وتخبّطنا حيارى طويلًا، وأحاطت بنا مغريات تجارب حرّة تجري من حولنا، وقلت لها يومًا: «لا شكّ في حبّنا أو إخلاصنا وسوف نصبح زوجين، فما رأيك؟» وكنت أحتويها بين ذراعيّ في عناق حارّ ولكنّها قالت لي: «لقد أقسمت لوالدي»

فقلت لها: «هٰذا سخيف ولا معنى له، ألا تسمعين ما يقال؟» فقالت في ارتياب: «لست واثقة... ولا أنت!» وكنت أعاني آلامًا عنيفة وكانت أيضًا تعاني...

وساءلت نفسي إلى أيّ درجة تعتبر هٰذا الشوريّ ثوريًّا؟. إنّه ثوريّ من نوع خاصّ وهو لا يخفي إيمانه بالدين. وددت أن أسأله عن موقفه من الحرّيّة الجنسيّة ولكنّني خشيت أن يظنّ بي رغبة في التسلّل إلى أسرار زينب، فأبيت أن أستدرجه إلى البوح بما لا يريد البوح به.

ـ ومع ذٰلك فالحبّ الحقيقيّ يهب مناعة بخلاف ما يتصوّر كثيرون.

ولكنّني ما زلت أذكر قوله أيضًا:

ـ في السجن اجتاحنا الضياع فاهتزّ بناؤنا المتين من أساسه.

وتذكّرت أنّ الهزّات العنيفة في حياة البشر تعقبها استغاثات جنسيّة تشارف حدّ الجنون، فماذا يعني يا ترى؟. ولكنّه عاف ـ فيما بدا ـ الرجوع إلى الموضوع... وسألته:

ـ وحلمي حمادة؟.

فهتف:

ـ كان يتخطّى التقاليد بكلّ عنف.

ـ أكان من نفس البيئة؟.

ـ كلّا، كان أبوه مدرّس لغة إنجليزيّة، أمّا جدّه فكان عاملًا بالسكك الحديديّة.

ـ أكان يحبّ قرنفلة حقًّا؟.

ـ أجل، لا يداخلني شكّ في ذٰلك، لقد عرفنا المقهى مصادفة ولكنّه أصرّ على العودة قائلًا: «لنعد إلى مقهى المرأة» فعجبت لذٰلك ولكنّه قال: «إنّها جذّابة ألم تلاحظ ذٰلك؟» وكنّا راغبين في العودة كذٰلك، وقد أحببناها أيضًا كأصدقاء.

ولم تكن جاذبيّة قرنفلة موضع شكّ عندي فقد وقعت أنا نفسي في إسارها ولٰكن هل يكفي ذٰلك لأعدل عن ظنّي القويّ فيما يتعلّق بحبّ حلمي حمادة لزينب؟... ألا يجوز أنّه صرّح بما صرّح به مداراة لعاطفته الحقيقيّة؟!

- كان يحبّ قرنفلة، لعلّه لم يكن سويًا في عواطفه، لعلّه كان يروم عاطفة كالحبّ ولكنّها ليست الحبّ نفسه، ولكنّه على أيّ حال عاملها معاملة أمينة صادقة، لم يستجب قطّ لإغراء استغلالها رغم تيسّره له، وهو لا يخلو من مثاليّة في سلوكه، ومن ناحية أخرى كانت أحواله المادّيّة حسنة، وحسبك أن تعلم أنّنا ندين في ثقافتنا العامّة للكتب المعارة من مكتبته.

- لعلّه عطف على تاريخها المجيد.

فضحك وقال:

- كان يصغي إليها متظاهرًا بالتصديق ولكنّه لم يؤمن بكلمة واحدة، وكان يحبّها كما هي ولكنّه طالما سخر من مزاعم التجديد في الفنّ والتفرّد بالسلوك المثاليّ.

فقلت له كشاهد محايد:

- لقد كانت مثالًا طيّبًا في الفنّ والأخلاق!

فقال بحزن:

- فاتت فرصة إقناعه!

ولكن لماذا قضي على إسماعيل الشيخ بالاعتقال؟. خفت أن يجيب عن سؤالي - كما في الماضي - بالصمت غير أنّه قال مستأنسًا بتغيّر الظروف والأحوال:

- كانت ليلة، وكعادتي في فصلَي الربيع والصيف كنت أنام على أريكة في الفناء تاركًا حجرتنا الوحيدة لوالديّ، مستغرقًا في النوم عندما شعرت بنهار ينهمر على روحي كحلم، واستيقظت على هزّة شديدة، فتحت عينيّ فضاع بصري في ضوء باهر يتدفّق في عينيّ، جلست فزعًا فإذا صوت يسأل:

- أين مسكن الشيخ؟

فقلت:

- هنا، ماذا تريد؟، أنا ابنه إسماعيل.

فقال بارتياح:

- عظيم.

وأطفأ الكشّاف فساد الظلام؛ وبعد حين تبيّنت أشباحًا:

- قُمْ معنا.

- مَن أنتم؟

- لا تَخَفْ... نحن من رجال الأمن.

- ماذا تريدون؟

- ستجيب عن بعض أسئلة ثمّ تعود قبل طلوع النهار.

- دعوني أخبر والديّ وأرتدي بدلتي.

- لا داعي لذلك ألبتّة.

وقبضت يد على منكبي فاستسلمت، وسرت بينهم حافيًا بجلباب النوم، ثمّ دفعوا بي داخل سيّارة فجلست محاصرًا باثنين، ومع أنّ الظلمة كانت كثيفة إلّا أنّهم عصبوا عينيّ وأوثقوا يديّ، فسابت ركبتاي وتساءلت:

- لماذا تعاملونني هٰذه المعاملة وأنا بريء؟

- اصمت.

- خذوني إلى مسئول وسترون!

- إنّك في الطريق إليه.

ركبني رعب مميت، مميت بكلّ معنى الكلمة، ورحت أتساءل عن التهمة المأخوذ بها، لست شيوعيًّا ولا من الإخوان ولا إقطاعيًّا ولم يلفظ لساني بكلمة تنال هيبة العهد الذي أعدّه عهدي منذ وعيت ما حولي.

توقّفت السيّارة في مكان ما، أُخرجت منها، ثمّ سرت معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعيّ، حتّى دُفع بي إلى مكان، انفكّت القبضتان عن ذراعيّ. سمعت وقع الأقدام وهي تبتعد وصرير الباب وهو يُغلق. كانت يداي قد تحرّرتا كما رُفعت العصابة عن عينيّ ولكنّني لم أرَ شيئًا كأنّما قد فقدت البصر. تنحنحت فلم يجبني أحد. توقّعت أن تخفّ الظلمة باعتياد النظر فيها ولكنّها لم تخفّ، ولم يندّ عن المكان صوت، ترى أيّ نوع من المكان هو؟!، مددت ذراعيّ المحسّس المجال، تحرّكت بحذر شديد، سَرَت برودة الأرض في قدميّ، لم أعثر بشيء إلّا الجدران، لا يوجد في الحجرة شيء، لا كرسيّ ولا حصيرة ولا أيّ قائم، الظلام والفراغ والحيرة والرعب، والزمان في الظلام والصمت يتوقّف تمامًا وبخاصّة وأنّني لم أعرف متى أُلقي القبض عليّ، ولا فكرة لي عن متى تنقشع الظلمة أو متى تُبعث الحياة في تلك الجثّة الشاملة. ولكن أحبّ أن أخبرك أنّ الإنسان يتحايل على المعاناة

إذا تخطّت حدودها، وأنّه في أعماق العذاب يتوثّب لطرح همّه باستهتار يستوي أن تعدّه قوّة أو يأسًا فاستسلمت للمقادير وقلت ليأتِ الشيطان إن كان مقدورًا له أن يأتي، وليأتِ الموت أيضًا. وكففت عن طرح الأسئلة التي لا جواب لها، ولكن طاب لي أن أذكر سلوك فيروس الإنفلونزا الذي يواجه مضادّات الحيويّة بخلق جيل جديد ذي مناعة ضدّ المضادّات.

وسألته:

- لبثت واقفًا؟

- عندما أنهكني الإرهاق قرفصت، ثمّ تربّعت على الأسفلت، وبقدرة قادر نمت، هل تتصوّر ذٰلك؟، ولّما استيقظت، وتذكّرت، أدركت أنّني فقدت موقعي من الزمن، أيّ وقت نمت؟، في أيّ لحظة أنا من ليل أو نهار، وتحسّست ذقني، وقلت ستكون هي ساعتي الكسيحة...

- تُركت طويلًا؟

- نعم...

- والطعام؟

- كان الباب يُفتح ويُدفع إليّ بطبق به جبن أو مادّة مملّحة ورغيف...

- والضرورة؟

- في ساعة محدّدة يُفتح الباب أيضًا فيدعوني عملاق كمصارعي السيرك ويقودني إلى مرحاض في نهاية طرقة فأتبعه مغمض العينين تقريبًا تفاديًا من ألم الضوء، وما أن يُغلق الباب ورائي حتّى يصيح بصوت كالرعد «أسرع يا بن الكلب... هل تبقى النهار بطوله يا بن العاهرة؟» ولك أن تتصوّر حالي في الداخل...

- ولا تدري كم يومًا لبثت؟

- الله وحده يعلم فلحيتي عند كثافة معيّنة لم تعد تسعفني...

- ولٰكنّهم حقّقوا معك ولا شكّ؟

فقال متجهّمًا:

- أجل... وجدتني يومًا أمام خالد صفوان!

وسكت مضيّقًا عينيه في تأثّر حتّى شدّني إلى مجال انفعاله.

- مثلت أمام مكتبه حافيًا رثّ الجلباب مهدّم الأعصاب، وورائي شخص أو أكثر وغير مسموح لي بالتلفّت يمنة أو يسرة فضلًا عن النظر فيما ورائي فلم أرَ من المكان شيئًا وتركّز بصري الكليل في شخصه وتحلّلت البقيّة الباقية من آدميّتي في رهبة شاملة...

وارتسم الامتعاض في قسماته مليًّا ثمّ واصل:

- ورغم كلّ شيء انطبع منظره في أعماقي بقامته الربعة ووجهه الضخم المستطيل وحاجبيه الغزيرين الناميين إلى أعلى وعينيه الواسعتين الغائرتين وجبهته العريضة البارزة وفكّيه القويّين وسحنته الخالية من أيّ تعبير، ورغم كلّ شيء أيضًا خلقت بقوّة اليأس أسطورة أمل في ذاته فقلت:

- أحمد الله على أنّني أجد نفسي أخيرًا أمام الرجل المسئول.

فأسكتتني لكمة جاءتني من وراء فتأوّهت عاليًا، أمّا هو فقال:

- لا تتكلّم إلّا إذا طولبت بجواب.

وسألني عن اسمي وسنّي وعملي فأجبت وعند ذاك سأل:

- متى انضممت إلى الإخوان؟

فذُهلت لغرابة السؤال وأدركت لأوّل مرّة نوعيّة التهمة الموجّهة لي وقلت بصدق:

- ما انضممت إلى الإخوان في يوم من الأيّام.

- ما معنى هٰذه اللحية إذن؟

- لقد نبتت في السجن.

- أيعني هٰذا أنّك عوملت معاملة غير طيّبة؟

فأجبته في شبه استغاثة:

- كانت معاملة مرعبة يا سيّدي وبلا أدنى مبرّر.

- ما شاء الله!

أدركت أنّني أخطأت ولكن بعد فوات الفرصة أمّا الرجل فرجع يسأل:

- متى انضممت إلى الإخوان؟

فشرعت في الإجابة قائلًا:

- ما انضممت...

ولكنّ الكلام انقطع. غصت في الأرض بطريقة مذهلة ثمّ ارتفعت الأرض متحدّية ضعفي بما يشبه

السحر، وسرعان ما ذاب خالد صفوان في الظلام. أخبرني حلمي حمادة فيما بعد أنّ ماردًا يقف ورائي صفعني بقوّة فأغمي عليّ، إذن قد أغمي عليّ، ثمّ وجدتني في الظلام الذي أخذت منه على الأسفلت...

قلت برثاء:

- يا له من عذاب!.

- وقد انتهى فجأة وعلى غير انتظار، في حجرة خالد صفوان أيضًا، ساقوني إليه فبادرني قائلًا:

- ثبت أنّ اسمك دُوّن في السجلّ لأنّك تبرّعت بقرش لبناء جامع ودون أن تكون لك صلة بهم.

فقلت بانفعال وتهدّج:

- ألم أقل لك ذٰلك يا سيّدي؟

- الخطأ له عذر أمّا التهاون فلا عذر له.

ثمّ بقوّة:

- نحن نحمي الدولة التي تحرّركم من كافّة أنواع العبوديّة.

- وإنّي من أبنائها المؤمنين.

- اعتبر الأيّام التي أمضيتها هنا ضيافة، وتذكّر دائمًا أنّك عوملت معاملة طيّبة، أرجو أن تتذكّر ذٰلك دائمًا، وأنّ عشرات الرجال سهروا الليالي في جهد متواصل حتّى ثبتت لهم براءتك.

- الشكر لله ولكم يا سيّدي...

وضحك إسماعيل الشيخ بمرارة عند تلك الذكرى فسألته:

- وهل قُبض على الآخرين لنفس السبب؟

- كان يوجد بيننا اثنان من الإخوان، أمّا زينب فقد حقّقوا معها لعلاقتها بي وسرعان ما أُفرج عنها، وبسببي أيضًا قُبض على حلمي حمادة، فلمّا ثبتت براءتي ثبتت بالتالي براءته.

كانت التجربة قاسية جدًّا، وبسببها كفر بجهاز من أجهزة الدولة هو المخابرات أمّا إيمانه بالدولة نفسها، بالثورة، فلم يتطرّق إليه الشكّ أو الفساد وتصوّر أنّها - المخابرات - تمارس أساليبها في خفاء عن المسئولين.

- فكّرت عقب الإفراج عنّي في أن أرفع شكوى للمسئولين ولكنّ حلمي حمادة منعني بقوّة.

- واضح أنّه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها!

- بلى.

وفي أعقاب النكسة اتّجه إسماعيل لأوّل مرّة لدراسة تاريخ مصر الحديث:

- لا أخفي عنك أنّي أُعجبت بقوّة المعارضة وحرّيّتها وبالدور الذي لعبه القضاء المصريّ، لم يكن العهد شرًّا خالصًا وكان به عناصر فكريّة جديرة بالاستمرار والنموّ والازدهار، وكان التنكّر لها من أسباب نكستنا...

***

وحدّثني بعد ذٰلك عن اعتقاله الثاني:

- كنت في زيارة لحلمي حمادة في منزله، غادرته عند منتصف الليل، ألقي القبض عليّ فور خروجي من البيت، هٰكذا رجعت إلى حجرة الظلام والفراغ.

وتساءل في حيرة عن التهمة التي ستوجّه إليه، وطال انتظاره لذٰلك وهو يعاني عذابات الجحيم حتّى مثل مرّة أخرى أمام خالد صفوان.

- وقفت صامتًا مستفيدًا من تجربتي السابقة، متوقّعًا الشرّ - رغم ذٰلك - من جميع الجهات الأصليّة، وتفرّس خالد في وجهي وقال:

- يا لك من داهية، حسبناك يومًا من الإخوان!

فقلت بنبرة ذات مغزى:

- وظهرت براءتي!

- ولٰكن ما خفي كان أعظم.

فقلت بإخلاص:

- إنّي مؤمن بالثورة، هٰذه هي الحقيقة الوحيدة.

فقال بسخرية:

- الجميع مؤمنون بالثورة، في هٰذه الحجرة يجهر الإقطاعيّون والوفديّون والشيوعيّون بإيمانهم بالثورة!

وحدجني بنظرة قاسية ثمّ سأل:

- متى انضممت إلى الشيوعيّين؟

ووثب الرفض إلى حلقي ولٰكنّني كتمته وارتفع منكباي بحركة عكسيّة كأنّما ليخفيا قفاي، ولم أنبس. عاد يسأل:

- متى انضممت إلى الشيوعيّين؟

وشعرت بالتأزّم يلتفّ حول عنقي ولم أدرِ ماذا أقول

فواصلت الصمت.

ـ ألا تريد أن تعترف؟

استسلمت للصمت كما تعوّدت أن أستسلم للبلاء في الحجرة المظلمة فتمتم:

ـ طيّب!.

ونـدّت عنه إشـارة من يده. سمعت وقـع أقدام تقترب فاقشعرّ بدني. وإذا بشخص يقف إلى جانبي. بطرف عيني أدركت أنّه أنثى. التفتُّ نحوها في دهشة وبـدافع من شعـور قَهَرَ خـوفي، ورغمًا عنّي هتفت «زينب!».

ـ ها أنت تعرفها ويهمّك أمرها فيما يبدو.

ونقّل عينيه الغائرتين بيننا ثمّ تساءل:

ـ ألا يهمّك أمرها؟

تمزّقت روحي دقيقة كاملة.

ـ أنت مثقّف ولك خيال فهل تتصوّر ما يمكن أن يحلّ بهٰذه الفتاة البريئة فيما لو أصررت على الصمت؟

سألته بنبرة رثاء موجّهة للدنيا جميعًا:

ـ ماذا تريد يا سيّدي؟

ـ إنّي أسأل متى انضممت إلى الشيوعيّين؟

فقلت دافنًا آخر شعاع من أمل:

ـ لا أتـذكّر تـاريخًا معيّنًـا ولكنّني أعـترف بـأنّني شيوعيّ.

وسجّلت اعـترافي على ورقـة ثمّ غادرت الحجـرة بين حرّاسي.

أعيد إلى زنزانته فلم يلقَ تعذيبًا إضافيًّا كما تـوقّع بادئ الأمر ولكنّه أيقن من الضياع.

ومضى عليه زمن لا يدريه حتّى مضى به حارس يومًا إلى باب مغلق وقال:

ـ لعلّك اشتقت إلى رؤية صديقك حلمي حمادة!

وأزاح غطاء عن عين سحريّة وأمره أن ينظر.

ـ نظرت فرأيت مشهدًا غريبًا تعذّر عـليّ احتواؤه لأوّل وهلة كمن يرى صورة سرياليّة، ثمّ تبيّن لي أنّ حلمي حمادة معلّق من قدميـه وهو صـامت ساكن، مغمى عليه أو ميتًا فتراجعت فزعًا أترنّح وغمغمت:

ـ هٰذا غير. . .

وانحبس صوتي لدى التقائي بنظرته المصبوبة عليّ، وتساءل:

ـ غير ماذا؟

شعرت بغثيان فعاد يسأل:

ـ هٰذا غير. . . غير ماذا؟

ـ غير إنسانيّ أليس كذٰلك؟!، والأحلام الدمـويّة التي تحلمون بها أهي إنسانيّة؟

ومضى زمن أصيب في أثنائه بإنفلوانزا حادّة عقب نزلة برد في ذٰلك الشتاء. واستدعي للقاء خالد صفوان وهو في دور النقاهـة. وكانت أقصى أمـانيه في ذٰلـك الوقت أن يُنقل إلى أيّ سجن أو معتقَل خارجيّ ولكنّ الرجل بادره قائلًا ببرود:

ـ إنّك سعيد الحظّ يا إسماعيل.

فرفعت إليه عينيّ بذهول فقال:

ـ ثبتت براءتك أيضًا هٰذه المرّة!

خارت قواي وشعرت برغبة عميقة في النوم.

ـ وكـانت زيارتـك لحلمي حمـادة بـريئـة، أليس كذٰلك؟

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ بلى يا سيّدي. . .

ـ إنّه شيوعيّ متحمّس، أليس كذٰلك؟

لم أدرِ ماذا أقول وعاودني الخوف.

ـ لقد اعترف، ومن حسن حظّه أيضًا أنّه قد ثبت أنّـه لا ينتمي لتنظيم أو حـزب ونحن نصيـد اليـوم العاملين لا الهواة!

فاستعدت الأمل في النجاة فقال:

ـ واضـح أنّـك تلتزم بـالصمت احـترامًـا لعهـد الصداقة!

وسكت لحظة ثمّ استطرد:

ـ وذاك الإيمـان بـالصـداقـة يجعلنـا نـطمـع في صداقتك!

ترى متى يأمر بالانصراف؟

ـ كن صديقًا لنـا، قلت إنّك تنتمي للثـورة وأنا أصدّقك، فلتكن صديقًا لنا، ألا يرضيك ذٰلك؟

ـ إنّه ليسعدني يا سيّدي.

ـ كلّنا أبناء ثورة واحدة وواجب علينا أن نصونها بقوّة، أليس كذٰلك؟

ـ طبعًا.

ـ ولكن لا بدّ من موقف إيجابيّ، نريد صداقة إيجابيّة!

ـ إنّي أعتبر نفسي صديقًا منذ البدء.

ـ أيرضيك أن تعلم بأنّ شرًّا يتهدّد الثورة وتسكت عنه؟

ـ كلّا!

ـ هٰذا ما نطالبك به، وستذهب إلى زميل ليهديك سواء السبيل، ولكنّني أحبّ أن أذكّرك بأنّنا قوّة تملك كلّ شيء ولا تخفى عنها خافية، تكافئ الصديق وتنكّل بالخائن!

وعند تلك الذكرى اسودّ وجهه واشتدّ أساه فتساءلت لأخفّف عنه:

ـ أكان بوسعك أن ترفض؟

فقال بحزن:

ـ ستجد دائمًا عذرًا ما، ولكنّ ذٰلك لا يجدي!

هٰكذا رجع من معتقله مرشدًا ذا مرتّب ثابت وضمير معذّب. وحاول أن يسوّغ عمله بانتمائه الثوريّ ولكنّ القلق لم يفارقه أبدًا.

ـ لأوّل مرّة أجتمع بزينب وأنا غريب لدرجة، لي حياتي السرّيّة الخاصّة المجهولة لها والتي يجب أن تظلّ مجهولة. . .

ـ أخفيت عنها الأمر؟

ـ نفّذت الأوامر والإرشادات. . .

ـ لتلك الدرجة آمنت بقوّة تسلّطهم؟

ـ أجل، وهو إيمان حقيقيّ، يضاف إليه الخوف الذي استهلك روحي. . .، وشعوري بالسقوط، ولم أفلح في إقناع نفسي بالشرف فكان عليّ أن أستهتر بكلّ شيء، ولم يكن ذٰلك باليسير عليّ نظرًا لتركيبي الأخلاقيّ واستقامتي الروحيّة فوقعت في التخبّط والعذاب. . . والأدهى من ذٰلك أنّني وجدت زينب في صورة جديدة تغشاها كآبة عميقة ولا أثر فيها للشعور بالنجاة فزدت إحساسًا بالغربة. . .

ـ ولٰكنّها صورة متوقّعة كما أنّها قابلة للتغيّر.

ـ ولكنّي لم أعثر على زينب الأصليّة أبدًا، وكانت ذات روح مرحة وثّابة، وكان يخيّل إليّ أنّ روحها لا يمكن أن تُقهر، ولٰكنّها انتهت، وحاولت تشجيعها، ولٰكنّها فاجأتني مرّة بقولها: «ما أحوجك أنت إلى مَن يشجّعك!».

وحدث أمر خارق في الأسبوع الأوّل عقب الإفراج عنه. كانا يسيران معًا بعد الانصراف من الكلّيّة فسألته:

ـ أين تذهب؟

ـ إلى الكرنك ساعة ثمّ إلى البيت.

فقالت وكأنّما تخاطب نفسها:

ـ أودّ أن أخلو إليك بعض الوقت.

خُيّل إليه أنّ ثمّة سرًّا يريد أن ينجلي فقال:

ـ نذهب إلى حديقة.

ـ أريد مكانًا آمنًا!

وحلّ حلمي حمادة المشكلة بأن دعاهما إلى شقّة قرنفلة ـ وهي شقّته أيضًا ـ وتركهما منفردين. وقال إسماعيل بقلق بريء:

ـ ستظنّ قرنفلة بنا الظنون.

فقالت باستهانة:

ـ لتقل ما تشاء!

وعبث به الشكّ، وأخذ يدها بين يديه فقبضت على يده ورفعتها إلى عنقها، وتلاقيا في قبلة طويلة، وجدها بعدها مستسلمة بين يديه، قال:

ـ كان أمر مفاجأة، غمرتني سعادة ولكن شابها قلق، وانعقدت فوق رأسي تساؤلات مبهمة، وكدت أسألها عن سرّ استسلامها ولكنّني لم أفعل. . .

وتبادلنا النظر حتّى قال:

ـ لعلّها الأحداث قد هزّتها!

ـ لعلّها. . .

ـ وساورني ندم، واتّهمت نفسي بأنّني انتهزت فرصة ضعف وانهيار.

ـ هل تكرّر ذٰلك؟

ـ كلّا.

ـ بلا محاولة من جانبك أو جانبها؟

ـ بلا أيّ محاولة. وظلّت روابطنا الخارجيّة وثيقة ولكنّ روحَيْنا انفصلتا. . .

ـ موقف غريب.

- إنّه الموت البطيء. وهو من ناحيتي له ما يفسّره أمّا من ناحيتها فلغز من الألغاز...

- لاحظت تغيّرًا ما في علاقتكما في الكرنك ولكنّني حسبته عارضًا.

- سألتها عمّا عانت في السجن في المدّة القصيرة التي قضتها فيه ولكنّها أكّدت لي أنّ معاناتها كانت قصيرة وتافهة.. وقد شاب إيماننا الثوريّ امتعاض راسخ، أصبحنا أكثر استعدادًا للإصغاء للنقد، انطفأ الحماس، تضاءلت الشعلة، أجل إنّ الإيمان الأساسيّ لم يقتلع، ولكنّنا قلنا إنّ الأسلوب يجب أن يتغيّر وإنّ الفساد يجب أن يُستأصل وإنّ أعوان الساديّين يجب أن يذهبوا، الثورة المجيدة أصبحت محاصرة...

وذات مساء عادا إلى مناقشة الموضوع مع حلمي حمادة في مسكنه، وقال حلمي حمادة:

- إنّي أعجب كيف أنّكما ما زلتما تؤمنان بالثورة!

فقال له إسماعيل:

- إنّ وجود الأمعاء بالجسم البشريّ لا يقلّل من جلال العقل...

فقال حلمي ساخرًا:

- إنّنا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة..

ثمّ قال لهما:

- علينا أن نعمل..

وأطلعهما على منشور سرّيّ سيقوم بتوزيعه مع بعض الرفاق. فقال لي إسماعيل:

- فوجئت بتصريحه، فزعت فزعًا شديدًا، تمنّيت أنّني لم أسمعه، وتذكّرت عملي السرّيّ الذي يطالبني بالإبلاغ عنه فورًا، تذكّرته فتزلزل كياني كلّه، وتراءت لعينيّ أعماق الهاوية التي سأتردّى فيها...

ومضت ساعة بعد ذلك، حلمي يتكلّم ونحن نصغي أو نعلّق بكلمات مقتضبة، عقلي شارد تمامًا وحزني ثقيل، وقلت له:

- اعدل عن النشاط ومزّق المنشور.

فضحك هازئًا وقال:

- يا لك من ماجن حقًّا!...

ثمّ مستدركًا:

- إنّه ليس الأوّل ولا الأخير!

وغادرنا بيته حوالى العاشرة. سرنا صامتين. أصبحت أشقّ أوقات علينا تلك التي نخلو فيها إلى أنفسنا. وافترقنا، هي بحجّة العودة إلى الربع وأنا بحجّة الذهاب إلى الكرنك. وضربت في الشوارع على غير هدى. عجزت عن اتّخاذ قرار. وطيلة الوقت عذّبني الخوف على نفسي، على زينب، لم اتّخذ قرارًا. رجعت إلى الربع حوالى منتصف الليل. استلقيت فوق الأريكة بملابسي، قلت لنفسي «لأتّخذنّ قرارًا أو أجنّ»، ولكنّني لم اتّخذ القرار، قرّرت تأجيل ذلك إلى الصباح ولكنّني لم أنم، وكنت ما أزال مسهّدًا حين اقتحموا عليّ خلوتي...

- تعني رجال الأمن؟

- أجل.

- في نفس الليلة؟

- في نفس الليلة.

- ولكنّه أمر مذهل وغير مفهوم.

- إنّه السحر، ولا تفسير له إلّا أنّهم كانوا يراقبوننا معًا ويتنصّتون علينا من بعيد.

فقلت له مواسيًا:

- على أيّ حال فإنّك رفضت أن تبلّغ عن صديقك.

- حتّى ذلك لا أستطيع أن أدّعيه بصدق لأنّني لم اتّخذ قرارًا...

هكذا وقع الاعتقال الثالث. ومثل أمام خالد صفوان قبيل الفجر فاستقبله بوجهه البارد وقال:

- خيّبت الأمانة وسقطت في أوّل امتحان.

فلم أنبس. فقال:

- حسن، نحن لا نقسر أحدًا على صداقتنا.

وجُلد مائة جلدة ثمّ أُلقي به في الزنزانة، في الظلام الأبديّ.

وحدّثني عن مصرع حلمي حمادة فقال إنّه مات في حجرة التحقيق. كانت به عصبيّة وجرأة. استفزّتهم إجاباته، تلقّى صفعات فهاج غضبه وحاول أن يردّ الاعتداء بمثله فانهال عليه حارس باللكمات حتّى أُغمي عليه، ثمّ تبيّن أنّه فارق الحياة.

- وعشت في الظلام زمنًا لا أدريه حتّى ذبت في

الظلام. . .

واستُدعي ذات يوم فظنّ أنّه ماضٍ لمقابلة خالد صفوان ولٰكنّه رأى وجهًا جديدًا، فأبلغه بنبإ الإفراج عنه.

ـ وقبل أن أغادر المبنى علمت بكلّ شيء.

ولاذ بالصمت مليًّا ثمّ استطرد:

ـ بقصّة الطوفان من أوّلها إلى آخرها.

ـ تعني الحرب؟

ـ أجل، مايو، يونيه، حتّى خبر القبض على خالد صفوان نفسه!

ـ يا لها من ساعة!. . .

ـ تخيّل حالي إن استطعت!

ـ أجل. . . أستطيع ذٰلك.

ـ وكانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وأفاقت من الذهول الأوّل فوجدت الميدان مكتظًّا بالأشباح والأحاديث والحكايات والشائعات والنكات. . . وانعقد الإجماع على أنّنا كنّا نعيش أكبر أكذوبة في حياتنا.

ـ وهل شاركت في ذٰلك الإجماع؟

ـ بكلّ قوّة العذاب الذي كان يفتّت مفاصلي، تبخّر إيماني وفقدت كلّ شيء.

ـ أظنّك اليوم جاوزت ذٰلك الموقف؟

ـ درجات ولا شكّ، على الأقلّ فإنّني حريص على تراث الثورة. . .

ـ وكيف كان موقف زينب؟

ـ مثلي تمامًا ولٰكنّها تكلّمت قليلًا ثمّ صمتت إلى الأبد، أذكر أوّل لقاء لنا عقب الإفراج عنّي. تعانقنا بميكانيكيّة، قلت لها بمرارة: لنتعارف من جديد فنحن بإزاء دنيا جديدة. فقالت لي: إذن دعني أقدّم لك نفسي أنا شخص بلا اسم ولا هويّة. فقلت لها: إنّي أعرف الآن تمامًا معنى قبض الريح. فقالت لي الأفضل أن نعترف بحماقتنا وأن نحترمها فهي كلّ ما بقي لنا. فأخبرتها عن مصرع حلمي حمادة فانخطف لونها وشردت طويلًا ثمّ قالت نحن الذين قتلناه كما قتلنا الألوف غيره. فقلت ـ غير مؤمن بما أقول ـ: ولٰكنّنا ضحايا ألا يمكن اعتبار الحمقى ضحايا. فقالت باستعاض وسخرية إنّ ذٰلك يتوقّف على درجة حماقتهم، ثمّ وقعنا جميعًا في الدوّامة كما تعلم ومضت تتقاذفنا خطط الحرب ومشاريع السلام ولا يلوح لنا شاطئ. وثمّة بارقة أمل وحيدة حيث يوجد الفدائيّون.

ـ إذن فأنت تؤمن بالفدائيّين؟

ـ وعلى اتّصال بهم وأفكّر جادًّا في الانضمام إليهم، ولا ترجع أهمّيّتهم إلى أعمالهم الخارقة ولٰكن إلى مزاياهم الفريدة التي تمخّضت عنها الأحداث، إنّهم يقولون لنا إنّ الإنسان العربيّ ليس كما يعتقد الكثيرون ولا كما يعتقد هو في نفسه ولٰكنّه يستطيع أن يكون معجزة في الشجاعة إذا شاء.

ـ ولٰكن هل توافقك زينب على ذٰلك؟

فسكت طويلًا ثمّ تساءل:

ـ ألم تدرِ بأنّه لم يعد بيني وبين زينب إلّا ذكريات زمالة قديمة؟!

ودهشت لاعترافه بالرغم من أنّني توقّعته وأنّه جاء مؤيّدًا لملاحظاتي واستنتاجاتي، وسألته:

ـ هل حدث ذٰلك فجأة؟

ـ كلّا، ولٰكن ليس من اليسير اختفاء رائحة جثّة إلّا بدفنها، في وقت ما وبخاصّة عقب تخرّجنا شعرنا بأنّه آن لنا أن نشرع في الزواج، وتحدّثت معها في ذٰلك رغم مشاعري الأليمة الدفينة، فلم تعترض ولٰكنّها لم توافق، أو قُلْ إنّها لم تتحمّس، وتحيّرت في معرفة السرّ ولٰكنّني ارتحت إلى الموقف بصفة عامّة، ثمّ لم نعد نطرق الموضوع إلّا في فترات متباعدة، ولم نواظب على اللقاء كما كنّا نفعل، وفي الكرنك كنّا نتجالس كزميلين لا كحبيبين، ولم أنسَ أنّ بوادر تلك الحال بدأت في أعقاب الاعتقال الثاني ولٰكنّها استفحلت بعد الاعتقال الثالث، ومضت العلاقة الخاصّة تهن وتتفتّت حتّى ماتت تمامًا. . .

ـ مات الحبّ إذن؟

ـ لا أظنّ. . .

ـ حقًّا؟

ـ نحن مرضى، أنا مريض على الأقلّ وأعرف أسباب مرضي، وهي مريضة أيضًا، وقد ينتعش الحبّ

يومًا وقد يستسلم لموت أبديّ، ونحن على أيّ حال ننتظر ولا يؤرّقنا الانتظار. . .

إنّهما ينتظران. ومنذا الذي لا ينتظر؟

«زينب دياب»

من أوّل نظرة جذبتني زينب بحيويّتها وملاحتها، بوجهها الخمريّ الرائق وقسماتها النامية في حرّيّة وعذوبة وجسمها القويّ الرشيق. ولعلّ استشفافها لإعجابي بها بغريزتها الفَطِنة هو ما مكّن لصداقتنا أن تتوطّد وأن تتناهى إلى ذروة الثقة، وهي قد نشأت في بيئة إسماعيل وفي ربعه. أبوها بيّاع لحمة رأس وأمّها في الأصل غسّالة ثمّ صارت دلّالة بعد كفاح طويل، ولها أخ سبّاك وأختان متزوّجتان. وبفضل مهنة الأمّ الأخيرة وفّرت للأسرة بعض ضرورات العيش وابتاعت لزينب الحدّ الأدنى ممّا يلزمها من ملابس. وكان نجاح زينب في المدرسة أمرًا غير متوقّع بقدر ما كان مثيرًا للعجب والمتاعب. ولم يجدوا بأسًا من تركها تلهو بتلك اللعبة حتّى يجيء ابن الحلال. ولذلك فإنّ الأمّ لم ترحّب من بادئ الأمر بإسماعيل الشيخ وكانت تعتبر التلميذ متعطّلًا بلا نهاية وعقبة في سبيل أيّ فتاة جميلة. وكانت أمّ زينب هي القوّة الحقيقيّة في الأسرة أمّا الأب فكان يكدح نهاره نظير بضعة قروش ما يلبث أن يبدّدها في خمّارة البوظة ويختم سعيه بمشاجرة عائليّة عنيفة. ومن عجب أنّ الأب المتدهور كان وسيمًا، يمكن أن يتكشّف وجهه الكالح النابت الشعر المغبرّ الأخاديد عن قسمات مليحة ورثتها زينب أمّا الأمّ القويّة فكانت أشبه برجل خشن.

ونشبت الأزمة المتوقّعة وزينب في الثانويّة العامّة إذ تقدّم لطلب يدها تاجر دجاج يُعتبر في الحيّ الفقير من الأغنياء. كان في الأربعين، أرمل، أبًا لثلاث إناث متزوّجات، رحّبت به الأمّ لينتشل بنتها من الربع والتعب الفارغ ويهيّئ لها حياة سعيدة. وعندما رفضت زينب العرض غضبت الأمّ، ولفح غضبها إسماعيل وأسرته، ثمّ قالت لابنتها:

- ستندمين، ستبكين بالدموع الغالية. . .

ولم تمرّ الواقعة بسلام فقد أطلق التاجر لسانه في ما بين زينب وإسماعيل، ففجّر بذلك عاصفة في الربع ولكنّ إرادة زينب انتصرت. وكان للتجربة أثرها في سلوكها، فتحدّيًا للاتّهامات الباغية قرّرت أن تحافظ على نفسها. ولم تُبالِ أن تُتّهم بالرجعيّة في نظر «البعض»، ولم تؤثّر ثقافتها الواسعة في موقفها.

- نحن نمثّل المحافظة في تقدّميّتها الوئيدة ولذلك وجدت في صيغة ثورتنا ما ترتاح إليه نفسي وبه تستقرّ.

وكانت تفهم نفسيّة إسماعيل بقدر ما تحبّه، وتؤمن بتماشي موقفهما وبأنّه لن يغفر لها تهاونها معه لو حدث مهما ادّعى من أقوال لا يؤمن بها في قرارة نفسه.

- وعمّ حسب الله تاجر الدجاج كان يريدني بأيّ ثمن في تلك الأيّام، ولم ييأس من رفضي يده، وتشفّع عندي بعجوز من المتعاملات معه ولكنّي لقّنته درسًا!

- أرادك بغير زواج؟

- وبثمن غالٍ.

وكانت تروي ذلك بفتور يتناقض مع الموقف فلم أفهم وقتذاك سرّ فتورها.

- وكذلك زين العابدين عبد الله فيما بعد.

- لا.

ندّت عنّي في دهشة فقالت بثقة:

- بلى.

- ولكنّه مجنون بقرنفلة؟

فهزّت منكبيها فتساءلت:

- أكان يداري طمعه في مالها بالتظاهر بالحبّ؟

- كلّا، كان يحبّها وما زال، ولكنّه طمع في مسرّة يتسلّى بها، ولعلّ الوغد ظنّني فتاة مستهترة.

- متى أعلن رغبته؟

- مرّات ولكنّي أقصد المرّة الأولى عقب أوّل اعتقال.

- رغم عناده أعتقد أنّه يائس من ناحية قرنفلة.

- ولماذا ييأس؟، إنّه قابع ينتظر رزقه.

ثمّ ختمت قصصها العاطفيّة قائلة:

- وغيرهما كثيرون!

وعند ذاك سألتها باهتمام خفيّ:

- ألم يكن المرحوم حلمي حمادة واحدًا منهم؟

فأجابت بدهشة:

ـ كلّا.

ـ أصارحك بأنّني تخيّلت بينكما حكاية!.

قالت بأسى:

ـ كنّا صديقين حميمين.

ثمّ بلهجة اعترافيّة:

ـ لم أحبّ في حياتي إلّا إسماعيل.

ـ أما زال هٰذا الحبّ قائمًا؟

ولٰكنّها تجاهلت سؤالي.

وقصّتها مع الثورة مكرّرة لقصّة إسماعيل. وعن أوّل اعتقال قالت لي:

ـ قُبض عليّ لصلتي المعروفة بإسماعيل، ولم تكن توجد شبهة ضدّي، كما أقسمت لهم بأنّه لم يكن يومًا من الإخوان، ولم أُحجز أكثر من يومين ولم توجّه إليّ إساءة.

وابتسمت في أسى وقالت:

ـ المتاعب الحقيقيّة صادفتني في البيت وقالت لي أمّي: هٰذا هو إسماعيل وهٰذه هي المصاعب التي تجيء من ناحيته.

وتجهّم وجهها وهي تستطرد:

ـ وتصادف أن جاء اعتقالي بعد أسبوع واحد من القبض على أبي بتهمة العربدة والاعتداء على شرطيّ!

فقلت لها بإكبار:

ـ إنّ تقدّمك خلال تلك الظروف نجاح باهر!

وقلت لخالد صفوان لِمَ تشكّون فينا؟ ألا ترى أنّنا أبناء الثورة، وأنّنا مدينون لها بكلّ شيء؟، فكيف تتّهموننا بالعداوة؟!.

فقال بسخريته الباردة:

ـ تلك حجّة ٩٩٪ من أعدائنا!.

وحدّثتني عن إيمانها القديم بالثورة، كيف أنّ الاعتقال لم ينل شيئًا من صميمه:

ـ غير أنّنا كنّا نشعر بأنّنا أقوياء لا حدّ لقوّتنا، أمّا بعد الاعتقال فقد اضطرب شعورنا بالقوّة وفقدنا الكثير من شجاعتنا، وثقتنا في أنفسنا وفي الأيّام، واكتشفنا وجود قوّة مخيفة تعمل في استقلال كلّيّ عن القانون والقيم الإنسانيّة، وبسبب ما عانيته من عذاب في فترة اختفاء إسماعيل قلت له:

ـ أليس من الحكمة أن ننطوي على أنفسنا حينًا وأن نتجنّب المجتمعات والأصحاب؟

ولٰكنّه أجابني ساخرًا:

ـ لقد قُبض عليهم بسببي وليس العكس.

فقلت لها معزّيًا:

ـ هٰكذا يعاني الإنسان عادة ثمنًا للثورات الكبرى.

فتساءلت وهي تتنهّد:

ـ متى يمكن أن تمضي الحياة عذبة بلا تعاسات مريرة؟!.

ثمّ حدّثتني عن اعتقالها الثاني. شعرت منذ البدء أنّني مقبل على سماع قصّة عنيفة للذكريات.

ـ كانت التهمة تلك المرّة هي الشيوعيّة!

ثمّ بتأثّر عصبيّ:

ـ وكانت فترة لا يمكن أن تُنسى.

ولّما مثلت أمام خالد صفوان قال لي ساخرًا:

ـ ها هي الصداقة بيننا تتوطّد.

فقلت له:

ـ لا أدري لم قُبض عليّ!.

ـ ولٰكنّني أدري.

ـ فما هو السبب يا سيّدي؟.

ـ السبب يرجع إلى مبادئ السيّدين الجليلين ماركس ولينين!.

وصمت وهو يتفرّس في وجهي بحدّة ثمّ قال:

ـ أجيبي تحت شرط ألّا ترجعي للحجّة البالية، حجّة كيف تشكّون فينا ونحن أبناء الثورة ألخ... ألخ.

فقلت له وأنا يائسة تمامًا من إقناعه:

ـ لسنا شيوعيّين وأقسم لك على ذٰلك.

فتمتم بغموض:

ـ يا للخسارة!...

ورُميت في الزنزانة معرّضة لعذاب مهين لا تقدّر أذاه إلّا امرأة فكان عليّ أن أحيا وأنام وآكل وأقضي الحاجة في مكان واحد!.

فغمغمت بأسى:

ـ لا.

ـ وكنت عرضة في أيّ لحظة لأن ينظر إليّ الحارس

من خلال منفذ في الباب ويتفرّج عليّ ساخرًا، هل تدرك معنى ذٰلك؟.

- نعم للأسف!.

- وذات يوم استُدعيت إلى مكتب خالد صفوان في أثناء التحقيق مع إسماعيل، ولمّا رأيته في ذلّه ويأسه طفرت الدموع إلى عينيّ ولعنت من صميم قلبي الدنيا، ولكنّني لم أبقَ هناك إلّا ريثما هدّدوه بتعذيبي ثمّ رجعت إلى زنزانتي القذرة لأبكي طويلًا ولأتعذّب يومًا بعد يوم.

واستُدعيت مرّة أخرى إلى حجرة خالد صفوان فقال لي:

- أرجو أن تكوني راضية عن ضيافتنا.

فقلت بجرأة:

- كلّ الرضى يا سيّدي، شكرًا لكم.

- ها هو صديقك قد اعترف بشيوعيّته!.

فهتفت:

- تحت تأثير تهديدكم.

- ولكنّه حقيقيّ بصرف النظر عن الوسيلة.

- قطعًا لا يا سيّدي، إنّها لفظاعة!.

فقال بغموض:

- إنّها لروعة!.

- روعة؟!.

فقال وهو يشير بيده إشارة خاصّة:

- سنرى!.

وسمعت أقدامًا تقترب حتّى طوّقتني تمامًا، ما عسى أن أقول؟!.

توقّفتْ عن الكلام، تصلّبتْ عضلات وجهها، وتوقّعتُ سماع شرّ يفوق ما سبق، قلت:

- فلننه الحديث إذا شئت؟.

- كلّا، إنّه ممّا يسرّ سماعه.

ثمّ وهي تنظر في عينيّ بتحدّ:

- قرّر أن يرى مشهدًا مثيرًا وممتعًا وخارقًا للمألوف.

فخفق قلبي بارتياع وتساءلت:

- ماذا تعنين يا زينب؟.

- ما أدركته تمامًا!.

- كلّا!.

- بالتمام والكمال.

- أمام عينيه!.

- أمام عينيه!.

وساد صمت كأنّه بكاء أخرس حتّى تمتمت:

- أيّ رجل ذٰلك الرجل!.

أقصد خالد صفوان.

- لا غرابة في منظره، يصحّ أن يكون أستاذًا في الجامعة أو رجلًا من رجال الدين.

فقلت بذهول:

- المسألة تحتاج لدراسة!.

فهتفتْ بعنف:

- دراسة؟!. هل تردّ الدراسة إليّ عرضي؟

فاستحييت ولذت بالصمت.

* * *

وبعد مرور أسابيع استُدعيت إلى حجرة خالد صفوان أيضًا، وجدته كعادته هادئًا أو أكثر هدوءًا من المعتاد كأن لم يقع شيء. وباقتضاب قال:

- لقد ثبتت براءتكم!.

نظرت إليه طويلًا فجعل ينظر إليّ بثبات ولا مبالاة، ثمّ صحتُ:

- أرأيت؟.

فأجاب بهدوء:

- إنّي أرى ما يمكن رؤيته!.

فهتفت بحنق:

- ولكنّي فقدت كلّ شيء.

- كلّا، كلّ شيء يمكن إصلاحه ونحن قادرون على كلّ شيء.

فصرخت بجنون:

- لا يصدّق أنّ ما يحدث هنا ممّا ترضى عنه الثورة!

- إنّها حماية الثورة وهي أهمّ على أيّ حال من الأخطاء المحدودة، ونحن نبادر إلى إصلاح ما ينبغي إصلاحه منها، وسوف تذهبين وقد اكتسبت قيمة جديدة هي صداقتنا.

أفحمت في بكاء عصبيّ طويل عجزت تمامًا عن مقاومته فتصبّر هو هادئًا حتّى سكتّ ثمّ قال:

ـ ستذهبين الآن إلى أحد معاونيّ وسيعرض عليك مشروع صداقة لا يقدَّر بثمن.

وصمت لحظات ثمّ استطرد:

ـ نصيحتي لك ألّا ترفضيه، إنّه فرصة العمر!.

* * *

أصبحت زينب مرشدة. عُرضت عليها امتيازات. تقرّر أن يكون إسماعيل رهينة حتّى بعد الإفراج عنه، طولبت بالسرّيّة المطلقة، أفهموها أنّها تعمل لحساب قوّة قادرة على كلّ شيء.

ـ وعندما رجعت إلى بيتي وخلوت إلى نفسي هالني ما خسرته، خسارة حقًّا لا تعوّض بأيّ ثمن، ولأوّل مرّة في حياتي وجدتني أحتقر نفسي حتّى الموت.

قلت معزّيًا:

ـ ولكن...

فقاطعتني:

ـ إيّاك وأن تدافع عنّي، إنّ الدفاع عن الهوان من ضمن الهوان.

ثمّ بحدّة:

ـ وجعلت أردّد بإصرار، أنّي جاسوسة وعاهرة!، وعلى تلك الحال قابلت إسماعيل.

ـ طبعًا أخفيت عنه أسرارك؟.

ـ أجل.

ـ لقد أخطأت يا عزيزتي.

ـ كان عملي السرّيّ أخطر من أن أفشيه لأيّ إنسان.

ـ أعني المسألة الأخرى؟.

ـ منعني الخوف والخجل، والأمل أيضًا، توهّمت بعد أن أصلح الخطأ بالجراحة أنّني يمكن أن أطمح إلى السعادة مرّة أخرى.

ـ ولكنّ ذلك لم يحصل، حتّى الآن؟.

فتمتمت بحزن عميق:

ـ هيهات!.

فقلت برجاء:

ـ لعلّي أستطيع أن أصنع جميلًا.

فقالت بنبرة ساخرة:

ـ هيهات، انتظر حتّى أكمل قصّتي، ربّما أكون قد أخطأت ولكنّني اندفعت في الطريق الوحيد المتاحة لي وهي تعذيب النفس، وإنزال أقصى العقوبة بها، واعتمدت على منطق غير عاديّ، قلت إنّني ابنة للثورة، ورغم كلّ ما حدث لم أكفر بجوهرها، وإذن فإنّني مسئولة عنها ومتحمّلة لمسئوليّتها بالكامل، وضمنًا فإنّي مسئولة عن كلّ ما حلّ بي. لذلك رفضت التظاهر بحياة الشرفاء وقرّرت أن أعيش كما ينبغي لامرأة بلا كرامة...

ـ شدّ ما ظلمت نفسك.

ـ وكنت أحتمل كلّ شيء إلّا أن يحتقرني إسماعيل، وفي الوقت نفسه لم أرد أن أخونه، ثمّ اضطرب تفكيري فضلّ ضلالًا كبيرًا.

وهزّت رأسها في أسى وقالت:

ـ وحدثت أمور كثيرة تعذّر معها إصلاح الحال أو الرجوع إلى نقطة الصواب... ورآني في تلك الحال عمّ حسب الله تاجر الدجاج.

رمقتها بقلق شديد فقالت:

ـ وجد الطريق ممهّدة تلك المرّة.

ـ لا.

ـ لِمَ لا؟، قلت هكذا ينبغي أن تمضي حياة الساقطة، ولا يجوز السقوط بلا ثمن...

ـ لا أصدّق.

ـ وقبضت الثمن...

شعرت بقرف الدنيا كلّها وجعلت تحدجني بنظرة ساخرة ثمّ قالت بتحدّ:

ـ وزين العابدين عبد الله أيضًا!

فاعتصمت بالصمت فقالت:

ـ وسّط لديّ إمام الفوّال الجرسون وجمعة مسّاح الأحذية.

ـ طالما اعتقدت في شرفها ووطنيّتها...

فقالت بدهشة:

ـ كانا كذلك ولكنّهما تدهورا مثلي تمامًا، ماذا حصل للناس؟، يُخيّل إليّ أنّنا صرنا أمّة من المنحرفين، تكاليف الحياة والهزيمة والقلق تفتّت القيم. إنّهما يسمعان عن الانحراف في كلّ مكان فلماذا يمنعهما منه؟... أؤكّد لك أنّهما يحترفان القوادة الآن، وبلا

حياء...

فتنهّدت متسائلًا:

- هل نيأس يا زينب؟

- كلّا، إنّها فترة كالوباء ثمّ تتجدّد بعدها الحياة.

فواصلت تقول دون اكتراث بكلامي:

- وقرّرت أن أعترف لإسماعيل!

فقلت دهشًا:

- ولكنّك قلت غير ذلك؟

- قرّرت أن أعترف له بطريقة مبتكرة فسلّمته نفسي!

- الحقّ أنّي عاجز عن فهم ما بينك وبين إسماعيل؟

- من العبث أن تحاول الوصول إلى منطق ثابت من خلال عاصفة...

- هل تحبّين إسماعيل؟

- لم أحبّ أحدًا سواه.

- ماذا عن الآن؟

- إنّي أشعر الآن بالموت لا الحبّ...

- زينب، إنّك ما زلت شابّة في مطلع الحياة وسوف يتغيّر كلّ شيء.

- إلى أحسن أم إلى أسوأ؟

- لا يوجد أسوأ ممّا نحن فيه فلا بدّ أن يكون التغيير إلى الأحسن...

- لنعد إلى قصّتنا، كان لي عزاء فيما أفعل بنفسي هو الشعور بعذاب العقوبة حتّى ارتكبت ما لا يمكن التكفير عنه بأيّ عقوبة...

- حقًّا؟

- أجل، بدأت تفزغ منّي؟

- إنّي أرثي لك يا زينب.

- ذهبت ذات مساء أنا وإسماعيل إلى بيت حلمي حمادة، وجدناه ثائرًا، واعترف لنا بأنّه يوزّع منشورات سرّيّة...

وتوقّفت عن الكلام تأثّرًا للذكرى فرحّبت بالاستراحة باعتبارها هدنة في معركة العذاب.

- بوغتُّ باعترافه وتمنّيت لو أنّني تخلّفت عن الاجتماع...

- إنّني أفهمك جيّدًا.

- وتذكّرت القوّة القادرة على كلّ شيء، ركبني الخوف، وخفت أوّل ما خفت على إسماعيل!.

آه... لقد اعتقد إسماعيل أنّهم اكتشفوا تقاعسه عن الإبلاغ بوسائلهم الخاصّة ولم يخطر بباله أنّ التي أوقعته هي زينب. وأنّها أوقعته وهي تتوهّم أنّها تدفع عنه الأذى!

وتبادلنا النظرات في صمت مثقل بالحزن حتّى قالت:

- أنا التي قتلت حلمي حمادة!

فقلت بصدق:

- قتله مَن قضى عليك بالعذاب...

- أنا التي قتلته، ورغم كلّ شيء قُبض على إسماعيل أيضًا، لماذا؟. لا أدري، وطال اعتقاله أكثر من المرّتين السابقتين، ورجع أشدّ تهدّمًا، لماذا؟. لا أدري، لقد سجّلت في تقريري أنّه عارَضَ صاحبه ونصَحَه بالعدول عن مشروعه. ولكن من العبث محاولة الاحتكام إلى المنطق...

- كنت أنت طليقة في تلك الأثناء؟

فقالت بسخرية:

- كنت حرّة، أستمتع بحرّيّتي، وبالوحدة والعذاب، ثمّ جاءت مقدّمات الحرب ونذرها، ومثل الناس جميعًا وثقت بقوّتنا إلى غير حدّ وقلت لنفسي إنّ كلّ شيء بخيره وشرّه سيخلد إلى الأبد، فلمّا وقعت الواقعة...

وصمتت في ذهول فقلت:

- لا داعي للشرح فقد عانيناه بأنفسنا ولكن هل أيّدت جماهير ٩، ١٠؟

- نعم، بكلّ قوّة...

- إذن ظلّ إيمانك لا يتزعزع؟

- بل لقد انهار من أساسه وآمنت بأنّه كان قصرًا من رمال.

- اسمحي لي بأن أصارحك بأنّني لا أفهم موقفك...

- الأمر بسيط جدًّا، لقد أشفقت من حمل المسئوليّة فجأة، خفتُ الحرّيّة بعد أن استنمت طويلًا إلى اللامبالاة، وأنت أكنت من الجماهير تلك اللحظة؟

ـ نعم كنت أتعلّق بآخر رمق من الكبرياء الوطنيّ!

فقالت بحدّة:

ـ عندما علمت بخبر الإفراج عن إسماعيل قلت لنفسي «سأراه مرّة أخرى بفضل الهزيمة!»

وتفكّرت في قولها بحزن وألم بالغين.

وحدّثتني عن هذيان أوّل لقاء تمّ بينها وبين إسماعيل عقب الإفراج عنه:

ـ ولّما تخرّجنا وتوظّفنا طغى حديث الزواج كضرورة يفرضها الحياء، كنّا نردّده بلا إيمان ونعبره إلى العزلة، وليس غريبًا أن أتغيّر وأن أتخلّى عن حلم الماضي ولكن ماذا غيّره هو؟... ماذا حدث له في أعماق السجن؟

كلّ منهما مقتنع بتغيّره هو ولكنّه يتساءل عن تغيّر الطرف الآخر. وكلّ منهما مقتنع بأنّه غير صالح للحياة الطبيعيّة. وأنا مقتنع معهما بذلك على الأقلّ في هٰذه الفترة التعيسة، إذ يلزم وقت كافٍ لتضميد الجراح وتطهير النفس، بل يلزم عمل يكون من شأنه إعادة الثقة إلى النفس والاحترام إلى الشخصيّة. غير أنّ مناقشة تلك الأمور تعذّرت عليّ بطبيعة الحال ولكنّني قلت متستّرًا بالعموميّات:

ـ الإنسان لا يتغيّر ـ أعني إلى أحسن ـ لا بالاستسلام ولا بالانتظار...

فقالت بامتعاض:

ـ ما أسهل التفلسف!

ـ ربّما، ولكنّ إسماعيل يتوجّه بقلبه هٰذه الأيّام نحو الفدائيّين.

ـ أعرف ذٰلك.

فتساءلتُ بعد تردّد:

ـ وفيم تفكّرين أنت؟

فصمتت لفترة غير قصيرة ثمّ قالت:

ـ قبل أن أجيبك عليّ أن أصحّح واقعة تخصّ إمام الفوّال وجعة، فالحقّ أنّ وساطتهما بين زين العابدين وبيني عقب الاعتقال الثاني تمّت بجهل وبراءة...

ـ أتعنين أنّهما بريئان ممّا رميتهما به؟

ـ كلّا، ولكنّهما سقطا في الأعوام الأخيرة لا قبل ذٰلك، وقد التبس عليّ الأمر وأرجو أن تذكر أنّني أروي قصّتي من الذاكرة وأنّي لا أضمن الدقّة في تفاصيلها...

فهززت رأسي في أسى وكرّرت سؤالي:

ـ فيمَ تفكّرين الآن؟

ـ أيهمّك حقًّا أن تعرف؟

ـ الحقّ أنّي لا أتصوّر أنّك مستمرّة في...

وتوقّفت رغمًا عنّي. فقالت تكمل كلامي:

ـ ممارسة البغاء؟

فلم أنكر ولم أوافق فقالت:

ـ أشكر لك حسن ظنّك.

فلم أعلّق بكلمة فقالت:

ـ إنّي أمارس حياة متقشّفة بكلّ معنى الكلمة.

فتساءلت بفرح:

ـ حقًّا؟

ـ أجل.

ـ وكيف حدث ذٰلك يا زينب؟

ـ سرعان ما حدث، بثورة مضادّة، ونتيجة لقرف لا يزول...

ثمّ تساءلت بحنان:

ـ أين أيّام البراءة والحماس أين؟!

خالد صفوان

في الكرنك يسيطر حديث واحد، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر، عامًا بعد عام، لا حديث لنا سواه. الجميع في ذٰلك سواء... محمّد بهجت، رشاد مجدي، طه الغريب، زين العابدين عبد الله، إسماعيل الشيخ، زينب دياب، عارف سليمان، إمام الفوّال، جمعة وشبّان جدد هم آخر عيّنة في تعاقب الأجيال، أمّا قرنفلة فقد انزوت في ثوب الحداد تراقب وتصغي أحيانًا ولا تخرج من الصمت.

ويضنينا الملل كثيرًا حتّى يقول قائلنا:

ـ اختاروا موضوعًا آخر قبل أن نجنّ.

فنتحمّس لاقتراحه بالألسنة، نطرق موضوعًا ما، نعالجه بفتور فسرعان ما يلفظ أنفاسه فنعود إلى موضوعنا الباقي، نقتله ويقتلنا بلا توقّف، بلا نهاية.

ـ الحرب، لا سبيل إلّا الحرب.

ـ بل العمل الفدائيّ ونركّز على الدفاع.

ـ الحلّ السلميّ ممكن أيضًا.

ـ الحلّ الوحيد الممكن هو ما تفرضه الدول الكبرى مجتمعة.

ـ المفاوضة تعني التسليم.

ـ المفاوضة ضرورة، كلّ الأمم تتفاوض، حتّى أمريكا والصين وروسيا وباكستان والهند.

ـ الصلح معناه أن تسيطر إسرائيل على المنطقة وتزدردها لقمة سائغة.

ـ كيف نخشى الصلح؟، هل ازدردنا الإنجليز أو الفرنسيّون؟

ـ إذا أثبت المستقبل أنّ إسرائيل دولة طيّبة عايشناها وإن ثبت العكس أزلناها كما أزلنا الدولة الصليبيّة من قبل...

ـ المستقبل لنا، انظر إلى عددنا وثرواتنا...

ـ المسألة عِلْم وحضارة...

ـ إذن فلنحارب، لا حلّ إلّا الحرب...

ـ روسيا لا تمدّنا بالسلاح الضروريّ...

ـ لم يبقَ إلّا حالة اللاسلم واللاحرب...

ـ هٰذا يعني الاستنزاف الدائم لنا...

ـ معركتنا الحقيقيّة معركة حضارة، السلم أخطر علينا من الحرب...

ـ فلنسرّح الجيش ولنبنِ أنفسنا من جديد.

ـ لنعلن الحياد ونطالب الدول الاعتراف به.

ـ والفدائيّون؟... أنت تتجاهل القوّة الفعّالة في الموقف...

ـ لقد انهزمنا وعلينا أن ندفع الثمن ونترك الباقي للمستقبل...

ـ عدوّ العرب الحقيقيّ هو العرب أنفسهم...

ـ قل الحكّام.

ـ قل أنظمة الحكم.

ـ كلّ شيء يتوقّف على اتّحاد العرب في العمل.

ـ لقد انتصر نصف العرب على الأقلّ في ٥ يونيه!

ـ لنبدأ بالداخل، لا مفرّ.

ـ عظيم، الدين، الدين هو كلّ شيء.

ـ بل الشيوعيّة!

ـ بل الديموقراطيّة.

ـ لتُرفع الوصاية عن العرب...

ـ الحرّيّة... الحرّيّة...

ـ الاشتراكيّة...

ـ لنقل الاشتراكيّة الديموقراطيّة...

ـ لنبدأ بالحرب ثمّ نتفرّغ للإصلاح.

ـ بل نبدأ بالإصلاح ثمّ تتقرّر الحلول في المستقبل.

ـ يجب أن يسير الاثنان معًا.

وهٰكذا إلى ما لا نهاية...

وذات مساء جاء المقهى رجل غريب يتأبّط ذراع شابّ، فجلس على كثب من المدخل، وقال للشابّ بصوت آمر:

ـ سأنتظرك هنا حتّى تشتري الأدوية، أسرع.

وذهب الشابّ ولبث الآخر جالسًا. كان متوسّط القامة، ذا وجه ضخم مستطيل وحاجبين غزيرين عريضين، وعينين واضحتين غائرتين، وجبهة بارزة، وكان شاحب اللون كأنّه مريض أو في دور النقاهة. وسرعان ما همس إسماعيل الشيخ في أذني:

ـ أرأيت الرجل الغريب عند المدخل؟... انظر إليه...

وكان قد لفت نظري كأيّ غريب يطرأ على المقهى، فسألته:

ـ ما له؟

فأجاب بصوت متهدّج:

ـ إنّه خالد صفوان!

فاجتاحني الذهول وغمغمت:

ـ خالد صفوان؟!

ـ دون غيره.

ـ هل أُفرج عنه؟

ـ انقضت مدّة سجنه وهي ثلاث سنوات ولكنّ أمواله مصادرة...

ورحت أسترق إليه النظر بحبّ استطلاع وتعجّب، أودّ أن أشرّحه لأعثر على العضو الزائد أو الناقص في كينونته. وانتقل الخبر من فرد إلى فرد حتّى ساد الصمت وتناوبته الأبصار. وغفل عنّا حينًا ثمّ مضى يستشعر التطلّعات المبهمة من حوله فتنبّه إلينا كمن يستيقظ من نوم. تحرّكت عيناه الغائرتان ببطء وحذر،

رأى ولا شكّ وجوهًا يعرفها حقّ المعرفة مثل زينب وإسماعيل، ونظر باهتمام إلى قرنفلة، ثمّ مدّ ساقيه، وتقلّصت شفتاه، لعلّه ابتسم، أجل لقد ابتسم، ولكنّه لم يضطرب كما توقّعت، لم يخفّ، وعنه ندّ صوت ضعيف يقول:

- هاللو!

ونظر إلى الوجوه التي يعرفها وقال:

- وقد يلتقي الشتيتان...!

وأغمض عينيه لحظة ثمّ قال وكأنّما يخاطب نفسه:

- شدّ ما تغيّرت يا دنيا، إنّي أعرف هٰذا المقهى، ها نحن نجتمع في مكان واحد مع أسوإ الذكريات...

فقالت قرنفلة ولم نكن سمعنا صوتها من زمن طويل:

- حقًّا أسوأ الذكريات!

فوجّه إليها الخطاب قائلًا:

- لست الحزينة وحدك اليوم.

ثمّ بصوت أقوى:

- كلّنا مجرمون وكلّنا ضحايا.

فقالت بحدّة:

- المجرم شخص والضحيّة شخص آخر.

- كلّنا مجرمون وكلّنا ضحايا، مَن لم يفهم ذٰلك فلن يفهم شيئًا على الإطلاق...

وعند ذٰلك رجع الشابّ فسلّمه لفافة الأدوية وأشار إلى الروشتّة وهو يقول:

- هٰذا الدواء غير موجود في السوق.

فنهض خالد قائلًا:

- عظيم، المرض موجود أمّا الدواء فغير متوفّر...

ونظر إلينا وهو يهمّ بالذهاب وقال:

- لعلّكم تتساءلون ما قصّته؟ ما قصّة ذٰلك الرجل؟. تجدونها في هٰذه الكلمات المنثورة:

براءة في القرية.

وطنيّة في المدينة.

ثورة في الظلام.

كرسيّ يشعّ قوّة غير محدودة.

عين سحريّة تعرّي الحقائق.

عضو حيّ يموت.

جرثومة كامنة تدبّ فيها الحياة.

ثمّ مضى يقول:

- إلى اللقاء.

وخلّف وراءه ذهولًا شاملًا، قال قوم إنّه يهذي، وقال آخرون إنّه يهزأ بنا، وغير هٰؤلاء وأولٰئك قالوا إنّه يحاول الدفاع عن نفسه، إنّه يقول إنّه بدأ من البراءة وإنّ قوى غشومة أفسدته، ولكن ما العين السحريّة؟ ما العضو الحيّ الذي مات؟ ما الجرثومة الكامنة التي دبّت فيها الحياة؟!

* * *

وبعد مرور شهر فاجأنا بحضوره كأوّل مرّة، تساءلنا لماذا يعود؟، لِمَ لَمْ يختر مكانًا آخر لينتظر فيه؟... أهو يتحدّانا؟... أهو يستعطفنا؟... أثمّة قوّة خفيّة تدفعه نحونا؟

قال وهو يجلس:

- أسعد الله مساكم...

ثمّ وهو يقلّب عينيه في وجوهنا:

- عندما يأمر الله بالشفاء سأنضمّ إلى مجلسكم...

فسأله منير أحمد وهو آخر مَن انضمّ إلينا من أحدث الأجيال:

- هلّا فسّرت لنا كلمتك المنثورة؟

فقال بيقين:

- إنّها واضحة بنفسها ولا تحتاج إلى تفسير، ثمّ إنّني أكره الخوض في ذٰلك!

فقالت له قرنفلة:

- يا خالد بك... إنّك تزعجنا!

فقال بهدوء:

- أبدًا، لا شيء يقرّب بين الناس مثل العذاب المشترك!

ثمّ بعد صمت قصير:

- أعدكم بالانضمام إليكم في أوّل فرصة!

وضحك ضحكة خافتة وتساءل:

- فيم تتحدّثون؟

وسكتنا في حذر، فقال:

- إنّي أعرف ما يقال، إنّه يقال في كلّ مكان،

اسمحوا لي أن أوضح لكم البواعث.

واعتدل في جلسته ثمّ واصل حديثه:

ـ يوجد في وطننا دينيّون، وهؤلاء يهمّهم قبل كلّ شيء أن يسيطر الدين على الحياة، فلسفة وسياسة وأخلاقًا واقتصادًا، وهم يرفضون التسليم للعدوّ ويأبون المفاوضة معه ولا يرضون عن الحلّ السلميّ إلّا أن يحقّق لهم ما يحقّقه النصر نفسه، أو فإنّهم ينادون بالجهاد، ولكن أيّ جهاد؟، تراهم يحلمون بخوارق الفدائيّين أو بمعجزة تنزل من السماء، وقد يقبلون السلاح الروسيّ وهم يلعنون الروس وبشرط أن يجيء دون قيد أو شرط، ولعلّهم يفضّلون حلًّا سلميًّا مشرّفًا يتحقّق بتدخّل أمريكا وينهي علاقتنا بروسيا الشيوعيّة نهائيًّا.

وصمت لحظات ثمّ واصل:

ـ ويوجد يمينيّون من نوع خاصّ، يتمنّون التحالف مع أمريكا وقطع العلاقات مع روسيا، ويرضون بحلّ سلميّ مع تنازلات لا مفرّ منها، ثمّ يحلمون بالتخلّص من النظام الحاليّ، والعودة إلى الديموقراطيّة التقليديّة والاقتصاد الحرّ.

ويوجد شيوعيّون ـ والاشتراكيّة فصيلة منهم ـ يهمّهم قبل كلّ شيء الأيدولوجيّة وتوثيق العلاقات بروسيا، ويرون أنّ خير الوطن وتقدّمه لن يتحقّقا إلّا من خلال الأيدولوجيّة ولو طال الانتظار، ولذلك فهم يرحّبون بالحلّ الذي يرسّخ الاتّجاه نحو الشيوعيّة وروسيا سلمًا كان أو حربًا، أم الحالة التي يُطلق عليها اللاسلم واللاحرب.

ومن عجب أنّه اكتسب شعبيّة عقب انصرافه، ونوّه كثيرون بقيمة عرضه، وبثراء مخزونه من الأسرار، بل وجد من يدافع عنه فيقول إنّه لم يكن مسئولًا عن جرائمه أو لم يكن يتحمّل المسئوليّة الأولى، حتّى قالت قرنفلة محتدّة:

ـ زحزحوا المسئوليّة من شخص لشخص حتّى تستقرّ في النهاية فوق كاهل جمعة مسّاح الأحذية!

ولكن وجد استعدادًا لقبوله إذا قرّر حقًّا الانضمام إلى الكرنك.

* * *

ونسي أمره تمامًا خلال ثلاثة أشهر، ولّما جاءنا مع تابعه في نفس الميعاد من المساء استُقبل استقبالًا عاديًّا كأنّه فرد عاديّ من الناس، ووجد نفسه في عزلة. ولذلك فتح هو الحديث من ناحيته فتساءل مقتحمًا لامبالاتنا:

ـ أما زلتم تتحدّثون؟...

فقال له زين العابدين عبد الله:

ـ كالعادة!

فأصرّ على إقحام نفسه قائلًا:

ـ لقد حدّثتكم عن آراء الطوائف ولكنّني لم أحدّثكم عن رأيي.

فسأله منير أحمد:

ـ عن الحرب؟

فقال بعجلة:

ـ هٰذه النقطة بالذات تحيّر العقول ولكنّي أراها بسيطة. فثمّة هزيمة، وعدم استعداد للحرب، فيجب أن نحلّها دون إبطاء ولو دفعنا الثمن، لننفق كلّ مليم على تقدّمنا الحضاريّ، ولكنّي في الحقّ أريد أن أتكلّم عن حياتنا بصفة عامّة.

ونجح في أن يلفت الأنظار إليه فقال:

ـ سأعترف لكم في الدقائق الباقية لي هنا بخلاصة تجربتي، لقد خرجت من الهزيمة أو قل من حياتي الماضية مؤمنًا بمبادئ لن أحيد عنها ما حييت، ما هي هٰذه المبادئ؟

أوّلًا ـ الكفر بالاستبداد والدكتاتوريّة.

ثانيًا ـ الكفر بالعنف الدمويّ.

ثالثًا ـ يجب أن يطّرد التقدّم معتمدًا على قيم الحرّيّة والرأي واحترام الإنسان وهي كفيلة بتحقيقه.

رابعًا ـ العلم والمنهج العلميّ هو ما يجب أن نتقبّله من الحضارة الغربيّة دون مناقشة أمّا ما عداه فلا نسلّم به إلّا من خلال مناقشة الواقع متحرّرين من أيّ قيد قديم أو حديث.

ثمّ تثاءب وهو يقول:

ـ هٰذه هي فلسفة خالد صفوان التي تعلّمها في أعماق الجحيم، والتي أعلنها في الكرنك حيث يجمعنا النفي والجريمة.

ملت نحو منير أحمد وقلت:

- لعلّ أيّامكم تكون أفضل.

فقال:

- أمامنا جبل شاهق علينا أن نزيحه.

فقلت بصدق:

- الحقّ أنّكم - أنت وزملاؤك - ثمرة لم تكن متوقّعة، فمن ظلام شامل انبعث نور باهر كأنّما تخلق بقوّة السحر.

- إنّك لا تدري بآلامنا.

- ولٰكنّنا شركاء.

رمقني بشدّة فسألته:

- خبّرني ما أنت؟.

- ماذا تعني؟.

- تحت أيّ صفة سياسيّة يمكن أن أصنّفك؟

فقال بضجر:

- اللعنة على الصفات جميعًا.

- من حديثك اقتنعت بأنّك تحترم الدين؟

- ذٰلك حقّ.

- وفهمت أيضًا أنّك تحترم اليساريّة؟

- ذٰلك حقّ.

- إذن فما أنت؟.

- أريد أن أكون أنا بلا زيادة ولا نقصان.

فتفكّرت قليلًا وقلت:

- أهو شوق للأصالة؟.

- ربّما.

- أيعني إذن الاتّجاه نحو الحضارة الغربيّة؟

- كلّا.

- إذن فأين توجد الأصالة؟.

فأشار إلى صدره وقال:

- هنا.

فتفكّرت مرّة أخرى ثمّ قلت:

- لعلّ الأمر يحتاج إلى مزيد من المناقشة.

فقال ببراءة:

- أعتقد أنّه ينبغي أن نتناقش طويلًا.

وأعلنت إعجابي بالشابّ كثيرًا حتّى برم بي زين العابدين عبد الله فقال لي مرّة هازئًا:

- سيجد نفسه بعد عامين أو ثلاثة موظّفًا بمبلغ زهيد فيختار بين أمرين لا ثالث لهما، الانحراف أو الهجرة؟

فغضبت قرنفلة وقالت له بحدّة:

- متى تخطئ فتنطق بكلمة طيّبة ولو مرّة؟.

فابتسم الرجل في استسلام وقال:

- الحقيقة مُرّة يا صاحبة السعادة.

فقالت بعناد:

- يوجد سبيل ثالث.

فسألها بخضوع:

- ما هو يا مولاتي؟

- هو الذي سيختاره صاحبنا!.

سررت جدًّا بانفعالها وعددته علامة طيّبة على بدء العودة إلى الحياة مرّة أخرى، ولٰكن خطر لي خاطر مثير، وتساءلت ترى هل شرعت قرنفلة تميل إلى الطالب؟، هل سيحلّ يومًا محلّ حلمي حمادة؟. إنّي لا أجهل حال بعض النساء في تلك السنّ وولعهنّ بالمراهقين، والتفاني في ذٰلك لحدّ المغامرة والهوس. ووجدتني أتمنّى - لو وقع شيء ممّا دار بخاطري - أن يمضي على صراط متوازن بلا أنانيّة من جهة ولا استغلال من الجهة الأخرى، ليتحقّق للحبّ النقاء والبراءة.

ديسمبر: ١٩٧١

حكايات حارتنا

الحكاية رقم ١

يروق لي اللعب في الساحة بين القبو والتكيّة. ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكيّة. أوراقها الخضر هي ينابيع الخضرة الوحيدة في حارتنا. وثمارها السود مثار الأشواق في قلوبنا الغضّة. وها هي التكيّة مثل قلعة صغيرة تحدق بها الحديقة، بوّابتها مغلقة عابسة، دائمًا مغلقة، والنوافذ مغلقة، فالمبنى كلّه غارق في البعد والانطواء والعزلة، تمتدّ أيدينا إلى سوره كما تمتدّ إلى القمر.

وأحيانًا يلوح في الحديقة ذو لحية مرسلة وعباءة فضفاضة وطاقيّة مزركشة فنهتف كلّنا:

- «يا درويش... إن شاالله تعيش».

ولكنّه يمضي متأمّلًا الأرض المعشوشبة أو يتمهّل عند جدول ماء، ثمّ لا يلبث أن يختفي وراء الباب الداخليّ.

- مَن هؤلاء الرجال يا أبي؟

- إنّهم رجال الله...

ثمّ بنبرة ذات معنى:

- ملعون مَن يكدّر صفوهم!

ولكنّ قلبي مولع بالتوت وحده.

وينهكني اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثمّ أغفو. أستيقظ فأجدني وحيدًا في الساحة، حتّى الشمس توارت وراء السور العتيق، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل. عليّ أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدْلَهِمّ الظلام. وأنهض متوثّبًا ولكنّ إحساسًا خفيًّا يساورني بأنّني غير وحيد، وأنّني أهيم في مجال جاذبيّة لطيف، وأنّ ثمّة نظرة رحيبة تستقرّ على قلبي، فأنظر ناحية التكيّة. هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل. درويش ولكنّه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل. طاعن في الكبر، مديد في الطول، وجهه بحيرة من نور مشعّ. عباءته خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كلّ تصوّر وخيال. ومن شدّة حملقتي فيه أثمل بنوره فيملأ منظره الكون. وخاطر طيّب يقول لي إنّه صاحب المكان ووليّ الأمر، وإنّه ودود بخلاف الآخرين. أقترب من السور ثمّ أقول بابتهال:

- إنّي أحبّ التوت...

فلم ينبس ولم يتحرّك فأتوهّم أنّه لم يسمعني، أكرّر بصوت أعمق:

- إنّي أحبّ التوت...

يخيّل إليّ أنّه يشملني بنظرة، وصوته الرخيم يقول:

- «بلبلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد».

ويخيّل إليّ أنّه رمى إليّ بثمرة فأنحني نحو الأرض لألتقطها فلا أعثر على شيء ثمّ أستقيم فأجد مكانه خاليًا، والظلمة تغشى الباب الداخليّ.

وأقصّ القصّة على أبي فيرمقني بارتياب فأؤكّدها له فيقول:

- تلك الأوصاف لا تكون إلّا للشيخ الكبير ولكنّه لا يغادر خلوته!

فأحلف له على صدقي بكلّ مقدّس فيسألني:

- ترى ما معنى الرطانة التي حفظتها؟

- سمعتها مرارًا ضمن تراتيل التكيّة...

فيصمت أبي مليًّا ثمّ يقول:

- لا تخبر بذلك أحدًا.

ويبسط يديه ثمّ يتلو الصمديّة.

وأهرع إلى الساحة فأتخلّف وحدي بعد ذهاب الصبيان. أنتظر ظهور الشيخ فلا يظهر. أهتف بصوتي الرفيع:

- «بلبلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد».

فلا يجيب. أعاني بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتي.

وأتذكّر الحادثة في زمن متأخّر، أتساءل عن حقيقتها، هل رأيت الشيخ حقًّا أو ادّعيت ذلك استوهابًا للأهمّيّة ثمّ صدّقت نفسي؟، هل توهّمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال في بيتنا عن الشيخ الكبير؟ هكذا أفكّر، وإلّا فلماذا لم يظهر الشيخ مرّة أخرى؟. ولماذا يُجمع الناس على أنّه لا يغادر خلوته؟ هكذا خلقت أسطورة وهكذا بدّدتها. غير أنّ الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرّت في أعماق نفسي كذكرى مفعمة بالعذوبة. كما أنّني ما زلت مولعًا بالتوت.

الحكاية رقم ٢

شمس الضحى تسطع والسماء صافية. من موقفي فوق السطح أرى المآذن والقباب، وأرى غرابًا واقفًا على وتد مغروز في سور السطح مربوط به حبل الغسيل. أرمق السطح الملاصق فيتحلّب ريقي. تحدّثني نفسي بأن أذهب إلى ستّ أمّ زكي لأحظى بشيء من الحلوى. وأعبر السور. أمضي نحو المنور، أطلّ من نافذة فيه مخلوعة الزجاج، أرى تحت المنور مباشرة ستّ أمّ زكي عارية تمامًا. تجلس على كنبة تتشمّس، تمشط شعرها، عارية تمامًا... منظر غريب وباهر، وهي في ضخامة بقرة. وأهتف:

- يا تيزة!

ترتعب، تنظر إلى فوق، لا تلبث أن تضحك، تصيح بي:

- يا عكروت... انزل...

أهبط بسرعة ثمّ أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل:

- أدخل؟

وتسمح فأدخل، أقترب من مجلسها فترمقني بنظرة باسمة وتقول:

- وقعت يا بطل...

وتستلقي على بطنها وتقول:

- دلّك لي ظهري.

أشمّر عن ساعديّ، أدلّك ظهرها بحماس ورضا، أشمّ رائحة جسد بشريّ معبق بالصابون والقرنفل، وهي تتمتم:

- تِسْلَم يداك!

ثمّ بمزاح:

- أنت عفريت من الجنّة!

ثمّ وهي تضحك:

- الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح.

ويزداد حماسي في العمل فتقول:

- ارفع يدك لفوق يا شيطان، هل ستخبر أمّك؟

- كلّا.

فتضحك وتقول:

- وعارف أيضًا أنّه يوجد ما لا يقال، حقيقة أنّك شيطان، هل تعلّمت التدليك في الكتّاب؟، ماذا تدرس في الكتّاب؟

- الفاتحة وألِف باء.

- ربّنا يحفظك وأشوفك ماشطة، ماذا ستأكل اليوم؟

- بامية.

- عظيم سأتغدّى عندكم.

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح، تنثال الملح من فيها بلا حساب، وكذلك النكات المكشوفة، فتحاول أمّي أن تبعدني ولكنّي أرجع، وتشير لها إشارات خفيّة محذّرة فأتشبّث بالبقاء وتتمادى هي في الدعابة.

وتسألها أمّي معاتبة:

- متى تصلّين وتصومين؟

فتجيب:

- في آخر شهر قبل يوم القيامة.

في الخمسين، مهذارة مرحة طروب ولكنّها لم تنزلق لسوء. وعمل ابنها زكي نجّارًا في حارتنا فسار بين

الناس مرفوع الرأس. وهي تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهديّة، أرملة، في كلّ بيت لها صديقة حميمة، لم تشتبك في مشاجرة واحدة في حارتنا الحافلة بالمشاحنات.

* * *

وتتنهّد أمّي ذات يوم وتقول:

- مسكينة يا أمّ زكي، ربّنا يرعاك ويشفيك...

تتوعّك صحّتها، وتأخذ في التدهور، تهزل بسرعة مذهلة كأنّها كرة ثُقبت، يترهّل جسمها فيغدو طيّات من الجلد خاوية، وتخيب في شفائها كافّة الوصفات. وتفتي حكمة حارتنا الخالدة بأنّ مرضها ليس مرضًا من الأمراض المعروفة ولكنّه فعل من أفعال «الأسياد» وألّا شفاء لها إلّا بالزار. ويجيء اليوم المشهود فيكتظّ بيت جارتنا بالنساء، ويعبق بالبخور، وتتسلّط عليه جوقة من السودانيّات يكتنفهنّ الغموض والأسرار. وأطلّ برأسي من المنور فأرى صديقتي في مشهد جديد، تجلس على عرش في عباءة مزركشة بالتلي والترتر، متوّجة الرأس بتاج من العاج تتدلّى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان، منقوعة القدمين في وعاء من ماء الورد تستقرّ في قعره حبّات من البنّ الأخضر. وتدقّ الدفوف وتهزج الحناجر النحاسيّة بالأناشيد المرعشة، فتفوح في الجوّ أنفاس العفاريت، ويدعو كلّ عفريت صاحبته المختارة من بين المدعوّات للرقص، فتموج القاعة بالحركات، وتتوهّج بالتأوّهات، وتذوب الأجساد في الأرواح. وها هي أمّ زكي تتلوّى بعنف كأنّما رُدّت إلى جنون الشباب، وعن فيها المزيّن بالأسنان المذهّبة يصدر صفير حادّ، ثمّ تركض دائرة حول العرش، ويتحوّل ركضها إلى اندفاع رهيب، وتدور وتدور حتّى تترنّح من الإعياء وتتهاوى مغشيًّا عليها...

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلًا:

- ليشهدنا خاتم الرسل الكرام.

* * *

وها هي الأيّام تمرّ.

وصحّة صديقتي لا تتحسّن.

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل في جزع:

- ماذا جرى لي؟... ماذا جرى لي يا ربّ؟!. أين أنت يا أمّ زكي؟!

ويضطرّ المعلّم زكي أخيرًا إلى نقلها إلى قصر العيني. وتودّع عيناي الدامعتان الكارو وهي تتأرجح بها. وتلمحني واقفًا فتلوّح لي بيدها وتقول:

- ادْعُ لي فإنّ الله يستجيب لدعاء الصغار.

فارفع عينيّ إلى السماء وأتمتم: «يا ربّ... رَجِّع لنا تيزة أمّ زكي».

ولكن كأنّ الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق.

الحكاية رقم ٣

اليوم جميل ولكنّه يعبق بسرّ.

أبي ينظر إليّ باهتمام. يبتسم لي برقّة وهو يحتسي قهوته. وهو يهمّ بالذهاب يداعب شعري ويربّت على منكبي بحنان ثمّ يمضي.

وأمّي تقوم بعملها اليوميّ بعصبيّة، تغضي عن عبثي وتقول لي مشجّعة:

- العب يا حبيبي...

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد.

وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولمّا أرجع أجد أمامي جارتنا الشاميّة أمّ برهوم. أعدو إلى المطبخ لأخبر أمّي ولكنّي لم أجدها، وأنادي عليها بلا جدوى فتقول لي أمّ برهوم:

- نينتك ذهبت في مشوار، وأنا معك حتّى ترجع...

فأقول محتجًّا:

- ولكنّي أريد أن ألعب في الحارة.

- وتتركني وحدي وأنا ضيفتك؟

وأصبر متضايقًا.

ويدقّ الباب فتومئ لي بالانتظار وتذهب. تغيب دقيقة وإذا بعمّ حسن الحلّاق ومساعده يدخلان باسمين فقلت لهما من فوري:

- أبي خرج.

فقال العجوز:

- نحن ضيوفك!، سنريك لعبة فريدة.

وجلس على كنبة وهو يبسمل ثمّ قال وهو يخرج من حقيبته أدوات بيضاء لامعة:

ـ يسرّك بلا شكّ أن تتعلّم كيف تستعمل هذه الأدوات.

وأهرع نحوه متملّصًا من ارتباكي!

ويجيء مساعده بمقعد فيجلسني عليه أمام المعلّم قائلًا:

ـ هكذا أفضل.

وإذا بيديه تكبّلانني من الذراعين والساقين بقوّة وإحكام فكأنّها ألصقت بالغراء والمسامير، فصرخت غاضبًا:

ـ ابعد عنّي.

واستغثت بأمّ برهوم ولكنّها كانت فصّ ملح ذاب...

ولم أفهم شيئًا ممّا يحدث حتى بدأت العمليّة الرهيبة، ها أنا أعاني هجمة وحشيّة طاغية لا أستطيع لها دفعًا ولا منها مفرًّا. وها هو الألم الحادّ القاسي ينشب أظافره الشوكيّة في لحمي وينساب بمكر شيطانيّ إلى أطراف جسمي وصميم قلبي. وها هو صراخي يدكّ الجدران ويجتاح أرجاء حارتنا.

* * *

لا أدري ماذا يدور مدّة من الزمن. أغوص في الماء بين اليقظة والنوم. تمرّ بي أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان.

وعند نقطة من الزمن تلوح لي أمّي بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع.

وقبل أن أفتح فمي محتجًا أو متّهمًا تضع بين يديّ هدايا الشيكولاطة والملبّس.

وأعيش أيّامًا بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة... ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات.

وأتنقّل من مكان إلى مكان مفرّجًا بين فخذيّ مبعدًا بيديّ الجلباب عن جسدي.

الحكاية رقم ٤

وأنا ماضٍ نحو القبو ينفتح باب بيت القيرواني تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث. منبع نور يتدفّق فيبهر القلب والبصر. بيضاوات ملوّنات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحة نقيّة. الدوكار ينتظرهنّ فأتسمّر أنا بين الدوكار وبينهنّ. ويرين ذهولي فتضحك وسطاهنّ وهي أشدّهنّ امتلاء وأغلظهنّ شفة وتقول:

ـ ما له يسدّ الطريق!

لا أتحرّك فتخاطبني مداعبة:

ـ أفِقْ يا أنت!

وأقول متأثّرًا بدفقة حياة مبهمة:

ـ بلبلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد.

فيغرقن في الضحك وتقول الكبرى:

ـ إنّه درويش.

فتقول الوسطى:

ـ إنّه مجنون!

وألقي بنفسي في ظلمة القبو فأمضي مهرولًا حتّى أخرج إلى نور الساحة أمام التكيّة. في رأسي حماس وفي قلبي نذير نشوة البراعم قبل أن تتفتح.

صُوَرهنّ الباهرة مستكنّة في متحف الأعماق.

بذور حبّ لم يُتَح لها أن تنمو لأنّها غُرست قبل أوانها.

الحكاية رقم ٥

اليوم سعيد.

سأذهب في صحبة أمّي إلى زيارة حرم المأمور.

هطلت الأمطار في الصباح الباكر ولكنّ الجوّ رقّ وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس. المياه تغمر فجوات الطريق وتخدّد جوانبه ولكنّني سعيد بزيارة حرم المأمور.

امرأة عملاقة، سمراء دكناء، في نقرة ذقنها وشم، ونبرتها ريفيّة غريبة، وضحكتها عالية، وقطّتها غزيرة الشعر نقيّة البياض ودائمًا تسبّح بذكر الله.

وتعانق أمّي مرحّبة وأنا أنتظر. تلتفت نحوي ضاحكة وهي تعبث بشعر رأسي، ترفعني بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليًا، تضمّني إلى صدرها فأغوص في أعماق طريّة، وأشعر ببطنها مثل حشيّة وثيرة ينبعث منها إلى جوارحي دفء مؤثّر.

أسير وراءهما وأنا أسوّي ما تشعّث من شعري وملابسي ولّما أفق من نفحة الدفء.

وتقول لأمّي:

ـ بتُّ أومن بأنّ القبو مسكون بالعفاريت...

فتبسمل أمّي فتقول الأخرى:

ـ إنّهم يخرجون عقب منتصف الليل.

فتقول لها أمّي محذّرة:

ـ إيّاك وأن تنظري من النافذة.

والاعب أنا القطّة حتّى تتوارى تحت الكنبة. أنظر إلى رأس ثور مثبت في الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنّيًا الوصول إليه. المضيفة تقدّم لي قطعة هريسة فأتناولها. أمنّي النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة.

ويطول الحديث ويتشعّب.

وتُشعل المرأة المصباح الغازيّ المدلّى من السقف.

تدور حول المصباح فراشة.

أتساءل متى تجيء لحظة الوداع الواعدة بالدفء؟

الحكاية رقم ٦

على حصيرة واحدة نقعد صبيانًا وبنات في الكتّاب. نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرّق مقرعة سيّدنا الشيخ بين قدم صبيّ وقدم بنت. وقت الغداء يتربّع كلّ منّا مستقبلًا الجدار بوجهه، يفكّ الصرّة ويفرش منديله كاشفًا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينيّة.

تسترق عيناي النظر إلى درويشة وهي تقرأ أو تأكل.

في الطريق أتبعها حتّى تميل إلى الزقاق المسدود ثمّ أسير إلى بيتي حاملًا لوحي وصورتها.

وفي موسم القرافة أضيق بالمكوث في الحوش فأمرق إلى الخارج فنتلاقى ـ أنا ودرويشة ـ بين القبور المكشوفة بلا تدبير.

وأشطر فطيرتي فأعطيها النصف، نأكل ونتبادل النظر.

ـ أين تلعبين؟

ـ في الزقاق.

هي تلعب في الزقاق المتفرّع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلّل إليه في النهار. يمنعني إحساس خفيّ ولكنّه غير بريء. ونتواعد بالنظر وبلا كلام. ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب.

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام.

ـ نجلس؟

ولكنّها لا تجيب.

أجلس على العتبة وأشدّها من يدها فتجلس. أتزحزح حتّى نتلاصق. يغمرني شعور بسرور غريب ذي أسرار. أمدّ يدي إلى ذقنها فأدير وجهها إليّ. أميل نحوها فأقبّلها. أحيط خاصرتها بذراعي. أصمت وأهيم وأذوب في دفقة إحساس مبهمة فأعرف السكر قبل الخمر.

وننسى الوقت والخوف.

وننسى الأهل والحارة.

حتّى الأشباح لا تفرّقنا.

الحكاية رقم ٧

في ليالي الصيف نسهر فوق السطح، نفرش الحصيرة والشلت، نستضيء بأنوار النجوم أو القمر، تلعب من حولنا القطط، يؤنسنا نقيق الدجاج. وتنضمّ إلينا في بعض الأحيان أسرة جارتنا الحاج بشير. وهي أسرة شاميّة مكوّنة من أمّ وثلاث بنات كبراهنّ في العاشرة. يحلو لهنّ في أوقات السرور أن يغنّين معًا أغنيات جبليّة فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفي بالبشرة البيضاء والأعين الملوّنة. أهيم بالأمّ وبناتها وألحّ في طلب السماع، ويستخفّني الطرب فأشارك في الغناء وأحرز في ذلك نجاحًا وإعجابًا حتّى تقول جارتنا:

ـ ما أحلى صوتك يا ولد!

وأجد في مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتي الصوتيّة كما يجد فيه قلبي الصغير نشوته في حضرة البهاء الأنثويّ. ويصبح الغناء هوايتي، وسماع أسطوانات المهديّة قرّة عيني، أمّا أغنيات الجبل فينشدها قلبي وحنجرتي معًا.

وتقول جارتنا لأمّي ذات يوم:

- الولد له صوت جميل.

فتقول أمّي بسرور:

- حقًّا؟

- لا يجوز إهماله!

- فليغنِّ كيف شاء فهو أفضل من العفرتة.

- ألا تودّين أن يكون ابنك مطربًا؟

فتؤخذ أمّي ولا تجيب فتواصل الجارة:

- ما له سي أنور وسي عبد اللطيف؟

- إنّي أحلم أن أراه يومًا موظّفًا مثل أبيه وأخوته...

- المغنّي يربح أكثر من مصلحة حكوميّة.

وأصغي باهتمام وأنا جالس على حجْر الجارة مزهوًّا بالدفء والمجد.

* * *

ولا تدوم أيّام السعادة والفنّ طويلًا فذات يوم أرى أمّي تهزّ رأسها بأسف وتتمتم:

- يا للخسارة!

فأسألها عمّا يؤسفها فتقول:

- جيراننا الطيّبون راحلون إلى برّ الشام.

ينقبض قلبي بالرغم من أنّني لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل:

- أهو بعيد؟

فتجيب بحزن:

- أبعد ممّا نستطيع أن نبلغه.

أودّ من صميم قلبي أن أغيّر الواقع، أن أرجع الزمن إلى أمس، ولكن كيف؟

وأودّعهم للمرّة الأخيرة وهم يستقلّون الحانطور وأقبّل يد الحاجّ بشير. وأتبع الحانطور نظري حتّى يخفيه منعطف النحّاسين. وأبكي طويلًا وأعاني مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية...

الحكاية رقم ٨

مواسم القرافة تُعدّ من أسعد أيّامي البهيجة. نشرع في الاستعداد لها مع العشيّ بإعداد الفطير والتمر. وفي الصباح الباكر أمضي بين أبي وأمّي حاملًا الخوص والريحان، تتقدّمنا الخادمة بسلّة الرحمة.

يسرّني تدفّق تيّارات الخلق، وطوابير الكارو، وأعرف باب الحوش كصديق قديم. ويجذبني القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهدَيه الشامخين، وسرّه المنطوي، وبإجلال والدي له، كما تجذبني شجيرة الصبّار. وتحت قبّة السماء تنطلق منّي وثبات فرح. ودفقات استطلاع لا يكدّرها شيء، ثمّ تتمّ المسرّات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحّاذين المتكالبين على الرحمة.

وتتغيّر الصورة بدخول همّام في إطارها.

تجيء أختي وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن. همّام في الرابعة أو يزيد عنها قليلًا، أجد فيه رفيقًا ذا حيويّة وجاذبيّة، يُخرجني بمؤانسته من وحدتي. جميل خفيف الروح، يلاعبني بلا ملل ويصدّق أكاذيبي وأوهامي.

وأجده ذات يوم راقدًا وصامتًا، أدعوه إلى اللعب ولكنّه لا يستجيب، وأُخبَر بأنّه مريض...

ويطبق على الجوّ اهتمام وحذر، ويتفشّى فيه ضيق وكدر، وأتلقّى أحاسيس مبهمة وغير سارّة، ويزيد من تعاستي قلق أمّي وجزع أختي ثمّ حضور زوجها...

وأسأل عمّا يحدث فأُبعَد عن المكان ويقال لي:

- لا شأن لك بهذا... العبْ بعيدًا...

ولكنّي أشعر بأنّ حدثًا غير عاديّ يحدث...

إنّه خطير حتّى إنّ أمّي تبكي. وأختي تصرخ. وألمح من بعيد صديقي مغطّى فوق الفراش مثل وسادة. لم يُترك له متنفّس. وأخيرًا يتردّد اسم الموت من قريب. وأفهم أنّه فراق يطول فأبكي مع الباكين، ويتألّم قلبي أكثر ممّا يجوز لسنّه.

لا تعود زيارة القبر من أيّامي البهيجة، ويتغيّر وقع منظره. أودّ أن أطّلع على خفاياه، وأتلقّى الكآبة من صمته. ولا يعزّيني أن يُقال إنّ همّام يمرح في الجنّة ويسقي أزهارها. ولا أتغلّب على لوعة الفراق مع كرّ الأيّام. إنّه الحزن والحبّ الضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب.

الحكاية رقم ٩

خبر يتردّد في البيت والحارة.

تقول إحدى الجارات لأمّي:

ـ أما سمعت بالخبر العجيب؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول:

ـ توحيدة بنت أمّ عليّ بنت عمّ رجب!

ـ ما لها كفى الله الشرّ؟

ـ توظّفت في الحكومة!

ـ توظّفت في الحكومة؟

ـ أي والله... موظّفة... تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال!

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله... إنّها من أسرة طيّبة... وأمّها طيّبة... وأبوها رجل صحيح!

ـ كلام... أيّ رجل يرضى عن ذلك؟

ـ اللّهمّ استرنا يا ربّ في الدنيا والآخرة...

ـ يمكن لأنّ البنت غير جميلة؟

ـ كانت ستجد ابن الحلال على أيّ حال...

وأسمع الألسن تلوك سيرتها في الحارة، تعلّق وتسخر وتنتقد، وكلّما لاح أبوها عمّ رجب أسمع مَن يقول:

ـ اللّهمّ احفظنا...

ـ يا خسارة الرجال!

توحيدة أوّل موظّفة من حارتنا. ويقال إنّها زاملت أختي الكبرى في الكتّاب. ويحفزني ما سمعته عنها إلى التفرّج عليها حين عودتها من العمل. أقف عند مدخل الحارة حتّى أراها وهي تغادر سوارس، أرنو إليها وهي تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات في حارتنا. وتلقي عليّ نظرة خاطفة أو لا تراني على الإطلاق ثمّ تمضي داخل الحارة. وأتمتم مردّدًا كالببّغاء:

ـ يا خسارة الرجال!

الحكاية رقم ١٠

أمّ عبده أشهر امرأة في حارتنا.

في قوّة بغل وجرأة فتوّة، حتّى زوجها سوّاق الكارو يتراجع أمام عنفها.

ولها بنتان جميلتان، دَوْلَت وإحسان.

في أيّ موقع من حارتنا تحظى بالتودّد، من التاجر والعامل والبائع والصعلوك، كلّ أسرة لها عمل وأجْر، هي الوسيطة والشفيعة والخاطبة والدلّالة والماشطة، وعند الخصومة فهي القوّة التي تبطش بالخصم.

وتزور أمّي أحيانًا فتحكي لها عن أحوالها. وقد يقتضي الأمر تمثيل ما وقع في آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدّج بالغضب والسبّ والقذف حتّى يتوهّم السامع أنّ التمثيل مشاجرة حقيقةً...

وهي تجاملنا في المواسم فتجيئنا بالكارو لتمضي بنا إلى زيارة المغاوري وأبي السعود طبيب الجراح.

وأنا الرسول الذي يوفَد إلى بيتها عند الحاجة. أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد في الفناء، ويتوق للقرب من دولت وإحسان.

دولت فتاة طيّبة، تفكّ الخطّ وتحفظ بعض سور القرآن. يحبّها شابّ متعلّم من حارتنا فيتزوّج منها متخطّيًا الفوارق ومجازفًا بمصاهرة أمّ عبده.

إحسان صورة مصغّرة من أمّها في أخلاقها ولكنّها باهرة الجمال. مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة، تتحدّى أمّها نفسها فتنشب بينهما المعارك المثيرة. ويطلب يدها فتيان كادحون ولكنّها ترفضهم تطلّعًا لفرصة فريدة كما حدث لأختها دولت. وإنّي صديقها رغم فارق السنّ. غرائزي الكامنة ترسل إنذارات خفيّة تمتزج في عينيّ بأشواق مبهمة. يبهرني حجمها المترامي وأعضاؤها الثريّة المتراقصة. وتدعوني أحيانًا لأساعدها وهي تغسل في الفناء. أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبيّة وأمضي كالمترنّح من ثقلها. أجلس قبالتها لأتسلّم منها الملابس بعد عصرها لأكوّمها في الطشت. في أثناء ذلك تتلصّص عيناي وهي ترامق تطلّعاتي باسمة.

وتقول لي ذات مرّة:

ـ خُذْ منديلي واذهب به إلى الشيخ لبيب.

وأذهب إلى الشيخ لبيب في مجلسه قبيل القبو. يتربّع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيّته البيضاء، مكحول العينين مزجّج الحاجبين. أعطيه المنديل وملّيمًا

وقطعة سكر، فيشمّ المنديل ويتفكّر مليًّا ثم يقول:

- عمّا قريب يمتلئ الكراز ويغنّي العصفور...

وأرجع إليها وأنا أردّد ما سمعته لأحفظه، ويسعدني دائمًا أن أؤدّي لها خدمة من الخدمات.

ويطلب يدها صاحب محلّ فراشة، غنيّ في الخمسين ذو زوجة وأولاد، فتتزوّج منه. تعاشره عامين ثمّ تختفي من بيته ومن الحارة جميعًا مخلّفة وراءها ضجّة وعارًا وإصابة في كبرياء أمّ عبده.

* * *

وفي ذات ليلة من ليالي الزمن الجاري الذي لا يتوقّف أجدني وجهًا لوجه مع إحسان. ترقص وتغنّي:

عـومـي عـلى المـيّـه يـا بـت يـا شـاميّـه

وتراني فيشعّ من عينيها نور العرفان. أقف ذاهلًا ولكنّها تتلقّاني ببساطة وبابتسامة مشجّعة. تقبل نحوي فتأخذني من يدي إلى حجرتها ثمّ تغلق الباب وتغرق في الضحك. وتقول لي بعد أن جلسنا:

- الدنيا واسعة ولكنّها في النهاية كالحُقّ.

وأتفرّس في وجهها فتسألني عن أمّها قائلة:

- كيف حال أمّ عبده؟

- عال.

- ودولت أختي؟

- بكريّها في المدرسة.

- ووالدتك وأخواتك؟

- بخير.

فتقول بمودّة:

- زرني كثيرًا.

وأسألها بعد تردّد:

- كيف جئت إلى هنا؟

فتضحك وتقول ساخرة:

- من نفس الطريق التي جئت منها أنت!

الحكاية رقم ١١

نقف في فناء المدرسة الابتدائيّة جماعات ننتظر نتيجة القبول. أنهينا مرحلة الكتّاب، وأدّينا امتحان القبول، وها نحن ننتظر إعلان النتيجة.

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضي في تلاوة الأسماء من كَشْف بيده ثمّ يقول:

- ليبقَ منكم مَن سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم.

لم أسمع اسمي. تشيع في نفسي فرحة شاملة. أعتقد أنّ سقوطي هو نهاية علاقتي بالتعليم وعصيّ المدرّسين، وأنّني سأستقبل من الآن فصاعدًا حياة ناعمة خالية من الكدر.

ويسألني أبي عن النتيجة فأجيبه بارتياح:

- سقطت ورجعت إلى البيت.

- اخص... تصوّرتك أفضل ممّا أنت...

فأقول بسرور:

- لا يهمّ!

- لا يهمّ؟

- إنّي أكره الكتّاب وأكره سيّدنا الشيخ وأكره الدروس... فالحمد لله على أنّني تخلّصت من ذلك كلّه...

فيقطّب أبي متسائلًا:

- أتظنّ أنّك ستمكث في البيت؟

- نعم، هٰذا أفضل.

- لتلعب مع الأوباش في الحارة، أليس كذلك؟

فنظرت إليه بقلق فقال بحزم:

- سترجع إلى الكتّاب عامًا آخر، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك...

وأهمّ بالاحتجاج فيقول:

- استعدّ لعمر طويل من التعلّم، ستتعلّم مرحلة بعد مرحلة حتّى تصير رجلًا محترمًا...

ولم أنعم بفرحة السقوط إلّا ساعات!

الحكاية رقم ١٢

ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقلها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجّر بحناجرها الهتافات...

الميدان يكتظّ بالآلاف، لم يقع ذٰلك من قبل، هديرهم يرجّ جدران حارتنا ويصمّ الآذان، إنّهم

يصرخون، ويقبضات أيديهم يهدّدون، وحتّى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن في الجنون. . .

وأحملق فيما يجري من فوق سور السطح وأتساءل عمّا يحدث للدنيا. . .

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة السحريّة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب، والوطن، الموت الزؤام. . .

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تُلصق بالجدران، إمام المسجد يظهر في شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسي إنّ ما حدث غريب ولٰكنّه مثير ومسلٍّ شديد البهجة.

غير أنّني أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصّنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبّعاتهم العالية وشواربهم الغليظة. تنطلق أصوات حادّة مخيفة تعقبها صرخات، أُنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات تقول:

ـ إنّه الموت.

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلّا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب.

يتواصل ذٰلك دقائق في الحارة ثمّ يسود الصمت.

ويتردّد الهدير ولٰكن ـ هٰذه المرّة ـ من بعيد. . . ثمّ يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسي إنّ ما يحدث غريب ومزعج ومخيف.

وأعرف بعض الشيء معاني الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيّين والرصاص والموت.

تزورنا أمّ عبده في غاية من الانفعال، تحكي حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علوة صبيّ الفرّان، وتؤكّد أنّ جياد الفرسان حرنت أمام سور التكيّة وألقت الفرسان عن متنها. . .

وأقول لنفسي إنّ ما يحدث حلم مثير لا يصدّق.

الحكاية رقم ١٣

مهذّب ذكيّ العينين قصير القامة في مطلع الشباب، قيل لي:

ـ ابن عمّك صبري.

أعرف أباه ـ عمّي ـ معرفة سطحيّة فهو لا يبرح الريف إلّا نادرًا، أمّا صبري فإنّه يرى القاهرة لأوّل مرّة. وأعرف أيضًا من أحاديث الليل أنّ عمّي أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدارسها الثانويّة بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثوريّ في موطنه إلى مراكز الأمن.

أسأله وأنا أرمقه بشغف:

ـ أنت من شبّان المظاهرات ويحيا سعد؟

فيبتسم ولا يجيب. . . إنّه يبدو أعمق من سنّه.

ويقول له أبي:

ـ هٰذا بيتك، وأنت الآن آمن، ولٰكن كُنْ على حذر.

وأقول لأبي:

ـ ولٰكنّك يا بابا أضربت مع الموظّفين؟

فينهرني:

ـ لا تتدخّل فيما لا يعنيك.

ويمارس صبري حياة تلميذ مجتهد ذي طاقة كبيرة في العمل.

غير أنّ القلق يلوح في عينيه الذكيّتين ذات مساء فأسأله عمّا يقلقه فيسأل بحذر:

ـ مذا دعاك إلى السؤال؟

ـ لست كعادتك.

فيدعوني إلى المشي في الحارة. نتسكّع في الحارة وفي ميدان بيت القاضي حتّى يهبط الليل. ويهمس في أذني:

ـ تستطيع ولا شكّ أن تحمل ورقة إلى هٰذا أو ذاك من الناس؟

ـ ولٰكن لماذا أفعل ذٰلك؟

ـ لا تفعله إذا كان يضايقك.

وأوافق ليعهد إليّ بمهمّة أيًّا تكن.

وأمضي لأوزّع أوراقًا على أصحاب الحوانيت والمارّة. يتناولونها بدهشة، يلقون عليها نظرة سريعة، يبتسمون ثمّ يواصلون العمل أو المشي.

وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألني:

- مبسوط؟

أعرب له عن سروري الذي لا حدّ له فيقول محذّرًا:

- إيّاك أن تخبر عمّي أو امرأة عمّي.

ولا أعلم أنّني كنت أوزّع منشورات سياسيّة إلّا بعد مرور فترة غير قصيرة.

الحكاية رقم ١٤

يبدأ هٰذا اليوم بمظاهرة هزليّة. من عجب أنّهم يهزلون في الفترات القصيرة التي تفصل بين المصادمات الدامية. ها هي مظاهرة ضخمة تسوق في مُقدّمتها حمارًا مدثّرًا بقماش أبيض نُقش عليه بالأحمر:

«السلطان فؤاد»

ابن بلد يمتطي الحمار واضعًا على رأسه قبّعة بريطانيّة، والهدير يصطخب:

يا فؤاد يا وشّ القملة   من قالك تعمل دي العملة

وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد.

وأحمل لأبي خبرًا من الحارة أثار خيالي فأقول له:

- يقولون إنّ اسم سعد يُرى منقوشًا على البيض بعد خروجه من الدجاج.

فيضحك أبي، ويضحك ضيف يجالسه. ويقول الضيف عن سعد:

- كان أعداؤه يتجنّبون النظر في عينيه وهم يجادلونه تفاديًا للشعاع الحادّ الذي ينطلق منهما.

ويطرب أبي للكلام ويتمتم:

- إنّه هديّة السماء إلينا.

فيقول الضيف متحمّسًا:

- انتهت سنون النحس وبدأت أيّام السعد.

ويتنهّد أبي قائلًا:

- يا أسفي على الرجل الشيخ المريض في منفاه.

فأذهل وأسأل:

- سعد مريض، كيف هٰذا يا بابا؟

ولا يعيرني التفاتًا فأصرّ قائلًا:

- سعد لا يمكن أن يمرض.

ثمّ بيقين أشدّ:

- لم يبقَ إلّا أن تقول إنّه سيموت مثل همّام ابن اختي.

الحكاية رقم ١٥

ويزور أبي جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة. لا حديث هٰذه الأيّام إلّا عن الثورة. حتّى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة، ولعبنا في الحارة مظاهرات وهتافات. وتصبح دوريّات الإنجليز منظرًا مألوفًا لدينا، نمعن في الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيّتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجّب.

يدور الحديث بين الزوّار عن الثورة.

- مَن يصدّق هٰذا كلّه أو بعضه؟!

- إنّه الله الرحمٰن الرحيم.

- يخلق الحيّ من الميت.

- الفلّاحون والعمّال والطلبة والموظّفون والنساء يَقتلون ويُقتلون.

- الفلّاح يحمل السلاح ويتحدّى الإمبراطوريّة.

- انقطعت المواصلات تمامًا، أصبحت مصر دويلات مستقلّة!

- والمذابح؟

- مذبحة الأزهر.

- مذبحة أسيوط.

- العزيزيّة والبدرشين.

- الحسينيّة.

- لا أنا ولا أنت، ليحيى سعد!

- أي والله ليحيى الساحر العظيم.

- ولٰكنّ الأموات يفوقون الحصر.

- أحياء عند ربّهم.

وينبري رجل ليقصّ سيرة سعد كما يعرفها، ومواقفه مع الإنجليز والخديو قبل الثورة.

وألمح أبي تغرورق عيناه بالدموع.

أراقبه بذهول محتقنًا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على خدّيّ.

الحكاية رقم ١٦

سلّومة أوّل شهيد من أبناء حارتنا. حقيقة أنّ علوة صبيّ الفرّان أوّل مَن قُتل في حارتنا ولكنّه في الأصل من أبناء كفر الزغاري. وعمّ طلبة ـ أبو سلّومة ـ بيّاع يسرح بعربة غَزْل البنات، وكان سلّومة يعاونه، وينام على مقدّم العربة إذا أنهكه التعب.

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضي فينضمّ إليها سلّومة بتلقائيّة دون أن ينتبه إليه أبوه. وتنقضّ على المظاهرة قوّة إنجليزيّة في خان جعفر وتطلق عليها النار. يصاب سلّومة برصاصة في رأسه ويسقط قتيلًا.

وينتشر الخبر في الحارة فيجتاحها حزن، ويهزّها الفخار والإكبار. ويُقبل الناس على عمّ طلبة يعزّونه وينثرون بين يديه لآلئ الكلمات. ورغم حزن الرجل وتهالكه فإنّه يمارس إحساسًا جديدًا لم يعرفه من قبل، يرى نفسه لأوّل مرّة محوطة بأهل الحارة من كافّة الطبقات، يفوز بإكبار مَن لم يبالوا من قبل بردّ تحيّاته، وتنهال عليه نفحات الموسرين من التجّار والمعلّمين.

وتكون جنازة سلّومة أعظم جنازة تشهدها حارتنا، تصغر إلى جانبها أيّ جنازة سابقة من جنازات الفتوّات والأعيان ورجال الدين. سعى وراء النعش المكلّل بالعَلم جميع الذكور، وحيّاه النساء من النوافذ والأسطح، وانضمّ إلى المشيّعين مئات من الحواري المجاورة، فبلغت الحسين في ضخامة مظاهرة وجلالها.

وتصير الجنازة حديث الناس، ويمسي سلّومة اسمًا ورمزًا، ويحظى الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة، وينوّه المعلّقون بعجائب الحياة المغيّرة للقيم في لحظة من اللحظات الساحرة.

الحكاية رقم ١٧

استيقظت ذات صباح فأجد في بيتنا امرأة وفتاة.

وتقول أمّي:

ـ تعال سلّم على عمّتك وبنت عمّتك سعاد.

أسلّم بحياء مَن يراهما لأوّل مرّة. المرأة تشبه أبي حقًّا، الفتاة غاية في الجمال.

وتسألني عمّتي:

ـ في أيّ سنة دراسيّة يا حبيبي؟

ـ الثانية الابتدائيّة.

وأفتن بالفتاة فتملؤني بسحر لطيف وأحلام عذبة.

وأعرف أنّ عمّتي جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهّزها وأنّ زفافها وشيك. وتشغل أيّامها المعدودة بالقاهرة بالتردّد مع أبي على محالّ الأثاث والنجّارين والمنجّدين.

وفي أوقات الراحة تتبدّى سعاد في ثوب أنيق وزينة جذّابة، تتألّق بألوان العرائس وتعبق بشذاهنّ.

وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض.

وتقول لي وهي تنظر إلى الحارة من خصاص النافذة:

ـ حارتكم مسلّية جدًّا.

ـ تعالَي أفرّجك على أزقّتها والقبو والتكيّة.

تتجاهل دعوتي. تتسلّل نظراتي إلى عنقها وأسفل ساقيها، أتوق إلى تلاقٍ غامض وإشباع مبهم ومغامرة مجهولة، أريد أن ألمس خدّها المتورّد، لا أريد أن أصدّق أنّها سترحل بعد أيّام، وأنّ قلبي لن يجد من يؤنسه.

وأستجمع شجاعتي وأقول:

ـ أتعرفين؟

وينقطع الصوت والتفكير فتتساءل هي بنبرة محرّضة على مواصلة الحديث:

ـ أتعرفين؟

ألوذ بالصمت فتسألني:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ـ أنا؟

ـ نعم، رأيتك، لا تنكر.

وتضحك ضحكة قصيرة ثمّ تقول:

ـ أنت ولد شقيّ.

وينقبض قلبي من الشعور بالذنب.

* * *

وأرى أمّي وعمّتي ذات يوم وهما يتناوبان النظر في صورة فوتوغرافيّة لسعاد. وتقول عمّتي:

ـ أصرّ العريس على رؤية الصورة.

ـ وأبوها وافق؟

ـ يعني.

ويترامى إلينا صوت أبي من حجرته:

- تصرُّف غير لائق!

فتقول أمّي:

- الزمان غير الزمان!

وتقول عمّتي:

- ما هي إلّا صورة، والعريس لقطة وابن ناس.

فيقول أبي بنبرة لا تخلو من احتجاج:

- على خيرة الله.

أتابع الحديث بحزن خفيّ. تطالعني من ثناياه نذر الفراق الأبديّ ووجه الكآبة في الأفق.

وتمرّ أيّام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن إيقافها.

وتجيء لحظة الوداع.

وأرنو إلى خدّ سعاد المورّد كرغيف خارج لتوّه من الفرن.

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل.

وتضحك أمّي من لوعتي دون أن تفطن إلى عمق أشجاني.

الحكاية رقم ١٨

الفرحة ترقص في القلوب، والنشوة تشتعل في النفوس، يوم عودة سعد.

أبي يرجع من الخارج كأنّما هو راجع من خناقة، زرّ طربوشه مفقود، عقدة رباط عنقه غائصة في ثنية الياقة، جاكتته تنضح بالعرق والتراب، صوته مبحوح كأنّه سعل دهرًا، ولكنّ عينيه تتألّقان بنور ظافر. يستلقي على الكنبة ويقول:

- هتفت حتّى ضاع صوتي، نسيت نفسي تمامًا.

ثمّ بارتياح عميق:

- تجمّعت الدنيا كلّها في ميدان السيّدة، سبحانك يا ربّي ما أكثر عبادك!

ويجتاح الحارة إحساس غامر بالنصر، ويعتقد كلّ قلب أنّ الحرّيّة تدقّ الأبواب. وتطبق المظاهرات على حيّنا لا تريد أن تنتهي. سعد... سعد... يحيا سعد. وتلهب حرارة الهتافات خيالي، وآسف على أنّ المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التي لا مخرج لها من طرفها الآخر إلّا الممرّ الضيّق المحاذي للتكيّة والمفضي إلى القرافة.

وأسأل أمّي:

- سيرحل الإنجليز؟

فتجيبني بيقين:

- إلى غير رجعة.

وفي الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالًا خاصًّا. تُضاء الكلوبات في هامات الدكاكين، ترتفع الأعلام، تدوّي الزغاريد وتتطوّع العالمة ألماظيّة بإحياء الليلة. تقيم سدّتها في الوسط أمام الوكالة يحفّ بها تختها، ترصّ الكراسي أمامها، وعلى أنغام العود والقانون والناي والرقّ يرقص الرجال، وتغنّي هي:

ليالي الأنس عادت بالليالي

وتغنّي أيضًا:

يا بلح «زغلول» يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها:

يا واد يا أللنبي كان جرى لك إيه يا بن المره
جه الاستقلال غصبًا عنّك وعن إنجلتره

وتكتظّ البوظة بالسكارى وتشتعل الغرز بنيران المجامر، وحتّى المجاذيب والمتشرّدون واللصوص يسهرون ويفرحون. ويشارك عمّ طلبة أبو الشهيد في الحفل، والشيخ لبيب يحضره.

وأسهر أنا في النافذة، وقوى مجهولة تشحن قلبي الصغير بحيويّة سحريّة.

الحكاية رقم ١٩

أبي ينظر إليّ نظرة غامضة ويسألني:

- مذا فعلت؟

فأجيبه بسرور وزهو:

- اشتركت في المظاهرة الكبرى.

- كان يمكن أن تدوسك الأقدام.

- كان الصغار كثيرين.

ويداري أبي ابتسامة ويسألني بنبرة ممتحن:

- الآن سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلِمَ

تُضربون؟

ـ أضربنا لتأييده في موقفه ضدّ الملك.

ـ مَن قال لك ذٰلك؟

ـ رئيس الطلبة، قال إنّ سعد زغلول قدّم استقالته احتجاجًا على موقف الملك من الدستور، وإنّنا ذاهبون لتأييد الزعيم.

ـ هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك؟

وأتوقّف عن الاسترسال مرتبكًا فيضحك أبي ولٰكنّي أبادره:

ـ نحن مع سعد وضدّ الملك!

ـ عظيم، وماذا كان هتافكم في عابدين؟

ـ سعد أو الثورة.

ـ ما معنى ذٰلك؟

وأتفكّر قليلًا ثمّ أقول:

ـ معناه واضح، سعد أو الثورة...

وهو يبتسم:

ـ عظيم، ومَن الذي انتصر؟

ـ سعد، وهتفنا: عاش الملك ويحيا سعد.

ثمّ أقول بحماس:

ـ الاشتراك في المظاهرة أمتع من أيّ شيء في الدنيا.

فيبتسم أبي ويقول:

ـ بشرط ألّا يشترك فيها الإنجليز!

الحكاية رقم ٢٠

يحيى مدكور أمهر لاعب كرة في مدرستنا، وصديقي المفضّل في المدرسة الابتدائيّة.

أجده يومًا يقرأ كتابًا في الفسحة فأسأله:

ـ ما هٰذا؟

ـ ابن جونسون... الحلقة الأولى من مسلسلة بوليسيّة جديدة...

ويعيرني الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل. وأواظب على قراءة السلسلة، ثمّ أنتقل من سلسلة إلى أخرى، ومن كتاب إلى آخر، ثمّ أدمن القراءة.

وأصير مع الزمن بطلًا من أبطال القراءة، أمّا صديقي فيهجرها سريعًا ثمّ يتربّع على عرش الكرة.

الحكاية رقم ٢١

إبراهيم توفيق مقترن في ذاكرتي بالتهريج والتحدّي، خفيف الروح نصف مجنون. بطل هواة لعب الكرة «الزلط» في فناء المدرسة. ننتقي عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة في حجم الجوزة لتقوم مقام الكرة، نخوض بها مباراة يوميّة في فسحة بعد الغداء. والمباراة «الزلطيّة» ممنوعة رسميًّا ولٰكن يغضى عنها عادة، وتمارَس بعنف في أثناء تناول الضبّاط طعامهم، ويكفّ عنها فورًا عند مرور الناظر، أمّا عواقبها الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء.

وفي الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشه حتّى يصير مثل طاقيّة، ويرتدي جاكتته بالمقلوب، ويحاكي مشية شارلي شابلن ذهابًا وإيابًا على إيقاع تصفيقنا، ثمّ يختم لعبه بإنشاد مونولوج:

يا عديم الحال يا قليل المال

رفعتك محال محال في زمن الأنذال

ويومًا يتباهى بالمقالب التي يدبّرها لزوج أمّه فيقول له أحدنا:

ـ أتحدّاك أن تأكل قرن فلفل حامي!

والتحدّي يستفزّه لمصارعة المحال فيهتف:

ـ آكل عشرة!

ويتراهن فريقان. نبتاع من بيّاع الفول عشرة قرون فلفل حامية، ونحلّقناه في حماس...

يتناول إبراهيم القرن الأوّل ويأكله مبديًا ثباتًا واستهانة...

ويتناول الثاني محافظًا على ثباته واستهانته...

ويتناول الثالث فلا يتغيّر من مظهره شيء إلّا أنّه ازدرد ريقه بصورة ملموسة.

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة.

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوّة إرادته ويسعل بشيء من العنف.

وعقب تناول السادس يبدو كأنّه يقاوم عدوًّا مجهولًا

اندسّ في أعماقه، وتفيض عيناه بالدمع. . .

وهو يأكل السابع يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة. . .

ويصيح بعض ضعاف القلوب:

ـ أوقفوا الرهان. . .

ولكنّه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنّما لا يستطيع النطق.

ويلتقي ماء عينيه بماء أنفه في مجرى على ذقنه وعنقه وينتابه سعال متقطّع.

ويستحيل وجهه قرمزيًّا وتنتفخ شفتاه ولكنّه يلتهم القرون حتّى آخرها وسط التهليل والتصفيق، ويربح. . .

ولكنّه لعلّه لا يشعر للنصر بلذّة، إنّه صامت محتقن زائغ البصر، وعلى هذه الحال ندخل حصّة الدين. والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الإهمال والشقاوة. يقول له:

ـ إبراهيم توفيق، سمّع تبارك الذي. . .

ويلبث إبراهيم صامتًا مغمورًا بهمومه الخفيّة فيصيح به الشيخ:

ـ قف يا ولد وسمّع. . .

ولكنّ إبراهيم لا يتحرّك على حين تصدر من الأركان همهمة يظنّها الشيخ لعبة متّفقًا عليها فيصيح:

ـ الأدب يا أولاد الكلاب، قُمْ يا مجرم. . . قُمْ لا بارَكَ الله فيك ولا فيمن أنجبك. . .

ويقترب الشيخ منه في مجلسه في آخر الحجرة فيهوله منظر وجهه فيتوقّف متسائلًا:

ـ ماذا بك؟. . . لماذا تبكي؟

عند ذاك يتكلّم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجّب ويقول:

ـ أعوذ بالله. . . يا أولاد الأبالسة. . . كلّكم مجرم وابن مجرم.

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعَف في حجرة الطبيب. . .

ولكنّ إبراهيم لا يكفّ أبدًا عن التهريج والتحدّي. . . .

الحكاية رقم ٢٢

هاشم زايد يجلس إلى جانبي على قمطر واحد.

طويل القامة مفتول العضلات ولكنّه وديع خجول وطيّب وحسن السلوك. أمّه أرملة غنيّة تملك بيوت زقاق برمّته وشريكة أكبر عطّار في الحارة، لذلك نخصّه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد. تتهادى إليه نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلّا أن يضحك فيراه المدرّس دون الفاعل الحقيقيّ فينال جزاءه صفعة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ المؤدّب.

ويفشل هاشم في المدرسة فيتركها، وتموت أمّه فيصير من أكبر أعيان الحارة في لحظة واحدة. وتفرّق بيننا السبل. أراه أحيانًا مستقلًّا الكارتة أو جالسًا في ملابسه البلديّة وسط هالة من المريدين. إنّه يتحوّل إلى شخصيّة غريبة فأتجنّب حتّى مصافحته. إنّه يتكبّر ويتعالى ويستثمر قوّته في العدوان وفرض إرادته على العباد. كيف يتحوّل الصبيّ الخجول الطيّب إلى وحش شرس؟. إنّي أتفكّر وأتخيّل دون جدوى. . .

لا يمرّ يوم في حياته بلا معركة، اللكمة عنده أسرع من الكلمة، والنبّوت مفضّل على اللكمة، ويحلّ بالمكان فيتجنّبه الناس كأنّه وباء. . .

لو امتدّ زمن الفتوّات إلى زمانه لفرض نفسه فتوّة، وهو يزعج القسم كما يزعج الحارة، ويبيت أيّامًا بسجن النقطة ولكنّه يرشو المخبرين وشيخ الحارة.

تحفّ به دائمًا بطانة ولكن لا صديق له، ولم يتزوّج رغم ثرائه ولا يُعرف عنه أيّ ولع بالنساء. وعلاقته بذكرى أمّه مثيرة محيّرة، يتذكّرها أحيانًا بحزن عميق ويتنزّل على روحها الرحمات، وأحيانًا ينتقدها بمرارة وسخرية، يقول:

ـ كانت بخيلة شحيحة، تهمل نفسها لحدّ القذارة، وتعامل الخدم بقسوة جنونيّة. . .

ويغالي مرّة في الحملة عليها ثمّ ـ فجأة ـ يجهش في البكاء، ينسى نفسه تمامًا ويجهش في البكاء، ثمّ ينتبه لضعفه فيضحك، ولكنّه يصبّ غضبه على جميع مَن يشهد دموعه، ويبدو أنّه يضمر لهم أو أنّه سيضمر لهم السوء. . .

ويختفي هاشم زايد من الحارة ومن البيت.

وتطول غيبته حتّى يذوب رويدًا رويدًا في ظلمة النسيان.

وتسمع مَن يقول إنّه هاجر، وتسمع مَن يهمس بأنّه قُتل وأخفيت جثّته...

الحكاية رقم ٢٣

ذات صباح تدهمني اليقظة بعنف. أستيقظ مجذوبًا من عالم الغيب بقبضة مبهمة. يلقّني تيّار من الطنين. أنصت فيقف شعر رأسي من ترقّب الشرّ. أصوات بكاء تتسلّل إليّ من الصالة. تغرز أظافر السوء أسنانها في لحمي، ويتخايل لعينيّ شبح الموت...

أثب من الفراش مندفعًا نحو الباب المغلق. أتردّد لحظة ثمّ أفتحه بشدّة لأواجه المجهول.

أرى أبي جالسًا، أمّي مستندة إلى الكونصول، الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون...

وتراني أمّي فتقبل عليّ وهي تقول:

ـ أفزعناك... لا تنزعج يا بنيّ...

أتساءل بريق جافّ:

ـ ماذا؟...

فتهمس في أذني بنبرة مختنقة:

ـ سعد زغلول... البقيّة في حياتك!

فأهتف من أعماقي:

ـ سعد!

وأتراجع إلى حجرتي.

وتتجسّد الكآبة في كلّ منظر.

الحكاية رقم ٢٤

القطّة الأمّ مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم مغمضات الأعين في حضنها. أنا وحيد في الحجرة أتابع المنظر باهتمام. وفجأة تتردّد أنفاس على كتب منّي فالتفت فأرى سنيّة. هي بكريّة جارنا ساعي البريد، دقيقة القسمات خفيفة الروح، مليئة بالحيويّة والمرح، تكبرني ببضعة أعوام. تنظر إلى القطّة بشغف وتهمس:

ـ ما أجملها!

أوافق بإيماءة من رأسي فتقول:

ـ أحبّ القطط، وأنت؟

أجيب وشعوري بتوحّدنا يغمرني:

ـ وأنا...

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحسّ مسّ صدرها لكتفي. تُواصل الحديث فلا أتابعها. إنّي أضطرم فيلتهم اللهيب حيائي، أستدير فأضمّها إلى صدري، وتبدأ علاقة وطيدة، مفعمة من ناحيتي بالسرور والندم.

أزداد بها معرفة، جميلة جسورة بقدر ما هي حريصة. رغم سكراتها المنغومة فبيننا حدود لا يمكن تخطّيها. ألبّي إشاراتها، أهرع إلى ظلّها، أمّا هي فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة، تجذبني إلى حديقة الورد ثمّ تضرم فيها نيران الجحيم. لا نعرف السكينة ولا الأمان، نقطف الثمار في رعدة من الرقباء، نجري في حومة الحبّ خطّافين نشّالين مجانين، نراوح بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين، وتنقلب الحياة أغنية مجنونة تتفجّر بالعذوبة والعذاب.

وتتزوّج سنيّة عقب عامين من حبّنا.

ونلتقي بعد أعوام وأعوام من زواجها.

أجدها مفرطة في البدانة، غافية النظرة، رزينة، جليلة، راسخة الاستقرار والوقار. نتصافح ونتبادل حديثًا روتينيًّا عن الأحوال والناس. لا بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضى. سيّدة مصونة ورمز حيّ للأمومة، ومثال للتديّن والورع.

وأتخطّى الحاضر راجعًا إلى عهد صباها النضير، وهي فراشة متعدّدة الألوان، تفّاحة طازجة، وردة فوّاحة، ينبوع متدفّق.

تلك الأيّام السعيدة.

الحكاية رقم ٢٥

فتحيّة، الأخت الصغرى لسنيّة، تماثلني في العمر. مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق.

نظراتنا تتسلّل في استحياء فيستحوذ على أمل خلّاب. أمدّ يدي فأقبض على راحتها فتسحبها

بلطف، وبرقّة تقول لي:

ـ لا أحبّ العبث.

وأضيق بجدّيّتها فأقول:

ـ إنّك لا تعرفين الحبّ.

فتقول بأسى:

ـ أنت الذي لا تعرفه.

وتقول معاتبة:

ـ أثبت لي أنّك تعرفه مثلما أعرفه.

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق، ويصرفني اليأس فأتعزّى بالزهد، أمضي مصمّمًا على النسيان، ولكن تُرجعني الأشواق أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقّع فأجد نفسي مرّة أخرى حيال قلب محبّ وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين.

وطريقي شاقّة وطويلة، وفتاتي محبوبة كثيرة الخطّاب. يقول لها أبوها:

ـ معنى الرفض أن تنتظري عشرة أعوام.

ثمّ يقول بحزم:

ـ القلوب تتغيّر بعد عشرة أعوام.

ويصرّ على تزويجها من رجل مناسب فتزفّ إليه كسيرة القلب. وتنجب أطفالًا، وترعى بيتًا يُعَدّ مثالًا للحياة الزوجيّة الموفّقة.

وتغيب عن عينيّ وخيالي دهرًا طويلًا.

وألتقي بها في مأتم وهي في الستّين من عمرها، أرملة منذ عشرة أعوام، فنتصافح وتطالعني بنظرة صافية تتألّق فيها بسمة ذكريات قديمة. يتحرّك في أعماقي شيء غامض. تجتاحني موجة من التذكّر والأسى، وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورائي.

وأعلم بأنّها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز. وأجدني أحادثها رغم كلّ شيء بجرأة مستمدّة من ضآلة ما يتبقّى من العمر، وأعزم على زيارتها. وأتخيّل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبني، ثمّ أبتهل في خشوع إلى أشجان الوداع.

الحكاية رقم ٢٦

ستّ نجيّة امرأة وحيدة.

عهدي بها وحيدة دائمًا، في بيتها وحيدة، مقطوعة من شجرة، يَرِدُ اسمها بلا لقب، لا أب ولا أمّ ولا أخ ولا أخت، ولكنّها معروفة بأنّها امرأة غنيّة.

صورتها لا تُنسى، قصيرة جدًّا، مطبوعة بطابع كساح يتجلّى في تقوّس ساقيها وبروز ذقنها، ولها أنف كبير مثل أذن حمار، دميمة ولكنّها غير منفّرة لخفّة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس.

تجيء معها في زيارتها لنا بالمرح والضحك، فلا نهاية لنوادرها وقفشاتها، وأتصوّرها دائمًا أسعد الناس.

بيتها مزرعة قطط وكلاب، تولد وتنشأ في عزّها مكرّمة مدلّلة، لكلٍّ اسمه وخدماته الغذائيّة والصحّيّة والرياضيّة. هي مولعة بهنّ وهنّ مولعات بها، وفي رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحي الخصومة الغريزيّة بين الكلاب والقطط فهنّ يعشن في إخاء ومودّة.

تسألها أمّي:

ـ لم نَرَكِ من مدّة يا ستّ نجيّة؟

فتقول:

ـ كانت نرجس متوعّكة المزاج.

أو تقول:

ـ كانت بركة تَلِد.

ودائمًا تتحدّث عن عفريت من الجنّ يؤاخيها، وتحكي عن علاقتها الخاصّة باعتزاز وتنوّه بنوادره.

تقول بجدّيّة:

ـ أمس شعرت بأنفاسه تتردّد على وجهي قبيل الفجر...

أو تقول:

ـ وجدت بلاص العسل فارغًا فقلت له بالهنا والشفا...

بالصدق والجدّيّة تتكلّم، لعلّها لا تتخلّى عن المزاح إلّا حين الحديث عن أخيها الخفيّ...

وتزعم أيضًا أنّ الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصّة وأنّها تفهمها، ولكي تثبت صحّة كلامها تمضي في محاكاة اللهجات القطّيّة والكلبيّة فنغرق في الضحك.

ولها خبرة راسخة في قراءة الفنجان والورق وتفسير الأحلام، وتُتّهم أحيانًا بممارسة السحر والشبشبة حتّى

إنّ أمّ عبده لعنتها جهرًا في الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان، ولكنّ طيبتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس.

لا يكاد يطرق بابها أحد، لكثرة الكلاب يتجنّب الناس زيارتها، حتّى الخدم لا يطيقون خدمتها، فهي وحيدة في بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخي...

تقول لها أمّي وهي بصدد الحديث عن وحدتها:

ـ على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل.

فتجيبها جادّة وهي تبتسم:

ـ ستنبح الكلاب حول جثّتي وتموء القطط، ويحضر أخي ليغمض عينيّ، ثمّ يفعل الله ما يشاء.

الحكاية رقم ٢٧

تقول ضيفة لأمّي:

ـ نظلة، الله يسامحها.

فتسأل أمّي عن الأخبار فتقول الضيفة:

ـ ما زالت بالجدع حتّى أوقعته فتزوّجها، رعاها وجعلها من أسعد نسوان الحارة، وها هي الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض...

وتسأل أمّي عن حاله فتواصل المرأة:

ـ طريح الفراش، وحيد، يبصق دمًا ويسعل حتّى تنخلع ضلوعه، يتمنّى الموت، وكلّما أزوره يقول لي: «انظري يا امرأة خالي ما فعلته نظلة» فأشجّعه وأواسيه وقلبي يتقطّع...

وأتخيّل أنا المريض والدم والمرأة الفاجرة.

ويمضي زمن ثمّ تزور الضيفة أمّي وتقول:

ـ شوفي العجائب، لم يكد يمرّ شهر على وفاة المرحوم حسن حتّى أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوّجها.

فتهتف أمّي:

ـ نظلة؟!

ـ ومَن غيرها يفعل ذلك؟، إلهي ينتقم منك يا نظلة يا بنت أمّونة...

وأتخيّل أنا الميت والعاشق والفاجرة.

ويمضي زمن. ها أنا أذاكر دروسي في حجرتي فيترامى إليّ صوت أمّي وهي ترحّب بضيفة قائلة:

ـ أهلًا بك يا ستّ نظلة...

وأتساءل باهتمام ترى أهي الفاجرة؟

وأتسلّل إلى الصالة محتميًا بظلمتها وأرسل الطرْف إلى حجرة الاستقبال، فأرى امرأة ـ بين الأربعين والخمسين ـ بضّة الجسم حسنة التكوين أنيقة الملبس. أعترف بأنّها امرأة مثيرة... وأنّها تستحقّ أن تُعشق. وأعرف عنها معلومات جديدة، منها أنّ زوجها الثاني ـ خليل ـ توفّي أيضًا بعد أن أنجبت منه ولدًا، وأنّها تركت شقّتها قبيل القبو لتقيم في شقّة صغيرة في بيت قريب منّا، وأدرك أيضًا أنّ أمّي لا ترحّب في أعماقها بزيارتها لنا. وأقول:

ـ إنّها شرّيرة!

ولكنّ أمّي تقول بحذر:

ـ الله وحده هو المطّلع على الأفئدة...

ـ تعطفين عليها رغم أنّك لا ترحّبين بها.

ـ سمعت الكثير ولكنّي أرى امرأة ضعيفة وأمًّا لولد لا رَجُل لها ولا مال...

وأراقبها من النافذة كلّما سنحت فرصة. وتخيّم عليّ ذكريات المرحومين حسن وخليل ولكنّي لا أبالي. وأشعر بأنّني مُقبل على مغامرة أخطر من جميع ما مرّ بي من مغامرات. ولكنّ القصّة لم تبدأ...

ذات صباح تهزّ حارتنا صرخة مدوّية.

ينتشر خبر بأنّ جارة ألقت على وجه نظلة ماء نار متّهمة إيّاها بمحاولة خطف زوجها.

تفقد نظلة سحرها إلى الأبد.

تضطرّ إلى العمل في حمّام الحارة.

يشتدّ بي الحزن فترة من الزمن وأردّد ما سبق أن قالته أمّي:

ـ الله وحده هو المطّلع على الأفئدة...

الحكاية رقم ٢٨

يزورنا كثيرًا.

أحبّه لأنّه يكاد أن يكون صورة منقّحة لأبي. من أحاديثه المكرّرة في إلحاح أبديّ أن يخاطب أبي قائلًا:

- أيرضيك حالي هٰذا يا خالي؟

فيقول له أبي:

- يا محسن، اعتمد على الله وعلى نفسك...

- يؤلمني أنّي غنيّ بما أملك من مال في الأوقاف ولٰكنّي عاجز عن صرف ملّيم واحد منه.

- هٰذا حال كثير من المستحقّين.

ويضطرّ إلى أن يعمل كاتبًا بثلاثة جنيهات شهريًّا في وكالة الأخشاب بحارتنا. وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوّج من سوسن بنت نعمات الدلّالة العاطلة من الجمال والمال. ويتقدّم به العمر دون أن ينجب فيمضي حياته متحسّرًا. وتضرع زوجته إلى الله ألّا يحلّ عقدة الوقف، وتقول لأمّي:

- لولا الفقر لفجّر، لولا الفقر لطردني...

لا حديث له إلّا الوقف، الوقف يا خالي، الوقف يا امرأة خالي، وأسمعه يردّد بحرارة:

- يا ربّ، نفسي في لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائق وأنثى، أنثى حقيقيّة لا تمثال خشبيّ في هيئة امرأة، يا ربّ نفسي في ولد أو حتّى في بنت!

وتتقدّم به السنّ أكثر، وتدمع عيناه أحيانًا وهو يرثي نفسه حتّى ينال منّي التأثّر.

وتندفع الأحداث فتُغيّر من إيقاع الزمن ورؤيته وتنحلّ عقدة الوقف!

ويرقص ابن عمّتي من الفرح فأسأله:

- ما مقدار البدل الذي سيُصرف لك؟

فيقول بزهو:

- أربعون ألفًا من الجنيهات...

يدور رأسي. أتفرّس في وجهه بعجب. إنّه يدنو من السبعين، أبيض الرأس، ضعيف البصر، هزيل الجسد، ليس في فيه سنّة ولا ضرس. أسأله:

- ماذا ستصنع بثروتك؟

فيقول متهلّلًا:

- قلبي يحدّثني بأنّي سأمرح في نعمته عزّ وجلّ...

ثمّ يستطرد:

- سأشتري بيت عيّوشة الحكيمة، وأركّب طاقم أسنان، وأتزوّج...

- تتزوّج؟

- وسأنجب أيضًا، سوف ترى...

ويجدّد نفسه بتصميم كما يجدّد الحياة من حوله. أبقى على سوسن، ولٰكنّه يتزوّج من توحيدة بنت بيّاع الطرشي وهي بنت جميلة دون العشرين.

ويخبرني ذات يوم قائلًا:

- وليّ العهد يتكوّن بإذن الرحمٰن...

ويفرط في الطعام بنهم لا يناسب سنّه، ثمّ يلزم الفراش عقب ستّة أشهر من الزواج.

وأعوده فيقول لي بصوت خافت:

- لست نادمًا، أبدًا، الحمد لله ربّ العالمين...

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة.

الحكاية رقم ٢٩

عليّ البنّان صاحب محلّ البنّ في حارتنا صديق. يموت أبوه فيحلّ مكانه وهو في طور المراهقة.

وذات يوم يسألني وأنا أجالسه في المحلّ:

- هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرّانة؟

فأجيبه ورائحة البنّ الصارمة تسيطر على حواسّي:

- أعرفها طبعًا، حارتنا كلّها تعرفها...

- ما رأيك فيها؟

- بنت فائقة الجمال وهي تشارك أمّها في العمل...

- ماذا تعرف عن أخلاقها؟

فأضحك قائلًا:

- ما أكثر ما يقال!

- ولٰكنّي متأكّد من الكثير...

ويُحكم العمامة فوق رأسه. ويقول:

- أعرف أنّها سقطت أوّل ما سقطت مع حمدان صبيّ الفرّان...

أهزّ رأسي موافقًا فيمضي هو قائلًا بنبرة اعترافيّة ثقيلة:

- ضُبطت أيضًا مع الحنفي صبيّ محلّ الطرشي تحت القبو.

- إنّك تتكلّم بلهجة حزينة أكثر من الضروريّ...

- وقيل كلام أيضًا عن علاقتها بخفير الدرك!

فأسأله ضاحكًا:

ـ هل تنوي كتابة سيرة لها؟

ـ وأيضًا مع حسنين السقّاء!

فأغرق في الضحك وأقول:

ـ إنّه لسلوك يستحقّ التأمّل.

ـ ولعلّ ما خفي كان أعظم.

ـ مَن يدري فلعلّها ليست الوحيدة في حارتنا!

فيتنهّد قائلًا:

ـ ولكنّها الوحيدة التي أحبّها!

فأخرج دفعة واحدة من جوّ المرح وأسأله:

ـ أتريد أن تنضمّ إلى طابور العشّاق؟

فينظر إليّ طويلًا ثمّ يقول:

ـ كلّا، لقد قرّرت أن أتزوّجها!

ـ لا أصدّق...

فيقول بجدّ وتجهّم:

ـ إنّه قرار اتُّخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه، ولا يهمّني ما يقال!

وينفّذ عليّ البنّان قراره.

الحكاية رقم ٣٠

يشبّ بطريق الحموي فيجد نفسه متزوّجًا.

كان أبوه مقاول بناء أمّيًّا فأراد أن يفرح بآخر العنقود في حياته فاختار له بنتًا وزوّجه منها وهو تلميذ في الرابعة عشرة من عمره.

يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه المتلهّفة وأخيلتهم المحمومة.

وينجح «بطريق» في حياته المدرسيّة ويتفوّق فيكمل تعليمه العالي ثمّ يُبعث إلى إنجلترا عامين. وعقب عودته يتعذّر عليه التوافق مع ماضيه، زوجته خاصّة، يتنافران في كلّ شيء، يضيق بجهلها وخرافاتها، يتهاوى في الغربة والفشل، ويقول لخاصّته:

ـ لا يمكن أن تمضي الحياة هٰكذا...

ويتّخذ قرارًا حاسمًا وقاسيًا، من خلال معاناة طويلة، فيطلّقها.

ويلهج كلّ لسان في الحارة بلعنه ومروقه، ولكنّه يلقى المدّ المعادي ببرود، بل ويتحدّاه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبيّة، يزعم أنّها فرنسيّة، ويصرّ أهل حارتنا على أنّها روميّة من بين السوريّين!.

ويذهبان ويجيئان معًا وهي تشعّ سفورًا ونورًا، ترمقها الأعين بازدراء واستنكار، ويترحّم المترحّمون على المعلّم الحموي.

وتتطاير تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها بالرجال، وما يقال عن إدمانها الخمر، وعن صحّة عقيدتها الدينيّة، هل يُعتبر إسلامها حقيقيًّا؟، هل تنشئ أبناءها نشأة إسلاميّة سويّة؟

يعاني بطريق الحموي ذٰلك كلّه ويتصدّى له بما يستطيع من قوّة واستهانة.

ولكن ثمّة متاعب جديدة من داخل بيته تهبّ عليه بلا رحمة. ها هي زوجته تضيق بالحارة وأهلها، وعاداته الأصيلة تتعرّض لمؤاخذتها وسخريتها، وهو كلّما تهاون في حقّ طولب بالمزيد من الاستسلام، حتّى يسلّم في النهاية بأنّه غارق في التعاسة حتّى أذنيه.

ويقال له:

ـ طلّقها وأمرك لله...

ولكنّه يجيب بإصرار:

ـ محال أن أسلّم بالهزيمة...

أمّا هي فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنّه يرفضه بإباء.

وإذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن.

وتمضي الأعوام وبطريق الحموي أعزب لا يفكّر في الزواج.

يقترح عليه إخوته أن يردّ زوجته الأولى فيقول ساخطًا:

ـ هٰذا سخف!

ـ هل تعتزم استرداد الثانية؟

ـ إنّه الجنون نفسه.

ثمّ يقول برزانة وتأمّل:

ـ لا بدّ من الزواج، وعاجلًا أيضًا، لم تضع التجربة هباء، فإنّي على الأقلّ الآن أعرف ما أريد...

الحكاية رقم ٣١

من قصص الحبّ المؤثّرة في حارتنا قصّة سيّدة كريم.

ينشأ حبّ عفيف مستور في خفاء بينها وبين إدريس القاضي ابن الجيران، رغم التكتّم والحياء تفضحهما النظرات وأحوال العاشقين. ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرّس اللغة العربيّة وعمّ حسنين القاضي بيّاع الحلوى. أدّب ابنك، ابني مؤدّب، كلمة من هنا وكلمة من هنا، فيوشك الكلام أن يتحوّل إلى فعل لولا تدخّل أهل الخير. ولكن يستيقظ الرقباء وتحدّ الأعين فيعاني العاشقان في صمت وقهر. وعندما ينتهي إدريس من المرحلة الثانويّة يقنع أباه بأن يخطب له سيّدة، فيمضي الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبًا يد ابنته، ولكنّ الشيخ يقول له بجفاء:

- ابنك تلميذ وبنتي لا يمكن أن تنتظره...

ثمّ يقول الشيخ لبعض خلصائه:

- كيف يطمع في مصاهرتي ذلك البيّاع الحقير؟!

ويتقدّم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيّدة.

ولكنّ سيّدة ترفضه! ليس الرفض بالأمر الهيّن ولا المألوف، إنّه في الواقع ثورة غير متوقّعة أذهلت الشيخ والجيران، وزلزلت الأسرة بالغضب والعنف والتأديب، ولكنّ سيّدة تصرّ على الرفض، وتصارح أباها بأنّها تمارس حقّها الدينيّ!

وكالعادة المرذولة في حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتختلق الأوهام، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتّى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقي درسه في الفصل.

وتتحمّل سيّدة مسئوليّة موت أبيها أمام الأسرة والناس. تصبح ملعونة شؤمًا متّهمة متجنّبة كالمرض المعدي.

وتتزحزح الأعوام فلا يتقدّم لها خاطب.

وينجح إدريس في دراسته العالية فيتقدّم إلى عمّ حبيبته طالبًا يدها!... ولكن لا يلقى إلّا الرفض والتجهّم، حتّى الأمّ لا توافق...

وتمرّ الأعوام، ثقيلة عند المعاناة، خفيفة لدى العدّ والإحصاء، سيّدة شبه سجينة لا يطلبها أحد، وإدريس موظّف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج. ولا يشكّ أحد من المقرّبين إليها أو المقرّبين إليه في صمود الحبّ وإصراره وتحدّيه المتواصل لكافّة العراقيل.

ويُندب إدريس للعمل في بعض البلاد العربيّة وتنقطع أخباره أعوامًا، على حين تجاوز سيّدة ربيع الشباب ويغيض رونق صباها وتتلبّسها صورة تعاسة مجسّدة.

ويرجع إدريس من غربته رجلًا في منتصف الحلقة الخامسة. لم يعد أحد يذكر قصّته، ولم تعد القصّة تثير أيّ اهتمام عند مَن يتذكّرونها. وتُعرف حقيقة غير مألوفة في حارتنا وهي أنّ إدريس ما يزال أعزب، لم يدخل دنيا ولم يمارس أبوّة.

ويمضي إدريس إلى أمّ سيّدة يطلب يد ابنتها!

ويدهش كلّ مَن يعلم بالخبر معلّقًا عليه بأنّ سيّدة لم تعد عروسًا تسرّ الحبيب.

ويتمّ الزواج متوّجًا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء.

الحكاية رقم ٣٢

سنان شلبي يعمل في مطحن الغلال فيما يلي السبيل القديم. تلوح منه نظرة نحو النافذة في البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجهًا أسرّ فؤاده وسيطر على أقداره. يأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوّة لم يكن يتصوّر وجودها بحال. وقال لنفسه: «لقد جننت يا سنان وما كان كان».

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكنّ أمّ سعد هي التي تتصدّى للمعاملة والتسوّق، وهي امرأة معروفة في الحارة. والعلاقة بين أمّ سعد والجميلة غامضة، عرضة لشتّى الاحتمالات، فالأسرة لا تزور ولا تُزار، فمن يكون سعد؟، أين هو؟، والمرأة أهي أمّ الجميلة؟، قريبتها؟، خادمتها؟، ثمّ تنتشر أقوال تسيء ولا تسرّ.

يقول سنان شلبي:

- أريدها، إنّي مجنون بها، بالحلال أو بالحرام

أريدها، ولو دفعت حياتي الغالية ثمنًا لها...

ويوثّق سنان علاقته بأمّ سعد في تردّدها الدوريّ على المطحن. ويلمّح لها عن رغباته الخياليّة ولكنّها تتجاهله وتشجّعه في آنٍ فينفحها بالهدايا الصغيرة التي يطيقها من اللّبان والحنتيت والسكّر، وعند ذاك تقول له:

- الجوهرة غالية وأنت رجل على قدّ حالك!

فيقبض الفقر قلبه ولكنّ الجنون يبسطه فيقول:

- ربّنا يقدّرنا.

ويدرك لتوّه أنّ الجميلة تحترف الحبّ ولكنّ ذلك لا يثنيه عن سعيه فإنّ جنون العشق يتسلّط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختيارًا أو مجالًا للتردّد.

وتقول له أمّ سعد:

- الأمر ليس يسيرًا، يوجد حرّاس لا تراهم، وغاية ما أستطيعه ان أدلّك على الطريق...

وتمدّ له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضّيّة من ذات الخمسة القروش ولكنّها تردّها بإباء ولا تقبل بأقلّ من عشرة قروش أو عشر أجْر سنان في شهر كامل!. وتقول له:

- أتعرف المعلّم حلمبوحة؟. . قل له إنّك حاضر من طرفي، إنّه راعيها ووليّ أمرها وهو الذي جاء بها إلى حارتنا من المجهول...

فيقول سنان بضيق:

- ظننتك ستوصلينني بغير وسيط...

- لا أملك إلّا أن أدلّك على الطريق...

ويذهب سنان إلى حلمبوحة في دكّانه الصغير الذي يبيع فيه الدخان والمنزول. يجده كما يعهده عجوزًا أعمش جافّ الخلق فيحيّيه ويقول له همسًا:

- إنّي قادم من طرف أمّ سعد.

فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم:

- جنيه مصريّ!

فيقول سنان بارتياع:

- إنّه مبلغ جسيم يا معلّم...

فيعرض عنه قائلًا:

- وفّر نقودك واذهب لحالك...

لا شيء يمكن أن يثني سنان عن مطمحه. إنّه يبيع خاتمه الفضّيّ الموروث عن أبيه بجنيه ويهبه لحلمبوحة مسلّمًا أمره للمقادر. يتفحّص الرجل الجنيه، يدسّه في جيبه، ثمّ يقول لسنان:

- لم يبقَ إلّا هريدي الحملاوي، تعرفه؟

يغوص قلب سنان في صدره ويسأله:

- ما شأنه؟

- إنّه خطيب البنت، ولا يرضى بأقلّ من جنيهين...

فيتأوّه سنان قائلًا:

- إنّها ثروة، ثمّ إنّها سلسلة بلا نهاية...

- هريدي ختام السلسلة...

- ولكن من أين لي بالجنيهين؟

- خذ نقودك واذهب...

ويردّ إليه الجنيه بحدّة. يتناول سنان الجنيه بقلب طافح باليأس ثمّ يمضي بلا هدف. وتقوده قدماه إلى البوظة فيسكر حتّى يقول لنفسه:

- سأبلغ مناي ولو طرت إليه فوق سحابة...

ويذهب من توّه إلى أمّ عليش بيّاعة البيض بحجرتها الخشبيّة فوق سطح أمّ عليّ الداية فتقول له مستاءة:

- إنّي لا أتعامل مع الزبائن في حجرتي...

فيرمي بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلّى عنها إلّا وهي جثّة هامدة...

* * *

إنّه يعي تمامًا ضرورة أن يهرب في الحال قبل أن تكشف الجريمة. لا يشكّ أنّ كثيرين رأوه وهو يتخبّط في الحارة ثمّ وهو يتسلّل إلى بيت أمّ عليّ الداية. إنّه يعي تمامًا ضرورة الهرب ولكنّه لا يفكّر إلّا في الحبّ.

ويذهب إلى المعلّم حلمبوحة فينقده الجنيه ثمّ يمضي إلى هريدي الحملاوي بالجنيهين فيصحبه الحملاوي إلى بيت أمّ سعد.

* * *

يقول الرواة إنّ سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت. وفي نشوة الخمر ارتمى على قدميها في هيام، وما يدري إلّا وهو يبكي من الوجد. واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال:

- لقد قتلت. . .

ولم تفهم المحبوبة كلمة، ولم يُقْدم هو على الفعل.

وانطرح الزمن خارج وعيه حتّى هلّ أوّل شعاع للضياء.

وارتفعت من الطريق جلبة، ودقّت الأرض أقدام ثقيلة، فتلقّى سنان أوّل إشارة خفيّة، واستسلم بأريحيّة للمقادر. . .

الحكاية رقم ٣٣

مرّت فترة بحارتنا يمكن أن تسمّى بعصر زينب.

الأب بيّاع فاكهة، والأمّ بيّاعة بيض، وزينب آخر عنقود مثقل بالذكور. وهي جميلة، فلتة رائعة من الجمال، وفي جمالها تتلخّص حكايتها.

في طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدي، في صباها تألّقت تباشير الفتنة، في الشباب استوت آية من البهاء والأبّهة.

ويقول زيدان الأب لزوجه:

- البنت يجب أن تحجب في البيت.

فتوافق الأمّ كارهة إذ إنّها تفضّل بطبيعة الحال لو كان في الإمكان أن تسعى زينب لرزقها. . .

ويتكالب الخطّاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلّاب، وتقول الأمّ:

- من العدل أن يكون حظّها في قوّة جمالها. . .

لذلك ترفض يد ابن أختها سوّاق الكارو، فتتمزّق أواصر الأخوّة، وتنشب معركة بين الأختين تتفرّج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجّب ولاعن.

ويتقدّم لها في وقت واحد تقريبًا حسن «صبيّ طرابيشي» وخليل «صبيّ جزّار» فيُجرّان إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين.

وإذا بفرّاج الدرّي المدرّس يطلب يدها، أفندي محترم وموظّف حكومة ويُعتبر بالقياس إلى بيئة زينب حلمًا من الأحلام. وتقول الأمّ:

- هذا مَن نرحّب به. . . .

ولكنّ عليّ بيّاع القلل يعترض سبيل المدرّس ذات يوم ويهمس في أذنه:

- إن تكن تحبّ الحياة حقًّا فابعد عن زينب. . .

ويستعين المدرّس بقريب قويّ من أهل التحرّش والتحدّي فيعتدي الرجل على بيّاع القلل، ولكنّ بيّاع القلل يضطغنها في نفسه ويتربّص لفرّاج أفندي ثمّ يفقأ عينه!

عند ذاك يجفل المحترمون من أبناء حارتنا إيثارًا للسلامة ولا يبقى إلّا الحرافيش.

وتهتف الأمّ المغيظة:

- يا ميلة البخت. . .

وتحتدم المنافسات، وتتعدّد الاعتداءات، وتتساقط التهديدات، ويلتزم آل زيدان الحياد التامّ خوفًا من العدوان، ورغم بلواهم وكربهم تلفحهم أنفاس الحاسدين وألسنتهم، حتّى يقول زيدان لبعض أصدقائه:

- لقد حلّت بنا نقمة اسمها الجمال!

وتتكرّر الخناقات وتكثر الإصابات، وتمضي زينب وأسرتها لعنة مجسّدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفيّة في الانتقام.

عمّ زيدان لا يجد فرصة ليتنفّس في هدوء، ويخاف أن يغدر غادر بزينب نفسها. . .

ويطلع صباح فلا نقف لآل زيدان على أثر. ويتفشّى الوجوم والكدر. وأمْنى بخيبة لا يدري بها أحد. وبحزن أتساءل:

- ألا يتيسّر للجمال أن يهنأ بالبقاء في حارتنا؟

الحكاية رقم ٣٤

هنيّة بنت علوانة الدلّالة من بطلات الحبّ في حارتنا.

أتساءل كثيرًا عن سرّ حبّها لحمام صبيّ الخيّاط البلديّ. إنّه فتًى سيّئ الصورة والسمعة، شرس الطباع، تعكس عيناه نظرة تحدٍّ وعدوان، يرتدي جلبابه على اللحم ويمضي حافي القدمين. ثمّ إنّ هنيّة بنت متعلّمة، مكثت في الكتّاب ثلاث سنوات، تفكّ الخطّ وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم، وأمّها ميسورة الحال، ووقت الغداء تفوح رائحة القلي من مطبخهم.

وهنيّة ترفض يد حامد المراكيبي بيّاع المراكيب عندما يتقدّم لخطبتها. وتبكي الأمّ بحرارة وهي تحكي

مأساتها لأمّي:

- تصوّري، حامد المراكيبي الرجل الكامل صاحب القرش.

فتتساءل أمّي:

- كيف وبنتك عاقلة وحافظة كلام ربّنا؟

- قالوا لي إنّه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت الأضرحة ونذرت النذور.

ولكنّ هنيّة تصرّ على رفض يد حامد. وتغضب أمّها وتلطمها على وجهها وتصيح بها:

- تفضّلين عليه المجرم؟ بُعْدك، ولكن مكتوب عليك الشقا.

ويتراجع حامد المراكيبي ويتلاشى، ويبدأ حمام جادًّا في التفكير في أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه. غير أنّه يُتّهم في هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيُقبض عليه ويُزَجّ في السجن عامين.

تبتهج علوانة الدلّالة بالحلّ الذي جادت به السماء وتقول لهنيّة:

- أرأيت؟ سبحان الله الذي لا يعلو على برهانه برهان.

ولكنّ هنيّة تصرّ على رفض حامد المراكيبي وتغرق في حزن عميق حتّى يشفق عليها الغاضبون. ويقول كثيرون إنّه لا حيلة لها في الحزن، وإنّ حمام لا يُقتّلع من قلبها بلا أثر. ولكنّها تصرّ على الرفض حتّى يمرّ العامان ويرجع حمام إلى الحارة. وتدبّ الحياة من جديد في هنيّة ويجنّ جنون أمّها. ويلقى حمام صعوبة في العودة إلى عمله الأوّل أو الالتحاق بأيّ عمل آخر. ثمّ يُرى سارحًا بلحمة رأس وطبليّة ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس المال، ولا يُعلم إلّا فيما بعد أنّ هنيّة هي التي أمدّته بأسورة ذهبيّة.

وتثور علوانة ثورة عنيفة وتستعدي على ابنتها القريب والجار، غير أنّ هنيّة تعقد قرانها بحمام في القسم وتحت حماية الشرطة.

وأشهد بأنّها زيجة موفّقة، فهنيّة تشاركه في العمل وتديره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتّت حتّى ينجح أو بالأحرى تنجح هي في فتح دكّان له، أمّا الذكريات القديمة فلم يعد من المهمّ أن يذكرها أحد.

الحكاية رقم ٣٥

في موسم القرافة نزور أحيانًا حوشًا غير بعيد من حوشنا. أرى رجلًا يقيم في حجرة المواسم إقامة دائمة كما يُستدلّ من وجود الفراش والكنبة والصوان. أسأل أمّي عن هويّته فتقول:

- ابن عمّة أبيك رضوان أفندي.

- لماذا يقيم في الحوش؟

تتجاهل وقتها سؤالي، وألاحظ خلوّ الحجرة من الرجل في عام تالٍ، وأعلم أنّه انتقل من الحجرة إلى القبر، ثمّ أسمع قصّته فيما بعد لمناسبة لا أذكرها.

أسرة رضوان أفندي تتكوّن منه ومن حَرَمه ومن صبيّ وصبيّة. الأمّ تشغف بالصبيّ على حين يشغف الأب بالصبيّة. يناهز الأخوان البلوغ فيمارس الأخ قوّته في معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتّى تضيق به وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه، أو على قول أمّي:

- سكن الشيطان بينهما!

يتطوّر النزاع إلى خصام أغبر، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرّد من ناحية الابن بلا حذر، حتّى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنّى كلٌّ للآخر الهلاك والفناء جهرًا وبلا تحفّظ.

وفي ختام المرحلة الثانويّة يمرض الشابّ بالسلّ، ثمّ يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستّة أشهر. موت قاسٍ مطويّ على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الأمّ وتلاشت آمالها في الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم، ويقول رضوان لأبي:

- إنّها عمليّة نشل، والخجل يمنعني من مواجهة أمّه.

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض أخته بنفس المرض.

وذات ليلة يجيئنا رضوان أفندي وهو يجري حافيًا من أقصى الحارة، مشعّث الشعر دامي العينين فتهبّ الأسرة نحوه متسائلة وهي على يقين ممّا تتساءل عنه. يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفأ فيهما

نور الحياة:

- انتهى كلّ شيء!

يصفّي الرجل بعد ذٰلك تجارته، يهجر بيته إلى حوش القرافة ويقيم هناك على مقربة من قبر الفقيدين. وتمرّ حياته على الامتداد حتّى يوافيه الأجل.

أمّا الأمّ فهي تواظب على زيارتنا، وأراها وأتّصل بها وأنا صغير وهي عجوز. يبدو أنّها لا تذكر الماضي، وتحبّ التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت. أتذكّر جلستها وراء الأوراق المفنّدة وتكوّمي أمامها في تشوّف، وهي تشير إلى صورة وتقول:

- في سكّتك واحدة ليست من دمك.

وتبتسم كثيرًا فأقول لأمّي:

- تيزة وليدة خفيفة وتحبّ الضحك.

فتتمتم أمّي:

- ربّنا معها ومع كلّ جريح.

الحكاية رقم ٣٦

في إحدى ليالي الأرق أرى من نافذتي هٰذا المنظر.

أرى شبح رجل يترنّح، يتلاطم مع الجدران، يتعثّر فيقع ثمّ يقوم بمشقّة، تندلق من فيه السائب أغنية «أنا أبله كنت هبلة» ثمّ يندفع فاقد التوازن كأنّه ثور يتوثّب للنطح، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح كالقتيل.

يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم - لعلّه فرّان - ليطرحه على لوح عجين ثمّ يتعاون مع آخرين على رفعه ويمضون به...

يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنّح ويتعثّر ويقوم ويقع وإذا بالسكران الأوّل يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر:

- اخص، حقيقة أنّك مرة، تسكر حتّى تقع من طولك وتضحك عليك الناس؟. شخُخص.

في زمن متأخّر، وفي ظروف غاية في الجدّيّة، يعاودني ذٰلك المنظر حاملًا إليّ معاني جديدة لم تخطر لي على بال من قبل حين رؤيته.

الحكاية رقم ٣٧

عمّ ينسون الصرماتي كهل لا تشوب سمعته شائبة. يموت ابنه رمضان عقب مرض لم يمهله طويلًا. يحزن الكهل كالمتوقّع ولٰكنّه يُقْدِم على فعل غريب يجعل منه أحدوثة الحارة قبل أن تجفّ دموعه. ما ندري إلّا وهو يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفّى، يعقد زواجه عليها ولمّا يمرّ على الوفاة شهر واحد! هل جُنّ الرجل؟

وعلى فرض جنونه ألّا يسعه أن ينتظر عامًا أو بعض عام؟

وكيف تُوافق دليلة وفارق السنّ بينهما أكثر من أربعين عامًا؟

ولٰكنّ الخبر حقيقة لا شكّ فيها، وها هي دليلة تنتقل إلى بيت عمّ ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقيّة أسرته.

وتتلوّى الألسنة هامسة، كان شيء بين المرحوم رمضان ودليلة، يسّره الزواج الوشيك، والثقة بغدٍ لم يأتِ، وتدخّل الموت فقلب الميزان، وتبدّد الأمان، فسقطت دليلة في مأزق بلا حماية ولا أمل.

وتقف أمّها على السرّ، تفضي به إلى أمّ رمضان، وترمي به هٰذه على زوجها المحزون، مصيبة جديدة، مصيبة بكلّ معنى الكلمة، ولٰكن لا يمكن تجاهلها بحال، البنت في مأزق، الجاني هو الابن الذي يسأل له الرحمة، ويفكّر ويفكّر ثمّ يعزم ثمّ يُقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا.

تصبح دليلة زوجته، وتلد في بيته وليدها.

وثمّة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء.

وآخرون في غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون.

أمّا غواة السخرية فيشيرون إليه ثمّ يتهامسون:

- هٰذا هو أبو حفيده.

الحكاية رقم ٣٨

وأنا ألعب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب.

أكثر من صوت يتساءل:

- خير إن شاء الله.

فيبشّرنا أحدهم قائلًا:

- قرئت فاتحة نعيمة السقّاف على شيخون الدهل.

يتناهى الخبر إلى فتحيّة قيسون وهي تغسل ملابس في طست أمام مسكنها. تنتتر واثبة كالملدوغة، تفكّ عقدة جلبابها، تربط منديلها حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة، تتناول ملاءتها من فوق حجر فتتلفّع بها بسرعة مجنونة محرّكة طرفيها كجناحي طائر كاسر، تلوّح بقبضتها مهدّدة، تُرجع رأسها إلى الوراء متوثّبة ثمّ تندفع في طريقها على يقين من هدفها وهي تصيح:

- والنبيّ ومَن نبّى النبيّ لأسوّد حظّه وأطيّن عيشته وأشوّه وجهه حتّى إنّ أمّه نفسها لن تعرفه.

وتمضي مخلّفة وراءها توقّعات خطيرة ورغبة محمومة في الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة.

الحكاية رقم ٣٩

صبري الجواني يثير دائمًا عاصفة من التساؤلات.

من بيئة كادحة، يعمل في دكّان خردوات، ثمّ يندب الجولان بشتّى الخردوات في الأحياء المجاورة. يتغيّر جلده بسرعة تفوق كلّ تقدير، تتحسّن صحّته ويكتسي بحلّة النعمة الزاهية. ينتقل إلى مسكن جديد، يُرى وهو راجع حاملًا ورقة لحمة وفاكهة الموسم، يجلس مساء في المقهى يدخّن البوري ويحتسي الزنجبيل، ويقضي بعض السهرات في غرزة المواويلي.

ويتزوّج من بنت ناس، ويرتدي البدلة بدلًا من الجلباب، وتنطق ملامحه بالرضى والثقة والأمان. وفي ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر ويرقص ويغنّي ويبدي من فنون الانبساط ما لا يتصوّره عقل.

وعقب الزفّة يغادر الفرح ليرجع الى بيته ولكنّه لا يرجع إلى بيته.

يختفي فلا يقف له على أثر أو خبر.

الحكاية رقم ٤٠

يجلس وراء نافذة مصفّحة بالقضبان، يحملق في لا شيء، تتحجّر في عينيه نظرة لا معنى لها، رأسه صغير أصلع، يغمغم بين آن وآن:

- أين أنت يا حبيبتي!

ترمقه من بعيد بحبّ استطلاع، نتجنّب إثارته كما نُبّه علينا، نتهامس:

- انظر إلى عينيه!

- ماذا يعني؟

- إنّه مجنون.

كان يُرى قديمًا هائمًا صامتًا، يتابع امرأة محجّبة باهتمام، يعترض طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة.

ويقال إنّه رأى في حلم بنتًا جميلة شُغف بها أيّما شغف، وأنّ الحلم يتكرّر، وأنّه يمضي باحثًا عنها.

ويفقد الصبر فيأخذ في التهجّم على النساء ويهمّ بجذب النقاب، ويتعرّض بذلك للزجر والضرب والعنف. ويؤمن أهله بأنّه ممسوس فيطوفون به على الأضرحة والشيخ لبيب ولكنّه لا يبشّر بشفاء.

ويقولون لأبيه:

- المستشفى لأمثاله وسلّم للمقادر.

ولكنّه يحبسه في الحجرة ويصفّح النافذة بالقضبان.

ويقبع نهاره وراء النافذة، يحملق في لا شيء، ويتقدّم في السنّ، ويغمغم من آنٍ لآنٍ:

- أين أنت يا حبيبتي؟

الحكاية رقم ٤١

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانيّ تشهده عيناي. لا أتصوّر أن يوجد بين البشر مَن هو أطول أو أعرض منه. مئذنة، يتحسّس طريقه بنبّوت رهيب، تحمله قدمان حافيتان كأنّهما سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنّه من لُطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرًا.

وهو الشحّاذ الوحيد في حارتنا فمنذ احترف التسوّل لم يتجرّأ شحّاذ آخر على ترديد «الله يا محسنين».

يقعد الساعات متربّعًا عند مدخل القبو، معتمدًا على نبّوته، يصمت طويلًا، ينفجر بصوت كالرعد «يا أكرم مَن سئل»، يجيئه الطعام في أوقاته، تتراكم الملاليم في جيبه، يتبادل التحيّات مع السابلة.

ويسبب من حدّة التناقض بين قوّته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنّه مثار للابتسام، ولكن بلا حنق أو حقد، فحسبه أنّه ابن حارتنا وحسبه أنّه لا يستثمر قوّته في العدوان!

ويشاء الحظّ أن أشهد معركته الكبرى.

ففي أحد المواسم يهبط حارتنا زلّومة ـ شحّاذ ضرير أيضًا ـ من القبو راجعًا من القرافة مثقلًا بالفطير والتمر، فيختار مجلسًا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفّر.

ها هما الشحّاذان الضريران يجلسان على جانبي مدخل القبو كأنّهما حارسان. ويتلقّى القرد بأذنيه الحاذّتين رسائل خفيّة من حركات شفتي زلّومة، كما يتلقّى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية، يتّجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفّز.

ويهتف زلّومة في غبطة:

ـ يا حسين يا حبيب النبيّ يا سيّد الشهداء... مَدَد.

فيقطّب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة:

ـ مَن؟

فيجيبه زلّومة ببراءة:

ـ سائل على وجه الكريم!

ـ وماذا جاء بك إلى هنا يا بن الزانية؟

فيسأل زلّومة بحدّة:

ـ أملكتَ أرض الله؟

ـ ألا تراني؟

ـ إنّي أرى بنور القلب.

فيتمتم إبراهيم القرد:

ـ عظيم.

يتمطّى بنيانه قائمًا ويمضي نحو زلّومة وكأنّما يراه، يقبض على منكبه، لا أدري ماذا يفعل به ولكنّي أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوّى ويستغيث.

ويتجمهر أناس كثيرون، يخلّصون بينهما بعناء شديد، يبدر من البعض كلمات غاضبة:

ـ افتراء وظلم.

ـ أنت وحش.

ـ أنت لا تخاف الله!

ويصيح إبراهيم القرد:

ـ عليكم اللعنات.

ويغضب أحدهم فيرميه بسلّة محطّمة ملقاة.

ويثور القرد. أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة. كأنّما هرست له دمّلًا. يجنّ جنونه، يهدر بأقذع الشتائم، يشهر نبّوته ويدور به ويضرب به كلّ مكان فيرتطم بالجدران والأشياء، ينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتّساع. يتفرّق الرجال، يركضون، يتلاطمون، يعثرون فيسقطون، يصيحون، يستغيثون. القرد ينقلب قوّة عمياء مدمّرة تجتاح الحارة، يلوذ الناس بالأزقّة الجانبيّة، تغلق الدكاكين، تتحطّم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف.

وتتدفّق قوّات الشرطة على الحارة. يذهل الضابط عندما يدرك أنّ المعتدي ما هو إلّا شحّاذ ضرير، ثمّ يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه.

وتتجدّد المعركة بين القرد والجنود، يخوضها الجنود عزّلًا من السلاح بأمر من الضابط ولكنّهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللُّعَب، إنّه قوّة لا تُغلب.

ويتجمّع الغلمان في الأطراف ويشجّعون القرد بهتاف صاخب. الحقّ أنّي لم أرَ رجال الداخليّة من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن. ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر:

ـ يا قرد. ستُضرب بالرصاص إن لم تسلّم نفسك في الحال.

ولكنّ القرد يتمادى في التحدّي منتشيًا بثوران القوّة والنصر. ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقيّة ولكنّه يستدعي بعض رجال المطافئ.

ويتدفّق الماء من الخرطوم كالشلّال فينصبّ بقوّته التي لا مفرّ منها على القرد. يرتبك القرد ويتعثّر ويدور حول نفسه مترنّحًا منهزمًا حانقًا قاذفًا بسيل من السباب المقذع، ثمّ يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقضّ عليه الجنود بالأغلال.

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن، ولكنّه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالًا حميمًا وتحيّات حارّة.... فيواصل حياته السابقة متعملقًا عند مدخل القبو مثل أسطورة.

الحكاية رقم ٤٢

البرجاوي منهمك في عمله بدكّان الطعميّة.

يمرّ به الكفراوي فيطلب منه شربة ماء. تتملّك البرجاوي نزوة مزاح فيشير إلى حوض الماء الذي منه تُسقى الحمير والبغال ويقول:

- إليك الحوض فاشرب.

ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوي ويصيح به:

- أنت جبان وقليل الأدب.

فيغضب البرجاوي بدوره ويصيح به:

- ملعون أبوك وأجدادك!

وتتبادل قذائف من السباب ويتجمّع مشاهدون من أعمار متفاوتة، ويسعى إمام الجامع لفضّ الموقف ولكنّ أحدًا لا يُلقي إليه أذنًا فينسحب مستاء.

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوي طوبة يقذف بها الدكّان فتحطّم المصباح الغازيّ الكبير المدلّى من السقف، ويفقد البرجاوي أعصابه فيقبض على يد طاسة الطعميّة ثمّ ينقضّ على الكفراوي فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركه إلّا جثّة هامدة.

ويهرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوي وأهل البرجاوي فيخوضون معركة دامية تُستعمل فيها الطوب والعصيّ والسكاكين، فيُقتل مَن يُقتل وينتهي مصير الباقي إلى السجون.

وأعيش عمرًا فلا أرى في داريّ البرجاوي والكفراوي إلّا نساء وبنات يسعين في السواد، يحزنني ذلك بطبيعة الحال وأعلّق عليه بما يناسبه.

غير أنّ كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضبات الهادرة والملاحم الدمويّة، ويتشرّفون جهرًا بالسجون والمشانق.

الحكاية رقم ٤٣

حوّاش العدّاد من أصحاب المزاج في حارتنا.

في ليلة عيد يقرّر أن يحيي سهرة كبرى في بيته. يلبّي دعوته كثيرون من الصحاب والمعلّمين والمطربين والعوالم والراقصات. وتلعب الأوتار وتتهادى الأنغام في جوّ من العربدة يهيّج أشواق المحرومين ويثير استهجان أهل التقوى والورع.

ويتواصل الطرب والعربدة حتّى قبيل الفجر بقليل ثمّ يخلد الجميع لنوم عميق...

وعند ضحى اليوم التالي، والحارة ثملة بأفراح العيد، تصدر عن بيت حوّاش العدّاد ضجّة غريبة وصيحات فزع كأنّ صاعقة انقضّت عليه.

ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون، ثمّ تنتشر أخبار لم يُسمع بمثلها من قبل.

يقول الرواة إنّ الداعي والمدعوّين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين في عالم خراب شامل لا يتصوّر ولا يوصف. إنّهم يتذكّرون كيف أنّ النوم سرقهم من بين أحضان المسرّات وهم على خير ما يحبّون ولكنّهم فتحوا أعينهم على عالم لا يُرى إلّا في أعقاب زلزال مدمّر. فالأثاث النفيس قد تحطّم إربًا، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتّتت أكوامًا ونثارًا، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تهتّكت وتمزّقت وتطاير حشوها ندفًا، والقوارير والكئوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسّرت وانتشر كسارها، كذلك المصابيح والتحف وحتّى السجّاد والأبسطة والملابس. ماذا حدث، لماذا حدث، كيف حدث؟!!

وتحضر الشرطة فتعاين وتسجّل وتستجوب ولكنّ التحقيق لا يسفر عن شيء. ويقال هنا وهناك إنّ خلافًا دبّ بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبقِ على شيء، وإنّ رجالًا من ذوي الجاه توسّطوا عند المأمور فغطّى على الحادث بالحفظ، ولكن لم يسمع أنّ أحدًا من المدعوّين جُرح جرحًا عميقًا أو أصيب بعاهة.

ويقال أيضًا إنّ أعداء حوّاش العدّاد دسّوا لهم منوّمًا حتّى ناموا ثمّ دمّروا كلّ شيء بتصميم شامل ودقّة وحشيّة بالغة، ولكن ألم يكن من المنطق أكثر أن يوجّهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم؟؟

وعلى ذلك فلم يكن يصدّق أحد هذا القول.

ويذاع كلام أيضًا عن أنّ ما حاق ببيت حوّاش إنّما جاء نتيجة لغضب من الله استحقّه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأنّ الداعي والمدعوّين هم الذين خرّبوا

دارهم وهم ذاهلون في غيبوبة ثمّ تداعوا نيامًا شبه أموات.

وهٰذا تفسير يلقى عادة أذنًا مصغية في حارتنا، ومثله ما قيل عن دَوْر العفاريت في الأمر نتيجة لنذر نذره حوّاش ولم يوفِهِ.

وتمرّ أيّام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حوّاش العدّاد حتّى يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

الحكاية رقم ٤٤

هٰذه حكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده.

كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدي. صعد الشيخ إلى شرفة المئذنة ليؤذّن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية، مدّ بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلًا يطبق يده على فيها ليمنعها من الاستغاثة، ثمّ يجذبها إلى الداخل تحت المصباح الغازيّ المضيء ثمّ ينهال عليها ضربًا بشيء في يده حتّى تهاوت ساقطة. عرف المرأة كما عرف الرجل، أمّا المرأة فهي ستّ سكينة أرملة صاحب مقلى، وأمّا الرجل فهو المعلّم محمّد الزمر صاحب وكالة خشب. تسمّر الشيخ أمل المهدي في مكانه متدثّرًا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتّى أغلق المعلّم النافذة. وراح يتمتم:

ـ لقد قضى على المرأة.

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤدّي الأذان.

جريمة قتل. ماذا أوجد المعلّم في هٰذه الساعة ببيت الستّ؟، توجد أكثر من جريمة، ارحمنا يا ربّ السماوات والأرض!

وهبط السلّم الحلزونيّ بمشقّة ثمّ جلس على الأرض راكنًا إلى المنبر ظهره. وجاء أوائل المصلّين فهالهم منظره وسأله بعضهم:

ـ لِمَ لَمْ نسمع صوتك يا شيخ أمل؟

فأجاب لاهثًا:

ـ بي مرض والله أعلم.

وكان المعلّم محمّد الزمر هو مَن تبرّع ببناء الزاوية، وهو الذي اختار الشيخ إمامًا لها ورتّب له أجره، تذكّر الشيخ ذٰلك فقال يخاطب نفسه:

ـ يا له من امتحان عسير من ربّ العالمين!

ورقد الشيخ في بيته ثلاثة أيّام ولم يفتح فمه.

وانتشرت أنباء الجريمة في الحارة فعرف كلّ مَن هبّ ودبّ أنّ الستّ سكينة وُجدت قتيلة في حجرة نومها وهي بجلباب النوم. وبدأ التحقيق، واستدعي فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدي.

سأله المحقّق:

ـ ألم تسمع صرخة أو صوتًا ملفتًا للسمع وأنت تؤذّن؟

فأجاب:

ـ كنت مريضًا فلم أؤذّن تلك الليلة...

ـ أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئًا عن علاقتها بأحد؟

ـ كانت سيّدة فاضلة ولا عِلْم لي بشيء.

وغادر الشيخ حجرة المحقّق وهو يقول لنفسه: «إنّي لمن الهالكين».

وجعل يبكي بشدّة من الحزن والعجز.

واكتشف في أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحليّ فحامت الشبهات حول صبيّ كوّاء كان يتردّد على البيت وفُتّش مسكنه فعُثر على الحليّ وبذاك وُجّهت إلى الشابّ تهمة القتل.

وبدا ذٰلك كلّه منطقيًّا إلّا عند الشيخ أمل، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنونيّ، مضى يحترق في صميم أعماقه ويناهر عصبًا بعد عصب. كان ورعًا تقيًّا ولٰكنّ شجاعته كانت دون ورعه وتقواه.

ومن شدّة القلق والحزن تهدّم ودبّ الضعف في أعصابه.

والتقى ذات يوم بالمعلّم محمّد الزمر أمام السبيل القديم فشدّ على يده كالعادة، وعند ذاك انتفض كأنّما مسّ ثعبانًا، وحدّق فيه بقوّة غريبة حتّى تساءل المعلّم:

ـ مالك يا شيخ أمل؟

فوجد نفسه يقول:

ـ لقد رآك الله!

فدهش الرجل وسأله:

ـ ماذا تعني؟... أنت مريض؟.

فهتف به:

ـ اعترف بجريمتك يا قاتل!

ثمّ هرول إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج. لبث في سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس.

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره في شرفة المئذنة. ولكن أيّ ظهور كان؟. تطلّعت إليه الأبصار بذهول وراحوا يقولون:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ـ الرجل الطيّب عارٍ تمامًا.

ـ يا شيخ أمل وحّد الله!

ومضى يدور في الشرفة متبخترًا ويغنّي بصوت متحشرج:

امّا إنتَ مش قدّ الهوى بسّ تعشق ليه؟

الحكاية رقم ٤٥

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف. متزوّج، أب لعشرة، في الأربعين من عمره. يتميّز بقوّة شديدة وملامح خشنة وفقر مدقع. يتواصل عمله من الضحى حتّى منتصف الليل، لا يعرف الراحة كما لا يعرف الشبع. يختنق بالحسرات إذا رأى الناعمين في المقهى أو تطايرت إلى أنفه رائحة التقلية. وهو يغبط حمار الطاحونة في السرجة كما يغبط العطّار أو صاحب وكالة الخشب.

ويقول ذات يوم لسيّدنا إمام الجامع:

ـ الله يخلق الرزق ولكنّه ينسى أبنائي.

فيغضب الإمام ويصيح به:

ـ لقد بات سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطًا على بطنه حجرًا ليسكّن به جوعه، اذهب عليك اللعنة.

* * *

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشقّ الظلماء فيتهادى إليه صوت هامس ناعم يقول:

ـ يا عمّ عاشور!

يتوقّف متلفّتًا أمام نافذة مغلقة في دور أرضيّ ببيت الستّ فضيلة الأرملة المستحقّة في وقف الشنانيري، ويتساءل:

ـ مَن ينادي؟

فيجيبه الصوت:

ـ أريد منك خدمة فادخل.

المكان مظلم، حتّى شبح التمساح المحنّط فوق الباب لا يُرى. يمرق من الباب ويمضي نحو المنظرة مهتديًا بضوء يلوح في شراعة بابها. يرى السيّدة فضيلة متربّعة على كنبة تركيّة فيقف بين يديها ناشرًا في المكان رائحة عرقه الفظّة النافذة.

ـ أريد زيتًا وكسبة...

تقولها ببلاهة، بلاهة تفضح مكرًا ساذجًا، وتنضح بشرتها باعتراف قرمزيّ، ويلمح في جفنيها المسبلين معجزة الرضى والاستسلام، ولكنّه ليس الاستسلام الذي تبادر إلى خياله، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبّرة، ويغادرها بعد أن يوقن بأنّها تريده في الحلال!

* * *

ويلبث دهرًا لا يصدّق، يتوهّم أنّه يتعامل مع حلم من الأحلام، ولكنّه يتزوّج من الأرملة الغنيّة، ويجري ذكره في الحارة نادرة من النوادر ومثالًا من الأمثلة. لا يبالي طبعًا أن يترك لها العصمة في يدها، ويترك عمله بالسرجة كما شرطت عليه، ثمّ يطالع الناس في زيّ جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم. وبمشيئة ستّ فضيلة لا يطلّق زوجته القديمة، وترتّب لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من أعماق قلوبهم. هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة، فيشبع ويسعد.

* * *

وستّ فضيلة سيّدة جميلة وكاملة، تحبّه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد.

وهي لا تفرّط في شيء منه. ناعمة مهذّبة وفيّة ولكنّها لا تفرّط في قيراط منه. ومنذ اللحظة الأولى يشعر عاشور بأنّها حريصة على ملكيّته ملكيّة كاملة، ظاهره وباطنه، أصله وظلّه، حتّى فكره وأحلامه، فهو

يعيش بين يديها، في الحديقة أو المنظرة، وحتّى الساعة التي يقضيها في المقهى يرى شبحها وراء خصاص النافذة يطلّ عليه، ولكنّه ينعم رغم كلّ شيء بالحبّ والراحة والشبع.

* * *

وعندما يعتاد عاشور الطيّبات، عندما تطوي العادة معجزات الهناء، يتسلّل إلى روحه التثاؤب. يتوق إلى ساعة يخلو فيها إلى نفسه، يهيم على وجهه، يمازح صديقًا، يرتكب حماقة بريئة، ولكنّه يشعر دوامًا بأنّه مراقب، خاضع، مطارد.

الحقّ أنّه لا ينقصه شيء ولكنّه سجين. ثمّة أغلال من حرير تحزّ عنقه مكان الأغلال الحديديّة القديمة، ويتدفّق في روحه التثاؤب.

ويجد الزمن طويلًا، ويجد الزمن ثقيلًا، ويجد الزمن عدوًّا.

ويقول لها ذات يوم:

- افتحي لي دكّانًا.

فتقول له:

- لديك ما تشتهيه النفس، ماذا ينقصك؟

فيقول متشكّيًا:

- كلّ رجل يعمل حتّى الشحّاذون.

ويوقن بأنّها تخاف أن يستغني عنها بالعمل أو يستقلّ عنها بالنجاح، وهو لا يريد من العمل إلّا أن يهيّئ له قدرًا من الحرّيّة بعيدًا عن نظرتها المستقرّة.

* * *

ويرتدّ عاشور الدنف إلى التجهّم والاحتجاج.

ويردّد لسانه ألفاظ التذمّر والظلم ونوادرهما.

ويغلي غضبه ويفور فيقرّر أن يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء البيت السعيد.

ويتمادى في غضبه فيلطمها على خدّها الأسيل، فتطرده من الجنّة فيذهب متحدّيًا...

* * *

ويتعرّض في تشرّده لمتاعب كثيرة، يلتقط رزقه بعناء، يتورّط في أعمال مريبة، يُجلد مرّة في القسم.

وتحنّ الستّ إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها، ولكنّه يرفض، يصرّ على الرفض، يمضي في سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر.

يستحقّ عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد في حارتنا.

الحكاية رقم ٤٦

كنت أعود سعد الجبلي في مرضه الأخير عندما ترامت إلى الحجرة من الحاكي أغنية:

ما هو إنت اللي جايبه لروحك بإيدك يا قلبي

فتنهّد سعد وابتسم وتمتم:

- إي والله، بإيدك يا قلبي.

وتبادلنا نظرة نطقت بتذكّرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرّات والآلام.

* * *

سعد الجبلي كاتب حسابات بدكّان الرهونات بحارتنا. طموح بعيد الأحلام فيبيع أرضًا يمتلكها ويستقيل من عمله ثمّ يتاجر في الروائح العطريّة. يربح أرباحًا كثيرة، يصير من أثرياء الحارة، ولكنّه لا يتمتّع في الواقع بأخلاق التجّار الاقتصاديّة.

كلّ ليلة يدعو إلى بيته نخبة من الصحاب، يقدّم الطعام والشراب، يلعب بأوتار العود، يغنّي مَن له صوت مقبول، تمتدّ السهرة حتّى منتصف الليل.

ثمّ يخيب تقديره في صفقة كبيرة، لا يجد لديه من المدّخر ما يسدّ به العجز، يشهر إفلاسه...

يجد نفسه هو وقبيلة مكوّنة من زوجة وأبناء وأخوات على باب الله.

تمرّ به أيّام قاسية شديدة، تؤذي صحّته وكبرياءه معًا، ولكنّه يبدو دائمًا رجلًا قويًّا راسخ الأركان. يرجع إلى عمله الأصليّ في دكّان الرهونات، يعطي دروسًا خصوصيّة في الحساب، يعيش عيشة التقشّف.

وإيمانه قويّ عميق.

أجل يشرب كثيرًا، لا يلتزم بالفرائض، ولكنّه مؤمن حقًّا، يعتقد بأن لن يصيبه إلّا ما كتب الله له، وأنّه لا مفرّ من المكتوب.

ولا يقعده عن العمل إلّا المرض فيلزم الفراش.

وأفكّر بحال أسرته فيملؤني الأسى.

وأشير إلى مَن يلعب في الحجرة من الصغار وأقول:

ـ ربّنا يشفيك من أجل هٰؤلاء!

فيقول باستسلام:

ـ أمّا الصحّة فقد انتهت.

ثمّ يستطرد بثقة:

ـ أمّا الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول:

ـ الخوف كفر بالله، أعوذ بالله من الخوف.

ثمّ بنبرة ساخرة:

ـ أحسبت أنّ حياتي أطعمتْهم حتّى تخاف أن يجيعهم موتي؟

أتمعّن إيمانه منبهرًا من قوّته.

غير أنّ سعد الجبلي لا ينسى الدعابة حتّى وهو في أعماق المحنة، فما إن يردّد الحاكي:

ما هو إنت اللي جايبه لروحك بإيدك يا قلبي

حتّى يتمتم باسمًا:

ـ إي والله، بإيدك يا قلبي...

الحكاية رقم ٤٧

وشلبي الألايلي له حكاية تستحقّ الرثاء.

لطيف ومحبوب ولكن ثمّة لحن مميّز في حديثه هو الإعجاب بأبيه. والفخر بالآباء شعار مألوف في حارتنا ولكنّ المغالاة فيه لا تخلو من دلالة ولا تسلم على المدى من تهكّم. وأبوه كان كاتبًا في دكّان الخردوات، وكان طويلًا عريضًا، والرجال يقيّمون بالطول والعرض في حارتنا.

يقول لي شلبي وهو يتنهّد:

ـ طالما رأيت أبي بعيني طفل أو من خلال عيني أمّي أيضًا!

فأقول له:

ـ هٰذا حال كثيرين منّا.

ـ ولكنّ الطفل يكبر ثمّ يعمل عادة في حرفة أبيه فيتسنّى له أن يراه على حقيقته أمّا أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعليمي فظلّ أبي في خيالي أسطورة.

ـ أيّ أسطورة يا شلبي؟

ـ أسطورة الجلال والثراء!

ثمّ يواصل بعد صمت قصير:

ـ ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب...

ـ عالم غريب؟

ـ لم يترك مليّمًا واحدًا، كانت صدمة، وقلت إنّه الكرم قد أهلك ثروته...

ويمضي في قصّته أو في اعترافه فيقول إنّه توظّف، وطمح ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال، وأراد أن يزكي نفسه عنده فأخبره أنّه ابن الألايلي...

ـ ودهمني الرفض، تحرّيت عن السبب بإلحاح شديد حتّى عثرت عليه في ذكريات أبي!

ـ هٰكذا؟

ـ تصوّر حالي إن استطعت.

ويجري لاهثًا وراء مزيد من التحرّيات ينبش بها قبر الراحل فتتكشّف له حقائق مريرة خافية، أخطرها بلا شكّ اتّهامه في شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عامًا. وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتبًا عنده لصداقة قديمة بينهما.

شلبي الألايلي يجترّ همومه وحده، حتّى أمّه لا تدري شيئًا، وهو يفشي أسراره الدفينة لا ليجد شريكًا يبثّه همّه، ولكن لتوهّمه أنّ سيرة أبيه أصبحت نادرة على كلّ لسان.

وتُحدث الحقائق المكتشفة آثارًا قاسية مناقضة في حياته، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقيّة بل مثاليّة في عمله وحارته. وها هو يتحرّر بالفضيحة من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين. ويعدل عن طموحه إلى الزواج الممتاز، ويثابر على التنويه بمآثر أبيه...

ويقول لي مرّة بصراحة صلبة:

ـ أهمّ شيء في هٰذه الدنيا أن نعرف الحقيقة...

ويغمغم بثقة وأسى معًا:

ـ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة...

الحكاية رقم ٤٨

الأب موظّف حكوميّ صغير وذاك أمر ـ على أيّ

حـال - نادر في حـارتنا. لـذلك ينشأ الابن - صقـر الموازيني - محسودًا بين أقرانـه. ولكنّه يقـول لي ذات يوم:

- لو كان أبي صعلوكًا ما عرفت الهمّ أو الغمّ...

ويتوظّف صقر مثل أبيه. وبعـد عام من تـوظيفه يتـوفّى أبوه مـوظّفًا صغـيرًا فقيرًا، لا يـورثه إلّا أسرة مكوّنة من أمّ وعمّة وأختينِ في سنّ الزواج وكلبة، كما يورثه أيضًا تقاليد راسخة تتعلّق بالكرامة وتطلّعـات جامحة نحو الحياة الجميلة....

وأكثريّة النسـاء في حارتنـا يرتـزقن، أمّا في أسرة المـوازيني وأمثالهـا فمقضيّ عليهنّ بالانتـظار، واجترار الأحلام، ومقضيّ على صقـر وحده أن يعمـل بمرتّب ضئيل ليعول أربع نساء وكلبة.

وتمضي الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ، ولا فرجة له إلّا المقهى حتّى منتصف الليل.

ويجد راحته في الشكوى فيقول:

- لن تتـزوّج أختـاي أبـدًا، فنحن لا نـرضى بالصعاليك وأولاد الناس لا يرضون بنا، ومن ثمّ فلن يتاح لي الزواج أبدًا.

أسرة تعاني الأشواق والحرمان، حتّى الأمّ والعمّة لم تجاوزا الخمسين.

وصقر شابّ مستقيم رغم حيـويّته، ذو استعـداد شديد للحياة الزوجيّة ويحنّ لها حنينًا:

- بيت صغير وزوجة وأبناء، تلك هي الجنّة!

ويتنهّد وتذوب نظرته حسرة وأحلامًا.

* * *

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر في صفحة وجهه الشحوب والشرود، وبمضيّ الأيّام يتفجّر الحرمان سخطًا على الأهل والنفس والناس، ثمّ ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة.

والنساء مجبرات على البقاء في البيت - إلّا لضرورة - منعًـا للقيـل والقـال، تحبسهنّ التقـاليـد، يجمعهنّ الحرمان، يعذّبهنّ الفراغ، يتسلّين بالنقار.

أسرة في صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس، ونضال خفيّ مع حارسها الـذي لا يقلّ عنهـا يأسًـا وعذابًا.

حتّى الكلبـة تضطرب في جنبـات البيت مختنقـة، ممنوعة من الانطلاق خوفًا عليها من القذارة، تلاعب الضيف بعنف، تنقضّ على ساقـه تتمسّح بهـا، يجنّ جنونها لدى سماع نباح يترامى...

* * *

ويتقدّم العمر، صقر يغطّ في عزوبته، وهنّ يذبلن ويغصن في الماء، ويتسربل الجوّ بالقتامة. والشـابّ بقدر ما يثير من عطف بقدر ما يستوجب من ازدراء، لا علّة واضحة لذلك، ربّما لأنّه يصبح مثالًا للإذعان، والانحناء حيال المصير المحتوم، ومرآة للاصطلاحات والأساليب النسويّة المقتبسة من البيت.

ويـومًا أرى كلبتـه في الطريق وقـد تدلّت بـطنهـا وانتفخت فأرمقها بابتسام وإعجاب:

- الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرّيّة جديدة.

أمّا صقر فبات يمقت أسرته، ويقول عنها:

- أسرة لا تعرف الموت، كما لا تعرف الحياة....

الحكاية رقم ٤٩

أمنية كلّ صغير في حارتنا أن يطوف به في منامـه زائر الليل.

إنّه شخصيّة حقيقيّة بلا ريب ولكنّ مملكتها المضيئة تستقرّ في القلوب البريئـة. في ليالي المـواسم والأعياد يقولون لنا:

- استحمّ وادخل فراشـك فاقـرأ الفاتحـة وتمنّ ما تشاء واستسلم للنوم فربّما أسعدك الحظّ بمجيء زائر الليل ليحقّق لك أمانيك...

وتتابعت تمنّياتي خلال مراحل متلاحقـة من العمر ابتهالات يزفرها القلب بين يدي زائر الليل...

- يا زائر الليل أغلق الكتّاب وخذ سيّدنا.

- يا زائر الليل افتح لي باب التكيّة واملأ حجري بالتوت.

- يا زائر الليل جدّد مباني حارتنا القديمة.

- يا زائر الليل نجّنا من الفقر والجهل والموت.

* * *

وفي صباي شهدت موكبًا فخمًا يشقّ حارتنا يتوسّطه رجل بالغ الروعة. اكتظّت الحارة بالرجال وسـدّت

النوافذ بالنساء، جلجلت الزغاريد والهتافات، صدحت المزامير والطبول.

زار الدكاكين دكّانًا دكّانًا، والوكالة والسرجة والفرن والحمّام والكتّاب والمدرسة والسبيل الأثريّ والقبو والزاوية والساحات، حتّى البوظة والغرزة والقرافة طاف بها.

بهرني منظره فانبعثت في قلبي فرحة لا حدود لها. وانتفض وجداني عن عقيدة راسخة «أنّ هٰذا الرجل الرائع هو زائر الليل» وأنّه جاء أخيرًا استجابة لابتهالاتي في هدأة الليل.

وهتفت بصوتي الرفيع الذي لم يناهز البلوغ:

ـ ليحيى زائر الليل!

وحدث ما لم أتوقّعه أبدًا، فقد وجم الناس، وتقلّصت وجوههم كأنّما اندلق في أفواههم عصير الليمون المالح. وقرص إمام الزاوية أذني وصاح بي:

ـ يا لك من ولد قليل الأدب!

وأمر صاحب الوكالة أحد خفرائه قائلًا:

ـ أبعِدْ هٰذا الولد الشقيّ...

ودفعتني الأيدي إلى بيتي وأنا من القهر والمهانة في نهاية.

وجلست واجمًا محزونًا دامع العينين حتّى قال لي أبي:

ـ إنّك أحمق، أنسيت أنّ زائر الليل لا يجيء إلّا في المنام؟!

الحكاية رقم ٥٠

في زمن مضى لم أدرك منه إلّا ذيله كانت الفتونة هي القوّة الجوهريّة في حارتنا. هي السلطة، هي النظام، هي الدفاع، هي الهجوم، هي الكرامة، هي الذلّ، هي السعادة، وهي العذاب...

جعلص الدنانيري فتوّة خطير ومن أشدّ الفتوّات تأثيرًا في حياة حارتنا. يجلس في المقهى كالطود أو يتقدّم موكبه مثل بنيان ضخم. وأنظر إليه بانبهار فيشدّني أبي من يدي قائلًا:

ـ سِرْ في حالك يا مجنون.

وأسأل أبي:

ـ أهو أقوى من عنترة؟

فيقول باسمًا:

ـ عنترة حكاية أمّا هٰذا فحقيقة والله المستعان...

وهو عملاق مترامي الأطراف طولًا وعرضًا، ذو كرش مثل قبّة جامع ووجه في حجم عجيزة ستّ أمّ زكي، يتمايل فوق صهوة حصانه كالمحمل، ولٰكنّه سريع الانقضاض كالريح، ويلعب بالنبّوت في رشاقة الحواة، وعند القتال يقاتل بنبّوته ورأسه وقدميه وأتباعه.

لا يُسمع صوته إلّا مزمجرًا أو هادرًا أو صارخًا، ودائمًا قاذفًا سيلًا من الشتائم. يخاطب أحبّاءه بيا ابن كذا وكذا، يسبّ الدين وهو ذاهب للصلاة أو راجع منها. لا يُرى باسمًا أو هاشًّا حتّى وهو يتلقّى الإتاوات ويصغي إلى المَلَق، يستوي في ذٰلك عنده صاحب الوكالة وحمّودة القوّاد، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضرط أو يكشف عن عورته!

يعجز مرّة أحد التجّار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعًا ولٰكنّه لا يقبل فيضطرّ الرجل إلى البقاء في بيته مع الحريم حتّى يجيئه الفرج.

ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عاريًا. يتوسّل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهّم متوثّب ينتظر تنفيذ أمره. ويضطرّ الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعة فقطعة وهو يبكي. يتوقّف عندما لم يبقَ إلّا السروال فيزمجر الدنانيري فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثمّ يستر عورته بيديه ويجري نحو مسكنه مشيّعًا بقهقهات العصابة.

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردّد عن إجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوّجها، وهو كثير الزواج والطلاق، ولا يجرؤ أحد على الزواج من إحدى مطلّقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسوّلن أو ينحرفن.

ويمرض يومًا فيلازم الفراش أسبوعًا، ويخبره أحد قرّاء الغيب بأنّ ما أصابه إنّما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه، فلمّا يبرأ من مرضه يأمر بألّا يحتفل

أحد بعيد الفطر المبارك، حتّى زيارة المقابر حُرمت علينا، وتمرّ أيّام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامتة ويغشانا ما يشبه الحداد.

أيّامه أيّام رعب وجبن وذلّ ونفاق، أيّام الأشباح والأنّات المكتومة، أيّام الشياطين والأساطير المخزية، أيّام التعاسة واليأس والطرق المسدودة.

ولكنّه يُرعب أيضًا الحارات المجاورة، ويسحق فتوّات الحسينيّة والعطوف والدراسة، فتمضي زفّة العريس من حارتنا بلا حراسة، ويتجنّب الناس وقع خطانا اتّقاء لتجهّم المقادر.

* * *

ويقدّر لهذا الجبل الشامخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة.

يُدعى إلى فرح في الدرب الأحمر، وعند مدخل البيت يتقدّم منه غلام ويقول له:

- يا عمّ.

فينظر إليه من عَل باستغراب ويسأله:

- ماذا تريد يا ولد؟

وبسرعة البرق.

أجل بسرعة البرق يُخرج من جلبابه سكّينًا فيطعنه في أعلى الكرش ثمّ يشدّ السكين وكأنّه يتعلّق بها حتّى المثانة!

بسرعة البرق وقع ذلك.

ويتجمّد جعلص الدنانيري كأنّما دهمه نوم، وتنحطّ معدته خارج جسمه، ثمّ يتهاوى كعمارة بكلّ ما يتضمّن من قوّة وإقدام ووحشيّة وثقة في النفس والدنيا.

ويتبيّن أنّ الغلام ابن أحد ضحاياه من كفر الزغاري درّبته أمّه وأعدّته لتلك اللحظة.

* * *

ويجتاح الخبر حارتنا كالنار المستطيرة. نذهل ونفزع ونبكي ونصرخ.

ونتمعّن الخبر ونتبادل النظر فيتسلّل إلى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان وفرح.

ويستقرّ بنا الحال فنؤمن بأنّ علينا أن نحزن رغم أنّنا فرحون، وأنّ علينا أن نغضب رغم أنّنا راضون، وأنّ علينا أن ننتقم رغم أنّنا شاكرون.

ويضرّ بنا موته كما أضرّت بنا حياته وتكفهرّ الحياة بلعنات الشياطين.

الحكاية رقم ٥١

ألعب أمام البيت مبتهجًا بشمس الشتاء.

في الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران.

وهو ذو نظرة حالمة وصوت عذب وملامح آسرة، ويعجبني صوته وهو يغنّي:

عجايب والله عجايب   ما يصحّش يا منصفين
تهجرني وتعشق غيري   وعواذلي مهنّيين

وفجأة يصمت عبده وتُعرب ملامحه عن حزن بلا سبب ظاهر، ويخيّل إليّ أنّه يرمقني باهتمام.

- مالك يا عبده؟

ولكنّه لا يردّ أو بالأحرى لم يسمع. وكأنّما يشرع في الضحك ولكنّه لا يضحك. وتندّ عنه صرخة ثمّ يسقط على وجهه. يتصلّب عوده وترتعد أطرافه ويطفح الزبد من شدقيه.

ويحمله أهل الخير إلى داخل بيته.

وأقصّ على أمّي ما رأيت فهتفت بحرارة:

- الله معه ومع أمّه المسكينة.

وأسمع همسًا أنّه ممسوس وأنّه لا يوجد له دواء عند أهل الأرض.

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله.

ويومًا يرجع جعلص الدنانيري من القرافة في موكبه فتقف له الحارة على الصفّين ويركبها الهول، إلّا عبده فإنّه يعترض سبيل الفتوّة بلا مبالاة ويقول:

- إنّي ألعنك وطظ فيك!

وأقول لنفسي جزعًا: لقد هلك عبده.

ولكنّ الجبّار يبتسم، بل ويتأبّط ذراعه، ويمضيان معًا في سلام.

لم يرحم الجبّار أحدًا في حارتنا إلّا عبده.

وتعلّمني الخبرة مع الأيّام أنّ حارتنا تقدّس طائفتين: الفتوّات والبلهاء.

وتحوم أحلام صباي حول الطائفتين.

أحلم حينًا بالفتوّة وجلالها.

وأحلم حينًا بالبلاهة وبركاتها!

الحكاية رقم ٥٢

يقف زيّان صبيّ مبيّض النحاس بين يدي فتوّة حارتنا السناوي مبتهلًا فيقول له الفتوّة:

- إن كنت صادقًا فدعني أجرّبك.

فيقول زيّان بحماس:

- تحت أمرك يا سيد المعلّمين.

فيقول السناوي بهدوء:

- اقتل أمّ عليّ الداية.

ثمّ يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله.

ويغوص زيّان في هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه:

- إنّها لمصيبة لم تجرِ لي في خاطر!

* * *

قبيل ذٰلك اللقاء كان زيّان فردًا مغمورًا من أهل حارتنا، ومن الشبّان الكادحين في سبيل لقمة العيش.

وكان يطوي قلبه على حبّ مضطرم لأمّ عليّ الداية بالرغم من أنّها تكبره بعشرين عامًا.

ويفكّر في حاله فتراءى له طريقه مسدودًا، ورزقه محدودًا، وأنّه لن يروق في عيني أمّ عليّ إن لم يقلب حاله رأسًا على عقب بضربة سحريّة. لذٰلك حلم بالانضمام إلى عصابة السناوي ليثب فوق حاجز الحظّ وثبة موفّقة.

ويتشفّع لدى الفتوّة بصديق لأبيه هو ميمون الأعور فيزكّيه الرجل عند السناوي ويقدّمه إليه، غير أنّ اللقاء لم يستغرق إلّا دقيقة واحدة أمره في ختامها أمْره المرعب:

- اقتل أمّ عليّ الداية!

* * *

ويهيم زيّان على وجهه في الساحة أمام التكيّة ولٰكنّ الله لم يهدِه إلى مخرج. ويتسلّل إلى ميمون الأعور ليلًا في الغرزة فيقبّل يده ويقول له:

- يا معلّم، إنّي خجلان، ولٰكنّني لا أستطيع قتل أمّ عليّ الداية.

ويظنّ ميمون أنّ عجزه راجع إلى قلّة الحيلة فيقول له:

- ليس أسهل من ذٰلك فهي تُدعى عادة إلى البيوت في أواخر الليل.

فيقول يائسًا:

- أمنيتي أن أتزوّج منها ذات يوم.

فيقول ميمون باستهانة:

- اقتلها لتثبت جدارتك ثمّ تزوّج من غيرها فالنسوان في حارتنا أكثر من الذباب!

- ولماذا أمّ عليّ بالذات؟

- هٰذا أمر المعلّم ولا مناقشة فيه، وهو يريد أن يجرّبك، بل لعلّه علم برغبتك في المرأة.

فيقول متنهّدًا:

- الحقّ أنّني لا أستطيع القتل!

فيغضب ميمون ويصفعه ثمّ يقول:

- أحسبت الانضمام للعصابة لهوًا؟!

- أعرف الآن أنّني لا أستحقّ هٰذا الشرف.

- فات الوقت!

- فات الوقت؟

- لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة في الحارة.

ويمضي زيّان وهو يعدّ نفسه في الضائعين.

ويفضي بهمّه إلى أمّه فتنصحه بالهرب وتحثّه عليه، وقبيل الفجر يغادر زيّان بيته حاملًا بقجة ملابسه وخمسين قرشًا، هاجرًا بيته وحارته وعمله، مستقبلًا العناء والمجهول.

وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من عمر حارتنا.

الحكاية رقم ٥٣

ومن فتوّات حارتنا حمّودة الحلواني. ويحكى أنّه الوحيد بينهم الذي عمّر حتّى بلغ التسعين من عمره، كما أنّه الوحيد الذي اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر.

وقد تاب وحجّ ولزم المسجد في آخر أيّامه.

وممّا يؤثر من سيرته أنّه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر، فقال للإمام:

- كثيرون يسيئون الظنّ بالفتوّات ولكنّ أولاد الحلال بينهم كثيرون!

فابتسم الإمام وقال متهكّمًا:

- إنّك على رأس أولاد الحلال.

فقال حمّودة بإيمان:

- حصّتي من الخير لا يستهان بها.

- عظيم، أعطني مثلًا يا معلّم حمّودة؟

- أتذكر رجل الفلّ الذي اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات؟. أنا الذي دبّرت مصرعه!

- ولكنّها جريمة يا معلّم.

- أبدًا، وأنا الذي قتلت سمعة الدنش الذي قتل ابن زوجته.

- ولكن ذلك لم يثبت وقد برّأته المحكمة!

- طظ في المحكمة، كان قلبي دليلي وهو أصدق الحاكمين!

ثمّ بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه في أواخر عمره:

- ومن حسناتي أنّني قتلت فهيمة الآلاتيّة القوّادة المعروفة!

فقال الإمام بازدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان:

- قيل وقتها إنّك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها!

- لا تصدّق كثيرًا ممّا يقال!

فضحك الإمام وقال:

- زدني علمًا بحسناتك!

- وقتلت أيضًا يمنى الخيشي.

- وماذا كان ذنبه؟

- العجرفة، كان يسير في الحارة كأنّه خالقها.

- تعني أنّ نفسه سوّلت له أن يقلّد فتوّته!

- إنّك عنيد ولا تريد أن تعترف لي بفضل.

- لا تغضب وزدني علمًا بحسناتك!

فضحك حمّودة عن فم لم يبقَ فيه ناب واحد ولا ضرس ثمّ قال:

- حوادث القتل الباقية لا تُعدّ من الحسنات وقد تاب الله عليّ والحمد لله.

فقال الإمام بعد تردّد:

- ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش العبد!؟

فضحك حمّودة واستغفر الله، فقال الإمام بإلحاح:

- حدّثني بخبره يا معلّم حمّودة.

فقال الرجل الذي لم يبدُ قطّ أنّ ذكريات جرائمه تؤرّقه:

- كنت جالسًا في داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخّن البوري، لم يكن بيني وبينه شيء على الإطلاق، فدخّن البوري وشرب قهوته ثمّ قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى «غدًا سأكون عندك في مثل هٰذا الوقت بالدقيقة والثانية كما اتّفقنا فلا تنسَ». وما أدري إلّا والغضب يجتاحني فقرّرت في الحال قتله، ولم يطلع عليه الصبح!

- أذلك كلّ ما كان؟

- بلا زيادة ولا نقصان!

- ولكن ما الذي أغضبك؟

- لا أدري، حتّى اليوم لا أدري.

- ولكن لا بدّ من سبب!

- ربّما أحنقتني ثقته البالغة في نفسه وفي غده، كان يتكلّم بثقة وطمأنينة!

- ولكن لا بدّ من سبب غير ذٰلك؟

- قل إنّه قُتل بلا سبب!

فتعجّب الإمام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم يبقَ منه إلّا هيكل عظميّ.

الحكاية رقم ٥٤

وممّا يُحكى أنّه كان بحارتنا شابّ صعلوك يدعى عبّاس الجحش. لم يكن يوفّق أبدًا في إتقان حرفة ولا يمكث في دكّان أكثر من أيّام ثمّ يُطرد شرّ طردة. وذات يوم رأى عبّاس عنباية المتولّي بنت بيّاع الدندورمة فانترع قلبه برحيق الحبّ المسكر. ولم يجد سبيلًا مشروعًا إليها فتفتّق عقله عن حيلة، أن يتآمر مع صحبه من الصعاليك على أن يمثّلوا مع الفتاة دور المتحرّشين وعلى أن يمثّل هو دور ابن البلد الشهم. وخرجت عنباية لتتسوّق في ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعربدة، فوثب عبّاس الجحش

من مجلسه على سلّم السبيل، فانقضّ عليهم كالوحش، صرعهم واحدًا في إثر واحد حتّى طرحهم أرضًا، ثمّ تقدّم من البنت وهو يلهث قائلًا:

ـ مصحوبة بالسلامة.

فشكرته ومضت معجبة بقوّته الخارقة. وجعلت من مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال.

وصادف ذلك وقتًا خلت فيه الحارة من فتوّة ـ ولم تكن الفتونة قد زالت بعد ـ فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا أن يكون لها فتوّة؟

ورأى أحدهم عبّاس وهو يحوم حول بيت بيّاع الدندورمة فهتف به:

ـ أهلًا بالجحش فتوّة حارتنا!

واهتزّ عبّاس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام، وتحت سطوة المخدّرات قال لنفسه:

ـ فلنجرّب هذه اللعبة!

وجمع أصحابه، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد أن فرش طريقه بالدعاية المناسبة. وكانت الحارة في حاجة ملحّة إلى فتوّة لتحفظ ذاتها وكرامتها بين الحواري المتصارعة، فاستقبلت عبّاس الجحش وصحابه بزفّة وبايعته فتوّة لها. وتحوّل الصعاليك إلى عصابة، وانهالت عليهم الإتاوات، فتحسّنت أحوالهم، وازدهتهم الخيلاء فخطروا في الأرض كالجمال، ورويدًا رويدًا صدّقوا أوهامهم.

وطلب عبّاس الجحش يد عنباية المتولّي فقال له أبوها بوجه طافح بالبشر:

ـ بشرى لنا يا معلّم!

وعُقد القران.

أمّا الدخلة فلا تتمّ إلّا بعد الزفّة.

وتنبّه عبّاس متأخّرًا إلى أنّ زفّة الفتوّة يجب أن تطوف بالحيّ كلّه، وأنّها الاختبار الرهيب للفتوّة، تجابهه فيها تحدّيات الأعداء، فيرجع منها إلى شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضي إلى القرافة.

لا بدّ ممّا ليس منه، وماذا يمنع الحظّ من أن يخدمه مرّة أخرى؟

وسكر وسكر أصحابه.

ومضت الزفّة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل، وسار فيها رجال الحارة.

وعند باب زويلة.

عند باب زويلة اعترض الطريق فتوّة العطوف ورجاله.

رآه عبّاس فطارت الخمر من رأسه.

ولعب فتوّة العطوف بنبّوته بخفّة بهلوان فسقط قلب الجحش حتّى ركبتيه.

وهتف أهل حارتنا في حماس وبراءة فاضطرّ عبّاس إلى أن يلعب بنبّوته كذلك.

لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية.

وتقدّم خطوات في سكون ثقيل فتقدّم فتوّة العطوف في غاية من الحذر.

واندفع عبّاس نحو خصمه حتّى ذهل أصحابه.

وفجأة.

وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفي ثمّ انطلق في ظلماتها مثل رصاصة لائذًا بالفرار!

ووجم الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون.

ثمّ هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح.

ولم يُرَ عبّاس بعد ذلك في حيّنا كلّه. وظلّ قرانه معقودًا حتّى سقط بمضيّ المدّة.

الحكاية رقم ٥٥

الويل لنا عندما يشتدّ النزاع بين الحارات، عندما تتصارع التحدّيات بين الفتوّات.

نتوقّع في الليل أن تجتاحنا هجمة غادرة، نتعرّض في تجوالنا في الحيّ لتحرّشات مباغتة، تنقلب أفراحنا إلى معارك دامية، يسودّ وجه الحياة ويكفهرّ.

ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوفًا بالمخاطر أمّا التسلّل عن طريق القرافة فيتهدّده الشياطين وقطّاع الطرق، فننحصر في حارتنا كالفئران في المصيدة.

ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية.

* * *

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرقيّ، يقولون:

- لا بأس من هدمه لتتسلّل منه إلى صحراء الجبل، ومنها إلى أطراف الأحياء البعيدة التي نتعامل معها ونحن في مأمن من الأخطار المحدقة بنا.

والسور عتيق يكوّن الجناح الشرقيّ للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من سفح المقطّم. وتطيب الفكرة لنا فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا بتنفيذ الفكرة. ويتساءل أناس:

- ألا يمكن أن يهتدي العدوّ إليها فيباغتنا منها؟

فيجيب أصحاب الفكرة:

- الوصول إليها عسير، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم فضلًا عن أنّه من اليسير حراستها!

ويشرع العاملون في العمل، ويتهيّأ لنا ممرّ إلى الصحراء نطلق عليه «ممرّ السبيل» حيث إنّه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثريّ مباشرة. هكذا نخلق ممرًّا سرّيًّا للعالم الخارجيّ متجنّبين طريقي الميدان والقرافة اللذين يحدّان حارتنا من طرفيْها.

ويتحدّث مدرّس الجغرافيا ذات مساء في المقهى فيقول:

- نحن نتوهّم أنّنا حقّقنا الأمان لأنفسنا وأنّه لم يعد ثمّة ما نخافه!

فيتعجّب السامعون لقوله فيقول:

- كأنّ معاركنا مع الحارات المجاورة هي جملة ما يهدّد سلامتنا!

فيزداد تعجّب الناس من قوله وادّعائه أمّا هو فيمضي قائلًا:

- هنالك خطر هائل لا يفطن له أحد ولكنّه كفيل بالقضاء على حارتنا كلّها بضربة واحدة...

ولّما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب:

- الممرّ الذي شُقّ في السور الشرقيّ.

- ممرّ السبيل؟

- لو ينهمر من السماء سَيْل فيكتسح السفح وينقضّ على الممرّ فيغرق الحارة!

وتتجمّع في أعينهم أمارات الذهول والسخرية ويقولون:

- إنّها لا تمطر في العام إلّا مطرة واحدة وهي مطرة خفيفة كالدعابة.

ولكنّه يستطرد غير مبالٍ باعتراضهم:

- الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة في الوسط.

ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين:

- يريد منّا أن نستهين بخطر داهم عاجل لاتّقاء خطر وهميّ لا يقع إلّا في خياله.

* * *

وتمضي أعوام والحارة منهمكة في صراعها اليوميّ. المدرّس يكرّر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلّا هازئًا حتّى أطلق عليه «الأستاذ مسيلمة».

* * *

وتربدّ السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسودّ وتهبط فوق المآذن.

وتهبّ عاصفة تدكّ العلالي فوق الأسطح وتلعب بأشجار التوت في التكيّة.

وينهلّ المطر كأنّه أنهار تتدفّق من عل.

ويتواصل انهلاله ثلاثة أيّام كاملة.

حَدَثٌ كونيّ لم نعرفه من قبل غضبة فلكيّة كاسرة. وينصبّ من الجبل طوفان فيندفع نحو الممرّ بسرعة قطار صاخب، ويزمجر في هدير شامل تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجعجع.

وتختفي أرض الحارة تحت طبقات من المياه المركّزة المحصورة، وتأخذ المياه في الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفليّة وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزّانًا ومن الساحة بحيرة ومن الممرّ الضيّق بين التكيّة والسور العتيق نهرًا زاخرًا، ثمّ تجتاح المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث في أخاديد لا حصر لها تغطّيها الأكفان والخرق البالية.

تنهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافي وثقوبًا فيهجر الحارة أهلها مذعورين وينتشرون في الصحراء لاجئين مشرّدين والخراب يحيط بهم وارثًا الأرض وما عليها.

محنة لا تُنسى.

وذكرى مبلّلة بالدموع.

الحكاية رقم ٥٦

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرّر ـ كما فعل زيّان في زمن أسبق ـ محاولة الانضمام إلى عصابة «الدقمة» فتوّة حارتنا، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له:

ـ احذر أن تقترب منه بهٰذه السحنة أو هٰذه الرائحة أو هٰذا الجلباب المزيّت، كُنْ مثل الماء الصافي النقيّ ثمّ جرّب حظّك.

وقال له أيضًا:

ـ فتوّتنا يحبّ الجمال والنقاء، وهو طراز وحده في سلسلة فتوّاتنا فافهم ذٰلك جيّدًا.

واقتنع عبدون بأنّ الطريق إلى الدقمة ممهّد ميسور، فذهب إلى الحمّام ليغيّر جلده في المغطس، وأعدّ جلبابًا ومركوبًا جديدين. وفيما هو منهمكي في تجديد نفسه سأله صاحب له:

ـ ماذا هناك يا عبدون؟ هل تفكّر في الزواج؟

فباح له بسرّه، وكان الآخر صاحبًا أمينًا فقال له:

ـ ليست النظافة وحدها هي ما تهمّ الدقمة، إنّه أيضًا يحبّ الحكايات.

ـ الحكايات؟

ـ عنترة وأبو زيد وغيرهما، فإن لم تعرف السِّيَر تعذّر عليك أن تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة.

ـ ولكنّ تحصيل ذٰلك يطول!

ـ عندك الراوي في المقهى فلا تضيّع وقتًا إن كنت صادق الإرادة حقًّا!

ثمّ قال له وهو يمضي عنه:

ـ تغيّر الزمن يا عبدون. في بادئ الأمر كان الدقمة يرحّب بأيّ رجل يروم الانضمام إليه، أمّا اليوم فهو يستوي على عرش القوّة دون منازع.

وتفكّر عبدون في الأمر مليًّا. وكان عبدون رجلًا عاقلًا. قال لنفسه إنّه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهوادة والصبر والإتقان، وألّا يتكالب على هدفه تكالبًا يفسده عليه. لبث في الوكالة يعمل بهمّة، وتزوّج، وواظب على السهر في المقهى يتلقّى الحكايات على أنغام الرباب. لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة، فالعمل في الوكالة شاقّ، وأعباء الأسرة لا يستهان بها، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل، ولٰكنّه كان يهادن متاعبه بتخيُّل حلمه العذب يوم يمثل بين يدي الدقمة في نقاء الماء وثراء الرباب.

وذاع سرّه، وعرف كلّ مَن هبّ ودبّ أنّ عبدون الحلوة يعدّ نفسه للفتونة.

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح، فقال له أحدهم:

ـ النظافة مهمّة، والحكاية مهمّة، ولٰكنّ الشجاعة عند الدقمة أهمّ من الاثنتين!

ـ الشجاعة؟

ـ أجل، واحذر في الوقت نفسه أن تستثير غيرته فيحنق عليك بدلًا من أن يرضى!

ـ وكيف أوفّق بين هٰذا وذاك؟

ـ تلك هي مشكلتك وعليك أن تحلّها بالفطنة يا عبدون يا ابن الحلوة!

وقال له آخر:

ـ والقوّة مهمّة أيضًا، عليك أن تثبت قوّتك، عليك أن تثبت أنّك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنّك قادر أيضًا على تحمّل الضربات مهما اشتدّت... وعليك أن تثبت له أيضًا أنّ قوّتك لا توزن بحال بقوّته.

ـ ولكن كيف يتأتّى لي ذٰلك كلّه؟

ـ تلك هي مشكلتك يا عبدون!

ساورته الحيرة ولٰكنّه أراد أن يطمئن نفسه فقال:

ـ أهل الخبرة يقولون إنّه يحبّ الجمال والنقاء والخير، أشهد أنّ معاملته للُبّان تقطع بميله الأصيل للخير!

فتساءل الآخر في حذر:

ـ وماذا عن معاملته للسقّاء؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولٰكنّه قال بإصرار:

ـ أخبرني أبي ذات مرّة أنّه يحبّ الفقراء.

ـ بوسعي أن أعدّ لك عشرة على الأقلّ من أفقر فقراء حارتنا قد نكّل بهم وشرّدهم.

خرج عبدون من الأحاديث معنّتًا مهمومًا حائرًا، حتّى العدول عن الطريق خطر له، ولٰكنّ الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص. وتشعّبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والرباب وتجارب

القوّة والشجاعة ومغامراتها. ومضى ـ رغم صلابته ـ ينوء بالعبء، وتنزلق قدمه، وتتراخى قبضته، تبدّد وقته وتشتّت عقله وارتكب حماقات متلاحقة، وتمادى في طرقه المتشعّبة بجنون حتّى فقد السيطرة على حياته، وانتهى دأبه بالخيبة فطُرد من الوكالة، وطلّق ـ عقب مشاحنات كثيرة ـ زوجته.

لم يكترث لذلك كثيرًا وظنّ أنّ الوقت أزف للقاء الدقمة الذي لم يبقَ له غيره.

وتفحّصه الفتوّة مليًّا ثمّ سأله:

ـ ماذا تريد؟

فأجاب عبدون:

ـ أن أصير من خدّامك.

ـ أترى نفسك أهلًا لذلك؟

فأحنى رأسه ليخفي زهوه بمنظره الأنيق وقال:

ـ عندي ما يريد معلّمي وزيادة!

فقال الدقمة بجفاء:

ـ لست في حاجة إليك.

فذهل عبدون وقال بضراعة:

ـ في سبيلك فقدت أسباب حياتي جميعًا.

فقال الدقمة بلا اكتراث:

ـ أعرف ذلك.

ـ وتطردني رغم ذلك؟

فقال الرجل بنفاد صبر:

ـ بل أطردك بسبب ذلك...!

وبات عبدون الحلوة نادرة تروى...

الحكاية رقم ٥٧

زغرب البلاقيطي من فتوّات حارتنا المعدودين. وهو خاتم الفتوّات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر.

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبّوت لعّيب. ولولا إيمانه ـ وهذا حقيقة ـ بأنّ هيبة الفتونة لا ترسخ إلّا بالنصر ما خاض معركة قطّ. ويصادفه التوفيق في معاركه فيضرب فتوّة الدراسة ويصرع فتوّة العطوف ثمّ يمتدّ ظلّه فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة. ونحبّه جميعًا ونتغنّى بانتصاراته وننعم بأبوّته اللطيفة. وهو يجلس كثيرًا في المقهى ليتابع الحكايات، ويقرّب إليه أهل النكتة والمنشدين والزجّالين، أحيّيه على صغر سنّي فيردّ التحيّة بذوق يبعث في أعماقي النشوة والأمل. وسلوكه معنا فريد غير مسبوق بشبيه. يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة، حتّى هو نفسه يعمل تاجر جملة للمخدّرات، ولا يطالب بإتاوة إلّا للضرورة القصوى.

* * *

ولكنّ الفتونة هي الفتونة على أيّ حال.

فكلمة زغرب البلاقيطي هي الأولى والأخيرة في أيّ أمر من الأمور. والتحكّم مُرّ ولو كان طول العمر نتيجته. إنّه يحذّر الرجال من العربدة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيّد حرّيّة الغلمان في لعبهم.

ويغالي في التدخّل فيما لا يعنيه حتّى يحمل شاعر الرباب على التحيّز لبطولة أبي زيد، ويُبطل الزواج الذي يراه غير متكافئ، والطلاق الذي لا يعجبه وإن رضي به الطرفان، ولم يكن أحد يتجرّأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده في المقهى لنفوره منهما.

وفي كلمة كبّلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه. وزاد من حرج الموقف تكاثر المتعلّمين في حارتنا يومًا بعد يوم، وشدّة حساسيّتهم، وحدّة ألسنتهم.

ـ اللعنة... لم يبقَ إلّا أن نتنفّس بأمره.

ـ إنّه مستبدّ ولكنّه عادل.

ـ مستبدّ يعني أنّه غير عادل.

يُسمَع ما لم يكن يُسمَع بحارتنا. لأوّل مرّة نعاصر حملة على الفتونة في ذاتها وبصرف النظر عن مزاياها. لأوّل مرّة يقال إنّه نظام بالٍ وإنّه آنَ للشرطيّ أن يحمي العباد. لأوّل مرّة يُلعن الفتوّة الطيّب كما كان يُلعن الفتوّة الشرّير.

ويترامى التهامس إلى زغرب البلاقيطي فيغضب ويصيح:

ـ أهذا جزاء مَن يعدل ويرحم يا أبناء الزنا!

ويتجهّم وينذر بالعنف.

* * *

وتتوجّه قلوب نحو هجار الأقرع.

عملاق وَرِع وفيه شيء لله. إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقيًا بالعواقب جانبًا.

وهو يقبع في الليالي في الساحة أمام التكيّة يردّد الأناشيد ويحدّث نفسه. يتسلّل إليه في الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون:

ـ أتريد يا هجار أن ترضي ربّك؟

فيعتقد هجار أنّه يسمع هاتفًا من الغيب فيقول:

ـ لبّيك!

فيهمس الرجل:

ـ لقد أعطيت القوّة والبأس فحطّم الأغلال...

* * *

وينطلق هجار في الحارة بحماس مَن يحمل رسالة مقدّسة.

وتوقّع الطيّبون أن ينهار سجن الأغلال.

ويلوّح هجار المارد بنبّوته. وفجأة يضرب أمام الزاوية. ويثنّي بامرأة ماضية في الطريق، وينهال بنبّوته على تجّار وعمّال وتلاميذ!

وهاجت الحارة وماجت، وتصايح الناس:

ـ جنّ الأقرع...

ـ اقبضوا عليه...

ـ حاصروه واضربوه...

ورُمي بالطوب من كلّ موقع حتّى سقط مضرّجًا بدمه.

* * *

لم نفقه لما حدث معنى، وظنّ كثيرون أنّ الرجل لم يفهم الرسالة أو أنّه أساء فهمها، أو أنّ في الأمر سرًّا ما زال خافيًا.

ولكنّ التذمّر من زغرب البلاقيطي يتزايد، ويجهر كثيرون بما يضمرون، ويعتدي الفتوّة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة، وتسري في الحارة روح تمرّد لا عهد لنا بها من قبل.

وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنّها تقضي في النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد.

وتُستعاد حادثة هجار الأقرع في ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزًا للحياة الجديدة.

الحكاية رقم ٥٨

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك. في الحارة عصابات متخاصمة، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر. ويغلي الحقد الأسود، وتمجّ القلوب كراهية وتتكاثر حوادث الاغتيال، وينذر الغد بكارثة.

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض.

ثمّة تجمّعات من السحب القاتمة تنتشر في الأفق، غريبة في غير زمانها، ثمّ تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس. وتتطاول نحو كبد السماء وتنداح فتختفي إحداها الشمس وتواري الضوء المنير.

وتمضي التجمّعات في التكاثر والتقارب. وتتّصل وتتلاصق فتتحوّل إلى تكتّلات شاسعة، في بطء ولكن في ثبات وإصرار حتّى تشكّل في النهاية سقفًا غليظًا من السواد العميق.

وتشخص الأعين نحو السماء متسائلة، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحو السماء.

وتدبّ في السقف الأسود حركة متوتّرة فيبدو متموّجًا متصارعًا متلاطمًا كأنّه محيط من الظلمات مشتبكًا في نضال ضار.

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة، لا يدرون عمّ تتمخّض، ويتوقّعون مزيدًا من الإثارة المقلقة.

ويمضي الجوّ يتشرّب بلون رماديّ غامق، يزداد قتامة وتجهّمًا، ويمضي بحر السواد يقطر نتفًا سودًا، تنتشر في الجوّ ثمّ تزحف هابطة في هدوء مخيف.

ويهجر الناس الحارة إلى الميدان، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة، ينشدون في الانطلاق والتجمّع البشريّ ما يفتقدون من أمان.

وتنفذ إلى حواسّ الشمّ رائحة ترابيّة مثيرة للأعصاب، ويأخذ الكون في الاختفاء، وتتخايل الأشباح، ثمّ يغرق كلّ شيء في ظلام دامس.

وترتفع الأصوات المتهدّجة:

ـ يا ألطاف الله.

ـ ارحمنا يا ربّ العالمين.

وتشملنا ساعة من التوقّع المتوتّر لأيّ خطر داهم لم يجرِ لنا في خيال من قبل.

وتتلاحم الأيدي في الظلام لا تدري يد في أيّ يد توضع . . .

الحكاية رقم ٥٩

غنّام أبو رابية له قصّة طريفة.

من ناحية الأصل يُعَدّ من فقراء حارتنا. تفوّق في المدرسة وعُيّن بوزارة الداخليّة، وترقّى في درجاتها حتّى شغل منصب المشرف الماليّ على الأموال السرّيّة.

يتميّز على صعاليك أسرته بالمسكن النظيف، والزوجة الجميلة، والغذاء الطيّب، وله في مظهره هيبة، وفي مجلسه قطب يقصده ذوو الحاجات.

* * *

ويختفي ذات يوم غنّام أبو رابية فلا تراه عين.

يتردّد السؤال عنه في البيت والمقهى، بين المعارف والأقارب والحسّاد. لا يظفر أحد بجواب حاسم، ثمّة غموض يكتنف الموضوع ويثير الحيرة والريب. ليس الرجل مريضًا ولا على سفر ولا صلة له بالسياسة مدّها وجزرها، ولا خصوم له على الإطلاق، فلم يبقَ إلّا أن تحوم الظنون حول أمور غاية في الحساسيّة. وأن تختلف فيها الآراء تبعًا للنوايا والعواطف الشخصيّة، فنسمع حينًا أنّه هرب، ونسمع حينًا آخر أنّه قُتل.

ويظهر غنّام أبو رابية ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة. ويتزاحم المهنّئون في داره. ويفسّر الرجل سرّ غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسئول في الداخليّة، تطوّر إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسئول، فقُبض عليه، ولكنّه أصرّ على موقفه حتّى أُفرج عنه.

ويصدّق الناس ذلك ويعدّونه بطولة. ويُحال غنّام أبو رابية على المعاش قبل ميعاده القانونيّ بعشرة أعوام فيُعتبر شهيدًا، والناس ذوو استعداد فطريّ لسوء الظنّ بالداخليّة.

* * *

ومع الأيّام تناقلَ الناس حكاية جديدة عن غياب غنّام أبو رابية، لا أدري كيف نشأت، ولا مَن كان أوّل ناشر لها، ولا مدى ما تنطوي عليه من صدق، ولكنّها رغم ذلك كلّه تنتشر وترسخ وتنضمّ إلى تاريخ حارتنا.

يقال والله أعلم إنّ غنّام أبو رابية استغلّ مركزه كمشرف ماليّ على الأموال السرّيّة فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات، وقيل أكثر من ذلك. وإنّه ضُبط وحُقّق معه واعترف. كان الموقف غاية في الدقّة والحرج، فالرجل محيط بأسماء مَن تُوزّع عليهم الأموال السرّيّة في جميع المواقع، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة، فما العمل؟. طالبوه بردّ المبلغ في نظير العفو الشامل عنه ولكنّه رفض. ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنّه لم يبالِ. لم يعثروا للمبلغ على أثر، وتجنّبوا تقديمه للنيابة حتّى لا يبوح هناك بأسراره، وكرّروا المحاولة للاتّفاق معه دون جدوى. أدرك منذ بادئ الأمر أنّه في الموقع الأقوى وتلقّى كافّة التهديدات بسخرية. وقال لهم:

ـ ألوف وألوف وألوف تُنفق كلّ يوم على أوغاد بلا خلق فما الجريمة في أن أنال قروشًا لنفسي وتراب حذائي أشرف من أكبر رأس فيهم؟. إنّي أرفض ردّ مليم واحد وأطالب بتقديمي للنيابة العموميّة.

ولم يكن في وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد، ولا أن يتحمّلوا مسئوليّة القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك، فاتّفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألّا يُسأل عمّا اختلس مع إحالته على المعاش في الوقت نفسه.

وقد اشترى الرجل خرابة وشيّد فيها عمارة واعتُبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا.

الحكاية رقم ٦٠

حليم رمّانة من شباب حارتنا العاملين في نقش الأواني النحاسيّة. يغيب فجأة عن الدكّان بلا اعتذار، ويُرى هائمًا على وجهه في الساحة أمام التكيّة، لا يعرف أحدًا ولا يعرف نفسه. وسمعت أمّه بالخبر

فمضت إليه ولكنّه لم يعرفها، نادته باسمه فبدا وكأنّه يسمعه لأوّل مرّة، إنّه غريب تمامًا، وكأنّما وُلد لساعته.

واتّجهت الظنون إلى المخدّرات ولكنّ ذهوله طال، تجاوز اليوم، ويومًا بعد اليوم، ثمّ استقرّ كحال جديدة ثابتة، أصبح رمّانة وعاء خاليًا من الذكريات والعلاقات البشريّة، أصبح جثّة غير هامدة. وقيل ـ كالعادة في حارتنا ـ إنّه ممسوس، وعولج بوصفات شتّى من الطبّ الشعبيّ المناسب، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار، ولكنّه لم يبرأ فسُلّم الأمر فيه إلى الرحمٰن.

* * *

وذات صباح تقرأ أمّه في عينيه نظرة جديدة، نظرة متألّقة تعكس شخصيّة غائبة كأنّما هي ترجع فجأة من سفر طويل. يخفق قلب الأمّ بالأمل وتهتف:

ـ رمّانة!

فينظر رمّانة إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع:

ـ تأخّرت عن الدكّان.

ويمضي مسرعًا إلى الدكّان وأمّه تجهش في البكاء.

ويقبل على معلّمه قائلًا:

ـ غلبني النوم فمعذرة يا معلّم.

ويرمقه الرجل في صمت وارتياب، ولكنّه يتركه يزاول عمله وهو يحدس بفراسة صادقة ما طرأ على الشابّ. وينظر رمّانة فيما حوله باهتمام، وكلّما لا يجد ما يبحث عنه يسأل:

ـ أين بيّومي؟

بيّومي صديقه وقرين طفولته، توقّع أن يراه كالعادة قبالته، ولكنّه لا يوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله عنه اهتمامًا.

* * *

ويعلم رمّانة رويدًا أنّه غاب عن الوجود أشهرًا كاملة. يتلقّى هٰذه الحقيقة بنعومة وأناة، ومع ذٰلك لا يدري كيف يهضمها. ويعود للسؤال عن صديقه بيّومي فيقال له:

ـ البقيّة في حياتك!

فيصرخ:

ـ بيّومي مات!

ـ بل شُنق!

ـ شُنق؟!

ـ اتُّهم بقتل زينب بيّاعة الحليّ الزجاجيّة!

ويتمتم بذهول:

ـ بيّومي قتل زينب!

* * *

قليلون جدًّا الذين عرفوا أنّ رمّانة فقد صديقه الوحيد وحبيبته الوحيدة، وأولٰئك قالوا أيضًا:

ـ وهو يعلم الآن أنّه فُجع في الحبّ والصداقة أيضًا!.

وقالوا:

ـ لقد ذهبا مخلّفين له الخيانة والخواء...

* * *

وعانى رمّانة تغيّرًا جديدًا في الشخصيّة. لم يرتدّ إلى الغيبوبة لكن تسلّل إلى صميم روحه الخمول وخيّم عليه الصمت. عاش محتجًّا رافضًا كارهًا، يذبل ويهزل، حتّى مرض مرضًا أقعده عن العمل، واسودّ الأفق في عينيه.

وأرادت أمّه أن تعزّيه فقالت:

ـ لست فريدًا في مصابك فمصائب الدنيا لا تُعَدّ ولا تُحصى!

فغادر المسكن من فوره قاصدًا قسم الجماليّة. مَثَل بين يدي المأمور وقال بهدوء:

ـ أنا قاتل زينب بيّاعة الحليّ الزجاجيّة...

الحكاية رقم ٦١

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسوّل وخفّة اليد. تسلّل ليلة إلى بيت ستّ ماشاالله عندما ثبت له غيابها في فرح. ولسبب ما رجعت ماشاالله مبكّرة على غير توقّع، فما يدري إلّا وهي مقبلة نحو حجرة النوم فانذعر واندسّ تحت الفراش وهو يرتعد.

أشعلت المرأة المصباح، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقيها وهي تذهب وتجيء، وسمعها وهي تترنّم بحنان:

لك عليّ لّما تيجي تبقى ليلة أبّهة

ترى متى يُتاح له الهرب بأمان؟!

وغابت ستّ ماشاالله دقائق ثمّ رجعت بأربع أقدام! ثمّة طرف جلباب مقلّم ومركوب أخضر، فانقبض صدر ابن عيشة وأيقن أنّ حبسه سيطول!

قالت المرأة:

ـ آنسْت ونوّرت.

فقال صوت غليظ:

ـ لا يتصوّر أحد إلّا أنّنا في الفرح.

وتناهى إلى أذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات وهمسات مرحة.

وقالت المرأة:

ـ لن يتخيّل مهما تخيّل أنّني أفلتُّ من زحمة الفرح.

فقال الصوت الغليظ:

ـ سيقتلنا يومًا إن لم نقتله!

وطالت المطارحة الغراميّة وهو قابع تحت الفراش، وبدأ تأثير المنزول ينمّل حواسّه ويزحف نحو جهازه التنفّسيّ، وينتشر في روحه منذرًا بعواقبه المألوفة.

وسبح ابن عيشة في بحر لا شاطئ له ثمّ مضى يطير في الفضاء بتؤدة وهيمان. حتّى بلغ ذروة عالية نظر منها إلى حجرة ستّ ماشاالله فرآها بشيء من الوضوح على ضوء المصباح، رأى العاشقين، وحتّى الرجل المختفي تحت الفراش رآه، تبدّت المرأة عارية متموّجة في سحابة من دخان رماديّ على حين مضى الرجل ـ كقرد ـ يثب بين غصون شجرة فارعة. وترامى اللعب بلا نهاية غير أنّ عاصفة اجتاحت المكان المتواري فتطاير الدخان وتلاطمت الأوراق. وأكثر من صوت نادى بالدم، وتتابعت أصوات الارتطام والدقّ، وتبودلت ضربات غاية في العنف والقسوة، وأقبلت قوّات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحبّ أثر. . .

وقرّر ابن عيشة أن يواصل طيرانه في الفضاء مبتعدًا ما أمكن عن كوابيس الأرض. . . ولكنّه ارتطم بشيء أو لعلّ شيئًا ارتطم به.

وبمشقّة استطاع أن يتملّص من قبضة وأمكنه أن يحرّك عنقه. . . وأن يرى الضوء.

وجُرّ جرًّا من تحت الفراش.

وقف مترنّحًا في الحجرة ينظر في الوجوه المحدقة به بذهول.

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة:

ـ هٰذا ابن عيشة. . . نشّال يا فندم.

فقال الضابط:

ـ أخيرًا تعلّم كيف يقتل.

وقُبض عليه.

ولكنّ التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ستّ ماشاالله وعشيقها، ثمّ قُبض على القاتل في أثناء التحقيق.

وكان ابن عيشة يحكي قصّته مرّة كلّ ساعة. وقد أصابه لطف في آخر أيّامه، وكان يقال إنّ الدروشة هبطت عليه تحت فراش ستّ ماشاالله.

الحكاية رقم ٦٢

كان الحاجّ عليّ الخلفاوي من أغنياء حارتنا. عُرف بالطيبة والصلاح أكثر ممّا عُرف بالثراء، يعطف على المظلومين، ويعين الفقراء، ويبرّ ذوي القربى، ومع الأيّام ازداد ورعًا وتقوى ورحمة، ولكنّه خصّ آل مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممّن يظلّهم عطفه. وكان آل مهران قومًا فقراء، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورّطوا في الجنح والجرائم واشتهروا بالعنف والبلطجة.

ولّما شعر الحاجّ عليّ بدُنوّ الأجل استدعى إليه أكبر أبنائه وقال له:

ـ لقد رأيت حلمًا.

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاجّ:

ـ آنَ لي أن أزيح عن صدري جبل الهمّ الأكبر.

فسأله ابنه:

ـ ما الحلم؟. وما الهمّ الأكبر؟

فاستغفر الحاجّ ربّه وقال:

ـ بخلاف الظاهر يا بنيّ كانت حياتي مريرة!

ـ لِمَ يا أطيب الناس؟

فقال الحاجّ وهو يتنفّس بمشقّة:

ـ أريد أن أحدّثك عن آل مهران.

ـ إنّهم أناس يأخذون منك أكثر ممّا يستحقّون، بل

الحقّ أنّهم لا يستحقّون إلّا العقاب.

فأسبل الحاجّ جفنيه وقال:

ـ إنّهم يستحقّون كلّ ما تملك!

ثمّ اعترف الحاجّ لابنه بأنّه كان شريكًا لمهران الأب في شبابه الأوّل، وأنّ الوفاة حضرت الرجل وهما في سفر فسرق ماله.

ـ المال الذي استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهران بفقده إلى ما هم فيه.

قال الابن باضطراب:

ـ إنّك لا تعني ما تقول يا أبي.

ـ إنّها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

وغمرهما صمت مشحون بالقلق والاختناق حتّى قال الحاجّ:

ـ كانت الحياة مريرة، أريد أن أجنّبك اللعنة، أريد أن يُردّ المال لأصحابه.

فتساءل الابن محتجًّا:

ـ هل نعترف بأنّنا لصوص؟!

فقال الأب بضراعة:

ـ هٰذه هي مشكلتك يا بنيّ.

ـ بل هي مشكلتك أنت يا أبي.

ـ إنّي أتردّى في حضرة الموت.

فتساءل الابن بجفاء:

ـ ولِمَ لَمْ تفكّر في التكفير من قبل؟!

وأغمض الحاجّ عينيه كأنّما تلقّى لطمة، وغمغم:

ـ اللّهمّ مُدّ في عمري حتّى أهيّئ نفسي للقياك.

ولكنّه مات قبل ذٰلك، بل إنّ رواة القصّة يتّهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجّل بنهايته.

هٰكذا تروى الحكايات، وبدقّة في التفاصيل لا تُتاح إلّا لمن شهدها.

ولكن هٰكذا تروى الحكايات في حارتنا...

الحكاية رقم ٦٣

بدرت الكراهية بين شلضم وقرمة في ضفاف الصبا. في أحد الأعياد مزّق شلضم جلباب قرمة الجديد فاشتبكا في خناقة حامية فضرب قرمة شلضم بمقدّم قبقابه فقطع حاجبه، وسجّل في وجهه أثرًا باقيًا.

منذ ذٰلك التاريخ القديم عشّشت عاطفة صفراء ضاربة للسواد في أعماقهما، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط في المناسبات، ولكنّ الجرثومة الشرهة تظلّ رابضة ونفّاثة الحنق، ويظلّ منظر أحدهما قوّة غادرة ومتحدّية للآخر.

في الكتّاب يتبادلان الغمز واللمز، يتحرّش أحدهما بالآخر ويحرّض عليه سيّدنا الشيخ عند أيّة فرصة سانحة.

ومات أبو شلضم وأقيم سرادق العزاء كالعادة، ووقف قرمة فوق سطح غير بعيد وراح يغنّي:

حود من هنا وتعال عندنا

ولـمّا خطب شلضم بنت الفسخاني حاول قرمة خطفها منه، بالحيلة وبتشويه سمعته عند أهلها، وفي خلال ذٰلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به أثرًا باقيًا كالذي تركه بوجهه من قبل.

وتزوّج كلّ منهما وأنجب، وتفرّقت بهما سبل العمل، وتقدّم بهما العمر شوطًا، ولكنّ العقدة الكامنة لم تنحلّ، حتّى إنّهما تبادلا السباب مرّة في أثناء صلاة الجمعة وحتّى صاح بهما الإمام:

ـ لعنة الله على الشيطان وصحبه.

وصارا في حارتنا نكتة، تستثير الضحك من بعيد، وتنذر بشرّ متجدّد.

وتحسّنت أحوال قرمة، ظهرت عليه النعمة، فتح دكّانًا للدخان بأنواعه، لمع الذهب في أصابعه وأسنانه، وادّعى أمام الخلق أنّه ربح ورقة نصيب فاستثمر ربحها، ولكنّ شلضم راح يحلف بالطلاق أنّه اغتال أموال معلّمه، وأنّه لصّ لا أكثر ولا أقلّ.

وتوهّم شلضم أنّه قادر على أن يشقّ سبيله مثله فامتدّت يده إلى مال معلّمه ولٰكنّه ضُبط وحُكم عليه بالسجن بضع سنين، وغادره مفلسًا ضائعًا يرى غريمه في عداد الأعيان فجنّ جنونه، ولم يجد بابًا مفتوحًا إلّا باب البلطجة فولجه بعنف ورغبة متصاعدة في الانتقام، وجعل هدفه الأوّل المعلّم قرمة، حتّى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده. لم يعد قرمة

صعلوكًا كما كان من قبل، إنّه يملك الآن مالًا وبنين وأسرة وجاهًا ويريد أن يحافظ عليها جميعًا، وأن يتمسّك بالحياة من خلال تمسّكه بها، ولو تجشّم في سبيل ذٰلك مهادنة شلضم وشراءه حتّى يتحيّن له فرصة للقضاء عليه.

واستجاب شلضم لسياسة خصمه ليبتزّ ماله وليتمادى في ذٰلك بلا نهاية وبلا حياء، واستحرّ الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلّا الموت.

ودبّر قرمة خطّة لقتل شلضم بوساطة رجل ممّن يؤجّرون للقتل. وتوجّس شلضم خيفة فقرّر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله.

وتربّص له بليل ثمّ قتله.

ولكنّه لم ينعم بالحياة بعده إلّا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفي بقيّة مستحقّاته من أرملة قرمة.

هٰكذا قُتل الرجلان في ليلة واحدة.

* * *

ويقول أبي بعد أن يحكي هٰذه الحكاية:

ـ الكراهية من الشيطان يا بنيّ ولكنّ الإنسان مثير للدهشة.

الحكاية رقم ٦٤

عُرف الخفير سلامة بالضمير الحيّ... كان من القلّة النادرة التي تقدّس القانون في حارتنا التي لم تتعوّد بعد على احترام القانون لحداثة تحرّرها من الفتونة وتقاليدها المتحدّية الاستفزازيّة ولاستقامته أثار دهشة أهل الحارة واستحقّ عن جدارة احترام المأمور والضبّاط. وتزوّج سلامة أرملة تكبره في السنّ ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه في محنة لم تخطر له على بال. وأكّد الشابّ ـ ويدعى برهومة ـ المحنة بسطوه ليلًا على أحد الحوانيت. وضبطه متلبّسًا الخفير الساهر اليقظ سلامة. وأعاد الخفير المسروقات وغطّى على الخبر مكتفيًا بضرب ابن زوجته ضربًا مبرّحًا. وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنّه خسر جوهره الذي ميّزه بين الناس، وشعر بالخزي وخامره حزن عميق. وتمادى برهومة في فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتّى ضاق به الشابّ وقال له مرّة:

ـ لا تضربني... إنّي أحذّرك...

فانقضّ عليه ليؤدّبه ولكنّه تراجع إلى ركن وصاح به:

ـ سأعترف، سأذهب إلى القسم وأعترف بكلّ شيء، وأعترف أيضًا بتستّرك عليّ!، إن ضربتني مرّة أخرى فسأعترف!

وذهل سلامة، وسأله وهو يكتم فيضان غضبه:

ـ أنت تهدّدني بعد كلّ ما فعلت من أجلك؟

ـ لا تضربني وإلّا اعترفت.

فصاح به:

ـ إذن أقلع عن فسادك.

فهتف وهو يفرّ من وجهه:

ـ أنا حرّ!

وقال سلامة لنفسه محسورًا:

ـ إنّي أفقد كلّ يوم شيئًا ثمينًا لا يُعوَّض.

ولاحظ كثيرون أنّ الخفير سلامة قد تغيّر، وأنّ شائبة قد شابت استقامة قامته، وهو من ناحيته شعر أنّ الناس يتغيّرون أيضًا، ينظرون إليه باستهانة ما، يجاملونه ولكنّ نظراتهم لا تخلو من سخرية، لقد أوشكوا يومًا مع إعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه، أمّا اليوم فهم يعطفون ويسخرون.

* * *

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف.

وتأثّر المأمور، أمر بالقبض على برهومة، وقال لسلامة:

ـ قدّم استقالتك كيلا تُرْفَت، إنّي أعطيك هٰذه الفرصة إكرامًا لتاريخك.

* * *

ولم يُهمل سلامة بلا عمل طويلًا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيرًا عنده.

وعُدّ سلوكه مثالًا طيّبًا عند أناس، كما اعتُبر نوعًا من البله عند أناس آخرين.

الحكاية رقم ٦٥

الشيخ لبيب وجه عتيق في حارتنا. تراءى لعينيّ مَعْلَمًا من معالم الحارة مثل التكيّة والقبو والسبيل. كان

يتّخذ مجلسه قبيل مدخل القبو، على فروة بجلس، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدّرة. ذو جلباب أبيض وطاقيّة خضراء، مكحول العينين ضعيف البصر، يطوّق عنقه بسبحة طويلة تستقرّ شرّابتها في حجره.

تتقاطر النسوان على مجلسه، يجلسن القرفصاء صامتات، يرمين بمناديلهنّ وينتظرن كلمة تخرج من فمه. يغمغم ويتثاءب ثمّ يتمطّى، ينطق بكلمة مفردة مثل «تُفْرَج» أو يمثّل من الأمثال مثل «يا رايين ربّنا يكفيكم شرّ الجايين» فتفهم المرأة ما تفهم، فيتهلّل وجهها فرحًا أو يغمق كآبة، ثمّ تدسّ المقسوم تحت طرف الفروة وتمضي.

عاش الرجل دهرًا رزقه يجري، وكراماته تروى، واسمه يتردّد على شفاه ذوي القلوب الكسيرة وما أكثرهم في حارتنا.

* * *

ويطعن الشيخ لبيب في السنّ وتتغيّر الأحوال.

يندر تردّد الزائرات عليه حتّى ينقطع أو يكاد. ويتكاثر التلاميذ ممّن لا يرعون له حرمة، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة. ويهتف الشيخ:

ـ ملعونة المدارس المفتوحة لكم.

وتسوء حاله، وصحّته أيضًا. ويتوعّد الناس والزمان بعقاب الآخرة، ويتحسّر على أيّام الطيّبين الذاهبين.

* * *

وأخيرًا يسلّم للزمن، يتسوّل، يمضي هاتفًا مادًّا يده «كلّ مَن عليها فانٍ».

الحكاية رقم ٦٦

وراء قضبان نافذة بدروم يلوح وجه صبيّ صغير. إذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به:

ـ يا عمّ. . .

فيقف العابر ويسأله عمّا يريد فيقول:

ـ أريد أن أخرج.

ـ وماذا يمنعك؟

ـ باب الحجرة مغلق.

ـ ألا يوجد أحد معك؟

ـ كلّا.

ـ أين أمّك؟

ـ أغلقت الباب وذهبت.

ـ وأبوك؟

ـ سافر من زمان.

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم إليه مشجّعًا ويذهب، ويلوح وجه الصبيّ الصغير وراء القضبان وهو يتطلّع بشوق إلى الناس والطريق.

الحكاية رقم ٦٧

عبده السكري ابن أحد حملة القماقم والمباخر. أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمّها حجرة واحدة. كان عبده آخر العنقود فأدخله عمّ السكري الكتّاب فأحرز التفوّق من أوّل يوم. ونصحه سيّدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائيّة فتردّد الرجل مليًّا بين إرساله إلى معلّم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل، ثمّ قرّر في النهاية إلحاقه بالمدرسة. كان قرارًا صعبًا، يعني أن يعيش عبده عالة عليه دهرًا طويلًا بدلًا من أن يعينه بيوميّته، ولكنّ تفوّق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر. وعند انتهاء المرحلة الابتدائيّة قال عمّ السكري بزهو:

ـ أصبح لي ابن من موظّفي الحكومة!

ولكنّ عبده أصرّ على دخول المرحلة الثانويّة. كان يمضي إلى المدرسة ببدلته القديمة المتهرّئة وحذائه المرقّع وطربوشه المزيّت ولكن مرفوع الرأس بتفوّقه ويتكلّم في السياسة أيضًا. واستحقّ بعد ذلك أن يُقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجّان، وأن يُختار بعد ذلك عضوًا بالبعثة بإنجلترا. من يومها أُطلق على عمّ السكري «أبو المهندس»، وذاع صيته في الحارة، وضُرب بذكاء ابنه المثل. كان حلم عمّ السكري في شبابه أن ينضمّ إلى عصابة فتوّة أو ينتصر في خناقة ولكنّ الزمن يتغيّر ويأتي بالأعاجيب.

* * *

ويشغل عبده وظيفة مرموقة في الوزارة، وبفضله قام أوّل مصباح غازيّ في حارتنا.

الحكاية رقم ٦٨

من حكايات حارتنا التي لا تُنسى حكاية عبدون اللّاله.

الأب كان عاملًا في البوظة والأمّ بيّاعة باذنجان مخلّل. أمّا عبدون فيعمل صبيًّا في الفرن.

يجيء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنّه شابّ ولا كلّ الشبّان. يحبّ سلمى بنت ونس الكنّاس فيتزوّج منها ويمارس حياة زوجيّة سعيدة وهادئة.

نشيط ذو همّة عالية، يعمل من طلعة الصبح حتّى أوّل الليل، لا يرتاح ولا يهمد، لا يتذمّر ولا يشكو، المعلّم يقدّره والزبائن يحبّونه. يصلّي العشاء في الزاوية، يحضر الدرس، يؤاخي الإمام ويسترشد بآرائه فيما يعنّ له من مشكلات. نزهته الوحيدة سماع الشاعر في المقهى ثمّ يرجع إلى بيته متسوّقًا بطّيخة أو خيارًا أو سمكًا مقليًّا.

وهو حليم يتحمّل نزوات المعلّم، وسخافات بعض الزبائن، وسخريات الأصدقاء بأدب وابتسام.

ما أعجبه في حارتنا، كأنّه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصي والفتن من أهلها.

* * *

وذات يوم يظهر في الحارة بجلباب أبيض كالحليب وطاقيّة مزركشة ومركوب أحمر. وكلّما التقى بصاحب عانقه أو بذي مقام قبّل يده، وقد أضرب عن العمل، ولم ينطق في ذلك اليوم إلّا بجملة واحدة قال:

ـ اقتربت الساعة.

ويختفي ساعة ثمّ يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه صامتًا. ويتعجّب الناس ويتجمهرون عند القبو. كيف صعد عبدون إلى سطح القبو؟، ماذا يفعل في مرتع الثعابين ووكر العفاريت؟ ينادونه فلا يردّ.

ثمّ يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتّى يرتطم بعنف بأرض الحارة...

وأقول لنفسي كلّما تذكّرت مصرع عبدون اللّاله:

ـ أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرًا من أن أعرف لماذا عبدون انتحر.

الحكاية رقم ٦٩

نادرًا ما يخرج إلى الحارة، وإذ يخرج لحاجة يمضي مهرولًا، في عينيه حذر وتوجّس، في أذنيه صمم يخلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به، لا يخترق القبو، لا يزور المقابر. يعيش وحيدًا في بدروم، لم يتزوّج، لم يذعن لنزوة، يقرض النقود بالربا يدعى أبو المكارم.

ويلعنه الناس ولكنّهم يقصدونه عند الضرورة.

ويبلغ السبعين من العمر، يتجمّع لديه مال وفير، ثمّ يكفّ عن العمل.

يتغيّر حاله، تظهر عليه أعراض غريبة، يرى من نافذة البدروم وهو متربّع على الأرض مستقبلاً الجدار بوجهه، تمضي الساعات وهو لا يتحرّك.

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتًا حتّى يسأله الشيخ:

ـ لماذا جاء أبو المكارم؟

فيقول بلا مقدّمات:

ـ حلمت حلمًا...

فيسأله عنه فيقول:

ـ جاءني شخص في المنام وأمرني بأن أحرق مالي عن آخره!

فيبتسم الإمام ويقول:

ـ ربّنا يجعله خيرًا.

ـ ولكنّه يتكرّر ليلة بعد أخرى!

ـ ما شكل ذلك الزائر؟

ـ لا أدري، جفناي ينطبقان في حضرته.

فيسأله الإمام باهتمام:

ـ من نوره؟

ـ أظنّ ذلك...

ـ هل أعلن عن هويّته؟

ـ كلّا.

فيصمت الإمام مليًا ثمّ يقول:

ـ أتستطيع أن تتصدّق بمالك على الفقراء؟

فيرمقه بريبة ثمّ يذهب.

وذات يوم من أيّام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتنبّه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم. يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفًا عاريًا تمامًا والنار تشتعل في ماله.

* * *

ويهيم بعد ذُلك على وجهه عاريًا، يلتقط الطعام من أكوام القمامة، ثمّ يقبع في ظلمة القبو. ويُعثر عليه يومًا ميتًا تحت القبو ليُدفن في قبور الصدقة.

ويرى أحد الأعيان حلمًا، يزوره سيّدنا الخضر ويبلغه أنّ أبو المكارم وليّ من أولياء الله وأنّه ـ العين ـ مكلّف بإقامة ضريح فوق قبره.

ويقيم الرجل الضريح، وبمرور الزمن تتلاشى ذكريات أبو المكارم وتبقى له الولاية.

وأسأل أبي:

ـ وكيف عرف الوجيه أنّ سيّدنا الخضر هو الذي زاره في المنام؟

فيجيبني:

ـ لعلّه صارحه بذلك.

فأسأل:

ـ لو كان أبو الفضل وليًّا حقًّا ألم يكن الأفضل أن يتصدّق بماله على الفقراء؟

ـ في تلك الحال كنّا نعدّه محسنًا لا وليًّا!

ثمّ يستطرد بعد صمت:

ـ العبرة بالحلم، لقد منّ الله عليه بحلم، فهل تملك أنت حلمًا مثله؟

الحكاية رقم ٧٠

سُحُب الخريف تتراكم فتقطر قتامة على حارتنا، ها هم الباعة يترنّمون بحلاوة الجوافة والبطاطا.

ويشير رجل نحو القبو ويهتف:

ـ يا ألطاف الله!

ينظرون فيرون رجلًا خارجًا من ظلمات القبو، عاريًا كما ولدته أمّه، يتأوّه ويترنّح، تخذله ساقاه فيقع على الأرض، ثمّ ينهض متشبّثًا بالجدران، يتلفّت حواليه ويبكي.

يهرع إليه أهل الخير، يغطّونه، يضمّدون جرحًا غائرًا في رأسه، يسألونه:

ـ ماذا حدث لك؟

ولكنّه لا يجيب فيسألونه:

ـ مَن أنت، ما اسمك؟

يواصل أنينه بلا جواب فيسألونه:

ـ من أين أتيت؟

لا جواب ولا أمل في جواب:

ـ أيّ مكان تقصد؟

وبالتخمين وحده يُعرف على نحوٍ ما ما وقع له، فيؤمن الجميع بأنّه ضحيّة لقطّاع الطرق.

ويندمل الجرح ولكنّ العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش في الحارة لا يبرحها، آنسًا إلى ما يلقى من ستر ورحمة، تطعمه الصدقات، ينام تحت القبو شتاء، وعند سور التكيّة صيفًا، كلامه هذيان أو أصوات مبهمة، يضحك ويبكي لغير ما سبب، ويظلّ مجهول الاسم والأصل والهويّة والهدف.

ولّما كانت دواعي الإهمال والاحتقار هي نفس دواعي الإجلال والتعظيم في حارتنا فإنّ عبد الله ـ هٰكذا سُمّي باعتباره اسم مَن لا اسم له ـ يحتلّ مع الأيّام مكانة سامية وتتحلّق حوله هالة مبهمة من القداسة. يحبّونه، يلاطفونه، يتودّدون إليه، يحيطونه بأسرار، يؤوّلون أصواته المبهمة، يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفيّة.

وأسمع ذات يوم رجلًا يدافع عن «ولاية» عبد الله فيقول:

ـ أيّ فرد منّا لا تتيسّر له الحياة إلّا بفضل معرفته للأصل الذي جاء منه وللهدف الذي يسعى إليه، أمّا عبد الله فقد تيسّرت له الحياة وحظي ببركاتها مع جهله بكلّ ذُلك، ومَن ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقديس!

الحكاية رقم ٧١

رجل غريب في المقهى.

الغريب في حارتنا يسترعي النظر، فمن أين جاء الرجل؟

جاء من ناحية القبو وهو ما يعني أنّه جاء من ناحية القرافة غير مبارك الخطوات.

ويمضي الغريب إلى الزاوية فيسلّم على الإمام وهو يقول:

- لا خاب مَن استرشد.

فيقول له الإمام:

- نهديك بما نعلم والهداية من الله.

- إنّما أريد معلومات عن يوسف المرّ؟

- لماذا يا أخي؟

- كلّفني بذلك أناس طيّبون وأنت سيّد العارفين.

فأدرك الإمام أنّ الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريد يوسف أن يتزوّج منها فقال:

- ولكنّه متزوّج!

- الدين يسّر والحمد لله...

- عائلة المرّ قديمة في الحارة وحرفتهم العطارة.

- وعمره؟

- في الثلاثين، يعمل في دكّان أبيه، له ثلاثة أبناء.

- يغيب أحيانًا عن الحارة أسبوعًا أو أكثر؟

فيبتسم الإمام ويقول:

- يبدو أنّك تعرف عنه الكثير، ولكنّه يغيب في رحلات تجاريّة.

ثمّ يتساءل الإمام:

- مَن الذي كلّفك بالتحرّي؟

فيقول معتذرًا:

- لست في حلّ من ذكره.

فيتضايق الإمام ويسأل بجفاء:

- وحضرتك مَن تكون؟

- أدعى عبد الآخر المقاول.

- أي مقاولات؟

- كلّا، إنّه لقبي، أمّا عملي فطحّان غلال.

ويودّعه ثمّ ينصرف.

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنّه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسرّه، تحتدم مليًّا ثمّ تخفّ وتتلاشى.

وذات مساء يُرى الغريب قادمًا من ناحية الميدان.

يشقّ الحارة بلا توقّف حتّى يختفي في القبو، ثمّ يميل إلى الممرّ الضيّق بين السور العتيق وبين سور التكيّة ويمضي نحو القرافة.

ويعلم يوسف المرّ بخبره فينطلق في أثره حتّى يغوص في ظلمة القبو.

وتمضي ساعة فيقلق الأب، ويذهب في أثر ابنه حاملًا فانوسًا لينير له الطريق مصحوبًا ببعض عمّاله.

في القبو تترامى إليهم تراتيل الأوردة الأعجميّة آتية من التكيّة، وفي الساحة، وعلى ضوء الفانوس، يعثرون على يوسف المرّ مطروحًا على الأرض وقد فارق الحياة.

ومع أنّ الطبيب الشرعيّ قرّر فيما بعد أنّ الرجل مات بالسكتة إلّا أنّ قراره لم يُحترم لحظة واحدة في حارتنا.

يهزّون رءوسهم ويتمتمون:

- الرجل الغريب!

ولكن مَن الغريب؟ ولِمَ قتل يوسف المرّ؟

هنا تتبادل النظرات وتتناجى الهمسات وتنداح في الجوّ موجة من الأسرار الخارقة.

الحكاية رقم ٧٢

وعكلة الصرماتي حكايته حكاية.

كان أبوه صاحب سيرك، كان قويًّا وخلّاقًا. يشتهر عكلة منذ صباه بالرشاقة الخلّابة في الملعب.

يتوفّى الأب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع. ينضمّ إلى عصابة فتوّة فيثبت صلابته وينال حظًّا من الثروة. وهو ذو رائحة خفيّة تجذب أشواق النساء فيستوي على عرش الهوى فتنة للقلوب، ويوغر صدور الرجال حتّى يقول له الفتوّة:

- تأدّب وإلّا شوّهت وجهك.

وكأنّ قلبه لا يعرف الحبّ الحقيقيّ، يهيم بالمرأة حينًا ثمّ ينبذها، وتفوق غزواته كلّ خيال، ويؤمن أناس بأنّه يؤاخي الشياطين ويستعمل السحر.

وفجأة يتزوّج.

يتزوّج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها، ويستقرّ في بيت الزوجيّة استقرارًا يبشّر بالدوام.

ويزهد في الفتونة كما زهد في السيرك من قبل ويفتح دكّان حلوى، ويربح ثروة لا بأس بها.

وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الرابحة فيصفّيها ويفتح مطعم لحمة رأس وكبدة فينجح ويحقّق ثروة أكبر من الأولى.

ويجتاحه حبّ المال، يحلّ من نفسه محلّ النساء والسيرك والفتونة فيتاجر في المخدّرات والأراضي، ويبتاع بيتًا ودوكارًا ويتحلّى بالذهب.

ويقرّر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة الكبيرة. يبني قصرًا ويعيش عيشة الأكابر، ويشتري عزبة، ثمّ لا يُرى في حارتنا إلّا عند عقد الصفقات.

ويعشق الترحّل، وما إن يجرّبه حتّى يخلب لبّه، فهو يومًا بالإسكندريّة ويومًا في أسوان، ويزور البلاد العربيّة، بل ويغامر برحلات في أوروبا.

عندما تعجبه بقعة من الأرض يفتتن بها يصرّح بأنّه لن يبرحها حتّى نهاية العمر، ثمّ يعتادها ويروم غيرها، ويعذّبه عشق الأماكن كما عذّبه عشق النساء والمال وغيرها من قبل، وبين كلّ رحلة وأخرى يرجع إلى حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات.

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجّار المخدّرات فيتساءل:

ـ ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضًا؟

ويحدّثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة إلّا لضرورة.

ويتساءل عكلة:

ـ ترى أين جبال الواق؟

ثمّ يتساءل مرّة أخرى.

ـ وأين سور الدنيا؟ . وإذا أطلّ الإنسان منه فماذا يجد؟

* * *

وتترامى عنه أخبار وأخبار.

يقال إنّه أدمن الشراب، يقال إنّه يدمن المقامرة، يقال إنّه يرتكب حماقات لا عدّ لها ولا حصر.

ويطول غيابه في الخارج حتّى يُظنّ أنّه لن يرجع.

واعتبره الأهل مفقودًا.

وتمضي السنون.

وذات صباح يعثر على جثّة كهل في الساحة أمام التكيّة شبه عارٍ.

ويتعرّف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماتي. ينظرون إلى جثّته ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبديّ والسرّ المنطوي.

كانت حياته أسطورة، وموته لطمة.

الحكاية رقم ٧٣

مصطفى الدهشوري ابن سقّاء ولٰكنّه من القلّة الراسخة في العِلْم في حارتنا، وهو أحد المدرّسين بمدرستنا وصديق لأبي.

يسأل أبي وهو يجالسه ذات مساء في بيتنا:

ـ ما معنى الحياة؟

يبتسم أبي ولمّا يجده جادًّا في سؤاله ومصرًّا عليه يحدّثه بما يعلم عن الأصل والهدف، والحياة والموت، والبعث والحساب، فيقول الدهشوري:

ـ إذن فأنت واثق من كلّ شيء، من الحياة والموت وما بعد الموت، أعندك فكرة عمّا يحدث في القبر؟

فيحدّثه أبي عن التلقين وحساب الملكين ومستقرّ الروح وشفاعة النجاة في الآخرة، وعند ذٰلك يقول الدهشوري:

ـ إليك قصّة الجسد البشريّ ساعة بساعة من الوفاة حتّى يستحيل هيكلًا عظميًّا. . .

ويردّد حديثًا مرعبًا ومقزّزًا كأنّه كابوس طويل، فيهتف أبي محتجًّا:

ـ كفى، ماذا تريد؟

ـ أريد أن أصوّر لك حقيقة لا شكّ فيها.

فيسأله أبي ساخرًا:

ـ ألا تؤمن بالله؟

فيبتسم قائلًا:

ـ بلى، لا حيلة في ذٰلك.

ثمّ يواصل حديثه:

ـ ولٰكنّه لا يتّصل بي وأنا عاجز عن الاتّصال به،

بينما صمت قاتل وأرى في الحالة شرًّا لا تفسير له، وأرى في الطبيعة عجزًا ونقصًا، ولا أفهم لذلك معنى، فلم أشكّ في أنّه ـ سبحانه ـ قرّر أن يتركنا لأنفسنا، بلا اتّصال وبلا عناية. . .

ويصارحه أبي بأنّه يجدّف تجديفًا خطيرًا، ولكنّ الدهشوري يستمرّ قائلًا:

ـ وإذن فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بتجاهله لعالمنا، كما يقتضي منها الاعتماد الكلّيّ على النفس وحدها.

وسأله أبي غاضبًا:

ـ أتتخيّل حال الناس لو آمنوا بفكرتك؟

ـ لن يكونوا أسوأ ممّا هم بحال من الأحوال وثمّة أمل بأن يكونوا أحسن.

ثمّ يشرح فكرته قائلًا:

ـ لا تخشَ أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ أنّها أمانة ملقاة علينا، ولا مفرّ من حملها بكلّ جدّيّة وإلّا هلكنا، وإذا أمكن أن يوجد أحيانًا أمثال الخيّام وأبي نوّاس فإنّما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادّين الكادحين الذين يقومون بحمل الأمانة عنهم، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمَن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض؟، وإذن فلا تخشَ أن يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو إن وجدوا أنفسهم في عالم بلا إله، لا مفرّ من الجدّيّة، ومن الإبداع، ومن الأخلاق، ومن القانون، ومن العقاب، وقد يستعينون أيضًا بالعقاقير الطبّيّة لمقاومة الضعف في السلوك والتفكير كما يستعينون بها في مقاومة الأمراض، وسيفعلون ذلك بإصرار، ولن تهن عزيمتهم بسبب أنّهم يجدون أنفسهم في سفينة بلا مرشد في بحر بلا شطئان في زمن بلا بداية ولا نهاية، ولن تختفي البطولة ولا النبل ولا الاستشهاد.

ويتريّث قليلًا متسامحًا مع غضب أبي وسخريته ثمّ يستطرد:

ـ وذات يوم سيحقّق الإنسان نوعًا من الكمال في نفسه وبمجتمعه، وعند ذاك، وعند ذاك فقط، ستسمح له شخصيّته الجديدة بإدراك معنى الألوهيّة وتتجلّى له حقيقتها الأبديّة. . .

ويتواصل النقاش حتّى ينال منهما التعب، ثمّ يتساءل مصطفى الدهشوري باهتمام:

ـ كيف يمكن أن أنشر أفكاري في حارتنا؟

فيقول له أبي بحدّة:

ـ أهل حارتنا غارقون في هموم الحياة اليوميّة، يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة.

ـ ولكنّها مشكلات لا تحلّ الحلّ الأمثل إلّا بأفكاري؟

ـ أهل حارتنا لا يفهمون إلّا لغة واحدة هي اللغة المشتقّة من همومهم، الحاوية لعذاباتهم، المقدّسة بأوراد الكائن المرجوّ عند الشدّة الذي تريد أن تنزعه من قلوبهم.

ورغم حرص مصطفى الدهشوري تُنسب إليه أفكار خارقة تسيء إلى سمعته بين الناس فيثير لغطًا يُفصل بسببه من وظيفته وتتجهّمه الحياة في حارتنا.

الحكاية رقم ٧٤

الأعور يتأهّل لموعد غراميّ في الساحة أمام التكيّة. يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة ولكنّه يسترسل في الشرب حتّى يفقد ذاته تمامًا.

يغادر الخمّارة عقب منتصف الليل فيذوب في الظلام، ويذوب في الحبّ، ولا يدري أين يتّجه، يرتطم في الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه حيث إنّ جنونه غير مؤذٍ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه، ويقول له:

ـ أرشدني إلى طريق التكيّة.

فيتحرّك نؤنؤ المجنون وهو يقول له:

ـ لا تترك ذراعي. . . لماذا تريد التكيّة في هذه الساعة من الليل؟

ـ أتريد الحقّ؟ إنّي ذاهب للقاء حبيبتي.

ـ عظيم. . . وأنا ذاهب أيضًا للقاء حبيبتي.

ـ في الساحة مثلي؟

ـ بل في التكيّة نفسها.

ـ ولكنّ الأسوار عالية.

ـ لا مستحيل في الليل.

ويكاد الأعور أن يسقط من شدّة الترنّح فيقول متشكّيًا:

ـ نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد؟

ـ لم يمض على سيرنا إلّا أسبوع واحد.

فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول:

ـ الزمن لا يُرى في الظلام.

ـ والمحبوبة هل ترى في الظلام؟

فيضحك السكران ويقول:

ـ إنّي لا أعتمد على عينيّ للتعرّف على المحبوبة.

ـ إذن فأنت مجنون!

ـ ولكن أين التكيّة؟

ـ نحن لم نسر بشهادتك إلّا أسبوعًا واحدًا.

ـ ولكنّي أقطع الحارة نهارًا في ربع ساعة.

ـ في الليل تطول المسافة، ألا ترى أنّنا لا نتوقّف عن السير؟

ويدوخ الأعور، وتعجز ساقاه عن حمله، فيسقط على وجهه، ويروح في سبات عميق لا يستيقظ منه إلّا مع أوّل شعاع للشمس. ينظر فيما حوله بذهول فيجد نفسه أمام الخمّارة لم يبتعد عنها خطوة واحدة.

* * *

ويقول راوي هٰذه الحكاية ـ صبيّ الخمّارة ـ إنّه كان يقف عند الباب، يسمع حوار السكران والمجنون، ويراهما وهما يدوران حول نفسيهما متوهّمين أنّهما يتقدّمان.

ومن يومها والمثل يُضرب بهٰذه الحكاية في حارتنا فيقال لمن يسترشد بمن لا يرشِد: «أنت سكران وهو مجنون فكيف تصلان إلى التكيّة؟».

الحكاية رقم ٧٥

يدخل عمر المرجاني البوظة في غاية من الأبّهة والأناقة.

جلبابه الأبيض يشعّ نورًا، عمامته ألْقَلْوَظة تتوّج رأسه، مركوبه الأحمر يتألّق، تحت إبطه خيزرانة رشيقة.

يحيّي الحاضرين ببشر ويقول:

ـ لتمتلئ قلوبكم بالهنا والأفراح.

ويكرع أوّل قرعة فتتحرّك النشوة في أعماقه ويبتسم.

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتزّ طربًا ويقول لمن حوله:

ـ صدّقوني إنّ الحزن في هٰذه الدنيا ليس إلّا وهمًا عابرًا.

ويفرغ القرعة الثالثة في جوفه ويقول:

ـ ملعون مَن يلعن الدنيا، لقمة حلوة ومرّة، حلوة وإيمان حلو، ماذا تريدون بعد ذٰلك؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول:

ـ أنا سعيد يا جدعان...

ويرقص بخفّة وبهجة...

وإذا بصوت خشن لم يحدّد مصدره يهتف به:

ـ نريد الهدوء.

ولٰكنّه يواصل الرقص، ويأخذ في الغناء أيضًا:

شوفوا العجب حبّيت فلّاحة

فيعود الصوت الخشن قائلًا:

ـ احترم نفسك واجلس...

ولٰكنّه يستمرّ في معانقة الفرحة...

ويرتفع نبّوت في الهواء ثمّ يهوي على رأسه...

عند ذاك يتوقّف عن الرقص، يسكت عن الغناء، تتصلّب سحنته نافضة عنها لألئ السعادة... ثمّ يتهاوى على الأرض...

الحكاية رقم ٧٦

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إنّ الحكومة ستهدم التكيّة ضمن مشروع للمرافق العامّة. في لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين والوكالات والغرز والبوظة والخرابات في حارتنا.

ـ حارتنا ميمونة ببركة التكيّة.

ـ الخضرة والأزهار لا تُرى إلّا في التكيّة.

ـ والأغنيات الإلٰهيّة أين تُسمع إلّا في التكيّة؟

ـ وما المكان الذي لم يضمر أذى لإنسان إلّا التكيّة؟

وبالبحث والتحرّي تُكشف حقيقة غريبة وهي أنّ صاحب المشروع هو المهندس عبده السكري ابن حارتنا!

ويقول عبده:

ـ التكيّة تعترض مجرى الحارة كالسدّ وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال.

فيقولون له:

ـ وهل علمت أنّنا متضايقون من ذلك وألّا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال؟

ـ لا تنسوا أنّ القرافة ستُنقل عمّا قريب إلى صحراء الخفير وسيحلّ محلّها عمران شامل.

ـ طول عمرنا نسمع أنّ القرافة ستنقل وها هي باقية لا تتحرّك، فكيف هانَ عليك أن تقترح إزالة التكيّة المباركة؟

واشتدّ النقاش، وحمي الانفعال، وكُتبت العرائض، وحلّ بحارتنا توتّر وحزن لم تعرفهما من قبل.

ويرتفع صوت معتدل يقول:

ـ لا وجه للعجلة، فلننتظر حتّى يتقرّر بصفة نهائيّة نقل القرافة ويشرع في ذلك بالفعل، عند ذاك يحقّ لنا أن نناقش مسألة هدم التكيّة.

وغلب هذا الرأي فتراجعت الوزارة وتأجّل المشروع.

أمّا الأكثريّة فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلًا.

وأمّا القلّة المعتدلة فهي تقول:

ـ فلتبقَ التكيّة ما بقيت القرافة.

الحكاية رقم ٧٧

أنور جلال جالس على سلّم السبيل الأثريّ وهو يضحك عاليًا. أنظر إليه فيخطر لي أنّه سكران أو مسطول فأمضي نحوه وأجلس إلى جانبه ثمّ أسأله:

ـ ماذا يضحكك؟

فيجيبني وهو لا يكفّ عن الضحك:

ـ تذكّرت أنّني طالب بين طلبة متنافسين، في مدرسة تجمع بين طلبة الأزقّة المتخاصمة، في حارة وسط حارات متعادية، وأنّي كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة، في كرة أرضيّة تهيم وسط مجموعة شمسيّة لا سلطان لي عليها، والمجموعة ضائعة في سديم هائل، والسديم تائه في كون لا نهائيّ، وأنّ الحياة التي أنتمي إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة، وأنّ عليّ أن أسلّم بذلك كلّه ثمّ أعيش لأهتمّ بالأحزان والأفراح، لذلك لا أتمالك نفسي من الضحك.

فأضحك معه طويلًا حتّى يحدجني بنظرة ساخرة ويسألني:

ـ هل تضمن أن تشرق الشمس غدًا؟

فأقول بثقة:

ـ أستطيع أن أراهن على ذلك.

فيقول وهو يضحك:

ـ طوبى للحمقى فهم السعداء.

الحكاية رقم ٧٨

عرفت الشيخ عمر فكري في بيتنا وهو في زيارة لأبي. هو كاتب محامٍ متقاعد، فتح عقب تقاعده مكتبًا للأعمال لمعاونة أهل حارتنا في شئون الحياة بعد أن توثّقت أسباب الاتّصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة. ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة، ويقدّم خدمات متنوّعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجاريّة وشئون الزواج والطلاق.

سمعته وهو يقول لأبي بكلّ ثقة واعتزاز:

ـ من خبرتي الطويلة أستطيع أن أقدّم شتّى الخدمات في أيّ ميدان من ميادين الحياة!

تحرّكت في أعماقي رغبة قديمة كامنة فسألته:

ـ أتستطيع أن تقدّم لي خدمة؟

فنظر إليّ باسمًا وسألني:

ـ ماذا تريد يا بنيّ؟

ـ أريد رؤية شيخ التكيّة الأكبر!

فضحك الشيخ عمر عاليًا وشاركه أبي ثمّ قال:

ـ إنّ الخدمات التي أقدّمها جدّيّة وتتعلّق بجوهر الحياة العمليّة!

ـ ولكنّك قلت إنّك تقدّم شتّى الخدمات في أيّ ميدان من ميادين الحياة.

ـ ولكنّ التكيّة خارج أسوار الحياة؟

ـ هي ليست كذلك في الواقع.

وقال لي أبي:

ـ أسمِعْه بعض ما تحفظ من أشعارها.

فردّدت بسرور:

ـ بلبلي خون دلي خوردْ وكلي حاصل كرد.

فقال الشيخ عمر فكري مخاطبًا أبي:

ـ ما أكثر الذين يردّدون هٰذه الأشعار بلا فهم «ثمّ ناظرًا نحوي»: أتفهم معنى كلمة واحدة ممّا ردّدت؟

فهززت رأسي نفيًا فقال:

ـ إنّهم غرباء ذوو لغة غريبة ولٰكنّ حارتنا مجنونة بهم.

فقلت له:

ـ إنّك قادر على كلّ شيء.

فتمتم أبي:

ـ أستغفر الله العظيم.

وسألني الشيخ:

ـ وما أهمّيّة رؤية شيخ الدراويش لك؟

ـ لأتأكّد من تجربة مرّت بي في طفولتي.

وقصّ عليه أبي قصّتي القديمة فضحك الشيخ عمر وقال:

ـ اعترف لكما بأنّني رغبت ذات يوم في رؤية الشيخ الأكبر.

ـ حقًّا؟!

ـ قلت لنفسي إنّ الحارة كلّها تردّد ذكره رغم أنّه لا يكاد يزعم أحد أنّه رآه وولعت بفكرة رؤيته ولع الأطفال، ماذا يحول بيني وبين ذٰلك؟، ومضيت إلى التكيّة، طلبت مقابلة أيّ مسئول بها ولٰكنّهم لاقوني من وراء السور بتجهّم وقلق، ولم يُبدوا أيّ استعداد للتفاهم، تكلّمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة، حتّى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب، ورجعت معترفًا بحماقتي، يائسًا من تحقيق فكرتي بالاتّصال المباشر، مقتنعًا في الوقت نفسه بأنّ اقتحام التكيّة بالطريق المشروع متعذّر أو مستحيل، وأنّ اقتحامها بالتسلّل خرق للقانون لا شكّ فيه لا يتوقّع من رجل يقوم عمله في الحياة على احترام القانون.

ـ هٰكذا عدلت عن رغبتك؟

ـ لم أعدل عنها كما ظننت، ولٰكنّني جرّبت وسيلة ثانية، طفت بالطاعنين في السنّ من أهل حارتنا ممّن عُرفوا بالتقوى فادّعى بعضهم أنّهم رأوه ولٰكن لم يتّفق اثنان منهم على وصف محدّد له، اختلفوا لحدّ التناقض، وهٰذا يعني في نظري أنّ أحدًا منهم لم يره.

فقلت بحماس:

ـ ولٰكنّني رأيته.

ـ إنّكم لا تكذبون ولٰكنّكم تتخيّلون.

ـ وما وجه الاستحالة في رؤيته، ألا يخطر له أحيانًا أن يتمشّى في الحديقة مثلًا؟

ـ ومن أين تعلم أنّ الذي تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشًا من الدراويش؟

ـ وهٰكذا نفضت يدك من المسألة؟

ـ أبدًا، كنت مجنونًا أكثر ممّا تتصوّر، ذهبت إلى ديوان الأوقاف متحدّيًا، حصلت على معلومات لا بأس بها عن أوقاف التكيّة وعن فرقتهم الصوفيّة، عن الدرويش المخصّص لتسلّم الريع، ولٰكن لم أعثر على كلمة واحدة تخصّ الشيخ الأكبر فضلًا عن كراماته التي تؤمن بها حارتنا.

فغصصت بالخيبة ورمقته بحنق ثمّ قلت:

ـ توجد وسائل أخرى ولا شكّ؟

فقال باسمًا:

ـ يوجد العقل، هو الذي خلّصني من رغبتي المحمومة، قال لي إنّنا نرى التكيّة والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر!

فسأله أبي:

ـ هل يصلح هٰذا دليلًا على عدم وجوده؟

ـ إنّه لا يقول ذٰلك، إنّه يقرّر حقيقة نعرفها جميعًا وهي أنّنا نرى التكيّة والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر.

فقلت:

ـ ولٰكن توجد وسيلة ولا شكّ للتثبّت من وجوده ومن رؤيته؟

ـ لن يتأتّى ذٰلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد، وإنّي كما تعلم لا أحيد عن القانون أبدًا.

فضحك أبي وقال:

ـ اعترفْ أنّه توجد خدمة واحدة على الأقلّ لا تستطيع أن تؤدّيها يا شيخ عمر.

فجاراه في ضحكه قائلًا:

ـ ليكن، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر؟، ألم تكن رغبة مضحكة؟!

فسألته بحرارة:

ـ لِمَ يغلقون في وجوهنا الأبواب؟

ـ التكيّة شُيّدت في الأصل في خلاء لأنّهم قوم ينشدون العزلة والبعد عن الدنيا والناس، ولكن بمرور الزمن امتدّ العمران إليهم وأحاط بهم الأحياء والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة.

وابتسم ابتسامة فاترة وقال:

ـ لقد مددتك بكافّة المعلومات الممكنة وهي وإن تكن غير مجدية في تحقيق رغبتك إلّا أنّها قاطعة في أنّه لا يمكن تحقيق الرغبة إلّا بوسيلة غير مشروعة خارقة للقانون.

* * *

تلك ذكرى لا تُنسى.

وحتّى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون، ولكنّني في الوقت نفسه لا أستطيع تصوّر تكيّة بلا شيخ أكبر.

ويمضيّ الأيّام لم أعد أرى التكيّة إلّا في موسم زيارة المقابر، فألقي عليها نظرة باسمة، وأستقبل ذكرى أو أكثر، وأحاول أن أتذكّر صورة الشيخ أو مَن توهّمت ذات مرّة أنّه الشيخ، ثمّ أمضي نحو الممرّ الضيّق الموصل إلى القرافة.

قَلبُ اللّيل

قَلْبُ اللَّيْل

١

قلت وأنا أتفحّصه باهتمام ومودّة:

- إنّي أتذكّرك جيّدًا.

انحنى قليلًا فوق مكتبي وأحدّ بصره الغائم. وضح لي من القرب ضعف بصره، نظرته المتسوّلة، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور، وقال بصوت خشن عالي النبرة يتجاهل قِصَر المسافة بين وجهينا وصِغَر حجم الحجرة الغارقة في الهدوء:

- حقًّا؟... لم تعد ذاكرتي أهلًا للثقة، ثمّ إنّ بصري ضعيف...

- ولكنّ أيّام خان جعفر لا يمكن أن تُنسى...

- مرحبًا، إذن فأنت من أهل ذلك الحيّ!

قدّمت نفسي داعيًا إيّاه إلى الجلوس وأنا أقول:

- لم نكن من جيل واحد ولكن ثمّة أشياء لا تنسى.

فجلس وهو يقول:

- ولكنّي أعتقد أنّني تغيّرت تغيّرًا كلّيًا وأنّ الزمن وضع على وجهي قناعًا قبيحًا من صنعه هو لا من صنع والديّ!

وقدّم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلًا:

- الراوي، جعفر الراوي، جعفر إبراهيم سيّد الراوي...

لم تخفَ عليّ أسباب اعتزازه بالاسم، وأكّد ذلك التناقض الحادّ بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية. قال:

- إنّك تعود بي إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان جعفر والحسين المقدّسة، أيّام الهناء والتجربة...

- وكانت ثمّة وقائع مثيرة وحكايات غريبة...

فضحك عاليًا. اهتزّ جسده الطويل النحيل حتّى أشفقت على بدلته الرثّة أن تتمزّق، ورفع لي وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبّد، وقال:

- نحن أهل، ومن حقّي أن أستبشر خيرًا لقضيّتي العادلة!

فسألته مؤجّلًا الخصام:

- تشرب قهوة؟

فقال بلا أدنى تردّد وبجرأة:

- لنبدأ بسندوتش فول ثمّ تجيء القهوة بعد ذلك...

وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتّى ساورني الأسى، واستقرّت رائحته في أنفي خليطًا من العرق والتبغ والتراب. ولمّا أكل وشرب اعتدل في جلسته وقال:

- أشكرك، لا أريد أن أضيّع وقتك أكثر من ذلك، لا شكّ أنّك اطّلعت على طلبي بحكم وظيفتك، فما رأيك؟

فقلت بأسف:

- لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشيء من ذلك...

- ولكنّ الحقّ واضح مثل الشمس.

- الوقف واضح أيضًا...

- كان القانون ضمن ثقافتي ولكنّي أعتقد أنّ كلّ شيء يتغيّر...

- إلّا الوقف فإنّه حتّى اليوم لم يتغيّر...

فهدر صوته الخشن صائحًا:

- لن يضيع حقّي أبدًا، ولتعلم ذُلك وزارة الأوقاف.

ولـمّا وجد منّي هدوءًا باسمًا تراجع إلى الهدوء وقال:

- دعني أقابل المدير العامّ.

فقلت بلطف:

- المسألة واضحة جدًّا، فوقف الراوي أكبر وقف خيريّ في الوزارة، ريعه موقوف على الحرمَين الشريفَين ومسجد الإمام الحسين بالإضافة إلى جمعيّات خيريّة ومدارس وتكايا وأسبلة، والوقف الخيريّ لا يمكن أن يئول إلى شخص بحال من الأحوال.

قاطعني بحدّة:

- ولكنّني حفيد الراوي، ووريثه الوحيد، وإنّي في مسيس الحاجة إلى ملّيم على حين أنّ الإمام الحسين غنيّ بجنّات النعيم.

- ولكنّه الوقف!

- سأقيم دعوى.

- لا فائدة من ذُلك.

- سأستشير محاميًا شرعيًّا، ولُكن تلزمني استشارة مجّانيّة لأنّ النقود كائنات مجهولة في عالمي...

- لي أكثر من صديق بين المحامين الشرعيّين، وممكن أن أدبّر لقاء بينك وبين أحدهم، ولُكن لا تضيّع وقتك جريًا وراء أمل لا يمكن أن يتحقّق.

- إنّك تعاملني كطفل!

- معاذ الله ولكنّني أذكّرك بحقيقة لا جدال فيها.

- ولكنّني حفيد الراوي، وإثبات ذُلك يسير عليّ...

- المهمّ أنّ تركة الراوي أصبحت وقفًا خيريًّا...

- وهل من العدل أن أُترك أنا للتسوّل...؟

- المتّفق عليه في الإدارة وهو المتّبع في مثل ظرفك أن تقدّم طلبًا بالتماس صرف إعانة شهريّة من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك...

جعل يردّد: إعانة شهريّة!... يا لهم من مجانين ظالمين.

وواصل قائلًا:

- صاحب الوقف يلتمس إحسانًا!... هٰذا جنون... وما مقدار الإعانة؟

صمتُّ لحظات متردّدًا ثمّ قلت:

- قد تصل إلى خمسة جنيهات... وقد تزيد...

قهقه ساخرًا كاشفًا عن أسنان مثرمة سوداء، ثمّ قال:

- صدّقني، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجنّ، فلتكن معركة، لن أكفّ عن القتال حتّى أنال حقّي الكامل من تركة جدّي اللعين!

فلم أتمالك من الابتسام وقلت:

- ليرحمه الله جزاء ما قدّم للخير.

فضرب حافة مكتبي بقبضته المعروقة وقال:

- لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد...

- ولماذا نسيك؟

قبض على ذقنه دون أن يجيب. شعرت بأنّ الزوبعة ستنقشع عاجلًا أو آجلًا، وأنّ التماس الإعانة سيُكتب. ما أكثر المتسوّلين عندنا من حَفَدة الباشوات والأمراء والملوك. ويقيني أنّه لا يجحد أحد ذرّيّته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟!

ومدّ بصره الضعيف إلى لا شيء وراح يقول:

- وقف خيريّ، حرمان من الميراث، هٰكذا فِعْله دائمًا مزيج من الخير والشرّ، ها هو يمارس سلطته ميتًا كما مارسها حيًّا، وها أنا أكافح في موته كما كافحت في حياته... وحتّى الموت...

٢

توثّقت العلاقة بيني وبين جعفر الراوي. كان في وحدته على استعداد حادّ للالتصاق بمن يشجّعه ولو بابتسامة، وكان يشجّعني على المغامرة شعوري بأنّها عابرة سريعة الزوال، لشخصيّته المضطربة لا توحي بالاستقرار والدوام، وإرضاؤها يسير هيّن. ثمّة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتني إليه. هناك على سبيل المثال الذكريات القديمة وافتتاني ببيت الراوي وحكاياته، وما تردّد يومًا عن مغامرات جعفر وجنونه. وهناك أيضًا ميلي إليه رغم فظاعة منظره ورثائي له في خاتمته التعيسة. وكان ذا قامة مديدة. ولولا البؤس - وربّما

الأمراض ـ لنضحت شيخوخته بروعة وجلال.

سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع في شارع محمّد عليّ:

ـ كيف تعيش يا جعفر؟

ـ أتخبّط في الشوارع نهارًا وحتّى منتصف الليل...

ـ وأين تسكن؟

ـ أبيت في الخرابة...

ـ الخرابة؟!

ـ هي ملكي بوضع اليد، وهي ما تبقّى من بيت جدّي القديم!

وكنت قد انقطعت عن الحيّ العتيق منذ عهد بعيد فلم أعرف أنّ البيت تحوّل إلى خرابة.

ـ أليس لك أهل؟

ـ لعلّهم يملئون الأرض...

ابتسمت. فقال جادًّا:

ـ لي أبناء قضاة وأبناء مجرمون...

ـ أتعني ما تقول؟

ـ رغم ذٰلك فإنّي وحيد...

ـ يا لها من طريقة في الحديث...!

ـ اسمع، رُدَّ إليّ الوقف وأعدك بأن تراني محاطًا بالأبناء والأحفاد، وإلّا فستجدني دائمًا وحيدًا طريدًا...

ـ أراك تحبّ الألغاز...

فضحك قائلًا:

ـ إنّي أحبّ اللقمة الحلوة والوقف، كما أحبّ لعن الواقفين...

ـ أليس لك مورد رزق من أيّ نوع في شيخوختك؟

ـ لي أصدقاء قدماء، أعترض أحدهم فيمدّ يده بالسلام ويدسّ في يدي ما يجود به، إنّني أتمرّغ في التراب ولكنّني هابط في الأصل من السماء.

قلت بأسى:

ـ حياة غير لائقة، اكتب الالتماس فورًا...

ـ هي الحياة الإنسانيّة الأصيلة، جرّبها بشجاعة إن استطعت، اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكلّ ما تحتاجه هو حقّ لك، هٰذه الدنيا ملك للإنسان، لكلّ إنسان، عليك أن تتخلّى عن عاداتك السخيفة، هٰذا كلّ ما هنالك.

ـ ومع ذٰلك فإنّك تتمنّى أن تستردّ تركة جدّك؟

فقهقه قائلًا:

ـ لا تحاسبني على التناقض، إنّي حزمة من المتناقضات، ولا تنس أنّي عجوز، ولا تنس أنّي أخوض معركة مع جدّي منذ قديم.

ـ أودّ أن أعرف لماذا حرمك ميراثك؟

ـ هٰذه هي المعركة، لا تتعجّل، لست بسيطًا كما يتراءى لك، كثيرون ينخدعون فيّ، حتّى الصبية يجرون ورائي وأنا أتخبّط في الشوارع، ماذا يظنّون؟ إنّي أحبّ الكلام، ولّما كنت وحيدًا فإنّي أكلّم نفسي، ماذا يظنّون؟ لقد تقدّم بي العمر ولّما تكفّ الأسئلة عن مطاردتي، صدّقني فإنّني شخص غير عاديّ، حتّى في الجبل كنت غير عاديّ، ولا في القصر ولا في الخرابة، ورغم التصعلك والتسوّل فإنّني أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحدّيًا، إذ إنّ الحياة لا تحترم إلّا مَن يستهين بها...

جعلت أتأمّله باسمًا وهو يتحدّى الوجود ببدلته المتهتكة وجلده المدبوغ، ثمّ تمتمت:

ـ عفارم عليك!

ـ وليس الإنسان وحده من تعاملت معه فلي صِلات عريقة مع الجماد والجنّ والعفاريت فضلًا عن عناصر الحضارة الجوهريّة.

ثمّ غيّر نغمته فجأة وسألني:

ـ هل وقع اختيارك على محامٍ ثقة لنذهب إليه؟

فقلت متوسّلًا:

ـ انْسَ بالله هٰذه القضيّة الوهميّة يا جعفر.

ـ ألستُ جعفر إبراهيم حفيد سيّد الراوي؟

ـ بلى... ولٰكن لا توجد قضيّة على الإطلاق.

فصاح:

ـ إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون...

ـ هٰذا أقرب إلى الإمكان من كسب القضيّة، اكتب الالتماس ولا تبدّد الوقت...

فقال ضاحكًا:

ـ إنّكم في الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثمّ

تمدّون أيديكم إلينا بالإحسان...

- اكتب الالتماس ولا تبدّد الوقت...

وغشانا الصمت دقائق ثمّ قال وكأنّما يحادث نفسه:

- خمسة جنيهات!...

- يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح...

- كلّا... إنّ المبلغ يكفي للغذاء والسجاير والكساء... أمّا المأوى فكيف أستأجر مسكنًا وأنا أملك قصرًا؟!... لن أهجر الخرابة...

- اكتب الالتماس في أقرب فرصة وارسله إلى الوزارة...

- لا داعي للعجلة، دعني أفكّر، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميًا، ولا يبعد أن أواصل الحياة بلا التماس ولا محامٍ... لا داعي للعجلة...

- على أيّ حال فقد عرفت سبيلك...

فقال بحدّة:

- لا سبيل للتفاهم بيننا... فأنت ممّن يخافون الحياة وأنا ممّن يزدرونها، وجميع ما ترتعد منه لمجرّد تصوّره قد عانيته... جميع ما تسأل الله ألّا يقع قد ذهبت إليه فوق قدميّ...

- عظيم جدًّا يا جعفر...

- هل يعجبك كلامي؟

- جدًّا...

- أتودّ أن تسمع المزيد منه؟

- ثق من ذلك كلّ الثقة...

- لقد قدّمت لي عشاء فاخرًا، وستقدّم لي مساعدات هامّة في الأيّام القادمة، فضلًا عن أنّنا أبناء حيّ واحد. بنا إلى مقهى ودود بالباب الأخضر...

وسرنا جنبًا إلى جنب نحو الحيّ العتيق حتّى اخترقنا القبو الأثريّ إلى الباب الأخضر. وجلسنا ندخّن البوري ونشرب القهوة على حين جرى الحديث في سكون الليل الطويل...

٣

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل. تعود في تلك الساعة أفواج من الشحّاذين إلى أركانهم، ينطلق المجاذيب في جنباتها، يفوح البخور من زواياها. لا غريب يطرقها ليلًا إلّا روّاد مقهى ودود القلائل، وجميعهم من مدخّني البوري، قال جعفر:

- دعني أحدّثك عن عهد الأسطورة...

- لعلّك تقصد الطفولة.

- إنّي أعني ما أقول فلا تقاطعني، لا توجد طفولة. ولكن يوجد حلم وأسطورة، عهد الحلم والأسطورة، وهو يفرض ذاته في عذوبة فائقة، وربّما زائفة، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة، وهو دويّ ضخم في وجداني وعندما أحلّله لا أجده شيئًا، وهٰذا ما يؤكّد طبيعته الأسطوريّة، حسبك أن تعرف أنّ قطبيه الأساسيّين - أبي وأمّي - لا أكاد أعرف عنهما شيئًا ذا بال.

- هل غادراك وأنت طفل؟

- لا أذكر أبي بتاتًا، لا صورة له في ذاكرتي ولم يخلّف صورة فوتوغرافيّة لتذكّرني به، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيري، ولا يوجد سوى موقف واحد يشير إليه إشارة غامضة، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطلّ على مرجوش، وأنا ممتطٍ قفاه وأنظر من فوق منكبه إلى الجموع، وإلى رأس المحمل المذهّب الذي يتبختر في مستوى النافذة، موقف يدلّ على العطف والحنان أليس كذٰلك؟ والمحمل مَعْلم من معالم الأسطورة أمّا الجموع فحقيقة من نوع خاصّ، بعثت في نفسي ذات يوم في مكتبي بميدان باب الخلق فهتفت في وجه «سعد كبير» وقلت...

قاطعته:

- نحن الآن في الأسطورة فلا تجاوز حدودها!

- دعني أتكلّم بحرّيّة فإنّي أكره القيود!

- ولكنّ الحكاية ستذروها رياح الخواطر فأضلّ بين شذراتها!

قهقه قائلًا:

- ألا تسمح لي بأن أعبث بالزمن كما عبث بي؟! حسن، لنعد إلى الأسطورة، إلى الجنّ الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفيّة والأحلام الحقيقيّة، لنعد إلى الأسطورة، قلت لك إنّني لا أتذكّر أبي ولكنّني لا أنسى يد أمّي.

ـ يد أمّك؟

ـ صبرًا، لقد مات أبي، كيف ولِمَ؟ لا أدري، ولكنّه مات في ريعان الشباب كما علمت فيما بعد، كنت في الخامسة وربّما دون ذلك، حتّى بيت مرجوش لا أتذكّره، ثمّة حجرة يُصعد إليها من الدهليز بسلّم ذي درجتين، وفراش مرتفع يُرقى إليه بسلّم خشبيّ يغري باللعب، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتّى لا تمتدّ لها يدي، وقطط مدلّلة، وجندرة، وكرار مظلم تسكنه أنواع شتّى من الجنّ، وفار أسود، ومبخرة، وقلّة مغروسة في صينيّة يسبح الليمون في مائها، وكانون وزكائب فحم، ودجاج وديك مزهوّ فخور، مات أبي لا أدري كيف، ولا أدري ماذا كان يعمل، ولكن بوسعي أن أحدّثك عن الموت نفسه فإنّي به خبير، إنّي من صنّاعه، حقّ لي يومًا أن أقول إنّني واهب الحياة، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته كلمات السماء تفتح أبواب غامضة تتسلّل منها الشياطين، بل يجيء إبليس نفسه في موكبه الناريّ يحفّ به القضاة ورجال الشرطة والسجّانون، عند ذاك يغيّر جعفر الراوي اسمه ولقبه وجلده...

قلت برجاء:

ـ ماذا عن موت أبيك؟

ـ سامحك الله، إنّك خانق الإلهام، تودّ أن تعرف كيف مات أبي كما لو كان أباك أنت، ماذا أعرف عن ذلك؟ أستيقظ في الظلام فأنتبه إلى أنّ أمّي تحملني بين ذراعيها وتغادر بيتنا إلى بيت جارتنا، لا شكّ أنّ النوم غلبني، ولّما أستيقظ في الصباح أجدني في مكان غريب فأبكي، تجيء الجارة بطعام فأسأل عن أمّي.

ـ أمّك في مشوار وستجيء في الحال... تناول طعامك.

وأتناول الطعام رغم ضيقي، وأسمع طوال الوقت صواتًا، ولكنّ الصوات والزغاريد أصوات مألوفة في حارتنا، وأرجع إلى بيتنا في نفس اليوم ليلًا أو في اليوم التالي فألقى جوًّا غريبًا وكئيبًا يفشي سرًّا أليمًا لا أعرف كنهه ولكن تصيبني منه وحشة وقلق مبهم، ها هي أمّي، ما أشدّ تغيّرها، جلبابها أسود، وجهها مريض شاحب، نظرتها خابية وذابلة، فَقَدَ البيت مناخه النقيّ ومرحه الأصيل.

ـ ما لك يا أمّي؟

ـ كلّ شيء طيّب، الْعَبْ...

ـ أين أبي؟

ودارت وجهها عنّي وهي تقول:

ـ سافر... العَبْ... عندك السطح ولا تكثر من الأسئلة...

إنّني أعامَل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلّة اكتراث، أمّي تهرب منّي، تهرب بعينيها إن لم تهرب بجسمها كلّه، وهي تبكي من وراء ظهري، أبي لا يعود من السفر، ثمّ إنّني لست جاهلًا كلّ الجهل، بلغتني أشياء عن الله.... الشيطان.... الجنّ.... الجنّة والنار... حتّى الموت بلغتني عنه أشياء منذرة بغير السرور، متى يعود أبي من سفره، ومتى يرجع وجه أمّي إلى صفائه المعهود، وكم دام انتظاري القلِق لأبي، ومتى أدركني اليأس منه، وكيف أنسيته وشغلت عنه، وكيف واصلت حياتي بعد ذلك وكأنّ شيئًا لم يكن؟ نسيت ذلك كلّه ولا سبيل إلى تذكّره وتسجيله، أمّا يد أمّي فلا يمكن أن تُنسى...

ـ ذكرت مرارًا يد أمّك؟

ـ تمسك بي أو أمسك بها ونسير معًا في الحواري والأسواق...

ـ للتسوّق أم للنزهة؟

كنت بدأت آنس إلى روحه المتّقدة وراء الأطلال والخرائب، وبدا هو سعيدًا ممتنًّا للعشاء والبوري وظفره بمستمع يتابع ما يقول باهتمام، قال:

ـ أحيانًا أحاول أن أتذكّر صورة أمّي فلا أعثر على شيء ذي بال، ما طولها على سبيل المثال؟ كنت بطبيعة الحال أقصر منها جدًّا ودائمًا أنظر إلى فوق حين أحدّثها ولكنّ ذلك لا يدلّ على شيء ولا يحدّد طولها، ولا فكرة لي عن وزنها كذلك، ولا لون عينيها، ولا لونها نفسه، ثمّة صورة عامّة غير محدّدة الخطوط، وإشارات ونبرات غير مسموعة، وعواطف جيّاشة، وابتسامات وضحكات وزجرات، أشبه بأطياف الأحلام، غير أنّني أستطيع أن أقرّر بأنّها كانت جميلة، لولا جمالها لما حدثت المأساة، كما إنّني أذكر قول جارتنا لمناسبة منسيّة

«ولد يا جعفر يا ابن الستّ الجميلة»، ولكنّها لم تبق في الحياة كثيرًا حتّى تمكّنني من حفظها في قلبي من الدمار، يدها فقط التي بقيت معي، أحسّ حتّى الساعة مسّها وضغطها وشدّها وانسيابها، وهي تمضي بي من مكان إلى مكان، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة، وتيّارات من النساء والرجال والحمير والعربات، أمام الدكاكين وفي الأضرحة والتكايا، وعند مجالس المجاذيب وقرّاء الغيب، وباعة الحلوى واللعب، تقودني في جلبابي وعلى رأسي طاقيّة مزركشة تتدلّى من مقدّمها تعويذة كالحلية، وكانت أحاديثها متنوّعة ذات صيغ شعريّة تخاطب بها الكائنات جميعًا كُلًّا بِلُغَتِهِ الخاصّة به، فهي تخاطب الله في سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء في أضرحتهم، حتّى الجنّ والطير والجماد والموتى، وأخيرًا ذلك الحديث المتقطّع بالتنهّدات الذي تناجي به الحظّ الأسود، كانت الدنيا حيّة واعية تتلقّى الكلام وتردّه، وتشارك بإرادتها الخفيّة في حياتنا اليوميّة، لا فرق في ذلك بين ملاك وباب ضريح، بين الهدهد وبوّابات القاهرة القديمة، حتّى الجنّ كانت تلين لكلماتها السحريّة، وبفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها...

ولّما وجدته جادًّا لم أتمالك من الضحك فسألني دون أن يخرج من جدّيّته:

- علامَ تضحك؟

فقلت بلهجة المعتذر:

- إنّك تروي حلمًا ولكنّك الآن تعرف تفسيره وتأويله...

فقال بكبرياء:

- لا تتخيّل أنّك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت.

- هٰكذا؟

- إنّي بَحْرٌ ولا فَخْر!

- ولكنّك لا تفرّق بين الحقيقة والخرافة.

- لا توجد خرافات وحقائق ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعيّة الجهاز الذي ندركها به، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ، ولكلّ جهازه الروحيّ، وإليك مثالًا حيًّا، فقد أخذتني أمّي ذات يوم لزيارة قبر أبي بين قبور الفقراء المكشوفة في العراء، ثمّ راحت تناجيه قائلة: «زوجتك وابنك يحيّيانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحبّ الناس وأكرمهم، إنّي أشكو إليك وحدتي وهمّي فادعُ لنا ربّك يا حبيب». وسرعان ما ألصقت أذني بجدار القبر فسمعت تنهّدة وكلامًا أخبرت به أمّي فقالت لي: «مبارك أنت حتّى يوم الدين»...

فسألته بإشفاق:

- ماذا قال لك أبوك؟

- إنّك غير مؤهّل لتصديقي فلن أجيبك!

ساورني شعور بأنّه يغطّي ماء الدعابة بسطح من الجدّيّة الخشنة أو أنّه يريد إحاطة أسطورته بجوّ أسطوريّ يتوافق معها ليرضي حنين قلبه، فتمتمت مدعنًا:

- فوق كلّ ذي عِلْم عليم.

- كانت دنيانا دنيا حيّة، تنبض بالرغبات والعواطف والأحلام، فيها الجدّ والمزاح، فيها الفرح والأسى، ينتظمهم جميعًا - الأنس والجنّ والحيوان والجماد - لحن التفاهم والتعامل....

- ولكنّك تدرك ذلك كلّه؟

- كلّ الإدراك، بشغف وإصرار...

- ألم يطوّقك الخوف؟

- أحيانًا ولكنّي سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع والهجوم وصرت سيّد الدنيا، كنت ذات مساء ألاعب الليمون في صينيّة القلل على حافة النافذة فما أدري إلّا ورأس كائن يتطلّع إليّ من موضع في مستوى النافذة من الطريق، عيناه تضيئان في الظلام وقدماه منغرستان في الأرض، فتراجعت مضطربًا حتّى استلقيت على ظهري فوق أرض الحجرة ومزّقتْ صرختي سكون الليل، وقد علمت فيما بعد أنّ لقاء الأنسيّ بالجنّيّ لا يجوز أن يتمّ على ذلك النحو، وقالت لي أمّي إنّه آن لي أن أحفظ الصمديّة، أمّا عفاريت بيتنا - وهم يقيمون في الكرار - فكانوا يميلون بطبعهم للدعابة، ولا يصدر عنهم أذًى حقيقيّ، يخلطون المشّ بالعسل، أو يخفون

السمن لاستعمالهم الشخصيّ، أو يطفئون المصباح بيد الماشي ليلًا، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام إلى كوابيس...

ـ هل تستطيع أن تعطيني فكرة عن صورة العفريت؟

ـ كلّا، إنّك غير مؤهّل للتصديق، ثمّ إنّ الجنّ تختفي من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ما ينساها تمامًا، بل إنّه ينكرها، رغم أنّه يلقاها كلّ يوم في صُوَر جديدة من البشر، وفي الحال الأخيرة يصدر عنها شرّ حقيقيّ وأذًى كبير، ولكنّك تصرّ على أنّ الجنّ خرافة ليس إلّا، ومن ناحية أخرى فقد شاء لي القدر أن أرى النور المبارك في ليلة القدر وأنا جالس على حجر أمّي أتطلّع إلى السماء!... فتحت نافذة وأطلّ منها نور باهر طمس أضواء النجوم...

فقلت ضاحكًا:

ـ يقال إنّه لا يرى نور ليلة القدر إلّا مَن كُتبت له السعادة من البشر.

فقهقه طويلًا ثمّ قال:

ـ يبدو أنّك غلبتني هٰذه المرّة، ولكن إلى حين فقط، حقًّا إنّي أبلغُ مثال للبؤس ولكنّ العبرة بالخواتيم، والخاتمة ما زالت مجهولة، وقد أجد الجواب في الجنّة، ولي مع الجنّة تاريخ طويل، كانت أمّي تحدّثني عنها حديث الخبير، فأحببتها حبًّا لا مزيد عليه، خلبتني وسلبت لبّي، فصارت حلمي الباهر، جنّة السحر حيث يُرى الله بالعين ويُسمع بالأذن ويخاطَب باللسان، في حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم، ولكن لنرجع إلى حديث أمّي، كيف كانت تعيش بعد وفاة أبي؟ خطر لي هٰذا السؤال فيما بعد ولم يسعفني الجواب، كنّا نغادر بيتنا كلّ يوم، نزور أضرحة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثمّ نرجع إلى بيتنا لتنهمك هي في الواجبات المنزليّة وآوي أنا إلى جنّتي الأرضيّة بين القطط والدجاج، وقد تزورنا جارتنا، وكان لا أهل لي ولا أهل لها، أكانت تملك مالًا؟... حتّى اليوم لم أعرف وجه الحقيقة في ذٰلك، وقد ظلّت ترتدي السواد عقب وفاة أبي، وكانت تبكي أحيانًا إذا خلت إلى نفسها وأكثر من مرّة ضبطتها وهي تبكي، وأدركت سرّ العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبي، وسألتها:

ـ ألست تقولين إنّ أبي يقيم بين يدي الله؟

فأجابت بالإيجاب فسألتها:

ـ إذن فلماذا تبكين؟

فقالت:

ـ إنّه لخطأ يا جعفر ولكنّ الدموع تفيض رغم إرادة الإنسان.

لم يقعدني ذٰلك عن مغامراتي اليوميّة فأمضي في البهجة، أجمع البيض، أطارد الفئران، أتحدّى العفاريت، ولبثت المغامرة السعيدة عامًا عقب وفاة أبي، وأخذت تجذبني حكايات الرباب في المقهى تحت النافذة، تابعتها باهتمام على قدر استيعابي لها، وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصّب لأبطالها، ومن نفس النافذة شاهدت معارك الفتوّات في الزفاف، فأعجبت بالفتوّات كإعجابي بالجنّ، وحلمت طويلًا بأن أكون فتوّة إن أعجزني أن أكون عفريتًا...

سألته:

ـ ألم يتحقّق لك حلم من أحلام الطفولة؟

ـ لا تسخر منّي وانتظر، أريد أن أحدّثك عن الحبّ في عهد الأسطورة.

ـ ولكنّ عهد الأسطورة ليس بعهد الحبّ...

ـ ولكنّ الحبّ بدأ عندي من سنّ السادسة، كنت أحبّ الغوص وسط البنات في ليالي رمضان، والعلقة الوحيدة الجادّة التي أصابتني من يد أمّي كانت بسبب الحبّ، إذ أغويت بنتًا تماثلني في السنّ فأخذتها إلى سحّارة وأنزلت الغطاء علينا، ولكن لم يدم لي الحبّ طويلًا فسرعان ما بوغِتُّ برفع الغطاء فرفعت وجهي فزعًا فرأيت وجه أمّي يحملق فيّ وضفيرتها تسقط فوق رأسي، وعلى فكرة كانت ضفيرتها طويلة جدًّا وكنت ألعب بها ما وجدت إلى ذٰلك سبيلًا فأحلّها وأعقدها وأدوّرها كحبل، لا شكّ أنّ أمّي كانت جميلة، ولولا جمالها ما نشأت المأساة أصلًا.

ـ أعطني فكرة عن حبّ الطفولة...

وهو يضحك:

ـ إنّه يبدو عبثًا ضائعًا ولكنّي أذكر أنّه صخب بانفعالات حادّة قاربت السكر...

ـ ذاك شذوذ!

ـ لست تربويًا على أيّ حال، وبوسعي أن أؤكّد لك أنّ الجنس لم يكن عنصرًا طاغيًا في حياتي ولكنّه لعب دورًا حاسمًا في حينه، أمّا في الطفولة فقد أسهم في نطاقه الضيّق في تأليف الأسطورة، غير أنّ الأسطورة تعرّضت لضربة قاضية لم تكن في الحسبان، فقد استيقظت ذات صباح وحدي دون أن توقظني أمّي كالعادة. أدركت أنّني استيقظت وحدي عندما وجدتها مستغرقة في النوم، راقدة على وجهها، وسرّني جدًّا أن أوقظها ولو مرّة في حياتي الصغيرة، قرّبت فمي من أذنها وناديتها، مرّة ومرّة وهي لا تستجيب، حرّكتها بلطف مكرّرًا النداء، ارتفع صوتي واشتدّ تحريكي لها ولا مجيب، وأصررت على إيقاظها، وتماديت في إصراري حتّى ملأ صوتي الحجرة بلا أدنى نتيجة، ويئست تمامًا فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة، وتناولت من فوق الكنصول رمّانة وصعدت إلى السطح وأنا أقشّرها وأقضم حبّاتها الكهرمانيّة ثمّ أتفل حثالتها للدجاج، ورأيت جارتنا فجرّنا الحديث إلى الحال التي تركت عليها أمّي، وجعلت تحقّق معي ثمّ أمرتني أن أفتح لها الباب، وهرولت الجارة إلى أمّي وانكبّت فوقها وأنا واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت «يا خبر أسود يا أمّ جعفر»، ثمّ أقبلت نحوي فرفعتني إلى صدرها ومضت بي إلى مسكنها، وانقبض قلبي لذلك التصرّف، وتذكّرت به تصرّفًا مشابهًا يوم اختفى أبي إلى الأبد، ومضيت أصرخ «أمّي... أريد أمّي...»، وقضيت في بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيّام عهد الأسطورة، وفي مساء اليوم الثاني طيّبت الجارة خاطري وقالت لي:

ـ لا تحزن يا جعفر فربّك رحمن رحيم.

فقلت يائسًا:

ـ أنا فاهم، أمّي ذهبت إلى أبي...

فدمعت عينا المرأة وتمتمت:

ـ ربّنا معك، هو الأب والأمّ، هو كلّ شيء...

وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بسواك:

ـ يجب عمل شيء، ولو باللجوء للحكومة...

فقالت المرأة:

ـ حتّى الحجر يلين!

ومضت أيّام وأنا أعيش ضائعًا ذاهلًا حتّى أقبلت عليّ الجارة تقول متهلّلة:

ـ يا حبيبي، أبشِرْ، أمر ربّنا بالرحمة، ستذهب إلى جدّك!

لم أفهم شيئًا.

كنت أسمع الكلمة لأوّل مرّة.

٤

سألته بدهشة:

ـ لأوّل مرّة؟

ـ لأوّل مرّة.

ـ لم يجرِ له ذكر في حياة أمّك؟

ـ مطلقًا، علمًا بأنّه كان في نفس الحيّ يقيم...

ـ ولِمَ أخفَتْ أمّك عنك أمره؟

ـ ربّما لحنقها عليه، على أيّ حال أفهمتني جارتنا أنّه جدّي، أنّه أبو أبي، ولم يكن البيت بعيدًا عن مرجوش، ولا كان غريبًا عليّ فطالما سرت تحت سوره العالي ونحن ـ أنا وأمّي ـ في طريقنا إلى الحسين، وأذكر أنّني سألتها مرّة عن هويّة ذلك السور العالي الذي يقوم أمام قبو بيت القاضي كالجبل فقالت لي بعجلة: «إنّه السجن حيث يقضي المجرمون أعمارهم في الظلام»، ولم يكن معزولًا عمّا حوله، ففي الأحياء الشعبيّة تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شيء ولا من حديقته، فقط سوره المطلّ على بيت المال، وهو سور حجريّ يمتدّ طولًا وارتفاعًا كأنّه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة أمّا بابه ليفتح على عطفة جانبيّة، ولمّا اجتزنا بوّابته تمّ أوّل لقاء بيني وبين حديقته فلم يكن لي عهد قبل ذلك بالحدائق، ولا رأيت من عالم النبات إلّا شجرة بَلَخ بميدان بيت القاضي وشجيرة صبّار بالقرافة، اقتحم أذنيّ تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محمّلة متواثبة بأفرادها الصغيرة الملوّنة، كما رأيت أسرابًا

من الحمام تحوم حول برج قائم وراء تكعيبة العنب، يطلّ على جدول ماء يشقّ الحديقة بالعرض يقف فيه بستانيّ مغروسًا حتّى ثلث ساقه وبيده مقطف، أمّا أنفي فقد فغمته أخلاط من روائح الجنّة حتّى أثملته، وقد ذهلت حتّى أوشكت أن أصرخ من الأعماق، وسرت في ممشى تتجاذبني على الصفّين ألوان الأزهار والورود في طريقي إلى السلاملك، وشدّ جاري على يدي وهمس في أذني مشجّعًا:

ـ هٰذا هو بيتك الجديد يا جعفر...

كنت في حيرة شاملة، وكان جدّي يجلس على أريكة ذات مسند عالٍ مطعّم بالأرابيسك تتوسّط السلاملك، والظاهر أنّ جاري أنهى حديثًا قصيرًا مع جدّي ثمّ قبّل يده وذهب، فوجدت نفسي وحيدًا تحت بصره، لـمّا أفِق من سحر العصافير والأزهار والجدول، وفي أعماق قلبي أسًى لم تهن نواجده، إنّه يجلس متربّعًا في جلباب أبيض فضفاض متلفّعًا بشملة مزركشة مغطّى الرأس بطاقيّة بيضاء، طويل الوجه نحيله، قمحيّ اللون ذو نظرة هادئة مستقرّة، جبهته عالية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ، أمّا لحيته فبيضاء مسدلة على الرقبة وتُلامس أعلى الصدر، تبادلنا نظرة فلم أقرأ في عينيه ما يخيف وتبدّى لي على قمّة عمر طويل وآية في النبل والوقار ومالكًا جديرًا بالحديقة الفاتنة.

وقفت غير بعيد وغير قريب في جلبابي المقلّم وطاقيّتي المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبًا ملوّنًا وأحمل تحت إبطي لفافة تحوي ثيابي القليلة.

أطال إليّ النظر حتّى اجتاحتني رغبة في الفرار.

وكأنّما قرأ ما في صدري فابتسم، وأشار إليّ بالاقتراب.

قلت بحرارة:

ـ أريد أن أرجع إلى أمّي.

مدّ لي يده فاقتربت مادًّا يدي، تصافحنا، تملّكتني رعشة بكاء ولٰكنّني تمالكت نفسي فلم أبكِ، وسرى إلى جسدي من ملمسه دفء، قال برقّة:

ـ أهلًا بك.

أجلسني إلى جانبه وقال:

ـ أنت في بيتك، هل أعجبتك الحديقة؟

فأحنيت رأسي بالإيجاب.

ـ تكلّم، إنّي أحبّ الكلمات.

فغمغمت:

ـ نعم.

ـ أتعرف مَن أكون؟

ـ جدّي.

ـ ما معنى ذٰلك؟

ـ أبو أبي...

ـ تصدّق ذٰلك؟

ـ نعم.

ـ هل تتذكّر أباك؟

ـ كان يحملني لأرى المحمل ولٰكنّي أتذكّر أمّي...

وأجهشت في البكاء فربّت على ظهري ثمّ سأل:

ـ ماذا تذكر من أبيك أيضًا؟

ـ زرت قبره.

فنحّى وجهه عنّي قليلًا ثمّ سأل:

ـ ما اسمك؟

ـ جعفر.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم...

ـ ثمّ ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم!

ـ جعفر إبراهيم سيّد الراوي، أعِدْ...

ـ جعفر إبراهيم سيّد الرواي.

ـ مَن الذي خلقك؟

ـ الله.

ـ ومَن نبيّك؟

ـ سيّدنا محمّد.

ـ هل عرفت الصلاة؟

ـ كلّا.

ـ ماذا تحفظ من القرآن؟

ـ قل هو الله أحد.

ـ ألم تحفظ الفاتحة؟

ـ كلّا.

ـ ولِمَ بدأت بِقُلْ هو الله أحد؟

- لفائدتها في إخضاع الجنّ.

- هل تتعامل مع الجنّ؟

- نعم، كثيرون منهم يقيمون في كرار بيتنا، وهم يملئون مرجوش ليلًا!

- هل رأيتهم بعينيك؟

- كثيرًا.

- إنّك تكذب على جدّك.

- رأيتهم وتعاملت معهم...

أجرى أصبعه على الخطوط المكوّنة لوجهي برقّة وعناية فأنست إليه وتخلّى أكثر الارتباك عنّي. قال:

- لا تكذب يا جعفر فإنّي لا أحبّ الكذب.

- ولكنّي أقول الصدق.

- انظر بعينيك ولا تتخيّل ما لا وجود له...

وسكت فسألته بدوري:

- يا جدّي...

فنظر إليّ مستطلعًا فواصلت:

- لِمَ لَمْ تزرنا؟

مدّ بصره إلى الحديقة ثمّ قال:

- جدّك متقدّم في السنّ كما ترى.

- لِمَ لَمْ تَدْعُنا إلى بيتك؟

بعد صمت آخر أجاب:

- رفض أبوك ذلك!

فسألته:

- هل سأقيم هنا دائمًا؟

- إنّه بيتك يا جعفر.

- وألعب في الحديقة؟

- وستلعب في الحديقة ولكن لن تكون حياتك لعبًا خالصًا، إنّك في السادسة ويجب أن تبدأ الحياة كذلك...

وبدأت الحياة الجديدة.

* * *

وتوقّف ملتفتًا نحوي وهو يقول بحدّة:

- ذلك هو جدّي، الراوي، صاحب الوقف، فأيّ نظام يحرمني حقّي الثابت؟

فقلت برجاء:

- لنرجع إلى حياتك الجديدة!

- لست تافهًا كما تتصوّر، إنّي صاحب حقّ، وذو ثقافة، بوسعي أن أحدّثك عن عيوب الديموقراطيّة، وعيوب الشيوعيّة...

- وستحدّثني عن ذلك في سياق حكايتك ولكن ارجع الآن إلى حياتك الجديدة.

فرفع منكبيه في أسف وقال:

- يا للخسارة، لقد ضعف بصري، وإنّي مهدّد بفقده نهائيًا ذات يوم، ولم يبق من العمر إلّا أيّام، وما زالت البشريّة تعاني العذاب والقلق، ما زلنا نموت مخلّفين وراءنا أملًا قد تحقّق ونُسي، وسبع خيبات تؤرّقنا حتّى الاحتضار، وأنت تريدني على أن أروي قصّتي بالطريقة التي تعجبك أنت لا التي أرتاح إليها أنا...

فقلت برجاء:

- النظام هو ما يلزمنا لنلمّ بقصّتك في الأيّام القلائل الباقية من الحياة...

- كانت الحياة الجديدة حلمًا بديعًا، نسيت الماضي كلّه، نسي القلب الحنون أمّي الراحلة التي لم أزر لها قبرًا، حلمت بها ذات ليلة ولّما استيقظت شعرت بثقل قلبي وبكيت، ولكنّ القلوب الصغيرة تتعزّى بسرعة لا تتأتّى إلّا لكبار الحكماء، شُغلت تمامًا بجدول الماء وأشجار الحنّاء والنخيل والليمون والأعناب والضفادع والعصافير والبلابل والحمام واليمام، وازّيّن خيالي بالفراش النحاسيّ المذهّب والسجاجيد الفارسيّة والصوان الفخم والمرآة الكبيرة المصقولة والستائر الملوّنة والدواوين الوثيرة والشرفة المسقوفة باللبلاب والحمّام الكبير بأرضيّته المعصرانيّ وخزّان مياهه العجيب، كنت أكتشف في كلّ ركن شيئًا جديدًا وثمينًا وأثري باسم جديد ومنظر فتّان، على أنّ ذلك كلّه بهرني دون أن يستحوذ على قلبي حقيقة فلم يراعَ في إعداد القصر مطالب الأطفال، لذلك لم يؤثّر فيّ شيء مثلما أثّر حمار البستانيّ، وجدت فيه الصديق والملهاة وقضيت على ظهره الوقت الطويل قاطعًا الممشى ذهابًا وإيابًا وأنا أتفادى من الغصون الدانية، وأعجبت كثيرًا بالطلمبة والبئر والفسقيّة وتمثال الطاووس الذي يتوسّطها فوق عامود مرمريّ، وتولّت أمري امرأة كهلة حنون نحاسيّة

اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت بيننا العواطف الطيّبة المتبادلة، ومن بهجة عرفت الكثير عن مأساة مولدي في مناسبات شتّى وعلى مدى غير قصير، وتبيّن لي أنّ جدّي كان يعيش في البيت وحده محاطًا بحاشية من الوصيفات والخدم، جدّتي ماتت منذ زمن قصير، كما مات أبي بعيدًا عن البيت وكان الابن الوحيد الذي تبقّى له على قيد الحياة حتّى بلغ سنّ الرجولة عقب سبعة إخوة ماتوا بين الطفولة والصبا، فكان الأمل الباقي بعد عذاب وكان حلم المستقبل الذي تمخّض ـ في نظر جدّي ولا شكّ ـ عن خيبة أمل أنكى من الموت وإلّا ما هان عليه أن يعاقبه حتّى القطيعة المطلقة والغربة العدائيّة والنبذ من البيت والأسرة والتراث، وذٰلك ما يجعل من جدّي لغزًا في نظري، شخصيّته توحي بالسماحة والرحمة والعذوبة ولكنّه ينقلب بالغضب شيطانًا أو حجرًا صلدًا، عرفته وهو شبه معتكف في بيته ولكنّه كان في الأصل أزهريًّا، ورث عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر، على ذٰلك لم يعمل في وظيفة عامّة دينيّة أو تعليميّة، عمله كان إدارة أملاكه، فراغه كان الدراسة والاطّلاع على علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب، بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوّف والسياسة والأدب.

* * *

سألته:

ـ ألم يكن له نشاط في الكتابة؟

ـ كلّا ولكنّه كان يدوّن مذكّرات أو يوميّات بصفة مستمرّة... ولا أدري عنها شيئًا...

ـ وهل كان كذٰلك أبوه وجدّه؟

ـ كانوا دائمًا من هيئة كبار العلماء، هو وحده الذي آثر استثمار أملاكه والحياة الحرّة...

ـ هل لك فكرة عن الرجل العصاميّ في سلسلة أجدادك، أعني الرجل العاديّ الفقير الذي منه نشأ الثراء؟

ـ إنّها أسرة عريقة في الثراء والدين ولعلّي أنا أوّل صعلوك فيها!

فضحكت وقهقه ثمّ واصل:

ـ نشأ أبي نشأة دينيّة التزامًا بخطّ الأسرة حتّى فاز بالعالميّة، وأراد أبي أن يسافر إلى أوربّا للسياحة والدراسة فتردّد جدّي مليًّا ثمّ وهبه الموافقة فسافر إلى فرنسا، تعلّم الفرنسيّة، واستمع إلى محاضرات في الفلسفة واللاهوت في دراسة حرّة ثمّ رجع إلى وطنه دون أن يحصل على شهادة أو يحرّر رسالة، وأعلن عن رغبته في مساعدة جدّي في إدارة الأملاك فسمح له بذٰلك وكان يرسل بمقالات إلى الصحف بين الحين والحين، ثمّ أحبّ أمّي في الوقت الذي كان جدّي يدبّر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر، وتزوّج منها دون مبالاة، ماذا كان عيبها؟ الفقر؟ الحقّ أنّني لم أعرف لها أهلًا على الإطلاق، لا خال ولا خالة، لا قريب من قريب أو بعيد، على أيّ حال انفجر غضب الراوي، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه، وخيّل إلى كثيرين أنّ سلسلة الراوي بمضمونها التاريخيّ قد انعدمت وانتهت، ولا شكّ أنّ أبي لم تكن تهمّه سلسلة الراوي في شيء، كان يريد أن يحقّق ذاته بطريقة أخرى، ولا أخفي عنك أنّني أعجبت به وأسفت لموته الذي لم أحزن له في حينه لصغر سنّي...

* * *

سألته:

ـ أليس لديك فكرة عن المقالات التي كان ينشرها في الصحف...؟

ـ بحثت عنها في أرشيف بعض الصحف، وهي تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية والعلم والفلسفة من ناحية أخرى، واعتبرتها دون تحيّز عصريّة ومتقدّمة، وبصفة عامّة يمكن أن يصنّف أبي في الليبراليّين، وعلمت أنّ أبي عمل مترجمًا في صحيفة الفجر عقب استقلاله عن أبيه، وأذكر أنّني ناقشت جدّي في موقف أبي عندما بلغت سنّ المناقشة، سألته ذات مرّة ونحن في جلسة مؤانسة:

ـ كيف هان عليك يا جدّي أن تطرد أبي لزواجه من امرأة من عامّة الشعب؟... إنّك رجل مؤمن صافي الروح نبيل الخلق فكيف هان ذٰلك عليك؟

وكان واضحًا أنّه لم يرحّب بالسؤال ولكنّه أجابني قائلًا:

- إنــك مخـطئ في تصـوّرك، إنّي أرى الإنسـان نوعين: إنسان إلٰهيّ وإنسان دنيويّ، الإنسان الإلٰهيّ هو من يعايش الله في كلّ حين ولو كان قاطع طريق، والدنيويّ هو من يعايش الدنيا ولـو كان من رجـال الدين. . .

- وهل كان أبي سيّئًا؟

- كان دنيويًّا فحسب. . .

- كانت أمّي طيّبة ونبيلة. . .

فتمتم:

- فليرحمها الله!

ثمّ واصل بعد هنيهة:

- لم أخطئ ولم أندم ولكنّي حزنت طويلًا. . .

كنت متأكّدًا من حزنه، لولا حزنه الدفين ما لان قلبه لي، وقال لي:

- لقد فتحت لك قلبي وبيتي، سيكون كلّ شيء لك، ولكن عليك أن تكون إنسانًا إلٰهيًّا، إنّي لا أدعوك للزهد فإنّ عملي الأوّل هو إدارة الأملاك. . .

ورتّب لي منذ أوّل يوم مدرّسًا يعلّمني مبادئ الدين واللغة والحساب. لُقّنت مبادئ دين جديد غير الدين الذي تلقّيته على يد أمّي، دين المغـامرة والأسـطورة والمعجزة والحلم والشبح، أمّا هٰذا فدين يبدأ بالتعلّم والجدّيّة، حفظ سُوَر وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة للصلاة والصيام، دين نظريّ وعمليّ، ومـدرّس جادّ يرفع التقارير لجدّي أسبوعًـا بعد أسبـوع. ولم يخفِ المدرّس رضاه عنّي فقال لي:

- أنت ولد مبارك، وليتمّ الله نعمته عليك. . .

كنت قويّ الحافظة، حسن الفهم، محبًّا للعمـل، ومـارست الصلاة بسرور مؤتمًّـا بجدّي كـما مـارست الصيام، ولم يُنسني ذٰلك ديني الأوّل، فتراكم الجديد فـوق القـديم، ولم يسكت صـوت أمّي المتـردّد في أعماقي، وقد قال لي المدرّس في أثناء مناقشة:

- الضريح مبنى من المباني والوليّ جثمان. . .

فقلت بإصرار:

- بل لكلّ شيء حياة لا تفنى أبدًا.

فابتسم الرجل وقال:

- فلنترك خلافاتنا للزمن وللمزيد من العلم.

ويبدو أنّني أحرزت تقدّمًا يستحقّ الارتياح، وكان جدّي يدعوني إلى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الـدين والدنيـا، كان يـدعوني لشهـودها وقتًـا قصيرًا ينـاسب استعدادي، وكثيـرًا مـا سمعت القـوم وهم ينوّهون بأجدادي في مـواقفهم المأثورة حتّى امتلأت فخرًا بأولٰئك الرجال الممتازين الـذين عُرفـوا بالعلم والجـود ومكارم الأخـلاق، بقدر مـا تنغّص صفـوي لغياب ذكر والدي، والظلام الذي يغشى أصل أمّي، وكلّما تقدّم بي العمر عاودت التفكير في أمّي بمرارة أشدّ وأعمق، واقتنعت بـأنّ مـأساتهـا - ومـأسـاة والـدي بالتبعيّة - حـادثة غـير معقولـة ومناقضـة للدين الذي أتعلّمه وأمارسه، وأنّ جدّي يتصرّف أحيانًا تصرّف مَن لا دين لـه! لقـد ذهبت أمّي ولكنّهـا أورثتني دينهـا ومأساتها، وسوف يرسبان في جانب من نفسي طويلًا، ربّما أطول ممّا تصوّرت.

وأغدق جدّي عليّ حبّه وحنانه وهو يتابع نجاحي وتقدّمي، قال لي:

- يا جعفر، أراك جديرًا بتجديد شباب شجرتنـا المباركة!

وقال لي:

- سِرْ متأبّطًا ذراع الحكمة وافعل ما تشاء.

وقال لي أيضًا:

- مبـارك مَن يتحلّى بـوحي الله، وأمـام المجتهـد وسيلة ليتبوّأ العرش!

وفي نشوة من التفاؤل قال:

- خـطواتك في النجـاح مباركـة، وسوف تـدخل الأزهر الشريف عمّا قريب، ألا يسرّك ذٰلك؟

فأجبته بإخلاص:

- يسرّني جدًّا يا جدّي، وأودّ بعد ذٰلك أن أسافر إلى أوربّا. . .

فتجلّى الاهتمام في عينيه وسألني:

- ما الذي جعلك تودّ ذٰلك؟

- أسوة بما فعل أبي!

فمسح على لحيته البيضاء وتمتم:

- عليك أن تتحلّى بوحي الله ثمّ افعل ما تشاء. . .

فتردّدت قليلًا ثمّ سألته:

ـ أكانت خطيئة أبي الوحيدة أنّه تزوّج من أمّي؟

فتجهّم وجهه وقال بحدّة:

ـ ما مضى قد مضى.

وأغمض عينيه كأنّما ليفرغ شحنة احتداده ثمّ قال:

ـ لقد شرحت لك ولٰكنّك لا تريد أن تفهم!

قلت لك إنّ وجهه تجهّم ولٰكن ما رأيته كان أفظع من ذٰلك، لم تكن لحظة عابرة، ولٰكنّه تصوّر في صورة جديدة ومخيفة، تحجّرت نظرته وشدّت عضلاته وتغيّر لونه فخيّل إليّ أنّي أرى شخصًا لم أره من قبل، عدوّ منطلق من بركان حاملًا غضب الأرض، قل إنّه الصاعقة أو الموت نفسه، ولٰكنّها كانت لحظة عابرة خاطفة ثمّ عاد جدّي إلى مجلسه. عدا ذٰلك لم أجده قاسيًا ولا مخيفًا ولا ثقيلًا، كانت الإنسانيّة عبيره والحبّ إشارته حتّى عزّ عليّ أن أصدّق أنّه فعل بأبي ما فعل، وكثيرًا ما قلت لنفسي لعلّه كان يضمر الغفران ويتحيّن الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت المنيّة أبي في عزّ شبابه، وحتّى بعد لحظة تجهّمه المخيفة حدست في قوله «ما مضى قد مضى» ألمًا أثارته الذكرى وندمًا يصرّ على مطاردته، ولعلّ عذابه ناشئ عن مثاليّته المفرطة، فهو يطالب الإنسان بالسموّ والتطهّر والكمال، وباعتناق رؤياه في الوجود، ويحتقر الضعف وما يراه انحلالًا وتدهورًا في التكامل البشريّ، هٰكذا اقتنعت بأنّ الطريق إلى حنانه واضح ومستقيم ولٰكنّه حافل بالجهد والصبر والعرق، والقوّة والتقدّم والسموّ، وهو ما عناه بقوله «الإنسان الإلٰهيّ».

وفي المواسم كان يجتمع الزوّار للاستماع والطرب فتغرّد الحديقة بالأغاني الصوفيّة تردّدها الحناجر الذهبيّة الذائعة الصيت، وكان جدّي من عشّاق الطرب، وله فيه ذوق يستوي في مكانه من نفسه الغنيّة بشتّى الاهتمامات الدينيّة والدنيويّة، وكنت أتابع الأناشيد ساهرًا حتّى الفجر وأنتظر تلك السهرات بلهفة المحبّين، وقد ضبطني مرّة وأنا أغنّي:

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشًا حصيرة تحت شجرة ليمون وأردّد الغناء مقلّدًا الشيخ فانتبهت إلى ظلّه وهو يغطّيني وأمسكت عن الغناء في غاية من الارتباك والحياء، ووقفت أمامه في أدب، ابتسم، تمتم:

ـ ما هٰذا؟... صوتك لا بأس به يا جعفر...

فأحنيت رأسي في رضى وبركة، سألني:

ـ ماذا تغنّي أيضًا في خلوتك؟

فأجبت:

ـ أغنيات من العهد القديم.

ـ مثل ماذا؟

فتردّدت قليلًا ثمّ قلت:

ـ عصفوري يا أمّة عصفوري.

فواصل ابتسامه وقال:

ـ ها أنت تحفظ هنا أناشيد مباركة.

ومضى يتفقّد الحديقة وقد بدا جليلًا مضيئًا.

وفي أوقات الفراغ كنت أجلس إلى بهجة لتحكي لي الحكايات، أو أغنّي، أو ألعب في الحديقة مع الحمار، وأحيانًا ألاعب أبناء البستانيّ والطاهي وسوّاق الحنطور، وطيلة الوقت أتعطّش للانطلاق في الحارة، وهل يمكن أن أنسى رحلاتي المتواصلة في حواري القاهرة تشدّني يد أمّي؟ وصارحت جدّي برغبتي في الخروج فقال لي:

ـ اركب معي الحنطور في نزهة المساء.

ـ أريد أن ألعب في الحارة.

ـ أليست الحديقة أجمل من الحارة؟

فقلت بحرارة:

ـ أريد أن ألعب مع الأولاد في الحارة.

فهزّ رأسه مستسلمًا وقال:

ـ بشرط ألّا تغيب عن عين بهجة وألّا يفوتك ميعاد صلاة.

هٰكذا خرجت إلى الطريق الذي منه جئت.

وكانت بهجة تجلس على كرسيّ أمام الباب لترعاني من بعيد، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران، وفي مقدّمتهم ابن لسوّاق سوارس يدعى محمّد شكرون، كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه، دعاني أوّل يوم إلى مسابقة في الجري، وجرى بأسلوب مضحك ويعناد، وبين آونة وأخرى كان يثب وثبة شيطانيّة يقطع بها مسافة خياليّة متحدّيًا ضعفه الطبيعيّ، وكان لطيفًا وصريحًا فبعد أن تقرّر له الفوز

قال لي:

ـ إنّك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيًّا مثلك أن يشتري لنا الملبن الأحمر والسوبيا. . .

ولّما أكل وشرب انبسط وراح يغنّي:

من فوق شواشي الجبل باسمع نغم بالليل

عشق البنات البكارى هدّ منّي الحيل

من فوق شواشي الجبل

وإذا به يملك صوتًا عذبًا يهزّ النفس هزًّا، وأدركت لتوّي أنّني لا أستطيع منافسته، ولكنّني رغم ذٰلك غنّيت ما حفظته من غنائه، فتكرّر على مسمعي ما سبق أن قاله جدّي لي، قال:

ـ صوتك لا بأس به!

فقلت له:

ـ صوتك جميل حقًّا يا شكرون.

فقال في مباهاة:

ـ ستسمعني يومًا مطربًا من المطربين.

سرعان ما اتّحدت علاقتنا في صداقة وطيدة، تميّزت وسط العلاقات السطحيّة الكثيرة عاطفة راسخة وعميقة، وكان الغناء محور اجتماعنا وبخاصّة في ليالي رمضان الساهرة، ومن ناحيتي دعوته لشهود سهرات الطرب الدينيّ في بيتنا فسُرّ لذٰلك سرورًا لا مزيد عليه، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس عن قرب مهاراتهم الغنائيّة وخواصّهم الصوتيّة وقدراتهم في التطريب والتأثير، وتجلّى ذٰلك في انفعاله العنيف الذي بلغ حدّ العشق والوله، ودفعه ذٰلك لاقتحام وقار المجلس بجرأة فاقت كلّ تصوّر، فما كاد المنشد يختم وصلة حتّى قام محمّد شكرون من مجلسه إلى جانبي وراح ينشد بصوته الحسن:

أهلًا ببدر التمّ روح الجمال

فجذب الأسماع بحلاوة صوته وحداثة سنّه، وعمّت شهرته الحاضرين من منشدين ومدعوّين، حتّى جدّي لم يخفِ إعجابه به، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى طاهر البندقي، صوفيّ وملحّن وأستاذ في الموسيقى الشرقيّة ومن أقرب المقرّبين إلى جدّي، فأعجب بشكرون جدًّا وجاذبه الحديث طويلًا، حتّى عرف أصله وفصله وآماله، هٰذا هو سحر الغناء والجنّ يطربون لنا ونحن نطرب لهم، وقد زعم بعض أهل مرجوش أنّهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجنّ قبيل الفجر. . .

فقاطعته برجاء:

ـ دعنا من الجنّ، نحن الآن في بيت الراوي، ثمّ إنّني مؤمن تمامًا بأنّك لا تصدّق شيئًا من ذٰلك. . .

ـ الذكريات تنهمر كالمطر.

ـ هي دائمًا كالمطر ومهمّتك أن تصنع جدولًا صافيًا. . .

فتنهّد ثمّ واصل:

ـ زار الشيخ طاهر البندقي جدّي عقب أسبوع من مغامرة شكرون وأطلعه على خاطرة خطرت له وهي أن يعلّم محمّد شكرون الموسيقى الشرقيّة ويدرّبه على الغناء فوافق جدّي على ذٰلك بسرور، وتعهّد بأداء نفقات التعليم والتدريب، وثبت عندي من ذٰلك حبّ جدّي العميق للغناء والموسيقى، وأنّها عاطفة مستقلّة بذاتها عنده وليست تابعة لتديّنه فحسب، وقد قلت له عندما أخبرني بما قرّره بخصوص صديقي:

ـ إنّك تحبّ الغناء يا جدّي!

فابتسم متسائلًا:

ـ لِمَ لا؟. . . إنّه صديق الروح الحميم. . .

ـ وهل سمعت يا جدّي كبار المطربين؟

ـ نعم، في بيوت الأصدقاء في المناسبات السعيدة.

ولم يكن إنفاقه على شكرون إلّا مثلًا من إنفاقه على المحتاجين من أهل حيّنا.

* * *

فقلت تلقائيًّا:

ـ وتوّج ذٰلك بوقف أملاكه كلّها للخير!

فصاح جعفر:

ـ أمّا ذٰلك فلا، لا خير في خير يقوم على شرّ!

ـ أعتذر عن المقاطعة. . .

ـ اعتذِرْ عن رأيك وهو الأهمّ.

ـ أعتذر.

نفخ غيظه وواصل حديثه قائلًا:

ـ أصبح محمّد شكرون تلميذًا للشيخ طاهر البندقي، وأتاه الحظّ عبر صداقتنا الوطيدة، وكنت أنا

البوّاب الذي فتح له باب النجاح، وقد سررت لذلك سرورًا بالغت فيه أمام جدّي، ولكنّه نظر إليّ بارتياب وسألني:

- هل يمازج سرورك شيء من الغيرة؟

فنفيت ذلك بشدّة ولكنّه قال باستياء:

- الغيرة رذيلة لك عليها في مثل سنّك عذر أمّا الكذب فلا عذر لك فيه، لا تكذب يا جعفر، كن دائمًا صادقًا، لا تُغضب جدّك فهو يحبّ النقاء، وقد وهبك الله عقلًا راجحًا كما وهب صديقك صوتًا عذبًا فانعَمْ بما وهبك ولا تنغّص صفوك بما تفتقد، ولو كنت ذا استعداد للغناء ما ساءني أن تصير مطربًا، فالمطرب أيضًا يستطيع أن يكون إنسانًا إلٰهيًّا، من رحمة الله أنّ كلّ شخص يسعه أن يكون إلٰهيًّا حتّى الزبّال، أمّا أنت فعليك أن تستعدّ لدخول الأزهر...

فقلت بصدق:

- أعزّ آمالي يا جدّي أن أوفّق في حياتي الدينيّة...

لا أنكر أنّني شعرت بشيء من الغيرة، وأزعجني أن يقتحمني جدّي بقدرة خارقة على قراءة ما في الصدور، ولكنّني على أيّ حال شعرت بشيء من الغيرة، ها هو شكرون يتفوّق بموهبة لا حيلة للاجتهاد فيها، وها أنا أعاني تناقض العواطف في رحاب القلب المعذّب. على أنّ أحلامي حامت حول الدين والحياة الدينيّة، وشعرت شعورًا مبهمًا بأنّ ثمّة رسالة ما تنتظرني في هٰذا المجال المقدّس فتطلّعت إليها أشواقي من الأعماق، ولم تغب عن خاطري التركة الكبيرة التي سأرثها ذات يوم، عزبة المرج والعمارات والأموال السائلة، ولم يكن العمل يهمّني، ولكنّي حلمت بالرسالة، والجلوس فوق أريكة جدّي أستقبل الرجال، رجال الدين والدنيا، نناقش جميع الأمور الهامّة، ونطرب مع المطربين في أوقات الفراغ.

* * *

قلت مقاطعًا:

- إنّي أتذكّر المغنّي الأعرج كما أتذكّرك في الجبّة والقفطان...

فسألني مباهيًا:

- ألم تر بنفسك أنّ الله خلقني في صورة حسنة؟

- كنت حسن الصورة حقًّا...

- كنت حسن الصورة، حسن السريرة، شريف الآمال، وقد دخلت الأزهر في طور المراهقة مدعمًا بقوّة إنسانيّة منوّرة، كأنّني أمير سماويّ، لأجد نفسي في بيئة شعبيّة أصيلة أنهكها الفقر والتقشّف والأسى، ولا تتيسّر لها الإنسانيّة الحقّة، إلّا في الجدّ الصارم والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا هوادة، عرفت العديد من الأقران، وصادقت كثيرين، وقد ذكّروني بشعبيّتهم وخرافاتهم بمرجوش وبيد أمّي وبأصلي المأساويّ الأصيل، فأحببتهم رغم كلّ شيء، وكنت أدعوهم للعشاء مساء كلّ جمعة في بيتي، وطيلة شهر رمضان كانت نخبة منهم تفطر معي وتتسحّر معي وفيما بين الإفطار والسحور كنّا نمضي الوقت في المذاكرة والمناقشة، وبذلك اكتسبت مكانة فريدة لا تتأتّى عادة لطالب، ولاحظ جدّي سروري بذلك فقال لي:

- إيّاك والخيلاء، املأ قلبك بحبّ هٰؤلاء الفقراء الأشراف، واذكر دائمًا نعمة الله عليك...

ولكنّ تفوّقي كان يزكّيني دائمًا عنده، فشيخ التوحيد أثنى عليّ عند جدّي، كذلك أستاذ الفقه والنحو، والمنطق، حتّى سُرَّ جدّي وقال لي:

- ستكون شيخًا ممتازًا.

ثمّ مستدركًا:

- الأهمّ من ذلك أنّك تمضي في طريق النقاء بخطى ثابتة...

وقلت لجدّي:

- أريد أن أهب حياتي للدين، لا أدري كيف، ولكنّني غير متحمّس لأيّ عمل كالوعظ أو التدريس أو غيرهما...

- لا أهمّيّة لذلك ألبتّة، ما يهمّني هو إرادتك النقيّة، هو إيمانك وحبّك للدين، بعد ذلك ستجد أنّ كلّ كتاب هو كتاب دين، وكلّ مكان معبد سواء في مصر كان أم في أوربّا، وسييسّر الله لك سبيل الحكمة لتكون ممّن يجودون بالحكمة، بالكلمة أو بالفعل، وهٰذه هي الحياة الإلٰهيّة...

استثار ذلك حماسي لأعلى الدرجات، وكنت أتقدّم مترع القلب بالإيمان والقداسة، أستضيء بمثل جدّي

في الحياة، بحياته الجميلة الغنيّة التي عاشرتها في قصره، بأصدقائه ومناقشاته وطربه.

ولكن كانت تمرّ بي ساعات سوداويّة، تتسلّل إليّ من مكامنها فتغيّر مذاق الحياة، وتغشاني سحب الذكريات السود، فأفكّر بحياة النفي التي عاناها أبي، ومأساة أمّي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذاك يثور غضبي على جدّي، وأحاسبه في الخيال حسابًا عسيرًا، ويتبدّى لي شيطانًا في ثوب ملاك، وأقول ما هو إلّا رجل من الأعيان يستمتع بكلّ طيّب في الحياة ويزعم أنّه قدّيس إلهيّ...

ولم أجد مَن أفضي به إليه بهواجسي إلّا محمّد شكرون.

كان بدأ يشقّ طريقه بصعوبة في ميدان مزدحم بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات.

وكان يحبّ جدّي ويحفظ له جميله ويقول عنه:

ـ إنّه النبيل ابن النبلاء، لا نظير له في خلق الله

فأسأله:

ـ وما رأيك في موقفه من أبويّ؟

فيقول لي:

ـ علاقة الأب بابنه علاقة غامضة بالرغم من وضوحها السطحيّ، أحيانًا يتدفّق منها الحنان وأحيانًا تتجمّد بالقسوة، عَرَجي هذا الذي تراه ما هو إلّا عاهة صنعها أبي في ساعة غضب، أمّا أخلاق الرجل الحقيقيّة فتقيّم على ضوء علاقته بالآخرين...

وطبعًا لم أقتنع بتلك النظريّة وقلت:

ـ إنّ أخلاق الرجل ـ أيّ رجل ـ وحدة لا تتجزّأ.

على أنّ تلك الساعات السوداويّة كانت تجيء كأحوال عابرة لا آراء ثابتة، وسرعان ما يعود إلى صفاء النفس والرؤية الواضحة، أمّا أزمة تلك الفترة الحقيقيّة فكانت أزمة جنس، أزمة المراهق المتشوّف إلى القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القويّة، وعاودتني كثيرًا ذكريات السحّارة والبنت التي باتت الآن مجهولة تمامًا، وتعجّبت كثيرًا كيف أنّ جدّي يناقشني في كلّ خاطر تخطر على أنّه يتجاهل المعركة الحقيقيّة الناشبة في صدري، وكان في بيتنا ثلاث نساء ـ بالإضافة إلى بهجة العجوز ـ في الحلقة الخامسة من أعمارهنّ، لسن جميلات ولا مغريات ولكنّهنّ لا يخلين من رمق يزكّيهنّ عند مراهق مكبوت، وكنت أرى النساء في الشارع في ثيابهنّ المحتشمة غاية في الإثارة، وكان النضال بين ضميري وغريزتي لا يكفّ ولا يهدأ، غير أنّي تغلّبت على الإغراء بقوّة تستحقّ الإعجاب، وكأنّ تشوّفي لله فاق كلّ شيء وهزم الشيطان في معاقله جميعًا.

أجل لاحظتْ بهجة نظراتي نحو زميلاتها فجزعت وتوسّلت بمنزلة الأمومة التي احتلّتها من نفسي لتصارحني بمخاوفها:

ـ لا تعرّض نفسك للهوان، جدّك يعتبر جميع ما في البيت امتدادًا لشخصه، والمساس بأيّ منها مساسًا بذاته المصونة، وقد نعمت حتّى الآن برضاه ووجدته بلا شكّ نعمة تستحقّ الحمد عليها ولكن لجدّك جانبًا آخر يسكنه الغضب فتجنّبه وأنت خير من يفهم ذلك.

فتمتمت بذهول:

ـ أبي!

ـ أجل، وأنت مؤمن، وصلواتك عبادة حقيقيّة، لِمَ لا تفكّر في الزواج وجدّك كفيل بتزويجك من فتاة تحقّق أحلامك وزيادة؟!

فقلت بدهشة:

ـ لم أفكّر بذلك وأعتقد أنّ الوقت المناسب لم يحن بعد كما أنّني أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من الخطيئة!

ـ أنا لا أفهم أفكارك ولكن إذا أردت مساعدة فإنّي رهن إشارتك.

وقد علم محمّد شكرون بذلك الحديث، وكان على علم بأزمتي ونضالي، وكان يعجب لها، وطالما قال لي:

ـ تعال معي إلى بيوت العوالم فثمّة فرص فريدة، وما عليك إلّا أن تغيّر ملابسك الدينيّة في بيتي...

ضحكت طويلًا، ورفضت أيّ فرصة ممنوحة بكبرياء واعتزاز بالنفس، وأسعدني أن أتألّم في ذلك الطريق وأن أنتصر على ألمي، وكنت أقول لنفسي:

ـ طوبى لي، إنّي أنتصر كلّ يوم مرّة على الأقلّ على الشيطان وإنّي جدير حقًّا بمستقبلي الطاهر...

وفكّرت بأمور جديدة لأوّل مرّة فسألت بهجة:

ـ متى ماتت جدّتي؟

فترحّمت عليها قائلة:

ـ منذ حوالي عشرين عامًا.

ـ أكان لمأساة أبي دخل في ذٰلك؟

ـ الأعمار بيد الله وحده.

ـ ولِمَ لَمْ يتزوّج جدّي بعدها؟

ـ هٰذا شأنه.

وتساءلت ترى هل كان لجدّي حياته الجنسيّة الخاصّة؟... وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسي إنّه سيقرأ خواطري في عينيّ كالعادة وسرعان ما تقع مأساة جديدة، وقلت لنفسي أيضًا إنّ جانبًا من نفسي يتعقّب جدّي بالانتقام وإنّ حبّي له ليس خالصًا تمامًا، وإنّني لا أريد أن أنسى تمامًا مأساة والدي، وآي ذٰلك أنّني ما زلت ألحّ على بهجة حتّى اعترفت لي بأنّ أمّي كانت ابنة دلّالة تتردّد على بيتنا، وسألتها إن كان عُرف عنها أو عنهما شيء من سوء فأجابت بالنفي وقالت لي صراحة:

ـ جدّك لا يعترف بالناس المجهولين!

فقلت بامتعاض واحتجاج:

ـ ولٰكنّ الناس جميعًا إلّا ما ندر مجهولون...

إلّا أنّه يحلم بعالم من البشر الإلٰهيّين على حدّ تعبيره، أفلم يفطن إلى قسوة حلمه؟

وقرّرتُ أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كلّ عام، ومضت الحياة في جدّ واجتهاد وطهارة، وكان جدّي يتابعني باهتمام وارتياح مغمغمًا:

ـ ما شاء الله العظيم...!

٥

كنت أسير بصحبة محمّد شكرون في أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحّينا جانبًا لنوسع للقافلة، رأيت المرأتين، وهما أمّ وابنة غالبًا، صورة واحدة متكرّرة، ترتدي جلبابًا أسود، متمنطقة بزنّار، حافية القدمين، متلفّعة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطلّ من فوق حافته العينان، وباليد مغزل.

* * *

وانقطع عن الكلام مليًّا حتّى سألته:

ـ ماذا حدث يا جعفر؟

فالتفت نحوي قائلًا:

ـ إنّي أتساءل أيضًا عمّا حدث...

ـ ماذا تعني؟

ـ بكلّ إيجاز لقد نظرت إلى عيني الفتاة فاقتحمني الجنون الكامل...، ولٰكن لندع مناقشة ذٰلك إلى حينه، سأصف لك الآن ما وقع، لقد شعرت بأنّني متّ وبأنّ شخصًا جديدًا يُبعث في مكاني، وسوف تصدّق أنّه شخص جديد بكلّ معنى الكلمة، لا علاقة له بالشخص الميت، شخص جديد ثمل، يفيض قلبه بالأشواق والقدرة الخارقة على التحدّي والالتحام، وسمعت محمّد شكرون يقول لي:

ـ متى تواصل السير؟

وراقبني بحدّة ثمّ تمتم باسمًا:

ـ إنّها راعية غنم!

فقلت وأنا ألهث:

ـ بل إنّه القدر...

ـ فيمَ تفكّر؟

ـ لا بدّ من معرفة مقرّها...

ـ حسن ولٰكن لا تنس العمامة فوق رأسك!

قوّة أخرى غير إرادتي تسلّمت زمامي، سرنا وراء القافلة، اخترقنا النحّاسين فالحسينيّة، ثمّ رأيت العبّاسيّة فالوايليّة، لم أشعر بتعب، لم أرحم عرج صاحبي، سرت بقوّة الجنون والسكر وتفجّرت في قلبي ينابيع المغامرة بلا حدود، وتتابعت أقوال محمّد شكرون وشكاياته:

ـ سامحك الله...

ـ ماذا حلّ بك؟

ـ البنت منتبهة إلى متابعتك لها...

ـ إنّهم غجر وأفظع من الشياطين...

ـ قل لي بالله ماذا تريد على وجه الدقّة؟

أخيرًا رأينا القافلة وهي تدخل معسكر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلّص من ساحتها الرهيبة لينطوي في شفق المغيب، مودّعًا أكواخها المصفّحة وأناسها المتوحّشين وطابع البداوة والنفي الذي يفصل بينها وبين المدينة، وتوقّف محمّد شكرون ممسكًا

بذراعي وهو يقول:

ـ لا خطوة بعد ذُلك فليس ثمّة مكان لغريب...

وتأوّه مستطردًا:

ـ لقد دميت أقدامنا...

فقلت من عالمي الوجدانيّ البعيد:

ـ لقد ودّعتني بنظرة حيّة قبل اختفائها...

ـ مبارك عليك...

ثمّ توسّل إليّ قائلًا:

ـ لنستقلّ سوارس في عودتنا.

ولم يفارقني شكرون ليلتها فسهر معي حتّى منتصف الليل في البيت، وجعل يتأمّلني طويلًا وكأنّه لا يصدّق، وسألني:

ـ ماذا دهاك؟

فقلت له بأسى:

ـ ما تراه بعينيك.

ـ لا أفهم...

ـ ليكن، إنّي مجنون بالبنت...

ـ أيحدث ذُلك بهذه السرعة؟

ـ لقد حدث.

ـ ولٰكنّها راعية ومن بيئة شرّيرة.

ـ إنّه القضاء لا مفرّ.

ومضى يفكّر قائلًا:

ـ كيف يمكن إغراءها؟... هل لهنّ استعداد لذلك؟... كيف نعمل مع تجنّب الفضائح؟... وما العمل إذا تحدّانا المستحيل؟

فقلت بإصرار لا نهائيّ:

ـ بأيّ حال من الأحوال أريدها...

وجعلت أمضي الأصيل عند مشارف الدراسة، مع صديقي أو مع نفسي، جالسًا على حجر، من حولي ترعى الشاة والماعز والجدي، على حجري كتاب المنطق مفتوحًا، وعيناي تسترقان النظر إليها وهي جالسة لصق أمّها وهما تغزلان، وكان المكان شبه خالٍ لا يمرّ به إلّا المتشرّدون وهم راجعون إلى المقطّم، وعندما تميل الشمس نحو المغيب تمضي القافلة في رحلتها اليوميّة مخلّفة في قلبي كآبة وفراغًا لا يملؤه شيء فأذهب إلى الجامع لأصلّي المغرب ثمّ أحضر درس المنطق.

وقرّرت أن أخفي كوبًا في جيب قفطاني.

وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأمّ وقدّمت الكوب طالبًا حليبًا فوثبت مروانة ـ كما سمعت أمّها تناديها ـ إلى ماعز وراحت تحلب لي اللبن ثمّ ردّت إليّ الكوب مغطّى بالحباب فتناولته وأنا أقول لها:

ـ عاشت يداك يا مروانة...

فابتسمت لي عيناها على حين نظرت الأمّ نحوي بارتياب وأنا أشرب اللبن، ثمّ تمتمت:

ـ هنيئًا!

فشكرتها فقالت لي بلهجة ذات معنى:

ـ أنتم يا شيوخ رجال ربّنا.

فقلت بامتنان:

ـ الحمد لله.

سعدت بإنشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتني غبطة سابغة حتّى لحظة الفراق.

ومن موقع المراقبة قال لي محمّد شكرون:

ـ لقد تحرّيت بما فيه الكفاية، وأقول لك إنّ أولٰئك الناس مع كلّ شرّ إلّا الشرّ الذي يسيل لعابك عليه...

فقلت له باستهانة:

ـ سيخرج من القمقم مارد لن تعرفه مهما ادّعيت بأنّك كنت له صديقًا.

ولم يقدّر ما في قولي من ثورة، لم يعرف أنّني أصبحت ملك الملوك وأنّني أفعل ما أشاء بغير حساب، وأنّني سكران بفورة الجنون الأحمر.

وربط كوب اللبن بيننا برباط حريريّ قاتل، ومن شدّة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب، وقلت لها:

ـ أنت كريمة يا مروانة!

فحبكت الخمار حول رأسها وهي ترمقني بشيطنة فقلت وأنا أذوب في كلامي:

ـ ما أجمل عينيك!

وقلت أيضًا وهي تمضي:

ـ ما أجيء هنا إلّا من أجلك!

وكفّت الأمّ عن الغزل وقامت. تناولت حصاة من

الأرض ورمتها بعيدًا صوب الجبل. ورأتني أنظر إليها متسائلًا فقالت:

ـ وسيلة حكيمة لصدّ الزواحف والحشرات...

فقلت بارتياب:

ـ الله خير حافظٍ...

فقالت بحزم:

ـ ولكن علينا أن نخاطب الشرّ بلغته...

* * *

وضحك وقال لي:

ـ صدّقني فيما أقول، كلّه، وبلا تردّد، لا تتأثّر بمنظري الراهن، إنّ من يراني يؤمن بأنّني ولدت في مزبلة ولم أمارس إلّا انفعالات القيء، ولكن ما فكرتك عن الحبّ؟

فقلت مباغتًا بصعوبة السؤال:

ـ الحبّ هو الحبّ، إنّي أصدّق جميع ما يقال عنه...

ـ وتؤمن بأنّه يصنع المعجزات والعجائب؟

ـ أجل، لست غرًّا، ولكن حدّثني عن حبّك يا جعفر، عن نوعه، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم...

ـ كان كذلك، نداء للدم، نداء صارخ دافع للحركة، مغرٍ بالجنون والمهالك، يقتحم الأبواب والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر...

فقلت بدهشة:

ـ ولكنّك كنت وليًّا من أولياء الله الصالحين.

ـ لكي تعيش تجربتي تصوّر أنّك فقدت الذاكرة فجأة وأنّك أصبحت شخصًا جديدًا.

ـ ولكنّ الفرد يتغيّر بالتدريج فيما أتصوّر.

ـ كلّا... كلّا... إنّي أتغيّر من النقيض إلى النقيض... فجأة...!

ـ لا شكّ أنّه يحدث في الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك.

ـ الإنسان يخلق المنطق ولكنّه يتجاوزه في حياته، والطبيعة يا عزيزي تستعمل الطفرة كما تستعمل التطوّر!

ـ هات ما عندك يا جعفر.

فواصل قائلًا:

ـ وذات يوم دعاني جدّي إلى مجلسه، سمح لي بالجلوس ثمّ سألني:

ـ كيف حال دراستك؟

أدركت لتوّي أنّه دعاني لأمر آخر إذ إنّ شيوخي كانوا يبلغونه عن تقدّمي الفريد أوّل فأوّل، وعلى ذلك أجبت بأنّني عند حسن ظنّه فقال:

ـ ولكنّ الطريق طويل وهو مليء بالمتاعب...

فقلت بحماس ظاهريّ فحسب:

ـ المؤمن لا يخشى الطريق...

ـ قول حسن ولكنّ الفعل الحسن أهمّ من القول الحسن.

ـ هذا حقّ.

وتريّث لحظات ثمّ قال:

ـ ثمّة أمور تدعو للتأمّل، وقد حلمت حلمًا، وعند اليقظة عقدت العزم على شيء...

ـ وما الحلم يا جدّي؟

ـ لا أهمّيّة لذلك، والأحلام تُنسى بسرعة، ولكن بقي ما عقدت العزم عليه.

ـ أهو يتعلّق بي يا جدّي؟

ـ أجل، وسوف يسعدك...

ـ حقًّا؟!

ـ قرّرت أن أزوّجك من بنت الحلال.

ذُهلت، صمتُّ، قلت لنفسي إنّ الرجل عالم بكلّ شيء، كيف غاب عنّي أنّ جولة مسائيّة غريبة يقوم بها حفيد الراوي لا شكّ تلفت الأنظار وتثير التأويلات ثمّ يتطوّع بإبلاغها إليه المتطوّعون، إنّه عالم بكلّ شيء ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ـ ماذا بك يا بنيّ؟

ـ لم يخطر لي ذلك ببال.

ـ فليخطر إذن...

ـ ولكن...

ـ إنّ الشباب يمضي بلا زواج لأسباب قهريّة وقد حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجّل ما يُعتبر نصف الدين؟

ـ دعني أفكّر في الموضوع بعض الوقت!

ـ سأختار لك عروسًا فريدة وسأترك الحكم لك!

رجعت إلى حجرتي هائجًا فلم يغمض لي جفن حتّى ترامى إليّ أذان الفجر. شُحنت بقوّة جبّارة وأردت أن أنهال على الجدران فأدكّها دكًّا، انطلق المارد متحدّيًا، صمّم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحيّ كلّه لا القصر وحده؛ وناجيت أبي وأمّي طويلًا، وثار غضبي على جدّي بلا حساب، إنّه لا يريد أن يكفّر عن جريرته وما زال غرامه عنيفًا بالتسلّط والقهر. وفي حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بيني وبين جدّي، في حلم أو في هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر.

ـ جدّي... إنّي ارفض.

ـ ترفض نعمتي؟

ـ أرفض القهر.

ـ ولو كان منّي؟

ـ ولو كان!

ـ أنت عاقّ، تخون الجمال والنقاء، في سبيل ماذا؟

ـ الحرّيّة!

ـ راعية الغنم.

ـ الدم والتشرّد والهواء النقيّ.

ـ إنّه الجنون الذي يخرج به الممسوسون من بيتي العتيق.

ـ النعيم الحقّ في الجنون.

ـ إنّك ابن والديك.

ـ وإنّي أعتزّ بذلك إلى الأبد.

ـ نصفك يودّ الانتقام منّي.

ـ لا أريد أن أفكّر فدعني أفعل.

ـ والجبّة والقفطان؟

ـ سأخلعهما من توّي.

ـ إذن كفرت؟

ـ لا أريد الدين مهنة.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ أريد أن أمارس الحبّ والجنون والقتل!

أعتقد أنّني عبّرت بهذا الحوار عن الحال التي كنت أعانيها تعبيرًا كاملًا، وعندما أفضيت بأسراري إلى محمّد شكرون ذهل تمامًا ولم يصدّق أذنيه، ولّما وجد منّي الجدّ كلّ الجدّ سألني:

ـ هل ترفض حقًّا ما عرضه جدّك عليك من أجل مروانة؟

فأجبت بالإيجاب:

ـ أتترك البيت من أجل راعية الغنم؟

ـ نعم.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ اعتبرني مجنونًا إذا شئت.

ـ ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحّاذًا؟

ـ هذا محتمل.

ـ لا تستحقّ امرأة تضحية بهذه الجسامة.

فهززت منكبيّ استهانة فقال:

ـ أنا لا أفهمك.

ـ المسألة لا تتعلّق بالفهم، إنّها واقع.

ـ وما تفسيره؟... هل ثمّة سرّ؟

ـ إنّه جنون باهر وأنا مسحور به.

ـ صبرك، يمكن التوفيق.

ـ إنّي أحتقر التوفيق.

ـ يمكن أن تبقى في رعاية جدّك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبّك الجنونيّ...

ـ كلّا... كلّا... إنّها أشياء متنافرة جدًّا، وقد اخترت...

ـ اخترت ماذا؟

ـ سأهجر البيت والأزهر...

ـ لا ضرورة لذلك.

ـ بل ضروريّ جدًّا، إنّها حياة جديدة... وإلّا طُردت من الاثنين...

ـ عين أصابت هذا الشابّ!

ـ لا بقاء في بيت جدّي إلّا لإنسان إلهيّ... أمّا الأزهر فإنّني ما وددت مهنته قطّ... والإيمان لا يحتاج إلى جميع تلك التعقيدات...

ـ ليتك كنت تهجر ذلك لشيء أفضل...

ـ المغامرة أفضل... الجنون أفضل...

فقال بإصرار:

ـ لن أفهمك ما حييت.

فقلت بسخرية:

- رغم حماقاتك يا شكرون فإنّك لم تعرف الجنون بعد...

- أيعني هٰذا أنّك هجرت ماضيك كلّه بسبب الحبّ؟

- بل إنّني بسبب الحبّ عرفت جنون المغامرة!

سلّم محمّد شكرون بالأمر الواقع، شعرت بأنّه يؤمن حقًّا بأنّ المأساة لا تخلو من جنون حقيقيّ، واضطرّ إلى أن يَعِدَني بالمساعدة بجسّ نبض مروانة وأمّها باعتبار أنّ العاشق يحتاج إلى سنّيد كالمغنّي، وبخاصّة بعد أن أكّدت له تحرّياته أنّ مثل مروانة قد تقتل ولكنّها لا ترضى بعلاقة غير شرعيّة، ثمّ قال بامتعاض:

- وماذا عن مستقبلك؟ فحتّى المغامرون الأحرار مضطرّون إلى تناول لقمة؟...

وأغرب شيء أنّني لم أكن أوليت ذٰلك ما يستحقّه من تفكير جادّ، وقد خطر لي للحظة أن أدرّس لغة عربيّة ودينًا في مدرسة أهليّة ولكنّي سرعان ما نبذت الفكرة جانبًا لتنافرها مع جوّ المغامرة المسحور، وأحللت فكرة أخرى مكانها فقلت:

- أكوّن جوقة لإنشاد التواشيح النبويّة؟!

- سيمرّ زمن طويل قبل أن تحيي ليلة ثمّ يظلّ نجاحك بعد ذٰلك موضع شكّ وعناء، والطريق الطبيعيّ أن تبدأ فردًا في جوقة وهو ما لا يناسبك بحال!

فتفكّرت مليًّا ثمّ قلت:

- أفضّل أن أعمل في تختك أنت...

- تختي؟!

- لِمَ لا؟... صوتي أجمل من أيّ سنّيد عندك...

- إنّك وليّ نعمتي ولٰكن...

- لا لٰكن من فضلك، ثمّ إنّك تحيي حفلات في الشهر الواحد لا تقلّ بحال عن ثلثه، ونجاحك مطّرد...

وصمت محمّد شكرون فقلت بحماس:

- ولن تفتر همّتي في تكوين الجوقة الدينيّة الخاصّة في الوقت نفسه.

- هٰذا ضروريّ واعتمد على صداقتي لسماسرة الحفلات الدينيّة، لا أصدّق ما نتّفق عليه فإنّه يبدو خيالًا، وما زلت مصرًّا على أنّه يمكن معالجة الأمر بصورة أخرى.

فقلت بإصرار:

- لا رجوع إلى الوراء ولا خطوة واحدة، وسيكون لي رداءان، البدلة لتختك، والجبّة والقفطان للجوقة النبويّة، أليس ذٰلك ممتعًا؟!

ونظر نحوي في سكون الليل وسألني:

- لأيّ درجة تصدّقني؟

- لي من العمر ما يجعلني أصدّق أيّ شيء.

- أريد درجة من التصديق أشدّ حرارة، كثيرون لم يصدّقوني، تألّمت لذٰلك وسعدت به، تألّمت لأنّ العمل الفذّ يحتاج إلى شهود، وسعدت لأنّ إقدامي ممّا يعزّ تصديقه، أريد ومن حقّي أن أريد أن يُعترف بي كإنسان غير عاديّ، إنسان لا يستطيع أيّ إنسان أن يهجر النعيم الذي كنت فيه بالبساطة التي هجرته بها...

- بدافع الحبّ وحده؟

- الحبّ لا يكفي؟!... الحبّ هو الجنون خالقًا!

- أكانت مروانة على ذٰلك القدر من الجمال؟

- ولٰكن ما الجمال؟... المسألة نداء يصيب مفتاحًا كهربائيًّا...

- ألم ترغب أيضًا في حرمان جدّك من وريثه الوحيد؟

- مأساة والدي لم تفارقني ولكنّ انطلاقتي كانت ملائكيّة لا تلوّثها رغبة خفيّة أو ظاهرة في الانتقام.

- وردّ فعل للكبت العنيف الذي فرضته على نفسك بصفتك إنسانًا إلٰهيًّا؟!

- أرفض هٰذا التفسير أيضًا، قلت لك إنّها كانت انطلاقة ملائكيّة، مثل أغنية الفجر، قدح الحبّ الشرارة فكشف ضوؤها عن حلم يتجسّد ويتوثّب لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحدّيًا الجاه والقيود للتمرّغ في تراب الأمّ الخالدة، كما هجر بوذا قصره ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس... ويحدث ذٰلك فجأة، وليس التطوّر الذي يملأ دماغك

إلّا الترسيخ العمليّ للفجاءة المبدعة، وإليك مثالًا حيًّا حدث هٰذه اللحظة فجأة، لقد قرّرت الآن ألّا أكتب الالتماس...

ـ ماذا تعني؟

ـ الالتماس بتقرير إعانة شهريّة لي من وقف جدّي!

ـ أهي عودة للتفكير في قضيّة عقيمة؟

ـ لا قضيّة ولا التماس!

ـ ولٰكن...

ـ ولا لٰكن!

ـ فلنؤجّل ذٰلك إلى حينه، واستمرّ الآن في حكايتك من فضلك.

وقهقه كعادته وقال:

ـ وذات مساء زحف محمّد شكرون وهو يعرج ـ وأنا أتبعه ـ نحو العربيّة العجوز في مجلسها فنحّت مغزلها وقامت متوجّسة فقال لها:

ـ صاحبي يرغب في الزواج من كريمتك على سنّة الله ورسوله!

ذهلت المرأة، هرولت مروانة بعيدًا، وعاد محمّد شكرون يقول:

ـ ها نحن تحت أمرك.

وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت:

ـ لنا قوم نرجع إليهم.

وكان لهم قريب من بعيد غير محدّد القرابة فكان علينا أن نقابله.

كان يومًا عجيبًا.

كنّا أوّل غريبين يشقّان سبيلهما في عشش الترجمان نهارًا دون أن يتعرّضا للموت. حدّقت فينا أعين شرّيرة باستطلاع ساخر وتحدٍّ، وتوقّفت الحركة دقيقة، حركة تدريب القرود وجزّ الأغنام ووزن المخدّرات وجلاء الأدوات المسروقة ودقّ الطبول.

وتجمّع حولنا نفر من الغلمان وراحوا يحيّون الشيخ جعفر هاتفين:

شدّ العمّة شدّ تحت العمّة قرد

ومضينا إلى العجوز الجالس أمام كوخه وأمّ مروانة واقفة بين يديه...

وتصافحنا وكان طاعنًا في السنّ حتّى الموت فقالت أمّ مروانة نيابة عنه:

ـ إنّه يرحّب بكما.

فقال العجوز يخاطبها بعد أن لكمها في ظهرها:

ـ لأنّك أنت توافقين عليك اللعنة...

فقال محمّد شكرون:

ـ صاحبي من أصل كريم.

فبصق العجوز قائلًا:

ـ طظ!

فقال محمّد شكرون محرجًا:

ـ وهو يعمل...

ولٰكنّ العجوز قاطعه:

ـ لا يهمّنا العمل أيضًا!

فقال:

ـ أخلاقه...

فقاطعه العجوز:

ـ ولا تهمّنا الأخلاق!

فقال شكرون وهو يتحلّى بمزيد من الصبر:

ـ بكلّ إيجاز نريد كريمتكم على سنّة الله ورسوله.

فضحك العجوز عن فم خالٍ تمامًا وقال:

ـ مع ألف سلامة... تكلّم عن المهر...

ـ تكلّم أنت، فأنت كبيرنا.

فانتفخ العجوز قائلًا:

ـ عشرة جنيهات في يدي هٰذه.

وبسط يده، فتحرّكت أمّ مروانة حركة غامضة فقطّب العجوز قائلًا:

ـ لنقرأ الفاتحة...

وانطلقت من حولنا الزغاريد.

لم يعلّق محمّد شكرون بكلمة احترامًا لعواطفي، وقرّرت من ناحيتي أن أواجه جدّي بالحقيقة كما يجدر بشابٍّ بلغ رشده وأتمّ مرحلة لا بأس بها من تعلّمه فاتّخذت مجلسي على مقربة من أريكته في السلاملك وكان يسبّح في همس وقطّته الروميّة تهرّ إلى يساره، وأعتقد أنّه نشأ جوّ من التوقّع والتحفّز شارك كلانا فيه، أنا بما أضمر من نوايا وهو بفراسته التي تقرأ بها ما في الصدور، وجاءني سؤاله المألوف:

ـ كيف الحال؟

فأجبت وعقلي شارد:

ـ عال والحمد لله.

فقال بهدوء:

ـ ستعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء رمضان!

صمّمت على تجربة قوّتي الجديدة بلا تردّد فقلت:

ـ معذرة يا جدّي لقد وقع اختياري على زوجة أخرى.

فلم يبدُ عليه أيّ تأثّر وتساءل:

ـ حقًّا؟

ـ هي إرادة الله على أيّ حال.

ـ إذن هو حقّ ما ترامى إليّ؟

فلم أنبس فعاد يتساءل:

ـ راعية غنم؟!

فأجبت ببساطة:

ـ أجل يا جدّي.

قال ولعلّه تنهّد:

ـ إنّك راشد وأدرى بمصلحة نفسك.

فسألته باهتمام:

ـ هل أطمع في نيل رضاك؟

فمضى يسبّح في هدوء فسألته:

ـ هل يعني ذلك أنّه عليّ أن أغادر البيت؟

فلم يلتفت نحوي: إلى الأبد.

قمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت.

وكان وداع بهجة أليمًا ودامعًا، وقد اقترحتْ أن تطلب لي نقودًا ولكنّي صارحتها بأنّ لي من المدّخرات ما يجاوز المائة جنيه، وجعلت تبكي وهي تقول:

ـ الأحزان تبدأ في هذا البيت مع الزواج.

وهمست في أذني:

ـ صدّقني... جدّك تعيس الحظّ... إنّه لا ينام من الليل إلّا ساعة...

فقلت لها صادقًا:

ـ إنّي أحبّه وأرفضه!

وغادرت البيت الذي عشت فيه أربعة عشر عامًا طاهرة.

وذهبت مع عروسي إلى شقّة جديدة بالخرنفش اكتراها لي محمّد شكرون وساعدني على تجهيزها، مكوّنة من حجرتين وصالة، وبدت مروانة في ثوبها الجديد آية من الجمال والإثارة، ولعلّي كنت أرى لونها الطبيعيّ لأوّل مرّة بعد أن خلقها حمّام العرس خلقًا جديدًا، ولا أقول إنّي سعدت بذلك، وأعترف بأنّ اللون النحاسيّ الغامق القديم كان أصبح جزءًا لا يتجزّأ من الصورة التي زلزلت أركان حياتي، على أنّ نداءها ظلّ مستبدًّا طاغيًا وسيطر عليّ سيطرة كاملة حتّى اعتبرت نفسي أسيرًا في يد قوّة لا تعرف الرحمة ولا الهوادة، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من اللهب، ومعتزّة بنفسها ويقومها تكاد تسبغ قداسة على التراب الذي منه جاءت كوردة بريّة، حتّى حياؤها الأنثويّ كان غشاء شفّافًا لا ضعفًا متأصّلًا أو رخاوة طبيعيّة، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأنّي حيال أنثى قويّة لا عمر لها تتدفّق منها الفتنة والسحر والتحدّي، وأنّني أستسلم في رحابها كاشفًا عن ضعفي بقوّة وعنف، وأنّني أجري كمطارَد أو مجنون فاقد الوعي والحذر، واشتهر أمري بين صحبي الجدد فأطلقوا عليّ «الرجل السعيد» و«الرجل الضعيف السعيد» وانهالت عليّ التحذيرات والوصفات معًا.

ولم ينسني شهر العسل عملي الجديد فنشطت له بهمّة عالية، ووجدتني هيّابًا بعض الشيء وأنا أدسّ نفسي في بيئة جديدة وأناس جدّهم في الحياة لهو ولعب، وكانوا يستقبلونني هاتفين:

ـ أهلًا بحفيد الراوي!

وهو نداء له مغزاه، تبعني كظلّي في كلّ مكان أختلف إليه، تردّد في الخرنفش، في تخت محمّد شكرون، في الجوقة التي تمّ الاتّفاق على أن تعمل معي حين الحاجة، وأخذت أحفظ وأتدرّب بسرعة استعدادًا للتخت والجوقة معًا، وفي شهر العسل نفسه اشتركت مع التخت في إحياء حفل زفاف بالدرب الأحمر، ارتديت البدلة لأوّل مرّة والطربوش حتّى صاح محمّد شكرون:

ـ تبارك الخلّاق فيما خلق!

وارتبكت وأنا أخوض أمواج المدعوّين والمتفرّجين وكنت أحد اثنين في التخت لا يستعملان إلّا حنجرتهما

ويجلسان خاليّي اليد من أيّ آلة، وقدّم لي محمّد شكرون قدح نبيذ قائلًا:

ـ إنّه ضروريّ جدًّا وإلّا انحبس صوتك.

في أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول، وردّدت الغناء بقوّة وانضباط وكنت الصوت الثاني في التخت ولا جدال وقد نفخت في السنّيدة روحًا جديدة هزّت التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدّم:

يا ما إنت واحشني وروحي فيك

ولقينا استحسانًا كبيرًا، وضمن الاستحسان أصابتني غمزة من سكران فصاح: «يخلق من ظهر العالم فاسد» وضجّ المكان بالضحك حتّى مال محمّد شكرون نحوي وهمس:

ـ اضحك مع الضاحكين.

وقد فكّرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلًا، الناس يتصوّرون أنّني كنت شيخًا طيّبًا ثمّ فسدت فانقلبت سنّيدًا في تخت أغنّي وأتعاطى النبيذ والمنزول، كلّا... ليس الأمر كذلك، لقد غيّرت مهنتي هذا كلّ ما هنالك، استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هي الغناء، أمّا روحي فقد ارتفعت درجات وقلبي لم يفسد ولم يتزعزع إيماني، وجدّي نفسه هو القائل إنّ الزبّال نفسه يستطيع أن يكون إنسانًا إلهيًّا، ولعلّي كنت محمولًا بتيّار عواطفي الصاخب في ذلك الحين فلم أدرك أبعاد تجربتي كما أدركتها فيما بعد أو كما أدركها اليوم ولكنّني رغم ذلك ثرت على قول السكران واعتدتها دعابة عربيدة وظالمة، على أيّ حال بدأت عملي الجديد بثقة ونجاح ولكن كان عليّ أن أنتظر وقتًا ليس بالقصير لكي أنشد التواشيح النبويّة كصاحب جوقة له وزنه، أمّا سعادتي فقد غطّت على النجاح وعلى كلّ شيء، سعادتي الزوجيّة، وكنت بها فخورًا، أنوّه بأسرارها في كافّة المناسبات، وبفضائل الحياة الزوجيّة ومزاياها الطيّبة، حتّى ضُرب بي المثل، وفي غمرة السعادة لم أنظر إلى الحياة في بيتي الصغير بعين ناقدة ولا حتّى محايدة، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما يشبه الوجد الدينيّ.

حقًّا كانت توجد لحظات خائنة حتّى في أيّام السعادة الخالصة...

ولكن ما هي اللحظات الخائنة؟

هي اللحظة التي تنفصل فيها عن تيّار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة.

في تلك اللحظة كنت أشعر بأنّ ثمّة شخصًا قد ضحك عليّ، قد جرّعني مقلبًا...

وأسأل نفسي عمّا حدث.

أو أنظر إلى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام منها.

ما معنى ذلك؟

كأنّني أمقتها فجأة وبلا مقدّمات.

ولكنّها لم تكن إلّا لحظة عابرة، كتقلّص عضلة طارئ، ثمّ يعود التيّار إلى مجراه السعيد المبلّل بأنفاس العشق المستعر.

وأعجب لطاقتي في معاشرة الفوضى، فأنا لا أتذمّر على حين مروانة لا تحسن تنظيف الشقّة، ولا طهي الطعام، وتمضي حافية نصف عارية منتفشة الشعر، تتحدّى الخيال وتناقر الهواء، وتسحبني من يدي لزيارة أمّها وقريبها العجوز في معسكر الشياطين ليضحك المخرّف ويقول لي:

ـ ألم يكن الأفضل أن تعمل إمامًا لجامع؟

أو يبارك بطن زوجتي قائلًا للجنين:

ـ شرّفنا وكن قاتلًا فقد ضقنا باللصوص والمهرّبين!

ويسخر من أصلي الكريم قائلًا:

ـ مَن جدّك الراوي؟... أنا جدّك الحقيقيّ، واهبك هذه المرأة الجميلة التي تمتصّ قذائف غرائزك الشرّيرة...

فأقول له:

ـ جدّي من رجال الله...

فيقهقه قائلًا:

ـ نحن رجال الله حقًّا، الله المنتقم الجبّار خالق الجحيم والزلازل، انظر إلى هؤلاء (مشيرًا إلى معسكر المتشرّدين) إنّهم رجال الله، صورة منه في جبروته وانتقامه...

والتقيت في تلك الأيّام بجارة أمّي في بين السورين، عرفتها ولم تعرفني، اعترضت طريقها وقدّمت لها نفسي، ذهلت ودعت لي طويلًا، وتذكّرت

أنّني لم أكن أعرف اسم أمّي كما أنّ بهجة لم تكن تعرفه، كنت أناديها «أمّ» فتجيب حتّى أعجزها الموت عن الإجابة، وسألت الجارة عن اسمها فقالت:

- ليرحمها الله... كان اسمها سكينة!

وشعرت بإغراء في طرح المزيد من الأسئلة عن أصلها وتاريخها ولكنّني أخمدته، ربّما احترامًا للذكرى، وشددت على يدها ومضيت في سبيلي، هٰكذا عرفت اسم أمّي مصادفة...

وسوف أنجب من الذكور أربعة، وسوف تمضي الحياة بعد انطفاء شعلتها، وسوف تجيء أيّام الجفاف والجفاء والوحشيّة...

طالما سرّني أن يقال هٰذا الفتى الذي هجر قصر النعيم ينشد الحبّ والحرّيّة...

وطالما استعذبت موقف مروانة المحبّ من الطقاطيق التي أحفظها لتخت محمّد شكرون بقدر ما رحمت موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التي أعدّها لجوقتي الخاصّة...

وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبيذ والمنزول وشعرت بأنّ المعركة تستغرقني من الفجر حتّى الفجر.

وتأوّهت قائلًا:

- أيّ عبوديّة!

وجاءت أيّام الجفاف والجفاء والوحشيّة.

ها هي مروانة قويّة متحدّية سليطة اللسان طويلة اليد كأنّما خلقت لتقاتل.

وقلت لها مرّة:

- للرجل احترامه.

فقالت لي:

- وللمرأة احترامها.

ثمّ قالت بوحشيّة:

- لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان...

فقلت محزونًا:

- أهٰذا جزاء من أعدّ لك البيت والأثاث؟

فصاحت بي:

- إنّي أكره رائحة البيوت!

وأوغلنا السير في أيّام الجفاف والجفاء والوحشيّة.

وتابعني محمّد شكرون بأسى، وقال:

- إنّي أخاف الحبّ الجنونيّ وأفضّل الاعتدال.

فقلت بحزن لم يدرك مداه:

- إنّي ضحيّة الشهوة العمياء.

- الحياة الزوجيّة تمرّ بحالات مَرَضيّة حتميّة تحتاج إلى حكمة الأطبّاء.

فقلت بامتعاض:

- لقد دخلت منطقة اليأس!

ذٰلك أنّني وجدت أنّ الشركة تتحوّل إلى معركة، مضمَرة حينًا ومعلَنة حينًا، وأنّ مروانة إذا تجرّدت من رمز الإثارة الجنونيّة فإنّما تتمخّض عن لا شيء ألبتّة، أو تتمخّض عن ذئبة.

وهي إذا غضبت حطّمت ما بين يديها، مزّقت ملابسي، طوّحت بكرّاسة الأغاني والتواشيح من النافذة، التحمت معي في عراك، وأصيح بها:

- إنّك أبغض إليّ من الموت فتصيح بي:

فتصيح بي:

- إنّك أبغض من القبح.

وقد تمتدّ فترات البغضاء، وقد تتسلّل إليها الهدنة بفضل الأولاد غالبًا، وعند ذاك قد تشتعل انفعالات الرغبة من جديد، اشتعالات خاطفة، تعيد ذكرى الأحلام من بعيد، أجل من بعيد.

* * *

وسألته باهتمام:

- ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجيّة؟

- ألم أوضح ذٰلك في سياق الحكاية؟

- كلّا فيما أعتقد، ما زلت في حاجة إلى تحديد أسباب واضحة...

- إنّ الذي ربطني بها حال جنونيّة، فلمّا زالت وجدتني مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبرّرًا لبقائها معي، ولا شكّ أنّ سلوكي العامّ نمّ عن مشاعري الدفينة فأثارها من ناحية أخرى.

فقلت:

- تزول حال الجنون ولٰكن يبقى الأولاد...

- الأولاد أطالوا عمر زواجي ولٰكنّهم لم يؤمّنوه ضدّ الخواء، مروانة مجرّد إثارة، ليست امرأة، لا هي ربّة

بيت ولا هي أمّ ولا هي سيّدة بالمعنى، وصفاتها الجوهريّة خليقة بأن تخلق منها رجلًا، بل قاطع طريق...

ـ وهي ألم تحبّك؟

ـ لا أظنّ، ربّما فورة جنونيّة عابرة، أو مغامرة استطلاعيّة، لم أكن أمثّل الرجل الذي يمكن أن تحلم به، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن يموت بمجرّد أن تتحوّل المغامرة إلى روتين...، أظنّ الأمر واضحًا؟

ـ أجل، شكرًا...

ـ وكان لي أحلامي الخفيّة، كنت أحلم بالهروب من الواقع، من البيت، أحلم بالتوحّد فحتّى أولادي كانوا يختفون من رؤيا الحلم، ولكن إلى أين؟ وكان عملي لا يترك لي مجالًا للنظر إلى فوق، فأوساط المنشدين لا قمّة لهم يتطلّعون إليها، إلى ذلك فالله لم يهبني القناعة والرضى بالمقسوم.

والأهمّ من ذلك أنّني لم أكن أحلم وحدي، أجل كانت مروانة تحلم أيضًا، وتمسّكت بالغضب عقب مشاجرة، وسُدّت الأبواب في وجه الصلح، وتحدّتني بنظرة باردة وهي تقول:

ـ يجب أن نعيد النظر في حياتنا...

ولمست في نبرتها تصميمًا حيًّا فانقبض صدري وتمتمت:

ـ حياتنا؟

ـ أقول لك صراحة إنّه من الظلم أن نكلّف هذا البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك.

فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة بإشفاق وقلت:

ـ كلّ الأزواج يفعلون ذلك.

فقالت بهدوء مخيف:

ـ ولكنّي أريد أن أذهب...

فسألتها ببلاهة:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أهلي!

تماسكت رغم حنقي وتساءلت:

ـ ألا تعجبك الحياة في هذا البيت؟

فأجابت بقوّة:

ـ كلّا، أنت تتوهّم أنّك صاحب فضل، هذا هو نقصك!

ـ أظنّني ضحّيت بالكثير.

ـ إنّي أولى الضحايا!

ـ اسمعي...

ولكنّي أمسكت تجنّبًا للشجار فصاحت:

ـ لقد كرهت هذه الحياة حتّى الموت!

فنفخت قائلًا:

ـ الأولاد... الأولاد...

ـ من حقّي أن آخذهم معي.

ـ لكي ينشئوا في عشش الترجمان؟

ـ لكي ينشئوا رجالًا!

ـ إنّك لمجنونة!

ـ أنت المجنون وأقسم على ذلك، لا عاقل يعيش من حنجرته كالنساء!

ـ لا أمل يرجى من مناقشتك.

ـ دعني أذهب.

ـ ولكن عليك أن تتركي لي الأولاد.

ـ ماذا تفعل بهم؟ إنّك تستيقظ من نومك قبيل العصر، ولا ترجع إلى بيتك إلّا مع الفجر أو بعده، وعلى حال لا يعلم بها إلّا الله، فكيف يعيشون؟ هل تعني حقًّا ما تقول؟

فشعرت بالقهر وقلت:

ـ لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم...

ـ إنّي أرفض ذلك...

ولم ينته الحوار بحسم الموضوع.

فكّرت بالأولاد طويلًا، أيقنت أنّه لا حياة لهم معي، وأنّ عليّ أن أتحلّى بالصبر من أجلهم مهما كلّفني ذلك، غير أنّ مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصّة فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليًا لا يتردّد فيه نَفَس، وذهبت من توّي إلى عشش الترجمان فبلغتها مع الصباح الباكر.

وجاءتني أمّ مروانة بوجه متجهّم وقالت لي:

ـ اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرّة!

قلت لها:

ـ الأولاد.

قالت بازدراء:

- إنّهم أولادنا!

وجاء العجوز في ثلّة من الرجال المفترسين وقال:

- أنت رجل خائب فارجع الى بيتك.

وهَمْهَمَ الرجال بألفاظ مبهمة فلم يغب عنّي الخطر المحدق بي، وعاد العجوز يقول:

- طلّق، أعطها حقّها كاملًا، وإذا كان الشرع يعطيك حقوقًا الآن أو مستقبلًا فإنّي أنصحك بأن تتنازل عنها صونًا لحياتك، ارجع قبل أن تطلع الشمس على وجهك فقد أُقدم على شرّ كبير إذا رأيتك في ضوء الشمس...

وذهبت من توّي لأطلّق...

وأجّلت التفكير في المشكلة لحين بلوغ البكْريّ السنّ التي أستحقّه فيها، تأجيل أو هروب إذا شئت، كنت على يقين من أنّني لن أطالب بأولادي بجدّيّة حقّة، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قومًا يتخرّج في معسكرهم عتاة مجرمي القاهرة، ومعناه من ناحية أخرى أن أعيدهم إلى الحياة لا أمل لأيّ قَدْر من الرعاية فيها، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوي قد كُتب عليهم الضياع حيثما كانوا، ولن تُكتب لهم النجاة إلّا إذا كتبت للمجتمع كلّه وبصورة حاسمة، هكذا ذهبت مروانة طاوية معها قصّة الحبّ والجنون والخيبة، وقصّة الجفاف والبغض، لم يبق منها إلّا ذكرى الشهوة المذهلة، والقوّة المتحدّية، والعجرفة الصلبة، وهي مثل العاصفة مخيفة وضارّة ومثيرة للإعجاب، وبضياع الأولاد تسلّل الأسى إلى أعماق نفسي ليقيم في حجرة الأحزان ملتحمًا بذكريات أمّي وأبي.

ولم يكن ممكنًا أن أواصل الحياة بهوادة كأن لم يقع شيء.

وكان محمّد شكرون يتابعني بحذر وإشفاق، فسألني ذات يوم:

- حتّى متى تمضي في ترديد الأغاني وتعاطي النبيذ والمنزول؟

مع وجود مروانة والأولاد كان ثمّة حياة متكاملة أيًّا تكن، أمّا الآن فالسؤال يبدو معقولًا، وقلت له وأنا لا أعني ما أقول:

- حتّى الموت!

فقال جادًّا غاية الجدّ:

- آن لك أن ترجع إلى جدّك...

قلت:

- لقد انتهى الشيخ جعفر الراوي...

- يمكن أن يبدأ من جديد، علينا أن نحاول.

- إنّي أرفض المحاولة.

- عن كبرياء؟

- بل عن تسليم بالواقع الحيّ.

- أيّ واقع يا رجل؟

- إنّه لا يرضيني، ولكنّي رفضت المهنة الدينيّة رفضًا لا رجوع فيه، الحياة التي رسمها جدّي لي مرفوضة تمامًا، وهو لن يقبلني - إذا قبلني - إلّا بشرط الرجوع إليها...

- لعلّه يمنحك حرّيّتك الشخصيّة؟

- كلّا، إنّك لا تعرفه كما أعرفه، وإنّي أرفض أن أعرّض نفسي لتجربة ذليلة.

فقال بإخلاص لا يداخلني فيه شكّ:

- إنّك صديق عزيز ومن واجبي أن أصارحك بأنّك تمارس حياة لا تليق بك، فلا أنت مطرب ولا أنت ملحّن، ويجب أن تفكّر في مستقبلك بجدّيّة أكثر...

- هذا ممكن بعيدًا عن جدّي!

- أراك غير سعيد الآن...

- ربّما، ولكنّني قمت بمغامرة جنونيّة سأظلّ فخورًا بها ما حييت، وإنّي فخور أيضًا بأنّني أتكيّف مع أيّ مستوى للحياة دون تذمّر أو ضعف، تجدني طافحًا بالبِشْر والقوّة سواء عشت حياة الأعيان أو حياة الصعاليك، وها أنا أتمسّك بالصعلكة وأرفض محاولة الرجوع إلى حياة القصر، أرفض أن أكون شيخًا محترمًا وزوجًا نبيلًا وممارسًا للطقوس والتقاليد الرفيعة لا لأنّني أختار ذلك بإرادتي الحرّة ولكن احترامًا لرؤيا جدّي وطمعًا في تركته...

- وماذا عن مستقبلك؟

- سأفكّر جدّيًّا في دراسة الموسيقى والتلحين عند الشيخ طاهر البندقي إذ لا يمكن أن تمضي الحياة بلا طموح...

كانت مروانة رمزًا للحياة الماضية، كما كانت العذر الشابت لتقبُّل حياة عاديّة بلا طموح، فلمّا ذهبت وجدت نفسي عاريًا.

وكان عليّ أن أعيد النظر في حياتي...

وفي تلك الفترة القلقة من الحياة عرفتُ هُدى صديق...

٦

كان محمّد شكرون يحيي حفلًا في حديقة لبتون، وفي الاستراحة دُعي مع أفراد تخته إلى مقابلة هدى هانم صديق في بنوارها، وكانت تنتظرنا وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيّدة شديدة السمرة بدا من تأدّبها أنّها وصيفة.

راعني أوّل ما راعني بهاء منظرها، وأناقتها المحتشمة، واعتزازها بنفسها الذي لا يجاوز حدود الأدب، وهالة من الجاذبيّة الرصينة، أمّا جمالها الأنثويّ فيتركّز في عينيها السوداوين واستدارة وجهها، وكانت على وجه اليقين في الحلقة الرابعة.

ترك منظرها في نفسي أجمل الأثر، ووقفت بين الزملاء الكهول مزهوًّا ببدلة جديدة وبصحّة وشباب وقامة فارعة.

دعتنا للجلوس وأمرت لنا بالمرطّبات وقالت موجّهة الخطاب لمحمّد شكرون:

ـ صوتك عذب وتختك ممتاز، إنّي من أسرة تعشق الأصوات الجميلة.

فلهج محمّد شكرون بالشكر ونوّه بذكرى المغفور له والدها الذي يحتفظ له أهل الفنّ بأجمل الذكريات قال:

ـ طالما سمعت أستاذي الشيخ طاهر البندقي يقول عن قصره إنّه كان معقل الموسيقى الشرقيّة.

فابتسمت الهانم في رضى، والتقت عينانا أكثر من مرّة، فقال محمّد شكرون مشيرًا إليّ في مباهاة:

ـ زميلي جعفر حفيد بسيّد الراوي.

فتساءلت باهتمام:

ـ حقًّا؟!

ـ إنّه يهيم معنا حبًّا في الفنّ...

ـ جميل، ولكن هل يرضى الرواي الكبير عن ذلك؟

فأجبت:

ـ ندر أن يرضى جدّ عن حفيد!

ونظرت السيّدة نحو محمّد شكرون قائلة:

ـ سوف نتقابل عمّا قريب.

انصرفنا سعداء، وفسّر لي محمّد شكرون قولها قائلًا:

ـ هٰذا يعني أنّنا سنُدعى قريبًا لإحياء حفل في بيتها...

وقال لي باهتمام:

ـ إنّها من آل صديق، كريمة الرجل العظيم، أرملة واسعة الثراء والثقافة...

وصمت قليلًا ليزن كلامه ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّها مالت إليك...

انبعث في نفسي طرب وسألته:

ـ ألك خبرة بتأويل نظرات النساء؟

ـ أجل لمحتها أكثر من مرّة في أثناء الغناء وهي تنظر نحوك حتّى قبل أن تعرف نسبك..

ـ ليصدق حدسك يا صديقي...

فقال محذّرًا:

ـ ولكنّها سيّدة محترمة.

فقلت محتجًّا:

ـ يا للأسف!

وفكّرت بها مليًّا، إنّها شيء نفيس بلا شكّ، ولا يقلّل من قيمتها أنّها تكبرني على الأقلّ بعشر سنوات، بل زادها ذٰلك ملاحة في نظري، أمّا الجنون الذي اجتاحني ذات يوم فيبدو أنّه لا يتكرّر.

وقال لي محمّد شكرون:

ـ يا لها من فرصة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ امرأة ممتازة كالقشدة...

ـ هبني لم أحبّها؟

ـ أهٰذا ممكن؟... ألم تشمّ رائحتها المسكرة؟

فضحكت عاليًا، وكان محمّد شكرون قد أحبّ راقصة وتزوّج منها ووُفّق في حياته الزوجيّة غاية

التوفيق.

* * *

وذهبنا إلى بيت آل صديق بالحلميّة احتفالًا بختان طفل، ذكّرني السلاملك والحديقة بقصر جدّي ولكنّ الحديقة كانت أصغر كما إنّ سور البيت كان قصيرًا لا يحجبه عن العالمين، وأُقيم لنا سرداق مكشوف في الحديقة التي عبقت بشذا زهر البرتقال ممّا يدلّ على أنّ الوقت كان ربيعًا.

وغنّى محمّد شكرون بانبساط حقيقيّ وردّدنا الغناء بحماس غير عاديّ، وارتفع صوتي وأنا أردّد:

كان قلبي عليك عليك قلبي

وعقب الوصلة الثانية اندلع النبيذ في رأسي وتسلطن المنزول فجلست تحت شجرة برتقال في إعياء...

وجاءت هدى هانم صديق تتفقّد أحوالنا وتجاملنا فقمت لها وأنا أكاد أترنّح فتمتمت:

- أنت في حال!

فقلت ممتنًّا:

- هٰذا ما يفعله بي السرور.

وأمرت لي بقدح ليمون بالصودا ثمّ قالت:

- تعجبني روح المغامرة!

فأدركت أنّها تشير إلى صعلكتي في تخت محمّد شكرون فقلت:

- إنّي أقرّر مصيري بإرادتي الحرّة.

فابتسمت قائلة:

- المغامرة الحقّة في رأس الإنسان!

- ماذا تعنين يا سيّدتي؟

فتجاهلت السؤال وقالت:

- ترامت إليّ أنباء مثيرة عن خلافك مع جدّك.

فقلت باستسلام:

- ها هي شهرة ضلالي تذيع بين الصفوة.

فابتسمت ابتسامة جذّابة وذهبت.

وشعرت بأنّ باب حياة جديدة ينفتح لي رويدًا.

وعقب السهرة مضى بي محمّد شكرون إلى مقهى باب الخلق، قال لي بجدّيّة:

- علينا أن نتدبّر أمرنا.

فتساءلت متخابثًا:

- أيّ أمر أيّها البلبل؟

- لا تتغابَ، عرفت من وصيفتها أنّهم عرفوا عنك كلّ شيء...

- كلّ شيء!

- السؤال له مغزاه الكبير.

- والجواب له عواقبه الوخيمة!

- رغم كلّ شيء...

وحدّق فيّ باهتمام ثمّ واصل:

- رغم كلّ شيء فأنت مدعوّ إلى لقاء في حديقة لبتون، إنّي مكلّف بإبلاغك...

فذهلت وتمتمت:

- هٰذا يفوق تصوّري!

- ولٰكنّه الواقع دون زيادة.

- أجل.

- علينا أن نتّفق على خطّة.

- ولكنّك لم تسألني عن عواطفي؟

- لا أظنّها عدائيّة!

- طبعًا.

- يكفي هٰذا، وفي اعتقادي أنّ الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم.

- لا تبالغ.

- خبّرني ألا يسعدك أن تتزوّج منها؟

- أنت تتخيّل أنّها تفكّر في الزواج؟

- إنّها ترفض العلاقات غير المشروعة...

- تتزوّج من صعلوك؟!

- إنّي أعرف قصّة أمير هجر قصره ليتزوّج من صعلوكة.

فضحكت فسألني:

- ماذا عن قلبك؟

- إنّي معجب بها، بشخصيّتها وجمالها، لا شكّ أنّ الارتباط بها يسعدني.

- هٰذا هو الحبّ، أو هو نوع من الحبّ، أو هو استعداد طيّب للحبّ.

- ليكن.

- إذًا فعليك أن تبدأ احترامًا لكرامتها...

- مزيدًا من الشرح من فضلك.

- لقد بدأت هي خطوات ثابتة، وها هي تدعوك للقاء، فهل تذهب لتنتظر كالبنت أن تفاتحك هي بحبّها؟... كلّا... يجب أن تكون أنت البادئ، احترامًا لكرامتها كما قلت...

- أترى ذلك؟

- المسألة ذوق أوّلًا وأخيرًا، لا تنس التضحيات المتوقّعة من ناحيتها، حقًّا إنّها سيّدة نفسها، وأغنى الأسرة، ولكن حتمًا ستتمزّق أواصر قربى وعلاقات أسريّة بسبب الزواج، لا شكّ في ذلك...، وإنّها لشجاعة لأنّها ستصمد في وجه ذلك كلّه...

- لولا أنّني مررت بتجربة مشابهة لما صدّقت الواقع...

- بلى، ولكنّك مررت بنفس التجربة، ولا تنس أنّها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوي، والزوج السابق لمروانة وأبو أربعة أبناء بعشش الترجمان، إنّه المستحيل عندما يصير ممكنًا...

وفكّرت في الأمر من شتّى جوانبه بعد أن وجدت من عقلي وقلبي اقتناعًا به فقلت:

- إذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسي مضطرًّا إلى التخلّي عن العمل في التخت؟

- هذا واجب لا شكّ فيه.

- ولكن كيف أرضى بألّا يكون لي عمل إلّا زوج الهانم؟!

فقال بثقة:

- سيكون لك عمل، لا أدري الآن ماذا يكون، ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج إلى رأس المال والمجهود البشريّ وأنت تملك هذا المجهود؟

ثمّ وكأنّه يشجّعني:

- هاك مغامرة جديدة أيّها المغامر الأعظم.

فقلت بفتور:

- المغامرة الحقّة استجابة لنداء مجنون، أمّا هذه الخطوة فتتحقّق في رحاب الرويّة وتحسب بالتفكير والمنطق أنتقل بها من حال إلى حال.

- إلى حال أفضل!

- ليكن، إنّي أجري كالعادة وراء الجديد المثير، معي قدرتي العجيبة على التكيّف والاستهانة بالصعاب، ألست أعيش وكأنّني نسيت أبنائي الأربعة رغم أنّ جرح القلب لا يريد أن يندمل؟!

وذهبت إلى لقاء هدى في الموعد المضروب بحديقة لبتون.

أقبلت عليها بشجاعة وثبات وثقة بالنفس فذابت الفوارق وتمّ لقاء بين رجل وامرأة.

جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست «أمّ حسين» الوصيفة غير قريب، ورغم عظمتها الذاتيّة اعتراها شيء من الارتباك فقالت:

- أرجو ألّا أكون أزعجتك بدعوتي؟

فقلت بثقة:

- كوني على يقين من أنّها جاءت محقّقة لأحلامي.

فتساءلت برقّة أنثويّة:

- حقًّا؟

- كنت أتمنّاها ولا أدري كيف أحقّقها.

- حقًّا؟... ولكن... ولكن لماذا؟

- هذا حديث طويل، ولكن يحسن بي أن أقنع بالاستماع...

فقالت بلهفة:

- لا أهمّيّة لذلك، لماذا كنت تتمنّاها؟

فقلت بصوت دافئ:

- كما يجدر برجل أحبّك من كلّ قلبه.

فأسبلت جفنيها مورّدة الخدّين والتفّتْ بالصمت في جوّ من القبول والرضى والسعادة.

- أجل من كلّ قلبي...

تذكّرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيه ما يستحقّ الخجل، كان عقلي وقلبي مقتنعين بها، كنت مرحّبًا تمامًا بالارتباط بها وبلا أدنى طمع في مالها، ومن ناحية أخرى فإنّ حبّها لي - وهو مؤكّد - يقتضي ذلك الاعتراف من ناحيتي تحيّة لكرامتها، فضلًا عن ذلك كلّه فإنّني لم أكذب أو لم أكذب بالقدر الذي يجعلني كذّابًا.

وناقشنا مستقبلنا بكلّ صراحة، قلت:

- لن يتّصل ما انقطع من علاقة مع جدّي...

وقلت أيضًا:

ـ قد لا يحرمني ميراثي كلّه. . .

ثمّ قلت بوضوح:

ـ سأكون تعيسًا لو عشت بلا عمل. . .

فقالت بهدوء باسم:

ـ هٰذه الهموم لا تخلق عقبة حقيقيّة في طريق الحبّ. . . أمّا جدّك والميراث فلا يهمّني، وأمّا العمل فإنّي أعلم أنّ الرجل لا يعيش بلا عمل. . .

ثمّ وهي تضحك:

ـ ولٰكن هل تعتبر عملك في التخت عملًا حقيقيًّا؟

ـ كان حركة في مغامرة أكبر، هٰذا كلّ ما هنالك. . .

ـ أوافقك كلّ الموافقة.

ولقد فكّرت في حبّنا طويلًا.

من ناحيتي صادفت سيّدة جميلة، كريمة الأصل، مثقّفة، عاقلة رصينة، واعدة بمعاشرة سعيدة، فملت إليها كما ينبغي لي وأحببت فكرة الارتباط بها.

أمّا من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هٰذا الحبّ؟ إنّي ضائع، طريد، شبه عاطل، شبه جاهل، لا مستقبل لي، فكيف يمكن تبرير هٰذا الحبّ؟

لكنّها كانت هي في الواقع التي تحبّ حبًّا حقيقيًّا، حبًّا بلا مبرّر، فوق التبريرات والأفكار، ولعلّ هٰذا الحبّ لا يخلو من رغبة في انتشالي من الضياع وإعادة خلقي من جديد، فكما توجد في الحبّ ساديّة وماسوشيّة توجد كذٰلك أحيانًا أمومة ورغبة حميمة في الإنقاذ.

هٰذه أفكار عن الحبّ الذي ربطني بهدى فانتهى بعقد قراننا بعد أن مزّق أواصر أسرتها.

لم أكن وقتذاك أفهمه بهٰذا الوضوح الذي يتبدّى لي به اليوم، أمّا في حينه فقد فسّرته التفسير الذي يُرضي شبابي وغروري ويعوّضني عن الإهانة التي لحقتني من جرّاء هجر مروانة لي.

وودّعت محمّد شكرون وزملائي من أفراد التخت، كما ودّعت أفراد فرقتي الدينيّة وكانوا متطوّعين يعملون مع أكثر من منشد ثانويّ تبعًا لظروف العمل، ودُعي الجميع إلى حفل زفافي الذي أحياه محمّد شكرون، وانبسطنا غاية الانبساط وكأنّنا نودّع عهد النزق ونصفّيه.

وقلت لمحمّد شكرون:

ـ لن يفرّق بيننا شيء.

فاغرورقت عيناه وهو يقول:

ـ معاذ الله يا أعزّ الناس. . .

وتمّ الاحتفال في بيت الحلميّة ـ بيت هدى ـ فلم يشهده من أسرتها أحد، واقتصر على الجارات، وأمل محمّد شكرون أن يعلن جدّي رضاه على نحو ما، خطاب أو هديّة أو طاقة ورد، ولٰكن لم نلقَ من ناحيته إلّا الصمت.

وكان محمّد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة وقال له وهو يقبّل يده:

ـ فُرِضَ عليّ أن أنهي إلى فضيلتكم أنباء حسنة عن جعفر.

فتجاهل جدّي قوله تمامًا، فقال محمّد شكرون:

ـ إنّه يبدأ حياة جديدة مع سليلة الشرف هدى هانم صديق.

ولٰكنّه واصل تجاهله وفتح موضوعًا جديدًا لا صلة له بي.

غير أنّ محمّد شكرون قال لي:

ـ لقد لمست رغم ذٰلك تأثّره، مثل تقبّض يده على المسبحة عندما جاء ذكرك، وعندما ترزق بمولود فاذهب به إليه ليباركه. . .

ولٰكنّني لم أكن أهتمّ برضى جدّي، ولم أكن أخلو من انفعالات حنق عليه.

استقبلت شهر العسل الثاني في حياتي، الأيّام الهنيئة التي تمضي في رحاب العاطفة الخالصة والحبّ المتكامل، ينعم فيها الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن يرجعا إلى الحياة ليتغلغلا في أعماقها أكثر.

وجدتُني على رغمي أقارن بين مروانة وهدى.

امرأتان مختلفتان جدًّا، مروانة عبقريّة في لعبة الجسد، تُرجع الرجل إلى عهد الفطرة، أمّا هدى فتُرجع الجسد إلى مستوى القلب، ورغم أنّني لم أحترق إلّا أنّني شعرت بطمأنينة ورسوخ ودوام. ورغم مشاعري الفيّاضة وحناني المتدفّق فقد افتقدت جحيم مروانة الأبديّ.

وفي توقيت رائع قالت لي هدى:

ـ أودّ ألّا تبقى يومًا أكثر بلا عمل...

فقبّلتها امتنانًا فقالت بحذر:

ـ وحتّى إدارة أملاكي لا تُعتبر عملًا مقنعًا ولا هي ترضي طموحي...

فتساءلت برقّة:

ـ إذن لك طموح؟

ـ ألا تحبّ أن تكمل دراستك الأزهريّة؟

ـ كلّا.

ـ لماذا وجّهك جدّك تلك الوجهة؟

ـ إنّه ذو تفكير خاصّ وسوف أحدّثك يومًا عن رأيه في الإنسان الإلهيّ.

ـ سأصارحك بما أفكّر فيه، يجب أن تدرس في بيتك.

ـ دراسة نظاميّة؟

ـ نعم، حتّى البكالوريا، ثمّ تتخصّص في دراسة عليا، مثل الحقوق مثلًا، وتعمل محاميًا ذات يوم!

ـ يلزمني عشر سنوات.

ـ لِمَ لا؟... التعلّم في ذاته عمل، وأنت في الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب الدراسة.

ففرحت بالفكرة وقلت:

ـ إنّي أحبّ التعلّم، ولن يهمّني ما فاتني من عمر، ثمّ إنّني أريد عملًا لا وظيفة بالمعنى التقليديّ...

وسرعان ما بدأت بعزم جديد.

خرجت من عصر البطالة المقنّعة والبطالة الحقيقيّة، وغطّى التعلّم على إحساسي بأنّني زوج بلا عمل وبخاصّة وأنّني لم أعترف بإدارة الأملاك كعمل حقيقيّ فهي لم تكن تعني أكثر من تحصيل إيجارات والإشراف على إجراء بعض الترميبات والتجديدات أو توكيل بعض المحامين عند الضرورة.

وحقّقت تقدّمًا مذهلًا واستعنت أحيانًا ببعض المدرّسين.

وفي أوقات الراحة كنّا ـ أنا وهدى ـ نختلف إلى المسرح أو صالات الطرب فهي مغرمة بذلك كلّه.

وكنت أشرب رغم تأفّفها فتقول لي برجاء:

ـ اشرب ولكن لا تسكر...

أمّا المنزول فقد أخذت عليّ عهدًا بألّا أقربه، وكلّما رأتني جالسًا مع محمّد شكرون ذكّرتني بالعهد، ولكنّي نبذته بإرادة قويّة، وعبرت الفترة الحرجة بعزم صادق حتّى ضحك محمّد شكرون وقال لي:

ـ إنّك شيطان في تكيّفك مع العربدة، ملاك في تكيّفك مع الاستقامة...

فقلت له:

ـ إنّي مصمّم على أن أكون شيئًا.

مارست حياة رائعة، استعادت من ناحية سعادتي في أسطورة أمّي، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء الذي نعمت به في بيت جدّي، ولكن تفشّى فيها القلق المنبعث من رغبة حادّة في تحقيق الذات.

أريد أن أكون شيئًا، ولكن ما عسى أن يكون هذا الشيء؟ القانونيّ الضليع؟ أم المحامي الناجح؟

الحقّ أنّي فُتنت بموادّ الدراسة المتنوّعة، واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج، وانجذبت لها بأقوى ممّا انجذبت إلى علوم الدين، وكنت أحفظ المقرّر وأفيض عنه فيما يهمّني من فروع المعرفة، فقرأت كثيرًا في التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع، ومضيت أمتلئ بحبّ الحقيقة.

* * *

وقهقه عاليًا ثمّ قال لي:

ـ تصوّر الرحلة من أحلام العفاريت إلى حبّ الحقيقة!... ما رأيك؟

فقلت:

ـ رحلة عظيمة...

أعجبني بصفة خاصّة المنهج العلميّ الذي يتحقّق به أكبر قدر من الدقّة والموضوعيّة والنزاهة، هل نستطيع أن نفكّر بنفس الأسلوب في سائر شئون الحياة؟ لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة بنفس الدقّة والنزاهة الموضوعيّة؟...

وكانت هدى تساعدني، فهي مثقّفة، حاصلة على شهادة مدرّسة أجنبيّة، درست مبادئ العلوم والرياضة والآداب واللغات كما درست العربيّة على مدرّس خصوصيّ، وهي غاية في الذكاء والاستيعاب، وقد

ساعدتني أكثر ممّا ساعدني أيّ مدرّس خصوصيّ.

وكانت تقول لي:

ـ الشهادة لا تهمّ في ذاتها ولٰكنّها الوسيلة الوحيدة المعترَف بها للعمل، ثمّ إنّها تضفي على الدراسة جدّيّة أكثر. . .

ولم تفتر همّتها في مساعدتي حتّى بعد أن تغيّر مزاجها العامّ بالحمل والوحم.

جمعنا رغم فارق السنّ والعِلْم حبّ يزداد مع الأيّام رسوخًا وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل العنيفة. . .

لقد انتقلت من الفوضى والمخدّرات إلى حياة زوجيّة نقيّة وتحصيل للمعرفة بلا حدود، في نظام دقيق أفقدني الكثير من مظاهر الحرّيّة السطحيّة، ولٰكنّه فتح لي أبواب الحرّيّة المضيئة التي يسمو بها الإنسان على ذاته بالوعي، الوعي الذي يسعد به الإنسان الحرّ حتّى وإن أبصر بقوّة أكثر مأساة الحياة الخافية.

* * *

وهنا قاطعته قائلًا:

ـ حدّثني عن تجربتك مع الحقيقة والحرّيّة والمأساة.

فقال ضاحكًا:

ـ إلى مَن توجّه كلامك؟ إنّك في الواقع تخاطب إنسانًا لا وجود له، لم يبق منه إلّا الخرابة التي تجالسك الآن في مقهى ودود بالباب الأخضر، لقد مات، لقد دفنت أكثر من شخص عاشوا في جسدي متتابعين ولم يبق إلّا هٰذه الخرابة.

وضحك مرّة أخرى ثمّ واصل:

ـ ولٰكنّها خرابة غنيّة بالآثار على أيّ حال.

وتنحنح ثمّ قال:

ـ لقد عشقت العقل وقدّسته فأحببت تبعًا لذٰلك الحقيقة، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة والتجربة ليصل إلى حكم نقيّ تمامًا ممّا يخلّ بالمنطق والملاحظة والتجربة، وهو ما أسميته بالحقيقة.

وهٰذا العقل يُعتبر مخلوقًا حديثًا نسبيًّا إذا قيس بالغرائز والعواطف، فالذي يربط الإنسان بالحياة غريزة، والذي يربطه بالبقاء غريزة، والذي يربطه بالتكاثر غريزة، ودور العقل في كلّ أولٰئك هو دور الخادم الذكيّ. . .

حسن، كيف يمكن أن ينقلب الوضع؟

أي أن يقرّر العقل أوّلًا ثمّ يستغلّ الغرائز لخدمته.

هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرّر قتل نفسه؟ إنّ الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم ولٰكن لم يَقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقيّ، إذن فقد عشقتُ العقلَ وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هديّة إلٰهيّة لنا، أحلم بألّا يكون لنا من محرّك إلّا العقل، ولا هدف إلّا العقل، ولا سلوك إلّا من وحي العقل، أحلم بحياة عقليّة خالصة يستوي العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكنّ الغرائز على أرض الطاعة والعبوديّة، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملًا مثل «أعرف بقلبي» أو «ألهمتني عواطفي» أو «التعبير الوجدانيّ للحياة»، وصببت غضبي على حجم الشعور واللاشعور، وجبل فرويد المطمور تحت الماء إلّا قمّته، إذ إنّ المسألة ليست مسألة حجم ولٰكنّها مسألة القيمة أوّلًا وأخيرًا، أردت لقمّة الإنسان ـ عقله ـ أن يحكم وأن يسيطر، حتّى في شئون الغذاء والجنس، والحبّ نفسه أيّ قيمة له إذا لم يقتنع به العقل تمامًا؟ الحبّ الأعمى سيظلّ أعمى ويتمخّض بعد الإشباع عن خواء مكرّرًا مآسي مع مروانة، لذٰلك أتمنّى أن يلعب العقل دوره في حياتنا الحميمة كما يلعبه في المعمل، وبنفس اليقظة والنزاهة والموضوعيّة، ويجب بالتالي أن تتغيّر أغانينا وأشواقنا وأحلامنا.

ولا أزعم أنّني استطعت أن أرتفع إلى هٰذا المستوى، بل لعلّ عجزي كان عنصرًا هامًّا في المأساة، كما أنّني لا أدعو إلى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها ولٰكن أتشوّف إلى تجنّب آثارها المدمّرة على الحقيقة، تصوّر أن نقيّم أنفسنا دون خضوع للأنانيّة، أن نقيّم أوطاننا بلا تأثّر بما ندعوه الوطنيّة، وبصفة عامّة أصبح الإنسان العاقل حلمي كما كان الإنسان الإلٰهيّ من قبل. . .

قلت له:

ـ هٰذه الصورة العقليّة للعالم صوّرها أناس في كتبهم في صورة مخيفة. . .

ـ أعلم ذٰلك، لأنّهم عالجوها بقلوب رومانتيكيّة مريضة وسخيفة، ولكنّي أومن بأنّ العقل سيُغني الإنسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعًا مثل الزائدة الدوديّة.

ـ ولكن كيف انقلبتَ هٰذا الانقلاب الخطير من النقيض إلى النقيض...؟

ـ كما قلت لك من قبل إنّي أتحرّك في الحياة بالطفرة، لقد اكتشفت عالم العقل فجأة ففُتنت به، وأيقنت أنّني كنت أغامر في خواء، وأنّي مدعوّ الآن حقًّا للمغامرة في عالم الفكر، هٰذه هي المغامرة الحقّة...

فسألته باهتمام:

ـ وماذا عن الحرّيّة؟

ـ مثل المغامرة، تمارسها أحيانًا كمتعة للغرائز كما استمتعت بمروانة والنبيذ والمنزول، هي عبوديّة متنكّرة في لباس حرّ، الحرّيّة الحقيقيّة وعي بالعقل ورسالته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرّيّة الإرادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذي يجريها مجرى القيود، فهي حرّيّة في لباس عبوديّة، وجرت حياتي على هٰذا النحو في رحاب بيت المنيل، فثمّة ساعات للمذاكرة، وساعات للقراءة الحرّة، وساعات للمناقشة والنزهة والحبّ، على طريق طويل رفعت على ساريته راية العقل...

وهنا قلت له:

ـ هلّا حدّثتني الآن عن المأساة؟

فنفخ وهو يقول:

ـ انتظر قليلًا، فثمّة مأساة خاصّة، ولكنّي أودّ أن أعرض عليك رؤياي عن مأساة عامّة أوّلًا، هي مأساة الإنسان العاقل، فقبل خلق العقل كان الإنسان منسجمًا مع ذاته وحياته، حياة صراع قاسية ولكن يبدو ألّا حيلة له فيها، مثله مثل أيّ حيوان آخر، فلمّا أن وُهب العقل، وشرع يخلق الحضارة، حمل أمانة جديدة، مسئوليّة لا مفرّ منها، وفي الوقت نفسه هو غير أهل لتحمّلها، بدأ يدرك النظرة الشاملة، وأنّ حياته على الأرض هي حياة رجل واحد رغم التناقض الظاهريّ، ولكنّه كان وما زال يمرّ بفترة انتقال تتواجد فيها الغرائز والعقل معًا، فما يقول به العقل تعارضه الغرائز، وما يزال النصر مقرّرًا حتّى اليوم للغرائز، على الأقلّ في الحياة العامّة، لم يظفر العقل بالسيادة المطلقة إلّا في العلم، فيما عدا ذٰلك فهو يخضع للغرائز، حتّى ثمار العِلْم نفسه تلتهمها الغرائز، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصّة في مجال البحث فاللغة التي تستجيب لها الملايين ما تزال هي لغة العواطف والغرائز، أغاني الجنس والوطن والعنصريّة والأحلام السخيفة والأضاليل، هٰذه هي المأساة العامّة، ولن تنقشع سحبها الحمراء إلّا حين يعلو صوت العقل وتتراجع الغرائز نحو الذبول والفناء...

أمّا مأساتي الخاصّة فنشأت من الصراع بين عقلي وبين إيماني الراسخ بالله.

واعترضني السؤال، كيف تصون إيمانك إذا أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك؟!

تزعزعت ثقتي في الإيمان الخالص كما تزعزعت في لغة القلب.

وعلى العقل أن يحلّ بقوّته هٰذه المشكلة.

والقول بأنّه لم يُخلق لذٰلك اعترافٌ بالعجز ليس إلّا، واقتراحُ بديلٍ له نسمّيه القلب أو البداهة اعتراف آخر بالإفلاس.

* * *

ـ وماذا قال لك عقلك؟

ـ عجز تمامًا عن إدراكه أو تصوّره ولكنّه لم يجد مفرًّا من افتراض وجوده، وهٰذه هي المأساة، وإذا قرّر أناس أنّ المشكلة مفتعلة، وأنّه يمكن أن نعيش دون التفكير فيها، فَقَدَ كلّ شيء معناه مهما خلقنا له من معنى بقوّة الخيال والإرادة والشجاعة، وإنّي لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين بلا إله...

وكاشفت هدى بهمومي، وهي مؤمنة إيمانًا بلغ من قوّته أنّها لم تبالِ يومًا بالصلاة أو الصوم، فقالت لي:

ـ لا يمكن تقبُّل الكون بغيره، ألا ترى إلى عمليّات الخلق المتواصلة تحت أعيننا في عوالم النبات والحيوان والإنسان؟... فلا يمكن الشكّ في قوّة الخلق...

قلت لها:

ـ أريد علاقة حميمة واقتناعًا لا مفرّ منه مثل ١ + ١ = ٢.

فقالت هدى:

ـ نحن نتكلّم عن القلب كنبع للإيمان ولكن تذكّر أنّ الله لم يعبده إلّا الإنسان العاقل، فالعقل في الواقع هو أساس الإيمان ولكنّ عجزه النسبيّ عن إدراكه ـ مع حرصه عليه ـ جعله يُرجع الإيمان به إلى عضو آخر هروبًا من التناقض.

فقلت لها:

ـ لقد أدرك الإنسان الحياة والموت والخوف فافترض عقله فرضًا لينقذ الأمل، وحتّى موسى نفسه أراد أن يرى الله!

* * *

عند ذاك سألته:

ـ ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر؟

فطوّح برأسه إلى الوراء مرسلًا بصره الضعيف نحو جدول النجوم الجاري بين مئذنة الحسين من جهة وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى وتمتم:

ـ إنّي عاجز عن الكفر بالله!

* * *

ثمّ واصل حديثه قائلًا:

ـ تقدّمت في الدراسة، أحرزت النجاح بعد النجاح، اتّسعت مداركي، تنوّعت ثقافتي، أنجبت أربعة ذكور، عشت فترة تُعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتي.

وكان محمّد شكرون هو الذي يوصل النفقة الشرعيّة إلى أمّ مروانة، وعندما بلغ ابني الأكبر السنّ التي أستحقّه فيها قرّرت أن أستردّه، وخاطبت في ذٰلك هدى فلم تمانع والحقّ يقال، ولكن تبيّن لي أنّ مروانة تزوّجت وأنّها رحلت هي والأولاد إلى إحدى الواحات، بل قيل إنّها رحلت إلى ليبيا، واشتدّ حزني طويلًا. . .

ولم تهن صداقتي بمحمّد شكرون، كنّا نصلّي الجمعة معًا في جامع الحسين ثمّ نتناول الغداء في الحلميّة، وقد اقتصر إسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع عن الخمر في رمضان، وكان يؤكّد لي أنّ الفنّانين أمثاله سيحاسَبون حسابًا ملطّفًا تراعى فيه ظروف حياتهم ومتطلّبات مهنتهم، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة الثانية قد تأكّد، كما أنّ ألحانه الشعبيّة ذاعت وطُبعت في أسطوانات ناجحة، وقد انتقل هو وأسرته إلى روض الفرج ولٰكنّه لم ينجب ذرّيّة.

وقد ظلّ صديقي الوحيد حتّى تعرّفت على زملاء من خان جعفر ممّن سبقوني في التعليم وعملوا محامين ومدرّسين، وقد أفدت منهم في دراستي، ولم يقف أثرهم عند هٰذا الحدّ كما سوف ترى. . .

وسعدت بالأبناء أكثر من أيّ شيء آخر، كانوا آيات في الجمال والصحّة والنضارة، وكان البكريّ صورة طبق الأصل من جدّه الراوي.

أمّا جدّي نفسه فما عرفت عنه إلّا اليسير ممّا كان يبلغني عن طريق محمّد شكرون.

طعن الشيخ في السنّ، اعتكف في بيته بصفة شبه دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة، وخصّص ليلة واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين، وأحيانًا تستغرقه الشيخوخة فيخيّل إلى من يعاشره أنّه نسي همومه الماضية والراهنة، فبتّ أشكّ في أن أبقى مجرّد ذكرى في روحه.

وتتابع النجاح والتفوّق والسنون حتّى نلت درجة الليسانس في الحقوق.

وأتمّت هدى نعمتها عليّ ففتحت لي مكتبًا للمحاماة في ميدان باب الخلق، وأثّثته بمكتبة غنيّة وحجرة استقبال فاخرة لا يوجدان عادة إلّا في مكاتب كبار المحامين!

هٰكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة.

٧

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه، فهو سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدئ، وأنا أعمل في الواقع كتابع له وفي نطاق نشاطه.

ولكنّ مكتبي صار ملتقى للأصدقاء الذين اتّخذت منهم مرشدين في دراستي القانونيّة، وكانوا في الأصل أقران طريق من بعيد، وفي ذٰلك الملتقى الدائم تمّ الغزو السياسيّ لروحي. . . .

أودّ أن أقول لك إنّني لم أكن مقطوع الصلة بالسياسة كما قد تظنّ، ففي بيت جدّي كان يزوره فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة، وكانوا جميعًا

ذوي طابع واحد، فهم يمجّدون الصفوة التي يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن.

وكان الحديث يدور كثيرًا حول الدستور، لا باعتباره أساس الحكم للشعب، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعيّة الحكم وتؤكّد ذاتهم في مواجهة الحاكم، وكأنّ الميدان لا يشغله إلّا الحاكم والصفوة.

وكانوا يستحوذون على إعجابي بفخامة منظرهم وشواربهم الكثّة ولحاهم المهذّبة، وكانوا يتحاورون بهدوء وتؤدة، ويتكلّمون كثيرًا عن العلم والتعليم والبعثات وتجديد الفكر الدينيّ، ولم يخفوا احتقارهم للغوغاء وحكم الغوغاء، وأكّدوا على حاجة الشعب إلى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتّى يحقّ له قدر من المشاركة المتواضعة في الحياة السياسيّة.

وسمعت جدّي يتساءل مرّة:

- إذن فالسياسة في نظركم مثل التصوّف مضنون بها على غير أهلها؟

وجاء الجواب بالإيجاب فتساءل جدّي:

- ومَن يرعى مصالح الغوغاء؟

وكان الجواب:

- نحن أصحاب المصالح الحقيقيّة، فنحن أهل الزراعة والتجارة والصناعة، أمّا الغوغاء فحاجتها لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات...

وملْتُ في ذلك الوقت إلى الاقتناع بتلك النظريّة، والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور، وحمدت الله على انتمائي في النهاية إلى الصفوة لا الغوغاء.

وقد مرّت بنا أيّام مثيرة، تعالى فيها اسم الشعب حتّى ملأ الفضاء، وتدفّقت أمواج المظاهرات من الغوغاء كالطوفان، فراقبتها من فوق السطح بذهول وسرور.

بيد أنّني لم أنفعل بالسياسة بقوّة ملحوظة أبدًا، وآمنت بأنّه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرّها من غير أن أطرق للسياسة بابًا.

* * *

في مكتبي بميدان باب الخلق غزتني السياسة بعنف لأوّل مرّة، وعلى غير توقّع.

اصطرعت في حجرة مكتبي أفكار الليبراليّة والاشتراكيّة والشيوعيّة والفوضويّة والسلفيّة الدينيّة والفاشستيّة. وجدتني في دوّامة صاخبة دار بها رأسي، وعملًا بمبدئي في تقديس العقل نزعت إليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان.

وذات يوم سألني الأستاذ «سعد كبير» ونحن بصدد استعراض المذاهب، وسوف أقتصر على ذكر اسمه لخطورة الدور الذي لعبه في حياتي ولتفاهة أثر الآخرين، سألني:

- ما أنت؟

فقلت بعد تردّد:

- لا شيء.

فقال بحنق وكان شديد الحساسيّة والعصبيّة رغم ذكائه وشمول ثقافته:

- إنّه الموت...

- ولكنّي دارس مجتهد ممّن يقدّسون العقل.

- وهل يتمّ للعقل مضمونه دون أن يبدي رأيه في نظام الحكم البشريّ؟

- ولكن... ولكنّ السياسة مصالح.

- المصالح تهدي الرجل العاديّ إلى حزبه ولكنّ العقل يستطيع بنوره أن يميّز بين الحقّ والباطل...

فتساءلت مبتسمًا:

- أين توجّهني مصالحي فيما تظنّ؟

- ولكنّك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك...

- على أيّ حال يجب أن أعطى مهلة أطول للتفكير.

وأفضيت بهمومي إلى هدى باعتبارها الصديق الأوّل الذي لا أخفي عنه شيئًا، فقالت بلا تردّد:

- الاحظ أنّ السياسة مفسدة للعقل.

فقلت لها وكأنّما أعلن عمّا يضطرم في أعماقي:

- ذلك يتوقّف على العقل نفسه...

فقالت لي بإيمان:

- في السياسة يجد العقل نفسه في محنة...

- ربّما، ولكن لن يكون الحلّ في الهرب.

الحقّ أنّ التفكير أصبح جزءًا لا يتجزّأ من حياتي، وما سمعته في مكتبي قد تحدّاني بعنف، فرُحْتُ أتساءل عن معنى ذلك كلّه، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة

فإنّني لم أشكّ في أنّ بعضهم ينظر إلى «وضعي الطبقيّ» نظرة عدائيّة أصيلة، وبالتبعيّة جعلت ـ لأوّل مرّة ـ أنظر إلى هٰذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسيّ اجتماعيّ، كأنّما استيقظت فجأة لأجد نفسي مستلقيًا فوق فوهة بركان.

أجل فإنّني بصفتي حفيد الراوي أنتمي إلى الطبقة الإقطاعيّة، وعليه فمصلحتي تتّفق مع حكم الصفوة، ولعلّها لا تتناقض بحدّة مع السلفيّة الدينيّة، ولٰكنّي لا أتّفق مع الليبراليّة الشعبيّة، وأمّا الشيوعيّون والاشتراكيّون فهم أعدائي الطبيعيّون، مثل عداوة القطّ والفار، هٰكذا فكّرت، ثمّ تساءلت هل يتيسّر لي رغم ذٰلك أن أحكّم العقل بنزاهة بين هٰذه المذاهب؟ أو تخونني العواطف فأستخدمه كعبد ذكيّ؟

بوسعي أن أوثر السلامة بتجنّب السياسة ولٰكنّني آمنت بأنّ ذٰلك لا يتّفق بحال مع احترام العقل وتقديسه.

السياسة هي الحياة.

ولم ينقطع الحوار بيني وبين «سعد كبير» فقد وجدت في موقفه التحدّي الحقيقيّ الذي يواجهني بكلّ صلابة.

قلت له مرّة:

ـ السياسة عالم رحيب، مفاتنه موزّعة على جميع المذاهب!

فتقلّص وجهه الأسمر، دقيق القسمات، وقال:

ـ مغفور لك تردّدك فلا بدّ للفكرة من مهلة حضانة.

ـ صبرك، إنّي أجد في الصفوة نبلًا وثقافة وعراقة تاريخيّة.

ـ ممكن في نظام اجتماعيّ عادل أن يرتفع كافّة الأفراد إلى مرتبة الصفوة. . .

فتفكّرت مليًّا ثمّ قلت:

ـ وفي الليبراليّة حرّيّة وقيم وحقوق للإنسان آية في الجمال؟

ـ استغلّ ذٰلك كلّه لخدمة طبقة معيّنة.

فقلت بالإخلاص نفسه:

ـ وفي الشيوعيّة عدالة كاملة تجد المذاهب البشريّة في مناخها تفتّحها وازدهارها. . .

ـ لعلّ هٰذا أقلّ ما يقال فيها!

ـ وفي الدين مزايا متوازنة لا تُعَدّ ولا تُحصى.

ففقد أعصابه هاتفًا:

ـ اللعنة!

فقلت دون مبالاة بعصبيّته:

ـ لا بدّ من الحقيقة ولو طال التخبّط. . .

وكانت هدى في الحقيقة ليبراليّة أصيلة ترى في النظام الإنجليزيّ مثلها الأعلى، وكانت تتابع تأمّلاتي باهتمام مشوب بالقلق حتّى سألتها:

ـ لِمَ تقلقين يا هدى؟

فقالت لي بصراحة:

ـ التفكير في السياسة قد يُتْبَع بنشاط سياسيّ وهو أمر لا يخلو من خطورة.

فقلت لها متنهّدًا:

ـ الأمان جميل ولٰكنّ في الحياة أشياء أهمّ من الأمان. . .

ـ لذٰلك أشعر أحيانًا بأنّ بيتي السعيد أصبح مهدّدًا. . .

فقبّلتها وأنا أقول:

ـ كوني شجاعة كعهدي بك دائمًا. . .

ـ أصبحت الموضة هٰذه الأيّام أن يؤمن الشباب بالشيوعيّة. . .

ـ ولٰكنّي أفكّر يا عزيزتي فلا تهمّني الموضة بحال من الأحوال.

وواليت الدراسة والتفكير.

* * *

وهنا قهقه عاليًا بصوت أزعج النائمين والهائمين في الحارة التاريخيّة فسألته:

ـ ماذا يضحكك؟

ـ سأعترف لك بسرّ لم أبح به لإنسان، ولا لزوجتي الصديقة.

ـ حقًّا؟!

ـ خطر لي ذات مرّة أنّه توجد أوجه شبه بين حياة النبيّ وحياتي!

وتريّثت قليلًا ولٰكنّي لم أعلّق فواصل حديثه:

- فقد توفّي والدي وأنا دون الوعي وتوفّيت أمّي وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمري فتكفّلني جدّي، ثمّ تصوّرت خروجي من قصر جدّي نوعًا من الهجرة.

- ولكنّ النبيّ لم يهاجر من أجل المغامرة.

- كلّا... كلّا... إنّه تشابُه وليس تطابُقًا...

ثمّ جاء زواجي من سيّدة ذات حَسَب ونَسَب تكبرني في العمر، وكيف وجدت في المناخ الذي هيّأته لي فرصة طيّبة للدراسة والتفكير، تأمّلت ذلك فخطر لي أنّني سأكون صاحب رسالة أيضًا...

فتساءلت ضاحكًا:

- رسالة دينيّة؟

- لتكن رسالة من نوع جديد، ولكن سرعان ما فتنتني الفكرة فبتُّ أسيرًا لها... وواليت الدراسة والتفكير.

وكنت أحذّر نفسي دائمًا من خدع الغرائز والعواطف لأنقّي تفكيري من كلّ شائبة.

ووصلت إلى أولى النتائج، وهي أنّ نظامنا الاجتماعيّ غير معقول، ظالم، وأنّه مسئول عن أدوائنا من الفقر والجهل والمرض، وأنّني لست من الصفوة كما توهّمت كثيرًا ولكنّني فرد من عصابة، واحتجّت هدى على هذا الوصف ونوّهت بشرف أجدادها، ولكنّني أخذت في تحليل أسباب الثراء من الهبات والانتهازيّة والاستغلال والعسف والقوّة حتّى اقتنعت بأنّه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة...

وشجّعني سعد كبير قائلًا:

- هذا اتّجاه طيّب يَعِدُ بخاتمة طيّبة، ولكن عليك أن تبدأ بالمادّيّة الجدليّة والمادّيّة التاريخيّة...

فقلت بثقة:

- إنّي أقف موقفًا واحدًا من جميع الفلسفات، والفلسفة الماركسيّة ليست إلّا فلسفة من الفلسفات فلماذا تتحوّل إلى عقيدة، ولماذا تفرض نفسها بالقوّة والدكتاتوريّة؟

- ليست فلسفة من الفلسفات، ولكنّها أُنزلت من سماء التأمّل النظريّ لتطبّق على حياة الناس، ولتعطي للبشريّة أملًا جديدًا، فهي تستحقّ أن تكون عقيدة...

فقلت متململًا:

- الجزم بالمادّيّة ليس أقوى في شرعة العقل من الجزم بالله...

فقال بازدراء:

- ما زلت مثاليًّا.

فهتفت بغضب:

- لا ترمِ بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة الموضوعيّة.

فرجع إلى الهدوء وقال:

- ادرس، يلزمك مزيد من الدراسة.

فقلت:

- ولكنّني غير مقتنع بالنظريّة على حين أنّني أرى العدالة الاجتماعيّة بديهيّة لا تحتاج إلى نظريّة.

وانقطعتُ زمنًا للدراسة والتفكير.

وصار صدري معتركًا لصراع كالجحيم.

في ذلك الوقت لم أستمتع بصداقة زوجتي إلّا قليلًا، ولم أهنأ بملاعبة أبنائي إلّا خطفًا، ولاحت لعينيّ فكرة الرسالة كقوّة واعدة ومسيطرة، ومتواضعة في الوقت نفسه لأنّني نذرت نفسي لإنقاذ البشريّة في مصر فحسب!

وكنت أفكّر وأعاود التفكير، وأوجّه إلى نفسي التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيري في مزالق العاطفة أو العقائد الموروثة.

ولكي تتّضح لي الأمور قرّرت أن أسجّل أفكاري على الورق.

فسألته باهتمام:

- وفعلت؟

- نعم.

- هل طبعتها في كتاب؟

- كلّا، سبقتني الأحداث.

- أتذكر خلاصتها؟

قال وهو يضحك:

- عرضت تاريخًا موجزًا للمذاهب السياسيّة والاجتماعيّة، من الإقطاع حتّى الشيوعيّة، ثمّ عرضت مشروعي الذي يقوم على أسس ثلاثة، أساس فلسفيّ، مذهب اجتماعيّ، أسلوب في الحكم، أمّا

الأساس الفلسفيّ فمتروك لاجتهاد المريد، له أن يعتنق المادّيّة أو الروحيّة أو حتّى الصوفيّة، والأساس الاجتماعيّ شيوعيّ في جوهره يقوم على الملكيّة العامّة وإلغاء الملكيّة الخاصّة والتوريث والمساواة الكاملة وإلغاء أيّ نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى في التعامل «من كلّ على قدر طاقته ولكلّ على قدر حاجته»، أمّا أسلوب الحكم فديموقراطيّ يقوم على تعدّد الأحزاب وفصل السلطات وضمان كافّة الحرّيّات ـ عدا حرّيّة الملكيّة ـ والقيم الإنسانيّة، وبصفة عامّة يمكن أن تقول إنّ نظامي هو الوريث الشرعيّ للإسلام والثورة الفرنسيّة والثورة الشيوعيّة.

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير وأنا أقول:

ـ هاك رأيي...

فتناوله بدهشة وهو يتمتم:

ـ حقًّا؟!

فقلت بإصرار:

ـ ولن تخيفني نعوتك المشهورة، برجوازيّ... تصالحيّ... تجميعيّ، فمن حقّي أن أنشئ مذهبًا جديدًا إذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة...

فلاحت في عينيه نظرة ارتياب وقال:

ـ بشرط أن تنشئ حقًّا لا أن تلفّق.

فقلت غاضبًا:

ـ جميع المذاهب أخذ وعطاء.

وقرأ سعد كبير المخطوط في مكتبي حتّى فرغ منه في حوالي الساعتين أو أكثر ثمّ تنهّد طويلًا وتمتم:

ـ لا فائدة!

فانتظرت متوثّبًا فعاد يتمتم وكأنّما يحادث نفسه:

ـ سمك لبن تمر هنديّ!

فقلت له:

ـ أفصِحْ.

فقال بعصبيّة:

ـ تلفيق... أحلام يقظة... خيال... تجميع ما لا يجتمع... لا شيء...

ـ أهٰذا هو رأيك النهائيّ؟

ـ ماذا تتوقّع؟

ـ أتوقّع أن تقتنع برأيي.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ ثمّ نكوّن جمعيّة... هيئة... حزبًا...

فضحك ضحكة باردة وتمتم:

ـ يا للخسارة!

فقلت محتدًّا:

ـ إنّكم مسلوبو الإرادة والتفكير!

فقال بجدّيّة تامّة:

ـ أنت تعلم على الأقلّ أنّنا جادّون، وأنّنا نحمل رءوسنا على أكفّنا، وأنّنا نؤمن بالإنسان!

ـ إنّي أومن بالإنسان أكثر منك، لا أصدّق أنّ مؤمنًا حقًّا بالإنسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتاتوريّ، وإنّي جادّ أيضًا، وعلى استعداد لحمل رأسي على كفّي...

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ سأكوّن جمعيّة أو حزبًا...

وقام سعد كبير وهو يقول بفتور:

ـ لنا رجعة ورجعة ورجعة...

وقبل أن أشرع في الدعوة إلى تكوين الجمعيّة شاورت زوجتي في الأمر فانزعجت جدًّا، وكانت قد قرأت المخطوط بعناية، وقالت:

ـ إنّك قانونيّ وتعلم أنّ دستور البلاد يعتبر الشيوعيّة جريمة.

فقلت:

ـ الشيوعيّة شيء ومذهبي شيء آخر...

ـ إنّك تدعو إلى نظام اجتماعيّ شيوعيّ وهٰذا هو ما يهمّ القانون وواضعيه...

ـ يمكن أن أغيّر صياغة البند الثاني فإنّي أجد مثلًا أنّ كلمة الاشتراكيّة مقبولة ثمّ إنّني مؤمن بالله رغم أنّني لا أريد فرض الإيمان على أحد، وأخيرًا فإنّني مستمسك بالنظام الديموقراطيّ كما يمارَس في الغرب، ألا يُبعد كلّ ذٰلك الشبهة عنّي؟

ـ لا أظنّ يا عزيزي، فإنّي أراك في الواقع شيوعيًّا قحًّا في الأمر الجوهريّ الذي يهمّ مَن يملكون ومَن لا يملكون...

ـ المسألة أنّكِ يا هدى لا تؤمنين بي...

- إنّي ديموقراطيّة، وأرى الديموقراطيّة نظامًا لا ينقصه كي يبلغ الكمال إلّا الرعاية الإنسانيّة لجماهير الشعب! وإنّه لا يداخلني شكّ في أنّ المواطن الإنجليزيّ مثلًا يتمتّع بحياة أفضل من المواطن الروسيّ. . .

- أمّا أنا فلا أشاركك الإيمان بذلك. . .

فقالت بشيء من الاستياء:

- حسن، طالما اتّفقنا في كلّ شيء، والآن آنَ لنا أن نختلف!

وكان سعد كبير يحاول من ناحيته إقناعها بالماركسيّة.

كان الأصدقاء يتناولون العشاء كثيرًا على مائدتنا، ودعوت محمّد شكرون معهم ولكنّه لم يرتح إلى صحبتهم وتلقّى مناقشاتهم بالتثاؤب.

وأظنّ أنّه يجب أن تعرف شيئًا أكثر عن سعد كبير، لقد كان أحد الأصدقاء الذين يجتمعون في مكتبي للمناقشة، يمثّلون في مجموعهم جميع المذاهب حتّى المذهب الإقطاعيّ البائد، ولكنّه كان أشدّهم حماسًا وتفاعلًا مع مصيري، كان محاميًا مبشّرًا، راسخًا في مادّته، ذا ثقافة واسعة، ومقدرة في الجدل والمحاضرة، وكان ذا طبيعة حادّة متماسكة، شديد اليقين بما يؤمن لحدّ التعصّب الأعمى، من الذين يعملون بكلّ قواهم في اتّجاه واحد، ولا يتوانى عن تحطيم خصمه بكلّ الوسائل البلاغيّة والمناورات الغريبة التي تثير ثائرة مَن يحترم العقل ويقدّسه مثلي.

وقد لمحت في عينَي هدى إعجابًا به واستسلامًا لجدله الحماسيّ العنيف.

وذات يوم قال لي محمّد شكرون:

- أصحابك لا يعجبونني. . .

فقلت له متودّدًا:

- ولكنّهم طيّبون.

فقال بفتور:

- ربّما لكنّ المدعوّ سعد كبير ليس بالطيّب.

- ولكنّه رجل ممتاز بكلّ معنى الكلمة.

- ربّما. . . لكنّه أذكى ممّا يجب.

فضحكت مؤمّنًا بقوله فعاد يقول:

- لا تفتح بيتك لكلّ مَن هبّ ودبّ.

فآنست من صوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير فاشتعل وجداني وسألته:

- ماذا تعني يا شكرون؟

فقال متهرّبًا:

- المسألة أنّني لا أرتاح إليه.

فقلت بحدّة شديدة:

- أفصِحْ!

- إنّه من النوع المُعْتَدّ بنفسه ولكنّه ليس أهلًا للثقة.

- إنّك تقصد أشياء أكثر من ذلك. . .

- أبدًا، وأقسم على ذلك برأس الحسين!

بعد ذلك الحوار لم أرجع إلى طمأنينتي السابقة، وجعلت أراقب ما يدور حولي بدقّة وسوء ظنّ، وفي الوقت نفسه أبت عليّ كرامتي أن أغيّر من نظام الأشياء، ولو بدر منّي أمر كهذا لأغضبت بلا شكّ سيّدة أبيّة مثل هدى، ولسقطت في نظرها، ولكنّي جعلت أراقب وأحترق من شدّة الانتباه والقلق، كان ينهمك في الحديث معها فتنهمك معه، ووضح لي أنّ أسلوبه في الحوار يعجبها ويبعث فيها حيويّة دافقة وأنّها تبدو في شوق دائم إلى المزيد منه.

وقلت لها في أعقاب سهرة:

- لن أدهش إذا اعترفت لي فجأة بأنّك شيوعيّة!

فابتسمت متسائلة:

- أغرّك إقبالي على حديثه؟

- وتأثّرك به. . .

- إنّه شخص ممتاز ولذلك فإنّني أرثي له!

كانت هدى في ذلك الوقت في الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير في الثلاثين، ولم يكن بقي في قلبي لها إلّا صداقة عميقة، ورغم ذلك ركبني الهمّ، ورحت أتساءل عمّا عناه محمّد شكرون، هل رأى أكثر ممّا رأيت، هل كتم عنّي أشياء، هل تعاني هدى أزمة من أزمات الشيخوخة؟ ولكنّها كانت وما زالت مثالًا للعقل والرزانة، ولم أعثر من ناحيته على إشارة واحدة تستحقّ الريبة، لا إشارة ولا حركة ولا كلمة، ورغم ذلك كلّه اهتزّ عقلي المقدّس، وسقطت فريسة

لانفعالات مبهمة. . .

ثمّ اجتاحتني المأساة كأنّها زلزال غير مسبوقة بأسباب واضحة. . . .

* * *

وصمتّ مليًّا فتساءلتُ:

ـ المأساة؟

فضحك ولم ينبس فعدت أتساءل:

ـ المأساة؟. . . ماذا قلت؟. . .

ـ وقعت المأساة وأنا أتأهّب لتكوين الحزب.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ وأتهيّأ لخوض غمار المعركة متحدّيًا اليسار واليمين معًا.

وواصل حديثه متنهّدًا:

ـ كنّا مجتمعين في مكتبي أنا وسعد كبير منفردين، وجرى الحديث، حادًّا من ناحيته كالعادة وحادًّا من ناحيتي على غير العادة. . .

قال ثائرًا:

ـ إنّك تتوهّم أنّك صاحب مذهب ميتافيزيقيّ اجتماعيّ سياسيّ، إنّ أيّ مذهب خليق بأن يستغرق عمرًا كاملًا في تكوينه، ولٰكنّ القارئ يطّلع على المذاهب كلّها في عام أو عامين، وقد يتراءى له أن يقوم بعمليّة انتخاب من المذاهب يظنّها تفكيرًا وهي ليست إلّا عمليّة انتخاب للجمع بين متناقضات يستطيعها أيّ مخلوق، ويمكن بهٰذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الأمّيّين في العالم!

وصحت به على غير توقّع منه:

ـ وقح. . . قليل الأدب. . .

نظر إليّ بذهول وتمتم:

ـ ماذا؟

فصحت بإصرار:

ـ وقح. . . قليل الأدب. . .

فتساءل بحنق:

ـ أنسيت أنّك تخاطب أستاذك؟!

وثبت عليه.

لطمته، لكمني، اشتبكنا في صراع مخيف، لم يوجد من يخلّص بيننا، كنت أقوى منه وكان أكثر شبابًا، ولمّا بدأت ألهث تناولت قطّاعة الورق. . .

* * *

وصمت مليًّا.

ورحت أتخيّل المنظر.

ثمّ واصل حديثه.

ـ صورة وجهه لا يمكن أن تُنسى، أعني بعد أن غرزت النصل الحادّ في عنقه، وجهه وهو ينطفئ هابطًا إلى قرارة الظلمة، وهو يتخلّى عن المعركة ويستسلم للمجهول، وهو يتخلّى عن الجدل والذكاء والمجد وكلّ شيء.

هتفت:

ـ قتلت يا جعفر؟

ـ أصبح جعفر الراوي قاتلًا.

ـ يا للخسارة!

ـ وقفت أتأمّل جثّته الملقاة بين المكتب والكنبة الجلديّة في ذهول بارد سرمديّ وأنا أشعر بأنّني تخفّفت دفعة واحدة من كافّة أعباء الحياة وانفعالاتها ثمّ غصت فجأة إلى أعماق دنيا العلم فرأيت من كوّة في جدارها المتهافت شبح المأساة وهو يجري بعيدًا عنّي، في كون آخر مضادّ لا تربطني به صلة بشريّة، وسمعت صوتًا، لعلّه صوتي أو صوت آخر يهتف مذبوحًا «يا عقلي المقدّس، لماذا تخلّيت عنّي؟».

ـ يا للخسارة. . .

ـ من رئاسة حزب إلى التأبيدة!

وبعد صمت ثقيل قصير سألته:

ـ أكان للقتل ما يبرّره؟

ـ من ناحية فللقتل ما يبرّره دائمًا ومن ناحية أخرى فلا شيء يمكن أن يبرّر القتل.

ـ أعني هل وجدت في شكوكك ما يبرّر القتل؟

ـ لا شيء ألبتّة، صدّقني، وجاء انهيار زوجتي حزنًا عليّ مؤكّدًا لحماقتي، كأنّ المأساة قد وقعت لتسخر من عابد العقل ومقدّسه، هٰذا كلّ ما هنالك. . .

ـ وهل ورد في المحكمة ذكر لشكوكك؟

ـ كلّا، أبيت ذٰلك كلّ الإباء، فصُوّر الموضوع في المحكمة باعتباره نزاعًا بين شيوعيّين أدّى إلى القتل. . .، وكنت في السجن أصرّ على اعتباري مجرمًا

سياسيًّا ولكنّي اعتُبرت مجرّد قاتل، وحتّى اليوم فإنّي مصرّ على أنّي مجرم سياسيّ، ما رأيك؟

- لعلّك مجرم نصف سياسيّ!

- ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلًا...

- ربّما... ولكن ماذا كان موقف جدّك؟

- قبيل الحادث بأيّام جاءني محمّد شكرون وأخبرني أنّ جدّي مريض جدًّا، واقترح عليّ أن أزوره مصطحبًا زوجي وأبنائي، شاورت هدى في الأمر فرحّبت به جدًّا، وأجّلت الزيارة ليوم الجمعة ولكنّ الجريمة وقعت مساء الخميس، ولم يصلني من ناحيته رسول أو رسالة ولا عرفت حتّى إن كان علم بجريمتي.

المهمّ أنّي طالبت في السجن باعتباري مجرمًا سياسيًّا رغم أنّه لا توجد تفرقة في المعاملة بين المجرم السياسيّ والمجرم العاديّ، واشتُهرت بذلك فصرت به دعابة، واعتُبر أحيانًا شغبًا تعرّضت بسببه لعقوبة الجَلْد، وقد زارتني هدى مرّة واحدة...

فتساءلت باهتمام:

- هل انقطعت بعد ذلك...؟

- انتقلت إلى جوار ربّها!

ثمّ واصل:

- حزنت جدًّا، وقلقت على الأبناء جدًّا، ثمّ أخبرني شكرون أنّ عمّة والدتهم تكفّلت بهم وأنّهم سافروا إليها في المنيا ليبقوا تحت رعايتها ولا شكّ أنّهم نسوني سريعًا كما نسيت أمّي في مثل سنّ أكبرهم، وفي زيارة تالية أخبرني محمّد شكرون أنّه سيقوم برحلة فنّيّة في شمال أفريقيا فانقطعت أخباره عنّي حتّى اليوم، مات جعفر الراوي ومات العالم الخارجيّ...

واصلت الجهاد في السجن داعيًا إلى مذهبي الجديد فاصطدمت بجهل وسلبيّة وسخرية، حتّى مأمور السجن دعوته، وكان يعطف عليّ لأصلي ومهنتي وسوء حظّي...

وفي السجن ضعف بصري وأصبت بأمراض شتّى. وخرجت وحالي كما تراني أمامك.

٨

خرجت وحالي كما تراني أمامك، خرابة من الخرابات...

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من الذكريات لا تصدّق.

ولكنّي لم أفقد صفاء الذهن ولا قوّة الإصرار ولم ينطفئ في قلبي سحر الآراء.

وقلت لو أعثر على محمّد شكرون فقد أجد فيه الخيط الذي يوصلني إلى قلب الأشياء، ولكنّي لم أعثر له على أثر، ولم أصادف أحدًا يعرفه وكأنّه لم يطرب بصوته جيلًا من الناس، وفي معهد الموسيقى الشرقيّ أخبرني أحدهم بأنّه - محمّد شكرون - أقام في المغرب ثمّ انقطعت أخباره.

وذهبت إلى قصر الحلميّة فوجدت مكانه عمارة شاهقة تملكها شركة تأمين، وكنت قد ورثت عن زوجتي مبلغًا محترمًا من النقود أنفقت أكثره في السجن في شراء السجائر وخلافه ولم يكد يبقى منه شيء ذو بال.

وذهبت أيضًا إلى عشش الترجمان ولكنّي لم أجد لها أثرًا، لقد اجتاحها العمران فتحوّلت إلى حيّ ستان ومحطّة بنزين.

وعثرت على زملاء غير قليلين، بعضهم على المعاش وبعضهم ما زال يعمل في المحاماة، وأصارحك بأنّه لم يتهرّب منّي أحد، واستقبلني بعضهم بحرارة، منهم من لا يزالون على حماسهم الأوّل لعقائدهم ومنهم من شغلته الحياة ومطالبها.

ولكن أين أبناء مروانة وأين أبناء هدى؟

وقرّرت أنّه لا خير يرجى من الاهتداء إليهم وأنّني يجب أن أتركهم دون إزعاج، ويطيب لي أحيانًا أن أتخيّل حيواتهم وحياة أحفادي منهم، أجل يوجد بينهم الآن قطّاع طرق وقضاة ولعلّهم أكثر ممّا أتصوّر، ولعلّي أصادفهم في تخبّطي فلا أعرفهم ولا يعرفونني...

ولمّا فرغت من هذه الأمور العاجلة فكّرت في إمكان استئناف الجهاد في سبيل مذهبي وتكوين الحزب، غير أنّني اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها، منها سنّي الطاعنة وضعفي الشديد، وسحنتي التي أصبحت تثير الرثاء بل وأحيانًا الاشمئزاز.

إنّ الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصيّة ذات

قوّة وجاذبيّة معًا، فضلًا عن ذٰلك فإنّ ميدان السياسة حافل بالشخصيّات ذوات الحيويّة والتأثير فقلت أسجّل نظريّتي في كتاب فإن أعجزني ذٰلك ـ ولا بدّ أن يعجزني ـ فإنّني سأدعو إليها حيثما أسير، وقد يتبنّاها عنّي شخص أقدر على نشرها وتحقيقها منّي...

عند ذاك بدا لي أنّه لم يبق لي إلّا الراحة القهريّة القصيرة التي تسبق الراحة الأبديّة...

* * *

ولاذ بالصمت مليًّا ثمّ تمتم بهدوء:

ـ طالعني من الماضي وجه الراوي...

هممت بالحديث ولٰكنّه بادرني قائلًا:

ـ لم أكن أشكّ في وفاته، ولٰكن ما مآلُ ثروته وقصْره؟... ووقفت تحت سور القصر الشاهق وهو قائم كالجبل، وتسلّلت إلى العطفة نحو الباب الكبير فادهشني أن أجده مواربًا...

وصمت لحظات ثمّ قال:

ـ دفعت الباب قليلًا ودخلت فرأيت منظرًا لم اتوقّعه، لم أتصوّره، لم يجرِ لي في خاطر، لا الحديقة هناك ولا السلاملك، لا أخلاط العبير ولا زقزقة العصافير، ولٰكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات ونفر من الصعاليك....

فهتفت مستغربًا:

ـ كيف... هل هدم؟

ـ لا شيء إلّا الخراب يحيط به جدار شاهق وباب عظيم، ونظر إلى الصعاليك بحذر وارتياب، فضربت الأرض بقدمي، ورحت أبحث عن أحد حيّ من مريدي جدّي، وفي أثناء بحثي وتجوالي علمت أنّ الراوي توفّي بعد سجني بعام واحد، وبأنّه أوقف ثروته كلّها على الخيرات دون أن يخصّص لي مليّمًا واحدًا ولا لأحد من ذرّيّتي، أمّا القصر فقد ألقيت عليه قنبلة في إحدى الغارات الجوّيّة ثمّ أزيلت أنقاضه، هٰذه هي القصّة كلّها من أوّلها لآخرها، وأدركت في الحال أنّني لن أظفر براحة في الراحة القهريّة القصيرة التي تسبق الراحة الأبديّة، ولٰكنّني قرّرت أن أجعل بيتي في الخرابة المتخلّفة عن قصر جدّي، وإنّي أنام فيها عادة ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك.

وضحك ضحكة قصيرة ثمّ سكت وهو ينفخ، فقلت برثاء:

ـ شيخوخة غير سعيدة.

فهتف بكبرياء:

ـ كلّا، إنّي أرفض الرثاء والعطف، تذكّر دائمًا أنّك تخاطب عظيمًا من الرجال، ومن أسباب عظمته السحريّة أنّه قادر على التكيّف مع أقسى الظروف والأحوال فيخوضها بكلّ تعالٍ وابتسام!

وآمنت بقوله ولٰكنّني قلت:

ـ على أيّ حال فإنّ الإعانة الشهريّة التي...

فقاطعني بحدّة:

ـ لقد اتّخذت فيها قرارًا!

ـ لم أظنّك جادًّا فيما قرّرت.

ـ ولكنّي جادّ كلّ الجدّ!

ـ أتعني أنّك لن تكتب الالتماس؟

ـ قطعًا!

ـ ولٰكنّه الجنون عينه...

ـ سَمِّه كما تشاء، لقد حرمني الراوي من تركته وإنّي أرفض أن أتسوّل منها مليّمًا واحدًا!

ـ ولٰكنّك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان ما تنفد النقود المتبقّية لديك...

ـ أعرف هٰذا حرفًا حرفًا ولٰكنّي أعْنَد من الراوي نفسه...

ـ دعني أكتب الالتماس بنفسي.

ـ إنّي أرفض.

ـ ولكن...

ـ إنّي أرفض الكلام حول هٰذا الموضوع...

وساد الصمت، وكان التعب قد نال منه محدّثًا كما نال منّي مستمعًا...

وتثاءبت فضحك قائلًا:

ـ إنّي لا أتثاءب قبل الفجر.

فتمتمت بفتور:

ـ عفارم.

ـ إنّي صعلوك متجوّل، أغادر خرابة الراوي لأهيم على وجهي في الطرقات، من مرجوش إلى الخرنفش إلى النحّاسين إلى خان جعفر، في كلّ مكان لي ذكرى

ونجوى، وفي الحلميّة ذكريات، وفي ميدان باب الخلق يخفق قلبي، وفي كلّ مكان أدعو دعوة صريحة إلى مذهبي، أدعو البشريّة إلى إنقاذ نفسها.

ـ مذهبك؟

ـ أجل...

ـ علانية؟!

ـ أجل...

ـ يجب أن تحذر المتاعب.

ـ إنّي لا أخشى المتاعب...

وقلت لنفسي إنّ هيئته لا توحي بأيّ جدّيّة فلا خوف عليه.

واستنمنا إلى الصمت مرهقين.

وفي لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذّن يعانق أمواج الظلام.

وتمطّى جعفر قائلًا بصوته الرنّان الخشن:

ـ آنَ لنا أن نذهب...

سرنا جنبًا إلى جنب، اخترقنا القبو إلى الميدان وهمس جعفر:

ـ لتمتلئْ الحياة بالجنون المقدّس حتّى النفَس الأخير.

وكان رأسي يطنّ بحديث الليل الطويل.

حضرة المحترم

١

انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لا نهائيّة. تراءت دنيا من المعاني والمثيرات لا مكانًا محدودًا منطويًا في شتّى التفاصيل. آمن بأنّها تلتهم القادمين وتذيبهم. لذلك اشتعل وجدانه وغرق في انبهار سحريّ. فَقَدَ أوّل ما فقد تركيزه. نسي ما تاقت النفس لرؤيته، الأرض والجدران والسقف. حتّى الإله القابع وراء المكتب الفخم. وتلقّى صدمة كهربائيّة موحية خلّاقة غرست في صميم قلبه حبًّا جنونيًّا ببهجة الحياة في ذروتها الجليلة المتسلّطة. عند ذاك دعاه نداء القوّة للسجود، وحرّضه على الفداء، ولكنّه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان. كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملي إرادته. وتلبية لإغراء لا يقاوَم خطف نظرة من الإله القابع وراء المكتب ثمّ خفض البصر متحلّيًا بكلّ ما يملك من خشوع.

وكان حمزة السويفي مدير الإدارة يتقدّم الموكب الصغير فقال مخاطبًا المدير العامّ:

ـ هؤلاء هم الموظّفون الجدد يا صاحب السعادة. . .

مرّ ضوء عينيه على الوجوه، وعلى وجهه ضمنًا، فجال بخاطره أنّه دخل تاريخ الحكومة، وأنّه يحظى بالمثول في الحضرة. وخيّل إليه أنّه يسمع همهمة من نوع عجيب، لعلّه يسمعها وحده، ولعلّه صوت القدر نفسه. ولمّا استوفت الفراسة امتحانها الوئيد تكلّم صاحب السعادة. تكلّم بصوت بطيء وهادئ ومنخفض فلم يكشف عن شيء يُذكر من جوهره. قال متسائلًا:

ـ جميعهم من حملة البكالوريا؟

فأجاب حمزة السويفي:

ـ بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسّطة.

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجّعة:

ـ العالَم يتقدّم، كلّ شيء يتغيّر، ها هي البكالوريا تحلّ محلّ الابتدائيّة.

اطمأنّت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من الخشوع، فقال الرجل:

ـ حقّقوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة.

وراح يراجع بيانًا بالأسماء حتّى سأل عن غير توقّع:

ـ مَن منكم عثمان بيومي؟

دقّ قلبه دقّة قويّة جدًّا. وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعًا مؤثّرًا عنيفًا. تقدّم خطوة مطرقًا وهمس:

ـ أنا يا صاحب السعادة!

ـ ترتيبك ممتاز في البكالوريا فلِمَ لم تكمل تعليمك؟

صمتَ. اضطربَ. لم يدرِ في الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب في وعيه طيلة الوقت. وعنه أجاب مدير الإدارة كالمعتذر:

ـ لعلّها ظروف يا صاحب السعادة!

سمع الهمهمة مرّة أخرى، سمع صوت القدر. ولأوّل مرّة شعر بأنّ ثمّة زرقة تخضّب الجوّ، وأنّ رائحة طيّبة غريبة تجول في المكان. ولم يحزنه أن يشار إلى «ظروفه» المعوقة بعد أن تقدّس شخصه بعطف صاحب السعادة وتقديره. وقال لنفسه إنّه يستطيع أن يحارب جيشًا بمفرده فينتصر عليه. والحقّ أنّه ارتفع وارتفع حتّى غاص رأسه في السحاب، وثمل لدرجة العربدة الوحشيّة. أمّا صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذنًا بالختام:

ـ شكرًا، ومع السلامة. . .

وهو يغادر المكان قرأ في سرّه آية الكرسي.

٢

- إنّي أشتعل يا ربّي.

النار ترعى روحه من جذورها حتّى هامتها المحلّقة في الأحلام. وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة، كمجموعة من نور باهر، فاحتواها بقلبه وشدّ عليها بجنون. كان دائمًا يحلم ويرغب ويريد ولٰكنّه في هٰذه المرّة اشتعل، وعلى ضوء النار المقدّسة لمح معنى الحياة. أمّا على الأرض فقد تقرّر إلحاقه بالمحفوظات. لم يهمّه كيف يبدأ فالحياة بدأت من خليّة واحدة بل من دون ذٰلك. وهبط إلى مقرّه الجديد وجناحاه ترفرفان، يشقّ طريقه إلى بدروم الوزارة. طالعته قتامة، ورائحة أوراق قديمة، ورأى سطح الأرض في الخارج عند مستوى رأسه من خلال نافذة مصفّحة. وامتدّ البهو أمامه، تتلاصق على جانبيه دواليب شنن، وصفّ طويل منها يشقّه شقًّا طوليًا. على حين استقرّت مكاتب الموظّفين في ثغرات بين الدواليب. ومضى وراء موظّف إلى مكتب يستعرض تجويفًا كالمحراب في الصدر جلس إليه رئيس المحفوظات. لم يكن أفاق من نفثة السحر المقدّسة، حتّى الغوص في البدروم لم يوقظه. سار وراء الموظّف بتشتّته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه: اللانهاية هي ما ينشد الإنسان.

وقدّمه الموظّف إلى الرئيس:

- عثمان أفندي بيومي الموظّف الجديد.

ثمّ قدّم الرئيس إليه قائلًا:

- رئيسنا سعفان أفندي بسيوني. . .

رأى في الوجه قرابة طبيعيّة كأنّما كان في الأصل من مواليد حارته. وأحبّ عظام وجهه البارز وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعّث، وأحبّ أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيّبة النزّاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى. ابتسم الرجل كاشفًا عن أقبح ما فيه، أسنان سود مثرمة، وقال:

- أهلًا بموظّفنا الجديد، اجلس. . .

وراح يقلّب في صور أوراق تعيينه ثمّ قال:

- أهلًا. . . أهلًا. . . الحياة يمكن تلخيصها في كلمتين، استقبال ثمّ توديع. . .

وقال عثمان في نفسه ولٰكنّها رغم ذٰلك لانهائيّة. وهفّت عليه ريح خفيفة مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات فقال إنّها لانهائيّة ولٰكنّها في حاجة إلى إرادة لانهائيّة كذٰلك. وأشار الرئيس إلى مكتب خالٍ متآكل الجلدة منجرد اللون ملطّخ ببقع حبر باهت وقال:

- مكتبك، تفحّص الكرسي بعناية فإنّ أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة. . .

فقال عثمان:

- بدلتي قديمة جدًّا والحمد لله. . .

فواصل الرجل تحذيره:

- واقرأ الصمديّة عندما تفتح دولابًا من دواليب شنن فقبل العيد الماضي طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقلّ طوله عن متر. . .

وضحك حتّى سعل ثمّ استدرك:

- ولٰكنّه لم يكن من نوع سامّ. . .

فتساءل عثمان بقلق:

- وكيف نفرّق بين السامّ وغير السامّ؟

- عندك فرّاش المحفوظات فهو أصلًا من أبو رواش وهي بلدة الثعابين. .

وتناسى ذٰلك واعتدّه مزاحًا. وراح يلوم نفسه كيف فاته أن يرى بكلّ عناية حجرة صاحب السعادة المدير العامّ، كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه، كيف لم يحاول أن يقف على سرّ السحر الذي يخضع به الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه. هٰذه هي القوّة المعبودة وهي الجمال أيضًا. هي سرّ من أسرار الكون. على الأرض تطرح أسرار إلٰهيّة لا حصر لها لمن له عين وبصيرة. إنّ الزمن قصير بين الاستقبال والتوديع ولٰكنّه لانهائيّ أيضًا. الويل للذي ينسى هٰذه الحقيقة. ثمّة أناس لا يتحرّكون مثل سعفان أفندي بسيوني. الرجل الطيّب التعس. إنّه يترنّم بحكمة لم يتعلّم منها شيئًا. كذٰلك كان أبوه عمّ بيومي. ليس كذٰلك مَن مسّت النار المقدّسة قلوبهم. هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألّقة عند صاحب السعادة المدير العامّ. هٰذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذٰلك. تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلّى الرحمة الإلٰهيّة والكبرياء البشريّ. ثامنة. . . سابعة. . . سادسة. . . خامسة. . . رابعة. . . ثالثة. . . ثانية. . . أولى. . . مدير عامّ. معجزتها تتحقّق في اثنتين وثلاثين عامًا، وربّما تحقّقت في أكثر من ذٰلك. أمّا الساقطون في وسط الطريق فلا حصر لهم. إنّ النظام الفلكيّ لا يطبّق على البشر وبخاصّة الموظّفون منهم. . . والزمن يستكنّ بين يديه

كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبّؤ بغده. إنّه يشتعل، هٰذا كلّ ما هناك. ويخيّل إليه أنّ النار المتّقدة في صدره هي التي تضيء النجوم في أفلاكها. نحن أسرار لا يطّلع على خباياها إلّا خالقها.

وقال له سعفان أفندي بسيوني:

- ستدرّب أوّلًا على الوارد فهو أسهل . . .

ثمّ وهو يضحك:

- على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل أو أن تحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه فيما وراء ذٰلك، ولكنّهم يرجعون إليها آخر شرّ الغبار والإكلبسات.

كلّ ذٰلك يسير، أمّا العسير حقًّا فهو كيف نتعامل مع الزمن . . .

٣

في مسكنه - حجرة وحيدة ومرافق - يرى نفسه، يتجسّد له معنى حياته. إنّه يعيش متفتّح الحواسّ مرهف الوعي ليتزوّد بكلّ سلاح. ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه، حارة طويلة ذات منحنى حادّ، مشهورة بموقف للكارو ومسقًى للحمير. البيت الذي ولد ونشأ فيه تهدّم. وقامت في موضعه باحة صغيرة لعربات اليد. قليل من مواليد الحارة مَن يبرحها بصفة نهائيّة إلّا للقبر. يعملون في مواقع كثيرة، في المبيضة . . . الدراسة . . . السكّة الجديدة . . . أو فيما وراء ذٰلك، ولكنّهم يرجعون إليها آخر النهار. ومن خواصّها الحميمة أنّها لا تعرف الهمس أو النجوى، أصواتها مرتفعة جدًّا متوتّرة بين الحكمة والبدائيّة، ومن بينها صوت قريب قويّ خشن لم يخلخله الكبر، صوت أمّ حسني صاحبة البيت. إنّ أحلام الأبديّة جدّ مرهقة، ولكن ماذا كان بالأمس، وماذا يكون اليوم؟. خليق بمثله ألّا يعرف المستحيل. وخليق به ألّا يترك نفسه للتيّار بلا خطّة. وخطّة مُحْكَمة. كثيرًا ما يحلم أنّه يبوّل ولكنّه يستيقظ في اللحظة المناسبة، فما معنى ذٰلك؟. أمّ حسني كانت صديقة لأمّه وزميلة ومرشدة، صديقة عمر طويل. كانت كلتاهما زوجة لسوّاق كارو، وعاملة كادحة، تكدّ بصبر النمل ودأبه سعيًا وراء القرش، تسند به زوجها وترمّم عشّها. دلّالة . . . ماشطة . . . خاطبة، وغير ذٰلك. ماتت أمّه وهي تعمل، أمّا أمّ حسني فما زالت تعمل بهمّة عالية. وكانت أمّ حسني أحسن حظًّا وأوفر رزقًا فتجمّع لديها من المال ما بنت به بيتها المكوّن من ثلاثة أدوار، مخزن أخشاب أرضي، وشقّتين، تقيم هي في إحداهما وعثمان في الأخرى. وابنها حسني لم يخلّف وراءه إلّا اسمه أمّا شخصه فقد حملته أيّام الحروب والمحن إلى بلاد نائية فاستقرّ فيها.

ألا يحقّ له أن يحلم؟. إنّه يحلم بفضل الشعلة المقدّسة التي تتّقد في صدره، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم أيضًا. وألِفَ أحلامه كما يألف الفراش والكنبة والسحّارة والحصيرة، وكما ألف الأصوات الحادّة والمنغومة التي تندّ عن حنجرته فتردّد أصداءها الجدران الراسخة القائمة.

ماذا كان بالأمس؟. أراد أبوه أن يجعل منه سوّاق كارو مثله ولٰكنّ شيخ الكتّاب قال له:

- يا عمّ بيومي توكّل على الله وأدخل الولد المدرسة الابتدائيّة . . .

فذهل الرجل وتساءل:

- ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟

فقال الشيخ:

- الولد ذكيّ وعاقل وربّما رأيته يومًا من رجال الحكومة . . .

وقهقه عمّ بيومي غير مصدّق فقال الشيخ:

- عليك بمدارس الأوقاف فربّما قُبل بالمجّان.

وتردّد عمّ بيومي زمنًا ثمّ تمّت المعجزة. ونجح عثمان في المدرسة نجاحًا مذهلًا حتّى حصل على الابتدائيّة. تميّز عن أقرانه الحفاة من أبناء الحارة ورأى بعينيه الحادّتين أوّل شرارة مقدّسة تنطلق من فؤاده النابض وأيقن أنّ الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللّانهاية. والتحق بالمدرسة الثانويّة بالمجّان كذٰلك فحقّق من النجاح ما لم يصدّقه أحد في حارة الحسيني. ومرض عمّ بيومي مرض الوفاة وابنه في السنة الثانية، فندم الرجل على ما «فعله» بابنه وقال له:

- ها أنا أتركك تلميذًا لا حول له، فمن يسوق الكارو، ومن يحفظ البيت؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين، وضاعفت الأمّ نشاطها مؤمّلة أن يجعل الله من ابنها كبيرًا من الأكابر، أليس الله بقادر على كلّ شيء؟! ولولا وفاة الأمّ بغير توقّع لأكمل عثمان تعليمه في المدارس العليا. وقد اشتدّت لذٰلك حسرته، وضاعف من حدّتها اكتمال وعيه بطموحه وبأحلامه المقدّسة. ومقدّسة عنده أيضًا

ذكرى والديه. وكلّ موسم يزور قبرهما. وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور في العراء. وهو اليوم وحيد، مقطوع من شجرة. قتل أخوه الأكبر ـ كان شرطيًا ـ في مظاهرة، وماتت أخته بالتيفود في مستشفى الحمّيات. وأخ آخر مات في السجن. إنّه يتذكّر أسرته فيشقى بالتذكّر ويرثي لوالديه، ويقرن تلك الأحداث بدراما عُليا يتطلّع إليها باحترام ووجل، فالمصائر تتقرّر في الحارة بفضل الإرادات المتصارعة والقوى المجهولة ثمّ تتقدّس في الأبديّة. لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنّه يعتمد في النهاية على الله ذي الجلال. ولذلك أيضًا فلا تفوته فريضة وبخاصّة صلاة الجمعة في جامع الحسين. وكإيمان أهل حارته لم يكن يفرّق بين الدين والدنيا، فالدين للدنيا والدنيا للدين، وجوهرة متألّقة مثل درجة المدير العامّ ما هي إلّا مقام مقدّس في الطريق الإلهيّ اللانهائيّ. ولّما كان يعيش بين زملائه بوعي يقظ لّماح فقد التقط ما يهمّه من المعاني والكلمات، ثمّ عكف على دراسة خطّة دقيقة للمستقبل، ترجمها في ورقة عمل ليذاكرها كلّ صباح قبل انطلاقه إلى العمل:

شعار للعمل والحياة

١ ـ القيام بالواجب بدقّة وأمانة.

٢ ـ دراسة اللائحة الماليّة التي يشار إليها كأنّها كتاب مقدّس.

٣ ـ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم.

٤ ـ دراسة خاصّة للّغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة بالإضافة إلى العربيّة.

٥ ـ التزوّد بالثقافة العامّة وبخاصّة الثقافة المفيدة للموظّف.

٦ ـ الإعلان بكلّ وسيلة مهذّبة عن تديّني وخلقي واجتهادي في عملي.

٧ ـ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبّتهم.

٨ ـ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبيّة تقدّم لذي شأن، صداقة مفيدة، زواج موفّق من شأنه تمهيد الطريق للتقدّم.

ولم يكن من النادر أن ينظر في مرآة صغيرة معلّقة بمسمار بين النافذة والمشجب ليتفحّص منظره، وليطمئنّ على نفسه. من هٰذه الناحية لن يكون منظره عائقًا في سبيله على أيّ حال، فهو قويّ الجسم كأبناء حارته، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق، وبصفة عامّة سيجد في جسمه الصلاحيّة لملء أيّ مركز مهما جلّ شأنه.

وقال لنفسه مستمدًّا من طواياها القوّة والتشجيع:

ـ بداية لا بأس بها، وطريق بلا نهاية...

٤

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدّسة أيضًا، وهو يهرع إليها بقلب مشغوف، وبمرح من يتخفّف من حمل الأيّام بثقلها العتيد. هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الأثريّ المهجور، على أدنى سلّمه يجلسان جنبًا إلى جنب في أحضان الأصيل اللّامتناهية، تترامى الصحراء أمامهما حتّى سفح الجبل، ويغنّي الصمت بلغته المجهولة. سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفّز، سمرة موروثة عن أمّ مصريّة وأب نوبيّ توفّي وهي في السادسة. زمالتهما القديمة في الحارة تمتدّ أصولها في الماضي البعيد حتّى تتلاشى في منبع الحياة نفسه. عندما ينظر في عينيها النجلاوين الواسعتين أو يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحيويّة فإنّه يتلقّى المثال المثير لفطرته الذي يبعث في غرائزه اليقظة والابتهال. إنّها قرينة طفولته في الحارة وفوق السطح، وزميلته في الكتّاب، وبالرغم من أنّها لم تتجاوز السادسة عشرة فهي معدودة ستّ بيت ماهرة، وهي يد أمّها الوحيدة بعد أن تزوّجت أخواتها السبع.

ابتسمت سيّدة. وجهها بسّام دائمًا، وعينها مشعّة، وأطرافها تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوتّرة، وخصلات شعرها المموّج الخشن ترقص في النسيم الجافّ الهابط من الجبل. ومرقت من الصمت المعذّب قائلة:

ـ فرحت أمّي بدخولك الحكومة...

سألها في دعابة:

ـ وأنت؟

فتمادت في ابتسامتها ولم تجب. أحاطها بذراعه ولثم بشفتيه الحادّتين شفتيها المليئتين. لم يجر للحبّ ذكر بينهما ولكنّهما يعربان عنه في كلّ خلوة بالأحضان والقبل. وهي تشبع من نفسه جانبها المهوم بالحياة في بساطتها ومسرّاتها، ويحبّها بعقله أيضًا لأنّه يقدّر مزاياها وإخلاصها، ويشعر بتلقائيّة بأنّها كفيلة بإسعاده.

ـ أصبحت موظّفًا. . . .

وشى صوتها بالإعجاب فقبّلها مرّة ثانية.

ـ لم يحظ أحد في حارتنا بذلك. . .

جميع أقرانه يعملون في شتّى الحرف. يرمقونه ـ إذ مرّ ـ بالإعجاب وأحيانًا بالحسد. ما أجدره بأن يسرّ لولا شعوره الحادّ القاسي بطول الطريق وعناده.

ـ أنت الأفندي الوحيد!

فقال بهدوء:

ـ لا قيمة لذلك خارج حارتنا.

ـ الخارج لا يهمّ، أمّا حارتنا فهي حارة الكارو!

فقبّلها للمرّة الثالثة وقال:

ـ لا تتكلّمي عن الكارو إلّا بالاحترام. . .

ـ صدقت، أنت شهم. . .

وقد قُبض على أبيها في المعركة التي قبض فيها على أخيه فدخل السجن ومات فيه بسببها، ولكنّ تلك الأحداث تُعَدّ من الأمجاد التي يطيب بها ذكر الحارة. ولكنّ سيّدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح. ولا جدوى من تجاهله فها هي تسأل:

ـ وماذا بعد ذلك؟

إنّه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد. ويعلم أيضًا أنّ سعادته لن تقلّ عن سعادتها بحال إن لم تزد. إنّه يحبّ هذه الفتاة كما تحبّه ولا غنى له عنها. ولكنّه يخاف. عليه أن يفكّر ألف مرّة. وليراجع ورقة العمل المريرة. ليتملّ طويلًا الحياة التي تقف أمامه مرحّبة ومتحدّية معًا.

ـ ماذا تعنين يا سيّدة؟. . .

فأجابت معاندة في خفّة:

ـ لا شيء!

ـ لا يجوز أن ننسى أنّنا صغيران. . .

ـ أنا؟!

قالتها باحتجاج عذب أشارت به إشارة مليحة إلى أنوثتها الصارخة.

فقال مداعبًا:

ـ إنّما قصدت نفسي. . .

ـ أطلق شاربك فهذا ما ينقصك.

أخذ مزاحها مأخذ الجدّ وفكّر بأنّ ذلك قد ينفعه حقًّا في نضاله فمنذا الذي يتصوّر موظّفًا كبيرًا بلا شارب؟!

قال بهدوء:

ـ سأكمل تعليمي يا سيّدة.

ـ هل ما زال ينقصك تعليم؟

ـ الشهادة العليا.

ـ لماذا؟

ـ مساعد لا بأس به للترقّي.

ـ وهل يلزمك وقت طويل؟

ـ أربعة أعوام على الأقلّ.

قرأ بتألّم خفيّ الفتور في عينيها وربّما الخجل وشيئًا من الغضب!

ـ وما ضرورة الترقّي؟

ضحك. لثم شعرها. لم يجرؤ على تجاوز ذلك. ذكّرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا، وبلكمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس. لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف.

ـ الظاهر أنّ الترقّي مهمّ أكثر ممّا تصوّرت. . .

فتناول يدها بين يديه وغمغم:

ـ أحبّك، إلى الأبد. . .

نطق صدقًا. وبقدر صدقه اغتمّ وتألّم وسخط على نفسه، وقال إنّ تجربة الحياة عظيمة جليلة ولكنّها مرهقة.

٥

وقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها وقرأ الفاتحة، ثمّ قال:

ـ يرحمكما الله رحمة واسعة. . .

ثمّ ناجاهما بامتنان قائلًا:

ـ عثمان موظّف محترم يخطو خطواته الأولى في طريق عسير ولكنّه مصمّم على السير حتّى النهاية.

ثمّ انحنى قليلًا وقال بابتهال:

ـ كلّ ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما. . .

وتلا غلام ضرير بعضًا من السُّوَر الصغيرة فنقده نصف قرش، ورغم تفاهة المبلغ لم يخلُ من الضيق الذي يركبه عند الدفع. لمّا ذهب الغلام عاد إلى مخاطبة والديه قائلًا:

ـ عهد الله أن أنقلكما إلى قبر جديد إذا حقّق الله آمالي. . .

ولم يكن لديه فكرة عمّا يبقى في الجثث في مجرى الزمن ولكنّه تخيّل أن يبقى شيء على أيّ حال. وتذكّر

وهو يعجب لذلك سيّدة فوضحت صورتها الباسمة أمام عينيه، وخيّل إليه أنّها تتحفّز لإطلاق ملاحظة حادّة وصريحة وساخرة. انقبض قلبه وتوجّع وهمس:

- اللّهمّ اهدِني سواء السبيل فكلّ ما أفعل من وحيك.

وعاش من جديد الأيّام الأخيرة لأبيه. هذا أمر لا مفرّ منه. كان المرض والكبر قد أقعداه فكانت نزهته أن يفترش فروة أمام البيت، لا يكاد يرى أو يسمع، يتأمّل عجزه، يتأوّه هاتفًا:

- اللّهمّ لطفك ورحمتك. . .

كان في زمانه من رجال الحارة الأشدّاء. عاش حياة طويلة معتمدًا على عضلات ذراعيه وساقيه، يعمل بلا انقطاع ويعاني على المدى شظف العيش والفقر. قوّة مهدرة تتغذّى على لا شيء ويقهقه في الملمّات بلا معنى ولا سبب. ووُجد ذات مساء ميتًا حيث يجلس على الفروة فلم يدرِ أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقّاه هو. أمّا أمّه فكانت ميتتها أدعى للدهشة. كانت تغسل فانطوت على نفسها حتّى تقوّست وراحت تصرخ من شدّة الألم. وجاءت الإسعاف فحملتها إلى قصر العيني وتقرّر إجراء جراحة في الأعور قتلت في أثنائها.

أسرته ضحيّة فريدة للموت. شيء قال له في باطنه إنّه ربّما بسبب ذلك سيعمّر هو طويلًا. واجتاحته موجة من الأسى. كلّ موت معقول بالقياس إلى موت أخيه الشرطيّ. رجل كالجمل يقتل بطوب الثوّار. أيّ ميتة. لا يعرفهم ولا يعرفونه. إنّه يقف من تلك الأحداث موقف المتفرّج المتعجّب. لا يفقه لها معنًى على الإطلاق. أجل عرف الكثير من مطالعة التاريخ. عرف التاريخ من أقدم العصور حتّى قبيل الحرب العظمى. عرف الثورات. ولكنّه لم يعشها ولم يستجب لها. وقد رأى وسمع ولكنّه انعزل وتعجّب. لم يحظ بعاطفة عامّة واحدة تشدّه إلى الميدان. ما أعجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم. لقد عاش حياته مطاردًا بالفقر والجوع فلم يدعْ له ذلك وقتًا لمدّ آفاق تفكيره إلى الخارج. انحصر في الحارة بهمومها المجهولة من الجميع، الوحشيّة، القاسية، المتلاحقة. واليوم يعرف لنفسه هدفًا دنيويًا وإلهيًا في آن لا علاقة له في تصوّره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة. قال إنّ حياة الإنسان الحقيقيّة هي حياته الخاصّة التي ينبض بها قلبه في كلّ لحظة، التي تستأديه الجهد والإخلاص والإبداع. إنّها مقدّسة ودينيّة. بها تتحقّق ذاته في خدمة الجهاز المقدّس المسمّى بالحكومة أو الدولة. بها يتحقّق جلال الإنسان على الأرض فتتحقّق به كلمة الله العليا. إنّهم يهتفون بغير ذلك أو بما يناقض ذلك ولكنّهم مجانين مزيّفون. ولذلك فإنّه لم يغفر لنفسه أنّه لم يملأ عينيه من حجرة المدير العامّ، ولا من شخصه المتفرّد الذي يحرّك الإدارة كلّها من وراء برافان، في نظام دقيق وتتابع كامل يذكّر الغافل بالنظام الفلكيّ وبحكمة السماوات.

تنهّد بعمق.

قرأ الفاتحة مرّة أخرى. قال مودّعًا:

- ادع لي ربّك يا أبي.

ودار حول القبر الذي سقط شاهداه وتشقّق ركنه ثمّ قال:

- ادعي لي ربّك يا أمّي.

٦

ما أعجب الفصول في تعاقبها. إنّه يعايشها من خلال عمله المتواصل. الشتاء في الحارة فصل شديد القسوة ولكنّه يحفز للعمل، الربيع بخماسينه لعنة، الصيف جحيم، الخريف بسمة غامضة متأمّلة. إنّه يواصل العمل بإرادة صلبة وشهوة ناريّة. ها هي كتب القانون تصطفّ تحت الفراش وفوق منصّة النافذة. لا ينام من الليل إلّا أقلّه. يعانق الأفكار ويصارع الغموض، وحتّى النجاح لا يريد أن يقنع به وحده. ويوم الجمعة يخصّص عادة للثقافة العامّة الجديرة بالمديرين ومَن في خدمتهم. واهتمّ بالشّعر خاصّة، حفظ الكثير، بل حاول نظمه ولكنّه فشل. قال إنّ الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرّب من الكبراء، والتألّق في الحفلات الرسميّة. إنّه لخسران فادح أن يفشل في نظمه. ولكنّه على أيّ حال خير طريق لإتقان النثر، والخطابة لا تقلّ عن الشعر في النجاح المنشود. والأسلوب الجزل مطلوب، قلبه يحدّثه بذلك. واللغات الأجنبيّة مثله وأكثر. جميع تلك المعارف مفيدة، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانيّة، فليس بالتعليمات الماليّة وحدها يحيا الموظّف. أجل عليه أن يتزوّد من كلّ شيء نافع بطرف فمن يعلم؟ وكان يقول إنّ حياته تيّار غير

منقطع ماضٍ في مجرى النور والعرفان، يتكاثف بكلّ طريف، ويتشعّب في مجالات الفكر، تدفعه حرارة الإيمان والكبرياء البشريّ الشريف، ليصبّ في النهاية في الأعتاب الإلٰهيّة.

أمّا راحة النفس فيحظى بها على سلّم السبيل الأثريّ. في عناق الحبّ المشبوب. بين يدي الفتاة الجميلة المحبّة. في حضنها العذريّ المشتعل. بلا تورّط في فعل أو قول. لكنّه يتعلّق به تعلّقه بالحياة نفسها. آه لو كانت الحياة تقنع بالحبّ والسعادة اليسيرة. ومن شدّة قلق سيّدة تجاوزت تحفّظها الفطريّ. تمادت في الإفصاح عن عواطفها الصادقة. كشفت عن لهفتها المحمومة. قالت له مرّة بورع:

ـ لا حياة لي بدونك.

ولكن بدا قولها فاترًا بالقياس إلى ما تمنحه شفتاها المليئتان. وقالت له مرّة أيضًا:

ـ أنت كلّ شيء، ما مضى وما هو آتٍ...

وعيناها العسليّتان تبعثان ألقًا ناطقًا بالوفاء والجزع والأشواق الصادقة. وفي غمار العناق الذائب في الأنفاس المحترقة قالت متنهّدة:

ـ ينقصنا شيء...

فقال ببلادة وأنانيّة:

ـ حبّنا الكامل لا ينقصه شيء!

فرفعت منكبيها محتجّة ولكن بحذر مَن يرغب عن إحراجه ويستعين عليه بالصبر والإصرار. ووجد أنّه يعاني كبتًا مرعبًا سيرمي به مرّة تحت رحمة المجهول. لذلك أذعن لإغراء زميل دعاه إلى زيارة لدرب البغاء الرسميّ. وكابن من أبناء حارة الحسيني لم تعوزه الجرأة الكافية، انطلق في الدرب الذي يضيئه مصباحان غازيّان متباعدان يغلّفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته في شبه ظلام مثير للشهوات. وقلّب عينيه القلقتين حتّى استقرّ على صيد. ويعقب ذٰلك عادة إكباب على طلب الغفران، وعكوف طويل على الصلاة والعبادة. وهو ما يفعله عادة كلّما واجه نواياه العميقة الخفيّة من ناحية سيّدة. فإلى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشدّ من عذابات ضميره. وكان يختم لياليه الطويلة المرهقة في إعياء نفسيّ شديد، كالإغماء، وأحيانًا تبتلّ جفونه وهو لا يكاد يدري.

وكان سعفان بسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسميّ بإعجاب وحذر. أعجب بجدّه وحسن تصرّفه وخلقه، ولم يرتح من بادئ الأمر إلى البكالوريا التي تميّز بها وحده في المحفوظات ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلّم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة «الابتدائيّة». وفطن عثمان إلى ذٰلك في حينه ولكنّه طمع في طيبته الفطريّة وضاعف من تودّده إليه وإذعانه لتوجيهاته حتّى اطمأنّ الرجل إليه تمامًا وفتح له قلبه في صفاء نادر. وفي أوقات الفراغ قرّبه إليه، وأفضى إليه بخواطره، حتّى السياسة صرّحه فيها برأيه وأهوائه. ولشدّة حماس الرجل جفل عثمان من الإعراض عن اهتماماته أو معالنته بحياده البارد إزاءها، وقال بغموض وحذر:

ـ الحقّ أنّنا من مشرب واحد، ولا عجب في ذٰلك...

فسُرّ الكهل بقوله سرورًا عظيمًا ذهل له عثمان. عجيب استغراق الرجل في هٰذه الشئون. وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها. ماذا يشدّهم إليها؟. أليس لديهم هموم صميميّة تشغلهم عنها؟. ولكنّه قال لنفسه بازدراء غير قليل إنّهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفًا محدّدًا، وإيمانهم الدينيّ إيمان سطحيّ، ولم يفكّروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة، ولا فيما خلقهم الله من أجله، وهٰكذا تتبدّد أفكارهم وأعمارهم في لهو وسفسطة، وتهدر قواهم الحقيقيّة بلا عمل. تستغفلهم الأوهام، ويمضي الزمن وهم لا يعلمون...

٧

قال له سعفان بسيوني بعد أن تلقّى منه بريد الوارد:

ـ إنّي أدعوك إلى سهرة ممتعة في بيتي...

دهش وانزعج ولكنّه لم يفكّر في التملّص. قال الرجل:

ـ يوجد حفل زفاف في بيت الجيران، سنتعشّى معًا لحمة رأس، ونجلس في الشرفة نستمع للغناء...

كان الرجل يقيم في شقّة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعريّة. وتبيّن له أنّه كان المدعوّ الوحيد. طاب نفسًا بالمكانة التي يؤثره بها رئيسه، وتناول معه عشاءً لذيذًا مكوّنًا من المخّ والجبهة واللسان والجوهرة ومبار وفتّة بالتقلية غير الفجل والمخلّل، وحلوى من الشمّام، أكلة ممتازة ووفيرة وقد أكل حتّى امتلأ. وجلسا في شرفة تطلّ على فناء البيت الذي قام فيه الفرح.

تبدّى الفناء غارقًا في الأنوار تصبّ عليه من كلوبات كثيرة. وصفّت به الأرائك والكراسي التي اكتظّت بالمدعوّين، واكتظّت المماشي بالغلمان والأطفال، وأحدق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج. وشعّت الأنوار في البيت من الداخل أيضًا وتراءت النساء وهنّ يذهبن ويجئن. وهدر المكان بالأصوات من جميع الدرجات والأنواع، وارتفع الضحك والسعال والزغاريد. خفق قلب عثمان وهو يرنو إلى جوّ الفرح وانتقلت إلى فؤاده حرارته الفوّاحة بعطر الجنس والحبّ. لذلك تلقّى دغدغات التخت الأولى بتأثر أشدّ ممّا توقّع وممّا ألف. فهو لا يعشق الغناء ولكن إذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو إلى حين قليل. حسن، الموسيقى لا بأس بها أحيانًا، شيء طيّب ومريح. الزواج علاقة باهرة وفرح ودين. وخالجه شعور شامل بالأسى.

- لعلّك في حاجة إلى الترفيه، هذا ما أقوله لنفسي كثيرًا...

قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضيء أنوار الفرح أجزاء منه وتواري أجزاء في الظلال. وقال أيضًا:

- عمرك يجري في العمل والدراسة ولكنّ الحياة تطالبنا بأشياء كثيرة...

أصغى إليه باهتمام في الظاهر واستخفاف في الباطن. إنّه يحتقر المواعظ التي تحثّ على الكسل ويعتدّها تجديفًا بذي الجلال، غير أنّه تذكّر سيّدة في عذابها الطويل، وما عليه أن ينجزه ويحفظه ويراجعه، وشعر بأنّه يبتسم ابتسامة لا معنى لها. وعاد سعفان يقول:

- لك همّة عالية ولكنّ راحة البال جوهرة ثمينة أيضًا...

فقال له واستخفافه به يتصاعد:

- أنت رجل حكيم يا سعفان أفندي...

وظهر في مدخل الشرفة شبح، فتاة تحمل صينيّة تفوح منها رائحة الشاي المنعنع. انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه رغم ظلام الغرفة القابع وراءها، وجه مستدير، لونه قمحيّ، وثمّة ملاحة ملحوظة مغلّفة بغموض وأشواق. ساوره قلق. وهو يميل قليلًا ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعدها السويّة البضّة وكأنّها هي التي تنفث رائحة النعناع. وقفت دقيقة أو أقلّ ثمّ توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياءً وارتباكًا. وساد صمت كأنّه الشعور بالإثم، وتشبّع الجوّ بروح المؤامرة، وتضاعف قلقه. قال سعفان:

- ابنتي...

هزّ رأسه إعرابًا عن الاحترام...

- حصلت على الابتدائيّة قبل أن تنقطع عن المدرسة...

واصل هزّ رأسه في تقدير وإعجاب. ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغنّي التواشيح. ومضى سعفان قائلًا:

- البيت هو المدرسة الحقيقيّة للبنت...

لم يعلّق، لم يجد ما يقوله، وضاق في الوقت نفسه بصمته...

- ما رأيك في ذلك؟

- أوافقك كلّ الموافقة...

ولكنّه تذكّر جهاد أمّه الكادح في حياتها المريرة. شعر بأنّه يدفع إلى مصيدة. بدأ الغناء بصوت الطرب هادئًا وخافتًا وناعمًا. وتمتم سعفان:

- ما أجمل الصوت!

- نعم.

- الحياة جميلة أيضًا.

- بلا شكّ.

- ولكنّها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها...

- أليست الحكمة ثمرة عسيرة؟

- كلّا، هي هبة من الله سبحانه.

قال لنفسه إنّ الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة. الرجل يحاصره وهو لن يستسلم، ولكن كيف يفوز بحرّيّته ورضى رئيسه معًا؟! لم يعد يسمع من الغناء شيئًا. سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده وقدمه وينظر إليه بين ذلك متفحّصًا مستطلعًا. وحنق عليه كجلّاد ماكر. ورأى أنّ عليه أن يردّ الدعوة بأحسن منها دفاعًا عن نفسه المهدّدة. آلمه ذلك ألمًا غير هيّن. إنّه لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحّة. وفتح حسابًا في دفتر توفير البريد مع أوّل مرتّب قبضه. ولذلك لم يخطر له على بال أن يغيّر مسكنه أو حارته أو طعامه. وهو يؤمن بأنّ الادّخار وسيلة هامّة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه، وأمان ضدّ الخوف في

عالَم مخيف. ولٰكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ. سيردّ الدعوة بأحسن منها. وسيتمّ ذٰلك في مطعم لا في حجرته المكتظّة بالكتب، الفقيرة في كلّ شيء عدا ذٰلك. وإذن فسوف ينفق مبلغًا جسيمًا حقًّا. اللعنة على الحمقى. بات الغناء ضجيجًا لا معنى له وتفتّحت أبواب الجحيم. والكهل يهزّ رأسه طربًا غير عالم بجريرته. والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها.

٨

وقبل مضيّ الشهر دعا الرجل للعشاء في مطعم الكاشف. تناولا سمكًا شهيًّا وحَلْيا بمهلّبيّة. وكان الكهل من السعادة في غاية وخيّل إليه أنّه يتوقّع نزول ملاك السعادة والرحمة. ولم يقنع بالعشاء فيما يبدو فاقترح قائلًا:

- ما رأيك في سهرة في الفيشاوي؟

وجب قلبه بألم عميق ولٰكنّه تأبّط ذراعه قائلًا:

- يا لها من فكرة رائعة!

وجلسا في المقهى وهو يتذكّر عيدًا من أعياد الفطر تمزّق فيه جلبابه الجديد في معركة بحارة الحسيني، ضربه أبوه، واضطرّ إلى استعمال الجلباب عامًا كاملًا بعد أن رقعته أمّه. وأزعجه سرور الكهل وانشراحه. إنّه يتوقّع أن يسمع خبرًا سارًّا بلا شكّ. وها هي فرحة قلقه في أعماق عينيه الشاحبتين، وها هو يجود بالرضى على كلّ شيء... قال:

- أأنت سعيد بزملائك في المحفوظات؟...

- أعتقد ذٰلك.

- إنّهم تعساء ولٰكنّهم طيّبون...

- إنّهم طيّبون حقًّا...

- أمّا أنت فشابّ ممتاز، هل تعمل محاميًا إذا انتهيت من دراستك؟

- كلّا، لٰكنّي أرجو تحسين حالتي.

- فكرة طيّبة. يعجبني طموحك الشريف!

وخرج عثمان من تردّده مصمّمًا على النجاة ولو بخنق آمال الرجل. قال:

- إنّ همومي أكبر ممّا تتصوّر...

فرمقه الرجل متوجّسًا وسأله:

- لِمَ كفى الله الشرّ؟

- لا يهمّني الطموح كما تظنّ، تهمّني أشياء أقلّ من ذٰلك بكثير...

- حقًّا؟

- لولا الظروف القاسية لما فكّرت إلّا في أمر بسيط وطبيعيّ ومعقول وهو أن أكمل نصف ديني!

لم يفلح الكهل في مداراة الخيبة التي خنقته، وتساءل:

- أيّ ظروف يا ترى؟

فتنهّد عثمان في أسى وقال:

- مسئوليّات جسيمة، نحن أبناء الفقر وهو يصرّ على مطاردتنا...

وأطرق وهو يقول بصوت كئيب:

- كم كنت أودّ...

وسكت كأنّما غلبه الانفعال. تراجع الكهل عن ضوء المصباح فمضى في الظلّ. لا مفرّ من ذٰلك ولٰكن عليه أن يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة. وجاءه صوت الرجل من الظلّ:

- ومتى تستطيع الوقوف على قدميك؟

فأجاب بنبرة يائسة:

- في عنقي صغار وأرامل، ما أنا إلّا ثور معصوب العينين يدور في ساقية...

مات كلّ شيء. حتّى مطارق قطع النرد لم تعد تسمع. عاد يتمتم:

- كم كنت أودّ...

فلم يعلّق الكهل بكلمة. وأراد أن يدفع الحساب ولٰكنّ عثمان أبى عليه ذٰلك ودفعه من جيبه وهو يتمزّق. تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع في إحيائها الافتعال. وغادرا المقهى فمضيا مشيًا على الأقدام حتّى ميدان باب الشعريّة، وهناك فارقه الرجل إلى مسكنه. وجد نفسه في حال تعيسة من التوتّر والقلق. ودهمته موجة مجنونة من الاستهتار فدعته إلى التبذير اليائس كأسلوب من الانتحار.

وقصد بلا تردّد الدرب ليدفن في أعماقه قلقه وأحزانه وعذابات ضميره. وقال لنفسه بحزن:

- حتّى أخطاء الإنسان يجب أن تكون مقدّسة...

٩

اعترضت أمّ حسني طريقه وهو نازل. إنّها لا تفعل ذٰلك بلا سبب. نظر إلى وجهها المحدّد بالتجاعيد وشعرها المصبوغ بالحنّاء وجسمها القويّ رغم شيخوختها فتذكّر أمّه، صافحها وهو يبتسم فقالت:

- عندي خبر...

- خير إن شاء الله.

فقالت وهي تضيّق عينها الوحيدة - فقدت الأخرى في معركة من معارك الحارة - قالت:

- لا خير فيه...

نظر إليها جادًّا فقالت:

- عريس، وُجد عريس في طريقك!

- هه؟

- عريس تقدّم لسيّدة...

اجتاحه حزن وذهول كأنّ ذلك لم يكن متوقّعًا. لم يجد ما يقوله.

- ترزي بَلَدي...

كان يعلم بأنّ ذلك آتٍ لا ريب فيه. لا يحاول دفعه ولا أمل له في منعه كالموت. ولم ينبس فسحبته من يده إلى حجرتها وأجلسته على الكنبة إلى جانبها، وسألته:

- ألا يهمّك الأمر؟

شعر بألم حادّ في أعماق روحه. شعر بأنّ الدنيا تتلاشى. قال بغضب:

- لا تطرحي أسئلة لا معنى لها...

- هدّئ خاطرك...

- يحسن بي أن أذهب.

- ولكنّك لن تتمكّن من لقائها.

الدنيا تتلاشى أكثر وأكثر... قالت:

- كان يجب أن تدرك ذلك من نفسك.

- لِمَ؟

- أمّها تتشدّد في منعها من الخروج، فرجل حقيقيّ خير من خيال...

وتمتم بلا وعي:

- رجل حقيقيّ خير من خيال.

- أنت تحبّها، أليس كذلك؟

فقال بأسى:

- إنّي أحبّها.

- حكاية محفوظة في حارتنا.

- وهي حقيقيّة.

- عظيم، ولِمَ لم تتكلّم؟

فقال بحدّة:

- لا أستطيع.

- اسمع، توسّلت البنت إليّ أن أبلغك.

تنهّد في يأس كامل. فقالت المرأة:

- اذهب من توّك فاخطبها أو دعني أتولّى ذلك عنك.

حادثت نفسه بأصوات مبهمة كأنّما يتكلّم لغة مجهولة حتّى ذهلت المرأة فقال مواصلًا حديثه مع نفسه:

- ولن يغفر الله لي...

- أعوذ بالله، أتراها غير أهل لموظّف مثلك؟

- لا تتقوّلي عليّ يا أمّ حسني...

- أطلعني على قلبك، أنا أمّك...

فقال متنهّدًا:

- لا أستطيع أن أتزوّج الآن.

- تنتظرك كما تشاء.

- سيطول الانتظار...

- اربطها بكلمة، هذا يكفي الآن...

- كلّا، لست أنانيًّا، إنّي أرفض حرصًا على سعادتها.

وهمّت بالاسترسال في الحديث ولكنّه غادر الحجرة. سار ببطء في الحواري الضيّقة. كان يتعذّب بعمق ويسلّم بمرارة بأنّه لن يراها مرّة أخرى. ورغم عذابه شعر بارتياح خفيّ يائس، وبقدر ارتياحه آمن بأنّ اللعنة حلّت به. إنّه يحبّها ولن تملأ أخرى الفراغ الذي خلّفته وراءها في نفسه. وهذا الحبّ لن يمحى بسهولة، وسيعلّمه كيف يكره نفسه وطموحه، ولكنّه سيصرّ على التعلّق بها بقوّة الكراهية واليأس. إنّ ما يركبه جنون، ولكنّه جنون مقدّس يغلق باب السعادة باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوّة في طريق المجد الشاقّ المحفوف بالأشواك. إنّ السعادة تغريه بالتفكير في الانتحار أمّا الشقاء فهو الذي يحرّضه على نشدان الحياة وعبادتها.

ولكن يا للخسارة يا سيّدة!...

١٠

وتقدّم في كلّ شيء ولكنّ عذابه لم يكد يخفّ، ورسخت قدمه في عمله حتّى شهد له سعفان بسيوني - رغم إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة، وكان يقول عنه:

- إنّه أوّل الحاضرين وآخر الذاهبين وفي أوقات الصلاة يؤمّ المصلّين بمصلّى الوزارة...

وهو يؤدّي عمله، ويؤدّي عن المتأخرين أعمالهم، فالكلام عن نجدته لا يقلّ عن الكلام عن قدرته. وسار في دراسته بعزم قويّ يبشّر بنجاح باهر. وأصبح من مدمني التردّد على دار الكتب، يقرأ بنَهَم شتّى الثقافات إلى جانب دراسته القانونيّة الشاقّة. أصبح كذلك من الوجوه المعروفة التي تُرى في جامع الحسين في صلاة الجمعة فعُرف في الحيّ - كما عُرف في الوزارة - بالتقوى والورع. ولكنّ عذابه لم يكد يخفّ، وظلّت سيّدة مسيطرة تمامًا على خياله ووعيه حتّى قال لنفسه:

- إنّها الجوهرة الوحيدة في حياتي...

وفي مواعيد اللقاء يجلس على سلّم السبيل الأثريّ فتلفحه حرارة الذكريات ويغوص فيها حتّى تتجسّد له حيّة ملموسة. في لحظات اشتداد الوجد يتوقّع أن يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة محفوفة بالشوق والحياء. وحديثها الطويل وعناقها الحارّ وكلّ موضع ثمين غسله بقبلاته. ولكنّها لا تأتي ولن تأتي. قطعته ولعلّها نسيته. وإذا خطر ببالها لعنته بما يستحقّ. ويومًا مرّ تحت نافذتها في ساعة العصارى فخيّل إليه أنّ رأسها لاح لحظة وراء القلّة المعرّضة للهواء لتبترد، ولكنّها لم تكن هناك أو لعلّها تراجعت باشمئزاز وعجلة. وقال لنفسه:

- مقدّس الإنسان في عذاباته...

وقال أيضًا:

- لا يخلو عمل للإنسان من عبادة...

وصادفها صباح الجمعة في الخيميّة بصحبة أمّها. تلاقت عيناهما لحظة ثمّ حوّلتهما عنه في غير مبالاة. لم تلتفت وراءها. تجلّى له معنى من معاني الموت، كما خرج أبوه من الجنّة بإرادته. وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء.

وكان يختلف إلى الدرب بحذر وانفعال ويأس. ووثّقت الأيّام علاقته بفتاة تماثله في السنّ تسمّي نفسها قدريّة. جذبته بسمرة غامقة - مثل سيّدة - ولكنّها أعمق في زنجيّتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة. ومنذ ساقته قدماه إليها - منذ زمن ليس بالقصير - لم ينحرف إلى سواها. وذكّرته حجرتها بحجرته ولكنّها أكثر بدائيّة بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرآة وكرسيّ وحيد يُستعمل للجلوس وكمشجب، وطشت وإبريق. لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته في ليالي الشتاء. ومرّت أعوام لم يبادلها سوى تحيّة القدوم وتحيّة الذهاب. ورغم تديّنه العميق علّمته الشراب، القدر القليل الضروريّ. وكان قدح نبيذ من نبيذ «السلسلة» الجهنّميّ - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه حتّى قال لها مرّة في نشوة مضحكة:

- أنت سيّدة الكون...

وكان يتأمّل الحجرة العارية، ويشمّ البخور، ويلمح الحشرات، ويتخيّل الجراثيم المستكنّة ويتساءل أليس هذا الكون الملعون المشتعل بنار الجحيم جزءًا من مملكة الله؟! ومرّة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس في الحجرة العارية. خلا الدرب وخفّت الأصوات وساد الظلام. تربّعت قدريّة فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة. ولمّا طال الوقت تناول من جيبه مذكّرة مدوّنًا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها - كعادته - بصوت مسموع. وسألته قدريّة:

- قرآن؟

فهزّ رأسه بالنفي وهو يبتسم.

- مواعيد غراميّة؟

- دروس!

- تلميذ؟!... ولماذا تربّي شاربك؟...

- موظّف وتلميذ في مدرسة ليليّة...

وتذكّر سيّدة بحنين وأسى. وخطرت له فكرة استراح لها وهي أنّ المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه.

وعاد ذات يوم إلى الحارة فرأى الأرض مفروشة بالرمل أمام بيت سيّدة والرايات تخفق على الجانبين. دقّ قلبه دقّة النهاية. والتقى بأمّ حسني على السلّم - ترى هل تعمّدت أن تنتظره؟ - فحيّاها عابرًا ومضى وصوتها يدعو له:

- ربّنا يحقّق مقاصدك ويسعدك...

لم يستطع أن يركّز عقله في دروسه واقتحمت حجرته الصغيرة الأصوات، الزغاريد، تهليل الغلمان، موسيقى حَسَب الله، أجل... ها هي سيّدة تدخل مملكة رجل آخر، وتنطوي فترة من الشباب وتدفن.

* * *

غادر البيت بتصميم جديد. قال إنّ الحياة أعظم من جميع آمالها. وإنّ الخيّام أجمل حكمة من المعرّي. وإنّ القلب هو المرشد الوحيد. اقتحم الفرح حتّى

قالوا إنّه مجنون. وأشار إلى سيّدة وقال لها «إنّي أدع لك الحكم». استجابت رغم الصراخ والعويل لأنّه في اللحظات الحرجة التي تسبق الإعدام تتعرّى الحقائق فتهزم الموت. ومضى بها مخترقًا ثلاثة أزقّة مارقًا من باب النصر إلى مدينة الأموات وهما يترنّحان من السعادة.

* * *

لم تسكت الأصوات والزغاريد والأغاني حتّى مطلع الفجر. وكان ينظر إلى الكلمات ولا يفقه لها معنى. وشعر بالوحدة فتوغّل في عالم مجدب خالٍ من الأصوات والأمل. وثقلت عليه المعاناة في الطريق الشاقّ فتذكّر معارك الأمم، ومعارك الجراثيم، ومعارك الصحّة والعافية فهتف:

ـ سبحان الله العظيم!

حضرة صاحب السعادة المدير العامّ:

أتشرّف بإبلاغ سعادتكم بأنّني حصلت على ليسانس الحقوق هٰذا العام ـ من منازلهم ـ استزادة من العلم واستكمالًا للوسائل الضروريّة للموظّف، مستلهمًا الهمّة من عبقريّة سعادتكم، في ظلّ مولانا الملك المعظّم حفظه الله وأدام ملكه.

رجاء التكرّم بالعِلْم والأمر بحفظ الشهادة المرفقة بملفّ خدمتي.

وتفضّلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام.

عثمان بيومي

كاتب الواردات بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحًا باهرًا بالقياس إلى زملائه المتقدّمين من منازلهم. وسيدور خطابه الموجّه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوّقه على الملإ، فهو يعرض أوّلًا على رئيسه المباشر سعفان بسيوني ليوقّع عليه بالعرض على صاحب العزّة مدير الإدارة حمزة السويفي، فهو يُسرّك في صادر المحفوظات ثمّ يُسرّك مرّة أخرى في وارد الإدارة. بعد ذٰلك يعرض على حمزة السويفي ليوقّع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العامّ، فيُسرّك في صادر الإدارة ثمّ يُسرّك في وارد مكتب المدير العامّ، ثمّ يقرأه حضرة صاحب السعادة المدير العامّ، يقرأه بعينيه ويتسلّل إلى ذاكرته وربّما هزّ عواطفه، ثمّ يوقّع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لإجراء اللازم، فيُسرّك في صادر مكتب المدير العامّ ووارد المستخدمين حيث تُتّخذ الإجراءات ثمّ ترسل صورة إلى المحفوظات التي صدر منها الخطاب للحفظ في ملفّ خدمته الإداريّ، بذٰلك تتمّ الدورة الفلكيّة ويعلم من لم يكن يعلم.

وعَمِلَ بالسعادة يومًا. وتتابعت الأيّام. ماذا بعد ذٰلك؟. هل يبتلع الصمت كلّ شيء؟. لا شيء يحدث. النار المقدّسة مشتعلة في صدره. ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة. الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشّر بالضياء. وقد انتهى من الدراسة أمّا اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقّف أبدًا. إنّه يُشبع بها أشواقه إلى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون أهلًا للمركز الذي سيشغله يومًا بإذن الله وفضله، ويتسلّح بها في نضاله الطويل المرير في الغابة الرسميّة التي تطالب فيها كلّ ذي شأن بقرابينه. إنّه لا يملك سحر المال، ولا يتمتّع بامتيازات الأسر الكبيرة. ولا قوّة حزبيّة تسنده، وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد أو القوّاد، إنّه واحد من أبناء الشعب التعيس الذي عليه أن يتزوّد بكلّ سلاح، ويتحيّن كلّ فرصة، ويتوكّل على الله، ويستلهم حكمته الأبديّة التي قضت على الإنسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرّة أخرى إلى السماء.

ومن خلال تتابع الأيّام في مجراها الأبديّ خَلَتْ درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها إلى وزارة أخرى. وقال له سعفان بسيوني:

ـ رشّحتك للدرجة الخالية فلا يوجد في المحفوظات من هو أحقّ بها منك. . .

فشدّ على يده بامتنان وهو يودّ أن يقبّله فقال الكهل:

ـ سبعة أعوام مضت عليك في الثامنة، وقد حصلت في أثنائها على ليسانس الحقوق، وأثبتّ بجدارة كفاءة لا نظير لها. . .

وضحك الكهل كاشفًا عن أسنانه السود المثرمة وقال:

ـ وهي مضمونة لك إن شاء الله فلا رغبة لأهل الوساطات في وظيفة بإدارة تسكنها الثعابين والحشرات. . .

وطال الانتظار ومضت الأيّام. وقال لنفسه ها هي سبعة أعوام تمرّ في درجة واحدة فيلزمني على هٰذا القياس أربعة وستّون عامًا حتّى أبلغ الأمل المنشود.

المدير العامّ الذي أشعل النار المقدّسة في قلبه. ولم تقع عليه عيناه منذ مَثُلَ بين يديه ضمن المستجدّين. وإنّ متعة نفسه أن يقف في جانب من الميدان يراقب موكبه وهو يغادر الوزارة في أبّهة الملك وقدسيّته. هذا هو غاية الحياة ومعناها وجلالها.

واستفحل العمل في الإدارة أيّام إعداد الميزانيّة فاحتاج مدير الإدارة إلى موظّفين إضافيّين من الأقسام التابعة له فندب عثمان للعمل عن المحفوظات. سرّ بذلك وقال إنّها فرصته. وتوثّب للعمل بهمّة هائلة، عمل مع المراجعين كما عمل مع وكيلي الإدارة، وشهد اجتماعات مع مدير الإدارة نفسه. انفجر كبركان وكأنّما كان ينتظر هذه الفرصة منذ اشتعل قلبه بالطموح المقدّس. ولم يتردّد فوضع نفسه تحت تصرّف السادة الرؤساء من مطلع الصباح حتّى منتصف الليل. في الظروف الدقيقة الحرجة ينسى كلّ شيء في الحكومة إلّا الكفاءة الحقّة. والميزانيّة عمل خطير يتّصل بالمدير العامّ ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة، فلا مجال في أيّامها المشحونة بالإرهاق لصاحب امتياز، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعيّ نفسه ويتقدّم الأكفّاء ويعترف بالقيمة الذاتيّة حتّى ولو لم يقدّر لها حسن الجزاء. وقد لفت عثمان إليه الانتباه وحاز الثقة الكاملة، وتجلّت قدرته الخارقة على العمل، كما تجلّت درايته باللوائح والقانون. ولم يقنع بما أحرز من نجاح فتطوّع سرًّا لكتابة مشروع بيان الميزانيّة الذي يكتبه عادة مدير الإدارة بنفسه. وهيّأ له العمل فرصة الانفراد بمدير الإدارة حمزة السويفي فلمّا فرغ من عَرْض أوراقه قال له بأدبه الجمّ:

ـ سيّدي المدير، اسمح لي أن أقدّم لكم بعض الملاحظات التي قيّدتها أثناء العمل لعلّها تنفع عند النظر في تحرير بيان الميزانيّة!

فنظر إليه حمزة البسيوني باستخفاف مشوب بالعطف وقال:

ـ أنت شابّ ممتاز كما يقال عنك...

ـ أستغفر الله يا أفندم.

ـ على فكرة مبارك فقد تمّت اليوم الموافقة على ترقيتك إلى السابعة...

تمتّع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان:

ـ بفضل الله وفضلكم!

فقال مدير الإدارة مبتسمًا:

ـ مبارك، أمّا بيان الميزانيّة فشيء آخر!

فقال باستماتة:

ـ عظّم الله قدرك، لا جرأة لي على الاقتراب من بيان الميزانيّة، ولكن عنّت لي ملاحظات في أثناء العمل، ملاحظات مجتهد درس القانون والماليّة، فطمع أن تكون في الخدمة عندما تحتشدون لوضع البيان الخطير.

وتناول الرجل «الملاحظات» وراح يقرأها والآخر يتابعه باهتمام مركّز خياليّ. لقد سيطرت عليه الملاحظات، هذا واضح. ثمّ قال بهدوء سطحيّ:

ـ أسلوبك جيّد...

ـ شكرًا يا سيّدي...

ـ يخيّل إليّ أنّك قارئ ممتاز.

ـ أعتقد ذلك يا سيّدي.

ـ ماذا تقرأ؟

ـ الأدب، سِيَر العظماء، الإنجليزيّة والفرنسيّة...

ـ هل لك قدرة على الترجمة؟

ـ إنّي أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس.

فضحك حمزة السويفي وقال:

ـ شيء جميل، وفّقك الله...

وأذن له في الانصراف ولكنّه استبقى «الملاحظات» عنده. وغادر عثمان حجرته ثملًا بالأفراح، يؤمن بأنّه نال من ثقته ما هو أثمن من الدرجة السابعة نفسها.

وعندما طُبع مشروع الميزانيّة بعد ذلك بأشهر هرع عثمان إلى مقدّمة الميزانيّة فقرأ البيان الذي كتبه بخطّ يده عدا تغيير طفيف لا يقدّم ولا يؤخّر. سعد بذلك سعادة كبيرة، امتلأ ثقة بنفسه وبمستقبله، واستوصى بذكائه فلم يفشِ سرّ البيان لأحد.

وما لبث أن صدر قرار بنقله من المحفوظات إلى إدارة الميزانيّة.

ليلتها وقف وراء نافذة حجرته ينظر إلى الحارة الغارقة في الظلام. ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة. مستقرّة فيما يبدو ولكن لا شيء جامد في الكون. وقال إنّ الله خلق النجوم الجميلة ليحرّضنا على النظر إلى أعلى. وإنّ المأساة أنّها ستظلّ يومًا من عليائها فلا تجد لنا من أثر. ولا يتحقّق معنى لوجودنا إلّا بالعرق والدم.

١٢

قال له سعفان بسيوني:

ـ سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما أنا سعيد بك.

وذاب عثمان في الجوّ العاطفيّ بإخلاص وقتيّ فدمعت عيناه وتمتم:

ـ لن أنساك أبدًا يا سعفان أفندي ولن أنسى عهد المحفوظات.

ـ ولكنّي سعيد لأنك سعيد...

فتنهّد عثمان وقال:

ـ السعادة عمرها قصير جدًا يا سعفان أفندي.

ولم يفهم سعفان قوله ولكنّ الآخر كان يعيشه. كان يحمل الزمن على ظهره لحظة فلحظة ويعاني الصبر نقطة نقطة. وسرعان ما نسي تمامًا أنّه رُقّي إلى السابعة أو أنّه يعمل في إدارة الميزانيّة، كان يعمل بجنون في الوزارة، ويتبحّر في المعرفة في حجرته الصغيرة. وبين هٰذا وذاك يقول بجزع:

ـ العمر يجري... الشباب يجري... الأيّام لا تريد أن تستريح...

وما زال في أوّل الطريق الطويل. وكان ولعه بالادّخار يزداد مع الأيّام، واستمساكه بمسكنه البدائيّ يقوى ويشتدّ. المال حصن، هٰكذا يشعر. وهو مهر عند الضرورة لعروس الأحلام. وعروس الأحلام هي التي تفتح مغالق الأبواب وتستنزل جوهرة المستقبل من معتصمها. وللموظّفين في ذٰلك أقوال مأثورة وحكم وأمثال. العروس الجميلة إمّا أن تكون هديّة مجد مبكّر أو ذريعة إلى المجد المستعصي. والطريق يبدو شاقًّا وطويلًا فهو في حاجة إلى إسعاف. وهم يقولون:

ـ سعادة المدير العامّ ارتقى إلى مركزه الفريد وهو شابّ تقريبًا بفضل السياسة والأسرة فتزوّج من فتاة من أسرة تعدّ من ملكات الجمال.

ويقولون أيضًا:

ـ أمّا الوكيل الأوّل للإدارة فترقّى بفضل زوجته، أو أسرة زوجته وهو الأصحّ...

وهو يزوّد نفسه بكلّ سلاح فلا عيب إذا استعان بعد ذٰلك بعروس كريمة، وإلّا فكيف يقف ضدّ تيّار الزمن المتدفّق بلا رحمة؟!. ولذٰلك راح يترجم للصحف والمجلّات ليزيد من دخله ويزيد بالتالي من مدّخراته. ونجح في ذٰلك نجاحًا لا بأس به. ولم ينفق مليّمًا جديدًا للتخفيف من تقشّفه. ولم يعرف من عالم اللهو إلّا زيارته الأسبوعيّة لقدريّة في الدرب وشرب قدح النبيذ الجهنّميّ بنصف قرش. قالت له مرّة:

ـ أنت لا تغيّر هٰذه البدلة أبدًا، هي هي صيفًا وشتاءً، أعرفها من سنوات كما أعرفك...

فقطّب ولم يعلّق فقالت:

ـ لا تغضب، أنا أحبّ الضحك...

فسألها بسذاجة:

ـ هل جمعت ما أعطيتك من نقود طيلة السنين الماضية؟

فقالت ساخرة:

ـ عشقت رجلًا مرّة فسرق منّي مائتي جنيه، هل تعرف معنى مائتي جنيه؟

تخيّل المصيبة فاستعاذ بالله وقال لنفسه إنّ كوارث الدنيا لا تُعَدّ ولا تُحصى، وسألها:

ـ وماذا فعلت؟

ـ لا شيء، ربّنا يحفظ صحّتنا فهي الأهمّ...

قال لنفسه إنّها مجنونة بلا شكّ، ولذٰلك فهي بغيّ. ولٰكنّها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقّة، ووهبته عزاء لا بأس به. وأحيانًا كان يحنّ إلى الحبّ وأيّامه وسحره الذي يغيّر مذاق الدنيا، ويتذكّر سيّدة وسُلّم السبيل المهجور والصحراء، ولٰكنّه يستسلم في النهاية لدعابات الدنيا القاسية، ويرضى عن نفسه المعذّبة لاختيارها الطريق العسير المكلّل ببركة الله ومجده العالميّ. وقالت له قدريّة ذات ليلة:

ـ ألا تحبّ أن تمضي صباح الجمعة معًا في نزهة؟

فدهش وقال:

ـ إنّي أجيئك كاللصّ متخفّيًا في الظلام...

ـ ممّ تخاف؟

ماذا يقول؟... إنّها لا تفهم شيئًا. وقال معتذرًا:

ـ لا يجوز أن يراني أحد...

ـ هل ترتكب جريمة؟

ـ الناس...

فقالت هازئة:

ـ أنت الثور الذي يحمل الأرض على قرنيّه.

إنّه ذو دين وخلق وسمعة طيّبة يجب المحافظة عليها. وقالت له بإغراء:

ـ ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة، يمكن الاتّفاق على ذٰلك...

فسألها بحذر:

ـ والثمن؟

ـ خمسون قرشًا...

وفكّر باهتمام. سيهبه ذٰلك راحة حقيقيّة ولٰكنّ الثمن فادح. إنّه في حاجة إلى الراحة، قال:

ـ فكرة طيّبة ولتكن مرّة في الشهر...

ـ هل تكتفي بمرّة واحدة في الشهر؟...

ـ ربّما أجيء غيرها ولٰكن بالطريقة العاديّة.

واعترف بأنّه لا غنى له عنها. إنّها تماثله في السنّ، ولٰكن يبدو أنّها غافلة عن الزمن، وعن أثره السريع فيها. وهي تعيش بلا حبّ ولا مجد، وكأنّها تؤاخي الشيطان في غضبها. وكم غاظه أن تعترف له مرّة بأنّها اشتركت في مظاهرة لهتف محتدًّا:

ـ مظاهرة!

ـ ما لَكَ!... نعم مظاهرة... حتّى هٰذا الدرب أحبّ الوطن يومًا ما...

وقال إنّ الجنون منتشر أكثر ممّا تصوّر. الاهتمامات السياسيّة تثيره وتدهشه. وهو يصرّ على عدم الاكتراث بها. ويؤمن بأنّ للإنسان طريقًا واحدة، وأنّ عليه أن يشقّها وحيدًا مصمّمًا بلا أحزاب ولا مظاهرات، وأنّ الإنسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربّه وبما يطالبه به في هٰذه الحياة، وأنّ مجده يتحقّق في تخبّطه الواعي بين الخير والشرّ، ومقاومة الموت حتّى اللحظة الأخيرة.

١٣

واطّلع عثمان بيومي ذات يوم على إعلان له شأنه. أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى مترجم للغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة بمكافأة ٣٥ ج. م، وحدّدت يومًا لامتحان مسابقة. اشترك في المسابقة بلا تردّد ولا تفكير شامل. وأسفرت النتيجة عن اختياره ممّا زاد ثقته بنفسه واعتزازه بمواهبه. واستدعاه حمزة السويفي إلى مكتبه ـ وكانت الوظيفة الجديدة في مكتبه ـ وقال له:

ـ أهنّئك على نجاحك الذي يقطع بتعدّد قدراتك.

فشكره عثمان بأدبه المعهود فقال الرجل:

ـ ولٰكنّها وظيفة ذات مرتّب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العامّ فهل فكّرت في ذٰلك.

لم يفطن في الواقع إلى ذٰلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتّبها الضخم نسبيًّا وقال:

ـ الحقّ أنّي لا أرغب في الخروج من الكادر العامّ...

ـ هٰذا يعني أن نعيّن التالي في الترتيب؟

فطرأت على ذهنه فكرة طيّبة فقال:

ـ ألا يمكن أن أرقّى إلى الدرجة السادسة على أن تضاف إلى أعمال الترجمة وبذٰلك أوفّر للميزانيّة مبلغًا لا بأس به؟

فتفكّر مدير الإدارة مليًّا ثمّ قال:

ـ المسألة تحتاج إلى مراجعة المستخدمين والإدارة القانونيّة...

ـ لٰكن يا سيّدي...

فضحك حمزة بك وقال:

ـ إنّك طموح وحكيم، أرجو أن يكون اقتراحك مقبولًا...

وتقرّرت ترقيته إلى الدرجة السادسة بمرتّب قدره خمسة وعشرون جنيهًا، ورغم تضحيته بعشرة جنيهات إلّا أنّه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات، فضلًا عن الأهمّيّة التي اختصّ بها بعمله المزدوج. وتمتّع بسعادة قصيرة كالعادة. لم يعرف السعادة إلّا خطفًا مثل لقاءات الطريق العابرة. وعاد يقيس الطريق الطويلة ويئنّ تحت وطأة لانهائيّتها. ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك أن يلج مرحلة جديدة من العمر؟. وقبّله سعفان بسيوني وقال له:

ـ إنّك تقفز بقوّة مليحة يا ولدي...

فقال بأسى:

ـ ولٰكنّ الأيّام أسرع من الخيال...

ـ هي كذٰلك كفاك الله شرّها...

فرنا إلى وجهه المتغضّن وسأله:

ـ هلّا حدّثتني عن طموح شبابك؟

ـ أنا؟!، له الحمد، كانت رئاسة المحفوظات أبعد من خيالي...

ـ ألم تحلم بأن تكون المدير العامّ؟

فأغرق الكهل في الضحك حتّى دمعت عيناه، ثمّ قال:

ـ نحن أبناء الشعب لا نطمع فيها يتجاوز رئاسات الأقسام.

إنّه مخطئ. إنّما يصدق كلامه على وظائف الوزارة والوكلاء، أمّا وظيفة المدير العامّ فلا تستعصي على أبناء الشعب، هي أملهم المنشود والأخير. وبخاصّة الأفذاذ منهم الذين يعدّون أنفسهم لذٰلك المجد العظيم. بيد

أنّ الأيّام تمرّ بلا توقّف، وفي غفلة ونعومة. ولا قيمة لدرجة المدير العامّ إذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها أعوامًا حتّى ينعم بها وينعم بالدنيا في ظلّها ويحقّق باسمها أجلّ الخدمات للجهاز المقدّس الذي يسمّونه الحكومة.

ومتى يكمل نصف دينه؟. قبل بلوغ الأمل أم بعده؟. يجب أن يكوّن أسرة وينجب ذرّيّة وإلّا حقّت عليه اللعنة. فإمّا العروس التي ترفع إلى العلا وإمّا العلا الذي يحظى بالعروس الباهرة. ومن شدّة معاناته للعذاب يحنّ أحيانًا للهدوء والخمول ويتطلّع إلى الجهاد الشاقّ الذي يهب الحياة معناها الوحيد، وعذابها المقدّس.

وسمع ذات يوم أنّ مدير الإدارة حمزة السويفي يشكو ضعف نجله في اللغات الأجنبيّة فاقترح عليه أن يساعده. وتردّد الرجل قائلًا:

- الأوفق أن أحضر له مدرّسًا خاصًّا حرصًا على وقتك.

فقال له بأسلوبه المختار:

- لن أغفر لسعادتك هٰذا القول...

وتردّد على بيت المدير فقدّم للشابّ مساعدة فذّة كان لها أثرها في إنجاحه. وفكّر المدير في تقديم مكافأة له فتراجع كأنّما يجفل من نار وقال:

- لن أغفر لسعادتك هٰذا أيضًا...

وأصرّ على موقفه حتّى سلّم الرجل، فقال له بنبرة الممتنّ:

- لا زلت أسير فضلك وتشجيعك...

على أنّه شعر في أعماقه بألم يناسب المبلغ الذي رفضه بشهامته. وثمّة خيبة أخرى عاناها في تردّده على بيت المدير، فقد حلم بأن يجد هناك عروسًا «مناسبة» ومن يعلم؟... وحلم أيضًا بأنّ خدماته قد تشفع له عند حمزة بك فيغضي عن وضاعة أصله، ويقبله في طبقة جديدة تمهّد له السبيل إلى التقدّم. ولكنّ الحلم لم يتحقّق، ولم يصادفه في تردّده إلّا الذكورا سعفان بسيوني ما كان يهمّه أصله فهما من أصل واحد تقريبًا ومنبت متشابه ولكن أيّ فائدة كان يرجوها من الزواج من كريمته؟. لا شيء إلّا الذرّيّة والمتاعب والفقر. ولا حبّ أيضًا. فهو لم يحبّ إلّا سيّدة، وقد مات قلبه مذ سلاها، ولكنّ المتطلّعين إلى المجد في طريق الله لا يحفلون بالسعادة.

وتمضي الأيّام، وستمضي أبدًا، بصيفها اللافح، وخريفها الحالم وشتائها القاسي وربيعها الفوّاح، وسيظلّ عزيمة مثابرة وهمّة متصاعدة وقلبًا معذّبًا وأشواقًا طاحنة.

١٤

وزارته أمّ حسني كعادتها بين الحين والحين. أهدته برطمانًا من الليمون المخلّل وجلست على الكنبة وهي تنظر إليه باهتمام أثار فضوله. ضربت على ركبتها فجأة وقالت:

- تحزنني وحقّ الحسين وحدتك...

فابتسم بلا اكتراث فقالت:

- أنسيت أنّك تتقدّم في العمر؟

- كلّا طبعًا يا أمّ حسني...

- وأنّه لا يوجد ما هو أغدر من السنين!

- صدقت.

- أين الذرّيّة لتؤنس وحدتك؟

- في عالم الغيب.

وصمت قليلًا حتّى قال ضاحكًا:

- طَبْع المهنة يتحرّك فيك يا أمّ حسني...

فضحكت وقالت:

- اسمع عندي شيء ثمين...

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث بإغراءاته العذبة المجهولة. قال:

- دائمًا عندك شيء ثمين.

فقالت بأمل:

- حلوة... أرملة... متوسّطة العمر... ولكنّها عاقلة، بنت المرحوم شيخ الحارة...

- هه!

- لها بنت وحيدة في الرابعة عشرة!.

- إذن هما امرأتان لا امرأة واحدة...

- ستذهب البنت إلى بيت عمّها... لا تحمل همًّا من هٰذه الناحية...

- عظيم.

- وهي صاحبة ملك!

- حقًّا؟!

- بيت في برجوان... في حوشه شجرة توت...

نظرت إليه ببصرها الضعيف لترى أثر كلامها، فتوهّمت رضاه، وقالت:

ـ ستراها بنفسك...

وبإرشاد من أمّ حسني رآها في السكّة الجديدة. رآها ترتدي معطفًا ولكن وضح له أنّ مشيتها المتثنّية الوانية تربّت وترعرعت في الملاءة اللفّ. مائلة للقِصر وبدينة، ذات وجه ريّان وشعر أسود. نادت فيه رغبة بدائيّة. مثل قدريّة. قال إنّها أنظف ربّما ولكنّ متاعبها أكثر بما لا يقاس. وشعر برثاء نحو أمّ حسني التي تجهله كلّ الجهل رغم طول المعاشرة. من أين لها أن تفهم معنى مُراجع بإدارة الميزانيّة ومترجِم؟. مأساة الآدميّة أنّها تبدأ من الطين، وأنّ عليها أن تحتلّ مكانتها بعد ذلك بين النجوم.

وسألت أمّ حسني:

ـ ما رأيك؟

فأجاب باسمًا:

ـ سيّدة ممتازة... ما زلتِ أستاذة!

ـ هل أكمل ما بدأت؟

فأجاب بهدوء:

ـ كلّا.

ـ ألم تقل إنّها سيّدة ممتازة؟

ـ ولكنّها ليست بالزوجة الصالحة لي.

وأثبتت العجوز أنّها أعند ممّا يتصوّر فجاءته يومًا وهي تقول:

ـ من المصادفات السعيدة أنّ ستّ سنيّة جاءت تزورني...

فتحرّكت الرغبة البدائيّة واستسلم لضعف طارئ فذكّرته أمّ حسني بقولها قائلة:

ـ جاءت تزورني...

فقال بخبث:

ـ لعلّها تزورني أيضًا.

فقالت وهي تمضي:

ـ إذا شئت فانزل أنت...

ولم يتردّد فنزل. وغلب الصمت فانفسح المجال لأمّ حسني فراحت تتكلّم بلا توقّف. وتذكّر عثمان أنّه لم يتكلّم كلامًا له معنى إلّا مع سيّدة. واضطرّ أن يقول:

ـ شرّفتنا...

فهمست:

ـ متشكّرة...

ـ الجوّ بارد اليوم.

ـ نعم.

ـ هل انتهيت من تبييض بيتك؟

فأحنت رأسها بالإيجاب.

حاولت أيضًا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنّه لزم الصمت. ورغبته تأجّجت ولكن بلا أمل وتحرّكت سنيّة حركة خفيفة تنبئ عن رغبتها في الذهاب فقام من فوره، سلّم وذهب. وبدلًا من أن يصعد إلى شقّته هبط أسفل السلّم مضمرًا خطّة تتّسم بالجراءة. سمع أقدامها وهي تتحرّك على السلّم نازلة. دهشت لمرآه فقال متظاهرًا بالدهشة كذلك:

ـ فرصة طيّبة...

أوسع لها ولكنّه همس وهي تحاذيه:

ـ تفضّلي لشرب فنجان شاي فوق...

فقالت بعجلة:

ـ شكرًا...

ـ تفضّلي عندي ما أقوله...

فقالت باحتجاج:

ـ كلّا.

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك. قال وأطرافه ترتعش بالرغبة إنّه أسرع، كيف تصوّر أنّها يمكن أن تقبل؟، ولكنّها الرغبة وقلّة الصبر والحيلة. وصعد خجلان غاضبًا. وقال إنّه سيظلّ مراهقًا حتّى يستقرّ في بيت محترم.

١٥

حالته الماليّة تتحسّن يومًا بعد يوم، استحقّ علاوة، وعائده من الترجمة يتزايد، ولأنّه لا ينفق إلّا ما تحتّمه الضرورة فرصيده في البريد يرتفع باستمرار. وهمّته في العمل لا تهن، وعلاقته بمدير الإدارة حميمة كأنّها الصداقة، ويومًا قال له:

ـ أبدى سعادة المدير العامّ إعجابه بأسلوبك في الترجمة...

فاجتاحته موجة فرح حتّى أغرقته، وأيقن بأنّه لن ينام من الليل ساعة. طبعًا سعادته لا يتذكّره، ولكنّه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنويّ. قال مدير الإدارة:

ـ سعادة المدير مترجِم كبير، ترجم كثيرًا من الكتب الهامّة فهو يقدّرك عن بيّنة!

وتمتم شاكرًا ثمّ قال:

ـ إنّما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عنّي.

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة في الودّ:

ـ دعيت لإلقاء محاضرة في جمعيّة الموظّفين، وقد سجّلت نقاطها، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز؟

فقال بحماس:

ـ إنّها لسعادة كبرى يا سيّدي المدير.

إنّه يتمنّى لو يكلّف كلّ يوم بعمل كهٰذا. إنّ عمله في الإدارة ـ على ضخامته وتقدير الجميع له ـ لن يكفي وحده. فلا أقلّ من تقديم الخدمات للرؤساء، وإشعارهم بأهمّيّته وفوائده الشريفة. ولعلّ ذٰلك يقلّل من جزعه لقلّة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه. ولٰكنّه عزاء يتزوّد به في طريقه الطويل. وفي الليل غشيته كآبة بلا مقدّمات وهتف:

ـ يا لي من مجنون، كيف أتصوّر أنّني سأبلغ يومًا مرادي؟!

وحسب ما ينقصه من درجات، الخامسة والرابعة والثالثة والثانية والأولى، قبل أن يتبوّأ ذروة المجد!. حَسَبَ ذٰلك وما يقتضيه من سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالأسى. وقال إنّه يجب أن يحدث شيء كبير، وإنّ حياته لا يمكن أن تضيع هدرًا. وكان على موعد مع سعفان بسيوني في المقهى فارتدى ملابسه وغادر الشقّة. وجد أمّ حسني في انتظاره أمام شقّتها فقالت له:

ـ عندي ضيوف يجب أن تسلّم عليهم، عندي سيّدة وأمّ سيّدة. . .

دخل وسلّم. دخل كالخائف ولٰكن سرعان ما أدرك أنّ كلّ شيء قد انتهى وانقضى. لم يلمس لمحة جفاء أو عتاب واحدة، ولٰكنّه رأى نظرة محايدة لا تكلّف فيها ولا التماعة تذكر فأيقن من سقوط الماضي في هوّة الموت اللّانهائيّة. وضاعف من إحساسه العميق بالزمن ترحيب الأمّ به ترحيبًا صافيًا بلا شائبة. رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظنّ بها الخلود والأبديّة فإذا بها ذكرى مجرّدة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنّها خروج آدم من جنّة الخلد. وها هي سيّدة تميل إلى البدانة والبلادة، ذكّرته بقدريّة، فأمعن في الاضطراب ورأى أعلى ملاءتها قد هبط عن رأسها فطوّق منكبيها، فانطلق الرأس والعنق في حرّيّة، وتراجع منديلها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدّم شعر مفروق، أمّا الألق الذي ألف أن يطالعه في عينيها فقد استقرّ وانطفأ.

تمّت المقابلة في جوّ محنّط وغريبة ساخرة، وعبثًا حاول أن يجد فوق الشفتين الغليظتين أيّ أثر لشفتيه أو أسنانه. مكث ما تقتضيه المجاملة ثمّ ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتّاك ذي الابتسامة الناعمة القاسية. ذهب إلى رئيسه القديم لقضاء سهرة ودّيّة لمناسبة إحالته على المعاش بعد أيّام معدودات. أمسى الكهل عودًا هزيلًا، هلكت آخر شعرة في رأسه، لا بسبب الكبر ولٰكن لمرض في المعدة، ولٰكنّه ظلّ طيّبًا مستسلمًا كالعهد به. ووضح أنّه يستقبل نهاية خدمته بكآبة وحزن وتشتّت فمضى يجامله ويقول:

ـ أتمنّى لك راحة سعيدة مديدة. . .

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها:

ـ لا أدري كيف تكون الحياة بعيدًا عن المحفوظات. . .

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ ولا هواية لي، وهٰذا هو المزعج حقًّا. . .

ـ ولٰكنّك محبوب، الجميع يحبّونك. . .

ـ نعم، ولم تعد لديّ واجبات عائليّة بلا إنجاز، ولٰكنّني خائف.

وجعلا يحتسيان الشاي وهو يسترق منه النظر برثاء حتّى رجع يقول ـ الرجل ـ :

ـ أذكر يوم التحاقي بالخدمة كأنّه الأمس، إنّه يوم لا يُنسى مثل ليلة الدخلة، أذكره بكلّ تفاصيله، كيف مرّ ذٰلك العمر بهٰذه السرعة؟!

فانقبض قلب عثمان وتمتم:

ـ نعم كأشياء كثيرة. . .

فابتسم إليه كأنّما يفتتح بالابتسامة عهدًا جديدًا وسأله:

ـ وكيف حال أعبائك العائليّة؟

تذكّر ادّعاءاته الكاذبة فقال:

ـ ما زال الحمل غير خفيف. . .

فرنا إليه بمودّة وقال:

ـ تسلّمتك غلامًا كبيرًا ليس إلّا، وها أنت اليوم رجل كامل، وعمّا قليل. . . ولٰكن ما علينا، المهمّ ألّا يسرقك الزمن، خذ بالك بكلّ قوّة. . .

ـ عظيم، وهل يجدي ذٰلك؟

ـ على الأقلّ لا يجوز أن يفوتك القطار. . .

ـ هل تقصد الزواج؟

ـ كلّ شيء، دائمًا أراك في حال تأهّب واستعداد،

لأيّ شيء؟ وحتّى متى؟

ـ ولٰكن هٰذه هي طبيعة الحياة...

فلوّح الرجل بيده محتجًّا وقال:

ـ كلّنا يتكلّم عن الحياة بثقة كأنّما يعرفها حقّ المعرفة...

ـ لا مفرّ من ذٰلك...

ـ لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها...

ـ من حسن حظّنا أنّه موجود وأنّه أعلم منّا بما يفعل...

فقال الكهل بعمق:

ـ الحمد لله...

وصمتا وتكلّما، ثمّ صمتا وتكلّما حتّى آنَ وقت الذهاب. شعر عثمان بأنّه لن يراه مرّة أخرى. ولم تكن تربطه به إلّا زمالة قديمة وإحساس بالواجب ولٰكنّه وجد نحوه ـ في لحظته ـ أسًى غير قليل. قال الكهل وهو يصافحه:

ـ أتوقّع ألّا تنساني؟

فقال بنبرة أحرّ من قلبه:

ـ معاذ الله...

فقال الرجل برجاء:

ـ النسيان هو الموت.

ـ مدّ الله في عمرك.

ولم تكن لديه نيّة لزيارته، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقيّ من عواطفه ولٰكن خوفًا من أن يُتّهم بالجحود، ولذٰلك كرّبه ضميره وورعه الدينيّ، ومضى في طريقه لا يرى شيئًا، ورغمًا عنه تركّز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيّام.

وكانت مكانته قد تدعّمت لدى مدير الإدارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن.

ورُقّيَ إلى الدرجة الخامسة في نفس الشهر مع نقله رئيسًا للمحفوظات.

١٦

هبة قيّمة تتخلّق في الفراغ المشحون بالصبر. الوثبة الجديدة وثبة حقيقيّة، وامتيازها الخطير أنّ رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات الهامّة على حضرة صاحب السعادة المدير العامّ ليتلقّى توجيهاته وينفّذها في سرّيّة تامّة. رضي الله عنه أخيرًا ففتح له الباب العالي الموصل إلى الحضرة الإداريّة العليا. وهي فرصة سلطانيّة تطالبه باستغلال جميع ما تمرّس به من خبرة وثقافة ولباقة وإخلاص. ها هي الحجرة المترامية كميدان التي يحلم بأن يحكم منها ذات يوم. الحلم الذي يجب أن يتحقّق ولو ضحّى على مذبحه بجميع القرابين، الحلم المضنون به على غير أهله من الأكفّاء الذين يشترونه بمسرّات الدنيا الرخيصة العابرة.

وتفحّص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض، سقفها الأبيض الأملس، ونجفتها الكرستال، وجدرانها المورّقة، مدفأتها الموشّاة بالقرميد، بساطها الأزرق الذي لم يتخيّل إمكان وجود بساط في طوله وعرضه، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر، والمكتب المتصدّر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلّوريّ، وتحفه الفضّيّة من ورّاقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبيّة للسجائر من خان الخليلي.

وتهيّأت فرصة لاستراق النظر إلى المدير السعيد وهو مستقرّ فوق مقعده الكبير، يطالعه بعينين داكنتين حادّتين ووجه حليق، وطربوش غامق الاحمرار، ورائحته الزكيّة، وشاربه الأسود المتوسّط الطول والارتفاع، وهاله الصحّة التي تطوّقه، وبدانته المتوسّطة وإن لم يعرف على وجه الدقّة طوله، وتحفّظه الراسي المهيب الذي يجعل من صداقته مطلبًا عزيز المنال.

ها هو يقف في حضرته، في متناول أنفاسه، في مجال رائحته الزكيّة، يكاد يسمع نبضه، ويقرأ أفكاره، ويستلهم رغائبه، وينفّذ ـ قبل البوح ـ أوامره، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته، وقرّة عين حلمه الأبديّ أن يجلس ذات يوم مكانه.

انحنى بأدب وورع وقال:

ـ صبّحك الله بالسعادة يا صاحب السعادة.

فرفع إليه بصره مغمغمًا بردّ تحيّته، فقال الآخر يقدّم نفسه:

ـ عثمان بيومي رئيس المحفوظات.

فقرأ في ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتسامة لم ترتسم على شفتيه، فقال مستزيدًا من تقديم نفسه:

ـ الجديد يا فندم.

ـ والمترجم. أليس كذٰلك؟

فقال بقلب خافق:

ـ نعم يا صاحب السعادة.

فقال بصوت منخفض:
- أسلوبك جيّد...
- إنّه لشرف عظيم هٰذا التشجيع...
- هل لديك مراسلات هامّة؟
راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات ويتلقّى في دقّة التوجيهات. انحنى مرّة أخرى ثمّ غادر الحجرة ثملًا بالأفراح. فكّر في طريق عودته إلى المحفوظات بأنّ حمزة السويفي يتراجع - في حياته - إلى الظلّ حتّى يدركه الظلام الذي ابتلع سعفان بسيوني وأنّ مستقبله أصبح منذ الساعة بيد حضرة صاحب السعادة بعد الله ذي الجلال. وقال لنفسه:
- احذر يا عثمان مغبّة السير الرتيب، لا بدّ من وثبة أو وثبات....
وقال أيضًا:
- سعفان بسيوني قضى نصف مدّة خدمته في الدرجة التي أسلمته إلى المعاش!
وهو يحفظ عن ظهر قلب أنّ للإدارة وكيلين ولٰكنّ الوثبة لن تأتي إلّا عن طريق حمزة السويفي، بأن يرقّى أو يحال إلى المعاش أو... يموت!!. وامتعض من نفسه كما يحدث له كثيرًا، وابتهل إلى الله قائلًا:
- أسألك اللّٰهمّ العفو والسماح!
وتساءل:
- لماذا خلقنا على هٰذه الصورة الفاسدة؟
قلّ أن يرضى عن طبيعته ولٰكنّه يسلّم بواقعها، ويؤمن بأنّ طريقه المقدّس تتلاطم على جانبيه أمواج الخير والشرّ، وأنّ شيئًا لا يمكن أن ينال من قدسيّته سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرّات السهلة وأحلام اليقظة.
- اغفر لي ذنبي أنّني أحبّ المجد الذي بثثت حبّه في نفسي يا ذا الجلال...
وتساءل نفسه بتصميم:
- كيف تقنع حضرة صاحب السعادة بفوائدك؟... هٰذه المسألة.
كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو خزي؟. وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة السويفي؟، وفي نطاق الكبرياء والشموخ وإن يكن في الحدود الرسميّة بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة؟
- إنّ جهادي شريف أمّا العواطف والأفكار فهي ملك لله وحده...
إنّه يؤمن بأنّ الله خلق الإنسان للقوّة والمجد، الحياة قوّة، المحافظة عليها قوّة، الاستمرار فيها قوّة، فردوس الله لا يُبلغ إلّا بالقوّة والنضال.
وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة صاحب السعادة بهجت نور المدير العامّ نيشان النيل. حبّر مقالة في تهنئته نشرتها له صحيفة يمدّها عادة بترجماته. نوّه فيها بالحزم والخلق والدين والإدارة والمثاليّة، قال إنّه مثال للمدير الوطنيّ الذي ظُنّ يومًا أنّه لا يمكن أن يقوم مكان المدير الإنجليزيّ.
وعندما دخل الحجرة العصماء لعرض البريد ابتسم صاحب السعادة له لأوّل مرّة، وقال له:
- أشكرك يا عثمان أفندي...
فقال وهو ينحني:
- الشكر لله يا صاحب السعادة...
- أمّا أسلوبك فممّا تُغبط عليه.
وآمن بأنّه ليس بالنبيذ الجهنّميّ وحده يسكر الإنسان. ولٰكنّ السكر لا يدوم. وكثيرًا ما يعقبه خمار. ويخيّل إليه أنّ عجلة الأيّام تزيد من سرعتها. غاية ما يذكر أنّ الزمان لم يكن موجودًا. كانت حارة الحسيني مكانًا صرفًا. لا خطورة للدرجة الخامسة في حياة رجل يتوسّط العمر. رجل يرفع رأسه دوامًا نحو النجم القطبيّ، يحبس نفسه في حجرته الصغيرة المكتظّة بالكتب. خير ما في حياته من طعام لحمة الرأس أو الكباب في المواسم السعيدة. ولا يعرف من مسرّات الدنيا إلّا النبيذ الجهنّميّ وقدريّة الزنجيّة في الحجرة العارية.
إنّه بحاجة إلى دفء إنسانيّ حقيقيّ، إلى عروس وأسرة. لم يعد يحتمل أن يحترق في الحياة وحيدًا...
ما أحوجه إلى أنيس في هٰذا الكون المكتظّ بملايين الأكوان!...

١٧

دعا أمّ حسني لزيارته. صنع لها القهوة بيده على موقده الكحوليّ. لعلّها شعرت بأنّه يتهيّأ للكلام في قلق عذب. قالت برجاء:
- قلبي يحدّثني أنّك ناديتني لأمر، يشهد الله بأنّني حلمت أمس...
فقاطعها:

ـ لا داعي للأحلام يا أمّ حسني، أريد عروسًا.

فتهلّل وجهها وهتفت:

ـ يا ألف نهار أبيض...

ـ عروس مناسبة...

ـ ما أكثرهنّ!

ـ لي شروط يا أمّ حسني، افهميني جيّدًا...

ـ عندي البكارى والثيّب، مطلّقات وأرامل، الغنيّات ومَن هنّ على باب الكريم...

فقال بصوت حاسم:

ـ أبعدي فكرك عن حارتنا، عن حيّنا كلّه...

فتساءلت بحيرة:

ـ ما هي أفكارك يا ابني؟

ـ أريد عروسًا من أسرة كريمة...

ـ عندك المعلّم حسّونة صاحب المطحن البلدي.

فقاطعها بنفاد صبر:

ـ لا تفكّري في حيّنا، عليك بالأسر الكريمة...

ـ تقصد...؟

ـ الأعيان... كبار الموظّفين... أصحاب السلطة.

بهتت المرأة كأنّما تسمع عن عالَم فلكيّ جديد.

ـ الظاهر أنّه لا حول لكِ في هٰذا المجال.

فقالت بيأس:

ـ تفكيرك غريب يا بنيّ...

ليكن...

ـ لا حول لي كما قلت ولٰكنّي أعرف أمّ زينب الخاطبة بالحلميّة.

ـ عليك بها، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت صاحبة الفضل الأوّل...

وهي تضحك:

ـ أنت بخيل يا سي عثمان.

ـ يا وليّة يا ظالمة، هٰذا وعد ورحمة أمّي...

ـ ربّنا يوفّق.

ـ ليس من الضروريّ أن تكون بكرًا، لتكن أرملة... مطلّقة... عانسًا... لا يهمّني الجمال ـ ولٰكن لتكن مقبولة ـ ولا يهمّني السنّ ولا المال.

هزّت المرأة رأسها في حيرة فقال:

ـ عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا إلى الوزارة أمّا...

وسكت قليلًا ثمّ استطرد:

ـ أمّا الأصل فيمكن القول بأنّ الأب كان تاجرًا مثلًا، هل يتحرّون عن ذٰلك بدقّة؟

ـ نعم... رحم الله والديك...

ـ على أيّ حال قد يشفع لي شخصي، ولنجرّب!

ومضت الأيّام مرهقة وهو ينتظر. وكلّما رجع إلى أمّ حسني أوصته بالصبر. تخيّل أسباب التأخير وقلبه يغوص في الظلام، وراح يتردّد على مقام الحسين.

وحدث في تلك الأيّام أن تخلّف عن العمل مدير الإدارة حمزة السويفي. وعلم بأنّه لزم الفراش لارتفاع شديد في ضغط الدم. وزاد من الحرج العامّ أنّ الإدارة كانت بصدد إعداد الميزانيّة الجديدة. وقد عاده في مرضه، وجلس قرب فراشه طويلًا، وأبدى من الحزن والإشفاق ما أطلق لسان الرجل بالثناء عليه والدعاء له أن يكفيه الله شرّ الأيّام. وتذكّر عثمان في جلسته أنّه لم يزر سعفان بسيوني، وأنّه ترك أخباره تنقطع عنه كأنّه رحل. وقال مخاطبًا حمزة السويفي:

ـ ارتح تمامًا، ولا تترك الفراش حتّى تستردّ عافيتك بالكامل، ولا تقلق من ناحية العمل فإنّي والزملاء في خدمتك...

فشكره الرجل وتمتم في قلق:

ـ مشروع الميزانيّة!

فقال له بيقين:

ـ سيُعَدّ بإذن الله، كلّهم تلاميذك ويعرفون من العمل تحت رياستك ما ينبغي عمله...

أمّا في الوزارة فقد دار الحديث طويلًا حول المريض ومرضه، قيل إنّه ربّما اضطرّ حمزة بك إلى التقاعد أو التنحّي على الأقلّ عن مهامّه الرئيسيّة. سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفيّ تلقّاه بسخط وقلق، كالعادة، ولٰكنّه هيّج أحلامه ومطامعه. وإذا بالمدير العامّ يصدر قرارًا بتشكيل لجنة خاصّة لإعداد الميزانيّة جعله مقرّرها. وتمّ اختياره عن دلالة لا تخفى على أحد. أجل لم يشكّ أحد في كفاءته ولا في حكمة القرار من هٰذه الناحية ولٰكن ـ قيل ـ ألم يكن اللائق أن تسند رئاستها إلى وكيل الإدارة محافظة على الشكل؟!. أمّا هو فكرّس كلّ قواه لإعداد المشروع حتّى يبرز للوجود كاملًا بلا هفوة واحدة. وتجلّت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارات الوزارة على حين تعهّد هو بالموازنة الختاميّة وتحرير البيان. واقتضى العمل الاتّصال المباشر بحضرة

صاحب السعادة والاجتماع به ساعة كلّ يوم وأحيانًا ساعتين، حتّى حلّت الألفة بينهما مكان الكلفة. وامتدّ الاجتماع يومًا أربع ساعات فأمر له بقهوة، وقدّم له سيجارة ولٰكنّه اعتذر شاكرًا لكونه غير مدخّن. مرّت أيّام أترعت قلبه بالسعادة والزهو والأمل، ورضي الرجل عن عمله فشعر برضى الله وإقبال الدنيا. وأعدّ للمشروع مقدّمة مثاليّة حازت إعجاب المدير بصفة خاصّة فتربّع على قمّة النصر المبين.

ورجع حمزة السويفي إلى مكتبه مستردًّا صحّته في اليوم الأخير لعمل اللجنة، وأعلن عثمان أفراحه فعانقه داعيًا له بطول العمر. قال له:

ـ كنّا كالضائعين فالحمد لله على سلامتك.

وتساءل الرجل:

ـ والمشروع؟

ـ أعِدّ، وكتبتُ المقدّمة، هما معروضان الآن على صاحب السعادة، وسوف تطّلع عليهما غدًا أو بعد غد، ولٰكن كيف حال الصحّة؟

ـ الحمد لله أجروا لي حجامة، ووصفوا لي رجيمًا دقيقًا، والأمر لله من قبل ومن بعد.

ـ ونِعْمَ بالله...، ما هي إلّا سحابة صيف...

أَلِفَ في خدمته الطويلة انقسام الشخصيّة والعذابات الأخلاقيّة. كما أَلِفَ الصدمات المتوقّعة وغير المتوقّعة. كهٰذه الصدمة مثلًا. وجثم الفتور في أعماق قلبه حتّى اليأس. ولذٰلك فعندما خلت درجة رابعة في الإدارة القانونيّة دفعه التوتّر إلى الكلام. أوّل مرّة تكلّم فيها بلسانه بعد أن اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته. وبفضل الجوّ الذي خلّفه العمل بينه وبين صاحب السعادة قال له:

ـ لو تعطّف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد يرى أن أستغلّ ثقافتي القانونيّة في الإدارة القانونيّة...

ولٰكنّ الرجل قال بلهجة حاسمة:

ـ كلّا، الإدارة القانونيّة وُقْف على أصحاب امتيازات يحسن تجنّب التعرّض لها...

آه... كالعروس التي طال انتظاره لها. وامتعض ولٰكنّه قال بخشوع:

ـ أمرك يا صاحب السعادة!

ومضى نحو الباب ولٰكنّ صوت الرجل أدركه قائلًا:

ـ اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات إلى الرابعة في الميزانيّة الجديدة.

رجع في خطوة واسعة واحدة وانحنى حتّى كاد رأسه يمسّ طرف الكتب.

١٨

وثبة موفّقة لا شكّ في ذٰلك. وإذ جرى الحظّ بذٰلك المعدّل فربّما بلغ المراد في اثني عشر عامًا أو خمسة عشر، ويتبقّى له عدد لا بأس به من السنين يمارس فيه الإدارة الكبرى كصاحب سعادة. أمّا مهمّة أمّ زينب فقد باءت بفشل أكيد، لم يعد من مجال للشكّ في ذٰلك.

ـ رئيس المحفوظات رُفض بلا عناء، مدير الإدارة ربّما قُبِل، أمّا صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ أرذل العمر!

لا حصر للأسباب التي تدعوه للزواج. منه يستمدّ العون، ويبدّد وحشة القلب وعذابات الوحدة، ويُرضي ورعه الدينيّ الذي يرى عزوبته إثمًا. قدريّة تلعب دورًا ملطّفًا في حياته المتوتّرة ولٰكنّها لا تهيّئ رحمة أو حنانًا أو مودّة إنسانيّة، فضلًا عن مضاعفتها لمشاعر الإثم. العزاء الباقي هو العمل، والثقافة، والادّخار، وكلّما ضاق بتقشّفه قال لنفسه:

ـ هٰكذا عاش الخلفاء الراشدون!

وذات يوم وهو يعمل في المحفوظات بوغِتَ بسعفان بسيوني يقف أمامه مهدّمًا مهزولًا كأنّه شبح يودّع الحياة. نهض للترحيب به خجلان من هول ما أهمله. وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة:

ـ أيّ فرصة سعيدة!

فاستجمع العجوز أنفاسه بجهد جهيد ثمّ تمتم:

ـ كم أوحشتنا يا رجل!

فهتف بأسف وندم:

ـ اللعنة على العمل، اللعنة على البيت ومَن فيه، كم أنّني آسف يا صديقي العزيز.

قال بصوت شاكٍ:

ـ أنا مريض يا عثمان...

ـ لا بأس عليك، بخير إن شاء الله، هل آمر لك بقهوة؟

ـ لا شيء ألبتّة، كلّ شيء ممنوع...

ـ ربّنا يردّ لك الصحّة والعافية...

غاص في الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن أن تنتهي هٰذه المقابلة التعيسة. وصمت سعفان قليلًا ثمّ

قال بانكسار وذلّ:

ـ إنّي في مسيس الحاجة إلى ثلاث جنيهات.

غصّ بالكلام ثمّ استدرك:

ـ للعلاج كما ترى...

ارتعد عثمان. رأى أنّ الخطر يوشك أن يدهمه. بلا رحمة. هتف بطريقة مؤثّرة كالمطارد:

ـ يا للفظاعة، ما كنت أتصوّر، ما كنت أتصوّر أن أردّ لك طلبًا، فضلًا عن هٰذا الطلب بالذات، أيسر عليّ أن أسرق من أن أرفض طلبك.

فازدرد الرجل ريقه وقال بيأس:

ـ ولا جنيه واحد؟!

ـ ألا تصدّقني يا أعزّ الناس؟! والله لولا الحياء، لولا الحياء....

يئس الرجل تمامًا. غرق في أفكار مجهولة. قام بصعوبة وهو يقول:

ـ إنّي مصدّقك، كان الله في عونك، ربّنا يلطف بنا كلّنا...

دمعت عينا عثمان وهو يصافحه. دمعة حقيقيّة. لا تمثيل فيها. هي تكثيف لبعض أبخرة الصراع المعذّب الناشب في أعماقه. كاد يلحق به. لٰكنّه لم يتحرّك. تركه يذهب. رجع إلى المكتب وهو يناجي نفسه:

ـ يا للعذاب!...

وقال:

ـ كان يجب أن نُقدّ من صخر أو حديد لنستطيع تحمّل الحياة....

وقال أيضًا:

ـ الطريق طويلة جدًّا، عزائي أنّني أقدّس الحياة ـ نعمة الله ـ ولا أستهين بها!

في نفس الأسبوع أبلغ بنعي سعفان بسيوني!. فصدم صدمة عنيفة رغم أنّ الأمر كان متوقّعًا.

ومن شدّة ألمه صاح بنفسه:

ـ كفّ عن التألّم، لديك من العذاب ما يكفيك.

وتساءل:

ـ إنّي محسود فهل أنا سعيد؟

وتساءل أيضًا:

ـ ما السعادة؟

ثمّ قال:

ـ سعادتنا الحقيقيّة أنّ الله موجود.

ثمّ بإصرار:

ـ إمّا أن نحيا وإمّا أن نموت!

١٩

الوقت كالسيف إن لم تقتله قتلك. بات خبيرًا بقتل الوقت ولٰكن هل نجا حقًّا من سيفه؟!. أمس خلا إليه موظّف جديد شابّ ليسأله النصح في مسألة خاصّة فمهّد لسؤاله بقوله:

ـ معذرة يا سيّدي الرئيس إنّما أسألك كوالد أو أخ أكبر!

وقع قوله من مسمعه موقعًا غريبًا حتّى خُيّل إليه أنّه يسخر منه!. كوالد!. حقًّا كان من الممكن أن يكون له ولد في سنّه. لِمَ لا؟. ومع ذٰلك فإنّه لم يهمل قطّ في قتل الوقت.

ويومًا قالت له أمّ حسني:

ـ أمّا هٰذه المرّة فهي ناظرة مدرسة!

اهتزّ بسرور لا خفاء فيه. ولٰكنّ الناظرة زوجة صالحة ربّما على حين أنّه يريد «مصعدًا» فما العمل؟

ولم يستطع أن يقاوم حبّ الاستطلاع فسأل العجوز.

ـ طاعنة في السنّ؟.

ـ عزّ الأنوثة... خمس وثلاثون سنة على أكثر تقدير...

ـ أرملة أو مطلّقة؟

ـ عذراء كما خلقها الله، لم يكن يسمح لهنّ بالزواج كما تعلم...

ولم يجد بأسًا في أن يراها. رآها في السيّدة. مقبولة المنظر والمبنى. أثارته كما أثارته سنيّة من قبل. هٰكذا رآها وعلم أيضًا بأنّها رأته.

وقالت له أمّ حسني في مقابلة تالية:

ـ لن تكلّفك مليّمًا واحدًا...

فأدرك أنّه حاز القبول. وها هي تقترح أن تجهّز نفسها وتعدّ بيتها ولن يطالب إلّا بالهيّن. قالت العجوز:

ـ الدبلة والشبكة وبعض النثريّات فهل أقول مبارك؟

ـ صبرك...

ـ لها شرط واحد أن يكون مؤخّر الصداق مائة وخمسين جنيهًا...

كلّ شيء جميل ويوافق تمامًا حرصه. وهو مناسب

جدًّا إذا كان يروم إكمال نصف دينه فقط ولٰكن ماذا عن دنياه؟!. رغم ذٰلك غرق في دوّامة التفكير ربّما بسبب شعوره بتقدّم العمر. بسبب الإيحاءات المجهولة التي انثالت عليه من عالم الغيب. بسبب ما لاح له ساخرًا وقاسيًا وغادرًا. بسبب الورود التي لم يتشمّمها والأنغام التي تتردّد بعيدًا عن تناول أذنيه. بسبب التقشّف والحرمان. ومع ذٰلك قال لنفسه:

ـ أيّ تفكير وأيّ تردّد؟. هراء في هراء... لن أجنّ على آخر الزمن!

وتمنّى لو تنشأ بينهما علاقة ما. غير مقدّسة!!... ولٰكنّه يلقى رفضًا أشدّ ممّا لقي لدى سنيّة. والقبول ليس سعيدًا كما يتبارى إلى الذهن. فهو يقتضيه إعداد شقّة وتأثيثها. وانقبض قلبه خوفًا. وقال لأمّ حسني ببساطة آخر الأمر:

ـ كلّا.

فهتفت العجوز:

ـ أنت تعني شيئًا آخر...

ـ قلت كلّا...

ـ أنت لغز يا بنيّ.

فضحك بلا سرور.

ـ ماذا تريد؟... ألا تحبّ جنس النساء؟.

فضحك مرّة أخرى:

ـ غفر الله لك...

فقالت العجوز:

ـ أنا حزينة يا بنيّ...

فقال لنفسه، بالحزن يتقدّس الإنسان ويُعِدّ نفسه للفرح الإلٰهيّ.

٢٠

وجاءت أُنسيّة رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداويّة طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوّة من قبل. قال إنّه تائه في صحراء قاحلة تتلظّى بالنيران، لم يفز بشيء ذي قيمة، الأمل طويل والعمر قصير، والماضي حقير، رغم العواطف الشخصيّة الحميمة فهو حقير، رمزه الحقيقيّ قبر الصدقة والسجن، والشهيد في أسرته استشهد في جانب الظلم والبغي، وهو بلا صديق، انقطعت الصلة تمامًا بينه وبين أقران صباه، له زملاء يحترمونه ويحسدونه ولٰكن لا صديق له، الوحيد الذي يجالسه أحيانًا في صفاء خادم في جامع الحسين، والهبة الرومانسيّة في حياته الجافّة حجرة عارية وبغيّ نصف زنجيّة.

ـ ما معنى هٰذه الحياة؟

وهو كرّس نفسه حقًّا لطريق الله المجيد ولٰكنّه يغوص في الآثام، ويتلوّث ساعة بعد أخرى، ويبدو أنّه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوّة.

ـ كأنّها لعبة خاسرة!

في الأتون المتّقد، وهو يتلظّى في جحيمه، وفدت على المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبير جديد، جديد على المحفوظات والإدارة العامّة بكلّ معنى الكلمة. كانت أوّل فتاة تلحق بالإدارة وبالمحفوظات بالذات. سمراء رشيقة متناسقة القسمات بسيطة الملبس. أثار منظرها ارتباكه ودهشته وعطفه وهي تقف أمام مكتبه مقدّمة نفسها. دعاها للجلوس وهو يلمح رءوس الموظّفين تبرز من بين صفوف دواليب شتّى. إنّهم يتعجّبون ولا يصدّقون.

ـ أهلًا بك...

ـ متشكّرة، اسمي أنسيّة رمضان.

ـ تشرّفنا، يبدو أنّك صغيرة جدًّا؟

ـ كلّا، ثمانية عشر عامًا!

ـ عظيم... عظيم... وما شهادتك؟

ـ بكالوريا علميّ...

ـ جميل، لِمَ يا ترى لم تكملي تعليمك؟

وندم على ما فرط من سؤاله. عاودته ذكريات أوّل يوم في خدمته في حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العامّ، أمّا الفتاة فأجابت بحياء:

ـ ظروف اضطرّتني إلى الاكتفاء بذٰلك.

ولعن الظروف ولٰكنّه تعزّى باشتراكهما التاريخيّ في همّ مخيف واحد. قال ملاطفًا:

ـ إنّك تذكّرينني بنفسي، ولٰكن اعلمي بأنّني أكملت تعليمي وأنا موظّف، وأنّ الأبواب المغلقة خليقة بأن تُفتح أمام الهمّة العالية...

فغامت عيناها برنوة حزن وقالت:

ـ ولٰكنّنا نعايش مجتمعًا فظًّا سيّئًا...

وجد الأفكار «الثوريّة» التي يجهلها ويتجاهلها تهدّد بمطاردته كالعادة فقال بإصرار:

ـ الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع، الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد، وشقّ طريقك وسط الصخور خير من تسوّل صدقة من المجتمع، الظاهر

أنّك تهتمّين بالسياسة وبما يسمّونه بالأفكار الاجتماعيّة؟

- إنّي أومن بذٰلك...

- هٰذا يعني أنّك لا تؤمنين بنفسك، أنا لا أعرف إلّا عزيمتي وحكمة الله المجهولة!

فابتسمت ولم تعلّق بحرف فابتسم أيضًا وقال:

- سأعهد إليك بالوارد فهو أنسب عمل للموظّف الجديد...

- شكرًا يا سيّدي...

- وسأنتظر منك دائمًا ما يجعلك أهلًا للثقة...

- أرجو أن تجدني عند حسن ظنّك...

- وإذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا تتردّدي عن إخباري.

- أرجو ألّا أحتاج لذٰلك.

وعهد بها إلى موظّف ليمرّنها على العمل قائلًا باقتضاب:

- شرّكي الوارد...

شعر بأنّ المحفوظات تثب وثبة موفّقة نحو الحياة المضيئة، وأنّها لن تخلو بعد اليوم ممّا يحرّك القلب والعواطف، وتبدّدت بعض الشيء سُحب الذكريات السوداويّة، وتذكّر بدلًا من ذٰلك سيّدة وسنيّة وأصيلة ناظرة المدرسة وقدريّة فقال لنفسه إنّ عالَم النساء لا نهاية لتنوّعه وعذوبته وعذاباته. وتساءل في حيرة:

- أيّها الغاية وأيّها الوسيلة، المرأة أم الدرجة؟!

وقال أيضًا:

- رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولٰكن مَن منهم عاش بلا امرأة؟

في مثل سنّه يفكّر الإنسان مرّتين. قد يضيق بصحبة الكتب ويتأفّف من العمل، ويشقّ عليه الحرمان والتقشّف ويطارده الماضي بلا رحمة. في مثل سنّه تشتدّ الحسّاسيّة بالعزلة والوحشة، وبالانتظار المؤرّق لمجد يتعسّر. وأمس قال له حمزة السويفي ضاحكًا:

- ها هي شعرة بيضاء في رأسك يا عاهل اللوائح الماليّة!

فزع كأنّما ضُبط متلبّسًا بجريمة، وقال:

- لعلّ المنظر خدعك يا سيّدي المدير.

- لتكن المرآة حَكَمًا بيني وبينك فانظر جيّدًا في البيت...

فتمتم منهزمًا:

- جاءت قبل الأوان.

فقال مدير الإدارة ضاحكًا:

- أو بعد الأوان، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر منك بعشرة أعوام...

وضحك المدير طويلًا ثمّ قال:

- أمس دار حديث عنك مع بعض الزملاء، تساءلنا بحيرة كيف تعيش؟، قلنا إنّك لا تظهر في طريق أو مقهى أو حفل فأين تقضي وقتك؟، وقالوا إنّه غير متزوّج فلماذا يعيش؟، وقالوا إنّه لا يهتمّ لشيء ممّا يهتمّ به الناس فماذا يهمّه حقًّا في الدنيا؟!

فابتسم في فتور وقال:

- يؤسفني أنّني شغلت بالكم...

- إنّك رجل قادر وفاضل ولٰكنّك غامض، ماذا يهمّك في هٰذه الدنيا؟

فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق:

- لا غموض يا حمزة بك، إنّي رجل هوايته الواجب وقرّة عينه في عبادة الله...

- ونِعْم بالله، أرجو ألّا أكون قد ضايقتك، المهمّ أن يرضى الإنسان عن نفسه...

ولٰكن أين الرضى أين؟!

ها هي طليعة الشيب تغزو رأسه، والحياة المجيدة تنقضي كالحياة التافهة، وكم يتبقّى له من الزمن يا ترى؟!

٢١

وقال له حمزة السويفي يومًا في مناقشة على هامش العمل اليوميّ:

- السعادة هي غاية الإنسان في هٰذه الحياة.

فقال عثمان بازدراء باطنيّ:

- لو كان الأمر كذٰلك لما سمح سبحانه بخروج أبينا من الجنّة...

- إذن فما الهدف من الحياة في نظرك؟

فأجاب باعتزاز:

- الطريق المقدّس...

- وما الطريق المقدّس؟

- هو طريق المجد، أو تحقيق الألوهيّة على الأرض!

فتساءل حمزة بدهشة:

- أتطمح حقًّا إلى سيادة الدنيا؟

- ليس ذٰلك بالدقّة، ولٰكن في كلّ موضع يوجد

مركز إلهيّ. . .

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه ـ نادمًا ـ إنّه يظنّ بي الجنون. . .

وتطايرت شائعة بأنّ حضرة صاحب السعادة بهجت نور سيُنقل إلى وزارة أخرى فخفق قلبه خفقة كاد يخلع لها. لقد فعل المستحيل حتّى حاز ثقته فمتى يحوز ثقة القادم المجهول؟. ولكنّ الشائعة لم تتحقّق. . . ويومًا سلّمه مجموعة ضخمة من الأوراق قائلًا:

ـ هٰذه أصول ترجمة كتاب عن الخديوي إسماعيل، ترجمتها في نصف عام!

نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة:

ـ يهمّني أن تراجع الأسلوب، أسلوبك فذّ حقًّا. . .

تلقّى التكليف بسعادة شاملة، وأكبّ على العمل بهمّة وقوّة وعناية فائقة. وفي شهر واحد أعاده إلى صاحب السعادة في صورة بيانيّة كاملة. بذٰلك قدّم الخدمة التي تلهّف طويلًا على تقديمها، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنًا، وحظي ـ عند كلّ لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها المقرّبون.

رغم ذٰلك كلّه ألهبه الجزع بسياطه، ورأى الزمن يجري حتّى توارى في الأفق تاركًا إيّاه وحيدًا في الخلاء مع طموحه المقدّس. ومن نفاد الصبر مضى إلى قارئة فنجان في التوفيقيّة، نصف مصريّة ونصف إفرنجيّة، تناولت فنجانه وراحت تقرأه وهو يتابعها باهتمام لا يخلو من خجل ويقول لنفسه إنّه ما كان يجوز له أن يؤمن بهٰذه الخرافات. قالت له:

ـ صحّتك ليست على ما يرام. . .

الصحّة جيّدة بلا ريب. ولكنّ صحّته النفسيّة عليلة. لعلّها صدقت على أيّ حال. . .

قالت المرأة:

ـ سيأتيك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة.

إنّه لا يطلب المال وإن يكن حريصًا على كلّ ملّيم يجيئه. لعلّها تقصد علاوات الترقية المقدّرة في عالم الغيب.

ـ وعدوّ لك سيذهب في طريق فلا يعود منه.

الأعداء كثيرون. يختفون وراء الابتسامات الخلّابة والكلمات المعسولة. في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل آخر ثانية ومدير إدارة أولى. جميعهم أصدقاء ـ أعداء كما تقضي به إرادة الحياة الطاهرة القاسية.

ـ وفي حياتك زيجتان. . .

إنّه لم يوفّق إلى الزواج من واحدة، ولٰكن هٰذا هو جزاء مَن تدفعه الوساوس إلى الوقوع في أحضان الخرافات. وتذكّر في طريق عودته أنسيّة رمضان. في طريق الصحّة والأناقة تتقدّم فنعمة الوظيفة سرعان ما تتجلّى على الفقراء. هو رئيسها الحنون. تربطهما علاقة إنسانيّة رقيقة مهذّبة يتعذّر ـ حتّى الآن ـ تسميتها. على أيّ حال لم يعد يتصوّر المحفوظات بغير وجودها العَطِر.

ولّما رجع إلى حجرته لحقت به أمّ حسني وقالت له باهتمام أثار ابتسامته:

ـ ستّ أصيلة هانم عندي وهي. . .

ـ الناظرة؟

ـ نعم، وهي تريد أن تستعين بك في بعض شئونها.

أدرك في الحال أنّ المرأة جاءت لتطوّقه بضفيرتها. وانساق إلى المغامرة بغريزته المتطلّعة. صافح أصيلة لأوّل مرّة. كانت ترتدي فستانًا أزرق يكشف عن نحرها وساعدَيْها، ويبرز مفاتنها. ها هي تعرض عليه نفسها مهما ادّعت من أسباب حقيقيّة أو وهميّة. وأثارته كما أثارته سنيّة وقدريّة. إنّهنّ نمط واحد. شهيّ مثير لا خير في الزواج منه. وقالت أمّ حسني:

ـ سأذهب لأعدّ لكما القهوة. . .

لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال. وها هما يجلسان على كنبة واحدة لا يفصلهما إلّا وسادة. أمال رأسه ليسوّي شاربه مرسلًا طرفه إلى ساقها المدمجة المغروسة في حذاء ذي كعب واطئ أشبه بكعوب أحذية الرجال.

ـ تشرّفنا يا هانم.

ـ ولي عظيم الشرف.

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دلّ على قدرتها على مواجهة المواقف:

ـ لي استفسار من فضلك.

ـ أفندم؟

ـ أملك قطعة أرض نزعت ملكيّتها، أظنّك تفهم هٰذه الشئون؟

ـ طبعًا.

ـ الطريق المزمع إنشاؤه يغطّي أغلبها ولكنّه يترك

أجزاء لا يمكن الانتفاع بها؟

ـ أعتقد أنّ التعويض عن ذٰلك يراعى عند تقدير الثمن.

ـ ولكنّ الإجراءات معقّدة كما تعلم!

ـ لك أن تعتمدي عليّ...

بقدر ما شعر بقوّة شخصيّتها بقدر ما يئس من إغوائها. إنّها مستعدّة للزواج وما جاءت في الواقع إلّا من أجل ذٰلك، أمّا أن ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو أمرًا مستحيلًا. ورجعت أمّ حسني، ومضيا يحتسيان القهوة في صمت تامّ، لعلّها أصلح زوجة من أكثر من ناحية ولٰكنّها ليست من يريد. وهبطت من السماء صورة أنسيّة رمضان فجلست بينهما ومحت المرأة محوًا. منذ عهد السبيل الأثريّ لم يتحرّك قلبه كما تحرّك لـهٰذه الفتاة الصغيرة. لانَتْ أعصابه المتوتّرة وصَفَتْ نفسه وتلقّى من الخيال نسمة منعشة أذكت أسمى عواطفه. ولمّا ذهبت المرأة وجد أمّ حسني تنظر إليه باهتمام تريد أن تطمئنّ على الوظيفة الحيويّة التي ترعاها بعملها وإيمانها. باتت العجوز تعبد الزواج والإنجاب والأفراح وتسبّح لله في معجزة الحبّ التي أبدعها. ولمّا طال سكونه قالت برجاء:

ـ لعلّك غيّرت رأيك؟

ـ لماذا؟

ـ ألم ترَ أنّها مثل فلقة القمر؟

ولبث جامدًا رافضًا ممتنعًا عن تناول يدها الحنون. فقالت باستياء:

ـ قالوا في الأمثال...

غادر الحجرة قبل أن يسمع المثل يا للخسارة. إذا لم يسعفه زواج قيّم فقد يتبدّد سعيه ويهدر أمله في وسط الطريق. وحياته أصبحت مثار تساؤلات وانتقادات لا حصر لها فأناس يتساءلون لِمَ لا يتزوّج وينجب ويألف ويؤلف؟، وأناس يتساءلون كيف ينحصر في ذاته متجاهلًا الأحداث التي تقع من حوله فينفعل بها المواطنون حتّى الموت؟. وما هي الهموم التي تشغلهم وتستحوذ على أفئدتهم؟ إنّها تتطاير مع أحاديثهم الصاخبة وتعطّل أعمالهم. دوامًا يتحدّثون عن الأولاد والأمراض والطعام ونظام الحُكم وصراع الطبقات والأحزاب والحِكَم والأمثال والنكات. إنّهم لا يحيون حياة حقيقيّة ويفرّون من واجبهم المقدّس. يجفلون من الاشتراك في السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت وتحقيق كلمة الله المضنون بها على غير أهلها.

٢٢

جاءت أنسيّة رمضان لعرض ميزان البريد الشهريّ. كان صباح يوم من أيّام الخريف والجوّ الرطيب يتسلّل إلى حنايا النفس بالأسى العذب. نقل بصره بين الجدول الذي يراجعه وبين أصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب. خيّل إليه أنّ شيئًا ما يتحرّك في إحدى يديها. يتحرّك ويقترب في زحف رشيق كأنّه كلمة سرّ. يقينًا أنّها علبة صغيرة دسّتها بخفّة تحت السومان بعد توكّدها من رؤيته لها.

ـ ما هٰذا؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزيًّا مع الحذر الذي اكتنف الحركة من أوّلها. رفع السومان قليلًا فرأى علبة معدنيّة مفضّضة بحجم نصف الكفّ. تساءل مرّة أخرى:

ـ ما هٰذا؟

همست بوجه كالأرجوان:

ـ هديّة بسيطة...

ـ هديّة؟!... ولٰكن ما المناسبة...؟

ـ مناسبة سعيدة...

بذهول وتشتّت من شدّة الانفعال:

ـ حقًّا؟

ـ ألا تتذكّر؟

قال رغم أنّه تذكّر:

ـ ماذا؟

ـ اليوم عيد ميلادك!

تلقّى موجة مترعة بنشوة الفرح. اليوم عيد ميلاده أو تاريخ ميلاده على الأصحّ. ولٰكنّه يوم يمرّ كالأيّام، ربّما تذكّره قبل حلوله بأيّام أو بعد انقضائه بأيّام أو حتّى في ذات اليوم دون أن يكون لذٰلك أيّ أثر اللّهمّ إلّا مضاعفة الجزع على المستقبل. لم يحتفل به أبدًا. لم يعرف ذٰلك التقليد، ولم تعرفه حارته العتيدة. ها هي أنسيّة تبشّر بتقاليد جديدة، وجديدة أيضًا مناورتها الطاهرة في التوادد وقدرتها البارعة في فتح أبواب الرحمة.

ـ الحقّ أنّي لا أعنى بتذكّره...

ـ شيء غريب...

ـ ولِمَ كلّفت خاطرك بذٰلك؟

- تحيّة متواضعة جدًّا.
- إنّي عاجز عن شكرك.
- لا داعي لذٰلك مطلقًا.
- كم أنّك رقيقة مهذّبة ولٰكن كيف عرفت تاريخ ميلادي؟

وضحك ثمّ قال مستدركًا:

- آه... نسيت... اطّلعت على ملفّ خدمتي الإداريّ وفضحت سنّي؟!
- إنّه سنّ العقل والنضج...

مدّ لها يده لتصافحه. ضغط على يدها الرقيقة كغشاء من حرير. انثالت عليه الأفكار المعذّبة طيلة الوقت. سيردّ الهديّة بأحسن منها في عيد ميلادها الذي سيعرفه من ملفّها الإداريّ أيضًا. ورغم سعادته المشرقة تمنّى لو أنّها اختارت وسيلة للتحيّة لا علاقة لها بالنقود، فإنفاق النقود يؤلمه ويخلّ بميزان حياته. ولٰكنّه لم يهتمّ لذٰلك طويلًا. إنّه ينزلق في هاوية، يطير نحو المجهول، مفعم القلب بالمسرّة والحنين. وقد ضغط على يدها فتلقّت ذٰلك بابتسامة واعية راضية ومشجّعة أيضًا. وماذا بعد ذٰلك؟. هل يتّفق وطريقة الأوحد؟. إنّه يواجه ما هو أعظم من موقف دقيق عابر مفعم بعبير ساحر، إنّه يواجه المجهول والقدر. إنّه يطرق الباب الذي يقفون وراءه الزمن أو يرجعونه خطوة إلى الوراء. وثمّة نداء تردّد أن ارجع وإلّا هلكت ولٰكن لم تستجب له أذن ولا قلب.

وقفت في اليوم التالي قبالته تراسله بنظرات تفيض بالطاعة والعذوبة. حرقت الحرارة رأسه وعنقه. انجذبت أصابعه إلى ملامسة أصابعها فوق الدوسيه المبسوط بينهما. أفضى إليها بتوجيهات مدغمة لا معنى لها. وفتّشت عيناه المكان بحذر. مال رأسه حتّى لثم فاها. تراجع إلى مقعده وهو ينتفض، يرتعش، يحترق، ثملًا بخمر الحياة والخوف من المجهول.

٢٣

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة. تمّ نتيجة لتيّار من الاستسلام لا يقاوم ويأمل في النجاة آخر الأمر. سمّاه تدهورًا ولٰكنّه كان محفوفًا بالسعادة. ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة الأزبكيّة ولٰكنّه اعترض قائلًا إنّها مكان مكشوف تحدّق به الأعين من جميع الجهات. أمّا حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية، مهجورة، خارج العمران، ممتنعة عن الرقابة، يخوض الترام إليها حقولًا وخلاء. ومشيا جنبًا لجنب يستمتعان بحياة «حقيقيّة» في الساعات السابقة لميعاد الإغلاق. لم يكن رأى الحديقة منذ زارها في رحلة مدرسيّة. ولم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء، ما يقال وما لا يقال. ما يفعل وما لا يفعل. سارا صامتين سعيدين ولٰكنّ ثمّة إحساسًا غير مريح ناوشه، بأنّ اللقاء حدثٌ شاذٌ وخطأ، بأنّه ما كان ينبغي أن يستسلم. ودفعًا لارتباكه ولمشاعره المحبطة أبدى إعجابه بالأشجار والقناطر والجبلاية والجداول والبحيرات وبأنواع شتّى من الحيوان. ولبث مقتنعًا بأنّه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد، وبأنّه يحاول الهرب بعد فوات الأوان. وسارت إلى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة، مرفوعة الرأس، مسدّدة النهدين، يوحي منظرها بأنّها مندفعة في مجرى من المطالب لا أفق له، وأنّها تلتهم في نفسها أجمل أسرار الحياة. وتلاقت عيناهما فقرأ في ألقهما البراءة الناصعة والمكر العذب وسيّالًا من الرغبات المجهولة. قالت محتجّة:

- حتّى وأنا موظّفة لا أستطيع أن أخرج إلى مثل هٰذا اللقاء بسهولة...

فندّت عنه نبرة أبوّة مضحكة وهو يقول:

- لا تغضبي من أجل ذٰلك يا عزيزتي...
- ولٰكنّه غير طبيعيّ مهين...
- ترجمة غير دقيقة لعواطف الأمّهات والآباء. لا أعتقد أنّك تؤمنين بذٰلك...
- حقًّا؟!

فضحكت في ثقة كاملة ثمّ قالت مستدركة:

- لو عرفت ماما أنّني سألقاك لما مانعت فيما أعتقد.

فقال بقلق:

- ولٰكنّها لم تعرف؟

فعاودها الضحك، وسكتت قليلًا حتّى جفّ ريقه تمامًا، ثمّ قالت:

- اللقاء سرّ كما اتّفقنا.
- طبعًا يا عزيزتي.
- الحقّ أنّي غير مقتنعة...

واضح جدًّا أنّها تودّ أن تعمل في النور. وما يعنيه ذٰلك واضح أيضًا... ترى هل بات تحت رحمتها؟. هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس في مخطّطه؟.

هل تحاصره عناصر هدم تبدّد بصفة نهائيّة حلمه الوحيد المقدّس الممتنع؟... وتحدّى من خلال خواطره المخيفة المجهول فأنذره بالقتل، حتّى خجل من أفكاره وهو يلحظ الغزال الأسمر الذي يثب متأبّطًا ذراعه في فرحة تباركها السحائب السابحة في سماء الحديقة. وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه، وهادن آماله الملحّة، ليذوب في المفاتن المشرقة، ويتذوّق السعير المشتعل في جوفه. ووجد أنّ كوعه يلامس جسدها اللدن، ويتلقّى من مجاهيله الفتيّة إشعاعات من السحر، تفرّس المكان حوله بنظرة متلصّصة آثمة، ثمّ لثم خدّها، وعنقها، ثمّ التقت شفتاهما. قال بصوت لم يعرفه:

- أنت فاتنة يا أنسيّة.

فابتسمت في حياء وسعادة فقال بحرارة:

- أودّ أن...

وسكت وهو يتنفّس بصوت مسموع فتساءلت:

- هه؟

- كأنّني أعرفك منذ الأزل...

فابتسمت في رضى وإن طالبت عيناها بالمزيد.

قال:

- ما أجمل المكان. كلّ شيء ينطق بجمال صارخ...

- أنت تحبّ الطبيعة!

وقع القول من أذنه موقعًا غريبًا وساخرًا بقدر بعده عن واقعه. قال:

- أنت التي جعلت كلّ شيء جميلًا...

- لا تبالغ، أتحبّ أصارحك بشيء؟

- جدًّا!

- تبدو عادة غير مهتمّ بشيء.

- حقًّا؟... وهل صدّقت ما يبدو؟

- لا أدري، ولكنّني شعرت بأنّك لغز بقدر ما أنت طيّب...

- لا معنى لذلك كلّه، الحقيقة الوحيدة المسلّم بها هي أنّك فاتنة...

- وبعد؟

- وما بيننا يجب أن يبقى إلى الأبد مهما يكن المصير!

- المصير؟!

- ألم يخبرك الملفّ الإداريّ بشيء غير طيّب؟

- أبدًا.

- أنت أجمل شيء في حياتي...

فقالت بهدوء واستسلام:

- وأنت كذلك...

فلثم خدّها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوّة وهمس:

- ما أشدّ حيرتي بين ما أريد وما أستطيع...

- هل تريد شيئًا ولا تستطيعه.

- الدنيا مليئة بالرغائب الممتنعة...

- حدّثني عمّا يخصّني أنا.

لها حقّ. ما زال فوه يندى بقبلتها. ما زال كوعه يلامس فتنتها الطريّة، وهما يختالان أمام الفيل الذي يرفع خرطومه تحيّة لهما.

- ليكن ما بيننا سرًّا.

- لماذا؟

- كيلا يسيء أحد بنا الظنّ.

- ولماذا يسيء بنا الظنّ؟

- هكذا الناس.

- لا سوء بيننا.

- ولكن هكذا الناس يا عزيزتي.

ضحكت بمرح وتساءلت:

- أدعوتني يا أستاذي لتعظني؟

- دعوتك لنتعارف ولأتوكّد من أنّ قلبي على حقّ.

- وماذا كانت النتيجة؟

- آمنت بأنّ القلب خير دليل!

تساءل طيلة الطريق لِمَ لَمْ يعترف لها بحبّه صراحة؟. لِمَ لَمْ يطلب يدها؟. وعلى فرض أنّها ستقلب حياته رأسًا على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقدر على إسعاده من النجم القطبيّ؟!.

٢٤

جاءت أصيلة حجازي «الناظرة» بحجّة السؤال عن نتيجة مسعاه. بذلك أخبرت أمّ حسني وهي تدعوه إلى شقّتها. كان يعاني من همومه الثابتة بالإضافة إلى الحبّ الذي غزاه ليبلغ بحدّة الصراع في نفسه درجة الجنون. لذلك رحّب بزيارة أصيلة حجازي ليهرب من نفسه ولو ارتكب في سبيل ذلك حماقة مأمونة العواقب. كان بحاجة إلى الهرب ولم تكن قدريّة في

متناول يده كـلّ يوم. صـافح النـاظرة. جلس وهـو يقول:

- مسألتك تسير في طريق الحلّ...

سرعان ما غنّت مفاتن جسدها لحنها الجهنّميّ على أوتار فستانها المنقوش بالورد. وتساءلت وهي ترنو إليه بمودّة:

- هل أنتظر طويلًا؟

رأت أمّ حسني أن تـذهب لإعداد القهـوة فركبـه تصميم جنونيّ على حسم الموضوع، وتوجيه ضربة غير متوقّعة مستهينًا بالعواقب. قال:

- لن تنتظري طويلًا...

- بفضلك.

- الحقّ أنّ كلّ شيء يتوقّف على قوّة أعصابك.

- الظاهر أنّه ينبغي أن أنتظر بعض الوقت؟

فقال بنبرة جديدة تمامًا كأنّما يفتتح بها مـوضوعًـا جديدًا لا صلة له بما قبله:

- اسمحي لي أن أصارحك بإعجابي!

فغضّت بصرها مورّدة الوجنتين فقال:

- إنّه إعجاب صادق، إعجاب رجل بامرأة، أنت تفهمين ذلك...

فلم تنبس ولكنّها تبدّت سعيدة وعلى وشك دخول الجنّة...

- ولكن يجب الحذر، يلزم المصارحة بأمر آخر لعلّه لا يروقك...

لمحته مستـطلعـة فقـال:

- فكرة الزواج مستحيلة!

راقبها وهي تتحوّل إلى رمـاد ثمّ قال بجـرأة وبلا رحمة:

- عندي ألف سبب وسبب والدنيا أسرار...

تساءلت بصوت مريض:

- ماذا دعاك لمصارحتي بذلك؟

فقال بلهجة مؤدّبة وهو يمعن في قسوته:

- لسنا مراهقـين فلنتكلّم كراشـدين ولنبحث عن سعادتنا بإخلاص وشجاعة...

- لا أفهم شيئًا.

- حسن، إنّي معجب بك ولكنّي أعزب أبديّ.

- لماذا تقول لي ذلك؟

- ربّما وجدت عندك حلًا للحال المستعصية.

فقالت باستياء شديد:

- إنّك تجرح كرامتي بأسلوب غير إنسانيّ...

- اعفي عنّي، إنّي أصـارحك بـدافع من عـذاب شديد...

لاذت بالصمت مقطّبة فقال:

- يمكن أن تهبنا الشجاعة سعادة لا يستهان بها.

- ماذا تقصد؟

- ألا يكفي أن أتكلّم بالإشارة؟

- لا أظنّ أنّي فهمت قصدك...

فقال بقحة لم يعهدها في نفسه من قبل:

- يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه.

هتفت:

- عثمان أفندي؟

فقال بدون مبالاة:

- سيكون مأوًى رحيمًا لاثنين في حاجة إلى الحبّ والمعاشرة...

قامت غاضبة وهي تقول:

- إمّا أن تذهب أو أذهب أنا...

- سأذهب ولكن فكّري بالأمر برويّة وعقل، ولا تنسَيْ أنّني رجل فقير!!

٢٥

لم تعد شعرة بيضاء واحدة يتعذّر اكتشافهـا. كلّ فترة تطلّ شعرة جديدة بنظرة بيضاء باردة تنذر بإيقاع جديد للحيـاة. لعبة طـارئة، يتجرّعها الإنسـان بلا استساغة، ثمّ يجد نفسه وجهًا لوجه مع الحتم المؤجّل. ويلقي نظرة على الحيـاة شاملة، يـزن أعمالـه، يقيم ثماره، يتلقّى أنفاس المجهول بامتعاض، يتوثّب أكثر للصراع، يسلّم بالهزيمة، ولكنّه يأمل أن تحلّ مقدّسة. لا خطوة قريبة في سلّم الترقية، مدّخره يتصاعد، توتّره يشتدّ، جهده يتضاعف، علاقته بأنسيّة تتوطّد ولكن في حذر، أمّا قدريّة فتستحقّ أن توصف برفيقة العمر. في أعقاب صلاته يخاطب ربّه:

- ما الحياة بغير وجودك يا ربّ.

ولكن يبدو أنّ الآخرين لا يتماسكون مثله، فقد دقّ جرس التليفون ذات يوم فإذا بالمتحدّثة أصيلة حجازي الناظرة:

- أشكر لك وساطتك المثمرة.

- العفو يا فندم.

ـ وكيف حالك؟

ـ عال. الحمد لله.

ـ إنّي سعيدة بسماع ذٰلك...

ـ شكرًا.

ـ ربّنا لا يحرمنا منك.

ـ كلّك إنسانيّة.

ومضت ثوانٍ من الصمت ثمّ واصلت:

ـ ولٰكن لي عليك عتاب.

ـ لا سمح الله.

ـ تركتك آخر مرّة غاضبًا، ألا تذكر؟

ـ آسف، لم يوجد سبب للغضب.

ـ أتعتقد ذٰلك؟

ـ نعم.

ـ ولٰكنّك لم تسأل عنّي؟

ـ آسف، لم أعرف رقم تليفونك.

ـ ولٰكنّي عرفت رقم تليفونك.

ـ أكرّر الأسف.

ـ تمنّيت أن تلطّف الموقف بكلمة حلوة...

ـ إنّي على أتمّ الاستعداد.

ـ حقًّا؟

ـ بكلّ توكيد.

ـ كيف؟

ـ لنتّفق على ذٰلك!

وهي تضحك ضحكة مكتومة:

ـ أو ما زلت تشكو الفقر؟

ـ إنّه قدر لا مفرّ منه.

ـ من حسن حظّنا أنّ عندي من المال الكفاية.

ـ ربّنا يزيدك.

ـ هل تتوقّع أن أصارحك أكثر من ذٰلك؟

ـ إنّي على أتمّ الاستعداد!

ـ عظيم... ليقم كلّ منّا بما يخصّه!

ما هو بالاستسلام ولٰكنّه الانهيار. يستطيع أن يتخيّل الواقع وراءه. العمر بها يتوسّط ويميل نحو المنحدر، وهي تعاني الوحدة وترتعد أمام الشيخوخة المقبلة، لا شباب ولا جمال حقيقيّ. ثمّة معركة لم يشهدها ولٰكنّه يرى عواقبها المحزنة. ماذا يفعل؟. إنّه يخاف أنسيّة ولا رغبة له حقيقيّة في أصيلة، يتمنّى في لحظات يائسة لو يموت قلبه وتخمد شهوته لتطمئنّ نفسه في مسيرتها المضنية. وقال لنفسه في أسى:

ـ إنّي أعذر من يظنّون بي الجنون!

٢٦

متى وكيف يفرغ للبحث عن شقّة وتأثيثها؟. ترك الأيّام تمرّ وهو لا يفعل شيئًا. أهمل الموضوع جملة وتفصيلًا حتّى وجدها ـ أصيلة ـ تقف أمام مكتبه!. ابتسم مرحّبًا وهو يلعنها في باطنه. قالت:

ـ معذرة عن جراتي...

فابتسم صامتًا. فقالت:

ـ لم يعد التليفون يكفي كي أفهمك...

فقال بجدّيّة تناسب مكان العمل:

ـ واضح أنّ الفراغ معدوم في هٰذه الأيّام.

ـ ماذا فعلت؟

ـ لا شيء.

ـ أبدًا؟

ـ لم يسمح العمل بدقيقة، صدّقيني...

كانت تتكلّم بجرأة أشبه باليأس، حال من نفد صبره واشتدّت مخاوفه. قالت:

ـ توقّعت أن أجدك أكثر حماسة...

ـ الرغبة متوفّرة أمّا الوقت فلا وقت عندي.

ـ توجد شقّة في روض الفرج...

ومدّت يدها بورقة مطويّة واستطردت:

ـ إليك العنوان، عاينها بنفسك واشرع في تأثيثها.

ثمّ بنبرة إغراء وابتهال:

ـ أرجو أن تعجبك وأن تكون قدم السعد...

رأى نارًا تقترب وهي تصفّر. وعقب اختفاء المرأة فكّر بالليالي الطويلة التي ستلحق بليالي ألف ليلة وليلة، لا الليالي التي ستلحق بليالي الترجمة وخدمة حضرة صاحب السعادة، قربانًا على طريق المجد الذي اختاره منذ أوّل يوم كرمز متاح للأشواق اللانهائيّة. فترت رغبته في المرأة لشدّة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفّظ. إنّها لا بأس بها لو تحلّ محلّ قدريّة ولٰكنّه رأى فيها نارًا تقترب مصفّرة تودّ أن تلتهمه هو وآماله المقدّسة الموصولة بسرّ كلمة الله العظيم. لن يسمح لقوّة أن تقتله إلّا الموت نفسه باعتباره سرًّا من أسرار الله مثل مجده الملهم، وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى إليها طويلًا لم تقبله فلا يصحّ أن ينهزم ويستسلم لتسوّل الأرامل والعوانس.

وسمع رأي أصيلة وهي تتسلّل إلى الداخل متعثّرة

في خجلها وذلّها، قالت بارتباك:

ـ صحّ عزمي على المجيء، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقّة أم حسني كأنّما جئت أصلًا لزيارتها...

وجلست على الكنبة وهي تلهث فقال ملاطفًا:

ـ فكرة طيّبة...

ـ هل ضايقك حضوري؟

فقال والنشاط يدبّ في أعماقه:

ـ بل سرّني فوق ما تتصوّرين...

ـ ولن تلبث أمّ حسني حتّى تنام، هل يكدّرك أن تشكّ العجوز فيما حصل؟

ـ البتّة...

وتبادلا نظرة طويلة تبدّت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أيّ أثر للكبرياء، محض عاشقة مهدرة الدفاع. وسألته برقّة ورجاء:

ـ ماذا فعلت؟

أفاق تمامًا من الدهشة. صدفت نفسه عن أيّ موضوع وتركّزت في الرغبة المتجسّدة في صورة امرأة مستسلمة. تناول يدها البضّة الباردة بعد أن شفط القلب المتقلّص الدم من الأطراف. وضغط عليها ضغطات متوتّرة باعثًا برسائله الخفيّة. لم تتوقّع ذٰلك أو بذٰلك تظاهرت. أرادت أن تسحب يدها فلم يسمح لها فقالت:

ـ ماذا فعلت؟

ـ سنناقش ذٰلك فيما بعد...

ـ ولكنّك لم تحاول الاتّصال بي؟

مال نحوها حتّى قبّل خدها وهمس في أذنها:

ـ فيما بعد... فيما بعد...

ـ ولٰكنّي جئت لذٰلك.

ـ سيكون لك ما قصدت ولٰكن فيما بعد.

همّت بالكلام ولكنّه سدّ فاها بقبلة غليظة وطويلة وهو يقول بحدّة:

ـ فيما بعد...

وأعلن لحن من الألحان اللانهائيّة للطبيعة عن تغريده المتجسّد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة. وسرعان ما خفت تغريده حتّى العدم متراجعًا إلى نوم أبديّ، مخلّفًا وراءه صمتًا مريبًا وراحة فاترة مشبعة بالأسى. رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطّت فوق الكنبة معرّضة قميصها وحبّات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العاري. نظر إلى لا شيء لا ينشد شيئًا كأنّما قد أدّى المطلوب منه في الحياة الدنيا. وحانت منه التفاتة إليها فأنكرها كلّيّة. كأنّها شيء غريب يخرج من باطن الليل، غير الكائن السحريّ الذي جرّه إلى السعير، شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له. وقال لنفسه إنّ لعبة الرغبة والنفور ما هي إلّا تمرين على الموت، والبعث، وإدراك مُسْبَق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائيّة. ودرجة المدير العامّ آية أخرى ولكنّها تجلٍّ للإرادة الشامخة لا للاستسلام العذب! وحمدًا لله فقد تحصّن بالبرود العاقل والقاتل أيضًا. وها هي المرأة ترغب بلا شكّ في العودة إلى موضوعها الهامّ ولٰكن من خلال تردّد وخجل. تتمنّى لو يبدأ هو. ولمّا يئست نظرت إليه بابتهال وأسّى وغمغمت:

ـ نعم؟

عجب لغرابة صوتها وتطفّله على وحدته المقدّسة، ووجد نحوها نفورًا ثابتًا يوشك أن يصير كراهية. إنّها تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرًا على حجر. سألت:

ـ ماذا قلت؟

ركبه عنف طَبْعه المستتر المستمدّ من أعماق حارته قال:

ـ لا شيء.

ـ ولكنّك فعلت شيئًا بلا ريب...؟

ـ أبدًا.

ـ ألم تعاين الشقّة؟

ـ كلّا.

فاسودّ وجهها من الحزن وقالت:

ـ معذرة... هل ينبغي أن أضع النقود بين يديك؟

ـ كلّا.

ـ الحقّ أنّي لا أفهمك...

ـ إنّي واضح جدًّا.

ـ ماذا تعني!... لا تعذّبني من فضلك.

ـ ليس في نيّتي أن أفعل شيئًا...

فقالت بنبرة مرتعشة:

ـ اعتقدت أنّك وافقت ووعدت...

ـ ليس في نيّتي أن أفعل شيئًا...

ـ إذا لم يكن لديك وقت الآن. . .

ـ لا وقت لديّ. . . ولن أجده في المستقبل. . .

تنفّست أصيلة بصعوبة وقالت بصوت متهافت:

ـ صدقت أنّ شعورك مختلف. . .

فاعترف قائلًا:

ـ لا خير فيّ، هٰذه هي الحقيقة. . .

تراجعت كأنّما طُعنت. ارتدت فستانها في عَجلة. ولكنّها انهارت على الكنبة مرّة أخرى في إعياء أسندت معه رأسها إلى كفّها وأغمضت عينيها حتّى توقّع أن يُغمى عليها. دقّ قلبه بعنف أيقظه من فتوره وقسوته. لو وقع ما ليس في حسبان فربّما معرّض لفضيحة منذرة بأوخم العواقب. الطريق شاقّ ومرير رغم ما يتمتّع به من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة ممّا ترحّب الصحف بالحديث عنها؟!. أوشك أن يغيّر سياسته كلّها، أن يخاطر بكذبة جديدة، ولٰكنّها تحرّكت في آخر لحظة. قامت بشيء من الصعوبة، مضت نحو الباب بهدوء وأسّى، ثمّ اختفت عن نظره. تنهّد في ارتياح عميق. قام إلى النافذة ينظر إلى الحارة شبه المظلمة حتّى رأى شبحها يمرق من الباب، ثمّ يوغل نحو طرف الحارة الموصل إلى الجماليّة، وسرعان ما ذابت في الظلام تمامًا.

وقال لنفسه إنّ أحدًا لا يعلم الغيب، ولذٰلك يتعذّر الحكم الشامل على أيّ فعل من فعالنا، بيد أنّ تحديد هدف للإنسان يعتبر هاديًا في الظلام وعذرًا في تضارب الحظوظ والأحداث، وهو مثال على ما يبدو أنّ الطبيعة تترسّمه في خطواتها اللانهائيّة.

٢٧

أمّا أنسيّة رمضان فهو يحبّها. عليه أن يعترف بذٰلك أمام ضميره وأمام الله. منذ عهد السبيل الأثريّ لم يصدر عن قلبه مثل هٰذا اللحن العذب. ولذٰلك فعليه أن يخشاها أكثر من أيّ امرأة أخرى في الوجود. وهي أيضًا تحبّه ممّا يضاعف من خطورة الأمر. العروس التي لا تدفع إلى الأمام ترجع إلى الوراء. ولعلّه كان يتزوّجها بلا تردّد لو أنّ الذي بينه وبين درجة حضرة صاحب السعادة خطوة واحدة، أمّا والحال على ما هو عليه فلن يجني من الزواج سوى المتاعب والهموم اليوميّة التي تستهلك القوى البشريّة في غير ما خلقت له.

وجاءه يومًا حسين أفندي جميل ليعرض البريد كالمعتاد فلمّا وقّع عليه بتوجيهاته لم يذهب كالمتوقّع. إنّه شابّ من موظّفي المحفوظات عمل تحت رئاسته خمس سنوات متتابعة وعُرف بالمواظبة وحسن السلوك.

ـ أتريد شيئًا ما يا حسين أفندي؟

إنّه مضطرب بصورة واضحة، ويريد أن يتمخّض عن شيء، أيّ شيء؟

ـ مالك؟. . . أهو أمر يتعلّق بالعمل؟

اقترب الشابّ أكثر كأنّما ليضمن عدم وصول صوته إلى الآخرين، وقال:

ـ يوجد شيء يا حضرة الريّس.

ـ ما هو يا بنيّ؟

ـ آسف، ولٰكن لا بدّ من الكلام.

ـ عظيم. . . إنّي مُصْغٍ إليك.

وسكت ليتأهّب ثمّ قال:

ـ الأمر يتعلّق بالآنسة أنسيّة رمضان.

فيما بعد قال لنفسه إنّه لم يسمع الاسم أو إنّه سمعه ولم يفقه له معنى. قال بذهول:

ـ هيه؟

ـ أنسيّة رمضان!

ـ زميلتك؟. . . ماذا عنها؟

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الحقّ أنّي أحبّها. . .

فقطّب عثمان وقلبه يترنّح. تساءل مستنكرًا:

ـ وما شأني أنا بذٰلك؟

ـ أردت أن أخطبها. . .

ـ كلام معقول ولٰكن ما شأني أنا؟

فأطرق وهو يتمتم:

ـ ولٰكن سعادتك. . .

ارتعدت مفاصله. رمقه مستطلعًا في استسلام:

ـ ماذا عنّي؟

ـ سعادتك تعلم بكلّ شيء. . .

ـ أيّ شيء من فضلك؟

ـ الحقّ أنّه لولاك لتقدّمت لخطبتها. . .

أيقن أنّه هلك. لم يعد لشيء قيمة. ولا الحياة نفسها. تساءل:

ـ لولاي؟

فقال الشابّ بوجوم:

ـ شاهدت كلّ شيء، هنا وفي الخارج!

بقوّة اليأس نفسه توثّب للدفاع المستميت. لم يحزن لحبّه الضائع بقدر ما خاف على «مركزه». قال:

ـ أنت شابّ سيّئ الظنّ، ماذا شاهدت؟، ماذا شاهدت يا مسكين؟، ولكن هكذا هم المحبّون، طالما عاملتها كابنة من صلبي، علاقة هي البراءة نفسها، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد!!

فقال الشابّ ببراءة وحزن جليل:

ـ إنّي أعرف متى وكيف أكتم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبّهم!

فقال وهو يتنهّد:

ـ أحسنت... أحسنت...

ثمّ وموجة من الأسى تجتاحه:

ـ سلكت سلوكًا خليقًا بالرجال...

من شدّة ردّ الفعل، والشعور غير المتوقّع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان قال:

ـ مثلك يستحقّ أن يسعد بمن يحبّ...

مضى عنه معذّبه. بقي وحده مع حزنه. وتجسّد الحزن وتهوّل فصار كالقدر نفسه. وأعاد إليه ذكرى حزنه القديم في الليالي الطويلة وقال لنفسه إنّ الحياة لو تقيّم بحظّها من السرور فإنّ حياته تعتبر ضياعًا وهباء. لِمَ يقتضينا الجلال هذا الشقاء كلّه؟!.

٢٨

دعا أنسيّة إلى مقابلته في صحراء الهرم صباح الجمعة. هيّأ للّقاء تلك المرّة بحذر أشدّ من المعتاد، فدسّ لها ورقة سمّى فيها الميعاد وخطّ السير على أن يذهب كلّ منهما منفردًا. كان صباحًا من أصابيح الشتاء الجافّ البارد ولكنّ أشعّة الشمس كستْهُما كساء دافئًا ومنعشًا. وكان يرنو إليها طيلة الوقت بحزن صادق رغم اقتناعه بأنّه يقوم أساسًا بتمثيل دورقاس وقذر. ومن أوّل الأمر بدت الفتاة قلقة على غير عادتها، وقالت له:

ـ شعرت بشيء غير عاديّ فانقبض قلبي...

فقال لنفسه إنّ للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شئونها الصميمة. وإنّه لو كان للإنسان عمومًا غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظلّ مجهولًا حتّى الآن. واشتدّ حزنه وهو يقول:

ـ الحقّ أنّ الأمر يستحقّ التفكير.

ـ أيّ أمر تقصد؟

ـ علاقتنا الحميمة المقدّسة.

ـ ماذا عنها؟

ـ لعلّك عجبت من صمتي، ناقشنا كلّ شيء إلّا الجوهر، ولم تدركي طبعًا أنّني كنت أحترق وأتعذّب طيلة الوقت...

فلمست ذراعه بإشفاق وقالت:

ـ أعترف لك بأنّ قلبي يزداد انقباضًا!

ـ وأنا أعترف بأنّني رجل أنانيّ.

فضّت ذلك بإصرار قائلة:

ـ كلّا، لست أنانيًّا على الإطلاق.

ـ أنانيّ بكلّ معنى الكلمة، وبسبب أنانيّتي شجّعتك وأوهمتك فتمادينا إلى ما لانهاية، لن أغفر لنفسي ذلك أبدًا.

ـ لم تفعل إلّا ما هو نبيل وطيّب!

ـ لا تدافعي عنّي، لعلّك تساءلت كثيرًا متى يتكلّم هذا الرجل، ماذا يريد منّي؟ حتّى متى نتلاقى ونفترق بلا تقدّم حقيقيّ، هل يتسلّى بي؟!

ـ لم أظنّ بك سوءًا قطّ!

ـ أنا نفسي طرحتها مرّات عديدة، ولكن غلبني الاستسلام الوهميّ للسعادة فلم أحسم الأمر قبل أن يستفحل، وكم صمّمت على مصارحتك بالحقيقة ثمّ أضعف وأستسلم!

تساءلت بصوت يدلّ على الخيبة:

ـ تصارحني بماذا؟

اختلجت عيناها وهي تسمع الكلمة المحبوبة، نظرت إليه بإشفاق، تحوّلت عنه متطلّعة للمجهول وكأنّها تصلّي صلاة صامتة لدفع البلاء.

ـ طبعًا ساءلت نفسك عن ذلك وإلّا فما معنى الحياة؟

أطرقت كأنّ رغبتها في معرفة المزيد قد فترت لعدم توقّعها أيّ خير أمّا هو فواصل قائلًا:

ـ إنّي مريض...

ـ لا...

ندّت عنها بخوف صادق فقال:

ـ لا أصلح للزواج!

حدّقت فيه بذهول فمضى:

ـ لا يغرّنّك منظري فمرضي ليس في القلب أو الصدر ولكنّه يعوق تمامًا عن الزواج...

أطرق كالمحزون فسمع تنهّدة حادّة مزّقت قلبه. أوشك أن يتحرّر من كافّة التزاماته وأن يكبّ على قدميها بشفتيه وأن يمضي بها إلى المأذون، ولكنّ القوّة الأخرى صدّته وجمّدته.

ـ لم أهمل، ذهبت إلى أكثر من طبيب، لم أفقد الأمل ولولا ذلك لصارحتك من زمن بعيد، ولكن لا فائدة، لا يجوز أن أستأثر بك أكثر من ذلك وإلّا قضيت على مستقبلك إلى الأبد!

ـ ولكن كيف أستقبل الحياة بدونك؟

ـ أنت صغيرة، جرح الشباب سريع الالتئام.

ـ لا أصدّق، إنّه كابوس.

ـ لا يجوز التمادي في الخطإ بعد ذلك.

ـ لا أصدّق...

ـ كلّ مصيبة غير متوقّعة فهي لا تصدّق ولكنّ الحياة تبدو أحيانًا سلسلة من المصائب غير المتوقّعة، ولكن عليك أن تهتدي إلى سبيلك قبل ضياع الفرصة...

فتمزّق صوتها بالجزع وهي تسأله:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن نكفّ عن السير في طريق مسدود!

ـ لا أستطيع.

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، فمن الجنون أن نستمرّ...

وتجنّب النظر إليها. كان قد نفّذ خطّته حتّى النهاية بنجاح وإحكام. وبنجاحها الوحشيّ وجد نفسه في الفراغ منفردًا بعذاب أليم، مكلّلًا بعار الجحيم، بلا إيمان ولا عزاء. وقال لنفسه إنّه لا نجاة له إلّا بالجنون. الجنون وحده هو الذي يتّسع للإيمان والكفر، للمجد والخزي، للحبّ والخداع، للصدق والكذب، أمّا العقل فكيف يتحمّل هذه الحياة الغريبة؟... كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتّى قمّة رأسه في الوحل؟!

وبكى طويلًا في الليل...

٢٩

بدا أنّ ظلمة السحب تنضح بشعاع يهفو خلفها. فقد علم بأنّ أنسيّة رمضان خطبت إلى حسين جميل. سعد بالخبر باعتباره بشير النجاة وقال لنفسه:

ـ أستطيع الآن أن أحزن على الحبّ الضائع ببال رائق لا تعكّره المخاوف، أستطيع أن أنهل من العذاب حتّى أستنفده وأتحرّر منه، وإنّي بذلك لخبير...

ولم يكن صادف في حياته من هي أكفأ منها على إسعاده. ولا سيّدة نفسها. جميلة وذكيّة وطاهرة، وقد أحبّته بصدق ونقاء. وبات يؤمن بأنّه لن يظفر بمثلها مهما ابتسم له الحظّ وأنّه جزاء عادل على أيّ حال.

وحمل تيّار الزمن حدثًا آخر فقد تخلّف حمزة السويفي عن العمل، وعرف في الإدارة أنّه يعاني أزمة ضغط جديدة أشدّ من الأولى وأخطر. ومضى إليه يعوده. ووجده راقدًا في استسلام كامل هذه المرّة وأطياف من العالم الآخر تلوح في نظرة عينيه الغائمة. تأثّر لمنظره ورأى فيه المنظر الأخير الذي يترصّد الجميع بمختلف درجاتهم. وقال له:

ـ سَلِمْت أيّها الإنسان الكريم...

ابتسم المدير ممتنًّا، ومتسوّلًا أيّ كلمة طيّبة في ضعفه الداهم:

ـ أشكرك يا أخي، أنت رجل نبيل بقدر ما أنت كفء وقادر.

ـ ما هي إلّا سحابة تمرّ ثمّ تعود لتتربّع فوق كرسيك العظيم...

فتقلّص وجه الرجل ليمنع دمعة وقال:

ـ الحقّ أنّي لن أعود...

فقال محتجًّا:

ـ لا سمح الله...

ـ ولكنّها الحقيقة يا أستاذ عثمان.

ـ أنت دائمًا تبالغ...

ـ ولكنّه تقرير الطبيب، قال لي صراحة إنّني بالطاعة والدقّة أنجو من الأزمة ولكن عليّ أن أعتزل العمل فورًا...

غلب الأسى على عواطفه المتضاربة فقال:

ـ ولكنّ رحمة الله واسعة ومعجزاته لا نهاية لها...

ـ لا أهمّيّة للحرص على العمل، لقد زوّجت البنات، والابن الأخير في السنة النهائيّة من كلّيّة الزراعة، أدّيت رسالتي كما ترى، وما أحتاجه الآن فهو راحة البال.

ـ متّعك الله بكلّ طيّب.

قال بفخار رغم وهنه وتعبه:

ـ الحمد لله، قمت بواجبي في الوزارة كما تعلم، وأدّيت رسالتي نحو الأسرة، وعشت كما سأعيش

مستورًا كثير الأحباب والأصدقاء، فيمَ يطمع المرء أكثر من ذلك؟

- أنت ذلك وأكثر يا صاحب الفضل والفضيلة.

- نحن نمضي واحدًا في أثر واحد، هل تذكر المرحوم سعفان بسيوني؟، كُلُّ مَنْ عليها فانٍ، ولكنّ العمل الطيّب يبقى إلى الأبد.

- صدقت في كلّ ما قلت...

ونظر إليه طويلًا ثمّ قال:

- وفّقك الله إلى ما فيه صلاحك.

اشتدّ به التأثّر. وبقي التأثّر معه طويلًا. وامتلأ في حينه بالعبرة والموعظة حال الرابع من دفن عزيز. ولكنّه أفاق في الوقت المناسب كذلك. وقال لنفسه:

- إنّ أحزان الدنيا توجد لا لتُثبّط الهمّة ولكن لتشحذها...

واتّجه تفكيره بكلّ قوّة إلى الدرجة التي ستخلو قريبًا. وهو لا يختلف اثنان في الشهادة له بالقدرة والاستقامة والورع. بل هو أكفأ من وكيلي الإدارة ولكنّ أحدهما في الثانية والآخر في الثالثة، ولو جرى العدل بغير اعتبار إلّا للكفاءة وحدها لكان أحقّ منهما بدرجة مدير الإدارة، ولكن كيف يثب من الرابعة إلى الأولى دفعة واحدة؟!.

وأحيل حمزة السويفي إلى المعاش بناء على طلبه. وأجريت حركة ترقيات شاملة في الإدارة من الثانية إلى الأولى، فرُقّي إسماعيل فائق إلى درجة المدير، كما رقّي عثمان بيومي إلى الدرجة الثالثة وكيلًا للإدارة. وهكذا غيّر ضغط الدم شتّى المصائر سلبًا وإيجابًا. وسعد عثمان بالترقية يومًا ولكن سرعان ما أدركه الفتور، لقد كان حمزة السويفي موظّفًا قديرًا ولكن لا يوجد بعده من هو أحقّ بمركزه منه هو، وإنّه لمن المضحك المبكي أن يقدّم رجل مثل إسماعيل فائق مديرًا للإدارة. ومضى إلى حضرة صاحب السعادة المدير العامّ ليشكره. ولم يكن يداخله شكّ في أنّه أقرب الموظّفين إلى قلبه وتقديره، وأنّه يعتمد عليه في أعمال الإدارة ونشاطه الخاصّ على السواء. صافحه وأعرب لسعادته عن شكره بلسان بليغ. وقال صاحب السعادة:

- إنّك لم تعرف الظروف كلّها، لقد تراكمت على مكتبي التوصيات من الوزير والوكيل والشيوخ والنوّاب...

ونظر إليه مليًّا ثمّ استطرد:

- قلت: لكم ما تشاءون إلّا درجة واحدة لرجل وساطته هي مقدرته وخلقه.

فلهج بالشكر لسانه وكتم في القلب أحزانه فعاد صاحب السعادة يقول:

- لا خفاء بيننا في أنّ إسماعيل فائق ضعيف وجاهل.

فقال بامتعاض:

- لا خلاف على ذلك يا صاحب السعادة...

- فالثقل سيقع عليك وحدك بالرغم من أنّك الوكيل الثاني.

- إنّي في الخدمة دائمًا...

فقال بهجت نور متأسّفًا:

- ماذا كان في وسعي أن أفعل؟... إنّه كما تعلم من أقرباء الوكيل.

- لا لوم عليك يا صاحب السعادة...

- على أيّ حال مبارك ومصيرك أن تنال حقّك كاملًا غير منقوص...

ورجع راضيًا بعض الشيء ولكنّ امتعاضه مضى يتصاعد فنسي فرحة الترقية. ولعن الجميع بغير استثناء. وقال جزعًا:

- العمر أسرع من جميع حركات الترقيات!

وودّع موظّفي الأرشيف فصافحهم وهو يتلقّى تهانيهم، وعندما جاءت أنسيّة لمصافحته لاحظ - في دوّامة من الانفعالات المتضاربة - أنّ بطنها يتخلّق بصورة جديدة وسعيدة!. زوجة وحبلى ولا شكّ أنّ حسين سيسعد سعادة خاصّة بنقله إلى الإدارة. وجلس في الإدارة كوكيل ثانٍ ولكنّه شعر باستعلاء على من حوله، وبأنّه أهل الثقة الأولى، وبأنّه الحجّة في الإدارة واللوائح والميزانيّة فضلًا عن دراسته للقانون والاقتصاد وثقافته العامّة وتفوّقه الراسخ في اللغات. وتساءل:

- ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر أو أمام مرض مباغت؟!

وتوكّد لديه أنّ الوكيل الأوّل والمدير أصغر منه في السنّ، وأنّ الدرجات لن تخلو إلّا بمعجزة مجهولة، أو بوفاة عاجلة، أو بحادث يقع في الطريق!

- أستغفرك اللّهمّ لأفكاري وتمنّياتي...

وكان كلاهما يتمتّع بصحّة جيّدة وطبع بهيج وجهل مطبق وعقل مغلق. وإنّ أيّ درجة سوى الدرجة المرموقة لا يمكن أن تبرّر التضحيات الجسيمة التي بذلها

من عمره وسعادته وراحة باله. ولعلّه لم يشعر في أيّ وقت مضى بما يشعر به الآن من حاجته إلى زوجة قويّة رافعة، قبل أن تنقضي مدّة خدمته أو يفاجئه مرض أو يدهمه الموت. لذلك طلب من أمّ حسني أن تخاطب أمّ زينب بشأنه من جديد بعد أن رفعه الله إلى الدرجة الثالثة كوكيل للإدارة. وفي تلك الأيّام ضاعف من حذره وهو ذاهب إلى قدريّة بالدرب. تراءى له أن يتنكّر في ملابس بلديّة حتّى لا تعرفه عين، ومضى إليها بجلباب فضفاض وعباءة ولاسة فلم تعرفه حتّى سمعت صوته. ولمّا عرفته ضحكت كما لم تضحك من قبل وسألته:

ـ رَفَتوك من الحكومة؟

وكان العمر ينحدر بها رويدًا رويدًا، فتمادت في الضخامة والانطباع بطابع الفحش والشهوانيّة ولكنّ العلاقة بينهما توثّقت وداخلها ألفة إنسانيّة. وقد مرّ معها بجميع الأطوار من الرغبة إلى الملل ثمّ إلى العادة التي لا يسهل الاستغناء عنها. وباتت هي والحجرة العارية والنبيذ الجهنّميّ عناصر متكاملة وحميمة وأليفة، تهبه الراحة والتأمّل والأسى، وتدفعه إلى مواجهة الحياة في بدائيّتها القاسية، غير مبال بسلوك صاحبته الحياديّ وتصرّفاتها المهينة، ممّا لم يحرمه ـ وهو معها ـ من وحدته المقدّسة. وكان يقول لنفسه:

ـ عجيب أنّني لم أمارس الحبّ مع امرأة عاديّة إلّا مرّة واحدة رغم هذا التقدّم في العمر!

وتذكّر أصيلة، فتذكّر بالتالي أنّها كانت جريمة وليست ممارسة للحبّ. وقال أيضًا:

ـ توجد معاشرة صحّيّة إنسانيّة.

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ كما يوجد المجد.

ثمّ وهو يتنهّد بعمق أكثر:

ـ وكما يوجد الله وهو أصل كلّ شيء. . .

ثمّ وهو يتنهّد بعمق أكثر وأكثر:

ـ ونحن نتذكّره بالخير ونتذكّره أيضًا بالشرّ!

٣٠

ظهرت أمارات العجز على أمّ حسني رغم صمودها للزمن فضعف بصرها حتّى الحضيض، وأصابها عرج، فلا تمشي إلّا متوكّئة على عصا هي يد مكنسة قديمة. ويئس هو تمامًا من أمّ زينب حتّى قال لنفسه حانقًا:

ـ إنّ الذين يثرثرون حول صراع الطبقات لهم عذرهم!

ولم تعد أمّ حسني تصلح لعملها الجليل، أصابها ما يشبه الخرف، وعرضت عليه يومًا عروسًا ناسية أنّها انتقلت إلى رحمة الله منذ أعوام. ومرّة ـ عقب صلاة الجمعة ـ وكان يجلس في الكلوب المصريّ رأى أصيلة وهي تسير بصحبة سيّدة أخرى. عرفها من أوّل نظرة، رغم أنّها تغيّرت لدرجة أزعجته. تهدّلت ككرة مثقوبة، وجفّ ينبوع الأنوثة من وجهها، وحلّ محلّه خيال غامض لا هو أنثى ولا هو ذكر. مضت بخطوات فظّة مثالًا للتعاسة والتدهور. وشيء قال له إنّ الموت يطاردها، وإنّه يقترب من زمانه ومكانه، وإنّ زمانه الذي تقدّس بالخلود يومًا مضت تنقشع عنه الأوهام العذبة، وتتجلّى له الحقيقة الأبديّة المتعالية بجلال قسوتها. ألا زالت تذكره أصيلة؟ لا يمكن أن تنساه، لقد نفذ إلى أعماقها بثقله وغدره وأنانيّته مخلّفًا وراءه الكراهية واللعنة. أمّا أقران صباه فهم يحترفون الحقارة ويتكاثرون بالذرّيّة، ويملئون الجوّ بقهقهاتهم. وضاعت تمامًا عواطف الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب، مثل حارة الحسيني، التي تغيّر جلدها، ربوع كثيرة تهدّمت وقامت مكانها عمائر صغيرة، وشيّدت زاوية مكان موقف الحمير، وكثيرون من أهل الحيّ هاجروا إلى المذبح، كلّ شيء يتغيّر، النور والمياه دخلت البيوت، والراديو يصخب ليل نهار، والملاءة اللفّ تتوارى، حتّى الخير والشرّ يتجدّدان ويتنوّعان. كلّ ذلك يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة، مع عمره المتقدّم، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفاني الجليل؟. ألم يعلموا بأنّه إنسان تلخّص في خبرة مؤيّدة بالعلم والعمل؟. وأنّ مذكّراته الرسميّة وبياناته الخاصّة بالميزانيّة وفتاواه الرائدة في الإدارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشئون الحكوميّة؟. خبرة مصباح كهربائيّ قوّة خمسمائة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية!. وقال لنفسه أيضًا إنّ الموظّف مضمون غامض لم يُفهَم على وجهه الصحيح بعد. الوظيفة في تاريخ مصر مؤسّسة مقدّسة كالمعبد، والموظّف المصريّ أقدم موظّف في تاريخ الحضارة. إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربًا أو سياسيًّا أو تاجرًا أو رجل صناعة أو بحّارًا فهو في مصر

الموظّف. وإنّ أوّل تعاليم أخلاقيّة حفظها التاريخ كانت وصايا من أب موظّف متقاعد إلى ابن موظّف ناشئ. وفرعون نفسه لم يكن إلّا موظّفًا معيّنًا من قبل الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينيّة وتعاليم إداريّة وماليّة وتنظيميّة. ووادينا وادي فلّاحين طيّبين يحنون الهامات نحو أرض طيّبة ولكنّ رءوسهم ترتفع لدى انتظامهم في سلك الوظائف، حينذاك يتطلّعون إلى فوق، إلى سلّم الدرجات المتصاعد حتّى أعتاب الآلهة في السماء. الوظيفة خدمة الناس وحقّ للكفاءة وواجب للضمير الحيّ وكبرياء للذات البشريّة وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء.

ومضى ذات يوم للتفتيش في المحفوظات. وهناك رأى أنسيّة وقد انتقلت إلى طور النضج الأنثويّ والوظيفيّ أيضًا فأصبحت مراجعة في الوظيفة التي خلت بانتقال زوجها إلى وزارة المعارف. ولم يتمالك أن قال لها وهو يصافحها:

ـ أيّام...

فابتسمت في حياء صادق فقال:

ـ سعيدة إن شاء الله؟

ـ الحمد لله.

فقال بعد تردّد وبإغراء لم يستطع مقاومته:

ـ من حسن الحظّ أنّنا ننسى.

فقالت ببساطة ومودّة:

ـ لا شيء ينسى ولا شيء يبقى!

وتفكّر في قولها طويلًا. وغادر المحفوظات وهو يقول لنفسه:

ـ يا أنسيّة أحببتك كثيرًا في الأيّام الخالية.

وعاد إلى مكتبه فوجد نشرة مرسلة من إدارة العلاقات العامّة عرف من شكلها أنّها تحمل نعي موظّف أو قريب له. قرأ:

«انتقل صباح اليوم إلى رحمة الله المغفور له إسماعيل بك فائق مدير الإدارة، وستشيّع الجنازة...» الخ.

أعاد القراءة. قرأ الاسم مرّات. مستحيل. كان حتّى الأمس يباشر عمله وهو في غاية من الصحّة والنشاط. وقد شرب قهوة الصباح معه في مكتبه، وكان الرجل يقول مردّدًا اهتماماته المعروفة:

ـ البلد يموج بالأفكار المتضاربة...

فابتسم عثمان ولم ينبس فقال إسماعيل:

ـ كلّ واحد يعتقد أنّه رسول العناية الإلهيّة.

وهزّ رأسه ثمّ تساءل:

ـ بأيّ عقل نشرع في إعداد الحساب الختاميّ؟

فأجاب عثمان بهدوء ساخر:

ـ بعقلي أنا!

فضحك الرجل ضحكة عالية. وكان يسلّم بكفاءة مرءوسه وأنّه العمود الفقريّ للإدارة. لم تكن بينهما مودّة ولا عداء. ربّاه كيف مات الرجل! وذهب إلى الوكيل الأوّل المعروف بصلته الحميمة بالراحل وسأله:

ـ هل عندك علم عن هذه المصيبة؟

فأجاب الوكيل الأوّل بذهول:

ـ شرع في تناوُل الإفطار، ثمّ شعر بتعب مفاجئ فقام ليستلقي على ديوان، ولّما لحقت به حرمه لترى ما به وجدته جثّة هامدة!

إنّ ما يوفّر لنا بعض الطمأنينة هو اعتقادنا بأنّ الموت منطقيّ، يمارس وظيفته من خلال مقدّمات ونتائج. ولكنّه كثيرًا ما يدهمنا بلا نذير كزلزال. تمتّع إسماعيل حتّى آخر لحظة بكامل حيويّته. وما حدث له قد يحدث لأيّ إنسان، أليس كذلك؟. وهكذا فلا ضمان ألبتّة لصحّة أو لخبرة أو لعِلْم. وهزّه الخوف من أعماقه...

ـ خير تعريف للحياة أنّها لا شيء...

ولكن هل وقع جديد لم يكن له به علم؟. كلّا. غير أنّه ليس مَن سمع كمَن رأى. وسيستمرّ خوفه يومًا أو يومًا وبعض يوم. وفي تلك الساعات تتساوى المكاسب والخسائر، والمسرّات والأحزان، وتتوارى معاني الأشياء.

ـ ما قيمة ما بذلت طيلة العمر من جهد وتفانٍ؟!

ولازمته وساوسه في الجنازة، والمأتم، وحتّى أحاديث الموظّفين المتنوّعة في المأتم لم تلغِ وساوسه، ولكنّه شعر بامتنان لأنّه ما زال حيًّا.

ـ ما البطولة الحقّة؟... هي أنّنا نعمل بلا هوادة رغم علمنا بكلّ ذلك.

وسرعان ما طرد التفكير في درجة مدير الإدارة ما عداه. إنّ الوكيل الأوّل مرشّح لوظيفة في القضاء، والطريق واضح بعد ذلك، وهو أن يرقّى إلى الثانية وينتدب مديرًا للإدارة فيستحقّ الترقية إليها بعد مضيّ عام على شغلها.

تجسّد له الأمل حقيقة ملموسة.

ولكنّه بوغت بقرار تعيين مدير إدارة جديد نقلًا من

وزارة المواصلات...

٣١

لا... لا... لا...

ذاك ما لم يخطر له ببال. وحقد على حضرة صاحب السعادة بهجت نور ولعنه ألف لعنة. هو مَن كان ينبغي أن يدافع عنه. عليهم اللعنة... هل يتصوّرون أن يعمل لحساب غيره طول عمره؟ ومن هو المدير الجديد، من يكون عبد الله وجدي هٰذا؟. كيف يقدّم له نفسه كمرءوس؟. إنّه لشيء مخجل. الخجل يطارده في أروقة الوزارة، وما أكثر الشامتين.

ودعاه بهجت نور إلى مقابلته وقال له:

ـ إنّي آسف جدًّا يا أستاذ عثمان...

فقال له صراحة:

ـ إنّه اليأس من الحياة الفاضلة...

ـ لا... لا، إنّه قريب الوزير!

ـ إنّي أحسد الموظّفين الكسالى.

ـ أكرّر الأسف، وأخبرك بأنّ سعادة وكيل الوزارة آسف أيضًا...

وتمهّل دقيقة ثمّ قال:

ـ لا تيأس، فالرأي متّفق على ترقيتك وكيلًا أوّل عقب نقل شاغلها مباشرة في هٰذا الشهر...

لا فائدة. الدرجات لا تهمّه إلّا باعتبارها وسيلة لأمله المنشود الذي كرّس له العمر. والمدير الجديد في الأربعين من عمره. شابّ أو أكثر من ذٰلك بقليل. وإذا سارت الأمور سيرها الطبيعيّ فسوف يحال على المعاش وهو وكيل للإدارة أو وهو مديرها على الأكثر إذا وقعت معجزة. تبدّد حلم الحياة وبات مستحيلًا. ومات الماضي بعد أن تمخّض عن وهم أسود. ولعلّه كان خير له لو أقام حياته كأبيه فوق الكارو. ولأوّل مرّة في حياته يدهمه اليأس، فقد بدت نهاية العمر أقرب كثيرًا من جوهرة الأمل. وفكرة جديدة تسلّطت عليه بقوّة قاهرة لم يعهدها من قبل هي الزواج. لا يجوز تأجيلها بعد اليوم ولا فائدة ترجى من تأجيلها. وبحسبه أن ضاعت أطيب فترات العمر الصالحة للحبّ والزواج. ما أشدّ حاجته إلى شريكة، إلى عاطفة صادقة، إلى مشاركة أمينة، إلى دفء البيت، إلى الذرّيّة، إلى علاقة إنسانيّة، إلى قلب ويد ولسان، إلى ملجأ من العذاب، إلى درع ضدّ الموت، إلى منقذ من الضياع، إلى محراب مناسب للإيمان، إلى محطّة راحة من الأحلام الخرقاء، إلى هدنة مع الحرص والحرمان والوحشة.

ـ المرأة هي الحياة، الموت نفسه يكلّل بجلاله الحقّ بين يديها...

ولن يلجأ إلى أمّ زينب، ولا فائدة ترجى اليوم من أمّ حسني بعد أن أقعدها العجز، ولٰكن ثمّة فتاة جديدة في الإدارة تدعى إحسان إبراهيم لم يتردّد في إظهار تودّده إليها. ذٰلك أنّه يريد أن يتزوّج اليوم إن أمكن. وكلّما بات ليلة وحيدًا اشتدّ جزعه. كأنّ الرغبة في الزواج كانت تبدو في داخله وهو لا يدري حتّى انفجرت كبركان. ولم تفهم إحسان تودّده على الوجه الصحيح، ولعلّها استبعدت أن يغازلها رجل في سنّه!. وما حيلته ولم يعد يوجد حبّ كأيّام سيّدة وأنسيّة، ولا رغبة جامحة كأيّام سنيّة وأصيلة.

وانتهز فرصة وجودها ـ إحسان ـ يومًا في حجرته لعمل فسألها:

ـ تسمحين لي بسؤال غريب بعض الشيء يا آنسة إحسان؟

ـ طبعًا يا سعادة البك.

فتردّد قليلًا ثمّ سأل:

ـ أأنت مخطوبة؟

تورّد وجهها ورمقته لأوّل مرّة بنظرة أنثى لا موظّفة وأجابت:

ـ نعم يا سيّدي.

شعر بخيبة أمل ولٰكنّه قال:

ـ معذرة فإنّي لم أرَ خاتمًا في أصبعك.

ـ أعني في حكم المخطوبة.

تفكّر مليًّا ثمّ قال:

ـ لديّ رجاء ولٰكن يجب أن يبقى سرًّا بيننا؟

ـ أفندم؟

ـ هل أطمع في أن تدلّيني على عروس؟

فتفكّرت في ارتباك ثمّ قالت في حذر:

ـ جميع مَن أعرف من قريبات وصديقات يقاربنني في السنّ فهنّ لا يلقن بك!

يا لها من ترجمة مهذّبة لـ «لا تليق بهنّ»، وتمادى من شدّة يأسه فسألها:

ـ ألا يمكن أن يتزوّج إنسان في مثل سنّي؟

ـ لِمَ لا؟، توجد عروس مناسبة لكلّ سنّ!

- شكرًا ومعذرة عن مضايقتك.

- أرجو أن أوفّق لخدمتك...

وعند ذهابها استشاط غضبًا. تصوّر أنّها كان يجب أن ترحّب به لنفسها أو لإحدى القريبات أو الصديقات. إذن قد صار كهنة مثل فضلات المخازن التي يعرضها للبيع عند الجرد السنويّ. والظاهر أنّه لن يكون أسعد حظًّا في مسألة الزواج. ولو نال أمله المنشود وحلم العمر في حجرة صاحب السعادة. ها هو الزمن يلهبه بسياطه على حين أنّه لم يعد يقوى على العَدْو. وبمرور كلّ يوم اشتدّ تسلّط فكرة الزواج عليه حتّى كادت تزاحم هوس الدرجة. ولم ترجع إليه إحسان بجواب. ومن جنونه راح يحاول مغازلة النسوان في الطرقات والباصات بلا خبرة وبلا نجاح حتّى اضطرّ إلى الكفّ عن ذٰلك وهو يقول متأوّهًا:

- ما أضيع العمر!

وتساءل بامتعاض عمّا يجعل زواجه متعسّرًا بهٰذه الصورة حتّى بعد أن نزل عن شروطه المعوقة الأولى. السنّ بلا شكّ مثبطة ولٰكنّها ليست كلّ شيء. إنّهم يتحرّون عنه وسرعان ما يعرفون كلّ شيء عن أصله وفصله، هٰذه هي الحقيقة الأخرى المخزية. إنّه في الحقيقة كهل ذو منبت حقير، والله أعلم بما يقال عنه بالإضافة إلى ذٰلك، فإنّ رجلًا متفوّقًا مثله خليق بإثارة عواطف الحسد في النفوس، وطالما شعر بأنّه بلا صديق حقيقيّ في هٰذه الدنيا، وبأنّه وحيد متعالٍ عن الضعف البشريّ!

وحمله الليل - كالعادة الرتيبة - إلى الحجرة العارية، إلى قدريّة. وقال لنفسه بمرارة ما أجمل أن يكون نصيبي من الدنيا درجة وكيل إدارة وبغيًّا نصف زنجيّة!. وكانت تقول له ضاحكة:

- لأوّل مرّة تشرب قدحين من النبيذ، هل قامت القيامة؟

أمّا القيامة فقد قامت وها هو يشعر بدوار غريب في رأسه. قال لها بلا مناسبة:

- اعلمي يا قدريّة أنّي رجل مؤمن.

فلفّت شعرها الخشن بمنديل أحمر وقالت:

- الحمد لله...

- ولولا إيماني بأنّ الدنيا مقدّسة بما هي من صنع الله لرضيت بحياة البهائم...

فنظرت إليه نظرة بلهاء وقالت:

- قرّروا إلغاءنا عليهم اللعنة...

فواصل بلا انتباه إلى قولها:

- والله سبحانه...

فقاطعته:

- قرّروا إلغاءنا...

- أفندم؟

- ألم يبلغك ما يقال عن إلغاء البغاء؟

كلّا. إنّه لا يقرأ في الصحف إلّا الوفيّات وشئون الدولة والدواوين. فتساءل بانزعاج:

- حقًّا؟

- نبّهوا علينا بالفعل.

- خبر غريب...

- وَعَدونا بعمل لمن تريد عملًا، أيّ عمل؟، عليهم لعنات الدنيا والآخرة، هل أصلحوا كلّ شيء فلم يبق إلّا نحن؟!

- لعلّه كلام، ما أكثر الكلام في هٰذا البلد...

- يا سيّدنا لقد أُبلغنا رسميًّا بالأمر...

فسأل بجزع ورعب:

- ومتى يتمّ ذٰلك؟

- قبل نهاية هٰذا العام...

وساد صمت حتّى ضجّت الحجرة بأصوات المعربدين في الحارة. كم من مصائب توقّعها أمّا هٰذه المصيبة فلم تجرِ له على خاطر. وقال بأسًى:

- ستنتشر بيوت الدعارة في كلّ مكان...

- والأمراض كذٰلك.

- وآلاف من بنات الناس سيتعرّضن للفساد.

- ماذا نقول لمن لا عمل لهم؟

وتنهّد ثمّ سألها:

- وعلامَ نويت؟

- على أيّ حال لن أقبل أن أعمل غسّالة في مستشفًى.

- هل يمكن أن أعرف عنوان بيتك؟

- سنكون تحت رقابة مشدّدة.

وشعر بيأس لا يطاق وسألها:

- ألم تكوّني فكرة عن المستقبل؟

فقالت بثقة:

- سأتزوّج. لم يبق لي إلّا الزواج...

ولطمه قولها فملأ القدح الثالث، وسألها:

- عندك عريس؟

- ما أسهل أن يوجد!
- ولكن كيف؟
فقالت في مباهاة:
- عندي خمسمائة جنيه، ممكن أجهّز شقّة بمائة وخمسين، وأحتفظ بالباقي كاحتياطيّ، ألا يرحّب كثيرون بالزواج منّي في تلك الحال؟
- معقول جدًّا...
فقالت وهي تضحك:
- إن وجدت عريسًا مناسبًا فأخبرني...
وعند منتصف الليل وهو يتسلّل تحت البواكي صادف سكران يتقايأ فتقزّز لدرجة غير محتملة. وشعر بوحدته وضياعه ويأسه وبرغبة في الانتحار. وغيّر طريقه بلا تفكير. رجع إلى الدرب مترنّحًا فصادف قدريّة تهبط السلّم في طريقها إلى مأواها. أوقفها بيده وقال لها:
- قدريّة. وجدت لك الزوج المناسب...
لم ير وجهها في الظلام، ولكن خمّن تأثير قوله فقال:
- لنتزوّج في الحال!

٣٢

وتمّ الزواج في اليوم التالي مباشرة. ولم تذهل المرأة لقراره كما توقّع. رمقته بنظرة متفحّصة لتتوكّد من صدقه، فلمّا تبيّن لها صدقه أحنت رأسها بالقبول. وقال لنفسه لعلّها تعدّه الطرف الرابح في الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه!. وقال لها بعجلة:
- لنذهب إلى المأذون توًّا.
فقالت وهي تضحك في سعادة:
- أفق أوّلًا وانتظر طلوع النهار.
وبات الليل في شقّتها الصغيرة بعطفة الشماشرجي. وفي الصباح قال لها:
- نُعِدّ بيتنا الجديد ثمّ نتزوّج.
ولكنّها قالت بإصرار نهائيّ:
- بل نتزوّج ثمّ نُعِدّ بيتنا.
وجيء بالمأذون إلى البيت. واقتضت الإجراءات شاهدين فلم تجد إلّا قوّادين ممّن كانوا يعملون معها. وجرت المراسم البسيطة وهو يتابعها بذهول. ما هٰذا الذي يجري؟. واجتاحه شعور ممزّق بالقلق بلغ حدّ الرعب فتمنّى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدّد سحابات الكابوس الذي يعاني. ثمّ اجتاحته موجة من الاستسلام بلغت حدّ الاستهتار. ولمّا أدلى باسمه وعمله وقع ذٰلك من المرأة والقوّادين موقع الذهول. قال لنفسه إنّهم سيتّهمونه بالجنون كما يتّهمه الآخرون ولعلّه من الإنصاف أن يعترف - بدءًا من اليوم - بأنّه مجنون - كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش. هكذا تحقّقت الأمنية التي تاق إلى تحقيقها بجنون، فأصبح زوجًا، كما أصبحت قدريّة - رفيقة شبابه - زوجة له. ترى ماذا فعل بنفسه؟!. وقال:
- عليّ أن أبدأ حياة جديدة...
ولإعجابه بروض الفرج - الذي رآه وهو يعود حمزة السويفي - استأجر به شقّة من ثلاث حجرات وصالة، ومضيا يؤثّثانها معًا بعد أن ألزمها بالحجاب، باسم الحشمة في الظاهر، وفي الحقيقة خوفًا من أن تقع عليها عين زبون قديم أو حديث. ابتاعا حجرة للنوم وثانية للسفرة وثالثة للمكتبة والجلوس والاستقبال، وثيابًا لها وله، وراديو وغير ذٰلك. وقد أسهمت في التجهيز بمائة جنيه ورصد هو لها بمثلها. وبدافع من الاستهتار الذي ركبه مال إلى تغيير سياسته نحو «النقود» فأنفق - كلّما دعا الداعي - باستسلام يائس غطّى على الألم المعتاد في مثل تلك الأحوال، وتملّكته رغبة قويّة في الاستمتاع بطيّبات الحياة التي طالما حرم نفسه منها. وودّع أمّ حسني وداعًا مؤثّرًا. فذهلت العجوز لقراره وبكت قائلة:
- لا تهجر منبتك فليس في ذٰلك خير.
ولكنّه هجره بلا أسف، ولم يكن ممّا يصحّ التفكير فيه أن يجيء بقدريّة إلى حارة الحسيني، ونظر إليه بصفة عامّة كرمز للبلى والحرمان والضياع والذكريات المحزنة. أغرق آلامه الظاهرة والخفيّة في المتع المتاحة، وأصرّ على تذكير نفسه - وإقناعها - بأنّ قدريّة هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبًّا حقيقيًّا، وإلّا فكيف عاشرها ذٰلك العمر الطويل كلّه؟!. وها هي لا تألو جهدًا في لعب دور ستّ البيت في الوسط الجديد «الراقي» الذي يُعَدّ الانتقال إليه من «الدرب» وثبة خياليّة. دعا الله ألّا تراها العيون التي عرفتها. ونصحها قائلًا:
- تجنّبي الاختلاط بالجيران.
فسألته:
- لِمَ؟

ـ الناس أخلاقها لا تسرّ!

وكان يخشى أن يقع خلاف بينها وبين إحدى الجارات فتنسى تحفّظها وتنفجر براكين الفحش الكامنة في أعماقها. عدا ذٰلك فإنّه لا يجحد اجتهادها الصادق في إسعاده وحرصها على النجاح في حياتها الجديدة. وبمضيّ الأيّام اطمأنّ إلى الحياة الجديدة، سلّم بواقعها، ونَعِم بما وفّرته له من أنس وراحة ونظام ونظافة، وها هو يصلّي بلا قلق ولا حرج، بل ها هو يتقرّب إلى ربّه بما أنقذ من روح ضائعة، ولعلّهما روحان لا روح واحدة.

واعتقد أنّ حياته الدنيا قد كملت بالمقسوم له وأنّه آنَ له أن يفكّر في آخرته. قال:

ـ واجب عليّ أن أشيد لي مدفنًا!

واستشار أهل الخبرة، وبفضلهم اشترى أرضًا في الخفير، وشرع في بناء قبر مناسب. وكثيرًا ما تفقّد العمل بصحبة مهندس من الإدارة الهندسيّة بالوزارة. وسأله المهندس:

ـ أليس للأسرة مقبرة قديمة؟

فأجاب بثبات:

ـ قديمة جدًّا، واكتظّت بالآباء والأجداد، فدعت الضرورة إلى بناء هٰذه المقبرة...

فقال المهندس:

ـ شتّان بين الجديد والقديم في القبور، القبر الجديد بناء عصريّ جميل....

ـ أنا لا أهتمّ بتملّك بيت في الدنيا فشقّة مستأجرة تفي بالغرض ولٰكن لا مناص من تملّك قبر وإلّا ضاعت كرامة الإنسان...

فضحك المهندس وقال:

ـ في الهند يحرقون الجثث...

فقال متأفّفًا:

ـ أعوذ بالله...

فضحك المهندس كرّة أخرى وقال:

ـ أتريد رأيي؟ النار أحْفَظُ لكرامة الجثّة من التراب، أليس لديك فكرة عن أطوار تحلّل الجثّة في القبر؟

فقال بضيق:

ـ كلّا ولا داعي ألبتّة لهٰذه المعرفة!

وتفكّر قليلًا ثمّ سأل المهندس:

ـ ألا يحسن بناء دورة مياه؟

ـ ستستعمل في غيابك، وبطريقة مقزّزة!

ـ ولٰكن لا بأس من زراعة شجرة أو لبلابة.

ـ ليكن، ويمكن ريّها من الخارج...

وتمّ البناء فذهب لتسلّمه ودفع باقي الأتعاب. تفحّص القبر بإعجاب. كان بابه مفتوحًا، والسلّم يُرى في تدرّجه نحو المنامة متألّقًا بنور الشمس. وانحنى قليلًا ليلقي نظرة على أرضه المنبسطة الجديدة المكلّلة بالضوء والنقاء والنظافة وشعر باطمئنان غريب غير متوقّع. فها هو البيت الباقي قد أُعِدّ، ولن تضيع عظامه في زحمة العظام كوالديه. وبخلاف المتوقّع أيضًا انبجس من أعماقه شعور ناعم غريب يدعوه بهمس كالغزال إلى الرقاد فوق الأرض النظيفة المضيئة، ليتذوّق راحة لم تقسم له في حياته، وليستمع بهدوء لم يعرفه وسط انفعالاته المتلاطمة الخارقة، نداء مجهول ودّ لحظتها لو يطيعه منفّضًا يديه من الدنيا بكلّ همومها وآمالها. ولم يفق من غمرة مشاعره المجهولة حتّى غادر القرافة راجعًا إلى المدينة. كم يودّ أن ينقل والديه إلى القبر الجديد ليكمل اطمئنانه إليه ولٰكنّه علم باستحالة ذٰلك منذ زمن غير قصير. أجل فإنّ قبر الصدقة يكتظّ بالجثث بحيث يستحيل التمييز بينها. وقال متسوّلًا الاقتناع بحكمة تصرّفه:

ـ ليس من شكّ في أنّ حياتي اليوم خير من حياتي أمس...

وهي لا تعني بحال أنّه حادّ عن طريق الله وكلمته الأبديّة، وإن اعتراه فتور ملحوظ...

٣٣

لتمض الأيّام.

مهما يكن من أمر فقد أصبح صاحب أسرة ومالك قبر، وعرف من الطعام ألوانًا جديدة غير المعهود من لحمة الرأس والكشري والفول والطعميّة والعدس والبصارة، كما عرف للنقود وظيفة غير التحنيط في صندوق البريد.

ولٰكن ألا تمضي الأيّام في رتابة ووخامة؟

وهل فقد الأمل بصفة نهائيّة؟!.

وانبثقت من تيّار الأيّام موجة عالية وعاتية غير متوقّعة بتاتًا، غيّرت المصائر والحظوظ، وأعادت خلق العالم من جديد. فقد أصبحت الوزارة ذات يوم على

قرار بتعيين بهجت نور المدير العامّ وكيلًا للوزارة فخلت وظيفة المدير العامّ لأوّل مرّة منذ عهد مديد، وعاشت قلوب كثيرة في خفقان متواصل مقدار أسبوعين حتّى صدر قرار بترقية عبد الله وجدي مدير الإدارة إلى وظيفة المدير العامّ فبات «صاحب سعادة» بالطول والعرض. وانبعث الخفقان في قلب كان قد استنام إلى الهمود زمنًا غير قصير. فقال عثمان:

ـ إنّي المرشّح الوحيد «رسميًّا» و«طبيعيًّا» فماذا تراهم يفعلون؟!

ومضت أسابيع فلم يقصّر في حقّ نفسه. حادثَ المدير العامّ كما حادثَ وكيل الوزارة.

وسمع بعضهم يقول:

ـ إنّ وظيفة مدير الإدارة من الوظائف الحسّاسة.

فسأله عمّا يعني فأجاب:

ـ لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عند الاختيار لها ولكن يضاف إليهما المكانة الاجتماعيّة...

فصاح بغضب:

ـ ذلك كلام يصدق على الوكيل أو الوزير أمّا مدير الإدارة بل المدير العامّ فلا يُحرم منها أبناء الشعب، بذلك جرى العرف منذ تنحّى عنها الموظّفون البريطانيّون...

ولم يطل به العذاب فقد صدر قرار ترقيته إلى درجة مدير الإدارة في نفس الشهر. وفيما بعد تذكّر ذلك اليوم بوجد وكان يقول:

ـ وقعت المعجزة في غمضة عين!

وقال أيضًا:

ـ لم يعد يفصل بيني وبين المدير العامّ فاصل من الكادر!

ولكن كيف وقعت المعجزة؟. جرى في تقديره يومًا أنّه سيحال على المعاش قبل أن يتحرّك أحد في الطابور أمامه، ولكن حدث تعديل وزاريّ اختير فيه وكيل الوزارة وزيرًا، ثمّ أعقب ذلك التغييرات السعيدة المفاجئة. وقال له بهجت نور وكيل الوزارة:

ـ رقّيتك رغم الاعتراضات الكثيرة...

فشكر له فضله ولكنّه تساءل بأسف:

ـ ولماذا الاعتراضات؟

فقال الوكيل:

ـ إنّك فوق قمّة عمرك الحكوميّ فلا يمكن أن تجهل سببًا ممّا تسأل عنه...

على أيّ حال انفتحت نفسه للعمل كحاله الأوّل، وتعهّد أمام ربّه بأن يسجّل في رياسته الإدارة تاريخًا فذًّا حافلًا بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة، وأن يثبت للجميع أنّ الوظيفة عمل مقدّس وخدمة إنسانيّة وعبادة بكلّ معنى الكلمة. ومن أوّل يوم قرّر أن يتعاون مع عبد الله وجدي بصدق، لأنّ التعاون مع المدير العامّ طقس من طقوس العبادة في العمل، ولأنّه لم يخن واجب الوظيفة أبدًا، بل قرّر أن يغطّي ضعفه بخبرته، يقدّم له من الخدمات الخاصّة ما هو في حاجة إليها أسوة بوكيل الوزارة نفسه، ولعلّه يجني يومًا ثمرة ما يزرع. وجعل يقول لنفسه:

ـ عبد الله وجدي في حكم الشباب حقًّا ولكنّ عصر المعجزات قد عاد!

ولكنّه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها!. كان يرمق بدانة عبد الله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفيّ، ويردّد فيما بينه وبين نفسه:

ـ ما أكثر الأمراض التي يتعرّض لها أمثاله!

وهو حقّ وعدل. لِمَ لا؟ إنّه برغم الهفوات رجل مؤمن، من رجال الله، ومن مريدي الحسين، والله لن يتخلّى عنه. قال:

ـ هل يستطيع الإنسان في يوم الحساب أن يقدّم خيرًا من طموحه النبيل وعمله المقدّس وتقدّمه الثابت وسجلًا بالخدمات التي أدّاها للدولة والناس؟!

وقال أيضًا:

ـ إنّ الدولة هي معبد الله على الأرض، وبقدر اجتهادنا فيها تتقرّر مكانتنا في الدنيا والآخرة...

أمّا حياته الزوجيّة فلم تنعم بالهدوء والازدهار طويلًا. ومتاعبها كانت متوقّعة رغم مغالطة النفس والتعلّق بالآمال. وقال لها:

ـ قدريّة، إنّك تفرطين في شرب الخمر.

فرمقته بدهشة وقالت:

ـ هذا واضح، وهو قديم...

فقال برجاء:

ـ يوجد أمل دائمًا في أن نتغلّب على عاداتنا السيّئة...

ـ لا ضرورة لهذا التعب...

فقال برجاء أيضًا:

ـ بل إنّي آمل أن تصومي وأن تصلّي فنحن في

حاجة إلى رضى الله عنّا.

فقالت بامتعاض:

- إنّي مؤمنة بالله وأعلم أنّه غفور رحيم...

- إنّك سيّدة محترمة، والسيّدة المحترمة لا تسكر كلّ ليلة...

- إذن كيف تسكر السيّدة المحترمة؟!

- يجب ألّا تسكر على الإطلاق.

فضحكت بصوت مزعج ولٰكنّها سرعان ما قطّبت وقالت بأسًى:

- لا أمل!

- ماذا تعنين؟

- لا أمل في بنت أو ولد، فات أوان ذٰلك.

وشعر بأنّه يشاركها في الحزن على ذٰلك ولٰكنّه قال:

- أمامنا على أيّ حال فرص طيّبة للحياة الهانئة.

وبذلت محاولة غير جادّة للامتناع عن الشرب ولٰكنّها استمرّت فيما هي فيه. وربّما ضاعفت من إدمانها بعد رجوع عثمان إلى الاستغراق في عمله ومعاناتها لفراغ مخيف بلا أنيس. ولمحها مرّة وهي تتناول قطعة من الأفيون ففزع الرجل وصاح:

- لا...

فصاحت بحدّة:

- لا تتعرّض لهٰذا!

فسألها بلهفة:

- منذ متى؟

- من أيّام سيّدنا نوح.

- ولٰكن...

- إلّا هٰذا، إنّه أقوى من الموت...

- ولٰكنّه والموت شيء واحد.

فقالت باستهتار:

- ليكن...

تملّكه الفزع. ماذا فعل بنفسه؟ أيّ طلاء سعادة خدعه؟ بأيّ ثمن عليه أن يقاوم. لا جدوى من التفكير في الطلاق لأنّه يعني الدخول في معركة حامية ربّما انتهت بالقضاء عليه. وسألها:

- كيف تحصلين عليه؟

فلم تجب. فقال:

- تذهبين إلى الحثالة القديمة المشبوهة وفي ذٰلك ما فيه من الخطر البيّن...

- لا تبالغ...

- قدريّة، فكّري، إن لم تغيّري حياتك حلّ الخراب بنا...

وشحذ إرادته للدفاع عن سمعته ومستقبله. ومن خلال ما يشبه المعركة حملها إلى مصحّة نفسيّة وعصبيّة بحلوان فمكثت بها أشهرًا حتّى شفيت من الإدمان. خيّل إليه أنّها عادت امرأة جديدة. ولم تجد من سلوى في حياتها إلّا الطعام فأقبلت عليه بشراهة وإفراط، وسرعان ما ظهر أثر ذٰلك في الدهن الذي اكتنز به جسدها فزاد بدانة على بدانة حتّى تبدّت في صورة تدعو إلى الرثاء والسخرية معًا. ولم يفارقه القلق من ناحيتها فكان يعمل بعين ويراقبها بعين، ويقول بحزن:

- فقدت الميزة الوحيدة التي كنت أستمتع بها في الليالي البهيميّة، وها هي تتعرّى كاشفة عن بدائيّة تعيسة بلا خلق ولا دين ولا عقل ولا ذوق...

وتذكّر الآراء التي يعلّل بها بعض الزملاء - المولعين بالسياسة والأفكار - هٰذه الظاهرة وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات ولٰكنّه تذكّر أيضًا «حالته»، ألم ينشأ مثل قدريّة فقيرًا وعاجزًا ومحرومًا من كلّ سلاح؟. بلى، ولٰكنّه اكتشف في الوقت المناسب السرّ المقدّس في ذاته الضعيفة، كما اكتشف حكمة الله الخالدة، فشقّ طريقه بجلال وعذاب جديرين بالإنسان مخلوق الله العظيم، ولذٰلك لم يكد يعطف عليها، ورجع يتساءل:

- ماذا فعلت بنفسي؟

أجل، ما معنى حياة زوجيّة بدائيّة بلا حبّ حقيقيّ أو علاقة روحيّة أو أمل في ذرّيّة أو مجرّد زمالة إنسانيّة؟!! على أنّه قال لنفسه محذّرًا:

- هوّن من أحزانك، لم تعد تتحمّل كالزمان الأوّل، أجل يوجد تغيّر جديد، خفيف كالنسيم ولٰكنّه ماكر كالثعلب، إنّه السنّ، وإنّه الزمن...

وتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- بفضله نحقّق كلّ شيء، وبسببه نخسر كلّ شيء، ولا يبقى إلّا وجه ذي الجلال!

٣٤

كالعادة نسي النجاح تمامًا. انجابت الأفراح وتراكمت سحب الهموم. أصبحت رياسة الإدارة عادة روتينيّة، عليه أن يتجاوزها، وأن يتجاوزها بسرعة

تناسب القليل الباقي من العمر، وإلّا انقضت مدّة الخدمة وهو واقف كالمتسوّل أمام باب الحجرة الزرقاء. والطموح عنيف والزواج لم يعد بالمرفأ المواسي.

ـ يا ربّي إنّي أحاول هدايتها فهبني من لدنك قوّة.

ولٰكنّ جهده يتبدّد هباء، ودهمها بتعاسة لم تجرِ لها في خاطر. في الماضي كانت تعيش التعاسة ولا تكاد تشعر بها، وتجد في الخمر والأفيون ملاذًا طيّبًا، أمّا اليوم فهي تتصدّى للخواء في يقظة بغيضة بعينين محملقتين مذعورتين بلا عزاء ولا حبّ ولا ذرّيّة. قال:

ـ كانت في الدرب عزاء لي ولذّة أمّا في هٰذا البيت المريح فهي الجحيم.

وقال أيضًا:

ـ لو ذهب كلّ منّا إلى حاله لربّما حدثت معجزة سعادة، أين وحدتي القديمة أين؟!

ورجع يومًا فرأى في عينيها نظرة حمراء ذاهلة وضاحكة فقال برعب:

ـ عدت إلى الشراب؟

فأحنت رأسها باستسلام وقالت:

ـ نعم والحمد لله!

فتنهّد وقال:

ـ وعمّا قريب سترجعين إلى الأفيون.

فقالت بنبرة ساخرة:

ـ حصل والشكر لله...

فتساءل بحدّة:

ـ والعمل؟

فقالت بهدوء:

ـ كلّ شيء طيّب، ليلة أمس حلمت بأمّي!

ـ سأيأس منك نهائيًّا.

ـ خير ما تفعل.

ووجدها تذوب في عالمها الوهميّ وتعتزله كلّيّة فارتاح بعض الشيء. ها هي تستقلّ بدنياها وها هو يعود إلى وحدته. وقرّر ـ بضمير قلق ـ ألّا يقاوم تدهورها هٰذه المرّة. وقال يخاطب ربّه:

ـ اغفر لي أفكاري يا ربّ، إنّها قاسية مثل الحياة، وهي جزء منها ليس إلّا...

وهو يتلظّى بذٰلك السعير تعيّنت راضية عبد الخالق سكرتيرة له. وكان مدير المستخدمين قد طلب منه اختيار الشخص الذي يجده مناسبًا لسكرتيريّته. قال له:

ـ من حقّك أن تختار سكرتيرتك، بل من حقّك أن تعيّن فيه قريبة من ذوي الثقة...

أحقًّا لا يعرف الرجل شيئًا عن أصله وفصله؟ عرف طيلة خدمته الطويلة عبقريّة الموظّفين في نبش المستور ونشر الفضائح، ولا شكّ أنّ المنبت «الكارو» لم يعد يخفى على أحد. وقال الرجل:

ـ أترك لك الاختيار.

فقال مدير المستخدمين مداهنًا:

ـ إنّك مثال النزاهة والترفّع يا سيّدي المدير.

وفي صباح اليوم التالي دخلت عليه راضية عبد الخالق فحيّته وقالت:

ـ راضية عبد الخالق، سكرتير سعادتك إذا سمحت ووافقت...

فقال وهو يتذوّق انفعالًا طيّبًا:

ـ أهلًا بك، من أيّ قسم؟

ـ المستخدمين.

ـ عظيم، وما مؤهّلاتك؟

ـ ليسانس آداب قسم التاريخ...

ـ عظيم...

همّ بسؤالها عن سنّها ولٰكنّه أمسك، وقدّره بخمسة وعشرين عامًا. رشيقة القوام بصورة ملحوظة، ذات هالة من الشعر الفاحم سوّاها الحلّاق في بساطة وانسياب فأحدقت بجانبي الوجه الأسمر الطويل صانعة له إطارًا حانيًا، وعيناها صغيرتان وواضحتان وذكيّتان يومضان بجاذبيّة، وبروز ثنيتيها ـ وربّما عدّ عيبًا ـ أضفى على فيها شخصيّة حلوة. انفعل بجاذبيّتها وقال في سرّه:

ـ لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفّق...

وقال لنفسه أيضًا:

ـ إنّي في حاجة إلى مظلّة في هٰذا الجحيم...

ومن أوّل نظرة نزع قلبه إليها بارتياح وسرور ورغبة خفيّة في الاحتواء. وبمرور الأيّام ازداد تعلّقه بها وبخاصّة عندما علم بأنّها يتيمة وتعيش مع عمّة عانس. وفضحته أمانيه العميقة أمام نفسه، فضحت أحلامه ورغباته، ولٰكنّه كان أبعد ما يكون عن التفكير ـ مجرّد التفكير ـ في ارتكاب أيّة حماقة. قال لنفسه:

ـ حسبي أن أصبح على وجهها كلّ يوم.

واستأسره أدبها ورقّتها وعذوبة نظرتها الناعمة.

وحلّل ذٰلك بأنّه السلوك الواجب من سكرتيرة نحو مدير، وهو واجب أكثر إذا كان المدير في سنّ والدها. ولٰكن ما بالها تشغله أكثر ممّا يجب، ما بالها تعبق حياته بشذا طيّب ونفّاذ. وقال لنفسه:

ـ في لحظة من لحظات الحياة يستوي مَن أخذها مأخذ الجدّ ومَن لها بها لهو العبث والهزل.

وتوجّه إلى ربّه داعيًا:

ـ اللّٰهمّ عفوك ورحمتك.

وجعل يلاحظ عملها باهتمام حتّى سألها يومًا:

ـ أيشقّ عليك العمل في مكتبي؟

فأجابت بحرارة:

ـ كلّا، إنّي أحبّ العمل!

ـ كذٰلك كنتُ منذ نشأتي الأولى، وما زلت وأبشّرك بأنّه جهد غير ضائع. . . .

ـ ولٰكن يقال. . .

فقاطعها:

ـ أعرف ما يقال، ولا أنكره، الوساطة. . . القرابة. . . الحزبيّة كلّ أولٰئك وما هو أشنع، ولٰكنّ الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذٰلك، حتّى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى مَن يغطّي عجزهم من الأكفّاء الحقيقيّين. . .

وابتسم في افتتان خفيّ بجاذبيّتها واستطرد:

ـ لقد شققت طريقي معتمدًا على الله سبحانه وعلى عملي. . .

ـ يتردّد ذٰلك في كلّ مكان.

ترى ماذا يتردّد أيضًا؟!. ذٰلك الذي جعل أمّ زينب لا ترجع بجواب!. ولٰكن لم تعد لذٰلك أهمّيّة اليوم. وقال لها:

ـ من الإنصاف أن أصارحك بأنّني راضٍ عن عملك تمامًا!

فابتسمت قائلة بسرور:

ـ إنّي مدينة لنبلك بهٰذا التشجيع!

لا يوجد جوّ أصفى من ذٰلك. جوّ نقيّ مليء بالوعود. والقلب يستقطر منه مرحًا مقدّسًا. من مثل هٰذا المنطلق يبدأ العاشق سيره، والزواج الموفّق، والصداقة السعيدة. هٰكذا يصادف الحائرون احتمالات ثريّة للسعادة في ظروف غير مناسبة. حين يتّفق المكان مثلًا ويختلف الزمان، أو العكس، ممّا يقطع بأنّ السعادة كائنة ولٰكنّ السبيل ليست ممهّدة دائمًا، ومن اللعب بين هٰذا وذاك يجيء الحظّ السعيد أو العبث. ولٰكن لا يجوز أن ننسى الأخطاء كذٰلك ـ أخطاء؟ ـ أن تنسى سيّدة وأصيلة وأنسيّة.

وبمرور الأيّام جعل يقول لنفسه:

ـ يا قلبي حاذر.

وكالعادة راح يخاف راضية بقدر ما يودّها. وكالعادة ترك نفسه للتيّار ليفصل في مصيره قدَر مجهول. . .

٣٥

وتتابعت الأيّام بين عمل في الإدارة وأحزان في البيت وأشواق تندلع في القلب. وبدا أنّ الكون قد توقّف وأنّ عبد الله وجدي قد رسخ في وظيفة المدير العامّ مثل الهرم الأكبر. وقال بحزن:

ـ لا بارقة أمل.

أين تقع المعجزة هٰذه المرّة؟!. وها هو لم يبق من السواد في رأسه إلّا شعيرات معدودات، وقد ضعف بصره فاستعان بنظّارة، وفقد جهازه الهضميّ نشاطه المعهود فعرف العقاقير لأوّل مرّة في حياته، وعلاه احديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته أيّ نوع من أنواع الرياضة. وكان يقول لنفسه:

ـ ما زلت قويًّا والحمد لله. . .

وعلى غير عادة كان ينظر طويلًا في المرآة ويقول:

ـ ما زلت مقبولًا!

وفي تلك الأثناء وضع كتابًا في قوانين الموظّفين مع تعليق شامل، وكان للكاتب دويّ في أوساط الموظّفين. ورغم تقدّمه في السنّ ثابر على طاقته الخارقة في العمل والترجمة، حبًّا فيهما، وهربًا من شبح حياته الزوجيّة وعواطفه المشبوبة المتّسمة في نظره بالنزق والطيش. وقال لنفسه:

ـ فلأعترف بأنّ ساعة عرض البريد في الصباح هي نصيبي من سعادة الدنيا!

تبادُل تحيّات، تراشُق بسمات، تعليقات مصلحيّة، دعابات خفيّة، إشارات ثناء لبقة إلى التسريحة أو الحذاء أو البلوزة.

ومرّة كان يثني على تسريحتها قالت:

ـ أفكّر في تقصير شعري. . .

فهتف محتجًّا:

ـ كلّا.

وابتسمت لحرارة الاحتجاج على شأن لا علاقة له بشئون اللوائح.

ـ ولٰكن...

فقاطعها:

ـ اتركيه وشأنه.

ـ ولٰكنّ الموضة...

ـ لا خبرة لي بالموضة ولكنّني أحبّه كما هو...!

وتورّد وجهها. تفحّصها بعناية فلم يعثر على أثر لاستياء. وأراد أن يستغلّ الدروس التي تلقّاها في لحظاته السعيدة الماضية فانتهز فرصة وجودها ذات صباح وقدّم لها علبة صغيرة أنيقة وذهلت راضية وتساءلت:

ـ ما هٰذا؟

ـ شيء بسيط لمناسبة كبيرة...

ـ ولٰكن... ولكن كيف عرفت...؟

ـ عقبى لمائة عام...

ـ إنّه يوم ميلادي حقًّا.

ـ طبعًا...

ـ ولٰكن... ما أنبلك!... الحقّ أنّي لا أستحقّ.

ـ الحقّ أنّك لا تحسنين الكلام كما تحسنين التأثير...

ـ إنّي ممتنّة.

ـ وإنّي سعيد.

وتنهّد. واستجمع إرادته. ثمّ أذعن لعواطفه كلّيّة وبلا احتراس وفي اندفاع انفعاليّ خطير، قال:

ـ ما الحيلة؟... إنّه الحبّ...

فغضّت بصرها متلقّية اعترافه باستسلام قدريّ عذب.

ـ آخر ما يجوز الحديث عنه، ولكن ما الحيلة؟

غمق وجهها الأسمر بالدم المتصاعد ولكنّها لم تذهب، جلست مستسلمة كأنّها تتطلّع للمزيد.

ـ لست شابًّا كما ترين.

وصمت مليًّا ثمّ استطرد:

ـ ثمّ إنّي متزوّج...

أجل ماذا يريد؟، لعلّه لا يريد أن يواجه الفشل المحتمل أو الموت في النهاية وحده، بلا حبّ دافئ وبلا ذرّيّة!. وعاد يقول:

ـ ولٰكن ما الحيلة؟... إنّه الحبّ...

وغلب الصمت مرّة أخرى. لم يعد يبالي بشيء.

سألها متصنّعًا الدعابة:

ـ ما رأيك في هٰذه الحالة؟

ابتسمت وغمغمت بصوت غير مسموع فقال:

ـ لعلّك تتّهمينني بالأنانيّة؟

فقالت همسًا:

ـ كلّا، لست كذٰلك...

ـ ولا بالخوف؟!

فضحكت ضحكة خافتة ناعمة وقالت:

ـ لا تلصق بنفسك ما ليس فيها.

ـ إنّي سعيد برأيك ولٰكن ما العمل؟

وساد الصمت للمرّة الثالثة فقال:

ـ أودّ جدًّا أن أسمع رأيك.

فقالت بجدّيّة:

ـ الموقف دقيق ومحيّر، ولا أحبّ أن أتجاهل العواطف الإنسانيّة والرحمة...

ـ لعلّك تلمحين إلى زوجتي؟

ـ هو ما يجب أن تفكّر فيه...

ـ دعي ذٰلك لي وحدي فأنا المسؤول عنه...

ـ حسن.

ـ ولكنّي أريد أن أسمع رأيك فيما عدا ذٰلك...

وكانت تمالكت مشاعرها لدرجة لا بأس بها فقالت:

ـ ألم تدلّك مناقشتي في الموضوع على شيء ما يخصّ المبدأ؟

ـ إنّي سعيد جدًّا يا راضية، هٰذا يعني أنّك تباركين حبّي لك؟

فقالت بشجاعة:

ـ نعم.

فهزّته النشوة حتّى سكر وقال باستهانة جليلة:

ـ ليكن ما يكون.

ثمّ بلهجة مستدرّة للعطف:

ـ أعترف لك بأنّني لم أعرف قطّ السعادة.

ـ لم أتصوّر ذٰلك.

ـ حياة شاقّة وزواج تعيس!

ـ لم أتصوّر ذٰلك حقًّا.

ـ لماذا؟

ـ تبدو لي دائمًا حكيمًا وفكرتي عن الحكماء أنّهم هم السعداء.

ـ يا لها من فكرة...

- إنّي آسفة...
- أمّا أنا فسعيد بحبّك.

وآمن بأنّه فاز بأكبر غنيمة في حياته، وآمن بأنّ الحبّ هو القوّة التالية لله سبحانه...

واقتضى سير الأمور أن يذهب معها إلى بيتها بالسيّدة زينب. قدّمته إلى عمّتها العانس العجوز. ومن بادئ الأمر شعر بأنّ المرأة غير مرحّبة وأنّ موقفها واضح وحادّ. وكانت عصبيّة وصريحة. ونوقش الموضوع من جميع جوانبه. قالت له:

- طلّق امرأتك أوّلًا.

فرفض الفكرة وقال معتذرًا:

- إنّها مريضة...

فقالت بحدّة:

- أنت عجوز ولا وفاء لك...

فتدخّلت راضية للدفاع والاحتجاج وقالت له:

- لا تزعل من عمّتي أبدًا...

وعادت العمّة تسأله عمّا يريد فاقترح زواجًا في السرّ لفترة قصيرة حتّى يتاح له إعلانه، فصاحت العمّة:

- الله... الله...

وسألت راضية عن رأيها فأجابت:

- يوجد اتّفاق بيننا على ذلك، لم أسعد به ولكنّي لم أرفضه.

فصاحت بها:

- أنت حرّة، ولكنّي أرى الأمر كلّه خطأ وحرامًا.

فهتفت الفتاة:

- عمّتي!

فتحوّلت إليه وقالت بغضب:

- هل تستغلّ ضعفنا وفقرنا وألّا أهل لنا؟

فقال عثمان غاضبًا لأوّل مرّة:

- إنّي أنموذج للفقر وانعدام الأهل.

فقالت العمّة برجاء:

- إذن ليلتقط كلّ منكما رزقه في مكان غير مكان الآخر.

فقالت راضية بإصرار:

- اتّفقنا على مكان واحد...

فقالت العجوز:

- لا حيلة لي ولتكن إرادة الله.

وتمّ الزواج بعد شهر واحد في بيت العمّة. وأعيد تأثيث الشقّة لتصلح للحياة الجديدة. وقال عثمان إنّ حياته سلسلة من الأحلام والكوابيس وإنّ ذلك الحلم الأخير هو أسعدها جميعًا. وكان يلبث في بيت راضية حتّى حوالى منتصف الليل ثمّ يرجع إلى روض الفرج فلا تسأله قدريّة، في ملوكتها، أين كان ولا ماذا يفعل. وعن حكمة قرّر تأجيل الإنجاب حتّى يعلن زواجه تفاديًا من إحراجها - زوجته الجديدة - في الإدارة.

ونسي في سعادته الغامرة كبره وتجمّده الأبديّ أمام وظيفة المدير العامّ وقدريّة وقال إنّ الحياة لم تخلق إلّا لتكون مسرحًا للعجائب تحت العناية الإلهيّة...

٣٦

لأوّل مرّة يخطر في ملابس أنيقة. بدلة رماديّة من الصوف الإنجليزيّ، وحذاء إنجليزيّ كذلك، أمّا القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية بنفسها. ولأوّل مرّة كذلك يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحّته ونظافته أكثر من أيّ وقت مضى. وقال لراضية:

- معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكلّ معنى الكلمة...

وقبّلها ثمّ استطرد:

- سيكون لنا بنين وبنات...

وتفكّر مليًّا ثمّ قال:

- الأعمار حقًّا بيد الله وحده ولكنّني من أسرة معمّرة، أسأل الله أن يمدّ في عمرنا...

فقبّلته راضية وقالت:

- قلبي يحدّثني بمستقبل سعيد...

- قلب المؤمن دليله، عندي من الإيمان ما يغفر لي العديد من الأخطاء، وخدمت الدولة بإخلاص يكفّر عن كثير من السيّئات، وعندما تستقرّ الأمور سأقوم بالحجّ تجديدًا لروحي وجسدي.

أمّا قدريّة فتمادت في التدهور، ولكنّه تدهور أراحه منها تمامًا، ولم يخل قلبه من رثاء لها ولكنّه ظلّ على خوله من مصارحتها بزواجه الثاني.

ولم ينس أنّه يمضي نحو نهاية خدمته بلا أمل حقيقيّ في جوهرة العمر، ولكنّ الأيّام في جريانها السريع تمخّضت عن حدث لم يكن في الحسبان، فقد عُيّن عبد الله وجدي وكيلًا لوزارة الخارجيّة، فجأة بلا مقدّمات وجد عثمان وظيفة المدير العامّ خالية. أغمض عينيه، توسّل إلى قلبه أن يهدّئ من خفقانه، أسى كلّ شيء

في دنياه ـ عروسه... أفراحه... آماله ـ لا شيء أمام الوظيفة الحالية. تفجّر طموحه المكبوت وانقلب إلى العابد القديم في محراب الرقيّ المقدّس.

وقالت له راضية:

ـ الجميع يتحدّثون عنك بصفتك المرشّح الوحيد...

فابتهل قائلًا:

ـ فليحقّق الله الآمال.

ثمّ بحنان وامتنان:

ـ الحياة العجيبة تمسح في لحظة من الأحزان ما يعجز المحيط عن غسلها، فهي الأمّ الحنون رغم معاملتها أحيانًا القاسية...

ومضى من فوره إلى الخارجيّة ليهنّئ عبد الله وجدي فاستقبله الرجل مرحّبًا وقال له مجاملًا:

ـ أعترف لك يا عثمان بك بأنّني سررت مرّتين، مرّة لتعييني وكيلًا للخارجيّة ومرّة ليقيني بأنّك ستحلّ محلّي في الوزارة.

وغادر عثمان الخارجيّة ثملًا من السرور والأمل. وتساءل ترى هل ينتدب أوّلًا للوظيفة تمهيدًا للترقية أو يبقى حتّى تتمّ الترقية؟. وكلّما مضى يوم عذّبه الانتظار. أجل تعذّب رغم أنّ الوزير يقدّره والوكيل يُعتبر حاميه الأوّل. ولمّا نفد صبره ذهب لمقابلة بهجت نور الوكيل فاستقبله الرجل بحفاوة وبادره قائلًا:

ـ كأنّي أقرأ فؤادك...

فابتسم عثمان مرتبكًا ولم يجد ما يقوله فقال الوكيل:

ـ ولكنّك لا تقرأ ما في فؤادي!

فقال وهو يفكّر:

ـ إنّي مدين لك بكلّ خير في حياتي...

فابتسم الوكيل وقال:

ـ المطلوب منك شيء من الصبر، وسوف تسمع بإذن الله ما يسرّك.

غادره ممتنًّا ومسرورًا ولكنّه تساءل لِمَ يطالبني بالصبر؟. وقال لنفسه إنّ الجوّ يبشّر بالخير ولكنّه لا يشعر بالطمأنينة الكاملة. وتصبّر وعانى العذاب. واستدعاه الوكيل مرّة أخرى بعد مرور أسبوع. خيّل إليه أنّ الرجل يعالج نظرة فاترة في عينيه فخفق قلبه خفقة شديدة. قال بهجت نور:

ـ لعلّك تتساءل عمّا أخّر ترقيتك؟!

ـ فعلًا يا صاحب السعادة.

ـ حسن، أنت تعلم رأيي فيك، وأضيف إلى ذلك أنّ رأي الوزير فيك مثل رأيي...

ـ عظيم...

وصمت الوكيل. تبادلا نظرة طويلة. قال صاحب السعادة متسائلًا:

ـ ماذا فهمت؟

أجاب خامدًا:

ـ ثمّة اعتراضات من فوق!

ـ بالصراحة يوجد شبه صراع...

ـ والنتيجة يا صاحب السعادة؟

ـ في اعتقادي أنّ وزيرنا لن يلين...

سأل بحلق جافّ:

ـ ما نسبة الأمل في تقدير سعادتك؟

ـ كبيرة جدًّا، ضع ثقتك في الله كما يجدر برجل مؤمن مثلك...

ثقته بالله لا حدّ لها. لكنّ دور الشيطان في الإدارة راسخ منذ القِدَم. عليه دائمًا أن يعبر جسرًا من المسامير. وتأوّه قائلًا:

ـ الفرص الباقية نادرة جدًّا.

فقالت راضية:

ـ لا تحزن، الدرجة ليست كلّ شيء في هذه الدنيا...

ولكنّه حزن، ورسب الحزن في أعماقه، وتقدّم في العمر جيلًا كاملًا، وتحوّلت أحلام الدنيا إلى تراب. واقترحت راضية أن يمضيا يوم العطلة في القناطر. فاستجاب لاقتراحها العذب، وأعطاها قياده تجول به في الحدائق. وهي البسمة السعيدة الوحيدة في حياته. وقالت ضاحكة:

ـ حكمة قديمة أن ننسى متاعبنا في أحضان الطبيعة...

تربّعت فوق الحشائش ووهبت حواسّها وروحها للماء والخضرة والسماء المنقوشة بالسحائب المبعثرة، وهو ينظر إليها بإعجاب وافتتان، وتحدّثه عن سحر الطبيعة فيجاملها بالموافقة، ويجول بنظره في الآفاق فيرى مناظر لم تجذبه من قبل ولا يشعر نحوها بسحر ما، أجل إنّه منغمس دوامًا في الداخل، في أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز، في الله ويجده الدنيويّ المقدّس وصراع الخير والشرّ والفساد، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئًا.

ـ أنت تحبّ الطبيعة ولا شكّ.

ـ أنا أحبّك...

ـ انظر إلى العشّاق!

ـ ما أكثرهم!

أنامت راحتها على يده وقالت:

ـ لننس همومنا في هٰذا الجوّ المنعش.

ـ أجل لننس!

ـ ولْكنّك في الواقع حزين...

تنهّد ولم ينبس، فقالت:

ـ إنّك موظّف كبير، في الدرجة الأولى، غيرك كثيرون يسعدون بما دون ذٰلك بكثير.

أوشك أن يقول لها إنّ الإيمان الحقّ نقيض السعادة التافهة ولٰكنّه أمسك، ثمّ قال:

ـ لست كغيري من الموظّفين، والحيلولة بيني وبين الوظيفة التي أستحقّها عمل دنيء فيه اعتداء صارخ على النظام الأخلاقيّ للدولة...

ـ ألست تغالي في تقديرك للوظيفة؟

ـ الوظيفة حجر في بناء الدولة، والدولة نفحة من روح الله مجسّدة على الأرض!

ورمقته بدهشة فأدرك أنّها لا تدري إيمانه ولا مضمونه. قالت:

ـ إنّه لمعنى جديد بالقياس إليّ، ولٰكنّي سمعت كثيرًا أنّ روح الشعب من روح الله!

فابتسم بازدراء وقال:

ـ لا تحدّثيني عن الصراعات السياسيّة...

ـ ولٰكنّها الحياة الحقيقيّة...

ـ ما هي إلّا صخب زائف...

ـ الدنيا من حولنا...

فقاطعها بنفاد صبر:

ـ الدنيا الحقيقيّة في أعماق القلب...

وغصّ قلبه في صدره عندما تصوّر إمكان أن تراه «مجنونًا» كبعض الحمقى فقال لها متهرّبًا ولائذًا بأمل جديد:

ـ دعينا من الخلاف...

فابتسمت في استسلام عذب فاستطرد:

ـ آن لنا أن نعلن زواجنا...

فتورّد وجهها وتساءلت:

ـ هل زالت العقبات؟

ـ علينا أن نواجه الحياة بشجاعة لنستحقّ سعادتنا...

ـ ما أجمل أن أسمع ذٰلك...

ـ سأصارح زوجتي بالحقيقة...

وابتسم ابتسامة أشرق بها وجهه الحزين وقال:

ـ قوّة مقدّسة تدعوني لتجديد الحياة وإنجاب الذرّيّة الصالحة...

٣٧

على مسمع من العمّة كرّر نواياه الطيّبة فقالت العجوز:

ـ إنّك تبدو لي «إنسانًا» و«عاقلًا» لأوّل مرّة...

فضحك وأغرقت راضية في الضحك، وقال:

ـ لا خير في حياتنا ولا معنى بدونك يا عمّتي...

فابتسمت العجوز معلنة عن رضاها فقال:

ـ لقد قضينا يومًا طيّبًا في القناطر وآن لي أن أذهب...

فسألته العمّة:

ـ هل تخبر زوجتك الليلة؟

فقال وهو يقوم:

ـ خير البرّ عاجله.

وخطا خطوة واحدة ولٰكنّه توقّف وقد تغيّر وجهه بصورة ملحوظة فسألته راضية:

ـ مالك؟

فأشار إلى صدره ولم ينبس...

ـ هل تشعر بتعب؟. اجلس...

تمتم وهو يشير إلى صدره:

ـ ألم شديد هنا...

هرعت إليه لتسنده ولٰكنّه انحطّ فوق مقعده وراح في إغماء.

ولـمّا أفاق وجد نفسه راقدًا فوق الفراش لم ينزع من ملابسه إلّا الحذاء ورباط الرقبة. ورأى في الحجرة شخصًا جديدًا أدرك من فوره ـ رغم وهنه ـ أنّه الطبيب. وقرأ في وجه راضية شحوبًا وحزنًا، وحتّى وجه العمّة أعلن عن حزنه. نظر الطبيب في عينيه وسأله:

ـ كيف حالك؟

فسأله بدوره:

ـ ماذا جرى؟

ـ شيء طارئ لا خطر منه.

ـ ولكن . . .

ـ ولكنّ الأمر يقتضي راحة طويلة بعض الشيء.

فقال بقلق:

ـ أشعر بأنّني في حال طبيعيّة تمامًا وأنّه بوسعي القيام . . .

فقال الطبيب بحزم:

ـ ما دام الأمر كذلك فاعلم أنّ المسألة ليست لعبًا، إنّها بلغة الطبّ لا خطر منها، ولكنّ عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئًا آخر، يلزمك راحة تامّة مثاليّة، شهر على الأقلّ.

هتف:

ـ شهرا

ـ وأن تلتزم بدقّة بالدواء والغذاء الموصوف، لا مناقشة في ذلك البتّة، وسوف أزورك غدًا . . .

وجمع أدواته في حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول:

ـ احفظ كلامي عن ظهر قلب . . .

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة. واقتربت راضية حتّى التصقت بالفراش وهي ترنو إليه بنظرة باسمة مشجّعة وهي تقول:

ـ بعض الصبر وسيمضي كلّ شيء بسلام . . .

عكست عيناه نظرة قلقة فمسّت جبينه بأناملها بحنان وقالت:

ـ لا تشغل بالك ولا تحمل همًّا . . .

ـ ولكن توجد أمور كثيرة . . .

ـ سأقوم بالواجب في الوزارة . . .

ـ كيف؟

ـ لا مفرّ من إعلان الحقيقة، لا عيب في ذلك البتّة . . .

ـ يا له من موقف!

ـ ولا بدّ من إبلاغ زوجتك أيضًا!

ـ موقف أشدّ.

ـ علينا أن نواجه الحقيقة وبأيّ ثمن . . .

وقالت العمّة:

ـ اخلد أنت للراحة.

ذلك حقّ، وعليه أن يقاوم. إرادة الحياة فيه ترفض اليأس والاستسلام. ليكن ما يكون والأمر لا يخلو في النهاية ممّا يشبه المزاح.

وأغمض عينيه تاركًا الأحداث تتشابك في الخارج بعيدًا عنه رغم أنّه محورها. وسرعان ما هرع الزملاء إلى البيت لعيادته، ولمّا كانت زيارته ممنوعة فقد حُمل إليه طوفان من البطاقات. قرأ الأدعية والتمنّيات الطيّبة. وتذكّر سعفان بسيوني وحمزة السويفي، وعاودته ذكريات لم يرتح لها، وتساءل كيف حال حمزة السويفي؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ . وثمّة موظّفون جدد يلحقون اليوم بالعمل لم يعرفوه وربّما لن تتاح لهم معرفته، وفوق ذلك كلّه تجري السحب في السماء وتختفي وراء الأفق، وقد فهم الساعة فقط مغزى حركة الشمس.

وأغمض عينيه حينًا ثمّ فتحهما فرأى قدريّة جالسة على كثب من الفراش ترنو إليه. قرأ في عينيها الذهول الناعم المعتم غير المبالي بشيء كالقمر المجلّل بسحابة شفّافة. أدرك أنّها تناجي الملكوت وأنّه لا خوف منها. وبدا أنّها ـ إلى ذلك ـ شحنت بتوصيات طبّيّة إذ سألته بهدوء:

ـ كيف حالك؟

فابتسم مرتبكًا وقال بامتنان:

ـ بخير، شكرًا لك!

قالت تعاتب المجهول:

ـ قيل لي إنّ نقلك إلى بيتك «الأصليّ» غير محمود العواقب، وكان بودّي أن أسهر عليك!

ـ أشكرك يا قدريّة، خيرك سابق!

ـ انعم بالراحة حتّى يأخذ الله بيدك . . .

وهزّت رأسها بحكمة غير معهودة ثمّ استطردت:

ـ لك العذر، أنا فاهمة كلّ شيء، إنّك تريد ولدًا، ولك الحقّ، وربّنا يحقّق رغبتك . . .

ـ أنت طيّبة وإنسانة يا قدريّة . . .

ولاذت بالصمت ثمّ راحت في ذهول معبق بشذا الفردوس. وشعر بارتياح عميق لانكشاف السرّ ولتجاوزه منطقة الحرج المليئة بالاحتمالات المتفجّرة. ولكنّه من ناحية أخرى أدرك معنى مرضه بكافّة أبعاده.

ـ أيّ أمل يبقى للدرجة؟

أجل . . . أجل . . .

ـ وأيّ أمل يبقى للإنجاب؟

وقال لراضية:

ـ لم أشعر بنذير تعب ولو من بعيد . . .

ـ الطبيب لم يعجب لذلك . . .

ـ وعرفت المعنى الحقيقيّ للمباغتة والغدر!

ـ إنّها سحابة سرعان ما تمرّ وتختفي...

ـ الحقّ أنّي آسف لك جدًّا...

ـ أنا؟!. إنّ ما يهمّني هو صحّتك وسعادتك.

فنظر إليها بحبّ وعطف وقال:

ـ لا أمان في هٰذه الدنيا...

أطرقت حتّى أشفق من أنّها تخفي دمعة فقال:

ـ إنّي ممتنّ لك، أنت نور في هٰذه الدنيا التي تمضي بلا منطق ولا وجود حقيقيّ...

ـ املأ قلبك بالأفكار العذبة حرصًا عليك وعليّ...

فتنهّد وسأل:

ـ هل ذهبت قدريّة بسلام؟

ـ نعم.

ـ خيّل إليّ أنّ صوتها زمجر وأرعد، ماذا جرى؟

ـ لا شيء ألبتّة، إنّها امرأة مسكينة...

ـ أجل. الأخطاء ترتكب بعدد تردّد الأنفاس.

ـ عليك أن تنعم بالراحة الكاملة...

فرقّت نظرته بحنان وسألها:

ـ هل يقدّر لنا أن نحقّق أملًا من آمالنا؟

ـ بمشيئة الله...

فقال وهو يحدجها بحزن:

ـ في لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهري وتركّز أملي في حلم واحد هو الإنجاب...

ـ جميل، سيكون لنا ذٰلك...

شكرًا لك يا حبيبتي...

ـ اهدأ حتّى تتمّ سعادتنا...

ـ ولكنّي أتساءل عن معنى ضياع أمل ذي طبيعة خالدة؟... إنّه يعني أنّ فناء العالم ممكن، وأنّه ربّما وقع بكلّ بساطة...

ـ ألا تهب وقتًا آخر للتفلسف؟

ـ حسن...

ـ ألا ترغب في شيء قبل النوم؟

فأجاب باسمًا:

ـ أرغب في معرفة حكمة الحياة...

٣٨

وأخيرًا استقبل زوّاره. جاء الزملاء والمرءوسون والسعاة والفرّاشون. وانعقدت الجلسات بحجرة النوم وطالت وبشّرت بالشفاء الكامل. ودار الحديث عن الصحّة والمرض، ومعجزات الشفاء، ورحمة الله، ومهارة الأطبّاء، وأخبار الوزارة والإدارة، والبطاقة التي أرسلها الوزير، والأخرى التي أرسلها الوكيل.

ـ لِمَ لم يحضر الوكيل بنفسه؟

ـ إنّه غائص في العمل حتّى قمّة رأسه ولٰكنّ عذره ضعيف...

ـ حسن وما أهمّيّة ذٰلك؟

وسرعان ما خاضوا في الأحاديث العامّة، حفلة الإذاعة الأخيرة، والأسعار، صراع الأجيال ألخ...

وهو قد شارك في الحديث بقدر وتابعه بقدر أكبر، وما يدري إلّا وهم يتكلّمون في السياسة!. صكّت أذنيه مرّة أخرى الصراعات المضطربة برموزها الرنّانة: الحرّيّة... الديموقراطيّة... الشعب... الجماهير الكادحة... المذاهب الثوريّة... التنبّؤات الراسخة عن ثورات الغد... وقال لنفسه إنّ الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذٰلك؟! ولكنّهم يؤمنون بأنّ آمال الفرد رهن بأحلامهم الثوريّة!، حسن... أيّ ثورة تضمن له الشفاء وإنجاب الذرّيّة وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدّسة؟!. ولٰكنّه لم يعلن أفكاره ولم يبح بسرّه لأحد، إنّهم قطيع تافه في مراعي التعاسة، يعلّقون الأمل على الأحلام لضعف نفوسهم وتهافت إيمانهم وجهلهم أنّ الوحدة عبادة.

واستشعر دفء الشفاء الوشيك فرغب في أن يجرّب قوّته. وجد فرصة في خلوّ الحجرة فتزحزح ببطء إلى حافة الفراش، وأنزل ساقيه بحذر حتّى مسّت قدماه الأرض. غمغم:

ـ توكّلت على الله...

ووقف مستندًا إلى الفراش واطمأنّ إلى ثقته بنفسه فحرّك قدميه بحذر كأنّه طفل يمشي معتمدًا على نفسه لأوّل مرّة. بصعوبة حملته ساقاه من الضعف وطول الرقاد. تقدّم حتّى بلغ الباب المغلق ففتحه وواصل السير نحو حجرة الجلوس مضمرًا مفاجأة سارّة. وباقترابه ترامى إليه صوت، حوار يدور بين العمّة وراضية. تساءلت راضية بحدّة:

ـ مَن؟... من؟...

فجاء صوت العمّة خافتًا على غير العادة:

ـ أنت الجانية على نفسك، طالما قلت لك ذٰلك.

ـ ما الفائدة؟

ـ ها هي عقبى الطمع وسوء التصرّف!

ـ اصرخي حتّى يسمع!

وساد الصمت.

عاد إلى الفراش ذاهلًا.

ـ فيم تتحـاوران؟... أيّ جنـايـة؟... أيّ طمع؟... أيّ سوء تصرّف؟!

وأغمض عينيه وهو يعضّ على شفته:

ـ يا ربّي المعبود، ماذا يعني ذٰلك؟، أهو ممكن؟

لِمَ لا؟. طالما رغب في أن يلعب هٰذه اللعبة فلم ينجح. ومن شدّة الشعور بالخيبة ذهل عن وجوده تمامًا.

ـ يا لي من أحمق!

ودهمته نكسة. هصرته أزمة جديدة. مضت أيّام وأيدي الحياة والموت تتنازعه فيما بينها. وبدا أنّه مصمّم على الاستمساك بالحياة رغم كلّ شيء، ورغم قوله لنفسه:

ـ معركة طويلة وخاسرة!

ـ لتكن مشيئة الله...

وقيل إنّه اجتاز مرحلة الخطر ولٰكن كان من المسلّم به من أوّل الأمر أنّ رقاده سيطول إلى أجل غير مُسَمًّى وهو مغمض العينين. ولم يحقد عليها ولم يغضب وقال لنفسه:

ـ لا يحقّ لي أن أكرهها إلّا كما أكره نفسي...

وقال أيضًا:

ـ إذا تهيّأ لي يومًا أن أنجب منها فلن أتأخّر حتّى يتحقّق للّعبة وجهاها الأبيض والأسود...

وتنهّد قائلًا:

ـ يا لي من أحمق!... هٰكذا يكون سوء الختـام وإلّا فلا...

فلم يغضب ولٰكنّه فقد الثقة في المكان.

* * *

وذات مساء دخلت راضية بوجه مبتهج وقالت:

ـ وكيل الوزارة جاء لزيارتك.

ودخل بهجت نور بوقاره المعروف فصافحه ثمّ جلس وهو يقول:

ـ شدّ حيلك...

فقال عثمان بتأثّر:

ـ خطوة عزيزة يا صاحب السعادة...

ـ إنّـك تستحقّ كلّ تكـريم ولا يمكن نسيـان أفضالك.

فاغرورقت عيناه امتنانًا فقال الوكيل:

ـ في مكانك فراغ لا يسدّه أحد سواك...

ـ إنّه كرم أخلاقك الذي يتكلّم، ليس إلّا...

ـ عمّا قريب ستشفى وترجع إلينا وسوف تجدنا في انتظارك، ولقد حملت معي إليك نبأ سعيدًا...

وابتسم الرجل والآخر يرنو إليه بإعياء وذهول ثمّ قال:

ـ صـدر اليوم قـرار تـرقيتـك إلى وظيفـة المـديـر العامّ...

استمرّ ينظر إليه ولٰكن ببلاهة فقال الرجل:

ـ انتصر الحقّ والعدل ولو بعد حين...

فتمتم عثمان:

ـ إنّها لبركة من أفضالك.

ـ العفو، وقد كلّفني معالي الوزير بإبلاغك تحيّاته وتمنّياته لك بالشفاء العاجل.

ـ لمعاليه الشكر والدعاء...

وذهب الرجل مخلّفًا وراءه فردوسًا من المشاعـر، كأنّما كان رسول رحمة من الغيب. وتلقّى تهاني راضية وعمّتها وهو مغمض العينين. وعاوده شعـور بفقدان الثقة في المكان. وسمعها وهي تقول:

ـ كم أنّني سعيدة...

تذوّق في هدوء نجـاحه. إنّـه صاحب السعـادة، مالك الحجرة الزرقاء، مرجع الفتاوى والأوامر الإداريّة وملهم التوجيهات الـرشيدة لـلإدارة الحكيمة وقضـاء مصالح العباد، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال لنفسه:

ـ ستتمّ نعمتك عليّ يا ربّي يوم تمكّنني من القيام لممارسة السلطان وإعلان شأنك في الأرض!

ولٰكنّ الطبيب قال له:

ـ ما يهمّني هو صحّتك ولا وظيفتك!

وإنّه لصارم وعنيد، ولو صحّ تقديره فستظلّ الترقية شكلًا بلا مضمون. قال له:

ـ المؤمن الحقيقيّ لا يسعد بالصحّة وحدها.

فقال الطبيب:

ـ لم أسمع بذٰلك من قبل...

ـ وربّما استنفدت إجـازاتي في الرقـاد فأحـال إلى المعاش!

ـ كلّ شيء قسمة ونصيب!

وقال لنفسه بوجوم:

- لعلّهم وهبوني الترقية صدقةً وهم يعلمون أنّ الوظيفة باقية لهم!

ونادى راضية فقال لها:

- لا أريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك.

فسألته في حيرة:

- ماذا تعني؟

- تمريض مريض واجب ثقيل...

فوضعت أصبعها على شفتيه محتجّة فنحّاه بلطف وقال:

- سأنتقل إلى قسم الطبيب المعالج بالمستشفى.

واحتجّت راضية ولكنّه أصرّ. وعرض فكرته على الطبيب فوافق عليها ونقل إلى حجرة خاصّة. ومهما يكن من شأن الزيارات فقد عاد إلى وحدته كالزمن الأوّل.

ومضت الأيّام في مسارها الأبديّ، وكاد أن ينقطع ما بينه وبين العالم الخارجيّ، وكفّت قدريّة عن زيارته بسبب التدهور والمرض، واستسلم لقدره فلم يعد يبالي بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون. وتحمّل الساعات التي تقضيها راضية إلى جانبه بضيق شديد ولكنّه احتفظ بأحزانه لنفسه، وآمن في الوقت نفسه بعدالتها. وظلّ على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدّسة، بالحياة الشاقّة المقدّسة، بالجهاد والعذاب، بالأمل البعيد المتعالي. وقال إنّ العجز أحيانًا عن بلوغه لا يزعزع الثقة به، ولا المرض ولا الموت نفسه، ما دام أنّ الإصرار على المضيّ نحوه هو المسئول عن وجود النبل والمعنى في الحياة.

وكره كلمات التشجيع الجوفاء، وسلّم بأنّ تقلّده للوظيفة الجديدة حلم، كما سلّم بأنّ نهوضه لإنجاب ذرّيّة حلم آخر، ومع ذلك فمَن يعلم؟!

وما يحزّ في نفسه أنّ كلّ شيء يمضي في سبيله دون مبالاة به.

التعيين والترقّي والإحالة إلى المعاش، الحبّ والزواج وحتّى الطلاق، صراعات السياسة وشعاراتها المحمومة، تعاقب الليل والنهار...

وها هي نداءات الباعة تنذر باقتراب الشتاء.

ولعلّه من محاسن الصدف أنّ القبر الجديد قد حاز رضاه تحت ضوء الشمس.

ملحمة الحرافيش

عاشور الناجي

الحكاية الأولى من ملحمة الحرافيش

- ١ -

في ظلمة الفجر العاشقة، في الممرّ العابر بين الموت والحياة، على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة متجسّدة للمعاناة والمسرّات الموعودة لحارتنا.

- ٢ -

مضى يتلمّس طريقه بطرف عصاه الغليظة، مرشدته في ظلامه الأبديّ. مولاي يعرف مواقعه بالرائحة وحساب الخطوات ودرجة وضوح الأناشيد والإلهام الباطنيّ. بين مسكنه عند مشارف القرافة وبين الحارة يخوض أشقّ مرحلة في طريقه إلى الحسين وأعذبها. على غير المعهود تناهى إلى أذنيه الحادّتين بكاء وليد. لعلّه دويّ أكبر من حجمه في ساعة الفجر. الحقّ قد جذبه من سكرة الرؤى ونشوة الأناشيد. في هٰذه الساعة تهيم أمّهات بأطفالهنّ!. ها هو الصوت يشتدّ ويقترب وعمّا قليل سيحاذيه تمامًا. وتنحنح كيلا يقع ارتطام في مشهد الفجر. وتساءل متى يكفّ الطفل عن البكاء ليرتاح قلبه ويعاود خشوعه. الآن صار البكاء ينخس جنبه الأيسر. تباعد يمنة حتّى مسّ كتفه سور التكيّة، وتوقّف قائلًا:

- يا حرمة... أرضعي الطفل!

ولكن لم يجبه أحد وتواصل البكاء، فهتف:

- يا حرمة... يا أهل الله!

فلم يسمع إلّا البكاء. ساور الشكّ قلبه فولّت البراءة المغسولة بماء الفجر، واتّجه نحو الصوت بحذر شديد جاعلًا عصاه لصق جنبه. انحنى قليلًا فوق الصوت، مدّ راحته برحمة حتّى مسّ سبّابته لفافة. هو ما توقّعه القلب. جال بأصابعه في طيّاتها حتّى لامس وجهًا طريًّا متشنّجًا بالبكاء. هتف متأثّرًا:

- تدفن القلوب في ظلمة الإثم...

وصاح بغضب:

- لعنة الله على الظالمين...

وتفكّر قليلًا ولٰكنّه قرّر ألّا يهمله ولو فاتته صلاة الفجر في الحسين. النسمة باردة في هٰذه اللحظة من الصيف، والزواحف شتّى، والله يمتحن عبده بما لا يجري له في حسبان. وحمله برفق، ثمّ عزم على الرجوع إلى مسكنه ليشاور زوجته في الأمر. وترامت إليه أصوات آدميّين لعلّهم ذاهبون إلى صلاة الفجر فسعل منبّهًا فجاءه صوت يقول:

- سلام الله على المؤمنين!

فأجاب بهدوء:

- سلام الله عليكم...

وعرف المتكلّم صوته فقال:

- الشيخ عفرة زيدان؟ ... ماذا أخّرك؟

- إنّي راجع إلى البيت ولله الأمر من قبل ومن بعد.

- سلامتك يا شيخ عفرة!

فقال بعد تردّد:

- عثرت على وليد تحت السور العتيق...

وانداحت همهمة بين الرجال حتّى قال أحدهم:

- اللعنة على الآثمين...

وقال ثانٍ:

- اذهب به إلى القسم!

وسأله ثالث:

- ماذا أنت فاعل به؟

فقال بهدوء لا يناسب المقام:

- سوف يهديني الله إلى مشيئته...

- ٣ -

انزعجت سكينة لدى رؤيتها زوجها الشيخ على ضوء المصباح المرفوع بيسراها، وتساءلت:

- ماذا أرجعك كفى الله الشرّ...؟

وسرعان ما رأت الوليد فهتفت:

- ما هٰذا يا شيخ عفرة؟

- عثرت عليه في الممرّ...

- يا رحمة الله!

تناولت الوليد برقّة، جلس الشيخ على كنبة بين البئر المغطّاة والفرن وهو يغمغم:

- لا إله إلّا الله!

راحت سكينة تهدهد الطفل ثمّ قالت بحنان:

- إنّه ذَكَر يا شيخ عفرة!

فحرّك رأسه صامتًا فقالت باهتمام:

- يلزمه غذاء...

- وما درايتك بذٰلك وأنت لم تنجبي ذكرًا ولا أنثى!!

- أعرف أشياء، ومن يسترشد يجد من يرشده، ماذا أنت فاعل به؟

- نصحوني بأن أذهب به إلى القسم.

- هل يرضعونه في القسم؟... لننتظر حتّى يظهر من يبحث عنه.

- لن يبحث عنه أحد...

وتجلّى صمت مفعمًا بالانفعالات حتّى تمتم الشيخ عفرة زيدان:

- أليس من الخطإ أن نبقيه أكثر ممّا ينبغي؟

فقالت بحماس وحرارة:

- الخطأ خطأ من ضيّعه...

ثمّ قالت وهي تتلقّى إلهامًا بالرضى:

- لم يبقَ لي أمل في الإنجاب!

فحسر العمامة عن جبهته البارزة مثل قبضة الجندرة وتساءل:

- فيمَ تفكّرين يا سكينة؟

فقالت ثملة بإلهامها:

- يا سيّدنا الشيخ، وهبني الله رزقًا فكيف أرفضه؟

مسح بمنديله عينيه المطبقتين ولم ينبس فقالت بظفر:

- أنت نفسك تريد ذٰلك...

فتجاهلها يقول متشكّيًا:

- فاتتني صلاة الفجر في الحسين.

فقالت بثغر باسم وعيناها لا تفارقان الوجه المحتقن:

- الضوء شقشق والله غفور رحيم...

وقام الشيخ عفرة زيدان ليصلّي على حين هبط من السلّم درويش زيدان مثقل الجفون من أثر النوم وهو يقول:

- جوعان يا امرأة أخي...

ورأى الوليد فذهل كما ينبغي لغلام في العاشرة من عمره وتساءل:

- ما هٰذا؟

فأجابته سكينة:

- رزق من الله العليّ القدير.

فرنا إليه مليًّا ثمّ تساءل:

- ما اسمه؟

فتردّدت المرأة ثمّ غمغمت:

- ليكن اسم أبي اسمًا له، عاشور عبدالله، وليشمله الله ببركته ورضوانه...

وارتفع صوت الشيخ عفرة بالتلاوة.

- ٤ -

وتتابعت الأيّام على أنغام الأناشيد البهيجة الغامضة، وذات يوم قال الشيخ عفرة زيدان لشقيقه درويش:

- بلغت العشرين من عمرك فمتى تتزوّج؟

فأجاب الفتى بفتور:

ـ عندما يشاء الله...

ـ إنّك حمّال قويّ والحمّال ذو رزق موفور.

ـ عندما يشاء الله...

ـ ألا تخشى على نفسك من الفتنة؟

ـ الله يحفظ المؤمنين.

فحرّك المقرئ الضرير وجهه يمنة ويسرة وقال بأسف:

ـ لم تنتفع بالكتّاب ولم تحفظ من كتاب الله سورة واحدة!

فقال بامتعاض:

ـ العمل هو ما يحاسب عليه وإنّي أحصل على رزقي بعرق الجبين...

فتفكّر الشيخ مليًّا وقال:

ـ في وجهك ندوب فما شأنها؟

فأدرك درويش أنّ امرأة أخيه قد وشت به فرمقها مقطّبًا وهي عاكفة على إشعال الفرن بمساعدة عاشور فقالت باسمة:

ـ أتتوقّع منّي يا درويش أن أخفي عن أخيك ما يضرّك؟

وسأله الشيخ عفرة معاتبًا:

ـ أتقلّد أهل العنف والشرّ؟

ـ أحيانًا يتحرّش بي أهل الشرّ فأدافع عن نفسي...

ـ يا درويش، لقد نشأت في بيتٍ خدمة القرآن شرفه وعزّته. ألا ترى إلى سلوك أخيك الطيّب عاشور؟

فقال بحدّة:

ـ ليس عاشور بأخي!

لاذ الشيخ بالصمت مستاءً.

وكان عاشور يتابع الحديث باهتمام فصُدم صدمة متوقّعة على أيّ حال. إنّه يفعل ما بوسعه ولا يدّعي أكثر ممّا له. يقوم بتنظيف البيت، وشراء الحوائج من السوق، ويمضي كلّ فجر بوليّ نعمته إلى الحسين، ويملأ الدلو من البئر، ويشعل الفرن، وعند الأصيل يجلس عند قدمي الشيخ فيحفظه ما يتيسّر من القرآن ويلقّنه آداب السلوك والحياة. الحقّ أنّ الشيخ أحبّه ورضي عنه، وكانت سكينة ترمقه بإعجاب وتقول:

ـ سيكون فتًى طيّبًا وقويًّا.

فيقول الشيخ عفرة زيدان:

ـ لتكن قوّته في خدمة الناس لا الشيطان.

ـ ٥ ـ

جادت السماء ببركاتها على عاشور فسعد به قلب الشيخ عفرة زيدان عامًا في أثر عام بقدر ما سخط على درويش شقيقه وربيبه. لِمَ يا ربّي وقد نشآ في حظيرة واحدة؟. ولكنّ درويش نأى عن ظلّ الشيخ سعيًا وراء الرزق بعد أن رفض التعلّم قلبه. انطلق إلى العالم غلامًا طريًّا فتربّى في أحضان المرارة والعنف قبل أن يستقيم عوده، قبل أن تتشرّب روحه بالصلابة والنقاء. أمّا عاشور فتفتّح قلبه أوّل ما تفتّح للبهجة والنور والأناشيد، ونما نموًّا هائلًا مثل بوّابة التكيّة، طوله فارع، عرضه منبسط، ساعده حجر من أحجار السور العتيق، ساقه جذع شجرة توت، رأسه ضخم نبيل، قسماته وافية التقطيع غليظة مترعة بماء الحياة. تبدّت قوّته في تفانيه في العمل، وتحمّله لمشاقّه، ومواصلته بلا ملل أو كلل، وفي تمام من الرضى والتوثّب. وأكثر من مرّة قال له الشيخ:

ـ لتكن قوّتك في خدمة الناس لا في خدمة الشيطان!

وذات يوم أعلن الشيخ عن رغبته في أن يجعل منه مقرئًا للقرآن مثله، فضحك درويش ساخرًا وقال معلّقًا على رغبة شقيقه:

ـ ألا ترى أنّ هيكله الضخم جدير بأن يلقي الرعب في قلوب المستمعين؟!

ولم يحفل الشيخ بتعليق درويش ولكنّه اضطرّ إلى العدول عن رغبته عندما وضح له أنّ حنجرة عاشور لا تسعفه بحال، وأنّها عاجزة عن تطويع النغم، لا حظّ لها من الحلاوة والمرونة وكأنّها بخشونتها ترنّ في جوف قبو، فضلًا عن قصوره عن حفظ السور الطويلة.

وقنع عاشور بعمله كما قنع بحياته، وظنّ أنّه

سيبقى بالفردوس حتّى آخر الأجل. وصدق ما قيل له من أنّ الشيخ تكفّل به بعد وفاة والدين طيّبين مقطوعين من شجرة، وحمد الله الذي قدّر ولطف، فرعاه برحمة لا يستظلّ بمثلها مأوى آخر في الحارة. وفي ذات الوقت رأى الشيخ عفرة أنّه استأثر به مدّة كفت لتعليمه وتهذيبه وأنّه آنّ له أن يرسله لتلقّن حرفة من الحرف. غير أنّ حتم الأجل كان أسرع فمرض الشيخ بحمّى لم تنفع في علاجها الوصفات الشعبيّة، فانتقل إلى جوار ربّه ووجدت سكينة نفسها بلا مورد أو قدرة على العمل فرحلت إلى قريتها بالقليوبيّة. كان الوداع بينه وبين سكينة مؤثّرًا ودامعًا. قبّلته ورقته ومضت، وسرعان ما شعر بأنّه وحيد، في دنيا بلا ناس، اللّهمّ إلّا سيّده العنيد درويش زيدان.

وأسبل جفنيه الغليظين متفكّرًا، شعر بأنّ الخلاء يلتهم الأشياء، وأنّه يودّ أن يتسلّق شعاع الشمس، أو يذوب في قطرة الندى، أو يمتطي الريح المزمجرة في القبو، ولكنّ صوتًا صاعدًا من صميم قلبه قال له إنّه عندما يحلّ الخلاء بالأرض فإنّها تمتلئ بدفقات الرحمٰن ذي الجلال.

- ٦ -

تفحّصه درويش وهو مقرفص على كثب من الفرن منكسر القلب. يا له من عملاق، له فكّا حيوان مفترس، وشارب مثل قرن الكبش. قوّة بلا حيلة ولا عمل ولا رزق. من حسن الحظّ أنّه لم يتعلّم حرفة، ولكنّه لا يمكن الاستهانة به، ترى لِمَ لا يحبّه؟ تُذكّره صورته المغروسة في الأرض بصخرة مدبّبة تعترض الطريق، بهبّة من هبّات الخماسين المثقلة بالغبار، بقبر يتجلّى في الأعياد متحدّيًا، يجب الانتفاع به عليه اللعنة!

سأله دون أن ينظر نحوه:

- كيف ستحصل على لقمتك؟

ففتح عينيه العميقتين العسليّتين وقال باستسلام:

- في خدمتك يا معلّم درويش...

فقال ببرود:

- لست في حاجة إلى خدمة أحد.

- عليّ أن أذهب.

ثمّ مستدركًا في رجاء:

- هلّا تركتني آوي إلى البيت الذي لا أعرف سواه؟

- إنّه بيت لا فندق.

تبدّت فوهة الفرن خامدة مظلمة، وندّت عن الرفّ خشخشة رِجْل فأر ترتطم بأعواد الثوم الجافّ.

وسعل درويش ثمّ سأله:

- أين تذهب؟

- دنيا الله واسعة...

فقال متهكّمًا:

- ولكنّك لا تعرف عنها شيئًا وهي أقسى ممّا تتصوّر...

- سأجد على أيّ حال عملًا أرتزق منه.

- جسمك أكبر عائق، لن يقبلك بيت، ولا معلّم حرفة، ثمّ إنّك تقترب من العشرين!

- لم أستغلّ قوّتي قطّ فيما يضرّ.

فضحك عاليًا وقال:

- لن تحوز ثقة أحد، الفتوّة يظنّك متحدّيًا، والتاجر يحسبك قاطع طريق...

ثمّ بهدوء وعمق:

- ستهلك جوعًا إذا لم تعتمد على قوّتك...

فقال بحرارة:

- أهبها عن رضى لخدمة الناس والله شهيد...

- لا فائدة من قوّتك إن لم تغسل مخّك من الغباء!

فمدّ إليه بصرًا حائرًا ثمّ قال:

- شغّلني حمّالًا معك...

فقال ساخرًا:

- لم أشتغل حمّالًا ساعة واحدة من حياتي.

- ولكن...

- دعك ممّا قلت، أكان بوسعي أن أقول غيره؟

- فما عملك يا سيّدي؟

- صبرك سوف أفتح لك باب الرزق، لك أن تدخل ولك أن تذهب...

ترامى من القرافة صوات يمشي بتشييع جنازة فقال درويش:

ـ كلّ مَن عليها فانٍ.

فقال عاشور وقد نفذ صبره:

ـ إنّي جوعان يا معلّم درويش!

فمدّ له يده بنكلة وهو يقول:

ـ إليك آخر هبة منّي!

غادر عاشور البيت والمغيب يهبط على القبور والخلاء. أمسية من أماسيّ الصيف وثمّة نسمة رقيقة تتهادى حاملة أخلاط التراب والريحان. مضى في الممرّ حتّى بلغ ساحة التكيّة. بدا لعينيه القبو مظلمًا، وترامت أشباح أشجار التوت من فوق الأسوار. تصاعدت الأناشيد بغموضها فصمّم على طرح الهمّ جانبًا وقال لنفسه:

ـ لا تحزن يا عاشور فلك في الدنيا إخوة ليس لعدّهم حصر...

ومضى تلاحقه الأناشيد:

أيّ فروغ ماه حسن   از روى رخشان شما

ابروى خوبى ازجاه   رنخسدان شما

ـ ٧ ـ

امتلأ عاشور بأنفاس الليل. انسابت إلى قلبه نظرات النجوم المتألّقة. هفت روحه إلى سماء الصيف الصافية. قال ما أجدرها ليلة بالعبادة! كي يجثو فوق الأعتاب. كي يناجي رغبات نفسه الكظيمة. كي ينادي الأحبّة وراء سياج المجهول.

وثمّة شبح يقف منه على بعد شبرين يعكّر عليه صفوه ويشدّه إلى عالم القلق، فرفع صوته الأجشّ متسائلًا:

ـ ماذا تنتظر يا معلّم درويش؟

فلكزه درويش في صدره وهمس بحنق:

ـ أخفض صوتك يا بغل!

كانا يلبدان وراء تعريشة عند طرف القرافة بمشارف الصحراء. الجبل في أقصى اليمين والقبور إلى اليسار. لا نأمة، لا عابر سبيل، حتّى أرواح الموتى مستكنّة في مقرّ مجهول، في تلك الساعة من الليل. والخواطر تتجسّد في الظلمة كالنذر ويخفق القلب الطيّب في غير ما ارتياح. همس عاشور:

ـ نوّرني نوّر الله قلبك...

فنهره هامسًا:

ـ انتظر، أليس عندك صبر؟

ثمّ وهو يميل نحوه:

ـ لا أطالبك بعمل، سأقوم بكلّ شيء، عليك أن تحمي ظهري إذا اقتضى الأمر حماية...

ـ ولكنّي لا أدري عمّا تنوي شيئًا...

ـ اسكت، سيكون لك الخيار...

وتمخّض جانب الصحراء عن نأمة. وحمل الهواء عطر حيّ وارتفع صوت موسوم بالشيخوخة يقول:

ـ توكّلي على الله...

وعند القرب وضح أنّ العجوز يمتطي حمارًا. وعندما حاذاهما تمامًا وثب عليه درويش. ذهل عاشور وتحقّقت مخاوفه. لم ير شيئًا بوضوح ولكنّه سمع صوت درويش وهو يقول متوعّدًا:

ـ هات الصرّة وإلّا...

فتردّد صوت مرتعشًا بالكبر والذعر:

ـ الرحمة... خفّف قبضتك...

اندفع عاشور إلى الأمام بلا وعي وهتف:

ـ دعه يا معلّمي!

صرخ به درويش:

ـ اخرس...

ـ قلت لك دعه...

وطوّقه بذراعيه وحمله بلا جهد، فضربه الآخر بكوعه قائلًا:

ـ الويل لك...

لم يتحرّك في درويش بعد ذلك إلّا لسانه، أمّا عاشور فخاطب العجوز قائلًا:

ـ اذهب بسلام!

حتّى إذا اطمأنّ إلى نجاة الرجل أطلق درويش وهو يقول معتذرًا:

ـ اغفر لي خشونتي...

فصاح به:

ـ أيّها اللقيط الجاحد!

ـ لقد أنقذتك من شرّ نفسك...

ـ أيّها البغل الخسيس المخلوق للتسوّل...

ـ فليسامحك الله. . .

ـ أيّها اللقيط القذر. . .

فصمت عاشور محزونًا فعاد الآخر يقول:

ـ لقيط، ألا تفهم؟ . . . هٰذه هي الحقيقة.

ـ لا تستسلم للغضب، لقد قال الشيخ المرحوم كلمته. . . فقال بحقد:

ـ الحقيقة هي ما أقول، لقد وجدك في الممرّ مهجورًا من أمّ فاسقة!

ـ رحم الله الطيّبين. . .

ـ بشرفي ورحمة أخي أنّك لقيط ابن حرام. . . لماذا يتخلّصون من وليد بليل؟!

فاستاء عاشور وصمت فراح درويش يقول:

ـ ضيّعت جهدي، أغلقت باب الرزق في وجهك، إنّك قويّ ولكنّك جبان، وهاك الدليل.

وهوى بكفّه على وجهه بجامع قوّته فبوغت عاشور بأوّل لطمة يتلقّاها في حياته، وصاح درويش بجنون:

ـ أيّها الجبان الرعديد!

عصف الغضب بعاشور. اجتاحت عاصفته جدران معبد الليل. وجّه من راحته الكبيرة ضربة إلى رأس معلّمه هوى على أثرها فاقد الوعي. لبث يصارع غضبته حتّى تراخت للسكون. أدرك خطورة ما أقدم عليه. غمغم:

ـ غفرانك يا شيخ عفرة.

انحنى فوق الرجل لحمله بين يديه. مضى به يشقّ سبيله بين القبور حتّى دخل به البيت. أنامه على الكنبة. أشعل المصباح. مضى ينظر إليه في قلق وإشفاق. تتابعت دقائق ثقيلة حتّى فتح عينيه وحرّك رأسه. .

تطاير من عيني درويش شرر ينمّ على التذكّر. ترامقا مليًّا في صمت. خيّل إلى عاشور أنّ عفرة وسكينة حاضران، ينظران في وجوم. . .

غادر عاشور البيت مغمغمًا:

ـ توكّلت على خالق السماوات والأرض. . .

ـ ٨ ـ

هام عاشور على وجهه. مأواه الأرض. هي الأمّ والأب لمن لا أمّ ولا أب له. يلتقط الرزق حيثما اتّفق. في الليالي الدافئة ينام تحت سور التكيّة. في الليالي الباردة ينام تحت القبو. ما قاله درويش عن أصله قد صدّقه. طاردته الحقيقة المرّة وأحدقت به. لقد عرف من حقائق الدنيا على يد درويش في ليالٍ ما لم يعرفه طيلة عشرين عامًا في كنف الشيخ الطيّب عفرة زيدان. الأشرار معلّمون قساة وصادقون. خطيئة أوجدته، توارى الخطأة، ها هو يواجه الدنيا وحده، ولعلّه يعيش الآن ذكرى محرقة في قلب مؤرّق.

ومن شدّة حزنه استمع إلى أناشيد التكيّة بحبّ. معانيها المترنّمة تختفي وراء ألفاظها الأعجميّة كما يختفي أبواه وراء وجوه الغرباء. وربّما عثر ذات يوم على امرأة أو رجل أو معنى. وربّما فكّ ذات يوم رمزًا أو أرسل دمعة رضى أو تجسّدت إحدى رغائبه في مخلوق حنون. ويتأمّل الحديقة بأشجارها الرشيقة الحانية، ووجهها المعشوشب، وعصافيرها المعشّشة الشادية، ويتأمّل الدراويش بعباءاتهم الفضفاضة وقاووقاتهم الطويلة وخطواتهم الخفيفة.

وساءل نفسه مرّة:

ـ لماذا يقومون بالخدمة كالفقراء؟ لماذا يقومون بالكنس والرشّ والسقي، أليسوا في حاجة إلى خادم أمين؟!

البوّابة تناديه، تهمس في قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فُزْ بالنعيم والهدوء والطرب، تحوّل إلى ثمرة توت، امتلئ بالرحيق العذب، انفث الحرير، وسوف تقطفك أيد طاهرة في فرح وحبور.

وملكه الهمس الناعم فمضى إلى الباب المغلق وهتف بخشوع وأدب:

ـ يا أهل الله. . .

وكرّر النداء مرّات.

إنّهم يتوارون. لا يردّون. حتّى العصافير ترمقه بحذر. يجهلون لغته ويجهل لغتهم. الجدول كفّ عن الجريان. الأعشاب توقّفت عن الرقص. لا شيء في حاجة إلى خدماته.

فتر حماسه. انطفأ إلهامه. جلّله الحياء. عاتب نفسه. عنّف عشقه. شدّ على إرادته. قبض على شاربه الشامخ. قال لنفسه:

- لا تجعل من نفسك حديث كلّ مَن هبّ ودبّ...

وتراجع وهو يقول:

- انصرف عن الذين يرفضون يدك لأنّهم في غير حاجة إليها، وابحث عمّن هم في حاجة إلى خدماتك...

ذهب وجاء وراء اللقمة. يجد زفافًا فيتطوّع للخدمة أو يصادف مأتمًا فيتطوّع أيضًا. يتقدّم لمن يريد حمّالًا أو رسولًا. يرضى بالملّيم أو بالرغيف أو حتّى بكلمة طيّبة.

وصادفه رجل ربعة قبيح الوجه كأنّ أصله فأر، فناداه قائلًا:

- يا ولد!

فذهب إليه عاشور بأدب واستعداد للخدمة فسأله:

- ألا تعرفني؟

فأجابه مرتبكًا:

- اعذر غريبًا جهلك.

- ولٰكنّك من أبناء حارتنا؟

- ما عشت فيها إلّا منذ قريب.

- كليب السماني من رجال فتوّتنا قنصوه.

- تشرّفنا يا معلّم...

وتفحّصه مليًّا ثمّ سأله:

- تنضمّ إلينا؟

فقال عاشور بلا تردّد:

- لا قلب لي على ذٰلك...

فضحك كليب ساخرًا ومضى وهو يقول:

- جسم ثور وقلب عصفورة!

وكان يرى حمير المعلّم زين الناطوري وهي ترابط في الحظيرة عقب يوم طويل في قضاء المشاوير. يتطوّع بتنظيفها وتقديم العلف لها وكنس الفناء ورشّه على مرأى من المعلّم ثمّ يذهب دون أن يسأله شيئًا.

وذات يوم ناداه المعلّم زين وسأله:

- أنت صبيّ المرحوم الشيخ عفرة زيدان؟

فأجاب بخشوع:

- نعم، رحمه الله رحمة واسعة...

- بلغني أنّك رفضت الانضمام لرجال الفتوّة قنصوه؟

- لا مأرب لي في ذٰلك...

فابتسم المعلّم وعرض عليه أن يعمل عنده مكاريًا. ومن فوره قبل وقلبه من الفرحة يرقص.

ومضى بحماره متحمّسًا لعمله بكلّ قواه وحيويّته. وكلّما مضى يوم اطمأنّ المعلّم إلى سلوكه وأدبه وتقواه، وأثبت عاشور بدوره أنّه أهل للثقة.

وكان وهو يعمل في فناء البيت يتجنّب النظر إلى الناحية التي يحتمل أن يلمح فيها زوجة المعلّم. ولٰكنّه رأى ابنته زينب وهي ذاهبة إلى الطريق فخانه طرفه لحظات خاطفة ولٰكنّها جديرة بالندم. وتفشّى الندم أكثر عندما اجتاحته شعلة ألهبت الصدر والجهاز الهضميّ واستقرّت في الجوهرة الحمراء المثيّة للرغبة الجامحة. غمغم وهو ثمل بنشوة دسمة نهمة:

- ليحفظنا الله!

ولأوّل مرّة يردّد اسم الله بطرف لسانه وفكره مشدود إلى غيره. وحضرته تجاربه الجنسيّة البدائيّة المحدودة في رجفة من الحيرة والقلق والغربة.

واقتنع المعلّم زين الناطوري بمزاياه كحارس أمين فسأله:

- أين تسكن يا عاشور؟

فأجاب ببساطة:

- سور التكيّة أو تحت القبو.

- يسرّك ولا شكّ أن تنام في الحظيرة؟

فأجاب بسرور:

- نعمة أشكرها لك يا معلّم...

- ٩ -

يستيقظ في الفجر. إنّه يألف ظلمته المشعشعة بالبسمات، ودبيب أهل التقوى والفجور، وأنفاس الكون النقيّة المسربلة بالأحلام. ينفض عن قلبه صورة زينب المتحدّية ويصلّي. يلتهم رغيفًا مع الزيتون المخلّل والبصل الأخضر. يربّت على ظهر حماره ثمّ

يسوقه أمامه نحو الميدان مستقبلًا يوم الرزق والعمل. يفيض بحيويّة متدفّقة، يمتلئ بثقة غير محدودة في قدرته وصبره وامتلاكه للمجهول. تكتنفه دوّامة تكاد تقتلعه من جذوره. دائمًا دائمًا تتقدّمه زينب فتغلبه بنداء غامض. وجهها مشوب بشحوب، أنفها بارز، شفتاها غليظتان، جسمها صغير ومدمج ولٰكنّها تستمدّ تأثيرها عليه من مصدر مسحور. دائمًا تشعل جذوة في أعماقه، وأحيانًا لا يرى الحمار وراكبه.

وفي أويقات الراحة يقف أمام البيت يتابع تيّار السابلة. ما أكثر العاملين في الدكاكين أو وراء عربات اليد والسلال والمقاطف، وما أكثر المتشرّدين من الحرافيش بلا عمل. مَن أبوه بين هٰؤلاء الرجال؟ مَن أمّه بين هٰؤلاء النسوة؟ رحلا عن الدنيا أم يبقيان؟ هل يعرفانه أم يجهلان؟ مَن الذي أورثه هٰذا الكائن الهائل المفعم بمعروف الشيخ عفرة زيدان؟ ويطرد عن رأسه الأفكار العقيمة المضنية فتبادر إليه زينب زين الناطوري بندائها الغامض. وقال لنفسه:

ـ كلّ شيء يتحرّك فلا بدّ أن تحدث أمور.

وقال لنفسه أيضًا:

ـ ليكن الطيّب حليفي جزاء نيّتي البيضاء.

وترامى إليه صوت زين الناطوري وهو يحتدم غضبًا. رآه في الفناء مشتبكًا في معركة لفظيّة مع أحد العملاء. وبعنف صاح به:

ـ أنت لصّ لا أكثر ولا أقلّ!

فصاح العميل:

ـ احبس لسانك القذر!

وإذا بالمعلّم يصفعه فيمسك الرجل بتلابيبه. هرع عاشور إليهما وهو يهتف:

ـ وحّدوا الله!

رمى نفسه بينهما فركله العميل وهو يسبّه. ضمّه عاشور إلى صدره بقوّة حتّى صرخ. تركه يفلت وهو يقول له:

ـ اذهب بسلام فهو خير لك.

سرعان ما خلا منه الفناء. وتكاكأت النساء في النافذة وصاحت الأمّ:

ـ لم يبق إلّا أن يعتدي علينا في بيتنا!

ورمق زين الناطوري عاشور بامتنان وقال مداريًا حياءه:

ـ الله يفتح عليك.

ومضى المعلّم إلى الداخل. ولم يبق في النافذة إلّا زينب.

عاد عاشور عند موقفه عند الباب وهو يقول لنفسه:

ـ لم يبق إلّا أن نتبادل النظرات!

واستند إلى الجدار فلمح قطّة تتوثّب لتخويف كلب أسود يتنحّى تجنّبًا للمعركة. وقال لنفسه:

ـ حذار يا عاشور، هٰذه وصيّة والديك!

واستسلم لأنامل الأحلام الناعمة حتّى حرقته أشعّة الصيف.

ـ ١٠ ـ

قالت عدلات لزوجها زين الناطوري:

ـ إنّك تؤكّد أنّه أهل للثقة؟

ـ أجل، صار لي به ابن...

فقالت بنفاد صبر:

ـ عظيم، زوّجه لزينب...

فقطّب زين الناطوري متفكّرًا ثمّ قال:

ـ آمل فيمن هو خير منه!

ـ طال الانتظار، وكلّما جاء عريس لإحدى أخواتها رفضته إكرامًا لسنّها.

فقال باستياء:

ـ لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذٰلك...

ـ أصبحت عقبة في سبيل بناتي، وهي في الخامسة والعشرين ولا جمال لها، وطباعها تسوء يومًا بعد يوم.

فكرّر عابسًا:

ـ لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذٰلك!

ـ ألا يكفي أنّك تثق به؟... وأنت في حاجة إلى من تثق به في كبرك.

ـ وزينب؟

ـ ستفرح، أنقذها من يأسها...

- ١١ -

سمع عاشور المعلّم زين يناديه من المنظرة. ولّما ذهب إليه أفسح له مكانًا إلى جانبه على الأريكة الخشبيّة المفروشة بفروة خروف. تردّد عاشور ثمّ جلس. عند ذاك سأله المعلّم برقّة:

- ألا تفكّر يا عاشور في ضمان نصف دينك؟

- ١٢ -

الفرحة والنور. عندما يصير الحلم نعمة تشدو في الأذن والقلب. عندما تشرق وجوه العباد بضياء السماح، وحتّى الحشرات تمسك عن ارتكاب الأذى.

ذهب عاشور إلى حمّام السلطان فأزال الشعر والعرق، مشط شعره وهذّب شاربه، تطيّب بالجلّاب، ونظّف أسنانه بالسواك، رفل في جلباب أبيض ومركوب فُصّل خاصّة لقدميه الضخمتين.

احتفل بزفاف مناسب في بيت الناطوري، ثمّ أقام العروسان في بدروم مكوّن من حجرة ودهليز يقع أمام بيت الناطوري. واندلق عاشور في الحبّ حتّى قمّة رأسه، وكان بعض أهل الفجور عقب انطلاقهم من الغرز في النصف الثاني من الليل يقرفصون في الظلام لصق شبّاك البدروم يتنصّتون ويحلمون.

وأنجب مع الأيّام حسب الله ورزق الله وهبة الله، وفي أثناء ذلك توفّي المعلّم زين وزوجه وتزوّجت البنات.

تمتّع عاشور بحياة زوجيّة سعيدة. ظلّ يعمل مكاريًا وأصبح مالكًا للحمار الذي وهبه إيّاه الناطوري ليلة زفافه. وعملت زينب من ناحيتها بتربية الدجاج وبيع البيض فتيسّرت المعيشة وفاح الدهليز برائحة التقلية.

وتقدّم الأولاد صوب الشباب فعملوا في مختلف الحرف. عمل حسب الله صبيّ نجّار، ورزق الله مبيّض نحاس، وهبة الله صبيّ كوّاء بلدي. ولم يرزق أحدهم عملقة أبيه ولكنّهم كانوا أشدّاء لدرجة تستوجب الاحترام في الحارة.

ورغم ما عرف به عاشور من دماثة الخلق فإنّ واحدًا من رجال قنصوه الفتوّة لم يتحرّش به. ولم تكن زينب تماثله في دماثته. كانت عصبيّة، سيّئة الظنّ، طويلة اللسان ولكنّها كانت مثالًا طيّبًا للجدّ والاجتهاد والوفاء.

وكانت تكبره بخمس سنوات، وبقدر ما حافظ هو على حيويّته وشبابه سارع إليها التغيّر والنضوب قبل الأوان. على ذلك لم تزغ له عين ولم يزهد في حبّها.

وبمرور الزمن ابتاع بنقوده ونقود زينب كارو فترقّى من مكارٍ إلى سوّاق. وقالت له زينب بنبرة وعيد:

- كان زبائنك من الرجال، ومن الساعة لن تحمل إلّا النساء!

فضحك متسائلًا:

- وهل يقصدني إلّا زائرات الأضرحة والقبور؟!

فهتفت به:

- بيني وبينك ربّنا!

وأحزنه أنّه مضى ينسى ما حفظه من القرآن فلم تبق له إلّا السور الصغيرة التي يتلوها في الصلوات، ولكنّ حبّه الخير لم يفتر قطّ. وتعلّم أنّ درويش زيدان ليس الشرّير الوحيد في الحياة. تعلّم أنّ الحياة حافلة بالمكر والعنف ورذائل لا حصر لها. ولكنّه واظب على الاستقامة ما وسعه ذلك، وكان يحاكم نفسه محاكمة قاسية كلّما تورّط في خطإ. ولم ينس أنّه استولى على جميع مدّخرات زينب وبعض أجور أبنائه لكي يبتاع كارو، وأنّه في سبيل ذلك قسا عليهم بعض الشيء وغضب غضبات كاسرة!

وكان يشاهد ما يصيب بعض جيرانه من عنت الفتوّة ورجاله فيكظم غيظه ويطيّب خاطر المظلومين بكلمات لا تغني ويدعو للجميع بالهداية، حتّى قال له جار ذات يوم:

- إنّك لقويّ يا عاشور ولكن ماذا أفدنا من قوّتك؟!

علامَ يلومه الرجل؟ علامَ يحرّضه؟ أليس حسبه أنّه رفض الانضمام إلى الطغاة؟ أليس حسبه أنّه لا يستغلّ قوّته إلّا فيما ينفع الناس؟

رغم ذلك هفت في ضميره الوساوس كما يهفو الذباب في يوم قائظ وقال إنّ الناس لا يرونه بالعين التي يرى بها نفسه، وتساءل في حزن:

- أين صفاء البال أين؟!

- ١٣ -

كان يتربّع في الساحة أمام التكيّة مودّعًا الغروب، مستقبلًا المساء، ينتظر انسياب الأناشيد ونسمة من نسائم الخريف معطّرة بالبرد والأسى تتزلق من فوق السور العتيق تشدّ بذيلها طيفًا من أطياف الخيل. بدا عاشور متخمًا بالسكينة ولم تشب له شعرة واحدة. كان يحمل فوق كاهله أربعين عامًا وكأنّها هي التي تحمله في رشاقة الخالدين.

همسة في باطنه جعلته يحوّل عينيه نحو ممرّ القرافة فرأى رجلًا يخرج منه يسير في تكاسل. لم يستطع أن يستردّ عينيه، عرفه في بقيّة ضوء المغيب، دقّ قلبه، وخمد سروره. أقبل الرجل نحوه حتّى وقف أمامه حاجبًا عنه التكيّة ومضى ينظر إليه باسمًا.

تمتم عاشور:

- درويش زيدان!

قال درويش معاتبًا:

- هلّا بدأت بالتحيّة؟ مساء الخير يا عاشور!

فنهض باسطًا يده وهو يقول بنبرة محايدة:

- أهلًا بك يا درويش...

- لم أتغيّر كثيرًا فيما أظنّ...

مؤسف هٰذا الشبه بينه وبين المرحوم عفرة، ولكن غلظت قسماته وتحجّرت. قال:

- بلى...

فحدجه بنظرة ذات معنى وقال:

- رغم أنّ كلّ شيء يتغيّر!

فتجاهل عاشور ملاحظته متسائلًا:

- أين غبت طول ذاك العمر؟

فقال باستهانة ساخرة:

- في السجن!

ورغم أنّه لم يدهش فقد هتف:

- السجن!

- الجميع أشرار ولكنّي سيّئ الحظّ!

- الله غفور رحيم...

- عرفت أنّ أحوالك رائعة؟

- الستر لا أكثر من ذٰلك...

فقال باقتضاب:

- إنّي في حاجة إلى نقود.

تضايق عاشور، ولٰكنّه دسّ يده في صدره فاستخرج ريالًا، أعطاه له قائلًا:

- إنّه قليل ولٰكنّه كثير بالقياس إلى حالي...

تناوله بوجه مكفهرّ وقال بنبرة ذات مغزى:

- لنقرأ الفاتحة على روح أخي عفرة.

فقرأها ثمّ قال:

- لم أنقطع عن زيارة قبره...

فسأله بجرأة:

- هل أجد عندك مأوى حتّى أقف على قدميّ؟

فبادره قائلًا:

- لا مكان في حجرتي لغريب...

- غريب؟!

فقال بإصرار وجرأة:

- لولا ذكرى مولاي ما مددت لك يدي!

فقال بقحة:

- أعطني ريالًا آخر وسوف أسدّد ديني عند الميسرة.

فلم يضنّ عليه بالنقود وهو من الضيق في غاية.

ومضى درويش نحو القبو صامتًا على حين تهادى من التكيّة صوت عذب ينشد:

زكريه مردم جشم نشسته در خونست

- ١٤ -

رأى عاشور وهو ينطلق بالكارو جماعة تتجمهر في خرابة على كثب من مدخل الحارة. وعندما اقترب منهم وضح له أنّهم عمّال بناء يحدقون بأكوام من الصفائح والأخشاب وسعف النخل، ورأى بينهم درويش زيدان. انقبض صدره وقال إنّ الرجل يشيّد لنفسه مأوى. وصاح به درويش حين مرّ به:

- إنّي أبذل ما في وسعي لخدمتكم...

فقال له بجفاء:

- حسن أن يكون للإنسان بيت.

- بيت؟!

وضحك درويش ضحكة عالية ثمّ واصل:

- سيكون بيت مَن لا بيت له!

- ١٥ -

وقال حسب الله لأبيه عاشور:

- وضح الأمر، الرجل يبني بوظة!

فذهل عاشور متسائلًا:

- خمّارة؟!

فقال رزق الله:

- الجميع يقولون ذلك.

فهتف عاشور:

- ربّاه... لقد أسهمت نقودي في بنائها!

فقال هبة الله:

- إنّما الأعمال بالنيّات...

- والحكومة؟

- أخذ الرخصة ولا شكّ.

فقال عاشور محزونًا:

- حارتنا لم يشيّد بها سبيل للعطشى ولا زاوية للمصلّين بعد فكيف تقام بها بوظة؟!

وافتتح البوظة قنصوه الفتوّة ورجاله فزادت كآبة عاشور وتمتم:

- وأيضًا وجد الحماية!

- ١٦ -

ثمّة ضجّة وراء شبّاك البدروم. ما هذا؟ ألا تكفّ هذه الحارة عن الشجار؟ عاشور فوق الكنبة الوحيدة بالحجرة يحتسي قهوته، والمصباح لم يشعل بعد. ضلفة الشبّاك ترتعش بهبّة من أنفاس الشتاء الباردة، وزينب عاكفة على كيّ ملابس بالجندرة. رفعت زينب رأسها وقالت بانزعاج:

- هذا صوت رزق الله!

- الأولاد يتشاجرون؟!

وهرعت زينب إلى الخارج وسرعان ما جاءه صوتها وهي تصيح:

- يا مجانين احتشموا...

وثب عاشور ناهضًا. في لحظة كان يقف وسط أبنائه. صمتوا ولكنّ الغضب لم يتلاش من وجوههم. هتف:

- ما شاء الله!...

لاحت منه نظرة إلى الأرض فرأى مخطّط سيجة مبعثرة فوق حصوات اللعب فتساءل بحدّة:

- تلعبون أم تقامرون؟

لم يجبه أحد. اشتعل غضبًا. تساءل:

- متى تصيرون رجالًا؟

وجذب إليه حسب الله قائلًا:

- أنت الأكبر، أليس كذلك؟

وفغمته رائحة غريبة تتناثر من فيه فجزع. جذب الآخرين وتشمّم أنفاسهم. آه... فلتخفس الأرض بمن عليها!

- سكارى؟!... يا كلاب...

وراح يعصر آذانهم وعضلات وجهه تموج بسحب حمراء. وتجمّع غلمان يتفرّجون فهتف حسب الله متوسّلًا:

- فلندخل البيت.

فصاح بصوته الأجشّ:

- تخجلون من الناس ولا تخجلون من الله...

وشدّته زينب من ذراعه وهي تقول:

- لا تجعلنا جرسة بين الأوباش...

فاستسلم ليدها وهو يقول:

- هم هم الأوباش!

فهمست بحدّة:

- ليسوا أطفالًا...

- لا خير فيهم ولا فيك...

- البوظة لا تفرغ من الناس!

فانحطّ على الكنبة وهو يتمتم:

- يا للخسارة... لا فائدة ترجى منك.

أشعلت المصباح ووضعته داخل الكوّة ثمّ قالت بنبرة لطيفة:

- إنّي أعمل أكثر منك، لولاي ما ملكت الكارو وما اشتعل لك كانون...

فقال بضجر:

- لم يبق منك إلّا لسان مثل السوط...

فهتفت بحدّة:

- ذبل الشباب في خدمتكم...

- لا بدّ من تأديبهم...

ـ ليسوا أطفالًا وسيذهبون. . .

إنّها تعلم أنّ الخصام سيتلاشى سريعًا، وأنّ الكلمات القارصة والهمسات العذبة تمتزج في قدح واحد. . .

وفكّر عاشور في أمر أولاده بقلق.

لم يفلح أحدهم في الكتّاب. لم يجد أحد منهم عناية من والديه لانشغالهما بعملهما المتواصل. لم يحظوا بما حظي هو به في كنف الشيخ عفرة. تشرّبوا بعنف الحارة وخرافاتها وغابت عنهم فضائلها. حتّى قوّته لم يرثها أحد منهم. لم يتعلّق أحدهم به أو بأمّه، حبّهم سطحيّ متقلّب، قلوبهم متمرّدة من قديم وإن لاذت بالصمت. لا موهبة ولا ميزة، سيظلّون صبيانًا ولن يترقّى أحد منهم إلى درجة معلّم أبدًا. وها هم يهرعون إلى البوظة عند أوّل إشارة، ولن يقفوا عند حدّ.

قال بحزن:

ـ لن يجيئنا منهم إلّا ما يكدّر القلب.

فقالت بتسليم:

ـ إنّهم رجال يا معلّم!

ـ ١٧ ـ

مرّة وهو مقبل بالكارو فيما أمام الخمّارة تصدّى له درويش قائلًا:

ـ مرحبًا. . .

لم يتجاهله هٰذه المرّة. رغم مقته له لم يتجاهله. شدّ اللجام فتوقّف الحمار عن السير، ووثب واقفًا أمام درويش وقال له بحزم:

ـ هٰذا العمل لا يليق بذكرى أخيك. . .

فابتسم درويش متهكّمًا وقال:

ـ أليس خيرًا من قطع الطريق؟

ـ إنّه سيّئ مثله.

ـ معذرة فإنّي أحبّ المغامرات. . .

ـ بحارتنا من الشرّ ما يكفي وزيادة. . .

ـ البوظة كما أنّها تضاعف من شرّ الشرّير فإنّها تضاعف من طيبة الطيّب، شرّف وجرّب. . .

ـ عليها اللعنة. . .

عند ذاك لمح داخل البوظة مخلوقًا يمرّ بسرعة من جانب إلى جانب فذهل متسائلًا:

ـ النساء أيضًا؟

ـ لعلّك رأيت فلّة؟

لم يكن رأى منها شيئًا ذا دلالة فسأله:

ـ هل يجيئك نساء أيضًا؟

ـ كلّا إنّها بنت يتيمة تبنّيتها. . .

ثمّ مواصلًا بلهجة ذات مغزى:

ـ أنت لا تتصوّر أنّي قادر على فعل الخير، ولٰكن أليس تبنّي لقيطة خيرًا من بناء زاوية؟

تلقّى الغمزة صابرًا وسأله:

ـ ولماذا تجيء بها إلى الخمّارة؟

ـ لتكسب رزقها بعرق جبينها!

فغمغم آسفًا:

ـ لا فائدة.

ووثب إلى مقدّم الكارو وهو يصيح «حا» فمضى الحمار مرسلًا بحدواته طقطقاته الموسيقيّة.

ـ ١٨ ـ

لم يعد عاشور يرى من النهار إلّا غباره، ولا من الليل إلّا ظلامه، وكلّما أقدم على عطفة توقّع عثرة ليست في الحسبان، وترفّ عينه فيغمغم النّهمّ اجعله خيرًا. ترى هل أصاب البنيان شدخ يتعذّر ترميمه؟

وكان يستنيم إلى مضجعه عقب منتصف الليل عندما ترامى إليه صوت يزعق من وراء النافذة:

ـ يا معلّم عاشور، يا معلّم عاشور. . .

هرع إلى الشبّاك ففتحه وهو يغمغم «الأولاد!» فرأى شبحًا منحنيًا فوق القضبان، سأله:

ـ ماذا هناك؟

ـ أدرك أولادك، إنّهم يتقاتلون في البوظة بسبب البنت فلّة!

وهتفت زينب:

ـ ابق أنت ودعني أذهب إليهم. . .

فأزاحها عن طريقه، دسّ قدميه في المركوب، انطلق مثل عاصفة. . .

- ١٩ -

ملأ هيكله فراغ الباب. اتجهت نحوه أبصار السكارى المطروحين على الجانبين. وثب نحوه درويش وهو يهتف:

- سيهدم أولادك المكان!

رأى هبة الله ملقًى على الأرض بلا حيلة. رأى حسب الله ورزق الله مشتبكين في صراع حقود، على حين انطرح السكارى غير مبالين. صاح بصوت فظيع:

- تأدّب يا ولد...

انفصل الشابّان وهما ينظران نحو مصدر الصوت برعب. بظهر كفّه لطم الأوّل فالثاني فتهاويا فوق الأرض الترية العارية. وقف يقلّب عينيه في الوجوه متحدّيًا فلم ينبس أحد. قذف درويش بنظرة متحجّرة وصاح به:

- ملعون أنت وملعون جحرك الموبوء!

عند ذاك ظهرت فلّة لا يدري من أين جاءت وتمتمت:

- إنّي بريئة!

وقال درويش:

- إنّها تقوم بالخدمة ولكنّ أولادك طمعوا فيها!

فصاح به:

- اخرس يا قوّاد.

فتراجع درويش قائلًا:

- سامحك الله...

- في قدرتي أن أهدم هذه البؤرة فوق رءوسكم...

تقدّمت فلّة خطوة حتّى مثلت أمامه تمامًا وقالت:

- إنّي بريئة!

قال لها بخشونة وهو ينتزع عينيه منها:

- اغربي عن وجهي...

دفع بأولاده المترنّحين إلى الخارج بعنف واحدًا في إثر واحد.

عادت فلّة تتساءل:

- ألا تصدّق أنّي بريئة؟

انتزع عينيه منها مرّة أخرى هاتفًا:

- بل شيطانة صغيرة من صنع شيطان كبير...

وغادر المكان وهو يتجنّب النظر إليها...

في ظلام الحارة تنفّس بعمق. شعر بأنّ سراحه قد أطلق وأنّه تملّص من قبضة شرّيرة. الظلام كثيف لا عين له. أحدّ بصره ليعثر على أشباح أولاده ولٰكنّهم ذابوا. هتف:

- حسب الله!

لا شيء سوى الصمت والظلام. بصيص ضوء ينساب من القهوة هناك ولا شيء بعد ذٰلك. قلبه يحدّثه أنّهم لن يرجعوا. سيهجرون مهدهم وسلطانه. سيتراءون في المستقبل كالغرباء. لا أبناء يلتصقون بأصولهم في هٰذه الحارة إلّا أبناء الوجهاء.

شعر وهو يشقّ طريقه في الظلام بأنّه يودّع الطمأنينة والثقة. ها هو تيّار مضطرب يلفّه في دوّامته، وهو يساوره الخوف كما يساوره النوم. وقال لنفسه إنّ البنت بهرتهم بجمالها. وقال أيضًا إنّ البنت بهرتهم بجمالها الفتّان. لماذا لا يتزوّج الحمقى؟ أليس الزواج دينًا ووقاية؟

- ٢٠ -

في انتظاره كانت زينب أمام الباب. اهتدى إلى مسكنه بضوء مصباحها الموضوع على عتبة المدخل. سألته بلهفة:

- أين الأولاد؟

فتساءل بوجوم:

- ألم يرجعوا؟

فتنهّدت بصوت مسموع فتمتم:

- لتكن إرادة الله.

وهو يجلس على الكنبة قالت له بحدّة:

- كان يجب أن تدعني أذهب...

- تذهبين إلى البوظة في خضمّ السكارى؟!

- ضربتهم، ليسوا أطفالًا، ولن يرجعوا إلى البيت.

- يتسكّعون يومًا ثمّ يرجعون...

- إنّي أعرَف بهم منك.

فلاذ بالصمت فواصلت تسأله:

ـ وما هٰذه الفلّة التي رمانا بها درويش؟

تجنّب النظر إليها وقال بازدراء:

ـ فيم تسألين؟ بنت تقيم في خمّارة!

ـ جميلة؟

ـ داعرة.

ـ جميلة؟

فقال بعد تردّد:

ـ لم أنظر نحوها.

فقالت متأوّهة:

ـ لن يرجعوا يا عاشور. . .

ـ لتكن إرادة الله.

ـ ألا تسمع عمّا يفعل الشبّان؟

فلم ينبس فقالت:

ـ علينا أن نتسامح مع الأخطاء. . .

فتساءل بذهول:

ـ حقًّا؟!

وتبدّت لعينيه ناضبة شاحبة طاعنة في السنّ مثل جدار الممرّ العتيق فتمتم:

ـ إنّي أرثي لك يا زينب. . .

فقالت بحدّة:

ـ سنتبادل الرثاء كثيرًا.

ـ على أيّ حال فليسوا في حاجة إلينا. . .

ـ بغيرهم لا أنفاس في البيت تتردّد.

ـ إنّي أرثي لك يا زينب.

أسندت رأسها إلى راحتها وتمتمت متشكّية:

ـ لديّ عمل في الصباح الباكر.

ـ جرّبي النوم.

ـ في هٰذه الليلة؟

فقال بضجر:

ـ في أيّ ليلة!

ـ وأنت؟!

فقال بتصميم:

ـ الحقّ أنّي بحاجة إلى نسمة هواء في الخارج!

ـ ٢١ ـ

الظلام مرّة أخرى. يتجسّد في القبو. يغطّي المتسوّلين والصعاليك. ينطق بلغة صامتة. يحتضن الملائكة والشياطين. فيه يختفي المرهق من ذاته، ليغرق في ذاته. إن قدر الخوف على أن ينفذ من مسامّ الجدران فالنجاة عبث.

ـ ٢٢ ـ

خرج من القبو إلى الساحة. انفرد بأناشيد التكيّة والجدار العتيق والسماء المرصّعة بالنجوم. جلس القرفصاء دافنًا وجهه بين ركبتيه. منذ نيّف وأربعين عامًا تسلّلت به أقدام خاطئة لتواري خطيئتها في ظلمة الممرّ. كيف وقعت تلك الخطيئة القديمة؟ أين، في أيّ ظروف، ألم يكن لها ضحيّة سواه؟ تخيّل إن استطعت وجه أمّك الحالم ووجه أبيك المحتقن، استعد إن استطعت كلمات التغرير المعسولة، استحضر اللحظة الحاسمة التي تقرّرت بها مصائر. كان يقف إلى جانبهما ملاك وشيطان ولٰكنّ الرغبة تهزم الملائكة. تخيّل صورة أمّك. لعلّها مثل. . .؟! لكي تحتدم المعركة لا بدّ من بشرة صافية وعينين سوداوين مكحولتين وقسمات دقيقة مثل البراعم. لا بدّ من الرشاقة والسحر وعذوبة الصوت. وقبل ذٰلك لا بدّ من القوى الخفيّة المتدفّقة المنسابة الغادرة المغتصبة بلا ضمير. والطعم الفوّاح تضعه الحياة في الفخّ وتنتظر. وتودع ذٰلك كلّه خمسة عشر عامًا من عمر البشر. لذٰلك دقّ باب الأناشيد ولٰكنّه لم ينفتح. الحقّ كان بوسعك أن تدفعه بقوّتك ولٰكنّك لم ترد. ومن يتزوّج الحياة فليحتضن ذرّيّتها المعطّرة بالشبق. ولٰكن لا مفرّ من أن تعترف بأنّ ما يحدث لا يمكن أن يصدّق. وأن تعاني إحساس المطارد إذا سبق. فالبسمة قدر والدمعة قدر. وها هو مخلوق جديد يولد مكلّلًا بالطموح الأعمى والجنون والندم. ويسأل الغوث من الرحمٰن فتنسكب عليه خمر الفتن.

وثقل رأسه فغفا.

رأى الشيخ عفرة زيدان أمام قبره، حمله بين يديه فسأله في جزع:

ـ إلى القبر يا مولاي؟

ولكنّه مضى به إلى الممرّ، ومن الممرّ إلى الساحة، ومن الساحة إلى القبو. . .

واستيقظ على شيء.

فتح عينيه فسمع صوت زينب وهي تقول:

ـ هٰذا ما خمّنته، تنام حتّى مطلع الفجر؟

نهض فزعًا. أسلم لها يده. مضيا صامتين.

ـ ٢٣ ـ

ما يدرون إلّا وهيكله العظيم يملأ باب البوظة.

اختلجت الجفون الثقيلة، وتردّدت التساؤلات تحت غيوم الأعين:

ـ ماذا جاء يفعل؟

ـ مطاردة أولاده؟

ـ لا تتوقّعوا من ورائه مسرّة!

مسح المكان ببصره حتّى وجد فراغًا في الجناح الأيسر فمضى إليه وتربّع هناك في هدوء تستّر به على ارتباكه. هرع إليه درويش قائلًا:

ـ خطوة عزيزة. . .

ثمّ وهو يبتسم:

ـ فليعنّي الله على التصديق!

تجاهله تمامًا. وفي الحال جاءت فلّة تسعى بالقرعة وقرطاس الترمس المدعوك بالشطّة. أسبل جفنيه وتذكّر قصّة الطوفان. نحّى القرعة جانبًا، وأدّى الثمن، بلا كلام. وجعل درويش يراقبه بحيرة ثمّ همس له وهو يهمّ بالابتعاد:

ـ نحن في الخدمة أيًّا تكن!

سرعان ما نسيه الآخرون. أمّا فلّة فساءلت نفسها عمّا يزهده في الشراب. اقتربت منه مرّة أخرى وقالت وهي تومئ إلى القرعة:

ـ إنّها جيّدة فوق الوصف!

فحنى رأسه فيما يشبه الشكر. وقال لها أحد السكارى:

ـ ابعدي عنه يا بنت.

فرجعت ضاحكة وهي تقول بصوت مسموع:

ـ ألا ترى أنّه يشبه الأسد؟!

قطرت السماء فرحة من أفراح الطفولة ولكنّ عضلات وجهه تصلّبت أكثر. ولم تعد ملابسه تحجب عريه عن الأعين. واختصر طريق حياته بين زاوية الممرّ وهٰذا المجلس بالبوظة. ما عدا ذٰلك طوى وتلاشى في نغمة جديدة غامرة. وسرعان ما استنام إلى الهزيمة جذلان بإحساس الظفر.

ووقفت فلّة بين الأوعية الفخّاريّة ترنو إليه باهتمام على حين اقتحم الباب حسب الله ورزق الله وهبة الله.

سرى التوقّع في ثنايا الخمول واشرأبّت الأعناق. هتف حسب الله:

ـ سلام الجدعان.

ولمح أباه فتشنّج حلقه وجمد. وخمد حماس رزق الله وهبة الله. وقفوا لحظة مذهولين ثمّ استداروا فتلاشوا كشيء لم يكن. وارتفعت ضحكة هازئة. ونظرت فلّة نحو درويش فلم ينبس ولٰكن تجلّى الضيق في وجهه. . .

ـ ٢٤ ـ

احتجّت قسمات زينب وسألته:

ـ وهل يستمرّ ذٰلك إلى الأبد؟

فتساءل عاشور في قهر:

ـ ما الحيلة؟

ـ عظيم أن تصدّهم عن البوظة ولٰكن بأيّ ثمن؟

فحرّك رأسه الكبير بحيرة صامتًا فهتفت بحدّة:

ـ النتيجة أنّك بتّ الزبون الدائم عند درويش!

ـ ٢٥ ـ

كان يمضي بالكارو عندما مرقت فلّة من باب الخمّارة فاعترضت طريقه. شدّ اللجام وهو يقول لنفسه «لتدركني رحمة السماء». ودون كلمة وثبت إلى الكارو برشاقة، تربّعت وهي تحبك ملاءتها حولها، وكانت سافرة الوجه. نظر إليها مستفهمًا فقالت بعذوبة:

ـ وصّلني إلى مرجوش. . .

وظهر درويش باسمًا وهو يقول:

ـ في رعايتك، وحسابها عندي.

رأى خيوط العنكبوت ولٰكنّه لم يبالِ. طرب حتّى

ثمل. هرس تراثه تحت حوافر الحمار. سارت الكارو وظهره ينصهر بالسخونة.

وإذا بصوتها يقول:

ـ لو أنصفت نفسك لكنت الفتوّة...

فامتلأ بشاشة وتساءل:

ـ أترينني شرّيرًا؟

فضحكت برقّة وتساءلت بدورها:

ـ وما جدوى الخير مع أناس لا خير فيهم؟

ـ ما زلت صغيرة...

فقالت بنبرة لاذعة:

ـ لم أعامَل كصغيرة قطّ...

فتجهّم وجهه مقطّبًا. وحتّى تلك اللحظة لم تغب عن عينيه النظرات المتطلّعة إلى حمله الثمين. ووجد نفسه يسألها:

ـ لماذا تذهبين إلى مرجوش؟

ولمّا لم تجبه ندم على ما فرط منه. وطلبت منه التوقّف عند مدخل مرجوش، ثمّ قالت:

ـ تمنّيت لو كان المشوار أطول...

ثمّ وهي تهمّ بالذهاب:

ـ ولٰكنّ الليل ليس ببعيد!

ربّت على عنق الحمار وهمس في أذنه:

ـ انتهى صاحبك...

ـ ٢٦ ـ

مع أوّل شعاع للشمس اقتحم باب البوظة. استيقظ درويش صاخبًا محتجًّا ثمّ ذهل لمرآه ثمّ تساءل:

ـ ماذا وراءك؟

فأقامه بيده وحدجه بنظرة هائجة وتمتم:

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ...

ـ ماذا جاء بك يا عاشور؟

فقال بغلظة:

ـ إنّك خبيث وشرّير وتعرف كلّ شيء...

فدعك درويش قفاه وهو يطالعه بعينيه المحمرّتين وتمتم:

ـ هٰذا وقت الرزق!

فقال ملقيًا بنفسه في اليمّ:

ـ قرّرت أن آخذها...

فقال باسمًا:

ـ لكلّ شيء وقته!

فقال باستسلام نهائيّ:

ـ على سنّة الله ورسوله!

اتّسعت عينا درويش من وقع المفاجأة وراحا يترامقان في صمت حتّى تمتم:

ـ ما معنى هٰذا؟

ـ لست كما تظنّ...

ـ أجننت يا عاشور؟

ـ ربّما...

فكساه الفتور وقال:

ـ إنّي لا أستغني عنها!

ـ سوف تستغني عنها يا درويش!

ـ هل فكّرت في العواقب؟

ـ لا دخل للتفكير في ذٰلك!

فتساءل في خبث:

ـ ألا تعلم أنّه ما من رجل...

وقاطعه صوت فلّة وافدًا من فوق أريكتها ممّا قطع متابعتها للحديث وهو يقول:

ـ ماذا تريد أن تقول؟... لو كان في حاجة إلى شهادتك لسألك!

فثار درويش وصاح:

ـ ستصير أحدوثة الصغير والكبير...

فصاحت فلّة:

ـ إنّه قادر على حماية ما يملكه...

فانقضّ عليها فلطمها حتّى صرخت فوثب عاشور نحوه وطوّقه بذراعيه وشدّ حتّى صاح متأوّهًا:

ـ أنا في عرض النبيّ...

فتركه وهو يزمجر غاضبًا فتهاوى درويش على الأرض وهو يصرخ:

ـ في ألف داهية...

- ٢٧ -

جرى عاشور مع عزمته بجرأة مستهترة. حتّى حزنه لزينب وذكرياتها لم يوقفه. وقال لها حاني الرأس:

- قضاء الله لا حيلة لنا فيه...

فنظرت إليه ببراءة مستطلعة فقال:

- سأتزوّج من أخرى يا زينب!

وصعقت المرأة. ذهلت تمامًا وطارت من رأسها عصافير مصوصوة وصاحت:

- أنت الرجل الطيّب!

فقال بخشوع:

- قضاء الله...

فصرخت:

- لِمَ تتمحّكون باسم الله؟ لِمَ لا تعترف بأنّه الشيطان؟ ترميني قشرة وتذهب؟

فقال بتوكيد:

- مصونة جميع حقوقك!

فصاحت وهي تشرق بالدمع:

- لي الله وحده يا غادر يا خائن العيش والملح...

- ٢٨ -

زُفّت فلّة إلى عاشور في حفل صامت. استأجر لها بدرومًا في طرف الحارة من ناحية الميدان. وسعد الرجل بزواجه حتّى خيّل لمن يراه أنّه رجع إلى شبابه الأوّل.

- ٢٩ -

واجتاح خبر الزواج الحارة كالنار. تساءل كثيرون:

- ألم يكن بوسعه أن يفعل مثل الآخرين؟!

وقال حسب الله:

- إذن كان يصدّنا نحن أبناءه ليستولي هو عليها!

وضاعف من أثر الخبر ما عرف به عاشور من الطيبة والاستقامة. أهكذا يقع الناس الطيّبون؟ أين الوفاء لزينب وأين الوفاء لزين الناطوري؟ من الذي جعل منه مالك كارو بعد أن كان مكاريًا؟... ومن الذي انتشله من التشرّد فجعله مكاريًا؟

وكان عاشور يقول مدافعًا عن نفسه:

- لولا أنّني عاشور ما تزوّجتها!

وتمضي الأيّام وهو يزداد سعادة وامتنانًا، واستهانة بالأقاويل. وتعلّقت به فلّة تعلّقًا لم يحلم به. صمّمت على أن تثبت له أنّها ستّ بيت، مطيعة، بعيدة كلّ البعد عمّا يثير غيرته. وممّا جعلها أثيرة عنده أكثر أنّه وجدها - مثله - مجهولة الأب والأمّ. وبسبب من شدّة حبّها له تسامح مع جهلها بكثير من الشئون النافعة، كما تسامح مع كثير من العادات السيّئة. ومن أوّل الأمر أدرك أنّها بلا دين إلّا الاسم، وبلا أخلاق، وأنّها تتبع في مسيرتها الغرائز وملابسات الحياة، فتساءل متى يجد وقتًا ليلقّنها ما ينقصها حقًّا في الحياة؟ الحبّ وحده ما يحفظها ولكن متى يكفي ذلك؟

ولم ينقطع عن زينب، ولم يغمط لها حقًّا، ومضت هي تألف الحياة الجديدة، وتعاشر جرحها معاشرة التسليم، فلا تكدّر زياراته بمكدّر.

وجعل درويش يراقب الأمور ويقول بحقد:

- العقرب تعبده، ما زالت تعبده، فمتى تلسعه؟

وتمضي أيّام فتحبل فلّة، ثمّ تنجب ذكرًا يسمّيه أبوه «شمس الدين» ويفرح به عاشور فرحة كبرى كأنّما هو بكريّه.

وتمضي أيّام صفاء وسعادة لم يجدهما عاشور فيما سلف من عمره.

- ٣٠ -

ماذا يحدث بحارتنا؟

ليس اليوم كالأمس، ولا كان الأمس كأوّل أمس. أمر خطير طرأ. من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟ وهل تجري هذه الشئون بمحض الصدف؟ ومع ذلك فالشمس ما زالت تشرق وتقوم برحلتها اليوميّة، والليل يتبع النهار، والناس يذهبون ويجيئون والحناجر تشدو بالأناشيد الغامضة...

ماذا يحدث بحارتنا؟

وجعل يراقب شمس الدين الثمل بالانهماك في الرضاع ويبتسم، رغم كلّ شيء فهو يبتسم. وقال:

- ميت جديد، ألا تسمعين الصوات؟

فتساءلت فلّة:

- بيت مَن يا ترى؟

فمدّ بصره من خلال قضبان النافذة مُتنصِّتًا ثمّ تمتم:

- لعلّه بيت زيدون الدخاخني!

فقالت فلّة بقلق:

- ما أكثر أموات هٰذا الأسبوع!

- أكثر ممّن يموتون عادة في عام!

- وقد يمرّ العام بلا ميت واحد...

ولم تهدأ ثائرة الطارئ الجديد.

وكان عاشور ماضيًا بالكارو عندما اعترضه درويش وقال له:

- الأقاويل كثيرة، ألم تسمع شيئًا يا عاشور؟

- عمّ تتحدّث؟

- يتحدّثون عن قيء وإسهال مثل الفيضان ثمّ ينهار الشخص ويلتهمه الموت...

فتمتم عاشور بامتعاض:

- ما أكثر ما يقال في حارتنا!

- أمس أصيب زبون عندي بذٰلك حتّى لوّث المحلّ...

فرمقه بازدراء فعاد درويش يقول:

- حتّى بيوت الأعيان لم تسلم، ها هي حرم البنان توفّيت صباح اليوم!

فقال عاشور وهو يمضي:

- إذن فهو غضب الله!

- ٣١ -

تفاقم الأمر واستفحل.

دبّت في ممرّ القرافة حياة جديدة. يسير فيه النعش وراء النعش. يكتظّ بالمشيّعين. وأحيانًا تتتابع النعوش كالطابور. في كلّ بيت نواح. بين ساعة وأخرى يُعلن عن ميت جديد. لا يفرّق هٰذا الموت الكاسح بين غنيّ وفقير، قويّ وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنّه يطارد الخلق بهراوة الفناء. وترامت أخبار مماثلة من الحارات المجاورة فاستحكم الحصار. ولهجت أصوات معوجّة بالأوراد والأدعية والاستغاثة بأولياء الله الصالحين.

ووقف شيخ الحارة عمّ حميدو أمام دكّانه وضرب الطبلة براحته فهرع الناس إليه من البيوت والحوانيت. وبوجه مكفهرّ راح يقول:

- إنّها الشوطة، تجيء لا يدري أحد من أين، تحصد الأرواح إلّا مَن كتب الله له السلامة...

وسيطر الصمت والخوف فتريّث قليلًا ثمّ مضى يقول:

- اسمعوا كلمة الحكومة...

أنصت الجميع باهتمام، ترى أفي وسع الحكومة دفع البلاء؟!

- تجنّبوا الزحام!

فترامقوا في ذهول. حياتهم تجري في الحارة. والحرافيش يتلاصقون بالليل تحت القبو وفي الخرابات، فكيف يتجنّبون الزحام؟ ولٰكنّه قال موضحًا:

- تجنّبوا القهوة والبوظة والغرز!

الفرار من الموت إلى الموت! لشدّ ما تتجهّمنا الحياة!

- والنظافة... النظافة...

تطلّعت إليه في سخرية أعين الحرافيش من وجوه متوارية وراء أقنعة من الأتربة المتلبّدة.

- اغلوا مياه الآبار والقِرب قبل استعمالها... اشربوا عصير الليمون والبصل...

ساد الصمت، وظلّ ظِلّ الموت ممتدًّا فوق الرءوس حتّى تساءل صوت:

- أهٰذا كلّ شيء؟

فقال حميدو بنبرة الختام:

- اذكروا ربّكم وارضوا بقضائه...

رجع الناس إلى البيوت والدكاكين واجمين، وتفرّق الحرافيش في الخرابات وهم يتبادلون الدعابات الساخرة، ولم يتوقّف موكب النعوش ساعة واحدة...

- ٣٢ -

دفعه القلق إلى الساحة في جوف الليل. الشتاء يطوي آخر طيّة في ردائه، الهواء منعش ليّن القبضة، النجوم متوارية فوق السحب. في ظلمة داجية تهادت الأناشيد من التكيّة في صرحها الأبديّ. لا نغمة رثاء واحدة تنداح بينها. ألم تعلموا يا سادة بما حلّ بنا؟

أليس عندكم دواء لنا؟ ألم يترامَ إلى آذانكم نواح الثكالى؟ ألم تشاهدوا النعوش وهي تُحمل لصق سوركم؟

رنا عاشور إلى شبح البوّابة، إلى هامتها المقوّسة، بإصرار حتّى دار رأسه. تضخّمت البوّابة وتعملقت حتّى غابت هامتها في السحب. ما هٰذا يا ربّي؟ إنّها تتمخّض عن حركة بطيئة دون أن تبرح مكانها. تتموّج وقد تنقضّ في أيّ لحظة. وشمّ رائحة غريبة لا تخلو من نفحة ترابيّة. إنّها تتلقّى من النجوم أوامر صارمة. جرّب عاشور الخوف لأوّل مرّة في حياته. نهض مرتعدًا، مضى نحو القبو وهو يقول لنفسه إنّه الموت. تساءل في أسى وهو يقترب من مسكنه، لماذا تخاف الموت يا عاشور؟!

ـ ٣٣ ـ

أشعل المصباح فرأى فلّة نائمة، وشمس الدين لا يبدو من الغطاء إلّا شعر رأسه. جمالها مستسلم لسطوة النوم، ثغرها مفترّ بلا بسمة. منديلها منسحب وخصلات شعرها نافرة. دقّ الرعب أبواب رغبته الغافية. تمطّى نداء مثل لسان من لهب. جنّ بالشهوة فاندفع بلهوجة المطارد. همس باسمها حتّى فتحت عينيها. نظرت إليه منكرة حتّى عرفته. فقهت وقفته ونظرة عينيه فتزحزحت من تحت الغطاء بارزة، وتثاءبت، وابتسمت، وتساءلت:

ـ ماذا دهاك في الليل؟

ولٰكنّه من شدّة الانفعال صمت. امتلأ صدره العريض بالعنف والأسى.

ـ ٣٤ ـ

نام ساعتين.

رأى في وسط الحارة الشيخ عفرة زيدان. هرع نحوه مجذوبًا بالأشواق. كلّما تقدّم خطوة سبق الشيخ خطوتين. هٰكذا اخترقا الممرّ والقرافة نحو الخلاء والجبل. وناداه من أعماقه ولٰكنّ الصوت في حلقه انكتم.

واستيقظ في غاية من القهر.

وقال لنفسه أن ليس هٰذا لغير ما سبب. وفكّر طويلًا. وعندما نضح الشبّاك بلون الفجر تلقّى عزمته. ونهض مرحًا بعزمته. أيقظ فلّة. بكى شمس الدين. غيّرت لفّته ودسّت برفق ثديها الثريّ في ثغره ثمّ التفتت إلى الرجل تعنّفه.

مسح على شعرها بحنان وقال:

ـ حلمت حلمًا مذهلًا...

فقالت محتجّة:

ـ لم أشبع من النوم...

فقال بجدّيّة غير متوقّعة:

ـ علينا أن نهجر الحارة بلا تردّد.

فرمقته غير مصدّقة فعاد يقول:

ـ بلا تردّد...

فتساءلت مقطّبة:

ـ ماذا حلمت يا رجل؟

ـ أبي عفرة أراني الطريق...

ـ إلى أين؟

ـ إلى الخلاء والجبل!

ـ إنّك ولا شكّ تهذي...

ـ بل رأيت الموت أمس، ورائحته شممت...

ـ وهل الموت يعانَد يا عاشور؟

فقال وهو يحني رأسه في حياء:

ـ الموت حقّ والمقاومة حقّ...

ـ ولٰكنّك تهرب!

ـ من الهرب ما هو مقاومة!

فتساءلت في قلق:

ـ وكيف نعيش في الخلاء؟

ـ الرزق في الساعدين لا في المكان.

فتنهّدت قائلة:

ـ سيضحك الناس من جهلنا!

فقال بوجوم:

ـ لقد جفّت ينابيع الضحك.

فأجهشت في البكاء فتساءل في قلق:

ـ هل تتخلّين عنّي يا فلّة؟

فقالت وهي تنتحب:

ـ لا أحد لي سواك، سوف أتبعك...

ـ ٣٥ ـ

اجتمع عاشور بأسرته الأولى، زينب وحسب الله ورزق الله وهبة الله، وباح لهم بحلمه وعزمته، ثمّ قال:

ـ لا تتردّدوا فالوقت ثمين.

ذهلوا جميعًا وارتسم في وجوههم الرفض. وقالت زينب ساخرة:

ـ ها هي وسيلة جديدة لتجنُّب الموت!

وقال حسب الله:

ـ أرزاقنا هنا، ولا مجال لنا سواه...

فقال عاشور غاضبًا:

ـ لنا سواعدنا، ولنا أيضًا الكارو والحمار.

فسأله هبة الله:

ـ ألا يوجد الموت في الخلاء يا أبي؟

فقال عاشور وهو يزداد غضبًا:

ـ علينا أن نبذل ما في وسعنا وأن نقدّم الدليل للمولى على تعلّقنا ببركته.

فهتفت زينب:

ـ أفسدتِ البنت عقلك!

فقلّب وجهه في وجوههم وتساءل:

ـ ما قولكم؟

فأجابه حسب الله:

ـ عفوًا يا أبي، نحن باقون ولتكن مشيئة الله!

هامَ عاشور في حزن عميق ثمّ غادر المكان.

ـ ٣٦ ـ

رفع شيخ الحارة حميدو رأسه عن مكتبه ليرى عاشور واقفًا أمامه مثل الطود فسأله بحدّة:

ـ ماذا تريد يا عاشور؟

وقبل أن يجيبه عاشور قال:

ـ حدّثني ابنك حسب الله عمّا عزمت ولله في خلقه شئون.

فقال عاشور بهدوء عجيب:

ـ جئتك لتدعو الناس إليه بنفسك فهم أجدر أن يسمعوا لك!

فصاح شيخ الحارة:

ـ أجننت يا عاشور؟... أتفهم أنت خيرًا من الحكومة؟

ـ ولكن...

فقاطعه بحدّة:

ـ حذار أن تعطّل الأرزاق وتنشر الفوضى...

ـ لقد رأيت الموت والحلم!

ـ هٰذا هو الجنون بعينه، الموت لا يُرى، ونصف الأحلام مصدرها إبليس!

ـ إنّي رجل طيّب يا معلّم حميدو...

ـ ألم تذهب يومًا إلى البوظة لتنقذ أبناءك من امرأة ثمّ وقعت أنت في هواها واستأثرت بها لنفسك؟

فقال بغضب:

ـ لقد أنقذتها من الشرّ، ثمّ إنّني لا أبرّئ نفسي من الذنوب...

فصاح شيخ الحارة:

ـ افعل بنفسك ما تشاء ولٰكن لا تغرّر به أحدًا وإلّا أبلغت عنك القسم...

ـ ٣٧ ـ

هاجر عاشور في الفجر. تحرّكت به الكارو نحو القبو كما تفعل في مواسم القرافة. تربّعت فوق سطحها المترجرج فلّة محتضنة شمس الدين، أمامها بقجة مكتظّة، وراءها أجولة من الفول السودانيّ وبلاليص من الليمون والزيتون المخلّل، وزكائب من العيش المقدّد. ولّما خلصت العربة إلى الساحة، استقبلتها تراتيل آخر الليل وهي تشدو:

جز آستان تو ام درجهان بناهى ينست

سر مرا بجز أين در حواله كاهى ينست

استمع عاشور إليها بحزن، ثمّ دعا لحارته بالهداية من أعماق قلبه.

واخترق الممرّ الطويل، ثمّ شقّ سبيله بين القبور، قبور لا تكاد تغلق حتّى تفتح ثانية، ثمّ انتهى إلى الخلاء. غمره تيّار خفيف بارد، منعش وودود، ولٰكنّه قال:

ـ احبكي الغطاء حولك وحول الولد.

فقالت متشكّية:

ـ لا حيّ موجود.

ـ الله موجود.

ـ أين نقف؟

ـ عند سفح الجبل.

ـ هل نتحمّل جوّه؟

ـ أقوى ممّا تتحمّله التلال، وتوجد ثمّة كهوف...

ـ وقطّاع الطريق؟!

فقال هازئًا:

ـ فليقدم مَن كُتب عليه الهلاك!

وراحت الكارو تتقدّم والظلام يخفّ. تذوب الظلمة في ماء ورديّ شفّاف فتتكشّف عوالم في السماوات والأرض. تنساب منها ألوان عجيبة متداخلة حتّى اصطبغ الأفق بحمرة نقيّة متباهية، تلاشت أطرافها في زرقة القبّة الصافية، وأطلّ من وراء ذلك أوّل شعاع مغسول بالندى. وتراءى الجبل شاهقًا، رزينًا، صامدًا، لا مباليًا. هتف عاشور:

ـ الله أكبر...

ونظر نحو فلّة وقال مشجّعًا:

ـ انتهت الرحلة...

ثمّ وهو يضحك:

ـ بدأت الرحلة!

ـ ٣٨ ـ

قضى عاشور وأسرته في الخلاء ما يقارب الستّة الأشهر.

لم يكن يغادر موقع الكهف إلّا ليحضر ماء من حنفيّة الدراسة أو يبتاع علفًا للحمار أو بعض الضرورات في نطاق ما يملك من مدّخر قليل. واقترحت فلّة أن تبيع قرطها الذهبيّ ولكنّه رفض. وأخفى عنها أسباب زهده. لقد جاءته والقرط في أذنيها فهو من مال حرام جاء!

وتبدّت الحياة في الأيّام الأولى نزهة ومغامرة ورياضة، ولم تشعر بخوف في ظلّ زوجها الجبّار. وسرعان ما تبدّت خالية مضجرة لا تُحتمل. ماذا؟ هل جئنا نحسب الزمن بدبيبه المتتابع فوق جلودنا؟ هل جئنا لنعدّ حبّات الرمال والنجوم الساهرة؟

وقالت له فلّة:

ـ حتّى الجنّة لا تطاق بلا ناس وبلا عمل...

فلم يعترض ولكنّه قال:

ـ نحن مطالَبون بالصبر...

وقت طويل من وقته مضى في العبادة. ووقت طويل مضى في تذكّر أسرته هناك وأهل حارته، حتّى قال لزوجه مرّة:

ـ ما أحببت الناس قطّ كما أحبّهم اليوم.

وكان يحظى بنصيبه من النوم في النهار ويسهر بالليل بطوله. وترامت تأمّلاته حتّى شعر شعورًا عجيبًا بأنّه عمّا قريب سيسمع أصواتًا ويرى أشباحًا. بات صديقًا للنجوم وللفجر. وقال إنّه من ربّه قريب، لا يعجزه عنه شيء، وإنّه لا يدري لِمَ يستسلم أهل حارته للموت؛ ولا لِمَ يقرّون بعجز الإنسان، أليس الإقرار بعجز الإنسان كفرًا بالخالق؟ واشتبك في أحاديث صامتة لا نهاية لها مع ماضيه، الشيخ عفرة، ستّ سكينة، الناطوري، زينب، وأحاديث حميمة حزينة مع حسب الله ورزق الله وهبة الله. حسب الله كان مرشّحًا دائمًا لصداقته فيا للخسارة. رزق الله لا خير فيه ولكنّه ذكيّ، أمّا هبة الله فمتعلّق بأمّه بدرجة لا تليق. على ذلك فهو يقرّ بأنّهم خير من كثيرين من أضرابهم، ودعا لهم ولأمّهم طويلًا. ولاحت له حارته مثل جوهرة غارقة في الوحل. إنّه الآن يحبّها حتّى بسوءاتها! ولكنّ ثمّة فكرة تتسلّل إليه خلال عباداته المتواصلة بأنّ الإنسان يستحقّ ما يعانيه! الوجهاء والحرافيش ودرويش يدورون حول محور منحرف يرغب حقيقة في القبض على سرّه الماكر العسير. وها هو الله يعاقبهم جميعًا كأنّما قد ضاق بهم! ورغم ذلك يشمل الفجر بغبطته الورديّة، ويرقص شعاع الضياء في مرح أبديّ! إنّه على وشك أن يسمع أصواتًا، ويرى أشباحًا، إنّه يتمخّض عن ميلاد جديد.

ـ ٣٩ ـ

وثمّة فرصة سنحت ليملأ قلب فلّة بالإيمان. إنّها امرأة صغيرة جميلة لا دين لها. لا تعرف الله ولا الأنبياء ولا الثواب ولا العقاب. يحفظها في هذه الدنيا المرعبة

حبّها وأمومتها. حسن، إنّه يلقى عنـاء في تعليمها. ولولا ثقتها فيه ما صدّقت كلمة واحدة ممّا يقول. تحفظ سور الصلاة في عنـاء. يغلبها الضحـك فتخرج من الصلاة. وتصلّي اتّقاء لغضبه واستجلابًا لمرضاته.

وسألته ببراءة:

ـ لماذا ترك الله الموت يفتك بالناس!

فأجابها بعنف:

ـ من يدري، لعلّهم في حاجة إلى تأديب؟!

فقالت مداعبة:

ـ لا تغضب مثل الله...

ـ متى تهذّبين ألفاظك؟

ـ عظيم، ولِمَ خلقنا بهٰذا القدر من السوء؟

فضرب الرمل براحته وتساءل:

ـ مَن أنا حتّى أجيبك نيابة عنه عزّ وجلّ؟

ثمّ برجاء:

ـ علينا أن نؤمن به فقط، علينا أن نضع قوّتنا في خدمته...

فانسحبت من الحديث جملة وهتفت متشكّية:

ـ الأيّام تمرّ والوحدة ثقيلة أفظع من الموت.

فحوّل عنها ناظريه في صمت. إنّها تنذر بالتمرّد. هل تغادره هاربة بشمس الـدين؟ وماذا يبقى لـه في الحياة؟

شمس الدين سعيد. يزحف فوق الرمل، يجلس ليعبث بالحصى، يعرف النوم ولا يعرف الملل، ينضج في الهـواء والشمس، يجد غـذاءه الطبيعيّ متـوافرًا. الحمار أيضًا سعيد، يأكل، ينعم براحـة كبيرة، يهشّ الذباب بذيله، يهيم في ملكوته مزوّدًا بصبر لانهائيّ. ويرمقه عاشور بعطف وتقدير. إنّه صـاحبه ورفيقـه ومصدر رزقه، وبينهما مودّة راسخة.

ـ ٤٠ ـ

وتمضي الأيّام، يقتربون من حافة الانهيار.

وذات يوم قال لها عقب عودته من الدراسة:

ـ يقولون هناك إنّ الهلاك يولّي مدبرًا.

فصفّقت فلّة وصاحت:

ـ لنرجع في الحال...

فقال بحزم:

ـ بل ننتظر حتّى أتحقّق من الخبر...

ـ ٤١ ـ

رجعت الكارو تشقّ طريقها بين القبور في الهزيع الأخير من الليل. طفحت قلوب أصحابها بـالسعادة تحت النجوم وانتفضت بأماني النجاة. ولّما انعطفت إلى الممرّ واستقبلتها الأناشيد دمعت الأعين وقالت الأناشيد إنّ كلّ شيء سيكون كالعهد به.

ها هي الحارة مستغرقة في النوم، الإنسان والحيوان والجماد. عجيبة في سباتها كما هي عجيبة في يقظتها، ولسوف تتندّر به طويلًا. عند مسكن زينب توقّف قلبه ولٰكنّه أشفق من إزعاجهم، وأجّل ارتباكه ساعتـين. من القلوب انسـابت قبـلات تلثم الجـدران والأديم والخدود وترقص بالطرب. الموت لا يجهز عـلى الحياة وإلّا لأجهز على نفسه، ولٰكن ثمّة شعور بالندم والخجل.

وضمّتهم أخيرًا حجـرتهم فـامتـلأت خيـاشيمهم برائحة الـتراب والعطن. وبـادرت فلّة تفتح النـافذة وهي تقول:

ـ كيف يلقاك الناس يا عاشور؟

فقال بتحدٍّ كاذب:

ـ كلٌّ يعمل بإيمانه!

ـ ٤٢ ـ

قبع وراء قضبان النافذة يترقّب بصبر انطواء آخر ذيول الظلام. ها هو أوّل ضياء يتطامن فوق الجدران، ها هي معالمها تتحدّد كوجه صـديق قديم. مَن أوّل قـادم يكـون؟... لعلّه اللبّـان أو خـادم من بيـوت الوجهاء. سيجيبـه بصوت يمـزّق الصمت وليلقَ من السخرية حظّه المقسوم. ها هو النور يشعشع في الحارة وحتّى دكّان الفول لم يفتح.

تراجع متململًا وهو يقول:

ـ الظاهر أنّ تعاليم الحكومة قد غيّرت من عادات حارتنا...

ودسّ قدميه في المركوب قائلًا:

ـ سأذهب لزيارة الأولاد...

ـ ٤٣ ـ

انطلق في خلاء، بين أبواب ونوافذ موصدة، إلى بدروم زينب، دفع الباب فانفتح، وجد نفسه في حجرة خالية عبقة برائحة محزنة. الفراش كما هو مغطّى بطبقة من التراب، والكنبة الوحيدة عليها أشياء كالخرق البالية، والمقعد الخشبيّ مقلوب على مسنده، وتحت الفراش تكوّمت الحلّة والأطباق والكانون ومقطف مملوء بالفحم إلى منتصفه. والسحّارة ليست خالية، توجد بها الملاءة وجلباب ومشط ومرآة ومنشفة.

ـ هاجروا؟... ولكن لِمَ يتركون الملابس؟!...

عبثًا حاول أن يدفع البلوى أو أن يؤجّل تجرّعها. ضرب جبينه براحته. تأوّه. أجهش في البكاء. قال إنّه سيعلم من الآخرين الخبر، وإنّه لم يفقد بعد الأمل.

غادر المكان مترنّحًا...

ـ ٤٤ ـ

اندفع في الحارة حتّى مطلعها عند الميدان. يا له من صمت ويا له من خلاء! لا باب مفتوح ولا نافذة. تقدّم ببطء وذهول. الخمّارة مغلقة، البيوت، الوكالة، القهوة، لا نأمة، لا قطّة ولا كلب، لا رائحة لحياة، الدور التربة غارقة في نفس الفناء.

الشمس ترسل أشعّتها بلا جدوى، هواء الخريف يتموّج في فتور وبلا هدف.

وصاح بصوته الأجشّ الباكي:

ـ يا هوه! ... يا أهل الله...

فلم يجبه أحد. لم تفتح نافذة. لم تشرئبّ رأس من حجر. ليس سوى صمت اليأس العنيد، والرعب المتحدّي، والقهر الصليد.

اخترق القبو إلى الساحة فطالعته التكيّة كما هي دائمًا. رنت إليه أوراق التوت فرأى رحيقها يسيل دمًا. سكتت الأناشيد وتلفّعت بطيلسان اللامبالاة. رنا إليها طويلًا والحزن يعصف بجذور قلبه ودموعه تسيل.

وبصوت كالرعد صاح:

ـ يا درويش!

خيّل إليه أنّ غصون الأشجار تميد من صوته ولكن لم يجبه أحد.

وراح يصيح دون توقّف، وبلا جدوى...

وقهقه كالأبله ثمّ تساءل:

ـ منذا يسمع أناشيدكم اليوم، ألا تعلمون؟

ـ ٤٥ ـ

قال لفلّة وهو يجفّف دمعه:

ـ لا حيّ في الحارة!

رأى في حمرة عينيها أنّها فطنت إلى الكارثة بطريقة ما. سمعها وهي تقول منتحبة:

ـ من الخلاء إلى الخلاء يا عاشور...

وراح يتأوّه فقالت:

ـ فلنهاجر إلى مكان معمور.

فنظر إليها بحيرة وصمت فتساءلت بحدّة:

ـ أنبقى في هٰذه القرافة؟

فتمتم بفتور:

ـ ستتجوّل فوق عربتنا، لن تبقي في البيت، أمّا المأوى فلا مأوى لنا إلّا هنا...

صاحت:

ـ بيت في حارة خالية؟!

فصاح بغضب:

ـ لن تبقى خالية إلى الأبد!

ـ ٤٦ ـ

لا حزن يدوم ولا فرح.

عاد عاشور إلى ممارسة عمله كسوّاق كارو. وكان يأخذ معه فلّة وشمس الدين النهار كلّه وشطرًا من الليل، ثمّ يأوون إلى البدروم في كنف الرجل العملاق.

أدرك عاشور أنّ الحارة أصبحت منسيّة في غمار المسئوليّات التي واجهت الحكومة بسبب انتشار الشوطة في جميع الأحياء. لا أحد يدري به في هٰذا الركن الفاني ولكنّهم سيأتون، يومًا ما سيأتون. سيجيء أناس من هنا وهناك وستردّد الأنفاس من جديد وترسل دفئها في البقاع.

وكلّما خرج مبكّرًا ليعدّ العربة جذبت عينيه دار

البنان، تعجبه هامتها الأرجوانيّة وضخامتها المهيبة وأسرارها المنطوية. ماذا بقي في الداخل؟... ألا يوجد من آل البنان من يهمّه استردادها؟

ويرسخ الإغراء في أعماقه وينفث أحلامًا سحريّة. كما اشتاق يومًا إلى الاطّلاع على أسرار التكيّة. غير أنّ دار البنان قريبة ولا حيّ سواه في الحارة. ليس بينه وبين تحقيق الحلم إلّا حركة، حركة مغلّفة بالأمان.

- ٤٧ -

هزّ منكبيه العريضين استهانة ودفع الباب فانفتح. التراب يغطّي الفسيفساء، كما يغطّي أرض السلاملك الرخاميّة. التراب هو ما يسود في كلّ مكان. وقف عند مدخل البهو مرتاعًا. إنّه ميدان يا عاشور. سقفه عالٍ جدًّا لا تبلغه رءوس الجانّ. في وسطه نجفة مثل قبّة الغوري ومن أركانه تتدلّى القناديل. على جوانبه أرائك مغطّاة بالسجاجيد المزركشة، كما تغطّى جدرانه بالحصر الفاخرة وأطر الآيات المذهّبة.

ترامى إليه صوت فلّة وهي تنادي فجرى نحوها. رمقته بذهول. تساءلت:

- ماذا فعلت؟

فأجاب بحياء:

- أمنية طارئة حقّقتها!

- ألا تخشى أن يعلم أصحابه؟

- لا صاحب له...

تردّدت تلعب بها الأهواء ثمّ أشارت إلى الكارو وقالت:

- تأخّرنا...

فقال بحياء أشدّ:

- إنّي أدعوك للمشاهدة يا فلّة...

أمضيا النهار في التنقّل من حجرة إلى حجرة. وقفا طويلًا في الحمّام والمطبخ، جرّبا الجلوس على دواوين ومقاعد وأرائك، طفر الجنون من عيني فلّة الجميلتين، قالت:

- نبيت ليلتنا هنا...

صمت عاشور وهو يعاني ضعفًا أشدّ فقالت:

- نستحمّ في الحمّام العجيب، نرتدي ثيابًا جديدة، وننام فوق هذا الفراش، ليلة واحدة نعود بعدها إلى الكارو...

- ٤٨ -

لكنّها لم تكن ليلة واحدة.

كانا يغادران الدار فجرًا ثمّ يتسلّلان إليها مع الليل. في النهار تمضي بهما الكارو من حيّ إلى حيّ، يتناولان طعامهما عدسًا وفولًا وطعميّة، وفي الليل يرفلان في الثياب القطنيّة والحريريّة، يستريحان في السلاملك الداخليّ أو فوق الدواوين، وينامان فوق فراش وثير يُصعد إليه بسلّم قصير من الأبنوس. وتتحسّس فلّة الستائر والوسائد والطنافس براحتيها وتهتف:

- لم تكن حياتنا إلّا كابوسًا...

وتتبدّى لهما الحارة، في الليل من المشربيّة ظلمة وهياكل أشباح غارقة في التعاسة فيتمتم عاشور في أسى:

- حكمة الله تعزّ على العقول!

فتجيبه بتحدٍّ:

- ولكنّه يهب الرزق لمن يشاء...

ويبتسم متسائلًا حتّى متى يدوم هذا الحلم؟ ولكنّها كانت تفكّر في أمور أخرى فقالت:

- انظر إلى التحف حولنا، لا شكّ أنّها غالية الثمن، لِمَ لا نبيع بعضها لنأكل مثلما نعيش؟!

فقال بإشفاق:

- ولكنّه مال الغير...

- لا صاحب له كما ترى، هو رزقنا من الله...

وتفكّر عاشور مليًّا. زحف عليه الإغراء كما يزحف النوم على المكدود. وصمّم على أن يجد لأزمته حلًّا. واهتدى إلى حكمة جديدة فقال:

- المال حرام ما لم يُنفَق في الحلال!

فقالت متوثّبة للخصام:

- هو رزقنا يا عاشور، وما نريد إلّا أن نأكل...

ومضى يذرع السلاملك حائرًا، ثمّ تمتم:

- هو حلال ما دمنا ننفقه في الحلال!

- ٤٩ -

وبمرور الأيّام هان كلّ شيء فأصبحت إقامة عاشور وأسرته بدار البنان دائمة. سرح الحمار في الفناء الخلفيّ، ووريت الكارو في البدروم. خطر عاشور في الدار مثل الوجهاء، بعمامة مقلوظة وعباءة فضفاضة، وعصا ذات مقبض ذهبيّ. وتجلّت فلّة في نضارة النعيم كأجمل هانم عرفتها الحارة، أمّا شمس الدين فكان يبول على سجّاد شيرازيّ يقدّر ثمنه بالمئات. وشاع الدفء في المطبخ، وتطايرت منه روائح اللحوم بأنواعها.

وبمضيّ الأيّام أخذت الحياة تتسرّب إلى الحارة. جاء حرافيش فآووا إلى الخرابات. وكلّ يوم يعمر بيت بأسرة جديدة. ومضت الدكاكين تفتح أبوابها. تردّدت أنفاس الحياة، ارتفعت الحرارة، تجاوبت الأصوات، هلّت الكلاب والقطط، عادت الديكة تصيح في الفجر، ولم تبق خالية إلّا دور الأغنياء.

وعُرف عاشور بوجيه الحارة الوحيد. يشار إليه بإكبار، ويقال بإخلاص:

- سيّد الحارة...

وشاع أنّه الوحيد الذي نجا من الشوطة، فأطلق عليه «عاشور الناجي». وتحمّس الجميع لإغداق الثناء عليه لجوده وإحسانه وعطفه. كان راعي الفقراء، يتصدّق عليهم، ولم يقنع بذلك فكان يشتري الحمير ويسرح بها العاطلين، أو يبتاع لمن يريد عملًا السلال والمقاطف وعربات اليد، حتّى لم يبق عاطل واحد في الحارة عدا العجزة والمجاذيب.

الحقّ أنّه لم يُعرف عن وجيه من قبل مثل ذلك. لذلك رفعوه إلى مرتبة الأولياء، وقالوا إنّه لذلك نجّاه الله من دون الآخرين.

وهدأ عاشور واستكنّ ضميره الحيّ. وشرع في تحقيق أحلام كانت تراوده من قبل، فجاء بعمّال لتنظيف الساحة والممرّ، وتطهيرها من تلال الأتربة والزبالة. وشيّد حوض مياه الدوابّ، والسبيل، والزاوية، تلك المعالم التي رسخت في وجدان حارتنا مثل التكيّة والقبو والقبور والسور العتيق، وبها وبه صارت الحارة جوهرة الحيّ كلّه.

- ٥٠ -

ترامت إلى أذنيه حركة غريبة آتية من ناحية الخمّارة!

كان في طريقه إلى الحسين فتوقّف. رأى عمّالًا يرمّمون المكان ويعدّونه لحياة جديدة. مال نحو المدخل ثمّ تساءل بصوت مرتفع:

- لحساب من تعملون؟

فجاءه صوت من ركن مظلم إلى يمين الداخل يقول:

- لحسابي أنا يا سيّد الحارة!

وبرز درويش من الظلام فتراءى أمامه. دهمته قشعريرة مفاجأة مختلطة بوثبة غضب. هتف:

- أنت حيّ يا درويش!

فقال حانيًا رأسه بامتنان:

- بفضلك يا سيّد الحارة!

ورآه في حاجة إلى إيضاح فقال بنبرة لم تخلُ من سخرية:

- عملت بحكمتك فهاجرت إلى الخلاء، لم أكن بعيدًا عنك طيلة الوقت...

فصمّم على مواجهة الموقف بالقوّة الضروريّة فقال:

- لن أسمح بفتح البوظة!

- إنّك سيّد الحارة ووجيهها الأوحد ولكنّك لست القانون ولا الفتوّة!

فسأله بحنق:

- لِمَ لا تذهب إلى أيّ حارة أخرى؟

- هنا وطني يا سيّد الوجهاء...

وتبادلا نظرة طويلة حتّى قال درويش:

- بل إنّي أتوقّع أن يشملني إحسانك العميم!

ها هو يخطّط للابتزاز! وأرعشه الغضب فسحبه من يده إلى الخارج ثمّ قال له:

- لعلّي لا أستطيع أن أغلق خمّارتك ولكنّني لن أخضع لأيّ تهديد...

- ولكنّك تجود على كلّ محتاج؟!

- في سبيل الخير أعطي لا في سبيل الشرّ.

فقال بنبرة ذات مغزى:

- إنّك حرّ في «مالك» يا سيّد الحارة!

وضغط على «مالك» ضغطًا موحيًا فرفع عاشور

منكبيه استهانة وقال:

ـ قد تسوّل لـك نفسك أن تشي بي، وأن تفشي سرّي بين الناس، هٰـذا ممكن يـا درويش، ولٰكن أتدري ماذا ستكون عواقب ذٰلك؟

ـ تهدّدني يا عاشور؟

ـ أعجنك ورأس الحسين حتّى لا يُعرف لك رأس من قدم!

ـ تهدّدني بالقتل؟

ـ وأنت تعرف أنّني على ذٰلك قادر!

ـ من أجل أن تستأثر بمال لست صاحبه؟

ـ إنّي صاحبه ما دمت أنفقه فيما ينفع الناس. . .

تبادلا نظرة طويلة مرّة أخرى. تجلّى التخاذل في عيني درويش، فقال ملاينًا:

ـ ما أريد إلّا أن تجود عليّ مثل الآخرين. . .

ـ ولا ملّيم لأمثالك. . .

وساد صمت فرجع عاشور يتساءل:

ـ ماذا قلت؟

فتمتم درويش بأسف:

ـ ليكن، رغم أنّنا أخوان فسنعيش كالغرباء!

ـ ٥١ ـ

تلقّت فلّة الخبر بانزعاج شديد حتّى تجهّم وجهها العذب بالتعاسة ثمّ قالت برجاء:

ـ غيّر معاملتك له، أعطه ما يطمع فيه، أبعد عنّا شبح الغدر.

فقال عاشور مقطّبًا:

ـ ألم يطهّرك هواء الخلاء من الضعف؟

فلوّحت له بخمار من الحرير الدمشقيّ وقالت:

ـ أخاف على هٰذا. . .

فحرّك رأسه بحدّة فقالت:

ـ لم يعد الأمان كما كان يا عاشور. . .

فقال باستهانة:

ـ إنّه شرّير حقًّا ولٰكنّه جبان. . .

ـ ٥٢ ـ

وأشرقت الشمس من جديد في أعقاب ليلة عاصفة باردة. ها هو دكّان شيخ الحارة يفتح أبوابه، ويحلّ به شيخ جديد عمّ محمود قطائف. أدرك الناس أنّ الحكومة أخذت تفيق من هجمة الموت فتعيّن أحياء مكان مَن هلك من عمّالها.

وتفاءل كثيرون بالحدث ولٰكنّه كان ذا رجع مختلف في دار عاشور. انقبض قلب عاشور لا شكّ، وفزعت فلّة فضمّت شمس الدين إلى صدرها وتمتمت:

ـ لا شيء يبتسم.

فتساءل عاشور في قلق:

ـ أليس ما مضى قد مضى؟

ـ ولٰكنّك تشاركني مخاوفي يا عاشور!

ـ ماذا جنينا؟. . . وجدنا مالًا بلا صاحب فأنفقناه فيما ينفع الناس. . .

ـ ألا ينذر وجه ذٰلك الرجل بشرّ؟

فغضب عاشور وصاح:

ـ فلنثق بصاحب المال الأصليّ جلّ جلاله. . .

فهدهدت فلّة شمس الدين وقالت:

ـ أمّا أنا فأرغب في أن يمتدّ نهر الخير حتّى يسبح فيه هٰذا الولد!

ـ ٥٣ ـ

وقرّر عاشور أن يواجه التحدّي بلا تسويف. مـال في طريقـه إلى دكّان شيـخ الحـارة ليحيّيـه. استقبله الرجل بحرارة وهو يقول:

ـ أهلًا بسيّد الحارة وراعيها. . .

فشاع السرور في صدر عاشور وقال:

ـ أهلًا بشيخ حارتنا!

وإذا به يقول:

ـ أتدري يا معلّم أنّني كنت على وشك الـذهاب للقائك؟

فخفق قلبه ولٰكنّه قال:

ـ أهلًا بك في أيّ وقت.

ـ أجدني في حاجة إلى رأي الناجي أحقّ النـاس بالكلام عن الحارة الهالكة.

- ٥٤ -

هكذا دخل محمود قطائف دار عاشور. وجلسا متجاورين على ديوان بالبهو على حين توارت فلّة وراء الباب الموارب. احتسيا القهوة وهما يتبادلان كلمات المجاملة حتّى قال الرجل:

- بحاجة أنا إلى رأي رجل يعدّه الجميع وليّ نعمتهم!

فقال عاشور بفتور:

- في خدمتك يا شيخ حارتنا...

فتريّث الرجل قليلًا ثمّ قال:

- تكوّنت لجنة منذ قليل لجرد دور الأغنياء ومحسوبك عضو فيها...

- ليرحم الله من مات.

- وقد تبيّن لنا أنّ الدور قد نُهبت يا صاحب النجاة!

- ولكن لم يكن بالحارة حيّ!

- ذاك ما كشف عنه الجرد.

فقال عاشور بحنق:

- إنّه لغريب، أسأل الله أن يكون المال قد وقع في يد من يستحقّونه؟

- يستحقّونه؟

- أعني الفقراء من أبناء حارتنا.

فابتسم محمود قطائف وقال:

- هٰذه نظريّة ولكنّ للحكومة نظريّة أخرى.

- وما نظريّة الحكومة؟

- الدور تُعتبر ملكًا لبيت المال وسوف تُعرض للبيع في المزاد...

فحدجه عاشور بحدّة وسأله:

- وماذا عن النهب؟

فهزّ منكبيه قائلًا:

- رأت اللجنة أن تتغاضى عنه منعًا لتعريض الأبرياء للتهم!

أدرك عاشور أنّ اللجنة قد نهبت الدور، ورغم شعوره بالازدراء فقد استعاد الكثير من طمأنينته، وقال مداعبًا:

- لعلّ اللجنة تعمل بنظريّتي يا شيخ محمود.

فقال شيخ الحارة بإشفاق:

- تبقى مشكلة واحدة...

فتساءل عاشور بعينيه وهو يشعر بأنّه وافى شاطئ الأمان. وقال شيخ الحارة:

- تريد اللجنة أن تطّلع على وثائق ملكيّتك لهٰذه الدار، وبذلك تنتهي مهمّتها...

اغتيل الأمان بطعنة غادرة، فاختطفت عينه نظرة من الباب الموارب، وتساءل:

- أثمّة شكّ في ملكيّتي لها؟

- معاذ الله ولكنّها الأوامر!

فقال بحدّة بصوته الخشن:

- أريد أن أعرف ما تعنيه أوامرك؟

فقال محمود قطائف بصوت منخفض:

- اغتُصبت بعض دور الهالكين في الأحياء المجاورة!

وغرقا معًا في صمت ثقيل مشحون بالتوجّس والريب حتّى رفع عاشور صوته قائلًا:

- هبها فُقدت في فوضى الموت والهجرة؟!

فتمتم شيخ الحارة بأسف:

- ستكون ورطة أيّ ورطة!

فصاح عاشور غاضبًا:

- ورطة!... ألم تقنع اللجنة بما نهبت؟

فارتعد الرجل من شدّة الصوت وقال كالمعتذر:

- ما أنا إلّا عبد الأمر...

- عندك معلومات فصرّح بما في نفسك...

- المسألة أنّ عضوًا من أعضاء اللجنة أعلن بعض التساؤلات...

- عليه اللعنة...

- الوثائق تحسم كافّة الريب...

- ولكنّها ضائعة!

فقال بلين وخوف:

- ستكون ورطة يا معلّم عاشور...

عند ذاك اقتحمت الحجرة فلّة ثائرة وهتفت مخاطبة شيخ الحارة:

- لندع اللفّ والدوران.

فنهض الرجل مرتبكًا فقالت بصراحة مثل ضربة نبّوت:

- لن يصعب عليك صعب فلنسوِّ الأمر فيما بيننا. . .

فقال الرجل بأسف:

- لو كان الأمر بيدي لهان!

ونهض عاشور محتدًّا وهو يقول:

- لتكن إرادة الله. . .

- ٥٥ -

تحدث أمور في السرّ والعلانية. الحارة الغارقة في نشاطها الدائب لا تفطن لها. قليلون جدًّا من يلاحظون أشياء دون أن يرتّبوا عليها نتائج ذات بال. والقلوب ثملة بالآمال مؤمنة بالضياء.

وذات صباح خرج عليهم عاشور الناجي منكّس الرأس. بجسمه العملاق ولكنّه منكّس الرأس ومكبّل اليد بقيد حديديّ أيضًا. هو عاشور الناجي دون غيره. يحفّ به جنود، يتقدّمهم ضابط ويسير محمود قطائف في ذيل الموكب.

انتشر شرر الذهول الغاضب بين الناس فشدّهم من الدكاكين والبيوت وملأ بهم النوافذ.

- ماذا نرى!

- ماذا وقع للدنيا؟!

- الرجل الطيّب في الحديد!

وهتف الضابط بحدّة:

- أوسعوا الطريق. . .

لكنّهم تجمّعوا وراء الموكب وتبعوه كالظلّ حتّى صاح الضابط مرّة أخرى:

- الويل لمن يقترب من القسم!

وجعل درويش الخمّار يتساءل عن معنى ما يرى ويرفض تصديقه، وبصوت مرتفع قصد أن يسمعه عاشور قال:

- ورحمة أخي ما خرجت من لساني كلمة واحدة. . .

وتبدّت فلّة آية في الجمال والحزن، متوركة شمس الدين، حاملة بقجة، محمرّة العينين من البكاء. . .

- ٥٦ -

وكانت محاكمة عاشور من الأحداث المستعصية على النسيان. شهدها جمع غفير من الحارة وخفقت لها القلوب. لأوّل مرّة تحبّ الحارة وتعشق. ووقف عاشور في القفص مزهوًّا بحرارة القلوب من حوله. ولعلّ القضاة أعجبوا بعملقته، وبصورة الأسد المرسومة في صفحة وجهه. ولم ينس الناس صوته الأجشّ وهو يقول:

- لست لصًّا، لم أعتدِ على أحد صدّقوني، كان الموت قد أهلك الحارة، رجعت من الخلاء فوجدتها خالية، ووجدت الدار بلا صاحب، ألا تستحقّ أن توهب للوحيد الذي نجا؟. . . ولم أستأثر بالمال لنفسي، اعتبرته مال الله، واعتبرت نفسي خادمًا له في إنفاقه على عباده، فلم يعد يوجد جائع ولا متعطّل، ولم يعد ينقصنا شيء فعندنا السبيل والحوض والزاوية، لماذا قبضتم عليّ كاللصوص؟. . . لماذا تعاقبونني؟

وقال الناس آمين. وحتّى القضاة ابتسم باطنهم طوال الوقت. وحكموا عليه بعام واحد.

- ٥٧ -

رجعت فلّة إلى البدروم وهي لا تملك مليّمًا واحدًا. وجدت رعاية صادقة. جاءها الطعام، وحمل إليها الماء والوقود، وعبق مسكنها بالكلمات الطيّبة. وانحسار الستر عن سرّ عاشور لم ينل من حبّ الناس له أو احترامهم، بل لعلّه خلق منه أسطورة أغنى بالبطولة والجود.

ولكنّها قرّرت ألّا تعيش على جود المحسنين. وأن تعمل في سوق الدراسة بعيدًا عن الأعين.

واعترض طريقها درويش وقال لها بخشوع:

- قلبي معك يا أمّ شمس الدين. . .

فقالت له بحدّة:

- اشمت بنا ما تشاء يا درويش!

فقال لها بحرارة:

- لا دخل لي فيما كان ومحمود قطائف شاهد على ذلك. . .

- ولكنّه جاء على هواك. . .

- سامحك الله، ماذا أفيد من سجنه؟!

- لا تخفِ فرحك يا درويش.

فقال متودّدًا:

ـ سامحك الله، دعي الخصام واقبلي مشورتي...
ـ مشورتك؟
ـ لا يصحّ أن تعملي في سوق الدراسة وحدك...
فسألته ساخرة:
ـ عندك عمل أفضل؟
ـ تحت رعايتي أفضل من العمل وحدك في سوق!
ـ في البوظة؟!
ـ مع الحفظ والصون!
فصاحت به:
ـ ملعون أنت في الدارين!
وغادرته بلا تحيّة.
وفي المساء ترامت إليها أنباء بأنّه يكوّن عصابة لينصّب نفسه فتوّة للحارة...

ـ ٥٨ ـ

ولّما زارت عاشور ورأته في لباس السجن اغرورقت عيناها. وتواثب شمس الدين مرحًا حتّى تلقّى قبلة أبيه من وراء الحاجز. وسألها عن حالها فقالت:
ـ أعمل في السوق والحال معدن...
وبدا ممتعضًا متمرّدًا، وقال:
ـ الظلم أقبح من السجن نفسه...
وأكثر من مرّة قال:
ـ لا أستحقّ العقاب...
وبلغت نبرته غاية الاحتجاج وهو يقول:
ـ ليس بين المساجين من يماثل درويش في شرّه...
فقالت ساخرة:
ـ ألا تعلم، لقد دعاني إلى العمل عنده!
ـ الوغد، وماذا عن شيخ الحارة؟
ـ يعاملني باحترام...
ـ وغد آخر ولصّ حقيقيّ...
ـ أحمل إليك تحيّات لا عدّ لها...
ـ مباركة تحيّاتهم، وكم أتوق إلى سماع الأناشيد...
ـ سترجع إلى سماعها، أمّا الزاوية والسبيل والحوض فأصبحت تُذكر مقرونة باسمك...
ـ بل يجب أن تُقرن باسم صاحبها الحقيقيّ جلّ شأنه...
وابتسمت فلّة بفتور وقالت:
ـ من أخبارنا التعيسة أنّ درويش أصبح فتوّتنا...
فقطّب عاشور وتمتم:
ـ لن ينفعه ذلك...
وعجبت فلّة فقد خيّل إليها أنّ عاشور يزداد صحّة ونضارة...

ـ ٥٩ ـ

لم ينقطع الناس عن التفكير في عاشور الناجي طيلة مدّة سجنه. انتظر الحرافيش على لهف يوم عودته، وعمل آخرون لذلك اليوم ألف حساب. حصّن درويش نفسه بالأتباع، وأغدق عليهم النقود من حصيلة الإتاوات المفروضة على العباد. وشجّعه على ذلك محمود قطائف قائلًا:
ـ إنّ الكثرة تغلب الفرد مهما تكن قوّته.
وأيّده الأعيان خوفًا من حبّ الحارة للغائب، حتّى اتّفق الرأي على إخضاعه أو اغتياله.
وتتابعت الفصول، وظلّت التكيّة تشدو بالأناشيد الغامضة، حتّى جاء اليوم الموعود.
وتلفّت شيخ الحارة فيما حوله وغمغم حانقًا:
ـ ما شاء الله!
رأى الأعلام ترفرف في أعالي الدكاكين والأسطح، رأى الكلوبات تُعلّق، رأى الأرض تُفرش بالرمل الفاقع، سمع موجات الأصوات وهي تهدر بتبادل التهاني. وعاد يغمغم:
ـ كلّ ذلك من أجل عودة لصّ من سجنه!
ورأى درويش قادمًا فسأله:
ـ هل أعددت العدّة لاستقبال الملك؟
فهمس درويش بصوت مضطرب:
ـ أما علمت بما حدث؟
وقصّ عليه حكاية العصابة، كيف انفضّت من حوله وذهبت إلى الميدان لاستقبال العائد فلم يبق معه رجل واحد. اصفرّ وجه شيخ الحارة وتمتم:
ـ الأوغاد!...
وهمس في أذن درويش:

ـ علينا أن نعيد التفكير لمواجهة الحماسين. . .

فمضى درويش وهو يقول:

ـ إنّه الفتوّة الجديد بلا منازع. . .

ـ ومن الميدان ترامى طبل وزمر.

وفي الحال خرج إلى الحارة أهلها نساءً ورجالًا وصغارًا. وتهادت كارو من ذوات العجلات الأربع قد تربّع في وسطها عاشور، تتقدّمها الزفّة، ويحدق بها رجال العصابة.

صفّق الناس وهلّلوا ورقصوا، ومن شدّة الزحام قطعت العربة المسافة بين مدخل الحارة والزاوية في حوالي الساعة.

وتواصل الرقص والطرب حتّى فجر اليوم التالي.

وجد عاشور الناجي نفسه فتوّة للحارة دون منازع.

خاتمة

وكما توقّع الحرافيش أقام فتوّته على أصول لم تعرف من قبل. رجع إلى عمله الأوّل ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كلّ تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه، وبذلك محق البلطجة محقًا. ولم يفرض إتاوة إلّا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين. وانتصر على فتوّات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل، فحفّ بها الإجلال خارج الميدان كما سعدت في داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة.

وكان يسهر ليله في الساحة أمام التكيّة، يطرب للألحان، ثمّ يبسط راحتيه داعيًا «اللّهمّ صن لي قوّتي، وزدني منها، لأجعلها في خدمة عبادك الطيّبين».

شمس الدين

الحكاية الثانية من ملحمة الحرافيش

ـ ١ ـ

في ظلّ العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان. تزدهر القلوب بالثقة وتمتلئ برحيق الموت. ويسعد بالألحان من لا يفقه لها معنًى، ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية؟

ـ ٢ ـ

لأوّل مرّة تستيقظ فلّة فلا ترى عاشور جنبها يغطّ في نومه. قلقت عيناها المثقلتان بالنوم وانقبض صدرها. استعاذت بالله من همسات الغيب في القلب العاشق، وأسفر عالمها العذب عن خلاء. أين الشابّ العجيب البالغ الستّين من عمره؟ القويّ النشيط الفاحم الشعر؟ هل غلبه النوم في سهرته الليليّة أمام التكيّة؟

ونادت شمس الدين حتّى فتح عينيه متذمّرًا. طالعها بوجهه الجميل متسائلًا، فقالت له:

ـ أبوك لم يرجع من سهرته!

ولّما استوعب قولها أزاح عنه الغطاء ونهض بجسمه الرشيق المائل إلى الطول، وبقلق غمغم:

ـ ماذا حدث؟

فقالت تتحدّى هواجسها:

ـ لعلّ النوم قد غلبه...

تجلّت رشاقته أكثر وهو يرتدي جلبابه، ووسامته المكلّلة ببراءة الشباب الأوّل. ومضى وهو يقول:

ـ كيف يطيب السهر في فجر الخريف؟!

ـ ٣ ـ

في الجوّ نسيم رطيب، وذيول شابورة تتلاشى في المجهول، وفي الجنبات تتدفّق حياة البشر. عمّا قليل سيلقى أباه. سيجده مستلقيًا بلا غطاء. سيعاتبه بما له عليه من دالّة.

واخترق القبو إلى الساحة. سبقته عيناه وهو يتأهّب لملحمة اللقاء. ولكنّه وجد المكان خاليًا. جال ببصره فيما حوله في صمت وقهر. الساحة والتكيّة والسور العتيق ولا أثر لإنسان. في هذا الموضع يجلس العملاق عادة فأين ذهب؟

وألقى على التكيّة نظرة حانقة. هي شاهد لا يدلي بشهادته. وتساءل مرّة أخرى «أين ذهب؟».

ـ ٤ ـ

لعلّه يجد الجواب عند غسّان أو دهشان أقوى مساعدين للرجل. ولكنّهما تلقّيا السؤال بعجب، وقالا إنّه يذهب إلى الساحة قبيل منتصف الليل فيمكث ساعة أو أكثر، لا يتقدّم ولا يتأخّر. وسأل شمس الدين:

ـ ألم يكن هناك ميعاد به ارتبط؟

فنفيا علمهما بأيّ شيء عدا ما ذكر.

وبعد تردّد قصد شيخ الحارة محمود قطائف فتلقّى الرجل الخبر بدهشة، وراح يفكّر ويفكّر ثمّ قال:

ـ لا تقلق لغياب الأسد، عذره معه، وسيرجع قبل الضحى...

- ٥ -

وخذلت فلّة إرادتها فهتفت:

- أفزع إليك يا ربّي من قلبي ومخاوفه...

وجلس شمس الدين بين رجال أبيه في القهوة يتناقشون وينتظرون، ينظرون نحو القبو تارة ونحو مدخل الميدان تارة أخرى. وانتشرت سحائب الخريف مفضّضة بالنور المستتر. وانتصف النهار ولم يظهر لعاشور أثر. عند ذاك تفرّق الرجال في شتّى الأنحاء وراء شهادة أو خبر. وعرفت الحارة الواقعة فاشتعلت بها، وشغلت بها عن الرزق والكدح.

- ٦ -

ونما الخبر إلى الأعيان والتجّار فدهمهم الذهول. وتفشّى في جوّهم سحر كالمعجزة. أجل فعندما تستحكم القبضة ولا يوجد منفذ واحد للأمل، تؤمن القلوب القانطة بالمعجزة، ولولا الإشفاق من خيبة عاجلة لأسدلوا الستائر وجهروا بالشماتة والفرح. ماذا ينقذهم من سطوة الجبّار وشبابه المتجدّد وإرادته الحديديّة إلّا معجزة؟! فليدم الغياب، ولتطوّ الأسطورة، ولينقلب الوضع إلى الأبد!

وسعى درويش الخمّار إلى محمود قطائف وسأله:

- أين ذهب الرجل؟

فقال شيخ الحارة بنبرة ساخرة:

- وهل أنا على الغيب مطّلع؟

فحرّك درويش رأسه الأبيض وتمتم:

- ثمّة احتمال لا يجوز أن يغيب وهو ضعفه المباغت أمام النساء!

فابتسم محمود قطائف بازدراء ولم يعلّق فواصل الآخر:

- كنت أحسب له للبقاء مائة سنة!

فغمغم شيخ الحارة:

- ويخلق ما لا تعلمون.

- ٧ -

وهبط المساء، وساقت أمواج الليل برودة غير متوقّعة، ولم يظهر لعاشور الناجي أثر. وغشيت الكآبة القهوة والبوظة والغرز. ولم ينم من أسرته أو رجاله أحد. وتأوّهت فلّة قائلة:

- ما أكثر الرجال وما أقلّ الحيلة...

فتساءل شمس الدين بحزن:

- هل أغفلنا بابًا أو تهاونّا في عمل؟

فتركت دموعها تسيل وقالت:

- قلبي رفض من بادئ الأمر أن يُخدع بالأمل...

فصاح بحنق:

- إنّي عدوّ القلوب الضعيفة المتشائمة، ما كان أبي لعبة ليُختطف، ولا كان غرًّا ليمضي إلى شرك بلا حذر، وما يحزنني إلّا انسداد السبل...

- ٨ -

وفي ضحى اليوم التالي اجتمع رجال عاشور في القهوة، بينهم شمس الدين وفلّة، وانضمّ إليهم محمود قطائف شيخ الحارة وحسين قفّة إمام الزاوية. لفّتهم الحيرة جميعًا وغصّت قلوبهم بالنذر. وساورتهم مخاوف ولكن لم يجرأ أحد على التصريح بما يساوره. وقال دهشان:

- معلّمنا لم يخرج عن عاداته مرّة طوال عشرين سنة.

فقال الشيخ حسين قفّة:

- في الأمر سرّ!

فقال غسّان:

- لا يخفي عنّا سرًّا.

وقالت فلّة:

- ولا عنّي من باب أولى.

فتساءل حسين قفّة:

- ألا يكون قد انضمّ إلى التكيّة؟

فارتفع أكثر من صوت يقول:

- خيال لا يقبله عقل...

فقال محمود قطائف:

- قلبي يحدّثني بأنّه سيظهر فجأة ما اختفى فجأة...

فقالت فلّة بنبرة باكية:

- لا يوجد أمل!

وعند ذاك صاح دهشان:

ـ لعلّه الغدر!

وخفقت القلوب وتطاير مَن الأعين الشرر فعاد دهشان يقول:

ـ حتّى الأسد يجري عليه الغدر. . .

فصاح محمود قطائف:

ـ الصبر الصبر يا رجال، لا يوجد بحارتنا كاره واحد لخير من حملت الأرض. . .

ـ يوجد كارهون وغادرون!

ـ احذروا الفتنة واصبروا والله شهيد. . .

ـ ٩ ـ

وكان درويش يقدّم قرعة لسكّير فقبض الرجل على ذراعه وهمس في أذنه:

ـ سمعت الرجال وهم يقولون إنّه لا يغدر بعاشور إلّا درويش!

ففزع الخمّار وهرع إلى دكّان محمود قطائف وأفضى إليه بما سمع وهو يرتعد من الذعر حتّى ضاق به شيخ الحارة وقال له بحدّة:

ـ لا تفعل كالنساء.

ـ كيف أتّهم وأنا لا أغادر البوظة ليلًا ونهارًا؟!

فتفكّر شيخ الحارة مليًّا وقال له:

ـ اهرب. . . لم يعد أمامك إلّا الهرب.

وقد اختفى درويش زيدان فجأة، فلم يعد يُعرف إن كان هرب أم قُتل، ولم يسأل أحد عنه، وتجاهله محمود قطائف تمامًا، وما لبث أن حلّ محلّه عليوه أبو راسين بيّاع المنزول وكأنّ درويش لم يكن. . .

ـ ١٠ ـ

ومضت الأيّام لا تحمل بصيصًا من أمل. تسير بطيئة ثقيلة مسربلة بالكآبة. ويئس كلّ قلب من أن يرى من جديد عاشور الناجي وهو يمضي بهيكله العملاق، يكبح المتجبّرين ويرعى الكادحين وينشر التقوى والأمان.

وترتدي فلّة الحداد، ويبكي شمس الدين بلا حساب، ويغرق الأعوان في الحزن والتفكير. وقد اعتقد قوم أنّ درويش غدر بالرجل في مجلس السماع ثمّ سحبه إلى القرافة فدفنه في قبر مجهول. وأصرّ أناس رغم اليأس على أنّه سيرجع ذات يوم هازئًا من كافّة الظنون. ومن شدّة الحزن تصوّر آخرون أنّ اختفاءه كرامة من كرامات الأولياء.

ومضى سحر العادة القاسي يفعل فعله بالخطب، يعاشره ويألفه ويهوّنه، ويدفعه في تيّار الأحداث اللانهائيّة فيذوب في عبابها.

لقد اختفى عاشور الناجي.

ولٰكنّ الزمن لن يتوقّف وما ينبغي له. . .

ـ ١١ ـ

وكان لا بدّ من اختيار فتوّة جديد للحارة قبل أن ينفرط نظامها أو تدوسها أقدام الحارات المتربّصة. وانحصر الاختيار بين غسّان ودهشان باعتبارهما أقوى الرجال وألصقهما بالناجي، ولم يُلتفت إلى شمس الدين لحداثة سنّه ونعومة مظهره. وانحاز رجال لكلّ رجل فتقرّر اتّباع ما يُتّبع عادة في هٰذه الأحوال، وهو أن يتصارع المتنافسان في صحراء المماليك، ثمّ يتوّج الفائز فتوّة للحارة.

تلقّت فلّة تلك الأنباء، ورأت شمس الدين وهو يرتدي جلبابه استعدادًا لشهود المعركة ضمن الأتباع ففاضت دموعها وراحت تندب حظّها. وضاق الشابّ بذٰلك فقال:

ـ لا يمكن أن تعيش الحارة بلا فتوّة.

فتساءلت بحدّة:

ـ وهل تخلف القطط الأسود؟

ـ لا حيلة أمام قضاء الله.

ـ سوف ترتدّ الفتّونة إلى عهد البلطجة والطغيان.

فقال الشابّ بحرارة:

ـ ليس من اليسير النكوص عن تراث الناجي. . .

فتنهّدت وقالت وهي تخاطب نفسها:

ـ أمس كنت رغم الفقر السيّدة، ومن الغد سأكون الأرملة الحزينة المهجورة، أبتهل للمجهول بلا أمل، أحلم بالفراديس المفقودة، أنزوي عند الأفراح، أخاف الظلام، أحذر الرجال، أتجنّب النساء، ولا صديق إلّا

الإهمال والنسيان. . .

فقال بعتاب:

ـ ولكنّني لم أمت بعد يا أمّي!

ـ فليمدّ الله في عمرك حتّى تلعن الحياة، ولكنّه تركك يافعًا، سوّاق كارو، لا مال ولا جاه، ولا عملقة تضمن لك الفتونة. . .

فتمتم في كآبة:

ـ آن لي أن أذهب، أستودعك الحيّ الذي لا يموت.

وتأبّط عصا أبيه العجراء وذهب.

ـ ١٢ ـ

نشأ شمس الدين في مسكن متقشّف فلم يعرف من الحياة إلّا البساطة والكدح. لم تحتفظ ذاكرته بصورة واحدة من دار البنان السامقة. وكان عاشور يتملّى وجهه الوسيم، المقتبس من وجه أمّه، ويقول باسمًا:

ـ لن يصلح هٰذا الولد للفتونة. . .

وأرسله إلى الكتّاب، وسكب في قلبه أعذب ألحان الحياة، ولم يهمل جانب القوّة فعلّمه ركوب الخيل واللعب بالعصا والمصارعة وإن لم يفكّر أبدًا في إعداده للفتونة. ولّما درج شمس الدين في الوعي بنفسه وبما حوله، أدرك سطوة أبيه غير المحدودة، وسرعان ما ارتطم بالتناقض الحادّ بين «عظمته» وبين حياته الفقيرة الكادحة. وقال له مرّة عند قدوم عيد:

ـ أريد يا أبي أن أرتدي عباءة ولاثة. . .

فقال عاشور بحزم:

ـ الا ترى أنّ أباك لا يرتدي إلّا الجلباب؟

وكانت فلّة تضيق بالحياة مثل ابنها، وكانت تقول لعاشور على مسمع من شمس الدين:

ـ لو أخذت من الإتاوات ما يضمن لك حياة كريمة ما لامك أحد. . .

فيقول لها عاشور:

ـ بل عليك أن تربّي الدجاج لتهبي حياتنا شيئًا من اليسر المشروع. . .

ثمّ يقول مخاطبًا شمس الدين:

ـ لا قيمة لبريق في هٰذه الحياة بالقياس إلى طهارة الضمير وحبّ الناس وسماع الأناشيد. . . !

ودرّبه على الكارو، وتبادلا العمل عليها، ولّما شارف الستّين تركها له أكثر الوقت. وكان شمس الدين يعجب بأبيه ويجلّه، ويحنّ في الوقت ذاته إلى الحياة السائغة، ويؤيّد أحيانًا أماني أمّه الجميلة، ويدافع من هٰذه الرغائب الكامنة قبل بسلامة نيّة «عيديّة» قدّمها له صاحب الوكالة، فبادر إلى شراء عباءة ولاثة ومركوب، وخطر مزهوًّا بها صباح يوم العيد. وما إن رآه عاشور حتّى أخذه من تلابيبه إلى البدروم ثمّ لطمه لطمة دار بها رأسه وصاح به:

ـ يتسلّلون إليّ من ثغرة ضعفك بعد أن أعيتهم إرادتي الصلبة. . .

وألزمه بردّ الملابس إلى البائع ثمّ بردّ العيديّة إلى صاحب الوكالة. وأدرك شمس الدين أنّه لا قِبَل له بغضب أبيه، وخجل من نفسه، وخذلته أمّه فلم تجرأ على الدفاع عنه أو الوقوف إلى جانبه.

ولٰكنّ الحبّ ـ لا العنف ـ كان ما يربط شمس الدين بأبيه، فكان تلميذه ونجيّه وصديقه، وتشبّع بكلماته وبمثاله وبتقواه ونزوعه إلى الألحان والنجوم، ومضى بالكارو فخورًا، وقاهرًا لنزعات الضعف التي تومض بين الحين والحين في أعماقه.

ورغم الفقر كان الحبّ والإجلال يحفّان بهم حيثما ذهبوا فهل يستمرّ الحال كما كان؟

ها هي أمّه ترنو إلى الغد بأعين طافحة بالهواجس!

ـ ١٣ ـ

في صحراء المماليك الوحشيّة المترامية لاح الرجال كحفنة من رمال. أرض الهاربين وقطّاع الطرق، مأوى الجنّ والزواحف، مقبرة العظام المطمورة. غسّان يتقدّم هلالًا من رجال، يقابله غير بعيد دهشان ورجاله. الأعين تترامق تحت أشعّة شمس محرقة وتتلقّى من لظى الرمال جحيمًا. . . الخلاء المحيط يرنو بعين باردة ساخرة قاسية منذرًا المنهزم بالضياع الأبديّ.

أقبل شمس الدين هادئًا، اختار موقفه في مركز بين الجماعتين، معلنًا حياده، ومعلنًا في الوقت ذاته

استعداده للانضواء تحت راية المنتصر. رفع يده تحيّة وقال بصوته الجهوريّ الخشن الذي لم يرث عن عاشور سواه:

- سلام الله على رجال حارتنا.

فتمتمت شفاه جافّة من التحفّز والإصرار:

- سلام الله على ابن العظيم الطيّب.

وتذكّر شمس الدين أنّ أحدًا من الفريقين لم يسع إلى ضمّه إليه ولا إلى نيل بركة أمّه. أجل ففي ميدان الصراع الوحشيّ لا يُكترث بالنساء ولا باليافعين...

وانضمّ شعلان الأعور إلى موقف شمس الدين وهو فتوّة متقاعد بالكبر ويقوم من الجماعة مقام الناصح الأمين. قال شعلان يمهّد للمصارعة:

- سيبدأ الصراع بين غسّان ودهشان فليتذكّر كلّ واحد من الجماعة واجبه...

وحرّك يده محذّرًا وواصل:

- يلزم كلّ مكانه، يرضى بما وقع، وخرق العهد معناه الضياع للجميع...

لم ينبس أحد، ظلّ الخلاء يرنو بنظرته الباردة القاسية الساخرة، ونعق غراب في القبّة الصافية، فعاد شعلان الأعور يقول:

- للفائز الحقّ، وعلى الجميع الطاعة وأوّلهم الخاسر.

استسلمت الجباه المبلّلة بالعرق للمقادر ولم تعترض فخاطب شعلان غسّان متسائلًا:

- تتعهّد بالطاعة إذا الآخر انتصر؟

فقال غسّان:

- أتعهّد والله شهيد.

- وأنت يا دهشان؟

- أتعهّد والله شهيد.

فقال شعلان:

- اللمسة كافية لتقرير النصر، والحذر الحذر من عنف لا يورث إلّا الضغينة.

واتّسعت الدائرة فاقتصرت الحلقة على غسّان ودهشان. جسمان متينان يلعبان بالنبّوت لعب الحواة ويتحفّزان. وثب غسّان إلى الأمام فانقضّ عليه دهشان. التحم النبّوتان وتحاورا برشاقة ومكر ودهاء. يجهد كلّ للنفاذ إلى ملمس فيقابل بالصدّ والردّ والإفلات، ويستحرّ الهجوم والحذر والإصرار، وتبارك الشمس النضال بجحيمها المستعر.

وبحركة خاطفة مباغتة يعمي الحذر فيلمس نبّوت غسّان ترقوة دهشان.

وتهتف جماعته بحماس متّقد:

- غسّان... غسّان... اسم الله عليه!

وتراخى دهشان وهو يلهث ويتجرّع الأسى. ومدّ له غسّان يده وهو يقول:

- نِعْم الأخ أنت!

فشدّ عليها دهشان وهو يتمتم:

- ونِعْمَ الفتوّة أنت!

وردّدت الأفواه بنبرة منغومة:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ودار غسّان حول نفسه في رشاقة وسعادة وهو يتساءل:

- هل من معترض؟!

استبقت الخناجر إلى المبايعة. ولمّا هدأت العاصفة ارتفع صوت يقول:

- إنّي أعترض يا غسّان.

- ١٤ -

انجذبت الأنظار نحو شمس الدين في ذهول. كان يقف بقامته الرشيقة المائلة للطول، رافعًا وجهه الوسيم، وبشرته بأشعّة الشمس تحترق. تمتم غسّان:

- أنت يا شمس الدين؟

فأجابه بثبات:

- نعم يا غسّان...

- أتطمع حقًّا في الفتونة؟

- هي واجبي ومصيري.

فقال شعلان الأعور بإشفاق:

- أبوك نفسه لم يعدّك لها!

- تعلّمت أشياء، وعرفت أشياء لا يستثمرها مثل فتوّة!

- الخير وحده لا يكفي!

فلعب شمس الدين بنبّوت أبيه في رشاقة خلّابة،

فصاح غسّان:

ـ يعزّ عليّ أن أسيء إليك...

ـ لندع النبّوت يتكلّم!

ـ إنّك غلام يا شمس الدين!

فقال بإصرار:

ـ إنّي رجل من صلب رجل...

فرفع غسّان وجهه إلى السماء تحت النار المندلعة وصاح:

ـ عفوك يا عاشور ومعذرة!

لم يرتح أحد لما يجري. التوت الشفاه بالامتعاض. وتبدّت نظرة الخلاء أبرد وأقسى وأسخر ممّا كانت.

وبدأ شمس الدين المعركة فتلاقى الخصمان. وتفجّرت معجزة في اللحظة الأولى فتسلّل نبّوت شمس الدين إلى ساق غسّان والتصق. وقف غسّان ذاهلًا. وخيّل إلى كثيرين أنّه استهان بخصمه فحدث ما حدث. المعركة لم تبدأ فكيف هكذا تنتهي؟ وتمادى غسّان في ذهوله، ولم يهتف أحد. ومدّ شمس الدين يده وهو يقول:

ـ نِعْم الأخ أنت!

فتجاهل غسّان يده، وتوثّب بين حاجبيه الغضب. وصاح شعلان الأعور مشفقًا ومحذّرًا:

ـ غسّان امدد يدك!

فهتف غسّان:

ـ إنّها ضربة حظّ وقدر.

ـ ولكن شاء الله أن ينتصر.

فهتف غسّان بإصرار:

ـ النبّوت حكم فاصل لمتماثلين في القوّة، ولكنّ شمس الدين عود أخضر ما أيسر أن ينكسر أم تريدون أن تكونوا لقمة سائغة لكلّ حارة ولعبة بيد كلّ فتوّة مقتدر؟!

عند ذاك رمى شمس الدين نبّوته، ونضا عنه ملابسه إلّا ما للعورة يستر، ووقف بقامته الرشيقة المتألّقة بلعاب الشمس ينتظر.

وابتسم غسّان ابتسامة ثقة، وفعل مثل صاحبه، وهو يقول:

ـ سوف أحميك من شرّ نفسك.

وتقاربا خطوة فخطوة حتّى التصقا تمامًا ولفّ كلّ منهما ذراعه حول الآخر. وشدّ كلّ بما فيه من عزم وإصرار وقوّة حتّى انتفخت منه العضلات ونفرت العروق. انغرزت الأقدام في الرمال. وتعملقت إرادة صلبة تروم اعتصار الخصم وتصفية ماء حياته. وحملقت الأعين في ذهول وتوقّعت لدم أن ينفجر. وتتابعت الثواني منصهرة في الأتون الملتهب. وانحبست الأنفاس فلم تُسمع نأمة واحدة. حتّى تلاقى حاجبا غسّان في عبوسة حاقدة. وبدا متحدّيًا للمستحيل والقدر. أو أنّه يغالب الغرق. ويدافع المجهول ولو بالجنون. ويطلق الحقد الأعمى على اليأس الزاحف. ويتخاذل رغم الإصرار والكبرياء والغضب. ويتخبّط وتترنّح ساقاه. ويتهاوى في العجز ويشهق فلا يرحمه شمس الدين حتّى تسقط ذراعاه وتتداعى رجلاه وينهدم.

يقف شمس الدين لاهثًا غارقًا في العرق، ويغلب صمت الذهول، حتّى يمضي شعلان الأعور إليه بملابسه وهو يقول:

ـ نِعْم الفتى... ونِعْم الفتوّة...

وتنطلق الحناجر هاتفة:

ـ اسم الله عليه... اسم الله عليه...

وصاح دهشان:

ـ ها قد بُعث عاشور الناجي!

فقال شعلان الأعور:

ـ اسمه الجديد شمس الدين الناجي...

وظلّ الخلاء محيطًا مترامیًا مثابرًا على جلاله وتعاليه...

ـ ١٥ ـ

وكانت الحارة تنتظر زفّة الفتوّة الجديد. راهن كثيرون على غسّان كما راهن كثيرون على دهشان، ولكن لم يخطر ببال أحد الفتى المليح شمس الدين. ولمّا ترامت الأخبار ذهل الجميع، وسرعان ما انقلب الذهول فرحة شاملة. فرح الحرافيش ورقصوا وقالوا إنّ هٰذا يعني أنّ عاشور حيّ لم يمت.

وتساءل محمود قطائف بامتعاض شديد:

- هل رجع عصر المعجزات؟

واستُقبل شمس الدين بالبهجة والأفراح، وحتّى فلّة زغردت رغم الحداد.

واستمع شيخ الحارة إلى القصّة كما رواها شعلان الأعور بكآبة دفينة، وراح يتساءل:

- ترى هل يمتدّ عهد التجهّم والفقر؟!

- ١٦ -

وقال شمس الدين لأمّه فلّة مزهوًّا:

- كنت أعدّ نفسي لذلك.

فقالت بابتهاج:

- حتّى أبوك لم يصدّق.

فقال بجدّيّة:

- ما أشقّ أن يكون مثلي خليفة لأبي...

فقالت بدهاء:

- لا تنس عدوّك غسّان، ولكن بيدك أن تملك قلوب رجالك!

فتجهّم وجهه وقال:

- إنّي اليوم الأمل فلا خاب الأمل...

فقالت بإغراء:

- الاعتدال سيّد الأخلاق.

فقال بإصرار:

- إنّي اليوم الأمل فلا خاب الأمل.

- ١٧ -

ومضت الأيّام هازجة بالأفراح، وآمن الناس بأنّ عاشور الناجي لم يمت.

وكان غسّان يسهر في البوظة فيسكر ويغنّي:

البخت إن مال حتعمل إيه بشطارتك

وذات مرّة قال له شعلان الأعور:

- ألم تشبع من هذا الموّال؟... عليك أن تتقّي قلبك...

فقال دهشان:

- إنّه يفتحه للشياطين...

فقال غسّان بغلظة:

- إنّك لا تغفر لي انتصاري عليك يا دهشان.

- عليك اللعنة، بل عاملتك بالأصول...

- لولا الحقد ما رحّبت بفتونة غلام!

فتساءل دهشان بحنق:

- ألم ينتصر بكلّ جدارة؟

وعند ذاك تساءل عليوه أبو راسين الخمّار:

- قلبي يحدّثني بأنّ فتوّتنا الجديد سيكون من زبائني الكرام...

فقهقه غسّان وقال:

- أحلق شاربي لو فعل، ولن نحظى منه إلّا بالفقر...

فصاح شعلان الأعور:

- لن تمرّ الليلة على خير!

فقال غسّان ساخرًا:

- هذيان سكران يا شعلان، ستمرّ الليلة مثل كلّ ليلة، ومثل الليالي السعيدة الغابرة التي شهدت ستّ الستّات وهي تخطر بين السكارى بجمالها الفتّان!

ورماه دهشان بالقرعة فأصاب صدره وصرخ في وجهه:

- يا وغد...

ووقف غسّان متحدّيًا فوثب شعلان نحوه وقال له بحزم:

- لا حياة لك في هذه الحارة...

فأدرك خطأه رغم سكره، وغادر البوظة وهو يترنّح...

- ١٨ -

ولم يفكّر أحد في إبلاغ شمس الدين بما قيل عن أمّه. قال شعلان لدهشان:

- لا علم للفتى بذلك التاريخ القديم.

فقال دهشان:

- ولكن من حقّه علينا أن نبلغه بتمرّد غسّان...

وصمّم شمس الدين على حسم الأمر بالسرعة الواجبة فقصد غسّان في مجلسه بالقهوة، وقف أمامه بوجه يموج بالغضب، وسأله:

- يا غسّان هل يمكن أن تخلص لي كما أخلصت لأبي؟

فقال غسّان:

ـ لقد عاهدتك على ذٰلك...

ـ ولٰكنّك كاذب وغير أمين...

ـ لا تصدّق الوشاة...

ـ أصدّق المخلصين...

ومال نحوه وهو يقول:

ـ لن تكون بعد اليوم من رجالي...

ولم يُرَ غسّان بعد ذاك اللقاء في الحارة...

ـ ١٩ ـ

لم يتغيّر شيء من عهد عاشور الناجي. خلفه شمس الدين راعيًا للحرافيش شاكمًا للسادة والأعيان، وثابر الفتوّة على عمله سوّاقًا للكارو، كما اشتغل كلّ رجل من رجاله بحرفته. ولم يتخلَّ عن شقّته الصغيرة مسكنًا، وسدّ أذنه دون همسات أمّه المتوسّلة. امتلأت أعطافه بالعظمة الحقيقيّة، وروى ظمأ قلبه بحبّ الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من روّاد الزاوية وأصدقاء الشيخ حسين قفّة. ومن أموال الإتاوات جدّد أثاث الزاوية، ورحّب باقتراح للشيخ حسين قفّة فأنشأ كتّابًا جديدًا فوق السبيل.

ولم يغفل عن مسئوليّته حيال الحارة والناس أبدًا. شعر بثقل الأمانة وخطورتها شأن المخلصين من الرجال. ولا شكّ أنّ فتوّات الحارات المجاورة قد استردّوا أنفاسهم باختفاء العملاق المهيب، وراحوا يتحرّشون ببعض الباعة المتجوّلين من أبناء الحارة. فلكي يؤكّد قوّته وينفض عنها شبهات الظنون، ولكي يثبت أنّ ملاحته ورشاقته لا ينقصان من فتونته، قرّر أن يتحدّى أقوى الفتوّات وهو فتوّة العطوف. وتحيّن فرصة زفّة عطوفيّة فتعرّض لها في ميدان القلعة، فدارت بين الفريقين معركة حامية انتصر فيها انتصارًا حاسمًا اجتاحت أنباؤه الحارات جميعًا، فأيقن كلّ من داعبه أمل في التحدّي أنّ الشمس الدين لا يقلّ عن عاشور قوّة وبأسًا.

هٰكذا حافظت الحارة على نظامها المثاليّ في الداخل وعلى سمعتها خارج نطاق الميدان.

ـ ٢٠ ـ

رغم ذٰلك رجع شمس الدين من معركة العطوف مبلبل الخاطر. الزويعة الثملة بالقوّة والنصر تتشرّب بالأتربة والقاذورات. لقد قال له فتوّة العطوف وهو يتوثّب للالتحام.

ـ أقدم يا بن الزانية... أقدم يا بن عاهرة خمّارة درويش!

وملأ سبابه الأسماع. هلّل له رجاله وزمجر الآخرون. أهو محض سباب ممّا تُفتتح به المعارك؟ أم هو تاريخ يعلمه الجميع ويجهله هو بحكم حداثة سنّه؟

وخلا إلى شعلان الأعور وسأله عمّا يعنيه الرجل فقال له شعلان بحدّة:

ـ نباح كلب جريح!

وقال له أيضًا:

ـ إنّ امرأة يختارها عاشور الناجي زوجة له ووعاء لذرّيّته لا يمكن أن ترتقي إليها شبهة من الشبهات...

واطمأنّ قلبه، ولٰكن لفترة قصيرة. لم يسترد الصفاء. وهامت في صدره الهواجس مثل السحائب في اليوم المطير. وفي وقت راحته جعل يسترق النظرات إلى فلّة. إنّها في الأربعين أو دون ذٰلك. مليحة ملاحة فائقة. صغيرة الجسم رشيقة فاتنة. عيناها تنفسان سحرًا خالصًا. تقيّة محترمة وذات شخصيّة مؤثّرة. لا يمكن أن يتصوّر ذٰلك، والويل لمن تسوّل له نفسه اقتحام محرابها! كم تعلّق بها لدرجة الهوس حتّى قال له عاشور الناجي يومًا:

ـ الرجل الحقّ لا يتعلّق بأمّه مثلما تفعل...

واستصحبه معه وهو صغير، فكان يأكل وينام فوق الكارو، ودار في فلك أبيه منتزعًا من الأحضان الدافئة.

ترى ماذا شهدت خمّارة درويش؟ هل يوجد رجال يعرفون من خفايا أمّه ما لا يمكن أن يعرف؟!

وغمغم بغضب:

ـ الويل لمن تسوّل له نفسه اقتحام محرابها!

- ٢١ -

وذات يوم رأى وجهًا أرجعه سنوات إلى عهد الطفولة.

كان يمضي بالكارو نحو الميدان فاعترضته معركة عجيبة ناشبة بين فتاة وفتى. كانت الفتاة تثب كالنمر فتلطم الفتى، تبصق على وجهه، قاذفة إيّاه بسيل من الشتائم، وهو يتفادى من هجماتها، ويردّ الشتائم بأقبح منها، والناس من حولهما يتفرّجون ويتضاحكون.

ولّما رأى الناس شمس الدين حيّوه، وتوقّفت المعركة، فهرب الفتى، وراحت الفتاة تلتقط ملاءتها من الأرض وتلتفّ بها وهي ترامقه في حياء.

أعجب شمس الدين بحيويّتها، ونضارة وجهها، ومرونة جسدها. ورأته يرنو إليها فقالت معتذرة:

- قلّ أدبه يا معلّمنا فأدّبته...

فتمتم باسمًا:

- أحسنت، ما اسمك؟

- عجميّة...

ثمّ بمزيد من الحياء:

- ألا تذكرني يا معلّم؟

وتذكّرها فجأة فقال بدهشة:

- بلى... كنّا نلعب معًا...

- ولكنّك لم تتذكّرني...

- تغيّرت كثيرًا، أنت ابنة دهشان؟

فحنت رأسها وذهبت.

ابنة معاونه دهشان، ولكن لشدّ ما تغيّرت.

وأشعلت حواسّه فتدفّق شبابه مثل أشعّة الظهيرة.

- ٢٢ -

وعند مشارف الغوريّة رأى عيّوشة الدلّالة وهي تشير إليه فتوقّف. تبيّن له أنّها بصحبة سيّدة أخرى. سيّدة ذات بهاء يلفت الأنظار بملاءتها الكريشة وعروس برقعها الذهبيّة، وعينيها المكحولتين الجميلتين، وجسمها المدمج الريّان. وسرعان ما اتّخذت المرأتان مجلسهما فوق العربة وعيّوشة تقول بنبرتها العجوز:

- الدرب الأحمر يا معلّم...

وثب إلى مقدّمة الكارو، وهو يتمنّى لو يخطف من المرأة نظرة أخرى. وجعلت عيّوشة تقول:

- ما أجمل أن تسوق الكارو يا فتوّتنا وأنت إن شئت أن تعيش حياة الوجهاء ما منعك مانع!

فسعد بقولها ولكنّه لم ينبس. إنّه يسعد بدفء الحبّ، ويمتلئ بأريج العظمة الحقيقيّة، ويمحق بذلك خطرات الضعف والغواية. وتوقّع أن تقول الجميلة شيئًا ولكنّها لاذت بالصمت، حتّى غادرت العربة في الدرب الأحمر. هناك ملأ منها عينيه، وأتبعها ناظريه وهي تمضي نحو رواق المشايخ.

ولبثت عيّوشة بمحلّها فنظر نحوها متسائلًا فتمتمت:

- القلعة...

مضت العربة وهو صامت. صمت رغم أنّه رغب في التكلّم. وإذا بالعجوز تسأله:

- ألم تر من قبل ستّ قمر؟

فشكر للمرأة فتحها الحديث وأجاب:

- كلّا...

- هذا شأن السيّدات المصونات!

- من جارتنا؟

- نعم، أرملة غاية في الجمال والغنى...

فتساءل:

- ولِمَ لا تستقلّ الحانطور؟

- رغبت في عربة فتوّتنا!

فالتفت نحوها فقرأ في عينيها الكليلتين نظرة باسمة ماكرة. اشتعلت حواسّه مرّة أخرى. استحضر صورة عجميّة فتراقصت الصورتان في وجدانه وثمل. وقالت عيّوشة:

- أعجبتك ولا شكّ؟

فسألها بخشونة مصطنعة:

- عمّ تسألين يا وليّة؟

فقالت ضاحكة:

- مهنتي بيع الملابس والسعادة للناس...

فانقطع عنها في حذر.

وعند ميدان القلعة غادرت العربة وهي تقول له:

- للكلام بقيّة فلا تنس عيّوشة...

- ٢٣ -

وتلاقت به أكثر من مرّة فوق الكارو، عيّوشة الدلّالة. الغزو يطرق بابه بعنف ولكنّ ضعفه الحقيقيّ يكمن في قلبه الفتيّ، في شبابه المتوقّد. قمر تناوشه بأبّهتها، وعجميّة تناوشه أيضًا بشبابها. ولعلّه يتجاوز عمره اليافع في إدراك ما يعنيه زواجه من سيّدة في مركز قمر، وما يعنيه زواجه من فتاة مثل عجميّة. ثمّة عاصفة تتوثّب في الأفق. من المستحسن أن تقصف بوادرها وأن يخوض ضرباتها ليحظى في النهاية بالهدوء والاستقرار.

وفي جلسة المساء عقب العشاء رأى أمّه في حال غير عاديّة. عيناها الجميلتان تبرقان بالمكر، وتنفذان إلى دوّامة هواجسه. وها هي تسأل في عتاب:

- ماذا يجري وراء ظهري؟

حسن. إنّه يرحّب بالمكاشفة. ويرغب في هتك أسرار قلبها المتمرّد.

- عمّ تسألين؟

فرفعت رأسها في كبرياء من يتعالى على الانخداع وتساءلت:

- أيّ لعبة تلعبها عيّوشة الدلّالة؟

وقال لنفسه إنّه لا سرّ يصان في فم عيّوشة المثرم، وابتسم مستسلمًا وهو يتمتم:

- إنّها تمارس مهنتها.

فقالت بحدّة:

- قمر في مثل سنّ أمّك وهي عقيم!

فقال رغبة في الإثارة ليس إلّا:

- ولكنّها جميلة وغنيّة!

- لم يبق من عمر جمالها إلّا أيّام، وإذا كنت ترغب حقًّا في الثراء فماذا يصدّك عنه؟

فتساءل منكرًا:

- أترضين لي خيانة عهد عاشور الناجي؟

- ولكنّ الإثراء عن طريق امرأة لا يقلّ عن ذٰلك عارًا!

فقال لا عن إيمان ولكن تماديًا في إثارتها:

- لا أظنّ ذٰلك...

- حقًّا؟!... إذن دعني أختر لك عروسًا مناسبة من بنات الوجهاء!

- هو أيضًا إثراء عن طريق امرأة!

- ولكنّه طبيعيّ لا شذوذ فيه، وأصارحك بأنّ هٰذا ما يتمنّاه قلبي!

فرنا إليها بقلق وقال:

- إنّك لا تسلّمين بحياتنا المجيدة إلّا مضطرّة، أصدّقت حقًّا أنّي أستهين بحبّ الناس وبالعظمة الحقيقيّة؟

- أكنت تمكر بأمّك؟

- كنت أداعبها!

فقالت باستياء:

- لست أنانيّة كما تتصوّر، أمس فقط رفضت يد سيّد وجهاء الحارة!

فقطّب منزعجًا وقد تخضّب وجهه بالدم، فقالت:

- وعيّوشة كانت الواسطة أيضًا!

- عليها اللعنة!

- قلت لها إنّ أرملة عاشور الناجي لا تقبل أن يحلّ محلّه رجل آخر.

فقال بجفاء:

- أقلّ ما يمكن أن يقال...

فقالت بتحدٍّ:

- قلته إكرامًا لأبيك لا خوفًا منك...

- ومَن الوغد؟

- ليس وغدًا، وما طلبه مشروع...

- من هو؟

- عنتر الخشّاب صاحب الوكالة!

فقال بازدراء:

- إنّه متزوّج ويماثلني في السنّ!

فهزّت منكبيها استهانة وقالت:

- هٰذا ما كان! أمّا حالنا فنحن نُجري العدل بين الناس ونظلم أنفسنا!

فقال بحزم:

- لقد قال أبي كلمته وما عليّ إلّا الطاعة.

وقال لنفسه إنّ قلبها لطموح، إنّها متمرّدة، ترى ما حقيقة تاريخك أيّتها السيّدة التي أحبّها أكثر من أيّ شيء في الوجود؟!

- ٢٤ -

اعترف شمس الدين بأنّ أمّه قويّة وعنيدة. اعترف أيضًا بأنّه يحبّها ويحترمها لا باعتبارها أمّه فحسب ولكن بصفتها أرملة عاشور الناجي أيضًا. أجل إنّ عاشور الناجي أبوه ولكنّه يمثّل في الوقت ذاته حقيقة أكبر من الأبوّة. وهو يهيم بهٰذه الحقيقة أكثر من الأبوّة نفسها. هي محور حياته، ومعقد أمله، وسرّ افتتانه بالعظمة الحقيقيّة.

لذا قرّر أن يصيب هدفه دون مشاورة عقيمة.

مضى بصديقه دهشان إلى الساحة أمام التكيّة في أوّل الليل.

كانت ليلة من ليالي الصيف الرائقة. والحناجر تشدو بألحانها والنجوم فوقها تتوامض في سلام.

وقال شمس الدين لدهشان:

- في هٰذا المكان الطيّب كان عاشور يخلو إلى نفسه ويواصل أسمى أفكار الحياة.

فدعا دهشان لمعلّمه القديم بالرحمة في السماوات فقال شمس الدين:

- وقد اخترته لتحلّ بركته بما سأطلبه منك...

فتمتم دهشان:

- إنّي رهن أمرك ولتحلّ به البركة...

فقال شمس الدين بهدوء:

- أريد ابنتك عجميّة على سنّة الله ورسوله!

وأخذ دهشان بما لم يتوقّع فانعقد لسانه، فسأله شمس الدين بلطف:

- ما قولك يا دهشان؟

- يا له من شرف لم أحلم به يا معلّمي...

فمدّ له يده قائلًا:

- إذن فلنقرأ الفاتحة.

- ٢٥ -

ولدى رجوعه إلى بيته من الساحة مارس شعورًا أليمًا، شعور التحدّي لسطوة أمّه، السطوة القويّة الناعمة. قال وهو يجالسها في هدوء غامض:

- أمّي، قرأت الآن فاتحة عجميّة بنت دهشان.

وللحظة لم تفهم فلّة شيئًا. ثمّ رنت إليه في ذهول:

- ماذا قلت؟

فقال بإباء داخليّ:

- قرأت فاتحة عجميّة بنت دهشان.

- مزاح من جديد؟

- هي الحقيقة يا أمّي...

فتساءلت محتجّة:

- أما كان يجب أن تشاورني قبل أن تفعل؟

- بنت مناسبة وأبوها رجل مخلص...

- أبوها رجل مخلص ولكن أما كان يجب أن تشاورني؟

فقال بهدوء:

- إنّي أعرف رأيك مقدّما وهو مستحيل...

فتمتمت محزونة:

- يا للخسارة!

فتساءل باسمًا:

- ألا أستحقّ تهنئة طيّبة؟

وترددت قليلًا، ثمّ اقتربت منه فلثمت جبينه وتمتمت:

- فليبارك المولى خطواتك...

- ٢٦ -

واستأذن شيخ الحارة محمود قطائف في مقابلة شمس الدين. تذكّرت فلّة خطوة مثل هٰذه في العهد القديم فغمغمت «عليه اللعنة». فاستقبله شمس الدين فأجلسه إلى جانبه على الكنبة الوحيدة في الحجرة. ورغم تجاوزه الستّين بدا متمتّعًا بالصحّة والحيويّة، وأقدر على الصمود لضآلة جسمه وخفّته. وقدّمت فلّة القهوة وقد لفّت رأسها بخمار أسود، وجاملته قائلة:

- كيف حالك يا معلّم محمود؟

فدعا لها الرجل بالصحّة والبركة وقال:

- ليتك تشرّفين مجلسنا بحضورك لننتفع برأيك!

فتبادلت فلّة نظرة مع شمس الدين ثمّ جلست على حافة الفراش. وتوثّب شمس الدين للاستماع وهو لا يتوقّع خيرًا. كان يعدّ محمود قطائف بين كارهيه المكظومين، مثل الأعيان، ومن فقدوا بفتونته الجاه والسيطرة. وقال شيخ الحارة:

ـ الحلم سيّد الأخلاق، والكمال من شيم القادرين. . .

فهزّ شمس الدين رأسه دون أن ينبس فواصل الرجل:

ـ بكلّ أمانة يا معلّم شمس الدين إنّي مفوّض من الأعيان للحديث معك. . .

ـ ماذا يريدون؟

ـ لهم رغبة شريفة صادقة في الاحتفال بزفافك. . .

فقال شمس الدين ببساطة:

ـ سيجري زفافي في نطاق قدرتي كسوّاق كارو.

ـ ولكنّك فتوّة الحارة أيضًا. . .؟

ـ لن يغيّر ذلك من وضعي كما تعلم.

ـ إنّك فتوّة الجميع، فتوّة الأعيان كما إنّك فتوّة الحرافيش، ومن حقّ كلّ فريق أن يحتفل بك بطريقته وفي نطاق قدرته. . .

والتفت شيخ الحارة نحو فلّة وسألها:

ـ ما رأيك يا ستّ أمّ شمس الدين؟

فأجابت فلّة بدهاء:

ـ الكريم يقبل التكريم، ولكنّ الرأي رأيه. . .

فقال محمود قطائف بارتياح:

ـ بالحقّ دائمًا تنطقين. . .

وتجهّم وجه شمس الدين فقال:

ـ كيف أقبل تكريم أناس أعلم أنّهم يكرهونني؟

ـ كلّا لا أحد يكره العدل، ولكنّهم يرغبون في تصفية الجوّ. . .

ـ إنّه لن يصفو بالألاعيب، وإنّي أخمّن أنّ عندك الكثير فهات ما عندك. . .

فتحرّج محمود قطائف مليًّا ثمّ قال:

ـ إنّهم يقولون إنّ جميع الناس يتمتّعون بالعدل والكرامة عدا الأعيان وأصحاب النشاط الحقيقيّ، فهل هذا من العدل؟!

ها هي جيوش الظلام تتحرّك. تريد أن تطمس قبسات النور في زوايا الحارة وأزقّتها. يتوهّمون أنّ شمس الدين صبيّ يافع تخلب لبّه الزينة كما تخلب لبّ أمّه الجميلة. فارفع عصا عاشور العجراء واهْوِ بها على نبضات الفتنة والغرور والإغراء.

وتساءل بخشونة:

ـ ألا يعيشون في أمان وراحة بال؟

ـ حلمك يا معلّم، لِمَ لا تؤخذ الإتاوات إلّا منهم؟

ـ هم وحدهم القادرون. . .

ـ ولكنّ الناس تفسّر ذلك على هواهم ويستهينون بهم!

فقال بغضب:

ـ إنّهم يأبون إلّا الرفعة لأنفسهم والدونيّة للآخرين.

فصمت محمود قطائف مليًّا ثمّ قال:

ـ من حقّهم أن يطالبوا باحترام يكافئ أعمالهم.

ـ ماذا تعني؟

ـ ماذا كانت تكون حارتنا لولاهم؟ دورهم زينة، أسماؤهم نجوم في الحيّ، من حوانيتهم يتدفّق الغذاء والكساء لحارتنا، ومن أموالهم شيّدت الزاوية والحوض والسبيل والكتّاب الجديد، ألا يكفي ذلك كلّه؟!

فاحتدّ شمس الدين غاضبًا وقال:

ـ لولا أبي ما انتفع بأموالهم أحد، انظر إلى نظرائهم في الحارات الأخرى ماذا يفعلون!

فلاذ شيخ الحارة بالصمت مرّة أخرى، بدا متردّدًا، فقالت فلّة:

ـ تكلّم، ما على الرسول إلّا البلاغ.

فتشجّع محمود قطائف قائلًا:

ـ إنّهم يرون أنّهم مظلومون، كما يرون أنّك ورجالك مظلومون أيضًا، يقولون إنّ منزلة الفتوّة الحقيقيّة بين الأعيان، وإنّ الأعيان فضّلهم الله درجات على الناس، ولن ينتقص ذلك من حقّ الفقير في العدل!

فصاح شمس الدين:

ـ وضحَ الأمر يا شيخ الحارة، إنّهم يغرونني بنبذ العهد والارتماء في أحضان البلطجة. . .

ـ معاذ الله!

ـ هي الحقيقة وإنّك لتؤمن بما أقول. . .

ـ معاذ الله يا معلّم.

ـ إليك رأيي النهائيّ. . .

فقاطعه واقفًا وهو يقول بتوسّل:

ـ بل فكّر في الأمر قليلًا، لا أطالبك إلّا بتأجيل الحكم حتّى تفكّر. . .

ومرق من الحجرة كالهارب. . .

ـ ٢٧ ـ

اختفى محمود قطائف تاركًا خلفه رائحة تبغ وعرق. وترك صمتًا تتلاقى فيه النظرات وتتباعد. وثمّة تناحر بين الفتى وأمّه. بين الفتى وغرائزه. وزينة الدنيا ذات رائحة نفّاذة ينجذب إليها فحل الأهواء المكبوتة. في هٰذه الحجرة الحقيرة تضطرم أحلام باللآلئ والنعيم والضجعة الطيّبة. همسات النفس يحمرّ لها الوجه خجلًا ـ أمّه الجميلة المتمرّدة ذات الالتفاتة الساحرة ـ محالها مجهول النسب يتجسّد ضعفه البغيض المستتر.

وقال لها متحدّيًا:

ـ الفتوّة كما تعلّمت هو حامي الحارة وراعيها وكابح قوى الشرّ فيها. . .

فقالت ساخرة:

ـ وهو لا يتميّز عن أيّ متسوّل فيها!

قال بحرارة:

ـ أمّي، كوني معي لا عليّ. . .

ـ إنّي معك دومًا والله شهيد. . .

فهتف منقضًّا على أمّه ونفسه معًا:

ـ أريد أن أكون جديرًا باسم الناجي وعهده. . .

فقالت أمّه بظفر:

ـ عاشور لم يتردّد عن وضع يده على دار البنان الخالية!

فقال غاضبًا:

ـ العبرة بالخاتمة!

ـ بل أعطانا في كلّ حال مثلًا يُحتذى. . .

فقال بازدراء:

ـ سيجيء زمن نلصق فيها بعاشور العظيم كلّ خلجة ضعف تضطرب في نفوسنا. . .

ـ ٢٨ ـ

مشى شمس الدين بحذاء الحمار مطمئنًّا ومثخنًا بالجراح. طالما رأى الشعاع يسيل مبتهجًا عقب الغيوم الممطرة. لا خجل من الضعف إذا المرء عليه انتصر. وما معنى القوّة إذا لم تستوِ فوق خلجات الخور. فانهلْ من رحيق الحياة السامي النابع. من علوّ الهمم.

وأمام دكّان محمود قطائف شدّ اللجام فتوقّفت العربة.

وهرع إليه الرجل متلهّفًا.

فتخطّاه بنظرة باردة وقال بحزم:

ـ عاشور الناجي لم يمت!

ـ ٢٩ ـ

وكان شمس الدين ماضيًا نحو مسكنه ليلًا عندما اعترضه شبح امرأة. همست:

ـ مساء الخير. . .

ـ عيّوشة؟. . . ماذا جاء بك؟

ـ هلّا تبعتني إلى حجرتي؟

خفق قلبه. خاف الدعوة. ثار فضوله. اشتعل شبابه. مضى وراءها صاغرًا.

ـ ٣٠ ـ

همست العجوز وهي تتقدّمه في الدهليز:

ـ أمرك عجيب!

ـ ماذا؟

ـ ألا يحقّ لنا أن نسأل لِمَ يُرفض البدر في تمامه؟

فتحت باب الحجرة فارتمى ضوء المصباح على الأرض. تنحّت من أمامه وهي تدفعه بيدها. رأى ستّ قمر جالسة على حافة الفراش وهو الموضع الوحيد الصالح للجلوس. مبرقعة ملفوفة في ملاءتها غاضّة البصر من الحياء.

وقف يرنو إليها في غاية من الانفعال.

وتساءلت عيّوشة من موقفها فوق العتبة:

ـ هل بلغك عنّا ما يسوء؟

فأجاب بارتباك:

ـ أبدًا.

ـ هل في جمالنا نقص أو عيب؟
فقال والخدر يسري في حواسّه:
ـ معاذ الله...
ـ هل هوّن من شأننا البوح بسرّنا؟
فغمغم بأصوات مغضوضة وجفّ ريقه.
وأغلقت العجوز الباب فدفعت به إلى الحافة.
وتمتمت قمر بصوت لا يكاد يسمع:
ـ إنّي خجلى، لا أدري ماذا صنعت بنفسي...
فقال ببلاهة:
ـ كلّ خير...
ـ لا تسئ بي الظنّ...
وتهاوى تحت دفعة طوفان فالتهمت الغريزة الكون كلّه. وأذعن لمشيئة القوّة الملكيّة المزهوّة بالاستهتار والخيلاء والعمى.
وهمست قمر وهي تقاوم مقاومة لا معنى لها:
ـ لا تسئ بي الظنّ...

ـ ٣١ ـ

وجد شمس الدين نفسه في الدهليز مرّة أخرى. عقب إغلاق الباب وراءه. سبح الظلام في المكان وتسرّب إلى حنايا نفسه. أخلفت النار رمادًا خانقًا وزفرت الدنيا فتورًا وأسى.
وعند نهاية الدهليز رأى شبح عيّوشة على ضوء النجوم الباهت. همست له وهو يمضي:
ـ الأمل في شهامة الرجال لا يخيب...
فتجهّم حانقًا ومضى مثقلًا بالأسى...

ـ ٣٢ ـ

لقد أخطأ ولٰكنّ خطأ الآخرين أفدح. وهو مبلبل البال ولٰكنّها امرأة داهية. لن يقع في الشرك كأبله، لن يقامر بمعدنه النفيس، ولو تحمّل ألمًا وكدرًا. إنّ قوى الظلام تتآمر عليه، كما تتآمر عليه أمّه ونزعات ضعفه، ولٰكنّه جدير بخوض المعارك.

ـ ٣٣ ـ

وزُفّت عجميّة دهشان إلى شمس الدين الناجي، وتصدّى له شعلان الأعور وهو يقول:
ـ هٰذه ليلة يطيب فيها الخروج على الأصول...
ومضى به إلى غرزة خليل سكّر. ومن الغرزة مضى به إلى بوظة عليوة أبو راسين.
وسارت الزفّة التقليديّة تجوب أطراف الحيّ يتقدّمها الطبل والزمر، وتحدق بها النبابيت. لم يعترضها معترض، وبها رسخت مهابة الفتوّة الأكبر.
ورأى شمس الدين أنّه يطير بلا توقّف. وعند كلّ محطّة تهزّه نشوة سرور وإلهام. وباركه عاشور الناجي وهو يمتطي مهرًا أخضر. وهزجت له الملائكة فوق قطع السحاب. وانفتح باب التكيّة وتدفّق منه اللحن الملكيّ ونثار التوت.
أمّا عجميّة فقد حُملت على هودج مكلّل بالستائر المزركشة.
واستقبلتها فلّة بوجه مشرق وقلب كئيب.

ـ ٣٤ ـ

في الصباحيّة جلس على أريكته المختارة بمدخل القهوة.
لمح عيّوشة تتسلّل نحوه ثمّ تقرفص تحت يمينه. حجبت سحابة ضوء الشمس. همس الصوت المثرم:
ـ ألف نهار أبيض!
فشكر فاستدركت:
ـ ولو أنّي لم أشهد الفرح!
فقال بخمول:
ـ دعوتك مباحة في جميع الأفراح.
ـ على أيّ حال نتوقّع أن يشملنا عدل فتوّتنا كالآخرين!
ـ أيّ ظلم تشكين؟
ـ إنّي أدافع عن ضعف سيّدة جليلة...
فقال بامتعاض:
ـ أنت الغاوية!
ـ هل تصحّ الغواية على القويّ الأمين؟!
فتمتم متكدّرًا:

ـ عليك اللعنة...

فنهضت لتذهب وهي تقول:

ـ لن نملّ انتظار العدل...

ـ ٣٥ ـ

وتمرّ الأيام.

تزمجر زوابع أمشير ثمّ تعقبها رياح الخماسين. تتراكم السحب ثمّ يسفر بحر الصفاء الأزرق.

من أوّل شهر ينشب صراع حام بين فلّة وعجميّة، يستحرّ ويستفحل بلا أمل في سلام، وتنجب العروس ولدًا بعد ولد. ويتجاهل شمس الدين الصراع، يشفق من مساندة المظلوم كما يشفق من زجر الظالم. ثبت له أنّ دخول معركة آمن من الدخول بين امرأتين متعاديتين. وتبدّت فلّة عنيدة شرسة لا ترحم كما تبدّت عجميّة قويّة سليطة اللسان متوحّشة عند الغضب رغم مزاياها النافعة في النشاط والتفاني في العمل والإخلاص للزوج والولد.

وسمع ذات يوم فلّة تعيّر زوجته بجدّ لصّ وما يدري إلّا وعجميّة تصيح بها «يا ربيبة البوظة». عند ذاك فقد صوابه وصفع زوجه صفعة كادت تفقدها الحياة...

ومضى إلى ساحة التكيّة منفردًا بنفسه في الظلام. لم يسمع الألحان ولا رنا إلى نجم. انصهر في نار باطنه الموقدة. هي الحقيقة بلا مراء. يعرفها الأعداء والأصدقاء. لولا سطوته لتغنّى بها الكارهون. هي حكايتهم المفضّلة وراء الأبواب المغلقة. إنّه يعانق الجنون. يعانق الجنون ويرفض أن يحتقر أمّه. لو لم تكن بريئة وفاضلة ما تزوّج منها عاشور الناجي. اقترانها بعاشور شهادة أبديّة بفضلها وخلقًا جديدًا لها. الويل لمن تسوّل له نفسه المساس بها. ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة قرحة دامية. وقد جاء الوباء ليهلك أيّ رجل من العابثين بها. ولكن تبقى الحقيقة قرحة دامية. قدح الحياة حتّى في أسعد أحوالها لا يخلو من كدر وسمّ. الويل الويل للحزن والكدر.

ومن شدّة أساه حمل السور العتيق المترامي فوق عاتقه...

ـ ٣٦ ـ

رغم كلّ شيء اعتبرته أمّه متهاونًا في حقّها. واستسلمت للغضب فرمته بطعنة مفاجئة. انتهزت فرصة غياب عجميّة في الخارج وقالت له بجرأة سافرة:

ـ قرّرت أن أتزوّج!

فذهل شمس الدين ورماها بنظرة متأجّجة وهو يتساءل:

ـ ماذا؟

ـ قرّرت أن أتزوّج!

ـ إنّك تمزحين...

ـ بل هو الجدّ.

فصاح:

ـ هو الجنون.

ـ لا جنون فيما الله به أذن.

فصرخ بغضب:

ـ لن يقع ذلك وأنا حيّ!

وصار عنتر الخشّاب غريمه فأهانه وهدّده حتّى اضطرّ الرجل إلى لزوم داره، وراح يقول لأصحابه:

ـ انظروا ماذا يفعل الفتوّة العادل...

وقال أيضًا:

ـ إنّه يتحدّى شريعة الله ذي الجلال...

ويتضاعف غضب شمس الدين، ويتضاعف حزنه، ويشعر بأنّ الأرض الطيّبة تميد به وأنّه ينحرف عن الجادّة...

وتصاب فلّة بحمّى، تتدهور صحّتها ولا تنفع معها وصفات العطّار. وترنو إليه صامتة، وتعجز حتّى عن البكاء، وتسلم الروح في جوف الليل.

ـ ٣٧ ـ

شعر بأنّه يُقتلع من جذوره وأنّ الشمس لم تعد تشرق.

وتطايرت شائعات في الحارات المعادية بأنّ شمس الدين دسّ السمّ لأمّه ليمنعها من الزواج. وتمادوا فقالوا إنّه اكتشف علاقة غير مشروعة بينها وبين عنتر الخشّاب. وهاج شمس الدين فخاض معارك حامية

دون أن يتحدّاه أحد، وتمثّل في الحيّ جبّارًا لا يعرف الرحمة.

وغشيته كآبة دائمة مثل المرض المزمن. وتهوّلت في خياله انحرافاته، واجترّ مواقفه المؤسفة مع قمر وفلّة وعنتر الخشّاب وعنفه الجنونيّ في المعارك.

وراح يقول محزونًا:

- إنّي أحمل اسم الناجي لا صفاته.

وذات ليلة اضطربت أعصابه تحت ضربات قدره فمضى كالنائم إلى مسكن عيّوشة الدلّالة. جلس على الفراش دون أن ينظر إليها وهي تحملق فيه بذهول.

وقال بلا أيّ انفعال:

- إنّي بقمر...!

- ٣٨ -

وتمضي الأيام.

يكبر الأبناء ويتأهّلون بشقّ الحرف.

يموت شيخ الحارة محمود قطائف فيحلّ محلّه سعيد الفقيّ. يموت شعلان الأعور ويتقاعد دهشان. ويموت شيخ الزاوية حسين قفّة فيحلّ محلّه الشيخ طلبة القاضي. ويموت عليوه أبو راسين فيشتري الخمّارة عثمان الدرزي.

وولدت عجميّة آخر العنقود «سليمان». وجاء نموّه خارقًا للمألوف حتّى ذكّر أباه بعملقة عاشور. لذلك قرّر أن يؤهّله للفتونة. وأن يربّيه التربية المثاليّة الخليقة بعهد الناجي وتقاليده.

ورغم ما عانى شمس الدين من انحرافات شخصيّة فإنّه حافظ على نقاء فتونته للحارة. ظلّ يعمل سوّاق كارو رغم سطوته وتقدّمه في العمر. ورعى الحرافيش بالرحمة والعدل والحبّ. وعُرف بالتقوى والعبادة وصدق الإيمان. وتناسى الناس أخطاءه، وعبدوا طيّب خصاله، وأصبح اسم الناجي مرادفًا عندهم للخير والولاية والبركة.

- ٣٩ -

تنساب عربة الزمن مكلّلة بالزهو والحياء. صلصلة عجلاتها المدوّية لا يسمعها أحد. الأذن لا تسمع إلّا ما ترغب في سماعه. يتوهّم الفحل أنّه اقترن بالدنيا قران دوام. ولكنّ العربة لا تتوقّف والدنيا زوج خئون.

- ٤٠ -

دأبت عجميّة على صبغ شعرها بالحنّاء. غزاها المشيب مذ بلغت الخمسين فلمّا شارفت الستّين لم يبق برأسها شعرة سوداء واحدة. الحنّاء تروي الشعر بماء الغسق وتضفي عليه حرارة وشموخًا. وهي ما زالت قويّة، تفيض بالحيويّة، متحرّكة لا تهمد، تواصل العمل مع الشمس وأحيانًا مع الشمس والقمر. ولم تزايلها النضارة واكتسبت مع الأيّام بدانة فاخرة. لم يتسلّل إلى هيكلها المتين ما يثير هواجس الحذر.

ويداعبها شمس الدين فيقول لها وهو يلحظ عجينة الحنّاء:

- ما جدوى الكذب يا وليّة؟

فتسائله ساخرة:

- إذا كان الشيب علامة صادقة فلم يبقى رأسك أسود؟

فاحم الشعر، قويّ البنيان، مستمسك بالقوّة والرشاقة والبهاء. إنّها تضمر نحوه حبًّا وإعجابًا بلا حدود، ومسًّا من الغيرة والخوف، لم يتزوّج بأخرى، لم يرتكب إلّا هفوة عابرة لم تتكرّر مع عجوز في سنّ أمّه. ولكن منذا يضمن المستقبل؟!

- ٤١ -

وذات صباح وهو يمشط ذؤابته حملقت عجميّة في رأسه، وبفرحة لم تفلح في مداراتها هتفت:

- شعرة بيضاء!

التفت نحوها باهتمام كما يلتفت إلى صوت النذير في المعركة. حدجها باستياء فقالت:

- شعرة بيضاء وحقّ النعمة...

فنظر إلى المرآة الصغيرة بيده وتمتم:

- كاذبة...

فاقتربت منه مركّزة بصرها على هدفها كالقطّة عندما تنقضّ على الفأر، استخلصت من الذؤابة شعرة وقالت:

- ها هي يا معلّم...

تفحّصها في المرآة. لا مفرّ ولا مكابرة. كأنّما في سوء ضبط. كما ضُبط منذ أعوام وأعوام وهو يتسلّل إلى بدروم عيّوشة. امتلأ قلبه بالاستياء والحنق، والخجل. وتجنّب النظر إليها متمتمًا باستهانة:

ـ وماذا يعني هٰذا؟!

ومضى وهو يقول:

ـ يا لك من حقود!

ـ ٤٢ ـ

لم يمرّ الاكتشاف بسلام كما توقّعت. كان يتفحّص رأسه كلّ صباح بتدقيق واهتمام. ندمت على ما بدر منها. وقالت مداهنة:

ـ لا علاقة البتّة بين الشيب والعافية...

ولكنّه كان يتساءل عمّا بلغ من عمر. متى بلغه؟ كيف قطع ذٰلك الشوط الطويل؟ ألم يهزم غسّان أمس؟ وكيف هرم دهشان وبات يمشي مثل طفل؟ وأيّ قيمة لفتوّة بغير قوّة دائمة؟

وعادت عجميّة تقول:

ـ الصحّة هي ما الله نسأل...

فسألها بغيظ:

ـ لماذا تكثرين من الحكم الفارغة؟

فضحكت لتهوّن من حدّته وقالت:

ـ الصبغة لا تعيب الرجال.

فهتف:

ـ لست من الحمقى...

لأوّل مرة يتساءل عمّا فات وعمّا هو آتٍ. ويتذكّر الأموات. ويتذكّر الأولياء الذين عمّروا ألف عام. والخراب الذي يعبث بالأقوياء. وأنّ الغدر ليس وقفًا على ضعف النفس والرجال. وأنّ هدم زفّة مسلّحة أيسر ألف مرّة من صدّ ثانية بما لا يقال. وأنّ البيت يجدّد والخرابة تعمر لا الإنسان. وأنّ الطرب طلاء قصير الأجل فوق موّال الفراق.

وطوّق رأسه باللاثة وسألها:

ـ أتدرين ما هو الدعاء؟

ولّما لم تجبه قال:

ـ أن يسبق الأجل خور الرجال!

ـ ٤٣ ـ

وقالت عجميّة عقب ذهابه إنّ ما يبقى للإنسان هو الإيمان.

وجاءها نعي أبيها دهشان فصرخت صرخة ارتجّت لها قضبان الشبّاك...

ـ ٤٤ ـ

بكت عجميّة أباها دهشان طويلًا. جعلت تقول إنّ الإنسان يصبح بطول العمر عادة محبوبة يتعذّر تصوّر الدنيا بغيرها. وحزن شمس الدين لوفاة صديقه وصديق أبيه من قبل. ولٰكن لم يزعجه موت كما أزعجه موت عنتر الخشّاب صاحب الوكالة. فهٰذا رجل يماثله في السنّ، يقف معه في صفّ واحد، وتدهورت صحّته بغتة عقب شلل مفاجئ. ولٰكنّ الموت لا يهمّه. لا يزعجه بقدر ما تزعجه الشيخوخة والضعف، إنّه يأبى أن ينتصر على الفتوّات وينهزم أمام الأسى المجهول بلا دفاع. وتساءل في دهشة:

ـ ألم يكرم عاشور الناجي بالاختفاء وهو في عزّ القوّة والكرامة؟!

ـ ٤٥ ـ

وجرت أمام عينيه بمجلسه بالقهوة مصارعة وديّة بين ابنه سليمان وبين شابّ آخر من رجاله يدعى عتريس. تعادلا في القوّة والمهارة دقائق حتّى تمكّن سليمان من هزيمة صديقه.

اشتعل باطن شمس الدين بالغضب، وكبر عليه أن يصمد عتريس أمام سليمان أكثر من دقيقة. لم يسرّ بانتصاره. لم يتصوّر أنّ القوّة تعوزه وهو الشبيه بعاشور في عملقته ولٰكن تنقصه ولا شكّ المهارة الكافية.

ـ ٤٦ ـ

ومضى بسليمان إلى سطح البيت الذي يقيم في شقّة منه. خلع ثيابه إلّا ما يستر العورة مغموسًا في أشعّة الغروب الذهبيّة وقال لسليمان:

ـ افعل مثلي...

فتساءل الشابّ متراجعًا:

- لِمَ يا أبي؟

- إنّه أمر.

وتراءيا وجهًا لوجه، شمس الدين بجسمه القويّ الرشيق وسليمان بهيكله العملاق كأنّه عاشور.

وقال شمس الدين:

- بكلّ ما أوتيت من قوّة صارِعْ.

فقال سليمان:

- اعفني من العار.

- صارِعْ وتعلَّمْ فليست القوّة بكلّ شيء.

وأطبق عليه بالقوّة والإصرار.

تلاحما فانتفخت منهما العضلات وهو يقول:

- بكلّ قوّتك...

فقال سليمان:

- إنّي أمهلت عتريس مودّة لا عن عجز.

فزمجر شمس الدين:

- بكلّ قوّتك يا سليمان...

وشعر شمس الدين بأنّه يغالب السور العتيق وأنّ أحجاره المترعة برحيق التاريخ تصكّه مثل ضربات الزمن. وحمي الصراع حتّى خال شمس الدين أنّه يصدّ الجبل. منذ دهر لم يخض معركة. قوّته راكدة في ظلّ سمعته الشامخة. تناسى أنّه يدرّب فلذة الكبد. الموت أهون من التراجع. ركبه عناد ذو عين واحدة. شدّ على عضلاته بالإصرار والكبرياء. رفع البنيان بين ذراعيه ثمّ طرحه أرضًا.

وقف يلهث ويتألّم ويبتسم.

نهض سليمان وهو يضحك قائلًا:

- أنت الناجي الأصيل المقتدر.

راح شمس الدين يرتدي ثيابه. تنازعته انفعالات متضاربة. لا حزين هو ولا سعيد. غابت الشمس واستكنّ الهدوء الشامل بين يدي المساء.

- ٤٧ -

جلس شمس الدين على الكنبة فلم يفارقه سليمان. لِمَ يفارقه؟ هل يشي وجهه بآلامه؟

- لِمَ لا تنصرف بسلامة الله؟

فتمتم سليمان:

- إنّي خجلان بما جرى.

- اذهب مصحوبًا بالسلامة.

أراد أن يكرّر الأمر ولكنّه صمت. لم يتحرّك لسانه ونسي. أقبل الليل قبل موعده.

- ٤٨ -

أغمي على شمس الدين الناجي.

فتح عينيه فرأى تلألًا حمرًا فوقها سماء تقطر غبارًا. غازلته ذكرى وسرعان ما تلاشت. إنّه يتنفّس في كهف تسكنه اللامبالاة. ينحسر الضباب فيتراءى وجه عجميّة ووجه سليمان. يدهمه الوعي بغلظة وضحكة صفراء. شمّ رائحة ماء الورد المتطايرة من عنقه ورأسه.

همست عجميّة بوجه شاحب:

- هرّبت دمنا...

وسأله سليمان بصوت متهدّج:

- بخير يا أبي؟

غمغم:

- الحمد لله...

ثمّ بنبرة المعتذر:

- حتّى شمس الدين لا ينجو من المرض...

فقالت عجميّة بحيرة:

- ولكنّك لم تشكُ...

- ما أبغض الشكوى إليّ!

وبقلق تساءل:

- تسرّب الخبر إلى الخارج؟

- كلّا، غبت دقيقتين...

- عظيم، لا يجوز أن يُعرف الخبر، حتّى الأبناء لا يجوز أن يعرفوا...

ونظر إلى سليمان وقال:

- ستنسى كلّ شيء عقب خروجك...

فحنى رأسه امتثالًا ولكنّ عجميّة سألته:

- أنت بخير؟

- كلّ خير.

- عند العطّار وصفة ولا شكّ تفيدنا.

فقال بامتعاض:

ـ إنّه من أعدائنا.

ـ الحلّاق مفيد أيضًا وهو من محبّيك...

ـ قلت إنّه لا يجوز أن يُعرف الخبر، وأنا بخير...

فتساءل سليمان بجزع:

ـ ولكن لِمَ حصل ما حصل؟

فقال متظاهرًا بالثقة:

ـ إنّه الجهد عقب الإفراط في الطعام!

استردّ الوعي تمامًا فاستردّ الثقة. نهض وتمشّى في الحجرة الصغيرة. ألا يحسن به أن يسهر بعض الليل في الساحة كما كان يفعل عاشور؟

ثمّ ناداه النوم بإغراء لا يقاوم.

ـ ٤٩ ـ

مضى نحو الساحة عند الأصيل. كانت الشمس تسحب أذيالها من الأسطح والمئذنة. مرّ بعتريس وهو يسقي حماره من الحوض فحيّاه الشابّ تحيّة الصبيّ لمعلّمه المهيب. وعند زاوية السبيل التقى بسعيد الفقيّ شيخ الحارة فوقف يتبادل معه حديثًا عابرًا. من مكمنه وراء جناحي السبيل ترامى إليه صوت عتريس وهو يخاطب آخر قائلًا:

ـ معلّمنا شمس الدين ليس كعادته...

فقال الآخر بأسف:

ـ لعلّه مريض...

فقال عتريس مشاركًا في الأسف:

ـ أو لعلّه العمر!

اجتاحته شعلة غضب. غادر مكمنه فرجع إلى عتريس وهو يهتف:

ـ أيّها الجهاد!

ورفعه بين يديه عاليًا ورمى به في الحوض. تفرّق الواقفون تاركين الحمير وقد جفلت من رجرجة الماء عقب سقوط الجسم.

ولم يعد يصلح لزيارة الساحة فعدل عنها. وباندفاعة عمياء بادر إلى الخمّارة فمرق من بابها مثل عاصفة. سكتت الأصوات المخمورة وحدّقت به الأبصار في توقّع ودهشة. جعل ينظر إليهم في تحدٍّ غير مفهوم حتّى وقفوا مترنّحين وخاشعين...

دارت برأسه أفكار شيطانيّة وسرعان ما هرع إليه عثمان الدرزي. أفاق من جنونه فتلاشت نواياه المستهترة. استسخف سلوكه. كلّا. لن يتحدّى الهواء. لن يتمادى في ارتكاب الحماقات. ستسنح فرصة فينتهزها. ستعرض تجربة فيخوضها.

وغادر المكان دون أن ينبس بكلمة أو يفعل شيئًا تاركًا وراءه ذهولًا شاملًا.

ـ ٥٠ ـ

الأيّام تتلاحق. ثمّة مصير يتخايل عن بعد ولكنّه راسخ ويقترب. لا شيء يؤخّر خطوته. إنّه يشدّ عضلاته ويسلّ إرادته وينتظر. لماذا تتمسّك بالقوّة ولست عابدها الأوحد. الشيب ينتشر. أيضًا التجاعيد حول الفم وتحت العينين. البصر يفقد حدّته وكذٰلك الذاكرة.

ويزحف التغيّر على عجميّة بسرعة أشدّ ودون تدرّج. تفتر شهوتها للطعام ويسوء الهضم. وتصاب بآلام مجهولة في الظهر والساقين. وتهزل وتنضب ثمّ تستسلم للرقاد. ماذا دهى هٰذه المرأة القويّة؟ وتجرّب الوصفة بعد الوصفة ولكن ثمّة شيئًا جوهريًّا فُقِد.

ويُكثر من الجلوس في القهوة تاركًا الكارو لسليمان. يجتمع برجاله، يسمع الأخبار، يزن كلّ يوم سطوته، يمتحن في النفوس أثره وهيبته. ويقول أحد أتباعه ذات يوم:

ـ ظهر في العطوب فتوّة جديد...

فيقول باستهانة:

ـ لعلّ القدر يعميه عن وزنه الحقيقيّ لنؤدّبه!

وفي المساء يخلو إلى نفسه ساعة في الساحة يستمع إلى الأناشيد ثمّ يسرع إلى البيت ليجلس إلى جانب عجميّة. ويلاحظ بلا جهد أنّها تمضي من سيّئ إلى أسوأ. هل تقدّر عليه الوحدة في آخر أيّامه؟ كلّ وصفة جرّبت ولكنّها تمضي من سيّئ إلى أسوأ.

ـ ٥١ ـ

وكان راجعًا إلى البيت ظهرًا عندما ارتطمت قدمه بنحلة يلعب بها طفل. وجاء صوت الطفل وهو يصيح مغيظًا:

ـ يا عجوز يا أعمى!

التفت نحوه فرآه في طول عنزة وهو يحدجه بنظرة جريئة متحدّية. ودّ لو يهرسه بقدمه. كظم غيظه ومضى. هٰذا جيل يجهله. إنّه يعيش بفضله ويجهله. ويصرّح بعفويّة بما يكتمه الراشدون. أليس من الأفضل أن تموت مرّة واحدة؟

ـ ٥٢ ـ

عند الفجر من تلك الليلة استيقظ على حركة مبعثها عجميّة. أشعل المصباح فوجدها جالسة في الفراش متألّقة بحيويّة طارئة بعثت في نفسه الأمل. قال لها:

ـ لقد شفيت يا عجميّة.

ولٰكنّها لم تجبه. نظرت إلى الجدار وهمست:

ـ أبي...

فامتلأ كآبة وتمتم برجاء:

ـ عجميّة!

رآها تغيب في المجهول وتتلاشى فهتف:

ـ لا تتركيني وحدي.

أسندها إلى صدره.

رفيقة العمر تحتضر.

ودهمه البكاء مجرّدًا ولٰكن لم تسل من عينيه دمعة واحدة.

ـ ٥٣ ـ

تناوبت زوجات أبنائه خدمته. لم يخلُ البيت من أصوات وأنفاس ولٰكنّه كان يناجي نفسه:

ـ ما أفظع وحدتي...

لم يحزن لموت عجميّة كما توقّع. شعر بأنّه على بعد خطوات قلائل منها. الحزن في مثل سنّه لا يعني شيئًا. إنّه لا يخشى الموت ولٰكن الضعف يخشى. أصبح طاعنًا في السنّ، وسيجيء يوم لا تبقى له فيه من الفتونة إلّا الاسم والذكرى.

وقال له بكريّه سماحة وكان قد جاوز الخمسين:

ـ من حقّك أن تخلد إلى الراحة...

وأكثر من واحد قال:

ـ ستجدنا جميعًا في خدمتك...

فتساءل محتدًّا:

ـ ماذا تريدون؟

فلم ينبس أحد فقال:

ـ لولا ثقتي في قوّتي لاعتزلت!

فقال سماحة:

ـ دع سليمان يحمل العبء.

ولٰكنّ سليمان بادره:

ـ ما زال أبي هو الأقوى...

فرمق ابنه بامتنان وتساءل:

ـ ماذا تعرفون عن لعنة العمر؟

فقال سماحة:

ـ إنّه ينقلب نعمة بين أحضان الراحة...

ـ ويطمع الآخرون فينا، ما أبغض قفا الحياة.

وساد الصمت حتّى قال بضيق:

ـ انصرفوا مشكورين...

ـ ٥٤ ـ

صلاح كار كجا ومن خراب كجا

بيين تفاوت ره از كجاست تابكجا

كان يذوب في السماع تحت ضوء البدر الذي حوّل بكيميائه بلاط الساحة إلى فضّة.

وقبيل منتصف الليل غادر مجلسه. مرّ بدكّان سعيد الفقيّ شيخ الحارة وهو بها فلمّا رآه الرجل مضى إليه وهو يتساءل:

ـ أما علمت يا معلّم؟

فلمّا استوضحه ما يعني قال سعيد الفقيّ:

ـ رجالك يتربّصون لزفّة فتوّة العطوف الجديد!

انتفض غاضبًا وهتف:

ـ كذب.

ـ هي الحقيقة وسيتصرون بإذن الله...

ـ أين؟

ـ عند بوّابة المتولّي، يريدون أن يشكموا الفتوة الجديد...

فتساءل شمس الدين محتدًّا:

ـ من وراء ظهري؟!

وضرب الأرض بعصاه العجراء واندفع في الظلام.

أتبعه سعيد الفقيّ عينيه حتّى اختفى ثمّ تمتم ساخرًا:

ـ أيّها العجوز المخرّف الذي يبول على نفسه!

ـ ٥٥ ـ

بدأت المعركة قبل وصوله بدقائق. رآه بعض رجاله فصاحوا:

ـ شمس الدين الناجي...

الزفّة تفور بضربات النبابيت. سليمان يفعل الأعاجيب. فتوّة العطوف يحمل حملات صادقة تزلزل الرجال.

اندفع شمس الدين بلهفة إلى قلب المعركة. وثب برشاقة أمام ابنه سليمان فصار وجهًا لوجه مع فتوّة العطوف. تفادى من ضربة شديدة ثمّ وجّه ضرباته السريعة في خفّة وحذر. امتلأ بقوّة عجيبة لا يدري من أين جاءته فقاتل كخير ما قاتل من قبل. تجلّى مندفعًا فيّاضًا ملهمًا شديد البأس. تضاعف حماس رجاله وتصاعدت جعجعة النبابيت. وثمل بنشوة القتال فخلق المعجزات. أصابته ضربات لم تعجزه ولم توقفه. ونال من خصمه ضربة أخرجته من النضال. وسرعان ما تفشّى الخور في رجال العطوف وأخذوا يتقهقرون.

وما هي إلّا ساعة حتّى انقلبت الزفّة مأتمًا. تحطّمت الكلوبات وديست الورود وتحطّمت المزامير والدفوف ولاذ الرجال بالهرب...

وقف شمس الدين وهو يلهث والدم يخضّب جبهته. التفّ حوله رجاله. وجاء سليمان فلثم يده ولكنّه قال له:

ـ لي معك حساب.

فقال سليمان معتذرًا:

ـ إنّه الوفاء لا الغدر.

وصاح الرجال:

ـ صلاة النبيّ ترضي النبيّ.

ـ ٥٦ ـ

رجع الرجال، على رأسهم شمس الدين الناجي، يخوضون الظلام على ضوء الشموع. وأنشدوا بأصوات أيقظت النيام:

ـ اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ثمّ غنّى ذو صوت حسن:

يا عود قرنفل في الجنينة منعنع

ولكنّ شمس الدين لم ينعم طويلًا بفوزه المبين. سرعان ما انفصل عن الجمع فوجد نفسه وحيدًا. وحيد في وحدة متعالية وموحشة. ووردت كلمة تقول إنّ كلّ شيء هباء حتّى الفوز. وتقول أيضًا إنّ الهتاف كثير ولكن ما أكثر الآذان التي تتعاقب على سماعه. وأقبل نحوه عاشور الناجي حاملًا على ذراعين أمّه الجميلة في كفنها الكمّوني، وفرح لظهور عاشور بعد اختفائه الطويل، وقال إنّه كان على يقين من ظهوره ذات يوم، ولكن ألم تُدفن أمّه بعد؟ وفي لحظات الرضى تهبط سحابة فيمتطيها ذو الحظّ السعيد فترتفع به في جوف القبّة. عند ذاك لا يبالي بالموجات المثبطة التي يتلقّاها من المجهول. يستوي لديه أن تحمله ساقاه أو تخذلانه. ولكنّه وحيد. وحيد يتألّم. ما معنى هذا الضعف الزاحف. الأنوار الخافتة تنطفئ. إنّه يقترب من الحارة وفي الحقيقة هو يبتعد. يبتعد إلى ما لا نهاية. لم يعد له من مطمح أكثر من أن يبلغ فراشه.

وتجلجل الأصوات:

ـ اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ويصارع شمس الدين المجهول في وحدته. إنّه يصدّه عن السير، يرفع أديم الأرض حيال قدميه، يسرق فوزه العظيم ببسمة ساخرة. ويكوّر قبضته، ويسدّد إليه ضربة في الصدر لم يعرف لعنفها مثيلًا من قبل.

وتأوّه شمس الدين الناجي ثمّ تهاوى فتلقّفته أيدي الرجال.

الحبّ والقضبان

الحكاية الثالثة من ملحمة الحرافيش

ـ ١ ـ

خفقت الأفئدة لموت شمس الدين الناجي. أسهمت الحارة في تشييد قبر له يليق بمقامه. وشيّعته إليه في جنازة مهيبة لم يتخلّف عنها رجل أو امرأة. وعُدّت صلابته البطوليّة أسطورة وكرامة من كرامات الأولياء حتّى سُمّي بقاهر الشيخوخة والمرض. وبقيت ذكرى فتونته النقيّة العادلة خالدة مثل فتونة أبيه العظيم، وتنوسيت هناته الانفعاليّة، ولم ينس أحد أنّه عاش ومات كادحًا، كما عاش ومات فقيرًا.

وبفضله وفضل أبيه عاش في وجدان الحارة مثل أعلى ترنو إليه الأعين والقلوب على تعاقب الأزمان.

ـ ٢ ـ

تولّى الفتونة سليمان شمس الدين الناجي. عملاق مثل جدّه عاشور، دون أبيه في الجمال والرشاقة، ولٰكنّه مكتسٍ بروعة الصورة الشعبيّة الأصيلة. لم يتقدّم لمنافسته أحد، وانضمّ إليه عتريس بحماس وحبّ. ولم يتغيّر مذاق الحياة في شيء. لعب الأمل بقلوب السادة والوجهاء أيّامًا ثمّ خمد. لم يكن عمره يتجاوز العشرين ولٰكنّه اتّبع خطى أبيه بلا تردّد. ظلّ حامي الحرافيش وشاكم الأغنياء، وعدوّ البلطجة، ومارس مهنة أبيه برضى واقتناع.

وكالمتوقّع واجه تحدّيات من فتوّات الحارات المجاورة فلم ينكص عن خوض المعركة بعد المعركة، وأحرز في كلّ معركة انتصارًا، أجل لم تكن انتصاراته بقوّة انتصارات أبيه أو جدّه، ولٰكنّها كانت كافية لتأمين الحارة وبسط قدر لا يستهان به من هيبتها. وترك العراك آثارًا مستديمة في الجبين والعنق ولٰكنّها عُدّت شهادة طيّبة لبطولته الرائعة.

ومن الحقّ أن يقال إنّ قلبه كان ينازعه أحيانًا إلى الحياة الطيّبة الرغيدة، وإنّه كان يقرأ مثل ذٰلك في وجوه أعوانه وإخوته، ولٰكنّه تجهّم الضعف ولم يشجّعه وفتح قلبه الغضّ لسحر العظمة الحقيقيّة.

ـ ٣ ـ

وكانت فتحيّة ـ شقيقة صديقه عتريس ـ زميلته في الكتّاب. وغابت عنه دهرًا حتّى رآها مرّة أخرى في جنازة أبيه. ورغم حزنه مال قلبه إليها. كانت تقاربه في السنّ، في أنفها فطس. عميقة السمرة، جميلة العينين، ذات حيويّة فائقة، وشعر بأنّ الزواج جدير بأن يصون فتونته من مباذل لا تليق بالفتونة النقيّة. هٰكذا طلب يدها من عتريس، وسرعان ما زُفّت إليه، واستبشرت الحارة بالزواج خيرًا، وعدّته نصرًا للحرافيش والفتونة النقيّة.

ـ ٤ ـ

ومضت عشرة أعوام هادئة. كان سليمان يعمل شاعرًا بأنّ الفتونة عبء ثقيل وبهجة عابرة. وكانت فتحيّة تعمل كما عملت عجميّة وفلّة من قبل وتلد بنتًا بعد بنت.

وفي العام الأخير من أعوامه الهادئة رأى سنيّة السمري.

من مجلسه في القهوة في أوقات الراحة يراها والدوكار يمضي بها. كريمة السمري كبير تجّار الدقيق، برّاقة المنظر في طربزتها، تطلّ من فوق برقعها الأبيض عينان سوداوان ساجيتان ساحرتان، يبعث مرورها السريع الدفء والإلهام.

تعلّق بالدوكار اهتمامه. امتدّ بصره إلى دار السمري السامقة. حلم على إيقاع جرس الدوكار برقص الفتوّات في أعقاب الظفر. تاه بعملقة الفتوّة على تواضع الكارو. وتساءل من يجلس إذا سليمان وقف. وعدا بوّابة التكيّة فأيّ باب يغلق في وجهه. والضعف قبيح ولكن ألم يعشق عاشور فلّة جدّته. أليست دار السمري أنقى من خمّارة درويش. هل كان عاشور ينكص إذا كانت فلّة كريمة للبنان؟ هل غيّر استيلاؤه على دار البنان من عدله وطيبته. وهو قادر على قهر الفتوّات ومحق الإغراء ولكنّ الحبّ قدر. وحتّى شمس الدين في هوى قمر وقع. سيجزع الحرافيش ويفرح السادة ولكنّ سليمان لن يتغيّر. ثمّ ما الحيلة إذا كان الحبّ حكم. أجل ما زالت فتحيّة الزوجة المخلصة والأمّ الولود. وهي أيضًا شقيقة عتريس الوفيّ. الحبّ الجديد غطّاها كالموجة الصاخبة ولكنّ جذورها هناك راسخة. ما أعذب الألم في محن الأهواء الجامحة!

- ٥ -

عقب صلاة الجمعة سار سعيد الفقيّ شيخ الحارة إلى جانبه. قبيل القهوة قال له:

- رأيت يا معلّم حلمًا عجيبًا...

فحدجه سليمان بنظرة متسائلة فقال:

- حلمت بأنّ أناسًا طيّبين يتمنّون لقاءك...

فخفق قلب سليمان وشعر بأنّه تجرّد فجأة من ملابسه وتمتم ساخرًا ليداري اضطرابه:

- حلم شيطانيّ...

فواصل شيخ الحارة بجدّيّة:

- ولكنّهم ينتظرون أن تجيء الخطوة الأولى منك...

وتساءل سليمان متخابثًا:

- ماذا يريدون من سوّاق كارو؟

فأجاب سعيد الفقيّ بإجلال:

- أن يوصلهم إلى سيّد الحارة دون منازع...

- ٦ -

ارتفعت موجة الإغراء كالجبل فاستدعى سليمان عتريس إلى مجلسه بالقهوة وقال له:

- عندي سرّ أريد أن أفضي به إليك.

فتطلّع إليه عتريس في امتثال فتساءل سليمان:

- أنت صديقي فكيف تراني لو تزوّجت مرّة أخرى؟

فسأله عتريس ببساطة:

- تنوي التخلّص من فتحيّة؟

- بل ستبقى في أعزّ مكان...

فضحك عتريس وقال:

- أنت تعلم يا معلّمي أنّي شارع في الزواج من الثالثة!

- الرجال لا يتنابذون بسبب النساء ولكن توجد مشكلة في الأمر...

فابتسم عتريس وقال:

- إنّ الجديدة من دور السادة؟!

فتمتم سليمان بارتياع:

- ذاع السرّ لهذا الحدّ؟

- الحبّ ذو رائحة نفّاذة!

- ماذا يقول الناس؟

- وماذا يهمّنا من الناس؟

- ماذا يقول الحرافيش؟...

فقال عتريس باندفاع:

- اللعنة على الحرافيش، أمّا أعوانك المخلصون فسيرقصون طربًا...

فبادره سليمان عابسًا:

- أخطأت التصوّر يا عتريس، سليمان الناجي لن يتغيّر...

فانطفأ تألّق الآخر وقال:

- هل تشرك الهانم في بدروم فتحيّة؟

- أيًّا كان الحلّ فسليمان لن يتغيّر... الحقّ أنّكم

تضيقون بالعدل ضيق الوجهاء!

ـ معلّمي، مَن مِن الفتوّات يرضى بما نرضى به في العيش؟

فقال سليمان بإصرار:

ـ سليمان لن يتغيّر يا عتريس!

ـ ٧ ـ

حمل سعيد الفقيّ رغبة سليمان إلى السمري وسرعان ما قوبلت بالرضى. كان السمري في أعماقه يحتقر سوّاق الكارو وأصله ولٰكنّه كان يتطلّع إلى مصاهرة الفتوّة الجبّار سيّد الحارة وشاكم الأغنياء. ورجا رجاء واحدًا أن يخصّص لكريمته جناحًا في داره حتّى يشيد لها دارًا مناسبة فلم يعارض سليمان في ذٰلك. وصعقت فتحيّة وبكت ولٰكنّها سلّمت بالمقدّر. وفرح السادة وتوجّس الحرافيش ولٰكنّ سليمان أعلن أنّه لن يتغيّر.

وشهدت الحارة زفافًا لم تشهد له مثيلًا من قبل.

ـ ٨ ـ

هٰكذا ربطت المصاهرة بين الفتوّة سليمان وبين الوجيه السمري. وقال عنها شيخ الحارة سعيد الفقيّ:

ـ مصاهرة مباركة بين الفتونة والوجاهة.

وقد امتلأ جيبه جزاء سعيه المشكور، بالرغم من أنّ سليمان أعلن أنّه لن يتغيّر. ولٰكنّ الحياة جادت بمذاقات جديدة، وحملت السحب ماء سلسبيلًا. وقال سليمان لنفسه إنّ مِن النساء مَن هنّ جبن قريش ومنهنّ مَن هنّ زبدة وقشدة. أسكرته الرائحة الزكيّة. وداهنته البشرة الملساء، وأطربته النبرة العذبة. وحلّت دنياه الرشاقة اللعوب. وبإقامته في دار السمري أيّامًا معدودات كلّ أسبوع عرف نعومة المجلس ودفء المرقد وسلاسة الملبس وأبّهة الماء الساخن في الحمّام الفسيح، والستائر والوسائد والنمارق، والتحف والتهاويل، والسجاجيد والأبسطة، والحليّ والجواهر، والأهمّ من ذٰلك كلّه الأطعمة الفاخرة واللحوم المتنوّعة والحلوى الساحرة. وذهل الفتوّة، وعجب كيف تستكنّ هٰذه الجنّة الخلّابة في طوايا الحارة المتقشّفة.

أجل حافظ على مظهره في الخارج. وأصرّ على ممارسة عمله المتواضع. ولم يتلفّع أمام الأعين إلّا بعظمته الحقيقيّة. غير أنّه آنس رياحًا جديدة تهبّ على جوّه المستقرّ، وشررًا يتطاير يوشك أن يشعل حرائق الأركان. ثمّة نظرات نافذة تهتك ما يستقرّ في معدته من أطايب الأطعمة والأشربة. وهمسات تدور حول الجنّة الخفيّة، بخاصّة من رجاله وأتباعه. واضطرّ ـ ولأوّل مرّة ـ أن يوزّع عليهم في المواسم والأعياد، وفي سرّيّة بالغة، نقودًا من الإتاوات، دون غبن يذكر للفقراء والحرافيش. شعر وهو يفعل ذٰلك بأنّه يخطو الخطوة الأولى في طريق كريه شديد الانحدار، وأنّه يحيد نوعًا ما عن سبيل الناجي. ثمّ هاله أن ينعم بما ينعم به في دار السمري على حين تعاني فتحيّة وبناتها حياتهنّ الجافّة الشاحبة، فامتدّت يده مرّة أخرى إلى الإتاوات وخصّهنّ بنفحات محدودة، منحدرًا درجة جديدة في الطريق الكريه. ومضى يقول متعزّيًا:

ـ لن يمسّ ذٰلك حقوق الفقراء والحرافيش إلّا قليلًا. . .

ولم يسكت حواره مع نفسه، ولم تصفُ الحياة من شوائب الكدر. وها هي سنيّة تلحّ عليه في أن يكفّ عن ممارسة مهنته، أن يؤجّر آخر ليسوق الكارو، وها هو يرفض بإباء، ويحاول أن يسيطر سيطرة الفحل القويّ. وهي تحبّ وتتظاهر بالطاعة تاركة الفعل والتأثير لحبّها المتسلّل المقتحم.

وكلّما شعر سليمان بأنّه يتغيّر قال لنفسه بحزم:

ـ ما تغيّرت، ولن أتغيّر. . .

ـ ٩ ـ

وجمعت مائدة العشاء بدار السمري بينه وبين وجهاء الحيّ. كانوا يتجنّبونه خوفًا أو إيثارًا للسلامة، الآن يحدقون به آمنين كما يحدق المشاهدون بالأسد في حديقة الحيوان.

وتبودلت الأنخاب، وجرت الدماء بالشجاعة، وهلّت تباشير الآمال، حتّى قال صاحب الوكالة:

ـ لعلّك ظننت يومًا أنّنا لا ندعن لك إلّا بالقهر، ألا تدري يا معلّم أنّ العدل قيمة يحبّها في النهاية من

ينتفع بها ومن يخسر؟!

فتمتم متسائلًا:

- ومن يخسر؟

- حسبك أنّك جنّبتنا الحقد والحسد واللصوص.

وهنا قال البنان:

- ولكنّنا وجدنا في عدلك الشامل شيئًا من الظلم!

فتساءل مقطّبًا:

- الظلم؟

- ظلمك نفسك وأتباعك...

وتساءل العطّار:

- أيّ ظلم في أن تنال نصيبك كاملًا وأن ينالوا نصيبهم؟

وتساءل حموه السمري:

- ألا تسفك دماؤكم دفاعًا عن كرامتنا؟

وقال تاجر الغلال:

- الفتوّة ورجاله من الوجهاء أو هٰذا ما ينبغي أن يكون...

فقال معترضًا:

- كلّا، ما فعل ذٰلك أبي ولا جدّي...

فقال صاحب الوكالة:

- لولا إقامة جدّك العظيم في دار البنان ما عرفت الحارة معنى الفلاح...

فقال بإصرار:

- كان فتوّة أعظم منه وجيهًا...

فقال صاحب الوكالة:

- خلق الفتوّة ليكون وجيهًا وليلعنّي الله إن كنت كاذبًا أو مغرضًا فيما أقول!

وضحك ساخرًا ودفء الخمر يغزوه...

- ١٠ -

وأنجبت سنيّة له «بكر» ثمّ «خضر» فنعم بما يعدّه أبوّة حقيقيّة. وفي أثناء ذٰلك تمّ تشييد دار جديدة لسنيّة. وبات سليمان يسعد بأيّامه في الدار بقدر ما يشقى بعودته الإجباريّة إلى بدروم فتحيّة. استولت سنيّة على قلبه تمامًا كما استحوذت دارها على رغباته. وبتعاقب الأيّام زحف على وجدانه مخدّر فعّال. كفّ عن عمله وأحلّ فيه أحد رجاله. وزاد من الهبات لنفسه ولأعوانه فمضت العصبة ترتفع نحو منازل الوجهاء حتّى هجروا في النهاية حرفهم البسيطة أو أهملوها. وتناقصت أنصبة الفقراء والحرافيش وإن لم يُحرموا من الهبات. تغيّر وجه الحارة المشرق، وأخذ الناس يتساءلون، أين عهد عاشور، أين إخلاص شمس الدين. وتحفّز الأتباع للمتسائلين وأرهبوا الساخطين.

وأنشأت سنيّة بكر وخضر نشأة مرفّهة ناعمة، ثمّ أدخلتهما الكتّاب، وأعدّتهما للتجارة، فلم يبشّر أحدهما بأنّه سيخلف أباه ذات يوم. ولـمّا بلغا سنّ المراهقة فتحت لهما محلًّا لبيع الغلال وبذٰلك صارا تاجرين وجيهين...

وتجنّب سليمان المعارك ما وجد إلى ذٰلك سبيلًا، وآثر في النهاية أن يحالف فتوّة الحسينيّة ليتفادى من مواجهة التحدّيات وحده، وفقدت الحارة مركز السيادة الذي تبوّأته منذ عهد عاشور الناجي.

وتغيّرت صورة العملاق ومنظره، ارتدى العباءة والعمامة، واستعمل الكارتة في مشاويره، نسي نفسه تمامًا، ثمل حتّى أصابه خمار الانحراف. ومضى يمتلئ بالدهن حتّى صار وجهه مثل قبّة المئذنة وتدلّى منه لغد مثل جراب الحاوي.

وكان سعيد الفقيّ عندما يهنّئه بأحد الأعياد يقول له:

- أيّامك كلّها أعياد يا معلّم سليمان...

- ١١ -

كان الشقيقان بكر وخضر مختلفي المظهر. بكر يشابه أمّه سنيّة هانم في جمالها ورقّتها، يبدو دائمًا هاشًّا مترفّعًا. أمّا خضر فرغم جماله ورث عن أبيه وجنتيه البارزتين وطوله دون عملقته وإلى الرقّة أقرب كان. ولعلّه لم يكن في ترفّع شقيقه ولكنّه لم يعد على أيّ حال متواضعًا. واكتسبا معًا من دار السمري أسلوبًا راقيًا في الحياة وعادات عالية وتهذيبًا أنيقًا، فلم يعرفا حارتهما إلّا من الشرفات العالية، ولم تطأ أقدامهما أرضها المبلّطة، وأدارا محلّهما من حجرة فاخرة لا

يتلاقيا فيها إلّا بكبار التجّار تاركينِ المعاملات اليوميّة مع الجمهور لوكيل المحلّ. ولم يفهما والدهما. رغم أنّهما لم يرياه إلّا في أفخم صورة فإنّهما لم يقتنعا بالفتونة ولا أضمرا لها الاحترام الكافي. لم يفطنا إلى أنّه لولا سطوة أبيهما لما نجحت تجارتهما، ولعبث العملاء والتجّار بسذاجتهما التجاريّة، فحصّلا الخبرة والمهارة في أسعد الظروف المواتية وهما لا يعلمان.

- ١٢ -

وذات مساء جلست الأسرة حول المدفأة المطليّة بالفضّة في بهو المعيشة. كان شهر طوبة يستوي على عرشه الثلجيّ والرذاذ لم ينقطع منذ الصباح الباكر. ونظر سليمان إلى ابنيه الرقيقين المتلفّعين بالعباءة المخمليّة المنزليّة ثمّ قال باسمًا:

- لو رآكما عاشور الناجي لأنكركما وتبرّأ منكما...

فقالت سنيّة وهي ترمقهما بحبّ وإعجاب:

- حتّى الملوك يتمنّوهما!

فقال سليمان بوجوم:

- إنّهما ابناك وحدك وما منهما أحد يخلفني...

فبادرت متسائلة:

- ومن أعلمك أنّني أودّ لهما الفتونة...؟

فسألها بجفاء:

- ألا تحترمين الفتونة؟

فتراجعت بلباقة قائلة:

- أحترمها كما أحترم رَجُلها، ولكنّني أكره أن يتعرّض ابناي لمخاطرها...

وتساءل ما جدوى الخصام؟... وماذا بقي من العهد؟... لقد تزوّجت بناته الكبريات من حرافيش أمّا الصغيرة المعاصرة لوجاهته فقد تزوّجت من «محترم» وسوف تنجب ذرّيّة غريبة مثل أبيها. وقد استنام الضمير إلى الدعة، واستسلم الجسد الشره إلى تيّار الإغراء والاستهانة. والمعارضة في هذه الحال حركة ساخرة.

وقال ابنه بكر:

- ولكنّ جدّنا عاشور الناجي كان يحبّ الحياة الفاخرة!

فسأله بغضب:

- من أنت لكي تفهم المعلّم عاشور؟

- هكذا قيل يا أبي...

- لا يفهم عاشور إلّا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدّسة...

- ألم يحتلّ دار البنان؟

فقال سليمان محتدًّا:

- معجزته في الحلم والعهد.

فقال بكر بجرأة غير محمودة:

- كان يستطيع أن يهرب من الشرطة بلا حلم.

احتقن وجه سليمان بالدم وهتف:

- هكذا تتكلّم عن الناجي؟

تمخّض الوجيه عن وحش في لحظة من الزمان وكأنّ عاشور الأسطوريّ قد بُعث من جديد فجفلت سنيّة وقالت مخاطبة ابنها بحدّة:

- جدّك رجل مقدّس يا بكر...

وصاح به أبوه:

- إنّك لا تصلح لشيء نبيل...

وغادر الرجل مجلسه إلى مخدعه فقالت سنيّة لبكر:

- لا تنس أنّك بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجي!

وتمتم خضر:

- أجل.

فقال بكر وما زال متأثّرًا من غضبة أبيه:

- ولكنّي تاجر ومن آل السمري أيضًا.

- ١٣ -

وقرّرت سنيّة هانم أن تفرح ببكريّها. وكانت معجبة برضوانة رضوان كريمة الحاجّ رضوان الشوبكشي العطّار فخطبتها له. لم يرها بكر من قبل ولكنّه كان يثق بشهادة أمّه.

وكان الحاجّ رضوان الشوبكشي واسع الثراء وفير الذرّيّة وعاشقًا للهو والطرب. وزفّت رضوانة إلى بكر، وخصّص لهما جناح في الدار.

- ١٤ -

بزواج بكر وفد إلى الدار جمال جديد. فرح بها بكر وعشقها من أوّل ليلة. كانت ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبيّ. وذات قامة فرعاء رشيقة. شيء واحد ضايق بكر مضايقة عابرة، أنّها كانت تماثله في الطول، وتبدو أطول منه بحذائها ذي الكعب العالي. وقالت له أمّه تطمئنه من ناحية أخرى:

- ستجدها ذات قابليّة للامتلاء، وستصير مع الأيّام في وزن أمّها بإذن الله...

وكانت العروس تتعثّر في الحياء ولا تكاد تنظر في وجه أحد. ولكنّها مع الأيّام بدأت تكتشف ما حولها، وتحدّق بنظرات نافذة في وجه الأب العملاق، وخضر شقيق زوجها، وسائر الأشياء المحيطة بها.

وقال خضر لأمّه مرّة:

- العروس لا تستقرّ.

فقالت باسمة:

- ستستقرّ عندما تنجب، إنّي أعرف هذا النوع النفيس. ألا تودّ أن أخطب لك فتاة مثلها؟

فقال خضر:

- ليس قبل أن أبلغ العشرين...

تردّد وهو يرنو إلى عينين فارسيّتين ترنوان إليه من سجّادة معلّقة فوق الجدار ثمّ قال:

- وأفضّل الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين...

فبسطت سنيّة ضفيرتها الفحماء أمام عينيها وتساءلت باسمة:

- هل ولّى زمان الشعر الأسود؟!

- ١٥ -

وانعقدت بين رضوانة وخضر صداقة وأخوّة. وكان يقوم بخدمتها كلّما غاب بكر في إحدى رحلاته التجاريّة. وفي أثناء ذلك عرف شقيقتها الصغرى وفاء. كانت صغيرة الجسم، باهرة الجمال، ولكنّها ذات شعر كستنائيّ وعينين عسليّتين. وقام بخاطره أنّ رضوانة قد تقترحها عليه زوجة بطريقة أو بأخرى فأشفق من أن يغضبها رفضه. وسألته أمّه ذات يوم:

- هل تعجبك وفاء؟

فقال بحزم:

- فتاة ممتازة ولكن ليست لي...

فتمتمت أمّه بأسف:

- أراها ممتازة حقًّا...

وعند ذاك قال لأمّه:

- أخشى أن تغضب رضوانة إذا علمت...

فقالت سنيّة:

- رضوانة ذات كبرياء وهي لا تعرض شقيقتها للبيع، ثمّ إنّ الزواج قسمة ونصيب!

- ١٦ -

وقام بكر برحلة تجاريّة تستغرق بضعة أيّام.

وعندما رجع خضر من المحلّ مساء إلى الدار وجد رضوانة واقفة عند مدخل جناحها. تصافحا، وعندما همّ بالسير قالت له:

- أريد مشورتك في أمر.

تبعها إلى بهو الجلوس. جلس على ديوان. جلست أمامه على أريكة وراحت تتطلّع إليه في صمت كأنّما لا تدري كيف تبدأ حديثها. تنسّم في الجوّ عبق بخور مخدّر وراح ينصت لهسيس الصمت. ولكي يشجّعها على الكلام قال:

- إنّي رهن إشارتك...

فلم تنبس، ولّما لاحظت شدّة انتظاره قالت:

- لا أدري ماذا أقول، هل ضقت بسرعة من وجودك معي؟

- أبدًا، المسألة أنّي أودّ خدمتك.

فقالت بغموض:

- لا أريد أكثر من ذلك...

انتظر وهو يقلق تحت شعاع العينين. تضاربت في رأسه التخمينات. حدث شيء لم يقع له في بال؟ هل سيفاجأ باقتراح محرج؟. قال:

- تحت أمرك...

فقالت بنبرة غريبة:

- أنت تجهل حالي ولذلك فإنّي أغفر لك تسرّعك...

- دعيني أطمئنّ عليك...

- أهٰذا ممكن؟
- لِمَ لا؟... يجب أن يكون ممكنًا...
فتساءلت وهي تهرب من عينيه:
- هل ذقت الهزيمة في حياتك؟
- لا أظنّ، ولكن أيّ هزيمة؟ مَن عدوّك؟
- لا عدوّ لي، إنّها هزيمة من الداخل...
فهزّ رأسه متحيّرًا فقالت متشجّعة بصورة أوضح:
- هزيمة الإنسان أمام نفسه، رضاؤه بالدمار إذا شئت...
فقال متجهّمًا:
- أعوذ بالله!... صارحيني كأخ...
فقالت بنبرة قاطعة:
- كلّا، إخوتي هناك في الدار الأخرى...
- ولكنّي أخوك أيضًا...
- كلّا، ولكن لِمَ لا تسمع القصّة من أوّلها؟
فقال بتلهّف:
- إنّي مصغٍ.
فقالت بقلق واضح:
- حدث وأنا بنت في دار أبي أنّني رأيتك مرّة ومرّة على تباعد في الزمن وسمعت من يقول إنّك ابن الفتوّة سليمان الناجي.
هزّ رأسه صامتًا، وتلقّى في الوقت نفسه رسالة مقلقة من المجهول. أمّا رضوانة فواصلت حديثها:
- لم أر بكر أبدًا، هٰكذا حدث، لم أعرف حتّى أنّ لك شقيقًا، فلا لوم على أحد...
ازدادت نذر المجهول، نفثت المخاوف في الجوّ المعبق بالبخور، استحضر صورة بكر وأمّه وأبيه... جاءت الأسرة لتسمع القصّة العجيبة.
- لماذا لا تتكلّم؟
- إنّي أصغي...
فقالت ضاحكة في ارتباك:
- ولكنّ القصّة انتهت.
- ولكنّي لم أفهم شيئًا...
- إنّك لا تريد أن تفهم...
فقال بيأس خفيّ:
- كلّا...

فقالت وهي تحدجه بنظرة ماكرة وجريئة:
- سأجاريك ليس إلّا، ذات يوم أخبرتني أمّي أنّ سنيّة هانم السمري خطبتني لابنها...
رفعت عينيها إلى السقف حتّى ترامى جيدها كالشمعدان الفضّيّ. شيء هتف به أنّ الجمال الآسر قد خلق للقتل. وأنّ الأسى أثقل من الأرض وأشمل من الهواء. وأنّ الإنسان لا يتنفّس بحرّيّة إلّا في منفى المهجر.
واعترفت قائلة في استسلام ناعم عذب:
- بصعوبة شديدة واريت فرحتي!
ثمّ فيما يشبه الغناء:
- ولم يداخلني شكّ في أنّه أنت!
خرس وجفل فقالت وهي تحدجه بجرأة:
- هٰذه هي القصّة، فهل فهمت؟
فقال بصوت متهدّج:
- ساق الحظّ إليك خير الشقيقين...
فقالت برقّة وعتاب:
- لا تُسمعني صوت الخوف!
- إنّه صوت النجاة...
- طالما أشعرتني بودّك.
- طبعًا، فإنّك زوج أخي المحبوب!
فنهضت نحوه بحركة رشيقة ومالت قليلًا حتّى غزته بشذاها الطيّب وقالت:
- بل حدّثني عن مكنون قلبك...
فوقف مذعورًا، وتباعد قائلًا:
- صارحتك بكلّ شيء...
- أنت خائف!
- كلّا.
- تخاف أخاك، تخاف أباك، تخاف نفسك...
- كفى عذابًا...
- ليس للحيطان آذان ولا عيون...
فانفلت نحو الباب وهو يتمتم:
- وداعًا...
وغادر البهو أعمى العين والقلب والبصيرة.

- ١٧ -

تجنّب خضر رؤيتها. حتّى الغداء كان يتناوله في المحلّ، والعشاء في أيّ سهرة مفتعلة. لم تلاحظ سنيّة شيئًا، ومرّت الساعات في هدوء ودعة في دار سنيّة السمري.

وعصفت الأحزان والقلق بقلب خضر. ماذا عليه ان يفعل؟ إنّه مهجور مع مشكلة لا يجوز فيها المشاورة. نازعته نفسه إلى هجر الحارة كلّها، ولكن أين يذهب، وبأيّ عذر يتعلّل؟ إنّه صاحب مبادئ. طالما قال عنه سليمان إنّه تشرّب ببعض روح الناجي وإن حُرم من قوّته وسيطرته، بخلاف شقيقه بكر الذي عشق التجارة والمغامرة والربح.

إنّه يتعذّب ولا يفعل شيئًا، ويسلّم للمقادر بلا ثقة ولا اطمئنان...

- ١٨ -

رجع بكر من رحلته فقصد المحلّ قبل الدار. استقبله خضر بحرارة. أقبل بكر متهلّلًا بالفوز وهو يقول:

- صفقة رابحة والحمد لله...

فابتسم خضر مرحّبًا فتساءل بكر:

- كيف حال العمل؟

- عال...

وإذا به يسأله:

- لست كعادتك، مالك؟

فارتعد، وتعلّل بوعكة عابرة. كيف يمكن أن تطيب المعاشرة بعد ذٰلك؟ سجّل تفاصيل الصفقة في الدفتر والأفكار تتلاطم في رأسه. الإفضاء إليه بالسرّ جريمة، وإخفاؤه عنه جريمة أخرى. كيف يمكن أن يختفي؟!

وقام بكر وهو يقول:

- إنّي مرهق ويحسن بي أن أذهب إلى الدار...

- ١٩ -

في هٰذه اللحظة يلتقي بكر برضوانة. في هٰذه اللحظة أيضًا يدرك خضر مدى خطئه ببقائه في الحارة. كيف تلقاه الجميلة الجرئية؟ هل تستطيع تمثيل دور الزوجة المشتاقة المنتظرة؟ هل تقبل عليه كما أقبلت نحوه بنظرتها المشتعلة وأشواقها المحمومة؟ هل يسدل الستار على نزوة الماضي ويمضي تيّار الحياة في مجراه المألوف؟

أو يغلبها الفتور والعواطف الدفينة فتتعلّل بالمرض؟... هل يدبّ الفساد في الحياة الزوجيّة الجديدة فتتعقّد الأمور ويتجهّم وجه الحياة؟

وارتعدت مفاصله وغمغم:

- بوسعها أيضًا أن تنتقم!

ها هو بكر يسألها عمّا بها فتقول باكية:

- أخوك غدر!

أيّ أكذوبة، أيّ شرّ يبتدر!

ولكن مهلًا. لِمَ لم تخبر حماها أو في الأقلّ حماتها؟ على أيّ حال ستجد من يصدّقها ولن يجد هو من يصدّقه.

كلّا. إنّها ماكرة وجريئة. ستتظاهر بالحزن، وتقول في غموض:

- أودّ أن نعيش بعيدًا عن هٰذه الدار.

سيسألها بكر عمّا يضايقها فتقطّب ولا تجيب. تشاجرت مع أمّي؟ مع أبي؟ كلّا.. كلّا. لا يبقى إلّا خضر. ألم يحسن خضر خدمتك؟ إنّها لا تجيب ولٰكن يبدو أنّها لا تطيق سماع اسم خضر. أيّ خطأ ارتكب؟ ثمّ تتّضح الحقيقة مثل سواد الليل تحت سماء ملبّدة بالغيوم. في هٰذه الحال تلوذ الجميلة الماكرة بانطباع شخصيّ قد يصدّق وقد لا يصدّق ولكنّه يترك أثره المحتوم. لن تصرّح بأكثر من أنّ نظراته لم تعجبها، لم ترتح لها، وأنّها لذٰلك تفضّل العيش بعيدًا عن دار السمري!

كيف يدافع عن نفسه؟ هل يهدم سعادة أخيه وسمعة أسرته؟ هل يهرب حاملًا الإثم وحده؟

ولكن أليس من الجائز أنّ أوهامه محض هواجس لا أساس لها، وأنّهما الآن ينعمان بالحبّ بعد الغياب؟!

عند ذاك سمع أقدام متوتّرة. ثمّ رأى بكر يسدّ الباب مرجفًا من شدّة الغضب.

- ٢٠ -

صرخ بكر:

- يا لك من وغد خسيس...

انقضّ عليه كالوحش وراح يكيل له الضربات والآخر لا يردّ. دميت شفتاه وأنفه ولكنّه لم يردّ، فصاح بكر:

- شلّك العار...

تراجع متسائلًا:

- ماذا جرى لك؟

- ألا تعرف حقًّا؟...

- لا أفهم شيئًا...

فصرخ:

- تطمع في زوجة شقيقك.

فهتف خضر:

- أيّ جنون!

واستأنف الحملة عليه حتّى هرع عمّال إلى مدخل الحجرة وتجمهر نفر في الحارة أمام المحلّ.

وترامى من بعيد صوت سليمان الناجي وهو يزمجر...

- ٢١ -

تفرّق الناس ورجع العمّال إلى أماكنهم. صاح سليمان:

- إذا رُفعت يد فإنّي قاطعها...

تراجع بكر ومضى خضر يجفّف دمه بمنديله. قال بكر:

- إنّه غادر يستحقّ التأديب...

- لا أريد أن أسمع كلمة هنا...

وردّد بصره بينهما في غضب وأمر قائلًا:

- اتبعاني...

ومضى نحو الدار مثل أسد جريح.

- ٢٢ -

وقفوا أمامه جميعًا، بكر وخضر ورضوانة وسنيّة. صاح بفظاظة:

- الحقيقة!

لم ينبس أحد فصاح:

- الويل لمن يخفي همسة...

ورمى رضوانة بنظرة حادّة آمرًا:

- تكلّمي يا رضوانة...

فأجهشت في البكاء فهتف متبرّمًا:

- لا أحبّ الدموع...

فتمتمت وهي تشهق:

- لم أقل إلّا أنّني أريد أن أعيش بعيدًا...

- هٰذا وحده لا يعني شيئًا ذا بال!

فقال بكر:

- فهمت من حديثها أنّها تكره أن تعيش في دار واحدة مع خضر!

- لماذا؟... أريد حقيقة ملموسة...

فقال بكر:

- تجسّدت لي الحقيقة دون تصريح...

فصاح سليمان:

- الحقيقة الحقيقة حتّى أقوم بواجبي...

ثمّ نظر نحو رضوانة وأمر:

- تكلّمي بالصراحة الكاملة...

فأجهشت في البكاء مرّة أخرى فلوّح بيده ساخطًا ثمّ التفت نحو خضر وسأله بحنق:

- ماذا فعلت؟

فتمتم خضر:

- لا شيء والله مطّلع...

- أريد أن أعرف كلّ شيء فلا تثور زوبعة بلا سبب...

هنا قالت سنيّة:

- يوجد سوء تفاهم ليس إلّا...

فقال لها سليمان بحدّة:

- اسكتي...

فقالت بيأس:

- إنّه الشيطان يندسّ بيننا...

فقال سليمان بحنق:

- الشيطان لا يندسّ إلّا بإذن منّا...

فقالت سنيّة مولولة:

- حلّت بنا اللعنة!

فقال سليمان:

ـ فلتحلّ اللعنة بمن يستحقّها...

وبغتة غادر خضر البهو فصاح به سليمان:

ـ ارجع يا ولد...

ولكنّه اختفى فصاح بكر:

ـ ألا ترى أنّه يهرب يا أبي؟

فصرخ سليمان وهو ينهض:

ـ ها أنت تعترف يا مجرم.

ولكنّه لم يرجع ولم يلحق به أحد.

ـ ٢٣ ـ

جرت فضيحة آل سليمان الناجي على كلّ لسان. وترحّم الحرافيش على عهد الناجي القديم، واعتبروا ما نزل بسليمان وابنيه جزاء عادلًا على انحرافه وخيانته. قالوا إنّ عاشور كان وليًّا، أيّده الله بالحلم والنجاة، وأكرمه حيًّا وميتًا. أمّا الكارهون فقالوا إنّها ذرّيّة داعرة متسلسلة من أصل داعر لم يكن إلّا لصًّا فاسقًا.

واجه سليمان ذٰلك بوحشيّة غيّرت من شخصيّته للمرّة الثانية، فكان يشقّ الحارة بجسمه العملاق وبدانته الآخذة في التمادي، متربّصًا لأيّ هفوة حتّى خافه أقرب المقرّبين إليه. ولم يعد منظره ينسجم مع الفتونة، فهو يترهّل ويعلوه الخمول ويغرق في الإدمان والترف. وانتفخت كرشه وتدلّت عجيزته، ومن إفراطه في الطعام كان يغلبه النوم وهو متربّع على أريكته في القهوة.

ـ ٢٤ ـ

وذات صباح وقف سليمان الناجي يحادث سعيد الفقيّ شيخ الحارة وسط وحل تكدّس في جنبات الحارة من أثر مطر انهلّ شطرًا من الليل. وكان سعيد الفقيّ يقول له:

ـ إنّ الله يمتحن من عباده المؤمنين...

وأراد سليمان أن يعلّق ولكنّه حملق بغتة في وجه عدوّ ينقضّ عليه من الغيب وتهاوى على الأرض كمشذنة. حاول النهوض مرّات ولكنّه عجز. ثمّ استسلم لما يشبه النوم. وهرع إليه سعيد الفقيّ وآخرون ولكنّه أصدر أصواتًا مبهمة ولم يستطع النطق.

وحُمل سليمان الناجي إلى دار سنيّة هانم السمري كطفل عاجز.

ـ ٢٥ ـ

دهمه شلل نصفيّ فرقد فوق فراشه عاجزًا. وكلّ من رآه أدرك أنّ سليمان الناجي قد تحوّل إلى لا شيء. وعادته فتحيّة وبناته مثل الغرباء. وقامت سنيّة برعايته وتمريضه في صبر وحزن وهي تغمغم دائمًا:

ـ حلّت بنا اللعنة!

وانقضت بضعة أعوام قبل أن يستطيع أن يتحرّك. غدًا في قدرته أن يسير على نصف جارًّا نصفه الآخر وهو يتوكّأ على عكّازين. وكان ينشد الفرجة بالجلوس أمام الدار أو في القهوة، ينطق بالكلمة أو الكلمتين ويلقي على ما حوله نظرة غائبة وقد هجرته معاني الأشياء.

ـ ٢٦ ـ

وناب عتريس عن سليمان في الفتونة. ظلّ على ولائه له بادئ الأمر، يزوره، ويعطيه نصيبه كاملًا من الإتاوات، ويمارس السلطة الفعليّة في العصابة، ويقول له:

ـ أنت سيّدنا وتاج رأسنا...

ثمّ شغلته واجبات الفتونة ـ هٰكذا قال ـ عن واجب الزيارة، فكفّ عن ورود دار السمري إلّا يوم حمل الإتاوة.

ثمّ أعلن فتونته واستولى على نصيب سليمان من الإتاوات فلم يصادف من أحد الأعوان ما يكدّر، بل لعلّهم أملوا أن يتحرّروا على يديه من الالتزامات المحدودة التي ظلّ سليمان ملتزمًا بها حيال الحرافيش.

وسرعان ما عادت الفتونة إلى سابق عهدها قبل عاشور الناجي. فتونة على الحارة لا لها، ولا خدمة تؤدّيها إلّا خدمة الدفاع ضدّ الفتوّات الآخرين. وحتّى في هٰذه الناحية اضطرّ عتريس إلى مهادنة أعداء ومحالفة آخرين، بل حتّى الإتاوة دفعها إلى فتوّة الحسينيّة

ليتجنّب معركة خاسرة. وكلّما هان خارج الحارة زاد طغيانًا وصلفًا داخلها. وأهمل أخته فتحيّة وأكثر من الزواج والطلاق. واستأثر بالإتاوات هو وعصابته على حين أغدق على الحرافيش الزجر والتأديب، وأنزل الوجهاء ـ على حدّ قول سعيد الفقيّ شيخ الحارة ـ حيث أنزلهم الله سبحانه وتعالى...

ـ ٢٧ ـ

لم يفقد سليمان الناجي الفتونة فحسب ولكنّه فقد نفسه أيضًا. لم يعد شيئًا وتلاشت الدوافع والمعاني. واستمسك بأمل شارد في الشفاء حتّى سأل رضوان الشوبكشي العطّار حما ابنه بكر:

ـ أليس لحالي دواء عندك؟

فأجابه الرجل وهو يداري ازدراءه:

ـ لقد بذلت العطّارة جميع ما في وسعها...

وقال رضوان الشوبكشي لنفسه: «يطمع في استرداد قوّته وفتونته عليه اللعنة وعلى أصله».

وطاف سليمان بالأولياء، الأحياء منهم والأموات، وناجى الأمل كلّ مناجاة، وظلّ يزحف على عكّازين، ويجمد فوق الأريكة مثل قدر المدمّس. وانتابته حكمة لم يعرفها في حياته فقال إنّ الإنسان لعبة هزيلة والحياة حلم. وتجاهله عتريس تمامًا، كما تجاهله الأعوان، وتجاهله الحرافيش بلا رحمة وعدّوه المسئول الأوّل عمّا حاق بهم.

ثمّ تغلغلت التعاسة في جوف داره. بدا أنّ سنيّة هانم برمة بالحياة في جواره. تركت مهمّة رعايته إلى جارية، وتجهّمت الحياة بقدر ما تجهّمتها الحياة. ولم تنس قطّ ابنها الهارب خضر، وفترت لذلك العلاقة بينها وبين رضوانة. ومضت تتغيّب عن الدار كثيرًا ناشدة التسلية في دور الجيران. وتألّم سليمان لذلك غاية الألم، وقال إنّ أثر الشمس يمحى وراء الغيوم. وإنّه لا كرامة لعاجز.

وقال لها مرّة:

ـ غيابك عن الدار يطول أكثر ممّا يليق.

فقالت له بحدّة:

ـ لم يبق بها شيء.

وخطر له كثيرًا أن يطلّقها ولكنّه أشفق من ألّا يجد في مسكن فتحيّة الراحة الضروريّة. وتجرّع الذلّ والمهانة متصبّرًا...

ـ ٢٨ ـ

وجالسه سعيد الفقيّ ذات يوم في القهوة. طالعه بوجه ودود، وقلب ذي حقد دفين قديم. وقال له بنبرة الصديق:

ـ يا معلّم سليمان يعزّ علينا حالك...

فرمقه بنظرة لا معنى لها فواصل الرجل:

ـ ولكن لك علينا حقّ الصدق والإخلاص...

ماذا يريد الرجل؟

ـ الرأي عندي يا معلّم أن تطلّق سنيّة هانم!

فاختلج جفناه وارتعشت يده، فقال سعيد:

ـ هذه نصيحتي كصديق قديم...

غمغم سليمان:

ـ لِمَ؟

فأجاب الرجل:

ـ لن أزيد حرفًا...

ـ ٢٩ ـ

لم يعد ردّ الفعل عنده ذا شأن. غدا ألمه مجرّدًا. لا السرور يضحكه ولا الحزن يبكيه. ولكن لا بدّ من الطلاق. سيسير في الطريق حتّى نهايته المسدودة.

ورجع من القهوة إلى مسكن فتحيّة الذي استأجره لها عقب انقلابه الخطير. استدعى المأذون وطلّق سنيّة هانم. وقد جزع لذلك بكر وقال له:

ـ ما كان ينبغي أن يقع ذلك...

فقال له:

ـ بل عليك أن تصون أمّك يا بكر!

فصرخ بكر:

ـ قطعًا لألسنة الوشاة!

وافترقا شبه متخاصمين. وجعل سليمان ينفق من مدّخره ويقول:

ـ أسأل الله أن يجيء موتي قبل أن أمدّ يدي إلى بكر...

- ٣٠ -

في أثناء ذلك تحسّنت أحوال بكر التجاريّة والماليّة. وأنجب من رضوانة رضوان وصفيّة وسماحة. وقد زلزله طلاق أمّه، وترامت إليه شائعات أليمة، حتّى اضطرّ إلى أن يبصّرها بسلوكها وما يثيره حولها. وغضبت سنيّة ولعنت الحارة ووصفتها بكلّ خسيس، ولم تغيّر من تحرّرها وانطلاقها.

إلى ذلك كان بكر قلقًا مضطربًا في حياته الزوجيّة. لم يشعر أبدًا بأنّه ملك رضوانة، ولم يكفّ عن التفاني في حبّها. ليست هي بالمطيعة ولا بالمتفاهمة ولا بالمستجيبة، وبها حدّة مجهولة الأسباب تستفحل مع الأيّام. إنّها تنال ما تريد بلا امتنان ولا سعادة، وهو لا يطيق الدنيا إذا جفته أو خاصمته. ويجنّ جنونًا إذا خطر له أنّ حبّها له ليس بالقوّة اللائقة. ماذا ينقصها؟ ماذا تريد؟ أليس هو بالزوج المثاليّ؟ إنّه يتجنّب ما يثيرها من قريب أو بعيد ولكنّ ما يثيرها يدهمه من حيث لا يحتسب.

وبدت المعاشرة بلا أثر، وبدت الذرّيّة بلا أثر كذلك. وانطوى على قرحة أفسدت عليه مذاق حياته الخاصّة.

- رضوانة، بوسعك أن تجعلي من دارنا عشًّا للسعادة...

فتساءلت بغموض:

- أليست هي كذلك؟

- ولكنّك تهملين حبّي يا رضوانة؟

فقالت متأفّفة:

- إنّك لا تفكّر إلّا في مسرّاتك، وتنسى أنّني أمّ لثلاثة...

فقال بأسف:

- إنّني أفتقد حرارة تكافئ حبّي العظيم!

فضحكت بفتور وتمتمت:

- أنت طمّاع، أمّا أنا فأبذل خير ما عندي...

وضاعف من تعاسته تمزّق العلاقات الطيّبة بين أمّه وزوجته. منذ اختفاء خضر تغيّرت سنيّة، وسرعان ما قابلت رضوانة التغيّر بمثله أو بأسوأ منه. وتناقرتا مرّة بعنف حتّى قالت سنيّة لها بحدّة واتّهام:

- قلبي يحدّثني ببراءة خضر!

فأجابتها بحدّة أشدّ:

- الأصوب أن تصوني سمعتك!

فهاجت سنيّة ورمتها بشمعدان صغير لم يصبها. ولمّا رجع بكر وجد رضوانة شعلة من الكراهية والغضب. وخلا إلى أمّه يعاتبها ولكنّها قالت له:

- نصيحتي لك كامّ أن تطلّقها...

فذهل بكر، فقالت ساخرة:

- كانت قدم الشرّ الذي قضى على أخيك وأبيك وأمّك...

ثمّ بصوت حادّ متهدّج:

- إبليس نفسه يعجز عن فعل ذلك كلّه، حتّى أنت حفيد الناجي الكبير تؤدّي الإتاوة لصعلوك من خدم أبيك وجدّك...

وقال بكر لنفسه:

- إنّها اللعنة قد حلّت بنا حقًّا!

ودارت عجلة الأيّام بلا توقّف كعادتها. ومات السمري الكبير أبو سنيّة فورثت عنه مالًا لا بأس به. واستوهبها بكر بعض المال ليزيد من رأس ماله فلم تمنعه، ومضى في طريق الثراء بلا حدود. أخذ يتسلّى عن همومه بالإغراق في العمل، وخوض المغامرات الناجحة والمضاربات الخطيرة، حتّى كادت أن تستأثر به شهوة المال لدرجة الجنون. كان يكنز المال كأنّما يتحصّن به حيال الموت والأحزان والفردوس المفقود. وكان ينطلق نحو الكفاح من مركز منغرس في أرض الأحزان والهموم متحدّيًا الألم والمجهول. ولم يكن بكر كريمًا ولكنّه أيضًا لم يكن بخيلًا. لم يكن ينفق في الخارج مليّمًا لغير ما فائدة تعود عليه، أمّا في داره فكان بحرًا، أهدى إلى رضوانة جواهر تساويها وزنًا، وجدّد أثاث الدار ورياشها وتحفها حتّى صارت متحفًا. وقال والحسرة تقرض قلبه:

- ليت السعادة بالمال تشترى.

- ٣١ -

ذات يوم أشهر رضوان الشوبكشي - أبو رضوانة - إفلاسه. كان الرجل مسرفًا، مولعًا باللهو والطرب

والليالي الملاح فأفلت منه توازنه التجاريّ وهوى. ورحّب بكر بالفرصة ليثبت لزوجته المتمرّدة حبّه وكرمه، فلمّا عُرضت دار الشويكشي للبيع في المزاد اشتراها بثمن فاحش لييسّر لحميه تسديد ديونه. وألحق بمحلّه إبراهيم الشويكشي شقيق رضوانة الأصغر وجعله وكيله وأمين سرّه. غير أنّ رضوان الشويكشي لم يتحمّل الصدمة فمات بالسكتة، وشيّعه بكر بما يليق بمقامه وأقام له مأتمًا استمرّ ثلاثة أيّام، وتوقّع بعد ذٰلك أن تغيّر رضوانة من سلوكها أو تهذّب من طبعها ولٰكنّها كانت مثل الصلب لا تلين، وزادتها الأحزان فتورًا ونفورًا حتّى قال بكر لنفسه:

ـ إنّ قيام القيامة نفسها لن يغيّرها...

ـ ٣٢ ـ

وأطبق الظلام عندما اختفت سنيّة أمّه من الدار والحارة! كارثة لم يستطع لها دفعًا. وسرعان ما عرف أنّها أخذت مالها وهربت مع شابّ سقّاء وتزوّجت منه. كارثة حقيقيّة نكّست رأسه، فنفض منها يديه، ولم يهتمّ حتّى بمعرفة مقامها الجديد، وتوارى وراء سجلّاته ورحلاته.

وسعى إليه عتريس الفتوّة وقال له:

ـ إنّي في خدمتك إن أردت خدمة...

فكّره منظره، وداراه بابتسامة ممتنّة، وقال له:

ـ الشكر لك يا معلّم، وليفعل الله بها ما يشاء...

وتبدّت له الدنيا رماديّة ضاربة للحمرة. وتساءل لماذا نحبّ هٰذه الحياة ونحرص عليها هٰذا الحرص كلّه؟ لماذا نذعن لمشيئتها الحادّة القاسية. ألا يحقّ لها بعد ذٰلك أن تسلّط علينا دود أرضها؟ اللعنة على عاشور الناجي الأسطورة الكاذبة، اللعنة على الدراويش المجانين الذين لا يكفّون عن الغناء، وتساءل أيضًا:

ـ يوجد خطأ جسيم ولٰكن أين هو؟

ـ ٣٣ ـ

وذات مساء أرسل سليمان الناجي في طلبه. تذكّر أنّه لم يزره منذ أشهر فخجل. كان قد مرّ على شلله عشرة أعوام، وكان قد لزم الفراش منذ عام في رعاية مخلصة من فتحيّة. ذهب إليه، قبّل يده، جلس إلى جانب فراشه وهو يعتذر عن إهماله بشواغله وهمومه.

وقال سليمان الناجي:

ـ نهايتي اقتربت يا بكر.

فدعا له بطول العمر والعافية فقال الرجل:

ـ حلمت بجدّك شمس الدين ثلاث مرّات في ثلاث ليال متعاقبة...

ـ هٰذا لا يعني شيئًا ضارًا يا أبي.

ـ هٰذا يعني كلّ شيء، وقد قال لي إنّ الدنيا لا تساوي شيئًا حتّى يهبها الإنسان روحه...

ـ رحمه الله يا أبي...

فقال بأسى:

ـ ما مضى قد مضى، ولٰكنّي أسألك مَن مِن أبنائك يصلح لها؟

فأدرك أنّه يعني الفتونة فدارى ابتسامة وقال:

ـ ما زالوا صغارًا ولن يصلحوا لها...

ـ ولا أحد من أبناء أخواتك لأبيك؟

فقال بعد تردّد:

ـ لا أدري يا أبي...

ـ لأنّك لا تدري عنهم شيئًا...

وتأوّه ثمّ قال:

ـ إنّي أودّع الدنيا مثل سجين... أستودعك الحيّ الذي لا يموت!

ـ ٣٤ ـ

في جوف ذٰلك الليل فاضت روح سليمان شمس الدين عاشور الناجي. وبالرغم من عزلته الطويلة مشى في جنازته جميع أهل الحارة، حتّى عتريس ورجاله، ودُفن إلى جانب شمس الدين.

وثارت مكامن الأحزان في قلوب آل الناجي والحرافيش، وانسابت عليهم الذكريات مترعة بالأسى.

ـ ٣٥ ـ

وطرأت حركة جديدة غير مألوفة. ندّت عن تيّار الأحداث الرتيبة والساعات التوائم مثل شهاب يمرق

في سماء باهتة.

وتساءلت رضوانة في حيرة «ماذا يفعل الرجل؟».

على غير عادة أخذها بكر من يدها وراح يتفقّد جنبات داره الكبرى طابقًا بعد طابق. إنّه جادّ أكثر ممّا تتصوّر، عظيم الاهتمام، كأنّما يستعدّ لرحلة أو لمضاربة خطيرة.

- ماذا تفعل بالله؟

فلم يجب، لم يبتسم، مضى بها من حجرة إلى حجرة، من بهو إلى بهو، من قاعة إلى قاعة، طائفًا بقطع الأثاث النادرة، بالتحف، بالطنافس والستائر والسجّاد، بالقناديل والشمعدانات والنجف، بمخدع نوم رضوان وصفيّة وسماحة.

تمتمت بضيق:

- تعبت...

فأشار إلى مرآة تحتلّ جدارًا كاملًا مؤطّرة بالذهب الخالص وقال:

- لا نظير لها في البلد كلّه...

وأشار إلى نجفة شامخة مترامية الأبعاد، مرصّعة بالكواكب وقال:

- إحدى ثلاث في مدينتنا الكبرى...

ثمّ أشار إلى القبّة الزجاجيّة التي تعلو المنور بألوانها الشتّى وقال:

- صُنعت وزُخرفت في عام كامل وكلّفت ثمن مئونة جيش!

ثمّ بسط راحتيه نحو سجّادة عملاقة تغطّي أرض البهو الكبير وقال:

- حُملت إليّ خاصّة من أرض العجم!

لم يترك صوانًا إلّا أشاد به، لم يغفل جوهرة حتّى قدّم لها فروض الطاعة والثناء.

عند ذاك توثّبت رضوانة للتحدّي فجذبت معصمها من قبضته وتساءلت:

- ما الحكاية؟

فشبك ذراعيه على صدره وهو يحدقها بنظرة غريبة غامضة ثمّ قال:

- الحكاية أنّني محبوب الأقدار!

- ماذا تعني؟

- الأقدار تعشقني فهي لا تغفل عنّي لحظة ولا تنام!

- إنّك تبدو لعينيّ غاية في الغرابة؟

- انظري إليّ جيّدًا، تأمّليني طويلًا ما استطعت، أنا الدنيا بلا زيادة ولا نقصان...

- لم تعد أعصابي تتحمّل أكثر...

فابتسم لأوّل مرّة وقال:

- الحكاية يا رضوانة العزيزة المحبوبة المدلّلة المتمرّدة أنّ بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجي قد أفلس...!

- ٣٦ -

لم تفهم شيئًا. لم تصدّق المستحيل. نطح رأسها سقف الصوان. تخايلت لها الدنيا في صورة امرأة تغمز بعينها اليسرى. تهيّأت لتستقلّ العربة الماضية إلى جبال الواق. تبدّى لها وجه بكر أجمل من الواقع وأتعس من الممكن. مرقت من فيها شهقة سرعان ما تجسّدت في صورة عقرب.

تمتم بكر:

- هي الحقيقة يا رضوانة.

رآها تتمخّض عن تمثال للذهول فقال بقهر ويأس وحقد:

- لا فتونة ولا مال ولا سعادة!

تساءلت بريق جافّ:

- ولكن... لكن كيف وقع ذلك؟

- كما يقع الشلل والفضيحة والموت. لِمَ تتعجّبين؟ ما هي إلّا مغامرة أخطأت الهدف!

فقالت بعذاب:

- طالما حذّروك من المغامرات...

فقال بازدراء:

- الذين لا يعملون ينتقدون ويعظون ويحسدون، عليهم اللعنة...

وساد الصمت دقيقة فرقصت أشباح المخاوف، وارتطمت الأحلام المستحيلة بجدران الواقع الصلد المكفهرّ. ثمّ تساءلت:

- وماذا بعد؟

ـ سوف تصفّى التجارة وتعرّض جميع الأملاك في المزاد، أمّا بعد ذلك...

وتوقّف فتساءلت:

ـ أمّا بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك ننضمّ إلى قافلة المتسوّلين...

ـ لا شكّ أنّك تحاول إرعابي...

ـ أحاول إيقاظك ليس إلّا...

فصاحت:

ـ إنّه جزاء الجنون...

فقال ساخرًا:

ـ إنّها التجارة فحسب، فيها شريك خفيّ هو القدر!

ـ أنت الذي غامرت لا القدر...

ـ وأنت طالما جحدت وتنكّرت، ولكن لا شأن لذلك بالسوق...

فانهمرت دموعها وقالت:

ـ الآن أعرف كيف مات أبي...

فقال بمرارة:

ـ كان سعيد الحظّ!

ـ والأولاد ما مصيرهم...؟

فقال بامتعاض:

ـ فلندعهم ينعمون بنوم سعيد.

ـ ٣٧ ـ

توقّفت الحارة عن نشاطها المألوف لتشهد المزاد الخاصّ بالرجل الذي كان أغنى أغنيائها من قبل أن ينزلق في هاوية الإفلاس.

ثمّة سحائب كانت تركض فوق سطح الشمس في اليوم الأخير من أمشير. ووقف بكر سليمان الناجي وسط الشركاء الذين انقلبوا دائنين. جفّت فوق شفاههم بسمات التودّد، انداح فوق خدودهم شحوب القلق، وارتباك التحفّز، ولكنّ الأشداق انتفخت بحتميّة التصميم.

ومال سعيد الفقيّ شيخ الحارة على أذن عثمان الدرزي الخمّار وسأله متهكّمًا:

ـ لِمَ لم ير حلم النجاة مثل جدّه الأوّل؟

فهمس الخمّار:

ـ أحلام المتخمين كوابيس!

وقبيل المناداة بدقيقة ترامى رنين جرس مؤثّر.

اتّجهت أبصار نحو مدخل الحارة فرأوا كارتة قادمة يتوسّطها رجل. ترى أهو مزايد طارئ من الخارج؟ وقفت الكارتة عند الحلقة. غادرها شابٌ في عباءة سوداء، وعمامة مقلوظة، طويل رشيق، ذو سحنة غير غريبة...

وأكثر من صوت هتف:

ـ يا ألطاف الله، هذا خضر سليمان الناجي!

ـ ٣٨ ـ

تطايرت التوقّعات من رأس إلى رأس. سرت الهمهمة مثل الطنين. دارى سعيد الفقيّ ابتسامة. اصفرّ وجه بكر وارتعشت أطرافه. أمّا خضر فقد رفع يده بالسلام، وتلقّى الردّ بترحيب ورجاء، وقال سعيد الفقيّ:

ـ جئت في وقتك!

وتساءل عثمان الدرزي:

ـ أجئت مزايدًا؟

فقال خضر بأسى:

ـ بل جئت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أدرك الجميع أنّه يتكلّم من موقع القوّة والثقة. وأنّ الفتى نجح في مهجره وأثرى، فانتعشت أنفس الدائنين وقال صوت:

ـ فليبارك الله خطاك...

فقال خضر:

ـ إذن فليؤجّل المزاد لعلّنا نصل إلى اتّفاق.

عند ذاك صرخ بكر:

ـ كلّا!

تركّزت عليه الأبصار في ذهول فصاح مخاطبًا أخاه:

ـ لن يطهّرك الزمن من جريمتك فاخسأ ملعونًا غير مشكور!

وتناثرت الاعتراضات مثل الرذاذ وقد تلاحقت السحائب الراكضة فانعقدت خيمة دكناء.

وقال خضر برجاء:

- دعني أقم بواجبي...

فصرخ بكر في هياج:

- الخراب أحبّ إليّ من النجاة على يدك...

فقال الشيخ طلبة القاضي شيخ الزاوية:

- لا يجوز تبديد رحمة من السماء.

فصاح بكر:

- ما جاء إلّا للشماتة والانتقام.

وأحاط الدائنون ببكر يهدّئونه ويقنعونه، وقال الشيخ طلبة القاضي:

- فليؤجّل المزاد حتّى نستقرّ على رأي لا يعقبه ندم...

- ٣٩ -

ختم بكر حديثه، ثمّ نظر نحو رضوانة وقال:

- هٰذه هي الحكاية.

انتظر التعليق بشغف محموم ولٰكنّها ارتبكت وقهرت ولم تجد ما تقوله. انحصرت في قفص من نظراته الحادّة المستطلعة. وتساءل بكر:

- مالك لا تتكلّمين؟

غاصت أكثر في الصمت، وغُلبت على أمرها، فعلت السخرية في نبرته وهو يقول:

- خبّريني برأيك...؟

فهربت ببصرها نحو البسملة المؤطّرة بالذهب المثبتة فوق الجدار وقالت مدفوعة بإرادة يائسة:

- ماذا أقول والأولاد مهدّدون بالتسوّل!

- أسمعيني رأيك صريحًا مثل النار.

فقالت وقد استردّت بعض عنادها:

- أرى أنّه يرغب في إنقاذ سمعة الناجي...

فقال بحنق:

- كلّا، لو كان يقيم وزنًا للسمعة ما طمع في زوجة شقيقه...

فتمتمت في حرج:

- لعلّه ينشد التكفير.

- لا تكفير لمن لا ضمير له...

- لم يضحّي بماله إذن؟

فاجتاحه الغضب وقال:

- لعلّه يرغب في إنقاذك أنت!

فلوّحت محتجّة وقالت بحدّة:

- كلّا...

- كلّا هٰذه لا تعني شيئًا.

- أعتقد أنّه يسعى لإنقاذ سمعة أسرته...

فاشتعل غضبه وقال:

- إنّك تكذبين!

فقالت محتدّة:

- لا تزد الأمور سوءًا.

- دعيني أشكّ في كلّ شيء، حتّى أنت!

فصاحت به:

- إنّك في حال لا يمكن أن تحاسَب معها على قول...

- إنّي في تمام قواي العقليّة، الإنسان قد تجنّه النعمة، ولٰكنّه يلقّن الحكمة على يد الإفلاس والمحن، ما أنت إلّا امرأة قذرة تتطلّع إلى عاشقها القديم...

فصرخت:

- لقد فقدت عقلك.

- المعجزة أنّني لم أفقده طيلة معاشرتي لك، هل وجدت منك إلّا الجحود والتمرّد والنفور؟ هل وجدت منك إلّا الغدر والخيانة المكبوتة؟... أعطيتك كلّ شيء ولم آخذ إلّا الهواء، وكنت اللعنة وراء جنوني وإفلاسي، فلتحلّ بك اللعنة والخزي...

وتلوّت قائمة مثل لسان من لهب وصرخت في وجهه:

- اقطع لسانك القذر.

فجنّ جنونه.

انهال عليها ضربًا وصفعًا وركلًا حتّى تهاوت مغمًى عليها. ومن خلال النار المشتعلة في عينيه حملق فيها ذاهلًا. اعتقد أنّها تحتضر أو أنّها ماتت. وبسرعة تملّص من هموم حياته ومن عذابات الحيرة. وثب من فوق أسوار الواقع فغادر المكان مكتظًّا بتصميم مدمّر...

- ٤٠ -

كان خضر سليمان الناجي مجتمعًا بالدائنين في دكّان شيخ الحارة عندما اقتحمها بكر. قبض بيده على

سكّين وثمل برحيق الجنون الأحمر. صاح:

ـ لقد قتلتها وسأقتلك يا تيس.

ووجّه نحو أخيه ضربة. انحرفت الضربة بسبب تدخّل البعض فاخترقت العمامة دون الرأس. تكالبوا عليه، انتزعوا السكّين من يده، طرحوه أرضًا.

ـ جنّ الرجل.

ـ بل هو مجرم.

رفع بكر رأسه عن الأرض قليلًا وصاح:

ـ أنتم وراء المال ولو في بؤرة فسق.

وقال شيخ الحارة:

ـ نسلّمه إلى القسم.

هتف خضر بجزع:

ـ لقد قتل زوجته...

ـ يسلّم للقسم.

وعاد بكر يصيح:

ـ جميعكم أوغاد وكلاب...

ـ ٤١ ـ

سرعان ما تكشّفت الحقائق. لم تمت رضوانة كما توهّم بكر. أطلقوا سراح بكر. توارى بكر عن الأنظار واختفى من الحارة.

أدّى خضر ما تمّ الاتّفاق على أدائه من أنصبة الدائنين. صفّيت التجارة، أمّا دارا السمري والشوبكشي فبقيتا في حيازة رضوانة.

ودعت ستّ فتحيّة خضر للإقامة في مسكنها الصغير ـ مسكن أبيه ـ حتّى ينظّم حياته. ووضح أنّ خضر ينوي الإقامة في حارته. وبلا تردّد اتّخذ الإجراءات لشراء محلّ الغلال ومواصلة نشاطه التجاريّ السابق. وفكّر أيضًا في شراء دار السمري أو الشوبكشي، ليجد لنفسه مقامًا مناسبًا من ناحية، ولتفيد رضوانة من ثمن الدار ما تعيش به عيشة كريمة هي وأبناء أخيه رضوان وصفيّة وسماحة.

وقالت له فتحيّة زوجة أبيه:

ـ جميع ما ينبع من قلبك نبيل...

فأجابها بفتور:

ـ لم أنس أسرتي، ظلّت تعيش معي في الخارج... وحارته أيضًا. وتعلّم في مهجره أنّ الناجي معنى حيّ أمّا السمري فلا وزن له يذكر. تعلّم أنّ البطولة الحقّة مثل المسك تطيب بها النفوس وتهفو إليها الأرواح ولو لم تؤت القدرة على استعمالها. ولكن أهذا هو ملاك الأمر كلّه وراء رجوعه إلى الحارة؟!

وسألته فتحيّة:

ـ لِمَ لم تكمل نصف دينك؟

فأجابها مبادرًا:

ـ كرهت الزواج في الغربة!

ـ ٤٢ ـ

ويوحي من تفكيره طلب مقابلة عتريس. تمّ اللقاء في دار عتريس الفخيمة. واستقبله الفتوّة بترحاب واحتفاء وقال له:

ـ شرّفت الدار يا سليل البطولة...

فقال خضر بتواضع:

ـ إنّه واجب مَن يروم الإقامة نحو فتوّتنا...

فقال عتريس بارتياح:

ـ أنتم أصل الخير والبركة...

بذلك خمدت تساؤلات مريبة في مهدها.

ـ ٤٣ ـ

حتّام ينتظر؟ إنّه يمارس عمله في محلّ الغلال، ويعاني شتّى الانفعالات المتضاربة. وها هي الخماسين تسفع الجدران، تثير الغبار، ترفع الحرارة، تلوّن الجوّ بالكدر. وعمّا قليل يتهادى الصيف بجلاله الشعبيّ وصراحته الحامية وأنفاسه اللزجة. حتّام ينتظر؟ لقد أرسلت رضوانة إليه من يشكره فردّ الردّ الجميل. وعن لسانه قالت فتحيّة لرضوانة إنّه يتذكّر دائمًا أنّه تبودلت الرسل بينهم كالأغراب، حتّى أرسل إليها ستّ فتحيّة طالبًا مقابلتها. وذهب إليها ليلًا، متجنّبًا الأنظار، حتّى لا تصبح ذكريات الماضي حكاية مرّة أخرى على الألسنة. ذهب يحمل بين جنبيه دوّامة، ويضمر أيضًا تصميمًا.

استقبلته رضوانة في بهو الاستقبال. طالعته محتشمة الملابس، مطوّقة الرأس بخمار أسود كأنّها في حداد.

وتصافحا، وتلاقت عيناهما مقدار ثانية ولٰكنّها مشتعلة مثل شرارة متطايرة عن احتكاك حجرين. ثمّ جلسا صامتين متحرّجين يودّان الخلاص.

قالت رضوانة:

- إنّها لفرصة كي أشكرك بنفسي...

فقال متحرّرًا من حرجه بعض الشيء:

- وفرصة لي لأضع نفسي في خدمتك.

- ماذا عن بكر؟

- لم أهمل واجبي في ذٰلك الشأن ولٰكن لم يعثر له على أثر.

- متى يرجع في تصوّرك؟

- إنّه ذو كبرياء فيها أعلم وأخشى أن تطول غيبته... كيف حال الأولاد؟

- على خير ما تحبّ...

فتردّد خضر قليلًا ثمّ قال:

- أودّ أن أشتري دار الشويكشي إذا أذنت!

فقطّبت قليلًا وهي تقول:

- تريد أن تقدّم مالًا لامرأة مفلسة!

فقال متلعثمًا:

- إنّي بحاجة إلى دار بصفة عاجلة...

ثمّ بتسليم:

- وأولادك أولادنا على أيّ حال.

فقالت وهي تتفحّصه:

- تشكر على نواياك الطيّبة...

وصمتت لحظة ثمّ تساءلت:

- ترى هل نسيت الإساءة القديمة؟

فبادر يقول:

- من يحمل الماضي تتعثّر خطاه.

- ولٰكن هل يُنسى الماضي حقًّا؟

- أجل. إن يكن من الخير أن ننساه...

- لا أدري.

- لولا ذٰلك ما رجعت، وما تمّ بيننا لقاء...

فلاحت نظرة حذرة في عينيها الجميلتين وتساءلت:

- هل جئت حقًّا من أجل شراء الدار؟

فداری ارتباكًا تهدّده لحظة وقال:

- أجل...

- ولٰكنّك تعلم أنّها ما زالت ملك بكر الغائب...!

فتورّد وجهه وهو يقول:

- قد نجد لذٰلك حلًّا...

فهزّت رأسها في ريبة فقال:

- على الأقلّ لأكون في خدمتك...

فقالت بكبرياء:

- في الدارين من التحف ما يكفل لنا حياة رغيدة!

- ولٰكنّي مسئول أيضًا.

فقالت وهي ترمقه بنظرة غامضة:

- لست في حاجة إلى مساعدة والشكر لك...

فحنى رأسه امتثالًا، وتحرّك حركة توحي بوجوب إنهاء المقابلة، فتساءلت بقلق:

- أم جئت لغرض آخر؟

فتطلّع إليها بنظرة دهشة فقالت بجرأة:

- من أجل الزجر والتأديب؟

فهتف بصدق:

- أعوذ بالله من خاطر لم يدرْ لي في بال!

فلاذت بالصمت فعاد يقول بحرارة:

- ما نطقت إلّا بالصدق...

فانقشع التوتّر من شفتيها وحلّ مكانه سلام. وعند ذاك قلبت الصفحة قائلة:

- لقد نجحت في مهجرك والحمد لله.

- أجل، انتفعت بمدّخري الذي حملته معي...

- تسعدنا ولا شكّ سعادتك...

فتوقّف قليلًا ثمّ قال:

- النجاح لا يوفّر دائمًا السعادة...

- تلك حقيقة عرفتها بنفسي ولٰكن ماذا حرّم عليك السعادة أنت؟

فلاذ بصمت ذي مغزى فارتبكت وقالت:

- نحن أيضًا خسرنا السعادة.

فتمتم:

- يا لها من لعنة...

- كانت سنيّة هانم تردّد دائمًا أنّ اللعنة قد حلّت بنا...

أدركت من تجنّبه السؤال عن أمّه أنّه علم بمصيرها

فندمت على ذكرها ولٰكنّه قال:

ـ لعلّها صدقت.

فقالت بأسّى:

ـ كانت تعذّبني اللعنة...

فقال بصوت منخفض:

ـ نحن نبالغ في أحزاننا...

فقالت بجرأة:

ـ أعترف بأنّي كنت شرّيرة وأنّي ظلمتك ظلم الحسن والحسين...

فغمغم:

ـ لا عودة إلى الماضي...

فقالت متمادية في جرأتها:

ـ لا أحد يعترف للعواطف بحقّ...

فلم يجد ما يقوله، فقالت:

ـ ولو كانت صادقة!

ها هي لحظة طالما يئس من العثور عليها. لعلّه من أجلها جاء. لعلّه من أجلها رجع إلى الحارة. لعلّه بسببها لم يذق للسعادة طعمًا.

وقال منحدرًا في عذوبة:

ـ حتّى أصحاب العواطف قد يتنكّرون لها...

فتألّقت عيناها، وجرى في لونها المشرق التماع التفكير والنهم للمعرفة، تساءلت:

ـ ماذا تعني؟

فصمت معانيًا الإثم فعادت تتساءل:

ـ ماذا تعني؟

فتساءل في حيرة:

ـ ماذا قلت؟

ـ أصحاب العواطف قد يتنكّرون لها، لا تهرب...

فهرب في الصمت فقالت وهي تثمل بنشوة طارئة:

ـ من ناحيتي لم أتنكّر...

ظلّ صامتًا فواصلت بانفعال شديد:

ـ لا تصمت، لماذا جئت؟

فقال متهالكًا:

ـ لقد قلت...

ـ أعني قولك الأخير...

فقال بنبرة اعتراف:

ـ تكلّمت أكثر ممّا يجوز.

فهتفت وهي تفقد الوعي:

ـ ما الذي يجوز، ما الذي لا يجوز، لماذا جئت؟ إنّك ما جئت إلّا لتقول ذٰلك...

فقال وهو يتدهور أكثر فأكثر:

ـ في البدء كانت اللعنة، والآن الجنون...

فبُعث جمالها جارفًا الأسى وقالت:

ـ أسمعني بصراحة ووضوح...

ـ إنّك تدركين كلّ شيء...

ـ لا أهمّيّة لذٰلك، أسمعني صوتك...

فرنا إليها بنظرة هشّة تسيل اعترافًا. بعثت النظرة في أوتارها عزف النغم فتوهّج جمالها كالشعاع، واكتسى بحلّة الظفر المبهرجة.

ـ إذن لم يكن أنت الذي قال لا...

فقال بأسّى:

ـ شخص فيّ قالها...

ـ ثمّة شخص آخر، ماذا يقول؟

قال بجدّيّة بالغة:

ـ كنت أحبّك، ما زلت أحبّك، ولٰكن علينا أن نفكّر طويلًا...

واستقرّ الصمت بإرادة الطرفين في وقار الليل، وفي الصمت عزفت في الآذان دقّات القلوب...

ـ ٤٤ ـ

لو أنّ شيئًا يمكن أن يدوم على حال فلِمَ تتعاقب الفصول؟

ـ ٤٥ ـ

الانتظار محنة. في الانتظار تتمزّق أعضاء الأنفس. في الانتظار يموت الزمن وهو يعي موته. والمستقبل يرتكز على مقدّمات واضحة ولٰكنّه يحتمل نهايات متناقضة. فليعبّ كلّ ملهوف من قدح القلق ما شاء.

متزوّجة، غير متزوّجة، أيضًا عاشقة. تكاشف الأولياء، تستشير المحامي، تجنّ من التفكير في الخطوة التالية.

في محلّ الغلال تمارس التجارة بمهارة، تحاور العواطف بشغف، تداري الأشواق بعذاب، تصارع الغرائز بعنف، ترفع إلى السماء أماني وابتهالات.

الناس تراقب وتتذكّر، تحصي اللفتات والنوايا، تؤوّل الأوهام بأوهام، تتعجّل تحقيق الظنون، تتستّر بالتقوى والبراءة.

ويقول سعيد الفقيّ شيخ الحارة:

ـ الشهامة قناع، والفاسق أبرع من الشيطان.

ويسأل عثمان الدرزي السكارى في البوظة:

ـ لِمَ لم يتزوّج حتّى الآن؟

ـ ٤٦ ـ

زحف مدّ الأسى حتّى غطّى إبراهيم الشوبكشي شقيق رضوانة ووكيل خضر. الأقاويل تدهمه مثل الشرر. خسر الجاه وها هو على وشك أن يخسر الشرف. الحياة تدبر رويدًا رويدًا منذرة بمأساة.

وسأل خضر ذات يوم:

ـ أليس من حقّك أن تطالب بداري الشوبكشي والسمري نظير ما سدّدت من دين؟

فأجابه خضر بدهشة:

ـ ما خطر لي ذٰلك ببال.

فقال إبراهيم بمكر:

ـ جميل أن تحفظ عهد بكر رغم أنّه ضيّعه...

فقال خضر ببراءة:

ـ أبناء بكر أبنائي...

ما أجمل الكلام ولٰكن ماذا عن النوايا؟

ـ ٤٧ ـ

ولقي إبراهيم الشوبكشي نفسه في الجحيم. بين يديه سهل منبسط، وحياة واعدة لا بأس بها، ولٰكن ثمّة قوى نابعة من المجهول تدفعه إلى طريق وعر. وهو لا يسير مغمض العينين، ولٰكنّه يمتلئ بوعي حادّ كالنصل، ويدرك أنّه يطرق باب الرعب.

ذهب في المساء لزيارة شقيقته رضوانة. طالما تبادلا الحبّ صافيًا والرعاية. ولٰكنّه لم يجد بدًّا من مصارحتها بما يتردّد على ألسنة الخلق. واستاءت رضوانة استياءً جليًّا، وقالت بحدّة:

ـ هٰكذا الناس دائمًا وأبدًا...

فقال إبراهيم:

ـ من واجبنا أن نقطع الألسنة.

ـ أودّ أن أقطعها بلا رحمة...

فقال إبراهيم بمكر:

ـ نالنا ما نالنا من اختفاء زوجك، إنّه لوغد!

فانزلقت قائلة:

ـ هو كذٰلك، ومن حقّي ألّا أسكت على ذٰلك...

فاشتعلت هواجسه وتساءل:

ـ ماذا تعنين؟

ـ من حقّي أن أطالب بالطلاق!

فصرخ إبراهيم بغضب:

ـ الطلاق!

ـ أجل، ما أغضبك؟

ـ النساء المحترمات لا يفعلن ذٰلك...

ـ لا يفعل ذٰلك إلّا النساء المحترمات!

ـ وكيف تبرّرينه؟

ـ بأنّه تركني بلا مورد!

فتساءل بتربّص:

ـ وهل يجيئك الطلاق بمورد؟

أدركت أنّها تجاوزت الحدّ بتصريحها فارتبكت قليلًا ثمّ تمتمت:

ـ على الأقلّ أن أقطع صلة لم يبق لها معنى...

فقال برجاء:

ـ أجّلي ذٰلك من فضلك، ثمّ إنّه طريق معقّد لا ندري شيئًا عن مسالكه.

ـ كلّا، المحامي له رأي آخر!

فتساءل في ذهول:

ـ استشرت محاميًا أيضًا؟

فلاذت بصمت متحرّج فهتف:

ـ يا للعار!... ومن وراء ظهري؟!

ـ محض استشارة لا ضرر منها...

ـ يحقّ لناس عند ذاك أن يقولوا إنّك تسعين إلى الطلاق تمهيدًا للزواج من خضر.

ـ عليهم اللعنة...

ـ ولكنّه أمر خطير بالنسبة لسمعتنا!

فقالت بحدّة:

ـ سلوكي طاهر لا شائبة تشوبه.

فقال وهو يحملق في وجهها بوحشيّة:

ـ سيرجح لديهم ـ ولهم العذر ـ أنّك كنت شريكة في جريمته. . .

ـ سيجدون دائمًا ما يقولونه. . .

ـ ولكنّه خطير جدًّا وسينسف سمعتنا نسفًا. . .

فقالت بغضب:

ـ لست قاصرة يا إبراهيم. . .

ـ المرأة قاصرة حتّى تدخل القبر. . .

وجفلت من غضبه فقالت:

ـ فلنؤجّل الحديث إلى وقت آخر.

فقال بعناد:

ـ إنّه غير قابل للتأجيل. . .

فهتفت بعصبيّة:

ـ دعني وشأني. . .

فصرخ:

ـ الآن أدرك أنّك شريكة له!

ـ أنسيت ما حدث؟

ـ ولكنّي أعرف قصّة امرأة العزيز. . .

فصاحت غاضبة:

ـ حسبي أنّي واثقة من نفسي.

فوقف شاحبًا وسأل:

ـ بصراحة أجيبيني، هل تنوين الزواج من خضر؟

ـ أرفض الاتّهام كما أرفض التحقيق. . .

ـ يا للكوارث التي لا تريد أن تقف عند حدّ!

فوقفت بدورها وهي تتساءل:

ـ أليس الزواج علاقة مشروعة؟

ـ أحيانًا يكون هو والزنا سواء.

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل. . .

فقال بهدوء طارئ:

ـ إذن فأنت تنوين الزواج من خضر؟

فلاذت بالصمت وأطرافها ترتعش.

ـ إنّك تنوين الزواج من خضر! حقًّا انّ للناس غريزة لا تخيب. . .

فقالت بأسى:

ـ تبرّأ منّي إذا شئت، لننفصل يا إبراهيم!

فقال بهدوء:

ـ سوف ننفصل يا رضوانة. . .

وانقضّ عليها بغتة. بكلّ وحشيّة وجنون طوّق عنقها بيديه. شدّ بقوّة حتّى ثمل بالعنف وتمادى في القتل. ودافعت رضوانة عن حياتها بيدين عاجزتين، بانتفاضات عشوائيّة، بصرخات لم تخرج، باستغاثات لم تُسمع، بأماني لم تذعن، بيأس بدّد النور والأشياء. مضت تسترخي، تستسلم، تهن، تهمد، معلنة العدم. . .

المُطَارَد

الحكاية الرّابعة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

الشمس تشرق، الشمس تغـرب، النور يسفر، الظلام يخيّم، الأناشيد تشدو في جوف الليل. غابت رضوانة في بطن الأرض، غاب إبراهيم في السجن، غاب بكر في المجهول.

لم يـرثِ أحـد للقتيلة، فـاز إبـراهيم بـالعـطف والتقدير، انطوى خضر على أحزانه لا يشاركه فيهـا أحد. كثر تداول الحكم عن فساد طبيعة المرأة، الأمثال تضرب على خيانة الإخوة، تردّد المواعظ اللعنة النازلة بآل الناجي.

تنكّرت لهم الفتونة، رفل في ثوبها الزاهي عتريس حتّى انتقل إلى الآخرة، حلّ محلّه الفللي أقوى أتباعه، انـدرج عاشـور وشمس الـدين وحتّى سليمان ضمن ركب الأساطير.

ها هو كبيرهم خضر سليمان النـاجي يتربّـع فوق كرسيّه بمحـلّ الغلال، يـثرى يومًـا بعد يـوم، يؤدّي الإتاوة للفللي في حينها. مبتور الصلة ببطولة الأبطال.

شيّد دارًا جديدة، عكف على تربية رضوان وصفيّة وسماحة، لبث أعزب حتّى قارب الأربعين، دفن فتحيّة زوجـة أبيه، شهـد موت الشيخ طلبة القـاضي إمام الزاوية، وسعيد الفقيّ شيخ الحارة، وعثمان الدرزي الخمّار.

وأخيرًا تزوّج خضر من ضياء الشوبكشي صغـرى أخوات رضوانة، وهي بنت بها من رضـوانة مشـابه وفيها جمال أليف، وسرعـان ما تبيّن له طيبتهـا غير العاديّة، طيبة النقاء والبساطة التي تقف عـلى حافـة السذاجة والبله. لم تلعب في الدار دورًا ذا شأن ولم تنجب أطفالًا، وتركت جمالها للفـطرة بلا تـأنّق ولا تزويق. ورضي خضر بحظّه ولم يخطر له ببال أن يتزوّج من أخرى. ومال إلى الورع والتقوى، وأكثر من السهر في الساحة أمام التكيّة كما فعل جدّه عاشور من قبل.

وتزوّجت صفيّة من بكريّ صاحب وكالة الخشب، وعمل رضوان في محلّ الغلال وكيلًا لعمّه في المكـان الذي خلا بسجن إبـراهيم الشوبكشي. ومن خـلال العمل تجلّت رزانته وأمـانته ومـواهبه التجـاريّة فبشّر بمستقبل رائع.

أمّا سماحة فقد بدا أنّه مشكلة.

- ٢ -

كان سماحة متوسّط الطول، فائض الحيويّة، قويّ العضلات، في وجهه ملامح شعبيّة من وجه جدّه سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل وبشرة صافية تذكّران بأمّه رضوانة. . .

أتمّ تعليمه في الكتّاب، واكتسب من عالم الفضيلة شهـامة وكـرمًا وبعض الـورع، ولكنّه ولـع بمغـامـرة الشباب، والجسارة، وعبادة البطولـة، أمّا العمـل في المحلّ فلم ينشرح لـه صدره، ولا تجلّت لـه فيـه مـواهب. واتّخـذ من بعض أفـراد عصابـة الفللي أصدقاء، فشاركهم سهراتهم في الفرز، وحتّى البوظة طاف بها مرّات.

وقلق لذلك خضر، وكثيرًا ما كان يقول له:

ـ يلزمك قدر كبير من الإرادة والتركيز...

فينظر سماحة إلى شقيقه رضوان بفضول ويقول:

ـ لم أخلق للتجارة يا عمّي...

فيسأله قلقًا:

ـ لِمَ خلقت إذن يا سماحة؟

ويشرد ببصره في حرج فيقول خضر:

ـ إنّ مصاحبة الفتوّات واللهو معهم ليس هدفًا لأمثالك...

فيتساءل سماحة:

ـ ماذا كان أجدادنا يا عمّي؟

فيقول خضر بجدّيّة:

ـ كانوا فتوّات حقًّا لا بلطجيّة، ولم يعد لنا من أمل إلّا في التجارة والجاه!

رغب في إرشاده وتوجيهه مدفوعًا بقوّة حبّه لأمّه، وقد تركّزت فيه وفي رضوان وصفيّة عواطف أبوّته المغتالة. حقًّا لم تعد رضوانة إلّا ذكرى، ولكنّها ذكرى لا تريد أن تموت...

ـ ٣ ـ

وما يدري خضر سليمان الناجي إلّا وسماحة ينضمّ إلى عصابة الفللي رجلًا من رجاله. احتفل الفتوّة بانضمام حفيد الناجي إلى أعوانه، وعدّه أكبر نصر له في حارته. أمّا الحرافيش فاعتبروا ذلك طورًا جديدًا من أطوار المأساة التي تطحنهم. وقيل ـ فيما قيل ـ إنّ الله قادر على أن يخلق أحيانًا من صلب الأبطال أوغادًا لا وزن لهم، وإنّ عاشور صاحب الحلم والنجاة والعدل الشامل ظاهرة خارقة لا تتكرّر.

وحزن خضر حزنًا عميقًا، وعانى مرارة الخيبة والمهانة. وقال لابن أخيه:

ـ إنّك تمرّغ ذكرى الناجي والسمري والشويكشي في التراب...

فقال له سماحة:

ـ رأسي مليء بالآمال يا عمّي...

ـ ماذا تعني يا سماحة؟

ـ سوف يرجع عهد الناجي ذات يوم إلى أصله!

فتساءل خضر جزعًا:

ـ هل تراودك فكرة الفتونة؟

فقال بثقة:

ـ لِمَ لا؟

ـ ولكنّك لا تملك القوّة الكافية...

فقال بحرارة:

ـ هكذا ظُنّ بشمس الدين!

ـ ولكنّك لست شمس الدين...

فقال:

ـ عندما يحين وقت المعركة...

فقاطعه خضر:

ـ احذر الفللي، إنّه شيطان ماكر، احذر أن تجرفنا مغامرتك فتلقي بنا في الهوان والضياع...

وقال له شقيقه رضوان:

ـ أقلع عن طموحك، الفللي مائة عين، لقد طواك تحت جناحيه حتّى لا تغيب عنه حركة من حركاتك...

فابتسم سماحة، وتجلّت الأحلام في عينيه مثل حمرة الغسق...

ـ ٤ ـ

في تلك الليلة سهر خضر في الساحة أمام التكيّة. دفن قلقه ومخاوفه في الظلمة المباركة. رفع عينيه إلى النجوم الساهرة طويلًا. رنا بإجلال إلى شبح السور العتيق. ابتهل إلى بوّابة التكيّة الشامخة. تأمّل ممرّ الفناء بأسًى. حيّا أشباح أشجار التوت. تذكّر بوجد الثاوينَ في القبور والضائعينَ في المجهول. العواطف المشبوبة التي لم تنهل من رحيق الحياة. الآمال التي تلاشت في الأبديّة. الأحلام المنطلقة من وهدة السكون مثل الشهب. العرش الهائم فوق كافّة احتمالات الخير والشرّ. وتساءل:

ـ ماذا يخبّئ الغد؟... لِمَ اختصّ عاشور وحده بالرؤيا الهادية؟

وانتبه إلى الأنغام وهي تصعد مثل الهداهد هاتفة:

آنا نكه خاك را بنظر كيميا كنند

آيا بودكه كوشه جشمى بما كنند

- ٥ -

وفكّر خضر في تزويج سماحة من بنت الحلال. اعتقد أنّه يعيش طور مغامرة هوجاء، وأنّه ينقصه العقل. والارتباط بأسرة كريمة مدعاة إلى إعادة التفكير. والنزول بدار فاخرة وإنجاب ذرّيّة كريمة ومصاهرة الأكابر، من شأنه خلق دنيا جديدة تقتضي أن يغيّر الإنسان جلده وعينيه. ورأى في أنسيّة كريمة محمّد البسيوني العطّار أمله المنشود. وجسّ النبض فلقي ترحابًا كما قدّر وأكثر. . .

عند ذاك قال لسماحة:

ـ وجدت لك ابنة الحلال. . .

فتساءل سماحة:

ـ أليس من الواجب أن نبدأ بأخي الأكبر رضوان؟

ـ أو نبدأ بالجواد الجامح!

ـ الحقّ أنّي سبقتك يا عمّي. . .

ـ حقًّا؟!

فحنى رأسه بهدوء فسأله بلهفة:

ـ مَن السعيدة المحظوظة؟

فقال وعلى شفتيه ابتسامة تحدٍّ:

ـ مهلّبيّة!

ضحكت ضياء ضحكة عالية دون أن توضح نظرتها البريئة سعادتها بالخبر أو أساها، أمّا رضوان فتمتم بذهول:

ـ مهلّبيّة!

فقال سماحة بهدوء:

ـ كريمة كودية الزار صباح!

عبس خضر واحتقن وجهه. ضربت ضياء بيديها دفًّا مجهولًا وهي تغرق في الضحك. تساءل خضر:

ـ ماذا وراء تنكيلك بنا؟!

فقال سماحة بهدوئه:

ـ عمّي إنّي أحبّك وأحبّ مهلّبيّة!

- ٦ -

رآها لأوّل مرّة في موسم القرافة بصحبة أمّها فوق كارو. من موقفه أمام حوش شمس الدين رآها وهي تثب من العربة. سمراء غامقة السمرة، ضاربة للسواد، ممشوقة القدّ، واضحة القسمات، مفصّلة الأعضاء، بسّامة الوجه، فائضة الحيويّة والأنوثة مثل نافورة، فاضطرم بالرغبة والاندماج. تلاقت الأعين في حبّ استطلاع متبادل، واستجابة عامّة مثل أرض خصبة. انصهر بأسرارها الهواء المطهوّ بأشعّة الشمس والأنفاس الحارّة والأحزان وشذا الخوص والريحان والفطائر. مال نحو منعطفها مثل عبّاد الشمس، واستحثّه الموت المحيط بأن يسرع وألّا يتردّد.

لم يكن في الأمر مفاجأة. كان يعلم من نوازع نفسه أنّها ميّالة بنهم إلى السود. وكافّة مغامراته البدائيّة وقعت في أحضانهنّ، في ظلام القبو أو الخرابة وراء البوظة.

- ٧ -

اعتمد على نفسه وحدها. اختار للتحرّي أسوأ الناس طرًّا أوّل ما اختار. سأل صديق أبو طاقيّة عن مهلّبيّة وأمّها. وقال الرجل:

ـ إنّي لا أبرح البوظة ولكنّ الأخبار تجيئني متطوّعة ساعة بعد ساعة. . .

وجعل الرجل يتذكّر ثمّ قال:

ـ للبنت معجبون ولكنّي لم أسمع عنها كلمة سوء. . .

ارتاح سماحة وعدّ شهادة أسوأ الناس خير شهادة. ولم يقنع بذلك فسأل الشيخ إسماعيل القليوبي شيخ الزاوية فقال له:

ـ حرفة أمّها ملعونة. . .

ـ إنّي أسأل عن البنت؟

فتساءل الشيخ باستياء:

ـ لِمَ تختار زوجتك من مسكن تستقرّ بأركانه العفاريت؟

أمّا محمّد توكل شيخ الحارة فكان واضحًا وهو يقول:

ـ سمعة البنت لا غبار عليها. . .

وقال سماحة لنفسه:

ـ إنّها أنقى سمعة من جدّتي سنيّة هانم السمري. . .

- ٨ -

مضى سماحة إلى مسكن صباح كودية الزار المطلّ على حوض الدوابّ. اعتقدت بادئ الأمر أنّه

يقصدها كزبون وجرى خاطرها إلى ضياء هانم الشوبكشي. قالت له:

ـ أهلًا بسليل المجد...

وجعل ينظر إليها بهدوء، وشذا البخور السوداني يفعم أنفه ويخدّره، وعيناه تتابعان دفوفًا مختلفة الأحجام، وسياطًا وسيوفًا ودُرّاعات من الخرز الملوّن مبعثرات بين الكنبة والرفوف. ثمّ تعودان إلى الجسد البدين مثل زكيبة الفحم. قالت صباح:

ـ في الخدمة يا سيّد الكلّ...

فتمتم:

ـ ليس كما تتوقّعين...

ـ في الخدمة على أيّ حال...

فقال وهو يغرز عينيه في الحصيرة المزركشة:

ـ طالب القرب في بنتك مهلّبيّة...

دهشت المرأة أوّل الأمر. تغيّر جوّها بغتة. أشرق الوجه بابتسامة كاشفًا عن أسنان نضيدة بيضاء، وتمتمت:

ـ زين!

فرفع رأسه باسمًا وقال:

ـ الله أسأل التوفيق...

فقالت بنبرة ذات معنى:

ـ لا أحد من الأسرة معك؟

فقال بغموض:

ـ قلت أبدًا بنفسي...

ـ حقًّا؟... ما أسعدني بالرجل الحرّ!

فابتسم متشجّعًا فتمتمت:

ـ زين!

وتلاقت يداهما فقرآ الفاتحة...

ـ ٩ ـ

ولم يفرّط خضر في أنسيّة كريمة محمّد البسيوني العطّار فتزوّج منها رضوان، وأقام بنيانه على أساس متين.

وسأل سماحة عمّه:

ـ هل تشهدون زفافي؟

فأجابه خضر بلا تردّد:

ـ نحن أهل والظفر لا يقتلع من لحمه...

فارتاح سماحة وطرح السؤال نفسه على رضوان فقال بحماس:

ـ ستجدني دائمًا إلى جوارك...

أمّا الحزن الدفين فلم يكن ثمّة سبيل إلى محقه.

ـ ١٠ ـ

ـ أهلًا بالناجي سيّد الكلّ!

هكذا رحّب به الفللي وهو متربّع وسط أقوى أعوانه في غرزة تربابسة. وهكذا يرحّب به دائمًا. وهو ليس غرًّا. قلبه يهمس له دائمًا بالحذر. يشعر بأنّه ثمّة من يحصي عليه الحركات ويستقرئ النظرات واللفتات. يشعر بأنّه يتحرّك وسط دائرة من التوجّس والترصّد. ولكنّه كان يمثّل دوره كما ينبغي. هرع نحو المعلّم الأكبر ولثم كتفه في خشوع، واتّخذ مكانه المتواضع بين الأعوان فوق الحصيرة.

قال سماحة في بشاشة:

ـ جئت أدعو المعلّم والإخوان إلى حفل زفافي...

فقهقه الفللي في انشراح وقال مخاطبًا حمّودة قوّاده الخاصّ:

ـ زغرد يا ابن الفنجريّة!

فزغرد حمّودة زغرودة لا تتأتّى لامرأة قارحة وقال الفللي:

ـ مبارك عليك، متى؟

ـ الخميس القادم بمشيئة الله...

ـ مَن السعيدة المولودة في ليلة القدر؟

ـ كريمة صباح كودية الزار.

وجم الرجال، تطلّعوا في ذهول نحو الفتوّة، لاحوا في ضوء المصباح الواني أشباحًا شائهة الوجوه. وقال الفللي:

ـ ليس لصباح إلّا بنت وحيدة!

ـ هي المقصودة يا معلّم...

في الصمت لم تُسمع إلّا القرقرة، وسعلات متناثرة، وتلوّث أسرار مبهمة في الدخان المنتشر.

وهتف الفللي:

ـ يا حسين يا سيّد الشهداء!

ونظر إلى رجاله متسائلًا:

ـ ما رأيكم في لعب هذه الدنيا العجيبة يا جدعان؟!

مصمصت الشفاه من وطأة العبرة، وتتابعت الأصوات:

ـ يا لها من دنيا!

ـ يا للعجب!

ـ يا هوه!

وسفع الفللي حمّودة صفعة وديّة وقال له:

ـ عليك أنت أن تبلغ السرّ سليل المجد والشرف. . .

فقال حمّودة مخاطبًا سماحة:

ـ منذ ساعة واحدة تصوّر، منذ ساعة قرّر المعلّم الأكبر اختيارك لتكون رسوله إلى صباح لتطلب يد كريمتها له!

ذهل سماحة. مادت به الأرض، رأى الجبّ فاغرًا فاه ينتظر جثّته. لم يستطع أن ينبس بكلمة.

قال الفللي:

ـ إنّه القدر، لم يستقرّ اختياري إلّا أمس فقط، ومنذ ساعة قرّرت اختيارك رسولًا لي. . .

ها هي الحقيقة تنجلي. لقد قبله عضوًا بلا امتحان. كان يتربّص به. وينتظر الفرصة المواتية. وها هي قد جاءت بأبعادها القاسية. وها هو في مفرق الطرق بين الحياة والموت. إمّا الهلاك وإمّا الضياع.

ونظر الفللي إلى رجاله وتساءل:

ـ ما العمل؟

فتتابعت الأصوات:

ـ من ينكر الشمس في السماء؟

ـ هل تعلو العين على الحاجب؟

ـ يا بخت من اختاره المعلّم رسولًا.

وسأله حمّودة:

ـ متى تتكلّم يا سماحة؟

عليه أن يتكلّم. الشرر يملأ الغرزة، عليه أن يغوص في الأرض. ويرحّب بالعدم. عليه أن يتجرّع السمّ الزعاف.

قال سماحة سليمان الناجي:

ـ السمع والطاعة يا معلّم. . .

ـ ١١ ـ

انضمّ إلى مجلس الأسرة قبيل منتصف الليل بساعة. قال له عمّه خضر:

ـ كانت ضياء تقصّ علينا حلمًا رأته عنك. . .

لم يسمع. قالت له أنسيّة زوجة رضوان:

ـ رأتك تمتطي بغلًا، تلهبه بسوط ولكنّه يتشبّث بالأرض.

وقال له رضوان:

ـ أحلام امرأة عمّنا تستحقّ التأويل كما تعلم. . .

فقالت ضياء:

ـ إنّه عريس، لا تزعجوا العريس. . .

وزفر سماحة بصوت مسموع فتفحّصه رضوان باهتمام وتمتم بقلق:

ـ أنت شخص آخر يا سماحة. . .

فقال خضر:

ـ ذلك ما لاحظته وتجاهلته إلى حين. . .

فقصّ عليهم القصّة بحذافيرها. سقطت على السامعين كتل من الرمال. حتّى ضياء ارتسم الذعر في وجهها الجميل. وتمتم خضر:

ـ طالما حذّرتك. . .

وقال رضوان:

ـ وجود مثلك في العصابة مثار للمخاوف، وحتّى إذا لم تمسّ المخاوف الفللي نفسه فإنّها خليقة بأن تجتاح الأتباع الطموحين المتربّصين بالمستقبل، ولا شكّ أنّ دأبهم كان الإيقاع بينك وبين الفتوّة. . .

صدّق خضر على قوله وقال:

ـ ها هو يدفع بك إلى مأزق لا مخرج منه إلّا بضياع الكرامة أو فقدان الحياة نفسها. . .

وقال رضوان:

ـ ضاعف من حذرك فإنّ عينه ترى حتّى ما يكمن في شقوق الجدران!

وقالت ضياء بحزن:

ـ البغل متشبّث بالأرض!

فسألته أنسيّة:

ـ علامَ نويت؟

ولكنّ سماحة لاذ بالصمت، وبدا تعيسًا. . .

وقال خضر بحزم ووضوح:

ـ احذر أن تفكّر في أيّ نوع من المقاومة!

ـ ١٢ ـ

ذهب سماحة إلى مسكن الكودية في الصباح الباكر. شعر في طريقه بوقع الأعين مثل لسعات الجمر. لثمت صباح جبينه وهي تقول:

ـ لم يبق إلّا يومان ثمّ يجيء الخميس السعيد...

فابتسم ابتسامة فاترة وتمتم:

ـ وقعت أمور!

فحدجته بنظرة متوجّسة فقال باقتضاب وصراحة حادّة:

ـ ما أنا إلّا رسول الفللي لأطلب يد كريمتك مهلّبيّة!

انزلقت الكلمات فوق وعيها دون أن تترك أثرًا. كرّر القول. طالب بحضور مهلّبيّة فحضرت. راح يقصّ عليهما القصّة وهما تتابعانه في وجوم، ثمّ هبط الصمت بكلّ ثقله.

وكان سماحة أوّل مَن خرج من الصمت فقال:

ـ إنّها محنتي أوّلًا...

استنزلت صباح اللعنات وقنعت بذلك، فقال سماحة:

ـ علينا أن نتدبّر الأمر...

فقالت صباح:

ـ إنّه الرعب!

وسألته مهلّبيّة:

ـ ماذا نويت؟

رغم كآبة الموقف انبعث منها إليه إثارة حادّة. قال:

ـ يهمّني أن أعرف رأيكما...

إذا بصباح تقول:

ـ يا ابني منذا يفكّر في معاندة الفللي؟

ـ نستسلم؟!

ـ هو عين العقل ولا رأي غيره...

ومال ببصره نحو مهلّبيّة فقالت:

ـ رأيك أوّلًا؟

فقال بوضوح:

ـ لا يمكن أن أتخلّى عنك!

فهتفت صباح بذعر:

ـ هو الهلاك وخراب بيتي.

فقالت مهلّبيّة:

ـ إنّي معك...

فخفق قلبه واشتعلت في حواسّه لذّة عنيفة. أمّا صباح فقالت:

ـ هو الجنون...

فقالت مهلّبيّة:

ـ نهرب.

فهزّ رأسه موافقًا، فتساءلت صباح:

ـ وأنا؟

ـ لا شأن لك في الأمر...

ـ هل للانتقام عقل؟

ـ اهربي معنا!

ـ رزقي هنا...

ـ الرزق في كلّ مكان.

فقالت مهلّبيّة:

ـ سيكون لدينا نقود.

فهتفت صباح:

ـ آه من الجنون إذا استحكم...

ومضى سماحة يخطّط لتدبير محكم...

ـ ١٣ ـ

ومن فوره ذهب إلى الفللي بمجلسه في القهوة. لثم كتفه وقال بسرور:

ـ مبارك عليك يا معلّم...

فرنا إليه مليًّا ثمّ قال:

ـ عفارم يا ابن الأصول.

ـ ١٤ ـ

ها هو يلبد في ظلمة الممرّ بين السور العتيق وسور التكيّة. هنا، منذ أجيال، ألقي بعاشور، بلا اسم ولا شكل، في لفافة. هنا انهمرت فوقه الأناشيد بلا وعي منه. هنا امتدّت إليه يد الرحمة تنتشله من الضياع. ها هي الأناشيد تتسلّق أمواج الظلام:

درين زمانه رفيقي كه خالى از خللست
صراحى مى ناب وسفينة غز لست

ستجيء مهلّبيّة متلفّعة بالظلام، يضيء قلبها في الظلمة بما ينبض به من ابتهال للحبّ والحياة. سوف يتلامسان في الممرّ، ممرّ الأبديّة المترعة بالآمال الملتهبة، والآمال المتجدّدة.

حقّ أنّه مضطرب. أكثر من مرّة طوى جلبابه وبال. تنصّت يحلم بالنجاة ويقارع التحدّيات والظنون. نذر لآل البيت خروفًا. استحضر مثال عمّه خضر الذي فرّ ضائعًا ثمّ رجع وجيهًا. لعلّه يرجع ذات يوم ليعيد عهد الناجي إلى عرشه...

الفللي الآن يغطّ في نومه. يحلم بالزفاف غدًا. خدّرته الزغاريد والعهود والبسمات. الآن أيضًا تزحف مهلّبيّة لصق الجدار نحو القبو. لعلّها في هذه اللحظة تشقّ الساحة والأناشيد. جسمها الحارّ يسوقها وقلبها الخافق يرشدها. الأناشيد تنتظم دقّات قلبها، تباركها، تبدّد وحشة الظلمة...

- ١٥ -

من مكان ما في مملكة الظلام انطلقت صرخة. صرخة ممزّقة بالفزع واليأس. سرعان ما تجسّدت في صورة فريسة موءودة الفرحة. تتطلّع بعينين محتجّتين نحو النجم اللامع. متلاطمة مع تموّجات الأنغام. مسلمة في النهاية إلى قبضة الصمت القاسي الساخر.

- ١٦ -

وثب سماحة من مكمنه كالمحترق. مهلّبيّة ولا أحد سواها. اندفع نحو الساحة بلا حذر. ترامى إليه وقع أقدام من ناحية الساحة. قادمة منذرة بنواياها الدمويّة. افتضح السرّ بطريقة ما. بينه وبين الضحيّة عشرات النبابيت والخناجر. لا جدوى من الإقدام. توقّف. تقهقر والأقدام تتقدّم. عند منتصف الممرّ ترامى إليه وقع أقدام من ناحية القرافة. إنّه محاصر. إنّه الموت. السور العتيق مرتفع جدًّا. سور التكيّة مدجّج سطحه بقطع الزجاج المدبّب المغروس. وثب بكلّ قوّته متعلّقًا بطرف السور. انبطح فوق سطحه متلقّيًا نارًا تسري في البطن والصدر والأطراف. فوق ما يتحمّل البشر...

تلاقى الجمعان وتجاوبت الأصوات:

- أين الثعبان؟
- مؤكّد أنّه تسلّل إلى الساحة.
- لا أثر له في الساحة...
- ولا في الممرّ.

الألم يمزّق الجسد وينداح في الروح. يخمد الأمل ويستعذب الموت.

- ١٧ -

السحب تهبط. تتهادى في المكان مثل الضباب. تومض في ثناياها نجوم. الأرواح ترقص مثل الأطياف. السقّاء يوزّع قربة مليئة بالدموع. عاشور الناجي يتفقّد الحارة الخالية. يقطّع الحزن قلبه على الشهداء. يعنّف الشوطة ويأخذ بتلابيبها. ثمّ يرقص رقصة النصر. يتلاقى مع سيّدنا الخضر في الساحة. إنّي قادم لأقودك إلى السدرة. يسيران مشتبكي الذراعين فوق شعاع كوكب مضيء.

وشمس الدين يرفض استقبال الشيخوخة. يتركها متسوّلة عند الباب. يحمل السبيل فوق عاتقه ويمضي به نحو القبو. المتسوّل لا يبرح موقفه. شمس الدين يرقص رقصة النصر. ولكن أين سيّدنا الخضر؟ المتسوّل لا يبرح موقفه. يا له من متسوّل عنيد. لا يرقّ لشلل سليمان. ولا لدموعه. يتركه يهوي درجة بعد درجة. أين المعجزات؟ أين الأحلام؟ ثمّة دم يملأ حوض الدوابّ. ويملأ صهاريج السبيل. ويجفّ في العروق. غير أنّ المتسوّل تحرّك حركة عفويّة. ولأوّل مرّة يتكلّم فيقول. عاشور لم يمت. عاشور سيرجع قبل بزوغ الهلال...

- ١٨ -

يشعر أوّل ما يشعر بحركة في الجفون. بوجود مجرّد. بنفحة من وعي.

يرى شابورة. تنجلي عن نقوش لانهائيّة في سقف المخدع. يا ألطاف الله. أين تسمع هذه الهمسات.

هٰذه الألوان. أما زالت الدنيا على قيد الحياة؟ هٰذا الكائن امرأة. ضياء زوجة عمّه خضر. تميل فوقه في براءة وتتمتم:

ـ ما أكثر الأحلام!

دار خضر. ها هو صوت عمّه الطيّب يردّد:

ـ نحمد الله...

ها هي الذكريات تدهمه في طوفان. كيف تسلّل إلى داره سائل الدم. وسور التكيّة المسلّح. ما أقسى قلوب الخناجر الذهبيّة. وصرخة مهلّبيّة في جوف الليل. طارت بكلّ الآمال الحيّة فألقتها وراء السور العتيق. بقي اللقب المعذّب الدامي وحده. تأوّه من الأعماق. همس عمّه في أذنه:

ـ إنّك هنا سرّ منْ الأسرار الخفيّة...

وقال رضوان:

ـ لا ضمان لحياة أحدنا لو ذاع السرّ!

ها هي الحقيقة مخضّبة الوجه بالخجل والعار. ولٰكن كيف هُتك سرّ هربه؟...

ـ ١٩ ـ

تمضي صحّته في التحسّن يومًا بعد يوم. وتستعاد الحكاية بتفاصيلها الوحشيّة. مهلّبيّة قُتلت. شهد عشرات بأنّه ـ سماحة ـ استدرجها بحيلة إلى الساحة ثمّ قتلها انتقامًا منها لإيثارها الفللي عليه. شهدت بذلك أمّها أيضًا. آثرت المرأة الحياة على الموت فشهدت لصالح القتلة. وإذن فقد قُتل ثمّ لاذ بالفرار. وقال سماحة:

ـ صباح المسكينة هي التي اضطرّت إلى البوح بسرّنا!

وما العمل الآن؟

لا مفرّ من الهرب. كما هرب أبوه بكر وجدّته سنيّة، كما اختفى عاشور. فليودّع التكيّة والقبو والزاوية والسبيل والحوض والوجوه الحميمة كما ودّع السعادة.

وسأل عمّه:

ـ كيف تعاملون؟

فقال خضر بأسًى:

ـ بالازدراء والغلظة...

فتأوّه. غير أنّ عمّه قال له:

ـ يجب أن يكون هربك هٰذه المرّة سرًّا لا يفشى!

ـ ٢٠ ـ

وجاءت أخبار مؤكّدة بأنّه قد صدر عليه حكم غيابيّ بالإعدام. وقال له خضر:

ـ بات الهرب واجبًا لأكثر من سبب...

إنّه يختنق تحت ضغط الظلم والحنق. وعاد خضر يقول:

ـ يجب أن تمرّ خمسة عشر عامًا قبل أن يعثر عليك أحد.

وقال له رضوان:

ـ الحكومة تجدّ في أثرك، وأعداؤك يجدّون، احذر بصفة خاصّة حمّودة ودجلة وعنتر وفريد فقد كانوا على رأس الشهود...

آه. متى يقف على قدميه؟ متى تخفّ آلامه؟ متى ينسى أنّه نكص عن نجدة مهلّبيّة؟ متى يُنزل انتقامه بأعدائه؟ ومتى وكيف يفلت من حبل المشنقة؟

وعانى آل الناجي شرّ معاملة. حتّى الفقراء والحرافيش منهم لم يسلموا من الأذى. ثمّة غلمان قذفوا خضر بالطين. نُهبت عربة له محمّلة بالغلال. كانوا يأوون إلى بيوتهم مع المساء. غير أنّ خضر لم يغال في التشاؤم، وقال:

ـ سوف يذعنون في آخر الأمر لسحر النقود...

ـ ٢١ ـ

بتماثله إلى الشفاء الكامل نبض قلبه بدم جديد. جعل يفكّر في المستقبل ويرسم الخطط. لا مسرّة في الطريق حقًّا ولٰكنّه لم ينهزم. ودبّ من جديد في أعماقه حبّ الحياة. اجتاحته رغبة ملهمة. تحفّز للعناد والإصرار والبقاء.

ـ ٢٢ ـ

عندما عدّى النيل آمن بأنّه انتقل إلى وطن جديد. كاد وجهه أن يختفي وراء لحية مسترسلة ولاثة تطوّق الرأس فوق الحاجبين. أصبح اسمه بدر الصعيديّ،

وحرفته بيع التمر والحلبة والعدس. أقام في بدروم ببولاق وعُرف بسلوك عذب.

ونصب أمام مخيّلته حبل المشنقة كأنّه الميزان الذي لا يفارقه. أدرك أنّ الموت يرصده، أنّ الشياطين تقتفي أثره، وراح يسجّل في دفتر خاصّ الأيّام في مرورها كما يسجّل في الدفتر الآخر معاملاته التجاريّة. وغاب العالم القديم، كما غاب أهله وأهل حارته، طموحه في الفتونة، حبّه، الآمال الحارّة. لم يبق معه إلّا المنفى والعمل والتقوى.

ووجد بادئ الأمر وحشة في بولاق. أجل إنّ المعالم متشابهة، فثمّة السبيل وحوض الدوابّ والكتّاب والزاوية وشيخ الحارة، طموحه في الفتونة، حبّه، الآمال الحارّة. لم يبق معه إلّا المنفى الناجي العظيم؟ ولم يثر في الناس فضولًا ذا خطر، فبولاق ميناء نهريّ يلتقي عندها العديد من المراكب الشراعيّة كلّ يوم، ويؤمّها الأغراب عبورًا وإقامة، لذلك لا يلوذ بها الفارّون من وجه القانون، ولا تضيق بالغريب. وهي ممتدّة ومتفرّعة بخلاف حارته المكنونة، فتكاثف في أعماقه الغربة والضياع، ولكنّها غربة مسربلة بالأمان على أيّ حال. ثمّة وقت غير محدود لتأمّل حياته، ودراسة مشاريعه، واحتضان نوازعه الثابتة للانتقام وفرض سيادة العدل. هكذا قبع الحالم الكبير في دكّانه الصغير، يتعامل باللطف، ويدّرع بالأمانة، ويقنع بالرزق الحلال، ويتحدّى المجهول.

وقال له شيخ الحارة:

ـ الطيّبون أمثالك نادرون.

فقال بأدب:

ـ من بعض ما عندكم...

ـ ترى ما سبب هجرتك من الصعيد؟

فأجاب بدهاء وقلبه يخفق:

ـ كيف يُسأل صعيديّ عن ذلك!

فضحك الرجل وواصل بدر الصعيديّ قائلًا:

ـ وأجدادي الأوائل كانوا من بولاق!

فقال الرجل وهو يتناول منه لفافة بدينة حافلة بالمتنوّعات:

ـ جميل أن يحنّ الإنسان إلى أصله...

ـ ٢٣ ـ

ثمّة فتاة في الجانب الآخر من العطفة. ملمح من ملامح الحارة الثابتة. تدعى محاسن بيّاعة الكبدة. دكّانها متحرّك يمكن حمله بجهد قليل. طبليّة موضوعة فوق قائم أسطوانيّ من الجريد، منسوج الفراغات بالخوص المجدول، ترصّ على سطحها كبد العجول والضأن، يتوسّطها ميزان وساطور. والفتاة طويلة القامة، ثريّة الأعضاء، ذات نظرة عسليّة، فيها من الجاذبيّة بقدر ما فيها من حدّة الطبع وطول اللسان.

يتوق الغريب إلى ما يؤنس وحدته ويبدّد وحشة قلبه القلق. يتابع نشاطها باهتمام، يلاحظ عنفها بشغف. إنّها مطمع كلّ شابّ، وسرعان ما تشهر أسلحة الدفاع من لسان سامّ وأظافر حادّة. إنّه خير من الاستسلام، ولكن لِمَ لم يطلبها ابن الحلال؟

انفتحت شهيّته للكبد: أدرك أنّه ينساق في طريق مجهول العواقب. وأنّه يمضي مدفوعًا بقوّة في داخله قبل أن تكون في الجانب الآخر من الحارة. وزنت محاسن له رطلًا ولفّته في ورقة ثمّ قالت ببساطة:

ـ خذ يا سيّي!

سرّ بدعابتها واعتبرها تحيّة. إنّها تذكّره برشاقتها وثراء أعضائها وغمقة سمرتها بفقيدته التعيسة مهلّبيّة. وتذكّره بالتالي بنكوصه المزري عن نجدتها وبآلام الماضي الحزين. ولكنّه ما زال يكابد الحياة، وربّما كابدها طويلًا تحت المطرقة. وكلّما طرح الموت ظلّه عليه تشبّث أكثر بأهداب الحياة.

ومن ناحيتها كانت محاسن تبتاع منه العدس والفول والحلبة. خذ يا سيّي هات يا سيّي. خذي يا ستّ محاسن. خذي يا ستّ الكلّ. لم يجاوز الاحتشام في تعامله معها. لعلّها قرأت في عينيه أكثر ممّا يقول أو يفعل. لعلّها عجبت أيضًا لما ينفرد به من سلوك طيّب...

وعلى جانبي الحارة، وبعيدًا عن أيّ شبهة، نضجت عاطفة قويّة...

ـ ٢٤ ـ

عقب صلاة العصر تعمّد أن يشير إلى سيرتها في حديث له مع إمام الزاوية:

ـ أهي وحيدة يا مولانا!

ـ كلّا، إنّها تعيش مع أمّ عجوز ضريرة...

ـ ولا أهل لها سوى ذلك؟

ـ قُتِل أبوها في خناقة، ولها أخ في الليمان...

ـ أظنّها في العشرين فلِمَ لم تتزوّج؟

فاستغفر الإمام وقال:

ـ كانت أمّها سيّئة السمعة!

ـ ولكن هل البنت...؟

فقاطعه الشيخ بصدق:

ـ لا غبار عليها والله أعلم!

زكّاها عنده زهد الآخرين فيها. ليس الغريب المطارَد بالصالح للمنافسة. الزواج يؤصّله في المكان ويجلب له الثقة. وهي خير من أخرى ذات أهل يهمّهم أن يعرفوا الأصل والفصل. وأهمّ من ذلك كلّه لِمَ لا يعترف بأنّه يرغب فيها بكلّ شبابه؟

ـ ٢٥ ـ

انتهز فرصة وجودها بدكّانه لشراء حوائجها، متشجّعًا بدلالها ومرحها، فسألها:

ـ ماذا ترين يا محاسن إذا طلبك رجل على سنّة الله ورسوله؟

فرمقته باهتمام، اهتمام غطّته بنظرة ساخرة وضّاءة، وتساءلت:

ـ أيوجد مثل هذا المجنون؟

ـ أجل، إنسان من لحم ودم ومستور برعاية الله...

وتبادلا النظر مليًّا في رضًى وسلام، ثمّ غلبها المرح فتساءلت:

ـ أله لحية مثل فروة الخروف؟

ـ هو ذلك...

ـ وماذا أفعل بلحيته؟

فقال ضاحكًا:

ـ لحية مستأنسة ولا ضرر منها على الإطلاق...

ثمّ وجهها على الرضى ولكنّها ذهبت دون أن تنبس...

ومضى يتذكّر مهلّبيّة بأسًى عميق...

ـ ٢٦ ـ

أعلنت الخطبة. وبعد أشهر تمّ الزفاف.

رغم أنّ العروسين كانا بلا أهل فقد اكتظّ الفرح بالمدعوّين من الجيران والزبائن. أنفق بدر الصعيديّ عن سعة. جالت زفّته بالحيّ في حمى الفتوّة فمرّت بسلام.

وجُهّزت شقّة مكوّنة من حجرة وصالة، حجرة للنوم وصالة للجلوس والمائدة، وأسهمت محاسن وأمّها في الجهاز بما يرفع الرأس.

وسعد سماحة بعروسه ولكن تنغّص صفوه بعض الشيء بإقامة حماته معهما، واحتلالها الصالة ليل نهار. كانت عجوزًا ضريرة، تشهد قسماتها العتيقة بجمال دابر، وكانت وقحة سليطة اللسان، قُدّت كلماتها من رصاص، فلم تعرف المجاملة حتّى في شهر العسل والمجاملات. ولكنّ الحبّ اكتسح كلّ شيء في فصله الورديّ...

ـ ٢٧ ـ

تفرّغت محاسن للبيت. أحبّت زوجها. اكتشفت أنّه ميسور الحال أكثر ممّا يعلن، وأنّه في الداخل أجمل منه في الطريق.

قالت له مرّة:

ـ لو حلقت لحيتك لكنت من أحسن الناس صورة...

فقال متهرّبًا:

ـ إنّها سرّ نجاحي في الحياة.

وإذا بحماته تبغته قائلة وهي تقهقه بصوت داعر:

ـ استعمليها بدل المقشّة!

ولم يكن يستخفّ لها ظلًّا ولا يغفر لها ماضيًا فحنق عليها وقال بحدّة:

ـ أوافق بشرط أن نكنسك بها...

فاشتعلت العجوز بالغضب وهتفت:

ـ احترسي من هذا الرجل فإنّ قلبه أسود...

رماها بنظرة حاقدة وعدّها ضمن سوءات الحظّ التي تطارده.

- ٢٨ -

حتّى محاسن لم تنجُ من سهام العجوز. كانت فاسدة الطبع مشاكسة سيّئة الظنّ بكلّ شيء. كثيرًا ما تقول لابنتها:

- تضنّون عليّ بأطايب الطعام وترمون إليّ بأسوئه...

فتقول لها محاسن:

- تأكلين ممّا نأكل.

فتقول بإصرار:

- كذّابة لا تخفى عليّ حقيقة رائحة، كذّابة مثل زوجك؟

فيغضب سماحة ويقول:

- ما دخلي أنا؟

- أنت رأس البلوى...

- الصبر... الصبر... حتّى يجيء الفرج!

فتصرخ العجوز:

- الفرج!... ستسبقني إلى القبر!

- طريقنا مختلف على أيّ حال.

فتقهقه قائلة:

- أراهن على أنّك قتلت أباك في الصعيد وجئتنا هربًا من حبل المشنقة!

ارتعد حنقًا وحقدًا وتمنّى لو يحطّم رأسها...

- ٢٩ -

لكنّه سعد بمحاسن حقًّا، ولاذ بحضنها من همومه الراسخة. هي أيضًا تستجيب له وتسعد به. أجل آمن منذ الشهر الأوّل بأنّها ليست الزوجة الطيّبة المطيعة. إنّها جريئة، حادّة، واثقة من نفسها، مداعباتها تخشن أحيانًا لحدّ القسوة. وهي تبالغ في عنايتها بنفسها. تكثر من الاستحمام والتعطّر بالقرنفل ولكنّها تتزيّن لحدّ البهرج. وعدّ ذلك من مزاياها ولكنّه كره أن يطّلع عليه غريب. ومن جرّاء ذلك نشب بينهما أوّل خلاف جدّيّ.

قال لها مرّة:

- لا تطلّي من النافذة وأنت على هذه الصورة...

فقالت باستياء:

- طالما عملت في الطريق...

- كنت تظهرين كما خلقك الله...

فقالت بحدّة:

- وكنت ترى كيف أؤدّب السفلة!

وتدخّلت العجوز فقالت:

- ألم أقل لك إنّ قلبه أسود؟!

فنهرها قائلًا:

- اقطعي لسانك القذر...

فولولت العجوز:

- فليحمك الله من قاتل أبيه!

فأعرض عنها وهو ينتفض غضبًا وقال لمحاسن:

- تشجّعك على الفساد...

فاشتدّ بها الاستياء وقالت:

- لست عرضة للفساد...

- في هذا الأمر أطالبك بالطاعة التامّة...

- لست طفلة ولا خادمة...

فانهارت فرامله وصاح:

- سأقذف بك من النافذة!

فجنّت محاسن وهتفت:

- سأقذف بك في المرحاض...

فصاحت العجوز:

- عفارم!

فصرخ سماحة:

- أتحدّى أن تتجاهلي أمري...

وقف الخصام عند ذاك الحدّ. وسرعان ما تصافيا في اليوم التالي. وفي مساء ذلك اليوم بشّرته بأنّها في طريقها إلى الأمومة...

- ٣٠ -

ماتت حماته العجوز الضريرة ميتة غريبة...

سقطت من نافذة الصالة المطلّة على المنور فتهشّم رأسها. لعلّه من حسن حظّ بدر الصعيديّ أنّه كان وقت ذاك في دكّانه. وجرت الإجراءات سراعًا وبلا عرقلة حتّى شيّعت القتيلة إلى قبرها. احتفل بدر بالجنازة والمأتم إكرامًا لمحاسن ولمركزه في الحارة. ووجد رغم ذلك حرجًا لسابقة العداء المستحكم بينه وبين الراحلة.

وبكت محاسن بكاءً مرًّا حتّى قال لها:

ـ لا تبكي فأنت حبلى. . .

فسألته بعتاب قاس:

ـ ألا تهمّك المرحومة؟

ولمّا لاذ بالصمت اتّهمته قائلة:

ـ لا تدار فرحتك!

فقال محتجًّا:

ـ الموت يفرض احترامه.

وعدّدت محاسن مزايا أمّها التي لا يجوز أن تُنسى. كانت تحبّها رغم مشاكستها السطحيّة، ومن قبل أحبّت أباها لدرجة العبادة. وشدّ ما تحطّمت عند مصرعه في عزّ شبابه. وشدّ ما تحطّمت عندما قضي على أخيها بالتأبيدة. وأدمنت الأفيون فاضطرب سلوكها واتُّهمت بكلّ سوء. هٰكذا فقد بصرها فزادت تعاستها. وتكالبت عليها الأحزان وهي مهملة في بيت رجل لم يرحّب بوجودها قطّ!

وقالت أيضًا إنّها كانت في شبابها من أجمل بنات بولاق، وإنّها آثرت الزواج من أبيها على الاقتران بقصّاب غنيّ فلم تكن تافهة أبدًا.

تابع سماحة سيرة العجوز وهو يتذكّر جدّته سنيّة هانم السمري التي هربت مع سقّاء في سنّ ابنها، وتساءل بحزن ترى أين تقيم، وماذا فعل الزمان بها، وماذا فعل بأبيه بكر؟ وكم ينطوي الماضي على مخازٍ وأحزان!

ـ ٣١ ـ

وجاء الصيف زافرًا أنفاسه الحارّة. إنّه يحبّ ضياءه، لا يضيق بلفحاته، ويستعذب أماسيّه الرقيقة، ويعشق الملوخيّة والبامية والبطّيخ والشمّام، ويستبشر بالاستحمام كلّ شروق.

وأنجبت محاسن ذكرًا. وسرّ الرجل به سرورًا فخورًا. ودّ لو يسمّيه شمس الدين، ولكنّه خاف الاسم كأنّما سيزيح عنه الأمان، فوافق على الاسم الذي اختارته محاسن، رمّانة، اسم أبيها.

وتضاعف نجاحه وثراؤه، وحول ساعدي محاسن تكاثرت الأساور الذهبيّة، وبدا وجه الحياة بسّامًا.

ويومًا بعد يوم سجّل في دفتره السرّيّ جريان الزمان البطيء. وعند كلّ مرّة يتذكّر حبل المشنقة، ويتساءل هل تُكتب له النجاة حقًّا؟ ويتذكّر أهله، وأهل حارته، ترى ماذا فعل الزمان بهم، ويتذكّر أعداءه، الفللي ودجلة وعنتر وفريد وحمّودة القوّاد، هل يقف فوق رءوسهم يومًا وقفة المنتصر، هل يعيد إلى حارته عهد الناجي، هل يرجع إلى سماع الأناشيد؟

ـ ٣٢ ـ

وبعد رمّانة أنجبت محاسن قرّة ووحيد. استوى بدر وجيهًا من وجهاء الحارة ومُحْسِنًا من رجالها الطيّبين. أصبحت له منزلة خاصّة عند المساكين.

ولم تتخلّ محاسن عن عنايتها التقليديّة بجمالها ونظافتها. لم تشغلها الأمومة عن الأنوثة وحبّ الحبّ. وإلى ذٰلك ولعت بالحشيش حتّى صار مزاجًا ملازمًا. جرّبته أوّل الأمر على سبيل المشاركة العابثة مع زوجها الذي يدخّنه في بيته كلّ ليلة. خرّت بعد ذٰلك بين أنامله الناعمة الشرهة وهامت به.

ومرّت الأيّام وتعاقبت الأعوام حتّى أمّن الرجل إلى مصيره وانجلت عنه المخاوف أو كادت.

ـ ٣٣ ـ

وسرى إلى بولاق خبر عجيب.

ثمّة صداقة تتوطّد أركانها بين فتوّة بولاق والفللي!

صعقه الخبر. انفتحت بغتة تحت قدميه فوهة جبّ. زلزلت أركان دنياه الأربعة.

وسأل شيخ الحارة عمّا يقال فقال الرجل:

ـ أبشر، إنّه يعني مضاعفة لقوّة الفتوّتين!

تظاهر بدر بالسرور فقال شيخ الحارة:

ـ ستكثر الأفراح والليالي الملاح. . .

ـ هٰذا هو المأمول.

ـ ثق من ذٰلك، سوف تُتبادل الزيارات، وهٰذا يعني الغناء والرقص والسكر.

فتمتم بدر بريق جافّ:

ـ ما أطيب ذٰلك وأجمله. !

تسلّل ثعبان إلى المسكن المطمئنّ. لم يخطر له ذٰلك

على بال. طالما ظنّ أنّ النيل حاجز لا يُعبر. هكذا سيجيء الفللي وعصابته. سيمرحون في الحيّ. سيُدعى إلى الأفراح. لم يزل نصف المدّة قائمًا، قابضًا على حبل المشنقة. لن تخفى حقيقته عن الأعين الثاقبة. ورسم خطّة.

ادّعى المرض قبيل الزيارة بأيّام. حتّى محاسن صدّقته وحلّت في الدكّان محلّه.

- ٣٤ -

في الليلة الموعودة قبع وراء خصاص النافذة.

غيّرت الدنيا سحنتها. كلّ شيء ينطق بالغرابة. السخرية متجسّدة حول الكلوبات مثل وجه ساحرة. نفايات الأمان مكوّمة في المزابل. أمّا الحارة فتتموّج برقص الراقصات والراقصين. ورائحة السمك المقليّ تملأ الهواء. إنّه الشتاء فلِمَ لا تمطر السماء؟ أين الرعد والبرق؟ أين قسوة الرياح؟ وعلا الطبل والزمر. وضجّ المكان بالهتاف والزغاريد. ها هو موكب الأصدقاء يقترب. تتقدّمه جياد راقصة مجلجلة بأهلّتها الفضّيّة. ها هو أبغض خلق الله، الفللي القبيح اللئيم الطاغية، شابكًا ذراعه بذراع فتوّتنا. يبتسم عن أسنان ذهبيّة. ها هو دجلة. عنتر. فريد. أين حمّودة؟. قُتل. سُجن. مات. الأوغاد مجتمعون. أين القضاء والقدر؟ ما جدواك أيّها الحقد؟ إنّهم يبتعدون ولكنّ الضوضاء تتفشّى. ليلة صاخبة. معربدة. مضمرة للعذابات المبهمة. متوعّدة بكلّ شرّ. عزرائيل يباركها. حبل المشنقة يطوّقها. الأحلام تختنق فيها. الأحبّة - محاسن ورمّانة وقرّة ووحيد - يتحوّلون إلى أطياف. قد تتلاشى في أيّ لحظة. ويحلّ ظلام دامس. ويحلّ يأس قاتل. ويحلّ فراغ شامل. . . .

- ٣٥ -

رجع إلى دكّانه مستقبلًا التهاني. القبوع في البيت مفسدة للروح، مثير للمخاوف. مهوّل للأحزان. أمّا الحركة فبركة. المعاملة تجديد للدماء وبعث للشجاعة. اختفى الأعداء. توارى عزرائيل. رحيق الحياة يجري في ريقه. التوكّل على الله ينعش روحه. الأمل يخطر من جديد. الإلهام يفعم وجدانه. اطمئنّ يا بدر ولا تخفْ. تحصّن وراء لحيتك واعتمد على ربّ العدل.

واشتدّت ارتباطاته الوجدانيّة بمحاسن ورمّانة وقرّة ووحيد. بالطعام والشراب والعبادة والحياة. حتّى الشتاء وجد في سحبه شغفًا. طرب لكلّ شيء حتّى أصوات الشتائم المتبادلة. أسف على أنّه لا يستطيع أن يلقّن الأبناء حكايات عاشور وشمس الدين. أن ينشئوا جاهلين لأصلهم المبارك، لبركة الحلم، وصداقة سيّدنا الخضر. متى يعرف رمّانة أنّه رمّانة سماحة الناجي؟

وقال لنفسه:

- افرح عند كلّ شروق شمس ولا تحزن عند غروبها!

- ٣٦ -

كان يسجلّ مرور يوم جديد بدفتره السرّيّ عندما أمره شعور داخليّ بأن يرفع عينيه. رفع عينيه فرأى محمّد توكل شيخ حارته الأصليّة على بعد متر من دكّانه. رآه يمرّ وهو يلقي نظرة عابرة.

انخلع قلبه. اخترقه الفزع مثل بلطة. تلاشى كلّ شيء.

هل رآه الرجل؟ هل تذكّره؟

ولمحه عن بعد جالسًا في دكّان شيخ الحارة. يتحدّثان ويتضاحكان، وتنظر عيناه كيفما اتّفق. إنّه الموت. شدّ ما يسعده أن يقدّم خدمة للداخليّة. شدّ ما يسعده أن يهنّئ الفللي بالقبض عليه. لو عمي الرجل ما عرف - هو - الأمان بعد الساعة. أصبحت بولاق مباحة للأعداء.

وها هو خبر ينتشر أنّ محمّد توكل يسعى إلى مصاهرة تاجر الخردة. لعلّه جاء في صحبة الفللي فقادته عيناه إلى زوجة جديدة. سوف يمسي من أهل بولاق بقدر ما هو من أهل الحسين. لم تعد بولاق بالمأوى الآمن.

أجل لم تعد بولاق بالمأوى الآمن. . .

- ٣٧ -

قالت له محاسن وهي تتفرّس في وجهه:

- في قلبك شيء.

كان الأبناء قد ناموا. وكانت تحوم حوله في زينتها الحلوة فآنست منه ما خيّب حلمها. قال:

- في قلبي أشياء...

سلّمت للخيبة وتساءلت:

- التجارة؟

فتمتم بحزن:

- التجارة رابحة، ولكنّ أمامي رحلة طويلة...

- الصعيد؟

- ربّما...

- ولكن ما السبب؟

فتجاهل سؤالها قائلًا:

- سوف تطول أعوامًا...

- أعوام؟!... خذنا معك...

- أتمنّى ذلك ولكنّه مستحيل...

فقطّبت في ريبة فقال:

- رحلة مطارَد لا رحلة تاجر!

- مطارَد؟!

فتنهّد قائلًا بأسى:

- إليك قصّة المطارَد المظلوم يا محاسن!

- ٣٨ -

ودّع الرجل زوجته وأولاده وغادر داره متسلّلًا قبيل الفجر.

مع الصباح الباكر وقفت محاسن في الدكّان تمارس حياتها الجديدة. كانت كئيبة حزينة ضائقة بسرّها. وكانت تقف بين الشكّ واليقين ممّا حكاه زوجها. لقد خدعها أعوامًا، ربّما له عذره، ولكنّه خدعها، فهل صدقها أخيرًا أم تمادى في خداعه؟

ومرّ بها شيخ الحارة فسألها عن زوجها، ماذا أقعده في البيت، فقالت بوجوم:

- سافر إلى الصعيد...

فدهش الرجل وقال:

- أمس قابلته فلم يخبرني بشيء...

فقالت باستسلام:

- سافر!

- صاحب همّة عالية، ولكنّك لست كعادتك يا ستّ محاسن...

- بخير يا ريّس.

- متى يرجع؟

فلاذت بصمت واجم فتساءل الرجل بحذر:

- امرأة أخرى؟

فقالت بحدّة:

- كلّا.

- هل تطول غيبته؟

- ستطول أعوامًا يا ريّس؟

- يا للخبر!

- قسمتي...

- ولكنّك تخفين أشياء...

فقالت بفتور:

- كلّا.

فمضى الرجل وهو يقول:

- لا أمان للصعايدة!

- ٣٩ -

ونشر شيخ الحارة الخبر حتّى علم به محمّد توكل وكان ينزل ضيفًا عليه. وبخلاف ما توقّع اهتمّ الضيف بالخبر وتساءل:

- أهو الصعيديّ ذو اللحية؟

فأجاب شيخ حارة بولاق بالإيجاب.

عند ذاك أغمض محمّد توكل عينيه متفكّرًا...

- ٤٠ -

عقب ساعة اهتزّت الحارة على كبسة عسكريّة. اقتحمت قوّة منها مسكن بدر الصعيديّ بقيادة ضابط، وقد اقتحمت دكّانه بقيادة المخبر حلمي عبد الباسط.

زحف الأهالي نحو المواقع كالنمل.

سأل حلمي عبد الباسط محاسن بخشونة:

- أين سماحة سليمان الناجي؟

فأجابت بثبات:

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم...

- حقًّا؟... أين بدر الصعيديّ؟

- لا أدري.

- كذّابة...

- لا تسبّ يا مخبر، ماذا تريدون من رجل شريف؟

- شريف؟!... أنت تعلمين أنّه هارب من حبل المشنقة...

- أعوذ بالله... الحارة كلّها تعرفه...

فصاح:

- أمامي إلى القسم...

فهتفت:

- لي أبناء ثلاثة لا أحد يرعاهم. ماذا تريدون منّي؟

- ٤١ -

فتّش الدكّان كما فتّش البيت. جرى تحقيق دقيق مع محاسن. أفرج عنها. وطار الخبر في الحارة مثل النار. ذهل الناس ذهولًا.

- بدر الصعيديّ!

- صاحب اللحية...

- المحسن!

- قاتل هارب من المشنقة!

- لم يكشفه إلّا حماته وإن تكن امرأة سوء مثله!

- ٤٢ -

مضت العادة تستلّ من العجائب روحها وجدّتها. أدخلت محاسن أبناءها الكتّاب، وكانت تجيء بهم عقب الكتّاب إلى الدكّان أو تتركهم يلعبون أمام عينيها. شدّ ما حزنت على زوجها، وشدّ ما حزنت لحظّها الأسود. ورغم نوبات الحنق لم تنس أنّه تركها مستورة، بل غنيّة بتجارة رابحة.

ومنذ يوم الكبسة لم يتخلّف المخبر حلمي عبد الباسط عن المرور بالحارة أو الجلوس أحيانًا بدكّان شيخ الحارة. ترى أما زال يراقبها؟ إنّها تشعر بنظراته وتضيق بحركاته ولكنّها تتجاهله. رجل فظّ غليظ. طويل القامة، كبير الوجه. ذو عينين صغيرتين وأنف غليظ، وشارب مثل مخرطة الملوخيّة. يا له من منظر شؤم، وشؤم ما اقترن به من ذكريات. إنّه يراقبها بلا أدنى شكّ فماذا يظنّ؟ يمرّ بالدكّان فيرمي بنظرة غريبة مثيرة للتساؤل، أو يجلس بدكّان شيخ الحارة فيسدّد بصره بلا هوادة. ماذا يظنّ وماذا يريد؟ تساءل عقلها وتساءلت غريزتها. توثّبت للنضال كما توثّبت للاستطلاع.

ومرّة توقّف أمام الدكّان. اقترب خطوة فانحشر في أفكارها. تبسّم متسائلًا:

- أتؤمنين حقًّا ببراءة زوجك؟

فأجابت دون أن ترفع عينيها إليه:

- إنّي أصدّقه.

فقال بنبرة الوعظ وهو يمضي:

- حتّى يلتفّ الحبل بعنق القاتل يظلّ مصرًّا على براءته!

- ٤٣ -

ورأت يومًا محمّد توكل شيخ الحارة فدعته إلى دكّانها. أكرمته وقالت له:

- لعلّك تدرك ما أعانيه من متاعب.

فقال الرجل مجاملًا:

- كان الله في عونك...

- ولكنّك وحدك من يعرف الحقيقة...

- الحقيقة؟!

- حقيقة التهمة...

فقال توكل بلباقة:

- لا أعرف إلّا ما أسفر عنه التحقيق.

- ولكنّه أقسم لي بأنّه بريء...

- ثبت أنّه قتل البنت ثمّ هرب...

تنهّدت محاسن يائسة، ثمّ قالت:

- حدّثني عن أهل زوجي وأبنائي...

فقال محمّد توكل باسمًا:

- إنّهم من صلب فتوّات قدامى يروون عن سيرهم ما يشبه المعجزات، ولكنّي لا أصدّق خيال أهل حارتنا، فهم يؤمنون بأنّ الخير بدأ وانتهى في ماضٍ

غامض، ولا يفرّقون بين الحقيقة والحلم، يفكّرون بعواطفهم، ويحكمون على الأشياء بتعاستهم، ويصدّقون أنّ الملائكة هجرت سماواتها ذات يوم لتحمي هٰذا أو ذاك من أجدادهم...

ـ هل الفللي منهم؟

ـ كلّا، انتهى زمان فتونتهم، لم يعد أحد منهم يفكّر فيها، أكثرهم اليوم فقراء أو من أهل الحرف، ولكنّ زوجك ينتمي إلى الأسرة الغنيّة الوحيدة فيهم، فعمّه المعلّم خضر من كبار التجّار، وكذٰلك شقيقه رضوان، هل تنوين تسليمهم الأبناء؟

فبادرت تقول:

ـ كلّا، لن أتخلّى عن أبنائي، ولست في حاجة إلى أحد، وما سألتك إلّا لأعرف ما ينبغي معرفته...

ـ قد يطالبون بهم ذات يوم؟

فقالت محاسن بحرارة:

ـ سأحتفظ بهم ما وجدت إلى ذٰلك سبيلًا...

فقام شيخ الحارة وهو يقول:

ـ كان الله في عونك...

ـ ٤٤ ـ

مع الأيّام أصبح حلمي عبد الباسط من زبائن الدكّان. أكان ذٰلك ضمن خطّته في المراقبة؟ ولكن كفى خداعًا للنفس. هٰذه النظرات الجائعة لا تصدر عن تجسّس. وليس في حياتها ما يستحقّ المراقبة. إنّه يحوم حولها بنظرات مشغوفة، وابتسامة متودّدة، وارتباك ينمّ عن نواياه الدفينة. إنّها تعرف ذٰلك بغريزتها ولٰكنّها تتجاهله. وهي تشعر بنفور ولٰكنّها تتجنّب الحزم. وقلقها من المستقبل يتزايد يومًا بعد يوم.

ومرّة قال لها:

ـ سامحه الله...

فنظرت إليه مستطلعة رغم أنّها عرفت من يقصد فقال:

ـ يتركك وحيدة مع ثلاثة أبناء...

فلم تنبس فقال:

ـ وحتّى إذا كُتبت له النجاة فعليك أن تنتظري ثمانية أعوام...

فقطّبت فقال بيقين:

ـ ولن تُكتب له النجاة!

فقالت بحزن:

ـ الله مع المظلومين!

فقال بإصرار:

ـ طيلة حياتي لم أسمع أنّ قاتلًا أفلت حقًّا من حبل المشنقة!

ـ ٤٥ ـ

ومرّت الأيّام ثقيلة متشابهة. أرهقها الجهد المتواصل والضجر. وأرهقها الحرمان من الذي كان يملأ حياتها. ووجدت مشقّة في تموين دكّانها بالسلع فهبط الدخل رغم أنّه ما زال فوق الكفاية. وراحت تحاكم سماحة وتدينه لما نزل بها، وتشتدّ في محاسبته كلّما أثقلها الضجر أو عذّبتها الوحدة. وأكثر الوقت ضاع رمّانة وقرّة ووحيد في الطريق بلا رعاية حتّى قال لها شيخ الزاوية:

ـ الأولاد معرّضون للشرّ يا ستّ محاسن...

فقالت بأسًى:

ـ ما العمل؟ لم يبلغوا بعد السنّ التي يعدّون فيها للعمل في الدكّان...

ـ أليس الأفضل أن يلقّنوا حرفة ولو على سبيل حفظهم من الطريق؟

فقالت مقطّبة:

ـ لن أتركهم تحت رحمة أناس لا ثقة لي فيهم...

وتضاعف سخطها وقلقها...

ـ ٤٦ ـ

ولم يكفّ حلمي عبد الباسط عن الحومان حولها. ومرّة قال لها بحنان:

ـ إنّي أرثي لك يا ستّ محاسن...

فقالت بإصرار:

ـ إنّي قويّة وناجحة...

ـ ولٰكنّك لست حرّة.

ـ ماذا تعني؟

ـ ما زلت مرتبطة بحبل المشنقة...

فقطّبت قائلة:

ـ إنّي راضية...

ـ بل عليك أن تتحرّري لخيرك وخير الأولاد...

ماذا يريد أن يقول؟

ـ في مثل ظرفكِ تطالب المرأة بالطلاق!

فضحكت ساخرة فقال:

ـ سيطلبك ابن الحلال فإنّك في الحقّ جوهرة...

وغادر الدكّان متجنّبًا سماع جواب لا يرضيه...

ـ ٤٧ ـ

عقب اختفائه بدقائق سُمعت صرخة صرخة عصفت بجذور قلبها. اندفعت من الدكّان مجنونة فرأت وحيد يتمرّغ في التراب مخضّب الوجه بالدماء. وعن بعد ثمّة غلمان يجرون فزعين. تجاهلت مضطرّة الجناة ورفعت ابنها بين يديها وهي تصوّت. ولمّا تفحّصت وجهه صرخت بأعلى صوتها:

ـ ضاعت عين الولد!

ـ ٤٨ ـ

سُحب الهموم تراكمت. أمطرت قلقًا وكآبة. وحلّت بالأركان الضجر. تجلّت همسات الإغراء مثل قوس قزح.

ـ ٤٩ ـ

أمام الدكّان وقف دوكار. نهضت محاسن مستطلعة. غادر الدوكار كهل ثمّ شابّ، يرفلان في عباءتين من وبر الجمل. أقبلا عليها والكهل يقول متسائلًا:

ـ ستّ محاسن؟

أجابت بالإيجاب فقال الكهل:

ـ أنا خضر سليمان الناجي عمّ زوجك سماحة وهٰذا شقيقه رضوان...

خفق قلبها بعنف. قدّمت لهما مقعدين وقلبها يخفق. وتمتمت:

ـ أهلًا بكما، وشرّفتما...

فقال خضر:

ـ كان ينبغي أن نتعارف من قبل ولكنّ الأخبار لم تتسلّل إلينا إلّا أمس!

ـ أفهم ذٰلك جيّدًا...

همّت أن تقول إنّها عرفت عنهما الكثير ولكنّها سرعان ما عدلت عن ذٰلك. وقال خضر:

ـ شرّفنا أن نعرفك نحن أهل زوجك، وأهل أبنائه، ويسرّنا أن نكون في خدمتك!

ـ تستحقّ الشكر يا معلّم خضر...

فقال رضوان:

ـ ثقتنا في الله كبيرة، وسوف ينكشف الظلم عن المظلوم...

ـ حدّثني سماحة بكلّ شيء، ولٰكن ألا تستطيعون إثبات براءته؟

فقال خضر بأسف:

ـ نخاطر بأرواحنا في سبيل قضيّة خاسرة...

وتساءل رضوان:

ـ أين الأولاد؟

ـ في الكتّاب...

وانخطف لونها وهي تقول:

ـ لقد أصغرهم عينه في مشاجرة مع الأولاد.

تجلّى التأثّر في وجهَي خضر ورضوان، وقال خضر:

ـ حملك ثقيل يا ستّ محاسن.

فقالت بحذر:

ـ لست ضعيفة ولٰكنّه سوء الحظّ...

فقرأ خضر أفكارها ولٰكنّه تساءل:

ـ كيف تتصوّرين المستقبل؟

ـ أن يعملوا في الدكّان...

أجال خضر عينيه في الدكّان فقالت:

ـ الرزق موفور والحمد لله...

فقال برقّة:

ـ لعلّه توجد فرصة أطيب عندنا!

فقالت بلهفة:

ـ لا أحبّ أن أتخلّى عنهم...

فقال بوضوح:

ـ ولن نحملك على ما تكرهين، ولكن أليس من الظلم أن يُحرموا من حياة أفضل؟

فراحت تقضم أظافرها وهي لا تدري فعاد الرجل يقول:

ـ لن نحملك على ما تكرهين...

وقال رضوان:

ـ اعتبري زيارتنا للتعارف والمودّة...

وقال خضر:

ـ واعلمي أنّك لست وحيدة، نحن أهلك أيضًا، فكّري على مهل فيما أعرضه عليك، تعالي معهم إذا شئت، زوريهم في أيّ وقت، أو أبقيهم في كنفك، الأمر بيدك على أيّ حال...

ـ ٥٠ ـ

ما إن غاب رنين جرس الدوكار حتّى كان حلمي عبد الباسط في الدكّان. سألها باهتمام:

ـ ماذا يريد السادة؟

لم يعد غريبًا أن تباسطه في الحديث. كفّت من زمن عن صدّه وتحدّيه. أصبح عادة يوميّة في حياتها. حتّى قبحه لم يعد منفّرًا أو مزعجًا. هٰكذا وافته بما لديها. وبادرها قائلًا:

ـ عين الصواب...

ـ أهجر أبنائي؟

ـ بل ترسليهم إلى حظّهم السعيد.

ـ ماذا تعرف عن قلب الأمّ؟

ـ الأمومة الحقّة تضحية!

فقالت بمكر:

ـ ربّما كان الأصوب أن أذهب معهم...

فهتف:

ـ معاذ الله!

ـ إنّهم أهلي أيضًا...

ـ ولكنّك غريبة! أنت من بولاق وهم من الحسين، هنا عزّتك وكرامتك...

وحدّق في وجهها بعينيه الصغيرتين النهمتين وغمغم:

ـ وهنا مَن يحبّك أكثر من نور عينيه...

ـ ٥١ ـ

لا دائم إلّا الحركة. هي الألم والسرور. عندما تخضرّ من جديد الورقة، عندما تنبت الزهرة، عندما تنضج الثمرة، تمحى من الذاكرة سفعة البرد وجلجلة الشتاء.

ـ ٥٢ ـ

كلّ ما يحدث مألوف لا ينكره عرف ولا دين. والقشرة الصلبة تنطوي على سائل الرحمة العذب مثل جوزة الهند. هٰكذا انتقل رمّانة وقرّة ووحيد من بولاق إلى دار خضر الناجي. لم يدرك الغلمان ما يراد بهم. أجهشوا في البكاء فبكت محاسن بحرارة. برّرت قرارها بزعم أنّ آل الناجي هدّدوها بالالتجاء إلى القضاء. اعتذرت عن سلوكها ولكنّها حزنت بصدق ومن الأعماق. نبض قلبها بالعواطف المتناقضة مثل مشمشة حلوة النسيج مرّة النواة. ثمّة إيثار الأبناء بالنعمة والتضحية بهم في آن. ثمّة صراع بين الوفاء لسماحة ومحاسبته الدائمة على خداعها ثمّ تركها وحيدة. وثمّة صراع أعنف بين الصبر والحرمان من ناحية وبين الاستسلام لتيّار الحياة المتدفّق من ناحية أخرى. بين الزلل والفتنة وبين الحقّ الشرعيّ لغريزة نهمة. أقنعت نفسها بأنّها امرأة ضعيفة وأنّ عليها أن تتصرّف من منطلق الضعف والمحافظة على السلوك السويّ. وأيّدها في تفكيرها شيخ الزاوية وشيخ الحارة وكثرة من الجيران.

ـ لا خير في الوفاء لقاتل...

ـ ولا خير في بقاء شابّة جميلة بلا زوج...

وهل يمكن أن تنسى ما التصق بالمرحومة أمّها من سوء السمعة؟ إلى ذٰلك كلّه فإنّ زواج امرأة من مخبر أمر مرغوب فيه من غالبيّة أهل الحارة.

هٰكذا سلّمت محاسن أبناءها إلى أهل سماحة، وهٰكذا حصلت على الطلاق من سماحة القاتل الهارب.

- ٥٣ -

وتمّ زواجها من المخبر حلمي عبد الباسط في جوّ من الترحيب والمرح. جدّدت جهازها ولكنّها لبثت في شقّتها، وظلّت تعمل في دكّانها لتحافظ على استقلالها وكرامتها كثالث زوجة في حياة الرجل. ووجدت عناء في الانتقال من معاشرة سماحة إلى معاشرة عبد الباسط، ولكنّ الجديد يطمس القديم عادة ويغطّي على ذكرياته وبخاصّة إذا تمتّع بجدارة ذات شأن. لذلك ألفته مع الأيّام، وأحبّته، وأنجبت له. ودأبت على زيارة رمّانة وقرّة ووحيد في دار خضر. تُستقبل بالترحاب والاحترام من أهل الدار، وبالحبّ الشديد من الأولاد. ووجدت أنّهم يتأقلمون بسرعة، ويتبدّون في صورة مختلفة، ولكنّهم لا ينسون أمّهم ولا ملاعبهم ولا أقرانهم ولا حتّى أباهم الذي طال غيابه. ولكن بمرور الأيّام وكثرة الإنجاب تباعدت الفترة بين الزيارة والزيارة، وطالت أكثر ممّا يتوقّع حتّى ندرت، وذهب الأولاد لزيارة أمّهم في الدوكار ولكنّ عبد الباسط استقبلهم استقبالًا جافًّا جعلهم لا يفكّرون مرّة أخرى في تكرير الزيارة. وأخذت العلاقات تفتر حتّى أنذرت بالقطيعة. حتّى حصون القلوب يغزوها الزمن بانسيابه بين النعومة والصرامة.

- ٥٤ -

لم ينفق عبد الباسط من نقوده إلّا في أيّام شهر العسل. ثمّ قال لها بصراحة حادّة:

ـ أنت غنيّة وأنا فقير والتعاون مشروع بين الزوجين. . .

واحتجّت على موقفه، واعتبرته استهانة بحبّها، ولكن لم يجد الاحتجاج شيئًا. كلاهما يتّسم بالعنف والعناد، وهي لا تفكّر في التضحية بحياتها الزوجيّة الجديدة بعد أن عانت في سبيلها ما عانت.

ولم يقنع عبد الباسط بذلك فكان يقترض منها عند الضرورة. وتراكمت القروض دون أن يلوح أمل في السداد. ونشبت بسبب ذلك خصومات وتبودلت لعنات. الضرب أيضًا تبودل، والعنف احتدم أيّما احتدام. ولكنّ تيّار الحياة لم ينقطع. وحملت أمواجه المتابعة الملاطفات والتنهّدات والرغبات مع السباب واللطمات. وجاء الوليد في أعقاب وليد حتّى اكتمل لها ستّة. الشيء الوحيد الذي لم يمسّه التغيير كان حرصها الأبديّ على أنوثتها وجمالها.

- ٥٥ -

وتمرّ الأيّام، وتنمو الحياة وتتفرّع، وتتجمّع المصائر في الأفق.

- ٥٦ -

وكان سماحة بكر الناجي يعاني الحياة وهو يسمع صلصلة عجلة الزمن تجدّ وراءه. إنّ الإنسان يشقى بساعة انتظار فكيف إذا صارت الحياة كلّها مفرغة إلّا من انتظار متواصل؟ ومن أوّل الأمر صمّم على ألّا يقيم في مكان واحد. عمل بائعًا سريحًا يجول بين القرى، مرسلًا لحيته وشاربه، مخفيًا عينه اليسرى بزعم العور. وظلّ يسجّل مرور الأيّام في دفتره السرّيّ، ويسجّل أيضًا أعمار أولاده رمّانة وقرّة ووحيد. وتركّزت أوقات فراغه في تذكّر أسرته، محاسن وأولادها. وفي أعقاب الجهد والعناء، قبيل النوم، يتعزّى بالأحلام. الحلم باليوم الموعود. يوم النجاة من المشنقة والعودة إلى الأهل، يوم يرجع إلى حارته مشهرًا عصا التأديب، باعثًا من ظلمات الحاضر عهد الناجي بعدله المرموق. وتحدّثه نفسه أحيانًا، إذا اشتدّ خفقان قلبه بالحنين، أن يزور أهله متخفّيًا في ثياب امرأة، ولكنّه يكظم أشواقه، وينثني عن عزمته، متقهقرًا أمام العواقب الوخيمة الجديرة بإهدار صبر الأعوام.

وعاش وحيدًا. بل عاش في ظلّ أطياف متجسّدة لا تبرحه. أطياف الظلم والحنان والحرمان والخوف المستمرّ من انكشاف أمره. واعتاد محاورة نفسه وأطيافه. يحاورها من خلال الصمت أو بصوت يسمعه الخلاء والشجر والنيل. وجنّ مرّة إذ خيّل إليه أنّه يرى محاسن. وحلم مرّة بأنّه التقى بمحمّد توكل في سوق الدومة. وخير أحلامه ما رأى فيه سيّدنا الخضر، ومن عجب أنّه لم يبق له من الحلم شيئًا، سوى ثقل في القلب وحزن في الوجدان، وأمل غامض، وقال لنفسه:

ـ إنّه لا يجيء إلّا الخير. . .

وقال أيضًا:

ـ لا يوجد ألم بلا معنى، وسوف يجيء الضياء ذات يوم. . .

الحقّ أنّه إذا كان قد فقد كلّ شيء فإنّ شجاعته لم تنضب وقوّته لم تهن. لعلّه يزداد بالإصرار شجاعة وقوّة، ويزداد بالشجاعة والقوّة إصرارًا، ولكن ماذا صنعت الدنيا بمحاسن ورمّانة وقرّة ووحيد؟ سيرجع ذات يوم فيجدهم رجالًا في الدكّان. سينظرون إليه بذهول أوّل الأمر ولكنّه لا يمكن أن يمحق من ذاكرتهم.

وكلّما مرّ عام تنهّد قائلًا:

ـ ها هو الجبل يتزحزح!

ـ ٥٧ ـ

وكان العام الأخير أشدّ الأعوام عذابًا. وكلّما مرّ منه يوم اشتدّ العذاب. إنّه يستمسك بالصبر ويلاطفه ويتوسّل إليه أن يثبت حتّى الدقيقة الأخيرة. إنّه يصارع الألم بعنف لا هوادة فيه. يُغرق أفكاره في هموم الحياة اليوميّة ولكنّها تأبى إلّا أن تغرق في مجرى الزمن، أن تتابعه لحظة بعد أخرى، أن تندسّ في اللحظة حتّى تتضخّم فتصير دهرًا، حتّى تنغرز في أساس التجمّد وتنعدم الحركة تمامًا.

ـ ٥٨ ـ

ولم يبق إلّا يوم واحد. صباح الغد وينتهي كلّ شيء. سينطلق إلى العمل لكي ينسى. ولكنّه عجز عن العمل. عجز عن أيّ شيء إلّا معانقة الزمن. عزيمته تتبدّد وتتبخّر. ويقول بصوت مرتفع كأنّما يستمدّ من ارتفاع الصوت قوّة ويجعل منه تعهّدًا أمام الكون:

ـ سأبيت ليلتي هنا ثمّ أذهب مع الصباح إلى البيت. . .

ولكن تمرّدت أعصابه على حيلته. هزئت بتعهّده. أرسلت أوامرها إلى أعضائه فكفّت عن العمل، فلا طعام ولا شراب ولا حلم. راقب قرص الشمس المدقوق في السماء. جفّت آخر قطرة الصبر.

سيبيت الليلة في حضن أسرته، وقذف بنفسه صوب الأمل. . .

ـ ٥٩ ـ

سمعت محاسن طرقًا خفيفًا على الباب.

كان الأولاد قد ناموا على الشُّلَت في الصالة. وكانت قد تزيّنت وتأهّبت للنوم.

من الطارق والليل يكاد أن ينتصف؟

فتحت الباب عن زيق فرأت شبحًا فسألته:

ـ من؟

دفع الباب فانقضّ عليها. هٰكذا خيّل إليها، قبل أن تصرخ أطبق على فيها. صارا كائنًا واحدًا تحت ضوء المصباح المشتعل في الكوّة. رفع فاه مطبقًا براحته على فيها وهو يقول:

ـ أنا سماحة يا محاسن، سماحة رجع. . .

عند ذاك سحب راحته فراحت تحملق في وجهه المغطّى بالشعر بذهول.

ـ ليطمئنّ قلبك، سماحة رجع، انتهى العذاب!

لم تخرج من ذهولها فقال:

ـ انقضت المدّة، لم يبق إلّا ساعات، خانني الصبر. . .

هنا ظهر حلمي عبد الباسط في باب الحجرة وبيده جندرة وهو يقول:

ـ جئت لقضائك، سلّم نفسك. . .

تلقّى سماحة ظهوره كضربة فوق يافوخه. . . تمتم:

ـ من هٰذا؟ . . . رجل في حجرتك! . . . ما معنى هٰذا يا محاسن. . .

لاذت محاسن بزوجها. ازدردت ريقها وقالت:

ـ إنّه زوجي. . .

وأشارت إلى الأولاد الذين رآهم لأوّل مرّة وقالت:

ـ أبو هٰؤلاء. . .

ارتفعت يسراه ثمّ انحطّت فوق رأسه والأرض تميد به، وراح يقول:

ـ حقًّا؟ . . . زوجك! . . . ما تصوّرت شيئًا كهٰذا!

ولوّح عبد الباسط بالجندرة قائلًا:

ـ سلّم نفسك، أنا مخبر النقطة!

ـ حقًّا؟!

وتشنّج بنوبة من الضحك فصاح عبد الباسط:

ـ إذا قاومت حطّمت رأسك...

فهمست محاسن:

ـ دعه يذهب...

فقال لها بلهجة آمرة:

ـ صوّتي في النافذة...

وبسرعة انقضّ سماحة على طفل فرفعه بيد وأطبق بالأخرى حول عنقه وقال والطفل يصرخ:

ـ حذار، لا حركة ولا صوت وإلّا هلك الطفل...

صرخت محاسن:

ـ دع ابني يا مجرم!

ـ لا حركة ولا صوت، لا تهاجم ثعبانًا جريحًا...

ـ اترك الولد.

ـ هو بخير ما دمت بخير...

قالت محاسن:

ـ رمّانة وقرّة ووحيد في كفالة عمّك.

فهزّ رأسه وهو يقول:

ـ طيّب ولكن الويل لمن تحدّثه نفسه بتسليمي إلى المشنقة...

فتوسّلت محاسن إلى زوجها قائلة:

ـ دعه يذهب.

فقال عبد الباسط بنبرة تسليم:

ـ فليذهب إلى الجحيم...

ـ ارم الجندرة أوّلًا...

رمى عبد الباسط الجندرة. هرعت محاسن إلى سماحة فأخذت الطفل. وبسرعة التقط عبد الباسط الجندرة ورمى سماحة بها فمسّت قمّة رأسه. لم يكن التسديد محكمًا، وقد أصاب اللاثة، فالتقط سماحة بدوره الجندرة وانقضّ على الرجل وضربه ضربة صادقة على عنقه فتهادى على الأرض فاقد الوعي.

غادر البيت وثبًا وصوات محاسن يلاحقه. عندما بلغ الطريق كان بعض الساهرين يتّجهون نحو مصدر الاستغاثة. اندفع بكلّ قوّته نحو الطريق الموصل إلى النيل... وسرعان ما بدأت مطاردة من نوع جديد ولكنّه وثب إلى قارب وراح يجدّف مبتعدًا عن الشاطئ...

وعند منتصف النهر جاءه صوت غير غريب، صوت شيخ الحارة وهو يصيح به:

ـ سلّم نفسك يا سماحة، قتلت حلمي عبد الباسط مخبر الحكومة...

ـ ٦٠ ـ

صاح خضر سليمان الناجي وهو يرنو إلى سماحة:

ـ سماحة أخيرًا!

تعانقا عناقًا حارًّا ثمّ هتف خضر:

ـ طالما حلمت بيوم النجاة فالحمد لله ربّ العالمين، دعني أوقظ رضوان...

ولكنّ سماحة أمسكَ بيده وتمتم:

ـ الأولاد؟

ـ انتظر حتّى الصباح، عليك أن تحلق لحيتك أوّلًا...

فهمس سماحة بإصرار:

ـ الأولاد...

ـ ٦١ ـ

اقترب من الأسرّة المتجاورة وهو يرنو إلى الوجوه الهائمة في وادي النوم المجهول. ثغور مفترّة، وأقنعة متحرّرة من حركة الزمن، وملامح صبا واشية بحرارة المراهقة، وبذور ناضجة يكمن في نواتها مستقبل غنيّ بالمتناقضات.

أطلّ الحنان من عينيه مبلّلًا بالدمع، وتدفّق الشوق في حناياه ينبوعًا ساخنًا، واهتزّت جوارحه حتّى شهق.

ضغط على شاربه ولحيته ليحرّر شفتيه فهمس خضر في أذنه:

ـ أخاف عليهم الفزع.

ولكنّه لثم الخدود بخفّة ورشاقة، وهو يراقب حركات صغيرة سريعة غامضة، ثمّ تراجع بهدوء وحذر وأسى.

- ٦٢ -

وقال له خضر:

- عليك أن تنام...

فقال وهو يهزّ رأسه:

- لا وقت للنوم...

- ولكنّك متعب جدًّا يا سماحة...

- وأمامي تعب بلا نهاية.

فراح يحدّثه عن موت الفللي منذ عامين وحلول الفسخاني محلّه، عن موت دجلة أيضًا وحمّودة، وسَجْن عنتر وفريد، وسماحة يتابعه بلا اكتراث.

ووضع يده على منكبه وقال:

- ما زلت مطارَدًا يا عمّي...

فتساءل خضر بانزعاج:

- ألم تنقض المدّة؟

فقال وهو يتنهّد:

- اضطررت إلى قتل وغد منذ ساعة!

- ٦٣ -

في طريقه إلى الاختفاء وقف في الساحة أمام التكيّة. ها هو يمتلئ برائحة الحارة وأنفاسها، ولكن أين النشوة؟ كم حلم بهذه الوقفة كمنطلق لدفقة جديدة من الحياة. تؤدّب الأوغاد وتبعث روح العهد. ما هي الليلة إلّا بدء رحلة طويلة جديدة في دنيا العذاب والمطاردة، سيرجع إذا رجع شيخًا بلا حول...

ومضى نحو الممرّ والأصوات تترنّم في جلال الليل:

درد مارا نيست درمان الغياث

هجر مارا نيست بابان الغياث

قــــرّة عَــيْني

الحكاية الخامسة من ملحمة الحرافيش

ـ ١ ـ

كان لعودة سماحة بكر الناجي المباغتة واختفائه الخاطف زلزلة عنيفة في نفوس آل الناجي والحرافيش. ولعلّ أبناءه كانوا أقلّ الناس تأثّرًا إذ أنّه جاء وذهب وهم نيام، فضلًا عن أنّه لم يعد بالقياس إليهم إلّا ذكرى باهتة مثل ذكرى أمّهم محاسن البولاقيّة. ورويت مأساته بالطول والعرض فأصبحت أسطورة وموعظة.

ـ ٢ ـ

وانتظم رمّانة وقرّة ووحيد في العمل بمحلّ الغلال مع عمّهم رضوان وعمّ أبيهم خضر. وترامى إلى الحارة خبر عجيب يقول إنّ المخبر حلمي عبد الباسط لم يمت كما توهّم المتوهّمون. وإنّه شفي من ضربة الجندرة، وواصل حياته في خدمة الحكومة والبلطجة على محاسن. عند ذاك تجلّى العبث في هرب سماحة، واشتدّ الحزن عليه، فهبّ خضر للبحث عنه. من أجل ذٰلك سعى سعيه لدى مأمور قسم الجماليّة، من أجل ذٰلك فاوض فتوّة الحارة «الفسخاني» مضاعفًا له الإتاوة وواعدًا إيّاه بمكافأة مغرية، ومن أجل ذٰلك أيضًا رصد مكافأة كبيرة لمن يعثر عليه.

وأثار نشاطه ريبة الفسخاني. وذكّره رجال من أعوانه بتطلّع سماحة إلى الفتونة فقلق الرجل وقلق معه وجهاء الحارة وأعيانها.

وما تدري الحارة إلّا والرجل الطيّب خضر يُعثر عليه مثخنًا بالجراح في عطفة الكبابجي حيث كان في سهرة أخّرته لما بعد منتصف الليل. ولم يجدِ الإسعاف في إنقاذ الرجل فقضى نحبه عقب يومين من الحادث. ورغم إجماع القلوب على معرفة المجرمين فقد قُيّد الحادث كالعادة ضدّ مجهول، وضاع خضر مثل ذرّة من رمال.

ـ ٣ ـ

زُلزل آل الناجي لمصرع عميدهم، وعدّوا ذٰلك نهاية من نهايات الهوان المقدّر عليهم. رغم ذٰلك استسلموا لقدرهم وأقرّوا بعجزهم، غير أنّ وحيد ـ ابن سماحة الأصغر ـ غضب غضبة مجنونة أنذرت بوخيم العواقب. قال بحنق:

ـ قاتِل عمّنا يمرح ويدعى الفسخاني!

وتساءل بمرارة:

ـ أكان عاشور الناجي يتصوّر هٰذه النهاية لذرّيّته؟

ومثله في الانفعال كانت ضياء أرملة خضر ولكنّها انفعلت بأسلوبها الموائم. دفعتها الجريمة فتهاوت في أحضان المجهول، جفلت من عالم الأنس، لقّنت لغة الجماد والطير، واحتمت من نصال الألم بكهف الأشباح. صارت شيخة، الحلم رؤيتها، والفنجان نافذتها، والنبوءة الغامضة ترجمانها. وعشقت الجلباب الأبيض والخمار الأخضر والمبخرة النحاسيّة، تتهادى عند الأصيل بين الساحة والميدان، تنفث الدخان العطر، تلوذ بالصمت، تتبعها جارية، تحدّق بها الأعين.

ويسخر رجال من رجال الفتوّة فيقول قائلهم:

ـ ذٰلك آمن من الطمع في الفتونة...

وآلم سلوكها الشبّان، كما آلم رضوان وزوجته أنسيّة وشقيقته صفيّة ولٰكنّهم عجزوا عن ترويضها. حتّى وحيد الغاضب قال لها:

ـ دارك يا امرأة عمّي، الزمي دارك إكرامًا لذكرى عمّنا خضر...

فنظرت إليه ببلاهة وقالت:

ـ رأيتك في نومي متمطّيًا جرادة خضراء...

فيئس وحيد من مناقشتها ولٰكنّها سألته:

ـ ألا تدري معنى ذٰلك؟

فلم يكترث ولٰكنّها قالت تجيب نفسها:

ـ إنّك خُلقت للهواء!

ـ ٤ ـ

وبقوّة الغضب اخترق وحيد جدار الحذر. ما أضجره بمحلّ الغلال! ما أبعده عن رمّانة وقرّة! تقول الشيخة إنّه خُلق للهواء. ترى هل يصلح للتحدّي؟

كان متوسّط القامة وسيمًا، رغم عوره، قويًّا ولٰكنّه بالقياس إلى الفسخاني مثل هرّة بالقياس إلى خروف. لم يندفع في مغامرة ولٰكنّه يضطرب كثيرًا بحركة غامضة وقلق معذّب. طالما قال له عمّه رضوان:

ـ احذر الخيال وأقبل على العمل...

وطالما قالت له عمّته صفيّة:

ـ لا تؤوّل أحلام ستّ ضياء على هواك...

وانحرف عن خطّ الأسرة فصادق شيخ الحارة محمّد توكل رغم فارق السنّ وسهر معه كثيرًا في غرزة الصناديقي. وأنشأ علاقة طيّبة مع صديق أبو طاقيّة الخمّار من خلال تردّده بين حين وآخر على البوظة. له صبوات في العربدة ولٰكن لم تفته أبدًا صلاة الجمعة، حتّى قال له مرّة الشيخ إسماعيل القليوبي:

ـ هل يجمع الله في قلب واحد بين الخمّارة والزاوية؟

فتساءل وحيد بمرارة:

ـ ألا ترى قاتلًا يمرح وبريئًا يتعذّب في الغربة؟

ـ ٥ ـ

وفي أعقاب ليلة معربدة رأى حلمًا طويلًا. رأى نفسه في الساحة أمام التكيّة ولم يكن من المولعين بالساحة. وجاءه درويش فقال له:

ـ الشيخ الأكبر يخبرك بأنّ العالم قد خُلق فجر الأمس.

فصدّقه وحيد ثملًا بسعادة تفوق التصوّر. وحُمل على هودج فراح يشقّ الحارة بين صفّين من الرجال والنساء. ورأى أمّه محاسن البولاقيّة وهي تشير إليه وتقول:

ـ اصعد.

فارتفع به الهودج، فحملته الرياح إلى خلاء يحدق به جبل أحمر. ووجد نفسه يتساءل:

ـ أين الرجل؟

فانحدر عملاق من سفح الجبل وقال له:

ـ اثبت في مركز النجاة...

فقال له بيقين:

ـ إنّك أنت عاشور.

فتناول ساعده ودلكه بدهان قائلًا:

ـ هٰذا هو السحر!

ـ ٦ ـ

عندما استيقظ وحيد وجد نفسه مفعمًا بإلهام. أذعنت له القوّة والتفاؤل والنصر. لم يشكّ في أنّه قادر على المعجزة. وأنّه يستطيع أن يقفز من سطح الدار إلى الأرض دون خوف من الكسر.

أطاع الريح الهوجاء فارتدى ملابسه ومضى من توّه إلى مجلس الفسخاني بالقهوة. رماه بنظرة قاسية وقال له:

ـ إنّي أتحدّاك أيّها المجرم...

رفع الفتوّة جفنيه الثقيلين. تصوّره مجنونًا. رحّب على أيّ حال بالبطش بأحد أشبال الناجي. سأله:

ـ مسطول يا بن القديمة...

فبصق على وجهه.

وثب الفسخاني قائمًا، تجمّع خلق للمشاهدة.

لم يتردّد وحيد، انقضّ على الفتوّة، وبكلّ قوّته

ضربه بيده المسحورة في عنقه فتقهقر الرجل حتّى وقع على ظهره وهو يشهق. خطف وحيد نبّوته وضربه على ركبتيه فشلّه. والتحم مع نفر من أتباعه فجندلهم بقوّة وسرعة مذهلتين.

لم ينقضِ النهار حتّى كان وحيد سماحة الناجي فتوّة للحارة!

- ٧ -

عصفت الدهشة الحارة.

خفقت قلوب الحرافيش بالأمل. اضطربت خواطر الوجهاء بالخوف. حلمت أسرة الناجي بالعرش المضيء. ومضى وحيد ينوّه بالحلم الذي رآه، والمعجزة التي أحدثتها يده المسحورة. والثقة الخارقة في النصر التي هوّنت عليه مجابهة الموت. وسرعان ما أحسّ حرارة الأمل المتطلّعة إليه، وبرودة الخوف المتوجّسة منه، ولكنّه آثر التمهّل والتدبّر، فترك الأمور تسير في طريقها المعهود عدا نفحات جاد بها على المعسرين من الحرافيش.

وسأله عمّه رضوان:

- متى تحقّق حلم أبيك الغائب؟

فأجابه بحذر:

- خطوة خطوة وإلّا أفلت زمام العصابة من يدي...

- هذه سياسة لا بطولة يا بن أخي...

فقال بغموض:

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

ولم يفقد رضوان الأمل، على حين طال بوحيد التأمّل. وكلّما مضى يوم تذوّق جلال الفتونة، ونعمة الثروة، ومداهنة الوجهاء، وأخذ يستسلم لتيّار الإغراء، فتقوى في نفسه نوازع الأنانيّة، وتضعف أحلام البطولة والعهد. وإذا به يشرع في إنشاء دار خاصّة به، ويتمتّع بكلّ جميل وطيّب في الحياة، ويولع أكثر بالبوظة والمخدّرات، ويتمادى في ممارسة شذوذه حتّى خرج به من السرّ إلى العلانية، حتّى قال رضوان لزوجته أنسيّة:

- أليس الأفضل أن يكون الوغد من غيرنا!

وتذكّر الحرافيش تدهور سليمان الناجي فقالوا إنّ الشرّ وحده هو ما يورّث في آل الناجي. وتألّم لذلك قرّة كما تألّم عمّه رضوان أمّا رمّانة فقال:

- حسبنا العزّة التي عادت إلى آل الناجي...

وكان رمّانة يشبه أخاه وحيد في تكالبه على المسرّات واستهانته بعهد الناجي القديم. وأطلق وحيد على نفسه «صاحب الرؤيا» ولكنّ الحرافيش دعوه سرًّا بالأعور. وعُرف بشذوذه فلم يتزوّج، وأحاط نفسه بفتية مثل المماليك...

هكذا استقرّت فتونة وحيد الأعور...

- ٨ -

تعب قلب رضوان. غدا العمل يرهقه رغم أنّه كان دون الأربعين. ما أسرع أن يتصبّب عرقًا باردًا وتظلم الدنيا في عينيه. وتراكمت فوقه الأحزان بسبب مأساة أخيه سماحة وسلوك وحيد. لذلك عزفت نفسه عن التجارة والحياة ومال إلى العزلة والعبادة. هكذا هجر المحلّ تاركًا إدارته لرمّانة وقرّة.

- ٩ -

احتلّ رمّانة وقرّة حجرة الإدارة، يشتركان في عمل واحد وقلباهما مفترقان. كان قرّة وسيمًا، تشعّ من عينيه جاذبيّة، ورث من أمّه محاسن دقّة قسماتها ورشاقتها، فضلًا عمّا عُرف به من تهذيب واستقامة، كأنّه شمس الدين في جماله وعذوبته دون قوّته. أمّا رمّانة فكان قصيرًا بدينًا مثل برميل، غامق اللون غليظ القسمات، به استهتار وخشونة. وكان قرّة أقدر منه في الإدارة والتجارة، وأنقى منه في المعاملة، وقد أحبّه العمّال لسماحته وجوده. وكان رمّانة يخالط أخاه وحيد في الغرزة، ويتورّط في المغامرات بتهم، وينتقد - إذا سكر - شقيقه قرّة حاسدًا وساخرًا.

قال مرّة لقرّة:

- إنّك تبدّد مالك لتشتري به حُبّ العمّال، أيّ حكمة في هذا!

فقال له قرّة:

- العطف ليس تجارة...

ـ ماذا هو إذن؟

ـ جرّبه يا رمّانة!

فضحك ساخرًا وهو يقول:

ـ ما أنت إلّا ماكر...

ورغم أنّ قرّة كان يصغر رمّانة بعام إلّا أنّه كان يشعر بأنّه مسئول عنه، حتّى عن وحيد كان يشعر بمسئوليّته أيضًا. وضاق رمّانة ووحيد بمثاليّته. وغضب وحيد مرّة فقال له:

ـ صرتم سادة الحارة بعد أن كنتم أذلّاءها، ألا تقرّ لي بهذا الجميل؟

فقال له قرّة بحدّة:

ـ وما فقدنا سمعتنا القديمة إلّا بك...

فقال بحنق أفقد ضبط النفس:

ـ لا أصدّق الخرافات!

فتساءل قرّة ساخرًا:

ـ ألست «صاحب الرؤيا»؟

فغادره ساخطًا محتدمًا.

كذلك ساءته مغامرات رمّانة فقال له يومًا:

ـ تزوّج، أكرمنا بزواجك...

فقال له رمّانة بحنق:

ـ أنت أخي، أصغر منّي بعام، لا تسع للتسلّط على حرّيّتي...

وقلق رضوان ممّا لاحظ بين الشقيقين من منافرة فقال لقرّة:

ـ يهمّني أن يستقرّ الوئام بينك وبين أخيك...

وقالت له عمّته صفيّة:

ـ بنا من الجروح ما يكفي، ولن تغيّر الكون...

وهٰذا وما زالت الشيخة ضياء تتهادى بمبخرتها في الحارة كلّ أصيل، تناجي المجهول، دامعة العينين...

ـ ١٠ ـ

وكان قرّة عائدًا إلى الدار ليلًا عندما اعترضته في الظلمة عجوز وهي تقول:

ـ مساء الخير يا معلّم قرّة.

فردّ تحيّتها متعجّبًا فقالت له:

ـ ثمّة من ينتظرك الآن في ساحة التكيّة...

فثار في نفسه حبّ الاستطلاع وتساءل:

ـ مَن؟

ـ ستّي عزيزة كريمة المعلّم إسماعيل البنان!

ـ ١١ ـ

تبع العجوز يشقّان الظلمة الكثيفة تحت القبو حتّى خرجا إلى ظلمة الساحة المشعشعة بأضواء النجوم. كان الزمان صيفًا والنسمة لطيفة وانية، وعذوبة الأناشيد تملأ الجوّ. قادته العجوز إلى شبح واقف تحت السور العتيق. لم يتبيّن منها شيئًا ولم يكن رآها أو سمع عنها من قبل. ولمّا طال السكوت همس مشجّعًا:

ـ إنّي في خدمة الهانم.

فجاءه صوت ناعم مضطرب النبرة يقول:

ـ أشكرك...

ثمّ مستدركة في توسّل:

ـ لا تسيء بي الظنّ!

ـ معاذ الله...

وحجز السكوت بينهما كالأوّل فأدرك أنّها تنادي شجاعة مفتقدة وذهبت به الظنون كلّ مذهب، حتّى اضطرّ إلى أن يقول:

ـ إنّي مصغ إليك...

فقالت وهي تزداد اضطرابًا:

ـ سُمْعَتك كالورد، وما هي إلّا كلمة واحدة، فليعفّني الله على قولها...

ـ إنّي أصغي إليك بكلّ اهتمام...

ـ أخوك رمّانة...

وانقطع الصوت كأنّه اختنق فخفق قلبه، تبدّدت ظنون، حلّ محلّها الظلام، تمتم:

ـ أخي رمّانة؟

بدت عاجزة عن مواصلة الحديث، وتخايلت الحقيقة مثل حشرة تزحف في الظلام. عند ذاك همست العجوز:

ـ كان قد وعدها بالزواج...

ـ هٰكذا!

فقالت العجوز:

ـ إن لم يفِ بوعده في الحال حقّ علينا الهلاك!

وابتعد الشبحان، وصوت نحيب مكتوم يتكلّس حول طبلة أذنه...

ـ ١٢ ـ

وتناول عشاءه مع عمّه رضوان وزوجه أنسيّة. ضياء لا تبارح جناحها، ورمّانة دائمًا في سهرة خارج الدار. وقال له عمّه:

ـ لست كعادتك...

فتمتم:

ـ إنّي بخير...

فقالت أنسيّة:

ـ لست كعادتك وراس الحسين...

كيف يبدأ الكلام؟ رأى أن يفاجئها بالأمر. هٰكذا تصوّر وهو عائد من الساحة. إنّه الآن يتراجع، قوّة تمنعه وتحذّره. لقد أودعته الفتاة سرًّا وعليه أن يصونه. يجب أن يبدأ برمّانة رغم كراهيّته لذٰلك.

ـ ١٣ ـ

نامت الدار ولٰكنّه لم ينم. رجع رمّانة قبل الفجر بساعة واحدة.

رأى عينيه محمرّتين ثقيلتين بالخمار. أدرك في الحال صعوبة مهمّته. ولٰكن كيف يتصرّف وهو يعلم أنّه يستيقظ في الضحى، وأنّه ـ قرّة ـ يفتح المحلّ في الصباح الباكر، وأنّ حجرة الإدارة لا تتّسع لمثل هٰذا الحديث؟

ـ ماذا أيقظك؟

فمضى به إلى حجرته. ارتمى الشابّ على ديوان وهو يقول في حذر:

ـ موعظة الفجر؟

فتجاهل سخريته وقال برقّة:

ـ عندي حديث هامّ أرجو أن يتّسع له صدرك يا رمّانة...

ـ حقًّا؟!

ـ هٰذا مؤكّد!

فقال بتربّص:

ـ تحت شرط ألّا يكون له علاقة بالأخلاق!

ـ لا شيء مقطوع الصلة بالأخلاق...

فقال بعناد:

ـ أرفض الاستماع...

ـ صبرك، ليس كما تتصوّر، إنّه أمر يهمّك أكثر ممّا يهمّني، ولا يمكن إهماله...

ـ أثرت فضولي؟

فوضع راحته على منكبه برقّة وهمس:

ـ إنّه يتعلّق بعزيزة!

تراجع رأس رمّانة كأنّما ضُرب بحجر وتمتم:

ـ عزيزة؟!

ـ كريمة إسماعيل البنان...

ـ لا أفهم شيئًا، ماذا تريد أن تقول؟

فقال بهدوء ناعم وقويّ في آن:

ـ عليك أن تتزوّج منها، وفي الحال!

أزاح اللاثة عن رأسه، تخلّص من راحة أخيه بهزّة من منكبه وقال بحدّة:

ـ لا حياء، أين الحياء؟... كيف اتّصلتْ بك؟

ـ لا يهمّ، المهمّ أن نمنع وقوع مأساة...

فقال بسخرية:

ـ لا مأساة إلّا في خيالك!

ـ أعتقد أنّها مأساة حقيقيّة...

فقال رمّانة وهو ينفخ:

ـ كلّا، لا رغبة لي في ذٰلك...

ـ لِمَ لا؟... لا شكّ أنّها أعجبتك مرّة، ثمّ إنّ أباها وجيه حسن السمعة!

فقال ببرود:

ـ لا ثقة لي فيمن تستسلم!

ـ أيًّا ما كان الرأي فثمّة أحكام للشهامة أيضًا...

ـ أيّ شهامة!... إنّي أحتقر ذٰلك...

فقال برجاء:

ـ المطلوب الستر، ثمّ افعل بعد ذٰلك ما بدا لك...

فهزّ رأسه في حيرة وقال:

ـ ثمّة عقبة في الطريق...

ـ ما هي؟

ـ حبّ بيني وبين شقيقتها رئيفة!

فقال قرّة بجزع:

ـ لا يمكن أن تـذبـح واحـدة ثمّ تتـزوّج من الأخرى...

فغمغم بكلام غامض فقال قرّة:

ـ وربّما علمت رئيفة بالمأساة ذات يوم...

ـ إنّها تعلم بالفعل!

ـ وتوافقك على ما تريد؟

فهزّ رأسه بالإيجاب فقال قرّة:

ـ إنّها لشرّيرة يا أخي...

ـ بل هي مثلي تحتقر من تستسلم!

ـ ولكنّها شقيقتها!

فقال بحنق:

ـ لا تـوجـد الكـراهيـة الحقّـة إلّا بـين الإخـوة والأخوات!

فجفل قرّة، ثمّ غضب، وهتف:

ـ عليك أن تتزوّجها في الحال...

فصاح به:

ـ لا أسمح لك!

ونهض متحدّيًا، مضى وهو يقول:

ـ إن تكن رحيمًا حقًّا فتزوّجها أنت!

ـ ١٤ ـ

تسقط الأمطار فوق الأرض ولا تتلاشى في الفضاء. وتومض الشهب ثانية ثمّ تتهاوى. والأشجار تستقرّ في منابتها ولا تطير في الجوّ. والطيور تدوّم كيف شاءت ثمّ تأوي إلى أعشاشها بين الغصون. ثمّة قوّة تغري الجميع بالرقص في منظومة وأحدة. لا يدري أحد ما تعانيه الأشياء في سبيل ذلك من أشواق وعناء. مثلما تتلاطم السحب فتنفجر السماء بالرعود.

وقد فكّر قرّة في همّه طويلًا. وقال لنفسه إنّه ما عليه من بأس إن هو مضى في سبيله وقد بذل ما في وسعه من جهد. ماذا في وسعه أن يفعل أكثر ممّا فعل؟ ولكنّه لم يستطع أن يمضي على هواه. استغاثة عزيزة تتردّد مع الأناشيد. راسخة مثل السور العتيق. نحيبها متكلّس حول طبلة أذنه. إنّه مسئول. وآل الناجي أيضًا. حتّى عاشور المعجزة. لا يستطيع أن يهزّ منكبيـه ويمضي. تشدّه القوّة الجاذبة. لن يكون أكثر حرّيّة من الطير والشهـاب والمطر. إلى مـركز العـذاب والمعانـاة. إلى جحيم القوى المتخاصمة المتعادلة.

ـ إن تكن رحيمًا حقًّا فتزوّجها أنت!

الوغد يتحدّاه. الوغد يمتحنه. الوغد ينتقم منـه. أهذا هو حظّه من الزواج؟ كلّا وألف مرّة كلّا. ولكن أين المفرّ؟ إنّه يحتقـر الاستسلام ولكنّـه أيضًا يقـدّس العذاب. كأنّه قدر لا يتزحزح. ولكن ألم يقل للوغد:

ـ المطلوب الستر ثمّ افعل ما بدا لك...

أجل إنّه الستر أوّلًا ثمّ يفعل ما بدا له.

ـ ١٥ ـ

قال لعمّه رضوان:

ـ قرّرت أن أكمل نصف ديني!

فضحك الرجل وقال:

ـ رمّانة سبقك في ذلك بساعة واحدة!

فخفق قلبه مؤمّلًا أن يكون الله قد هداه، فسأله عمّه:

ـ مَن يا عمّي؟

ـ رئيفة كريمة إسماعيل البنان.

فخاب أمله وصمت فسأله رضوان:

ـ وأنت؟

فرسم ابتسامة على شفتيه متظاهرًا بالدهشة وقال:

ـ يا للمصادفة العجيبة!... تصـوّر يا عمّي أنّي أريد شقيقتها عزيزة!

فضحك رضوان ضحكة عالية وقال:

ـ فليبارك الله لكما، إنّي سعيد، وإسماعيـل البنان جار نبيل وتاجر أمين...

ـ ١٦ ـ

لم يتطهّر بالقرار من هواجسه. الغبطة مازجها قلق وجفاء. كما يغرق المطر النقيّ في الوحل. وضاعف من أساه اطّلاع رمّانة ورئيفة على سرّه. وإلى ذلـك فقد خاف أن تأبى عزيزة يده المجلّلة بالإحسـان وتدهمهم بكارثة، ولكن جاء البشير بـالرضى. وانغـرز النصل

الطاهر الحامي في اللحم حتّى النخاع، وتعجّل الأمر بصورة أذهلت الجميع وأثارت الدعابة.

- ١٧ -

زُفّت عزيزة ورئيفة إلى قرّة ورمّانة في عرس واحد. عرس ابتهجت له الحارة كلّها. وفي حفل الزفاف رأى قرّة الشقيقتين لأوّل مرّة في حياته. هاله تماثلهما كأنّهما توأمتان. توسُّط في الطول والامتلاء، لون خمريّ نقيّ البشرة، سواد عميق في العينين، تناسُق بديع في القسمات. وفتّش عن فروق بين الاثنتين حتّى ظفر به في ثغرة في ذقن عزيزة وهي الكبرى، وامتلاء أشدّ في الشفتين. هٰذا كلّه لا وزن له ولٰكنّه عثر على فارق ملموس في نظرة العينين المتماثلتين. نظرة عزيزة ثابتة وهادئة موحية بالطمأنينة، أمّا نظرة رئيفة فقلقة خاطفة البريق كأنّما تستقرئ أعين الآخرين بلا توقّف ويلوح فيهما ذكاء أسود، فسرعان ما توكّد في قلبه النفور منها. ولم تحاول إخفاء فوزها، ولعلّه الوحيد الذي أدرك ذٰلك. أمّا عزيزة فكانت تنظر طول الوقت إلى حذائها الأبيض المزيّن بالأطلس والترتر. وقال لنفسه إنّها عروس غير سعيدة، وهو أيضًا عريس غير سعيد، وسوف يهوّن ذٰلك عليهما اتّخاذ القرار المتوقّع. ومضى بها إلى الجناح المخصّص لهما على دقّ الدفوف وغناء العالمة وهو يتساءل ترى ماذا فعل بنفسه؟!

- ١٨ -

ولمّا خلا إليها وجدها متعثّرة في الارتباك حتّى قمّة رأسها. لا تجرؤ على النظر إليه ولا على إتيان أيّ حركة. بلا حول ولا كرامة، فريسة إحسانه. رقّ لها بقوّة. وضاعف من رقّته تأثّره بجمالها الفتّان الحزين. ولٰكنّه لم ينسَ أنّ قلبها مغلق، وأنّها غريبة تمامًا، وأنّ فستان الزفاف بمثابة بدلة السجين. ما هي إلّا فترة عبور لا دوام لها. وفي هٰذه اللحظة تستكنّ رئيفة في حضن رمّانة مفعمة بالرغبة والفوز. ترى ماذا عليه أن يقول؟ وأعفته من ذٰلك فجاءه الصوت الناعم قائلًا:

- الشكر لك...

فرقّ أكثر وقال:

- إنّي آسف وحزين...

- إنّي أشعر بفداحة الظلم الذي تتحمّله...

فقال مجاملًا:

- ولٰكنّك تتحمّلين ما هو أفدح...

- إنّه خطئي على أيّ حال!

يا له من حديث في ليلة الدخلة. لم تندّ عن أحدهما حركة. حتّى طرحة الزفاف بقيت في موضعها فوق الرأس. غير أنّه تفرّس في وجهها بحرّيّة في غيبة من عينيها المنكّستين، وتأثّر أكثر بجمالها وجاذبيّتها حتّى اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه لولا شذوذ الظرف لالتهمها التهامًا. وقال بهدوء:

- لن تُرغمي تحت سقفي على شيء ترفضينه...

فقالت بحرارة:

- إنّي واثقة من شهامتك ولٰكنّي...

وأمسكت لحظة ثمّ قالت:

- ولٰكنّي أؤكّد لك أنّه لم يبقَ من الماضي إلّا ذكراه المؤلمة.

ترى ماذا تعني؟... فيمَ تفكّر؟... ألم تدرك أبعاد إقدامه على ما فعل؟... متى يصارحها بكلّ شيء؟ ... ومتى يتحرّر من تأثير أنوثتها الطاغية؟ وتجاهل قولها، وقال متهرّبًا ربّما:

- إنّي أعجب لشقيقتك فهي لا تقلّ عن أخي سوءًا!

فقالت بازدراء:

- ما أليقهما ببعضهما!

- ماذا بينكما؟

- شرّ ولا شيء إلّا الشرّ.

- ولٰكن ما سببه؟

- تريد أن تستأثر بكلّ شيء، بالتفوّق والحبّ، ولٰكنّي تفوّقت، وتوهّمتْ أنّ والديّ يحبّانني أكثر فاضمرتْ لي الحقد والكراهية، إنّها فظيعة...

- أخي أيضًا فظيع...

ثمّ مستطردًا:

- ولٰكنّك...

وصمت فقالت بحرارة:

- انتهى، أبصرتُ بعد عمى!

ربّاه. واضح أنّها تعيش في حلم. وهي صادقة. حقًّا؟ أجل صادقة. ما قيمة ذلك؟ المهمّة شاقّة. وأيّ خوف من تأثير جمالها وجاذبيّتها! الضعف في أعماقه أقوى من القوّة في أنوثتها. ها هي ترفع عينيها لأوّل مرّة فتلتقي العينان. ويواصل الشمع ذوبانه في الشمعدان الفضّيّ.

سألته باستسلام:

- أودّ أن أعرف ما يجول بخاطرك!

يا لها من ليلة صيف دافئة. ولم ينبس. قالت:

- تراني غير لائقة بك!

فقال باندفاع:

- إنّك صادقة وأصيلة ومحترمة!

- أشكرك وأقدّر عطفك، ولكنّ العطف لا يصلح أساسًا للحياة!

إنّه يناقش، يتعذّب، ويقاوم الإغراء. سألها:

- ماذا يجول في خاطرك أنت؟

فقالت بحرارة وشجاعة استمدّتها من الحديث:

- إنّي حرّة، حرّة تمامًا، ولكنّ كلّ شيء يتوقّف عليك...

بصراحة قال:

- لا أنسى أنّك طالبت بالزواج منه!

فبادرته:

- كان الخوف ورائي لا الرغبة، صدّقني...

فقال محذّرًا:

- إنّي أصدّقك!

فقالت بتسليم:

- ولكن لك الحقّ كلّ الحقّ في التصرّف بما تراه لائقًا...

أيّ هاوية! أيّ إغراء! أيّ جنون يعربد في قلبه! أيّ قلق! أيّ رغبة في دفن القلق! عند الأرق المعذّب، يسفّ المؤرّق الخشخاش، فينحسر الجبين عن ثغرة تتسلّل منها أنامل النوم الناعمة...

- ١٩ -

ومضت الأيّام المتأجّجة بالصيف. استسلم قرّة تمامًا وعشق عزيزة. آمن بأنّ الحبّ إذا شاء قهر التراث.

ومثّلت عزيزة ورئيفة دورهما بإتقان كشقيقتين فلم تلاحظ أنسيّة شيئًا يكدّر البال. وفي حجرة الإدارة بمحلّ الغلال واصل قرّة ورمّانة عملهما، ولم يُتبادل بينهما حديث إلّا في شئون العمل. هكذا تجاور الحبّ والمقت.

وسرعان ما حبلت عزيزة. وشمل الفرح آل البنان وآل الناجي. قرّة وحده تمنّى لو تأخّر الحبل. وتساءل متى بدأ؟ تسلّلت حشرة إلى قلب الزهرة النابض بالنضارة. أظلم المعبد المنير بروح شرّيرة. إبر الشكّ المحماة المسمومة. ولكنّها لا تقرأ أفكاره. إنّها تمرح في البراءة والحبّ الصادق. ولم يعد للتراجع موضع. إنّه رَجل حرّ وصادق وعاشق. وهو مؤمن أيضًا وثقته بالله عظيمة. وأصبح رفيقًا للسرور والألم...

- ٢٠ -

لِمَ لم تحبل رئيفة؟

تردّد السؤال بقلق في دار آل البنان وآل الناجي. وانطحنت به رئيفة وعيناها تطفحان بالحنق. لا يؤخّر الحبل إلّا علّة فالطبيعة لا تعرف التأجيل. وحامت الشبهة كالعادة حول رئيفة. ولم يهدأ لأمّها بال. واستُفتيت الداية فأفتت بالمشورة تلو المشورة. وبمضيّ الأيّام رسخ الخوف وتوكّد الجزع فتجمّعت سحب الأحزان.

وقال رمّانة وهو ثمل في مخدعه:

- يا لها من ضجّة!

فقالت رئيفة بحدّة:

- لا يرحمون إنّه الجحيم...

قال رمّانة ممتعضًا:

- إنّكما متماثلتان، فما النقص بك؟

فتملّكها غضب شديد وتساءلت:

- أألهمك الله أنّ النقص بي وليس بك؟!

فقال غاضبًا:

- إنّي رجل كامل...

- ما من رجل إلّا ويتصوّر ذلك!

فجنّ جنون غضبه المخمور وصاح:

- أجرّب نفسي مع زوجة أخرى؟

ارتفع رأسها والتوى عنقها إلى الوراء مثل حيّة وتمتمت بازدراء:

ـ سكران!

فتمادى في غضبه قائلًا:

ـ لعلّ لي جنينًا ينمو في بطن أخرى!

فصاحت:

ـ مجنون!

ـ احفظي لسانك القذر...

ـ أنت أنت القذر.

فنهض مهدّدًا فتراجعت متوثّبة للدفاع فلم يتحرّك ولكنّه قال بحقد:

ـ شيطانة وعقيم!

كانت أوّل مشاجرة زوجيّة وقد دهش لعنفها.

ولكنّ رغبتيهما المتلاحمتين كانتا أقوى من الأعاصير الطارئة.

ـ ٢١ ـ

كان محمّد توكل شيخ الحارة يجالس صديق أبو طاقيّة الخمّار عندما مرّت الشيخة ضياء بمبخرتها. فضحك الخمّار وهمس:

ـ رجعت الفتونة إلى آل الناجي فلِمَ تواصل المرأة المجنونة البكاء؟

ـ ٢٢ ـ

في أوائل الربيع ونداءات الباعة تتردّد بالملانة والعجور وضعت عزيزة طفلًا أسموه عزيز. وطوّقت الشواغل قرّة حتّى هدأ كلّ شيء، فرقدت عزيزة في فراشها وراح هو يحنو على الوليد متأمّلًا. تأمّله بقلب مضطرب بشتّى الانفعالات المتضاربة. ورنت عزيزة إليه برقّة وإعياء وفخار وتمتمت:

ـ ما أشبهه بك!

لِمَ تؤكّد ذلك؟ إنّه لا يجد له شكلًا ولكنّها تتكلّم ببراءة. لقد نسيت الماضي تمامًا وهي غريقة البراءة والحبّ. عاد الرفيقان ـ السرور والألم ـ يتجاذبانه. ولكنّه كان مصمّمًا على الحياة والسعادة.

ـ ٢٣ ـ

ومحافظة على المظاهر زار جناحه رمّانة ورئيفة. أهديا الوليد مصحفًا مذهّب الغلاف. وقال له رمّانة:

ـ يتربّى في عزّك...

ورنت رئيفة إلى الوليد طويلًا وهي تقول:

ـ ما أجمله!

وتقلّص قلب عزيزة وهي ترى نظرة رئيفة فوق وجه عزيز. وتصرّف قرّة التصرّف الطبيعيّ المرح. وطيلة الوقت سأل ربّه أن يلهمه الصواب. أن يضيئه بالحقيقة. ألّا يعرّض حبّه لمحنة مضلّلة. أن يعبر به الوساوس والظلمات. أن يرفعه إلى براءة عزيزة وصدقها. ألّا يتردّى في الجحيم بإرادته.

ـ ٢٤ ـ

وحمل الطفل في لفافته ومضى به ليلًا إلى ساحة التكيّة. استقبل فيض الأناشيد في أوّله. دعا الله أن يجعل من الصغير غصنًا في دوحة البطولة والخير. أن تتجسّد فيه الأحلام المقدّسة لا الأهواء الجامحة الشرّيرة. وسرح فكره إلى الممرّ الضيّق حيث تُرك عاشور في مثل سنّ ابنه. وكما تعبر سحابة وجه القمر فتحجب نوره اقتحمه خاطر مظلم. تذكّر ما يتقوّل به الأعداء عن عاشور وأصله. غشيته كآبة عفنة. لاذ بالأناشيد ليغتسل من عرقها الحامض. وغمغم «اللّهمّ هبني القوّة».

انغمس في الأنغام تمامًا وهي تردّد:

نقدها را بود آياكه عيارى كيرند

تاهمه صومعه داران پي كارى كيرند

ـ ٢٥ ـ

لّما خرج من القبو عائدًا سمع صوتًا غليظًا يتساءل:

ـ مَن القادم؟

عرف صوت أخيه وحيد الفتوّة فأجاب باسمًا:

ـ قرّة سماحة الناجي.

فقهقه الفتوّة. وقفا شبحين في الظلام. تساءل وحيد:

ـ كنتَ في الساحة مثل الأجداد الطيّبين؟

- بل ذهبت بالوليد، ها هو بين يديّ...

- مبارك عليك، نويت أن أزورك غدًا في المحلّ مهنّئًا...

- لِمَ لا تزورني في البيت؟

- أنت تعلم أنّي أتجنّبه!

فقال قرّة برقّة:

- إنّه بيتك والله الهادي...

فقال وحيد مغيّرًا نبرته:

- وكان في نيّتي أن أفاتحك بأمر آخر!

- خير؟

- أخونا رمّانة...

تنهّد قرّة ولاذ بالصمت فقال وحيد:

- إنّه يعبث بماله بسفاهة، لست واعظًا، ولكنّي أعلم أنّه لا يقدر على السفاهة إلّا فتوّة!

- أنا عارف، النصيحة غير مجدية، ولا ينجم عنها إلّا الغضب!

فقال وحيد بحنق:

- إنّه ينتحر.

- ٢٦ -

كأنّ ما يربط رمّانة برئيفة شيء أقوى من الخير والشرّ والنزاع. لا يفرّط أحدهما في الآخر مهما نشب بينهما من خلاف. النقار متواصل والحبّ متواصل. يختلط العنف بالدلال، الزجر بالتنهّدات، سوء الظنّ بالقُبل. هي في اعتقاده عقيم وهو في حدسها عقيم، هو رَجُلها الوحيد، وهو أيضًا لا يخطر له أن يتزوّج عليها. ويقول وهو ثمل:

- إنّها قدر!

- ٢٧ -

وتوفّي رضوان بكر الناجي عقب مرض قصير. كان قد اعتزل الحارة حتّى نُسي تمامًا فتذكّره الناس بالموت بضعة أيّام. وُزّعت تركته بالاتّفاق حتّى يخلص المحلّ لرمّانة وقرّة، ووُزّعت بقيّة التركة بين أنسيّة زوجته وصفيّة أخته.

- ٢٨ -

ولم يعد رمّانة يقنع بالبوظة والمخدّرات فانزلق إلى القمار يدفن فيه ضجره. وتصبّر قرّة ما تصبّر حتّى فاض به الكأس فقال له يومًا وهما في حجرة الإدارة:

- إنّك تبعثر مالك بلا حساب...

فقال بجفاء:

- إنّه مالي!

- تضطرّ أحيانًا إلى الاقتراض منّي!

- هل أكلت عليك قرضًا؟

فقال قرّة باستياء:

- ولكنّ ذلك ضارّ بعملنا المشترك، ثمّ إنّك لا تكاد تبذل فيه أيّ جهد!

فقال رمّانة بامتعاض:

- إنّك لا توليني ثقتك.

فصمت قرّة مليًّا ثمّ قال:

- من الخير لكلينا أن ننفصل، فليستقلّ كلّ بتجارته قبل أن نغرق معًا...

- ٢٩ -

عُرف الخصام فاضطربت له أفئدة الأسرة.

أمّا وحيد فقد زار قرّة وقال له بكلّ صراحة:

- افعل ما تراه في صالحك.

وقال له أيضًا:

- ابنك يكبر يومًا عن يوم.

ثمّ قال عن رمّانة بازدراء:

- إنّه خنزير مثل زوج أمّه!

واجتمعت صفيّة بقرّة ورمّانة وقدّمت اقتراحها قائلة:

- ليستقلّ قرّة بالإدارة وليأخذ رمّانة نصيبه من الربح وهو حرّ فيه...

فقال رمّانة:

- لست طفلًا يا عمّتي...

فدمعت عيناها وقالت:

- سمعة الناجي أمانة بين يديكما...

فقال قرّة بحزن:

- سمعة الناجي!... لنا الفتونة وما هي بالفتونة.

أبونا ضائع بلا ذنب. أخي إمّا في البوظة أو الغرزة ثمّ يمضي إلى القمار!

فتوسّلت إليه قائلة:

- أنت أنت الأمل يا قرّة.

فقال بشدّة:

- لذلك أريد أن أستقلّ بتجارتي...

- ٣٠ -

اندعرت رئيفة لفكرة الانفصال وأعلنت عن مخاوفها حتّى قال لها رمّانة:

- أنت أيضًا لا تثقين فيّ!

فقالت بلين ومداهنة:

- إنّك أهل للثقة إذا أقلعت عن عاداتك السيّئة.

- سأقلع عنها حتمًا إذا اضطررت لتحمّل مسئوليّتي!

- وهل تعرف العمل حقًّا!

فقطّب متسائلًا فقالت:

- يلزمك وقت للتدريب يا رمّانة، احذر العناد والغرور، كان الرأي دائمًا رأي أخيك، هو عاقد الصفقات، هو الرحّالة، هو كلّ شيء، وأنت متربّع وراء مكتبك لا شيء!

فتلظّى بالحقد مليًّا ثمّ قال:

- وما العمل إذا صمّم على تحقيق فكرته؟

فقالت والشرّ يتراقص في عينيها:

- يجب منعه بأيّ ثمن...

- بالقوّة؟

- بأيّ ثمن، أتدري ما معنى أن تستقلّ الآن؟ أن تفلس في أيّام أو أسابيع، أخ وجيه وأخ فتوّة وأخ شحّاذ!

- والعمل؟

- بادر بالملاينة، في الوقت نفسه غيّر حياتك، اشترك في العمل، ثمّ نفكّر في كلّ شيء...

صمت متجهّمًا فرجعت تقول:

- خسائرك فادحة، ماذا يبقى لك لو وقع الانفصال الآن؟ تذكّر ذلك، وتذكّر أيضًا...

وسكتت قليلًا ثمّ واصلت:

- وتذكّر أيضًا أنّه لا يوجد مستحيل...

- ٣١ -

مضى قرّة يستعدّ لسفر عاجل. اقترح رمّانة عليه أن يؤجّل فكرة الانفصال لحين عودته، وقال له برقّة غير معهودة:

- ربّما وجدتني لدى عودتك شخصًا آخر...

- ٣٢ -

وفي الليل تطرّق الحديث بين قرّة وعزيزة إلى الموضوع. ولم تخفِ عزيزة مشاعرها فقالت:

- إنّه لا يستحقّ الثقة...

فقال قرّة:

- بلى، ولكنّ الوقت لا يتّسع الآن لإجراءات الانفصال...

- ليكن ولكن لا تتردّد. إنّه لا يحبّك، هو وزوجته يتمنّيان لنا الهلاك!

وتابعت عزيز وهو يلاعب قطّة بيضاء فرقّت عيناها وهي تقول:

- تلقّيت من السماء هديّة جديدة لك...

فرمق بطنها بحنان وبهجة. وأشارت عزيزة إلى عزيز وتمتمت:

- أهلك يحلمون له بالفتونة...

فابتسم قائلًا:

- هكذا آل الناجي!

فقالت عزيزة:

- أمّا أنا فأومن بأنّ أبواب الخير كثيرة...

- وعاشور؟

- دائمًا عاشور!... أتحنّ إلى أحلامهم؟

- سأنشئه كما أنشأني المرحوم خضر وليفعل بنفسه بعد ذلك ما يشاء...

- كم تريحون أنفسكم لو تتناسون أنّكم ذرّيّة عاشور الناجي!

- سنظلّ ذرّيّته على أيّ حال...

ورنا إلى عزيز طويلًا ثمّ تساءل:

- متى أجلسه أمامي في حجرة الإدارة؟!

- ٣٣ -

اتّخذ السائق مجلسه بالدوكار. وقف قرّة بين مودّعيه. وحيد ورمّانة والشيخ إسماعيل القليوبي شيخ الزاوية ومحمّد توكل شيخ الحارة وآخرين. وأمسك محمّد توكل بيد رمّانة وتساءل بلهجة ذات معنى:

- من يحلّ محلّك يا معلّم عند السفر إذا استقلّ كلّ منكما بتجارته؟

فتجاهل قرّة الملاحظة مواصلًا حديثًا جانبيًا مع الشيخ إسماعيل. وفي تلك اللحظة مرّت الشيخة ضياء بمبخرتها وعينيها الدامعتين. لم يعد منظرها يثير استياء أحد من آل الناجي، وقال وحيد:

- الشيخة تبارك سفرك!

وصافحهم واحدًا بعد واحد واستقلّ الدوكار ورمّانة يقول:

- بالسلامة في الذهاب وفي الإياب...

ورنّ الجرس وتهادى الدوكار نحو الميدان...

- ٣٤ -

كانت الرحلة عادة تستغرق أسبوعًا. مضى الأسبوع ولكنّ قرّة لم يرجع. تبودلت الأفكار في الدار مساء فقال رمّانة:

- عذر الغائب معه.

وتمتمت أنسيّة:

- لا يحسب الوقت في رحلته بالساعة والدقيقة.

وقالت رئيفة:

- مرّة تأخّر يومين عن ميعاد عودته...

ولاذت عزيزة بالصمت.

- ٣٥ -

مرّ اليوم التالي كما مرّ الأوّل. تردّدت الكلمات الملتمسة للطمأنينة. قالت عزيزة لنفسها:

- ما أبغض قلقًا لا مبرّر له...

- ٣٦ -

يذهب الدوكار مع الصباح إلى ميناء بولاق ثمّ يرجع مع الليل خاليًا. ويعذّب السهاد عزيزة حتّى الفجر...

- ٣٧ -

باتت الحارة تتساءل عن غياب قرّة. دعت عزيزة وحيد وسألته:

- ماذا ترى يا معلّم وحيد؟

فقال الفتوّة:

- اعتزمت السفر بنفسي...

- ٣٨ -

غاب وحيد أيّامًا ثلاثة ثمّ رجع في مساء الرابع. رأت عزيزة وجهه فغاص قلبها في صدرها وهتفت:

- ليس وراءك خيرا

فقال وحيد بوجوم:

- قرّر عملاؤه أنّه لم يصل إليهم...

فتساءلت عزيزة بوجه شاحب:

- ما معنى ذٰلك؟

فقالت أنسيّة وهي تداري اضطرابها:

- قلبي يحدّثني بالسلامة...

فقالت عزيزة:

- قلبي لا يحدّثني بذٰلك...

فقال رمّانة:

- لا تستسلموا للتشاؤم...

فهتفت عزيزة:

- الغائبون في أسرتكم أكثر من الحاضرين...

فقالت أنسيّة:

- فليخيّب الله الظنون السيّئة...

فتمتمت رئيفة:

- آمين...

عند ذاك ولولت عزيزة:

- ما العمل وأنا امرأة لا حول لي؟!

فقال وحيد:

- لقد قمت بالخطوة الأولى وتوجد بعد ذٰلك خطوات...

وقالت أنسيّة:

- إنّه لا أعداء له...

فقال رمّانة:

- هٰذا حقّ ولكنّ للطريق أخطاره...

فتأوّهت عزيزة، وقال وحيد:

ـ سأفعل المستحيل...

ـ ٣٩ ـ

مضى أسبوع في أثر أسبوع. تتابعت الأيّام بلا مبالاة. شُغل الناس بالشمس والليل والنهار والطعام. أيقنوا أنّ المعلّم قرّة لن يرجع إلى حارته.

ـ ٤٠ ـ

أصرّت عزيزة على مصارعة النسيان واللامبالاة. غياب قرّة كارثة يتجدّد وقوعها في قلبها كلّ صباح. وهي تتمزّق بالحزن والغضب. تأبى أن تصدّق أنّ سنن الكون يمكن أن تتبدّل بغتة في لحظة من الزمان. ومن شدّة الانفعال أجهضت فرقدت مريضة أسبوعًا. واستدعت وحيد وقالت له:

ـ لن أسكت، لن أهمد، ولو مضى العمر كلّه على ذٰلك...

فقال وحيد:

ـ إنّك لا تدركين حزني يا ستّ عزيزة، إنّه لعار أن يقع ذٰلك لشقيق فتوّة...

ـ لن أسكت ولن أهمد...

ـ لم يعد لأحد من رجالي من مهمّة مقدّمة على البحث والتحرّي، استعنت أيضًا بأصدقاء من الفتوّات...

وتمهّل قليلًا ثمّ قال:

ـ ذهبت إلى أمّي في بولاق، إنّها اليوم ضريرة، وذهبتْ معي إلى فتوّة بولاق، الدنيا كلّها تبحث عن قرّة...

ـ ٤١ ـ

من ناحية أخرى زار أبوها إسماعيل البنان مأمور القسم فوعده الرجل بتقديم كلّ مساعدة ممكنة. وجعل أبوها يشجّعها ويواسيها ولكنّها قالت له:

ـ كأنّ قلبي يعرف السرّ...

وقرأ أبوها خواطرها فقلق وقال:

ـ إيّاك وسوء الظنّ بالأبرياء...

ـ الأبرياء!

ـ أصغي إليّ، اضبطي لسانك...

ـ لا أعداء لنا سواهما...

ـ قطّاع الطريق أعداء كلّ إنسان...

ـ لا أعداء لنا سواهما.

ـ لا دليل لديك إلّا سوء ظنّك القديم...

فقالت بإصرار:

ـ لن أهمد ولو مضى العمر كلّه على ذٰلك...

ـ ٤٢ ـ

اقتحمت جناح الشيخة ضياء وهو ما لا يجرأ عليه أحد. وجدتها متربّعة على شلتة مستغرقة في تهاويل السجّادة. ركعت إلى جانبها. لم تلتفت المرأة إليها، لم تشعر بها. همست:

ـ يا شيخة ضياء ما رأيك؟

فلم يطرق الصوت باب دنياها المسحورة فهمست بحرارة:

ـ قولي شيئًا يا شيخة ضياء!

ولكنّ ضياء لم تسمع، لم تحسّ، لم تولد.

شعرت عزيزة بأنّها تصارع مجهولًا لا سبيل إليه، وأنّها تتحدّى المستحيل...

ـ ٤٣ ـ

وعاشت شبه معتزلة في جناحها منفردة بعزيز. حتّى الطعام كان يُحمل إليها. وزارها في الجناح رمّانة ورئيفة. وكان حزنها على الغائب جليًّا مشهودًا. وقالت لها رئيفة:

ـ عزلتك تضاعف من أحزاننا...

فقالت وهي تتجنّب النظر إليها:

ـ لم أعد صالحة لمعاشرة الآخرين...

فتمتم رمّانة:

ـ نحن الأهل الأقربون...

فقالت بضيق:

ـ الحزن كالوباء يوجب العزلة...

فقال رمّانة:

ـ بل المعاشرة تعالجه، واعلمي أنّني لا أكفّ عن

البحث. . .

فقالت بإصرار:

- أجل، علينا أن نعرف القاتل!

فهتفت رئيفة:

- لا أصدّق أنّه قُتل. . .

فقاومت عزيزة دموعها بكبرياء، ولم تهشّ لكلمة من الكلمات الطيّبة، فلم يسفر اللقاء عن خير. ولم تنقطع عزيزة عن وحيد أو أبيها، لم يتسلّل اليأس إلى إرادتها، وجعلت الأيّام تمضي، والمعلّم قرّة يذوب في المجهول. . .

- ٤٤ -

فُسّر اختفاء المعلّم قرّة في الحارة باعتباره نتيجة لعدوان قطّاع الطريق. هكذا يقال جهرًا كلّما جاء للحادث ذكر. أمّا همسات الاتّهام في البوظة والغرزة فكانت تحوم حول رمّانة. لقد قضى على شقيقه بالقتل قبل أن يقضي عليه بالفصل والإفلاس. وها هو يستقلّ بإدارة المحلّ، متصرّفًا في ماله ومال ابن أخيه اليتيم. وقد أقلع عن العربدة والقمار حتّى لا يقال بأنّه يبدّد مال اليتيم، وعمل ألف حساب لوحيد فتوّة الحارة. رغم ذٰلك فقد تضاءلت عملقة المحلّ، واختُصرت معاملاته، واعتذر رمّانة عن ذٰلك بقلّة درايته ومهارته التجاريّة.

وقال لشقيقه وحيد:

- ليس في وسعي أفضل من ذٰلك، وإنّي أرحّب بأن تعمل معي إذا شئت. . .

ولكنّ وحيد قال له ببرود:

- أنت تعلم ألّا خبرة لي بهٰذه الشئون.

- ٤٥ -

ولم تكترث عزيزة كثيرًا لما يطرأ على المحلّ من تحوّل أو ضمور. كانت تحلم باليوم الذي يحلّ فيه عزيز في مكان أبيه، فيستقلّ عن عمّه ويعيد إلى المحلّ سيرته الأولى. في سبيل ذٰلك وقفت نفسها على تربية وحيدها. أرسلته إلى الكتّاب في سنّ مبكّرة. وزوّدته بمعلّم خاصّ ليزيده علمًا بالحساب والمعاملة. ولم تألُ في تذكيره بسِيَر أجداده من آل البنان، بل دفعها إخلاصها لقرّة إلى التنويه له ببطولات الناجي ومُثُله العليا وأمجاده الأسطوريّة. وبثّت فيه - بلا وعي وبوعي أحيانًا - الحذر من عمّه وزوجته، والنفور منها، وشحنت قلبه بأنباء العداوة التي اضطرمت بين أبيه وعمّه، واختفاء أبيه الغريب المريب. . .

وكان قرّة قد نُسي. لم يبق حيًّا إلّا في قلب عزيزة، ولدرجة ما في خيال عزيز. وثمّة حلم يقظة كان متعة تأمّلاتها، أن تجوب البلدان بحثًا عنه، أن تعثر عليه، أو أن تكتشف بالبيّنة قاتليه، أن تنتقم، أن تعيد ميزان العدل إلى استوائه الأبديّ، أن يستعيد القلب صفاءه. . .

- ٤٦ -

وما إن جاوز عزيز العاشرة حتّى طالبت عزيزة بأن يتدرّب في محلّ أبيه. وسرعان ما وافق رمّانة وهو يقول:

- أهلًا بالعزيز ابن العزيز. . .

وعقب ذٰلك توفّي إسماعيل البنان أبو عزيزة فورثت عنه قدرًا من المال لا بأس به، فقرّرت أن تكنزه ليستثمره عزيز في التجارة عندما يستقلّ عن عمّه! وماتت أنسيّة عقب وفاة أبيها بعام ونصف فخلت الدار من الأحباب. لم يبق إلّا رمّانة ورئيفة، والشيخة ضياء إن عُدّ وجودها وجودًا. وقد عجزت الشيخة عن مواصلة مسيرتها اليوميّة في الحارة فاعتزلت تمامًا في جناحها، وعند الأصيل من كلّ يوم كانت تدلي بالمبخرة من مشربيّة حجرتها، وحتّى الدموع لم تعد تسعفها. . .

- ٤٧ -

وينظر رمّانة متأمّلًا كلّما وجد الفراغ.

ها هو عزيز يجلس في مكان أبيه بحجرة الإدارة. إنّه يتقدّم بخطوات ثابتة تنبئ عن رجاحة عقل. يطرق بلا شكّ باب المراهقة. صبيّ جميل مفعم حيويّة. قامة طويلة رشيقة، عذب الملامح، يلوح القلق في عينيه كما يلوح التفكير. وبينهما مجاملة محسوسة ولكن بلا ألفة

حقيقيّة. وثمّة نفور أيضًا يتوارى وراء الكلمة المهذّبة والابتسامة الحلوة. حلوى كذبة أبريل المرّة. مشحون بنفثات أمّه السامّة. وقد يستوي يومًا عدوًّا ذا خطر! يتصوّر أحيانًا أنّه ابنه! ولا يتخلّى عن تصوّره رغم أنّ وجه الصبيّ مزيج متعادل من وجهي عزيزة وقرّة. ولكن ما الفائدة؟ العبرة بالروح لا بالدم. إنّه ابن أخيه بل إنّه عدوّه، وهو لا يستطيع أن يحبّه مهما تصوّر. وقد لا يقوم تصوّره على أساس. ولعلّه لو علم بخواطره لازداد له كرهًا.

وقال له:

ـ إنّك منطوٍ على نفسك يا عزيز، لماذا؟

حدّق فيه الصبيّ بحيرة كأنّه لم يفهم فقال:

ـ أين أصدقاؤك؟... لِمَ لا تخالطهم في الحارة؟

فتمتم:

ـ أحيانًا أستقبلهم في الدار...

ـ هٰذا لا يكفي...

وضحك رمّانة ثمّ قال:

ـ لم أسمعك تخاطبني مرّة بقولك يا عمّي...

فارتبك عزيز فقال رمّانة:

ـ إنّي عمّك، صديقك أيضًا...

فابتسم عزيز وقال:

ـ طبعًا...

وكفّ عن مضايقته بلباقة. وقال لنفسه إنّ عليه أن يحاول مستقبلًا أن يصطحبه إلى مجالس الرجال، أن يخرجه من قوقعة النفور، أن يسرقه من قبضة أمّه...

ونظر في دفتره ولكن سرعان ما اشتعل خياله بالصور الجامحة. رأى عزيز وهو يحتضر... إثر حادث أو مرض...

ـ ٤٨ ـ

وكان يكاشف رئيفة بهواجسه، وكانت تقول له:

ـ طالما حذّرتك بما تعدّه الأفعى...

فقال بضيق:

ـ لم أكن بحاجة إلى تحذير!

ـ ولا أنت في حاجة إلى من يرشدك إلى ما ينبغي عمله...

ما أكثر ما تردّد ذٰلك بينهما! ها هو الشيطان يطلّ من عينيها الجميلتين، قال بحنق:

ـ ما كلّ مرّة تسلم الجرّة...

فقالت ساخرة:

ـ فلننتظر المصير.

ـ أصبح الآن يتعامل معي فثمّة أمل!

ـ تتصوّر أن تخطفه من حضن أمّه المغلي بالحقد!

ـ إنّه لم يعرف بعد أنّ في الدنيا طربًا وسرورًا!

ـ الأفعى مغروسة في أعماقه...

فنفخ متجهّمًا. وساد الصمت إلّا من هسيس الخواطر الدامية. وترامى من الحارة صياح غلمان، وتتابع نقر فوق خصاص المشربيّة فتمتمت رئيفة:

ـ رجع المطر...

تسلّى بفحص الجمرات في المدفأة بعود من الحديد، قال:

ـ يا له من برد!

فقالت مارقة من أفكاره:

ـ إنّه الحلم...

ـ ما هو؟

ـ ليس مستحيلًا أن يغرى مثله بأمجاد الناجي!

ـ عزيز؟!

ـ أجل، إنّه سنّ الأحلام، مثل أبيك المطارَد!

رنا إليها بذهول. خافها بقدر ما أعجب بها. ولكنّه قال بخمول:

ـ لا ثقة له فيّ!

ـ ولكنّه يُشحن إذا لم ير اليد التي تشحنه...

وتنهّدت بعمق وهي تقول:

ـ ثمّ يحذّر وحيد في الوقت المناسب!

ما جدوى ذٰلك كلّه؟ إنّه يشعر أحيانًا بالضجر. ولكن طاب له أن يتسلّى بحلم يقظته الدامي...

ـ ٤٩ ـ

اصطحبه معه إلى مجالس الرجال بحجّة تقديمه إلى العملاء فلم تستطع عزيزة أن تمانع. ودارت الجوزة ولكنّه لم يدعُه إليها قطّ. وقال له:

ـ إنّها ضرورة في مجالس الرجال ولكن تجنّبها فهي

لا تليق بك...

وتعرّف عزيز بكثيرين. أسعده أنّهم يحفظون لأبيه خالص الودّ وجميل الذكرى. وتتلاحق الأقوال:

- لم نعرف له نظيرًا في أمانته ودقّته...

- الأخلاق في المرتبة الأولى ثمّ تجيء التجارة...

- كان في التجارة كما كان جدّه في الفتونة!

- واحسرتاه على عهد الناجي وأمجاده...

- سيجيء يومًا من يعيد العهد إلى عرشه...

دائمًا تتردّد تلك الأقوال في كلّ لقاء. وفي طريق العودة إلى الدار يقول له رمّانة:

- هٰؤلاء الناس لا يكفّون عن الأحلام...

ويقول له أيضًا:

- لولا عمّك وحيد ما كان لنا قيمة في هٰذه الحارة...

ومرّة قال عزيز:

- ولٰكنّ وحيد ليس مثل عاشور.

- لا أحد مثل عاشور، لقد انتهى عصر المعجزات، حسبنا أن رجعت الفتونة إلى آل الناجي...

تمنّى أن ينفذ إلى أعماقه. وكان - في الاجتماعات - يسترق النظر إليه فينشرح صدره بضوء الحماس المشعّ من عينيه...

- ٥٠ -

وذات مساء قالت عزيزة لعزيز:

- جاء اليوم الموعود.

أدرك ما ترمي إليه ولٰكنّه انتظر فقالت:

- تستطيع الآن أن تضطلع بشئونك، لم تعد صبيًّا، استقلّ بتجارتك، عندي من المال ما يضمن لك نجاحًا مثل نجاح أبيك...

فهزّ رأسه موافقًا ولٰكنّها لم تلمس الحماس الذي توقّعته فقالت:

- أبعد عنك عدوّ أبيك، وحسبه ما نهب من مالك...

- هٰذا متّفق عليه!

- ولٰكنّك لا تبدي الحماس الواجب...

- الحماس متوفّر، طالما انتظرت هٰذا اليوم...

- ستنفّذه فورًا؟

- أجل...

- ولٰكنّك مشغول البال، أكثر من مرّة لاحظت ذٰلك فعلّلته بمتاعب العمل...

- هو ذٰلك!

فقالت بارتياب:

- كلّا يا عزيز، عيناك تحدّثانني بأنّ هناك شيئًا آخر...

فضحك قائلًا:

- لا تجعلي من الحبّة قبّة...

سرّه حقيقة بأن يخفيه عنها بقدر ما هو حقيق بأن يخفيه عن وحيد نفسه. إنّه يعرف تمامًا موقفها ومشاعرها. غير أنّها قالت بقلق:

- لا تخفِ عنّي شيئًا يا عزيز، نحن محوطون بالأعداء، عليك أن تطلعني على كلّ شيء...

فقال متظاهرًا بالمرح:

- سأنفّذ ما اتّفقنا عليه، ما عدا ذٰلك فهو وهم...

فقالت بمزيد من القلق:

- أيّ وهم؟! ما أكثر الأوهام القاتلة!

ارتعد لنفاذ بصيرتها المستلهمة من غريزة الأمّ وحبّها وخوفها معًا. غمغم متهرّبًا:

- لا شيء!

فهتفت بحرارة:

- لا تسلّمني للجنون، أمّك حزينة أبديّة، تحمّلت ما لم تتحمّله زوجة مخلصة، أنت أملها الوحيد، عزاء صبرها وتصبّرها، استيقاظها من كابوس طويل، وقد قضي علينا أن نعيش في غشاء من المكر السيّئ، ولن يقدّم لنا السمّ إلّا في قطعة من الحلوى، لا خوف عليك من العداء السافر، ولٰكنّ الخوف واجب من البسمة الحلوة والكلمة العذبة والدواء الشافي وأقنعة الإخلاص التي لا حصر لها...

لتمتم وهو يتلوّى في الحصار:

- لست غرًّا يا أمّاه...

- ولٰكنّك بريء والبراءة فريسة الأوغاد...

وانزلق إلى أن يقول وهو لا يدري:
ـ إنّه خارج الموضوع!
ـ رمّانة؟!
ـ أجل...
ـ حدّثني عن الموضوع، واحزناه، هل أصبحت غريبًا عن قلبي وروحي فلا أعلم شيئًا عن أخطر الأمور إلّا ما تلقيه إليّ المصادفة العمياء؟!
ـ لم أضمر إخفاء شيء عنك ولكنّي أعلم بهواجسك!
ـ صارحني فإنّ قلبي يوشك أن يتوقّف...
فنهض، راح يتمشّى في الحجرة، ثمّ وقف أمامها، تساءل:
ـ ألا يحقّ لي أن أفكّر بنبل؟
فدهمتها أفكار مفزعة وقالت:
ـ ما العواقب يا عزيز؟ هٰذا ما يهمّ، سبق أن فكّر جدّك سماحة بنبل وها هو طريد كالمتسوّل لا يدري أحد عنه شيئًا... حدّثني عن أفكارك النبيلة يا عزيز...
مضى بنبرة اعترافيّة يحدّثها عمّا دار في اللقاءات مع العملاء، تابعته بوجه شاحب حتّى خضّبته في النهاية صفرة الموت... وقالت بصوت متهدّج:
ـ إنّه تحريض واضح على عمّك وحيد!
ـ لست غرًّا...
ـ إنّي أرى رمّانة في نسيج المؤامرة...
فبادرها:
ـ لم ينبس بكلمة، وهو دائمًا في صفّ وحيد، ودائمًا يحذّرني...
ـ لا تصدّقه، إنّهم يردّدون ما يشحنهم به، هل صارحتهم بأفكارك النبيلة؟
فقال بصدق:
ـ كلّا، لست غرًّا، قلت لهم إنّي لا أخون عمّي وحيد...
ـ هٰذا حسن، هل قلت لعمّك قولًا آخر؟
ـ كلّا... تظاهرت بالميل لقوله...
تنهّدت بعمق، اغرورقت عيناها، غمغمت:
ـ حمدًا لله...
ثمّ بحدّة:
ـ لقد أعطياني الحبل، ما عليك إلّا أن تتوفّر لعملك، استقلّ عن عدوّ أبيك، بل عن قاتله، توفّر لعملك، لقد أعطياني الحبل...

ـ ٥١ ـ

ثمّة صمت ينذر بهبوب عاصفة. نظرات عزيز لا تبشّر بخير. منذ شارف بلوغ الرشد وهو يتوقّع منه ضربة قاسية. لم يفلح في كسب ثقته، باده ملاينة بملاينة، لم تزلّ قدمه رغم دهنه الأرض تحت قدميه بالزيت، وها هو يتحفّز للانتقام.
وخاطبه ذات صباح بقوله:
ـ عمّاه!
لأوّل مرّة ينطق بها فأيقن أنّها مقدّمة لشرّ.
ـ ماذا يا بن أخي؟
فقال بهدوء كريه ذكّره ببعض أحوال أبيه قرّة:
ـ أرى أن أستقلّ بتجارتي!
رغم أنّه توقّع ذٰلك، توقّعه منذ طويل، إلّا أنّ قلبه غاص في صدره، وتمتم:
ـ حقًّا؟! طبعًا أنت حرّ، ولكن لماذا؟ لماذا نفتّت قوّتنا؟
ـ أمّي ترغب في مشاركتي!
ـ هٰذا ممكن مع المحافظة على الوضع الراهن...
ـ كان أبي يرغب في ذٰلك كما تعلم!
ـ قال ذٰلك يومًا ما ولٰكنّه لم يصمّم عليه وإلّا ما منعه مانع...
فقال عزيز ببرود:
ـ منعه اختفاؤه الغريب...
فانقبض قلب رمّانة، ولٰكنّه تجاهل الطعنة وقال:
ـ كان بوسعه أن يؤجّل السفر حتّى يفعل ما يشاء...
ثمّ باستياء واضح:
ـ لا تصدّق كلّ ما يقال...
فقال بجرأة لم يبدها من قبل:
ـ إنّي أصدّق ما يستحقّ التصديق...
فقال رمّانة بيأس:

ـ أكرّر أنّك حرّ، ولكنّه ضارّ بكلينا...

ـ ليس هو كذلك بالنسبة إليّ...

تلقّى طعنة ثانية وهو يتلظّى بالحقد الدفين. وقال لنفسه إن يكن ابني حقًّا فكيف ألفته إلى الدور الساخر الأليم الذي يلعبه! كيف أكبح الشيطان الذي يتمطّى في قلبه الأسود لينتقم منّي؟

قال:

ـ تعبير لا يجدر بك، ألا تفكّر في الأمر مليًّا؟

فقال برقّة ما استطاع:

ـ إنّه أمر متّفق عليه.

فقال بيأس:

ـ حتّى إذا رجوتك أن تعدل عنه؟

ـ يؤسفني أنّي لا أستطيع تحقيق الرجاء...

ـ لعلّها أمّك؟

ـ تريد أن تشاركني كما قلت...

ـ إنّه سوء الظنّ الذي يخلق الكراهية على أساس من الأوهام.

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

ـ ليست أوهامًا، الحسابات غير مقنعة، والشركة لم تكن في صالحي...

ـ من الآن ستلعب دورك كاملًا...

فتمتم عزيز بضيق:

ـ لا فائدة يا سيّدي.

فاجتاحه الغضب وهتف:

ـ إنّها الكراهية، إنّه الحقد الأسود، إنّها اللعنة التي تطارد آل الناجي...

ـ ٥٢ ـ

رجع رمّانة إلى رئيفة محطّمًا. وسرعان ما أخبرها بكلّ شيء، ثمّ قال:

ـ بذرة الكراهية تلفظ ثمرتها السامّة.

فقالت رئيفة بوجه مخطوف من الحقد:

ـ الأمل معقود بوحيد...

ـ ولكنّ الماكر الصغير لم يقع بعد في الشرك...

ـ لا تنتظر حتّى يقع...

ـ ليس الأمر باليسر الذي تحلمين به...

ثمّ بهدوء:

ـ الأمل معقود بميراثك!

ـ ميراثي؟!

ـ عزيزة ستمدّه بميراثها...

ـ لأنّها كانت تعدّه لساعة الانتقام...

ـ بميراثك أستطيع أن أبدأ من جديد!

فتساءلت بذهول:

ـ ومالك أنت؟

فقال بقنوط:

ـ لم يبق منه ما يصلح لإقامة محلّ كريم...

فهتفت:

ـ التهمه القمار!

ـ ماذا؟ أهذا وقت الزجر؟

ـ لم أكتنز ميراثي مثلما فعلت الأفعى، وتريد أن تبدّد ما بقي منه لنتسوّل معًا!

فقال محتدًّا:

ـ سأبدأ بسلوك جديد!

فضحكت ساخرة فاشتعل غضبه وقال:

ـ لم يبق إلّا أن أكاشفه بأنّه ابني!

فانتقل اللهب إليها وصاحت:

ـ أفق، ألم تقتنع بعد بأنّك عقيم؟!

فصاح بحنق:

ـ بل أنت العقيم!

ـ ما وجدت الداية بي من عيب!

همّ بأن يلطمها ولكنّها تحفّزت للردّ مثل لبؤة غاضبة. لم تقنع بتراجعه فتمادت في الحنق وهي تقول:

ـ أشمتّ بنا الأعداء، لعلّ وَهْم الأبوّة الفارغ هو ما صدّك عن التخلّص منه طيلة الأعوام الماضية!

فتمتم وهو يهزّ رأسه دهشة:

ـ تحسبين القتل لهوًا!

عند ذاك أقبلت جارية لتستأذن في حضور محمّد توكل شيخ الحارة.

ـ ٥٣ ـ

استقبله في بهو الاستقبال بالدور الأوّل. جاء الرجل في حالة من العجلة والاهتمام والقلق حتّى

انقبض قلب رمّانة. وجلس وهو يتساءل بلا أيّ تمهيد:

ـ هل أغضبت أخاك وحيد؟

فذهل رمّانة وقال:

ـ ما بيني وبينه إلّا كلّ خير!

ـ رأيته الساعة في البوظة هائجًا ثملًا، يلعن ويسبّ، متّهمًا إيّاك بأنّك تحرّض عزيز عليه!

فانتتر منفزعًا وهو يصيح:

ـ افتراء وكذب...

فبادره محمّد توكل:

ـ لا تتوانَ عن إقناعه... عجِّلْ...

فتساءل رمّانة محتدًّا:

ـ ماذا تعني؟

ـ إن لم تسرع فسيصيبك أذى لا تتصوّره...

ـ ولكنّه أخي!

فقال توكل وهو لا يفطن إلى أبعاد قوله:

ـ ليس نادرًا أن يقتل الأخ أخاه في حارتنا!

فازدرد رمّانة ريقه بامتعاض وغمغم:

ـ هٰكذا...

فقال شيخ الحارة:

ـ لقد أعذر من أنذر فتحرّكْ وحقّ الحسين...

ـ ٥٤ ـ

لم يجرأ رمّانة على مقابلة وحيد وهو سكران فقرّر أن ينتظر حتّى الصباح. غير أنّ الشيخ إسماعيل القليوبي شيخ الزاوية اقتحم عليه داره عند منتصف الليل حاملًا إنذارًا من وحيد بأنّه إذا غادر داره فقد عرّض نفسه للهلاك.

وأدرك رمّانة أنّ عزيز هو الذي أوقع بينه وبين وحيد فتهجّم على جناحه وانهال عليه سبًّا حتّى أوشك أن يلتحم الاثنان في عراك عنيف. عند ذاك اعترفت عزيزة بأنّها هي التي فطنت إلى المؤامرة التي دبّرها لابنها وأنّها أفضت بظنونها إلى وحيد. وصبّ رمّانة عليها غضبه حتّى صرخت في وجهه:

ـ ابعد عن وجهي يا قاتل قرّة.

هٰكذا اشتعلت الدار بالغضب والكراهية على مشهد من الخدم.

وفي الحال انتقلت عزيزة وعزيز إلى دار البنان، ولم يبق في الدار إلّا رمّانة ورئيفة والشيخة ضياء.

واستقلّ عزيز بمحلّ الغلال، فجدّده، وأعاده إلى أيّام ازدهاره كما كان أيّام قرّة ولم يساور وحيد ارتياب فيه، ووجد في تنبيه عزيزة له ما طمأنه من ناحية عزيز فزاره مهنّئًا ومضفيًا عليه أمام الحارة رضاه وحمايته. وأقلع عزيز عن أحلامه. أقلع عنها وهو حزين، غير مبرّأ من ازدراء نفسه. وقنع بممارسة الخير في محلّه، مع عمّاله وعملائه وزبائنه ومن يتيسّر له مساعدتهم من الحرافيش.

ـ ٥٥ ـ

قبع رمّانة في داره. قضى على نفسه بالسجن بلا حُكْم. يحيط به الخوف ويستكنّ في قلبه الخزي. ينفق من ماله غير المستثمر ومن مال رئيفة. يقتله الضجر. يهرب من الضجر في الخمر والمخدّرات. يمارس غضبه على الخدم والجدران والأثاث والمجهول.

ومضت العلاقة تتوتّر بينه وبين رئيفة، وتسوء يومًا بعد يوم، اشمأزّت من جبنه وبطالته وغيبوبته وصراخه. وسرعان ما اشتدّ الخلاف والنقار وحلّ النفور محلّ الوئام. وكلّما نشبت بينهما مشاجرة طالبته بالطلاق حتّى فقد وعيه ذات مرّة فطلّقها. كان القرار أهوج إذ كان كلّ منهما لا يستغني عن حبّ الآخر ولكنّ الغضب جنون والكبرياء عربيدة والتمادي مرض. وكأنّما أراد كلّ شريك أن يثبت للآخر أنّه هو العقيم فسرعان ما تزوّجت رئيفة من قريب لها، على حين تزوّج رمّانة من جارية في داره. وثبت لهما باليقين تقريبًا أنّهما عقيمان. وتزوّج رمّانة من ثانية وثالثة ورابعة حتّى تجرّع كأس اليأس لآخر نقطة فيه.

عاش رمّانة كما عاشت رئيفة في الجحيم، في دنيا الضجر بلا حبّ...

ـ ٥٦ ـ

ذات صباح جاء الحارة رجل غريب. معتمّ بعمامة سوداء، متلفّع بعباءة أرجوانيّة، ضرير يسترشد في

مسيره بطرف عصاه، ذو لحية بيضاء وجبين نبيل. مرّت فوقه الأعين بلا اكتراث، تُرك وشأنه، تساءل البعض عمّا جاء به.

عندما ابتعد عن مدخل الحارة بأذرع هتف:

- يا أهل الله!

فسأله الخمّار صديق أبو طاقيّة:

- ماذا تريد؟

فقال بنبرة حزينة:

- دلّوني على دار خضر سليمان الناجي.

تفرّس صديق أبو طاقيّة في وجهه مليًّا. سرعان ما رأى حلمًا. سرعان ما دهمه الماضي. صاح بذهول:

- يا ألطاف الله!... المعلّم سماحة بكر الناجي!

فقال الضرير بامتنان:

- نوّر الله قلبك!

على عجل جاء كثيرون في مقدّمتهم وحيد وعزيز ومحمّد توكل وإسماعيل القليوبي. وحمي العناق والتبريك والدعاء.

- يوم السعد يا أبي.

- يوم العدل يا جدّي.

- يوم النور يا معلّم.

وكرّر سماحة مرارًا ووجهه يضيء بالإشراق:

- بارك الله فيكم، بارك الله فيكم...

وكلٌّ دعاه إلى بيته ولكنّه قال بإصرار:

- داري دار خضر!

وانتشر الخبر فدعا الرجال من الدكاكين وجمع الحرافيش من الجحور والخرابات، وتعالى التهليل والدعاء ثمّ زغردت النساء في النوافذ والمشربيّات.

وقال صديق أبو طاقيّة:

- سبحان الله العظيم، لا غيبة تخلد ولا ظلم يدوم.

- ٥٧ -

تربّع سماحة فوق ديوان، وجلس أمامه على الشلت وحيد ورمّانة وعزيز. هكذا اجتمع وحيد ورمّانة وعزيز. هكذا اجتمع وحيد ورمّانة وعزيز في سلام كظيم. كما يتجاور البلسم والسمّ في محلّ العطّار. امّحت الخصومات في حضرة الأب المعذّب شهيد النقاء.

وقال له وحيد:

- أعددنا لك الحمّام والطعام...

فتمتم في هدوء:

- مهلًا، لقلبي أن يطمئنّ أوّلًا...

وحرّك رأسه ثمّ تساءل:

- أين خضر؟

فقال وحيد:

- سبحان من له الدوام.

فوجم قليلًا ثم تساءل:

- وزوجته ضياء؟

- في جناحها، شيخة غائبة في ملكوت الله...

وتردّد سماحة في إشفاق ثمّ تساءل:

- وقرّة؟!

فساد الصمت، فتأوّه الرجل وقال:

- قبل الأوان!... طالما حلمت بأنّ ضرسي انخلع...

ويسط راحته وهو يقول:

- يدك يا عزيز...

قبض على يده بحنوّ، وسأله:

- تذكره ولا شكّ؟

فقال عزيز:

- اختاره الله وأنا طفل...

- يا رحمة الله!... ومَن أمّك يا بنيّ؟

- كريمة إسماعيل البنان...

- أنعِمْ وأكرِمْ، وأين هي؟

- هي وعمّتي صفيّة في الطريق إلينا...

وسأل الرجل:

- وأنت يا رمّانة؟

تبادل وحيد ورمّانة نظرة سريعة، وقال رمّانة:

- لي أكثر من زوجة هنّ من سيقمن بخدمتك...

- أولادك؟

- لم أرزق بذرّيّة بعد!

فشهق بعمق متمتمًا:

- إرادة الله وحكمته، وأنت يا وحيد؟

فساد الصمت حتّى تحرّك رأس الرجل بقلق فعاد يتساءل:

ـ وأنت يا وحيد؟

فقال وحيد مقطّبًا:

ـ لم أتزوّج بعد!

ـ أعجب ما سمعت، لم تكن الكوابيس التي أراها بلا سبب! ورضوان؟

ـ البقيّة في حياتك...

ـ حقًّا؟!... لم تبق إلّا الأسماء...

وسكت مليًّا ليهضم أنباء الزمان، بلا انتباه للتوتّر المستحوذ على الجالسين، ثم سأل:

ـ مَن الفتوّة اليوم؟

فقال وحيد بشجاعة لأوّل مرّة:

ـ ابنك وحيد!

فانتفض الرجل من التأثّر وقال:

ـ حقًّا؟

ـ ابنك وحيد يا أبي...

وقصّ قصّة الرؤيا والوثوب إلى الفتونة فتهلّل وجه سماحة وهتف:

ـ أوّل نبأ من السماء...

وشبك ذراعيه فوق صدره ممتنًّا وقال:

ـ إذن قد رجع عهد عاشور...

ركبهم الارتباك والحرج ولكنّ وحيد قال بجرأة:

ـ عهد عاشور رجع!

فهتف الضرير:

ـ يا بركة السماوات السبع!

وتجلّى الرضا في وجهه وفي حركاته المرحة... وقال:

ـ ليهنأ عاشور في غيبته الملائكيّة... وليسعد شمس الدين في جنّات النعيم...

لم يفكّر أحدهم لحظة واحدة في إيقاظه من الحلم أو الاستهانة بسعادته. وبدا هو كأنّما قد نسي الغربة والمطاردة ونعم بحسن الختام. وقال بهدوء:

ـ إليّ بالحمّام والطعام ولتحلّ بركة الله بالأرض.

ـ ٥٨ ـ

نام سماحة بقيّة النهار كلّه. وسهر الليل في ساحة التكيّة. عرفها هٰذه المرّة عن طريق الأذن والأنف واللمس. ودعا بقوّة الخيال صور التكيّة والتوت والسور العتيق. وراح يملأ قلبه بالأنغام في ارتياح وغبطة.

وبسط راحتيه وقال:

ـ حمدًا لله الذي شاءت إرادته أن أدفن إلى جوار شمس الدين. حمدًا لله الذي أذنت رحمته للعدل أن يظلّ في حارتنا، حمدًا لله الذي أورث ابني خير إرث للإنسان الخير والقوّة.

وجرى شكره في ظلّ نشيد يترنّم:

هو آنكه جانب أهل خدا نكهدرد

خداش در همه حال ازبلانكه دارد.

شهد الملكة

الحكاية السادسة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

تدهورت صحّة سماحة فاضمحلّ سريعًا، وما لبث أن أسلم الروح وهو يتأهّب للنوم عقب صلاة الفجر. وكأنّه لم يرجع من منفاه إلّا ليُدفن في جوار شمس الدين. غير أنّه مات سعيدًا، مات وهو يتوهّم أنّه إنّما يهجر فردوسًا إلى فردوس. وقال عزيز:

ـ لقد أنكرنا حقيقة حياتنا أمامه فاعترفنا بذلك ـ بما فينا وحيد نفسه ـ إنّ حياتنا منكر لا يجوز إفشاؤه على مسمع من الطيّبين.

- ٢ -

ونجح محلّ الغلال نجاحًا عظيمًا، وأثرى عزيز ثراء واسعًا. وقنع من البطولة بإيمان القلب، وحبّ الخير وممارسته في نطاق محدود. أقلع عن أحلام النبل مؤثرًا السلامة، ومعتذرًا عن تقصيره أمام ضميره أنّه لم يُعَدّ للبطولة ولم يملك وسائلها.

وخطبت له عزيزة ألفت الدهشوري كريمة عامر الدهشوري صاحب وكالة الحديد فرضي باختيار أمّه ملهمة حياته وراعية أمنه ونجاحه. وزُفّت إليه بعد مرور عام على وفاة جدّه سماحة. وأقام معها في دار البنان التي اشتراها وجدّدها فأصبحت دار عزيز. وكانت العروس حسناء فارعة بدينة مثقّفة في فنون البيت وآدابه فوجد فيها بغية قلبه وسرعان ما ربطهما الحبّ برباط متين.

واستقبلا حياة مترعة بالسعادة والذرّيّة.

- ٣ -

ولبث رمّانة حبيس داره حتّى بعد زوال الأسباب الداعية إلى ذلك. فقد تراجع وحيد عن وعيده بمجرّد عودة سماحة، ولكنّ رمّانة كره الخارج، وغاب عن الوعي والكرامة. وكان يعيش في شبه عزلة عن زوجاته الأربع، ولم يَسْلُ قطّ عن رئيفة، ودأب على السكر والمخدّر.

وذات مساء اشتدّ به السكر فمضى مترنّحًا إلى جناح الشيخة ضياء، فدار حول مجلسها وهو يقهقه، وراح يقول لها ساخرًا:

ـ إنّك أصل البلاهة والبلاء...

وظلّت المرأة غائبة فقال:

ـ إنّي في حاجة إلى نقودك فأين تكنزينها يا معتوهة؟!

وقبض على يدها وأنهضها بعنف ففزعت المرأة وضربته بالمبخرة في وجهه. عند ذاك جنّ غضبه فقبض على عنقها وشدّ بعنف فلم يتركها إلّا جثّة هامدة.

- ٤ -

ارتجّت الدار بالفزع. انقضّ الخبر على الحارة. أبلغ شيخ الحارة الجديد جبريل الفصّ القسم. قُبض على رمّانة. حوكم وقُضي عليه بتأبيدة. ودعا عزيز إليه قبيل حمله إلى الليمان وقال له:

ـ أعترف لك بأنّني مدبّر قتل أبيك.

فقال عزيز بأسى:

ـ أعرف ذلك.

فقال بحزن:

ـ إنه مدفون بملابسه في قبر وحيد لصق مقام الشيخ يونس...

ـ ٥ ـ

واستخرج عزيز جثة أبيه قرّة بحضور شيخ الحارة ومخبر فضلًا عن وحيد وعزيزة. هكذا ظهر قرّة وهو هيكل عظميّ فجدّد الأحزان. وكُفّن ثمّ شُيّع في جنازة مهيبة ثمّ أعيد دفنه في قبر شمس الدين.

وقالت عزيزة:

ـ ليرتح اليوم قلبي، كان ذلك بعض حلمي، وقد ضمنت به أن أرقد إلى جواره إذا حان الأجل.

ـ ٦ ـ

وناوش الألم من جديد ضمير عزيز. وكلّما ساءت سمعة وحيد اشتدّ ضغط الألم عليه. لقد غدا الفتوّة مضرب الأمثال بشذوذه وشراهته في الحيّ كلّه لا في الحارة وحدها. وقد عاش بضعة أعوام بعد وفاة أبيه، ومات أثر هبوط في القلب نتيجة الإفراط في البلبعة.

وفي أثناء ذلك كلّه كان عزيز يتحرّى عمّن يصلح للفتونة من آل الناجي الكثيرين لعلّه يبعث عهد عاشور بعد موات، ولكنّه وجد آل الناجي قد ذابوا في الحرافيش، فهصرهم الفقر والبؤس، واستلّ من أرواحهم خير ما فيها. هكذا فوجئ بموت وحيد دون أن يعدّ له خليفة لائقًا. وسرعان ما واجهته مشكلة غاية في الحساسيّة. هل يُدفن إلى جوار شمس الدين؟ لقد أبى قلبه ذلك. قالت له ألفت الدهشوري:

ـ إنّه عمّك على أيّ حال...

ولكنّه ظلّ على إبائه، ودفنه في قبر من قبور الصدقة بحوش الناجي. ومن عجب أنّ ذلك التصرّف لم يقابَل بارتياح في الحارة. وقال سنقر الشمّام الخمّار الجديد:

ـ جامله حيًّا وانتقم منه ميتًا...

ـ ٧ ـ

ووثب إلى الفتونة نوح الغراب. كان فظًّا غليظًا نهمًا. هادن فتوّات الحارات واستثمر قوّته في الاستبداد بالحارة حتّى صار من كبار الأثرياء في عام واحد. وتحمّل الناس وطأته بلا مبالاة، ولم يعد أحد يتحسّر على فتونة الناجي بعد أن تلاشت أحلامها العذبة على يد وحيد. وابتهج الوجهاء، وانحشر الحرافيش في طور جديد من أطوار الصعلكة والبؤس.

ـ ٨ ـ

ودارت الشمس دورتها. تطلّ حينًا من سماء صافية، وحينًا تتوارى وراء الغيوم. وقد جدّد عزيز الزاوية واختار لها شيخًا جديدًا هو الشيخ خليل الدهشان عقب وفاة إسماعيل القليوبي. وجدّد أيضًا السبيل وحوض الدوابّ والكتّاب القديم.

وترمّلت رئيفة فعاشت وحيدة في دارها مع الخدم. وورثت عن زوجها الجديد ثروة غير قليلة ولكن انقطع ما بينها وبين شقيقتها عزيزة تمامًا كأنّهما غريبتان بل عدوّتان. ومن عجب أنّها كانت تتّهمها بأنّها سبب كلّ شرّ حاق بها، وأنّها نفخت فيها روح التعاسة مذ كانتا في المهد.

وخرقت مألوف التقاليد في الحارة عندما مضت تزور رمّانة في سجنه، فأعلنت بذلك حبّها له رغم كلّ ما حصل.

هكذا مضت السنون بخير لا يُذكر وشرّ لا يُحصى.

ـ ٩ ـ

وذات يوم علم عزيز قرّة الناجي أنّ أحد عمّاله لقي حتفه وهو ينقل حمولة من الغلال. كان يدعى عاشور وينسب نفسه بصدق إلى آل الناجي لانحداره من فتحيّة أمّ البنات زوجة سليمان الناجي الأولى. امتلأ قلب عزيز الرقيق بالحزن، فدفن الرجل ورتّب لزوجته معاشًا شهريًّا. وبالتحرّي عن أسرته عرف أنّ بناته تزوّجن، عدا بنت صغيرة في السادسة تدعى زهيرة ما زالت في حاجة إلى الرعاية. اقترح عزيز على الأمّ أن تضمّ الصغيرة إلى داره لتكون في خدمة أمّه عزيزة

هانم فرحّبت بذٰلك أيّما ترحيب. وانتقلت زهيرة إلى جناح عزيزة وكأنّما انتقلت إلى الفردوس. تجلّى لونها الحقيقيّ لأوّل مرّة، نعمت بالغذاء والكساء، مارست واجبات الدار. واستحقّت عطف عزيزة فخصّتها بمعاملة رقيقة دون الجواري والخدم، بل أرسلتها فترة إلى الكتّاب. ولم يهتمّ عزيز برؤية البنت ولٰكنّه أوصى أمّه بها وهو يقول في دعابة:

ـ لا تنسي أنّها من آل الناجي...

ـ ١٠ ـ

وزارت أمّ زهيرة المعلّم عزيز في حجرة الإدارة وقد نسيها تمامًا. ذكّرته بنفسها، وبالعامل عاشور الذي مضت عشرة أعوام على مصرعه، ودعت له طويلًا، ثمّ قالت:

ـ يدوم عزّك، عبد ربّه يرغب في الزواج من زهيرة.

وتذكّر المعلّم عزيز البنت وكان قد نسيها أيضًا فسأل المرأة:

ـ هل ترينه كفئًا لها؟

فقالت باعتزاز:

ـ شابّ كامل، رزقه كافٍ...

فتمتم عزيز بلا اكتراث:

ـ على خيرة الله...

ـ ١١ ـ

على مائدة العشاء أنهى عزيز إلى عزيزة هانم وألفت هانم قراره. وسرعان ما قالت ألفت ضاحكة:

ـ عبده الفرّان! إنّه بغل...

وقالت عزيزة محتجّة:

ـ البنت ممتازة وتستحقّ مَن هو خير من عبده الفرّان!

فتساءل عزيز ضاحكًا:

ـ هل تتوقّعين أن يتقدّم لها تاجر؟

ـ جمالها يؤهّلها لذٰلك...

فقال عزيز بلا مبالاة:

ـ الولد كفء لها، أمّها راضية، لا يصحّ أن نفرّط في واقع ملموس من أجل خيال قد لا يتحقّق أبدًا...

ثمّ مواصلًا بنبرة مَن قرّر أن ينهي الموضوع:

ـ لقد وعدتها بالموافقة فضلًا عن أنّها صاحبة الحقّ الأوّل في ذٰلك.

ـ ١٢ ـ

جهّزتها عزيزة هانم بالفراش والثياب والنحاس. ودائمًا كانت تردّد:

ـ يا للخسارة...

وكان عزيز يحتسي قهوة الصباح قبيل ذهابه إلى المحلّ عندما جاءته عزيزة بزهيرة لتودّعه شاكرة ضيافته لها، قبل مغادرتها الدار. دخلت الأمّ وهي تنادي:

ـ تعالي يا زهيرة لتقبّلي يد سيّدك...

وهمس عزيز معترضًا:

ـ ما ضرورة ذٰلك يا أمّي؟!

دخلت الفتاة مسربلة بالحياء والارتباك ثمّ وقفت عند الباب. نظر نحوها مشجّعًا. ثبت بصره عليها ثواني ثمّ سرعان ما استردّه. فرّ ببصره. حافظ على وقاره الظاهر تحت عيني أمّه وزوجته. كتم الدهشة في أعماقه. دهشة عنيفة جامحة. كيف دفن هٰذا الكنز في جناح أمّه؟ كيف أخفي سرّه عنه؟ إنّها قوام رشيق لا يتأتّى لراقصة. وصفاء بشرة لا يحظى به بشر. وفتنة عينين مسكرة مخدّرة. إنّها روح الجمال الفتّاك. لحظ ألفت هانم فوجدها منهمكة في إرضاع طفل فتمالك نفسه وقال متشبّثًا بالنجاة:

ـ مبارك عليك يا زهيرة.

فقالت عزيزة:

ـ قبّلي يد سيّدك.

مدّ يده. اقتربت حتّى اجتاحته رائحة القرنفل المتطايرة من شعرها الفاحم المسترسل، شعر بانطباع شفتيها فوق ظاهر يده. خطف منها نظرة أخرى وهي راجعة. وسرعان ما دهمه إلهام بأنّه سيرى ذات يوم معجزة.

ـ ١٣ ـ

من عادته صباحًا أن يمضي بالدوكار إلى الحسين

فيقرأ الفاتحة ثمّ يميل إلى السكّة الجديدة فالصاغة فالنحّاسين ثمّ ينتهي إلى المحلّ. فَقَدَ نفسه طيلة الطريق. روحه تهيم في سماوات ويبقى جسده في الدوكار بلا روح. هل عرف أخيرًا لِمَ تشرق الشمس؟ لِمَ تتألّق النجوم في الليل؟ عمّ تفصح أناشيد التكيّة؟ لِمَ يتعذّب المجانين بالسعادة؟ لِمَ نحزن للموت؟ وتمرّ عشرة أعوام وهٰذا الجمال يتنفّس في كنفه! كيف غاب السحر عن أمّه وزوجته؟ هل تفطن البنت إلى ثرائها؟ أهي مثل الريح تزعزع الأركان بلا تيه؟ هل جنّت الأمّ لترحّب بعبده الفرّان ذٰلك الترحيب الأعمى؟ هل بوسعه أن يحول بين المطر وبين أن ينهمر؟ يا لتعاسة القلوب الغافلة!

في عشيّة الزفاف زارته أمّ زهيرة لتشكره. تفرّس في وجهها بحبّ استطلاع. عجوز تشي مخلّفاتها بجمال دابر. رمقها بحنق خفيّ. قال:

- كلّ شيء على ما يرام؟
- بفضل الله وفضلك.
- ألم تتعجّلي؟

فقالت بتسليم:

- فاتحتها مقروءة منذ مولدها.

ومضت وهو يلعنها في سرّه. وتساءل محزونًا لِمَ لا نفعل ما نشاء؟!

- ١٤ -

زُفّت زهيرة إلى عبد ربّه الفرّان في حفل متواضع. لم يرها مذ كانت في السادسة ولٰكنّه اعتاد أن يعتبرها حليلته. ولمّا رآها ليلة الدخلة صعقه جمالها ولٰكنّه كان مشحونًا بتعاليم وتقاليد أوجبت عليه التظاهر بالثبات والسيادة. كان فوق العشرين بعام، طويلًا مفتول العضلات، ذا سحنة شعبيّة صميمة بنتوء خدّيه وفطس أنفه وغلظ شاربه. حليق الرأس مثل زلطة عدا ذؤابة نافرة في المقدّمة. صلّى ركعتين، واتّخذ من الخشونة إهابًا يخفي به عذوبة الأعماق.

أُعجبت برجولته، استنامت إلى حرارته، سلّمت به مثل قدر.

وجدت نفسها في بدروم مكوّن من حجرة ودهليز يُستعمل مطبخًا وحمّامًا. وتذكّرت الفردوس المفقود، ولٰكنّ غريزتها همست بأنّه كان فندقًا للعبور لا للإقامة، وأنّها كانت به ضيفة، أمّا هٰذا البدروم فهو بيتها ومصيرها، فيه ملكت رجلًا، وحقّقت حلمًا، واطمأنّ القلب.

- ١٥ -

وتمكّن الحبّ من قلبه فكاد يهتك ستره، ولٰكنّه غلا في إظهار الرجولة. وحتّى قبل أن ينتهي الشهر الأوّل سألها:

- هل تقبعين في البيت كما تفعل الهوانم؟

فتساءلت بدورها:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

فقال بحزم:

- اليد البطّالة نجسة!

- ١٦ -

هٰكذا سرحت زهيرة بالملبن وبراغيث الستّ. ارتدت جلباب العمل الأزرق يغطّيها من العنق حتّى الكاهل، وخطرت وهي تنادي:

- الملبن يا أولاد!

بانطلاقها إلى الطريق اكتشفت ذاتها. تنبّهت إلى سحرها وقوّتها. الأعين تلتهمها، الألسنة تتغنّى بالثناء عليها، منظرها يبعث السحر ويخلق الحركة. إنّها قويّة مدلّلة بالطبيعة والناس. وهي تقابل الغزل بالترفّع والكبرياء، وتزداد تيهًا وثقة بالنفس.

- ١٧ -

وتوثّقت العلاقة بينها وبين عبد ربّه. في الأعماق هو رجلها وهي معبودته. يعاملها بتقاليد الرجولة ولٰكنّه يجدها صلبة بقدر ما هي محبّة، غضوبة أحيانًا بقدر ما هي مخلصة. وأنجبت له «جلال» فسرى رحيق الأمومة في أعطافها وتلقّت سعادة جديدة.

- ١٨ -

وكان عبد ربّه الفرّان يحمل الخبز إلى دار رئيفة

هانم، فسألته ذات يوم:

- لماذا تترك زوجتك تسرح في الطريق؟

فقال الرجل بتسليم:

- الرزق يا ستّ هانم.

- الرزق متعدّد السبل، إنّي امرأة وحيدة وفي حاجة إلى وصيفة، وخدمتي توفّر رزقًا أكثر وتقي من شرّ الطريق...

فأخذ عبد ربّه وتساءل في حيرة:

- وجلال الصغير؟

فقالت بإغراء:

- لن أفرّق بين الأمّ وابنها...

فغزا الطموح قلبه وقال:

- الأمّ والأب والابن في خدمتك يا ستّ هانم.

- ١٩ -

تمتمت زهيرة بقلق:

- رئيفة هانم!

فقال عبد ربّه:

- هانم واسعة الثراء ووحيدة.

- ولكنّها عدوّة عزيزة هانم اللدود!

- لا شأن لنا بذلك، وخدمتها أيسر وأغنى من التسوّل في الحارة وأنت حاملة القفّة بذراع والطفل بذراع...

- الأفضل أن أعمل في خدمة عزيزة هانم.

فقال عبد ربّه باستياء:

- ولكنّها لم تطلبك وهذا يعني أنّها لا تريدك...

وصمتت زهيرة ولكنّ حلمها بالفردوس نشط من جديد...

- ٢٠ -

استشاطت عزيزة هانم غضبًا عندما علمت بالخبر وهتفت:

- يا لها من بنت متعجّلة...

فقالت ألفت هانم:

- لم تقصدك بسوء ولكنّها تسعى للرزق...

- نحن أولى بها!

فقالت ألفت هانم معترضة:

- إنّها ذات وليد لا تستطيع فراقه في هذه السنّ وصحبته مدعاة للقذارة...

تابع عزيز الحوار باهتمام. شعر بأنّ زوجته لا ترتاح لرجوع زهيرة إلى الدار فاشتعل وجدانه بالتوجّس وكأنّ إصبعًا يشير نحوه بالاتّهام، فقال بحزم:

- رأي ألفت عين الصواب!

- ٢١ -

كانت زهيرة تمشط شعر رئيفة في قاعة الجلوس عندما دخلت خادمة لتستأذن لقادم قائلة:

- المعلّم محمّد أنور...

من تعليق رئيفة عرفت زهيرة أنّ القادم هو ابن المرحوم زوج رئيفة، وأنّه ظلّ على ولائه لها حتّى من بعد ما ذاع ما ذاع عن زيارتها لرمّانة في سجنه. وسرعان ما جاء القادم فسلّم وقدّم لفافة أنيقة لأرملة أبيه وهو يقول:

- البطارخ!

فتهلّل وجهها وشكرته. كان شابًّا متوسّط الطول مقبول الملامح، جميل الجبّة والقفطان. قالت له:

- فيك الخير يا محمّد.

فقال بانشراح:

- يهمّني أن تذوقي البطارخ قبل أيّ زبون من زبائن دكّاني...

فسألته بدعابة:

- متى تدعني أدفع الثمن مثل بقيّة عشّاق البطارخ؟

فقال وهو يتناول قدح قرفة محشوّة باللوز والجوز والبندق:

- عندما تشرق الشمس من الغرب!

فضحكت رئيفة وقالت:

- فيك الخير يا محمّد.

وهو يحتسي القرفة وقعت عيناه على زهيرة وهي منهمكة في تمشيط سيّدتها. ذُهل. لم يصدّق عينيه. ركّز عينيه في القدح وكأنّه يهرب. قال في سرّه «الغياث بالله من صنع الله».

وسألته رئيفة:

ـ كيف حال تجارتك؟

فاستردّ نفسه من عالم الافتتان وقال:

ـ عال ولله الحمد.

ولاحظت زهيرة نظرة منه إليها متسوّلة تبرق بالانبهار فافترّ باطنها عن بسمة.

ـ ٢٢ ـ

كان محمّد أنور يتردّد على دار رئيفة في كلّ مناسبة تسنح. غدا بالقياس إلى زهيرة عادة، كما غدت نظراته الملتاعة عادة أخرى. وكان يحاذر من إثارة أدنى شبهة عند رئيفة، ويهب دارها ما تستحقّه من الولاء والاحترام. ما من رجل رآها إلّا وجنّ بها. أصبحت تؤمن تمامًا بأنّها أجمل من جميع هوانم الحارة. وهي أيضًا من آل الناجي مثل المعلّم العظيم عزيز. ولكن كم أنّها عجيبة الحظوظ في هذه الدنيا!... توفّر لامرأة دارًا ولأخرى بدرومًا. تعطي واحدة تاجرًا ثريًّا وتعطي أخرى فرّانًا. لقد تقرّر مصيرها وهي عمياء. حتّى ميلها الفطريّ لزوجها لا يقنعها بالرضى. ليست الحياة شهوة وأمومة. ليست فقرًا وكدحًا ونعيمًا كاذبًا مستعارًا من خدمة هانم غنيّة. ليست أن تملك قوّة مذهلة ثمّ تبدّدها في الخنوع. باطنها يتغيّر ببطء ولكن بثبات وإصرار. يتمخّض كلّ يوم عن حركة، كلّ أسبوع عن وثبة، كلّ شهر عن طفرة. إنّها تكتشف ذاتها طيّة وراء طيّة. تنبثق من جوفها أنواع شتّى من المخلوقات المتحفّزة الصارمة. وتحاكم في الخيال أمّها وزوجها ومسكنها وحظّها. تحقد على كلّ ما يطالبها بالرضى، على حكمة الأمثال وعطف الهانم ولحولة زوجها. وتتلقّى من المجهول شرابًا ملتهبًا به يستفحل الخيال ويثمل القلب ويطلع الفجر الأحمر.

وقال محمّد أنور لرئيفة هانم ذات يوم:

ـ أما سمعت بالخبر؟... لقد وثبت إلى الفتونة في بيرجوان امرأة!

فضحكت رئيفة هانم وقالت:

ـ أودّ أن أرى امرأة وهي تصرع الرجال...

ودارت زهيرة ابتسامة إعجاب واشتعلت في قلبها نيران غامضة. ورماها محمّد أنور بنظرة متلهّفة متوسّلة فتساءلت ترى أيكون حلمها رجلًا مثل محمّد أنور؟ لم تجد من قلبها أيّ خفقة تنبئ عن جواب. وتأمّله عقلها بلا حماس وبلا فتور. ودهمتها فكرة متحدّية تقول إنّ قلب المرأة هو ضعفها. وإنّ علاقتها بالرجل يجب أن تتحدّد بعيدًا عن الغريزة والقلب. الحياة غالية مترامية الأبعاد لا حدّ لآفاقها، وما الحبّ إلّا متسوّل ضرير يزحف في أركان الأزقّة. وتنهّدت وقالت لنفسها:

ـ ليس أتعس من الحظّ السيّئ إلّا الرضى به.

ـ ٢٣ ـ

وكانت زهيرة تُرضع جلال في قاعة الجلوس عندما رأت فجأة محمّد أنور يقتحم المكان. بسرعة دسّت ثديها في ثوبها وحبكت الخمار حول رأسها مرتبكة بالحياء. رنا إليها مضطرب النظرة ثمّ تساءل:

ـ أين رئيفة هانم؟

أيقنت بكذبه، لم تشكّ في أنّه رأى الهانم في الدوكار وهو ماضٍ بها إلى الميدان، ولكنّها أجابت بأدب:

ـ خرجت في مشوار.

فتردّد مليًّا ثمّ قال:

ـ أنتظر؟... كلّا، يجب أن أرجع الآن إلى الدكّان، أليس كذلك؟

فقالت بحسم ودون مبالاة بالمجاملة:

ـ مع السلامة يا سيّدي!

ولكنّه لم يكن ينوي الذهاب. تسمّر تحت وطأة قوّة طاغية. واقترب ببصر زائغ يشي برغبة جنونيّة جامحة. تراجعت مقطّبة. اقترب أكثر فقالت بحدّة:

ـ لا...

فتمتم في هلوسة:

ـ زهيرة!

فهتفت:

ـ سأذهب إن لم تذهب أنت!

ـ حلمك... إنّي... إنّي أحبّك...

فقالت بحزم:

ـ لست ساقطة!

ـ معاذ الله... إنّي أحبّك...

واضطرّ إلى التراجع خوفًا من شبح رئيفة فقال وهو يمضي:

ـ كيف أتزوّج من امرأة متزوّجة!

ـ ٢٤ ـ

عاشت في دوّامة من التمرّد والتحفّز. على الحياة أن تغيّر وجهها. القوّة كفيلة بأن تغيّر أبعاد الكون. كلّ دقيقة تمرّ بلا تغيير انتصار للذلّ والتعاسة. ولكن كيف تخوض المعركة؟ وانتهزت فرصة صداع ألمّ برئيفة هانم فتطوّعت قائلة:

ـ سأبيت معك يا ستّ هانم...

فتساءلت رئيفة:

ـ وزوجك؟

ـ لن يقتله الرعب إذا بات وحده!

وعندما مضت ساعتان على موعد رجوعها جاء عبد ربّه مستطلعًا فقابلته وقالت له:

ـ الهانم مريضة...

فسكت الرجل لا يدري ماذا يقول ثمّ تساءل بمرارة:

ـ أما كان يجب أن تخبريني؟

فقالت بعجلة وضيق:

ـ الهانم مريضة ألا تريد أن تفهم؟!

ـ ٢٥ ـ

لدى رجوعها إلى البدروم في مساء اليوم التالي أدرك عبد ربّه أنّ الهانم كانت متوعّكة توعّكًا خفيفًا لا يقتضي البيات خارج المسكن. واجتاحه الغضب فقال:

ـ الهانم ليست في حاجة إليك فالدار ملأى بالجواري...

فغضبت أيضًا إذ كانت تتمنّى الغضب بأيّ سبيل وتساءلت:

ـ أهٰذا جزاء الإحسان؟!

فقال بحزم:

ـ أخلاقك تسوء يومًا بعد يوم وقد قرّرتِ ألّا تعودي إلى الدار...

ـ يا للعار!

فصاح:

ـ ملعونة الدار وصاحبتها!

فصاحت بدورها:

ـ أنا لا أنكر الجميل...

فلطمها على وجهها وغادر البدروم.

جنّت زهيرة بالغضب. انفجر الحنق المكتوم. صكّت الحجرة بنظرة رفض نهائيّة. استغرقتها اللطمة فتضخّمت واستفحلت وانداحت في وجدانها حتّى قتلت حواسّها. وانهالت بقبضتها على الفراش دون مبالاة بصراخ جلال.

وغادرت البدروم قاذفة بالماضي في أحضان الفناء.

ـ ٢٦ ـ

عجبت رئيفة هانم لعودة زهيرة السريعة عقب ذهابها بساعة واحدة، ولٰكنّ الفتاة سألتها:

ـ هل تتّسع دارك يا ستّ هانم لإيوائي؟

ـ لِمَ كفى الله الشرّ؟

فقالت بمسكنة:

ـ لن تطيب الحياة بعد الآن مع الرجل...

وهزّت الهانم رأسها مستطلعة فقالت زهيرة:

ـ يريد أن يمنعني من خدمتك!

فقالت رئيفة بامتعاض:

ـ الناكر للجميل...

ـ وانهال عليّ ضربًا...

ـ يا له من وحش لا يدري أيّ كنز يحوز!...

وتفكّرت الهانم قليلًا ثمّ قالت:

ـ ولٰكنّي لا أحبّ تخريب البيوت...

فقالت زهيرة بإصرار:

ـ إنّي راضية عمّا أفعل...

فقالت رئيفة باسمة:

ـ الدار دارك يا زهيرة!

ـ ٢٧ ـ

تلعثم عبد ربّه الفرّان بالخجل تحت نظرات رئيفة هانم. غمغم مستغفرًا ولٰكنّه ركّز على هدفه بإصرار

ورجولة. قال:

- ماذا تعني لطمة؟... ليست بعاهة مستديمة!

فقالت الهانم باستياء:

- إنّك مخطئ وجهول...

فتمتم بأدب وتصميم:

- عليها أن ترجع معي الآن...

فقالت رئيفة بحدّة:

- عندما تعرف قيمتها لا قبل ذٰلك.

وانتزع قدميه من موقفه وقد احمرّت الدنيا في عينيه.

- ٢٨ -

جلس عبد ربّه في الخمّارة يعبّ من القرعة ويجفّف شاربه بكمّ جلبابه الأزرق. لا حديث له إلّا زهيرة. قال:

- هربت ومعها الولد.

فقال أحد السكارى:

- أنت خرع...

فهتف محتجًّا:

- رئيفة هانم تشجّعها!

فقال له الخمّار سنقر الشمّام:

- تصرّف كرجل.

- ماذا تعني؟

- طلّقها!

فتقلّص وجهه وقال:

- أحقر شعرة في جسدي تستطيع أن تقتل امرأة.

فقهقه نوح الغراب الفتوّة وصفعه على قفاه مداعبًا وهو يقول:

- يا عنترة!

فباخ غضبه وقال بخشوع:

- من معلّمي الأكبر تجيء المشورة...

فقال نوح الغراب وقد احمرّت عيناه بالخمر والسطل:

- دِسْها بقدمك حتّى تصير خرقة بالية...

أمّا جبريل الفقي شيخ الحارة فقال:

- في الطلاق راحة للبال.

فقال نوح الغراب:

- الطلاق في مثل هٰذه الحال عجز.

وراح عبد ربّه الفرّان يتساءل:

- من قال إنّ الزواج نصف الدين؟... ألا إنّه نصف الكفر!

- ٢٩ -

مضى عبد ربّه مترنّحًا في الظلام حتّى وقف تحت دار رئيفة هانم. جاش صدره بالخمار والغضب. تصارعت في قلبه المحتقن تقاليد الرجولة وهمسات الحبّ المستبدّة. وبصوت غليظ متحشرج صاح:

- انزلي يا بنت يا زهيرة...

وجعل يخور وهو يترنّح، ثمّ يعاود الصياح:

- معي نار الفرن وشياطين القبو...

وفتحت نافذة فأطلّ منها الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية وتساءل بغضب:

- من المجنون؟

- أنا عبد ربّه الفرّان.

- انجرّ يا سكران يا رجيم.

- أريد زوجتي والشرع معي!

- كفاك عربدة وتهجّمًا على دار الطيّبين!

- من ينصفني إذن إلّا إبليس؟

فصاح به:

- عليك اللعنة...

انقضّ على باب الدار وجعل يضربها بقبضته حتّى لحق به جبريل الفصّ شيخ الحارة فشدّه من ذراعه وهو يقول:

- اخرس يا مجنون، سر معي، سأكون شفيعك لدى الهانم!

- ٣٠ -

وجد جبريل الفصّ رئيفة هانم غاضبة ثائرة. أصبحت المعركة بينها وبين عبده الفرّان بعد أن كانت بين زهيرة وبينه. قالت بحدّة:

- الفرّان الحقير!

فقال شيخ الحارة:

- ما هو إلّا خادمك...

ـ ألم تشهد وقاحته؟... أأسلمها له لينتقم منها؟...

ـ أعتقد أنّه يحبّها يا ستّ هانم!

ـ الحيوان لا يعرف الحبّ...

فتساءل جبريل الفصّ:

ـ وإذا طلبها لبيت الطاعة؟

فقالت بإصرار:

ـ لن تضيق بي الحيل!

ـ ٣١ ـ

استدعى نوح الغراب عبد ربّه الفرّان إلى مجلسه بالمقهى. نظر إليه مليًّا ثمّ قال بنبرة آمرة:

ـ طلّق المرأة!

فذهل عبده الفرّان. اجتاحه اليأس. أدرك أنّ رئيفة هانم عرفت كيف تنتقم. واستثقل الفتوّة صمته فهتف:

ـ فقدت النطق؟

فقال بخشوع:

ـ ألم تقل يا سيّد الناس إنّ الطلاق في مثل حالتي عجز؟

فقال بسخرية:

ـ وإنّك لعاجز!

ـ الشرع معي يا سيّد الناس!

فقال الفتوّة بنبرة قاطعة:

ـ طلّق يا عبد ربّه.

ـ ٣٢ ـ

وقع الطلاق. سيق عبد ربّه إليه كما يساق المحكوم عليه إلى المشنقة. انتهى الحلم وضاعت الجوهرة. وثملت زهيرة بنشوة الانتصار وبهجة الحرّيّة. في الوقت نفسه وجدت نبضة أسى في الأعماق أسفًا على حرارة ستفقدها إلى الأبد. وضمّت جلال إلى صدرها فتبدّى لها ثمرة حبّ لا يستهان به. وسرعان ما طالبها طموحها بالتعويض الكامل. وتجلّت لها شخصيّتها في صورة واضحة قاسية مجلّلة بالسموّ والألم.

وقالت لها رئيفة هانم بمباهاة:

ـ هذه إرادتي إذا صمّمت!

أجل. إنّها امرأة قويّة رفيعة الشأن. غير أنّها لم تنفّذ مشيئتها إلّا باللجوء إلى الفتوّة. الفتونة حلم الخيال الأبديّ. حسرة آل الناجي المهلكة، ذروة الحياة المتلفّعة بأضواء النجوم.

ـ ٣٣ ـ

وابتسمت مشجّعة!

ها هو محمّد أنور تاجر البطارخ يقول لها:

ـ مباركة عليك الحرّيّة والكرامة.

وينتهز فرصة ذهاب رئيفة هانم لشأن من شئونها فيهمس:

ـ إنّي وقلبي في الانتظار.

وتشعّ عيناه ببريق الرغبة فيواصل ابتهاله:

ـ على سنّة الله ورسوله!

ترى بأيّ عين ينظر إليها؟ عين تاجر إلى خادمة؟ الحقّ أنّه لم يملأ عينيها قطّ. طالما رأته هشًّا وذليلًا. ولكنّه قادر على أن يجعل منها هانمًا من نوع ما. هل يمكن أن تطمع في خير منه؟

وابتسمت له مشجّعة.

ـ ٣٤ ـ

سكر عبد ربّه تمامًا حتّى مادت به أرض البوظة الثابتة. وسأل سنقر الشمّام:

ـ هل يعيب الرجل أن يبكي؟

فضحك الخمّار قائلًا:

ـ إذا كان في حجم البغل مثلك...

فحمل عبد ربّه القرعة بين يديه وجعل يميل بها يمنة ويسرة كأنّما يرقص وراح يقول:

ـ تلاشَ يا عبد ربّه، اندفن في الظلام، حتّى تراب الحارة أقوى منك، هل جرّبت قوّتك إلّا مع العجين وأنت تدفع به داخل الفرن؟ الله يرحمك يا عبد ربّه!

ـ ماذا جرى لعقلك؟

ـ طلّقْ، طلّقت، بكلمة انتهيت، حتّى القملة تقاوم، يا فرحة العدا فيك يا عبد ربّه...

فقال له سنقر محذّرًا:

ـ إطاعة الفتوّة شرف!

فانذعر عبد ربّه رغم سكره وتمتم:

ـ الحمد لله...

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ وقوّة أخرى تطحنني!

ـ ما هي؟

ـ حبّ الملعونة بنت الملعونة!

فضحك سنقر وقال:

ـ هٰذا ما يعيب الرجل حقًّا!

فغنّى عبد ربّه بصوت مثل النهيق:

عجايب والله عجايب

فقال له سنقر الشمّام:

ـ اشتغِلْ بالغناء فالمغنّون فيما يبدو خائبون مثلك في الحبّ...

ـ ٣٥ ـ

رجع عبد ربّه يحمل الأرغفة إلى دار رئيفة هانم بعد أن تشفّع له أكثر من رجل طيّب. وذات مرّة سألها بخشوع:

ـ لعلّك عنّي راضية؟

فقالت له ببرود:

ـ ما فات مات!

فتردّد قليلًا ثمّ قال بضراعة:

ـ دعيني أنفرد بها دقيقة.

فرمقته بحذر ثمّ قالت:

ـ كلّا.

ـ أكلّمها إذا أذنت في حضرتك.

وتفكّرت قليلًا ثمّ نادت زهيرة فجاءت في جلباب كحليّ كوردة نضرة. ترامقا مليًّا فلم ترمش أو تغضّ بصرها. بدت غريبة بعيدة باردة. صورة متناقضة تمامًا مع صراع ناشب في الأعماق. قال عبد ربّه:

ـ قلبي أبيض، لننسَ ما فات...

فلم تنبس بكلمة فقال:

ـ ندمتُ على ما كان منّي...

فواصلت الصمت حتّى قالت رئيفة هانم:

ـ تكلّمي يا زهيرة.

فقال عبد ربّه متشجّعًا:

ـ رغبتي أن أردّك والعشرة لا تهون...

فتمتمت زهيرة:

ـ لا...

ـ العشرة لا تهون ولا تُنسى، وكانت لنا أيّامنا الحلوة!

فغضّت بصرها لأوّل مرّة وقالت بحزم:

ـ لا أنت لي ولا أنا لك!

ـ ٣٦ ـ

تسلّل محمّد أنور إلى الدار في غيبة الهانم. قابل زهيرة بلهفة وهو يقول:

ـ ليس من حقّي الحضور، ولٰكنّي أجازف من أجلك بكلّ شيء، اتبعيني في الحال لنعقد زواجنا!

فتساءلت في كبرياء:

ـ من ضمن لك موافقتي؟

فقال بذلّ:

ـ إنّي أحبّك يا زهيرة.

ـ ولِمَ تدعوني إلى الهرب كأنّي لصّة؟

فتنهّد وهو يقول:

ـ لا فائدة، لا تريد الهانم أن توافق أبدًا!

فسألته بدهشة:

ـ فاتحتها في الموضوع؟

فحنى رأسه في غمّ وقال:

ـ عنيدة ومتكبّرة!

تلقّت طعنة في صميمها فقالت بزهو:

ـ إنّي من آل الناجي!

ـ عنيدة ومتكبّرة، أمرتني أن أنقطع عن زيارتها أنا الذي ولدت في هٰذه الدار...

واجتاحها الغضب فقالت له:

ـ سأتبعك في الحال.

ـ ٣٧ ـ

زُفّت زهيرة إلى المعلّم محمّد أنور تاجر البطارخ. غضبت رئيفة ورمتها بالخيانة والخبث. دهشت الحارة وجعلت من الزيجة حديثها فتردّد كثيرًا ذكر الحظّ

السعيد وليلة القدر وعجائب الحبّ. وحملت معها جلال فرحّب به الرجل، وعدّ نفسه أسعد خلق الله.

وجدت زهيرة نفسها ـ لأوّل مرّة ـ ستّ بيت. ها هي تملك شقّة متعدّدة الغرف، ثمينة الأثاث، فيها الحمّام والمطبخ، وبها خزّان يملؤه السقّاء كلّ يوم. وملكت أيضًا الفساتين والملاءات القريشة وعرائس البراقع الذهبيّة. وباتت في عنقها قلادة، في أذنيها قرط، في ساعديها أساور ذهبيّة، في ساقها خلخال من فضّة.

وحفلت سفرتها بالأطعمة اللذيذة، لا تكاد تقلّ نفاسة عن أطعمة دار عزيز أو دار رئيفة، وهي صاحبته كما هي طاهيته.

وما إن مضى الشهر الأوّل حتّى قرّرت أن تحطّم القضبان فهي تخرج لزيارة أمّها أو جارة أو زيارة الحسين. ورآها الناس في زيّها الجديد فهتفت أعماقهم سبحان الله الخلّاق العظيم.

ـ ٣٨ ـ

سعد محمّد أنور بزهيرة سعادة تفوق الخيال. لم يقتصد في إعلان حبّه وإعجابه وتعلّقه الجنونيّ بها، وتدليله غير المحدود لها. ومن بادئ الأمر لم يرتح لخروجها وعرضها فتنتها الباهرة على الأعين. وأفضى إليها بملاحظاته في رقّة بالغة ولكنّه كدّر صفوها، فسرعان ما تراجع وهو يبالغ في ملاطفتها. اكتشف أنّه يتحمّل أيّ مكروه إلّا أن يُغضبها أو يحرم من رضاها ومرحها. وأدرك أنّه ضعيف حيالها، مستهتر بالوصايا التقليديّة، ولكنّه استسلم لتيّار لا قِبَل لقلبه بمقاومته. عرف نفسه تمامًا، عرف أنّه أسير الحبّ ولعبته.

وثمّة شعور عميق وضح له مثل صورة حيوان خرافيّ، وهو أنّه لم يملك معبودته بعد، لعلّه لا يستطيع أن يملكها؟ لعلّها تستعصي على أن تُمتلك، إنّه شعور مهزوم ذو وجه أصفر، يتعلّل بالعلل، ويستنجد بالأوهام، ويغطّي مرارته بالعطايا وحلو الكلم. إنّه عبد الحبّ لا ندّه ولا سيّده، وزنه في يده لا في قلبه أو جسده، تستوي لديه حمرة الشروق وحمرة الشفق. إذن فليتوارَ وراء الرقّة والعذوبة ليحظى ببسمة الثغر الورديّ، ونظرة العين الساجية، ورشاقة الجيد وهو يتمايل في رضى.

ـ ٣٩ ـ

وزارت يومًا وليّة نعمتها عزيزة هانم فقبّلت يدها وقالت:

ـ دفعت بي ظروف إلى دار أخرى ولكنّ قلبي لم يتحوّل.

وصفا قلب عزيزة بالكلمة الطيّبة. لثمت خدّها وأجلستها إلى جانبها فعاملتها كندّ لها. امتلأت بنفحة سعادة وخيلاء. شربا القرفة وأكلت طبقًا على لوز بالمكسّرات. وسألتها عزيزة عن حالها وزوجها وجلال ابنها. وجاءت ألفت هانم فرحّبت بها. وقالت لها عزيزة:

ـ هذا ما يستحقّه جمالك والجمال سيّد الأكوان.

فقالت زهيرة:

ـ بل دعاؤك وعطفك يا سيّدة النساء.

ـ ٤٠ ـ

وعقّب محمّد أنور على الزيارة متسائلًا:

ـ ورئيفة هانم ألا تزورينها أيضًا؟

فقالت بغصّة:

ـ المتكبّرة!... عليها اللعنة.

ـ سيجنّ جنونها!

ـ فليجنّ جنونها.

فساوره القلق وتمتم:

ـ لا حدّ لشرّها!

فتساءلت وهي تسبل جفنها على نظرة ماكرة:

ـ ألست رجلًا؟

فتقلّص قلبه وصمت.

ـ ٤١ ـ

وذات أصيل شهدت الحارة منظرًا لا يُنسى.

كانت زهيرة سائرة تخطر في ملاءتها الفاخرة عندما وقف دوكار رئيفة هانم على كثب منها. وأطلّ رأس الهانم، وسُمع صوتها وهي تقول بنبرة عتاب لا تخلو

من مسحة من مودّة:

- زهيرة!

فالتفتت زهيرة مرتبكة فقالت الأخرى:

- يا خائنة!

لم تملك إلّا أن تقترب مادّة يدها على مرأى ومسمع من كثيرين بينهم جبريل الفصّ وخليل الدهشان وعبد ربّه الفرّان. وقالت رئيفة:

- متى تزورينني؟

فأجابت زهيرة وهي تزداد ارتباكًا:

- في أقرب فرصة يا هانم، ما منعني إلّا...

وغمغمت في حيرة فقالت رئيفة بنبرة عدوانيّة قاسية متحدّية مباغتة:

- يسعدني أن أرحّب بخادمتي المخلصة...

وسرعان ما اشتعل الغضب بقلب زهيرة فهتفت:

- إنّي هانم مثلك!

واندفعت في طريقها وقد أعماها الانفعال...

- ٤٢ -

وكان عبد ربّه الفرّان يسكر في البوظة ورياح أمشير تزمجر في الخارج. وإذا به يقول:

- حلمت أمس حلمًا عجيبًا...

ولّما لم يسأله أحد عمّا رأى واصل حديثه:

- رأيت الخماسين تهبّ في غير أوانها...

فقال الخمّار سنقر الشمّام ضاحكًا:

- حلم من صنع الشيطان...

- اقتلعت الأبواب، أمطرت التراب، طيّرت عربات اليد، أطاحت بالعمم واللاثات...

- وماذا صنعت بك أنت؟

- تركتني أرقص فوق جواد أصيل...

فقال له سنقر:

- أحكِم الغطاء فوق دبرك قبل النوم!

- ٤٣ -

شعر محمّد أنور بالخوف يزحف نحوه. أشباح الأخطار تتراقص في أركان دنياه الضيّقة. هل يحيق به مصير مثل الذي حاق بعبد ربّه الفرّان؟ وجعل يختلس النظرات من وجه زهيرة ويستجمع همّته. قال لها:

- إنّك حبلى يا زهيرة في الشهر الرابع فيحسن بك أن تستقرّي في بيتك...

فقالت باستهانة:

- لم أشعر بالعجز بعد!

فراح يداعب جلال بحنوّ ليخفّف من وقع كلامه وقال:

- لقد تحدّيت قوّة لا يستهان بها فمن الحكمة أن ننطوي على أنفسنا...

فقالت ببرود:

- كأنّك خائف!

فقال مداريًا استياءه:

- بل أرغب في توفير السعادة لبيتنا!

- إنّي أمارس حرّيّة مشروعة.

فقال بوضوح أكثر:

- الحقّ أنّي غير مرتاح لذلك.

فتفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

- الحقّ أنّي لا أطيق ما تدعونني إليه.

فقال بإشفاق:

- ولكنّي زوجك.

- أيعني هٰذا أن تدوسني بقدمك؟

- معاذ الله، ولكنّي ذو حقّ غير منكور.

فعبس وجهها حتّى اكفهرّ جماله وقالت بحدّة:

- لا...

فتردّد بين الصمت والعناد، ثمّ آنس منها ازدراء أثاره فقال بغضب:

- إنّي ذو حقّ...

فقالت باستهانة:

- لا توجع رأسي بحقّك...

فغلبه الغضب أكثر وقال بحدّة غير معهودة:

- لي حقّ الطاعة...

فحدجته بدهشة ضاعفت من غضبه فعاد يقول:

- حقّ الطاعة الكاملة!

فطفح وجهها بالرفض والصلابة وفسد الجوّ أيّما فساد.

- ٤٤ -

استمدّ محمّد أنور من يأسه شجاعة. وكان في صميمه مشفقًا من فقدها. لذلك ما كاد يراها - من دكّانه - خارجة إلى طريقها حتّى فقد رصانته فاعترض سبيلها وقال لها بحزم:

- ارجعي إلى البيت!

فذهلت وهمست له:

- لا تثر فضيحة...

فقال بعناد:

- ارجعي إلى البيت.

ولمحت الأعين تزحف نحوها مثل الأفاعي فاضطرّت إلى الرجوع وهي تغلي...

- ٤٥ -

في المساء، وعند ذهابه إلى بيته، وجد محمّد أنور عاصفة في انتظاره. كان يتوقّعها تمامًا. وكان أبغض شيء إلى قلبه أن يتمادى في الغضب، أن يفسد الجوّ، أن يطمس الجمال المعبود بالسخط. وأبدى استعداده لأيّ تنازلات تحت شرط الإذعان لرغبته المشروعة. قال لها:

- لا تتصوّري أنّي أسعد بإهانتك، ما أريد إلّا المحافظة على سعادتنا...

ولكنّها بدت مثل هبّة من غبار. اصفرّ الوجه وانقلبت السحنة وتطاير من العينين شرر. تجسّد الغيظ مقتًا أسود، وطفرت الكبرياء حيّة متوثّبة. وقال لنفسه أعوذ بالله من هٰذا الشرّ، أعوذ بالله من هٰذا القلب، ألا يشفع لي ما صنعت منك؟

- ٤٦ -

ووجدت زهيرة نفسها في سعير. إنّها تأبى أن تنهزم. ولا تنسى موقفها الأليم بين يديه في الحارة.. وهي لا تحبّه ولم تحبّه قطّ. ولكن كيف تتصرّف وأين تذهب؟ في مثل حالها تذهب الزوجة إلى أهلها وهي لا أهل لها. فإمّا سيّدة في ذلّة وإمّا هائمة على وجهها. تتربّص بها الشماتة في أكثر من دار وفي بدروم عبد ربّه أيضًا. وتذكّرت سيّدها الأوّل المعلّم عزيز سماحة الناجي، وجيه الحارة، وصديق زوجها. سيعلم الزوج أنّها ليست مقطوعة من شجرة على الأقلّ.

وتسلّلت إلى محلّ الغلال ورذاذ يتساقط فبلّ ملاءتها ووجنتيها. اقتحمت عليه حجرة الإدارة. وجدته وحده، مجلّلًا بوقاره الجميل وقد وخطه المشيب - متعجّلًا بعض الشيء - شاربه. عرفها من أوّل نظرة. عرفها رغم البرقع. لم يكن في حاجة إلى تذكّر هاتين العينين الساحرتين المطلّتين حول العروس الذهبيّة. خيّل إليه أنّه القدر يقتحم حصنه.

تهادت إلى أذنيه نبرتها الناعمة وهي تقول:

- لم أجد سواك ملجأ لحيرتي.

فتساءل وهو يضبط عواطفه المتضاربة:

- ما الحيرة كفى الله الشرّ؟

- زوجي!

- إنّه رجل طيّب فيما أعلم.

- ولكنّ معاملته ساءت جدًّا في الأيّام الأخيرة...

- بلا سبب؟

- يرغب في إذلالي.

وقصّت عليه موقفه في الحارة فتفكّر عزيز قليلًا ثمّ قال:

- التصرّف بعيد عن الحكمة ولكنّ حقّه المشروع لا جدال فيه.

فقالت بحرارة:

- لا يُفرض السجن على امرأة في حارتنا...

فتبسّم المعلّم عزيز وقال لها:

- سأتحدّث عنك باعتبارك من آل الناجي ولكن عليك أن ترضي بالمعقول...

- ٤٧ -

شفاعة المعلّم عزيز لم تحقّق لها إلّا ما هو دون القليل. لم يعد أمامها إلّا الإذعان ولو إلى حين. إنّها تذعن وتضمر السوء معًا. غير أنّ لقاء المعلّم عزيز أسفر عن أشياء لم تجرِ لها في خاطر من قبل. أشياء مثيرة جنونيّة رائعة الجمال. أشياء قذفت بها إلى دنيا مغمورة بالأحلام. قالت لنفسها إنّ المعلّم عزيز معجب بها. بل أكثر من ذٰلك. لقد أدلت عيناه

باعترافات فاتنة فمتى بدأ ذٰلك؟ حقًّا ما من رجل رآها إلّا وفتن ولٰكن هل المعلّم عزيز مثل سائر الرجال؟ ثمّ إنّه متزوّج وهي متزوّجة. وهو كهل أيضًا ومثال للنبل وحسن السمعة. مثله لا يمدّ الطرفة إلى امرأة متزوّجة. متزوّجة من صديق. وما أزهدها هي في علاقة غير مشروعة! ما فائدتها؟ إنّها تطمح إلى اكتساب حقّ. في سبيل ذٰلك وطئت قلبها بلا رحمة. في سبيل ذٰلك تحسّ أحيانًا بجيشان الجنون السامي في قدح من الخمر المقدّسة. وتراءى لها عزيز سماحة الناجي في هالة حلم ورديّ لم تدرِ كيف يمكن أن يتجسّد لها في عالم الحقيقة. هل يمكن ذات يوم سحريّ أن تصبح ضرّة لألفت هانم، وشبه ابنة شرعيّة لعزيزة هانم؟ هل يمكن أن تتسلطن يومًا في دار فاخرة وتستقلّ بالدوكار ذي الجرس الرنّان؟

وتضاءل محمّد أنور حتّى انقلب ذرّة من سخام متطايرة فوق أديم طريق طويل ليس له نهاية.

- ٤٨ -

وعندما وفدت الفلّاحات يبشّرن بالفيضان ويبعن البلح كانت زهيرة تعاني ولادة عسيرة أنجبت في أعقابها راضي الابن الثاني لها.

وسعد به محمّد أنور سعادة خفّفت عنه ويلات الهموم والقلق، وأمل أن يكون فاتحة عهد جديد من زيجة حكيمة موفّقة.

وكانت أمّ هشام الداية تعودها يومًا بعد يوم حتّى اجتازت العناء بالسلامة. وفي آخر زيارة همست في أذنها:

- عندي لك رسالة...

فرمقتها زهيرة بنظرة متسائلة فقالت العجوز:

- رسالة من السماء!

فجرى خاطرها إلى عزيز وتساءلت:

- ماذا عندك يا أمّ هشام؟

فقالت ووجهها يكتسي بقناع الإثم الشاحب:

- رسالة من نوح الغراب فتوّة حارتنا...

دقّ قلبها بالمفاجأة. توقّعت شهابًا من الشرق فمرق شهاب من الغرب. تمالكت أعصابها وقالت:

- ألا ترين أنّي زوجة وأمّ؟!

فقالت العجوز:

- ما يمرّ يوم إلّا ونرى الشمس وهي تشرق ثمّ نراها وهي تغرب، وما على الرسول إلّا البلاغ.

- ٤٩ -

سرعان ما تقهقر محمّد أنور. تخلّى عن صلابته الطارئة الزائفة فآوى إلى ضعفه الفطريّ. لشدّ ما آمن بأنّ زهيرة جوهرة، بلا قلب، وأنّها تفلت من قبضته مثل الهواء. غير أنّه لم يتصوّر الحياة بدونها. هي روح الحياة وعادتها المسيطرة. وهي شديدة الخطورة لا يؤمَن لها جانب، وهل ينسى ما حاق بعبد ربّه الفرّان؟ لا ثقة له فيها، وكلّما تزعزعت ثقته نزع أكثر إلى الالتصاق بها والاستحواذ عليها بأيّ ثمن. وفشله في ذٰلك يعني فشله في الحياة كلّها. في الدنيا والآخرة معًا. وسوف يظلّ الخصام بينها وبين رئيفة مصدر إزعاج له على طول المدى. إنّه يعي تمامًا أنّه أتعس الناس، وأنّ عليه ألّا يضنّ بتضحية.

ها هو مجلس المساء يضمّهما معًا. هي تُرضع راضي فوق ديوان، هو يدخّن البوري، جلال يلاعب قطّة. الحقّ أنّه لم يعد يطيق جلال. طالما عطف عليه وأحبّه في الماضي، ولٰكن ما إن جاء راضي حتّى مقته وتمنّى زواله من الوجود، غير أنّ معاملته له لم تتغيّر، ظلّ يغمره بأبوّة باسمة كاذبة، يضيف بها إلى أشجانه عناء جديدًا.

وقال لزهيرة وهو يعتقد أنّه يفعل المستحيل لاسترضائها وامتلاكها:

- عندي لك مفاجأة سارّة.

فنظرت نحوه بفتور فقال:

- هديّة السلامة!

فابتسمت فواصل:

- عقد شراء صوريّ تصبحين به مالكة لبيتي!

تورّد وجهها وقالت بحبور:

- يا لك من رجل كريم.

إنّه بيت من ثلاثة طوابق وأسفله دكّان الفول. وسعد الرجل بفرحتها فاستردّ بعض طمأنينته.

وأسعدها حقًّا أن تصبح مالكة. ومن أعماقها شكرته. وشكرته أيضًا لاعترافه الضمنيّ بقوّتها وندمه على تحدّيها. ولم يخلُ وجدانها من ازدراء له. ولم يوقف ذٰلك انشغالها الدائم بعزيز ونوح الغراب. عزيز الغنيّ ونوح القويّ. وعزيز ذو قوّة أيضًا كما أنّ نوح ذو ثروة تتزايد مع الأيّام. عزيز له زوجة ونوح له أربعة وقطيع من العيال. لا غنى عن القوّة، ولا غنى عن المال. المال يخلق القوّة والقوّة تخلق المال. ترى كيف تسير الأمور؟ إنّها تؤمن بأنّها لم تكد تبدأ بعد. وهي تفكّر في ذٰلك كلّه وهي قريبة من أنفاس محمّد المتردّدة.

- ٥٠ -

قرّر محمّد أنور أن يحصّن سعادته بنوح الغراب. زاره في داره وجلس بين يديه في بهو الضيوف كما يجلس الغلام بين يدي شيخ الكتّاب. ودون أن ينبس قدّم له صرّة موحية، تناولها الفتوّة، مضى يعدّ ما فيها، ثمّ قال:

- لقد أدّيت الإتاوة فلِمَ هٰذا القدر الجسيم؟

فقال محمّد أنور:

- أريد أن أستظلّ بحمايتك.

- لك أعداء؟

- وقاية من القدر!

فأعاد إليه الصرّة بلا اكتراث وابتسم. خفق قلب محمّد بانزعاج غير متوقّع فاتّسعت عيناه في ارتياب وجزع. وتمتم نوح الغراب:

- سبق القدر!

يا للويل!... هل لعبت رئيفة لعبتها؟ هٰكذا تصوّر لأنّه لم يخطر له ببال أنّ نوح الغراب يعمل لحسابه الشخصيّ. وقال نوح الغراب:

- كنت على وشك أن أرسل في طلبك...

فقال محمّد أنور بريق جافّ:

- ما الخبر يا معلّم؟

فقال بهدوء مقيت:

- لأنصحك بتطليق زوجتك!

غاص قلبه في صدره وشعر بالموت. تساءل مذهولًا:

- أطلّق؟... لا يوجد في حياتي ما يتطلّب ذٰلك!

فقال له بنبرة قاطعة:

- طلّق زوجتك!

- ٥١ -

غادر محمّد أنور دار نوح الغراب وهو فاقد لحواسّه الخمس. هل جاء دوره ليعامَل كما عومل عبد ربّه الفرّان؟ هل كابد تاجر محترم معاملة مثل هٰذه من قبل؟ هل تهون عليه حياته وسعادته وكرامته كأنّها لا شيء؟!

واجتاحه غضب يائس عصف بتردّده ونثره في الهواء.

جنّ محمّد أنور تمامًا.

أقدمَ على ما لم يُقدم عليه أحد من قبل في الحارة.

- ٥٢ -

ذهب جبريل الفصّ شيخ الحارة إلى الفتوّة نوح الغراب في مجلسه بالقهوة فحيّاه وقال:

- حضرة فؤاد عبد التوّاب مأمور القسم يطلب مقابلتك.

عجب الفتوّة وتساءل مقطّبًا:

- لماذا؟

- لا علم لي يا معلّم وما على الرسول إلّا البلاغ.

فتساءل بتحدٍّ:

- وإذا رفضت؟

فقال شيخ الحارة بملاينة:

- لعلّه يريدك لتقديم خدمة للأمن العامّ يا معلّم ولا موجب للتحدّي بلا ضرورة!

فهزّ الفتوّة منكبيه استهانة وصمت.

- ٥٣ -

استقبل المأمور فؤاد عبد التوّاب الفتوّة نوح الغراب بترحيب. جلس الفتوّة أمام مكتب المأمور متحلّيًا بابتسامة لطيفة وروائح الجلد تفغم أنفه. قال:

- يسعدني وربّ الحسين أن أقابل المأمور.

ابتسم المأمور. كان بدينًا متوسّط القامة كثّ

الشارب حسن الملامح. قال:

- يسرّني أن أقابلك يا معلّم، الفتوّة في الواقع من رجال الأمن!

- نشكر يا حضرة المأمور.

- والفتوّة هو فارس الحارة وحاميها أيضًا، هو المروءة والشهامة، يد الشرطة وعينها في مجاله، هٰكذا تقدّركم الداخليّة. . .

فكرّر وقلقه يتكاثف:

- نشكر يا حضرة المأمور.

فقال بحزم يتناقض مع مجاملاته:

- لذلك أتوقّع أن يجد المعلّم محمّد أنور الأمن في كنفك.

فاحمرّ وجه الرجل وتساءل:

- هل شكاني إليك؟

- لي وسائلي في معرفة الأخبار، وهبه لجأ إليّ فهٰذا من حقّه، ومن واجبي أن أوفّر له الأمن، ولكنّي أقنع بمطالبتك بذلك!

وفصل بينهما صمت. أدرك أنّ المأمور يحذّره وينذره بأسلوب لطيف. ولمّا طال الصمت سأله المأمور:

- ما قولك؟

فقال نوح الغراب بهدوء مريب:

- نحن أوّل من يحترم القانون.

فقال المأمور بحزم:

- أعتبرك مسئولًا عنه!

- ٥٤ -

. لم يحدث شيء كهٰذا من قبل في الحارة. لم يكن يدخلها شرطيّ إلّا عند الضرورة القصوى، وكافّة جرائم الفتوّة تُنسب عادة إلى مجهول حيال تصميم شهود الزور. فهل يفعل المأمور فؤاد عبد التوّاب ما لم يفعله غيره إذا عثر على جثّة محمّد أنور تحت القبو أو في الممرّ؟ وكيف واتت الجرأة محمّد أنور على الاستغاثة بالمأمور، وكيف قبل المأمور أن يتحدّى نوح الغراب بأسلوبه اللزج؟ وبدا لأوّل مرّة أنّ مأمورًا يضع نفسه في كفّة ميزان واحد مع فتوّة مخاطرًا بهيبته المزركشة!

ولكنّ ثمّة جانبًا مجهولًا خفي على الناس هو شخصيّة فؤاد عبد التوّاب. كان رجلًا شجاعًا وعنيدًا. وقد عُرف في ريف الصعيد قبل نقله إلى القاهرة بالسفّاح! ولولا تقاليد الداخليّة نفسها في سياستها المرسومة مع الفتوّات لأقدم بدافع ذاته الجريئة على تصفية الفتونة من الحارات كلّها.

لذلك ما كاد يبلغه أنّ محمّد أنور لم يستشعر الأمان المنشود حتّى قام بمظاهرة حاسمة ألجمت الألسنة وهزّت جذور القلوب. ما تدري الحارة ذات يوم إلّا والمأمور يغزوها على رأس قوّة مسلّحة! ترامت نداءات عسكريّة جاذبة للأسماع والأنظار، ثمّ تراءى جبريل الفصّ وهو يتقدّم بين ثلّة من المخبرين، يتبعه ضابط القسم، فالمأمور في حلّته الرسميّة، وأخيرًا طابور ضخم من الجنود المدجّجين بالسلاح. سار الموكب في تؤدة وحزم حتّى اخترق القبو إلى الساحة، وهناك قام بتكوينات عسكريّة مدمدمة ثمّ رجع على مهل وقد اصطفّ الناس على الجانبين كأنّهم في يوم المحمل. لم يأبه المأمور بالنظر نحو الناس ولكنّ عينيه كانتا تتسلّلان أحيانًا إلى النوافذ المكتظّة بوجوه النساء. وعلى مبعدة يسيرة من السبيل اقترب شيخ الحارة من المأمور ولفت نظره إلى زهيرة في نافذتها باعتبارها محور المعركة الدائرة. ولبث نوح الغراب في مجلسه بالمقهى، أمّا محمّد أنور فقد انقبض صدره في دكّانه وتوقّع مزيدًا من الشرّ لا الأمان، على حين راح محمّد عبد ربّه الفرّان يتابع الموكب بذهول ويقول لمن حوله:

- سنشهد قريبًا قيام القيامة!

- ٥٥ -

وأكثر من مرّة لاحظت زهيرة أنّ المأمور فؤاد عبد التوّاب «يصادفها» في السكّة الجديدة وهي راجعة من زيارة الحسين. وأكثر من مرّة لاحظت أنّه يثقبها بنظرة حادّة جامحة جائعة. وغمغمت لنفسها «حتّى المأمور!». وبدا الميدان ساخرًا وحافلًا بالفتن. مثل جراب الحاوي المليء بالفئران والقطط والثعابين. وهزّها طرب الخيلاء. وتهيّأ لها أنّها تمتطي نسرًا خرافيًّا ترفّ جناحاه بالقوّة والإلهام والخلق. عزيز. . . نوح الغراب. . . فؤاد عبد التوّاب، السحر والحبّ وقمّة المجد المكلّلة

بالنجوم. وتتابع نبض قلبها، وعند كلّ نبضة تتشكّل صورة برّاقة تخرق كلّ مألوف...

- ٥٦ -

واستدعى المأمور محمّد أنور إلى مقابلة في سرّيّة مطلقة. أجلسه أمامه وقال:

- لقد رفعت راية القانون بقوّة لم تعرفها حارة من قبل فهل آتاك الأمان؟

فهزّ محمّد أنور رأسه في حيرة وقال:

- لا أدري...

فقال فؤاد عبد التوّاب بتسليم:

- صدقت، أنا مثلك، الحقّ أنّي أخاف عليك...

فقال محمّد أنور بقلق:

- لا تساوي الحياة مليّمًا في حارتنا!

- صدقت قد يقتلك أيّ وغد حقير، ماذا يفيدك بعد ذلك لو سحقنا الفتونة واقتلعنا جذورها؟

- أجل ماذا يفيدني!

فتساءل المأمور:

- هل تسمع نصيحة وإن بدت غريبة؟

- ما هي؟

- طلّق زوجتك!

ذهل محمّد أنور وتمتم:

- أنت تنصحني بذلك؟

- إنّه أشقّ على كرامتي ممّا هو على كرامتك ولكنّي أخاف على حياتك...

- أكاد أجنّ يا حضرة المأمور...

فقال المأمور بدهاء:

- ما هو إلّا إجراء مؤقّت حتّى أسوّي الحساب مع الطاغية...

- إجراء مؤقّت؟

- ثمّ يعود كلّ شيء إلى أصله!

تفكّر محمّد أنور مليًّا ثمّ قال:

- سأفكّر في الأمر بكلّ جدّيّة.

- ٥٧ -

رجع محمّد أنور إلى بيته وهو يتخبّط في اليأس. ومن جوف اليأس دهمه إلهام مباغت فقال لزهيرة:

- اجمعي ما خفّ وغلا، سنهرب الليلة بعد أن تنام الحارة.

ذهلت زهيرة وتمتمت:

- نهرب!

- حتّى المأمور نصحني بأن أطلّقك!

- المأمور؟!

- اعترف بعجزه عن حمايتي فلم يبق إلّا الهرب...

فطنت إلى ما وراء نصيحة المأمور ولكنّها لم تدرِ كيف تتصرّف مع زوجها. تساءلت بارتياع:

- أين نذهب؟

- بلاد الله واسعة، معي مال لا بأس به، سننشئ عملًا جديدًا...

يا للشيطان! يريد أن يبدّد أحلامها بضربة واحدة كي تصبح طريدة ولكي ترتبط به إلى الأبد. كي تئد القوّة والوجود. كي تذوب في عتمة الشقاء مثل سماحة. ومن يدري فقد تضطرّ إلى العمل بيدها من جديد مثل المتسوّلات. ألا فليهرب الجبان وحده. فليختفِ من حياتها إلى الأبد.

- لا تضيّعي الوقت...

فقالت بفتور:

- بل فكّر في الأمر مرّتين.

- فكّرت مائة مرّة فلم يبق إلّا الهرب...

- كلّا...

- كلّا؟!

- إنّه مستحيل...

- إنّه ممكن، ستعرفين ذلك قبل طلوع الفجر.

فقالت بعناد:

- كلّا...

فرمقها بذهول فقالت:

- إنّه التشرّد والضياع...

فقال بارتياب:

- لديّ ما يكفينا...

- كلّا.

- ألا ترين أنّي ها هنا مهدّد بالقتل؟

- لقد أخطأت وأنت تعرف ذلك!

ـ ما من حيلة أخرى كانت بوسعي؟

ـ وما ذنبي أنا؟

فقال بنبرة جنونيّة:

ـ على الزوجة أن تتبع زوجها.

فتبدّت صلبة نافرة متحفّزة للتملّص والمقت ثمّ قالت:

ـ ليس في وسعك أن تحميني!

فضرب صدره بقبضته وهتف:

ـ أيّتها الأفعى!

وبحركة غريزيّة تراجعت إلى النافذة فهتف:

ـ تريدين أن تلعبي لعبتك القديمة!

وقرأت الموت في صفرة نظرته اليائسة وتكوُّر قبضته وتصلُّب عوده فصرخت بأعلى صوتها مستغيثة من النافذة على حين وثب نحوها كالنمر.

ـ ٥٨ ـ

كُسر الباب. تدفّق إلى الداخل نوح الغراب، المعلّم عزيز، وجبريل الفصّ شيخ الحارة. تراجع محمّد أنور. سقطت زهيرة مغمًى عليها. دوّى صوتا جلال وراضي.

شُغل الرجال بإعادتها إلى الوعي. أفاقت. اختفى محمّد أنور تمامًا. نظر نوح الغراب إلى جبريل الفصّ بنظرة ذات معنًى فقال شيخ الحارة بنبرة رسميّة:

ـ جريمة شروع في القتل وهرب!

فتمتم عزيز:

ـ يكفي أنّه هرب...

فتساءل نوح الغراب:

ـ والجريمة؟

وقال جبريل الفصّ:

ـ الجريمة واضحة مثل الشمس ونحن شهودها!

وقال عزيز مخاطبًا زهيرة:

ـ أدعوك إلى البيات عند أمّي هٰذه الليلة!

ـ ٥٩ ـ

اختفى محمّد أنور دون أن يطلّقها. سرعان ما رجعت إلى شقّتها. ثملت بادئ الأمر بشعور الحرّيّة ثمّ آمنت بأنّها ما زالت مشدودة إلى زوجها برباط الزوجيّة. رغبت بشدّة في الانطلاق، واجتاحتها نفثات الأحلام الذهبيّة. صمّمت على ألّا تضيّع دقيقة من حياتها. وزارت المعلّم عزيز سماحة الناجي وقالت له:

ـ هرب وهو الآن يمارس انتقامه من بعيد...

أدرك عزيز ما تعنيه. وجد فيه عذوبة وسحرًا. ثمل بالغبطة والأمل. سألها:

ـ كيف تتيسّر لك الحياة؟

ـ إيراد البيت يوفّر لي عيشة الكفاف...

فقال برقّة:

ـ لست وحيدة فثقي من ذٰلك...

فحنت رأسها امتنانًا وقالت:

ـ الشكر لك، ولٰكنّي أريد أن أؤمّن حياة الطفلين.

فتساءل وقلبه يخفق:

ـ ماذا عندك من رأي؟

فقالت بجرأة:

ـ أطالب بالطلاق باعتباره مجرمًا هاربًا.

هٰكذا انفتح أمامه باب المجهول عن مغامرة مزلزلة فقال:

ـ علينا أن نفكّر في ذٰلك...

ـ ٦٠ ـ

وشُغل المعلّم عزيز بمتابعة محاكمة محمّد أنور غيابيًّا وتوكيل محامٍ للمطالبة بالطلاق، وظلّ قلقًا معذّبًا بين رغبته وبين سمعته، بين قلبه وبين احترامه لألفت وصديقه محمّد أنور، على حين تتابعت الأحداث من وراء ستار معلنة عن أهوائها الحارّة الجنونيّة.

ـ ٦١ ـ

وجاء أوّل طارق في الليل. فتحت الشرّاعة فرأت شبحًا، وشمّت رائحة مثيرة للحنان والتقزّز. تساءلت بريبة:

ـ من في هٰذه الساعة من الليل؟

فجاءها الصوت القديم قائلًا:

ـ عبد ربّه الفرّان...

تحرّكت أعماقها بالرغبة والغضب معًا. هربت من

ضعفها متسائلة بحدّة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بنبرة مخمورة متوسّلة:

ـ لنرجع إلى حياتنا.

ـ مجنون وسكران...

ـ أنا زوجك الوحيد.

ـ اذهب وإلّا ناديت الناس.

وأغلقت الشرّاعة وهي تموج بالغضب والمقاومة...

ـ ٦٢ ـ

تسلّل إلى بابها في نفس الليلة جبريل الفصّ شيخ الحارة. دخل متلفّعًا بالحذر والخوف، وسرعان ما قال عقب جلوسه مباشرة:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكن لا مفرّ من إبلاغ الرسالة...

قالت وهي تخمّن ما وراءه كما تخمّن مخاوفه:

ـ هاتِ ما عندك.

ـ حضرة المأمور يطلب يدك!

صدق التخمين. إنّه يخشى في الوقت نفسه أن يفطن نوح الغراب إلى دوره. ولكن ما المأمور؟ ماذا يستطيع أن يعطيها إلّا اسمًا ومظهرًا فارغين؟ ربّما كان عزيز أفضل الثلاثة ولكنّ نوح الغراب القوّة لا يمكن تجاهلها. وهو أيضًا القوّة الحقيقيّة والسيطرة غير المحدودة.

ـ ما قولك يا ستّ زهيرة؟...

ـ هل يسكت نوح الغراب؟

ـ المأمور متكفّل بأمره!

فقالت بمكر:

ـ لي طفلان، دخلي محدود، والمأمور متزوّج وأب...

ـ هو أدرى بطاقته...

فتردّدت قليلًا ثمّ قالت:

ـ وأنا أدري بما أريد!

فتساءل جبريل الفصّ:

ـ تفضّلين أن تكوني خليلة للغراب على أن تكوني حليلة لحضرة المأمور؟

فهتفت بحدّة:

ـ إنّي أشرف هانم في الحارة!

ـ ٦٣ ـ

قبل أن يذهب جبريل الفصّ جاءت أمّ هشام الداية فأخفتها في حجرة أخرى. ولّما خلت إليها قالت العجوز:

ـ لا شيء يقف في سبيلنا الآن...

فقالت زهيرة:

ـ نوح الغراب على العين والراس ولكنّه متزوّج من أربع!

ـ تحلّين محلّ إحداهنّ!

فقالت بكبرياء حادّ:

ـ زهيرة لا تكون ضرّة لامرأة!

فتساءلت العجوز بدهشة:

ـ يطلّق الأربع؟

فقالت بإصرار:

ـ هو حرّ فيما يفعل وما يشاء...

ـ ٦٤ ـ

وطلّق نوح الغراب زوجاته الأربع.

زُلزلت الحارة بالخبر، كما زُلزلت به أسرات أربع، وتردّد اسم زهيرة على الألسنة كأنشودة للجبروت والقسوة. تلقّى المأمور الخبر فعضّ على شفته، وعلم به عزيز فذهل ولكنّه انطوى على أساه في صمت.

ومن المصادفات أن جاء خبر موت رمّانة في سجنه في يوم الزفاف، وفي اليوم نفسه انتحرت رئيفة هانم حزنًا على رمّانة مشعلة النار في نفسها!

وسارت زفّة نوح الغراب في موكب ضخم، وفي أمان من عهود الصداقة بينه وبين فتوّات الحارات المجاورة. غير أنّه حدثت مفاجأة في الدراسة لم يتوقّعها أحد إذ تحرّش فتوّة العطوف بالزفّة خارقًا العهد والذمّة.

كيف حدث ذلك ولماذا حدث؟

على أيّ حال نشبت المعركة دامية. وسرعان ما ظهرت قوّات من الشرطة كأنّما كانت متربّصة للحظة مناسبة.

عملت القوّات على فضّ المعركة بلا هوادة.
وإذا برصاصة تصيب العريس فترديه قتيلًا...

- ٦٥ -

اشتعلت الحارة بالخبر. شيّعت فتوّتها في جنازة مهيبة. وفزعت زهيرة للخبر أيضًا. فزعت أكثر ممّا حزنت. اغتمّت لاقتران زفافها بالفجيعة. أسفت لأنّها لم تستمتع بالفتونة إلّا ساعات. تقوّل الحاسدون - وما أكثرهم - بأنّ زيجتها الجديدة صادفت مصيبتين وجرّت ستّ مصائب. صادفت موت رمّانة وانتحار رئيفة. وجرّت القضاء على محمّد أنور وتطليق أربع نساء ومصرع نوح الغراب. فأيّ شؤم يسير بين يدي هٰذه المرأة الجميلة التي لا يقف طموحها عند حدّ! اكتأبت لذٰلك ولٰكنّها صرفته عن بالها بإرادة من حديد. وحسبت الثروة التي ستؤول إليها ببهجة عميقة استقرّت تحت قشرة الحداد. سرعان ما أفاقت من الصدمة فغمرها الارتياح. ها هي تتمتّع ببعض جاه الفتونة دون أن تؤدّي ثمنها لرجل لم تشعر نحوه بأيّ عاطفة طيّبة قطّ. الأجدر أن تعترف بأنّه قُتل في اللحظة المناسبة قبل أن ينتهك حرمة جسدها الجميل. وأنّه لقي الجزاء الذي يستحقّه كلّ طاغية قذر. وأيّ امتهان كان يلحق بالناجي العظيم إذا استسلمت حفيدته الرائعة لمجرم فاسد في لباس فتوّة. وقالت إنّه لا ملامة عليها إلّا إذا ليمت ريح أبيّة لاقتلاع شجرة خاوية نخرها السوس.

- ٦٦ -

وجرى همس متوتّر بأنّ المأمور فؤاد عبد التوّاب يكمن وراء التدبير المحكم الذي انتهى بهلاك نوح الغراب. وأنّه أزاحه من طريقه لا دفاعًا عن الأمن ولكن طمعًا في الاستحواذ على زوجته الفاتنة زهيرة.

وضاعف من سوء الظنّ به تدخّله العجيب لمنع اختيار فتوّة جديد للحارة، فمضت الحياة في الحارة بلا فتوّة يضبطها لأوّل مرّة في حياتها الطويلة العريقة، وشعر الناس بمذلّة لم يشعروا بمثلها من قبل.

وتساءل المتسائلون متى يحسر المأمور القناع ويتقدّم للزواج من زهيرة؟!

- ٦٧ -

واستأذن شيخ الحارة في مقابلتها. أدركت في الحال ما وراء المقابلة. بدت فاترة حيال المأمور. إنّها اليوم أغنى من المأمور وقسمه جميعًا. عزيز سماحة الناجي لؤلؤة ثمينة صالحة لتتويج أحلامها. عيبه أنّه سيّد محترم نبيل ورث عن جدّه نبله دون قوّته وجرأته. لقد عشق الجدّ ذات يوم امرأة يتنافس فيها ابناه فأدّب الابنين وتزوّج المرأة! أمّا عزيز فعاشق يكتم الحبّ، ينطوي عليه، يتجنّب الخطأ، ويتوغّل في العمر. ربّما كان بوسعها أن تسحره وتملكه ولٰكن ما جدوى ذٰلك وثمّة رجل عنيد مجرم - المأمور - لا يتورّع عن أن يدبّر لعزيز مثلما دبّر لنوح الغراب؟!

آه يا نسمة الأمل المضيء الهائمة فوق السحاب!

- ٦٨ -

وقالت لجبريل الفصّ:

- ليكن معلومًا أنّي لا أرضى بضرّة!

فقال شيخ الحارة:

- معروف أنّ زوجة المأمور تكبره مثل أمّ وهي غنيّة، لهل تسدّين الفراغ؟

- ماذا يوجب عليّ ذٰلك؟

فقال شيخ الحارة محذّرًا:

- إنّه مصيبة من مصائب الزمن.

غضبت. كتمت غضبها تمامًا. نشط خيالها وتصلّبت إرادتها. تظاهرت بالاستسلام وهي تقول:

- لينتظر العدّة وعند الله التوفيق...

فتهلّل وجه شيخ الحارة وتمتم:

- الحمد لله ربّ العالمين!

- ٦٩ -

لم تفرّط في دقيقة بلا عمل. اقتحمت حجرة المعلّم عزيز مثل نسمة ثملة بالندى والعطر. أنيقة حزينة المظهر ذات نظرة فاتنة مبتهلة. لمحت تورّد وجهه واختلاج عينيه وجيشانه بالانفعال فقالت بنعومة

مستغيثة مؤثّرة:

ـ ما حيلتي وليس لي في الضيق سواك؟

ها هو يعترف بالحبّ كلّ شيء فيه إلّا لسانه. قال:

ـ أهلًا بك يا زهيرة هانم!

فانتشت بالأدب وتساءلت:

ـ ماذا أفعل؟... هل أستسلم للمأمور السفّاح؟

فتساءل عزيز مستنكرًا:

ـ طلب يدك؟

ـ بلا حياء.

قطّب الرجل فقالت:

ـ أيّ خاتمة لامرأة سيّئة الحظّ لم تحظ مرّة واحدة بحرّيّة اختيار شريك حياتها...

فقال بتأثّر واضح:

ـ لا ترضي بما تكرهين...

ـ أعترف لك بأنّي أخشاه!

فقال بحدّة:

ـ كلّا.

ـ إنّه مجرم كما يعلم الجميع، هو الذي قتل نوح الغراب...

ـ مجرم قتل مجرمًا!

فقالت بهدوء:

ـ أجل، لو استجوبت الداخليّة رجال العطوف لوقفت على الحقيقة...

ونظرت إليه مليًّا ثمّ قالت:

ـ القضيّة تتطلّب رجلًا محترمًا يمكن أن تُسمع كلمته في الداخليّة!

وانجابت سحابة الصيف عن وجه الشمس المنير...

ـ ٧٠ ـ

صدر أمر مفاجئ بنقل المأمور فؤاد عبد التوّاب إلى الصعيد. خلت السماء من نذر العواصف المهلكة. وتربّع صيف مزدهر بالبطّيخ والشمّام والعنب. سرعان ما وثب إلى الفتونة سمكة العلّاج. أمّا زهيرة فقد أسكرتها الخيلاء، فآمنت بأنّها الفتوّة الحقيقيّ وراء الأحداث. قالت أنا العقل، أنا الإرادة، أنا الجمال، أنا الفوز. رمقت جلال وراضي بحنان وهمست:

ـ ليكن مجدكما فوق كلّ مجد!

ـ ٧١ ـ

وبادرت إلى زيارة المعلّم عزيز الناجي لتشكره فقالت منشرحة الصدر:

ـ هٰكذا يكون الرجال وإلّا فلا...

فابتسم الرجل المفتون وتمتم:

ـ يسعدني أنّك سعيدة...

فقالت بدلال:

ـ نجوت من الوباء مثل جدّنا العظيم...

ثمّ بحزن:

ـ أمّا السعادة...

فرنا إليها مستطلعًا فقالت:

ـ ما هي السعادة حتّى يحقّ لنا أن ندعيها؟

ـ لعلّها تُعرف بالفطرة!

ـ متى يمكن أن تصف امرأة مثلي بأنّها سعيدة؟

فقال مخفيًا اضطرابه:

ـ لا ينقصك اليوم شيء.

فقامت في رشاقة. نظرت إليه طويلًا حتّى ذابت إرادته أو كادت. قالت وهي تمضي:

ـ ينقصني أهمّ شيء في حياة الإنسان!

ـ ٧٢ ـ

استسلم المعلّم عزيز لقدره. أقرّ لضعفه بالقوّة الخارقة. كأنّه السور العتيق. كأنّه بوّابة التكيّة. كما وقع لجدّه ذات ليلة في الخمّارة. وأغرب الجنون ما يصيب المرء في كهولته. استرق النظر طويلًا إلى أمّه عزيزة، وهو منفرد بها في جناحها. تمتم:

ـ أمّي...

قالت وهي تشعر بغرابة الجوّ:

ـ هاتِ ما عندك...

فقال بهدوء:

ـ تشاء إرادة الله أن أتزوّج مرّة أخرى...

ذهلت الهانم. رنت إليه طويلًا. تساءلت:

ـ حقًّا؟

ـ أجل.

ـ مَن؟

قال بعد تردّد:

ـ زهيرة!

هتفت عزيزة محتجّة:

ـ كلّا...

ـ هي الحقيقة...

فهتفت:

ـ الأفعى!

فقال بتوسّل:

ـ أمّي، لا تتسرّعي في الحكم...

ـ الأفعى!

ـ طالما أحببتها يا أمّي...

ـ وطالما أحبّتها ألفت، ولٰكنّها أفعى...

ـ إنّها امرأة سيّئة الحظّ...

فابتسمت عزيزة في حزن وتمتمت:

ـ رئيفة أخرى.

فقال بتوسّل:

ـ لا تأخذي بالظواهر...

ـ كيف سحرتك يا سيّد العقلاء؟

ـ أمّي، إنّي أدري ما أفعل تمامًا...

فتأوّهت الأمّ وتساءلت:

ـ وألفت الأصيلة؟

فقال بتصميم:

ـ ستظلّ سيّدة الدار وأمّ الأبناء...

ـ ترى ألا زلت تحترم أمّك؟

ـ كلّ الاحترام يا أمّي.

ـ إذن فاعدل عن رأيك!

فقال بأسى:

ـ لا أستطيع...

ـ سحرتك يا بنيّ...

ـ من حقّي عليك أن تسعدي لسعادتي...

ـ أنسيت ما حصل لعبد ربّه ومحمّد أنور ونوح الغراب؟

فقال باستياء:

ـ ظلموها جميعًا!

ـ كانت هي الظالمة، وإنّك تهب نفسك للشقاء...

فتمتم بهدوء:

ـ إنّما الأعمال بالنيّات...

فقالت عزيزة بحنق:

ـ هٰذه الوضيعة الخسيسة...

فقال محتجًّا:

ـ أصلنا واحد يا أمّاه.

ـ أصلكم الذي تفخرون به هو الخير لا الدم، ألم يكن رمّانة قاتل أبيك من أصلكم؟... ألم يكن وحيد من أصلكم؟

فقال بهدوء:

ـ ما قدّر كان...

ـ ٧٣ ـ

زُفّت زهيرة إلى عزيز قرّة الناجي. قاطعت عزيزة هانم الفرح، لم تعترف به، وعاشت في الدار مع ألفت والأبناء في كدر أبديّ. وابتاع عزيز دار نوح الغراب من ورثته فأهداها إلى زهيرة. جدّد أثاثها ورياشها وتحفها جاعلًا منها عشّ حبّه الخالد. وقد احترم حقوق ألفت هانم كاملة، لم يضنّ عليها وعلى أولادها بالرعاية المثاليّة والحبّ الوقور، غير أنّه لم يعرف الحبّ الحقيقيّ إلّا في مغيب كهولته.

ـ ٧٤ ـ

ونعمت زهيرة بشعور رهيف خياليّ مثل الإلهام المشرق. هو الفوز في جلاله والحلم في أبّهته وكماله. الدار والثروة والجاه وسيّد الوجهاء. لم تبتئس بغضب عزيزة ولا حزن ألفت، وإن كان ثمّة كبرياء فهي سيّدة الكبرياء وأحقّ الناس به بما وهبها الله من جمال وذكاء. آمنت بأنّها فتوّة في إهاب امرأة وأنّ الحياة المقدّسة لا تمتثل إلّا للأقوياء. ولأوّل مرّة تجد بين يديها زوجًا تحترمه وتعجب به ولا تفرّط فيه، أمّا الحبّ فطالما قهرته في سبيل ما هو أعظم وأجلّ، وطالما قالت لنفسها «لست امرأة ضعيفة مثل غيري من النساء».

واستمتعت بجاهها بكلّ سبيل فعند الأصيل تتوسّط

الدوكار مُجلسة جلال وراضي في المقعدين أمامها، ويمضي الدوكار على مهل مجلجلًا برنين جرسه الفضّيّ، وهي متسلطنة كملكة، تومض عيناها الساحرتان من وراء الياشمك. والناس يتطلّعون إليهما في إعجاب وحقد وذهول. تتذوّق جمال اللحظة في أناة واستيعاب، منتشية بإلهام سامٍ مجنّح يجعل من الدنيا ماسة في إصبعها تعكس صورتها المليحة الفاتنة.

وتزور الحسين، وتُسَرّ بتجمهر الشحّاذين حولها، وتهب العطايا والصدقات.

- ٧٥ -

وأنجبت لعزيز ذكرًا أسماه شمس الدين فازدادت الدنيا جمالًا وكرمًا. وعلى حين مضت هي تتألّق جمالًا وشبابًا مضى المعلّم عزيز ينحدر نحو شيخوخة مبكّرة. وعاملت أسرتها بكرم فاق كلّ تصوّر فعاشت أمّها وأخواتها حياة رغدة. وحيّرها سؤال لحوح، ماذا عليها أن تفعل كي تخلق لنفسها سيرة فذّة لم تحظَ بها امرأة من قبل؟!

- ٧٦ -

وذات مرّة غادرت جامع الحسين كالعادة وسط مظاهرة من الشحّاذين والمجاذيب. أجلست جلال وراضي على مقعديها وهمّت بالصعود عندما سمعت صوتًا قريبًا يهمس:

- زهيرة. . .

نظرت نحو الصوت فرأت محمّد أنور يطالعها بوجه الموت. انذعرت مندفعة نحو الدوكار ولكنّ الرجل رفع عصا غليظة وهوى بها بكلّ قوّته على رأسها النبيل الجميل فتهاوت على الأرض صارخة. وظلّ يضرب الرأس بوحشيّة حتّى هشّمه تمامًا غير مبالٍ ببكاء جلال وراضي.

لم يبقَ من وجه البهاء والجمال إلّا عظام محطّمة غارقة في بركة من الدم.

جلال صاحب الجلالة

الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

أصاب مصرع زهيرة المعلّم عزيز بطعنة وحشيّة لا دواء لها. تراءى في الجنازة والمأتم كشبح فقد النعمة والأمل، ونُبذ تمامًا من جسد الحياة. تضاعف ألمه بقدر ما تماسك أمام الناس. تبدّت له الدنيا عجوزًا ماكرة قاسية لا حدّ لمكرها ولا لقسوتها، فأضمر نحو كـافّة وعودها الرفض والمقت.

وزارته أمّه عزيزة هـانم فاستقبلها بفتور وعتـاب صامت ولكنّها بكت وضمّته إلى صدرهـا وهمست في أذنه:

ـ لا يجوز أن نتخاصم تحت ضربات القدر. . .

ولثمت جبينه ثمّ واصلت متنهّدة:

ـ كأنّني ما خُلقت إلّا للحزن والأسى. . .

وانزلقت فوق قلبه كلمات العزاء فلم تترك أثرًا. . .

- ٢ -

وعقب الوفاة بأشهر أصيب المعلّم عزيز بالفالج. لم يمهله المرض إلّا أسابيع ثمّ فاضت روحه. وحزنت عزيزة حزنًا مهلكًا. لم يجرِ لها في خاطر أنّها ستدفن وحيدها النبيل وأنّها ستبقى بعده يومًا واحدًا تتنفّس. عاودها الحزن كأشدّ ممّا كان على فقد قرّة وكأنّها مخلوق مهيب لا يتجلّى جلاله إلّا في رحاب الحـزن الكبير. عزيزة الجميلة النبيلة التي قطعت حياة معـاندة تبـذر الصبر وتحصد الألم.

واحترامًا لوصيّة عزيز ضمّت راضي إلى دارها مع شمس الدين، ورغم العناية البالغة بشمس الدين فإنّه مات في شهره الثامن. أمّا جلال فأخذه أبوه عبد ربّه الفرّان.

- ٣ -

اهتزّت الحارة لمصرع زهيرة. هزّها صراع الحظّ مع القـدر. التمست العبرة في ثنـايا الأحـداث وتقلّبها. تسـاءلت لِمَ يضحك الإنسـان، لِمَ يرقص بـالفوز، لِمَ يطمئنّ سادرًا فوق العرش. ولِمَ ينسى دوره الحقيقيّ في اللعبة ولِمَ ينسى نهايته المحتومة. ولم تخلُ الحنايـا من أسًى ولكن سرعـان ما غـرق الأسى في خضمّ الحقد والغضب. وانصبّت اللعنات وقيل هٰذا جزاء الظالمين. وعزيز النبيل لم يحترم أحد حزنه، واتُّهم بخطف زهيرة من عبد ربّه الفرّان، ولم يحزن أحد لموته الحزن الذي يستحقّه. وقال الحـرافيش إنّ أسرة الناجي أصبحت مسرح الحزن وأمثولة العِبَر جزاء خيانتها لعهد جدّها العظيم صاحب الكرامات والبركات. . .

وفي ذٰلك الوقت تنكّر الجوّ في بـرمودة، فتلبّـدت السماء بالغيوم على غير ميعاد، وانهلّ مطر غريب، ثمّ تسـاقط وابـل من الـبرد، فـذهـل النـاس وعجبـوا، ووجفت قلوبهم، ولٰكنّهم غمغموا حيارى «لعلّه خير يا ربّ العالمين!».

- ٤ -

لم يُكتب على طفل ما كُتب على جبين جلال بن

زهيرة بن عبد ربّه الفرّان من المعاناة والألم. منظر تهشيم رأس أمّه الجميلة انغرز في أعماقه. كابوس دائم يعذّب يقظته ويكدّر أحلامه. كيف تأتّى لهذه القسوة أن توجد، كيف أمكن أن يلقى جمال نبيل تلك النهاية البشعة؟ لماذا وقع ذلك، لماذا صمتت أمّه، لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتّى يُحرم من جمالها وحنانها وأبّهة الحياة النابعة منها؟ لِمَ لا ترجع الأيّام إلى الوراء كما تتقدّم إلى الأمام، لِمَ نخسر ما نحبّ ونعاني ما نكره، لماذا تذعن الأشياء لأوامر صارمة. لماذا يُنقل من الدار الفاخرة إلى مسكن عبد ربّه الفرّان، ومَن هو عبد ربّه الفرّان، ولِمَ يُطالَب بالاعتراف به أبًا له. إنّه ابن أمّه بلا شريك، هي أمّه ومبدعته ومهده وحبّه. إنّها روحه ودمه، صورتها مطبوعة على وجهه، صوتها يشدو في أذنه، وأمل استرجاعها ذات يوم لا يخبو في قلبه.

إنّ العظام المحطّمة الغارقة في بركة الدم لا تُنسى إلى الأبد.

- ٥ -

تغيّرت دنيا عبد ربّه الفرّان أيضًا. بفضل الثروة التي ورثها جلال انتقل من البدروم إلى شقّة محترمة. ابتاع الفرن من صاحبه باسم ابنه وراح يديره إدارة سيّئة لإدمانه الخمر. ارتدى الجلباب الأبيض والعباءة الملوّنة، توّج رأسه باللاثة المزركشة، واختفت قدماه الغليظتان لأوّل مرّة في مركوب أحمر. وقال لنفسه بتشنّج «تمتّع يا عبد ربّه بجاه زهيرة». ولم يجد من يحاسبه على العبث بمال جلال الصغير. ورغم الخمر والأسى تعلّق قلبه بجلال. رنا مبهورًا إلى جمال زهيرة المطبوع على محيّاه. إنّه يذكّره بأسعد أيّامه وأشقاها. ولا يألو جهدًا في استئناسه وطمأنته وكسب مودّته. ذلك الصغير الجميل النافر...

- ٦ -

واستيقظ جلال ذات ليلة قبيل الفجر وهو يبكي فأيقظ أباه المخمور. انزعج عبد ربّه ومسح على شعره الأسود الناعم متسائلًا:

- حلمت يا جلال؟

فسأله وهو يجهش:

- متى ترجع أمّي؟

وضاق به من ثقل رأسه فقال له:

- ستذهب إليها بعد عمر طويل فلا تتعجّل...

- ٧ -

وجاءت سيرة زهيرة ذات ليلة في البوظة فقال سمكة العلّاج الفتوّة:

- أوّل امرأة يُقتل بسببها فتوّة عظيم...

فتظاهر عبد ربّه بالرجولة وقال:

- نالت جزاءها...

فقال جبريل الفصّ شيخ الحارة:

- لا تدّعِ الشفاء من الحبّ.

فقال عبد ربّه متحدّيًا:

- أخاف أن يكفّر مصرعها عن شرّها فتُقسم لها الجنّة!

فقال سنقر الشمّام الخمّار ضاحكًا:

- إنّك تتمنّى لها النار لتضمن لنفسك لقاءها!

فتأوّه وقال متخلّيًا عن تظاهره:

- يا للأسف، هل بات الجمال الفتّان حقًّا طعامًا للدود!

ثمّ قال بصوت هادر:

- صدّقوني، أحببتني لدرجة العبادة، ولكنّها كانت مجنونة...

وراح يغنّي بصوت كالنهيق:

يا بو الطاقيّة الشبيكة قل لي مين شغلها لك
شبكت قلبي إلهي ينشغل بالك

- ٨ -

ودخل جلال الكتّاب. ولد مليح ذكيّ فائق الحيويّة قويّ المبنى. ويوم طولب أن يحفظ «كلّ نفس ذائقة الموت» سأل سيّدنا:

- لماذا نموت؟

فأجابه الشيخ:

- حكمة الله خالق كلّ شيء...

فتساءل جلال بعناد:

ـ ولٰكن لماذا؟

فغضب الشيخ. مدّه على الفلقة ثمّ ألهب ظهره بالجريدة. صرخ باكيًا. لم يسكن غضبه طيلة اليوم. ما كان يقع له شيء من ذٰلك لو أنّ أمّه ما زالت تتألّق بالحياة، والحياة تتألّق بها...

ـ ٩ ـ

وتعرّض جلال في الكتّاب والحارة لحملة صفراء قاسية. كلّ ولد يعيّره هاتفًا «ابن زهيرة». دائمًا ابن زهيرة. أهي سبّة يا أشقياء! ويرجمونه بشظايا من سيرتها المجهولة له. الغادرة، الخائنة، المزواجة، المتكبّرة، القاسية، الخادمة، الهانم المزيّفة.

ويهرع إلى أبيه فيسأله:

ـ لماذا يسبّون أمّي؟

فيلاطفه مواسيًا فيقول:

ـ كانت أجمل من الملائكة...

فينصحه أبوه قائلًا:

ـ أخرِسْهم بالصبر...

فيتوارى جماله خلف عبوسة ناقمة ويتساءل محتجًّا:

ـ الصبر؟!

فيرمقه أبوه بانزعاج.

ـ ١٠ ـ

وتتسلّل إليه سيرة أمّه كلمة من هنا وكلمة من هناك. إنّه يرفض أن يصدّق. وإذا أرغم على التصديق رفض أن يعتبر الأمر مخزيًا. ستظلّ أمّه ملاكًا مهما فعلت. وما العيب في أن يتطلّع الإنسان إلى هلال المئذنة؟ ولكن هل يجدي منطق مع أولاد شياطين؟!

هٰكذا اضطرّ جلال إلى أن يخوض معركة بعد معركة. الحقّ أنّه كان يتمنّى غير ذٰلك. طالما أحبّ الودّ والتمس حسن العلاقة والصداقة. الأولاد يستهينون بذلك ويرومون المشاكسة. وهو صلب عند التحدّي. عنيد حيال المستحيل. ادّرع بخشونة ليست من طبعه. ردّ على الكلمة بضربة. تكاثرت مشاجراته وتوكّدت انتصاراته. انقلب غلامًا مخيفًا وعُرف بالشيطنة. رفعته القوّة وأخرست خصومه فثمل بها وعبدها.

ـ ١١ ـ

وفي الكتّاب التقى من جديد بأخيه راضي. إنّه ابن القاتل ولٰكنّه ضحيّته أيضًا. وهو غلام رقيق مهذّب وضعيف. ومثله يُعيّر بابن زهيرة فيجهش في البكاء. وتصدّى للدفاع عنه حتّى أسكت خصومه. وتعلّق به الغلام وقال له:

ـ إنّك أخي وإنّي بك لفخور!

كان راضي دونه قوّة وجمالًا ولٰكنّه كان بالغ التهذيب. وقال له مرّة:

ـ أدعوك للغداء معي...

ـ ١٢ ـ

وذهب جلال إلى دار المرحوم عزيز الناجي. رأى عزيزة هانم العجوز النبيلة كما رأى ألفت هانم، قبّل يديهما، فرحّبتا به، ودهشتا لجماله وصحّته. ورأى أيضًا قمر صغرى بنات المعلّم عزيز. بنت جميلة خفيفة الروح تصغره بعامين. بهره جمالها. نظر إليها طويلًا في أثناء الغداء وبعده. ولمّا انفرد براضي قال له:

ـ ألا ترى أنّ قمر جميلة مثلما كانت أمّنا؟

فهزّ راضي رأسه بلا اكتراث فقال جلال:

ـ يا لك من سعيد بمشاركتها دارًا واحدة...

فقال راضي:

ـ لا يعجبني إلّا صوتها!

ـ ١٣ ـ

ناهز جلال المراهقة. أدرك أبعاد حياته خيرها وشرّها. آمن بعناد أنّ أمّه كانت أعظم امرأة عرفتها الحارة. وبأنّه سليل الناجي العظيم الذي لم يُعرف سرّ اختفائه حتّى اليوم. لم يكن فتوّة مثل سمكة العلّاج ولٰكنّه كان وليًّا وصديقًا للخضر. وحطّم جلال في الخيال رءوسًا مليئة بالعناد والشرّ، وصادق ملائكة ذوات أجنحة ذهبيّة، وطرق باب التكيّة ففُتح له على مصراعيه، وطارده قلق متلفّع بظلمة الليل، وظلّت قمر تومئ إليه من نافذة المشربيّة.

وتساءل بزهو:

ـ ما عيب أمّي؟... كانت تبحث عن رجل مثلي

فلم يسعدها به الحظّ في حياتها التعيسة القصيرة!

- ١٤ -

وأشركه عبد ربّه الفرّان في إدارة الفرن. وأثبت جدارة وذكاء وهمّة عالية. وأعجب به الأب أيّما إعجاب ومضى يتخلّى له عن مسئوليّاته، مسلّمًا بكلّيّته لقرعة البوظة. تدهور عبد ربّه وزاده توفّر النقود بين يديه تدهورًا. وبفخار وإعجاب مضى ينظر إلى ابنه جلال. يراه وهو يسيطر بقوّة شخصيّته على العمّال ويستحقّ احترام العملاء رغم سمعة أمّه السيّئة. ويراه وهو يصلب عوده وتشتدّ أطرافه ويتعملق هيكله وتتدفّق الحيويّة في بنيانه ويتألّق بالجمال الفريد وجهه.

ولم يبق لجلال من ثروته إلّا الفرن، ومن الماضي إلّا ذكريات أليمة، حتّى بسمات المجاملة فوق الشفاه لا تخدعه فهو على يقين من أنّ وراءها تتلاطم همسات السوء عن أمّه الجميلة، ولكنّ المستقبل يَعِدُ بخير كثير لمن كان في مثل قوّته وجماله، وصورة قمر بنت عزيز تَعِدُ أيضًا بأعذب الآمال...

- ١٥ -

كان يجلس في العصارى أمام الفرن يراهن على ديكه في مصارعات الديوك، تلك كانت هوايته المفضّلة. ويرنو أحيانًا بهيام إلى قمر وهي جالسة إلى جانب ألفت هانم في الدوكار ويتذكّر عهد صباه وتردّده على دار عزيزة هانم وملاعبته لراضي وقمر، تلك الأيّام السعيدة. ولكنّها انقطعت بسرعة عندما آنس من عزيزة وألفت فتورًا في استقباله. لماذا احتضنتا راضي ونفرتا منه على حين أنّهما معًا ابنا زهيرة؟ لا سبب إلّا احترام وصيّة المعلّم عزيز من ناحية، والشبه الملموس بين وجهه ووجه المرحومة أمّه، فهو يذكّر المرأتين بالراحلة المقيتة.

وتبقى بعد ذلك الهوّة الفاصلة بين فرّان سيّئ السمعة مثله وبين كريمة المعلّم عزيز ذات الأصل والأبّهة. ولكنّه يحبّها حبًّا ملك عليه حواسّه وعقله، ويلمس في نظرة عينيها المتألّقتين استعدادًا طيّبًا وميلًا واضحًا، فهل يتهيّب حظّه السعيد كالجبناء؟!

- ١٦ -

وأدرك ما فعله أبوه بثروته فعاتبه على ذلك معاتبة ساخنة. ومنعه من التدخّل في العمل وهو يقول:

- ستعيش راضيًا مكرّمًا.

ولكنّ أباه كان مصدر إزعاج لا ينتهي. إدمانه الخمر مُهلِك للصحّة والكرامة. يسهر كلّ ليلة في البوظة، ويتسلّى ببثّ شكاته من ابنه، يقول:

- يعاملني كما لو كنت أنا الابن وهو الأب، يحاسبني حساب المالكين...

أو يتساءل وهو يقهقه:

- هل سمعتم عن ابن يزجر أباه لأنّه يروّح عن نفسه بقرعة أو قرعتين؟

وكان يتكلّم بحبّ لا عن حقد، ويمضي في التساؤل:

- هل نسي وصيّة ربّنا بالوالدين؟

وعجز جلال عن أن يجعل من أبيه رجلًا محترمًا. وقد أراد ذلك عن حبّ من ناحية، ورغبة في محق عقبة من العقبات التي تعترض طريق حبّه من ناحية أخرى. وحزن عبد ربّه لإساءته غير المقصودة لابنه الجميل. قال له مرّة كالمعتذر:

- أمّك كانت السبب، انظر إلى نهايات من أحبّوها من الرجال...

وقطّب جلال محتجًّا فقال عبد ربّه:

- محمّد أنور شُنق، نوح الغراب قُتل، المأمور نُفي، عزيز مات غمًّا، أمّا أنا فأسعدهم حظًّا...

فقال جلال متوسّلًا:

- تجنّبْ ذكر أمّي بسوء يا أبي...

فتمتم:

- لا تحزن ولكن فكّر، تريد أن تتزوّج من قمر، لا تظنّني عقبة يا بنيّ، ذكرى المرحومة هي العقبة، كيف تصوّرت أنّ ألفت هانم تعطي كريمتها لابن زهيرة؟!

فهتف جلال:

- لا تعبث بجراحي...

فقال له الرجل بحنان:

- أنصحك ألّا تتزوّج من امرأة تحبّها، وألّا تحبّ امرأة إذا تزوّجتها، اقنع بالمعاشرة والمودّة واحذر الحبّ فإنّه مكيدة...

- ١٧ -

وعلم جلال ذات ليلة أنّ أباه يعربد في ساحة التكيّة. هرع إليه من فوره فوجده يحاكي الأناشيد بصوت منكر فساقه إلى البيت من ذراعه وهو يقول له:

- الحارة تغفر أيّ شيء إلّا هٰذا.

ولّما نام الرجل وجد جلال من نفسه رغبة حارّة للعودة إلى الساحة. لم يخلُ إلى نفسه أمام التكيّة من قبل. وكانت الليلة حالكة السواد. تتوارى النجوم فوق سحب شتويّة كثيفة. وكان البرد قارصًا فحبك العباءة حوله وطوّق وجهه باللاثة. وغمرته الأناشيد مثل أمواج دافئة. تذكّر روّاد المكان من آل الناجي. الجدّ الأوّل الذي ذاب فيه مثل سرّ مكنون. وهمس له صوت إنّما يمتاز الرجال بتحدّي الصعاب وسرعان ما ملأ أعطافه إلهام سخيّ بالبشر والفوز. عقد صداقة مع الظلمة، مع الصوت، مع البرد، مع الدنيا كلّها. صمّم على الطيران فوق العقبات مثل طائر خرافيّ...

- ١٨ -

وفي أثناء ذٰلك. اشترى راضي محلّ الغلال بماله الموروث عن أمّه وتزوّج من نعيمة حفيدة نوح الغراب. تشجّع جلال فقابل عزيزة هانم، وقال لها بثبات:

- يا ستّنا النبيلة، أريد يد قمر حفيدتك...

فنظرت إليه طويلًا بعينيها الذابلتين وقالت بصراحة العجائز:

- اقترحتُ يومًا أن يتزوّجها راضي ولٰكنّ ألفت رفضت!

فقال جلال بثقة:

- إنّه جلال مَن يطلبها هٰذه المرّة.

- ألا تعلم لِمَ رفضت؟

فسكت مقطّبًا فقالت بصراحتها السافرة:

- علمًا بأنّ راضي ذو مزايا ليست لك!

فقال بحدّة:

- لست فقيرًا، ثمّ إنّني من آل الناجي...

فقالت بضجر:

- قد قلت ما عندي.

فقال بإصرار وعناد:

- أبلغيها الطلب.

- لك هٰذا.

وغادرها وهو يغصّ بخيبة ترابيّة.

- ١٩ -

ولٰكنّ ثمّة مفاجأة مزلزلة كانت تتربّص بدار المرحوم عزيز. فقد رفضت ألفت هانم الدهشوري يد جلال غير أنّ قمر انطوت على نفسها كالمتوعّكة. وسألتها جدّتها عزيزة هانم:

- تريدينه زوجًا لك؟

فأجابتها بشجاعة نادرة:

- نعم.

فهاجت ألفت هاتفة:

- إنّه ابن زهيرة.

فهزّت منكبيها استهانة. غير أنّ الأمّ تجاهلت رغبة ابنتها بعناد وحشيّ. ورحّبت بخاطب من آل الدهشوري ولٰكنّ قمر أعلنت رفضها له بلا تردّد. وانهالت ألفت على ابنتها باللوم والتقريع ولٰكنّها أصرّت على رأيها حتّى قالت:

- فلأبقَ بلا زواج...

فصاحت أمّها:

- حلّت بك روح زهيرة الشرّيرة...

فبكت قمر ولٰكنّ ألفت لم ترقّ لها وقالت بعناد:

- ابقي بلا زواج فهو عندي أفضل...

- ٢٠ -

وتدهورت صحّة عزيزة هانم فجأة بحكم الشيخوخة والأحزان. ذبلت ذبولًا شديدًا وتغيّر لونها وسرعان ما عجزت عن الحركة فلزمت الفراش. لم تفارقها ألفت. جزعت للوحدة التي تتهدّدها في الدار الكبيرة. غير أنّ عزيزة قالت لها:

- لا تخافي سيمنّ الله عليّ بالشفاء...

وصدّقتها كما اعتادت أن تصدّقها دائمًا ولٰكنّ العجوز تمتمت بصوت كأنّه صوت شخص آخر:

- إنّها النهاية يا ألفت...

وضعف بصرها حتّى لم تعد ترى. ورغم ذٰلك تطلّعت إلى لا شيء وراحت تنادي قرّة وعزيز فارتعدت ألفت وشعرت بأنّ الموت اقتحم المخدع وأنّه ينتظر في ركن وأنّه أقوى الثلاثة حضورًا. وتمتمت بنبرة باكية:

- ليرحمنا الله.

فقالت عزيزة:

- إنّي المعذّبة أمّ المعذّبين، أملي الأخير في ذي الجلال.

فهتفت ألفت:

- اللّهمّ خفّف عنها!

فقالت:

- أوصيك باثنتين!

فحملقت فيها باهتمام فقالت العجوز:

- لا تعذّبي حفيدة قرّة.

وتنهّدت بعمق ثمّ قالت:

- لا تعذّبي ابنة عزيز.

وجاءها الاحتضار ثمّ فاضت روحها مجلّلة بالحبّ والنبل...

- ٢١ -

مضت ستّة أشهر من عام الحداد. تمنّت ألفت الدهشوري ألّا ينتهي هٰذا العام أبدًا ولكنّها أضمرت لوصيّة عزيزة كلّ إجلال. داعبها أمل في أن تتغيّر قمر نفسها ولكنّه أمل لم يتحقّق.

واستدعى المعلّم راضي أخاه جلال وقال له:

- أهنّئك بالقبول...

فاجتاحه تيّار سماويّ من الأفراح أخرسه.

واقترح راضي أن تعلن الخطوبة فورًا على أن تؤجّل الدخلة لما بعد الحداد. ولم يعد في الإمكان أن تُقتلع هٰذه اللحظة من ذاكرة جلال إلى الأبد.

- ٢٢ -

وما كاد يمرّ شهران على الخطبة حتّى طالب جلال بإلحاح بعقد القران بلا حفل على أن تؤجّل الدخلة والحفل حتّى ينتهي عام الحداد. وتمّ له ما أراد. كأنّما أراد أن يستحوذ على الطمأنينة ويمحق الأوهام. وأن يبتدر حظّه مُغلقًا الأبواب في وجه القوى المجهولة. صار بذٰلك «الرجل السعيد». وشهدت الأيّام أقصى درجة من الثراء في سجاياه الحميدة. حتّى أبوه السكّير لم يعد يحاسبه. ودلّل عمّاله وذويهم. وترنّم بالغناء، وهو يعمل وهو يتابع مصارعة الديوك. ازدهر جماله وتضخّمت قوّته. وسهر الليالي بالساحة يستمع الغناء ويبتهل الدعاء.

وتردّد على عروسه محمّلًا بالهدايا، ومنها تلقّى مسبحة من القهرمان ينتظمها سلك من الذهب هديّة معطّرة. غدت حياته وأمله وسعادته ورؤيته الذهبيّة. رآها أجمل خلق الله رغم أنّ كثيرين نوّهوا بتفوّق جماله الباهر، ولٰكنّ عذوبتها فاقت كلّ الحدود.

وتراجعت ألفت هانم عن فتورها فأبدت الرضى والألفة، ونعتته بالابن الطيّب، وشرعت ترسم للمستقبل صورة جديدة، مقترحة عليه مشاركة راضي في محلّ الغلال مستعينًا بمال قمر.

ومرّة قال جلال لقمر:

- لقد تجلّت عظمة آل الناجي في أشياء وأشياء، ها هي تتجلّى اليوم في الحبّ...

فابتسمت في دلال فقال:

- الحبّ يصنع المعجزات...

فقالت بعذوبة:

- لا تنس دوري في صنع المعجزة!

فضمّها إلى صدره وهو يهيم من الوجد.

- ٢٣ -

وجاء بأبيه ليزور ألفت هانم وقمر. جاء الرجل مفيقًا ولكنّه بدا كالسكران بنظرته الثقيلة الغائمة ونبرته المترنّحة ورأسه المتقلقل. أدرك أنّه يمثّل دور الوجيه وأنّه غريب عن ذاته وأحواله. ونظر إلى ألفت هانم بتهيّب، وشعر بأنّه يتحوّل من شخص إلى مخلوق آخر، وعجب كيف أنّه ملك ذات يوم جمالًا يزري بهٰذا الجمال كلّه. وقال لألفت هانم:

- إنّي كما تعلمين يا هانم ولٰكنّ ابني جوهرة...

فتمتمت ملاطفة:

ـ أنت رجل طيّب يا معلّم عبد ربّه. . .

واهتزّ لذلك الاحترام الذي لم يحظَ بمثله أبدًا وقال مشيرًا إلى جلال:

ـ إنّه يستحقّ السعادة جزاء برّه بوالده. . .

وضحك ضحكة عالية بلا سبب، وسرعان ما ارتدّ إلى الوقار مرتبكًا.

وعندما غادر الدار هو وجلال سأله ابنه:

ـ لِمَ لم تقدّم الهديّة للعروس؟

تذكّر الهديّة التي أعطاه جلال إيّاها ليقدّمها للعروس بيده فلم ينبس، فسأله جلال بضيق:

ـ نسيت؟

فقال برقّة:

ـ إنّها جوهرة ليست عروسك في حاجة إليها على حين أنّني في أشدّ الحاجة إليها.

فقال جلال بعتاب:

ـ هل قصّرت في حقّك؟

فربّت على ظهره قائلًا:

ـ أبدًا ولكنّ مطالب الحياة كثيرة.

ـ ٢٤ ـ

وجاءت الأيّام الأخيرة من عام الحداد في خريف أبيض يتنفّس في عذوبة فائقة. وامتلأت السحب الشفّافة بالأحلام. وألـمّت وعكة برد بقمر غير أنّها لم تعطّل الاستعدادات المتوثّبة للزفاف. واندفعت الوعكة في طريق المجهول فارتفعت الحرارة واضطربت الأنفاس واشتدّت الآلام وتسلّل الذبول إلى الوردة الناضرة مثل عدوّ ماكر خسيس خائن. ولزمت الفراش بلا حول فخبت نظرتها واصفرّ لونها ووهن صوتها. توارت تحت الأغطية الثقيلة، متأوّهة، تتغذّى بالكراوية والليمون، وتعصب بكمّدات الخلّ. وسهدت ألفت هانم متشنّجة الأفكار، وقلق جلال لنفد صبره في انتظار ساعة الشفاء.

وخيّم على الدار شعور غامض لا يريد أن يفصح عن ذاته، وطافت بخيال ألفت اللحظات الأخيرة من حياة عزيز وعزيزة، وخيّل إليها وهي تكاد تجنّ أنّ كائنًا مجهولًا قد حلّ بالدار، وأنّه يكمن في ركن من أركانها لا يريد أن يبرح.

وذات ليلة حلم جلال بأنّ والده يغنّي بطريقته الهمجيّة الساخرة في ساحة التكيّة. واستيقظ ثقيل القلب فتبيّن له أنّه إنّما استيقظ حقًّا على صوت يدوّي في الخارج. صوت من نوع خاصّ لا علاقة له بالغناء ولا بالتكيّة. صوات في جوف الليل يعلن صعود روح إلى مستقرّها!

ـ ٢٥ ـ

شعر جلال بأنّ كائنًا خرافيًّا يحلّ في جسده. إنّه يملك حواسّ جديدة ويرى عالـمًا غريبًا. عقله يفكّر بقوانين غير مألوفة وها هي الحقيقة تكشف له عن وجهها. رنا إلى الجثّة المسجّاة طويلًا. طوى الغطاء عن الوجه. إنّه ذكرى لا حقيقة. موجود وغير موجود. ساكن بعيد منفصل عنه ببعد لا يمكن أن يُقطع. غريب كلّ الغرابة، ينكر ببرود أيّ معرفة له. متعالٍ متعلّق بالغيب. غائص في المجهول. مستحيل غامض مندفع في السفر. خائن، ساخر، قاسٍ، معذّب، محيّر، مخيف، لانهائيّ، وحيد. وغمغم بذهول وتحدٍّ:

ـ كلّا.

يد غطّت الوجه فأغلقت باب الأبديّة. تهدّمت الأركان تمامًا. لسان يلعب له هازئًا. ثمّة عدوّ يتحرّك سوف ينازله. لن يتأوّه، لم يذرف دمعة واحدة. لم يقل شيئًا. تحرّك لسانه مرّة أخرى مغمغمًا:

ـ كلّا.

رأى رأس أمّه المهشّم. خيال تراءى واختفى قبل أن تطبع صورته في وعيه. رأى الديك وهو يفقأ بمنقاره الورديّ عين خصمه. رأى السماء تشتعل بالنيران. رأى بركة الدم الأحمر. ووعده المجهول بإدراك كلّ شيء إذا كشف الغطاء عن الوجه مرّة أخرى. مدّ يده ولكنّ يدًا أمسكت بيده وصوت قال:

ـ وحّد الله!

ربّاه أيوجد معه آخرون؟ أيوجد آخرون في الدنيا؟ من قال إذن إنّ الدنيا خالية. خالية من الحركة واللون والصوت. خالية من الحقيقة. خالية من الحزن والأسى والندم. إنّه في الواقع متحرّر. لا حبّ ولا حزن.

ذهب العذاب إلى الأبد. حلّ السلام. وثمّة صداقة متوحّشة مطروحة على القوى العاتية. هنيئًا لمن يروم أن تكون النجوم خلّانه، السحب أقرانه، والهواء نديمه، والليل رفيقه.

وللمرّة الثالثة يغمغم:

ـ كلّا.

ـ ٢٦ ـ

تخلّى جلال عن العمل لوكيله. وجد الراحة في المشي. يتمشّى في الحارة، وفي الحيّ، بين البوّابات والقلاع، يجلس في القهوة وحده يدخّن البوري.

في الليل وقف قبالة التكيّة. مرّت به الأنغام. باستهانة طرق الباب. لم يتوقّع ردًّا. عرف لِمَ لا يردّون. إنّهم الموت الخالد الذي يتعالى عن الردّ. تساءل:

ـ أليس للجار حقّ؟

وأنصت للغناء فانساب الصوت في عذوبة:

صبحدم مرغ جمن با كل نوخاسته كفت
نازكم كن كه درين باغ بي جون نو شكفت

ـ ٢٧ ـ

واعترض مسيرته ذات يوم الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية فابتسم إليه برقّة وقال:

ـ لا بأس من كلمة تقال...

فنظر إليه ببرود فقال الشيخ:

ـ إنّ الله يمتحن من عباده الصدّيقين.

فقال بازدراء:

ـ لا جديد فهٰذا ما يقوله الديك عندما يصيح في الفجر.

فقال الرجل:

ـ كلّنا أموات أولاد أموات.

فقال بيقين:

ـ لا أحد يموت.

ـ ٢٨ ـ

وكان يمرّ أمام البوظة في جوف الليل عندما رأى شبحًا مترنّحًا عرف فيه أباه عبد ربّه. تأبّط ذراعه فتساءل الرجل:

ـ مَن؟

ـ جلال يا أبي...

وصمت السكران قليلًا ثمّ قال:

ـ إنّي خجلان يا بنيّ...

ـ لماذا؟

ـ كان الأجدر أن أذهب أنا لا هي...

ـ لماذا؟

ـ هو العدل يا بنيّ.

فقال باستخفاف:

ـ يوجد شيء حقيقيّ واحد يا أبي هو الموت.

فقال عبد ربّه معتذرًا:

ـ ما كان يليق أن أشرب في هٰذه الأيّام ولٰكنّي عاجز.

فقال له وهو يسنده:

ـ تمتّع بحياتك يا أبي...

ـ ٢٩ ـ

ومضى الخريف يولّي ويقبل الشتاء بقسوته القاهرة. وراح الهواء البارد يسفع الجدران ويلسع العظام. وتطلّع جلال إلى سحابة مظلمة فهامّ بالمستحيل. ورأى ذات مرّة ألفت هانم وهي راجعة من القرافة فكرهها من صميم فؤاده وبصق في خياله على صورتها المتورّمة. قبِلته كارهة ثمّ تخلّصت منه بالموت. والموت عندها طقوس وفطائر. كلّهم يقدّسون الموت ويعبدونه فيشجّعونه حتّى صار حقيقة خالدة. لا شكّ أنّها اغتاظت عندما تسلّم نصيبه من تركة قمر. لذلك أحله كاملًا. ثمّ وزّعه على الفقراء خفية. وقال لنفسه إنّ علامة الشفاء عنده أن يحطّم رأس الهانم المتعجرفة.

- ٣٠ -

وصادف في طريقه جبريل الفصّ شيخ الحارة فحيّاه الرجل وقال:

- لا تُرى يا معلّم جلال إلّا ذاهبًا أو آئبًا، عمّ تبحث؟

فأجابه بازدراء:

- أجد ما لا أبحث عنه وأبحث عمّا لا أجد.

- ٣١ -

وانفرد بنفسه تلك الليلة في ساحة التكيّة. لا التماسًا للبركة ولكن تحدّيًا للظلمة والبرد. هنا خلوة عاشور. هنا اللاشيء. وقال إنّه يعترف بأنّه ليس عاشقًا. لا حزن على حبّ ضائع. أنا لا أحبّ. أنا أكره. الكراهية والكراهية فقط. أكره قمر. هذه هي الحقيقة. هي الألم والجنون. هي الوهم. لو عاشت لانقلبت على مثال أمّها. تحكم بالغباء وتضاحك التافه وتقلّد الأمراء وهي حفنة من تراب. كيف هي الآن في قبرها؟ قربة منتفخة تفوح منها روائح عفنة، وتسبح في سوائل سامّة ترقص فيها الديدان. لا تحزن على مخلوق سرعان ما انهزم. لم يحفظ العهد. لم يحترم الحبّ. لم يتمسّك بالحياة. فتح صدره للموت. إنّنا نعيش ونموت بإرادتنا. ما أقبح الضحايا! دعاة الهزيمة. الهاتفون بأنّ الموت نهاية كلّ حيّ. وبأنّه الحقّ. إنّه من صنع ضعفهم وأوهامهم. نحن خالدون ولا نموت إلّا بالخيانة والضعف. عاشور حيّ. أشفق على الناس من مواجهة خلوده فاختفى. أنا خالد. وجدت ما أبحث عنه. وما يغلق الدراويش الأبواب إلّا لأنّهم خالدون. من شهد جنازة لهم؟ إنّهم خالدون. يتغنّون بالخلود ولكن لم يفهمهم أحد.

وثمل بشراب الليل المثلج.

مضى نحو القبر وهو يغمغم:

- آه يا قمر...

- ٣٢ -

وتجسّدت الأفكار المحمومة في صورة نسر محلّق ذي صرير يدكّ الأبنية. وسأله أبوه ذات صباح وهو يتثاءب:

- لِمَ تأخّرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلّاج؟

فأجابه ببساطة وثقة:

- لا يفعل ذلك إلّا الضعفاء الجبناء.

حملق الأب في وجهه برعب وسأله:

- تتحدّى الفتوّة؟

فقال ببرود:

- أنا الفتوّة يا أبي.

- ٣٣ -

وتعمّد أن يمرّ أمام مجلس الفتوّة بمجلسه في المقهى فسرعان ما جاء صبيّ القهوة قائلًا:

- المعلّم سمكة يسأل عن الصحّة؟

فقال بنبرة عالية:

- أخبره بأنّ الصحّة طيّبة تتحدّى الجهلاء.

اقتحم الجواب الفتوّة مثل لفحة نار. وسرعان ما اندفع معاونه خرطوشة - الوحيد من رجاله الذي تصادف وجوده معه - وبسرعة خاطفة رفع جلال مقعدًا خشبيًّا وضربه به ضربة صادقة فانطرح على ظهره فاقد الوعي. وأخذ جلال نبّوته ووقف ينتظر سمكة العلّاج الذي أقبل مثل وحش ضارٍ. وتدفّق سيل المتفرّجين، وتنادى رجال الفتوّة من الأركان. وتبادل الرجلان ضربتين، ولكن حُسمت المعركة في ثوانٍ. كان جلال قوّة خارقة حقًّا. تهاوى سمكة العلّاج مثل ثور ذبيح.

- ٣٤ -

وقف جلال بجسمه العملاق في هالة من لهيب التحدّي والغضب. وغزا الخوف قلوب الرجال فلم يكن في العصابة مَن هو جدير بخلافة سمكة إلّا خرطوشة المنطرح إلى جانبه. وبعض الرجال ممّن يضمرون الحقد للعصابة انهال على أفرادها بالطوب منضمّين إلى جلال. وسرعان ما تقرّرت السيادة لمن يستحقّها.

هكذا وثب جلال بن عبد ربّه بن زهيرة إلى الفتونة بكلّ جدارة، وهكذا رجعت الفتونة إلى آل الناجي...

- ٣٥ -

قال له أبوه ووجهه يومض بالفرح:

ـ ما تصوّرت أن تكون فتوّة رغم قوّتك الهائلة...

فقال جلال باسمًا:

ـ وما تصوّرت ذٰلك ولا جرى لي في بال...

فقال عبد ربّه بفخار:

ـ كنت مثلك في القوّة ولٰكنّ الفتونة قلب وطموح!

ـ صدقت يا أبي، كنت أعدّ نفسي للوجاهة ثمّ جاءني ذٰلك في جوف خاطر مباغت...

فضحك الأب وقال:

ـ كأنّك عاشور نفسه في قوّته فأسعد نفسك، وأسعد أهل حارتك...

فقال بتؤدة:

ـ فلنؤجّل الحديث عن السعادة يا أبي...

- ٣٦ -

أصبح يتحرّك بإلهام القوّة والخلود. رسم لنفسه طريقًا. تحدّى فتوّات الحارات ليستثمر فائض قوّته. تغلّب على العطوف والدراسة وكفر الزغاري والحسينيّة وبولاق. كلّ يوم كان المزمار يزفّ للحارة بشرى نصر جديد. غدا فتوّة الفتوّات وتاج القوّة والسيادة كما كان عاشور وكما كان شمس الدين.

وسعد الحرافيش مؤمّلين فيما عُرف عنه من كرم وسجايا حميدة، كما انزعج الوجهاء وتوقّعوا حياة موسومة بالكبح والعناء.

- ٣٧ -

وتاه عبد ربّه عزّة وكرامة، وراح يبشّر في البوظة بالعهد الجديد. إنّه يُستقبل الآن بالإجلال والإكبار، ويلتفّ حوله السكارى يتنسّمون منه الأخبار فيقول:

ـ رجع عاشور الناجي.

ويفرغ القرعة في جوفه ويواصل:

ـ فليسعد الحرافيش، ليسعد كلّ محبّ للعدل، سيتوفّر الرزق لكلّ مسكين، سيعرف الوجهاء أنّ الله حقّ!

فيسأل سنقر الشمّار الخمّار:

ـ وعد بذٰلك المعلّم جلال؟

فيقول بثقة وثبات:

ـ ما طمح إلى الفتونة إلّا من أجل ذٰلك!

- ٣٨ -

دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمّة قوّة تتحدّاه ولا مشكلة تشغل باله. يتمتّع طيلة الوقت بالسيادة والجاه والمال. اكتنفه الفراغ وتسلّل إليه التثاؤب. تركّز تفكيره في ذاته. تجسّدت له حياته في صورة بارزة واضحة المعالم والألوان حتّى النهاية الحادّة العابثة. بدءًا من رأس أمّه المهشّم، ومعاناة الحارة المهينة، وموت قمر الساحر، وقوّته المهيمنة بلا حدود، وقبر شمس الدين الذي ينتظر الركب راحلًا في أثر راحل. ما جدوى الحزن، ما فائدة السرور، ما مغزى القوّة، ما معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل؟

- ٣٩ -

وسأله أبوه ذات صباح:

ـ الناس يتساءلون متى يتحقّق العدل؟

فابتسم جلال بامتعاض وتمتم متسائلًا:

ـ ما أهمّيّة ذٰلك؟

فقال عبد ربّه بدهشة:

ـ إنّه كلّ شيء يا بنيّ...

فقال بازدراء:

ـ إنّهم يموتون كلّ يوم وهم مع ذٰلك راضون!

ـ الموت علينا حقّ أمّا الفقر والذلّ فبيدك محقهما!

فصاح جلال:

ـ اللعنة على الغباء.

فتساءل عبد ربّه بأسى:

ـ ألا تريد أن تحتذي مثال عاشور الناجي؟

ـ أين عاشور الناجي؟

ـ في أعلى علّيّين يا بنيّ.

فقال بازدراء:

ـ لا أهمّيّة لذٰلك...

ـ أعوذ بالله من الكفر...

فقال بوحشيّة:

ـ أعوذ بالله من اللاشيء!

ـ لا أتصـوّر أن يمضي ابني كـما مضى سـمكـة العلّاج...

ـ لقد انتهى سمكة العلّاج كما انتهى عاشور.

ـ كـلّا، جاء كـلٌّ من طـريق مختلف وذهب إلى طريق مختلف...

فنهض محتدًّا وقال:

ـ لا تزد من همّي يا أبي، لا تـطالبني بشيء، لا يغرّنك ما بلغت واعلم أنّ ابنك رجل غير سعيد...

ـ ٤٠ ـ

يئس عبـد ربّه وكفّ عن الحـديث عن الفردوس المعهود. وقال وهو في غاية من السكر:

ـ إرادة الله فوق كلّ إرادة وما علينا إلّا الرضى.

ويئس الحرافيش وتساءلوا:

ـ لِمَ لا نشكّ في الماضي ليرتاح بالنا؟!

واستنام الوجهـاء إلى الطمـأنينة، أدّوا الإتـاوات، وقدّموا الهدايا بلا حساب.

ومضى جلال بقلب أجوف تتلاطم فيه رياح الكآبة والقلق، وبظاهر متألّق ينضح بالقوّة والسيادة والنهم. بدا أوّل ما بدا أنّه وقع أسيرًا لعشق المال والتملّك. شارك أخاه راضي في محلّ الغلال، كما شارك الخشّاب والبنان والعطّار وغيرهم. لا شبع من ناحيته. وترحيب حارّ من ناحيتهم ليثبّتوه في أرض الوجاهة والسؤدد. غدا أكبر فتوّة وأكبر تاجر وأغنى غنيّ، وفي الوقت نفسه لم يتهاون في جمع الإتـاوات وتقبّل الهـدايا، ولم ينعم بخيره إلّا رجال عصـابته حتّى عبـدوه عبادة. وشيّـد عمارات كثيرة، كما شيّد إلى يمين السبيل دارًا خياليّة، سُمّيت بحقّ بالقلعة لجلالها وكبرها، وفرشها بفـاخر الأثاث، وحلّاها بالتحف، كأنّه حلم الخالدين. ورفل في الثياب الغالية، وتنقّل بالدوكار والكارتة، وتوهّـج الذهب في أسنانه وأصابعه.

ولم يكترث لحال الحرافيش ولا عهد الناجي، لا عن أنانيّة أو ضعف أمـام مغريـات الحياة، ولكن ازدراءً لهمومهم، واستهانةً بمشكلاتهم. والعجيب أنّـه كان بطبعه أميل إلى الزهد، واحتقار مطالب البدن، وكان ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملّك قوّة عمياء مجهولة، جـوهرهـا القلق والخوف، كـأنّما كـان يتحصّن ضـدّ الموت، أو يوثّق علاقته بالأرض حذرًا من غدره. لقد غرق في خضمّ الدنيا ولكنّه لم يغفل قطّ عن خداعها، لم تخدّره ابتساماتها، لم يطربه عذب حديثها، كان حادّ الشعور بلعبتها المرسومة، وغايتها المقصودة. لم يأنس للخمر ولا المخدّر ولا الهوى ولا التكيّة، وكان إذا خلا إلى نفسه تأوّه قائلًا:

ـ ما أشدّ عذابك أيّها القلب!

ـ ٤١ ـ

ويومًا سأله أخوه راضي ولعلّه كان صديقه الوحيد:

ـ لِمَ لا تتزوّج يا أخي؟

فضحك جلال ولم يجب فراح راضي يقول:

ـ الأعزب موضع تساؤل دائمًا.

فسأله ساخرًا:

ـ لِمَ الزواج يا راضي؟

ـ إنّه المتعة والأبوّة والخلد.

فضحك جلال عاليًا وقال:

ـ ما أكثر الأكاذيب يا أخي...

فتساءل راضي:

ـ لمن تجمع هٰذه الأموال؟

يا له من سؤال! أليس الأجدر بمثله أن يحيا حياة الدراويش؟ ها هو الموت يطارده دائمًا. هـا هو رأس زهـيرة ووجه قمـر يتجسّدان من جـديد. لن تنفعه القلعة ولا النبّوت. سيذوي بهاء هٰذا الجمال المتألّق. ستتقوّض أعمدة هٰذه القوّة الشامخة. سيرث المال قوم آخـرون وهم يغمـزونـه بـالسخـريـات. ستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبديّة.

ـ ٤٢ ـ

على أريكة الفتونة يتربّع في المقهى. تمثال من الجمال والقوّة يبهر الأنظار ويهزّ القلوب. تتكاثف الظلمات في جمجمته لا يدري بها أحد. يتسلّل شعاع إلى الظلمات في صورة بسمة متألّقة بالتحيّة والإغراء. بسمة تترك أثرًا في الظلام. مَن هٰذه المرأة؟ امرأة من بنات الهوى،

تقيم في شقّة صغيرة فوق بنك الرهونات، يعشقها الوجهاء. تحيّيه كلّما مرّت التحيّة اللائقة بسيّد الأحياء. لا يرفض التحيّة ولا يستجيب لها. ولا ينكر أثرها الملطّف لعذاباته. متوسّطة التكوين، ريّانة الجسد، جذّابة الملامح زينات. ولأنّها تصبغ شعرها بلون الذهب دُعيت بزينات الشقراء. لا ينكر أثرها الملطّف لعذاباته ولكنّه لا يريد أن يستجيب لها. طالما كُبحت شهواته تحت ضغط انهماكه في القتال، والبناء، وجمع المال، ومعانقة الملل.

- ٤٣ -

وذات مساء استأذنت زينات الشقراء في مقابلته. استقبلها في بهو الضيوف. تركها تنبهر بالأثاث، بالتحف، بالقناديل المزركشة. تجرّدت من ملاءتها وبرقعها، جلست على ديوان قطعة من الفتنة المسلّحة. وتساءلت برشاقة:

- ترى كيف أعلّل حضوري؟... أأقول مثلًا إنّني أريد تأجير شقّة في عمارتك الجديدة؟

فوجد نفسه يجاملها قائلًا:

- لن يطالبك أحد بتعليل...

فضحكت راضية وقالت بصراحة:

- قلت لنفسي فلنزره ما دام يبخل علينا بالزيارة...

شعر بأنّه هبط أولى درجات الإغراء ولكنّه لم يحفل بذلك وقال:

- حللت أهلًا وسهلًا!

- شجّعني لطفك الذي تقابلني به كلّ أصيل...

ابتسم. وتردّد سؤال خلف الابتسامة إلامَ آلَ حال قمر في قبرها اليوم؟ وسألته بجرأة عجيبة:

- ألم أعجبك؟

فقال بصدق:

- إنّك تحفة...

- وهل مثلك يشعر ولا يفعل؟!

فتمتم في حيرة:

- غابت عنك أشياء...

- إنّك أقوى الرجال فكيف تنام كما ينام الفقراء؟

فقال ساخرًا:

- الفقراء ينامون نومًا عميقًا!

- وكيف تنام أنت؟

- لعلّي لا أنام!

فضحكت بعذوبة وقالت:

- سمعت من أهل العلم أنّك ما شربت في حياتك قرعة ولا دخّنت نَفَسًا ولا لامست امرأة، أهذا صحيح؟

لم يدرِ بماذا يجيب ولكنّه شعر بأنّها ستحقّق ما تريد. أمّا زينات فواصلت:

- أقول لك إنّ الحياة ليست إلّا الحبّ والطرب.

فتساءل متظاهرًا بالدهشة:

- حقًّا؟

- ما عدا ذلك فإنّنا نتركه وراءنا للغير!

فقال بامتعاض:

- ونترك أيضًا الحبّ والطرب!

- كلّا، إنّهما يمتصّان بالجسد والروح ولا يرثهما أحد!

- يا لها من لعبة سخيفة...

فقالت بحرارة:

- لا عشت يومًا بلا حبّ أو طرب...

- إنّك امرأة مدهشة...

- امرأة وكفى!

- لا يهمّك الموت؟!

- إنّه علينا حقّ ولكنّي لا أحبّ سيرته...

حقّ؟! حقّ؟! وسألها:

- أتعرفين شيئًا من سيرة شمس الدين الناجي؟

فقالت بفخار:

- طبعًا، من حارب متحدّيًا الكبر...

- تحدّى الكبر بعناد.

فقالت بنعومة:

- السعداء حقًّا من ينعمون بشيخوخة هادئة!

فقال بتحدٍّ:

- السعداء حقًّا من لا يعرفون الشيخوخة!

فانقبضت لتغيّره وقالت بإغراء:

- أنت لا تملك إلّا هذه الساعة...

فقال ضاحكًا:

ـ موعظة مناسبة لمقدم الليل...

فأغمضت عينيها مرهفة السمع حتّى وضح زفيف الريح. وسمع هطول الأمطار فوق النوافذ المغلقة.

ـ ٤٤ ـ

سرعان ما صارت زينات الشقراء عشيقة لجلال عبد ربّه الناجي. دهش الناس ولكنّهم قالوا هو خير على أيّ حال من سيّئ الذكر وحيد. وتجنّبها عشّاقها القدامى فأصبحت له وحده. علّمته كلّ شيء، انضمّت إلى تحف الدار قرعة ملهّبة وجوزة مدندشة. لم يأسف على شيء، وقال إنّ للحياة مذاقًا لا بأس به. وأحبّته زينات حبًّا ملك عليها نفسها، وداعبها حلم غريب أن تصبح حليلة له ذات يوم. ومن عجب أنّ حبّه القديم لقمر بُعث أيضًا كذكرى خالدة مفعمة بالعذوبة. أدرك أنّه لم يهجره أبدًا. لا شيء يزول. ولا حبّ أمّه. سيظلّ مدينًا لرأس أمّه ووجه قمر بمعرفة مأساة الحياة، ولحن الحزن الخافت المتردّد تحت سطح الأنوار الباهرة والانتصارات المتألّقة. ولم يعرف لزينات عمرًا، لعلّها تماثله في عمره أو تكبره، وسيظلّ ذلك سرًّا. وقد تعلّق بها، أهو حبّ جديد؟ وتعلّق بالقرعة والجوزة. إنّه مدين لها أيضًا بمفاتن جوهريّة مثيرة للفرح والقلق، ولا يرى بأسًا من التسليم للتيّار.

ـ ٤٥ ـ

ورأى أباه «المعلّم» عبد ربّه يخلو إليه باهتمام، ويسأله:

ـ لِمَ لا تتزوّج؟... أليس الحلال أفضل من الحرام؟

فلم يحر جوابًا فقال عبد ربّه:

ـ ولتكن زينات كما فعل عاشور...

فهزّ رأسه منكرًا فقال الأب:

ـ على أيّ حال لقد صدقت عزيمتي أنا على الزواج!

فقال جلال بذهول:

ـ إنّك يا أبي في الستّين!

ـ لِمَ لا؟!

وضحك عبد ربّه ثمّ قال:

ـ صحّتي حسنة بالرغم من كلّ شيء، واعتمادي بعد الله على المعلّم عبد الخالق العطّار...

ـ ومن العروس؟

فقال بمباهاة:

ـ بنت زويلة الفسخاني، بنت حلال في العشرين من عمرها...

فسأله باسمًا:

ـ أليس الأفضل أن تختار سيّدة تقاربك في السنّ؟

ـ كلّا، لا يُرجع الشباب إلّا الشباب...

فتمتم جلال:

ـ فليسعدك الله يا أبي...

وجعل عبد ربّه ينوّه بالعطّار وسحره، وقدرته على ردّ الإنسان إلى شبابه...

ـ ٤٦ ـ

زُفّت فريدة الفسخاني إلى المعلّم عبد ربّه، وأقاما في جناح بالقلعة دار جلال الفخيمة. وطيلة الوقت كان جلال يفكّر في سحر المعلّم عبد الخالق العطّار. إنّه شريكه وصاحبه وممّن يحسنون التودّد إليه. ودعاه ذات ليلة إلى داره فانسطلا معًا، وتسلّيا بتناول الفاكهة والحلوى. وقال له جلال بجدّيّة:

ـ ما يدور بيننا فهو سرّ...

فوعد المعلّم عبد الخالق بذلك سعيدًا بالمنزلة الجديدة التي أنزله الفتوّة فيها. وسأله جلال:

ـ علمت أنّك تردّ الكهول إلى الشباب؟

وبابتسامة ثقة أجاب العطّار:

ـ بعون الله تعالى.

فقال جلال باهتمام:

ـ لعلّه أيسر لك أن تحافظ على الشباب؟

ـ هذا مسلّم به.

فتنوّر وجه جلال بالارتياح وتمتم:

ـ لعلّك أدركت ما تعنيه دعوتي لك يا معلّم عبد الخالق.

فتفكّر العطّار مليًّا متهيّبًا ثقل الأمانة وقال:

- ولكنّ العطارة ليست بكلّ شيء، لا بدّ أن تسبقها وتسايرها إرادة عاقلة...

- ماذا تعني؟

فقال عبد الخالق بحذر:

- لا بدّ من المصارحة فهل تشعر بأيّ ضعف من أيّ نوع كان؟

- إنّي في تمام العافية!

- عظيم، عليك أن تتبع نظامًا دقيقًا لحدّ التقديس...

- تكلّم ولا تلغز!

- الطعام ضروريّ ولكنّ المغالاة ضارّة.

فقال جلال بارتياح:

- هذا ما تتطلّبه تقاليد الفتونة الرشيدة...

- الشرب قليله منشّط وكثيره ضارّ.

- معقول.

- الجنس يجب أن تتمّ ممارسته في نطاق الطاقة بلا تحمّل...

- لا بأس.

- الإيمان عظيم الفائدة.

- جميل.

فقال المعلّم عبد الخالق:

- عندما يتوفّر ذلك كلّه تجيء وصفة العطّار بالمعجزات...

- أهي مجرّبة؟

- بشهادة كثيرين من الوجهاء! بعضهم يحافظ على شبابه حتّى يرعب من حوله!

فلمعت عينا جلال بضوء بهيج، فقال عبد الخالق:

- بنصيحتي وبإذن الله يجب أن يعمّر الإنسان حتّى المائة، وليس ما يمنع من أن يعيش بعد ذلك حتّى يتمنّى قدوم الأجل!

فابتسم جلال بشيء من الوجوم ثمّ تساءل:

- وبعد ذلك؟

فقال العطّار باستسلام:

- الموت علينا حقّ...

ولعن جلال في سرّه الشيطان وقال إنّهم متّفقون أجمعون على تقديس الموت...

- ٤٧ -

وذات ليلة سألته زينات الشقراء وهما في غاية من الانسجام والانبساط:

- لِمَ لا تحقّق آمال الحرافيش؟

فرمقها بدهشة وسألها:

- ماذا يهمّك من ذلك؟

فقبّلته وقالت بإخلاص:

- كي تطارد الحسد فالحسد قتّال!

فهزّ منكبيه استهانة وقال:

- أصارحك بأنّني أحتقر الناس...

- ولكنّهم مساكين!

- لذلك أحتقرهم!

وتقلّص وجهه الجميل تقزّزًا ثمّ قال:

- لا تشغلهم إلّا لقمة العيش...

فقالت بإشفاق:

- أفكارك تخيفني...

- لِمَ لا يسلّمون للجوع كما يسلّمون للموت؟!

اجتاحتها ذكريات صباها مثل عاصفة ترابيّة خانقة فقالت:

- الجوع أفظع من الموت...

ابتسم مسبلًا جفنيه على نظرة احتقار باردة.

- ٤٨ -

مضت الأيّام وجلال يزداد قوّة وجمالًا وبهاء. يمشي الزمن على أديمه غير تارك أثرًا كأنّه الماء يمشي على مرآة مصقولة. زينات نفسها تتغيّر كما يتغيّر كلّ شيء من حولها، رغم عنايتها الكبيرة بجمالها. وأدرك جلال أنّه يخوض بعناد المعركة المصيريّة الحقيقيّة المقدّسة. وقال لنفسه إنّه من المؤسف حقًّا أنّ الختام حتم، قد يؤجّل بعض الوقت ولكن أين منه المفرّ؟

- ٤٩ -

وتوثّقت الصداقة بينه وبين المعلّم عبد الخالق العطّار. وكان من رأي المعلّم عبد الخالق أنّه لولا فداحة تكاليف الوصفة لصارت حارتهم حارة المعمّرين. وفكّر جلال أكثر من مرّة في أن يشرك

زينات في الوصفة السحريّة ولٰكنّه كان يتراجع عن فكره دائمًا. لعلّه بدأ يخشى سيطرتها وسحرها فكّره تحصينها ضدّ الزمن الجبّار. كان يحبّها أكثر الوقت ولٰكن تمرّ لحظات يودّ أن ينتقم منها ويبصقها في أقرب مزبلة. لم تكن علاقته بها بسيطة وواضحة. كانت تنداح في شبكة معقّدة من العلاقات فتتداخل مع ذكرى أمّه، ذكرى قمر، عداوته للموت، كرامته، وتعلّقه الآسر بها. وكان ما يحنقه أكثر من سواه ما يبدو عليها أحيانًا من طمأنينة راسخة وثقة بالنفس لا حدود لها. ها هي ترهق بالشراب والسهر، ويلتهب جلدها بالمساحيق، فهل تلحظه خفية بالحسد؟

ـ ٥٠ ـ

وسأل مرّة المعلّم عبد الخالق:

ـ سمعت ولا شكّ عن حكاية عاشور الناجي؟

ـ حكاية محفوظة يا معلّم...

فقال جلال بعد تردّد:

ـ إنّي أعتقد أنّه ما زال حيًّا!

فذهل عبد الخالق ولم يدر بماذا يجيب. كان يعلم أنّ عاشور وليّ عند قوم ولصّ لقيط عند آخرين، ولٰكنّهم يسلّمون جميعًا بموته. وواصل جلال قائلًا:

ـ وأنّه لم يمت!

وقال عبد الخالق:

ـ كان عاشور رجلًا صالحًا والموت لا يخطئ الصالحين...

فتساءل جلال محتجًّا:

ـ أينبغي أن يكون الإنسان شرّيرًا كي يخلد؟

ـ الموت حقّ، ولٰكن لا يتطلّع إلى الخلود مؤمن!

ـ أعلى يقين أنت من ذٰلك؟

فخاف عبد الخالق وقال:

ـ هٰكذا يقولون والله أعلم...

ـ لِمَ؟

ـ أعتقد أنّ الخلود لا يتاح لإنسان إلّا بمؤاخاة الجنّ...

فاشتعل جلال باهتمام داهم حادّ وقال:

ـ حدّثني عن ذٰلك...

ـ مؤاخاة الجان، الخلود واللعنة الأبديّة، التحام الإنسان بالشيطان إلى الأبد...

فتساءل جلال وهو يتمادى في الاهتمام:

ـ حقيقة هٰذا أم هذيان؟

فتردّد عبد الخالق ثمّ قال:

ـ لعلّه حقيقة!

ـ زدنا تفسيرًا...

ـ لماذا؟... أتفكّر حقًّا في تلك المغامرة؟

فضحك جلال ضحكة عصبيّة وقال:

ـ ليس إلّا أنّي أحبّ أن أعرف كلّ شيء...

فقال عبد الخالق ببطء:

ـ يقال... إنّ... شاور...

فتساءل جلال:

ـ ذٰلك الشيخ المجهول الذي يدّعي قراءة المستقبل؟

ـ ذٰلك عمله الظاهر، ولٰكنّه ينطوي على أسرار مرعبة...

ـ لم أسمع عن شيء من ذٰلك...

ـ إنّه يخاف المؤمنين...

ـ وهل تصدّق ذٰلك؟

ـ لا أدري يا معلّم ولٰكنّه أمر لعين...

ـ الخلود؟

ـ مؤاخاة الجنّ!

ـ إنّك تخاف الخلود!

ـ يحقّ لي ذٰلك، تصوّر أن أبقى حتّى أشهد زوال دنياي، يذهب الناس رجالًا ونساء، وأبقى غريبًا وسط غرباء، أفرّ من مكان إلى مكان، أبيت مطارَدًا أبديًّا، أجنّ، أتمنّى الموت...

ـ وتحافظ على شبابك إلى الأبد؟

ـ وتنجب أبناء وتفرّ منهم، وكلّ جيل تعدّ نفسك لحياة جديدة، وكلّ جيل تبكي الزوجة والأبناء، وتتجنّس بجنسيّة الغربة الأبديّة، لا يربطك بأحد اهتمام أو فكر أو عاطفة...

وهتف جلال:

ـ كفى...

وضحك الرجلان طويلًا، وتمتم جلال:

ـ يا له من حلم...

ـ ٥١ ـ

كان شاور يقيم في بدروم كبير يقع أمام حوض الدوابّ مباشرة. متعدّد الحجرات، وبه للنساء قاعة استقبال، وللرجال قاعة. وهو شخصيّة خفيّة لم تقع عليها عين. يستقبل مريديه في حجرة مظلمة في الليل، فيُسمع صوته ولا يُرى له أثر. أكثر زبائنه من النساء ولكنّ الملمّات قد تدفع ببعض الرجال إلى حجرته المظلمة. يَسأل ويجيب ويقدّم الحلوان عادة إلى جارية حبشيّة تدعى حوّاء.

أرسل جلال في طلبه ولكنّ طلبه قوبل بالرفض، وقيل له إنّه يفقد خواصّه الساحرة خارج حجرته. كان على جلال إذن أن يتستّر، يتسلّل بليل إلى مقامه، متأخّرًا حتّى يضمن خلوّ المكان.

مضت به حوّاء إلى الحجرة. أجلسته على شلتة طريّة وذهبت. وجد نفسه في ظلام حالك. حملق فلم ير شيئًا كأنّما فقد الزمان والمكان والبصر. وقد نُبّه عليه أن يلوذ بالصمت، ألّا يبدأ بالكلام، أن يجيب على قدر السؤال. مضى الوقت ثقيلًا خانقًا. كأنّه يُنسى تمامًا. أيّ سخرية. لم يلقَ مهانة كهٰذه منذ تبوّأ عرش الفتونة. أين جلال الجبّار؟ حتّام يصبر وينتظر؟ الويل للإنس والجنّ إذا تمخّضت مغامرته عن لا شيء...

ـ ٥٢ ـ

انطلق من الظلام صوت عميق مؤثّر هادئ يسأل:

ـ اسمك؟

تنهّد في ارتياح وأجاب:

ـ جلال الفتوّة.

ـ أجب على قدر السؤال، اسمك؟

فوسّع صدره وأجاب:

ـ جلال عبد ربّه الناجي.

ـ على قدر السؤال اسمك؟

فأجاب بحدّة:

ـ جلال.

ـ اسم أمّك؟

غلى دمه بسرعة مخيفة. رأى رغم الظلمة ألوانًا جهنّميّة.

سأل الصوت بآليّة وتحدٍّ:

ـ اسم أمّك؟

أجاب كاظمًا:

ـ زهيرة.

ـ ماذا تريد؟

تردّد قليلًا ولكنّ الصوت لم يمهله فتساءل:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن أعرف ما يقال عن مؤاخاة الجنّ.

ـ ماذا تريد؟

ـ لقد قلت.

ـ ماذا تريد؟

فاجتاحه الغضب وتساءل منذرًا:

ـ ألم تعرف من أكون؟

ـ جلال بن زهيرة.

ـ أستطيع أن أطحنك بضربة واحدة.

ـ كلّا.

قيلت بكلّ ثقة وطمأنينة فهتف جلال:

ـ تريد أن تجرّب؟

فتساءل الصوت ببرود ولا مبالاة:

ـ ماذا تريد؟

لم يجب. لم يقدم على فعل. عاد الصوت:

ـ ماذا تريد؟

أجاب متنازلًا عن كلّ شيء:

ـ الخلود.

ـ لماذا؟

ـ هٰذا شأني.

ـ المؤمن لا يتحدّى إرادة الله.

ـ أريد ذٰلك وأنا مؤمن.

ـ إنّ ما تطلب خطير.

ـ فليكن.

ـ ستتمنّى الموت ولن تناله.

فقال بقلب خفّاق:

ـ ليكن.

سكت الصوت. هل ذهب؟ وقع مرّة أخرى في الضياع. تلهّف عليه بأعصاب ممزّقة. حملق بقوّة ولكنّه لم ير شيئًا.

- ٥٣ -

ورجع الصوت بعد عذاب. تساءل:

- أأنت على استعداد لتقديم ما يُطلب منك؟

أجاب بلا تردّد:

- أجل.

- أن تـوقف على جـاريتي حوّاء كـبرى عماراتـك للتكفير بريعها عن ذنبي.

تفكّر طويلاً ثمّ قال:

- أوافق.

- أن تشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق.

- في الزاوية؟

- كلّا.

- زاوية جديدة؟

- كلّا، مئذنة مستقلّة...

- ولكن...

- دون مناقشة.

- أوافق.

- عش عامًا كاملًا في جناحك، لا ترى أحدًا، لا يراك إلّا خادمك، تجنّب ما يذهلك عن نفسك...

فانقبض قلبه ولكنّه قال:

- أوافق.

- في اليوم الأخير يتمّ الالتحام بينك وبين الجنّيّ ثمّ لا تذوق الموت أبدًا.

- ٥٤ -

أوقف جلال عبد ربّه الناجي كـبرى عماراتـه على حوّاء الجارية الحبشيّة. اتّفق مـع مقاول عـلى تشييد المئذنة العملاقة في إحدى الخرابات، وقد امتثل الرجل لما يُطلب منه طمعًا في المال وخوفًا من البطش. وعهد بـالعصابـة إلى وكيله مؤنس العال مـزوّدًا إيّاه بكـافّة الإرشادات. أعلن عن عام اعتزاله معتـلًّا بأنّـه يوفي بنذر نذره. وقبع في جناحه يسجّل الأيّـام كما فعـل سماحة في مهجـره، متجنّبًا القـرعة والجـوزة وزينات الشقراء. ومنّى نفسه بالفوز في أكبر معركـة خاضهـا بشر.

- ٥٥ -

تلقّت زينـات الشقراء قـراره كأنّـه ضربة قـاتلة. قطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد، وبلا سبب مقنـع. إنّها المرارة والخوف واليأس. ألم يكونا كالزبدة والعسل حلاوة وامتزاجًا؟ وآمنت بأنّها ملكته إلى الأبد. ها هو يغلق الباب مثل دراويش التكيّة هاجـرًا أحبابـه في الحيرة والعذاب. بكت طـويلًا والخـدم يصدّونها عن الجناح. زارت أخاه المعلّم راضي فـوجدتـه في حيرة مماثلة. جالست أباه عبد ربّه في جناحـه. لقد تغـيّر العجوز فلم يعد يزور البوظـة إلّا فيما نـدر، استقام وخشع. وهو مثلها في حيرة من أمر ابنه. قال:

- لا أستطيع رؤيته رغم أنّنا في دار واحدة...

عانت زينات حياة معذّبـة. لم يكن المال ينقصهـا ولكنّها فقدت تـاج الحياة، تـزعزعت ثقتهـا بنفسها، وتجهّمها المستقبل الغامض.

- ٥٦ -

وجزعت العصابة واضطربت. لم يملأ مؤنس العال عين أحد ولكنّهم التزموا بطاعته. وتسـاءلوا أيّ نـذر نذره، ولِمَ يعهد بالفتونة لآخر، وتجارته وأملاكه لأخيه راضي؟

وتسرّب النبأ الخطير إلى الحواري المتنافسة، وبمرور الـزمن أعلن الفتوّات التحـدّي من جـديـد. وتلقّى مؤنس العال أولى هزائمه على يد فتوّة العطوف، ثمّ تتابعت الهزائم أمام كفر الزغاري والحسينيّة وغيرهما، حتّى اضطرّ مؤنس العال لشراء أمن الحارة وسلامتها بالإتاوات. وأراد رجاله إبلاغه بما آلَ الحال إليه ولكنْ حيل بينهم وبين ذلك، وكأنّه الموت قد انتزع فتوّتهم منهم ودفنه في جناح محكم الإغلاق.

- ٥٧ -

وتابع الناس بذهول بناء المئذنة الغريبة، وتواصل ارتفاعها إلى ما لا نهاية، من أصل ثابت في الأرض بلا جامع أو زاوية، لا يُعرف لها هدف أو وظيفة، حتّى الذي يقوم بتشييـدها لا يعـرف شيئًا عنهـا. وتساءل قوم:

ـ هل مسّه جنون؟

أمّا الحرافيش فقد قالوا إنّها اللعنة حلّت به جزاء خيانته لعهد جدّه العظيم، وتجاهُله لرجاله الحقيقيّين، وجشعه الذي لا يقنع بشيء.

ـ ٥٨ ـ

ومرّت الأيّام وهو مستغرق في عزلته. يقتلع كلّ يوم من قلبه جذور العالم الخارجيّ، الفتونة والمال والمرأة المحبّة الجميلة. يستسلم للصمت والوعي والصبر. يسلبه الأمل والفوز الذي لم يطمح إليه إنسان من قبل. عاشر الزمن وجهًا لوجه بلا شريك. بلا ملهاة ولا مخدّر. واجهه في جموده وتوقّفه وثقله. إنّه شيء عنيد ثابت كثيف وهو الذي يتحرّك في ثناياه كما يتحرّك النائم في كابوس. إنّه جدار غليظ مرهق متجهّم. غير محتمَل إذا انفرد بمنعزل عن الناس والعمل. كأنّنا لا نعمل ولا نصادق ولا نحبّ ولا نلهو إلّا فرارًا من الزمن. الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقّفه. عندما يدركه الخلود سيجرّب آلاف الأعمال بلا خوف وبلا كسل. سيخوض المعارك بلا تدبّر. سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة. سيتقلّد ذات يوم عمادة الأسرة البشريّة. أمّا اليوم وهو يزحف فوق الثواني فهو يبسط راحتيه سائلًا الرحمة... ويتساءل متى يجيء الجان، وكيف يؤاخيه، هل يراه رؤية العين، هل يسمع صوته، أم أنّه يلتحم به مثل الهواء الذي يتنفّسه. إنّه مرهق ضجر. لكنّه لن يلين للخور. لن يخسر المعركة. ليتألّم وليبكِ إذا شاء. إنّه مؤمن بما يفعل. لن يتراجع. لن يخشى الخلود. لن يعرف الموت. سيظلّ الكون خاضعًا لتقلّبات الفصول الأربعة أمّا هو فربيع دائم. سيكون طليعة كون جديد. أوّل مستكشف للحياة بلا موت. أوّل رافض للراحة الأبديّة. القوّة الظاهرة الخفيّة. إنّما يخشى الحياة الضعفاء، أمّا معاشرة الزمن وجهًا لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال...

ـ ٥٩ ـ

وقف جلال عاريًا أمام نافذة مفتوحة في آخر يوم من العام المكتوب. استقبل شعاع الشمس مغسولًا برطوبة الشتاء، وتلقّى نفحات باردة من ريح متأنّية. آنَ للمتصبّر أن يجني ثمرة تصبّره. آنَ لليل الضنى والإرهاق والوحدة أن ينتهي. لم يعد جلال عبد ربّه الإنسان الفاني. إنّه ثمل بروح جديدة تملأ أعطافه، تسكره بالإلهام، تنفحه بالقوّة والثقة. بوسعه أن يحدّث نفسه فيحدّث الآخر في آن، أن يثق كلّ الثقة بما يهمس في ضميره. انتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجهًا لوجه بلا رفيق. لا خوف منه بعد اليوم. فليهدّد غيره بجريانه المنحوس. لن يبتلي بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن. لن تخونه الروح، لن يحمله نعش، لن يضمّه قبر. لن يتحلّل هذا الجسد الصلب، لن يتحوّل إلى تراب. لن يذوق حسرة الوداع.

تجوّل عاريًا في الحجرة وهو يقول بطمأنينة:

ـ مباركة هذه الحياة الأبديّة...

ـ ٦٠ ـ

فُتح الباب بعصبيّة واقتحمت الحجرة زينات الشقراء. طارت نحوه مجنونة بالأشواق فذابا في عناق حارّ طويل. انتحبت باكية. سألته بعتاب حارّ:

ـ ماذا فعلت؟

قبّل خدّيها وشفتيها فعادت تتساءل:

ـ كيف هنت عليك؟

اجتاحه الحنين إليها. شيء ثمين جميل عابر. يراها شابّة جميلة وعجوزًا دميمة. كذبة عذبة. كأنّ الإخلاص أصبح مستحيلًا. قال لها:

ـ لننس ما فات...

ـ ولكنّي أريد أن أعرف...

ـ كأنّه مرض وانتهى...

ـ يا لك من خائن...

ـ يا لك من امرأة مليحة...

ـ أتدري ماذا حصل للدنيا في غيابك؟

ـ فلنؤجّل الحديث عن ذلك...

فتراجع رأسها وقالت بانبهار:

ـ ما أجمل منظرك!...

فانقبض قلبه وتمتم وهو يرمقها برثاء:

ـ آسف على ما عانيت...

فقالت بعناد:

ـ سأستردّ صحّتي في ساعات... ولكن ما سرّك؟

فقال بعد تردّد:

ـ كنت مريضًا وشفيت...

ـ كان ينبغي أن ألزم جانبك...

ـ كان العلاج هو الوحدة!

وضمّته إلى صدرها وهي تقول بشغف:

ـ دعني أرى إن كان الحبّ ما زال هو الحبّ...

أمّا آلامي وأحزاني فسأحدّثك عنها فيما بعد...

ـ ٦١ ـ

جلس في بهو الضيوف فاستقبل المعلّم عبد ربّه والمعلّم راضي في عناق صادق، وسرعان ما جاء مؤنس العال ورجال العصابة. قبّلوه باحترام وقال له مؤنس محزونًا:

ـ ضاع كلّ شيء لم يكن باليد حيلة...

وفي موكب من رجاله خرج إلى الحارة، ومضى إلى المقهى، اجتمعت الحارة كلّها في الطريق تحيّيه فاختلط المحبّ بالكاره، والمعجب بالحاسد. ومال نحو مؤنس العال فسأله:

ـ ألم يظنّ أحد بي الجنون؟

فهتف الرجل:

ـ أعوذ بالله يا معلّم...

فقال له وهو يرمق الجمهور بازدراء:

ـ فليذهبوا إلى أعمالهم مشكورين...

ثمّ غمغم:

ـ ما أكثر الكره وما أقلّ الحبّ!

ـ ٦٢ ـ

وزار المئذنة ويصحبته عبد ربّه وراضي. رسخت قاعدتها وسط خرابة، وأزيل الحصى والقاذورات ممّا حولها. قاعدة مربّعة في مساحة بهو ذات باب خشبيّ مقوّس مصقول. ويواصل جسمها المتين ارتفاعه، لا تُرى له قمّة، لا يعلوه بناء، ويعلو أضعافًا فوق كلّ شيء، توحي أضلاعه بالقوّة، ولونه الأحمر بالغرابة والرعب.

وتساءل عبد ربّه:

ـ لو سلّمنا بأنّها مئذنة فأين الجامع؟

فلم يجب، فقال راضي:

ـ كلّفتنا مبلغًا طائلًا...

وعاد الأب يسأل:

ـ ما معنى هذا يا بنيّ؟

فضحك جلال وقال:

ـ الله أعلم...

ـ منذ تمّ بناؤه ولا حديث للناس سواه...

فقال جلال بازدراء:

ـ لا تهتمّ بالناس، إنّه من النذر يا أبي، وقد يرتكب الإنسان حماقات كثيرة ليبلغ في النهاية حكمة فريدة...

وهمّ الأب بمعاودة السؤال ولكنّه سبقه بنبرة قاطعة:

ـ انظر، ها هي المئذنة، سيفنى كلّ شيء في الحارة وتبقى هي، اطرح عليها أسئلتك وسوف تجيبك إذا شاءت...

ـ ٦٣ ـ

وانفرد بالمعلّم عبد الخالق العطّار وسأله بجدّيّة مخيفة:

ـ ماذا ظننت باعتزالي؟

فقال الرجل بصدق وقلبه يخفق بالخوف:

ـ ردّدت قولك بلا زيادة.

ـ وماذا ظننت بالمئذنة؟

فقال الرجل بعد تردّد:

ـ لعلّها من النذر يا معلّم...

فسأله متجهّمًا:

ـ ألست رجلًا حكيمًا يا عبد الخالق؟

فبادر الرجل يقول:

ـ إن تفشّت همسة واحدة فاعتبرني المذنب!

- ٦٤ -

في جوف الليل تسلّل إلى المئذنة. رقي سلّمها درجة درجة حتّى انتهى إلى شرفتها العليا. تحدّى جوّ الشتاء القارص في تسلّطه الشامل على الوجود. تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم الساهرة المنتشرة فوقه كمظلّة. آلاف الأعين تومض فوقه، وكلّ شيء تحته غارق في الظلام. لعلّه لم يصعد ولكنّ قامته طالت كما ينبغي لها. عليه أن يرتفع، أن يرتفع دائمًا، فلا سبيل إلى النقاء إلّا بالارتفاع وفوق القمّة تسمع لغة الكواكب، وهمسات الفضاء، وأماني القوّة والخلود، بعيدًا عن أنّات الشكوى والخور وروائح العفن. الآن تشدو ألحان التكيّة بأغنيات الخلود، وتعرض الحقيقة العشرات من وجوهها الخفيّة، وينكشف الغيب عن شتّى المصائر. من هذه الشرفة يستطيع أن يتابع الأجيال في تعاقبها، وأن يلعب لكلّ جيل دورًا، وأن ينضمّ بصفة نهائيّة إلى أسرة الأجرام السماويّة...

- ٦٥ -

وقاد رجاله ليؤدّب أعداءه وليعيد إلى حارته مكانتها السابقة. في فترة قصيرة أحرز انتصارات باهرة على العطوف والحسينيّة وبولاق وكفر الزغاري والدراسة. كان يرمي بنفسه على خصومه فيتطايرون أمامه تسحقهم الهزيمة والذلّ. عرف بأنّه القوّة التي لا تقاوَم، التي لا تجدي معها قوّة أو شجاعة...

- ٦٦ -

وتغيّر أسلوبه في الحياة. أصبح يأكل فيفرط في الأكل، ويشرب فيفرط في الشرب، ويدخّن فيفرط في التدخين. وكلّما غازلته غانية استجاب لها مستعينًا بالسرّيّة والستر، وسرعان ما تحرّر من سطوة زينات فلم تعد إلّا وردة جميلة في حديقة ملأى بالورود. وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشتعل بجوانحها جنون الغيرة والخسران، ورأت وجهها في مرآة المستقبل متلاشيًا في ظلمة النسيان والضياع. طالما وجدت فيه الطفل البريء ذا المذاهب الخارقة. وفتحت لها براءته أبواب الأمل البعيد، فضمنت الحبّ وطمحت إلى الزواج. ولعلّ السلوّ عن الحياة نفسها أهون من السلوّ عنه وقد تجسّدت فيه القوّة والجمال والشباب والعظمة غير المحدودة. ولكنّه خرج من عزلته مخلوقًا آخر. مخلوق يبهر بالقوّة والجمال، ويرعب بالتقلّب والجنون والحنكة والاستهانة. وشعرت بأنّها تدقّ وتنحل وتتضاءل، بل وتتلاشى أمام سيادته المرعبة المجهولة. ولم تجد ما تتذرّع به حياله إلّا الضعف والابتهال والهزيمة، ولكنّه اعترضها بنعومة متكبّرة، معتزّة بشموخها، متعطّفة بحنان بارد، متحصّنة بتعالٍ لا متناهٍ، وقال لها:

- اقنعي بمنزلة تُحسدين عليها...

ورأت أنّها تذبل بقدر ما يزدهر، وأنّهما ينطلقان في طريقين متضادّين، فاحتقن قلبها بالحبّ والتعاسة...

- ٦٧ -

ورُزق عبد ربّه الأب بذكر سمّاه خالد. وسرعان ما تاب وأقلع عن البوظة بصفة نهائيّة، ووجد سروره في الصلاة والعبادة، فاتّخذ من الشيخ خليل الدهشان نجيّه وصديقه...

وداخله قلق مرعب من ناحية جلال وقلق أشدّ من ناحية المئذنة المخيفة. خيّل إليه أنّ علاقة الأبوّة تنهتّك، وأنّ ابنه أصبح غريبًا لا يمتّ إليه بصلة، بل أصبح غريبًا بين الناس غرابة المئذنة بين الأبنية. إنّه مثلها قويّ وجميل وعقيم وغامض. وقال له:

- لن يطمئنّ قلبي حتّى تتزوّج وتنجب...

فقال جلال:

- في الوقت متّسع يا أبي...

فقال بتوسّل:

- وحتّى تبعث عهد الناجي العظيم...

فابتسم ولم يجب، فقال الأب:

- وحتّى تتوب عن المنكر وتتبع سبيل الله...

وتذكّر ماضي أبيه القريب والبعيد فقهقه بصوت كالطبل.

- ٦٨ -

مرّت الأيّام لا يخشى من مرورها. وتتابعت

الفصول بلا جزع. وارتفعت الإرادة الصلبة فوق قوى الطبيعة المتصارعة. ولم يعد الغيب يضمر ما يخيف.

وفي هاوية اليأس والحزن تلقّت زينات الشقراء دعوة للحبّ، طالما انتظرتها، طالما تلهّفت عليها، طالما تهيّأ لها قلبها المكلوم.

ها هو يجود بليلة من لياليه، وها هي تمضي إلى داره ينطلق ظاهرها بالرضى والقناعة. وفتحت النوافذ وانجابت الستائر لتوسع لنسائم بشنس. لقيته بالبشر والمرح وكتمت في الأعماق أحزانها. تعلّمت أن تعامله بحذر الخائف، فراحت تعدّ الشراب وتقدّم الأقداح، وتهمس في أذنه:

ـ اشرب يا حبيبي...

فيقول لها وهو يعبّ من الخمر عبًّا:

ـ ما ألطفك!

وقالت لنفسها إنّه فقد قلبه كما فقد براءته، وإنّه يتباهى وهو لا يدري بقسوته مثل الشتاء، وقالت لنفسها أيضًا إنّها تنتحر بوعي وإرادة...

ورمقها وهو يتوغّل في السكر، وتمتم:

ـ إن صحّ نظري فلستِ كالعهد بكِ...

فقالت بعذوبة:

ـ إنّه وقار الحبّ...

فضحك قائلًا:

ـ لا وقار لشيء...

وعابث خصلة من شعرها الذهبيّ وقال:

ـ ما زلتِ في أعزّ مكانة ولكنّك امرأة طموحة...

فاندفعت قائلة:

ـ ما أنا إلّا امرأة حزينة...

ـ تذكّري نصائحك الغالية عن قِصَر الحياة...

ـ كان ذلك في زمان الحبّ...

ـ ها أنا أعمل بها فشكرًا لك...

وقالت لنفسها إنّه لا يدري ما يعنيه كلامه، وإنّها تعلم الغيب أكثر منه بقيراط، وإنّ الشرّ يرفع الإنسان على رغمه إلى مرتبة الملائكة. ورنت إليه طويلًا بشغف وهي تقاوم رغبة في البكاء. واستنامت إلى نسائم بشنس وقالت لنفسها إنّه شهر غدّار، سرعان ما تدهمه الخمسين فينقلب شيطانًا مغبرًا يفتك بالربيع.

واحتواها بين ذراعيه فضمّته إلى صدرها بقوّة جنونيّة...

ـ ٦٩ ـ

تخلّص من ذراعيها ومضى ينزع عنه ملابسه حتّى بدا كتمثال من نور. ونهض قائمًا. راح يتمشّى في المخدع، وسرعان ما ترنّح حتّى ضحك. قالت:

ـ شربت بحرًا...

ـ ما زلت ظمآن...

فغمغمت كأنّما تخاطب نفسها:

ـ ذهب زمان الحبّ...

وترنّح متطوّحًا حتّى تهاوى فوق ديوان. وضحك عاليًا. قالت:

ـ إنّه السكر...

فقال متجهّمًا:

ـ كلّا، شيء أثقل، كأنّه النوم...

حاول القيام ولكنّه استسلم متمتمًا:

ـ إنّه النوم يجيء بلا دعوة...

عضّت على شفتها. هكذا سينتهي العالم ذات يوم. وأتعس الناس من ينشد النصر في الهزيمة.

وقالت له بصوت مبحوح:

ـ حاول أن تنهض.

فقال بتراخٍ وقور:

ـ لا داعي لهذا...

ـ ألا تستطيع يا حبيبي؟

ـ بلى، إنّها نار الجحيم والنوم...

فانتفضت قائمة. تراجعت إلى مركز المخدع وهي تنظر إليه بوحشيّة حلّت محلّ العذوبة الحزينة. أصبحت قطعة من التحفّز المشرب بالمرارة والحزن. نظر نحوها بعينين غائمتين، حوّل بصره إلى لا شيء، قال بنفس ثقيل:

ـ ما بال النوم يزحف!

فقالت بنبرة اعتراف مقدّسة:

ـ ليس النوم يا حبيبي...

ـ لعلّه الثور الذي يحمل الدنيا على قرنه؟

ـ ولا هو الثور يا حبيبي...

- إنّك مضحكة يا زينات، لماذا؟

- بل إنّي أنتحر...

- هه؟

- إنّه الموت يا حبيبي!

- الموت؟...

- لقد جرعتُ من السمّ ما يكفي لقتل فيل...

- أنتِ؟

- أنتَ يا حبيبي...

وضحك ولكنّه سرعان ما كفّ عن الضحك في إعياء فقالت وهي تبكي:

- قتلتك لأقتل حياة العذاب!

حاول الضحك مرّة أخرى وتمتم:

- جلال لا يموت...

- الموت يطلّ من عينيك الجميلتين...

- الموت مات يا جاهلة...

واستجمع كلّ قوّته حتّى وقف ممتدًّا في فضاء الحجرة. تراجعت إلى الوراء في رعب، ثمّ اندفعت هاربة مجنونة...

- ٧٠ -

كأنّه يحمل المئذنة المرعبة فوق كاهله. الموت ينطحه كما ينطح أيّ حيوان أعمى صخرة صلدة. وهتف بلا خوف:

- ما أشدّ الألم!

سار مترنّحًا نحو الخارج وهو عارٍ تمامًا. تمتم وهو يغادر الدار إلى ظلام الحارة:

- جلال يتألّم ولكنّه لا يموت...

تقدّم ببطء شديد يخوض الظلمة الحالكة مغمغمًا بصوت غير مسموع:

- النار... أريد ماء...

وجعل يتحرّك في الظلام ببطء شديد، يغمغم متشكّيًا وهو يعتقد أنّه يملأ الدنيا صياحًا. وتساءل أين الناس؟... أين الأتباع؟... أين الماء؟... أين زينات المجرمة؟... وقال إنّه الكابوس في ثقله وسماجته ولكنّه ليس الموت، القوى المجهولة تعمل الآن بكلّ طاقتها لتردّه إلى الحياة والسخرية... ولكن ما أشدّ الألم! ما أفظع الظمأ!

وعثر في تخبّطه بجسم بارد، آه إنّه حوض الدوابّ. اجتاحته فرحة النجاة. انحنى فوق حافة الحوض. فتهاوى إلى أسفل. مدّ ذراعيه فغرقتا في الماء. لامست شفتاه الماء المشبع بالعلف. شرب بنهم. شرب بجنون. صرخ صرخة مدوّية ممزّقة بوحشيّة الألم. غاص نصفه الأعلى في الماء العكر، تقوّض نصفه الأسفل فوق أرض مغطّاة بالروث، كفّنته الظلمة الحالكة في تلك الليلة المثيرة المفزعة من ليالي الربيع...

الأشباح

الحكاية الثامنة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

دهر طويل كان ينبغي أن يمرّ قبل أن تنسى الحارة منظر جثّة جلال المنطرحة على حافة حوض الدوابّ. جثّة عملاقة بيضاء ملقاة بين العلف والروث. هيكلها العظيم يوحي بالخلود، سلبيّتها المتهافتة تشهد بالفناء وفوقها يتشبّع الجوّ على ضوء المشاعل بالسخرية المرعبة.

انتهى القويّ الشامخ في عنفوان شبابه. تلاشى ظلّه ذو المائة عين والألف قبضة. حمله أبوه عبد ربّه وأخوه راضي إلى داره العظيمة. شُيّع في جنازة مهيبة إلى قبر شمس الدين الناجي. خُلّد ذكراه في سجلّ الفتوّات العظام بالرغم من صفاته الشيطانيّة.

يذهب الإنسان بخيره وشرّه ولكن تبقى الأساطير.

- ٢ -

تولّى الفتونة بعده مؤنس العال. ورغم ما خلّفه موت جلال من ارتياح عامّ إلّا أنّ الحارة فقدت توازنها وداهمتها مخاوف جديدة. وسرعان ما نزلت عن مكانتها المرموقة فمضت في ركب الحيّ حارة من الحارات، وتلاشت فتونة فتوّة الفتوّات، وراح مؤنس العال يهادن ويصادق، أو يخوض معارك خاسرة، ويضطرّ أحيانًا لشراء السلامة بالإتاوة والهدايا، أمّا داخل الحارة فلم يتصوّر أحد أن يُخلص مؤنس العال للعهد الذي خانه جلال حفيد الناجي ومعجزة القوّة والنصر.

- ٣ -

وورث التركة الضخمة رجلان، الأب عبد ربّه، والأخ راضي. وعُلّل موت جلال بإفراطه في الخمر والمخدّرات. أمّا انطراحه بين العلف والروث عاريًا فاعتُبر جزاءً إلهيًّا لصلفه وشموخه وتعاليه على البشر. وبقيت المئذنة بلا وريث، متهادية في الضخامة والارتفاع والعقم، آية على الغطرسة والجنون.

- ٤ -

وبعد حين فتح المعلّم عبد الخالق العطّار فاه. همس بالمغامرة العجيبة، بمؤاخاة الجان، بدور الرجل الغامض شاور. هكذا ذاع السرّ وتناقله الناس، وأكّدت زينات الشقراء الظنون بما روت عنه من اعتقاده بأنّه لا يموت. واختفى شاور وجاريته هربًا من غضب الخلق. واقترح كثيرون هدم المئذنة ولكنّ الأغلبيّة خافت أن يكون الجنّيّ قد سكنها حقًّا، فيخشى على الحارة من هدمها أن يلحقها من الأذى ما لا يدريه البشر. هكذا تُركت، يتجنّبها القوم، يلعنها الرائح والغادي، تمتلئ جوانحها بالحيّات والخفافيش والعفاريت.

- ٥ -

وقال الحرافيش إنّ ما حلّ بجلال هو الجزاء العادل لمن يخون عهد الناجي العظيم. من ينسى دعاءه الخالد بأن يهبه الله القوّة ليجعلها في خدمة الناس. وعندما

يخون حفدة الناجي عهده تحلّ بهم اللعنة ويفتك بهم الجنون. حتّى المعلّم عبد ربّه ناله من ازدراء الحرافيش ما ناله، وكذلك المعلّم راضي، ولم يغنِ عنهما مالهما الغزير.

- ٦ -

وعاشت زينات الشقراء فترة من الرعب والترقّب ولكنّ أحدًا لم يشر إليها باتّهام. حتّى مَن ساوره شكّ في دورها تغاضى عن ظنونه حامدًا لها فعلها المجهول. ولم تنعم المرأة بانتقامها، فعاشت وحيدة زاهدة بلا قلب ولا راحة. واكتشفت عقب موت جلال بفترة من الزمن أنّ حبّها قد خلق في بطنها ثمرة فحرصت عليها بقوّة حبّها الخالد، وملكها شعور بالفخار رغم أنّها ثمرة غير مشروعة. وأنجبت ذكرًا فسمّته جلال بكلّ جراءة وصراحة متحدّية به التقاليد.

- ٧ -

ووهبته حُبَّيْنِ، حبّ الأمومة، وحبّ العاشقة الخالدة لأبيه الراحل. ونشأ جلال في أحضان أمّه حياة متواضعة، آثرتها أمّه على العودة إلى حياة الغانيات، ولم تنس قطّ أنّه الوريث الحقيقيّ لتركة جلال الخياليّة. وسعت إلى المعلّم عبد ربّه، ثمّ إلى المعلّم راضي، لينزلا للصغير عن شيء من ماله ولكنّهما قاطعاها بحدّة دلّت على أنّهما يتّهمانها بدور فاصل في مصرع جلال. وقال المعلّم راضي:

- امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أبًا لابنها!

- ٨ -

وترعرع جلال كابن من أبناء الحارة، مجهول النسب، يشار إليه باعتباره ابن حرام، كما كان يشار إلى أبيه باعتباره ابن زهيرة. ولكنّ نموّه المطّرد أثبت لكلّ ذي عينين أنّه ابن جلال دون غيره. أجل لم يكن له قوّته ولا جماله ولا عملقته ولكن لا يخطئ أحد في ربط الصورة المتواضعة بالأصل البارّ.

- ٩ -

ودخل جلال الكتّاب عامين، ثمّ عمل سوّاقًا عند «الجدع» صاحب العربات الكارو. وكانت زينات قد أنفقت مدّخرها فلم تستطع أن توفّر لجلال عملًا أفضل، وكانت فخورًا بابنها كما كانت فخورًا بصبرها واستمساكها بالحياة الشريفة. ورغم تجاوزها للأربعين كانت ما تزال على قدر من الجمال جعل المعلّم الجدع يطمع في ضمّها إلى حريمه. لم ترحّب زينات برغبة المعلّم وخافت في الوقت نفسه أن يسيء معاملة ابنها، ولكنّ الرجل نبذ رغبته عندما قال له مجاهد إبراهيم شيخ الحارة الذي خلف خليل الفصّ بعد وفاته، قال:

- كيف تركن لامرأة قتلت ذات يوم رجلها؟!

وعرف جلال - مع الأيّام - أنّه ابن جلال صاحب المئذنة وحفيد زهيرة، وأنّ عبد ربّه جدّه، والوجيه راضي عمّه، عرف تاريخه الحزين كما عرف تاريخ الناجي، ولبسه لقب ابن الحرام كقدر لا مفرّ منه ولا تكذيب له. وقال له المعلّم الجدع ذات يوم:

- إيّاك أن تعمد إلى العنف، اصبر وما صبرك إلّا بالله، وإلّا فابحث عن رزقك في مكان آخر...

وقال له الشيخ سيّد عثمان شيخ الزاوية (خليفة المرحوم الشيخ خليل الدهشان):

- مؤنس العال يرقبك باهتمام باعتبارك من حفدة الناجي، حذار أن تستغلّ قوّتك فتهلك...

فصبر جلال مؤثرًا السلامة، واستحقّ باجتهاده وأمانته تقدير الجدع...

- ١٠ -

وتمرّ الأيّام وتنبت من جديد آمال. تشجّعت زينات بعطف الجدع على جلال وراحت تخطب له عفيفة ابنة المعلّم. وكان الرجل فظًّا صريحًا عندما أجاب قائلًا:

- جلال ولد طيّب ولكنّي لا أزوّج ابنتي من ابن حرام...

وبكت زينات منفعلة أمّا جلال فقد تحمّل الطعنة صابرًا...

- ١١ -

ومات الجدع عقب تناوله صينيّة فول بالخلطة وصينيّة كنافة بالقشدة، وقد تجاوز السبعين من عمره. وانتظرت زينات عام الحداد ثمّ طلبت عفيفة من أمّها فوافقت المرأة بناء على ما آنست من ميل ابنتها للفتى...

هكذا زُفّت عفيفة الجدع إلى جلال عبد الله.

- ١٢ -

وبالزواج ترقّى جلال عبد الله من سوّاق كارو إلى صاحب كارو وإن لم تكن عفيفة هي المالكة الحقيقيّة. أحسن الإدارة وتحسّنت أحواله المعيشيّة ثمّ توّج حظّه بالأبوّة. وتتابعت أيّام مريحة أنجب فيها بنات، ثمّ رُزق بذكر سرعان ما أسماه شمس الدين جلال الناجي. أعلن بالتسمية عن كبريائه الدفين مثل النار في الصوّان. وسلّم الجميع بصدق التسمية غير أنّ آل الناجي الأكابر - مثل الوجيه راضي - امتعضوا لها، أمّا الحرافيش وسائر الناس فلم ينسوا أنّ جلال الأب ابن غير شرعيّ للمجنون صاحب المئذنة الشيطانيّة. وقال عنبة الفوّال صاحب البوظة وخليفة المرحوم سنقر الشمّام:

- ما أكثر الذين يسمّون بعاشور وشمس الدين في حارتنا!

أجل لم يبق من تراث الناجي الخالد إلّا الأسماء. أمّا العهود والأفعال فتعيش في الخيال مع الأساطير والمعجزات المسربلة بالحسرات.

- ١٣ -

وتمرّ أيّام رتيبة ومريحة في حياة جلال عبد الله وأسرته. ويُعرف الرجل بالطيبة والأمانة وحسن الخلق والورع. ويتوفّر له الرزق، ويعشق العبادة، ويصبح من أقرب المقرّبين للشيخ سيّد عثمان شيخ الزاوية، وتتوثّق علاقته بزوجته عفيفة ويقنع بمعاشرتها، ويحسن تنشئة شمس الدين، ويظلّ الابن البارّ لأمّه زينات رغم ما أورثته من سوء سمعة وألم. وتدلّ البشائر على أنّ هذه الأسرة ستشقّ طريقها في يسر وبلا تاريخ...

- ١٤ -

عندما بلغ المعلّم جلال عبد الله الخمسين من عمره انقلب حاله ودهمته العجائب من زوايا المجهول. في البدء كانت وفاة أمّه. ماتت زينات فجأة عن ثمانين عامًا. ومن عجب أنّ جلال - رغم كهولته ورغم شيخوخة أمّه - قد صُدم صدمة عنيفة زعزعت توازنه. رُئي في الجنازة وهو يبكي وينتحب، ثمّ غشيته كآبة ثقيلة خنقته ثلاثة أشهر حتّى ظُنّ به التدهور. ولم يُفهم حزنه وسخر منه كثيرون. وهو نفسه كان يقول إنّه طالما أحبّها حبًّا جمًّا ولكنّه ما كان يتصوّر أن يفعل به موتها ما فعل. أمّا الأعجب من ذلك فهو ما حصل له عقب انقشاع الكآبة. لقد وُلد شخص جديد مجهول الأصل. كأنّما قذفه قبو مسكون بالعفاريت. تبدّى له حبّه لأمّه عاطفة غريبة مضلّلة كأنّها سحر أسود، تبخّرت في الهواء مخلّفة حجرًا باردًا شديد القسوة. أصبح يثور لذكراها ويلعنها. لم يبق في قلبه أثر لحزن أو برّ أو وفاء. وثمّة صوت يهمس له في ذهوله بأنّها كانت ينبوع العداوة والمقت في حياته، وأنّه ضحيّتها الأبديّة. وتساءل ذات يوم:

- هل حزنت لموتها حقًّا؟... يا لها من نزوة جنونيّة أمام الموت!

ومرّة كان يجالس مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال له:

- كانت أمّي ذات صفات كريهة وسمعة سيّئة ونوايا خبيثة...

فدهش شيخ الحارة وقال له:

- لا أكاد أصدّق أذنيّ...

- أومن الآن بأنّها حقًّا قتلت أبي، وقد كانت عربيدة مدمنة للمخدّرات. إنّي أتقزّز من ذكراها...

- اذكروا حسنات موتاكم...

فهتف بحقد لم يُعرف عنه:

- لا حسنة واحدة لها!

ثمّ بغيظ أشدّ:

- لقد تمتّعت بعمر طويل مريح لا تستحقّه...

- ١٥ -

وتغيّر سلوكه فيما يشبه الانهيار.

كفّ عن الصلاة، هجر الزاوية، ماج بانفعالات عنيفة. وإذا به يقتحم البوظة لأوّل مرّة في حياته. كان هناك الفتوّة مؤنس العال وبعض رجاله فلمّا رآه صاح ساخرًا:

- أخيرًا عرف الحمار الضالّ حظيرته...

وضجّ الحاضرون بالضحك أمّا جلال فابتسم في شيء من الارتباك ثمّ رفع القرعة إلى فيه الظمآن.

وسأله مؤنس العال:

- ماذا أغراك بتقليد الرجال؟

فقال بسرور:

- الاقتداء بالرجال شرف يا معلّم...

ولّما انصرف الفتوّة راح جلال يغنّي:

على باب حارتنا حسن القهوجي

وسكر وانبسط وراح يقول:

- حلمت أمس بأنّني تسلّلت إلى مئذنة أبي، وأنّ شخصًا جميلًا صعد بي إلى شرفتها العليا، ثمّ دعاني إلى ملاعبته الحجلة فرحت أحجل حتّى اختلّ توازني فسقطت من الفتحة العالية. ولكنّني لم أصب بأدنى أذى...

فقال له عنبة الفوّال الخمّار:

- خير ما تفعل أن تجرّب ذلك في يقظتك...

فراح يغنّي من جديد:

باسمع نغم بالليل   عشق البنات البكارى

هدّ منّي الحيل

- ١٦ -

وجد عفيفة مستيقظة تنتظر. لم يسبق له مثل هذا السهر. وتطايرت إلى أنفها رائحة البوظة فضربت صدرها براحتها هاتفة:

- سكران...

فراح يرقص ويقول:

- أنا جدع يا بنت الجدع.

- ١٧ -

وذاعت أخباره فعجب الناس وقالوا «مجنون ابن مجنون». واعترضه الشيخ سيّد عثمان ذات يوم وسأله:

- ماذا قطعك عنّا؟

فلم يجبه فسأله بأسًى:

- أحقّ ما يقال عنك؟

فهجره ماضيًا في سبيله.

- ١٨ -

وكان إذا سكر وفقد الوعي تقتحمه مغريات جديدة كأنّما تتفجّر عنها غرائز رجل آخر. كان ينجذب إلى البنات المراهقات أو مَن دونهنّ بقليل، بقوّة غشوم، فيعاكسهنّ ويغازلهنّ، وإذا خلا إلى إحداهنّ انبثق في إهابه وحش نهم. لذلك كان يتحاشى السكر في النهار خشية العواقب، ويتسلّل ليلًا إلى الخرابات مثل ذئب جائع...

وقادته قدماه ذات ليلة إلى مسكن «دلال» الغانية، وانفرط منه الزمام...

- ١٩ -

غدا رجل الانحلال والفضائح. أوتي قوّة كبيرة على الاستهانة بكلّ شيء. ولعلّ ما ربطه بدلال أنّها كانت صغيرة السنّ وذات وجه مطبوع بطابع الطفولة، وأنّها كانت تتسامح في نزواته الغريبة فتوفّرها له بدلًا من أن تقصيه عنها أو تعنّفه بسببها. وقالت له مرّة بصراحة:

- إنّي أحبّ الجنون فلا يهمّك ما يقال!

فهتف جلال:

- أخيرًا عثرت على امرأة عظيمة مثل جدّتي زهيرة!

وانطرح على ظهره في تراخٍ وارتياح وراح يعترف لها قائلًا:

- استيقظت ذات صباح فوجدتني سكران بلا خمر، وكان يخفق بصدري قلب حديد. كرهت حاضري وذكرياتي، حتّى التجارة والربح، ومشاكل البنات المتزوّجات، وكرهت امتثال ابني شمس الدين الذي يعمل سوّاقًا عندي وكأنّه حمار يسوق حمارًا، وكرهت أمّه التي يمضي محصّنًا ببركاتها، ورأيتها تستنزفني بلا

وجه حقّ، كما استنزفتني أمّي من قبل بطريقة أخرى، وثار القلب والعقل والكبد وأعضاء التناسل وهتفت بشرى للشياطين. . .

فقالت دلال ضاحكة:

- إنّك ألذّ رجل في العالم. . .

فقال بثقة:

- سمعت أنّ الرجال يولدون من جديد في سنّ الخمسين. . .

فقالت بيقين:

- ومرّة أخرى في الستّين. . . والسبعين. . .

فتأوّه قائلًا:

- لولا غيرة امرأة شرّيرة لخلد أبي وحطّم كأس المنون. . .

فقالت له دلال:

- لولا أنّك معجزة ما أحببتك قطّ. . .

- ٢٠ -

تتابعت الضربات وانهالت بعنف على رأس عفيفة. تقوّضت دنياها، تبدّد حلمها، تبخّرت سعادتها، اعتقدت أنّ «عملًا» عُمل لزوجها فطافت بأضرحة الأولياء وقرّاء الغيب، التزمت بكلّ نصيحة نُصحت بها، ولٰكنّ جلال توغّل في ضلاله بلا هوادة. لقد أهمل عمله أو كاد، واظب على السكر والعربدة، التصق بدلال، استباح كرامته في مغازلة البنات.

لولا الخوف من العواقب لفكّرت في أن تشكوه إلى مؤنس العال. ولم تجد في حزنها ووحدتها إلّا ابنها شمس الدين فبثّته حزنها ومأساتها، وقالت له:

- حدّثه يا شمس فربّما لان لك.

وكان بين عفيفة وشمس الدين علاقة حميمة فاقت كلّ تصوّر، فحزن الفتى لأمّه، حزنه على سمعته وكرامته. وتشجّع فصارح أباه بأحزانه ولٰكنّ الرجل غضب، وهزّه بعنف، قائلًا:

- أتريد أن تربّيني يا ولد؟!

فانطوى الفتى على أحزانه. كان يماثل أباه في قوّته وملاحته وأخلاقه المأثورة التي تقوّضت فجأة. ولم يدر ماذا يفعل، وراح يعاني ثورة من عواطفه تتحدّى بنوّته وبرّه ودماثته. ولم تكفّ أمّه عن شكواها، فتلقّى منها نفحات متواصلة من المرارة والحنق. وطالما حذّرته:

- سيبدّد كلّ شيء، سيتركك متسوّلًا. . .

وبدا له أنّ أسرته تعاني من لعنة أبديّة، تستعين بالجنون والدعارة والموت. وتقلّص قلبه فأخذ يجفّ من الوفاء والحبّ، ويتحدّى المجهول بالقوّة والقهر. وعجب متسائلًا:

- لِمَ قبلت أمّي الزواج من مثل هٰذا الرجل؟

- ٢١ -

وجعلت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ كعقود نهار الصيف الماضية نحو الظهيرة المتلظّية. وأخذ قلب شمس الدين يتلوّن بالسواد ويتشرّب بالرفض والحنق. وترامى إليه وهو جالس في القهوة أنّ أباه يرقص في البوظة شبه عارٍ. وجُنّ الفتى فانطلق من فوره إلى البوظة بقلب محزون وإرادة مصمّمة. رأى أباه وهو يرقص وليس عليه إلّا سرواله. والسكارى يصفّقون ويغنّون:

عومي على الميّه

لم يتنبه المعلّم جلال لمقدم ابنه فواصل الرقص في غاية من الانسجام. ورأى بعض السكارى شمس الدين فكفّوا عن التصفيق والغناء داعين الآخرين إلى ذٰلك وقال أحدهم بإغراء شرّير:

- فلنشهد منظرًا طريفًا!

وبتوقّف التصفيق والغناء توقّف المعلّم جلال عن الرقص محتجًّا. وعند ذاك انتبه إلى وجود ابنه، كما فطن إلى غضبه وتحدّيه فغضب بدوره وصاح به متسائلًا:

- ماذا جاء بك يا غلام؟

فقال شمس بأدب:

- تفضّل يا أبي بارتداء ملابسك. . .

فصاح المخمور:

- ماذا جاء بك يا وقح؟!

فقال بإصرار:

- أتوسّل إليك أن ترتدي ملابسك.

فانقضّ عليه مترنّحًا ولطمه لطمة شديدة صفّقت في

البوظة الصامتة، وصاح أكثر من صوت في تحريض وسرور:

- عفارم!

وانهال الرجل على ابنه لطمًا حتّى خارت قواه من شدّة السكر فتهاوى على الأرض فاقد الوعي...

وندّت ضحكة ثمّ ساد الصمت وقال صوت:

- قتلت أباك يا شمس الدين...

وقال آخر:

- حتّى الشهادة لم ينطق بها!

وانكبّ شمس الدين على أبيه يلبسه ثيابه، ثمّ حمله بين يديه، ومضى به مشيّعًا بقهقهات غليظة ساخرة.

- ٢٢ -

أفاق المعلّم جلال بعد قليل فوق فراشه بمسكنه الشرعيّ. جالت عيناه الحمراوان فيما حوله فرأى عفيفة وشمس الدين ومعالم الحجرة الكريهة. سرعان ما تذكّر كلّ شيء. إنّه الليل وكان ينبغي أن يكون في فراش دلال. وهٰذا الفتى قد جعل منه سخرية السكارى وأعدم هيبة الأبوّة. جلس في الفراش وهو ينفخ. وثب إلى الأرض. انقضّ على شمس الدين وراح يكيل له الضربات. رمت عفيفة نفسها بينهما باكية. تحوّل جلال إليها فاقد الرشد. قبض على عنقها وشدّ بوحشيّة. عبثًا حاولت المرأة التخلّص من قبضته. تجلّت في وجهها اليائس معالم الاختناق والموت. صاح شمس الدين:

- دعها... إنّك تقتلها...

لم يحفل به منتشيًا بوحشيّة الجريمة. فزع شمس الدين إلى مقعد خشبيّ فرفعه وهوى به على رأسه بقوّة جنونيّة...

- ٢٣ -

حلّ هدوء ثقيل محلّ الصراخ والانفعال الأحمر. استلقى المعلّم جلال فوق فراشه مضرّجًا في دمه. اقتحم السكن جيران وجاء أيضًا مجاهد إبراهيم شيخ الحارة. وقدم الحلّاق لتقديم الإسعافات الضروريّة وإيقاف الدم السائل، على حين انزوى شمس الدين في زاوية مستسلمًا للأقدار...

وغاب الزمن تمامًا. وانداحت لحظة ساخرة مفعمة بكافّة الاحتمالات. لحظة عشوائيّة أقوى من كافّة وسائل التفكير والتدبير. وأدركت عفيفة كما أدرك شمس الدين أنّ الحاضر يدفع الماضي ويعدمه ويدفنه.

وتمتم مجاهد إبراهيم:

- أيّ قدر يعبث بأب ووحيده...

فولولت عفيفة هاتفة:

- إنّه الشيطان...

وخيّم صمت فوق جلال مثل جبل. ما زال صدره يعلو وينخفض. هتف مجاهد إبراهيم:

- يا معلّم جلال!

وهتفت عفيفة:

- لتشملنا رحمة الله القدير.

وسأل شيخ الحارة الحلّاق:

- ماذا تجد؟

فأجاب الحلّاق وهو لا يكفّ عن عمله:

- العمر بيد الله وحده...

- ولٰكن لك خبرتك أيضًا؟

فاقترب منه وهمس في أذنه:

- لا نجاة من تلك الضربة...

- ٢٤ -

فتح جلال عبدالله عينيه المظلمتين. لم يكد يعرف أحدًا. طال صمته حتّى حطّم أعصاب من حوله ولٰكنّه أخذ يستعيد قبسات من إدراكه. تمتم:

- إنّي راحل!

فتأوّهت عفيفة قائلة:

- بُعْد الشرّ عنك...

فعاد يتمتم:

- إنّي لا أخشى الظلام...

- إنّك بخير.

- لتكن إرادة الله...

اقترب مجاهد إبراهيم من الفراش وقال:

- يا معلّم جلال، أنا مجاهد إبراهيم، تكلّم أمام هٰؤلاء الشهود...

فتساءل جلال بصوت ضعيف:

ـ أين شمس الدين؟

فدعاه مجاهد إبراهيم إلى الاقتراب فاقترب وقال شيخ الحارة:

ـ ها هو ابنك...

ـ إنّي راحل...

فسأله شيخ الحارة:

ـ ماذا حصل؟

ـ قضاء الله...

ـ من الذي ضربك؟

وسكت الرجل فألحّ مجاهد إبراهيم قائلًا:

ـ تكلّم يا معلّم جلال.

ـ إنّي راحل...

ـ من الذي ضربك؟

فقال متنهّدًا:

ـ أبي!

ـ الأموات لا يضربون، يجب أن تتكلّم...

فتنهّد مرّة أخرى وقال:

ـ لا أدري...

ـ كيف؟

ـ الحارة مظلمة.

ـ هل اعتدي عليك في الحارة؟

ـ أو في مدخل البيت...

ـ لا شكّ أنّك عرفت الجاني...

ـ كلّا... أخفاه الظلام والغدر...

ـ لك أعداء؟

ـ لا أعرف...

ـ هل تشكّ في أحد؟

ـ كلّا...

ـ أنت لا تعرف الجاني ولا تشكّ في أحد؟

ـ بلى، استغثت بابني فجاء ليحملني ثمّ غبت عن الوجود...

سكت مجاهد إبراهيم. حدّقت الأعين بجلال وكان يحتضر...

ـ ٢٥ ـ

ذهل شمس الدين وهو يصغي إلى صوت أبيه قبل أن ينقطع. خانته الشجاعة فلم ينبس بكلمة. تلقّى حنان أبيه المحتضر بخشوع وجبن وندم. زاغ من نظرات مجاهد إبراهيم فدفن وجهه في يديه وبكى. وطيلة يوم الجنازة وأيّام المأتم لم يغمض له جفن. تحرّك بين الناس شبحًا تطارده أشباح الجحيم. لقد جنّ جدّه وجنّت جدّة أبيه وارتكب نفر من السلالة أبشع الانحرافات ولكنّه أوّل مَن يقتل أباه من آل الناجي الملعونين.

ولمّا خلا إلى أمّه قالت تشجّعه:

ـ إنّك لم تقتل أباك ولكنّك دُفعت إلى الدفاع عن أمّك...

وأيضًا تساءلت:

ـ أليس الله بعالم كلّ شيء؟!

ثمّ قالت بحرارة:

ـ إنّ الشهادة التي حماك بها خليقة بالتكفير عن ذنوبه جميعًا، وسوف يلقى ربّه بريئًا طاهرًا مثل طفل وليد...

وأغرق شمس الدين في البكاء وتمتم:

ـ لقد قتلت أبي!

ـ ٢٦ ـ

ودعاه المعلّم عبد ربّه للقائه في «القلعة» دار جلال صاحب المئذنة. كان يعلم أنّه والد جدّه جلال وأنّه في المائة من عمره. وجده هرمًا لا يفارق داره، ولا حجرته، ولكنّه كان بالقياس إلى عمره موفور الصحّة والنشاط، وقورًا، يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويعي الأمور. عجب شمس الدين لتعمير الرجل بعد وفاة ابنه وحفيده، ولم يكن يحمل له ذرّة من حبّ أو احترام، ولا ينسى مقاطعته لأبيه...

تفحّصه طويلًا وهو يقربه من وجهه ثمّ قال:

ـ البقيّة في حياتك...

فردّ عليه ببرود فقال عبد ربّه:

ـ في وجهك شَبَه من جلال بن زهيرة...

فقال ببرودة:

ـ لقد قاطعتَ أبي...

فقال بهدوء:

ـ كانت الأمور معقّدة...

فقال بتحدٍّ:

ـ بل الطمع في التركة!

ـ كلّ تركة عدا عهد عاشور فهي لعنة...

ـ ولكنّك تتمتّع بها لآخر لحظة في حياتك...

فقال العجوز بنبرة مضطربة:

ـ دعوتك لأعزّيك، خذ نصيبك من التركة إذا شئت...

فقال شمس الدين وكأنّه يكفّر عن جريمته:

ـ إنّي أرفض كرمك...

ـ إنّك عنيد يا بنيّ...

ـ إنّي أنكر مَن أنكر أبي...

عند ذاك أغمض العجوز عينيه فغادر شمس الدين المكان.

ـ ٢٧ ـ

لم يجد شمس الدين بدًّا من مواجهة الحياة. انطبع وجهه بجدّيّة تكبره بنصف قرن. أخذ نفسه بالتقوى والاستقامة. حلّ محلّ أبيه في إدارة العربات فهرب من ذاته بالإغراق في العمل. عُرف في الحارة بقاتِل أبيه. اعتُبر لعنة متحرّكة في مقابل المئذنة تلك اللعنة الثابتة. ويتساءل أناس ماذا تتوقّعون من شابّ أبوه ابن حرام وجدّه صاحب المئذنة؟ صمّم شمس الدين على تحدّي اللعنة بوجهه الصارم وإرادته الصلبة وقلبه المترع بالندم. أخلص لدينه، تصدّق على الفقراء، عامل زبائنه بالحسنى، مضى في الحياة منفيًّا ملعونًا. استقرّت في عينيه نظرة كئيبة، كره الفكاهة، تجنّب الغناء والطرب، حذر من البوظة والغرزة. لفحته مشاعر الناس فكره الناس ولكنّه تمسّك بالحياة...

ـ ٢٨ ـ

ولم تجد عفيفة الجدع من دواء لحال شمس الدين خيرًا من أن تزوّجه. أعجبتها صادقة بنت بيّاع الفول فخطبتها له مزكّية إيّاه بعمله وأصله ولكنّ الأسرة أبت أن تزوّج ابنتها من قاتل أبيه. ولم يكن شمس الدين يهتمّ كثيرًا بالزواج. ولكنّ الرفض عمّق جراحه فصمّم على الزواج بأيّ ثمن...

وكانت توجد راقصة تدعى نور الصباح العجمي، مجهولة الأصل متهتّكة. أعجبه منظرها فزارها متستّرًا بالظلام، لا ليعاشرها كما توقّعت ولكن ليخطبها! ودهشت البنت. وظنّته يرسم لاستغلالها ولكنّه قال لها بصدق:

ـ بل أريدك ستّ بيت بكلّ معنى الكلمة...

فأضاء وجهها بالفرح وقالت:

ـ إنّك شابّ نبيل وإنّي أستحقّ ذلك!

ـ ٢٩ ـ

وحزنت عفيفة فقالت محتجّة:

ـ إنّها بنت داعرة.

فقال شمس الدين بكآبة:

ـ مثل جدّتي زينات!

ثمّ متمتمًا بسخرية:

ـ ما أكثر الداعرات في أسرتنا المجيدة!

ـ لا تيأس بسرعة يا بنيّ...

فقال بامتعاض:

ـ إنّها الوحيدة التي تقبلني بلا امتعاض...

ـ ٣٠ ـ

وزُفّت نور الصباح العجمي إلى شمس الدين جلال الناجي. وهتك شمس الدين ستار الانكماش فأقام حفلًا شهده عمّاله وأهل أمّه، وتجاهل من يتجاهلونه. وسخرت الحارة من الزيجة فجرى على الألسنة ذكر زينات وزهيرة، وذكريات الأسرة التي هبطت من السماء لتتمرّغ أخيرًا في الوحل. بكلّ قحة قال عنبة الفوّال الخمّار:

ـ ألم يكن عاشور نفسه لقيطًا... ألم تكن أمّ الأسرة الأولى عاملة في هذه البوظة؟!

ـ ٣١ ـ

وقُيّض للزواج أن ينجح. تحوّلت نور الصباح

العجمي إلى ستّ بيت. سعد بها شمس الدين فاستقرّ جانب من جوانبه القلقة. ولم ينغّص صفو البيت من آنٍ لآنٍ إلّا المشاحنات بين عفيفة ونور الصباح. وبقدر ما كانت عفيفة صارمة غير متسامحة كانت نور الصباح حادّة سليطة اللسان. ولٰكنّ المعاشرة لم تتحطّم، وأنجبت صباح من البنات ثلاثًا، وأخيرًا جادت بسماحة شمس الدين الناجي.

- ٣٢ -

وبتقدُّم الزمن تناسى شمس الدين همومه وذنبه ما أمكن ولٰكنّ الكآبة كانت قد صارت له طبعًا. ونشأ سماحة وليس له جمال أبيه أو جدّه ولٰكنّه يبشّر ببنيان أشدّ. وولعت به أمّه وجدّته فحافظتا عليه ككنز غالٍ. ولم يحقّق نجاحًا في الكتّاب. وتشاجر ذات يوم مع قرين فضربه باللوح فكاد يفقده عينه وأوقع أباه في مشكلة لم يخلص منها إلّا بتعويض لا يستهان به. وقسا عليه فضربه حتّى أحزن أمّه وجدّته. وجرّه إلى العمل في الحظيرة قبل الأوان وهو يقول له:

- تعلّم أدب الحياة بين الحمير...

ونما سماحة تحت رعاية أبيه الكئيب وسرعان ما شارف المراهقة...

- ٣٣ -

ورغم أنّ الفتى لم يكن يغيب عن عيني أبيه من الصباح حتّى النوم إلّا أنّه لم يطمئنّ إلى أحواله تمامًا، فآنس منه جموحًا وتوقّع منه المتاعب.

وذات يوم جاءه مجاهد إبراهيم شيخ الحارة وقال له:

- أوّل ما شطح نطح!

شعر بأنّه يعني ابنه سماحة ولٰكنّه لم يصدّق لشدّة إحكام قبضته حول الفتى. وتساءل عمّا هنالك فقال شيخ الحارة:

- هل تصدّق أنّ ابنك مرافق كريمة العنّابي؟

فذهل شمس الدين. متى يفعل ذٰلك؟ قال:

- إنّه لا يغيب عن ناظريّ حتّى أودعه فراشه!

فضحك مجاهد إبراهيم وقال:

- ثمّ يتسلّل من البيت وأنت نائم...

وذهل شمس الدين مرّة أخرى لأنّ كريمة العنّابي أرملة تقترب من الستّين من عمرها وابنه مراهق ليس إلّا. وقال له مجاهد إبراهيم:

- احذر أن يعتاد الولد البرنجة!

- ٣٤ -

وتربّص شمس الدين في الظلام أمام باب دار كريمة العنّابي. جاء بعد أن تأكّد من أنّ الولد قد غادر فراشه وها هو ينتظر. وقبيل الفجر بساعة فتح الباب وتسلّل منه شبح. سقط في يد أبيه، فزع أوّل الأمر، همّ بضربه لولا أن عرف صوته فانقهر.

- أيّها الخنزير...

وشدّه بعنف فشمّ رائحته فصاح:

- وسكران أيضًا!

ولطمه لطمة طيّرت الخمر من رأسه. وفي البيت عنّفه وضربه حتّى استيقظت نور الصباح وعفيفة، ومضت الحقيقة تتكشّف لهما من خلال اللطمات واللكمات. وقال سماحة:

- كفى يا أبي وجهي يتحطّم.

- إنّك تستحقّ القتل، تخدعني؟

- تبت وأنا في عرضك!

وقالت عفيفة:

- إنّها أكبر منّي المجرمة...

فصاح شمس الدين وهو يشير إلى سماحة:

- هو المذنب ولا أحد سواه!

- ٣٥ -

وقال شمس الدين لنفسه إنّ المقدّمات تنذر بأوخم العواقب. وإنّ من يبدأ بعشق امرأة في سنّ جدّته فكيف ينتهي؟ وقد رأى كريمة هانم العنّابي في بعض مشاويرها فهاله تصابيها وزواقها وبدانتها المفرطة، وآمن بأنّ أسوأ ما ينشأ عليه مراهق أن يألف أن تنفق عليه امرأة.

وفي ذٰلك الوقت توفّي مؤنس العال فخلفه في الفتونة سمعة الكلبشي فازدادت أحوال الحارة حطّة وإظلامًا.

وتلقّى الحرافيش البلوى كقَدَر مكتوب لا مفرّ منه، فلم تعد الفتونة ـ بصرف النظر عن هويّة الفتوّة ـ إلّا بلوى قائمة.

- ٣٦ -

وتوفّي الجدّ عبد ربّه فشُيّع في جنازة كبيرة لم يشترك فيها شمس الدين ولا سماحة. وعُرف بعد ذلك أنّه أوصى للفتى سماحة بخمسمائة جنيه. وطالب سماحة بميراثه ولكنّ أباه أبى أن يسلّمه إيّاها إلّا أن يبلغ رشده. وشدّد الرقابة عليه حتّى عانى الفتى حياة مريرة. وذات مرّة حانت من شمس الدين نظرة إلى الفتى وهما يعملان في الحظيرة فضبط في عينيه نظرة جدباء انقبض لها صدره فقال لنفسه:

ـ الولد لا يحبّني!

وتنهّد مغتمًّا وقال:

ـ لا يدرك الأحمق أنّني أعمل لما فيه خيره...

- ٣٧ -

وتدافعت الأحداث مثل زبد النهر الأغبر. ولاحظ شمس الدين ذات صباح وهو يحتسي قهوته في بيته قلقًا أسود يلفّ عفيفة ونور الصباح فخفق قلبه وتساءل:

ـ سماحة؟!

فتلقّى صمتًا مريبًا ضاعف من أحزانه فسأل بحدّة:

ـ ما الجديد من متاعبه؟

بكت نور الصباح وقالت عفيفة بنبرة متشنّجة:

ـ ليس في البيت...

ـ رجع إلى التسلّل؟

ـ بل غادرنا!

ـ هرب؟

ومضى مشحونًا بسوء الظنّ إلى السحّارة فاكتشف اختفاء الميراث فصاح:

ـ لصّ أيضًا...

فقالت أمّه:

ـ حلمك يا بنيّ، إنّه ماله...

فقال بإصرار:

ـ لصّ هارب!

ونقّل عينيه بارتياب بين المرأتين وتساءل:

ـ ماذا يحدث وراء ظهري؟!

- ٣٨ -

تصوّر أنّه لائذ بدار كريمة العنّابي. أفضى بظنونه إلى شيخ الحارة مجاهد إبراهيم. وقام الرجل بتحرّياته ثمّ قال له:

ـ لا أثر لسماحة في حارتنا!

وأيقن أنّ الله يعاقبه على جريمته. عليه أن يكفّر عن جريمته كما كفّر عن جرائم الآخرين. ولا يبعد أن يقتله الفتى ذات يوم. لِمَ لا؟... إنّه لا يحسن بهذه الدنيا ظنًّا. وألقى على المئذنة نظرة وحشيّة وتساءل:

ـ لِمَ يبقون على هذه اللعنة قائمة؟!

- ٣٩ -

لم يُعثر على أثر لسماحة رغم أنّ شمس الدين أوصى جميع السوّاقين عنده باليقظة والتحرّي. ها هو الفتى يمضي في أثر المختفين من رجال الأسرة ونسائها.

وتتلاحق الأعوام. أمّا عفيفة فقد ماتت في أعقاب مرض طويل وأمّا نور الصباح فقد أمرّت الأيّام ما كان منها حلوًا. ومضى شمس الدين يحمل أثقاله، ويغمغم كلّما حزّ به ألم «أمرك يا ربّ».

- ٤٠ -

ولكنّ غيبة سماحة لم تدم كما دامت من قبل غيبة عاشور أو قرّة. رجع إلى الحارة ذات يوم وقد بلغ رشده. بلغ رشده ولكنّه فقد أشياء ثمينة لا تعوّض. امتلأ جسده بالقوّة والشراسة. اختفى جماله وراء غلالة من التجهّم ونسيج متقطّع من الكدمات والعاهات المستديمة. أكان يعاشر قطّاع الطرق؟ حتّى أبوه لم يعرفه لأوّل وهلة. ولمّا اكتشف حقيقته اجتاحته موجة من السرور والأسى. اضطرب بين الشكر والحنق. تمزّق بين الحبّ والسخط. وتبادلا النظر طويلًا في الحظيرة بين السوّاقين والحمير. وتنحّى به جانبًا وسأله بإشفاق:

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

وجعل يردّدها والآخر صامت مستغنيًا بمنظره عن

أيّ بيان. وسأله:

ـ بدّدت النقود؟

فحنى رأسه. آه. البعض يستثمر والبعض يبدّد.

وتنهّد من الأعماق وتمتم:

ـ لعلّ الحياة قد لقّنتك درسًا مفيدًا...

ولّما ضاق بصمته قال له:

ـ اذهب إلى أمّك...

ـ ٤١ ـ

وسرعان ما انطفأ الأمل الضعيف الذي ساور شمس الدين. أفاق من عاطفة الأبوّة الملتاعة التي اجتاحته. رأى العناد والاعوجاج والسفه في صورة جديدة من قوّة شرسة متحجّرة ومع ذٰلك لم يستسلم لليأس فقال له برقّة:

ـ إلى العمل يا بنيّ، درّبْ نفسك على إدارة ما ستكون صاحبه غدًا.

وشجّعته نور الصباح بحنانها وتوسّلاتها. أمّا سماحة فقد أبى العمل كسوّاق فأبقاه أبوه معه في الحظيرة مشركًا إيّاه في صميم عمله. غير أنّه تململ وغالى في طلب النقود. ولم يعد في وسع الأب أن يعامله كغلام فراح يسهر في البوظة والغرزة وبيوت الدعارة متجاهلًا صاحبته الأولى كريمة العنّابي.

وقال له شمس الدين بحضور أمّه:

ـ خير ما تفعل أن تتزوّج...

فقال ساخرًا:

ـ لا توجد بنت جديرة حقًّا بحفيد الناجي العظيم!

فسأله أبوه:

ـ هل تدرك ما يعنيه اسم الناجي؟

فقال بقحة ما بعدها قحة:

ـ معناه التفرّد بالمعجزات مثل بناء مئذنة العفاريت!

فهتف شمس الدين مغيظًا محنقًا:

ـ إنّك لمجنون!

ومضى الأب لحاله وهو يقول لنفسه:

ـ إنّه يكرهني ما في ذٰلك من شكّ...

وتهرّب من هاجسه حينًا غير أنّه قال بوجوم:

ـ سيقتلني ذات يوم...

ـ ٤٢ ـ

واكتشف المعلّم شمس الدين سرقة قدر من مال العمل لا يُستهان به. عرف في الحال ما يعنيه ذٰلك. وأدرك أنّه قد يفلس يومًا من جرّاء حماقة كهٰذه. ولم يتردّد فذهب من توّه إلى البوظة. وجد سماحة يجالس سمعة الكلبشي ورجاله كأنّه واحد منهم. أشار إليه أن يتبعه ولٰكنّ الفتى لم يستجب. تاهَ في سكره وطالع أباه بنظرة متحدّية. وكظم الأب غيظه وقال له:

ـ أنت تعلم بما دفعني إليك...

فقال ببرود:

ـ إنّها نقودي كما هي نقودك، وإنّي أنفقها على خير وجه...

فقال سمعة الكلبشي:

ـ أحسنت...

فقال شمس الدين لسماحة:

ـ إنّك تعرّضني للخراب...

فقال سماحة بلسان ملتوٍ:

ـ أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب...

فقال سمعة الكلبشي:

ـ هٰذا الولد حكيم!

واقترب عنبة الفوّال من شمس الدين وهمس في أذنه محذّرًا:

ـ وحّد الله!

ولٰكنّ الغضب اجتاحه فصاح:

ـ اشهدوا جميعًا على أنّني أطرد هٰذا الابن العاقّ من بيتي، وأنّني أتبرّأ منه إلى يوم القيامة...

ـ ٤٣ ـ

وتلقّت نور الصباح الخبر كمصيبة دهماء فصرخت:

ـ لن أفرّط في ابني أبدًا...

فكرهها شمس الدين في تلك اللحظة بكلّ قوّة حنقه وغيظه وصاح:

ـ لن يدخل هٰذا البيت ما حييت...

ـ ابني... لن أفرّط فيه...

فقال بلا وعي:

ـ إنّه ينضح بأصلك القذر...

فأجابته فاقدة الوعي أيضًا من اليأس والغضب:

ـ ليس في أصلي دعارة أو جنون...

فلطمها لطمة أسقطتها على أرض الحجرة فجنّت من الغضب وبصقت على وجهه. عند ذاك صرخ:

ـ اذهبي فأنت طالق بالثلاثة!

ـ ٤٤ ـ

أقامت نور الصباح وسماحة في شقّة واحدة. انخرط الفتى في عصابة سمعة الكلبشي ولكنّه لشدّة إسرافه لم يذق الرضى قطّ. ولم يخفِ كراهيته لأبيه عن أحد، وخاض في معايب آل الناجي بكلّ قحة كأنّه أكبر أعدائهم.

وعاش شمس الدين وحيدًا. ولم يعد ينعم بالأمان أو الطمأنينة. وتوقّع لنفسه نهاية مثل نهاية أبيه أو أفظع. وتوثّب للدفاع عن نفسه بكلّ وسيلة. كان يغدق على عمّاله ليربح قلوبهم، ويحكم إغلاق شقّته بابًا ونوافذ. وبذل العطاء لسمعة الكلبشي وتودّد إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ـ ٤٥ ـ

وزاره يومًا شيخ الحارة مجاهد إبراهيم وقال له:

ـ أنصحك بالحكمة يا معلّم شمس الدين...

فسأله بوجوم:

ـ ماذا تعني؟

ـ خفّف من العداوة، أجرِ عليه بعض المال...

فلاذ شمس الدين بالصمت، فقال شيخ الحارة:

ـ سمعته أمس في البوظة يمنّي الندماء بسهرات خلّابة عندما...

وتوقّف الرجل فقال شمس الدين بكآبة:

ـ عندما أموت أو أُقتل!

ـ لم يجرِ للقتل ذكر ولكن ليس هناك أبشع من أن يتمنّى الابن موت أبيه أو أن يتمنّى الأب موت ابنه...

ـ ولكنّني لا أتمنّى موته...

فقال مجاهد إبراهيم بوضوح:

ـ نحن بشر يا معلّم!

ـ ٤٦ ـ

شعر شمس الدين بطائر الخوف يحلّق فوقه. وذات يوم مضى إلى دار سمعة الكلبشي طاويًا جوانحه على مغامرة فريدة. حيّاه بإجلال وقال:

ـ أريد أن أتشرّف بيد كريمتكم.

فتفحّصه الفتوّة مليًّا ثمّ قال:

ـ من ناحية السنّ فليس ثمّة ما يمنع من أن تتزوّج بنت السادسة عشرة من رجل في الأربعين...

فحنى شمس الدين رأسه في خشوع، فقال سمعة الكلبشي:

ـ أصلك كريم ومالك وفير!

فواصل شمس الدين خشوعه ورضاه فسأله الفتوّة:

ـ كم تدفع مهرًا؟

فقال شمس الدين بقلق دفين:

ـ ما تأمر به يا معلّم...

ـ خمسمائة جنيه...

فقال بحكمة:

ـ إنّه مبلغ جسيم ولكنّ المطلوب أغلى وأعزّ...

فمدّ له يده قائلًا:

ـ لنقرأ الفاتحة...

ـ ٤٧ ـ

زُفّت سنبلة سمعة الكلبشي إلى شمس الدين جلال الناجي.

احتفلت الحارة كلّها بالزفاف. صار شمس الدين في أعزّ وآمن مكان. لم تكن سنبلة جميلة ولكنّها كانت غضّة الشباب كما كانت ابنة الفتوّة.

ـ ٤٨ ـ

وتولّى الذعر نور الصباح وابنها سماحة. وقال سماحة:

ـ تبدّد حلم الميراث...

فقالت عفيفة وهي لا تصدّق نفسها:

ـ ولكنّ حقّك لا يُمسّ...

فقال سماحة:

ـ هل تتصوّرين أنّ الكلبشي سيترك الأمور

للشرع؟!

فقالت نور الصباح محذّرة:

ـ الحياة أغلى من المال...

فقال بغضب:

ـ إنّ أعين رجاله ترقبني ليل نهار، كالمتّبع مع المخيفين من آل الناجي، وها هو ظرف جديد يدفعه إلى المزيد من الحذر!

فتأوّهت نور الصباح وقالت:

ـ الحذر يا بنيّ، لعنة الله على أبيك، وليحفظك الله.

ـ ٤٩ ـ

اقتنع سماحة بأنّ حياته باتت مهدّدة ليخلص الميراث لسنبلة وحدها، وليأمن الفتوّة جانبه على فتونته بصفة نهائيّة.

والعجيب أنّ شمس الدين نفسه لم يستنم طويلًا إلى سبات الطمأنينة العذب. ماذا يحول بين سماحة وبين الانتقام منه وهو أدرى الناس بطبعه المستهتر؟ وهل يوجد سيّد للموقف اليوم أقوى من سمعة الكلبشي؟ لقد وضعه الخوف من الموت بين فكّي الموت نفسه، ولن يستكنّ الفتوّة حتّى ينتزع منه ماله إلى آخر مليم. وهو لم يملّ حقًّا لسنبلة، وعاوده حنينه إلى نور الصباح، ولكن كان عليه أن يحمل ثقل تلك المعاشرة مع أثقال حياته الأخرى. وثمّة حقيقة تنشب أظافرها في لحمه وهي أنّ الأمس لا يمكن أن يرجع أبدًا...

ـ ٥٠ ـ

وزاره سمعة الكلبشي ذات ليلة. أشار إلى ابنته فغادرت الحجرة فتوقّع أمرًا لا يسرّ. ما معنى زيارة ليليّة؟ كره منظر وجهه الشبيه بكرة كثيرة الندوب. كما كره ثقته الموحية بأنّه يجلس في بيته وبين أهله. وراح يتكلّم عن عجائب المصادفات ونوادر الدهر والقوى الخفيّة المسيطرة على مصائر البشر، وشمس الدين في حيرة من تأمّلاته، حتّى قال الفتوّة:

ـ انظر مثلًا كيف أنّ وجود شخص معيّن غير مريح لكلينا!

أدرك من أوّل وهلة ما يعنيه. تجسّدت لعينيه صورة ابنه سماحة. انذعر لموافقة الرأي لأمانيه الخفيّة أكثر من انذعاره إشفاقًا على وحيده. وتساءل متجاهلًا ومتغابيًا:

ـ أيّ شخص تعني يا معلّم؟

فقال الكلبشي بازدراء:

ـ لا... لا... لا تستغفل الكلبشي يا أبا سماحة!

فتساءل بارتياع:

ـ تقصد سماحة؟

ـ هو ما تقصده أنت!

ـ إنّه ابني.

ـ كما كنت ابن أبيك!

فقطّب متألّمًا وقال:

ـ إنّك قوّة لا يجوز عليها أن تخشى أحدًا...

ـ دعك من هٰذا الكلام الفارغ، ثمّ إنّك لم تفهم غرضي!

فقال شمس الدين بامتعاض:

ـ زدني إيضاحًا!

ـ بع أملاكك بيعًا صوريًّا لزوجتك ييأس سماحة ثمّ يرحل!

فغاص قلبه في صدره وقال كالمستغيث بأيّ شيء:

ـ أو يحفزه ذٰلك على الانتقام منّي!

ـ لن يمسّك سوء ما دمتُ حيًّا!

رأى الشرك فاغرًا فاه. رأى الصائد مكشّرًا عن أنيابه. الفقر أو الموت أو الاثنان معًا. محال أن يقبل ومحال أن يرفض. قال بتوسّل:

ـ أعطني مهلة للتفكير...

فعبس الفتوّة حنقًا وقال:

ـ ما سمعت مثل ذٰلك من قبل...

فقال بضراعة:

ـ مهلة قصيرة...

فنهض الرجل وهو يقول:

ـ صباح الغد. عندك الليل بطوله...

- ٥١ -

لم يغمض لشمس الدين جفن. ترك سنبلة في زينتها تنتظر حتّى غلبها النوم. أطفأ المصباح، تدثّر بعباءته اتّقاء للبرد، رأى في الظلمة الأشباح. أشباح الماضي كلّها. ما هٰذا التدهور بعد الصمود؟ ألم يحمل أثقاله ويمضي بها؟ ألم يكفّر عنها بالصبر والألم؟ ألم يلتزم بالجدّيّة والاستقامة والجلد؟ كيف جاء التدهور ليرث نضاله كلّه بلا دفاع؟ لقد حدث ذٰلك بسبب سقوطه في هاوية الخوف. الخوف أصل البلاء. خاف ابنه فطرده ثمّ طلّق أمّه. ثمّ مضى بقدميه إلى وكر الشيطان. بلا تفكير سليم مضى. وكيف يتهيّأ التفكير السليم لمنذعر؟ عندما صرع الخوف واجه الحياة بكبرياء. لم تقض عليه نوائب السمعة السيّئة والجريمة البشعة واحتقار الحارة. واجه الحياة بكبرياء. طوّع اليأس لخدمته، بنى على أساس داعر أسرة كريمة، نجح في العمل، حاز القوّة والثراء، عندما صرع الخوف. اليوم يُطالَب بالنزول عن ثروته، غدًا يقتله سماحة، بعد غد يؤخذ سماحة بجريمته يفوز الكلبشي بالمال والأمان. يقول شبح في الظلام، لا تقتل ابنك، لا تحمل ابنك على قتلك، لا تذعن للطاغية، لا تستسلم للخوف، طوّع اليأس لخدمتك، ابحث في الموت عن عزاء كريم إذا تعذّرت الحياة...

وعصفت ريح الشتاء في الخارج كالنواح فتخيّل - مأخوذًا بنشوة الخيال - أنّ عاشور أصغى لها ذات ليلة في بدرومه الخالد...

- ٥٢ -

في الصباح سقط رذاذ مشبعًا بروح أمشير النقيّة المتقلّبة الثائرة، ونفذت البرودة إلى نخاع العظام. مضى شمس الدين فوق الأرض الزلقة متوكّئًا على عصاه الغليظة. رحّب به سمعة الكلبشي وهو متربّع فوق أريكته بالقهوة.

- أهلًا بالمعلّم شمس الدين...

دعاه إلى الجلوس إلى جانبه فجلس ثمّ سأله هامسًا:

- نشرع في إجراءات البيع؟

فأجاب شمس الدين بهدوء مريب:

- كلّا...

- كلّا؟!

- لا بيع ولا شراء.

فاصفرّ وجه الفتوّة وتمتم:

- يا له من قرار جنونيّ...

- بل هو عين الصواب...

ارتسمت في أساريره صورة كالحة للشرّ وقال:

- تعتمد على مصاهرتي؟

فقال شمس الدين بهدوئه المصمّم:

- أعتمد بعد الله على نفسي!

- تتحدّاني؟!

- بل أصارحك برأيي ليس إلّا...

اجتاح الغضب سمعة فلطمه بقسوة. جنّ جنون الآخر فردّ اللطمة بأشدّ منها. وثب الرجلان في لحظة واحدة شاهرين نبّوتيهما. وسرعان ما التحما في معركة قاسية. كان شمس الدين قويًّا وأصغر من سمعة بعشر سنوات ولكنّه لم يمارس المعارك. وجاء رجال الفتوّة من جميع الأنحاء وبسرعة مذهلة وبينهم سماحة. أحاطوا بالمتعاركين دون تدخّل من جانبهم احترامًا للتقاليد المرعيّة. وتمكّن سمعة الكلبشي من خصمه واستجمع قوّته ليوجّه إليه ضربة قاضية. في تلك اللحظة وثب سماحة وثبة مفاجئة فهوى بنبّوته على رأس الفتوّة فتقوّض بنيانه وانطرح أرضًا. وقع ذٰلك بسرعة خاطفة. صرخ الرجال وانقضّوا على شمس الدين وسماحة، ولكنّ ثمّة مفاجأة أخرى كانت متربّصة انضمّ نفر من الرجال إلى سماحة وشمس الدين! هتفت أصوات:

- خيانة وضيعة!

والتحم الفريقان بضراوة ووحشيّة. تصادمت النبابيت، تلاطمت الأجساد، فرقعت الصكّات، تطايرت اللعنات تحت الرذاذ، سالت الدماء، استحرت الأحقاد، أغلقت الدكاكين، هرولت العربات، تجمّع الناس في طرفي الحارة، اكتظّت النوافذ والمشربيّات، علا الصريخ والعويل...

- ٥٣ -

حُمل شمس الدين إلى بيته محطّمًا. استطاع سماحة أن يرجع إلى مسكنه بجهد شديد ثمّ رقد وهو بين الحياة والموت. أمّا سمعة الكلبشي فقد أصابه العجز وتلاشت أسطورته، وانهزم رجاله.

- ٥٤ -

وتكشّفت حقائق في اليوم نفسه. عُرف أنّ سماحة طمح إلى الفتونة، وأنّه نجح في ضمّ بعض الرجال إليه سرًّا. وأنّه كان يرسم للقضاء على الفتوّة والسيطرة على أبيه فلمّا بوغت بالمعركة بين الفتوّة وأبيه انقضّ في اللحظة المناسبة لحماية شمس الدين وإعلان ثورته، ونجح مشروعه ولكنّه رقد بين الحياة والموت...

- ٥٥ -

تواصل سقوط الرذاذ طيلة النهار. تشرّب الجوّ بظلال كستنائيّة ونعاس. نُقش أديم الأرض الزلقة بحوافر الدوابّ. أمّا المعلّم شمس الدين فقد انطرح فوق فراشه يحتضر في رعاية جاره بعد أن هجرته سنبلة. لم يفتح عينًا، لم ينبس بكلمة، ندّت عنه حركات مبهمة، تبدّى متخلّيًا عن كلّ شيء، وعند جثوم الليل أسلم الروح...

سارق النغمة

الحكاية التاسعة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

كُتبت لسماحة شمس الدين جلال الناجي النجاة من الموت. استعاد صحّته رويدًا ثمّ استردّ قوّته. وأضافت المعركة الأخيرة إلى وجهه تشوّهات جديدة فانقلب ذا وجه قبيح ينذر بالشرّ والإرهاب. وتبوّأ الفتونة دون منازع فبشّرت فتونته بسيطرة غير محدودة. وسُرَّت نور الصباح العجمي أمّه بحظّها، وبانتصارها الحاسم على ضرّتها سنبلة بنت الفتوّة السابق سمعة الكلبشي. ورجعت سنبلة إلى دار أبيها العاجز حيث أنجبت وليدها ابن شمس الدين الذي أسمته فتح الباب باسم جدّها لأمّها. واقتُسمت ثروة شمس الدين بين ابنيه سماحة وفتح الباب وأرملته سنبلة. وصار سماحة وصيًّا على أخيه بحكم القرابة، ولم ينازعه أحد في ذٰلك خوفًا من بطشه، هٰكذا عاد جلّ ثروة أبيه إلى قبضته الحديديّة. وقال سماحة لسنبلة:

ـ لقد هجرتِ أبي، تركتِه يحتضر وحيدًا، وإنّه لظلم أن ترثي بعض ماله، فلا تنتظري مليّمًا من مستحقّات فتح الباب. اعتبري بعضه إتاوة والبعض الآخر عقوبة لك...

- ٢ -

وخلق سماحة أسطورة حول ذاته. أذاع أنّه ما خاض المعركة ضدّ الكلبشي إلّا دفاعًا عن أبيه رغم ما كان بينهما من خلاف وعداوة، وأنّ انضمام من انضمّ إليه من رجال العصابة كان بدافع الشهامة وحدها. ولكنّ ذٰلك لم يجز على أحد. كان قد عُرف عن اتّماره على فتوّته وإغرائه بعض الرجال للانضمام إليه، وأنّه انتهز فرصة نشوب المعركة بين أبيه والكلبشي لينفّذ مؤامرته دفاعًا عن أبيه. بل لقد اتُّهم من بعض كارهيه بأنّه لم يدافع عن أبيه شمس الدين كما يجب، وأنّه سُرَّ لوفاته، غير أنّ شيئًا من همساتهم لم يبلغه، وظلّ مزهوًّا بالأسطورة التي خلقها... واندلعت فتونته على الحارة كجبل شاهق، ولكنّه أدّب فتوّات الحارات فرفع منزلتها في الحيّ جميعه وأرجع إليها الهيبة والجلال. وأنشأ بماله ومال أخيه فتح الباب دارًا جميلة أقامت بها نور الصباح العجمي أمّه، أمّا هو فكان يتنقّل ما بين البوظة والغرزة وبيوت العاهرات...

- ٣ -

ومات سمعة الكلبشي فورثت سنبلة عنه ثروة لا بأس بها، كان لها من الأخوات عشر. وما لبثت أن تزوّجت من كاتب في بنك الرهونات. ولم يلقَ فتح الباب ترحيبًا من زوج أمّه، وضاق به أكثر عندما أنجبت له سنبلة بنين وبنات. نشأ الغلام في جوّ حزين، فكان يلوذ بأمّه ويتجنّب ربّ البيت، وضاعفت حساسيّته من أله ووحدته، ولم يشفع له تفوّقه في الكتّاب ولا حسن خلقه ووداعته. لذٰلك ما إن بلغ التاسعة حتّى مضت به سنبلة إلى الفتوّة سماحة وقالت له:

ـ هٰذا أخوك فتح الباب وقد آنَ له أن يعيش تحت

جناحك...

وتفحّصه سماحة فوجده جميلًا رقيقًا حزينًا ولكنّ قلبه لم يرقّ له، وقال:

ـ ماله يبدو جائعًا!

فقالت سنبلة:

ـ كلّا، لكنّه غلام رقيق.

ـ لا يصدّق من يراه أنّه ولد من صلب فتوّات من ناحيتي أمّه وأبيه!

ـ هٰكذا هو!

فقال محاولًا التخلّص منه:

ـ لك أن تحتفظي به...

فاغرورقت عيناها وقالت:

ـ لا يوفّر بيتي له السعادة...

واضطرّ سماحة إلى احتضانه ومضى به إلى أمّه نور الصباح ولكنّها كرهت إيواءه وقالت لابنها:

ـ لم تعد لي طاقة على رعاية الأطفال...

الحقّ أنّها أبت تربية ابن ضرّتها سنبلة. وحار سماحة ماذا يفعل، وتجرّع الغلام الذلّ والأسى بصبر. وعند ذاك تطوّعت عجوز من صديقات نور الصباح باحتضانه. تلك كانت سحر الداية. أرملة بلا ذرّيّة، ومن سلالة الناجي. وكانت تقيم في بدروم من حجرتين بإحدى عمارات جلال صاحب المئذنة، وكانت طيّبة القلب ومعتزّة بأصلها فلقي فتح الباب في رحابها أوّل حياة دافئة خالية من الكدر، وأعانه ذٰلك على تحمّل فراق أمّه سنبلة...

ـ ٤ ـ

ورأى سماحة الفتوّة ذات يوم فتاة جميلة وصغيرة فأعجبته. لم تكن في متناول اليد كغيرها من نسائه. رآها في دوكار وعرف الدار. وآنس من وجهها الحسن ألفة تنمّ عن تقارب روحيّ خفيّ ما لبث أن كشف أسبابه. تبيّن له أنّها فردوس حفيدة المرحوم المعلّم راضي محمّد أنور من زهيرة، أخي جلال صاحب المئذنة. وكان إعجابه شهوة ورغبة في الامتلاك ولكنّهما كانتا من القوّة بحيث جعلتاه يفكّر في الزواج جادًّا لأوّل مرّة في حياته البهيميّة. وأغراه بها إلى ذٰلك ملكيّتها لمحلّ الغلال وانتماؤها مثله لآل الناجي. وقد دهشت أمّه عندما طلب إليها أن تخطبها له، ولكنّها سُرّت لذٰلك سرورًا لا مزيد عليه. وقال لها سماحة وهو يقهقه:

ـ حسبي وحسبها أنّنا ننتمي إلى زهيرة الجميلة المجنونة قتّالة الرجال!

وكان قبحه وسلوكه جديرين برفضه ولكن منذا الذي يرفض يد فتوّة؟!

ـ ٥ ـ

زُفّت فردوس إلى سماحة. التحم ذو الوجه القبيح بذات الوجه العذب. وقد كان جميلًا ذات يوم ولكنّ النبابيت أعادت خلق وجهه. أمّا اعتزازه بأصله وفحولته فلا حدود له. فرغم كلّ شيء نجح الزواج وجاد بسعادة ساخنة. وبفضله أصبح سماحة مديرًا لمحلّ الغلال ومالكه الفعليّ. ومن حجرة الإدارة استُلّت إرادة من صوّان تتصرّف في شئون المال والمعارك معًا. ووهبه الزواج عطايا من العذوبة والنضارة، ورغدًا من حياة القصور وأساليب المعيشة الرفيعة، وإطارًا ثريًّا من الرياش والتحف ومباهج الترف. ولم ينقطع عن العربدة ولكنّه وفّرها لعشّه الشرعيّ، فانتقلت إلى القائمة المذهّبة الجوزة والقرعة. وعلّمه محلّ الغلال وأبّهة الإدارة حبّ المال وجمْعه فقرّر أن يعيد سيرة جدّه جلال صاحب الخوارق المجنونة، وأن يفرض سيطرته ـ بعد الناس ـ على الأشياء الثمينة.

ـ ٦ ـ

وأثبتت فردوس أنّها ذكيّة بقدر ما هي حسنة الحظّ. لقد أحبّت زوجها. ومضت تنجب له ذرّيّة من خلق الحبّ ودفئه. فلم تألُ جهدًا في تهذيبه وامتلاكه بتسلّل عذب لا تحدّي فيه ولا كبرياء. لم تكن تحترم الفتونة ولكنّها لم تنكر مزاياها. وكسائر آل الناجي كانت تنوّه بذكريات الفتونة الأسطوريّة القديمة، بعدالتها ونقائها، ولكنّها في الوقت نفسه بحكم انتمائها إلى الوجاهة تنفر من تلك الفتونة النقيّة التي تؤثر الفقر والبطولة وتشكم

السادة والوجهاء. وإذن فلتبق الذكرى موضعًا للتبرّك والفخر، ولتبقَ فتونة اليوم واقعًا يحقّق القوّة والسيادة والثراء. وما من بأس على سماحة أن يفعل ما يشاء تحت شرط أن يفعله في دارها، وفي غشاء من خيوطها الذهبيّة المحكمة.

وتمرّ الأيّام وهي سعيدة بحياتها، والأغنياء يزدادون غنًى والفقراء يزدادون فقرًا...

- ٧ -

واصل فتح الباب تعلُّمه في الكتّاب وحفظ ما تيسّر من القرآن. طابت نفسه بجوّ الحنان في مقامه الجديد فانزاح غطاء الخوف من نفسه عن كنوز من عواطف غنيّة وخيال بديع. غلام قمحيّ اللون أسود العينين رائق البشرة، في ذقنه ثغرة، وفي قدّه رشاقة، ينضح بالعذوبة والفطنة. تناسى أمّه كما تناسته وتعلّق بسحر الداية قلبه. أحبّها وقدّسها، وتلقّى منها أنوارًا لم تخطر له على بال.

كانت تقول له في ليالي السمر:

- نحن من أصل واحد مبارك هو عاشور الناجي...

طالما تحدّثت بيقين عن ماضٍ غابر كأنّما كانت حقًّا تتنفّس فيه.

- أنبل الأصول كان أصله، وخاف عليه أبوه من غضب فتوّة ظالم، وجاءه في المنام مَن أمره بأن يترك وليده في الممرّ في رعاية التكيّة، وما تردّد أن فعل...

ولعن فتح الباب من تقوّلوا على جدّه بأنّه كان لقيطًا فقالت سحر:

- من أنبل الأصول كان أصله، وقد ترعرع في أحضان رجل خير، ونما شابًّا قويًّا، وذات مرّة أمره ملاك في المنام أن يهجر الحارة اتّقاء للوباء ودعا الناس إلى الهجرة ولٰكنّهم سخروا منه فمضى محزونًا بزوجه وولده، ولمّا رجع أنقذ الحارة من العذاب والذلّ كما أنقذه الله من الموت...

وراحت تحكي له قصّة عاشور، عودته، مقامه في دار البنان، فتونته، عهده، حتّى امتلأت عينا الصبيّ بالوجد والدموع، فقالت سحر:

- وقد اختفى ذات يوم، وطال اختفاؤه حتّى آمن الناس بموته، أمّا الحقيقة التي لا شكّ فيها، فهي أنّه لم يمت...

فسألها فتح الباب بدهشة وأمل:

- حتّى الآن يا جدّتي؟

- وحتّى الغد!

- ولِمَ لا يرجع؟

- علم ذٰلك عند الله وحده...

- قد يرجع فجأة؟

- لِمَ لا؟!

- هل علم بما فعل أخي سماحة؟

- طبعًا يا بنيّ.

- ولِمَ سكت عنه؟

- من يدري يا بنيّ؟

- هل يرضيه الظلم يا جدّتي؟

- كلّا يا بنيّ.

- لِمَ يسكت عنه؟

- مَن يدري يا بنيّ، ربّما لسخطه على تهاون الناس مع الظالم...

وسكت فتح الباب مليًّا ثمّ عاد يسأل:

- كلّ ذٰلك حقيقيّ يا جدّتي؟

- هل كذبت جدّتك قطّ؟!

- ٨ -

ويذهب فتح الباب إلى الكتّاب ويجيء. يرى جدّه عاشور في كلّ مكان. إنّه ينبض في قلبه وخياله. ويشتعل في أشواقه وآماله. يراه في الزاوية والسبيل والحوض. يراه في الممرّ وفي الساحة أمام التكيّة. طالما نظرت عيناه إلى هٰذا السور العتيق، إلى هٰذا الباب المغلق، إلى أشجار التوت الفارعة، كما ينظر هو إليها الآن. ما زال الجوّ مخضلًا بأنفاسه ونجواه. ورغائبه وأحلامه. وسرّه مطويّ في الغيب لا تكشفه هٰذه الأشعّة السائلة. حتمًا سيجيء ذات يوم. هٰكذا تكلّمت جدّته الصادقة. سيلوح بعصاه العجراء فيتلاشى سماحة ذو الوجه القبيح. يتلاشى بظلمه الأسود وجشعه الأحمر وماله المكتنز. ويهلّل الحرافيش

ليوم الخلاص ويسبحون في بحر النور. وتتقوّض مئذنة الجنون فتتراكم أنقاضها فوق الغدر والخيانة والسفه. أم أنّه يتجاهلنا لتهاوننا مع الظالم حقًّا؟. إنّه يحبّ جدّه. يودّ أن يحظى برضاه. ولكن من أين له القوّة وقد خُلق رقيقًا كالخيال؟ من أين له القوّة؟.

- ٩ -

ولّما ناهز فتح الباب المراهقة فكّرت سحر بمستقبله. وشاورت عمّ مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال لها:

- اختاري له حرفة.

فقالت باعتزاز:

- إنّه من خيرة من تعلّم في الكتّاب.

فسألها الرجل:

- ألست داية فردوس هانم؟

فأجابت بالإيجاب فقال لها:

- حدّثيها بشأنه، ومن ناحيتي سأمهّد له عند المعلّم سماحة...

- ١٠ -

وقالت سحر لفردوس هانم:

- فتح الباب ولد ممتاز، وهو من دمكم، وأولى الناس بالعمل في محلّ أخيه...

ورحّبت الهانم بذلك ووعدت بإقناع زوجها.

- ١١ -

وتفحّص سماحة أخاه فتح الباب بعناية وتمتم بازدراء:

- رقيق مثل فتاة...

فقالت سحر:

- هكذا خُلق ولكلّ شيء نفعه...

فتساءل ببرود:

- وما نفعه؟

- يحفظ القرآن، يكتب ويعرف الحساب...

فتحوّل نحو الفتى وسأله متهكّمًا:

- أأمين أنت أم طويل اليد مثل بقيّة الأسرة المجيدة؟

فقال فتح الباب بحرارة:

- إنّي أخاف الله وأحبّ جدّي...

- جدّك جلال صاحب المئذنة؟

- جدّي عاشور الناجي!

فقطّب سماحة وتغيّر وجهه فبادرت سحر تقول:

- إنّه طفل بريء...

فقال سماحة بوحشيّة:

- جدّك عاشور أوّل مَن علّمنا السرقة!

ذُهل فتح الباب وتألّم. خافت سحر أن ينبس بكلمة تسدّ طريقه فقالت:

- إنّي أضمن أمانته وجدّه والله شهيد...

هكذا ألحق فتح الباب بالمخزن مساعدًا لأمينه...

- ١٢ -

تفانى فتح الباب في عمله. كان المخزن يشغل بدرومًا متراميًا يماثل في اتّساعه مساحة المحلّ كلّه. تُرمى فيه أجولة الغلال على الأرفف والأرض، ولكنّها تتعرّض لحركة يوميّة بين المجيء والذهاب، فلم يكن الميزان يكفّ عن العمل ولا يده تكفّ عن التسجيل. وبحكم عمله كان يحظى بمقابلة أخيه سماحة مرّة على الأقلّ كلّ صباح ليطلعه على حركة الوارد والصادر. وارتاح الفتوّة إلى نشاطه ويقظته ووجد فيه عينًا تلقائيّة على أمين المخزن وقال له بأسلوبه:

- إنّي أشجّع المجتهد وأبطش بالكسول...

- ١٣ -

وعملًا بنصيحة سحر زار نور الصباح العجمي أمّ معلّمه ليقدّم لها فروض الطاعة. لم يكن قد بقي من جمالها شيء، وقد رحّبت به بفتور دلّ على أنّها لا يمكن أن تنسى إساءة. وإذا بها تسأله:

- كيف حال سنبلة أمّك؟

وأجاب بذلّ:

- لم أرها منذ فارقتها لكراهية زوجها لي!

فقالت بحنق:

- لا عذر لها سوى أنّها بلا قلب...

وغادرها مضمرًا ألّا يراها مرّة أخرى.

- ١٤ -

وبتوجيه جدّته أيضًا زار فردوس هانم. وقد عطفت عليه فبهره جمالها وأناقتها. قالت:

- سمعت عن نشاطك ما يسرّ الخاطر.

ولكنّه لاحظ أنّها لم تعرّفه إلى أبنائها. لعلّها أبت أن تقدّم عاملًا بسيطًا مثله بصفته عمّهم. وآله ذلك ولكنّه صمّم على تجاهله وتناسيه. وغادرها معطّرًا بشذا جمالها وأناقتها. ومضمرًا في الوقت نفسه ألّا يزورها مرّة أخرى...

- ١٥ -

وبالعمل اكتسب ثقة وعزّة. مضى يتشبّه بالرجال فربّى شاربه، وطوّق رأسه باللاثة. وعرف طريقه إلى الزاوية فتوثّقت صلته بالشيخ سيّد عثمان. وكان يجلس في القهوة ساعة من الليل فيشرب القرفة ويدخّن البوري، ثمّ لا يرجع إلى جدّته حتّى يطوف بالساحة، فقد أدركه عشق الأناشيد.

- ١٦ -

واضطرمت أعصابه بألم مجهول. وفاض قلبه بالحنين وتلظّى بلهب خفيّ. مناظر النساء سحرته، أصواتهنّ أرعشت قلبه. ومن أقرانه تلقّى سيلًا من دعوات الإغراء للتعرّف إلى البوظة والغرزة وبيوت الدعارة ولكنّ الماضي كان يصرخ في أذنيه محذّرًا. الماضي المرهق بذكريات المثلثة والانحرافات والشهوات التي قضت على أصالة أسرته. وكأنّ جدّته كانت تقرأ أفكاره فقالت له ذات يوم:

- آنّ لك أن تتزوّج...

وطرب للفكرة ووجد فيها الخلاص المنشود...

ولكن سرعان ما اكفهرّ الأفق وأنذر بعواصف لم تخطر على البال...

- ١٧ -

جاءت الهمسات من خارج الحارة حاملة نذرًا من نوع غريب. قالت إنّ فيضان ذلك العام شحيح أو إنّه لن يأتي. ما معنى ذلك يا ترى؟ قالت إنّه الويلات تتلاحق حتّى لا تبقي على شيء. حقًّا؟ سيندر الطعام، وربّما اختفى تمامًا، والعاقل من يخزن اليوم ما يتبلّغ به غدًا. وعمل بالحكمة القادرون، وترامق الحرافيش وهم يضحكون، ولم يصدّقوا أنّهم سيُحرمون من اللقمة التي ينتزعونها بالعرق أو يتصدّق بها عليهم المتصدّقون...

وامتلأ الجوّ بالطنين، واصطبغ بصفرة منفّرة، فزحفت أشباح القلق بالليل والنهار...

- ١٨ -

واندفعت عجلة البلاء بلا تدرّج. ارتفعت الأسعار ساعة بعد ساعة. تلبّد الأفق بسحب سوداء. عملت حوانيت الغذاء نصف يوم لندرة الأطعمة. تلاطمت الشكاوى والأنّات. وتكوّنت أمام محالّ الدقيق والفول مظاهرات. لم يعد للناس من حديث إلّا الطعام. لهجوا به في البوظة والغرزة والقهوة. اندلع الشرر فاشتعل نارًا. حتّى الوجهاء جهروا بالشكوى ولكن لم يصدّقهم أحد وفضحتهم وجوههم الريّانة المورّدة. وقال عنبة الخمّار:

- إنّه الوباء!

وتمادت الأسعار في الارتفاع، وبخاصّة الغلال، وراح سماحة يصيح:

- لم يعد يبقى ما يكفي للعصافير...

غير أنّ فتح الباب قال لجدّته ليلًا:

- ما أكذبه يا جدّتي، المخزن ملآن!

وقال لها أيضًا:

- ما الأسعار التي يفرضها إلّا إتاوة جديدة...

فقالت له بإشفاق:

- احفظ لسانك يا بنيّ...

فقال متألّمًا:

- إنّه وحش لا تعرف الرحمة قلبه...

- ١٩ -

وازداد الجوّ عبوسة ودمامة. وامتطت الأسعار الجنون. ندر الفول والعدس والشاي والبنّ، واختفى الأرزّ والسكّر، وتدلّل الرغيف. وندّت عن الأعصاب

المرهقة بوادر استهانة، فتعدّدت السرقات، وتعاقب خطف الدجاج والأرانب، وبعض السائرين ليلًا نُهبوا أمام بيوتهم، وانبرى رجال العصابة ينذرون ويهدّدون، ويدعون إلى الأخلاق والتضامن بحناجر قويّة وبطون مكتنزة.

وكشفت الأيّام عن أنيابها الحادّة القاسية، وتضخّم شبح الجوع كالمئذنة المجنونة، فشاع أنّ الناس يأكلون الخيل والحمير والكلاب والقطط، وأنّهم عمّا قليل سيأكل بعضهم بعضًا...

- ٢٠ -

وفي ذلك الوقت البارد الأصفر تصدّى يوم غريب كأنّما هبط من كون آخر. فقد زُفّت إحسان بنت الفتوّة سماحة إلى ابن صاحب وكالة الخشب. أُقيم حفل خياليّ لم تشهد له الحارة مثيلًا، تحدّى الزمن والجوع. وأعلنت فردوس هانم أنّها ستطعم جميع الحرافيش. وتجمهر الجياع في ساحة العرس. وما إن ظهرت الصواني على رأس الخدم حتّى هجم الحرافيش كالوحوش الضارية. تخاطفوا الطعام وتخالطوا مثل ذرّات الغبار في يوم عاصف. وانتشر الشدّ والجذب والخطف، ثمّ التلاحم والشجار حتّى امتزج الدم بالمرق. وثمل الناس بالفوضى والشغب، واندفعت موجة منهم إلى البوظة فاكتسحتها، التهمت المزّة وعبّت من براميل البوظة، ثمّ انطلقوا في الحارة مهلّلين، وقذفوا بالطوب أشباح الخرابات. وخضعت الحارة للعربدة الهوجاء حتّى مطلع الفجر...

- ٢١ -

في اليوم التالي تعرّضت الحارة لحملة تأديب وإرهاب. انتشر فيها رجال سماحة، ومضى الفتوّة يقطعها من القبو حتّى مشارف الميدان ذهابًا وإيابًا. ولم ينجُ حرفوش من علقة أو إهانة، وتفشّى الذعر فخلت الحارة من السابلة وأغلقت الدكاكين وهجرت القهوة والغرز حتّى الزاوية لم يقصدها عابد في ذلك النهار.

- ٢٢ -

وجلس فتح الباب إلى جدّته كئيبًا محزونًا، وجعل يقول:

- جدّي عاشور لن يرجع!

فرمقته العجوز بنظرة حزينة فقال:

- ما زال غاضبًا علينا!

فتمتمت سحر:

- أيّام أشدّ من أيّام الوباء...

- وفي التكيّة ما زالوا ينشدون للطرب!

- لعلّها دعوات يا بنيّ!

فتساءل فتح الباب بقلق:

- ألا يجدر بهم أن يجودوا على الناس ببعض ما عندهم؟

فقالت سحر بحرارة:

- لا يجوز عتابهم...

- عندهم التوت والأرض مزروعة بالخضر...

فلوّحت بيدها محذّرة فقال متنهّدًا:

- أمّا أخي سماحة فهو الشيطان نفسه...

- ٢٣ -

في الظلام مرقت ذرّة نور، في الصمت اندسّت همسة حنان. ولم يجاوز السرّ خرابات الحرافيش. حرصوا على الكتمان ووجدوا في الكتمان حياتهم. فثمّة صرّة حاوية لطعام تُدسّ في يد أحدهم، تعقبها همسة تقول «من عاشور الناجي» وسرعان ما يذوب شبح في الظلام. حدث ذلك أوّل مرّة في القبو، ومرّة ثانية وقع في الممرّ، وتكرّر في الخرابات. وتهامس به الحرافيش. عرفوا بالفطرة أنّ السرّ يسعى وراءهم وأنّهم المقصودون بالاتّصال. تلقّوا من الغيب لقمة. أدركوا أنّ معجزة تتخلّق في ظلام الليل. أنّ نافذة للرحمة قد فُتحت. أنّ عاشور الناجي أو روحه تضرب فيما بينهم. أنّ الكون الصلد المصمت تتشقّق جدرانه ويطلّ منها المجهول. وجرت الدماء في عروقهم، ونبضت قلوبهم بالحياة من جديد.

صرّة الرحمة وهمسة عاشور الناجي...

- ٢٤ -

وبعثت نشوة الفرح حياة في الألسنة فرقصت على أنغام أمانيها. تردّد اسم عاشور حتّى تجسّد. لم يُذكر شيء عن الصرّة ولكن انتشر أنّ عاشور يُبعث في ظلام الليل. وسخر رجال سماحة من الخرافة. قالوا إنّهم يسهرون الليل فلا يلقون أحدًا. ودعا سماحة الشيخ سيّد عثمان شيخ الزاوية وقال له:

- جنّ الناس من الجوع...

فحنى الشيخ رأسه فسأله:

- هل بلغك ما يقال عن عودة عاشور؟

فحنى الشيخ رأسه بالإيجاب فسأله:

- ما رأيك فيه؟

- لا يصدَّق...

- لكنّه كفر أيضًا!

فقال الشيخ بإشفاق:

- إنّه لكفر...

فقال سماحة بنبرة حاسمة:

- قُمْ بواجبك...

وراح الشيخ يخطب الناس محذّرًا إيّاهم من الخرافة والكفر، وقال الرجل «لو بُعث عاشور حقًّا لجاءكم بالطعام» فسخر منه الحرافيش وازدادوا إيمانًا.

- ٢٥ -

انقلب الظلام قناة سحريّة للاتّصال بين الأرواح. ثمل الفضاء بالهمسات السحريّة. في غفلة من الرقباء تدفّقت النجوى مفعمة بالحرارة. ويتساءل الرجل:

- أأنت عاشور الناجي؟

ولكنّ الهامس سرعان ما يذوب في الظلام مثل روح شارد.

همسة تدعو النائم أن يستيقظ. همسة تؤكّد أنّ المخازن مليئة بالخير. همسة تلعن الجشع، الجشع عدوّ الإنسان لا القحط. همسة تتساءل أليست المغامرة أفضل من الموت جوعًا. وهمسة تنبّه إلى أنّه توجد ساعة ينام فيها رجل العصابة فتتخلّى عنهم قوّتهم. وهمسة تسأل ماذا يمكن أن يقف في وجه الكثرة إذا اندفعت؟ وهمسة تتحدّى، كيف تتردّدون ومعكم عاشور الناجي؟!

انقلب الظلام قناة سحريّة للاتّصال بين الأرواح. ثمل الفضاء بالهمسات السحريّة. شُحن الغيب بالقوى المجهولة...

- ٢٦ -

وكانت ثمّة قوّة أخرى تعمل بلا هوادة حتّى وقفت على سرّ الطعام المجهول. وكشف سماحة عن الخزي في صميم محلّه. وسرعان ما صرخ ضامر الحسني أمين مخزن الفتوّة من الرعب وقال بحرارة:

- إنّي بريء يا معلّم وليشهد الله...

فقال سماحة بوحشيّة:

- سُرق من المخزن أكثر من نصفه.

- إنّي بريء يا معلّم...

- إنّك مجرم حتّى تثبت براءتك.

- لا تخسر رجلًا وهبك حياته لخدمتك!

- معك أنت المفاتيح.

- أسلّمها لك كلّ مساء...

- ولكنّي أجدها مكانها كلّ صباح وأعيدها إليك...

- ممكن أن تؤخذ فيما بين ذلك وتُعاد!

- وأنا لا أدري؟

فقال ضامر الحسني بابتهال:

- إذا كان السارق ممّن يتردّدون على حجرتك بلا إذن!

استقرّت في عيني سماحة نظرة صلبة محتقنة بالنار كأنّما تنادي الشياطين من أوكارها، وتمتم ووجهه ينضح بالدمامة والغلّ:

- إن تكن كاذبًا فقد هلكت، والويل للمجرم...

- ٢٧ -

من وراء السبيل، في ظلمة كثيفة، تسلّل فتح الباب إلى باب المخزن. أدار المفتاح بحذر ودفع الباب برقّة. ردّ الباب وتقدّم خطوات مستهديًا بنور الذاكرة.

اشتعل مصباح فجأة فألقى على المكان ضوءًا فاضحًا. انذعر فتح الباب وتسمّر في موضعه. برزت

من الظلمة على ضوء المصباح وجوه مخيفة قاسية، وجه سماحة، وجه ضامر الحسني، وجوه نفر من أشدّاء العصابة. تلاطمت النظرات في ارتطام عنيف. انغرز الصمت في النفوس وأزّ في الآذان مثل فحيح الأفاعي. احترق الجوّ بأنفاس حارّة منطلقة من غرائز بدائيّة وحشيّة. وملأته نظرة أخيه. نفذت إلى أعماقه فاقتلعت أعضاءه من جذورها. شعر بالسمّ يسري في جوارحه، وبالهزيمة المطلقة، بالضياع في غياهب الفناء. انجلت عنه هموم الأمل فغاص في اليأس، وانتظر كلمة القضاء كأنّها تخصّ شخصًا آخر.

وجاءه الصوت يسأل باردًا ساخرًا حانقًا:

ـ ماذا جاء بك في هٰذه الساعة من الليل؟

لم يبقَ له إلّا الاعتراف والشجاعة والتوكّل على الله. أجاب بهدوء غير متوقّع:

ـ لقد علمت كلّ شيء...

ـ ماذا جاء بك في هٰذه الساعة من الليل؟

فقال بشجاعة أكثر:

ـ جئت لأنقذ أرواحًا من الموت...

ـ أهٰذا جزاء من يحسن إليك؟

فقال بهدوء:

ـ هٰذا ما ينبغي فعله...

ـ إذن فأنت عاشور الناجي؟!

فلاذ بالصمت. فقال سماحة بغلّ:

ـ ستعلّق من قدميك في السقف يا معلّم عاشور حتّى تصفّى روحك نقطة بعد نقطة...

ـ ٢٨ ـ

ووقعت الواقعة. رسبت الهمسات في أعماق الحرافيش فتحوّلت إلى قوّة مدمّرة. اجتاح الحارة طوفان لم تعرفه من قبل. هٰكذا قسم الحرافيش أنفسهم إلى جماعات، وتسلّلت كلّ جماعة إلى مسكن رجل من رجال العصابة. تمّ ذٰلك قبيل الفجر في ساعة النوم العميق. هوجم الرجال في أسرّتهم، دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزموا، نُهبت دورهم، زالت عنهم غشاوة السحر مخلّفة وراءها عاهات مستديمة. ولم يُسمع أذان الفجر من صياحهم. خرجوا من دور العصابة كالسيل، غمروا الحارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كلّ مخزون بها، دمّروها تدميرًا. وأوّل هدف لهم كان مخزن سماحة الفتوّة. بل لم يُترك قائم في المحلّ كلّه. نهب الغلال حتّى آخر حبّة. ورئي فتح الباب معلّقًا في عرق من عروق السقف، مدلّى الذراعين، مغمًى عليه أو ميتًا، ففُكّ وثاقه وطُرح على الأرض بين الحياة والموت. سيطروا على الحارة تمامًا حتّى شعشع أوّل ضوء للنهار. ذُعر الناس في النوافذ والمشربيّات وارتفع الصراخ، عند ذاك فُتح باب الفتوّة سماحة، وتجلّى الرجل مثل وحش قابضًا على نبّوته...

ـ ٢٩ ـ

تطلّعت إليه الأبصار. تسمّروا في حقد وتصميم ولٰكن استبقوا إلى السكوت والتوقّع. ها هو الوحش المخيف ولٰكنّهم سكارى بالنصر لا يخافون، وفي الوقت نفسه يتردّدون. لعلّه انتظر أن ينضمّ إليه رجاله فلم يعرف بعد ما حاق بهم. لا شكّ أنّه سيفطن إلى ما وقع إن لم يكن قد فطن إليه بالفعل. إنّه وحده يواجه الحرافيش، هو وقوّته ونبّوته وسحره الخرافيّ. وتساءل بصوت فاجر:

ـ ما معنى هٰذا؟

فلم يجبه أحد، ومن النوافذ هبطت إليه استغاثات، وأنباء النهب والسلب. تساءل مرّة أخرى:

ـ ماذا فعلتم يا أولاد الزواني؟

لم ينبسوا، لم ينخذلوا ولم يتشجّعوا، فتساءل بوحشيّة:

ـ ماذا فعلتم يا أبناء الزواني؟

فانطلق صوت كالحجر صائحًا:

ـ جدّك كان ابن الزانية...

وارتفع هدير من القهقهات فوثب سماحة وثبة قويّة ملوّحًا بنبّوته وصاح:

ـ اثبتوا إن كان في أسمالكم رجل!

فانحطّ الصمت عليهم كصخرة ولٰكن لم يتراجع أحد. وتهيّأ سماحة للانقضاض. عند ذاك ظهر فتح الباب شاحبًا مخلخل القدمين وهتف وهو يستند إلى جدار:

ـ اقذفوه بالطوب . . .

سرعان ما انفجر الحرافيش وانهال الطوب على الرجل. توقّف هجومه تمامًا تحت المطر. استبقت الدماء من جراحه حتّى تخضّب بها وجهه والثياب. ترنّح متراجعًا وهو يخور. أفلت النبّوت من يده. تقوّض بنيانه فوق عتبة الدار. . .

وانقضّ الجميع على الدار. فرّ عنها أهلها من السطح إلى الأسطح المجاورة. نُهبت ودُمّرت ثمّ تُركت خرابة مسوّرة. . .

ـ ٣٠ ـ

سرعان ما عُرف دور فتح الباب في المعركة. تجسّد أسطورة ونودي به فتوّة للحارة. وقد ارتبك الفتى وتحيّر. لم يغرّه النصر، ولم يضلّ في تقدير ذاته، فهو لم يقبض في حياته على نبّوت، وجسمه الهشّ لا يصمد لضربة يد. وقال لمحبّيه:

ـ نختار فتوّة ونأخذ عليه عهدًا بأن يحكم كما حكم عاشور. . .

ولكنّهم وقعوا في أسر الانفعال فصاحوا:

ـ أنت أنت الفتوّة ولا فتوّة غيرك!

هكذا وجد فتح الباب شمس الدين جلال الناجي نفسه فتوّة دون منازع. . .

ـ ٣١ ـ

وبفضل رجلينِ في العصابة ـ دنقل وحميدة ـ حافظت الفتونة على هيبتها سواء في الحارة أم في الحارات المجاورة. وكان دنقل وحميدة من رجال العصابة السابقين، وكذلك كان غالبيّة رجالها، ولكنّ فتح الباب سيطر سيطرة مطلقة بسحره الخاصّ وقوّة الحرافيش المتمثّلة في كثرتهم المنتشية بالنصر والثورة.

وفي تلك الأيّام ماتت نور الصباح العجمي، وآوت فردوس هانم وأبناؤها إلى دار أسرتها من آل راضي بعد أن فقدت جلّ ثروتها فهبطت من طبقة إلى طبقة.

ـ ٣٢ ـ

وتطلّع الناس إلى العدل. عمرت قلوب الحرافيش بالأمل وامتلأت أنفس الوجهاء بالمخاوف. واقتنع فتح الباب بأنّ العدل لا يجوز أن يتأخّر يومًا واحدًا. وقال لمعاونيه:

ـ علينا أن نحيي عهد عاشور الناجي. . .

ونشط الرجلان في توزيع الخيرات والوعود والآمال، ومضت الجراح تندمل. ولاحظ فتح الباب أنّ الرجلين ينوبان عنه في جمع الإتاوات وتوزيعها، كما لاحظ أنّ رجال العصابة ما زالوا يتمتّعون بامتيازاتهم، يستولون على أنصبة من الإتاوة ويعيشون عيشة البطالة والبلطجة. ساورته المخاوف. وأشفق من أن ترجع الأمور رويدًا إلى مجراها القديم. واجتمع برجاله وقال لهم:

ـ أين العدل؟. . . أين عهد عاشور؟

فقال له دنقل:

ـ تغيّر الوضع ولكن علينا أن نسير بعد ذلك خطوة خطوة. . .

فقال فتح الباب بامتعاض:

ـ العدل لا يقبل التأجيل. . .

عند ذاك قال دنقل بجرأة جديدة:

ـ لا يمكن أن يرضى رجالك بحياة بسيطة مثل بقيّة الناس!

فهتف بحرارة:

ـ إذا لم نبدأ بأنفسنا فلن يتحقّق خير. . .

ـ إذا بدأنا بأنفسنا تزعزعت أركان الفتونة. . .

ـ ألم يكن عاشور يتعيّش من عرق جبينه؟

فقال حميدة:

ـ تلك أيّام لا يمكن أن ترجع. . .

ـ لا يمكن؟!

فقال دنقل بفتور:

ـ خطوة. . . خطوة. . .

لو كان فتوّة حقًّا لحسم الأمر بكلمة واحدة. وساءل نفسه محزونًا:

ـ ما الفائدة ما دمت لا أملك قوّة جدّي عاشور؟. . .

والحرافيش ترى هل نسوا قوّتهم المدمّرة؟!

- ٣٣ -

وفي لحظة يأس وغضب معًا صارح فتح الباب دنقل وحميدة بأنّه سيعلن تخلّيه عن الفتونة. وجزع الرجلان واستمهلاه واعدين إيّاه بتحقيق مطالبه. واجتمع الرجلان بصديقهما مجاهد إبراهيم شيخ الحارة، وقال له دنقل:

- فتوّتنا ناقم، لا وفاق بيننا وبينه، فما رأيك؟

فأجاب العجوز بحنق:

- يريد أن يُرجع عهد الناجي أليس كذلك؟...

- نعم.

- أن يسود الحرافيش ويستذلّ الوجهاء ويجعلنا أضحوكة بين الحواري!

فقال له دنقل بكآبة:

- لقد هدّد بالتخلّي عن الفتونة...

فهتف مجاهد إبراهيم:

- ليس الآن، ليبقَ الصورة والأمل حتّى نطمئنّ تمامًا إلى أنّ الحرافيش لم يعودوا إلّا الحرافيشْ فقط، وأنّهم نسوا تمامًا هبّتهم الجنونيّة، حقّقوا له نصف مطالبه...

فقال حميدة ساخطًا:

- الكلّ أو لا شيء، ذلك مطلبه!

فتفكّر مجاهد إبراهيم مكفهرًا ثمّ قال بإصرار:

- فليبقَ فتوّة فترة أخرى ولو بالقوّة والقهر!

- ٣٤ -

وزار دنقل وحميدة فتح الباب في مسكنه المتواضع. انفردا به وقال له دنقل:

- نحن نبذل الجهد ولكنّنا نلقى عقبات كالجبال، ورجال العصابة غاضبون، يتوعّدون بالشرّ والدم...

فتمتم فتح الباب بذهول:

- ولكنّكما أقوى الرجال...

- هم الكثرة وهم الغدر...

فقال بإصرار:

- سأتخلّى عن الفتونة!

فقال حميدة:

- لا نضمن لك الحياة إن فعلت...

وقال دنقل:

- لا تغادر مسكنك أبدًا، ستلقى لدى أوّل خطوة خارجه مصرعك!

- ٣٥ -

أدرك فتح الباب موقفه عاريًا. قال لجدّته سحر:

- ما أنا إلّا أسير محاصَر!

فتأوّهت العجوز وقالت:

- ما باليد حيلة، اقنع بنصف الأمل...

فهتف بأسًى عميق:

- عليّ اللعنة إن خنت جدّي لحظة واحدة!

- وكيف تتحدّى القوّة؟

فتفكّر متحيّرًا وهو يغمغم:

- الحرافيش!

فقالت بإشفاق:

- سيقتلونك قبل أن تتّصل بأحد منهم!

- ٣٦ -

لبث فتح الباب في الأسر، لا يدري أحد ما سرّ انزوائه، ويؤوّل بالزهد تارة أو بالمرض. كانت الأعين ترصده نهارًا وليلًا، وحتّى جدّته حيل بينها وبين الخروج. وكان يعلم علم اليقين بأنّ حياته رهنٌ بتحمّس الحرافيش، وأنّه سيتلاشى يوم تتلاشى أسطورتهم ويركبهم الهوان. واشتدّ الحذر بالعصابة، ولم يتوانوا عن مراقبة الحرافيش وممارسة الإرهاب والعنف.

وذات يوم وثب حميدة على دنقل فبطش به واستأثر لنفسه بالمركز الأوّل في العصابة. وعندما اطمأنّ جانبه من ناحية الحرافيش أعلن نفسه فتوّة على الحارة...

وظنّ فتح الباب أنّ أسره قد انتهى ولم يعد له مبرّر أو معنى. قال للفتوّة الجديد:

- ما مضى قد مضى، دعني أمارس حياتي العاديّة وأرتزق من عمل مثل بقيّة خلق الله...

ولكنّ حميدة رفض مطلبه وقال له:

- إنّك غير مأمون الجانب، فابق حيث أنت، وسيجيئك رزقك بلا تعب!

- ٣٧ -

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده. مثل صحوة قصيرة مشرقة في يوم طويل ملبّد بالغيوم. وذات صباح عُثر عليه، جثة مهشّمة في أسفل المئذنة المجنونة. خفقت قلوب كثيرة في أسًى وفرحت قلوب. وقيل في تفسير ذلك إنّه جنّ حزنًا على ضياع الفتونة من بين يديه، فتسلّل ليلًا إلى مئذنة جدّه المجنون، فرقي فيها إلى أعلى شرفة، ثمّ رمى بنفسه للهلاك والكفر...

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده...

التوت والنبوت

الحكاية العاشرة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

بموت فتح الباب صحت الحارة من حلمها الورديّ، ارتطمت بصخرة الواقع، انطوت على أحزانها، تكاثف ظلّ حميدة السفّاح حتّى حجب نور الشمس.

لم يبق من صفوة ذرّيّة الناجي إلّا بنات فردوس أرملة سماحة ذي الوجه القبيح وبكريّها ربيع سماحة الناجي. أمّا البنات فقد ذبن في عامّة أهل الحارة، وأمّا ربيع فقد نشأ فقيرًا، ولم تكن أمّه تملك مالًا يُذكر، فعمل كاتبًا في محلّ البنان، ومارس حياة غاية في البساطة، رغم ذلك كان يُعدّ خير آل الناجي. لم يستدرّ ذلك رحمة أحد. فعلى تعلّق الحرافيش بسيَر عاشور وشمس الدين وفتح الباب، فقد أضمروا الاحتقار والمقت لسائر آل الناجي لخيانتهم لعهد جدّهم العظيم، ولانخراطهم في سلك المجرمين والبلطجيّة.

وقد أراد ربيع أن يتزوّج من أسرة كريمة ولكنّ طلبه رُفض فأدرك أنّ أصله لا يغني عن فقره وتفاهة عمله، وأنّ الفقر يفضح معايب يسترها الثراء عادة، مثل انتمائه إلى سماحة ذي الوجه القبيح وجلال المجنون وزهيرة السفّاحة، وزينات الشقراء الداعرة ونور الصباح العجمي الغانية. سلسلة صدئة من الدعارة والإجرام والجنون. لذلك غشيته كآبة ثقيلة ممتدّة فقرّر أن يمضي حياته أعزب متسربلًا بالوحدة والكبرياء. وماتت فردوس هانم بعد أن جاوز الخمسين، فاضطرّ إلى أن يقيم في شقّة صغيرة من حجرتين وحيدًا. ولم يطق الوحدة المطلقة وضاق بإهمال بيته الصغير فبحث عمّن يقوم بخدمته فجاءه أولاد الحلال بأرملة في الثلاثين من آل الناجي تدعى حليمة البركة. وجدها جادّة وأمينة مقبولة الصورة، قويّة الشخصيّة رغم فقرها، فكانت تنظّف البيت وتعدّ الطعام ثمّ تذهب للمبيت في بدرومها. ومع الأيّام مالت نفسه إليها فرغب أن يتّخذ منها خليلة، ولكنّ المرأة أبت ذلك في حزم وقالت له:

ـ سأذهب يا سيّدي ولكنّي لن أعود. . .

وجد نفسه وحيدًا بائسًا كما كان أو أشدّ بؤسًا، ولم يعد في وسعه أن يحتمل الوحدة والحرمان العاطفيّ، إلى خوف من المرض والموت وحنين إلى الذرّيّة، فعرض على المرأة الزواج وسرعان ما قبلت وهي سعيدة. هكذا تزوّج ربيع سماحة الناجي من حليمة البركة بعد أن عبر الخمسين بثلاث سنوات. وسعد بحياته الزوجيّة، ووجد في شريكته سيّدة بيت حازمة، ورعة متديّنة، فخورًا بانتمائها إلى الناجي، مسحورة بأمجاد الأسرة الأصيلة، وأنجب منها ثلاثة، فائز وضياء وعاشور. ومات ربيع وبكريّه فائز في العاشرة وضياء في الثامنة وعاشور في السادسة، مات دون أن يترك لأسرته مليّمًا واحدًا. . .

- ٢ -

تركت حليمة البركة لتواجه الحياة وحيدة. كان

أهلها من الحرافيش فقرّرت أن تعتمد على نفسها، مستعينة بالعزيمة لا بالدموع. انتقلت إلى بدروم مكوّن من حجرة ودهليز، باعت فائض الأثاث البسيط، استغلّت مواهبها في بيع المخلّل والمفتّقة والخدمة كبلّانة ودلّالة. لم تولع بترديد الشكوى والحسرة على الماضي، وواجهت زبائنها بوجه مشرق كأنّه سعيد، ولم تخلُ من أحلام عذبة عن مستقبل مجهول.

أدخلت أبناءها الكتّاب، وعند السنّ المناسبة عمل فائز سوّاق كارو، وضياء شيّالًا في محلّ النحّاس. وهانت شدّة الحياة قليلًا، ولكن لم تزل تطالب حليمة بالعمل وقد بلغت الخمسين.

وكان فائز أوّل من واجه الحياة من أسرته. وجدها معادية معاندة، وأنّه يؤاخذ فيها على جرائم أجداد وجدّات لم يعرفهم. كان طويلًا نحيلًا بارز الأنف ضيّق العينين قويّ الشدقين، وكان يزدرد السخريات ويكبت مشاعره ويمضي في عمله. عرف عن أمّه جانبًا مضيئًا من تاريخ الأسرة ولكنّه عرف جانبها المظلم في الحارة بين الناس. في البيت تلقّن معاني الزاوية والسبيل والكتّاب والحوض، وفي الخارج دهمه مغزى المئذنة العملاقة المجنونة. وهذه الدور الرائعة التي كانت مقامًا لأجداده ثمّ أصبحت مساكن للتجّار والوجهاء الأغراب. كم يتأمّلها بغرابة ويحلم، كم يتخيّل تلك الأيّام الخوالي، ولا يخلو دماغه منها حتّى وهو ينخر الحمار لينطلق بالكارو في أرجاء الحيّ العتيق. إذن فهذه هي الدنيا، ولكن كيف ينبغي أن نتعامل معها؟

ـ ٣ ـ

وأعلن سخطه على مسمع من أمّه وأخويه فقالت له حليمة:

ـ كان جدّك عاشور وليًّا!

فقال فائز بحدّة:

ـ مضى زمن المعجزات أمّا الدور فهي في قبضة الآخرين...

فقالت الأمّ بحرارة:

ـ من الحرام جاءت وفي سبيل الحرام هلكت...

فهتف بتذمّر كالمحتجّ:

ـ الحرام!

ـ اقنع بنصيبك، ماذا تريد؟

ـ ما أنا إلّا خادم حمار وما أنت إلّا خادمة أوغاد...

فقالت باعتزاز:

ـ نحن نعمل ونحن شرفاء...

فقهقه. وكان قد طاف بالبوظة قبل رجوعه وشرب قرعتين.

ـ ٤ ـ

واشتغل عاشور الابن الأصغر صبيًّا لغنّام يدعى أمين الراعي، تعهد إليه الأسَر بما تملك من ماعز فيسرح بها في الخلاء لتمرح وتنعم بالشمس والهواء والأعشاب، وذلك نظير أجر معلوم. بذلك ارتاح بال حليمة البركة فقد أصبح أبناؤها الثلاثة عمّالًا يرزقون، ووهبتها الحياة بسمة صافية. ومضت الحياة بمسرّاتها الصغيرة وأحزانها المألوفة حتّى بلغ فائز العشرين من عمره. وسألته أمّه في ساعة صفاء:

ـ متى تكمل دينك يا بنيّ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ صبرك يا أمّي وما صبرك إلّا بالله...

ـ ٥ ـ

ولم يرجع فائز من مشاويره في ميعاده المألوف. مضى أكثر الليل ولم يرجع. ذهب عاشور إلى البوظة يبحث عنه، وتشمّم ضياء أخباره في الغرز، ولكن لم يُعثر له على أثر. وفي الصباح مضت حليمة البركة إلى المعلّم موسى الأعور صاحب الكارو مستطلعة عن خبر ابنها فوجدته قلقًا ساخطًا، وقال لها:

ـ لا خبر عنه...

فانزعجت الأمّ وقالت:

ـ نذهب إلى القسم؟

فقال المعلّم:

ـ ولا خبر عنه في القسم...

ثمّ تمتم بحنق:

ـ فلننتظر والله المستعان!

ومضى يوم في قفا يوم، القلوب مشتعلة وفائز لا يعود.

وصاح المعلّم موسى الأعور:

ـ سرقة وربِّ الكعبة، سرق الكارو واختفى، ولكن له الويل. . .

وهتفت بركة في جزع:

ـ ألم نجرّب أمانته طوال تلك الأعوام؟

فقال بغضب:

ـ إنّه مؤذٍ كثعبان. . .

ـ ٦ ـ

وبكت حليمة طويلًا كما بكى ضياء وعاشور. وتعاقبت الأيّام والأسابيع والأشهر. لم يعد يشكّ أحد في الهارب وجريمته. وقال حسّونة السبع الفتوّة الجديد ساخرًا:

ـ كانوا يسرقون الدور الفخيمة فأصبحوا يسرقون الكارو!

ولجأ موسى الأعور إلى الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية وعمّ يونس السايس شيخ الحارة فأفتيا بأنّ على ستّ حليمة وابنيها ضياء وعاشور أن يؤدّوا ثمن العربة والحمار إلى موسى الأعور. وأدّت الأسرة الثمن مقسّطًا وهي حزينة وصابرة.

ـ ٧ ـ

وقعت حادثة لا تُعتبر غريبة بمقياس ما يقع في الحارة ولكنّها هزّت قلوب الأسرة هزًّا. كانت حليمة تقدّم كافّة الخدمات لدار الفتوّة حسّونة السبع بلا مقابل، بلا كلمة شكر. حتّى هنا لا غرابة ولا تعجّب، فقد كان حسّونة من أفظع الفتوّات الذين سيطروا على الحارة وأذلّوها. كان يستغلّ حتّى أفقر الفقراء. وكان يجادل بيده وقدمه لا بلسانه وينشر الرعب مع الهواء. وكان على شراسته وقوّته حذرًا كثعلب. هو الذي أوجب على جميع أتباعه بأن يستأثروا لأنفسهم بزقاق لا يقيم فيه أحد غيرهم ليتجنّبوا مؤامرة كالتي دُبّرت للفتوّات أيّام فتح الباب. وهو نفسه شيّد داره في نهاية الزقاق.

وقد حدث أن تأخّرت حليمة في صنع صفيحة مفتّقة بسبب وعكة طارئة، ولّما ذهبت بها إلى الدار لعنها بعنف وصفعها! ورجعت المرأة دامعة العينين ولكنّها أخفت الخبر عن ابنيها ضياء وعاشور. غير أنّ ضياء كان يتردّد أحيانًا على البوظة، وفي مرّة سأله زين علباية الخمّار:

ـ ألم تعلم بما حدث للستّ الوالدة؟

هكذا تلقّى ضياء الإهانة ثمّ قذف بها دامية في قلب عاشور. وتلظّى ضياء بالغضب، ولكنّ شرره لم يجاوز جدران البدروم، أمّا عاشور فغاص في الحزن حتّى قمّة هامته. كان قويًّا ومهذّبًا. غطّى تهذيبه على قوّته فوارها عن الأعين. وكان نبيل الرأس غليظ القسمات غامق السمرة، وفي وجنتيه بروز وفي فكّه صلابة. ولم يطق البقاء في البدروم مع أحزانه فخرج إلى الظلام، مسوقًا بقوّة خفيّة نحو ساحة التكيّة، نحو خلود جدّه عاشور. جلس القرفصاء دافنًا رأسه بين ركبتيه في جوّ جامد لا يتنفّس تسبح فيه الأناشيد وحدها. أصغى طويلًا وغمغم:

ـ ما أشدّ ألمي يا جدّي!

وناجته الأناشيد بلغتها الغامضة:

بى مهر رخت روز مرا نور نماندست
وزعمر مرا جز شب ديجور نماندست

ـ ٨ ـ

واستقرّت الإهانة في الأعماق، فهي لا تُهضم ولا إلى الخارج تُقذف. وكان عاشور ينمو نموًّا فذًّا كشجرة توت، يذكّر هيكله المتمادي في العملقة وملامحه الغليظة الجذّابة بما قيل في وصف جدّه عاشور. أصبح منظر راعي الغنم جديرًا بلفت الأنظار. وخافت حليمة أن تثير قوّته هواجس الوحش حسّونة السبع فحذّرته قائلة:

ـ تناسَ قوّتك، تظاهر بالجبن فهو أرحم، ليتني ما سمّيتك بعاشور!

ولكنّ الفتى كان فطنًا، مستغنيًا بفطنته عن التحذير. وكان يمضي طيلة نهاره في الخلاء بين الماعز

بصحبة معلّمه أمين الراعي. لم يظهر قطّ في البوظة أو الغرزة أو القهوة. لم يستعمل قوّته قطّ إلّا في المثابرة والصبر. أجل مزّقته الإهانة. غضب حتّى تخيّل أركان الحارة وهي تُهدم ويُبعث مَن في القبور، ولكنّه لم يتهوّر، ضبط نفسه، لم يتجاهل القوّة الغشوم المتربّصة الحذرة القاسية ونبابيتها المتأهّبة. وكلّما ضاق صدره مضى إلى ساحة التكيّة، يؤاخي الظلام، ويذوب في الأناشيد. وتساءل مرّة في حيرة:

- ترى أيدعون لنا أم يصبّون علينا اللعنات؟

وتساءل مرّة أخرى في أسّى:

- منذا يحلّ لنا هٰذه الألغاز؟

وتنهّد طويلًا ثمّ استطرد:

- إنّهم يغلقون الأبواب لأنّنا غير أهل لأن تُفتح في وجوهنا الأبواب!

وكان يجد ضياء في البدروم صاخبًا بالغضب. ومرّة قال ضياء:

- لولا أنّنا صرنا حرافيش ما تعرّضت أمّنا للإهانة...

فقال له عاشور:

- حرافيش أم وجهاء لا يهمّ، ستدرك الإهانة دائمًا مَن يتقبّلها!

- ماذا علينا أن نفعل؟

فصمت عاشور مليًّا ثمّ تمتم:

- لا أدري يا أخي!

- ٩ -

خافت حليمة عواقب الأفكار المحتدمة، فقالت ببساطة وصراحة:

- ما أصابني لا يُعَدّ إهانة في حارتنا!

وصمّمت على أن تجتاز بهما تلك المحنة ففكّرت جادّة في تزويجهما. لقد فقدت فائز وها هو الزمن يمضي مسرعًا بلا أمل. سيبعث الزواج وثبات جديدة في هٰذه الحياة الراكدة. سيجعل منهما رجلين أكثر تعقّلًا، وأشدّ حذرًا، وأبعد عن المغامرات الفاتكة. وسألتهما:

- ما رأيكما في بنت الحلال؟

ورحّبا بارتياح. كانا فقيرين مكبوتين فرحّبا. وقالت حليمة:

- ننتقل إلى بدروم أكبر يسعنا جميعًا فهو للمعيشة أوفر...

ووقع اختيار المرأة على فتحيّة وشكريّة ابنتي محمّد العجل العلّاف بحظيرة المعلّم موسى الأعور. ولم يكن أحد منهما قد رأى فتاته، ولكنّهما كانا يغليان بوقدة الشباب، ويتوثّب خيالهما الجامح لمعانقة أيّ أنثى.

هٰكذا قُرئت الفاتحة.

- ١٠ -

وجاء إلى الحارة فتًى غريب. نطق وجهه بالعافية، رفل في عباءة بنّيّة. انتعل مركوبًا أحمر، طوّق رأسه بلاثة من الشاهي المنمنم، في يده مسبحة من القهرمان. أوّل من رآه كان زين علباية الخمّار. لم يعرفه إلّا حين ابتسم فهتف الخمّار:

- مَن؟... فائز بن ربيع الناجي...

وتطلّعت إليه الأعين غير أنّه مضى من توّه إلى القهوة، إلى أريكة حسّونة السبع، انحنى فوق يده فلثمها ثمّ وقف ممتثلًا. قال حسّونة وهو يتفحّصه:

- ما شاء الله ها قد رجع الهارب!

فقال فائز:

- مصير الحيّ إلى أصله!

فقال حسّونة السبع بلهجة ذات مغزًى:

- آثار الشطارة بادية عليك...

فقال فائز بخشوع:

- هٰذا من فضل ربّي...

ودخل القهوة عند ذاك موسى الأعور، وفي أعقابه دخل شيخ الحارة يونس السايس. وهتف موسى:

- في ساحة فتوّتنا يتحقّق العدل.

فنهره الفتوّة قائلًا:

- لا تنهق كالحمار...

فقال الرجل:

- باع العربة والحمار ثمّ تاجر بمالي!

فسأل الفتوّة فائز:

- ماذا فعلت بماله؟

فقال فائز:

ـ ورأس الحسين لقد سُرقت الكارو وأنا نائم، لذلك هربت...

فقال موسى:

ـ كذّاب!... من أين لك هٰذا الجاه؟

ـ العمل والحظّ وفضل ربّي...

فتمتم يونس السايس:

ـ قضيّة طريفة حقًّا...

فقال فائز:

ـ إنّه مالي، لو كنت لصًّا ما رجعت، وما أرجعني إلّا حرصي على تسديد ديوني...

وقدّم للفتوّة صرّة وهو يقول:

ـ عامان مضيا بلا إتاوة.

تناولها الفتوّة. ابتسم لأوّل مرّة. قال فائز:

ـ من أجلك يـا معلّم جئت أوّلًا، ولأرى أهلي أخيرًا!

قال حسّونة السبع:

ـ لصّ؟... لا يهمّ، ولٰكنّك فهلويّ، إنّي أصدّقك!

فتساءل موسى الأعور:

ـ وأنا يا معلّم؟

فقال يونس السايس:

ـ لقد قبضت ثمن الكارو والحمار من ستّ حليمة البركة...

فقال موسى الأعور:

ـ ماله في الواقع هو مالي أنا...

فقال حسّونة السبع:

ـ من حقّ موسى صرّة مثل صرّتي.

فلم يتردّد فائز فقدّم للفتوّة صرّة أخرى. فطرب الرجال بالحكم العادل فهتفوا معًا:

ـ اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ولكنّ حسّونة السبع أبقى الصرّة الجديدة في قبضته على حين تجلّت في عينَي موسى الأعور نظرة يائسة.

قال الفتوّة يخاطب فائز:

ـ آنَ لك أن تذهب إلى أهلك.

ـ ١١ ـ

أمام البدروم وجد حليمة في انتظاره. لدى بلوغ الخبر إليها خرجت إلى الطريق. كأنّه حلم أو خرافة أو معجزة ولٰكنّه على أيّ حال سعادة تفوق الاحتمال. ضمّته إلى صدرها وأجهشت في البكاء وظلّت تردّد:

ـ الشكر لك يا ربّ... الشكر لك يا ربّ.

واجتمع شمل الأسرة عقب عودة ضياء وعاشور. امتزجت الدهشة بالسعادة مرّة أخرى. لبث فائز بينهم في الحجرة الصغيرة كماسة في كوم من الهشيم. يشعّ منه نور، ويسيل أمل يتجلّى المستقبل على ضوئه في صورة خلّابة لم يحلم بها أحد. تغيّرت أحاسيس الأسرة، خلقت خلقًا جديدًا. مضى فائز يقول:

ـ الناجح محسود، ستُفتعل حولي الأقوال، ولٰكنّي بريء والله شهيد...

فقالت حليمة بحرارة:

ـ قلبي يصدّقك...

ـ ما الحكاية؟... بكلّ إيجاز لقد سُرقت الكارو وأنا نائم، تحيّرت، قرّرت الهرب، لعلّه كان قرارًا خاطئًا ولٰكنّه ما حصل...

تركّزت عليه الأبصار بقلوب مرحة مستعدّة للتصديق. قال:

ـ همت على وجهي أيّامًا بلا عمل حتّى انتشلني خواجا، الحكاية طويلة، عملت عنده خادمًا وسوّاقًا، حميته من تحرُّش بعض الأراذل، تعلّمت على يديه سرّ العمل، ثمّ جاءني الحظّ ببسمته العذبة، لا بدّ من الحظّ، ربحت ورقة نصيب، قرّرت أن أعمل لحسابي، صادفني نجاح فاق كلّ تقدير...

وسأله عاشور باهتمام:

ـ ما عملك بالضبط يا أخي؟

ـ ليس من اليسير شرحه، هل سمعت شيئًا عن السمسرة والمضاربة؟ حسن، لا دكّان لي ولا محلّ، نعقد الصفقات في الطريق في المقاهي، إنّها أمور معقّدة، سنعود إليها بتفصيل أكثر، ولٰكنّني لن أشرككما فيها، لقد رسمت للمستقبل صورة محدودة ومتنوّعة ومضمونة...

فتورّدت الوجوه من البهجة وعذوبة الحلم ولاذت

بالصمت والابتهال فمضى يقول:

- إرادة الله العليّ القدير أن يعود آل الناجي إلى مركزهم المرموق!

فتساءل عاشور هامسًا:

- تعني الفتونة يا أخي؟

فضحك قائلًا:

- لا... لا... أعني الوجاهة والأبّهة!

فقال ضياء بإشراق:

- ما أجمل هٰذا!

- يجب أن تتغيّر هٰذه الحياة الضحلة، لن نكون بعد اليوم من الحرافيش، لا راعي غنم ولا شيّال، هي إرادة الله العليّ القدير...

فهتفت أمّه:

- إنّك ثمرة حبّي ودعائي...

فقال بجدّيّة بالغة:

- علينا أن نفكّر فيما ينبغي عمله بلا تردّد، فإنّ نشاطي يتطلّب منّي رحلات بلا نهاية!

- ١٢ -

وحلّت تغيّرات حاسمة مثل تغيّرات الفصول الأربعة. ما بين يوم وليلة تحوّلت حليمة البركة إلى ستّ بيت فلا خدمة ولا بيع. استقال ضياء من محلّ النحّاس كما استقال عاشور من رعي الأغنام. انتقلت الأسرة إلى شقّة مؤقّتة مكوّنة من أربع حجرات، والأهمّ أنّه شرع في تشييد دار للأسرة في خرابة أمام بنك الرهونات. واشترى فائز وكالة الفحم تاركًا إدارتها لأخويه، فجلس ضياء وعاشور في حجرة الإدارة، رافلين في العباءة الفضفاضة، ناشرين من أعطافهما شذا المسك والعنبر.

تداخل الحلم في الحقيقة وتداخلت الحقيقة في الحلم وانبهرت الأعين وشخصت الأبصار. عند استبدال الثياب الفاخرة بالأسمال البالية شعر الأخوان بذهول ورهبة ثمّ بسعادة مسكرة. خرجا إلى الطريق كأنّهما يخوضان معركة. شدّ منظرهما الأبصار، أحدق بهما أناس من الحرافيش والصغار. انهلّ عليهما طوفان متضارب من السخريات والبركات والعبث والجدّ والغمز والتهنئات. وما إن ارتفع الضحى حتّى فاز الجاه بامتيازاته واستقرّ في مركزه وسلّم الجميع بقضاء المقادر. وكم من قلوب أحرقها الحسد، وكم من قلوب دوّخها الانبهار، وكم من قلوب ثملت بآمال مجهولة!

ووقف جليل العالم شيخ الزاوية ويونس السايس شيخ الحارة يتناجيان. قال يونس وهو يرمق عاشور:

- يقال إنّ هٰذا الفتى يشابه جدّه الأوّل.

فقال جليل:

- ثمّة فرق هو ما بين الذهب الخالص والنحاس المطليّ بالذهب!

- ١٣ -

واعترضت الطريق المنبسط عقبة كالحة، هي قراءة فاتحة شكريّة وفتحيّة! فرضت نفسها عليهم من أوّل يوم. وقال ضياء لأمّه معاتبًا:

- لِمَ تسرّعت يا أمّي؟

فلم تدرِ حليمة بم تجيب. لم تعد سعيدة بالخطوبة ولا متحمّسة لها، ولٰكنّها تكره عادة أن تفعل ما تخجل منه، كما أنّ تقوى الله تملأ قلبها. وتمتمت:

- قسمة ونصيب!

فسألها بحدّة:

- ماذا؟

فقالت باستسلام:

- يقول المثل «خذوهنّ فقيرات يغنكم الله».

- ولٰكنّ الله قد أغنانا من قبل أن نأخذهنّ!

- ألم تكونا قدم السعد؟

فتمتم ضياء في ضيق:

- إنّه لعبث!

ولبث عاشور صامتًا متجهّمًا. إنّه لم يعد سعيدًا بالخطوبة، ولٰكنّه يكره عادة أن يفعل ما يخجل منه - مثل أمّه - تملأ التقوى قلبه. سألته حليمة:

- وأنت يا عاشور؟

فأجاب مغلوبًا:

- لقد قرأنا الفاتحة...

فهتف ضياء:

- كلّا، إنّه قرار مؤسف لا يسرّ، ولٰكن كلّا ثمّ كلّا...

فقالت حليمة بحزم:

ـ افعل ما تشاء بنفسك، ولا تعتمد عليّ. . .

ـ ١٤ ـ

وقابل ضياء ربيع الناجي عمّ يونس السايس شيخ الحارة فرجاه أن يحمل اعتذاره إلى محمّد العجل. وتأمّل شيخ الحارة وجه ضياء الصغير وقسماته الدقيقة ووسامته الشاحبة بلا معنى وقال في نفسه إنّه وغد حقًّا بالصورة والمضمون ولكنّه قال له مداهنًا:

ـ إنّه لعدل ما تفعل ولن يلومك عليه إلّا حاسد أو حاقد.

فقال ضياء مداريًا خجله:

ـ ما باليد حيلة.

ـ وعاشور، ماذا عنه؟

فقال ضياء بحنق:

ـ إنّه طيّب أحمق!

فضحك يونس السايس وقال:

ـ ستمتدحه السنة وهي تسخر من سذاجته!

ـ ١٥ ـ

وأثار فسخ خطوبة ضياء عاصفة من السخط والتهكّم أسهم فيها الطيّبون بطيبتهم، والحاقدون بحقدهم وحسدهم. وغطّت نذالة ضياء على شهامة عاشور فسرعان ما تجوهلت وانصبّت اللعنات على الأسرة الخائنة التي تتجسّد قسوتها وأنانيّتها في أمثلة حيّة، وتذوب قداستها في أساطير غابرة لم يشهدها أحد.

وكان المعلّم عاشور ربيع الناجي ماضيًا إلى وكالة الفحم عندما ترامى إليه صوت غليظ ينادي بنبرة آمرة:

ـ عاشور!

رأى الفتوّة حسّونة السبع متربّعًا فوق أريكته وسط نفر من أتباعه فمضى إليه بلا تردّد وأدّى التحيّة اللائقة. ولم يدعه الفتوّة للجلوس وقال له متحدّيًا:

ـ إنّكم أنذال يا آل الناجي. . .

أدرك عاشور ما وراء ذلك من سبب. وعجب لِمَ لم يوجّه سبّه إلى أخيه. أدرك أنّه يمتحن رجل الأسرة العملاق القويّ. سرعان ما لاذ بنصيحة أمّه ودهائه الفطريّ فقال بأدب:

ـ ليغفر الله الذنوب!

ـ بسرعة تنسون أصلكم، تنسون الجنون والدعارة، أليس محمّد العجل أشرف منكم؟

فقال عاشور كاظمًا انفعالاته:

ـ إنّه رجل شريف وعمّا قريب سأنضمّ إلى أسرته. . .

ـ كلّا. . .

ـ ولكنّه الحقّ. . .

ـ رفض الرجل النبيل أن تسعد إحدى ابنتيه على حساب الأخرى. . .

ـ ولكنّ خطوبتي لم تُفسخ!

ـ بل فُسخت من ناحيته، وها أنا أبلغك بقراره. . .

فصمت عاشور متجهّمًا فقال الفتوّة:

ـ عليكم أن تعوّضوه عمّا أصابه.

ـ نفعل ما يراه فتوّتنا صوابًا.

ـ ١٦ ـ

وانقشعت السحابة المثقلة بالحقد والمرارة والندم. ومضت الأيّام مترقرقة بالسعد والإقبال. غدت وجاهة ضياء وعاشور عادة يوميّة مألوفة. واستقرّت الدار الفاخرة أمام بنك الرهونات. وحمل الدوكار حليمة البركة إلى مشاويرها. أمّا فائز ربيع الناجي صاحب الجاه وباعثه فكان يزور أهله ويتفقّد ملكه على فترات متباعدة.

ـ ١٧ ـ

وعشقت الأسرة الجاه واستنامت إليه. عاشور نفسه فرح في أعماقه بفسخ خطوبته وبخاصّة وأنّ فسخها لم يحمّله إثمًا. وسعد بحياة النعيم فاعتبر أخاه فائز معجزة من معجزات الأسرة وعبقريّة من عبقريّاتها. وكان يتطلّع بشغف إلى أقمار الأُسَر في العربات، إذ كان يحبّ الجمال كما يحبّ التكيّة وكما يحبّ مجد أسرته

الحقيقيّ الذي عبق الماضي بشذاه الطيّب النقيّ. وكان يغدق بلا حساب على الفتوّة وشيخ الحارة، وجدّد الزاوية والسبيل والحوض والكتّاب، وتصدّق على الحرافيش. وفيما يتعلّق بالحرافيش قالت له أمّه:

ـ لا تثر مخاوف حسّونة السبع، دعهم لي فإنّي أستطيع أن أوزّع الصدقات في الخفاء!

ووافق عاشور إذ كان يعلم أنّ ثورة الحرافيش لا تُمحى من ذاكرة الفتوّات!

ولعلّ ضياء كان أسعد الجميع. عشق الجاه بشغف وشراهة. نعم بالكبرياء في حجرة الإدارة، بالترف في دار الناجي الفاخرة، بالكارتة والدوكار، هام بالثياب الأنيقة والأطعمة الفريدة، اقتنى أجود أنواع البوظة والحشيش والأفيون والمنزول. عبد في أعماقه أخاه فائز، كما عبد رجال الأسرة الأخيار منهم والأشرار على السواء، وكان يقول متباهيًا:

ـ المهمّ أن تخرق المألوف!

ولعلّ حليمة كانت أقرب الأسرة إلى القصد ولكنّها أيضًا نعمت بالعزّ والجاه. وفي المواسم كانت تهرّب الصدقات إلى الحرافيش، وغمرت أمّ فتحيّة وشكريّة بخيرها حتّى نسيت المرأة الإساءة وصارت من أقرب المقرّبات إليها.

ـ ١٨ ـ

وظلّ نداء خفيّ يدعو عاشور إلى ساحة التكيّة ليطرب مع الأناشيد، كما كان يدعوه أحيانًا إلى الخلاء حيث كان يرعى الأغنام. وكانت سعادته سماء تظهر في جنباتها قطع السحاب، وأحيانًا تركض حتّى تخفي وجه الشمس. وقد يدهمه في أعذب اللحظات قلق غامض فيفتر حماسه ويتساءل عمّا يعنيه ذلك. ولاحظت حليمة ذلك فقالت له مرّة:

ـ ما أضيع الرجل بلا زوجة يسكن إليها!

فقال بارتياح خفيّ:

ـ هو ذلك، ولكنّه ليس كلّ شيء!

فسأله ضياء:

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟

فقبّل يده ظهرًا وبطنًا. ولكنّه قال لنفسه إنّ إهانة الفتوّة تستكنّ في جوفه مثل خنجر، وإنّه لا يدري بأيّ وجه يلقى جدّه عاشور؟ وإنّ سعادته ينقصها شيء جوهريّ. وتساءل:

ـ لِمَ يساور القلق إنسانًا وهبه الله النعمة والكمال؟

فأجابت أمّه بلا تردّد:

ـ إنّه الشيطان يا بنيّ!

حقًّا إنّه الشيطان، ولكن أيّ شيطان؟!

ـ ١٩ ـ

وأعجب الشقيقان ضياء وعاشور بفتاتين من أعرق الأسر، فخطب ضياء سلمى الخشّاب كريمة صاحب وكالة الخشب، كما خطب عاشور عزيزة العطّار كريمة أكبر عطّار في الحارة. وتبدّى فائز في حفل الخطوبة في أبّهة مَلك الملوك. . .

ومضت الأيّام مترقرقة بالسعد والإقبال.

ـ ٢٠ ـ

وفي ذات ليلة جاء فائز في غير ميعاده. . .

كانت الأسرة مجتمعة في قاعة الجلوس، وثمّة مدفأة كبيرة من النحاس تشتعل جمراتها. كانت الأمّ تسبّح، وعاشور يدخّن البوري، وضياء ينسطل، على حين عزفت في الخارج ريح باردة منذرة بالمطر.

جاء فائز في غير ميعاده إذ كان يجيء عادة ـ إذا جاء ـ في الضحا مستعرضًا أبّهته ودوكاره. هبّ الجميع لاستقباله. وسرعان ما لاحظوا أنّ معجزة الأسرة فاتر النظرة متجهّم الوجه. جلس على ديوان، أزاح العباءة عن منكبيه رغم شدّة البرد. تساءلت حليمة بقلق:

ـ مالك؟

لتمتم في خمول:

ـ لا شيء. . .

ـ بل يوجد شيء يا بنيّ!

فقال بلا مبالاة:

ـ وعكة. . .

وصمت وهو محطّ الأنظار فتجلّى وجهه بالتصلّب الذي كان يطالعهم به قديمًا قبل أن ينتصر على الحياة. قامت حليمة وهي تقول:

ـ أغلي لك كراوية...

وتمتم ضياء:

ـ وتنام!

وأسبل جفنيه مليًّا ثمّ قال:

ـ لا مفرّ في بعض الأحيان من أن يحنّ الإنسان إلى بيته...

فقال عاشور:

ـ شتاء هٰذا العام لعين...

ـ ألعن ممّا تتصوّرون...

ـ وأنت تعمل بطاقة تفوق احتمال البشر...

فردّد بغموض:

ـ احتمال البشر...

فقال ضياء:

ـ للإنسان حقّ في الراحة...

فقال بتسليم:

ـ قرّرت أن أحظى براحة عميقة.

وساد الصمت. ثمّ ما لبث أن نهض قائلًا:

ـ سآوي إلى فراشي...

ومضى إلى مخدعه...

وجاءت حليمة بقدح الكراوية فمضت في أثره.

كان الشمعدان يضيء المخدع، وكان فائز راقدًا فوق الفراش بملابسه. قالت حليمة:

ـ لِمَ لم تغيّر ملابسك؟

وسرعان ما سقط القدح من يدها، وصرخة ممزّقة انطلقت من فيها...

ـ ٢١ ـ

وقفوا يحدّقون بأعين تطفح بالذهول والجنون.

فائز شاخص البصر، ملقى الوجه بلا حَوْل، كأنّه متجمّد منذ ألف عام، يسراه مدلّاة من حافة الفراش الوثير، تتكوّن تحتها بحيرة من دم فوق السجّادة الشيرازي، وثمّة خنجر منطرح فوق القفطان الكمّونيّ ذو مقبض ذهبيّ. جرى ضياء يفتّش تحت الديوان والفراش والصوان في الحجرة المغلقة النوافذ وهو يصيح:

ـ مستحيل... ما معنى هٰذا؟...

وهتفت حليمة بصوت مبحوح:

ـ ليدركنا سيّد الرسل!

وصرخ عاشور:

ـ الحلّاق!

وغادر الحجرة بسرعة جنونيّة. وراحت حليمة تصوّت فصاح بها ضياء:

ـ إنّه حيّ!

فصرخت:

ـ انتهى، لِمَ فعلت بنفسك هٰذا يا بنيّ؟!

سرعان ما جاء الحلّاق، تبعه يونس السايس والشيخ جليل العالم، ثمّ رجال ونساء من آل الخشّاب وآل العطّار.

وتراجع الحلّاق وهو يتمتم:

ـ سبحان مَن له الدوام.

اجتاحت الدار الأنيقة عاصفة من الجنون.

ـ ٢٢ ـ

قبيل منتصف الليل جاء رجال السلطة، فباشروا التحقيق مع الأهل والخدم، وتفحّصوا الأمكنة بدقّة وعناية بالغة...

سأل المأمور:

ـ ما تفسير ذٰلك في تقديركم؟

فقالت حليمة:

ـ حتّى أمس كان أسعد خلق الله.

ـ أتعرفون أعداء له؟

ـ كلّا.

ـ ماذا كان يعمل؟

ـ كان رجل أعمال وسمسرة ومضاربات...

ـ أين مكان عمله؟

ـ لا مكان محدّدًا له، له دار في الدراسة عند مشارف الجبل...

ـ ماذا تعرفون عن شركائه وعملائه؟

ـ لا شيء ألبتّة!

ـ كيف كان ذٰلك؟

ـ هو الحقّ بلا زيادة ولا نقصان!

- ٢٣ -

أعلن أنّ فائز ربيع الناجي قد انتحر لأسباب لم يكشف التحقيق عنها بعد. ورغم انتحاره فقد شُيّع في جنازة جليلة ودُفن إلى جوار شمس الدين.

ومضت أيّام المآتم الثلاثة والأسرة في ذهول لا تدري شيئًا عن كارثتها الكبرى...

- ٢٤ -

لماذا انتحر فائز ربيع الناجي؟

ظلّ التساؤل يشدّ قلوب الأسرة، يقرع وعيهم المترع بالحزن والذهول. وها هي السلطة - كما يؤكّد يونس السايس شيخ الحارة - جادّة في البحث والتحرّي، ولكن كيف خيّم عليهم الجهل حتّى اللحظة الأخيرة؟ كيف أصابهم العمى فلم يروا شعاعًا واحدًا من النور؟ كان يغيب طويلًا، ويحتفظ بكافّة أسرار عمله لنفسه، ولكنّ زياراته المتقطّعة المتباعدة كانت تملأ الدار بهجة وسرورًا وأملًا متواصلًا في الحاضر والمستقبل. حتّى آخر زيارة كان شخصًا آخر، ماذا حدث، ماذا غيّره، كيف صار الموت بغيته وملاذه؟!

وولولت حليمة قائلة:

- لقد حلّت بنا اللعنة...

وتساءل ضياء:

- ما السرّ؟... أكاد أن أجنّ!

فقال عاشور:

- لن يُكشف السرّ عمّا يسرّ فالناس لا ينتحرون بلا سبب...

- ٢٥ -

وتلاقت أفكار الشقيقين على تفقّد دار الراحل كقراءة أولى لأسراره ومعاملاته ومصادر أمواله. وتمّ الاتّفاق بينها وبين السلطة على ذلك. كانت دارًا ضخمة ذات فناء مترامٍ من ناحية الجبل. ولفت الأنظار كثرة المخادع الوثيرة، ومخازن الخمور والمخدّرات، وغزارة التحف والرياش. ولمّا فُتحت الخزائن وُجدت خالية تمامًا. لا عقد ولا خطاب ولا دفتر ولا مليّم واحد. وتبادل الشقيقان نظرات حائرة.

تساءل عاشور:

- ما معنى هذا؟

وتساءل ضياء:

- أين ثروة المرحوم؟

وسأل عاشور المحقّق:

- هل عرفتم جديدًا من الأمر؟

فأجاب الرجل:

- لن يفلت منّا خيط من الحقيقة...

- ٢٦ -

رجع ضياء وعاشور من رحلتهما الاستكشافيّة الخائبة مذهولين. اشتدّ اللغز غموضًا واكتنفته سحب دكناء فتوزّعت القلوب الهواجس. حقًّا لقد أمّن لهما شقيقهما الحياة قبل أن يذهب، فهما وأمّهما الوارثون لوكالة الفحم ولدارينِ رائعتينِ، ولكن ماذا عن ثروة فائز، وماذا عن حياته المبهمة؟! وتفكّر ضياء ثمّ قال:

- لعلّه فقد ثروته فانتحر...

فقال عاشور معترضًا:

- ولِمَ ينتحر وهو ما زال مالك الوكالة والدارين؟

فهزّ ضياء رأسه في حيرة وتمتم:

- ترى لِمَ ينتحر المنتحرون؟!

- ٢٧ -

واستأثر انتحار فائز باهتمام السكارى في البوظة. تساءل زين علباية الخمّار:

- لِمَ ينتحر رجل مثل فائز؟

فقال يونس السايس شيخ الحارة:

- ليس بسبب الإفلاس فقد ترك ثروة تجعله من كبار أغنياء الحارة...

فقال له زين علباية بلهجة تحريض:

- لا شكّ أنّ عندك معلومات باعتبارك من رجال السلطة...

وعزّ على يونس أن يعلن إفلاسه فقال بنبرة الحذر:

- إنّهم يكتشفون جميع من كانت لهم صلة بالرجل.

عند ذاك قال حسّونة السبع الفتوّة متهكّمًا:

ـ هناك سبب أقوى من الإفلاس...

واتّجهت إليه الرءوس بكلّ إجلال فقهقه قائلًا:

ـ الجنون!... في دمائهم جنون موروث عن رجال ونساء، حتّى كبيرهم الأوّل المقدّس ألم يكن لقيطًا ولصًّا؟!

ـ ٢٨ ـ

ومضت حياة آل الناجي ثقيلة كئيبة. أُجّل الزفاف بطبيعة الحال، وواصل ضياء وعاشور حياتهما اليوميّة وقد انطفأت في نفسيهما جذوة الإبداع والسعادة، أمّا حليمة البركة فقد اعتزلت في جناحها، تجترّ الأحزان وتتعزّى بالعبادة...

ـ ٢٩ ـ

وذات مساء ـ وكان الشتاء ما زال يسفع الحارة بسياطه ـ جاء عمّ يونس السايس إلى الدار، يسير بين يدي مأمور القسم وقوّة من المخبرين. اجتمع المأمور وشيخ الحارة بالأسرة في قاعة الاستقبال، وسرعان ما سأل المأمور:

ـ لمن وكالة الفحم والداران؟

فأجاب ضياء:

ـ كانت ملك المرحوم، وعنه ورثناها.

ـ إليّ بوثائق الملكيّة.

ذهب ضياء ثمّ رجع بصندوق فضّيّ متوسّط الحجم فمضى المأمور يطالع الوثائق، ثمّ ردّد عينيه بين حليمة وابنيها وقال:

ـ كلّ شيء ملك للغير...

لم يفقه أحد معنى لقوله، ولم تعكس وجوههم أيّ أثر، فقال يونس السايس:

ـ جميع ما في حوزتكم من تجارة وعقار ملك للغير، لم يكن ملكًا لفائز، وبالتالي لا حقّ لكم فيه...

صرخ ضياء:

ـ ما معنى ذٰلك؟

فقال شيخ الحارة:

ـ الأمر لله عليكم أن تسلّموا الدار والوكالة في الحال...

ـ في الأمر خطأ ولا شكّ!

ـ لقد باع فائز كلّ شيء، وقدّم المالك الجديد المبايعة وهي صحيحة ولا شكّ فيها!

تساءل عاشور بذهول:

ـ أحقًّا ما تقول؟

فقال المأمور بهدوء وحزم معًا:

ـ لم نأتِ في هٰذه الساعة للمزاح...

ـ إنّه فوق ما يتصوّر العقل!

ـ ولكنّه الواقع الذي لا شكّ فيه...

فتساءل ضياء بفزع:

ـ إذن فأين ثمن البيع؟

ـ عِلْم ذٰلك عند الله والمنتحر...

وسكت المأمور لحظات ثمّ استدرك:

ـ لعلّه كان بيعًا صوريًّا، ولعلّه تمّ خلال مقامرة جنونيّة، التحقيق ماضٍ في سبيله القذر!

وقال ضياء:

ـ فوق ما يتصوّر العقل!

وقال عاشور:

ـ إنّها جريمة تسمّى السرقة!

فتساءل المأمور:

ـ لِمَ انتحر بدل أن يبلغ عن السرقة؟

ـ في الأمر جريمة يا حضرة المأمور.

ـ بل سلسلة من الجرائم!... ولكن لا بدّ أوّلًا من التفتيش!

ـ ٣٠ ـ

لبثت الأسرة تنتظر مهيضة تحت حكم الإعدام. رجع المأمور وهو يقول:

ـ سلسلة من الجرائم، الجرائم البشعة... هلمّوا معنا...

تساءلت حليمة بصوت متهدّج:

ـ إلى أين؟

ـ إلى القسم...

وقال يونس السايس ملاطفًا:

ـ لا بدّ من استكمال التحقيق...

تساءل عاشور:

ـ أنحن متّهمون؟

فقال المأمور بحزم:

ـ صبرك، وما صبرك إلّا بالله...

- ٣١ -

جرى التحقيق طويلًا مرهقًا. وعلى ذمّته حُجزت الأسرة في سجن القسم أسبوعًا. ولكن ثبت بالدليل وشهادة الشهود أنّه لم توجد علاقة بينهم وبين عمل فائز السرّيّ الخارجيّ، فثبتت براءتهم وأُطلق سراحهم فرجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا مأوى لهم.

- ٣٢ -

وكانت الحقائق قد سبقتهم إلى الحارة مثل رائحة عفنة. عرف الكبير والصغير، الصديق والعدوّ أنّ فائز بدأ مغامرته ببيع الكارو. أنّه استثمر ماله في الدعارة والقمار والبرجة والمخدّرات. وكان يقامر بثروات خياليّة، وفي حال الخسران كان يستدرج الغريم مستعينًا بالنساء والمخدّرات فيقتله ويستولي على النقود ثمّ يواريه في فناء داره. وفي آخر مقامرة خسر أمواله جميعًا، ثمّ اضطرّ إلى المقامرة بأملاكه في شكل عقد بيع صوريّ فخسرها أيضًا، ولم يتمكّن من قتل غريمه الذي فرّ بروحه وماله. ولّما خسر كلّ شيء، وأصبح سرّه مهدّدًا بالافتضاح انتحر. وقد تلقّى رجال الأمن رسالة من مجهول ـ لعلّه كان شريكًا ـ وهي التي دلّت السلطة على سرّ الجرائم ومدافن الضحايا. هكذا كُشف الغطاء عن سرّ فائز المفزع، نجاحه وانتحاره!

- ٣٣ -

رجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا مأوى لهم. غدت حكايتهم نادرة الشامتين ومفزع المتخيّلين. وأضرم نارها السبع وعلباية والعجل. وبقوّة الحقد أمطرتهم الأفواه بصقًا والأكفّ صفعًا حتّى هرولوا نحو القبو، ومنه تسلّلوا إلى الممرّ، ثمّ استقرّوا في القرافة...

وأراد الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية أن يتشفّع لهم فقال:

ـ لا تزر وازرة وزر أخرى...

فصاح به حسّونة السبع:

ـ أسكت يا كافر وإلّا شنقتك بشال عمّتك!

وكان آل الخشّاب وآل العطّار في مقدّمة من تبرّأ منهم...

- ٣٤ -

أقامت الأسرة المطاردة في حجرة الرحمة بمدفن شمس الدين. في الجيوب قروش معدودة، وفي القلوب أسًى جديد أنساهم أحزان الموت والإفلاس. تحجّرت الأعين، حتّى عينا حليمة البركة، جلسوا متقاربين، ينشدون النجاة من تلاصقهم، ويستدفئون بنبضات قلوبهم في ضياعهم الشامل، وريح الشتاء تزمجر بين شواهد القبور. وإذا بضياء يصيح:

ـ الكلاب!

فقالت حليمة برجاء:

ـ فلنفكّر بحالنا...

فقال ضياء بمرارة وسخرية:

ـ لم يبق أمامنا إلّا أن نعمل ترابيّة...

فقالت الأمّ:

ـ معاشرة الجثث أطيب...

وتساءل عاشور بذهول:

ـ أقضي علينا حقًّا بهجر حارتنا؟

فقال له أخوه:

ـ ارجع لتغسل وجهك مرّة أخرى ببصاقهم!

فقال عاشور بتحدّ:

ـ سنعيش حياتنا على أيّ حال...

ـ لنرجع إلى التسوّل...

وكانت الريح تزمجر في الخارج بين شواهد القبور...

- ٣٥ -

في اليوم التالي دخلوا في حال جديدة من الحزن امتازت بالهدوء والركود. قالت حليمة البركة:

ـ لا وقت لدينا نضيّعه...

فعلّق ضياء على قولها بأنّه لا وقت لديهم ولا مال ولا صديق ولا شيء، فتساءلت:

ـ أين يجدر بنا أن نذهب؟

فأجاب ضياء:

ـ بلاد الله لا حدود لها...

أمّا عاشور فقال:

ـ لنبق في المدفن غير بعيدين عن حارتنا حتّى يتاح لنا الرجوع...

تمتم ضياء بازدراء:

ـ الرجوع؟!

ـ أجل، لا بدّ من الرجوع ذات يوم، وأكثر من ذلك، لا حياة لنا إلّا في حارتنا...

فحسمت حليمة الخلاف قائلة:

ـ لنبق هنا بعض الوقت على الأقلّ...

عند ذاك قال ضياء:

ـ لم أنم ليلة أمس، فكّرت حتّى سمع الأموات نبضات فكري، صدقت عزيمتي على قرار...

ـ ما هو؟

ـ ألّا أبقى هنا...

فتجاهلته أمّه وقالت:

ـ عن نفسي أعود إلى ممارسة مهنتي السابقة في أطراف الحيّ البعيدة...

فقال عاشور:

ـ سأسرح بفاكهة...

تضايق ضياء من تجاهلهما رأيه فراح يؤكّده قائلًا:

ـ سأذهب ولو اضطررت إلى الانفصال عنكما...

فسألته أمه:

ـ أين، وماذا تفعل؟

فقال مواصلًا انفعاله:

ـ لا أدري، سأتحدّى الحظّ والقدر...

فتساءلت بحزن:

ـ كما فعل الآخر؟

فصاح بإصرار:

ـ كلّا... توجد سبل أخرى...

ـ أعطني مثلًا...؟

ـ لست نبيًّا...

وقال له عاشور برقّة:

ـ ابقَ معنا فما أحوج بعضنا إلى بعض.

فقال بإصرار نهائيّ:

ـ كلّا، لقد قضي الأمر...

ـ ٣٦ ـ

ودّع ضياء أمّه وأخاه وذهب. دمعت عينا حليمة وهي تودّعه ولكن لم يكن ثمّة متّسع للحزن. واستقبلت وعاشور حياة معاناة شاقّة. سرحت بالمفتّقة والمخلّل كالمتسوّلات، وسرح عاشور بالفاكهة، عملاقًا يحمل مقطفًا، كأنّما قد تعاهدا على الصبر وتجنّب الشكوى وعدم نبش ذكرى ما مضى. ولكنّ الماضي لم يُقتلع من أعماقهما. ذكرى الدار ذات الأجنحة، والعيش الرغيد، وأبّهة الدوكار وحجرة الإدارة. ذكرى العباءة الفضفاضة والمسبحة القهرمانيّة وروائح المسك والعنبر والكلمات الطيّبة. وعزيزة العطّار باليشمك والابتسامة الهائمة. وإقبال يونس السايس مداهنًا وقوله المأثور في الصباح «صبّحك الله بالسعادة يا مَن يشرق النور من جبهته». آه يا فائز ماذا فعلت بنفسك وبنا؟! حتّى جلال المجنون لم يَقتل ويَدفن الجثث. ما هذه اللعنة التي تطارد ذرّيّة صاحب الولاية والمعجزة؟

ودأب على قضاء وقت راحته في الخلاء حيث رعى الغنم. حيث لجأ عاشور صاحب العهد وتلقّى النعم. ذلك الجدّ الذي أحبّه وآمن بعهده. وعبد خيره وقوّته. أليس هو مثله حبًّا في الخير وامتلاكًا للقوّة؟ ولكن ماذا فعل كلاهما بخيره وقوّته؟ أمّا الجدّ فقد حدثت على يديه المعجزة، وأمّا هو فيسرح بالخيار والقثّاء والرطب.

وفي الليل دأب على التسلّل إلى ساحة التكيّة. يتلفّع بالظلام ويستضيء بضوء النجوم. يردّد البصر بين أشباح التوت والسور العتيق. يقتعد مكان الناجي ويصغي إلى رقصات الأناشيد. ألا يبالي رجال الله بما يقع لخلق الله؟ متى إذن يفتحون الباب أو يهدمون الأسوار؟ يريد أن يسألهم لماذا ارتكب فائز جرائمه. حتّى متى تشقى حارتنا وتمتهن؟ لِمَ ينعم الأنانيّون والمجرمون؟ لِمَ يجهض الطيّبون والمحبّون؟ لِمَ يغطّ في

النوم الحرافيش؟

هٰذا والجوّ يمتلئ بالأناشيد...

ديـدى كـه بـار جـز جـور وستم نـداشت
بشكست عهد وز غم ماهيج غم نداشت

- ٣٧ -

وقالت حليمة لنفسها إنّه يبدو دائمًا منشغل البال، شارد اللبّ، فيم يحلم يا ترى؟ هل يمكن أن تمضي الحياة في معاناة متّصلة بلا نسمة ترطّبها؟ وسألته بحنان:

- ماذا يشغلك يا عاشور؟

فلم يجب، فتساءلت:

- ألا يحسن بنا أن نجد لك زوجة تؤنس وحشتك؟

فقال باسمًا:

- ما نجد اللقمة إلّا بشقّ الأنفس...

- إذن فهناك ما يكدّر صفوك...؟

فقال بصدق:

- كلّا يا أمّي...

فلتصدّقه ولٰكن ماذا يشغله؟ في باطنه حياة كاملة مجهولة. لذٰلك تشعر بالغيرة كما تشعر بالخوف...

- ٣٨ -

وضاق بأسراره ذات ليلة. كان الوقت ربيعًا وقد طاب الجلوس في مكان غير مسقوف من المدفن. وانبسطت السماء متبرّجة بما لا يحصى من نجومها. كانا يتناولان عشاء من المشّ والخيار. وقال عاشور:

- أتساءل أحيانًا عمّا يفعل ضياء...

فتنهّدت حليمة وتمتمت:

- إنّه نسينا تمامًا...

وغرق عاشور في الصمت فلم يسمع إلّا صوت تمطّقه ونباح الكلاب عند مشارف القرافة. ثمّ عاد يقول:

- أخاف أن يفعل كما فعل فائز من قبل...

فقالت الأمّ محتجّة:

- لقد ضرب لنا المرحوم مثلًا لا يمكن أن يُنسى...

- ولٰكنّنا ننسى دائمًا يا أمّي...

- أهٰذا ما يشغلك يا عاشور؟

فحنى رأسه بالإيجاب في ضوء هلال شاحب. مضى يتساءل:

- لِمَ سقط فائز؟ لِمَ جنّ جدّنا جلال؟ لِمَ يفترسنا حسّونة السبع؟

- أليس عندنا من الهمّ ما يكفي؟...

- إنّه همّ واحد متّصل الحلقات...

فاستعاذت حليمة بالله وقالت:

- اسمه الشيطان...

- أجل، ولٰكن لِمَ يغرّر بنا بلا عناء؟

- إنّه ينهزم أمام المؤمنين...

ورجع للصمت وقد فرغ من العشاء وراح يدخّن جوزة من المعسّل ونباح الكلاب في اشتداد حتّى انقلب في بعض خيوطه إلى عواء. وقال بغتة:

- إليك رأيي يا أمّي، الشيطان ينتصر بالتسلّل من نقاط الضعف فينا...

فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم فواصل عاشور قائلًا:

- إليك رأيي أيضًا، حبّان يشكّلان أضعف ما فينا، حبّ المال وحبّ السيطرة على العباد...

فتمتمت حليمة:

- لعلّهما شيء واحد...

- ربّما، المال والسيطرة...

- حتّى عهد جدّك انتكس...

فردّد بغموض:

- جدّي!

فحدجته بنظرة متسائلة، فتساءل بدوره:

- ماذا كان ينقصه؟

- ينقصه؟!

- أعني لماذا انتكس...

- لم يكن الذنب ذنبه...

فتمتم بعجلة:

- طبعًا...

ولٰكنّه تساءل في سرّه عمّا كان ينقصه، عمّا أفشل سعيه النبيل عقب وفاته أو عقب وفاة شمس الدين. ما دام يوجد خطأ فلا بدّ أن يوجد صواب. وإذا وُجد

الصواب مرّة فيمكن أن يوجد مرّة أخرى. وإذا كان قد انتكس بعد وجوده فيمكن أن نضمن له حياة لا تعرف الانتكاسة.

وعادت حليمة تتساءل:

ـ أليس لديك من الهمّ ما يكفيك وزيادة؟!

ـ ٣٩ ـ

كلّا، لم يقنع بما لديه من همّ. وكيف يقنع من أدمن التواجد كلّ يوم ساعة في الخلاء وساعة أو ساعتين في ساحة التكيّة؟! كيف يقنع من ينطوي صدره على جذوة دائمة الاشتعال؟ كيف يقنع من تؤرّقه الأحلام الملوّنة؟ كيف يقنع من بات يعتقد بألّا جدّ له إلّا عاشور الناجي؟

ورسم فوق رمال الخلاء طريقًا. وتخيّله على ضوء النجوم في ساحة التكيّة. وناجاه في تجواله ومنامه. حتّى تجسّد له كالسور العتيق قوّة وصلابة وجلالًا.

ـ ٤٠ ـ

وتلكّأ طويلًا في سوق الدراسة. في سوق الدراسة يتصعلك كثيرون من حرافيش الحارة. لقد كان يتجنّبه لذلك السبب، ومن أجل ذلك يتلكّأ اليوم في جنباته. ومرّ أمام تجمّعاتهم وهو ينادي مترنّمًا بالخيار. سرعان ما عرفه بعضهم. هتف هاتفهم:

ـ المعلّم عاشور!

وسخر صوت قائلًا:

ـ أخو السفّاح يسرح بالخيار...

وأقبل عاشور نحوهم يحمل البشاشة في قسماته الغليظة. مدّ يده وهو يقول:

ـ أترفضون هذه اليد مثل الآخرين؟

فصافحوه بحرارة وقال أحدهم:

ـ عليهم اللعنة...

وقال ثانٍ:

ـ ما وجدنا منك إلّا الخير.

ـ وأمّك الطيّبة كيف حالها؟

فقال عاشور:

ـ برؤياكم رجعت روحي الشاردة إلى وطنها...

وقضى بينهم ساعة سعيدة مترعة بالحنين والبهجة. ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع قطّ عن سوق الدراسة.

ـ ٤١ ـ

بلقاء الحرافيش اشتعلت النار في كيانه كلّه. تجمّعت قواه الحيويّة كلّها ودقّت جدران قلبه تريد أن تنطلق. لا يمكن أن ينام مَن تضطرب جوانحه بهذه القوّة كلّها. إنّه يتحدّى المجهول كما تحدّاه فائز من قبل وكما يتحدّاه ضياء اليوم، ولكنّه يشقّ طريقًا آخر، ويتطلّع إلى آفاق أبعد. إنّه يواجه المجهول ويصافحه ويرمي بنفسه في خضمّه. كأنّما كُتبت عليه المغامرة والمقامرة وركوب المستحيل. إنّه يحمل سرًّا عجيبًا، ينبذ الأمن والسلامة، ويعشق الموت وما وراءه. ولقد رأى في منامه من اعتقد أنّه عاشور الناجي. ورغم أنّه كان يبتسم فقد سأله بنبرة عتاب واضحة:

ـ بيدي أم بيدك؟

وكرّرها مرّتين فوجد عاشور نفسه يجيبه وكأنّما أدرك ما يسأل عنه:

ـ بيدي!

فظلّ الناجي باسمًا ولكنّه توارى كالغاضب مخلّفًا وراءه الخلاء.

وتساءل عاشور لدى استيقاظه عمّا عناه جدّه بسؤاله، وعمّا عناه هو بجوابه، وتحيّر طويلًا ولكنّ قلبه امتلأ بإلهام التفاؤل والإقدام.

ـ ٤٢ ـ

وذات يوم طرح هذا السؤال على الحرافيش في سوق الدراسة:

ـ ماذا يُرجع حارتنا إلى عهدها السعيد؟

وأجاب أكثر من صوت:

ـ أن يرجع عاشور الناجي.

فتساءل باسمًا:

ـ هل يرجع الموتى؟

فأجاب أحدهم مقهقهًا:

ـ نعم.

قال بثبات:

ـ لا يحيا إلّا الأحياء.
ـ نحن أحياء ولٰكن لا حياة لنا...
فسأل:
ـ ماذا ينقصكم؟
ـ الرغيف...
فقال عاشور:
ـ بل القوّة!
ـ الرغيف أسهل منالًا...
ـ كلّا!
فسأله صوت:
ـ إنّك قويّ عملاق فهل تطمح إلى الفتونة؟
وقال آخر:
ـ ثمّ تنقلب كما انقلب وحيد جلال وسماحة!
وقال ثالث:
ـ أو تُقتل كما قُتل فتح الباب...
فقال عاشور:
ـ حتّى لو صرت فتوّة صالحًا فما يجدي ذٰلك؟
ـ نسعد في ظلّك!
قال آخر:
ـ لن تكون صالحًا أكثر من ساعة!
فتساءل عاشور:
ـ حتّى لو سعدتم في ظلّي فماذا بعدي؟
ـ ترجع ريمة لعادتها القديمة...
وقال رجل:
ـ لا ثقة لنا في أحد، ولا فيك أنت!
فابتسم عاشور قائلًا:
ـ قول حكيم.
وقهقه الحرافيش فعاد عاشور يتساءل:
ـ ولٰكنّكم تثقون في أنفسكم!
ـ وما قيمة أنفسنا!
فتساءل عاشور باهتمام:
ـ أتحفظون السرّ؟
ـ نحفظه من أجل عيونك!
فقال عاشور بجدّيّة:
ـ لقد رأيت حلمًا عجيبًا، رأيتكم تحملون النبابيت...

وقهقهوا طويلًا، ثمّ قال رجل مشيرًا إلى عاشور:
ـ هٰذا الرجل مجنون ولا شكّ، لذٰلك فإنّي أحبّه...

ـ ٤٣ ـ

طرق طارق باب حجرة الرحمة. كان عاشور يجالس أمّه عقب العشاء متدثّرين ببطّانيّتين اتّقاء برد الشتاء القارس. وفتح عاشور الباب فرأى على ضوء المصباح وجهًا يعرفه، وسرعان ما هتف:
ـ أخي ضياء!
وثبت حليمة البركة وضمّته إلى صدرها. ذابوا دقائق في حرارة ثمّ أفاقوا فجلسوا على الشلت يتبادلون النظرات. تجلّى ضياء بعباءته الغامقة ومركوبه الأخضر ولاثته المنمنمة. تجلّى بادي الصحّة والسعادة. وانقبض قلب عاشور وثارت هواجسه. وختمت حليمة على ظنونها بابتسامة وحنان. وخرج ضياء من الصمت القصير قائلًا:
ـ ما أطول الأيّام!
ثمّ وهو يضحك:
ـ وما أقصر الأيّام!
تمتمت حليمة البركة وقد اغرورقت عيناها:
ـ نسيتنا تمامًا يا ضياء...
فقال ضياء بلهجة جمعت بين التشكّي في ظاهرها والظفر في أعماقها:
ـ كانت الحياة شاقّة فوق ما يتصوّر العقل...
وآن أوان التحدّث عن «الحاضر» ولٰكنّ حليمة وعاشور أحجما بادئ الأمر عن الخوض فيه. ذكّرهما المنظر بمنظر سابق لا يُمحى من الذاكرة واستحوذ عليهما قلق خفيّ. وقرأ ضياء أفكارهما فقال:
ـ أخيرًا أخذ الله بيدنا!
فتمتمت حليمة تملّصًا من حرج الصمت:
ـ الحمد لله.
وطالعته بوجه مستطلع فقال بهدوء:
ـ إنّي اليوم مدير أكبر فندق ببولاق...!
ونظر نحو عاشور متسائلًا في مرح:
ـ ما رأيك؟

فقال عاشور بصوت لا حياة فيه:

ـ عظيم!

ـ إنّي أقرأ ما يدور بخاطرك!

فتساءل عاشور:

ـ أليس الأمر مثيرًا؟

ـ ولٰكنّه عاديّ جدًّا، ويختلف جدًّا عن مأساة المرحوم...

ـ ذٰلك ما أتوقّعه.

ـ لقد عملت في الفندق خادمًا. ثمّ عملت كاتبًا لمعرفتي القراءة والكتابة. ثمّ حصل استلطاف بيني وبين كريمة صاحب الفندق...

سكت مليًّا ليغرز أقواله إلى عمق معقول ثمّ واصل:

ـ خفت أن أطلب يدها من أبيها فأخسر كلّ شيء. ولٰكن وافاه الأجل، تزوّجنا، أصبحت مدير الفندق وصاحبه الفعليّ...

تمتمت الأمّ:

ـ ليكتب الله لك التوفيق...

فرنا إلى عاشور مليًّا ثمّ تساءل:

ـ أخالجك شكّ في أقوالي؟

فقال عاشور بعجلة:

ـ كلّا...

ـ إنّ مأساة فائز لا تريد أن تُمحى من ذاكرتك...

ـ لا يمكن أن تُمحى أبدًا.

ـ لقد سلكتُ طريقًا آخر.

ـ الحمد لله...

ـ تصدّقني؟

ـ نعم.

فقال باعتزاز:

ـ لدى إقبال الدنيا سرعان ما تذكّرت أمّي وأخي...

فقالت حليمة البركة:

ـ ليحفظك الله.

ـ ذٰلك أنّني لم أتخلّ عن حلم قديم.

فتساءل عاشور:

ـ حلم قديم؟

ـ أن نرجع إلى حارتنا. أن نستردّ جاهنا، أن نتلقّى تحيّات من بصقوا في وجوهنا...

فقال عاشور بحزم:

ـ تخلّ عن حلمك يا أخي.

ـ حقًّا؟ ماذا تخاف؟ إنّ سحر النقود يصنع المعجزات.

ـ لقد فقدنا الاحترام الحقيقيّ حتّى ونحن أغنياء.

فتساءل باستياء:

ـ ما الاحترام الحقيقيّ؟

هل يفضي إليه بحلمه أيضًا؟ ولٰكنّه لم يجد فيه أيّ ثقة. يمكن التفاهم مع الحرافيش أمّا هٰذا الشخص الناجح المتهوّر فلا تفاهُم معه. أجاب بأسًى:

ـ هو ما فقدناه من قديم.

رفع ضياء منكبيه استهانةً وقال بضيق:

ـ على أيّ حال آن لكما أن تودّعا هٰذه الحياة مع الأموات.

فقال عاشور بحزم:

ـ كلّا.

ـ كلّا!... ترفض معونتي؟

ـ نعم.

ـ إنّه الجنون بعينه.

ـ المال مال زوجتك ولا شأن لنا به.

ـ إنّك تجرحني.

ـ معذرة يا ضياء، دعنا فيما نحن فيه.

ـ ما زلت تسيء بي الظنّ!

ـ كلّا، أعتقد أنّي واضح تمامًا.

فقال باستياء بادٍ:

ـ لن أترك أمّي.

فقالت حليمة بعجلة:

ـ إنّكَ ابن طيّب ولٰكنّني لن أهجر أخاك.

ـ أنتِ أيضًا تسيئين بي الظنّ!

ـ معاذ الله، ولٰكنّي لن أهجره، دع الأمور للزمن...

ـ حتّى متى تقيمين في مدفن بين الأموات؟!

ـ لم نعد كما كنّا فقراء دقّة، حالنا تتحسّن يومًا بعد يوم...

فقال بقوّة:

- بوسعي الآن أن أرجعكما مكرّمينِ إلى حارتنا...

فقالت حليمة متوسّلة بحرارة:

- دع الأمور للزمن...

حنى ضياء رأسه متمتمًا:

- يا لها من خيبة أمل!

- ٤٤ -

وعقب انصراف ضياء قالت حليمة:

- صددناه بعنف يا عاشور.

فقال بإصرار:

- لم يكن من الأمر بدّ.

- ألم تثق بأقواله؟

- لا.

- إنّي أصدّقه.

- إنّي على يقين من انحرافه.

- منذا الذي لا يتّعظ بعد مأساة فائز؟

- نحن، ما تاريخ أسرتنا إلّا سلسلة من الانحرافات والمآسي والدروس الضائعة...

- ولكنّني أصدّقه.

- كما تشائين...

وتفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

- حتّى أسرارك لم تأتمنه عليها؟

فقال عاشور بأسف:

- لا، إنّه لا يؤمن بما أومن به...

- ألم يكن من المحتمل أن ينضمّ إليكم؟

فقال عاشور بهدوء:

- إنّه لا يؤمن بما أومن به.

حقًّا لقد جاء ضياء في وقت غير مناسب إذ كان عاشور يتوثّب - بعد عناء طويل - للخطوة الحاسمة...

- ٤٥ -

وذات يوم عجيب، والحارة تعاني حياتها اليوميّة المألوفة الكئيبة، والشتاء يولّي مودّعًا، انحدر من تحت القبو رجل. عملاق الهيكل، يرفل في جلباب أزرق وطاقيّة بنّيّة وبيده نبّوت. سار بهدوء وثقة كأنّه راجع من غيبة ساعة لا بضع سنين. رآه أوّل مَن رآه محمّد العجل فمدّ إليه عينيه بذهول وتمتم:

- مَن؟... عاشور!

فقال له عاشور بهدوء:

- سلام الله عليك يا عمّ محمّد...

سرعان ما شخصت إليه الأبصار بدهشة، من الدكاكين والنوافذ وأرجاء الحارة شخصت إليه. لم يلقِ بالًا إلى أحد وشقّ طريقه إلى المقهى. وكان حسّونة السبع متربّعًا فوق أريكته، وفي حاشيته جلس يونس السايس شيخ الحارة والشيخ جليل العالم شيخ الزاوية. دخل عاشور المقهى فاتّجهت نحوه الأعين في ذهول. أمّا هو فمضى إلى ركن وهو يقول:

- السلام عليكم.

لم يسمع ردًّا. وواضح أنّ الفتوّة انتظر منه تحيّة خاصّة مشفوعة باستعطاف، ولكنّه مضى إلى مقعد بلا مبالاة وجلس. سرعان ما توقّع الناس أحداثًا. ولم يطق السبع صبرًا فسأله بخشونة:

- ماذا أرجعك يا ولد؟

فأجاب بهدوء:

- لا بدّ يومًا أن يعود الإنسان إلى حارته.

فصاح به:

- ولكنّك طُردت منها منبوذًا ملعونًا.

فقال عاشور بهدوئه المطمئنّ:

- كان ظلمًا ولا بدّ للظلم من نهاية...

فتدخّل الشيخ جليل قائلًا:

- تقدّمْ إلى فتوّتنا واسأله العفو.

فقال عاشور ببرود:

- لم أجئ لطلب العفو.

فهتف يونس السايس:

- ما عرفناك مغرورًا ولا وقحًا.

فقال بسخرية:

- بالصدق نطقت.

عند ذاك نتر حسّونة السبع ساقيه المتشابكتين نحو الأرض وسأله منذرًا:

- علامَ تعتمد في رجوعك إن لم يكن على عفوي؟

فقال بصوت جهوريّ:

- اعتمادي على الله جلّ شأنه.

فصاح السبع:

- اذهب على قدميك وإلّا ذهبت على نقّالة.

فوقف عاشور وشدّ على نبّوته. اندفع صبيّ القهوة خارجًا مناديًا رجال العصابة. هرع الآخرون إلى الحارة خوفًا. انقضّ السبع بنبّوته، وانقضّ عاشور بنبّوتـه، فارتطم النبّوتان بعنف جدار متهدّم. ونشبت معركة غاية في الشدّة والقسوة.

وجاء رجال العصابة من شتّى الأنحاء فاختفى الناس من الحارة وأغلقت الدكاكين، وامتلأت النوافذ والمشربيّات.

وإذا بمفاجأة تدهم الحارة كزلزال. مفاجأة لم يتوقّعها أحد. تدفّق الحرافيش من الخرابات والأزقّة، صائحين، ملوّحين بما صادفته أيديهم من طوب وأخشاب ومقاعد وعصيّ. تدفّقوا كسيل فاجتاحوا رجال السبع الذين أخذوا، وبسرعة انقلبوا من الهجوم إلى الدفاع. وأصاب عاشور ساعد السبع فأفلت منه النبّوت، عند ذاك هجم عليه وطوّقه بذراعين، وعصره حتّى طقطق عظامه، ثمّ رفعه إلى ما فوق رأسه ورمى به في الحارة فتهاوى فاقد الوعي والكرامة.

أحاط الحرافيش بالعصابة، انهالوا عليهم ضربًا بالعصيّ والطوب فكان السعيد من هرب وفيما دون الساعة لم يبقَ في الحارة إلّا جموع الحرافيش وعاشور.

- ٤٦ -

كانت معركة لم تسبق بمثيل من حيث عدد من اشترك فيها. فالحرافيش أكثريّة ساحقة. وفجأة تجمّعت الأكثريّة واستولت على النبابيت فاندفعت في البيوت والدور والوكالات رجفة مزلزلة. تمزّق الخيط الذي ينتظم الأشياء وأصبح كلّ شيء ممكنًا. غير أنّ الفتونة رجعت إلى آل الناجي، إلى عملاق خطير، تشكّل عصابته لأوّل مرّة أكثريّة أهل الحارة. ولم تقع الفوضى المتوقّعة، التفّ الحرافيش حول فتوّتهم في تفانٍ وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحي نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

- ٤٧ -

واجتمع بعاشور ليلًا يونس السايس وجليل العالم. كانا واضحي القلق، وقال شيخ الحارة:

- المأمول ألّا يقع ما يقتضي تدخّل الشرطة...

فقال عاشور في استياء:

- كم من جرائم ارتُكبت تحت بصرك وكانت تقتضي تدخُّل الشرطة...

فقال الرجل بلهفة:

- معذرة، إنّك أدرى الناس بظروفنا، أودّ أن أذكّرك أنّك انتصرت بهم ولكنّك غدًا ستقع تحت رحمتهم!

فقال عاشور بثقة:

- لن يقع أحد تحت رحمة أحد...

فقال الشيخ جليل العالم بإشفاق:

- لم يكبحهم في الماضي إلّا التفرّق والضعف...

فقال عاشور بثقة أشدّ:

- إنّي أعرفهم خيرًا منك، عاشرتهم في الخلاء طويلًا، والعدل خير دواء...

فتردّد يونس السايس قليلًا ثمّ تساءل:

- والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟

فقال عاشور بقوّة ووضوح:

- إنّي أحبّ العدل أكثر ممّا أحبّ الحرافيش وأكثر ممّا أكره الأعيان...

- ٤٨ -

ولم يتوانَ عاشور ربيع الناجي ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلم الذي جذب به الحرافيش إلى ساحته، ولقّنهم تأويله في الخلاء، وحوّلهم به من صعاليك ونشّالين ومتسوّلين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة.

سرعان ما ساوى في المعاملة بين الوجهاء والحرافيش، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتّى ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوّة ولا فتونة. وحتّم عاشور على الحرافيش أمرين: أن يدرّبوا أبناءهم على الفتونة حتّى لا تهن قوّتهم يومًا فيتسلّط عليهم وغد أو مغامر، وأن يتعيّش

كلٌّ منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات. وبدأ بنفسه فعمل في بيع الفاكهة، وأقام في شقّة صغيرة مع أمّه. وهٰكذا بُعث عهد الفتوّة البالغ أقصى درجات القوّة وأنقى درجات النقاء. ولم يجد الشيخ جليل العالم بدًّا من الثناء عليه، والجهر بالتنويه بعدالته، وكذٰلك يونس السايس فعل، ولٰكنّه ارتاب في ضميرهما، ولم يشكّ في أنّهما يتحسّران على الهبات التي كانت تتسرّب إليهما من الأعيان، وعند توزيع الإتاوات بين أفراد العصابة الهاربة.

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحارة فعُيّن مكانه الشيخ أحمد بركات. ولمّا كان يونس السايس معيّنًا من قِبَل السلطة فقد تعذّر عليه هجرها، وكان يغمغم وهو منفرد بنفسه في دكّانه:

ـ لم تبقَ في الحارة إلّا الزبالة!

وكان يفضي بذات نفسه إلى زين علباية الخمّار فيتساءل الرجل في قلق:

ـ حتّى متى تدوم هٰذه الحال؟

فيقول يونس السايس:

ـ لا أمل مع بقاء الوحش على قيد الحياة...

ثمّ يتنهّد مواصلًا:

ـ لا شكّ أنّ أناسًا مثلنا تناجوا بما نتناجى به الآن على عهد جدّه الأوّل، فاصبر وما صبرك إلّا بالله...

ـ ٤٩ ـ

وجدّد عاشور الزاوية والسبيل والحوض والكتّاب، وأنشأ كتّابًا جديدًا ليتّسع لأبناء الحرافيش، ثمّ أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فاتّفق مع مقاول على هدم مئذنة جلال. وقد كان يصدّ السابقين عن ذٰلك خوفهم من إغضاب العفاريت التي تسكنها ولٰكنّ الفتوّة الجديد لم يخف العفاريت. وقام هو في الحارة عملاقًا كالمئذنة ولٰكنّه في الوقت نفسه مستقرّ للعدل والنقاء والطمأنينة. ولم يبدأ بتحدّي أحد من فتوّات الحارات ولٰكنّه كان يؤدّب مَن يتحدّاه ويجعل منه عظة للآخرين فتهيّأت له السيادة بلا معارك.

ـ ٥٠ ـ

واعتقدت حليمة البركة أنّه آنَ له أن يفكّر في ذاته. وجاءه ضياء أخوه سعيدًا، وفي نيّته أن يستعيد وكالة الفحم، وأن يصير كبير الأعيان في كنف أخيه الفتوّة، ولٰكنّه لم يلقَ منه تشجيعًا، فاضطرّ إلى الاستقرار في فندقه. واقترحت حليمة عليه أن يتزوّج قائلة:

ـ ما زال في حارتنا نفر من الأعيان الطيّبين الذين لم يفرّطوا فيها...

فتذكّر عاشور موقف أسرتَي الخشّاب والعطّار بامتعاض شديد وقال لأمّه:

ـ أشعر يا أمّي أنّك تطمحين إلى حياة أفضل ممّا نحن فيه...

فقالت المرأة بصدق:

ـ ليس العدل أن تظلم نفسك!

فقال بقوّة محتجًّا ورافضًا:

ـ لا...

قالها بقوّة. ليست قوّة الرفض الحقيقيّ. بل قوّة يداري بها ضعفًا يحسّ به أحيانًا في أعماق خواطره. فكم يحنّ أحيانًا إلى رغد العيش والجمال! كما يحلم بحياة الدور والمرأة الناعمة. لذٰلك قال لا بعنف وقوّة. وقال لها:

ـ لن أهدم بيدي أعظم ما شيّدت من بناء شامخ...

وأصرّ أن يجيء الرفض من ذاته لا حذرًا من الحرافيش. إنّه يريد أن يتفوّق على جدّه نفسه. لقد اعتمد جدّه على نفسه على حين خُلق هو من الحرافيش قوّة لا تُقهر، ولقد مال مرّة جدّه مع هواه وسوف يصمد هو مثل السور العتيق. ومرّة أخرى قال بقوّة:

ـ لا...

ـ ٥١ ـ

وتمّ له أعظم نصر، وهو نصره على نفسه. وتزوّج من بهيّة بنت عدلات الماشطة بعد مشاهدة واستقراء من جانبه. وعندما اقتُلعت مئذنة جلال من جذورها أحيت الحارة ليلة رقص وطرب. وعقب منتصف الليل ذهب إلى ساحة التكيّة لينفرد بنفسه في ضوء النجوم

ورحاب الأناشيد. تربّع فوق الأرض مستنيمًا إلى الرضى ولطافة الجوّ. لحظة من لحظات الحياة النادرة التي تسفر فيها عن نور صافٍ. لا شكوى من عضو أو خاطرة أو زمان أو مكان. كأنّ الأناشيد الغامضة تفصح عن أسرارها بألف لسان. وكأنّما أدرك لِمَ ترنّموا طويلًا بالأعجميّة وأغلقوا الأبواب.

* * *

وسبح في الظلام صرير فرنا إلى الباب الضخم بذهول. رأى هيكله وهو ينفتح بنعومة وثبات. ومنه قدم شبح درويش كقطعة متجسّدة من أنفاس الليل. مال نحوه وهمس:

ـ استعدّوا بالمزامير والطبول، غدًا سيخرج الشيخ من خلوته، ويشقّ الحارة بنوره، وسيهب كلّ فتى نبّوتًا من الخيزران وثمرة من التوت، استعدّوا بالمزامير والطبول...

* * *

عاد إلى دنيا النجوم والأناشيد والليل والسور العتيق. قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته في أمواج الظلام الجليل. وانتفض ناهضًا ثملًا بالإلهام والقدرة فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحيّة لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة...

وهتفت الحناجر شادية:

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دارند
واندر آن ظلمت شب آب حياتم دارند.

